الجزء الأول

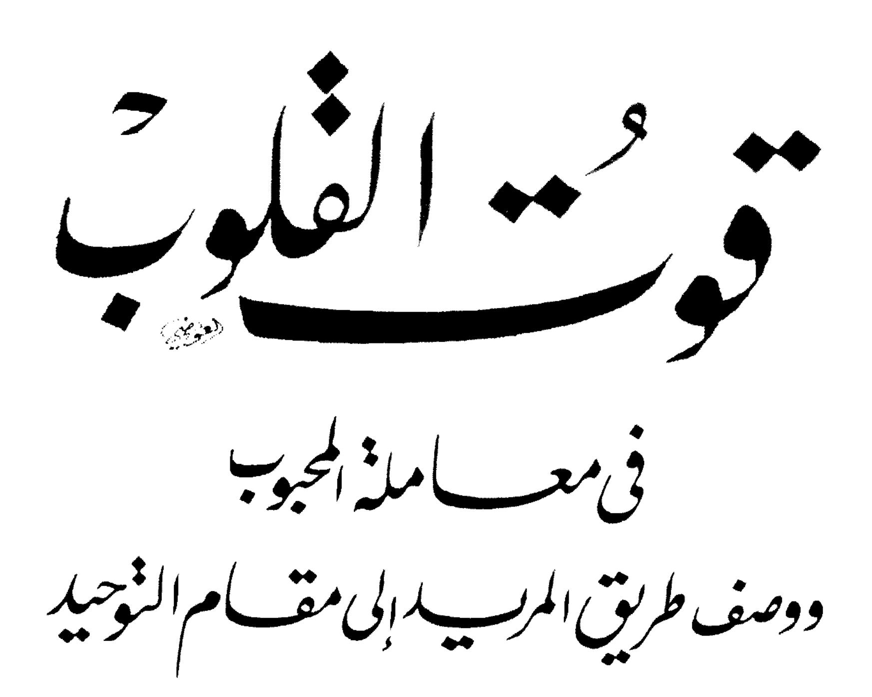
قوت القلوب

في معاملة المحبوب
ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد

للشيخ أبي طالب المكي
محمد بن علي بن عطية
(ت ٣٨٦ هـ)

حققه، وقدم له، وعلق حواشيه
د. محمود إبراهيم محمد الرضواني

مكتبة
دار التراث



للشيخ أبي طالب المكي
محمد بن علي بن عطية
(ت ٣٨٦ هـ)

حققه، وقدم له، وعلق حواشيه
د. محمود إبراهيم محمد الرضواني
دار العلوم - جامعة القاهرة

الجزء الأول

مكتبة دار التراث

الطبعة الأولى
١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م



مكتبة دار التراث
٢٢ شارع الجمهورية - القاهرة - ت : ٣٩١٤٢٢٣

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، حَمْدًا يوافى نِعمهُ ويُكافئ مزيده، وأشهد أن لا إله إلا الله العلىُّ العظيم، وأشهد أن سيِّدنا وحبيبنا محمَّدًا عبدُه ورسولُه، وصفيُّه من خَلْقِه وحبيبُهُ. اللهمَّ صَلِّ وسلِّم على سيدنا محمّدٍ وعلى آل سيدنا محمد عددَ ما تعلمه من بَدْءِ الأمرِ إلى منتهاه، صلاةً وسلامًا أرقى بهما مراقى الإخلاص، وأنال بهما غاية الاختصاص، عدد ما أحاط به علمك، وأحصاه كتابك، وخطّه قلمك، واجمعنا به يا ربّنا فى أعلى علِّيِّين.

أما بعد:

فهذا إمام من أئمة التصوف الإسلامى، وكتابه «القوت» أصل من أصوله، وقد أجاد «ابن عبّاد النفرى» شارح حكم ابن عطاء فى بيان قيمة الكتاب بألفاظ موجزة دالة عندما قال: «أما كتاب أبى طالب فعليه وقع الاختيارُ، إذ لم يقع بين أيدينا مثل منزعه، فإنّه فيه فتحَ مَغالِقَ علمِ التصوف، وجمع فيه بين المعانى الصحيحةِ، والألفاظ الحسنة، وذكر فروعَ علومهم وأصولَها، ورسمَ مسائلها وفصولَها، فكان لذلك كالمدوَّنةِ فى علْمِ الفقهِ، يقوم مقامَ غَيرِهِ، ولا يقومُ غَيرُهُ مقامَه».

وكذلك قال عنه شيخ الإسلام ابن تيمية (الفتاوى ١٠/ ٥٥١): «وأبو طالب أعلم بالحديث والأثر، وكلام أهل علوم القلوب من الصوفية وغيرهم من أبى حامد الغزالى، وكلامُه أَسَدُّ وأجودُ تحقيقًا، وأبعد عن البدعة».

ومن ثَمَّ فإننى أرى أن المكتبة العربية والإسلامية قد خسرت كثيرًا عندما غفلت عن تحقيق هذه الموسوعة الإسلامية، ونشرها نشرًا علميًا دقيقًا، على الرغم من الحاجة الماسة إلى مثل هذا النوع من التأليف لحياتنا فى العصر الحديث، وما أصاب المجتمعات الإسلامية من آثار الماديات وإفسادها للقلوب؛ مما نتج عنه كثير من الأمراض النفسية والاقتصادية والاجتماعية، وحال المسلمين اليوم لا يخفى على كل ذى عقل وبَصَر. ولعلّ هذه النشرة الجديدة التى قوبلت على عدة أصول

مخطوطة تعوض هذا الغبن الفاحش لأبى طالب وكتابه القوت.

وترجع صلتى بكتاب القوت إلى فترة قديمة جدًا إبّان مرحلة الطلب الأولى بمرحلة التعليم الثانوى، إذ يعد كتاب القوت من أوائل الكتب التى قرأت فيها وتعلّقت بها[1]، وتمنيت آنذاك لو يُنشر الكتاب بطريقة ميسرة لجميع طلاب العلم كما كان ينشر آنذاك إحياء علوم الدين. وظلّت هذه أمنية حبيسة فى نفسى زمنًا طويلاً، وقد تقلّبت بى الأيام، حتى قيَّض الله لى الاتصال بالأستاذ الفاضل إسماعيل عبيد صاحب ومدير مكتبة دار التراث، وعرض علىّ فكرة نشر الكتاب محقّقًا مضبوطًا، فأحيا فى نفسى تلك الأمنية القديمة فى نشر الكتاب، وعلمت أن الله جلّت قدرته قد أذن بتحقيقها، فسارعت من وقتها فى التنقيب عن أصول الكتاب المخطوطة، وبعد المضى قُدُمًا فى قراءة الأصول، هالنى ما رأيته من النصوص الطويلة التى لم تنشر من الكتاب، إذ يقل ما طبع من كتاب القوت بمقدار الثلث تقريبًا عما هو فى أصوله المخطوطة، واستعنت بالله العلى القدير فى قراءة تلك الأصول المخطوطة ومقابلة بعضها ببعض ومعارضتها بالمطبوعة، وكان الانتهاء من هذا العمل هو من فضل الله وحده، لما عانيته من قراءة تلك الأصول وما وجدتُه من المشكلات والتلف، وبعد جهد ولأْيٍ وتوفيق من الله تعالى، استوى كتاب القوت بين يَدَىّ كاملاً غير منقوص.

وبعد:

فإنى أتوجّه لله وحده بالشكر والحمد والتسبيح على أن قيّض لى تحقيق هذا الكتاب وأعاننى عليه، فهو كنز من كنوز الآخرة، ومدرسة عليا لتخريج الفحول والخواص من السالكين، ولا يستغنى عنه مسلم أبدًا فى حياته وجميع أحواله.

كما أشكر الأستاذ الفاضل إسماعيل عبيد، على قيامه بتحمل تكلفة طبع هذا الكتاب ونشره. وأشكر أخى المهندس ياسر الذى ساعدنى فى مقابلة أحد الأصول المخطوطة. ولا أنسى أخى الفاضل الأستاذ ناصر رجب الذى قام على تصحيح

(١) ذلك أننى نشأت فى بيئة مفعمة بالجو الروحى، فى أحضان السّاحة الرضوانية المباركة، بجنوب مصر بالأقصر.

تجارب الطبع وما أبداه من ملاحظات قيمة فكانت له أيادٍ على الكتاب وعلى محقِّقه لا تُنسى. كذلك لا أنسى رفيقة الدرب أمّ عبد الرحمن زوجتى وما أعانتنى به من التشجيع وحفز الهمّة والدّعاء لى لأنجز مهمتى تلك على خير وجه. أدعو الله السميع المجيب أن يجزيهم عنى خير الجزاء، وأن يجعل هذا الكتاب وما أنفقتُه فيه من جهد ووقت فى ميزان حسناتى يوم القيامة، وأن ينفع به جميع المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها. وأطلب من أخى القارئ الكريم ألا ينسانى من صالح دعائه.

اللهمّ صلِّ وسلِّم وبارك على سيدنا محمد النبى الأُمّىّ وعلى آله وصحبه. اللهمّ إنِّى أعتذر إليك من جَهْلى، وأستَوْهبُك سُوءَ فعلى، فاضمُمنى إلى كَنَفِ رحمتك تطوّلاً، واسْتُرْنى بستر عافيتك تَفَضُّلاً. اللهمّ وإنّى أتوبُ إليك من كلّ ما خالفَ إرادتك، أو زال عن محبَّتك من خطرات قلبى، ولحظات عينى، وحكايات لسانى، توبة تَسْلَمُ بها كلُّ جارحةٍ على حالها من تبعاتك، وتأمن ممَّا يخاف المعتدون من أليم سطواتك. اللهمّ إنى أمسيت وأصبحت وأنت ثِقَتى ورجائى فى الأمور كلها، فاقضِ لى بخيرها عاقبةً، ونَجِّنى من مُضِلاتِ الفِتن، برحمتك يا أرحم الرَّاحمين، وصلّى الله على سيدنا محمد رسول الله المصطفى، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، وسلامٌ على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

الجيزة ـ مدينة ٦ أكتوبر ـ الحى السابع
ت: ٠١١٣٦٢٥٩٧ ـ ٠١١٣٥٠٠٠٨
٢٧ من رجب سنة ١٤٢٢هـ
١٤ من أكتوبر سنة ٢٠٠١م

وكتبه الفقير الرّاجى عفو ربه
محمود بن إبراهيم بن محمد الرضوانى
دار العلوم ـ جامعة القاهرة

أبو طالب المكى، وكتابه «قوت القلوب»
«سيرة موجزة»

• نسب أبى طالب:

هو أبو طالب، محمد بن على بن عطية، المكّىّ، الحارثى، العجمى، ويلقّبه الذّهبىّ بالأستاذ[(١)].

ومن الغريب إغفال المصادر الصُّوفية له، إذ لم تعرِّف به، ولم تُترجم له، على الرغم من رسوخِ قدمه فى مجال علم التصوف، وكتابه يُعَدُّ مَعْلمًا مهمًا من معالم علم السلوك. إذ لا نجد له ترجمةً فى طبقات الصوفية للسَّلَمى مع أنه ألّفه فى نهاية القرن الرابع، أى بعد وفاة أبى طالب المكىّ سنة ٣٨٦هـ. كذلك أغفله صاحب «حلية الأولياء»، على الرغم من ـ كما يقول الدكتور عبد الحميد مدكور ـ «أن المكى وأبا نعيم يشتركان فى التّلقّى عن بعض الشيوخ كعلى بن أحمد المصّيصى، وأبى بكر الآجُرّى، وأبى بكر بن المفيد، وأبى بكر بن خلاّد النّصيبى»[(٢)]. ولعل هذا يؤكد المقولة المشهورة: «المعاصرة حجاب».

كذلك لم يذكره القُشَيرى بين شيوخِ رسالته، ونحا ابن الجوزى هذا النحو فى كتابه، «صِفة الصَّفوة»، مع أنَّه ذكر المصطفين من عبّاد بغداد المجهولى الأسماء، بل ذكر المجانين والمعاتيه، والمجهولات الأسماء. كذلك أغفله ابن الملقّن فى كتابه «طبقات الأولياء»، والمناوى فى: «الكواكب الدّريّة». هذا الإهمال لترجمة هذا العَلَم الكبير أدّى إلى ضياع المعالم البارزة لحياته، حتى إن هذه الترجمات القليلة

(١) ثمة رسالة ماجستير بكلية دار العلوم، جامعة القاهرة بعنوان: «أبو طالب المكى ومنهجه الصوفى» إعداد عبد الحميد عبد المنعم مدكور ١٣٩٢ هـ ـ ١٩٧٢م، وهى على حد علمى لم تطبع فى كتاب حتى الآن.

وقد أفدت من مقدمتها فى التأريخ لأبى طالب إفادة واسعة، ولو كانت مطبوعة فى كتاب لأحلت إليها وما كتبت هذا التعريف بأبى طالب.

(٢) انظر: أبو طالب، ص ٢١.

التى وصلت إلينا كانت مبتورةً غير دَالة، والمعلومات التى أوردتها ـ على قلّتها ووجازتها ـ «احتوت على بعض الأخطاء التاريخية»[١]، ذكر د. عبد الحميد مدكور من هذه الأخطاء حكاية رويت فى احتضار أبى طالب والصواب أنها ليست فى أبى طالب بل هو الذى رواها فى كتابه عن أحد الصالحين[٢].

ولعل أوّل الذين ترجموا لأبى طالب هو الخطيب البغدادى فى كتابه «تاريخ بغداد»، «وكانت ترجمته أساسًا لما تلاها من ترجمات، حيث كان بعضها ينقل عن بعض غالبًا»[٣] دون زيادة أو تحرير لما يكون فيها من أخطاء، كما سأشير إلى ذلك بعد قليل.

لا يحدّد المؤرخون تاريخًا لمولد أبى طالب المكّى، وكل ما يذكرونه أن مولده كان بالجبل (العراق)، ثم هاجر إلى مكة فنشأ بها ونُسِب إليها، ولا تذكر المصادر شيئًا عن تاريخ هذه الهجرة، ولم يحدثنا هو عن أسبابها. وفى مكّة التقى بعددٍ من شيوخه منهم ابن الأعرابى، وأبو بكر الآجرى، وأبو على الكرمانى، الذى يعدّه المكى من الأبدال.

ثم غادر المكّى مكة لعل ذلك قبل سنة ٣٤٦هـ، لأنه جرى خلاف بينه وبين عبد الصمد بن على أحد شيوخ الحديث ببغداد، إذ عاتبه فى السّماع، فأسمعه أبو طالب بيتًا من الشعر فخرج مغضبًا[٤]، وعبد الصمد هذا توفى ببغداد سنة ٣٤٦هـ. ثم دخل البصرة والتقى بشيخه أبى الحسن بن سالم، ثم غادر البصرة إلى بغداد، وكانت بغداد آنذاك مقامًا لكثير من الصوفية، ولما دخل بغداد «اجتمع الناسُ عليه، وعُقِد له مجلس الوعظ بها»[٥].

(١) أبو طالب المكى، د. عبد الحميد مدكور، ص ٢٢.

(٢) انظر: المصدر السابق، ص ٢٢.

(٣) السابق، ص ٢٢.

(٤) انظر: البداية والنهاية ١٥/٤٦٨.

(٥) انظر: تاريخ بغداد ٣/٨٩، والمصادر التى نقلت عنه هذه المقولة: البداية والنهاية ١٥/٤٦٧، وسير أعلام النبلاء ١٦/٥٣٦، وغيرهما.

• شيوخ أبى طالب المكى[١]:

تنوَّعَ شيوخُ أبى طالب ما بين فقيه ومحدِّث وصوفى، وقد استقى منهم ثقافتهم مما أسهم فى صقل موهبة أبى طالب وتنوع معارفه، وعلى الرغم من قلّة المادة العلمية فى ترجمة أبى طالب فإنها قد احتفظت لنا بذكر بعض العلماء الذين تلقى عليهم أبو طالب، وأهم هؤلاء:

١ ـ عبد الله بن جعفر بن فارس، وهو محدّث أصبهان، معروف بالصلاح، وقد روى عنه أبو طالب بالإجازة، ت ٣٤٦هـ.

٢ ـ أبو بكر الآجُرِّى، التقى به أبو طالب فى مكة بعد أن هاجر الآجرّى من بغداد هربًا من الفتن، وجاور بمكة، وقد أرّخ أبو طالب لدخوله مكة فقال: «قدِم علينا مكة فى سنة ثلاثين وثلاثمائة»[٢]. وهو رجل ثقة، ومن حفاظ الحديث، ت ٣٦٠هـ. [انظر ترجمته فى: سير أعلام النبلاء ١٦/ ١٣٣ وما بعدها].

٣ ـ على بن أحمد المصّيصىّ، ت ٣٦٤هـ، وهو موصوف بالتسامح فى رواية الحديث.

٤ ـ أبو زيد المروزىّ، ت ٣٧١هـ، وهو من أحفظ الناس لمذهب الشافعى، وله رواية لصحيح البخارى، روى أبو طالب عنه بعض صحيح البخارى.

٥ ـ أبو بكر محمد بن أحمد المفيد، ت ٣٧٨هـ، يوصف بالإكثار فى رواية الحديث، ولكنه متهم فى روايته. [انظر ترجمته فى: سير أعلام النبلاء ١٦/ ٢٦٩].

٦ ـ أبو بكر بن خلاد النُّصيبىّ.

وهؤلاء الشيوخ تبرز فيهم صفة الحديث والفقه، وهذا كما يقول د. عبد الحميد مدكور «يفسّر لنا تلك النزعة السلفية التى تعد من الصّفات البارزة فى شخصية

(١) انظر: أبو طالب المكى، ص ٥٣ وما بعدها. وانظر: سير أعلام النبلاء ١٦/ ٥٣٦.

(٢) انظر: القوت (الميمنية) ١/ ١٦٥، وقد سقطت «ثلاثمائة» من المطبوعة، أثبتها من نسخة (ك) المخطوطة، لوحة رقم ٨١.

المكى وثقافته، والتى اتّضحت فى نظراته التقويمية التى قاس بها كثيرًا من ظواهر الحياة فى عصره. . . ويبدو أنه تأثر فى بعض آرائه تأثرًا مباشرًا ببعض هؤلاء الشيوخ، فيمكن أن يكون موقفه من علم الكلام امتدادًا لآراء شيخيه: المروزى، والآجرِّى. كذلك يمكن أن يُعد موقفه من الحديث الضعيف راجعًا إلى تأثّره بشَيخيه: المصّيصى والمفيد»[١].

٧ - أبو عبد الله، محمد بن أبى الحسن أحمد بن محمد بن سالم[٢]، ويرى د. عبد الحميد مذكور «أن المكّىّ التقى بابن سالم وصحِبَهُ، ولعلّ صُحبته له كانت لمدة قليلة، ولكنها كانت كافية لينزل أبو الحسن من نفسه مكانة سامية، وإن كانت المصادر التاريخية تذكر أنه دخل البصرة بعد وفاة ابن سالم»[٣].

٨ - أبو سعيد بن الأعرابى البصرى، ت ٣٤١ هـ، بصرى الأصل، سكن بمكة، وكان فى وقته شيخ الحرم، ومات بها، صنَّفَ للقومِ كُتُبًا كثيرة[٤]، والتقى به أبو طالب فى مكة.

هؤلاء وغيرهم ممن أخذ عنهم وتتلمذ على كتبهم، وكان معجبًا كثيرًا بالحسن البصرى، وإبراهيم بن أدهم، يسير على نهجهم، وينقل كثيرًا عن سهل بن عبد الله التسترى[٥]، ويلقبه بشيخنا وإمامنا، ويقدّم آراءه على آراء غيره. يقول عن الحسن البصرى مثبتًا إمامته: «والحسن رحمه الله هو إمامنا فى هذا العلم الذى نتكلم به، أثره نقفو، وسبيله نتَّبع، ومن مشكاته نَسْتضىء، أخذنا ذلك بإذن الله تعالى، إمامًا عن إمام، إلى أن ينتهى ذلك إليه»[٦]. فهؤلاء الشيوخ وغيرهم من أهل العلم

---

(١) أبو طالب المكى، ص ٥٣ - ٥٤.

(٢) كذا نسبه فى السير ١٦/ ٢٧٢، وأثبته د. عبد الحميد فى رسالته: «أبو الحسن أحمد بن أبى عبد الله محمد بن أحمد بن سالم» ص ٦١، وانظر: طبقات الصوفية، ص ٤١٤ وما بعدها.

(٣) أبو طالب المكى، ص ٦١ - ٦٢، وانظر: وفيات الأعيان ٤/ ٣٠٣، وأنا أميل إلى ما ذهب إليه د. عبد الحميد، راجع أدلته فى ذلك.

(٤) طبقات الصوفية، ص ٤٢٧، وانظر: تذكرة الحفّاظ للذهبى ٣/ ٨٥٢.

(٥) راجع ترجمته ومصادرها فى طبقات الصوفية، ص ٢٠٦.

(٦) انظر: القوت (الميمنية) ١/ ١٤٩.

«قد أسهموا فى صقل مواهبه الروحية، وتحديد اتجاهه الصوفى، وأمدّوه بزاد من القواعد والتّقاليد التى انتفع بها وهو يضع منهجه، كما أضافوا إليه ثروةً من المعارف التى انتفع بها فى تأليف كتابه القُوت، ويشاركهم فى ذلك عدد كبير من الصوفية الذين امتلأ كتابه بالإشارة إلى أقوالهم وأحوالهم»(١).

● تلاميذه:

من المؤسف حقًا أن يقع أبو طالب ـ وهو العَلَم المشهور ـ «فريسة لإهمال غريب من مؤرخى الصوفية، الذى كان سببًا فى ندرة المعلومات التى نعرفها عنه، ويبدو أن هذا الإهمال قد ضرب أطنابه على من انتسب إليه من التلاميذ والأتباع»(٢).

ومن تلاميذه الذين أوردت بعض المصادر ذكرًا لهم: أبو القاسم بن سرات، وعبد العزيز الأزجى، ومحمد بن المظفر الخياط، وغيرهم. «وإذا لم يكن المكى قد حظى بعدد كبير من التلاميذ، فإنه أصبح فيما بعد أستاذًا لكثيرين ممن تأثروا به، واستشهدوا بآرائه»(٣).

● سلامة عقيدة أبى طالب المكى من البدع:

كان أبو طالب رحمه الله صحيح العقيدة، متبعًا للكتاب والسُّنّة، وهنا أفسح مجال القول للدكتور عبد الحميد مدكور ليبين مَعْلمًا مهمًا من حياة أبى طالب وكتابه، ويُظهر صحّة عقيدته، ويردّ عنه التهمة التى أُلصقت به ظُلْمًا وعُدوانًا، وسوف أسوق كلامه بطوله ونصه لدقته ودلالته فى توضيح ما نحن بصدده؛ لإصابته مفصل القول، يقول: «وإذا اعتبرنا «قوت القلوب» حصيلةً لدروس الوعظ التى كان يلقيها المكى بجامع بغداد ـ وهو لا شك يمثل جانبًا كبيرًا منها ـ فإن لنا

---

(١) أبو طالب المكى، ص ٥٩.

(٢) السابق، ص ٥٩، ولعل من بقايا الإهمال أيضًا لهذا الشيخ؛ أن تظل مثل هذه الدراسة القيمة ـ أعنى دراسة د. عبد الحميد مدكور ـ حبيسة الأرفف لم تطبع فى كتاب بعد ـ على حد علمى ـ يتداوله الناس ويتعرفون أحوال أبى طالب وعلمه عن قرب.

(٣) السابق، ص ٦١.

أن نَحْدسَ بالموضوعات والمسائل التى كان يتناولها، فقد كان يتحدث عن تطهير القلب وإخلاص النية... ثم يتناول بالحديث مقامات الصالحين، وأحوال الموقنين، وإخلاص أهل الخصوص من العابدين. ولم يُخْلِ حديثه من (نَقدات) كان يوجهها إلى معاصريه، لتباعدهم عن هدى السلف وانشغالهم بزخارف الدنيا عن القيام بحقّ الله عليهم، وكان يستعين فى ذلك كلّه بمحفوظه من الكتاب والسّنّة، ومعرفته بأحوال السّلف وأقوال الصّالحين، ناثرًا ذلك كله فى أسلوب رائق وعبارة طلية، تتناول موضوعات تحرّك القلب، وتهزّ الوجدان.

ومن شأن ذلك أن يجمعَ القلوب حوله، ومن شأنه - أيضًا - أن يحرّك الضّغائن والأحقاد لدى ضعاف القلوب الذين يتناولهم بنَقْده، ومن شأن هؤلاء أن يقبِّحوا الحَسَنَ، ويَتَسَقَّطوا العثرات والزلات، بل قد يصل الأمر إلى حدّ تحريف الكَلِم عن مواضعه، أو التقوّل على الناس كذبًا وافتراءً. ويبدو أن «المكّىّ» أصابه من ذلك رشاش، فنُسب إليه أنه خَلَطَ فى كلامه، وأُضيف إليه أنه قال: «ليس على المخلوقين أضرُّ من الخالق. فبدّعه الناس وهجروه»[1]. والجماهير سهلة الانقياد، سريعة التّصديق، ليس لديها الوقت للتحقّق والبحث والتمحيص، وهى لا تملك وسائل ذلك إن أرادته، ومع ذلك كانت تجعل نفسها حَكَمًا فى كثير من المسائل الاعتقادية دون أن تكون مزوّدةً بالوسائل المناسبة للفصل والقضاء فيها. ونتج عن ذلك أن امتنع المكّى من الكلام على الناس. ولعل ما حدث للمكّى كان متصلاً بسياسة الدولة التى كانت تلجأ فى بعض الأحيان إلى أن تصدر مرسومًا بألا يقص أحد أو يعظ فى سائر بغداد.

على أنَّ بعض المؤرّخين لم يُسلّم بنسبة هذه العبارة إلى المكّى، فحاول التشكيك فى نسبتها إليه، وعزا ذلك إلى الخطأ فى النقل عنه، ومن هؤلاء «طاش كبرى زاده» الذى يقول: وينسب هذا القول لأبى طالب... إلا أنّ شأن الرجل أعظم من أن يتكلم بأمثال هذا الكلام، ولعل فى النقل عنه خللاً[2]. ويشبه هذا الدّفاع

(١) تاريخ بغداد ٣/ ٨٩، وهو يرويه عن ابن العلاف الواعظ، وترجمة هذا بتاريخ بغداد ٣/ ١٠٣ - ١٠٤.

(٢) مفتاح السعادة ١/ ٤٢٢.

ما ذكره الطُّوسى فى «اللمع» عند دفاعه عن أبى بكر الشِّبلى: «وإنّما يجد المتعنّت فرصة بالوقيعة والطعن فى الكلام المجمل دون المفصّل؛ لأنّ المجملَ ربما يكون له مقدمات لم تبلغ المستمع، والمفصّل يكون مشروحًا مبينًا محررًا والمجمل لا يكون كذلك»[١].

وذهب سبط بن الجوزى فى دفاعه عن المكّى إلى أن هذه الكلمة ربما تكون قد صدرت عن المكّى فى حالة القبض، إن ثبت ذلك عنه، فإنّه كان أورع من أن يتلفظ بمثل هذه الكلمات التى توقع فى المحذورات[٢].

والذى يظهر أن خللاً قد وقع بالفعل فى النقل عنه، ويمكن أن نتأكد من ذلك بالرجوع إلى قوت القُلوب ذاته، فقد تحدّث المكّى فيه عن هذه المسألة بعينها أثناء حديثه عن سعة رحمة الله، وتفضّله على عباده، وغفرانه لهم إذا أقبلوا عليه ولجأوا إليه، وإنها لرحمة تنتزع اليأس من القلوب... «وربما بلّغ الله تعالى العبدَ بحسن الظن به وقوّة الأمل والطمع فيه جميع ما ذكرناه من مقامات اليقين، بعد أن يكون حَسَنَ اليقين... وربما بلّغه منازل الشهداء بشىء واحد يتركه له، أو شىء يؤثره به، لأنه غفور شكور، وأضرُّ شىءٍ على العبد قلّةُ معرفته به، فلربما كان العبد على تسع كبائر، فيترك العاشرة لوجه الله تعالى، فتكون تلك الخصلة ذرّة إلى جنب تسعة أجبل، فينظر الله تعالى إليه بوجهه لوجهه الذى تركه له نظرة، فتمحو تلك النظرةُ الجبالَ التسعة فتصير هباء منثورًا[٣].

والفارق كبير بين ما يذكره المكّى فى هذا النص، وبين ما يُنسب إليه»[٤].

انتهى كلام أستاذنا الدكتور عبد الحميد عبد المنعم مدكور بمراجعه التى أثبتها

---

(١) اللمع، ص ٤٨٢.

(٢) مرآة الزمان، القسم ٢، ص ١٨٧.

(٣) قوت القلوب، الحلبى (١٩٦١م) ٢/١٥٩.

(٤) انظر هذا الكلام الطويل بنصه فى رسالة الماجستير «أبو طالب المكى» ص ٢٨ - ٣٠. وثمة تهمة أخرى ألصقت بأبى طالب وهى: نسبته إلى فرقة السالمية. وهذه أيضًا فندها د. عبد الحميد مدكور بما لا يدع مجالاً للشك فى براءته منها، انظر رسالته ص ٦١ - ٧٤، فإن المجال يضيق عن سردها هنا.

جزاه الله خيرًا، فقد أبان إبانة كاملة عما يعتمل فى نفسى من هذه القضية منذ أن قرأتها فى ترجمته وقرأت كتاب القوت وقابلته على نسخه المخطوطة؛ فلم أجد فيها مثل هذه التهمة ولا ما يقاربها، ولذلك فإن شيخ الإسلام ابن تيمية لم يتعرض لها لعلمه ببطلانها، عندما سئل عن كتاب القوتِ وكتاب إحياء علوم الدين للغزالى، فقال: «وأبو طالب أعلم بالحديث والأثر، وكلامِ أهل علوم القلوب من الصوفية وغيرهم من أبى حامد الغزالى. وكلامهُ أسدُّ وأجودُ تحقيقًا، وأبعدُ عن البدعة، مع أن فى «قوت القلوب» أحاديث ضعيفة وموضوعة، وأشياء كثيرة مردودة»[1].

ولا يقصد الشيخ بالأشياء المردودة مثل تلك التهمة، بل يقصد الروايات التى يرويها عن الأمم السابقة وعن بعض أهل العلم ويجعلها شاهدًا له فى شرح المقامات وغيرها.

وأيًا كانت الدّواعى لنسبة مثل هذا القول إلى المكّى، فإنّه امتنع عن الحديث والوعظ بمسجد بغداد، واستمر على ذلك حتى أدركته الوفاة لستٍّ خلَوْنَ من جمادى الآخرة سنة ٣٨٦هـ.

• مؤلفات أبى طالب:

تشير المصادر التاريخية إلى بعض مؤلفات لأبى طالب لكنها قليلة، ولم يصلنا سوى هذه الموسوعة العظيمة: «قوت القلوب» وهو أهمها، وسيجىء حديثنا عنه بعد قليل. فقد ذكر هو كتاب «مناسك الحج» فى ثنايا القوت. وأشار الذهبى إلى مسند له فى الحديث يضم أربعين حديثًا. أما كتاب «علم القلوب» الذى ينسب إليه، فإن الدكتور عبد الحميد مدكور يرجح أن هذا الكتاب ليس له، ويسوق حججًا قوية ومقنعة فى ذلك[2].

* * *

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠/ ٥٥١.

(٢) انظر: أبو طالب، ص ٧٦ ـ ٧٩.

قوت القلوب

ألّفه ببغداد، ولا يعرف على وجه التحديد الزمن الذى كتبه فيه، ويرى د. عبد الحميد مذكور أنه كتبه بعد سنة ٣٦٠هـ، لأنه كتبه بعد وفاة شيخه الآجُرِّى التى كانت فى هذه السنة.

• أهمية هذا الكتاب:

قال ابن عبَّاد النفرى شارح حكم ابن عطاء مبيّنًا قيمة كتاب القوت: «أما كتاب أبى طالب فعليه وقع الاختيار، إذ لم يقع بين أيدينا مثل مَنْزَعِه، فإنّه فيه فتح مغالق علم التصوف، وجمع فيه بين المعانى الصحيحة، والألفاظ الحسنة، وذكر فروع علومهم وأصولها، ورسم مسائلها وفصولها، فكان لذلك كالمدونة فى علم الفقه، يقوم مقامَ غيره، ولا يقوم غيره مقامه»[1]. هذا كلام رجل خبير بالكتاب وفوائده، فهو كلام دالٌّ على قيمة الكتاب وتفرّده فى بابه، ويمكن أن نبين ما أجملته الفقرة السابقة حول أهمية قوت القلوب فى النقاط الموجزة التالية:

١ ـ أراد أبو طالب من خلال تسمية كتابه «قوت القلوب...» أن يجعله مصدرًا مهمًا وينبوعًا فياضًا لحياة المسلم، إذ أنه معلوم بالضرورة أن القوت مطلب ضرورى لكل ذى روح، وحياة الإنسان تنبع من حياة قلبه، وصلاح جسده نتيجة لصلاح قلبه، وحياة قلبه بالزّاد والتقوى، فكان اختياره هذا اختيارًا لمّاحًا ينمّ عن بَصَرٍ وإشراق نفسٍ، صاغتها مكارم الإسلام، وزانتها رحابة آفاقه، وانفساح نظرته.

٢ ـ انطلق أبو طالب فى جميع مراحل كتابه من القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهّرة، يستمد منهما الإشارات والقواعد التى ينطلق منها لوضع منارات الطريق،

(١) الرسائل الصغرى لابن عبّاد، تحقيق الأب بولس، وقد نقلته عن رسالة د. عبد الحميد مذكور: أبو طالب المكى، ص ٨١.

وبيان مدارج السالكين ومنازل السائرين، ويربط بين الأصلين القرآن والسنة وبين التطبيق العملى للسّالكين، فكل حالٍ أو إشارة أو مقالةٍ أو سلوك يخالف القرآن والسنة يوضح خلَله ويبرز ضعفه، ويسقطه من حساب المتقين.

٣ ـ تحليلات أبى طالب للمقامات وإشاراته للأحوال تنمّ عن معاناة حقيقية وتجربة روحية قد خاضها ومرَّ بها، إذ نجده فى كتابه يصف أحوالاً لا يصفها إلا عارف، ويفصل مقامات ويفرّق بين منازلها بصورة لا يعرفها علم اليقين إلا من سلك دروبها وخَبرَ شعابها وذاق من شرابها. ومن ثَمَّ فإن حديثه عن المقامات لم يكن كلامًا صادرًا عن مجرد التأمل النظرى أو تجميع النصوص من هنا وهناك، ورصّها رصًا دون فقه أو تحليل أو إرشاد، ولعل القوت بهذه الميزة يفارق كثيرًا من الكتب التى وضعت فى هذا المجال، ويحلّق وحده فى سماء الشفافية الروحية مخلّفًا غيره فى الأرض.

٤ ـ ولعل أبرز نقطة فى منهجه هو إلحاحه الشديد على بيان الفكرة المطروحة ومحاولة الإقناع بها بكافة السبل المتاحة من الأدلة والشواهد التطبيقية والتحليلات الخاصة. حتى لا يدع مجالاً للتردد أو الشك لدى القارئ فى التسليم والاقتناع ثم البدء فى التطبيق[1]. وكان يعرض ذلك كله فى أسلوب أدبى مشرق، وحجج قوية معتمدة على الكتاب والسنة، ومن خلال عبارات غنية دالة موحية بسلامة الذوق ونصاعة الحجة، وجودة الصياغة، وبلاغة التأثير. قد استهدف بكل حرف فى كتابه غاية قصد إليها، وحرص على إبلاغها، معبرًا فى كل تنظير أو تطبيق عن روح القرآن الكريم وجوهر السنة النبوية.

٥ ـ هذا الكتاب يعوض الإهمال الذى تعرض له أبو طالب من المؤرخين بصفة عامة، ومؤرخى الصوفية بصفة خاصة، ويرد عنه التُّهم التى ألقيت حوله جزافًا دون دليل أو سند، «ويصحح كذلك بعض ما حوته المصادر التاريخية من أخطاء

---

(١) يضيق المقام لو أردنا أن نذكر أمثلة على ذلك، ولكن أنت واجده فى جميع صفحات الكتاب، وعسى الله أن ييسِّر لنا قريبًا إخراج دراسة تفصيلية حول منهج أبى طالب وأسلوبه والفرق بينه وبين من كَتَب فى هذا الميدان سواء من سبقه أو لحق به.

لم يكن تصحيحها ممكنًا بغير الرجوع إلى القوت»[١].

٦ ـ يعتبر هذا الكتاب هو الكتاب الأم فى تاريخ التصوف الإسلامى ومَعْلمًا بارزًا من أهم معالمه، «فهو مع كتاب «اللمع» يمثلان أهم كتابين صدرا عن التصوف الإسلامى فى القرن الرابع الهجرى، وقد أثَّرا معًا فى التصوف والصوفية تأثيرًا عميقًا، مادة ومنهجًا، فظهرت آثار القوت فى الإحياء، والغنية للجيلانى، وعوارف المعارف للسهروردى»[٢].

٧ ـ احتوى الكتاب «على صورة واضحة المعالم محدّدة القسمات للطريق الصوفى، ولما يكلّف به سالك الطريق من مجاهدات ومعاملات وما يرقى فيه من منازل ومقامات» كما اشتمل أيضًا على «كثيرٍ من آراء الزّهاد الصوفية قبل أبى طالب، مما يجعل الكتاب مرجعًا لا غنى عنه فى معرفة آراء هؤلاء واتجاهاتهم»[٣].

رحم الله أبا طالب؛ صوّر فأحسن التصوير، وبلّغ فأحسن التبليغ، ووصف فأحسن الوصف، وأشاع الحركة والحياة والرّوح والحيوية فى جوانب الطريق إلى الله، فطمأن السّالكين، وحذّر المدعين، فكان عالمًا نفسانيًا، وحكيمًا ربانيًا، وعارفًا روحانيًا، يتسلل بأحواله وتحليلاته إلى هواجس النفوس فيكشفها، وينفذ ببصيرته وقلبه إلى خفايا الصدور وخفقات القلوب فيبصّرها. ويخاطب كلاً بما يعرف من نفسه، وكأنّ القارئ فى حوارٍ خاص مع أبى طالب، وأنه هو المقصود وحده بالخطاب. كذلك كان أيضًا يغوص فى بحار المعرفة، ورقائق الذوق فيكشف عن أخطاء العابدين، وفتور السّالكين، وغرور الجاهلين، وتلبيسات المحبين ووسوسة الزاهدين، فجلّى بذلك صورة السّالك المسلم تجلية واضحة كما جاءت فى القرآن الكريم، وتجلّت فى سنة رسولنا الكريم ﷺ.

ذلك هو بعض ما نكشفه، ونبين عنه، ونشير إليه من جواهر القوت ليدل على ما فيه، فكلّ بيان وتقديمٍ له، لا ينهض بحقّه ولا بحقّ صاحبه، ولا يفى بقَدْره،

(١) أبو طالب المكى، ص ٨١.
(٢) السابق، ص ٨١.
(٣) السابق، ص ٨١.

ولا يصوّر علمه وذوقه. إنه جامعة إسلامية لتخريج أفذاذ الرّجال والفحول والأئمة الكبار، وتجميع مقامات السالكين بعيدًا عن الانحراف والبدع والادّعاء والتقليد والتزييف وطلب الدنيا، جامعة لا يعرف قدرها، ولا يطّلع على حقيقتها، ولا يدخل رحابها؛ إلا من تذوّق منهجها وعاش فى جنباتها، واستنار بأنوارها؛ إنه: «قوت القلوب فى معاملة المحبوب، ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد».

• مآخذ على كتاب القوت:

لا يعنى تقريظنا للكتاب ووصفه بالتفرّد أنه لا يخلو من مآخذ أو نواقص، وإنما النقص سمة من سمات البشر ومن طباعهم، ولذلك فهناك ثمة مآخذ على كتاب القوت أخذها عليه بعض العلماء والدّراسين، ذكرها د. عبد الحميد مدكور، وهى باختصار:

١ ـ يذكر ابن الجوزى ـ وهو محق ـ أن أبا طالب ذكر فى كتابه كثيرًا من الأحاديث الباطلة، وما لا يستند فيه إلى أصل من صلوات الليالى والأيام. ولكن منهج أبى طالب كما يقول د. عبد الحميد: أنه كان يقبل الحديث الضعيف إذا كان واردًا فى الترهيب والتزهيد فى الدنيا ـ وإن اختلف العلماء فى ذلك ـ وفى ذكر أهوال القيامة[1].

أقول: لكن تعدى أبو طالب الأحاديث الضعيفة إلى الموضوعة أحيانًا، وتعدّى دائرة الترهيب والتزهيد إلى دائرة الفضائل، ولقد كان ـ رحمه الله ـ فى غنى تامّ عن سرد مثل هذه الأحاديث، وليست هى على شرطه فى الكتاب ولا من غايته أن يتحدث عن فضائل الأعمال، فلو برّأ كتابه منها لارتفعت قيمته درجات.

٢ ـ بالكتاب أيضًا كثير من الإسرائيليات وأخبار الأمم السابقة، كان ينبغى أن يبرّأ كتابه منها، وروايات تحتاج فى قبولها إلى نظر.

أقول: وما أثر عن النبى ﷺ وما روى من سيرة سلفنا الصالح كان فيه غنًى ومقنع لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

٣ ـ وأخيرًا إن الكتاب ينقصه شىء من التبويب والترتيب يجمع شتات ما تناثر

---

(١) انظر: أبو طالب المكى، ص ٨٢ وما بعدها.

فيه من أجزاء كان ينبغى وصلها لارتباطها الوثيق بعضها ببعض، مثال ذلك الحديث عن الصلاة فقد جاء مفرّقًا فى مواطن عدّة.

أقول: على أيّة حال فإن هذه المآخذ تعد شيئًا هينًا فى جنب روعته وجماله، ولا تؤثر على الغاية التى وضع من أجلها، بل لعلها كانت فى بعض المواطن سببًا للإثارة والإمتاع.

• شرح القوت واختصاره:

- يوجد شرح للقوت كتبه أبو عبد الله الطبرى بن عبد الله، وسمّاه: «تبسيط كتاب قوت القلوب فى معاملة المحبوب». منه نسخة على الميكروفيلم بمعهد المخطوطات برقم ٨١ تصوف، ولكنها رديئة التصوير لا ينتفع بها.

- واختصره محمود بن على بن محمد القاشانى فى كتاب سمّاه: «لباب القوت من خزائن الملكوت»، ومنه نسخة بدار الكتب المصرية برقم ٩٦٥ تصوف طلعت، وهى فى ١٢٠ ورقة وتاريخ نسخها ١١٢١هـ.

• أثر الكتاب فى اللاحقين:

يمثل أبو طالب وكتابه مَعْلمًا بارزًا مهمًا من معالم التصوف وكتب السلوك، بما يشتمل على كثير من آراء الزهاد والصوفية وأحوالهم وتجاربهم قبل أبى طالب وفى عصره مما يجعل الكتاب مرجعًا لا غنى عنه فى معرفة آراء هؤلاء واتجاهاتهم، ومن ثم فقد اتكأ عليه بعض الذين كتبوا فى منهج القوت من التصوف، فنجد تأثيره ظهر جَلِيًا عند عبد القادر الجيلانى ت٥٦١هـ فى كتابه «الغُنية لطالبى طريق الحق عز وجل»، وعند شهاب الدين السَّهروردْى ت٥٣٩هـ فى كتابه «عوارف المعارف»، وعند الغزالى ت٥٠٥هـ فى كتابه الإحياء. وأكتفى بهذه الإشارة إلى مثل هذا التأثير، ومن أراد التفصيل حول ذلك فليرجع إلى ما كتبه د. عبد الحميد مدكور[١].

والآن بقى الحديث عن الأصول المخطوطة التى تم اعتمادها فى تحرير هذه النشرة الجديدة من كتاب القوت، وهذا هو حديثنا فى الصفحات التالية.

---

(١) راجع: أبو طالب المكى، ص ١٣٤ ـ ١٥٤.

النسخ المخطوطة المعتمدة فى التحقيق

اعتمدت فى إخراج هذه النشرة المحققة على النسخ التالية:

١ ـ نسخة دار الكتب المصرية برقم: ١٥٤٣ تصوف.

٢ ـ نسخة أخرى من دار الكتب المصرية برقم: ١٥٤٤.

٣ ـ نسخة مكتبة فيض الله بتركيا برقم: ١٢٤٩.

٤ ـ نسخة مكتبة جار الله بتركيا برقم: ١٠٧٦.

٥ ـ نسخة مكتبة ولى الدين بتركيا برقم: ١٧٥٧.

٦ ـ مطبوعة الميمنية لقوت القلوب وهى الطبعة الأولى للكتاب سنة ١٣١٠هـ.

• وصف النسخ:

١ ـ نسخة دار الكتب المصرية ورمزها (ك):

هى من مخطوطات دار الكتب المصرية برقم: ١٥٤٣ تصوف طلعت، ورقمها فى الميكروفيلم ٧٣٨٣، وعدد أوراقها ١٨١ ورقة فى كل ورقة وجهان أو صفحتان فى كل صفحة ٤٣ سطرًا، ويحتوى السّطر الواحد غالبًا على ٢٣ كلمة، ومقاس الأصل ٣٠ × ٢٢سم، كتبت بخط مغربى دقيق، خالية من التشكيل، وليس بها اسم الناسخ ولا تاريخ النسخ، وتشمل هذه النسخة الكتاب كاملاً، وعنوان الكتاب فيها كالآتى:

«كتاب قوت القلوب فى معرفة الطريق إلى معاملة المحبوب».

توجد فى هذه النسخة زيادات طفيفة على ما فى المطبوعة، لكنها فى الوقت نفسه تخلو منها بعض النصوص المطبوعة. وليس بها ذكر للفصول ولا ترقيم تلك الفصول المذكورة فى المطبوعة، ونجدها أحيانًا تصدّر العنوان بكلمة: كتاب، أو باب.

وقد وجدت بها خللاً فى ترتيب أوراقها، مما أخلّ بالمادة العلمية فى بعض الفصول، وكان هذا الخلل دقيقًا جدًا، وبعد جَهْد ولأْيٍ يسّر الله إصلاح هذا الخلل.

قسّم ناسخ المخطوط الكتاب إلى خمسة أسفار، وهذا التقسيم جاء فى ثنايا الفصول. وتكمن أهمية هذه النسخة فى أنها اشتملت على الكتاب كاملاً، وصححت بعض التصحيفات التى لحقت بالمطبوعة، كما أن زياداتها الطفيفة كانت مهمة وتجىء فى موضعها من النص.

٢ ـ نسخة أخرى من دار الكتب المصرية، ورمزها (د):

وهى تقع فى ١٨٧ لوحة، فى كل لوحة وجهان أو صفحتان، فى كل صفحة ٢٦ سطرًا وفى كل سطر ١٤ كلمة تقريبًا، وهى مكتوبة بخط نسخى، قليلة الخطأ، خالية من التشكيل، وناسخها هو عبد الله بن أحمد المقدسى، فرغ من نسخها سنة ٤٩٢هـ.

تضم هذه النسخة نصف الكتاب تقريبًا، حيث يوجد منها الجزء الثانى فقط، ويبدأ من باب: «ذكر فضائل التارك للكسب» وهذا يقع ضمن الفصل الثانى والثلاثين من الكتاب، وتنتهى النسخة بنهاية كتاب القوت.

توجد بهذه النسخة زيادات كثيرة جيدة ومهمة أثبتها بعد مقابلتها بالنسخ الأخرى.

٣ ـ نسخة مكتبة فيض الله، ورمزها (م):

وهى نسخة محفوظة بمكتبة فيض الله بتركيا برقم: ١٢٤٩، ومنها صورة على ميكروفيلم بمعهد المخطوطات برقم: ٢٤٠ ق تصوف، وتقع هذه النسخة فى جزأين، يوجد منها بمعهد المخطوطات الجزء الثانى فقط، ويبدأ من: «شرح مقام التوكل» وذلك فى الفصل الثانى والثلاثين، وتنتهى بنهاية الكتاب.

ويقع هذا الجزء فى ٢٣٢ ورقة أو لوحة، فى كل لوحة صفحتان، وفى كل صفحة ٢٩ سطرًا، ومقاسها ١٦,٥ × ٢٦سم، كتبت بخط نسخى قديم،

مضبوطة بالشكل، وناسخها هو محمد بن الحسن بن منصور، فرغ من نسخها سنة ٥٧٠هـ.

وتشمل هذه النسخة زيادات كثيرة جدًا على ما فى المطبوع وعلى نسخة (ك)، غير أنه وقع فيها اضطراب فى أوائل النسخة، كما وقع فيها خلط فى ترتيب الأوراق، وتكثر بها التصحيفات والأخطاء فى الكتابة أو الضبط، لكننى أفدت منها كثيرًا وأثبت جميع الزيادات التى وردت بها واتخذتها أصلاً فى الجزء الذى أوردته، وقابلت عليها بقية النسخ المخطوطة والنسخة المطبوعة.

ويمكن القول: إن نسختى (م، خ) تشكلان معًا ثلاثة أرباع الكتاب، وعليها كان مدار هذه النشرة من الزيادات التى أثبتها، عدا بعض الزيادات التى وجدتها فى بعض النسخ، ولم أجدها فى هاتين النسختين فكنتُ أثبتها فى موضعها مع الإشارة إلى مصدر الزيادة.

٤ ـ نسخة مكتبة جار الله، ورمزها (خ):

وهى نسخة محفوظة بمكتبة جار الله بتركيا برقم: ١٠٧٦، ومنها صورة بمعهد المخطوطات على الميكروفيلم برقم: ٣٤٠، وهى تقع فى ثلاثة أجزاء يوجد منها الجزء الثانى فقط بمعهد المخطوطات، ويبدأ من شرح مقامات اليقين، وهو بداية الفصل الثانى والثلاثين، وتنتهى بنهاية كتاب الزهد، ويتلوه شرح مقامات التوكل.

وهى مكتوبة بخط نسخى نفيس، وقد ضبطت بالشكل الكامل ضبطًا صحيحًا متقنًا، قليلة الأخطاء، وناسخها هو عبد الله بن الحسن بن عبد الواحد بن بندار. فرغ من نسخها سنة ٥٦٢هـ، وعدد أوراقها ١٩٥ ورقة، فى كل ورقة صفحتان، فى كل صفحة ٢٣ سطرًا، مقاسها ١٩ × ٢٨,٥سم.

اتخذتها أصلاً فى الجزء الذى أوردته من الكتاب، إذ وجدت فيها زيادات كثيرة على المطبوعة، وصوبت كثيرًا من تصحيفات المطبوعة وتحريفاتها للنص، وتبدأ هذا الزيادات قليلة ثم تزداد شيئًا فشيئًا مع منتصف المخطوط، حتى تصل الزيادة أحيانًا إلى صفحات طويلة متصلة لا يوجد منها شىء فى المطبوعة. ولكن للأسف

الشديد يوجد بها أماكن كثيرة مطموسة بيضاء فى التصوير وفى كثير من صفحاتها ـ وخاصة فى أواخر المخطوط ـ طمس فى النصف الأسفل من الأوراق، مما شكّل معاناة شديدة فى قراءة الكثير منها.

٥ ـ نسخة مكتبة ولى الدين، ورمزها (هـ):

وهى نسخة محفوظة بمكتبة ولى الدين بتركيا برقم: ١٧٥٧، منها صورة بمعهد المخطوطات على الميكروفيلم برقم: ٣٣٩ تصوف، وهى تقع فى مجلدين منها المجلد الثانى فقط بمعهد المخطوطات، ويبدأ «بشرح مقام الشكر وأوصاف الشاكرين» وتنتهى بنهاية كتاب القوت، وعدد أوراقها ٤٦١ ورقة فى كل ورقة صفحتان، وكتبت بأكثر من خط، من ص١٧٦ إلى ص٢٢٥ كتبت بخط نسخى حديث، أما بقية المخطوط فيرجع تاريخ النسخ إلى سنة ٥٥٨هـ، ولكن لا يوجد اسم الناسخ، وعدد الأسطر فى الجزء المنسوخ حديثًا يصل إلى ١٥ سطرًا، بينما فى الخط القديم فيصل إلى ٢١ سطرًا. وتوجد بها زيادات فى الجزء المكتوب بخط قديم، بعض هذه الزيادات يوجد فى النسخ الأخرى، وبعضها ـ وذلك فى كتاب الأطعمة ـ لم أجده فى غيرها.

وأشار أبو طالب فى كتاب الأطعمة بهذه النسخة أكثر من مرة إلى الزيادات على الأصل الأول، راجع كتاب الأطعمة من هذه النشرة، ولذلك فقد أثبته كاملاً عن هذه النسخة مع إشارات أبى طالب إلى تلك الزيادات.

كذلك أُشير فى حاشية أحد الأوراق أنه ترك مقدار كراستين من النص، مما يدل على أن الناسخ ترك هذا إمّا لأن الأصل الذى نقل عنه لم يكن واضحًا أو أن فيه خرمًا.

وتخلو هذه النسخة من الضبط والنقط أحيانًا، وتكثر بها التصحيفات، وأن الناسخ أحيانًا لا يبصر موضع قدمه، وكان يضرب كثيرًا على الكلام المكتوب ويصححه بالحاشية، أو يتركه. على أية حال قد يسّر الله تعالى الإفادة منها إفادة كاملة وأسهمت إسهامًا بيّنًا فى توثيق نصوص المخطوطات الأخرى. والحمد لله أولاً وآخرًا.

وهناك بعض المخطوطات حديثة النسخ تركت الاعتماد عليها.

٦ ـ المطبوعة الميمنية ورمزها (ط):

وهى الطبعة الأولى لكتاب قوت القلوب، طبعت بالقاهرة سنة ١٣١٠هـ وقام على تصحيح هذه النشرة الشيخ محمد الزهرى الغمراوى، رحمه الله، وصدرت فى جزأين، يشمل الجزء الأول ٢٧١ صفحة، والثانى ٢٩٨ صفحة، فى كل صفحة ٣٦ سطرًا. ووضع على حاشية الجزء الأول كتاب: «سراج القلوب وعلاج الذنوب»، للشيخ أبى على زين الدين على، وعلى حاشية الجزء الثانى كتاب: «حياة القلوب فى كيفية الوصول إلى المحبوب».

لم يذكر الشيخ محمد الزهرى ـ رحمه الله ـ الأصل الذى نشرها عنه وهى مع ذلك لا توافق موافقة تامة أيًا من النسخ المعتمدة، ولذلك اعتمدتها نسخة من نسخ الكتاب وبخاصة فى بداية الكتاب وحتى بداية نسخة (خ) وقابلتها مع النسخ المخطوطة جميعًا حتى نهاية الكتاب، وما وجدته من زيادة لم ترد فى الأصول المخطوطة أثبته، وقد آزرت هذه النسخة وأيدتها نسخة (ك) المخطوطة والتى شملت الكتاب كله. ووجدت فيها أيضًا خلطًا فى ترتيب الأوراق لم يتنبه إليه الناشر[1]، وذلك فى «الفصل السابع والثلاثين» ج٢/١٥١ سطر ٤ بعد قوله: «ارتكاب المعاصى» إذ جاء بعد هذا الكلام جزء من الفصل الذى يليه والموضوع فى هذا الفصل يختلف عن الذى يليه، وقد أشرت إلى هذا الخلط فى موضعه من الكتاب. ومن الغريب أنه قد حدث خلط فى كل نسخة من النسخ المخطوطة السابقة عدا نسخة (هـ) وذلك فى ترتيب الأوراق، وكان يختلف الموضع من نسخة إلى أخرى، ويسّر الله بفضله تصحيحها جميعًا.

* * *

(١) أشار د. عبد الحميد مدكور فى رسالته إلى هذا الخلط ولكنى لم أطّلع عليه إلا بعد أن أصلحته من الأصول المخطوطة التى بين يدىّ، انظر: أبو طالب المكىّ، ص ٨٧.

منهجي في تحقيق هذه النشرة الجديدة من القوت

١ ـ قابلت بين النسخ المخطوطة وعارضتها بالنسخة المطبوعة، ونسخت نسخة (خ) ونسخة (م)، واعتمدتهما أصلاً للكتاب من بداية «شرح مقامات اليقين»، وحتى نهاية الكتاب، وأثبت جميع الزيادات التى أوردتها النسخ الأخرى ولم تكن بنصها أو بمعناها فى هاتين النسختين، عدا «كتاب الأطعمة» فقد اعتمدت فى نصه على نسخة (هـ) لزياداتها الوافية الموثقة.

أما فى القسم الذى يسبق «شرح مقامات اليقين» فقد اعتمدت فيه على النسخة المطبوعة مع نسخة (ك) وأثبت الزيادات الطفيفة والتصحيحات التى أفدتها من النسخة المخطوطة.

وبذلك تكون هذه النشرة قد جمعت جميع النصوص التى وصلت إلينا عبر هذه الأصول فى نص واحدٍ متكامل متناسق، وتتلافى النقص الفاحش الذى كان بالنشرات المطبوعة من قبل.

٢ ـ نظرًا للكثرة الفاحشة فى الأخطاء والتصحيفات التى لحقت المطبوعة والاختلافات المتعددة بين المطبوعة والأصول المخطوطة، كنت أغفل أحيانًا الإشارة إلى حال المطبوعة وأكتفى بإثبات النص الصحيح، حتى لا يُشغل القارئ بتتبع ذلك ولا يزاحم بقية التعليقات المطلوبة الإشارة إليها أو الزيادات المهمة فى الهوامش.

٣ ـ اقتصدت اقتصادًا بيّنًا فى التعليق على كلام أبى طالب، وذلك لأمرين:

الأول: وضوح كلام أبى طالب، ومحاولته الدائبة لتأكيد ما يقول بكل الطرق وحشد الأدلة والشواهد لذلك، ويسوق هذا كله فى عبارة مشرقة ناصعة البيان، بليغة التصوير، وأى تعليق عليها قد يفسد جمالها ويعكّر صفوها، فتركت القارئ يتمتع بذلك دون تدخّل منى.

الثاني: كثرة الهوامش تشغل القارئ عن متابعة المؤلف، وتشتت ذهنه، وهذا الكتاب كتاب سلوك يحتاج إلى تركيز بالعقل والقلب وعدم الالتفات.

٤ ـ أرجأت تخريج الأحاديث والآثار والتعليق عليها إلى نهاية الكتاب، وستخرج وافية مع الفهارس التفصيلية للكتاب فى مجلد مستقل. وقد يرى البعض أننى بذلك قد ارتكبت جريمة لا تغتفر فى حق الكتاب والتحقيق، للذين لا يرون من التحقيق إلا تخريج الحديث وحسب، أما أن يقيم نصًا أو يضبط مشكلاته فهذا ليس مهمًا عندهم، ولكنى أتأنى القارئ الكريم فى الحكم حتى يرى بنفسه حجتى.

٥ ـ اعتنيت عناية شديدة بعلامات الترقيم وبدايات الفقرات وضبط المشكل منه، لأن لهذا العمل دورًا مهمًا جدًا فى قراءة النص وفهمه، وأكاد أقطع أن هذا العمل هو أجلّ وأهم خدمة يمكن أن تقدَّم لمثل هذا الكتاب وغيره من كتب التراث بعد استكمال النص بمقابلته على الأصول المخطوطة؛ لأن ما نشاهده من خلل العلم بصفة عامة وخلل التطبيق فى المجتمع الإسلامى بصفة خاصة، وكثرة الفرق والأهواء والزيغ والضلال، إنما يتأتى للمسلم من جهله بقراءة النص قراءة صحيحة لتهيئ فهما صحيحًا ومن ثَمَّ تطبيقًا صحيحًا، فلو اختلت القراءة وأُعجمت، اختل ما بعدها كله، ولولا أننى أخشى أن يخرج بى الحديث عن مساره ويطول لبينتُ بجلاء خطورة عدم ضبط القراءة وما تؤدى إليه من المفاسد التى نكتوى بنارها فى مجتمعاتنا اليوم وقبل اليوم، ولكنى أكتفى بأن أوجه القارئ إلى ما كتبه بعض الأعلام أمثال ابن السِّيد البطليوسى فى كتابه المهم «التنبيه على الأسباب التى أوجبت الاختلاف بين المسلمين»، وما كتبه شيخ العربية أبو فهر محمود شاكر فى «أباطيل وأسمار» و «المتنبى»، وغير هذه الكتب كثير.

٦ ـ يوجد أمر أود أن ألفتَ نظر القارئ إليه، وهو الاختلاف البيِّن بين النسخ المخطوطة والمطبوعة من حيث الزيادة والنقصان، وقد يكون مثيرًا للتساؤل: كيف تجيء نسخ الكتاب متفاوتة بهذه الدرجة، حيث توجد بعض النصوص فى النشرة الميمنية لا توجد فى جميع النسخ، وتوجد نصوص كثيرة وطويلة جدًا لا توجد فى

المطبوعة ولا فى كل النسخ وإنما تتفاوت الزيادة تفاوتًا بيّنًا بين النسخ؟!

ويكفينى فى الردّ هنا ما ذكره أبو فهر محمود شاكر ـ رحمه الله ـ فى برنامج طبقات فحول الشعراء عندما بيّن مثل هذه المشكلة فقال: «أمر مألوف كلَّ الإلْف، أن يوجد من كتابٍ واحدٍ، لمؤلفٍ واحد، نسخٌ يكثر عددها أو يقلّ يتردد جميعها بين التمام والنقص، وبين الاختصار الهيِّن والاختصار المبين، ويكون ذلك من فعل من أدّى إلينا الكتاب عن مؤلفه. بل إنّ المؤلف نفسه قد يترك بين يدى تلامذته نُسخًا من كتابه، بعضُها أتمُّ من بَعْضٍ، بما أدخل هو نفسه على كتابه، على تطاول السّنين، من زيادة أو حذف أو تبديل أو تغيير. أمرٌ مألوف كلَّ الإلف، وإن غفل عنه من غفل، وإن أغفله أيضًا مُتعمدًا من أغفله. . . مألوف من فعل رواة الكتب وناقليها إلينا، ومألوف أيضًا أن يفعله المؤلفون أنفسهم، إذا بدا لهم أن يزيدوا فى الكتاب، أو يحذفوا منه، أو يبدِّلوا أو يُغيِّروا»[1].

كلام أبى فهر هذا يؤكد لنا ما وجدناه فى النسخ التى وصلت إلينا من كتاب القوت، إذ نجد فى بعض النسخ زيادات طويلة هى من المؤلف نفسه، فهو يريد أن يؤكد الفكرة ويثبتها فى نفس القارئ، فيزيد فى الشواهد والأدلة ويبسط فى التعليقات وتبيين الأوجه الغامضة، وهذا ما لمسته بوضوح فى زيادات القوت، فهى لم تزد ـ غالبًا ـ موضوعًا لم يكن فى القوت، أو تستحدث عنوانًا جديدًا ليس له أصل بالكتاب، وإنما زياداتها تكشف عما طرحه أبو طالب فى كتابه من قبل، وتحلل الأوجه المشكلة منه، وتذلل صعوباته النّاجمة عن قلّة الشواهد أحيانًا، أو إيجاز العبارة أحيانًا أخرى، خاصة أن جزءًا من الكتاب كان نتيجة الدروس والمواعظ التى كان يلقيها فى جامع بغداد، ومن طبيعة الإلقاء فى الدروس أنه يختلف من آن لآخر من حيث الزيادة والبيان، إذ يتفتق ذهن المحاضر فى كل يوم عن جديد.

٧ ـ تجزئة الكتاب إلى ثلاثة أجزاء ـ كما هو عليه الآن ـ من صنع المحقق، نظرًا للاختلاف الشديد بين النسخ المخطوطة فى تجزئتها للكتاب.

(١) برنامج طبقات فحول الشعراء، أبو فهر محمود محمد شاكر، مطبعة المدنى بمصر، ص ٤٤.

وبعد:

فقد بذلت جهدى، وتحرَّيتُ الصواب ما استطعتُ، فما كان فيه من إحسانٍ فمن الله، وما كان فيه من زَلَلٍ فمنِّى، وأسأل الله أن يتغمّد ما أخطأتُ فيه، وأن يكتب لنا من السَّدادِ فى أعمالنا ما هو له أهل من تفضّله على خَلْقه ومنّه على عباده.

اللهمّ إنى أسألك عونًا لا ينقطع، وسدَادًا لا يُمَنُّ، وتوفيقًا لا يُحبس عنِّى خيرُه، برئتُ إليك ربّى من الحَوْلِ والقُوّةِ، كما بَرِئتُ من الشركاء والأنداد.

اللهم إنى أسألك أن ترحمنى إذا انقضى أجَلى، وانقطع عمَلى، ولبستُ كَفَنِى، وفارَقْتُ سكَنِى، اللهم اغفر لى خطيئتى يوم الدِّين.

وكتبه الفقير الراجى عفو ربه

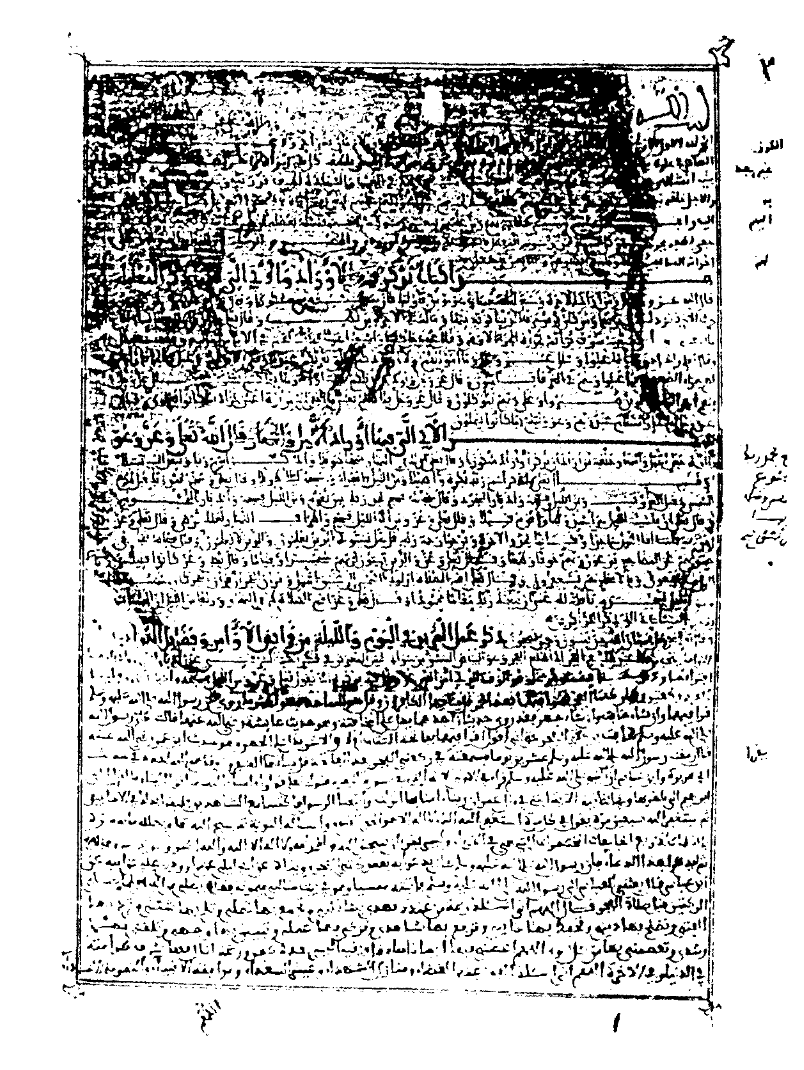
محمود إبراهيم الرضوانى



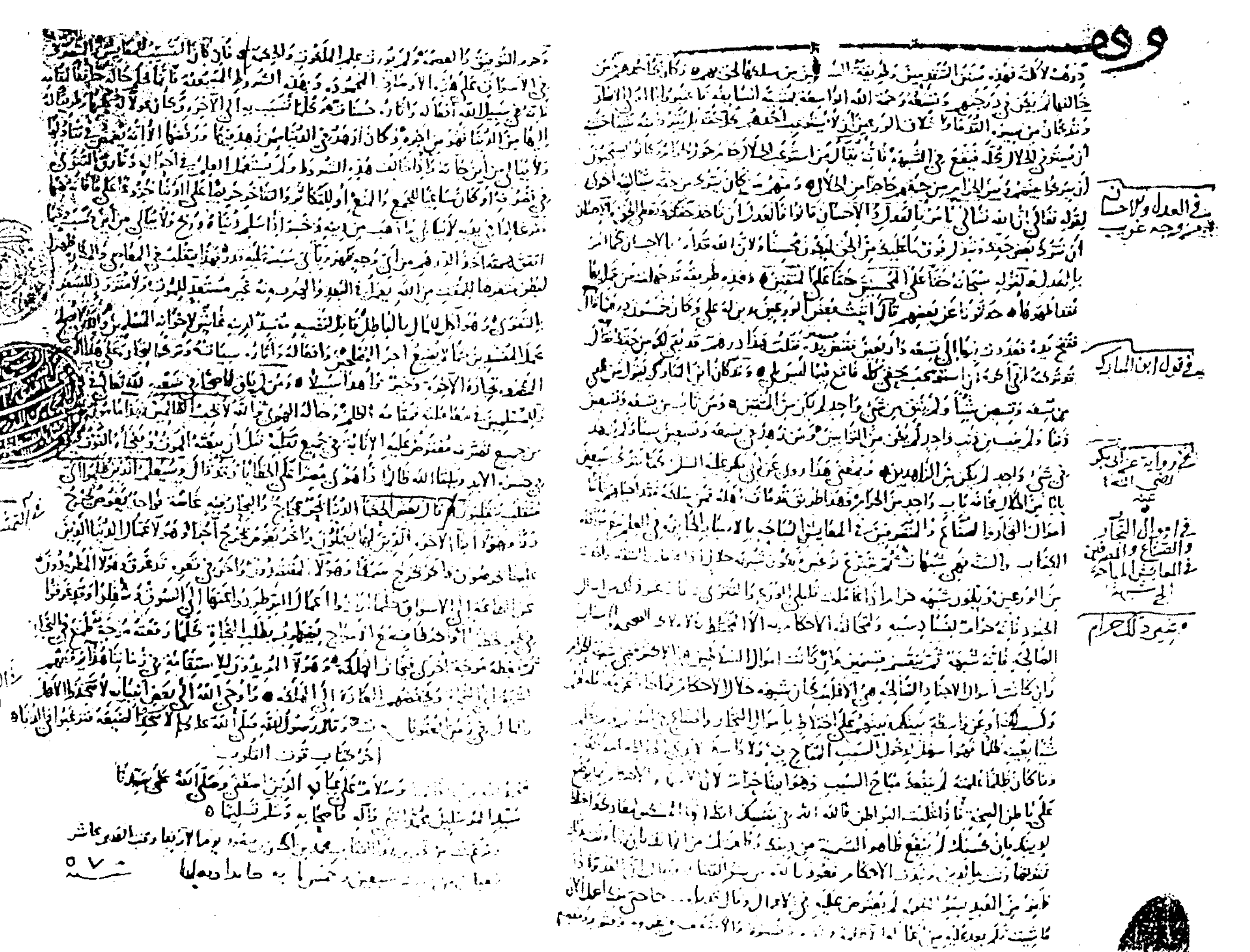


والصلاة والسلام على رسول الله ذكر صاحب عيون التواريخ أن الشيخ
الإمام محمد بن علي بن عطية أبو طالب المكي الواعظ المذكر الزاهد المتعبد مصنف هذا
الكتاب المسمى بقوت القلوب توفي في جمادى الآخرة من سنة ست وثمانين وثلاثمائة رحمه
الله تعالى وقبره ببغداد بالقرب من جامع الرصافة [illegible] رحمه الله
[illegible]
انتهى ما ذكره [illegible] رحم الله الجميع
وصلى الله على سيدنا ومولانا
محمد وعلى آله وصحبه
وسلم

لوحة العنوان من الأصل (ك)



اللوحة الأولى من الأصل (ك)



اللوحة الأخيرة من الأصل (م)

شرح مقام الشكر وأوصاف الشاكرين وهو الثالث

قال الله تعالى ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم فقرن الشكر بالإيمان ورفع بوجودهما

العذاب ٥ وقال الله تعالى وسنجزي الشاكرين ٥ وروي عن رسول الله صلى الله

عليه وسلم الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر ٥ وقال عبد الله بن مسعود الشكر

نصف الإيمان وقد أمر الله عز وجل بالشكر وقرنه بالذكر في قوله فاذكروني

أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون ٥ وقد عظّم الله الذكر في قوله ولذكر الله أكبر

فصار الشكر أكبر لاقترانه به وقد جعل الشكر مجازاة من عباده لما [illegible] في قوله

فاذكروني أذكركم واشكروا لي فخرج في لفظ المجازاة بمعنى الأمر وتعظيم الشكر دون

الفا [illegible] والجزاء والكاف المتقدمة للتمثيل في قوله فاذكروني متصل بقوله

كما أرسلنا فيكم رسولا منكم فاذكروني واشكروا لي والمعنى كما أرسلنا فيكم رسولا

منكم فاذكروني والعرب تكتفي في مثل الكاف كما اكتفى بعض السلف في قوله

سنوسمه [illegible] تفصيل الشكر عظيم لا يعلمه إلا العالم به

وقد روينا في أخبار أيوب صلى الله عليه وسلم أن الله سبحانه وتعالى أوحى إليه أني رضيت

بالشكر مكافأة من أوليائي في كلام طويل وفي أحد الوجوه من قوله تعالى

لأقعدن لهم صراطك المستقيم قال طريق الشكر فلولا أن الشكر طريق الحبيب

يوصل إلى الله تعالى لما قال إبليس في قوله ولولا أن الشكر حبيب رب العالمين ما نقصه إبليس

في قوله ولا تجد أكثرهم شاكرين وكذلك قال عز وجل وقليل من عبادي الشكور كما قال

[illegible] عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين وقد قطع الله تعالى المزيد

في الشكر ولم يستثن فيه واستثنى في خمسة أحوال في الإغناء والإجابة والرزق والمغفرة

والتوبة فقال فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء وقال فيكشف ما تدعون إليه إن شاء

وقال يرزق من يشاء ويغفر لمن يشاء وقال ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء ٥

وختم المزيد عند الشكر من غير استثناء فقال تعالى لئن شكرتم لأزيدنكم فالشاكر على المزيد

والشكور في نهاية من المزيد وهو الذي يكثر شكره على القليل من العطاء ويكثر من شكره

الشكر لله تعالى التي أولها حسن النعم وهو من أخلاق الربوبية والمزيد هو العطاء

[illegible] فأصل المزيد حسن اليقين ومشاهدة الأوصاف وأول المزيد إشهاد

النعمة تمام النعم بأن غيره حول ولا قوة إلا به وأوسط المزيد دوام الحال ومتابعة

الخدمة والاستعانة وقد يكون المزيد أخلاقا ويكون علوما وقد يكون في الآخرة وتثبت

عند أن العاجلة وقد جعل الله الشكر مفتاح كلام أهل الجنة وختام نعيمهم في

قوله الحمد لله الذي صدقنا وعده وقال وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ولولا أنه

أحب الأعمال إليه ما بقاه عليهم لديه ٥ وروي في مناجاة أيوب صلى الله عليه وسلم

اللوحة الأولى من الأصل (هـ) خط حديث



قوت القلوب

في معاملة المحبوب
ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد

للشيخ أبي طالب المكي

محمد بن علي بن عطية

(ت ٣٨٦ هـ)

حققه، وقدم له، وعلق حواشيه

د. محمود إبراهيم محمد الرضواني

دار العلوم - جامعة القاهرة

الجزء الأول

مكتبة دار التراث



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الأوّل الأزليِّ قبل الكون والمكان، من غيرِ أوّلٍ ولا بدايةٍ، الآخرِ الأبديِّ بعد فناء المكنونات والأزمان بغير آخرٍ ولا غاية، الظاهرِ فى علوِّه بقهره عن غير بُعْد، والباطنِ فى دنوِّه بقربه من دون مَسٍّ، الذى أحسنَ بلُطفه كلَّ شيءٍ بدأه، وأتقنَ صُنعَ كلِّ شيء أنشأه، ودبّرت الأحكامَ حكمتُه، وصرَّفت المحكوماتِ مشيئتُه؛ فأظهر فى الغيب والشهادة لطيفَ قدرته، وعمَّ فى العاجلِ والآجلِ خلقَه بنعمته، ونشر على مَن أحبَّ منهم فضلَه، وبسط لجميعهم عَدْلَه، وأنعم عليهم بتعريفِهم إيّاه - سبحانه وتعالى - به عزّ وجلّ، وأحسن إليهم باجتبائه إياهم إليه، وأفْضَلَ عليهم بتيسيرِ كلامِه لهم، ومَنَّ عليهم ببعثه رسولاً من أنفسهم إليهم.

فنسأله الصلاةَ على النبى وآله، وأن يُوزِعَنا بفضلِه شكر نعمه، ويعرفنا خفىَّ قدره.

وصلّى الله تبارك وتعالى على سيّد الأوّلين والآخرين، رسولِه المفضلِ بالشفاعة والحوض المورود، المخصوصِ بالوسيلة والمقام المحمود، وعلى إخوانه السالفين فى الأزمان، وأنصاره التابعين بإحسان.

وبعد.. فهذا كتابُ «**قوتِ القُلوبِ فى مُعَامَلَةِ المَحْبُوب، ووصفِ طريقِ المريدِ إلى مَقَام التوحيد**»، تصنيف الشيخ أبى طالب، محمد بن على بن عطية الحارثى المكى رضى الله عنه. يشتمل على ثمانية وأربعين فصلاً، هذا ذِكْرُها:

الفصل الأول: فى ذِكْرِ الآى التى فيها المعاملات.

الفصل الثانى: فى ذكر الآى التى فيها أوراد الليل والنهار.

الفصل الثالث: فى ذكر عملِ المريدِ فى اليوم والليلة.

الفصل الرابع: فى ذكر ما يُستحب من الذكرِ، وقراءة الآى المندوب إليها بعد التسليم من صلاة الصبح.

الفصل الخامس: فى ذكر الأدعية المختارة بعد صلاة الصبح.

الفصل السادس: فى ذكرِ عملِ المريدِ بعد صلاةِ الصّبح.

الفصل السابع: فى ذكرِ أوراد النهار، وهى سبعةُ أوراد.

الفصل الثامن: فى ذكر أوراد الليل، وهى خمسةُ أوراد.

الفصل التاسع: فى ذكر وقت الفجر.

الفصل العاشر: فيه كتاب معرفة الزوال، وزيادة الظل ونقصانه بالأقدام.

الفصل الحادى عشر: فيه كتاب فضل الصلاة فى الأيام والليالى.

الفصل الثانى عشر: فى ذكر الوتر، وفضل الصلاة فى الليل.

الفصل الثالث عشر: فيه كتاب جامع لما يستحب أن يقول العبد إذا استيقظ من نومه، وفى يقظته عند الصباح.

الفصل الرابع عشر: فى تقسيم قيام الليل، ووصف القائمين.

الفصل الخامس عشر: فى ذكر ورد العبد من التسبيح والذكر والصلاة فى اليوم والليلة، وفضل صلاة الجماعة، وذكر فضل الأوقات المرجو فيها الإجابة، وذكر صلاة التسبيح.

الفصل السادس عشر: فى ذكر معاملة العبد فى التلاوة، ووصف التالين حقّ تلاوته بقيام الشهادة.

الفصل السابع عشر: فيه كتاب ذكر نوع من المفصل والموصل من الكلم، ومدح العاملين به، وذم الغافلين عنه، وهو من تفسير غريب القرآن.

الفصل الثامن عشر: فيه كتاب ذكر الوصف المكروه من نعت الغافلين.

الفصل التاسع عشر: فيه كتاب ذكر الجهر بالقرآن، وما فى ذلك من النيات، وتفصيل حكم الجهر والإخفات.

الفصل العشرون: فى ذكر الليالى المرجوّ فيها الفضل المستحب إحياؤها، وذكر

مواصلة الأوراد في الأيام الفاضلة.

الفصل الحادي والعشرون: فيه كتاب الجمعة وهيئاتها وآدابها، وذكر المزيد في يوم الجمعة وليلتها.

الفصل الثاني والعشرون: فيه كتاب الصوم وترتيبه، ووصف الصائمين.

الفصل الثالث والعشرون: في ذكر محاسبة النفس، ومراعاة الوقت.

الفصل الرابع والعشرون: في ذكر ماهيّة الوِرد للمريد، ووصف حال العارف بالمزيد.

الفصل الخامس والعشرون: فيه كتاب تعريف النفس، وتصريف مواجيد العارفين.

الفصل السادس والعشرون: فيه كتاب ذكر مشاهدة أهل المراقبة.

الفصل السابع والعشرون: فيه كتاب أساس المريدين.

الفصل الثامن والعشرون: فيه كتاب مراقبة المقربين.

الفصل التاسع والعشرون: في ذكر أهل المقامات من المقربين، وتمييزهم، ونعت حال المتعبدين الموقنين، وتمييز حال أهل الغفلة المبعدين.

الفصل الثلاثون: فيه كتاب ذكر خواطر القلب لأهل معاملات القلوب.

الفصل الحادي والثلاثون: فيه كتابُ العلم وتفضيله وأوصاف العلماء. وذكرُ فضل علم المعرفة على سائر العلوم، وكشفُ طريق العلماء من السلف الصالح. وذكرُ بيان فضلِ علم الباطن على علم الظاهر، والفرقُ بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة. وذكرُ علماء السوء الآكلين بعلومهم الدنيا. وذكرُ وصف العلم وطريق السلف، وما أحدث المتأخرون من القَصَص والكلام. وباب ذكر ما أحدث الناس من القول والفعل فيما بينهم مما لم يكن عليه السلف. وباب من تفضيل علم الإيمان واليقين علىّ سائر العلوم، والتحذير من الزلل فيه، وبيان ما ذكرناه. وبابُ تفضيل الأخبار وبيان طريق الآثار.

الفصل الثانى والثلاثون: فى شرح مقامات اليقين وأحكام الموقنين، وأصل مقامات اليقين التى تُرد إليها فروع أحوال المتقين، وهى تسعة: أوّلها التوبة، ثم الصبر، ثم الشكر، ثم الرجاء، ثم الخوف، ثم الزهد، ثم التوكل، ثم الرضا، ثم المحبة.

الفصل الثالث والثلاثون: فيه شرح مبانى الإسلام وهى خمسة:

فالأول: فرض شهادة التوحيد للمؤمنين، ووصف فضائلها؛ وهى شهادة المقربين، وذكر شهادة الرسول ﷺ وفضلها للموقنين.

والثانى: شرح الصلاة، فأوّلها فرض الاستنجاء وسننه، وفرائض الوضوء وسننه وفضائله، وفرائض الصلاة وسننها، وأحكام المصلّى فى فَوْت الصلاة ودَرْكها، وما يتعلق بها، وهيئة الصلاة وآداب المصلّى فيها.

والثالث: شرح الزكاة ووقت أدائها، وذكر فضائل الصّدقة، وآداب العطاء، ووصف أحوال الفقراء.

والرابع: شرح صوم شهر رمضان.

والخامس: شرح كتاب الحجّ؛ الذى به كمال الشريعة وتمام الملة.

الفصل الرابع والثلاثون: فيه كتاب تفصيل الإسلام والإيمان، وعقود السنّة واعتقاد القلوب، وشرح معاملة الناس من العلم الظاهر. وذكر دعائم الإسلام وأركان الإيمان، واتصال الإيمان بالإسلام، واقتران القلوب بالعمل. وذكر بيان التفرقة بين الإيمان والإسلام، والاستثناء فى الإيمان، والإشفاق من النفاق، وطريقة السلف فى ذلك.

الفصل الخامس والثلاثون: فيه كتاب السنّة وشرح فضائلها، وجمل من آداب الشريعة، وذكر عقود القلوب من علم الظاهر، وهى ستَّ عشرَةَ خصلة: أولها أن تعتقد أن الإيمان قول وعمل. وأنّ القرآن كلام **الله** تبارك وتعالى غير مخلوق. وأن تسلم أخبار الصفات. وأن تعتقد وتعلم تفضيل أصحاب رسول **الله** ﷺ. وأن تقدِّم من قدَّمه **الله** عزّ وجلّ ورسوله ﷺ. وأن تعتقد أن الإمامة فى قريش عامة

إلى أن تقوم الساعة. وأن لا تكفِّر أحدًا من أهل القبلة. وأن تصدّق بجميع أقدار الله عزّ وجلّ خيرها وشرها. وأنّ مساءلة منكر ونكير حقّ. وأنّ عذاب القبر حقّ. وأن تؤمن بالميزان. وأن تعتقد أن الصراط حق. وأن تؤمن بالحوض المورود حوض محمد ﷺ. وأن تؤمن بالنظر إلى الله سبحانه وتعالى. وأن تعتقد إخراج الموحِّدين من النار. وأن تؤمن بوقوع الحساب، وفيه فصل مستنبط من معنى الإجماع بذكر أهل البدع وإخراجهم من الجماعة. وذكر فضائل السنة، ووصف طرائق السّلف التابعين بإحسان.

الفصل السّادس والثلاثون: فى ذكر جُمل الشريعة وعزّ الإيمان، وذكر شرط المسلم الذى يكون به مسلمًا، وذكر حسن إسلام المرء، وعلامة محبة الله عزّ وجلّ له، وذكر حقّ المسلم على المسلم، وهو وجوب حرمة الإسلام على المسلمين، وذكر سُنَن الجسد، وذكر ما فى اللحية من المعاصى والبدع، وذكر ما جاء فى فضل بعض ذلك واستحسانه، وكتاب ما ذكر من نوافل الركوع، وما يكره من النّقصان منه.

الفصل السابع والثلاثون: فيه كتاب شرح الكبائر وتفصيلها، ومسألة فى محاسبة الكفّار.

الفصل الثامن والثلاثون: فيه كتاب الإخلاص، وشرح البيان والأمر بتحسينها فى تصرف الأحوال والتحذير من دخول الآفات عليها فى الأفعال.

الفصل التاسع والثلاثون: فيه كتاب ترتيب الأقوات، بالنقصان منها أو بزيادة الأقوات.

الفصل الأربعون: فيه كتابُ الأطعمة، وما يجمع الأكل من السنن والآداب، وما يشتمل على الطعام من الكراهية والاستحباب.

الفصل الحادى والأربعون: فيه كتاب فرائض الفقر وفضائله، ونعت عموم الفقراء وخصوصهم، وتفصيل قبول العطاء وردّه، وطريق السلف فيه.

الفصل الثانى والأربعون: فيه كتاب حكم المسافر، والمقاصد فى الأسفار.

الفصل الثالث والأربعون: فيه كتاب حكم الإمام، ووصف الإمامة والمأموم.

الفصل الرابع والأربعون: فيه كتاب الأخوّة فى الله عزّ وجلّ، والصحبة ومحبة الإخوان فيه تبارك وتعالى، وأحكام المؤاخاة وأوصاف المحبين.

الفصل الخامس والأربعون: فيه كتاب ذكر التزويج فى فعله وتركه أيهما أفضل، ومختصر أحكام النساء فى ذلك.

الفصل السادس والأربعون: فيه كتاب ذكر دخول الحمام.

الفصل السابع والأربعون: فيه كتاب الصنائع والمعايش، والبيع والشراء، وما يجب على التاجر والصانع من شروط العلم فى أحكام التصرف.

الفصل الثامن والأربعون: فيه كتاب تفصيل الحلال والحرام، وما بينهما من الشُّبهات، وفضل الحلال، وذم الشبهة، وتمثيل ذلك بصور الألوان[1].

* * *



(١) هذه المقدمة ـ لا شك ـ ليست من وضع أبى طالب المكى ولا من إنشائه، ولعل أحد تلاميذه أو أهل العلم وضعها بعد ذلك، وبخاصة أنى لم أجدها فى مقدمة الأصل المخطوط الكامل للكتاب وهى نسخة (ك)، ولا فى ثنايا بعض الأصول المخطوطة، كما أنه توجد اختلافات بينها وبين ما ورد فى ثنايا الكتاب.

الفصل الأول

فى ذكر الآى التى فيها ذكر المعاملة

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤمِنٌ فَأُولَئكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء:١٩]. وقال عزّ وجلّ: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِى حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِى الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الجَزَاءَ الأَوْفَى﴾ [النجم:٣٩ ـ ٤١]. وقال جلّت قدرته: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِى الأَيَّامِ الخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]. وقال عزّ من قائل: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾ [الأنعام:١٣٢]. وقال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ بِالَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا﴾ [سبأ:٣٧]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:٤٣]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِىَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿نِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [العنكبوت:٥٨ ـ ٥٩]. وقال سبحانه: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:١٢٧].

* * *

الفصل الثانى

فى ذكر الآى التى فيها أوراد الليل والنهار

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ والنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢]. وقال جلّ ثناؤه: ﴿إِنَّ لَكَ فِى النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً * واذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ [المزمل: ٧ ـ ٨]. وقال سبحانه: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وأصيلاً * وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً﴾ [الإنسان: ٢٥ ـ ٢٦]. وقال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الغُرُوبِ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ [ق: ٣٩ ـ ٤٠]. وقال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ [الطور: ٤٨ ـ ٤٩]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ [المزمل: ٦]. وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ [طه: ١٣٠]. وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]. وقال تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ المَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦]. وقال عزّ اسمه: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ [الفرقان: ٦٤]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧ ـ ١٨]. وقال تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا * وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾ [الإسراء: ٧٨ ـ ٧٩]. وقال: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَىِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَسُبْحَانَ الله حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الحَمْدُ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٧ ـ ١٨].

الفصل الثالث

فى ذكر عمل المريد فى اليوم والليلة
من فرائض الأوامر وفضائل النوادب

فمن ذلك يستحب عند طُلوع الفجرِ؛ وهو البياضُ المشتقّ من سواد الليل المُعترض فى قُطْر السّماء الشرقى، عند إدبار النجوم. وإدْبارُها: افتراقها وذَهابُ ضوئها لغلبة ضوء الفجر عليها. وهو الوقتُ الذى أمر اللهُ تعالى فيه بذكره إذ يقول تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ [الطور:٤٩]. فليصلِّ العبد ركعتَى الفجر، يقرأ فيهما: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ﴾ و ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾، فهو أكثر ما رُوى أنَّ النبىّ ﷺ قرأ فيهما؛ فإن شاء خَافَت وإن شاءَ جَهَر.

فقد رُوى حديثان، أحدُهما يدلّ على المخافتة؛ وهو حديث عائشة رضى الله عنها[1] قالت: «كان رسولُ اللهِ ﷺ يخفِّفُ ركعتى الفجرِ، حتى أقول قرأ فيهما بفاتحة الكتاب أم لا».

والآخر: يدل على الجَهْر، وهو حديثُ ابن عمرَ: «رمقتُ النبىَّ ﷺ عشرين يومًا، فسمعته يقرأ فى ركعتى الفجر ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ﴾ و ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ »[2].

وفى حديث أبى هريرة وابن عباس، أنه قرأ ﷺ فى الركعة الأولى الآية التى فى سورة البقرة: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ [البقرة:١٣٦] إلى آخرها، وفى الركعة الثانية: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران:٥٣].

---

(١) المسند ٦/ ٢٠٤، والحلية ٦/ ٣٣٧.

(٢) الكامل لابن عدى ٧/ ٢٦٤٨ بلفظ: «خمسًا وعشرين صباحًا».

فليقرأ بذلك أحيانًا. ثم يستغفر اللهَ تعالى سبعينَ مرّة؛ يقول فى كلّ مرّة: أستغفرُ اللهَ العظيمَ الذى لا إله إلا هو الحىَّ القيومَ، وأسأله التوبة[١].

ثم يسبِّحُ اللهَ ويهلِّله، مائة مرة، بالكلمات الأربع الجامعات المختصرات التى فى القرآن، وليست بقرآن: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر. وأستغفرُ الله، وتباركَ اللهُ، مرة واحدة. ولْيَدْعُ بهذا الدعاءِ، فإنّ رسولَ اللهِ ﷺ كان يدعو به بعد ركعتى الفجر.

روينا عن ابن أبى ليلى، عن داود بن على، عن أبيه، عن ابن عباس، قال: بعثنى العباسُ إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله، فأتيته ممسيًا وهو فى بيت خالتى ميمونة، فقام يصلّى من الليل، فلمَّا صلّى الركعتين قبل صلاة الفجر قال:

«اللَّهم إنى أسألكَ رحمةً من عندك تَهدى بها قلبى، وتَجْمعُ بها شَمْلى، وتَلُمُّ بها شَعْثى، وتردُّ بها أُلفَتى، وتُصلح بها علانيتى، وتَقْضى بها دَيْنى، وتحفظُ بها غائبى، وترفعُ بها شاهدى، وتُزكّى بها عملى، وتُبيِّضُ بها وجهى، وتُلقِّنى بها رُشْدى، وتَعْصمنى بها من كل سوء.

اللّهم أعطنى إيمانًا صادقًا، ويقينًا ليس بعده كفر، ورحمةً أنال بها شرفَ كرامتِك فى الدنيا والآخرة.

اللّهم إنى أسألك الفوز عند القضاء، ومنازلَ الشهداء، وعيشَ السُّعداء، ومرافقةَ الأنبياء، والنصرَ على الأعداء.

اللهم إنى أُنزل بك حاجتى، وإن قَصُر رأيى، وضَعُف عملى، وافتقرتُ إلى رحمتك. فأسألك يا قاضىَ الأمورِ، ويا شافى الصدور، كما تُجير بين البحور، أن تجيرنى من عذابِ السّعير، ومن دعوةِ الثُّبور، ومن فتنةِ القبور.

اللهم ما قصُر عنه رأيى، وضعُف عنه عملى، ولم تبلغْه نيَّتى وأمنيتى، من

(١) وردت هذه الصيغة فى سنن الترمذى بلفظ: «وأتوب إليه»، انظر: صحيح سنن الترمذى، للألبانى، رقم ٢٨٣١ جـ١ ص١٨٢.

خيرٍ وعدتَه أحدًا من خلقك، أو خيرٍ أنت معطيه أحدًا من عبادك، فإنّى أرغبُ إليك فيه، وأسألكه يا ربَّ العالمين.

اللهم اجعلنا هادينَ مهْديين، غير ضالّين ولا مضلِّين، حربًا لأعدائك، وسِلْمًا لأوليائك، نحب بحبّك الناس، ونعادى بعداوتك مَنْ خالفك مِنْ خلقك.

اللهم هذا الدعاءُ وعليك الإجابة، وهذا الجَهْدُ وعليك التّكلان، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، لا حول ولا قوة إلا بالله ذى الحبل الشديد والأمر الرشيد.

أسألك الأَمْنَ يومَ الوعيدِ، والجنةَ يومَ الخلودِ، مع المقرَّبين الشهودِ، والركّعِ السجود، والموفين بالعهود، إنك رحيم ودود، أنت تفعل ما تريد.

سبحانَ الذى تعطَّف بالعزّ وقال به. سبحان الذى لبس المجدَ وتكرَّم به. سبحان الذى لا ينبغى التسبيحُ إلاّ له. سبحان ذى الفضل والنِّعَم. سبحان ذى القدرة والكرم. سبحان الذى أحصى كل شىء بعلمه.

اللهم اجعل لى نورًا فى قلبى، ونورًا فى قبرى، ونورًا فى سمعى، ونورًا فى بصرى، ونورًا فى شَعْرى، ونورًا فى بَشَرى، ونورًا فى لحمى، ونورًا فى دمى، ونورًا فى عظامى، ونورًا من بين يدى، ونورًا من خلفى، ونورًا عن يمينى، ونورًا عن شمالى، ونورًا من فوقى، ونورًا من تحتى. اللهم زدنى نورًا، وأعطنى نورًا، واجعل لى نورًا»[(١)].

هذه الأنوارُ التى سألها رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله، فى كلّ

---

(١) هذه الرواية وردت فى الأسماء والصفات، للبيهقى، ١/ ١٦١ ـ ١٦٣، ووردت أيضًا فى المعجم الكبير للطبرانى ١٠/ ٣٤٣، والحلية ٣/ ٢٠٩، والإحياء ١/ ٣١٤، والإتحاف ٥/ ٦٥، وذكر الزَّبيدى رواياته المختلفة، وشرحه شرحًا جيدًا، من ذلك: «قال القاضى: معنى طلب النور للأعضاء: أن تتحلى بأنوار المعرفة والطاعة، وتعرى عن ظلم الجهالة والمعاصى، وطلب الهداية للنهج القويم. وقال غيره: اجعلنى نورًا، أى: اجعلنى هدى يهتدى به كل من رآنى» الإتحاف ٥/ ٦٥.

وقيل فى معنى الأنوار: أراد ضِياءَ الحقّ وبيانَه، كأنه قال: اللهمَّ استعمل هذه الأعضاء منى فى الحقّ، واجعل تصرُّفى وتقلُّبى فيها على سبيل الصواب والخير. (عن اللسان: نور).

جزء من أجزائه، إنما هو دوامُ النظرِ من نور النور، يشاهد القيوميةَ فى كل سكونٍ وحركة منه، يكلؤه بنظره، ويتولاه بحيطته، فينظر إليه بدوام نظره؛ ليستقيم له بتولِّى حفظه، فلا يزيغ بصره ولا يطغى، ولا تستهويه النفس بهوى.

فليدع العبدُ بهذا الدعاء بعد ركعتى الفجر، لكن يقدّم على دعائه المسألةَ لله تبارك وتعالى فى الصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله، فيستجيب سبحانه وتعالى دعوته ولا يردّه، لقول الرسول ﷺ: «إذا سألتم الله تعالى حاجةً، فابدؤوا بالصّلاة علىّ، فإنّ الله تعالى أكرم من أن يُسأل فى حاجتين فيُعطىَ إحداهما ويردَّ الأخرى»[1].

ثم ليُصلِّ العبدُ صلاَةَ الغداةِ فى جماعةٍ، ليكون فى ذمِة اللهِ وجوارِه.

وفى الحديث: «صلاة الغداة فى جماعة أفضل من قيام ليلة، وصلاة العشاء الآخرة فى جماعة أفضل من قيام نصف ليلة»[2].

وليكن قائمًا فى صلاته بإلقاء سَمْعٍ، وشهودِ قلبٍ، وحضورِ عقلٍ، وجَمْعِ هَمٍّ، وصحةِ تيقُّظٍ، وحُسْنِ إقبالٍ، وتَدبُّرٍ للكلام[3]، وترتيلٍ وتفهُّمٍ بالتماس غرائبِ التنزيل.

فإذا سلّم من صلاته قال ما يُستحب من الذِّكر[4].

* * *

(١) قال العراقى فى المغنى ١/ ٣٠٧: «لم أجده مرفوعًا، وإنما هو موقوف على أبى الدرداء».

(٢) المعجم الصغير، للطبرانى، ١/ ٢٦٧، وتاريخ بغداد ١٢/ ٤٣٩.

(٣) فى نسخة (ك): «وتدبّر الكلام فى ترتيل وفهم».

(٤) بعده فى (ك): «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شىء قدير».

الفصل الرابع

في ذكر ما يستحب من الذكر، وقراءة الآي المندوب إليها بعد التسليم من صلاة الصبح، استخرجناها من الآثار

اللهم صلِّ على محمدٍ وآله، اللهم أنتَ السَّلامُ، ومنك السلام، وإليك يعود السلام، فحيِّنا ربَّنا بالسلامِ، وأدْخِلنا دارَ السّلامِ، تباركتَ يا ذا الجلالِ والإكرامِ.

ثم ليقل: سُبحانَ اللهِ العظيم وبحمدِه، ثلاثًا.

ثم يستغفر اللهَ، ثلاثًا. ثم يقول: اللّهمّ لا مانعَ لما أعطيتَ، ولا مُعطيَ لما منعْتَ، ولا يَنْفَعُ ذا الجدِّ منكَ الجدُّ.

ثم ليقل ـ وهو ثانٍ رِجْلَه من قبل أن يتكلمَ ـ هذه الكلمات، عشرَ مرات: لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، له المُلكُ وله الحمدُ، يُحيي ويُميت، وهو حيٌّ لا يموتُ، بيدِه الخيرُ كلُّه وهو على كلِّ شيء قدير.

ثم ليقرأ وهو كذلك: ﴿**قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ**﴾ عشرًا. ويقول: أعوذُ باللهِ السّميعِ العليمِ من الشَّيطانِ الرّجيمِ: ﴿**رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونَ**﴾ [المؤمنون: ٩٧ ـ ٩٨] عشر مرات. وليقل: ﴿**سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾ [الصافات: ١٨٠] إلى آخر السورة، ثلاث مرات. وليقل: ﴿**فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ**﴾ [الروم: ١٧] إلى آخر الثلاث آيات، ثلاث مرات.

ثم يسبح ثلاثًا وثلاثين، ويَحْمد كذلك، ويكبّر أربعًا وثلاثين، فتلك مائة مرة. وإن أحب جعلَها خمسًا وعشرين؛ زاد فيها التهليل.

وإن قال: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، خمسًا وعشرين مرة، استوعب ذلك مائة تسبيحة، وكان أيسر عليه لأجل المداومة.

ثم يقرأ: سورةَ الحمدِ، وآيةَ الكرسى، وخاتمةَ البقرة من قوله: ﴿آمنَ الرّسُولُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، و ﴿شَهِدَ اللهُ﴾ [آل عمران: ١٨] الآية، و ﴿قُلِ اللهمَّ مَالكَ المُلْكِ﴾ [آل عمران: ٢٦] الآيتين. ثم يقرأ: ﴿لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ منْ أَنْفُسكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] إلى آخرها. ثم يقرأ: ﴿وَقُلِ الحَمْدُ لله الذى لَمْ يَتَّخذْ وَلَدًا﴾ [الإسراء: ١١١] الآية. [ثم يقرأ: ﴿لَقدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ منْ أنفُسكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] إلى آخرها][(١)]. ثم يقرأ: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بالْحَقِّ﴾ [الفتح: ٢٧] إلى آخر السورة. ثم يقرأ: خمسًا من أول سورة الحديد، وثلاثًا من آخر سورة الحشر. ثم ليقل: «اللهم إنى أسألك بكرمِ وجهك الصلاةَ على محمد وآله، وأسألك الجنةَ وأعوذ بك من النار» سبع مرات.

وقال قَبيصةُ بنُ مُخارِق للنّبى ﷺ: علِّمنى كلمات ينفعنى اللهُ بها وأوْجز؛ فقد كَبُر سنِّى، وعَجزْتُ عَن أشياءَ كنتُ أعملُها. فقال: «أما لدنياك فإذا صلّيت الغداةَ فقل ثلاث مرات: سبحانَ الله وبحمده، سبحانَ الله العظيمِ وبحمده، لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله. فإنّك إذا قلتهن أمنْتَ من عمًى وجُذام وبَرَص وفَالِج. أمّا لآخرتك فقل: اللّهم صلّ على محمد وآل محمد، واهْدنى من عندك، وأفضْ علىّ من فَضْلك، وانْشُرْ علىَّ من رحمتك، وأنزل علىّ من بَركَاتك». ثم قال رسول الله ﷺ: «أمَا إنه إذا وافى بهنّ يومَ القيامة لم يَدَعَهُنّ، فُتحَ له أربعةُ أبوابٍ من الجنة يدخُل من أيِّها شاء»[(٢)].

وإن قال المُسبّعات العَشر التى أهداها الخضرُ عليه السّلام إلى إبراهيم التيمى، ووصاه أن يقولها غدوةً وعشيةً، وقال له الخَضر: أعطنيها محمد ﷺ، وذكر من فَضلها وعظَم شأنها ما يَجلّ عن الوصف، وأنّه لا يداوم على ذلك إلاّ عبدٌ سعيد قد سَبقتْ له من الله عزّ وجلّ الحسنى، وحذفنا ذكر فضائلها اختصارًا ـ فإن قال

(١) هذه تكملة من نسخة (ك).

(٢) حديث قبيصة، قال عنه العراقى: «أخرجه ابن السنى فى: اليوم والليلة، من حديث ابن عباس. وهو عند أحمد فى المسند مختصرًا، من حديث قبيصة نفسه، وفيه رجل لم يسم» الإحياء ١/٣١٥.

ذلك فقد استكملَ الفَضْلَ. والمداومةُ عليهنّ تجمعُ له جميع ما فرّقناه من الأدعية.

روى ذلك سعيدُ بن سعيد، عن أبى طيبة، عن كُرْزِ بن وَبْرَةَ[١]، وكان من الأبدال[٢]، قال: أتانى أخ لى من الشام، فأهدى لى هدية، وقال: يا كُرْزُ اقبل منى هذه الهدية، فإنها نعم الهَدِيّة. فقلت: يا أخى، مَن أهدى لك هذه الهَدِيّة؟ قال: أعطانيها إبراهيم التَّيْمى[٣]. قلت: أفلم تسأل إبراهيم مَن أعطاه؟ قال: بلى. قال: كنتُ جالسًا فى فناء الكعبة، وأنا فى التهليل والتسبيح والتحميد، فجاءنى رجل فسلّم علىّ، وجلس عن يمينى، فلم أرَ فى زمانى أحسن منه وجهًا، ولا أحسن منه ثيابًا، ولا أشدّ بياضًا، ولا أطيب ريحًا. فقلت: يا عبد الله، مَن أنت، ومن أين جئت؟ فقال: أنا الخضر[٤]. فقلت: فى أى شىء جئتنى؟ قال: جئتك للسلام عليك وحبًا لك فى الله عز وجلّ، وعندى هدية أريد أن أهديها إليك. فقلت: ما هى؟ قال: هى أن تقرأ، قبلَ طلوعِ الشّمس وتُبسط على الأرض، وقبل أن تَغْرُب: سورةَ الحمدِ، سبع مرات. وقل أعوذُ برب الناس، سبع مرات. وقل أعوذ برب الفلق، سبع مرات. وقل هو الله أحد، سبع مرات. وقل يا أيُّها الكافرون، سبع مرات. وآيةَ الكرسى، سبع مرات. وتقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، سبع مرات. وتصلى على النبى ﷺ، سبع

(١) كرز بن وبرة: ترجم له فى الحلية ٥/ ٧٩ بقوله: «من تابع التابعين، ومن أهل الكوفة والمعدودين فيهم، وسكن جرجان».

(٢) الأبدال: قوم من الصالحين لا تخلو الدنيا منهم، إذا مات واحد منهم أبدل الله تعالى مكانه آخر. الواحد: بَدِيلٌ.

(٣) هو إبراهيم بن يزيد بن شريك التيمى، تيم الرباب، كوفى، روى عنه الأعمش وغيره، توفى سنة ٩٣هـ.

(٤) اختلف فى نسب الخضر، وفى حياته وموته، ويضيق المقام بتفصيل هذه المسألة، انظر ما قاله العراقى فى شأنه فى تعليقه على الخبر الذى بين أيدينا. وانظر ما كتبه ابن حجر العسقلانى فى رسالته «الزّهر النضر فى نبأ الخضر». وقال الزبيدى (الإتحاف ٥/ ١٣٥): «وهى مسألة شهيرة الاختلاف بين المحدِّثين والسادة الصوفية، والكلام عليها طويل الذّيل... وهذا الخبر على قواعد المحدِّثين لا يستقيم، فإنه رؤية منامية، وسعد بن سعيد الجرجانى، قال البخارى عنه: لا يصح حديثه. وأبو طيبة: ضعّفه يحيى بن معين. وكرز بن وبرة عن رجل من الشام مجهول لا يدرى من هو. ولكن مثل هذا يغتفر فى فضائل الأعمال، وقد تلقته الأمة بالقبول. والله أعلم».

مرات. وتستغفر لنفسك ولوالديك وما توالد، ولأهلك وللمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات، سبع مرات. وتقول:

اللهم يا ربّ افعلْ بى وبهم عاجلاً وآجلاً فى الدّين والدّنيا والآخرة ما أنتَ له أهلٌ، ولا تفعل بنا يا مولاىَ ما نحنُ له أهلٌ، إنّك غفورٌ حليمٌ جوّادٌ كريمٌ رءوفٌ رَحيم، سبع مرات.

وانظر ألاَّ تَدَع ذلك غدوةً وعشيةً.

فقلت: أُحب أن تخبرنى من أعطاكَ هذه العَطيّة. فقال: أعطانيها محمد ﷺ. فقلت: أخبرنى بثواب ذلك. فقال لى: إذا لقيتَ محمّدًا ﷺ فسَلْهُ عن ثوابه، فإنه سيخبرك.

فذكر إبراهيم التيمى، رحمه الله: أنه رأى ذاتَ ليلةٍ فى منامه أن الملائكةَ جاءته، فاحتملته حتى أدخلُوه الجنةَ، فرأى ما فيها، ووصفَ وَصفًا عظيمًا مما رأى فى صِفة الجنّة. قال: فسألتُ الملائكة فقلت: لمن هذا كلّه؟ فقالوا: للذى يعمل مثل عملك. وذكر أنه أكل من ثمرها، وسقَوْه من شرابها، فأتانى النبىُّ ﷺ ومعه سبعون نبيًا، وسبعونَ صَفًا من الملائكة، كل صفٍّ مثل ما بين المشرق والمغرب، فسلّم علىّ وأخذ بيدى. فقلتُ: يا رسولَ الله، إن الخضرَ أخبرنى أنّه سمع مِنك هذا الحديثَ. فقال: صَدَق الخضرُ، وكلُّ ما يحكيه فهو حق، وهو عالمُ أهلِ الأرض، وهو رئيسُ الأبدال، وهو من جنود الله عز وجلّ فى الأرض.

فقلت: يا رسول الله، فمن فعل هذا ولم يرَ مثل الذى رأيتُ فى منامى، هل يُعطَى ممّا أُعْطيته؟ قال: والذى بعثنى بالحق إنه ليُعطى العامل بهذا وإن لم يَرَنى ولم يَرَ الجنة، إنّه ليُغفَر له جميع الكبائر التى عملها، ويرفع الله عزّ وجل عنه غضبه ومقته، ويُؤمر صاحب الشمال ألاَّ يكتب عليه شيئًا من السيئات إلى سَنة، والذى بعثنى بالحق نبيًا ما يعمل بهذا إلا من خلقه الله تعالى سعيدًا، ولا يتركه إلّا من خلَقه شقِيًا[١].

---

(١) هـذا الخبر برمته فى الغنيـة، لعبد القادر الجيلانى، ١/ ١٠٤٥ ـ ١٠٤٩، وفيه زيادة فى آخره =

وقد كان إبراهيم التيمى رحمه الله مكَث أربعةَ أشْهرٍ لم يَطعم طعامًا، ولم يشرب شرابًا، فلعله بعد الرؤيا. والله تعالى أعلم، ذكره الأعمش عنه[1].

فهذا من جمل ما أتى ممّا يُستحَبُّ أن يُقرأ ويُقال بعد صلاة الغداة. ولذلك فضائلُ جمّة، وردت بها الأخبارُ حذفنا ذِكْرها للاختصار.

* * *



= ليست هنا. ونقله صاحب الإحياء عن القوت ١/ ٣٣٥ ـ ٣٣٦، وقال العراقى عن هذا الخبر: «ليس له أصل، ولم يصح فى حديث قط اجتماع الخضر بالنبى ﷺ ولا عدم اجتماعه، ولا حياته ولا موته».

(١) انظر: الحلية ٤/ ٢١٣ ـ ٢١٤.

الفصل الخامس

فى ذكر الأدعية المختارة بعد صلاة الصبح
الجامعة المختصرة المأثورة فى الأخبار المتفرقة (١)

رُوِىَ أن النبى ﷺ كان إذا افتتح دعاءً افتتحه بقوله: «سبحانَ ربى العلىِّ الأعلى الوهاب»(٢).

وأنه كان يقول: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له المُلك وله الحمد، يُحيى ويُميت، وهو حى لا يموت، بيده الخير وهو على كل شىء قدير. لا إلهَ إلا اللهُ أهلُ النعمةِ والفضلِ والثّناءِ الحسنِ. لا إله إلا اللهُ ولا نعبدُ إلاّ إيّاه مُخلصينَ له الدين ولو كره الكافرون».

وروينا أن رسول الله ﷺ قال لعائشة رضى الله عنها: «عليك بالجوامعِ الكوامل. قولى: اللّهم إنى أسألك الصّلاةَ على محمد وآله، وأسألكَ من الخيرِ كلِّه عاجلِه وآجلِه، ما علمتُ منه وما لم أعلم، وأعوذ بك من الشرِّ كلِّه عاجلِه وآجلِه، ما علمت منه وما لم أعلم، وأسألك الجنةَ وما قرَّب إليها من قول وعملٍ، وأعوذُ بك من النّار وما قرَّب إليها من قول وعمل، وأسألكُ من خَيْرِ ما سألك به عبدُك ورسولُك محمد ﷺ، وأستعيذُك مما استعاذَك منه عبدُك ورسولك محمد ﷺ، وأسألك ما قضيتَ لى من أمر أن تجعل عاقبتَه رَشَدًا، برحمتِك يا أرحمَ الرّاحمين»(٣).

---

(١) نقل الغزالى فى إحيائه معظم الأدعية التى وردت فى هذا الفصل، انظر: الإحياء ١/٣١٨ ـ ٣٢٨.

(٢) أخرجه أحمد من حديث سلمة بن الأكوع فى مسنده ٤/٥٤، والحاكم فى المستدرك، كتاب الدعاء ١/٤٩٨، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبى، وهو فى كنز العمال برقم ١٨٠٢٢، والإحياء ١/٣٠٧.

(٣) أخرجه ابن ماجه فى «باب الجوامع من الدعاء» انظر صحيح ابن ماجه ٢/٣٢٧ رقم ٣١٠٢. ورواه الإمام أحمد فى المسند ٦/١٦٧، وانظر الإتحاف ٥/٦٦.

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يا فاطمةُ ما يمنعك أن تَسْمعى ما أُوصيك به، أن تقولى: يا حىُّ يا قيومُ برحمتك أستغيثُ، فأغثنى ولا تكلْنى إلى نَفْسى طَرْفَةَ عينٍ، وأصلح لى شأنى كله»[1].

وعلّم رسولُ الله ﷺ أبا بكرٍ الصديق رضى الله عنه هذا الدعاء، فقال: «قل: اللّهمّ إنى أسألُك بمُحمّدٍ نبيّك، وإبراهيمَ خليلك، وموسى نجيِّك وكليمك، وعيسى رُوحك وكلمتك، وبكلامِ موسى، وإنجيلِ عيسى، وزبورِ داود، وفرقان محمد ﷺ، وكلِّ وحى أوحيتَه، أو قضاء قضيتَه، أو سائلٍ أعطيتَه، أو غنىٍّ أقنيته، أو فقيرٍ أغنيته، أو ضالٍّ هديتَه، وأسألُك باسْمِك الذى أنزلتَه على موسى، وأسألك باسْمك الذى ثَبَّت به أرزاقَ العباد، وأسألك باسْمِك الذى وَضعْتَه على الأرضِ فاستقرّت، وأسألك باسمك الذى وضعتَه على السَّموات فاستقلّت، وأسألك باسمك الذى وضعته على الجبالِ فأرستْ، وأسألُكَ باسمك الذى استقلّ به عرشُك، وأسألك باسمك الطُّهْر الطَّاهر الأَحَد الصَّمد الوتر المنزَّل فى كتابك من لدنْك من النّور المبين، وأسألُك باسمك الذى وضعتَه على النّهار فاستنار، وعلى الليل فأظلم، وبعظمتِك وكبريائك وبنورِ وجهك؛ أن تصلِّىَ على محمّد نبيك وعلى آله، وأن ترزقنىَ القرآنَ والعلْمَ وتَخْلطَه بلَحْمى ودَمِى وسَمعى وبَصَرى، وتستعمل به جسدى، بحولِك وقوّتك، فإنّه لا حولَ لى ولا قوّةَ إلا بِك يا أرْحَم الرّاحمين»[2].

وروينا عن ابن عمرَ أنّ جبريل عليه السلام أتى النبىَّ ﷺ فعلّمه هذا الدعاء: «يا نورَ السَّموات والأرض، يا جمالَ السّموات والأرض، يا عمادَ السّموات والأرض، يا بديعَ السّموات والأرض، يا ذا الجلالِ والإكرام، يا صريخَ المستصرخين، يا غوثَ المستغيثين، يا منتهى رغبةِ الراغبين، والمفرِّجَ عَن

(١) أخرجه الحاكم وصححه ١/ ٧٣٠ ووافقه الذهبى، والمغنى عن حمل الأسفار (الإحياء) ١/ ٣١٤، والإتحاف ٥/ ٦٦، والكنز رقم ٣٩١٨.

(٢) قال عنه العراقى فى المغنى ١/ ٣١٥ : «رواه أبو الشيخ ابن حبان فى كتاب الثواب من رواية عبد الملك بن هارون بن عبثرة عن أبيه. وعبد الملك وأبوه ضعيفان، وهو منقطع بين هارون وأبى بكر».

المكروبين، والمروِّحَ عن المغمومين، ومجيبَ دعوة المضطرين، وكاشفَ السوء، وأرحمَ الراحمين، وإلهَ العالمين، منزولٌ بك كلُّ حاجة، يا أكرمَ الأكرمين، ويا أرحمَ الراحمين»(١).

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال: لم يكن النبى ﷺ يَدَع أن يدعو بهؤلاء الكلمات حين يُصبح وحين يُمسى: «اللهم إنى أسألُكَ العافيةَ فى الدّنيا والآخرةِ، وأسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى وفى أهلى ومالى. اللهم استر عوراتى، وآمِنْ روعاتى، وأقِلْنى عثراتى. اللهم احفظنى من بين يدىَّ ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى ومن فوقى، وأعوذ بك أن أُغتال من تحتى»(٢).

وقال بُرَيدُ الأَسْلَمِى: قال لى رسول الله ﷺ: «يا بُريد، ألا أعلّمُك كلمات من أراد الله عزّ وجلّ به خيرًا علّمهن إياه، ثم لم يُنسهن إياه أبدًا. قال: قلت: بلى يا رسول الله صلى الله عليك. قال: قل: اللهمّ إنى ضعيف فقوِّ فى رضاك ضعفى، وخذ إلى الخير بناصيتى، واجعل الإسلام منتهى رضاى. اللّهم إنّى ضعيف فقوِّنى، وإنى ذليل فأعزَّنى، وإنى فقير فأغننى، برحمتك يا أرحم الراحمين»(٣).

وروينا عن أبى مالك الأشْجعى قال: حدثنى أبى قال: كنا نغدو إلى النبى ﷺ فيجىء الرجل أو تجىء المرأة فيقول: كيف أقول يا رسول الله إذا أصبحت؟ قال: «تقول: اللهم صلّ على محمد وآله، واغفر لى وارحمنى، واهدنى وارزقنى، وعافنى واجبرنى. فقد جَمعْن لك خيرَ دنياك وآخرتك»(٤).

وروينا عن أبى زُرْعَة قال: كتب إلىّ أبو هريرة فيما أكاتبه، وشافهنى به فيما ألقاه، أنَّ الشيطانَ لا يَطِيفُ بإنسانٍ يقول حين يصبح وحين يمسى: اللهم إنى

(١) فى كتاب: الكنى والأسماء، للدّولابى، ٢/ ١٧.

(٢) أصله فى صحيح مسلم رقم ٢١٨٣، وصحيح ابن ماجه، باب ما يدعو به الرجل إذا أصبح، رقم ٣١٢١، ومسند أحمد ٢/ ٢٥، وكنز العمال رقم ٤٩٥٧.

(٣) أخرجه الحاكم فى مستدركه ١/ ٧٠٨ وقال: صحيح الإسناد، والمغنى ١/ ٣١٥، وفى مجمع الزوائد ١٠/ ١٨٢ علق الهيثمى على سند الطبرانى فقال: «وفيه أبو داود الأعمى وهو ضعيف جدًا»، وكذا قال الذهبى فى التلخيص.

(٤) انظر: السلسلة الضعيفة، للألبانى، رقم ٢١٥، وتاريخ بغداد ١٣/ ٤٥٩، والإتحاف ٣/ ٢٨٦.

أعوذ باسمك وكلمتك التامة من شر السَّامَّة والهامَّة، وأعوذ باسمك وكلمتك التامة من شرِّ عذابك وشرّ عبادك، وأعوذ باسمك وكلمتك التامّة من شرّ الشيطان الرجيم. اللّهم إنى أسألك بأسمائك وكلمتك التامة أن تصلى على نبيك محمد وآله. وأسألك من خير ما تعطى وما تُسأل، ومن خير ما تُخفى وخير ما تُبدى. اللّهم إنى أعوذ باسمك وكلمتك التامّة من شرٍّ ما يجرى به النهار، إنّ ربّى الله الذى لا إله إلا هو، عليه توكلت وهو ربُّ العَرْشِ العظيم». وإن كان مساءً قال: «ومن شر ما جاء به الليل»، يقول ذلك ثلاثًا.

وروينا عن عمر بن عبد العزيز عن محمد بن عبيد الله قال: أُتى أبو الدرداء فقيل له: احترقت دارك. فقال: ما كان الله عزّ وجلّ ليفعل. ثم أتاه آتٍ فقال: يا أبا الدرداء، إنّ النار حين دنَت من دارِكَ طُفِئت. فقال: قد علمتُ. فقيل له: ما ندرى أىّ قوليك أعجب. قال: إنى سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «من قال هؤلاء الكلمات فى ليل أو نهار لم يضره شىء وقد قلتهن» وهى: «اللهمّ أنت ربى، لا إله إلا أنتَ، عليك توكلتُ، وأنت ربّ العرش العظيم، لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، ما شاء الله عزّ وجلّ ربى كان، وما لم يشأ لم يكن، أعلم أن الله على كل شىء قدير وأن الله قد أحاط بكلّ شىءٍ علمًا. اللهم إنى أعوذ بك من شر نفسى، ومن شرِّ كلِّ دابةٍ أنت آخذ بناصِيتها، إن ربّى على صراطٍ مُستقيم»[1].

وقد روينا عن أبى الدرداء أنه قال: من قال فى كل يوم، سبع مرات: ﴿**فإن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِىَ اللهُ لا إلهَ إلا هُوَ عَلَيْه تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيم**﴾ [التوبة:١٢٩] كفاه الله عزّ وجلّ ما يهمه من أمر آخرته صادقًا كان أو كاذبًا.

وروينا عن النبى ﷺ أنه قال: «ما أصاب أحدًا همٌّ ولا حزن فقال: اللهم إنى عبدك ابن عبدك ابن أمَتك، ناصيتى بيدك، ماضٍ فىّ حكمك، عدلٌ فىّ قضاؤك، أسألك اللهمّ بكل اسمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ به نفسك، أو أنزلتَه فى كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرتَ به فى علم الغيب عندك، أن تصلىَ على نبيك

(١) الأسماء والصفات، للبيهقى، ص١٦٣، وكنز العمال، رقم ٣٥٨٣، والكلم الطيب لابن تيمية، ص٢٨. وقال عنه العراقى فى المغنى ١/ ٣١٦: ضعيف.

وحبيبك محمد وآله، وأن تجعلَ القرآنَ ربيعَ قلبى، ونورَ صَدْرى، وجلاءَ حُزنى، وذهابَ همّى وغمّى، إلا أذهبَ اللهُ عزّ وجلّ همَّه وحزنه، وأبدله مكانه فرحًا. قال: قيل: يا رسول الله ألاَ نتعلَّمها؟ فقال ﷺ: بل ينبغى لمن سمعها أن يتعلَّمها»(١).

وروينا فى الأخبار أنّ إبراهيم الخليل كان يقول إذا أصبح: «اللّهم هذا خلقٌ جديدٌ، فافتحه علىّ بطاعتك، واختمه لى بمغفرتك ورضوانك، وارزقنى فيه حسنةً تقبلها منّى، وزكِّها وضعفِّها لى، وما عملتُ فيه من سيئةٍ فاغفرها لى، إنّك غفورٌ رحيم، ودودٌ كريم». قال: ومن دعا بهذا الدعاء إذا أصبح فقد أدى شكر يومه، وكذلك إذا أمسى.

وروينا عن رسول الله ﷺ: «من قال إذا أصبح وإذا أمسى ثلاث مرات: رضيتُ بالله عزّ وجلّ ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًا، كان حقًا على الله أن يرضيه يوم القيامة»(٢).

وروينا عن معمر عن جعفر بن برقان أن عيسى ابن مريم ﷺ كان يقول: «اللهم إنى أصبحتُ لا أستطيع دفع ما أكره، ولا أملك نفعَ ما أرجو، وأصبح الأمرُ بيدِكَ لا بيد غيرك، وأصبحتُ مرتهنًا بعملى، فلا فقير أفقر منى. اللّهم لا تشمِّت بى عدوى، ولا تُسئ بى صديقى، ولا تجعل مُصيبتى فى دينى، ولا تجعل الدنيا أكبرَ همى، ولا مبلغَ علمى، ولا غايةَ أملى، ولا تسلِّط علىَّ من لا يرحمنى».

ورُوينا عن عطاء عن ابن عباس قال: يلتقى الخضر وإلياس فى كل موسم، فيفترقان عن هذه الكلمات: «بسم الله، ما شاء الله، لا حول ولا قوّة إلا بالله. ما شاء الله، كل نعمة من الله. ما شاء الله، الخير كله بيد الله عزّ وجلّ. ما شاء الله، لا يصرفُ السّوء إلا الله. ما شاء الله، لا حول ولا قوة إلا بالله»(٣)، فمن

---

(١) رواه أحمد فى مسنده ١/ ٣٩١، ومجمع الزوائد ٧/ ١٨٦.

(٢) فتح البارى ١١/ ١٣٠، ورواه الحاكم فى مستدركه ١/ ٥١٨.

(٣) نقل صاحب الإحياء هذا الخبر وعلّق عليه الزبيدى فى الإتحاف ٥/ ٦٩، قال: «وهو فى فوائد أبى إسحاق المزكّى تخريج الدارقطنى، وقال عنه: لا أعلمه إلا مرفوعًا إلى النبى ﷺ، ولكن ضعّف سنده بطرقه المختلفة».

قالها إذا أصبح ثلاث مرات أمن الحرق والغَرق والسَّرَق.

ويقال: إن هذا من استغفار الخضر عليه السلام: «اللهمَّ إنى أستغفرك من كل ذنب تبتُ إليك منه ثم عدتُ فيه. اللهم إنى أستغفركَ من كلِّ عقدٍ عقدتُه لك ثم لم أفِ لكَ به. اللهم إنى أستغفركَ من كلِّ نعمةٍ أنعمتَ بها علىَّ فقويتُ بها على معصيتك. اللهمّ إنى أستغفركَ من كل عملٍ عملتُه لوجهِك خالَطه ما ليسَ لكَ»[١].

وحكى سعيد بن أبى الروحاء الجمال وكان من أهل الخير، أنه توحّد ذات ليلة فى أرض قَفْرة، فاستوحش وفزع، فظهر له شخص، قال: فاشتد جزعى منه، حتى سمعتُه يقرأ القرآن، ثم قال: ألا أدلُّك على شىءٍ إذا أنت قلتَه أنِسْتَ إذا استوحشتَ، واهتديتَ إذا ضَلَلْتَ، ونِمْتَ إذا أَرِقْتَ؟ قلتُ: علِّمنى رحمك الله. قال: قل: «بسمِ الله ذى الشّان، عظيم البرهان، شديدِ السلطان، كلّ يوم هو فى شأن، لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم».

وحدثونا عن يعقوب بن عبد الرحمن الدّعّاء قال: سمعتُ محمد بن حسان[٢] يقول: قال لى معروف الكرخى[٣] رحمه الله: ألا أعلِّمك عشرَ كلمات؛ خمسة للدنيا؛ وخمسة للآخرة، مَنْ دعا الله عزّ وجلّ بِهِنَّ وجدَ اللهَ سبحانه وتعالى عندَهُن. قلتُ: أكتبها؟ قال: لا، ولكن أُردِّدها عليك كما ردّدها علىَّ بكرُ بنُ خُنيس[٤]: «حسبى اللهُ تبارك وتعالى لدينى، حسبى اللهُ عزّ وجلّ لدنياى، حسبى

---

(١) هذا الخبر فى الإحياء، وعلّق عليه الزبيدى ٥/ ٦٩ ـ ٧٠، راجعه ثَمَّ إن شئت.

(٢) هو محمد بن حسان بن فيروز الأزرق البغدادى، روى عن ابن عيينة وجماعة، وروى عنه ابن ماجه، توفى ٢٥٧هـ. انظر: الكاشف ٣/ ٣٢ رقم ٤٨٥٩.

(٣) هو معروف بن فيروز الكرخى، كنيته أبو محفوظ، قال عنه أبو عبد الرحمن السلمى: «وهو من جلّة المشايخ وقدمائهم، والمذكورين بالورع والفُتُوة، وكان أستاذ سرىٍّ السَّقَطى» طبقات الأولياء ص٨٣ ـ ٩٠، وانظر فى ترجمته: حلية الأولياء ٨/ ٣٦٠، وتاريخ بغداد ١٣/ ١٩٩، وغيرها.

(٤) فى المطبوعة: «حبيش» والصواب ما أثبتّ. وهو من رجال الترمذى وابن ماجه، روى عنه ثابت ويزيد الرقاشى وجماعة. انظر فى ترجمته: ميزان الاعتدال ١/ ١٦٠، والكاشف، للذهبى، ١/ ١٦١.

اللهُ الكريمُ لِمَا أهَمّنى، حسبى اللهُ الحكيمُ القوى لمن بغى علىَّ، حسبى الله الشديد لمن كادنى بسوء، حسبى الله الرحيمُ عند الموت، حسبى الله الرءوف عند المسألة فى القبر، حسبى الله الكريم عند الحساب، حسبى الله اللطيف عند الميزان، حسبى الله القدير عند الصراط، حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم». وادع بهؤلاء الكلمات: «اللهمّ يا هادى المضلّين[1]، وراحمَ المذنبين، ومُقيلَ عَثَراتِ العاثرين، ارحم عبدَك ذا الخطرِ العظيم، والمسلمين كلّهم أجمعين، واجعلنا من الأحياء المرزوقين الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، آمين يا ربّ العالمين».

يقال: إن عتبة الغلام[2] رئى فى المنام فقال: دخلتُ الجنة بهذه الدعوات.

وليقل بعد ذلك هذا الدعاء: «اللهم عالم الخفيات، رفيعَ الدرجات، ذا العرش، تُلقى الروح من أمرك على من تشاء من عبادك، غافرَ الذنبِ، وقابلَ التوب، شديدَ العقاب، ذا الطول، لا إله إلا أنت، إليك المصير».

رُئى إبراهيم الصائغ فى النوم فقيل له: بأى شىء نجوتَ؟ فقال: بهذه الدعوات.

وليقل هذا الدعاء: «يا مَنْ لا يشغله سَمْعٌ عن سَمْع، ولا تشتبه عليه الأصوات، يا من لا تغلطه المسائل، ولا تختلف عليه اللغات، يا من لا يتبرَّم بإلحاح المُلْحين، أَذقْنى بردَ عفوك، وحلاوةَ رحمتك».

يقال: إن الخضرَ عليه السلام علّم على بنَ أبى طالب عليه السلام هذا الدعاء.

وليسبّح تسبيحات أبى المعتمر، وهو سليمان التيمى[3]، فقد رُوى فى فضلها أن

---

(١) قال الزبيدى (الإتحاف ٥/ ٧٠): «المضلّين، من أضَلَّ الرّجلُ؛ إذا صار حائرًا لا يهتدى».

(٢) هو عتبة بن أبان بن صمعة. ولقب بالغلام، لأنه كان فى العبادة غلام رهان. وقيل: لأنه كان نصفًا من الرجال. الحلية ٦/ ٢٢٦. والخبر السابق فى الحلية ٦/ ٢٣٨.

(٣) فى المطبوعة «التميمى» وهو تحريف، وسيتكرر هذا الخطأ كثيرًا، وهو سليمان بن طرْخان أبو المعتمر التيمى، نزل بالبصرة. كان يصلى الليل كله بوضوء العشاء، مناقبه جمّة، توفى ١٤٣هـ، انظر: الكاشف ١/ ٣٩٦، والحلية ٣/ ٢٧ ـ ٣٧، والإتحاف ٥/ ٧٢.

يونس بن عبيد رأى رجلاً كان قد قُتل شهيدًا ببلاد الروم، فقال له: ما أفضل ما رأيتَ ثَمَّ من الأعمال؟ قال: رأيت تسبيحاتِ أبى المعتمر من الله سبحانه وتعالى بمكان.

وقال المعتمر بن سليمان: رأيت عبد الملك بن خالد بعد موته فقلت: ما صنعت؟ قال: خيرًا. قلتُ: ترجو للخاطئ شيئًا؟ قال: يلتمس تسبيحاتِ أبى المعتمر، فإنّها نِعْم الشيء. وهذه هى التسبيحات:

«سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوّة إلا بالله، عدَد ما خلق الله وعددَ ما هو خالق، وزنةَ ما خلق وزنةَ ما هو خالق، وملءَ ما خلق وملءَ ما هو خالق، وملء سمواته، وملء أرضه، ومثل ذلك وأضعاف ذلك، وعددَ خلقه، وزنةَ عرشه، ومنتهى رحمته، ومداد كلماته، ومبلغ علمه ورضاه، وحتى يرضى وإذا رضى، وعدد ما ذكره به خلقُه فى جميع ما مضى، وعدد ما هم ذاكروه فيما بقى، فى كل سنة وشهر وجمعة ويوم وليلة وساعة من الساعات، ونَسْمة وشَمٍّ ونَفَسٍ ولَمْحة وطَرْفة من الأبد إلى الأبد، أبد الدنيا وأبد الآخرة، وأكثر من ذلك؛ لا ينقطع أُولاّه ولا ينفد أُخراه».

وليدعُ بهذا الدعاء، فإنه دعاء التوبة مرجوٌّ فيه الإجابة:

روينا عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها قالت: لما أراد الله عزّ وجلّ أن يتوبَ على آدم طاف سبعًا بالبيت، وهو يومئذ ليس بمبنى؛ ربوة حمراء، ثم قام فصلى ركعتين، ثم قال: «اللهم إنّك تعلم سرى وعلانيتى فاقبل معذرتى، وتعلم حاجتى فأعطنى سؤلى، وتعلم ما فى نفسى فاغفر لى ذنوبى. اللهم إنى أسألك إيمانًا يباشر قلبى، ويقينًا صادقًا حتى أعلم أنه لا يصيبنى إلا ما كتبتَ لى، والرضا بما قَسمْتَ لى، يا ذا الجلال والإكرام».

فأوحى الله عزّ وجلّ إليه: «إنى قد غفرت لك، ولن يأتينى أحد من ذريتك فيدعونى بمثل الذى دعوتنى به إلا غفرتُ له وكشفتُ غمومه وهمومه، ونزعتُ الفقرَ من بين عينيه، وأَتْجرت له من وراء كل تاجر، وجاءته الدنيا وهى راغمة وإن كان لا يريدها».

وليقل هذه الكلمات المنثورة، فإنّها ممّا روى فى اسم الله سبحانه وتعالى الأعظم بأخبار فى ذلك مأثورة:

«اللّهم إنى أسألك بأن الحمد لك، لا إله إلا أنت الحنَّان المنَّان، بديعُ السموات والأرض، ذو الجلال والإكرام، أنت الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كُفُوًا أحد، يا حىُّ يا قيوم، يا حىُّ حين لا حى فى ديمومية ملكه وبقائه، يا حى محيى الموتى، يا حى مميت الأحياء، وارثُ أهل الأرض والسماء.

اللهم إنى أسألك باسمك بسم الله الرحمن الرحيم، وباسمك الذى لا إله إلا هو الحى القيوم، لا تأخذه سنة ولا نوم.

اللهم إنى أسألك باسمك الأعظم الأجلِّ الأعز الأكرم، الذى إذا دُعِيتَ به أَجبتَ، وإذا سُئلتَ به أعطيتَ، يا نورَ النورِ، يا مدبرَ الأمورِ، يا عالمَ ما فى الصدور، يا سميعُ يا قريبُ يا مجيبَ الدعاء، يا لطيفًا لما يشاء، يا رءوفُ، يا رحيمُ، يا كبيرُ، يا عظيمُ، يا الله، يا رحمن، يا ذا الجلال والإكرام. الله لا إله إلا هو الحى القيوم، وعَنَتِ الوجوهُ للحىّ القيوم. يا إلهى وإلهَ كلِّ شىء إلهًا واحدًا لا إله إلا أنت.

اللهم إنى أسألكَ باسمك الله، الله، الله، الله الذى لا إله إلا هو ربّ العرش العظيم، فتعالى الله الملك الحق، لا إله إلا هو ربّ العرش الكريم. أنت الأولُ الآخر، الظاهرُ الباطن، وَسِعْتَ كلَّ شىء رحمةً وعلمًا، كَهَيعص، حَم عسق، الر، حم، ن، يا واحد، يا قهار، يا عزيز، يا جبار، يا أحد، يا صمد، يا ودود، يا غفور، هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة، هو الرحمن الرحيم، لا إله إلا أنتَ سُبْحَانَكَ إنى كنتُ من الظالمين.

اللهم إنى أدعوك باسمك المكنون المخزون، المنزَّل السلام، الطُّهر الطاهر، القدس المقدس، يا دهر، يا ديهور، يا ديهار، يا أبد يا أزل، يا من لم يزل، ولا يزول، هُو يا هُو، لا إله إلا هُو، يا من لا هو إلا هُو، يا من لا يعلم ما هو إلا هو، يا كان يا كينان، يا روح يا كائن قبلَ كلِّ كون، يا كائن بعد كلِّ كون، يا

مكنون لكل كون، اهيا شر اهيا، أدناى أصباؤت[1]، يا مجلى عظائم الأمور، ﴿فإن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِىَ اللهُ لا إلهَ إلا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيم﴾ [التوبة: ١٢٩] ﴿ليسَ كمثْله شَىءٌ وهُو السَّميعُ البَصيرُ﴾ [الشورى: ١١].

اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، كما صلّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنّك حميد مجيد».

وليقل هذه الأدعية المأثورة:

«اللهم إنى أسألك الثّباتَ فى الأمر، والعزيمةَ على الرشد. وأسألك شكر نعمتك وحسن عبادتك. وأسألك اللهم يا ربّ قلبًا سليمًا، ولسانًا صادقًا، وعملاً متقبلاً. وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شرّ ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم، فإنك تعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب.

اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، واغفر لى ما قدمتُ وما أخرتُ، وما أعلنتُ وما أسررتُ، فإنك أنت المقدِّم وأنت المؤخِّر، وأنت على كل شىء قدير، وعلى كل غيب شهيد.

اللهم إنى أسألك إيمانًا لا يرتد، ونعيمًا لا ينفد، وقرةَ عين الأبد، ومرافقةَ نبيّك محمد ﷺ فى أعلى جنة الخلد.

اللهم إنى أسألك الطيبات، وفعلَ الخيرات، وتركَ المنكرات، وحبَّ المساكين. وأسألك اللهم يا ربّ الصلاةَ على محمد، وعلى آله أجمعين. وأسألك حبّك وحب من يحبك، وحبّ عملٍ يقرِّب إلى حبك، وأن تتوب علىّ، وتغفر لى، وترحمنى. وإذا أردتَ بقوم فتنة فاقبضنى إليك غير مفتون، يا أرحم الراحمين.

اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق؛ أحينى ما كانت الحياة خيرًا لى،

(١) يقال إن هذه أسماء سريانية، ولعلها بقايا من تلك اللغة البائدة، التى هى الأم للعربية القديمة. انظر كتاب: منبع أصول الحكمة، ص ٨٨ ـ ٩٩.

وتوفّنى إذا كانت الوفاةُ خيرًا لى. وأسألك اللهم يا ربّ خشيتك فى الغيب والشهادة، وكلمةَ العدل فى الرضا والغضب، والقصدَ فى الغنى والفقر، ولذةَ النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك، وأعوذ بك من ضراء مضَرّة، وفتنة مُضلّة.

اللهم يا ربِّ زيِّنا بزينةِ الإيمان، واجعلنا هداةً مهتدين.

اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، واقْسِم لنا من خَشْيتكَ ما يَحولُ بيننا وبين معصيتك، ومن طاعتك ما تُدخلنا به جنَّتك، ومن اليقينِ ما تهوّن به علينا مصائبَ الدنيا.

اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، وارزقنا حزنَ خوفِ الوعيد، وسرورَ رجاءِ الموعود، حتى نجد لذّةَ ما نطلب وغمَّ ما منه نَهْرُب.

اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد سيد الأولين والآخرين، وصلّ على محمد وعلى آله أجمعين، وألبسْ وجوهَنا منك الحياءَ، واملأ قلوبنا بك فرحًا، وأسكن فى نفوسنا من عظمتك، وذلّل جوارحنا لخدمتك، واجعلك أحبَّ إلينا ممّا سواك، واجعلنا أخشى لك ممّا سواك.

اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، وأعنِّى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.

اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، وأسألك تمامَ النعمةِ بتمام التوبة، ودوامَ العافية بدوام العِصمة، وأداءَ الشكر بحُسنِ العبادة.

اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، وأعوذ بك من فتنة الغنى، وفتنة الفقر، وأعوذ بك من ضيق الصدر، وشتات الأمر، وعذابِ القبر، وأعوذُ بك من غِنًى مُطْغٍ، ومن فقرٍ منسٍ، ومن هوًى مُرْدٍ، وقرين مُغْوٍ.

اللهم إنى أسألك الصلاة على محمد وعلى آله، وأسألك الهدى والتقى والعفاف والغِنى.

اللهم صلّ على محمد نبيّك وصفيك، ولا تقدِّمنى لعذاب، ولا تؤخِّرنى لسىء الفتن. أعوذ بك يا اللهُ من الفتَنِ ما ظهر منها وما بطن، وأعوذ بك من المحنِ ما خَفِى منها وما عَلَنَ.

اللهم إنى أسألك الصلاةَ على نبيّك محمد وعلى آله، وأسألك خيرَ هذا اليوم وخيرَ ما فيه، وأعوذ بك من شرِّه وشرّ ما فيه. أعوذ بك اللهم يا ربّ من شرّ طوارق الليل والنهار، ومنْ بَغْتات الأمور، وفجأة الأقدار، ومن شرّ كل طارق يطرق إلا طارقًا يطرق منك بخير، يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما.

اللهم صلّ على محمد وعلى آله، واجعل يومنا هذا أولّه صلاحًا، وأوسطَه فلاحًا، وآخرَه نجاحًا.

اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، واجعل أوله رحمة، وأوسطه نعمة، وآخره تكرمة.

اللهم صلّ على محمد نبيك وعلى آله، وأعوذ بك أن أَزلَّ أو أُزلَّ، أو أَضِلَّ أو أُضَلَّ، أو أَظلم أو أُظلم، أو أجْهل أو يُجْهل علىّ، عزّ جارك وجلّ ثناؤك وتباركت أسماؤك، ولا إله غيرك.

اللهم صلّ على محمد وعلى آله، وأعوذ بك من عذاب جهنم وعذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدّجّال، وإذا أردتَ بقوم سوءًا أو فتنةً فاقبضنى إليك غيرَ مُبدِّلٍ ولا مَفْتون.

اللهم صلّ على محمد وعلى آله. اللهم أحينى ما كانت الحياة خيرًا لى، وتوفَّنى إذا كانت الوفاةُ خيرًا لى، وأسألك خير الحياة، وبركة الحياة، وأعوذ بك من شرّ الوفاة، وأسألك خيرَ ما بينهما، وخيرَ ما بعد ذلك، أحينى حياةَ السعداء حياةَ من تحبّ بقاءه، وتوفّنى وفاةَ الشُّهداءِ وفاة من تحب لقاءه، يا خير الرازقين، ويا أحسن التوّابين، ويا أحكم الحاكمين، ويا أرحم الراحمين، ويا ربّ العالمين. أعوذُ بك من شر ما يَلِج ُفى الأرض وما يخرج منها، ومن شرّ ما ينزل من السماء وما يَعْرُجُ فيها.

الحمد لله الذى تواضع كلُّ شىء لعظمته، وذلّ كلُّ شىء لعزته، وخضع كل شىء لمُلْكه، واستسلم كلُّ شىء لقُدْرته. والحمد لله الذى سكن كل شىء لهيبته، والحمد لله الذى أظهر كلَّ شىءٍ بحكمته، وتصاغر كلُّ شىء لكبريائه.

اللهم صلّ على نبيّك محمد وعلى آل محمد، وأزواجه وذريته فى العالمين، إنك حميد مجيد كريم.

اللهم صلّ على محمد عبدك ونبيِّك، ورسولك النبى الأمى، الرسول الأمين، وأعطه المقامَ المحمود يوم الدين.

اللهم إنى أعوذ بك من حِدّة الحرص، وشدةِ الطمع، وسَوْرةِ الغضب، وسِنَةِ الغفلة، وتعاطى الذلة. أعوذ بك من مباهاة المكثرين، والإزراءِ على المقلِّين، وأن أنصر ظالمًا، أو أخذُل مظلومًا، وأن أقولَ فى العِلم بغير العلم، وأعملَ فى الدينِ بغير يقين.

اللهمّ إنى أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لِمَا لا أعلم. اللّهم إنى أعوذ بك من اتباع خطوات الشيطان وشركه فى المال والأهل، وقبول أمره فى السوء والفحشاء.

اللهم إنى أسألك الصلاة على نبيّك محمد وعلى آله، وأسألك حسنَ الاختيار، وصحةَ الاعتبار، وصدقَ الافتقار.

اللّهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، وافتح بخير، واختم بخير، وأنت الفتاحُ العليمُ.

اللهم صلّ على نبيك محمد وعلى آل محمد، وارحمْ ما خلقتَ، واغفر ما قدّرتَ، وطيِّب ما رزقت، وتمِّم ما أنعمت، وتقبّل ما استعملت، واحفظْ ما استُحفظت، ولا تَهتْك ما سَترت، فإنه لا إله لنا إلا أنت.

أستغفرك من كلِّ لذّة بغير ذكرِك، ومن كلِّ راحةٍ بغير خدمتك، ومن كل سرور بغير قُربك، ومن كل فرح بغير مجالستك، ومن كل شُغل بغير معاملتك.

اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، واجعلنا من أوليائك المتقين، وحزبِك المفلحين، وعبادِك الصالحين.

اللّهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، واستعملنا بمرضاتك عنّا، ووفِّقنا لمحابّك منّا، وصرِّفنا بحسن اختيارك لنا.

اللهمّ صلِّ على نبيك محمد وعلى آله، ونسألك جوامعَ الخيرِ وفواتحه وخواتمه، ونعوذ بك من جوامع الشرّ وفواتحه وخواتمه.

اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، واحفظنا فيما أمرتنا، واحفظنا عمّا نهيتنا، واحفظ لنا ما أعطيتنا، يا حافظ الحافظين، ويا ذاكرَ الذاكرين، ويا شاكرَ الشاكرين، بحفظك حُفِظوا، وبذكرِك ذَكروا، وبفضلك شكَرُوا. يا غوثُ، يا مغيثُ، يا مستغاثُ، يا غيّاثَ المستغيثين، لا تكِلْنى إلى نفسى يا ربّ طرفةَ عين فأهْلَكَ، ولا تكِلْنى إلى الخلق فأضيع. اكلأنى كلاءةَ الوليد، ولا تَخَلَّ عنى، وتولَّنى بما تتولَّى به عبادك الصالحين.

اللّهم صلّ على نبيك محمد وعلى آله، وبقدرتك علىّ تُب علىّ، إنّك أنت التواب الرحيم. وبِحلْمِك عنِّى اعفُ عنى إنّك أنتَ الغفارُ، وبعلمك بى ارفق بى إنك أنت الرحمن الرحيم، وبملكك لى ملِّكنى نفسى ولا تسلِّطها علىّ إنّك أنت الملك الجبار. سبحانك وبحمدك لا إله إلا أنت، عَملتُ سوءًا وظَلَمْتُ نفسى، فاغفر لى ذنبى، إنك أنت ربّى لا إله إلا أنت، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت.

اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، وألهمنى رُشْدى، وقنى شرّ نفسى.

اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، وارزقنى حلالاً لا تُعاقبنى عليه، وقنِّعنى بما رزقتنى، واستعملنى به صالحًا تقبله منى.

اللّهم إنى أسألكَ أن تصلّى على نبيك محمدٍ وعلى آل محمد، وأسألك العفوَ والعافيةَ، وحسنَ اليقين، والمعافاةَ فى الدنيا والآخرة.

اللّهم صلّ على نبيك محمد وعلى آل محمد، وأعوذ بعفوك من عقابك، وأعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بك منك، لا أحصى ثناءً عليك أنت كما

أَثْنَيْتَ على نفسك، أبوءُ بنعمتك عليَّ، وأبوء بذنوبى إليك، هذه يداى بما كسبتُ، أنا عبدك ابنُ عبدك، ناصيتى بيدك، جارٍ فىَّ حكمُك، نافذ فىَّ قضاؤك، عَدْلٌ فىَّ مشيئتُك، إن تعذِّب فأهل ذلك أنا، وإن ترحم فأهل ذلك أنت، فافعل اللهم يا مولاى، يا الله، يا ربّ، افعل بى ما أنت له أهل، ولا تفعل اللّهم يا ربّ يا الله بى ما أنا له أهل، فإنّك أهل التقوى وأهلُ المغفرة.

يا من لا تضرّه الذنوب، ولا تنقصه المغفرة، هب لى اللّهم يا ربّ ما لا يضرك، وأعطنى ما لا ينقصك. أفرغ اللّهم علينا يا ربّ صبرًا، وتوفَّنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، أنت وليُّنا فاغفر لنا وارحمنا، وأنتَ خير الغافرين.

﴿وَاكْتُبْ لَنا فى هَذِه الدُّنيا حَسَنَةً وفى الآخِرَة إنَّا هُدْنا إلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

﴿ربَّنا عَلَيْكَ تَوكَّلْنا وإليْكَ أنَبْنا وإليْكَ الْمَصِيرُ * ربَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا واغْفِرْ لَنا ربَّنا إنَّكَ أنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [الممتحنة: ٤، ٥].

﴿ربَّنا اغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وإسْرَافَنا فى أمْرِنا وثَبِّتْ أقْدامَنَا وانْصُرْنا على القَوْمِ الكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧].

﴿ربَّنا آتنا مِن لَدُنكَ رَحْمةً وَهيِّئ لنا من أمْرِنا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠].

﴿ربَّنا آتِنا فى الدُّنيا حَسَنَةً وفى الآخرةِ حسنةً وقنا عَذابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

اللّهم إنى أسألك أن تصلّى على نبيك محمد وعلى آل محمد، وأسألك الصّيانةَ والعونَ على الطاعة، والعصمةَ من المعصية، وإفراغَ الصّبرِ فى الخدمة، وإيزاعَ الشكرِ على النّعمة.

وأسألك يا مولاى، يا الله، يا ربّ، الصلاةَ على نبيك محمد، وعلى آل محمد، وحسنَ الخاتمة. اللهم إنى أسألك أن تصلى على نبيك محمد وعلى آل محمد، وأسألك اليقين وحسنَ المعرفة بك، وأسألك المحبةَ وحسنَ التوكّل عليك، وأسألك الرضا وحسنَ المنقلب إليك.

﴿ربَّنا إنَّنا سَمِعْنا مُناديًا يُنادى للإيمَانِ أنْ آمِنُوا بِربِّكُم فآمَنَّا ربَّنا فاغْفِر لنا ذُنوبَنا

وكَفِّرْ عنَّا سيِّئاتنا وتَوفَّنا مع الأبْرارِ * ربّنا وآتنا ما وعَدتّنا على رُسُلِكَ ولا تُخْزِنا يومَ القيامة إنَّك لا تُخْلِفُ الميعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٣ ـ ١٩٤].

﴿ربَّنا لا تُؤاخذْنا إن نَّسينا أو أخْطَأنا ربَّنا ولا تَحْمِلْ علَيْنا إصْرًا كَما حَملْتَه علَى الَّذين مِن قَبْلنا﴾ [البقرة: ٢٨٦] إلى آخرها.

اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، وطهِّر قلوبنا فى قلوب الأبرار، وزكِّ أعمالنا فى عمل الأخيار، وصلّ على أرواحنا فى أرواح الشهداء، يا أكرم الأكرمين، ويا أجود الأجودين، ويا أرحم الراحمين.

ربنا آتنا فى الدنيا حسنةً وعلمًا وزهدًا وعبادة وأمنًا ورزقًا من حلال، وفى الآخرة حسنةً ورضوانك والجنة، وقِنا برحمتك عذابَ النار وعذابَ القبر، وقِنا سخطَك وغضبك وعذابَك وأهوالَه، عاجلاً وآجلاً فى الدين والدنيا والآخرة، برحمتك يا أرحم الراحمين».

وأن تُمجِّد الله تعالى غُدوةً وعشيَّة بما مجَّد به نفسه عزّ وجلّ، فقد رُوى من ثواب ذلك ما هو غاية الطّالبين. رُوينا عن علىٍّ عليه السلام عن النبى ﷺ قال: «إن الله تبارك وتعالى يمجّد نفسه فى كل يوم، يقول سبحانه وتعالى: إنى أنا الله ربُّ العالمين. إنى أنا الله لا إله إلا أنا الحى القيوم. إنى أنا الله لا إله إلا أنا العلىُّ العظيم. إنى أنا الله لا إله إلا أنا العفو الغفور. إنى أنا اللهُ لا إله إلا أنا مبدئ كلِّ شىء وإلىّ يعود. إنى أنا الله لا إله إلا أنا لم ألد ولم أُولد. إنى أنا الله لا إله إلا أنا العزيزُ الحكيمُ. إنى أنا الله لا إله إلا أنا مالكُ يوم الدين. إنى أنا الله لا إله إلا أنا الرحمنُ الرحيمُ. إنى أنا الله لا إله إلا أنا خالقُ الخير والشر. إنى أنا الله لا إله إلا أنا خالقُ الجنة والنار. إنى أنا الله لا إله إلا أنا الواحدُ الأحدُ الفَرْدُ الصَّمدُ الذى لم يتّخذ صاحبة ولا ولدًا. إنى أنا الله لا إله إلا أنا الفرد الوتر. إنى أنا الله لا إله إلا أنا عالمُ الغيب والشهادة. إنى أنا الله لا إله إلا أنا الملكُ القدوسُ. إنى أنا الله لا إله إلا أنا السلامُ المؤمنُ المهيمنُ. إنى أنا الله لا إله إلا أنا العزيزُ الجبار المتكبر. إنى أنا الله لا إله إلا أنا الخالقُ البارئ. إنى أنا الله لا إله إلا أنا الأحدُ

المصوِّر. إنى أنا الله لا إله إلا أنا الكبيرُ المتعالُ. إنى أنا الله لا إله إلا أنا المقتدرُ القهارُ. إنى أنا الله لا إله إلا أنا الحكيمُ الكبير. إنى أنا الله لا إله إلا أنا القادرُ الرزاقُ. إنى أنا الله لا إله إلا أنا أهلُ الثناء والمجد. إنى أنا الله لا إله إلا أنا أعلمُ السرَّ وأخفى. إنى أنا الله لا إله إلا أنا فوق الخلق والخليقة. إنى أنا الله لا إله إلا أنا الجبارُ المتكبر»[١]. فيختم، ويقول: فسبحان الله ربّ العرش العظيم.

فمن دعا بهذه الكلمات فليقل: [إنَّك] أنت الله [الذى لا إله إلا أنت] كذا، و[إنّك] أنت الله [الذى لا إله إلا أنت][٢] كذا.

ومن دعا بهذه الأسماء كُتب من الشاكرين الساجدين المخبتين، الذين يجاورون محمدًا ﷺ وإبراهيم وموسى وعيسى والنبيين صلوات الله عليهم أجمعين فى دار الجلال، وله ثواب العابدين فى السموات والأرضين.

وليقل: اللهم صلّ على محمد وآل محمد صلاةً تكون لك رضاء، ولحقِّه أداءً، وأعطه الوسيلة والفضيلة، وابعثْه المقامَ المحمود الذى وعدته، واجزه عنا ما هو أهله، واجزه أفضل ما جازيتَ نبيًا عن أمته، وأعطه الشّرف والشفاعةَ يوم الدين.

اللهم صلِّ على محمد نبى الرحمة، وسيد الأمة، وعلى جميع إخوانه النبيين، وصلّ على أبينا آدم وأمنا حواء، ومن وُلدا بينهما من الصالحين والمسلمين. وصلّ على ملائكتك أجمعين من أهل السموات والأرضين. وصلّ علينا معهم برحمتك يا أرحم الراحمين. واغفر لى ولوالدىَّ وما توالدا، وارْحَمْهُما كما ربّيانى صغيرًا، واغفر للمؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات؛ الأحياء منهم والأموات.

ربّ اغفرْ وارحمْ، وتجاوز عمّا تعلَم، وأنتَ الأعزُّ الأكْرم، وأنتَ خيرُ الراحمين، وخيرُ الغافرين. وإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلىّ العظيم. وحَسْبُنا الله ونعم الوكيل. وحسبنا الله وحده لا شريك له.

---

(١) قال عنه العراقى فى المغنى ١/٣١٧: «لم أجد له أصلاً». وفى الإتحاف ٥/ ٧١ ـ ٧٢: قال الزبيدى: «لكن وجدتُ فى (الحلية) فى ترجمة وهب بن منبه ما يقرب من ذلك».

(٢) ما بين المعكفات من الإحياء ١/٣١٧، والإتحاف ٥/٧٢.

فهذا جامعُ ما جاء من فضائل ما يقال من الدعاء عن [الرسول] المصطفى ﷺ، وعن الصحابة، وعن أئمة الهدى. وحذفنا ذِكْرَ فضائل ذلك وما جاء فيه من الروايات إيجازاً.

يقول هذا الدعاء بعد صلاة الغداة وقبل غروب الشمس، فى كلّ يوم، فإن قاله بعد صلاة مكتوبة فقد استكمل الفضل، بفضلِ الله عزّ وجلّ ورحمته.

* * *



الفصل السادس

فى ذكر عمل المريد بعد صلاة الغداة

وهو أنه يأخذ فى تلاوة القرآن، وفى أنواع الذكر من التسبيح والحمد والثناء، وفى التفكر(١) فى عظمة الله سبحانه وتعالى وآلائه، وفى تواتر إحسانه ونعمائه، [وفى بواطن النعم وغوامضها التى لا تُحصى](٢)، من حيث يحتسب العبد، ومن حيث لا يحتسب، وفيما يعلم العبد وفيما لا يعلم.

ويتفكّر فى تقصيره عن الشكر فى ظواهر النعم وبواطنها، وعجزِه عن القيام بما أمره به من حُسن الطاعة، ودوام الشكر على النعمة.

أو يتفكّر فيما عليه من الأوامر والنّوادب فيما يستقبل.

أو يتفكّر فى كثيف ستر الله تبارك وتعالى عليه، ولطيف صنعه به، وخفىٍّ لطفه له، وفيما اقترف وفرّطَ فيه من الزلل، وفى فوت الأوقات الخالية من صالح العمل.

أو يتفكّر فى حكم الله تعالى فى الملك وقدرته فى الملكوت، وآياته وآلائه فيهما.

أو يتفكر فى عقوبات الله عزّ وجلّ وبلائه، [وفى آلائه](٢) الظاهرة والباطنة فيهما، ومن ذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ﴾ [إبراهيم: ٥]. قيل: بنعمه، وقيل: بعقوباته.

(١) جعل الغزالى «التفكُّر» قِسْمًا مستقلاً من ربع المنجيات، وهو الكتاب التاسع من (الإحياء ٤/ ٤٢٣)، وفيه فصَّل حقيقته وأهميته فى العبادة. ولكن مجامع أمر التفكر ترجع إلى ما ذكره أبو طالب هنا. انظر: الإتحاف ٥/ ١٣٥، ١٣٦.

(٢) ما بين المعكفات زيادة من: (ك).

ومنه قوله عزّ وجلّ: ﴿فَاذْكُرُوا آلاءَ الله لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩].

ومثله: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣] أى: بأى نعمةٍ تكذبان يا معشر الجنّ والإنس إن استطعتم، وهما الثقلان.

ففى أى نوع من هذه المعانى أخذ فيه فهو ذِكْر، والذكر عبادة(١). وهو يُخرج إلى الفكر، والفكر يُدخل فى الخوف. والفكر(٢) إذا قَوِىَ صار مشاهدةً، كما قال عزّ وجلّ: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وقُعودًا وعَلَى جُنُوبِهِم ويَتَفَكَّرُونَ فى خَلْقِ السَّمَوات والأَرْضِ ربَّنا ما خَلَقْتَ هذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١]. ولا يكون مشاهدة إلا عن يقين، واليقينُ روح الإيمان، ومزيده، وفن المؤمن(٣).

وقال بعض العلماء فى تفسير الخبر: «تفكُّر ساعةٍ خيرٌ من عبادةِ سنة»(٤): هو التفكر الذى ينقل من المكاره إلى المحابّ، ومن الرغبة والحرص إلى القناعة والزهد(٥).

وقيل: هو التفكر الذى يُظهر مشاهدةً وتقوى، ويُحدث ذِكرًا وهُدى [وزهدًا]، كقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٦٣].

---

(١) فى (ك): «والدعاء عبادة».

(٢) فى المطبوعة: «والذكر» وأثبت ما فى (ك).

(٣) فى (ك): «واليقين روح الإيمان وهو مزيد المؤمن».

(٤) ورد بهذا اللفظ فى الفوائد المجموعة، للشوكانى، ص٢٥١، وكشف الخفا، للعجلونى، ١/ ٣٧٠، والإتحاف ١٠/ ١٦١ وخرجه عن العراقى وغيره، انظر: الإحياء ٤/ ٤٢٣.

(٥) قال الزبيدى: «وإنّما كان التفكّر أشرف العبادات، إذ فيه معنى الذكر لله، وزيادة أمرين: أحدهما: زيادة المعرفة، إذ التفكر مفتاح المعرفة والكشف؛ لأنه إدارة فكر، وتصرف قلب فى معانى الأشياء لدرك المطلوب. فالفكر يدُ النّفس التى تنال بها المعلومات، كما تنال بيد الجسم المحسوسات. وبهذا التصرف القلبى يتدرج إلى فتوح باب المعرفة والكشف الإلهى. والثانى: زيادة المحبة، إذ لا يحب القلب إلا من اعتقد تعظيمه، ولا تنكشف عظمة الله سبحانه وجلاله إلا بمعرفة صفاته العلا، ومعرفة قدرته الباهرة، وعجائب أفعاله فى خلقه، فيحصل من الفكر المعرفة، ومن المعرفة التعظيم، ومن التعظيم المحبة». انظر: الإتحاف ٥/ ١٣٦.

ولقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أو يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه:١١٣].

ومثله: ﴿يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ * فِي الدُّنْيا والآخِرَة﴾ [البقرة:٢١٩ ـ ٢٢٠] أي: يفعلون لما يبقى، ويرغبون فيما يدوم، ويزهدون فيما يفنى.

وقد جعل الله عزّ وجلّ البيانَ يعلمنا اقتضاء الشكر عليه[1]، فقال: ﴿يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آياته لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة:٨٩]، وكما قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا مَا فيه لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:٦٣]، وقد وصف [الله] أعداءه بعد ذلك [بصفات ضد ذلك][2]، فقال: ﴿الذين كَانَتْ أعْيُنُهُمْ فى غِطاءٍ عَنْ ذِكْرِى﴾ [الكهف:١٠١].

وقالت أم الدرداء: كانت أكثر عبادة أبى الدرداء التفكرَ، وقد كان يقول: ما يسرُّنى أن أربْحَ فى كل يوم ثلاثمائة دينار أنفقها فى سبيل الله عزّ وجلّ. قيل: ولم ذلك؟ قال: يشغلنى ذلك عن التفكُّر.

أو[3] يعتقد حسن النيات، وينوى جميل الطويَّات فيما بينه وبين الخالق تعالى، وفيما بينه وبين الخلق.

أو يستغفر الله تعالى، ويجدد التوبة لما مضى من عمره، ولما يأتنف من مستقبله.

أو يخلص الدعاءَ بتمسكن، وتضرُّع، وتملُّق، وتخشُّع، ووَجَلٍ، وإخباتٍ، إلى أن يعصمه من جميع المنهىِّ عنه، وأن يوفقه لصالح الأعمال، ويتفضل عليه برغائب الأفضال، وهو فى ذلك فارغ القلب، مجرد الهم، موقنٌ بالإجابة، راضٍ بالقِسْم.

أو يتكلم بمعروفٍ وخيرٍ، ويدعو به إلى الله تعالى، وينفع به أخاه، ويعلّم من هو دونه فى العلم.

---

(١) فى (ك): «البيان نعمة لما اقتضى الشكر عليه».

(٢) زيادة من (ك).

(٣) وردت فى (ك): «و» وكذلك فى مواضعها التالية.

فهذه كانت أذكار المتقدمين وأفكار السالفين. وقد كان الذكر والتفكُّر من أفضل عبادة العابدين، وهو طريق مختصر إلى ربّ العالمين. ففى أى هذه المعانى أخذ فهو ذاكر لله عزّ وجلّ، فلا يزال كذلك. وهو فى جميع ذلك مستقبل القبلة فى مصلاه.

ولا يُستحب له أن يتكلم أو يعمل غير ما ذكرناه من الأذكار. وقد كانوا يكرهون الكلام بغير معروف وتقوى، من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس. ومنهم من شدّد فى ذم الكلام من الفجر إلى صلاة الغداة بغير ذكر وبِرٍّ.

وهذه سُنَّةٌ قد خَملَت، فمن عَمِل بها فقد ذكرها[1].

* * *



(١) فى (ك): «وهذه سنة قد جهلت، فمن عمل بها فقد أظهرها».

الفصل السابع

فى ذكر أوراد النهار (١)

وهى سبعةُ أورادٍ. وهذا هو الورد الأول من النهار. وفى النهار سبعةُ أوراد: أولها: من طلوع الفجر. الثانى: إلى طلوع الشمس، وهو كما ذكرناه من الأذكار، وهو الذى أقسم الله عزّ وجلّ به فقال: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٨]. فتنفسه من طلوع الفجر [الثانى](٢) إلى طلوع الشمس، وهو الظل الذى مده الله تعالى لعباده، ثم قبضه إليه ببسط الشمس عليه، وأظهره من آياته(٣)، وجعل الشمس كشفًا له ودليلاً عليه، فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ يعنى: بسطه ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ يعنى: مقيمًا على حاله لا يتحوّل ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً﴾ [الفرقان: ٤٥] يقول: كشفناه بها، ففيه أنّ الدليل هو الذى يكشف المشكل ويرفع المشتبه، ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٦] يعنى: أن الظل من تحت الشمس قُبض قبضًا يسيرًا، أى خفيًا لا يُفطن له ولا يُرى، فاندرج الظلُّ فى الشمس بقدرته اندراجَ الظلمة فى النور، إذ دخل عليها بحكمته، وهو الإصباح والفلَق الذى يُمدح الله عزّ وجلّ بخَلْقه، وأمرنا بالتنزيه له عنده، والاستعاذة من شرّ ما خلق فيه، فقال عزّ وجلّ: ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦]، وقال ﴿فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧] أى: فسبِّحوه

---

(١) كل ما يتصل بالأوراد ضمنه الغزالى إحياءه مع تغيير العبارة أحيانًا والاختصار أحيانًا أخرى، ١/ ٣٢٩، كتاب ترتيب الأوراد وتفصيل إحياء الليل. وانظر كذلك: الغنية، للجيلانى، فصل أوراد الليل والنهار ٣/ ١٠٧٤، نقله أيضًا عن القوت دون إشارة.

(٢) زيادة من (ك).

(٣) فى (ط): «وهو الظل الذى أمده الله تعالى لعباده، ثم قبضه إليه ببسطه الشمس عليه، وأظهر من آياته» وأثبت ما فى (ك).

بالصلاة عندهما، وقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق: ١ ـ ٢] يعني: فلق الصبح.

فإذا أمِنَ العبدُ الفتنة والكلامَ فيما لا يعنيه، والاستماع إلى شبهة من القول، وأمِنَ من النظرِ إلى ما يكره أو يشغله عن الذكر، أو ما يذكّره الدنيا، وأمِنَ من دخول الآفة عليه من التزيّن والتصنّع للناس، ورُزِق الشغلَ بمولاه، والإخلاص له بالإعراض عمّن سواه، فقال ما ذكرناه من الذكر في مصلاه في مسجد الجماعة، فهو أفضل؛ فلذلك أمر اللهُ برفع المساجد في قوله عزّ وجلّ: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [النور: ٣٦].

وإن لم يأمن الفتنة، وخشي دخولَ الآفة عليه من لقاء مَن يكره، ومَنْ يُلجئه إلى تُقْية أو مداراة، أو خاف الكلام فيما لا يعنيه، أو الاستماع إلى ما لا يندب إليه، انصرف إذا صلّى الغداة [في جماعة][1] إلى منزله، أو إلى موضع خلوةٍ، بعد أن يقول: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت، بيده الخير وهو على كل شيء قدير» عشر مرات في مصلاه وهو ثانٍ رجله قبل أن يقوم، ويقرأ بعدها ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ عشرًا قبل أن يتكلم ـ فقد اشتُرِط تركُ الكلام في هذين الحديثين اللذين وردا فيهما ـ ثم أتى ببقية وِرْدِه في بيته أو في خلوته، وهو في ذلك مستقبل القبلة. وهذا حينئذ أفضل له، وأجمعُ لقلبه[2].

ولا يقدّم على التسبيح لله عزّ وجلّ والذكرِ له بعد صلاة الغداة وقبل طلوع الشمس إلا أحد معنيين:

معاونة على برٍّ وتقوى فُرِض عليه، أو نُدب إليه، مما يختص به لنفسه، أو يعود نفعه على غيره. ويكون ذلك أيضًا ممّا يخاف فوته بفوت وقته.

(١) زيادة من نسخة (ك).

(٢) قال صاحب عوارف المعارف (ص٣٩١): «فإن السكوت والذكر في هذا الوقت له أثر ظاهر يجده أرباب القلوب وأهل المعاملة».

والمعنى الآخر: يكون إلى تعلّم عِلم أو استماعه ممّا يقرّبه إلى الله تعالى فى دينه وآخرته، ويزهّده فى الدنيا والهوى، [ولا يسمعه إلا] من العلماءِ بالله عزّ وجلّ الموثوق بعلمهم، وهم علماء الآخرة، أولو اليقين والهدى، الزاهدون فى فضول الدنيا. ويكون فى طريقه ذاكرًا لله عزّ وجلّ، أو متفكرًا بأفكار(1) العقلاء عن الله عزّ وجلّ.

فإن اتفق له هذان، فالغدوّ إليهما أفضل من جلوسه فى مصلاه، لأنّهما ذكرُ الله عزّ وجلّ وعمل له، وطريق إليه [تعالى] على وَصْفٍ مخصوص مندوب إليه، قال الله عزّ وجلّ: **﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالغَدَاةِ وَالعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾** [الأنعام: ٥٢].

وقال النبى ﷺ: «من غَدا من بيتِهِ فى طَلَب العِلْم فهو فى سبيلِ اللهِ حتى يَرْجِع»(2).

وقال ابن مسعود: «اغدُ عالمًا أو متعلمًا أو مستمعًا، ولا تكن الرابع فَتهْلك». والغدوّ، والغداة: تكون قبل طلوع الشمس.

وفى الخبر: «مَن خرج مِن بيته فى طلبِ العلمِ فهو فى سبيل الله عزّ وجلّ حتى يرجع. ومَن خرج مِن منزِله يلتمس علمًا وضعت له الملائكةُ أجنحتها رضًا بما صنع، واستغفرَ له دوابُّ الأرضِ وملائكةُ السماءِ وطيرُ الهواءِ وحيتانُ الماءِ»(3).

وفى حديث أبى ذر الغفارى رحمه الله: «حضورُ مجلسِ علم أفضلُ من صلاة ألف ركعة، وأفضل من شهود ألف جنازة، ومن عيادة ألف مريض. قيل: ومن

---

(١) فى المطبوعة: «فى أفكار».

(٢) أخرجه الترمذى من حديث أنس فى باب فضل طلب العلم بلفظ: «من خرج فى ...» وقال: حسن غريب. وضعفه الألبانى، انظر: ضعيف الترمذى، ص٣١٤ رقم ٤٩٤.

(٣) أخرجه ابن ماجه فى سننه من حديث أبى الدرداء، باب فضل العلماء والحرص على طلب العلم، باختلاف فى اللفظ، رقم ٢٢٣. وانظر: صحيح ابن ماجه رقم ١٨٢ وفيه: «وإن طالب العلم يستغفر له من فى السماء والأرض، حتى الحيتان فى الماء». وأخرجه الترمذى بلفظ قريب من لفظ ابن ماجه، صحيح الترمذى رقم ٢١٥٩. وغيرهما من كتب السنة.

قراءة القرآن؟ فقال: وهل تنفع قراءة القرآن إلاّ بعلم»(١).

فإن لم يتفق له أحد هذين المعنيين، فقُعوده فى مصلاه أو فى مسجد جماعته أو فى بيته أو فى خلوته، ذاكرًا لله عزّ وجلّ بأنواع الأذكار، أو متفكرًا فيما فتح له بمشاهدة هذه الأفكار فى مثل هذه الساعة ـ أفضل له ممّا سواها(٢).

روينا عن رسول الله ﷺ: «لأن أقعد فى مسجدٍ أذكرُ اللهَ عزّ وجلّ فيه من صلاة الغداة إلى طلوع الشمس أحبُّ إلىَّ من أن أعتقَ أربعَ رقاب»(٣).

وروينا أن النبى ﷺ «كان إذا صلّى الغداة قعد فى مصلاه حتى تطلع الشمس»، وفى بعضها: «ويصلى ركعتين»(٤).

وقد نُدب إلى ذلك فى غير حديث. وجاء فى فضل الجلوس بعد صلاة الصبح إلى طلوع الشمس وفى صلاة ركعتين بعد ذلك ما يجلُّ وصفه، اختصرناه.

روينا عن الحسن أن النبى ﷺ كان يذكر من رحمة ربه أنه قال: «يا ابن آدم، اذكرنى من بعد صلاة الفجر ساعة، وبعد صلاة العصر ساعة، أكفك ما بينهما»(٥).

---

(١) قال العراقى (١/ ٩): «ذكره ابن الجوزى فى الموضوعات، ولم أجده من طريق أبى ذر». وانظر: كشف الخفا، للعجلونى، ١/ ٤٣٣.

(٢) فى الإتحاف: «مما سواهما». وقال صاحب العوارف (ص٣٥٣): «فإذا فَرَغ من ذلك يشتغل بتلاوة القرآن حفظًا، أو من المصحف، أو يشتغل بأنواع الأذكار، ولا يزال كذلك من غير فتور وقصور ونعاس، فإن النوم فى هذا الوقت مكروه جدًا. فإن غلبه النوم فليقم فى مصلاه قائمًا، مستقبل القبلة، فإن لم يذهب النوم بالقيام يخطو خطوات نحو القبلة، ويتأخر بالخطوات كذلك، ولا يستدبر القبلة، ففى إدامة استقبال القبلة، وترك الكلام والنوم، ودوام الذكر فى هذا الوقت ـ أثر كبير، وبركة غير قليلة، وجدنا ذلك بحمد الله، ونوصى به الطالبين. وهذا الوقت أول النهار مطية الأوقات، والنهار مظنة الآفات، فإذا أحكم أوله بهذه الرعاية فقد أحكم بنيانه، وتبتنى أوقات النهار جميعًا على هذا البناء».

(٣) سنن أبى داود، باب فى القصص، رقم ٣٦٦٧، من حديث أنس بن مالك. وانظر: صحيح أبى داود رقم ٣١١٤، وهو بلفظ: «لأن أقعد مع قوم يذكرون الله...». وهو بنحوه فى مسند أحمد ٣/ ٤٧٤، وسنن البيهقى ١٠/ ٨٩، وغيرهما.

(٤) أخرجه مسلم من حديث جابر بن سمرة، كتاب المساجد، باب فضل الجلوس فى مصلاه، رقم ٢٨٦، ٢٧٠.

(٥) الحلية ٨/ ٢١٣ من حديث أبى هريرة، وقال عنه: «غريب من حديث الحسن».

فإذا ارتفعت الشمس وابيضّت صلّى الضحى ثماني ركعات. وهذا الوقت هو الذى ذكره الله عزّ وجلّ فى قوله: ﴿يُسَبِّحْنَ بِالعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ﴾ [ص:١٨].

ثم ينظر، فإن علم مريضًا عاده، وإن حضرت جنازة شيَّعها، وإن كانت معونة على برٍّ وتقوى سعى فيها، وإن كانت حاجة لأخٍ من إخوانه قضاها، وإن كانت فرضًا يلزمه القيام به سارع إليه، وإن لاحَ له فضل نُدب إليه انتهزه قبل فوته.

فهذا أفضلُ شىء يعمله بعد الأذكار والأفكار، من بعد طلوع الشمس.

فإذا فرغ من ذلك ولم يتفق له ما ذكرناه من القربات أخذ فى الصلاة أو تلاوة القرآن أو صنوف الأذكار ممّا أُمر به، أو نُدب إليه، أو المحاسبة لنفسه فيما سلف، أو المطالبة لها والاستخراج منها فيما يأتنف، أو المراقبة لربه فى كل حال، إلى أن تنبسط الشمس، وتَرْمَض الفِصَالُ[1]، ويرتفع النهار.

هذا هو الورد الثانى من النهار، وهو الضحى الأعلى الذى أقسم الله تعالى به فقال: ﴿وَالضُّحَى﴾ [الضحى:١] أى إذا أضْحت الأقدامُ بحرّ الشمس.

وإذا كان العبد على ذلك فقد اتّبع ما أنزل إليه ربُّه عزّ وجلّ، وقد سمع قوله عزّ وجلّ: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:٣]، لأنه قال: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هذه الْبَلْدَةِ الّذى حَرَّمَهَا﴾ [النمل:٩١]. ثم قال: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ﴾ [النمل:٩٢]. كما قال تعالى: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنّ الصّلاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ الله أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت:٤٥]. وصلاة الضحى فى هذا الوقت أفضل، وهو حقيقة وقتها لوجود اسمها.

قال النبى ﷺ: «صلاةُ الضحى إذا رَمِضَت الفِصالُ»[2]. وخرج على أصحابه عليه الصلاة والسلام يومًا وهم يصلون عند الإشراق، فنادى بأعلى صوته: «ألاَ إنّ

(١) الرمضاء: شدة الحرارة. والفصيل: ولد الناقة. والمعنى: إذا وجد الفصيل حرَّ الشمس من الرَّمضاء.

(٢) أخرجه مسلم من حديث زيد بن أرقم، باب صلاة المسافرين ب ١٩ رقم ١٤٣، ومسند أحمد ٣٦٦/٤.

صلاةَ الأوّابين إذا رَمِضَت الفصال». وقوله «الأوّابين»: يعنى التّوابين إلى الله عزّ وجلّ فى كلّ وقت.

ثم ليأخذ العبد بعد ذلك فيما نُدِب إليه، وأُبيح له من التصرف فى معاش، إن كان من تجارة بصدقٍ، أو صناعة بنصحٍ، إن أُحوِج إلى ذلك، وليكتفِ إن كُفى. وأدنى أحواله: الصمت، والنوم؛ ففيهما سلامة من الآثام، ومخالطة الأنام[١]، فقد جاء فى العلم: «يأتى على النّاس زمانٌ يكون أفضل علمهم [فيه] الصمت، وأفضل أعمالهم النوم»، هذا لدخول المشكلات فى الكلام، ووجودِ الآفاتِ فى الأحوال، وخروجِ الإخلاص من الأعمال.

وكان سفيان الثورى يقول: كان يُعجبهم إذا تفرَّغَوا[٢] أن يناموا، طلبًا للسلامة.

فمن الناس من يكون أحسن أحواله النوم، وليت العبد يكون فى اليقظة كالنوم، إذ فى نومه السلامة، [والسلامة متعذرة فى يقظته]، وأفضل أعماله فى هذا الوقت السلامة. وإنما الفضائل لأهل الإفضال [والفضل] الذين زادوا على السّلامة بالعَمَل والإحسان، والفضل[٣].

فإن نام فى هذا الوقت فهو حينئذ نومُ القائلة، وما تسبب فيه من المعايش يَصنعه فى هذا الوقت من الضحى الأعلى إلى زوال الشمس.

وهذا هو الورد الثالث من النهار.

ثم يتوضّأ للصّلاة قبل دخول وقتها ذلك يستحب، وهو من المحافظة عليها،

---

(١) فى المخطوط (ك)، والإتحاف ٥/ ١٤٣: «ومخالطة اللئام».

(٢) فى (ك): «إذا يفرغون».

(٣) كان هناك تكرار واضطراب فى أجزاء من هذه الفقرة بالمطبوعة، والتصويب من (ك) والإتحاف ٥/ ١٤٣. وقال الغزالى فى الإحياء (١/ ٣٣٨): «فالنوم أحب له إذا كان نشاطه لا ينبعث إلى الأذكار والوظائف المذكورة». وقال صاحب العوارف (ص ٣٥٧): «فإن سئم من الصلاة تنزّل إلى التّلاوة، ثم منها إلى الذكر، ثم منه إلى الفكر والمراقبة. فإن عجز عن المراقبة، وتملكته الوساوسُ، وتزاحم فى باطنه حديث النفس، فلينم، ففى النوم السَّلامة، وإلا فكثرة حديث النفس تقسّى القلب، ككثرة الكلام، لأنه كلام من غير لسان، فيحترز عن ذلك. قال سهل بن عبد الله: أسوأ المعاصى حديث النفس. والطالب يريد أن يعتبر باطنه كما يعتبر ظاهره، فيقيد الباطن بالرعاية والمراقبة، كما يقيد الظاهر بالعمل وأنواع الذكر».

والإقامة لها.

فإن حصلت كفايته في يومه وقُوته في وقت من النهار، ترك السوقَ ودخل بيته، أو قعد في بيت مولاه تعالى، واشتغل بخدمته مُتَزَوِّدًا لعاقبته. وقد كان الصالحون كذلك يفعلون. كان يقال: لا يوجد المؤمن إلا في ثلاث مواطن: مسجدٍ يعمره، أو بيتٍ يستره، أو حاجةٍ لا بدّ له منها.

فإذا زالت الشمس فإنّ أبوابَ السَّماءِ تُفتح للمصلّين والذاكرين، ويستجاب الدعاء للمؤمنين.

فهذا هو الوِرْد الرّابع من النّهار. فليصل بعد الزوال أربع ركعات، يقرأ فيهنّ بمقدار سورة البقرة، أو سورتين من المائتين، أو أربع من المثاني، يطيلهنّ ويحسنهن، ولا يفصل بينهنّ بتسليم، هذه الصلاة وحدها من بين صلاة النهار أربع ركعات، بتسليمة واحدة. وهذا الورد هو الإظهار، الذى ذكر الله عزّ وجلّ الحمد فيه فقال: ﴿وَلَهُ الحَمْدُ فى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم:١٨].

وليتّق العبدُ الصلاةَ عند استواء الشمس فى كبد السماء، وهو قَبل زوالها عند تقلص الظّل، وقيام ظلّ كلّ شيء تحته، فإذا زال الظّل فقد زالت، وقد يخفى(١) استواؤها فى الشتاء؛ لقصر النهار؛ ولعدول الشمس فى سيرها عن وسط الفلك، فتقطع [سيره] عرضًا، فيكون أقرب لغروبها، فليقدر ذلك تقريبًا، ومقدار استوائها قبل الزوال بنحو أربع ركعات بجزء من القرآن، أو بقدر جزء [يقرأ]، وهو آخر الورد الثالث. وإنّما فيه ورد القراءة والتسبيح والتفكر، وهو أحد الأوقات الخمسة التى نهى النبى ﷺ عن الصلاة فيهن. والأربعةُ الأخر: عند طلوع الشمس حتى ترتفع قِيدَ رُمحين فى عين الناظر. وعند تدلّيها للغروب حتى تحتجب. وبعد صلاة الصبح. وبعد صلاة العصر.

وأُحبّ له إحياء ما بين الأذان والإقامة بالركوع [والسجود]، لأنها ساعة

(١) فى (ط): «خفى» وأثبت ما فى (ك) والإتحاف ١/ ١٤٤.

مستجاب فيها الدعاء، وتُفتح فيها أبواب السماء، وتزكو فيها الأعمال. [وأفضل الأعمال ما كان فى أوقات الصلوات][(١)]، وأفضلُ أوقاتِ النّهار أوقات الفرائض، فإن لم يقرأ بين الأذانين من درسه فاستُحب له أن يقرأ فى تنفّله الآى التى فيها الدعاء، مثل آخر سورة البقرة، وآخر سورة آل عمران، ومن تضاعيف السور الاثنين والثلاث، مثل قوله تعالى: **﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾** [الأعراف: ١٥٥]. ومثل قوله: **﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾** [آل عمران: ٨]. وقوله: **﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾** [الممتحنة: ٤].

وإن قرأ الآى التى فيها التعظيم، والتسبيح، والأسماء الحسنى، فحَسَن؛ مثل أول سورة الحديد، وآخر سورة الحشر، ومثل آية الكرسى، وقل هو الله أحد. ليكون بذلك جامعًا بين التلاوة والدّعاء، وبين الصلاة والتعظيم، والمدح بالأسماء. ثم ليصلِّ الظهر فى جماعة، ولا يدع أن يصلّى قبلها أربعًا، وبعدها أربعًا بعد ركعتين.

وهذا آخر الوردِ الرابع من النّهار، وهو أقصر الأوراد وأفضلها. فإن كان قد رقد قبل الزوال فلا يرقد فى هذا الورد، فإنه يُكره له نومتان فى يوم، كما يُكره له نوم النهار من غير سهر بالليل.

وروينا عن بعض العلماء: ثلاثٌ يمقت الله عليها: الضّحك من غير عجب، والأكل من غير جوع، ونوم النهار من غير سهر بالليل[(٢)].

وإن لم يكن قد رقد، فأحب أن ينام بين الظهر والعصر، ليتقوّى بذلك على قيام الليل، فَلْيَنَمْ، فإن نومَهُ بعد الظهر للَّيلة المستقبلة، ونومه قبل الظهرِ لليلة الماضية. فإن دام سهرُه بالليل واتّصلتْ أورادُه بالنّهار حَسُنَ أن ينام قبل الظهر، لما سلف من ليله، وينام بعد الظهر لما غبَر من الأخرى.

[والحدّ فى النوم: أنّ الليلَ والنهارَ أربعٌ وعشرون ساعة، فالاعتدال فى نومه

(١) زيادة من (ك).

(٢) هذا الأثر ينسب إلى معاذ بن جبل، انظر: الحلية ١/ ٢٣٧.

ثمانى ساعات فى الليل والنهار جميعًا، فإن نام هذا القدر بالليل فلا معنى للنوم بالنهار، وإن نقص منه مقدارًا استوفاه بالنهار][1]، إلا أنّه لا يستحب له أن يزيد فى اليوم والليلة أكثر من نوم ثمانى ساعات.

ومن الناس من يقول: إنه إن نقص من نوم هذا المقدار فى اليوم والليلة اضطرب بدنه؛ لأن النوم قوتُ الجسم وراحته، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ [النبا:٩]، أى راحة، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا النَّهارَ مَعَاشًا﴾ [النبا:١١]. إلا أن يكون السهر عادة، فإن العادة قد تعمل عمل الطبع وتنقل عن العرف، فلا يقاس عليها.

وإحياءُ ما بين الظهر والعصر، وهو صلاة الغفلة، وهو يُشبَّه بقيام الليل. ويُستحب العكوفُ فى المسجد بين الأولى والعصر للصلاة والذكر، ليجمع بين الاعتكاف والانتظار للصلاة، فقد كان ذلك من سنّة السلف. قال: كان الداخل يدخل المسجد بين الظهر والعصر فيسمع للمصلين دويًا كدويّ النحل من التلاوة، إلا أن يكون بيته أسلم لدينه وأجمع لقلبه، فالأسلم هو الأفضل.

وكذلك إحياء الورد الثالث؛ الذى هو بين الضحى الأعلى إلى زوال الشمس، فوق هذا الفضل يُدرك به العبدُ فوتَ قيام الليل؛ لأن الناس فى هذين الوقتين مشغولون بطلب الدنيا وخدمةِ الهوى؛ والقلب المتيقظ لربه عزّ وجلّ يَفْرُغ فى هذين الوقتين ويسكن، ويجد العامل للعمل حلاوة، وللإقبال والتفرغ لذةً، ويكون لفراغه من الخلق وشُغله بالخَالق تعالى مزيدٌ وبركةٌ.

وهذا أحد الوجهين فى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الذى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان:٦٢] أى: جعلهما خلفتين يتعاقبان فى الفضل، فيخلف أحدهما الآخر. فمن فاته شىء من الليل قضاه فى هذين الوردين من النهار. أحدهما: من الضحى الأعلى إلى الزوال، والثانى: ما بين الأولى والعصر.

---

(١) هذه الفقرة سقطت من المطبوعة والمخطوطة، وهى فى الإتحاف ٥/١٤٧ نقلاً عن إحدى نسخ القوت التى كانت بين يديه. وأيضًا فى الإحياء ١/٣٢٩.

والوجه الثاني: أن النهار كله خِلْفة من الليل، فمن فاته شيء من عمل الليل قضاه بالنهار فكان منه بدلاً، ومن فاته شيء من أوراد النهار كان الليل خَلَفًا، إذ كل واحد منهما خَلَفٌ من صاحبه، ففيه دَرك ما فات، وخَلَفُ ما سلف من الذّكر والشّكر.

والذِّكر: اسم جامع لأعمال القلوب كلّها من مقامات اليقين ومشاهدة العلوم من الغيب. والشكر ـ أيضًا ـ يستعمل على جُمل أعمالِ الجوارح من شرائع الإسلام. وهذان جملة عمل العبد، وكُنه خدمته.

وهذان المعنيان هما اللذان ذَكَرَهُما الكليمُ للجليلِ فى قوله تعالى: ﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ [طه:٣٣ ـ ٣٤]، انتظم التسبيح والذكر فى جمل تصرّف الجسم، وتصرّف القلب.

وهذا الورد الخامس الذى هو ما بين العصرين من أطول الأوراد، وأمتعها للعبادة[1]، وهو يضاهى الورد الثالث فى الطول. وهو أصيل النهار، وأحد الآصال التى ذكر الله عزّ وجلّ فيه سجود كل شىء، وقرنه بالغدوّ فقال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ [الرعد:١٥]. فما أقبح أن تكون الأشياء الموات لربها ساجدات ذاكرات، والمؤمن الحى عن ربّه معرض ذو غفلات!!

ثم ليصلّ قبل صلاة العصر أربعًا، ويغتنم الصلاة بين الأذان والإقامة، كما ذكرنا آنفًا، فإنها ساعة مرجوّة فيها الإجابة.

فإذا دخل وقت العصر دخل العبدُ فى الورد السادس من النهار، وقد أقسم الله عزّ وجلّ به فى قوله: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ [العصر:١]. وهذا أحد المعنيين فى الآية، وهو أحد الوجهين من الوقت فى الآصال، الذى ذكره الله عزّ وجلّ. وهو العشى الذى ذكر الله عزّ وجلّ التسبيح فيه، والتنزيه والحمد له، فقال: ﴿وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم:١٨]. وقال: ﴿بِالْعَشِىِّ وَالإِشْرَاقِ﴾ [ص:١٨]. وليس فى هذا

(١) فى الإحياء ١/ ٣٤٠، والإتحاف ٥/ ١٤٨: «وأمتعها للعبّاد».

الورد صلاة، إلا ما كان بين الأذانين، ثم ينتقل بعد العصر فيما شاء من ذكر أو فكر من أعمال القلوب والجوارح، فيما فُرض عليه أو نُدب إليه. وأفضل ذلك تلاوةُ القرآنِ بتدبر وترتيل وتفهّم وحسن تأويل.

فإذا اصفرّت الشّمس، ومات حرّها، وارتفعت إلى أطراف الجُدُر ورءوسِ الشجر، فكانت مثلها حين تَطْلُع دخل فى الورد السابع من النهار. فهذا للتسبيح والذّكر والتلاوة والاستغفار إلى غروب الشمس. ومن أفضل ما قيل فى هذا الوقت، وفى مثله من أول النهار، أن يقال: أستغفر الله لذنبى، وسبحان الله بحمد ربى، لجمعه بين الاستغفار والتسبيح فى الكلام بلفظ الأمر بهما فى القرآن، لقوله تعالى: ﴿**وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ**﴾ [غافر: ٥٥].

وإن قال: أستغفر الله الحىّ القيوم وأسأله التوبة، سبحانَ الله العَظِيمِ وبحَمْده، فقد جاء فضل ذلك فى الأثر، والأفضل الاستغفار على الأسماء، كما فى القرآن، مثل أن يقول: أستغفر الله إنّه كان غفّارًا. أستغفر الله إنه كان توابًا. أستغفر الله إنّ الله غفور. أستغفر الله التّوابَ الرّحيم. ربِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ، وأنْتَ خَيْرُ الرّاحمين، واغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا، وأنْتَ خيرُ الغافرين.

وهذا الورد فى الفضل مثل الورد الأول، من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس. وهو المساء الذى ذكر الله تعالى التنزيه فيه، فقال: ﴿**فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ**﴾ [الروم: ١٧]، أى سبحوا الله عزّ وجلّ، فأقام الاسم مقام الفعل، وهو الطرف الثانى من النهار، الذى أمر الله عزّ وجلّ فيه بالتسبيح، بقوله عزّ وجلّ: ﴿**فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى**﴾ [طه: ١٣٠]. ويستحب أن يقرأ قبل غروب الشمس: ﴿**وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا**﴾ [الشمس: ١]، ﴿**وَاللَّيلِ إِذَا يَغْشَى**﴾ [الليل: ١]، والمعوّذتين، وأن تغرب الشمس عليه وهو فى الاستغفار؛ فذلك مما أُمر به فى هذا الوقت من الأذكار.

وكما[1] يُستحب من التّسبيح والحمدِ والدّعاء والذّكر فى أوّل النهار قبل طلوع

---

(١) فى المطبوعة: «كلما» وهو خطأ، وأثبت ما فى (ك).

الشمس، فإنه يُستحب في هذا الورد قبل غروبِ الشّمس؛ لأن الله تعالى قرنَهُما في الذكر، فقال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠]. وقال تعالى: ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ [طه: ١٣٠]. وقال تعالى: ﴿بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾ [غافر: ٥٥]. وقال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ [الفلق: ١ ـ ٣] أي: من شر الليل إذا دخل. فليُعِد العبدُ ما ذكرناه في الوِرد الأول من الأدعية والتسبيح، وليقل عند أذان المغرب: اللهم هذا إقبالُ ليلِك وإدبارُ نهارِك وأصواتُ دُعاتِك وحُضُور صَلاتك وشُهودُ ملائكتك. صلِّ على محمد وعلى آله، وأعطه الوسيلة والفضيلة، وابْعَثْه المقامَ المحمود الذي وعدته. ثم ليقل: رضيت بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًا، ثلاثًا، ففي هذا أثر وفضل.

وكذلك فليقل مثله إذا سمع أذان الفجر، إلا أنه يقول عنده: اللهم هذا إدبار ليلك وإقبال نهارك. والنصّ بهذا في صلاة المغرب.

وكان الحسن البصري يقول: كانُوا أشدّ تعظيمًا للعشي منهم لأول النهار. وقال بعض السلف: كانوا يجعلون أول النهار للدنيا، وآخره للآخرة.

فإذا توارت بالحجاب انقضت أورادُ النهارِ السبعة.

فانظر أيّها المسكين ماذا انقضى لك معها، وماذا انقضى منك عندها، وماذا قُضي عليك فيها. فقد قطعتَ من عمرك مرحلة ونَقصْتَ من أيامك يومًا. فماذا قطعتَ في سفرِك بقَطْعِ مرحلتك؟ وماذا ازددت في غَدِك بما نَقَصْت من يومك؟

قال النبي ﷺ: «الناس غاديان: فغادٍ لنفسه فمُعتقها، أو راهنٌ نفسه فموُبقها»[١].

وقد قال الله عز وجلّ في تصديق قول رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ [الليل: ٤].

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١٩/ ١٣٦ من حديث عبد الله بن مسعود، وقال الهيثمي ١٠/ ٢٣٦: «وإسناده جيد».

وقال في معناه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ [المدثر: ٣٨ ـ ٣٩].

وجاء في الخبر: «لا بورك لي في يوم لا أزداد فيه خيرًا». وجاء في الأثر: «من استوى يَوْماه فهو مَغْبون، ومن كان يومه شرًا من أمسه فهو محروم».

ثم دخلت أورادُ الليل الخمس، فتدارك الآن ـ رحمك الله تعالى ـ فيما يستقبل من الليل ما فات فيما مضى من النهار.

فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «إن الله عزّ وجلّ يُبغض كلَّ جَعْظريٍّ جوّاظ ـ أي: سمين، كثير الأكل ـ سخّاب[1] بالأسواق، جيفةٍ بالليل، حمَّارٍ بالنهار، عالمٍ بأمر الدنيا، جاهلٍ بأمر الآخرة»[2].

* * *



(١) سَخَّاب: من الصَّخَب، وهو شدَّةُ الصَّوت.

(٢) سنن البيهقي ١٠/ ١٩٤، والسلسلة الصحيحة، للألباني، رقم ١٩٥.

الفصل الثامن

فى ذكر أوراد الليل الخمسة

وفى الليل خمسةُ أوراد:

أوّلها: أن يصلِّىَ بعد المغرب ستَّ ركعات، ويستحب ذلك قبل أن يُكلم أحدًا. يقرأ فى الأوليين: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ﴾ و ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾، وليُسرع بِهما بعدَ صلاة المغرب، من قبل أن يتكلم ويشتغل بشىء. وفى الخبر: «أسرعوا بركعتين بعد المغرب فإنّهما يُرفعان معها». فإن كان منزلُه قريبًا من مسجده، فلا بأس أن يركعهما فى بيته، وليُطِل الأربعةَ الأُخَر. وكان أحمد بن حنبل رحمه الله يستحب أن يصليهما الرجل فى بيته. وكذلك كان يفعل، ويقول: هو سنّة؛ لأنه روى أن النبى ﷺ كان يصليهما فى بيته. ولكنّ بيتَ رسولِ الله ﷺ كان فى مُؤخر المسجد، وقد صلاهما فى المسجد.

ثم ليصل بين العشاءين ما تيسر إلى أن يغيبَ الشفقُ الثانى، وهو البياض الذى يكون بعد ذهاب الحمرة، وبعد غسق الليل وظلمته؛ لأنه آخر ما بقى من شعاع الشمس فى القطر الغربى، إذا قطعت الأرض العليا ودارت من وراء جبل قاف، مُصْعِدَةً تطلب المشرق، فهذا هو الوقتُ المستحبُ لصلاة العشاء الآخرة.

وهذا آخرُ الوردِ الأول من أوراد الليل. والصلاة فيه ناشئةُ الليل، أى: ساعاته؛ لأنه أول نشوء ساعاته، وهو آن من الآناء التى ذكرها الله عزّ وجلّ فى قوله: [﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْئًا وأَقْوَمُ قِيلاً﴾ [المزمل:٦]، وقال:][1] ﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ [طه: ١٣٠]. فالآناء: جمع آنٍ، أى وقت منه فصل، وقيل: ناشئة الليل: قيام الليل. هذا وافق لسان الحبشة، تقول: نشا، إذا قام. وقد أقسم الله

(١) ما بين المعكفتين ساقطة من (ط) وأثبتها من (ك).

تعالى به فقال: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾ [الانشقاق: ١٦] والشَّفق ما بين العِشاءَيْن. وهى صلاة الأوّابين. ويقال أيضًا: صلاة الغفلة. قال يونس بن عبيد عن الحسن فى قوله عزّ وجلّ: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة:١٦] قال: الصلاة بين العشاءين. حتى قال أنس بن مالك رضى الله عنه وقد سئل عمن نام بين المغرب والعشاء، فقال: لا تفعل، فإنها هى الساعة التى وصف الله عز وجلّ المؤمنين بالقيام فيها، فقال عزّ وجلّ: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ يعنى: الصلاة بين المغرب والعشاء.

وقد أسند ابن أبى زياد[1] إلى النبى ﷺ أنه سئل عن هذه الآية: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ ، قال: الصلاةُ فيما بين العشاءين. ثم قال: عليكم بالصلاة فيما بين العشاءين، فإنها تَذْهب بِمُلاغاة أوّلِ النهار، وتُهذِّب آخِرَه[2].

قوله «الملاغاة» جمع: ملغاة، من اللغو، أى: تسقط اللغو، أى تطرح المطرح عن العبد من الباطل واللهو، وتهذب له آخره: أى تصفِّيه وتجوِّده.

ويُستحب العكوف فى المسجد بين العشاءين للصّلاة وتلاوة القرآن، فقد رُوى فَضْلُ ذلك، إلا أن يكون بيتُه أسلمَ له؛ لدخول آفةٍ عليه، فما سَلِم فيه فُضِّل به.

ثم ليصلِّ قبل العشاء الآخرة أربعًا وبعدها ركعتين، ثم أربعًا. ويقال: إن الأربع بعد صلاة العشاء فى بيته يَعْدِلْن مثلهن من ليلة القدر.

وكان رسولُ الله ﷺ يُصلّيهن فى بيته، أوّل ما يَدْخل قبل أن يجلسَ.

وكان ابنُ مسعود يكره أن يصلّى بعد كل صلاةٍ مثلها. وكانوا يستحبّون أن يصلّى بعد المكتوبة ركعتين، ثم أربعًا. وإن قرأ فى الأربع: فى الأولى: آية الكرسى والآيتين اللتين بعدها، وفى الثانية: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ

(١) فى المطبوعة والمخطوط (ك): «الزناد»، والصواب ما أثبت من الإتحاف ٥/ ١٥١. وقد نص الزبيدى على خطأ بعض نسخ القوت. وهو إسماعيل بن أبى زياد، قال الدارقطنى: هو متروك الحديث. انظر: الإتحاف ٥/ ١٥١.

(٢) انظر: الإتحاف ٥/ ١٥١.

ربّه﴾ [البقرة:٢٨٥] والآية قبلها، وفى الثالثة: أول الحديد إلى قوله عزّ وجلّ: ﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الحديد:٦]، وفى الرابعة: آخر الحشر من قوله تعالى: ﴿هُوَ اللهُ الذى لا إلهَ إلا هُوَ عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الحشر:٢٢] ـ فقد أحسن وأصاب.

فإن صلّى بعد الأربع ثلاث عشرة ركعة آخرهن الوتر إن أَحب، فإن هذا العدد أكثر ما رُوى أن النبى ﷺ صلّى به من الليل، إلا فى خبرٍ مقطوعٍ وهو سبعةَ عشر ركعة.

والمشهور: أنه كان يصلى إحدى عشرة ركعة، وثلاث عشرة ركعة، وربما حسبوا فيها ركعتى الفجر، واستُحِبّ له أن يقرأ فى ركوعه هذا ثلاثمائة آيةٍ فصاعدًا، فإذا فعل ذلك لم يُكتب من الغافلين، ودخل فى أحوال العابدين. فقد قيل: إن الأكياسَ يأخذون أوقاتهم من أول الليل، والأقوياءَ يأخذون أورادهم من آخر الليل. فإن قرأ فى ركوعه هذا سورة الفرقان وسورة الشعراء، ففيهما ثلاثمائة آية، فإن لم يحسنهما قرأ خمسًا من المفَصّل، فيهنّ ثلاثمائة آية: سورة الواقعة، وسورة نون، وسورة الحاقة، وسورة المدثر، وسورة سأل سائل. فإن لم يحسنهنّ قرأ من سورة الطارق إلى آخر القرآن ثلاثمائة آية.

ولا يُستحَبّ للعبد أن ينام حتى يقرأ هذا المقدار من الآى فى هذا العدد من الركوع، بعد صلاة العشاء الآخرة.

فإن قرأ فى هذا الورد الثانى، أعنى بعد صلاة العشاء الآخرة وقبل أن ينام، ألفَ آية، فقد استكمل الفضل، وكُتب له قنطار من الأجر، وكتب من القانتين.

وأفضل الآى أطولُها لكثرة الحروف، وإن اقتصرَ على قِصار الآى عند فتوره أدرك الفضل لحصول العدد. ومن سورة المُلك إلى آخِر القرآن ألف آية، فإن لم يحسن ذلك قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أحَدٌ﴾ مائتين وخمسين مرة، فى ثلاثَ عشرة ركعة، فإن فيها ألف آية، فهذا فضل عظيم. وفى الخبر: «مَنْ قرأها عشرَ مراتٍ بَنَى الله عزّ وجلّ له قصرًا فى الجنّة».

وروينا عن النبى ﷺ فى السّور التى لم يكن يدعها فى كل ليلة ثلاثة أحاديث أشهرها: «أنه لم يكن ينام حتى يقرأ سورة السجدة وتبارك الملك»(١).

والذى بعده: «أنه كان يقرأ فى كل ليلةٍ بنى إسرائيل والزّمَر»(٢).

والقريب منها: «أنه كان يقرأ المسبحات فى كلّ ليلة ويقول: فيها آية أفضل من ألف آية(٣).

قال: وكان العلماء يجعلونها ستًا، ويزيدون فيها: **﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾** [سورة الأعلى].

وفى الخبر: «كان رسول الله ﷺ يحب **﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾**»(٤).

فهذا يدل على أنه كان يكثر قراءتها.

ولا يدع أن يقرأ هذه الأربع سور فى كل ليلة: سورة يس، وسورة لقمان، وسورة الدخان، وتبارك الملك. فإن ضَمَّ إليها سورة الواقعة، وسورة الصّفّ، والحاقّة، والزُّمَر، فقد أكثرَ وأحْسَنَ(٥).

فإنْ لم يكن من عادته(٦) القيامُ من الليل قدَّم الوترَ بنيةِ الخَبرِ المروى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: «أوصانى رسول الله ﷺ أن لا أنام إلا على وتر».

وإن كان معتادًا لصلاةِ الليلِ، فالأفضل تأخيرُ الوتر إلا آخر صلاته من تهجّده

(١) أخرجه الترمذى من حديث جابر، باب فيما يقرأ من القرآن عند المنام، انظر صحيح الترمذى رقم ٢٧١٠.

(٢) أخرجه الترمذى من حديث عائشة: «كان لا ينام حتى يقرأ الزمر وبنى إسرائيل»، صحيح الترمذى، رقم ٢٧١١.

(٣) صحيح سنن الترمذى رقم ٢٧١٢ من حديث العرباض بن سارية بلفظ «خير من»، ووردت لفظة «آية» الأولى محرفة فى المطبوعة إلى «إنه».

(٤) رواه الإمام أحمد فى مسنده ١/ ٩٦ من حديث على، وقال عنه العراقى: سنده ضعيف. وهو فى مجمع الفوائد ٧/ ١٣٦، والكنز، رقم ٤٠٨٤.

(٥) من أول قوله «فى خبر مقطوع» فى الصفحة السابقة إلى هنا، نقله صاحب الإتحاف نصًا ٥/ ١٥٣.

(٦) فى المطبوعة: «عبادته» والصواب ما أثبت من الإتحاف ٥/ ١٥٣.

أو إلى السَّحر، على حديث ابن عمر رضى الله عنه: «صلاة الليل مثنى مثنى، فإذا خِفْتَ الصبح فأوتر بركعة»(١).

وفى حديث عائشة رضى الله عنها: «أوتر رسول الله ﷺ من أول الليل، ومن أوسطه، ومن آخره، وانتهى وتره إلى السَّحَر»(٢).

فإن نام على وتر، ورُزق القيامَ، لم يوتر بعده، وكفاه وِترُه الأوّل، على الخبر الذى جاء: «لا وِتران فى ليلة»(٣).

وقد قال بعض العلماء: يصلى ركعةً واحدة يشفع بها وتره من أول الليل، ثم يصلى صلاته من الليل، ويوتر آخر صلاته. وقد رُوى فى هذا أثر عن عثمان وعلى رضى الله عنهما.

وإن كان قد صلّى ركعتين من جلوس بعد وِتره الأول ثم استيقظ للصلاة شفعتا وِتْرَه الرّكعة الواحدة؛ لأنهما بمنزلة ركعة واحدة يشفع بها ركعة الوتر التى صلاها قبلها. ثم لِيُصَلِّ من الليل مستأنفًا ما بدا له، ثم يوتر بركعة واحدة فى آخر صلاته، فيكون له فى ذلك ثلاثة أعمال: قَصْرُ الأملِ، وتحصيلُ الوترِ، والوترُ من آخر الليل.

وكذلك كان رسول الله ﷺ يصلى ركعتين جالسًا بعد وتره، والله تعالى أعلم.

فليقرأ فيهما جالسًا بسورة الزلزلة، وسورة أَلهاكُم التكَاثُر، فقد جاء ذلك فى حديثين: أن النبى ﷺ كان يقرأ فيهما بذلك؛ لما فى الزلزلة والتكاثر من التخويف والوعظ. وفى رواية: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ﴾؛ لما فى سورة الكافرون من التنزيه من عبادة سوى المعبود، وإفراد العبادة لله سبحانه فيها بالتوحيد. وكان رسول الله ﷺ يقرأ بها عند النوم، وأوصى رجلاً بقراءتها عند مَنامه.

وتقديم الوتر مستحب لمن لم يكن عادته قيام الليل، ولمن كان الأغلب عليه النوم. وتأخير الوتر يكون لمن أخَّر صلاته قبل طلوع الفجر أفضل.

---

(١) أخرجه النسائى فى سننه، صحيح سنن النسائى، رقم ١٥٧٥.

(٢) صحيح سنن النسائى، رقم ١٥٨٧.

(٣) أخرجه النسائى من حديث قيس بن طلق، صحيح سنن النسائى، رقم ١٥٨٥.

وليقل بعد التسليم من الوتر: سبحانَ الملكِ القدوسِ ربِّ الملائكةِ والروحِ. جلّلتَ السمواتِ والأرضَ بالعظمةِ والجبروتِ، وتَعززْتَ بالقُدرةِ، وقهرتَ العبادَ بالموت. يقول هذا ثلاث مرات.

وهذا هو الورد الثانى من الليل، أعنى الصلاة بعد العشاء الآخرة إلى حد نَوْمةِ الناس، فقد أقسم الله عزّ وجلّ [به، تعظيمًا له وتشريفًا، لتوسطه بين آخر الليل وأول النهار][1] فى قوله: ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ [الانشقاق:١٧]، أى: وما جمع من ظلمته. وذكره الله عزّ وجلّ فى قوله: ﴿إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ [الإسراء:٧٨]، فهناك يَغْسِقِ الليل، وتستوسق ظلمته[2].

ثم ينام إن أحَبّ وهو على طهارة وعلى ذكر. وقد كان الصالحون لا ينامون إلا عن غلبة، ويكرهون التعمد للنوم، وهو التهيؤ للعادة، وقد كان منهم من يمهّد لنفسه بالنّوم، ليتقوّى بذلك على صلاة أوسط الليل وآخره، للفَضْل فى ذلك.

ومَنْ غَلَبه النوم حتى شَغَله عن الصلاة والذكر، فإنّ السُّنّة أن ينام حتى يَعْقل ما يقول، وينشط فى خدمته. وقد كان ابن عباس يكره النوم قاعدًا.

وفى الخبر: «لا تُكابِدُوا اللّيلَ»[3].

وقيل لرسول الله ﷺ: إنّ فلانةَ تُصلى من الليل، فإذا غَلَبها النَّوم تعلقت بحبل، فنهى عن ذلك، وقال: «لِيُصلّ أحدُكم من الليلِ ما تيسَّر، فإذا غلبه النومُ فليرقد»[4].

وقال: «اكْلَفُوا من العمل ما تطيقون، فإن الله تعالى لا يَمَلُّ حتى تَمَلُّوا»[5].

---

(١) زيادة من (ك).

(٢) غَسَق الليل: شدة ظلمته. وفى الإتحاف (٥/ ١٥٢): «وتستوثق ظلمته». وتستوسق: تجتمع، وتستوثق: تتأكد.

(٣) قال العراقى ١/ ٣٤٤: «رواه الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أنس بسند ضعيف»، وانظر: الإتحاف ٥/ ١٦٠.

(٤) أصله فى الصحيح من كتب السنن، صحيح سنن النسائى، رقم ١٥٤٩، باب الاختلاف على عائشة فى إحياء الليل.

(٥) صحيح سنن أبى داود، باب ما يؤمر به من القصد فى الصلاة، رقم ١٢١٩، من حديث عائشة.

وقيل له: إن فلانًا يصلّى الليل لا ينام، ويصوم الدهر لا يفطر. فقال ﷺ: «خير هذا الدين أيسره». ثم قال: «لكنى أنا أصلى وأنام، وأصوم وأفطر، فهذه سنتى، فمن رَغِب عن سنتى فليس منى»(١).

وقال ﷺ: لا تُشَادُّوا هذا الدين فإنه متينٌ، فمن يُشادُّه يَغْلِبُه، ولا تُبغِّض إلى نَفْسك عبادةَ الله عزّ وجلّ(٢).

والورد الثالث يكون بعد نَوْمة الناس، وهو التهجد؛ الذى ذكره الله فى قوله: ﴿ومنَ الليلِ فتَهَجَّدْ به نَافلَةً لَكَ﴾ [الإسراء:٧٩]، ولا يكون التهجد إلا بعد النوم، وتلك النومة هى الهجوع، الذى قال الله عزّ وجلّ: من القائمين آناء اللَّيْل، فقال تعالى: ﴿كَانُوا قَليلاً منَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الذاريات:١٧]. فالهجوع: النوم، والتهجد: القيام. وقد يقال: الهجود، أيضًا، وهذا يكون نصف الليل.

فهذا أوسط الأوراد، وهو يشبه الورد الأوسط من النهار، فى أفضل أوراده، وهو أفضل الأوراد وأمتعها للعبادة. وقد أقسم الله عزّ وجلّ به فى قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجى﴾ [الضحى:٢]. قيل: إذا سكن، وسكونه: هدوّه وسِنَةُ كلِّ عين فيه وغفلتها إلا عين الله تبارك وتعالى، فإنّه الحىّ [القيوم] الذى لا تأخذه سنة ولا نوم. وقيل: إذا سَجَى: إذا امتدّ وطَال. ويقال: إذا أظلم. وسئل رسولُ الله ﷺ: أىّ الليلِ أَسْمع؟ فقال: «جوفُ الليلِ الغَابر»(٣).

وروينا فى أخبار داود عليه السلام: إلهى إنّى أُحِبّ أن أتعبَّدَ لك فأىُّ وَقْتٍ تَقْبل؟ فأوحى اللهُ عزّ وجلّ إليه: يا داودُ لا تقم أوّلَ الليلِ ولا آخرَه؛ فإنّه من قام

---

(١) قال العراقى: «أخرجه النسائى من حديث عبد الله بن عمرو دون قوله: «هذه سنتى»، وهذه الزيادة لابن خزيمة، وهى متفق عليها من حديث أنس». وهو فى مشكل الآثار، للطحاوى، ٢/ ٨٨ وغيره.

(٢) هما حديثان، روى البخارى طرفًا منهما من حديث أبى هريرة، انظر فتح البارى ١/ ١١٦، وروى البيهقى فى سننه من حديث جابر: «إن هذا الدين متين...» وقال العراقى ١/ ٣٤٤: «ولا يصح إسناده».

(٣) صحيح سنن ابن داود، رقم ١١٣٧.

أوّله نام آخرَه، ومن قام آخره لم يقم أوّله، ولكن قم وسط الليل، حتى تخلوَ بى وأخلوَ بك، وارفع إلىَّ حوائجك.

والورد الرابع: يكون بين الفجرين، أحدُهما الفجر الأول وهو بُدوُّ سلطان شعاع الشمس إذا ظهرت من وراء الأرض الخامسة، وسطَع ضوءُها فى وسط السماء، حتى يقطعها بمقدار طلوع الفجر الأول، [فذلك الضياء الذى يظهر فى السماء فى الثلث الأخير من الليل هو الفجر الأول][1]، ثم تغرب [الشمس] فى الفلك الأسفل المتُجَانِف وتحجُبها الأرضُ السّادسة، فيذَهب [ذلك] الضوء [الذى ظهر فى السماء]، ويعود سواد الليل كما كان، لغيبة الشمس، وهو الثلث الأخير.

وفيه وردت الأخبار؛ باهتزاز العرش، وانتشار الرياح من جنّات عدن، ومن نزول الجبّار إلى سماء الدنيا. وفيه الخبر الذى جاء أنّ النبى ﷺ سُئل: أىُّ الليلِ أفضلُ؟ فقال: «نصفُ الليل الغابر» يعنى: الباقى.

وهذا هو الورد الرابع من نصف الليل إلى وَقْتِ السّحر الأول.

ثم يدخل الورد الخامس: وهو السَّحَر الأخِيرُ، وفيه يُسْتَحبُّ السُّحور، فمن لم يتسحَّر فى أوله بَغَتَهُ الفَجْرُ، وهو قبل طلوع الفَجْر الثانى بمقدار قراءة جزء من القرآن.

فى هذا الورد الخامس: الاستغفارُ، وقراءةُ القرآن، وقد ذكره الله عزّ وجلّ فى قوله: ﴿وَقُرآنَ الفَجْرِ إنَّ قُرآنَ الفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]. قيل: تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار، لتوسط هذا الورد بينهما.

ومن ذلك ذهب أهل الحجاز إلى أن الصلاة الوسطى التى نصّ الله تعالى على [إفراد] المحافظة عليها هى صلاة الفجر، تعظيمًا لهذا الوقت، وتشريفًا له، لتوسطه بين آخر الليل وأول النهار.

---

(١) من كتاب الغنية، لعبد القادر، ٣/١٠١١، حيث نقل عنه، وكذلك فى الموضعين التاليين.

فهذا الوردُ هو أقصر الأوراد، ومن أفضلها، وهو من السَّحَر الأوّل إلى طُلوع الفجرِ الثانى، إلا ما كان من صلاة نصف الليل، فذلك هو أفضل شىءٍ من الليل، وهو أوسط الأوراد؛ لأنه هو الورد الثالث.

ويصلح فى هذا الورد الخامس من السَّحَر الأخيرِ الصّلاةُ لمن استيقظ من ساعته، أَوْ لمن تمّم به صلاته. فالصلاةُ فيه لها فضلٌ وشرف، وهو بمنزلة الصّلاة فى أول الليل بين العَشاءين. ولأن معنى قوله عزّ وجلّ عند بعض المفسرين: ﴿وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات:١٨]: أى يُصلون.

وكذلك قوله عزّ وجل: ﴿وَقُرْآنَ الفَجْرِ﴾ [الإسراء:٧٨]، يعنى به: الصلاة، فكنَّى بذكر[١] القرآن والاستغفار عن الصلاة؛ لأنهما وصفان منها، كما قيل للصلاة: تسبيحٌ، وَسُبْحَةٌ؛ لأن فيها التسبيح. وكذلك يقال للصلاة: استغفار؛ لأنه يُطلب بها المغفرة.

وتكون هذه الصلاة فى السحَر، بدلاً من السُّجود[٢] إلى طُلوع الفجرِ الثانى. وقد أمر بها سلمانُ أخاه أبا الدرداء ليلةَ زاره، فى حديث طويل، قال فى آخره: «فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء ليقوم، فقال له سَلْمان: نم، فنام، ثمّ ذهب ليقوم فقال له: نم، فنام. فلما كان عند الصبح قال له سَلْمان: قم الآن، فقاما فصلَّيا، فقال: «إنّ لنَفْسك عَليك حقًا، وإن لأهلك عليكَ حقًا، وإن لربّك عليك حقًا، وإن لضيفِك عَلَيك حقًا، فأعطِ كلَّ ذِى حَقٍّ حقَّه».

وذلك أن امرأةَ أبى الدرداء أخبرت سَلْمان أنه لا ينام الليل، قال: فأتيا النبى ﷺ فذكرا ذلك له، فقال: «صَدَق سلمان».

وهذا الورد الخامس يشبه الوردَ السابع من النهار قبل الغروب، فى فضل وقتيهما، وهذا قبل الفجر الثانى.

والفجر الثانى: هو انشقاقُ شفقِ الشمس، وهو بدوّ بياضها، الذى تحته

(١) فى (ط): «بذلك» وأثبت ما فى الإتحاف ٥/ ١٦٦.

(٢) فى (ط): «السحور» وأثبت ما فى (ك) والإتحاف ٥/ ١٦٦.

الحُمرة، وهو الشَّفَق الثانى على ضدّ غروبها؛ لأنَّ شفقها الأوّل من العشاء وهو الحمرة بعد الغروب، وبعد الحمرة البياض، وهو الشفق الثانى من أوّل الليل، وهو آخر سلطان الشمس. وبعد البياض سوادُ الليلِ وغسقه، ثم ينقلب ذلك إلى الضد، فيكون بدوّ طلوعها الشفقُ الأوّل وهو البياض، وبعده الحمرة وهو شفقها الثانى، وهو أول سلطانها من آخر الليل، وبعده طلوع قرص الشمس.

والفجر: هو انفجارُ شعاعِ الشمس من الفلك الأسفل، إذا ظَهرت على وجهِ الأرض الدّنيا، يستر عَيْنَها الجبالُ والبحارُ والأقاليم المشرِقَة[1] العالية، ويظهر شعاعها منتشرًا إلى وسط السماء عرْضًا مستطيرًا. فهذا آخر الورد الخامس، وعنده يكون الوتر.

فإذا طلع الفجر فقد انقضت أوراد الليل الخمسة، ودخلت أوراد النهار. فانظر هل دَخلْتَ فى دُخوله عليك فى جُملة العابدين، أم خرجَ عنك وأنتَ فيه من الغافلين؟ وتفكَّر أىّ لبسةٍ ألبسك، فإنّ الليلَ جُعل لباسًا، هل أُلبست فيه حُلَّة النّور بتيقظك فتربحَ تجارة لن تبور، أم ألبسك الليلُ ثوب[2] ظلمتِه فتكون ممّن مات قلبُه بموتِ جسده بغفلته[3]؟ [نعوذ بالله من سَخَطِه وبُعده].

ثم يقوم العبد حينئذ فيصلّى ركعتى الفجر، وهما معنى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدبَارَ النُّجُوم﴾ [الطور:٤٩]. قيل: ركعتى الفجر.

ثم يقرأ: نعوذ بالله من سخطه، وبعده: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّه لا إِلَه إلا هُو﴾ [آل عمران:١٨] إلى آخرها، ويقول:

أنا أشهدُ بما شَهِد الله به لنفسه، وشهِدَتْ به ملائكته، وأولو العلم من خَلْقه. وأستودعُ اللهَ العظيمَ هذه الشهادةَ، وهى لى عند الله وديعة حتّى يؤديها، وأسأله حِفْظها حتى يتوفانى اللهُ عليهـا. اللّهم احْطُط بها عنّى وِزْرًا، واجعل لى بها

---

(١) فى المطبوعة: «المسروقة» والصواب من (ك) والإتحاف ٥/ ١٦٧.

(٢) فى الإتحاف ٥/ ١٦٨: «بثوب».

(٣) فى المطبوعة: «بغفلتك» وأثبت ما فى المخطوطة، وما بين المعكفتين بعدها من الإتحاف ٥/ ١٦٨.

عندك ذُخرًا، واحفظنى بها، واحفظَها علىّ، وتوفَّنى عليها حتى ألقَاكَ بها غير مبدِّل تبديلاً.

وأفضل ما عمل العبدُ فى وِرْد من أورادِ الليل والنهار، بعد القيام بفرضٍ يلزمه، أو قضاءِ حاجةِ لأخيه المؤمن يعينه [عليها]: الصلاةُ، بتدبُّر الخِطاب، ومشاهدة المخاطَب، فإنّ ذلك يجمع العبادة كلَّها، ثُمّ من بعد ذلك: التلاوةُ، بتيقُّظِ عَقْلٍ، وفَراغِ همٍّ. ثُمَّ أىُّ عملٍ فُتح له فيه؛ من فِكرٍ، أو ذِكْرٍ برقّة قلبٍ وخُشوعِ جوارحٍ ومشاهدةِ غيبٍ، فإن ذلك أفضلُ أعماله فى وقته.

* * *



الفصل التاسع

فيه ذكر وقت الفجر، وحكم ركعتيه؛ الأداء والقضاء، وحكم الوتر، ووقت القضاء له والأداء

وفي الشهر ليلتان يُعتبر بهما وقتُ الفجر: إحداهما: يطلع القمرُ فيها عند طلوع الفجر الأول، وهي ليلة ستٍ وعشرين. والأُخرى: يغيب القمر فيها عند طلوع الفجر، وهي ليلة اثنتي عشرة من الشهر. ومن طلوع الفجر إلى طلوع الشمس مقدارُ ثلثي سُبْع تلك الليلة. وهذا يكون في الصيف، ويكون في الشتاء أقلّ من ذلك؛ لأنّه يكون نصفَ سُدسِ تلك الليلة. وهذا الورد الأول من النهار، ووقت الأداء للوتر من بعد صلاة العشاء الآخرة إلى طلوع الفجر الثاني.

فإذا طلع الفجر الثاني فقد ذهب وقت الأداء، وهو وقت القضاء للوتر، فليصلِّ الوترَ حينئذ مَنْ لم يكن أدّاه إلى قبل صلاة الصبح.

فإذا صلّى الصبحَ ذهب وقتُ قضاء الوترِ أيضًا.

ووقتُ الأداءِ لركعتي الفجرِ إذا طلع الفجرُ الثاني، فالمستحب له أن يصليهما في منزله، وقبلَ صلاة الغداة. والسُّنّة أن يخففهما، فإذا صلّى الصبح ولم يكن صلاهما فقد ذهب وقت الأداء، وبقي له وقت القضاء، فليُمهل حتى تطلع الشمس، وتحلَّ الصلاة، فَلْيُقدِّمها على سُبْحة الضحى، وهذا وقت القضاء لركعتي الفجر إلى صلاة الظهر.

فإذا صلّى الظهر، ولم يكن صلاهما، فقد ذهب وقت قضائهما أيضًا.

ومن فاتَه وِرْدٌ من الأوراد فاستُحبّ له فعل مثله في وقته، أو قبلَه إذا ذكره، لا على وجه القضاء، فإنه لا يُقضى إلا الفرائض، ولكن على وجه التدارك ورياضةِ النفس بذلك؛ ليأخذ بالعزائم؛ كيلا يعتاد التراخي والترخّص؛ ولأجل الخبر المأثور: «أحب الأعمالِ إلى الله عزّ وجلّ أَدْوَمُها وإن قَلَّ»[1].

(١) رواه مسلم، كتاب المسافرين، رقم ٢١٨، وهو في المسند ٦/ ١٦٥.

كيف، وفى حديث عائشة رضى الله عنها الوعيدُ على ترك العادة فى العبادة، رَوَتْ عن النبى ﷺ: «من عبد اللهَ تعالى عبادةً ثم تركها ملالةً مَقَته اللهُ تعالى»[١].

وقالت: «كان رسولُ الله ﷺ إذا غلبه النومُ أو عاقه مرضٌ، فلم يقم فى تلك الليلة، صلَّى من النهار اثنتى عشرة ركعة».

ومن دخل المسجدَ لصلاةِ الصبح، ولم يكن صَلّى ركعتى الفجرِ فى منزِله، صلاهما واجزأتا عنه من تحية المسجد. ومن كان قد صلاهما فى بيته نظر؛ فإن كان دخولُه المسجدَ بغَلَس عند طلوعِ الفجر واشتباكِ النّجوم صلّى ركعتين تحية المسجد، وإن كان دخولَه عند امحاقِ النّجومِ ومُسْفِرًا عند الإقامة قعدَ ولم يصلِّ ركعتين؛ لئلا يكون جامعًا بين صلاةِ الصبح وبين صلاةٍ قبلها.

ولا يصلّى بعد طلوعِ الفجر الثانى شيئًا إلا ركعتى الفجر فقط.

ومن دخل المسجد ولم يكن صلّى ركعتى الفجر، فإن كان قبل الإقامة صلاهما، وإن دخل وقتُ الإقامةِ وقد افتتح الإمامُ الصلاةَ، فلا يصلّيهما، وليدخل فى الصلاة المكتوبة فإنه أفضل، والنّهى فيه. روينا عن رسول الله ﷺ: «إذا أُقيمت الصلاةُ فلا صلاةَ إلا المكتوبة»[٢].

وليقل مَنْ قعدَ فى المسجدِ من غير صلاةِ ركعتين تحيةَ المسجد: سبحانَ اللهِ، والحمد لله، ولا إله إلا اللهُ، واللهُ أكبرُ، هذه الأربع كلمات، يقولها أربع مرات، فإنها عِدْلُ ركعتين فى الفَضل.

وكذلك من دخله وكان على غيرِ وُضوء، أو مرّ فى المسجد عابرَ طريقٍ.

ومن دخل مسجدًا فلا يقعد حتى يصلّى ركعتين، وأَكْرَهُ له دُخولَ المسجدِ والقُعودَ فيه على غَيْرِ وُضوء[٣].

---

(١) قال العراقى: «رواه ابن السنى فى كتاب رياضة المتعبدين موقوفًا على عائشة» الإتحاف ٣/ ٣٦٢، والإحياء ١/ ٢٠٥.

(٢) حديث صحيح ورد فى معظم كتب السنة، انظر منها: صحيح سنن أبى داود رقم ١١٢٧.

(٣) قد جمع الزبيدى فى أمر تحية المسجد أقوالاً ومذاهب وتفسيرات طيبة، راجعها فى الإتحاف ٣/ ٤٥٨ ـ ٤٦٣.

الفصل العاشر (١)

فيه كتاب معرفة الزوال، وزيادة الظل ونقصانه بالأقدام واختلاف ذلك فى الصيف والشتاء

قال الله جلت قدرته: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً﴾ [الفرقان: ٤٥]. وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ الآية إلى قوله: ﴿عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [الإسراء: ١٢]. وقال سبحانه: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥].

وفى حديث أبى الدرداء وكعب الأحبار، فى صفة هذه الأمة: «يراعون الظّلال لإقامة الصلاة».

وأحبُّ عبادِ الله إلى الله عزّ وجلّ الّذين يراعون الشّمس والقَمر والأظِلّة لذكرِ الله عزّ وجلّ.

وقال بعضُ العلماء بالحساب والأثر من أهل الحديث: إنّ الليلَ والنهارَ أربعٌ وعشرون ساعة، وإنَّ السّاعةَ ثلاثون شعيرةً، يأخذ كلٌّ واحدٍ منهما من صاحبه فى كل يوم شعيرةً، حتى تُستكمل السّاعةُ فى شهْر، وبين أولِ الشّهر وآخرِه ثلاثون درجةً، الشّمسُ كل يومٍ فى دَرجةٍ.

قال: وتفسيرُ ذلك: أنه إذا مَضَى من أيلول سبعة عشر يومًا استوى الليل والنهار. ثم يأخذ الليلُ من النّهار من ذلك اليوم فى كل يوم شعيرةً، حتى يستكمل ثلاثين يومًا، فيزيد ساعة حتى يصير سبعة عشر يومًا من كانون الأول،

(١) معظم هذا الفصل نقله صاحب الإتحاف بنصه ولفظه مع اختلافٌ يسير فى ترتيب بعض الأخبار، انظر: ٣/ ٣٤٠ وما بعدها. وكذلك نقله صاحب الغنية باستبعاد بعض الأخبار والكلام، انظر: الغُنية ٣/ ١١٠٥. وكانت هناك اختلافات يسيرة فى الألفاظ بين الإتحاف والقوت، أثبت بعضها فى الحواشى هنا وأضربت عن البعض.

فينتهى طولُ الليل وقصرُ النهار، وكانت تلك الليلة أطول ليلة فى السنة وهى خمسةَ عشرَ ساعة، وكان ذلك اليومُ أقصرَ يومٍ فى السّنة وهو تسع ساعات.

ثم يأخذ النهارُ من الليل كلَّ يومٍ شعيرةً، حتى إذا مضى سبع عشرة ليلة من آذار استوى الليلُ والنهارُ، وكان كلٌّ واحدٍ منهما اثنتى عشرةَ ساعة. ثم يأخذ النّهارُ من الليل كلّ يومٍ شَعيرة، حتى إذا مَضى سَبْعةَ عشر يومًا من حُزيران كان نهاية طولِ النهار وقصر الليل، فيكون النهارُ يومئذ خمسَ عشرة ساعة، والليل تسع ساعات.

ثم ينقص من النهار كل يوم شعيرةٌ، حتى إذا مضى سبع عشرة ليلة من أيْلُول استوى الليلُ والنهارُ، ثم يعود الحساب على ذلك.

قال: فمواقيتُ الصلاةِ من ذلك أن الشمس إذا وقفت فهو قبل الزوالِ، فإذا زالت بأقل القليل فذلك أول وقت الظهر، فإذا زادت على سبعة أقدامٍ بعد الزوالِ فذلك أوّلُ وقتِ العصر؛ وهو آخر وقت الظهر.

قال: والذى جاء فى الحديث: «إن الشمس إذا زالت بمِقْدارِ شِراكٍ، فذلك وقتُ الظُّهر إلى أن يصيرَ ظلُّ كلِّ شىءٍ مثله، فذلك آخر وقت الظهر وأول وقت العصر»[1].

وهكذا صلّى رسولُ الله ﷺ فى أول يومٍ، ثم صلّى من الغد الظهر حين صار ظلُّ كل شىءٍ مثله، فذلك آخرُ وقتِ الظهر وأوّلُ وقتِ العصر، ثم صلّى العَصْرَ حين صارَ ظلُّ كلّ شىءٍ مثليْه، وقال: ما بين هذين وقتٌ. فإذا أردت أن تقيسَ الظّل حتّى تعرفَ ذلك، فانصب عودًا، أو قم قائمًا فى موضعٍ من الأرض مستوٍ، ثم اعرِف موضعَ الظّل ومُنتهاه، فخطّ على مَوضع الظّل خطًا، ثم انظر: أينقصُ الظلُّ أم يزيد؟

فإن كان الظلُّ ينقُص، فإن الشمس لم تَزُل بعدُ، ما دام الظّل ينقص.

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه بلفظ مختلف، فى كتاب الصلاة، باب فى المواقيت، انظر صحيح أبى داود رقم ٣٧٧، وذلك من حديث ابن عباس.

فإذا قام الظل، فذلك نصف النهار، ولا يجوز فى هذا الوقت الصلاة.

فإذا زاد الظل، فذلك زوالُ الشمس إلى طُول ذلك الشىء الذى قستَ به طولَ الظّل، وذلك آخر وقت الظهر.

فإذا زاد الظّلُّ بعد ذلك قَدَمًا فقد دخل وقتُ العصرِ، حتى يزيد الظلُّ طول ذلك الشىء مرةً أخرى، فذلك وقتُ العصر الثانى.

فإذا قُمتَ قائمًا تريد أن تقيس الظل بطُولك، فإن طولَك سبعةُ أقدام بقدمك، سوى قدمك التى تقوم عليها، فإذا قام الظّل، فاستقبل الشمس بوجهك، ثم مُرْ إنسانًا يعلِّم طرفَ ظِلّك[1] بعلامةٍ، ثم قِسْ من عَقِبك إلى تلك العلامة، فإن كان بينهما أقلُّ من سبعة أقدام، سوى ما زالت عليه الشمس من الظلّ، فإنّك فى وقت الظهر ولم يدخل وقتُ العصر؛ حتى يزيد الظّلّ على سبعةِ أقدام، سوى ما تزول الشمس عليه من الظّل، فذلك وَقْتُ العصرِ.

ثم إنّ الأقدامَ تختلفُ فى الشّتاء والصّيف، فيزيد الظّل ويَنْقصُ فى الأيام. فمعرفة ذلك: أنّ استواءَ الليلِ والنهار فى سبعةَ عشرَ يومًا من آذار، فإنّ الشمس تزول يومئذ وظِلُّ الإنسانِ ثلاثةُ أقدام. وكذلك ظِلُّ كلِّ شىءٍ تنصبه، فإن الشمس تزول يومئذٍ وظِلُّ كلِّ شىء[2] ثلاثةُ أسباعه.

ثم ينقُص الظِّل، وكُلّما مضَت[3] ستة وثلاثون يومًا نقَصَ الظِّل قدمًا، حتى ينتهى طولُ النهارِ وقِصَرُ الليلِ فى سَبْعةَ عشرَ يومًا من حُزَيران، فتزول الشمس يومئذٍ وظلُّ الإنسانِ نصفُ قَدَمٍ، وذلك أقل ما تزولُ عليه الشّمسُ.

ثم يَزِيدُ الظّل، فكلما مَضَت ستةٌ وثلاثون يومًا زاد الظلُّ قَدَمًا، حتى يستوى الليلُ والنّهار فى سبعة عشر يومًا من أيلول، فتزول الشمسُ يومئذٍ والظّلُّ على ثلاثةِ أقدام.

(١) فى (ط): «ذلك» وأثبت ما فى الإتحاف ٣/ ٣٤١ لأنه أدق.

(٢) فى الغنية ٣/ ١١٠٥: «وظل ذلك الشىء».

(٣) فى (ط): «أمضى» وأثبت ما فى الإتحاف ٣/ ٣٤١.

ثم يَزِيدُ الظِّل، وكلّما مضى أربعةَ عشرَ يومًا زاد الظلُّ قَدَمًا، حتى ينتهى طولُ الليلِ وقِصَرُ النهارِ، وذلك فى سبعةَ عشرَ يومًا من كانون الأول، فتزول الشمس يومئذ على تسعةِ أقدام ونصفِ قدمٍ، وذلك أكثرُ ما تزولُ الشمس يومئذٍ عليه.

ثم كلّما مضى أربعةَ عشرَ يومًا زاد الظل قدمًا، حتى ينتهى إلى سبعةَ عشرَ يومًا من آذار، فذلك استواءُ الليلِ والنهار. وتزول الشمسُ على ثلاثةِ أقدامٍ، وذلك دخولُ الصّيفِ.

وزيادة الظّل ونقصانه الذى ذكرناه، فى كل ستة وثلاثين يومًا، قدمٌ فى الصيف والقيظ. وزيادتُه فى كلِّ أربعةَ عشرَ يومًا قدمٌ فى الرّبيع والشتاء.

وهذا ذكرهُ بعضُ علماءِ المتأخرين من أهل العلم بالنجوم.

وقد ذكر غيرُه من القدماء قريبًا من هذا، وذكر زوالَ الشمسِ بالأقدام فى شهر تشْرين. وخالف هذا فى حدّين من نهاية الطول والقصر قدمين، فذكر أنّ أقلَّ ما تَزولُ عليه الشمسُ فى حُزيران على قَدَمين، وأن أكثرَ ما تزولُ عليه الشمسُ فى كانون ثمانيةُ أقدامٍ.

فكان الأوّل هو أدقّ تحديدًا، وأقومُ تحريرًا.

وذكر أنّ الشمس تزولُ فى أيلول على خَمْسةِ أقدامٍ، وفى تشرين الأوّل على ستة، وفى تشرين الأخير على سبعةٍ، وفى كانون على ثمانيةٍ. قال: وذلك منتهى قصر النهار وطول الليل، وهو أكثرُ ما تزول عليه الشمس.

قال: ثم ينقص الظل ويزيد النهار؛ فتزول الشمس فى كانُون الأخير على سبعة أقدام، وتزول فى شِباط على ستّة أقدام، وفى آذَار على خَمْسة، وذلك استواءُ الليلِ والنّهار. وتزول فى نِيسان على أربعة أقدام، وتزول فى آيار على ثلاثة أقدام، وتزول فى حزيران على قدمين. فذلك منتهى طولِ النهار وقصر الليل، وهو أقل ما تزول الشمس عليه، فيكون النهار حينئذ خمسَ عشرةَ ساعة، والليل تسعَ ساعات.

وتزول الشمس فى تموز على ثلاثة أقدام، وفى آب على أربعة أقدام، وفى

أيلول على خمسة أقدام، وفيه يستوى الليل والنهار[١].

وقد روينا عن سفيان الثورى رحمه الله [أنه قال]: أكثر ما تَزولُ عليه الشمسُ تسعةُ أقدامٍ، وأقلُّ ما تزول عليه قدم [واحدة].

وهذا أقرب إلى القول الأول فى التحديد.

وقد جاء فى ذِكر الأقدامِ لوقتِ الصلاة أثرٌ من سُنَّةٍ، فلذلك ذَكرنا مِنها ما شَرَحه مَن عرفه.

روينا عن أبى مالكٍ سعد بن طارق الأشعرى، عن الأسود بن زيد، عن ابن مسعود قال: «كان قدرُ صلاةِ الظهر مع رسول الله ﷺ فى الصَّيفِ ثلاثةَ أقدامٍ إلى خمسةِ أقْدام، وفى الشتاء خمسةَ أقدامٍ إلى ستةِ أقدام»[٢].

وفَصْلُ الخِطابِ: أن معرفةَ الزوالِ بهذا التحديدِ ليس بفَرْضٍ، ولكنْ صلاةُ الظهرِ بعد تيقن زوالِ الشمسِ فَرْض.

فمتى زالتِ الشمسُ بمبلغ علمك، ويقين قلبك، ومنظرِ عينك، فكانت الشمس على حاجبك الأيمنِ فى الصّيف إذا استقبلت القبلة، فقد زالت لا شكّ فيه، فصَلِّ إلى أن يكون ظِلُّ كل شىءٍ مثله، فهذا آخر وقت الظهر وأوّل وَقْت العصر.

ثم صلِّ العَصْر إلى أن يَصير ظلُّ كل شىء مثليْه، فهذا آخر وقت العصر المستحب.

ثم إلى أن تصفَرّ الشّمسُ، وتَدَلَّى لِلغروب، فهذا وقتُ الضَّرُورات، وهو مكروهٌ إلا لمريضٍ أوْ مَعْذُورٍ.

وروى عن النبى ﷺ: «من أدرك من العصر ركعةً قبلَ أَنْ تَغرُب الشمسُ فقد أدرك العصر. ومن أدرك من الصُّبح ركعةً قبل أن تطلعَ الشمسُ فقد أدركَ الصُّبح»[٣].

---

(١) انظر: الإتحاف ٣/ ٣٤٢.

(٢) شرح السنة للبغوى ٢/ ٢٠٢، والإتحاف ٣/ ٣٤٧.

(٣) أقرب الألفاظ إلى لفظ هذا الحديث هنا ما أخرجه النسائى من حديث أبى هريرة فى كتاب المواقيت، باب من أدرك ركعتين من العصر، انظر: صحيح النسائى رقم ٥٠١.

فإذا كانت الشمس على حاجبك الأيسرِ، وأنت مستقبلٌ القبلةَ فى الصّيفِ، فإنّ الشمسَ لم تزل فى مبلغِ علمك ومنظرِ عينك.

فإذا كانَتْ بين عيْنَيك فهو استواؤها فى كَبِد السماء، نَظَرَ عينك. ويصلُح أن تكون قد زالت لِقصَرِ النّهار، وفى أول الشتاء. وقد لا تكون زالت إذا طال النّهار، وتوسّط الصّيف.

فإذا صارَتْ إلى حاجبك الأيمن، فقد زالت فى أىّ وقتٍ كان.

ثم إن هذا يختلفُ فى الشتاء، فإذا كانت على حاجبك الأيسر فى الشتاء، وأنت متسقبلٌ القبلة، فيصلح أن تكون زالت لقصر النهار، فى أول الشتاء. وقد لا تكون زالت إذا امتدّ النهار، فى أول الصيف.

فإذا كانت الشمس بين عينيك فى الشتاء فقد زالت لا شَكَّ فيه، فصَلِّ الظهر. فإذا صارت إلى حاجبك الأيمن، فهذا آخر وقت الظهر فى الشتاء، وهو أولُ وقتِ الظّهر فى الصّيف. وهذا التّقديرُ إنَّما هو لأهل إقليمِ العِراق وخُرَاسان؛ لأنّهم يُصلّون إلى الحجر الأسود وتلقاءِ البابِ من وِجْهَةِ الكَعْبة.

فأما إقليمُ أهلِ الحجاز واليمنِ، فإن تَقْديرَهم على ضدِّ ذلك، وقبلتهم إلى الركن اليمانى، وإلى مؤخر الكعبة. فلذلك اختلف التقدير، وتضادَّ الاختلاف للتوجه إلى شطر البيت، وتفاوت الأمصار فى الأقاليم المستديرة حوله، فهذا كان تقدير المتقدمين. وما سوى ذلك من التدقيق والتحرير فمُحْدَث إلا أنه عِلْمٌ لأهلِه.

ومن أشكل عليه الوقتُ؛ لجهلٍ بالأدلة، أو لغيمٍ اعترض، فليتحرَّ بقلبه، ويجتهد بعمله، ولا يصلِّ صلاةً إلا بعد تيقن دخول وقتها، وإن تأخّر ذلك فهذا أفضل حينئذ. ولكن قد جاء فى الخبر: «ثلاثٌ من مَناقب الإيمان: الصّيامُ فى الصّيف، وإسباغ الوُضوءِ فى الشتاء، وتَعجيلُ الصلاةِ فى يومِ دَجْن»[١].

---

(١) لم أعثر عليه، ولا يوجد بلفظه، وإن كانت هناك أحاديث فى بيان فضيلة الصيام فى يوم شديد الحر، وإسباغ الوضوء على المكاره، وتعجيل الفطر. وقوله «يوم دجن»: يقصد به إلباس الغيم الأرض وأقطار السماء.

ومن أمثال العرب: «يوم الدَّجْن يُضرب فيه عَبْدُ السُّوء».

هذا؛ لأن الوقتَ فى الغيم كأنه يقصر لغيبة الشمس، فيغفل الإنسان عن مراعاة الوقت، أو يتشاغل عنه؛ لأن الفرائض لا تُقبل إلا عن يقين، فأداؤها بعد دخول الوقت على اليقين أفضل من أدائها فى الوقت على الشّك. ألم تسمع إلى قوله ﷺ: «فإن غُمَّ عَلَيكم فأكْمِلُوا عَدَد شَعْبان ثَلاثين»[(١)]؟ فترك الاحتياط لليقين.

ومن صلّى وهو يرى أنه الوقت، أو توجّه إلى القبلة فيما يعلم، ثم تبين له بعدُ أنّه صلّى قبل الوقت، أو صلى لغير القبلة، نظر: فإن كان فى الوقت أو بعده قليلاً أعاد الصلاةَ احتياطًا، وإن كان الوقت قد خرج فلا شىء عليه، وهو معفو الخطأ، وأحبُّ أن يعيد تلك الصلاة متى ذكرها.

وقال بعضُ العلماء: للشمس سبعةُ أزْولة. ثلاثةٌ منها لا يعلم بها البشر:

الزّوالُ الأول: تَزوُّله[(٢)] عن قُطْبِ الفُلْك الأعلى، لا يَشْهده ولا يعلمه إلا الله عزّ وجلّ.

والزوال الثانى: عن وسَط الفُلك لا يعلمُه من خَلْق الله تعالى إلا خُزّانُ الشمسِ الموكَّلون بها، الذين يرمونها بجبالِ الثّلج ليسكن حرّهُا، ويحتبسون شعاعها عن العالمين، ويسوقونها على العجلة المركَّبة فى الفلك.

والزّوال الثالث: يعلمه ملائكةُ الأرض.

ثم إنّ الزوال الرابع: يكون على ثلاث دقائق، وهو رُبع شَعيرة، والشعيرةُ: جزء من اثنى عشر جزءًا من ساعةٍ، فهذا الزوال تعرفه الفلاسفةُ من المنجِّمين أهلُ العلم بمساحة الفُلك، وتركيبِ الأفلاك فيه، وتقدير سَيْر الشمس فى الشّتاء والصّيف فى فلكها منه، فيقوّمون ذلك بالنّظر فى المرتجلات[(٣)] الطّالعة على التقويم.

فإذا زالت الشمسُ الزوالَ الخامس نصفَ شعيرةٍ، وهى ست دقائق، عرَف

(١) روى كثيرًا بألفاظ متقاربة، انظر: صحيح سنن النسائى من رقم ١٩٩٧ إلى رقم ٢٠١١.

(٢) فى المطبوعة: «نزوله» وأثبت ما فى الإتحاف ٣/ ٣٤٠ والمخطوط.

(٣) فى الإتحاف ٣/ ٣٤٠: «المرتحلات» بالحاء المهملة.

زوالها أهلُ الحساب والتقاويم بالإسطرلاب الطالع.

فإذا زالت شعيرةً، وهو الزوال السادس المشترك، وهو جزء من اثنى عشر جزءًا من ساعة، عَرفَ زَوالَها علماءُ المؤذنين وأصحابِ مراعاة الأوقات.

فإذا زالت ثلاث شُعيرات، فهو الزّوال السّابع، وهو ربع ساعة، عرف الناسُ كلُّهم زوالها، وعند هذا الوقت صلاةُ الكافة، وهو أوسط الوقت وأوسعه، وذلك واسع برُخصة الله سبحانه وتعالى ورحمته.

وهذا كله؛ لبُعد منصبِ السّماء؛ ولاستواء تقويم صنعتها فى الأفق الأعلى؛ ولإتقان[1] صنعتها فى الجو المتخرق علوًا، وفى الأقطار المتسعة المستديرة استواءً وامْلِساسًا[2].

وقد يروى فى الخبر أن النبى ﷺ سأل جبريلَ عليه السلام فقال: «هل زالت الشمس؟ فقال: لا، نعم. فقال: كيف هذا؟ فقال: بين قولى لك: لا، نعم، قطعت الشمسُ فى الفلك خمسين ألْفَ فرسخ»[3]. فكأنّ النبى ﷺ سأله عن زوالها على علم الله سبحانه وتعالى به.

وقد قال بعضُ الفلاسفة: إن السماء تدور كما تدور الرحى، فتدير الأفلاكَ بدَورانها على القطب، ولكن لا يُرى ذلك منها، لبعدها وعلوها وتقويم استدارتها.

وقد ذكره بعض العلماء من السّلف، فتبارك الله أحسن الخالقين.

وذكر بعضُ العارفين أعجب من هذا وألطف، من قدرة الله عز وجل وخفىّ صُنعه، ذكر: أنّ الليلَ والنهار أربعة وعشرون ساعة، وأن الساعة اثنتا عشرةَ دقيقة، كلُّ دقيقة اثنتا عشرَةَ شعيرة، وكلُّ شعيرةٍ أربعة وعشرون نَفَسًا. فتظهر الأنفاسُ من خِزانة الجسمِ، فتُنشىء الشعائر، وتنشأُ الشعائر فتُظهر الدقائق، فتنتج

(١) فى الإتحاف ٣/ ٣٤٠: «ولاتفاق».

(٢) فى المطبوعة: «ومتناسبًا» وأثبت ما فى الإتحاف ٣/ ٣٤٠.

(٣) قال عنه العراقى ٤/ ٤٤٥: «لا أصل له» ، وانظر: الغنية ٣/ ١١٠٨.

الساعات، وتتحرك الساعات فتُدير الأفلاكَ، وتدور الأفلاكُ فتُنشر الليلَ والنّهارَ فى الجَوِّ والأقطارِ، ويُنشر الليلُ والنهارُ فتُدير السّماءَ فى الآفاق، وينعقد الحسبانُ بالتفصيل. فإذا خفى الإحساسُ انقطعت الأنفاسُ، فانفكّت الأفلاكُ، فعندها تنتشر النجومُ، وتَنْشقُّ السّماء، وتخرب الدِّيار، وتَظْهرُ دار القرار.

فسبحانَ الله ألطف الصَّانعين وأقْدر القادرين.

وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿**إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ**﴾ [التكوير: ١ ـ ٢]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿**يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا**﴾ [الطور: ٩] يعنى: تدور دورًا. فسبحان اللطيف الحكيم، أدار تلك الأفلاك الكثاف بهذه الأنفاس اللّطاف، كما حجب الفلكَ الكثيفَ بستر الفَضَاء اللّطيف، فالفلك العظيم لا يَحجبُ السماء، والفضاء الرقيق يَحْجب الفلك؛ لأنه أراد سبحانه وتعالى أن يرينا السّماء، وأحبّ أن يُخفى عنّا الفلك، فلم نرَ إلا ما أرانا.

فالعبدُ هو سبب لذلك، ومحرك لذلك، ولا يشعر بذلك، فمدارُه أنفاسُه، وأنفاسُه ساعاتُه، وساعاته عمرُه، وعمره أجلُه، وأجلُه آخرتُه، وهو فى غفلة بدنياه، وفى لَعب بما يهواه. فإن نظرتَ إلى السّماء رأيتَها تُنشىء الأنفاس، وإن نظرتَ إلى الأنفاسِ رأيتَها تُدير الأفلاكَ، وإن نظرتَ إلى فَوق الفوقِ عَميتَ عمّا سواه. فلا إله إلا هو ربُّ العرش العظيمِ، ﴿**صُنْعَ الله الَّذى أَتْقَنَ كُلَّ شىء**﴾ [النمل: ٨٨]، ﴿**إنَّ ربِّى لَطِيفٌ لمَا يَشَاء**﴾ [يوسف: ١٠٠]، ﴿**سَنُريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفُسِهِم**﴾ [فصلت: ٥٣]، ﴿**وفى الأَرْض آياتٌ للمُوقنينَ * وفى أَنْفُسكُم أفلا تُبْصرُونَ**﴾ [الذاريات: ٢٠ ـ ٢١]، ﴿**فلا أُقْسمُ بما تُبْصرُونَ * وما لا تُبْصرُونَ**﴾ [الحاقة: ٣٨ ـ ٣٩]، ﴿**سَيَذكَّرُ مَن يَخْشَى * وَيَتَجنّبُها الأشْقَى**﴾ [الأعلى: ١٠ ـ ١١].

فأمّا صلاةُ المغربِ فأفضلُ ما صُلِّيت فيه إذا تَدَلّى حَاجبُ الشمسِ الأعلى، وهو غيبتها عن الأبصار. رُوى عن عمر رضى الله عنه أنه أخّر صلاةَ المغربِ ليلةً حتى طلع نجمٌ، فأعْتَق رقَبة.

وروينا عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه أخّر المغربَ حتى طَلَع كَوْكَبان، فأعْتَق رقبتين.

وأفضل ما صُلِّيت فيه عشاء الآخرة إذا غابَ البياضُ الغربىّ، وأظلم مكانه، وهو الشفق الثانى إلى ما بعد ذلك، فتأخيرها أفضل إلى رُبع الليل ما لم تنم، والنّوم قبلها مكروه شديد.

ووقتٌ حَسَن فى سنّةٍ أن تُصلّى بمقدار غيبةِ القمر ليلة ثلاث من الشهر، وهذا يكون بعد سُبْع ونصف من الليل؛ لأنا رُوينا عن رسول الله ﷺ أنه «كان يصلّى العشاءَ الآخرة لسُقوط القمر ليلة ثلاث».

وأفضلُ ما صُلّيت فيه صلاةُ الصبح إذا طلعَ الفجرُ الثانى، وهى الصّلاةُ الوسطى، التى أفرد الله تبارك وتعالى محافظتَها؛ لأنّها تختص بمعانٍ ثلاث من التوسّط لا توجد فى سائر الصلوات، منها: أنها بين الليلِ والنهار، والثانى: أنها بين صلاتين من صلاة الليل وصلاتين من صلاة النهار، والثالث: أنها متوسطة بين صلاتى جهر وصلاتى مخافتة. وأيضًا: فإنها أقصرُ الصلاةِ عددًا؛ لا ثلاثًا، ولا أربعًا.

فلمَّا اخْتُصَّت بتوسط هذه المعانى دون غيرها، كانت هى الوسطى.

وأيضًا فإن الله تعالى نص على ذكر الفجر فى قوله عزّ وجلّ: ﴿**وَقُرآنَ الفَجْرِ إنَّ قُرآنَ الفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا**﴾ [الإسراء:٧٨]. وقيل فى تفسير ذلك: تشهده ملائكةُ الليلِ والنهار. فكان هذا ذكرًا لها بوصف آخر، توكيدًا للمُحافظةِ عليها.

فإن صَحَّ الخبرُ عن رسولِ الله ﷺ: «شَغَلُونا عن الصّلاة الوُسطى صلاةِ العصر»[1] بطَل ما قلناه، وثبتَ قولُ رسولِ الله ﷺ؛ لأنه هو الحقّ، وبه نقول، ولا أحسب الخبرَ إلا ثابتًا. فقد جاء بأشد اليقين: أُخبرنا أن النبى ﷺ سئل عنها،

(١) نعم صحّ عن رسول الله ﷺ فى حديث متفق عليه أخرجه البخارى ومسلم من حديث عبد الله ابن مسعود، باب ما فى الصلاة الوسطى، رقمه فى مسلم: ٦٢٨، وورد فى كثير من كتب السنة.

فقال: «هى التى شُغل عنها أخى سليمان حتى توارت بالحجاب».

والسُّنَّةُ أن تقرأ فى صلاةِ الصُّبح بسورةٍ من المثانى، أو بطِوال المُفَصّل، لأنها قُصرت وعُوِّض عنها طولُ القيام.

فإن كان أجمعَ للمُصلين وأكثرَ لعددهم إذا توسّط الوقتُ، فحَسَنٌ، قبل أن تَمَّحِق النّجومُ. فأما أن يُسْفِر حتى ينتشرَ البياض تحْتَ الحُمْرة، وذلك هو شىءٌ من شعاع الشمس، فلا، وإن كَثُرُوا فصلاتُها بغَلَسٍ فى القليلِ أَفْضل.

والمحافظةُ على أوائِل الأوقاتِ من كلِّ صلاةٍ من أفضلِ الأعمال، إلا ما ذكرناه من تأخير صلاة العشاء الآخرة، للأثر فيه عن رسول الله ﷺ: «فضلُ الصّلاةِ فى أوّل الوَقْتِ على الصّلاة فى آخر الوقت كفضل الآخرةِ على الدنيا»[1].

وفى الخبر: «إنّ العبدَ لَيُصلّى الصلاةَ فى آخر وقتها، ولما فاته من الوقت الأولِ خيرٌ له من الدنيا وما فيها».

والخبرُ المشهور أن النبى ﷺ سئل: «أى الأعمال أفضل؟ فقال: الصّلاةُ لوَقْتها».

وقد جاء فى الأثرِ: «الوقتُ الأولُ رضوانُ الله عز وجلّ، والوقت الأخير عفوُ الله تبارك وتعالى». قيل: فرضوانُ الله عزّ وجلّ يكون للمحسنين، وعفو الله سبحانه وتعالى يكون عن المقصّرين.

والوقت الأول من كلّ صلاة: من عزيمةِ الدِّين، وطريقةِ المقيمين للصلاة المحافظين، والوقت الثانى: رخصةٌ فى الدين، وَسَعَةٌ من الله عزّ وجلّ، ورحمةٌ للغافلين.

* * *

---

(١) أخرجه أبو نعيم من حديث ابن عمر مرفوعًا فى أخبار أصبهان ٢/ ٢٠ بسند ضعيف، انظر: إرواء الغليل ١/ ٢٩٠.

الفصل الحادى عشر

فيه كتاب فضل الصلاة فى الأيام والليالى [١]

• ذكر ما جاء فى صلاة النهار من الفضائل:

روينا عن أبى سلمة، وعن أبى هريرة، قالا: قال رسول الله ﷺ: «إذا خرجتَ من منزلِكَ فصلِّ ركعتين، يمنعانك مُخرجَ السّوء. وإذا دَخلْت إلى مَنزِلك فصلِّ ركعتين، يمنعانك مُدخل السوء»[٢].

وعن سعيد بن أبى سعيد الطّويل، سمع أنسَ بن مالك، عن رسول الله ﷺ أنه قال فى صلاة الصبح: «مَنْ توضأ ثم توجّه إلى مسجد يصلى فيه الصلاة، كان له بكل خُطْوةٍ حَسَنة، ومحا عنه سيئةً، والحسنةُ بعَشْرِ أمثالها. فإذا صلّى ثم انصرف عند طلوع الشمس كُتب له بكل شَعَرة فى جسده حسنة، وانقلب بحَجّة مبرورة. فإن جلس حتى يركعَ كتَب اللهُ له بكل جِلسة ألفَ ألفَ حسنةٍ، ومن صلّى العَتْمَة فلَهُ مثلُ ذَلِك، وانقلب بحَجّة وعُمْرة مبرورة»[٣].

وعن عطاء بن يسار، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «مَنْ صلَّى أربع ركعات بعد زوالِ الشّمس، يحسن قراءتهن وركوعهن وسجودهن، صلّى معه سبعون ألف ملك، يستغفرون له حتى الليل»[٤].

ولم يكن رسول الله ﷺ يدع أربعًا بعد الزوال، يطيلهن ويقول: «إن أبوابَ

---

(١) انظر أيضًا: الإحياء ١/ ٣٦١ فصل بيان الأيام والليالى الفاضلة، ١/ ١٩٢ باب النوافل من الصلوات. والغنية ٣/ ١٢١٤ وما بعدها.

(٢) صحيح الجامع الصغير، رقم ٥٠٥.

(٣) قال عنه العراقى: «لم أجد له أصلاً بهذا السياق» انظر: الإتحاف ٥/ ١٢٧. وقال الزبيدى: «بل له أصل أخرجه ابن عساكر فى التاريخ ... بمثل سياق المصنف...» وسنده ضعيف جدًا.

(٤) قال العراقى ١/ ١٩٣: «ذكره عبد الملك بن حبيب بلاغًا من حديث أبى مسعود، ولم أره من حديث أبى هريرة»، وانظر: الإتحاف ٣/ ٣٣٦.

السّماء تُفتح فى هذه الساعة، وأُحِبّ أن يُرفع لى فيها عمل. قيل: يا رسول الله، فيهنّ سلام فاصل. قال: لا»[١].

وروى عنه ﷺ: «رحم الله عبدًا صلّى أربعًا قبل العصر»[٢].

(ذكر صلاة يوم الأحد):

رُوى عن سعيد بن جبير، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ: «من صلّى يومَ الأحد أربع ركعات، يقرأ فى كلّ ركعةٍ فاتحةَ الكتابِ وآمنَ الرّسُولُ، مرةً، كتب الله عزّ وجلّ له بعدد كل نصرانى ونصرانية حسنات، وأعطاه ثوابَ نبىٍّ، وكتب له حجّة وعُمرة، وكتبَ له بكلّ ركعةٍ ألفَ صَلاةٍ، وأعطاه الله عزّ وجلّ فى الجنَّة بكل حَرْفٍ مدينةً مِن مِسْك أذْفرٍ»[٣].

وروينا عن علىّ عليه السلام، عن النبى ﷺ قال: «وحِّدُوا اللهَ تبارك وتعالى بكثرة الصلاة فى يوم الأحد، فإنه سبحانه وتعالى واحدٌ أحدٌ لا شريكَ له، فمن صلّى يوم الأحد بعد صلاة الظهر أربعَ ركعات بعد الفريضة والسنة، قرأ فى الركعة الأولى فاتحة الكتاب وتنزيل السجدة، وفى الثانية: فاتحة الكتاب وتبارك الملك، ثم تشهَّد وسلَّم، ثم قام فصلّى ركعتين أخريين قرأ فيهما: فاتحة الكتاب وسورة الجمعة، وسأل الله تبارك وتعالى حاجته، كان حقًا على الله سبحانه وتعالى أن يقضى حاجته، ويبرِّئه مما كانت النصارى عليه»[٤].

(ذكر صلاة يوم الاثنين):

روينا عن أبى الزبير، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلّى يوم

---

(١) فى صحيح سنن ابن ماجه ١/ ١٩٠ رقم ٩٥٠ من حديث أبى أيوب، بلفظ يختلف عن هذا اللفظ، ودون قوله: «قيل: يا رسول الله... إلخ»، وروى حديثه أيضًا بألفاظ مختلفة فى المعجم الكبير ٤/ ٢٠٠، ومسند أحمد ٥/ ٤٢٠، وقريب من هذه الرواية ما ورد فى الكنز رقم ٢١٧٦٥.

(٢) صحيح سنن الترمذى من حديث ابن عمر، رقم ٣٥٤.

(٣) قال العراقى ١/ ١٩٧: «أخرجه أبو موسى المدينى من حديث أبى هريرة بسند ضعيف»، وانظر: الإتحاف ٣/ ٣٧٢ ـ ٣٧٣.

(٤) قال العراقى ١/ ١٩٧: «ذكره أبو موسى المدينى بغير إسناد».

الاثنين عند ارتفاع النهار ركعتين، يقرأ فى كلّ ركعة فاتحةَ الكتابِ مرةً، وآيةَ الكرسى مرةً، و ﴿قل هو الله أحد﴾ مرةً، والمعوذتين مرة، فإذا سلّم استغفر الله عزّ وجلّ عشر مرات، وصلّى على النبى ﷺ عشر مرات، غفر الله عزّ وجلّ له ذنوبه كلها»(١).

ثابت البنانى، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلّى يوم الاثنين اثنتى عشرة ركعة، يقرأ فى كلّ ركعة فاتحةَ الكتابِ وآيةَ الكرسى، مرةً، فإذا فرغ من صلاته قرأ اثنتى عشرة مرة: ﴿قل هو الله أحد﴾، واستغفر الله اثنتى عشرة مرةً، يُنادَى به يوم القيامة: أين فلان ابن فلان، لِيَقُمْ، فيأخذ ثوابه من الله عزّ وجلّ، فأول ما يُعطَى من الثواب ألف حُلَّة، ويُتوَّج، ويقال له: ادخل الجنة، فيستقبله مائة ألف ملك، مع كل مَلَك هدية، يسعَوْن به حتى يدور على ألفِ قصرٍ من نور يتلألأ»(٢).

(ذكر صلاة يوم الثلاثاء):

يزيد الرّقّاشى، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن صلّى يومَ الثلاثاءِ عشرَ ركعات عند انتصاف النهار، يقرأ فى كلّ ركعةٍ فاتحة الكتاب وآية الكرسى، مرة، و ﴿قل هو الله أحد﴾ ، ثلاث مرات، لم يُكتب عليه خطيئة إلى سبعين يومًا، فإن مات إلى سبعين يومًا مات شهيدًا وغُفر له ذنوب سبعين سنة»(٣).

(ذكر صلاة يوم الأربعاء):

أبو إدريس الخولانى، عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلّى يومَ الأربعاء اثنتى عشرة ركعة عند ارتفاع النهار، يقرأ: فاتحةَ الكتاب، و ﴿قل هو الله أحد﴾ ، ثلاث مرات، والمعوذتين، ثلاث مرات، نادى به ملك عند العرش: يا عبد الله، استأنف العمل، فقد غُفر لك ما تقدم من ذنبك، ودفع اللهُ عزّ وجلّ

(١) قال العراقى ١/١٩٨: «أخرجه أبو موسى المدينى من حديث جابر عن عمر مرفوعًا، وهو حديث منكر»، وانظر: الإتحاف ٣/ ٣٧٣ ـ ٣٧٤.

(٢) قال العراقى ١/١٩٨: «ذكره أبو موسى المدينى بغير سَنَد، وهو منكر».

(٣) قال العراقى ١/١٩٨: «أخرجه أبو موسى المدينى بسند ضعيف»، وانظر: الإتحاف ٣/ ٣٧٥.

عنه عذابَ القبرِ وضِيقَه وظُلمتَه، ودفَع عنه شدائدَ القيامةِ، ورفع له من يومه عملَ نبي»[١].

(ذكر صلاة يوم الخميس):

روينا عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلّى يوم الخميس ما بين الظهر والعصر ركعتين، يقرأ فى الركعة الأولى: فاتحة الكتاب، مرة، ومائة مرة: آية الكرسى. وفى الركعة الثانية: فاتحة الكتاب، مرة، ومائة مرة: ﴿**قل هو الله أحد**﴾، ويصلّى على النبى مائة مرة، أعطاه الله عزّ وجلّ ثوابَ من صامَ رجبَ وشعبانَ ورمضان، وكان له من الثواب مثل حاجّ البيت، وكتب له بعددِ كل مَن آمن بالله عزّ وجلّ وتوكل عليه»[٢].

(ذكر صلاة يوم الجمعة):

روينا عن على بن الحسين بن على بن أبى طالب، رضى الله عنه، عن أبيه، عن جده قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «يوم الجمعةِ صلاةٌ كلّه، ما من عبدٍ مؤمن قام إذا استقلّت الشمس وارتفعت قِيدَ رُمح أو أكثر من ذلك، فتوضّأ، ثم أسبغ الوُضوء، فصلّى تسبيحة الضّحى ركعتين، إيمانًا واحتسابًا، كتب اللهُ له مائتى حسنة، ومحا عنه مائتى سيئة. ومَن صَلّى أربع ركعاتٍ رفع الله تبارك وتعالى له فى الجنّة أربعمائة درجة. ومن صلّى ثمانى ركعات رفع الله له فى الجنة ثمانمائة درجة، وغفر الله له ذنوبه كلّها. ومن صلّى اثنتى عشرة ركعة كتب الله عزّ وجلّ له ألفًا ومائتى حسنة، ومحا عنه ألفًا ومائتى سيئة، ورفع له فى الجنة ألفًا ومائتى درجة»[٣].

أبو صالح، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلّى الصبحَ يومَ

---

(١) قال العراقى ١/ ١٩٨: «أخرجه أبو موسى المدينى، وقال: رواته ثقات، والحديث مركب. قلت: بل فيه غير مسمى، وهو محمد بن حميد الرزازى، أحد الكذابين»، وانظر: الإتحاف ٣/ ٣٧٥ ـ ٣٧٦، والكاشف رقم ٤٨٧٩.

(٢) قال العراقى ١/ ١٩٨: «أخرجه أبو موسى، وسنده ضعيف جدًا».

(٣) قال العراقى ١/ ١٩٨: «لم أجد له أصلاً، وهو باطل».

الجمعة فى جماعة، ثم جلس فى المسجد يذكر الله سبحانه وتعالى حتى تطلع الشمس، كان له فى الفردوس الأعلى سبعون درجة، بُعد ما بين الدّرجتين حُضْرُ[١] الجواد المُضمر سبعين سنة. ومن صلّى صلاة الجمعة فى جماعة، كان له فى الفردوس خمسون درجة، حُضْرَ الجواد خمسين سنة. ومن صلّى العصر فى جماعة فكأنما أعتق ثمانيةً من ولد إسماعيل كلّهم رب بيت. ومن صلّى المغرب فى جماعة فكأنما حجّ حجة مبرورة وعمرة متقبلة».

نافع، عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «من دخل الجامع يوم الجمعة، فصلّى أربع ركعات قبل صلاة الجمعة، قرأ فى كلّ ركعة: الحمد، مرة، و ﴿**قل هو الله أحد**﴾ ، خمسين مرة، فإنه لا يموت حتى يرى مقعده فى الجنة، أو يُرى له»[٢].

(ذكر صلاة يوم السبت):

سعيد، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلّى يوم السبت أربع ركعات، يقرأ فى كل ركعة: فاتحة الكتاب، مرة، و ﴿**قل يا أيها الكافرون**﴾ ، ثلاث مرات، فإذا فرغ وسلّم قرأ آية الكرسى، كتب الله له بكل حرف حجة وعمرة، ورفع له بكل حرف أجر سنة؛ صيام نهارها وقيام ليلها، وأعطاه الله عزّ وجلّ بكل حرف ثواب شهيد، وكان تحت ظل عرشه مع النبيين والشهداء»[٣].

(فضل صلاة الجماعة):

أبو كامل، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «من صلّى أربعين يومًا فى جماعة لا تفوته التكبيرة الأولى مع الإمام، كتب الله عزّ وجلّ له براءتين: براءة من النار، وبراءة من النفاق»[٤].

---

(١) حُضْر الجواد: ارتفاعُ الفَرَسِ فى عَدْوِه.
(٢) قال العراقى ١/ ١٩٩: «أخرجه الدارقطنى فى غرائب مالك، وقال: لا يصح».
(٣) قال العراقى ١/ ١٩٩: «أخرجه أبو موسى المدينى بسند ضعيف جدًا».
(٤) العلل المتناهية، لابن الجوزى، ١/ ٤٣٥.

• ذكر ما جاء فى صلوات الليل وما دخل فيه من الصلاة بين العشاءين:

(صلاة ليلة الأحد):

عن مختار بن فلفل، عن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من صلّى ليلة الأحد عشرين ركعة، قرأ فى كل ركعة: الحمد لله مرة، و ﴿**قل هو الله أحد**﴾ خمسين مرة، والمعوذتين مرة، ثم استغفر الله عزّ وجلّ مائة مرة، واستغفر لنفسه ولوالديه مائة مرة، وصلى على النبى [مائة مرة]، وتبرأ من حوله وقوته، والتجأ إلى حَوْلِ الله عزّ وجلّ وقوته، وقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن آدم صفوةُ الله تبارك وتعالى وفطرتُه، وإبراهيمَ خليلُ الله، وموسى كليمُ الله، وعيسى روحُ الله، ومحمدًا ﷺ حبيبُ الله تبارك وتعالى، كان له من الثواب بعدد من دعا لله عزّ وجلّ ولدًا، ومن لم يَدْعُ لله عزّ وجلّ ولدًا، وبعثه الله تبارك وتعالى يوم القيامة مع الآمنين، وكان حقًا على الله سبحانه وتعالى يوم القيامة أن يدخله الجنةَ مع النبيين»(١).

(فضل صلاة ليلة الاثنين):

روينا عن الأعمش، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلّى ليلةَ الاثنين أربع ركعات، قرأ فى الركعة الأولى: الحمد لله، و ﴿**قل هو الله أحد**﴾ ، عشر مرات، وفى الركعة الثانية: الحمد لله، و ﴿**قل هو الله أحد**﴾ ، عشرين مرة، وفى الركعة الثالثة: الحمد، مرة و ﴿**قل هو الله أحد**﴾ ثلاثين مرة، وفى الركعة الرابعة: الحمد مرة، و ﴿**قل هو الله أحد**﴾ أربعين مرة، ثم تشهّد وسلم، وقرأ ﴿**قل هو الله أحد**﴾ خمسًا وسبعين مرة، واستغفر الله لنفسه ولوالديه خمسًا وسبعين مرة، وصلّى على محمد خمسًا وسبعين مرة. ثم سأل الله سبحانه وتعالى حاجتَه، كان حقًا على الله عزّ وجلّ أن يؤتيه سُؤله ما سأل»(٢). وهى تُسمَّى صلاة الحاجة.

---

(١) قال العراقى ١/ ١٩٩: «ذكره أبو موسى المدينى بغير إسناد، وهو منكر»، وانظر: الإتحاف ٣/ ٣٧٨.

(٢) قال العراقى ١/ ١٩٩: «ذكره أبو موسى المدينى بغير إسناد»، وانظر: الأسرار المرفوعة، لعلى القارى، ص٤٢٢.

القاسم بن عبد الرحمن، عن أبى أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلّى ليلة الاثنين ركعتين، يقرأ فى كلّ ركعة: فاتحةَ الكتاب، و ﴿**قل هو الله أحد**﴾ ، خمس عشرة مرة، و ﴿**قل أعوذ برب الفلق**﴾ ، خمس عشرة مرة، و ﴿**قل أعوذ برب الناس**﴾ ، خمس عشرة مرة، ويقرأ بعد التسليم خمس عشرة مرة: آيةَ الكرسى، ويستغفر الله سبحانه وتعالى خمس عشرة مرة، جعل الله عزّ وجلّ اسمه فى أصحاب الجنة وإن كان من أصحاب النار، وغفر له ذنوب السرّ وذنوبَ العلانية، وكتب له بكل آية قرأها حَجّة وعُمرة، وإن مات ما بين الاثنين إلى الاثنين مات شهيدًا»[١].

(ذكر صلاة ليلة الثلاثاء):

فى الخبر: «من صلّى ليلةَ الثلاثاء اثنتى عشرة ركعة، يقرأ فى كلّ ركعة: فاتحة الكتاب مرة، و ﴿**إذا جاء نصر الله**﴾ خمس عشرة مرة، بنى الله له بيتًا فى الجنة عرضه وطوله وِسْع الدنيا سبع مرات»[٢].

(صلاة ليلة الأربعاء):

فى الخبر: «من صلّى ليلة الأربعاء ركعتين، يقرأ فى أوّل ركعة: فاتحة الكتاب مرة، و ﴿**قل أعوذ برب الفلق**﴾ عشر مرات، وفى الركعة الثانية: فاتحة الكتاب مرة، و ﴿**قل أعوذ برب الناس**﴾ عشر مرات، نزل من كلّ سماء سبعون ألف ملك يكتبون ثوابه إلى يوم القيامة»[٣].

(فضل صلاة ليلة الخميس):

أبو صالح عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صلّى ليلة الخميس ما بين المغرب والعشاء ركعتين، يقرأ فى كلٍّ ركعة فاتحةَ الكتاب، وآية الكرسى،

---

(١) ذكره الزبيدى فى الإتحاف ٣/ ٣٧٩، ولم يتعرض له.

(٢) الإتحاف ٣/ ٣٨٠. وقال ابن الجوزى: «المتهم بصلاة ليلة الثلاثاء هو الجوزقانى، وهو الذى وضع حديثها».

(٣) الفوائد المجموعة، للشوكانى، ص٤٦، والإتحاف ٣/ ٣٨٠، وأشار ابن الجوزى إلى أن صلاة ليلة الأربعاء من وضع الجوزقانى.

خمس مرات، و ﴿قل هو الله أحد﴾ خمس مرات، والمعوذتين خمس مرات، فإذا فرَغ من صلاته استغفر اللهَ تبارك وتعالى خمس عشرة مرة، وجعل ثوابَه لوالديه، فقد أدى حقّهما وإن كان عاقًا لهما، وأعطاه الله تعالى ما يعطى الصدِّيقين والشهداء»[١].

(فضل صلاة ليلة الجمعة):

أبو جعفر محمد بن على، عن جابر، عن النبى ﷺ قال: «مَنْ صلَّى ليلة الجمعة بين المغرب والعشاء اثنتى عشرة ركعة، يقرأ فى كل ركعة: فاتحة الكتاب مرة، و ﴿قل هو الله أحد﴾ إحدى عشرة مرة، فكأنّما عبدَ اللهَ سبحانَه وتعالى اثنتى عشرةَ سنةً، صيام نهارها وقيام ليلها»[٢].

وروينا عن كثير بن سليم، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلّى ليلة الجمعة العشاء الآخرة فى جماعة، وصلّى ركعتى السنة، ثم صلّى بعدهما عشر ركعات، قرأ فى كل ركعة: الحمدُ مرة، و ﴿قل هو الله أحد﴾ مرة، والمعوذتين مرة، ثم أوتر بثلاث ركعات، ونام على جنبه الأيمن ووجهه إلى القبلة، فكأنما أحيا ليلة القدر»[٣].

وقال النبى ﷺ: «أكثِروا علىّ من الصلاة فى الليلة الغراء واليوم الأزهر»[٤] يعنى: ليلة الجمعة، ويوم الجمعة.

(فضل صلاة ليلة السبت):

عن كثير بن شنظير، عن أنس بن مالك، عن النبى ﷺ قال: «مَنْ صلّى ليلة

---

(١) الفوائد المجموعة، ص ٤٦، وأشار ابن الجوزى إلى أن هذه الصلاة من وضع الجوزقانى. وانظر: الإتحاف ٣/ ٣٨١.

(٢) قال العراقى ١/ ٢٠٠: «باطل لا أصل له».

(٣) قال العراقى ١/ ٢٠٠: «باطل لا أصل له» وقال: «وليس يصح فى أيام الأسبوع ولياليه شىء، والله أعلم».

(٤) قال العراقى ١/ ٢٠٠: «رواه الطبرانى فى الأوسط من حديث أبى هريرة، وفيه عبد المنعم بن بشير، ضعفه ابن معين وابن حبان»، وانظر: ضعيف الجامع الصغير رقم ١١٠٦، والعلل المتناهية ص٥٨٩، وإرواء الغليل ١/ ٣٤ ـ ٣٥.

السبت بين المغرب والعشاء اثنتى عشرة ركعة، بنى الله له قصرًا فى الجنة، وكأنّما تصدّق على كل مؤمن ومؤمنة، وتبرأ من اليهودية، وكان حقًا على الله عز وجل أن يغفر له»(١).

• ذكر فضل الصلاة بين العشاءين وما يختص به ذلك الوقت فى كل ليلة:

روينا عن سليمان التّيمى أن رجلاً حدثه قال: قيل لعبيد مولى رسول الله ﷺ: «هل كان رسولُ الله ﷺ يأمر بالصّلاة غير المكتوبة؟ قال: ما بين المغرب والعشاء».

أبو صخر، سمع محمد بن المنكدر يحدِّث عن النبى ﷺ قال: «مَنْ صلّى ما بين المغرب والعشاء فإنها من صلاة الأوّابين»(٢).

عبد الرحمن بن الأسود، عن أبيه قال: ما أتيتُ عبدَ الله بن مسعود فى تلك الساعة إلا وجدتُه يصلّى، فقلتُ له فى ذلك، فقال: نعم، ساعة الغفلة. يعنى بين المغرب والعشاء.

وسئل مولى رسول الله ﷺ: أى شىء كان يصنع النبى ﷺ بين المغرب والعشاء إذا دخل منزله؟ قال: يصلّى.

ثابت البنانى قال: كان أنس بن مالك يصلّى بين المغرب والعشاء، ويقول: هى ناشئة الليل(٣).

حُدثنا عن فضيل بن عياض، عن أبان بن أبى عياش قال: سألت امرأةٌ أنسَ بن مالك فقالت: إنى أرقد قبل العشاء، فنهاها وقال: نزلت هذه الآية فيما بينهما: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُم عن المَضَاجِعِ﴾ [السجدة: ١٦].

حدثنا أحمد بن أبى الحوارى قال: قلت لأبى سليمان الدّارانى: أصومُ النهارَ وأقعد أتعشى بين المغرب والعشاء أحبّ إليك، أو أفطر النهار وأُحيى ما بينهما؟

---

(١) قال العراقى ١/ ٢٠٠: «لم أجد له أصلاً»، وانظر: الإتحاف ٣/ ٣٨٢.

(٢) قال العراقى ١/ ١٩٧: «أخرجه ابن المبارك فى الرقائق مرسلاً»، وانظر الزهد، لابن المبارك، ص٤٤٥ رقم ١٢٥٩.

(٣) انظر: الإتحاف ٥/ ١٨١.

فقال: إن جمعتهما فهو أفضل. قلت: فإن لم يتيسر لى. قال: فأفطر بالنّهار وصلِّ بين المغرب والعشاء.

هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إنّ أفضلَ الصلواتِ عند الله عز وجل صلاةُ المغرب، لم يحطّها عن مسافر ولا مقيم، فتح بها صلاةَ الليل وختم بها صلاةَ النهار، فمن صلّى المغرب وصلّى بعدها ركعتين بنى اللهُ له قصرين فى الجنة لا أدرى من ذهب أو فضة، ومن صلّى بعدها أربعَ ركعاتٍ غفر اللهُ له ذنوبَ عشرين سنة، أو قال: أربعين سنة»[١].

أبو سلمة عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صلّى ست ركعات بعد المغرب عُدِلَتْ له عبادةَ سنةٍ، أو كأنّه أحيا ليلة القدر»[٢].

سعيد بن جبير، عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ عكّف نَفْسَه ما بين المغرب والعشاء فى مسجد جماعة، لم يتكلم إلا بصلاة أو قرآن، كان حقًا على الله سبحانه وتعالى أن يبنى له قصرين فى الجنة، مسيرة كل قصر منهما مائة عام، ويغرس له بينهما غراسًا لو طافه أهلُ الدنيا لوسعهم»[٣].

محمد بن الحجاج سمع عبد الكريم بن الحارث يحدث أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ ركع عشر ركعات ما بين المغرب والعشاء بنى الله له قصرًا فى الجنة. فقال عمر: إذًا تكثر قصورنا يا رسول الله؟! قال: الله أكبر وأفضل، أو قال: وأطيب»[٤].

أبو عائشة السعدى وأبو حفص العوفى، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله

---

(١) قال العراقى ١/ ٣٥١: «رواه الطبرانى فى الأوسط مختصرًا، وإسناده ضعيف»، وانظر: الإتحاف ٥/ ١٧٩، وجمع الجوامع رقم ٦٢٤٥.

(٢) إلى قوله: «عبادة سنة» فى سنن ابن ماجه رقم ١٣٧٤، وهو فى ضعيف سنن ابن ماجه رقم ٢٨٩، ولفظه ثمَّ: «عبادة اثنتى عشرة سنة»، أما قوله: «كأنه أحيا ليلة القدر» قال العراقى ١/ ٣٥٢: «فهو من قول كعب الأحبار من حديث ابن عباس، رواه الديلمى فى الفردوس بسند ضعيف».

(٣) قال العراقى ١/ ٣٥٢: «لم أجد له أصلاً من هذا الوجه».

(٤) رواه ابن المبارك فى الزهد مرسلاً، رقم ١٢٦٤.

ﷺ: «مَنْ صلّى المغرب فى جماعة، ثم صلّى بعدها ركعتين، ولم يتكلم بشىء فيما بين ذلك من أمر الدنيا، يقرأ فى الركعة الأولى بفاتحة الكتاب، وعشر آيات من أول البقرة، وآيتين من وسطها، وهما: ﴿**وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ**﴾ [البقرة:١٦٣] إلى آخر الآيتين، و ﴿**قُل هُوَ الله أَحَدٌ**﴾ خمس عشر مرة، ثم يركع ويسجد، فإذا قام إلى الركعة الثانية قرأ بفاتحة الكتاب وآية الكرسى، وآيتين بعدها إلى قوله تعالى: ﴿**أُولَئكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ [البقرة:٢٥٧]، وثلاث آيات من آخر البقرة، من قوله عزّ وجلّ: ﴿**لله مَا فِى السَّموَاتِ**﴾ [البقرة:٢٨٤] إلى آخرها، و ﴿**قُلْ هُوَ اللهُ أَحدٌ**﴾ خمس عشرة مرة، بُنى له فى جنات عدن ألفُ مدينةٍ من الدّر والياقوت، فى كل مدينة ألفُ قصر، فى كل قصر ألفُ دار، فى كل دار ألفُ حجرة، فى كل حجرة ألفُ صفَّة، فى كل صفة منها ألف خيمة، فى كل خيمة ألف سرير من أصناف الجواهر، على كل سرير ألف فِراش؛ بطائنها من إستبرق وظواهرها من نور منضَّد، وألف مِرْفَقة[1] من هذا الطرف من السرير، وألف مِرْفَقة من الطرف الآخر، فوق تلك الفرش زوجة من الحور العين لا توصف بشىء إلا زادت عليه جمالاً وكمالاً، لا يراها ملك مقرَّب ولا نبى مُرسَل إلا افتُتن بحسنها، قد ملأ مأكمتاها[2] ما بين طرفى السرير، على كل زوجة منهن ألف حُلَّة لا توارى حلةٌ حلةً، ولا توارى الحللُ كلُّها الجلدَ، يُرى بعضها من تحت بعض، كما يُرى السلك من الياقوتة، وكما يُرى الشرابُ الأحمر من الزجاجة البيضاء، لكل زوجة منهن مائة ألف وصيف، ومائة ألف جارية، ومائة ألف قهرمان، على قصورها وضياعها، هذا لها خاصة سوى خدم زوجها، فى كل خيمة منهن نهر من التسنيم، ونهر من الكوثر، وعين من الكافور، وعين من الزنجبيل، وعين من السلسبيل، وغصن من شجرة طوبى، وغصن من سدرة المنتهى، فى كل خيمة ألف مائدة من الدر والياقوت، أدنى مائدة منها مثل استدارة الدنيا مرتين، على كل مائدة منها ألف صحفة، صحاف من

(١) منضّد: بعضه فوق بعض. المرفقة: المتَّكأ والمخدَّة، وقد ترفَّق وارتفق: توكَّأ.

(٢) المأكمة: العَجيزة. والمأكمتان: اللحمتان اللتان على رءوس الورِكَيْن.

ذهب مكلَّلة بالدّر والجوهر، في كل صحفة منها مائة ألف لون من طعام مختلف، طعمه ولونه وريحه، يعطى الله سبحانه وتعالى وليَّه المؤمن من القوّة ما يأتى على تلك الأطعمة، ومثلها من الأشربة، ويأتى على أولئك الأزواج كلهنّ، فى مقدار يوم من أيام الدنيا»[1].

فسبحان الملكِ الوهّابِ القادرِ على ما يشاء، ربّ العالمين.

عبد الرحمن بن منصور، عن سعد بن سعيد، عن كُرْزِ بنِ وَبْرَةَ قال: وكان وبرة من الأبدال، قال: قلت للخضر عليه السلام: علِّمنى شيئًا أعمله فى ليلى. فقال: إذا صليتَ المغرب فقُمْ إلى صلاة العشاء الآخرة مصلِّيًا من غير أن تكلِّم أحدًا، وأقبلْ على صلاتك التى أنت فيها، وسلّم فى كل ركعتين، واقرأ فى ركعة بفاتحة الكتاب مرة، و ﴿قل هو الله أحد﴾ سبع مرات، فإذا فرغت من صلاتك انصرف إلى منزلك ولا تكلم أحدًا، وصلِّ ركعتين واقرأ بفاتحة الكتاب، مرة، و﴿قل هو الله أحد﴾ سبع مرات، فى كل ركعة. ثم اسجد بعد تسليمك، واستغفر اللهَ سبحانه وتعالى سبع مرات، وصلّ على النبى ﷺ سبع مرات، وقل: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، سبع مرات. ثم ارفع رأسك من السجود، واستو جالسًا، وارفع يديك وقل:

يا حىُّ، يا قيومُ، يا ذا الجلال والإكرام، يا إله الأوّلين والآخرين، يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، يا ربّ، يا ربّ، يا ربّ، يا الله، يا الله، يا الله.

ثم قم وأنت رافع يديك، وادْعُ بهذا الدعاء، ثم نم حيث شئت مستقبل القبلة

---

(١) اكتفى الغزالى فى الإحياء من هذا الحديث إلى قوله: «خمس عشرة مرة» وعلّق العراقى على هذا الجزء من الحديث بقوله ١/ ٣٥٢: «أخرجه أبو الشيخ فى الثواب من رواية زياد بن ميمون عنه مع اختلاف يسير، وهو ضعيف»، ولم يتعرض للحكم على بقية الحديث، وذكر الزبيدى جزءًا مما ذكره أبو طالب هنا وعلّق قائلاً ٥/ ١٨٠: «ولوائح الوضع ظاهرة عليه».

قلت: رحم الله أبا طالب المكى، لم يكن فى حاجة إلى إيراد مثل هذه الأحاديث الموضوعة والتى لا تهم المسلم فى عمله، وبخاصة أنه ذكر فى بعض مواضع من كتابه أنه لا يهتم بذكر فضائل الأعمال.

على يمينك، وصلّ على النبى ﷺ، وأدِم الصلاةَ عليه حتى يذهب بك النوم.

فقلت له: أحب أن تُعلمنى ممّن سمعت هذا الدعاء. فقال: إنى حضرت محمدًا ﷺ حيث عُلِّم هذا الدعاء، وأُوحى إليه، وكنتُ عنده، وكان ذلك بمحضرٍ منّى، فتعلمته ممّن علّمه إياه[١].

ويقال: إن هذه الصلاة وهذا الدعاء مَنْ داوم عليه بحسن يقين وصدق نية، رأى رسولَ الله ﷺ فى منامه قبل أن يخرج من الدنيا، وقد فعل ذلك بعض الناس فرأى أنه دخل الجنة، ورأى فيها الأنبياء، ورأى رسولَ الله ﷺ وكلّمه وعلّمه.

ولهذا فضائل كثيرة اختصرناها للإيجاز.

* * *



(١) قال العراقى ١/ ٣٥٢: «وهذا باطل لا أصل له»، وقال الزبيدى: «ولم يثبت عند المحدثين فى لقاء الخضر للنبى ﷺ شىء نفيًا ولا إثباتًا» انظر: الإتحاف ٥/ ١٨١. وقد مرّ قريبًا طرف من هذه المسألة.

الفصل الثاني عشر

في ذكر الوتر وفضل الصلاة بالليل

عن مبارك بن عوف الأَحْمُسى، عن عمر بن الخطاب، قال: إن الأكياسَ الذين يُوترون أوّل الليلِ، وإن الأقوياءَ يوترون آخر الليل، وهو أفضل.

وقد رُوى فى خبر: «أن رسول الله ﷺ سأل أبا بكر رضى الله عنه: متى توتر؟ فقال: من أول الليل، قبل أن أنام. وقال لعمر رضى الله عنه: متى توتر؟ فقال: من آخر الليل. فقال لأبى بكر: حَذِرَ هذا، وقال لعمر: قوى هذا»[1].

وفى بعض الأخبار أنّه قال لأبى بكر: «مَثَلُك كالذى قال: أَحْرزتُ نَهْبى وأبتغى النوافلا، وقال لعمر: إنّك لقوىٌّ مكين».

وروينا عن عثمان رضى الله عنه أنه قال: أما أنا فأوتر أول الليل، فإذا استيقظتُ صليتُ ركعة شفعت بها وترى، فما شبهتهما إلا كالغَرِيبةِ من الإبل ضممتها إلى أخواتها، ثم أوترت من آخر صلاتى. والمشهور عنه من فعله أنّه كان يحيى الليل كلّه بركعة واحدة يختم فيها القرآن، وهى وتره.

وروينا عن على عليه السلام أنه قال: الوتر على ثلاثة أنحاء: إن شئتَ أوترت أوّلَ الليل، ثم صلّيت ركعتين ركعتين. وإن شئت أوترت بركعة، فإذا استيقظت شفعتَ إليها أخرى ثم أوترت من آخر الليل. وإن شئتَ أخّرت الوترَ حتى يكون آخر صلاتك.

وفى حديث ابن عمر: «صلاةُ الليلِ مَثْنى مثنى، فإذا خِفت الصّبح فأوتر بركعة».

وهذا أحبّ الوجوهِ إلىَّ.

(١) مسند أحمد ٣/ ٣٠٩، ومعجم الطبرانى الكبير ١٧/ ٣٠٣، وموارد الظمآن للهيثمى ص٦٧٣.

وقال مجاهد: قال عبد الله بن عمر: من صلّى أربعًا بعد العشاء، كُنَّ كعِدْلهن من ليلة القَدْر. قال حصين: فذكرت ذلك لإبراهيم فقال: كان عبد الله بن مسعود يكره أن تُتْبع كلّ صلاة بمثلها، وكانوا يصلون العشاء، ثم يصلون ركعتين، ثم أربعًا. فمَن بدا له أن يوتر أوتر، ومن أراد أن ينام نام.

وقال رسول الله ﷺ: «أوتروا يا أهلَ القرآنِ من كلّ الليل».

وقالت عائشة رضى الله عنها: «قد أوتر رسول الله ﷺ من أوله، وأوسطه، وانتهى وتره إلى السَّحَر».

وفى الخبر: «كان رسول الله ﷺ يوتر عند الأذان، ويصلى ركعتين عند الإقامة»[١].

وسأل رجلٌ عليًا عليه السلام عن وقت الوتر فسكت عنه، ثم خرج إليهم عند الأذان لصلاة الفجر، فقال: أين السائل عن الوتر؟ هذا وَقْت وِترٍ حسن.

أبو أمامة عن عَمْرو بن عنبسة قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنّ أقربَ ما يكون الربّ عزّ وجلّ من العبدِ جوفَ الليلِ الأخيرِ، فإن استطعت أن تكون ممّن يذكرِ اللهَ سبحانَه وتعالى فى تلك السّاعة فكُن»[٢].

أبو ذر الغفارى قال: «قلت: يا رسول الله، أىُّ الليلِ الصّلاةُ فيه أفضل؟ قال: نصفُ الليلِ الغابر»[٣] يعنى: الباقى.

وسأل رسول الله ﷺ جبريل عليه السلام: «أى الليل أسمع؟ فقال: إن العرشَ يهتزُّ من السَّحَر»[٤].

وقد روى فى الخبر: «إنّ فى الليل ساعةً لا يوافقها عبدٌ مسلم يسأل الله خيراً إلا أعطاه».

---

(١) مسند أحمد ١/ ٨٧، ١١١.

(٢) صحيح سنن النسائى، رقم ٥٥٧.

(٣) الكامل لابن عدى ٣/ ١٢١، ١٢٢.

(٤) مستدرك الحاكم ٣/ ٣٨.

وروى فى خبر آخر: «يصلى أو يدعو إلا استجاب له». وهى فى كل ليلة.

ويقال: إن فى الليل وقتًا لا بدّ أن يُنام فيه، أو تغفل كلُّ ذى عين، إلا الحى الذى لا يموت، فلعلها هذه الساعة.

وروى عن النبى ﷺ: «إذا مضى نصفُ الليلِ ـ وفى لفظ آخر: إذا بقى ثلثُ الليل الأخير ـ نزل الجَبّارُ سبحانه وتعالى إلى السماء الدنيا، فقال: لا يسأل عن عبادى غيرى، هل من تائب فأتوبَ عليه؟ هل من مستغفر فأغفرَ له؟ هل من داعٍ فأستجيبَ له؟ هل من سائل فأعطيَه؟ كذلك حتى يطلع الفجر»[١].

وفى حديث عمرو بن عنبسة: «عليك بصلاة آخر الليل، فإنها مشهودة محضورة»، يعنى: يحضرها ملائكةُ الليل وملائكةُ النهارِ.





(١) المعجم الكبير للطبرانى ٥/ ٤٤، ٤٥، وانظر: الكنز، رقم ٣٣٩٠، ٣٠١٤٧.

الفصل الثالث عشر

فيه كتاب جامع لما يستحب أن يقول العبد إذا استيقظ من نومه للتهجد، وفي يقظته عند الصباح (١)

ليقل إذا استيقظ من منامه بُكرةً: أصبحنا وأصبح الملكُ لله، والعظمة لله، والسلطان لله، والبهاء لله، والقدرة لله، والعزة لله، والتسبيح لله، أصبحنا على فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، وعلى دين نبينا محمد ﷺ، وعلى ملّة أبينا إبراهيم حنيفًا، وما كان من المشركين. الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا، وإليه النشور.

اللهم إنا نسألك أن تبعثنا فى يومنا هذا إلى كل خير، ونعوذ بك أن نجترح فيه سوءًا أو نجرَّه إلى مسلم، فإنك قلت: ﴿وهُو الذى يَتَوَفَّاكُم باللَّيلِ ويَعْلَمُ ما جَرَحْتُم بالنَّهارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُم فِيه لِيُقْضَى أجَلٌ مُسَمًّى﴾ [الأنعام: ٦٠].

اللهم فالقَ الإصباح، وجاعلَ الليل سكنًا، والشمسَ والقمرَ حسبانًا، أسألك خيرَ هذا اليومِ وخيرَ ما فيه، وأعوذ بك من شرِّه وشرِّ ما فيه.

بسم الله، ما شاء الله، لا قوةَ إلا بالله، ما شاءَ الله، كلُّ نعمةٍ من الله، ما شاء الله، الخيرُ كلُّه بيد الله، بسم الله، لا يَصْرِف السوءَ إلا الله، رضيتُ بالله عزّ وجلّ ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًا، ربّنا عليك توكّلنا وإليك أنبنا وإليك المصير. وليقرأ المعوذتين.

فإذا أمسى قال مثل ذلك كله، إلا أنه يقول: أمسينا وأمسى الملك لله عزّ وجلّ، أسألك خير هذه الليلة.

ولا يدع أن يقول فى كل ليلة: بسم الله الذى لا يضرُّ مع اسمه شىءٌ فى

(١) راجع فى مثل هذا: الإحياء ١/ ٣٥٠ ـ ٣٦٠، والغنية ٣/ ١٠٥٦ وما بعدها.

الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم. أعوذ بكلمات الله التامات وأسمائه كلِّها من شرِّ ما ذرأ وبرأ، ومن شر كلِّ ذى شر، ومن شر كلِّ دابةٍ أنت آخذٌ بناصيتها. إن ربىّ على صراطٍ مستقيم.

وإن قَلَّ دخوله الخلاء عند وقت السَّحَر كان أفضل؛ كيلا يشغله عن الذكر، يجعل ذلك فى آخرِ النهار أو من أول الليل، فقد فعل ذلك كثيرٌ من الصالحين، وهو حسن، إلا أن دخولَ الخلاءِ عند الصّباحِ أصلحُ للجسد من جهة الطب، وأنظفُ للطهارةِ، سيما لمن يأكل بالنهار.

• ذكر ما يستحب من القول إذا أخذ العبد مضجعه للنوم:

ليقل: «باسمك ربّى وضعتُ جنبى، وباسمك أرفعه. اللهم إن أمسكت نَفْسى فاغفر لها وارحمها، وإن أرسلْتها فاعْصِمها واحفظها بما تحفَظُ به عبادَك الصالحين».

وعلّم رسول الله ﷺ البراءَ بن عازب أن يقول إذا أخذ مضجعه ليلاً: «اللهم إنى وجَّهْتُ وجهى إليك، وفوَّضتُ أمرى إليك، وألجأت ظهرى إليك، رهبةً ورغبةً إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، آمنتُ بكتابك الذى أنزلت، وبرسولك الذى أرسلت»[(١)].

وروى عن النبى ﷺ أنه كان يقول عند النوم: «اللهمّ قِنى عذابك يوم تبعث عبادَك»[(٢)].

وأنه أمر أن يقال: «الحمدُ لله الذى عَلا فقَهر، الحمد لله الذى بطَن فجَبر، الحمدُ لله الذى ملَك فقدَر، الحمدُ لله الذى هو يحيى الموتى، وهو على كلِّ شىءٍ قدير»[(٣)].

---

(١) انظر: السلسلة الصحيحة، رقم ٢٨٨٩، وصحيح الأدب المفرد، بتحقيق الألبانى، رقم ٩٢٠.

(٢) السلسلة الصحيحة، رقم ٢٧٥٤.

(٣) رواه الطبرانى فى الأوسط من حديث أبى الدرداء، وقال الهيثمى: «وفيه أبو جناب الكلبى وهو ضعيف» المجمع ١٠/ ١٢٤، والترغيب ١/ ٤١٧.

وليقل بعد ذلك: اللهم إنى أسألك الراحةَ بعد الموت، والعفوَ عند الحسابِ، اللّهم إنى أعوذُ بك من غَضبك، وسوءِ عقابك، وشرِّ عبادك، وشرِّ الشياطين وشِرْكِهم.

وليقرأ: خمسًا من أول سورة البقرة، وثلاثًا من آخرها، وآيةَ الكرسى، والآيتين اللتين بعدها.

وليقرأ قوله عزّ وجلّ: **﴿وَإِلهُكُمْ إِلهٌ وَاحِدٌ لاَ إِلهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ﴾** [البقرة:١٦٣]، والآية التى بعدها إلى قوله تعالى: **﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾** [البقرة:١٦٤]. ويقال: من قرأ هذه الآية عند منامِهِ حُفِظ عليه القرآنُ فلم يَنْسَه.

ولا يدع أن يقرأ آخر الإسراء؛ الآيتين: **﴿قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ...﴾**، وهذه الآية من سورة الأعراف: **﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الذى خَلَقَ السَّمَوات والأرضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾** [الأعراف:٥٤]، فإنه يدخل فى شعاره[١] مَلَك يُوكَّل بحفظه، ويستغفر له.

وليقرأ الخمسَ آيات من أوّل سورة الحديد، والثلاثَ من آخر سورة الحشر، و**﴿قُلْ يا أَيُّها الكافِرُون﴾**، و **﴿قُلْ هُو اللهُ أحَد﴾**، والمعوذتين، ويَنْفُثُ بهنّ فى يديه، ويمسح بهما وجهَه وسائرَ جسده. كذلك روى عن النبى ﷺ من قوله وفعله.

وليقرأ عشرًا من أوّل الكهف، وعشرًا من آخرها. وهذه الآى لقيام الليل.

وأمر رسول الله ﷺ بقراءة: **﴿قل يا أيُّها الكافِرُون﴾** عند النوم. وكان عليه الصلاة والسلام يقول: «ما أرى أن رجلاً مستكملَ عقلِه، ينامُ قبل أن يقرأ الآيتين من [آخر] سورة البقرة **﴿آمنَ الرَّسُولُ﴾**، وليقل: اللهم أيقظنى فى أحبِّ الساعات إليك، واستعملنى بأحب الأعمالِ لديك، التى تقربنى إليك زلفى، وتبعدنى من سخطك بعدًا، أسألك فتعطينى، وأستغفرك فتغفر لى، وأدعوك فتستجيب لى. اللهم لا تؤمِّننى مكْرك، ولا تولِّنى غيرك، ولا ترفعْ عنى سترك،

(١) الشعار: ما ولى جسدَ الإنسان دون ما سواه من الثياب.

ولا تُنسنى ذكرك، ولا تَجْعلنى من الغافلين.

يقال: من قال هذه الكلمات عند نومه أهبط اللهُ سبحانه وتعالى ثلاثة أملاك يوقظونه للصلاة، فإن صلَّى ودعا أمَّنوا على دعائه، وإن لم يقم تعبّدت الأملاكُ فى الهواءِ وكُتب له ثواب عبادتهم.

وليسبّح ثلاثًا وثلاثين مرة، وليحمد ثلاثًا وثلاثين مرة، وليكبِّر أربعًا وثلاثين مرة، وإن شاء ربَّعَها خمسًا وعشرين مرة، وزاد فيها التهليل، وإن شاء قال: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، خمسًا وعشرين مرة، فهنّ يجمعن له مائة كلمة، وهو أخفّ عليه للمداومة.

وقد أمر رسول الله ﷺ بذلك، وندب إليه فى أدبار الصلوات الخمس، وعند النوم.

وروينا عن مطرف عن الشّعبى عن عائشة رضى الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ آخر ما يقول حين ينام وهو واضع خدّه على يده اليمنى، وهو يرى أنّه مَقْبوض[1] فى تلك الليلة: اللهمَّ ربّ السموات السبع، وربّ العرشِ العظيم، ربَّنا وربَّ كلِّ شيء، منزِّلَ التوراةِ، والإنجيلِ، والزبور، والفرقان، فالق الحبِّ والنوى، أعوذ بك من شرّ كل دابة أنت آخذ بناصيتها. اللهم أنتَ الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقضِ عنِّى الدَّيْن وأغننى من الفقر».

فهذا جامع ما يُستَحبُّ من قراءةِ الآى والدّعاء عند النوم.

(١) قولها «وهو يرى أنه مقبوض»: أى يوطِّن نفسه ﷺ أن هذه آخر ليلة له فى الدنيا، وكذا أَمرَ أمَتَهُ بتقصير الأمل، وأن يدعو المسلم قبل نومه دعاء من يفارق الحياة، وسيجىء التنبيه على ذلك من أبى طالب.

• ذكر هيئة العبد عند النوم، وأهبته للمضجع، ومعنى الاعتبار بذلك لذوى الأبصار:

يُستحبُّ للعبد أن ينامَ على طهارةٍ سابغة، وإلا مسح أعضاءه بالماء مسحًا، وقد كانوا يستحبّون السّواك عند النوم، [كما يستحبّونه عند الاستيقاظ][1]، فكان رسولُ الله ﷺ يفعله، وكان بعض السّلف يجعل عند رأسه سواكَه وطَهُوره، فإذا تعارَّ[2] من الليلِ استاك، ومسح أعضاءه بالماء مسحًا، وذكر اللهَ عزّ وجلّ بالتلاوة والتسبيح، ثم رقَد. وكانوا يعدّون هذا يَعدِل قيامَ الليل[3]. وقد روى هذا الخبر عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وعن غيره.

وروينا عن رسول الله ﷺ نحوه، وأنه كان يستاك فى كلِّ ليلة مرارًا عند كلّ قَوْمةٍ من نومه[4].

فليعدّ العبدُ طهورَه وسواكه عند رأسه، وينوى قيامَ الليل، فأىّ وقتٍ استيقظ توضأ وصلّى، أو قعد فقرأ، أو دعا وذكر الله عزّ وجلّ واستغفره، أو تفكّر[5] فى آلائه وعظمته ومعانى قدرته. ففى أىّ وجهٍ أخذَ من هذه الأذكار والأفكار[6] فقد استعمل بذلك، وفيه قُربةٌ إلى الله عز وجلّ، وهو فضلٌ من الله تعالى ورحمةٌ عليه.

ولا ينبغى للعبد أن يبيت وله شىء يوصى فيه إلا ووصيته مكتوبة عنده، فإنه لا يأمن القبضَ والوفاة. وقد ندب رسولُ الله ﷺ إلى ذلك فى قوله: «لا ينبغى لعبدٍ أن ينام لَيلتين وله شىء يوصى فيه إلا ووصيتُه مكتوبة عنده»[7].

---

(١) ساقطة من (ط) وأثبتها من (ك).

(٢) فى (ط): «فإذا انتبه»، وأثبت ما فى (ك).

(٣) فى (ط): «وكانوا يذكرون الله عز وجل بالتلاوة والتسبيح فى تقلبهم ويعدون هذا يعدل قيام الليل» وأثبت عبارة (ك).

(٤) انظر مسند أحمد ٥/٤١٧، وكتاب الطهارة فى مسلم وغيره.

(٥) عبارة (ك) باللام المؤكدة: «فليتوضأ... أو ليتفكر».

(٦) فى (ط): «ففى أى وجه أخذ من هذه المعانى فهو ذكر».

(٧) صحيح فى كتب السنة باختلاف يسير، أخرجه البخارى، كتاب الوصايا، رقم ١٥، ومسلم، كتاب الوصية، رقم ١، ٤، وغيرهما.

ويقال: من مات عن غير وصية لم يؤذن فى الكلام فى البرزخ إلى يوم القيامة[١]، تتزاور الأمواتُ ويتحدثون وهو لا يتكلم فيما بينهم إلى يوم القيامة، فيقول بعضُهم لبعض: هذا المسكين مات عن غير وصية. فيكون ذلك حسرةً عليه بينهم، [وذلك أن] موتَ الفَجْأة تخفيفٌ ومستحبٌ للمؤمن الفقير للثواب، الذى لا مال له، ولا دَيْن عليه. فأما المُثْقل بالدَّين، أو المخلّط فى الدَّين، أو مَن له مال [وعليه دين]، أو هو مُصِرٌّ على مَطْل[٢]، فإنّ موتَ الفَجْأة لهؤلاء عقوبةٌ ومكروه.

ولا ينبغى للعبدِ أن يَبيتَ إلا تَائبًا من كلِّ ذَنْبٍ، سليمَ القلبِ لجميعِ المسلمين، لا يحدِّث نفسَه بظُلم أحدٍ، ولا يَعْقِد على خطيئةٍ إن استيقظ.

وقد جاء فى الخبر: «من أوى إلى فراشه، لا ينوى ظلمَ أحدٍ ولا يَحْقِدِ على أحدٍ، غُفر له ما اجْترم»[٣].

وليستقبل فى نومه القبلةَ. واستقبالُ القبلةِ على ضربين: إن كان مستلقيًا، فاستقبالُه القبلةَ أن يكون وجهُه إليها مع أخمص قدميه، كحال الميت المسجًّى. وإن كان نائمًا على جنبٍ فاستقبال القبلة أن يكون وجهُه إليها مع شقه الأيمن، كهيئة الملحَّد فى قبره، فسيصير إليه عن قريب. وليَذكر [العبدُ] بنَوْمه على هذين الحالين [ذينك الحالين][٤] عند موته، وحين اضطجاعه فى قبره، [فيصير إليها عن قريب فلا يسهى]. وقد قال الله عزّ وجلّ: **﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾** [المرسلات: ٢٥ ـ ٢٦] فى أحد الوجهين، وهو مذهب أهل التفسير، أى: يكفتهم ويجمعهم أحياءً على ظهرها، وأمواتًا فى بطنها.

وقد جعل الله سبحانه وتعالى النومَ من آياته الدالة على [وحدانيته] لأهل

---

(١) روى شىء من هذا مرفوعًا من حديث قيس بن قبيصة بلفظ: «من لم يوص لم يؤذن له فى الكلام مع الموتى. . .» قال الزبيدى ٥/ ١٥٩: «رواه أبو الشيخ فى كتاب الوصايا».

(٢) عبارة (ك): «فأما المثقل المخلط أو المصر أو الذى له مال».

(٣) قال العراقى ١/ ٣٤٢: «رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب السنة من حديث أنس بلفظ مختلف وسنده ضعيف»، وانظر: الإتحاف ٥/ ١٥٩.

(٤) ساقطة من (ط) وكذا المواضع الآتية والتى سبقت، فإنى لا ألتزم الإشارة إليها فى كل موضع، حتى لا ينشغل بها القارئ.

السّمع منه، [والاستجابة له][(١)]، وهو سمع اليقين، وقرنه بالابتغاء من فضله، فقال عزّ وجلّ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [الروم: ٢٣].

وكان فقراءُ أهلِ الصُّفّة وبعضُ زهاد التابعين إذا رقدوا لا يجعلون بينهم وبين الأرض شيئًا. كان أحدهم يباشر التراب بجلده، ويطرح ثوبه فوقه، ويقول: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ [طه: ٥٥]، كأنهم كرهوا الترفّع عليها والوقاية منها، يجدون ذلك أرقَّ لقلوبهم، وأبلغَ فى تواضعهم.

وَمَثَلُ النّومِ عند أهل الاعتبار مَثَل البرزخ هو بين الدّنيا والآخرة، كذلك النّوم بين الحياة والموت، فإذا كُشِف حجابُ النوم ظهرت الدنيا بالحكمة، وكذلك إذا كُشف الغطاءُ ظهرت الآخرة بالقدرة، فصارت الدنيا كالأحلام فى النوم، وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ [الأنعام: ٦٠].

وكان بعضهم يقول: عجبًا لمن يَعْصى الله عزّ وجلّ ثُمَّ ينام بعد ذلك. وذكر بعضُ العلماء عن الله عزّ وجلّ: إن كنتم تعصونى فاخْرجُوا مِن بساطى، ولا تناموا فى قبضتى.

وقال لقمان لابنه: يا بنىّ إن كنت تشك فى الموت فلا تنم، فكما أنك تنام فكذلك تموت. وإن كنت تشك فى البعث فإذا نِمت فلا تنتبه، فكما أنّك تنتبه بعد نومك فكذلك تُبعث بعد موتك.

فيلتذكّر العبدُ عند نومِه حين موته[(٢)]، وليعلم أن الله تعالى يكون له بعد موته كما كان العبدُ له قبل نومه، فلينظر على أى حال نام وعلى أى هَمٍّ توفاه الله عليه، وليتذكر بانتباهه البعثَ، فإن العبد يُبعث على ما مات عليه فى الدنيا، فيُبْعَث بهمِّه، ويُحشر مع محبوبِه. كما ينتبه النائم عن همِّه إلى محبوبه الذى نام عنه.

---

(١) من (ك)، وكذلك المواضع السابقة التى بين المعكفات.

(٢) حين موته: أى وقت موته وأجَلِه.

وفى الخبر: «إن المرءَ مع من أحبّ، وله ما احتسب».

وروى عنه ﷺ: «من مات على مرتبة من المراتب بُعث عليها يوم القيامة»[١].

وروينا عن كعب الأحبار قال: إذا نمت فاضطجع على شقّك الأيمن، واستقبل القبلة بوجهك، فإنها وفاة.

• بيان آخر من الاعتبار لأهل التبصرة والتذكار:

وليعلم العبد أن الله عزّ وجلّ يكون له بعد بعثه من قبره كما كان العبد له بعد بعثه من نومه، فلينظر إلى أى حال يُبعث.

فإن كان العبدُ لنظرِ مولاه مُكرِمًا، ولحرماته مُعَظِّمًا، وإلى محبوبه ومرضاته مُسارعًا، كان اللهُ تعالى فى آخرته لوجهه مُكرمًا، [ولشأنه مُعظِّمًا، وإلى مسرته من النعيم المقيم مسارعًا][٢].

وإن كان العبدُ فى حقِّ مولاه مُتهاونًا، وبأمره مُسْتَخِفًّا، ولشعائرِه مُسْتَصْغِرًا، كان الله تعالى [لوجهه] مهينًا، وبشأنه متهاونًا، [وإلى ما يكرهه من العذاب الأليم مسارعًا][٣]. قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ والّذِين آمَنُوا وَعمِلُوا الصَّالحاتِ ولا المُسِىءُ﴾، ثم قال: ﴿قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [غافر:٥٨] موبخًا لهم بذلك. وقال فى مثله: ﴿أَفَنَجْعَلُ المُسْلمينَ كالْمُجْرِمينَ﴾ [القلم:٣٥]، ثم قال: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم:٣٦] ذامًا عائبًا لحكمهم.

ثم أخبر بحكمه فيهم فقال: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرحُوا السَّيِّئَات أن نَجْعَلَهم كالَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالحات سواءً مَحْيَاهُم وَمَمَاتُهُم ساءَ ما يَحْكُمُون﴾ [الجاثية:٢١]. هكذا تقدير الكلام، وهو من المقدَّم والمؤخَّر، فرفع حسناتهم، وأخبر بسوء حكمهم، ثم ذكر حكمهم عنده فى المحيا والممات، فقال: ﴿سواءً مَحْيَاهُم

(١) السلسلة الصحيحة، رقم ٢٨٣. وسوف أعود إلى تخريج جميع الأحاديث تخريجًا كاملاً فى نهاية الكتاب.

(٢) كانت الفقرة مضطربة فى (ط) فقومتها من (ك).

(٣) من (ك) وهى ساقطة من المطبوعة.

وَمَمَاتُهُم﴾ ، أي: كما كانوا في الحياة، كذلك يكونون بعد الوفاة. ثم عقب ذلك بذكر عدله في خلقه فقال: ﴿وَخَلَقَ اللهُ السَّمَوات والأرضَ بِالحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية:٢٢] فكان هذا فصل الخطاب، وتذكار أُولِي الألباب.

وقال في معناه، وأمر بتدبّر كلامه، وأمر بتذكّر العقلاء عن خطابه، فقال: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاته وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُواْ الأَلْبَاب﴾ [ص:٢٩] هل يتدبرون فيجدون أنَّا نجعل المفسدين كالمصلحين، أم نجعل المتقين كالفاسقين؟ وهو قوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذينَ آمَنُوا وَعَملُوا الصَّالِحَات كَالْمُفْسدينَ في الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالفُجّار﴾ [ص:٢٨]. فالتدبّر: التفهّم. والتذكّر: التقوى والعمل.

وروينا عن رسول الله ﷺ: «مَنْ أحبَّ أن يعلمَ منزلتَهُ عندَ الله عزّ وجلّ فلينظر كيف منزلةُ الله تعالى من قلبِه، فإن الله عزّ وجلّ يُنزل العبدَ عندَه من حيث أنزله العبدُ من نفسه»[١].

فإذا نام العبد على طهارة وذكر، وعن مثل هذه المشاهدة والفكر، فإنّ مضطجعه يكون مسجدًا، وإنّه يُكتب مُصَلّيًا حتى يستيقظ، ويدخل في شِعاره مَلَك، فإن تحرك في نومه فذكر الله عزّ وجلّ دعا له الملك واستغفر له[٢].

وفي الخبر: «إذا نام العبدُ على طهارة عُرج بروحه إلى العرش فكانت رؤياه صادقة»[٣]. وإن لم ينم على طهارة قَصُرت روحه عن البُلوغ، فتلك المنامات

(١) تهذيب تاريخ دمشق ٢/ ٢٨٩.

(٢) يقول صاحب العوارف (ص ٣٣٦): «فإذا استيقظ العبد من النوم فمن أحسن الأدب عند الانتباه أن يذهب بباطنه إلى الله، ويصرف فكره إلى أمر الله، قبل أن يجول الفكر في شيء سوى الله، ويشغل اللسان بالذكر... والعبد إذا انتبه من النوم فباطنه عائد إلى طهارة الفطرة، فلا يدع الباطن يتغير بغير ذكر الله تعالى، حتى لا يذهب عنه نور الفطرة الذى انتبه عليه، ويكون فارًا إلى ربّه بباطنه خوفًا من ذكر الأغيار».

(٣) هذا الحديث ذكره أبو طالب بمعناه، وهو بلفظ مختلف في مستدرك الحاكم ٤/ ٣٩٦ ـ ٣٩٧، وتعقبه العراقي وقال: «من حديث على وسنده ضعيف».

أضغاثُ أحلامٍ لا تُصدَّق.

فإن غلبه النوم حتى يصبح حُسب له قيام ليلة، وكان نومه عليه صدقة، ومَن كان هذا وَصْفه فى منامه يسبق كثيرًا من العبادِ فى قيامهم عن شهودِ غفلةٍ وسهوٍ.

وقد روينا فى خبر: «نوم العالِم عبادةٌ، ونَفَسُهُ تَسْبِيحٌ»(١).

• ذكر ما يستحب من القول عند القيام إلى التهجد:

فإذا قام من الليل متهجدًا فليقل: الحمدُ للهِ الذى أحيانى بعد إذ توفّانى وإليه النشور. وليقرأ العَشر الأواخر من سورة آل عمران، وليستك وليتوضأ، ويقول: سُبحانَك وبحمدِك لا إله إلا أنت، أستغفرُك وأسألك التوبةَ، فاغفرْ لى وتُب علىَّ، إنك أنتَ التوّاب الرحيم. اللهم اجعَلْنى من التوّابين، واجْعلنى من المتطهرين، واجعلنى صبورًا شكورًا، واجعلنى أذكرك كثيرًا وأسبِّحك بُكرة وأصيلاً.

ثم يرفع رأسه إلى السماء فيقول: أشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسوله، وأعوذ بعفوك من عقابك، وأعوذ برضاك من سَخَطك، وأعوذ بكَ مِنك، لا أُحصى ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك، أنا عبدك ابنُ عبدك، ناصيتى بيدك، جارٍ فىّ حكمك، عدلٌ فىّ قضاؤك، هذه يدى بما كسَبت، وهذه نفسى بما اجْترحت، لا إله إلا أنتَ سبحانك إنّى كنتُ من الظّالمين، عملتُ سوءًا وظلمتُ نفسى، فاغفر لى ذنبى إنك أنت ربّى إنّه لا يغفر الذنوب إلا أنت. فلا إله إلا أنت، لا إله إلا أنت.

فإذا قام إلى الصلاة متوجهًا فليقل: اللهُ أكبر كبيرًا، والحمدُ لله كثيرًا، وسبحان الله بكرةً وأصيلاً.

ثم ليسبِّح عشرًا، وليحمد عشرًا، وليهلّل عشرًا، وليكبِّر عشرًا، وليقل: اللهُ أكبر ذو الملكوت والجبروت والكبرياء والجلال والعظمة والقدرة.

---

(١) المعروف فيه «نوم الصائم . . .» كما قال العراقى، رواه أبو نعيم من حديث ابن مسعود فى الحلية ٥/ ٨٣، وانظر: الأسرار المرفوعة، لعلى القارى، ص٣٧٤.

وليقل هذه الكلمات، فإنها مأثورة عن رسول الله ﷺ فى قيامه للتهجُّد: اللهم لك الحمدُ أنت نورُ السموات والأرض، ولك الحمدُ أنت بهاءُ السموات والأرض، ولك الحمدُ أنتَ نورُ السموات والأرض، ولك الحمدُ أنت زَينُ السموات والأرض، ولك الحمد أنت قيّامُ السموات والأرض ومَن فيهنّ ومَن عليهنّ، أنت الحقّ، ومنك الحقّ، ولقاؤك حقٌّ، والجنة حقٌّ، والنّار حقٌّ، والنبيون حقٌّ، ومحمد ﷺ حقٌّ.

اللهم لك أسلمتُ، وبك آمنتُ، وعليك توكلتُ، وبكَ خاصمتُ، وإليك حاكمتُ، فاغفر اللهم يا ربّ لى ما قدّمتُ وما أخّرتُ، وما أسْرَرتُ وما أعْلَنتُ، أنت المقدِّم وأنتَ المؤخِّر، لا إله إلا أنت.

اللهم آتِ نفسى تَقْواها، اللهم زكِّها أنت خيرُ من زكاها، أنت وليُّها ومولاها.

اللهم اهدنى لأحسن الأعمال لا يهدى لأحسنها إلا أنت، واصرف عنّى سيّئَها لا يصرف عنى سيّئَها إلا أنت.

أسألك مسألةَ البائس المسكين، وأدعوك دعاءَ المفتقرِ الذليل، فلا تجعلنى بدعائك ربِّ شَقيًا، وكن بى رءوفًا رحيمًا، يا خيرَ المسؤولين، ويا أكرمَ المُعْطين.

ويستحبّ أن يفتتح صلاته بركعتين خفيفتين. ويُستحب له أن لا يأكل شيئًا ولا يشرب ماء حتى يقضى نَهْمَتَهُ[١] من صلاته، فإنّ العبَد إذا استيقظ من نومه يكون جامّ[٢] القلبِ، فارغَ الهمّ؛ فإذا أكَل أو شرِب تغيّر قلبه عن هيئته، فليؤخر أكلَه وليقدِّم صلاته[٣]، إلا أن يخاف أن يَفْجَأه الفجرُ إن لم يتسحّر أو يشرب، فليبدأ حينئذ بذلك.

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

***

(١) فى (ط): «همته» والصوابُ ما أثبت من (ك). والنَّهْمة: الحاجة وبلوغ الهِمَّة والشهوة فى الشىء.

(٢) جامّ القلب: مجتمعه غير مشتت.

(٣) فى (ط): «فليغيب أكله إلا»، وأثبت ما فى (ك).

الفصل الرابع عشر

فى ذكر تقسيم قيام الليل ونومه ووصف القائمين والمتهجدين

قد قَرَن الله سبحانه وتعالى قوَّام الليل برسوله المصطفى، وجمعهم معه فى شُكر المعاملة وحُسن الجزاء، فقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾ [المزمل: ٢٠]. وقد أخبر الله سبحانه أنّ قراءةَ الليل أشدُّ وطئًا للقلب، وأقومُ قيلاً للحفظ والذكر، أى: يواطئ القلبُ اللسانَ بالفهمِ والحفظِ.

وقد سمى الله تعالى أهلَ الليل علماءَ، وجعلهم أهلَ الخوف والرجاء، وأخفى لهم قُرَّةَ العينِ من الجَزَاء فقال: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾، ثم قال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]. وهذا من المحذوف ضدّه لدلالة الكلام عليه، والمعنى: أمّن هو هكذا عالمٌ قانت مطيع، لا يستوى مع من هو غافلٌ نائمٌ ليله أجمع، فهو غير عالم بما يحذر، وبما يرجو من ربه عزّ وجلّ.

وقال عزّ وجلّ فى وصفهم فى الدنيا، ووصف ما أعدّ لهم فى الآخرة: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ [الفرقان: ٦٤]، [وقال:] ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦]، أى: تنبو عن الفراش، فلا تطمئن، لما فيها من خوف الوعيد ورجاء الموعود. ثم قال: ﴿فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]. قيل: كان عملُهم قيامَ الليل. وقيل: بل كانوا أهلَ خوف ورجاء.

وهذان من أعمالِ القلوب عن مشاهدة الغيوب، فلمّا أخفوا له الإخلاص بأعمال السرائر أخفى لهم من الجزاء نفيس الذّخائر، ولا تقرُّ أعين هؤلاء المحبين

إلا بوجهه، كما لم يعملوا إلا لوجه الله تعالى.

وقال بعض العلماء فى قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ قال: هى صلاة الليل استعينوا بها على مجاهدة النفس ومصابرة العدوّ. ثم قال: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة:٤٥] يعنى الخائفين المتواضعين، لا تثقل عليهم ولا تجفو بل تخِفُّ وتَحْلُو.

وفى الخبر: «قيل: يا رسول الله، إن فلانًا يصلى من الليل فإذا أصبح سرق. فقال: سينهاه ما تقول»[١]. وقال ﷺ: «نِعْمَ الرجل عبد الله بن عمر لو كان يصلّى من الليل»[٢]. قال: فما فاتته بعد ذلك ليلة حتى يقوم فيها. وفى الخبر: «عليكم بقيام الليل، فإنّه مرضاة لربكم، ومكفِّر سيّئاتكم، وهو دأبُ الصّالحين قبلكم، ومنهاةٌ عن الإثم، وملقاة للوزر، ومذهبة لكيد الشيطان، ومَطْردة للدّاء عن الجسد»[٣].

وقد جعل الله سبحانه قيامَ الليلِ من أوصاف الصالحين بقوله: ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران:١١٣ ـ ١١٤].

فيُستحب من قيام الليل ثلثاه، وأقل الاستحباب من القيام سدسه، لأنا روينا أن النبى ﷺ: «لم يقم ليلةً قط حتى أصبح بل كان ينام منها، ولم ينم ليلة حتى يصبح بل كان يقوم منها»[٤].

---

(١) فى مسند أحمد ٢/٤٤٧ من حديث أبى هريرة، والطحاوى فى مشكل الآثار ٢/ ٤٣٠، وإسناده صحيح، وانظر: الضعيفة ١/ ٥٨.

(٢) متفق عليه، فتح البارى ٧/ ٩٧، من حديث ابن عمر عن حفصة، والمسند ٢/ ١٤٦.

(٣) إلى قوله «ومنهاة عن الإثم» فى الترمذى، كتاب الدعوات، من حديث أبى أمامة. وفى صحيح سنن الترمذى رقم ٢٨١٤ مع اختلاف طفيف فى الألفاظ. وهو بروايات أخرى فى كتب السنة، انظر: كنز العمال، رقم ٢١٤٠٩، ٢١٤٢٨، ٢١٤٢٩.

(٤) لا يوجد بلفظه تمامًا، وورد جزء منه فى حديث صحيح طويل فى سنن أبى داود بلفظ: «ولم يقم رسول الله ﷺ ليلة يتمها إلى الصباح» فى كتاب الصلاة، باب فى صلاة الليل، رقم: ٣١٧. وهو فى صحيح أبى داود برقم: ١١٩٣.

ويقال: إن الصلاةَ أوّل الليل للمتهجدين، وقيام أوسطِه للقانتين، وقيام آخره للمصلين، والقيام من الفجر للغافلين.

وحدثنا عن عبد الله بن عمر قال: حدثنا يوسف بن مهران قال: بلغنى أنّ تحت العرش مَلَكًا فى صورة ديك، براثنه من لؤلؤ، وصئصئتاه[١] من زبرجد أخضر، فإذا مضى نصف الليل الأوّل ضرب بجناحه وزَقَى[٢]، وقال: ليقم القائمون. فإذا مضى نصفُ الليلِ ضرب بجناحه وزَقَى، وقال: ليقم المتهجّدون. فإذا مضى ثُلث الليلِ ضرب بجناحه وزقى، وقال: ليقم المصلون. فإذا طلع الفجر ضربَ بجناحهِ وزَقَى، وقال: ليقم الغافلون وعليهم أوزارُهم.

وقال بعض العلماء[٣]: أهلُ الليلِ على ثلاثة أصناف: قوم قَطعَهُم الليلُ، فكان هؤلاء المريدون ذوو الأوراد والأجزاء، كابدوا الليل فغلبَهُم. قال: وقوم قطعُوا الليل، فكان هؤلاء العاملون[٤] الذين صبروا، وصابروا الليلَ فغلبوه. قال: وقوم قَطَع بهم الليل، فكان هؤلاء المحبون.

والعلماء أهل الفكر والمحادثة، وأهل الأنس والمجالسة، وأهل الذكر والمناجاة، وأهل التملّق[٥] والملاقاة، نغّصَ عليهم الليلُ حالَهم، وقصَّر النعيمُ عليهم ليلهم، ورفع الحبيبُ عنهم نومهم، وخفَّف الفهمُ عليهم قيامَهم، وأذهب مزيدُ الوصل عنهم ملَلَهم، وأوصل العتابُ بهم[٦] سهرَهم.

وقيل لبعض أهل الليل: كيف أنت والليل؟ فقال: ما راعيته[٧] قط، يرينى وجهه ثم ينصرف وما تأملته.

---

(١) البراثن: الكف مع الأصابع. والصئصئ: الأصل.

(٢) زقى: صاح.

(٣) الأقوال التالية نقلها صاحب الإتحاف، انظر: ٥/ ١٩٦ ـ ١٩٨.

(٤) فى المطبوعة: «العالمون» وأثبت ما فى المخطوطة والإتحاف.

(٥) فى الإتحاف: «التخلق».

(٦) فى المطبوعة: «لهم» وأثبت ما فى المخطوطة والإتحاف.

(٧) فى المطبوعة: «ما رعيته» وأثبت ما فى (ك)، والإتحاف: ٥/ ١٩٦، والعوارف: ص٣٢٦.

وقال آخر: أنا والليل فرسا رهانٍ، مرة يسبقنى إلى الفجر، ومرة يقطعنى عن الفكر.

وقيل لبعضهم: كيف الليلُ عليك؟ فقال: هو ساعة؛ أنا فيها بين حالين: أفرح بظلمته إذا جاء، وأغتم بفجره إذا طلع، ما تمّ فرحى به قط، ولا اشتفيتُ منه قط[1].

وقيل لبعض المحبين: كيف الليل عليك؟ فقال: والله ما أدرى كيف أنا فيه! إلا أنا بين نظرة ووقفة، يقبل بظلامه فأتدرَّعه، ثم يُسْفِرُ قبل أن أتلبَّسُه، ثم أنشد:

لم أستَتِمّ عناقَه لقُدومِهِ حتّى بدا تسليمُه لِوَداعِ[2]

وقال بعضهم:

وَزَارنى طَيْفُك حتّى إذا أرادَ أن يَمْضى تَعلّقْتُ بِه
فَليتَ لَيلى لم يَزَل سَرْمدًا والصُّبحَ لم أنظرْ إلى كَوْكَبِه

وشكا بعضُ المريدين إلى أستاذه طولَ سهره بالليل، وأن السَّهر قد أضرَّ بِهِ. ثم قال: أخبرنى بشىءٍ أجتلبُ به النَّومَ. فقال له أستاذُه: يا بُنَىّ إن لله نفحاتٍ فى الليل والنهار تصيبُ القلوبَ المتيقظةَ، وتخطئ القلوبَ النّائمة، فتعرَّضْ لتلك النفحات، ففيها الخير. فقال: يا أستاذ تركتنى لا أنامُ بالليل ولا بالنّهار[3].

وتذاكَر قومٌ قِصرَ الليلِ عليهم، فقال بعضهم: أما أنا فإنّ الليل يزورنى قائمًا ثم ينصرف قبل أن أجلس.

وقال على بن بكار: منذ أربعين سنة ما أحزننى شىء إلا طلوعَ الفجر.

وقال الفضيل بن عِياض: إذا غَرَبت الشّمس فرِحتُ بدُخول الظّلام لخلوتى فيه بربى، فإذا طلع الفجر حزنت لدُخول الناس علىَّ.

---

(١) فى الإتحاف: ٥/١٩٦ نصّ على لفظ القوت وهو: «ولا استشفيت فيه قط».

(٢) الخبر والبيت فى الإتحاف: ٥/١٩٦.

(٣) فى الإتحاف: ٥/١٩٧.

وقال أبو سليمان: أهل الليل فى ليلهم ألذُّ من أهل اللهو فى لهوِهِم، ولولا الليل ما أحببتُ البقاءَ فى الدّنيا.

وقال أيضًا: لو عوّض اللهُ عزّ وجلّ أهلَ الليل من ثوابِ أعمالهم ما يجدونَه فى قلوبهم من اللّذّة لكان ذلك أكثر(١) من أعمالهم.

وقال بعض العلماء: ليس فى الدنيا وقتٌ يشبه نعيمَ أهل الجنة إلا ما يجده أهلُ التملّقِ فى قلوبهم بالليل من حلاوةِ المناجاة(٢).

وقال بعضهم: قيامُ الليل، والتملّقُ للحبيب، والمناجاةُ للقريب فى الدنيا، ليس من الدنيا، هو من الجنّة أُظهر لأهل الله تعالى فى الدنيا، لا يعرفه إلا هُمْ، ولا يجده سواهم رَوَحًا لقلوبهم.

وقال عتبة الغلام: كابدتُ الليلَ عشرين سنة، ثم تنعّمت به عِشرين سنة.

وقال يوسف بن أسباط(٣): قيامُ ليلةٍ أسهل علىَّ من عَمل قُفّةٍ، وكان يعمل كلَّ يومٍ عَشْرَ قفافٍ.

وقال غيره: ما رأيتُ أعجبَ من الليلِ، إذا اضطربتَ تحته غَلَبك، وإن ثَبَتَّ له لَم يَقِف.

وبكى عامرُ بن عبد الله(٤) حين حضرته الوفاةُ، فقيل له فى ذلك، فقال: والله ما أبكى حبًا للبقاء، ولكن ذكرتُ ظمأ الهواجرِ فى الصّيف، وقيامَ الليلِ فى الشتاء.

---

(١) فى المطبوعة: «أكبر» وأثبت ما فى الإتحاف ٥/ ١٩٧.

(٢) بعده فى عوارف المعارف والخبر فيه تامًا، ص٣٢٦: «فحلاوة المناجاة ثوابٌ عاجل لأهل الليل».

(٣) الشيبانى، الزاهد الواعظ، يروى عن سفيان الثورى وغيره، وثقه يحيى بن معين. ميزان الاعتدال ٢/ ٣٢٨.

(٤) ابن عبد قيس، من رجال الحلية: ٢/ ٨٧ ـ ٩٤، وهو من بنى العنبر، وأول من عُرف بالنّسك واشتهر من عبّاد التابعين بالبصرة، وكان ممن تخرّج على أبى موسى الأشعرى فى النسك والتعبد، ومنه تلقى القرآن. والخبر الذى بين أيدينا فى الحلية ٢/ ٨٨.

وقال ابنُ المنكدر[1]: ما بقى من لذات الدنيا إلا ثلاث: قيامُ الليل، ولقاءُ الإخوان، والصلاة فى جماعة.

وقال بعضُ العارفين: إن الله عزّ وجلّ ينظر بالأسحار إلى قلوب المتيقظين فيملؤها أنوارًا، فتَرِدُ الفوائدُ على قلوبهم فتستنير، ثم تنشر من قلوبهم العُوَافى[2] إلى قلوب الغافلين.

وقال بعض العلماء: إنّ الله عزّ وجلّ ينظر إلى الجِنانِ عند السَّحر نظرةً، فتُشرق وتُضىء، وتَهتزّ وتَربو، وتَزْداد جمالاً وحسنًا وطيبًا ألفَ ألف ضعفٍ فى جميع معانيها. ثم تقول: قد أفلحَ المؤمنونَ. فيقول الله عزّ وجلّ: هنيئًا لكِ منازلَ الملوك! وعزّتى وجَلالى و[عُلوىّ فى] ارتفاعِ مكانى، لا أُسكنكِ جبّارًا ولاَ بَخيلاً ولا مُتكبّرًا ولا فَخُورًا. وينظرُ [سبحانه] إلى العَرْش نظرةً فيتسع ألفَ ألف سعةٍ، ويزداد بكل تَوْسعة ألف ألف عالم، منها كلّ عالم لا يعلم وسعه إلا الله عزّ وجلّ، ثم يهتزّ فيثقل على الحَمَلَة حتى يموج بعضهم فى بعض، ويَحْطُم بعضهم بعضًا، وهُم بعدَد جميعِ ما خلق الله عزّ وجلّ، وأضعاف ما خلق الله عزّ وجلّ، فيقول العرش: سبحانك أينما كنت وأينما تكون. فينادى حَمَلَةُ العرشِ: سبحان من لا يعلم أين هو إلا هو، سبحان مَنْ لا يعلم ما هو إلا هو.

وروينا عن بعض العلماء من القدماء أن الله عزّ وجلّ أوحى إلى بعض الصّديقين: إن لى عبادًا من عبادى يحبوننى وأحبهم، ويشتاقون إلىّ وأشتاقُ إليهم، ويذكروننى وأذكرهم، وينظرون إلىّ وأنظر إليهم. فإن حذوتَ طريقهم أحببتُك، وإن عدلتَ عنهم مَقتُّك.

---

(١) هو محمد بن المنكدر بن عبد الله بن الهدير التيمى، كان من معادن الصدق، توفى ١٣٠هـ، روى عن أبيه وعائشة وأبى هريرة، وعنه شعبة ومالك. انظر: الكاشف ٣/ ١٠٠، والإتحاف ٥/ ١٩٧.

(٢) هكذا، وقد وردت فى الإحياء ١/ ٣٥٨ والإتحاف ٥/ ١٩٧ ولم يفسّرها، وفى اللسان (عوف): «والعُواف والعُوافة: ما ظَفِرْتَ به ليلاً. ويقال: كل من ظفر بالليل بشىء، فذلك الشىء عوافته». وعلى هذا فمعناها هنا: «تنتشر من هذه القلوب الأنوار التى ظفرت بها ليلاً من العبادة وقيام الليل إلى قلوب الغافلين». وفى العوارف (ص٣٢٦): «الفوائد».

قال: يا ربّ وما علامتهم؟

قال: يراعون الظِّلال[1] بالنّهار كما يراعى الراعى الشّفيقُ غنمَه، ويحنُّون إلى غروب الشمس كما تحنّ الطيور إلى أوكارها عند الغروب. فإذا جنَّهم اللّيل، واختلط الظلام، وفُرِشت الفرش، ونُصبت الأسِرَّة، وخلا كلُّ حبيب بحبيبه، نصبوا لى أقدامهم، وافترشوا إلىَّ وجوههم، وناجَوْنى بكلامى، وتملَّقوا إلىَّ بإنعامى. فبين صارخٍ وباكٍ، ومتأوِّه وشاكٍ، وبين قائم وقاعد، وبين راكع وساجد، بعينى ما يتحملون لأجلى، وبسمعى ما يشتكون من حبّى. أوَّل ما أعطيهم أقذف من نورى فى قلوبهم، فيخبرون عنِّى كما أخبر عنهم. والثانية: لو كانت السموات السّبع والأرض وما فيهما فى موازينهم لاستَقْلَلْتُها لهم. والثالثة: أقبل بوجهى عليهم. أفَترى مَن أقبلتُ بوجهى عليه يعلم أحدٌ [ما أريد به و][2] ما أريد أن أعطيه.

وقال مالكُ بنُ دينار[3]: إذا قام العبدُ يتهجّد من الليل ورتّل القرآنَ كما أُمِر، قَرُب الجَبَّار تعالى منه. قال: وكانوا يَرَوْن أن ما يجدون فى قُلوبهم من الرّقة والحَلاوَةِ والفُتوح والأنوار من قُرْبِ الرَّبِّ تعالى من القَلْب.

وفى الأخبار عن الجبّار عزّ وجلّ: أى عبدى، أنا الله الذى اقتربتُ لقلبك، وبالغيب رأيتَ نورى.

وفى الخبر عن رسول الله ﷺ: «ما أذن الله لشىءٍ إذْنه [إلى] حسن الصّوتِ

---

(١) فى (ط): «الظلام» وهو خطأ صوابه من (ك) والإتحاف ٥/١٩٧.

(٢) ساقطة من المطبوعة والتكملة من (ك)، وعلّق عليه صاحب عوارف المعارف (ص٣٢٧) فقال: «فالصّادق المريد إذا خلا فى ليلة بمناجاة ربِّه، انتشرت أنوارُ ليله على جميع أجزاء نهاره، ويصير نهارُه فى حماية ليله، وذلك لامتلاء قلبه بالأنوار، فتكون حركاته وتصاريفه بالنهار تصدر من منبع الأنوار المجتمعة من الليل، ويصير قالبُه فى قُبَّةٍ من قباب الحقّ، مُسَدَّدًا حركاتُه، موفَّرةً سكناتُه».

(٣) هو أبو يحيى الناجى السامى البصرى، روى عن أنس بن مالك وعن جلّة من التابعين منهم الحسن وابن سيرين وغيرهما، له ترجمة مطولة فى الحلية ٢/٣٥٧ ـ ٣٨٩، وكان أبوه من سبى سجستان، وقيل كابل، وثقه النسائى، مات سنة ١٢٣هـ.

بالقرآن»[١]. يعنى ما استمع إلى شىء كاستماعه إليه.

وفى الحديث الآخر: «للهُ أشدُّ أُذنًا إلى قارئ القرآن من صاحب القَيْنة إلى قَينته»[٢].

وأهلُ اللهو فى غفلةٍ عمّا أهل الآخرة فيه، وفى عمًى عمّا ينظر هؤلاء الحاضرون إليه، ﴿**وكأيِّن من آية فى السَّموات والأرض يَمُرُّون عليها وهُمْ عنها مُعْرِضُون**﴾ [يوسف: ١٠٥]، ﴿**بَلْ قُلُوبُهُم فى غَمْرَةٍ من هَذا**﴾ [المؤمنون: ٦٣]، ﴿**ونَطْبعُ على قُلُوبِهم فَهُم لا يَسْمَعُون**﴾ [الأعراف: ١٠٠].

يقال: إنّ وهب بن منبِّه اليمانى[٣] ما وضع جنبه إلى الأرضِ ثلاثينَ سنةً، كانت له مَسْوَرَة من أَدَم إذا غَلَبه النّوم وضَع صَدْره عليها، وخَفَق خفقات، ثم يفزع إلى القيام. وكان يقول: لأن أرى فى بيتى شيطانًا أحبُّ إلىَّ من أن أرى فيه وسادة. يعنى لأنّها تدعو إلى النّوم.

وقال رَقَبَة بن مَسْقلة[٤]: رأيتُ ربَّ العزةِ تعالى فى النّوم، فسمعتُه يقول: وعزّتى وجَلالى لأكرمنَّ مَثْوى سُليمان التَّيمى، فإنّه صلّى الغداةَ بوُضوء العشاء الآخرة أربعينَ سنة. ويقال: إنه كان مذهبه أن النوم إذا خامر القلبَ وجبَ الوُضوء.

• ذكر من روى عنه أنه أحيا الليل كله:

ومَن اشتُهر بإحياء الليلِ كلِّه، وصلّى الغداةَ بُوضوءِ العِشاء الآخرةِ أربعين سنةً أو ثلاثين سنة، حتى نقل عنه ذلك أربعونَ من التّابعين، منهم: سعيدُ بنُ

(١) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تحسين الصوت، رقم ٢٣٣، ولفظه: «ما أذن اللهُ لشىءٍ ما أذن لنبىٍّ حَسَن الصَّوت، يتغنى بالقرآن، يجهر به»، وأخرجه البخارى فى كتاب التوحيد، وكتاب فضائل القرآن، وهو فى كثير من كتب السنن.

(٢) أخرجه ابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة (١٧٦) باب فى حسن الصوت، وهو فى ضعيف ابن ماجه رقم ٢٨٢، والسلسلة الضعيفة رقم ٢٩٥١، ولفظة ثمَّ: «... إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن...» وانظر: الإتحاف ٤/ ٤٩٧، والمسند ٦/ ١٩ ـ ٢٠.

(٣) يكنى بأبى عبد الله، وفى صفة الصفوة ٢/ ٢٩٦: روى عن معاذ، وأبى هريرة... ومات بصنعاء سنة ١١٤ هـ، وله ترجمة مطولة جدًا فى الحلية ٤/ ٢٣ ـ ٨١.

(٤) فى الحلية ٣/ ٣٢: «مصقلة» بالصاد، وفيه هذا الخبر.

المسيّب(١)، وصفوان بن سليم(٢)، المدنيّان. وفضيلُ بنُ عِياض(٣)، ووَهيب بن الورد(٤)، المكّيّان. وطاووس(٥)، ووَهْب بن منبه، اليَمانيّان. والرّبيع بن خَيْثم، والحَكَم بن عُيَينة(٦)، الكُوفيان. وأبو سُلَيمان الدّاراني، وعلى بن بكار، الشاميان. وأبو عبد الله الخوّاص، وأبو عاصم، العباديان. وحبيب أبو محمد، وأبو جابر السَّلماني، الفارسيان. ومالك بن دينار، وسُليمان التّيمى، ويزيد الرّقاشي، وحبيب ابن أبى ثابت، ويحيى البكاء، البصريون. وكَهْمس بن المِنْهال، وكان يختم فى الشهر تسعين ختمة، وما لم يفهم رجَع فقرأه مرة أخرى. وأيضًا من أهل المدينة: أبو حازم، ومحمد بن المنكدر، فى جماعة يكثر عددهم. هؤلاء المشهورون منهم.

فإن أحبّ المريد نام ثُلثَ الليلِ الأول، وقام نصفَه، ونام سُدُسَه الأخير، وإن أراد نام نصف الليل، وقام ثُلثه، ونام سدسه [الآخر]. فقد رُوى أنّ هذا من أفضل القيام، وأنه كان قيام نبى الله عزّ وجلّ داود عليه السلام، جاء ذلك فى روايتين.

وإن أحبَّ العبدُ قدّم القيامَ فيهما، وأخَّر وِتره إلى السَّحَر، فإنْ قام نصفَ الليل قسَّم نومه فى أوّل الليل وآخره، فإن قام ثُلث الليلِ نام سدسه الأخير، وإن اختار أن يقوم من أوّل الليل حتى يغلبه النوم، ثم ينام، ثم يقوم متى استيقظ، ثم ينام

---

(١) هو أبو محمد سعيد بن المسيب بن حزن، سيد التابعين، ولد لسنتين مضتا لخلافة عمر رضى الله عنه، وكل أعلم أهل المدينة بالحلال والحرام، توفى سنة ٩٤هـ وهو ابن خمس وسبعين سنة. الحلية ٢/ ١٦١ ـ ١٧٥.

(٢) أبو عبد الله القرشى الزهرى، ثقة، كثير الحديث، عابد. قال يحيى بن سعيد: هو رجل يستسقى بحديثه، وينزل المطر من السماء بذكره. الحلية ٣/ ١٥٨ ـ ١٦٥.

(٣) ولد بسمرقند، ونشأ بأبيورد، وكتب الحديث بالكوفة، وسكن مكة ومات بها سنة ١٨٧هـ، روى له الجماعة إلا ابن ماجه، ترجمته فى الحلية ٨/ ٨٤ ـ ١٣٩.

(٤) هو أبو عثمان المكى، ثقة، توفى سنة ١٥٣هـ، ترجمته فى الحلية ٨/ ١٤٠ ـ ١٦١.

(٥) هو طاووس بن كيسان، أبو عبد الرحمن، أدرك خمسين من الصحابة وعلمائهم، ترجمته فى الحلية ٤/ ٣ ـ ٢٣.

(٦) روى له الجماعة، ولد سنة ٥٠ هـ ومات سنة ١١٣ هـ. الإتحاف ٥/ ١٩٩، وانظر بقية ترجمة هؤلاء فى الإتحاف.

متى غلبه النوم، ثم يقوم آخر الليل، فيكون له في الليل نومتان وقومتان، فهذا من مُكابدة الليل، وهو من [أفضلِ القيام و][1] أشدِّ الأعمال، وهذه طريقةُ أهلِ الحضور واليقظَة، وأهلِ الأفكار[2] والتذكرة. وقد كان هذا من أخلاق رسول الله ﷺ. قال أنس بن مالك: ما كنت تريد أن ترى رسولَ الله ﷺ نائمًا إلا رأيتَهُ، ولا كنتَ تُريد أن تراه قائمًا إلا رأيتَهُ. وكان هذا مذهب ابنِ عمر وأُولى العَزْم من الصّحابة في قيام الليل، وفَعَله جماعةٌ من التابعين.

وقد رأينا من كان له في الليل قومات ونومات في تضاعيف ذلك. فأمّا أن يكونَ المنامُ والقيامُ موزونًا عدلاً، فليس ذلك إلا لنبيٍّ بقلبٍ دائم اليقظة، وبوَحي من الله عزّ وجلّ، ولا يسلك هذا الطريق [ولا يُطاق عليه][3] إلا بأسبابٍ هي زادُه؛ لأن كلَّ طريقٍ يُقطع بزادٍ مثله. فمَنْ أراده احتقَب وأخذ من زاده، فالأسباب: أحدها: همٌّ يلزم القلبَ، وحُزْنٌ يسكن فيه، أو يقظةٌ دائمةٌ يحيا بها القلبُ، وفكرٌ في الملكوتِ متّصلٌ، وخلوُّ المعدةِ من الطعامِ، وقلةُ الشُّرب[4]، وأن يَقيلَ بالنّهار، ولا يُكثر تعبَ جوارحِه في أمر الدنيا[5].

فهذه رياضة المريد إلى أن يألف القيام، وليستوطن حينئذ، فيتجافى جنبه لما في قلبه من الخوف والرجاء الذي قد استكنّ فيه.

وروى عن الله سبحانه وتعالى: «إن عبدى الذى هو عبدى حقًا، الذى لا ينتظر بقيامه صياحَ الدِّيك». ففي هذا حثٌّ على القيام قبل السَّحَر.

---

(١) زيادة من (ك).

(٢) في (ط): «التذكار» وأثبت ما في (ك).

(٣) زيادة من (ك).

(٤) في (ك): «وقلّة شرب الماء».

(٥) وذكر صاحب العوارف (ص ٣٢٩) أسبابًا أخرى تعين على قيام الليل، من ذلك: «أن يستقبل العبدُ الليلَ عند غروب الشمس بتجديد الوضوء، ويقعد مستقبل القبلة منتظرًا مجيء الليل وصلاة المغرب، مقيمًا في ذلك على أنواع الأذكار. وأن يواصل بين العشاءين بالصلاة أو بالتلاوة أو بالذكر؛ فإن ذلك يغسل عن باطنه آثار الكدورة الحادثة في أوقات النهار... ومن ذلك ترك الحديث بعد العشاء الآخرة، فإن الحديث في ذلك الوقت يذهب طراوة النور الحادث في القلب من مواصلة العشاءين...».

ونومُ آخرِ الليل نستحبّه لمعنيين: أحدُهما: أنه يَذهب بالنّعاس بالغَدَاة، وقد كانوا يكرهون النعاس[١] بالغداة، ويأمرون النّاعسَ بعد صلاةِ الصُّبح بالنّوم، [وورد فيه الكراهية][٢]. والمعنى الثانى: أنه يُقلّ صُفْرةَ الوجه [لأنَّ نعسَ الغداة واصفرار الوجه يكون من سهر آخر الليل][٣]، فلو قام العبدُ أكثرَ الليلِ ونامَ سحَرًا، ذَهب نعاسه بالغداة وقلّت صُفرةُ وجهه. ولو نام أكثرَ الليل وسهر من السّحر، جلب عليه النعاسَ بالغداة وصفرةَ الوجه.

فليتقِ العبد ذلك؛ فإنّه باب غامض من الشُّهرة، والشَّهوة الخفيّة [به]، وليُقلّ شُربَ الماء بالليل، فقد يكون منه الصّفرة، سيّما فى آخر الليل، وبعد الانتباه من النوم.

وقالت عائشة رضى الله عنها: «كان رسولُ الله ﷺ إذا أوتر من آخر الليل فإن كانت له حاجة إلى أهلِه دنا منهنّ، وإلا اضطجع فى مصلاه حتى يأتيه بلال، فيُؤذنه بالصَّلاة»[٤].

وقالت أيضًا: «ما ألفيتُه فى السَّحَرِ الأعلى إلا نائمًا»[٥]، تعنى رسول الله ﷺ. وفى الخبر الآخر: «كان النبى ﷺ إذا أوتر من آخرِ اللّيل اضطجع على شِقّه الأيمنِ ضجعةً حتى يأتيه بلالٌ، فيخرج معه إلى الصلاة».

فقد كان السّلف يستحبون هذه الضّجعة بعد الوتر، وقبل صلاةِ الصبح، حتى قال بعضهم: هى سُنَّة، منهم: أبو هريرة وغيره[٦].

والنّومُ من آخرِ الليلِ وفى الثّلث الأخيرِ مزيد لأهل المشاهدةِ والحضور؛ لأنّه

(١) فى (ك): «التنعّس».

(٢) زيادة من (ك).

(٣) زيادة من (ك) والعبارة قبلها فيه: «والوجه الثانى: أنه يبقى لون الوجه على حاله».

(٤) هذا بمعناه، وأصله فى مسلم من عدة روايات، كتاب صلاة المسافرين، باب صلاة الليل، رقم ٧٣٩، وانظر رقم ٧٣٦.

(٥) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، رقم ٧٤٢، ولفظه: «ما ألفى رسول الله ﷺ السحرَ الأعلى فى بيتى أو عندى إلا نائمًا».

(٦) فى (ط): «ومروان» وأثبت ما فى (ك).

كَشْف له عن الملكوت، واستماع [إلى][1] العلوم من الجبروت[2]، وهو راحةٌ وسكَن للعمّالِ وأهلِ المجاهدة. ولذلك حُظِرت الصّلاة بعد طلوع[3] الفجر، وبعد صلاة العصر؛ ليستريح عمالُ الله عزّ وجلّ وأهلُ أورادِ الليل والنّهار فيهما.

والنوم من آخر الليل هو نُقصان لأهلِ السّهو والغَفْلة، من حيث كان مزيدًا لأهلِ الشهود واليقظة؛ لأنّه آخرُ خدمةِ أولئك، ففيه راحتُهم، وهو تطاول النومِ والغفلةِ بهؤلاء، فهو نَقْصُهم.

وليَفْصِل العبدُ في تضاعيفِ صلاةِ الليل بجُلوسٍ يُسبِّح فيه مائة تسبيحة، فذلك ترويحٌ له، وعونٌ على الصّلاة، وهو داخل في قوله تعالى: ﴿**وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ**﴾ [ق: ٤٠] أي أعقاب الصّلاة، في أحد الوجهين على قراءة مَنْ نَصَب.

وإن أرادَ المزيدَ أحيا الوِردَيْن اللّذين من أوّلِ الليل؛ أحدهما: بين العشاءين. والثاني: قبل نومةِ الناس. فإن إحياءَ هذين الوردين عند بعض العلماء أفضلُ من صيام يوم، [وبعضهم قال: صلاة ما بين المغرب والعشاء أفضلُ من صومِهِ يومَه][4].

ثم ليقم الورد الرابع، وهو ما بين الفجرين، وهو أوّل ثلث الليل الأخير. والوردُ[5] الخامسُ، وهو السَّحَرُ الأخير قبلَ طلوعِ الفجر الثاني، وهو يصلح لقراءة [القرآن][6] وللاستغفار، إن كان لم يعتد القيامَ في جوف الليل.

وفي خبر أبي موسى ومعاذ لـمَّا التقيا: «قال معاذ لأبي موسى: كيف تصنعُ في قيام اللّيل؟ قال: أقومُه أجمع لا أنام منه شيئًا، وأتفوّقُ القرآنَ فيه تفوّقًا. قال

---

(١) زيادة من (ك).

(٢) في (ك): «الرغبوت».

(٣) في (ط): «صلاة».

(٤) ساقطة من (ط).

(٥) في (ط): «أو الورد» وأثبت ما في (ك) وضبطها.

(٦) زيادة من (ك)، وفي (ط): «للقراءة والاستغفار».

معاذ: لكنّى أنامُ ثم أقوم، وأحتسبُ فى نَومتى ما أحتسب فى قَومتى. فذَكرا ذلك لرسول الله ﷺ فقال لأبى موسى: معاذٌ أفقهُ منك»[١].

وقد كان بعضهم لا ينام حتى يغلبه النوم. وكان بعض السلف يقول: هى أولُ نومةٍ فإن انتبهتُ ثم عدت إلى نومةٍ أخرى فلا أنام الله عينىَّ. [وكان منهم من ينام أوّل الليل، فأىّ وقت انتبه أحيا بقية ليلته، ولم يَعُد لنومةٍ ثانيةً][٢].

وسُئل فزارة الشّامى عن وصف الأبدال، وكانوا يظهرون له، فقال: أكلُهم فاقةٌ، ونومُهم غَلَبة، وكلامُهم ضرورة، وصَمْتهم حِكمة، وعِلْمُهم قُدرة. وقيل لآخر: صف لنا الخائفين، فقال: أكلُهم أكلُ المرضى، ونومهم نوم الغرقى.

ولا يدع العبدُ أن يقوم مقدار خُمس الليل أو سُدسه، وهو وِرد من أوراد الليل، أو وردان[٣] على اختلافهما فى الطول والقصر، متفرقًا كان قيامه أو متصلاً.

وأى وِرْد أحياه من الليل، بأىّ نوعٍ من الأذكار، فقد دخل فى أهل الليل، وله معهم نصيبٌ. ومَن أحيا أكثر ليلته أو نصفها كُتب له إحياءُ جميعها، ويُتصدّق[٤] عليه بما بقى منها. ومَن صلّى فى ليلته[٥] عشرين ركعة، وأوتر بعدها بثلاث، حُسِبَتْ له كأنّه أحياها، بفضل الله ورحمته.

---

(١) أخرج البخارى جزءًا منه فى كتاب المغازى، باب بعث أبى موسى ومعاذ إلى اليمن، ولفظ البخارى: «فقال: يا عبد الله، كيف تقرأ القرآن؟ قال: أتفوّقه تفوُّقًا. قال: فكيف تقرأ يا معاذ؟ قال: أنام أول الليل، فأقوم وقد قضيت جزئى من النوم، فأقرأ ما كتب الله لى، فأحتسب نومتى كما أحتسب قومتى» وليس فيه «فذكرا ذلك...» وإنما زاد الطبرانى فيه: «فكان معاذ أفضل منه». وأورد أبو عبيد فى غريب الحديث ٥/١٩٧ قطعة منه وفسّر قوله: «أتفوقه: أى لا أقرأ جزئى بمرّة، ولكن أقرأ منه شيئًا بعد شىء فى آناء الليل والنهار، فهذا التفَوُّق إنما هو مأخوذ من فُواق الناقة، وذلك أنها تحلب ثم تترك ساعة حتى تدر ثم تحلب». وانظر: فتح البارى ٧/٦٥٩.

(٢) ساقطة من (ط).

(٣) فى (ك): «أو وردَين».

(٤) فى (ط): «وتصدق».

(٥) فى (ط): «ليلة».

وقد كان رسولُ الله ﷺ يقوم ليلةً نصفَ الليل، وليلةً ثُلثه، وليلةً ثلثيه، وذلك مذكور فى أوّل الآيتين من قيام الليل فى سورة المزمل. وقد كان رسول الله ﷺ يقوم ليلةً نصفَ الليل ونصفَ سُدسه معه، ويقوم ليلةً رُبعه، ويقوم ليلةً سُدسَ الليلِ حسب، وذلك مذكور فى آخر الآيتين من قيام الليل، وهذا على قراءة من كسر: «ونصْفِه وثُلثِه» فأما من نصب فقال: «ونصفَه وثُلثَه»[1]، فإنه يعنى: يقوم النصفَ مع نَصف السدس، والنِّصف وحدَه، والثُّلُث وحدَه، وهو الذى ذكرناه من الآية الأولى. وقد جاء فى التفسير نحو هذا. وهو ﷺ مفترض عليه صلاة الليل. فالآية الأولى أمره تعالى بقيام الليل فيها، والأخرى أخبر عنه بقيامِه كيف هو.

فالأجود أن يكون ما أخبر عنه مواطئًا[2] لما أمره به، فالذى أمره به أنه قال تعالى: ﴿قُمِ اللَّيْلَ﴾ ثم استثنى القليلَ منه، فقال: ﴿إلا قَليلاً﴾، ثم فسّر أمره، فقال: ﴿نصْفَهُ أو انْقُصْ منْهُ قَليلاً﴾ [المزمل:٢] [أو زد على ذلك قليلاً][3] يعنى، والله أعلم: انقص نصفَ السُّدسِ، أو ثلث ثُلثَ النّصف[4]، هذان أقل أسماء النُّقصان عند العرب.

ثم قال: ﴿أوْ زِدْ عَلَيه﴾ [المزمل:٤] يعنى: زد على النصف، كأنه [قال:] زد عليه نصفَ سُدس الليل؛ لأنه أخبر عنه فى الآية الأخرى بأقل من الثلثين فقال: ﴿إنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنى مِن ثُلثى الليلِ﴾ يكون هذا نصفًا ونصفَ سُدس، وهو

---

(١) قراءة الكسر، قرأ بها: نافع، وأبو عمر، وابن عامر، وقرأ الباقون بالنصب، انظر كتاب السبعة فى القراءات، لابن مجاهد، ص٦٥٨، وقال أبو على الفارسى فى كتابه الحجة ٦/ ٣٣٦: «ومن نصب حمله على «أدنى» التى هى فى موضع نصب، ومن جرّ فإنه يحمله على الحال».

(٢) فى (ط): «مواظبًا» وهو تصحيف، صوابه من (ك) والإتحاف ٥/ ٢٠٣.

(٣) ساقطة من (ط).

(٤) فى (ط): «أو نصف الثلث» وهو خطأ صوابه ما فى (ك) والإتحاف ٥/ ٢٠٣. وهذا أحد الأوجه فى تفسير الآية، على اعتبار أن قوله: ﴿نصفه﴾ بدل من ﴿قليلاً﴾ وأن معنى القليل هو: ما دون النصف أو السدس أو الثلث. ووجه آخر: أن ﴿نصفه﴾ بدل من ﴿الليل﴾. انظر: تفسير القرطبى ١٩/ ٣٥.

أقل التسمية عندهم. ثم قال: ﴿ونصفَه﴾ أى: ويعلم أنك تقوم نصفه أيضًا ﴿وثُلُثَه﴾ [المزمل: ٢٠] أى: وتقوم ثلثه.

فهذه الأخبار[١] أشبه لِوَطْءِ الأمر من قراءة مَن كَسر فقال: «ونصفِه وثُلثِه» يريد: وتقوم أدنى من نصفه وهو الربع، أو الثلث، وأدنى من ثلثه وهو السدس، أو نصف السدس.

وقد قالت عائشة رضى الله عنها: «كان رسول الله ﷺ يقوم من الليل إذا سمع الصّارخ يعنى الديك»[٢]. فهذا يكون من السَّحَر فقط، فكان هذا يكون سُدس الليل أو نِصف سدسه، [وهذا أيضًا] فيه رخصةٌ وسَعَة لقُوّام الليل.

قلنا هذا تقريبًا لا تحديدًا، والله أعلم [بحقيقة الأمر][٣]. والنّصبُ اختيارُنا فى القراءة على معنى كثرة القيام، ولمواطأة الخبر عنه للأمر. وقد جاء فى الأثر: «صلِّ من الليل ولو قدر حلب شاة». فهذا قد يكون أربع ركعات وقد يكون ركعتين.

وقال أبو سليمان: مَنْ أحسن فى نهاره كُوفئ فى ليله، ومن أحسن فى ليله كوفئ فى نهاره. وكان يقول: أهلُ الليل على ثلاث طبقات: منهم مَنْ إذا قرأ مُتفكرًا بكى، ومنهم من إذا تفكّر صاح وراحته فى صياحه، ومنهم من إذا قرأ وتفكّر بُهت، فلم يبك ولم يَصِح. فقلتُ له: من أىّ شىء صاح هذا؟ ومن أى شىء بهت هذا؟ [ومن أى شىء بكى هذا؟][٤]، فقال: لا أقوى على التفسير.

وقال رجل للحسن: يا أبا سعيد، إنى أبيتُ معافًى، وأُحبُّ قيامَ الليل، وأتخذ طهورى، فما بالى لا أقوم؟ فقال: ذنوبك قيَّدتك يا ابن أخى. وكان الحسن إذا دخلَ السوقَ فسمع لَغطَهم ولَغْوهم، قال: أظنّ ليلَ هؤلاء ليلَ سُوء، ما يَقِيلون.

وقال بعض السلف: كيف ينجو التّاجر من سوء الحساب، وهو يلغو بالنهار وينام بالليل؟

---

(١) فى (ك): «فهذا الإخبار».

(٢) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، رقم ٧٤١.

(٣) ساقطة من (ط).

(٤) ساقطة من (ط).

وقال الثّورى: حُرِمتُ قيامَ الليل خمسة أشهر بذنب أذنبته. قيل له: وما هو؟ قال: رأيتُ رجلاً يبكى، فقلتُ فى نفسى: هذا مُرَاءٍ.

وقال بعضهم: دخلتُ على كُرز بن وَبْرة، وهو يبكى، فقلتُ: ما بالُك، أتاكَ نعيُ بعض أهلك؟ فقال: أشد. فقلت: وجع يؤلمك؟ قال: أشدّ. قلتُ: فما ذاك؟ قال: بابى مُغلق، وسِترى مُسبَل، ولم أقرأ حِزبى[1] البارحة، وما ذاك إلا بذنب أَحْدَثْتُه[2].

وقال محمدُ بن شبانة: سمعتُ بعضَ الشيوخ الثقات المستورين ببغداد يقول: سمعتُ ابن الصّافى البقّال بدَيْنوَر يقول: كان بدَيْنَور سجّان، قال: إنّى بقيتُ على باب السِّجن نيِّفًا وثلاثين سنةً، فما من أحد حُمل إلى السّجن من الذين أخذهم الطَّوْف بالليل إلا سألته، فقلتُ له: هل صلّيتَ صلاةَ العشاء الآخرة فى جماعة، إلا قال: لا[3].

وقال أبو سليمان: لا تفوت أحدًا صلاةٌ فى جماعة إلا بذنبٍ. وكان يقول: الاحتلام بالليل عقوبة، والجنابة: البُعد. فكأنّه بَعُد من الصّلاة والتلاوة، إذ فى ذلك قُرب، ومن هذا قوله تعالى: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ﴾ [القصص: ١١] [أى عن بُعْد. وقال آخر: لا يعوقُ أحدًا قيامَ ليلةٍ إلا لحدث أحدثهُ فى نهاره][4]. وكان الحسن يقول: إن العبدَ ليُذنب الذّنب فيُحرَم به قيامَ اللّيل وصيامَ النهار.

وقال بعض العلماء: إذا صُمت يا مسكين، فانظر عند مَنْ تُفطر وعلى أى شىء تُفطر، فإن العبدَ ليأكل الأكلةَ فينقلب قلبُه عمّا كان عليه فلا يَعُود إلى حاله الأول. وقال آخر: كم من أكْلة منعتْ قيامَ الليلِ، وكم من نَظْرة حَرَمت قِراءة سُورة. وإن العبدَ ليأكل الأكلةَ أو يفعل فِعلةً فيُحرَم بها قيام سَنَة.

---

(١) فى (ط): «جزئى» وهو تصحيف، صوابه من (ك) والإتحاف ٥/ ١٩٣.

(٢) فى (ط): «أحدثه».

(٣) هذا الخبر ليس فى (ك).

(٤) ساقطة من (ط).

فبُحسن التفقّد يعرف [المريدُ][١] النُّقصان من المزِيد، وبقِلَّة الذُّنوب يُوقف على التفقّد.

وكان الفُضيل يقول: لو رُزقت من فَهْم القرآنِ وقيامِ الليل فى أوّل أمرى ما رزقت الآن، ما كتبتُ حديثًا قط، ولا اشتغلتُ بغيرِ القرآن.

ويقال: إنّ طولَ القيام راحات القيامة، وإنّ صلاةَ الليل كفاراتُ الكبائرِ. وقيل: إنّه جبران لما نقَص من الفرائض من صلاة النَّهار[٢].

وقد كانوا يستحبّون فى صلاة النهار كثرةَ الركوع والسّجود، وفى صلاة الليل طولَ القيام.

واعلم أن صلاةَ الليل فريضة على رسول الله[٣] ﷺ [وهى نافلةٌ لنا]؛ لأنه كان مُتماًّ لفرائضه، وصلاة الليل [تطوعٌ لنا وجبرانٌ] وتكملة [النقصِ] فرائضنا.

وفى الخبر: «إذا نام العبد عقد الشّيطان على رأسه ثلاث عقد، فإن قعَد وذكر اللهَ انحلّت عقدة، وإذا توضّأ انحلّت عقدة، وإن صلّى ركعتين انحلّت العقد كلّها، فأصبح نشيطًا طيّبَ النفس وإلا أصبح كَسلانَ خبيثَ النّفس»[٤].

وفى الخبر: «إنَّ الرجلَ إذا نام حتى يُصبح بال الشّيطانُ فى أذنه»[٥].

وقد روينا فى الخبر الآخر: «إنّ للشيطان سَعُوطًا ولَعوقًا وذَرُورًا، فإذا أسعط العبدَ ساء خلقه، وإذا ألعقَهُ ذَرِب لسانه بالشّر، وإذا ذرَّه نام بالليل حتّى يُصبح»[٦].

---

(١) ساقطة من (ط).

(٢) فى (ط): «الليل» والصواب ما فى (ك).

(٣) فى (ط): «نافلة لرسول الله» والصواب ما أثبت من (ك) وكان ثَم نقص فى المطبوعة أكملته من المخطوط.

(٤) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، رقم ٧٧٦. والبخارى فى كتاب التهجد، وكتاب بدء الخلق. وأخرجه النسائى، كتاب قيام الليل، باب الترغيب فى قيام الليل، رقمه فى الصحيح: ١٥١٦. وأخرجه غيرهم.

(٥) أخرجه مسلم فى كتاب صلاة المسافرين، رقم ٧٧٤، وصحيح سنن النسائى، رقم ١٥١٧.

(٦) قال العراقى ١/٣٥٣: «أخرجه الطبرانى فى الكبير من حديث أنس... ورواه البزار من حديث سمرة بن جندب، وسندهما ضعيف». وانظر: الإتحاف ٥/١٨٥.

ويُستعان على قيامِ الليل بثلاث: أكلِ الحلالِ، والاستقامة على التوبة، وغمٍّ خوف الوعيد أو شوق رجاء الموعود.

والذى يُحرَم العبدُ به قيامَ الليل، أو يُعاقَب معه بطول الغفلة، ثلاثٌ: أكل الشّبهات، وإصرار على الذنب، وغلبة همّ الدنيا على القلب[1].

* * *



(١) وهذا كله يعنى أن «لزوم الذكر يطرد الشيطان، ويجلو مرآة القلب، وينوّر البصيرة. ولا يتمكن منه إلا الذين اتقوا، فالتقوى باب الذكر، والذكر باب الكشف، والكشف باب الفوز الأكبر، وهو الفوز بلقاء الله عز وجل» عن الزبيدى ٥/ ١٨٥. وبقيت بعض الأسباب فى قيام الليل، ذكرها صاحب العوارف، ص٣٦٥ ـ ٣٦٧. وانظر: الإحياء ١/٣٥٦.

الفصل الخامس عشر [١]

فى ذكر ورد العبد من التسبيح والذكر والصلاة فى اليوم والليلة، وفضل صلاة الجماعة، وذكر أفضل الأوقات المرجو فيها الإجابة، وذكر صلاة التسبيح، وما يُستحب أن يكون شعاره [من أخلاق السلف] [٢]

ليكن للعبد فى كلّ يوم وليلةٍ وردٌ من التسبيح، وأقلُّ ذلك تِسعمائة مرة من أنواع الأذكار التى وردت بها الأخبار. فليقل:

لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملكُ وله الحمدُ، يحيى ويميت وهو حىٌّ لا يموت، بيده الخير وهو على كل شىء قدير، مائة مرة. فإذا قال ذلك مائتى مرة لم يعمل أحد فى يومه أفضل من عمله، بأثرٍ فيه عن رسول الله ﷺ.

وليقل: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، وتبارك الله، مائة مرة.

وليقل: اللهم صلّ على محمد عبدك ونبيك ورسولك النبى الأمى، مائة مرة.

وليقل: أستغفر الله الحى القيوم، وأسأله التوبة، مائة مرة.

وليقل: سبحانَ اللهِ العظيم وبحمده، مائة مرة.

وليقل: لا إله إلا الله الملك الحق المبين، مائة مرة.

وليقل: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، مائة مرة.

يقول هذا فى كلّ يوم، وفى كل ليلة، فإن رُزق مزيدًا عليه فهو فضل، وإلاّ كان هذا معلومه. وقد كان فى الصحابة مَن وِرْدُه كلَّ يومٍ اثنا عشر[٣] ألف

(١) لا يوجد هذا الترقيم للفصول فى نسخة (ك) فى جميعها.

(٢) زيادة من (ك).

(٣) فى (ك): «اثنتى عشرة».

تسبيحة، وكان من التابعين مَن وِرده فى كلّ يوم ثلاثون ألفًا، [ومنهم مَن ورده خمسون ألفًا][(١)].

وحدثونا عن إبراهيم بن أدهم عن بعض الأبدال، أنه قام ذات ليلة يصلى على شاطئ البحر، فسمع صوتًا عاليًا بالتسبيح ولم يرَ أحدًا، فقال: مَنْ أنت، أسمع صوتك ولا أرى شخصك؟ فقال: أنا مَلَك من الملائكة موكَّل بهذا البحر، أسبِّح اللهَ عزّ وجلّ هذا التسبيح منذ خُلقتُ. قلت: فما اسمك؟ قال: مهيهيائيل. قلت: فما ثواب من قاله؟ قال: من قاله مائة مرة لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة، أو يُرى له. وهو هذا التسبيح: سبحانَ الله العلىِّ الدّيَّان، سبحان الله شديدِ الأركان، سبحان مَن يَذهب بالليل ويأتى بالنّهار، سبحانَ من لا يَشْغله شَانٌ عن شان، سبحان اللهِ الحنَّان المنَّان، سبحان الله المسبَّح فى كلّ مكان.

وإن كان للعبد من الصلاة أورادٌ معلومة فحسنًا قد فعل [ذلك]، وكان من التابعين مَن وِرْدُه فى كلّ يوم ثلاثمائة ركعة، وأربعمائة ركعة. وكان منهم مَنْ ورده ستّمائة ركعة إلى ألف ركعة. وأقلّ ما نُقل عنه من الأوراد مائة ركعة فى اليوم [والليلة][(٢)].

وكان كُرز بن وَبْرة مُقيمًا بمكة، وكان يطوف فى كل يوم سبعين أسبوعًا، وفى كل ليلة سبعين أسبوعًا[(٣)]. قال: فحَسَبْنا ذلك فكان عَشْرة فراسخ. [وفى] هذه الأسابيع مائتان وثمانون ركعة. قال: وكان يختم ـ مع ذلك ـ القرآنَ فى اليوم والليلة مرتين. وقال هشام بن عِروة: كان أبى يواظب على وِرده من التّسبيح كما يواظب على حزبه من القرآن. وروى عنه أيضًا: كان يواظب على حزبه من الدعاء كما يواظب على حزبه من القرآن.

ولا يدع العبدُ أن يسبِّح أدبارَ الصلوات الخمس مائة تسبيحة عند كل صلاة

(١) ساقطة من (ط)، وكذا فى الموضعين التاليين.
(٢) ما ذكره هنا شىء لم يثبت فى السّنة ولم يؤثر عن الصحابة، بل الذى ورد فى السُّنّة يخالف ذلك. وفى إطالة الركوع والسجود والذكر غنًى عن هذه الكثرة المتكلفة.
(٣) الأُسْبوع من الطَّواف: سبعة أطواف، وطُفتُ بالبيت أُسبوعًا، أى: سَبْعَ مرَّات.

مكتوبة، وكذلك عند النوم مائة. وليواظب على أن يقول إذا أصبح وإذا أمسى ما جاء في تفسير قوله عزّ وجلّ: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الزمر:٦٣] فإنّ لذلك ثوابًا عظيمًا.

ورُوينا عن عثمان رضى الله عنه أنه سأل النبى ﷺ عن تفسير هذه الآية: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، فقال: «لقد سألتنى عن شىء ما سألنى عنه أحد قبلك، هو: لا إله إلاّ الله، والله أكبر، وسبحان الله وبحمده، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأستغفر اللهَ الأولَ والآخرَ والظّاهرَ والباطنَ، له الملك وله الحمد، بيده الخيرُ، وهو على كل شىء قدير. مَنْ قالها عشرًا حين يصبح وحين يمسى أُعطى بها ست خصال؛ فأول خصلة: يُحرس من إبليس وجنوده. والثانية: يُعطَى قنطارًا من الأجر. والثالثة: يُرفَع له درجةٌ فى الجَنة. والرّابعة: يُزوِّجه الله عزّ وجل من الحُور العين. والخامسة: يحضرها اثنا عشر مَلكًا. والسادسة: يكون له من الأجر كمن حَجَّ واعتمر»[١].

وقد روينا فى تفسيرها قولاً آخر، من رواية أخرى، واتصل به ذكر كَنز أهل الجنة ما هو، فإن ضمّ هذا إليه فقد جمع الروايتين، واستوعب الفضيلتين. رواه عبد الرحمن بن أبى ليلى، عن عثمان بن عفان رضى الله عنه، أنه سأل النبى ﷺ مسائل فأجابه عنها، فقال: ما مقاليدُ السموات والأرض؟ فقال: أن يقول العبدُ: لا إله إلا الله محمد رسول الله. وأمّا كنزُ أهل الجنة، فيقول: سبحان مَن فى السماء عرشُه، سبحان مَن فى السماء موضعُ أثره، سبحان مَن سَبَقت رحمتُه غَضبَه، سبحان من لا ملجأ ولا مهرب إلا إليه. يا عثمان مَن قالها كلّ يوم عشر مرات كُتب له بها ست خصال: ينجيه الله من إبليس وجنوده، وإن مات مات شهيدًا، وبنى له قصرًا فى الجنة، وكأنّما قرأ التوراةَ والإنجيل والزبور والفرقان، وكأنما اشترى ثمانيةً من ولد إسماعيل وأعتقهم[٢].

---

(١) ذكر القرطبى هذا الحديث فى تفسيره ١٥/ ٢٧٥، وذكر أن الثعلبى ذكره فى تفسيره وزاد الزيادة التى رواها صاحب القوت هنا. وأخرجه بمعناه أبو عوانة ١/ ١٦٨.

(٢) المذكور هنا خمسة فقط، وسيجىء تخريج هذا وغيره فى آخر الكتاب.

ولا يدع قراءةَ هذه الآيات الستّ[١] عند كلّ صلاة يصليها، فريضة أو تطوّع، ففى ذلك ثواب عظيم: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلامٌ على المرسَلين * والحَمْدُ لله ربِّ العَالمين﴾ [٢] [الصافات: ١٨٠ ـ ١٨٢]، وقوله: ﴿فَسُبْحَانَ الله حينَ تُمْسُونَ وَحينَ تُصْبِحُون * وله الحَمْدُ فى السَّموات والأرض وعَشيًا وحينَ تُظْهِرُون يُخْرِجُ الحىَّ مِنَ الميِّت ويُخْرِجُ الميِّتَ مِنَ الحىِّ ويُحْيِى الأرضَ بَعْدَ مَوْتِها وكَذلِكَ تُخْرَجُون﴾ [٣] [الروم: ١٧ ـ ١٩].

ويَستغفرُ[٤] للمؤمنين والمؤمنات فى كل يوم خمسين مرة، خمسًا وعشرين إذا أصبح، وخمسًا وعشرين إذا أمسى، فإنه يُكتب من الأبدال بأثر فى ذلك[٥] رويناه، ولفظ الاستغفار الذى جاء فى الخبر أن يقول: «اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات، حيِّهم وميِّتهم، شاهدِهم وغائبهم، قريبهم وبعيدهم، إنك تعلم متقلَّبهم ومثواهم».

وليقل هذا الاستغفار فى تشهده أيضًا، فقد جاء ذلك.

وليقل فى كل عشر مرات: اللهم أصلح أمة محمد، اللهم ارحم أمة محمد، اللهم فرِّج عن أمة محمد ﷺ، يقال: مَنْ قاله فى كل يوم كُتب له ثوابُ بَدلٍ من الأبدال.

وليقل إذا أصبح ثلاثًا، وإذا أمسى ثلاثًا: اللهم أنت خلقتنى، وأنت هديتنى، وأنت تطعمنى، وأنت تسقينى، وأنت تميتنى، وأنت تحيينى، وأنت ربى لا ربّ لى

(١) فى (ط): «وليواظب على قراءة هؤلاء الست آيات».
(٢) فى (ط) ذكر جزءًا من الآية، وهى مذكورة بتمامها فى (ك).
(٣) فى (ط) ذكر جزءًا من الآية الأولى، وهى مذكورة بتمامها فى (ك).
(٤) فى (ط): «واستغفر».
(٥) يقصد الحديث الذى روى عن أبى الدرداء أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من استغفر للمؤمنين والمؤمنات كل يوم سبعًا وعشرين مرة أو خمسًا وعشرين مرة كان من الذين يستجاب لهم، ويرزق بهم أهل الأرض» ضعفه الألبانى، انظر: ضعيف الجامع الصغير، رقم ٥٤٠٤، ومجمع الزوائد ١٠/ ٢١٠.

سواك، ولا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك. فإن في ذلك شكر نعمة يومه.

ولا يدع أن يقول كلّما استيقظ من نومه وكلما أراد المنام هذه الكلمات: بسم الله، ما شاء الله، لا قوة إلا بالله، ما شاء اللهُ كلُّ نعمةٍ من الله، ما شاء الله الخيرُ كله بيد الله، ما شاء الله لا يصرف السوءَ إلا الله. ففي هذا عِصمة من الله عزّ وجلّ وحِرْز له من الشيطان. وقد جاء في الخبر: «مَنْ قالهنّ مائة مرة يوم عرفة قبل غروب الشمس ناداه الله عز وجلّ من فوق عرشه: قد أرضيتني وعليّ رضاك، سَلني ما شِئت أعطك».

ولا يدع أن يقول كل غداة وكل عشية: **﴿فإن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لا إلهَ إلا هُو عَلَيْه تَوكَّلْتُ وهو رَبُّ العَرْشِ العَظِيم﴾** [التوبة: ١٢٩] سبع مرات.

وكذلك يسأل الله الجنة، ويستعيذ به من النار، سبعًا، وكلما سمع الأذان قال كما يقول المؤذن، فإذا فرغ فليقل: رَضِيتُ بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًا. اللهم ربَّ هذه الدعوةِ التامة، والكلمةِ الصادقة، والصلاةِ القائمة، صلِّ على محمد وعلى آله، وأعطه الوسيلةَ والفضيلة [والدرجة الرفيعة][١]، وابعثه المقامَ المحمود الذى وعدته.

فإن كان الأذان لصلاة الصبح أو صلاة المغرب زاد في ذلك: اللهم هذا إدبارُ ليلك، وإقبالُ نهارك، وأصواتُ دعاتك، وحُضورُ صلاتك، وشهودُ ملائكتك، صلِّ على محمد وآله. ثم لِيَدْعُ بما أحَبّ، وليَغْتنِم الصّلاةَ والدّعاءَ بين الأذان والإقامة، فإنه يُستحب.

ولتكن هذه الكلمات هِجِّيرَه [ودِثارَهُ][١] وشِعاره في الأوقات، فإنّها من دعاء الأبدال فيما بينهم، وشعارهم في أوقاتهم: ما شاء الله، لا قوة إلا بالله، العفوّ الغفور، يا سلام سلِّم، يا رب، يا رب، يا ذا الجلال والإكرام، افتح بخيرٍ واختم بخير، فلا إله إلا الله الحي القيوم. سبحان ربنا إنْ كان وَعْدُ ربِّنا لمفعولاً. يا رب، يا رب، يا الله، يا الله، يا عزيز، يا عزيز، يا قريب يا قريب، يا حليم، يا ستار.

(١) ما بين المعكفات من (ك). هجِّيره: دأبه وشأنه. دِثاره: لباسه.

سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً. يا الله، يا الله، يا عزيز، يا عزيز، يا قريب، يا قريب، يا كريم، يا غفار، يا واسعَ المغفرة اغفر لى، عافنا واعف عنا، نسألك العفو والعافية، يا غياث المستغيثين.

وفى جميع ما ذكرنا فضائل وردت بها الآثار عن النبى ﷺ وعن الصحابة والتابعين لهم بإحسان، طوينا نشر ذلك؛ إذ لم يكن قصدنا ذكر فضائل الأعمال، وإنّما أردنا شرحَ أورادِ العُمّال.

ولا يدع السِّواك كلما استيقظ من نوم النهار أو الليل، فإنه يقال إنه من خير خِصال الصّائم، إلا بعد العصر فقد كُره [ذلك] للصائم.

وفى الخبر: «طيِّبوا طرق القرآن من أفواهكم بالسّواك»(١). وفى الحديث: «السِّواك مطهرة للفم مرضاة للرب عزّ وجلّ»(٢). ويقال: «إن الصّلاة بعد السّواك تَفْضُل على الصّلاة بغير سواك سبعين ضِعفًا»(٣).

وأوْكد ما استُعمل فيه السّواك أربعةُ أوقات: قبل الزّوال للصّائم، ويوم الجمعة مع الغسل لها، وفى قيام الليل، وبالغَدَاة عند الاستيقاظ من النوم.

وقد كانوا يستحبون أن لا يأتى على العبد يوم وليلة إلا تصدَّق فيه بصدقة وإن قلّ، مثل لقمة أو تمرة، حتىّ كان بعضهم يتصدّق ببصلة وبخيط؛ لأنه جاء فى الأثر: «كلّ امرئ يوم القيامة فى ظل صدقته»(٤). والله سبحانه يشكر القليل الدائم، وهو أحب إليه من الكثير المنقطع، ألم تر كيف ذَمَّ مَن أعطى وقطع فى قوله تعالى: ﴿وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى﴾ [النجم:٣٤]، أى قطع. ومدح فواكه الجنة

---

(١) أخرجه ابن ماجه، كتاب الطهارة، باب السواك، عن على، انظر صحيح ابن ماجه رقم ٢٣٦، ولفظه «إن أفواهكم طرق للقرآن فطيبوها بالسواك». والصحيحة، رقم ١٢١٣.

(٢) أخرجه البخارى، كتاب الصوم ب٢٧، والنسائى، كتاب الطهارة.

(٣) من حديث أخرجه الإمام أحمد فى المسند ٦/ ٢٧٢ من حديث عائشة، والحاكم فى المستدرك ١/ ١٤٦، ولفظ المسند: «فضل الصلاة بالسواك على الصلاة بغير السواك بسبعين ضعفًا».

(٤) فى المسند ٤/ ١٤٨ من حديث عقبة بن عامر بلفظ: «كل امرئ فى ظل صدقته حتى يقضى بين الناس».

يعيب بذلك فواكه الدنيا فى تدبُّر الخطاب فقال: ﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لاَ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٢ ـ ٣٣]، أى: فازهدوا فى فواكه الدنيا فإنها مقطوعة ممنوعة، رغبةً فى هذه الدائمة.

وكان من أخلاق السلف أن لا يردّوا سائلاً إلا بشىء وإن قَلّ، لقول رسول الله ﷺ: «اتقوا النّار ولو بشِقّ تمرة»(١)، ولقوله ﷺ: «للسائل حقٌّ، ولو جاء على فرس مطوَّق بفضَّة»(٢)، ولقوله ﷺ: «لا تردّ السائل ولو بظِلْفٍ محترق»(٣).

ودفعت عائشة رضى الله عنها إلى السائل عنبة واحدة، قال: فنظر بعضنا إلى بعض، فقالت: ما لك؟ إنّ فيها لمثاقيل ذرة كثيرة.

وقد كان من أخلاقهم أن لا يُسأل أحد شيئًا، أو يُراد بأمر مباح، فيقول لا، لكراهتهم الخلاف ومحبتهم الائتلاف. وكان ذلك من أخلاق رسول الله ﷺ: «ما سُئل شيئًا قط فقال: لا، فإن لم يقدر عليه سكت»(٤).

وقد كانوا يجتمعون على الأمر الواحد بقَلْب واحد، ولا يستبدُّ بعضهم بأمرٍ دون بعض، ولا يستأثر أحدُهم بشىء دون أخيه، وبذلك وصفهم الله عزّ وجلّ فى قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨] أى: أمورهم مشاعة فيما بينهم غير مقسومة، هم فيها سواء.

ويُستحبّ للعبد أن يعمل فى الجمع بين أعمال أربعة(٥) [فى يوم واحد، فإذا اتفقت له فهى نعمة من الله عز وجلّ:] صوم وصدقة وعيادة مريض وشهود

(١) أخرجه البخارى، كتاب الأدب ب٣٤، ومسلم، كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة، رقم ٦٧، من حديث عدى بن حاتم، وفى غيرهما من كتب السنة.

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب الزكاة، باب حق السائل، رقم ١٦٦٥، وضعيف أبى داود، رقم ٣٦٤، من حديث حسين بن على، دون قوله: «مطوق بفضة».

(٣) أخرجه النسائى، كتاب الزكاة، باب رد السائل رقم٧٠٠، والصحيح ٢٤٠٥، والمسند ٤/ ٧٠، ٥/ ٢٨١، من حديث حواء بنت السكن بلفظ: «ردّوا السائل».

(٤) أخرجه مسلم، كتاب الفضائل، ب٤ ح ٥٦، وأحمد فى المسند ٦/ ١٣٠ من حديث جابر بن عبد الله.

(٥) فى (ط): «أن يجمع بين هذه الأعمال الأربعة» وأثبت ما فى (ك)، وما بين المعكفات من (ك).

جنازة. وقد كان هذا طريق المريدين يسارعون إليه ويحرصون عليه. وفى الخبر: «مَنْ جمع بين هذه الأربع في يوم غُفر له». وفى بعضها: «دخل الجنة»[1]. فإن اتفقَ له منها ثلاث أو اثنان فأعجزه[2] ما بقى، حُسب له تمامها، لحُسن نيّته [لذلك].

ولا يدعنَّ الجماعة سيما إذا سمع التأذين، أو كان فى جوار المسجد. وحدُّ الجوار أن يكون بينه وبين المسجد ثلاث دور [ومنزله هو الرابع]. وأوْلى المساجدِ أن يصلِّى فيه أقربها منه، إلا أن يكون له نية فى الأبعد لكثرة الخُطى [مع حصول السلامة]، أو لفضل الإمام فيه، والصّلاةُ خلف العالم الفاضل أفضل. أو يريد أن يعمر بيتًا من بيوت الله عزّ وجلّ بالصّلاة فيه، وإن بَعُد.

وقال سعيد بن المسيب: من صلّى الخمس فى جماعة فقد ملأ البرَّ والبَحْر[3] عبادة.

وليتوضأ لكلّ صلاةٍ قبل دخول وقتها، فإنّه من المحافظة عليها، وحُسن القيام بها[4].

وقال أبو الدرداء، وحَلَف بالله، وما سمعته حالفًا بالله قط، قال: «من أحبِّ الأعمال إلى الله عزّ وجلّ ثلاث: أمرٌ بصدقة، وخطوة إلى صلاةِ جماعة، أو إصلاح بين الناس».

ويستحب له كلّما دخل منزله[5] أن يصلى ركعتين[6]، وكلما خرج منه صلّى ركعتين. وقد كان السّلف لا يخرجون من منازلهم حتى يتوضؤوا. ويستحب له

(١) ليس بلفظه فى معجم الطبرانى الكبير ١١/ ١٤٣.
(٢) فى (ك): «وأعجز له».
(٣) فى (ط): «البرين والبحرين» وأثبت ما فى (ك)، وما بين المعكفات كلها من (ك).
(٤) فى (ط): «ومن حسن معاملتها» وأثبت ما فى (ك).
(٥) فى (ط): «ويستحب له كلما دخل المسجد أو منزله»، والصواب ما أثبت من (ك).
(٦) بعدها فى (ط): «فإن ذلك من عمل الأبرار» وليس كذلك فى (ك)، وقد تكررت بعد ذلك، فحذفتها.

كلّما أحْدثَ أن يتوضأ، وكلما توضأ أن يصلّي ركعتين، فإنّ ذلك من عمل الأبرار، وهو لمن مات على هذا العمل شهادة.

وإذا خرج من منزله قال: بسم الله ما شاء الله، حسبى الله، توكلت على الله، لا قوة إلا بالله. اللهم إليك خرجتُ وأنت أخرجتنى، اللهم سلّمنى وسلّم منى فى دينى كما أخرجتنى. اللهم إنى أعوذ بك أن أزلَّ [أو أُزَلّ، أو أَضِلَّ] أو أُضَلّ، أو أظلم أو أُظلم، أو أجْهَل أو يُجْهل عليَّ. عزّ جارُك، وجلّ ثناؤك، ولا إله غيرك، وليقرأ سورة الحمد، والمعوذتين.

ولا يدع صلاةَ الضحى أربعة ركعات، ويزيد ما شاء الله إلى ثمان ركعات إلى اثنى عشر ركعة، ولا يزيد على ذلك، إن نشط أطالهن، وإن فتر قَصَرهن، وليجعل من قراءته فيهنّ: والشمس وضحاها، وسورة الضحى، وآخر سورة البقرة، وآخر سورة الحشر. ثم ليتنفَّل بعد ذلك بما شاء من غير أن تكون ورد الضحى، فيلزمه المواظبة عليه[1].

وفى حديث عائشة رضى الله عنها: «إن النبى ﷺ كان يصلّى الضحى أربعًا، ويزيد ما شاء الله»[2].

وفى خبر عن الله عزّ وجلّ: «يا ابن آدم، صلِّ لى أربع ركعات فى أول النهار أكْفِك آخره»[3].

وفى حديث أم هانئ بنت أبى طالب: «إن النبى ﷺ صلّى الضحى ثمان ركعات»[4].

وفى الخبر: «يُصبح ابنُ آدم وعلى كلِّ سُلامى من جَسده صَدَقَة، يعنى فى كل مِفْصل، وفى جسده ثلاثمائة وستون مِفْصلاً؛ فأمرُك بالمعروفِ صدقة، ونهيُكَ عن

(١) فى (ك): «ثم ليتنفل بعد ذلك ما شاء الله، من غير أن يكون يلزمه المواظبة عليه».

(٢) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، ب١٣، ح رقم ٧٨.

(٣) أخرجه الترمذى، كتاب أبواب الصلاة، ح رقم ٤٧٨، والصحيح رقم ٣٩٥، من حديث أبى الدرداء، والمسند ٥/ ٢٨٧.

(٤) من حديث طويل أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، رقم ٨٢.

المنكر صدقة، وحملُك عن الضّعيف صدقة، وهدايتُك إلى الطريق صدقة، وإماطتُك الأذى صدقة، حتى ذكرَ التسبيحَ والتهليل، ثم قال: وركعتا الضحى تأتى على ذلك كله»[1]. أو قال: «تجمعن لك ذلك [كله]».

وقد كان من سيرة المتقدمين دخولُ المسجد سَحَرًا قبل طلوع الفجر، والقعود فيه إلى صلاة الصبح، ويفضّلون هذا الفعل. حدثونا عن رجل من التابعين قال: دخلت المسجدَ قبل طلوع الفجر، فألفيتُ أبا هريرة قد سبقنى، فقال: يا ابن أخى، لأىّ شىء خرجتَ من منزلك هذه الساعة؟ فقلتُ: لصلاةِ الغداة. فقال: أبْشِر، فإنّا كنّا نعدُّ خروجنا وقعودنا فى هذا المسجد هذه الساعة ننتظر الصلاة بمنزلة غَزوة فى سبيل الله عزّ وجلّ. أو قال: مع رسول الله ﷺ.

وأفضل الأوقات المرجوّ فيها الإجابة أربعة: عند السَّحَر، وعند طلوع الشمس، وعند غُروبها، وبين الأذان والإقامة. وأفضل أوقات الليل والنهار أوقاتُ الصلوات المكتوبات.

وإذا دعا الله سبحانه وتعالى فَلْيَدْعُه بمعانى أسمائه فإنها صفاته، وهو يحبّ ذلك، وإنما أظهرها ليُعرفَ بها وليُدعى بها[2]، مثل أن تقول: يا جبّار اجبر قلبى، يا غفار اغفر ذنبى، يا رحمن أصلحنى، يا رحيم ارحمنى، يا توّاب تب علىّ، يا سلام سلِّمنى.

واستُحب أن يدعو الله عزّ وجلّ بأسمائه التسعة والتسعين فى كل يوم وليلة مرة، فإنه روى عن النبى ﷺ قال: «من أحصاها دخل الجنة»[3]، وهى متفرقة فى جميع القرآن. فمن دعا الله عزّ وجلّ بها [مُخلصًا] موقنًا كان كمن ختَمه. فإن تعذر عليه حفظها فإنها منشورة على غير ترتيب، فليتطرق إليها من حروف المعجم، فليذكر من كل حرف ما فيه، كأن يبتدئ بالألف فينسق ما عليه من الأسماء، ثم بالباء، ثم بالتاء، فيقول: يا الله، يا أول، يا آخر، يا بارئ، يا

(١) هذا بمعناه، وأصله فى مسلم، كتاب صلاة المسافرين، رقم ٧٠٢.

(٢) فى (ط): «ليعرف بها الداعى، وليدع بها» وأثبت ما فى (ك).

(٣) أخرجه البخارى، كتاب التوحيد، ب١٢، من حديث أبى هريرة.

باطن، يا تواب. وقد يتعذّر عليه وجودُ بعضها فى بعض الحروف كغيرها، إلا أنها تخرج فى سائر الحروف المتيسرة بالأسماء الظاهرة، فإذا عدّ من الأحرف تسعة وتسعين اسمًا أجزأه؛ لأنه يجد فى الحرف الواحد العشرة فأكثر، ودونَ ذلك فلا يضرّه إن لم يعرف فى بعض الحروف اسمًا إذا أحصى العدد، فقد حصل له الفضل، للأثر فى ذلك[1].

• ذكر صلاة التسبيح:

استُحب له أن يصلّى صلاة التسبيح فى الجمعة مرتين: مرة نهارًا ومرة ليلاً؛ وهى ثلاثمائة تسبيحة فى أربع ركعات. إن صلاها نهارًا لم يفصل بينهن بتسليم، وإن صلاها ليلاً سلّم فيها سلامين، فقد كان الصالحون يصلونها، ويتعرفون بركتها، ويتذاكرون فضلها. وقد روينا فيها روايتين:

إحداهما: حديث الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال للعباس بن عبد المطلب: «ألاَ أعطيك، ألا أمنحك، ألا أحبوك بشىء إذا أنت فعلته غفر الله لك ذنبكَ أوله وآخره، قديمَه وحديثه، خطأهُ وعَمْده، سِرّهُ وعلانيته: تصلّى أربعَ ركعات تقرأ فى كل ركعة بفاتحة الكتابِ وسُورة. فإذا فرغتَ من القِراءة فى أول ركعة وأنت قائم قلتَ: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، خمسَ عشْرة مرة. ثم تركع فتقولها عشرًا. ثم ترفع رأسك من الركوع فتقولها عشرًا. ثم تسجد فتقولها عشرًا. ثم ترفع من السجود فتقولها عشرًا. ثم تسجد الثانية فتقولها عشرًا. ثم ترفع من السجود ثم تجلس فتقولها عشرًا. ثم تقوم. فذلك خمسة وسبعون فى كل ركعة. تفعل ذلك فى أربع ركعات. إن استطعت أن تصلّيها فى كل يوم مرة فافعل، فإن لم تفعل ففى كل جمعة مرة، فإن لم تفعل ففى كل شهر مرة، فإن لم تفعل ففى كل سنة مرة، فإن لم تفعل ففى عمرك مرة»[2].

---

(١) فى الفقرات الأربع الماضية اختلاف فى الترتيب بين المطبوعة والمخطوط.

(٢) صحيح ابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة، رقم ١١٣٩، وصحيح أبى داود رقم ١١٥٢، وفى رواية أخرى لابن ماجه صحيحة أيضًا وفى آخرها: «فلو كانت ذنوبك مثل رَمْل عالج غفرها الله لك».

حُدّثناه عن أبى داود السجستانى، فقال: ليس فى صلاة التسبيح حديث أصحّ من هذا، فذكر فى هذه الرواية: أنه يسبح فى القيام خمس عشرة مرة بعد القراءة، وأنه يسبح عشرًا بعد السجدة الثانية فى الركعة الأولى قبل القيام، كأنه يجلس جلسة قبل أن ينهض، وفى الركعة الثانية أيضًا، وكذلك قبل التشهد.

وروينا فى الخبر الآخر: أنه يفتتح الصلاة فيتوجه، ويقول: سبحانك اللّهم وبحمدك، تبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك. ثم يسبح خمس عشرة تسبيحة قبل القراءة، ثم يقرأ الحمد وسورة، ثم يسبح عشرًا، ثم يركع فيكون له فى قيامه خمس وعشرون تسبيحة. ولا يسبح بعد السّجود فى الجلسة الأولى بين الركعتين ولا فى جلسة التشهد شيئًا.

وكذلك روينا فى حديث عبد الله بن زياد بن سمعان، عن معاوية بن عبد الله ابن جعفر عن أبيه: أن النبى ﷺ علمه صلاة التسبيح قال فيها: يفتتح الصلاة مكبِّرًا. ثم يقول، فذكر الكلمات، وزاد فيها: ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم. وقال فيه: يقول ذلك خمس عشرة مرة. ولم يذكر بعد السجدة الثانية عند القيام أن يقولها. وهذه الرواية أحبّ الوجهين إلىّ، وهو اختيار عبد الله بن المبارك.

حدثونا عن سهل بن عاصم، عن ابن وهب قال: سألت ابن المبارك عن الصلاة التى يُسبَّح فيها، فقال: يقول: سبحان الله، والحمد لله. . . الكلمات، خمس عشرة مرة. ثم يتعوّذ ويقرأ فاتحة الكتاب وسورة. ثم يقولها عشرًا ثم يركع، وذكرها. قال: فذلك خمس وسبعون، يصلّى أربع ركعات على هذا، إن صلّيت ليلاً فأُحب أن يسلم فى الركعتين، وإن صلّيت نهارًا صلّيت أربعًا، وإن شئت سلّمت. وإذا عدَّ فى الركوع فعدَّ بأصبعه على ركبتيه، وفى السجود بأصبعه على الأرض.

وحدثونا عن محمد بن جابر قال: قلتُ لابن المبارك: فى صلاة التسبيح إذا رفعت رأسى للقيام من آخر السجدتين أسبِّح قبل أن أقوم؟ قال: لا، تلك القعدة ليست من سُنَّة الصلاة.

وقال ابن أبى رزمة عن ابن المبارك: قلتُ له: يقول: سبحان ربى العظيم ثلاث مرات، سبحان ربى الأعلى ثلاث مرات، قال: نعم. قلت: فإن سها يسبِّح فى السهو عشرًا. قال: لا، إنّما هى ثلاثمائة تسبيحة.

وأحب أن تكون السورة التى يقرأها فى صلاة التسبيح مع الحمد فوق العشرين آية. فقد روينا فى حديث عبد الله بن جعفر، الذى رواه إسماعيل بن رافع، أن النبى ﷺ قال فى السورة التى بعد أمّ القرآن: عشرين آية فصاعدًا.

وكذلك أحبُّ زيادةَ: لا حول ولا قوة إلا بالله، لما ذكرناه فى الخبر الآخر، فإن قرأ مع فاتحة الكتاب فى كل ركعة عشر مرات: ﴿**قُلْ هُو اللهُ أَحَد**﴾، فقد ضاعفَ العددَ واستكمل الأجرَ.





الفصل السادس عشر

فى ذكر معاملة العبد فى التلاوة
ووصف التالين للقرآن حق تلاوته بقيام الشهادة

استُحب للمريد أن يختم القرآنَ فى كلّ أسبوع خَتْمَتَين؛ ختمةً بالنهار، وختمة بالليل. ويجعل ختمةَ النّهار يوم الاثنين فى ركعتى الفجر أو بعدهما. ويختم ختمةَ الليل ليلة الجمعة فى ركعتى المغرب أو بعدهما؛ ليستقبل بختمته أوّل النهار وأوّل الليل، فإنّ الملائكة تصلّى عليه إن كانت ختمته ليلاً حتى يصبح، وتصلّى عليه إن كانت ختمته نهارًا حتى يُمسى، فهذان الوقتان يستوعبان كُلية الليل و[كلية][1] النهار.

وفى الخبر: «لم يَفْقه من قرأ القرآن فى أقل من ثلاث»[2].

وأمر رسول الله ﷺ عبد الله بن عمر «أن يقرأ القرآنَ فى كلّ سبع»[3]. وكذلك جماعة من الصحابة يختمون القرآن فى كل جمعة.

وروينا عن يحيى بن الحارث الديناري، عن القاسم بن عبد الرحمن قال: كان عثمان بن عفان رضى الله عنه يفتتح ليلة الجمعة بالبقرة إلى المائدة، وليلة السبت بالأنعام إلى هود، وليلة الأحد بيوسف إلى مريم، وليلة الاثنين بطه إلى طَسم موسى وفرعون، وليلة الثلاثاء بالعنكبوت إلى صاد، وليلة الأربعاء بتنزيل إلى الرحمن، ويختم ليلة الخميس.

وكذلك كان زيد بن ثابت وأُبَىّ [بن كعب][4] يختمان القرآن فى كل سبع.

---

(١) زيادة من (ك).

(٢) ابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة، رقم ١٣٤٧، وصحيحه رقم ١١٠٧.

(٣) من حديث فيه حوار مع النبى ﷺ، أخرجه ابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة، رقم ١٣٤٦، وصحيحه رقم ١١٠٦.

(٤) زيادة من (ك).

وروينا عن ابن مسعود: أنه سبّع القرآن فى سبع ليال، فكان يقرأ فى كل ليلة بسُبعه. إلا أنّ تأليفه على غير ترتيب مصحفنا هذا فلم يذكره؛ لأنّ الاعتبار لا يتبيّن به.

وجماعة يُذكر عنهم ختمُ القرآن فى كلّ يوم وليلة، وقد كره ختمَه فى أقلَّ من ثلاث طائفةٌ.

والتوسط من ذلك ما ذكرناه؛ وهو أن يختم فى كلّ ثلاثة أيام.

• ذكر أحزاب القرآن وكيف حزبه الصحابة رضى الله عنهم:

[قال أبو طالب:][1] وإن قرأ القرآن أحزابًا، فى كلّ يومٍ وليلةٍ حزبًا، فحَسَنٌ، وهو سنّة، فذلك أشدّ لمواطأة القلب وأقْوم للتّرتيل[2]، وأدنى إلى الفَهْم.

وإن أحبّ قرأ فى ركعة[3] ثلثَ عُشر القرآن، أو نصف ذلك، يكون الجزء من الأجزاء الثلاثين فى ركعة[4] أو ركعتين. فإن قرأ فى كل وِرْد حزبًا أو حزبين، أو دون ذلك، فحَسَن.

وأحزاب القرآن سبعة: فالحزب الأول: ثلاث سور، والحزب الثانى: خمس سور، والحزب الثالث: سبع سور، والرابع: تسع سور، والخامس: إحدى عشرة سورة، والسادس: ثلاث عشرة سورة، والمفصل: من «ق» [إلى آخر القرآن][5]. فهذه كانت أحزاب القرآن، وكذلك حزَبه الصحابةُ رضى الله عنهم أجمعين. وكانوا يقرؤونه كذلك. وفى ذلك خبر [ثابت] عن رسولِ الله ﷺ [فى قصة][6].

---

(١) زيادة من (ك).

(٢) فى (ط): «للترتيب»، وكذلك فى الإتحاف ٤/ ٤٧٥، وأثبت ما فى (ك).

(٣) فى (ط): «كل ركعة» وأثبت ما فى (ك).

(٤) فى (ط): «كل ركعة» وكذلك فى الإتحاف ٤/ ٤٧٥.

(٥) ساقطة من (ط).

(٦) زيادة من (ك)، والخبر الذى يقصده هو حديث أوس بن حذيفة، أخرجه ابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة، رقم ١٣٤٥، وضعيف أبى داود، رقم ٢٤٦، وذكر الزبيدى عدة روايات وتخريجات للحديث، ثم علّق على نقل الغزالى من القوت هذا الكلام. انظر: الإتحاف ٤/ ٤٧٥ ـ ٤٧٦.

وكأنّه حُزِب على عدد الآيات[١]، إذ عددها ستة آلاف [آية] ومائتان وست وثلاثون آية.

وقد اعتبرتُ ذلكَ فى كلّ حزبٍ فرأيتُه يتقارب، وهذا قبل أن تُعمل الأخماس، والعواشر، والأجزاء، فما سوى هذا مُحْدَث. يقال: إنّ الحجاج جمع قرّاءَ البصرةِ والكوفة، منهم: عاصم الجَحْدَرِىُّ، ومطَر الورّاق، وشهاب بن شريفة، فأمرهم بذلك.

وقد كان الحسن وابنُ سيرين ينكران هذه الأخماس والعواشر والأجزاء. ورُوى عن الشعبى وإبراهيم [النّخعى] كراهية النُّقَط بالحُمرة، وأخذ الأجر على ذلك، وكانوا يقولون: جرِّدُوا القرآن.

وقال الأوزاعى عن يحيى بن أبى كثير: كان القرآن مجرّدًا فى المصاحف، فأول ما أحدثوا فيه النقط على الباء والتاء، وقالوا: لا بأس به فإنه نور له، ثم أحدثوا بعده نقطًا كبارًا عند منتهى الآى، فقالوا: لا بأس به يُعرف به رأس الآى، ثم أحدثوا بعد ذلك الخواتيم والفواتح، وقالوا: لا بأس به؛ لأنها علامة تُعرف بها.

واعلم أنه لا يجد فَهْمَ القرآنِ الفهمَ الذى يكشف مُشَاهَدة [المخاطب] ويظهر من الملكوت القُدْرة[٢] عبدٌ فيه إحدى هذه الخصال: ذو بدعة[٣]، أو مُصِرٌّ على ذَنب، أو عبدٌ فى قلبه كِبر، أو مقارفٌ[٤] لهوى قد استكَنَّ فى قلبه، أو محبٌّ للدنيا، أو عبدٌ غيرُ متحقّقٍ بالإيمان، أو ضعيفُ اليقينِ، ولا مَن هو واقف مع مقراه، ولا عبد مهتمٌّ بتتبع حروفه واختياره، ولا ناظر إلى قول مفسّر ساكن إلى علمه[٥] الظاهر، ولا راجع إلى معقوله، ولا قاضٍ بمذاهب أهلِ العربية واللغةِ فى باطنَ الخطابِ وسرّ المراد[٦].

(١) فى (ط): «وكأنه حزبه على عدد هذه الآى» وأثبت ما فى (ك).
(٢) فى (ط): «يكشف بمشاهدته ويظهر من الملكوت قدره» وأثبت ما فى (ك).
(٣) فى (ط): «أدنى بدعة».
(٤) فى (ط): «مقارب».
(٥) فى (ط): «عمله».
(٦) فى (ط): «وسر المرء» وهو خطأ.

وهؤلاء كلّهم محجوبون بعقولهم، مردودون إلى ما يقدَّر في علومهم، موقوفون مع ما تقرّر في قلوبهم[١]، مزيدهم على مقدار عُلومهم وغرائز عقولهم. وهؤلاء مُشركون بعقولهم وعلومهم عند الموحّدين، وهذا داخلٌ في الشِّرْك الخفيّ، الذى [هو] أخفى من دبيب النمل على الصفا فى الليلة الظلماء.

قال محمد بن على بن سنانة: إذا معقولُه وعلمُه عن عقلٍ غير كامل؛ لأنَّ العقل الكامل ما عقل عن الله عزّ وجلّ، وفهم حُكمَهُ وكلامَهُ، ويعقل به كلامه.

وقد قال الرسول صلوات الله عليه فى صفة كمال العقل: «العاقل مَنْ عقل عن الله سبحانه وتعالى أَمْرَه ونهيه»[٢]. وفى الخبر: «أكثر منافقى أمتى قرَّاؤها»[٣]. فهذا نفاق الوقوف مع سوى الله تعالى، والنظر إلى غيره، لا نفاقَ الشركِ والإنكارِ لقدرة الله عزّ وجلّ، فهو لا ينتقل عن التوحيد، ولكنّه لا ينتقل إلى مقام المزيد.

فإذا كان العبد ملقيًا السّمع بين يدى سَميعه، مُصْغيًا إلى سرٍّ كلامه، شهيدَ القلبِ لمعانى صفات شهيده، ناظرًا إلى قدرته، تاركًا لمعقوله ومعهودِ علمه، متبرِّئًا من حوله وقوته، مُعَظِّمًا للمتكلم، واقفًا على حضوره، مفتقرًا إلى الفَهْمِ بحالٍ مستقيم، وقلبٍ سليم، وصفاءِ يقين، وقوةِ علمٍ وتمكين، سَمِعَ فَصْلَ الخطابِ، وشهد عِلْمَ غَيْبِ الجوابِ.

وأفضلُ القراءةِ الترتيلُ؛ لأنّه يجمع الأمرَ والنَّدبَ، وفيه التدبُّر والتذَكُّر [والتفكُّر]. رُوى عن علىٍّ رضى الله عنه: لا خيرَ فى عبادة لا فقْهَ فيها، ولا فى قراءة لا تَدبُّر فيها. وعن ابن عباس: لأن أقرأ البقرةَ وآل عمران أرتِّلهما وأتدبّرهما أحبُّ إلىَّ من أن أقرأ القرآن كلّه هَذْرَمَةً[٤]». ورُوى عنه أيضًا: لأنْ أَقرأ إذا زُلْزِلَت، والقَارِعَة، أتدبّرهما أحبُّ إلىَّ من أن أقرأ البقرةَ وآل عمران هَذْرمةً.

(١) فى (ط): «عقولهم».

(٢) لم أجده بلفظه، وذكر القرطبى فى تفسيره ١٣/ ٣٤٦ من حديث جابر: «العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه». وانظر: شرح السنة، للبغوى، ٥/ ١٩٤.

(٣) المسند ٢/ ١٧٥ و ٤/ ١٥١، ١٥٥ من حديث ابن عمر، وعقبة بن عامر.

(٤) الهذرمة: سرعة القراءة، بلا أحكام ولا تدبُّر.

وسئل مجاهد عن رجلين دخلا فى صلاة، فكان قيامُهما واحدًا، إلا أن أحدهما قرأ البقرة، والآخر قرأ القرآنَ كلَّه. فقال: هما فى الأجر سواء؛ لأنّ قيامَهُما كان واحدًا.

وأفضلُ التّرتيلِ والتدبُّر فى القرآن ما كان فى صلاةٍ. ويقال: إنّ التفكُّرَ فى الصّلاة أفضلُ منه فى غير الصلاة؛ لأنهما عملان.

وهذا هو التفكُّر فى معانى التدبُّر، والفهم بخطاب الوعد والوعيد، والزجر والأمر تعظيمًا للمتوعِّد، وإجلالاً للآمرِ.

وسئل النبى ﷺ: «أى الصلاة أفضل؟ فقال: طول القنوت»[١]. وروى فى خبر آخر: «مَنْ سجد لله عز وجلّ سجدة رفعه اللهُ عزّ وجلّ بها درجةً»[٢]. وأنه قال لأبى فاطمة خادمه، وقد سأله مرافقته فى الجنة، فقال: «أعنِّى بكثرةِ السُّجود». وروينا عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه أنه قال: إنّه كثرة السجود بالنّهار، وإنّه طولُ القيام بالليل.

ويقال: إن العبدَ يُحشر عند الموتِ من قَبْرِه على هيئتِه فى صلاتِه من السُّكونِ والطّمأنينة، وتكون راحتُه فى الموقفِ على قدر راحته وتنعّمه بالصّلاة. وروينا معنى هذا عن أبى هريرة.

وعَلى هذا المعنى تأويلُ قولِ رسول الله ﷺ لبلال: «أرحنا بالصّلاة»[٣]، أى: روِّحنا بها ونَعِّمْنا بها، من الرَّوَح والرّاحة إليها. ويقال: أرحنا بالشىء، أى رَوِّحْنا به. وأَرِحْنا مِنْهُ: أى أسقطه عنّا وخفّف عنّا منه. ولم يقل: أرحنا منها. كيف وقُرّةُ عينه فيها؟!

وقال بعضهم: إنّى لأفتتحُ السُّورةَ فيُوقفنى بعضُ ما أشهدُ فيها عن الفَراغِ منها، حتى يطلع الفجر، وما قضيتُ منها وَطَرِى.

---

(١) مسلم، كتاب صلاة المسافرين، رقم ٧٥٦ من حديث جابر.

(٢) مسند أبى حنيفة، ص٣٦.

(٣) المسند ٤/ ٣٦، ٣٧١.

وقال سليمانُ بن أبى سليمان الدّارانى: إنه وعد ابنُ ثوبان أخًا له أن يفطر عنده، فأبطأ عليه حتى طلع الفجر، فلَقيَهُ أخوه من الغد، قال: وعدتنى أن تفطرَ عندى فأخلفتَ. فقال: لولا ميعادك ما أخبرتك بالذى حبسنى عنك. إنّى لما صلّيتُ العَتمة، قلت أُوتر قبل أنْ أجيئك؛ لأنّى لا آمَن ما يحدث من الموت. فلما كنتُ فى الدعاء من الوتر رُفعت لى روضةٌ خضراء، فيها أنواع الزّهر من الجنة، فما زلتُ أنظر إليها حتى أصبحت.

وقال عزّ وجلّ: ﴿**كَتَبَ فى قُلُوبِهِمُ الإيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ**﴾ [المجادلة: ٢٢]. قيل: القرآن قوّى إيمانَهم بعلمِ القرآن، فالقرآن رُوح الإيمان، وتقويتهم استعمالُهم به. وفى التفسير ﴿**يَا يَحْيَى خُذِ الكِتَابَ بِقُوَّةٍ**﴾ [مريم: ١٢]، قيل: بجدٍّ واجتهاد. ومثله: ﴿**خُذُوا مَا آتَيْناكُم بِقُوّةٍ**﴾ [البقرة: ٦٣، الأعراف: ١٧١]، قيل: بعملٍ به. وقيل لبعضهم: إذا قرأت القرآن تحدِّث نفسك بشىء؟ فقال: أوَ شىء أحبُّ إلىَّ من القرآن أحدِّث نفسى به؟ وهذه صفةُ قوىٍّ مكين.

ويقال: إنّ فى القرآن ميادين، وبساتين، ومقاصير، وعرائس، وديابيج، ورياضًا، وخانات. فالميمات: ميادين القرآن، والراءات: بساتين القرآن. والحامدات[1]: مقاصير [القرآن]، والمسبحات: عرائس القرآن، والحواميم: ديباج القرآن، والمفصّل: رياضه، والخانات: ما سوى ذلك. فإذا جال المريدُ فى الميادين، وقطف من البساتين، ودخل المقاصير، وشهد العرائس، ولبس الديباج، وتنزّه فى الرياض، وسكَن غُرفَ الخانات، اقتطعه وأوقفه ما يراه، وشغله الشاهد به عما سواه.

وروى عن النبى ﷺ «أنه قرأ بسم الله الرحمن الرحيم، فردّدها عشرين مرة»[2]. وكان له ﷺ فى كلِّ ردَّةٍ فَهمٌ، ومن كلِّ كلمة علمٌ.

---

(١) فى (ط): «الحآات» وأثبت ما فى (ك)، وانظر: الإتحاف ٤/ ٥٠٤.

(٢) قال العراقى فى المغنى، هامش الإحياء ١/ ٢٨٢: «رواه أبو ذر الهروى فى معجمه من حديث أبى هريرة بسند ضعيف». وانظر: الإتحاف ٤/ ٥٠٥.

فينبغى أن يكون قلبُ التّالى بوصفِ كلِّ كلمةٍ يتلوها مشاهدًا لمعناها إلى ما يفتح اللهُ عز وجلّ له من المزيد عليها من مجاورتها، ومع ما يفهم بها من غيرها، ويشهدُ غيرها منها. فقد كان بعضهم يقول: كلُّ آيةٍ لا أتفهَّمَها، ولا يكون قلبى فيها، لم أعدَّ لها ثوابًا. وكان بعض السلف إذا قرأ السورة [أو آية][(١)]، ولم يكن قلبه فيها، أعادها ثانية، فإذا مرّ بتسبيحٍ وتكبيرٍ سبّح وكبّر، وإن مرّ بدعاءٍ واستغفار دعا واستغفر، وإن مرّ بمُخوَّف ومَرجوٍّ استعاذ وسأل. فذلك معنى قوله عزّ وجلّ: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِه﴾ [البقرة:١٢١]. وكذلك كان رسول الله ﷺ فى تلاوته.

وعلى هذا المعنى ما روى فى الخبر: «مَن أراد أن يقرأ القرآنَ غَضًّا كما أُنزل فلْيقرأه على قِراءةِ ابنِ أُمِّ عَبد»[(٢)]. أى: على معنى تِلاوته؛ لأنه كان يقرأ بقلبٍ شهيد، وسمعٍ عتيد، وبصرٍ حديد، فكان يتلو القرآنَ على معانى الكلام، وعلى شهادة وصف المتكلم، الوعيدُ منه بالتحزين، والوعدُ بالتشويق، والوعظُ بالتّخويف، والإنذار بالتّشديد، والتّبصيرُ[(٣)] بالتّرقيق، والتّبشير بالتّوفيق؛ لأنه كان عالمًا بصفاتِ المتكلم، واجدًا لذوقِ الكَلِم. فمثل هذا العبد أحسنُ الناسِ صوتًا بالقرآن، كما جاء فى الخبر: «أحسنُ الناسِ صوتًا بالقرآن مَن إذا قرأ رأيتَ أنّه يَخْشى الله»[(٤)]. ومن هذا قيل: «إذا قرأتمُ القرآنَ فابكُوا، وإن لم تبكوا فتبَاكَوْا»[(٥)]. ومثل هذا: «إن القرآن نزل بحُزن، فإذا قرأتُمُوه فتحازَنُوا». أى: إنّ القرآن لما فيه من التهديدِ والوعيد، والوثائق[(٦)] والعهود، يوجب البكاءَ والحُزن، فإن لم تَحزنوا

(١) زيادة من (ك).

(٢) صحيح ابن ماجه، رقم ١١٤، من حديث عبد الله بن مسعود.

(٣) فى (ط): «والتفسير» وأثبت ما فى (ك).

(٤) صحيح الجامع الصغير، رقم ١٩٤، من حديث ابن عمر بلفظ: «أحسن الناس قراءة...» ومن حديث جابر فى سنن ابن ماجه، كتاب الإقامة، والصحيح رقم ١١٠١.

(٥) فى ضعيف ابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة، رقم ٢٨١، ورقمه فى السنن ١٣٣٧، وانظر: الإتحاف ٤/ ٤٧٩.

(٦) فى (ك): «المواثيق».

وَجْدًا، ولم تبكوا يقينًا، فتباكوا وتحازنوا لَفْظًا، لأجلِ التصديقِ والإقرار به. فندبَهُم إلى التّحازن فى التلاوة، والتباكى؛ ليجتمع همُّ العبدِ فى المتلو، فيتدبر الكلامَ، عسى أن يكون قلبُه بمعناه، فيكون التباكى والتحزين سببًا لجمع همِّه وفراغ قلبه؛ لأنّ المتباكى الصادقَ مجتمعُ الهمِّ فيما يبكيه، والحزينَ حاضرُ القلبِ مجموعُ الفكرِ، ومشغولٌ عن سوى مبكيه[1].

من ذلك ما روينا عن ابن عباس: «إذا قرأتم سجدةَ ﴿سُبْحان﴾ فلا تعجلوا بالسُّجود حتى تبكوا، فإن لم تبكِ عينُ أحدِكم فليَبْكِ قلبُه، فبكاءُ القلب حزنُه وخشيتُه». أى فإن لم تبكوا بكاء العلماء عن الفهم فَلْتَحزن قلوبكم على فقد البكاء، وليخشَ كيف لم يوجد فيكم وصفُ أهل العلم.

وقد روينا فى غرائب التفسير من معنى قوله تعالى: **﴿وَإِنَّ مِنَ الحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ﴾** قال: هى العين الكثيرة البكاء **﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ المَاءُ﴾** قال: هى العين القليلة البكاء **﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾** [البقرة:٧٤] قال: هو بكاء القلب من غير دموع عين.

وقال ثابت البنانى: رأيتُ فى النوم كأنّى أقرأ على رسول الله ﷺ القرآن. فلما فرغت قال: هذه القراءة، فأين البكاء؟

وكان الحسن يقول: والله ما أصبح اليوم عبدٌ يتلو هذا القرآن يؤمن به إلا كَثُر حزنه وقلّ فرحُه، وكثُر بكاؤه وقل ضحكه، وكبر نَصَبُه وشغلُه وقلّت راحتُه وبَطالتُه.

والنّاسُ فى التلاوة على ثلاث مقامات: أعلاهُم: مَن يَشهد أوصافَ المتكلمِ فى كلامه، ويعرف أخلاقَه بمعانى خطابه، وهذا مقامُ العارفين من المقربين.

ومنهم: من يَشهد ربَّه تعالى يناجيه بألطافه، ويخاطبه بإنعامه وإحسانه، فمقامُ هذا الحياءُ والتعظيمُ، وحالُه الإصغاءُ والتفهيم. وهذا للمقربين من عموم المقربين[2].

---

(١) فى (ك): «والحزين حاضر القلب مجموع الهمّ فيما شغله عن سوى حبيبه».

(٢) فى (ط): «وحاله الإصغاء والفهم، وهذا للأبرار من أصحاب اليمين» وأثبت ما فى (ك).

ومنهم: من يرى أنه [هو الذى][١] يناجى ربّه عزّ وجلّ، فمقامه السؤال والتملّق، وحالُه الطّلب والتعلّق، وهذا للمعترفين والمريدين، وهم من خصوص أصحاب اليمين.

وينبغى للعبدِ أن يشهد فى التّلاوة أن مولاه يُخاطبه بالكلام؛ لأنه سبحانه متكلِّم بكلام نفسه، وليس للعبد فى كلامه كلام، وإنّما جعل له حركةَ اللسانِ بوصفه، وتيسير الذكر بلسانه بحكم ربّه عزّ وجلّ حدًا للعبد ومكانًا له[٢]، كما كانت الشجرة وجهةً لموسى عليه السلام، وكلّمه الله عزّ وجلّ منها[٣].

ويقال: إنّ كلّ حرف من كلام الله عزّ وجلّ فى اللوح المحفوظ أعظمُ من جبل قاف، وإنّ الملائكة لو اجتمعت على الحرف الواحد أن يُقلُّوه ما أطاقوه، حتى يأتى إسرافيل، وهو مَلَك اللوح المحفوظ، فيرفعه فيقلّه بإذن الله عزّ وجلّ ورحمته، إذ كان الله تعالى أطاقه ذلك لما استعمله به[٤].

وقال جعفرُ بن محمد الصادق: واللهِ لقد تجلّى الله عزّ وجلّ لخلقه فى كلامه، ولكن لا يبصرون. وقال أيضًا، وقد سألوه عن شىءٍ لَحقَه فى الّصلاة حتى خرّ مغشيًا عليه، فلما سُرّىَ عنه قيل له فى ذلك، فقال: ما زلتُ أردّد الآيةَ على قلبى، حتى سمعتها من المتكلم بها، فلم يثبت جسمى لمعاينة قدرته تعالى.

وكذلك الخصوص يرددون الآية بقُلوبهم على قُلوبهم، ويتحقّقون بها فى مشاهدتهم بمدَدِ من شهيدِهم وسيّدهم، حتى يستغرقهم الفهم، فيغرقون فى بحر العلم[٥]. فإن قصرت مشاهدةُ التّالى عن هذا المقام، فيشهد أنه يناجيه بكلامه، ويتملّقه بمناجاته [وألطافه][٦]، فإنّ الله عزّ وجلّ إنّما خاطَبه بلسانِه، وكلّمه بحركته

---

(١) زيادة من (ك).

(٢) فى (ك): ويسّر الذكر بلسانه لحكمة ربه، حدًا للعبد ومكانًا له».

(٣) فى (ك): «كما كانت الشجرة وجهة لموسى صلى الله عليه وسلم، كلّمه ربّه منها».

(٤) هذه الفقرة ليست فى (ك).

(٥) فى (ك): «حتى يستغرقهم الفهم، فيستغرقون فى حقيقة منها».

(٦) زيادة من (ك).

وصوته، ليفهم عنه بعلْمه الذى جَعَله له، ويعقل عنه بفهمه الذى قَسمه[١] له، حكمةً منه ورحمةً، إذ لو تكلم الجبّار عزّ وجلّ بوصفه الذى يدركه سَمْعُه لما ثبت للكلام عرش ولا ثرى، ولتلاشى ما بينهما من عظمة سلطانه، وسُبُحات أنواره، فحجب ذلك فى غيب علمه عن العقول، وستره بصنعِ قُدْرتهِ عن القلوب، وأظهر للقلوبِ علومَ عقولِها، وأشهدَ للعقول عُرفَ معقولِها، بلطفه وحنانه ورحمته وإحسانه.

وبلغنا فى الأخبار السالفة[٢]: أنّ وليًا من أولياء الله عزّ وجلّ من الصديقين ابتعثه فى الفترة إلى مَلِك من الجَبابرة يدعوه إلى التوحيد، وإلى شريعة الأنبياء. فسأله الملك عن أشياء من معانى التوحيد، فجعل الصِّدِّيق يجيبه عنها بما يقرُب من فهمه، ويدركه عقلُه؛ مِن ضَرْب[٣] الأمثال بما يستعمله الناس بينهم، ويتعارفونه عندهم. إلى أن قال له المِلكُ: أفرأيتَ ما يأتى به الأنبياءُ إذا ادّعيت أنه ليس بكلام النّاس ولا رأيهم، أمِن كلامِ الله هو؟

قال الحكيم: نعم. قال الملك: فكيف يُطِيق الناسُ حمله؟

قال الصدّيق: إنّا رأينا الناس لما أرادوا أن يُفهموا بعضَ الدّواب والطيرَ ما يريدون من تقديمها وتأخيرها وإقبالها وإدبارها، لم يجدوا الدّوابّ والطير تحمل كلامهم، فوضعوا لها من النقر والصّفير والزجر ما عرفوا أنها تطيق حمله. فكذلك الناس يعجزون أن يحملوا كلامَ الله بكنهه وكمال صفاته[٤]، فصاروا بما يتراجعون به بينهم من الأصوات التى يسمعون بها الحكمة[٥]، كصوت الزّجر والنقر الذى سمعت به الدّواب من الناس. ولم يمنع ذلك معانى الحكمة المخبوءة فى تلك الأصوات من أن يشرُف الكلامُ، فشرفت الأصوات لشرفها، وعظم

---

(١) فى (ط): «جعل له... قسم له»، وأثبت ما فى (ك).

(٢) هذا الخبر لم يرد فى المخطوط، وقد أورده صاحب الإتحاف ٤/ ٥٠٢، والغزالى فى إحيائه ١/ ٢٨٠ ـ ٢٨١. ونص الزبيدى على لفظ القوت، وعلى نقله قابلت هذا الخبر.

(٣) فى (ط): «ضروب» وأثبت ما فى الإتحاف، لأنه أدق.

(٤) فى (ط): «ككنهه بكماله وصفته» وأثبت ما فى الإتحاف.

(٥) فى (ط): «فصاروا بما تراجعوا بينهم من الأصوات التى سمعوا بها الحكمة» وأثبت ما فى (ك).

لتعظيمها[١]. فكان الصوتُ للحكمة جسداً ومسكنًا، والحكمة للصوت نفسًا وروحًا. فكما أن أجساد البشر تُكرَّم وتُعزُّ لمكان الروح التى فيها، فكذلك أصوات الكلام تُشرَّف وتُكرَّم للحكمة التى فيها. والكلامُ على المنزلة رفيعُ الدرجةِ، قاهرُ السُّلطان، نافذُ الحكم فى الحقّ والباطل. وهو القاضى العادل، والشاهد المرتضى؛ يأمر وينهى. ولا طاقة للباطل أن يقوم قدّام كلام الحكمة، كما لا يستطيع الظلُّ أن يقوم قدّام[٢] شعاعِ الشّمس، ولا طاقة للبشر أن ينفذوا غور الحكمة، كما لا طاقة لهم أن ينفذوا بأبصارهم ضوء عين الشمس، ولكنهم ينالون من شعاع الشمس ما تحيا به أبصارهم، ويستدلون به على حوائجهم.

فالكلامُ كالملك المحجوبِ، الغائبِ وجهُهُ، الشاهدِ أمرُه، وكالشمس العزيزة الظاهرة، مكنون عنصرها[٣]، وكالنّجومِ الزاهرة التى قد يهتدى بها من لا يقع على سرّها. فالكلامُ أعظمُ وأشرفُ من ذلك، هو مفتاح الخزائن النفيسة[٤]، وباب المنازل العالية، ومراقى الدّرجات الشّريفة، وشراب الحياة الذى مَنْ شرب منه لم يمُت، ودواءُ الأسقام التى مَنْ سقى منه لم يَسقم. إذا لبسه مَنْ لم يتسلّح به أبدى عورته، وإذا تسلح به غير أهله لم يخرج إلا منهم.

نقلتُ هذا نقلاً من كلام الصدّيق الحكيم الذى خاطب به الملك، فاستجاب له بإذن الله عزّ وجلّ. فهذا وصف كلام الله عزّ وجلّ، الذى جعله اللهُ لنا آيةً وعبرة، ونعمةً علينا ورحمة.

فانظر إلى الحكيم كيف جعل عقولَ البشرِ فى فهمِ كلام الله العظيم بمنزلة فهم البهائمِ والطير بالنقر والصّفير إلى عقول البشر، وجعل النقر والصّفير والإفهام من الناس للأنعامِ والهوامِّ مثلاً لما أفهم اللهُ تعالى به الأنامَ من معانى كلامه الجليل، بما

---

(١) فى (ط): «أن شرف الكلام بشرفها وعظم بتعظيمها» وأثبت ما فى إحدى نسخ القوت التى نقل عنها الزبيدى ونص على ذلك، لأنه كان بين يديه عدة نسخ من القوت. ورواية الإتحاف والإحياء: «لشرفها وعظم لتعظيمها».

(٢) هكذا فى المطبوعة والإتحاف.

(٣) نص الإتحاف ٤/٥٠٣ على بعض نسخ القوت: «وعنصرها مكنون».

(٤) فى (ط): «النفسية» وأثبت ما فى الإتحاف.

ألهمَهم فيه(١) من الكلام، ﴿إنّ ربِّى لَطيفٌ لمَا يَشَاءُ إنّه هُو العَليمُ الحَكيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠]. فهذه قدرةٌ لطيفةٌ من قدرته التى لا تتناهى، وحكمةٌ مُحكمةٌ من حِكَمِه التى لا تُضاهَى، إنّه حكيمٌ عليمٌ(٢).

ثم ليشهد العبدُ أنّه مقصودٌ بجميعِ القرآنِ من فاتحته إلى خاتمته، مرادٌ مَعْنىٌّ به، له ضربت الأمثال به(٣)، وفيه جميعُ ذكرِه وأوصافِه؛ لأنّ اللهَ سبحانه وتعالى لما تكلّم بهذا الكلامِ وخاطب به المؤمنين، كان هو واجدهم، وكان حاضراً معهم، وقد سوّى اللهُ عزّ وجلّ بين المؤمنين فى تنزيل القرآن عليهم وبين النبى ﷺ بمعنًى من المعانى، فقال: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُم وَمَا أَنْزلَ عَلَيْكُم مِنَ الكِتَابِ والحِكْمَةِ يَعِظُكُم به﴾ [البقرة: ٢٣١]، كما قال: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فيه ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠]، وكذلك قال: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]. وقال: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ [محمد: ٣] يعنى صفاتهم. وقال: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُم آياتٍ مُبَيِّنَاتٍ﴾ [النور: ٣٤]. كما قال: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ آياتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [البقرة: ٩٩](٤). وقال عزّ وجلّ: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ﴾ [يونس: ١٠٩]. ثم قال: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٣]. وقال: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ [هود: ١١٢].

غير أنّه سبحانه عمَّ الجملة بالبصائر والبيان، وخصَّ بالهدى والرحمة أُولى التّقى والإيمان. فمن ذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿هَذا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٢٠]، ﴿هَذا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

---

(١) فى (ط): «بما ألهم به» وأثبت ما فى الإتحاف.

(٢) إلى هنا ينتهى السقط من المخطوط، وكذا النقل المتصل للزبيدى من نسخ القوت.

(٣) فى (ك): «معنًى به، له ضربت أمثاله به».

(٤) أتم فى (ك) بعض الآيات.

فالموقنون هم المتّقون، والمهديّون هم المرحومون، وقد أُمرنا بطلب فهم القرآن، كما أُمرنا بتلاوته، فروى عن النبى ﷺ أنّه قال: «اقرؤوا القرآنَ والْتَمسوا غَرائبه».

وقال ابنُ مسعود: مَن أراد علمَ الأوّلين والآخرين فَلْيُثَوِّرِ القرآن[١].

ومن حديث على رضى الله عنه عن النبى ﷺ: «والذى بعثنى بالحق نبيًا لتفترقنّ أمّتى على أصل دينها وجماعتها على اثنين وسبعين فرقة، كلّها ضالّة مضلّة يدعون إلى النّار، فإذا كان ذلك فعليكم بكتاب الله عزّ وجلّ؛ فإنّ فيه نبأَ ما كان قبلكم، ونبأَ ما يأتى بعدكم، وحُكمَ ما بينكم. مَن خالَفَهُ من الجبابرة قصمه الله، ومَن ابتغى العلمَ من غيره أضلّه الله. وهو حبلُ اللهِ المتين، ونورُه المبين، وشفاؤه النافع، عصمةٌ لمن تمسّك به، ونجاةٌ لمن اتّبعه، لا يَعْوَجّ فيُقام، ولا يزيغ فيستقيم[٢]، ولا تنقضى عجائبه، ولا يَخْلُقه كَثْرةُ الردِّ. هو الذى سمعتُه الجنُّ فلمّا قُضى ولَّوْا إلى قَوْمهم منذرين، فقالوا: **﴿إنَّا سَمعْنَا قُرآنًا عَجَبًا * يَهْدِى إلى الرُّشْدِ فآمنَّا به﴾**[٣] [الجن: ١ ـ ٢]. من قال به صَدَق، ومن عَمِل به أُجر، ومن تَمسّك به هُدى إلى صراط مستقيم».

وروينا معناه فى حديث حذيفة لما أخبره رسول الله ﷺ بالاختلاف والفُرقة بعده. قال: «فقلتُ: يا رسولَ الله، فما تأمرنى إن أدركتُ ذلك؟ فقال: تعلّم كتابَ الله عزّ وجلّ واعمل بما فيه، فهو المخرجُ من ذلك. قال: فأعدتُ عليه. فقال: تعلّم كتابَ الله عزّ وجلّ واعمل بما فيه، فهو المخرج من ذلك. قال: فأعدتُ عليه. فقال: تعلّم كتابَ الله واعمل بما فيه، ففيه النجاةُ، ثلاثًا».

وعن على رضى الله عنه قال: «ما أسرّ إلىّ رسول الله ﷺ شيئًا كتمه الناسَ إلاّ

(١) معنى «فليثور القرآن»: «تثويرُ القرآن: قراءتُهُ ومفاتَشةُ العلماء به فى تفسير معانيه، وقيل: لينقِّر عنه ويفكر فى معانيه وتفسيره وقراءته» عن لسان العرب (ثور)، وفيه الخبر، وفى الإتحاف: ٤/ ٥٠٩. والرواية فى (ك): «فليُثِر» ونص الإتحاف على هذه الرواية، وقال: «رواه الديلمى عن أنس بن مالك».

(٢) فى (ك): «فيقوم».

(٣) فى المطبوعة و (ك): «فقالوا يا قومنا» وهو خطأ ظاهر فى القرآن.

أن يؤتى الله عبدًا فهمًا فى كتابه». وعنه رضى الله عنه أنه قال: ومَن فَهِم فسَّر [جميع][١] جُمَل العلم.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما وغيره فى قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] قال: الفهم فى كتاب الله عزّ وجلّ.

وقال أحسن القائلين: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمانَ وَكُلاً آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩] فرفع الفهمَ مقامًا فوق الحُكم والعلم، وأضافهُ إليه؛ للتخصيص، وجعله مقامًا عامًا فيهما.

فإذا فهم العبدُ الكلامَ، وعامل به المولى، تحقّق بما يقول، وكان من أصحابه[٢]، ولم يكن حاكيًا لقائله، مثل أن يتلو منه: ﴿إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: ١٥]، ومثل أن يقول: ﴿ربَّنا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وإِلَيْكَ أَنَبْنَا وإليكَ المصيرُ﴾ [الممتحنة: ٤]، ومثل قوله: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا﴾ [إبراهيم: ١٢]، فيكون[٣] هو الخائف لليوم العظيم، ويكون هو المتوكّل المنيب، وهو الصابر على الأذى؛ توكلاً[٤] على المولى، ولا يكون مخبرًا عن قائل قاله، فلا يجد حلاوةَ ذلك ولا ميراثَه [حتى يكون على وصفِ ما ذكرتُ][٥] وإذا كان هو كذلك وجد حلاوةَ التلاوةِ، وتحقق جزء[٦] الولاية.

وكذلك إذا تلا الآى المذمومَ أهلها، الممقوت فاعلها، مثل قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فى غَفْلَة مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١]، وقوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [النجم: ٢٩]، ومثل قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولئكَ هُمُ

---

(١) زيادة من (ك).

(٢) فى (ك): «تحقق بما أقول وكان من أهله».

(٣) فى (ك): «بأن يكون».

(٤) فى (ط): «متوكل» وأثبت ما فى (ك)، لأنه أدق.

(٥) ساقطة من (ط).

(٦) فى (ك): «بحسن».

﴿الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات:١١]. فما أقبحَ من يعيب[1] ذلك وهو من أهله، وما أعظمَ أن يذمَّ أهلَ ذلك وهو بوصفه! فهذا من حُجج القرآنِ عليه، فلا يجد مع ذلك حلاوةَ المناجاة، ولا يسمع خطابَ المناجى؛ لأنّ وصفَه المذموم قد حجبه، وهواه المردى عن حقيقةِ الفَهم قد حرمَه، ولأنّ قسوةَ قلبهِ [صدَّه][2] عن الفهم، وصَرَفَه وكذّبه فى حاله عن البيان وأَخْرسه.

فإذا كان هو المتيقظ المقبل، [وبان][3] هو التائب الصادق، سمعِ فصلَ الخطابِ، ونظر إلى الداعى وله استجاب.

وقد اشترط اللهُ عزّ وجلّ الإنابةَ للتبصرة[4]، وحضورَ القلب للتذكرة، فقال عزّ وجلّ: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ [ق:٨]، وقال: ﴿ومَا يَتَذَكَّرُ إلاَّ مَن يُنِيبُ﴾ [غافر:١٣]، وقال عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُواْ الألْبَابِ * الَّذِين يُوفُون بِعَهْدِ الله وَلاَ يَنْقُضُونَ الميثاقَ﴾ [الرعد:١٩، ٢٠]. فالاستقامة على التوبة من الوفاء بالعهد، وتعدّى الحدود من نقضِ الميثاق وقلّةِ الصدق. والإنابةُ: هى التوبةُ بالإقبالِ[5] على الله عزّ وجلّ. والألباب: هى العقولُ الزاكية والقلوب الظاهرة.

وينبغى للتّالى الخائفِ النّاصحِ لنفسه وللخَلْقِ، السليمِ القلبِ، إذا تلا آى الوعد والوعيد[6] والمدح ومحاسن الوصفِ ومقاماتِ المقربين، أن لا يشهد نفسَه هناك، ولا يراها مكانًا لذلك، بل يشهد للمؤمنين فيها، وينظر إلى الصدِّيقين منها سلامةً ونُصحًا. فإذا تلا الآى الممقوت أهلها، المتهدَّد عليها[7]، المذموم وصفها من مقامات الغافلين وأحوالِ الخاطئين، شهد نفسه هناك، وأنّه هو المخاطَبُ المقصودُ

(١) فى (ك): «أن يعيب».
(٢) ساقطة من (ط).
(٣) ساقطة من (ط) وفيها: «فهو التائب».
(٤) فى (ط): «للإنابة التبصرة» وأثبت ما فى (ك).
(٥) فى (ط): «والإقبال» وأثبت ما فى (ك).
(٦) فى (ط): «إذا تلا الآى الوعد».
(٧) فى (ك): «الممقوت فيها، المصر عليها».

بذلك، خوفًا منه وشفقًا. فبهذه المشاهدةِ يرجو للخلق[1] ويخاف على نفسه، ومن هذه الملاحظة يُسلم قلبه للعباد ويَمقُت نفسه.

وروينا عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه كان يقول: اللّهم إنى أستغفرك لظلمى وكفرى. قال: فقلتُ: يا أمير المؤمنين، هذا الظلم فما بال الكفر؟ فتلا قوله [تعالى]: ﴿إنَّ الإنسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

فإن قُلِب هذان المعنيان على عَبد حتى يشهد نفسه فى المَدْح والوصف، ويشهد غيرَه فى الذم والمقتِ، انقلب قلبُه عن وجهة الصادقين، وتنكَّب بقصده عن صراط الخائفين، فهلَك وأهْلك؛ لأنّ من شهد[2] البعدَ فى القُرب لُطِفَ له بالخوف، ومن شهد القربَ فى البعدِ مُكِرَ به فى الأمن.

وقال بعض العلماء: كنتُ أقرأ القرآنَ فلا أجد له حلاوة، حتى تلوته كأنّى أسمعه من رسول الله ﷺ يتلوه على أصحابه. ثم رُفِعتُ إلى مقام فوقه[3] فكنتُ أتلوه كأنّى أسمعه من جبريل عليه السلام يلقيه على رسول الله ﷺ. ثم جاء الله بمنزلة أخرى، فأنا الآنَ أسمعُه من المتكلِّمِ عزّ من قائل، فعندها وجدتُ له نعيمًا ولذّة لا أصبر عنها.

وقال عثمان رضى الله عنه أو حذيفة: لو طَهُرت القلوبُ لم تَشبع من تلاوةِ القرآن.

وقال ثابت البنانى: كابدتُ القرآنَ عشرينَ سنة، وتنعَّمتُ به عشرين سنة.

وقال بعضُ علمائنا: لكل آيةٍ ستون ألفَ فَهْمٍ، وما بقى من فهمها أكثر.

وعن على رضى الله عنه: لو شئتُ لأوقرت سبعين بعيرًا من تفسيرِ فاتحة الكتاب[4].

---

(١) فى (ك): «يرجو للخالق».

(٢) فى (ك): «أشهد».

(٣) ليس هناك مقام لمخلوق أعلى من مقام رسول الله ﷺ، ولعله يقصد الترتيب الزمانى فى نزول القرآن.

(٤) الخبر فى الإتحاف ٤/ ٥١١، ونقل تفسيرًا له، فراجعه ثَمَّ.

وعن أبى سليمان الدّارانى: إنى لأتلو الآية فأقيم فيها أربع ليال، وذكر خمسَ ليال، ولولا أنّى أقطع الفكرَ فيها لما جاوزتُها إلى غيرها.

ورُوينا عن بعض السّلف: أنّه بقى فى سورة هود ستةَ أشهر يكررها، ولا يفرغ منها.

وحُدثنا عن بعض العارفين قال: لى فى كل جمعةٍ ختمةٌ، وفى كل شهرٍ ختمة، وفى كل سنةٍ ختمة، ولى ختمة منذ ثلاثين سنة ما فرغت منها بعد. يعنى ختمةَ الفَهْمِ والمشاهدة. وكان هذا يقول: أقمتُ نفسى فى العبودية مقام الأُجَرَاء، فأنا أعمل مياوَمَةً، ومجامَعَةً، ومشاهَرةً، ومسانهةً[1].

وإنّما حجب [الله] الخلقَ عن فهم كنه الكلام، ومعرفة كلية المراد[2]؛ لأنّه حجبهم عن حقيقة كنه معرفته. وإنّما أعطاهم من معرفةِ الكلام بقدر ما أعطاهم من معرفة المتكلّم، إذ بمعانى كلامه تُعرف معانى صفاته وأفعاله وأحكامه؛ لأنّ معانى كلامه عين معانى أوصافه وأخلاقه؛ فلذلك جاء فيه السّهل اللطيف، والشديد العسُوف[3]، والمرجو والمخوف؛ لأنّ من أوصافه الرحمةَ واللطف والانتقام والبطش. فلمّا لم يصلح أن يعرفوه كعلمِه بنفسه لم يصلح أن يعلم كنهَ كلامه إلا هو، كما لا يعرف[4] كنه صفاتِه إلا هو.

فأعلمُ الخلقِ لمعانى كلامه أعرفهم لمعانى الصفات[5]. وأعرفُ العباد بمعانى الأوصاف والأخلاق وغوامض الأحكام أعرفهم بسرائر الخطاب، ووجه الحروف، ومعانى باطن الكلام، وأحقهم بذلك أخشاهم له، وأخشاهم له أقربهم منه،

---

(١) شرح الزبيدى هذا الخبر فقال: «الأجراء جمع أجير، وهو من يستعمل نفسه بالأجرة. ومياومة: وهى معاملة يوم بيوم، وهى لغة العامة. ومجامعة: وهى معاملة الجمعة إلى الجمعة، ولم يسمع استعماله عن العرب. ومشاهرة: من الشهر إلى الشهر. ومسانهة: من السنة إلى السنة» اهـ ملخصًا.

(٢) فى (ط): «ومعرفة سرّ المراد» وأثبت ما فى (ك).

(٣) الشديدُ العَسُوف: يقصد البعيد المعانى، والذى يحتاج إلى تأويل لفهمه.

(٤) فى (ط): «هو، ويعرف» وأثبت ما فى (ك).

(٥) فى (ك): «فأعلم الخلق بمعانى كلامه أعرفهم بمعانى الصفات».

وأقربهم منه مَنْ خصّه بأثرته وشمله بعنايته. فقد جاء فى الخبر: «أحسنُ الناس صوتًا بالقرآن مَن إذا قرأ رأيتَ أنّه يخشى الله». ولا يخشاه حتى يعرفه، ولا يعرفه حتى يعامله، ولا يعامله حتى يقربه، ولا يقربه حتى يُعنى به وينظر إليه؛ فعندها يعرف سرّ الخطاب، ويطلع على باطن أصل المراد، وفهم الكتاب[١].

فإذا سجد العبدُ سجودَ القرآنِ، فَلْيدعُ فى سجدته بمعانى الآية من الخير، وليستعذ من معانى شرّها، فإن ذلك فعل العلماء بالقرآن، والله يحب ذلك، ولتلك المعانى أسجدهم له. مثل أن يقرأ قوله عزّ وجل: ﴿**خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ**﴾ [السجدة:١٥]، فيقول: اللهم اجعلنى من الساجدين لوجهك، المسبِّحين بحمدك، وأعوذ بك أن أكون من المستكبرين عن أمرك، أو على أوليائك. ومثل هذا قوله عزّ وجلّ: ﴿**وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا**﴾ [الإسراء:١٠٩]، فليقل: اللّهم اجعلنى من الباكين إليك، الخاشعين لك. وعلى هذه المعانى ونحوها[٢].

وليكن القرآن هو علمه وعمله، وذكره ودعاؤه، وهمّه وشغله، فعنه يُسأل، وعليه يُثاب، ومقامُه منه، وذكره فيه، وأحواله فيه، مجموعٌ له ذلك كلّه فيه. فبكلامِهِ عرفه العارفون، وبمخاطبته شهد أوصافه الموقنون، فعلومهم من كلامه[٣]، ومواجيدهم من علومهم، ومشاهدتهم من معانى أوصافه، وكلامهم عن مُشاهدتهم؛ لأنّ ضروب الكلام عن الله هى معانى الصفات[٤]، فمنه كلام راضٍ ومنه كلام غضبان، ومنه كلام مُنْعِم، وكلام مُنتقم، ومنه كلامُ جبّار متكبّر،

---

(١) فى (ط): «ويطلع على باطن الكتاب» وأثبت ما فى (ك)، وفى الإتحاف كلام جيد ومفيد فى حظ التالى من القرآن ومعرفة صفات الله تعالى، فراجعه ثم: ٤/ ٥٠٨.

(٢) عقد الحكيم الترمذى فصلاً جيدًا فى سجدات القرآن، وما لكل منها من الأدعية الخاصة، لكنه سقط من النسخة المطبوعة التى بيدى، وهو ثابت فيما نقله عنه الزبيدى فى الإتحاف ٤/ ٤٨٢ ـ ٤٨٣. فهذا مما يستدرك على مطبوعة «نوادر الأصول».

(٣) فى (ك): «من كلامهم».

(٤) فى (ك): «لأن ضروب الكلام هو عن الله تعالى معانى الصفات».

وحنّان [عطوف][١] متعطّف.

فإذا كان العبد من أهل العلم بالله والفهم عنه، والسّمع من الله عزّ وجلّ والمشاهدة له، شهد ما غاب عن غيره، وأبصر ما عمى عنه سواه. وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨ ـ ٣٩]. وقال عزّ وجلّ: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِى الأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢] معناه فى الفهم: اعبروا إلىّ فقد أبصرتم. و«التاء» قد تكون بمعنى التفعيل[٢]، تدخل للتحقيق والوصول[٣] بالوصف والمبالغة فى الفعل، فلما أعطاهم الأيدى والأبصار عَبَرُوا بقلوبهم[٤] إلى ما أبصروا، ففرّوا إلى الله عزّ وجلّ من الخلق حين ذكَرُوه بما خلق، فخرجوا على[٥] معيار حسن الابتلاء، ولم ينقصهم البلاء شيئًا، فكانوا كما أخبر والذى[٦] أمر فى قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَىءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَفِرُّوا إِلَى اللهِ﴾ [من الأزواج][٧]، ثم قال: ﴿وَلاَ تَجْعَلُوا مَعَ اللهِ إِلهًا آخَرَ﴾ [الذاريات: ٤٩ ـ ٥١] فكانوا هم الموحدين المخلصين له، وكان هو المنفردَ المستخلصَ لهم. ثم جاوزوا التذكرةَ بالأشياء[٨] إليه، فذكروه عنده به، فحينئذ هربوا إليه منه حين هلّلوه به، فلم يتألّهوا إلى ما سواه، كما لم يعبدوا إلا إيّاه، وكذلك رأيتُها فى مصحف عبد الله: «فَفِرُّوا إلى اللهِ منه إنّى لَكُم منْهُ نَذيرٌ مُبِين».

وفى الخبر عن ابن مسعود، وبعضُ الرواةِ يرفعُه، وقد رويناه مسندًا من طريقٍ: «إنَّ للقُرآنِ ظَهْرًا وبَطْنًا وحدًا ومُطَّلعًا». فنقول: فظاهره لأهل العربية، وباطنه لأهل اليقين، وحدُّه لأهل الظاهر، ومطّلعه لأهل الإشراف، وهم خصوص

(١) ساقطة من (ط).
(٢) فى (ط): «فالتاء قد تكون بمعنى تاء التفعل» وأثبت ما فى (ك).
(٣) ليست فى (ك).
(٤) فى (ط): «بقواهم» وأثبت ما فى (ك).
(٥) فى (ك): «عن».
(٦) فى (ط): «كما أخبروا كالذى» وأثبت ما فى (ك) فهو أصح وأدق.
(٧) ساقطة من (ط).
(٨) كذا فى المطبوعة والمخطوطة، ولعلها «بالانقياد إليه».

العارفين من المحبين والخائفين، اطلعوا على لطف المطّلع، بعد أن خافوا هول المطْلَع، فأُودعوا السرّ عند مقام أمين، وأُوقفوا على الخبر فى حال مكين، فكانوا لديه مقرَّبين، إذ كانوا به شاهدين(١).

وقال النبى ﷺ: «يرى الشاهد ما لا يرى الغائب». فمن حضَر شهد، ومن شهد وجد، ومن وجد وحّد، ومن وحّد عزّ، ومن غاب عمِى، ومن عمى فُقد، ومن فُقِد نَسى، ومن نَسى فقد نُسى، وقد قال الله عزّ وجلّ: **﴿كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾** [طه:١٢٦] أى تركتها فلم تعبأ بها، ولم تنظر إليها، وهكذا اليوم تُترك فلا يُنظَر إليك برحمة، ولا تُكلَّم بلطف، ولا تُزلف بقُرب(٢).

***



(١) بعض هذه الجمل السابقة تكرر فى المطبوعة قبل خبر ابن مسعود، وليس كذلك فى (ك).
(٢) هذه الفقرة برمتها ليست فى (ك).

الفصل السابع عشر

فيه كتاب ذكر نوع من المفصل والموصل من الكلام، وفيه مدح العالمين (١)، وذم الغافلين عنه، وتفسير الغريب، والمشكل من القرآن، باختصار الأصول الدالة على المعنى

فأمّا ظاهرُ الكلامِ فعلى مَعْنَيين عَجيبين، وهو مجملٌ مختصرٌ، وموصل مكرّر. فإجماله واختصارُه للبلاغة والإيجاز، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٦]، ومكرره وتَفْصيله للإفهام والتذكار. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص:٥١].

وقال عزّ وجلّ في المبهم المجمل والتوحيد المفصّل: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾، فهذه ثلاثة أسماء: الله، لطيف، رحيم. وقيل: بل هي حروفٌ من اسم وهو الرحمن، ثم أظهر السَّبب فقال: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ يعني بالتوحيد، ثم ﴿فُصِّلَتْ﴾ أي بالوعد والوعيد، ثم قال: ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ﴾ أي للأحكام ﴿خَبِيرٍ﴾ أي بالأحكام، خبير بالتفصيل للحلال والحرام ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ هذا هو التوحيد الذي أحكمه ﴿إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ [هود: ١ ـ ٢] هذا هو الوعد والوعيد الذي أعلمه.

فمن المختصر للإيجاز قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الإسراء:٥٩]، ففي هذا مختصر ومحذوفان؛ فالمُضْمر قوله: ﴿مُبصرة﴾ المعنى: آية مبصرة، فأُضمر. ومحذوفاه: قوله: ﴿فظَلَمُوا بِها﴾ المعنى: ظلموا أنفسهم بالتكذيب بها، فاختصرت كلمتان من كلمتين للإيجاز.

---

(١) في (ك): «العاملين به» وهذا العنوان مختصر فيها.

ومثله قوله: ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ على عُرُوشِها﴾ [البقرة:٢٥٩] الخواء: الخلاء. والعروش: السقوف، وهو جمع عَرش، فكيف تكون خاوية من العروش، والعروش موجودة فيها. فهذا من المختصر المحذوف، ومعناه: وهى خاوية من ثمرها، أو من أهلها، واقعة على عروشها.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَلكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [البقرة:١٧٧]، حُذف الفعل وأُقيم الاسم مقامه، فالمعنى فيه: ولكن البرَّ برُّ مَن آمن بالله. وقد يكون من المبدل، فيكون المحذوف هو الاسم أُبدل الفعل مكانه، والمعنى: ولكن البر، [أى الرجل البَرُّ][1] مَن آمن بالله، فلمّا كان البرُّ وصفَه أُقيم مكانه.

وبمثل المعنى الأول قوله عزّ وجلّ: ﴿وَأُشْرِبُوا فى قُلُوبِهِمُ العِجْلَ﴾ [البقرة:٩٣] أى حب العجل.

ومن ذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ [الكهف:٧٤]، ولم يذكر قَتلَه. والمعنى: بغير نفس قَتلها، فحذف الفعل.

ومثله: ﴿أنَّه مَنْ قَتَل نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فى الأَرْضِ﴾ [المائدة:٣٢] أضمر قوله: ﴿بغَيْرِ نَفْسٍ﴾ قَتلها، أو بغير ﴿فسادٍ فى الأرض﴾، فاكتفى عنه بذكر «غير» الأولى.

وكذلك قوله: ﴿مَنْ فِى السَّمَوات والأرضِ﴾ [آل عمران:٨٣] معناه: ومن فى الأرض.

وكذلك قوله: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بالدِّين﴾ [التين:٧]، هو متصل بقوله سبحانه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٤] وفصل بينهما النعت والاستثناء، والمعنى: فما يكذبك بعد هذا البيان أيّها الإنسان بالدِّيانة فأى شىء يحملك على التكذيب، بأن تدين لله تعالى، وهو أحْكَمُ الحاكمين؟

(١) كانت العبارة ناقصة مضطربة فى المطبوعة هكذا: «فيكون المحذوف هو اسم أبدل الفعل مكانه ولكن البر من آمن بالله» وأصلحتها من (ك).

ومن المبدل المضمر أيضًا: ﴿إذًا لأذَقْنَاكَ ضِعْفَ الحَياة وَضِعْفَ المَمات﴾ [الإسراء:٧٥] المعنى: ضعف عذاب الأحياء وضعف عذاب الموتى، فأضمر ذكر العذاب، وأبدل الإحياء والممات[1] بذكر الحياة، فأقام الوصفَ مقامَ الاسم. ويصلح أيضًا أن يترك الوصفَ على لفظه، ويضمر «أهل»، فيكون ضعف عذاب أهل الحياة وضعف عذاب أهل الممات، كما أضمر «أهل» فى ذكر القرية وذكر العير فقال: ﴿وَسْئَلِ القَرْيَةَ الَّتى كُنَّا فِيها والعِيرَ الَّتى أقْبَلْنَا فيهَا﴾ [يوسف:٨٢]، والمعنى: واسأل أهلَ القريةِ، واسأل أهل العير.

ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ثَقُلَتْ فى السَّمَوات وَالأرْضِ﴾ هو من المبدل المضمر، فمبدله ﴿ثَقُلَت﴾ ومعناه: خفيت، أُبدل بدلالة المعنى عليه؛ لأنّ الشىءَ إذا خَفِىَ علمه ثَقُلَ. وكذلك قوله ﴿فى السموات﴾ معناه: على، ومضمره «أهل»، والمعنى: خفيت على أهل السموات وأهل الأرض، ﴿لا تَأتِيكُم إلاَّ بَغْتَةً﴾ [الأعراف:١٨٧] يعنى: فجأة.

ومنه قوله عزّ وجلّ: ﴿تَفْتَؤُ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ [يوسف:٨٥]. فيه مضمر، ومحذوف. فمحذوفه «تزال» ومضمره «لا» التى هى جواب القسم. والمعنى: قالوا: تالله لا تزال تفتؤ تذكر يوسف، فأُضمرت لا وأُبدلت «تزال» بقوله: ﴿تَفْتَؤُ﴾، وهى من مختصر الكلام وفصيحه وبليغه، وهى لغة لبعض العرب، وفى القرآن من كل لغة.

ومن هذا قوله عزّ وجلّ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة:٨٢]، وقوله سبحانه: ﴿بَدَّلُوا نِعْمَتَ الله كُفْرًا﴾ [إبراهيم:٢٨]، معناه: تجعلون شكر رزقكم أنّكم تكذِّبون، وكذلك بدّلوا شكر نعمةِ الله كفرًا بها.

ومثله: ﴿فَكَأيِّن مِنْ قَرْيَة أهْلَكْنَاهَا﴾ [الحج:٤٥]، ﴿وَكَأيِّن مِنْ قَرْيَة أمْلَيْتُ لَهَا﴾ [الحج:٤٨]، معناه: أهلَ قرية، مثل قوله: ﴿وَسْئَلِ القَرْيَةَ التى كُنَّا فيها

(١) فى (ط): «والموتى» وأثبت ما فى (ك).

والعيرَ﴾[1] [يوسف:٨٢] المعنى: أهل العير، والعير هى الإبل المجهولة، وهذا الذى يُسميه النحويون: «المجاز».

وكذلك قوله: ﴿إنَّ هَذَا القُرآنَ يَهْدى للَّتى هىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩] معناه: للطريقة التى هى أقوم. ومثل هذا قوله عزّ وجلّ: ﴿وَقُلْ لعبَادى يَقُولُوا الَّتى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء:٥٣] أى: يقولوا الكلمة التى هى أحسن.

ومثل هذا قوله: ﴿ادْفَعْ بِالَّتى هِىَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾ [المؤمنون:٩٦] أى: بالكلمة أو بالفعلة التى هى أحسن. ومثل قوله: ﴿إِنَّ الَّذينَ سَبَقَتْ لَهُمْ منَّا الْحُسْنَى﴾ [الأنبياء:١٠١] أى: الكلمة الحسنى. والوجه الآخر: أن الحسنى اسم لا نعت، فمعناه: الجنة. وهكذا قوله: ﴿عَلَى مُلْك سُلَيْمَانَ﴾ [البقرة:١٠٢] أى: على عهد ملك سليمان، فأضمر «عهد». ومثل قوله: ﴿وآتنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلكَ﴾ [آل عمران:١٩٤] أى: على ألسنة رسلك، فأضمر «ألسنة».

ومن المكنّى المضمر قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنسانيهُ إلاَّ الشَّيْطَانُ﴾ [الكهف:٦٣] أضمر الحوتَ وذكرَه واسْمَ موسى للاختصار، والمعنى: وما أنسانى ذكرَ الحوتِ لك إلا الشيطان.

ومثله قوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر:١] أى: أنزلنا القرآن، فكنّى عنه ولم يتقدّم له ذِكْر.

وكذلك قوله: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [ص:٣٢] يعنى: توارت الشمس بحجاب الليل، فكنَّى عنها ولم يجرِ لها ذكر.

ومثله قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذينَ صَبَرُوا﴾ [فصلت:٣٥] أى: الكلمة الطيبة أو الفعلة التى هى أحسن. وبمعناه قوله تعالى: ﴿وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ﴾ [القصص:٨٠] يعنى: كلمة الزهد فى الدنيا، ومقالة الترغيب والرغبة فى الآخرة،

(١) هذه الآية ليست بالمخطوط، وكانت مختلة فى المطبوعة هكذا: «وسئل العير» وليست هذه فى القرآن.

عائد على قوله تعالى: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ الله خَيْرٌ﴾ أي: هذه المقالة.

ومن المبدل المختصر قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ العِزَّةُ بالإِثْمِ﴾ [البقرة:٢٠٦] معناه: حملته العزة على الإثم، أى حمله التعزز والأنَفَة على الإثم ولم يبال. فأخذته بمعنى حملته بالإثم، بمعنى على الإثم.

ومن هذا قوله: ﴿لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥] أي: لا تحمله سنة ولا نوم؛ لأن السِّنَة تحمل العبد، أى تذهب به عن التيقُّظ.

ومن المنقول المنقلب قوله عزّ وجلّ: ﴿يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾ [الحج:١٣]، اللام فى «لمن» منقولة، والمعنى: يدعو مَنْ ضره أقرب من نفعه. ومثله: ﴿لَتَنُوءُ بِالعُصْبَةِ﴾ [القصص:٧٦] معناه: لتنوء العصبة بها، أى لتثقل بحملها لثقلها عليهم. ومثله قوله: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ [التين:٢]، ﴿سَلاَمٌ عَلَى إلْ يَاسِينَ﴾ [الصافات:١٣٠] وهو مما قلب اسمه، لازدواج الكلم. المعنى: طور سينا وسلام على الياسين، قيل: إدريس، لأن فى حرف ابن مسعود: «سلام على إدريس». ونحوه: ﴿جَعَلُوا القُرآنَ عِضِينَ﴾ [الحجر:٩١] أى: إعضاه، كأنهم عَضوه، فآمنوا ببعض وكفروا ببعض. وبمعناه: ﴿وجَعلَ مِنْهُمُ القِرَدَةَ والخَنازِيرَ وعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ [المائدة:٦٠] المعنى: وجعل منهم من عبدَ الطاغوتَ. ويصلح أن يكون معطوفًا على قوله: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ ومَنْ ﴿عَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾. ومن قرأ: «الطاغوت»[1] بالكسر فإنه يجعل «عَبُدَ» اسمًا، وأضافه إلى الطاغوت، بمعنى: وعَبَدة، وعبّاد. وفيه خمس لغات أخرى: عُبّاد الطاغوت، وعُبُدَ الطاغوت، وعَبَدَةَ الطّاغوت، وعابد الطّاغوت، وعُبْدَ الطاغوت. وأما «عَبَد الطاغوتَ» نصبًا، فهو بمعنى الفعل من العبادة.

ومن المضمر المختصر أيضًا قوله عزّ وجلّ: ﴿ألاَ إنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ [هود:٦٠] ضميرُه إحدى كلمتين: كفروا نعمة ربهم [أو] كفروا توحيد ربهم،

(١) قرأ حمزة وحده: «وعبُدَ الطاغوتِ»، انظر: السبعة فى القراءات، ص٢٤٦.

فأُضْمِرَ للاختصار، وانتصب الاسم لسقوط الخافض. وفيها وجه غريب إلاّ أنّه محمول على المعنى؛ لأنه أى: غطّوا ربهم التغطية، أى غطوا آياته وما دعا إليه من الحق، والمعنى: كفرهم، أى غطى عليهم بما غطوا ربهم. هكذا حقيقة فى التوحيد، إذ الأولية فى كل فعل منه، وهم ثوانٍ فيما بعد، فهو بمعنى قوله: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام:٩] اللبس: التغطية.

ومنه قوله: ﴿والَّذينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونه أَوْلِيَاءَ ما نَعْبُدُهُم﴾ [الزمر:٣] مضمره: يقولون ما نعبدهم. ومثله: ﴿فَظَلْتُم تَفَكَّهُونَ * إنّا لَمُغْرَمُونَ﴾ [الواقعة:٦٥ ـ ٦٦] أى يقولون: إنّا لمغرمون. وعلى هذا المعنى وُجِّه قوله: ﴿فَمَال هَؤُلاء القَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا * مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَة فَمنَ الله وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَة فَمن نَفْسك﴾ [النساء:٧٨ ـ ٧٩]، المعنى فيه: يقولون ما أصابك، على معنى الإخبار عنهم والذم لهم. فهلكت بذلك «القَدَرِيّة» لجهلهم بعلم العربية، فظنّوا أنّه ابتداءُ شرعٍ وبيانٌ من الله عزّ وجلّ، وقد أحكم الله عزّ وجلّ ابتداءَ شرعِه وبيانَهُ بأوّل الآية فى قوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ الله﴾ [النساء:٧٨].

وقد كان ابن عباس يقول: إذا اشتبه عليكم شىءٌ من القرآن فالتمسوه فى كلام العرب، فإنّ الرجل يتلو الآية فيعيا بوجهها فيكفر.

وقرأتُها فى مصحف عبد الله بن مسعود: «فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثًا. قالوا ما أصابك من حسنة». فهذا كما أنبأتكَ.

وقد رأيتُ فى مصحف عبد الله: «والذين اتّخَذُوا من دونه أولياءَ قالوا ما نعبدهم». فهذا من ذلك.

ومن المضمر قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنا مِنكُم مَلائكَةً فى الأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ [الزخرف:٦٠] ليس أنه يجعل من البشر ملائكة، ولكن معناه: لجعلنا بدلاً منكم ملائكة، ويصلح: لجعلنا بدلكم، بمعنى: منكم.

ومن المبدل له قوله عزّ وجلّ: ﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون:٦١] اللام بدل من

الباء، والمعنى: وهم بها سابقون، لأنّهم لو سبقوها لفاتتهم. وعلى هذا المعنى قال بعضهم: إن قوله عزّ وجلّ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ [الأعراف:١٤٣] أي بالجبل، كان الجبل حجابًا لموسى فكشفه عنه، فتجلّى به، كما قال: ﴿مِنَ الشَّجرة أَنْ يا مُوسى إنّني أنا اللهُ﴾ [القصص:٣٠]، فكانت الشجرة وجهةً لموسى، كلّمه الله عزّ وجلّ منها.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فى جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه:٧١] معناه: على جذوع. وكذلك: ﴿فَلا تَجْعَلْنى فِى القَوْمِ الظَّالِمينَ﴾ [المؤمنون:٩٤] معناه: أي مع القوم. وبمعناه: ﴿أمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فيه﴾ [الطور:٣٨] أي: عليه، ويصلح «به». وكذلك قوله: ﴿مُسْتَكْبِرينَ بِهِ﴾ [المؤمنون:٦٧] أي: عنه، يعنى عن القرآن.

فعلى هذا مجاز قوله تعالى: ﴿فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٩] أي: سل عنه. فحروفُ العوامل يقوم بعضها مقام بعض.

ومثله قوله [تعالى]: ﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾ [المزمل:١٨] أي: فيه، يعنى فى اليوم. ومثله: ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إلاَّ الَّذينَ ظَلَمُوا﴾ [البقرة:١٥٠] معناه: ولا الذين ظلموا، فأُبدلت بإلا، ولا يجوز أن تكون «إلاّ» مستأنفة بمعنى: لكن الذين ظلموا، متصلة بخبرها من قوله: ﴿فَلا تَخْشَوْهُمْ﴾ فهو بمعنى قوله: ﴿لاَ يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ * إلاَّ مَنْ ظَلَمَ﴾ أي: لكن من ظلم ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ﴾ [النمل:١٠ ـ ١١]، فيكون مبتدأ لذكر خبرها بعد. وبمعناه قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إلى أَمْوَالِكُمْ﴾ [النساء:٢] أي: مع أموالكم. وكذلك قوله: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إلى الْمَرَافِقِ﴾ [المائدة:٦] أي: مع المرافق؛ لأنها داخلة فى الغسل.

والحروف العوامل تنوب بعضها عن بعض، ولو أظهر مثل هذا المضمر ووصل مثل هذا المحذوف لكانت القراءة ضعيفة.

ومن الموصول المكرر للبيان والتوكيد قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ شُرَكَاءَ إنْ يَتَّبِعُونَ إلاَّ الظَّنَّ﴾ [يونس:٦٦] قوله: ﴿إنْ يَتَّبِعُونَ﴾ مردود،

ردّه للتوكيد والإفهام، كأنه لما طال الكلام أُعيد لِيَقْرُبَ من الفهم. والمعنى: ما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ﴿إلاَّ الظَّنَّ﴾ ، أى: اتباعهم الشركاء ظنًا منهم غير يقين.

ونحوه من المكرر المؤكد [قوله عز وجل]: ﴿قَالَ الملأُ الَّذينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِه لِلَّذينَ استُضْعِفُوا لِمَنْ آمنَ مِنهُم﴾ [الأعراف:٧٥] اختصاره: الذين استكبروا لمن آمن من الذين استضعفوا، فلما قدّم الذين استضعفوا، وكان المراد بعضهم، كرر [للإفهام][1] المراد، بإعادة ذكر من آمن منهم للبيان. ومثله: ﴿إلاَّ آلَ لُوط إنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ * إلاَّ امْرَأَتَهُ﴾ [الحجر:٥٩ ـ ٦٠]، فأدخل الاستثناء على الاستثناء، وهو يطول فى كلامهم، لأنه أراد بالنّجاة بعضَ الآل، فلما أجملهم أخرج مستثنى من مستثنى. وفى هذا دليل أنّ الأزواج من الآل، لأنّه استثنى امرأته من آله.

ومن المكرر للتوكيد قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ﴾ مختصره: فلما أراد أن يبطش. وقد قيل: إن هذا من المختصر المضمر مما أُضمر فيه الاسم وحُذف منه الفعل، وهو غريب؛ فيكون تقديره: فلما أن أراد الإسرائيلى أن يبطش موسى ﴿بِالَّذى هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا﴾ فلم يفعلْ ﴿قَالَ يَا مُوسى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِى﴾ [القصص:١٩]، فهذا حينئذ من أخصر الكلام وأوجزه.

ومن المكرر المؤكد قوله عزّ وجلّ: ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كان عَاقبَةُ الَّذينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنهُمْ قُوَّةً﴾ [غافر:٢١]، مفهومه وجائزه: فينظرون كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشدّ منهم قوّة، فوصل بـ «من» ووكّد بـ «كان» وعَدَّ لهم[2]، وقرأتُها فى مصحف ابن مسعود: «عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشدَّ قوّة» ليس فيها «كانوا» ولا قوله «هم».

(١) زيادة من (ك).

(٢) فى (ط): «ووكد فكان هم أشد» وأثبت ما فى (ك).

وبمعناه، وإن قَصر، قوله تعالى: ﴿لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ﴾ [الزخرف:٣٣]، هذا مما طُوِّل للبيان، والمعنى: لجعلنا لبيوت من يكفر بالرحمن، فلما قدَّم «مَنْ» وهى أسماء من يكفر أعيد ذكر البيوت مؤخرًا.

ومن المكنَّى المبهم المشتبه قوله عزّ وجلّ: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً عَبْدًا مَمْلوكًا لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَىءٍ﴾ [النحل:٧٥] الشىء فى هذا الموضع: الإنفاق مما رزق الله. وقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَىءٍ﴾ [النحل:٧٦] فالشىء فى هذا الموضع: الأمر بالعدل والاستقامة على الهدى. وكذلك قوله: ﴿فَإِنِ اتَّبَعْتَنِى فَلا تَسْئَلْنى عَنْ شَىَءٍ﴾ [الكهف:٧٠] الشىء فى هذا الموضع: وصف مخصوص من وصف الرّبوبية من العلم الذى علمه الخضر عليه السلام من لدنه، لا يصلح أن يسأل عنه حتى يبتدئ [هو][1] به؛ فلذلك كنّى عنه. وكذلك العلم على ضربين:

ضرب لا يصلح أن يُبتدأ به حتى يُسأل عنه؛ وهو مما لا يضيق علمه، فلذلك وسع جهله وحسن كتمه.

وعلم لا ينبغى أن يُسأل عنه، من معنى صفات التوحيد ونعوت الوحدانية، لا يُوكل إلى العقول بل يُخصّ بها المراد المحمول. فعِلْمُ الخَضِرِ الذى شرط على موسى عليهما السلام أن لا يسأل عنه حتى يبادئه به من هذا النوع، واللهُ غالبٌ على أمره.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَىَءٍ﴾ [الطور:٣٥] يعنى الله تعالى، أى: كيف يكون خَلْق من غير خالق؟ ففى وجودهم ثبوت خالق، فهم دلالة عليه أنّه خلَقهم. وروينا ذلك عن ابن عباس وعن زيد بن على رضى الله عنهما، قالا فى قوله عزّ وجلّ: ﴿مِنْ غَيْرِ شَىَءٍ﴾ أى: من غير ربّ! كيف يكون خلق من غير خالق؟!

---

(١) زيادة من (ك).

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَاللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلى بَعْضٍ فى الرِّزْق﴾ [النحل: ٧١] فالبعض الأوّل المفضَّل فى الرزق هم الأحرار، والبعضُ الآخر المفضول هم المماليك.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ﴾ [ق: ٢٣] قرينه هذا هو المَلك الموكَّل بعلمه، أحضر ما عنده مما عَلِمه من فِعْله. وقوله عزّ وجلّ: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾ [ق: ٢٧] قرينه هذا هو شيطانه المقرون به.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَإِخوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فى الْغَىِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٢] الهاء والميم المتصلة بـ «إخوان» أسماء الشياطين، والهاء والميم المتصلة بـ «يَمُدُّونَ» أسماء المشركين، أى الشياطين إخوان المشركين، يمدّون المشركين فى الغىّ ولا يقصرون عنهم فى الإمداد.

وبمعنى هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١٠٠] الهاء الأولى المتصلة بـ «يَتَوَلَّوْن» كناية عن إبليس، والهاء المتصلة بالباء من قوله «هم به» هى اسم الله عزّ وجلّ، وقد قيل أيضًا: إنّها عائدة على إبليس أيضًا، فيكون المعنى: هم به قد أشركوا فى التوحيد، أى أشركوه بعبادة الله عزّ وجلّ.

ومثل هذا قوله عزّ وجلّ: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ [العاديات: ٤ ـ ٥] «الهاء» الأولى: كناية عن الحوافر، وهنّ الموريات قدحًا، يعنى: الخيل تقدح بحوافرها فتُورى النار، «فأثرن به» أى: بالحوافر النقع، يعنى التراب. «والهاء» الثانية: كناية عن الإغارة، «فوسطن» أى توسطن به بالإغارة، وهنّ المغيرات صبحًا، وسَطْنَ جمعَ المشركين [الذى][1] أغاروا عليهم بجمعهم، والمشركون غارون.

وبهذا المعنى قوله عزّ وجلّ: ﴿فَأَنْزَلْنَا بِهِ المَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [الأعراف: ٥٧] الهاء الأولى عائدة على السحاب، أى: أنزلنا بالسحابة الماء. وفى

(١) زيادة للبيان من تفسير القرطبى ٢٠/ ١٦٠، وهى ساقطة من (ك) و (ط).

قوله «به» مُبدل ومُكَنًّى. فالمكنى: هو ما ذكرناه من أسماء السحاب. والمبدل: أن «به» بمعنى «منه».

ومثل هذا قوله: ﴿يَشْرَبُ بها عبَادُ الله﴾ [الإنسان:٦] أي: منها، وهو صريح قوله في المفسَّر: ﴿وأَنْزَلْنَا منَ الْمُعْصرَات مَاءً ثَجَّاجًا﴾ [النبأ:١٤] يعني: السحاب، وهو قوله: ﴿سُقْنَاهُ لبَلَد ميِّت﴾، وقوله في الهاء الثانية: ﴿فَأَخْرَجْنا به من كُلِّ الثَّمرات﴾ [الأعراف:٥٧]، يعني بالماء، فجمع بين اسم السحاب والماء بالهاء فأشكل.

ومن البيان الثاني والثالث للخطاب المجمل قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضانَ الَّذي أُنْزِلَ فيه القُرآنُ﴾ [البقرة:١٨٥] فلم يفهم إلا أن القرآن أُنزل في شهر رمضان، ولم يُدْر أنهارًا أُنزل فيه أو ليلاً؟ فقال في البيان الثاني: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ في لَيْلَة مُبارَكَة﴾ [الدخان:٣]، فلم يُفهم منه إلا أنه أُنزل منه ليلاً في ليلة مباركة، ولم يدر أي ليلة هي، فقال في البيان الثالث: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ في لَيْلَة الْقَدْر﴾ [القدر:١]، فهذا غاية البيان.

وبمعناه قوله تعالى: ﴿ولَمَّا بَلَغَ أَشُدَّه واسْتَوى آتَيْنَاهُ﴾ [القصص:١٤]. فهذا البيان الأوّل زيادة على الأشد وهو الوصف، إلا أنه غير مفسَّر. ثم قال في البيان الثاني: ﴿حتّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وبَلَغَ أَرْبَعينَ سَنَةً﴾ [الأحقاف:١٥] ففسّر الأشد بالأربعين، [إذا كانت الواو للمدح والوصف في أحد الوجهين][1].

ومن الموجز ومعناه الجمع قوله تعالى: ﴿والْعَصْر * إنَّ الإنْسَانَ لَفي خُسْر﴾ معناه: إن الناس لفي خسر، أي لفي خسران، لقوله: ﴿إلاَّ الَّذينَ آمَنُوا وَعَملُوا الصَّالحَات﴾ [العصر:١ ـ ٣]، ولا يُستثنى جماعة من واحد، وإنما يستثنى جماعة من جماعة أكثر منهم، وإنّما وحَّد الاسم للجنس.

وكذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإنْسَانُ إِنَّكَ كَادحٌ إِلى ربِّكَ كَدْحًا﴾ [الانشقاق:٦]

(١) هذه الجملة ساقطة من (ك).

معناه: يا أيها الناس إنكم كادحون، دلّ عليه قولُه عزّ وجلّ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِه﴾ [الانشقاق:٧]، ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِه﴾ [الانشقاق:١٠]، وإنما وحّد النعتَ لتوحيد الاسم.

وكذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ [الأحزاب:٧٢] معناه: حملها الناس[1] كلّهم، وهذا أحب الوجهين إليّ، لقوله عزّ وجلّ: ﴿لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ [الأحزاب:٧٣].

ومثله قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾ معناه: وإنا إذا أذقنا النّاس منا رحمة فرحوا بها، فلما وحّد الاسم وحّد نعته، دلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [الشورى:٤٨] فأظهر الجمع.

ومن الجمع المراد به الواحد قوله عزّ وجل: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٠٥] يعني نوحًا وَحْدَه؛ لأنّه لم يرسل إلى قوم نوح غيره. ودلّ عليه قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾ [الشعراء:١٠٦]، فوحَّد الجمع.

ومثله: ﴿فَمَا أَوْجَفْتُم عَلَيْه مِنْ خَيْلٍ وَلاَ رِكابٍ ولكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَه عَلَى مَنْ يَشَاء﴾ [الحشر:٦] يعني بذلك النبيَّ ﷺ وحْدَه يوم خيبر.

ومن الجَمْع المكنّى قوله عزّ وجلّ: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوات والأرضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر:٥٧] الناس[2] في هذا الموضع: الدجالَ. ونزل ذلك في ذكر الدجال، [ونزل ذكرهم][3] لا ستعظامهم لوصفه.

وكذلك قوله تعالى: ﴿الَّذينَ قَالَ لَهُمُ النّاسُ إنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ [آل عمران:١٧٣] يعني رجلاً واحدًا قاله لهم، وهو عروة بن مسعود الثقفي، فجمع لفظه لأجل جنسه، والعرب تجمع الواحد للجنس.

---

(١) في (ط): «حملها ظهره» وأثبت ما في (ك).

(٢) في (ط): «يعني» وأثبت ما في (ك).

(٣) زيادة من (ك)، والعبارة كانت مضطربة في (ط)، فقومتها من (ك).

وكذلك قيل فى أحد الوجوه أن قوله عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ [البقرة: ١٩٩] يعنى آدم ﷺ وحده، وهو أوّل من طاف بالبيت، وأتاه جبريل، وأشعر له المناسك. وقد قرأتُ فى بعض حروف السلف: «من حيث أفاض آدم» فهذا شاهد له.

ومن المقدَّم والمؤخَّر لحسن تأليف الكَلِم، ومزيد البيان والإظهار، قوله عزّ وجلّ: ﴿مَنْ كَفَرَ بالله مِنْ بَعْدِ إيمَانه إلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطمَئِنٌّ بالإيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالكُفْرِ صَدْرًا﴾ [النحل: ١٠٦] اختصاره ومؤخره: «مَنْ كفر بالله بعد إيمانه وشرح بالكفر صدرًا، فعليهم غضب من الله إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان». ولكن وكّد بقوله: ﴿ولكنْ مَنْ شَرَحَ بالكُفر صدرًا﴾ لما استثنى المكره وقلبه مطمئن بإيمان، ولم يجعل المكره آخر الكلام لئلا يليه قوله: ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضبٌ مِنَ الله﴾ فيتوهم أنه خبره، وجعل آخر الكلام ﴿فعَلَيْهِم غَضَبٌ مِنَ الله﴾ وهو فى المعنى مقدَّم خبر الأوّل، من قوله: ﴿مَن كَفَر بالله من بَعْد إيمانه﴾ فأُخِّر ليليه قولُه تعالى: ﴿ذلكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الحيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ﴾ [النحل: ١٠٧] لأنه من وصفهم، فيكون هذا أحسن فى تأليف الكلام وسياق المعنى.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَقِيله يَا رَبِّ إنَّ هؤُلاَءِ قَوْمٌ﴾ [الزخرف: ٨٨]. هذا من المعطوف المضمر، ومن المقدَّم والمؤخَّر. فعاطفه قوله: ﴿وعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [الزخرف: ٨٥] وضميره قوله: ﴿وَقِيله يَا رَبِّ﴾، والمعنى: عنده علم الساعة وعلم قيله يا ربّ. هذا على حرف من كسر اللام، فأما من نصبها[1]، فإنّه مقدَّم أيضًا، ومحمول على أن المعنى: أى وعنده علم الساعة ويعلم قيله يا رب.

فأما من رفع اللام فقرأ «وقيلُه» فتكون مستأنفة على الخبر، وجوابها الفاء من

(١) قوله: «من نصبها» يقصد قراءة «قِيلَهُ» وهى قراءة ابن كثير ونافع وابن عامر وأبى عمرو والكسائى. والكسر قراءة عاصم وحمزة. انظر كتاب: السبعة فى القراءات، ص٥٨٩. أما قراءة الرفع فهى قراءة الأعرج وقتادة. وانظر: تفسير القرطبى ١٦/١٢٣ ـ ١٢٤، ففيه تفصيل للمعانى.

قوله: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ أى قوله: ﴿إِنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنونَ * فاصْفَحْ عَنْهُم﴾ [الزخرف: ٨٨ ـ ٨٩]. وقد تكون الواو فى قوله «وقيله» للجمع مضمومة إلى علم الساعة، والمعنى: وعنده علم الساعة، وعنده قيله يا رب. جمع بينهما بعند.

فهذا مجاز هذه المقارى الثلاث فى العربية.

ومما حُمل على المعنى قوله عزّ وجلّ: ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ ثم قال: ﴿وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ [الأنعام: ٩٦] فلو لم يُحمل على المعنى لكانت الشمس والقمر خفضًا إتباعًا للفظ قوله «فالق» و«جاعل» ولكن معناه: وجعل الشمس والقمر حسبانًا، وهى على قراءة من قرأ ﴿وَجَعَلَ اللَّيلَ سَكَنًا﴾ متبعة لجعل ظاهر.

وبمعناه قوله تعالى: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾ [المائدة: ٦] فى قراءة من نصب اللام، محمولاً على معنى الغسل من قوله عزّ وجلّ: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾ أيضًا. ومن قرأ: ﴿وأرجلكم﴾ خفضًا حمله على اتباع الإعراب، من قوله عزّ وجلّ: ﴿بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾ فأتبع الإعراب بالإعراب قبله؛ لأن مذهبه المسح لا الغسل.

واختيارُنا نصبَ اللام فى المقروء على نصب الغسل، واتباع الوجه واليدين، إلا أنه رُوى عن ابن عباس وأنس بن مالك: نزل القرآن بغسلين ومسحين، وسنّ رسولُ الله ﷺ غسل الأقدام، فنحن نفعل كما فعل.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾ [طه: ١٢٩] من المقدَّم والمؤخَّر. فالمعنى فيه: ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمًّى لكان لزامًا، وبه ارتفاع الأجل، ولولا ذلك لكان نصبًا كاللزام، فَأُخِّر لتحسين اللفظ.

وبمعناه قوله عزّ وجلّ: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٧] المعنى: يسألونك عنها كأنك حفيٌّ بها، أى ضنين بعلمها.

ومثله قوله تعالى: ﴿أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ [البقرة:١٠٦] أى نأت منها بخير، فقدّم «بخير» وأخّر «منها»، فأشكل.

ومن المؤخَّر بعد توسط الكلام قوله عزّ وجلّ: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ [الانشقاق:١٩] فى قراءة من وحّد الفعلَ، وهو متصل بقوله عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا﴾ [الانشقاق:٦] لتركبن طبقًا عن طبق، أى حالاً بعد حال فى البرزخ، فأخّر الأحوالَ للقرار فى الدار. وكذلك هو فى قراءة مَن جمع فقال: لتركبن أيّها الناس، فيكون الإنسان فى معنى الناس، كما ذكرناه آنفًا[١]، ويكون الجمع عطفًا على المعنى، وإنّما وحَّد للجنس، فكأنّه قال: يا أيها الناس لتركبن طبقًا عن طبق، فأخّر هذا الخبر لما توسطه من الكلام المتصل بالقصة، ومعناه التقديم.

ومثل هذا قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [النساء:٨٣] وقوله: ﴿إِلاَّ قَلِيلاً﴾ هو متصل بقوله: ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ إلاَّ قليلاً، وآخر الكلام: ﴿لاتَّبَعْتُمُ الشيطَانَ﴾. وقد قيل: إن قوله ﴿إلاّ قليلاً﴾ مستثنًى من الأول فى قوله: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ إلا قليلاً منهم، وفى هذا بُعد، والأوّلُ أحبُّ إلىّ.

وعلى هذا المعنى قرأ ابنُ عباس فى روايةٍ عنه: ﴿لا يُحِبُّ اللهُ الجَهْرَ بالسُّوءِ مِنَ القَوْلِ إلا مَنْ ظُلِم﴾ [النساء:١٤٨] جعله متصلاً بقوله تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾ [النساء:١٤٧] إلا من ظُلم، وصار آخرُ الكلام: ﴿لا يُحِبُّ اللهُ الجَهْرَ بالسُّوءِ مِنَ القولِ﴾ فاصلاً.

ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِى الأَرْضِ﴾ [الأنفال:٧٣] إنّما هو من صلة قوله: ﴿وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِى الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾ [الأنفال:٧٢] إلا تَفعَلُوه تَكُنْ فتنة فى الأرض.

---

(١) انظر (ص ١٦٨).

وكذلك قوله فى أوّل السورة: ﴿ومَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * كمَا أَخْرَجَكَ ربُّك مِنْ بَيْتِكَ بالحَقِّ﴾ [الأنفال: ٤ ـ ٥] ليس هذا من صلة الكلام، إنّما هو مقدَّم ومتصل فى المعنى بقوله: ﴿قُلِ الأنْفَالُ لله وَالرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ١]، و ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالحَقِّ﴾، أى: فصارت أنفال الغنائم لك إذ أنت راضٍ بإخراجك وهم كارهون، فاعترض بينهما الأمر بالتقوى والإصلاح والوصف بحقيقة الإيمان والصلاح، فأشكل فهمه.

وعلى هذا قوله عزّ وجل: ﴿حتّى تُؤْمِنُوا بِالله وَحْدَهُ إلاّ قَوْلَ إِبْراهيمَ لأَبيه لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة: ٤] إنّما هو موصول بقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فى إبراهيمَ وَالَّذينَ مَعَهُ﴾ إلاّ قولَ إبراهيمَ لأبيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لك؛ لأنها نزلت فى قولهم: قد استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك، عند قوله: ﴿سأَسْتَغْفِرُ لكَ ربِّى﴾ [مريم: ٤٧] فقالوا: فهلا نستغفر لآبائنا المشركين. فنزلت هذه الآية ليستثنى القدوة فى إبراهيم فى هذا، ثم نزلت الآية الأخرى موعدة له وعده إيَّاها إلى أن علم موته على الكفر فقال: ﴿وَما كَان اسْتِغْفَارُ إِبْراهِيمَ لأَبيهِ إلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إيَّاه﴾ [التوبة: ١١٤] الآية.

وكذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسْلامَ دينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لإِثْمٍ﴾، وهذا متصل بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ المَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣] إلى آخر المحرمات، ثم قال: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ فى مَخْمَصَةٍ﴾ يعنى مجاعة.

ومثل ما ذكرناه من علم القرآن كثير، وإنّما نبهنا بيسير على كثير، ودللنا بنُكَتٍ على جَمٍّ غفير، ليُستدل بما ذكرناه على نحوه، ويُتطرَّق به إلى مثله. وهذا كلّه على ضروب كلام العرب، ومعانى استعمالهم، ووجوه استحسانهم. إنّه فى كلامهم المطوَّل للبيان، والمختصَر للحفظ، والمقدَّم والمؤخَّر للتحسين. وكلّه فصيح بليغ؛ لأن وصف البلاغة عندهم رد الكثير المنثور إلى القليل المجمل، وبسط القليل المجمل إلى المبثوث المفسر. فالمقصَّر من الكلام عندهم مع الحاجة إلى

المعانى المفرقة عجز، والمطوَّل منه مع الاكتفاء بالمعنى الجامع منه عيٌّ. فلما خاطبهم بكلامهم أَفْهَمَهُم بعقولهم ومستعملاتهم؛ ليحسن ذلك عندهم [فى المجاوزة][(١)]، فيكون [المبثوث][(١)] حجة عليهم من حيث يعقلون؛ لأنه أمرهم بما يعلمون وما يستحسنون، حكمةً منه ولطفًا.

فكذلك[(٢)] أيضًا على هذه المعانى يفهم الخصوصُ من مكانهم ومشهدهم، على علوِّ مقامِهم فى مكان ما أظهر لهم من العلم به، ونصيب ما قَسَم لهم من العقل عنه. فهم متفاوتون فى الأشهاد والفهوم حسب تفاوتهم فى الأنصبة من العقول والعلوم. إذ فى[(٣)] القرآن عمومٌ وخصوص، ومحكمٌ ومُتشابه، وظاهرٌ وباطن. فعمومه لعموم الخلق، وخصوصه لخصوصهم، وظاهره لأهل الظاهر، وباطنه لأهل الباطن، والله واسع عليم. فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه.

فإذا صفا القلبُ بنور اليقين، وأُيِّد العقل بالتوفيق والتمكين، وتجرّد الهمُّ من التعلق بالخلق، وتألَّه السرُّ بالعكوف على الخالق، وخلت النفسُ من الهوى، سرت الروحُ فجالت فى الملكوت الأعلى، وكُشف للقلب[(٤)] بنور اليقين الثاقب [سِدْرةُ المنتهى و][(٥)] ملكوتُ العرشِ عن معانى صفاتِ موصوف، وأحكام خلاق[(٦)] مألوف، وباطن أسماء معروف، وغرائب علم رحيم رءوف، فشهد عن الكشف أوصافَ ما عَرَف، فقام حينئذ بشهادةِ ما عَرَف، فكان ممن قال سبحانه: ﴿**يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِه أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِه**﴾ [البقرة:١٢١]. فحقّ التلاوة للمؤمنين، لأنه إذا أعطاه حقيقة من الإيمان أعطاه مثلها من معناه، ومعدنها حقيقة من مشاهدة، فكانت تلاوته عن مشاهدة، وكان مزيده عن معنى تلاوته، وكان ذلك على معيار حقيقة

(١) زيادة من (ك).
(٢) فى (ط): (فذلك» وأثبت ما فى (ك).
(٣) «فى» ساقطة من (ط).
(٤) فى (ط): «كشف القلب» وأثبت ما فى (ك).
(٥) ساقطة من (ط).
(٦) فى (ك): «أخلاق».

من إيمانه، كما قال: ﴿وإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زَادَتْهُمْ إيمانًا... أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٤].

فيكون العبد بوصف من نُعت بالحضور والإنذار، وخُصَّ بالمزيد والاستبشار، فى قوله عزّ وجلّ: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا إلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩]، وفى قوله عزّ وجلّ: ﴿فَزَادَتْهُمْ إيمانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤].

ويكون مِن نَعْت من مَدَحه بالعلم، وأثنى عليه بالرجاء، ووصفه بالخوف، فى قوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]. وقال عزّ وجلّ: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦]، فكان هذا من أهل الله وخاصته، ومن محبيه وخالصته.

كما روينا عن رسول الله ﷺ: «أهل القرآن أهل الله وخاصته من خلقه».

وقال ابن مسعود: لا على أحدكم أن يسأل عن نفسه إلا القرآن، فإن كان يحب القرآنَ فهو يحب الله، وإن لم يكن يحب القرآن فليس يحب الله. وهذا كما قال؛ لأنك إذا أحببت متكلمًا أحببت كلامه، وإذا كرهته كرهت مقاله.

وقال أبو محمد سهل: من علامة الإيمان حب الله عزّ وجلّ، ومن علامة حبِّ الله حبُّ القرآن، ومن علامة حبِّ القرآن حبُّ النبى ﷺ، ومن علامة حبِّ النبى ﷺ اتباعه، ومن علامة اتباعِه الزهدُ فى الدنيا.

وحدثونا عن بعض المريدين قال: كنتُ فى جدّة إرادتى قد لهجتُ بتلاوة القرآن، ثم رَهَقتنى فَتْرة[1]، فبقيتُ أيامًا لا أقرأ، فهتف بى هاتف من قِبَلِ الله عزّ وجلّ: إن كنتَ تحبنى فلَم جفوتَ كتابى، أمَا ترى ما فيه من لطيف عتابى؟

وقال بعض العارفين: لا يكون المريد مريدًا حتى يجد فى القرآن كلَّ ما يريد،

(١) رهقتنى فترة: رهقه: غشيهُ ولحقهُ. وفَتَر: سكن بعد حِدَّة.

ويعرف منه النقصان والمزيد، ويستغنى بالمولى عن العبيد.

وأقلّ ما قيل فى العلوم التى يحويها القرآن من ظواهر المعانى المجموعة فيه أربعة وعشرون ألف علم وثمانمائة علم، إذ لكل آية علوم أربعة: ظاهر، وباطن، وحد، ومطّلع.

وقد يقال: إنّه يحوى سبعة وسبعين ألف علم ومائتين من علوم، إذ لكل كلمة علم، وكل علم وصف، فكل كلمة تقتضى صفة، وكل صفة موجبة أفعالاً حسنة وغيرها على معانيها، فسبحان الفتّاح العليم.





الفصل الثامن عشر

فيه كتاب ذكر الوصف المكروه من نعت الغافلين

فإذا خالف التّالى هذا الوصف الذى شرحناه، أو كان على ضد ذلك من السهو والغفلة والعمى والحيرة، محدثًا[١] لنفسه، مُصغيًا إلى هواه ووسوسة عدوّه [فى أمور دنياه][٢]، متوهِّمًا للظنون، عاكفًا على الأمانى، حقّت عليه أن يكون بمعنى ما[٣] قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ﴾ يعنى: إلا تلاوة القرآن لا غير ﴿وإِنْ هُم إلا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة:٧٨] فوصفهم بالظن وهو ضد اليقين. كما أخبر عن الظّانين فى قوله: ﴿إِنْ نظُنُّ إلا ظَنًّا وَما نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية:٣٢]، وبمعنى ما قال: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فى السَّمَوات وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف:١٠٥].

فالقرآنُ من أجلِّ آيات الأرضين والسموات الدالّة على فاطرهما ومنزِّله، وكان بوَصْفِ من يهدده بعلمه فيه عند استماعه لكلامه العزيز، متهاونًا به، مناجيًا لغيره، أن يقول تعالى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى﴾ [الإسراء:٤٧].

وبمثل مَن يسمع وقلبه مشغول عن المسموع بما يضرّه عما ينفعه، حتى إذا خرج عن الكلام سأل مَن حضر بقلبه ماذا فهم من الخطاب الذى كان هو عنه بغفلته قد غاب، وقد كان حاضرًا بجسمه حجة عليه، فمن ذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا للَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾

---

(١) فى (ك): «محادثًا لنفسه».

(٢) زيادة من (ك).

(٣) فى (ط): «بمعانى ما».

ثم قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ الله عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أى: عن فقه الخطاب، فلم تسمعه القلوب ولم تعه ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد:١٦] يعنى أباطيلهم وظنونهم الكاذبة.

ويقال: إنّ العبد إذا تلا القرآن واستقام نَظَرَ اللهُ إليه برحمته. فإذا قرأ القرآن وخلّط ناداه الله عزّ وجلّ: ما لك ولكلامى وأنت معرض عنى؟ دع عنك كلامى إن لم تتب إلىّ.

وروينا فى الإسرائيليات: أوحى الله عزّ وجلّ إلى نبيه موسى عليه السلام: مُرْ عُصاةَ بنى إسرائيل أن لا يذكرونى، فإنى آليتُ على نفسى أن أذكر من ذكرنى، وإنّى أذكرهم بلعنة.

وكان بوصف من أخبر عنه، إذ يقول تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذَا الأَدْنى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف:١٦٩] الآية. وهذا وصفُهم الظن الكاذب والرجاء المختلف، اللذان لم يفترقا إلى خوف وإشفاق، عصَوْا خالقهم عاجلاً، وتمنوا عليه المغفرة آجلاً، جهلاً منهم بحكمته، وإعراضًا عن أحكامه. قال الله عزّ وجلّ: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يَقُولُوا عَلَى الله إِلاَّ الْحَقَّ﴾، ثم أخبر عن علمهم بذلك، علم قولٍ وخبر لا علم يقين ومعاينة، فقال سبحانه: ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ [الأعراف:١٦٩] أى: قرؤوا هذا وعلموه ولم يعملوا به، فلم ينتفعوا بشىء منه، فكان هذا توبيخًا لهم وتقريعًا، كقوله تعالى: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٩٣]، وفيها وجه غريب: ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾: أى محوه بترك العَمل به والفهم له، من قولك: درست الريحُ الآثارَ، إذا محتها. وخطٌ دارس، وربْع دارس: إذا مُحى وعفَى أثره. وهذا المعنى مواطئ لقوله تعالى: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ الله وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ * واتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ﴾ [البقرة:١٠١ - ١٠٢] أى: ما تتبع وتهوى. ومواطئ لقوله تعالى: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا

به ثَمنًا قَليلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران:١٨٧] فسمّى تركَ العمل منهم به فى كل حالةٍ طرحًا له وإلقاءً ونفيًا له وبيعًا له، وبالدنيا اشتراء.

وكلّ آية فى التهديد والوعيد فللخائفين منها وعظ وتخويف، وللغافلين عنها وصف وتعريف، عَلِمَهُ مَن علمه، [وجهله من جهله][1]، كقوله تعالى فى ذكر النار: ﴿ذلكَ يُخَوِّفُ اللهُ به عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ [الزمر:١٦]. وقال عزّ وجلّ فى خبرها: ﴿أُعِدَّتْ للكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤].

وقال بعضُ السّلف: إنّ العبد ليفتتح السورة فتصلّى عليه الملائكة حتى يفرغ منها، وإنّ العبد ليفتتح السورة فتلعنه حتى يفرغ منها. فقيل: وكيف ذلك؟ قال: إذا أحلّ حلالها وحرّم حرامها صلّت عليه، وإلا لعنته.

وقال بعض العلماء: إن العبد ليتلو القرآن فيلعن نفسه وهو لا يعلم، يقول: «ألاَ لَعْنَةُ اللهِ علَى الظَّالِمينَ» وهو ظالم، «ألاَ لَعْنَةُ اللهِ علَى الكَاذِبين» وهو منهم.

وقال سفيان فى قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذينَ يَتَكَبَّرُونَ فى الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف:١٤٦] قال: أصرف عنهم فهمَ القرآن.

وفى الخبر عن رسول الله ﷺ: «إذا عظّمت أمتى الدّينار والدّرهم نُزع منها هيبةُ الإسلام، وإذا تركوا الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر حُرموا بركةَ الوحى».

قال الفضيل: حُرموا فَهْمَ القرآن.

وفى الأخبار مِن ذَمِّ قراءةِ البطّالين[2] أكثرُ من أن تذكر، فمنها ما رُوى عن النبى ﷺ أنه قال: «أكثرُ منافقى أمّتى قُرّاؤها».

وكان الحسن يقول: إنكم اتّخذتُم قراءةَ القرآنِ مراحل، وجعلتم الليل جَملاً، فأنتم تركبونه فتقطعون به مراحله، وإنّ مَنْ كان قَبلكُم رأوه رسائلَ أتتهم من ربّهم، فكانوا يتدبرونها بالليل وينفذونها بالنهار.

---

(١) ساقطة من (ط).

(٢) فى (ك): «ذم القرأة من البطالين».

وكان ابنُ مسعود من قَبْله يقول: أُنزل عليهم القرآنُ ليعملوا به، فاتخذوا دراسته عملاً، إنّ أحدَهم ليتلوَ القرآنَ من فاتحته إلى خاتمته ما يُسقط منه حرفًا، وقد [أسقطه كله] وأسقط العملَ به.

وفى حديث ابن عمر وحديث جُندب: لقد عِشنا برهةً من دَهْرنا وأحدُنا يُؤتَى الإيمان قبل القرآن، فتنزل السورةُ على محمد ﷺ، فنتعلم حلالها وحرامها، وأمْرها وزجْرها، وما ينبغى أن نقف عليه منها، كما تعلَّمون أنتم القرآن. ثم بعدُ لقد رأيتُ رجالاً يُؤتَى أحدُهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته، لا يدرى ما أمْره ولا زجْره، ولا ما ينبغى أن يقف عنده منه، فينثره نَثْرَ الدَّقَل[1].

وهذا كما قال؛ لأنّ المراد والمقصود بالقرآن الائتمار لأوامره، والانتهاء عن زواجره، إذ حِفْظُ حدودِه مُفْترضٌ ومسؤولٌ عنه العبد، ومعاقبٌ عليه، وليس حفظ حروفه فريضة، ولا عقاب على العبد إذا لم يحفظ ما وسعه منه، قال الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ [المزمل: ٥] أى العمل به ثقيل، وإلا فقد يسَّره للذكرى.

ومن ذلك الخبر المأثور عن رسول الله ﷺ: «اقرؤوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم، ولانت له جلودكم، فإذا اختلفتم فلستم تقرؤونه». وفى بعضها: «فإذا اختلفتم فقوموا عنه».

وحدثنى شيخ فاضل قرأت عليه القرآن قال: قرأتُ القرآن على شيخ لى، فلما ختمتُ رجعتُ إليه لأقرأ، فانتهرنى وقال: جعلتَ القرآن علىَّ عملاً، اذهب فاقرأ على الله عزّ وجلّ، فانظر ماذا يُسمعك منه ويُفهمك عنه.

وقد كان من أصحاب رسول الله ﷺ من لا يحفظ إلا الجزء والجزءين، والسور المعدودة وسورتين، وكان من يحفظ الحزب منه وهو السبع أو البقرة والأنعام علَمًا فيهم. وقُبض رسول الله ﷺ عن عشرين ألف صحابى لم يقرؤوا القرآن غير نظر، فلم يحفظ القرآن كله منهم إلا ستة، اختُلف منهم فى اثنين. وقال بعضهم:

---

(١) الدَّقَل: أردأ التمر.

ولم يكن جمعه من الخلفاء الأربعة أحد.

وختم ابن عباس على أُبيٍّ بن كعب، وقرأ عبد الرحمن بن عوف على ابن عباس، وقرأ عثمان بن عفان على زيد بن ثابت، وقرأ أهل الصفة على أبى هريرة. وكلّهم كان متبعًا لأوامره، مجتنبًا لزواجره، عالِمًا به، فقيهًا فيه.

وقال يوسف بن أسباط، وقد قيل له: إذا ختمتَ القرآن بأى شىء تدعو؟ فقال: بأى شىء أدعو!! أستغفر الله عزّ وجلّ مائة مرة من تلاوتى. وكان يقول: إنى لأهمُّ بقراءة القرآن فإذا ذكرتُ ما فيه خشيتُ المقت فأعدل إلى التسبيح والاستغفار.

واعلم أن للعبد فى قراءة القرآن بحسب ما له من تعظيمه، والفهم له، والمشاهدة منه، والمعاملة به؛ لأنّه من أكبر شعائر الله فى خَلقه، وأعظم آياته فى أرضه الدالات عليه، وأسبغ نعمه الكاملة علينا.

وللعبد من التعظيم له بقدر تقواه، وله من فهم الخطاب وتعظيم الكلام على نحو ما أُعطى من معرفة المتكلم وهيبته وإجلاله. فإذا عظُم المتكلم فى قلبه، وكَبُر فى همِّه[١]، أنعم تدبّر كلامه، وأطال الفكرَ فى خطابه، وأكثر ترداده وتكريره على قلبه، وأسرع بذكره عند النازلة به، والحاجة إليه، فاتّقَى وحذِر، ولذلك قال سبحانه: ﴿وَاذْكُرُوا مَا فيه لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٦٣]، وقال: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ آياته للنَّاسِ لَعلَّهُم يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٧]، ﴿لَعَلَّهم يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٢١]؛ لأنّ كلّ كلامٍ موقوف على قائله، يعظم بتعظيمه، ويقع فى القلب بعلو مكانه، أو يهون بسهولة شأنه. والله[٢] عزّ وجلّ ليس كَمِثْلِه شىءٌ فى العظمة والسّلطان، وليس ككلامه كلام فى الأحكام والبيان.

وقرأتُ فى سورة الحنين من التّوراة: «يا عبدى أمَا تستحى منى، يأتيك كتاب من بعض إخوانك وأنت فى الطريق تمشى فتعدل عن الطريق وتقعد لأجله،

(١) فى (ط): «فى فهمه» وأثبت ما فى (ك).
(٢) فى (ط): «قال الله» وأثبت ما فى (ك).

وتقرؤوه وتتدبره حرفًا حرفًا؛ حتى لا يفوتك شيء منه، وهذا كتابى أنزلته إليك، انظر كم وصلتُ لك فيه من القول، وكم كررت عليك فيه، [وكم فصّلتُ عليك فيه من العتاب][١]، فتأمَّلت طوله وعرضه، ثم أنت معرض عنى[٢]. أفكنتُ أهونَ عليك من بعض إخوانك؟!

أى عبدى، يقعد إليك بعض إخوانك، فتقبل عليه بكل وجهك، وتصغى إلى حديثه بكل قلبك، فإن تكلّم متكلم أو شغلك شاغل عن حديثه أومأتَ إليه أن كُفَّ، وها أنا ذا مقبلٌ عليك ومحدِّث لك، وأنت معرض بقلبك عنى، فجعلتنى أهونَ عندك من بعض إخوانك». أو كما قال. [كتبتُ هذا حفظًا وتحريت الألفاظ، ولم أخرم المعانى][٣].

وإنما خفّ القيام على أهل الليل لفهم الخطاب، وثقل على أهل النوم لانفصام القلوب عن الفقه، وشدّة الحجاب، كما قال تعالى: ﴿**ثَقُلَتْ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ [الأعراف:١٨٧] أى خفى علمها، يعنى الساعة، فثقلت عليهم، فسمَّى ما خفى علمه ثقيلاً. والله أعلم.

* * *

---

(١) ساقطة من (ط)، وفى (ك): «فتأمل طوله وعرضه».

(٢) فى (ط): «عنه».

(٣) ساقطة من (ط). وقوله «لم أخرم المعانى»: أى لم أسقط منها شيئًا.

الفصل التاسع عشر

فيه كتاب الجهر بالقرآن، وما فى ذلك من النيات، وتفصيل حكم الجهر، [وبيان حكم](١) الإخفات

روينا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «فَضْلُ قراءة السرّ على قراءة العلانية كفضل صدقة السرِّ على صدقة العلانية». وفى لفظ آخر: «الجاهرُ بالقرآن كالجاهر بالصدقة، والمسرُّ به كالمسرِّ بالصّدقة».

وفى الخبر العام: «يَفْضُلُ عملُ السرِّ على عمل العلانية بسبعين ضعفًا». وفى مثله من العموم: «خير الرزق ما يكفى، وخير الذكر الخفى». وفى الخبر: «لا يجهر بعضُكم على بعض فى القراءة بين المغرب والعِشاء».

وسمع سعيد بن المسيب ذات ليلة فى مسجد رسول الله ﷺ عمر بن عبد العزيز يجهر بالقرآن فى صلاته، وكان حسن الصوت، فقال لغلامه برد: اذهب إلى هذا المصلِّى فمُره أن يخفض من صوته. فقال الغلام: إن المسجد ليس لنا، وإنّ للرجل فيه نصيبًا، فرفع سعيد صوته فقال: يا أيّها المصلى إن كنتَ تريد الله عزّ وجلّ بصلاتك فاخفض صوتك، وإن كنت تريد الناسَ فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئًا. قال: فسكت عمر، وخفّف ركعته، فلما سلّم أخذ نعليه وانصرف، وهو يومئذ أمير المدينة.

وعلى ذلك فقد كان رسول الله ﷺ يسمع جماعة من أصحابه يجهرون بالقراءة فى صلاة الليل، فيصوّب ذلك لهم، ويسمع إليهم، وقد أمر بالجهر فيما روى عنه: «إذا قام أحدكم من الليل يُصلى فلْيَجْهر بقراءته، فإنّ الملائكة وعُمَّار الدار يستمعون إلى قراءته، ويصلون بصلاته».

---

(١) ساقطة من (ط) وأثبتها من (ك).

ومرَّ رسول الله ﷺ على ثلاثة من أصحابه فى الليل مختلفى الأحوال؛ منهم من كان يخافت وهو أبو بكر رضى الله عنه، فسأله عن ذلك فقال: إن الذى أناجيه هو يسمعنى. ومنهم من كان يجهر وهو عمر رضى الله عنه، فسأله عن ذلك فقال: أُوقظ الوسنانَ وأزجر الشيطان. ومنهم من كان يقرأ آيًا من هذه السورة ومن هذه السورة، وهو بلال، فسأله عن ذلك فقال: أخلط الطّيب بالطيب. فقال: كلّكم قد أَحسن وأصاب.

فنقول، والله أعلم: إن المخافتة بالقراءة أفضل إذا لم تكن للعبد نية فى الجهر، أو كان ذاهبًا عن الهِمَّة والمعاملة بذلك؛ لأنّه أقرب إلى السّلامة، وأبعدُ من دخول الآفة. وإنّ الجهر أفضل لمن كان له نية فى الجهر ومعاملة مولاه به؛ لأنه قد قام بسُنة قراءة الليل، ولأن المخافتَ نفعُه لنفسه والمجاهرَ نفعُه له ولغيره، وخيرُ الناس من ينفع الناس، والنفع بكلام الله عزّ وجلّ أفضلُ المنافع، ولأنه قد أدخل عملاً ثانيًا يرجو به قُربة ثانية على عمله الأول، فكان فى ذلك أفضل.

وليجعل العبد مفتاح درسه أن يقول: أعوذُ بالله السّميع العليمِ من الشّيطان الرجيم، ربّ أعوذ بك من همزات الشياطين، وأعوذ بك رب أن يحضرون، وليقرأ: ﴿قُلْ أعُوذُ بِرَبِّ النَّاس﴾، وسورة الحمد قبلها.

وليقُل عند فَراغِهِ من كلّ سورة: صدق اللهُ، وبلَّغ رسولُ الله، اللّهم انفعنا به، وبارك لنا فيه، الحمد لله رب العالمين، أستغفر اللهَ الحىَّ القيوم.

ومن حفظ جوارحه وقلبه عن المنهى عنه فقد عمل بالقرآن إلى خاتمته، لأنّه مقسط على جملة العبد وجوارحه.

وفى الجهر بالقراءة سبعُ نيات:

منها: الترتيلُ الذى أُمر به.

ومنها: تحسين الصوت بالقرآن الذى نُدب إليه فى قوله ﷺ: «زيِّنوا القرآن بأصواتكم». وفى قوله: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» أى يحسن به صوته، وهو أحد الوجهين وأحبهما إلى أهل العربية. والوجه الآخر: أى من لم يستغن به،

من الغنية والاكتفاء. وقد يقال: من هذا الوجه يتغانى به.

ومنها: أن يُسمع أذنيه [ونفسه][(١)]، ويوقظ قلبه؛ ليتدبّر الكلام، ويتفهم المعانى، ولا يكون ذلك كلّه إلا فى الجهر.

ومنها: أن يطرد الشيطان والنوم عنه برفع صوته.

ومنها: أن يرجو بجَهْره يقظةَ نائمٍ، فيذكر الله عزّ وجلّ، فيكون هو سبب إحيائه.

ومنها: أن يراه بطَّالٌ غافِلٌ، فينشط للقيام، ويشتاق إلى الخدمة، فيكون معاونًا له على البرّ والتقوى.

ومنها: أن يكثر بجهره تلاوته، ويدوم قيامه على حسب عادته للجهر، ففى ذلك كثرة عمله.

فإذا كان العبد معتقدًا لهذه النيات، طالبًا لها، ومتقربًا إلى الله سبحانه وتعالى، عالمًا بنفسه، مصحّحًا لقصده، ناظرًا إلى مولاه الذى استعمله فيما يرضاه، فجهره أفضل، لأنّ له فيه أعمالاً. وإنما يفضل العمل[(٢)] بكثرة النيات فيه. وارتفع العلماءُ، وفَضُلتْ أعمالُهم بحُسن معرفتهم بنيات العمل، واعتقادهم لها، فقد يكون فى العمل الواحد عشر نيّات، يعلم ذلك العلماء فيعملون بها، فيُعطَوْن عشرة أجور.

وأفضلُ الناسِ فى العمل أكثرهم نية فيه، وأحسنهم قَصْدًا وأدبًا، وفى بعض التفاسير فى قوله عزّ وجلّ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١] قال: قراءة القرآن.

وفى الخبر: «من استمع إلى آيةٍ من كتاب الله عزّ وجلّ كانت له نورًا يوم القيامة». وفى خبر آخر: «كُتب له عشر حسنات».

(١) ساقطة من (ط).

(٢) فى (ك): «تفضل الأعمال».

والتّالى شريك المستمع فى الأجر؛ لأنّه أكسبه ذلك. وقال بعضهم: للقارئ أجر، وللمستمع أجران. وقال آخر: للمستمع تسعة أجور. وكلاهما صحيح؛ لأنّ كل واحد منهما على قدر إنصاته ونيته. فإذا كان التالى مُكسبًا لغيره هذه الأجور، فإن له بكل أجر أكسبه إياه أجرًا يكتسبه، لقوله ﷺ: «الدال على الخير كفاعله»، سيما إذا كان عالمًا بالقرآن فقيهًا فيه، فيكون مقراه ووقوفه حجة وعلمًا لسامعه.

وفى الخبر: أن رسول الله ﷺ كان ينتظر عائشة رضى الله عنها فأبطأت عليه، فقال: ما حبسك؟ فقالت: يا رسول الله كنت أستمع قراءة رجل ما سمعتُ صوتًا أحسن منه. فقام ﷺ حتى استمع إليه طويلاً ثم رجع، فقال: هذا سالم مولى أبى حذيفة، الحمد لله الذى جعل فى أمتى مثله.

واستمع أيضًا ذات ليلة إلى قراءة عبد الله بن مسعود، ومعه أبو بكر وعمر رضى الله عنهم، فوقفوا طويلاً ثم قال: «من أراد أن يقرأ القرآن غضًا كما أُنزل فليقرأ على قراءة ابن أم عبد».

وقال رسول الله ﷺ لابن مسعود: «اقرأ. فقال: يا رسول الله أقرأ وعليك أُنزل. فقال: إنى أحبّ أن أسمعه من غيرى»، فكان يقرأ وعينا رسول الله ﷺ تفيضان، وذلك عند قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً﴾ [النساء: ٤١].

واستمع رسولُ الله ﷺ إلى قراءة أبى موسى فقال: «لقد أُوتىَ هذا مزمارًا من مزامير داود. فبلغ ذلك أبا موسى فقال: يا رسول الله لو علمت أنك تسمع إلىّ لحبَّرته لك تحبيرًا».

وكان ابن مسعود يأمر علقمة بن قيس أن يقرأ بين يديه، فيقول له: رتِّل فداك أبى وأمى. وكان حسن الصوت بالقرآن.

وفى الخبر: كان أصحاب رسولِ الله ﷺ إذا اجتمعوا أمروا أحدهم أن يقرأ سورة من القرآن.

وقد كان عمر يقول لأبى مسعود رضى الله عنهما: ذكِّرنا ربَّنا، فيقرأ عنده حتى يكاد وقت الصلاة أن يتوسط، فيقال: يا أمير المؤمنين الصلاةَ الصّلاة، فيقول: أولَسْنَا فى صلاة؟ فكأنه يتأوّل قوله عزّ وجلّ: ﴿ولَذِكْرُ الله أكْبرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وقال بعضُ عبّاد البَصْريين لما وضع بعضُ البَغْداديّين كتابًا فى معانى الرياء ودقائق آفات النفوس، قال: لقد كنتُ أمشى بالليل أسمع أصواتَ المتهجدين كأنها أصوات المیازیب، فكان فى ذلك أُنس وحَثٌّ على الصّلاة والتّلاوة، حتى جاء البغداديون بدقائق الرياء وخفايا الآفات فسكتَ المتهجّدون، فلم يزل ذلك ينقص حتى ذهب وانقطع وتُرك إلى اليوم.

فإن لم يكن للتّالى نيَّة فى شىء مما ذكرناه، وكان ساهيًا غافلاً عن ذلك، وكان واقفًا مع شىء من الآفات، أو لُمح فى قلبه شخص، أو ساكن ذكرى هوًى، فقد اعْتلَّ، فعليه أن يحتمى بالجهر. فإن جهر على [ذلك][1] ثَقُل قلبه وفسد عمله، لاستكنان الداء فيه، وكان إلى النقصان أقرب، ومن الإخلاص أبعد، فعليه حينئذ بالإخفاءِ[2]، فهو دواؤه يعالج به حاله، فإنّه أصلح لقلبه، وأسلم لعمله، وأحمد فى عاقبته.

وقد يكون العبدُ واجدًا لحلاوة الهوى فى الصّلاة والتلاوة، وهو يظن أن ذلك حلاوة الإخلاص، وهذا من دقيق شأن الشهوة الخفية، ولطيف الانتقاص. وقد يلتبس ذلك على الضعفاء، ولا يفطن له إلا العلماء. وإنّما يجد حلاوة الإخلاص الزاهدون فى الدنيا وفى مدح الناس لهم به، ويتلذذون بنصح المعاملة، وصدق الخدمة، المحبّون لله عزّ وجلّ، الخائفون منه.

واعتبارُ فَقْدِ ذلك بأحدِ شيئين: سقوط النفس باستواء المدح والذم، وهذا حال فى مقام الزهد. أو الخلو من القلب بشهادة اليقين، وهذا فى مقام المعرفة. وفى هذين المقامين يستوى السر والعلانية، وقد تكون العلانية أفضل لأئمة التقوى والعدل.

---

(١) ساقطة من (ط).

(٢) فى (ط): «بالإخلاص»، وأثبت ما فى (ك) فهو أصح وأدق.

وحُدِّثتُ عن رجل من أهل الخير قال: كنت أقرأ فى السَّحَر فى غرفة لى شارعة سورةَ طه، فلما ختمتُها غفوت بعدها غفوة، فرأيت شخصًا نزل من السماء بيده صحيفة بيضاء، فنشرها بين يدى، فإذا فيها سورة طه، وإذا تحت كل كلمة عشر حسنات مثبتة، إلا كلمة واحدة، فإنّى رأيت مكانها محوًا ولم أرَ تحتها شيئًا، فغمَّنى ذلك، فقلت: قد والله قرأت هذه الكلمة ولم أرَ لها ثوابًا، ولا أراها أُثبتت، فقال الشخص: صدقتَ، قد قرأتها وكتبناها لك إلا أنَّا سمعنا مناديًا ينادى: امحوها وأسقطوا ثوابها، فمحوناها. فبكيتُ فى منامى، وقلت: لم فعلتم ذلك؟ قالوا: مرّ رجل فرفعت صوتك بها لأجله، فمحوناها.

وقد روينا أنّ النبى ﷺ سمعَ رجلاً يجهر بقراءته فناداه: «يا فلان أَسمع اللهَ ولا تُسمعنى».

واعلم أنّ السُّمعةَ مقرونةٌ بالرياء، ومحكوم لها بحكمه، من فساد العمل ونقصان العامل. وهى مأخوذة من السمع، كأنّ العبدَ يُسْمِعُ بعمله غيرَ الله عزّ وجلّ، ويحب أن يُسمع به مخلوقًا، ليمدحه به، لغلبة هواه وضعف نفسه، فيكون قد أشرك فى عمله غير الله عزّ وجلّ، فيبطل عمله لجهله بالتوحيد، إذ لو علم يقينًا أن لا نافع إلا الله عزّ وجلّ، ولا ضارّ ولا معطى ولا مانع إلا إياه، خلُص له توحيده من الشرك، فخلُص له عمله من الرياء. وكذلك الرياء مأخوذ من رأْى العين، فالسمعة هنا بمعناه.

وفى الخبر: «لا يقبل الله عزّ وجلّ من مُسَمِّع ولا مراءٍ». وفى خبر آخر: «مَنْ سَمَّع سمَّع الله به، ومَنْ راءى راءىَ الله به وصغَّره وحقَّره».

فأما من كانت له نية صالحة فى أن يُسمع أخاه كلام الله ليتعظ به ويتدبره، أو ينتفع باستماعه ويتذكر به، فليس داخلاً فى السُّمعة؛ لوجود حُسن النية وصحة القصد، ولفقد اقتران الآفة، لإرادة طمع عاجل من مدح أو غرض دنيا. كما قال أبو موسى لرسول الله ﷺ: «لو علمتُ أنك تسمع لحبّرته لك تحبيرًا». فلم ينكر عليه لأنّه ذو نية فى الخير وحسن قصد به. وقال للآخر الذى رفع صوته بالآية: «أسمع الله عزّ وجلّ ولا تُسمعنى». فأنكر عليه لما شهد السمعةَ فيه.

وقد روينا أنه ﷺ مرّ برجل يظهر التأوّه والوَجَل، فقال مَن كان معه: يا رسول الله، أتراه مرائيًا؟ فقال: «لا، بل أوّاه منيب».

واعلم أن الأكل والنوم على السّلامة والصّدق أفضلُ فى الحال، وأرفع فى المقام، وأحمد فى المآل، من القيام والصيام على يسيرٍ من التصنّع والتزيّن للخلق. ومعرفةُ هذا والقيامُ به هو موضعُ عِلْمِ العلماءِ بالله عزّ وجلّ.

وحُدِّثنا عن الحسن البصرى قال: تَفَقَّدِ الحلاوةَ فى ثلاثٍ، فإن وجدتها فأبشر وامض لقصدك، وإن لم تجدها فاعلم أنّ بابك مغلق: عندَ تلاوة القرآن، وعند الذكر، وفى السجود. وزاد غيره: وعند الصدقة، وبالأسحار.

وقراءةُ القرآن فى المصحف أفضلُ من قراءته عن ظهر قلب. يقال: الختمة بسبع ختم؛ لأنّ النظر فى المصحف عبادة[1]. وكان كثير من الصحابة والتابعين يقرؤون فى المصحف، ويستحبون أن لا يخرجوا يومًا إلا نظروا فيه. وخرق عثمان مصحفين من كثرة درسه فيهما[2].

* * *

(١) نقل الزبيدى كلام القوت، ثم ذكر عدّة أحاديث فى فضيلة القراءة من المصحف، وكلها لا تخلو من علّة وضعف، ولكن فى مجموعها تؤيد أهمية النظر فى المصحف والقراءة منه، بالإضافة إلى القراءة بظهر الغيب لمن يحفظه. انظر: الإتحاف ٤/ ٤٩٥.

(٢) راجع ما كتبه الغزالى فى إحيائه، كتاب آداب التلاوة ١/ ٢٧٢ ـ ٢٨٧، إذ نقل ما فى القوت وفصّله ورتّبه. وراجع أيضًا ما كتبه الزبيدى فى الإتحاف ٤/ ٤٧٠ وما بعدها.

الفصل العشرون

فى ذكر إحياء الليالى المرجو فيها الفضل المستحب إحياؤها، وذكر مواصلة الأوراد فى الأيام الفاضلة

ويُستحب إحياءُ خمسَ عشرةَ ليلة فى السنة، خمس منها فى شهر رمضان، وهى وتر ليالى العشر الأخير منه. وليلة سبع عشرة من رمضان، وهى صبيحة يوم الفرقان يوم التقى الجمعان، فيه كانت وقعة بدر. وكان ابنُ الزبير يذهب إلى أنها ليلة القدر.

وأما التسعة الأُخر: فأوّل ليلة من شهر المحرم، وليلة عاشوراء، وأوّل ليلة من شهر رجب، وليلة النصف منه، وليلة سبع وعشرين منه؛ وفيها أُسرى برسول الله ﷺ، وليلة المعراج، وليلة عرفة، وليلة العيدين، وليلة النصف من شعبان. وقد كانوا يُصلّون فى هذه الليلة مائةَ ركعة بألف مرة: ﴿**قُلْ هُو اللهُ أَحَدٌ**﴾ عشرًا فى كل ركعة، ويسمون هذه الصلاة صلاة الخير، ويتعرفون بركتها ويجتمعون فيها، وربّما صلوها جماعة.

وروينا عن الحسن قال: حدثنى ثلاثون من أصحاب النبى ﷺ «أن مَنْ صلَّى هذه الصلاة فى هذه الليلة نظر الله عزّ وجلّ إليه سبعين نظرة، وقضى له بكل نظرة سبعين حاجة أدناها المغفرة».

وقد قيل: إن هذه الليلة هى التى قال الله عزّ وجلّ فيها: ﴿**فيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أمْرٍ حَكِيمٍ**﴾ [الدخان: ٤]، وأنه يُنسخ فيها أمر السَّنَة وتدبير الأحكام إلى مثلها من قابل، والله أعلم.

والصحيحُ من ذلك عندى أنه فى ليلة القدر، وبذلك سُمِّيت؛ لأن التنزيل يشهد له إذ فى أوّل الآية: ﴿**إِنَّا أَنْزلناهُ فى ليلةٍ مُبارَكةٍ**﴾ ثم وصَفَها فقال: ﴿**فِيها**

يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾. فالقرآن إنما أُنزل فى ليلة القدر، فكانت هذه الآية بهذا الوصف فى هذه الليلة مواطئة لقوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١].

• ذكر مواصلة الأوراد فى الأيام الفاضلة:

وهى تسعةَ عشرَ يومًا، تُستحب فيها مواصلة الأورادِ، والدأبُ فى العبادة: يوم عاشوراء، ويوم عرفة، ويوم سبعة وعشرين من رجب، ويوم سبعةَ عشر من شهر رمضان، ويوم النصف من شعبان، ويوم الجمعة، ويوم العيدين، والأيام المعلومات وهى عشرُ ذى الحجة، والأيام المعدودات وهى أيام التشريق.

وفى الخبر: «صوم يوم عرفة يكفّر سنتين: سنة ماضية، وسنة مستقبلة، وصوم يوم عاشوراء كفارة سنة».

وقد روينا عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ: «إذا سَلِم يومُ الجمعة سلمت الأيام، وإذا سلم شهر رمضان سلمت السَّنَة»(١).

وقال بعض علمائنا: من أخذ مهناه فى هذه الأيام الخمسة فى الدنيا لم ينل مهناه فى الآخرة. وقال: هذه الأيام يُرجى فيها الفضل من الله عزّ وجلّ والمزيد، فإذا اشتغلت فيها بهواك وعاجلِ الدنيا فمتى ترجو الفضل والمزيد؟! يعنى بالأيام الخمسة: العيدين، ويوم الجمعة، ويوم عرفة، ويوم عاشوراء.

ومن فواضل الأيام بعد هذه: يوم الاثنين، ويوم الخميس؛ يومان تُرفع فيهما الأعمال إلى الله عزّ وجلّ.

ومن الفاضل الشهورُ الأربعةُ الحرم؛ وهى: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب. خصهن الله عزّ وجلّ بالنّهى عن الظلم فيهن لعظم حرمتهن. فكذلك الأعمال لها فيهنّ فضل على غيرها، وأفضلها ذو الحجة لوقوع الحج فيها، ولما خُصّ به من الأيام المعلومات، والأيام المعدودات، ثم ذو القعدة لجمعه الوصفين

---

(١) انظر: الإتحاف ٣/ ٢١٦، ٢١٧. وتخريج هذه الأحاديث والأخبار سيجىء آخر الكتاب إن شاء الله تعالى.

معًا، وهو من الأشهر الحرم، ومن أشهر الحج. فأما المحرمُ ورجبُ فليسا من أشهر الحج. وأما شوّالُ فليس من أشهر الحرم؛ ولكنه من أشهر الحج. وأفضل الأيام فى الشّهر العشران: العشر الآخر، والعشر الأول من ذى الحجة. وبعدهما عشر المحرم من أوله.

فالأعمال فى هذه الأيام لها فضل ومزيد على سائر الشهور.

وروينا عن رسول الله ﷺ: «من صام ثلاثةَ أيام من شهر حرام بَعّده اللهُ من النار سبعمائة عام: يوم الخميس، ويوم الجمعة، ويوم السبت»(١).

وفى خبر آخر: «صومُ يوم من شهر حرام يعدل صومَ ثلاثين يومًا من غيره، وصومُ يوم من شهر رمضان يعدل صوم ثلاثين يومًا من شهر حرام»(٢).

ثم إن أفضلَ الأوقات فى جملة الأيام أوقاتُ الصلوات الخمس.

وروينا أن رسول الله ﷺ «كان إذا دخلت العشرُ الأواخر من شهر رمضان طوى الفراش وشد المئزر». وفى حديث آخر: «إذا دخلت العشرُ الأواخر دأبَ وأَدْأب أهله» يعنى: أدام وأداموا التعبَ والنصَب فى العبادة.

وفى الخبر عن رسول الله ﷺ: «ما من أيام العملُ فيهن أفضلُ وأحبُّ إلى الله عزّ وجلّ من أيامِ عشر ذى الحجة. إنَّ صومَ يومٍ منه يَعْدل صيامَ سنة، وقيامَ ليلةٍ منه يعدل قيامَ ليلة القدر. قيل: ولا الجهادَ فى سبيل الله؟ قال: ولا الجهاد فى سبيل الله إلا رجل خرج بنفسه وماله فلم يرجع منهما بشىء». وفى لفظ آخر: «إلا من عُقِرَ جواده وأُهْرِقَ دمه».

وإذا أحبّ الله عزّ وجلّ عبدًا استعمله فى الأوقات الفاضلة بأفضل الأعمال، ليُثيبه أفضل الثواب. وإذا مقتَ عبدًا استعمله بأسوأ الأعمال فى أفاضل الأوقات ليضاعف له السيّئات، بانتقاص حرمات الشعائر، وانتهاك المحرمات فى الحرمات.

---

(١) قال العراقى ١/ ٢٣٧: «أخرجه الأزدى فى الضعفاء من حديث أنس».

(٢) قال العراقى ١/ ٢٣٧: «لم أجده هكذا».

ويُقال: من علامات التوفيق ثلاثٌ: دخولُ أعمال البر عليك من غيرِ قصد لها، وصرفُ المعاصى عنك مع الطَّلب لها، وفتحُ باب اللجا والافتقار إلى الله عزّ وجلّ فى الشّدة والرخاء [فى كل الأحوال][١].

ومن علامات الخذلان ثلاثٌ: تعسُّر الخيراتِ عليك مع الطلَب لها، ودخول المعاصى عليك مع الهرب منها[٢]، وغلق باب اللجا والافتقار إلى الله عزّ وجلّ [وترك الدعاء فى كل الأحوال][٣].

فنسأل الله تعالى بفضله حسنَ التوفيق والاختيار، ونعوذ به من سوءِ القضاءِ والأقدارِ.

***



---

(١) زيادة من (ك).

(٢) فى (ط): «وتيسر المعاصى لك مع الرهب منها» وأثبت ما فى (ك).

(٣) زيادة من (ك).

الفصل الحادى والعشرون

فيه كتاب الجمعة وذكر هيئاتها وآدابها
وذكر ما يستحب للمريد فى يوم الجمعة وليلتها (١)

صلاةُ الجمعة: واجبةٌ بأوصاف، وساقطةٌ بأوصاف. فوجوبها: يكون بالإقامة، والاستطاعة، وحضور وقت الظهر، وتكملة عدّة أربعين رجلاً أحرارًا. وسقوطها: بالسفر، ودخول وقت العصر، ونقصان العدد، ووقوع العذر.

وهى من أعمال الأمراء، تُصلَّى خلف كل مَنْ أقام بها منهم. إلاَّ أنى أحبّ إعادتها ظهرًا إذا صُلِّيت خلف مبتدع. فإن اجتمع فى بلد كبير جامعان صُلِّيت خلف الأفضل من إماميهما، فإن استويا فى الفضل صُلِّيت فى القديم من الجامعين، فإن تساويا صُلّيت فى الأقرب منهما، إلا أن تكون له نيّة فى الأبعد، لاستماع علم أو نشره أو تعلّمه. فصلاتُها فى الجامع الأعظم وحيث يكون المسلمون أكثر أفضل. ومن صلّى فى أيّهما أحبَّ حُسبت صلاته.

قال ابن جريج: قلت لعطاء: إذا كان فى المصر جامعان أو ثلاثة فى أيها أصلّى؟ قال: صلِّ حيث جُمع المسلمون، فإنها جمعة.

وهو يوم عظَّم الله تعالى به الإسلام وزيَّنه، وشرَّف به المسلمين وفضَّلهم، قال الله عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ [الجمعة:٩] الآية. فالبيعُ والشراءُ محرّم بعد الأذان للجمعة عند طائفة من العلماء، لعموم النهى عنه. ومنهم من قال: يُرد البيع لأنه فاسد. إلا أنى أحسب أن ذلك يُحرَّم عند الأذان الثانى، وهو مع خروج الإمام إذا قعد على المنبر، لأن هذا كان هو الأذان على عهد رسول الله ﷺ، وعهد أبى بكر

(١) انظر: الإحياء ١/١٧٨ ـ ١٩١.

وعمر رضى الله عنهما. والأذان الأول أحدثه عثمان رضى الله عنه لما كثُر الناس.

وقال الله عزّ وجلّ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِى الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ﴾ [الجمعة: ١٠] الآية. فأمر عباده المؤمنين فى يوم الجمعة بالذكر له، ونهاهم عن البيع، وأمرهم فيه بطلب الفضل منه، ووعدهم الخيرَ والفلاح، وهما اسمان جامعان لغنيمة الدنيا والآخرة.

وروى عن رسول الله ﷺ: «إن الله عزّ وجلّ فرض عليكم الجمعة فى يومى هذا، فى مقامى هذا». وروى عنه ﷺ: «مَنْ ترك الجمعةَ ثلاثًا من غير عذر طبع الله على قلبه». وفى لفظ حديث آخر: «فقد نبذَ الإسلامَ وراءَ ظهرِه».

واختلف رجل إلى ابن عباس فسأله عن رجل مات لم يكن يشهد جمعة ولا جماعة، فقال: فى النار. فلم يزل يتردّد إليه شهرًا يسأله عنه، كل ذلك يقول: فى النار.

وتُقصد الجمعة من فرسخين أو ثلاثة. واستُحب لِمَنْ بكّر إليها من أهل القرى فأدركها وأدركه الليل فأواه إلى أهله إذا رجع أن يشهدها. إلا أنها ساقطة عن خمسة: الصبى، والمملوك، والمرأة، والمسافر، والمريض. فمن شهدها من هؤلاء فصلاها أجزأت عنه، وكان مؤديًا لفرضه.

وفى الخبر: أن أهل الكتابين أُعطوا يوم الجمعة فاختلفوا فيه، فصُرفوا عنه، وهدانا الله عزّ وجلّ برحمته له. ادّخره لهذه الأمة، جعله عيدًا لهم، فهم أول الناس به سبقًا، وأهل الكتابين لهم تبع.

وفى حديث أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال: «أتانى جبريل عليه السلام وفى كفه مرآة بيضاء فقال: هذه الجمعة يفرضها عليك ربك، لتكون لك عيدًا ولأمتك من بعدك. قلت: فما لنا فيها؟ قال: لكم فيها خير ساعة، من دعا فيها بخير هو له[١] قِسْمٌ أعطاه الله عزّ وجلّ إيّاه، أوْ ليس له قسم ادخر له ما هو أعظم منه، أو يتعوّذ من شرٍّ هو عليه مكتوب إلا أعاذه الله تعالى من أعظم منه. وهو سيد الأيام

(١) فى (ك): «خوّله».

عندنا، ونحن ندعوه فى الآخرة يوم المزيد[١]».

قلتُ: ولِمَ قال إن ربك عزّ وجلّ اتخذ فى الجنة واديًا أفيحَ، من مسك أبيض، فإذا كان يوم الجمعة نزل من عليين على كرسيه؟ وذكر الحديث، قال فيه: ويتجلّى لهم حتى ينظروا إلى وجهه. ذكرناه بتمامه فى مسند الألف.

وروى عنه ﷺ: «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خُلق آدم، وفيه أُدخل الجنة، وفيه أُهبط إلى الأرض، وفيه تقوم السّاعة».

وهو عند الله يوم المزيد، كذلك تسميه الملائكة فى السماء، وهو يوم النظر إلى الله عزّ وجلّ فى الجنة. فى أخبار يطول ذكرها.

وفى الحديث: ما من دابة إلا وهى قائمة على ساق يوم الجمعة، مصيخة ـ أى مصغية تتوقع ـ مشفقة من قيام الساعة، إلا الشياطين وشَقِىَّ بنى آدم.

ويقال: إنّ الطيرَ والهوام يلقى بعضها بعضًا فى يوم الجمعة، فتقول: سلامٌ سلامٌ، يوم صالح.

وفى الخبر: «إنّ لله عزّ وجلّ فى كل يوم جمعة ستمائة ألف عتيق من النار».

وفى حديث أنس عن النبى ﷺ: «إذا سلم يوم الجمعة سلمت الأيام».

وقال كعب فى الخبر: «إن الله عزّ وجلّ فضّل من كل شىء من خلقه شيئًا، ففضل من البلدان مكة، ومن الشهور رمضان، ومن الأيام الجمعة».

وفى الخبر: «إنّ جهنم تَسعَّر فى كل يوم قبل الزّوال عند استواءِ الشمس فى كبد السماء، فلا تصلوا فى هذه الساعة، إلا يوم الجمعة، فإنه صلاة كله، وإنّ جهنم لا تُسَعَّر فيه».

فأفضل ما يعمله العبد فى يوم الجمعة البكور إلى الجامع فى الساعة الأولى، فإن لم يفعل ففى الساعة الثانية، فإن لم يفعل ففى الساعة الثالثة؛ لأن النبى ﷺ قال: «من راح إلى الجمعة فى السّاعة الأولى فكأنّما قرَّب بَدَنة. ومن راح فى

(١) فى نسخة أخرى من القوت، نص عليها الزبيدى ٣/ ٢١٥: «ونحن نسميه يوم المزيد».

السّاعة الثانية فكأنما قرَّب بقرة. ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرَّب كبشًا أقرن. ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما أهدى دجاجة. ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما أهدى بيضة. فإذا خرج الإمام طُويت الصحف، ورُفعت الأقلام، واجتمعت الملائكة عند المنبر يسمعون الذكر».

فمن جاء بعد ذلك فكأنما جاء لحقّ الصلاة، وليس من الفضل في شيء.

فالسّاعة الأولى: تكون بعد صلاة الصبح. والسّاعة الثانية: تكون عند ارتفاع الشمس. والساعة الثالثة: تكون عند انبساطها وهي الضحى الأعلى، إذا رمضت الأقدام بحر الشمس. والسّاعة الرابعة: تكون قبل الزوال. والساعة الخامسة: إذا زالت الشمس أو مع استوائها. وليس الساعة الرابعة والخامسة مستحبتين للبكور، ولا فضل لمصلى الجمعة بعد الساعة الخامسة؛ لأنّ الإمام يخرج في آخرها، فلا يبقى إلا فريضة الجمعة.

ويقال: إنّ الناس يكونون في قربهم من الله عز وجلّ عند الزيارة للنظر إليه تعالى على قدر بكورهم إلى الجمعة.

ودخل ابن مسعود يوم الجمعة بكرة، فرأى ثلاثة نفر قد سبقوه بالبكور، فوَجِمَ لذلك وجعل يقول: رابع أربعة ـ يعني نفسه ـ وما رابع أربعة من الله ببعيد.

وهذا من اليقين في هذه المشاهدة للخبر.

وقد جاء في الأثر: «إن الملائكة يفتقدون العبدَ إذا تأخّر عن وقته يوم الجمعة، فيسأل بعضهم بعضًا عنه: ما فعل فلان، وما الذى أخّره عن وقته؟ فيقولون: اللّهم إن كان أخّره فقر فأغْنِه، وإن كان أخّره مرضٌ فاشْفه، وإن كان أخّره شُغل عنه ففرِّغه لعبادتك، وإن كان أخّره لهو فأقبل بقلبه على طاعتك».

ولا تقعد إلى القَصّاص يوم الجمعة، فقد كُره ذلك، ولا في حلقةٍ قبل الصّلاة.

وروينا في خبر مقطوع عن النبي ﷺ: «ثلاث لو يعلم الناس ما فيهن لركضوا رَكْضَ الإبل في طلبهن: الأذانُ، والصفُّ الأوّل، والغدوُّ إلى الجمعة».

قال أحمد بن حنبل، وقد ذكر هذا الحديث: أفضلهن الغدوُّ إلى الجمعة.

وقد رُوِى فى خبر آخر: «إذا كان يوم الجمعة، قعدت الملائكة على أبواب المسجد، بأيديهم صحف من فضة، وأقلام من ذهب، يكتبون الأول فالأول على مراتبهم».

وروينا فى خبر عن النبى ﷺ أنه نهى عن التحلُّق يوم الجمعة قبل الصلاة، إلا أن يكون عالمًا بالله تعالى، يذكِّر بأيام الله عزّ وجلّ، ويفقِّه فى دين الله عزّ وجلّ، يتكلم فى الجامع بالغداة، فيُجلَس إليه، فيكون جامعًا بين البكور إلى الجمعة والاستماع إلى العلم.

ولا يدع الغُسل لها يوم الجمعة إلا من ضرورة، فإنّه عند بعض العلماء فرض. والاغتسال فى البيت أفضل.

وروينا عن رسول الله ﷺ: «غسلُ الجمعة واجبٌ على كل محتلم». والمشهور من حديث نافع عن ابن عمر: «مَنْ أتى الجمعة فليغتسل».

وكان أهل المدينة يتسابُّون بينهم، فيقولون: لأنت شرٌّ مِمَّن لا يغتسل يوم الجمعة. وقد قال عمر لعثمان رضى الله عنهما لما دخل وهو يخطب: أهذه الساعة؟! فقال: ما زدت بعد أن سمعت الأذان أن توضأت وخرجت. فقال عمر: والوضوء أيضًا وقد علمت أن رسول الله ﷺ كان يأمر بالغسل؟

ولكن فى ترك الغسل رخصة، لوضوء عثمان مع علمه، ويسند ذلك إلى الخبر المسند: «مَنْ توضأ يوم الجمعة فبها ونعمت، ومن اغتسل فالغسل أفضل».

وروينا عن الصحابة: أُمرنا بالغسل يوم الجمعة فى الصيف، فلما جاء الشتاء كان من شاء اغتسل، ومن لم يشأ ترك الغسل. وقد روينا عن رسول الله ﷺ: «من شهد الجمعة من الرجال والنساء فليغتسل». فلذلك قال مالك بن أنس: إنّ النساءَ إذا حضرن الجمعة اغتسلن لها.

ومن اغتسل من جنابة أجزأه لغسل الجمعة إذا نوى. ولا بدّ من النية لغسل الجنابة لأجل الجمعة، فهو أفضل، ويكون الغسل للجمعة داخلاً فيه. فإذا أفاض عليه الماء ثانية بعد غسله للجنابة لأجل الجمعة فهو أفضل. دخل بعض الصحابة

على ابنه يوم الجمعة وهو يغتسل، فقال: للجمعة غسلُك هذا؟ قال: لا، بل من الجَنابة. قال: فأعدْ غسلاً ثانيًا، فإنّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «واجبٌ على كلِّ مسلم أن يغتسلَ يوم الجمعة».

ومن اغتسل بعد طلوع الفجر للجمعة أجزأه، ولكن أفضل الغسلِ لها عند الرَّواح إلى الجامع.

وأُحبُّ أن لا يُحدث وضوءًا بعد الغسل، حتى يفرغ من صلاة الجمعة، فمن العلماء من كره ذلك. ولكن إن بكّر إلى الجامع فتوضأ هناك من حَدَثٍ لَحِقَه لامتداد الوقت، فإنه على غسل الجمعة.

ويُستحب أن يستاك، وأن يلبس من صالح ثيابه، ويجتنب الشهرة من الثياب، ومن أفضل ما لبس البياض، أو بُردين يمانيين. ولبسُ السوادِ يوم الجمعة ليس من السنة، ولا من الفضل أن ينظر إلى لابسه، وليقلِّم أظفاره، ويأخذ من شاربِه، فقد رُوِى فضل ذلك من فعلِ رسول الله ﷺ، ومن أمره. وقد روينا عن ابن مسعود وغيره: «من قلَّم أظفاره يوم الجمعة أخرج الله عزّ وجلّ منها داء وأدخل شفاء».

وليتطيب بالطيب مما ظهر ريحه وخفى لونه، فذلك طيب الرجال. وطيبُ النساء ما ظهر لونُه وخَفِي ريحه. روينا ذلك فى الأثر.

وتُستحب العمامة يوم الجمعة. وقد روينا فيها حديثًا شاذًا عن واثلة بن الأسقع عن رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجلّ وملائكته يصلّون على أصحاب العمائم يوم الجمعة». فإن أكربه الحرُّ فلا بأس أن ينزعها قبل الصلاة، وبعدها، ولكن يخرج من منزله إلى الجامع وهو لابسها، ولا يصلّى إلا معتمًّا[١]، لتحصل له فضيلة العِمّة، فإن نزعها فليلبسها حينئذ عند صعود الإمام المنبر، ثم ليصلِّ وهى عليه، فإن شاء نزعها بعد ذلك.

وليخرج إلى الله عزّ وجلّ خاشعًا متواضعًا ذا سكينة ووقار، وإخبات وافتقار، وليكثر من الدعاء والاستغفار. وينوى فى خروجه زيارة مولاه فى بيته، والتقرّب

(١) فى (ك): «متعمّمًا».

إليه بأداء فريضته، والعكوف في المسجد إلى حيث انقلابه. ثم لينوِ كفّاً جوارحه عن اللهو واللغو، وينو الشُّغلَ بخدْمة مولاه[1]، وليترك راحته فى ذلك اليوم فى مهناه من عاجل حظ دنياه، وليواصل الأوراد فيه، فيجعل أوله إلى انقضاء صلاة الجمعة للخدمة بالصلاة، وأوسطه إلى صلاة العصر لاستماع العلم ومجالس الذكر، وآخره إلى غروب الشمس للتسبيح والاستغفار. فكذلك كان المتقدمون يقسمون يوم الجمعة هذه الأقسام الثلاثة.

وإن صامه فحسن، يضم إليه يوم الخميس، أو يضيف إليه يوم السبت، وقد كُره إفراده بصوم. ومن لم يصمه، وكان له أهل، فالمستحب أن يجامع فيه، فقد رُوى فضل ذلك، وكان بعض السلف يفعله.

وقد روينا عن رسول الله ﷺ: «من غسّل واغتسل، وغدا وبكّر، ودنا من الإمام ولم يَلْغُ، كان له بكل خطوة صيام سنَةٍ وقيامها». وفى خبر آخر: «ودنا من الإمام واستمع، كان له ذلك كفارة لما بين الجمعتين، وزيادة ثلاثة أيام». وفى لفظ آخر: «غُفر له إلى الجمعة الأخرى». وقد اشترط فى بعضها: «ولم يتخطَّ رقاب الناس».

فمعنى قوله: من غسّل، بالتشديد، أى غسّل أهله، كناية عن الجماع. وبعض الرواة يخففه فيقول: «غسَل واغْتسل»، فيكون معناه: غسل رأسه، واغتسل لجسده.

وليتق أن يتخطّى رقابَ الناس، فإن ذلك مكروه جدًا، وقد جاء فيه وعيد شديد أن من فعل ذلك جُعل جسرًا يوم القيامة على جهنم تتخطّاه الناس. وقال ابن جريج حديثًا مرسلاً «أن النبى ﷺ بينما هو يخطب يوم الجمعة إذ رأى رجلاً يتخطّى رقابَ الناس حتى تقدّم وجلَس، فلمّا قضى النبى ﷺ صلاته عارض الرجل حتى لقيه، فقال: يا فلان ما منعك أن تُجمّعَ اليوم معنا؟ فقال: يا نبى الله قد جمَّعْتُ. فقال: أوَ لم أرك تتخطّى رقاب الناس؟».

(١) فى (ط): «ويتق الشغل حين يخدم مولاه» وأثبت ما فى (ك).

وفى حديث مسند أن النبى ﷺ قال له: «ما منعكَ أن تصلّى معنا الجمعة؟ فقال: أوَ لم ترنى؟ قال: قد رأيتُك تأنَّيت وآذيت». أى: تأخّرت عن البكور، وآذيت بالحضور.

ولا يقعد إلى القصّاص فى يوم الجمعة، فقد كُره ذلك، ولا فى حلقة قبل الصلاة. فقد روى عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن عبد الله بن عمر «أنَّ النبى ﷺ نهى عن التحلّق يوم الجمعة قبل الصلاة»، إلا أن يكون عالمًا بالله عزّ وجلّ، يذكِّر بأيام الله، ويفقِّه فى الدين، يتكلم فى الجامع بالغداة، فيُجلَس إليه، فيكون جامعًا بين البكور إلى الجمعة وبين الاستماع إلى العلم.

وقد روينا عن بعض علماء السلف قال: إن لله تعالى فضلاً من الرزق سوى أرزاق العباد، لا يعطى من ذلك الفضل إلا من سأله عشية الخميس ويوم الجمعة.

وفى الخبر المشهور: «إن فى الجمعة ساعةً لا يوافقها عبدٌ مُسلم يسأل الله عز وجلّ فيها شيئًا إلا أعطاه». وفى لفظ آخر: «لا يصادفها عبد يصلّى».

واختُلف فى وقت هذه الساعة، فقيل: إنها عند طلوع الشمس. وقيل: إذا قام الناس إلى الصلاة. وقيل: عند الزوال. ويقال: مع الأذان. وقيل: هى إذا صعد الإمام المنبر وأخذ فى الذكر. وقيل: بعد العصر من آخر أوقاتها. وقيل: عند غروبِ الشمس إذا تدلّى حاجبها الأسفل. كانت فاطمة بنت رسول الله ﷺ تراعى ذلك الوقت، وتأمر خادمها أن ينظر إلى الشمس، فيؤذنها بسقوطها، فتأخذ فى الدعاء والاستغفار فى ذلك الوقت إلى أن تغرب الشمس، وتخبر أن تلك الساعة هى المنتظرة، وتؤثره عن أبيها ﷺ.

فهذا جُمل ما قيل فى هذه الساعة، بروايات جاءت فى ذلك متفرقة، حذفنا ذكرها للاختصار. فليُتوَخَّ هذه الأوقات، وليُتعَهَّد الدعاء فيها والصّلاة فيما صلُح منها.

وقد قال بعض العلماء: إن هذه الساعة مبهمة فى جميع اليوم، لا يعلمها إلا الله عزّ وجلّ، كإبهام ليلة القدر فى جميع شهر رمضان، وكإبهام الصلاة الوسطى

فى جُملة الصّلوات الخَمْس[١].

وقد قيل: إنها تنتقل فى ساعات يوم الجمعة كتنقل ليلة القدر عند بعضهم فى ليالى الشهر، ذلك ليكون العبد طالبًا إلى الله عزّ وجلّ، وراغبًا متضرعًا مفتقرًا فى جميع ذلك اليوم. فمن واصل الأوراد فيه، وعمّر بالذكر كلَّ ساعةٍ، صادفها بإذن الله عزّ وجلّ، فإن لم يواصل السّاعة فى يوم واحد فليواصلها فى جُمَعٍ شتى، وقتًا على وقت، على ترتيب أوقات يوم، فإنّها تقع فى جميع الأوقات لا محالة.

وليكثر الدعاء والتضرّع فى وقتين خاصة: عند صعود الإمام المنبر إلى أن تقام الصلاة ويدخل فيها. وعند آخر ساعةٍ وقت تدلّى الشمس للغروب. فهذان الوقتان من أفضل أوقات الجمعة، ويَقْوى فى نفسى أنّ فى أحدهما الساعةَ المرجوّة.

وقد اجتمع كعب الأحبار مع أبى هريرة، واجتمع رَأْىُ كعب أنّها فى آخر ساعة من يوم الجمعة. فقال أبو هريرة: كيف تكون آخر ساعة وقد سمعتُ النبى ﷺ يقول: لا يوافقها عبد يصلى ولات حين صلاة؟ فقال كعب: ألم يقل رسول الله ﷺ: من قعد ينتظر الصلاة فهو فى صلاة؟ قال: بلى. قال: فذاك صلاة. فسكت أبو هريرة، فكأنه وافقه.

وليكثر من الصّلاة على النبى ﷺ فى يوم الجمعة وليلتها، وأقل ذلك أن يصلّى عليه ﷺ ثلاثمائة مرة.

وقد جاء فى الخبر: «من صلّى علىّ فى يوم الجمعة ثمانين مرة غفر الله له ذنوب ثمانين سنة. قيل: يا رسول الله، كيف الصلاة عليك؟ قال: تقول: اللّهم صلِّ على محمّدٍ عبدك ونبيك ورسولك النبى الأمى، وتعقدها واحدة».

فكيف ما صلّى عليه، بعد أن يأتى بلفظ ذكر الصلاة عليه، فهى صلاة. والصلاة المشهورة هى التى رُويت فى التشهد، وإن جعل من صلاته عليه أن يقول: اللّهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، صلاةً تكون لك رضاءً، ولحقِّه

(١) فى (ط): «كأنها بمنزلة ليلة القدر مبهمة فى جميع شهر رمضان وكأنها مثل الصلاة الوسطى فى جملة الصلوات الخمس» وأثبت ما فى (ك).

أداء، وأعطه الوسيلة، وابعثه المقام المحمود الذى وعدته، واجْزِه عنّا ما هو أهله، واجْزِه أفضلَ ما جَزَيت نبيًا عن أمته، وصلِّ على جميع إخوانه من النبيّين والصّالحين يا أرحم الراحمين.

تقول هذا سبع مرات، ففى هذا فضل عظيم. ويقال: من قاله سبع جمع، فى كل جمعة سبع مرات، وجَبَت له شفاعة رسولِ الله ﷺ.

وإن زادَ هذه الصلاةَ فهى مأثورة:

اللّهم اجعل فضائلَ صلواتِك، وشرائفَ زكواتك، ونوامى بركاتك، ورأفتكَ ورحمتكَ وتحيَّتك، على محمد سيّد المرسلين، وإمام المتقين، وخاتم النبيين، ورسول رب العالمين، قائد الخير، وفاتح البر، ونبى الرّحمة، وسيّد الأمة.

اللّهم ابعثهُ مقامًا محمودًا، تُزلف به قُربَه، وتُقرُّ به عينَه، يغبطه به الأولون والآخرون. اللهم أعطهِ الفضلَ والفضيلة، والشرفَ والوسيلة، والدرجةَ الرفيعة، والمنزلةَ الشامخة المنيفة.

اللّهم أعط محمدًا سؤله، وبلِّغه مأموله، واجعله أوّلَ شافع، وأوّل مشفع. اللّهم عظّم برهانه، وثقّل ميزانه، وأبلج حُجته، وارفع فى أعلى المقربين دَرجته. اللّهم احشرنا فى زمرته، واجعلنا من أهل شفاعته، وأَحينا على سُنته، وتوفّنا على مِلَّته، وأوْرِدنا حوضه، واسْقنا بكأسه غير خزايا ولا نادمين، ولا شاكّين ولا مبدِّلين، ولا فتّانين ولا مفتونين، آمين يا ربّ العالمين.

وليكثر من الاستغفار يوم الجمعة وليلتها، وأى لفظ ذكر فيه سؤال المغفرة فهو مستغفر. وإن قال: اللّهم اغفر لى وتب علىَّ إنك أنت التواب الرحيم، فهو أفضل. وإن قال: ربّ اغفر وارحم، وتجاوز عما تعلم، وأنت خير الراحمين، فحسن.

واستُحب له أن يقرأ ختمة يوم الجمعة. فإن ضاق عليه ذلك فليشفع إليه ليلتها؛ ليكون ابتداؤه من ليلة الجمعة. وإن جعل ختمه للقرآن فى ركعتى الفجر من يوم الجمعة، أو فى ركعتى المغرب ليلة الجمعة، فحسن؛ ليستوعب بذلك كله

اليوم والليلة. وإن جعل ختمه بين الأذان للجمعة والإقامة للصلاة، ففيه فَضلٌ عظيم.

ويُستحب أن يصلّى قبل الجمعة اثنتى عشرة ركعة، وبعدها ست ركعات، وإذا دخل الجامع فليصلِّ أربع ركعات يقرأ فيهن: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ مائتى مرة، فى كل ركعة خمسين مرة، ففيه أثر عن رسول الله ﷺ: «من فعله لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة، أو يُرى له».

وإذا دخل الجامع فلا يقعدنّ حتى يصلى ركعتين قبل أن يجلس، وكذلك إن دخل والإمام يخطب، صلاهما خفيفتين، وإن سمعه، لأمر النبى ﷺ بذلك؛ لأنه قد جاء فى حديث غريب أن النبى ﷺ سكت له حتى صلاّهما.

فقال الكوفيون: إن سكت له الإمام صلاهما. ولعل سكوتَ رسولِ الله ﷺ مخصوصٌ له، لوجوب قوله.

وروى ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس وأبى هريرة قالا: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة، أو يوم الجمعة، أُعطى نورًا من حيث يقرأها إلى مكة، وغُفر له إلى الجمعة الأخرى وفضل ثلاثة أيام، وصلّى عليه سبعون ألف ملك حتى يصبح، وعُوفى من الداء والدُّبَيْلَةِ[1] وذات الجنب والبرص والجذام وفتنة الدجال».

واستُحب أن يصلّى يوم الجمعة أربع ركعات بأربع سور: سورة الأنعام، وسورة الكهف، وسورة طه، وسورة يس. فإن لم يحسن ذلك قرأ سورة يس، وسجدة لقمان، وسورة الدخان، وسورة الملك. ولا يدع قراءة هذه الأربع سور فى كل ليلة جمعة، ففى ذلك أثر وفضل كبير. فإن لم يحسن جميع القرآن قرأ ما يحسن منه، فذلك له ختمة. فقيل: ختمة من حيث علمه.

وقد كان العابدون يستحبون أن يقرؤوا يوم الجمعة ألف مرة: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾، فإن قرأها فى عشر ركعات أو عشرين فهو أفضل من ختمة. وقد كانوا

(١) الدُّبيلة: داء يكون فى الجوف، وهى تصغير دُبْلة. والدبيلة أيضًا: الداهية، وهى مصغرة للتكبير.

يصلّون على النبى ﷺ ألف مرة. ومن التسبيح والتهليل بالكلمات الأربع ألف مرة.

وهذه ثلاثةُ أورادٍ حسنة فى يوم الجمعة، أعنى: قراءةَ ﴿قُل هُو اللهُ أحَدٌ﴾ ، والصلاةَ على النبى ﷺ، والتسبيحَ والتهليلَ ألفًا ألفًا، فلا يدعنَّ ذلك، مَنْ رُزِقَها أو أحدَها فإنّه من أفضل الأعمال فى هذا اليوم.

وإن صلّى يوم الجمعة قبل الزوال صلاةَ التسبيح، وهى ثلاثمائة تسبيحة فى أربع ركعات، فقد أكثر وأطاب. وقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «صلّها فى كل جمعة مرة». وذكر أبو الجوزاء عن ابن عباس: أنه لم يكن يدع هذه الصلاة كلّ يوم بعد الزوال، وأخبر عن فضلها ما يجلّ وَصْفه.

وإن قرأ المسبّحات الستّ فى يوم الجمعة أو ليلتها، فحسن. وليس يُروى أن النبى ﷺ كان يقرأ السور بأعيانها إلا يوم الجمعة وليلتها. فإنا رُوينا أنه كان يقرأ فى صلاة المغرب ليلة الجمعة: ﴿قُل يا أيُّها الكَافِرُون﴾ ، و ﴿قُلْ هُو اللهُ أحَدٌ﴾ . وكان يقرأ فى صلاة العشاء الآخرة ليلة الجمعة: سورة المنافقين. وقد رُوى أنه كان يقرأ بهاتين السورتين فى صلاة الجمعة، وكان يقرأ فى صلاة الغداة يوم الجمعة بسورة سجدة لقمان، وسورة ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإنسان﴾ .

واستماعه إلى علم اليقين، والمعرفة، وحضور مجالس الذكر، أفضلُ من صلاته، وصلاته أفضل من حضوره مجالس القصّاص. وروينا فى حديث أبى ذر: «حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة». وفى خبر آخر: «لأن يتعلم أحدُكم بابًا من العلم أو يعلِّمه خير له من صلاة ألف ركعة». وفى خبر: «قيل: يا رسول الله، ومن قراءة القرآن؟ فقال: وهل ينفع القرآن إلا بعلم؟».

والصّلاةُ إذا عدم مجلس العلم بالله، والتفقه فى دين الله عزّ وجلّ، أزكى من حضور مجلس القصص، ومن الاستماع إلى القصاص، فإن القصص كان عندهم بدعة، وكانوا يخرجون القصاص من الجامع. روى أن ابن عمر جاء ذات يوم إلى مجلسه فى المسجد فإذا قصّاص يقصّ، فقال له: قم من مجلسى. فقال: لا أقوم

وقد جلستُ فيه، أو قال: قد سبقتك إليه. قال: فأرسل ابن عمر إلى صاحب الشرطة فأقامه. فلو كان ذلك من السّنة لما حَلَّ لابن عمر أن يقيمه من مجلسه، سيما وقد سبقه إلى الموضع. كيف! وهو الذى روى عن رسول الله ﷺ: «لا يقيم أحدُكم أخاه من مجلسه ثم يجلس فيه، ولكن تفسَّحوا وتوسَّعوا». قال: فكان ابن عمر إذا قام له الرجل من مجلسه لم يجلس فيه حتى يعود إليه. وروينا: «ثم يجلس فيه».

وقد روينا أن قاصًا كان يجلس بفناء حجرة عائشة يقصُّ، فأرسلت إلى ابن عمر أن هذا قد آذانى بقصصه، وشغلنى عن سبحتى. قال: فضربه ابن عمر، حتى كسر عصًا على ظهره، ثم طرده.

وليحذر أن يمرَّ بين يدى المصلى وإن كان مروره لا يقطع الصلاة. ففى الخبر: «لأن يقف أحدُكم أربعين سنةً خيرٌ له من أن يمر بين يدى المصلِّى». وقد جاء فيه وعيد شديد: «لأن يكون الرجل رمادًا تذروه الرياح خير له من أن يمر بين يدى المصلِّى». وقد سوّى فى ذلك بين المارِّ والمصلِّى فى الوعيد، ففى حديث زيد بن خالد الجهنى قال رسول الله ﷺ: «لو يعلم المارُّ بين يدى المصلى ما عليهما فى ذلك لكان أن يقف أربعين خير له من أن يمر بين يديه».

ولْيَدْنُ المصلِّى من أسطوانة أو جدار، فإذا فعل ذلك فلا يدعنَّ أحدًا أن يمرّ بين يديه، وليدفعه ما استطاع. وفى حديث عبد الرحمن بن أبى سعيد الخدرى عن أبيه قال: «فإن أبى فليُقاتلْه فإنّما هو شيطان». وكان أبو سعيد يدفع مَن يمرّ بين يديه حتى يصرعه، فربما تعلق به الرجل فاستعدى عليه مروان، فيخبره أن النبى ﷺ أمرَ بذلك.

فإن لم يتفق له أسطوانة فليجعل شيئًا بين يديه، يكون طوله عظم الذراع، وقد قيل: وإن كان حبلاً ممدودًا حاجز بينه وبين المارة.

وقد قيل: أربعٌ من الجفاء: أن يبول الرجل قائمًا، أو يصلى فى الصف الثانى ويترك الأول فارغًا، أو يمسح جبهته فى صلاته، أو يصلى بسبيل مَنْ يمرُّ بين يديه.

وقد كان الحسن يقول: تخطّوا رقاب الذين يقعدون على أبواب الجامع يوم الجمعة، فإنّه لا حُرمة لهم.

ولْيَقْرُبْ من الإمام، وينصت، ويستمع، ويستقبله بوجهه، كذلك السّنة، إلا أن يخاف أن يسمع أو يرى منكرًا من لبس نقش سواد، أو حرير أو ديباج، أو حَمْل سلاح ثقيل، ولا يستطيع تغييره، فليبعد حينئذ فهو أسلم.

ولا يلغو ولا يتكلم فى خطبة الإمام، وإن بعُد، ولا يجلس فى حلقة من يتكلم والإمام يخطب، ولا يقول لآخر اسكت، ولكن يومئ إليه إيماء، أو يَحْصِبُه بحصاة، فإن لغا والإمام يخطب بطلت جمعته، ولا يتكلم فى العلم فى خطبة الإمام. ومن لم يَقْرُبْ من الإمام ولم يستمع فلينصت، وإن بَعُد، كذلك المستحب.

وقد روينا عن عثمان وعلى رضوان الله عليهما: «من استمع وأنصت فله أجران، ومن لم يستمع وأنصت فله أجر، ومن سمع ولغا فعليه وزران، ومن لم يستمع ولغا فعليه وزر واحد». وفى حديث أبى ذر لما سأل أُبيًا والنبى ﷺ يخطب فقال: متى أُنزلت هذه السورة، فأومأ إليه أن اسكت. فلما نزل النبى ﷺ قال له أُبى: اذهب فلا جمعة لك. فشكاه أبو ذر إلى النبى ﷺ فقال: «صدق أُبىّ».

وكذلك جاء فى الخبر: «من قال لصاحبه والإمام يخطب انصت أو مَهْ، فقد لغا، ومن لغا والإمام يخطب فلا جمعة له».

وليقطع الصلاة إذا قام المؤذنون للأذان بين يدى الإمام. فقد روى أبو إسحاق عن الحارث عن على رضوان الله عليهم: «تُكره الصلاة فى أربع ساعات: بعد الفجر، وبعد العصر، ونصف النهار، والصلاة والإمام يخطب». وقد جاء فى الأثر: «خروج الإمام يقطع الصّلاة، وكلامه يقطع الكلام».

وسجود العامة عند قيام المؤذنين للأذان قبل الخطبة ليس بسُنّة، فإن وافق ذلك سجوده فى صلاته، أو سجود قرآن، فلا بأس أن يمتدّ فى الدعاء إلى فراغهم؛ لأنّه وقت مفضل. ولا أعرف فى ذلك أثرًا، غير أنه مباح.

ومن العلماء من كره الصلاة فى المقصورة لأجل أنها قُصرت على السلطان وأوليائه، وذلك بدعة عند أهل الورع ابتُدعت فى المساجد؛ لأنها غير مطلقة لجملة الناس. فلذلك نُقل فى الخبر: كان الحسن وبكر المزنى لا يصلِّيان فى المقصورة. وروى: رأيت أنسَ بنَ مالك يصلّى فى المقصورة، وعمرانَ بن حصين أيضًا. ومنهم من لم يكره ذلك، ورأيت فيه فضلاً لأجل السّنّة فى الدنو من الإمام واستماع الذكر؛ فإن أُطلقت للعامة زالت الكراهة عنها، وإن خُصَّ بها أولياء السلطان تُركت عليهم، فإن صلّى فيها سبعًا يُصلَّى فيها، فإن بعض العلماء كره الصلاة فى فناء المنبر، من قِبَل أن المنبر يقطع الصفوف، وكان عندهم أن تقدمة الصفوف إلى فناء المنبر بدعة. وكان الثورى يقول: الصفّ الأول هو الخارج من بين يدى المنبر.

ومن خشى الفتنة والآفة فى قربه من الإمام، بأن يسمع ما يجب عليه إنكاره، أو يرى ما يلزم الأمر فيه أو النهى عنه من لبس حرير أو لبس ديباج، أو الصلاة فى السّلاح الثقيل للشّغل، كان بُعده من الصفوف المقدَّمة أصلح لقلبه، وأجمع لهمّه، لقلّة ملاقاة الناس، ولترك النّظر إليهم. فالأصلحُ للقلب والأجمع للهم هو الأفضل حينئذ. وقد كان جماعة من العلماء والعبَّاد يصلّون فى أواخر الصفوف إيثارًا للسلامة. وقيل لبشر بن الحارث: نراك تبكّر يوم الجمعة وتصلى فى أواخر الصفوف؟! فقال: يا هذا إنّما نريد قُربَ القلوب لا قُربَ الأجسادِ.

ونظر سفيان الثورى إلى شعيب بن حرب عند المنبر يستمع إلى خطبة أبى جعفر، فلما جاءه بعد الصلاة قال: شغل قلبى قُربُك من هذا، هل أمنت أن تسمع كلامًا يجب عليك إنكاره فلا تقوم به، ثم ذَكَر ما أحدثوا من لِبس السّواد، قلتُ: يا أبا عبد الله أليس فى الخبر: ادْنُ واستمع، فقال: ويحك ذاك للخلفاء الراشدين المهديين، فأما هؤلاء فكلما بعُدت عنهم ولم تنظر إليهم كان أقرب لك إلى الله عزّ وجلّ.

وقد روينا عن أبى الدرداء فضيلة فى الصّف المؤخَّر، قال سعيد بن عامر: صليتُ إلى جنبه فجعل يتأخر فى الصفوف، حتى كنا فى آخر صف، فلما صلّينا

قلت له: أليس يقال: خير الصفوف أوّلها؟ قال: نعم، إلا أن هذه أمة مرحومة منظور إليها من بين الأمم، وإنّ الله عزّ وجلّ إذا نظر إلى عبد منهم فى الصّلاة غفر لمن وراءه من الناس، فإنّما تأخرتُ رجاء أن يُغفر لى بواحد منهم، ينظر الله إليه.

وقد رفعه بعض الرواة، أن أبا الدرداء سمع النبى ﷺ يقول ذلك.

والصّدقة مستحبة مفضَّلة يوم الجمعةِ خاصّة، فإنّها تُضاعَف، إلا على مَن سأل والإمام يخطب، وكان يتكلم فى كلام الإمام، فهذا مكروه. قال صالح بن أحمد: سأل مسكين يوم الجمعة والإمام يخطب، وكان بجنب أبى، فأعطاه رجل قطعة ولم يعرفه ليناوله إياها، فلم يأخذها منه أبى.

وقال ابنُ مسعود: إذا سأل الرجل فى المسجد فقد استحق أن لا يُعطَى، وإذا سأل على القرآن فلا تُعطوه.

ومن العلماء من كره الصدقة على سؤَّال الجامع الذين يتخطون رقاب الناس، إلا أن يسأل قائمًا من غير أن يتخطّى المسلمين، أو قاعدًا فى مكان.

وروينا عن كعب الأحبار: من شَهِد الجمعةَ ثم انصرف يتصدّق بشيئين مختلفين من الصّدقة، ثم رجع فركع ركعتين يتم ركوعهما وخشوعهما وسجودهما، ثم يقول: اللهم إنى أسألكَ باسمك بِسم الله الرّحمن الرحيم، وباسمك الذى لا إله إلاّ هو الحى القيوم لا تأخذه سِنةٌ ولا نَوْم، لم يسألِ الله عزّ وجلّ شيئًا إلا أعطاه.

وقد روينا عن بعض السّلف على غير هذا الوصف قال: مَنْ أطعمَ مِسكينًا فى يوم الجمعة، ثم غدا وابتكر ولم يؤذِ أحدًا، ثم قال حين يسلم الإمام: اللّهم إنى أسألك ببسم الله الرحمن الرحيم الحى القيوم أن تغفر لى وترحمنى وأن تعافينى من النار، ثم دعا بما بدا له استُجيب له.

وإن سمع قراءةَ الإمام لم يقرأ فى صلاته إلا سورة الحمد لا غير، وإن لم يسمع قراءته قرأ سورة مع الحمـد، إن أحب. فأما من سمع قراءةَ الإمام، وقرأ معه سورة الجمعة أو غيرها من السور، فقد خالف الأمة، وعصى رسولَ الله

ﷺ، ولا أعلمه مذهب أحد من المسلمين.

فإذا سلّم من صلاة الجمعة قرأ وهو ثانٍ رجلَه قبل أن يتكلم: الحمد سبع مرات، و ﴿**قُلْ هو اللهُ أحد**﴾ سبعًا، والمعوذتين سبعًا، ففى ذلك أثر عن بعض السّلف: أنّ من فعله عُصِم من الجمعة إلى الجمعة، وكان ذلك حِرزًا له من الشيطان.

واستُحبّ له أن يقول بعد صلاة الجمعة: «اللهم يا غنىّ يا حَميدُ، يا مبدئُ يا معيدُ، يا رحيمُ يا ودودُ، اغننى بحلالكَ عن حرامِك، وبفضْلك عمّن سِواك». يقال: من داوم على هذا الدعاء أغناه الله عز وجلّ عن خلقه، ورزقه من حيث لا يحتسب.

وقد روى ابن عمر أن النبى ﷺ كان يصلّى بعد الجمعة ركعتين. وروى أبو هريرة أنه كان يصلّى بعدها أربعًا. وروى على وعبد الله رضى الله عنهما أن النبى ﷺ كان يصلّى بعدها ستًا. فإذا صلّى العبدُ ستَّ ركعاتٍ فقد استوعب جميعَ الروايات.

وأكره شراءَ الماء فى المسجد للشرب أو لتسبيله؛ لئلا يكون مبتاعًا فى المسجد، فقد كُره الشراء والبيع فى المسجد، فإن بايعه أو دفع إليه القطعةَ خارجًا من المسجد، وشرِب أو سبَّل فى المسجد، فلا بأس.

وقد جاء عن بعض السّلف أنه كره الصلاة فى رحاب الجامع، وعن بعض الصحابة أنه كان يضرب الناس، ويقيمهم من الرحاب، ويقول: لا تجوز الصلاة فى الرحاب. فهذا عندى على ضربين: وهو أن الصّلاةَ فى رحاب الجامع الزوائد فيه المتصلةِ بالصفوف المحيط بها حائط الجامع الأعظم كالصّلاةِ فى وسطه غيرُ مكروهة، والصّلاةَ فى رحابِه المتفرقة فى أفنيته التى هى من وراء جدر الجامع كلّه مكروهةٌ. وكذلك الصّلاة فى الطرقات المنفردة عن الجامع غير المتصلة بالصفوف؛ لحجز طريق أو بعد مكان، فلا يجوز. وهذا الذى كرهه من كان ينهى عن الصّلاة فيه.

فإذا صلّى الجمعةَ انتشر فى أرض الله عزّ وجلّ، يطلب من فضل الله عزّ وجلّ، ومن الفضل طلبُ العلم واستماعُه، ويقال: هو مزيد يوم الجمعة للعالم والمتعلم، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ الله عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]، وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً﴾ [سبأ: ١٠]، يعنى: العلم، بدليل نظيرها من الآية الأخرى فى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمانَ عِلْمًا وَقَالاَ الحَمْدُ لله الَّذى فَضَّلَنَا﴾ [النمل: ١٥].

وروينا عن أنس بن مالك فى قوله عزّ وجلّ: ﴿فَإِذَا قُضِيَت الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فى الأَرض وَابتَغُوا مِنْ فَضْلِ الله﴾ [الجمعة: ١٥] قال: أمَا إنه ليس بطلب دنيا؛ ولكنه عيادة مريض، وشهود جنازة، وتعلّم علم، وزيارة أخ فى الله عزّ وجلّ. فإنّ الذكرَ بالعلم، وتعليمَ الناس إياه، والتذكيرَ بالله عزّ وجلّ، والدعوةَ إليه فى يوم الجمعة، له فضلٌ على سائر الأيام، لأنه يومُ المزيد، فللقلوب فيه إقبالٌ وتحديد، وكذلك السعيُ إليه، والاستماعُ له، وحضورُ مجالس الذكر يوم الجمعة لا مجالس القصاص، أفضلُ من سائر الأيام، والمستمع شريك القائل فى الأجر. وقد قيل: إنه أقربُ للرحمة.

وقد كره العلماءُ الجلوسَ إلى القصاص سيما يوم الجمعة خاصة؛ لأنهم يثبطون عن الغدوّ إلى الجامع فى السّاعة الأولى والثانية؛ لأنّ الكتاب ورد بالفضل فيهما[1]. فمن اتُّفق له عالم بالله عزّ وجلّ يذكّره به ويدلّه عليه، من علماء الآخرة الزاهدين فى الدنيا، يومَ الجمعة غدوةً فى الجامع، أو بعد صلاة الجمعة ـ جلس إليه واستمع منه، وإن حضر مُفْتٍ يتكلّم بعلم الدين وكان العبد محتاجًا إلى ذلك جالسه، فهو الأفضل، فإنّ مجالس العلماء فى الجامع مِنْ زَيْن يومِ الجمعة ومن تمامِ فضله. قال الحسن: الدنيا ظُلمة إلا مجالسَ العلماء. فإن لم يتفق له ذلك، أحيا ما بين الصلاتين. وهو الورد الخامس من النهار.

ويُستحب صلاة العصر فى الجامع، إلا لسببٍ لا بدّ منه مانعٍ. وإن قعد إلى

(١) فى (ك): «اللتين ورد به الفضل فيهما».

غروب الشمس فهو أثوب للسّاعة المنتظرة من آخر النهار، إذا أمنَ الفتنةَ والتّصنُّعَ والكلامَ فيما لا يعنيه. ويقال: من صلّى العصرَ فى الجامع كان له ثواب حجة، ومن صلّى المغرب كان له ثواب عمرة. فإن خشى دخولَ الآفة عليه، أو لم يأمن التّصنّعَ، والخوضَ فيما لا يعنيه، انصرف إلى منزله ذاكرًا لله عزّ وجلّ، مفكرًا فى آلائه وحسن نعمائه، فراعَى غروبَ الشمس بالأذكار والتسبيح والاستغفار فى منزله أو مسجد حيّه، فذلك حينئذ أفضل له.

وقال بعض السّلف: أوفر الناسِ نصيبًا يوم الجمعة مَنْ راعاها وانتظرها من الأمس، وأخسُّ الناسِ منها نصيبًا مَنْ يصبح يوم الجمعة فيقول: ايش اليوم. وقد كان بعضهم يبيت ليلة الجمعة فى الجامع لأجل صلاة الجمعة. ومنهم من كان يبيت ليلة السبت فى الجامع لمزيد الجمعة. وكثير من السلف من كان يصلّى الغداةَ يوم الجمعة فى الجامع، ويقعد ينتظر صلاةَ الجمعة، لأجل البكور، ليستوعب فضل الساعة الأولى، ولأجل ختم القرآن. وعامّةُ المؤمنين كانوا ينحرفون من صلاة الغداة فى مساجدهم فيتوجهون إلى جوامعهم.

ويقال: أول بدعة حدثت فى الإسلام ترك البكور إلى الجوامع. قال: وكنتَ ترى يومَ الجمعة سَحَرًا وبعد صلاة الفجر الطرقاتِ مملوءةً من الناس، يمشون فى السُّرج، يزدحمون فيها إلى الجامع كما ترون اليوم فى الأعياد، حتى دَرَس ذلك وقَلَّ وجُهِل وتُرِك. أوَ لا يستحى المؤمنُ أنّ أهلَ الذمة يبكّرون إلى كنائسهم وبِيَعِهم قبل خروجه إلى جامعه؟! أوَ لا يعتبر بأهلِ الأطعمةِ المباعة فى رحابِ الجامع أنهم يَغْدون إلى الدنيا والناس قبل غدوّه هو إلى الله تعالى وإلى الآخرة؟! فينبغى أن يُسابِقَهُم إلى مولاه [وإلى الآخرة][1]، ويسارعهم إلى ما عنده من زُلُفاه.

ويجب أن يكون للمؤمن يوم الجمعة مزيدٌ فى الأوراد والأعمال، وليتفرغ فيه لربه عزّ وجلّ، ويجعله يوم آخره[2]، إن لم يكن له يوم السبت فيوم الجمعة فى الأوراد المتصلة، والمزيد من الأذْكار على المعلوم منها، فلا يكون الجمعة كالسبت

(١) ساقطة من (ط).

(٢) فى (ط): «يوم آخر» وأثبت ما فى (ك). أى آخر يوم فى عمره.

في تجارة الدنيا والشغل بأسبابها.

وأكره له التأهُّب ليوم الجمعة فى باب الدنيا من يوم الخميس؛ من إعداد المأكول، والترفُّه من النّعمة والأكل والشرب. فقد روينا حديثًا من طريق أهل البيت، فيه نظر، أن النبى ﷺ قال: «يأتى على أمتى زمان يَتأهّبون لجُمعتهم فى أمر دُنياهم عشيةَ الخميس كما يتأهب اليهودُ لسبتها عشيةَ الجمعة». وإنّما كان المؤمنون يتأهبون فيه للآخرة بالأوراد الحسنة، يزدادون من الأوراد المتصلة.

وقد كان أبو محمد سهل رحمه الله يقول: من أخذ مَهْنأه من الدنيا فى هذه الأيام لم ينل مهنأه فى الآخرة، منها يوم الجمعة. وقال أيضًا: يومُ الجمعة من الآخرة ليس هو من الدنيا. وقال بعضهم: لولا يومُ الجمعة ما أحببت البقاءَ فى الدنيا.

فهو عند الخصوص: يومُ العلوم والأنوار، ويوم الخدمة والأذكار؛ لأنّه عند الله عزّ وجلّ يومُ المزيد بالنظر إليه فى المزار.

وروينا حديثًا غريبًا عن مجاهد، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «دعوا أشغالكُم يومَ الجمعة فإنه يومُ صلاةٍ وتهجّد».

وروينا عن جعفر الصادق قال: يومُ الجمعة لله عزّ وجلّ ليس فيه سفر، قال الله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ الله﴾ [الجمعة: ١٠].

وما ذكرناه من الصّلاة، والسّورِ المقروءة، والصلاةِ على النبى ﷺ، وجميعِ الذكر فى يوم الجمعة، فإنه يُستحب فى ليلتها، وهى من أفضل الليالى، فلا يدعنَّ ذلك مَنْ وجد إليه سبيلاً. فإنّ للصادق المريدِ فى كل وقت مفضَّلٍ من الله عز وجلّ مزيدًا، فإذا أحبّ اللهُ تعالى عبدًا استعمله فى الأوقات الفاضلة بفواضل الأعمال، وإذا مقتَ عبدًا استعمله فى الأوقات المفضّلة بسيئ الأعمال؛ ليكون أوجعَ فى عقابه، وأشدَّ لمقته، لحرمانه بركة الوقت، وانتهاكه حرمة الوقت.

ومما يُختص به يومُ الجمعة من الذّكر والتمجيد بالأسماء فصول أربعة:

أولها: الأربعون اسمًا التى دعا بها إدريسُ ﷺ، خصّه الله تعالى بها، وذكر

الحسنُ البصرى أن موسى ﷺ قد كان دَعا بهنّ، وأنّها كانت من دعاء محمد ﷺ.

والفصل الثانى: كان إبراهيم بن أدهم الزاهد يدعو بها كلّ يوم جمعة عشر مرات إذا أصبح وإذا أمسى، فكان ذلك من عمله فى يومه.

والفصل الثالث: روينا عن على رضى الله عنه، رواه عن رسول الله ﷺ: «إن الله عزّ وجلّ يمجِّد نفسه فى كل يوم وليلة».

والفصل الرابع: تسبيحات أبى المعتمر، وهو سليمان التيمى، الذى كان رأى الشهيد بعد قتله فى المنام، فقيل له: ما أفضل ما رأيت هناك من الأعمال؟ فقال: رأيتُ تسبيحات أبى المعتمر من الله عزّ وجلّ بمكان.

فأما هذان الفصلان من تمجيد الربّ سبحانه وتعالى نفسه، وتسبيحات أبى المعتمر، فقد ذكرناهما فى أول الكتاب، فيما اخترنا من الأدعية المختارة بعد صلاة الغداة وقبلَ غروبِ الشمس فى كل يوم، فاستثقلنا إعادتهما ههنا[١]. وأما الفصلان الآخران فنحن ذاكروهما.

• ذكر دعاء إدريس النبى ﷺ[٢]:

حدثنا الحسنُ بن يحيى الشاهد ، حدثنا القاسم بن داود القراطيسى ، حدثنا عبد الله بن محمد القرشى، حدثنا محمدُ بن سعيد المؤذن، حدثنا سلام الطويل، عن الحسن البصرى قال: لما بعث الله عزّ وجلّ إدريسَ إلى قومه علّمه هذه الأسماء، فأوحى الله إليه: قُلهنّ سرًا فى نفسك ولا تُبدهنّ للقوم فيدعونى بهنّ. قال: وبهنّ دعا، فرفعه الله عزّ وجلّ مكانًا عليًا. ثم علّمهن اللهُ عزّ وجلّ موسى عليه السلام، ثم علّمهن الله عزّ وجلّ محمدًا ﷺ، وبهنّ دعا فى غزوة الأحزاب.

قال الحسن: وكنتُ مستخفيًا من الحجاج، فدعوتُ اللهَ بهنّ فحبسه عنى، ولقد دخل علىَّ ست مرات، فأدعو اللهَ بهنّ فأخذ الله عزّ وجلّ بأبصارهم عنّى.

---

(١) انظر ص ٢٦ وما بعدها، و ص ٣٥ وما بعدها من هذا الجزء.

(٢) ويسميها بعض أهل الطريق اليوم: «الأسماء السّهرورْدية».

فادعُ الله عزّ وجلّ بهنّ لالتماس المغفرة لجميع الذنوب، ثم سَلْ حاجتك من أمر آخرتك ودنياك، فإنّك تُعطاه إن شاء الله تعالى. فإنّهن أربعون اسمًا عدد أيام التوبة:

سُبحانَك لا إلهَ إلا أنتَ، يا ربَّ كلِّ شيء، وَوارثَهُ، وَرازقَهُ، وراحمَهُ. يا إلهَ الآلهةِ، الرفيعُ جلالُه. يا اللهُ المحمودُ فى كلِّ فعالِه. يا رَحْمنَ كلِّ شيءٍ وَراحمَهُ.

يا حىُّ حينَ لا حَىَّ فى دَيْمُومَةِ مُلْكه وبَقائه. يا قَيّومُ فلا يفوتُ شَىءٌ من علمِه، ولا يَؤُودُه حفظُه. يا واحدُ، الباقى أوّلَ كلِّ شىءٍ وآخرَه. يا دائمُ فلا فناءَ ولا زوالَ لُملكِه. يا صَمَدُ مِن غيرِ شَبيهٍ، ولا شَىء كمثْله.

يا بارُّ فلا شىءَ كفؤه، ولا مكان لوصفه. يا كبيرُ أنتَ الذى لا تَهتدى العُقولُ لوَصْف عظمته. يا بارئَ النفوسِ بلا مثالٍ خَلا مِنْ غَيْرِه. يا زاكى؛ الطّاهرُ من كلِّ آفة بقُدْسِه. يا كافى؛ الموسّعُ لما خَلَق مِن عَطايا فضْلِه. يا نَقيًّا من كلِّ جَوْرٍ لم يَرْضَه، ولم يخالِطْهُ فعالُه.

يا حنّانُ أنتَ الذى وسِعْتَ كلَّ شىءٍ رَحْمةً وعِلْمًا. يا منَّانُ ذا الإحسانِ قد عَمّ كلَّ الخلائقِ مَنُّه.

يا دَيَّانَ العباد، كلٌّ يقومُ خاضعًا لرَهْبتِه [ورغْبَته]. يا خالِقَ مَن فى السموات والأرض، وكلٌّ إليه معادُهُ. يا رحيمَ كلِّ صريخٍ ومكروبٍ وغياثَهُ ومعاذَهُ. يا تامُّ فلا تصفُ الألسنُ كلَّ جلالِه ومُلكه وعزِّه.

يا مُبدعَ البدائِع، لم يبغِ فى إنشائِها عَوْنًا من خَلْقه. يا علاّمَ الغيوبِ فلا يَفُوته شىءٌ من حِفظه ولا يؤوده. يا حليمَ ذا الأناةِ فلا يُعادِلُهُ شىءٌ من خَلْقِه. يا مُعيدَ ما أفناهُ إذا برز الخلائقُ لدعوتِه مِنْ مَخافَته.

يا حميدَ الفعالِ ذَا المنّ على جَميعِ خَلْقه بلُطْفِه. يا عزيزُ؛ المنيعُ الغالبُ على أمره، فلا شىءَ يُعادِلُه. يا قاهرُ؛ ذا البطشِ الشديد، أنت الذى لا يُطاق انْتقامُه. يا قريبُ؛ المتعالى فوقَ كلِّ شىءٍ علوَّ ارتفاعِه. يا مُذلَّ كلِّ جبارٍ عنيدٍ بقَهْرِ عزيزِ سُلْطانِه.

يا نورَ كلِّ شيءٍ وهُداه، أنت الّذى فَلَق الظُّلُمات بنُوره. يا عالى؛ الشّامخُ فوقَ كلِّ شيءٍ علوَّ ارتفاعه. يا قدّوسُ؛ الطّاهرُ من كلِّ سوءٍ، فلا شيءَ يُعادِلُه من جميع خَلْقِه.

يا مُبدئَ البَرايا ومُعيدَها بَعد فَنائها بقُدْرَتِه. يا جليلُ، المتكبِّرُ على كل شيءٍ، فالعدلُ أمرُه والصِّدقُ وَعْدُه.

يا محمودُ، فلا تبلغ الأوهامُ كُنْهَ ثنائه ومَجْدِه. يا كريمَ العفوِ ذا العدل، أنت الذى ملأ كلَّ شيءٍ عَدْلُه. يا عظيمُ ذا الثناء الفاخر، وذا العزّ والمجد والكبرياء، فلا يَذِلُّ عِزُّهُ. [يا قريبُ المجيبُ الدّانى، دون كل شيءٍ قُرْبُه]. يا عجيبَ [الصّنائع] فلا تنطِقُ الألسنُ بكُنْهِ آلائه وثنائِه. يا غِياثى عند كلِّ كُربةٍ، ويا مجيبى عند كلِّ دعوةٍ.

أسألك اللهم يا ربّ الصلاةَ على نبيك محمد ﷺ، وأمانًا من عقوبات الدنيا والآخرة، وأن تحبس عنى أبصارَ الظّالمين، المريدين بى السّوء، وأن تصرف قلوبهم عن شرّ ما يضمرون بى إلى خير ما لا يملكه غيرك.

اللهم هذا الدعاءُ ومنكَ الإجابةُ، وهذا الجهد وعليك التكلان، ولا حول ولا قوّة إلا بالله، وصلى الله على سيّدنا محمد وآله وسلم.

• ذكر دعاء إبراهيم بن أدهم:

حدثنا أحمدُ بن الموصلى الوكيل بن الموكل، حدثنا جعفرُ بنُ نصير الخواص الخراسانى، حدثنى إبراهيم بن بشار خادم إبراهيم بن أدهم، قال: كان إبراهيم بن أدهم يقول هذا الدعاء فى يوم الجمعة إذا أصبح، ويقول إذا أمسى مثل ذلك:

مرحبًا بيوم المزيدِ، والصبحِ الجديدِ، والكاتبِ الشهيد. يومُنا هذا يومُ عيدٍ، اكتب لنا ما نقول. بسم اللهِ الحميدِ المجيدِ الرفيعِ الودودِ الفعّالِ فى خلقهِ ما يُريد.

أصبحتُ باللهِ مُؤمنًا، وبلقائه مُصدِّقًا، وبحُجَّته مُعترفًا، ومن ذنبى مُستغفرًا، ولرُبوبية اللهِ خاضعًا، ولسوى الله عزّ وجلّ فى الإلهية جاحدًا، وإلى الله فقيرًا، وعلى الله متوكلاً، وإلى الله مُنيبًا.

أُشهدُ اللهَ وأُشهدُ ملائكتَه وأنبياءَهُ ورُسُلَه وحملةَ عرشِه ومَنْ خَلَق ومَن هو خالقُه، بأنّه هو اللهُ لا إله إلا هو، وحدَه لا شريك له، وأن محمدًا عبدُه ورسولُه ﷺ، وأنّ الجنةَ حقٌّ، والنارَ حقٌّ، والحوضَ حقٌّ، والشفاعةَ حقٌّ، ومنكرًا ونكيرًا حقٌّ، ولقاءك حقٌّ، ووعدَك حقٌّ، والساعةَ آتيةٌ لا ريب فيها، وأن اللهَ يبعثُ مَن فى القبور. على ذلك أحيا، وعليه أموت، وعليه أُبعث إن شاء الله.

اللهم أنت ربى، لا إله إلا أنت، خَلَقْتنى، وأنا عبدُك، وأنا على عَهْدك ووَعدِك ما استطعتُ. أعوذ بكَ اللهمّ من شرِّ كل ذى شرّ. اللهم إنى ظلمتُ نفسى فاغفر لى ذنوبى، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. واهْدنى لأحسنِ الأخلاق، فإنه لا يهدى لأحسنها إلا أنت. واصرف اللهم يا ربّ عنى سيئَها، فإنّه لا يصرف سيئها إلا أَنت.

لبّيك وسَعْديكَ والخيرُ كلُّه بيديك، أنا لكَ وإليك، أستغفركَ وأتوب إليك. آمنتُ اللهمّ بما أرسلتَ من رسول، وآمنتُ اللهم بما أنزلتَ من كتابٍ. وصلّى اللهُ على سيِّدنا محمد النبى وعلى آله وسلّم كثيرًا خاتَمِ كلامِى ومفتاحِه، وعلى أنبيائه ورسله أجمعينَ، آمينَ يا ربَّ العالمين.

اللهمَّ أوْردْنا حوضَه، واسْقِنا بكأسه مَشْروبًا رويًا سائغًا هنيئًا لا نَظْمأ بعدَه أبدًا، واحْشُرنا فى زُمرته غير خزايا ولا نادمين، ولا ناكثين، ولا مرتابين، ولا مفتونين، ولا مغضوبًا علينا ولا ضالين.

اللّهم اعْصِمْنى من فِتَن الدّنيا، ووفِّقنى لما تحبّ وترضى من العمل، وأصلح لى شأنى كلّه، وثبِّتنى بالقول الثّابتِ فى الحياة الدنيا وفى الآخرة، ولا تُضلّنى وإن كنتُ ظالمًا.

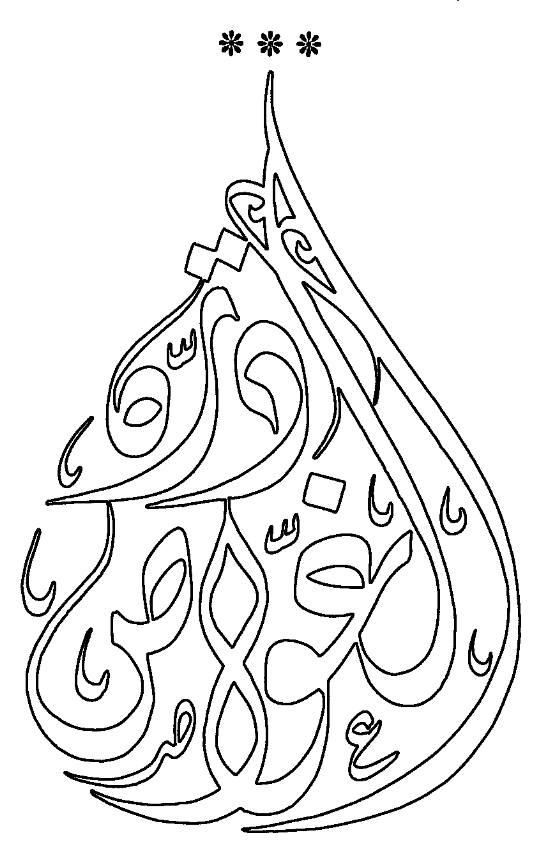
سُبحانَكَ سبحانَكَ يا علىُّ، يا عظيمُ، يا بارُّ، يا رحيمُ، يا عزيزُ، يا جبارُ. سبحانَ من سبَّحت له السموات بأكنافها. وسبحانَ من سبّحت له الجبالُ بأصواتها. وسبحان من سبّحت له البحارُ بأمواجها. وسبحان من سبحتْ له الحيتانُ بلغاتِها. وسبحان من سبّحت له النجومُ فى السماء بأبراقها. وسبحان من سبّحت له الشّجرُ بأصولها ونضارتها. وسبحان من سبّحت له السموات السبع

والأرضون السبع ومن فيهن ومن عليهن. سبحانَك سبحانك يا حيُّ، يا حليم، سبحانك لا إله إلا أنتَ وَحْدَك، لا شريكَ لك، تحيي وتُميت وأنت حي لا تموت، بيدك الخير وأنت على كل شيء قدير.

فإذا دعا بهذه الأدعية الأربع يوم الجمعة، فقد كمّل الله عزّ وجلّ عمله، وتمّم عليه فضله. فإذا عمل بخير ما ذكرناه من الأعمال والأذكار، واجتنب سيِّئ ما ذكرناه من الأقوال والأفعال، فهو من أهل الجمعة، وممن له المزيد بها نصيبًا موفورًا، وكان عمله الخالص وذكره الصادق عند الله عزّ وجلّ مشكورًا، [ولا حول ولا قوة إلا بالله وحده](١).

وهذا آخرُ كتابِ الجمعةِ وهيئاتِها وآدابِها.

* * *



(١) ساقطة من (ط).

الفصل الثانى والعشرون

فيه كتاب الصيام وترتيبه، ووصف الصائمين، وذكر ما يستحب للعبد من الصيام، وطرقات الصائمين فى الصوم، ووصف صوم الخصوص (١)

قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، جاء فى التفسير: الصّبر: يعنى الصوم. وكان رسول الله ﷺ يسمى رمضان شهر الصبر؛ لأن الصبرَ حبسُ النفسِ عن الهوى، وإيقافها وحبسها على أمر المولى. وقد روينا عن النبى ﷺ أنه قال: «الصبر نصف الإيمان، والصومُ نصفُ الصّبر».

وقول الله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ﴾ قيل: معناه: على مجاهدة النفس. وقيل: على مصابرة العدوّ. وقال بعض العلماء: استعينوا بالصّبر على الزّهادة فى الدنيا بالصوم؛ لأن الصائم كالزاهد العابد، فالصومُ مفتاح الزهد فى الدنيا، وباب العبادة للمولى؛ لأنّه منع النفس عن ملاذها وشهواتها من الطعام والشراب، كما منعها الزاهد العابد بدخوله فى الزّهد وشغله بالعبادة. ولذلك جمع رسولُ الله ﷺ بينهما فى المعنى فقال: «إنّ الله عزّ وجلّ يباهى ملائكته بالشّاب العابد، فيقول: أيها الشّاب التاركُ شهوته من أجلى، المبتذل شبابه لى، أنت عندى كبعض ملائكتى». وقال فى الصّائم مثل ذلك، يقول عزّ وجلّ: «يا ملائكتى انظروا إلى عبدى، ترك شَهْوتَه ولذَّته وطعامه وشرابه من أجلى».

ففى الصّوم عونٌ على مجاهدة النفس، وقطعُ حظوظها، ومنعُ عادتها، وفيه إضعافٌ لها ونقصان لهواها. وقال رسولُ الله ﷺ: يقول الله عزّ وجلّ: «كلُّ عمل ابنِ آدم له إلا الصومَ، فإنّه لى وأنا أجزى به». فأضافه عزّ وجلّ إليه تفضيلاً

(١) سيتكلم عن الصوم مرة أخرى فى الفصل الثالث والثلاثين عندما يتكلم عن أركان الإسلام الخمس. وانظر: الإحياء، كتاب أسرار الصوم، ١/ ٢٣٢.

له وتخصيصًا، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لله فَلا تَدْعُوا مَعَ الله أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هذه الْبَلْدَة الذى حَرَّمَهَا﴾ [النمل: ٩١]، فلما كانت المساجد أحب بيوت الدنيا إليه، وكانت مكة أشرف البلاد عنده، أضافها إلى ذكره، وله كل شيء. كذلك لما كان الصيام أفضل الأعمال عنده، وأحبها إليه؛ لأن فيه خُلُقًا من أخلاق الصَّمدية، ولأنّه من أعمال السر بحيث لا يطلع عليه إلا هو، أضافه لنفسه.

وقيل: ما فى عمل ابن آدم شىءٌ إلا ويقع فيه قِصاصٌ، ويذهب برد المظالم، إلا الصوم فإنه لا يدخله قصاص، ويقول الله عزّ وجلّ يوم القيامة: هذا لى فلا يقتص منه أحد شيئًا. يقال: ما من عمل إلا وله جزاء معلوم، إلا الصّوم، فإنه لا تعلم نفس ما جزاؤه، ويكون أجره بغير حساب، يُفرغ له إفراغًا، ويُجازف مجازفة، وهو أحد الوجوه فى قوله عزّ وجلّ: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]. قيل: كان عملهم الصيام. وكذلك فى تأويل قوله عزّ وجل: ﴿السَّائِحُونَ﴾ [التوبة: ١١٢] قيل: هم الصائمون، كأنهم ساحوا إلى ربهم عزّ وجلّ بجوعهم وعطشهم، وتركوا قرّة أعين أبناء الدنيا من أكلهم وشربهم، فآواهم مولاهم فيما أخفى لهم من قرّة أعين جزاءً لعملهم. وقال تعالى: ﴿إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]. قيل: الصائمون.

والصّبر اسمٌ من أسماء الصوم، فلما أخفى ذكره بالصوم فى نفسه أخفى الله عزّ وجلّ جزاءه إياه عن غير نفسه. وفى الحديث: «من ذَكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى». فالصوم ذِكرُ الله عزّ وجلّ، وهو سرّ.

وليس أستحب للعبد أن يزيد على إفطار أربعة أيام نَسَقًا؛ فإن ذلك يقسِّى القلب، ويغيِّر الحال، ويولِّد العادات، ويفتِّق الشهوات. ولأنّه لم يُؤمر، ولم يُندب إلى أن يوالى بين إفطار أكثر من أربعة أيام متوالية، وهى النّحر وأيام التشريق.

ويستحب له أن يصوم يومًا ويفطر يومًا، أو يصوم يومين ويفطر يومين، وذلك صوم نصف الدهر. وإن أحب فليَصُم يومين ويفطر يومًا، وذلك صوم ثلثى الدهر. فإن أحب فليصم يومًا ويفطر يومين، وهذا صيام ثلث الدهر. هذه طريق الصائمين، وفيها روايات حذفنا ذكر فضائلها للاختصار.

فإن صام ثلاثًا من أول الشهر، وثلاثًا من وسطه، وثلاثًا من آخره، فحسن. فإن صام الأثانين، والأخمسة، والجمع، فذلك خير كبير، وأقل من ذلك أن يصوم الأيام البيض، وأول يوم من الشهر، وآخر يوم منه.

وأفضلُ الصيام ما كان فى الأشهر الحُرُم، وأفضل ذلك ما وقع فى العشرين منها، وهو المحرم وذو الحجة. وبعد ذلك ما كان فى شعبان، فإن رسول الله ﷺ كان يكثر الصيام فيه حتى يصله بشهر رمضان. ولا يدع أن يصوم من كل شهر ثلاثة أيام، وليواظب على صوم الاثنين والخميس. وفى الخبر: «أفضلُ الصيام بعد شهر رمضان شهرُ الله المحرم».

وصومُ النصفِ الأول من شهر شعبان مستحب. وقد كانوا يفطرون النصف الأخير منه. وقد روينا خبر: «إذا كان النّصف من شعبان فلا صوم حتى يدخل رمضان». وليفطر قبل رمضان أيامًا، فإن وصَلَ شعبانَ برمضان فجائز. ولا يجوز أن يستقبل رمضان بيومين أو ثلاثة، إلا أن يوافق ذلك يوم اثنين أو خميس قد كان يصومه.

وقد كان بعض الصحابة يكره أن يصام رجب كلّه، لئلا يضاهى به شهر رمضان، وكانوا يستحبون أن يفطروا منه أيامًا.

وقد كَرِه قومٌ صيامَ الدهرِ كلّه، ووردت أخبار فى كراهته. وقد تأوّل ذلك بأنهم كانوا يصومون السّنة كلها مع يوم العيد وأيام التشريق، فوردت الكراهة لذلك. وإن كان يريد صلاحَ قلبه وانكسارَ نفسه واستقامةَ حاله فى صوم الدهر فليصمه[1]، فهو حينئذ كالواجب عليه إذا كان تقواه وصلاحه فيه. فقد روينا عن

(١) أى الدّهر، عدا أيام العيدين والتشريق، فإن المنع فيها ثابت.

سعيد، عن قتادة، عن أبى تميمة الهجيمى، عن أبى موسى الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ: «من صام الدهر ضُيِّقت عليه جهنم، وعقد تسعين». معناه: لم يكن له فيها موضع. وقد دلّت الأصول على فضل صوم الدهر، وقد صامه طبقاتٌ من السّلف الصالح من الصحابة والتابعين بإحسان، إلا أن يكون الرجل يرغب عن السّنة، ولا يرى الرخصة فى الإفطار، فيُكره له صوم الدهر للمعاندة؛ لأن رسولَ الله ﷺ أمر بالسّعة فى الدين، وأخبر [عن] الله عزّ وجلّ بأنه يحب أن يؤخذ برُخَصِه كما يحب أن يؤخذ بعزائمه. وفى لفظ آخر: «يحب أن يؤخذ برُخَصِهِ كما يكره أن تؤتى معصيتُه».

وقد دلّت الأخبار على فضل صومِ نصف الدهر، بأن يصوم يومًا ويفطر يومًا، وذلك ليكون العبد بين حالين: حال صبر، وحال شكر. ومن ذلك ما رُوى عن النبى ﷺ: «عُرضت علىّ مفاتيحُ خزائنِ الدنيا وكنوزُ الأرض فردَدْتُها، فقلت: أجوعُ يومًا، وأشبع يومًا، أحْمدكَ إذا شبعتُ، وأتضرّع إليكَ إذا جعتُ». ومن ذلك قوله ﷺ: «أفضلُ الصيامِ صيامُ أخى داود عليه السلام، كان يصوم يومًا ويفطر يومًا».

ومن ذلك مُنازلتُه عليه السّلام لعبد الله بن عمرو فى الصوم، وهو يقول: إنىّ أريدُ أفضلَ من ذلك. حتى قال له النبى ﷺ: صُم يومًا وأفطر يومًا. قال: أريد أفضل من ذلك. قال: لا أفضل من ذلك.

وروى فى الخبر: «صومُ يومٍ من شهر حرام أفضلُ من صوم ثلاثين يومًا من غيره. وصومُ يوم من رمضان أفضلُ من صوم ثلاثين يومًا من شهر حرام». وفى حديث: «مَن صام ثلاثةَ أيام من شهر حرام الخميس والجمعة والسبت كتب الله تعالى له عبادة سبعمائة عام».

وقد روينا أن النبى ﷺ ما صام شهرًا كاملاً قط إلا رمضان، بل كان يفطر منه. وقد وصل مرةً شعبان برمضان، وفصل صوم رمضان مرارًا من شعبان.

وما ذكرنا من أنواع الصوم فهو صيامُ جماعة من السّلف الصالح، وفى كلٍّ منه ورد فيه فضائلُ يكثر ذكرها. وكذلك فى جميع ما نذكره من أعمالِ القلوب

والجوارح فى الأيام والليالى، وكذلك فيما نذكره من أخلاق الإيمان وأوصاف الموقنين. وقد جاءت فى أكثر ذلك فضائل ومثوبات، إلا أنا لم نقصد تعديد ذلك، وليس مذهبنا الاشتغال بذكر فضائل الأعمال، إنما طريقنا تهذيب قلوب العمال. فبطهارة القلوب وحقيقة الإيمان تزكو الأعمال، ويَقْتربُ العاملون من ذى الجلال، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلىّ العظيم.

• ذكر صوم الخصوص من الموقنين:

اعلم ـ وفقك الله تعالى ـ أن الصومَ عند الصائمين هو صومُ القالب(١).

فأما صومُ الخصوص من الموقنين، فإن الصومَ عندهم هو صوم القلب عن الهِمَم الدَّنِّيَّة، والأفكار الدنيوية. ثم صومُ السمع والبصرِ واللسانِ عن تعدى الحدود، وصومُ اليدِ والرجلِ عن البطش والسّعى فى أسباب النهى.

فمن صام بهذا الوصف فقد أدرك وقته فى جملة يومه، وصار له فى كل ساعة من نهاره وقت، وقد عمر يومه كلّه بالذكر. ولمثل هذا قيل: «نوم الصائم عبادة ونَفَسُه تسبيح»(٢).

وقد قرن الله عزّ وجلّ الاستماعَ إلى الباطل والقولَ بالإثم إلى أكل الحرام، ولولا أن فى المسموعات والمقولات حرامًا على المستمع الإصغاءُ إليه، وحرامًا على القائل النطقُ به، ما قَرَنَهُما إلى أكل الحرام، وهو من الكبائر، فقال تعالى: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة: ٤٢]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ [المائدة: ٦٣].

فالعبدُ الحافظ لحدود الله عزّ وجلّ إن أفطر بالأكل والجماع فهو صائم عند الله فى الفضل للاتّباع، ومن صام عن الأكل والجماع وتعدى الحدود وأضاع فهو مفطر عند الله عزّ وجلّ صائم عند نفسه؛ لأن ما أضاع أحبُّ إلى الله عزّ وجلّ وأكثرُ ممّا

---

(١) العبارة فى (ك) هكذا: «والصوم عند الصائمين لله هو صوم القلب».

(٢) بعده فى (ك) يختلف ترتيب النصوص إلى آخر الفصل عما عليه فى المطبوعة، وهذا لم يؤثر كثيرًا على المعانى.

حفظ. ومَثَلُ مَن صام عن الأكل وأفطر بمخالفة الأمر بسائر الجوارح مَثَلُ مَنْ مَسح كلَّ عضوٍ من أعضائه فى وضوئه ثلاثًا ثلاثًا، ثم صلّى، فقد وافق الفضل فى العدد إلا أنه تارك للفرض من الغُسل، فصلاته مردودة عليه لجهله، وهو مغتر بفعله. وَمَثَل من أفطر بالأكل وصام بجوارحه عن النهى مَثَل من غسَل كلَّ عضو من أعضائه فى وضوئه مرة مرة، فهو تارك للفضل فى العدد إلا أنه مكمِّل للفرض، محسن فى العمل، فصلاته متقبَّلة لإحكامه للأصل، ولعمله بالعلم. ومَثَل مَن صام عن الأكل والجماع، وحفظ جوارحَه عن الآثام، كمثَل مَن غسل كل عضو ثلاثًا ثلاثًا، فقد تمّم الفرض وأحسن بتكملة الفضل، فهذا كما قال تعالى: ﴿تَمَامًا عَلَى الّذِى أَحْسَنَ﴾ [الأنعام:١٥٤]. وكما قال رسول الله ﷺ فى الوضوء كذلك: «هذا وضوئى، ووضوء الأنبياء من قبلى، ووضوء أبى إبراهيم عليه السلام». وقد قال الله تعالى: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبراهيمَ﴾ [الحج:٧٨] أى: عليكم بها، فائتموا واقتدوا به فيها.

وقد روينا عن النبى ﷺ: «الطاعم الشّاكر بمنزلة الصّائم الصابر».

وجاء فى الخبر: أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله ﷺ، فأجهدهما الجوعُ والعطشُ فى آخر النهار، حتى كادتا أن تتلفا، فبعثتا إلى رسول الله ﷺ يستأذناه فى الإفطار، فأرسل إليهما قدحًا، وقال: قل لهما قيئا فيه ما أكلتما! قال: فقاءت إحداهما نصفه دمًا غبيطًا ولحمًا عريضًا، وقاءت الأخرى مثل ذلك، حتى ملأتاه. فعجب الناس من ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «هاتان صامتا عمّا أحل الله عزّ وجلّ لهما، وأفطرتا على ما حرم الله عزّ وجلّ عليهما، قعدت إحداهما إلى الأخرى فجعلا يغتابان الناس، فهذا ما أكلا من لحومهم».

وكان أبو الدّرداء يقول: يا حبّذا نومُ الأكياس وفطرهم، يعيبون صومَ الحمقى وسهرهم، ولَذرّة من ذى يقين وتقوى أفضلُ وأرجح من أمثال الجبال من عبادة المغترّين.

وكلُّ محظورٍ عليك أن تتفوّه به فمحظور عليك أن تستمع إليه. وكلُّ حرام

عليك أن تفعله فمكروه أن تنظر إليه أو يخطر ببالك. وقد سوّى الله عزّ وجلّ بين المستمع والقائل في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠].

ومَثَل الصيام مَثل التوبة؛ لأنّ الصّبر من أوصافها، وإنّما كانت التوبة مكفِّرةً لما سلف من السيئات لأجل أنه صبر عما سلف من سيىء العادات، ثم اعتقد تَرْكَ العَوْدِ إلى مثل ما سلف، بصيانة جوارحه التي كانت طرائق المكروهات. كذلك كان الصيام جُنّةً من النار، وفضيلةً من درجات الأبرار؛ إذا صبر عليه الصائمُ، فحفظ جوارحَه فيه من المآثم، فإذا أَمْرَحَها[1] في الآثام كان كالتائبِ المتردد، الناقضِ للميثاق، لم تكن توبته نصوحًا، ولا كان صوم هذا صالحًا وصحيحًا، ألا ترى إلى قول رسول الله ﷺ: «الصوم جُنّة مِن النّار ما لم يخرقها بكذب أو غيبة». وأمره في قوله عليه السلام: «إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفُث ولا يَجْهل، وإن امرؤ شاتمه فليقل إني صائم». وفي لفظ آخر: «لا يجعل يوم صومه ويوم فطره سواء» أي يتحفّظ في صومه لحرمته. وفي خبر آخر: «الصوم أمانة، فليحفظ أحدُكم أمانَته»، فحفظُ الأمانة من صيانة الجوارح، لقول النبي ﷺ لما تلا هذه الآية: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]، وضع يده على سمعه وبصره، فقال: «السمع أمانة، والبصر أمانة». فذلك مجاز.

قوله «فليقل إني صائم»: أي يذكر الأمانة التي حمل فيؤديها إلى أهلها، ومن حفظ الأمانة أن يكتمها، فإن أفشاها من غير حاجة فهي خيانة، لأن مودعها قد لا يحب أن يظهرها، وحقيقةُ حفظ السرّ نسيانه، وضياع السرّ أن يكثر خزانه، فحقيقة الصائم أن يكون ناسيًا لصومه لا ينتظر الوقت شغلاً عنه بالمؤقت.

* * *

(١) أي جعلها تمرح وترتع في المعاصي دون محاسبة أو رقيب.

الفصل الثالث والعشرون

فيه كتاب محاسبة النفس ومراعاة الوقت [(١)]

قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ إلى قوله: ﴿أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقرئت: «آتينا بها» ممدودة، أى: جازينا بها، فالتخويف بهذا الحرف أشد وأبلغ. وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ [الزلزلة: ٦] الآية.

وأوصى أبو بكر عمرَ رضى الله عنهما عند موته، فقال: إن الحقَّ ثقيل وهو مع ثقله مرىء، وإن الباطل خفيف وهو مع خفته وبيىء. وإن لله عزّ وجلّ حقًا بالنهار لا يقبله بالليل، وحقًا بالليل لا يقبله بالنهار، وإنك لو عدلت على الناس كلهم وجُرت على واحدٍ منهم لمال جورُك بعدلك. فإن حفظت وصيتى لم يكن شىء أحبّ إليك من الموت وهو مُدرِكُك، وإن ضيَّعتَ وَصِيَّتى لم يكن شىء أبغضَ إليك من الموتِ ولن تُعجزه.

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: حاسِبُوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا، وتزيّنوا للعرض الأكبر على الله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨]، وإنّما خفَّ الحسابُ فى الآخرة على قوم حاسبوا أنفسهم فى الدنيا، وثقلت موازين قوم فى الآخرة وزنوا أنفسهم فى الدنيا، وحق لميزان لا يُوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلاً.

وأوصى رسول الله ﷺ أبا ذر فقال له: «اتّق اللهَ أينما كنتَ، وأتْبعِ السيئةَ الحسنةَ تمحها، وخالقِ الناسَ بخُلُقٍ حسن».

---

(١) فى (ك): «هذا كتاب محاسبة النفس ومراعاة الوقت». ويوجد اختلاف فى ترتيب المادة بين المخطوط والمطبوع فى مواضع كثيرة، ويوجد أيضًا نقص فى محتويات المخطوط واختصار أحيانًا. وانظر فى المحاسبة: الإحياء ٤/ ٤٠٤ ـ ٤٢٢، كتاب المراقبة والمحاسبة.

ووجدت هذه الوصية فى كتاب الله عزّ وجلّ لعباده بقوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ﴾ [النساء: ١٣١]. والكلمة الثانية فى قوله تعالى: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ [الرعد: ٢٢] أى يدفعون بعمل الحسنة ويتبعونها السيئة المتقدمة تكفرها. والكلمة الثالثة فى قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]. وقد أخبر الله عزّ وجلّ عن وصية عباده الصالحين بثلاث فقال: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ أى: لفى خسران ونقص بفوت أوقاته وفقد أرباحه، ثم استثنى فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٢ ـ ٣]. وقال فى الوصف الثالث: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: ١٧].

واتباعُ الحق بمخالفة الهوى فيه الصلاح؛ إذ فى موافقة الهوى الفساد. والصبرُ قِوامُ الأمر، وبمقداره يكون الربح. والرحمةُ للخلق بابُ الرحمة من الخالق، ومفتاح حسن الخلق، ومعها حسن الظن وسلامة القلب، وعندها ينتفى الحسَد والغلّ، ويُوجد التواضع والذل؛ وهذا وصف أصحاب رسول الله ﷺ الذين اختارهم الله لصحبة نبيه عليه السلام، وأنزل عليهم السكينة وأيدهم بروح منه، فقال: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]. وقال تعالى فى حقيقة الرحمة: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤]، وقال فى مثله عن وصف أحبابه لإخوانهم: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]. فهذه الثلاث مفاتيحُ رقة القلب ومغالقُ القسوة. وفى الرقَّة الإقبال على الله عزّ وجلّ، وعلى الدار الآخرة، والتيقظ لأمره، والتفكُّر فى وعده ووعيده. وفى القسوةِ الإعراضُ وطولُ الغفلة. فمحاسبة النفس تكون بالورع، وموزنتها تكون بمشاهدة عين اليقين، والتزيُّن للعرض الأكبر يكون بمخافة الملك الأكبر، وهو حقيقة الزهد.

وروينا عن على رضى الله عنه: أما بعد، فإن المرء يَسُرُّه دَرْكُ ما لم يكن ليفوته، ويسوءه فَوْتُ ما لم يكن ليدركه. فما نالك من دنياك فلا تكترث به فرحًا، وما فاتك منها فلا تتبعه نفسك أسفًا. وليكن سرورُك بما قدَّمت، وأسفُك

على ما خلّفت، وشغلُك لآخرتك، وهمُّك فيما بعد الموت. وقال أيضًا: الهوى شريكُ العمى، ومن التوفيق الوقوفُ عند الحيرة، ونعم طاردُ الهم اليقين، وعاقبة الكذب الذم، وفى الصدق السلامة. ربّ بعيد أقرب من قريب، وغريب من لم يكن له حبيب. والصديق من صدق غيبه، ولا يعدمك من حبيب سوء الظن. نِعم الخُلق التكرم، والحياءُ سبب إلى كل جميل. وأوثق العرى التقوى، وأوثق سبب أخذت به نفسك سببٌ بينك وبين الله عز وجلّ. إنّما لك من دنياك ما أصلحت به مثواك. والرزق رزقان: رزق تطلبه، ورزق يطلبك، فإن لم تأته أتاك. وإن كنتَ جازعًا على ما أتلفت من يديك فلا تَجْزَعَنَّ على ما لم يصل إليك، واستدللْ على ما لم يكن بما كان، فإن الأمور أشباه.

وقال عبد الله بن عباس: لكل شىء آفةٌ، وآفةُ العلم النسيان، وآفة العبادة الكسل، وآفة اللُّب العُجْب، وآفة الظَّرْف الصَّلَف[1]، وآفة التجارة الكذب، وآفة السخاء التبذير، وآفة الجمال الْخُيلاء، وآفة الدين الرياء، وآفة الإسلام الهوى.

وقال رسولُ الله ﷺ: «آفة أمتى الدينار والدرهم». وروينا عن وبرة السّلمى عن مجاهد قال: أوصانى ابنُ عباس بخمس، لَهُنَّ أحسنُ من الدرهم الموقوف ومن الذهب الموصوف. قال: لا تتكلمنّ فيما لا يعنيك؛ فإنّه أقرب لك من السلامة، ولا آمن عليك الخطأ. ولا تتكلمنّ فيما يعنيك حتى ترى له موضعًا، فرُبَّ متكلم فيما يعنيه قد وضعه فى غير موضعه، فلقى عَنَتًا. ولا تُمارِينَّ حليمًا ولا سفيهًا، أما الحليمُ فيَقْلِيك، وأما السّفيه فيُؤذيك. واخْلُف أخاك إذا غاب عنك بمثل ما تحب أن يخلفك به إذا غبتَ عنه، واعفه مما تحب أن يعفيك منه. واعمل بعمل رجل يعلم أنه مُكَافَأ بالإحسان مأخوذ بالإساءة.

وفى وصية العباس لابنه عبد الله قال: يا بنى، إنى أرى هذا الرجل يقدّمك على الأشياخ ويكرمك، فاحفظ عنّى هذه الخصال: لا تفشينَّ له سرًا، ولا تَعصينَّ له أمرًا، ولا تغتابنّ عنده أحدًا، ولا يطَّلعن منك على خيانة، ولا يُجرِّبن عليك كذبة.

---

(١) الظرف: البراعة وذكاء القلب. الصلف: مجاوزة القدر فى البراعة تكبرًا.

هذا فى روايتين، دخلت إحداهما فى الأخرى، قال فى إحداهما: قلت للشّعبى: كل واحدة منهن خير من ألف. فقال: كلّ واحدة منهن خير من عشرة آلاف.

وقال يوسف بن أسباط: كان يقال: ثلاث من كنّ فيه فقد استكمل إيمانه: مَن إذا رضى لم يُخرجه رضاه إلى باطل، وإذا غَضِب لم يخرجه غضبه عن حق، وإذا قَدِرَ لم يأخذ ما ليس له.

وقد رويناه مسندًا من طريق.

وقال سريٌّ بن المغلس: ثلاثٌ يستبين بهن اليقين: القيام بالحق فى مواطن الهلكة، والتسليم لأمر الله عزّ وجلّ عند نزول البلاء، والرضا بالقضاء عند زوال النعمة. نعوذ بالله منه.

وقد روينا عن النبى ﷺ: «ثَلاثٌ مَن كُنّ فيه اسْتكملَ إيمانه: لا يخاف فى الله لومة لائم، ولا يرائى بشىء من عمله، وإذا عُرض عليه أمران أحدهما للدنيا والآخر للآخرة؛ آثر الآخرة على الدنيا».

وفى الخبر المشهور: «ثلاثٌ منجيات، وثلاث مهلكات. فأما المنجيات: فخشيةُ الله فى السر والعلانية، وكلمةُ العَدْلِ فى الرضا والغضب، والقصدُ فى الغنى والفقر. وأما المهلكاتُ: فشحٌّ مطاع، وهوًى متّبع، وإعجابُ المرء بنفسه».

وروينا فى الخبر: «التكرمُ التقوى، والشرفُ التواضع، والغنى اليقين». وفى الحديث الآخر: «الإيمان عريان؛ ولباسه التقوى، وزينته الحياء، وثمرته العلم».

وفى حديث عمار أسنده إلى رسول الله ﷺ: «كفى بالموت واعظًا، وكفى بالخشيةِ عِلمًا، وكفى باليقين غِنًى، وكفى بالعبادة شُغلاً».

وروينا عن رسول الله ﷺ سيد الخطباء، وخطيب الخطباء، وحكيم الحكماء، فى خطبة الوداع، كلمات جامعات موجزات، فى الوعظ والتذكرة والتزهد والتبصرة، وينتظم جميع معانى ما قيل فى معناها، رواه أبان بن عياش، عن أنس ابن مالك، أن رسول الله ﷺ خطب على ناقته فقال: «يا أيها الناس، كأنّ الموتَ

فيها على غيرنا كُتبَ، وكأن الحقَّ فيها على غيرنا وَجَبَ، وكأن مَنْ نُشيِّع من الأموات سَفْرٌ عمّا قليل إلينا راجعون، نبوِّئهم أجداثهم، ونأكل تراثهم، كأنّا مخلَّدون بعدهم، قد نسينا كل واعظة، وأَمِنَّا كلَّ جائحة. طوبى لمن شغله عيبُ نفسه عن عيوب الناس، وأنفق من مالٍ اكتسبه من غير معصية، ورحم أهلَ الذلِّ والمسكنة، وخالط أهلَ الفقه والحكمة. طوبى لمن أذلَّ نفسه، وحَسُنَتْ خليقته، وصَلُحَتْ سريرته، وعزل عن الناس شرَّه. طوبى لمن عمل بعلمه، وأنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من قوله، ووسعته السُّنَّة، ولم يَعْدُها إلى بدعة».

وقد روى عنه ﷺ حديث جامع لهذه المعانى المبثوثة، مختصر فى اللفظ والمعنى، يقال إنه نصف العلم، وهو قوله: «من حُسْن إسلامِ المرءِ تَرْكُه ما لا يَعنيه». وما لم يُؤمر به العبد فرضًا، ولم يُندب إليه فضلاً، ولا يحتاج إليه مباحًا، فهو مما لا يعنيه.

وفى حديث آخر، هو نصف الورع، قوله ﷺ: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الإثم حوّاز القلوب» أى: دع ما تَشْكُنّ فيه من قول أو فعل، فإن فيه غنيمة أو سلامة إلى شىء أنت على يقين من الفضيلة فيه أو السلامة معه، وما حزّ فى قلبك ولم ينشرح له فدَعْه، فإن ذلك إثم، وإن قلَّ ودقَّ.

وقد روينا عنه ﷺ فى الوصف المبسوط من أوصاف المؤمنين، كوصف الله تعالى أولياءه فى الكلام المشروح، أنه بينا هو جالس ﷺ بين أصحابه إذ سجد فأطال، ثم رفع رأسه مادّاً يديه، فقال: اللهم أَكْرِمنا ولا تُهنّا، وزدنا ولا تنقصنا، وأعزّنا ولا تذلّنا. قلنا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: أُنزلت علىَّ آيات مَنْ أقامها دخل الجنة، ثم تلا علينا: ﴿قد أَفْلحَ المؤمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١] إلى آخر العشر.

وروينا عنه ﷺ فى حديث مجمل أن رجلاً سأله، فقال: يا رسول الله، متى أعلم أنّى من أهل الجنة؟ ـ وفى لفظ آخر: أنى مؤمن حقًا ـ فقال: إذا كنت بهذه الأوصاف، ثم تلا عليه: ﴿قد أَفْلحَ المؤمِنُونَ * الذينَ هُم فى صَلاتِهِم خَاشِعُونَ﴾ إلى آخر النعوت.

وروينا عنه ﷺ فى الوصف الجامع المختصر، كوصف الحكيمِ الأكبر مَن صلُح له من عباده بالإخلاص فى التوحيد والعمل، فقال ﷺ: «لو لم تنزلْ علىّ إلا هذه الآية كانت تكفى[١]. ثم قرأ آخر سورة الكهف: ﴿**فَمَنْ كَانَ يَرْجُواْ لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا**﴾ [الكهف: ١١٠] إلى آخرها». فكان هذا فصل الخطاب، وبلاغًا لأولى الألباب.

فالعملُ الصالح بالإخلاصِ[٢] فى العبادة، ونفى الشرك بالخلق؛ هو اليقين بتوحيد الخالق. وقد قال الله، وهو أحسنُ القائلين، فى وصف أوليائه الخائفين: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ**﴾ إلى قوله: ﴿**وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ**﴾ [المؤمنون: ٥٧ ـ ٦١]. فوصفهم بسبع مقامات جامعات بالغات، تنتظم بمقامات أهل المحاسبة، وتستحوذ على معانى أحوال أهل المراقبة. افتتحها بالخشية والإشفاق، وختمها بالوَجَل والإنفاق، وجعل موجبها اليقين، وهو الذى رجحت به موازين المتقين، صيّره آخر وصفهم ونهاية نعتهم، وهو قوله تعالى: ﴿**أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ**﴾ [المؤمنون: ٦٠]، أى لأجل يقينهم بمرجعهم إليه خافوه وأشفقوا وآمنوا به، وأخلصوا وأتوه نفوسهم وأموالهم، فهذا كقوله فى الكلام المختصر: ﴿**وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [البقرة: ٢٢٣]، فللخائفين الأمن من الخوف عند اللقاء، وحسن المنقلب والبشرى بالقرب لديه والزلفى.

فصورةُ المحاسبة: أن يقفَ العبدُ وقفةً عند ظهورِ الهمّة، وابتداءِ الحركة، ثم يميِّز الخاطرَ وهو حركةُ القلبِ، والاضطرابَ وهو تصرف الجسم. فإن كان ما خطرَ به الخاطرُ من الهمّة التى تقتضى نيةً، أو عقدًا، أو عزمًا، أو فعلاً، أو سعيًا؛ إن كان لله عزّ وجلّ وبهِ وفيه، أمضاهُ وسارع فى تنفيذِه[٣]. وإن كان لعاجلِ دنيا،

(١) فى (ك): «لكفتنى».
(٢) فى (ط): «الإخلاص» وما أثبتناه من المخطوط أدق وأصح.
(٣) كان ثَمَّ اضطراب وتكرار فى (ط) قومته من (ك).

أو عارضِ هوى، أو لهوٍ وغفلةٍ سرَى بطبعِ البشريةِ ووصفِ الجَبلية، نفاهُ وسارعَ فى نفيهِ، ولم يمكّن الخاطرَ من قلبهِ بالإصغاءِ إليه، والمحادثةِ له، فيولّد فيه همًّا رَديًّا يصعب عليه بعد حينٍ طرحُه، وينتج منه فِكرًا دَنِيًّا يعسر بعد وقتٍ نفيه، ويؤثر ذلك فى قلبه أثرًا يستبين له بعد حينٍ فعلُه.

معنى قولنا «إن كان لله تعالى»: أى خالصًا لأجله. ومعنى قولنا «به»: أى بمشاهدة قربه، لا بمقارنة نفسه ووصفه وهواه. ومعنى قولنا «فيه» أى: فى سبيله وطلب ما عنده، لا لأجل عاجل حظه[1].

فإن اشتبه عليه الخاطر، فلم ينكشف له ما ورد به، أمحمودٌ هو لله عز وجلّ فيه رضاه وعلى العبد فيه سبق وتنفيذ، أم مكروه وليس لله فيه محبة وللعبد فى نفيه مزيد وقربة؟ فيكون إشكال ذلك لأحد معان ثلاث: ضَعْف يقينٍ عن نقص معرفة بالمبتلى، أو قلة علمٍ عن جهل بغامض الحكم الباطل، أو لغلبةِ هوًى كامنٍ فى النفس متولد من طبائع الحس. وقد قال بعض العلماء: ليس العالمُ الذى يعرف الخير من الشر، هذا الجاهل يعلمه[2]، ولكنّ العالمَ مَن يعرف خيرَ الشّرين؛ يعنى يفعله إذا اضطر إليه، وَعَرف شرَّ الخيرين؛ يعنى فاجْتنبه لما يؤول إليه.

واعلم أنَّ حكمَ الله فيما اشتبه من الأمور الإمساكُ والوقوفُ، وأن لا يُقْدم العبدُ على ذلك بعَقْدٍ ولا عزم إن كان من أعمال القلوب، ولا يُمضى ذلك بفِعْل ولا سَعْى إن كان من عمل الجوارح، بل يقف ويُوقف الأمرَ حتى يتبين له. وهو صورة الورع، لأن الورع هو الجبن والتأخر عن الإقدام على المشكلات، وعن الهجوم على الشبهات[3]، لا بقول ولا بفعل ولا بعقد حتى تنكشف، وانكشافها بغامض العلم لغموضها، وتدقيق معرفة المعانى لدقتها وخفائها، كما جاء فى الخبر: «أعلمُ الناسِ أعرفُهم بالحق إذا اختلف الناس». وعن النبى ﷺ: «إن الله

---

(١) هذا الشرح تكرر فى المطبوعة فى ثنايا الفقرة السابقة، وليس كذلك فى (ك).

(٢) فى (ط): «هذا العاقل يعرفه» وأثبت ما فى (ك).

(٣) فى (ك): «لأن الورع هو الجبن والتأخر عن الإقدام على الشبهات، وعلى الهجوم على المشكلات». و«على» الثانية من (ك) وهى فى (ط): «فى الشبهات».

عزّ وجلّ يحب البصيرَ الناقِدَ عند ورود الشبهات، والعقلَ الكاملَ عند هجوم الشّهوات».

وجاء عن ابن مسعود فى وصف كثرة الشُّبهات: أنتم اليومَ فى زَمَنٍ خيرُكم فيه المسارع، وسيأتى عليكم زَمان يكون خيرُكُم فيه المتثبِّت[1].

كما وقف طائفة من الصحابة عن القتال مع أهل العراق وأهل الشام، لمّا أشكل عليه الحال، منهم: سعد، وابن عمر، وأسامة، ومحمد بن مسلمة، وغيرهم.

فمن لم يتوقف عند الشبهات وأقدم عليها كان متبعًا لهواه، معجبًا برأيه، وهذا من معنى الخبر الذى جاء فى ذم من كان هذا وصفه: «فإذا رأيتَ شُحًا مطاعًا، وهوًى متبعًا، وإعجابَ كل ذى رأيٍ برأيه، فعليك بخاصة نَفْسك».

فلم يذم بوجود الشح؛ لأنّه صفة النفس، وإنّما ذمّ من أطاع النفس فى شحّها، بإمساك محبوبها على إيثار محبة الله عزّ وجلّ من الإنفاق. ومثله: «وهوى متبع»، فلم يعب بوجود الهوى، لأنه روحُ النفس، مستكن فيها، وإنما عيب باتباعه. وكذلك قوله: «وإعجاب كلّ ذى رأى برأيه»، لم ينقصه وجود رأيه ممّا رآه من الأمر، لأنه نتيجة عقله وثمرة فهمه، وإنما نقصه بنظره إليه وإدلاله به، دون سبق نظره إلى من أراه، وبنور هداه، وبإيثار رأيه على رأى من هو أعلم منه، أو بأن يُزرى على رأى غيره افتخارًا برأيه. وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم:٣٢]. وقد وصف أهل الرأى من أوليائه فى قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر:٧٥]. وقال تعالى: ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف:١٠٨].

وجاء فى الأثر: «ما رآه المؤمنون حسنًا فهو عند الله حسن، وما رآه المؤمنون قبيحًا فهو عند الله قبيح». وجاء: «أنتم شهداء الله فى أرضه». وعن بعض السلف: أفضلُ العبادة الرأىُ الحسن.

فأما ما أشكل، لتجاذب الأمثال، ولم يتبين لك إلى أى مَثَل ترده، فالورعُ أن

(١) فى (ط): «المثبت» وأثبت ما فى (ك).

تقف ولا تمضى حتى ينكشف.

وأما ما اشتبه لقصور العلم بالاستدلال، فالعلم فيه أن تعرف الأصلين من الحرام والحلال، ثم تردّه إلى أشبههما به، وهذا ظاهر، مثل ما أحلّت طائفةٌ النظرَ إلى الغلام الجميل، لأنه ذَكَرٌ، فتحتاج إلى أن ترده إلى أحد الأصلين، لأنه مشتبه، قال الله عزّ وجلّ: ﴿**انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ**﴾ [الأنعام:٩٩]، وقال: ﴿**قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ**﴾ [النور:٣٠]، فكان هذا الأصل أشبه لوجود الجنس.

ومثله الاستماع إلى القصائد، أى إنشاد الشعر المباح، فكان الاستماع إلى القرآن حلالاً، والاستماع إلى الغناء حرامًا، وكانت القصائد بالغناء أشبه، فكرهناه لغير أهله.

وكذلك القول فى تلحين القرآن: إذا جاوز الحدّ فى مد المقصور، وقصر الممدود، مكروه لشبهه بالأغانى. ومثل لبس القطن ولبس الحرير، فكرهنا لبس المُلْحَمِ[1] والعمل به؛ لأنّه بالحرير أشبه، لما فيه منه.

فأما الإقدام على الأمور الغامضة، مما لم ينكشف للأسماع فلم يظهر للأبصار، فإنّ القلوب تُسأل عن عُقود سوءِ الظن بها، والقطعِ بظاهر الأمر عليها، وهو معنى قول الله عزّ وجلّ عن قَفْو ما لم يبين علمه إذا لم يُجعل من علم العبد وتهدده عليه بمساءلة الجوارح عنه، فى قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ**﴾ أى لا تتبع ولا تجسس أثر ما لم تعلم، فتشهد عليه بسمع أو رؤية أو عقد قلب، إذ حقيقةُ العلم: السّمعُ أو المشاهدةُ، فلذلك قال: ﴿**إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً**﴾ [الإسراء:٣٦]. وكذلك قال رسول الله ﷺ: «إياكم والظّنّ، فإن الظنّ أكذبُ الحديث». فمن اشتبه عليه الأمر فقطع به فهو متبع للهوى، ومَن تفرّس فى فعلٍ أو أمرٍ غابَ عنه حقيقته، فأخبر به وأظهره على صاحبه، فقد أساء كثيرًا.

(١) المُلْحَم: جنس من الثياب.

وقد جاء فى الخبر: «من حدّث بما رأتْ عيناه، أو سمعتْ أُذُناه، كتبه الله عزّ وجلّ من الذين يُحبّون أن تشيعَ الفاحشة فى الذين آمنوا». هذا لكشفِ ستر الله على عباده، ومحبته للسّاترين منهم.

ولذلك كان من دعاء أبى بكر الصديق رضى الله عنه: اللهم أرِنا الحقّ حقًا فنتبعه، والباطلَ باطلاً فنجتنبه، ولا تجعل ذلك علينا متشابهًا، فنتبع الهوى.

وكذلك رُوينا عن عيسى عليه السلام: إنّما الأمورُ ثلاثة: أمرٌ استبانَ لك رُشدُه فاتّبعه، وأمر استبانَ غيُّه فاجْتنبه، وأمرٌ أشْكَل عليك فكلْه إلى عالمه.

وقد كان من دعاء علىٍّ رضى الله عنه: اللهم إنى أعوذ بك أن أقول فى العلم بغير علم به.

فنعمةُ الله سبحانه وتعالى فى كشف الباطلِ باطلاً وبيانِ الضلال ضلالاً مثْلُ نعمه فى إظهار الحق، وبيان الصدق؛ لأنه باب من اليقين، ولذلك تجمَّل اللهُ به على نبيه ﷺ، وجعله من تفصيل آياته، فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ**﴾ [الأنعام:٥٥]، فنَصْبُ «سبيل» على إضمار اسمه، ورفعه على كشف دلالاته وتبيان طرقه.

وقد وعد اللهُ ذلك للمتقين، وقدّمه على تكفير السيئات والمغفرة، وأخبر أن ذلك من الفضل العظيم، فى قوله عزّ وجلّ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ**﴾ [الأنفال:٢٩] أى: نورًا فى قلوبكم تفرقون به بين الشبهات. ومثله: ﴿**وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا**﴾ أى: من كل أمر أشكل على الناس، ﴿**وَيَرْزُقْهُ مِن حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ**﴾ [الطلاق:٢ ـ ٣] علم بغير تعليم، بل إلهام وتوفيق من لدن الخبير العليم. وقد وعد الله ذلك المؤمنين عند اختلاف العلماء، للبغى بينهم، وهو الكبر والحسد، وحرَّم ذلك على المنافقين الذين لا يصدّقون بالآيات والقُدَرِ الغائبات[1]، فقال عزّ وجلّ فى ذلك: ﴿**وَمَا اخْتَلَفَ**

(١) القُدَر: جمع قُدْرة. الغائبات: الغيبة.

فيه إلاَّ الَّذينَ أُوتُوهُ منْ بَعْد مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فهَدَى اللهُ الّذين آمَنُوا لمَا اخْتَلفُوا فيه منَ الحَقِّ بإذْنه﴾ [البقرة:٢١٣]، فصُنع الهداية للحق أن يكشف الحقّ إذا هدى التقى له، ما يبدئ الباطل للابتلاء وما يعيد على العبد من الأحكام.

وقد يكون الباطل اسمًا للعدوّ، ويكون وصفًا للنفس، ألم تسمع قوله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ جَاءَ الحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ البَاطِلُ وَمَا يُعيدُ﴾ [سبأ:٤٩] أى: لما جاء الحق أبدى الباطل وأعاده، فأظهر حقيقة الأمر بدءًا وعودًا. وقد قيل: إن الباطل يعنى به إبليس ههنا، فتدبروا. وقال: ﴿إنَّ الذينَ لا يُؤْمنُونَ بآيَات الله لا يَهْديهمُ اللهُ﴾ [النحل:١٠٤].

وكما أن الله عزّ وجلّ [ذَكَرَ أنَّ] فى البيان نعمة، لأنه لا يقع إلا بقُدرة، كما قال: ﴿فلمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَال أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيء قَديرٌ﴾ [البقرة:٢٥٩]، فكذلك على العبد فيه شكر قد يكون سببًا للإنعام بالبيان، وعلى الله المزيدُ على الشكر، كما قال: ﴿كَذلكَ يُبيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاته لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة:٨٩]. وقال فى تحقيق الشكر بالمزيد للشاكرين على التصريف: ﴿كَذَلكَ نُصَرِّفُ الآيَات لقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف:٥٨].

فإذا تَوَقَّف العبد فى الشّبهات عن الإمضاء، وأوقف الخاطر على الابتداء، حتى يكشفه الله عزّ وجلّ له بمزيد علم أو قوة يقين أو كشف حجاب الهوى، فقد وُفِّق للصّواب، وهو من معنى قوله عزّ وجلّ: ﴿وآتَيْنَاهُ الحكْمَةَ وَفَصْلَ الخطَاب﴾ [ص:٢٠] وداخل فى قوله: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الحكْمَةَ فَقَدْ أُوتىَ خَيْرًا كثيرًا﴾ [البقرة:٢٦٩]. هذا إذا لم يُردْهُ بالطلب، ولم يجعل لعالم آخر فيه مكانًا، كشفه للعبد بوصفه، فإذا أراده بالطلب لأوليائه، وجعل للعلماء مكانًا للدلالة عليه، اضطره أن يسأل عالمًا بالله وبباطن أحكامه، عارفًا بلطيف حجابه وخفى كَشْفه، فيكشف له على لسانه إذا لم يكن العبد ممن يكاشف بقلبه، لتحقيق قوله: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣]، ولتصديق قوله: ﴿الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ به خَبيرًا﴾ [الفرقان:٥٩].

والله تعالى هو المسيّر الأوّل، والمبيّن الآخر، إلا أن السّير والسؤال على العبد، والهدى والبيان على الهادى المبين، كما قال: ﴿قُلْ سيرُوا فى الأرْضِ فَانْظُرُوا﴾ [النمل:٦٩]، وقال تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِى شَكٍّ ممَّا أنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذين يَقْرَءُونَ الكِتَابَ﴾ [يونس:٩٤] الآية، وقال تعالى: ﴿إنَّ عَلَيْنَا بيَانَهُ﴾ [القيامة:١٩]، ﴿إنّ علَينا لَلهُدَى﴾ [الليل:١٢]، ﴿وعلى الله قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل:٩].

كذلك سننه التى قد خلت من قبل، ولا تبديل لها ولا تحويل. ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة:٣١]. فهذا هو المجتَبى للتعليم، الآخذُ نصيبه من الله عزّ وجلّ، بتفهيم المصطفى لمكان التخصيص. ثم قال: ﴿يَا آدَمُ أنبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِم فلمّا أنبأهُم بأسْمائِهِم﴾ ترك آدمَ، وردّ إليه، وذكر نفسه بالعلم منه بعد أن دلّ بالواسطة عليه، فقال: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُم إنى أعْلَمُ﴾ [البقرة:٣٣] ولم يقل: إن آدم يعلم، فأخذ آدم نصيبه من رازقه بقلبه لمكان رتبته، وأخذت الملائكة أنصبتها من الله عزّ وجلّ من نصيب آدم بواسطته، والله هو الرزاق ذو القوة المتين، كما هو الخلاّق: ﴿هَلْ مِن خَالقٍ غيرُ اللهِ يَرْزُقُكم﴾ [فاطر:٣]؟

والعبيد يأخذون أنصبتهم بأقسامهم من حيث هى طرق وسبب لهم، وهذا حينئذ أول المحاسبة عن مشاهدة حسيب، والتّحقيق بالمحاسبة هو أول المراقبة عن رؤية رقيب، والمقام من المراقبة هو حال من أحوال الموقنين، وعلم اليقين هو آخر علم الإيمان، وآخر نصيب العبد من علم اليقين ـ أعنى نهايته ـ أوّل عين اليقين، وهو شهادة المعرفة. والمعرفةُ على هذا الوصف أوّلُ المشاهدة، وهذا هو مقام المقربين، أعنى بمشاهدة وصفِ قريبٍ يحيط بِبُعد النفس فيستولى عليها، فيغيب بعدها فى قُربهِ، ويَنتبه عقلُه تحت ظنه، وتنطوى حكمتُه فى قدرته، كمَحْوِ نور القمر فى ضياء الشمس، والله غالبٌ على أمره.

وعلمُ معانى الأسماء والصفات، وتعريف الأخلاق وباطن أحكام الذات، يكون فى مقامات القرب بمرآة نور الوجه، فيرفع نور حكم المكان، ويشهد كأنه رفعَ كونَ المرآة، ويشهد الوجه بنورها، وتغيب المرآةُ عن كونها، فيكون العبدُ قائمًا

بقهرِ قيوميته، فيصيرُ العبدُ شبهَ ميتة، مشاهدًا بحيطة قُربه لا بكونه، كما يشهد الوجه بنور المرآة لا بجسمها، ولا يكون هذا إلا بعد معاينة[1] وصف، وبعد حُسن المراقبة فى جميع[2] المعاملة، وحسن الأدب فى محاضرة الربّ، بتنفيذ خواطر الخير، وسرعة نفى خواطر الشرِّ، حتى لا يبقى شىء منها. وهذا حالُ المشاهدة والقُرب، وذلك يُخرج العبدَ إلى صفاء القلبِ بعلم اليقين، وصفاءُ القلب يرفعه مقامات فى مشاهدة العين حتى لا يَخْطُر بقلبه[3] إلا خاطر حق، فإن عصاه عصى الحق. وفى ترك هذا والغضّ عنه كَدَرُ القلب، وفى كَدَره ظلمته. وذلك مقامات فى القَسْوة، وهى أوّلُ البُعد.

وبلغنى أن ما من فِعْلَة وإن صغُرت إلا ويُنشر لها ثلاثة دواوين: الديوان الأول: لِمَ؟ والثانى: كيفَ؟ والثالث: لمن؟ فمعنى: لِمَ، أى لِمَ فعلت؟ وهذا موضع الابتلاء عن وصف الربوبية بحكم العبودية، أى: أكان عليك أن تعمل لمولاك أم كان ذلك منك بهواك؟

فإن سَلِمَ من هذا الديوان، بأن كان عليه أن يعمل كما أُمر به، سُئل عن الديوان الثانى، فقيل له: كيف فعلتَ هذا؟ وهو مكان المطالبة بالعلم، وهو البلاء الثانى، أى: قد عملته بأن كان عليك عمله، فكيف عملته؛ أبعلمٍ أم بجهلٍ؟ فإنّ الله تعالى لا يقبل عملاً إلا من طريقه، وطريقه العلم [والإخلاص][4].

فإن سَلِم من هذا نُشر عليه الديوان الثالث، فقيل: لمن؟ وهذا طريق التعبّد بالإخلاص لوجه[5] الربوبية، وهو البلاء الثالث، وهم بغية الله عزّ وجلّ من خلقه، الذين قال فى حقّهم: ﴿إلاَّ عبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠]، وهذا مقتضى كلمة الإخلاص مِن نَفْى ما سواه، وهى لا إله إلا الله. وليس بعده إلا الإشفاق إلى وقت التلاق، أى قد عملته بعلم، فلِمَن عملته؟ لوجه الله عزّ وجلّ

---

(١) فى (ك): «بعد مشاهدة».

(٢) فى (ك): «من جميع».

(٣) فى (ك): «فى قلبه».

(٤) ساقطة من (ط).

(٥) فى (ك): «لوجد».

خالصًا فأجرك عليه، أم لشخصٍ مثلك فخُذْ أجرك منه، أم عملته لتنال عاجلَ دنياك، فقد وفّينا إليك عملك فيها، أم عملته لنفسك بسَهْوك وغَفْلتك، فقد سقَط أجرُك وحَبِط عملُك لذهابِك عن القصد وعدم النية فى الفعل؟

فجميع ما أردتَ به سواه فقد تعرضتَ للمقتِ واستوجبتَ العقابَ بترك ما عليك، وجَهِلتَ[1] ما لمولاك، إذ كنتَ عبدًا لى وتتولى غيرى، وإذ أنت تأكل رزقى وتعمل لسواى، وإذ كان الدين قد جعلتُه لنفسى فقصدتَ به من دونى. ويلك، أمَا سمِعتَنى أقول: ﴿ألاَ لله الدِّينُ الخَالصُ﴾ [الزمر: ٣]، ويلَكَ، ما قبلتَ أمرْى إذ قلتُ: ﴿ومَا أُمرُوا إلا ليَعْبُدُوا اللهَ مُخْلصينَ له الدِّينَ حُنَفاءَ﴾ [البينة: ٥].

ويقول له: ويلك أما سمعتنى أقول: ﴿إنَّ الذينَ تَعْبُدونَ من دُون الله لا يَمْلكُون لَكُم رزقًا فَابْتَغوا عندَ الله الرِّزْقَ واعْبُدُوه﴾ [العنكبوت: ١٧]؟ [فيكون توبيخه بعزائم كلامه وغليظ خطابه أشدَّ عليه وأوجع من أليم عذابه][2].

فهذه أمثال القرآن يشهد بها العلماء أمثالَهُم، وهى أركانُ الخطابِ[3] عند تدبّره يَفْهم بها العارفون أذكارهم، وهى توبيخُ الله عزّ وجلّ للغافلين، وعزائمُ كلامه[4] وغليظُ خطابه أشدُّ عليهم وأوْجعُ لهم من أليمِ عقابه؛ وذلك أنَّ الله تعالى استخلص الدِّين لنفسه، ولم يُشرك فيه أحدًا من خَلْقه، فقال: ﴿ألاَ لله الدّينُ الخَالصُ﴾، يعنى الطريق الموحد غير المشترك، الصافى غير الكدر؛ لأنّ الإخلاصَ التصفيةُ من أكدار الهوى والشّهوة، وضده الشّرك وهو الخَلْط بغيره من النّفس والناس، كما أنعم علينا بالرزق الخالص من بين الفرث والدم، فتمّت به النعمة، فقال: ﴿نُسْقيكُمْ ممَّا فى بُطُونه منْ بَيْنِ فَرْث وَدَمٍ لَبَنًا خَالصًا﴾ [النحل: ٦٦]، فلو وُجد فيه خلط من أحدهما لم تتم به النعمة علينا.

---

(١) فى (ط): «وجهل».

(٢) هذه التكملة من (ك).

(٣) فى (ط): «وهى إذا كان الخطاب» وأثبت ما فى (ك) لأنه أصح وأدق.

(٤) فى (ط): «فيكون توبيخ الله عز وجل للغافلين بعزائم كلامه» وأثبت ما فى (ك)، وفيها شبه مع الجملة فى الفقرة السابقة، لكنها هكذا فى الأصل المخطوط لدى.

فكذلك ينبغى أن يكون عملنا له خالصًا من الهوى والشَّهوة؛ لنستحق به الأجر والحظوة منه، مع القيام بواجب الحق علينا، فكما أنّا لو رأينا فى اللبن الذى أنعم به علينا فرثًا أو دمًا عافته أنفسنا، فلم نأكله، فكذلك الحكيم الخبير إذا رأى فى عملنا خلطًا من رياء أو شهوة، ردَّه علينا فلم يقبله، وكما عمل لنا مما عملت يده بقدرته أنعامًا ذلّلها لنا، منها رَكُوبنا ومأكَلُنا، فينبغى أن نشكره، فنعمل له بعد الأكل عملاً صالحًا، كما أمرنا بعد إذ أنعم اللهُ علينا، فقال: ﴿**كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا**﴾ [المؤمنون: ٥١].

فمن جهل ما جعل اللهُ لنفسه، وترك ما أُمر به من الإخلاص بالدين لوجهه، استوجب المقتَ لجهله، واستحقّ العقابَ لمخالفته. وفى تدبّر ما قلناه الهرب من الخلق، والبكاء على النفس إلى لقاء الحق، لمن أشهد ووقف، وأُريد بالحضور فلم يُصرف[1].

* * *



(١) فى (ك): «لمن أشهد وراقب، وصلى الله على محمد عبده».

الفصل الرابع والعشرون

فى ذكر ماهية الورد للمريد ووصف حال العارف من المزيد [١]

اعلم أن الوِرْدَ اسم لوقت من ليل أو نهار، يرد على العبد مكررًا فيقطعه فى قُربة إلى الله، ويورد فيه محبوبًا يَرِدُ عليه فى الآخرة.

والقربةُ اسم لأحد معنيين: أمر فُرِض عليه، أو فضل نُدب إليه. فإذا فعل ذلك فى وقت من ليل أو نهار وداوم عليه فهو وِرْدٌ قدَّمه يَرِدُ عليه غدًا إذا قَدِم.

وأيسرُ الأورادِ صلاةُ أربع ركعاتٍ، أو قراءة سورةٍ من المثانى، أو سعى فى معاونة على برٍّ وتَقْوى.

قال أنس بن سيرين: كان لمحمد بن سيرين فى كل ليلة سبعةُ أوراد، فكان إذا فاته منها شىء قضاهُ بالنهار. فسَمَّى العملَ الموظَّف المؤقت وردًا.

وقال المعتمر بن سليمان: ذهبتُ ألقّن أبى عند الموت، فأومأ إلىّ بيده: دعنى، فإنى فى وِرْدى الرابع. فسمى الحزبَ من أحزاب القرآن لوقتٍ ما وِرْدًا.

فمن العمّال من كان يجعل الأورادَ من أجزاءِ القرآن. ومنهم من كان يجعله من أعداد الركوع. وفوق هؤلاء من العلماء كانوا يجعلون الأوراد من أوقاتِ الليل والنهار، فإن قطع الوقتَ بآيةٍ أو ركعة أو فكرة أو شهادة، فذاك وِرْدُه.

وأما العارفون فإنهم لم يوقّتوا الأورادَ، ولم يقسّموا الأوقات، بل جعلوا الوِرْد واحدًا لمولاهم، وجعلوا حاجتهم من الدنيا ضرورتهم، وصيروا الوقتَ متساويًا لسيِّدهم، وتصريفَهُم لمصالحهم يدخل عليهم، فوضعوا رقابهم فى رقّ العبودية، وصفُّوا أقدامهم فى مصافِّ الخِدمة، فكانوا فى كلِّ وقتٍ بحكمِ ما يُستعملون،

(١) فى (ط): «بالمزيد» وأثبت ما فى (ك). وأيضًا هذا الفصل يختلف فى ترتيب أجزاء وفقرات منه بين المطبوعة والمخطوطة.

وبوصف ما به يُطالَبون، ذلك وِرْدُهم، وتلك علامتهُم عن حسن اختيار الله عزّ وجلّ لهم، وجميل تولّيه إياهم. لا يكلُهم إلى نفوسهم، ولا يولّيهم بعضهم؛ وهو يتولّى الصالحين. مشاهدتُهم ذكرُهم، وقربُ الحبيب حبُّهم، ليس يشهدون فضيلةً فى غير محبوبهم، ولا يرجون قُربةً بغير معروفهم؛ به يتقربون إليه، وإليه يسبّحون له[١]، وعليه يتوكلون له، ومنه يخافون عنه، وإيّاه يحبّون منه. ولو أسقطوا الأعمالَ كلّها غير ما تعلّق بالتوحيدِ ثبوتُه ما نقصَ من توحيدهم ذرّة، ولو تركوا أورادَ المريدين كلّهم ما أثّر فى قلوبهم بقسوة ولا فترة؛ لأنّهم لا يزيدون بالأعمال فينقصون بها، ولا يتفقدون قلوبهم وأحوالهم بالأوراد فيعرفون النقصان والمزيدَ منها، ولا تجتمع همومُهم بسبب، ولا يقوى يقينُهم بطلب؛ فَيَتَشَتَّت لفقدِ سببٍ، ويضعف يقينهم لعَدم طلب[٢]. هذه المعانى هى أحوال المريدين.

وجملةُ تَغيُّرُهم فى شيئين: ضيقُهم بالخالق فهربوا منه، واتساعُهم بالخلق فاستراحوا إليه. ولو دام قُربهم منه لدامت راحتهم به، ولو وَقَفتْ شهادتُهم عليه لما نظروا إلى سواه[٣].

وأمّا العارفون فقد فرغ لهم من قلوبهم، واجتمعت المتفرقات بمجامعها لهم، وأقامهم القائمُ لهم بشهادتهم له، فلهم بكل شىء مزيد، ومن كل شىء توحيد. كلّ خاطرٍ بهم يردهم إليه، وكلّ منظور إليه يدلُّهم عليه، وكل نظرة وحركة طريق لهم إليه. فتوحيدهم فى مزيد، ويقينهم فى تجديدٍ، بغير تغيير ولا تَصْريد[٤]، ولا إيقاف ولا تحديد. ولربّما طلب أحدُهم التسببَ بالأسباب، فيجمعه بها ربُّ الأرباب؛ لأنه مراد بالاجتماع، وإنما استروح بالشّتات لاستجمام ما هو فى قلبه آت، ثقةً منه بحبيبه، وتمكنًا عند محبوبه، إذ قد علم أنه طالب، فطرح نفسه ليحمله، فحمله بما تولاه، ولم يكِلْه إلى نفسه وهَواه.

---

(١) فى (ط): «وإليه به يسبحون له» وأثبت ما فى (ك).

(٢) فى (ط): «ولا تجتمع قلوبهم بسبب، ولا تقوى نفوسهم بطلب، فتتشتت لفقد سبب، ويضعف يقينهم لطلب» وهى مضطربة جدًا وخطأ محض، وأثبت ما فى (ك).

(٣) هذه الفقرة ليست بالمخطوط، ومعناها مضطرب.

(٤) تصريد: تقليل.

فهذه مقامات لأهلها لا يعرفها سواهم، ولا تصلُح إلا لهم، ولا تليق إلا بهم، ولا يُقاس عليها، ولا يُدَّعى مكانها، ولا تُنْتظَر فَتُتْرَك لها الأوراد، ولا تُتَوَقَّع فيُقَصَّر لأجلها فى الاجتهاد. والمرادون بها محمولون بها، مواجهون بعلمها، مسلوكٌ بهم طريقها، مزوّدون زادها، وهى محبوسة عليهم مقصورة لهم، فهم لها سابقون.

فأولياء الله عابدوه، وقد عكفوا بقلوبهم لمن عبدوه، ونظروا إلى معبودهم الذى عكفوا عليه، ففهموا عنه فصلَ الخطاب، بما آتاهم من شهادةِ حكمه حكم الكتاب، إذ يقول: ﴿وَانْظُرْ إلى إلهكَ الَّذى ظَلْتَ عَلَيْه عَاكفًا﴾ [طه:٩٧] بعد قوله للغافلين(١) فوصفَهم معرِّضًا: ﴿نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لها عَاكفين﴾ [الشعراء:٧١]، مع قوله: ﴿أن امْشُوا واصْبرُوا عَلَى آلهَتِكُمْ إنَّ هذَا لشَىءٌ يُرَادُ﴾ [ص:٦]، وقوله: ﴿واصْبرْ لحُكْم ربِّكَ فَإنَّكَ بأعْيُننَا﴾ [الطور:٤٨].

فعلموا أنّ الإخلاصَ الذى أُمروا به هو العبادة، ولا عبادة إلا بمجانبة الهوى، وبعدها الإنابة إلى المولى، أما سمعت قوله عزّ وجلّ: ﴿والَّذينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أنْ يَعْبدُوهَا وَأَنَابُوا إلى الله لَهُمُ الْبُشْرَى﴾ [الزمر:١٧]، وأيقنوا أن الصلاة عماد الدين، ولا صلاة إلا للمتقين، ولا تقوى إلا بإنابة، كما قال تعالى: ﴿مُنيبينَ إليه وَاتَّقُوهُ﴾ ثم قال: ﴿وَأَقيمُوا الصَّلاةَ وَلاَ تَكُونُوا منَ الْمُشْركينَ﴾ [الروم:٣١].

فهذه عبادةُ العارفين على سنّة النبيين، فإنابتُهم مشاهدتُهم لمذكورهم، كقوله فى وصف ضدّهم: ﴿كَانَتْ أعْيُنُهُمْ فى غطَاء عَنْ ذكْرى﴾ [الكهف:١٠١]، فهم عن كشفِ من ذكره، إذ كانوا بضد وصفهم، وحقيقة ذكرهم نسيانهم لسوى مذكورهم، بمعنى قوله: ﴿وَاذْكُرْ ربَّكَ إذَا نَسيتَ﴾ [الكهف:٢٤] فأخرجهم الذكرُ له إلى الفرار إليه كما فهموا عنه، إذ يقول: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام:١٥٢] فَفَرُّوا إلى الله، فلما هربوا إليه أواهم بقربه، ووهب لهم هدايةً إلى حُبّه، ونشر لهم من

(١) من هنا إلى آخر الفقرة غير واضح المعنى، ولعل هناك سقطًا أو تحريفًا.

رحمته، وطواهم فى قبضته، فلم يرهم إلا هم، ولم يعرفهم سواهم، وقد قال تعالى: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ [الكهف:١٦]، وقال تعالى: ﴿إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات:٩٩].

• ذكر الأوراد وما يرجى بها من الازدياد:

ولكن بمواصلة الأوراد المرسومة، والأعمال الموقتة المعلومة، يستبينُ للمريد النقصانُ من المزيد، ويعرف قوّةَ العزم والشّره من وَهَنِ العادةِ والفَتْرة.

وفى الأوراد أيضًا فضيلةٌ وهو أنّ العامل إذا شُغل عنها بمرض أو سفر كتب له الملَك مثلَ ثوابِ ما كان يعمل فى الصِّحة. وقد يكون نومُ العارف أفضلَ من صلاة الجاهل؛ لأن هذا النائم سالم، وهو ذلك الزاهد العالم إذا استيقظ وُجد. وهذا الصائم القائم لا يؤمن عليه الآفات، وتطرقه الأعداء فى العبادات، وهو ذلك الجاهل المغتر إذا وُجد فُقد. وقد روينا فى خبر: «نوم العالِم عبادة، ونَفَسُهُ تسبيح». وفى الحديث: «عالم واحدٌ أشدّ على الشّيطان من ألف عابد». وروينا فى خبرٍ مقطوع: «لو وقعت هذه على هذه ـ يعنى السماء على الأرض ـ ما ترك العالم علمه لشىء، ولو فُتحت الدنيا على عابد ترك عبادة ربه».

ولأن العالِم قد يُكاشَف فى نومه بالآيات والعبر، ويُكشَف له الملكوت الأعلى والأسفل، ويُخاطَب بالعلوم، ويشاهد القدرةَ من معنى ما تشهده الأنبياءُ فى يَقَظتهم، فيكون نوم العارف يقظة؛ لأن قلبه حياة، ويكون يقظة الغافل نومًا؛ لأن قلبه موات، فيعدل نومُ العالِم يقظةَ الجاهلِ، وتقرب يقظةُ الجاهلِ الغافلِ من نوم العالم.

كيف وقد جاء فى خبر أبى موسى «أن النبى ﷺ نظر إلى أُحُدٍ فقال: هَذا جبل أُحُد، ولا يعلم خلقٌ ما وزنه، وإن من أمتى مَنْ تكون التسبيحة منه والتهليلة أوزنُ عند الله عزّ وجلّ منه». وفى حديث ابنِ مسعود إذ قال لعمر: ما أنكرت أن يكون عملُ عبدٍ فى يوم واحدٍ أثقلَ مَن فى السموات والأرض؟ ثم وصف ذلك: بأنه هو

العاقل عن الله عزّ وجلّ، الموقن، العالِم به.

وقد سُئلت عائشة رضى الله عنها عن صلاة رسول الله ﷺ فى رمضان، فقالت: «ما كان يخص رمضانَ بشيءٍ دون غيره، ولا كان يزيد فى رمضان على سائر السنَة شيئًا».

وقال أنسُ بن مالك: «ما كنتَ تريد أن ترى رسولَ الله ﷺ نائمًا من الليل إلا رأيته، ولا تريد أن تراه قائمًا إلا رأيته. وكان رسولُ اللهِ ﷺ ينام، ثم يقوم قَدْرَ ما نام، ثم ينام قدر ما قام، ثم يقوم قدر ما نام، ثم ينام، ثم يخرج إلى الصلاة».

وقالت عائشة رضى الله عنها: «ما صام رسولُ الله ﷺ شهرًا كاملاً قط إلا رمضان، ولا قام ليلةً إلى الصبح حتى ينام منها». قالت: «وكان يصومُ من الشهر ويُفطر، ويقوم من الليل وينام».

وفى الخبر الآخر: «كان يصوم حتى تقول لا يفطر، ويفطر حتى تقول لا يصوم، وكان يصبح صائمًا ثم يفطر، ويصبح مفطرًا ثم يصوم».

وفى الخبر الآخر: «كان يدخل من الضّحى، فيقول: هل عندكم من شىء؟ فإن قُدِّم إليه شىء أكل، وإلا قال: إنّى صائم. وخرج يومًا فقال: إنى صائم، ثم دخل. فقلنا: يا رسولَ الله، أُهْدِى لنا حيس[1]. فقال: أما إنى كنت أردت الصوم، ولكن قَرِّبيه».

وكان وِرْدُه ﷺ حكم ما ورد عليه، فعن هذا المعدن يكون تصريف العارفين، ومن هذا المعنى تكون مشاهدة الموقنين، ليسوا مع الله بإيراد توقيت، ولا يقطع على تحديد، كما قيل لبعضهم: بأى شىء عرفت الله عزّ وجلّ؟ فقال: بفسخ العزائم وحلّ العقود.

ولكنّ الأورادَ طريقُ العمال، والوُظُفَ[2] أحوال العباد، منها دخلوا، وفيها

(١) الحَيْس: تمر يُخلط بِسَمْنٍ وأقط، فيُعجن شديدًا، وربما جُعل فيه سَوِيق.

(٢) جمع: «وظيفة»، و«الوظيفة من كل شىء: ما يُقدَّر له فى كل يوم من رزقٍ أو طعامٍ أو عَلَف أو شراب» اللسان (وظف)، ورسمها فى المخطوط غير واضح، ولعلها تقرأ «الوَظيف» أيضًا.

يُرفعون إلى أن يشهدوا الواحد، فتكون الأوراد كلّها ورِدًا واحدًا، ويكونون بشهادتهم قائمين.

قال بعضُ العلماء من السلف: الإيمان ثلاثمائة خُلُق وثلاثة عشر [خُلُقًا][1]، على أعداد الأنبياء المرسلين، كل مؤمن على خُلق منها، هو طريقه إلى الله عزّ وجلّ، ووجهته من الله عزّ وجلّ ونصيبه، وفى كل طريقةٍ من المؤمنين طبقةٌ، وبعضهم أعلى مقامًا من بعض.

وقال عالم آخر: الطرقُ إلى الله عزّ وجلّ بعدد المؤمنين. وقال بعض العارفين: الطُّرق إلى الله بعدد الخليقة. يعنى أن للشهيد بكل خُلق طريقًا، فقد صارت المكوّنات للمكوّن طرقات.

وروينا فى الخبر: «الإيمانُ ثلاثمائة وثلاثة وثلاثون طريقةً، من لقى الله عزّ وجلّ بالشهادة على طريقة منها دخل الجنةَ». ومن هذا قوله عزّ وجلّ: **﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً﴾** [الإسراء: ٨٤]. فدلّ أنهم كلّهم مهتدون، وبعضهم أهدى من بعض، بمعنى أنّه أقرب إلى الله عزّ وجلّ وأفضل. وقد ندب إلى القُرْب فى الأمر بطلبه، وأخبر عن المقربين بالمنافسة فى طلب القُرْب، فقال: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾** [المائدة: ٣٥] يعنى القرب. وقال تعالى فيما أخبر: **﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾** [الإسراء: ٥٧]، فأقربُ الخلق من الله عزّ وجلّ أعلاهم عند الله عزّ وجلّ، وأعلاهم عنده أعرفهم به وأفضلهم لديه.

وروينا فى التفسير: **﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾** [الإسراء: ٨٤]. قال: على وحدانيته؛ يعنى بذلك على توحيده الذى يوحّد الله عزّ وجلّ به ويعرفه منه. والشاكلة: الطريقة والخُلُق، قد شاكله، وقد شكل فيه.

ومن ذلك قول على رضى الله عنه: «لكل مؤمنٍ سيدٌ من عمله». فهذا السيد

---

(١) أثبتناها من (ك)، وقد ضبطها بفتح الخاء فى الموضعين، وفيها أيضًا: «خمسة عشر».

من العمل هو الذى يرجو به المؤمن النجاة، ويفضل به عند مولاه.

وقال بعض العلماء: كان عبّادُ الكوفةِ أربعة: أحدهم: صاحب ليل ولم يكن صاحب نهار. والآخر: صاحب نهار ولم يكن صاحب ليل. وبعضهم: صاحب سر ولم يكن صاحب علانية. والآخر: صاحب علانية ولم يكن صاحب سر.

وقد كان بعضهم يفضّل عبادةَ النهارِ على عبادة الليل؛ لما فيها من مجاهدة النفس، وكف الجوارح؛ لأنّ النهارَ مكان حركة الغافلين، وموضع ظهور الجاهلين، فإذا سكن العبد عند حركة الغافلين وموضع ظهور الجاهلين كان هو التقيُّ المجاهد والفاضلُ العابد.

وقد قيل: إن العبادة ليست الصوم والصلاة حَسْبَ، بل أفضل العبادةِ أداءُ الفرائض، واجتنابُ المحارمِ، وتقوى الله عزّ وجلّ عند اكتساب الدرهم، وهذا من أعمال النهار. وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿**وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ**﴾ [الأنعام: ٦٠] رأى ما كسبت جوارِحُكُم، فعلّق الاجتراح بالنهار، ثم يبعثكم فيه، فإذا لم يعلم من عبدٍ اجتراحًا بالنهار، ولم يبعثه فيه فى مخالفة، فمَن أفضَلُ منه؟

وكان الحسن يقول: أشدُّ الأعمال قيامُ الليل بالمداومةِ على ذلك.

ومداومةُ الأورادِ من أخلاق المؤمنين وطرائق العابدين، وهى مزيدُ الإيمان، وعلامة الإيقان.

وسُئلت عائشة رضى الله عنها عن عمل رسول الله ﷺ، فقالت: «كان عمله ديمةً، وكان إذا عمل عملاً أتقنه». وهذا كان سبب ما نُقل عنه ﷺ من صلاته بعد العصر ركعتين أنّه كان ترك مرة ركعتى النافلة بعد الظهر، شغله الوفد[1] عن ذلك، فصلاهما بعد العصر، ثم لم يزل يصليهما بعد العصر كلما دخل منزله. رَوَت ذلك عنه عائشة وأمُّ سلمة[2]. ولم يكن يصليهما فى المسجد لئلا يستنَّ

---

(١) الوفد: يعنى وفد بنى عبد القيس، وقيل: وفد من بنى تميم.

(٢) حديث أم سلمة متفق عليه. وراجع آراء الفقهاء فى ذلك فى: نيل الأوطار، للشوكانى، ٣/ ٢٧.

الناس به.

وفى الخبر المشهور: «اكْلَفوا[١] من الأعمال ما تطيقون، فإنّ الله عزّ وجلّ لا يملّ حتى تملوا». وفى الحديث الآخر: «أحبّ الأعمال إلى الله عزّ وجلّ ما دِيم عليه وإن قلّ».

وقد روينا فى خبر: «مَنْ عوَّده اللهُ عزّ وجلّ عبادةً، فتركها ملالة مقته الله تعالى».

وفى خبر عن عائشة رضى الله عنها، وقد أسنده بعض الرواة من طريق: «كل يوم لا أزداد فيه علمًا فلا بُورك لى فى صباح ذلك اليوم». وقد جاء فى الخبر كلامٌ، تارةً يُروى عن الحسن بن على، وتارة يُروى عن الحسن البصرى، ومرة [عن عائشة رضى الله عنها. وبعضهم يحكيه][٢] عن رسول الله ﷺ [فى المنام][٣]: «من استوى يوماه فهو مغبون، ومن كان يومه شرًا من أمسه فهو محروم، ومن لم يكن فى مزيد فهو فى النقصان».

وفى لفظ آخر: «من لم يتفقد النّقصان من نفسه فهو فى نقصان، ومن كان فى نقصان فالموت خيرٌ له. ولعمرى إن المؤمنَ شكورٌ، والشاكر على مزيد».

* * *

(١) اكلفوا: هو من كَلِفْتُ بالأمر إذا أُولعتُ به وأحببتُه.
(٢) ساقطة من (ط)، وأثبتناها من (ك).
(٣) فى (ط) بدلاً منها: «سمع يقول» وأثبت ما فى (ك).

الفصل الخامس والعشرون

فى ذكر تعريف النفس، وتصريف مواجيد العارفين

اعلم أنّ النقصانَ يبدو من الغفلةِ، والغفلةُ تنشأ من آفات النفسِ، والنفسُ مجبولةٌ على الحركة، وقد أُمرت بالسكون وهو ابتلاؤها، لتفتقر إلى مولاها، وتبرأ من حولها وقواها. ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَلا تَمُوتُنَّ إلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢] لتفزعوا إليه فتقولوا: ﴿ربَّنا أفْرِغْ عَلَينا صَبْراً وتَوفَّنا مُسْلمين﴾ [الأعراف:١٢٦]. وكما قال: ﴿وكَانَ الإنسَانُ عَجُولاً﴾ [الإسراء:١١]، ﴿خُلِقَ الإنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ ثم قال: ﴿سأُرِيكُمْ آيَاتى فَلاَ تَسْتَعْجِلُون﴾ [الأنبياء:٣٧]، وقال: ﴿أَتَى أَمْرُ الله فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل:١]، فأخبر عن وصْفِه بالعَجَلة، ثم أمره بتركها للبَلْوى. فإن نزلت السكينة، وهى مزيد الإيمان، سكنت النفس عن الهوى بإذن مُنفِّسها. وإن حُجب القلبُ بالغفلة، وهى علامةُ على الافتقارِ والتضرّع، تحركت النفس بطبعها، فإن سكنت عن حركتها فبالمنّة والفَضل، وإن تحركت بوصفها فبالابتلاء والعدل. فأولُ البلاء اختلافها، وأولُ اختلافها خِلافُها، ومقدمتُه الهِمّة، وبابُه السّمع، وهو طريق إلى الكلام والنظر، والقول طريقَ إلى الشهوةِ، والشهوةُ مفتاحُ الخطيئة، والخطيئةُ مقامٌ من النار حتى يزحزح عنها الجبّارُ بالتوبة فى الدنيا، والعفو فى العُقبى.

وقد تكون المخالفةُ على المحب العارف أشدَّ من النار، كما حُدِّثت عن بعضهم قال: لأن أُبتلَى بدخول النار أحبُّ إلىَّ من أن أُبتلَى بمعصية. قيل: ولِمَ؟ قال: لأنّ فى المعصية خلافَ ربّى تعالى وسخطَه، وفى النار إظهارَ قدرتِه وانتقامَهُ لنفسه، قال: فسخطه أعزُّ علىَّ وأعظمُ من تعذيب نفسى.

وكذلك حدثونا فى معناه عن بعض الموقنين من العمّال أنه قال: ركعتانِ تُتقبل

منّى أحبُّ إلىَّ من دخول الجنة. قيل: وكيف؟ قال: لأنّ فى الركعتين رضا ربى عزّ وجلّ ومحبته، وفى الجنّة رضاى وشهوتى. فرضا ربى عزّ وجلّ أحبُّ إلىّ من محبتى.

وقد قال وهيب بن الورد المكّى فى لبن سُئل أن يشربه، فلم يفعل؛ لأنه سأل عن أصله، فلم يستطبه، فقالت له أمه: اشرب، فإنى أرجو إن شربته أن يغفرَ اللهُ لك. فقال: ما أحبّ أنى شربته وأنّ الله غفر لى. قالت: ولِمَ؟ قال: لا أحبّ أن أنال مغفرته بمعصيته.

فجملةُ وصف النّفْس معنيان: الطّيش والشَّرَه. فالطيشُ عن الجهل، والشّره عن الحرص، وهما فطرة النفس. فمَثَلُها فى الطيش كمَثَل كُرة أو جَوْزة فى مكان أمْلس، مصوَّب سكونها بالْمُنَّة[1]، فإن أَشْرتَ إليها أو حرَّكْتها أدنى حركةٍ تحركت بوصفها، وهو خفتها واستدارتها. وصورتُها فى الشّره المتولدة من الحرص أنّها على صورة الفراشة التى تقع فى النار جاهلةً شرِهة، تطلب بجهلها الضوء وفيه هلاكها، فإذا وصلت إلى شىءٍ منه لم تقتنع بيَسيرِه لشرهها، فتحرص على الغايةِ منه، وتطلب عين الضوء وجملته، وهو نفس المصباح، فتُحرق، ولو قَنعَت بقليلِ الضوء عن بُعْد سَلِمت. فكذلك النفس فى طَيْشها الذى يتولد من العَجلة، وفى شرهها الذى ينتج من الحرص والطَّمع.

والحرصُ والطّمع هما اللذان كانا سبب إخراجِ آدم عليه السلام من الجنة؛ لأنه طمع فى الخلود، فحرص على الأكل، وكان ذلك عن الجهل، فكانت معصيتُه سببَ عمارة الدنيا، وصارت الطاعاتُ[2] سببَ عمارةِ الآخرة. فلذلك قيل: «حبُّ الدنيا رأسُ كلِّ خطيئة». فصار الزُّهد أصلَ كلِّ طاعة. فانظر كيف أُخرج من الجَنّة بعد أن جُعل فيها بذنبٍ واحد، وأنت تريد أن تدخلها ولم تملك النظر إليها بذنوب كثيرة!!

---

(١) المُنَّة: القوة.

(٢) فى (ط): «فصارت الطاعة» وأثبت ما فى (ك).

وفي الحديث الآخر: «الإيمان عُريان، فلباسه التقوى، وزينتُه الحياء، وثمرته العلم». ومن ثَمّ قيل: إن الجنةَ طيبةٌ لا يسكنها إلا الطّيب، فمتى طابوا لها دخلوها. ألم تسمع إلى وفاقه بين ذلك في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ﴾ [النحل:٣٢]. وقال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر:٧٣] لأنّه قال: ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ [التوبة:٧٢] والذّنوب خبائث، كما قال تعالى: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف:١٥٧]، فلمّا طابوا لها طابت لهم، وقد أجمل ذلك بقوله تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾، وبقوله تعالى: ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾ [النور:٢٦].

وقد مثّل بعضُهم النفسَ في شَرهها بمثل ذُباب مرّ على رغيفٍ عليه عسل، فوقع فيه يطلب الكلية، فعلق بجناحه فقتله. وآخر مرّ به، فدنا من بعضه، فنال حاجته، فرجع إلى ورائه سالمًا.

وقد مثّل بعضُ الحكماء ابنَ آدم مثل دُود القزّ: لا يزال ينسج على نفسه لجهله، حتى لا يكون له مخلّص، فيقتل نفسه، ويصير القزّ لغيره، وربما قتلوه إذا فرغ من نسجه؛ لأنّ القزّ يلتف عليه، فيَرُوم الخروجَ منه، فيَشْمسُ، وربما غمزوه بالأيدي حتى يموت، لئلا يقطع القز، وليخرج القز صحيحًا. فهذه صورةُ المكتسب الجاهل، الذي أهلكه أهله وماله، فتنعّم ورثته بما شقي به، فإن أطاعوا به كان أجره لهم وحسابه عليه، وإن عصوا به كان شريكهم في المعصية؛ لأنه أكسبهم إياها به، فلا يدري أيَّ الحسرتينِ عليه أعظم، أذهابه عُمُره لغيره، أو نظره إلى ماله في ميزان غيره؟

ومما سمعتُ في علم شَرَه النّفس ما حدثني بعض إخواني عن بعض هذه الطائفة، قال: قَدِمَ علينا بعضُ الفقراء، فاشترينا من جارٍ لنا جملاً مشويًا، ودعوناه عليه في جماعة من أصحابنا، فلما مدّ يده ليأكل، وأخذ لقمة وجعلها في فِيه لَفظَها، ثم اعتزل وقال: كلوا أنتم، فإنه قد عَرَض لي عارض منعني من الأكل. فقلنا: لا نأكل إن لم تأكل معنا. فقال: أنتم أعلم، أما أنا فغيرُ آكلٍ، ثم

انصرف. قال: فكرهنا أن نأكل دونه، فقلنا: لو دعونا الشوَّاء فسألناه عن أصل هذا الجمل، فلعل له سببًا مكروهًا، فدعوناه، فلم نزل به نسأل عنه، حتى أقرّ أنّه كانَ مَيْتة، وأن نَفْسه شَرِهت إلى بيعه حرصًا على ثمنه، فشواه، فوافق أنّكم اشتريتُموه. قال: فمزقناه للكلاب. قال: ثم إنى لقيتُ الرَّجُلَ بعد وقتٍ، فسألته: لأىّ معنى تركتَ أكْلَه، وبأى عارضٍ؟ فقال: أُخبرك: ما شَرِهَت نفسى إلى طَعامٍ منذ عشرين سنةً بالرياضة التى رُضْتَها به، فلما قَدَّمتم إلىَّ هذا شَرِهت نفسى إليه شَرَهًا ما عهدتُه قبل ذلك، فعلمتُ أن فى ذلك الطعامِ علةً، فتركت أكْلَه لأجل شَره النفس إليه.

فانظر رحمك اللهُ، كيف اتفقا فى شَرَه النّفس عن قصد واحد، ثم اختلفا فى التوفيق والخذلان، فعُصِم العالمُ بالورع والمحاسبة، وتُرِك الجاهلُ مع شَرَه النفس بالحرص وتركه المراقبة، أعنى البائع للجمل. ثم عُصِم الآخرون للتوفيق بحُسن الأدبِ، وهو قمعُ شَره النفس عن الأكل بعد صاحبهم، ثم تدارك البائع بعد وقوعه، لصدق المشترى وحسن نيته.

وجِبلاَّتُ النفسِ الأربعة هى أصول ما تفرّع من هواها، وهى مقتضى ما فطرها عليه مولاها؛ أولها: الضعف؛ وهو مقتضى فطرة التراب. ثم البخل؛ وهو مقتضى جبلَّة الطين. ثم الشهوة؛ وموجبها الحمائم. [ثم] الجهل؛ وهو ما اقتضاه موجب الصلصال. وهذه الصفات على معانى تلك الجبلات للابتلاء بالأمشاج، ففيه بدء الأمْت والاعوجاج، ذلك تَقْديرُ العزيز العليم.

ثم إن النّفسَ مبتلاةٌ بأوصاف أربعة متفاوتة: أولها: معانى صفات الربوبية، نحو: الكبر، والجبرية، وحب المدح، والعز، والغنى. ومبتلاة بأخلاق الشياطين، مثل: الخداع، والحيلة، والحسد، والظنة. ومبتلاةٌ بطبائع إليها ثَمّ وهو: حبُّ الأكل، والشربُ، والنكاح. وهى مع ذلك كله مطالبة بأوصاف العبودية، مثل: الخوف، والتواضع، والذل، بمعنى ما قلناه. قيل: إنها خُلقت متحركة وأُمرت بالسكوت، وأنّى لها بذلك إن لم يتداركها المالك؟ وكيف تسكن بالأمر إن لم يسكِّنها محركها بالخير؟

فلا يكون العبدُ عبدًا مخلصًا حتى يكون للمعانى الثلاث مخلصًا، فإذا تحقق بأوصاف العبودية كان خالصًا من المعانى التى هى بلاؤه من صفات الربوبية. فإخلاصُ العبودية للوحدانية عند العلماء الموحدين أشدُّ من الإخلاص فى المعاملة عند العاملين. وبذلك رُفعوا إلى مقامات القرب، وذلك أنه لا يكون عندهم عبدًا حتى يكون مما سوى الله عزّ وجلّ حرًا، فكيف يكون عبد رب وهو عبد عبد؟ لأنّ ما قاده إليه فهو إلهه، وما ترتّب عليه فهو ربه. وهذا شِرْكٌ فى الإلهية عند المتألهين، ومَرَجٌ بالربوبية عند الربانيين، فهو مَتْعوسٌ منكوس بدُعاء الرسول ﷺ إذ يقول: «تَعِسَ عبدُ الدِّينار، تَعِسَ عبدُ الدِّرهم، تَعِسَ عبد الزّوجة، تَعِسَ عبد الحُلّة». فهؤلاء عبيدُ العدد الذين قال مولاهم: ﴿**إنْ كُلُّ مَنْ فى السَّموات والأَرْضِ إلاَّ آتى الرَّحمنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُم وعَدَّهُم عَدًّا**﴾ [مريم: ٩٣ ـ ٩٤] أصحابُ النفوس الأمّارة بالسوء، المسوِّلة، الموافقة للهوى، المخالفة للمولى، ﴿**وعِبادُ الرَّحمنِ الّذين يَمْشُون عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا**﴾ [الفرقان: ٦٣] إلى آخر وصفهم، أولو النفس المرحومة المطمئنة المرضية، هم عباد الرحمن أهل العلم والحكمة، علَّمهم من لدنه، واختارهم لنفسه.

ولا يكون المريدُ بَدَلاً حتى يُبدِّل بمعانى صفات الربوبية صفاتَ العبودية، وبأخلاق الشياطين أوصافَ المؤمنين، وبطبائع البهائم أوصافَ الروحانيين من الأذكار والعلوم. فعندها كان بَدَلاً مقربًا. والطريق إلى هذا بأن يملك نَفْسَه فيملكَها، وتُسخَّر له فيُسلَّطَ عليها.

فإنْ أردتَ أن تَمْلك نفسَك فلا تُملِّكْهَا، وضيِّق عليها ولا تُوسِّع لها. فإن مَلَّكْتَها مَلَكَتْكَ، وإن لم تضيِّق عليها اتّسَعتْ عليك. فإن أردت الظفرَ بها فلا تُعرضها لهواها، واحتبسها عن معتاد بلاها، فإن لم تُمسكها انطلقت بك، وإن أردت أن تقوى عليها فأضعفها بقَطْع أسبابِ هَواها وحبس مواد شهواتها، وإلا قَوِيَتْ عليك فصرَعَتْك. فأولُ المَلَكة لها أن تحاسبَها فى كل ساعة، وتراقبَ حِسبتها فى كل وقت، وتقفَ عند كل همّة من خواطرها. فإن كانت الهمة لله عزّ وجلّ سابقتَ الموت وبادرتَ الفوتَ فى إمضائها. وإن كانت الهمة لغير الله تعالى

سابقت وبادرت في محوها؛ لئلا تثبت، وعملتَ في الاستبدال بها كيلا تستبدل بك.

وفي تأويل الخبر المروى: «البرُّ يزيدُ في العُمر». وهو معنى الدعاء المشهور من قول الناس: جعل الله في عمرك البركة، وقد بُورك له في عمره، فإنّ البركة في العمر أن تدرك في عمرك القصير بيقظتك ما فات غيرك في عمره الطويل بغفلته، فيرتفع لك في سنةٍ ما لا يرتفع له في عشرين سنة.

وللخُصوص من المقربين في مقامات القرب عند التجلي بصفات الرب إلحاقٌ برفيع الدرجات، وتداركُ ما فات عند أذكارهم وأعمال قلوبهم اليسيرة في هذه الأوقات. فكل ذَرّةٍ من ذكْرٍ، أو تَسْبيحٍ، أو تهليل، أو حَمْد، أو تدبّر وتبصرة، وتفكر وتذكرة بمشاهدة قُرب، ووَجْدٍ برب، ونظرةٍ إلى حبيب، ودنوٍّ إلى قريب، أفضلُ من أمثال الجبال من أعمال الغافلين، الذين هم بنفوسهم واجدون، وللخلق مشاهدون[١]. مَثَل العارفين فيما ذكرته من قيامهم بمشاهدتهم، ورعايتهم لأمانتهم، وعهدهم في وَقْت قُربهم وحضورهم، مَثَلُ العاملِ في ليلة القدر، العمل فيها لمن وافقها خيرٌ من ألف شهر. وقد قال بعض العلماء: كلُّ ليلةٍ للعارفِ بمنزلة ليلة القدر. وروينا عن علي رضي الله عنه أنه قال: كل يوم لا يُعصى الله عزّ وجلّ فيه فهو لنا عيد.

وكان الحسن إذا تلا قوله تعالى: ﴿**كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِى الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ**﴾ [الحاقة: ٢٤] قال: يا إخواني، هي واللهِ أيامكم هذه، فاقطعوها بالجدِّ والاجتهاد ولا تضيِّعوها.

فخُلُوُّها فراغها[٢] من حسن المعاملة، وبطالتك فيها عن الشّغل لمعادك المحصول عليه[٣] منها. كما قال المبطلون: ﴿**يا حَسْرَتَنا عَلَى ما فَرَّطْنا فيها**﴾ [الأنعام: ٣١] يعني في الأيام الخالية، التي هي محصولهم ومرجعهم ومثواهم. وكما قالت النفسُ

(١) العبارة في (ك) اختلفت مع الاختصار لبعض الكلام.

(٢) في (ط): «فراغًا» وهو تحريف، وأثبت ما في (ك). وقوله «فخلوها»: يقصد الأيّام الخالية.

(٣) في (ط): « بمعادك المحصول عليك» وأثبت ما في (ك).

الأمّارة بالسّوء: ﴿يا حَسْرَتا عَلَى ما فَرَّطْتُ فِى جَنْبِ الله﴾ [الزمر:٥٦] يعنى أيام الدنيا التى ضيّعت العمر فيها، فخلت من الثواب والجزاء غدًا، وهذا أحد الوجهين فى قوله: ﴿الأَيَّام الخَالِيَة﴾.

والوجه الآخر: الخالية، أى الماضية، خلت أوقاتها، وخلدت أحكامها، وذهبت شهواتها، وبقيت عقوباتها.

فإن قصَّرت عن هذه المحاسبة للحسيب، ولم يكن لك مقام المراقبة للرقيب، ولا مكان المحاسبة للحبيب، فلا يفوتنّك مقام الورعين، ولا تَبِن عن حال التائبين؛ وهو أن تجعل لك وردين فى اليوم والليلة، لمحاسبة النفس وموافقتها؛ مرة بعد صلاة الضحى، لما مَضى من ليلتك وما سلف من غفلتك، فإن رأيت نعمة شكرتَ الله، وإن رأيتَ بَلِيَّة استغفرتَ. فإن وجدتَ فى حالك أوصافَ المؤمنين التى وصفهم الله عزّ وجلّ ومدحهم عليها، رجوتَ وطَمعْتَ واستبشرتَ، وإن وجدت من قلبك وحالك وصفًا من أوصافِ المنافقين أو خلقًا من أخلاق الجاهلين التى ذمَّهم الله عزّ وجلّ بها ومقتهم عليها، حزنتَ وأشفقتَ وتبتَ من ذلك واستغفرتَ.

والمرة الثانية: أن تحاسب نفسك بعد الوتر وقبل النوم، لما مضى من يومك، من طولِ غفلتك، وسوء معاملتك، وما فعلتَه من أعمالكَ، كيف فعلتها ولمن فعلتها، وما تركتَه من سُكوتك وصمتك لِمَ تركته ولمن تركته، فتنعقد الزيادة والنقصان، وتعرف بذلك التكلُّف والإخلاص من حركتك وسكونك. فما تحركتَ فيه وسكنتَ لأجل الله عزّ وجلّ به فهو الإخلاص، ثوابُك فيه على الله عزّ وجلّ عند مرجعك إليه، فاعمل فى الشكر على نعمة التوفيق وحسن العصمة من التهلكة. وما سكنتَ فيه أو تحركتَ لهواك وعاجل دنياك، فهو التكلف، الذى أخبر رسول الله ﷺ أنه هو والأتقياء من أمته برآء من التكلف. وقد استوجبتَ فيه العقاب عند نشر الحساب، إلا أن يغفر المولى الكريم الوهاب. فاعمل حينئذ فى الاستغفار بعد حسن التوبة وجميل الاعتذار، وخف أن يكون قد وَكَلَك إلى نفسك فتهلك.

فلعل مشاهدة هذين المعنيين؛ من خوفِ ما سلف منك، والطمعِ فى قبول ما

أسلفتَ، يمنعك من المنام، ويطرد عنك الغفلة، فتحيى ليلتك بالقيام، فتكون ممن وصف الله عزّ وجلّ فى قوله: ﴿**تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا**﴾ [السجدة: ١٦].

وقد قال بعض السلف: كان أحدهم يحاسب نفسه أشدّ من محاسبة الشريك لشريكه.

وقد قال بعض العلماء: من علامة المقت أن يكون العبد ذاكرًا لعيوب غيره، ناسيًا لعيوب نفسه، ماقتًا للناس على الظن، محبًا لنفسه على اليقين.

وتركُ محاسبةِ النفس ومراقبةِ الرقيب من طول الغفلة عن الله عزّ وجلّ. والغافلون فى الدنيا هم الخاسرون فى العقبى؛ لأنّ العاقبة للمتقين، قال الله عزّ وجلّ: ﴿**وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ * لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾ [النحل: ١٠٨ ـ ١٠٩].

وطولُ الغفلة من العبد عن طبائع القلب من المعبود، والغفلة فى الظاهر غلاف القلب فى الباطن. تقول العرب: غَفْله وغُلْفه؛ بمعنًى، كما تقول: جَذَب وجَبَذ، وخُشَاف وخُفَاش.

وطبائع القلب عن ترادف الذنب بعضه فوق بعض، وهو الران الذى يتعقب الكسب، فيكون عقوبة له، قال الله تعالى: ﴿**كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ [المطففين: ١٤]. قيل: المكاسب الخبيثة وأكل الحرام. وفى التفسير: هو الذنب على الذنب حتى يسودّ القلب. وأصل الرَّيْن: الميل والغَلَبة، وهو التغطية أيضًا. يقال: ران عليه النعاس: إذا غلبه. ورانت الخمر على عقله: أى غطته. ومن هذا قول عمر رضى الله عنه فى سابق الحاجِّ: فادّان مُعرضًا، فأصبح وقد رِينَ به. أى: مال به الدَّيْنُ فغَلَبه.

وأصل ترادف الذنوب من إغفال المراقبة، وإهمال المحاسبة، وتأخير التوبة، والتسويف بالاستقامة، وترك الاستغفار والندم. وأصل ذلك كله هو حب الدنيا، وإيثارها على أمر الله عزّ وجلّ، وغلبة الهوى على القلب. ألم تسمع إلى قوله عزّ

وجلّ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ﴾ إلى قوله عزّ وجلّ: ﴿أُولئِكَ الذينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [النحل:١٠٧ـ١٠٨]. وقال فى دليل الخطاب: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عنِ الهَوَى﴾ [النازعات:٤٠] يعنى: عن إيثار الدنيا؛ لأن صريح الكلام وقع فى وصفهم بالطغيان وإيثار الحياة الدنيا، ثم قال: ﴿طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد:١٦]، فاتّباع الهوى عن طبائع القلب، وطبائع القلب عن عقوبة الذنب، وميراثُ العقابِ الصَّمَمُ عن فهم الخطاب. أمَا سمعتَه يقول: ﴿لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِم ونَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِم فَهُم لا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف:١٠٠].

وقد جعل علىٌّ رضى الله عنه الغفلة مقامًا من مقامات الكفر، فقال فى حديثه الطويل: فقام إليه سلمان فقال: أخبرنا عن الكفر على ما بُنى؟ فقال: على أربع مقامات: على الشكّ، والجفاء، والغفلة، والعمى. فإذا كثرت غفلةُ القلب قلّ إلهام المَلَكِ للعبد، وهو سمع القلب، لأن طول الغفلة يَصِمُّه عن السّمع، وعدم سمع الكلام من الملك عقوبة الخطايا، وتثبيتُ المَلَك للعبد على الخير والطاعة وحىٌ من الله عزّ وجلّ إليهم وتفضيل للعبد. أمَا سمعت قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إلى المَلائِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال:١٢].

وفى الخبر: «إن آدم عليه السلام حُجب عن سمع كلام الملائكة، فاستوحش بذلك، فقال: يا رب ما لى لا أسمع كلامَ الملائكة؟ فقال: خطيئتُك يا آدم».

فإذا لم يسمع العبد كلام الملائكة لم يفهم كلام الملك، وإذا لم يسمع الكلام لم يستجب للمتكلم، ﴿إِنَّما يَسْتَجِيبُ الَّذينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام:٣٦].

وقال الحسنُ: إنّ بين العبد وبين الله عزّ وجلّ حدًا محدودًا من الذنوب، فإذا بلغه العبد طبع على قلبه، فلم يوفِّقه للخير أبدًا.

فبادر أيها المجاوزُ للحدود بالتوبة والرجوع، قبل أن تبلغ الحد فَتَلْقَى غيًا وجهدًا.

وفي حديث ابن عمر: «الطّابع معلّق بقائم عرش الرحمن، فإذا انتهكت المحارم بعث الله عز وجلّ بالطابع على القلوب، فأعماها». وهذا هو القُفلُ الذى قال الله عزّ وجلّ: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

واعلم أنّ القسوةَ التى يهدد الله عزّ وجلّ عليها بالويل المتولدة من طول الغفلة فى قوله عزّ وجلّ: ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ﴾ [الزمر: ٢٢]. وقد قرنها الله عزّ وجلّ بالنّفاق، وأخبر أنه يجعل إلقاء الشيطانِ فتنة لأهل النفاق والقسوة. فإلقاءُ الشيطان يكثر عند قلة إلهام الملك، كما ذكرنا آنفًا، ينتظم ذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَرَضٌ﴾ [الحج: ٥٣] أى: وللقاسية قلوبهم أيضًا.

والقسوة ثمرةُ البعد، والبعدُ عقوبةُ الخيانة، والله لا يحب الخائنين، فذلك من تدبّر الخطاب من قوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾ أى: فبنقضهم الميثاق، و «ما» صلة فى الكلام، فهذا هو الخيانة؛ ﴿لَعَنَّاهُمْ﴾ أى أبعدناهم ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣] بترادف الذنوب بعد القسوة من الكذب والنسيان، وكثرة الاطلاع على الخيانة منهم والبُهتان، فأُصيبوا بالذّنوب، فوقع الطابع على القلوب، فصُمَّت عن سمع كلام المحبوب، كما قال: ﴿أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٠٠]. فجلاء هذا الطابع التقوى، فهو مفتاح السمع، كما قال: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاسْمَعُوا﴾ [المائدة: ١٠٨].

والله تعالى الموفق.

* * *

الفصل السادس والعشرون

فيه كتاب ذكر مشاهدة أهل المراقبة (١)

اعلم أن مشاهدةَ المراقبين هى أولُ مراقبةِ المشاهدين، وذلك أنّ مَن كان مقامه المراقبة كان حالُه المحاسبة، ومَن كان مقامه المشاهدة كان وصفه المراقبة.

فأولُ شهادةِ المراقب هو أن يعلم يقينًا أن لا يخلو فى كلِّ وقتٍ وإن قَصُرَ من أحد ثلاثة معان:

[المعنى الأول:] أن يكون لله عزّ وجلّ عليه فرض. والفرضُ على ضربين: شىء أُمر بفعله، أو شىء أُمر بتركه، وهو اجتناب المنهى.

والمعنى الثانى: ندبٌ حُثَّ عليه، وهو المسابقة بخير يقرِّبه إلى الله عزّ وجلّ، والمسارعة بعمل برٍّ يبتدره قبل فَوْته.

والمعنى الثالث: شىء مباحٌ، فيه صلاحُ جسمِه وقلبه.

وليس للمؤمن وقت رابع، فإن أحدث وقتًا رابعًا فقد تعدّى حدود الله، ﴿ومَن يَتَعدَّ حدودَ الله فقد ظَلَم نَفْسَه﴾ [الطلاق:١] ، وقد أحدث فى دين الله سبحانه وتعالى، ومن أحدث فى دين الله فقد سلك غير طريق المتقين. ألم تسمع إلى قوله عزّ وجلّ: ﴿وَهُوَ الَّذى جَعَلَ الليلَ وَالنَّهارَ خِلْفَةً لِمَنْ أرَادَ أنْ يَذَّكَّرَ أوْ أرَادَ شُكُوراً﴾ [الفرقان:٦٢] فهل ترى بين هذين وقتًا يجهل أو هوى، كما لا ترى بين الليل والنهار وقتًا ثالثًا؟ فالذكر: الإيمان والعلم؛ فهذان ينتظمان جُلّ أعمال القلوب. والشكر: العمل بأخلاق الإيمان وأحكام العلوم، وهذان يشتملان على جميع أعمال الجوارح. قال الله عزّ وجلّ: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ [سبأ:١٣].

(١) انظر: الإحياء ٤/ ٣٩٣، كتاب المراقبة والمحاسبة. ومدارج السالكين، لابن قيم الجوزية، ٢/ ٦٩ ـ ٩٢.

وقال: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣]. وقال: ﴿كَما أَرْسَلْنَا فيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَاذْكُرُونى أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لى وَلا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥١ ـ ١٥٢]. وقال الله تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وآمَنْتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧]. وقال رسول الله ﷺ، وقد عوتب فى طول قيامه حتى تورَّمت قدماه، فقال: «أفلا أكونُ عبدًا شكورًا»؟ ففسر الشكر بالعمل، كما فسر الله عزّ وجلّ العمل بالشكر.

والوقت الثالث الذى هو المباح داخل فيهما؛ لأنه مُعِينٌ عليهما، وبه استقامة العبد فيهما. وقد كان بعض العلماء يقول: لنا فى معاصى الطاعات هَمٌّ وشُغل عن معاصى المخالفات.

فيبتدئ العبدُ المراقب فينظر بيقظته فى أدنى وقتٍ هل لله عزّ وجلّ فيه فرض من أمر أو نهى؟ فيبدأ بذلك حتى يفرغ منه. فإن لم يجد فإنه لا يخلو من نوادب وفضائل، فيبتدئ بالأفضل. فإن لم يكن عمل فى أدنى الفضيلتين فليأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن يومه لأمسه، ومن ساعته ليومه، ومن دنياه لآخرته، كما أمره مولاه فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا﴾ [القصص: ٧٧] أى: لا تترك أن تأخذ نصيبك من الدنيا، ولا تترك أن تأخذ نصيبك للآخرة من دنياك؛ وهو أن تحسن كما أحسن الله إليك، ولا تطلب الفساد فى الدنيا، فتكون قد نسيت نصيبك من الآخرة، فيتركك الله من جزيل ثوابه الذى أعد لأحبابه، كما قال: ﴿نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]، أى تركوه فتركهم. وتركُهم له تركُ نصيبهم منه، وتركه عزّ وجلّ لهم ترك محابِّهم من الآخرة.

فيبتدئ العبدُ الفَطِن، فيأخذ من عمره ووقته فيجعله لآخرته التى أيقن بها، ثم يأخذ من وقته أعلى ما فيه مما يختص به الوقت، ولا يوجد إلا فيه، ويفوت دركه بفَوْت وقته، وهو أفضلُ ما يقدر عليه مما أدّاه علمه إليه، فيجعله لمولاه.

ثم إن العبدَ لا يخلو فى كل وقت وإن قلَّ من أحد مقامين: مقامِ نعمة، أو مقامَ بليَّة. فحاله عن مقام النعمة الشكر، وحاله عن مقام البلية الصبر. ثم ليس

يفقد أحد مشاهدتين: شهودِ نعمة، أو شهودِ منعم. من حيث لا يخلو من وجودِ مالك وحضورِ مملوك. فعليه الخدمة للموجود، وعليه الحضور فى خدمة المعبود. والمراقبة علامةُ الحضور، والمحاسبة دليلُ المراقبة.

ويكون له أيضًا فى أدنى أوقاته، وهو الوقت الثالث الذى هو لمباحه، وهو أدنى أحوال المؤمن، يكون له فيه مشاهدة مُنعم، أو شُهود نِعمة، لئلا يذهب وقته هذا أيضًا فارغًا من دنياه، ولا يعود عليه شىء من ذكر مولاه، أو يذكر نعمةً تدلّه على منعم أو تخرجه إليه، فينفعه ذلك فى عقباه، إذ العاقبة للمتقين.

فإن شَهد مُنعمًا اقتطعه الحياء بالسّكينة والوقار للهيبة، وهذا مخصوص بخصوص. وإن شَهِد نعمةً استغرقه بالشكر والاعتبار، فكان لديه تبصرة وتذكار؛ وهذا لعموم الخصوص، قال الله عزّ وجلّ فى وصف الأوّلين: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَىَء خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَفِرُّوا إلى الله﴾ [الذاريات: ٤٩ ـ ٥٠]. وقال فى المقام الثانى: ﴿وَلاَ تَجْعَلُوا مَعَ الله إلهًا آخرَ﴾ [الذاريات: ٥١]. وقال فى مقام الأوّلين: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىء وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجارُ عَلَيْه﴾ [المؤمنون: ٨٨]. وقال فى وصف الآخرين: ﴿قُلْ لِمَنِ الأَرْضُ وَمَنْ فيهَا﴾ إلى قوله: ﴿قُلْ أفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤ ـ ٨٥].

وقد روينا فى الأثر من صفات العاقل وحال المراقب وحشو الأوقات بما ينبغى أن تملأ به جملُ ما ذكرناه من حديث أبى ذر الطويل: «ولا يكون المؤمن ظاعنًا إلا فى ثلاث: تزوُّد لمعاد، أو مرمَّة لمعاش، أو لذة فى غير محرم». وبمعناه: وعلى العاقل أن يكون له أربع ساعات: ساعة يناجى فيها ربه عزّ وجلّ، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يفكّر فى صُنع الله عزّ وجلّ. وساعة يخلو فيها للمَطعَم والمشرب؛ فإن فى هذه الساعة عونًا له على الساعات. وفيه أيضًا ثلاث مجملات من صفة العاقل، ومن علامة العاقل: أن يكون مقبلاً على شانه، حافظًا للسانه، عارفًا بزمانه. وفى بعضها: مكرمًا لإخوانه.

فأمّا وقت المباح من الأوقات فالنوائب والحاجات تَطْرُقه به، والفاقات تدخله

عليه، فلا يتكلَّفه قبل وقته، فيشغله عن وقته.

ثم إنّ العبادَ فى مشاهدة المُلْك على أربع مقامات: كلّ عبد يشهد الملك من مقامه بعين حاله.

فمنهم من ينظر إلى المُلْك بعين التبصرة والعبرة، فهؤلاء أولو الألباب، الذين كشف عن قلوبهم الحجاب، وهم أولو الأيدى والأبصار، الذين أقامهم مقام الاعتبار، وهذا مقام العلماء الذين هم ورثة الأنبياء.

ومنهم من ينظر إلى المُلْك وأهله بعين الرحمة والحكمة، وهذا مقام الخائفين.

ومنهم من ينظر إلى المُلْك وأهله بعين المقت والبغضة، وهذا مقام الزاهدين.

ومنهم من ينظر إلى المُلك بعين الشهوة والغبطة، وهذا مقام الهالكين، وهم أبناء الدنيا الذين لها يسعون، وعلى فوتها يتحسرون.

فإن أُعطى العبد النظر إلى المُلْك بعين العبرة والحكمة أدخله المَلِكُ على المُلْك، فاستغنى به عمّا سواه. وإن أُعطى الخائف النظر إلى المُلك بعين الرحمة اغتبط بمقامه، وعظُمَت لربه تعالى عليه النعمةُ. وإن أُعطى الزاهد النظر إلى المُلك بعين البغضة أخرجه المَلِكُ عن المُلْكِ بالزهد فيه، فعوّضه من فوت المُلْك الصغير دَرْكَ المُلكِ الكبير. ومَنِ ابتُلى بالنظرَ إلى المُلك بعين الغبطة والحسرة أوقعه المَلِكُ فى الهلَكة، فسلك طريق المهالك.

ومن شاهد معنى خُلُق من أخلاق الذوات، أو معنى وصف من الصفات، كان مقتضاه ما يوجب الخلق أو الوصف من شهود نعيم أو عذاب، وهو مقام له فى التعريف يرفعه إلى مقام التعرف. وهذه شهادة العارفين من كل ما شهدوه من الأفعال التى تدل على معانى الأخلاق والأوصاف؛ لأنّه أظهرها عنه، ليُستَدَل عليه بها، ويُنظَر إليه منها.

فأمّا من شَهِد شهوةً من شهوات النفس بعين الهوى أخرجته إلى الأهواء، فتخطفه الشياطين ، وهوت به الريحُ فى مكان سحيق ، وتنكّب طريقَ المسالك إلى المولى، التى تخرجه إلى القريب، وتقعده عند الحبيب فى مَقعدِ صِدْق عند مليك مُقتدر.

فمن فاته القربُ وقع في التيه والبُعدِ، فهو اليائس المغبون، الخائن المفتون، الذي يكون أبدًا يومه شرًا من أمسه، وغده شرًا من يومه. فالموت خيرٌ له من حياته؛ لأن حياتَه عن الحبيب تبعده، وبقاءه عن السبيل يصدّه، ووَجْدَهُ لهواه يفقده، وظهورَ نفسهِ عليه من السّوابق يُقعده؛ لأنه إذا كان في إدبار، وكان إدباره في إقبال، فقد فاته عمره عن آخره، كفوت وقت واحد، وفوت شيء واحد؛ لأن العمر ليس مما يتأتى فوته دفعة واحدة كشيء واحد، لأنه ينشأ وقتًا بعد وقت، وإنّما يفوت جزءًا جزءًا على حكمة من الله عزّ وجلّ، وتمهُّل واستدراج منه، وقتًا بعد وقت، ويومًا بعد يوم، يستدرجه في ذلك كما يصعد الدّارج في الدَّرَج مرقاة مرقاة. كذلك يشغله في وقتٍ عنه، ويفرّغه وقتًا آخر لغيره، ويذكِّره في وقت سواه، ويُنسيه وقتًا آخر إياه، فشغلُه حينئذ كفراغه، وذكره يومئذ كنسيانه. وعلى هذا سائرُ أوقاته، تارةً يقطعه عنه، وتارةً يصله بغيره، حتى تفنى الأيام بالفوت، وتنقضى الأوقات إلى الموت. وفي ذلك يُسبل عليه الستر ليغترّ، ويسبغ عليه النعم كيلا يعلم، ويديم له العوَافي لئلا يفطن، ويبسط له الأمل ليزداد من سوء العمل، ويقبض عنه الأجل ليقبض منه الوَجَل، وينشر له الرجاء، ويطوى عنه الخوف، حتى يبغتهم فجأة من حيث أمّنهم، ويأخذهم بغتة في حال غَمْرتهم، كما قال: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠].

ومن معنى ما ذكرناه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: لما تركوا ما وُعظوا به وخُوِّفوا أسبغنا عليهم النعم، وأنسيناهم الشكر، فترادفت منهم الذنوب، وأنسيناهم الاستغفار، ثم قال: ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ أي: سكنوا إلى ذلك واطمأنوا، ولم يريدوا التحويل عنه ولا الاستعتاب منه ﴿أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾ أي: فجأة في حين أمنهم. وقيل: بغتة بعد أربعين سنة، ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤] متحيرون باهتون آيسون من كل خير.

واعلم أن العبد إذا كان بعد ساعة شرًا منه قبلها، وبعد يوم شرًا منه قبله، ثم

لم يُستعتب ولم يُتدارَك، كانت أوقاته كلّها وأيامه كيومٍ واحدٍ فى الشر ووقتٍ سرمدٍ فى السوء، فكان كمن فات عمره كلّه كفَوْت وقتٍ واحد منه؛ لأنه على هذا الوصف يكون فوَّت العمر لتراخيه وقتًا بعد وقت، وينساه شيئًا بعد شيء، ولتربية العبد بأوقاته وقتًا بعد وقت، إلا أنها فى آخر الحساب ومجمله كيوم واحد إضاعة، فكان مَثَله كما قال تعالى: ﴿وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨]. وكمن كان حاله الغفلة عن الوعد والوعيد، فلما كُشف عنه الغطاء حار بصرُه وبُهت، واحتدَّ وبرق، لمعاينة ما كان عنه غَفَل، وحسرة على ما فيه فرَّط، لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِى غَفْلَةٍ مِنْ هذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق:٢٢] قيل: محدد إلى أعمالك السيئة أو ثقتك. وقيل: حديد إلى لسان الميزان يتوقع النقص والرجحان، وكان كمن قال تعالى فى قوله: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ الأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾ [مريم:٣٩]، قيل: جاءهم الموت وهم مشغولون بأمور الدنيا. وقيل: كانوا متشاغلين فى شأن النساء، وبوصف من قيل له: ﴿وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِىُّ﴾ يعنى: أمانى الهوى ﴿حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللهِ﴾ [الحديد:١٤] أى: قَدِم الموت ولم تقدِّموا له شيئًا تقدمون به عليه، فمثلهم كمن وصفه بالإفلاس وأخبر عنه بالإياس فى قوله عزّ وجلّ: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ [النور:٣٩].

وقد كان أبو محمد يقول: لا يبلغ العبد منازل الصدِّيقين حقيقةً من هذا الأمر حتى يكون فيه هذه الأربع: أداء الفرائض بالسّنة، وأكلُ الحلال بالورع، واجتنابُ النهى فى الظاهر والباطن، والصبرُ على ذلك إلى الممات.

وكان الحسن يقول: والله ما لعمل المؤمن انتهاء دون الموت. والله ما المؤمنُ الذى يعمل الشّهرَ والشهرين والسنة والسنتين، إنّما المؤمنُ المداومُ على أمر الله، الخائفُ من مكر الله. إنّما الإيمان شدةٌ فى لين، وعزمٌ فى يقين، واجتهادٌ فى صبر، وعلمٌ فى زهد.

وكان عمر رضى الله عنه إذا تلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ

اسْتَقَامُوا﴾ [الأحقاف:١٣] يقول: قد قالها الناس ثم رجعوا. فمن استقام على أمر الله في السر والعلانية، والعسر واليسر، لم يخف في الله لومة لائم.

وقال مرة: استقاموا والله لربهم، ولم يروغوا روغان الثعالب.

وقال بعض العلماء: مَنْ كان طلبُ الفضائل أهمَّ إليه من أداء الفرائض فهو مخدوع، ومَنْ شُغل بغيره عن نفسه فقد مُكر به.

وقال سفيان الثورى وغيره: إنّما حُرموا الوُصولَ بتضييع الأصول.

فأفضلُ شيءٍ للعبد معرفته بنفسه، ووقوفه على حدّه، وإحكامه لحاله التى أقيم فيها. وابتداؤه بالعمل بما افتُرض عليه، بعد اجتنابه ما نُهى عنه، بعلم لم يدبره فى جميع ذلك، وورَع يحجزه عن الهوى فى ذلك. ولا يشتغل بطلب فضل حتى يفرغ من فرض؛ لأن الفضل لا يصحّ إلا بعد حَوْز السّلامة، كما لا يخلص الربح للتاجر إلا بعد حصول رأس المال. فمن تعذرت عليه السلامة كان من الفضل أبعدَ، وإلى الاغترار أقربَ.

وقد تلتبس الفضائل بالفرائض لدقة معانيها، وخفىّ علومها، فيقدِّم العبدُ النفلَ وهو يحسب أنه الواجب. فمن ذلك أن أبا سعيد رافع بن المعلى كان قائمًا يصلى، فدعاه رسول الله ﷺ فلم يجبه، فظن أن وقوفه بين يدى الله عزّ وجلّ بالغيب أفضل له. فلما سلّم جاءه، فقال له رسول الله ﷺ: ما منعك أن تجيبنى حين دعوتك؟ فقال: كنت أصلى. فقال: ألم تسمع الله عزّ وجلّ يقول: ﴿اسْتَجِيبُوا لله وَلِلرَّسُولِ إذا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]؟

فكان رسول الله ﷺ دعاه وهو فى الصلاة؛ ليفيده باطن العلم، أو لينظر مبلغ علمه كيف يعمل، وكان إجابته لرسول الله ﷺ أفضل له من صلاته؛ لأن صلاته نافلة له، فهو مطيع لله عزّ وجلّ فى الغيب باختياره، وإجابته لرسول الله ﷺ فريضة عليه، فهو مطيع لله تعالى فى الشهادة بإيجابه. ففَضْلُ استجابته لرسول الله ﷺ على صلاته لنفسه كفضل الفرض على النفل. وقد قال سبحانه: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا

يُبَايِعُونَ اللهَ﴾ [الفتح: ١٠]. والله تعالى معه فى المكانين معًا، وهو عند الرسول عليه الصلاة والسلام على يقين. فعبادة الله عزّ وجلّ ههنا أبلغ فى مرضاته، وأثوبُ له فى آخرته.

وفى هذا الحديث دليل أن الخبر إذا ورد فى أمر كان على جملة عمومه وكلية ما تعلق به، حتى تخصّ السنة أو الإجماع بعض شأنه. ومن ذلك أن قول الله عزّ وجلّ: **﴿اسْتَجِيبُوا لله وَلِلرَّسُولِ إذا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾** [الأنفال: ٢٤] أنّ ظاهره مقصور على الاستجابة للرسول ولله بالإيمان بالطاعة فى أوامر القرآن، لا الإجابة له فى التصويت خاصة فى الصلاة، وهذا هو الذى حمله أبو سعيد بن المعلى عليه، وتأوله من الآية فأشكل عليه.

ومثل هذا فعلُ عَمّار فى التيمم، لما نزلت آية الإباحة للتيمم فى صلاة الفجر وهُم فى سَفر، فقال عزّ وجلّ: **﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾** [النساء: ٤٣]، ولم يكن يسمع من النبى ﷺ فى تخصيص بعض اليد شيئًا، قال: فتيممنا إلى المناكب، واستوعب جملة اليد، لعموم الخطاب، حتى أخبر النبى ﷺ بذلك، فأمرهم بالتيمم إلى المرفقين، وفى خبر: إلى الزندين، باختلاف الروايتين، فخص بعض اليد، فلذلك اختلف العلماء فى تبعيض اليد فى المسح.

وكذلك العمل فيما ورد مجملاً أن يُستعمل فى الجملة حتى تخصه السنة. فمن ذلك ما روى أن رجلين على عهد رسول الله ﷺ تآخيًا فى العبادة، فاعتزلا الناس، فقال أحدهما لصاحبه: هلم اليوم فلننفرد عن الناس، ونلزم الصمت فلا نكلم من يكلمنا، فإنه أبلغ فى عبادتنا. قال: فاعتزلا فى خلوة، وصمتا، فمر بهما رسول الله ﷺ، فسلم عليهما، فلم يردا عليه السلام. قال: فسمعناه يقول حين جاوزنا: هلك المعتمّقون المتنطّعون، فاعتذرا إلى رسول الله ﷺ، وتابا من ذلك إلى الله عزّ وجلّ.

ومثل ذلك ما روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يَعُسُّ ذاتَ ليلة،

فنظر إلى مصباح أبيض فى خَلَل بابٍ، فاطلع، فإذا قوم على شراب لهم، فلم يدر كيف يصنع، فدخل المسجد، فأخرج عبد الرحمن بن عوف فجاء به إلى الباب فنظر، وقال له: كيف ترى أن نعمل؟ فقال: أرى والله أنا قد أتينا ما نَهانا الله عنه، لأنّا تجسسنا على عورة فاطّلعنا عليها وقد سترها الله دوننا، وما كان لنا أن نكشف ستر الله عزّ وجلّ. فقال: ما أراك إلا قد صدقتَ، ما أنفذ عنك[1]، فانصرفا. وفى لفظ آخر أنه قال له: أرى أنَّا قد عصينا الله ورسوله، ونهانا رسول الله ﷺ عن التجسس، فقال: صدقت، فأخذ بيده وانصرف.

وروينا نحو هذا أن عمر رضى الله عنه كان يعسُّ ليلة مع ابن مسعود، فاطَّلع من خلل الباب، فإذا شيخ بين زِقٍّ خمر وقَيْنة تغنِّيه، فتسوَّر عليه، وقال: ما أقبح بشيخ مثلك أن يكون على مثل هذه الحال. فقام إليه الرجل فقال: يا أمير المؤمنين، أنشدك الله إلا أنصفتنى حتى أتكلم. فقال له: قل. فقال: إن كنتُ قد عصيتُ الله عزّ وجلّ فى واحدة فقد عصيتَه أنت فى ثلاث. قال: وما هى؟ قال: قد تجسست وقد نهاك الله عزّ وجلّ عن ذلك. وتسوّرت وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ [البقرة:١٨٩]. ودخلت بغير إذن وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ [النور:٢٧]. فقال عمر: صدقت، فهل أنت غافر لى ذلك، فقال: غفر الله لك، فخرج عمر وهو يبكى حتى علا نشيجه، وهو يقول: ويل لعمر إن لم يغفر الله له، تجد الرجل كان يتخفَّى بهذا عن ولده وجاره، فالآن يقول: رآنى أمير المؤمنين، ونحو ذلك.

وجاء فى الخبر: «إذا دُعى أحدُكم إلى طعامٍ، فإنْ كان مُفْطِرًا فليُجب، وإن كان صائمًا فليقل: إنى صائم». فأمره بإظهار عمله وهو يعلم أن الإخفاء أفضل، ولكن إظهار عمله من حيث لا يؤثر فى قلب أخيه وَجْدًا أفضل من إخفائه لنفسه مع تأثير ذلك فى قلب أخيه؛ لتفضيل المؤمن وحرمته على الأعمال، إذ الأعمال

(١) «ما أنفذ عنك» ليست فى (ك). والمعنى: لا أدع رأيك وأتجاوزه.

موقوفة على العامل، وإنما يُعطى الثواب على قدر العامل لا على قدر العمل، لتضعيف الجزاء لمن يشاء على غيرِه فى العمل الواحد. فدلّ ذلك أنّ المؤمنَ أفضل من العمل، فقيل له: ارفع التأثير والكراهة عن قلب أخيك بإظهار عملك، فهو خير لك من إخفاء العمل مع وَجْد أخيك عليك، لأنّ أخاك إذا دعاك إلى طعام صنعه لك، فلم تجبه ولم تعتذر إليه عذرًا بيّنًا يقبله منك ويعرفه، شقّ عليه إن كان صادقًا فى دعائك.

وبمعنى هذا من خفىٍّ الأعمال ما يُحكَى عن بعض السلف: أنه كان يكون[1] فى الجماعة، فيقرأ فى نفسه سرًا لئلا يطلع على أعماله أحد، فإذا مرّ بآيةٍ فيها سجدة سجدَ بين الملأ، فكنا نعرف بسجوده أنه يقرأ. فلعل فارغًا قليل الفقه يقول: إن هذا قد أظهر عمله، إذ فعل ما يدل عليه، فلو ترك السجود ليخفى عمله كان أفضل، لأنه قد أظهر ما أخفاه. فهذا يدل على جهله بالمعاملة. وقد سمعتُ بعضَ من يدَّعى العلم[2] يطعن على هذا بفعله، بمعنى ما ذكرناه من القول. وهكذا يكون علم المريدين القصيرى العلم[3].

وليس الأمر كما قدّره هذا المنكر لسجوده، بل القائل المنكر لفعله قليل الفقه بدقائق الإخلاص جاهل بطريقة العاملين من العارفين، والعامل الذى نقل عنه هذا الفعل فقيهٌ مُخْلص، وذلك لأنّه قد حاز الفضلين معًا، لأنه كان فاضلاً فيما أخفى، إذ ابتدأ عمله بالخفية، فلما جاء السجود الذى لا يكون إلا ظاهرًا لم يصلح أن يترك قربةً إلى الله عزّ وجلّ من أجل الناس، فكان يسجد كما أُمر به، ويقرأ كما نُدب إليه، فصار فاضلاً فى الحال الثانى، لأنه أظهر لأجل الله عزّ وجلّ كما أخفى لأجله، ولأنه ترك مراقبة الناس ولم يترك عمله لأجلهم. ولو كان الفضل فى ترك السجود لإخفاء العمل كان الأفضل لمن دُخل عليه فى منزله وهو يصلى أن يقعد لأجلهم.

---

(١) قوله: «كان يكون» أسلوب عربى فصيح عند القدماء.

(٢) فى (ط): «وقد سمعت بعض العلماء».

(٣) هذه الجملة ليست فى (ك).

وقد وردت السنة فى ذلك أن له أجرين: أجر السر، وأجر العلانية. كيف، وقد كانوا يعدون أن الرياء ترك العمل لأجل الناس، فأما العمل لأجلهم فشرْك. وقد قيل: لا تعمل للرياء، ولا تترك العمل للحياء. فالحياء من الخَلْق شِرْك، كما أن الحياء من الخالِق إيمان. وأيضًا لو أنه أطاع العدوّ فى ترك العمل لأجل الناس أطاعه مرة أخرى فى العمل لأجلهم. ومَثَل هذا كَمَثَل من كان يصوم ويصلى يومه أجمع فى منزله، لا يعلم به مخلوق، فلو نوى الاعتكاف ليضمه إلى صومه خرج إلى المسجد فكان يصلِّى مقيمًا فيه، فظهر الناس على عمله، فلم يكن ليدع ما نواه من العكوف فى المسجد لأجل نظرهم إليه، ولم يضره ظهور عمله، لثباته على نيته، ولمزيد الاعتكاف، إذا كان عالمًا متمكنًا.

وأيضًا فإن الإمام المتمكِّن المقتدَى به لا يضره ظهور الناس على أعماله، إذا لم يقصد ذلك ولم يحب مَدْحهم، وربما كان له أجران فى ذلك لتنبيه الغافلين عن الذكر، وتشويق العاملين إلى البر. كيف وعند بعض العلماء أن سجود القرآن فرض، وأن على مَنْ سمع آية سجدة أو تلاها، وكان على غير وضوء، أن يسجد لها إذا توضأ.

ونحو هذه المعانى ما هو حال للعبد وأولى به من حال غيره، ما رواه أبو نصر التّمّار أن رجلاً جاء يودع بشرَ بن الحارث، وقال: قد عزمتُ على الحج، أفتأمرنى بشىء؟

فقال له بشر: كم أعددتَ للنفقة؟ قال: ألفى درهم.

قال: فأى شىء تبتغى بحجك! نزهة، أو اشتياقًا إلى البيت، أو ابتغاء مرضاة الله عزّ وجلّ؟ قال: ابتغاء مرضاة الله عزّ وجلّ.

قال: فإن أصبتَ رضا الله وأنت فى منزلك، وتنفق ألفى درهم، وتكون على يقين من مرضاة الله عزّ وجلّ، أتفعل ذلك؟ قال: نعم.

قال: اذهب فأعطها عشرة أنفس؛ مدين يقضى بها دَيْنَه، وفقير يَرُمُّ شَعَثَه، ومَعِيل يحيى عياله، ومربِّى يتيم يُفرحه. وإن قوىَ قلبك أن تعطيها لواحد فافعل،

فإن إدخالَك السرور على قلب امرئ مسلم، وتغيث لهفان، وتكشف ضر محتاج، وتعين رجلاً ضعيفَ اليقين، أفضلُ من مائة حجة بعد حجّةِ الإسلام. قم فأخرجها كما أمرناك، وإلا فقل لنا ما فى قلبك. فقال: يا أبا نصر، سفرى أقوى فى قلبى.

فتبسَّم بِشرٌ، وأقبل عليه، وقال له: المالُ إذا جُمع من وسخ التجارات والشبهات اقتضت النفس إلى أن تقضى به وطرًا تُسرع إليه، فظاهرت أعمال الصالحات، وقد آلى الله على نفسه أن لا يقبل إلا عمل المتقين. [فبكى الرجل][1].

وفى نحوه قيل لبشر أيضًا: إن فلانًا الغنى كثير الصوم والصلاة، فقال: المسكين ترك حاله ودخل فى حال غيره، إنما حال هذا إطعامُ الطعامِ للجياع، والإنفاق على المساكين، فهذا أفضلُ له من تجويعه نفسه ومن صلاته لنفسه مع جمعه للدّنيا ومنعه للفقراء.

وقد يكون اختفاءُ الأوجب من الفرائض والتباسُه بالفضائل محنة من الله عزّ وجلّ لعباده، وحكمة له فيهم، فيرتكبون التأويل للسَّعَة، ويتركون الضيق لخفائه عليهم، لينفذ فيهم العلم، ويجرى عليهم الحُكم، ويكون ذلك تأديبًا لهم، وتعريفًا ومزيدًا فى التسليم وتوفيقًا. وقد قال الله تعالى فيما عتب على نبيه ﷺ ووعظه وزجره فى قوله تعالى: **﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى * ومَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾** [عبس: ١ ـ ٣].

يقال: إن رسول الله ﷺ لم يغتمَّ فى عمره كغمِّه حين أنزل عليه سورة عبس، لأن فيها عتبًا شديدًا على مثله، لأنه الحبيب الرشيد، ومع ذلك لم يقصده فى الخطاب فيكون أيسر للعتاب، بل كشف ذلك للمؤمنين، ونبّه على فعله عباده المتقين؛ لأن معنى قوله: **﴿عَبَسَ وتَوَلَّى﴾** أى: انظروا أيها المؤمنون، أو اعجبوا إلى الذى عبس وتولى أن جاءه الأعمى.

---

(١) ساقطة من (ط) وأثبتها من (ك).

ولذلك رُوى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه بلغه أن بعض المنافقين يؤمُّ قومه فكان لا يقرأ بهم إلا بسورة عبس، فأرسل فضرب عنقه، يستدل بذلك على كفره، ليضع من شأنِ الرسول ﷺ بذلك عنده وعند قومه.

ومثله قوله عزَّ وجلَّ عاتبًا على رسوله ﷺ: ﴿عفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أذنْتَ لَهُمْ﴾ [التوبة:٤٣]، ونحوه: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَا أحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغى مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ [التحريم:١]، وبمعناه قوله عزّ وجلّ: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيه وَتَخْشَى النَّاسَ واللهُ أحَقُّ أنْ تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب:٣٧]، حتى قالت عائشة رضى الله عنها: «لو كتم رسول الله ﷺ شيئًا من القرآن كتم هذه الآية».

ومن أعجب ما سمعتُ فى هذا المعنى ما حدثونا فى الإسرائيليات عن وهب ابن منبه اليمانى، أن سليمان بن داود عليهما السلام لما قبضه الله عزّ وجلّ خلّف رجالاً من ولده يعمرون بيت المقدس ويعظّمونه برهة من الدهر، حتى خلَفه بعدهم رجلٌ من ولد سليمان، فخالف طريقة آبائه، وترك شريعتهم، وتكبَّر فى الأرض وطغى، وقال: بنى جدى داود وأبى سليمان مسجدًا، فما لى لا أبنى مسجدًا مثل ما بنوا، وأدعو الناس إلى شريعتى كما دعوا؟ فبنى مسجدًا يضاهى به بيت المقدس، وادّعى على الله عزّ وجلّ أنه أمره بذلك، وصرف الناس إليه، وبذل لهم الأموال، وأخرب مسجد بيت المقدس وهجره، فدخل الناسُ فى دينه رغبةً ورهبةً.

قال: فابتعث الله إليه نبيًا من بعض أهل القرى، فقال: اركب أتانك هذه، وأْتِ هؤلاء القوم أحفلَ ما يكونون، فنادِ فى مسجدهم ومَجمعهم بأعلى صوتك: يا مسجد الضّرار، إن الله عزّ وجلّ حلف باسمه: ليوحشنَّك من عُمَّارك، وليقتلنّ أهلك فيك، وليَشدَخنَّهم بخَشَبك وجَنْدلك، ولَتلَغَنَّ الكلابُ دماءهم وتأكلنَّ لحومهم فيك. ونادِ فى المدينة بأعلى صوتك بمثل ذلك، ولا تأكل ولا تشرب ولا تستظل ولا تنزل عن أتانك هذه حتى ترجع إلى قريتك التى خرجت منها.

قال: ففعل ذلك، فثار الناس إليه يضربونه بالخشب، ويشجونه بالحجارة، وهو

على أتانه لا ينزل عنها، فناله على ذلك أذى كثير وضرب عظيم، ثم كرّ راجعًا فى آخر النهار يؤمُّ قريته التى خرج منها، وقد أدّى الرسالة، وصبر على الضرب والبلاء لله عزّ وجلّ.

فلما كان ببعض الطريق، سمع به نبى آخر كان فى بعض القرى، استقبله وسلّم عليه، فقال: إنّك قد أدّيت رسالة ربك، وإنّك أمضيت أمره، وإنّك قد نَصَبْتَ ولقيت عناء من هؤلاء القوم؛ وأنت جائع عطشان، تسيل دماؤك على جسدك وثيابك، فاغْدُ معى إلى منزلى، فكُل واشرب واسترح واغسل جسدك وثيابك. فقال: إن الله عزّ وجلّ لما أرسلنى قد كان عهد إلىّ أن لا آكل ولا أشرب ولا أستظل حتى أرجع إلى أهلى. فقال له النبى عليه السلام: فإنّى من أهلك، لأننى نبى مثلك، وأخوك فى الدين، فلا أرى الله عزّ وجلّ عنَى بذلك إلا القوم الذين بعثك إليهم، لأنهم أعداؤه، فنهاك أن تأكل من طعامهم، وتستظل عندهم ولا أحسب حرّم عليك دخول منزلى ولا الأكل من طعامى، لأنى شريكك فى الأخوّة والنبوّة. قال: فصدّقه، وانصرف معه إلى منزله.

فلما وضع الطعام بين يديه، وأهوى ليأكل عن جوعٍ شديدٍ قد أضرّ به، أوحى الله عزّ وجلّ إلى ذلك النبى الذى دعاه إلى منزله: قل له: آثرت شهوتك وبطنك على أمرى، ألم أعهد إليك أن لا تنزل ولا تستظل ولا تأكل حتى ترجع إلى قريتك التى خرجت منها، ولولا أنك اجتهدت برأيك وقلت بمبلغ علمك لَعمَّكُما العقابُ، وأنت أقل عندى عذرًا منه[1]، لأنّى عهدتُ إليه، فآثر هواه وشهوته وترك عهدى.

فأخبره النبى عليه السلام بما أُمر، فوثب مذعورًا يجرُّ إزاره، وجعل يرحِّل أتانه ويعجّل ولا يعقل ما هو فيه، فركبها طاردًا لها على وجهه، لجوعه وعطشه، ودماؤه على ثيابه وجسده، لا ينثنى. فلما هبط مِن عقبة تحتها غيضة عارضه سَبُع فافترسه، وانتصب السبع مقعيًا على قارعة الطريق يزأر، يحرس أتانه ورَحْلَه، كلما أقبل إنسان زأر عليه الأسد حتى يطرده. فسمع بخبره ذاك النبى، فأقبل

(١) فى (ط): «وهو أقل عندى عذرًا منك» وكذلك فى (ك) ولكنها مصححة فى حاشيتها.

نحوه، فلما نظر إليه الأسد انصرف عنه، وخلّى بينه وبينه.

قال: فكفَّنه ووَاراه، وانصرف برحله وأتانه إلى أهله، فقال: يا رب، عبدك هذا الذى بلَّغ رسالتك، وأمضى أمرك، وقد كان أجهده البلاء، فخالف ما أردتَ فلم يعلم، فعاقبته بهذه العقوبة. فأوحى الله عزّ وجلّ إليه: ليست هذه عقوبة، ولم أفعل ذلك لهوانه علىّ، ولكن هذه مغفرة ورحمة، إنّه خالف أمرى، وكان قد اقترب أجله، فكرهتُ له أن يلقانى على المخالفة، فألقاه بما يكره، فقيَّضتُ له كلبًا من كلابى، فطهّره للقائى. فكان ذلك له عندى شهادة، ودرجة فوق نبوته.

فقال: سبحانك وبحمدك، أحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين.

فالعالم عند العلماء: مَنْ عَلِمَ خيرَ الخيرين فسبق إليه قبل فوته، وعَلِمَ شرَّ الخيرين فأعرض عنه لئلا يشغله عن الأخير منهما. وعلم أيضًا خير الشرين، ففعله إذا اضطر إليه، وابتُلى به، وعلم شرّ الشرين فأمْعَن[1] فى الهرب منه، واحتجب بحجابين عنه.

وفى هذه المعانى دقائقُ العلوم، وغرائبُ الفهوم، وأدلةٌ للسائلين، وعبرةٌ وآيات للعالمين. فأما شرّ الشرين، ومعرفةُ الخير من الشر، فهو معروف بأدلة العقول، وظواهر العلوم[2].

* * *

(١) أمعن فى الهرب: اشتد وتباعد.

(٢) رحم الله أبا طالب، كان كلامه فى الفصول الماضية متصلاً كسلاسل الذهب، فهو يتكلم بحاله لا بلسانه، وبقلبه لا بعقله، فهى فتوحات من العليم الوهّاب.

الفصل السابع والعشرون

فيه كتاب أساس المريدين

قال بعض العلماء: الخلق محجوبون بثلاث: حب الدرهم، وطلب الرياسة، وطاعة النساء. وقال بعض العارفين: الذى قطع العبادَ عن الله عزّ وجلّ ثلاثةُ أشياء: قلة الصدق فى الإرادة، والجهل بالطريق، ونطق علماء السوء بالهوى. وقال بعض علمائنا: إذا كان المطلوب محجوبًا، والدليل مفقودًا، والاختلاف موجودًا، لم ينكشف الحق، وإذا لم ينكشف الحق تحيَّر المريد.

واعلم أن المريد لا بدّ له من خصال سبع: الصدق فى الإرادة؛ وعلامته إعداد العدَّة. ولا بدّ له من التسبب إلى الطاعة؛ وعلامة ذلك هجر قرناء السوء. ولا بدّ له من المعرفة بحال نفسه؛ وعلامةُ ذلك استكشاف آفات النفس. ولا بدّ له من مجالسة عالم بالله؛ وعلامة ذلك إيثاره على ما سواه. ولا بد له من توبة نصوح؛ فبذلك يجد حلاوة الطاعة، ويثبت على المداومة، وعلامة التوبة: قطع أسباب الهوى، والزهد فيما كانت النفس راغبة فيه. ولا بدّ له من طعمة حلال لا يذمّها العلم، وعلامة ذلك الحلال المطالبة عنه، وحلول العلم فيه يكون بسبب مباح وافق فيه حكم الشرع. ولا بدّ له من قرين صالح يؤازره على ذلك؛ وعلامة القرين الصالح معاونته على البر والتقوى ونهيه إياه عن الإثم والعدوان.

فهذه الخصال السبع قوت الإرادة، لا قوامِ لها إلا بها. ويستعين على هذه السّبع بأربع هنّ أساس بنيانه، وبها قوة أركانه: أوّلها الجوع؛ ثم السهر؛ ثم الصمت؛ ثم الخَلْوة. فهذه الأربع سجن النفس وضيقها، وضرب النفس وتقييدها، بهن يضعف صفاتها، وعليهن تحسن معاملاتها. ولكل واحدة من الأربع صنعة حسنة فى القلب.

فأما الجوع: فإنه ينقص من دم القلب فيبيضّ، وفى بياضه نوره، ويذيب شحم

الفؤاد، وفى ذوبه رقته، ورقته مفتاح كل خير؛ لأن فى القسوة مفتاحَ كلِّ شرٍّ. وإذا نقص دم القلب ضاق مسلك العدوّ منه؛ لأن دم القلب مكانه. فإذا رقّ القلبُ ضعُف سلطان العدوّ منه؛ لأن فى غلظ القلب سلطانه.

والفلاسفة يقولون: إن النفس كلية الدم. وحجتهم فى ذلك أن الإنسان إذا مات لم يفقد من جسمه إلا دمه مع روحه. والعلماء منهم قالوا: الدم هو مكان النفس. وهذا هو الصحيح؛ لأنه مواطئ لما فى التوراة، سمعتُ أن فى التوراة مكتوبًا: يا موسى لا تأكل العروق فإنها مأوى كل نفس. وهذا مصدّق للحديث الذى رُوى: «إن الشيطانَ يجرى من ابن آدمَ مجرى الدم، فضيّقُوا مجاريَه بالجُوع والعطش».

وقد عبّر علماءُ الكوفة عن الدم بالنفس، فقالوا: إذا مات فى الماء من الهوام ما ليس له نفس سائلة لم يَنْجَسْ. يعنون الخنافسَ والصراصر والعناكب.

ففى الجوع نقصانُ الدم، ونقصانه ضيق مسلك العدوّ، وضعف مسكن النفس، لسقوط مكانها. وفى خبر عن عيسى عليه السلام: «يا معشر الحواريين، جوِّعوا بطونكم، وعطّشوا أكبادكم، وأعروا أجسادكم، لعل قلوبكُم ترى الله عزّ وجلّ». يعنى بحقيقة الزهد، وصفاءِ القلب.

فالجوع مفتاحُ الزهد وبابُ الآخرة، وفيه ذلُّ النفس واستكانتها وضعفها وانكسارها، وفى ذلك حياة القلب وصلاحه. وأقل ما فى الجوع إيثارُ الصمت، وفى الصمت السّلامة، وهى غاية للعقلاء.

وقال سهل رحمه الله: اجتمع الخيرُ كلّه فى هذه الأربع خصال، وبها صار الأبدالُ أبدالاً: إخماصُ البطون، والصمت، والسّهر، والاعتزال عن الناس. وقال: من لم يصبر على الجوع والضرّ لم يتحقق بهذا الأمر.

وكان عبد الواحد بن زيد يحلف بالله ما تحوَّل الصدِّيقون صديقين إلا بالجوع والسّهر. فإنه ينير القلبَ ويجلوه، وفى استنارته معاينةُ الغيب، وفى جلائه صفاءُ اليقين. فتدخل الاستنارة والجلاء على البياض والرّقّة، فيصير القلب كأنه كوكب

درىٌّ فى مرآة مجلوَّة، ويشهد الغيبَ بالغيب؛ فيزهد فى الفانى لما عاين من الباقى، وتقل رغبته فى عاجل حظوظ هواه لما أبصر من وبال العقاب، ويرغب فى الطاعات لمشاهدة الآخرة ورفيع الدرجات، فيصير الآجلُ عاجلاً، ويكون العاجل غائبًا، ويصير الغائبُ حاضرًا، والحاضرُ آفلاً، يطلبه ويرغب فيه فلا يحب الآفل ولا يبتغيه، ويطلب الآجل ويرغب فيه، وينكشف له عوار الدار، ويظهر له بواطن الأسرار، ويزول عنه كامن الاغترار. فهناك صار العبد مؤمنًا حقًا، بوصف حارثة الأنصارى، إذ يقول: عزفت نفسى عن الدنيا، وكأنى أنظر إلى عرش ربى تعالى بارزًا، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون، وإلى أهل النار يتعادون.

وكذلك وصف رسول الله ﷺ قلبَ المؤمن فى قوله: «القلوب أربعة: قلب أجرد فيه سراج يزهر، فذلك قلب المؤمن». وانجرادُ القلب بالزهد فى الدنيا وتجرده من الهوى، وسراجه الذى يزهر فيه هو نور اليقين، به يبصر الغيب.

وقال بعض علمائنا: من سهر أربعين ليلة خالصًا كُوشف بملكوت السماء. وكان يقول: اجتمع الخير كله فى أربع، ذكر منها سهر الليل.

واعلم أن نوم العلماء عن غلبة المنام بعد طول السهر بالقيام مكاشفة لهم وشهود، وتقريب لهم منه وورود.

ومن صفة الأبدال: أن يكون أكلهم فاقة، ونومهم غلبة، وكلامهم ضرورة. ومَنْ سَهِرَ بالليل لأجل الحبيب لم يخالفه بالنهار، فإنّه أسهره بالليل فى خدمته.

ودخل الحسن ذات يوم إلى السوق، فسمع لغطهم وكثرة كلامهم، فقال: أظنّ ليل هؤلاء ليل سوء، ما يقيلون.

وفى الخبر: «قيلوا، فإن الشياطين لا تقيل، واستعينوا على قيام الليل بقائلة النهار». وقد قيل فى قوله عزّ وجلّ: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾ [البقرة: ٤٥] قيل: بالصوم على قيام الليل. وقيل: استعينوا بالجوع وصلاة الليل على مجاهدة النفس. وقيل: استعينوا بالصبر والصلاة على اجتناب النهى.

وأما الصمتُ: فإنه يُلقح العقلَ، ويُعلِّم الورع، ويَجلب التقوى، ويجعل الله

عزّ وجلّ به للعبد بالتأويل الصحيح والعلمِ الرجيح مخرجًا، ويوفقه بإيثار الصّمت للقول السديد والعمل الرشيد.

وقد قال بعض السلف: تعلمتُ الصمت بحصاة جعلتها فى فمى ثلاثين سنة، كنتُ إذا هممتُ بالكلمة تلجلج بها لسانى، فأسكت. وقال بعضهم: جعلتُ على نفسى بكل كلمة أتكلمُ بها فيما لا يعنينى صلاةَ ركعتين، فسهل ذلك علىّ، فجعلتُ على نفسى بكل كلمة صوم يوم، فسهل علىّ، فلم أنْتهِ حتى جعلتُ على نفسى بكل كلمة أن أتصدق بدرهم، فصعب ذلك فانتهيتُ.

وقال عقبة بن عامر: «يا رسول الله، فيم النجاة؟ قال: أمسكْ عليك لسانَك، ولْيَسعْكَ بيتُك، وابْكِ على خطيئتك».

وقال ﷺ فى الخبر الجامع المختصر: «مَنْ سرَّه أن يسلم فليلزم الصمت». وأوصى رسولُ الله ﷺ معاذًا بالصلاة والصيام وغير ذلك، ثم قال فى آخر وصيته: «ألاَ أدلك على ما هو أملك لك من ذلك كله؟ هذا، وأومأ بيده إلى لسانه. فقلت: يا رسول الله، وإنَّا لَمؤاخذون بما تتكلم به ألسنتنا؟ فقال: ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكبُّ الناسَ على مناخرهم فى جهنم إلا حصائدُ ألسنتهم».

إنك ما سكتَّ فإنك سالم، فإذا تكلمتَ فإنما هو لك أو عليك.

وقال عبد الله بن سفيان عن أبيه قال: «قلت: يا رسول الله، أوصنى بشىء فى الإسلام لا أسأل عنه أحدًا بعدك. فقال: قل: ربى الله ثم استقم. قال: قلت: فما أتقى بعد ذلك؟ ـ وفى لفظ آخر: «فأخبرنى بأضر شىء علىّ» ـ فقال: هذا، وأومأ إلى لسانِه».

وفى الخبر: «لا يتقى العبدُ ربَّه تعالى حقَّ تقاته حتى يَخْزُنَ[1] من لسانِه».

وفى الحديث: «لا يصلح العبدُ حتى يستقيم قلبُه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه».

وقال ابن مسعود: ليس شىء أحقّ بطول سَجْن من لسان. وقال بعض السلف:

(١) خزن الشىء: أحرزه وجعله فى خزانة.

فتشتُ الورَعَ، فما وجدتُ فى شىء أقل منه فى اللسان.

وقال بعض العلماء: ما استقام لسانُ عبد إلا عرفتَ الصلاحَ فى سائر عمله، وما اختلف لسانه إلا عرفتَ الفسادَ فى سائر عمله.

وقال بعض الحكماء: إذا كثر العقل قلّ الكلام، وإذا قلّ العقل كثر الكلام.

وقال أحمد بن حنبل: علماءُ أهل الكلام زنادقة. وقال بعض هذه الطائفة: من تكلم فأحسن كثيرٌ، ولكن الشأنَ فيمن يُحسن أن يسكت.

وقال ذو النون المصرى: الخوف يقلق، والحياء يسكت.

وقال بعض العارفين: قد جُزِّئَ العلم على قسمين: نصفه سكوت، ونصفه أن تدرى أين تضعه.

وقال الضحاك بن مزاحم: أدركتهم وما يتعلمون إلا الصمت والورع، وهم اليوم يتعلمون الكلام.

وقال الحسن عن أنس بن مالك: قال رسول الله ﷺ: «أربع لا يُصَبْنَ إلا بعُجب: الصمت؛ وهو أول العبادة، والتواضع، وذكر الله عزّ وجلّ، وقلة الشىء».

وقال حماد بن زيد: قلت لأيوب: العلم اليوم أكثر أو فيما مضى؟ فقال: يا بنى، الكلام اليوم أكثر، والعلم فيما مضى كان أكثر.

وقيل: كانوا ينتفعون بصمت العالم مثل ما ينتفعون بكلامه. وقد قيل: من لم ينتفع بسكوت المتكلم لم ينتفع بكلامه.

وقيل لبعض العلماء: فلان أعلم أم فلان؟ فقال: فلان أعلم، وفلان أكثر كلامًا، ففرق بين العلم والكلام.

وقيل لبعض علماء خراسان عند وفاته: دُلّنا على رجل نجلس إليه بعدك. فقال لهم: فلان. فذكر لهم رجلاً صموتًا متعبدًا، لا يُعرف بكثير علم. فقيل له: إنّ فلانًا ليس عنده من العلم ما يجيب عن كل ما نسأله عنه من العلم. فقال: قد علمتُ، ولكن عنده من الورع ما لا يتكلم بما لا يعلم.

وكان الأعمش يقول: من الكلام كلامٌ جوابُه السّكوت. وقال بعض السلف: الصمت زين العالم وستر الجاهل. وقال غيره: الصمت جوابه. وفي الخبر: «الصمتُ زين للعالم وشين الجاهل». وقال بعضهم: ليس شيء أشد على الشيطان من عالم حليم؛ إن تكلم تكلم بعِلم، وإن سكت سكت بحلم. يقول الشيطان: انظروا إليه، سكوته أشدّ عليّ من كلامه.

وقال بعض السلف: تعلّم الصمتَ كما تتعلّم الكلام، فإن يكن الكلام يهديك فإن الصمت يقيك. ولك في الصمت خصلتان: تدفع به جهل من هو أجهل منك، وتعلم به علم من هو أعلم منك. وقال بعض العلماء: تعلَّم لا أدرى، ولا تتعلم أدرى، فإن قلتَ لا أدرى علَّموك حتى تدرى، وإن قلت أدرى سألوك حتى لا تدرى. وقد قال العلماء: إذا أخطأ العالِمُ قولَ أدرى أُصيبت مقاتله.

وقال عيسى عليه السلام: «الخيرُ كلّه في ثلاثة: في الصمت، والكلام، والنظر. فمن لم يكن صمته تفكرًا فهو في سهو، ومن لم يكن كلامه ذكرًا فهو لغو، ومن لم يكن نظره عبرًا فهو لهو».

وقال بعضهم: يأتى على الناس زمان يكون أفضل أعمالهم النوم، وأفضل علومهم الصمت. يعنى لفساد الأعمال، ولاشتباه العلم. ويقول أيضًا مع ذلك: وأفضل أحوالهم الجوع؛ لانتشار الحرام وغموض الحلال.

وقال بعض العلماء: الصمت نوم العقل، والنطق يقظته، وكل يقظة تحتاج إلى نوم، وما صمت عاقل قط إلا اجتمع عقلُه وحضر لُبُّه. وفي وصية ابن عباس مجاهدًا: لا تتكلمنَّ فيما لا يعنيك فإنه أسلم ولا آمن عليك الخطأ، ولا تتكلّم فيما لا يعنيك حتى ترى له موضعًا، فرُبَّ متكلِّم فيما يعنيه قد وضعه في غير موضعه فعَنَت. وقال بعض العلماء: يستبين ورعُ الرجلِ في منطقه.

وفي الخبر: «مَنْ كثر كلامُه كثُر سقطه، ومن كثر سقطه مات قلبه».

ويقال: إذا قلّ الكلام كثر الصواب. وعن جماعة السلف: إن تسعةَ أعشار السلامة في الصمت. ويقال: كل كلمة من هَزْل أو مزح أو لغو يُوقَف العبد عليها

خمس مواقف بتوبيخ وتقرير، أولها: أن يقال له: لم قلت كلمة كذا، أكانَت فيما يعنيك؟ والثانية: هل نفعتك إذ قلتها؟ والثالثة: هل ضرتك لو لم تقلها؟ والرابعة: ألاَ سكتَّ فربحتَ السلامةَ من عاقبتها؟ والخامسة: هلا جعلت مكانها قولَ سبحانَ الله والحمد لله، فغنمت ثوابها.

ويقال: ما من كلمة إلا ويُنشر لها ثلاثة دواوين: الديوان الأوّل لِمَ؟ والثانى كيف؟ والثالث لمن؟ فإن نجا من الثلاث وإلا طال وقوفه للحساب.

وقال الحسن: لسان المؤمن وراء قلبه، إذا أراد أن يتكلم تفكّر، فإن كان له تكلم وإن كان عليه أمسك، وقلب المنافق على طرف لسانه.

أى كل شىء خطر بقلبه تكلم به، ولا يتوقف، ولا ينثنى.

وفى الخبر: «من آفة العالم أن يكون الكلام أعجب إليه من الصمت». وفى الكلام تنميق وزيادة، وفى الصمت سلامة وغنم. وفى موعظة النبى ﷺ: «طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، وأنفق الفضلَ من ماله، وأمسك الفضلَ من قوله».

والأخبار فى الصّمت وفى جميع ما ذكرناه من المعانى تكثر، ولم نقصد جمعها.

وأما الخَلْوة: فإنها تفرغ القلب من الخلق، وتجمع الهمَّ بأمر الخالق، وتقوِّى العزمَ على الثبات. إذ فى مخالطة الناس وهَن العزم، وشتات الهم، وضعف النية. والخلوة تقلّ الأفكارَ فى عاجل حظوظ النفس، لفقد مشاهدتها بالأبصار؛ لأنّ العينَ بابُ القلب، ومنها يدخل آفاته، وعندها توجد شهواته ولذاته. وقد قال بعض العلماء: من كثُرتْ لحظاتُه دامَتْ حسراته.

والخلوةُ تجلب أفكار الآخرة، وتجدد الاهتمام بها لما شهد به الإيقان، وتنسى ادّكار العباد، وتواصل ذكر المعبود.

والخلوةُ من أكبر العَوافى؛ وذلك أنه قد جاء فى الحديث: «سلوا اللهَ العافية، فما أُعطى عبد بعد اليقين أفضل من العافية». ثم قد رُوى فى الخبر: «العزلة عن

الناس عافية». فدخل ذلك فى معنى ما ندب إليه من السؤال، وفيما فضل بعد اليقين على جميع الأحوال.

ولا يكون المريدُ صادقًا حتى يجد فى الخلوة من اللذة والحلاوة والمزيد ما لا يجده فى الجماعة. ويجد فى السّر من النشاط والقوة ما لا يجده فى العلانية. ويكون أنسه فى الوحدة، وروحه فى الخلوة، وأحسن أعماله فى السر.

ومَثَلُ الخلوةِ فى الأحوال من المخالطة للناس مَثَلُ الخوفِ فى المقامات من المحبة. الخوفُ يصلح لجميع العابدين، والمحبة مزيد لأهلها المخصوصين، كذلك الخلوة والانفراد يصلح لجميع المريدين.

والأنس بالناس مزيد لأهله، خاصة من الأئمة العالمين، إلا أن الخلوة تحتاج إلى عقل آخر، والوحدة والانفراد يحتاجان إلى إيمان ثان. وقد روينا عن سفيان الثورى، وعن بِشر بن الحارث: إذا استوحشتَ من الوحدة، واستأنستَ بالخلق، لم آمن عليك الرياء.

وكان أبو محمد يقول: اجتمع الخيرُ كلّه فى هذه الخصال الأربع، وبها صار الأبدال أبدالاً: إخماص البطون، والصمت، واعتزال الخلق، وسهر الليل.

وحُدثتُ عن عبد العزيز عن سهل رحمه الله قال: مخالطةُ الوليِّ للناس ذلٌّ، وتفرّده عزٌّ، وقَلَّ ما رأيتُ وليًا لله عزّ وجلّ إلا منفردًا. وقال بعض العارفين: الأنس بالوحدة علامةُ وجود الطريق.

فمن علامةِ صدق الإرادة بعد صحةِ التوبة وقوةِ العزم على الاستقامة إيثارُ هذه الأربع التى ذكرناها على أضدادها، ووجودُ القلب عندها، وانشراحُ الصدر بها، وحسنُ الخلقِ معها؛ لأنّ ضَدّها هو أبواب الدنيا، ومفاتيح الغفلة، وطرقات الهوى.

ومن ذلك: فإن فى الشبع قسوة القلب وظلمته، وفى ذلك قوّة صفات النفس، وانتشار حظوظها. وفى قوّتها وبسطها ضعفُ الإيمان، وخمود أنواره. وفى ضعف النفس وخمودِ طبعها قوةُ الإيمان واتساعُ شعاعِ أنوار اليقين؛ وفى ذلك

قرب العبد من القريب، ومجالسته للحبيب.

والشبعُ مفتاح الرغبة فى الدنيا. وقال بعض الصحابة: أول بدعةٍ حدثت بعد رسول الله ﷺ الشبع، إذ القوم لما شبعت بطونهم جمحت بهم شهواتهم. وروى عن عائشة رضى الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ وأصحابه يجوعون من غير إعواز»، أى مختارين لذلك. وقال ابن عمر: ما شبعتُ منذ قُتل عثمان رضى الله عنه. وقال هذا فى زمن الحجاج.

وفى حديث أبى جحيفة، لما تجشّأ عند رسول الله ﷺ فقال له: «اكفف عنا جُشاءك؛ فإن أطولكم شبعًا فى الدنيا أكثركم جوعًا فى الآخرة». فقال: والله ما تمليتُ طعامًا من يومئذ إلى يومى هذا، وأرجو أن يعصمنى الله عزّ وجلّ فيما بقى.

ويستحب على هذا أن يكون جوعُ العبد فى الدنيا أكثرَ من شبعه، وهى علامة الأولياء. فمن كان له أكلةٌ بين جوعتين إلى منتهاهما، فجوعه حينئذ أكثر من شبعه. ومن كان له بعد جوعةٍ بالغة شبعةٌ متوسطة، فقد اعتدل؛ شبعه، وأكلُه، وجُوعه. ومن أكل فى يوم مرتين، أو أكل من غير جوع ثم شبع، فشبعه أكثر من جوعه، وهذا مكروه، وكل من أكل بعد الجوع، ورفع يدَه قبل الشبع، فجوعه أكثر من شبعه، وهذا أوسط الأحوال.

وقال هشام عن الحسن: والله لقد أدركتُ أقوامًا كانوا لا يشبعون، يأكل أحدُهم حتى إذا ردّ نفسه أمسك، ذائبًا ناحلاً مقبلاً على طيه، يعيش عمره كله ما طُوى له ثوب قط، ولا أمر أهله بصنعة طعام قط، ولا جعل بينه وبين الأرض شيئًا قط.

وقال جعفر بن حيان عن الحسن: المؤمنُ لا يأكل فى كلِّ بطنه، ولا تزال وصيته تحت جنبه.

وروينا عن الثورى: خصلتان تقسِّيان القلب: طول الشبع، وكثرة الكلام. وروينا عن مكحول: خصال ثلاثٌ يحبها الله عزّ وجلّ، وثلاث يبغضها الله عزّ وجلّ. فأما اللاتى يحبها: فقلة الأكل، وقلة النوم، وقلة الكلام. وأما اللاتى

يبغضها: فكثرة الأكل، وكثرة الكلام، وكثرةُ النوم.

فأما النوم: فإن فى مداومته طول الغفلة، وقلة العقل، ونقصان الفطنة، وسهوة القلب. وفى هذه الأشياء الفوت، وفى الفوت الحسرة بعد الموت.

ورويناعن النبى ﷺ قال: «قالت أم سليمان بن داود لابنها: يا بنى، لا تكثر النوم بالليل، فإن كثرة النوم تترك العبد فقيرًا يوم القيامة».

وقيل: كان شبان يتعبدون فى بنى إسرائيل، فكانوا إذا حضر عشاؤهم قام فيهم عالمهم فقال: يا معشر المريدين، لا تأكلوا كثيرًا، فتشربوا كثيرًا، فترقدوا كثيرًا، فتخسروا كثيرًا.

وكان بعض السلف يقول: أدنى أحوال المؤمن: الأكل والنوم، وأفضل أحوال المنافق: الأكل والنوم. وقال بعض الناس لفيلسوف من الحكماء: صف لى شيئًا أستعمله حتى أكون أنام النهار. فقال: يا هذا ما أضعف عقلك! إن نصف عمرك نوم، والنوم من الموت، تريد أن تجعل ثلاثة أرباعه نومًا، وربعه حياة؟ قال: وكيف؟ قال: أنت إذا عشت أربعين سنة، فإنما هى عشرون سنة، أفتريد أن تجعلها عشر سنين؟

وأما كثرة الكلام: فإن فيه قلةَ الورع، وعدم التقوى، وطولَ الحساب، وكثرةَ المطالبين، وتعلق المظلومين، وكثرةَ الأشهاد من الأملاك الكاتبين، ودوام الإعراض من الملك الكريم؛ لأن الكلام مفتاح كبائر اللسان، فيه الكَذِب، والغيبة، والنّميمة، والبُهتان، وفيه شهادة الزور، وفيه قذف المحصن، والافتراء على الله تعالى والإيمان، وفيه القول فيما لا يعنى، والخوض فيما لا ينفع. وقد جاء فى الخبر: «أكثر خطايا ابن آدم فى لسانه، وأكثر الناس ذنوبًا يوم القيامة أكثرهم خوضًا فيما لا يعنيه».

وفى اللسان: التزيُّن، والتصنُّع للخلق، والتحريف، والإحالة لمعانى الصدق. وفيه المداهنة، والمواراة، والتملّق لأهل الأهواء.

وفى اجتماع هذا على العبد شتات قلبه، وفى شتاته تفريق همِّه، وفى تفريق

همه سقوطه من مقام المقربين. وفى وصية ابن عباس لمجاهد: لا تمارينّ حليمًا ولا سفيهًا، فإن الحليم يَقْليك، وإن السفيه يؤذيك.

وفى الخبر: «إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يُلْقى لها بالاً يهوى بها أبعد ما بين السماء والأرض». وفى لفظ آخر: «ليتكلم بها فيهوى فى جهنم سبعين خريفًا».

وقال لقمان لابنه: لأن تعيش أخرس، يسيل لعابك على صدرك، خير لك من أن تنطق فى نادى القوم بما لا يعنيك.

وفى خبر: «من افتتح بكلمة سوء، ثم خاض الناس فى مثلها، كان عليه مثل أوزارهم». وفى الخبر: «لا يأتى بخبر السوء إلا رجل السوء». وحدثونا عن إبراهيم بن أدهم أنه كان إذا صحبه رجل، فجاء بخبر سوء فارقه.

وروينا فى الحديث: «من حدّث بما سمعت أذناه ورأت عيناه، كتبه الله تعالى من الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا».

وروينا عن على رضى الله عنه: مذيعُ الفاحشة فى الناس كفاعلها.

وفى الخبر: «إنَّ بعض فقراء أهل الصفَّة استُشهد فى سبيل الله عزّ وجلّ، فقالت أمه: هنيئًا لك فى الجنة، جاهدت فى سبيل الله، وهاجرت إلى رسول الله ﷺ، وقُتلت شهيدًا، طوبى لك الجنة. فقال رسول الله ﷺ: وما يدريك أنه فى الجنة؟ فلعله كان يتكلم فيما لا ينفعه، أو يبخل بما لا يضره». وفى لفظ آخر: «لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه، ويبخل بما لا يغنيه».

وفى الخبر: إن بعض الصحابة قال لرجل: إنه لنؤوم. فقال رسول الله ﷺ: «اغتبتم أخاكم، سلوه أن يستغفر لكم». وفى خبر آخر: إنهم قالوا: ما أعجز فلانًا! فقال ﷺ: «أكلتموه».

وفى حديث عائشة رضى الله عنها: قالت لامرأة: ما أطول ذيلها، وفى لفظ آخر قالت: إنها لقصيرة. فقال رسول الله ﷺ: «اغتبتِها». وفى خبر آخر: إن رسول الله ﷺ قال لها: «لقد تكلمتِ بكلمة لو مُزج بها ماءُ البحر لامتزج». فهذا من وصف المبالغة فى الشدة.

وفى الخبر الجامع لهذه المعانى فى وصف الغيبة، ما روى عن رسول الله ﷺ: «من قال فى أخيه ما فيه فقد اغتابه».

وفى حديث أبان عن أنس عن رسول الله ﷺ أشد من ذلك أنه قال: «الغيبة ما إن قلت فى أخيك، لم تزكِّه به». فهذا نهاية القول من الشدة، وغاية التشديد فى الغيبة.

والغيبة: اسم لغوى، معناه شرعى، مشتق من غَيْب الإنسان. وفسرها رسول الله ﷺ: أنها أن يقول العبد فى أخيه ما فيه. وعظّمها بقوله: «هى أشدّ من الزنا». فمتى قال العبد لأخيه فى غيبته ما يعلمه يقينًا فيه، مما لا يقوله بمحضره، أو مما ينقصه به، أو لا يزكِّيه فيه، فقد اغتابه. فلو لم يكن فى الصّمت إلا السّلامة من الغيبة لكان ذلك غنيمة موفورة. كيف، وقد رُوى عن رسول الله ﷺ: «كلُّ كلام ابن آدم عليه لا له، إلا ثلاثة: أمرٌ بمعروف، أو نهىٌ عن منكر، أو ذِكْرُ الله عزّ وجلّ».

وأما مخالطةُ الناس فإنّها تضعف العزم الذى كان قويًا فى أعمال البر، وتحل العقد المبرم الذى استوطنه العبد فى الخلوة، لقلة المتعاونين على البر والتقوى، وكثرة المتعاونين على الإثم والعدوان. وفى مخالطة الناس قوّة الطلب، والحرص على عاجل الدنيا لما يعاين من إقبال أهلها عليه. وفيه الفتور عن الخدمة بالنظر إلى أهل الغفلة، والملل للطاعة بمجالسة أهل البطالة، ونقصان حلاوة المعاملة، وذهاب نور العلم، وسرعة خروج الوجد بالفهم لاستماع كلام أهل الجهالة، والنظر إلى الموتى من أبناء الدنيا. كما رُوْى عن عيسى عليه السلام: «لا تجالسوا الموتى فتموت قلوبكم. قيل: ومن الموتى؟ قال: المحبّون للدنيا الراغبون فيها».

وقد كان الحسن يقول فى قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلاَ الأَمْوَاتُ﴾ [فاطر:٢٢] قال: الفقراء والأغنياء. كأنَّ الفقراء حيوا بذكر الله عزّ وجلّ، والأغنياء ماتوا على الدنيا.

وأعظم ما فى مخالطة الناس، ومجالسة أهل البطالة وذوى غفلتهم: ضعفُ

اليقين برؤيتهم. وأضر ما ابتُلى به العبد، وأعمله فى هلاكه، وأشدّه لحجبه وإبعاده: ضعفُ يقينه بما وُعد به بالغيب، وتُوعِّد عليه فى الشهادة. وهذا أخوف ما خافه رسول الله ﷺ على أمته، فيما روينا عنه أنه قال: «أخوف ما أخاف على أمتى ضعفُ اليقين»؛ وذلك أن ضعف اليقين هو أصل الرغبة فى الدنيا، والحرص على التكاثر منها، والتضرّع إلى أبنائها والطمع فيهم.

كما قال ابن مسعود: إنّ الرجل ليخرج من بيته ومعه دِينه، فيرجع إلى بيته وما معه من دينه شىء؛ يَلْقَى هذا فيقول: إنك لذيت وذيت، ويَلْقى هذا فيقول: أنت كيت وكيت، ولعله لا يُخلى منهم بشىء، ويرجع إلى بيته وقد أسخط الله عزّ وجلّ.

وقد قال بعض التابعين: إن العبد ليقعد فى الخلوة على خصال من الخير، فيخرج إلى الناس فيَحلُّون ما عَقَدَهُ عقدةً عقدةً، حتى يرجع، وقد انحلّت العُقَدُ كلّها.

وقوّة اليقينِ أصلُ كلّ عمل صالح؛ لأن فى قوّة يقينه سرعةَ منقلبه، وطولَ مثواه فى دار إقامته، وإيثارَ التقلل من الفانى وتقديمَه للباقى، وضعفَ حرصه، وقلةَ طلبه، وفَقْدَ طمعه، وفراغَهُ من الاشتغال بعاجله، وإقبالَه وشغلَه بما نُدب إليه من مستقره. وفى جميع ذلك إخلاصُه فى أعماله، وحقيقة زهده فى تصرف أحواله، وفى قصر أمله، وتحسين عمله. ألم تسمع إلى وصف من أخبر الله عزّ وجلّ عنه بالتكاثر الذى ألهاه، حتى زار برزخَه ومثواه، كيف تهدّده حتى يعلم يقينًا، وتوعّده إذا رأى آخرته عيانًا، فقال سبحانه: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١] أى شغلكم الجمع للمكاثرة حتى حللتم القبور. ثم قال: ﴿كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٥] أى لشغلكم العمل الصالح للآخرة عن اللعب واللهو، الذى هو مقتضى الشك، إذ هو ضد اليقين. فاشتغلتم بالآخرة عن التكاثر من الدنيا، كما شغلكم التكاثر باللهو واللعب، لعدم علم اليقين، كما قال: ﴿أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢] بعد أن قال: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ

يَلْعَبُونَ﴾ [الدخان:٩]، ثم توعدهم على ذلك مرتين، وتهددهم بالسؤال عن النعيم الذى شغلهم وهو التكاثر فى فضول العاجل. وقيل: هو الجمع والمنع.

فاعلم أنّ الذى قطَع العبادَ عن التوبة، وعرّج بالتائبين عن الاستقامة، ثلاثةُ أشياء: الكسبُ، والإنفاقُ، والجمع. وهذه الأسباب متعلقة بالخلق، وموجودة بوجودهم، ومفقودة بالانفراد عنهم، فمن زهد فى هذه الثلاثة فقد زهد فى الخلق، ومن رغب فى الخلق فقد رغب فى هذه الثلاث.

وقال الثورى: من خالط الناس داراهم، ومن داراهم راياهم، ومن راياهم وقع فيما وقعوا، فهلك كما هلكوا.

وقد قال بعض هذه الطائفة من الصّالحين: قلتُ لبعض الأبدال المنقطعين عن الخلق: كيف الطريق إلى التحقيق؟ وقال مرة: قلتُ له: دلنى على عمل أعمله أجد فيه قلبى مع الله تعالى، فى كل وقت مع الدوام. فقال: لا تنظر إلى الخلق، فإنّ النظرَ إليهم ظلمة. قلت: لا بدّ لى من ذلك. قال: فلا تسمع كلامهم، فإنّ كلامهم قسوة. قلت: لا بدّ لى من ذلك. [قال:] فلا تعاملهم، فإن معاملتَهُم وَحشة. قلت: أنا بين أظهرهم، لا بدّ من معاملتهم. قال: فلا تسكُن إليهم، فإن السكونَ إليهم هَلَكة. قلت: هذه العلّة. فقال: يا هذا، أتنظر إلى الغافلين، وتسمع كلامَ الجاهلين، وتعامل البطّالين، وتريد أن تجد قلبك مع الله عزّ وجلّ على الدوام؟ هذا ما لا يكون.

وقد جاء فى فضل العزلة والانفراد، وفى فضل الصمت، وفى جميع ما ذكرناه من الجوع والسهر، ومن مكابدة الليل، ما يكثر جمعه فيما نبهنا عليه، وأشرنا إليه، بلاغٌ وغنيةٌ لمن أراد الآخرة، وسعى لها سعيها وهو مؤمن، ولمن أريد بالمعاملة والمتاجرة، ولا حول ولا قوّة إلا بالله.

***

الفصل الثامن والعشرون

فيه كتاب مراقبة المقربين ومقامات الموقنين (١)

● **ذكر المقام الأول من المراقبة:**

العبدُ إذا قوى يقينه عَلِمَ عِلْمَ يقينٍ أنّ أوقاتَه هذه التى وُكل تربيته إليها، وجُعل سبب نمائه وحياته منها، هى مكررةٌ عليه فى البرزخ، ومردودة إليه يوم القيامة، ومعادة عليه فى الجنة، إن دخلها ليس يُجازَى هناك إلا بمقدار ما أعطى من المعاملة ههنا، ولا يُعْطَى ثَمَّ إلا بقدر ما وُفِّق ههنا، لا يُسأل إلا عن أوقاته، ولا يُحاسَب إلا بساعاته، ولا يُجازَى إلا عليها، ولا تُرَدُّ عليه أوقات غيره كما لا يُعاد هو فى صورة غيره، ولا يُعطَى جزاء سواه كما لم يُعامَل ههنا معاملة سواه، ولكن الله يُبْدئ ويعيد، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف:٢٩]. وقال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم:٣٥]، ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص:٢٩] من تدبره، ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص:٢٨] أى تدبروا آياته، هل ترون جزاء هؤلاء لوصف هؤلاء، أم هل تجدون وصف هؤلاء له جزاء أولاء؟ ومثله قوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [النساء:١٢٣] فنفى أمانيهم بليس، وأثبت حكمه بلكن، وهى مُضمرة فى الكلام، المعنى: لكن من يعمل سوءًا يُجْزَ به. وفسّره رسول الله ﷺ فقال: «المؤمن يُجزَى بسيئته فى الدنيا من المصائب والجوع والعُرى، والمنافق تبقى ذنوبه عليه حتى يُوفَّى يوم القيامة، كأنه حمار يُجازَى بها فى الآخرة».

---

(١) انظر فى المراقبة: إحياء علوم الدين: ٤/ ٣٩٣ وما بعدها، مدارج السالكين: ٢/ ٦٧ وما بعدها، عوارف المعارف، ص٤٣٠ وما بعدها.

وكان الحسن يقول: عبادَ الله، اتقوا هذه الأماني، فإنّها أودية النَّوْكَى[١] يُحلّوْن فيها، والله ما أتى عبدٌ اللهَ بأمنيته[٢] خيرًا من دنياه ولا آخرته. وقال بعضُ العلماء: كلَّما قلَّ العقل كثرت الأماني.

وكتب بعضُ السلف إلى بعض إخوانه من أبناء الدنيا يعظه: أخبرني عن هذا الذي تكْدَحُ فيه، وتحرص عليه من أمر الدنيا، هل بلغت فيه ما تريد، وأدركت ما تتمنَّى؟ فقال: لا والله. فقال: أرأيتك هذا الذي أنت حريص عليه لم تنل منه ما تريد، فكيف تنال من الآخرة وقد أعرضت عنها وصرفت عنها؟ فما أراك تضرب إلا في حديد بارد.

وقال بعضُ العلماء: من ظنّ أنه يدخل الجنة بغير عمل فهو متمنٍّ، ومن قال أدخُلُها بعمل فهو متعنٍّ. وقال بعضهم: الأماني تُنقص العقل. وفي الخبر: «ليس الإيمان بالتحلّي ولا بالتمنِّي، ولكن ما وقَر في القلب وصدّقه العملُ».

ومن هذا قول الله عزّ وجلّ: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]. وقال في ضده: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا﴾ [غافر: ٤٠]. وقال في معناه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ [التوبة: ١٦]. وكذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٤]. وقال في مثله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، ثم قال: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]، فأبطل حسبانهم، وأدحض حكمهم، ثم أحكم ما عنده بقوله: ﴿سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ [الجاثية: ٢١] أي هم كما كانوا في المحيا محسنين يعملون الصّالحات كانت لهم الحسنى في الممات، وكما كانوا في المحيا مفسدين يعملون السيئات كانت لهم السوأى والمكروهات.

---

(١) النوكى: الحمقى، مفرده: أنوَك.

(٢) في (ك): «بتمنّيه».

وقيل: كانت هذه الآية مبكاة للعابدين؛ لأنها محكمة غير متشابهة. وكذلك جميع ما ذكرناه من نظائرها هو من المحكم الذى هو أم الكتاب، غير منسوخ ولا متشابه. وهذه الآى من عزائم القرآن، وهو من أحسن ما أُنزل علينا من ربّنا، الذى أمر الله سبحانه وتعالى باتباعه، ووصف أهل الهدى وأولى الألباب باستماعه فى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٨] قيل: عزائمه ووعيده.

وقد قيل فى قوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧] قيل: الرجاء الخائب بالاغترار والظن الكاذب. وقيل: عملوا أعمالاً ظنوا أنها حسنات فوجدوها عند المحاسبة سيئات. والصحيح ما صحّ بعد الحساب، والحق ما ثقل عند الميزان، كما قال تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ [الأعراف: ٨] قيل: العلم والعمل. كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ [الأعراف: ٥٢]، ثم قال: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ﴾ [الأعراف: ٧]، ثم قال تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الزمر: ٤٨] قيل: كانوا يقدِّمون الذنب، ويؤخِّرون التوبة، ويسوِّفون بالمغفرة. وكانت هذه الآية محزنة للخائفين، ومخافة للعارفين. وقد أخبر الله سبحانه وتعالى أنه أعدّ النار للكافرين، ثم أمر المؤمنين باتقائها، ثم وصف الكافرين فيها، وخوَّف عباده بها، فقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١]. وقال سبحانه: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ [الزمر: ١٦].

ويقال: إنّ العبد يستحق النارَ بأول معصية عصى مولاه بها بعد المعرفة، ثم هو بعد ذلك فى المشيئة. وإنّ فى كل عبد خصلة كريهة يُخاف عليه منها.

وكان عبد الواحد بن زيد يقول: ما صحَّ خوف خائف قط ظنَّ أنه لا يدخل النار. وما صدق خوفُ من ظنّ أنه يدخل النار فظن أنه يخرج منها. أى أنّ حقيقةَ الخوف خشيةُ دخول النار، ثم الخلود فيها.

وقد روينا مثل ذلك عن الحسن وقد ذُكر له الرجل الذى يخرج من النار بعد ألف عام، فبكى ثم قال: يا ليتنى مثل ذلك الرجل.

وروى عن رسول الله ﷺ: «من قال إنّى فى الجنّة فهو فى النار. ومن قال: إنّى عالم فهو جاهل».

وروى عنه ﷺ: «من أراد أن يعلم كيف منزلته من الله تعالى فلينظر كيف منزلة الله فى قلبه، فإنّ اللهَ يُنزل العبدَ منه بحَسْب ما أنزله من نفسه».

• ذكر المقام الثانى من المراقبة:

ثم يعلم العبدُ يقينًا أن لكل عمل صالح نعيمًا فى الجنة، وروحًا فى البرزخ. ولكل عملٍ حسن ومعرفةٍ خالصة مقامًا فى الجنة، وقد قُسم جزء هناك لعطاء معاملة ههنا. وأن لكل عمل سيئ وجهل قبيح عذابًا فى الآخرة، وكَرْبًا فى البرزخ، ومقامًا من النار، قد قسم جزء هناك لعمل ههنا. ثم قد أخفى اللهُ ذلك الجزء من الخير والشر، وأظهر أعمالهما للحاكمين، وأبان لهما طريقين يجريان إلى دارين، حكمةً منه. ثم قدّم المعاملات من المعنيين، وأخّر المثوبات من النوعين، إحكامًا منه للأفعال، واستسعاءً للعبد بالأعمال، ابتلاءً منه لتُجزَى كلُّ نفس بما تسعى، مِنَّةً منه ورحمةً، وقدرةً منه ومحبةً، لا يسئل عما يفعل؛ لأنه مَلك قهّار عزيزٌ جبار، وهم يسئلون؛ لأنّهم عبيد مقهورون، وذُلُل مجبورون، ولا تُضرب له الأمثال؛ لأنه قد جاوز الاحتجاج والاعتدال، ولا يُسوَّى بالعبيد؛ لأنه قد فات التقدير والتحديد، فله الحجة البالغة، والقدرة النافذة فى كل شىء، ليس كمثله شىء فى جميع ذلك كله.

وقد أحكم الله تعالى ما ذكرناه فى توحيد نفسه بالمشيئة والأفعال، ونهيه عن الشركِ به وضرب الأمثال. وعجب ممن يسوِّى بينه وبين خلقه فى الأحكام، وجعل ذلك جحودَ النعمة وشركًا فى ملكه، وأخبر به عن المشركين وإضلالهم أتباعَهم بعد ضلالهم المبين، وإضلالهم بتسويتهم بينه وبين عباده فى الأحكام، فى قوله تعالى: ﴿قَالُوا وَهُمْ فيهَا يَخْتَصمُونَ * تَالله إنْ كُنَّا لَفى ضَلال مُبين * إذْ

نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ العَالَمين * وَمَا أَضَلَّنَا إلاَّ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الشعراء: ٩٦ ـ ٩٩]. قيل: أُنزلت فى القدرية؛ لأنهم أضافوا الحول والقوّة فى الشر إلى الخلق، فسوّوا بينهم وبين الخالق. وقد قال الله تعالى: **﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾** [الصافات: ٩٦]، فأضاف الأعمال إلى أنه خلقها كخلقه إياهم، فهم المجرمون الذين أُنزلت فيهم هذه الآية، التى ذكر فيها القدرية فوُصفوا بإنكارهم، فى قوله تعالى: **﴿إنَّ الْمُجْرِمينَ فى ضَلال وَسُعُر * يَوْمَ يُسْحَبُونَ فى النَّارِ عَلى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ * إنَّا كُلَّ شَىءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾** [القمر: ٤٧ ـ ٤٩]. هم المجرمون الذين أضلوا أتباعهم، وهم الغاوون الذين كُبكِبُوا فى النار مع أشياعهم.

وقد أحكم الله تعالى تفضيل ما ذكرناه آنفًا فى خمس آياتٍ محكمات تَنْظِمُ جمل معانى ما ذكرناه، تركنا شرح ذلك وبسطه، خشيةَ الإطالة، لأنا لم نقصد الاحتجاج فى الاستدلال، من ذلك قوله تعالى: **﴿وَاللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلى بَعْضٍ فى الرِّزْقِ﴾** يعنى: فضَّل الموالى على العبيد **﴿فَمَا الَّذينَ فُضِّلُوا﴾** يعنى الموالى **﴿بِرَادِّى رِزْقِهِم عَلَى ما مَلَكَتْ أيمانُهُم فَهُم فِيه سَواءٌ أَفَبِنِعْمَةِ الله يَجْحَدُونَ﴾** [النحل: ٧١].

والآية الثانية قوله تعالى: **﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فى مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فيهِ سَوَاءٌ﴾** [الروم: ٢٨] أى: فكذلك أنا لا شريك لى من عبيدى، فلا تجعلوا لى ما لم أجعل أحدًا لا خلقى ولا عبيدى عليكم، إذ لم أسوِّ بينكم وبين عبيدكم، فلا تشركوا عبيدى فى حكمى.

والثالثة قوله تعالى: **﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً عَبْدًا مَمْلُوكًا لاَ يَقْدِرُ عَلى شَىءٍ﴾** يعنى: الإنفاق **﴿وَمنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُو يُنفِقُ مِنْه﴾** [النحل: ٧٥] فجعلهما على وصفين، أحدهما: بخيل لم يقدره على الإنفاق، ثم ذمَّه بالبخل والعجز وهو الذى أعجزه ومنعه، وجعل الآخر جوادًا إذ قدره وأعطاه الإنفاق، ثم مدحه بالجود.

وقال فى الآية الرابعة: **﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلى**

شيء﴾ هو الحكمة والعلم، ثم قال: ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ﴾ ؟ [النحل:٧٦] فجعل له عبدين: أحدهما: سفيه جاهل أبكم عن الحكمة، ولم يقدره على علم، ولم يعطه استقامة، ثم ذمّه بوصفه ومقته لمنعه. وجعل الآخر آمرًا بالعدل عن أمره، مستقيمًا على صراطه المستقيم الذى هو عليه، وهو أقامه، كما قال: ﴿هذَا صِراطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحجر:٤١]، فهل يسلك أحد طريقه إلا به؟ وهل يجوز عبد على سبيله إلا بحوله؟ ثم مدحه بإعطائه إياه ووصفه بوصفه، ثم علَّم سبحانه أن للعقل فى هذا تشبيهًا وتمثيلاً بخلقه، وتجويزًا وتظليمًا من خالقه، على قياس العقول، أن من فعل بعبدين له مثل هذا، ثم مدح أحدهما وهو الذى أعطاه وأقدره، وذم الآخر وهو الذى منعه وأعجزه، أنه قد ظلمه، فحسم ذلك عزّ وجلّ بنهيه، وأحكم النهى عن التمثيل به.

وفى الآية الخامسة الفاصلة القاضية التى نهانا فيها أن نضرب له بنا الأمثال مثل ما أجرى علينا من الأفعال فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَلاَ تَضْرِبُوا لله الأَمْثَالَ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٧٤]. فوكّد ذلك بتحقيق علمه وغاية جهلنا، ثم أيَّد هذا بقوله سبحانه: ﴿لاَ يُسأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسأَلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣] فسلّم الراسخون فى العلم الأحكام كلّها للحاكم، فسَلِمُوا من عذابه، وآمن المؤمنون بجميع الأقدار أنّها عدل وحكمة من حاكم عادل حكيم، فأمِنُوا من عقابه؛ لأنهم آمنوا بالمتشابه، وأعطاهم بفضله من فضله جزيلَ ثوابه، فهلك الزائغون بالأقاويل، تتبعًا للشبهات وابتغاءً للتأويل، فوقعوا فى الضلال، وهلكوا غدًا فى المآل.

وقد روى الضحاك عن ابن عباس تصديقَ ما ذكرناه، قُبيل قوله عزّ وجلّ: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ [الحجر:٤٤]. قال ابن عباس: طبق أسفل من طبق، سبع دركات على قَدْر أعمالهم، كذلك يقتسمون الدركات بقدر ما اجترموا، كما اقتسم أهلُ الجنة الدّرجات بالفضائل، ﴿لِكُلِّ بابٍ منهُم جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ يعنى: نصيبًا معلومًا مفروضًا لكل طبقة سكان.

وقال بعضُ العلماء: تالله ما فى الجنة قصر ولا نهر ولا نعيم إلا عليه اسم

صاحبه مكتوب، واسم ذلك العمل الذى هو جزاؤه مكتوب. وكذلك جهنم ما فيها غلٌّ ولا قيد ولا شعْب ولا عَذاب إلا وعليه وصفُ ذلك العمل الذى هو جزاؤه، واسم صاحبه مكتوب. وقال: قد أدخلهم الجنةَ قبل أن يطيعوه، وأدخلهم النارَ قبل أن يعصوه.

وقال بعض العارفين أيضًا: الخَلْقُ أهونُ من أن يعصوه عزّ وجلّ بما لم يُرِد، واللهُ أعزُّ من أن يرضيه إلا ما أحبَّ، لكنه غَضِبَ على قومٍ فى العدَم، فلمّا أظهرهم استعملهم بأعمال أهل الغضب، ليُحلَّهم دارَ الغضب، ورضى عن قومٍ فى القِدَم، فلما أظهرهم استعملهم بأعمال أهل الرضا، ليُحلَّهم دار الرضا.

وقال بعضُ أهل المعرفة: أظهر الخلقَ فى العدمِ، وأوجدَهُم إياهم اقتدارًا، ثم أظهر لهم أعمالهم، وخيَّرهم الأعمال منه اختيارًا، فاختار كلُّ عبدٍ منهم عملاً بعينه، ثم طوى الأعمال فيهم، وطواهم فى الغيب، فلما أظهرهم الآن فى الوجود حجبهم بالعقول، وأجرى كلُّ عبدٍ منهم اختياره لنفسه، فبذلك وقعت الحجة عليهم إذا كشف لهم غدًا ما حجبه عنهم اليوم.

وحُدّثتُ عن بعضِ هذه الطائفة قال: كان قد بقى فى نفسى شىء من القدَر، وكنت أستكشفُه من العلماء فلا ينكشف، حتى قيّضَ اللهُ تعالى لى بعضَ الأبدال فاستكشفته إياه، فقال: ويحك ما تصنع بالاحتجاج، نحن يُكشَف لنا عن سرِّ الملكوت، فننظر إلى الطاعات تنزل صورًا من السماء حتى تقع على جوارحِ قوم فتتحرك الجوارحُ بها، وننظر إلى المعاصى صُورًا مصورّة تنزل من السّماء، فتقع على جوارحِ قومٍ فتتحرك بها. قال: فكشف عن قلبى القَدَر، وأوقع لى العلمَ بمشاهدة القُدْرة[1].

وكنتُ أنا مرةً خاطبتُ بعضَ إخواننا فى شىء من الاستطاعة مع الفعل، لا أنّها[2] قبله ولا بعده، فتكلمت فى ذلك بمذهبِ المثبتة من أهلِ الكلام، قبل أن ينكشف لى مُشاهدةُ علمِ اليقين، فرأيتُ فى النوم كأنّ قائلاً يقول: القدَر من

(١) فى (ك): «مشاهدة اليقين».

(٢) فى (ط): «لا أنه».

القُدْرة، والقُدرة صفة القادر، فيقع القدر على الحركة ولا يَتبيَّن، فتظهر الأفعالُ من الجوارح، أو قال: فتتحرك الجوارح بالأفعال وتَستْبين[1]، فكيف يُتكلم فى شىءٍ لا يتبيَّن. فجعلتُ على نفسى أنى لا أناظر أحدًا منهم بعد ذلك فى شىء من هذا الباب.

وقد حدّثونا عن بعض العابدين قال: صليتُ من السّحر ركعتين ثم غفوت بعدهما، فرأيت قصرًا عاليًا ذا شُرُف بِيض كأنها الكواكب، فاستحسنته، فقلت: لمن هذا القصر؟ فقيل لى: هذا ثواب هاتين الركعتين، ففرحتُ فجعلتُ أطوف حوله، فرأيت شُرفةً من رُكنه قد وقعت فشانه ذلك، فاغتممتُ، وقلت: لو كانت هذه الشّرفة فى أعلاه فى هذا الموضع لتمّ حُسْنُ هذا القصرِ، فإنّ ثَلْمَها قد شانه. فقال لى غلام هناك: قد كانت هذه الشّرفة فى مكانها من القصر، إلا أنك التفتَّ فى صلاتك فسقطت.

وحدثونا عن بعض الزهاد أنه كُوشف مقامه من الجنة، فرأى الحور العين، وقُلن: نحن أزواجك. فلما خرجتُ تعلقت بى الحور وقلن: ننشدك الله إلا ما حسَّنت أعمالك، فإنّك كلّما حسنتها ازددنا لك حسنًا، وازددت بنا نعيمًا.

وحدثونا عن رابعة العدوية رحمها الله تعالى قالت: سبَّحتُ ذاتَ ليلة تسبيحات من السَّحَر، ثم نِمْتُ، فرأيت شجرةً خَضِرةً نَضِرة لا توصف عِظَمًا وحسنًا، وإذا عليها ثلاثة أنواعٍ من الثّمر لا أعرفه من ثمار الدنيا، كثُدَى الأبكار؛ ثمرة بيضاء وثمرة حمراء وثمرة صفراء، فهنّ يلمعن كالأقمار والشموس فى خلال خضرة الشجر. قالت: فاستحسنتها، فقلت: لمن هذه؟ فقال لى قائل: هذه لك بتسبيحاتك آنفًا. قالت: فجعلتُ أطوف حولها فإذا تحتها ثمرة منتشرة على الأرض فى لون الذهب، فقلت: لو كانت هذه الثمرة مع هذه الثمار على هذه الشجرة لكان أحسن، فقال لى الشخص: قد كانت هناك، إلا أنك حين سبَّحت تفكَّرت هل اختمر العجين أم لا، فانتثرت هذه الثمرة.

فهذه عبرة لأولى الأبصار، ومواعظ لأهل التقوى والأذكار.

---

(١) فى (ط): «ولا تتبين».

• ذكر المقام الثالث من المراقبة:

رُوى أن كعب الأحبار قال لعمر بن الخطاب رضى الله عنه: لو لقيتَ الله تعالى بعمل سبعين نبيًا لخشيتَ أنك لا تنجو من هول ذلك اليوم.

وقال بعض السلف: لو أنّ العبد كان يُجَرُّ على وجهه من أول الدنيا إلى قيام الساعة فى طاعة الله وعبادته لاحتقره يوم القيامة، لِمَا يرى من الزلازل والأهوال.

وفى الحديث: «معالجةُ مَلَكِ الموت أشدّ من ألفِ ضربةٍ بالسيف. وإنّ ألَم شعرةٍ من الموت لو وُضع على جميعِ الخلائق لماتوا. وإنّ بين الخلائق وبين الموت وبين دخول الجنة مائةَ ألفِ هول، كلّ هول منها يزيد على ألم الموت مائة ألف ضعف، لا ينجو العبد من كل هول منها إلا برحمة الله».

فيحتاج العبدُ إلى مائة ألف رحمة تنجيه من تلك الأهوال، يكون ذلك العدد من الرحمة مقسومًا على مائة ألف حسنة أعطيها من حسناته فى الدنيا التى أحسن بها إليه، يكون مكانًا لظهور الرحمة، وطريقًا لعطائها غدًا، حكمةً من الحكيم، وقسْمًا مدبرًا من الرحيم، لأنّ الصالحات طرق الجزاء، والحسنات كلها عن الرحمة الواحدة التى سبقت له بها النجاة، ثم سقطت فى طرقات الأعمال أماكن الثواب[1]، فيعطى ذلك ههنا اليوم، وهو العطاء الأول، بحُسن تَوْفيقه ولطف عنايته، ويعطى الجزاء هناك غدًا بفضل رحمته وتمام نعمته، ذلك تقدير العزيز العليم، كما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

قيل فى الخبر: «ما جزاءُ من أنعمنا عليه بالتوحيد إلا الجنة».

وقال بعض العلماء: وليس لقول لا إله إلا الله جزاء إلا النظر لوجه الله تعالى.

والجنّةُ جزاء الأعمال. ألم تَرَ أنه لو حُرم التوحيد اليوم لَحُرم الجنة، ولو مُنع الإسلام اليوم لم يغفر الله له أبدًا؟ كما قال عزّ وجلّ: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ

---

(١) فى (ك): «والحسنات أماكن الثواب».

حَرَّمَ اللهُ عَلَيْه الجَنَّةَ﴾ [المائدة:٧٢]. وقال: ﴿إنَّ الذين كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبيلِ الله ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفرَ اللهُ لَهُم﴾ [محمد:٣٤]، فهذا مما لا حيلة فيه ولا سبيل إليه، وقد قال: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ المَغْفِرَةِ﴾ [المدثر:٥٦]. قيل: هو أهل أن يعطى التقوى، ومن أعطاه التقوى فهو أهل أن يعطيه المغفرة، كقوله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوى وكَانُوا أَحَقَّ بهَا وأَهْلَهَا﴾ [الفتح:٢٦]. وقال: ﴿واتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات:١٠]. وقال: ﴿إنَّ رَحْمَةَ الله قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنينَ﴾ [الأعراف:٥٦]. وقال سبحانه: ﴿تَمَامًا عَلَى الَّذى أَحْسَنَ﴾ [الأنعام:١٥٤]. وقال تعالى: ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسنينَ﴾ [البقرة:٥٨] مع[1] قوله: ﴿ما على الْمُحْسِنينَ مِنْ سَبيلٍ﴾ [التوبة:٩١]. وقال تعالى: ﴿ومَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فيهَا حُسْنًا﴾ [الشورى: ٢٣]. فمن كانت أعماله الحسنات فهو من المحسنين، ومن كانت أعماله سيئة فهو من المسيئين. فاشتقاقُ الحسنةِ من الحُسْن، وجزاؤها الحسنى، وهى الجنة. واشتقاقُ السيئةِ من السّوء، وجزاؤها السوأى، وهى النار. وقد سبق خلقهما قبل خلق الخلائق، وفرغ من نصيب العباد من الجنة والنار. وسئل رسولُ الله ﷺ عن الإحسان فقال: «أن تعبد الله كأنك تراه». فهذا أولُ المراقبة، لأنّها عن غير المشاهدة، ترى الرقيب ثم تراقب.

وقد خص الله تعالى بالطيّبات من الأعمال الطيّبين من العمال، وابتلى بالخبيثات من الأعمال الخبيثين من العمال، وفرغ من ذلك بعلمه، وقدّره بحُكمه، وأخفاه بلُطفه، فقال تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ للْخَبِيثينَ﴾ ، قيل: الخبيثات من الأفعال والأقوال للخبيثين من الرجال. وقال: ﴿والطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبينَ﴾ [النور:٢٦]، قيل: الطّيبات من الأعمال والمقال للطيّبين من الرجال.

ثم أخبر بحسن خاتمة أوليائه وسوء خاتمة أعدائه، فقال تعالى: ﴿الَّذينَ تَتَوَفَّاهُمُ الملائكةُ طَيِّبينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٣٢]،

(١) فى المطبوعة: «إلى»، وهى خطأ والصواب من المخطوط.

قيل: طابت حياتُهم فطابت وفاتهم، وطابت أعمالهم فطاب الموت لهم.

وقال فى وصف الظالمين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ المَلائِكَةُ ظَالِمِى أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتم قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تكُن أَرْضُ الله وَاسِعَةً فتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولئِكَ مَأوَاهُمْ جَهَنَّمُ وسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧]، أظلمتْ حياتهم وأعمالهم، فأظلمتْ قبورهم ومثواهم.

فمن شهد ما ذكرناه يقينًا دامت مراقبته، وحسنت معاملته، واتصلت أوراده، وكثر من الخير ازدياده، ونَفذت مشاهدته لصفاء يقينه ودوام مزيده، فكان ممن ندب الله عزّ وجلّ فى قوله تعالى: ﴿لِمِثْلِ هذَا فَلْيَعْمَلِ العَامِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١]، ﴿وفِى ذَلِك فَلْيَتَنَافَسِ المُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]، وكان ممن وصف إذ يقول: ﴿يُسَارِعُونَ فِى الخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١]، أى: يسارعون الموت ويسابقون الفوت، ويسارعون الغافلين ويسابقون البطالين. ولعل بطالاً من الشاطحين، جاهلاً بحكمة الحكيم، يتوهم علينا بظنه أنّا نقول: إنه لا يعطى إلا شيئًا بشىء. ولسنا نقول ذلك، إنما نقول: إنّه يعطى شيئين بلا شىء. فهو المعطى الأول للشىء الذى هو الظرف والمكان من العبادة والإيمان، وهو الذى يعطى الشىء الذى هو النعيم والجنان، إلا أنّه أجرى ذلك بتقديره فى مجارى حكمته، كما سبق ذلك فى علمه، ثم أنشأه فى معلومه، لأنّه حكيم عليم.

• ذكر المقام الرابع من مراقبة الموقنين:

ثم يعلم العبد يقينًا أنه تُنشر له سنوه فى الآخرة شهورًا، وتُبسط شهوره أيامًا، وتُفترش أيامه ساعات، وتُكشف ساعاته أنفاسًا، ثم يُسأل عن كل نفَس، ويُنشر له بكل فعلة فعلها وإن صغرت ثلاثة دواوين: الأول: لم فعلتَ؟ وهذا مكانُ الابتلاء بالأحكام، فإن سلم له نُشر له الديوان الثانى وهو: كيف فعلتَ؟ وهو موضعُ المطالبة بصحّة العلم، فإن صح له هذا نُشر عليه الديوان الثالث وهو: لمن فعلتَ؟ وهذا مكانُ المطالبة فى الإخلاص، فإن اعتل بكيف، أو بلم، أو بلمن، خيف عليه الهلكة، إلا أن يتعطف عليه الكريم المنّان من حيث لا يحتسب، فيستنقذه

ويسمح له، وقد قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ [الأنبياء: ٤٧] أى: جئنا بها، أى أحضرناها. وقرئت بالمد «آتَيْنَا بها»[1] بمعنى: جازينا بها. وقال عزّ وجلّ: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]. وقيل: هذه أحكم آية فى كتاب الله عزّ وجلّ، وهى مجملة مبهمة عامة. وكان رسول الله ﷺ إذا سئل عن شىء لم يوح إليه فيه بشىء يقول: «ما عندى فيه إلا هذه الآية الجامعة الفاذة. ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ الآية».

ولما تعلم صعصعة جد الفرزدق من أسفل القرآن إلى هذه السورة، قال: حسبى حسبى قد عرفتُ الخيرَ والشرَّ، فقال رسول الله ﷺ: «انصرف الرجلُ فقيهًا».

وقيل: الذَرَّة قِشرة الهباءِ الذى يظهر فى شعاع الشمس مثل رءوس الإبر.

وروى عن ابن عباس أنه قال: إذا وضعتَ كفّك على التراب، ثم رفعتها، فكلُّ شىءٍ تعلق بها من التُّراب فهو ذرّة. وقد قيل: أربع ذرات خردلة. وذكر بعض العلماء أن الذرة جزء من ألفِ جزءٍ من شعيرة.

ففى الأعمالِ ما يزن هذا الشّبح، وما يثقل به هذا الخفاء، فلذلك أخبر به الخبيرُ، وحذّر منه الرءوف.

وفى معنى ما ذكرنا آنفًا مَنْ حَسِبَ أنّه يدخل الجنة بعمل فهو مُتَعَنٍّ، ومن حسب أنه يدخلها بغير عملٍ فهو مُتَمَنٍّ. يعنى أنه ينبغى أن يعمل ما عليه، ولا ينظر إليه، ثم يتوكل فى ذلك على الله عزّ وجلّ، ويرجو قبوله بكرمه، ويخاف ردّه بعدله. ولذلك مدح الله سبحانه وتعالى عبادَه الصابرين له، المتوكلين فى أعمالهم عليه، فأنعم أجرهم فقال: ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٨، ٥٩]. فالمزيد فى الجنة بفضل الله ورحمته هو تأبيد جزاء المعاملة الموهوبة اليوم، ودوام خلود العامل فى تأبيد جزائه. ألم تسمع قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ [الشورى: ٢٣]، مع قوله: ﴿لِلَّذِينَ

---

(١) هذه قراءة مجاهد، انظر: البحر المحيط ٦/٣١٦، المحتسب ٢/٦٣، معانى القرآن، للفراء، ٢/٢٠٥، إعراب القراءات السبع، لابن خالويه، ٢/٦٢.

أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وزِيادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]، ومثل قوله: ﴿فأُولَئكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْف بِمَا عَمِلُوا﴾ [سبأ:٣٧]، ومثله: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾ [الأنعام:١٣٢]، ونحوه: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ [القصص:٥٤] أي: وبما يدرأون بالحسنة الحديثة السيئة القديمة. فلما استعملهم فى الدنيا بعملين: بالصبر، وبدرء السيئةِ الماضيةِ بالحسنة المستأنفة، أعطاهم فى الآخرة أجرين. وهذا من الكلام المحذوف الموجز، فمحذوفه: «وبما يدرأون» أى: وبما يدفعون أيضًا، فلما حُذفت «بما» أشكل الكلام، فأشبهت الواو واوَ النسقِ، ومؤخره السيئة، والمعنى: يدفعون السيئة التى تقدمت منهم بالحسنة التى يعملونها بعدها، فتكون الحسنةُ المستقبلةُ رافعةً لعقابِ السيئةِ الفارطةِ منهم.

ومن أحسن الصبرِ صبرٌ عن المعصية[1]، ومن أحسنِ الحسنات التوبةُ النصوحُ بعد ما سلف من الذنوب والفضوح. فكأنّهم قد عملوا عملين: صبروا عن الشهوة، ودفعوا بالتوبة ما سلف من السيئة، فأعطاهم أجرين لمّا استعملهم بعملين، إذ لا صبر إلا به، ولا توبة لهم إلا منه، كما قال تعالى: ﴿واصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إلاَّ بِاللهِ﴾ [النحل:١٢٧]، [وقال: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾][2] [التوبة:١١٨]، وقال فى مثله: ﴿تَوْبَةً مِنَ اللهِ﴾ [النساء:٩٢]. وليس للعبدِ أوّليّةٌ فيما مَنَّ اللهُ، وإلا كانَ شريكًا بالاسمِ الأوّلِ[3].

ومن أحسن الحسنات مراقبةُ الرقيبِ عند خطرات القلوب، ومن أفضل القربات محاسبةُ النفس للحسيب واستجابتها بطاعة الحبيب.

وكذلك حكمتُه فى مزيد أهل النار، ودركات بعضهم على بعض فى العتوّ والفساد، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ الله زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فوقَ

(١) فى (ط): «الصبر على المصيبة» وأثبت ما فى (ك).

(٢) هذه الآية ساقطة من المطبوعة وهى فى الأصل المخطوط.

(٣) هذه الجملة كانت فى المطبوعة كما يلى: «وليس من العبد أو إليه فيما من الله وإلا كان مشركًا فى اسم أوّل». وأثبت ما فى (ك).

العَذَابِ﴾ [النحل:٨٨] أي: زدناهم عذابًا فوق عذاب الذين كفروا ولم يصدّوا عن سبيل الله. وبمعناه قوله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾** [النساء:١٦٨] فلم يغفر لهم بكفرهم، ولم ينوِّر لهم طريق الهداية بظلمهم. وكذلك قال رسول الله ﷺ: «الظلم ظلمات يوم القيامة».

ومثل ذلك قوله تعالى: **﴿إِنَّ الذينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾** [البروج:١٠]، فصار عليهم عذابان: عذاب جهنم بما لم يتوبوا، وعذاب الحريق بما فتنوا المؤمنين.

ومثله قوله تعالى: **﴿فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾** [التوبة:٥٥] أي: يريد أن يعذبهم بها فى الدنيا، ويريد أيضًا أن تزهق أنفسهم على الكفر ليعذبهم بها فى الآخرة، وهذا نص صريح أنّ الله تعالى يريد الكفرَ من الكافرين[١]، لأنَّ «تزهق» انتصب بالعطف على «يريد» الأول، والواو فيه للجمع. وقد قيل[٢]: إن فى هذه الآية تقديمًا وتأخيرًا، فيكون المعنى: ولا تعجبك أموالهم ولا أولادهم فى الدنيا، إنّما يريد الله ليعذبهم بها فى الآخرة، فأراد أن يجمع العذابين عليهم فى جهنم، أحدهما: الأموال والأولاد، والثاني: لإرادته تعالى أن تخرج نفوسهم على الكفر. فمن لا مال له ولا ولد له منهم كان عليه عذاب واحد فى جهنم، لأجل قوله تعالى: **﴿بها﴾** أى بسببها. وهذا مُواطئ للخبر الذى جاء أن «فقراء الكفار يدخلون النار بعد أغنيائهم بخمسمائة عام»؛ لأجل الفقر الذى كانوا فيه فى الدنيا، كما أن الفقراء من المؤمنين يدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام؛ لأجل غنى أولئك.

وفى الخبر أيضًا: «وتدخل المَرْضَى إلى الجنّةِ قبل الأصحّاءِ بأربعين خريفًا. ويدخل المقتولُ فى سبيل الله مقبلاً قبل المقتولِ فى سبيل الله مدبرًا بأربعين خريفًا.

---

(١) انظر: تفسير القرطبى ٨/ ١٦٤.

(٢) هذا قول أكثر أهل العربية، كما فى تفسير القرطبى ٨/ ١٦٤.

وتدخل المماليك قبل الموالى بأربعين خريفًا. ويدخل سليمانُ بن داود الجنةَ بعدَ الأنبياء بأربعين خريفًا، لمكان ملكه».

فالحسرةُ العظمى والفوتُ الأكبرُ الذى لا دَرَك له هو تأبيد حرمان ما أُعطى غيرك من المزيد هناك، لفوت أوقاتك فى الدنيا ههنا، ثم درك ذلك بأوقاته العامرة ههنا تأبيد مزيد جزائه ثَمَّ. وهذا هو التغابن؛ غَبَنَ العاملون البطّالين، وغبن السّابقون المخلّفين، وغبن المسارعون المثَّبطين. ثم خلودُ العبدِ البطّالِ المغبون فى الدنيا فى تأبيد حرمان مزيد الغابن العامل. ومِن هذا قوله ﷺ: «ما من ساعةٍ تأتى على ابن آدمَ لا يذكر اللهَ تعالى فيها إلا كانت عليه حسرةً، وإن دَخَل الجنةَ». وفى لفظ آخر ـ وهو أشدّ ـ «إلا كانت عليه تِرَةً يوم القيامة» أى: مطالبة ومؤاخذة. فالحسرةُ فى الجنة بعد دخولها والظفرِ بنعيمها هو ما ذكرناه من حرمان مزيد العاملين فيها، ثم دوامُ الحرمان مؤبد بها، وهو كونُ العبدِ فى نقصان درجة غيره، ثم هو مخلّد فى النقصان سَرْمدًا. ومع ذلك فلا يُؤْبَه له، ولا يُفطن به، كيلا يُنغَّص عليه نعيمه.

والطرفةُ والنَّفَس إذا خلتا من اليقظةِ والذِّكْر فيهما بمنزلة السّاعة الخالية، إلا أن النبى ﷺ نصّ على السَّاعةِ ولم يذكر ما دونها، لأن اسمَ الساعة أقلُّ الزمانِ المستعمل عند العرب، ليواطئ بقوله ﷺ قولَ الله سبحانه وتعالى: ﴿**فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ**﴾ [الأعراف:٣٤]. ومعلوم أنه إذا جاء الأجلُ لا يستأخرون نَفَسًا ولا طَرْفةَ عينٍ، وكذلك لا يستقدمون طَرفة ولا نَفَسًا. فذُكرت الساعة دون ما نَقْص منها؛ لئلا يخرج الكلام عن حد استعمالهم وعُرْفِهِم، وليُستدل بها على ما دونها فى القلّة من النَّفَس والطّرْفة.

وكذلك دلّ رسولُ الله ﷺ بنصّه على السَّاعَة على ما دونها لأنَّ حكمته من حكمةِ مولاه، وكلامَه على معانى كلامه. وقد دخلت الساعةُ فما دونها فى الأيّام التى قال الله تعالى: ﴿**كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِى الأَيَّامِ الخَالِيَةِ**﴾ [الحاقة:٢٤]. قيل: هى واللهِ أيامكم هذه، وستخلو، فاشغَلُوها بالأعمال الصّالحة

قبل خلوّها منكم وانقضائها عنكم.

وكان الحسنُ يقول: يا ابنَ آدمَ إنّما أنت مراحل، كلما مضى منك يومٌ أو ليلةٌ قطعت مرحلة، فإذا فنيت المراحلُ بلغتَ المنزلَ إلى الجنّة أو النار.

فالساعاتُ تنقلنا، والأيام تطوينا، كما قال بعضُ الحكماء: مَثَلُ العبدِ فى عمره مَثَلُ رجلٍ فى سفينة تسير وهو قاعد، كذلك العبد يدنو من الآخرة وهو غافل. ويقال: إنّ العبدَ تُعرض عليه ساعاته فى اليوم والليلة، فيراها خزائنَ مصفوفة أربعةً وعشرين خِزانةً، فيرى فى كل خِزانةٍ نعيمًا ولذَّة وعطاءً وجزاءً لما كان أودع خزانته من ساعاته فى الدنيا من الحسنات، فَيَسُرُّه ذلك ويغتبط به. فإذا مرّت به فى الدنيا ساعة لم يذكر الله تعالى فيها رآها فى الآخرة خزائن فَارغةً، لا عطاء فيها ولا جزاءَ عليها، فيسوءه ذلك ويتحسر كيف فاته أن لم يدّخر فيها شيئًا؛ فيرى جزاءه مدّخرًا، ثم يلقى فى نفسه الرضا والسكون. فلو لم يتحسر العبدُ إلا على فوتِ الفضائل والمندوب إليه من الخيرات لكان فى فوت المسابقة والمسارعَة حَسَرات. فكيف بِمَنْ فَاتته أوقاتُه فى السيئات وفَرطَتْ منه فى الخسارات؟! ولو لم يشتغل العبدُ فى عمره إلا بالحلال والمباحات لكان ذلك نقصانًا من الدرجات له، فكيف بمن اشتغل بالمحظورات؟!

فسبحان اللهِ ما أعظمَ الخطرَ، وأصعب الأمرَ، وأقلّ المشاهدين لذلك، وأغفلَ البطالين! وقد قال بعضُ العلماء: هبْ أنّ المسِيء قد غُفر له أليس قد فاتَه ثوابُ المحسنين.

وقد جاء فى الأثر: إنّ بعضَ أهل الجنة بينا هم فى نعيم إذ سطَع لهم نور من فوقهم أضاءت منه منازلُهم كما تضيء الشمس لأهل الدنيا، فنظروا إلى رجالٍ من فوقهم أهل عليين، يرونهم كما يُرى الكوكب الدرى فى أفق السماء، قد فُضِّلوا عليهم فى الأنوارِ والنعيمِ والجمالِ كما فُضِّل القمر على سائر الكواكب. فينظرون إليهم يَطِيرُون على نُجُب[1] تسرح بهم فى الهواء حيث شاءوا، ويتزاورون بعضهم بعضًا، يزورون ذا الجلال والإكرام. فينادون هؤلاء: يا إخواننا ما أنصفتمونا، كنا

(١) نجب: جمع نجيب، وهى من الإبل القوى الخفيف السريع.

نصلّى كما تصلون، ونصوم كما تصومون، فما هذا الذى فُضّلتم به علينا؟

قال: فإذا النداءُ من الله عزّ وجلّ: إنهم كانوا يجوعون حين تشبعون، ويعطشون حين تروون، ويعرون حين تكتسون، ويبكون حين تضحكون، ويقُومون حين تنامون، ويخافون حين تأمنون، فلذلك فُضِّلوا عليكم اليوم. فذلك قوله تعالى: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِىَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]. وقد جاء فى الخبر: «أكثرُ أهلِ الجنة البُلْه، وعليُّون لذَوى الألباب».

• ذكر المقام الخامس من مراقبة الموقنين من المقربين:

قال الله تعالى، مخوفًا للكافة: ﴿حتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُم الموتُ قَال رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّى أَعملُ صَالحًا فيما تَرَكْتُ﴾ ثم أجابه فقال: ﴿كَلاَّ﴾ وحقّق قوله تعالى فقال: ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ [المؤمنون: ٩٩ ـ ١٠٠]. ثم نهى المؤمنين نهيًا صريحًا عن مثل هذه الحال وأخبر بنقصان مَن فَعلَ ذلك فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ الله﴾ أى: لا تَشغلكم عن الطاعة لله تعالى، ثم قال: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩] أى: المغبونون المنقوصون فى الآخرة؛ لأنهم آثروا المال والولد على الخالق الرازق، ثم أمر بالإنفاق مما رزق، وقرنه بالإيمان، وأخبر أنه استخلَفنا فى مُلْكه اختبارًا لنا، فقال: ﴿آمِنُوا بِالله وَرَسُوله وَأَنْفِقُوا ممَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيه﴾ [الحديد: ٧]، فسمع الغافلون نصف الكلام فآمنوا ولم ينفقوا، وعقل العاملون كلّ الكلام فآمنوا وأنفقوا، وما يعقلها إلا العالمون.

وقال سبحانه: ﴿وَأَنْفِقُوا ممَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ المَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَولاَ أَخَّرْتَنِى إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠] أى بالأعمال.

وكان ابن عباس يقول: هذه الآية من أشدّ شىء على أهل التوحيد، لأنه لا يتمنّى التأخير والرجوع إلى الدنيا أحد له عند الله خير فى الآخرة.

ومثل هذا قوله سبحانه: **﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ﴾** [الزمر:٥٦]. الحسرة هى أعظم الندامة، وهى اسم لفوت شيء لا تدارك فيه. فرّطت: أى ضيعت ونيت، وفرط منى: أى ذهب وفات. وجنب الله، قيل: على ما فاتنى من الجزاء منه فى الآخرة، وقيل: ما فات من النّصيب فى أيام الدنيا. إلى قوله: **﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى العذابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً﴾** يعنى: إلى الدنيا عودة أخرى **﴿فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾** [الزمر:٥٨]، وقوله **﴿أَنْ تقولَ نفسٌ﴾**: من الكلام المضمر المعطوف، ومُضمره: من قبل أن تقول، أو خشية أن تقول، ومعطوفه: هو قوله: **﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾** [الزمر:٥٤] أى: اقبلوا إليه، وتوبوا، واستسلموا، وسلّموا قلوبكم ونفوسكم وأموالكم فى طاعته وعبادته، **﴿وَاتَّبِعُوا أَحسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾** [الزمر:٥٥]، أى: اتبعوا العزائمَ من الأمور، والفواضلَ من الأعمال، فهو أحسن من الرخصِ والمباحات، مثل: الزهد والورع والخوف والإيقان، فهذا من أحسن ما أُنزل إلينا من ربنا، ثم قال تعالى: **﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ﴾**، فلما طال الكلامُ، وأُضمر معطوفه، وبَعُدَ عاطفُه للاختصار، أشكل فهمه.

وفى القرآن ما هو أشدّ اختصارًا، وأبعد من هذا إضمارًا، كقوله تعالى: **﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بالدِّينِ﴾** [التين:٧] المعنى: فما الذى يحملك على التكذيب أيها الإنسان الذى خلقناه فى أحسن تقويم بعد هذا البيان والبرهان بالدّين بالغائبات والكائنات من أمور الدين والحسنات والجزاء، ثم أحكم ذلك برده إليه فقال: **﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الحَاكِمِينَ﴾** [التين:٨]؟!

وكذلك قوله: **﴿وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾**، المعنى: لا تترك أن تعمل فى الدنيا بأيامك هذه، فتدرك نصيبك غدًا من الآخرة فى الدنيا، فإنك لا تدركه إلا فيها، ثم أحكمه بقوله: **﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ﴾** [القصص:٧٧]، أى: أحسن إلى نفسك وإلى إخوانك الفقراء كالذى أحسن إليك به من المال والغنى،

فبذلك تدرك نصيبك من الدنيا فى الآخرة.

ثم أخبر الله سبحانه الكلَّ وحذّرهم فقال: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ [الأنعام:٣١]، أى: يا ندامتنا على ما ضيعنا فى الدنيا، وفاتنا فى الآخرة.

وفى الخبر: «لا يموت أحد إلا بحسرة وندامة؛ إن كان مسيئًا كيف لم يحسن وإن كان مُحسنًا كيف لم يَزْدَد».

وذلك أن الله تعالى جعل أهلَ السّلامةِ والنجاة طبقتين؛ بعضهم أعلى من بعض، وجعل أهل الهلكةِ طبقةً واحدة؛ بعضهم أسفل من بعض، فكان صاحب الشمال يتحسّر كيف لم يكن من أصحاب اليمين، لقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ [المدثر:٣٨ ـ ٣٩]، وصاحب اليمين يتحسّر كيف لم يكن من المقربين، والصالح من المقربين يتمنّى أن يكون من الشهداء، والشهيد يوّد أنه من الصديقين. فهو يوم الحسرة الذى أنذر به أهل الغفلة، فكيف بهم فى ذلك اليوم، إذا كانوا اليوم أمواتًا، ولم يكن له حسنة، فأنّى لهم النذارة والتذْكِرة؟ كما قال: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ [مريم:٣٩]. وقد قال: ﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًا﴾ [يس:٧٠]. كما قال: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا﴾ [النازعات:٤٥]، ﴿إِنَّما تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وخَشِيَ الرَّحمنَ بِالغَيْبِ﴾ [يس:١١]. وقال تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق:٢٢] يعنى: إلى ما قدمت. وقيل: حديد إلى لسان الميزان، تخاف النقصان. وقال تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ [ق:١٩]، قيل: بالسابقة لهم وعليهم، فهو الحق سبقت لهم منا الحسنى، وحقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون، وسقط ما دونها. وقد قيل: إنّما يوزن من الأعمال خواتيمها، والخواتيم من السّوابق، وما بينهما زاهق. والوزنُ يومئذ الحق، ما سبق من العدل والصدق، وتمت كلمة ربّك صِدْقًا لأوليائه، وعَدْلاً على أعدائه. ألا له الخَلْقُ والأَمر.

• ذكر المقام السادس من مشاهدة المقربين:

الخيراتُ هى من ثمراتِ الإيمان، والصالحاتُ هى مقتضى اليقين، واللعبُ مقتضى الشك، والسمعُ والبصرُ وصفان للمتقين، والعمى والصممُ وصفان للشك[1]. تنتظم هذه المعانى فى قول الله تعالى: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٩٣]. فدل أن الإيمان يأمر المؤمنين بالبر والتقوى، وقوله تعالى مخبرًا عمن أيقن فسمع وأبصر فينال العمل الصالح: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة:١٢]. وقوله تعالى فى وصف اللاعبين: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ [الدخان:٩].

ثم ذكر حالهم لعدم اليقين فقال تعالى: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [هود:٢٠] لأنهم لم يكونوا موقنين، فلما جاءهم اليقين، وهو المعاينة، أبصروا وسمعوا [ما كانوا كذبوا به مما أُخْبِروا][2]، فقالوا: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ [المدثر:٤٦ ـ ٤٧] فوصفهم بشدة السمع والبصر حينئذ لما أيقنوا، فقال عزّ وجلّ: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم:٣٨] أى: ما أسمعهم وأبصرهم اليوم لما جاءونا فرأوا ما عندنا، وهذا للمبالغة فى الوصف، كما تقول: أَكْرِم وأَعْظِم به، أى: ما أكرمه وأعظمه. فكذلك إذا أتيته اليوم وأنت موقن سمعت ما لم تسمع وأبصرت ما لم تبصر[3] قبل ذلك، ولكن شغلتك الأزواجُ التى خلَق، والأشكالُ والأشباهُ التى أظهر، فتألَّهْتَ إليها، ووقفتَ معها، ولو فَرَرْتَ منها إلى الله تعالى لفررت إلى خيرِ مَفَرٍّ، ولآواكَ عنده فى أحسن مقر[4]، وقد أمرك بالفَرار منها[5] إليه لو قبلتَ، ونهاك عن التألّه إليها لو سمعت، وبيَّن لك النذارةَ لو فهمت، وجعلَ ما خلَق من الأزواجِ تذكرةً به لو عرفت،

(١) كذا فى المطبوعة والمخطوط، ولعلها محرّفة عن «الشّاكين».
(٢) ساقطة من (ط).
(٣) فى (ط): «ما لم تر».
(٤) فى (ك): «مستقر».
(٥) فى (ك): «منه».

ورادَّةً إليه لو أنَّكَ للذكر اتّبعت، ومُشَوِّقةً إليه لو كنت لقربه أحببت[١]، أمَا سمعتَه يقول: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩]، أى مثلين وشكلين، لكى تذكروا الله بها، وتشتاقوا إليه منها، ثم قال: ﴿فَفِرُّوا إلى الله﴾ أى: عنها بالزهد، ثم قال: ﴿وَلاَ تَجْعَلُوا مَعَ الله إلهًا آخَرَ﴾ [الذاريات: ٥١] أى: لا تؤلهوا معه إلهًا، ولا تشركوا بتألهكم إليه إياها.

فهذا فهمُ المقربين عن سمعهم، بشهادة أبصار قلوبهم، فعندها كان استجابتُهم له، كما قال: ﴿إِنَّما يَسْتَجِيبُ الّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦]، وقال: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِه﴾ [الشورى: ٢٦].

ولكن كيف يسمع من يُنادَى من مكانٍ بعيدٍ؟! وكيف يُبصر مَنِ القُفل على قلبه عَتيدٌ؟! وكيف يستجيب مَن لا يَسْمع؟! وكيف يَشْهد من لا يبصر؟! وقد قال الرسول ﷺ: «حبُّك للشيء يُعْمى ويَصُمّ».

فالهوى يعمى عن الحق، والشّهوةُ تَصُمُّ عن النُّصح والصدق.

وكذلك لو أحببته لنظرتَ إليه، ولو نظرتَ إليه لعَميتَ عمّن سواه، ولو أقبلتَ عليه لاستمعتَ إليه، ولو سَمِعْتَ لصَممتَ عَن غيرِه، ولو أحبّك لكان سمعَك وبصرَك وقلبك ويدَك وناصرك ومؤيدك، تدعوه فيجيبك، وتَسألُه فيعطيك، وتنصحُ له فينصح لك؛ كذلك جاء الخبر بذلك، فشغلك به عنك، وفرَّغك له منك، فكيف تسمع عنه، وتنظر إليه، وتتقلب عنده، وتتحرك به، لا بنفسك وهواك، ولا بشهوتك ودنياك؟!

فهذا وصفُ حبيبٍ عن تقلّب حبيبٍ، وخبرُ محبوبٍ عن تثبيتِ محبوب.

فإذا تيقّن العبدُ يقينَ عينٍ لا يقينَ ظنٍّ وسَمْعٍ بما ذكرناه من سرعةِ فوتِ الوَقْت، وفوتِ دَرْكه، شغله الغمُّ والحزنُ على ما فات عن مثل ما سلف مما ندم عليه فى مستقبل الأوقات. فلم يضم إلى الفوتِ الأوّل فوتًا ثانيًا؛ لحزنه وندمه

(١) فى (ك): «ورادة إليه لو عقلْت، ومشوقة إليه لو أحببت».

عليه، فكيف يُردفه فى الحال بما يُشبه ما نَدمَ عليه من سُوء الأعمال، وما لا يُحمد عاقبته، ولا يُغتبط به فى المآل؟!

فمَثَلُ العبدِ المتيقظ فى آخر غفلته مَثَلُ عبدٍ كان عليه عمل لا بدّ أن يعمله فى يومه ذلك، إلا أنه لُهِيَ عنه لغفلةٍ مُلْهية، أو نومةٍ مُنسية، فلم يَفِق لعمله ذلك الذى لا بدّ منه إلا بعد العصر، فلا يُسأل عن حرصه وانْكماشه وتَشْهيره وبداره فى بقية نهاره، ليدرك به ما فاتَهُ من أوّل النهار، فهو يود أنّ وقتَه ذلك إلى الليل مُدَّ له أضعافه، أو رُدَّ إلى أوّل النهار ليُدْرِك ما فَاته.

فهذا حالُ التائب المتيقّظِ من رقْدته. وهذا لا يَسْتَبِينُ له إلا بعد الموت لمعاينة تَقَضّى الأوقات، ولليقين بعدم دَرْكِ ما فات. فهناك وقعتِ الندامةُ الكبرى، وحينئذ حلّتِ الحسرةُ العظمى.

فالحزمُ عند العقلاءِ الموقنين هو الانكماشُ والتّشمير فيما بَقِى من العُمر القصير؛ لأنَّ الاشتغالَ بما فات فى وقتِ دَرْكِ مثله فى المستقبل هو إضاعةٌ ثانية لما هو آت. فَحَرصَ هذا المتيقظُ واجْتَهَدَ[1] أن يكونَ له فى كل وقتٍ وقتٌ، ومن كلِّ ساعة نصيبٌ، فأودَعَ فى كلِّ خزانةٍ من ساعاته التى هى خزائنُ أعمالِه شيئًا فشيئًا؛ لئلاً يرى خزائنه فارغةً غدًا، فيتحسر على فَراغه منها. وهذا طريق أهل الرجاء الذين تمنوا زيادة الأعمال، ورغِبوا فى طول البقاء؛ بحسن خدمة المولى. وهو مقام التائب المستقيم ليتدارك بحديث الأوقات ما فَرَط منه من الغفلة فى القديم. فهذا هو الحزمُ والاحتياطُ عند العلماء. فإن يكن الأمرُ صعبًا شديدًا كما يُحدَّث عنه كان قد سَلِم بحسن توفيق الله تعالى من صعوبته. وإن كان الأمرُ سهلاً قريبًا كما يَرْجوه كانت الأعمالُ درجاتٍ والفضائلُ مقاماتٍ.

• ذكر المقام السابع من مشاهدة الموقنين:

اعلم أنّ ما ذكرناه من تداركِ الأوقاتِ خوفَ فوتها ليس هو بتمنى مكانٍ دون مكان، ولا هو بانتظار وقتٍ ثانٍ، الذى هو فى الأصل ذكر[2] الوقت الذى هو

---

(١) فى (ط): «واجتهاده» وأثبت ما فى (ك).

(٢) فى (ط): «فكر» وليست فى (ك).

فيه، ولا توقّع حالٍ سوى الحال الذى هو يليه، إنّما هو صومُ يوم، أو قيام ليلة، أو ذكر فى ساعة، أو جَمْعُ همٍّ عن شتات قلب، أو قطع لأثرٍ فى خَطرَ. ويكون ذلك أيضًا غضَّ طرفه، وصونَ سمعه، وكفَّ يده، وحبسَ قدمه، وصمتًا عن كلمة دنيَّة، وتركَ لُقْمة شهيّة، ونقصانًا من قُوتٍ، وزيادةَ جوعٍ للمقيت، وأمرًا بكلمة رشيدةٍ، ونهيًا عن فعلة دَنِيّة، وعَقْدَ نية حميدة، وحلَّ نيةٍ ذميمة، وتجديدَ توبةٍ، وإعمالَ قَلْبٍ فى فكرة، وإخراجَ سُوءِ ظَنٍّ، واعتقادَ حُسْنِ ظَنٍّ، واستقامةً، وصحةَ عزمٍ فى قصدٍ، وتسببًا إلى ما يقوِّى العزمَ، ومعونةً على برٍّ وتقوى.

وهذا كلّه يكون فى الوقتِ، ويُحْدثه فى الحال، لا يُسوِّفُ به ولا ينتظر منه، ولا يتوقعه فى وقت ثانٍ، ولا يؤخره إلى زمان دون وقته، ولا يتربّص به فى مكان دون مكان. فهذا هو التدارُك للأوقات فى وقتك الذى أنت فيه، خشيةَ فوتِ الوقتِ، فيحصل على التّسويف والتّمنى، أو فى الانتظار والتراخى؛ فهذه من جنود إبليس يقطع بها المريدين، وهو مقام المغترين، وأحوال البطالين الذين وُكِلُوا إلى أنفسهم، وتُرِكُوا مع هواهم، ولم يَتَداركُوا فى أحوالِهم، ولم يُقدِّمُوا لغدهم، نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُم، والوقتُ إذا انقضى فُقِدَ ولم يُوجَد إلى يوم القَضَاء، والسَّاعةُ إذا مرّت طُوِيَت فلم تُنْشَر إلى يَوْمِ النُّشور، وإنما يُنشر مثلُها، ويُخلَق شِبْهُها.

فإذا أيقن العبدُ عَلِم أنّ عمرَه كلّه يوم، وأنّ يومَهُ كلّه ساعةٌ، وأنّ ساعته كلّها وقته الآن، وأنّ وقته حاله، وأن حاله قلبه، فأخذَ من حالِه لقَلْبه ما يقرِّبه إلى مُقَلِّبه، بنهاية عمله، فعَمِل أفضلَ ما دَلّ عِلمُه عليه، وما ندبه مولاه إليه، ومما يحب أن يفجأه عليه، فيكون ذلك خاتمةَ عمله الذى يَلقى مولاه به. ثم أخذ من وقته لحاله ما يُصْلح حالَه لقلبه، ويُقَوِّى قلبه، ويخلّصه لربه. وأخذَ من ساعته لوَقْته ما يُزيِّن به حاله عند ربه، وأخذَ من يَوْمه لساعته صلاحَه فيها وحاجتَهُ إليها، وأخذ من شَهْره ليومه، فكان شهرُه يومَه، وكان يومُه ساعتَهُ، فشغله وقته عن ساعته، وشغلَه حالُه عن وقته.

فكان على هذا مراعيًا لوقته، محافظًا على حاله، قائمًا على نفسه، جامعًا لهمّه، مُحصيًا لأنفاسِه، مُراقبًا لرقيبه، مجالسًا لحبيبه، لا يخرج عنه نَفَسٌ فى

أدنى وقتٍ، إلا فى ذِكْرٍ لمذكور، أو شُكْرٍ على نعمة لمُنْعِم، أو صبرٍ فى محنة عتيدة، أو رضًا عند شدّةٍ شديدة. ويكون فى ذلك كله ناظرًا إلى الرقيب، مصغيًا إلى القريب، سائحًا إلى الحبيب، لا ينظر إلا إليه، ولا يعكف إلا عليه، وقد جعل العمرَ يومًا، واليومَ ساعةً، والساعةَ وقتًا، والوقتَ حالاً، والحالَ نَفَسًا، والنَّفَس مراقبةً، والمراقبةَ مواجهةً، فتوجّه فى وجْهته فلم يَنْثنِ، وساح فى قربه فلم يَنِ، فكان من الإيمانِ على مزيد، ومن اليقين فى تجديد، وأُعطى من الحياة الطيبة بغيرِ حساب، وكُشف له عن قَلبه الحجاب. فكانت المعرفةُ مقامَه، وقصُرت عليه أيّامه، فكان وقتُه وقتًا واحدًا لواحدٍ، وكان قلبُه واحدًا لواحدٍ، وهمُّه منفردًا لمنفردٍ.

وهذا حالُ الأبدالِ، الذين هُم من الرُّسل أمثال، وعددُهم فى الموقنين قليل، ونصيبهم من اليقين وافرٌ جليل، وهم المقرّبون والصّديقون. ومَن علَم ما ذكرناه على يقين فهو من الصالحين، ومَن آمن به ولم يشكّ فيه لأهله إيمانَ تصديقٍ فهو من الموقنين، ومَن شهد منه شهادةً يكون له منها مطالعات وزيادة فهو من الشّاهدين.

وجميعُ ما ذكرناه من مراقبة المؤمنين، وشهادة المُقَرَّبين، يُدرَك بأحدِ مقامين؛ من أقيم فى أحدهما جَمع له ذلك استقامةً فى توبة وعَمَلاً بعلم. فمن كان مقامه التوبةَ وحالُه الاستقامةَ رُفع إلى شهادة المحبين، ومن كان مقامُه العلمَ وحالُه العملَ بعلمه تحقّق بنَعْت الخائفين. وهما حالا العارف الدائمِ الوجدِ بقرب القريب، القائمِ بالشهادة بحضورِ الشّهيد. فأنفاسُه وطَرْفَاتُه صالحات، وتصرفاته وآثاره حسنات، وأفكاره وأذكاره مشاهدات. فهو حاضر فى تصريفه، متيقظ فى تقلبه. وبهذا وُصف العارفُ والدّائمُ الوَجْد.

وحُدِّثت عن بعض هذه الطائفة: أنه دخل على بعض المنقطعين إلى الله تعالى من أهل المراقبة، فقال له: أحصيتُ من نِعَم الله تعالى علىّ فى نوع واحد أربعةً وعشرين ألفَ نِعمة. قلت: وكيف ذلك؟ قال: حسبت أنفاسى فى اليوم والليلة فوجدتُها أربعةً وعشرين ألف نَفَس.

ويقال: إنّ الطرفاتِ ضعِفُ ذلك؛ لأن كلَّ نَفَسٍ طرفتان.

وسمعتُ أن الله عزّ وجلّ أوحى إلى بعض الأنبياء: كيف تؤدّى شكر نعمتى عليك، ولى فى كل شعرةٍ نعمتان: أن ليّنتُ أصلَها، وأن طَمَّنْتُ رأسها؟

وقال بعض العلماء: روى ذلك أيضًا عن علىٍّ عليه السلام: ليس شىءٌ أعزَّ من الكبريت الأحمر إلا ما بقى من عُمر العبد. قال: ولا يعرف مقدارَ ما بقى من عُمره إلا نبىّ أو صدّيق.

وقال بعضهم: لا يَعرف قدرَ ما بقى من عمره فى العزة إلاّ من عَرَف يَنبوعَ الكبريتِ الأحمر، فإنّه يقال: إنّه عيون تنبع فى الظلمات، لا يعرفها إلا الأبدال.

والكبريت الأحمر هو كيمياء الذهب، الذى يُعمل منه الذهب الخالص، وإذا أُلقى منه اليسير على كيمياء الذهب المستعمل ثبت على حاله، وإلاَّ استحال وتغيّر بعد سنين.

ولا أعلم ذُكر عن النبى ﷺ الكبريت الأحمر إلا فى حديث على عليه السلام، الذى وصف فيه الأبدال، فذكر عدتهم ونعمتهم، وقال فى آخر وصفهم: «هم فى أمّتى أعزُّ من الكبريتِ الأحمر». ولا ذُكر الذهب الإبريز إلا فى حديث الابتلاء: «إن الله تعالى يجرِّبَ عبده بالبلاء كما يجرّب أحدُكم ذهبه بالنار، فمنهم من يخرج كالذهب الإبريز، ومنهم من يخرج أسودَ محترقًا، ومنهم من يخرج بين ذلك».

❊ ❊ ❊

الفصل التاسع والعشرون

فيه ذكر أهل المقامات من المقربين وتمييز أهل الغفلة المبعدين

فإذا كان العبدُ بوصف ما ذكرناه كان كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ [المعارج: ٣٢ ـ ٣٣].

وقال بعضُ العارفين: «عُمْرُ العبدِ أمانةُ الله تعالى عنده يسألُه عنه عند موته، فإن كان فرَّط فيه ضيَّعَ أمانةَ الله تعالى وترك عهده، وإن راعى أوقاته فلم تخرجْ ساعة إلا في طاعة الله حفظ أمانته ووفَّى بعهده، فله الوفاء من الله على الوفاء.

كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠] أي في تضييع العهد، وفي تركِ الوفاء، وكما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ [هود: ١٧] أي شهدَ مقامَ الله تعالى منه بالبيان، فقام بشهادةِ الإيقان، فليس هذا كمن زُيِّنَ له سوءُ عملِه، واتّبع هواه، فآثره على طاعة مولاه، بل هذا قائم بشهادته، متبع لشهيده، مستقيم على محبة معبوده، وكان كمن وصف في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧]، وكمن مدحه بحقيقة الإيمان في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ أي علامته ودلائله ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]. أي: به يثقون، وإليه ينظرون، وعليه في كل حالٍ يعتمدون، ولديه من كل شيءٍ يطمئنون، وعنده دونَ كلِّ شيءٍ يوجدون، ثم قال سبحانه: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنفال: ٤] الآية.

وليس أهلُ الحقائقِ من المتوكلين، الذين مدحهم الحقُّ بالحق، وأعدَّ لهم الدرجاتِ العلى والكريمِ من الرزق، كمن ذكره بعدهم فقال: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ

المُؤْمنينَ لَكَارِهُونَ * يُجَادلُونَكَ فى الحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥ ـ ٦] مع قوله: ﴿مَا يُجَادلُ فى آيات الله إلاَّ الذينَ كَفَرُوا﴾ [غافر: ٤]. فجعل حالَ هؤلاءِ وصفًا مشبهًا لمقام أعدائه لما بقى عليهم من أهوائهم، وجعل مقام الصالحين بمعنى من وصفهم فى الآية بحقيقة زهدهم، فقال تعالى: ﴿ومَنْ يَأته مُؤْمنًا قَدْ عَملَ الصَّالحَات فَأُولئكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ العُلى﴾ [طه: ٧٥] فهو العلى، وأحبَّاؤه الأَعْلَوْنَ، وإنما كانوا أَعلينَ لأن الأعلى معهم، وكنا نحن الأدنينَ لأن الدنيا عندنا.

قال الله سبحانه فى وصف من أَعْرضَ عن ذكرِه، ولم يُرد إلا الحياةَ الدنيا، إذ أمر الحبيب بالإعراض عنه؛ لأنه طلب الأدنى عاجلاً أو سوَّف بالمغفرة آجلاً، لقوّة جهله وضعف يقينه، فقال تعالى: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذَا الأَدْنى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: ١٦٩]، وقال: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَولّى عَنْ ذكْرِنَا ولَمْ يُرِدْ إلاَّ الحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [النجم: ٢٩]، وقال فى وصف الصادقين المؤمنين: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْه﴾ [الأحزاب: ٢٣]، وقال فى نعت غيرهم: ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ الله أنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢ ـ ٣]، فشتان بين من وُصفَ بصدق العهد، وبينَ من ذُكرَ بالخُلف وعُرِّض للمقت، وقال فى وصف طائفة: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إبليسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إلاَّ فَرِيقًا منَ المُؤمنينَ﴾ [سبأ: ٢٠]، فخصَّ أولياءَهُ بتركِ أتباعه، وأدخل بعض المؤمنين فى تصديقِ ظَنِّه واتِّبَاعه إلا فريقًا، فهمُ الصِّدِّيقونَ والشهداءُ والصالحون، وحَسُنَ أولئك رفيقًا، وهم المتوكلون المؤمنون حقًا، الذين قال: ﴿إنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩] وليس من باعَ مالَه ونفسَه محبةً لمولاه كمن لم يسألْه مولاه دون نفسه لئلا يُحفيَه، فيُخرجَ ضغنه عليه، كما قال لطائفة من المؤمنين: ﴿يُؤْتكُمْ أُجُورَكُمْ وَلاَ يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُم * إنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾ [محمد: ٣٦ ـ ٣٧]. الإحفاء: الاستقصاء، أى: [إن][1]

---

(١) ساقطة من (ط).

سألكم سَأَلَ الجملةَ كلّها، وأحبَّ منكم الزهدَ فى نفوسِكم بعدها. والأضغانُ: جمع ضِغْنٍ، وهو الحقد. تقول: فلستم فى مكانِ سؤالٍ إذْ لا يكونُ البخيلُ زاهدًا؛ لأنّ أوّلَ الزهدِ الجودُ، فمَنْ لَمْ يَجُدْ لَم يَزْهَد، ومَنْ لم يزهدْ فى الدنيا لم يحبَّه المولى؛ لأنه محبٌّ لما يبغضُ، ومريدٌ لما لا يحبُّ، فلم يعاملْ مولاه بأخلاقه، ولم يوافقه فى مرضاته، فباعده وحجبه عن مشاهدة أوصافه، كما قال تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ [الأنفال: ٦٧]. وكما قال الرسول ﷺ المبلّغُ عن المآلِ: «إذا أردتَ أن يحبَّك اللهُ فازهدْ فى الدنيا».

ولا تقدر أن تصفَ حشو قلوبِ هذه الطائفةِ من المؤمنين الذين وصفهم المؤمنُ أن لو سألهم أموالهَم ظهرت عليهم أضغانهم؛ لأنّهم من الله فى اغترارٍ بما ألبسهم من الأظهار. فإذا جاء أجلُهم فإنّ الله كان بعباده بصيرًا. إلا أنّ اللهَ تعالى لا يسأل إلا من يحبّه إكرامًا له، ممن يعلم أنه يسارعُ إليه بجملةِ ما سأله؛ لأنّه كريمٌ جوادٌ لا يكبرُ عندَهُ شىءٌ؛ إن سألَ سأل الكلية، وهو المالُ والنفسُ، إلا أنّه لا يَسألُ إلا من خَلَّقَه بخُلُقٍ من أخلاقه، فمتى لم يكن عند[1] العبد سواه شىءٌ سأله محبوبه كلَّ شىء، ومتى عظُم فى قلبه العَرَضُ الفانى، وهو ضغينٌ، لم يسألْه شيئًا.

فإذا لم يبق للعبدِ فى نفسه نَفْسٌ[2] ولا من مَاله مالٌ، كان الجوادُ عوضًا له من ماله، وكان الجبارُ عوضًا له من نفسه. إلا أن الله سبحانه لم يذكر إيّاه فى العِوَض من النفس، وذكر الجنةَ فى البدل عن المال؛ لئلا يدخلَ تحت حكمٍ وهو الحاكم، وكيلا ينضم إلى عِوض، فيكون شَفْعًا، وهو الفرد، فأخفى نفسَه وهو الدليلُ، وذكرَ خلقَه وهو إليه السبيل[3].

فهذا فَهْم أوليائِه عنه، وهذه علامةُ المحبةِ الخالصةِ التى لا شِرْك فيها لسواه، ولا دَخْلَ عليها من غيره إيّاه.

---

(١) فى (ط): «على» وأثبت ما فى (ك).

(٢) فى (ط): «نفسًا» وأثبت ما فى (ك).

(٣) فى (ك): «فيكون شفعًا وهو الوتر فأخفى نفسه وذكر السبيل ليكون ذلك عليه دليل».

ولا يَصْلُح أيضًا أن يُكْشَف عن وصف هؤلاء المحبِّينَ؛ لأن حالهم يَجلُّ عن الوصف، ومقامَهم يجاوزُ[1] علومَ العقل والوقت، إلا أن الله تعالى قد أحكم ذلك بقوله عزّ وجلّ: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ﴾ [الزخرف:٧١]، وبقوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ﴾ [الأحزاب:٤٤]، مع قوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ [فصلت:٣١ ـ ٣٢]، وقوله: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة:٨٨ ـ ٨٩].

وأحكم ذلك بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:١٢٧]. [وأجمل ذلك][2] بقوله تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران:١٦٣]. ففيه وصفٌ لأهلِ الولاياتِ والحبِّ، ومدحٌ لأهلِ الدرجات والقرب، بقوله: ﴿بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أى لذلك جعلهم درجاتٍ عنده، ولقوله: ﴿وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بما تولاهم به وقرّبَهُم منه، وفيه أيضًا ذمُّ المنافقينَ على القراءةِ الأخرى: ﴿واللهُ بصيرٌ بما تَعْمَلُونَ﴾[3] فقد أبصر أعمالكم أنتم، فلم يجعلْكم مثلَهم؛ إذ لم تكنْ أعمالُكم كأعمالِهم، [لأنّ قلوبكم ليست كقلوبهم فتكون أعمالكم كأعمالهم][4]، فهذا كما قال: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح:١٨].

ثم قال فى وصف قلوبنا: ﴿واللهُ يَعْلَمُ ما فى قُلُوبِكُم وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥١].

ثم قال فى فَصْلٍ من القول، ليس بهزل، سوّى بين هؤلاء وهؤلاء: ﴿إِنْ يَعْلَمِ اللهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا﴾ [الأنفال:٧٠]، ثم قال فى ضدِّ أولئك كلامًا

(١) فى (ك): «وصفاتهم تجاوز».

(٢) ساقطة من (ط) وأثبتها من (ك).

(٣) القراءة التى أشار إليها هى قراءة نافع وعاصم وأبى عمرو فى إحدى رواياته وابن عامر ولكن فى آية آل عمران رقم١٥٦: ﴿والله بما تعملون بصير﴾. انظر: السبعة، ص ٢١٧.

(٤) ساقطة من (ط).

فاصلاً لمفصل، مفسرًا للمجمل: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال:٢٣]، أي: ليس لهم فيه شيء، ولا لهم منه نصيبٌ؛ لأنه لم يجعلْ عندَهم مكانًا لخير فيوجد فيه خيرًا، فكان هذا فصْلَ الخطاب، وبلاغًا لأولى الألباب. شهد لهم بذلك إذ قال: ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد:٣١]. فأيس المؤمنون من هداية هؤلاء فلم يرجُوا منهم مجاهدةً فيه أبدًا؛ لأن الله تعالى لا يهدى من يضلّ. وقيل: ييأس ـ لغة ـ بمعنى يعلم، أي: فقد علموا مما أعلمهم الله تعالى.

ويشهد لهذا المعنى الحرفُ الآخر؛ لأنه بمعناه: «أفلم يَتبيَّنِ الذين آمنوا» فبيَّن لهم بما بين المبين، فسلموا له وأقبلوا عليه، وأعرضوا عنهم فَسَلِمُوا منهم، فكذلك قال الولى الحميد: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ [الأنعام:١٢٩]، وقال: ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة:١١٨]، وقال: ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران:٧]، فكم بين مَن ثبت قلبه فرسخ العلم فيه وبين مَنْ أزاغه؛ فمال إلى فتنةِ التأويل يبتغيه. وشتان بين من تولاه بنفسه إذ صلح له وبين من ولاّه نفسَه إذا أعرض عنه.

فهذه مقامات المبعَدين، كما تلك مقامات المقرَّبين، فقد دخلوا تحت حُكمينِ لم يخرجوا منهما، أعلاهم دخل تحت فضله، وأدناهم لم يخرجْ من عدله، وقد أجمل سبحانه وصفَهم بقوله: ﴿لِيَجْزِىَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [الروم:٤٥]، وقال فى ذكر العموم: ﴿لِيَجْزِىَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ [يونس:٤].

فخص أولياءه بالفضلِ، وعمّ خلقَه بالعدلِ؛ فكم من قلبٍ لا يشهدُ إلا الله، ولا يسمع إلا منه، ولا يتأله إلا إليه، والله هو الأغلب على همِّه، والأقرب إلى قلبه، وبين قلبٍ حشْوُه الخَلْقُ، وهمُّه الرِّزقُ، لا ينظرُ إلا إليهم، ولا يطمع إلا فيهم، ولا ينظر إلا هم. الخلْقُ أغلب شيء عليه، والخَلْقُ أقرب شيء إليه، فهذا من المبعَدِين بهم؛ لأنّ البعدَ صفتُهم، وظهورَ النفس عليه وتحكُّمَ سلطانِها فيه

مكانُ البعد الذى يُوجدُ البعدَ معه. والأوَّلُ من المقربينَ به؛ لأن القربَ صفتُه، وخنوسَ نفسه عنه وتسخيرَها له مكانُ القرب الذى يُوجدُ القُربَ عنده، فذلك من السَّابقين إلى ربه، والمبعَدُ مثبَّط بنفسه عن ربه، وقد قال تعالى: ﴿**فلا تَدْعُ مَعَ اللهِ إلهًا آخرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ**﴾ [الشعراء: ٢١٣].

فالبعد حجاب، والمبعَدُ فى عذاب. والقُرب نعيم، والمقرَّبُ فى مزيد. ألم تسمع قوله تعالى فى تعذيب المحجوب عن ربّه: ﴿**كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُواْ الْجَحِيمِ**﴾؟ [المطففين: ١٥ ـ ١٦]، وقال فى ترويح المقربين: ﴿**فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ**﴾ [الواقعة: ٨٨ ـ ٨٩] روح تقريبٍ، وريحانٌ من حبيبٍ، وجنةُ نعيمٍ بقرب مُنْعِم.

وقال المروَّحُ بالقُرب، المُحَيَّا بالحُضور:

فرَوْحِى وريحـانى إذا كنتُ حـاضرًا
وإن غبـتُ فالدنيـا علىَّ مَحـابسُ
إذا لم أُنَافِسْ فى هواكَ ولَمْ أغِرْ
عَلَيْك فَفِيمَنْ ـ ليـت شعرى ـ أُنافِسُ
فلا تَخْفِـرَنْ نفسى وأنـت حَبِيبُهـا
فكلُّ امرئٍ يصبـو إلى مَنْ يُجَانِسُ[1]

وقال المكروب بالبعد، المغصَّصُ بالفقد:

فكيفَ يصنعُ مَنْ أقصاه مالكُه   فَلَيْس يَنْفَعُـه طِبُّ الأطبَّـاءِ؟
مَن غُصَّ دَاوَى بِشُربِ الماءِ غُصَّتَه   فَكَيْفَ يَصْنَعُ مَنْ قَدْ غُصَّ بالمـاءِ؟

وشتان بين عبد منقطع إلى ربه يخدُمه وآخر منقطع لخدمةِ الخلقِ. وشتان[2] بَيْنَ

(١) هذا البيت من (ك) وهو ساقط من (ط).
(٢) فى (ط): «لخدمة الخلق يعبدهم وكم» وأثبت ما فى (ك).

عبدٍ منقطعٍ عن الناسِ وبين عبدٍ موصولٍ به الوسواس. وشتان بين عبدٍ منقطعِ الشوقِ إلى المولى وبين عبدٍ منقطع بالهوى معانقٍ للدنيا.

فهذه مقاماتُ المقَّربين الحُسْنى، وأضدادُها مقاماتُ المبعَدين السَّوأى[(١)].

فإذا كان العبدُ على وصفٍ من الحقيقةِ وفى مقامٍ من اليقين[(٢)] استحقَّ الثناءَ من مولاه؛ لتحقُّقه بالوصفِ، ونالَ القربَ من القريبِ؛ لتبعُّده عن حظوظ النفس. وفى حسنِ الثناءِ من العظيمِ الأعظمِ غايةُ الطالبين، ونهايةُ رغبةِ الراغبين، ولا يكونُ ذلك إلا لأوليائهِ المتقينَ، وحزبِهِ المفلحينَ، وعباده الصالحين، وهم أهلُ القلوبِ السليمةِ الطاهرةِ، وذوو الجوارحِ الخاشعةِ الذاكرةِ، وأولو الألبابِ الراجحةِ الفاخرةِ. وهم ثلاثُ طبقاتٍ: من مقربى أصحابِ اليمين؛ أهل العلم بالله تعالى. وأهل الحب لله تعالى. وأهل الخوف من الله تعالى. فهؤلاء خصوصُ أوليائه المقربين، استحضرهم فحضروا، واستحفظهم العلمَ فحفظوا، واستشهدهم عليه فَشَهِدُوا.

فهُمُ الأدلةُ منه عليه، وهو دليلهم إليه، وهم جامعو العباد به إليه، وهو جامعهم عنده لديه. أبدالُ الأنبياءِ، والربانيُّون من العلماء، أئمةُ المتقين وأركانُ الدين، أولو القوةِ والتمكين، الذين كُشِفَ لهم الكتابُ المستبينُ، وهداهم إليه الطريق المستقيم عليه. وهم المنظورُ إلى قلوبهم كفاحًا، والمقصودون بالمزيد والتحف مساءً وصباحًا.

ومَنْ سواهم من عمومِ المؤمنين من القرَّاءِ والعبَّادِ وأهلِ المجاهدةِ والزهدِ والأورادِ قد أعطاهم الولايات، وفرَّقهم فى الأعمال والسياحات، وأظهرَ لهم الآياتِ، تسكينًا لقلوبهم بها، وطمأنينةً منهم إليها؛ لئلا تدخل عليهم الشبهات فيهلكوا ولا تجذبهم الشهواتُ فيرجعوا، فشُغلوا بالإظهار عن الظاهر، وحُجبوا بالظواهر عن الباطن، واغتبطوا بالحجاب، وسكنوا إلى الأسباب، وعكفوا على المقاماتِ، واستتروا بالملكوتِ والآياتِ، فهم مغبوطو الأمواتِ من أهلِ الدنيا، وهم

(١) فى (ط): «المقربين بالحسنى . . . المبعدين بالسوء» وأثبت ما فى (ك).
(٢) فى (ط): «التقوى» وأثبت ما فى (ك).

مرحومو الأحياء من أهل العَلِيّ الأَعْلَى؛ لأنّ قربَهم بُعْدٌ عند المقربين، وكشفَهم حَجْبٌ عند المشاهدين، وعطاءَهم رَدٌّ عند المواجهين، إلا أن الله تعالى نظر إليهم لما نظروا لنفوسهم؛ حكمةً ورحمةً منه لهم، فَسكَّنَهم في حالهم، ورضَّاهم بمقامهم، كيلا تشتتَ قلوبُهم، ولا تتحيَّر[1] عقولُهم.

والسّابقونَ الأوّلونَ هم الوجهةُ العليا والمتمسّكون بالعروةِ الوُثْقَى، نظروا إليه سبحانه وتعالى به فنظر إليهم منه، فهم كما وصفهم: **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ﴾** [البقرة:٢٠٧]، لا يرجعون إلى مال، ولا ينظرون إلى حال، **﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾** [المائدة:٥٤]، **﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾** [البينة:٨]، فهم كما وُصفوا في الكتب السالفة.

قال الحواريون: يا روحَ الله، صِفْ لَنَا أولياءَ الله الذين لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ. فقال: هُمُ الَّذينَ نَطَقَ بِهِم الكتابُ وبه نطقوا، وبهم عُلِمَ الكتابُ وبه عَلِمُوا، وبهم قَامَ الكتابُ وبه قاموا، نظروا إلى باطنِ الدنيا حين نظرَ الناسُ إلى ظاهرِها، وعايَنُوا آجلَ الدنيا حين عاينَ الناسُ عاجلها، فأماتُوا منْهَا ما خَشَوْا أن يُميتَهم، وتَرَكُوا منها ما عَلِمُوا أن سَيَتْرُكَهُم، فصار دَرْكُهم منها فواتًا، وفَرَحُهم بها حرمانًا، ما عارضهم منها رفضوه، وما أشرفَ لهم بغير الحق وضعوه، خَلَقَت الدُّنيا عندهم فَلَمْ يُجَدِّدُوها، وخَرِبَت فيما بينهم فلم يَعْمُروها، وماتت في صدورِهم فلم يُحْيُوها، قدَّمُوهَا فبَنَوْا بها آخرتَهم، أَحْيَوْا ذِكْرَ الموتِ وأَمَاتُوا ذِكْرَ الحياةِ، يُحِبُّون الله ويحبون ذِكره، ويستضيئون بنورِه ويضيئون به، لهم خبرٌ عجيبٌ، وعندهُم أعجبُ الخبر العجيب.

وقال عزّ وجلّ في وصفهم، ومَنْ أَحْسَنُ من الله حديثًا: **﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾** [المائدة:٤٤]، وقال تعالى: **﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾** [آل عمران:١٨] وفيها مقرأ غريب، بمعنى الجمعِ للشهداءِ، وكأنَّه جُعِلَ وصفًا لما تَقَدَّمَ من ذكرهم،

(١) في (ك): «ولا تتحول».

في قوله تعالى: ﴿الصَّابرينَ والصَّادقينَ﴾ إلى قوله ﴿والمُسْتَغْفرينَ بالأَسْحَار * شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إلهَ إلا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٧ ـ ١٨]، وقال: ﴿كَفَى بالله شَهيدًا بَيْنِى وبَيْنَكُمْ ومَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الكتَابِ﴾ [الرعد: ٤٣].

فهذا وصف يزيد على كل وصف، ويستغرقُ نَعت الواصفين.

ويَجْمَعُ هذه المقاماتِ السبعةَ من المراقبة والمشاهدةِ حالانِ عن مقامين، مدارُ المقاماتِ كلّها عليهما، ومستخرج المزيد من الكرامات منهما؛ فأحدهما: الخوف عن مقام العلم. والحال الثاني: الرجاءُ عن مقام العمل. فمن كان مقامُه العلمَ بالله كان حاله الخوفَ منه، ومن كان مقامه الرجاءَ لله تعالى كانت حاله المعاملةَ له. ألم تسمع إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَاده العُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، وقوله: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُواْ لِقَاءَ رَبِّه فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا ولاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّه أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]؟

[قال رسول الله ﷺ عند نزول هذه الآية، لما تلاها: «لو لم يُقل من القرآن إلا هذه الآية لكفتهم. أو لكُفيتم». ولا حول ولا قوة إلا بالله][1].

* * *

(١) ما بين المعكوفتين من (ك).

الفصل الثلاثون

فيه كتاب ذكر تفصيل الخواطر لأهل القلوب وصفة القلب وتمثيله بالأنوار والجواهر (١)

قال اللهُ سبحانه وتعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٧ ـ ٨]. أي ألقى فيها وقَذفَ فيها. وقال عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ ونَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ [ق: ١٦]. وقال: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ﴾ [المائدة: ٣٠]. وقال تعالى: ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ [الناس: ٤] الآية. وقال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُ﴾ [فاطر: ٦]. وقال تعالى: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ﴾ [المجادلة: ١٩]. وقال عزّ وجلّ: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨]. وقال سبحانه مخبرًا عن العدوّ: ﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ [الأعراف: ١٦ ـ ١٧] إلى آخر الآية.

وروينا عن النبي ﷺ: «إن الشَّيطانَ قعدَ لابن آدم بأطرقه. فقعد له بطريقِ الإسلام، فقال: أتُسْلِمُ وتَذَرُ دينَك ودينَ آبائك؟ فعصاه فأسلَم. ثم قعد له بطريق الهجرة، فقال: أتهاجر فتذر أرضَكَ وسماءَك؟ فعصاه فهاجر. ثم قعد له بطريق الجهاد، فقال: أتُجاهدُ وهو جُهد النفسِ والمال فتُقاتل فتُقتلُ فتُنكحُ نساؤُك ويُقْسَمُ مالُك؟ فعصاه فجاهد. قال رسولُ الله ﷺ: مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَمَاتَ كَانَ حَقًّا على الله تَعَالَى أنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ».

وقد أخبر الله تعالى عنه أنه قال: ﴿وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ﴾ [النساء: ١١٩] إلى آخر الآية.

(١) انظر: الإحياء، كتاب شرح عجائب القلب، ٣/ ٢ ـ ٤٧.

وروينا أن عثمان بن أبى العاص قال: «يا رسول الله، حال الشيطان بينى وبين صلاتى وقراءتى، فقال: ذَلكَ الشَّيْطَانُ يُقالُ له خنْزَبُ، إذا أحسسته فتعوَّذ بالله منه، واتْفُلْ عن يسارك ثلاثًا. قال: ففعلتُ ذلك، فأذهبه الله تعالى عنّى».

وفى الخبر: «إن للوضوء شيطانًا يقالُ له الولْهَان، فاستعيذوا بالله منه». وقد روينا: «إن الشيطان يجرى من ابن آدمَ مَجْرَى الدَّمِ».

والحديثُ المشهورُ: «مَا مِنْكُمْ من أَحَدٍ إلا ولَهُ شيطانٌ. قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: وأنا إلا أن الله تعالى أعَانَنِى عليه فَأَسْلَمَ».

وقال ابن مسعود رضى الله عنه، وقد رويناه من طريق مسند: فى القَلْب لمتَّان: لمةٌ منَ المَلَك إيعادٌ بالخَيْرِ وتَصْديقٌ بالحَقِّ، ولَمَّةٌ مِنَ العَدُوِّ إيعادٌ بالشرِّ وتَكْذيبٌ بِالحَقِّ ونَهىٌ عنِ الخَيرِ.

وروينا عن الحسنِ رحمه الله أنه قال: إنّمَا هُمَا همَّان يَجُولاَن فى القلب: همٌّ منِ الله تعالى، وهَم من عدوّه، فرَحِم اللهُ عبدًا وَقَفَ عِنْدَ همِّه، فَمَا كَانَ من الله أمضاهُ، وما كانَ من عدوّه يجاهد.

وقال مجاهدٌ فى قوله تعالى: ﴿مِنْ شَرِّ الوَسْوَاسِ الخَنَّاسِ﴾ [الناس: ٤] قال: هو مُنْبَسِطٌ على قلبِ الإنسانِ، فإذَا ذَكَرَ اللهَ تعالىَ خَنَسَ وانقبضَ، وإذا غَفلَ انبسطَ عَلى قلبِه.

وقال عكرمةُ: الوسواسُ مَحلُّهُ فِى الرَّجُلِ فى فؤادِهِ وَعَيْنَيْهِ، وَمَحلُّه فى المرأةِ فِى عَيْنَيها إذا أقبلت، وفى عَجيزَتها إذا أدبرت.

وقال جريرُ بن عَبْدَةَ العَدَوىّ: شكَوْتُ إلى العلاءِ بن زيادٍ ما أجدُ فى صدرى من الوسوسةِ، فقال: إنمَّا مَثلُ ذلكَ مَثلُ النَّقْبِ الذى تَمُرُّ به اللصوصُ، فإن كان فيه شىءٌ عالجوهُ، وإلا مضوا وتركوه.

وقد روى أبو صالح عن أبى هريرةَ عن رسولِ الله ﷺ قال: «إن العبدَ إذا أخطأ خطيئةً نُكتَ فى قلبِه نُكتةٌ. فإن هو نَزعَ واستغفَر وتابَ صقُل، وإنْ عَادَ زيدَ فيهَا حتى تعلوَ قلبَه، فهو الرانُ الذى ذكره الله تعالى: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ

مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]».

وروينا عن جعفرِ بنِ برقان قال: سمعت ميمونَ بن مهران يقول: إنّ العبد إذا أذنبَ ذنبًا نُكِتَ فى قلبه بذلك نُكتةٌ سوداءُ، فإن تابَ مُحيَتْ من قلبه، فَتَرَى قلبَ المؤمنِ مَجْلُوًّا مثلَ المرآة، ما يأتيه الشيطانُ من ناحيةٍ إلا أبصَره. وأما الَّذى يَتَتَابعُ فى الذنوبِ، كلما أذنب نُكتَ فى قلبه نُكْتَةٌ سوداءُ، فَلا يَزَالُ يُنْكَتُ فى قلبِهِ حتى يَسْوَدَّ قلبُه، فَلا يُبْصِرُ الشيطانَ من حيثُ يأتيه.

وقد أخبر رسولُ اللهِ ﷺ أن قلبَ المؤمن أجردُ، فيه سِراجٌ يُزهر، فى تقسيمه القلوب. روينا عن أبى سعيد الخدرى وأبى كبشةَ الأنمارى، وبعضه أيضًا عن حذيفةَ، عن رسول الله ﷺ قال: «القلوبُ أربعة؛ قلبٌ فيه سراجٌ يُزْهرُ، فذلك قلبُ المؤمنِ. وقلبٌ أسودُ منكوسٌ، فذلك قلبُ الكافرِ. وقلبٌ أغلفُ مربوطٌ على غلافه، فذلك قلبُ المنافق. وقَلبٌ مُصفَحٌ فيه إيمانٌ ونفاقٌ، فَمَثَلُ الإيمانِ فيه مَثَلُ البقلَةِ يَمُدُّهَا الماءُ الطيبُ، وَمَثَلُ النفاقِ فيه كَمَثَلِ القَرْحَةِ يَمُدُّهَا القيحُ والصديد، فأيُّ المادّتين غَلَبَت عليه حُكم له بها». وفى لفظ بعضهم: «غلبتْ عليه ذَهَبت به».

وقال الله تعالى، ومَنْ أَصْدَقُ من الله قيلاً: **﴿إِنَّ الذينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾** [الأعراف: ٢٠١].

فأخبر أن جِلاءَ القلوبِ الذكرُ، به يبصرُ القلبُ، وأن بابَ الذكرِ التقوى، به يذكر العبد. فالتقوى بابُ الآخرةِ، كما أن الهوى بابُ الدنيا.

وأمَرَ اللهُ تعالى بالذكر، وأخبرَ أنه مفتاحُ التقوى؛ لأنه سببُ الاتقاء وهو الاجتنابُ والورعُ، فقال تعالى: **﴿وَاذْكُرُوا مَا فيه لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾** [الأعراف: ١٧١]. وأخبر أنه أظهر البيانَ للتقوى فى قوله: **﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ آيَاته للنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾** [البقرة: ١٨٧]. وقال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيم * الذى خَلَقَكَ فَسوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾** [الانفطار: ٦ ـ ٧]. وقال تعالى: **﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فى**

أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]. وقال: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩]. فمن السّواءِ والتعديلِ والازدواجِ والتقويمِ أدواتُ الظاهر وأعراضُ الباطنِ، وهى حَواسُّ الجسم والقلبِ.

فأدواتُ الجسمِ هى الصفاتُ الظاهرةُ، وأعراضُ القلب هى المعانى الباطنة، قد عدَّلَها الله تعالى بحكمته، وسوّاها على مشيئته، وَقَوَّمَها إتقانًا بصُنعه، وإحكامًا بصَنْعَته؛ أولها: النفسُ والروحُ، وهما مكانان للقاء العدوّ والملَك، وهمَا شخصان مُلْقِيانِ للفجُورِ والتقوَى. ومنها غرضانِ متمكنانِ فى مكانين، وهما العقلَ والهوى، عن حُكمين فى مشيئةِ حاكمٍ، وهما التوفيق والإغواء. ومنها نُوران ساطعان فى القلب عن تخصيص من رحمة راحمٍ، وهما العلمُ والإيمان. فهذه أدواتُ القلب وحواسُّه ومعانيه الغائبة وآلاتُه، والقلبُ فى وسط هذه الأدوات كالملِك وهذه جنودُه تُؤَدِّى إليه، أو كالمِرآة المجلوّة وهذه الآلةُ حولَه تظهر فيراها ويقدح فيه فيجدها.

فتفصيل ذلك على الإيجاز أن جُمَلَ الخواطِر ستةٌ، هى حدودُ القلبِ وقوادُحه، من ورائِها خزائنُ الغيبِ وملكوتُ القدرةِ، وهى جنودُ اللهِ تعالى عتيدةٌ وسلطانٌ منه مبين.

والقلبُ خزانةٌ من خزائن الملكوت، قد أودعهُ مُقلِّبهُ من لطائف الرغبوتِ والرهبوتِ، وشعشعَ فيه من أنوارِ العظمةِ والجبروت، ما شاء لأهل الرفيقِ الأعلى، وذوى الملكوت الأدنى.

فأوّل التفصيل: خاطرُ النفس، وخاطرُ العدوّ: وهذان لا يَعدمُهمَا عمومُ المؤمنينَ، وهما مَذْمُومَان محكومٌ لهما بالسوءِ، لا يَردانِ إلا بالهوى، وضِد العلمِ.

وخاطرُ الروحِ، وخاطرُ الملَك: وهذان لا يَعْدمُهُما خصوصُ المؤمنين، وهما محمودانِ لا يَردَانِ إلا بحقٍّ، وبما دل عليه العلمُ.

وخاطرُ العقلِ: وهو متوسطٌ بين هذه الأربعةِ. يصلحُ للمذمومين فيكونُ حجةً على العبدِ لمكان تمييز العقل وتقسيمِ المعقول؛ لأن العبدَ يدخلُ فى هواه بشهوةِ

جُعلت له، واختيارٍ لا يعسر عليه [ولا يقصر عنه][1] من حيث لا عقلَ ولا إجبار. ويصلح أيضًا للمحمودين؛ فيكون شاهدًا للمَلَكِ، ومؤيِّدًا لخاطرِ الروحِ. ويُثاب العبدُ فى حسن النية وصدق المقصدِ.

وإنّما كان خاطر العقل تارةً مع النفسِ والعدوِّ وتارة مع الروح والملكِ حكمةً من الله تعالى لصنعته، وإتقانًا لصنعه؛ ليدخل العبد فى الخير والشرِّ بوجودِ معقولٍ، وصحةِ شهودٍ وتمييز، فيكونُ عاقبةُ ذلك من الجزاء والعقاب عائدًا له وعليه، إذ قد جعل سبحانه هذا الجسمَ مكانًا لجريان أحكامه، ومحلاً لنفاذ مشيئته فى مبانى حكمته.

كذلك جعل العقلَ مطيةً للخير والشر، يجرى معهما فى خزانة الجسم، إذ كان مكانًا للتكليف، وموضعًا للتّصريف، وسببًا للتعريف العائد من معانى ذلك على صورة العبد من لذة النعيم أو عذاب أليم. فلم يكن العقل غائبًا فيكونُ العبدُ عن العقل ذاهبًا، ولم تكن الشهوةُ عازبةً فتكونُ النفس مفقودةً؛ إذ فى ذلك تضعيفٌ لحجةِ الله تعالى عليه، ووهن لبرهانِه؛ لأنّ العقلَ شاهدُ الحجةِ، والشهوةُ فى النفس مكان البلوى.

والنيةُ فى القلب طريقُ الحجة، وذلك أصل سبب عود جزاء الأمر والنهى. فالعقل مطبوعٌ على التميز مجبولٌ على التحسين والتقبيح، والنفس مجبولة على الشّهوة مطبوعة على الأمر بالهوى، وهذا نصيبُهما من عطائه وهداه لهما إلى رشاده وإغوائه، وحظهما من الكتاب، وقسمهما من ولىّ الأسباب.

كما قال تعالى فى أحكام ما ذكرناه تكملةً لما أخبرنا عما سبق فى علمه: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [الأعراف: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [الحج: ٤].

والخاطر السادس: هو خاطرُ اليقين، وهو روحُ الإيمانِ ومَزِيدُ العلمِ، يَرِدانِ

(١) زيادة من (ك).

إليه ويَصْدُرَان عنه، وهَذَا الخَاطرُ مَخْصُوصٌ بخصوصٍ لا يَجدُه إلا الموقنون، وهمُ الشهداءُ والصِّدِّيقُون، لا يَردُ إلا بحق وإن خَفِيَ وُرُودُه ودَقَّ، ولا يَقْدَحُ إلا بعلم اختيار لمراد مختار وإن لَطُفت أدلتُه وبطنَ وجهُ الاستدلالِ به. ولكن ليس يَخْفَى هذا الخاطرُ على مقصودٍ به ومُرَادٍ له، وهم الذينَ وصفهم الله تعالى بالذكرى، وردّ الرسولُ ﷺ إليهم[1] الفُتْيَا، فقال سبحانه: ﴿**إنَّ فِى ذَلكَ لَذكْرَى لمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ**﴾ [ق:٣٧] أى: من تولى الله حفظ قلبه. وقال رسولُ الله ﷺ: «مَا حَاكَ فى صدركِ فدعْهُ، والإثم حزَّازُ القُلُوبِ» يعنى: ما يؤثر فيها فَيَحُزّها لرقَّتها وصفَائها ولِينها ولُطْفِهَا. وقال للرَّجُلِ الذى سأله عنِ البِّر والإثم، وهما أصْلا أعمالِ الخيرِ والشرِّ: «استفت قلبَكَ وإنْ أفْتَاكَ المفتون» أى: أن المتقينَ يَعْلمون معانى التأويل والرخصة عن علمِهم العلانية، وأنت على علمٍ فوقهم مطالبٌ بالتحقيقِ والعزيمةِ عن علمك السرِّ.

وأهلُ الظاهر أيضًا يعلمون حُكْمَ الله تعالى الظاهرَ عن علم اللسان الظاهر الذى هو حجةٌ على أهل العلم الظاهر، وقلبك فقيهٌ منورٌّ بالإيمان تنظر به، أو ينطقُ به حكمُ الله تعالى الباطنُ عن علم القلبِ الباطن، الذى هو حقيقةُ الإيمان، ومنفعتُه لأهلِ العلمِ الباطنِ.

ولا يصلحُ أن يَرُدَّ رسولُ الله ﷺ سائلاً إلا إلى فقيهٍ، فلولا أنّ عِلْمَ القَلْبِ هُو حقيقة الفقهِ ما ردّ صاحبه من فتيا أهل الظاهر إليه، ولا حكم على المفتين به، فقد صار علمُ القلبِ هو علمَ العلم، إذ جعله الرسول ﷺ قاضيًا على المفتين بالحكم، وصارَ عالمُ الباطنِ هو عالم العُلمَاء؛ إذ لم يَسَعْهُ تقليدُ العلماء، وفى الحديث الآخر: «البرُّ ما اطمأنَّ إليه القلبُ وسكَنتْ إليه النفسُ وإن أفتوْكَ وأفتوْكَ».

فهذا وصفُ قلب مكاشَفٍ بالذكرِ، ونعتُ نفسٍ ساكنةٍ بمزيدِ السكينة والبرِّ، كما وصف من قلوبِ المؤمنينَ فى صريحِ الكلامِ، وفى دليلِ الخطاب. فأما صريحه فقوله تعالى: ﴿**الَّذين آمَنُوا وتَطْمئنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ ألاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئنُّ**

(١) «إليهم» ليست فى (ك).

الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]. وقوله تعالى: **﴿هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِم﴾** [الفتح: ٤].

وأما دليلُ الكلامِ الذى يَشْهَدُ بالتدبُّر فقوله تعالى فى وصفِ قلوبِ أعدائه المحجوبين: **﴿كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِى وَكَانُوا لاَ يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾** [الكهف: ١٠١]. ومثله: **﴿أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى﴾** [النجم: ٣٥]. ففى تدبر معناه أن أولياءه المستجيبين له سامعون منه، مكاشفون بذكره، ناظرون إلى غيبه.

وقال تعالى فى مثله: **﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ﴾** هذا فريقُ المتَّبعينَ للسُّبُلِ المتفرقةِ عن سواء السبيلِ بهم، الضالين عن سواء الصراط **﴿وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾** [هود: ٢٤] هو فريق المهتدين المتبعين للصراط المستقيم. وقال تعالى: **﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾** [هود: ٢٠]، **﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾** [ق: ٣٧]، **﴿إِنْ كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ﴾** [هود: ٣٤].

وقال ﷺ فى مجمل صفةِ القلب: «التقوى ههُنا» وأشارَ إلى القلب. وقال الله سبحانه وتعالى فى ذكر القلوب المقفلةِ بالذنوبِ: **﴿لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾** [الأعراف: ١٠٠]. وقال تعالى فى فض طابعها بالتقوى: **﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاسْمَعُوا﴾** [المائدة: ١٠٨]، و **﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ﴾** [البقرة: ٢٨٢]. وفى الخبر: «إذا أرادَ اللهُ بعبدٍ خيرًا جعَلَ اللهُ زاجرًا من نفسه، وواعظًا من قَلْبِه». وفى الخبر الآخر: «مَنْ كانَ لهُ من قلبه واعظٌ كان عليه من الله حافظٌ».

ورَوينا فى تفسير قوله تعالى: **﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلإِيمَانِ﴾** [آل عمران: ١٩٣] قال: سَمِعْنَاهُ مِنْ قلوبِنَا. وقالَ فى ضده لأعدائه: **﴿أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾** [فصلت: ٤٤] عن قلوبهم.

وقالَ اللهُ تعالى فى التوبة من ميلِ القلوبِ وهمِّها: **﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ**

صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم:٤]. وبمعناه: ﴿وهَمُّوا بما لَم يَنالُوا وما نَقَمُوا إلاَّ أنْ أغْناهُمُ اللهُ ورسُولُه مِنْ فَضْله فإنْ يتوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [التوبة: ٧٤].

وقال في تحقيق العمى للقلب: ﴿فإنَّها لا تَعْمَى الأبصَارُ ولَكنْ تَعْمَى القُلُوبُ الَّتى فى الصُّدور﴾ [الحج:٤٦]. فأهلُ القلوبِ يتعظونَ بلا واعظٍ من خلق، ويَزْدجِرُون بلا زاجرٍ فى ظاهر، وسائر ما ذكرناه من الخواطر لا يَعْدَمُه المؤمنون.

والقلبُ خزانةُ الله تعالى من خزائنِ الغيب، وهذه المعانى جنودُ الله تعالى مقيمةٌ حولَ القلبِ، يُخفى منها ما يَشاءُ، ويُظْهِرُ ويُبْدِى منها ما يريد، ويُعيدُ ويَبسُطُ القلبَ بما يشاءُ منها، ويَقبِضُه فيما شاءَ عنها.

وكلُّ قلبٍ اجتمع فيه ثلاثةُ معانٍ لم تفارقه خواطر اليقين، ولكن يَضعُفُ الخاطرُ ويخفى لضعفِ المعانى ودقتها، ويقوى اليقينُ ويظهرُ بقوتها؛ لأن هذه الثلاثةَ مكانُ اليقين، أحدها: الإيمانُ، وموضعه من اليقين مكان حجر النار. والثانى: العلم، ومكانه موضعُ الزنادِ. والثالث: العقل وهو مكان الحراق. فإذا اجتمعت هذه الأسباب قُدح خاطرُ اليقينِ فى القلب.

ومَثلُ القلب فى قوَّته بقوةِ مدده، وفى صفائه بجودة عدده، مَثلُ المصباحِ فى القنديل إلى مكان العقل منه، والزيتُ موضعُ العلمِ به، وهو روحُ المصباحِ، وبمدده يكون ظهورُ اليقينِ، والفتيلةُ مكانُ الإيمان منه وهى أصله وقوامه الذى يظهر بها، فعلى قدر قوةِ الفتيلةِ وجودةِ جوهرها يقوى اليقينُ. وهوَ مثْلُ الإيمان فى قوَّته بالورَع، وكماله بالخوف، وعلى مقدارِ صفاء الزيتِ ورقَّته واتساعه تضيء النار التى هو اليقين، وهو مثل العلم فى مدد الزهد وفقد الهوى، فصار العلمُ مكانًا للتوحيد، فتمكن الموحِّد فى التوحيدِ على قدر المكان، وقد قال الله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إلهَ إلاَ اللهُ﴾ [محمد:١٩]. وقال تعالى: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ الله وَأَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ [هود:١٤].

فقدَّم العلم على التوحيد فصار أوّله، فكلما اتسع القلبُ بالعلم بالله وزَهِدَ فى الدنيا ازداد إيمانًا وعلا؛ لأنه يرى فى عُلُوِّه ما لا يراهُ غيرُه، ويعلمُ فى اتساعِه ما

لا يَعْلَمُه سواهُ، فيكبُرُ المؤمنُ به فيكونُ ذلكَ مزيدَ إيمانه وقوته، ثم يشهدُ كلَّ ما آمن بهِ فيكون بذلك قوةَ نفسه وَسَعةَ مشاهدته. وكلَّما قَصُرَ عِلْمُ القلبِ بالله تعالى، وبمعانى صفاتِه، وأحكامِ ملكوتِه، قلّ إيمانُ هذا العبدِ، ثم أشهدَ ما آمنَ به من وراءِ حجابٍ لما غلبَ عليه من حبِّ الأسباب، وسمع الكلام من خلف سترٍ؛ لعجزِه عن المسارعةِ إلى البرِّ، فَيَضْعُفُ بِذَلكَ إيمانُه، ويتخيل مشاهدتَه، ولا يتحققُ.

فليس مَنْ عَلِمَ من صفاتِ الله سبحانه وتعالى وقدْره وآياته مائة ألف معنى ثُمَّ شَهِدَهَا كُلَّهَا من قُربٍ عن كشفٍ، مِثلَ مَنْ عَلِم منها عشرةَ معانٍ ثم شَهِدها من بُعدٍ عن حجابٍ، وهما مؤمنان معًا، لكن بين إيمانهما فى القُرْبِ والعُلوِّ والزيادة والنقصانِ كما بين العَشْرَةِ إلى مائةِ ألفٍ، فيكون إيمانُ قلبِ المسلمِ معشارَ معشارَ عُشْرِ إيمانِ قلب الموقِن. والمعشار: هو عُشْر العُشر، جزءٌ من مائة جزء. ويكون إيمانُ قلبِ الموقن فيما بين ذلك من الزيادة على العُشْر والنقصان من مائة ألف على قدر قسمه.

ومَثَل ذلك فيما نَعقلُه مَثلُ رجلٍ قال لك: إن عندى فلانًا، فقد حصلَ لَكَ عِلْمٌ أنه عنده، غيرَ أنَّ هذا العلمَ غيرُ يقينٍ؛ لأنه يجوزُ أن يكون قد اشتبه عليه، أو يكون قد كان عنده ثم خرج، وليس هو الآن عنده، وهذا مثلُ إيمان المسلمِ هو علم[1] خبرٍ لا خبرٌ، ثم إنك تأتى إلىّ فتسمع كلامه من وراء حجابٍ، فقد علمتَ الآن أنه عندى؛ لأنك سمعت كلامَه واستدللتَ به على كونه، إلا أنَّ هذا العلمَ أيضًا غير تحقيق؛ لأن الأصوات تشتبه، والأجرامَ تتقاربُ.

ولو قلتُ لك بعد ذلك: لم يكن عندى وإنَّمَا كان ذلك غيره أشبه صوتَه، تشككتَ فيه؛ لاحتمال ذلك، ولم يكن عندك يقينُ عينٍ تدفعُ به قولى، ولا شهادةُ نظرٍ تُنكرُ بها علىّ، وهذا مَثَلٌ لإيمان عمومِ المؤمنين، فهو إيمانُ خبرٍ، لَعَمْرى، وفيهِ يقينُ استدلال ممتزج بظنٍّ، إلا أنه غيرُ يقين العارفين[2]، [ولا

(١) فى (ط): «هو على علم».

(٢) عبارة (ك): «وفيه يقين غير يقين العارفين».

وصف المشاهدين](١)؛ لأنه قد يُدخلُ عليهم التخييل والتشبيه، فلا يدفعونه بمشاهدة يقين. ثم إنك تدخل إليَّ الآنَ بعد أن قيل لك: هو عندى، أو بعد أن سمعتَ كلامَه، فتشهدُه جالسًا لا حجاب بينك وبينه. فهذا هو يقينُ المعرفةِ، وهذه شهادةُ الموقن، وعندها انتفى كلُّ شكٍّ، وتحقَّق خبرُ العلم.

وهذا مَثَلٌ لعلمِ إيمانِ الموقنين الذى قد اندرج فيه إيمان عمومِ المؤمنينَ من علمِ الخبرِ المحتملِ، ومن سماعِ الكلامِ المشتبهِ من وراء حجابٍ، واسمُ الإيمانِ واقعٌ على جميعهم، ولكن الأوّلَ علِمَ أنّه عندى بما قيل له فصدَّق، والثانى: علِمَ بما سمع فاستدلَّ ولم يشهد فيقطعَ، والثالث: هو الذى عاينَ فقطعَ، وقد شهدَ له الرسول ﷺ بالمزيدِ، فقال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ الْخَبَرُ كَالمعايَنَةِ»، وقال: «ولَيس المُخْبَرُ كَالمعُاينِ».

ومثل هذا أيضًا أن ترى الشىء بالنهار فتعرفه معرفةَ عينٍ، وتعرفَ مكانه بنظرٍ لا تخطئهُ، ثم إنّك تحتاجُ إليه ليلاً فلست تعرفُ مكانهَ رأىَ عينٍ، وإنما تقصده بمعرفة استدلال عليه، وبحسنِ ظنٍّ أنه موجودٌ على حاله، أو يُعرَفُ بشىء معهودٍ أنه لا يتحولُ. وكذلك الأدلةُ للغائباتِ(٢)، وسقوطها مع المشاهدات. وفى معناه رؤية الشىءِ بنور القمرِ، فإنها تسنحُ وتلوح المشكلات(٣)، ورؤيته فى ضياء الشمسِ فإنّها تكشفُ الأمرَ على ما هو به. فهذا مَثَلٌ لنورِ اليقينِ إلى نورِ الإيمانِ.

ومَثَلٌ رابعٌ فى تفاوت المؤمنين فى حقيقة الكمالِ ودخولهم فى الاسم والمعنى مَثَلُ صلاة رباعية أُقيمت، فجاء رجلٌ فأدركَ تكبيرةَ الإحرام، ثم جاءَ آخرُ فأدركَ الركوع، ثم جاءَ آخرُ فأدركَ الركعةَ الثانيةَ، ثم جاءَ ثالثٌ فأدركَ الركعةَ الثالثةَ، ثم جاءَ رجلٌ رابعٌ فأدركَ الركعةَ الآخرةَ، فكلهم قد صلُّوا وأدركوا الصلاة فى جماعة ونالوا فضلَها، لقوله ﷺ: «مَنْ أدركَ من الصَّلاة رَكْعَةً فقَد أَدْركَ الصَّلاةَ». ولكنّ

---

(١) ساقطة من (ط).

(٢) فى (ط): «وكذلك الأدلة هى الغائبات» وأثبت ما فى (ك).

(٣) عبارة المطبوعة (ط): «وبمعناها رؤية الشىء بنور القمر، فإنه يشبح ويلوح المشكلات» وأثبت عبارة (ك).

ليس من أدركَ الركعةَ الأولى فى كمالِ الصلاةِ وإدراكِ حقيقتِها كمن أدركَ الثالثة أو الرابعة، ولا يكونُ أيضًا من أدركَ التكبيرةَ للإحرامِ فى الفضلِ كمن لم يدركْ شيئًا من القيامِ، وهما مُدْركانِ معًا[1].

فكذلكَ المؤمنون فى كمالِ الإيمانِ وحقائقه لا يستوون، وإن استووا فى الاسم والمعنى، وكذلك فى تفاوتهم فى الآخرة. فقد جاء فى الخبر أنه يقال: «أخْرِجُوا مَنْ فى قَلْبِه مِثقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إيمانٍ، ونِصْفُ مثقالٍ، وربعُ مِثقَالٍ، وَشَعِيرَةٌ وَذَرَّةٌ من إيمانٍ»، فقد حصلُوا متفاوتين فى الإيمان ما بين الذّرةِ إلى المثقال، وكلُّهم قد دخلَ النارَ إلا أنهم على مقاماتٍ فيها.

وفيه دليلٌ أن من كان فى قلبِه وزنُ دينارٍ من إيمان لم يمنعْه ذلكَ من دخولِ النارِ؛ لعِظَمِ ما اقترفَ من الأوزارِ، وأنَّ من كان فى قلبه وزنُ ذرةٍ من إيمانٍ لم يحقَّ عليه الخلودُ فى دارِ الهوانِ؛ لتعلقه بيسيرِ الإيقانِ، وأنَّ من زاد إيمانُه على وزنِ دينارٍ لم يكن للنَّارِ عليه سلطانٌ، فكانَ من الأبرارِ، وأَنَّ من نقصَ إيمانُه عن ذرةٍ لم يَخْرُجْ من النارِ وإن كانت سيماهُ واسمُه فى الظاهر فى المؤمنين؛ لأنه فى علمِ الله من المنافقينَ الفجارِ، وقد قال الله تعالى فى وصفهم: ﴿**وَإِنَّ الفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ**﴾ [الانفطار: ١٤]، ثم قال: ﴿**وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ**﴾ [الانفطار: ١٦]، ثم صارَ صاحبُ المثقالِ والذرةِ فى الجنة على تفاوتِ درجاتٍ، وكانَ الزائدُ إيمانُه على مثقالٍ فى أعلى علِّيين على هؤلاء، وارتفعَ أهلُ الدرجاتِ العلَى على أهلِ علِّيينَ ارتفاعَ الكوكبِ الدُّرّى[2] فى أفقِ السماءِ، وكلهم قد اجتمع فى الجنة على تفاوتِ مقاماتٍ وتَعالِى درجاتٍ. [وقال الرسول ﷺ: «إنّ أهلَ الدرجات العُلى ليراهم» الحديثَ][3].

وروينا عن رسول الله ﷺ: «ليس شَىءٌ خَيْرًا من ألفِ مثله إلا الإنسانُ، فَلَعَمْرِى إنَّ قلْبَ الموقن خيرٌ من ألف قلبِ مسلمٍ؛ لأن إيمانَه فوقَ إيمانِ مائةِ

(١) قوله «ولا يكون أيضًا . . . مدركان معًا»: ليس فى (ك).

(٢) فى (ط): «وترفع أهل الدرجات . . . الكوكب الذى» والصواب ما أثبت من (ك).

(٣) زيادة من (ك).

مؤمن، وعلْمَه بالله تعالى أضعافُ علمِ مائةِ مسلم». ويقال: إن واحدًا مِنَ الأبْدال الثلاثمائة قيمتُه قيمةُ ثلاثمائةِ مؤمنٍ.

وكان أبو محمدٍ يقول: يُعطِى الله تعالى بعضَ المؤمنينَ من الإيمانِ بوزنِ جبلِ أُحُدٍ، ويعطى بعضَهم مثلَ ذرة.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩] بالعلوِّ، ولا نهايةَ لعلوِّ الإيمانِ فصارَ علوُّ كلِّ قلبٍ على قدر إيمانه، ولذلك رُفِعَ العلماءُ على المؤمنينَ درجاتٍ فى قوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، ففسرها ابن عباس رضى الله عنهما فقال: الذين أُوتُوا العِلمَ فَوقَ المؤمنين بسبعمائة درجةٍ بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، وفى الخبر: «أكثَرُ أهلِ الجَنَّةِ البُلْه، وعِلِّيُّونَ لأُولى الألباب». وعن النبى ﷺ: «فَضْلُ العَالِم على العَابِدِ كفضل القمرِ على سَائِرِ الكواكب». وروينا فى لفظٍ أبلغَ من هذا: «كفضلى على أمتى».

فالموقنونَ من المؤمنين أعلى إيمانًا، والعالمونَ من الموقنينَ أرفعُ مقامًا، ثم على قدرِ بياضِ الماءِ يستبينُ من القنديل حُسْنُه وصفاؤُه.

وهذا مثلُ العقل فى صحتِه من الاعتلال، وصفائه من كدرِ الأحوالِ والأموال، ويجمعُ ذلك كلَّه القنديلُ وهو القلبُ. فعلى قدرِ رقةِ القلبِ ولطفِ جوهرِه وصفائه من كدرِه وحسنِ طهارتِه عن الآصار[1] تكونُ هذه العلومُ فيه والأنوار. وجوهرُ الزجاجة فى الصفاء محتاجٌ إلى صفاء الماء، كما أن صفاءَ الماء محتاجٌ إلى صفاءِ الجوهرِ، وبمعيارِهما يكون القلبُ والعقلُ. ووقودُ النُّورِ محتاجٌ إلى قوّةِ الفتيلة[2] ومددِ الزيتِ، فبموضعها فى القوّةِ والمددِ يكونُ العلمُ بالله تعالى واليقين، ذلك تقدير العزيز العليم.

وكلُّ قلبٍ اجتمعَ فيه ثلاثةُ معانٍ لم يفارقْه خواطرُ الهوى: الجهلُ، والطمعُ،

(١) فى (ط): «الآثار»، والصواب: الآثام، وأثبت ما فى (ك)؛ والآصار: جمع إصر، وهو الذنب.
(٢) فى (ك): «بمعيارهما ويكون القلب والعقل وقود النار تحتاج إلى قوة الفتيلة».

وحبُّ الدنيا. ثم يضعف خاطرُ الهوى ويقوى على قدر تمكُّنِ هذه الثلاثة من النفسِ وقوّتها. ويظهر الهوى فى القلب ويخفى على قدر تمكُّن هذه الثلاث من اليقينِ، وضعفها لوجودِ مكانِها فى السَّعة والضِّيق[١] وهو: العلمُ، والإيمانُ، والعقلُ. وفى القلبِ يظهرُ سلطانُ ذَينك[٢] أجمعَ، فأىُّ جندٍ كانت المشيئةُ معه غَلبَ. وروينا عن على عليه السلام: إن لله فى أرضه آنيةً وهى القلوب، فأحبُّها إليه أرقُّها وأصفَاها وأصلبُها. ثم فسّره فقال: أصلبُها فى الدينِ، وأصفاها فى اليقينِ، وأرقُّها على الإخوانِ.

فمَثَلُ القلوبِ مَثلُ الأوانى فى تقارب جوهرها، فأرقُّها وأصفاها وأعلاها يصلح للملك والوجه والطيب، وأكثفُها وأرداها يصلح للأدناس، وما بين ذلك يصلحُ لما بينهما.

ومَثلُهُما أيضًا مَثَلُ المَوازينِ: الطيارُ اللّطيف منها[٣] يصلح لوزن الذهب بالتحرير، والمعيارُ الكثيفُ الجافى يصلح للقتِّ والأنعام، وما بينهما يصلح لما بين ذلك. فيُوزنُ بكل ميزانٍ ما يصلُح له من كل شىءٍ موزونٍ، كما يُجعل فى كل إناء ما يليق به من كل شىء مرذولٍ أو مصونٍ [يلزمه. كذلك الطعمة والمأكول][٤]. كذلك الحكمُ والحِكمةُ فى الملكوتِ الباطنِ كالحكمةِ والحكمِ فى الملكوت الظاهرِ بتعديل الظاهرِ الباطن.

وفى تفسير قوله عزّ وجلّ: ﴿**مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ**﴾ [النور: ٣٥] فسره أُبىُّ بنُ كعبٍ قال: مثل نورِ المؤمنِ، وكذلك كان يقرأه. قال: فقلب المؤمنِ هو المشكاةُ فيها مصباحٌ، فكلامه نورٌ وعَملُهُ نورٌ ويتقلبُ فى نورٍ، ثم قال فى قوله تعالى: ﴿**أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِى بَحْرٍ لُجِّىٍّ**﴾ [النور: ٤٠] قال: قلبُ

(١) فى (ط): «من النفس وحقائقها على مثل ما ذكرناه من تمكن خواطر اليقين وضعفها لوجود مكانها» وأثبت عبارة (ك).

(٢) فى (ط): «ذلك» وأثبت ما فى (ك).

(٣) فى (ط): «الطيار اللطيف والمعيار يصلح» وأثبت ما فى (ك).

(٤) زيادة من (ك).

المنافق، فكلامُه ظلمةٌ، وعملُه ظلمةٌ، ويتقلب فى ظلمة.

وكان زيدُ بن أسلمَ يقول فى قوله تعالى: ﴿فِى لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢٢] قال: قلبُ المؤمنِ. وقالَ أبو محمدٍ سهلٌ: مثلُ القلبِ والصدرِ مثل العرشِ والكرسىِّ.

وروينا فى حديث ابن عمر قال: «قيل: يا رسولَ الله، أين الله فى الأرض؟ قال: فى قلوبِ عباده المؤمنين». وفى الخبرِ المأثورِ عن الله تعالى: «لم يَسَعْنِى سَمَائِى وَلاَ أرْضِى، وَوَسِعَنِى قَلْبُ عَبْدِى المؤمنِ» وفى بعضها: «اللينُ الوادع» فاللِّينُ: يعنى السهلَ الرقيقَ القريبَ، والوادعُ: يعنى الساكنَ المطمئنَ.

وفى الخبرِ: «مَا أُلْبِسَ العَبْدُ لِبْسَةً أَحْسَنَ من خُشُوعٍ فِى سكِينَةٍ»، فهذه لبسةُ المتقين، وصِبْغَةُ الله تعالى للعارفين. وفى الحديث: «قيل: يا رسول الله، مَنْ خيرُ الناس؟ قال: كُلُّ مُؤْمِنٍ مَخْمُومِ القَلْبِ»، ثم فسره رسولُ الله ﷺ فقال: «هو التقىُّ الذى لا غِشَّ فيه ولا بَغىٌ، ولا غلٌ ولا حسدٌ».

وقال بعضُ العارفين فى معنى قوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩] أى: مما سوى اللهِ، ليس فيه غيرُ اللهِ. وفى قولِ أهلِ التفسيرِ: سليمٌ من الشركِ والنفاقِ.

وقال رسولُ الله ﷺ: «الشركُ فى أمتى أخفَى من دبيبِ النملِ»، وهذا لا يَعْدَمُه المؤمنونَ إلا الصِّديقين. وقال: «أكثرُ مُنَافِقِى أُمَّتِى قُرَّاؤُهَا»، وهذا لا يَعدمُه العابِدُونَ إلا العارفينَ.

ومن خواطرِ اليقينِ ما يَرِدُ بشىءٍ لا تظهرُ دلائلُهُ فى الظاهرِ؛ لخفائِهِ وغموضِ شواهدِهِ، فليس يُعلَمُ إلا بباطنِ العلمِ وغامضِ الفهمِ والغوصِ على لطائف معانى التبيينِ وباطنِ الاستنباطِ من فهمِ التنزيلِ وتعليمِ التأويلِ، كما قال الحبيبُ الخليلُ رسولُ الله ﷺ لابن عباس: «اللّهُمَّ فَقِّهْهُ فى الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأويلَ». وكما قال علىُّ بنُ أبى طالب: ما عندنا شىءٌ أسرَّهُ إلينا رسولُ الله ﷺ سوى كتابِ الله تعالى إلا أن يُؤتىَ اللهُ تعالى عبداً فَهْمًا فى كتابه. وكما جاء فى تفسير قوله تعالى: ﴿يُؤْتِى الحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٦٩] قال: الفهم فى كتابِ اللهِ. وقال

أصدقُ القائلين: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، فَخصَّهُ بفهمٍ منه زاده به فوقَ الحُكْمِ والعلمِ الذى شَرِكَ فيه أباه، فزاده على فُتيا أبيه.

وروينا عن على عليه السلامُ فى الحديثِ الطويلِ الذى يقول فيه: واليقينُ على أربعِ شُعبٍ؛ عَلَى: تبصرةِ الفِطْنَة، وتأويلِ الحكمةِ، وموعظةِ العبرةِ، وسنةِ الأوّلينَ. فمَنْ تَبصَّر الفطنة تأوَّل الحكمةَ، ومن تأول الحكمة عرف العبرة، ومن عَرَف العبرةَ كان فى الأولين.

إلا أن أهلَ اليقينِ المرادينَ به العارفينَ بأحكام الله تعالى الباطنة يعلمون تفصيلَ خواطرِ اليقينِ ومقتضاها، من حيث أُشْهِدوا مطلعَها من الغيب، وبحيث عَرَفوا مُوجِبهَا من الوصفِ، بنورِ اللهِ الثاقبِ وقربهِ الحاضرِ وسلطانه النافذ.

كما جاء فى الخبر: «اتَّقُوا فِراسَةَ المُؤْمنِ فإنَّه يَنْظُرُ بِنُورِ اللهِ تعالى» أى باليقين. وفى لفظ آخرَ: «اتَّقُوْا فِرَاسَةَ العَالِم»، فكأنه مُفَسَّرٌ له، ومنه قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فى ذلكَ لآياتٍ للمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥]، وقوله: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الآياتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ١١٨] أى: بنور اليقين.

وكان أبو الدرداء يقول: المؤمنُ يَنْظُرُ إلى الغَيْبِ من وراءِ سِتْرٍ رَقيقٍ، واللهِ إنه لَلحقُّ يقذفُه اللهُ تعالى فى قلوبِهِمْ، ويجريهِ على ألسنتهم.

وقال بعض العلماء: ظنُّ المؤمنِ كِهانةٌ. أى كأنه سحرٌ من نفاذهِ وَصِحَّةِ وقوعه.

وقال بعض العلماءِ: يد اللهِ تعالى على أفواهِ الحكماءِ لا ينطقونَ إلا بما هيَّأ اللهُ عز وجلّ لهم من الحق.

وقال آخرُ: لو شئتُ لقلتُ إن الله يُطلِعُ الخاشعينَ على بعضِ سرِّه.

وكتب عمر بنُ الخطاب رضى الله عنه إلى أمراءِ الأجنادِ: احْفَظُوا مَا تَسمعُونَ من المتَّعِظِينَ؛ فإنهم يَنجلى لهم أمورٌ صادقةٌ.

وقال الله تعالى، ومَنْ أصدقُ من الله قيلاً: ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا إنْ تَتَّقُوا اللهَ

يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]، قيل: نورٌ تُفرِّقُون به بين الشبهاتِ، ويقينٌ تَفْرُقون به المشكلات.

ومن هذا قولُه سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ قيل: مخرجًا من كلِّ أمرٍ ضاقَ على الناسِ ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ - ٣] يُعلِّمه علمًا بغيرِ تعليمٍ، ويُفَطِّنُهُ بغيرِ تجربةٍ؛ أى بالشاهدِ الصحيحِ، والحق الصريح[١].

ومثله قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] قال بعض العلماء[٢]: الذينَ يَعْمَلُونَ بما يَعْلَمُونَ يُوفِّقهم ويهديهم إلى ما لا يَعْلَمُونَ حتى يكونُوا علماء حكماء. وقال بعضُ السلف: نزلتْ هذهِ الآيةُ فى المتعبِّدِينَ المنقطعينَ إلى الله سبحانه وتعالى المستوْحِشِينَ من الناس، فيسوقُ الله تعالى إليهم مَنْ يُعَلِّمُهُم، أو يُلْهِمُهُم التوفيقَ والعصمةَ.

وفى الخبرِ: «مَنْ عمل بما يعلمُ أورثَهُ اللهُ تعالى علم ما لم يعلمْ، وَوفَّقَهُ فيما يعمل، حتى يستوجبَ الجنة. ومن لم يعمل بما يَعلمُ، تاه فيما يعلم ولم يُوفَّق فيما يعمل، حتى يستوجبَ النار».

فمعنَى: أورثَه علمَ ما لم يعلمْ؛ أى: من علومِ المعارفِ التى هى مواريثُ أعمالِ القلوبِ، مثلُ الفرقِ بين الاختبار والاختيار، والابتلاء والاجتباء، والمثوبة والعقوبة، ومعرفة النقص من المزيدِ، والقبضِ والبسطِ، والحل والعقد، والجمع والتفرقة، إلى غيرِ ذلكَ من علوم العارفينَ بعد حسِّ التفقهِ والأدبِ عن مشاهدةِ الرقيبِ، والقربِ لصحةِ المواجيدِ والقلوبِ.

وقال بعضُ التابعين: مَنْ عَمِلَ بعُشْرِ ما يعلمُ علّمه الله تعالى ما يَجْهَلُ. وقد قال حذيفة: أنتم اليومَ فى زمانٍ مَنْ ترك عُشْرَ ما يعلم هَلَكَ، وَسَيأتى بعدكم زمانٌ مَنْ عمل بعشرِ ما يعلمُ نَجَا. وقال بعضُهُم: كلَّما ازدادَ العبدُ عبادةً واجتِهَادًا ازدادَ

(١) فى (ك): «والعلم والصريح».
(٢) فى (ط): «قيل» وأثبت ما فى (ك).

القلبُ قوّةً ونشاطًا، وكُلّما ملَّ العبدُ وفتر ازدادَ القَلْبُ ضعْفًا ووَهْنًا.

ولَيسَ يكَادُ علْمُ اليقين يقدحُ في معدن العَقْلِ؛ لأنَّ عُلُومَ العقلِ مَخلُوقَات، ولاَ يكَادُ يُنْتِجهُ الْفكْرُ، ولا يُخرجهُ التدبرُ، فما أنتجتهُ الأفكارُ واستخرجته الفطرةُ من الخواطرِ والعلومِ فتلكَ علومُ العقلِ، وهى كشوفُ المؤمنينَ ومحموداتٌ لأهلِ الدِّينِ.

فأما خاطرُ اليقينِ، فإنه يظهرُ من عين اليقين، يُنادَى به العبدُ مناداةً، ويبغته مفاجأة؛ لأنه مَخْصُوصٌ به، مرادٌ مقصودٌ به، محبوبٌ مُتَولَّى به، مطلوب مراد به، مَسلوبٌ[1]، لا يجده إلا عارفٌ أو خائفٌ أو محبٌّ. ومَنْ سوى هؤلاء فبحاله محجوبٌ، وبعاداته مطلوبٌ، وإلى مقامه نَاظرٌ، وفى طريقه بمعقوله سائرٌ.

فأمَّا العَارِفُونَ المُواجَهُون[2] بعينِ اليَقينِ، المكاشَفونَ بعلم الصدِّيقينَ، فإنهم مُسَيَّرُونَ مَحْمُولُونَ، سَابقون مستهترونَ، قد وضعت الأذْكَارُ عنهم الأوزارَ، كما جاء فى الخبر: «سِيرُوا سَبَقَ المُفَرَّدُونَ ـ بالفتح ـ والمفرِّدُونَ، أيضًا، بالكسر، فهم مفرِّدون لله تعالى بما أفْرَدَهُمْ الله تعالى، كما قال جلّ ذكره: ﴿حَافظَاتٌ للْغَيْب بمَا حَفظَ اللهُ﴾ [النساء: ٣٤] ـ قيل: ومن المفرِّدُونَ؟ قال: المستهترون بذكرِ الله، وَضعَ الذِّكْرُ أوْزَارَهُمْ فَوَرَدُوا القيامةَ خفافًا».

فلما أفردهم الله تعالى ممن سواهمُ له أفردوه عما سواهُ به، فذكرَهم فاسْتَولى عليهم ذكرُه، فاصطَلَمَ قُلُوبَهم نُورُه تعالى، فاندرجَ ذكرُهم فى ذكره، فكان هو الذاكرَ لهم وكانوا هم المكانَ لمجارى قدرته عزّ وجلّ. فلا يُوزَنُ مقدارُ هذا الذكرِ، ولا يُكتَبُ كيفيةُ هذا البرِّ، فلو وُضِعَتِ السمواتُ والأرضُ فى كفَّةٍ لَرَجَحَ ذكرُه تعالى لهم بها.

وهم الذين قال لهم: «أفترَى مَنْ واجهتُه بوَجْهى يَعْلَم أحدٌ أىَّ شىء أُريدُ أن أُعطِيَهُ؟ لو كانت السمواتُ والأرضُ فى موازينهم لاستَقْلَلْتُهَا لهم. أوّلُ ما أُعطيهم

---

(١) عبارة: «مراد به، مسلوب» من (ك) وتكملتها: «لا يجده إلا عارفًا أو خائفًا أو محبًا».

(٢) فى (ك): «المتواجهون».

أن أقذفَ من نُورى فى قلوبهم فيُخبرونَ عنّى كما أُخبِرُ عنهم»(١).

وهذا هو ظاهرُ أوصافهم، وأولُ عطاياهُمْ. فَطَلَبُ هؤلاء لا يُعرَفُ، ونَصيبُهُم لا يُكَيَّفُ، ومطلوبُهم كُنْهُ قَدْرِه لا يُوصَفُ. عطاؤُهم غيرُ مخلوقٍ، ومشاهدتُهم وصْفُ التحقيقِ بعينِ اليقينِ إلى حقِّ اليقينِ. فأول نصيبهم من مطلوبِهم علمُ اليقينِ، وهو صفاءُ المعرفة بالله تعالى، وآخرُه(٢) علْمُ الإيمان أولُ عينِ اليقينِ، وهو مشاهدة وصفٍ معروفٍ، وهذهِ وجهةُ التَّوْحيدِ. ولا آخرُ لأوَّلِ عينِ(٣) اليقينِ، ولا انقطاعَ لآخر نصيبهم من مشاهدتهم.

فظاهرُ التوحيدِ توحيدُ اللهِ تعالى فى كلِّ شيءٍ، وتوحيدُه بكلِّ شيءٍ، ومشاهدةُ إيجاده قبلَ كُلِّ شَيءٍ، ولا نهايةَ لعلم التَّوْحيد(٤)، ولا غَايةَ لمزيدِ عطاءِ الموحِّدينَ، ولكنْ لهم نهاياتٌ يُوَقَفُونَ تحتهَا، وغاياتٌ يَصْدُرُونَ عنها، تُجعل أماكنَ لمزيدهم، ويزدادُون فى وُسْعِهَا، ويُمَدُّونَ بعلوم يطلبونَ بها ما يُكَاشَفُونَ به لمَا وراءَها أبدًا، لا بديلاً آخرَ، ولا أمدَ، ولا يَصِلُ العَبْدُ إلى مشاهدةِ علمِ التوحيدِ إلا بعلمِ المعرفةِ، وهو نورُ اليقينِ، ولا يُعطَى نورُ اليقين حتى تَمْخُضَ الجوارحُ بالأعمالِ الصالحاتِ، كما يُمخَضُ الزِّقُّ باللبنِ؛ حتى تظهرَ الزُّبدةُ، وهى اليقينُ.

وليست هذه الزبدةُ غايةَ الطالبينَ، ولا بُغيةَ الصِّدِّيقينَ؛ لأن وراءها صفوَها وخالصَها، ثم تُذابُ هذهِ الزبدةُ حتى يَخلُصَ سمنُها، وهو صفوُها، ونهايتُها، وهذا مثلٌ لعين اليقين بعد علْمه وبعدَ مشاهدة الوجه بمرآة القُرْبِ، وهى نُوره، فحينئذٍ لا يفارِقُه وَجْدُهُ وحضورُه، فيرتفعُ العبدُ من خواطرِ اليقينِ إلى مشاهدة الصِّفاتِ، وبعد ذَوبِ علمِ الخواطرِ يَتَجوهَرُ نُورُ شُعَاع وجهِ الذات(٥)، وهذا مقامُ الإحسان، وإنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ بعد مجاهدتِهم النفوس فيه، وبيعها مع الأموالِ

---

(١) جزء من حديث قدسى، وسيجىء تخريج الأخبار كلها مجتمعة آخر الكتاب.

(٢) فى (ط): «وآخر» وأثبت ما فى (ك).

(٣) فى (ط): «علم» وأثبت ما فى (ك).

(٤) فى (ك): «ولا نهاية للتوحيد».

(٥) قوله «يتجوهر نور شعاع وجه الذات»: ليس فى (ك).

منه، فأحسنَ إليهم باشترائها منهُم، وكان معهم كما قال: ﴿سَيَجزيهمْ وَصْفَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٩]، فإنما كانوا محسنينَ؛ لأنّ المحسن معهم، كما كانوا أعلين؛ إذ الأعلى معهم، فقد قال: [﴿فلا تَهِنُوا وتَدْعُوا إلى السَّلْم﴾ أي: لا تضعفوا وتطلبوا الصلح من الأعداء][1] ﴿وأنْتُمُ الأعْلَوْنَ واللهُ معَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥].

وَسُئِلَ رسولُ الله ﷺ عن الإحسانِ فقال: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كأنكَ تراه».

وينتقلُ العبدُ من أعمال الجوارحِ وهي المجاهدةُ التي طُرح عليه ثِقَلُها، فحَمَلها، فتحمّل فيما حمل، وتحفَّظَ له ما استُحْفظ إلى علمِ اليقينِ، وهو الرَّوْحُ والرضا، وهذا هو هدايةُ السبيلِ.

وأوّلُ هذا كلّه أن يَدْخُلَ العبدُ بعد التوبةِ النصوحةِ في أحوالِ المريدينَ، وأعمالِ المجاهدينَ للنفسِ والعدوّ، ثم ينتقلُ إلى خواطرِ اليقين، فهذا ميراثُ المجاهدين، كما قال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ يعني: نفوسَهُم وأموالهم وجاهدوا عدوّهم؛ إذ يَعِدُهم الفقرَ، ويأمرُهم بالفحشاء، فَصَابَرَهم فغلبوه فباعُوا النفوسَ والأموالَ، فأُعتقوا من رِقِّ الهوَى، ونَجوا من أهوال الحساب، ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أي: لَنُطْرِقنّهم إلى مكاشفاتِ العلومِ، ولَنُسْمِعَنَّهُمْ غرائبَ الفهومِ، ولنُوَصِّلَنَّهُمْ إلى أقربِ الطرقِ إلينا بحسن مجاهدتِهم فينا، ثم ختم الأمرَ بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

هذا مقامُ مشاهدة الصفات، فكانَ المجاهدُ فيه معهم أولاً بالتوفيق فيه صبرُوا له بالتأييد، وكان المحسنُ معهم آخرَ اليومِ فيه أحسنوا إلى نفوسهم غداً.

وروينا عن الحسن البصري عن رسولِ الله ﷺ: «العلمُ عِلْمَان: فعِلْمُ باطنٍ في القَلْبِ فَذاكَ هو النَّافعُ».

وسُئِلَ رَسولُ اللهِ ﷺ عن معنى قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ للإسْلامِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]: ما هذا الشرحُ؟ قال: «هو التوسعةُ» يعني: أن

---

(١) من (ك) وهي ساقطة من (ط).

النورَ إذا قُذف فى القلبِ اتسعَ له الصدرُ وانشرحَ.

وقال بعضُ العارفينَ: لى قلبٌ إذا عصيتُه عصيتُ اللهَ تعالى. يعنى: أنه لا يُقذَفُ فيه إلا طاعةٌ، ولا يُقَرُّ فيه إلا حقٌّ، فقد صارَ رسوله إليه، فإذا عصاهُ فقد عَصا المرسلَ، بمعنى الخبر: «الإيمانُ ما وقرَ فى القلب وصدَّقَه العملُ»، وبقوله ﷺ: «المُؤْمنُ يَنْظُرُ بِنُور الله، فَمَنْ نَظَرَ بِنُورِ اللهِ كَانَ عَلَى بَصِيرَةٍ مِنَ اللهِ تعالى وكَانَ عَمَلُهُ بنورِهِ طاعةً لله تعالى».

وقال بعضُ العارفين: منذ عشرينَ سنةً ما سكنَ قلبى إلى نفسى ساعةً، وما ساكنتُه طرفةَ عينٍ.

وسُئل بعضُ العلماءِ عن علمِ الباطنِ: أىُّ شىءٍ هو؟ فقال: سِرٌّ من سرِّ اللهِ تعالى يَقذفُه فى قلوبِ أحبابِهِ، لم يُطْلعْ عليهِ مَلكًا ولَا بَشرًا.

وقد روينا فيه خبرًا مسندًا أحْبَبْنَا أن نُسْنِدَه: «جاء رجلٌ إلى النبىِّ ﷺ فقالَ: عَلِّمْنِى مِنْ غَرائبِ العلمِ، فَقَالَ: هل عَرَفْتَ الرَّبَّ؟». فأخْبَرَ أنّ غرائبَ العلومِ فى المعرفة، وقد أمرَ ﷺ بأصْلِ العلومِ الذى فيه غرائبُ الفهومِ فقال: «اقرأُوا القُرآنَ وَالتَمسُوا غرَائبهُ» يعنى تَدبُّرَ مَعانيه واستنباط بواطنه؛ إذ بكلامه عَرَفَه أولياؤُه، وقد قيل: تَكَلَّمُوا تُعرفُوا. فمن عَرَفَ معانى الكلامِ ووجوهَ الخطَابِ عَرَفَ به معانى الصفاتِ وغرائبَ علومِ أسماء الذات.

وقال ابن مسعودٍ: مَنْ أرادَ علمَ الأوّلينَ وَالآخرينَ فَلْيُثَوِّرِ[1] القرآن.

وقال بعض أهل المعرفة فى فهم هذه الآية: ﴿**إنَّ اللهَ يأمُرُ بالعَدْلِ والإحْسانِ**﴾ [النحل: ٩٠] قال: العدل: تدبُّرُ القرآنِ وَفهْمُهُ، والإحسانُ: مشاهدةُ الفهم.

وفى تأويلِ قول على رضى الله عنه[2] فى صفة العدلِ شاهدٌ لقوله هذَا فى حدِيثِهِ الذى وصَفَ فيه شُعَبَ الإيمانِ فقال: الإيمَانُ عَلَى أربعِ دعائم: على

(١) ثوَّر القرآن: بحث عن علمه.

(٢) فى (ط): «وفى تأويل قوله عليه الصلاة والسلام» وهو خطأ، لأن هذا من كلام علىٍّ رضى الله عنه، وأثبت ما فى (ك).

الصبرِ، واليقينِ، والعدلِ، والجهادِ. ثم قال: والعدلُ على أربعِ شعبٍ: غائصِ الفهمِ، وزهرةِ العلمِ، وروضةِ الحلمِ، وشرائعِ الحكمِ.

فمن فَهِمَ فسَّرَ جُمَلَ العلمِ، ومن عَلِمَ عرف شرائعَ الحكمِ، ومن حَلُمَ لم يفرِّطْ في أمره، وعاش في الناسِ حَمِيدًا.

وقال بعضُ المكاشَفِينَ: ظهرَ لي المَلَكُ فسألني أن أُمليَ عليه شيْئًا من ذكرى الخفي من مشاهدَتي من التوحيد، وقال: ما نَكْتُبُ لَكَ عَمَلاً، ونحن نحبُّ أن نَصْعَدَ لك بعمل نتقرب به إلى الله تعالى. فقلت: أليس تكتبان الفرائض؟ قالا: بلى. قلتُ: فيكفيكما ذلك[1].

وحدثنا بعض العارفين قال[2]: سألتُ بعضَ الأبدالِ عن مسألةٍ من مشاهدةِ اليَقِين. فالتفتَ إلى شمَاله وقال: ما تقولُ رحمك الله؟ ثم التفتَ إلى يمينه فقال: ما تقول رحمك الله؟ ثم أَطرَقَ إلى صدْرِه وقال: ما تقولَ رحمك الله، ثم أجابني بأغربِ جوابٍ ما سمعتُه قَطُّ وأَعْلاَه.

فقلتُ: رأيتُك الْتَفَتَّ عن شِمَالِكَ ويمينكَ، ثمَّ أَقْبَلْتَ على صدْرِكَ فماذا؟

فقال: سألتَني عن مسألة لم يكن عنْدي فيها علْمٌ عتيدٌ، فالْتَفَتُّ إلى صاحبِ الشمَالِ فَسَأَلْتُه عنها وظننتُ أن عندَه منْهَا علمًا، فقال: لا أَدْرِي. فسألتُ صاحبَ اليَمينِ، وهو أعلمُ منْهُ، فقال: لا أَدْرِي. فنظرتُ إلى قلبِي فسألتُه، فَحدَّثني بما أجبتُكَ، وإذَا هُوَ أعلمُ منهما.

وقد كَانَ أبو يَزِيدَ وغَيرُه يقولون: ليسَ العالمُ الذي يحفظُ من كتابِ الله، فإذا نسيَ ما حَفَظَ صارَ جاهلاً؛ إنّما العالمُ الذي يأخذُ علمَه من ربِّه عزّ وجلّ أيّ وقتٍ شاء، بِلاَ تحفُّظٍ ولاَ دَرْسٍ.

فهذَا ـ لعمري ـ لا يَنْسَى علْمَهُ، وهو ذاكرٌ أبدًا لا يَحْتَاجُ إلى كتابٍ، وهو العالمُ الربَّاني، وهذا هو وصفُ قلوبِ الأبدالِ من الموقنين، ليسُوا واقفينَ مع

(١) في (ط): «أليس يكتبان الفرائض؟ قال: بلى. قلت: فيكفيهما ذلك» وأثبت ما في (ك).

(٢) في (ط): «وقال بعض العارفين قال» وأثبت ما في (ك)، وفيه: «العلماء» بدل: «العارفين».

حفْظٍ، إنَّمَا هم قائمونَ بحافظ.

وَقَدْ رُوينَا فى الخَبَرِ: «إنَّ مِنْ أُمَّتِى مُحَدَّثِينَ ومُكَلَّمِينَ، وإنَّ عُمَرَ مِنْهُمْ». وقرأ ابنُ عباسٍ: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبِىٍّ وَلاَ مُحَدَّثٍ»[1] يعنى الصِّدِّيقين.

وهذا كان طريقَ السلف من الصحابة وخيارِ التابعين، إذا سُئلُوا وُفِّقُوا وأُلهِمُوا الصوابَ؛ لقربهم من حُسْنِ التوفيقِ، وسُلوكِهِمْ حقيقةَ مَحجَّةِ الطريقِ، فخاطرُ اليقين إذا وَرَدَ عَلَى قَلْبِ مُؤْمِنٍ اضطرَّتْه مُشَاهَدتُه إلى القيامِ به، وإن خَفِىَ على غيرِه، وحكم عليه بيانُه وبرهانُه بصحةِ دليله، وإن التبَسَ على من سواه.

وَقَدْ قال اللهُ تعالى فى تخصيص الموقنينَ: ﴿**قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ**﴾ [البقرة:١١٨]، ﴿**هذا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ**﴾ [الجاثية:٢٠]. وقال فى نعت المتقين: ﴿**وَمَا خَلَقَ اللهُ فِى السَّمَوات والأَرْض لآيات لقَوْمٍ يَتَّقُونَ**﴾ [يونس:٦]. وقال تعالى: ﴿**هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ [آل عمران:١٣٨]. وقال فى فضل العلماء: ﴿**بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِى صُدُورِ الذينَ أُوتُوا العِلْمَ**﴾ [العنكبوت:٤٩]. وقال: ﴿**قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**﴾ [الأنعام:٩٧].

فحقيقةُ العلمِ إنَّما هو من التقوَى واليقينِ، وهذا هو علمُ المعرفةِ المخْصُوصِ به المُقربَّون، وهَبَ لهم الآياتِ، وخصَّهُمْ بالبيانِ والدلالاتِ، ﴿**بما اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ الله وكانوا عليه شُهَدَاءَ**﴾ [المائدة:٤٤] فهذه الخواطرُ تبدو فى القلوبِ عن هذه الأواسط التى هى خزائنُ الله تعالى من خزائنِ الأرضِ: ﴿**ولله خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ المُنافقينَ لاَ يَفْقَهُونَ**﴾ [المنافقون:٧]

---

(١) هذا الخبر وهذه القراءة رواها سفيان عن عمرو بن دينار عن ابن عباس. وقال مسلم بن القاسم: «فوجدنا المحدَّثين معتصمين بالنبوة ـ على قراءة ابن عباس ـ لأنهم تكلموا بأمور عالية من أنباء الغيب خطرات، ونطقوا بالحكمة الباطنة؛ فأصابوا فيما تكلموا، وعُصموا فيما نطقوا». وقال أبو بكر الأنبارى معلقًا على خبر ابن عباس: «فهذا حديث لا يؤخذ به على أن ذلك قرآن. والمحدَّث هو الذى يُوحَى إليه فى نومه، لأن رؤيا الأنبياء حق» انظر: القرطبى ١٢/ ٧٩ ـ ٨٠.

والفقهُ: صفةٌ للقلبِ لا للسان. والعربُ[١] تقول: فَقِهْتُ بمعنى فهمتُ. وابن عباس يفسر قول الله عز وجل: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف:١٧٩] يقول: لا يفهمون بها، ويجعلُ الفقهَ الفهم.

فخاطرُ اليقينِ والروحِ والمَلَك من خزائنِ الله. وخاطرُ العقلِ والنفسِ والعدوِّ من خزائن الأرضِ. كما قيل: النفسُ تُرابيَّةٌ خُلقتْ من الأرض فهى تميلُ إلى الترابِ، والروحُ رُوحَانىٌّ خُلِقَ من الملكوتِ فهى تَرْتَاحُ إلى العُلُوِّ.

والقلْبُ خزانةٌ من خزَائنِ الملكُوت مَثَلُهُ كالمرآة تقدحُ هذه الخواطرَ عن أوساطِهَا من خزائنِ الغيب، فَتُوقدُ فى القلبِ فيَتلألأُ فيه للتأثير. فَمنْهَا: مَا يَقَعُ فى سمعِ القلبِ فيكونُ فَهْمًا. ومنْهَا: ما يقع فى بَصَرِ القَلْبِ فيكُونُ نَظَرًا، وَهُوَ المُشَاهَدَة. وَمِنْهَا: مَا يَقَعُ فى لِسَانِ القَلْب، فَيَكُون كَلامًا، وهَو الذوقُ. ومنها: ما يقع فى شَمِّ القلب فيكونُ علمًا وهو الفِكْرُ، وهُوَ العَقْلُ المكتَسَبُ بِتَلقيحِ العَقلِ الغَرِيزِىِّ، وهذا أقلُّهَا لُبْثًا وأيسَرُها عَنَاءً. وما وقعَ فى ناظرِ القلبِ وَحسِّهِ فَخَرَقَ شَغَافَهُ ووصلَ إلى سُويدائه فهو المباشرةُ، كان وَجْدًا. وهذا هو الحالُ عن مقامِ مشاهدةٍ. ومن هذا قولُهُ ﷺ: «أسألُكَ إيمانًا يُباشِرُ قَلْبِى».

وقال بعضُ العارفين: إذا كان الإيمانُ فى ظاهرِ القلبِ كان العبدُ محبًا للآخرةِ وللدُّنْيَا، وكان مرةً مع الله تعالى ومرةً مع نَفْسِهِ، فَإِذَا دَخَلَ الإيمَانُ إلى باطنِ القلبِ أبغضَ العَبْدُ الدُّنْيَا وَهَجَرَ هَواهُ.

وقد قال عالِمُنَا أبو محمد سهلٌ رحمه الله: للقلب تَجْويفان؛ أحدُهُمَا باطنٌ، وفيه السمع والبصر، وكان يُسمِّى هذا: قلبَ القلبِ، والتَّجويفُ الآخرُ: ظَاهرُ القَلْبِ، وَفِيه العَقْلُ.

ومَثَلُ العقلِ فى القلبِ مثلُ النظر فى العينِ، هو صِقَالٌ لموضعٍ مخصُوصٍ فيهِ بمنزلةِ الصِّقالِ الذى فى سوادِ العَيْن.

فإذا كانت هذه الخَواطرُ عن أواسطِ الهُداة به، وهى المَلَكُ والروحُ، كانت تَقْوَى

(١) فى (ط): «لا لسان العرب» وهو خطأ، صوابه من (ك).

وهُدًى ورُشْدًا، وكانت من خزائنِ الخَيْر وَمفَاتح الرحمَة، قَدَحت فى قلب العَبد نورًا وطيبًا أدركَتْه الحفَظَة، وهُمْ أملاكُ اليمين، فأثبتوها حسنات.

وإن كانت الخواطرُ عن أواسطِ الغُوَاة وَهُمُ العَدُوُّ، والنَّفْسُ كانت فجورًا وضلالاً، وهى مِنْ خزائن الشرِّ، ومغالقِ الأعراض، قَدحَتْ فى القلوب ظُلْمَةً ونَتَنًا، أدْركَ ذَلك الحفظةُ من أملاك الشمال فكتبُوها سيئات.

وكلٌّ هذا إلهامٌ وإلقاءٌ من خالقِ النفسِ ومُسَوِّيها، وَجَبَّارِ القلوب وَمَقلِّبهَا، حكمةً منه، وعدلاً لمن شاء، ومِنَّةً وَفَضْلاً لمنْ أحَبَّ. كما قال: ﴿**وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً**﴾ [الأنعام:١١٥]، أى: بالهدَاية صدقًا لأوليائه ما وَعَدَهُم من ثوابِه، وَبالإضْلال عَدْلاً على أعدائه ما أعدَّ لهم من عقابه. ثم قال تعالى: ﴿**لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ**﴾ [الأنبياء:٢٣]. فهذه جنودٌ مُنْقَادةٌ لأوامره، وهو مَلِكٌ جبارٌ عزيزٌ قهار، تعالى عن مباشرة الأشياء، إذ كانت تَنْقَادُ لمشيئته، وتُطَوِّعُ لقدْرتِه، فَتُنفِّذَ قُدْرَتُهُ إرادتَه، وتُظهِرَ حكمتُه أفعالَه، إذا أراد شيئًا قال له كُنْ بِخَفِيِّ قدرته، فكانَ بظاهِرِ حكْمَتِه.

والرَّبُّ سبحانه قادرٌ على كلِّ شىء، بيدِه ملكوتُ كلِّ شىءٍ، حكيمٌ فى كلِّ شىء. والعبدُ ضعيفٌ عاجزٌ جاهلٌ لا يَقْدِرُ على شىءٍ، قد ابتُلِى بالأسْبَابِ، وَوَقَعَ عليه الحجابُ، وَجُعِلَ مكانًا للأحكامِ بالعقابِ والثوابِ، فالأسبابُ أواسطُ البلاءِ والعبدُ موضعُ الابتلاء.

والأوَّلُ ـ سبحانه وتعالى ـ هُوَ المُبْلِى المريدُ، المُبْدِئُ، المعيدُ، ويُنْشِئكُمْ فِيمَا لا تَعْلَمُونَ، ﴿**وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا**﴾ [الأنفال:١٧] وليس يشهد العبدُ إلا ما أُشْهِدَ، فكذلكَ تفاوت العباد فى المشاهدة، ولا يستبين له إلا ما أُبِينَ له وأُريد به.

فعن ذلكَ اختَلَفُوا فى الأدلَّة، فإذا أرادَ اللهُ عزَّ وجلَّ إظهارَ شىءٍ منْ خزَائن الغيبِ حرك النفسَ بلطيف القدرة، فتحركتْ بإذنه، فقدَحَ من جوهرها بحركتها ظلمةً تُكتَب فى القلب هِمَّةَ سُوءٍ، فينظرَ العَدُوُّ إلى القَلْب، وهو مُراصدٌ ينتظر، والقلوبُ له مَبْسُوطةٌ، والنفوسُ لديه مَنشُورةٌ، يَرَى ما فيهَا ما كَانَ من عملِه المبتلَى

به، المصرِّف فيه، فإذا رأىَ همةً قَدْ قَدَحَتْ في النفس فأثَّرت ظُلْمَةً في القلبِ، ظهرَ مكانُه فقوِيَ بذلكَ سلطانُه.

والهمَّة تَرِدُ على أحد ثلاث معان، لا تُحْصَى فروعُها؛ لأنَّ همة كلِّ عبدٍ على قدر بُغيته، أحدُها: هوًى، وهو عاجلُ حظِّ النفسِ، أو أمنيته، وهذا عن الجهلِ الغريزِي. أو دَعْوَى حركةٍ. أو سكون، وهو آفةُ العقلِ، ومحبةُ القلبِ.

فأيُّ هذه الثلاث قَدَحَ في القلبِ، فهو وسوسةُ نفسٍ، وحضورُ عدوٍّ منسوب إليه محكومٍ عليه بالذَّمِّ، ليستْ تَصدُرُ إلا بأحدِ ثلاثة أصول: بجهلٍ، أو غَفْلَةٍ، أو طلبِ فضولِ دُنْيا. وَهُنَّ مما لا يُعنَى ومضافاتٌ إلى الدنيا وأعمالِها.

والأفضلُ مجاهَدَةُ النفسِ والعدوِّ عن إمضائِهَا، وحبسُ الجوارحِ عن السَّعْيِ فيهَا، إنْ كنَّ من فضولِ الدُّنَيا المباحاتِ. فإن كنَّ هذه الثلاثُ وردْنَ بمحرّماتٍ، ففرضٌ عليه كفُّ الجَوَارِحِ عن السَّعْي فيهَا. فإن أمرحَ قَلْبَهُ في ذكْرِهَا، أوْ نَشَّرَ خُطُوَاته في طَلَبِهَا، كُنَّ حجَابًا بينَ قَلْبه وبَيْنَ اليَقينِ. وإن كنَّ وَرَدْنَ بمبَاحَاتٍ فَفَضْلٌ لَهُ بنفْيهَا عَنْ قَلْبه، كَيْلاَ يكُونَ قَلْبُه مَوْطنًا للغفلات. وأصلُهُنَّ الابتلاءُ منَ الله تعالى بالتَّقْليب، والامتحَانُ منه في التَّصْريف، ولذلكَ خَلَقَ النَّفسَ والرُّوحَ، والموتَ والحياةَ، وجعلَ مَا على الأرْضِ زينَةً لها؛ ليُظهِرَ أحْسَنَ العَمَلَ بالزُّهْد فيها، وينْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ.

فإذا أرادَ اللهُ تَعالى سلامةَ هذا العبد ـ بَعْدَ أن أشرَفَ [1] على الهلاكِ والبُعْد بتَسليط العَدُوِّ عليه، وتسويلِ النَّفْسِ له ـ نَظَرَ القلبَ عندَ الابتلاء، فهدَى النفْسَ بنور إيمانه إلى الله تعالى، فأسَرَّ الالتجاء إليه، وأخفَى التَّوكُّلَ عليه، عائذًا لائذًا به، واضطرَّ مُخْلصًا له. فهُنَاك توكَّلَ عليه فكانَ حَسْبهُ، وعنْدَهَا فوَّضَ إليه أمْرَهُ فَوَقاهُ مكْرَ عَدُوِّه، وحينئذ اضطر إليه، واتقاهُ، فَجعَلَ لَهُ مَخْرَجًا ونَجَّاهُ. فينظرُ اللهُ تعالى إلى القلْبِ نَظْرَةً تُخْمِدُ النَّفْسَ، وتَمْحَقُ الهمَّةَ، وتَخْنَسُ العَدُوَّ بسقُوطِ مكانِهِ، وتُذْهِبُ بِخُنُوسه شِدَّةَ سُلْطَانه، فَيصْفُو القَلبُ مِنَ التأثير بِنُورِ السِّراج

---

(١) في (ك): «أشفى»، وهما بمعنى واحد.

المُنير، ويَمْلُسُ من التحرير بقوّة القهَّار العزيز، فيخَافُ العَبْدُ مقامَ الرَّبِّ لصفَاء القَلْب عن نظر الرَّبِّ تعالى، فيَفْزَعُ من الخطيئَة، ويَهْرُبُ، أو يَستغفرُ منها ويتوبُ، ويَظْهرُ عليه شِعَارُ تَقْوَاهُ.

وإن أراد اللهُ تعالى بعبد هلكَةً، وكَانَ قد حكَمَ بوقوعِ الشرِّ، نظر القلبُ بعدَ الهمَّة بَهَوَى النَّفْسِ إلى العقْلِ فَرَجَعَ العَقْلُ إلى النَّفْس، فَسوَّلَتْ وَطَوَّعَتْ فَسكَنَ العَقْلُ، واطمَأَنَّ إلى تَسْوِيلِ النَّفْس وطَوْعِهَا، فَانْشَرَحَ الصَّدْرُ بالهوى لسُكُون العَقْلِ، وانتَشَرَ الهوَى فى القَلْب لِشرْحِ الصَّدْرِ وتَوسعَته، فقَوِىَ سُلطَانُ العدُوِّ لاتِّساعِ مكانه، فأقبلَ بتزْيينه وغُروره وأمانيِّه ووعده يُوحى بذلكَ زُخْرُفًا من التَّحَوُّل وغُرورًا، فيَضْعُفُ سُلطَانُ الإيمان لقُوَّة سُلْطَان العَدُوِّ، وَخَفَاء نُورِ اليقين، فغلبَ الهوى لقوّة الشهوة، فأحرقتِ الشهوةُ العلمَ والبيانَ، فارتفعَ الحياءُ، واستتر الإيمانُ بالشهوةِ فظَهَرَت المعصيةُ؛ لغلبةِ الهوى، وارْتِفَاعِ الحياء.

وهذانِ المعْنيَانِ من ظُهُورِ الخَيْرِ والشَّر، والطاعة والمعصية، فلهذه الأسباب يوجدان فى طرفة عينٍ فتصير أجزاءُ العَبْدِ جُزءًا واحدًا، ومفصلاته تَعُودُ بالمراد منه فصلاً واحدًا، كالبرقِ فى السرعةِ بتغليبِ القدرةِ على المشيئةِ، إذ قال جلّ وعلا له: ﴿**كُنْ فَيَكُونُ**﴾ [آل عمران: ٥٩].

وإن أراد الله تعالى إظهارَ خير وإلهامَ تَقوى من خزائنِ الملكُوت حرّك الروحَ بخَفىِّ اللُّطْف، فَتَحركَتْ بأمرِهِ جَلّت قدرتُه، فَقَدَحَ من جَوْهَرِهَا نُورٌ سَطَعَ فى القَلْبِ همةً عاليةً.

وهمَّةُ الخَيْر تُرَى بأحد ثَلاثة معانٍ لا تُحْصَى فُرُوعُهَا، لأنَّ كلَّ عَبْدٍ همَّتُهُ فى الخَيْر مَبْلَغُ علْمه ومُنْتَهَى مَقَامه. فأحدُ الأصول: مسارعةٌ إلى أمرٍ بِفَرْضٍ أو ندب لفضلٍ يكونُ عن عملِ حال العبد. أو علمٌ يكونُ فطنةً له، أُظهر عليه من مكاشفة غيبٍ من مَلَك أوْ مَلَكُوتٍ. والمعنى الثالثُ: بتحَمُّلِ مباحٍ من تصرُّف فيما يَعْنى، مما يعودُ صلاحُه عليه، واستراحَة النفسِ بما أُبيحَ لهُ يكونُ نَفْعُه لغيره، أو تَرْوِيحَاتٍ من الأفكَارِ لِقَلْبِهِ الغائص فى البحارِ، يكونُ حِمْلاً لكَرْبه وتخفيفًا لِثِقْله.

فهذه مرافقُ للعبدِ باختيارٍ من المعبودِ، وحكمةٌ من الحكيمِ، وفى كلِّها رضاه سُبْحانه وتعالى، فإمضاؤُها أفضلُ للعبدِ، وبعضُها أفضلُ من بعض.

وهذه الأصولُ الستة من الخيرِ والشَّر هى الفرقُ بين لمَّة الملَك ولمَّة العدُوّ، وبينَ إلهامِ التقوَى وإلهامِ الفجورِ، التى هى النيَّةُ والوسْوَسَةُ؛ وهُمَا الاختيارُ أو الاختبارُ.

وقد تكونُ هذه المعانِى مكاشفاتِ مزيدٍ للعبدِ ينظر إلى الله تعالى منها، ويجدُ اللهَ تعالى بما أوجَدَهُ منه عِندَها، وتكونُ تعريفًا منَ اللهِ يتعرفُ إليه بهَا، ويَفْتَحُ له بابَ الأنسِ والشوقِ منها.

ثم يتفاوتُ العبادُ فى مُشَاهَدَتِها على حسبِ عُلُوِّهم فى اليقين، وعلى قدرِ قوَّتهم ومكانهم من التّمْكين. إلا أن أصول معانى الخير وأواسطها إلهامُ الملَك، والإلقاءُ فى الروح وقوادحِ الأنوار فى كتبِ الإيمانِ وفروعهَا الآخرةِ، والعلمُ ممَّا أُمرَ به أَوْ نُدبَ إليه، والمُبَاحُ. وأُصُولُ معانِى الشَّرِّ أضْدَادُها؛ أواسطُهَا النفس والعدوّ، وأسبابُها الشهوةُ والهوَى؛ يَظْهَرْنَ عَنِ الجَهْلِ ويُوقِعْنَ الحجابَ وَيَصْدُرْنَ إلى عقابٍ.

فإذا أرادَ اللهُ تعالى إظهارَ خيرٍ من خزانَةِ الرُّوحِ حرَّكَهَا فَسَطَعتْ نُورًا فى القَلْبِ، فأثَّرَتْ، فينظرُ المَلَكُ إلى القلبِ فَيَرَى ما أحدَث اللهُ تعالى فيه فيَظْهَرُ مكانه فَيَتَمكَّن، على مثال فعلِ العدوِّ فى خزانةِ الشر؛ وهى النَّفْسُ.

والمَلَكُ مجبُولٌ على الهداية، مطبوعٌ على حبِّ الطاعة، كما أنَّ العَدُوَّ مجبولٌ على الغوايةِ، مطبوعٌ على حبِّ المعصيةِ، فيُلْقى الملكُ الإلهامَ، وهُو خُطوره على القلبِ بقدحِ خواطرِه، فيأمُر بتقييدِ ذلكَ ويُحسِّنه له، ويحثُّهُ عليه، وهذا هو إلهامُ التقوى والرُّشْد. وينظرُ المَلَكُ إلى اليقينِ كما ينظُرُ العَدُوُّ إلى النفسِ، فيشهدُ اليقينُ للمَلكِ بذلك فيطمئنُّ العقلُ، ويسكنُ إلى شهادةِ اليقينِ. ويصيرُ العقلُ الآنَ بإذنِ الله تعالى مع الملَك بتأييدِ الله تعالى كما كان مع النفسِ أوّلَ مرةٍ مطمئنًا إليها، فينشرحُ الصدرُ لِطمأنينةِ العَقلِ، فتَظْهرُ أدلةُ العلمِ لانْشِراحِ الصَّدْرِ، فيَقْوَى سلطانُ

اليقينِ لصفَاء الإيمانِ، وتَنْدَرِجُ ظُلْمَةُ الهوَى فى نورِ اليقين، وتنطفئُ شعلةُ الشهوة لظهورِ نُورِ الإيمانِ، ويُزَيِّنُ الإيمانُ بزينَة الحياء، فَتضْعُفُ صفَاتُ النفسِ لسُقُوط الشَّهْوَة، ويَقْوَى القَلْبُ لِضَعْفِ النَّفْسِ، ويَزِيدُ الإيمانُ بقُوَّة اليقين وظُهُورِ أدلَّة العلمِ، فَتَغْلِبُ الهِدَايةُ لمزيد الإيمانِ ولِبْسَةِ الحيَاء، فتَظْهَرُ الطاعةُ لغلبة الحقِّ، ﴿واللهُ غَالبٌ على أمْرِه ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

● ذكر نوع آخر من البيان:

وقد تختلفُ اللِّمَّتَان من الملَك وَالعَدُوِّ، ويتفاوَتُ الإلهامُ والوسوسةُ فى المعانى من الخير والشرِّ، فربُمَّا تقدَّمتْ لَمَّةُ العدوِّ بالأمرِ بالشَّر، وتَقْدَحُ بَعدَهَا لمَّةُ الملَك نُصْرَةً للعَبْد، وتَثْبِيتًا على الخير، وعنايةً من الرَّبِّ تعالى، فَيُنْهَى عَنْ ذلكَ، فعلى العبدِ أن يَعْصِيَ الخَاطرَ الأوَّلَ ويُطِيعَ الخَاطرَ الثَّانى. وَقَدْ يَتقدمُ إلهامُ الملَك بالأمْرِ بالخير، ثم يقدحُ بعدَه خاطرُ العَدُوِّ بالنهْيِ عنه والتثبيطِ والإمْلاء فيه بالتأخيرِ، محنةً من الله تعالى للعبد؛ لينظرَ كيفَ يعملُ، وحسَدًا من العدوِّ، فعليه أن يطيعَ الخاطرَ الأوّلَ ويَعْصِيَ الخَاطِرَ الثانى.

ثم تَدِقُّ الخَواطِرُ من إلهامِ الملَكِ بالخيرِ ومن وسوسةِ العدوّ بالشر، وقد يَتَفاوتُ ذلكَ من ضعفِ خاطرِ الخير لقوّة الرغبة فى الدُّنْيَا، ومن قوّة خاطرِ الشَّرِّ لقوّة الشهوةِ والهوى، وفى المزيدِ والنقصِ منهمَا، والتَّقْديم والتَّأخير بهما، لتفاوت الأحكامِ والإرادةِ من الحاكمِ، ومن قِبَلِ تَقْليب القُدْرَة، وغرائب الأحكامِ بالمشيئة؛ لأنَّ له فى خزانة الخير خزانةَ الشَّرِّ إذا شاءَ، ولهُ فى خزانة الشَّرِّ خزائنَ الخيرِ إذا أحَبَّ، لِمَن يُحبُّهُ؛ لئلا يسكنَ إلى سِوَاهُ، ولا يُدِلَّ العبدُ بما منه أبداه.

فإذا شهدَ العارفُ ذلك لم يَقطَعْ بخيرٍ ولم يُدِلَّ به أبدًا، لأنه لا يأمن مكرَ الله تعالى بتقليبِ خزائنِ الشرّ من خزائنِ الخيرِ إذا عليه أبدَاه ولم ييْأس من شرٍّ عليه أبدَاهُ؛ لأنَّه يرجُو تقليبَ خزائنِ الخَيرِ من خَزَائنِ الشَّرِّ فيكون بين الخوفِ والرجاء، ولا يُدرِكُ ذلك إلا بدقائق العلومِ، ولطائفِ الفهومِ، وغوامضِ الفِطَنِ، وصفَاءِ الأنوارِ، من تعليمِ الرحيمِ الجبارِ.

فما كان للعبد يَجِدُ بعد خَطْرَةِ الشَّرِّ خطْرَةَ خَيْرٍ منها تَنْهَاهُ عنها فهو منظورٌ إليه مُتَدارَكٌ، وهذا هو الواعظُ القائمُ فى القلبِ، والزاجرُ المؤيِّدُ للعقلِ.

وقد تترادفُ خواطرُ الشرِّ من النَّفْسِ والهَوَى فلا يَتَعَاقَبُها خاطرُ خيرٍ من المَلَكِ، وهذا علامةُ البُعْدِ ونهايةُ قسوةِ القلب.

وقد تتابعُ خواطرُ الخيرِ والبرِّ من الرُّوحِ والمَلَكِ، ويُعافَى العبدُ من خاطرِ الهوَى والنَّفْسِ، وهذا علامةُ القربِ وهو حالُ المقرَّبينَ.

وقد تَرِدُ خواطرُ العدُوِّ ووساوسُه بالخيرِ والبرِّ ابتلاءً من الله تعالى لعبده، وحيلَةً من العدوِّ، ومكْرًا من النفس. يريد العدوّ بذلك الشر، أو يُخرجه آخرُ إلى إثمٍ أو خيرٍ؛ ليقطعه بذلك عن واجب، أو يشغله به عن الأفضلِ فى الحالِ، فيكون ظاهرُه برًا، وباطنُه إثمًا، ويكون أولُه خيرًا، وآخرُه إثمًا.

وبُغيةُ العدوّ من ذلك باطنُه وآخرُه، وشهوةُ النَّفْسِ فى ذلكَ هواهَا ومُنَاهَا، قد لَبَّسَا ظاهره بالخيرِ تَزْيِينًا، وموَّهَا أولَه بالبرِّ تَحْسِينًا، وَهذَا من أدقِّ ما يُبْتَلَى به العامِلُونَ، ولا يعرفُ بَواطِنَه وَسَرَائِرَهُ إلا العَالِمُونَ.

فأما خاطر المَلَك فَلا يَرِدُ إلا بَخَيرٍ صَرِيحٍ، وبرٍّ مَحْضٍ على كُلِّ حالٍ إذا وَرَدَ؛ لأن الخداعَ والحيلةَ ليسَ من وصفِ الملائكةِ، ولكن قد تنقطعُ خواطرُ المَلَك من القلبِ إذا اشتدَّت قسوتُه، ودامت معصيتُه من المتعبِّدينَ، فيُخَلَّى بين القلبِ وَبَيْنَ نوازعِ العَدُوّ اللعينِ، وَيَتَخَلَّى العدوُّ بِهَوَى النَّفْسِ فَيَسْتَحْوِذُ ويقترنُ بالعبدِ، نَعُوذُ باللهِ من إبعادِه، وَعَدَمِ خيره وإرشادِه.

ولا يزالُ العبدُ مع إلهامِ المَلَكِ فى مقامِ الإيمان، فإذا رُفع إلى مقامِ اليقينِ تولاه اللهُ تعالى بواسطةِ أنوارِ الروحِ، فكان الروحُ مكانَ إلقاءِ الحقِّ، حتى يَرِدَ عليه من اللهِ تعالى بواسطةِ أنوارِ الروحِ من السرائرِ ما لا يَطَّلِعُ عليه المَلَكُ، ولا يكونُ ذلكَ حتى تفنَى خواطرُ النفسِ بالهوى ولا تَبْقَى منها باقية، وتُطوَى النفسُ فتندرجَ فى الروحِ، فلا يظهرُ منها داعيةٌ. ثم يتولاه الله تعالى بنورِ اليقينِ، فيَسْطَعُ له نورُ اليقينِ من خزانةِ الغيبِ المحجوبِ بمكاشفاتِ الجبروتِ، فيشهدُ العبدُ شهادةَ الحقِّ

بالحقِّ معاينةَ الغَيْبِ بِفَقْدِ كونه ووَجْد كينونَته ومَا لا يَصْلُحُ بعد ذلكَ كَشْفُه إلاَّ لأَهْلِه، أو لِمَن سألَ عنه؛ وهذا يكونُ فى مقامِ التوحيدِ، وهذا أنصبةُ المقرَّبين.

• ذكر بيان آخر من تفصيل المعانى:

وكلُّ عملٍ ـ وإن قَلَّ ـ لا بدَّ فيه من ثلاثة مَعَانٍ قد استأثَرَ اللهُ تعالى بتَولِّيهَا:

أولُها: التوفيقُ، وهو الاتِّفَاقُ أن يجمَع بينكَ وبين الشيء. ثم القوَّة، وهو اسمٌ لثباتِ الحركَةِ التى هى أولُ العَقْلِ. ثم الصبرُ، وهُو تَمَامُ الفِعْلِ الذى به يتم.

فقد ردَّ اللهُ عزّ وجلّ هذه الأصولَ التى يَظْهَرُ عَنْهَا كلُّ عملٍ إليه، فقالَ سبحانه: ﴿وَمَا تَوْفِيقِى إلاَّ بالله﴾ [هود:٨٨]. وقال: ﴿مَا شَاءَ اللهُ لاَ قُوَّةَ إلاَّ بالله﴾ [الكهف:٣٩]. وقال عزّ وجلَّ: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إلاّ بالله﴾ [النحل:١٢٧]. وقد أجملَ اللهُ عزَّ وجلَّ ذكرَ تقليبِ الكون بمشيئته فى قوله تعالى: ﴿يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [النور:٤٤]. والمعنَى: بمَا فيهمَا؛ لأنَّهُمَا ظرْفَانِ للأشْياء، فَعَبَّرَ عَنْهُمَا بِهِمَا، كقولِه تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَار﴾ [سبأ:٣٣] والمعنى: مَكْرُكُمْ فِى اللَّيلِ والنَّهَارِ، فعبَّر بِهِمَا عن مكْرِهِمْ؛ لأنَّهُمَا مكانٌ لمكرِهم.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فى اللَّيْلِ وَالنَّهَار﴾ [الأنعام:١٣] فيه وَجْهَان: أحدُهما: أى ما أقامَ من السَّكَن. والثانى: ما سكَنَ، من السُّكُون، وإنَّمَا ذَكَرَ السكونَ دُونَ الحَرَكَة، لأنَّه هُو الأصلُ حتى تحرَّكَ؛ وَهُوَ الأقربُ إلى العَجْزِ وَالعَدَمِ، والتَّحْرِيكُ حَادِثٌ جارٍ بإحداث الله تَعَالى وإجرائه.

وَيَجُوزُ أيضًا ذكرُ السكون لِيُستَدلَّ به على الحركة؛ لأنهُ ضدُّها. كما قال الله تعالى: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحَرَّ﴾ [النحل:٨١] وهى أيضًا تقى البردَ، فذكرَ أحدَ الوصفين لِيُستدلَّ به علَى الآخر.

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ﴾ [الأنعام:١١٠]. وكان قَسَمُ رسول الله ﷺ: «لا وَمُقَلِّبَ القُلُوب»، لما شهدَ منْ عظيم القُدْرَة ولَطيف الصُّنْع فى التَّقْلِيبِ؛ ولما رأىَ من سُرْعَةِ نَفَاذِ القُدْرَةِ بالمرادِ فى المُقَلَّبَاتِ ممَّا لَمْ يَشْهد

سواه. فجعله قَسَمًا لَهُ تَعْظِيمًا لِقُدْرة المحلُوف به وَخَوْفًا مِنْ سَابِقِ العلْمِ بالتَّقْليب، فكَانَ يَقُولُ رسولُ الله ﷺ: «يا مُقَلِّبَ القُلُوب ثَبِّتْ قَلبى عَلَى دِينِكَ». قَالوُا له: وَتَخَافُ يا رسولَ الله؟ قَالَ: «وَمَا يُؤمِّننى وَالقُلُوبُ بينَ إِصْبَعيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَن يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشاءُ». وفى لفظ حديث آخر: «إنْ شَاءَ أنْ يُقيمهُ أقَامَهُ، وإن شَاءَ أنْ يُزيغَهُ أزَاغَهُ». وقد رُوِىَ عَنْهُ ﷺ: «مَثَلُ القَلْبِ مَثَلُ العُصْفُورِ فِى تَقَلُّبه يَتَقَلَّبُ فِى كُلِّ سَاعَةٍ». وفى خبرٍ آخَرَ: «مَثَلُ القَلْبِ فى تقلبه كالقدْرِ إذَا استَجْمَعَتْ غَلْيًا». والخَبرُ المُشْتهَرُ: «مَثَلُ القَلْبِ كَمَثَلِ رِيشَةٍ بأرْضٍ فَلاةٍ تُقَلِّبهَا الرِّيَاحُ ظَهْرًا لِبَطْنٍ».

فالقلبُ مكانٌ للتقليبِ بِمَا فيه من خزائنِ الغَيْبِ، كالليلِ والنَّهارِ مكانٌ للأحكامِ بالتصريفِ من اختلافِ الأزمانِ فى الأوقاتِ، والإيمانُ بتقليبِ القلوبِ، وبأن المقلِّبَ يحُولُ بينَ القلبِ وبينَ صاحبِه واجبٌ. وقد قَرنَهُ الله عزّ وجلّ بالإيمان والبعث[1] والأمر بهمَا فى قولهِ تعالى: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ المَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**﴾ [الأنفال: ٢٤]. وفسره ابنُ عَبَّاسٍ فَقَالَ: يَحُولُ بينَ المُؤْمنِ وبين الكُفرِ، ويحولُ بينَ الكافرِ وَبينَ الإيمانِ.

وقيل: يحولُ بينَ العَبْدِ وبينَ الاستجابةِ لله تعالى والرَّسُولِ. وقيلَ: يَحُولُ بينَ المؤمنِ وَبَيْنَ سوءِ الخَاتمَةِ وَبَيْنَ الكَافرِ وَبَيْنَ حسنِ الخاتمَة. وقيل: يحولُ بين المُؤْمنِ وَبَيْنَ أنْ يُلقيَهُ فى كَبيرةٍ يَهْلَكُ فيهَا، وبينَ المنافقِ وبينَ أن يُوَفِّقهُ لطاعةٍ فينجوَ بها، ويحولُ بينَ الموحِّدِ وبين الخاتمة بالتَّوحيد.

وهَذه مخاوفُ للمُؤْمنينَ بتَحْقيقِ الوَعيد، وكذلك الكونُ بأسره عندَ المُوَحِّدينَ فى القُدْرَةِ بالتَّقْليبِ كَمثَلِ رِيَشةٍ فى ريحٍ عَاصفٍ تُقَلِّبُهُ القُدْرَةُ على مشيئة القَادرِ، وليسَ فِى القُدْرَةِ تَرْتِيبٌ ولا مَسَافَةٌ ولا بُعدٌ ولا يحتَاجُ إلى زَمَانٍ ولا مكانٍ.

فَمَا ظهر من المُلْك وثبتَ للعيُون بمكان وزَمَان فلأجْلِ الحكْمَة والصَّنْعَة والإتْقَان، وما خَفىَ من الملكوت وتَقَلَّبَ ببَصَائِرِ القُلُوبِ فبلُطْفِ القُدْرَة وَقَهْرِ السُّلْطَانِ. ونَصيبُ كُلِّ عبدٍ من مُشَاهَدَةِ القُدرَةِ بقدرِ نَصِيبِه من التوحيدِ، ونصيبُهُ

---

(١) فى (ط): «وقد قرن الله عز وجل الإيمان بالبعث»، والصواب ما أثبت من (ك).

من التوحيد حَسَبَ قِسْمِه من اليقينِ، وقِسْمُهُ منَ اليقينِ على قربه من القريب، وقُرْبُهُ على حَسَبِ قربِ الله تعالى من قلبه، وقربُ الله تعالى منهُ بقدر علمه بالله تعالى، واتساعُه في العلمِ بالله عزَّ وجلَّ على نَحْوِ مكانه من مزيد الإيمَانِ، ومزيدُ إيمانِه على قَدْرِ إحسانِ الله تعالى إليه، وإحسانُه إليه على قدرِ عِنايته به وإيثاره له، وعلمُ اللهِ من وراءِ ذلكَ، وذاك سرُّ القدرةِ المحجوبِ المختَزَن.

ونصيبُ كلِّ عبدٍ من الجهلِ على قَدْرِ نصيبه من الغَفْلَة، ونَصيبُه من الغفلة على حَسَبِ حُبِّ الدُّنْيا، وحبُّه للدنيا على قدرِ قوّةِ الهوَى، وقوّةُ الهوَى على قدرِ غَلَبةِ سُلْطَانِ النَّفْسِ ونشرِ صِفَاتها علَيْه، وقُوّةُ صفات النَّفْسِ عَلَى قَدْرِ ضَعْفِ اليقينِ، وضعفُ يقينِه على قدر كثَافة الحجابِ والبعدِ بينَه وبينَ الله[1] عز وجلّ، والحجابُ والبعدُ ميراثُهما الكِبْرُ وَقَسْوَةُ القلبِ. والقسوةُ تورثُ الانهماكَ في المعاصي، وإدمانُ المعاصي تورث[2] الإعْراضَ والمَقْتَ، والإعراضُ والمقتُ من قلة عناية المولى بعبدِه، وسوءِ نَظَرِه له. ومن وراءِ ذلكَ سرُّ القدرِ الذي بِه عن الخَلْقِ قد استأثَره.

فهذِهِ الأوْصَافُ المذمومةُ لعبد[3] مُبتلًى بها على تَضَادٍّ تلكَ الصفات المحمودة التي هي من المُنْعمِ بها، ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ [البقرة:١٤٨]. ومكانُ الهوَى من القلبِ عَلَى قدرِ تزيينِ العدوِّ له وتسليطه عليه ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام:١٢٥]، ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [آل عمران:١٦٠]، ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس:١٠٧]، فإذا كان الهادي هو المضل فمن يهدي؟ وقد قال تعالى: ﴿فَإِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ [النحل:٣٧] أي: فإن اللهَ من شأنه أنَّ أحدًا لا يهدي مَنْ أضلَّه، ومَنْ كانَ أضلَّه اللهُ في سابقِ عِلْمه فكَيْفَ يهديه الآنَ؟ كذلكَ قالَ على

(١) في (ك): «وبعد البعد بينه وبين الله».
(٢) في (ط): «عن»، وفي (ك): «على».
(٣) في (ط): «العبد» وأثبت ما في (ك).

الحرفِ الآخرِ: «فَإِنَّ اللهَ لاَ يَهْدى مَنْ يَضِلُّ». فإذا كانَ المعطِى هوُ المانعَ، فمَنْ يُعط؟

ولو كان الخيرُ كلُّه فى قلبِ عبدٍ ما قَدَرَ أن يُوصلَ إلى قلبه من قلبه ذرَّةً، ولا استطاعَ أن ينفعَ نفسَه بنفسه خردلةً؛ لأن قَلبَه وإن كان جارحَتَه فهو خزَانَتُه ولهُ فيه ما لا يعلمُ هو فَهُو لا يَطَّلِعُ على ما فيه، كما قال مُعَجِّبًا مِمَّن جهلَه وأضلَّه: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَم اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمنِ عَهْدًا﴾ [مريم:٧٨] فكيف به أن يملكَ ما فيه فيصرفَه بما يحب؟ وقد قال ﷺ: «سبُحْانَ مُصَرِّفِ القلوبِ». وَقَدْ خاطَبَ اللهُ تعالى سَيدَ البشرِ وأمرَه أن يخبرَ فقال: ﴿قُلْ لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلا مَا شاء اللهُ﴾ [الأعراف:١٨٨]. ثم قال بعد ذلك: ﴿قُلْ إِنِّى لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًا ولا رَشَدًا﴾ [الجن:٢١]. ﴿قُلْ إِنِّى لَنْ يُجِيرَنى مِنَ اللهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونه مُلْتَحَدًا﴾ [الجن:٢٢].

وإذا كان المالكُ عَزِيزًا جَبَّارًا، وكان كلُّ شىءٍ بيدِه، لم يُوصَل إلى ما عندَه بقوةٍ ولا حيلةٍ، فليس الطريقُ إليه إلا الصدقَ والإخلاصَ، والذلَّ والافتقارَ. وقد حُجِبَ العقلُ المكيدُ عن النظرِ إلى المبدئِ المعيد، بما أُظْهِرَ له من صورته وحركَتِه، فَسَتَرَهَ [ذلكَ][1] عن الأوَّلِ المصورِّ، وعن القَادرِ المحرِّك، فادَّعى - عن نَظرِه إلى حَرَكَتِه وَسُكُونِه التى هى حَجَبَةٌ له عن المحرِّك - الغيبَ، ادعى الحركةَ والسكونَ لنفسه[2]، لوقوفِ نظرِه على نفسه، إذ كانَ مشهُودًا، وعَمِى عن النَّظَرِ إلى الشاهد المحرِّكِ المسكِّن[3]؛ لبُعد مقامه؛ لأنه غيبٌ من وراءِ الحركة، والغيبُ لا يُشهَدُ إلا بغيبٍ، وهو اليقين، كما لا تُدْرَكُ الشهادةُ إلا بشهادةٍ، وهى العينُ. فمن عَمِى بصرُهُ لم يرَ من المُلْكِ شيئًا، كذلكَ من حُجِبَ قلبُه لم يرَ من المُلْكِ شيئًا.

---

(١) ساقطة من (ط).

(٢) فى (ط): «المحرك لغيب ادعاء الحركة والسكون بنفسه» وأثبت ما فى (ك).

(٣) فى (ك): «المحرك الساكن».

فلعدمِ اليقينِ عمىً عن المشاهدةِ؛ ولإيقاع الحجةِ والحجابِ أدرك بالمعقولِ الشهادةَ.

ولو كانَ من أولى البصائرِ لاعتبرَ الحركةَ الغيبيةَ(١) بالمتحرِّك المشاهد، فكما أن الحركةَ غيبٌ فى الجسمِ ظهرَ عنها المتحركُ، فأظهرَ سبحانه المتحرِّكَ وأخفىَ الحركةَ فيهِ، وأظهرَ الصنعةَ وأخفى الصُّنْعَ فيها؛ لتفصيلِ حكمتِه، كذلكَ الصانع ذو الصنعةِ الأولِ والحاكمُ الأعْلَى ذُو الحكمةِ الأغلبِ غيبٌ عن الحركةِ التى أخفَاها هو من ورائها بلطائفِ القدرة، فشهدَ المعقولُ ما أُشهد ممّا أظْهَر له، ووجَدَ به(٢)؛ لأنّه معقولٌ عليه، محدود له. وعمى عما غُيِّبَ عنْهُ لفقدِ اليقينِ منه، فعندهما ادّعى الحركةَ والسكونَ للشاهدِ، فحجَبَه ذلك عن الشهيدِ، وشهد الموحِّدُ بشهادةِ التوحيدِ، فوجدَ لما كُشف له الملكوتُ بنور اليقينِ فأفرده(٣).

وقد قال بعضُ العارفين: من نظر فى توحيدِه إلى عقلِه لم يُنْجِه توحيدُه من النار، ومَن كان توحيدُه فى الدنيا معلَّقًا بمعقوله، لم يحملْ توحيدَه معه إلى اليقين.

أحسبُ أن هذا إيمانُ الذى يقال: أخرجوا من النار مَن كان فى قلبه وزنُ مثقالٍ من إيمان. فما زادَ على هذا المقدار فهو متصلٌ باليقين، وهو مؤيَّدٌ بالروح يمده روح التأييدِ فلا ينطفئُ، فهو المزحزح عن النار.

وقد قال بعض علمائنا: من ظن أنه يصل إلى اللهِ بغيرِ الله تعالى قُطع به، ومن استعان على عبادة الله تعالى بنفسه وُكل إلى نفسه.

ثم إن الخلق محجوبون بعد هذا الحجابِ بثلاثة حُجُبٍ؛ بعضها أكثفُ من بعضٍ، أحدها: أواسطُ، وأسبابٌ معترضة، وشهوات جاذبة، وعادات راجعةٌ صادرة.

---

(١) فى (ك): «الحركة والغيبة».

(٢) فى (ط): «ما أشهدهما أظهر له ووجه به» والصواب ما أثبت من (ك).

(٣) فى (ط): «فأفرد» وأثبت ما فى (ك).

فالأسبابُ تُوقفهم عليها، والشهواتُ تجذبهم إليها، والعاداتُ تردّهم فيها. فأى هذه الحُجب ظهر فى قَلْب ـ وبعضها أشد عليه من بعض ـ فهو مكان للعدوّ أوسع من مكان، فتمكَّن سلطانُه على قدر سعة مكانه، فقويت النفسُ بتزيين العدوّ، وسوّلت بتأميلها[1]، فملكت العبدَ مُلْكًا أشدَّ من مُلك. فإذا ملكت النفسُ العبدَ كان مملوكَها وأسيرَها، وكانت بالهوى أميرةً، فاستهواه الشيطان حينئذ بالغواية والإضلال، واستحوذ عليه بمعانى المشاركة فى الأولاد والأموال، فشغله بذلك عن الله سبحانه وتعالى، وأنساه ذكر الله عزّ وجلّ. وهذا هو الاقتران الذى ذمّه اللهُ تعالى فى قوله: ﴿**وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا**﴾ [النساء:٣٨]. وهو فوق النَّزْغ والهَمْز والخاطر بعد الهَمّة. وهو خطورُ العدوّ على القلب بالوسوسة، يزيِّن الهَمّة، ويُملى للعبد، ويُرجِّيه، ويفسح له فى أمله، ويمنِّيه التوبةَ حتى تهون عليه المعصية، ويَعِدُه بعدها بالمغفرة، حتى يُجرِّئَه على الخطيئة. وهذا هو الوعدُ بالغُرُور وبعده الهلاك والثبورُ. كما قال [تعالى]: ﴿**يَعِدُهُمْ**﴾ أى التوبةَ ﴿**وَيُمَنِّيهِمْ**﴾ المغفرةَ ﴿**وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا**﴾ [النساء: ١٢٠].

وهذا كله تصديقُ ظنِّ العدوّ بالعبد، واتباعُ العبد له بالهوى عن مقام البعد، وكشفٌ لعلم الله تعالى بإظهار الحكم، وإنفاذ المشيئة، وهو الابتلاء بالأسباب، فصار العدوُّ سببًا لقوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إبليسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [سبأ: ٢٠]. ثم أحكم ذلك بسابق عِلمه فقال: ﴿**وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِنْ سُلْطَانٍ**﴾ يعنى بحوله وقوّته وبقهره ومشيئته ﴿**إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ**﴾ [سبأ:٢١]، أى: لنرى. وقيل: لنعلم العلم الذى يجازَى عليه بالثواب والعقاب. وقيل: لنختبر ونكشف. وقيل: لنُعلّم المؤمنين ذلك فيستبين لهم، ويعلمَ من عمل تلك الأعمال التى ظهرت منه، فتوقع عليه بذلك الحجة، ويتبين له كذبه، كما قال: ﴿**فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الكَاذِبِينَ**﴾ [العنكبوت:٣].

---

(١) فى (ك): «وسولته بتأميله».

فعلى هذه المعانى مجازُ كلٍّ ما فى كتاب الله عزّ وجلّ من قوله: لنعلم، وحتى نعلم، إذ كان علمه تعالى قد سبق المعلومات، وإذ كانت الأشياء عن علمه بعلمه جاريات، فجعل تسليط العدوّ بسلطانه كشفًا وإظهارًا لما أخفاه من سابق علمه، كما جعل أفعالَ العباد الظاهرة كشفًا وإظهارًا لإرادته الباطنة.

وروينا عن رسول الله ﷺ: «سَبَقَ العِلْمُ، وجَفَّ القَلَمُ، وقُضى القَضَاءُ، وتمَّ القَدَرُ بالسعادةِ من الله تعالى لأهل طاعته، وبالشّقاء من الله تعالى لأهل معصيته».

• ذكر تقسيم الخواطر وتفصيل أسمائها:

فأما تسميةُ جملةِ الخواطرِ: فما وقع فى القلب من عملِ الخيرِ فهو إلهامٌ. وما وقع من عمل الشرِّ فهو وَسْواسٌ. وما وقع فى القلب من المخاوف فهو إيجاس[١]. وما كان من تقدير الخير وتأوّله[٢] فهو نيَّة. وما كان من تدبير الأمور المباحات [والتمنى][٣] وترجِّيها والطمع فيها فهو أمنية وأمل. وما كان من تذكرةِ الآخرةِ والوعدِ والوعيدِ فهو تذكُّر وتفكير[٤]. وما كان من معاينة الغيبِ بعين اليقينِ فهو مشاهدة. وما كان من تحدُّث [النّفس][٥] بمعاشها وتصريف أحوالها فهو هَمٌّ. وما كان من خواطرِ العاداتِ ونوازعِ الشهواتِ فهو لَمَم. ويُسمَّى جميعُ ذلكَ خواطر؛ لأنه خطورُ همَّةِ نفس، أو خطور عدوٍّ بحسد، أو خَطْرة مَلَكٍ بهمس.

ثُمّ إن ترتيبَ الخواطر المنشأة من خزائنِ الغيبِ القادحة فى القلب على ستة معانٍ؛ وهذه حدودُ الشىء المظهر؛ ثلاثةٌ منها معفوة، وثلاثةٌ منها مطالَب بها.

فأولُ ذلكَ: الهمَّةُ، وهو ما يبدو من وسوسةِ النفس بالشىء، يجده العبد بالحس؛ كالبَرْقة. فإن صرفها بالذكر انمحت، وإن تركها بالغفلةِ كانت خطرةً.

---

(١) فى (ط): «فهو الحساس» وأثبت ما فى (ك)، والإيجاس: من التوجُّس.

(٢) فى (ط): «وتأميله» وأثبت ما فى (ك).

(٣) زيادة من (ك).

(٤) فى (ك): «فهو تذكرة وتَفْكِرَة».

(٥) ساقطة من (ط).

وهو خطور العدوّ بالتزيين. وإن نفى الخاطرَ ذهَب. وإنْ ونَى[1] عنه قَوِىَ فصار وسوسةً، وهذا محادثةُ النفسِ للعدوّ وإصغاؤها إليه. وإن نفى العبدُ هذه الوسوسة بذكر الله خَنَس العدوُّ وصفت[2] النفسُ.

وهذه الثلاثُ مَغفورةٌ برحمةِ الله تعالى غيرُ مؤاخَذٍ بها العبدُ.

وإن أمرج العبدُ النفسَ [3] فى محادثة العدوّ، وطاولت النفسُ العَوْدَ والإصغاءَ والمحادثةَ قويت الوسوسة، فصارت نيّة، فإن أبدل العبدُ هذه النيةَ بنيةِ خير، أو استغفر منها وتاب، وإلا قوِيَت فصارت عَقْدًا، فإن حَلَّ هذا العقدَ بالتوبة، وهو الإصرار، وإلاَّ قَوِىَ فصار عَزْمًا، وهو القصد.

وهذه الثلاثة من أعمال القلب، مأخوذٌ بها العبد ومسؤولٌ عنها. فإن تداركَه اللهُ تعالى بعد العزم، وإلا تمكَّن العزم فصار طلبًا وسعيًا، وأظهر العملَ على الجوارح من خزائن الغيب والملكوت، فصار من أعمال الجسم فى خِزانة الملك والشهادة.

فهذه الأعمالُ تُوجَدُ من أعمالِ البرِّ والإثم.

فما كان منها من البر: هَمَّةً، ونيةً، وعزمًا؛ كان محسوبًا للعبد فى باب النيات، مكتوبًا له فى ديوانِ الإرادة، له به حسنات.

وما كان منها من الشرِّ: نيّةً، وعَقْدًا، وعَزْمًا؛ فعلى العبد فيه مؤاخذة، من باب أعمال القلوب، ونياتِ السّوء، وعقود المعاصى.

وليس شىءٌ مجانس للعدوّ مؤاخٍ له إلا النفس، جمع الله تعالى بينهما فى الوسوسة بقوله: ﴿**الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ**﴾ [الناس: ٤]، وقوله: ﴿**وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ**﴾ [ق: ١٦].

وكلّ شىء خلقه اللهُ تعالى فلَه مِثْلٌ وضِدٌّ. فمثل النّفس: الشيطان، وضدهما: الروح.

---

(١) فى (ط): «وإن ولّى» والصواب ما أثبت من (ك). ووَنَى: فَتَر وضعف.

(٢) فى (ك): «وضعفت».

(٣) قوله «أمرج العبد النفس»: أى تركها ترعى بلا راع. القاموس (مرج).

ثم إنّ أعمال الجوارح من النوعين الطاعة والمعصية أعظم فى الأجر والوزر معًا، إلا ما لا يتأتَّى أن يعمله بظاهر الجسم من شهادة التوحيد، أو وجودِ شكٍّ، أو كفر، أو اعتقاد بدعةٍ.

• باب آخر من البيان والتفصيل:

فَأَمَّا ما كان مِنْ لائحٍ يلوحُ فى القلبِ مِنْ معصيةٍ ثم ينقلبُ فلا يلبَثُ، فهذا نَزْغٌ مِنْ قِبَلِ العَدُوِّ. وما كان فى القلبِ من هوًى ثابتٍ، أو حالٍ مُزْعِجٍ دائمٍ لابثٍ، فهو مِنْ قِبَلِ النَّفْسِ الأَمَّارَةِ بِطَبْعِها، أو مطالبة منها بسوءِ عادتها. ومَا وَرَدَ على العبدِ مِنْ همِّهِ بخطيئةٍ، ووجد العبدُ فيه كراهتَها، فالوُرودُ مِنْ قِبَلِ العدوِّ، والكراهةُ مِنْ قِبَلِ الإيمَانِ. وما وجده العبدُ وجدًا بهوًى أو معصيةٍ ثم ورد عليه المنعُ مِنْ ذلكَ، فالوجدُ مِنَ النَّفْسِ، والواردُ بالمنعِ مِنَ المَلَك. وما وَجَدَهُ العبدُ من فكرٍ فى عاقبةِ الدنيا أو تدبيرِ الحالِ ونظرٍ إلى معهودٍ، فهذا مِنْ قِبَلِ العَقْل. وما وجده العبدُ مِنْ خوْفٍ أَوْ حياءٍ أو ورَعٍ أو زُهْدٍ أو مِنْ شأنِ الآخرَةِ، فهذا عَنِ الإيمان. وما شَهِدَ القلبُ مِنْ تعظيمٍ أو هَيْبَةٍ أو إجْلالٍ أو قُرْبٍ، فهذا مِنَ اليقينِ، وهو من مزيدِ الإيمان: ﴿وإليه يُرْجَعُ الأمرُ كلُّه فاعْبُدْهُ وتوكَّلْ عليه﴾ [هود: ١٢٣]، كما قال صاحبُ الأمرِ رسولُ الله ﷺ: «أعوذُ بِكَ مِنكَ».

وإنّما هذا تفصيلُ الحدودِ وإظهارُ المكانِ وإحكامُ العلمِ، كما قال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَىءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ [الإسراء: ١٢]. وقال: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٧].

وليس فى التوحيدِ ولا فى المشاهدةِ تفكُّرٌ، ولا فى الإشارةِ عَيانٌ، ولا فى القدرةِ ترتيبٌ، ولكن لا بدَّ مِنْ علمِ التفصيلِ لا عن التوحيدِ، وهو التفرقةُ بلسانِ الشَّرعِ عن عينِ الجمعِ؛ لإظهارِ الطُرُقِ، واستنارَةِ السُّبُلِ، وتطريقِ السَّالكينَ، وترتيبِ العاملينَ؛ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بيِّنَةٍ وَيَحيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بيِّنَةٍ. وَاللهُ غَالِبٌ على أمْرِهِ.

وقد فصَّل بعضُ العلماءِ أعمالَ العبادِ، وفرَّقَ بين الأمرِ [من الله][١] والإرادة، فقال: إن أعمالَ العبادِ لا تخلو من ثلاثة أنواع: فرض، ونفْل[٢]، ومعصية. قال: فنقولُ: إنَّ الفرضَ بأمر الله تعالى ومحبَّة الله ومشيئة الله، تجتمعُ هذه المعانى الثلاثةُ فى الفرائضِ. قال: ونقولُ: إنّ النَّفْلَ لا بأمرِ الله؛ لأنه لم يُوجِبْهُ، ولم يعاقِبْ على تَرْكِه، ولكنه بمحبةِ الله ومشيئته جلَّ وَعَلا، أى: لأنَّهُ شَرَعَهُ وندبَ إليهِ. قالَ: ونقولُ: إن المعصيةَ لا بأمرِ الله؛ لأنَّهُ لم يَشْرَعْهَا على أَلْسنَة المرسلينَ، ولا بِمَحَبَّة الله؛ لأنه قد كَرِهَهَا؛ إذ لم يأمُرْ بِهَا ولم يندبْ إليها، ولكن بمشيئةِ الله جلّتْ عظمَتُهُ أن لا يخرجَ شىءٌ من إرادَتِه كما لم يَخْرُجْ شىءٌ مِنْ عِلْمِه.

والإرادةُ والمشيئةُ اسْمانِ بمعنًى واحد، فقد دخل كلُّ شىء فيها كما دخل كلُّ شىءٍ فى العلمِ. فالله سبحانه عالمٌ بما أَرَادَهُ، وقد سَبَقَ به علمُهُ، كذلك هو مريدٌ لما عَلِمَهُ، أظهرتْ إرادتُهُ سابقَ علمه، وكشف علمُ الغيبِ بظهورِ إرادته الشهادةَ، فهو عالمُ الغيبِ والشهادةِ. فالغيبُ علمُه، والشهادةُ معلومُه، فكيف يخالف المعلومُ العلمَ وهو إجراؤه؟ والإرادةُ نفذت سابق العلم فى معلومات الخلق[٣]، وهذا فرضُ التوحيد، فخرجت النّوافلُ عن الأمر وخرجت المعاصى عن المحبة فى تفصيلِ الأحكامِ وتبيُّنِ الحلالِ والحرامِ، ولم تخرجْ معصيةٌ عن مشيئة. وقد قال الله جلّ ثناؤه: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ﴾ [القمر: ٥٣]. وقد قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ شَىءٍ بِقَضَاءٍ وَقَدَرٍ حَتَّى الْعَجْزُ وَالكَيْس». فذكر عرضين لطيفين؛ هما سببَا المنع والعطاء.

وقد فرق عالِمنا بين الأمر والإرادة فرقًا لطيفًا، فحدثنى بعضُ أصحابنا قال: سألتُ عن الله عزّ وجلّ لما أمرَ إبليسَ بالسجود لآدم: أراد منه ذلك أم لا؟ فقال: أراده ولم يُرِدْه منه.

يعنى أراده شرعًا وإظهارًا، وعليه إيجابًا، ولم يرده منه وقوعًا ولا كَوْنًا. إذ لا

(١) زيادة من (ك).

(٢) فى (ط): «وفضل» وهو تحريف، والصواب من (ك).

(٣) فى (ك): «بنفذ الإرادة سابق علمه فى معلومات خلقه».

يكون إلا ما أرادَ الله تعالى، إذ لو أراد كونه لكان، ولو أرادَه فعلاً لوقع، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. فلمّا لم يكن علمتَ أنه لم يرده، فقد كان الأمرانِ معًا، إرادته بالتكليف والتعبد، وإرادته بأن لا يسجد، فلم يقدر أن يمتنعَ من أن لا يسجد، كما لم يقدر من أن يمتنع من أن يُؤمَر[١].

فكذلك القولُ في نهيه لآدم ﷺ عن أكل الشجرة، أنّه أرادَ الأكلَ منه، ولم يرده له، أي: أراده وقوعًا وكونًا؛ لأنه قد وُجد، وكان كقوله: ﴿إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]، فلمّا كانَ علمتَ أنه أراده، ولم يُرده شرعًا، ولا أمرًا؛ لأنه لم يأمره بالأكل؛ ولا شرعه له، فقد كان الأمران جميعًا إرادته: أن يكونَ العبدُ مكلفًا مأمورًا، وإرادتُه الأكل منه؛ لأنه قد كان.

وكذلك القولُ في كل ما أمَر به وأراده: أنه أراد الأمرَ والنهيَ لهم ليكونوا مكلَّفين متعبِّدين، ولم يُرده ممن لم يكن منه الائتمار والانتهاء، لأنه قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]. فأخبر أنه إذا أراد شيئًا كوَّنه، كما أنه إذا كوّن شيئًا فقد أراده بدلالةِ كَوْنِه. فلما لم يكن الأمر من العاصين علمنا أنه لم يرده، إذ لو أراده كان. ولما كان النهيُ من المأمورين علمنا أنه أراد كونه، إذ لو لم يُرِدْهُ لم يكن، فصار كونُ الشيءِ دليلاً على إرادته. وقد وقعت الإرادةُ بالأمر والنهي، فكان الكلُّ مأمورين منتهين، ولم يقع الفعل من الكل؛ لأنه لم يرد وقوعه، إذ لو أراده كان.

وهذا أصلُ الابتلاء، وإرادة ظهور البلاء. يأمر الله تعالى بالشيء ويريد كونَ ضدِّه، وقد أراد الأمرَ به حسب، وينهى عن الشيء ويريد كونه، وقد أراد النهيَ عنه فقط.

وقد كان عالمنا أبو الحسنِ ـ رحمة الله عليه ـ يتكلّمُ في عِلْمِ الأمرِ والجَبْرِ[٢]،

(١) في (ط): «يؤمن» وأثبت ما في (ك).

(٢) في (ط): «والخير» والصواب ما أثبت من (ك).

وفى الابتلاء والقهرِ، بمعانٍ لا يُهتَدَى إليها اليوم، ولا يَسألُ عنها أحدٌ. أى: يُظهر الأمرَ بالترك، ويُظهر النهىَ بالفعلِ، ويُظهر الأحكامَ لوقوعِ البلاءِ، ويَقهر الجوارحَ بالجبرِ على إرادتِهِ للابتلاءِ.

وقد فرَّق الحسنُ البصرِىُّ - رحمه الله - قبله، وهو إمامُنا فى هذا العلمِ، بينَ التعذيبِ على جريانِ العلم، ومخالفة الأمر، لَمَّا بلغه أن عمرو بن عبيد - وهو إمامُ المعتزلةِ اليومَ، وإليه نُسِبُوا[1] - لَمَّا اعتزل الحسنَ البصرىَّ بعد أنْ صَحِبَه، ولم يُختم له بصحبته - بلغهُ أنَّهُ يقولُ: إنّ اللهَ لا يقضى بالشَّىءِ ثم يُعذِّبُ عليه، فقال له: وَيْلَكَ، إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لا يُعَذِّبُ على جريانِ حُكْمِهِ، وإنَّما يُعذِّبُ على مخالفةِ أمرِه.

[دخل معتزلى على جعفر الصادق رضى الله عنه، فقال: يا ابن بنت رسول الله، مسألة؟

فقال جعفر: اذكرْ وبالله التوفيق.

فقال المعتزلى: أيقضى ربُّنا بالفحشاء؟

قال جعفر: أفيكون فى مُلكِه ما لا يشاء؟

قال المعتزلى: أفتريد ربّنا أن يُعصى؟

قال له جعفر: أفيُعصى قَهْرًا؟

قال المعتزلى: أفتراه إن جَبرنى على الرَّدى، ومنعنى من الهدى، أأحْسنَ فىَّ أم أساء؟

قال جعفر: إن كان منعك حقًا لك عليه فقد أساء، وإن كان الحق له فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

فتاب المعتزلىُّ من وقته][2].

---

(١) المعروف أن المعتزلة ينسب ظهورهم إلى «واصل بن عطاء». والعبارة فى المخطوط «... وهو إمام المعتزلة إلى اليوم».

(٢) ما بين المعكوفتين برمته لا يوجد فى (ط) وهو من (ك).

تفسيرُ ذلك: أنّ ما حكَمهُ اللهُ تعالى مُنْفَرِدًا بِهِ لم يَجْعَلْ فيه أمرًا ولا نهيًا لا يُعذّبُ عليه؛ لأنَّه لم يجعلْ للعبدِ مَدْخَلاً فيه بشهوةٍ ولا فعلٍ. وأن ما قضاه على العبدِ ممّا أدخَلَهُ فيه بقَصْدِه وشهوته عَذَّبهُ عليه، وهذا من شُؤْمِ النَّفْسِ وتكديرِ الخَلْقِ أنَّها إذَا أُدْخِلَتْ فى شىءٍ انْقَلَبَ عليها شَرُّهُ.

والأُمَّةُ مُجْتَمِعَةٌ على قولِ: «مَا شَاء اللهُ كانَ، وما لم يشأ لم يكُنْ»، واجتمعتْ على قولِ: «لا حولَ ولا قوَّةَ إلاَّ بالله»، فهذا عَامٌّ فى كلِّ شىءٍ، ليس فى بعضِ الأشْياء دونَ بعضٍ، والحولُ فى اللغة هو الحركةُ، والعربُ تقولُ للشخصِ يبدو من بعيدٍ يُظَنَّ أنَّه إنسانٌ، أو شجرةٌ، أو صخرةٌ: انظروا إليه فإنْ كان يَحولُ فهو إنسانٌ، أى: يتحركُ. والقوّة: هو الثبات بعد الحركة، وهو أولُ الصبر حتى يظهر الفعل بقوّة الله تعالى.

وقد روينا فى تفسير ذلك عن رسول الله ﷺ: لا حول عن معصيةِ الله إلا بعصمةِ الله، ولا قوّةَ على طاعةِ الله إلا بعونِ الله.

وهذا التفصيلُ فى هذه المعانى من الأحكام هو ظاهرُ العلمِ، وفَرْضُ القدَر، وفَحْوى التنزيلِ والشّرع، والجبرُ للمَلك الجَبَّارِ يُجْبِرُ خلْقَه على ما شاء كما خلَقهم لما شاء، ويردُّهم إلى ما شاء كما يُنْشئهم فيما يشاء، فالحُكْمُ لله العَلىّ الكَبير، الواحدِ القهار، يقهر عبادَه كيف شاء، ويُجرى عليهم ما يشاء، وله الحجة البالغة، والعزة القاهرة، والقدرة النافذة، والمشيئةُ السابقة، بوصف الربوبية وبحكم الجَبْرية. وعليهم الاستسلام والانقياد والطاعة والاجتهاد طوعًا وكرهًا بوصف العبودية وبحق الملكة: ﴿إنْ كَانَ اللهُ يُريدُ أن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ﴾ [هود: ٣٤]، ﴿إنْ تُعَذِّبْهُمْ فإنَّهُمْ عِبادُكَ﴾ [المائدة: ١١٨]، ﴿وعَلَى الله قَصْدُ السَّبيلِ ومِنْها جائرٌ ولَوْ شَاءَ لَهداكُمْ أجْمَعِينَ﴾ [النحل: ٩]، ﴿لله الأمْرُ مِنْ قَبْلُ ومِنْ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤][1].

***

(١) بعده فى المخطوط الذى لدىّ: «كمل السفر الأول من كتاب قوت القلوب، بحمد الله وعونه، وصلى الله على محمد رسوله وعبده. يتلوه فى السفر الثانى إن شاء الله تعالى: كتاب العلم».

الفصل الحادى والثلاثون

فيه كتاب العلم [(١)] وتفضيله، وأوصاف العلماء

وذكرُ فضلِ علم المعرفة على سائر العلوم، وكشفُ طرق العلماء من السلف الصالح، وذكرُ بيان تفضيل علوم الصمت وطريق الورعين فى العلم، والفرقُ بين العلم الظاهر والباطن، وبين علماء الدنيا والآخرة، وفضلُ أهل المعرفة على علماء الظاهر، وذكرُ علماء السوء الآكلين بعلومهم الدنيا، ووصفُ العلم، وطريق التعليم، وذم ما أحدثه المتأخرون من القصص والكلام، وبابُ ذكر ما أحدث الناس من القول والفعلِ فيما بينهم مما لم يكن عليه السلف، وبيانُ فضل الإيمان واليقين على سائر العلوم، والتحذيرُ من الرأى، وذكر معنى قول النبى ﷺ: «طلبُ العلم فريضةٌ على كُلِّ مُسْلم»، وفى الحديث الآخر: «اطْلُبُوا العِلْمَ وَلَوْ بِالصِّين؛ فإنَّ طَلَبَ العلمِ فَرِيضَةٌ على كُلِّ مُسلِم»[(٢)].

قال عالمنا أبو محمد سهل رحمه الله: أراد بذلك علم حال، يعنى: علم حال العبد من مقامه الذى أُقيمَ فيه، بأن يعلم أحدُكم حالَه الذى بينه وبينَ اللهِ عزّ وجلّ فى دنياه وآخرته خاصة، فيقوم بأحكام الله تعالى عليه فى ذلك.

وقال بعضُ العارفين: معناهُ طلبُ علمِ المعرفةِ، وقيامُ العبدِ بحكمِ ساعتِه، وما يقتضى منه فى كل ساعة من نهاره.

وقال بعضُ علماء الشام: إنما عُنى به طلبُ علم الإخلاص، ومعرفة آفاتِ النفسِ ووساوسها، ومعرفةُ مكايد العدو وخدعه وغروره، وما يصلح الأعمال ويفسدها، فريضةً كله من حيث كان الإخلاصُ فى الأعمالِ فريضةً، ومن حيث أُعلم بعداوة إبليس، ثم أُمر بمعاداته.

---

(١) انظر: الإحياء، كتاب العلم، ١/ ٤ وما بعدها.

(٢) ليس فى (ك) من هذا العنوان إلا قوله: «كتاب العلم».

وذهب إلى هذا القول: عبد الرحيم بن يحيى الأرموى، ومن تابعه[١].

وقال بعضُ البصريين فى معناه: طلبُ علمِ القلوب ومعرفةُ الخواطر وتفصيلها فريضة، لأنّها رسُل الله تعالى إلى العبد، ووسواس العدوّ والنفس، فيستجيب لله تعالى بتنفيذِ ما منه إليه، ومنها ابتلاء الله تعالى للعبد واختبار تقتضيه مجاهدةُ نفسِه فى نفيها. ولأنها أولُ النيةِ التى هى أولُ كلِّ عملٍ، وعنها تظهرُ الأفعالُ، وعلى قدرِها تضاعف الأعمالُ؛ فيحتاج أن يُفرِّقَ بين لِمَّةِ المَلَكِ ولمةِ العدوّ، وبين خاطرِ الروح ووسوسة النفس، وبين علم اليقين وقوادحِ العقلِ؛ ليميز بذلك الأحكام.

وهذا عند هؤلاء فريضةٌ. وهو مذهبُ مالكِ بن دينار، وفرقد السنجى، وعبد الواحد بن زيد، وأتباعهم من النُسَّاك، وقد كان أستاذُهم الحسنُ البَصرى يتكلم فى ذلك، وعنه حملوا علومَ القلوب.

وقال عبَّادُ أهل الشام: معناه: طلبُ علم الحلال فريضة، إذ قد أمر الله تعالى به، وأجمع المسلمون على تفسيقِ آكل الحرام، وقد جاء فى خبر مفسر: «طلب الحلال فريضةٌ بعد الفريضة». ومال إلى هذا القول إبراهيم بن أدهم، ويوسف بن أسباط، ووهيب بن الورد، وحبيب بن حرب.

وقال بعض هذه الطائفة من أهل المعرفة: معناهُ: طلب علم الباطن فريضةٌ على أهله، قالوا: وهذا مخصوصٌ لأهل القلوب ممن استعمل به، واقتضى منه دون غيره من عوام المسلمين؛ ولأنه جاء فى لفظ الحديث: «تَعَلَّمُوا الْيَقِينَ» فمعناه: اطلبوا علم اليقين، وعلمُ اليقين لا يوجد إلا عند الموقنين، وهو من أعمال الموقنين المخصوص فى قلوب العارفين، وهو العلم النافع الذى هو حال العبد عند الله تعالى، ومقامُه من الله تعالى كما شهد له الخبر الآخر فى قوله ﷺ: «وعلمُ باطنٍ فى القَلْبِ»، وهو العلم النافع، فهذا تفسير ما أُجْمِل فى غيره.

وقال جُنْدُب: كنا مع رسول الله ﷺ فيعلمنا الإيمان، ثم يعلمنا القرآن،

(١) فى (ك): «عبد الرحيم الأموى وعبد الواحد بن زيد».

فازددنا إيمانًا، وسيأتى زمانٌ قومٍ يتعلَّمون القرآن قبل الإيمان.

يعنى: تعلمنا علم الإيمان، وهذا مذهب نُسَّاك أهل البصرة.

وقال بعضُ السلف: إنّما معناهُ: طلبُ علمٍ ما لم يَسعْ جهلُه من علم التوحيد وأصولِ الأمر والنهى، والفرقِ بين الحلالِ والحرام؛ إذ لا غايةَ لسائرِ العلوم بعد ذلك، وكلها يقع عليه اسم علم من حيث هى معلومات، ثم قد أجمعوا أن ليس تعليمُ ما زاد على ما ذكرناه فرضًا، وإنما فيه فضلٌ أو ندبٌ.

وقال بعض فقهاء الكوفة: معناه: طلبُ علم البيع والشراء، والنكاح والطلاق، وإذا أراد الدخول فيه افتُرض عليه مع دخوله فى ذلك طلب علمه؛ لقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه: لا يتّجر فى سوقنا هذا إلا من تفقَّه وإلا أكَلَ الربا شاء أم أبى. وكما قيل: تفقَّه ثم اتَّجِرْ. ومال إلى هذا سفيان الثورى وأبو حنيفة وأصحابهما.

وقال بعض المتقدمين من علماء خراسان: هو أن يكون الرجلُ فى منزله فيريد أن يعمل شيئًا من أمر الدّين، أو يخطر على قلبهِ مسألةٌ لله سبحانه وتعالى فيها حكم وتعبّد، وعلى العبد فى ذلك اعتقاد أو عمل، فلا يَسعُه أن يسكت على ذلك، ولا يجوز له أن يعمل فيه برأيه، ولا يحكم بهواه، فعليه أن يلبس نعليه، ويخرج، فيسألَ عن أعلم أهل بلده، فيسأله عن ذلك عند النّازلة، فهذا فريضةٌ. وحُكى هذا القول عن ابن المبارك، وبعض أصحاب الحديث.

وقال آخرون: يعنى: طلبُ علم التوحيد فريضة.

وإنّما اختلفوا فى كيفيةِ الطلب، وماهية الإصابة. فمنهم من قال: من طريق الاستدلال والاعتبار. ومنهم من قال: من طريق البحث والنظر. ومنهم من قال: من طريق التّوفيقِ والأثر.

وقالت طائفة من هؤلاء: إنما أراد طلبَ علمِ الشبهاتِ والمشكلاتِ إذا سمعها العبد وابتُلى بها، وقد كان يسعه تركُ الطلب إذا كان غافلاً عنها على أصل التسليم ومعتقد جملة المسلمين، لا يقع فى وهمه، ولا يحيك فى صدره شىء من

الشبهات، فيسعه تركُ البحث، فإذا وقعَ فى سمعه شىءٌ من ذلك، ووقر فى قلبه، ولم يكن عنده تفصيل ذلك، وقَطْعُه، ومعرفةُ تمييز حقّه من باطله، لم يحلَّ له أن يسكت عليه؛ لئلا يعتقد باطلاً أو ينفى حقًا، فافتُرض عليه طلبُ ذلك من العلماء به، فيستكشفه حتى يكون على اليقين من أمره، فيعتقد من ذلك الحق وينفى الباطل. ولا يقعد عن الطلب، فيكون مقيمًا على شبهةٍ فيتبع الهوى، أو يكون شاكًا فى الدين فيعدل عن طريق المؤمنين، أو يعتقد بدعة فيخرج بذلك عن السُّنّة ومذهبِ الجماعة، وهو لا يعلم.

ولهذا المعنى كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يقول فى دعائه: اللّهم أرنا الحقَّ حقًا فنتبعَه، وأرنا الباطل باطلاً فنجتنبَه، ولا تجعلْ ذلك متشابهًا علينا فنتبع الهوى.

وهذا مذهب أبى ثور إبراهيم بن خالد الكلبى(١)، وداود بن على(٢)، والحسين الكرابيسى، والحارث بن أسد المحاسبى(٣)، ومن تابعهم من المتكلمين.

فهذه أقوالُ العلماء فى معنى هذا الخبر. حكينا ذلك عن عِلْمِنَا بمذاهبهم على معنى مذهب كل طائفة، واحتججنا لكل قول، فالألفاظ لنا والمعنى لهم، وهذا كله حسن ومحتمل، وهؤلاء كلهم وإن اختلفوا فى تفسير الحديث بألفاظ فإنهم متقاربون فى المعنى، إلا أهل الظاهر منهم، فإنهم حملوه على ما يعلمونه، وأهل الباطن تأوّلوه على علمهم، ولعمرى إن الظاهر والباطن علمان لا يستغنى أحدهما عن صاحبه، بمنزلة الإسلام والإيمان مرتبط كل واحد بالآخر؛ كالجسم والقلب لا ينفك أحدهما عن صاحبه.

---

(١) أستاذ الجنيد، أحد الأئمة المجتهدين، قال عنه أحمد بن حنبل: «أعرفه بالسُّنّة منذ خمسين سنة، وهو عندى فى صلاح الثورى»، توفى سنة ٢٤٠هـ. انظر: خلاصة تذهيب الكمال، ص١٥.

(٢) هو داود بن على بن خلف، أبو سليمان البغدادى، ولد بالكوفة سنة مائتين، وإليه انتهت رئاسة العلم ببغداد، وأصله من أصفهان، توفى سنة ٢٧٠هـ. انظر: طبقات الشافعية ٢/ ٢٨٤ ـ ٢٩٣.

(٣) أستاذ أكثر البغداديين، وهو من أهل البصرة، له مؤلفات فى الرقائق كثيرة، مات ببغداد سنة ٢٤٣هـ. انظر ترجمته فى : حلية الأولياء ١٠/ ٧٣ ـ ١٠٩، وطبقات الصوفية، ص ٥٦ ـ ٦٠.

وهؤلاء المختلفون فى الأقوال مُجمعون على أنه ﷺ لم يُرد بذلك طلبَ علم الأقضية والفتاوى، ولا علم الاختلاف والمذاهب، ولا كتب الأحاديث مما لا يتعين فرضه، وإن كان الله تعالى لا يُخلى من ذلك من يُقيمه بحفظه.

والذى عندنا فى حقيقة معنى هذا الخبر ـ والله أعلم ـ أن قوله ﷺ: «طَلَبُ العِلْمِ فَرِيَضةٌ» يعنى علم هذه الفرائض الخمس التى بُنى الإسلام عليها من حيث لم يُفترض على المسلمين غيرها، ثم إن العمل لا يصح إلا بعلمه، فأولُ العملِ العلمُ به، فصار علمُ العملِ فرضًا من حيث افتُرض العمل.

فلمّا لم يكن على المسلمين فرض من الأعمال إلا هذه الخمس، فصار طلبُ علمِ هذه الخمس فرضًا؛ لأنه فرضُ الفرضِ، وعلم التوحيد داخل فيها؛ لأنه فى أوّله شهادة أن لا إله إلا الله بإثبات صفاته المتصلة بذاته[1]، ونفى صفات سواه المنفصلة عن إياه، كلّه داخل من علم ذلك فى شهادة: «أن لا إله إلا الله».

وعلمُ الإخلاصِ داخلٌ فى صحة الإسلام؛ إذ لا يكون مسلمًا إلا بإخلاص العمل، لقوله ﷺ: «ثلاثٌ لا يَغِلُّ عَلَيْهِنَّ قلبُ مُسْلِمٍ: إخلاصُ العملِ لله. . .»، فبدأ به واشترطه للإسلام.

والأصل فى هذا أنه لم يُرد ﷺ علم كل ما جاز أن يكون معلومًا بإجماع الأمة، إنه لم يَعْنِ بذلك علم الطب، أو علم النجوم، ولا علم النحو، أو الشعر، أو المغازى، وهذه تسمى علومًا؛ لأنها تكون معلومة، وأربابها علماء بها، إلا أن الشرعَ لم يُرد بالأمر بمقتضاها، والأمة مجمعةٌ أيضًا أنه لم يُرد بذلك علم الفتيا والقضاء، ولا علم افتراق المذاهب واختلاف الآراء، وهذه تُسمى علومًا عند أهلها، وبعضها فرض على الكفاية وكلها ساقطة عن الأعيان.

والخبرُ جاء بلفظ العموم، بذكر الكلية، وبمعنى الاسم، فقال: «طَلَبُ العِلْمِ فَرِيضةٌ» ثم قال: «على كُلِّ مُسْلِمٍ» بعد قوله: «اطْلُبُوا العِلْمَ» فكان هذا على

(١) عبارة (ك): «وعلم التوحيد داخل فيها، لأنه فى أولها فى قوله: ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾ وهى شهادة أن لا إله إلا الله. فطلب علم لا إله إلا الله بإثبات صفاته المتصلة بذاته».

الأعيان، فكأنه على ما وقع عليه اسم العلم، ومعناه المعهود المعروف بإدخال التعريف عليه فأشير بالألف واللام إليه، فإذا بطلت هذه الوجوه صحّ أن قوله ﷺ: «طَلَبُ العِلمِ فَريضةٌ عَلَى كُلِّ مُسلِمٍ» أى طلب علم ما بُنى الإسلام عليه، فافترض على المسلمين علمه فريضة بدليل قوله ﷺ للأعرابى حين سأله: أخبرنى ماذا افترض الله تعالى علىَّ. وفى لفظ آخر: أخبرنا بالذى أرسلك الله تعالى إلينا به. فأخبره بالشهادتين، والصلوات الخمس، والزكاة، وصوم شهر رمضان، وحجِّ البيت. فقال: «هل علىَّ غيرها؟ فقال: لا إلا أن تطوع. فقال: والله لا أزيد عليه شيئًا، ولا أنقص منه شيئًا. فقال: أفلحَ ودخلَ الجنةَ إن صدق»، فكان علمُ هذه الخمس فريضةً من حيث كان معلومه فريضة إذ لا عمل إلا بعلم.

وقد قال عزّ وجلّ: ﴿إلاَّ مَنْ شَهِدَ بالحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف:٨٦]. وقال فى مثله: ﴿حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء:٤٣]. وقال: ﴿هَلْ عِنْدَكُمْ من عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إنْ تَتَّبِعُونَ إلاَّ الظَّنَّ﴾ [الأنعام:١٤٨]. وقال: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ اللهُ﴾ [الروم:٢٩]. وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذينَ لاَ يَعْلَمُونَ * إنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ الله شَيْئًا﴾ [الجاثية:١٨ ـ ١٩]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ الله وَأَنْ لاَ إلَه إلاَّ هُوَ﴾ [هود:١٤]. وقال: ﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء:٧].

فهذه الآى افترض الله فيها طلب العلم، وذلك الخبر الذى جاء فى أبنية الإسلام الخمسة افترض رسول الله ﷺ فيه هذه الأعمال ثم قال مجملاً: «طَلَبُ العِلْمِ فَرِيضَةٌ» ثم وكده بقوله ﷺ: «على كلِّ مُسْلِمٍ». فكان تفسير ذلك وتفصيله أن علم هذه الخمس التى هى أبنية الإسلام فرض لأجل فرضها.

وقد روينا عن رسول الله ﷺ من طريق مرسل أنَّهُ مَرَّ برجلٍ والناسُ مجتمعون عليه، فقال: ما هذا؟ فقالوا: رجل علامة، فقال: بماذا؟ قالوا: بالشعر والأنساب وأيام العرب؟ فقال: «هذا عِلْمٌ لاَ يَضُرُّ جهلُه»، وفى لفظ آخر: «عِلْمٌ لا ينفعُ وَجَهْلٌ لا يَضُرُّ». وروينا فى الخبر: «إنّ من العلم جهلاً وإنّ من القول عِيًّا». وفى

الخبر الآخر: «قليلٌ من التوفيق خيرٌ من كثيرٍ من العلم». وفى خبر غريب: «كُلُّ شَيْءٍ يَحْتَاجَ إلى العلْم، والعلْمُ يَحْتَاجُ إلى التَّوْفِيق». والخبر المشهور قوله ﷺ: «أعوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لا يَنْفَعُ». فسماه علمًا إذ له معلوم، وأن أصحابه علماء عند أصحابهم، ثم رفع المنفعة عنه واستعاذ بالله منه.

وقد روينا فى خبر: «إن الشيطان ربمَا سَبَقكم بالعلم. قلنا: يا رسول الله، كيف يسبقنا بالعلم؟ قال: يقولُ: اطلب العلمَ، ولا تَعْمَلْ حتى تعلمَ، فلا يزالُ فى العلم قائلاً وللعمل مسوِّفًا حتى يموتَ وما عَمِلَ».

ففى هذا الخبر دليلان؛ أحدهما: أنه أريد به طلب فضول العلم الذى لا نفع له فى الآخرة، ولا قربة فى طلبه من الله. والثانى: أن العلم المفضلَ المندوبَ إليه إنما هو الذى يقتضى العمل، لأن النبى ﷺ لا يأمر بعمل بغير علم، ولا يكره طلب علم للعمل به، ألا تسمع إلى قوله ﷺ فى الخبر الآخر: «فَضْلُ مَنْ عَلِمَ أحَبُّ إلىَّ مِنْ فَضْلِ مَنْ عَمِلَ، وَخَيْرُ دِينكُمُ الوَرَعُ».

ذكر فضل علم المعرفة واليقين على سائر العلوم وكشف طريق علماء السلف الصالح من علماء الدنيا والآخرة

قُبض رسولُ الله ﷺ عن ألوف من صحابته، كلُّهم علماء بالله، فقهاء عن الله تعالى، أهلُ رضوان من الله تعالى، ولم ينصِّب واحدٌ نفسه إلى الفتيا، ولا حُملت عنه الأحكامُ والقضايَا، إلا بضعة عشر رجلاً.

وكان ابن عمر إذا سُئل عن الفتيا قال: اذهب إلى الأميرِ الذى تقلّد أمورَ الناس فضَعْها فى عنقه. ورُوِى ذلك عن أنس، ثم جماعة من الصحابة والتابعين بإحسان.

وكان ابن مسعود يقول: إن الذى يفتى الناسَ فى كل ما يستفتونه لَمجنونٌ.

وكان ابن عمر رضى الله عنهما يُسأل عن عشر مسائل، فيُجيب عن مسألةٍ،

ويسكتُ عن تسعة. وكان ابن عباس على ضدٍّ ذلك، كان يُسأل عن عشرة فيجيب عن تسعة ويسكت عن واحدة.

وكان من الفقهاء من يقول «لا أدرى» أكثر من أن يقول «أدرى». منهم: سفيان الثورى، ومالك بن أنس، وأحمد بن حنبل، وفضيل بن عياض، وبشر بن الحارث، رضى الله عنهم. وكانوا فى مجالسهم يجيبون عن بعضٍ ويسكتون عن بعض، ولم يكونوا يجيبون عن كل ما يُسألون عنه.

وروينا عن عبد الرحمن بن أبى ليلى قال: أدركتُ فى هذا المسجد مائةً وعشرينَ من أصحاب رسول الله ﷺ ما منهم من أحدٍ يُسأل عن حديثٍ أو فتيا إلا وَدَّ أنَّ أخاه كفاه ذلك.

وفى لفظ آخر: كانت المسألةُ تُعرض على أحدِهم فَيَرُدُّها إلى الآخر، ويردُّها الآخر للآخر، حتى ترجعَ إلى الذى سُئل عنها أول مرة.

وروى عن ابن مسعود وابن عمر وغيرهما من التابعين، وقد رويناه مسندًا: لا يفتى الناسَ إلا ثلاثةٌ: أميرٌ أو مأمورٌ أو متكلِّف.

تفصيل ذلك: أن الأمير هو الذى يتكلم فى علم الفتيا والأحكام، كذلك كان الأمراء يُسألون ويفتون. والمأمور: الذى يأمره الأمير بذلك فيقيمه مقامه، ويستعين به لشغله بالرعية. والمتكلف: هو القاصُّ الذى يتكلم فى القصص السالفة، ويقصُّ أخبار مَنْ مضى؛ لأن ذلك لا يُحتاج إليه فى الحال، ولم يُندب إليه من العلوم، وقد تدخله الزيادة والنقصان والاختلاف، فلذلك كُرِه القَصَصُ، فصار القاصُّ من المتكلفين.

وقد جاء فى لفظ الحديث الآخر بتأويل معناه: «لا يتكلم على الناس إلا ثلاثة: أمير، أو مأمور، أو مُراءٍ».

فكان قولهم أمير: هو المفتى فى الأقضية والأحكام كما ذكرنا آنفًا، ومعنى مأمور: هو العالم بالله عزّ وجلّ، الزاهد فى الدنيا، يتكلم فى علم الإيمان واليقين، وفى علم القرآن، والحث على مصالح أعمال الدين بأمر من الله تعالى،

أذن الله تعالى له فى ذلك بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧]. وقد كان أبو هريرة وغيره يقول: لولا آيتان فى كتاب الله تعالى ما حدَّثتكم بحديث أبدًا، ثم يتلو هذه والآية التى قبلها، ويقول: قال رسول الله ﷺ: «مَا أَتَى اللهُ تعالى عَالِمًا عِلْمًا إلاَّ أَخَذَ عَلَيْهِ مِنَ المِيثاقِ مَا أَخَذَ عَلَى النَّبِيِّينَ أنْ يُبيِّنَهُ وَلا يَكْتُمَه».

وأما المرائى: فهو المتكلمُ فى علوم الدنيا الناطقُ عن الهوى، يستميل بذلك قلوبَ الناس، ويجتلب بكلامه المزيد من الدنيا والرفعة فيها.

وقال بعض العلماء: كان الصحابة والتابعون بإحسان يتدافعون أربعة أشياء: الأمانة، والوديعة، والوصية، والفتيا. وقال بعضهم: كان أسرعهم إلى الفتيا أقلَّهم علمًا، وأشدُّهم دفعًا لها وتوقفًا عنها أورعهم.

وقال بعض السلف: كان شغلُ الصحابة والتابعين بإحسانٍ فى خمسة أشياء: قراءة القرآن، وعمارة المساجد، وذكر الله تعالى، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر.

وفى الخبر عن رسول الله ﷺ: «كلُّ كلام ابن آدم عليه لا له إلا ثلاثًا: أمرٌ بمعروف، أو نهى عن منكر، أو ذكْرُ الله تعالى». وقال الله أصدق القائلين: ﴿لاَ خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أو مَعْرُوفٍ أو إصلاَحٍ بَيْنَ النَّاس﴾ [النساء: ١١٤].

ورأى بعضُ أصحاب الحديث بعضَ فقهاء الكوفة من أهل الرأى بعد موته فى المنام قال: فقلتُ له: ما فعلتَ فيما كنتَ عليه من الفتيا والرأى؟ قال: فكَرَبَ وجهه، وأعرض عنى، وقال: ما وجدناه شيئًا، وما حَمدْنا عاقبتَه.

وحدَّثونا عن على بن نصر بن على الجهْضَمى، عن أبيه، قال: رأيتُ الخليل بن أحمد فى النوم بعد موته فقلت: ما أجد أعقل من الخليل لأسْألنَّه، فقال لى: أرأيتَ ما كنَّا فيه؟ فإنّى لم أر شيئًا، ما رأيتُ أنفعَ من قول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر.

وحدَّثونا عن بعض الأشياخ قال: رأيت بعضَ العلماء فى المنام فقلت له: ما فعلتْ تلك العلوم التى كنا نجادلُ فيها ونناظر عليها؟ قال: فبسط يده ونفخ فيها، وقال: طاحت[1] كلها هباءً منثورًا، ما انتفعت إلا بركعتين حصلتا لى فى جوف الليل.

وحُدِّثتُ عن أبى داود السجستانى قال: كان بعضُ أصحابنا كثيرَ الطلب للحديث، حسنَ المعرفة به، فمات فرأيته فى المنام، فقلتُ: ما فعل الله بك؟ فسكتَ. فأعدتُ عليه، فسكت. فقلت: غفر الله لك؟ قال: لا. قلت: لِمَ؟ قال: الذنوب كثيرة، والمناقشة دقيقة، ولكن قد وُعدت بخير، وأنا أرجو خيرًا. قلتُ: أى الأعمال وجدتَها فيما هناك أفضل؟ قال: قراءة القرآن، والصلاة فى جوف الليل. قلتُ: فأيما أفضل ما كنت تقرأ أو تقرئ؟ فقال: ما كنت أقرأ. قلتُ: فكيف وجدتَ قولَنا: فلانٌ ثقةٌ، وفلانٌ ضعيفٌ، فقال: إن خَلَصتْ فيه النيةُ لم يكن لك ولا عليك.

وحُدِّثتُ عن بعض الشيوخ قال: حدثنى أحمد بن عمر الخاقانى قال: أُريت فى منامى كأنى فى طريق أمضى إذ صادفنى رجل، فأقبل علىَّ وهو يقول: **﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِى الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾** [الأنعام:١١٦]، فقلتُ له: لى تعنى؟ فقال: لك، ولذاك الذى خَلْفك. فالتفتُ فإذا سَرِىٌّ رحمه الله، فأعرضتُ عن الرجل، وأقبلتُ على السَّرِىِّ وقلت: هذا أستاذنا ومؤدِّبنا الذى كان يؤدبنا فى الدنيا، ثم قلتُ له: يا أبا الحسن إنك قد صرت إلى الله تعالى فأخبرنا بأى عمل تقبَّله الله تعالى؟ فأخذ بيدى، ثم قال: تعالَ، فجئتُ أنا وهو إلى بَنِيَّة مثل الكعبة، فوقفنا إلى جانبها إذ أشرف علينا من البنِيَّة شخص، فأضاء ذلك الموضعُ منه، فأومأ سرىٌّ إليه، وأشالنى نحوه، وكان سرىٌّ قصيرًا، وأنا أيضًا قصير، فمد ذلك الشخص الذى كان فوق البَنِيَّة يده فأخذنى، فشالنى إليه، فلم أقدر أفتح عينى من أنوار كانت فى ذلك المكان. ثم قال لى: قد سمعتُ كلامك مع الشيخ،

(١) طاح الشىء: فَنِىَ وذهب.

كل خُلُق فى القرآن محمود تَفْعَلُه، وكل خُلُق فى القرآن مذموم تنتهى عنه، وحسبك هذا.

وقد حدَّثونا عن سرى السقطى قال: كان شابٌّ يطلب علمَ الظاهرِ ويواظبُ عليه، ثم ترك ذلك، وانفرد، واشتغل بالعبادة، فسألت عنه فإذا هو قد اعتزل الناس وقعد فى بيته يتعبَّد، فقلت له: قد كنتَ حريصًا على الطلب لعلم الظاهر، فما بالك انقطعت؟ قال: رأيتُ فى النوم قائلاً يقول لى: كم تضيِّع العلم ضيَّعك الله، فقلتُ: إنى لأحفظه. فقال: إنّ حفظَ العلمِ العملُ به، فتركتُ الطّلب، وأقبلتُ على النظر فيه للعمل.

وقد كان ابن مسعود رضى الله عنه يقول: ليس العلم بكثرةِ الروايةِ وإنّما العلم الخشية. وقال غيره من الفقهاء: إنما العلم نور يقذفه الله تعالى فى القلب.

وكان الحسن البصرى رضى الله عنه يقول: اعلموا ما شئتم أن تعلموا فوالله لا يؤجركم الله تعالى عليه حتى تعملوا، فإنّ السفهاءَ هِمّتهم الرواية، وإنّ العلماءَ همتهم الرعاية. وروينا عنه أيضًا أنه قال: إن الله لا يعبأ بذى قولٍ ورواية، إنّما يعبأ بذى فهم ودراية.

وقال أبو حصين: إنّ أحدَهُم ليفتى فى مسألة لو ورَدَتْ على عمر بن الخطاب رضى الله عنه لجمعَ لها أهلَ بدر. وقال غيره: يُسأل أحدُهم عن الشىء، فيُسرع للفتيا، ولو سُئل أهل بدر عنها لأعْضَلَتْهُم.

وقال عبد الرحمن بن يحيى الأسود، وغيره من العلماء: إن علم الأحكام والفتاوى كان الولاة والأمراء يقومون به، وترجع العامة إليهم فيه، ثم ضَعُفَ الأمر، وعجزت الولاةُ عن ذلك؛ لميلهم إلى الدنيا، وشُغلِهم بالحروب عنها، فصاروا يستعينون على ذلك بعلماءِ الظاهرِ، وبالمفتين فى الجوامع، فكان الأميرُ إذا جلس للمظالم قعدَ عن يمينه وشماله مفتيان، يرجع إليهما فى القضاء والأحكام، ويأمر الشُّرَط بمثل ذلك. فكان من الناس من يتعلم علم الفتيا والقضاء؛ ليستعين بهم الولاةُ على الأحكام والقضاء، حتى كثر المفتون؛ رغبةً فى الدنيا وطلبًا للرياسة. ثم اختلف الأمر بعد ذلك؛ حتى تركت الولاةُ الاستعانةَ بالعلماء، ومما

يدلك على ذلك حديث عمر رضى الله عنه حيث كتب إلى ابن مسعود عقبة بن عامر: ألم أُخبر أنك تفتى الناس، ولستَ بأمير ولا مأمور؟

وفى حديث أبى عامر الهروى قال: حججت مع معاوية، فلما قَدِمْنا مكة حُدِّث عن رجل يقضى ويفتى الناس؛ مولًى لبنى مخزوم، فأرسل إليه فقال: أُمِرتَ بهذا؟ قال: لا. قال: فما حملك عليه؟ قال: نفتى وننشر علمًا عندنا. فقال معاوية: لو تقدمتُ إليك قبل يومى هذا لَقطعتُ منك طابقًا[1]، ثم نهاه.

ولم يكونوا يقولون ذلك فى علم القلوب، ولا علم الإيمان واليقين، بل قد كتب عمر إلى أمراء الأجناد: احفظوا ما تسمعون من المطيعين، فإنهم تُجلَّى لهم أمورٌ صادقة. وقد كان عمر رضى الله عنه يجلس إلى المريدين فيستمع إليهم.

وفى الخبر: إذا رأيتم الرجل قد أُوتى صمتًا وزهدًا فاقتربوا منه فإنه تلقَّى الحكمة.

وقال بعض أصحاب الحديث: رأيت سفيان الثورى حزينًا، فسألته فقال وهو بَرِمٌ: ما صرنا إلا مَتْجرًا لأبناء الدنيا. قلت: وكيف؟ قال: يَلزمنا أحدُهم، حتى إذا عُرِف بنا وحَمَلَ عنا جُعل عاملاً أو جابيًا أو قهرمانًا.

وكان الحسن يقول: يتعلم هذا العلمَ قومٌ لا نصيب لهم منه فى الآخرة، يحفظ الله تعالى بهم العلم على الأمة لئلا يضيع.

وقال المأمون رحمه الله: لولا ثلاثٌ لخربت الدنيا: لولا الشهوةُ لانقطع النسلُ، ولولا حبُّ الجمع لبطلت المعايش، ولولا حبُّ الرياسة لذهب العلم.

فهذا كلُّه وصفُ علماء الدنيا وأهل علم الألسنة. وأما علماءُ الآخرة وأهلُ المعرفة واليقين فإنهم كانوا يهربون من الأمراء ومن أتباعهم وأشياعِهم من أهل الدنيا، وكانوا يَنتقصون علماء الدنيا، ويطعنون عليهم، ويتركون مجالستهم.

وقال ابن أبى ليلى: أدركت فى هذا المسجد مائةً وعشرينَ من الصحابة، ما سُئل أحدُهم عن حديث ولا استُفْتى فى فُتيا إلا وَدَّ أن صاحبه قد كفاه ذلك.

(١) الطابق: العضو من أعضاء الإنسان كاليد والرجل ونحوهما.

وقال مرة: أدركتُ ثلاثمائةً يُسأل أحدُهم عن الفتيا أو الحديث فيردُّ ذلك إلى الآخر، ويُحيل الآخر على صاحبه، وكانوا يتدافعون الفتيا فيما بينهم، ولم يكونوا إذا سُئل أحدهم عن مسألة من علم القرآن أو علم اليقين والإيمان يُحيل على صاحبه ولا يسكت عن الجواب.

وقد قال الله سبحانه: ﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣] فهم أهلُ الذكرِ لله تعالى، وأهلُ التوحيدِ والعقل عن الله تعالى. ولم يكونوا يَتلقوْنَ هذا العلم دراسةً من الكتب، ولا يتلقاه بعضُهم عن بعض بالألسنة، إنّما كانوا أهلَ عَمَلٍ وحسنِ معاملات. فكان أحدُهم إذا انقطع إلى الله تعالى، واشتغل به، استعمله المولى بِخدمتِه بأعمال القلوب. وكانوا عنده فى الخلوة بين يديه لا يذكرون سواه، ولا يشتغلون بغيره. فإذا ظهروا للناس فسألوهم ألهمهم الله تعالى رُشْدَهم، ووفَّقهم لسديد قولهم، وآتاهم الحكمة ميراثًا لأعمالهم الباطنة عن قلوبهم الصافية، وعقولهم الزاكية، وهمَمِهم العالية. فآثرهم بحُسن توفيقه أن ألهمهم حقيقةَ العلم، وأطلعهم على مكْنونِ السِّر، حين آثروه بالخدمة، وانقطعوا إليه بحسن المعاملة، فكانوا يجيبون عما عنه يسألون بحُسن أثَرة الله تعالى لهم، وبجميل أثره عندهم. فتكلموا بعلم القدرة، وأظهروا وَصْفَ الحكمةِ، ونطقُوا بعلوم الإيمان، وكشفوا بواطنَ القرآن.

وهذا هو العلمُ النافعُ الذى بين العبدِ وبين الله تعالى، وهو الذى يلقاه به، ويسأله عنه، ويثيبه عليه، وهو ميزان جميع الأعمال.

وعلى قَدْرِ علم العبد بربه تعالى تَرْجَحُ أعماله، وتُضاعَفُ حسناته، وبه يكون عند الله تعالى من المقرَّبين؛ لأنّه لديه من الموقنين، فهم أهلُ الحقائق الذين وصفهم علىٌّ عليه السلام وفضلهم على الخلائق، فقال فى وصفهم[1]:

(١) هذا من كلام الإمام على ـ رضى الله عنه ـ فى: نهج البلاغة، بشرح الشيخ محمد عبده، ٢/ ١٧١ ـ ١٧٤، يخاطب به كُميل بن زياد النخعى. وهناك بعض الاختلافات اليسيرة بين نص نهج البلاغة ونص القوت هنا. وانظر: المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة، كاظم محمدى، ص١١٢.

القلوبُ أوعية، وخيرُها أوعاها. والناس ثلاثة: عالمٌ ربانيٌّ، ومتعلمٌ على سبيل نجاة، وهَمَجٌ رَعاعٌ أتباعُ كلِّ ناعقٍ، يَميلون مع كلِّ ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجؤوا إلى رُكْن وثيق.

العلمُ خيرٌ من المال؛ العلم يحرسُكَ وأنت تحرس المال. والعلمُ يُزكيه العملُ، والمال تَنْقصهُ النفقةُ. محبة العلم دِينٌ يُدان به، به يكسب [الإنسانُ](١) الطاعةَ فى حياته، وجميلَ الأُحْدوثة بعد مَوْته. العلمُ حاكمٌ والمال محكومٌ عليه، ومنفعةُ المال تزول بزواله. مات خُزَّانُ الأمْوالِ وهُمْ أحياء، والعلماءُ باقون ما بقى الدهرُ.

ثم تنفَّس الصَّعَداء فقال: ها إنَّ ههنا علمًا جمًا(٢)، لو أجد له حَمَلَةً! بلى أجد لَقِنًا غيرَ مأمونٍ [عليه](٣)، يستعمل آلةَ الدينِ فى طلب الدنيا، ويستطيل بنِعَم الله تعالى على أوليائه(٤)، ويستظهر بحججه على خلقه أو منقادًا لأهل الحقِّ(٥)، ينزرع(٦) الشكُّ فى قلبه بأوّل عارضٍ من شُبْهةٍ لا بصيرة له [فى أحنائه](٧)، وليسا من رُعاة الدين فى شىء، ألاَ لا ذَا ولا ذاك. مَنْهُومٌ(٨) باللذة، سَلِسُ القيادة فى طلب الشّهوات، أو مُغرًى بجمع الأموال والادّخار، منقادٌ لهواه، أقربُ [شىء] شبهًا بهما الأنعامُ السّائمة. اللّهم هكذا يموت العلمُ إذا مات حاملوه(٩).

بل لا تخلو(١٠) الأرضُ من قائم لله تعالى بحجّة: إمّا ظاهرٌ مكشوف، وإما

---

(١) من النهج.

(٢) بعده فى النهج: «وأشار إلى صدره».

(٣) من نهج البلاغة.

(٤) فى النهج: «مستعملاً آلة الدين فى طلب الدنيا، ومستظهرًا بنعم الله تعالى على أوليائه» وكلمة «آلة» ساقطة من المطبوعة وأثبتها من (ك).

(٥) فى (ك): «أو منقادًا لجهله».

(٦) فى النهج: «ينقدح».

(٧) من النهج.

(٨) فى (ط): «فمفهوم» وهى محرفة وأثبت ما فى (ك)، وفى النهج: «أو منهومًا».

(٩) عبارة النهج: «كذلك يموت العلم بموت حامليه».

(١٠) فى نهج البلاغة: «اللهم بلى، لا تخلو».

خائف مقهور؛ لئلا تبطل حججُ الله تعالى وبيِّناتُهُ، [وكم ذا؟ وأين أولئك؟][(١)]، أولئك الأقلُّون عددًا، الأعْظمون قدرًا. أعيانُهم مفقودةٌ، وأمثالُهم فى القلوب موجودة. يحفظ الله تعالى بهم حججَه، حتى يُودعَها نظراءَهم، ويزرعوها فى قلوب أشباهِهِم. هجم بهم العلمُ على حقيقة الأمر[(٢)] فباشروا روحَ اليقين، فاستلانوا ما استوعر منه المترَفُون، وأنِسُوا بما استَوْحَشَ منه الغافلون[(٣)]. صَحِبوا الدنيا بأبدانٍ أرواحُها معلَّقة بالمحلِّ الأعلى، أولئك أولياءُ الله من خلقه[(٤)]، وعماله فى أرضه، والدعاةُ إلى دينه، ثم بكى، وقال: وا شوقاهُ إلى رُؤْيتهم[(٥)].

فهذه كلها أوصافُ علماءِ الآخرة، وهذه نعوتُ علمِ الباطنِ وعلمِ القلوب لا علم الألسنة.

وكذلك وصفهم معاذُ بن جبل رضى الله عنه فى وصف العلم بالله تعالى فيما رويناه من حديث رجاء بن حَيْوَةَ بن عبد الرحمن بن غُنم عن معاذ[(٦)] قال: تَعَلَّمُوا العِلْمَ فَإنَّ تَعَلُّمَهُ لله خَشْيَةٌ، وَطَلَبَهُ عبادةٌ، ومُدَارَسَتَهُ تسبيحٌ، والبحثَ عنه جهادٌ، وتعليمَه لمن لا يعلمُه صدقةٌ، وبَذْلَه لأهله قُرْبةٌ. وهو الأنيسُ فى الوحدة، والصاحبُ فى الخلوةِ، والدليلُ على السرّاء والضرّاء، والزيْنُ عند الأخلاَّءِ، والقريبُ عند الغُرباء، [ومعالمُ الحلال والحرام][(٧)]، ومنارُ سبيل الجنة، يرفع الله تعالى به أقوامًا، فيجعلهم فى الخير قادةً وهداةً يُقتدى بهم، أدلّة فى الخير. تُقْتَصُّ آثارهم، وتُرْمَقُ أعمالُهم، ويُقْتدَى بفعالهم، ويُنْتَهى إلى رأيهم، وترغب الملائكة فى خلَّتهم، وبأجنحتها تمسحهم، حتى كل رَطْب ويابس لهم مستغفر، حتى حيتانُ البحر وهوامه، وسباعُ البر ونعامه، والسّماءُ ونجومها؛ لأن العلمَ حياةُ

(١) «كم» ساقطة من المطبوعة، وأضفت من نهج البلاغة «ذا»، و «أولئك» الأولى ليستقيم الكلام.
(٢) فى (ك): «حقائق اليقين» وفى نهج البلاغة: «حقيقة البصيرة».
(٣) فى النهج: «الجاهلون».
(٤) فى نهج البلاغة: «أولئك خلفاء الله فى أرضه».
(٥) انتهى الخبر بتمامه.
(٦) خبر معاذ بن جبل هذا وكلامه فى: الحلية ١/ ٢٣٩.
(٧) الزيادة من الحلية.

القلوب من العمى، ونورُ الأبصار من الظلم، وقوّةُ الأبدان من الضعف، يبلغ به العبدُ منازلَ الأبرارِ والدرجات العلى. والتفكّرُ فيه يُعدَل بالصيام، ومدارستُه بالقيام. به يطاع الله تعالى، وبه يُعبد، وبه يُوحَّد، وبه يُتورَّع، وبه تُوصَل الأرحام. العلم إمام، والعَمَلُ تابعُه، تُلْهَمُه السُّعداءُ، وتُحْرَمُه الأشْقياءُ(١).

فهذه أوصاف علماء الآخرة، ونعت العلم الباطن.

وقد كان من أفضل الأمراء بعد الخلفاء الأربعة: عمرُ بن عبد العزيز، فحدَّثونا عن زكريا بن يحيى الطائى قال: حدثنى عمى زجر بن حصين أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى الحسن رحمهما الله: أما بعد، فأشِرْ علىَّ بقومٍ أستعينُ بهم على أمر الله تعالى. فكتب إليه: أما أهلُ الدين فلن يريدوك، وأما أهلُ الدنيا فلن تريدهم، ولكن عليك بالأشْراف فإنهم يصونون شرفهم أن يُدنِّسوه بالخيانة.

وكان الحسنُ يتكلمُ فى بعض علماء البصرة ويذمُّهم، وكان أبو حازمٍ وربيعةُ المدَنيَّان يذمَّان علماءَ بنى مروان. وقد كان الثورى وابن المبارك وأيوب وابن عون يتكلمون فى بعض علماء الدنيا من أهل الكوفة.

وكان الفضيلُ وإبراهيمُ بن أدهم ويوسفُ بن أسباط يتكلمون فى بعض علماء الدنيا من أهل مكة والشام، كرهنا تسمية المتكلَّم فيهم لأنّ السّكوتَ أقربُ إلى السّلامة.

وكان بشر يقول: حدثنا بابٌ من أبوابِ الدنيا: إذا سمعتَ الرجلَ يقول: حُدثنا فإنّما يقول: أوسعوا لى.

وقد كان سفيانُ الثورى إمامَهُ منْ قَبْله يقول لأهلِ عِلم الظاهر: طلبُ هذا ليس من زاد الآخرة.

وقال ابن وهب: ذُكر طلبُ العلم عند مالك، فقال: إنّ طلبَ العلم لحسنٌ، وإن نشرَه لحَسنٌ، إذا صحَّت فيه النّية. ولكن انظر ماذا يلزمك من حين تصبح إلى حين تمسى، ومن حين تمسى إلى حين تصبح، فلا تؤثرنّ عليه شيئًا.

(١) انتهى كلام معاذ، وهو كذلك فى الحلية مع اختلاف يسير فى بعض الألفاظ.

وقال أبو سليمان الداراني: إذا طلبَ الرجلُ الحديثَ، أو تزوّج، أو سافر في طلب المعاش، فقد ركن إلى الدنيا[١].

وأما علم الإيمان والتوحيد، وعلم المعرفة واليقين، فهو مع كل مؤمن موقن حسنِ الإسلام. وهو مقامُه من الله، وحالُه بين يدى الله، ونصيبُه منه في دَرَجات الجنة، به يكون من المقرَّبين عنده. والعلمُ بالله تعالى والإيمانُ به قرينان لا يفترقان. فالعلمُ بالله تعالى هو ميزان الإيمانِ، به يَستَبِينُ المزيد من النقصان؛ لأنّ العلمَ ظاهرُ الإيمانِ يكشفه ويظهره، والإيمانَ باطنُ العلمِ يهيجه ويشعله. فالإيمانُ مداد العلم وبصره، والعلم قوّة الإيمان ولسانه. وضَعْفُ الإيمان وقوّته ومزيدُه ونقصه بمزيدِ العلمِ بالله عزّ وجلّ ونقصِه وقوّته وضَعفِه.

وفى وصية لقمان الحكيم لابنه: يا بنى، كما لا يصلح الزرعُ إلا بالماء والتراب، كذلك لا يصلح الإيمانُ إلا بالعلم والعمل.

ومَثَلُ المشاهدة من المعرفة من اليقين من الإيمان كمَثَل النّشا من الدّقيق من السويق من الحنطة. والحِنطةُ تجمع ذلك كله، كذلك الإيمان أصل ذلك. والمشاهدةُ أعلى فروعِه، كالحِنطة أصلُ هذه المعانى، والنّشا أعلى فروعِها.

فهذه المقامات موجودةٌ فى أنوار الإيمانِ يمدُّها علمُ اليقين.

ثم إنّ المعرفةَ على مقامين: معرفةُ سمعٍ، ومعرفةُ عِيان. فمعرفة السّمع فى الإسلام، وهو أنهم سَمِعوا به فعرفوه، وهذا هو التصديق من الإيمان. ومعرفةُ العِيان فى المشاهدة، وهو عين اليقين.

والمشاهدةُ أيضًا على مقامين: مُشاهدةُ الاستدلال، ومشاهدة الدليل عنها. فمشاهدةُ الاستدلالِ قبلَ المعرفةِ، وهذه معرفةُ الخبر، وهو فى السّمعِ؛ لسانُها

---

(١) يتحدث أبو سليمان عن مقامه هو، لكن طلب العلم والحديث والزواج لا يصدّ عن الوصول إلى أعلى المقامات؛ بل هى أمور مطالب بها أهل الله، إذ أمرت السنة بذلك. ومثل هذه الأقوال أورثت الجهل لكثير من أهل الطرق، وساعدت على ظهور البدع والابتداع. وأبو سليمان نفسه سيروى عنه ما يخالف هذه المقولة، فى كتاب العلم.

القول، والواجدُ بها واجدٌ بعلمٍ [وحدها](١) علمَ اليقين من قوله تعالى: ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّى وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ [النمل: ٢٢ ـ ٢٣]. فهذا العلم قبل الوجد، وهو علم السمع، وقد يكون سببه التعليم، ومنه قوله ﷺ: «تَعلَّمُوا اليَقين» أى جالسوا الموقنين، واسمعوا منهم علمَ اليقين؛ لأنهم علماؤه.

وأما مشاهدةُ الدليل: فهى بعد المعرفة التى هى العيان، وهو اليقين، لسانُه الوجدُ، والواجدُ بها واجدُ قُرْبٍ، وبعد هذا الوجدِ علمٌ من عينِ اليقين، وهذا يتولاه الله تعالى بنوره على يده بقدرته. ومنه قوله ﷺ: «فَوَجدْتُ بَرْدَهَا فعلمت». فهذا التعليم بعد الوجدِ من عين اليقين باليقين، وهذا من أعمال القلوب. وهؤلاء علماء الآخرة، وأهلُ الملكوت، وأربابُ القلوب، وهم المقرَّبون من أصحاب اليمين.

وعلمُ الظاهر من علم الملكِ، وهو من أعمالِ اللسان، والعلماءُ به موصوفون بالدنيا، وصالحوهم أصحابُ اليمين.

وجاء رجلٌ إلى معاذ بن جبل فقال: أخبرنى عن رجلين؛ أحدهما مجتهدٌ فى العبادة، كثيرُ العمل، قليلُ الذنوب، إلا أنّه ضعيف اليقين، يعتريه الشّك فى أموره. فقال معاذ: ليُحبِطنّ شكُّه أعمالَه. قال: فأخبرنى عن رجلٍ قليل العمل، إلا أنه قوى اليقين، وهو فى ذلك كثير الذنوب. فسكتَ معاذٌ. فقال الرجل: والله لئن أحبط شكُّ الأوّلِ أعمالَ برِّه، ليُحبطنّ يقينُ هذا ذُنوبَه كلَّها. قال: فأخذ معاذ بيده، وقام قائمًا، ثم قال: ما رأيتُ فقيهًا هو أفقه من هذا(٢).

وقد روينا معناه مسندًا قيل: يا رسول الله، رجل حسنُ اليقينِ، كثيرُ الذنوبِ، ورجلٌ مجتهدٌ فى العبادة، قليلُ اليقين. فقال: «ما من آدَمىّ إلا وله ذُنوب، ولكن من كانت غريزتُه العقل، وسجيتُه اليقين، لم تضره الذنوب؛ لأنه كلّما أذنب تابَ واستغفر ونَدِم، فتُكَفَّر ذُنوبه، ويبقى له فَضْلٌ يَدْخل به الجنّةَ».

(١) من (ك). وعبارة (ط): «يعلم علم اليقين».

(٢) فى (ط): «ما رأيت الذى هو أفقه من هذا» وأثبت ما فى (ك).

وروينا فى معناه من حديث أبى أمامة عن رسول الله ﷺ: «من أقلِّ ما أُوتيتم اليقين وعزيمة الصبر، ومن أُعطى حظَّه منهما لم يبال ما فاته من قيامِ الليلِ وصيام النهار». وفى وصية لقمان لابنه: يا بنى، لا يستطاع العمل إلا باليقين، ولا يعمل المرء إلا بقدر يقينه، ولا يقصر عاملٌ حتى يقصر يقينُه. وقد يعمل [الرجلُ العملَ][1] الضعيفَ إذا كان متيقنًا أفضل من عمل[2] القوى الضعيف فى يقينه. ومن يضعُف يقينُه تغلبه المحقِّرات من الإثم.

وقد كان يحيى بن معاذ يقول: إن للتوحيد نورًا، وللشرك نارًا، وإن نورَ التوحيدِ أحرقُ لسيّئات الموحِّدين من نار الشرك لحسنات المشركين.

واليقين على ثلاث مقامات[3]:

يقين معاينة: وهذا لا يختلف خبره، فالعالم به خَبير، وهو للصدِّيقين والشهداء.

ويقين تصديق واستسلام: وهذا فى الخبر، والعالم به مُخبر مسلم. وهذا يقين المؤمنين، وهم الأبرار، منهم الصالحون ومنهم دون ذلك، كقوله تعالى جده: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٢٢]. وقد يضعفُ هؤلاء بعدم الأسباب ونقصان المعتاد، ويَقوَوْن بوجودها وجريان العادة، ويُحجبون بنظرهم إلى الأواسط، ويكاشَفون بها، ويجعلون مزيدهم وأنسهم بالخَلْق، ويكون نَقْصُهُمُ ووحشَتُهم بفقدهم. ويكون من هؤلاء الاختلاف، ويتلوّنون بالخلاف؛ لتلوين الأشياءِ وتغيّرها [عَلَيْهم و][4] نقصِها.

المقام الثالث من اليقين: وهو يقينُ ظنٍّ يقوى بدلائل العلم والخبر وأقوالِ العلماء، ويجد هؤلاء المزيد من الله تعالى والنصيب منه لهم، ويضعف بفَقد الأدلّة وصمتِ القائلين. وهذا يقينُ الاستدلال، وعلوم هذا فى المعقول، وهو

(١) الزيادة من (ك).

(٢) فى (ط): «العمل» وأثبت ما فى (ك).

(٣) وانظر فى اليقين أيضًا: مدارج السالكين ٢/ ٤١٥.

(٤) الزيادة من (ك).

يقين المتكلمين من عموم المسلمين من أهل الرأى، وعلومِ العقل، والقياس، والنظر. وكلٌّ مُوقن بالله تعالى فهو على عِلمٍ من التوحيد والمعرفة، ولكنّ علمَهُ ومعرفته على قدر يقينه، ويقينَهُ من نحو صفاء إيمانه وقوّته، وإيمانَهُ على مقتضى معاملته ورعايته.

فأعلى العلومِ علمُ المشاهدة عن عينِ اليقين، وهذا مخصوصٌ للمقربين فى مقامات قربهم، ومحادثات مجالستهم، ومأوى أُنسهم، ولطيف تملُّقهم.

وأدنى العلومِ علمُ التسليم والقبول بعدم الإنكار، وفقدِ الشكوك. وهذا لعموم المؤمنين، وهو من علم الإيمان ومزيدِ التصديق، وهذا لأصحاب اليمين.

وبين هذين مقامات لطيفات من أعلى طبقات المقربين إلى أوسط المقامات، ومن أدنى طبقات أصحاب اليمين إلى أعلى أواسط الأعلين[1].

ذكر بيان تفضيل علوم الصمت، وطريق الورعين فى العلوم

روينا فى الخبر: «العلمُ ثلاثةٌ: كتابٌ ناطقٌ، وسنةٌ قائمةٌ، ولا أدْرِى». وعن الشعبى أنه قال: لا أدرى نصفُ العلم. يعنى: أنه من الورع. وكان الثورى رضى الله عنه يقول: إنّما العلمُ الرّخصةُ من ثِقَة، فأما التشديد فكل أحدٍ يحسنه. يعنى أن التورع والتوقف فى الأمور هو سيرة المؤمنين وإن لم يكونوا علماء، لأنّ الورعَ هو الجبنُ عن الإقدام، والهجومُ على الشبهات، والوقوفُ عند المشكلات بسكونٍ أو سكوت. واليقينُ هو الإقدامُ على الأشياء ببصيرة وتمكين، والقطعُ بالأمر على علم وخَبر.

فهذا صفة العلماء الموثوق بعلمهم لا يُحسنه سواهم. كما قال على[2] عليه السلام لابنه محمد بن الحنفية، وقدّمه أمامه يوم الجمل وجعل يقول له: أقدم أقدم، ومحمد يتأخر، وهو يركزه بقائم رمحه. فالتفت إليه محمد ابنه فقال: هذه والله الفتنة المظلمة العمياء. فوكزه علىٌّ برمحه ثم قال: تقدَّم لا أُمَّ لك، أتكون فتنةٌ

(١) فى (ك): «عليّين».

(٢) خبر الإمام على ليس فى المخطوط.

أبوك قائدها وسائقها؟!

والمرء إذا قال لا أدرى [تورّعًا][١] فقد عَمِلَ بعلمه، وقام بحاله، فله من الثواب بمنزلة مَنْ درى، وقام بحاله[٢]، وعمل بعلمه فأظهره. فلذلك كان قول «لا أدرى» نصف العلم. ولأنّ حُسْنَ مَنْ سكتَ لأجلِ اللهِ تعالى تورُّعًا كحُسن من نَطَق لأجله بالعلم تبرُّعًا.

وقال على بن الحسين، ومحمد بن عجلان: إذا أخطأ العالمُ قولَ «لا أدرى» أُصيبت مقاتِلُه[٣]. وقاله مالك والشافعى بعدهما.

واعلم أن مَثَلَ العلمِ والجهل فى تفاوت الناس فيهما مَثَلُ الجنون والعقل. والمجانين طبقات، كالعقلاء طبقات، وكذلك الجهالُ طبقات كالعلماء، فخصوصُ الجهال يشبهون عموم العلماء، فهم يشتبهونَ على العامة حتى يحسبوهم علماء وهم مكشوفون عند العلماء بالله تعالى، وكذلك العارفونَ يشتَبِهون على عموم العلماء وهم ظاهرون للموقنين.

وقال بعض العلماء: العلمُ علمان؛ علمُ الأمراء، وعلمُ المتقين. فأما علم الأمراءِ فهو علم القضايا، وأما علمُ المتقين فهو علم اليقين والمعرفة.

وقد قال الله سبحانه فى وصف علم المؤمنين، وذكر علم الإيمان: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]. فجعلَ المؤمنينَ علماءَ، فدلّ على أنّ العلمَ والإيمانَ لا يفترقان. والواو هنا عند أهل اللغة للمدح لا للجمع. فالعربُ إذا مدحت بالأوصاف أدخلت الواو للمبالغة فقالوا: فلان العاقل، والعالم، والأديب.

ومثل هذا قوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [النساء: ١٦٢]،

(١) ساقطة من (ط).
(٢) فى (ط): «فقام بحاله» وأثبت ما فى (ك).
(٣) فى (ط): «مقالته» وأثبت ما فى (ك).

فالمؤمنون هم الراسخون فى العلم، والمقيمون والمؤتون، كله نعت للمؤمنين الراسخين فى العلم[1]؛ ولذلك انتصب قوله تعالى: ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ﴾ ، لأنه مدح، والعرب تنصب وترفع بالمدح، وبمعناه قوله تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ [آل عمران:٧]، فوصف العلماء بالإيمان، كما وصف المؤمنين بالعلم، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ﴾ [الروم:٥٦].

ومن هذا حديث أنس عن النبى ﷺ: «أُمَّتِى خَمْسُ طبقات، كُلُّ طَبَقَة أربَعُونَ عَامًا، فَطَبَقتى وطَبَقَةُ أَصْحَابِى أَهْلُ العلمِ والإيمانِ، والذين يَلونَهُمْ إلى الثمانين أهلُ البرِّ والتقوى، والذين يلونَهم إلى مائة وعشرين أهْلُ التواصلِ والتراحم». فقرن العلمَ بالإيمانِ، وقَدَّمَهُمَا على سَائرِ الطَّبَقات.

وقد قرن اللهُ سُبحانَهُ الإيمانَ بالقرآنِ وهو علْمٌ، كما قرنَ القرآنَ بالإيمان، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ [المجادلة:٢٢]. قيل: القرآنُ، وتكون الهاءُ عائدةً إلى الله تعالى فى أكثر الوجوه، كما قال: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا﴾ [الشورى:٥٢]. فأهلُ الإيمانِ هم أهلُ القرآنِ، وأهلُ القرآنِ أهلُ اللهِ وخاصتُه.

وقال المهدىُّ لسفيانَ بن الحسين لما دخل عليه، وكان أحدَ العلماء: أمِنَ العلماء أنت؟ فسكت، فأعَادَ عليه فسكتَ. فقيل: ألا تجيبُ أميرَ المؤمنينَ؟ فقال: يَسْأَلُنى عن مَسْأَلَة لا جوَابَ لهَا: إن قلتُ لستُ بعالمٍ وقد قرأتُ كتابَ الله تعالى كنتُ كاذبًا، وإنْ قلتُ إنِّى عَالمٌ كنتُ جاهلاً.

وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع عن أنسٍ فى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:٢٨]. قال: من لم يخشَ اللهَ تعالى فليس بعالمٍ، ألا ترى أن داود عليه السلام قال ذلك بأنك جعلتَ العلمَ خَشْيَتَكَ، والحكمة والإيمان بك، فما عَلِمَ مَنْ لم يَخْشَكَ، وما حكَمَ مَنْ لم يُؤمنْ بك.

---

(١) كان ثمت اضطراب فى (ط) أصلحته من (ك).

وقد سَمّى عبدُ الله بنُ رواحةَ العلمَ إيمانًا، فكان يقولُ لأصحَابِه: «اقعدوا بنا نُؤْمِنْ ساعةً» فيتذاكرون علمَ الإيمانِ.

وقد جعل اللهَ للمؤمنينَ سَمْعًا وبَصرًا وقلبًا، وهذه طرائقُ العلمِ التى يُؤخَذُ العلمُ منها ويوجدُ بها، وهى أصولُ العلمِ والنعم التى أنعم اللهُ على الخلقِ بها وطالبهم بالشكرِ عليها، فقال سبحانه: **﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾** [النحل:٧٨]. فأثْبَتَ العلمَ بها بَعْدَ النفى بها له.

وقال تعالى فى وَصْفِ مَنْ لم يكُنْ مُؤمنًا ونَفَى الغُنية بالعلمِ بها: **﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أغنى عَنْهُمْ سَمْعُهُم ولا أبصَارُهُمْ وَلا أفئدَتُهم مِنْ شىءٍ إذْ كانُوا يَجْحدُونَ بآيات الله﴾** [الأحقاف:٢٦]. فمَنْ آمنَ بآياتِ الله تعالى أغنى عنه سمعُهُ وبصرُه وقلبُه، فكانت طُرقُ العِلمِ[١] إليه.

وقال عزَّ وجَلَّ فى معنى ذلك أيضًا: **﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ وَالفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤولاً﴾** [الإسراء:٣٦]. فلولا أنَّ العِلْمَ يقعُ بالسمعِ والبصرِ والقلبِ ما نهى عما لا يعلم هذه الأشياء. ففى النهى عن قَفْوِ ما لا يَعْلم هذه الأواسط ويتبعه إثباتُ العلم بها، فكلُّ مؤمنٍ هو ذو سمعٍ، وبصرٍ، وقلبٍ، [وكلُّ ذى سمع وبصرٍ وقلب][٢] فهو عالمٌ بفضلِ الله ورحمته.

وبما فضل الله تعالى به هذه الأمة على سائر الأمم وخصها به ثلاثة أشياء[٣]:

[الأول:] تبقيةُ الإسنادِ فيهم يأثُره خَلَفٌ عن سَلَفٍ، متصلاً إلى نبينا محمد ﷺ، وإلى من خلا من علمائنا. وإنّما كانوا فيهم يستنسخون الصحف، كلما

(١) فى (ك): «العلوم».

(٢) ساقطة من (ط) وأثبت ما فى (ك).

(٣) جمع العلامة أحمد بن محمد القسطلانى ـ توفى ٩٢٣هـ ـ طائفة كبيرة من خصائص الأمة المحمدية، فى كتابه: المواهب اللدنية، انظر: ٢/ ٧٠٧ ـ ٧٣٥، تحقيق صالح أحمد الشافى، المكتب الإسلامى.

اختلقَتْ صحيفةٌ جُدِّدت، فكان ذلك أثَرَةَ العلم فيهم.

والثاني: حفظ كتاب الله تعالى المنزَّل عن ظهر غيب. وإنّما كانوا يقرؤون كتبهم نظرًا، ولم يُحفظ جميعُ كتابٍ أنزله الله تعالى قط غيرُ كتابنا، هذا إلا ما ألهمه الله تعالى عُزيرًا من التوراة بعد أن كان بختُنصَّر أحرق جميعها عند إحراق بيت المقدس. فلذلك قال سِبط من اليهود: إنّه ابن الله تعالى، عزّ عن ذلك علوًا كبيرًا، لما خصّه به، وأفرده من حفظِ جميع التوراة.

والثالث: أن كلَّ مؤمنٍ من هذه الأمة يُسأل عن علم الإيمان، ويُسمع قولُه ويُؤخذ من رأيه وعلمه مع حداثة سنِّه. ولم يكونوا فيما مضى يسمعون العلم إلا من الأحبار والقسيسين والرهبان لا غير من الناس.

وزادها رابعةً على أمة موسى؛ عليه الصلاة والسلام: ثباتُ الإيمان فى قلوبهم، لا يعتريه الشك ولا يختلجه الشرك مع تقليب القلوب فى المعاصى. وكانت أمةُ موسى عليه السلام تتقلب قلوبهم فى الشك والشرك كما تتقلب جوارحهم فى المعاصى، فلذلك: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف:١٣٨] بعد أن رأوا الآياتِ العظيمةَ؛ من انفلاق البحر، وسلُوكِهم فيه طرائق، وأنجَاهم من الغرق، وأهلك فرعون.

وروينا بعض الأخبار أن فى بعض الكتب المنزلة: يا بَنَى إسرائيلَ، لا تقولوا العلم فى السماء مَنْ ينزلُ به، ولا فى تُخوم الأرَضين مَنْ يصعد به، ولا من وراءِ البحارِ مَنْ يعبره يأتى به. العلمُ مجعولٌ فى قلوبكم، تأدّبوا بين يدىَّ بآدابَ الروحانيين، وتخلّقوا لى بأخلاق الصدِّيقين، أُظهر العلمَ فى قلوبكم حتى يغطّيكم ويغمرَكم.

وفى الإنجيل مكتوب: لا تطلبوا علم ما لم تَعْمَلوا حتى تَعْمَلُوا بما قد علمتم.

وفى أخبارنا نحن: مَنْ عَمِلَ بِمَا يَعْلَمُ وَرَّثَهُ اللهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ. حتى قيل: من عمل بِعُشر ما يعلم ورّثه الله علم ما يجهل.

وقد روينا عن حذيفة بن اليمان: «إنّكم اليوم فى زمانٍ مَنْ تَرك فيه عُشر ما

يعلم هلك، ويأتى بعدكم زمانٌ من عَمِل منهم بعُشر ما يعلم نجا». هذا لقلة العاملين، وكثرةِ البطَّالين. وفى كتابِنَا المجمل المختصر: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا﴾ [البقرة: ١٩٤]، ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاسْمَعُوا﴾ [المائدة: ١٠٨].

واعلم أن مَنْ عَمِل بعِلْمٍ، أو نطَق به، فأصاب الحقيقةَ عند اللهِ تعالى، فله أجران؛ أجرُ التوفيق، وأجرُ العمل، وهذا مقامُ العارفين. ومَنْ نطَق بجهل، أو عمل به وأخطأ الحقيقة، فعليه وِزْرَان، وهذا مقامُ الجهال. ومَنْ قال أو عَمِل بعِلْمِه، وأخطأ الحقيقة، فله أجرٌ لأجل العلم، وهذا مقام علماء الظاهر. ومن قال بجهلٍ، أو عملَ عملاً وأصاب الحقيقة، فعليه وِزْرٌ؛ لتركِه طلبَ العلم، وهذا مقام جهلةِ العابدين(١).

ومَثَلُ العالم مَثَلُ الحاكمِ، وقد قسم النبى ﷺ الحكامَ ثلاثة أقسام فقال ﷺ: «القضاةُ ثلاثة: قاضٍ قضى بالحق وهو يعلمُ فذاك فى الجنة، وقاضٍ قضى بالجور وهو يعلم، أو قضى بالجور وهو لا يعلم، فهما فى النار».

ومن أحسن ما سمعت فى قوله تعالى [الأعراف: ٢٦]: ﴿يَا بَنِى آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِى سَوْءَاتِكُمْ﴾ قيل: العلم ﴿وَرِيشًا﴾ قيل: اليقين، ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾ أى: الحياء.

وروينا عن وهب بن منبِّه اليمانى فى معناه: «الإيمان عريانٌ، ولباسُه التقوى، وزينتُه الحياءُ، وثمرتُه العلم». وقد أسندَه حمزةُ الخراسانى عن الثورى، فرفعه إلى عبد الله عن النبى ﷺ. وقد رويناه أيضًا مسندًا.

وقال مسعر عن سعد بن إبراهيم، وسأله سائل: أى أهل المدينة أفقهُ؟ فقال: أتقاهم لله عزّ وجلّ.

وقال بعضُ العلماء: لو قال لى قائل: أىُّ الناس أعلم؟ لقلتُ: أورعُهم. ولو

---

(١) هذه الفقرة وبعض الأخبار اختلف موضعها هنا عما عليه فى المخطوط، فتركت المطبوعة على ما هى عليه لاختصار المخطوطة، كما أن النص لا يتأثر بذلك الترتيب على الأغلب.

قال لى قائلٌ: أىُّ أهل هذه المدينة خير؟ لقلت: تعرفون أنصحهم لهم؟ فإذا قالوا: نعم، قلت: هو خيرهم. وقال آخر: لو قيل لى: من أحمق الناس؟ لأخذتُ بيد القاضى فقلتُ: هذا.

وقال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاسْمَعُوا﴾ [المائدة:١٠٨]، ﴿اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً﴾ [الأحزاب:٧٠]. فجعل الله تعالى مفتاح القول السديد، والعلم الرشيد، والسمع المكين: التّقوى، وهى وصية الله تعالى مَن قبلنا وإيّانا، إذ يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ﴾ [النساء:١٣١]. وهذه الآية قطب القرآن، ومداره عليها كمدار الرحى على قُطبها[1].

وروينا عن عيسى [صلَّى الله على نبينا وعليه وسلم][2]: كيفَ يكونُ من أهل العلم مَنْ مسيره إلى آخرته، وهو مقبل على دنياه؟ وكيف يكونُ من أهلِ العلم مَنْ يَطلب الكلامَ ليُخبر به، وهو لا يطلبه ليعمل به؟

وقال الضحاكُ بن مزاحمٍ: أدركتُهم وما يتعلمُ بعضُهم من بعض إلا الورَعَ وهم اليومَ يتعلَّمونَ الكلامَ.

وفى الحديث: «ما ضَلَّ قومٌ بعدَ هُدًى كانوا عليه إلا أُعْطُوا الجَدَلَ، ثم قرَأَ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف:٥٨]»، وفى بعض الحديث: « ﴿فأمَّا الَّذينَ فى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ [آل عمران:٧] الآية: هُمْ أهلُ الجَدَلِ الذينَ عَنَى اللهُ تعالى فَاحْذَرُوهُم».

وعن بعض السَّلَف: يكونُ فى آخرِ الزَّمَانِ علماءُ يُغلَقُ عَنْهُم بَابُ العَمَلِ، ويُفتحُ عليهم بابُ الجَدَلِ. وفى بعضِ الأخبارِ: إنكم فى زمانٍ أُلهِمتُم فيه العلمَ، وسيأتى قومٌ يُلْهَمُونَ الجَدَلَ.

---

(١) فى (ط): «على الخشبان».
(٢) زيادة من (ك).

وعن ابن مسعود: أنتم اليومَ فى زمانٍ خَيْرُكُم فيه المُسَارِعُ، ويأتى بَعْدَكُم زمانٌ خيرُكُمْ فيه المتبيِّن. يعنى: الآنَ لبيانِ الحقِّ واليقينِ فى القرنِ الأول، وبَعْدَ ذلكَ فى زَمَانِنَا هذا لكثرةِ الشبهاتِ والالتباسِ ودخول المحدثَاتِ مَدَاخِلَ اللَّيلِ فى السَّيْرِ، فأشْكَلَ الأمْرُ إلا على الفَرْدِ الذى يعرفُ طرائقَ السَّلَفِ فَيجتنبُ الحدَثَ كُلَّه.

ورُوينا عَنْ بَعْضِ العُلَمَاء: إذا أرادَ اللهَ بِعَبْدٍ خيرًا فَتَحَ له بابَ العَمَلِ، وأغْلَقَ عَنْهُ بابَ الجَدَلِ، وإذا أراد الله بعبدٍ سوءًا أغلقَ عنه بابَ العَمَلِ، وفَتَحَ عليهِ بابَ الجَدَل.

وفى الخبر المشهورِ عَنْ رَسُول اللهِ ﷺ: «أبْغَضُ الخَلْقِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ الألَدُّ الخَصِمُ».

وقد روينا فى خبر: «الحياءُ والعِيُّ شُعْبَتَان منَ الإيمانِ، والبَذَاءُ والبيانُ شُعْبَتَانِ منَ النِّفَاقِ». وفى بَعْضِهَا مُفَسَّرًا: «والعِيَّ عِيُّ اللِّسَانِ لا عِيَّ القلب».

والخبرُ الآخَرُ، ما رَوَى الحكمُ بنُ عُيَيْنَة عَن عَبْدِ الرحمنِ بن أبى لَيْلَى قال: قالَ رسول الله ﷺ: «ما أُوتِىَ قَوْمٌ المنطقَ إلا مُنِعوا العَمَلَ». وفى الحديث: «إنَّ اللهَ تعالى لَيُبغِضُ البليغَ من الرجالِ الذى يَتخللُ الكلامَ بلسانِهِ كما تتخللُ الباقرةُ الخلاءَ بلسانِها»، والخلاءُ: هو الحشيشُ الرطبُ.

وكان أحمدُ بنُ حنبلٍ يقولُ: العلمُ إنَّما هو ما جاءَ مِنْ فَوق. يعنى: إلهامًا مِنْ غيرِ تعليمٍ. وقالَ أيضًا: علماءُ أهلِ الكلامِ زنادِقَةٌ. وقال قبله أبو يوسف: مَنْ طَلَبَ العلمَ بالكلامِ تَزَنْدَقَ.

بيان آخر فى فضل علم الباطن على الظاهر

مما يَدُلُّكَ على أنَّ العِلْمَ الذى فَضَّلَهُ العلماءُ، وأعْظَمُوا ذِكْرَهُ وَخَطَرَه، وَوَصَفُوا به العالِمَ ومدحُوه به، وجاءتْ بِفَضْلِه الآثارُ، ونُدبَ إليه، وفُضِّلَ فى الأخْبَارِ أهْلُه ـ إنَّما هُوَ العِلْمُ بالله تعالى، الدَّالُّ على اللهِ تعالى، الرَّادُّ إليه، الشَّاهدُ بالتوحيدِ

فى علمِ الإيمانِ واليقينِ وعلمِ المعرفةِ والمعاملة دونَ سائرِ علومِ الفُتْيَا والأحكامِ. إنَّهم يقولونَ مَنْ عَمِلَ بِعِلْمِه ويذكرون العَمَلَ بالعلمِ، ويَصفونَ جُملَته بالخشية والخشوع. فهذا إنّما هو علمُ القلوبِ لا علمُ اللسان، الذى يكون به العملُ وتتأتى عنه[1] المعاملات من أعمال الإيمان، مِثْل أعمالِ القلوب التى هى مقامات اليقين، وصفات المتقين، ومثلُ أعمالِ الجوارح من الصالحات التى هى مزيد الإيمان، والذين أربابُها: أهل الفقر والزهد، وذُو التوكل والخوف، وأصحابُ الشوق والمحبة.

وليس يَعنُون أن يكون الإنسانُ إذا عَلِمَ علمَ الأحكام والقضايا عمل بها، والتزم الدخول فى أحكامها؛ ليعامل منها، مثل: أن يطلبَ القضاءَ، فيقضى بين الناس إذا كان عالمًا به، أو يقتنى المالَ، ويدخل فى البيع والشراء إذا كان عالمًا بالزكوات والبياعات، أو يتزوجَ النساءَ ويُطلّق؛ لأنّه عالم بالنكاح والطلاق؛ ليكونَ بهذه الأشياء عاملاً بعلمه.

هذا ما قاله أحدٌ، بل قد رُوى فى كراهة ذلك وذمِّه ما يكثر ذكره. وأهل هذه العلوم موصوفون بالرغبة فى الدنيا والحرص على جمعها، ويلابسون الأمراء فيعاملون لهم، فبطل أنهم هم المعنيون بالعلم، الموصوفون بالخشوع والزهد.

ومثل ذلك أيضًا: تفضيل الجمهور من السلف العلم على العمل، وقولهم: ذرة من علم أفضل من كذا من العمل، وركعتان من عالم أفضل من ألف ركعة من عابد، وحديثُ أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ: «فَضْلُ العَالم عَلَى العَابدِ كَفَضْلِى عَلَى أمَّتِى»، والخبر المشهور: «كَفَضْلِ القَمَرِ عَلَى سَائِرِ الكَوَاكِبِ»، وقولَ ابن عباس وسعد وقد رويناه مسندًا: «عالمٌ واحدٌ أشدُّ على الشيطانِ من ألف عابدٍ»، وكذلك قيل فى موته: «أحب إليه من موت ألف عابد» ـ إنَّما يَعنونَ بذلك: العلمُ بالله تعالى أفضلُ من العمل؛ لأنّ العلمَ بالله تعالى وصفٌ من الإيمان، ومعنًى من اليقين الذى لم ينزل من السماء أعزّ منه، فهوَ لا يُعادله شىء، ولا يصح عمل ولا يُقبل إلا به، ولأنه معيار الأعمال كلها؛ على وزنه تُتقبل

(١) فى (ط): «الذى يكون به العلم ولا تتاتى عنه» وأثبت ما فى (ك) لانه أصح وأدق.

الأعمال قبولاً حسنًا بعضه أحسن من بعض، ويثقل فى الميزان ثِقَلاً فوق ثِقَل، ويُرفعُ به العاملونَ فى درجات علِّيين بعضها من بعض، وقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ [الأعراف: ٥٢]، ثمَّ قال: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ﴾ [الأعراف: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ [الأعراف: ٨].

فما كان العائد منه إلى الربوبية أقرب كان أفضل. والعملُ وصف العاملِ وحُكم العبودية، لا أنهم يعنون العلم بالفتيا والأحكام والقضاء، التى هى أماكن الخلق عائدة عليهم أفضلُ من معاملات الله سبحانه وتعالى بالقلوب من مقامات التوكُّل والرضا والمحبة التى هى معاينة اليقين الذى هو مقام المقربين، هذا لا يقوله عالم.

وقد روينا عن عبد الرحمن بن غنم عن معاذ بن جبل قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أقربُ الناسِ من درجةِ النبوّة أهلُ العلم وأهلُ الجهاد. أما أهلُ العلمِ فدلُّوا الناسَ على ما جاءت به الرسل، وأما أهلُ الجهاد فجاهدوا بأسيافهم على ما جاءت به الرسل». ألا تراه كيف جعل العلم دالاً على الله تعالى كالجهاد؟

وكذلك جاء فى الخبر: «أوّلُ مَنْ يَشْفَعُ الأنبياءُ ثم الشهداءُ». وفى الخبر: «لِلأَنْبِيَاءِ عَلَى العُلَمَاءِ فَضْلُ دَرَجَةٍ، وَلِلْعُلَمَاءِ عَلَى الشُّهَدَاءِ فَضْلُ دَرَجَتَيْنِ».

وقال ابن عباس فى معنى قوله عزّ وجلّ: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١] قال: للعلماء درجات فوق الذين آمنوا بسبعمائة درجةٍ، ما بين الدرجتين خمسمائة عام.

وقال ابن مسعود: لما ماتَ عمرُ رضى الله عنهما إنى لأحْسِبُ أنه ذهب بتسعة أعشار العلم. فقيل: تقول هذا وفينا جِلَّةُ الصحابة. فقال: ليس أعنى العلم الذى تريدون، إنّما أعنى العلم بالله تعالى.

فجعل العلمَ بالمعلوماتِ غير حقيقةِ العلم، وفضَّل العلمَ بالله تعالى بتسعة أعشارها، وليس يزيد علم الظاهر على الأعمال كثير زيادة، إذ هو من الأعمال الظاهرة؛ لأنه صفةُ اللسان؛ ولأنه للعموم من المسلمين.

فأعلى مقاماته الإخلاصُ، فإن فاتهم فهو دنيا كسائر الشهوات. والإخلاص هو أول حالِ العالم بالله تعالى بالعلم الباطن، ولا نهاية لمقاماتهم إلى أعلى مقامات العارفين ودرجات الصديقين.

باب ذكر الفرق بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة وذم علماء السوء، الآكلين بعلومهم الدنيا

قد فَرَّقَتِ العُلَماءُ بَيْنَ العِلْمِ باللهِ تعالى وبينَ العلمِ بأمْرِ الله تعالى، وفرَّقوا بين علماءِ الدنيا وعلماءِ الآخرةِ. فقال سُفْيانُ: العلماءُ ثلاثةٌ: عالمٌ بالله وبأمر الله فذاكَ العالمُ الكاملُ، وعالمٌ بالله تعالى فذاكَ التَّقِيُّ الخَائِفُ، وعالمٌ بأمْرِ الله تعالى غيرُ عالم باللهِ تعالى فذاك العالمُ الفاجِرُ.

وقيل أيضًا: عَالِمٌ للهِ تعالى وهو العَامِلُ بِعِلْمِهِ، وعالمٌ بأيامِ الله تعالى وهو الخائفُ الرَّاجى.

وسُئِلَ سفيانُ عنِ العلمِ مَا هو؟ فقال: هو الوَرَعُ. قيل: وأى شَىءٍ هو الوَرَعُ؟ فقال: طلبُ العلم الذى يُعرَفُ به الورع. وهو عِنْدَ قومٍ طولُ الصمتِ وقِلَّةُ الكلامِ، وما هو كذلك إنما هو المتكلِّمُ العالِمُ عندنا أفضلُ من الصامتِ.

وروينا عن لقمان فى وصيته: للعلم ثلاثُ علامات: العلم بالله، وبما يحبهُ اللهُ تعالى، وبما يَكْرَهُ. فَجَعَلَ حقيقةَ العِلْم ودليلَ وجودِهِ هذه الثلاث.

ومما يدلُّكَ على الفرقِ بين علماءِ الدنيا وعلماءِ الآخرةِ أنَّ كلَّ عالمٍ بعلمٍ إذا رآهُ مَنْ لا يَعْرِفُه لم يتبينْ عليه أثرَ عِلْمه ولا عرفَ أنه عَالِمٌ، إلا العلماء بالله عزّ وجلّ فإنما يُعْرَفُونَ بسيماهُم للخشوعِ والسَّكِينَة والتواضعِ والذِّلَّة، فهذه صِبغَةُ الله تعالى لأوليائه ولِبْسَتُهُ للعلماء به، ومَنْ أحْسَنُ منَ الله صبغةً، فَمَثَلُهُم فى ذلكَ كَمَثَلِ الصُّنَّاعِ، إذْ كلُّ صانعٍ لو ظَهر لمن لا يَعرفهُ لم يَعرفْ صَنْعَتَهُ دون سائر الصَّنَائعِ، ولم يُفرِّقْ بينه وبينَ الصُّنَّاعِ إلا الصُّنَّاعُ، فإنه يُعْرَفُ بِصَنْعَتِه؛ لأنَّهَا ظاهرةٌ عليه، إذ صارتْ له لبسةً وصِفَةً لالتباسِهَا بمُعَامَلَتِهِ، فكانت سِيماهُ. كما قيل: ما ألبسَ اللهُ

تعالى عبدًا لِبْسَةً أحسنَ مِنْ خُشُوعٍ فى سكينة، هى لبسةُ الأنبياء، وسِيمَا الصِّدِّيقينَ والعلماء. فأعلمُ الناس بلطفِ ما يحبُّ اللهُ تعالى وخَفِىِّ ما يكره أهلُ القلوبِ الفاقِهَةِ عن الله تعالى وهم العارفونَ به.

وقد كان سهلٌ رحِمَهُ الله يقولُ: العلماءُ ثلاثةٌ: عالمٌ باللهِ تعالى، وعالمٌ للهِ تعالى، وعَالِمٌ بحكمِ الله تعالى.

يعنى: العالمُ بالله تعالى العارف الموقن، والعالمُ لله عزّ وجلّ هو العالمُ بعلمِ الإخلاصِ والأحوالِ والمعاملاتِ، والعالمُ بحكمِ اللهِ تعالى هو العالمُ بتفصيلِ الحلالِ والحرامِ. فسَّرنا ذلك على معانى قوله، ومعرفة مذهبه.

وقد قال مرّة فى كلام أبسطَ من هذا: عالمٌ بالله لا بأمر اللهِ ولا بأيامِ اللهِ، وهم المؤمنون. وعالمٌ بأمر الله لا بأيام الله وهم المفتونَ فى الحلالِ والحرامِ. وعالمٌ بالله تعالى عالمٌ بأيام الله وهم الصِّدِّيقُون.

يعنى قوله «بأيام الله» أى: بنعمته الباطنة، وبعقوباته الغامضة.

ثم قال: الناس كلهم موتى إلا العلماء، والعلماء نيام إلا الخائفين، والخائفون منقطعون إلا المحبين، والمحبون أحياءٌ شهداءُ وهم المؤثرُونَ لله تعالى على كل حال. وقد كانَ يقولُ: طلابُ العلمِ ثلاثةٌ: واحدٌ يطلبُه للعمل به. وآخرُ يطلبه ليعرفَ الاختلاف، فيتورَّع ويأخذ بالاحتياط. وآخرُ يطلبه ليعرف التأويل فيتناول الحرام فيجعله حلالاً، فهذا يكون هلاكُ الحقِّ على يديه.

وقد حُدِّثتُ عن أبى يوسف أنه كان إذا صار رأسُ الحول وهَب مالَه لامرأتِه، واستوهَبَها مالها، فتسقط عنهما الزكاة، فذُكِرَ ذلكَ لأبى حنيفةَ فقال: ذلك من فقهه[1].

فإنّما يُطلَب العلمُ لمعرفة الورع والاحتياط للدين، فهذا هو العلم النافع. فإذا طُلب لمثل هذا ولتأويل الهوى كان الجهل خيرًا منه، وصار هذا العلمُ هو الضارَّ

(١) مثل هذه الحكايات لا تصحّ عن قومٍ مشهودٍ لهم بالورع والفقه والاتباع. فإن مثل هذا لا يستحله الجاهل البخيل، فكيف بفقيهٍ ورع؟!

الذى استعاذ الرسول ﷺ منه.

وروينا عن عمرَ وغيرِه: كم من عالم فاجرٍ وعابدٍ جاهلٍ، فاتقوا الفاجر من العلماء والجاهل من المتعبدين. وعن عمرَ أيضًا، وقد رويناه مسندًا: اتّقوا كلَّ منافق عليمَ اللسانِ، يقول ما تعرفون، ويعمل ما تنكرون. وروينا عنه أيضًا: تعلَّموا العلم وتعلّموا للعلم السكينة والحلم، وتواضعوا لمن تعلَّمون، وليتواضع لكم من يتعلَّم منكم، ولا تكونوا جبابرةَ العلماءِ فلا يقوم علمُكم بجَهْلكم.

وروينا عن على وابن عباس رضى الله عنهما وعن كعب الأحبار: يكون فى آخر الزمانِ علماءُ يُزَهِّدون الناس فى الدنيا ولا يَزْهَدُونَ، ويخوّفون ولا يخافُونَ، وينهون عن غشيانِ الولاةِ ولا ينتهون، ويُؤْثِرون الدنيا على الآخرة، ويأكلون الدنيا بألسنتهم أكلاً، يُقَرِّبونَ الأغنياء ويباعدون الفقراء، يتغايرون على العلم كما تتغاير النساء على الرجال، يغضب أحدُهم على جليسه إذا جالس غيره. ذلك حظهم من العلم. وفى حديث على رضى الله عنه: علماؤهم شرُّ الخليقة، منهم بدت الفتنةُ، وفيهم تعود. وفى حديث ابن عباس: أولئك الجبَّارونَ أعداءُ الرحمن.

وروينا عن على عليه السلام: ما قطع ظهرى فى الإسلام إلا رجلان: عالمٌ فاجرٌ، ومبتدعٌ ناسكٌ. فالعالم الفاجر يَزْهَدُ الناسُ فى علمه لما يَرَوْنَ من فجورِه، والمبتدعُ الناسكُ يَرْغبُ الناسُ فى بدعته لما يَرَوْنَ من نُسكه.

وقال صالحُ بنُ حَسَّان البصرى: أدركتُ المشيخةَ وهم يتعوَّذون بالله تعالى من الفاجر العالم بالسنَّة.

وقال الفضيل بن عياض: إنّما هما عالمانِ؛ عالمُ دنْيا، وعالم آخرةٍ. فعالم الدنيا علمُه منشورٌ، وعالم الآخرة علمُهُ مستور. فاطلب عالمَ الآخرةِ واحذَر عالمَ الدُّنَيا لا يصدنَّك بشكره. ثم قرأ ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ [التوبة: ٣٤]. قال: فالأحبارُ العلماءُ، والرهبانُ الزهَّادُ.

وقال سهلُ بن عبد الله: طلاب العلم ثلاثة؛ فواحدٌ: يطلب علمَ الورع مخافة

دخول الشبهة عليه، فيدع الحلالَ خوف الحرامِ، فهذا زاهدٌ تقى. وآخرُ: يطلبُ علمَ الاختلافِ والأقاويل، فيدع ما عَلَيْهِ ويدخلُ فيمَا أباح الله تعالى بالسعة ويأخذ بالرخصة. وآخرُ: يسأل عن شىء فيقال: هذا لا يجوز، فيقول: كيف أصنع حتى يجوز لى؟ فيسأل العلماء، فيخبرونه بالاختلاف والشبهة، فهذا يكونُ هلاكُ الخلق على يديه، وقد أهلك نفسه، وهم علماء السوء.

واعلم أن كلَّ محبٍّ للدنيا ناطق بعلم فإنه آكلٌ للمال بالباطل، وكلُّ من أكل أموال الناس بالباطل فإنه يصدُّ عن سبيل الله لا محالةَ، وإن لم يظهر ذلك فى مقاله، ولكنك تعرفه فى لحن معناه بدقائق الصدّ عن مجالسة غيره، وبلطائف المنع من طرقات الآخرة؛ لأنّ حبَّ الدنيا وغلبةَ الهوى يحكمان عليه بذلك شاء أم أبى.

وقال بعض العلماء: إن الله عزّ وجلّ يحبُّ العالمَ المتواضعَ، ويبغضُ الجبَّارَ من العلماء، ومن تواضع لله تعالى ورثّه اللهُ تعالى الحكمةَ.

وفى الخبر عن ابن مسعود : «إنَّ الله تَعَالى لَيَمْقُتُ الحَبْرَ السَّمِينَ» . وقال رسول الله ﷺ لمالك بن الصيف؛ حبر من أحبار اليهود: «نشدتُك اللهَ تعالى، ألم تجد فيما أُنزل على موسى عليه السلام أن الله يبغضُ الحبرَ السّمين؟»[1]. وكان ابن الصيف سمينًا، فغضب عندها فقال: مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَىء. ففيه نزلت هذه الآية تعريفًا لبُهته: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الكِتَابَ الَّذِى جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا﴾ [الأنعام:٩١]. فقال له أصحابه: ويحكَ ماذا قُلتَ؟ جحدتَ كتابَ موسى! فقال: إنّه مَحكَنى[2] فقلتُ ذلك.

ويقال: ما آتى الله تعالى عبدًا علمًا إلا آتاه معه حِلمًا وتواضعًا وحُسْنَ خلق ورفقًا، فذلك علامة العلم النافع. وقد روينا معناه فى الأثر: «مَنْ آتاه الله عزّ وجلّ زهدًا وتواضعًا وحُسْنَ خُلُق فهو إمام المتقين». وكان الحسنُ يقول: الحلُم

(١) هذا الحديث مرسل، انظر: أسباب نزول القرآن، للواحدى، ص ٢٢٣، والدر المنثور ٣/ ٢٩.

(٢) محكنى: جادلنى.

وزيرُ العلمِ، والرفقُ أبوه، والتواضعُ سربالُه.

وفي أخبار داود عليه السلام: إن الله تعالى أوحى إليه: يا داود، لا تسألنَّ عني عالمًا قد أسكرته الدنيا فيصدَّك عن طريق محبتي، أولئك قطّاع طريقِ عبادي المريدين. يا داودُ، إن أدْنَى ما أصنعُ بالعالِم إذا آثرَ شهوتَه على محبَّتي أنْ أحرمَه لذيذَ مُنَاجَاتي. يا داودُ، إذَا رأيتَ لي طالبًا فكُنْ لَهُ خَادمًا. يا داودُ، مَنْ ردَّ إليَّ هارِبًا كَتَبْتُهُ عِندي جَهْبَذًا، ومَنْ كَتَبْتُهُ جَهْبَذًا لم أُعَذِّبْهُ أبدًا.

ورُوينا عَنْ عِيسَى عليه السلام: مَثَلُ عُلَمَاءِ السُّوءِ مَثَلُ صَخْرَةٍ وَقَعَتْ عَلَى فَمِ النَّهْرِ لا هي تَشْرَبُ الماءَ ولا تَتْرُكُ الماءَ يَخْلُصُ إلى الزَّرعِ، وكذلك عُلَمَاءُ الدُّنْيَا قَعَدُوا على طريقِ الآخرةَ فلا هُم نَفَذُوا ولا تَرَكُوا العبَادَ يَسْلُكُون إلى الله عزّ وجلّ. قال: ومَثَلُ عُلَمَاءِ السُّوءِ كَمَثَلِ قَنَاة الحَشِّ ظَاهِرُها حَسَنٌ وبَاطِنُهَا نَتِنٌ، وَمَثَلُ القُبُورِ المشَيَّدَةِ ظَاهِرُهَا عَامِرٌ وبَاطِنُهَا عِظَامُ الموتَى.

وقال بِشْرُ بن الحارثِ: مَنْ طَلَبَ الرِّيَاسَةَ مِنَ العُلَمَاءِ فتقرَّبَ إلى الله تعالى ببُغْضِهِ فإنه مَقِيتُ الله في السماءِ والأرضِ.

وكان الأوزاعيُّ يَرْوِي عَنْ بِلالَ بنِ سعدٍ أنه كان يقولُ: يَنْظرُ أحدُكُم إلى الشُّرطيِّ والعَوْنِ[1] فيستعيذُ بالله تعالى من حالِه ويَمقُتُه، وينظرُ إلى عالِم الدنيا قد تصنَّعَ للخلقِ وتَشَوَّفَ للطَّمَعِ والرِّيَاسَةِ فلا يَمْقُتُهُ. هذا العالمُ أحَقُّ بالمقتِ من ذلك الشُّرطِيِّ.

وقد كان أبو محمدٍ يقولُ: لا تقطعُوا أمرًا من الدِّين والدنيا إلا بِمَشُورَةِ العُلَمَاءِ تُحْمَدُوا العَاقِبَةَ عِنْدَ الله. قيل: يا أبا مُحَمَّدٍ، مَنِ العُلَمَاءُ؟ قال: الذينَ يُؤْثِرُونَ الآخرةَ على الدنيا ويؤثرونَ اللهَ تعالى على نُفُوسِهِم.

وقد قال عُمَرُ رضي الله عنه في وَصِيَّتِهِ: وشاور في أمورك الذين يَخْشَوْنَ اللهَ تعالى.

وروينا في الإسرائيلياتِ: أنَّ حكيمًا مِنَ الحُكَمَاءِ صَنَّفَ ثلاثمائةً وستينَ مُصْحَفًا

(١) العون: الظهير على الأمر، الواحد والاثنان والجمع والمؤنث فيه سواء.

فى الحكمة، حتى وُصِفَ بالحُكْمِ[١]. فأوحى اللهُ تعالى إلى نَبِيِّهم: قل لِفُلان: قد ملأتَ الأرضَ نفاقًا ولم تُرِدْنى بشىءٍ من ذلكَ، وإنى لا أقبلُ شيئًا من نفاقكَ. قال: فأَسْقطَ فى يديه، وحزنَ وتَرَكَ ذلك وخالطَ العامَّةَ ومشى فى الأسواقِ، وواكلَ بنى إسرائيلَ، وتَوَاضَعَ فى نَفْسِهِ. فأَوْحَى اللهُ تعالى إلى النبى عليه السلام: قُلْ له الآن: وافقتَ رضاى.

وقال بعضُ العلماءِ: كان أهلُ العلمِ على ضَرْبين؛ عالمُ عامَّة، وعالمُ خاصَّة. فأمَّا عالمُ العامةِ: فهو المفْتِى فى الحَلالِ والحرَامِ، وهؤلاءِ أصحابُ الأساطينِ. وأما عالمُ الخاصةِ: فهو العالمُ بعلمِ التوحيدِ والمعرفةِ، وهؤلاءِ أهلُ الزوايا، وهم المنفردُون. وقد كانوا يقولون: مَثَلُ الإمامِ أحمدَ بن حنبلٍ رضى الله عنه مَثَلُ دِجْلَةَ كُلُّ أحدٍ يَعْرِفُها، ومَثَلُ بِشْرِ بن الحارث مَثَلُ بِئْرٍ عَذْبَةٍ مُغَطَّاةٍ لا يَقْصِدُها إلا وَاحِدٌ بعدَ واحدٍ.

وقال حمادُ بن زيدٍ: قيل لأيوبَ: العلمُ اليومَ أكثرُ أو فيما مضى؟ فقال: العلم فيما مضى كان أكثرَ، والكلامُ اليوم أكثر. ففرَّق بينَ العِلمِ والكلامِ.

وقد كانوا يقولونَ: فلانٌ عالم، وفلانٌ متكلمٌ، وفلانٌ أكثرُ كَلامًا، وفلانٌ أكثرُ عِلْمًا. وكان أبو سُلَيْمَانَ يَقولُ: المعرفةُ إلى السكوت أقربُ منها إلى الكلام. وقال بعضُ العارفين: هذا العلمُ على قسمين: نصفُه صمتٌ، ونصفه تَدرى أين تضعه. وزاد آخر: نصفُه وَجْدٌ، ونصفُه نَظَرٌ. يعنى تفكُّرًا واعتبارًا.

وسُئل سفيان عن العالم من هو؟ فقال: مَن يضعُ العلْمَ فى مواضعه، ويؤتى كلَّ شىء حقَّه. وقال بعض الحكماء: إذا كَثُرَ العلمُ قلَّ الكلام. وقد كان إبراهيم الخواصُّ رحمه الله يقول: الصوفىُّ كلَّما ازدادَ علمًا نقصت طينتُه. وقال بعض شيوخنا: قلتُ للجنيد: يا أبا القاسم، يكون لسانٌ بلا قلب؟. قال: كثير. قلت: فيكون قلبٌ بلا لسان؟ فقال: نعم قد يكون؛ ولكن لسانٌ بلا قلب بلاء، وقلب بلا لسان نعمة. قلت: فإذا كان لسان وقلب. قال: فذاك الزُّبد بالنِّرْسِيان[٢].

(١) الحكم: العلم والفقه.

(٢) النرسيان: من أجود التمر. وليس فى (ك) قوله: «يعنى العسل».

يعنى: العسل.

وقد روينا حديثًا مقطوعًا عن سفيان عن مالك بن مغول قال: «قيل: يا رسول الله، أىُّ العمل أفضلُ؟ قال: اجتنابُ المحارم، ولا يزال فُوك رطبًا من ذكر الله تعالى. قيل: يا رسول الله، فأىُّ الأصحاب خير؟ قال: صاحبٌ إن ذكرتَ أعانَك، وإن نسيتَ ذكَّرك. قيل: فأىُّ الأصحاب شرٌّ؟ قال: صاحبٌ إن سكتَّ لم يذكِّرك، وإن ذَكَرت لم يُعِنْك. قيل: فأىُّ الناس أعلمُ؟ قال: أشدُّهم لله تعالى خشيةً. قيل: فأخبرْنا بخيارنا نُجالِسُهم، قال: الذين إذا رُءوا ذُكِرَ اللهُ تعالى. قالوا: فأى الناسِ شرٌّ يا رسول الله؟ قال: اللّهم غَفْرًا. قالوا: أخبرنا يا رسول الله. قال: العلماءُ إذا فَسَدُوا».

وقد وصف علىٌّ عليه السلام علماء الدنيا الناطقين عن الرأى والهوى بوصفٍ غريب، رويناه عن خالد بن طليق عن أبيه عن جده، وجدُّه عمرانُ بن حصين قال[١]: خطبنا على بن أبى طالب عليه السلام ورضىَ عنه، فقال: ذمّتى [بما أقول][٢] رَهينة، وأنا به زعيم، لا يهيج على التقوى زَرْعُ قوم، ولا يَظْمأ على الهُدى شحُّ أصلٍ[٣]. وإنَّ أجهلَ الناس مَنْ لا يَعْرِف قَدْرَه، وكفى بالمرء جهلاً أن لا يعرف قدره. وإنَّ أبغضَ الخلقِ إلى الله تعالى رجلٌ قَمَشَ عِلْمًا[٤]، أغار فى أغباش الفتنة، عَمٍ عمّا فى غيب الهدنة، سمّاه أشباهُ الناس وأراذلهم عالمًا، ولم يَغْنَ فى العلم يومًا سالمًا. بكَّر فاستكثر من جمع ما قلّ منه خيرٌ مما كَثُر. حتى إذا

(١) هذا الكلام الذى يورده عن الإمام على ليس من خطبة واحدة فقد ورد فى نهج البلاغة فى مواضع متعددة، انظر: المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة، ص١٧، ونهج البلاغة، بشرح محمد عبده، ١/ ٤٦ ـ ٥٠ وما بعدها. وكان النص مضطربًا فقومته من المخطوط، ومن «نهج البلاغة» المنشور فى المعجم المفهرس، ولم ألتزم الإشارة فى كل مرة.

(٢) زيادة من نهج البلاغة للبيان.

(٣) عبارة نهج البلاغة: «لا يهلك على التقوى سَنْخُ أصلٍ، ولا يظمأ عليها زرعُ قومٍ». نهج البلاغة، محمد عبده، ١/ ٥٠.

(٤) فى النهج ١/ ٥١: «قمش جهلاً» وقمش: جمع. ولفظ النهج بعده: «غادٍ فى أغباش الفتنة، عمٍ بما فى عقْد الهدنة».

ارتَوى من آجنٍ، وأكثرَ من غير طائل، جلس للنّاس مفتيًا؛ لتخليصِ ما التبس على غيره. فإن نزلت به إحدى المبهمات هيَّأ لها حَشْوَ الرأى من رأيه[١]، [ثم قطع به]، فهو من قَطْع الشّبهاتِ فى مثل غزل العنكبوت لا يدرى أخطأ أم أصاب. ركَّابُ جَهَالاتٍ خبّاطُ عَشَوات[٢]. لا يعتذر مما لا يعلم فيَسْلَم، ولا يَعَضُّ على العلم بِضِرْسٍ قاطعٍ فيَغْنَم، تبكى منه الدّماءُ، وتصرخُ منه المواريث[٣]، وتُستَحل بقضائه الفروجُ الحرام. لا مَلِىٌّ[٤] واللهِ بإصدارِ ما وَرَدَ عليه، ولا هو أهلٌ لما قُرِّظ به. أولئك الذين حلَّت عليهم النياحةُ والبُكَاءُ أيامَ حياةِ الدنيا[٥].

ووصَفَ علىٌّ عليه السلام علماءَ الآخرةِ فى حديثِ كُمَيل[٦] بن زياد الذى يقول فيه: الناس ثلاثة؛ عالم ربانى. يعنى: عالمًا بالربوبية، فينسبه إلى ربّ، كما سماهم الله فى قوله: ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ﴾ الآية [آل عمران: ٧٩]. فسمّى العالمَ بكتابه ربانيًا، والدارسَ له ربَّانيًا، فهذا قد جمع العلم والعمل.

وكذلك يقال: العالم الربانى هو الذى يَعْلم، ويَعْمل، ويُعَلِّم الناسَ الخير. قال: فذاك الذى يُدعى عظيمًا فى ملكوت السماء. وقال تعالى فى تقدمتهم: ﴿لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ﴾ [المائدة: ٦٣] فقدم الربانيين على الأحبار، وهم علماء الكتب. وكذلك رويناه عن مجاهد قال: الربانيون فوق الأحبار درجةً. وقال غيره: والأحبارُ فوقَ الرهبانِ. يعنى: علماء القلوب أرفعُ من علماء الألسنة. والعلماءُ بالكتب أفضلُ من العبّادِ بدرجة. وقد ضمَّهم الله تَعالَى إلى أنبيائه فى

---

(١) فى نهج البلاغة: «حشواً رثًا من رأيه» وهو أدق.

(٢) فى النهج: «جاهل، خبّاط جهالات، ركّاب عشوات».

(٣) فى النهج: «تصرخ من جور قضائه الدِّماء، وتَعُجُّ منه المواريث».

(٤) المَلِىُّ بالشى: القيّم به الذى يجيد القيام عليه.

(٥) انتهى ما نقله هنا من كلام الإمام على، مع تقديم وتأخير فى الجمل والعبارات والألفاظ، وبقى بقية من خطبته تلك، انظر: المعجم المفهرس، ص١٩ خطبة: ١٧.

(٦) فى (ط): «كهيل» وهو خطأ، وكذا وردت فى موضع تالٍ. وقد مضى كلام الإمام على كاملاً.

النصرةِ له والصبر معه فى قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ [آل عمران:١٤٦]. ثم وصفَهم بالثبات لأمره، والقوةِ فى دينه، والصبرِ لحكمه فى تمام الآية. وربِّيُّون: جمع رِبِّى، يقال: رِبِّى، وَرَبَّانِى. فجمعُ ربّى: ربيُّون، وجمع ربّانى: ربّانيون.

وكذلك جاء عن رسول الله ﷺ: «يَشْفَعُ يَوْمَ القيامةِ الأنبياءُ، ثُمَّ العُلَماءُ، ثُمَّ الشُّهَدَاءُ» فقدّم العلماء على الشهداء؛ لأن العالم إمام أمة، فله مثل أجور أمته، والشهيدُ عمله لنفسه. وفى خبر آخر: «حِبْرُ العُلماء يُوزن بدمِ الشهداء». فأعلى حالِ الشهيد دمُه، وأدْنَى وصف العالم حبره، فسوَّى بينهما، وزادَ العالم على الشهيد بأعلى مقامه.

وكان على عليه السلام يقول: العالمُ أفضلُ من الصائمِ القائمِ والمجاهد فى سبيل الله، وإذا مات العالم ثُلِمَ فى الإسلام ثُلمة لا يسدُّها إلا خَلَفٌ منه. وقد روينا معناه مسندًا: إذا مات العالمُ ثُلِمَ فى الإسلام ثُلْمةٌ لا يسدُّها شىء ما طردَ الليلُ النهارَ، إلا موتُ العالِم بحم طَمْس[1]، وموتُ قبيلةٍ أيسرُ من موت عالم.

ثم قال على عليه السلام فى حديث كُمَيل: «ومتعلم على سبيل النجاة» يعنى: مريدًا طالبًا للعلم، متعلمًا من العلماء بالله تعالى على طريق معاملة وإخلاصٍ لطلب السّلامة، وأن ينجو من الجهل فى الدنيا ومن العذاب فى الآخرة. ثم قال: «وهَمَجٌ رِعاع»، الهَمَج: الفراش الذى يتهافتُ فى النار لجهله، واحدته: هَمَجَة، رِعاع: خفيف طيَّاش لا عقل له، يستفزُّه الطمع، ويستخفُّه الغضب، ويزدهيه العُجْب، ويستطيله الكِبْرُ. ثم بكى علىٌّ عليه السلام وقال: «هكذا يموت العلم بموت حامليه». ثم تنفَّس عند وصف الرَّبانيين فقال: «واشوقاهُ إلى رؤيتهم» يعنى الربانيين من العلماء. وقد ذكرنا هذا الحديث بطوله فى الباب الذى قبل هذا.

---

(١) حم: أى السورة التى تبدأ بحم، أى طمس لمعالم الإسلام.

فهؤلاء الذين بكى عليهم شوقًا هم الذين اشتاق رسولُ الله ﷺ إليهم قبله، فقال: «وا شوقاه إلى لقاء إخوانى، وددتُ أنى قد رأيت إخوانى». ثم قال: «هم قومٌ يجيئون بعدكم»، ثم وَصفَهم. فإنّما كانوا إخوانَه لأنّ قلوبَهم على قلوب الأنبياء عليهم السلام، وأخلاقَهم بمعانى صفات الإيمان. وهم أبدالُ هذه الأمة، جاء فى وصفهم ما يَجلُّ عن الوصف، هم على ثلاث طبقات: صدِّيقون، وشهداء، وصالحون. وإنَّ منهم: مَنْ قلبُه على قلب إبراهيم الخليل، ومنهم: مَن قلبه على قَلْب موسى الكليم، وعيسى الروح، ومحمد الحبيب، صلوات الله عليهم وسلم أجمعين. ومنهم: على قلْب جبريل، وميكائيل، وإسرافيل.

والأخوّةُ تقع بين الاثنين فى المجالسة، وقُربِ الشّبه فى الأفعال والأخلاق، كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلى الَّذينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الَّذينَ كَفَرُوا﴾ [الحشر: ١١] لما كانوا على أوصافهم فى القلوب من إسرار الكفر واعتقاد الشّكِّ جعلهم إخوانًا. وكذلك قال: ﴿إِنَّ المُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ [الإسراء: ٢٧]، وهؤلاء ليسوا أمثالهم فى الخلقة، ولا بينهم أبوَّة ولا أمومة، لأن الشياطينَ من ولد إبليس والمبذِّرين أولادُ آدمَ عليه السلام، ولكن تشابَهَتْ قلوبُهُم فى المواجيد والأخلاقِ والأفعال، فآخى بينهم للتشابه.

فمَن كان مِن علماء الآخرة فعقلُه يستضىءُ من أنوار قلبه، وفهمُه ينبئ عن استنباط علمِه، ومشاهدتُه وأخلاقُه على معانى يقينه، وقوته، وطريقه، وسلوكه فى منهاج سَنته، وسبيله؛ فهو من إخوانه؛ وإخوان النبيين الذين اشتاق إلى رؤيتهم رسولُ الله ﷺ، وهم الغرباءُ بين الملأ الذين قال: «بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا فطوبى للغرباء. قيل: ومن الغرباء؟ قال: الذين يُصلحونَ إذا فسد الناس». وفى لفظ آخر: «الذين يُصلحون ما أفسدَه الناسُ من سنتى، والذين يُحيُون ما أمات الناس من سنتى»، يعنى أنّهم يظهرون طريقته التى تركها النَّاسُ وجهلوها.

وفى خبر آخر: «هم المتمسكون بسنتى وما أنتم عليه اليوم».

وفى حديث آخر: «الغرباء ناسٌ قليلونَ صالحونَ بين ناس سوءٍ كَثِيرين، مَن

يبْغَضُهُمْ أكثرُ ممَّن يحبهم».

فهؤلاء الغرباء الذين قد أنعم الله عليهم بمرافقة النبيين فى أعلى عليين، فقال: ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ إلى قوله: ﴿رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

وقد كان الثورى يقول: إذا رأيتَ العالمَ كثير الأصدقاء فاعلم أنه مخلِّط. وقال أيضًا: إذا رأيتَ الرجلَ محببًا إلى إخوانه، محمودًا فى جيرانه، فاعلم أنه مُراءٍ.

وقد وصفَ اللهُ تعالى علماءَ السّوء بأكل الدُّنيا بالعلم، ووصفَ علماءَ الآخرة بالخشوع والزهد، فقال تعالى فى علماء الدنيا: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ [آل عمران: ١٨٧]. وقال فى نعت علماء الآخرة: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩٩].

وقد روينا عن الضحاك عن ابن عباس عن النبى ﷺ: «عُلَمَاءُ هذه الأمَّة رَجُلان؛ فَرَجُلٌ آتاه الله علْمًا، فَبَذَلَهُ للنَّاسِ، ولم يأخذْ عليه طمعًا، ولم يشترِ به ثمنًا، فذاك يُصلّى عليه طيرُ السماء وحيتانُ الماء ودوابُ الأرض والكرامُ الكاتبُون، يَقْدُمُ على الله تعالى يوم القيامة سيّدًا شريفًا حتى يرافق المرسلين. ورجل آتاه الله تعالى علمًا فى الدنيا، فضنَّ به على عبادِ الله عزّ وجلّ، وأخذ عليه طمعًا، واشترى به ثمنًا، يأتى يوم القيامة مُلْجمًا بلجام من نارٍ، ينادى منادٍ على رؤوس الخلائق: هذا فلانُ ابنُ فلانٍ، آتاه الله تعالى علمًا فى الدنيا فضنّ به على عباد الله تعالى، وأخذ عليه طمعًا، واشترى به ثمنًا، يُعذَّبَ حتى يُفْرَغَ من حساب الناس».

ومن أغلظِ ما سمعتُ فيمن أكلَ الدنيا بالعلم: ما حدثونا عن عتبة[1] بن واقد، عن عثمان بن أبى سليمان قال: كان رجلٌ يخدم موسى صلى الله على نبينا وعليه وسلم فجعل يقول: حدَّثنى موسى نبى الله، حدثنى موسى نجيُّ الله، حدثنى موسى كليمُ الله، حتى أَثْرِىَ وكَثُر مالُه، ففقدَه موسى صفىُّ الله دهرًا، فجعل

(١) فى (ك): «عبيد».

يسأل عنه فلا يحس له أثرًا، حتى جاءه رجلٌ ذات يوم، وفى يدهِ خنزيرٌ فى عنقه حبْل أسود، فقال له موسى عليه السلام: أتعرف فلانًا؟ قال الرجل: نعم، هو ذا الخنزير. فقال موسى: يا ربِّ أسألك أن تردَّه إلى حاله حتى أسألَه فيما أصابه هذا. فأوحى الله تعالى إليه: يا موسى لو دعوتَنى بما دَعانى به آدمُ فمَن دُونه ما أجبتُك فيه، ولكنِّى أخبرُك لِمَ صنعتُ به هذا؛ لأنه كان يطلبُ الدُّنيا بالدين.

وروينا عن الحسن: أنه انصرف يومًا من مجلسه، فاستأذَن عليه رجلٌ من أهل خراسان فوضع بين يديه كيسًا فيه خمسة آلاف درهم، وأخرج من حقيبته[1] رزمة فيها عشرة أثواب من رَقيق بَزٍّ[2] خراسان. فقال الحسن: ما هذا؟ فقال: يا أبا سعيد، هذه نفقة، وهذه كسوة. فقال له: عافاكَ الله، ضُمَّ إليك نفقتَكَ وكسوتكَ، فلا حاجةَ لنا بذلك. إنّه من جلسَ مثل مجلسى هذَا وَقبلَ من الناسِ مثلَ هَذا لَقِىَ الله تعالى يوم القيامة لا خَلاقَ له.

وفى خبر: «إن العبد لَيُنشَرُ له من الثّناء ما بين المَشْرقِ والمَغْربِ، وما يزن عندَ الله جناح بَعوضة».

وعلماءُ الدنيا الطالبونَ لها بالعلم، الآكلون لها بالدين، المتخذونَ الأصدقاء[3] والأخلاَّء من أبنائها، المكرِمُونَ المحبون لهم، المقبلون بالبِشْر والبشاشة عليهم ـ هم معرفون فى كل زمان بأوصافهم، ولحن قولهم وسيماهم.

وقد روينا فى مقاماتِ علماءِ السوءِ حَديثًا شديدًا، نعوذ بالله من أهله، ونسأله أن لا يبلونا بمقام منه، فرويناه مرةً مسندًا من طريق، ورويناه موقوفًا على معاذ بن جبل رضى الله عنه، وأنا أذكره موقوفًا أحبّ إلىّ. حـدثونا عن منذر بن على، عن أبى نعيم الشامى، عن محمَّد بن زيادٍ، عن معاذِ بن جبلٍ، يقول فيه: قال رسول الله ﷺ، ووقَفْتُه أنا على معاذ، قال: من فتنة العالم أن يكون الكلامُ أحبَّ إليه من الاستماع، وفى الكلام تنميق وزيادة، ولا يُؤمَن على صاحبه الخطأ، وفى

(١) لا تقرأ فى المخطوط «حقيبته» وهى أقرب إلى «حضْنه».

(٢) فى (ط): «دقيق بر» وهو خطأ، والصواب ما أثبت من (ك).

(٣) فى (ك): «المتخذوا الأصدقاء».

الصمت سلامةٌ وعلم. ومن العلماء مَنْ يَخْزِنُ علمَه فلا يحبُّ أن يوجد عند غيره، فذلك فى الدرك الأوَّل من النار، ومن العلماء من يكون فى علمه بمنزلة السلطان، فإن رُدَّ عليه شىء من علمه أو تُهاون بشىء من حقه غضب، فذلك فى الدرك الثانى من النار. ومن العلماء من يجعل حديثه وغرائب علمه لأهل الشّرف واليسار، ولا يرى أهلَ الحاجة له أهلاً، فذلك فى الدرك الثالث من النار. ومن العلماء من يَنْصِبُ نفسه للفتيا، فيفتى بالخَطأ، والله عزّ وجلّ يَبْغَضُ المتكلِّفين، فذلك فى الدرك الرابع من النار. ومن العلماء من يتكلم بكلام اليهودِ والنصارَى؛ لِيَغْزُرَ به علمُه، فذلك فى الدرك الخامس من النار. ومن العلماء من يتخذُ علمَه مروءَة ونبلاً وذكرًا فى الناس، فذلك فى الدرك السادس من النار. ومن العلماء من يستفزُّه الزَّهْوُ والعُجْبُ، فإن وَعَظَ عَنَّفَ، وإن وُعِظَ أَنِفَ، فذلك فى الدرك السابع من النار. عليك بالصمت، فبه تغلب الشيطان، وإياك أن تضحك من غير عَجَب، أو تَمْشى فى غير أَرَبٍ.

وقد روينا حديثًا يدل على أوصاف علماء الآخرة، وفيه أصول ما يدعون الخلق إليه من مقامات الإيمان، وأسباب الدين والإيقان. رويناه عن شقيق بن إبراهيم البلخى عن عبَّاد بن كثير عن أبى الزبير عن جابر ذكره عن رسول الله ﷺ ووقَفْتُه أنا على جابر بن عبد الله قال: لا تجلسوا عند كلّ عالم، إلا عالمٌ يدعوكم من خمس إلى خمسٍ: من الشّك إلى اليقين، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الرغبة إلى الزهد، ومن الكِبْرِ إلى التواضع، ومن العداوة إلى النصيحة.

ومما يدلك أن علمَ اليقين والتقوى، وعلمَ المعرفة والهدى، هو العلمُ المذكور المقصود عند السلف: أنّ الصحابةَ والتابعين كانوا يشفقون من فَقْدِ ذلك، ويخافون عدمه، ويخبرون عن رَفْعِهِ وقلَّته فى آخر الزمان، وإنما يَعنون بذلك علم القلوب والمشاهدات الذى هو نتيجة التقوى، وعلم المعرفة واليقين الذى هو من مزيد الإيمان وثمرة الهدى. فإذا فُقِد المتقون، وقلّ الخائفون، وعُدِمَ الزاهدون، ذهبت هذه العلوم؛ لأنها قائمة بهم موجودة عندهم، هم أربابُها والناطقُون بها، وهى أحوالُهم وطرائقهم، وهم السالكون لها والقائمون بها، فلأجلِ معرفةِ الصحابةِ

والتابعين عِزَّةَ ذلك كانوا يبكون على فقده.

وقد وصف اللهُ العلماءَ بالزهدِ فى الدنيا، والاستصغار لها، وبعمل الصالحات، والإيمان بها، كما وصف أبناء الدنيا بالرغبة فيها، والاستعظام لها، قال تعالى فى معنى ذلك: ﴿فَخَرَجَ على قَوْمه فى زِينَته قَالَ الَّذينَ يُريدُونَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مثْلَ مَا أُوتىَ قَارُونُ إنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظيمٍ * وقالَ الَّذينَ أُوتُوا العلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ الله خَيْرٌ لمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالحًا﴾ ثم قال عز وجلّ: ﴿وَلاَ يُلَقَّاهَا إلاَّ الصَّابرُونَ﴾ [القصص: ٧٩ ـ ٨٠]. أى لا يُلَقَّى هذه الحكمة إلا الصَّابرون عن زينة الدُّنيا التى خرج فيها قارون.

وروينا عن جُنْدُب بن عبد الله البَجَلِيِّ قال: كنا عند رسول الله ﷺ غِلْمَانًا حَزَاوِرَةً، فيعلِّمنا الإيمانَ قبل القرآن، ثم تعلَّمنا القرآنَ فازددنا إيمانًا.

وعن ابن مسعود قال: أُنزل القرآن ليُعمل به، فاتخذتم دراسته عملاً، وسيأتى قومٌ يَثْقُفُونَه[1] تثقيفَ الغناء، ليسوا بخياركم. وفى لفظٍ آخرَ: يقيمونه إقامةَ القَدْحِ[2]، يتعجَّلونه ولا يتأجَّلونه.

وروينا عن ابن عمر وغيره: لقد عِشْنا برهةً من دهرنا وإن أحَدَنا يُؤتَى الإيمانَ قبل القرآن، وتنزل السورةُ فيتعلم حلالها وحرامَها، وآمرَها وزاجرَها، وما ينبغى أن يتوقف عنده منها، كما تتعلمون أنتم اليوم القرآن. ولقد رأيتُ رجالاً يُؤتَى أحدُهُم القرآنَ قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته لا يدرى ما آمِرُه ولا زاجره، وما ينبغى أن يقفَ عنده، وينثرُه نَثْرَ الدَّقَل[3].

وفى الخبر الآخر بمعناه: كنّا أصحابَ رسول الله ﷺ أُوتينا الإيمان قبل القرآن، وسيأتى بعدكم قومٌ يُؤتَوْنَ القرآنَ قبل الإيمان، يقيمون حروفه، ويضيّعون حدوده، ويقولون قرأنا فمَنْ أقرأُ منَّا، وعَلِمْنا فمَنْ أعلمُ منّا، فذلك حظُّهم منه. وفى لفظ

(١) يقال: ثَقِفَ الشىءَ ثقفًا: حَذَقه.

(٢) القِدْح: خشبة السَّهم قبل أن تُراش، أى يركب لها الريش.

(٣) الدّقل: أردأ التمر.

آخر: أولئك شِرارُ هذه الأمة.

فأما العلمُ المأثورُ الذى نقَله خلفٌ عن سلف، والخبرُ المرسومُ فى الكتب المستودَع فى الصحف الذى يَسْمَعه مَنْ غَبَرَ عَمَّنْ قَدِمَ، فهذا. وعلمُ الأحكامِ والفتيا[1]، وعلمُ الإسلام والقضايا، طريقُهُ السمعُ، ومفتاحُه الاستدلالُ، وخزانتُهُ العقلُ، وهو مدوَّن فى الكتب، ومحبَّر فى الورق، يتلقَّاه الصغيرُ عن الكبير بالألسنة، وهو باقٍ بقاء الإسلام، وموجودٌ بوجود المسلمين؛ لأنّه حجة الله تعالى على عباده، ومحجّة العموم من خلقه، فضمن إظهاره، فلم يكن ليظهر إلا بحَمَلَة تُظهره، ونَقَلَةٍ تحمله، فقال تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف:٩]. وكما قال الرسول ﷺ بمعناه: «وعلمٌ ظاهر على اللسان، فذلك حجة الله تعالى على خلقه». وقال ﷺ لأصحابه: «تسمعون ويُسمَع منكم، ويُسمَع ممَّن سمع منكم». فأخبر ﷺ بالعلم العتيد المستودع ظهور الكتب الذى هو ظاهر الدين، وفى جهله وعدمه وجودُ الشِّرك. كما ضمن الله تعالى تبقية الإسلام على كره المشركين. وقال ﷺ: «رَحِمَ اللهُ مَنْ سمع منا حديثًا فبلَّغه كما سمعه، فرُبَّ حاملِ فقهٍ غير فقيهٍ، وربَّ حاملِ فقهٍ إلى من هو أفقه منه». وقد أخبر أن حاملَ الفقهِ قد يكون غيرَ فقيهِ القلب إذا لم يعملْ بعلمه، وأنه قد يحملهُ إلى مَنْ هو أفقه منه إذا عَمِل به إذا وعاه. كما قال فى الخبر الآخر: «رُبَّ مُبلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ»، فمدحه بالعمل به إذا وعاه؛ فتذكّر به وتفكّر فيه، وإن لم يكن سمعه منه ﷺ.

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٢] يعنى: أذن القلب الحافظة ما سمعت الذاكرة لمَا وَعَتْ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧] يعنى: أصغى بسمعه إلى سامعه، وشهد بقلبه ما سمعه من شاهده. وقد جاء فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ قال: أُذن عَقِلَت عن الله تعالى أمرَه ونهيَه فوَعَتْه وعَمِلتْ به، كما وصَف

(١) فى (ط): «فهذا علم الأحكام والفتيا».

سبحانه وتعالى المؤمنين الذين نعتهم بقوله فى تمام وصفهم: ﴿وَالحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ﴾ [التوبة: ١١٢].

وقد روينا عن عليٍّ رضى الله عنه: اطلُبُوا العلم تُعرَفوا به، واعمَلوا به تكونُوا من أهله. وقال أيضًا رضى الله عنه: إذا سمعتم العلم فاكظموا عليه، ولا تخلطوه بهزل فتَمجَّه القلوبُ.

وقال بعض السلف: من ضحك ضَحْكَةً مَجَّ مجَّةً منَ العلْمِ. وقال الخليل بن أحمد رحمه الله: ليس العلمُ ما حَواهُ القِمَطْرُ إنَّما العلمُ مَا وَعَاه الصَّدْرُ.

وإذا جمع العالمُ ثلاثًا تَمّت النِّعْمةُ به على المتعَلِّم: الصَّبْرَ، والتَّوَاضُعَ، وَحُسْنَ الخُلُقِ. وإذا جمع المتعَلِّمُ ثلاثًا تَمَّتِ النِّعْمةُ بِهِ عَلَى العالم: العقلَ، والأدَبَ، وَحُسْنَ الفهم.

والله أعلم.

ذكر وصف العلم وطريقة السلف
وذم ما أحدث المتأخرون من القصص والكلام

لا بدّ للعَالِم باللهِ تعالى منْ خَمْسٍ هِيَ عَلامةُ عُلَماءِ الآخِرَةِ: الخشيةِ، والخُشُوعِ، والتَّواضُعِ، وحُسْنِ الخلُقِ، والزهْدِ. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَماءُ﴾ [فاطر: ٢٨]. وقالَ تعالى: ﴿خَاشِعِينَ للهِ﴾ [آل عمران: ١٩٩] الآية. فلا بدّ له منَ التواضعِ وَحُسْنِ الخُلُقِ، قالَ اللهُ عزّ وجلّ: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَقُلْ إِنِّى أَنَا النَّذِيرُ المُبِينُ﴾ [الحجر: ٨٨ ـ ٨٩]، وقال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩] الآية، والزهْدِ فى الدُّنْيا، قال اللهُ تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوابُ اللهِ خَيْرٌ﴾ [القصص: ٨٠]. فَمَنْ وُجِدَ فِيهِ هَذِهِ الخلالُ فَهُوَ مِنَ العُلَماءِ باللهِ عزّ وجلّ.

واعلَمْ أنَّهُ إنما يَسْتَبِينُ العالِمُ عِندَ المشكِلاتِ فى الدِّين، ويُحتَاجُ إلى العارفِ عِندَ

شُبُهات حَاكَتْ فى الصُّدُور، كما قال عَبْدُ الله بن مسعود رضى الله عنه: لا تَزالُونَ بخيرٍ ما إذا حاك فى صَدْرِ أحَدكُم شَىءٌ وَجَد من يُخبِرُهُ به ويَشْفيه منهُ. وايمُ الله أَوْشَكَ أن لا تَجدوا ذلك.

وكما قال له رسولُ الله ﷺ: «أىُّ الناسِ أعْلمُ؟ فقال: الله ورسوله أعلم. فقال: اعْلَمُهُمْ بالحقِّ إذَا اشتبَهت الأمورُ ووَقَعت المشكلاتُ، وإنْ كَانَ يَزْحَفُ على استه». فكَذلكَ إذا اختلفَ الناسُ وإنْ كَانَ فى عَمَله تَقْصيرٌ. وكَما قالَ فى حديث عُمْرَانَ بن حُصينٍ: «إنَّ اللهَ تعالى يُحبُّ البصرَ الناقدَ عندَ وُرُود الشُّبُهَات، والعقلَ الكَاملَ عندَ هُجُومِ الشَّهوَاتِ، ويحب السَّخاءَ ولوْ عَلَى تَمْراتٍ، ويحبَ الشَّجاعةَ ولو عَلَى قتل الحيَّاتِ».

وقَدْ حَصَلَ لنا فى زَمَاننا هذا مثْلُ مَا خَافهُ ابنُ مسعود؛ لأنَّ مُشْكلَةً لوْ وردتْ فى مَعَانِى التَّوحِيد، وشُبُهةً لو اخْتلجَتْ فى صَدْرِ مُوقنٍ[1] من معَانى صفَات الموَحَّد، وأرَدْتَ كشفَ ذَلكَ عَلَىَ حَقيقة الأمر بما يَشهَدُهُ القلبُ الموقنُ، ويَثلجُ لهُ الصَّدرُ المشرُوحُ بالهدَى، كان ذلك عزيزًا فى وَقْتكَ هذا، ولكُنتَ فى استكْشَاف ذلكَ بين خمْسة نَفَرٍ:

مُبتدعٍ ضَالٍّ، يُخبرُكَ برأيه عَنْ هَواهُ فَيزيدُكَ حَيْرةً.

أوْ مُتكَلِّمٍ، يُفْتيكَ بقُصُورِ علْمه عَنْ شَهَادة الموقنين، وبقياسِ معقولِه على ظاهرِ الدين. وهذا شُبْهةٌ، فكيف تنكَشفُ شبهةٌ بشُبُهَة؟!

أو صُوفىٍّ شاطحٍ تائه غالط يُجاوزُ بكَ الكتابَ والسُّنَّةَ لا يُباليهما، ويُخالفُ بقوله الأئمَّةَ لا يَتحاشَاها، فيُجيبُكَ بالظَّنِّ والوسواسِ، والحَدْس والتَّمويه، ويمحُو الكونَ والمكان، ويُسْقطُ العلمَ والأحكَامَ، ويُذْهبُ الأسْماءَ والرُّسُومَ. وهَؤلاءِ تائهونَ فى مفازة التيه لم يقفوا على الحجَّة، قد غَرقوا فى بحر التوحيد، لم يُجْعَلوا أئمَّةً للمتَّقين، ولا حُجَّةً للموقنين. وهذا ساقطُ القَولِ، إذ ليسَ مَعَهُ حُجَّةٌ، ولا هُو على سَنَنِ المحجّةِ.

---

(١) فى (ط): «مؤمن» وأثبت ما فى (ك).

أو مُفْت عالم عندَ نفسه، موسوم بالفقه عندَ أصحابه، يقولُ: هذا من أحكام الآخرة ومن علم الغيب لا نتكلَّمُ فيه؛ لأنّا لم نُكلَّفْهُ، وهو فى أكثر مناظرته يتكلَّمُ فيما لم يُكلَّفْ، ويُجادلُ فيما لم يَنْطقْ به السلفُ، ويتعلَّمُ ما علمهُ بتكلُّف، ولا يعلمُ المسكينُ أنه كُلِّفَ علْمَ يقينِ الإيمان، وحقيقةَ التوحيد، ومعرفةَ إخلاص المعاملة، وعلْمَ ما يقدَحُ فى الإخلاص، ويخرجُ من جُمْلته قبل ما هو فيه؛ لأنَّهُ متكلفٌ لبعض ما هُو يَبْتغيه؛ لأنَّ علْمَ الإيمَان، وصحَّةَ التوحيد، وإخلاصَ العبوديَّة للربُوبيَّة، وإخلاصَ الأعمَالِ منَ الهوَى الدنْيويَّة، وما يتعلقُ بهَا منْ أعْمال القلوب ـ هو من الفقْه فى الدِّين، ونعْت أوصاف المؤمنين؛ إذ مقتضاهُ الإنذارُ والتحذيرُ؛ لقوله تعالى: **﴿لِيَتَفَقَّهُوا فى الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾** [التوبة: ١٢٢] الآية، ولقولِ الرسُول ﷺ: «تعلَّمُوا اليقينَ فإنى متعلِّمٌ مَعَكُم»، ولقول الصحابة رضى الله عنهم: «تعلَّمنا الإيمان، ثُم تعلمنا القرآنَ فازددنا إيمانًا»، فهذا ـ مزيدًا ـ الهدايةُ بالإيقان، وهُو زيادةُ المؤمنينَ فى الإيمان، كما قال تعالى: **﴿فَزَادَهُم إيمانًا﴾** [آل عمران: ١٧٣]، وقال عزّ وجلّ: **﴿وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾** [مريم: ٧٦].

ولا يشعرُ أنَّ حُسْنَ الأدَبِ فى المعامَلَة بمعرفة ويقينٍ هُو من صفات الموقنين، وذلك هُو حالُ العبدِ فى مقامه بينه وبين ربِّه عزَّ وجلَّ، ونصيبُه من ربِّه تعالى، وحَظُّهُ من مزيد آخرته. وذلكَ معقُودٌ بشَهادة التوحيد، المقترنة بالإيمان، الخالصة من خفايا الشِّرْكَ وشُعَبِ النفاق، وهو مقترنٌ بالفرائض، وفَرضُ فَرضهَا الإخلاصُ بالمعاملة. وإن عَلمَ مَا سوى هذا[(١)] ممَّا قد أُشْرِبَ قلبُهُ وحُبِّبَ إليه من فضولِ العلوم وغرائبِ الفهوم، إنما هو حوائجُ الناس ونوازلُهم، فهو حِجابٌ عن هذا واشتغالٌ عنهُ.

فآثرَ هذا الغافلُ[(٢)] ـ لقلَّةِ معرفته بحقيقةِ العلم النافع ـ ما زُيِّن له طَلَبُهُ وحُبِّبَ

(١) عبارة (ك): «وهو مقترن بالفرائض، وفرض فرضها المقترن بالمعاملة، وعلم ما سوى هذا».

(٢) فى (ك): «البائس».

إليه قصدُهُ، آثر حوائجَ الناسِ وأحوالهم على حاجته وَحاله، وعَمِلَ فى أنصبتهِمْ منه فى عاجلِ دُنياهُم مِنْ نَوازلِ طوارقهمْ وَفُتْياهُم، ولَم يَعْمل فى نصيبه الأوفر من ربِّه الأعلى؛ لأجل آخرتهِ التى هى خيرٌ وأبقى؛ إذ مرجعُه إليها وَمَثْواه المؤبَّدُ فيها، فآثرَ التقرُّبَ مِنهُمْ على القُربةِ من ربه عزّ وجلّ، وترك ـ للشُّغل بهم ـ حظَّهُ من الله تعالى الأجزل، وقدّم التفرُّغَ لهم على فراغ قلبه لمولاه وشُغله بخدمته وتذكُّر رضاه[1]، واشتغل بإصلاح ألسنتهم عن صلاحِ قلبه، وظواهِرِ أحوالهم عن باطن حاله، وكان سبب ما بُلى به حُبُّ الرياسة وطلبُ الجاه عند الناس والمنزلة بمُوجب السياسةِ والرغبة فى عاجل الدُّنيا وعزِّها، بقلَّة الهمَّة وضعف النيَّة فى عاجل الآخرةِ وذُخرِه، فأفْنَى أيامَه لأيامِهِمْ، وأذهَبَ عُمْرَه فى شهواتِهِمْ؛ ليسمِّيَهُ الجاهلون بالعلمِ عَالمًا، وليكونَ فى قلوبِ البطَّالينَ عندَهُمْ فاضلاً، فورَدَ القيامةَ مُفْلِسًا، وعِندَ ما يراهُ من أنصبةِ المقرَّبينَ مُبْلسًا، إذ فازَ بالقُربِ العاملون، وربح الرضا العالمون، ولكنْ أنَّى له؟ وكيفَ بنصيبِ غيره وقدْ جعلَ اللهُ تعالى لكلِّ عملٍ عاملاً ولكلِّ علم عَالمًا؟ ﴿أُولئكَ يَنالُهُم نَصِيبُهُم مِنَ الكتابِ﴾ [الأعراف:٣٧]، و«كلٌّ مُيسر لما خلق له».

هذا فصلُ الخطاب بينهما.

وأيضًا فإن الأمة لم تختلف أنَّ علمَ التوحيدِ فريضةٌ، سيِّما إذا وقعتِ الشُّبُهات وأُدخلَتْ فيه المشكلاتُ. وإنما اختلفوا فى مسألتين: أىُّ شىءٍ هُو التوحِيدُ؟ وفى كيفية طلبه والتوصل إليه. فمنهم من قال: بالبحث والطلب. ومِنْهُمْ من قال: بالاستِدلالِ والنظر. ومنهم من قال: بالسمع والأثرِ. وقال بعضهم بالتوقيف والتسليم. وقالَ بعضُ النَّاس: يُدْرَكُ دَرَكُهُ بالعجزِ والتَّقصير عن بُلُوغِ دَرَكِهِ.

والرجلُ الخامسُ من العلماء: هُو صاحبُ حديث وآثار، وناقلُ رواية الأخبار، يقولُ لك إذا سألته: اعتقدِ التسليم وأمرَ الحديث كما جاء، ولا تُفتِّشْ. وهذا يتلُو المفتى فى السّلامةِ، وهو أحسنُهُم طريقةً، وأشبهُهُم بسلفِ العامَّة خليقةً، ليْسَ

---

(١) فى (ط): «وقدم التفرغ لهم على فراغ قلبه، لما قدم لغده من تقواه بالشغل بخدمة مولاه وطلب رضاه» وهى عبارة مضطربة، وأثبت عبارة (ك) لأنها أدق.

عندَه شهادةُ يقينٍ، ولا معرفةٌ بحقيقةِ ما رآهُ، ولا هو مُشاهدٌ واصفٌ لمعنَى ما نقلهُ، إنَّما هو للعلمِ راويةٌ، وللأثرِ والخبرِ ناقلةٌ عَنْ غيرِ خُبْرٍ لِخَبرِه، ولا فقهٍ فى نقلِه. فَهُوَ على بيِّنةٍ من ربِّه، وليس يتلوهُ شاهدٌ منهُ.

وقد كان الزُّهْرِى يقول: حدَّثَنى فلان، وكان من أوعيةِ العلم، ولا يقولُ: وكان عالمًا. وكان مالكُ بنُ أنس رحمه الله يقول: أدركتُ سبعين شيخًا من التابعين، منهم عُبَّادٌ، ومنهم مستجابُ الدعاءِ، ومنهُمْ مَن يُستَسقَى به، ما حَمَلْتُ عنهُمْ علمًا قَط. قيل: ولمَ ذاك؟ قال: لم يكُونُوا من أهلِ هذا الشأن. وفى روايةٍ: لم يكونوا يدرون ما يُحدِّثونَ بهِ، ولم يكن لهم فقهٌ فيما يُسألونَ عنه.

قال مالك: ويَقْدُم علينا ابنُ شهاب الزهرى، وهو حديثُ السِّنِّ، فنزدحمُ عليهِ حتى لا نكاد نَصلُ إليه؛ لأنه كان عالمًا بما يُحدِّث به. فهذا بمعنَى ما رُوِىَ عن رَسُولِ اللهِ ﷺ: «رُبَّ حَاملِ فقهٍ غيرُ فقيه، ورُبَّ حَاملِ فقهٍ إلى مَنْ هو أفقهُ منه».

وقال بعضُ السلف: ما كانوا يعدُّون علمَ مَنْ لا يعرفُ اختلافَ العلماء علمًا. وقال آخر: مَنْ لم يَعرفِ اختلاف العلماء لم يَحلَّ له أن يفتى، ولم يُسمَّ عالمًا. وقال قتادةُ وسعيدُ بن جبير: أعلمُ الناس أعلمُهم باختلاف الناس. وقيل للإمام أحمد رضى الله عنه: إذا كتب الرجلُ مائة ألف حديثٍ له أن يُفْتِىَ؟ قال: لا. قيل: فمائتى ألف حديث؟ قال: لا. قيل: فثلاثمائة ألف حديث؟ قال: أرْجُو. وفى التوراةِ مكتوبٌ: «الطَّبيبُ الحاذِقُ للعلَّةِ الباطنةِ يَصْلُحُ».

وكَتَبَ سلمانُ الفارسى من المدائن إلى أبى الدرداء، وكان قد آخى رسُولُ الله ﷺ بينهما فيمَنْ آخى: يا أخى بلغنى أنك أُقعدتَ طبيبًا تُداوى المرضى. فانظر، فإن كنتَ طبيبًا فتكلَّمْ فإن كلامَكَ شفَاءٌ، وإن كُنتَ مُتطبِّبًا فاللهَ اللهَ لا تقتُلْ مُسْلمًا. قال: فكانَ أبو الدرداء يتوقفُ بعدَ ذلك إذا سُئِل عن شىء. وسألهُ إنسانٌ عن شىءٍ فأجابه ثُم قالَ: رُدُّوهُ، فقالَ لهُ: أعِدْ عَلىَّ، فأعَادَ، فقَالَ: مُتطبِّبٌ واللهِ، فَرَجعَ فى جوابِه.

ولَعَمْرِى أنَّهُ قد جَاءَ عن رسول الله ﷺ: «مَنْ تَطبَّبَ ولم يُعلَم منهُ طبٌّ فقتَلَ

فهو ضامنٌ». وقد كان ابنُ عباسٍ رضى الله عنه يقولُ: سلوا جابرَ بن زيدٍ، فلو نَزلَ أهلُ البصرةِ على فُتياهُ لَوسِعَهم، وكان من صالحى التابعين.

وكان ابنُ عمر رضى الله عنهما إذا سُئِل عن شيءٍ يقولُ: سلُوا سعيدَ بنَ المسيَّب. وكان أنسُ بنُ مالكٍ رضى اللهُ عنه يقولُ: سلُوا مَولانا الحسنَ؛ فإنه قد حَفِظَ ونَسينَا.

وقال بعض البصريِّين: قَدِمَ علينا رجلٌ من أصحابِ رسول الله ﷺ، فأتينا الحسن فقُلنا: ألاَ نذهب إلى هذا الصَّحَابى فنسألهُ عن حديثِ رسول الله ﷺ وتجيء معنا؟ قال: نعم، فاذهبُوا. قال: فجعلنا نسألُه عن حديثِ رسولِ الله ﷺ وجعل يحدِّثُنا حتَّى حدَّثنا عشرين حديثًا.

قال: والحسن يُنصِتُ يَستمعُ إليه. ثُمَّ جثا الحسنُ على ركبتيهِ فقال: يا صاحبَ رسول الله أخبرْنا بتفسيرِ ما رويتَ عن رسولِ الله ﷺ حتى نفقهَ فيه. فسكتَ الصحابى وقال: ما عندى إلا ما سَمِعتُ.

قال: فابتدأ الحسنُ ـ رحمه الله ـ يُفسِّرُ ما رواهُ، فقال: أما الحديثُ الأوّلُ الذى حدثْتَنَا به فإنّ تفسيره كيت وكيت، والحديثُ الثانى تفسيرهُ كذا وكذا، حتى سرد عليه الأحاديثَ كُلَّها التى حدَّثنا بها وأخبرنا بتفسيرها.

قال: فلا نَدْرى نَعْجَبُ من حُسْنِ حفظِهِ إياهُ وأدائِه الحديث، أو من علمه وتفسيره؟!

قال: فأخذَ الصحابيُّ كَفًا من حصًى وحَصَينا به، ثُمَّ قال: تَسألونى عن العِلم وهذا الحَبرُ بين أظهُركُمْ.

فهؤلاء أصحابُ النبيِّ ﷺ يردُّون الأمور فى الفُتْيا وعلمِ اللسانِ إلى مَنْ هو دُونهم فى القدْر والمنزلة، وهُو فى علمِ التوحيدِ والمعرفَةِ والإيمانِ فوقهم درجات، ولا يَرْجِعُونَ إليهم فى الشُّبهات، ولا يردون إليهم فى علمِ المعرفة واليقين. فهذا كما قيل: إنَّما العلمُ نُورٌ يَقْذِفُه الله تبارك وتعالى فى قلوبِ أوليائه. فقد يكونُ ذلك تفضيلاً للنظراءِ بعضهم على بعضٍ، وقد يكُونُ تخصصًا للشَّبابِ على

الشُّيوخ، ولمن جاء بعد السَّلَف منَ التَّابعين، وَرُبَّمَا كَانَ تكرمَةً للخاملينَ المتواضعين؛ لينبِّه عليهم ويعرفون شأنَهُمْ؛ ليَعظُمُوا ويُرْفَعُوا، كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِى الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ [القصص: ٥].

والنُّور إذا جُعِلَ فى الصَّدْرِ انشرح القلبُ بالعلم، ونظر باليقين فنطق اللسانُ بحقيقةِ البيانِ، وهُو الحكمةُ التى يُودعها الله تعالى فى قُلُوبِ أوليائه، كما جاء فى تفسير قوله عزّ وجلّ: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠]، قيل: الإصابة فى القول، فكأنَّه يُوفِّقُهُ للحَقِيقَةِ، وقوله تعالى: ﴿يُؤْتِى الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] قيل: الفهمُ والفطْنة.

وقد قال رسول الله ﷺ فى وصفِ الهدايةِ حين تلا قوله عز وجلّ: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] فقيل: «يا رسول الله، ما هذا الشرح؟ فقال: إنَّ النُّورَ إذا قُذفَ فى القلب انشرحَ له الصَّدْرُ وانفسَحَ. قيلَ: فهَلْ لذلكَ من علامة؟ قال: نعَم، التَّجَافى عن دارِ الغُرور، والإنابةُ إلى دار الخُلودِ، والاستعداد للموتِ قبل نزوله».

فذكر سببَهُ: الزُّهْدَ فى الدنْيا، والإقبالَ على خدْمة المولى، فحُسنُ التوفيقِ والإصابةُ فى العلمِ مواهبُ من الله عزّ وجلّ، وأثرةٌ يختصُّ بها من يشاءُ. كما سُئِل أبو مُوسَى الأشعَرىُّ ـ وهو أميرُ الكوفة ـ عن رجلٍ قُتلَ فى سَبِيلِ الله مُقْبلاً غير مدبر، أيْنَ هُو؟ فقال أبو موسى: فى الجنَّة. فقال ابنُ مسعود للسائلِ: أعدْ على الأمير فُتْياكَ فلعلَّه لم يَفْهَمْ. قال السائلُ: قلتُ أيُّها الأميرُ: مَا قولُكَ فى رجلٍ قاتلَ فى سبيلِ الله فقُتلَ مُقْبلاً غيرَ مدبرٍ أينَ هُو؟ فقال أبو موسى: فى الجنة. فقال ابن مسعود رضى الله عنه: أعدْ على الأمير فلعلّهُ لم يفهم، فأعاد عليه ثلاثًا، كل ذلك يقول أبو موسى: فى الجنة. ثم قال: ما عندى غيرُ هذا فما تقولُ أنت؟ فقال ابن مسعود: لكنى لا أقول هكذا، قال: فما قولُكَ؟ فقالَ: أقولُ: إن قُتِلَ فى سبيلِ الله فأصابَ الحقَّ فهُوَ فى الجنةِ. فقال أبو موسى: صدق، لا تسألونى عن شىءٍ ما دام هذا الحبرُ بين أظهُركم.

والقولُ فى تسليم أخبارِ الصِّفاتِ والسُّكُوتِ عنْ تَفْسيرِها كما قال أصحابُ الحديث، إلا أن معرفةَ معانى الأسماء والصِّفاتِ وشُهودِهَا يَنفى الظنَّ والوسْوَاسَ فيهَا، وتركَ التشبيهِ والتمثيل بها والطُّمأنينةَ إلى اليقينِ بالمعرفةِ بمُشاهدَتِها هو مُقامُ الموقنين، واعتقادَ أنها صِفاتٌ لله تعالى يتجَلَّى بها وبما شاءَ من غيرها بلا حَدٍّ ولا عدد يُظْهِرُ بصفةٍ صفةً كيف شاء، غيرَ موقوف على صفة، ولا محكومٍ عليه بصُورةٍ، بلا إظهارِ غيرته، بل هُو كيف ظهر، وبأَيٍّ وصفٍ تجَلّى، مع نفى الكيفيَّةَ والمثلية لفقدِ الجنس والجوهَرِيَّة، هُو مُقامُ المقرَّبين من الشُّهداء، وهؤلاءِ هُمُ الصِّدِّيقُون، وخُصُوصُ الموقنين.

فمن عُدِل بهِ عن وجهَةَ هؤلاء، ولم يُواجِهْ بشهادتهم [عن أصل معرفتهم][1] عُدِلَ إلى التسليم والتصديق، فوقفَ عندَهُ، فكان مَعْقله واستراحته. وليسَ بعد هؤلاء مَقَامٌ يُمْدَحُ، ولا وصفٌ يُذكَرُ. فمَنْ فَتَّشَ ذلك بعقْلِه، وفسَّرهُ برأيه، دخل عليه التشبيهُ، أو خَرَجَ إلى النَّفْيِ والإبطالِ.

ومن الدليل على فضل هذا العلمِ على سائر العلوم ما جاء فى الأخبار المأثورة عن النبى ﷺ وعن الصحابة والتابعينَ فى فضل مجالس الذِّكرِ وَفَضْلِ الذَّاكرين، إنما يُريدُون به علمَ الإيمان والمعرفة وعلومَ المعاملاتِ، والتفقُّهَ فى بصائر القلُوب، والنظرَ بعين اليقين إلى سرائر الغيوب، وليس يريدون به مجالسَ القَصَص، ولا يَعْنُونَ بِذَلكَ القُصَّاصَ؛ لأنَّهُمْ كانُوا يَرَوْنَ القَصَصَ بدْعَةً وَيَقُولُونَ: لَم يُقَصَّ فى زَمن رسُول الله ﷺ، ولا أبى بكرٍ، ولا عُمر، حتى ظهرت الفتنةُ، فلمّا وقعت الفتنةُ ظهرَ القُصَّاصُ.

ولَمَّا دَخَلَ عليٌّ رضى الله عنهُ البصرةَ جَعَلَ يُخرِج القُصَّاصَ من المسجدِ وَيقول: لا يُقَصُّ فى مَسْجدِنَا، حتّى انتهَى إلى الحَسَنِ وهو يَتكلَّمُ فى هذا العلمِ، فاستمع إليه، ثم انصرف ولم يُخرِجْه.

وجاء ابن عمر إلى مجلسه من المسجد، فوجدَ قاصًا يقُصّ، فوجّه إليه صاحبَ

---

(١) ساقطة من (ط).

الشُّرْطَةِ أن أَخْرِجْهُ من المسجدِ، فأخرجهُ.

فلو كان القَصَصُ من مَجَالِس الذِّكْرِ ـ والقُصّاصُ عُلماءُ ـ لما أخرَجهُمْ ابنُ عُمرَ من المسجدِ، هذا معَ ورعه وزهده.

وقد روينا عن ابن شَوْذَب، عن أبى النّياح، قال: قلتُ للحسن: إمامُنا يَقُصّ فيجْتَمِعُ الرِّجَالُ والنِّسَاءُ فيرفعُونَ أصواتَهُمْ بالدعَاء ويمدُّون أيديَهُمْ. فقال الحسنُ: رَفْعُ الصوْتِ بالدُّعاءِ بِدْعةٌ، ومَد الأيدى بالدُّعاء بدعةٌ.

وروى أبُو الأشهبِ عن الحسن: القَصَصُ بدْعة. وقيل لابن سيرينَ: لَوْ قَصَصْتَ على إخوانكَ، فقال: قد قيلَ: لا يَتكلَّمُ عَلَى الناس إلاَّ أحَدُ ثلاثة: أميرٌ أو مأمورٌ أو أحمقُ. فلسْتُ بأميرِ ولا مأمور، وأكره أن أكون الثالثَ.

وَرُوينا عَنْ عَوْنِ بنِ مُوسَى، عن معاوية بن قُرَّةَ قال: سألتُ الحسنَ البصْرِىَّ قلت: أَعُودُ مريضًا أحبُّ إليكَ أوْ أجْلسُ إلى قَاصٍّ؟ فقال: عُدْ مَريضَك. فقلت: أُشيِّعُ جنَازةً أحبُّ إليك أو أجْلسُ إلى قَاصٍّ؟ قال: شيِّع جنازتك. قلتُ: وإن استعانَ بِى رَجُلٌ فى حاجةِ أعينه أو أجلسُ إلى قاصٍّ؟ قال: اذهب فى حاجتك، حتى جعلهُ خيرًا من مجالس الفراغ.

فلو كانت مجالسُ الذكرِ عندهم هى مَجَالسُ القُصّاص، ولو كان القَصَصُ هُوَ الذِّكْر، لما وَسعَ الحسنُ أن يثبِّطَ عنهُ، ولا يُؤثِرَ عليه كثيرًا من الأعمال؛ لأنهُ قَدْ كَانَ يَدعُو إلى اللهِ تعالى بالتوحيدِ، ويَتكلَّم فى علْمِ المعرفةِ واليقين والذَّاكِرِين لله تعالى، وحضورُ مجلسِ الذكرِ من مزيدِ الإيمانِ.

وقد رفع الله تعالى مقامَ الذَّاكرين فوق مقام المؤمنين فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، فجعل الذاكرين والذاكرات أعلى المقامَات.

وقَدْ رُوينا فى خَبَرِ أبى ذرٍّ: «حضورُ مجلسِ ذكر أفضلُ من صلاةِ ألفِ ركعة، وحُضورُ مجلسِ علم أفضلُ من عيادة ألفِ مريض، وحضورُ مجلس علم أفضلُ من شهودِ ألف جنازةِ. قيل: يا رَسُولَ الله، ومن قراءة القرآن؟ فقال: وهَلْ تنفعُ

قِرَاءةُ القرآن إلا بعلم؟».

وقال بعض السلفِ: حضور مجلسِ ذكرٍ يكفِّرُ عشْرةً من مجالس الباطلِ.

وأما عطاءٌ فإنه قال: مجلسُ ذكرٍ يكفِّرُ سبعينَ مَجْلسًا من مجالسِ اللّهْوِ.

وحدَّثُونا عن معاذ الأعلمِ قال: رآنى يُونُسُ بنُ عُبيدٍ وأنا فى حَلْقة المعتزلةِ، فقال: تعالَ، فجئتُ، فقال: إن كُنتَ لا بدّ فاعلاً فعليك بحلقة القُصَّاص.

وقد كان الحسنُ البصريُّ أحد المذكِّرينَ، وكانت مجالسُه مجالسَ الذكْرِ، يخلُو فيها معَ إخوانِهِ وأتباعهِ منَ النسَّاكِ والعُبَّاد فى بيتِه مثلَ: مالكِ بن دينارٍ، وثابتِ البنانىّ، وأيُّوبِ السَّخستانىّ، ومُحمد بن واسعٍ، وفرقدٍ السنجىّ، وعَبدِ الواحدِ بن زيد، فيقول: هاتُوا انشُرُوا النورَ، فيتكلمُ عليهم فى هذا العلم من علم اليقينِ والقدرة، وفى خواطرِ القلوبِ وفساد الأعمالِ ووَسواسِ النفُوسِ. وربما قنَعَ بعضُ أصحابِ الحديثِ رأسَهُ فاختفَى مِنْ ورائِهِمْ ليسمَعَ ذلكَ، فإذا رآه الحسنُ قال له: يا لُكَعُ وأنتَ مَا تصنَعُ هَهنا؟ إنّما خَلَونا مع إخواننا نتذاكرُ.

والحسنُ - رحمه اللهُ - هُو إمامُنَا فى هذا العلمِ الّذى نتكلمُ بِه: أثرَه نقفُو، وسَبيلَه نتَّبعُ، ومِنْ مشكاتهِ نستضىءُ. أخذنا ذلك بإذنِ الله تعالى إمامًا عن إمامٍ إلى أن ينتهىَ ذلك إليه.

وكان من خيارِ التابعين بإحسانٍ. قيل: ما زال يعى الحكمةَ أربَعينَ سنةً حتى نَطَق بها. وقد لقى سَبْعينَ بَدْرِيًا، ورأى ثَلاثمائةِ صحابىٍّ، ووُلِدَ لليلتين بَقيتا من خلافة عمرَ بن الخطَّابِ رضى الله عنه سنة عشرين من التاريخ. وُلدَ بالمدينة، وكانتْ أمهُ مولاةً لأمّ سلمةَ زوجِ النبىِّ ﷺ، ويقال: إنَّها ألقمته ثَديَهَا تعلِّله حين بكى، فدرَّ ثديُها عليه. وكان كلامُه يُشبَّهُ بكلامِ رَسُول الله ﷺ. ورأى عثمانَ بن عفَّان، وعلىَّ بن أبى طالبٍ، ومَنْ بقى فى وقْتِهِ من العشرةِ. ثم رأى مِنْ أصحابِ رسول الله ﷺ من عهدِ عثمان ومن سنة نيِّفٍ وعشرين من الهجرة، إلى سنةِ نيفٍ وتسعينَ.

ومن آخرِ مَنْ ماتَ من أصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بالبصرةِ: أنسُ بنُ مالكٍ،

وبالمدينة: سهلُ بنُ سعد الساعدىِّ، وبمكةَ: أبو الطُّفيلِ، وباليمنِ: أبيضُ بنُ جمالٍ المازنيّ، وبالكوفةِ: عبدُ الله بنُ أبى أَوْفَى، وبالشامِ: أبوُ قرصافةَ، وبخراسانَ: بُريدةُ الأسْلَمىُّ.

ودخلَت سَنَةُ مائةٍ منَ التاريخ ولم يبق على وَجْهِ الأرض عينٌ تَطْرفُ رأتْ رسول الله ﷺ فى جميع أطراف الأرضِ.

ثم توفى الحسنُ فى سنةِ عشرٍ ومائة، وكان أبو قتادةَ العدوىّ يقول: عليكُمْ بهذا الشيَّخ فوالله مَا رأينا أحَدًا لم يصحبْ رسولَ الله ﷺ أشبهَ بأصحاب رسُول الله ﷺ منه. وكانوا يقولون: كُنَّا نُشبِّهُه بهَدْى إبراهيمِ الخليلِ ﷺ فى حِلْمِه وخُشُوعِه ووقارِه وَسكِينته، فكان على شمائِله.

ونذَرتِ امرأة بالبصرةِ نذْرًا إن فعل الله تعالى ذلك بها أن تنسُج ثوبًا من غزلهَا وَصفته، وتكْسُوهُ خيرَ أهْلِ البصرةِ، فرأت تَمامَ نذْرِها، فَوفَّتْ بِمَا نذرَتْ، ثُمَّ سألت: مَنْ خَيرُ أهلِ البصرةِ؟ فقالوا: الحسن.

وكان الحسنُ رضى الله عنه أول من أنهجَ سبيلَ هذا العلمِ، وفَتَقَ الألسنةَ به، ونَطَقَ بمعانيه، وأظهرَ أنوارَهُ، وكشفَ بهِ قِنَاعَهُ، وكان يتكلمُ فيهِ بكلامٍ لم يَسْمَعُوهُ من أحدٍ من إخوانه، فقيل له: يا أبا سعيدٍ، إنكَ تتكلمُ فى هذا العلم بكلامٍ لم نسمَعْه مِن أحدٍ غيرِكَ، فممّن أخذتَ هذَا؟ فقال: مِنْ حُذيفَةَ بنِ اليَمانِ.

قيلَ: وقالُوا لحذيفة بنُ اليمان: نَرَاكَ تتكلمُ فى هذا العلمِ بِكَلامٍ لا نسمعُه من أحد من أصحابِ رسول الله ﷺ، فمن أين أخذْتَه؟ فقال: خصَّنى بهِ رسولُ الله ﷺ، كان الناسُ يسألونهُ عن الخير، وكنت أسألهُ عنِ الشَّرِّ مخافةَ أن أقعَ فيه، وعلمتُ أن الخيرَ لا يَسبِقُنى. وقال مرةً: فعلمتُ أنَّ مَنْ لا يَعْرفُ الشَّرَّ لا يَعرفُ الخيرَ.

وفى لفظ آخر: كان الناس يقولون: يا رسول الله، ما لِمَنْ عَمِلَ كَذا وكَذا؟ يسألونه عن فضائلِ الأعمال، وكنتُ أقولُ: يَا رَسُولَ الله، مَا يُفْسِد كَذا وكَذا؟ فلمَّا رآنِى أسألُ عَنْ آفاتِ الأَعْمَالِ خَصَّنى بهذا العلم.

وكان حذيفَةُ قد خُصَّ بعلم المنافِقين، وأُفرِدَ بمعرفة علمِ النِّفاق، وبسَرائرِ العلمِ، ودقائقِ الفهمِ، وخفايا اليقينِ، من بين الصحابة. فكان عمرُ وعثمانُ وأكابرُ أصحابِ رسولِ الله ﷺ يَسْألونهُ عن الفتنِ العامة والفتنِ الخاصَّة، ويَرْجعُون إليه في العلمِ الذي خُصَّ بِهِ، ويسألونَهُ عن المنافقين، وهلْ بَقي منهم ممَّن ذكَر رسولُ الله ﷺ[1] وأخبرَ عنهم أحَدٌ؟ فكانَ يخبرُ بأعدادهم ولا يذكُر أسماءَهُم. وكان عمرُ يستكشفُه عَنْ نفسه، هَلْ يعلم فيه شيئًا من النِّفاق؟ فبرَّأه منه. ثمَّ يَسْألُه عَنْ عَلامات النِّفاقِ، وآيةِ المنافقِ، فيخبرُ منْ ذلكَ بما يصلُحُ مما أُذِن له فيه، ويستعفِي مما لا يجوزُ له أن يُخْبرَ به، فيُعذَرَ في ذلك.

وكَانَ عُمرُ رضي الله عنهُ إذا دُعِيَ إلى جنازةٍ ليصلِّي عليها نظَر، فإن حضَر حذيفةُ صلَّى عليهَا، وإن لم ير حذيفةَ لم يصلِّ عَلَيها. وكان حذيفةُ يسمَّى «صاحبَ السرِّ»، وكانَ [أكابرُ][2] أصحابِ رسُولِ الله ﷺ إذا سُئِلوا عَنْ عِلْمٍ يقول أحدُهُم: تسألوني عن هذا وصاحب السر فيكم؟ يعني حذيفةَ.

وروينا عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه أنه لَمَّا حدَّث عن النبي ﷺ في فضْلِ مجلسِ الذكر: «لأنْ أقعدَ معَ قومٍ يذكرونَ اللهَ تعالى من غدوة إلى طلوع الشمسِ أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أعتِقَ أربعَ رقابٍ» قال: فالتفَتُّ إلى يَزِيد الرَّقَاشيِّ وزياد النُّمَيرى فقَال: لم تكُنْ مجالسُ الذكْرِ مثْلَ مجالسكُمْ هَذه؛ يقصُّ أحدُكم ويَخطُبُ على أصحابه ويَسْرُدُ الحديثَ سَرْدًا، إنَّما كنا نقعدُ فنذكرُ الإيمانَ ونتدبرُ القرآن ونتفقَّهُ في الدِّينِ ونَعُدُّ نعمَ الله تعالى عَلَينا.

وَقَدْ كان عبدُ الله بنُ رواحةَ يقول لأصحابِ رسولِ الله ﷺ: تعالوا حَتَّى نُؤْمنَ سَاعَةً، فيجلسُونَ إليهِ فيذكِّرهُمْ العلمَ باللهِ تعالى والتوحيدَ والآخرة. وكان يَخلُفُ رسول الله ﷺ بعد قيامه فيجتمع إليه الناسُ يُذكِّرهم الله تعالى وأيامَهُ ويفقِّهُهُم فيما قال رسولُ الله ﷺ. فربَّما خرجَ عليهم رَسُولُ الله ﷺ وهُمْ مجتمعونَ عندَه، فيَسْكُتُونَ، فيَجْلِسُ إليهِمْ ويَأمرُهُمْ أنْ يَأخذُوا فِيمَا كَانُوا فِيهِ، ويَقُولُ ﷺ: «بهَذا

(١) في (ط): «ممن ذكر الله تعالى» وأثبت ما في (ك).

(٢) زيادة من (ك).

أُمِرْتُ وإلى هذا دَعَوْتُ». ورُوى نحوَ هذا عن معاذِ بن جبلٍ رضى الله عنه، وقد كان يتكلَّمُ بهذا العلمِ.

وقد رُوينا هذا مفسَّرًا فى حديثِ جُندُبٍ: «كنا مع رسول الله ﷺ فيعلِّمُنا الإيمان قبلَ أن نتعلّمَ القرآن». فسمَّى عِلمَ الإيمانِ إيمانًا، كما سمَّاهُ ابنُ رواحةَ؛ لأنَّ علمَ الإيمانِ وصفُ الإيمان، والعربُ تسمِّى الشىء بوصْفِه، وتسميه بأصْله، كما قالَ رسولُ الله ﷺ فى مثله: «تعلّموا اليقينَ» أى: علم اليقين. وكما قال تعالى: ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ من الحُزْنِ﴾ [يوسف:٨٤] أى من البكاء، فسماه بأصْله؛ لأنّ الحزنَ أصلُ البكاء.

ورُوينا عن رسول الله ﷺ «أنه خرجَ ذات يومٍ فرأى مجلسَين، أحدُهُما يدعونَ الله تعالى ويرغبون إليه، والآخرُ يتفقهونَ فى الدّين ويعلّمونَ النَّاسَ، فوقف بينهما، ثم قال: أما هؤلاء فيسألون الله تعالى فإن شاءَ أعطاهُمْ وإن شاءَ منعَهُمْ، وأمَّا هؤلاء فيعلِّمُون الناسَ ويفقِّهونَ فى الدين، وإنمَّا بُعِثتُ معلِّمًا، ثم عدل إلى الذين يُفَقِّهونَ الناسَ فى الدينِ ويذكُرونَ الله تعالى فجلسَ مَعَهم».

ويُحكَى عن بعض السَّلَفِ قال: دَخَلْتُ المسجدَ ذاتَ يومٍ فإذا بحلْقتينِ؛ إحداَهما: يقصُّونَ ويَدْعُون، والأخْرَى: يتكلمُون فى العلم وَفقْه الأعمالِ. قال: فملتُ إلى حلقة الدعاءِ فجلسْتُ إليهم، فحملتنى عيناى فنمْتُ، فهَتَف بى هاتفٌ أو قال لى شخصٌ: جلسْتَ إلى هؤلاء وتركت مجلس العلم، أمَا لو جلسْتَ إليهم لوجدتَ جبريلَ عليه السلام عندهم.

فحقيقةُ الذِّكْرِ هُو العِلْمُ بالله تعالى، ألاَ تَسْمَعُ إلى ما رُوِىَ عَنِ النبىِّ ﷺ: «أفضلُ الذكرِ قولُ لا إله إلا اللهُ»؟ وقال سبحانه وتعالى فى تصْديقه: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إلهَ إلاَّ اللهُ﴾ [محمد:١٩]، وقال فى مثله: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ وَأَنْ لا إلهَ إلاَّ هُوَ﴾ [هود:١٤].

ثم إنّ العلمَ من الذكرِ علمُ المشاهدَةِ، والمشاهدةُ صِفَةُ عَينِ القلب[1]، فإذا

(١) فى (ط): «عين اليقين» وأثبت ما فى (ك).

كُشفَ غَطاءُ العين شهدتَ معانى الصِّفَات بأنوارهَا، وهو مزيدُ نور اليقينِ الذى هُو كمالُ الإيمانِ وحقيقتُه. فهنالك ذَكرْتَ الموصُوفَ بمشاهَدة المذكُور بنور وَصْفه، ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فى غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِى﴾ [الكهف:١٠١]؟ فمن كانت عينُه فى كَشْفٍ من ذكره شهِدَ المذكورَ، فعندها ذكره، ثُمَّ وجَدَ[١] حَقيقة العلم بعد نسْيانِ الخلقِ، كقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف:٢٤]. فحقيقة الذِّكْرِ نسيانُ مَا سواه، كما أن حقيقةَ الإيمان الكفرُ بِكلِّ إلهٍ، كقَوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ﴾ [البقرة:٢٥٦].

وقال بعض أهل الحديث: جاءنى رَجُلٌ من إخوانى من أهل المعرفة فقالَ: قد وجدتُ من قَلْبى غَفْلةً، فأريدُ أن تحملنى إلى مجلس من مجالس الذِّكْرِ. فقلتُ: نعم. فسمَّى لَهُ مُذكِّرًا يتكلم فى علومِ العامَّة. قال: فحضرْنا عندَهُ واجتمعَ الخلْقُ، فأخذَ فى شىءٍ من القَصَصِ [والإسرائيليات][٢] وذكرِ الجنة والنار. فنظرَ إلىَّ صاحِبى فقال: أليسَ زَعَمْتَ أن هذا يذكر الله ويُذَكِّرُ به[٣]، ويَذكُر أيامَه؟ فقلت: نعم هكذا هو عندنا. فقال: ما أسْمعُ إلا ذكْرَ الخلقِ فأين ذكْرُ الله تعالى؟ ثم توقَّفَ ساعةً ينتظرُ منهُ ما يُريدُ من علم المعرفة ومما سَمِعهُ من شيوخه الصوفيَّة. قال: فليسَ إلاَّ القصَصُ والحكاياتُ. فالتفتَ إلىَّ وقال: قُمْ بنَا فإنَّه لا يَسَعُنى الجُلُوسُ؛ لأنَّه لا نيَّةَ لى فى ذَلك. فقلتُ: أمَّا أنا فأسْتَحى أنْ أتخَطَّى الناسَ، فاصْنَعْ أنتَ ما تَرى، فقَامَ يَتَخَطَّى الناسَ حتَّى خرجَ.

وقد رَوَى الزُّهْرِىُّ عن سالمٍ عَن ابنِ عُمَرَ أنهُ خَرَجَ من المسجد وقال: مَا أخرَجَنى إلا القَصَّاصُ ولَوْلاهُ مَا خَرَجْتُ. وقَال ضَمْرَةُ: قلت للثَّورىِّ رحمه الله: نستقبلُ القاصَّ بوجْهنا؟ فقال: ولُّوا البدعَ ظهوركم. وقال ابنُ عون: دخلتُ على ابن سيرينَ فقال: ما كَانَ اليومَ مِنْ خبرٍ؟ فقلت: نَهَى الأميرُ القُصَّاصَ أن يقصُّوا.

وحُدِّثنَا عن أبى مَعْمَرٍ عَنْ خلفِ بن خَلِيفة قال: رأيتُ سَيَّارًا أبا الحكم يَسْتَاكُ

---

(١) فى (ط): «ثم توجد» وأثبت ما فى (ك).

(٢) زيادة من (ك).

(٣) فى (ط): «ويذكر ربه عز وجل» وهو تحريف صوبته من (ك).

علَى باب المسجد وَقَاصٌ يقُصُّ فى المسجد. فجاءه رجلٌ فقال: يا أبا الحكم، إن النَّاسَ يَنْظُرونكَ، فقال: إنِّى فى خَيْرٍ مما هُمْ فيه، أنا فى سُنَّة وهم فى بدعةٍ.

وقد فَعَلَ الأعمشُ أبلغَ منْ ذلكَ: دخَلَ البصرةَ وكان فيها غريبًا، فنظرَ إلى قاصٍّ فى الجامع وهو يقول: حدثنا الأعمشُ، عنْ أبى إسحاق، وحدثنا الأعمَشُ عَنْ أبِى وَائِلٍ، قالَ: فَتَوسَّطَ الأعمَشُ الحلْقَةَ ورفع يَدَه وجعل ينتفُ شعرَ إبطه، فبَصُرَ به القاصُّ فقال: يا شيخُ ألاَ تستحى؟ نحنُ فى علمٍ وأنتَ تفعلُ هذا؟ فقال له الأعْمَشُ: الذى أنا فيه أفضلُ من الذى أنتَ فيه. قال: كيف؟ قال: لأنى فى سُنَّة وأنت فى كَذب. أنا الأعمشُ وما حدَّثتك مما تقولُ شيئًا. فلمَّا سَمِعَ النَّاسُ ذكْرَ الأعمشِ انفضُّوا عَنِ القَاصِّ واجتمعوا حولهُ، وقالوا: حدِّثْنا يا أبا محمدٍ.

وأخْبرونا عن محمد بن أبى هارونَ أن إسحاق حدَّثَهُ قال: صلَّيتُ مع الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه صلاةَ العيد، فإذا قاصٌّ يقُصُّ يلْعَنُ المبتدعَةَ، ويذْكُرُ السُّنَّة. فلمّا قضينا الصلاة وصِرْنا ببعضِ الطريق ذكر أبو عبدِ الله القاصَّ فقال: ما أنفعَهُمْ للعامة! وإن كان عامةُ ما يُحدِّثُونَ به كَذبًا.

وأُخبِرتُ عن محمد بن جعفر: أن أبا الحارث حدَّثَهُ أنه سمعَ الإمامَ أحمد بن حنبل رضى الله عنه يقُول: أكذبُ الناس القُصّاصُ والسُّؤَّال. وحدَّثونا عنه أيضًا أنهُ قال: ما أحوجَ الناس إلى قاصٍّ صدوقٍ؛ لأنهم يذكُرونَ الميزانَ وعذابَ القبرِ. قُلْتُ له: أنت تحضُرُ مَجَالسَهُم؟ قال: لا.

ورُوينا عن حبيبِ بن أبى ثابتٍ عن زيادِ النُّمَيرىّ قال: أتيتُ أنسَ بن مالكٍ وهو بالزاويةِ فقال لى: قصّ. فقلت: كيف والناسُ يزعمُون أنه بدْعَة؟ فقال: ليسَ شىءٌ من ذكر الله تعالى بدعةٌ. قال: فقصَصْتُ وجَعَلْتُ أكثرَ قَصَصى ودعائى رجاءَ أن يُؤمِّنَ. قال: فجَعلتُ أقُصّ وهو يؤمِّنُ. وقد كانُوا يَجْعَلُونَ الدعاء قَصَصًا.

وحدّث يوسفُ بن عطيةٍ، عن محمد بن عبدِ الرحمنِ الخرَّاز قال: فقد الحسَنُ عامرَ بنَ عبدِ الله العنبرىَّ فقال: اذهبوا بِنَا إلى أبى عَبْدِ الله، فأتاه الحسنُ فإذا عَامرٌ فى بيتٍ قد لَفَّ رأسَهُ، وليسَ فى البيتِ إلا رَمْلٌ. فقالَ له الحسنُ: يا أبَا عبد الله،

لم نرَكَ منذ أيامٍ. فقال: إنى كنتُ أجلسُ هذه المجالسَ فأسمعُ تخليطًا وتغليطًا، وإنى كنتُ أسمعُ مَشْيخَتَنا فيما يروون عن نبيِّنا ﷺ أنه كان يقول: «إنَّ أصْفَى الناس إيمانًا يومَ القيامةِ أكثرُهُمْ فِكرةً فى الدنيا، وأكثرُ الناسِ ضحكًا فى الجنَّة أكثرُهُم بُكَاءً فى الدنيا، وأشدُّ الناسِ فرحًا فى الآخرةِ أطولُهم حُزْنًا فى الدنيا». فوجدتُ البيت أخلى لقلبى وأقدرَ لى من نفسى على ما أُريدُ منها. قال الحسنُ: أمَا إنَّهُ لم يَعْنِ مجالسَنا هذه، إنَّما عَنَى مَجَالسَ القُصَّاصِ فى الطرقِ الذين يَخْلِطونَ ويَغلَطون، ويُقدِّمون ويؤخِّرون.

وقد قسَّمَ بعضُ العلماءِ المتكلمين ثلاثةَ أقْسامٍ، فوَصَفَهُمْ بأماكِنِهمْ فقال: المتكلمون ثلاثةٌ: أصحابُ الكراسيِّ وهُمُ القُصَّاصُ، وأصحابُ الأساطينِ وهم المفتُون، وأصحابُ الزوايا وهم أهلُ المعرفةِ.

فمجالِسُ أهلِ العلمِ بالله تعالى وأهلِ التوحيدِ والمعرفَةِ هى مَجالِسُ الذِّكْرِ، وهى التى جاءتْ فيها الآثارُ. وفى الخبر: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعُوا فيها. قيل: وما رياض الجنة؟ قال: مجالس الذِّكرِ». وفى الحديث: «إنَّ لله تعالى ملائكةً سيَّاحينَ فى الهواء فضلاً عن كتاب الحلَقِ، إذا رأوا مجَالس الذكرِ يُنادى بَعْضُهُمْ بَعْضًا: ألا هَلُمُّوا إلى بُغْيَتِكُمْ، فيأتوهُمْ حتى يجلِسُوا إليهم فيحفُّونَ بِهِم ويستمعون منهمْ، ألا فاذكُروا الله واذكُروا أيامه».

وقال وهب بن منبه اليمانى: مجلس يُتَنازَعُ فيه العلمُ أحبُّ إلىَّ من قدْره صلاةً، لعلَّ أحَدَهُمْ يَسْمَعُ الكلِمَةَ فينتفعُ بها السَّنَةَ أو مَا بَقِى مِنْ عُمُرِه.

وسئل أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى عن مجالس الذكرِ وفضلِهَا، فرغَّبَ فِيهَا وقَالَ رحمه الله: وأىُّ شىء أحسنُ من أن يجتمعَ الناسُ فيذكُرونَ الله عزّ وجلّ؟ ويُعدِّدُونَ نعِمَه عليهمْ، كما قالت الأنصارُ.

وروينا عن علىٍّ كرم الله وجهه: ما يَسُرنى أن الله تعالى أماتنى طفْلاً وأدخلنى الدرجات العُلَى من الجَنَّةِ. قيل: ولِمَ؟ قال: لأنه أحْيانى حَتىَّ عَرَفْتُه.

وقال مالكُ بنُ دينار: خرجَ الناسُ مِنَ الدُّنيا ولَم يذُوقُوا طَيِّبَ شىءٍ فِيهَا.

قيل: وما هو؟ قال: المعرفةُ، ثم أنشأ يقول:

إنَّ عرفانَ ذى الجلال لَعزٌّ   وضيـاءٌ وبهجـةٌ وسُرورُ
وَعلَى العارفين أيضًا بَهَاءٌ   وعليهم منَ المحبَّـة نُورُ
فَهَنيئًا لِمَـن عَرَفَـكَ إلهِى   هُو ـ واللهِ ـ دَهْرَهُ مَسْرُورُ

وقال يحيى بنُ معاذ الرازىُّ: فى الدنيا جَنَّةٌ مَنْ دَخلَها لم يشتقْ إلى شىء ولم يَسْتَوْحِشْ. قيلَ: وَمَا هِىَ؟ قال: معرفةُ الله تعالى. وقال آخرُ: لم يُخْطِئْكَ من العارف إحدى ثلاث خِلالٍ تَدُلُّ عليه: هيبةٌ، أو حلاوةٌ، أو أُنْسٌ.

وقال عَالمنا أبُو مُحمد سَهْلٌ رحمه الله: خرج العُلماءُ والزهَّادُ والعُبَّادُ وقلوبُهم مُقْفَلة، ولم يَفتحْ إلا قلوبَ الصدِّيقين والشهداء، ثُمَّ تلا: ﴿**وعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إلاَّ هُوَ**﴾ [الأنعام:٥٩]. يعنى مُقْفلة عن مفاتِح المعرفةِ وشهادة عين التوحيد.

فمجالسُ الذكر هذه قَديمًا كانت لأهل المعرفة وأصحابِ معاملاتِ القلوبِ وعِلْمِ الباطِنِ، وهُمْ عُلَماءُ الآخرة وأهلُ الفقْه فى الدينِ. وقد قال الله تعالى وهُو أصدَقُ القائلين: ﴿**فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائفةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فى الدِّين**﴾ الآية [التوبة:١٢٢]، فذكر الفقْهَ الذى هو من صفة القلب، والخوْفَ الذى هُوَ سببُ الفقهِ. وعِلْمُ العقل داخلٌ فى عِلْم الظّاهر، والعلمُ باللهِ داخلٌ فى اليقينِ، كما رُوى فى الخبر: «اليقينُ الإيمانُ كُلُّه». وقال الله تعالى: ﴿**وَمَا يَعْقِلُهَا إلاَّ العَالِمُونَ**﴾ [العنكبوت:٤٣] فجعلَ العقْلَ وَصْفًا منَ العلم. وقد أمر رسولُ الله ﷺ بتعليمِ اليقين كما أمر بطلبِ العلم، فكانَ هذا الحديثُ مَخْصُوصًا من ذاكَ، فيكونُ قوله ﷺ: «تعلّموا اليقينَ» للخُصُوصِ؛ لأنَّ اليقينَ مَقَامٌ فوقَ العلمِ، ويَكُونُ قولُه: «طلبُ العلمِ فَريضة» للعمومِ. وفى قوله: «تعلَّموا اليَقين» أمرٌ بمُجَالسة الموقنينَ؛ لأن اليقينَ لا يَظْهَرُ بذاته وإنَّما يُوجَدُ عندَ الموقنينَ، فقد أمرهم ولَمْ يقل: تعلَّموا عِلمَ المعقول ولا عِلْمَ الفتاوى. وكانَ علماءُ الظاهرِ قديمًا يُسمَّوْن المفتينَ،

ومن ذلك قوله ﷺ: «استفت قلبَك وإنْ أفتاكَ المفتُون» فردّهُ إلى فقْه القلب وصرفَهُ عن فُتْيا المفتين، فلولا أنَّ القلبَ فَقيه لم يَجُزْ أن يَدُلَّه ﷺ على غير فقيه. ولولا أنّ عِلمَ الباطنِ حَاكِمٌ على الظاهرِ ما دَفَعه من عُلُومِ أهلِ الظَّاهِرِ ـ وهُمْ علَماءُ الألْسنة ـ إلى علم الباطنِ وهو علمُ أهلِ القلوبِ وما ردَّه إليه، ولا يجُوزُ أن يردَّه من فقيهٍ إلى فَقيهٍ دُونَه، كيف وقَدْ جاءَ هَذَا الحديثُ بلفْظَةٍ مؤكَّدةٍ بالتكريرِ والمبالغة فقال: «استفتِ قلبَك وإنْ أفتَوْكَ وأفتَوْكَ»؟ وهذا مخصوصٌ لمَن كان له قلبٌ، أو ألقى سمْعَه، وشهِدَ قيامَ شهيدِهِ، وعُرِّيَ عَنْ شَهَواته ومَعْهوده؛ لأنَّ الفقْهَ ليسَ مِنْ وَصْفِ اللِّسَانِ. ألم تسمَعْ قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا﴾؟ [الأعراف:١٧٩]. فمَن كان له قلبٌ سميعٌ شهيدٌ فَقِهَ به الخطابَ فاستجابَ لِما سَمِعَ وأنابَ.

وذكر في قوله تعالى: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِى الدِّينِ﴾ [التوبة:١٢٢] وَصْفين ظَهَرا عن الفقْه:

أحدُهُما: النِّذارةُ، وهو مقامٌ في الدعْوةِ إلى الله عزّ وجلّ، ولا يكونُ النَّذيرُ إلا مُخوِّفًا، ولا يكونُ المخَوِّفُ إلا خائفًا، والخائفُ عَالِم.

والثاني: الحذَرُ، وهوَ حالٌ منَ المعرفةِ بالله عزّ وجلّ، وهوَ الخشْيةُ لهُ.

والفقهُ والفهمُ اسمانِ لمعنًى واحدٍ. والعربُ تقول: «فَقِهتُ» بمعنى «فهِمتُ»، وقد فضَّل الله تعالى الفهمَ عنهُ على العلمِ والحكمةِ، ورفَعَ الأفهامَ على القضاءِ والأحكامِ، فقال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ [الأنبياء:٧٩]، فأفردَهُ بالفهم عنه، وهو الذى فضَّله به على حُكْم أبيهِ فى القضية، بعد أن أشركَهُما فى الحكمِ والعلمِ.

وقد فَضَّلَ الحسنُ بنُ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهما عُلماءَ الهدايةِ إلى الله سبحانه وتعالى الدالِّينَ عليه عزّ وجلّ، وسمَّاهُمُ العلماءَ، وحقَّقهُم بالعلمِ فى كلامٍ رُوِىَ لنا عنه مَنظومًا، وقد رُويناه أيضًا عن عَلىٍّ كرّم الله وجْهَه ورضى عنه:

مـا الفَخْرُ إلا لأهلِ العلْمِ إنَّهمُ ... على الهـدَى لمن استهْدَى أدلاَّءُ

ووزنُ كلِّ امرئٍ مَا كـان يُحسِنُهُ والجاهِلُون لأهلِ العلْمِ أعْـداءُ

فمَن كان عالِمًا يعلمُ معلومه اللهُ سبحانه وتعالى فمَن أفضلُ منه؟ وأيُّ قيمةٍ تُعْرَف له؟ إذ كلُّ علمٍ قيمتُه معلومةٌ، ووَزْنُ كلِّ عالمٍ علمُه.

وقد قال عبد الواحد بنُ زيدٍ إمامُ الزاهدين كَلامًا فى هذا المعنى، ويُفْرِد بِهِ العلماءَ باللهِ تعالى، ويرفَعُ طريقَهُمْ فوقَ كلِّ طريقٍ، أنشَدُونا عنه رحمه الله تعالى:

الطُّـرْقُ شتَّى وطُرْقُ الحقِّ مُفـرَدةٌ والسَّـالكون طَريقَ الحـقِّ أفرادُ

لا يُعرَفُونَ ولا تُسْلَكْ مقاصدُهُمْ فَهُمْ على مَهَلٍ يَمشُون قُصَّادُ

والنـاسُ فى غفلةٍ عمَّـا يُرادُ بهم فجُلُّهمْ عَنْ سَبِيلِ الحقِّ رُقَّـادُ

وروينا عن ابن مسعودٍ رضى الله عنه أنه قال، لما ماتَ عمرُ رضى الله عنه: إنِّى لأحِبُّ هذا الرجلَ، قد ذهب بتسعةِ أعشَارِ العلم. فقيلَ له: تقولُ هذا وأصحابُ رسول الله ﷺ مُتَوافِرون؟ فقال: إنى لستُ أعنى العلمَ الذى تذهبونَ إليه، إنّما أعنى العلمَ باللهِ عزّ وجلّ.

وكان ابن مسعودٍ يقولُ: المتقونَ مُتوارون. وكذلك كان يقول: المتقُون سادةٌ والعلماءُ قادةٌ ومُجَالَستُهُمْ زيادة. يعنى أنَّ المتقين سادةُ الناسِ، كما قال الله عز وجلّ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

والعلماءُ قادةُ المتقينَ، أى أئِمَّتُهُمْ يقتفُونَ آثارَهم؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]. ففضَّلَ العلماءَ على المتقينَ وجعلَهمْ أئمَّةً لهم وصَارَ المتقونَ أصحابَهم، وأخبرَ بالمزيدِ فى مجَالستَهم؛ أى مجالستُهم زيادةٌ على مجالسةِ المتقينَ غيرِ العلماء؛ لأنَّ كلَّ عالمٍ تقىٌّ وليس كلُّ تقىٍّ عالمًا، كما رُوِىَ بمعناه: العلماءُ كثيرٌ والحكماءُ مِنَ العلماءِ قليلٌ، والصالحون كثيرٌ والصادقُونَ مِنَ الصَّالِحينَ قليلٌ.

وسُئِلِ ابنُ المبارَكِ: مَنِ الناسُ؟ قال: العلماءُ. قيل: فمَنِ الملوكُ؟ قال: الزهّادُ.

قيل: فمن السِّفْلة؟ قال: مَنْ يأكلُ بدينهِ. وقال مرة فى رواية: الذين يَتلبَّسُون ويَطلبُونَ ويتعرَّضون للشهادات.

وقالَ فرقدٌ السَّنْجيُّ للحَسَن رحمهما اللهُ تعالى فى شيءٍ سألهُ عنهُ، فأجابهُ: يا أبا سعيد، إنَّ الفقهاءَ يخالفونك، فقال: ثكلتْكَ أمُّك يا فرقدُ، وهل رأيتَ بعينيكَ فقهاء؟ إنَّما الفقيهُ الزاهدُ فى الدنيا، الراغبُ فى الآخرةِ، البصيرُ بدينه، المداومُ على عبادةِ ربِّه، الورِعُ الكافُّ عن أعْراضِ المسلمين، العفيفُ عن أموالهِم، الناصحُ لجماعتهم.

جَمعْنا قوله هذا فى ثلاثِ رواياتٍ عنه مختلفةٍ، فهذهِ صفاتُ العالمِ باللهِ تعالى وهم العارِفُونَ.

وحُدِّثنا عن عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: قلتُ لأبى: بلَغَنا أنكَ كنتَ تختلفُ إلى معروف الكَرْخى، أكان عنده حديثٌ؟ فقال: يا بنىَّ، كان عندهُ رأسُ الأمرِ: تَقْوَى اللهِ عزّ وجلّ.

وقيل للإمام أحمد رضى الله عنه: بأىِّ شىءٍ ذُكِر هؤلاءِ الأئمَّةُ ووُصِفوا؟ فقال: ما هو إلا الصدْقُ الذى كان فيهم. قيلَ له: وما الصدْقُ؟ قال: هو الإخلاصُ. قيل له: فالإخلاصُ ما هو؟ قال: الزهد. قيل: وما الزهد؟ فأطرقَ ثم قال: سلوا الزهَّاد، سلوا بِشْرَ بنَ الحارثِ.

وقد حُدِّثْتُ عن بِشْرٍ فى منصورِ بنِ عمَّارٍ رحمهما اللهُ حكاياتٍ طريفةً، كَانَ منصورُ بنُ عمارٍ من الواعظين المذكِّرين ولم يكن العلماءُ فى وقته مثلَ بِشْرٍ وأحمد وأبى ثور يَعدُّونه عالمًا، كان عندهم من القُصَّاص، وكانت العامةُ تسمِّيه عَالمًا، فحُدِّثتُ عن نصرِ بن علىٍّ الجهْضَمِىِّ أنه مزحَ ذاتَ يوم مزاحًا أفرطَ فيه. فقيل له: تقول هذا وأنتَ من العلماء؟ فقال: ما رأيتُ أحَدًا من العلماء إلا وهو يمزحُ. فقيل له: قد رأيتَ بِشْرَ بن الحارثِ، فهل سمعتَه يمزَح؟ قال: نعم كنتُ جَالسًا معه ذاتَ يومٍ فى بعضِ الدرُوبِ، فجاءَ منصُورُ بن عمَّارٍ يَعْدُو، فقال: يا أبا نصر، الأميرُ قد أمر بجمْعِ العلماء والصَّالحين، فترَى لى أنْ أختفى؟ فدفعه بشرٌ وقال:

تنحَّ عنَّا لا يمرُّ حملُ شوكٍ فيُلقيكَ علينا فنحترق. فهذا كان مَحلَّ القُصَّاصِ عندَ العلماءِ فيمَا سلف، حتَّى ذهبَ أهلُ هذا العلم، وجُهلَتْ مجالسُ الذكْرِ وعلومُ اليقينِ والمعاملاتِ، إلا مَنْ عَرفَ سيرةَ المتقدمين، وطريقةَ السالفينَ الذينَ كانوا يُفرِّقون بين مجالس الذكْرِ وبين القُصَّاص، ويُميِّزون بين العلماء وبين المتكلِّمين، وبينَ علمِ اللِّسَان وفقه القلْب، وبينَ علمِ اليقينِ وعلمِ العقْلِ؛ لأنَّ الفرقَ بين العالِم والقاصِّ: أنَّ العالم يسكُتُ حتَّى يُسألَ، فإذا سُئلَ أجابَ فيما يعلمُ بما هيأ الله تعالى له وكَشفَ، وينطقُ فيما أجراه اللهُ عزّ وجلّ عليه وعَرَفَ، فإنْ كان الصمتُ أفضلَ آثرَ السكوتَ لعلمه بالأفضل، فإن لم يرَ أهلَهُ تربَّصَ حتّى يضعهَ فى أهله، [لئلا يُجْهَل][1]، وأهلُه مَنْ عَرفَه، وكان له نصيبٌ من مشاهدته ووَجْدِه.

وقال اللهُ سبحانه وتعالى: ﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُون﴾ [النحل:٤٣]. ففى ذلك معنيان:

أحدُهما: أنّ أهل الذكْرِ همُ العلماءُ بالله تعالى، لقوله: ﴿إنْ كُنتم لا تَعْلَمُونَ﴾ فلا يجوز أن يقول: «سلوا من لا يَعلمُ» وهُمْ جاهِلونَ فيزدادُون جَهْلاً.

والمعنى الثانى: يدُلُّ على أنَّ العلماءَ سُكوتٌ حتَّى يُسْألوا، فإذا سُئلوا وَجَبَ عليهم أن يجيبوا، لقوله تعالى لمن لا يعلمُ: ﴿فاسْئَلُوا﴾. فدلَّ أنَّ مجالسَ الذكْرِ هى مجالسُ العلماءِ التى وردتِ الأخبَارُ بفضَائلهَا. وفى تدبُّره أنَّ أهلَ الذّكْرِ هؤلاء المسؤولون هم الذين وصّلَ لهم القول لعلَّهُم يتذكَّرونَ. فلمَّا وصّلَ لهمُ المفصَّلَ تذكَّروا عمّا وعد تعالى، فلما تذكّروا علمُوا، فعندها أمَر أن يُسألوا. ولذلك رُوينا عن رسول الله ﷺ: «لا ينبغى للجاهل أن يستقرَّ على جَهْلِه، ولا ينبغى للعالِم أن يسكتَ على علمِه».

وكذلك قال رسولُ الله ﷺ فى الخبر الذى رُويناه من طريقِ أهل البيتِ: «العلم خزائنُ مفتاحُها السؤالُ، فاسألوا فإنَّه يؤجرُ فيه أربعةٌ: السائلُ، والعالمُ،

(١) زيادة من (ك).

والمستمعُ، والمحبُّ لهم».

وكان ابن مسعودٍ رضى الله عنه يقولُ: إنَّ من يُفْتى الناسَ فى كلِّ ما يستفتُونه لمجنونٌ.

وقال الأعمش: مِنَ الكلام كلامٌ جوابهُ السكوتُ. وقال ذو النون المصرى رحمه الله تعالى: حسنُ سؤالِ الصادقينَ مفتاحُ قلوبِ العارفينَ.

فأما القاصُّ فهو الذى يبتدئُ فيقُصّ الأخبارَ ويذكُرُ القصَصَ والآثارَ، ولذلك سُمِّى قاصًا أى يتبعُ قصَّةَ مَنْ سلفَ. ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَت لأُخْته قُصِّيه﴾ [القصص:١١] أى: تتبَّعى أثرَ موسَى تعرفى قصَّته وأخبرينى خبرَه. وقال مالكُ بنُ أنس رحمه اللهُ تعالى: من إذالَة العلمِ أن يُنطَقَ به قبلَ أن يُسْألَ عنه. وقال مرةً: مِنْ إذَالةِ العلمِ أن يجيبَ عن كلِّ ما يُسألُ عنهُ. أى: من إهانَته ووَضْعه. يُقال: أشلَّ هذا، وأذلَّ هذا؛ أى ارفَعْ وضَعْ.

ويقال: إذا تُكُلِّمَ بالعلم قبلَ أن يُسألَ عنهُ ذهبَ ثلثا نوره. وقد قال إبراهيمُ بنُ أدهمَ وغيره: سكوتُ العالم أشدُّ على الشيطان من كلامه؛ لأنه يَسْكُتُ بحلمٍ وينَطِقُ بعلمٍ، فيقول الشيطان: انظروا إلى هذا سكوتُه أشدُّ علىَّ من كلامه. ولذلكَ يقال: الصمتُ زينُ العالم وسترُ الجاهل.

وعن القاسمِ بن محمدٍ أنهُ قال: من إكرامِ المرءِ نفْسَه أن يَسْكُتَ على ما عنده حتى يُسْألَ عنه.

وكذلك هُو لعمرى؛ لأنه إذا تكلم بعدَ السؤالِ فهُو صاحبُها، وربَّما كان فَرْضًا وليس الحاجةُ إلاّ القيامَ بالفرضِ منَ الشَّهوات، ولقوله تعالى: ﴿فَسْئَلوا أهْلَ الذِّكْرِ﴾ [النحل:٤٣]، فأوجبَ أن يُجيبُوا من حيثُ أمرَ أنْ يُسْألوا. وقال ﷺ: «مَنْ سُئل عن علمٍ فكتَمَهُ أُلْجمَ بلجامٍ مِنْ نارٍ» فتوعَّدَ عليه بالعقابِ. وقد يكُون الابتداءُ بالشيءِ من خَفَايَا الشهواتِ، والشهواتُ من الدنيا.

ووُصِفَ رجلُ لمالكِ بنِ أنسٍ فقال: لا بأس بِهِ لولا أنَّه يتكلمُ بالشيء قبلَ أن يُسْأَل عنه. وقال مرة: لا بأسَ به إلا أنه يتكلمُ بكلام شهرٍ فى يومٍ. وقد قيل فى

معنى ما ذُكِرَ: إن الكلام من الشهواتِ. قال: هو الذى يبتدئ به قبل أن يُسأل عنه.

ووصف بعضُهُم الأبدالَ فقالَ فى وَصْفِهِمْ: أكلُهم فاقةٌ، وكلامُهُم ضرورَةٌ، وكانُوا لا يتكلمُونَ حتى يُسْألوا عن شىء فيُجيبوا.

ومن لم يتكلَّمْ حتَّى يُسْألَ فليسَ يُعَدُّ لاغيًا ولا متكلِّمًا فيما لا يَعْنيه؛ لأنَّ الجوابَ بعدَ السؤالِ كالفرْضِ بمنزلةِ ردِّ السلامِ، وكما قال ابنُ عباس رضى الله عنهما: إنِّى لأرى ردَّ الجوابِ واجبًا كردِّ السلامِ. وقد قال أبو موسَى وابنُ مسعودٍ رضى الله عنهما: من سُئِل عن علمٍ فليقلْ به، ومن لا فليسكُتْ وإلا كُتبَ من المتكلِّفين ومَرَقَ من الدِّين. ورويناهُ عن ابنِ عباسٍ أيضًا.

وقد كانوا يَخافونَ من دُخُولِ التكلف عليهِمْ فى كلِّ شىءٍ، ويعدُّ بعضُهم الابتداء بالكلام منْ غيرِ حاجة تدعُو إليه أو قبلَ سؤالٍ عنهُ من غير أن يرَى له مَوْضِعًا أو يجد له أهلاً؛ يعدُّونَهُ من التكلُّف.

وفى وصية ابن عباس لمجاهد: لا تتكلَّمْ فيمَا لا يَعْنيكَ فإنه أفضَلُ، ولا آمنُ عليك الخطأ، ولا تتكلَّم فيما يَعْنِيكَ حتَّى ترَىَ له مَوْضِعًا، فربَّ متكلّمٍ فيما يعنِيه قد وَضَعَه فى غير موضِعِه فعَنَتَ.

ورُوِى فى حديث الأنْصاريِّ الذى قالتْ لهُ أُمُّهُ عِندَ موتِهِ: «هنيئًا لك الجنَّةُ، جاهدتَ مع رسول الله ﷺ وقُتلت فى سبيلِ الله تعالى. فقال رسول الله ﷺ: وما يدريك أنه فى الجنَّة، لعلَّه كان يتكلمُ فيما لا يَعْنِيه ويَبخَلُ بمَا لا يُغْنِيه».

ومَنْ أظهَرَ علْمًا منْ غيرِ أنْ يُسأل عَنْه ونَشرَهُ فى غيرِ أهله فأُنكِر عليه سُئِل عنه، وكان عليه فيه مُطالبة؛ لأنه قد تَكلَّف إظهاره. فإن كان سُئِل عنه، ثم تكلَّم فيه لم يكُنْ عليه فيه مطالبةٌ فيمَنْ أنكَر؛ لأنهُ خَرَجَ جوابًا على سؤالٍ. ومِنْ هذا كَان السَّلفُ المتكلمون فى هذا العلم يَسْكُتون حتَّى يُسألوا عنه.

وكان أبو محمدٍ يقول: العالم يقعُدُ فيسكتُ، ويرفعُ قلبَهُ إلى مَوْلاهُ، فيفتقرُ إليهِ فى حُسْنِ توفيقِه، ويسألُه أنْ يُلْهِمَهُ الصَّوابَ. فأى شىءٍ سُئِلَ عنهُ تكَلَّم بِمَا

فَتَحَ لهُ مولاه. فجَعَلَ العالمَ فى حالة سكوتهِ ونظره إلى سيِّدهِ محتاجًا إلى التوكُّل، ومنتظرًا للوكيلِ فى أىّ شىءٍ يُجْرِيه.

وقال بعضُهُمْ: إنَّما العالِمُ الذى إذا سُئِلَ عن المسألةِ كأنَّما تقلَّع ضِرْسُه.

وقال رَقَبة بنُ مَصْقلة وغيرُه: ليسَ العالمُ الذى يَجْمعُ الناسَ فيقصّ عليهم، إنَّما العالمُ الذى إذا سُئِلَ عَنِ العلمِ كأنما يُسْعَطُ الخردل. وقد روينا أنّ رَقَبة بنَ مصقلة قال للأعمش، وقد كان محمدُ بنُ سوقة يسألهُ عن الحديث، فيُعرِضُ عنه ولا يُجيبه [، فذكر ذلك له][1]. فالتفت الأعمشُ إلى رَقَبة فقال له: هو إذًا أحمقُ مثلُكَ، أنْ كان يدَعُ فائدتَه لسوءِ خُلقى. فقال محمد بن سوقة: ويْحَك إنَّما أجعلُه بمنزلة الدواءِ أصبرُ على مرارته لما أرجُو منْ منفعته.

وقد روينا عَنْ علىٍّ وابن مسعود رضى الله عنهما: أنه مرَّ برجلٍ يتكلَّمُ على الناسِ فقال: هذا يقولُ اعرفُونى. وحدثنى بعضُ علماء خُراسَانَ عن شيخٍ له عن أبى حفصٍ النيسابورىّ الكبير، وكان هذا هُناك نَظيرَ الجُنيد ههنا، أنه قال: إنَّما العالِمُ الذى يُسْأل عن مسألةٍ فى الدينِ فيغتمُّ، حتَّى لو جُرِحَ لم يخْرجْ منه دمٌ منَ الفزعِ، يخافُ أن يُسألَ فى الآخرة عمَّا سُئل عنه فى الدنيا، ويفزعُ أن لا يتخلَّصَ من السؤال، إلاَّ أن يَرَى أنَّه قد افْتُرِضَ عليه الجواب لفقدِ العلماء. ومن ههنا كان ابنُ عمر رضى الله عنهما يَسْكُت عن تسع مسائلَ ويجيب عن واحدة، ويقول: تريدون أن تَجْعلونا جِسْرًا تعبرونَ عليه فى جهنَّمَ، تقولون: أفتانا ابنُ عمرَ بهذا.

وكان إبراهيمُ التَّيمىُّ إذا سُئِل عن مسألة يبكى ويقول: لم تجدْ مَنْ تسألُه غيرِى، أوَ احتجتُم إلىّ؟ قال: وجَهدنا بإبراهيم النَّخَعىِّ أن نُسْندَه إلى سارية فأبى. وكان إذا سُئل عن شىءٍ بكى، وقال: قد احتاجَ الناسُ إلىّ. وقد كانَ سفيانُ بنُ عُيينة تفرَّدَ فِى زمانه بعلومٍ انفردَ بها فى وقته، وكانَ مع ذلك يَضرِبُ المثل لنفسه ويقول:

خَلَتِ الدِّيارُ فسُدْتَ غيرَ مُسَوَّدِ ... ومن الشَّقاءِ تفرُّدى بالسُّؤدُدِ

---

(١) أضفناها من عندنا ليستقيم الكلام. و«مصقلة» وردت قبل ذلك بالسين، انظر ص ١١٣ والهامش رقم (٤) منها.

وأمّا أبو العاليةِ الرياحيّ فكانَ يتكلَّمُ على الاثنينِ والثلاثة، فإذا صاروا أربعةً قامَ. وكذلك كان إبراهيمُ، والثوريُّ، وابنُ أدْهَمَ رحمهم الله تعالى، يتكلّمون عَلَى النفَرِ، فإذا كَثُرَ الناس انصرفُوا. وكان أبو محمد سهْل رحمه الله يجلسُ إليه خمسةٌ أو ستّةٌ إلى العَشْرةِ. وقالَ لى بعضُ الشُّيوخِ: كان الجنيدُ رحمه الله يتكلَّمُ على بضعَ عشْرَةَ. قال: وما تم أهل الجِلْسَة عِشْرُون.

وقد حُدِّثتُ عن أبى الحسن بن سالم شيخنا رحمه الله أنَّ قومًا اجْتَمَعُوا فى مَسْجده، فأرسلُوا إليه بَعْضَهُمْ أن إخوانك قد حضروا ويحبون لقاءكَ والسَّماعَ منكَ، فإنْ رأيت أن تخرُجَ إليهم فذَاكَ. وكانَ المسجدُ علَى بَابِ بَيْته، ولم يكُنْ يُدْخَلُ عليه فى منزله. فقَالَ للرسُولِ بعد أن خرج إليهم: من هُمْ؟ فقال: فلانٌ وفلانٌ وسمّاهُمْ. فقال: ليس هؤلاء من أصحَابى، هؤلاء أصحابُ المجلس، ولم يخرج.

كأنَّه رآهم عُمومًا لا يصلُحُونَ لتخْصِيصِ عِلْمه فلَمْ يُذْهِبْ وقته لوقتهم.

وكذلكَ العالمُ خلوته تَعزُّ عليه، فإن وافقَ خصوصَ أصحابِ آثرهُمْ عَلَى خلوته، فكانَ ذلك مَزيدًا لهم، وإن هُو لم يُوَافِقْ لم يُؤثِرْ على خَلْوته غيره، فيكونُ مناخًا للبطَّالين. وقد كان ابنُ سالمٍ أبو الحسن يخرجُ إلى إخوانه ممَّن يراهُ مَوْضعًا لعلمِهِ، فَيجْلِسُ إليهِمْ ويُذاكِرُهُمْ، وربَّما أدخلهم إليه نهارًا أو ليلاً.

ولَعَمْرى إنَّ المذاكرةَ تكونُ بين النظراءِ، والمحادثةَ تكونُ معَ الإخوانِ، والجلوسَ للعِلم يكونُ للأصحابِ، والجوابُ عن السؤالِ نصيبُ العُموم.

وكان عند أهل هذا العلم أنَّ علْمَهم مَخْصوصٌ لا يصلُح إلا للخُصُوص، والخصُوصُ قليلٌ. ولم يكونوا يَنْطقُونَ به إلا عندَ أهله، ويَرونَ أنَّ ذلك من حَقّه، وأنَّه واجبٌ عليهم، كما وصَفَهُمْ عليٌّ كرّم الله وجهه فى قوله: حتَّى يُودِعُوه أمثالهم ويزرَعُوه فى قلوبِ أشكالهمْ.

وكذلك جاءتِ الآثارُ بذلك عنْ نَبِّينَا ﷺ، وعن عيسَى عليه السلام: «لا تَضعُوا الحِكْمَةَ عِندَ غيرِ أهلِهَا فتظلِمُوهَا، ولا تمنَعُوهَا أهلَهَا فتظلِمُوهُمْ. كونوا

كالطبيبِ الرفيقِ الذى يضعُ الدَّواء فى موضع الداء». وفى لفظ آخرَ: «مَنْ وضعَ الحِكْمةَ فى غيرِ أهلِها جَهِل، ومن منَعها أهلَها ظلَم. إنَّ للحكمة حقًا، وإنَّ لها أهلاً، وإنَّ لأهلها حقًا، فأعْطِ كلَّ ذى حقٍّ حقَّه».

وفى حديث عيسى صلاةُ الله وسلامُه عليه: «لا تُعلِّقُوا الجوهرَ فى أعناقِ الخنازيرِ، فإنَّ الحِكمة خيرٌ من الجوهرِ، ومَنْ كرهها فهو شرٌّ منَ الخنزير».

وكان بعضُ هذهِ الطائفةِ يقول: نصفُ هذا العلمِ سُكوتٌ، ونصفه تدْرِى أينَ تَضعُه.

وقد قال بعضُ العارفين: مَن كلَّمَ الناسَ بمبلغِ علْمه وبمقْدَارِ عقله، ولم يخاطِبْهُمْ بقدرِ حدودِهِمْ، فقد بَخَسَهُمْ حقَّهُمْ، ولم يَقُمْ بحقِّ الله عزّ وجلّ فيهم.

وكان يحيى بن معاذ يقول: اغرفْ لكلٍّ واحدٍ من نهرِه، واسقِه بكأسِه.

ونحنُ نقول بمعناهُ: كِلْ لكلٍّ عبدٍ بمعيارِ عقله، وزِنْ له بميزانِ علمه، حتَّى تَسْلَمَ منهُ وينتفعَ بِك، وإلا وقَعَ الإنكَارُ لتفاوتِ المعْيَارِ.

وحدثنى بعضُ أشياخنا من هذه الطائفةِ عن أبى عمران، وهو المزينُ الكبيرُ المكِّى، قال: سمعته يقولُ لأبى بكرٍ الكتابىّ، وكان سَمْحًا بهذا العلمِ بذُولاً له لجميعِ الفقراء، فجعلَ أبو عمران يعاتبهُ وينهاهُ عن بَذْلِه لَهُ وكثرةِ كلامه فيه، إلى أنْ قالَ: أنا منذُ عشرينَ سنة أسأل اللهَ تعالى أن يُنْسِيَنى هذا العلمَ. قال: ولِمَ؟ قال: رأيتُ النبىَّ ﷺ فى المنامِ فسمعتُه يقول: إن لكلٍّ شىءٍ عندَ الله تعالى حُرْمةً، ومن أعظم الأشياء حرمةُ الحكمةِ، فمن وضعَها فى غيرِ أهلِهَا طالَبه اللهُ تعالى بحقِّها، ومَنْ طالبه خَصَمَه.

وقد كان بعضُ السلف يقول: إذا استَنَد الرجلُ إلى ساريةٍ أو أحبَّ أنْ يُسألَ فلاَ تجلسْ إليهِ، ولا ينبغى أن يُسألَ.

ولم يُرَ فى مجالس أهل هذا العلمِ فيما سلفَ ثلاثون رَجُلاً ولا عشرُون إلا نَادرًا غيرَ لِزامٍ ولا دَوامٍ، إنَّمَا كَانُوا مِنَ الأربعة إلى العشرة وبضْعة عَشَرَ. وقد كان يجتمعُ فى مَجَالس القصَّاصِ والمذكِّرينَ والواعظِين مِئُون مِن عَهْدِ الحسنِ إلى وقتنا

هذا. فهذا أيضًا من الفرقِ بينهما أنَّ العلْمَ مخصوصٌ لِقَليلٍ وأن القَصَصَ عامٌّ لكثيرٍ.

وقال بعضُ عُلَمائنَا: كان في البصرةِ مائةٌ وعِشْرُونَ مُتكلِّمًا في الذكْرِ والوعْظ، ولم يكُنْ مَنْ يَتكلَّمُ في علمِ المعرفة واليقين والمقاماتِ والأحوالِ إلا ستَّةٌ منهم: أبو محمدٍ سهلٌ، والصُّبيحي، وعبدُ الرحيم.

وقد قيل: من لم ينتفعْ بسكوتِ العالمِ لم ينتفِعْ بكلامه. أى ينبغى أن يتأدّبَ بصمتِه وخشوعِه وورعِه ويقتدِى بيقينِهِ فى ذلك، كما يتأدبُ بنطقِه ويقتدى بكلامِه.

على أنَّهم كانوا يقولون: علمُ الظاهرِ من علم المُلْكِ، وعلمُ الباطِنِ من علم الملكُوتِ، يعنونَ أن ذلك من علمِ الدنيا؛ لأنه يُحتاجُ إليه فى أمورِ الدنيا، وهذا من علمِ الآخرةِ؛ لأنه مِنْ زَادهَا. وهذا كَما قالوه؛ لأنَّ اللسَانَ ظاهرٌ فهُوَ مِنَ الملكِ وهو خزانة العلمِ الظاهرِ، والقلبُ خزانةُ الملكوتِ وهُو بابُ العلمِ الباطن. فقد صارَ فضلُ العلمِ الباطنِ على الظاهر كفضلِ الملكوت على الملكِ، وهو الملكُ الباطنُ الخفيُّ، وكفضل القلبِ على اللسانِ، وهو الظاهرُ الجليُّ.

وقد كان بشرُ بن الحارث رحمه الله يقول: حدَّثنا وأخبرَنا بابٌ من أبوابِ الدُّنْيَا. وقال مرة: الحديثُ ليس من زاد الآخرة. وحدَّثنا بعض أشياخنا عن بعضِ أصحابِه قال: دفَنَّا[1] له بضعةَ عَشَرَ ما بين قِمَطْرٍ وقَوْصَرَّة كُتبًا، لم يحدِّثْ منها بشيء، إلا ما سُمعَ منه نادرًا فى الفرد. وكان رحمه الله تعالى يقول: إنِّى أشْتَهى أن أحدِّث، ولو ذهبَ عنِّى شهوةُ الحديث لحدّثتُ. ثم قال: أنا أجاهدُ نفْسى منذ أربعينَ سنةً. وقال: إذا سمعتَ الرجلَ يقولُ حدّثنا وأخبرنا، فإنّما يقول: أوسعوا لى. وكانَ زاهدًا عالمًا. وقال هو وغيره: إذا اشتهيتَ أن تحدّثَ فلا تُحدِّثْ، وإن لم تشتهِ أن تحدِّث فحدِّثْ.

---

(١) فى (ك): «أنه دُفن». والقمطر: ما تُصان فيه الكتب، والجمع: قماطر. والقوصرة: وعاء للتمر من قَصَب.

وقد كانت رابعةُ العدويةُ رحمها الله تعالى قبلَه تقول للثورى رضى الله عنه: نِعْم الرجلُ سفيانُ، لولا أنّه يحب الحَديث. وكانت تقولُ: فتنةُ الحديث أشدُّ منْ فتنةِ المالِ والولدِ. وقالت مرةً: لولا أنَّهُ يحبُّ الدُّنيَا. يعنى اجتماعُ النَاسِ حولَه للحديث.

وكان أبو سُلَيمان الدَّارانى رحمه الله تعالى يقولُ: مَنْ تزوّجَ، أو كتبَ الحديثَ، أو طلبَ معاشًا، فقد ركنَ إلى الدنيا. وقالَ بعضُ هذه الطائفة: كلُّ مَنْ أدرك العلومَ غيرَ العلمِ باللهِ عزّ وجلّ فقد استدركَ، والذى أدرك العلم بالله فقد تُدُورك. ثُمَّ تلا قوله تعالى: ﴿لَوْلاَ أنْ تَدَارَكَهُ نعْمَةٌ منْ ربِّه لَنُبذَ بالعَرَاء﴾ [القلم:٤٩] أى: لولا أن تُدورك بعلمِ المعرفةِ لَطُرِح فى بُعْدِ الهَوى. والعراء: البعد. وعلمُ المعقولِ بُعْدٌ إلى جنب عِلْمِ اليقين.

وقال أيضًا فى فهْمِ قوله تعالى: ﴿وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾ [الإسراء:٧٤] أى: ثبتَّناك بالمعرفةِ، لقد كدت تسكُن إلى عُلومِ العقْلِ.

وقال سهل بنُ عبدِ اللهِ رحمه الله تعالى فى قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَاجْعَلْ لى منْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصيرًا﴾ [الإسراء:٨٠] قال: لسَانًا ينطقُ عنكَ لا عَن سِوَاك.

وفضلُ العلمِ باللهِ عزّ وجلّ والعلمِ بالإيمان وعلمِ اليقينِ على العلمِ بالأحكَامِ والقضايا كفضلِ المشاهَدةِ على الخبر. وقد قالَ الرسولُ ﷺ: «ليس الخبر كالمعاينة». وفى لفظ آخر: «ليس المخبرُ كالمعاينِ».

وقد روى عياضُ بنُ غنم عن النبى ﷺ فى تفسيرِ قوله عزّ وجلّ: ﴿كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ علْمَ الْيَقين﴾ [التكاثر:٥]: كرأى العينِ.

وفى هذا الخبر: إنَّ من خيار أمتى قومًا يضحكُون جَهْرًا من سَعَة رحمة ربِّهم، ويبكُونَ سرًا مِنْ خوف عذابه؛ أقدامُهم فى الأرض، وقلوبُهم فى السَّماء، أرواحُهم فى الدنْيا، وعقولُهمْ فى الآخرَة، يمشُونَ بالسَّكِينة، ويتقربونَ بالوَسيلة.

فالفُتْيا هى الإخبارُ، والاستفتاء هو الاستخبارُ. ومنهُ قوله تعالى: ﴿فَاسْتَفْتهِمْ﴾ [الصافات:١١]، وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ﴾ [النساء:١٢٧] أى: يستخبرُونك. فعلمُ

الخبرِ قد يدخلُه الظنُّ والشكُّ، والمشاهدةُ ترفعُ الظَّنَّ وتزيلُ الشَّكَّ، كما قال تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم: ١١] فأثبت الرؤيةَ للقَلْبِ بالعين، فرؤيةُ القلبِ هو اليقينُ، وذُو القلب هو الموقنُ.

وقال النبي ﷺ: «كفى باليقينِ غنًى». ففى علمِ اليقينِ غُنْيَةٌ عَنْ جميعِ العلومِ؛ لأنَّه حقيقةُ العلمِ وخالصُهُ، وليس فى جَميعِ العلومِ غنًى عن علمِ اليقينِ؛ لأنَّ الفقر بالشّكِّ. والحاجَةُ إلى اليقينِ فى علمِ التوحيدِ وعلمِ الإيمانِ أشدُّ من الفقر بالحاجة إلى علوم الفُتْيا وغيرِها. فلذلك صارَ الغِنَى باليقينِ أعظمَ من الاستغناءِ بسائر العلوم.

ففى هذا العلمِ مَثلٌ من فاتحة الكتابِ إلى سائر القرآن، كما رُوِى عن النبى ﷺ: «فاتحةُ الكتابِ تُجْزِى من كلِّ القرآنِ، وليسَ القرآنُ كلُّه يُجزِى من فاتحة الكتاب». فكذلك مَثَلُ العلمِ باللهِ عزّ وجلّ إلى العلمِ بِمَا سوَاه. ففى العلمِ بالله تعالى عِوَضٌ من كلِّ العلومِ، وليسَ فى سائر العلوم عوضٌ من العلمِ بالله عزّ وجلّ، من حيثُ كانَ فى اللهِ تعالى عوضٌ به عَنْ كلِّ ما سواه.

وكلُّ عِلْمٍ موقوفٌ على معلومه، فعلمُ اليقينِ معلومُه اللهُ تعالى، ففضْلُه كفَضْلِ الله تعالى على ما سواه. وقد قال بعضُ الحكماءِ فى معنى ما ذكرناه: مَنْ عَرفَ الله تعالى فمَاذَا جَهِلَ؟ ومن جَهِلَ اللهَ تعالىَ فمَاذَا عَرفَ؟

فالعلماءُ بالله تعالى هم ورثةُ الأنبياءِ؛ لأنَّهُمْ وَرِثُوا عنهم الدلالةَ على الله تعالى، والدعوةَ إليه والاقتداءَ بهم فى أعمالِ القُلُوبِ. وقد قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَولاً مِّمَّنْ دَعَا إِلى الله وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [فصلت: ٣٣]. وكما قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَة﴾ [النحل: ١٢٥]. وكما أمره بالدعاء وأشركَ معه أتباعَهُ فى الدعاء إلى الله تعالى لا فى البصيرة فقال تعالى: ﴿قُلْ هَذه سَبِيلى أَدْعُواْ إِلى الله عَلَى بَصِيرَة أَنَا وَمَن اتَّبَعَنى﴾ [يوسف: ١٠٨]، ويُحشرونَ يوم القيامة مع الأنبياء كما قال تعالى: ﴿فَأُولئكَ مَعَ الَّذينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ [النساء: ٦٩]، وكما قال تعالى: ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّين وَالشُّهَدَاءِ﴾ [الزمر: ٦٩]. ثم فسَّرهُ فقال تعالى: ﴿بِمَا

استُحْفِظُوا مِنْ كِتابِ الله وكانُوا عَلَيْه شُهَداءَ﴾ [المائدة: ٤٤]. وقد روينا معناهُ عَنْ معاذِ بن جبلٍ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنّ أقربَ الناس مِنْ درجَةِ النبوّةِ أهلُ العلم وأهلُ الجهاد».

أما أهلُ العلمِ فدلُّوا الناسَ على ما جاءتْ به الأنبياءُ. وأما أهلُ الجهاد فجاهدُوا بأسيافِهِمْ على ما جاءتْ به الرسلُ. وعلمَاءُ الدنيا يُحْشَرُون مع الولاة والسَّلاطِين.

وقد قال بعضُ السلف: العلماءُ يُحشرونَ فى زمرةِ الأنبياءِ، والقضاةُ يُحشرون فى زمرةِ السلاطينِ. وكان إسماعيل بن إسحاق القاضى من علماء أهل الدنيا، ومن سادة القضاة وعُقلائهِمْ، وكان مؤاخيًا لأبى الحسنِ بن أبى الورْد، وكانَ هَذا من أهلِ المعرفة[1]، فلمَّا وُلِّى إسماعيلُ القضاء هَجرهُ ابنُ أبى الورد، ثم إنَّه اضطرَّ إلى أنْ دخلَ عليه فى شهادةٍ، فضربَ ابنُ أبى الوردِ يدَه على كَتف إسماعيل القاضى، وقال: يا إسماعيل، علمٌ أجلسَكَ هذا المجلسَ لقد كان الجهْلُ خيرًا منه. فوضعَ إسماعيلُ رداءَهُ على وجهِهِ وجعَلَ يبكى حتَّى بلَّه.

وعلماءُ الظاهرِ هم زينةُ الأرضِ والمُلك، وعلماءُ الباطن زينةُ السَّماء والملكوت. وعلماءُ الظاهر أهلُ الخبرِ واللسانِ، وعلماءُ الباطنِ أربابُ القلوبِ والعيان[2].

وقال بعضُ العلماء: لما خلق الله تعالى اللسان قال: هذا معقلُ خبرِى، إن صدَّقنِى نجَّيْتُه. ولمَّا خلق الله تعالى القلْبَ قال: هذا موضع نظرى، إن صفا لى صافيته. وقال بعض الخلف: الجاهل ينجُو بالعلمِ، والعالمُ ينجُو بالحجةِ، والعارفُ ينجُو بالجاهِ. وقال بعضُ العارفينَ: علْمُ الظاهرِ حُكْمٌ، وعلمُ الباطنِ حاكم، والحكْمُ موقوفٌ حتَّى يجىء الحاكم يحكمُ فيه.

وقد كان علماءُ الظاهرِ إذا أشْكَلَ عليهمُ العلمُ فى مَسألة لاختلاف الأدلة سألوا أهلَ العلمِ بالله؛ لأنهُمْ أقربُ إلى التوفيقِ عندهُمْ، وأبعدُ من الهوَى والمعصية. منهم الشّافعىُّ رحمه الله تعالى، كان إذا اشتبهتْ عليه المسألة؛ لاختلافِ أقوالِ العلماء فيها، وتكافُؤ الاستدلالِ عليها، رجعَ إلى علماء أهل المعرفة فسألهم.

---

(١) فى (ك): «الباطن».

(٢) وهذا يعنى أنه لا غنى للحياة عن الاثنين معًا، فكلاهما مطلوب.

قال: وكان يجلسُ بين يدَى «شيبانَ الراعى» كما يجلسُ الصبىُّ بين يدى الْمُكْتِب[1] ويسأله: كيف يُفعل فى كذا؟ وكيف يُصنع فى كذا؟ فيقال له: مثلُك يا أبا عبد الله فى علمك وفقهك تسأل هذا البدوىَّ؟! فيقول: إنَّ هذا وُفِّق لما عَلمناهُ.

وكان الشافعىُّ رحمه الله قد اعتلَّ علةً شديدةً، فكان يقولُ: اللهمَّ إن كَانَ فى هذَا رِضَاك فزدْنِى منه. فكتبَ إليه المعافرىُّ من سوادِ مصرَ: يا أبا عبد الله لستُ وإيَّاكَ من رجالِ البلاءِ فنسألُ الرِّضا، الأوْلى بنا أن نسألَ الرِّفْقَ والعافيةَ. فرجَعَ الشافعى رحمه الله عن قوله هذا، وقال: أستغفرُ الله تعالى وأتوبُ إليه. فكان بعد ذلك رحمه الله يقول: اللهم اجعلْ خَيْرتِى فيما أُحِبُّ.

وقد كان أحمدُ بنُ حنبلٍ ويحيى بن معين رضى الله عنهما يختلفانِ إلى معروف ابن فيروز الكرخىِّ رحمه الله، ولم يكن يُحسنُ من العلم والسُّنَنِ ما يحسنانِه، فكانَا يَسألانه.

وقد رُوى فى الخبر: «قيل: يا رسولَ الله، كيفَ نصنع إذا جَاءنَا أمرٌ لم نَجِدْه فى كتاب الله تعالى ولا فى سُنَّةِ رسولِ الله ﷺ؟ فقال: سَلُوا الصالحينَ واجعلُوه شُورى بينهم، ولا تَقْضُوا فيه أمرًا دُونهم».

وفى حديث معاذٍ رضى الله عنه: «فإن جاءك ما ليسَ فى كتَابِ الله تعالى ولا سنةِ رسول الله؟ قالَ: أقضى فيه بما قَضَى الصالحونَ. فقال: الحمدُ لله الذى وَفَّقَ رسولَ رسولِه». وفى بعضها: «أجتهدُ رأيى».

وحدثُونا عن الجُنيد قال: كنتُ إذَا قُمْتُ منْ عند سَرِىٍّ السَّقطى قالَ لى: إذا فارقتَنى مَنْ تجالس؟ فقلتُ: الحارثُ المحاسبىُّ، فقالَ: نعم خُذ منْ علمه وأدبه، ودَعْ عنكَ تشقيقه للكلام وردَّه على المتكلّمينَ. قال: فلمّا ولَّيتُ سمعتُه يقولُ: جعلك اللهُ صاحبَ حديثٍ صُوفيًا، ولا جَعلك صُوفيًا صاحبَ حديثٍ. يعنى: أنكَ إذا ابتدأت بعلم الحَديث والأثر، ومعرفةِ الأصولِ والسنن، ثم تزهّدتَ

(١) المُكتِب: المُعلِّم.

وتعبّدتَ، تقدَّمتَ فى علمِ الصوفية، وكنتَ صُوفيًا عارفًا. وإذا ابتدأتَ بالتعبد والتّقوَى والحالِ، شُغلتَ به عن العلم والسنن، فخرجتَ إمَّا: شاطحًا أو غالطًا؛ لِجَهْلك بالأصولِ والسنن، فأحسنُ أحوالك أن ترجع إلى العلم الظاهرِ وكُتُبِ الحديثِ؛ لأنَّه هُوَ الأصلُ الذى تُفرَّعُ عليه العبادةُ والعلمُ، وأنتَ قد بُودِئتَ بالفرعِ قبلَ الأصْلِ.

وقد قيلَ: إنَّما حُرِمُوا الوُصولَ بتضييع الأُصُولِ. هى كُتُبُ الحديثِ ومعرفةُ الآثارِ والسننِ. فإذا أنتَ ردَدْتَ إلى الأصْلِ، فقد انحططتَ عن مرتبةِ الناقدِين، ونزلت من دَرَجةِ العارفين، وفاتَك مزيدُ الإيمان واليقين.

وقال سفيانُ الثوريُّ رضى الله عنه: كان الناسُ إذا طَلَبوا العلمَ عَملُوا، فإذا عَملوا أخلصُوا، فإذا أخلصُوا هَربوا. وقال آخرُ: العالِمُ إذا هَربَ مِنَ الناس فاطلُبْهُ، وإذا طلبَ الناسَ فاهرُبْ منهُ، وقال أبو محمدٍ سهْل: العِلْمُ يهتفُ بالعَمَلِ، فإن أجابهَ وإلاَّ ارتَحَل.

وكان ذُو النون يَقُولُ: اجْلسْ إلى مَنْ تُكَلِّمُكَ صفَتُهُ، ولا تَجلْسْ إلى مَنْ يكلِّمُكَ لسَانُه. وقد كان الحسَنُ قبلَهُ يقول: جالِسْ مَنْ تكلِّمُكَ أعمَالُه ولا تجالِسْ من يخاطبك مَقالُه.

وقد كان طائفة يَصْحَبُونَ كَثيرًا من أهلِ المعرفة؛ للتأدُّبِ بِهِمْ، والنظرِ إلى هَدْيِهِمْ وأخلاقِهِم، وإن لم يكونوا علماءَ؛ لأن التأديبَ يكونُ بالأفعال، والتعلُّم يكون بالمقالِ. ومن أبلغِ ما سمعتُ منهم فى هذا المعنى ما قالَ بعضُ الحكماء: وَعْظُ واحدٍ لألفٍ بفعلٍ أنجحُ فيهم وأوقعُ من وَعْظِ ألفٍ لواحدٍ بقَول.

وكانَ سهلٌ يقولُ: العِلْمُ كلُّه دُنيا، والآخرةُ منهُ العملُ به، والعملُ هباءٌ إلا الإخلاصُ. وقال مرة: الناس موتى إلا العلماء، والعلماءُ سكارَى إلا العاملين، والعاملون مغرورون إلا المخلصِين، والمخلصُ على وَجَلٍ حتَّى يُخْتَم له به.

ولم يكنِ العالم عند العلماءِ مَنْ كان عالمًا بعلمِ غيرِه ولا حافظًا لفقه سواه، هذا كان اسمُه: رَاويةً، ووَاعيًا، وحَامِلاً، وناقِلاً.

وقَدْ كان أبو حازم الزَّاهدُ يقولُ: ذَهَبَ العلماءُ وبَقِيتْ عُلومٌ في أوعيةٍ سُودٍ.

وقد كان الزهريُّ يقولُ: كانَ فلان وعاءً للعلمِ، وحدَّثني فلانٌ وكانَ من أوْعيةِ العلمِ، ولا يقولُ كانَ عالمًا.

وكذلك جاءَ الخبرُ: «رُبَّ حاملِ فقهٍ غيرُ فقيهٍ، ورُبَّ حاملِ فقهٍ إلى مَنْ هُو أفقهُ منه».

وكانوا يقولون: «حمّاد الرّاوية» يعنون أنَّه كان رَاويًا. ودُخُول الهاءِ في الاسمِ للمُبالغةِ في الوصفِ، كما يقال: علاَّمة ونسَّابة.

وإنما كان العالم عندَهم الغَنيَّ بعلْمه لا بِعلْمِ غَيره. وكَانَ الفقيهُ فيهم هو الفقيهَ بفقه علمه وقلبه لا بحديث سِوَاهُ. كما جاءَ في الأثر: «أيُّ الناسِ أغنى؟ قال: العالِم الغَنيُّ بعلمه، إنِ احتيجَ إليهِ نَفَع، وإلاَّ اكتَفَى عَن النَّاسِ بعلمه. لأنَّ كُلَّ عَالمٍ بعلمِ غيرِه، فإنَّما صَارَ عَالمًا بمجْمُوعه، فمجموعُهُ هُمُ العلمَاءُ. وكلُّ فاضلٍ بَوصْفِ سِواه فموصوفُه هم الفضلاءُ. فإذا تركَهُمْ وانفردَ سكتَ فلم يَرجعْ إلى علمٍ لنفسه يختصُّ بِهِ، فصارَ في الحقيقة موصوفًا بالجهل، واصفًا لطرائقِ أهلِ الفضلِ، مَوْسومًا بعلمِ السَّمعِ والنقلِ، فمَثَلُ العالم بعلمِ غيره مَثَلُ الواصف لأحوالِ الصالحين، العارف بمقامات الصدِّيقين، ولَا حالَ لَهُ ولَا مُقَامَ، فليسَ يعودُ عليه مَنْ وَصفه إلا الحجَّةُ بالعلمِ والكلامِ. وسبق العارفونَ بالله في الحجة بالأعمال والمقام. فمَثَلهُ كما قال الله تعالى: ﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ ممَّا تَصفُونَ﴾ [الأنبياء:١٨]، وكقوله عز وجلّ: ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فيه وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ [البقرة:٢٠]، [إذ لا حالَ له مما يَصفُ ولا مقام][1] يرجعُ إلى بصيرة فيه بما اشتبه من ظلمات الشّبه عليه مما اختلفَ العلماءُ فيه، ولا يتحقّقُ بوَجْدٍ منه يَجدُهُ عَنْ حَالٍ ألبسَهَا بوَجْده، وإنَّما هُوَ مُتواجدٌ بوَجْدِ غَيْره، فغيرُه هُو الوَاجدُ وشاهدٌ على شهادة سواهُ، فأيسوا من[2] الشّاهد.

(١) هذه الزيادة من (ك).

(٢) في (ط): «فالسوى هو الشاهد» وأثبت ما في (ك) لأنه أصح.

وقد كان الحسنُ يقول: إن الله تبارك وتعالى لا يَعْبأ بصاحبِ روايةٍ إنما يعبأ بذى فهمٍ ودرايةٍ. وقال أيضًا: من لم يكن له عَقْلٌ يَسُومُه لم تَنفعْه كثرةُ مَرْوياته للحديث.

وقد أُنشدنا لبعض الحكماءِ فى معنى ذلكَ:

العلمُ عِلْمـانِ فمصنوعٌ وَمجمـوعُ[1]
ولا يَنفَـعُ مجمـوعٌ إذا لم يَكُ مصنـوعُ
كما لا تنفع الشمسُ وضَوْءُ العينِ ممنـوعُ

وكان الجنيد رحمه الله كثيرًا ينشد:

علمُ التصـوُّف علمٌ ليسَ يعرفُـه
إلاَّ أخـو فطنـةٍ ، بالحقِّ مَوْصـوفُ[2]
وكيف يَعرِفُ شيئًا[3] ليسَ يشهَـدُه
وكيفَ يشهد ضَوْءَ الشمسِ مكفوفُ؟!

لأنَّ الكتبَ والمجْمُوعات مُحْدَثة، والقولُ بمقالاتِ الناسِ، والفُتْيا بمذهبِ الواحِدِ منَ الناس، وانتحالُ[4] قولهِ والحكايةُ له فى كلِّ شىءٍ، والتفقّه على مذهبه ـ محدَثٌ، لَمْ يكنِ الناسُ قديمًا على ذلكَ فى القرنِ الأوّل والثانى.

وهذه المصنفات من الكتبِ حادثةٌ بعدَ سَنَة عشرينَ ومائة منَ التاريخ، وبعد وفاة كلِّ الصحابة وعِلْيةِ التابعين. يقال: إنّ أوّلَ كتابٍ صُنِّفَ فى الإسلام كتابُ ابن جُرَيج فى الآثارِ وحروف من التفاسيرِ، عَنْ مجاهدٍ، وعطاء، وأصحاب ابن عبَّاس بمكة. ثم كتاب: مَعْمر بن رَاشِدِ الصّنعَانىّ، باليمَنِ، جَمَعَ فيهِ سُننًا منثورة مبوّبة.

---

(١) فى (ط): «ومطبوع».
(٢) فى (ط): «معروف».
(٣) فى (ط): «وليس يعرفه من».
(٤) فى (ط): «وانتحاء».

ثم كتابُ «الموطأ» بالمدينة لمالك بن أنس رضى الله عنه فى الفقه. ثم جمع ابن عُيينة كتابَ الجوامع فى السنن والأبواب، وكتاب التفسير فى أحرف من علم القرآن، و«جامع» سفيان الثوريّ الكبير رضى الله عنه فى الفقهِ والأحاديث، [صنّفه أيضًا فى هذه المدّة](١).

فهذه من أوّل ما صُنِّف ووُضِع من الكتب بعد وفاةِ سعيدِ بن المسيَّبِ وخيارِ التابعين، وبعد سنةِ عشرينَ ومائةٍ أو أكثر من التاريخ. فكانَ العلماءُ الذينَ هُمْ أئمَّةُ هؤلاء العلماء من طبقات الصحابةِ الأربعةِ ومنْ بعدِ موت الطبقةِ الأُولى مِنْ خيارِ التَّابعِينَ، هُمُ الَّذين انقَرضوا قبلَ تصْنيفِ الكُتبِ، وكَانُوا يكرهُونَ كُتُبَ الحديثِ، ووَضْعَ الناس الكتُبَ؛ لئلا يُشتغلَ بِها عن القرآنِ وعن الذكر والفكرِ. وقالوا: احفَظُوا كما حَفظنا. ولئلاً يشتغلَ الناسُ عن الله تعالى برسمٍ ولا وسْمٍ، كما كره أبو بكر الصديق رضى الله عنه وعِلْيةُ الصحابةِ تصحيفَ القرآن فى مصحف وقالوا: كيف نفعل شيئًا لم يَفعلْهُ رسول الله ﷺ؟ وخَشُوا اشتغَالَ الناس بالصُّحُفِ واتكالَهم على المصاحف فقالوا: نتركُ القرآنَ يتلقاه الناسُ بعضُهم من بعض تلقنًا بالتلقينِ والإقراء، ليكونَ هُو شغلَهُم وهمتَهُمْ وذكرَهُمْ، حتَّى أشارَ عليه عمرُ رضىَ الله عنه وبقيةُ الصحابة أن يجمعَ القرآنَ فى المصاحفِ؛ لأنه أحفظُ له وليرجِعَ الناسُ إلى المصحفِ لما لا يُؤمَنُ منَ الاشتغالِ بأسبابِ الدنيا عَنْهُ، فشَرحَ الله تعالى صَدْرَ أبى بكرٍ رضى الله عنه لذلكَ فجَمَع القرآنَ من الصُّحُفِ المتفرِّقةِ فى المصحف الواحدِ.

وكذلك كانُوا يتلقَّونَ العلمَ بعضَهُمْ عن بعضٍ ويحفظُونَه حفْظًا. هَذَا لطهارةِ القلوبِ من الريب، وفَراغِها من أسباب الدنْيا، وصفَائها من الهَوى، وعلوِّ الهمَّةِ وقوّةِ العزيمةِ وحسنِ النية.

ثمّ ظهرتْ بعدَ سنة مائتين، وبعد تقضِّى ثلاثةِ قرون فى القرن الرابع المرفوضِ، مصنفاتُ الكلامِ وكتبُ المتكلمينَ بالرأى والمعقولِ والقياسِ، وذهبَ علمُ المتقينَ، وغابتْ معرفةُ الموقنينَ من علمِ التقوى وإلهام الرشدِ واليقين، فخلفَ من بعدهم

(١) زيادة من (ك).

خَلْفٌ فلم نزلْ فى الخلُوفِ إلى هذا الوقت، [والله المستعان، ولا قوّة إلا بالله العلى العظيم][١].

ثم اختلط الأمرُ بعد هذا التفصيل فى زماننا هذا، فصَارَ المتكلِّمُونَ يُدْعَون عُلَماءَ، والقُصَّاصُ يُسمَّوْن عارفين، والرواةُ والنقلةُ يقال علماءُ، من غير فقهٍ فى دينٍ ولا بصيرةٍ فى يقينٍ.

وروينا عن ابن أبى عبلةَ قال: «كنا نجلسُ إلى عطاءِ الخُراسَانى بعد الصبح فيتكلَّمُ علينا، فاحتبسَ ذاتَ غداة، فتكلمَ رجلٌ منَ المؤذنين لا بأسَ به بمثلِ مَا كان يتكلمُ به عَطَاء، فأنكَر صوتَه رجاءُ بن أبى حَيْوَةَ فقال: من هذا المتكلمُ؟ فقال: أنا فلانٌ. فقال: اسكُتْ فإنه يُكره أن يُسمَعَ العلم إلا من أهله.

وكذلك كانُوا يقولُون: أبىَ أهلُ العلمِ بالله تعالى أن يَسمعوا هذا العلم إلا من أهلهِ الزاهِدين فى الدُّنيا، وكرهوا أن يسمعوه من أبناء الدُّنيا وزعمُوا أنّه لا يليقُ بهم.

واعلم أن العبد إذا كان يذكُر الله تعالى بالمعرفة وعلم اليقين لم يَسعْهُ تقليدُ أحدٍ من العلماءِ. وكذلك كان المتقدمون إذا افتتحُوا هذا المقام خالَفُوا مَنْ حملوا عنه العلمَ لمزيد اليقينِ والإفهام. وقال ابنُ عباس رضى الله عنهما: ليسَ أحدٌ إلا يُؤْخَذُ من قوله ويُتركُ إلا رسولُ الله ﷺ. وقد كانَ تعلّم من زيد بن ثابت الفقه، وقرأ على أُبَىّ بن كعبٍ، ثم خالف زيدًا فى الفقهِ، وأبيًا فى القراءة.

وقال بعضُ الفقهاءِ من السلفِ: ما جَاءَنَا عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قَبلناه على الرأس والعينِ، وما جَاءَنا عن الصحابة فنأخذُ به ونتركُ، وما جاءنا عن التابعين فهُمْ رِجَالٌ ونحنُ رجالٌ. قالوا: ونقولُ: ولأجلِ ذلك كَانَ الفقهاءُ يكْرهُونَ التقليدَ ويقولُون: لا ينبغى للرَّجُل أن يُفتى حتَّى يعرفَ اختلافَ الفقهاء، أى فيختارُ منهَا على علمه الأحوطَ للدِّينِ والأقوى باليقينِ. فلو كَانُوا يستحبُّونَ أن يُفتىَ العَالمُ بمذهبِ غَيرِه لم يَحْتَجْ أن يعرفَ الاختلافِ، ولكانَ إذَا عَرَفَ مذهبَ صاحبِه كفاه.

---

(١) زيادة من (ك).

ومن ثَمَّ قيل: إنَّ العبدَ يُسألُ غدًا فيقالُ: ماذا عَمِلْتَ فيما عَلِمتَ؟ ولا يقالُ له: فيما علم غَيرُكَ.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ وَالإِيمَانَ﴾ [الروم:٥٦]، ففرَّق بينهُما، فدلَّ به أنّ من أُوتِيَ إيمانًا أوتِي عِلمًا، كما أنَّ مَنْ أوتِيَ علمًا نَافعًا أُوتِي إيمانًا. وهذا أحدُ الوجوهِ فى معنَى قوله سبحانه: ﴿كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ [المجادلة:٢٢] أى: قوَّاهم بعلم الإيمانِ، فعلمُ الإيمانِ هو روحهُ وتكونُ «الهاءُ» عائدةً إلى الإيمان. وكذا العالمُ الذى هُوَ من أهْلِ الاستنباطِ والاستدلال من الكتابِ والسُّنةِ، فإنَّه أداةُ الصَّنْعةِ وآلةُ الصنع؛ لأنه ذُو تمييزٍ وبصيرةٍ ومن أهلِ التدبُّر والعبرةِ.

فأما الجَاهِلُ والعامِّىُّ الغافلُ فله أن يقلِّدَ العلماءَ، ولِعالمِ عمومٍ أيضًا أن يقلِّدَ عالمَ خصوصٍ، وللعالم بالعلم الظاهرِ أن يقلِّدَ مَنْ فوقه ممَّن جُعل على عِلْمٍ باطنٍ من أهل القُلوبِ؛ لأن النبى ﷺ ردّ منْ علمِ الألسنةِ والفُتْيا إلى علم القلوبِ، ولم يردَّ أهلَ القلوبِ فى علمهِمُ الذينَ يختصُّونَ به إلى المفتينَ، لأنهم يأخذُونَ من المفتين فُتياهُمْ ثم يجدونَ فى قلوبهم حيكًا وحَزازة، فيلزمهم فُتيا القلبِ، لقوله: «استفت قلبك» بعد قوله: «وإن أفتاك المفتون» مع قوله: «الإثم حزَّازُ القلوب» إلى قوله: «مَا حاكَ فى صَدْرِكَ فدَعْه، وإن أفتوْك وأفتوْك».

ثم دَرس معرفةُ هذا أيضًا فجُهل، فصارَ كلُّ مَنْ نطقَ بكلامٍ وصْفُه غَرَب عَلى السامعين[1]، لا يُعْرَف حقّه من باطله، سُمِّى عَالمًا. وكلُّ كلام يُستحسن زخرفُهُ ورونقُه لا أصلَ له يُسَمَّى علمًا؛ لجهل العامَّة بالعِلمِ أىِّ شىءٍ هُو؟ ولقلّة معرفةِ السامع بوصف مَنْ سلف من العلماء كيفَ كانوا[2]، فصارَ كثيرٌ من متكلمى الزمانِ فتنةً لمفْتُون، وصارَ كثيرٌ منَ كلامِ الرأى والعقل[3]، الذى حقيقتُه جهلٌ،

(١) هذه الجملة ليست فى (ك). وغرب: أى كان غريبًا فى لفظه ومعناه.

(٢) عبارة (ك): «لجهل السّامعين بالعلم أى شىء هو؛ ولقلة معرفة الحاضرين بوصف من غاب من العلماء كيف كانوا».

(٣) فى (ط): «وصار كثير من الكلام والرأى والمعقول» وأثبت ما فى (ك).

كأنَّه عِلْم عند الجاهلين، فلا يفرقُون بين المتكلمين والعلماء، ولا يميِّزون بين العلمِ والكلام. وقد قلْنا: إنّ خصوصَ الجُهَّال يُشبَّهُونَ بالعلماء، فيشتبهونَ على مُجالسيهم في الحال. فأعلمُ الناس في زمانك هذا أعرفُهُم بسيرة المتقدمينَ، وأعلمهُم بطرائقِ السالفينَ، ثم أعلمُهمْ بالعلمِ أيِّ شيء هو، وبالعالم مَنْ هو، ومَنْ المتعلِّم والمتعالم. وهذا كالفرض على طالبِي العلمِ أن يعرفوه، لأنه لما قَال ﷺ: «طَلبُ العلمِ فَريضة» وجب عليهم أن يَعْرِفوا أيَّ شيء هو العلم حتَّى يطلبوهُ، إذْ لا يصحُّ طلبُ مَا لا يُعْرَفُ. ثُمّ وجَبَ عليهم منْ هذَا أن يَعْرِفُوا العالمَ مَنْ هُو ليطلبوا عنده العلمَ؛ إذ العلمُ عَرَضٌ ولا يقوم إلا بجسم، فلا يوجدُ إلا عند أهله.

كما قيل لعليّ كرم الله وجهه وقيل له: إنك خالفتَ فُلانًا في كذا، فقال: خَيرُنا أتبعنا لهذا الدّين.

وكما قيل لسعد: إن ابنَ المسيِّب يقرأ: «ما نَنْسَخْ مِنْ آيَة أَوْ نَنْسأها» فقال: إن القرآنَ لم ينزل على ابن المسيِّبِ ولا على أبيه، ثم قرأ: ﴿أو نُنْسِها﴾ [البقرة:١٠٦].

فأعلمُ الناس في هذا الوقتِ وأقربُهم من التوفيقِ والرُّشْد أتبعُهُم لمن سلفَ، وأشبهُهم بشمائل صالحي الخلف. كيف وقد روينا عن رسُولِ الله ﷺ أنه سُئِلَ: «مَنْ أعلمُ الناسِ؟ فقال: أعرفُهُمْ بالحقِّ إذا اشْتَبهَتِ الأمورُ».

وقال بعضُ السلف: أعلمُ الناس أعرفُهُمْ باختلافِ النَّاس.

وكان الحسنُ البصريُّ رضي الله عنه يقول: مُحْدَثان أُحْدثا في الإسلام: رجلٌ ذُو رأي سوءٍ زَعمَ أن الجنَّة لمن رَأى مثلَ رأيه. ومُترَفٌ يعبدُ الدنْيا، لها يَغْضبُ ولها يَرضَى وإياها يطلبُ، فارفُضُوهما إلى النار، اعرفوا إنكارَهُمْ لربِّهم بأعمالهم. إنّ رَجُلاً أصبحَ في هذه الدنيا بين مترَف يدعُو إلى دنياه، وصاحبِ هوًى يدعُو إلى هواه، قد عصمه اللهُ تعالى منهما، يَحنُّ إلى السَّلفِ الصَّالح، يسألُ عن فعالهم، ويقتصُّ آثارهم، لَتعرَّضَ لأجرٍ عظيمٍ، فكذلك فكونوا.

وكما روينا عن ابن مسعود رضي الله عنه، وقد جاء مسندًا: «إنما هما اثنان: الكلام والهدى، فأحسنُ الكلامِ كلامُ الله تعالى، وأحسنُ الهَدْى هدْيُ محمدٍ

ﷺ، ألاَ وإياكم ومحدثات الأمور، فإنَّ شرَّ الأمور محدثاتُها، وإنَّ كلَّ محدثة بدعةٌ وكلَّ بدعة ضلالةٌ. ألاَ لا يَطولَنَّ عليكُمُ الأمدُ فتقسُوَ قلوبكم. ألاَ كُلُّ ما هو آتٍ قريب، ألا إن البعيد ما ليس بآت».

وفى خُطبة النبى ﷺ التى رويناها عن أبان عن أنسٍ: «طُوبَى لمن شغله عيبُه عن عيوبِ الناس، وأنفقَ من مَالٍ اكتسَبَهُ من غيرِ معصيةٍ، وخالط أهلَ الفقه والحكمة، وجانبَ أهلَ الذلِّ والمعصيةِ. طُوبى لمن ذلّ فى نفسه، وحسُنَتْ خليقتُه، وصلُحَتْ سريرتُه، وعزلَ عن الناس شرَّهُ. طُوبى لمنْ عَمل بعلْمه، وأنفقَ الفَضْلَ منْ ماله، وأمسك الفضلَ من قوله، ووسعَتْه السُّنَّةُ، ولم يَعْدُها إلى بِدْعةٍ».

وقال بعضُ الأدباءِ كلامًا منظُومًا فى وصفِ زمانِنا هذا، كأنَّه شاهَدَه:

ذهبَ الرجالُ المقتدَى بفعالِهمْ ... والمنكِرون لكلِّ أمرٍ مُنكَرِ
وَبقيتُ فى خَلَفٍ يزكّى بعضُهم ... بَعْضًا، ليَدفعَ مُعْورٌ عن مُعورِ
أبُنيَّ إنَّ مِنَ الرجال بَهيمةً ... فى صُورةِ الرجُلِ السميعِ المبصرِ
فَطِنًا بكل مصيبةٍ فى مَالهِ ... فإذَا أُصيبَ بدينهِ لمْ يَشعُرِ
فسَلِ الفقيهَ تكنْ فقيهًا مثلَهُ ... مَنْ يَسْعَ فى أمرٍ بفقهٍ يَظْفرِ

وقد كان ابنُ مسعودٍ رضى الله عنه يقول: حسنُ الهدَى فى آخرِ الزمانِ خيرٌ من كثيرٍ من العلم. وقال فى وصفِ زمانه باليقين، وفى وصفِ زماننا بالشَّكِّ فقال: إنكم فى زمانٍ خيركم فيه المسارعُ فى الأمورِ، وسيأتى بعدكم زمانٌ يكونُ خيرُهمْ فيه المتثبِّت المتوقِّفُ. يعنى: لكثرة الشبهات.

وقال حذيفةُ رضى الله عنه أعجبَ من هذا، قال: إنّ معْروفكم هَذا مُنكَرُ زمانٍ قد مَضى، وإنَّ مُنكَرَكُمْ معْروفُ زمانٍ قد يأتى. وإنكم لنْ تزالُوا بخيرٍ مَا عرفتُم الحق، وكان العالمُ فيكم غيرَ مُستخفٍ. وكان يقول أيضًا: يأتى فى آخر الزمان قومٌ يكون العالمُ فيهم بمنزلة الحمار الميِّت، لا يلتفتُونَ إليه، يَسْتخفى المؤمنُ فيهم كما يَسْتَخْفى المنافقُ فِينَا اليومَ، المؤمنُ فيهم أذلُّ من الأمَة.

وفي حديث على كرّم الله وجهه: يأتي على الناس زمانٌ ينكرُ الحقَّ تسعةُ أعشارِهم، لا ينجُو منهُم يومئذ إلا كلُّ مؤمن نُوَمة (يعني: صَمُوتًا متغافلاً) أولئكَ مصابيحُ العلم، وأئمةُ الهدَى، وليسُوا بالمذَاييعِ(١) البُذُرِ. (يعني: المتكلِّمين كثيرًا) المتظاهرينَ بالكلام افتخارًا.

وفي خبر: «يأتي على الناس زمانٌ مَنْ عرَف فيه الحقَّ نَجَا. قيلَ: فأينَ العمل؟ قال: لا عملَ يومئذٍ، لا ينجُو(٢) فيه إلا من هَرَب بدينه من شاهقٍ إلى شاهقٍ.

وفي حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه: «يأتي علَى الناسِ زمانٌ مَنْ عَمِل منهُم بعُشْرِ ما أُمِرَ به نَجَا». وفي بعضها: «بعشرِ مَا يعلَمُ». وعن بعض الصحابة [رضي الله عنهم]: أنتمُ اليوم في زمانٍ من تركَ منكم عُشرَ مَا يعلمُ هلكَ، ويأتي عليكم زمانٌ من عَمِل فيه بعُشْرِ ما يَعْلَمُ نجا.

وقال بعض الحكماء(٣): يأتي عليكم زمَانٌ يكونُ أفضلَ العلم الصمّتُ، وأفضلَ العمل النومُ. يعني: لكثرة الناطقين بالجهل(٤) فصار الصمتُ للجَاهلِ علمًا، ولكثرة العاملين بالهَوى(٥) فصار النوم عبادةَ البطَّال. ولعمري إن الصمتَ والنومَ أدنَى أحوال العالِم، وهما أعلى أحوال الجاهل.

وكان يونس بن عبيد يقولُ: أصبحَ اليومَ مَنْ يعرفُ السُّنَّةَ غَريبًا، وأغربُ منهُ من يعرفه. يَعنْي: طريقةَ السلفِ. يقول: فمن يَعْرِفُهُ عَرَفَ طريقَ مَنْ مَضَى، وَهُوَ غريبٌ أيضًا، لأنه قد عَرَف غريبًا.

وقال حذيفةُ المرعشي: كَتب إليَّ يوسفُ بن أسباط: ذهَبَت الطاعَةُ ومَن يَعْرِفُها. وكان أيضًا يقول: ما بقي من يُؤنَسُ به. وقال: ما ظَنُّكَ بزمانٍ مذاكرةُ العلمِ فيه مَعْصيةٌ. قيلَ: ولم ذلكَ؟ قال: لأنه لا يجدُ أهلَهُ.

---

(١) في (ك): «بالمزاريع». والمذاييع: جمع مذْياع، من أذاع الشيء إذا أفشاه. والبذر: جمع بذور، يقال: بذرتُ الكلامَ بين الناس، أي أفشيتُه وفرَّقته.

(٢) في (ك): «لا يسلم».

(٣) في (ط): «الخلفاء».

(٤) في (ط): «لكثرة المنافقين بالشبهات» وأثبت ما في (ك).

(٥) في (ط): «ولكثرة العاملين بالشهوات» وأثبت ما في (ك).

وقد كَانَ أبو الدرداء رضى الله عنه يقول: إنكم لن تزالوا بخيرٍ ما أحببتمْ خِيارَكُمْ، وقِيلَ فيكمُ الحَقُّ فعُرِفَ، ويلٌ لكم إذا كان العالِم فيكمْ كالشاةِ النطيح.

وقد كان للمتقدمينَ علومٌ يجتمعون عليها ويتفاوضُونَها بينهم قَدْ دَرَسَتْ فى زَمَانِنَا. وكان للصَّالحين مَعَانٍ وَطَرَائقُ يسلكُونَها ويَسْألونَ عَنْها، قد ذهَبَتْ فى وَقتنا. وكان لليقين والمعرفة مقاماتٌ وأحوالٌ، يتذاكرهَا أهلُها، ويطلبونَ أربابَها، قد عَفَتْ آثارُها عندنَا، لقلَّةِ الطالِبينَ لها، ولِعدَمِ الرَّاغِبينَ فيَها، وفَقْد العلماء بها، وذهاب السالكينَ فى طرقها، منها:

طلبُ الحلال، وعِلْمُ الورعِ فى المكاسبِ والمعاملاتِ، وعلمُ الإخلاص، وعلمُ آفاتِ النفوس وفسادِ الأعمال، وعلمُ نفاق العلم والعمل، والفرقُ بين نفاقِ العلم والعمل، والفرقُ بين نفاق القلب ونفاقِ النفسِ وبين إظهار النفس شهوتَها وإخفائها ذلك، والفرقُ بين سكون القلبِ بالله وسكون النفسِ بالأسباب، والفرقُ بين خواطِرِ الروحِ والنفس وبينَ خاطِرِ الإيمانِ واليقين والعقلِ، وعلمُ خلائقِ الأحوال، وأحوالُ طرائقِ العمَّالِ، وتفاوتُ مشاهدات العارفينَ، وتلويناتُ الشواهد على المريدين، وعلمُ القبضِ والبسط، والتحقيقُ بصفاتِ العبودية، والتخلقَ بأخلاقِ الربوبية، وتباينُ مقاماتِ[1] العلماء، إلى غير ذلك ممّا لا نذكرهُ من علم التوحيد، ومعرفةِ معانى الصِّفاتِ، وعلوم المكاشفة بتجلِّى الذاتِ، وإظهار الأفعال الدالَّة على معانى الصفاتِ الباطنة، وظهور المعانى الدالة على النظر والإعراض، والتقريب والإبعاد، والنقْصِ والمزيدِ، والمثوبةِ والعقوبةِ، والاختبار والاختيار.

وقد ذكرنا من جميع هذه المعانى فصولاً، ورسمنا جُمَلاً وأصولاً، تنبِّه على فروعها، وتدلُّ على أشكالها، لمن وُفِّق لتدبرِها، وأُريد بتذكُّرِها، وَجُعل له نصيبٌ مِنْها.

وقال بعضُ علمائنا: أعرفُ للمتقدِّمينَ سبعين علْمًا، كانُوا يتحَاوُرونها ويتعارفُونها فى هذا العلم، لم يبقَ منها اليومَ علمٌ واحد يُعْرَف. قال: وأعرف فى زماننا هذا عُلُومًا كثيرةً من الأباطيل والدعاوى والغرور، وقد ظهرتْ وسُمِّيتْ

---

(١) فى (ك): «وتفاوت مشاهدات».

عُلُومًا لَمْ تكنْ فيمَا مضَى تُعْرَفُ، فهذا كالسَّرابِ الذى وصفه الله تعالى فقال: ﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩].

وكان الجُنيد رحمه الله تعالى من قبله يَقُول: علْمُنا هذا الذى نتكلَّمُ فيه قد طُوى بسَاطُه منذ عشرينَ سنةً، وإنَّما نتكلَّمُ فى حَوَاشيه. وكانَ يقولُ أيضًا: قد كنتُ أجالسُ قومًا سنينَ يتحاورُون فى علومٍ لا أفهَمُهَا، ولا أدْرى ما هى، وما بُليتُ بالإنكَارِ قطّ، كنتُ أتقبَّلُها وأحبُّها مِنْ غيرِ أنْ أعْرِفها. وكان أيضًا يقُولُ: كنا نتَجَارى[1] مع إخواننا قديمًا فى علومٍ كثيرة ما تُعْرَفُ فى وقْتِنَا هذا، ولا سَألنِى عنْها أحَدٌ، وهذا بابٌ قد أُغْلِق ورُدِمَ.

ولَمَّا صنَّف شيخُنا أبو سعيد بن الأعرابىّ كتابَ (طبقات النسَّاك)، وصفَ أوّلَ مَنْ تَكلَّمَ فى هذا العلم وأظهَرَهُ، ثُمَّ مَنْ بعده من البصريينَ والشَّاميِّينَ وأهلِ خُراسان إلى أن كانَ آخرُهمْ البغداديين. وقال آخر: مَنْ تكلَّم فى هذَا صَاحبُنَا جُنيدٌ القَواريرى وكانتْ له بصيرَةٌ فيه وحقيقةٌ منه وحسنُ عبارة، وما بَقِىَ بَعْدهُ إلا مَنْ مُجَالسَتُه غيظٌ. وقال مرة أخرى: ما بَقِىَ بَعْدَ جُنيدٍ إلا مَنْ يُسْتَحى من ذكْرِه.

وقد كان إمامُنا أبُو محمدٍ سهل رحمه الله يقول: بعد سنة ثلاثَمائة لا يَحِلُّ أن يُتكلَّم بِعلمنَا هذا، لأنَّه يحدث قومٌ يتصنّعونَ للخلقِ، ويتزيَّنُون بالكَلامِ؛ لتكون مواجيدُهم لِباسَهم، وحِلْيَتُهم كلامَهم، ومعبُودُهم بطونَهم.

وقد كان حذيفةُ رضى الله عنه إذا سُئِل: أىُّ الفِتَنِ أشدُّ؟ قال: أن يُعْرَضَ عَلَيكَ الخيرُ والشرُّ، فلا تدْرى أيَّهما تأخذ؛ لكثرة الشبهات.

كما كان سهلٌ يقول: بعد سنةِ ثلاثمائة لا يصحُّ لأحد توبة، لأنَّه يَفْسُدُ خُبزُهُم، وهم لا يصبْرون عن الخبز. يعنى: أن أوَّلَ التوبة أكلُ الحلال. وقد روينا فى خبرٍ: «يأتى على الناسِ زمانٌ يُضلُّونَ فيه دينَهُم فلا يعرفونَهُ، يُصبح الرجُلُ على دِينٍ ويُمسى على دِين. يضلُّ أمره على غير يقين، وتُسْلَبُ عقولُ أكثر أهل ذلك الزمان. وأوّلُ ما يُرْفَع عنهُم الخشوعُ، ثم الإجابةُ، ثمَّ الورعُ. ويقال: أوّلُ ما يُرْفَعُ من الناسِ الأُلْفةُ.

(١) تجاروا فى الحديث: تناظروا فيه.

ذكر ما أحدث الناس من القول والفعل فيما بينهم مما لم يكن عليه السلف [١]

كانَ الناسُ قديمًا إذا التقَوْا يقول أحدُهم لصاحبِه: ما خبرُك وما حالُكَ؟ يعنونَ بذلكَ: ما خبرُ نفسك فى مجاهدتها وصبرها؟ وما حالُ قلبك من مزيدِ الإيمانِ وعلمِ اليقين؟ ويريدون أيضًا: ما خبرُك فى المعاملة لمولاك؟ وما حالُكَ فى أمور الدنيا والآخرة؟ هل ازددتَ أم انتقصتَ؟ فيتذاكرون أحوالَ قلوبهم، ويصفون أعمالَ علومِهم، ويذكُرون مَا وهب اللهُ تعالى لهم من حسن المعاملةِ، وما فتحَ لهم من غرائبِ الفهومِ. فكان هذا من تعديدِ نعمِ الله تعالى عليهم، ومن جميل شكرهم، ويكون مزيدًا لهم فى المعرفةِ والمعاملةِ.

وقد كان بعضُهم يقول: أكثرُ علومِنا ومواجيدنا ما يعرفُه بعضُنا من بعضٍ، وما يخبرُ به أحدُنا أخاه إذا التقينا، فقد جُهلَ هذا اليومَ فتُركَ، فهُم إذا تساءلوا عن الخبر والحالِ إنَّما يريدونَ به أمورَ الدنيا وأسبابَ الهوى، ثمّ يشكُو كلُّ واحدٍ مولاه الجليلَ سبحانه وتعالى إلى عبده الذليل، ويتسخَّطُ أحكامَه، ويتبرَّم بقضائه، وينسَى نفسَه وما قَدّمت يداه، فمَثَلُه كما قال تعالى: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ**﴾ [الكهف: ٥٧]، وكما قال تعالى: ﴿**إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ**﴾ [العاديات: ٦] قيل: كفورٌ بنعمتِه، يُعدِّدُ المصائبَ ويَنسى النعَمَ. كلُّ ذلكَ جهَالةٌ بالله تعالى وغفلةٌ عنه.

ومنه قولهم الآن: كيفَ أصبحت؟ وكيف أمسيتَ؟ هذا مُحدَثٌ. إنّما كانُوا إذا التقوْا قالوا: السلامُ عليكُم ورحمةُ الله. وفى الخبر: «من بدأكُم بالكلام قبلَ السلامِ فلا تُجيبوه». وإنَّما حَدَثَ هذا فى زمانِ الطاعُونِ، الذى كان يُدْعَى «طاعون عَمْواس» بالشام، من الموت الذريع، كان الرجلُ يلقَى أخاه غُدوةً فيقولُ:

---

(١) انظر: الإحياء ٢/ ٣٣٥.

كيف أصبحتَ من الطاعون؟ ويلقاه عشيَّةً فيقول: كيف أمسيتَ منه؟ لأنّ أحدَهم كان إذا أصبحَ لم يُمس، وإذا أمسى لم يصبح. فبقى هذا إلى اليوم ونُسِى سببه، وكان من عَرفَ حُدوثَه من المتقدمين يكرهُه. حدّثُونا عن أحمدَ بن أبى الحوارى قال: قال رجلٌ لأبى بكر بن عيَّاشٍ: كيف أصبحتَ، أو كيف أمسيت؟ فلم يكلِّمْه، وقال: دعُونا من هذه البدعَة. قال: وقلتُ لبعضِ السلفِ: كيفَ أصبحت؟ فأعرض عنِّى، وقال: ما كيف أصبحتَ؟ قل بالسَّلامِ.

وروى أبو معشر عن الحسن رضى الله عنه: إنّما كانوا يقولونَ: السلام عليكم، سَلِمَت والله القلوبُ. فأما اليومَ: كيف أصبحت أصلحك الله؟ كيفَ أمسيت عافاك الله؟ فإنْ أخذْنا بقولهم كانت بِدْعةً، ألاَ ولا كرامةَ فإن شاؤُوا غضبوا علينا.

ومن ذلكَ ابتداءُ الرجل فى عنوان الكتابِ باسم المكتوبِ إليه، وإنّما السّنّةُ أن يبتدئ بنفسه فيكتبُ: مِنْ فلانٍ إلى فلان. قال ابن سيرين رحمه الله تعالى: غبتُ غيبةً فكتبتُ إلى أبى فابتدأت باسمِه، فكتبَ إلىَّ: يا بنى، إذا كتبتَ إلىَّ فابدأ باسمكَ فى الكتاب، فإن ابتدأتَ باسمى قبل اسمك، لا قرأتُ لك كتابًا، ولا رَددْت إليك جوابًا.

وكتب العلاءُ بن الحضرمىّ رضى الله عنه إلى رسول الله ﷺ فبدأ بنفسه وكتبَ: من العلاء بن الحضرمى إلى رسول الله ﷺ.

ويقال: أولُ مَنْ أحدثَه «زياد» فعابَه العلماءُ عليه، وعدُّوه من إحداث بنى أمية. وقد بَقى سُنّةَ هذا فى كتب الخلفاء والأمراءِ إلى اليوم، على نحوِ ما مضى، فهم يُقدِّمونَ أسماءَهم فى كتبهم.

ومن الإحداث: قولُ الرجل إذا جاء منزل أخيه: يا غلامُ، يا جاريةُ. فيه مخالفةٌ لأمر الله عزّ وجلّ وأمر رسوله عليه السلام، قال الله عزّ وجلّ: ﴿لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ [النور: ٢٧]. قال أهلُ التفسيرِ: الاستئناسُ: الدّقُّ، أو التنحنح، أو الحركَةُ، حتى يُؤذنَ بذلكَ أن وراءَها إنسَانًا. وقال رسولُ الله ﷺ: «إذا جاءَ أحدُكُم منزلَ أخيه فليُسلِّمْ ثلاثًا، فإن أُذنَ

لهُ فليَدخلْ، وإلا فَليرجعْ».

وكان السلفُ يَقرع أحدُهُمْ بابَ أخيه، ثم يسلِّمُ ثلاثًا يقفُ بعدَ كلِّ تسليمةٍ هُنيهةً، فإن أُذنَ له دخلَ. وقدْ لا يحبُّ صاحبُ المنزلِ أن يدخل عليهِ فى ذلك الوقتِ؛ لسببِ عذرٍ له، فيقولُ: وعليكم السلام ورحمة اللهِ، ارجعْ عافاك الله، فإنى على شغل، فيرجع عنه غير كاره لرجوعه، ولا يؤثر ذلكَ عليهِ فى نفسهِ. وقد يكونُ قوله «ارجعْ» أحبَّ إليهِ؛ لأنه أفضلُ له رجاءَ الإجابةِ والتزكيةِ، لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ [النور:٢٨]، فربما رجَعَ فى اليومِ مرّتين أو ثلاثًا بعد ردِّ صاحبهِ له وهو يعودُ؛ لأنَّ ذلك لم يؤثِّر فى قلبه شيئًا. وهذا لو فُعل ببعضِ الناسِ من أهلِ عصرِنا هذا لكرههُ، ولعلَّ أن لا يعودَ يومَهُ ذلك(١).

فأمّا العلماءُ فقد كانَ بعضُ الناسِ لا يستأذنُ عليهم إلا لمهمٍّ لا بدَّ منه، بل كانوا يقعدُون على أبوابِهم وفى مساجِدِهم ينتظرُون خروجهم لأوقاتِ الصَّلاةِ؛ إجلالاً للعلم وهيبةً للعلماءِ.

وحدثُونا عن أبى عبيدٍ قال: ما قرعتُ على عالمٍ قط بابَهُ، كنتُ أجيءُ إلى منزلِهِ فأقعدُ على بابه أنتظر خروجه من قبَلِ نفسه، أتأوّل قول اللهِ عزَّ وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ [الحجرات:٥].

وقد رُوينا مثلَ هذا عن ابن عباسٍ رضى الله عنهما فى موضعِهِ من العلمِ والشرف: أن المارَّ كانَ يمرُّ به وهو قَائمٌ على بابِ منزلِ الرجلِ منَ الأنصار، تسفى عليه الرياحُ، فيقول: ما يُجْلسكَ ههنا يا ابنَ عمِّ رسولِ الله؟ فيقول: أنتظر خروجَ صاحبِ المنزلِ. فيخرج الرجلُ فيقول: ابنُ عمِّ رسول الله؟ لو أرسلتَ إلىّ لجئتُكَ، فيقول: لا، أنا كنتُ أحقَّ أن آتيَكَ. فيسألُه عمّا يريدُ من حديثٍ بلَغَه أنّه يرويهِ عن رسولِ الله ﷺ لم يكن هو سمعَهُ منهُ.

---

(١) وكيف بعصرنا نحن اليوم، فقد تكون قطيعة؟!

ومن ذلك[١]: استقصاءُ الرجلِ فى المسألةِ عن حالِ أخيهِ وخبره. وقد كُرِهَ ذلكَ. تزوّجَ سلمانُ الفارسىُّ رضى الله عنه، فلمّا دخلَ على أهله خرجَ إلى الناسِ من الغدِ، فقالَ لهُ رجلٌ: كيفَ أنتَ يا أبا عبدِ الله؟ قال: بخيرٍ أحمدُ الله تعالى، قال: كيفَ حالُك وكيف بتَّ البارحةَ؟ وكيف وجدتَ أهلك؟[٢] فغضب سَلْمان وقال: لِمَ يَسْأَل أحدُكم فَيُحْفى[٣] المسألة، ويَسْأَلْ عما وراءَ البيوتِ؟ يكفى أحدُكم أنْ يسألَ عن ظاهرِ الأمر.

وأما سليمانُ بن مهرانِ الأعمشُ، فإنَّ رجلاً قال له فى منزلِه: كيفَ أنت يا أبا محمد؟ قال: بخير. قال: كيف حالك؟ قال: فى عافية. قال: كيف بِتَّ البارِحة؟ فصاحَ: يا جاريةُ انزلى بالفراش والمخاد، فأنزلتْ بذلكَ. فقال: افرشى، ففرشت. فقال: اضطجعى[٤] حتَّى أضّطجعَ إلى جنبِك لِنُرِىَ أخانَا[٥] كيف بتُّ البارحةَ. وكان يقولُ: يلقَى أحدُهم أخاه فيسألُه عن كلِّ شىءٍ، حتَّى عن الدجاجِ فى البيتِ، ولو سأله درهمًا ما أعطاه[٦].

وكانَ مَنْ مضى مِنَ السلفِ إذا لَقِىَ أخاه لا يزيدُ على قوله: كيف أنتم؟ أو: حيَّاكم الله بالسلام، ولو سأله شطرَ ماله قاسمَه.

ومن ذلك: قولُ الرجل لأخيهِ إذا لقيهُ ذاهبًا فى الطريق: إلى أين تريد؟ أو: من أين جئت؟ فقد كُرِه هذا، وليس مِنَ السُّنَّةِ ولا الأدبِ، وهو داخلٌ فى التجسسِ والتَّحسس؛ لأنَّ التحسسَ فى الآثار، والتجسسَ فى الأخبارِ، وهذا السؤالُ عن ذلك يجمعُهما، وقد لا يحبُّ الرجلُ أن يعلمَ صاحبُه أين يذهب ولا من أين جاءَ.

---

(١) أى من الأمور المحدثة التى يسردها.

(٢) فى المطبوعة: «وفى لفظ آخر: كيف وجدت أهلك» وأثبت ما فى (ك).

(٣) يحفى: أحفَى السؤالَ: ردَّدهُ، وألحّ فيه.

(٤) فى (ط): «افرشى واضطجعى» والزيادة من (ك).

(٥) فى (ك): «حتى يرى أخونا».

(٦) فى المخطوطة كرر هذا الخبر بروايته عن «الأعمش».

وقد كَرِهَ ذلكَ[١] مجاهدٌ وعطاءٌ، قالا: إذا لقيتَ أخاكَ فى طريقٍ فلا تسألْه من أين جئتَ ولا أين يذهبُ، فلعلَّه أن يَصْدُقَكَ فتكرَه ذلك، ولعله أن يَكْذِبَك فتكونَ قد حمَّلْته [ما يشق][٢] عليه.

وقد كانوا يكرهُونَ بيعَ المصاحفِ وشراءَها. وكانَ بعضُهم لبيعِها أكرَه منهُ لشرائِها.

وقد ابتدعَ الناسُ علومًا لم تكن تُعرف فيما سلفَ، منها: علمُ الكلام والجدلِ، وعلومُ المقاييسِ والنظرِ والاستدلالِ على سنن الرسول ﷺ بأدلَّة الرأى والمعقولِ.

ومنها: إيثارُ علم العقل والرأى والقياس على ظواهرِ القرآنِ، وعلى الأخبارِ.

ومنها: إظهارُ الإشاراتِ بالمواجيدِ من غيرِ علومِهَا ولا بيانِ تفصيلها. وفى ذلكَ تحييرٌ للسّامعين، وإضلالٌ للعاملينَ.

وإنَّما كَانَ العلماءُ بهَذا العلمِ يُظهِرُون علومَ المواجيدِ، ويُخْفُونَ الإشارةَ بالوَجْد، فيُظهِرون للناسِ ما ينفعُ، ويخفونَ ما يضرُّ، ولأنَّ المواجيدَ أحوالُ قلوبهم، فكتمُها أفضلُ، وعلومُها أنصبةُ المريدينَ والعاملين، فإظهارُهَا هُو البُغْيَةُ لهم، فأظْهرُوهُ وأخفَوْا وَجْدَهم؛ لأنه سرٌّ لهم فسَلِمُوا من التصنُّع والدعْوى، وأعطوا السَّامعينَ نصيبَهم، ومنعُوهُمْ ما ليسَ لهم، فعَدلُوا فى الوصفينِ معًا، ففُضِّلوا فى الحالينِ جَميعًا. فجُهِلَ هذَا الآنَ فأُظهِرَ ضدُّه، وكان إلى الضررِ أقربَ، ومِنَ السلامةِ أبعدَ[٣].

فمَنْ لم يُحسنِ التفصيل ولم يُرزقِ العبارة، فإنه يَحْسُنُ الصمتُ فهو واسعٌ؛ لأن مَنْ لم يتكلَّمْ بعلمٍ على سُنَّة [ينفع به] فسكوتُه [عن شُبهةٍ لا يوقن الضّرر بها][٤] أقربُ له إلى الله تعالى، فمَثَلُه فى ذلك كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿**وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ ممَّا آتَاهُ اللهُ لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إلاَّ مَا آتاهَا**﴾ [الطلاق: ٧].

---

(١) فى (ك): «وروينا كراهية ذلك عن».

(٢) ساقطة من (ط). وفى (ك): «ما يشق عليك».

(٣) سبحان الله!! يتكلم هكذا عن عصره، فكيف بأبى طالب المكى لو أدرك عصرنا هذا؟!

(٤) ما بين المعكفات زيادة من (ك)، وعبارة (ك) بعدها: «أفضلُ قال الله عز وجل».

ومما ظهَر: إظهارُ علوم المعرفة بمعانى الرغبة؛ ليتميَّزوا عن الفقراء، تكبُّرًا منهم، فلا يُجْعَلُون مجعلهم، وليُصْرَفْ إليهم من الأسبابِ على قدرِ أُنسِهم[١] وأحوالهم، وهذا من أكبر أبواب الدنيا، وأضرِّه على مريدِى الآخرةِ وألطفه[٢] تَمْويهًا فى الدين.

ومنها: الكلامُ فى التوحيد بمخالفةِ علمِ الشرع، وأنَّ الحقيقة تخالفُ العلمَ، والحقيقةُ هى علمٌ، وهى أحدُ طرقاتِ الشريعة، وعلمُ الشرع عنها، فكيفَ تنافيها وهى التى أوجبته، وإنّما هِىَ عزيمته وصنعه[٣]، وعلمُ الظاهرِ هو الرّخصةُ والسَّعة.

فمَنْ تكلَّم فى علمِ الباطنِ على غيرِ قواعدِ العلمِ الظاهرِ وأصولِهِ فذلك من الإلحادِ فى الشريعةِ والوليجةِ بين الكتابِ والسنة.

وقد قال بعض العارفينَ: نظرتُ إلى هؤلاءِ الشاطحينَ فما وَجَدْتُ إلا جَاهلاً مغرورًا، أو خاسئًا حبورًا، أو مُستظْهِرًا بلا شيء.

ومنها: الكلامُ فى الدينِ بالوساوس والخطراتِ عن غير ردٍّ مواجيدها إلى الكتابِ والسُّنَّة. والواجبُ معرفةُ تفصيلِها، ونَفْيِ ما لم يَشْهد له الكتابُ والسنّة منها، إذْ فى المواجيدِ ضلالٌ وغرورٌ، وفى المشاهداتِ باطلٌ وزورٌ، معَ دعواهُم المحبةَ، وإنكارهم الصفةَ التى جاءتْ بِهَا السنّة عن غيرِ شهادةِ موصوفٍ، وادعائِهم المعرفةَ من غيرِ تعرف معروفٍ.

وممّا أحدثُوا: السجعُ فى الدعاءِ، والتغريبُ فيه، ولم يَرِد الكتابُ به، ولا نُقلَ عن رسولِ الله ﷺ ولا الصحابة، بل كانوا يَنهَوْنَ عنِ الاعتداء فى الدعاء، ويجتنبون مجاوزةَ ما أخبرَ اللهُ تعالى عن أوليائه منَ الأدعيةِ الجامعةِ المختصرةِ المعروفة[٤].

(١) فى (ك): قد تقرأ «لبسهم».

(٢) فى (ك): «وأضرها على مريدى الآخرة وألطفها».

(٣) فى (ط): «عزيمة وضيقة».

(٤) فكيف بزماننا الذى صار فيه الدعاء فنًا وصنعة، لا خشوعًا وتضرُّعًا.

ورُوينا عن رسول الله ﷺ: «إيَّاكُم والسجعَ فى الدعاء، حسبُ أحدِكم أنْ يقولَ: اللّهمَّ إنى أسألُكَ الجنَّةَ وما قرَّبَ إليهَا من قولٍ وعملٍ، وأعوذُ بك من النَّارِ وما قرَّبَ إليها من قول وعملٍ». وفى الخبر: «سيأتى قومٌ يعتدُون فى الدعاءِ والطَّهورِ».

وسَمِعَ عبدُ الله بن مُغَفَّل ابنَه يدعُو بدعاءٍ تَعمَّق فيه، فقال: يا بنى، إيّاك والحدثَ والاعتداءَ فى الدعاء.

وفى قوله عزّ وجلّ: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥] قيل: فى الدعاءِ، فالاعتداءُ فى الدعاءِ هو تركُ ما أخبرَ الله عزّ وجلّ عن أوليائه الصالحينَ منَ الدعاء بالمغفرةِ والرحمةِ والتوبةِ، ومعنى ذلكَ: من الدعاءِ المعروف والقولِ المشهور إلى التنطُّع والتّعميقِ والتغريبِ والتَّدْقيق.

ويقال: إن العلماءَ والأبدال لا يزيدُ أحدُهم على سبْعِ كلماتٍ فى الدعاءِ، ووجدتُ تصديقَ ذلكَ فى الكتابِ: إن الله تعالى ما أخبر عن عباده فى الدعاءِ فى مكانٍ واحد أكثر من سبع دعوات، وهى التى فى آخرِ سورة البقرة، وإلا إنّما يخبرُ عنهم بالدعوتينِ والثلاثِ والأربعِ إلى الخَمْسِ فى مواضعَ مِنَ الكتابِ متفرقةً.

ومرّ بعضُ السلفِ بقاصٍّ يدعُو بَسجْعٍ فى دعائه ويتعمَّقُ فقال له: ويلَك، على الله تبالغ، أشهدُ لقد رأيتُ حبيبًا العجَمىَّ[1] يدعُو وما يزيد على قوله: اللّهم اجعلنا جيِّدينَ، اللّهمَّ لا تَفْضَحْنا يومَ القيامةِ، اللهم وفّقنا للخَير. قال: والناسُ يبكونَ من كلِّ ناحيةٍ، وكنا نتعرّفُ إجابةَ دعائِه وبركَته.

وكانَ أبو يزيدَ البسطامىّ يقول: سَلْهُ بلسانِ الحاجةِ لا بلسان الحكمةِ. وقال الحسن: ادْعُ بلسانِ الاستكانةِ والافتقار لا بالفَصاحةِ والانطلاقِ.

ومما أحدثُوه: أخذُ القرآنِ بالإدارة[2] وتنازعُ الاثنين الآية، أو تَلَقّى الرجُلين

(١) فى (ك): «الفارسى» وله ترجمة فى الحلية ٦/ ١٤٩ ـ ١٥٥.

(٢) أى: يديرونه بينهم ويتنازعونه، من قولهم: «أدرت فلانًا على الأمر؛ إذا حاولت إلزامه إياه» اللسان (دور).

للآيتينِ فى مكانٍ واحدٍ بمنزلة الاختلاسِ والنُّهبةِ من غير خشوعٍ للقرآنِ ولا هيبةٍ. وقراءةُ القرآنِ تحتاجُ إلى حُزنٍ وسكونٍ وخشوعٍ.

ومن ذلكَ: أخذُ المقرئ على الاثنين، وليته قام بقراءة الواحد؛ لسهوِ القلبِ. كما قيل لإبراهيمَ الحربىّ: إنّ فلانًا يأخذُ على الاثنين، فقال: هاه، يحتاجُ اثنانِ أنْ يأخذا على واحدٍ.

ومن البدَع: التلحينُ فى القراءةِ حتَّى لا تُفهَمَ التلاوةُ، وحتَّى يجاوزَ إعرابَ الكلمة بمدّ المقصورِ وقصرِ الممدودِ، وإدغامِ المظهرِ وإظهار المدغمِ؛ ليستوىَ بذلكَ التلاحُنُ، ولا يبالى باعوجاجِ الكلِمِ وإحالته عن حقيقته، فهو بدعةٌ ومكروهٌ استماعُهُ. قال بشر بن الحارث: سألتُ ابنَ داودِ الحربىَّ: أمرُّ بالرجل يقرأ، فأجلِسُ إليه. قال: يقولُ: يُطْرِب؟ قلتُ: نعم. قال: لا، هذا قد أظهر بدْعتَه.

ومن ذلك: التلحينُ فى الأذانِ، وهو من البغيِ والاعتداء فيه. قال رجل من المؤذِّنين لابن عمر رضى الله عنهما: إنى لأحبكَ فى الله تعالى، فقال له: لكنِّى أبغضكَ فى الله تعالى، قال: يا أبا عبدِ الرحمن لم؟[1] قال: لأنّكَ تبغى فى أذانك وتأخذُ عليه أجرًا.

وكان أبو بكرٍ الآجرىُّ رحمه الله يقول: خرجتُ من بغدادَ وما يَحِلُّ لى المقامُ بها، قد ابتدعُوا فى كلِّ شىءٍ حتَّى فى قراءةِ القرآن وفى الأذان. وكانَ يعنى بذلكَ: قَراءةَ الإدارةِ والتلحينِ. وقَدِمَ علينا مكةَ فى سنةِ ثلاثين وثلاث مائة[2].

ومن جُمَلِ ما أحدَث الخلفُ فخالفُوا به سَنَنَ السّلَف: أنهُمْ شدّدوا فى أشياءَ كانَ السلفُ يسهّلون فيهَا، وسهّلوا أشياءَ كان السَّلَفُ يشدّدون فيها. فمَثَلُهم فى ذلك كالخوارجِ[3]؛ شدّدوا فى الصغائر من الذنوبِ، وسهّلوا فى الآثار والسنّةِ، وفى تركِ مذهبِ الجماعةِ حتى فارقوهم.

(١) فى (ك): «ولِمَ يا سيدى؟».

(٢) كلمة «وثلاث مائة» ساقطة من (ط) وهى من (ك).

(٣) فى (ك): «فما أشبههم فى ذلك إلا بمثل الخوارج».

فممّا شدَّدَ فيه الخلفُ مما كان السلف يسهِّلونه كَتْبَ الأحاديثِ من أنواعِ طُرقها، وتتبعِ الغرائبِ من طرقَاتِهَا، وتحرِّى الألفاظ فيها، وقد قال ابن عون: أدركتُ ثلاثةً يرخِّصون فى المعَانى: إبراهيمَ، والشَّعبىَّ، والحسنَ، رحمهم الله تعالى.

وعن جماعةٍ من علماء السلفِ والصحابةِ التوسعةُ فى معانى الأحاديثِ، وإن لم يؤدِّ ألفاظَها.

ومن ذلكَ: تجريدُ الحروفِ، وتحرِّى المقرئِ الواحدِ فى جميعِ اختيارِه، حتَّى كأنه فُرِضَ عليه.

ومن ذلكَ: التدقيقُ فى القياسِ والنظرِ، والتبحُّرِ فى علومِ النحوِ والعربيةِ. كما قال إبراهيم بنُ أدهمَ رحمه الله تعالى: أعربْنا فى الكلامِ فلم نلحنْ ولحنّا فى الأعمال، فيا ليتَنا لحنَّا فى الكلامِ وأعربْنا فِى الأعمالِ.

وذُكرت «العربية»[1] عند القاسمِ بن المخيمرَةِ فقال: أولها كِبْرٌ وآخرها بغْىٌ. وقد قالَ بعضُ السلفِ: النحوُ يُذْهِبُ الخشوعَ من القلبِ. وقال آخرُ: مَنْ أحبَّ أن يزدرىَ الناسَ كلَّهم فليتعلَّم العربيةَ[2].

وشدّدوا فى الطهارةِ بالماء، وتنظيفِ الثيابِ، وكثرةِ غسلِهَا مِنْ عرقِ الجنُبِ، ولُبْسِ الحائضِ، ومنْ أرواثِ ما يُؤكَلُ لحمُه وأبواله، وغسلِ اليسير من الدمِ، ونحو ذلك. وكان السلفُ يُرخِّصُونَ فى هذا كلّه.

ومما سهّلوه ممَّا كان السلفُ يشدِّدون فيه: أمرُ المكاسبِ، وتَرْكُ التحرِّى فيَها، والكلامُ فيها لا يَعْنِى، والخوْضُ فى الباطِلِ، والغيبةُ والنميمةُ والاستمَاعُ إليهما، والعقدُ على البلاغات[3]، وسُوءُ الظنِّ لأجلهَا، وهو اشتراكٌ فى النميمة [واستماعٌ إليها][4]. وكلُّ بلاغةٍ تزيدُ وتنقصُ: إن كان شرًا ازددتَ فيهِ، وإن كانَ خيرًا نقصتَ منهُ.

---

(١) يقصد «علم العربية».

(٢) ليس هذا الكلام على إطلاقه عندهم، بل هو مرتبط بأحوال ومناسبات خاصة بهم.

(٣) فى (ك): «والعمل على البلايات، وهو اشتراك... إلخ».

(٤) زيادة من (ك).

وسهّلوا فى النظرِ إلى الزورِ واللهوِ ومجالسةِ البطّالينَ، والمشْيِ فى أسبابِ الهوى، والتعصبِ، وشدةِ الحرصِ على الدنيا؛ وهذا كلُّه كان السّلفُ يشدِّدون فيه.

ومما أحدثوا: دخولُ النساءِ الحمامَ من غيرِ ضرورة، ودخولُ الرجلِ بغير مئزرِ، وهو فسقٌ. وسُئِلَ إبراهيمُ الحربىُّ رحمه الله تعالى عمَّنْ يشربُ النبيذَ ولا يَسْكَر أيُصلَّى خلفه؟ قال: نعم. قيل: فمَنْ دخلَ الحمامَ بغير مِئزرٍ، فقال: لا يُصلَّى خلفه. هذا، لأنَّ شُربَ النبيذِ يُختلَفُ فيه إذا لم يُسكرْ، ودخولُ الحمامِ بغير مئزرٍ محرمٌ بإجماعٍ. وكان بعضُ العلماء يقول: يحتاجُ داخلُ الحمام إلى مئزرين: مئزرٍ لوجهِه، ومِئزرٍ لعورتهِ، وإلا لم يَسْلَمْ فى دخولهِ. وكان ابنُ عمرَ يقول: الحمام من النعيم الذى أحدثُوه.

ومن المنكرِ فى الحمامِ تولّى القيِّم لعورةِ الرجلِ المسلم فى الإطلاء بالنُّورَةَ(1).

وقد كان من هَدْى العلماء فى قعودهم أن يجتمعَ أحدُهم فى جِلْسَته فيَنصبُ ركبتيْه، ومنهم من يقعدُ على قدَمَيه ويضَعُ مِرْفقيهِ عَلَى ركبتيه. كذلك كانَ شمائلُ كلِّ من تكلَّمَ فى هذا العلمِ خاصَّةً من عهدِ أصحابِ رسولِ الله ﷺ، ومن زمنِ الحسنِ البصرى؛ وهو أوّل مَنْ أظهرَ هذا العلم، وفَتَقَ الألسنَ به، إلى وقتِ أبى القاسم الجنيدِ، قبل أن تظهرَ الكراسىُّ.

وكذلك رُوِى عن رسولِ الله ﷺ: «أنه كانَ يقعد القُرفُصاءَ ويَحْتبِى بيديه». وفى رواية أخرى: «أنَّهُ كان يَقعدُ على قدميه ويجعلُ مِرفقيْه عَلَى ركبتيهِ».

وأولُ مَنْ قعد على كرسىٍّ من أهلِ هذا العلمِ يحيى بنُ معاذٍ رحمه الله تعالى بمصر، وتبعَهُ أبو حمزةَ ببغداد، فعابَ الأشياخُ عليهما ذلك، ولم يكن ذلكَ من سيرةِ العارِفين الذينَ يتكلَّمُون فى علمِ المعرفةِ واليقين، إنما كان يجلسُ متربِّعًا النحويُّون واللغويُّونَ وأبناءُ الدنيا مِنَ العلماءِ المفتين، وهى جِلْسَةُ المتكبرِين. ومن التواضعِ الاجتماعُ فى الجِلْسَةِ(2).

---

(1) النورة: أخلاط من أملاح تستعمل لإزالة الشعر.

(2) فى (ك): «فى الحَلْقة».

ذكر تفضيل العلوم: معروفها ومنكرها، قديمها ومحدثها

اعلَمْ أن العلوم تسعةٌ: أربعةٌ منها سنّة معروفة من الصحابةِ والتابعينَ، وخمسةٌ مُحْدَثةٌ لم تكن تُعرف فيما سَلَف.

فأما الأربعة المعروفة: فعلمُ الإيمانِ، وعلمُ القرآن، وعلمُ السنن والآثارِ، وعلمُ الفتَاوَى والأحكام.

وأما الخمسة المحدَثة: فالنحوُ والعَروضُ، وعلمُ المقاييس، والجدلُ فى الفقه، وعلمُ المعقول بالنظر، وعلم عللِ الحديث وتطريقِ الطرقات فيه وتعليلِ الضعفاء وتضعيفِ النَّقَلَةِ للآثارِ، فهذا العلمُ من المحدَثِ إلا أنه عِلْمٌ لأهلِه فيسمعُه أصحابُه منهم.

وقد كانُوا يَروْنَ القَصصَ بدعةً ويَنهوْنَ عنهُ ويكرهُون مجالسةَ القُصَّاصِ. قال بعضُ العلماء: نِعْمَ الرجلُ فلانٌ لولا أنه يقصُّ.

وقال بعضُ هذه الطائفة: مَثَلُ أصحابِ الحكاياتِ فى أهلِ المعرفةِ مَثَلُ القصَّاص فى الفقهاءِ.

وقال آخر: مَثَلُ القصَّاص فى العلماءِ مَثَلُ أهلِ السوادِ فى أهل المدنِ.

فأمّا أكلُ الدنيا بالدينِ، وأخذُهَا على الصلاح، وبيعُ العلمِ بالدنيا، والتصنُّع والتزيُّنِ للعموم ـ فمن قبيحِ ما أُحدِثَ. وهو أظهرُ من أن يُستدل[1] على فساده عند من عَرَفَ ظاهرَ العلمِ. وقد سمَّى هؤلاء فى زماننا هذا الجاهِلُون بالعلمِ علماءَ، وجعلهم الناقصُونَ عن الفضل فضلاء؛ لقلّةِ معرفتهم بطريقِ المتقدمينَ، وعدمِ بصيرتِهم بحقيقةِ علمِ الدين.

واعلمْ أن الكلامَ ينقسمُ عندنا سبعةَ أقسامٍ: العلمُ منه قسمٌ واحدٌ، وسائرُ الستةِ لغوٌ مطَّرِحٌ يلتقطُه مَنْ لا يَعْرِفه، ولا يفرقُ بين العلمِ والجهلِ، والعربُ تقول:

(١) فى (ط): «من أن يدل».

«لكلِّ ساقطة لاقطةٌ»[١]، و«لكلِّ قائلة ناقلةٌ». فالستَّةُ: إفكٌ، وسَفَهٌ، وخطأٌ، وظَنٌّ، وزخرفٌ، ووَسْوسة. فهذه أسماؤها عند العلماء، يفصِّلون ذلك بما فَصَّل اللهُ تعالى لهم من بيانه، واستحفَظهُمْ من كتابه، وجعلهم شهداءَ على دينه وعباده.

فالقسمُ السابعُ من الكلامِ هو مَا عدا هذه الستة، ولم يقعْ عليه اسمٌ منها مذمومٌ، فهو علمٌ، وهو نَصُّ القرآنِ والسنةِ، أو ما دلاّ عليه، واستُنبِطَ منهما، أو وُجِدَ فيهِمَا اسمُهُ ومَعْنَاهُ مِنْ قولٍ وفعلٍ.

والتأويلُ ـ إذا لم يخرج عن الإجماع ـ داخلٌ فى العلمِ والاستنباط، إذا كان مُستودَعًا فى الكتاب، يَشهدُ له المجمل ولا ينافِيه النصّ، فهو علم. وقد كان ابن مسعودٍ رضى الله عنه يقول: أنتم اليومَ فى زمانِ الهوَى فيهِ تابعٌ للعلمِ، وسيأتى عليكم زمانٌ يكونُ العلمُ فيه تابعًا للهوى.

وقد جمعَ اللهُ تعالى بين رَوْنَقِ العقلِ ومُتعة الدنيا بتسمية الزُّخرفِ فقال تعالى: ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ * وَزُخْرُفًا﴾ [الزخرف: ٣٤ ـ ٣٥]، وكما قال: ﴿زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]، فذَهابُ الجاهلِ بالاستحسانِ لزُخْرفِ القولِ منَ المموَّهِ من عُلماءِ الدّنيا كمتعةِ الجاهلِ مِن أبناءِ الدنيا بزخرفِ الذهَب، ذاهبًا عن حقيقةِ الأمر، والزخرفُ ما يُموَّهُ به على الذهب، فَيُشَبَّهُ به، يحسبُه الجاهلُ والصبىُّ عينَ الذهب. كذلك الزخرفُ من القول: ما يُموَّه ويُشبَّه على العلمِ، يحسبُه المستمعُ من الجهّال عِلْمًا، فلذلك جمع بينهُما فى التسميةِ الزخرف.

وقد قيل: إنّ الزخرفَ هو الذهبُ[٢]، فعَلى هذا شبَّه قولَ الغُرورِ بالذَّهب، الذى يذهبُ بقاؤه وتقلُّ حقيقته عند الربانيّين وأهل الحقيقةِ الزاهدينَ، إذ شبَّهَهُ الأنبياءُ والصديقُون بالحجرِ والمدَرِ.

وكان الإمامُ أحمد بنُ حنبل رضى الله عنه يقول: تركُوا العلمَ وأقبلُوا على

---

(١) من أمثال العرب، انظر: مجمع الأمثال، للميدانى، ٢/ ٩٤، وجمهرة الأمثال، للعسكرى، ٢/ ٢٠٧، ومعناه: «لكل كلمة رديئة دنيئة متحفِّظ» ودخلت الهاء على «لاقطة» ليصح الازدواج.

(٢) هذا قول ابن عباس وغيره، انظر: تفسير القرطبى ١٦/ ٨٧.

الغِراسِ. ما أقلَّ العلمَ فيهمْ! والله المستعان.

وقال الإمام مالك بنُ أنس رضى الله عنه: لم يكنِ الناسُ ـ فيما مضى ـ يَسألونَ عن هذه الأمورِ، كما يَسأل الناسُ اليومَ، ولم يكنِ العلماءُ يقولون حرام ولا حلال فى أكثرِ الأمورِ، أدركتُهُم يقولون: مستحَبٌّ ومكروه. وكان مالكٌ كثيرَ التوقُّفِ فى الأجوبةِ إذَا سُئِل، ويُكثر أن يقول: لا أدرى! سَلْ غيرى.

وقال رجلٌ لعبد الرحمنِ بن مهدى: ألاَ ترى إلى قولِ فلانٍ فى العلم: حلال وحرام، وقَطْعه فى الأمور بعلمهِ ـ يعنى: رجُلاً من أهل الرأى ـ وإلى قولِ مالك إذا سُئِلَ: أحْسَبُ [أحْسَبُ][(١)]؟ فقال عبد الرحمن: ويلك! قولُ مالكٍ أحسبُ أحسبُ أحبُّ إلىّ من قولِ فلان: أشهَدُ أشهدُ.

وكان هشامُ بنُ عروةَ يقول: لا تسألُوهم اليومَ عمَّا أحدَثُوا، فإنَّهم قد أعدُّوا له جوَابًا، ولكنِ اسْألُوهم عنِ السننِ فإنّهم لا يعرفُونها.

وكان الشَّعبىُّ رحمه الله تعالى إذا نظر إلى ما أحدث الناسُ من الرأى والهوى يقول: لقد كان القعودُ فى هذا المسجدِ أحبَّ إلىَّ مما يُعْدَلُ به، فمُذْ صارَ فيه هؤلاء المراؤون فقد بغَّضوا إلىَّ الجلوسَ فيه، ولأن أقعُد على مزبلةٍ أحبُّ إلىَّ من أن أجلسَ فيه. وكان يقول: ما حدّثوك عن السننِ والآثارِ فخُذْ بهِ، وما حدَّثوكَ عمَّا أحدثُوا من رأيهِمْ فامخَطْ عليه. وقد قال مرةً: فبُلْ عليه.

وقد كان السلفُ يستحبُّونَ العِىَّ والبَلَه عن علومِ المعقولِ.

وقد جعلهُ رسولُ الله ﷺ من الإيمان؛ إذ قَرنهُ بالحياءِ فقال: «الحياءُ والعِىُّ شعبتانِ من الإيمانِ، والبذاءُ والبيانُ شعبتانِ من النفاقِ».

وقال ﷺ: «أبغضُ الخلقِ إلى الله عزّ وجلّ البليغُ الذى يتخلَّلُ الكلامَ بلسانهِ كمَا تتخلَّلُ الباقرةُ الخَلَى بلسانها» يعنى: الحشيش الرطب. وقال فى حديث آخر: «العِىُّ عِىُّ اللسانِ لا عىُّ القلبِ». وقال: «إنَّ الله عزّ وجلّ كَرِهَ لكمُ البيانَ كلَّ البيانِ».

(١) ساقطة من (ط).

فَصَار الفقهُ إنَّما هُوَ فقهُ القلب عن الربِّ سبحانه وتعالى، وصار فقه اللسان بالبيان إنّما هو عى القلبِ عنِ الشهادةِ والإيقانِ. وعيُّ اللسانِ وطولُ الصمْتِ الذى كان يستحبهُ السلفُ هو اليومَ عيبٌ.

ومن المتكَلمينَ مَنْ لا يعرفُ أن كلامَ البدع وعلمَ المنافقينَ الذى ذمّهُ القدماءُ هو اليوم سنّة، وأن أهلَ النطقِ به هم العلماءُ اليومَ. ولقد صارَ المعروفُ منكرًا والمنكرُ معروفًا، وصارتِ السنّة بدعةً والبدعةُ سنّةً. وكذلك جاءتْ به الأخبارُ فى وصف علماء آخرِ الزمان. وفى الخبر المشهور: «إنَّ الله تعالى يبغضُ الثّرثارينَ المتشدِّقين». فمَنْ غُلِبَ عليهِ هذا الوصفُ فكان متشدِّقًا بليغًا فى علمِ الرأىِ والمعقولِ، عىَّ القلبِ عن مشاهدةِ اليقينِ وعلمِ الإيمانِ، كان إلى النفاقِ أقربَ، ومنْ حقيقةِ الإيمان أبعدَ.

وقد كان أبو سليمان الدارانى يقول: لا ينبغى لمن أُلهِمَ شيئًا من الخيراتِ أن يُعَلِّمه[1] حتى يَسمعَ به فى الأثر، فيحمدُ اللهَ تعالى إذا وافقَ مَا فى نفسِه.

وقال بعضُ العارفِينَ: ما قَبلتُ خَاطِرًا من قلبِى حتَّى يقيمَ لِى شاهِدَىْ عدلٍ من كتابٍ وسنةٍ.

وكان إمامنا أبو محمدٍ سهل رحمه الله تعالى يقول: لا يبلغُ العبدُ حقيقةَ الإيمانِ حتَّى يكونَ فيهِ هذهِ الأربع: أداءُ الفرائضِ بالسنّة، وأكلُ الحلالِ بالورعِ، واجتنابُ النهى من الظاهرِ والباطنِ، والصبرُ على ذلك حتَّى الممات.

وقد كانوا يعيبونَ على مَنْ تكلَّمَ بعدَ طلوعِ الفجرِ إلى طلوعِ الشمسِ بغيرِ ذكْرِ الله تعالى، وكانوا يُخْرِجُونَ المتحدِّثينَ من المساجدِ فلا يبقى فيه إلا مُصَلٍّ أو ذاكرٌ لله تعالى.

وقد كان السلفُ يَستعظِمُونَ يسيرَ الحديثِ فى الدينِ ودقائقَ البدعِ فى الإسلامِ؛ لِعظَمِ الإيمانِ والسنّةِ فى قلوبهم، ولمعرفتِهمْ بحقيقةِ المعروف. قال عبدُ الله بن مغفَّلٍ لابنهِ، وقد سمعه يقرأ خلف الإمام: يا بنىَّ، إياك والحدَثَ إيَّاكَ والحدَثَ.

(١) فى (ط): «يعمله» وأثبت ما فى (ك).

وقال سعدُ بنُ أبى وقاصٍ رضى الله عنه لابنه عمرُ، وقد سمعه يَسْجع فى كلامه: هذا الذى يُبغِّضكَ إلىَّ، لا قضيتُ حاجتَكَ أبدًا ـ وكان قد جاءهُ يسألهُ حاجةً لهُ ـ سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «ما أُوتِىَ امرؤٌ شرًا مِنْ طَلاَقةٍ فى لسانِه».

وقال ﷺ لابْنِ رواحةَ حينَ سمعه سَجَعَ فوالَى بين ثلاثٍ، قال: «إياك والسجعَ يا ابن رواحة». فكأن السجعَ ما زادَ على كلمتين. وكذلك قالَ رسولُ الله ﷺ للرجُل الذى أمرَهُ بديَة الجنينِ، لما قال: كيفَ نَدى من لا شَرِبَ ولا أكَلَ ولا صَاحَ ولا استهلَّ، فمثْلُ هذا يُطَلُّ[1]. فقال رسول الله ﷺ: «أسجعٌ كسجع الأعراب؟».

ورُوينا أنَّ مروانَ لما أحدثَ المنبر فى صلاةِ العيدِ عند المصلَّى، قام إليه أبو سعيد الخدرىّ فقالَ: يا مروانُ ما هذه البدعة؟ فقال: إنها ليست بدعةً، هى خيرٌ مما تعلمُ. إنّ الناسَ قد كثرُوا فأردتُ أن يبلُغهم الصوتُ. قال أبو سعيد رضى الله عنه: لا تأتونَ بخيرٍ مما أعلمُ أبدًا، والله لا صلَّيتُ وراءك اليوم. فانصرَفَ ولم يُصلِّ معهُ صلاة العيد.

فالخطبة على منبرٍ فى صلاةِ العيدِ وخطبةُ الاستسقاء بدعةٌ. وكان عليه الصلاة والسلام يخطُب فيهما على الأرضِ متوكِّئًا على قوسٍ أوْ عصًا.

ورُوِىَ: «أنَّ عمرَ رضى الله عنه أخَّر صلاة المغرب ليلةً حتى طلع نجمٌ فأعتق رقبةً». وفعله عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أيضًا فأعتق رقبةً، استنَانًا بعُمرَ وهو جَدُّه لأمِّه. وروينا عَنِ ابنِ عمرَ رضى الله عنهما «أنه أخّر صلاةَ المغربِ حتَّى طلَعَ كَوكبانِ، فأعتقَ رقبتين». وفى الخبرَ: «لا تزال أمتى على مُسْكَةٍ[2] مِنْ دِينها ما لم يؤخِّروا صلاة المغربِ إلى اشتباك النجوم، تشبُّهًا باليهوديةِ، ولم يؤخِّروا صلاة الصبحِ إلى افتراقِ النجومِ، تشبُّهًا بالنصرانية».

وقال سفيانُ الثوريُّ رحمه الله ويوسفُ بن أسباطٍ: لا تقلِّدْ دِينَك مَنْ لا دِينَ له. وقالَ وكيعٌ: لأنْ أزنىَ أحبُّ إلىَّ من أن أسألَ مبتدِعًا عن دينى. وكان الإمامُ

(١) يُطَلّ: يُنقص من حقه.

(٢) المسْكة: ما يُتَمسَّك به، أو ما يُتَبَلَّغ به.

أحمدُ بنُ حنبل رحمه الله تعالى قد أكثرَ عنْ عُبيدِ الله بن موسَى العَبْسِيّ، ثم بلغَهُ عنه أدنَى بدعةٍ، قيل: إنهُ كانَ يُقدِّمُ عليًا علىَ عثمانَ، وقيل: بل ذكرَ معاويةَ بسوءٍ. فانصرفَ أحمدُ ومزّقَ جميعَ ما حَملَ عنهُ ولم يحدِّثْ عنه شيئًا. وقيل له مرَّةً: يَا أبا عَبْدِ الله، أوَكيعٌ أشبهُ بالسلفِ أم عبيدُ الله؟ فقال: وكيعٌ وإن زنَى.

وحدثُونا عن إبراهيم الحربيّ قالَ: كتبتُ عن عليّ بنِ المدينى رضى الله عنهُ جُملاً لله تعالى على أن لا أُحدِّثَ عنه بحرف. قيل: ولِمَ يا أبا إسحاق؟ فذكرَ صلاتَهُ خلفَ مبتدعٍ. وكان رحمه الله تعالى يقول: صحبتُ الفقهاءَ وأصحابَ الحديثِ وأهلَ العربيةِ واللغةِ سبعين سنةً، ما سمعتُ هذه المسائلَ التى أُحدثَتْ فى هذا الوقتِ من أحدٍ منهم قط. يعنى: الاسمَ والمسمَّى، ونحو ذلك. وقال: وأُحرِّج على مَنْ كانَ من أهلِ الكلامِ والجدلِ أن يحضرَ مجلسِى، أوْ يسألنى عن شىءٍ، فإنه لا علمَ لى بالكلام، ولا أنا أحسنُه ولا أقول بأهله، ولو عرفتُ أحدًا منهم ما كلَّمتُه، ولا أجبتُه عن شىءٍ.

وهَجَر الإمامُ أحمدُ بنُ حنبل رحمه الله تعالى أبا ثورٍ صاحبَ الشافعىّ لما سُئِلَ عن معنَى قول النبى ﷺ: «إن الله تعالى خلق آدم على صورته» قال: إن الهاء عائدة على آدم، فغَضِب وقال: ويلهُ، وأىُّ صورة كانتْ لآدمَ يخلقُهُ عليْهَا؟ ويلهُ، يقول: إن الله تعالى خلَقَ على مثالٍ، فأىُّ شىءٍ يَعْملُ فى الحديثِ المفسَّر: «إن الله تعالى خلق آدم على صورةِ الرحمن»؟ فبلغ ذلك أبا ثورٍ فجاءه واعتذر وحَلَفَ أنه ما قلتُ عن اعتقادٍ، وإنَّما هُو رأى رأيتُهُ، والقولَ ما قلتَ، وهو مذهبى.

وهَجَر أيضًا حارثًا المحاسبى رحمه الله تعالى فى ردِّه على المبتدعة ـ وكان من أهلِ السنة ـ فقال: أين تردُّ عليهم وقد حكيتَ قولهم؟ وأيضًا فإنكَ تحملُهم على التفكُّرِ والرأيِ فيما قلتَ، فيكونَ سببًا لردِّ الحقِّ بالباطلِ. وهَجَر أيضًا يحيى بن معين فى كلمةٍ تكلَّمَ بها، وهو قوله: لو أعطانى الشيطانُ شيئًا أخذتُه.

وقال مالكُ بنُ أنس رضى الله عنه: ليس من السنّة أن تجادلَ عن السنّة، ولكنْ تخبرَ بها، فإنْ قُبِل منك وإلا فاسكتْ.

وقيل لعبدِ الرحمنِ بن مهدى رضى الله عنه: إنَّ فلانًا يردّ على المبتدعَة، فقال:

بكتاب الله تعالى وسنةِ رسوله ﷺ؟ قالوا: لا، بلْ بالمعقولِ. قال: بئسما صنع، ردَّ بِدْعةً ببدعة.

وحدَّثَ زيدُ بن أحزمَ عن وهبِ بن جريرٍ قال: سَمِعتُ شعبةَ رحمه الله تعالى يقول: أتيت الحارثَ العكليَّ فقلت: ما معنى قولِ النبيِّ ﷺ: «إذا تَبِع أحدُكم جنازةً فلا يجلسْ حتى توضع»؟ قال: أرأيتَ إن جئنا ولم يُحْفَرْ له ينبغى لنا أن نقومَ قيامًا؟ فحيثُ قالَ لى: أرأيت، تركتُه.

وروى محمودُ بنُ غيلان أيضًا، عن وهب أيضًا، عن شعبة قال: «أتيتُ المنهالَ ابنَ عَمْرو أسألُه عن حديثٍ، فسمعتُ من منزلِه صوتَ طنبور[1]، فرجعتُ ولم أسألْهُ، ثُمَّ ندمتُ بعد ذلك فقلتُ: هلا سألته فعسَى كانَ لا يعلمُ به.

ومما أحدثُوا: البيعُ والشراءُ على الطريقِ، وكان الوَرِعون لا يشترون شيئًا ممن قعَد يَبيعه على طريقٍ.

وكذلك إخراجُ الرَّواشِن من البيوتِ، وتقديمُ العضَايد بين يدى الحوانيتِ إلى الطريقِ مكروهٌ[2].

ومما كرهَهُ أهلُ الورعِ: البيعُ والشراءُ من الصبيانِ؛ لأنهم لا يَمْلِكُونَ، وكلامُهم غَيرُ مقبول.

وحُدِّثْتُ عن أبِى بكر المروزىِّ أن شيخًا كان يجالسُ الإمامَ أحمدَ بن حنبل رحمه الله تعالى ذا هيبةٍ، فكانَ أحمدُ يقبلُ عليهِ ويكرمُه، فبلغَهُ عنه أنه طيَّنَ حائطَ

---

(١) آلة من آلات اللعب واللهو.

(٢) عبارة (ك): «وتقديم العضايد فى الأسواق إلى الطرقات مكروهة». والروشن، كما فى اللسان (رشن): «الرّفُّ. والروشن: الكُوّة». وفى كتاب المغنى لابن قدامة (٧/ ٣١)، نشرة هجر، ما نصه: «ولا يجوز أن يشرع إلى طريقٍ نافذ جناحًا؛ وهو الرَّوشَنُ، يكون على أطراف خشبة مدفونة فى الحائط، وأطرافها خارجةٌ فى الطريق، سواء كان ذلك يضرُّ فى العادة أو لا يضرُّ».
والعضَايد: مثله «وهو ما شُدَّ من حَوالى البناء كالصّفائح المنصوبة حول شفير الحوض».
وفى المغنى ثَمَّ جملة طيبة من هذه الآداب الإسلامية التى لا غنى عنها للمجتمع مما ذكره أبو طالب هنا، راجعه ثَمَّ، كتاب الصُّلح ٧/ ٥ ـ ٥٥.

دارِه من خارج. قال: فأعرضَ عنهُ فى المجلسِ، فاستنكرَ الشيخُ ذلك فقال: يا أبا عبد الله، هل بلغكَ عنِّى حدثٌ أحدثتُه؟ قال: نعم طيَّنتَ حائطَكَ من خارج. قال: أوَ لا يَجُوز؟ قال: لا؛ لأنَّكَ قد أخذتَ مِنْ طَرِيقِ المسلمينَ أنمُلةً. قال: فكيف أصنعُ؟ قال: إمَّا أن تَكشُطَ ما طيَّنته وإمَّا أن تهدمَ الحائطَ وتؤخِّرَهُ إلى وراء مقدارَ أُصبعٍ ثُمَّ تطينهُ مِنْ خَارجٍ. قال: فهدَمَ الرجلُ الحائط، وأخَّرَهُ أصبُعًا، ثم طيَّنه من خارج. قال: فأقبل عليه أبو عبد الله كما كان.

ومما كَرِهَهُ السلفُ طَرْحُ السِّنَّوْر والدّابةِ على المزابلِ فى الطرقات، فيتأذَّى المسلمون بروائحِ ذلك. وكان شُرَيحٌ وغيره إذا ماتَ لهم سنّور دفنوهَا فى دُورهم.

ومثله إخراجُ الميازيبِ وصبُّها إلى الطرقاتِ. وكان الإمامُ أحمد بنُ حنبل رحمه الله وأهلُ الورعِ يجعلون ميازيبَهمْ إلى داخلِ دُورِهمْ.

وقال إبراهيم النخعى رحمه الله: كانَ أحدُهُمْ يكذبُ مرَّتينِ ولا يَشْعُر، يقول لشىءٍ لا شىءَ، ولشىءٍ ليس بشىءٍ[1]. يعنى: قولُ الناسِ للشىءِ اليسيرِ الذى لا يوصفُ بكثيرٍ: لا شىء، فاستعظمَ هذا ورآه كذبًا مرتين.

وروينا عن عمر رضى الله عنه أنَّه قالَ لعوانة: كنتُ أَرْثى لك من العمَى فصرتُ الآن أغبطك به. قال: وكيف؟ قال: صِرْتَ لا ترى أبا الصغرى بعينيكَ. مبتدع كانَ بالمدينة.

وقيل لقتادة: تَودُّ لو أنكَ بصير؟ فقال: لا، عَلى مَن كُنتُ أفتح عينيَّ؟ بلْ لَو كانَ فى وقتِ أصحابِ رسولِ الله ﷺ كنتُ أنظرُ إليهمْ.

وحدَّثونا عن الفضْل بنِ مهرانِ قال: قلتُ ليَحيى بن معينٍ: أخ لى يقعدُ إلى القُصّاصِ، فقال: انههُ، فقلت: لا يَقبلُ. قال: عِظْهُ، قلت: لا يقبل أأهجره؟ قال: نعم. قال: فأتيتُ الإمامَ أحمد بن حنبلٍ فذكرتُ له نحوَ ذلكَ فقال: قل لهُ يقرأ فى المصحفِ ويذكر اللهَ تعالى فى نفسه، ويطلبُ حديثَ رسول الله ﷺ. قلتُ: فإن لم يفعلْ، قال: بلى، إن شاءَ اللهُ تعالى، فإن هذا الاجتمَاعَ محدثٌ.

---

(١) فى (ط): «يقول: لا شىء إلا شىء، ليس بشىء» وأثبت ما فى (ك).

قلت: فإن لم يقبلْ أأهجره؟ فتبسَّم وَسكتَ. وَسأل رجلٌ بشرَ بنَ الحارثِ رحمه الله تعالى عن مَسألة من علمِ القلوبِ فتوقَّف، ثمّ أجابهُ. ثمَّ سألهُ مسألةً أخرَى مِنْ علمِ المعاملاتِ، فسكتَ، ونظرَ إليه ثم قال: مَنْ تجالسُ مِنَ الناسِ؟ فقال: منصورَ بن عمارٍ، وابنَ السماك. فقال: ألا تستحى تسألنا عن علمِ القلوبِ ثم تجالسُ القصّاصَ؟ قال: وأعرَضَ عنهُ حتىَّ قلنا له: يا أبا نصر إنه لا بأسَ به، إنّه من أهلِ السنّة.

وقد كانُوا يكرهونَ الصلاةَ فى المقصورة، ويَروْنَ أنها أولُ بدعةٍ أُحدثتْ فى المساجدِ. ويكرهُون تزويقَ المساجدِ وكذا القِبْلة بالزخرف، وتحليةَ المصاحف، وهذا من البدع. وفى الخبر: «إذا ما زخرفتمْ مساجدَكم، وحلَّيتمْ مصاحِفكم، فَالدَّبار[1] عليكُمْ».

وقد كانوا يكرهون كثرةَ المساجدِ فى المحلّة الواحدة. وروى أنَّ أنسَ بن مالك رضى الله عنهُمَا لما دخَل البصرةَ جعَل كلَّما خطَا خطوتينِ رأى مسجدًا. فقال: ما هَذه البدعة؟ لما كثُرت المساجد قلَّ المصَلُّونَ. أشهد لقد كانت القبيلة بأسرهَا ليس فيهاَ إلا مسجدٌ واحدٌ، وكان أهلُ القبائلِ يَتبانَوْنَ المسجدَ الواحِدَ فى الحىِّ من الأحياءِ.

واختلفوا فى أيِّهما يُصلَّى إذا اتفق مسجدان فى محلة. فمنهُمْ مَنْ قال: فى أقدمِهما. وإليهِ ذهبَ أنسُ بنُ مالكٍ وغيرُه من الصحابة. قال: وكانُوا يجاوزونَ المساجدَ المُحدثَة إلى المساجِد العُتُقِ. وكان الحسنُ يقول: يُصلِّى فى أقربِهما منه.

ويقال: أولُ ما حدث من البدعِ أربعٌ: الموائدُ، والمناخلُ، والأشنانُ، والشِّبعُ.

وكانوا يكرهُونَ أن تكونَ أوانى البيتِ غيرَ الخزف، ولا يتوضأ أهلُ الورعِ فى آنية الصُّفْر والنُّحاس. قالَ الجنيد: قال لى سَرِىٌّ السقطىُّ: اجتهدْ أن لا تَسْتعمِلَ مِنْ آنيةِ بيتكَ إلا جنسَك. يعنى من الطين. ويقال: لا حسابَ عليه.

(١) أى الهلاك.

ومما كَرِهَهُ السلفُ: تشييدُ البناءِ بالجصِّ والآجُرِّ. يقال: أول من طبخ الطينَ هامانُ، أمرهُ به فرعونُ. ويقال: هو بناء الجبابرةِ.

وكرهوا النقوش والتزويقَ فى السقوفِ والأبوابِ، وكانُوا يغضُّونَ مِنَ النَّظرِ إلى ذلك. وغابَ الأحنفُ بن قيسٍ غَيبةً، فرجعَ وقد خَضّروا سقفَ بيتهِ وصفّروه، فلمَّا نظرَ إليه خرَجَ من منزله وحلَف أن لا يدخله حتَّى يقلعُوا ذلكَ منه، ويُعيدوه كما كانَ.

وقال يحيى بن معاذ من أصحابِ الثوريِّ رحمه الله: كنتُ أمشى معَ الثوريّ فى طريقٍ فمررنا ببابٍ منقوشٍ مزوّقٍ فنظرتُ إليه، فجذبَنى سفْيانُ حتَّى جُزْتُ، فقلت: ما تَكرَهُ من النظرِ إلى هذا؟ فقال: إنمَا بنَوْهُ لِيُنْظَر إليه، ولَوْ كان كلُّ مَنْ مرّ به لا ينظُر إليه ما بَنَوْه. فكأنه خَشِى أن يكون بنظرِه إليه مُعاونًا له على بنائه.

ومما أحدَثَ الناسُ مما كانُوا يكرهُونهَ: الثيابُ الرقاقُ، مثلُ القَصَبِ ورقيقُ بزِّ مصرَ للنساءِ والرجال، وهو للنساء أكرهُ وأغلظُ، وكانُوا يقولون: الثيابُ الرّقاقُ لباسُ الفسَّاقِ، ومَنْ رقّ ثوبُه رقَّ دينُه. ويقولونُ: أول النُّسك الزىُّ.

وقال ابنُ مسعودٍ رضى الله عنه: لا يشبهُ الزىُّ الزىَّ حتَّى يشبهَ القلبُ القلبَ.

وخطبَ بشرُ بنُ مروانَ وعليه ثوبٌ رقيقٌ، فجعلَ رافعُ بن خديج رضى الله عنه يهزأ بهِ ويقول: انظروا إلى أميركم يعظُ الناسَ وعليه ثيابُ الفسّاق.

ولما جاء عبد الله بنُ عامر بن ربيعة فى بزَّته إلى أبى ذَرٍّ رضى الله عنه وسأله عن الزهد، وأخَذَ يتكلمُ فيه، فجعَل أبو ذرٍّ يُضَرِّطُ به فى كفِّه، ثم أعرضَ عنهُ ولم يكلِّمْه. فغضبَ ابنُ عامرٍ، وكان قُرَشيًا شَرِيفًا، وشكاهُ إلى ابنِ عمر رضى الله عنهُما، فقال له: أنت فعلْتَ بنفسِكَ، تأتى أبا ذرٍّ فى هذه الثيابِ وتسأله عن الزهدِ.

وفى الخبر عن رسول الله ﷺ وقد وصَف نساءً يكنَّ فى آخرِ الزمانِ فقال: «كاسيات عاريات مائلات مميلات على رؤوسهنَّ أمثالُ أسنمةِ البقر ـ يعنى المعاجر والأكوار ـ لا يَجِدْنَ رائحةَ الجنةِ».

وكان ابنُ عباسٍ يفسر التبرّج أنه لِبسُ ما رقَّ من الثيابِ، وقال في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجَاهِلِيَّةِ الأُولَى﴾ [الأحزاب:٣٣] قال: كانت المرأة تلبسُ ثيابًا قيمتها كذا وكذا، لا توارى لها عورةً مما لا يجُوز فيه الصلاةُ؛ لأنه يَصِفُ أوْ يشفُّ، فمكروهٌ لُبْسُهُ. وإنَّما كَانَتْ ثيابُ السَّلَفِ: السنبلانِى، والقَطَوانى، وعَصْبَ اليمنِ، ومعافرىَّ مصر، والقُباطىَّ؛ مثل كسوةِ الكعبةِ، والثياب السحولية اليمانية، والكرابيسَ الحضرميَّة؛ وهذه كلهَا غلاظٌ كثيفة. وكانتِ الأثمانُ من خمسةِ دراهمَ إلى ثلاثين ردهمًا وما بين ذلكَ. ثم أحدثَ الناسُ الثيابَ الرقاقَ من كتانِ مصر، وقطن خراسانَ. وكان طولُ مئزرِ رسول الله ﷺ أربعةَ أذرعٍ ونصفًا، وثمنُهُ إلى الأربعةِ والخمسةِ. وكانت أثمانُ ثيابهم القُمُص من الخمسةِ إلى العشرةِ وفيما بينهما من الثمن.

ولكن قد جَاء فى الخبر: «لا تقومُ الساعة حتى يصيرَ المعروفُ منكرًا والمنكرُ معروفًا». وكان ابن عباسٍ رضى الله عنهما يقول: «لا يأتى على الناسِ عَامٌ إلا أماتُوا فيه سُنَّةً وأحيَوْا فيه بدعةً حتى تموت السننُ وتحيا البدع». وإنما قيل: مُنْكر؛ لأنه لا يُعرَفُ، فإذا خَفِىَ الحق فلم يُعْرَفْ وَقَعَ عليه اسمُ منكرٍ. وكذلك قيل: معروف؛ لأنهُ مشهُورٌ مألوفٌ. فإذا فَشَا البـاطلُ وكثُر الجهلُ حتى أُلِف وعُرِفَ وقعَ عليه اسمُ المعروفِ. وكذلك قيلَ: يكثر الجورُ حتَّى يُولَدَ فيه مَنْ لا يعرفُ العدلَ.

وكان الشعبىُ رحمه الله يقول: يأتى على الناس زمانٌ يصلُّونَ فيه على الحجَّاج، وهذَا قد أتَى منذُ زمان؛ لأن الحجاجَ قد ابتدعَ أشياء أنكرَها الناس عليهِ فى زمانه هىَ اليومَ سننٌ معروفةٌ، وأعمالٌ مستحسنةٌ، يترحَّمُ الناسُ ويغبطُون من أحْدثَها، ويحسبون أنه مأجور عليها، مشكور له سعيُه فيها، إلا أنهم لا يعرفُون أنه أحدثها. فهم وإن لم يَفُوهوا بالصلاةِ عليه قولاً [١] فإن استعمالَهم لما أَحدث، واستحسانَهم لما ابتَدعَ، ترحُّمٌ منهم عليه؛ والترحُّمُ هو الصلاة.

---

(١) فى (ك): «فهم وإن لم يفوهوا بذلك قولاً».

وأيضًا فإنه[1] ابتدعَ أشياءَ من الخيرِ وداخلةً في أبوابِ الآخرة، ثم ظهرتْ ولاةٌ بعده أحدثُوا أحداثًا من الجور، وابتدعُوا بدعًا من الفسُوقِ، فصارتْ سُننًا بعدهُمْ. فوجبَ بذلكَ الصلاةُ على الحجاج إلى جنبِ مَا أُظهِرَ بعده.

فممّا أحدثَ: هذه المحاملُ والقبابُ التي خالفَ بها هَدْيَ السلف بالتنعُّمِ والرفاهية، وإنَّما كان الناسُ يَخرجُونَ عَلَىَ الرَّواحِلِ والزواملِ، فَيَضْحَوْنَ للشمسِ، وينْصبُون في سبيل الله تعالى، ويَشْعثُون ويَغْبرون، ويَقِلُّ أكلُهم ونومُهُم، وتكثرُ رفَاهيةُ الإبل، وتقلُّ المشقَّةُ والحملُ عليها، فيكون ذلك أثوبَ لهمْ، وأزكى لحجِّهم، وأدنَى إلى السلامةِ لإبلِهمْ، ويوافقون به سنّة نبيهم ﷺ، فأخرجَهُمْ من جميع ذلكَ بما أدخلهُمْ فيهِ من بدْعته، فصاروا يخرجُون في بيوتِ ظليلةٍ مع الحمل على الإبل ما لا تُطِيق، فيكونَ سببَ تلفها، فيَشْرَكُونه فِيه، ويَشْرَكُهم بسُنَّته[2].

وابتدعَ أيضًا هَذه الأخْمَاسَ، والعواشر، ورؤوسَ الآيِ، وحَمَّر السّوادَ، وخَضَّرَه، وصَفَّرهُ، فأدخلَ في المصحفِ ما ليسَ فيهِ من الزُّخرف. وكان السلفُ يقولونَ: جرِّدوا القرآنَ كما أنزلهُ اللهُ تعالى، ولا تخلطُوا به غيرَه. فأنكر العلماءُ ذلكَ عليه، حتى قال أبو رُزينٍ: يأتي على الناسِ زمانٌ ينشأُ فيه نَشْءٌ يحسبونَ أنَّ مَا أحدثَ الحجاجُ في المصاحف هكَذا أنزلَهُ اللهُ تعالى. يذمُّه بذلكَ. وحتَّى نُقِلَ الاخْتِلاَفُ، وأنَّ بعضَهُمْ كَانَ لا يَقْرأ في مصحَفٍ منقوط بحُمرة، لأن بعضَهم كان لا يرى القراءةَ في مصحفٍ منقوط. كما نُقل أنّ بعضَهُمْ كان يرَى شراءَ المصحفِ، ويكرهُ بيعَهُ. أي: فكذلك إذا لم تَنقطْهُ أنتَ، فلا بأسَ أن تَقرأ فِيمَا نَقَطه غيرُك.

وقد كانوا يكرهُون أخذَ الأجْرِ على تنقيط القرآن؛ لأجل أنه مبتدعٌ. وقال أبُو بكرٍ الهذليُّ: سألتُ الحسنَ رحمه الله عن تنقيطِ المصاحف بالأجْر. قال: وما تنقيطُها؟ قلتُ: يُعربون الكلمَ بالعربية. فقال: أما إعرابُ القرآنِ فلا بأسَ به. وقال خالد الحذاءُ: دخلتُ على ابن سيرين فرأيتُه يقرأ في مصحفٍ منقوطٍ، وقد

(١) أي: «الحجاج».

(٢) أي: يشتركون معًا فيما ابتدعه الحجاج قديمًا وحديثًا.

كان يكرهُ النقطَ. وقال فراسُ بنُ يحيى: وجدتُ وَرَقًا منقوطًا بالنحوِ فى سجنِ الحجاجِ فعجِبْتُ منه، وكان أولَ نقطٍ رأيتُه، فأتيت به الشعبىَّ فأخبرتُهُ، فقال لى: اقرأ عليه ولا تنقطه أنتَ بيدك.

ومنها: أنه جَمَع مِنْ القرَّاءِ ثلاثين رجُلاً فكانوا يعدُّون حروف المصحف ويعدُّون كَلِمَهُ شهرًا. ولو رآهم عمرُ أو عثمان أو عَلىٌّ يصنعونَ هذا بالقرآن ـ أى يعدُّون حروفَهُ وكَلِمه ـ لأوجَعَ رؤوسَهُمْ ضَربًا. وهذا الذى كَرِهَتهُ الصحابةُ، ووصَفُوا به قُرَّاءَ آخرِ الزمانِ أنهم يحفظُونَ حُروفَهُ ويضيِّعونَ حُدودَه. وكانَ الحجاجُ أقرأَ القرَّاءِ وأحفظَهُمْ لحروفِ القرآنِ، كان يختُم القرآنَ فى كلِّ ثلاثٍ، وكانَ أضيعَ الناسِ لحدوده.

ومنها: أنه ابتدعَ إخراجَ الحصَى والرملَ مِنَ المساجدِ وفرشَها بالبوارى(١). كما رُوى أن قتادةَ سجدَ، فدخلتْ فى عينه قصَبة، وكانَ ضَريرًا، فقال: لعنَ اللهُ الحجاجَ، ابتدعَ هذه البوارىَّ يُؤذِى بها المصلِّين. وَقَدْ كانوا يستحبُّونَ السجُودَ على الأرضِ والترابِ تواضُعًا لله تعالى وتخشُّعًا وُذلاً.

إلى غير ذلكَ من بِدَعِه التى لم نَقْصدْ تعديدها عليهِ ولا جمعها، فهىَ اليوم سننٌ معروفة وشرائعُ مألوفةٌ، معَ ما أحدثَ غيرُه مما يكثرُ عدَدُه، مُنْكَرٌ كلُّه عند مَنْ عَرَفَ المعروفَ من سيرةِ المتقدمينَ وشمائل الصَّالحينَ.

وقد قال ابنُ مسعودٍ رضى الله عنه: يظهر المنكرُ والبدعُ، حتى إذا غُيِّر منها شىءٌ قيل: غُيِّرت السنّة. وقال فى آخرِ حديثه: أكيَسُهُمْ فى ذلكَ الزمانِ الذى يَروغُ بدينه رَوَغانَ الثعالب. وقد كان أنسُ بن مالكٍ رضى الله عنه فى سنة ثمانينَ وأيامَ الحجاجِ يقول: ما أعرفُ اليومَ شيئًا كانَ على عهدِ رسولِ الله ﷺ إلا قد غُيِّر إلا شهادةَ أن لا إله إلا اللهُ. قيل: فالصلاة يا أبا حمزة؟ قال: أو ليسَ قد أحدثُوا فى الصلاة ما عَلمتُمْ؟! يعنى تأخيرَها والتثويبَ قبلها، وتعيُّن السلام، حتى أنهم يضاهُونَ به الإقامةَ فجعلُوه كالسنّة. وكان يقول للقرَّاءِ إذا دخلُوا عليه، مثلَ يزيدٍ

(١) البوارى: الحصير من القصب.

الرقاشيّ، وزيادٍ النميريّ، وفَرْقد السنجيّ: ما أشبهَكُمْ بأصحابِ محمدٍ ﷺ! فيفرحون. فيقول: نعم، رؤوسكُمْ ولحاكم. فهذا كما قال المجنون:

أما الخيامُ فإنّها كَخيامِهِمْ وأرى نساءَ الحيِّ غيرَ نِسَائِهَا

وعن جماعةٍ من الصحابة: لو نُشر أصحابُ رسول الله ﷺ ورأوكم لما عرفُوا شيئًا مما أنتمْ عليه الآن إلا الصلاةَ فى جماعة. وفى لفظ آخر: إلا أنكمْ تصلُّونَ جَميعًا. وكان الحسنُ يقولُ: صحبتُ طوائفَ لَوْ رأيتمُوهُمْ لقلتُمْ مجانينَ، ولو رأوا خِيَارَكم لقالوا: ما لهؤلاءِ من خَلاقٍ.

وقال أبو حازم: أدركتُ القرّاءَ وهم القرّاءُ حقًا، ولوْ كَانَ حَامِلُ القرآنِ فى مائة رجلٍ لعُرِف بشدة تواضعه وحسنِ سمته وخشوعه، وقد وقّره القرآنُ فى سَمْته، وقد خضّعهُ القرآنُ وأخشَعَهُ. فأما هؤلاء، فوالله ما هُمْ بالقرّاء، ولكنهم الجُرَّاءُ. وقد قالَ بعضُهم: كنا نَشْهَدُ الجنازةَ فلا نعرفُ صاحِبَ المصيبةِ، ولا ندرى مَنْ نعزّى مَن شدةِ حُزن القوم. قال: وكان أحدُهُم يبقَى بعدَ شهودِ الجنازةِ ثلاثًا لا يُنتفع به.

وكان الفضيلُ رحمه الله يحذّر من قرّاءِ زمانه فقالَ: إياك وصحبةَ هؤلاء القرّاء، فإنكَ إن خالفتَهم فى شيءٍ كفَّروكَ. وقال سفيانُ الثوريُّ رحمه الله: ما شيءٌ أحبُّ إلىَّ من صحبةِ فتًى، ولا شيء أبغضُ إلىَّ من صحبةِ قارئ. وكان كثيرًا يقول: مَنْ لم يُحسنْ يتغنَّى لم يُحسن يتقرَّى.

وكان بِشْرُ بنُ الحارثِ يقول: لأن أصحبَ فتًى أحبُّ إلىَّ من أن أصحبَ قارئًا، فإياك وصحبةَ القرّاء، فإنهمْ يذمُّونَ غيرَ مذمومٍ، وإن تركتَ الصّلاةَ معهُمْ فى جماعةٍ تشاهدُوا عليكَ.

كُلُّ ذلك، لأنهم يجاوزُون الحدَّ فى الشيء، ويسرعُون الإنكارَ إلى كلِّ شيء، لغلبة الجهلِ عليهم، وقلةِ مجالستهِمْ للعلماء ومعاناتهمْ للعلْمِ، وإنهم موصُوفون بدقائقِ الرياءِ والتصنُّع للعامة، فيُنكرونَ غيرَ مُنْكَرٍ، ويتعصبونَ بالبُغْضَة والهجرِ فى الشيءِ اليسيرِ الذى قد يُغتفَرُ مثلُه. وهُمْ غيرُ موصوفِين بمحاسنِ الأخْلاقِ، ولا

موسُومينَ بالبشاشةِ والانطلاق، إذ فيهمْ كَزازةٌ، وتغليظٌ على الناس ولزازةٌ، وحنَقٌ على الأغنياء، حتى كأنهُمْ يأكُلون أرزاقَهُم، وكأنهم يعملونَ العبادةَ لهمْ. وفيهِمْ كثرةُ مقتٍ لأهلِ البِشْرِ والطّلاقة، فلذلك قال بعضهم: الشريفُ إذا تقرّى تواضَع، والوضيع إنْ تقرّى تكبَّر. وقال آخر: السِّفْلة إذا تقرَّى أكثرَ الأمرَ بالمعروفِ واعترضَ على جيرانِه فى كل شيء. يعنى: أكثرَ الأمرَ بالمعروف؛ ليُعرفَ به؛ فمن أجلِ ذلك رفضَهُمُ العلماءُ، وذمَّهُمُ الحكماءُ؛ لأن العلمَ ينبسطُ ويتوسَّعُ، وتكونُ معه الأخلاقُ الحسنةُ والآدابُ والمروءاتُ الواسعةُ.

والعالِمُ يضعُ الأشياءَ فى مواضعها من الناس، ولا يجاوزُ بها ولا بهمُ المقاديرَ، ويَسْتخْرجُ لهم المعاذير. ومن صِفَةِ العلماءِ الانقباضُ فى بسط خُلُقٍ. وقد قالَ الإمامُ الشافعيُّ رحمه الله: الانقباض على الناس مكسبَةٌ لعداوتهمْ، فكُنْ بين المنقبضِ والمنبسط. وفى الخبر: «إنكم لا تَسعُونَ الناسَ بأموالكُمْ، فليَسَعْهُمْ منكُم وَجْهٌ طَلْقٌ، وخُلُقٌ حَسنٌ». وفى لفظِ آخرَ: «وبِشْرٌ وبشاشة». وهذا كلُّه معدومٌ من القرّاءِ ولا يعرفُونَهُ. وقَدْ جعَلَ الله تعالى لكلِّ شيءٍ قَدْرًا، فمَنْ تعدَّى حَدَّ الشيءَ فقد أفسده. وقال بعضُ السلَفِ: قليلُ التواضُع يكفِى من كثيرِ العمَلِ، وقليلُ الورعِ يكفِى من كثيرِ العلم.

ومن أخلاق السّلفِ مما تهَاون به الخلفُ: أنّهم كانوا يعدّون من النفاقِ أن يتكلمَ الرجلُ فيمَنْ يكلِّمُه، أو يكلِّمُ مَنْ تكلَّم فيه؛ لأنهُمْ كانُوا إذَا كلّمُوا أحَدًا أو سَلّموا عَلَيه سَلِمتْ له قلوبهُم، ولم يتكلّموا فيه. وإذا تكلّموا فى أحدٍ لبدْعته أو ظهورِ فسْقه لم يكلِّموه، وكانوا إذا مدَحُوا أحدًا بقولٍ لم يذمّوه بفعل، وإذا ذمُّوا واحدًا بفعلٍ لم يمدحوه بقولٍ؛ لأنّ فى ذلكَ لسانينِ واختلافَ وجهينِ، واختلافَ سرٍّ وعلانيةٍ.

وكانوا يقولون: معنى: «سلامٌ عليكَ» إذا لقيتَه، أى سَلِمْتَ منى أن أغتابكَ وأذمَّكَ، فكان اختلافُ هذا عِنْدهُم مِنْ أبوابِ النِّفاقِ.

ورُوينا عن رسول الله ﷺ: «شرُّ الناسِ ذُو الوجهينِ الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاءِ بوجهٍ». وفى حديثِ آخرَ: «مَنْ كان ذا لسانينِ فى الدنيا جعلَ اللهُ لهُ يومَ

القيامةِ لسانينِ من نار».

وكان بعضُهُم يقول: ما ذُكرَ عندى إنسانٌ قط إلا مثَّلتُه جالسًا فقلتُ فى غيبته بما يحبُّ أن يَسْمع. وقال آخر: ما ذُكر عندى رجلٌ إلا تصوَّرتُ فى نفسِى مِثالَهُ، فكلُّ ما أحبُّ أن يقالَ لى قلتُهُ لهُ.

وقال بعض السلفِ: قليلُ التواضع يكفِى عَنْ كثيرِ العملِ، وقليلُ الورعِ يكفى عن كثيرِ العلم.

فهذه كانتْ صفاتُ المسلمينَ الذينَ يُسلِمُ الناسُ على أيديهم وقلوبِهم. كانَ أحدُهم إذا ذُكر عنده غيرُه بسوءٍ وقَفَ وتفكّر فى شأن نفسه، فإنْ كان فيه مثل ذلك السوءِ قطعهُ الحياءُ عن الكلامِ فى أخيه فسكتَ، وإن لم يكن ذلك فيه حَمِدَ اللهَ عزّ وجلّ ورحمَ أخاه، فشغلهُ الشكرُ لمولاه؛ إذ عافاهُ. فهذه كانت سيرة السلف.

ويقال فى بعض كتب الله تعالى: عجبًا لمن قيلَ فيه الخيرُ وليسَ فيه كيف يفرح؟ ولمن قيل فيه الشر وهو فيه كيف يغضب؟ وأعجَبُ من ذلِكَ مَنْ أحبَّ نفسَه على اليقينِ، وأبغض الناسَ على الشكِّ.

ومن طريقة السلفِ مما كانوا يشدّدون فيه حبُّ المدح وطلبُ الحمدِ، حتَّى قال بعضُهُمْ: من أحبّ المدحَ وكَرِهَ الذمَّ فهو منافقٌ.

وقال عمرُ رضى الله عنه لرجل: مَنْ سيِّد قومِك؟ قال: أنا. قال: لو كنتَ كذلكَ لم تقلْ.

وكتب محمدُ بن كعب فانتسب فقال: القرظى، قيل له: قل الأنصارى. قال: أكره أن أمُنَّ على الله عزّ وجلّ بما لم أفعلْ.

وقال الثورىُّ رضى الله عنه: إذا قيل لَكَ بِئْسَ الرجلُ أنتَ تغضبُ فأنت بِئْسَ الرجل. وقال آخر: لا يزال فيك خيرٌ ما لم تَرَ أن فيك خيرًا. وسُئِلَ بعضُ العلماءِ: مَا عَلاَمةُ النفاقِ؟ قال: الذى إذا مُدِحَ بما ليسَ فيه ارتاحَ لذلك قلبُه.

وكان سفيان رضى الله عنه يقول: إذا رأيتَ الرجلَ يحب أن يحبَّه الناسُ كلُّهُمْ

ويكرهُ أن يذكُرَهُ أحد بسوءٍ، فاعلمْ أنّه منافق.

فهذا داخل فى وصف الله تعالى المنافقينَ بقوله تعالى: ﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ﴾ [النساء: ٩١]. فينبغى لمن أمِنَ فى أهل السُّنة أن يخافَ فى أهلِ البدعِ، وهذا مما دخَل على القرّاءِ الذين ذمّهم العلماءُ مداخلَ الليلِ فى النهار.

ولعلَّ مغرورًا جَاهلاً يتأوّلُ الحديثَ الذى جاء: «إذا مُدِحَ المؤمنُ ربَا الإيمانُ فى قلبِه» على غيرِ تأويله، ويَحمِلُه على غيرِ مَحْمَله، فإنَّما قال: «ربَا الإيمَانُ» ولم يقل: ربَا المؤمنُ. فربُوُّ الإيمانِ زيادتُه، وزيادتُه بالخوفِ والإشفَاقِ مِنَ المكرِ به والاستدراجِ. وَفيه طريقٌ للعارفينَ بأنْ يعلوَ الإيمانُ المُعلَّى إلى المولى الأعلَى[1]، فيفرحُ بذلكَ لمولاهُ ويضيفُه إلى سيده الذى به تولاّه، فيردُّ الصنعةَ إلى صَانعِهَا، ويشهدُ فى الفطْرة فاطرَهَا، فَيكونُ ذلكَ مَدْحًا للصانع، وَوَصْفًا للفَاطر، لا ينظرُ إلى نفسه، ولا يُعْجَبُ بِوَصْفِهِ. وهذه طُرُقَاتٌ قدْ درسَتْ وانقَطَعَ سُلاَّكُها إلا مَنْ رَحِمَ ربُّكَ.

باب تفضيل علم الإيمان واليقين على سائر العلوم والتحذير من الزلل فيه، وبيان ما ذكرناه

اعلم أن كلَّ علمٍ من العلومِ قد يتأتَّى حفظُه ونشرُه لمنافقٍ أو مبتدعٍ أو مشركٍ إذا رغبَ فيه وحرصَ عليه؛ لأنه نتيجةُ الذهنِ وثمرةُ العقلِ، إلا علمَ الإيمانِ واليقينِ، فإنَّه لا يتأتَّى ظهورُ مشاهدته والكلامُ فى حقائقه إلا لمؤمنٍ مُوقنٍ مِنْ قِبَلِ أن ذلك تقريرُ مزيدِ الإيمانِ وحقيقةُ العلمِ والإيقانِ، فهُوَ آياتُ الله تعالى وعهدُهُ عن مكاشفة قدرته وعظمته. وآياتُ الله تعالى لا تكون للفاسقين، وعَهْدُه لا ينال الظَّالمين، وعظمتُه وقدرتُه لا تكونُ شهادةً للزائغينَ ولا وَجْدًا للمبطلين؛ إذ فى ذلك توهينٌ لآياتِ اللهِ وحجَجِهِ، وانتقاصٌ لبراهينه وقدرتِه، ودخولُ الشكِّ فى

(١) فى (ط) «يعلو الإيمان العلى إلى المؤمن الأعلى» وأثبت ما فى (ك).

اليقينِ الذى هو محجةُ المخلصين[١]، والذين هم بقيةُ الله تعالى من عباده، واشتباهُ الباطلِ بالحقِّ الذى هو وصفُ أهلِ الصدقِ الذينَ هم أدلّتُه عليه مِنْ أهلِ ودادِه، وهذا مِنْ أدلِّ دليلٍ على فضلِ علمِ المعرفةِ على غيرِه، قالَ اللهُ عزّ وجلّ: ﴿**أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِى إِسْرَائِيلَ**﴾ [الشعراء:١٩٧]. وقال تعالى: ﴿**بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فى صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ**﴾ [العنكبوت:٤٩]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿**إِنَّ فى ذلكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ**﴾ [الحجر:٧٥]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿**قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ**﴾ [البقرة:١١٨]. وقال عزّ وجلّ: ﴿**وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**﴾ [الأنعام:١٠٥].

فهؤلاء العلماءُ بالله تعالى، الناطقُونَ عن الله عزّ وجلّ، جعَلَ لهمْ أنصبةً منهُ، ومكانًا عنده. ولا يكون ذلكَ لمن لَيْسَ أهلاً لهُ، ولا حَقيقًا به؛ لأنّهم آياتُ الله تعالى وبيناتُه وشهودُه وبصائرُه[٢]، كاشِفُو طَرِيقِه، ومُظْهِرو بيانِه؛ إذ يقولُ تعالى: ﴿**ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيانَهُ**﴾ [القيامة:١٩]. وقال تعالى: ﴿**خَلَقَ الإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ البَيَانَ**﴾ [الرحمن:٣ ـ ٤]، بعد قوله: ﴿**وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ المُؤْمِنِينَ**﴾ [الروم:٤٧]، معَ قولِه تعالى: ﴿**وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا**﴾ [الفتح:٢٦]. فنصَروهُ بِمَا نصرَهُمْ به، وتحقّقوا بِمَا حقّقهمْ منهُ، وشَهِدوا له ما شَهِد لهم عنه، فكانُوا للمتقين إمامًا، وإلى الهِدَايةِ أعلامًا.

وقال بعضُ أهلِ المعرفةِ: مَنْ لم تكنْ له مشاهدةٌ مِنْ هَذا العلمِ لم يَعْرَ مِنْ شرْكٍ أو نفاقٍ؛ لأنه عارٍ من علمِ اليقينِ، ومن عَرِىَ من اليقينِ وُجِدَ فيه دقائقُ الشكِّ. وقال بعضُ العارفينَ: مَنْ لم يكن له نصيبٌ من هذا العلم أخافُ عليه سوءَ الخاتمة. وأدنَى النصيب منه التصديقُ به وتسليمُه لأهله. وقال آخر: مَنْ كان فيه خَصْلَتانِ لم يُفتَحْ له من هذا العِلمِ شىءٌ: بدعةٌ أو كِبْرٌ. وقالت طائفةٌ من أهله: مَنْ كان محبًا للدنيا أو مُصرًا على هوًى لم يتحقق به.

---

(١) فى (ك): «المتقين».

(٢) فى (ك): «وطرقاته».

وقال أبو محمد سهل: أقلُّ عقوبةِ مَنْ أنكرَ هذا العلمَ أن لا يُرزقَ منه شيئًا أبدًا.

واتفقوا على أنّه علمُ الصديقينَ، وأنَّ مَنْ كانَ له منهُ نصيبٌ فهوَ من المقربينَ، وينالُ درجةَ أصحابِ اليمينِ.

واعلم أنّ علمَ التوحيد ومعرفةَ الصفاتِ مباينٌ لسائرِ العلوم. فالاختلافُ فى سائرِ العلومِ الظاهرةِ رحمةٌ، والاختلافُ فى علمِ التوحيدِ ضلالٌ وبدعةٌ، والخطأ فى عِلْمِ الظاهرِ مغفور وربَّما كَانت حسنةً إذا اجتهَد، والخطأ فى علمِ التوحيدِ وشهادةِ اليقين كفرٌ، من قِبَلِ أنّ العبادَ لم يُكلَّفوا حقيقةَ العلمِ عند الله تعالى فى طلبِ العلم الظاهر، وعليهم واجبُ طلبِ موافقة الحقيقة عندَ الله فى التوحيدِ. ومنِ ابتدَعَ شيئًا رُدَّتْ عليه بِدعتُهُ، وكان مَسؤولاً عَنهُ، ولم يكنْ حجةً لله تعالى على عباده، ولا غيثًا نافعًا فى بلاده، بلْ كانَ موصُوفًا بالدنيا وفيها من الراغبين، ولم يكن دليلاً على الله عزّ وجلّ، ولا من دعَاة الدين، ولا إمامًا للمتقينَ. وقد جاءَ فى الخبرِ: «العلماءُ أمناءُ الرسلِ ما لم يدخلوا فى الدنيا، فإذا دخَلوا فى الدنيا فاحْذَرُوهمْ على دِينكم»، والخبر المشهور: «من أحْدَثَ فى دِيننا ما ليسَ فيه فهُو رَدٌّ».

وقد رُوينا عن عيسَى عليه السلام وقيل له: مَنْ أشدُّ الناس فتنةً؟ فقال: «زَلَّةُ عالِم إذا زَلَّ زلَّ بزلَّتهِ عالَم».

وقد رُوينا معناه عن نبينا محمدٍ ﷺ: «مما أخافُ على أمَّتى زَلَّةُ عالمٍ، وجِدالُ منافقٍ فى القرآن».

وكان بعضُ السلفِ يقول: مَثَلُ العالمِ إذا زلَّ مَثَلُ سفينة إذا غَرِقتَ غرِقَ معها خلقٌ كثيرٌ، ومَثَلُ كُسوفِ الشمسِ، يَصيح الناسُ: يا غَافِلُون الصَّلاةَ، وإنّها عِندَ العامَّةِ آيةٌ يُفزَعُ منها.

ويُروَى فى خبرٍ غريبٍ: «مَنْ غَشَّ أمتى فعلَيه لَعْنةُ الله والملائكةِ والناسِ أجمعين. قيل: يا رسولَ الله، وما غِشُّ أمّتك؟ قال: أن يبتدعَ بدْعةً فى الإسلامِ

يحملُ الناسَ عليها». وكان ابنُ عباسٍ رضى الله عنه يقول: ويلٌ للعالِم من الأتباع، وويل للأتباع من العالِم، يزلُّ العالِمُ بزلة فيتبعُه عليها فِئامٌ منَ الناس، وتبلغُ الآفاقَ.

وما أعلمُ أحدًا أعظمَ جُرْمًا ممن ابتدعَ فى دينِ الله عزّ وجلّ، فنطَقَ فى كتابِ الله تعالى وفى علمِ المعرفةِ بما لم يأذَنْ به الله، ثم لم يَعْبأ بسننِ رسولِ الله ﷺ الذى هُوَ حجَّةُ الله تعالى على جميع خلْقه، وطريق مقرَّبيه من عباده، فأضلَّ بذلكَ عبادَ الله عزّ وجلّ. فإنَّ مَثَلَ مَنِ ابتدعَ فى الدين واتّخذَ وليجةً دون الكتابِ والسنّةِ ومن[١] طريق المؤمنين إلى جَنْبِ مَنْ يكاثرُ فى أمورِ الدنيا وارتكبَ فيهَا شهواتِ الأهواءِ - كَمَثَل من اجترحَ المظالمَ بينَ الناس فى الأموالِ والدماء، إلى جنبِ مَنْ ظلمَ نفسَه بكسْبِ الذنوب بينَهُ وبينَ ربّه. إنَّ مظالمَ العبادِ أعظَمُ، وهوَ الدِّيوانُ الذى لا يُترَكُ، كذلكَ التمويهُ فى الدِّين أعظمُ، لأنهُ مظالمُ الآخرَةِ وقطْعُ طرقاتِ المؤمنين ومحوُ شريعةِ المرسلين[٢].

ومَثَلُه أيضًا مَثَلُ من أذنبَ وجَحَدَ ذنبَهُ واحتجَّ لنفْسِهِ إلى من أذنَبَ، واعترفَ بذنبِهِ واعتذرَ من نفسِهِ، فهُوَ أقربُ للعفوِ وأرجى للرحمةِ من الآخر.

كذلكَ من اعتلَّ بالتقصيرِ والتفريطِ فى العلمِ ولم ينصحْ لنفسِهِ إلا أنه أظهرَ حقيقةَ العلمِ ونصحَ لله تعالى ولرسولِه ببيان كتابه وذكرِ سنته أقربُ إلى حُسْنِ الإخلاص، وأوْلى بالتدارُكِ فى العافيةِ ممن شرَعَ فى دينِ الله تعالى وابتدعَ فى الأمة ما يُخَالفُ به الكتابَ والسنّةَ. هكذا كأنهُ قد قلَبَ ملَّةً وبدَّلَ شريعةً. فهذا يولِّدُ النفاقَ فى قلبِهِ حتَّى يُخْتَمَ لهُ بِهِ.

ومَثَلُ من ابتدَعَ فى الملّة مخالفًا للسنة[٣]، إلى من أساء إلى نَفْسِه بالذنوب، مَثَلُ مَنْ عصَى الملِكَ فى قلبِ دولتِه، وتظاهرَ عليه فى ملكِهِ بالإزالة، إلى جنْبِ من

(١) فى (ط): «وبين» وأثبت ما فى (ك).

(٢) عبارة (ك): «كذلك التمويه فى الدين يتعاظم لأنه مظالم الدّين ومظالم الرسل كهذه مظالم الخلق».

(٣) فى (ك): «لسنة رسول الله ﷺ».

عَصَى أمرَهُ، وقصَّرَ فى حقِّه منَ الرعيَّةِ. وقَدْ قال بعضُ الحكماء: ثلاثٌ لا يَحْسُنُ من الملك أن يغفرَها: من قلبَ دولةً من رعيتهِ، أو عَمِلَ فيما يُوهِنُ المُلْكَ، أو أفسَدَ (١) حرمةً من حُرَمه.

وروينا عن النبى ﷺ: «إن لله تعالى ملكًا ينادِى كلَّ يومٍ: مَنْ خالفَ سنّةَ رسولِ الله ﷺ لم تنلْه شفاعتُه». وقال على كرّم الله وجهه: الهوى شريكُ العمَى. وقال الله تعالى ومن أصدق من الله قيلاً: **﴿ومَنْ أظلَمُ ممَّن افْترَى على الله كَذبًا﴾**، ثم قال تعالى: **﴿أوْ قَالَ أُوحِىَ إلىَّ ولَمْ يُوحَ إليه شَىءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مثْلَ مَا أنزلَ اللهُ﴾** [الأنعام:٩٣]، فسَوّى بينَ الكذَّابِ فى الفِرْيةِ على الله تعالى وبين المتشبهِ المضاهِى للربوبيَّةِ.

وكذلك مِنْ أعظم المنكرِ بعد هذا إنكارُ الحقّ من أهله وردُّه عليهم بالتكذيب. وقد سوّى تعالى أيضًا بين التكذيبِ بالحقِّ وبينَ ابتداء الكذبِ على الخالق فى قوله عزّ وجلّ: **﴿ومَنْ أظْلَمُ ممَّنِ افْترَى على الله كَذبًا أَوْ كَذَّبَ بالحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾** [العنكبوت:٦٨]. وقال تعالى فى مثله: **﴿فَمَنْ أَظْلَمُ ممَّنْ كَذَبَ عَلَى الله وكَذَّبَ بالصِّدْقِ إذْ جَاءَهُ﴾** [الزمر:٣٢]. كذلك أيضًا فى ضده سَوّى، كما سَوّى عزّ وجلّ بين الصادق بالصدْقِ والمصدِّق به فقال تعالى: **﴿والذى جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ به أُولئكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾** [الزمر:٣٣].

قال رسولُ الله ﷺ: «العالِمُ والمتعلِّمُ شريكان فى العلمِ». وقال عيسى عليه السلام بمعناه: «المستمعُ شريكُ القائلِ».

ولكنّ الله تعالى قد جعلَ هذه الطائفةَ من أهلِ العلمِ بالله تعالى تردُّ على جميعِ الطوائف من الشَّاطحِينَ والمبتَدعينَ أهل الجهالة بالدِّين والحَيْدَة عن سبيلِ المؤمنينَ بِمَا أرَاهُم اللهُ تعالى من علم اليقين، وبِمَا شهدَ لهُم رسُولُ الله ﷺ بالعلمِ والتعديل فى قوله: «يَحمل هذا العِلْمَ مِنْ كلِّ خَلَفٍ عُدُولُه، يَنفُونَ عنهُ تحريفَ

(١) فى (ك): «إفساد».

الغالينَ وانتحالَ المبطلينَ وتأويلَ الجاهلين». فالغالُونَ: هم الشاطحُونَ؛ لأنهم قد جاوزوا العلمَ، ومَحَوُا الرسْمَ فأسقطُوا الحكْمَ. والمبطلونَ: هم المدّعُون المبتدعُون؛ لأنَّهُمْ جَادلوا بالباطِلِ ليَدحَضُوا به الحقَّ، وافترَوْا بالدعوَى، وابتدعُوا بالرَّأى والهوى. والجَاهلُون: هُم المنكرونَ لغرائبِ العلم، المفترونَ لما عَرَفُوا من ظاهرِ العقلِ. كما روينا عن النبى ﷺ: «إنَّ منَ العلمِ كَهَيئة المكنونِ لا يَعلمُه إلا أهلُ المعرفة بالله عزّ وجلّ». فإذا نطقُوا به لم يَجْهَلْه إلا أهلُ الاغترار بالله تعالى. ولا تُحقِّروا عَالِمًا آتاهُ اللهُ تعالى عِلْمًا، فإنَّ الله عزّ وجلّ لم يُحقِّرهُ إذ آتاهُ.

وكلُّ من تأوَّل السنن بالرأى أو المعقول، أو نطق بمَا لم يسبقْ إليه السلفُ من القَول أو بمعناهُ فهو متكلِّفٌ مبطلٌ. فأهلُ العلمِ بالله تعالى يردّون علومَ المعقولِ بعلمِ اليقينِ، وعلمَ الرأى بعلم السنَّةِ، يثبِّتون أهلَ الآثارِ، ويؤيدُونَ نَقَلَةَ الأخبارِ، بمَا يُفصِّلُونَ منْ أخبارِهمْ، ويفسِّرُون من حديثِهم، مما لم يُجعَلْ للنَّقَلةَ طريقٌ إليه، ولم يهتدِ الرُّواةُ إلى كشْف منهُ بِمَا أشهدَهُمُ اللهُ عزّ وجلّ، واستودَعهُمْ، ونوَّرَ به قلوبَهُمْ ونطَّقهُمْ، فهم ينطِقُون عن الله سبحانه وتعالى فيما يُخْبرون عنه، ذَلكَ فَضْلُ الله يُؤْتيهِ مَنْ يَشَاءُ: ﴿**وجَعَلْنا منهُمْ أئمَّةً يهْدُونَ بأمْرِنَا لَمَّا صبَرُوا وكانُوا بآياتنا يُوقنُون**﴾ [السجدة: ٢٤].

وقد قال بعضُ العلماء: ما تكلّم فِيه السلفُ فالسكُوتُ عنه جَفَاءٌ، وما سكَتَ عنهُ السلفُ فالكلامُ فيه تكلفٌ. وقال آخر: الحقُّ ثقيلٌ، من جاوزَهُ ظَلَمَ، ومَنْ قَصُرَ عنه عَجَز، ومن وقف معه اكتفَى. وقال علىٌّ رضى الله عنه: عليكُمْ بالنَّمَطِ الأوسَط الذى يَرْجِعُ إليه العَالى، ويرتَفِعُ عنه القَالى.

وهكذا سيرةُ السَّلَف أنه لا يُستمَعُ إلى مبتدِعٍ لأنه مُنكَر، ولا يُرَدُّ عليه بالجدالِ والنظرِ لأنه بدْعَةٌ، ولكن يُخبَرُ بالسُّنَن، ويُحْتَجُّ بالأثرِ، فإنْ قِيلَ: فَهُوَ أخُوكَ فى الله عزّ وجلّ، ووجبت عليك مولاتُهُ، وإن لم يَرْجِعْ وأنكر نُقِضَ بإنكاره، وعُرِّفَ ببدعته، وحقَّتْ عداوتُه، وهُجرَ فى الله تعالى. وهذا طريقٌ لا يَسْلُكُه فى وقتنا هذا إلَا من عرَفَ فضْلَهُ وطريقةَ السلفِ فيه.

وحُدِّثتُ عن إبليسٍ ـ لعنه الله ـ أنه بثَّ جنودَهُ فى وقتِ الصحابة، فرجَعُوا إليه محسُورين، فقال: ما شأنكم؟ قالوا: ما رأينا مِثْلَ هؤلاء القوم، ما نُصيبُ منهُمْ شيئًا، قد أتعبونا. فيقول: إنَّكُمْ لا تَقْدرُونَ عليهمْ قد صحِبُوا نبيَّهُمْ، وشهدوا تنزيلَ ربّهم، ولكن سيأتى بعدهم قومٌ تنالُونَ منهم حَاجَتكم. فلما جاء التابعُون بثَّ جنودَه فيهم فرجَعُوا إليه منكسِرين منكُوسين، فقال: ما شأنُكمْ، قالُوا: ما رأينا أعجَبَ من هؤلاءِ القوم، نصيبُ منهم الشىءَ بعدَ الشىءِ من الخطايا، فإذا كان من آخرِ النهارِ أخذُوا فى الاستغفار فتُبدَّل سيئاتُهم حسناتٍ، فقال: إنكم لن تنالوا من هؤلاء شيئًا لصِحَّة توحِيدهم، واتباعهم سنّة نبيهمْ، ولكن سيأتى بعد هؤلاء قوْمٌ تَقرُّ أعينُكم بهم، تلعبُونَ بهم لَعبًا وتقودونهُمْ بأزمَّة أهوائهم كيف شئتم؛ إن استغفرُوا لم يُغْفَرْ لهُمْ، ولا يتُوبون فتُبدَّلْ حَسناتُهمْ سيئات. قال: فجاء قومٌ بعد القرنِ الأولِ، فبعثَ فِيهمُ الأهواءَ، وزيَّن لهمُ البدعَ، فاستحَلُّوهَا واتخذوها دِينًا، لا يستغفرون منها، ولا يتوبون إلى الله. قال: فتسلَّطتْ عليهمُ الأعداءُ، وقادَتْهُم أينَ شاؤوا.

وقد قالَ ابن عباسٍ رضى الله عنه: إن للضلالة حلاوةً فى قلوبِ أهْلِها.

وقد قال اللهُ تعالى: ﴿**اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا**﴾ [الأنعام: ٧٠]. وقال تعالى: ﴿**أفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِه فَرآهُ حَسَنًا**﴾ [فاطر: ٨]. كما قال تعالى: ﴿**أفَمَنْ كَانَ عَلى بَيِّنَة مِنْ ربِّه ويَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ**﴾ [هود: ١٧].

فالعلمُ ـ رحمك الله ـ هُو الذى كان عليه السلفُ الصالحُ المقتَفى آثارُهم، والخلَفُ التابعُ المقتَدى بهَدْيِهمْ. وهُمُ الصحابةُ أهلُ السَّكِينة والرِّضَا، ثم التابعُون لهم بإحسانٍ من أهلِ الزّهدِ والنُّهى.

والعالِمُ هو الذى يدعُو الناسَ إلى مثل حاله حتَّى يكُونوا مثلَه، فإذا نظروا إليه زَهدُوا فى الدُّنيا لزُهْده فيها، كما كانَ ذو النُّون رحمه الله يقول: جالسْ من يكلِّمُكَ علمُه لا مَنْ يكلِّمُكَ لِسَانُه. وقد قال الحسن رضى الله عنه قبلَهُ: عِظِ الناسَ بفِعْلِكَ ولا تَعِظْهُمْ بقولك.

وقال سهلٌ رحمه الله: العلمُ يهتفُ بالعَمل، فإن أجابه وإلا ارتحلَ. وقد روينا معنى ذلك عن رسول الله ﷺ أنه قيل له: «أيُّ جلسَائنا خير؟ فقال: مَنْ ذكَّركُمْ بالله تعالى رؤيتُه، وزاد فى علمِكُم مَنْطقُه، وذكّركُمْ بالآخرة عملُه».

فأمّا الذى يطلبُ دنياهُمْ حتَّى يكونَ مثلَهُمْ، فإذا رأوهُ اغتبطوا بحالِهمْ، فهذا شرٌّ منهم، لأنه يدعُو إلى نفْسه لا إلى مولاه؛ ولأنه طامعٌ فيهم وهُم زاهدون فيه.

فالعلماءُ الذين هُم ورثةُ الأنبياء همُ الورعون فى دين الله عزّ وجلّ، الزاهدون فى فضولِ الدنيا، الناطقُونَ بِعلمِ اليقينِ والقدرة لا عِلْم الرأى والهوى، والصائمون[1] عن الشّبهَاتِ والآراء، لا يختلفُ هذا إلى يومِ القيامةِ عندَ العلماءِ الشّهداءِ على الله تعالى برأْيِ قائلٍ، ولا بقولِ مُبطلٍ جاهلٍ.

كما رُوى عن عبد الله بن عمر، عن النبى ﷺ: «صلُح أولُ هذه الأمةِ بالزهْدِ واليقين، ويَهلكُ آخرُها بالبخلِ والأملِ».

وقال يوسفُ بنُ أسباطٍ: كتبَ إليَّ حُذَيفةُ المرعشى: ما ظنُّكَ بمن قد بَقِيَ لا يجدُ أحدًا يذكُر الله تعالى معه إلا كان آثمًا وكانت مذاكرتُه معصيةً؛ وذلك أنه لا يجدُ أهله. قلت ليوسف: يا أبا محمدٍ، وتعرفهُمْ؟ قال: لا يَخْفَوْنَ علَينا.

ويقال: إن الأبدالَ إنّما انقطَعُوا فى أطرافِ الأرضِ، واستتروا عن أعينِ الجمهورِ؛ لأنهُمْ لا يطيقونَ النظرَ إلى علماءِ هذا الوقتِ، ولا يصبُرون على الاستماع لكلامهم؛ لأنهُم عندهم جهّالٌ بالله تعالى، وهم عِندَ أنفسهِمْ وعند الجاهِلينَ علماء، فقد صاروا من أهلِ الجهل. وأهلُ الجهل بالجهلِ على الوصفِ الذى قال سَهْلٌ رحمه الله: إن منْ أعظمِ المعاصى الجهلَ بالجهلِ، والنظرَ إلى العامة. واستماعُ كلام أهلِ الغفلة أيسرُ عندهم؛ لأنهُمْ لا يَعْدمُونَ ذَلكَ حَيثُ كانوا من أطراف الأمصار؛ لأنّ العامةَ لا يموّهون فى الدين، ولا يغرُّون المؤمنين، ولا يدَّعُونَ أنهمْ علماء؛ لأنهم يتعلَّمُونَ، وبالجهْلِ معتَرفُونَ، فهم إلى الرحمةِ أقربُ، ومن المقتِ أبعدُ.

---

(١) فى (ط): «والصامتون».

وكان أبو محمد أيضًا يقول: قسوةُ القلب بالجهلِ بالعلمِ أشدُّ من القسوةِ بالمعاصي؛ لأن الجاهلَ بالعلم تاركٌ ومدّعٍ، والعاصي بالفعل مقرٌّ بالعلمِ. ويقول أيضًا: لأنّ العلمَ دواءٌ به تصلُحُ الأدواء، فهو يُزيل فسادَ الأعمالِ بالتداركِ، والجهلُ داءٌ يُفْسِدُ الأعمالَ بعد صلاحِها، فهو يزيل الحسناتِ فيجعلها سيئات. فكمْ بينَ ما يُصْلِحُ الفاسدَ وبينَ ما يُفسِدُ الصالحات؟ وقد قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ المُفْسِدينَ**﴾ [يونس: ٨١]. وقال تعالى: ﴿**إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ المُصْلِحينَ**﴾ [الأعراف: ١٧٠].

فهذا من أدلِّ دَليلٍ على فضلِ العالِمِ المقصِّر على العابدِ المجتهدِ.

واعلم أنَّ العبدَ إذا باينَ الناسَ في كلِّ شيءٍ من أحوالهم انفردَ عن جمعِهم، ولم يألفْ أحدًا منهم. وإن باينهُمْ في أكثرِ أحوالهم اعتزلَ عنِ الأكثرِ منهُم. فإنْ فارقَهُمْ في بَعْضِ الأحوالِ ووافقَهُمْ في بعضِ حالهِ خَالطَ أهلَ الخيرِ وفارقَ أهلَ الشرِّ.

باب تفضيل الأخبار، وبيان طريق الإرشاد وذكر الرخصة والسعة في النقل والرواية

جميعُ ما ذكرناه في هذا الكتابِ من الأخبارِ عن النبي ﷺ ثم عن الصحابة وعن التابعين وتابعيهم، رسمناه حفظًا، وسُقناه على المعنى إلا يسيرًا اتفقَ وجودُه في أيدينا، وقَرُبَ تناوله منَّا من أخبارٍ فيهَا طولُ فإنَّا نقلناها من مَوَاضعَها، وما بَعُدَ علينا فلمْ نَقْله ولم نشغَلْ همتَنا بهِ، فمَا كان فِيهِ من صَوابٍ وبيان وتَثبُّتٍ فمن الله تعالى بحُسن توفيقه وقوّة تأييده، وما كان فيه من خطأٍ وعَجَلَةٍ وهوًى فمنَّا بالسّهْوِ والغفلةِ، ومن عملِ الشيطانِ بالعجلةِ والنسيانِ.

كذلك روينا عنِ ابن مسعُودٍ رضي الله عنه في قضيَّتهِ التي قَضاهَا بِرأيه، وقولُنا لرأيه تَبعٌ.

وَرُوينا عن رسولِ الله ﷺ: «البيانُ والتثبُّتُ من الله عزّ وجلّ، والعجلةُ والنسيانُ من الشيطان» يعنى بواسطته وبقلّةِ التوفيق.

ولم أعتبرْ ألفاظَ الأخبارِ فى أكثره، ولم آلُ عَنْ سياقِ المعنى فى كلّه؛ إذ ليسَ تحريرُ الألفاظِ عندى واجبًا إذا أتيتُ بالمعنَى بعد أن تكونَ عالمًا بتصريفِ الكلام، وبتفاوتِ وجوهِ المعانى، مجتنبًا لما يكونُ به تحريفٌ، أو إحالةٌ بين اللفظين.

وقد رَخَّصَ فى سَوْقِ الحديثِ على المعنى دُونَ سِيَاقه على اللفظ جماعةٌ من الصحابة منهم: علىٌّ، وابنُ عباسٍ، وأنسُ بنُ مالك، وواثلةُ بن الأسقع، وأبو هريرة، ثمَّ جماعةٌ منَ التابعينَ يكْثُرُ عددُهُمْ منهُمْ: إمامُ الأئمةِ الحسنُ البصرىُّ، ثم الشّعْبىُّ، وعمرو بن دينار، وإبراهيم النخعى، ومجاهدٌ، وعكرمةُ، رضى الله عنهم، نقلنا ذلكَ عنهم فى كُتُبِ سِيَرهم بأخبار مختلفة الألفاظ. وقال ابن سيرين: كنتُ أسمعُ الحديثَ من عشرةٍ؛ المعنى واحدٌ والألفاظُ مختلفةٌ. ولذلك اختلف الصحابةُ فى روايةِ الحديثِ عن رسولِ الله ﷺ، فمنهُمْ من يرويه تامًا، ومنهُمْ من يَجِيءُ به مختصرًا، ومنهم من يرويه على المعنى، وبعضُهُم يغايرُ بين اللفظتين ويراه واسعًا إذا لم يخالفِ المعنى، ولم يُحِلِ البُغْيَةَ. وكلُّهمُ لا يتعمدُ الكذبَ، وجميعُهم يَقصدُ الصدقَ، ومَعْنَى ما سَمِعَ، ولا يُحيل البُغْيَةَ. فلذلكَ وَسِعَهم وكانوا يقولون: إنّما الكذبُ على مَنْ تَعمّده.

وقد رُوينا عن عمرانَ بن مسلمٍ قال: قال رجل للحسن: يا أبا سعيد، إنكَ تحدِّثُ بالحديث أنتَ أحسنُ له سِياقًا، وأجوُد تحبيرًا، وأفصحُ به لسانًا منَّا، إذا حدَّثتنا به. فقال: إذا أصبتَ المعنَى فلا بأسَ بذلك.

وقد قال النضْرُ بن شُمَيل: كان هِشَام لحَّانًا فكسوتُ لكُمْ حديثَهُ كسوةً حسنةً. يَعْنِى بالإعرابِ، وكان النضرُ نَحْويًا.

ونحن قائلونَ فى جميع ما رويناهُ: أو كما قيلَ، ونحوه، وشبهه. وبمعناه كذلك قال ابنُ مسعودٍ فى حديثه. وكان سليمانُ التيمىُّ يقوله فى كلّ ما يحدِّثُ به. وقدْ كانَ سفيانُ رحمه الله يقولُ: إذا رأيتَ الرجُلَ يشدّدُ فى ألفاظِ الحديثِ فى

المجلس فاعلمْ أنه يقول: اعرفُونى. قال: وجعلَ رجُلٌ يسألُ يحيى بن سعيدٍ القطّان عن حرف فى الحديث على لفظه، فقال له يحيى: يا هذا ليسَ فى أيدينا أجَلٌّ من كتابِ الله تعالى، وقد رُخِّصَ بالقراءةِ فيه بالكلمة على سبعةِ أحرفٍ، فلا تُشدِّد.

وفى بعضِ ما رويناه مراسيل، ومقاطيعُ، ومنها ما فى سنده مقالٌ، وربما كان المقطوعُ والمرسلُ أصحَّ من بعض المسند؛ إذ رواهُ الأئمةُ. وجازَ لَنَا رسْمُ ذَلكَ لمعانٍ:

أحدُهَا: أنَّا لسْنَا على يقينٍ من باطلها.

والثانى: أنّ معَنا حجةً بذلكَ وهو روايتُنَا له، وأنَّا قد سمعناه، فإن أخطأنا الحقيقةَ عندَ الله تعالى فذلك ساقطٌ عنا، كما قال الأسباطُ: ﴿**وما شَهدْنا إلا بما علمْنا ومَا كنّا للغَيْبِ حَافظين**﴾ فى قولهم: ﴿**إنَّ ابْنَكَ سَرقَ**﴾ [يوسف:٨١]، فأخطؤوا الحقيقة عند الله تعالى، إلا أنهم كانوا معذُورينَ لوجودِ الدليل، وهو شهادتُهم للصّاعِ مستخرَجٌ من رَحْلِ أخيهمْ.

والثالث: أن الأخبارَ الضِّعافَ غيرَ المخالفةِ للكتابِ والسنّةِ لا يلزمُنا ردُّها، بلْ فيهما ما يدلُّ علَيْها.

والرابعُ: أنَّا متعبِّدُونَ بحُسْنِ الظنِّ، منهيُّونَ عَنْ كثيرٍ من الظنّ، مذمُومُونَ بظنِّ السوء.

والخامس: أنهُ لا يُتوصَّلُ إلى حقيقة ذلك إلا من طريقِ المعاينة، ولا سبيلَ إليها فاضطُررنا إلى التقليد، والتَّصْديق بحُسْنِ الظن بالنَّقَلة، معَ ما تسكُن إليه قلوبُنا، وتلينُ لهُ أبشارُنا، ونَرَى أنه حَقٌّ، كما جَاءَ فى الخبر.

وأيضًا فإنه ينبغى أن نعتقدَ فى سلفنا المؤمنين أنَّهم خيرٌ منَّا، ثم نحنُ لا نكذِبُ على رسولِ الله ﷺ، ولا على التابعين، فكيفَ نظنُّ بهم أن يكْذِبُوا وَهُمْ فوقنا.

على أنّهُ قد جاءَتْ أحاديثُ ضعافٌ بأسانيدَ صحاحٍ، فكذلك يَصلُح أن نُوردَ

أحاديثَ صحاحًا بسند ضعيف؛ لاحتمال أن يكونَ قد رُوِىَ من وجه صحيح؛ إذ لم نُحطْ بجُمْلَة العلم، أو لأن بعضَ منْ يُضَعِّفه أهلُ الحديث يقوِّيه بعضُهم، وبعضَ من يجرحُه ويذمّه أحدٌ يعدِّله ويَمْدحُه آخرُ، فصار مختَلفًا فيه، فلَمْ يُرَدَّ حديثُهُ بقولِ واحدِ دونَ مَنْ فوقَه أو مثلَه. أو لأنَّ بعضَ ما يُضعَّفُ به رواةُ الحديث وتُعلَّلُ به أحاديثُهم لا يكون تعليلاً ولا جَرْحًا عند الفقهاء، ولا عند العلماء بالله تعالى، مثلَ أن يكون الراوى مجهُولاً لإيثارِهِ الخُمُولَ وقد نُدبَ إليه، أو لقلة الأتباع له إذ لم يَقُمْ لهم الأثرةُ عنه، أو ينفرد بلفظٍ أو حديث حفظَهُ أو خُصَّ به دون غيرِه من الثقاتِ، أو يكون غيرَ سائقٍ للحديث على لَفْظه، أو لا يكونُ معتنيًا بحفظه ودَرْسه.

وقد يتكلم بعضُ الحفّاظ بالإقدامِ والجراءة، فيجاوزُ الحدَّ فى الجرح، ويتعدّى فى اللفظ، ويكونُ المتكلَّم فيه أفضلَ منه، وعند العلماء بالله تعالى أعلى درجةً، فيعودُ الجرحُ على الجارِح. أو يكون رأى عليه لباسًا أو سمعَ منه كلامًا يجرحُه عند الفقهاء علّله به بعضُ القرّاء من الرواة، وأن[1] بعضَ مَنْ يضعِّفه أصحابُ الحديث هو منْ علماءِ الآخرة، ومن أهل المعرفة بالله تعالى، ولهُ فى الروايةِ والحديث مذهبٌ غيرُ طريقة بعض أصحابِ الحديث، فيعملُ فى روايته بمذهبه، فلا يكونُ أصحابُ الحديثِ حجةً عليه إلا كَانَ هو حجةً عليهم؛ إذ ليس هو عند أصحابه من العلماءِ دون أصحابِ الحديثِ ممن ضعّفه؛ إذ رأى غيرَ رأى مذهبه.

وقال بعضُ العلماءِ: الحديثُ وإنّ كانَ شَهَادةً فَقَدْ وُسِّعَ فيه بحُسْنِ الظَّن كما جُوِّز فيه قَبُولُ شهادةِ واحدٍ؛ أىْ للضّرُورة كشَهَادة القابلة ونحوها. وروينا معناه عن الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه. والحديثُ إذا لم ينافه كتاب أو سنّة وإن لم يَشْهدا لَهُ إنْ لم يَخْرجْ تأويلُه عن إجماع الأمة فإنه يُوجِبُ القَبُولَ والعملَ بقوله ﷺ، كيف وقد قيلَ: والحديثُ الضعيفُ عندى آثرُ من الرأى والقياس. وهذا مذهبُ الإمام أبى عبد الله أحمد بن حنبل رضى الله عنه.

(١) فى (ك): «أو يكون رأى عليه لباسًا أو سمع منه كلامًا لا يجرحه عند الفقهاء علله به بعض القراء والرواة وإذ بعض»

والحديثُ إذا تداوله عصران، أو رواهُ القرونُ الثلاثةُ، أو دارَ في العصرِ الواحدِ، فلم ينكره علماؤه، وكان مشهورًا لا ينكرُهُ الطبقةُ من المسلمين، احتُملَ ووقع به حجةٌ، وإن كان في سَنَده قولٌ؛ إلا ما خالفَ الكتابَ والسنن الصحيحة، أو إجماعَ الأمة، أو ظَهَرَ كذبُ ناقليه بشهادةِ الصادقينَ من الأئمَّة.

وقال وكيعُ بنُ الجراح: ما ينبغي لأحدٍ أن يقولَ: هذا الحديثُ باطلٍ؛ لأن الحديثَ أكثرُ من ذلكَ. وقال أبو داود: قال أبو زرعة الرازي: قُبضَ رسولُ الله ﷺ عن عشرين ألف عين تطرُف، كلٌّ واحد قد روَى عنهُ ولو حديثًا، ولَوْ كَلمةً أو روايةً. فحديثُ رسولِ الله ﷺ أكثرُ من أنْ يُحصَى.

وذكر رجلٌ عندَ الزهريِّ حديثًا فقالَ: مَا سَمعنا بهذا، فقال: أكُلَّ حديث رسولِ الله ﷺ سمعتَ؟ قال: لا. قال: فثُلثاه، قال: لا، قال: فنصفه، فسكت. وقال: عُدَّ هذا من النصفِ الذي لم تَسْمَعْهُ.

وقال الإمامُ أحمد بنُ حنبل رضي الله عنه: كان يزيدُ بن هارون يكتبُ عن الرجلِ وهُو يعلمُ أنه ضعيفٌ وكان له ذكاءٌ وعلمٌ بالحديث. وقال إسحاقُ بن راهويه: قيل للإمام أحمد بن حنبل: هذه الفوائدُ التي فيها المناكيرُ ترى أن نكتبَ الجيدَ منها؟ فقال: المنكر أبدًا منكر. قيل له: فالضعفاء؟ قال: قد يُحتاج إليهمْ في وقتٍ. كأنَّه لم يرَ بالكتابةِ عنهُمْ بأسًا.

وقال أبُو بكرٍ المروزيّ عنهُ: إنَّ الحديثَ عَنِ الضعفاءِ قد يُحتاجُ إليه.

ومما يدلُّكَ على مذهبه[1] في التوسعَة أنه أخرجَ حديثَه كلّهُ في المسندِ المأثورِ عنه الذي رُويناهُ عنْ أشياخنا عن ابنه عبدِ الله عنهُ ولمْ يَعْتبرِ الصحيحَ منهُ، وفيه أحاديثُ كثيرةٌ يعلمُ الثقاتُ أنها ضعيفةٌ، وهو أعلمُ بضعفها منهُمْ، ثم أدخلَها في مسنده؛ لأنه أرادَ تخريجَ المسند ولم يقصدْ تصحيحَ السندِ، فاستجَازَ روايتَهَا كما سَمِعَها. وقد كان قَطع أن يُحدِّثَ الناسَ في سنةِ ثمانٍ وعشرين، وتُوفِّي في سنة إحدى وأربعين، فلمْ يَسْمعْ أحدٌ منه في هذه المدةِ إلا ابنُه عبدُ الله، وابنُ منيع

(١) يقصد مذهب الإمام أحمد بن حنبل.

جُزءًا واحدًا بشفاعَة جدّه أحمد بن منيع.

وحدثونا عنه ـ أعنى الإمامَ أحمدَ ـ قال: كان عبدُ الرحمن ينكرُ الحديثَ ثم يَخْرجُ إلينا بعد وقت فيقولُ: هو صحيح قد وَجَدته. قال: وأما وكيعٌ فلم ينكرْ ولكنْ يقولُ إذا سُئِل عنه: لا أحفظُه. وحدثونا عن ابن أختِ عبدِ الرحمن بن مهدى قال: كان خَالِى قَدْ خَطَّ علىَّ أحاديثَ، ثم صحَّحَ عَليها بعد ذلك، وقرأتُها عليه، فقلت: قد كنتَ خَطَطْتَ عليها، قال: نعم، ثم تفكَّرتُ فإذا أنى إن ضعَّفتها أسقطتُ عدالةَ ناقليها، فإنْ جاء بى بين يدَى الله تعالى وقال: لِمَ أسقطتَ عدالتى؟ رأيتَنى، سمعتَ كلامى؟ لم يكنْ لى حجة.

هذا كان مذهب الورِعينَ من السلف. وقدْ كان بعضُهُم يقول: كنَّا نَتْركُ مجالسة شُعبة لأنه كان يُدخِلُنا فى الغِيبةِ، وإنَّما كان كلامُه فى التَّضْعيف.

وقال بعضُهم فى تضعيف الرواة: إن خلُصَت نيتك ـ يَعْنِى إنْ أردْتَ الله عزّ وجلّ والدين بذلك ـ لم يكنْ لكَ ولا عليكَ.

فهذه الفصُول التى ذكرناها هى أصُولٌ فى معرفة الحديث، وهُو علمٌ لأهله، وطريقٌ هُمْ سالِكُوهُ. ثم حدَّثَ قومٌ لم يكنْ لهم علمٌ يُختَصُّونَ به، ولا حال من علمٍ يُوصفونَ به، ولا شغلٌ من عبادةٍ تقطعُهم، فجعلُوا لنفوسهم علمًا تشاغَلُوا به، وَشَغَلوا منِ استمعَ إليهم، فصنَّفوا كتبًا، وأخذوا يتكلَّمُونَ فى نَقَلةِ الأخبارِ بالتعليلِ وتتبُّع العِثارِ، فطرَقُوا لأهل البدعِ إلى ردّ السُّنن وإيثارِ الرأى والمعقولِ عليْها لما يَرَوْنَ من طعنِهِمْ فيهَا، واغتبطُوا بالقياسِ والنظرِ لما وَجَدُوا من زهدِهِم فى السنّة والخبرِ، سيَّما فى زَمانك هذا.

والأحاديثُ فى الترغيبِ فى الآخرةِ والتزهيدِ فى الدنيا، والترهيبِ لوعيدِ الله تعالى وفى فضائلِ الأعمال، وتفضيلِ الأصحابِ ـ متقبلةٌ محتملةٌ على كلِّ حالٍ: مقاطيعها ومراسيلها، لا تُعارَضُ ولا تُرَدُّ. وكذلك فى أهوال القيامة ووصفِ زلازلها وعظائمها لا تُنكر بعقل، بل تُتَقَبَّل بالتصديقِ والتسليم. كذلك كان السلفُ يفعلُونَ، لأن العلمَ قد دَلَّ على ذلك، والأصولُ قد وردتْ به.

وقد رُوينا: من بلغه عن الله فضيلةٌ أو عَنْ رسول الله ﷺ وعَملَ به أعطَاهُ اللهُ ثوابَ ذلك وإنْ لم يكُنْ ما قِيل. والخَبرُ الآخر: «مَنْ رَوَى عنِّي حقًّا فأنا أقولُه وإن لم أكنْ قلتُه، ومَن رَوَى باطلاً فإنّي لا أقول بالباطل».

وفي كلٍّ ما رسمناه من هذا الكتابِ نقولُ: الله أعلمُ وأحْكَمُ، وعلْمُهُ المقدَّمُ، وعندَهُ حقائقُ العلومِ، وإليه تُرْجَعُ الأمورُ، وما شاءَ كانَ، واللهُ المستعانُ، ولا حَوْلَ ولا قوّةَ إلا باللهِ.

وهذا آخرُ كتاب العلمِ، وتفصيلِ العلوم، ووَصْفِ طريقِ السّلفِ، ونَشْرِ ما أحَدثَ بعَدهُمُ الخَلَفُ.







فهرس موضوعات الجزء الأول

كتاب «قوت القلوب»

الموضـــــــــوع الصفحة

الموضـــــــوع | الصفحة

الموضـــــــــوع | الصفحة

* * *

الجزء الثاني

قوت القلوب

في معاملة المحبوب
ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد

للشيخ أبي طالب المكي
محمد بن علي بن عطية
(ت ٣٨٦ هـ)

حققه، وقدم له، وعلق حواشيه
د. محمود إبراهيم محمد الرضواني

مكتبة
دار التراث



قوت القلوب

في معاملة المحبوب
ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد

للشيخ أبي طالب المكي
محمد بن علي بن عطية
(ت ٣٨٦ هـ)

حققه، وقدم له، وعلق حواشيه
د. محمود إبراهيم محمد الرضواني
دار العلوم - جامعة القاهرة

الجزء الثاني

مكتبة دار التراث

مكتبة دار التراث

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

مكتبة دار التراث

٢٢ شارع الجمهورية - القاهرة - ت : ٣٩١٤٢٢٣

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الثانى والثلاثون [١]

فيه شرح مقامات اليقين وأحوال الموقنين

أصولُ مقامات اليقين التى تُرَدُّ إليها فروعُ أحوال المتقين تسعة؛ أوّلُها: التوبة، والصبر، والشكر، والرجاء، والخوف، والزهد، والتوكل، والرضا، والمحبة؛ وهذه محبة الخصوص، وهى محبة المحبوب.

ذكر فروض التوبة، وشرح فضائلها، ووصف التوابين
[وهو المقام الأول من مقامات اليقين]

قال الله تعالى فى البيان الأوّل من خطاب العموم: ﴿وَتُوبُوا إِلَى الله جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، معناه: ارجعوا إليه من هوى نفوسكم، ومن وقوفكم مع شهواتكم، عسى أن تظفروا ببُغيتكم فى المعاد، وكى تبقوا ببقاء الله عزّ وجلّ فى نعيم لا زوال له ولا نفاد، ولكى تفوزوا وتسعدوا بدخول الجنة، وتنجوا من النار، فهذا هو الفلاح.

وقال فى البيان الثانى من مخاطبته الخصوص: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى الله تَوْبَةً نَصُوحًا عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ﴾ [التحريم: ٨]، فنصُوحًا: من النُّصح، جاء على وزن فَعُولَ، للمبالغة فى النُّصْح. وقد قُرِئَت «نُصوحًا»[٢] بضم النون، فتكون حينئذ مصدر نَصحت له

---

(١) من هنا تبدأ مخطوطة (خ). وعليها أعتمد فى إثبات الزيادات.

(٢) وهى قراءة أبى بكر بن عاصم، وخارجة عن نافع. انظر: السبعة فى القراءات، لابن مجاهد، ص٦٤١.

نُصْحًا ونُصُوحًا. فمعناه: خالصة لله تعالى. وقيل: اشتقاقه من النِّصاح، وهو الخيط، أى مجرّدة لا تتعلق بشىء ولا يتعلق بها شىء. وهو الاستقامة على الطاعة من غير تَفلُّتٍ إلى خطيئة، ولا عودة إلى ذنْبٍ، ولا رَوَغان عن المحجة إلى معصيةٍ[1] كما تروغ الثعالبُ. وأن لا يحدِّث نفسه بعودٍ إلى ذنب متى قدر عليه، وأن يترك الذنب لأجلِ الله تعالى خالصًا لوجهه، كما ارتكبه لأجل هواه، مُجْمعًا عليه بقَلْبه وشَهْوته. فمتى أتى اللهَ عزّ وجلّ بقلبٍ سليمٍ من الهوى، وعملٍ خالصٍ مستقيمٍ على السنّة، فقد خُتم له بحُسنِ الخاتمة، فحينئذ أدركته الحُسنى السابقة، وهذا هو التوبة النصوح، وهذا العبد هو التوَّابُ المتطهِّرُ الحبيب، وهذا إخبار عمَّن سبقت له مِن اللهِ الحسنى، ومَن تَدَارَكَهُ نعمةٌ من ربّه، رَحِمَهُ بها مِنْ ناره[2] السُّوأى، وهو وَصْفٌ لمن قصدَهُ بخطابِه، إذ يقول سبحانه فى كتابه: ﴿**إنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ**﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وكما قال رسول الله ﷺ: «التّائبُ حبيبُ اللهِ، والتّائب مِن الذّنب كمَن لا ذَنبَ لَه».

وسُئل الحسن عن التوبة النصوح؛ فقال: هى نَدَمٌ بالقلبِ، واستغفارٌ باللسانِ، وتركٌ بالجوارح، وإِضمارٌ أن لا يعود إليه.

وقال أبو محمّدٍ سهل، رحمه الله: ليس مِن الأشياءِ أَوْجَب على هذا الخلقِ من التوبة، ولا عقوبة أشد عليهم من فَقْد علم التوبة، وقد جَهِلَ الناسُ عِلْمَ التوبة. وقال: مَن يقول إنّ التوبة ليست بفرضٍ فهو كافر، ومن رضِى بقوله فهو كافر. وقال: التائبُ؛ الذى يتوب من غفلته فى الطاعات فى كل طرفة ونَفَسٍ.

وقد جعل علىٌّ كرّم الله وجهه تَرْكَ التوبةِ مقامًا فى العمى، وقرنَهُ باتباع الظنّ، ونسيانِ الذكر، فقال فى الحديث الطويل: ومن عَمِىَ نَسِىَ الذِّكر، واتّبع الظنَّ، وطلب المغفرةَ بلا توبةٍ ولا استكانة.

---

(١) فى (ط): «وهو الاستقامة على الطاعة من غير روغان إلى معصية كما تروغ الثعالب» وأثبت ما فى (خ).

(٢) فى (ط): «تلوث» وأثبت ما فى (خ).

فقوت[(١)] التوبةِ الذى لا بدّ للتائب منه، ولا يكون محقًا صادقًا إلا به: الإقرارُ بالذنب، والاعترافُ بالظلم، ومقتُ النفسِ على الهوى، وحلُّ الإصرار الذى كان عقده على أعمال السيئات، وإطابةُ الغذاء بغاية ما يقدر عليه؛ لأن الطُّعمة أساس الصالحين، ثم الندمُ على ما فات مِن الجنايات.

وحقيقةُ الندمِ إن كان حقًا، إذ لكلِّ حقٍّ حقيقةٌ: أن لا يعاود إلى مثل ما وقعَ الندمُ عليه، ثم اعتقادُ الاستقامة على الأمر[(٢)]، ومُجانَبةُ النّهى. وحقيقةُ الاستقامة أن لا يقابل ما يَسْتقبل[(٣)] من عمره بمثل ما وقع الاعوجاجُ به، وأن يتَّبع سبيلَ مَنْ أنابَ إلى الله، وأن لا يصحب جاهلاً فَيُرديه. ثم الاشتغالُ بإصلاح ما أفسد فى أيام بطالته؛ ليكونَ من المصلحين الذين تابوا وأصلحوا ما أفسدوا، فإنّ الله عزّ وجلّ لا يُصْلِحُ عَمَلَ المفسدِينَ، كما لا يُضِيعُ أَجْرَ المحسنين. ثم الاستبدالُ بالصّالحات من السّيئاتِ والصّالحات مِن الحسنات، ليكونَ ممَّن تُبدَّلُ سيئاتُه حسنات لتحقُّقه بالتوبة وحسن الإنابة؛ لأنّ التبديل يكونُ فى الدنيا، يبدِّل بالأعمال السُّوأى أعمالاً حسنى، بدليل قوله تعالى: **﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾** [الرعد:١١]. فإذا غيَّر ما بهم من سيِّئٍ حسنًا بدَّل سيئاتِهم حسناتٍ.

ثم الندمُ، ودوامُ الحزن. وحقيقةُ الندم والحزنِ على الفوت أن لا يُفرِّطَ ولا يَنى فى وقت دَرْكِه، ولا يرجع ولا ينثنى فى حين استبداله، فيفوِّت نفسه وقتًا ثانيًا، إذ كان يعمل فى دَرَك ما فات، ولا يفوِّت ما أدرك فى حال تيقُّظه، فتكون يقظته شبيهًا بما مضى من غفلته، إذ كان فى درك ما فات شبيهًا بما مضى من غفلته، إذ لا يُدرَك الفوتُ بالفوت، ولا يُنال النعيمُ بالنعيم، ليكون كما وصف الله تعالى: **﴿وآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِم خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وآخَرَ سَيِّئًا﴾** [التوبة:١٠٢] قيل: الاعتراف والندم.

---

(١) فى (ط): «ففرض التوبة» وأثبت ما (خ).

(٢) فى (خ): «على الطاعة».

(٣) فى (ط): «ما استقبل».

وقال أبو سليمان الداراني: لو لم يبك العاقل فيما بقي من عمره إلا على فوت ما مضى منه في غير الطّاعة، لكان خليقًا أن يحزنه ذلك إلى الممات. فكيف من يستقبل ما بقي من عمره بمثل ما مضى من جهله؟!

وقال أبو محمّد سهلُ بن عبد الله: التّائبُ لا يقلُّه شيءٌ، يكون قلبه متعلقًا بالعرش حتى يفارق النفس، ولا عيشَ له إلا الضّرُورةَ للقِوَامِ.

ويغتمُّ على ما مضى، والجدُّ في الأمر، ومباينة النهي فيما بقي. ولا يتم له ذلك إلا باستعمال علم اليقين في كل شيء، ثم المتابعة بأعمال الصالحات ليكون ممّن قال اللهُ تعالى: ﴿وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٢] أي: يدفعون ما سلف من السيئات بما يعملون من الحسنات.

وكذلك قال النبي ﷺ في حديث أبي ذر: «فإذا عَمِلْتَ سيّئةً فاعْمل بعدَها حسنةً، السرُّ بالسرّ، والعلانيةُ بالعلانية». وفي وصيّة مُعاذ: «أتبع السيئة الحسنة تمحها».

وليدخل في الصالحين، كما قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٩].

ثم المسارعةُ إلى الخيرات إذا قدر عليها، ليدرك بها ما ضيَّع وفات؛ ليكون من الصالحين. وفي هذا المقام يصلح لمولاه فيحفظه ويتولاه، كما قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

وجمل[1] ما على العبد في التوبة وما تعلق بها عشر خصال؛ أولها: فُرض عليه أن لا يعصى الله تعالى. والثانية: إن ابتُلي بمعصية لا يصرُّ عليها. والخصلة الثالثة: التوبةُ إلى الله تعالى منها. والرابعةُ: النَّدمُ على ما فَرَط منه. والخامسة: عقدُ الاستقامة على الطّاعة إلى الموت. والسّادسة: خوفُ العقوبة. والسّابعةُ: رجاءُ المغفرةِ. والثامنةُ: الاعترافُ بالذنبِ[2]. والتاسعة: اعتقادُ أنّ الله تعالى قدّر

(١) في (خ): «فيشتمل».
(٢) في (خ): «بالظلم».

ذلك عليه، وأنه عَدْلٌ منه. والعاشرة: المتابعةُ بالعملِ الصّالح[(١)] ليعمل فى الكفارات، لقوله ﷺ: «وأتبع السيئةَ الحسنة تمحها».

وفى جميع هذه الخصال جملُ آثارٍ رُويناها عن الصّحابة والتّابعين يكثُر ذكرها[(٢)]. ويقال: إنّ ملكَ الموت إذا ظهر للعبد أعْلمه أنه قد بقى من عمرك ساعة، وأنّك لا تستأخر عنها طرفة عين، قال: فيبدو للعبد من الأسف والحسرة ما لو كانت له الدنيا من أوّلها إلى آخرها لخرج منها على أن يُضَمَّ إلى تلك الساعة ساعةٌ أخرى؛ ليُستعتب فيها أو يستبدل بها، فلا يجد إلى ذلك سبيلاً. وهذا تأويل قوله عزّ وجلّ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ قيل: التوبةُ، وقيل: الزيادةُ فى العمر، وقيل: حسنُ الخاتمة. حيل بينهم وبين ذلك ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ﴾ [سبأ: ٥٤] أى: بنظرائهم وأهل فرقتهم. قال: فإذا كلُّ ساعة تمضى على العبد فهى بمنزلة هذه الساعة، قيمتها الدنيا كلها، إذا عرف قيمة ذلك، فلذلك قيل: ليس لما بقى من عمر العبد قيمة إذا عَرَفَ وجهَ التقديرِ من الله تعالى بالتصريف والحكمة.

وقيل فى معنى قوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِى إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [المنافقون: ١٠] قال: الوقت القريب أن يقول العبد عند كشف الغطاء: يا ملك الموت أخِّرنى يومًا أعبد فيه ربى، وأعتب فيه ذنبى، وأتزوَّد صالحًا لنفسى، فيقول: فَنِيَت الأيامُ فلا يوم. فيقول: أخِّرنى ساعة، فيقول: فَنِيت الساعاتُ فلا ساعة. قال: فتبلغ الروح الحلقوم فيؤخذ بكَظْمه عند الغَرْغَرَة، فيُغْلَق بابُ التوبةِ ويُحجَب عنه، وتنقطع الأعمال، وتذهب الأوقات، ويبقى عددُ الأنفاس[(٣)] يشهد فيها المعاينة عند كَشْفِ الغطاء، فيحتدُّ بصرُهُ، فإذا كان فى آخر نفَسٍ زَهِقَتْ نفسُه، فيُدرِكُهُ ما سَبَق له من السّعادة، فتخرُج رُوحه على التوحيد، فذلك حسن الخاتمة، أو يدرِكُهُ ما سبق له من الشّقْوَةِ فتخرُج روحه على الشك،

(١) فى (خ): «بالأعمال الصّالحة».

(٢) فى (خ): «عددها».

(٣) فى (ط): «وتتصاعد الأنفاس».

فهذا الذى قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ الآنَ﴾ [النساء:١٨]. فهذا سوءُ الخاتمة نعوذ بالله منه، وقيل: هذا هو المنافق، ويقال: المدمنُ على المعاصى المصرُّ عليها.

وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى الله لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ [النساء:١٧]. قيل: قبل الموت، وقبل ظهور آيات الآخرة، وقبل الغرغرة، أى: تغرغر النفس فى الحلقوم؛ لأنه تعالى قد حكم أن التوبة بعد ظهورِ أعلام الآخرة لا تُقبل.

ومنه قوله عزّ وجلّ: ﴿يَوْمَ يأتى بَعْضُ آيَاتِ ربِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ يعنى: من قبل معاينة الآيات ﴿أَوْ كَسَبَتْ فى إيمانِها خَيْرًا﴾ [الأنعام:١٥٨] قيل: التوبة هى كسب الإيمان وأصول الخيرات. وقيل: الأعمال الصالحة هى مزيد الإيمان وعلامة الإيقان.

وقد قيل: ﴿ثمَّ يَتوبُون مِن قَرِيبٍ﴾ أى: عن قريب عهد بالخطيئة لا يتمادى فيها ولا يتباعد عن التوبة. وتوبته من قريب أن يعقب الذنب عملاً صالحًا، ولا يُردفه ذنبًا آخر، وأن يخرج من السيئة إلى الحسنة، ولا يدخل فى سيئة أخرى.

وقيل: أول مَنْ يسأل الرجعة من هذه الأمة مَنْ لم يكن أدى زكاة ماله، أو لم يكن حجّ بيت ربه، فذلك تأويل قول الله تعالى: ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحينَ﴾ [المنافقون:١٠]. وكان ابن عباس رضى الله عنه يقول: هذه الآية من أشد شىء على أهل التوحيد، هذا لقوله تعالى فى أوّلها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ الله﴾ [المنافقون:٩]. وقد قيل: لا يَسألُ عَبْدٌ الرَّجْعَةَ عند الموتِ وله عند الله عزّ وجلّ مثقالُ ذرةٍ من خير.

وَرُوينا بمعناه: «مَنْ كان له فى الآخرة مثقال ذرة من خير لو أن له الدنيا بما فيها من أوّلها إلى آخرها لم يحبَّ أن يعودَ إلى الدنيا».

وقال بعض العارفين: إنّ لله تعالى إلى عبده سِرَّين يُسِرُّهُما إليه يوجدُه ذلك

بإلهام يلهمه؛ أحدهما: إذا وُلد وخرج من بطن أمه يقول له: عبدى قد أخرجتُك إلى الدنيا طاهرًا نظيفًا، واستودعتُك عمرك ائتمنتُك عليه، فانظر كيف تحفظ الأمانة، وانظر كيف تلقانى كما أخرجتك. وسرٌّ عند خروج روحه يقول: عبدى، ماذا صنعتَ فى أمانتى عندك؟ هل حفظتَها حتى تلقانى على العهد والرعاية فألقاك بالوفاء والجزاء؟ أو أضعتها فألقاك بالمطالبة والعقاب؟ فهذا داخل فى قوله عزّ وجلّ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون:٨]، وفى قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِى أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠].

عمرُ العبد أمانة عنده؛ إن حفظه فقد أدَّى الأمانة وإن ضيَّعه فقد خان الله، وإن الله لا يحبّ الخائنين. وفى خبر ابن عباس رضى الله عنه: من ضيَّع فرائضَ الله عزّ وجلّ خرج من أمانة الله، وعند التوبة النصوح تكفيرُ السيئاتِ ودخولُ الجنات.

وكان بعضهم يقول: قد علمتُ متى يغفرُ اللهُ لى. قيل: ومتى؟ قال: إذا تاب علَيَّ. وقال آخر: أنا مِنْ أن أُحرمَ التوبةَ أخوفُ منى من أن أُحرم المغفرةَ. وقال الله تعالى، ومَنْ أَصْدَقُ من الله حَدِيثًا: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ﴾ [البقرة:١٨٧]. وقال تعالى فى مثله: ﴿وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ [الشورى: ٢٥].

وقال بعض العلماء: لا تَصِحُّ التوبةُ لعبدٍ حتى ينسى شهواتِه، ويكونَ ذاكرًا للحُزن لا يُفارقُ[1] قَلْبَهُ، ذاهبًا عن الذنب لا يخالجُ سرَّه. وقال بعض علماء الشام: لا يكونُ المُرِيدُ تائبًا حتى لا يكتب عليه صاحِبُ الشِّمال معصيةً عِشْرِينَ سنة.

وقال بعضُ السّلف: من علامة صدق التائب فى توبته أن يستبدلَ بحلاوةِ الهوى حلاوةَ الطّاعةِ، وبفَرحِ رُكوبِ الذّنبِ الحزنَ عليه، والسُّرورَ بحُسنِ الإنابةِ. وقال بعض العلماء فى معناه: لا يكون العبد تائبًا حتى يُدخل مرارةَ مخالفةِ النَّفس مكان حلاوةِ موافقتها.

---

(١) فى (ط): «لا يفارقه».

وحُدِّثنا فى الإسرائيليّات: إن الله عزّ وجلّ قال لبعض أنبيائه وقد سأله قبولَ توبةِ عبدٍ بعد أن اجتهدَ سنين فى العبادة ولم يرَ قبولَ توبته، فقال له: وعزّتى وجلالى لو شَفَع فيه أهلُ السمواتِ والأرضِ ما قَبِلْتُ توبتَهُ وحلاوةُ ذلكَ الذّنبِ الذى تابَ منه فى قلبِه.

ومن بَقِيت حلاوةُ المعصيةِ فى قلبه أو نظر إليها إذا ذكرها بفكرِه خِيف عليه العَوْدُ فيها إلا بشدة مجاهدةٍ، وكراهةٍ لها، ونفى خاطِرِها عن سره اذا ذكرها بالخوف والإشفاق منها.

وقال أبو محمد سَهل: أولُ ما يُؤمر به المبتدئ المريدُ التوبةُ، وهو تحويلُ الحركات المذمومة إلى حركات محمودة، ويُلزم نفسه الخلوة والصمت، ولا تَصِحُّ له توبةٌ إلا بأكلِ الحلال، ولا يقدر على الحلال حتى يؤدى حقَّ الله تعالى فى الخلق، وحقَّ الله تعالى فى نفسه، ولا يصحّ له هذا حتّى يتبرأ من حركته وسكونه إلا بالله تعالى، وحتّى لا يأمن الاستدراجَ بأعمال الصالحات وحقيقةُ التوبة: أن يدعَ مَا لَهُ حتّى لا يدخل فيما عليه، ولا يكون يسوِّف أبدًا، إنَّما يُلزِم نَفسَهُ الحالَ فى الوقت.

وحدَّثونا عن سَرِىٍّ السَّقَطى أنّه قال: من شرط التوبة أنّه ينبغى للتائب المنيبِ أن يبدأ بمباينةِ أهل المعاصى، ثمّ بنفسه التى كان يعصى الله تعالى لها ولا يُنيلها إلا ما لا بدَّ منه، ثم الاعتزامُ على أن لا يعودَ فى معصية أبدًا، ويُلقى عن الناس مؤونَتَهُ، ويدَعَ كلَّ ما يضطره إلى جَرِيرَةٍ، ولا يتبع هوًى، ويتَّبع مَن مضى من السّلف.

وينبغى لأهلِ التوبة أن يحاسبوا نفوسَهُم فى كلّ طرفة، ويدَعُوا كلَّ شهوةٍ ويتركُوا الفضولَ، وهى ستة أشياء: تَرْكُ فضولِ الكلام، وتركُ فضول النظر، وترك فضولِ المشى، وتركُ فضولِ الطعام، والشرابِ، واللباسِ. قال: ولا يقوى على تركِ الشُّبُهات إلاَّ من ترك الشهوات.

وسُئل يحيى بنُ معاذ، رحمه الله: كيف يصنع التائب؟ فقال: هو من عمره بين يومين؛ يوم مضى، ويوم بقى. فيصلحهما بثلاث: أما ما مَضَى فبالنّدم

والاستغفار. وأما ما بقى فبتَرْكِ التخليط وأهله، ولزومِ المريدينَ، ومجالسةِ الذاكرين. والثالثه. لزومُ تصفيةِ الغذاء، والدُّؤوبُ على العمل.

ومن علامة صدق التوبة: رِقّةُ القلب، وغزارةُ الدمع. وفى الخبر: «جالسوا التّوابين فإنّهم أرقّ شيءٍ أفئدةً».

ومن التحقُّق بالتوبة أن يستعظمَ ذنوبَه، فإنّه يقال: إنّ الذنبَ كلّما استعظمه العبدُ صَغُرَ عند الله تعالى. ويقال: إنّ استصغارَ الذّنب كبيرةٌ.

كما جاء فى الخبر: «المؤمنُ: الذى يرى ذنبه كالجبل فوقَه يخافُ أن يقَعَ عليه، والمنافقُ: الذى يرى ذنبَهُ كذُبابٍ مرّ على أنفه فأطارَه». وقد رُوِينا فى خبر مرسل: «ليتَّقِ أحدُكُم أن يُؤخذَ عند أدنى ذُنوبِه فى نفسه».

وقال بعضهم: الذنبُ الذى لا يُغفر قولُ العبدِ: ليتَ كلَّ شيءٍ عملتُه مثلُ هذا، فهذا كما قال بلالُ بنُ سعدٍ: لا تنظر إلى صِغَرِ الخَطِيئةِ، ولكن انظرْ إلى مَنْ عَصَيْتَ.

وقد حُدِّثْنا عن الله تعالى أنه أوحى إلى بعض أوليائه: «لا تنظر إلى قلّة الهداية، وانظرْ إلى عَظَمة مُهْدِيها. ولا تنظرْ إلى صغَر الخطيئة وانظرْ إلى كِبرياء من واجَهْتَه بها». فإنما عَظُمَت الذنوبُ عن تعظيمِ المُواجَهِ بها، وكبُرت فى القلوب لمشاهدةِ ذى الكبرياءِ، ومخالفةِ أمرِهِ إليها، فلم يصغُرْ ذنبٌ عند ذلك، وكانت الصغائرُ عند الخائفين كبائرَ، وهذا أحد الوجهين فى قوله تعالى: ﴿**ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ**﴾ [الحج: ٣٠]، ﴿**ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ**﴾ [الحج: ٣٢] قيل: الحرماتُ تَعْظُم فى قلبه فلا ينتهكُها.

ومن هذا قول الصحابة للتابعين: «إنكم لتعملونَ أعمالاً هى أدقُّ فى أعينكم من الشَّعَرِ كنّا نعدُّها فى عهد النبى ﷺ من المُوبقات». ليسوا يَعْنونَ أنّ الكبائر التى كانت على عهد النبى ﷺ صارت بعده صغائر، ولكن كانوا يستعظمونَ الصّغائرَ لعظمةِ الله تعالى فى قلوبهم لعظيم نور الإيمان، ولم يكن ذلك فى قلوب مَن بعدَهُم.

وأوحى الله تعالى إلى بعض أوليائه: كم من ذنبٍ رأيتُه منك قد أهلكتُ بدونه أمةً من الأمم؟! وقد رُوينا عن أبان بن إسماعيل عن أنس عن النبى ﷺ: «إنّ اللهَ تعالى أَهْلَكَ أمةً من الأمم كانوا يعبثون بذُكُورِهم».

فأما نسيانه الذنوبَ وذكرُها، فقد اختلف قولُ العارفين فى ذلك، فقال بعضهم: حقيقةُ التوبةِ أن تَنْصِبَ ذنبكَ بين عينيك. وقال آخر: حقيقةُ التوبة أن تنسى ذنبك. وهذان طريقان لطائفتين، وحالان لأهل مقامين.

فأمّا ذكرُ الذنوبِ؛ فطريقُ المريدين وحالُ الخائفين، يستخرج منهم بتذكرها الحزنَ الدائم، والخوفَ اللازم.

وأما نسيانُ الذنوب شغلاً عنها بالأذكار، وما يَستقْبِلُ من مزيدِ الأعمال، فطريقُ العارفين وحال المحبين. ووِجْهة هؤلاء شَهادَةُ التوحيدِ، وهى مقامٌ فى التعرُّف. ووِجهةُ الأوّلين مشاهدَةُ التوقيفِ والتحديد؛ وهى مقامٌ فى التعريف.

ففى أىّ المقامين أُقيم عبدٌ قام بشهادة وِجهته وعَمِلَ بحكم حالته. ومَقامُ شهادة التوحيد أفضلُ عند العارفين من مقام مشاهَدَةِ التعريفِ، وإن كانت هذه أوسعَ وأكثرَ إلا أنّها فى أصحاب اليمين، وفى عُموم المقرَّبين. وشهادةُ التوحيد أضيقُ وأقلُّ، وأهلُها أعلى وأفضلُ، وهى فى المقرَّبين وخصوصِ العارفين.

وقد يعترض المريدُ بقصّة داود عليه السلام فى تذكُّره ونَوْحه على خطيئته، فإنّ الأنبياء لا يُقاس عليهم؛ لمجاوزتهم حدودَ من دونهم، وقد يُقلَّبون فى أحوالِ المريدين، ويُسْلَك بِهم سُبُلَ المتعلمين؛ وذلك لأجل الأمّة، ليكون طريقًا للعالمين.

واعلم أنه لا يُؤمَن على ضعيفِ اليقين قَوِىِّ النفس عند تذكّر الذنوب نَظَرُ القلبِ إليها بشهوة، أو ميلِ نفسٍ معها بحلاوة، فيكونُ ذلك سببَ فتنته؛ فيفسدُ من حيث صلَح. كما لا يُؤمَن على معتادِ خطيئةٍ بالنَّظرِ إلى سَبَبها حَرَكَةُ النفس إليها، وإن كان الأفضلُ الاتفاق معها ما لم يكن الاتفاقُ معصيةً، لمجاهدة النّفس بالصبر عنها، إلا أنّ ذلك غَرَرٌ[1]، وفيه خطر، فتركُ الاجتماع وقطعُ الأسباب

---

(١) فى (ط): «غرور».

حينئذ أسلمُ، وما كان أسلَمَ للمُريدِ فهو أفضلُ، وفى نسيان الذنوب الذكرُ لما يَستقبل، والانكماشُ على ما يفوت من الوقت خوفَ فَوْتٍ ثانٍ[1].

وقد كان بعض أهل المعرفة[2] يكره للمريد أن يكونَ وَسْواسُهُ[3] الجنّةَ، أو تَذكُّرَ ما فيها من النعيم واللباس والأزواج. وقال: واستُحبَّ للمريدِ أن يكون وسواسُه ذكرَ الله تعالى، وخواطرُهُ وهممُهُ متعلقةً بالله تعالى لا سواه. قال: لأنّ المريد حديثُ عهدٍ بتوبة غيرُ معتادٍ لطول الاستقامة والعصمة؛ فإذا تذكَّر نعيمَ الجنةِ لم آمن عليه لضَعْفِ قلبِه أن يشتهى مثلَهُ مما يشاهد فى الدنيا من اللّباس والطيبات والنّساء؛ لأنّ هذا عاجل، وذاك آجل، فتطلب نفسُه مثلَ ما تذكّرتْ من نعيم الآخرة معجَّلاً فى الدنيا. قال: فإذا كان همَّه اللهُ تعالى كان أبعدَ له من زينةِ الدنيا وشهَواتها، ولم يجترِ العدوُّ[4] بتمثيل ذلك له من العاجل، إلى أن يَقْوَى يقينُه، وتنتقل عادته، وتدوم عصمتُه.

وقد اختلف أهلُ العلم أيضًا فى عبدٍ تركَ ذنبًا وعمِل فى الاستقامة، ونفسُه تنازعه إليه، وهو يجاهدُها. وفى آخر: تركَ الذنبَ وانكمشَ فى الإصلاح، فلم تكن نفسه تطالبه، فلا تنازعه إلى الذنب، ولم يكن على قلبه منه ثِقَلٌ ولا مجاهدة. أيُّ هذين أفضلُ؟

فقال بعض علماء أهل الشام: الذى تنازعه نفسه إلى الذنب وهو يجاهدها أفضل؛ لأنّ عليه منازعة، وله فضلُ مجاهدة.

ومال إلى هذا القول أحمدُ بنُ أبى الحوارى، وأصحابُ أبى سليمان الدَّارانىّ.

وقال علماءُ البصرة: الذى سكنَت نفسُه عن المنازَعَة بشاهدٍ من شواهد اليقين والطُّمَأْنينة فلم يَبْقَ فيه فضلٌ لعودٍ ولا طَلَبٌ لمعتادٍ أفضلُ.

---

(١) فى (ط): «فوت الثانى» وأثبت ما فى (ك) و(خ).

(٢) فى (خ): «العارفين».

(٣) فى (خ): «وساوسه».

(٤) يجتر العدو: أى يتجرأ عليه.

ومال إلى هذا رياح بنُ عمرو القيسى[١]، وهو من كِبار علماءِ البَصْريين. وقال: لو فَتَرا لكان هذا أقربَ إلى السّلامة ولم يُؤمَن على الأول الرجوعُ[٢]. وهذا كما قال.

وقد اختلف العلماء أيضًا فى عبدين: سُئل أحدُهُما شيئًا مِن بَذْلِ ماله فى سبيل الله، فأبت نفسُه عليه، وثَقُل عليها ذلك، فجاهَدَها وأخرج مالَهُ. وسُئِلَ آخَرُ بَذْلَ مالِهِ فبذَلَهُ مع السّؤالِ طَوعًا من غير مُنازعةِ نَفْسٍ، ولا ثِقَلٍ عليها، ولا مجاهدةٍ منه لها، أيهما أفضل؟

فقال قوم: المجاهِدُ لنفسِهِ أفضلُ؛ لأنّه اجتمعَ له الإكراهُ والمجاهدةُ، فحصل له عملان. وذهب إلى هذا القولِ ابنُ عطاء وأصحابُه. وقال آخرون: الذى سمَحَت نفسه بالبذل طوعًا من غير إكراه ولا اعتراض أفضلُ. قال: لأنّ مقام هذا فى سخاوَةِ النّفس والتحققِ بالزُّهد أفضلُ من جميعِ أعمالِ الأوّل من الإكراهِ والمجاهدة، ومن بَذْلِ ماله على ذلك؛ ولأنّ الأول وإن غلَب نفسَه فى هذهِ الكَرَّةِ لا يأمَنُ غَلَبَتَها لهُ فى كَرَّةٍ ثانية أو ثالثة، إذ ليس السَّخاءُ من مقامها؛ لأنها كانَتْ محمولةً عليه. وإلى هذا ذهب الجُنيد رحمه الله، وهو عندى كما قال، واللفظ لنا.

وسئل أبو محمّد سهل عن الرجل يتوبُ من الشىء ويتركُه، ثم يَخْطِرُ ذلك الشىءُ بقلبِه أو يراه أو يسمع به، فيجدُ حلاوةً؟ فقال: الحلاوةُ طبعُ البشريةِ، ولا بدّ من الطبع، وليس له حيلةٌ إلا أن يرفعَ قلبَه إلى مولاه بالشكوى، ويُنكره بقلبه، ويُلزِم نفسَه الإنكارَ ولا يفارقُه، ويدعو اللهَ تعالى أن يُنسِيَهُ ذِكْرَ ذلك، ويشغَلَه بغيره من ذكرِهِ وطاعته. وقال: فإن هو غَفَل عن الإنكار طرفةَ عينٍ آخاف عليه أن لا يَسْلَمَ، وتعمل الحَلاوةُ فى قلبه، ولكن مع وجدان الحلاوة يُلزم قلبَه الإنكارَ والحزنَ، فإنه لا يضرُّه.

وهذا عندى هكذا؛ لأنّ التوبةَ تَصح[٣] مع بقاءِ الشهوة، ويكونُ العبدُ مرادًا

(١) رياح له ترجمة فى الحلية (٦/ ١٩٢ - ١٩٧).

(٢) فى (ط): «لو فتر هذا لكان هذا ... على الآخر الرجوع» وأثبت ما فى (خ) و(ك). وفترا: على التثنية.

(٣) فى (ط): «لا تصح» وأثبت ما فى (خ).

بالمجاهدة، وهذا حالُ المريدين. ومحوُ الشهواتِ من القلبِ بدوامِ التَّولّي وصفُ العارفين.

وربّما تعلَّق بالذنب ذنوبٌ كثيرة هى أعظمُ منه؛ مثلُ الإصرارِ عليه، والاغتباطِ به، وتسويفِ التوبة بعده، ووَجْدِ حلاوةِ الظَّفَر بمثاله، أو وَجْدِ الحزنِ والكراهةِ على فوته، والسرورِ بعمله أو حَمْلِ غيرِهِ عليه إن كان ذنبًا بين اثنين، أو إنفاقِ مالِ الله سبحانه وتعالى فيه، فهو كفرُ النّعمةِ به. وقد قيل: من أنفق دِرْهمًا فى حَرام فهو مسرف.

ومن ذلك: أن يستصغرَ الذنبَ ويحتقرَهُ فيكون أعظمَ من اجتراحِهِ، أو يتهاونَ بستر الله تعالى عليه ويستخفَّ بحلم الله تعالى عنه، فيكون ذلك من الاغترار والأمن، أو يجهل نعمةَ الله تعالى عليه فى ستره وإظهارِ ضدِّه، كما قال فى الدعاء المأثور الذى يُمْدَحُ اللهُ سبحانه وتعالى به: «يا مَنْ أظهَرَ الجميلَ، وسترَ علىَّ القبيحَ، ولم يؤاخذ بالجريرة، ولم يَهتِك السِّتر». ويقال: كلُّ عاصٍ تحت كَنَف الرحمن، فإذا رفع يَدَهُ عنه انهتك سترُه.

ومن ذلك: المجاهرةُ بالذنب والصّول به والتّظاهرُ، وهذا من الطغيان، وفى الخبر: «كلُّ الناسِ معافًى إلا المجاهِرين، يبيت أحدُهم على الذّنب قد ستره الله تعالى عليه، فيصبحُ فيكشفُ سِتْرَ اللهِ تعالى ويتحدثُ بذنبهِ».

وربّما سَنَّ العاصى بالذنب سنّةً اتُّبِعَ عليها، فتبقى سيئاتُ ذنبِهِ عليه ما دام يُعمل به. وقد قيل: طُوبى لمن إذا ماتَ ماتَتْ ذُنوبُه معه ولم يُؤاخَذ بها بعده! وطوبى لمن لم يَعُدَّ[١] ذَنَبه غَيْرُه. وقال بعضهم: لا تُذنبْ، فإن كان لا بُدَّ فلا تحملْ غيرَك على الذنب فتكسب ذَنبين. وقد جعل اللهُ تعالى هذا المعنى وصفًا من أوصاف المنافقين فى قوله تعالى: ﴿**الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ**﴾ [التوبة:٦٧]. فمن حمل أخاه على ذنب معه فقد أمر بالمنكر ونهى عن المعروف.

(١) فى (ط): «لم يعدد».

وقال بعض السّلف: ما انتهك المرءُ من أخيه حرمةً أعظمَ من أن يساعده على معصيته ثم يُهوِّنها عليه.

وقد يعيشُ العبدُ أربعين سنةً ثم يموت فتبقى ذنوبُه بعده مائة سنة، يُعاقَب عليها فى قبره إذا كان قد سنّها سُنَنًا[1] واتُّبِع عليها، إلى أن تندرسَ أو يموتَ من كان يعمل بها، ثمّ تسقُطُ عنه ويستريحُ منها.

ويقال: أعظمُ الذنوبِ مَنْ ظَلم مَنْ لا يعرفُهُ ولم يرَهُ من المتقدمين؛ مثلُ أن يتكلم فيمن سلَف من أهل الدين وأئمةِ المتقين.

فهذه المعانى كلّها تدخل على الذّنب الواحدِ وهى أعظمُ منه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ**﴾ [يس: ١٢] قيل: سننُهُم التى عُمِل بها بعدَهُم.

وفى الخبر: «مَنْ سنَّ سنَّة سيئةً، فعَمِل بها مَنْ بَعْدَه، كان عليه مثلُ وِزر مَنْ عَمِل بها لا يَنقُصُ من أوزارِهم شيئًا».

وكان ابنُ عباس رضى الله عنهما يقول: ويلٌ للعالِم من الأتباعِ، يزلُّ زلَّةً فيرجعُ عنها، ويحتملُها الناسُ فيذهبون بها فى الآفاق. وقال بعضُ أهل الأدب: مَثَلُ زلَّةِ العالِمِ مثلُ انكسارِ السّفينةِ تَغرقُ ويغرق الخَلقُ معها.

وفى الخبر الإسرائيلى: إنّ عالِمًا كان يُضِلُّ الناسَ بالبِدَعِ، ثم أدركَتْهُ توبةٌ، فرجع إلى الله تعالى، وعمِل فى الإصلاح دهرًا، فأوحى الله تعالى إلى نبيهم: قل له: إنّ ذنبك لو كان فيما بينى وبينك لغفرته لك بالغًا ما بلَغ، ولكن كيف بمَن أضللتَ من عبادى فأدخلتَهُمُ النارَ؟!

فأما استحلالُ المعصية أو إحلالُها للغير، فليس من هذه الأبواب فى شىء، إنّما ذلك خروجٌ عن المِلَّة، وتبديلٌ للشريعة، وهو الكفر بالله تعالى، كما روى عن النبى ﷺ: «ما آمن بالقرآن مَن استحلَّ محارِمَه». وقد سمّى الله تعالى عَمَلَةَ السُّوءِ جَهَلَةً فقال تعالى: ﴿**أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ**﴾ [الأنعام: ٥٤]. وقال

---

(١) فى (ط): «سنًّا».

تعالى: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٥]. وقال: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨١].

ويقال: إنّ العرشَ يهتزّ ويغضبُ الرّبُّ تعالى لثلاثة أعمال: لقتلِ النّفس بغيرِ نفس، وإتيانِ الذّكَرِ الذّكَرَ، وركوبِ الأنثى الأنثى. وفى خبر: «لو اغتسل اللّوطى بالبحار لم يطهِّره إلا التوبة».

ولو لم يكن فى يسير المعصية من الشّؤم إلا حرمانُ الطّاعة وفقدُ حلاوة الخدْمة ومقتُ المولى لكان هذا من أعظم العقوبات. كما قال وُهَيبُ بنُ الوَرْدِ وقد سُئل: هل يجد العاصى حلاوةَ الطاعة؟ قال: لا، ولا من هَمَّ بمعصية. ولذلك سمّى الله تعالى «يحيى» سيِّدًا؛ لأنّه لم يهمَّ بمعصية، فصار علامةَ السَّيِّد بقدر سُودَده[1] مَن لا يَهُمُّ بالمعاصى، فصار مَن لا يهمّ بالمعاصى سيِّدًا. وفى خبر: «مَنْ لَبِسَ ثَوْبَ شُهْرَة ـ وفى بعضها: مَنْ نَظر إلى عِطْفَيْه ـ فاخْتالَ أعرضَ اللهُ تعالى عنه وإن كان عندَه حَبِيبًا». كيف، وفى المخالفة وجودُ البعدِ والوَحشةِ والانقطاع من المعاملة!

ورُوينا فى خبر: «إنّ آدم، عليه السلام، لمّا أكل من الشّجرة تَطايَرَت الحُلَلُ عن جسده وبدَتْ عَورتُهُ، قال: فاستحيا التاجُ والإكليلُ من وجهه أن يَرتفعا عنه، فجاءَهُ جبريلُ، عليه السلام، فأخذ التاجَ عن رأسِه، وحَلَّ مِيكائيلُ الإكليلَ عن جبينه، ونوديا من فوق العرش: اهبطا من جوارى، فإنّه لا يجاورنى من عَصانى. فالتفتَ ادمُ إلى حوّاءَ باكيًا، وقال: هذا أولُ شؤم المعصية، أُخرجنا من جِوار الحبيب».

ورُوينا أن سُليمان نبىّ الله ﷺ لما عُوقب على خطيئتِه من أجل التّمثال الذى عُبِدَ فى داره أربعين يومًا، وقيل: إن المرأة سألته أن يحكم لأبيها على خصمه فقال: نعم ولم يفعل، وقيل: بل أحبَّ بقلبه أن يكون الحُكْمُ لأبيها على خَصمه لمكانها ـ فسُلِب ملكُه أربعين يومًا، فهرب تائهًا على وجهِه، وكان يسأل بكفه فلا يُطعَم، فإذا قال: أطعمونى فإنى سليمان بن داود شُجَّ وضُرِب. ولقد بلغنى أنه

(١) فى (ط): «بقدر سودد». والسُّودَد: الشرف، وقد يهمز، يقال: السُّؤدُد.

استطعم من بيتٍ فطُرِد وبَزقت امرأةٌ فى وجهه. وفى رواية قال: فأخرجت إليه عجوز جَرَّة فيها بَوْلٌ فصبَّتْهُ على رأسِهِ. إلى أن أُخْرِجَ له الخَاتمُ من بَطْنِ الحوت، فلبسه بعد انقضاء الأربعين، وهى أيام العقوبة. قال: فجاءت الطَّيرُ فعكفتْ عليه، وجاءت الجِنُّ والشَّياطين والوُحوش فاجتمعت حولَه، فلمّا عرفه الصّيادون عقرُوا بين يديه، واعتذروا إليه مما كانوا طردُوه وشجُّوه، فقال: لا ألومُكُم فيما صَنعتم قَبْلُ، ولا أحمَدُكم فيما تَصْنعون الآن، هذا أمرٌ من السماء فلا بُدّ منه.

ولقد بلغنى أنّه كان فى مسيرِه والريحُ تحمله فى جنوده، إذ نظر إلى قَميصهِ نَظرَةً، وكان عليه قميصٌ جديد، فكأنه أعجبه، فوضعته الريحُ بالأرض، فقال لها: لِمَ فعلتِ ولم آمرك؟ قالت: إنّما نطيعك إذا أطعتَ اللهَ تعالى.

وقد قال بعض العلماء فى معنى هذا: مَن خَاف اللهَ تعالى خَافَهُ كُلُّ شىء، ومن خافَ غيرَ الله تعالى أخافَهُ اللهُ تعالى من كلِّ شىء. فكذلك أيضًا: من أطاعَ اللهَ تعالى سخَّر له كلَّ شىء، ومن عصاه سخَّره لكلِّ شىء، أو سلّط عليه كلَّ شىء.

ولو لم يكن فى الإصرارِ على المعصية مِن الشُّؤم إلا أنّ كلَّ ما يصيبُ العبدَ يكون له عقوبة، إن كان سَعَةً عوقب بذلك ولم يأمن بها الاستدراج، وإن كان ضِيقًا كان عقوبةً له.

وفى الخبر: «إن العبد ليُحرَمُ الرزقَ بالذنبِ يُصيبُه».

وقد قيل: الرِّزقُ من الحرام من قلّة التوفيقِ للأعمال الصّالحة. وكان ابنُ مسعودٍ رضى الله عنه يقول: إنى لأحسَبُ أنَّ العبدَ ينسَى العِلْمَ بالذَّنبِ يُصيبُهُ.

ولو لم يكن من بركة التّوبة والعِلم والاستقامة على الطّاعة إلا أنَّ كلَّ ما يصيب العبدَ فهو خير له، إن كان سَعَةً فهو رِزْق[1] منَّ الله تعالى به عليه، ولطفٌ له منه؛ وإن كان ضِيقًا فهو اختبارٌ من الله تعالى وخِيرَةٌ للعبد، ويجد حلاوةَ ذلك ولذّته، لأنّه فى سبيله، وقد أصابه وهو مقيم على طاعته.

(١) فى (ط): «رفق».

ولو لم يكن من شُؤم النّاس ووَجْدِ النّقصِ لمخالطتهم إلا أنّ المعصية معهم أشدُّ، وهى بهم أعظمُ لتعلُّق المظالمِ فى أمر الدّنيا وشأنِ الدِّين، وكلُّ مَنْ قلَّت معارفه قلَّتْ معهم خَطاياهُ. وقال بعضُ السّلف: ليست اللّعنةُ سوادًا فى الوجهِ ونقصًا فى المال، إنّما اللعنةُ أن لا يخرجَ من ذنب إلا وقع فى مثله أو شرٍّ منه، وذلك أنّ اللعنةَ هى الطّردُ والبعد، فإذا طُرد من الطّاعة فلم تُيَسَّر له[1] وبُعِّدَ عن القُرُبات فلم يُوَفَّق لها، فقد لُعِن.

وقد قيل فى معنى الخبر الذى رويناه آنفًا: «إنّ العبدَ ليُحرَمُ الرِّزقَ بالذَّنب يُصيبُه» قيل. أن يُحرَمَ الحلالَ، ولا يُوفَّق له بوقوعه فى المعصية. وقيل: يُحرَمُ مجالسةَ العلماء، ولا ينشرح قلبُه لصُحبة أهل الخيرِ. وقيل: يَمقُتُه الصّالحون وأهلُ العلم بالله تعالى، فيُعرضون عنه. وقيل: يُحرَمُ العلمَ الذى لا صَلاحَ للعملِ إلا به؛ لأجل إقامته على الجهْل، ولا تنكشف له الشُّبهاتُ بإقامته على الشّهوات، بل تلتبسُ عليه الأمور فيتحيَّر فيها بغيرِ عِصْمةٍ من الله تعالى، ولا يُوفَّق للأصوبِ والأفضل.

وقد كان الفُضَيلُ يقول: ما أنكرتَ مِن تغيُّر الزمان وجفاء الإخوان، فذنُوبُكَ أورَثَتْك[2] ذلك.

ويقال: نِسيانُ القُرآن بعد حفظه مِن أشدِّ العقوبات، والمنعُ من تلاوتِه وضيقُ الصّدرِ بقراءتِه والاشتغالُ عنه بضدِّه عقوبةُ الإصرارِ.

وقال بعضُ صُوفية أهلِ الشّام: نظرتُ إلى غُلام نصْرانيٍّ حَسَنِ الوَجْه، فوقفت أنظر إليه، فمرَّ بى ابن الجلاَّء الدِّمَشْقيُّ، فأخذَ بيدى، فاستحْيَيْتُ منه، فقلتُ: يا أبا عبد الله، سبحان الله! تعجَّبتُ من هذه الصّورة الحسنة، وهذه الصَّنعة المُحْكمة، كيف خُلقت للنّار! فغمزَ يدى وقال: لتجدَنّ عقوبتَهُ بعدَ حين. قال: فعُوقِبْتُ بَعْدَ ثلاثينَ سَنَةً.

---

(١) فى (خ): «فإذا طرد من الطاعات ولم يتيسر له».

(٢) فى (خ): «ورّثتك».

وقال بعضهم: إنّى لأعرِف عقوبةَ ذَنْبِى فى سُوءِ خُلُق حمارِى. وقال آخر: أعرِفُ العُقوبةَ حتَّى فى فأرِ بيتى[1].

وحدَّثُونا عن منصورِ الفقيه قال: رأيت أبا عبدِ الله السّكرى فى النّوم فقلتُ: ما فعلَ اللهُ بك؟ قال: أوقفنى بين يديه فى العَرَق حتّى سقَط لحمُ خدِّى. قلت: ولِمَ ذاك؟ قال: نظرتُ إلى غُلامٍ مُقبلاً ومُدبرًا.

والعقوبةُ موضوعُها الشِّدة والمشقّة. فعقوبةُ كلِّ عبدٍ من حيثُ يشتدّ عليه؛ فأهلُ الدّنيا يُعاقبون بحِرْمان رزقِ الدنيا؛ من تعذُّر الإكسابِ وإتلاف الأموال، وأهلُ الآخِرة يُعاقبون بحرمان رزق الآخرة من قِلّة التوفيقِ للأعمالِ الصالحات، وتعذُّر فتوحِ العلومِ الصّادقة، ذلك تقدير العزيزِ العليم. وكان أبو سُلَيمان الدّارانىُّ يقول: الاحتلامُ عقوبة. وقال: لا تفوت أحدًا صلاةٌ فى جماعةٍ إلا بذنب يُحْدِثُهُ.

فدقائقُ العقوباتِ على قَدْرِ ترافُع[2] الدّرجات.

وقد جاء فى الأخبار: ما أنكرتم من زمانكم فبما غيَّرتم من أعمالكم. وفى الخبر: «يقولُ الله عزّ وجلّ: إنّ أدنى ما أصنعُ بالعبد إذا آثر شهوته على طاعتى أن أحرمَه لذيذَ مناجاتى». فهذه عقوبةُ أهل المعاملات.

ولو ظهر تغيّرُ القلبِ عند المعصية على وجه العاصى لاسودَّ وجهه، ولكنَّ اللهَ تعالى سلَّم بحلمه وسِتْرِه، فغطَّى ذلك فى القلب مع تأثيره فيه، وحجابه لصاحبه، وقسوتِهِ عن الذِّكر، وعن طلب الخير والبر، والمسارعةِ إلى الخير، وهو من أكبرِ العُقوبات.

ويقال: إن العبدَ إذا عصى أظلم قلبُهُ ظُلمةً يثور على العَقْل[3] منها دخانٌ يشهده الإيمان، فهو مكانُ حزن العبد الذى تسوءُه سيئتُه، ويكون ذلك الدّخَان حجابًا له عن العلم والبيان، كما تحجب السّحابةُ الشمسَ فلا تُرى، ويكون غُلْفًا يجده فى نفسه للخَلْقِ، فإذا تاب العبدُ وأصلحَ انكشفَ الحجابُ، فيظهر الإيمانُ

---

(١) فى (ط): «نار بيتى» والصواب ما فى (خ)، وفى (ك): «فى تسليط فارتى علىّ».

(٢) فى (خ): «جلائل».

(٣) فى (ط): «على القلب» وأثبت ما فى (ك) و (خ).

فيأمرُ بالعلم، كما تبرز الشمسُ من تحت الحجاب. ومن هذا قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤] قيل: هو الذنبُ على الذنب حتى يَسودَّ القلبُ، ويصير الإيمانُ تحت الحجاب، فلا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا، وعندها يُنكّس أعلاه أسفلَهُ إذا استكمل سَوادُه. فَثَمَّ مَرَدَ على النِّفاق، فحينئذ أملس فيه[1]، واطمأنَّ به وثَبَتَ، إلى أن ينظرَ الله تعالى إليه، فيتعطَّفَ بفضله عليه.

وقد كان الحسنُ رضى الله عنه يقول: إنّ بين العبد وبين ربه عزّ وجلّ حدًا من المعاصى معلومًا، إذا بَلغَهُ العبدُ طُبِع على قلبه، فلم يُوفِّقْه بعدها لِخَيْرٍ.

وفى حديث ابن عمر: «الطّابَعُ معلّق بقائمةِ العرش، فإذا انتُهكت الحرمات، واستُحِلّت المحارمُ، أرسل اللهُ تعالى الطابَعَ فطُبِع على القلوب بما فيها».

وفى حديث مجاهد: «القلبُ مثلُ الكفّ المفتوحة، فكلّما أذنب ذنبًا انقبضت أصبَعٌ، حتى تنقبض الأصابع كلُّها، فيُشَدُّ على القَلْب، فذلك هو القُفْل».

ويقال: لكلّ ذنب نباتٌ يَنبُتُ على القلب، فإذا كثُرت الذّنوب قام النباتُ حولَ القلب مثلَ الكُمِّ للثّمرة، فانضمَّ على القلب، فذلك هو الغلاف. ويقال: إنّه الكِنانُ؛ واحِدُ الأكِنَّة التى ذكر الله تعالى: أنّ القلبَ لا يسمعُ معها ولا يَفْقه.

وقد حدثنى بعض هذه الطّائفة عن أبى عمروِ بنِ عُلوَانَ فى قصّة تطول، قال فيها: فكنتُ قائمًا أصلِّى ذات يومٍ، فخامرَ قلبى هوًى[2] طاولته بفكْرى، حتّى تولّد منه شهوة الرجل، قال: فوقعتُ إلى الأرض، واسودَّ جسدى كلُّه، فاستترت فى البيت ثلاثةَ أيّام فلم أخرج، وقد كنتُ أعالج غسلَه فى الحمام بالصابون والألوان الغاسلة فلا يزداد إلا سوادًا، قال: ثم انكشف عنى بعد ثلاث، فرجعتُ إلى لونى البياض، قال: فلقيتُ أبا القاسم الجنيدَ رحمه الله، وكانَ وجَّه إلىَّ

(١) فى (ط): «فحينئذ مرد على النفاق فأملس فيه». ومرد على النفاق: أقدم عليه حتى بلغ فيه الغاية. وأملس فيه: أسرع.

(٢) فى (ط): «هواء».

فأشخَصنى مِن الرَّقَّة، فلمّا أتيتُهُ قال لى: أما استحييتَ من الله تعالى؛ كنتَ قائمًا بين يديه، فسامَرَتْ نفسُكَ شهوةً، حتّى استولتْ عليك بِرَقَّة، فأخرجَتْكَ من بين يَدَى الله تعالى، ولولا أنِّى دعوتُ الله عزّ وجلّ لكَ وتبتُ إليه عنكَ لَلقيتَ اللهَ تعالى بذلك اللون. قال: فعجبتُ كيف علم بذلك وهو ببغداد وأنا بالرَّقَّة، ولم يطَّلع عليه إلا الله عزّ وجلّ.

فذكرتُ هذه الحكاية[١] لبعض العلماء، فقال: كان هذا رفقًا من الله تعالى به وخِيَرَةً له، إذ لم يَسودَّ قلبه، وظهر السَّوادُ على جسده، ولو بطَنَ فى قلبهِ لأهْلكه[٢]. ثم قال: ما من ذنبٍ يرتكبُهُ العبدُ يصرُّ عليه إلا اسودَّ القلبُ منه مثلَ سواد الجسم الذى ذكره، لا يجلوه إلا التوبة. ولكن ليس كلّ عبد يُصْنَعُ له صُنعَ ابن عُلوَان، ولا يجد من يَلْطُفُ له به مثل أبى القاسم الجنيد رحمه الله.

ولكلّ ذنبٍ عقوبة إلا أن يعفو الله. والعقوبةُ ليست على قدرِ الذنب، ولا من حيث يعلم العبد، لكنّها على تقدير المشيئة، وعن سابِق عِلْم الرُّبوبية، فربّما كانت فى قلب وهى من أمراض القلوب، وربّما كانت فى الجسد، وقد تكون فى الأموال والأهل، وقد تكون فى سُقوط الجاه والمنزلة من عيون علماء الإسلام والمؤمنين، وقد تكون مؤجَّلة فى الآخرة؛ وهذه أعظم العقوبات، وهى لأهل الكبائر من الموبقات الذين ماتوا عن غير توبة، ولأهل الإصرارِ والغِرَّة والاستكبار؛ لأنهّا إذا كانت فى الدنيا كانت يسيرة على قدر الدنيا، وإذا تأخرت كانت عظيمة على قَدْرِ الآخرة. [واعلم أن العلل فى الأجسام قد تكون كفارات للذنوب][٣]. وفى الخبر: «إذا أرادَ الله تعالى بعبدٍ خيرًا عجّل له عقوبةَ ذنبِه، وإذا أراد به شرًّا أخَّره حتّى يوافى به الآخرة».

واعلم أنَّ الغمَّ على ما يفوتُ من الدنيا والهمَّ بالحرص عليها من العُقُوباتِ،

---

(١) فى (ط): «الحكايات».

(٢) فى (ط): «لأهلك».

(٣) ما بين المعكوفتين من (ك). والملاحظ أن نسخة (ك) هنا فيها بعض الاختصار والتقديم والتأخير فى النصوص، لذلك كان اعتمادى عليها ضئيلاً فى ضبط النص، بجوار نسخة (خ).

والفرَحَ والسُّرورَ بما نال من الدّنيا مع ما لا يبالى ما خرج من دينه من العقوبات.

وقد تكون عقوبةُ الذَّنْبِ ذنبًا مثله أو أعظمَ منه، كما يكون ثوابُ الطّاعة طاعةً مثلَها أو أفضلَ منها. وقد يكون دوامُ العوافى واتّساعُ الغِنى من عُقوبات الذُّنوب إذا كانا سَبَبَيْن إلى المعاصى. وفى أحد الوجوه من معنى قوله تعالى: **﴿وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أراكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾** [آل عمران:١٥٢] قال: الغِنَى والعافية. فهُما أمّهاتُ المعاصِى إذا كانا لها سببَينِ ومُطَرِّقَيْنِ إليها. فقد صارَ الفقْرُ والمرضُ رحمةً من الله تعالى إذا كانا سبَبا العِصْمة»(١).

واعلم أن الحلم لا يرفع العقوبة ولكن يؤخِّرها، ومن شأن الحليم أن لا يعجِّل بالعقوبة وقد يعاقب بعد حين.

ورُوينا فى معنى قوله تعالى: **﴿فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾** [الأنعام:٤٤] أى: الرُّخْص والرَّغَد، حتّى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة، قيل: بعد ستينَ سنة. وفى الخبر: «من الذّنوب ذنوب لا يكفِّرها إلا الهمُّ بطلب المعيشة». وفى لفظ آخر: «لا يكفّرها إلا الهمومُ». فالأحزانُ والاهتمامُ بالمباحات من حاجات الدنيا للفقراء كفّاراتٌ، وهو على ما يفوتُ من قُربات الآخرةِ للمؤمنين دَرَجاتٌ، وهو على حبِّ الدنيا والجمعِ منها والحرص عليها عُقوباتٌ.

وقال بعض السّلف: كفى به ذنبًا لا يُستغفَرُ منه حبُّ الدنيا. وقال آخر: لو لم يكن للعبد من الذنوب إلا أنّه يَغْتَمُّ بمصائب الدنيا بما يَفوتُهُ منها ما لا يَغتمُّ بِفَوْتِ نصيبِه من الآخرة والتزوُّدِ لها(٢).

وفى حديث عائشة رضى الله عنها: «إذا كثُرت ذنوبُ العبد، ولم يكن له من الأعمال ما يكفِّرها، أدخلَ اللهُ عزّ وجلّ عليه الغمومَ والهمومَ، فتكونُ كفّارةً لذنوبه».

(١) هذه الفقرة برمتها كانت مضطربة بالمطبوعة فأثبتها من نسخة (خ) مع زيادات ليست بالمطبوعة، وسيتكرر مثل ذلك كثيرًا.

(٢) فى (ط) وردت هذه الجملة كالآتى: «إلا أنه يقيم بمصائب الدنيا بما لا يقيم بما لا يفوته فيها من نصيب الآخرة والتزود لها» والصواب ما أثبت من (خ).

ويقال: إنّ الهمَّ الذى يَعْرِض للقلب فى وقتٍ لا يعرف العبدُ سببَه[١] هو كفّاراتُ الهمِّ بالخطايا. ويقال: هو حزنُ العقل عند تذكره الوقوفَ والمحاسبةَ لأجل جنايات الجسد، فيلزم العقلَ ذلك الهمُّ، فيظهر على العبد منه كأنه لا يعرف سبب غمِّه.

ومن أخبار يعقوب عليه السلام أن الله تعالى أوحى إليه: لولا ما سبقَ لك فى علمى من عنايتى بك لجعلتُ نفسى عندك أبخلَ الباخلين، لكثرة تَردادِك إلىَّ بطولِ سؤالك لى، وتأخيرى إجابتَكَ، ولكن من عنايتى بك أن جعلتُ نفسى فى قلبك أنّى أرحمُ الراحمين وأحكمُ الحاكمين، وقد سبق لك عندى منزلةٌ لم تكن تنالُها بشىءٍ من علمك إلا بحزنك على يوسف، فأردتُّ أن أبلِّغك تلك المنزلة.

وكذلك ما رُوينا أن جبريل عليه السلام لما دخل على يوسف عليه السلام فى السِّجن قال له: كيفَ تركتَ الشّيخ الكئيب؟ قال: قد حزن عليك حزنَ مائة ثكْلَى. قال: فماذا له عند الله تعالى؟ قال: أجرُ مائة شهيد.

وفى خبر رويناه عن السلف: ما من عبدٍ يعصى إلا استأذن مكانُه من الأرض أن يخسف به، واستأذن سقفُه من السماء أن يسقط عليه كِسَفًا، فيقول الله عزّ وجلّ للأرض والسماء: كُفَّا عن عبدى وأمهلاه، فإنكما لم تخلقاه، ولو خلقتُماه لَرحمتُماه، لعله يتوب إلىَّ فأغفر له، لعله يستبدلُ صالحًا فأبدله حسنات. فذلك معنى قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَوات وَالأَرْضَ أَن تَزُولاَ**﴾ أى: من معاصى العباد ﴿**وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا**﴾ أى: عن معاصيهم ﴿**غَفُورًا**﴾ [فاطر: ٤١] لمساوئهم.

وقيل فى تفسير ذلك: إنّ الله عزّ وجلّ إذا نظر إلى معاصى العباد غَضِب، فترجفُ الأرض وتضطرب السماء، فتنزل ملائكةُ السماءِ فتمسك أطرافَ الأرضين، وتصعد ملائكة الأرضين فتمسك أطراف[٢] السموات، ولا يزالون

(١) فى (ط): «سبب ذلك».

(٢) فى (ط): «على أطراف».

يقرؤون: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ حتى يسكن غضبه سبحانه وتعالى، فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمٰوات﴾ الآية.

وقال بعض العلماء: إذا ضُرِبَ الناقوسُ فى الأرض، ودُعى بدعوة الجاهلية، اشتدَّ غضب الربِّ سبحانه وتعالى، فإذا نظر إلى صِبيان المكاتب، ورأى عُمّار المساجد ـ وقيل: إذا نظر إلى المتحابين فى الله أو المتزاورين له، وسَمِع أصواتَ المؤذِّنين ـ حَلُمَ وغفَر، فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

فإذا[1] أَتْبَعَ العبدُ الذنبَ بالذنب، ولم يجعل بين الذَّنبين توبةً، خِيفَ عليه الهَلَكَة؛ لأنّ هذا حال المصرِّ، ولأنّه قد شَرَد عن مولاه بتَرْكِ رجوعه إليه، ودوام مقامه مع النفس على هواه، وهذا مقامُ المقتِ فى البعد، وأفضلُ ما يعمَلُه العبد قطعُ شهواتِ النفس أحلى ما يكون عنده الهوى، إذ ليس لشهواتها آخِرُ يُنتظر، كما ليس لبدايتها أوّلٌ يُرتَسم، فإن لم يقطع ذلك لم يكن له نهاية، فإن شُغل بما يستأنف من مزيد الطاعة، ووجد حلاوةَ العبادة، وإلا أخذ نفسه بالصبر والمجاهدة، فهذا طريقُ الصّادقين من المريدين.

وقيل فى قوله تعالى: ﴿اسْتَعِينُوا بالله وَاصْبِرُوا﴾ [الأعراف:١٢٨] أى: استعينوا به على الطّاعة، واصبروا على المجاهدة فى المعصية.

وقال علىٌّ كرمّ الله وجهه: أعمالُ البرِّ كلُّها إلى جنب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كتَفْلة إلى جنب البحر، والأمرُ بالمعروف والنهىٌ عن المنكر إلى جنب الجهاد فى سبيلٍ الله تعالى كتَفْلة فى جَنب بحر، والجهادُ فى سبيل الله تعالى إلى مُجاهدةِ النفس عن هواها فى اجتناب النهى كتَفْلةٍ فى جنب بحرٍ لُجِّيٍّ. وعلى هذا معنى الخبر الوارد: «رجعتُم من الجِهادِ الأصْغرِ إلى الجهادِ الأكبر، مجاهدةُ النّفس».

وكان سهلُ بن عبد الله يقول: الصبرُ تصديقُ الصِّدق، وأفضلُ منازل الطّاعة صبرٌ على معصيةٍ، ثمّ الصّبر على الطّاعة.

(١) قبله فى (ك) عنوان رئيسى: «بقية شرح مقام التوبة ووصف التائبين».

وقد رُوينا فى الإسرائيليات: أنَّ رجلاً تزوّج امرأةً فى بلدة، وأرسل عبده يحملها إليه، فراودته نفسُه[1] وطالبته بها، فجاهدها واستعصم بالله، قال: فنبَّأه الله تعالى، فكان نبيًا فى بنى إسرائيل.

وفى بعض قَصص مُوسى عليه السلام أنّه قال للخَضْر عليه السّلام: بأىّ شىءٍ أطلعك الله تعالى على عِلم الغيب؟ فقال: بترك المعاصى لأجلِ الله تعالى.

فالجزاءُ مِن الله تعالى يجعله غايةَ العطاءِ، لا على قَدْر العمل، لكن إذا عَمِل له عبدٌ شيئًا لأجلِه أعطاه أجره بغير حساب.

ثم أن لا يتخذ التائبُ عادةً من ذنب فيتعذَّر بها توبتُه، فإنّ العادة جندٌ من جنود الله تعالى، لولاها لكان الناسُ كلُّهم تائبين، ولولا الابتلاءُ لكان التائبونَ مستقيمين. ثمّ أن يعمل فى قطع معتادٍ، إن كان، ثم ليصبر على مجاهدةِ النّفس فى هوًى إن بُلى به.

فهذه الخصالُ من أفضلِ أعمال المريدين وأزكاها، ومعها تُلهَم النفس المطمئنة رُشدها وتقواها، وبها تخرج من وصف الأمّارة بالسّوء إلى وصفِ المطمئنة؛ إلى أخلاقِ الإيمان والقرآن.

وهذا أحد المعانى فى الخبر الذى رُوى: «أفضلُ الأعمالِ ما أكْرهتُم عليه النّفوس»؛ لأنّ النفْس تكره خلافَ الهوى، والهوى هو ضدُّ الحقِ، والله تعالى يحب الحقَّ، فصار إجْبارُ النّفْس على خلاف الهوى وعلى وفاق الحق، لأنّ محبة الحق من أفضل الأعمال، كما قال تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ [الأعراف:٨] الآية. واستثنى من أهل الخُسْر الذين تواصَوْا بالحقّ وتواصوا بالصّبر، وهذا أوّل اليقين.

وحُدِّثت عن بعض أهل الاعتبار أنّه كان يمشى فى الوَحْل، فكان يتَّقى، ويشمّر ثيابه عن ساقيه، ويمشى فى جوانب الطريق، إلى أن زَلَقَتْ رِجلُه فى الوحل، فأَدْخلَ رِجلَيْه فى وسط الوحل، وجعل يمشى فى المحجَّة. قال: فبكى.

---

(١) فى (خ): «فراودته عن نفسه».

فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: هذا مَثَلُ العبد لا يزال يتوقَّى الذنوبَ ويُجانِبُها حتى يقعَ في ذنبٍ منها وذنبين، فعندها يخوضُ الذّنوبَ خوضًا.

وعلى العبد أن يتوب من الغفلة التى هى كائنة، فإذا عرف هذا لم تنقطع أبدًا توبتُه. وقد جعل الله تعالى أهلَ الغفلةِ فى الدنيا هم أهلُ الخُسران فى العُقبى، فقال عزّ من قائل: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ * لا جَرَمَ أَنَّهُم فِي الآخِرَةِ هُمُ الخَاسِرُونَ﴾ [النحل: ١٠٨ـ ١٠٩]، ولكنْ غفلةٌ دونَ غفلةٍ، وخسرانٌ دون خسران، ولا تستحقرنَّ الغفلةَ فإنّها أوّل المعاصى. وهى عند الموقنين أصلُ الكبائر.

وقد جعل عليٌّ، كرم الله وجهه، الغفلةَ إحدى مقاماتِ الكفر، وقرنها بالعَمى والشك، وأمال صاحبَها عن الرُّشد، ووصفها بالحَسْرة، فقال فى الحديث الذى يُروى من طريق أهل البيت: «فقام عمار بن ياسر فقال: يا أميرَ المؤمنين، أخبرنا عن الكفر على ما بُنى؟ فقال: على أربعِ دعائم: على الجفاء، والعمى، والغفلة، والشك. فمَنْ جفا احتقر الحقَّ، وجهَر بالباطل، ومقت العلماء. ومن عمى نسى الذكر. ومن غفل حاد عن الرشد وغرَّته الأمانىُّ؛ فأخذته الحسرةُ والنّدامةُ وبدا له مِنَ اللهِ ما لم يكن يحتسِب، ومَنْ شكّ تاه فى الضّلالة».

وقال بعضُ العلماء: مَنْ صدق فى تركِ شهوةٍ، وجاهد نفسَه لله تعالى سبعَ مراتٍ، لم يُبتلَ بها. وقال آخر: من تاب عن ذنب، واستقام سَبْع سنين، لم يرجع إليه أبدًا. وقال بعض العلماء: كفّارة الذنب المعتادِ أن تَقْدرَ عليه عدد ما أتيته، ثم لا تقع فيه، فيكون كلُّ تركٍ كفارةً لفعل. وهذا حالُ الأقوياء من التوّابين، وليس هو طريقَ الضعفاء من المريدين، بل حالُ الضعفاء الهربُ والبُعد.

ومَنْ حدَّث نفسه بمعصيةٍ فى عدمها لم يملك نفسه عند وجودها. فليعمل المريدُ فى قطع وساوسِ النفس بالخطايا وإلا وقع فيها؛ لأنّ الخواطر تَقْوَى فتكونُ وسوسةً، فإذا كثرت الوساوس صارت طرقًا للعدوّ بالتَّزيينِ والتَّسويلِ. فأضرُّ شىء على التائب تمكينُه خاطرَ السُّوء من قلبه بالإصغاء إليه، فإنّه يَدبُّ فى هلكته، وكلُّ سبب يدعو إلى معصيةٍ أو يذكِّر بمعصية فهو معصية. وكلُّ سببٍ يؤول إلى ذنبٍ

ويؤدى إليه فهو ذنب، وإن كان مباحًا، وقطعُهُ طاعةٌ. وهذا من دقائق الأعمال. وكان يقال: من أتى عليه أربعون، وهو العمر، وكان مقيمًا على الذنب، لم يكد يتب منه إلا القليلُ من المتدارِكين. وقد رُوى فى الخبر: «المؤمنُ كلُّ مُفتَنٍ توابٍ، وإنّ للمؤمن ذنبًا قد اعتاده الفَيْنة بعد الفينة» يعنى حينًا بعد حين.

وفى الحديث: «كلُّ بنى آدم خطّاء وخيرُ الخطائين المستغفرُون». وفى الخبر الآخر: «المؤمنُ واهٍ راقعٌ، فخَيرُهم مَن ماتَ على رُقْعه»، أى: واه بالذنوب، راقع بالتوبة والاستغفار. وقد وصف الله تعالى المؤمنين بترك متابعة الذنوب، وترادف[1] السيئة بالحسنة فى قوله تعالى: ﴿وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ [الرعد: ٢٢]. وقد جَعَل هذا من وصف العاملين الذين صبروا، فقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ [القصص: ٥٤]، فجعل تعالى لهم صبرَيْن: عن الذّنب؛ وعلى التوبة، فآتاهم به أجرين.

وقد اشترط اللهُ تعالى على التائبين من المؤمنين ثلاثَ شرائط، وشرط على التائبين من المنافقين أربعةً؛ لأنهم اعتلّوا بالخَلْق فى الأعمال، فأشركوهم بالخالق فى الإخلاص، فزاد عليهم الشرطَ تشديدًا لشِدَّة دخولِهم فى المقت، واعتلَّ غيرهم بوصفه، فخفّف عنهم شرطين، فقال عزّ وجلّ: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا﴾ [البقرة: ١٦٠]، قوله تعالى: ﴿تابوا﴾ أى: رجعوا إلى الحق من أهوائهم، ﴿وأصلحوا﴾ يعنى: ما أفسدوا بنفوسهم، ﴿وبينوا﴾ فيها وجهان؛ أحدُهما: بيَّنوا ما كانوا كتَمُوا من الحقّ وأخفوا من حقيقة العلم، وهذا لمن عصى بكَتْم العلم ولَبْسِ الحقِّ بالباطل. وقيل: بيّنوا توبتهم، حتّى تبيّن ذلك فيهم فظهرت أحكام التوبة عليهم. وقال فى الشّرطين الآخرين: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِى الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا * إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٤٥ـ ١٤٦]؛ لأنهم كانوا يعتصمون بالنّاس وبالأموال، وكانوا يراؤون بالأعمال، فلذلك اشترط عليهم الاعتصام بالله، والإخلاص لله عزّ وجلّ،

---

(١) فى (خ): «بتَرْديف السّيئة».

فينبغي أن تكون توبةُ كلِّ عبد عن ضدِّ معاصيه؛ قليلاً بقليل، أو كثيرًا بكثير. ويكونَ التائبُ على ضد ما كان أفسد، ليكون كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠]. ولا يكونُ العبد تائبًا حتى يكون مصلحًا، ولا يكون مُصلحًا حتى [يكونَ][1] يعملُ الصالحات، ثم يدخل في الصالحين. وقد قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف:١٩٦]. وهذا وصفٌ للتوّاب، وهو المتحقق بالتوبة، والحبيبُ لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الله يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، أي: يتولى الرّاجعين إليه من أهوائهم، المتطهرين له من المكاره. وكما قال رسول الله ﷺ: «التائب حبيب الله».

وسئل أبو محمد سهل: متى يكون العبدُ التائب حبيب الله تعالى؟ فقال: حتى يكون كما قال الله تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الحامِدُونَ السَّائِحُونَ﴾ [التوبة: ١١٢] الآية. ثم قال: الحبيبُ لا يَدْخلُ في شيءٍ لا يحبه الحبيب. وقال: لا تصحّ التوبةُ حتى يتوبَ من الحسنات.

وقد قال غيره من العارفين: العامّةُ يتوبون من سيئاتِهم، والصّوفية يتوبون من حسناتهم. يعني من تقصيرهم في أدائها لِعَظِيمِ ما يشهدون من حقِّ الملك العزيز سبحانه وتعالى المقابَل بها، ومن نظرِهم إليها أو نظرهم إلى نُفوسهم بها، وهي مِنَّة[2] الله تعالى إليهم واصلة.

وكان سهل يقول: التوبةُ من أفضل الأعمال؛ لأن الأعمال لا تصحّ إلا بها، ولا تصحّ التوبة إلا بترك كثيرٍ من الحلال مخافةَ أن يُخْرِجَهم إلى غيره.

والاستغفارُ قوتُ التوّابين، ومفزعُ الخطّائين. قال الله تعالى وهو أصدقُ القائلين: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٥٢]. وقال تعالى: ﴿أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى الله وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ [المائدة: ٧٤]، فابتدأ التوبةَ بالاستغفار، وعقَّب الاستغفارَ بالتوبة، فالاستغفار مع الذنب سؤالُ السِّترِ من الله تعالى، ومغفرةُ اللهِ تعالى لعبده

(١) زيادة من (خ).

(٢) في (خ): «وهي منه إليهم».

فى حال ذنبه سترُه عليه وحلمُه عنه. ويقال: ما من ذنب ستره الله تعالى على عبده فى الدّنيا إلا غفرَهُ له فى الآخرة، إن الله تعالى أكرمُ من أن يكشف ذنبًا كان قد ستره. وما من ذنب كشَفَهُ الله فى الدنيا إلا جعل ذلك عقوبةَ عبدِه فى الآخرةِ، فالله أكرمُ من أن يثنى عقوبته على عبده. ورُوى عن علىٍّ وابنِ عباس رضى الله عنهما، نحوُ ذلك، وقد أسنداه من طريقٍ.

والاستغفارُ بعد التوبةِ، وهو سؤالُ العبدِ مولاه العفوَ عن المؤاخذةِ، ومغفرةُ الله تعالى لعبدِه بعد التوبة تكفيرُهُ لسيئاته وتجاوزُه عنها بالعفو الكريم، وهو تبديلُ السيئاتِ حسناتٍ، كما جاء فى الخبر: إن تفسير قول العبد: يا كريمَ العفوِ، قال: هو إن عفا برحمته عن السيئات ثم بدّلها بكرمه حسناتٍ.

وقد أحكم اللهُ تعالى ذلك بقوله: **﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْه وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾** [فصلت:٦]، وبقوله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا﴾** أى وحَّدوا الله تعالى، ثم استقاموا على التوحيد فلم يشركوا، وقيل: استقاموا على السنّة فلم يُحدثوا، وقيل: استقاموا على التوبة، فلم يَروغوا معها، أن لا تخافوا عقابَ الذّنوب فقد كفَّرها عنكم بالتوحيد، ولا تحزنوا على ما فاتكم من الأعمال فقد تداركها الله تعالى لكم بالتوبة، وبلَّغكم منازلَ المحسنين بالاستقامة. ثم قال تعالى: **﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِى كُنْتُم تُوعَدُونَ﴾** فى السابق **﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ﴾** أى: نليكم ونَقْرُب منكم **﴿فِى الْحَيَاةِ الدُّنيا وفِى الآخِرَةِ﴾** بالتثبيتِ لكم على الإيمان **﴿وَلَكُمْ فِيهَا ما تَشْتَهِى أنفُسُكُمْ﴾** أى: أجسامكم من النعيم المقيم، **﴿وَلَكُمْ فِيهَا ما تَدَّعُونَ﴾** [فصلت: ٣٠ ـ ٣١] أى: ما تمنّون بقلوبكم من النّظر إلى الملك الرحيم.

وفى الخبر: «التائبُ من الذّنب كمَن لا ذَنْبَ له، والمستغفرُ من الذَّنب وهو مصرٌّ عليه كالمستهزئِ بآياتِ الله تعالى». وكان بعضهم يقول: أستغفرُ اللهَ من قولى أستغفرُ الله باللسانِ عن غيرِ تَوْبةٍ ونَدَمٍ بالقلب. وفى خبر: «الاستغفارُ باللسان من غيرِ توبةٍ وندَمٍ بالقلب توبة الكذّابين».

وكانت رابعةُ العَدَوِيَّة تقول: استغفارُنا هذا يحتاجُ إلى استغفار.

فكم من توبةٍ تحتاج إلى توبةٍ فى تصحيحها، وإخلاصِها[1] من النَّظرِ إليها، والسكونِ والإدلالِ بها. فمَنْ عقَّبَ السيئات بحسنات، وخلَط الصّالحات بالطالحاتِ، طُمع له فى النجاة، ورُجى له الاستقامةُ قبلَ الوفاة. قال الله تعالى: ﴿**خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ**﴾ [التوبة:١٠٢]، أى يعطف عليهم وينظر إليهم، وقيل: خلطوا عملاً صالحًا: هو الاعتراف بالذنوب والتّوبة المستأنَفَة، وآخر سيئًا: ما سلف من الغَفلة والجَهالة. وقد كان ابن عباس يقول: غفورٌ لمن تاب، رحيمٌ حيث رخّص فى التوبة.

فلم يَرُدَّ اللهُ سبحانه المخلصين إلا إلى ما ردَّ إليه المنافقين؛ وهو التوبة، وكذلك ردَّ إليها المشركين، إذ لا طريق للكلّ إلا منها، ولا وصول إلى المحبة والرّضا إلا بها، فقال فى شأن الكافرين: ﴿**فإنْ تابُوا وأقامُوا الصَّلاةَ وآتَوُا الزَّكاةَ فَخلُّوا سَبِيلَهُم**﴾ [التوبة:٥]، كما قال فى وصف المنافقين: ﴿**وآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأمْرِ الله إمّا يُعذِّبُهُم**﴾ أى: مع الإصرار، ﴿**وإمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِم**﴾ [التوبة:١٠٦] أى بالاستغفار. وأحكمَ ذلك وفصَّله بما شرط له، فقال: ﴿**وإنِّى لغفّارٌ لمَنْ تَابَ**﴾ أى: من الشرك ﴿**وآمَنَ**﴾ بالتوحيد ﴿**وعَمِلَ صَالِحًا**﴾ أدّى الفرائض واجتنب المحارمَ ﴿**ثمَّ اهتدى**﴾ [طه:٨٢] كان على السنَّةِ، وقيل: استقام على التوبة. فهذه صِفاتُ المؤمنين[2].

وقد قَرَنَ الله تعالى الاستغفارَ للعباد ببقاء الرسول ﷺ فى الأمة، ورفعَ العذاب عنهم بوجوده، فضلاً منه ونعمةً؛ فقال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾ [الأنفال:٣٣]. وكان بعض السلف يقول: كان لنا أمانان ذهب أحدهما وبقى الآخر، فإن ذهب الآخر هلكنا. يعنى الذى ذهب الرسولُ ﷺ، والذى بقى الاستغفارُ.

---

(١) فى (ط): «والإخلاص» وأثبت ما فى (خ).

(٢) هذه الفقرة يختلف ترتيب بعض عباراتها عن المخطوط، فأثبت ترتيب المخطوط لها لأنه أدق.

وسئل سهل رحمه الله عن الاستغفار الذى يكفِّر الذنوب، فقال: أوّل الاستغفار الاستجابة، ثم الإنابة، ثم التوبة. فالاستجابة أعمالُ الجوارح، والإنابة أعمال القلوب، والتوبة إقبالُه على مولاه وترك الخلق. ثم يستغفرُ من تقصيرِه الذى هو فيه، ومن الجهل بالنعمة وتَرْكِ الشكر؛ فعند ذلك يُغفَر له، ويكون عنده مأواه، ثم يُنقل إلى الانفرادِ، ثم الثبات، ثم البيان، ثم القُرب، ثم المعرفة، ثم المناجاة، ثم المصافاة، ثم الموالاة، ثم محادثة السر وهو الخُلّة، ولا يستقر هذا فى قلب عبدٍ حتَّى يكون العلمُ غذاءَه، والذكرُ قوامَه، والرِّضا زادَه، والتفويضُ مرادَهُ، والتوكُّلُ صاحبَه. ثم ينظر الله تعالى إليه فيرفعهُ إلى العرش، فيكونُ مقامُه مقامَ حملةِ العرش.

وكان يقول: العبدُ لا بدّ له من مولاه على كلِّ حال، وأحسنُ حاله أن يرجع إليه فى كلّ شىء، إذا عصى يقول: يا رب استر علىّ، فإذا فرَغَ من المعصيةِ قال: يا ربّ تُبْ علىّ، فإذا تاب قال: يا ربّ ارزقنى العِصْمةَ، فإذا عمل قال: يا ربّ تقبَّل منِّى.

ومن أحسن ما يتَعقَّبُ الذّنبَ من الأعمال بعد التوبة وحلِّ الإصرار مما يُرجى به كفّارةُ الخطيئةِ ثمانيةُ أعمالٍ: أربعة من أعمال الجوارح؛ وأربعة من أعمال القلوب.

فأعمال الجوارح: أن يصلى العبدُ ركعتين، ثم يستغفر؛ سبعين مرة، ويقول: سبحانَ اللهِ العظيمِ وبحمده؛ مائةَ مرّةٍ، ثم يتصدق بصدقة، ويصوم يومًا.

وأعمالُ القلوب: هى اعتقادُ التوبة منه، وحبُّ الإقلاع عنه، وخوفُ العقاب عليه، ورجاءُ المغفرة له. ثم يحتسب على الله تعالى بحسن ظنّه وصدقِ يقينه كفّارةَ ذنبِه.

فهذه الأعمالُ قد وردت بها الآثارُ أنّها المكفِّرة للزلل والعِثار. وقد يُشترط فى بعضها، فيتوضأ فيُسبغُ الوضوءُ، ويدخل المسجد فيصلّى ركعتين، وفى بعض الأخبار: فيصلّى أربع ركعات.

قال: ويقال: إذا أذنبَ العبدُ أمر صاحبُ اليمين صاحبَ الشمال، وهو أمير

عليه، أن يرفع القلمَ عنه ستَّ ساعات، فإن تابَ واستغفر لم يكتبها عليه، وإن لم يستغفر كتبها. ويقال: صدقة الليل تكفِّرُ ذنوبَ النّهار، وصدقةُ السرّ تكفِّر ذنوبَ الليل. وفى بعض الأخبار: إذا عَمِلْتَ سيئةً فأتبعها حسنةً تكفِّرها، السرُّ بالسرّ، والعلانيةُ بالعلانية.

وفى أخبار متفرقة جمعناها: ما من يومٍ طلَع فجرُه ولا ليلةٍ غابَ شفقُها إلا ومَلَكان يتجاوبان بأربعة أصوات، يقول أحدهما: يا ليت هذا الخلق لم يُخلقوا، ويقول الآخر: ويا ليتهم إذ خُلقوا عَلِمُوا لماذا خُلِقوا، فيقول الآخر: وَيا ليتهم إذ علموا لماذا خُلقوا عملوا بما علموا ـ وفى بعضها: تجالَسُوا فتذاكَرُوا ما عَلِموا ـ فيقول الآخر: ويا ليتهم إذًا لم يعملوا بما علِموا تابوا ممّا عملوا.

فأول ما يجبُ لله عزّ وجلّ على عبدِه أن لا يعصيَهُ بنِعَمِه، لئلا تكون معصيتُه كفرانًا لنعمته، وجوارحُ العبد وما لَهُ من نِعَم الله تعالى عليه؛ لأنّ قِوام الإنسانِ بجوارحه، وثباتَ جوارحِهِ بالحركة، ومنافعَ الحركة بالعافية، فإذا عصاه بالنّعمة فقد بدّلها كُفرًا؛ كما قال تعالى: ﴿بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْرًا﴾ [إبراهيم:٢٨] قيل: استعانوا بها على معاصيه، ثم توعَّد على التّبديل بالعقاب الشديد، فقال: ﴿وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة:٢١١] على تبديل النعمة بالمعصية، معجَّلاً فى الدنيا، ويكون مؤجَّلاً فى الآخرة.

وقد يكون العقاب فى أسباب الدنيا، وقد يكون فى حرمان أسباب الآخرة، لأنّها مآله ومثواه، وقد يكون فيهما معًا، وقد تكون نفس المعصية بالنعمة عقوبةً، والجهلُ بالنعمة وتضييعُ الشكر عليها، واستصغارُها والسكونُ إليها، والتطاولُ والتفاخرُ والتكابر بها، كلُّ هذه الأسباب عقوباتٍ، ثم يُفترضُ على العبد إذا عصاه الرجوعُ إلى مولاه، وهو التوبة عقيب وقوفِهِ مع نفسه، وهو موافقةُ الهوى بالخطيئة، فتأخيره بالتوبة وإصراره على الذنب ذنبان مضافان إلى الخطيئة.

فإذا تاب من ذنبه، وأحكم التوبةَ منه، اعتقد الاستقامةَ على الطاعة، ودوامَ الافتقار إلى الله تعالى فى العصمة، ثم يتوب أبدًا من الصغائر إلى الهمِّ والتمنِّى،

ومن الخوف والطمع فى المخلوق؛ وهى ذنوب الخصوص، إلى الطَّرفة والنَّفَس والسُّكونِ إلى شيءٍ، والرّاحةِ بشيءٍ؛ وهذه ذنوب المقربين، حتّى لا يبقى على العبد فيما يعلم مخالفةٌ، وحتى يشهد له العلمُ بالوفاء، فتبقى حينئذ ذنوبُهُ من مطالعةِ علمِ الله تعالى فيه بما استأثر(١) به عنه من علْمِ غَيْبةٍ يُكاشفه به، ومن معنى نفس العبودية، وكونِ الخلْقة عن تسلُّط الرُّبوبية بوَصفها وكبرها، فيكون هذا الخوف مثوبةً لمّا فرَغَ من علمِ نفسه إلى ما لا يمكن ذِكْرُهُ، ولا يُعرف نشرُه من ذنوب المقرَّبين التى هى صالحاتُ أصحاب اليمين، لفَقْدِ مُشاهداتِها، والجهلِ بمعرفة مقاماتِها عند العموم، فيكون حالُ هذا المقرَّب الإشفاقَ من البعد فى كلّ طرفة ونفَسٍ إلى وقت اللقاءِ، والخَوْفَ من الإعراض، والحجْبَ فى كلٍّ حركة، وهم فى هذه الدار إلى دار البقاء.

وقد رُوينا فى خبر غريب: إنّ الله عزّ وجلّ أوحى إلى يعقوب عليه السلام: أتدرى لِمَ فرَّقتُ بينك وبين يوسف؟ قال: لا. قال: لقولك لإخوته: إنّى أخاف أن يأكله الذئب، لِمَ خفتَ عليه الذئب ولم ترجنى له؟ ولم نظرتَ إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حِفظى له؟

فهذا معنى قول يوسف للساقى: اذكرنى عند ربك. قال الله تعالى: ﴿فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِى السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف:٤٢]. فهذا مما يُعتب على الخصوص من خفىٍّ سكونهم، ولمح نظرهم إلى ما سوى الله تعالى.

وإنّما حُرِم بعض التابعين ذلك المزيد، ولم يجدوا حلاوَة التوبة، لتهاونهم بحال الرّعاية، وتسامحِهم بتركِ حسن القيام بشاهدِ المراقبة، وذلك يكون من قلّة إحكام أمر التوبة، ولو قاموا بحكم التوبة من الذّنب الواحد، وأحكموا حال توّابٍ من الصّادقين فى التوبة، لم يعدَموا من الله تعالى المزيد؛ لأنهم محسنون، فَهُم فى تجديد. قال الله تعالى: ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:٥٨]. فإذا رأيتَكَ(٢) مستقيمًا

(١) فى (ط): «لما استأثر».
(٢) كذا فى الأصل، وفى (ط): «رآك».

على التوبة، عاملاً بالصالحات، ولم تَجِدْك على مَزيد من ميراث بوَجْدِ حلاوة، أو حُسن خليقة، أو عُزوف[١] زُهد، أو خاصيّة مَعْرِفَة[٢]، فارجع إلى باب المراقبة، أو موقفِ الرعاية، فتَفقَّدْهما، وأحكم حالهما، فمن قِبَلِهما أُتيتَ.

وقال بعض العلماء: من تاب من تسعةٍ وتسعين ذنبًا، ولم يتب من ذنب واحدٍ، لم يكن عندنا من التائبين.

فلا تغفلنَّ عن التفقُّد، وتجديدِ التّوبة أدبارَ الصلوات، فإنما دخل الخُسران على العمال من حيث لا يعلمون من تركهم التفقدَ، ومحاسبةِ النفس، وبمسامحتها مما يعملون.

واعلم أنّ حقيقةَ [توبةِ][٣] كلِّ ذنب عشرةُ أعمال، ولا يكون العبد توَّابًا يحبُّه الله تعالى ولا تكون توبته نصوحًا التى شرَطها اللهُ تعالى وفسَّر بها التَّوبةَ[٤] إلا أن يُحكِم العبدُ عشْرَ توباتٍ من كلِّ ذنب؛ أوّلها: تركُ العودِ إلى فعل الذّنب. ثم يتوبُ من القولِ به. ثم يتوب من الاجتماع مع سبب الذنب. ثم التوبة من السَّعى فى مثله. ثم التوبة من النظر إليه. ثم التوبة من الاستماع إلى القائلين به. ثم التوبة من الهِمّة. ثم التوبة من التّقصير فى حقّ التوبة. ثم التوبة من أن لا يكون أراد وجهَ الله تعالى خالصًا بجميع ما تركه لأجلِه. ثم التوبةُ من النظر إلى التوبة والسّكون إليها والإدلال بها. ثم يشهد بعد ذلك كُلِّه تقصيرَه عن القيامِ بحقّ الرّبوبية لعظيم ما يشهد بالمزيد من الإشراف على التوحيد من كبير جَلالِ الله تعالى وعِظَمِ كِبريائه، فتكون توبته بعد ذلك من تقصيره عن القيام بحقيقة مشاهدته[٥]، ويكون استغفاره لَمّا ضعف قلبُه ونقصَ همُّه عن معاينة مشاهدةٍ لعلوِّ مقامه، ودوامِ مزيدِه وإعلامه.

(١) فى (ط): «عروض».

(٢) فى (ط): «معروفة».

(٣) ساقطة من (ط).

(٤) فى (ط): «النبوة» وهو تحريف.

(٥) فى (خ): «بحقيقة شهادته».

ولا نهاية لتوبة العارف، ولا لغاية وصفه لما هو عليه عاكفٌ، ولا وصفٌ يَحْتمل ذكرَ دقيقِ بلائه. ولا يكبُر عن التوبة نبيٌّ؛ فمَن دونه، ولكلٍّ مقامٍ توبةٌ، ولكل حالٍ من مقامٍ توبةٌ، ولكل مشاهدةٍ ومكاشفةٍ توبةٌ.

فهذا حال التائب المنيب الذى هو من الله تعالى مقرَّب، وعنده حبيب، وهذا مقام مُفتَنٍ توّاب؛ أى مختبَر بالأشياء، مبتلًى بها، توّابٍ إلى الله تعالى منها، لينظر مولاهُ أينظرُ بقلبه إليه أو إليها، أو يعتكف بهمّته[1] عليه أو عليها، أو يطمئنّ بوجودها إليه أو إليها، أو يطلب إياه هَربًا منها أو إيّاها. فعليه من كلِّ مشاهدة لسواه ذنبٌ، وعليه فى كلِّ سكونٍ إلى سواه عَتْبٌ، كما له فى كل شهادةٍ علمٌ، ومن كلِّ إظهارٍ فى الكون حُكمٌ. فذنوبُه لا تُحصى، وتوباتُه إلى الله تعالى لا تُستقصى.

فهذه حقيقة التوبة النصوح، وصاحبها مسلمٌ وجهَه لله تعالى، محسنٌ من نفسه مستريح، ودينه عند الله تعالى مستقيم، ومقامه وحاله من الله تعالى سليم. وقد قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحبّ كلَّ مُفتَن توّاب».

واعلم أن الذّنوبَ على سبعة ضُروب؛ بعضها أعظم من بعض، كلُّ ضرب منها مراتبُ، فى كلِّ مرتبة من المذنبين طبقةٌ؛ منها معاصٍ يعتلُّ بها العبدُ من معانى صِفات الرّبوبية مثل: الكِبرِ، والفخرِ، والجَبَرِيّة، وحبِّ الحمدِ، والمدح، ووصف العزّ والغنى؛ فهذه مهلكات، وفيها من العموم طبقاتٌ.

ومعاصٍ تكون من معانى أخلاق الشياطين، مثل: الحسد، والبغى والحيلة، والخداع، والأمر بالفساد، فهذه موبقة، وفيها من أهل الدنيا طبقاتٌ.

ومعاصٍ تكونُ من ضدِّ السّنّة، وهو ما خالفها إلى بِدعة والأحداث المبتدَعة، وهى كبائر، منها ما يُذهبُ الإيمانَ ويُنبت النفاقَ.

وستٌّ من كبائر البدع؛ وهى تنقل عن الملّة؛ وهى: القدَريّةُ، والمرجئة، والرّافضية، والإباضيَّة، والجهميَّة، والشّاطحون من المغالطين؛ وهمُ الذين لا

(١) فى (خ): «بهمّة».

يقولون بخَلْق ولا رسمٍ ولا حكم، يُسْقِطُون الأحكامَ، ويَتعَدَّونَ الحدودَ، ويُجاوِزُونَ العِلْم[1]، فهم زنادقةُ هذه الأمة.

ومعاصٍ متعلقة بالخلق من طريق المظالم فى الدين، والإلحاد بهم عن طريق المؤمنين، وهو ما أضلَّ به عن الهدى، وأزاغ به عن السُّنَن، وحرَّفَهُ من الكتاب، وتأوّلهُ من السنّة، ثم أظهر ذلك ودعا إليه، فقُبل منه واتُّبع عليه. وقد قال بعضُ العلماء: لا توبةَ لهذه المعاصى. كما قال بعضُهم فى القاتل: لا توبة له، للإخبار بثبوت الوعيد، وحقّ القول عليه.

والضرب الخامس من المعاصى: ما تعلّق بمظالم العباد فى أمر الدنيا، مثل: ضرب الأبشار[2]، وشتمِ الأعراض، وأخذ الأموال، والكذب والبهتان. فهذه موبقات، ولا بُدّ فيها من القَصاص للموافقة بين يدى الحاكم العادل، والقطع منه بقضاءٍ فاصل، إلا أن يقع استحلال، أو يستوهِبَهُ الله عزّ وجلّ من أربابها فى المآلِ بكرمه، ويعوِّض المظلومين عليها من جنّاته[3] بجوده. وقد جاء فى الخبر: «الدّواوين ثلاثة: ديوان يُغفر، وديوان لا يُغفر، وديوان لا يُترك. فأمّا الديوان الذى يُغفر، فذنوب العباد بينهم وبين الله تعالى. وأمّا الديوان الذى لا يُغفر فالشِّرك بالله تعالى. وأمّا الديوان الذى لا يُترك فمظالم العباد» أى لا يُترك المطالبة به، والمؤاخذة عليه.

والضّرب السّادس من الذنوب: ما كان بين العبد وبين مولاه من نفسه إلى نفسه، متعلّق بالشهوات، والجرى فى العادات، وهذه أخفُّها، وإلى العفو أقربُها. وهذه على ضربين: كبائر، وصغائر. فالكبائر: ما نُصَّ عليه بالوعيد، وما وجبت فيه الحدود. والصغائر: دون ذلك إلى نظرة، وخَطْرة. والتوبةُ النصوح تأتى على جميع ذلك؛ بعموم قوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُم وَعَفَا عَنْكُم﴾ [البقرة: ١٨٧]،

---

(١) عبارة المطبوعة: «وهم الذين لا يقولون بخلق ولا رسم ولا حكم فى تعدى الحدود ومجاوزة العلم» وأثبت عبارة (خ).

(٢) فى (ط): «ضرب الإنسان» وهو تحريف، صوابه من (خ).

(٣) فى (ط): «من جنابه» والصواب ما أثبت من (خ).

وبإجباره عزّ وجلّ عن حكمه، إذ يقول: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِم لِيَتُوبُوا﴾ [التوبة:١١٨]، وبظاهر قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ [البروج:١٠]، ومثله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فَتَنُوا ثُمَّ جاهدُوا وصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل:١١٠] هكذا قراءة أهل الشام؛ بنصب «الفَاء والتّاء»، ولأنّ البِغْيةَ [1] من التوبة ـ إذا كانت ـ غفرانُ الذّنب والزحزحةُ عن النار.

ونحن لا نرى أبديّة الوعيد على أهل الكبائر، بل نجعلُهم فى مشيئة الله، ونجوِّز لهم عفوَ الله تعالى عنهم فى أصحاب الجنة، كما جاء فى الخبر فى تفسير قوله تعالى: ﴿فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾ [النساء:٩٣] أى: إن جازاه.

وكما رُوينا عن النبى ﷺ: «مَنْ وَعدَهُ الله تعالى على عملٍ ثوابًا فهو منجزُه له، ومن وعَدَه على عملٍ عقابًا فهو فيه بالخِيار؛ إن شاء عذّبه وإن شاء عَفا عنه».

وكما قال ابن عباس رضى الله عنه: يغفر لمن يشاء الذنبَ العظيم، ويعذّب من يشاء على الذنب الصّغير.

وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨]، فلم يجد للمغفرة ذنبًا غير الشرك، وتركَ المسلمين مع سائر الذنوب إلى مشيئته.

فقد يحتجُّ محتجٌّ بالخبر المأثور فى ترك قَبول توبةِ المبتدع، فإنّ الله تعالى احتجزَ التوبةَ على كلّ صاحب بدعة. فهذا مخصوصٌ لمن لم يتب ممّن حُكم عليه بدرَك الشقاء. ألا ترى أنّه لم يقل: إنّ الله تعالى احتجزَ قبولَ التوبة عمّن تاب؛ إنّما أخبر عن حُكم الله تعالى فيمن لم يتب بأن الله تعالى حجب التوبة عنه.

فهكذا نقول أيضًا: إن القاتل إذا كان قد سبق له سوءُ الخاتمة بأنه يموت على غير توحيد، وكذلك المبتدعُ إذا جُعل اسمه فى أصحاب النار، ثم كان القتلُ

---

(١) البغية: أى الأمنية.

والبدعةُ علامةَ ذلك وسببَه، أنّهمَا جميعًا ممنوعان من التّوبة، فإنّها محتجزة عنهما. وكذلك القول فيمن حقّت عليه كلمة العذاب بسَبَق سوءِ الخاتمة، فلو أنَّه تاب سبعين توبةً لم تنقذْه من النار، وليست توبته بأكثر من قوله ﷺ: «إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة، حتّى يقولَ الناسُ إنه من أهلها، ولا يبقى بينه وبينها إلا شبرٌ، ثم يدركه الشّقاء ـ وفى لفظ آخر: ثم يَسبق عليه الكتاب ـ فيعملُ بعمل أهلِ النار فيدخلها»، فقد دخلت التوبات فى صالح أعماله من الحسناتِ، ثم أحبطها عنه فى جملة عمله بسبق الكتاب بالشقاء له.

وأمّا مَنْ لم يسبق له سوءُ الخاتمة ووُهبت له التّوبة النّصوح، ولم يدركه الشقاء، فإنّها لم تُحتجز عنه، وإن الله تعالى يعفو عنه بما وهب له من التوبة، كقوله تعالى فى المنافقين: ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة:١٠٦]. وليس النفاق دون البدعة(١)، ولا كلُّ المنافقين تاب عليهم، ولا جميعهم خُتِم لهم به. وعموم قوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾ [البقرة:١٨٦]، وقوله: ﴿عَسَى اللهُ أَنَ يَتُوبَ عَلَيْكُم إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٠٢]، مع قوله: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ [التوبة:١١٨]، فهذا عامٌّ فيمن تابَ، والخبر مخصوصٌ فيمن لم يتب(٢).

ثم إن الناسَ فى التوبة على أربعة أقسام؛ فى كلّ قسم طائفة، لكلّ طائفة مقام، منهم: تائب من الذنب، مستقيم على التوبة والإنابة، لا يحدّث نفسه بالعود إلى معصية أيام حياته، مستبدل بعمل سيئاته صالح حسناته؛ فهذا هو السابق بالخيرات، وهذه هى التّوبة النّصوح. ونفسُ هذا هى المطمئنة المرضيَّة. والخبر المروىّ فى مثل هذا: «سيرُوا، سَبَق المفرَدون المستهتِرون(٣) بذكرِ الله، وضع الذكرُ أوزارَهم، فوردوا القيامة خفافًا».

والذى يلى هذا فى القرب: عبدٌ؛ عقدهُ التوبةُ، ونيتّه الاستقامة، لا يسعى فى

(١) فى (خ): «وليست البدعة فوق النفاق».

(٢) كان هناك اضطراب فى المطبوعة فى هذه الفقرة قوّمته من المخطوطة (خ).

(٣) المستهترون: المولعون بالشىء.

ذنب، ولا يقصده، ولا ينحوه، ولا يهتمّ به، وقد يُبتلى بدخول الخطايا عليه عن غير قصد منه، ويُمتحن بالهمّ واللّمم، فهذا من صفات المؤمنين يُرجى له الاستقامة لأنّه فى طريقها، وهو ممّن قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢]، وداخل فى وصف المتقين الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ﴾ [آل عمران: ١٣٥] الآية. ونفس هذا هى اللوّامة، التى أقسم الله تعالى بها، وهو من المقتصدين. وهذه الذّنوب تدخل على النفوس من معانى صفاتها، وغرائز جبلاتها، وأوائل إنشائها[1] من نبات الأرض، وتركيب الأطوار فى الأرحام خلقًا من بعد خلق، ومن اختلاط الأمشاج بعضها ببعض، ولذلك عقّبه تعالى بقوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ [النجم: ٣٢] الآية. فلذلك نهى عن تزكية النفس المنشأة من الأرض والمركّبة فى الأرحام بالأمشاج للاعوجاج، فقال تعالى: ﴿فَلاَ تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢]، أى فهذا وصفها عن بدء إنشائها، وكذلك وصف مشيج خليقته بالابتلاء فى قوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيراً﴾ [الإنسان: ٢].

وشرح هذا يطول ويخرج إلى علم تركيبات النفوس ومجبول فطرتها. وقد ذكرنا أصوله فى بعض الأبواب من هذا الكتاب.

وفى مثل هذا العبد معنى الخبر الذى جاء: «المؤمن مُفتَن توّاب»، و«المؤمن كالسنبلة تفيء أحيانًا وتميل أحيانًا». فإزراءُ هذا العبد على نفسه، ومَقْتُه لها عن معرفته بها، وتركُ نظرِه إليها، وسكونُه إلى خير إن ظهر عليها ـ يكون من كفارات ذنوبه، لأنّه مِنْ تدبُّر الخطاب فى قوله تعالى: ﴿فَلاَ تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢].

والعبد الثالث: هو الذى يقرُبُ من هذا الثانى فى الحال، عبدٌ يذنب ثم يتوب، ثم يعود إلى الذنب، ثم يحزن عليه بقصدٍ له وسعى فيه، وإيثارِه إيّاه على الطاعة،

---

(١) فى (ط): «وأنسابها» وأثبت ما فى (ك) و (خ) وهو الصواب.

إلا أنه يسوِّف بالتوبة، ويحدِّث نفسه بالاستقامة، ويحبُّ منازل التوابين، ويرتاح قلبه إلى مقامات الصدِّيقين، ولم يأْنِ حينه، ولا ظهر مقامه؛ لأنّ الهوى يحركه، والعادةَ تجذبه، والغفلةَ تغمره، إلا أنّه يتوب خلال الذّنوب، ويعاود لتقدُّم المعتاد.

فتوبةُ هذا قُوتٌ من وَقْت إلى وقت، ومثله تُرجى له الاستقامة لمحاسن عمله، وتكفيرها لسالف سيئته. وقد يُخاف عليه الانقلاب لمداومة خطئه، ونفْسُ هذا هى المسوّلة، وهو ممّن خلَط عملاً صالحًا وآخر سيئًا، عسى الله أن يتوب عليه فيستقيم فيلحق بالسابقين، فهذا بين حالين: بين أن يغلب عليه وصف النفس فيحق عليه ما سَبَق من القَول، وبين أن ينظرَ إليه مولاه نظرةً تَجْبُر له كلَّ كسر، وتُغنى له كلَّ فقر، فيتداركه بِمنَّةٍ سابقة، فتُلحِقهُ بمنازل المقرَّبين؛ لأنه قد سلك طريقهم بفضله ورحمته ونيته الآخرة.

والعبد الرابع: أسوأ العبيد حالاً، وأعظمهم على نفسه وبالاً، وأقلُّهم من الله نوالاً، عبدٌ يذنب ثم يتبع الذنب مثله أو أعظم منه، ويقيم على الإصرار ويحدِّث نفسه به متى قدَر عليه، ولا ينوى توبةً، ولا يعقد استقامةً، ولا يرجو وعدًا بحسن ظنّه، ولا يخاف وعيدًا لتمكُّن أمْنِه، فهذا هو حقيقة الإصرار، ومقامٌ بين العتوِّ والاستكبار. وفى مثل هذا جاء الخبر: «هلك المصرُّون قُدْمًا إلى النار».

ونفسُ هذا هى الأمّارة، ورُوحه أبدًا من الخير فرّارة، ويُخاف على مثله سوءُ الخاتمة؛ لأنّه فى مقدماتها، وسالك طريقتها، ولا يبعد منه سوءُ القضاء، ودَرَكُ الشقاء، ولمثل هذا قيل: «مَن سوَّف اللهَ تعالى بالتوّبة أكذبَهُ»، وإنّ اللعنةَ خروجٌ مِن ذنب إلى أعظمَ منه، وهذه الطائفةُ فى عموم المسلمين، وهم فى مشيئةِ الله من الفاسقين، كما قال تعالى: ﴿وآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأمْرِ الله﴾ [التوبة:١٠٦] أى: مؤخَّرون لحكمه، إمّا يعذّبهم بالإصرار، وإمّا يتوب عليهم بما سبق من حسن الاختيار.

نعوذ بالله تعالى من عذابه، ونسأله مِنَ فَضْلِ فَضْلِهِ وثَوابِهِ ما يُقرِّبنا إليه(١).

آخرُ شرح مقامِ التّوبة.

(١) عبارة (ط): «ونسأله نعيمًا من ثوابه. وهذا آخر كتاب التوبة» وأثبت ما فى (خ).

شرح مقام الصبر ، ووصف الصابرين(١)
وهو المقام الثانى من مقامات اليقين

قد جعل الله عزّ وجلّ الصابرين أئمةً للمتقين، وتمّم كلمته الحسنى عليهم فى الدِّين، فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنا منهُمْ أَئمَّةً يَهْدُونَ بأَمْرنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السجدة: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنى عَلَى بَنى إسْرَائيلَ بمَا صَبَرُوا﴾ [الأعراف: ١٣٧].

وقال رسول الله ﷺ: «إن فى الصبر على ما تكره خيرًا كثيرًا».

وقال المسيح عليه السلام: «إنكم لا تدركون ما تحبون إلاّ بصَبْركم على ما تكرهون».

وقال بعض الصحابة: ماذا(٢) جعل الله تعالى من الشِّفاءِ والفَضل فى التُّقى والصبر. وقال ابن مسعود: الصبر نصف الإيمان.

وقد جعل علىٌّ كرم الله وجهه الصَّبرَ ركنًا من أركان الإيمان، وقرنه بالجهاد والعدل والإيقان، فقال: بُنى الإسلام على أربع دعائم؛ على اليقين، والصبر، والجهاد والعدل(٣). وقال علىٌّ كرم الله وجهه أيضًا: الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، لا جسد لمن لا رأس له، ولا إيمان لمن لا صبر له.

ورفع رسول الله ﷺ الصبرَ فى العلوِّ والفضل إلى مقام اليقين وقَرَنه به. وكذلك قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا منهُمْ أَئمَّةً يَهْدُونَ بأَمْرنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بآيَاتنَا يُوقنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]. وأخبر النبى ﷺ أنّ مَنْ أُوتى نصيبه منهما لم يسأل ما فاته، وأخبر أن بالصّبرِ كمالَ العملِ والأجر، فقال فى حديث يرويه شَهْرُ بن

---

(١) فى (ك): «كتاب شرح مقام الصبر وأوصاف الصّابرين».

(٢) «ماذا»: كذا فى الأصل والمطبوعة، ولعلها: «قد جعل».

(٣) انظر كلام الإمام على فى: المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة، ص١٠٧.

حَوشبَ الأشعرى عن أبى أمامة الباهلىّ عن النبى ﷺ قال: «مِنْ أقلِّ ما أُوتيتم اليقينُ وعزيمةُ الصبر، ومَنْ أُعطى حظَّه منهما لم يبال ما فاته من قيام الليل وصيام النهار. ولأن تصبروا على مثل ما أنتم عليه أحبُّ إلىَّ من أن يوافينى كلُّ امرئ منكم بمثل عمل جميعكم، ولكنى أخاف أن تُفتحَ عليكم الدُّنيا بعدى فينكر بعضُكم بعضًا، وينكركم أهلُ السماء عند ذلك. فمن صبر واحتسَب ظَفرَ بكمال ثوابه. ثم قرأ: ﴿ما عِنْدَكُمْ يَنفَدُ وما عِندَ الله باقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ما كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦]».

وفى حديث ابن المنكدر عن جابر قال: «سئل رسول الله ﷺ عن الإيمان فقال: الصبر والسماحة». وقد قال الله تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [القصص: ٥٤]. وقال عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]. فضاعف أجر الصابرين على كلّ عمل، ثم رفع جزاء الصبر فوق كلّ جزاء، فجعله بلا نهاية ولا حدٍّ، فدلَّ ذلك أنه أفضل المقامات. وجمع للصّابرين ثلاثًا، فرَّقها على جُمل أهل العبادات: الصّلاة، والرّحمة، والهدى بعد البِشارة فى الآخرة والعُقبى.

وكان عمر رضى الله عنه يقول: «نعْمَ العِدْلان، ونعمت العلاوةُ للصابرين». يعنى بالعِدْلَين: الصّلاةَ والرحمةَ. وبالعلاوة: الهدى. والعِلاوةُ: ما يُعلَى به فوق الحِمْلَين على البعير، فيكون كعِدل ثالث.

وقد أخبر الله تعالى أنّه مع الصّابرين، ومن كان الله تعالى معه غلب، كما أن من كان معه علا، فقال تعالى: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللهُ مَعَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥]. واشترط الصبر لإمداده لجنده، ولنصره بأيده، فى قوله تعالى: ﴿بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ المَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

وكان سهل يقول: الصّبر تصديقُ الصّدقِ، وأفضلُ منازلِ الطّاعةِ الصّبرُ عَن

المعصية، ثم الصّبر على الطاعة. وقال فى معنى قوله عزّ وجلّ: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾ [الأعراف:١٢٨] أى: استعينوا بالله على أمرِ الله، واصبروا على أدب الله.

وقال: لم يَمدح اللهُ تعالى أحدًا إلا من صبَر للبلاءِ والشِّدة، فبذلك يثنى عليه. وكان يقول: الصّالحون فى المؤمنين قليل، والصّادقون فى الصّالحين قليل، والصّابرون فى الصادقين قليل. فجعل الصّبرَ خاصيّة الصدقِ، وجعل الصابرين خُصوص الصادقين.

وكذلك الله تعالى ـ وهو أصدق القائلين ـ قد رفع الصّابرين على الصّادقين فى ترتيب المقامات، فجعل الصبر مقامًا فى الصدق، إن كانت الأوصاف المنسوقة نعتًا واحدًا للمسلمين، وكانت «الواو» للمدح، وإن كانت مقامات «فالواو» للترتيب، فقد جعلَ الله الصابرين فوق الصادقين والقانتين، أعنى فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ...﴾ [الأحزاب:٣٥] الآية.

وفى حديث عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما: «لما دخل رسولُ الله ﷺ على الأنصار فقال: أمؤمنون أنتم؟ فسكتوا، فقال عمر رضى الله عنه: نعم يا رسول الله. قال: وما علامة إيمانكم؟ قال: نشكر فى الرخاء، ونصبر على البلاء، ونرضى القضاء. فقال: مؤمنون وربِّ الكعبة».

والصبر ينقـ ـلى عملين؛ أحدهما: لا صَلاحَ للدِّين إلا به، والثانى: هو أصل فساد الـ . ثم يتنوّع الصبر؛ فيكون صابرًا على الذى فيه صلاح الدين فيكمُلُ به إيمانه، ويكون صابرًا عن الذى فيه فساد الدِّين فيحسُن به يقينه.

ورُوينا فى معنى هذا عن علىٍّ رضى الله عنه: أنه لما دخل البصرة، واستقام له الأمرُ، دخل جامعَها فجعل يخرج القُصّاص، ويقول: القَصَص بدعةٌ. فانتهى إلى حلقة شابٍّ يتكلم على جماعةٍ، فاستمع إليه، فأعجبَه كلامُهُ، فقال: يا فتى، أسألكَ عن شيئين، فإن خرجتَ منهما تركتُكَ تتكلم على الناس، وإلا أخرجتُكَ كما أخرجتُ أصحابك. فقال: سل يا أمير المؤمنين. فقال: أخبرنى ما صلاح الدين وما فساده؟ قال: صلاحُه الورعُ، وفسادُهُ الطمع. قال: صدقتَ، تكلّم

فمثلك يَصْلُح أن يتكلم على الناس. يقال: إن هذا الشاب هو إمامنا فى هذا العلم، وهو إمام الأئمة الحسنُ بن يَسَار، مولى الأنصار، البَصرىُّ.

وكان ميمون بن مهران يقول: الإيمان والتصديق والمعرفة والصّبر واحد. وقال أبو الدرداء رضى الله عنه: ذِرْوَةُ الإيمانِ الصبرُ للحُكم، والرّضا بالقدر.

واعلم أنّ الورع أولُ الزهد، وهو أول باب من أبواب الآخرة. والطّمعُ أوّل الرغبة، وهو باب كبير من أبواب الدنيا، واستشعارُ الطمع من حبّ الدنيا، وحبُّ الدنيا رأسُ كلِّ خطيئة.

ويقال: أولُ معصية عُصِى الله تعالى بها الطمعُ؛ وهو أن آدم عليه السلام طمِع فى الخلود، فأكل من الشجرة التى نُهى عنها، وإبليس طمِع فى إخراج آدم عليه السلام من الجَنّة فوسوس إليه، فاتفقا فى اسم المعصية لربِّهما تعالى بالطمع، ثم افترقا فى المطمُوع فيه وفى الحُكم، فتُدُورك آدم عليه السلام بحسن سابقته من الله تعالى، وهلك إبليس بما سَبَق عليه من الشِّقوة.

والطَّمعُ هو تصديقُ الظَّن؛ ولذلك وصف الله تعالى به عدوه فى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ [سبأ: ٢٠]. والظنّ ضد اليقين، ولا يغنى من الحق شيئًا. وقال الله تعالى فى وصف المشركين: ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢]. فمن صبر عن الطَّمع فى الخَلق أخرجه الصَّبرُ إلى الورع، ومن صَبَرَ على الوَرَع فى الدِّين أدخله الصبر فى الزّهد، ومن طَمِع فى تصديق الظنّ الكاذب أدخله الطمع فى حبّ الدنيا، ومن استشعر حبَّ الدنيا أخرجه حبُّها من حقيقة الدِّين.

وقد قال بعض العلماء: ما كنا نعدُّ إيمانَ من لم يُؤذَ فيحتمل الأذى ويصبر عليه إيمانًا. وقد فعل الله تعالى ذلك بالمؤمنين اختبارًا[١]، وأخبر أن ذلك ليس منه عذابًا، وإنما هو فتنةٌ لمن أراد فتنته وبلاءَهُ من الناس، فصار ذلك فتنةً عليهم وابتلاءً لهم، وصار رحمةً للمؤذَى وخيرًا فى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا

(١) فى (خ): «اختيارًا».

بالله فَإِذَا أُوذِىَ فى الله جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ الله﴾ [العنكبوت: ١٠] يعنى فتنةَ الناس به كعذابِ الله تعالى له، أى: ليس ذلك عذابًا منى إنما هو رحمةٌ باطنة، فهو كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَهَانَنِ * كَلاَّ﴾ [الفجر: ١٦ ـ ١٧]، أى: لم أهنك بالفقر، كما لم أكرم الآخر بالإكرام والتنعيم. وعلى معنى هذا خاطب نبيه ﷺ بالصبر الذى أمره به، فقال تعالى: ﴿اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ﴾ [ص: ١٧] فسلاّه به وفضّله عليه.

وقد رُوينا فى خبر: «يُؤتى بأشكر أهلِ الأرض فيجزيه الله تعالى جزاء الشاكرين. ويُؤتى بأصبر أهلِ الأرض فيقال له: أترضى أن نجزيك كما جزينا هذا الشاكر؟ فيقول: نعم يا ربّ. فيقول الله تعالى: كَلا، أنعمتُ عليه فشكر، وابتليتكَ فصبرتَ، لأُضْعِفَنَّ لك الأجرَ عليه. فيُعطَى أضعافَ جزاءِ الشاكرين».

وكتب ابن أبى نَجيح يعزِّى بعضَ الخلفاء، فقال فى كتابه: إن أحقَّ من عرَفَ حقَّ اللهِ فيما أَخَذ منه مَنْ عَظُمَ حَقُّ الله تعالى عنده فيما أبقى. واعلم أن الماضى قبلَك هو الباقى لك، والباقى بعدك هو المأجور فيك. واعلم: أن أجر الصابرين فيما يُصابون فيه أعظمُ من النِّعمة عليهم فيما يُعافَون به.

وفى الأخبار: ما من عبدٍ إلا يُعطَى أجره بحساب وحَدٍّ، إلا الصّابرين فإنّهم يُجازَفُون مُجازَفَةً [١] بغير ميزان ولا حدٍّ.

وجاء فى الخبر: «إن أبوابَ الجنةِ مِصْراعانِ يأتى عليها زحامٌ كثير، إلا بابَ الصّبر فإنّه مصراع واحد لا يدخل منه إلا الصابرون أهلُ البلاءِ فى الدنيا، واحدٌ بعد واحد». وقد قال الله تعالى فى جزاء المخلصين: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾ [الصافات: ٤١]. وقال تعالى فى جزاء الصّابرين: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]. قيل فى التفسير: يُغرف لهم غَرْفًا؛ والمعنى فى ذلك: أن الصبر أشق شىء على النفس وأكرهه، وأمرُّه على الطبع وأصعبه، فيه الألمُ

(١) الْجَزْفُ: الأَخْذُ بكَثْرة.

والكظمُ، وعنه الذلُّ والحِلم، ومنه التواضعُ والكتم، وفيه الأدبُ وحُسن الخلق، وبه يكون كفُّ الأذى عن الخلق واحتمالُ الأذى من الخلق؛ وهذه من عزائم الأمور التى يضيق منها أكثر الصدور، وفيه إكراه النفوس وحملها على الشِّدة والبؤس. وقد جاء: «أفضل الأعمال ما أُكرهت عليه النفوس». ولأجل ذلك اشترط الله تعالى على المتّقين والصّادقين الصّبر فى الشدائد والمكاره، وحقق بالصبر صدقهم وتقواهم، وأكمل به وصفهم وأعمال برِّهم، فقال تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِى الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

فمعنى الصّبر: حبسُ النفس عن السعى فى هواها، وحبسها أيضًا عن مجاهَدَتِها لِمَرْضاةِ مولاها بمثل ما يُوجِب المجاهدة على قدر ما يُبتلَى به العبدُ؛ لأن المجاهدة على قدر البلاء، والحَبْسَ عن نحو الشّرودِ، وحبسُها على دوام الطاعة، وصبرُها عن شدَّة الطَّبْع الذى يُظهِر سوءَ الأدبِ بين يدى الربّ سبحانه وتعالى، وصبرُها على حُسن الأدب فى المعاملة.

ثم يتفرّع الصبر إلى معانٍ شتى من: الصّبرِ عن تفاوت الأهواء، والصبرِ على الثبات فى خدمة المولى. فمن ذلك ما توجب المجاهدةُ صَرْفَ الهمّة عنه، وتطهيرَ القلب منه من خَطَرات الهوى ونزَعَات الأعداءِ وتزيينِ الدُّنيا. ومن الآفات ما يوجب الصبرُ كفَّ الجوارح عنها، وحبسَ النّفسِ عن المشى فيها.

ومن الصّبر: حبس النفس على الحقّ وعكوفها عليه بمعاملة اللّسان والقلب والجسم؛ وبذلك وصفَ الله تعالى المؤمنين الذين يعملون الصالحاتِ، واشترط لصلاح أعمالهم الصبرَ، وأخبر أنّ الناس كلَّهم فى خُسران إلا من كان من أهل الحق والصبر، وعظَّم انصَّبرَ فأفرده بإعادة التواصى به.

ومن الصَّبر: حبسُ النفس على عبادة الخالق سبحانه وتعالى، وصبرُها على القَناعة، وعلى مَنع الرَّازق.

ومن الصبر: كفُّ الأذى عن الخلق؛ وهو مقامُ العادلين، يدخل فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ والإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠]. ثم احتمالُ الأذى عن

الخلق؛ وهو مقام المحسنين، يدخل فى قوله: ﴿والإحْسان﴾.

ومن الصبر: الصبرُ على الإنفاق وإعطاءُ أهلِ الحقوق حقوقَهُم؛ الأقرب فالأقرب، وهذا مقام المنفقين، يدخل فى قوله تعالى: ﴿وَإِيتاءِ ذى الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ والْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]. ومنه الصبرُ عن الفحشاء، وهو الأمر الفاحش فى العلم والإيمان. والصبرُ عن المنكر، وهو ما أنكره العلماء. والصبرُ عن البغى، وهو التطاول والغلوُّ ومجاوزة الحدّ بالكبر والإسراف فى أمور الدنيا. فهذه الآية كلّها جامعة لمعنى الصبر، وهى قطبُ القرآن؛ ثلاث منها، وهى الأُوَل: الصبر على: العدل، والإحسان، والإعطاء. وثلاث منها: الصبر عن: الفَحْشاء، والمنكر، والبغى. وكان ابن مسعود رضى الله عنه يقول: أجمعُ آية فى كتاب الله عزّ وجلّ لأمرٍ ونَهْيٍ هذه الآية.

وقال الله تعالى: ﴿نِعْمَ أَجْرُ العَامِلينَ * الَّذينَ صَبَرُوا﴾ [العنكبوت: ٥٨ ـ ٥٩]، فما أنعمَ أجرَهم حتّى وصفهم بالصبر، وما أكرم رزقَهُم ووصْفَهم حتّى مدحهم بالصبر.

والصَّبر يُحتاجُ إليه قبل العلم؛ ومعه؛ وبعده. يحتاج فى أول العمل أن يصبر على تصحيح النيّة، وعزم العقود والوفاء بها حتى تصحّ الأعمال؛ لأن النبىّ عليه السلام قال: «إنّما الأعمالُ بالنّيات، ولكلّ امرئٍ ما نوى». وقال الله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]. وحقيقة النيّة الإخلاصُ، ولأن الله تعالى قدّم الصبر على العمل، فقال تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولئكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود: ١١]. والصبر الثانى: فى العمل حتى يتم ويعمل، لقوله تعالى: ﴿نِعْمَ أَجْرُ العَامِلينَ * الَّذينَ صَبَرُوا﴾. والصّبرُ بعد العمل هو الصبرُ على كتمه، وترك التظاهُر به، والنظر إليه، ليخلص من السُّمعة والعُجب فيكمل ثوابُه كما خلص من الرياء، كما قال الله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣]، وقال تعالى فى مثله: ﴿لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى﴾ [البقرة: ٢٦٤].

وقال بعض السلف: لا يتمُّ المعروف إلا بثلاث: تعجيله، وتصغيره، وكَتْمه.

ومن الصبر: حبسُ النفس عن المكافأة، والصبر على الأذى توكلاً على المولى عزّ وجلّ. ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلى الله فَلْيَتَوكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم:١٢]، وهذا صبر الخصوص. وقد قال بعض أهل المعرفة: لا يثبت للعبد مقام في التوكل حتّى يُؤذَى ويصْبر على الأذى. وقد ذكر الله تعالى ذلك في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى الله﴾ [الأحزاب:٤٨]، وفي قوله تعالى: ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكيلاً * وَاصْبِرْ عَلى مَا يَقُولُونَ﴾ [المزمل:٩ ـ ١٠]. وهذا هو أوّل الرضا.

والمقام الثاني من الرضا: هو الصبر على الأحكام، وهو صبر أهل البلاء الأمثل فالأمثل بالأنبياء، لقوله ﷺ: «نحن معاشرَ الأنبياء أشدّ الناس بلاء، ثم الأمثل فالأمثل». ولقوله تعالى في المجمَل: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر:٧]. ثم فسّره في الكلام المفسّر فقال: ﴿واصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا﴾ [الطور:٤٨].

ومن الصبر: حبس النفس على التقوى؛ والتقوى: اسم جامع لكلّ خير. فالصبر معنًى داخل في كل برٍّ، فإذا جمعهما العبد فهو من المحسنين، وما على المحسنين من سبيل. ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٩٠]، وقال تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذلك مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [آل عمران:١٨٦] أي: إن تصبروا على الأذى عن المكافأة، وتتقوا عند الابتلاء والمكاره، ولا تجاوزوا، فإنه أفضل، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل:١٢٦]، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [الشورى:٤١]، ثم قال عزّ وجلّ: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [الشورى:٤٣].

فالأولُ: أعنى المكافأةَ والانتصار بالحق من العدل، والعدل حسن.

والثانى: أعنى العفوَ والصبرَ من الفضل وهو الإحسان، وهذا مجازُ قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾ [الزمر:١٨]. فاستماع القول هو العدل، واتّباع الأحسن هو العفو[١]، وفيه المدْحُ بالهداية والعقل، وهذا هو مقام المخبتين. قيل: هم الذين لا يَظلمون، وإذا ظُلموا لم ينتصروا. فالمدح بالوصف لأهل هذا المقام هو الإخبات، وهو الخشوع والطمأنينة بحسن الجزاء من الله سبحانه وتعالى فى الآخرة، لقرب اللقاء وسرعة فناء الدنيا ـ أمدح، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر:٨٥].

والتقوى والصبر معنيان أحدهما منوط بالآخر لا يتم كل واحد منهما إلا بصاحبه، فمن كانت التقوى مقامه كان الصبر حاله، فصار الصبرُ أفضلَ الأحوال من حيث كانت التقوى أعلى المقامات، إذ الأتقى هو الأكرم عند الله تعالى، والأكرمُ على الله تعالى هو الأفضل. وقد شرَّف الله تعالى الصبرَ بأن أضافه إليه بعد الأمرِ به فقال: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ﴾ [النحل:١٢٧]. وقال تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر:٧]، وإن كان كل شىء به، وكلّ عمل صالح له. ولا يصف الله تعالى عبدًا ولا يثنى عليه حتى يبتليه، فإن صبر وخرج من البلاء سليمًا مدحه ووصفه، وإلا بيَّن له كذبه ودَعواه. وقيل لسفيان الثورى رضى الله عنه: ما أفضلُ الأعمالِ؟ قال: الصبر عند الابتلاء.

وقال بعض العلماء: وأى شىء أفضل من الصبر، وقد ذكره الله تعالى فى كتابه فى نيّف وتسعين موضعًا؟! ولا نعلم شيئًا ذكره الله تعالى هذا العدد إلا الصبر، فلا يطمعنّ طامع فى مدح الله له وحسن ثنائه عليه قبل أن يبتليه فيصبر له، ولا يطمعنّ أحد فى حقيقة الإيمان وحُسنِ اليقين قبل أن يمدحه الله تعالى

(١) عبارة (ط): «فاستماع القول هو العدل والعدل حسن وهو الانتصار والعفو أحسن» وأثبت عبارة (خ) فهى أصح وأدق.

ويثنى عليه. ولو أظهر اللهُ تعالى على جوارحه سائر الأعمال، ثم لم يمدحه بوصف ولم يثن عليه بخير ـ لم يُؤمَن عليه سوءُ الخاتمة. وذلك أن من أخلاق الله تعالى أنه إذا أحبَّ عبداً ورضى عملَه مدَحه ووصفه. فمن ابتلاه بكراهةٍ ومشقّة، أو بهوًى وشهوة، فصبر لذلك أو صبر عن ذلك؛ فإن الله تعالى يمدحه ويثنى عليه بكرمه وجوده، فيدخلُ هذا العبد فى أسماء الموصوفين، ويصير واحداً من الممدوحين، فعندها يثبِّت قدمه من الزلل، ويختم له بما سَبَق من صالح العمل.

ومن الصّبر: صبرٌ على العوافى أن لا يجريها فى المخالفة، والصبر على الغنى أن لا يبذله فى الهوى، والصّبر على النعمة أن لا يستعين بها على معصية. فحاجة المؤمن إلى الصبر فى هذه المعانى، ومطالبته بالصبر عليها، كحاجته ومطالبته بالصبر على المكاره والفقر، وعلى الشدائد والضرّ. ويقال: إنّ البلاء والفقرَ يصبر عليهما المؤمن، والعَوافى لا يصبر فيها إلا صِدِّيق. وكان سَهْل يقول: الصّبر على العافية أشدُّ من الصبر على البلاء. وكذلك قالت الصحابة رضى الله عنهم لما فُتحت الدّنيا فنالوا من العيش واتسعوا: ابتُلينا بفتنة الضرّاء فصبرنا، وابتُلينا بفتنة السرّاء فلم نصبر. فعظَّموا الاختبار بالسرّاء وهو ما سرَّ على الاختبار بالضراء وهو ما ضرَّ. وقد قال تعالى: ﴿**الَّذينَ يُنْفِقُونَ فى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ**﴾ [آل عمران: ١٣٤] فمدحهم بوصف واحد فى الحالين المختلفين؛ لحسن يقينهم، وسخاوة نفوسهم، وحقيقة زهدهم. ومن هذا المعنى قول الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ الله**﴾ [المنافقون: ٩]؛ لأنّ فيهما ما يسرُّ فيشغل عن الذكر. ثم قال عزّ وجلّ: ﴿**إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلاَدِكُمْ عَدُوًا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ**﴾ [التغابن: ١٤]؛ لأن فى الأزواج والأولاد ما يُفرَح به، فيوافق فيه الهوى، ويخالف بوجودهما المولى، فصارا عدوَّيْن فى العُقبى لما يؤول إليه من شأنهما.

ومن هذا الخبرُ الذى رُوى عن النبى ﷺ لما نظر إلى ابنه الحسن يتعثر فى قميصه، فنزل عن المنبر واحتضنه، ثم قال: «صدق الله: ﴿**إِنَّما أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ**

فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]» أى لما رأيتُ ابنى هذا لم أملك نفسى أن أخذته. ففى هذا عبرة لأولى الأبصار. ورُوى عنه فى الحديث أيضًا: «الولد مَحْزَنَةٌ مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ». فهذه مصادر الحزن والبخل والجبن، أى يحمل حبُّ الأولاد والأموال على ذلك.

فمن صبر على السرّاء؛ وهى العوافى، والغنى، والأولاد، وغير ذلك، وأخذَ الأشياءَ من حقّها ووضعها فى حقّها، فهو من الصابرين الشاكرين، لا يزيد عليه أهل البلاء والفقر إلا بحقيقة الرضا والشكر. وقد جمع الله تعالى بين ما سَرَّ وضَرَّ وجعلهما من وصف المتّقين، ومدحهم بالإحسان معهما، فقال تعالى: ﴿**أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [آل عمران: ١٣٣ ـ ١٣٤].

ومن الصبر: كتمانُ المصائب والأوجاع، وتركُ الاستراحة إلى الشكوى بهما، فذلك هو الصبر الجميل. قيل: هو الذى لا شكوى فيه ولا إظهارَ. وروينا عن ابن عباس رضى الله عنهما: الصبر فى القرآن على ثلاثة أوجه: صبرٌ على أداء الفرائض لله تعالى، وصبرٌ عن محارم الله تعالى، وصبرٌ فى المصيبة عند الصدمة الأولى. فمن صبر على أداء فرائض الله تعالى فله ثلاثمائة درجة. ومن صبر على محارم الله تعالى فله ستمائة درجة. ومن صبر فى المصيبة عند الصدمة الأولى فله تسعمائة درجة.

وهذا يحتاج إلى تفسير. لم يفضل ابن عباس الصبر على المصيبة لأنه أفضل من الصبر عن المحارم وعلى الفرائض، بل لأنّ الصبر على ذَيْنِك من أحوال المسلمين، والصّبرُ على المصيبة من مقامات اليقين، وإنّما فُضِّل المقامُ فى اليقين على مَقام الإسلام.

ومن ذلك ما روى من دعاء النبى ﷺ: «أسألك من اليقين ما تهوِّن به علىَّ مصائب الدنيا».

فأحسنُ الناس صبرًا عند المصائب أكثرُهم يقينًا، وأكثرُ الناسِ جزعًا وسُخطًا فى المصائب أقلّهم يقينًا.

ومثل هذا الخبر الذى رُويناه عن سَلَمة بن وِرْدان، عن أنس بن مالك، عن رسول الله ﷺ: «مَنْ ترك المِراء وهو مُحِقٌّ بُنى له بيت فى أعلى الجنة، ومن ترك المِراء وهو مُبْطِلٌ بُنى له فى وسط الجنة، ومن ترك الكذبَ بُنى له فى رَبَض الجَنّة». فقد علمت أنَّ تركَ الكذب وتركَ المراءِ مُبطلاً أفرضُ وأوجبُ، فينبغى أن يكونا أفضل. ولكن المعنى فيه أنّ الكذبَ والمراء بالباطل يتركه المسلمون. فأمّا المراء والعبدُ مُحِقٌّ صادق، ثم لا يمارى زهدًا فى التظاهر ورغبةً فى الصمت والسّلامة، فلا يصبر على هذا إلا الموقنون وهم خصوص المؤمنين؛ فمقامه من اليقين، والزهد وإيثار الخمول والصمت على الكلام والشهوة به أفضلُ، وهو من اليقين. فصار هذا المؤمن بمقامه أفضلَ من عُموم المؤمنين الذين يتركون الكذب والمماراة، وإنْ كانا أفرضَ وأوجبَ. فهذا بيان ذلك ومعناه.

ومن الصبر: إخفاءُ أعمال البرّ، ومنع النفسِ الفكاهةَ والتمتع بذكرها، وإخفاءُ المعروف والصدقات، فإنّ كَتْمَهُ من الأدب، مع السلامة فى الإعلان، وبُرء الساحة فى الإخبار، ولكن إخفاؤه أفضل وأزكى وأحبُّ إلى الله تعالى، بل هى من كنوز البرِّ، أعنى هذه الثلاثة: إخفاء الأوجاع، والمصائب، والصدقة. أى من الذخائر النفيسة عند الله تبارك وتعالى.

ومن الصبر: صونُ الفقر وإخفاؤه، والصبرُ على بلاء الله تعالى فى طوارق الفاقات. وهذا حال الزاهدين الراضين.

وأفضلُ الصبر: الصبرُ على الله تعالى بالمجالسة له، والإصغاءِ إليه، وعكوفِ الهمِّ عليه، وقوّة الوجد به. وهذا خصوصٌ للمقربين، أو حياء منه، أو حبًا له، أو تسليمًا، أو تفويضًا إليه؛ وهو السكون تحت جريان الأقدار وشهودُها من الإنعام، ومن حُسن تدبير الأقسام فى شهود المسألة، والحكمة فيها، والقصد بالابتلاء بها، وهو داخل فى قوله تعالى: ﴿**وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ**﴾ [المدثر:٧]. وفى قوله تعالى: ﴿**وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا**﴾ [الطور:٤٨].

وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه وغيرُه من الأئمة: أصبحتُ وما لى سرور إلا فى مواضع القَدَر. ورُوى أيضًا: إلا انتظارُ القضاء. ويقال: من علامة

اليقين تسليمُ القضاء بحُسْن الصّبر والرضا؛ وهو مقام العارفين.

وقال سهل فى تأويل قول على رضى الله عنه: إن الله تعالى يحبّ كلَّ عبدٍ نُوَمة. قال: هو السّاكن تحت جريانِ الأحكام. يعنى من غير كراهة ولا اعتراض.

فأما اشتراطُ الصّبر فى المصيبة عند الصدمة الأولى فى قول النبى ﷺ: «إنّما الصّبر عند الصّدمة الأولى» فلأنه يقال: إنّ كلّ شىء يبدو صغيرًا ثم يكبر إلا المصيبة، فإنّها تبدو كبيرة ثم تصغر. فاشترط لعِظَم الثّواب لها عند أوّل كِبَرها قبل صغرها، وهى فى صدمة القلب أوّل ما يبغته الشىء، فينظر إلى نظر الله تعالى فيستحى، فيُحسن الصبر، كما قال: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ ، وهذا مقام المتوكِّلين على الله تعالى.

والصّبرُ أيضًا عن إظهار الكرامات، وعن الإخبار بكشف القدرة والآيات ـ داخلٌ فى حسن الأدب من المعاملات؛ وهو من معنى الحياء من الله تعالى، وهذا طريق المحبين لله تعالى، وهو حقيقة الزهد.

ومن فضائل الصبر: حَبْسُ النفس عن حب المدح والحمد والرياسة. وقد رُوينا عن رسول الله ﷺ حديثًا مقطوعًا: «الصبر فى ثلاث: الصّبرُ عن تزكية النفس، والصبرُ عن شكوى المصيبة، والصبرُ على الرضا بقضاء الله تعالى على خيره وشرّه».

ومن الصبر: حبسُ النفس على[1] الخمول والتواضع والذِّلة؛ إيثارًا للآخرة على الدنيا، وهربًا إلى الله تعالى، وتحققًا بوصف العبودية، وتركِ المنازعةِ والتشبه بمعانى أوصاف الربوبية؛ تسليمًا للإلهية، واستسلامًا للأحَديَّة[2]، فلا يخرجنَّك قلةُ الصبرِ عن ذلك إلى الطلب لشىء منه، فتزلَّ قدمٌ بعد ثبوتها، نعوذ بالله من ذلك.

ومن الصبر: صبر على العيال فى الكسب لهم والإنفاق عليهم، والاحتمال للأذى منهم، فإن فى العيال طُرُقاتٍ إلى الله تعالى؛ أدناها: الاهتمام بهم،

(١) فى (ط): «عن».

(٢) الأحَديّة: أى إفراد الله الواحد بالوحدانية.

وأعلاها: الرضا عن الله تعالى والتوكل عليه فيهم، وأوسطها: الإنفاق وحبس النفس عليهم.

واعلم أن أكثر معاصى العباد فى شيئين: قلّة الصبر عمّا يحبون، أو قلّة الصبر على ما يكرهون. وقد قرن الله تعالى الكراهةَ بالخير، والمحبةَ بالشر، فى قوله تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦]. وحدُّ الصبر وهو أولُه فريضةٌ بمثل أوّل الإخلاص.

والصبر أيضًا حيلة من لا حيلة له، لأن الأمر إذا كان بيد غيرك لم يكن إلا الصبر عليه، ولأنّ الشيء إذا كان لا يأتيك إلا قليلاً قليلاً وأنت محتاج إليه لم يكن إلا الصبر عليه، وإلا انقطع ذلك القليل.

وأصل قلّة الصبر ضعفُ اليقين بحسن جزاء من صبرت له؛ لأنّه لو قَوِىَ يقينه كان الآجلُ من الوعد عاجلاً، إذا كان الواعد صادقًا، فيحسن صبرُهُ لقُوّة الثقة بالعطاء.

ولا يصبر العبدُ إلا بأحد معنيين: مشاهدة العِوَض، وهو أدناهما، وهذا حال المؤمنين ومقام أصحاب اليمين. أو النظرُ إلى المعوِّض، وهو حال الموقنين ومقام المقرَّبين. فمن شهد العِوضَ غَنِىَ بالصبر، ومن نظر إلى المعوِّض حمله النظر.

وقد جعل بعضُ العارفين الصبرَ على ثلاثة معان، وأنه فى أهل مقامات ثلاث، فقال: أوّله ترك الشكوى، قال: وهذه درجة التائبين. والثانية: الرضا بالمقدور، وهذه درجة الزاهدين. والثالثة: المحبة لما يصنع به مولاه، وهذه درجةُ الصادقين.

وقد نوَّع القدماءُ من السلف الصبرَ على ثلاثة أنواع. فرُوينا عن الحسن وغيره: الصبرُ على ثلاثة معان: صبر عن المعصية وهو أفضلها، وصبر على الطاعة، وصبر فى المصائب.

وهذا داخلٌ فى جمل ما فرَّقناه من معانى الصبر. ومجمل ذلك: أنّ الصبر فرض وفضل، يُعرف ذلك بمَعْرفة الأحكام. فما كان أمرًا أو إيجابًا فالصبرُ عليه أو عنه فرض. وما كان حثًا وندبًا فالصبر عليه أو عنه فضل.

والتصبرُ غير الصّبر، وهو مجاهدة النفس وحملها على الصبر، وترغيبها فيه. وهو التعمُّل للصبر، والتصنُّع للصبور بمنزلة التزهُّد، وهو أن يعمل فى أسباب الزهد ليحصِّل الزهد. والصّبرُ [والزُّهْدُ][1]هو التحقّق بالوصف، وذلك هو المقام. ولا يُخرجُ العبدَ من الصبرِ كراهةُ النفس، ولا وجدانُ المرارةِ والألم، بل يكون مع ذلك صابرًا؛ لأنّ هذا وصف البشرية لما ينافى طبعها، ولكن يكون حاله الكظم عن الشكوى ونفى السّخط لحكم المولى؛ لأن عدم ذلك وفقده هو الرضا وحقيقة التوكل، وهذان من أعلى مقامات اليقين.

وفقدُ مراتب اليقين لا يُخرج عن حدّ الصبر. والذى يُخرجُ عن حدِّ الصبر ضدُّه؛ وهو الجزع، ومجاوزة الحدّ من العلم، وإظهار التَّسَخُّط، وكثرة الشكوى، وظهور الذمِّ والتبرُّم.

ومن رياضة النفس على التصبُّر، وهو مقام المتصبِّرين وحالُ ضعفاء المريدين: أن النفس الأمّارةَ إذا جنحت بك إلى فضول الشهوات أو نازعتْكَ إلى مطالبة متقدَّم العادات أن تمنعها حاجتَها من كل شىء، فيشغلها منعُ الحاجة ووجودُ الفاقة ممّا لا بُدّ منه عن طلب فُضول الشهوات، فإذا رُضْتَها بالمنع، ومنعتها محبوبَها بالتصبُّر عن الحلال، انقادت لك بالصبر عن فضول الشهوات، فتكونُ تاركةً لشهوةٍ بعِوَضٍ عاجل من مباحٍ، وتكون صابرة عن فضول شهوة لما منعتها من منال الفاقة، وتاركة للهوى طمعًا فى نوال الحاجة من الغذاء. وهذا من أكبر أبواب الرياضات للنفوس الطامحات، وفيه فضلُ الأقوياء من المتصبِّرين؛ الذين لم تستجب لهم نفوسهم بالصبر والصلاة، ولم تَنقَدْ بالجُوع والظماء.

فأمّا الضعفاء من أهل الطبقة الثالثة؛ لا من الأوّلين أهل الصوم والصلاة، ولا من هؤلاء، فإنهم لا يصبرون على تصبُّر النفس عن الحاجة، كما لا تصبر نفوسهم عن الشّهوة. فرياضةُ هؤلاء لنفوسهم أن يقطعوها من كلِّ حرام معناهُ من الحلال، ومن كلِّ شهوة مهلكةٍ وصفُها من شهوةٍ مقتصدة، لتسكن نفوسهم بذلك فى حبسها عن المحرَّمات، وتنقطع شهوتها عمّا وراء ذلك من الموبقات، فبهذا

(١) زيادة من (خ).

تطمئنُّ نفوسُ الضعفاء.

وقد اختلف النّاس فى الصّبر والشُّكر، أيّهما أفضل؟ وليس يمكن التّرجيح بين مقامين؛ لأن فى [ذلك من][1] كلِّ مقام طبقةً متفاوتين. والمحققون من أهل المعرفة يقولون: إنه لا يجتمع عَبدانِ فى مَقامٍ بالسَّواء، بل لا بدّ من أن يكون أحدُهما أعلى بِعلْمٍ أو عمل أو وَجْدٍ أو مشاهدة، وإن كان الصّوب[2] والقصد والأصل واحدًا، وأعلى التفاوت مشاهداتُ الوجه، وقد قال الله تعالى ومَنْ أَصدقُ من الله حديثًا: ﴿ولكُلٍّ وجْهَةٌ هُو مُولِّيهَا﴾ [البقرة:١٤٨]. وقال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً﴾ [الإسراء:٨٤]. قيل: أقصد وأقرب طريقًا.

وظاهرُ الكتاب والسنّة يدلان على تفضيل الصبر، لقوله تعالى: ﴿يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [القصص:٥٤]. فالشاكر يُؤتَى أجره مرةً، فأشبهَ مقامُ الصَّبر مقامَ الخوف، وأشبهَ مقامُ الشكرِ مقامَ الرّجاء. وقد قال الله تعالى: ﴿ولِمَنْ خَافَ مَقَامَ ربِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٤٦]. وقد اتفق أهلُ المعرفة على تفضيل الخوف على الرجاء، من حيث اتفقوا على فَضْل العلم على العمل. فالصبرُ حالُ مَنْ مَقَامُهُ الخوف[3]، يَقرُبُ حالُ الصّابر فى الفضل من مقامِه. والشُّكرُ حالُ مَنْ مقامُه الرّجاء، كذلك يَقرُب حالُ الشّاكر مِن مَقامه.

ومن السّنة قوله ﷺ فى الخبر الذى ذكرناه من قبل: «مِن أقلِّ ما أُوتيتمُ اليقينُ وعزيمةُ الصَّبرِ، ومَنْ أُعطِيَ حظَّه منهما لم يبال ما فاته». وذكر الحديث المتقدم، فقرن الصّبر باليقين الذى لا شيء أعزَّ منه ولا أجلَّ، وارتفاعُ الأعمال وعلوُّ العلوم به[4].

---

(١) زيادة من (خ).

(٢) فى (ط): «الصواب».

(٣) فى (ط): «من مقام الخوف».

(٤) فى (ط): «وعلو اليقين به».

وفى مناجاة أيوب عليه السلام: إن الله سبحانه وتعالى أوحى إليه: يا أيوب إنى آليتُ على نفسى لا نشرتُ للصّابرين ديوانَ توبيخٍ، ولا نَظَرُوا إلى حدِّ الصِّراط، ولا روَّعهم نَقْصُ المِيزانِ، دارُهُم دارُ السَّلامِ.

• بيان آخر من تفضيل الصبر:

الصبر: حال البلاء، والشّكرُ: حالُ النعمة. والبلاءُ أفضل؛ لأنه على النفس أشقّ، لقول الله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ [الزمر: ١٠]. فالشاكر يُوفَّى أجره بحساب، لأنّ «إنما» تحقيق للوصف ونفى ما عداه.

• بيان آخر من فضل الصبر:

قد رفع على كرّم الله وجهه الصّبر على أربع مقامات اليقين، وجعلها دعائمه التى بها يستبين، وجعله فيه فوقها، فقال فى حديثه الطويل الذى وصف فيه شُعبَ الإيمان: والصبر على أربع دعائم: على الشوق، والشفقة، والزهد، والترقُّب. فمن أشفق من النار رَجَع عن المحرَّمات، ومن اشتاق إلى الجنة سلا عن الشّهوات، ومن زهد فى الدنيا هانت عليه المصيبات، ومن ارتقبَ الموتَ سارعَ إلى الخيرات.

فجعل هذه المقامات أركان الصبر، لأنها تُوجَدُ عنه، وتحتاج إليه فى جميعها، وجعل الزهدَ أحدَ أركانه.

وقد جعل الله تعالى الصبرَ حال التقوى، ورفع للمتقين فى الإكرام درجات، فقال عزّ وعلا: ﴿**إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ**﴾ [يوسف: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ [الحجرات: ١٣]. و«أكرم» و«أتقى» فوق أن يقال: كِرامُكُم المتقون، لأنّ «أكرم» و«أتقى» يدلّ على تفاوتٍ، فمن كان أتقى كان أكرم عند الله سبحانه وتعالى، ومن كان أصبر على ما يوجب التقوى كان أتقى.

واعلم أنّ الصبرَ سببُ دخول الجنة، وسببُ النجاة من النار؛ لأنه جاء فى الخبر: «حُفَّت الجنةُ بالمكاره، وحُفَّتُ النّارُ بالشّهوات». فيحتاج المؤمنُ إلى صبرٍ[1]

---

(١) فى (ط): «الصبر».

على المكاره ليدخل الجنة، ويحتاج إلى صبرٍ[١] عن الشهوات لينجو من النار.

فأما تفصيل التفضيل فعلى ثلاثة أوجه؛ أحدها: أن المقامات أعلى من الأحوال، وقد يكون الصبر والشكر حالين، وقد يكونان مقامين. فمن كان مقامُه الصبرَ كان حالُه الشُّكْر عليه، فهو أفضل لأنه صاحب مقام، ومن كان مقامُه الشُّكْرَ كان حالُه الصَّبرَ عليه، فحالُه مزيدٌ لمقامه، فقد صار الصبرُ مزيدًا للشّاكر فى مقامه.

الوجه الثانى من التّفضيل: المقرَّبون أعلى من أصحاب اليمين، فالصّابرون من المقرَّبين أفضلُ من الشاكرين من أصحاب اليمين، والشّاكرون من المقربين أفضلُ من الصابرين من أصحاب اليمين.

فإن قيل: فإن كان الشّاكر والصّابر من المقرَّبين فأيّهما أفضل؟ قيل: فقد قلنا: إنّ اثنين لا يتفقان فى مقام من كل وجه، لانفراد الوجه بمعانى لطائفِ اللطيف، بمثل ما انفردت الوجوه بلطيف الصَّنعة، مع تشابُهِ الصّفات واستواء الأدوات، فأفضلهما حينئذ أعرفهما، لأنّه أحبُّهما إلى الله تعالى، وأقربهما منه، وأحسنهما يقينًا؛ لأنّ اليقين أعزُّ ما أنزل الله تعالى.

• وجه آخر من بيان التفضيل:

نقول: إنّ الصبر عمّا يوجب الشكر أفضل، وإنّ الشُّكر على ما يوجب الصبر أفضلُ. فهذا[٢] يختلف باختلاف الأحوال. تفسيره: أن الصّبرَ عن حظِّ النفس وعن التنعُّم والترفُّه أفضلُ، إن كان عبدًا حالُه النعمة. فالصبرُ عن النعيم والغنى مقامٌ فى المعرفة، وهو أفضل لأن فيه الزهد المجمَع على تفضيله. ونقول: إنّ الشّكر على الفقر والبلاءِ والمصائب أفضلُ، إن كان عبدًا حالُه الجهد والبلاء. فالشّكر عليه مقامٌ له فى المعرفة، فهو حينئذ أفضل، لأن فيه الرضا المتفق على فضله.

---

(١) فى (ط): «الصبر».

(٢) من (خ)، وفى (ط): «فقد».

• نوع آخر من الاستدلال على فضل الصابر وتفضيل الصبر جملة:

الصّابر العارف أفضلُ من الشّاكر العارف، لأنَّ الصَّبر حالُ الفقر، والشّكر حالُ الغنى. فمن فضَّل الشكرَ على الصبر فى المعنى فكأنه قد فضّل الغنى على الفقر، وليس هذا مذهب أحد من القدماء، إنما هذه طريقة علماء الدنيا، طرَّقوا لنفوسهم بذلك، وطرّقوا الخلق إلى نفوسهم من ذلك؛ لأنَّ من فضَّل الغنى على الفقر فقد فضَّل الرّغبةَ على الزهد، والعزَّ على الذلّ، والكبرَ على التواضع؛ وفى هذا تفضيل الراغبين والأغنياء على الزّاهدين والفقراء. ويخرج ذلك إلى تفضيل أبناء الدنيا على أبناء الآخرة.

وإنّما فضّلنا الصّبر على الشّكر فى الجملة والمعنى؛ لأنّ الصّبر حالُ مَن مقامُه البلاء، وأهلُ البلاءِ هم الأمثلُ فالأمثلُ بالأنبياء، ولأن الصبر أبعدُ من أهواء النفوس، وأقربُ إلى الضرّ والبؤس، وأشدُّ فى مكاره النفوس، وأنفرُ لطباعها، وأشدُّ مباينةً لما يلائمها، فإذا سكنت معه ووُجد عندها، كان أعجزَ لوصفها، وأعجبَ فى طمأنينتها، فمُدحت بالسّكون والطمأنينة، وكانت راضيةً مَرْضية. وأيضًا فإن الله تعالى أمر بالصبر، وبالغ فيه بالمصابرة، ووكّدهما بالمرابطة، فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾ [آل عمران: ٢٠٠]. قيل فى أحد الوجوه: ورَابِطوا عليهما. فهذه ثلاثة أوامر فى مكان واحد بمعنى الصبر. فهذا يدل على تعظيمه للصبر ومحبته تعالى له، فمَن وُجد منه ذلك كان أشدَّ تعظيمًا لشعائر الله، عزّ وجلّ، ومن عظَّم شعائر الله فهو أتقى لله تعالى، ومن كان أتقى لله كان أكرم على الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى القُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]. ثم قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

والصّبر أيضًا مقام أولى العَزم من الرّسل الذين أُمر النبى ﷺ بالقدوة بهم، وباهى الله تعالى بهم عبده، فقال تعالى: ﴿فَاصبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]. وأيضًا فإن العزائم فى الدين أوْلى من الرُّخَص. رُوينا عن

سُفيان الثَّورى رضى الله عنه عن حبيب بن أبى ثابت قال: سئل مسلم البطين: أيُّما أفضل الصّبر أم الشّكر؟ فقال: الصّبر، والشُّكر والعافيةُ أحبُّ إلينا. وقد قيل فى معنى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر:١٨]. قيل: شدائدُه وعزائمه؛ لأنَّ إباحةَ حلال الدنيا حسنٌ، والزهدَ فيه أحسن. وقد جعل الله تعالى الصّبرَ من العزائم فى قوله: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [آل عمران:١٨٦].

وقد شرَّك اللهُ تعالى عبادَه فى الشّكر وأفرد عزّ وجلّ لنفسه تعالى الصّبر. فينبغى أن يكون المفْرَد للفَرْد أعلى من المشترَك بالعبد، فقال تعالى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِى وَلِوَالِدَيْكَ﴾ [لقمان:١٤]. وقال تعالى على لسان نبيّه ﷺ: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله عزّ وجل». ولم يشرِّك فى الصبر من خلقه أحدًا، فقال تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر:٧]. وقال: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الطور:٤٨].

واعلم أن الشّكرَ داخل فى الصبر، والصبرَ جامع للشكر؛ لأنّ مَن صبر أن لا يعصى الله بنعمه فقد شكَرَها، ومن أطاع الله فصبَّر نفسه على طاعته فقد شكر نعمته.

وقد سئل الجنيد رحمه الله عن غنى شاكر وفقير صابر، أيِّهما أفضل؟ فقال: ليس مدحُ الغنىّ للوُجود، ولا مدحُ الفقير للعدمِ، إنّما المدحُ فى الاثنين قيامهما بشُروطِ ما عليهما. فشَرْطُ الغنىّ تَصحبه فيما عليه أشياءُ تلائم صفتَهُ وتُمتِّعُها وتُلذُّها. والفقيرُ تَصحبه فيما عليه أشياءُ تُؤلم صفته وتَقْبِضُها وتُزعجها. فإذا كان الاثنان قائمَيْن لله تعالى بشُروطِ ما عليهما، كان الذى آلَمَ صفتَه وأزعجَها أتمَّ حالاً ممّن متّع صفتَهَ ونعَّمها.

هذا نقلُ كلامِ الجُنيد رحمه الله تعالى. وكان أبو العباس بن عطاء قد خالفه فى ذلك، فيقال: إنّ الجُنيدَ دعا عليه فلحقَه ما أصابه من البلاء، منه قتلُ أولادِه، وإتلافُ ماله، وزوالُ عقله أربعَ عشرةَ سنة. فكان يقول: دعوةُ الجنيد أصابتنى. ورجع عن قوله فى تفضيل الغنى على الفقر، فصار يفضِّل الفقيرَ ويشرِّفه.

وأيضًا فقد رُوينا فى الخبر: أعرفُكُم بنفسه أعرفكم بما ابتلاه به منها، وما ابتلاها به منه، فأعظمُ ما ابتلانا به محبّتُنا لها، وابتلاها بعداوتنا. فمَن أفضلُ ممّن صبر على مجاهدة عدوّه، على أنه مع ذلك عدوٌّ لله تعالى، منازِعٌ لصفات الربوبية؟ ومَن أشدُّ بلاءً ممَّن أُبتلى بعداوتك وابتُليتَ بمحبته، وأنتَ فى ذلك تتركُ محبّته لمحبةِ الله تعالى، وتصبر على عداوته بدوام مجاهدته لمرضاة الله تعالى؟ فهذا أعدلُ العدل وأفضلُ الفضل، ولا سبيل إلى ذلك إلا بفضل أَثَرَةٍ من الله تعالى، وحسن عنايته، ودوامِ نظره، إذ لا توفيق ولا قوّة ولا صبر إلا به سبحانه وتعالى.

فأما المسألة التى سُئِلَ عنها بعض العلماء: عن عبدين ابتُلى أحدهما فصبر، وأُنعِم على الآخر فشكر. فقال: كلاهما سواء، قال: لأنّ الله تعالى أثنى على عبدين أحدهما صابر والآخر شاكر بثناء واحد، فقال تعالى فى وصف أيوب عليه السلام: ﴿**نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ**﴾ [ص:٤٤]، وقال فى وصف سليمان عليه السلام: ﴿**نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ**﴾ [ص: ٣٠].

ففى قوله هذا ـ رحمه الله ـ غفلةٌ عن لطائفِ الأفهام، وذَهابٌ عن حقيقة تدبّر الكلام. إذ عندنا بين ثَناءِ الله عزّ وجلّ على أيوب فى الفضل على ثَنائِه على سليمان عليهما السلام ثَلاثةَ عَشَر معنًى، وشرَّكَ سليمان عليه السلام بعد ذلك فى وصفين آخرين، وأَفرَدَ أيوب عليه السلام بفضل ثناء ثلاثةَ عشر معنى.

أوّلُ ذلك: قوله عزّ وجلّ فى أول مدحه: ﴿**وَاذْكُرْ**﴾ فهذه كلمة مباهاة، باهى بأيّوبَ عند رسوله المصطفى ﷺ وشرّفه وفضّله بقوله تعالى: ﴿**وَاذْكُرْ**﴾ يا محمد، فأمره بذكره والاقتداء به، كقوله تعالى: ﴿**فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُواْ الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ**﴾ [الأحقاف:٣٥]. قيل: هم أهل الشّدائد والبلاء، منهم أيوبُ عليه السلام، قُرِضُوا بالمقاريض، ونُشِروا بالمناشير، وكانوا سبعين نبيًا. وقيل: هم إبراهيمُ وإسحاق ويعقوب؛ وهؤلاء آباء الأنبياء وأفاضلهم، لقوله تعالى: ﴿**وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ**﴾ [مريم:٤١]، ولقوله تعالى: ﴿**وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ**

ويَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي والأَبْصَارِ﴾ [ص:٤٥]، يعني أصحاب القوّةِ والتَّمْكين وأهلَ البصائرِ واليقين. ثم رفَعَ أيوبَ إلى مقامهم، فضمّه إليهم، وجعله سلوةً له ﷺ، ثم ذكّره إياه وذكَّره به.

ثمّ قال تعالى: **﴿عَبْدَنا﴾** فأضافه إليه عزّ وجلّ إضافةَ تخصيصٍ وتقريبٍ، ولم يُدخل بينه وبينه لام الملك، فيقول: عبدًا لنا، فألحقه بنظرائه من أهل البلاء في قوله تعالى: **﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ويَعْقُوبَ﴾** [ص:٤٥]، وهم أهلُ الابتلاء الذين باهَى بهمُ الأنبياءَ، وجعل من ذرّياتهم الأصفياء. فأضافَ أيوبَ إليهم في حسن الثناء، وفي لفظ التّذكِرة به في الثناء.

ثم قال: **﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾** فأفرده بنفسه لنفسه، وانفرد له في الخطاب بوصْفه. وقال: **﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾** [الأنبياء:٨٣]، فوصفه بمواجهةِ التملُّق له، ولطيفِ المناجاةِ، وظهَرَ له بوصْفِ الرَّحمة فاستراح إليه به، فناداه فشكا إليه واستغاثَ به، فأشبه مقامُهُ مَقَامَ موسى ويونس عليهما السلام، في قول أحدهما: **﴿سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾** [الأعراف:١٤٣]، وفي قول الآخر: **﴿لا إلهَ إلاَّ أنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾** [الأنبياء:٨٧]. وهذا خِطابُ المشاهدةِ، ونَظَرُ المواجهة.

ثم وصفه بالاستجابةِ لَهُ، وأَهَّلَهُ لكَشْفِ الضُّرِّ عنه، فجعل كلامه سببًا لتنفيذ قدرته، ومكانًا لمجاري حكمتهِ، ومفتاحًا لفتح إجابتهِ.

ثم قال بعد ذلك كله: **﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ﴾** [ص:٤٣] فزاد على سليمان في الوصف، إذ كان بين من وُهِب لأهله وبين من وُهِب لَه أهلُه فضلٌ في المدح؛ لأنه قال في وصف سليمان: **﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ﴾** [ص:٣٠]، فأشبهَ فَضْلُ أيوب في ذلك على سليمانَ كفَضْلِ مُوسى على هارون؛ لأنه قال عزّ وجلّ في مدح موسى عليه السلام وتفضيله على هارون: **﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾** [مريم:٥٣]. وكذلك قال في مدح داود: **﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ﴾**. فوهب لموسى أخاه، كما وهب لداودَ ابنه. وأشبهَ مقامُ أيوب في المباهاة والتّذكرة

به مقامَ داود عليه السلام، لأنه قال تعالى فى وصف داود لنبيّه ﷺ: ﴿اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ﴾ [ص:١٧]. وكذلك قال تعالى فى نعت أيوب: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾ [ص:٤١]. فقد شبه أيوبَ بداوُد وموسى عليهما السلام فى المعنى، ورفعَهُ إليهما فى المقام، وهما فى نفوسنا أفضلُ مِن سُليمان، عليهم السلام، فأشبه أن يكون حالُ أيوب أَعْلَى من حالِ سليمان، ويَعْلَمُ اللهُ تعالى المقدَّم، ولكن هكذا أُلْقِى فى قلوبنا، والله أعلم.

ثم قال تعالى بعد ذلك كله: ﴿رَحْمَةً مِنَّا﴾ فذكَر نفسه ووصفه عند عَبْدِهِ تشريفًا له وتعظيمًا، ثم قال عزّ وجلّ: ﴿وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [ص:٤٣]، فجعله إمامًا للعقلاء، وقدوةً لأهل الصبر والبلاء، وتذكرةً وسَلْوة من الكُروب للأصفياءِ.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ ، فذكَر نفسه سبحانه وتعالى ذِكرًا ثانيًا لعبدِهِ، ووصل اسمه باسمه؛ حبًا له وقُربًا منه؛ لأن النون والألف فى «وجدنا» اسمه تبارك وتعالى، والهاء: اسم عبده أيوب ﷺ. ثم قال: ﴿صَابِرًا﴾ ، فوصفه بالصبر، فأظهر مكانه فى القوة وخلَّقه بخُلُقه.

ثم قال تعالى فى آخر أوصافه: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:٤٤]؛ فهذان أوّلُ وصْفِ سُليمان وآخرُه، ههنا شرَّكَه فى الثناء، وزاد أيوبَ بما تقدم من المدح والوصف الذى لا يقوم له شىء. فمن قولِهِ عزّ وجلّ: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ إلى قوله: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ عظيمٌ من الفرقان عند أهل الفهم والتبيان.

وجعل فى أوّل وَصْف سليمانَ بأنّه وَهَبَهُ لأبيه داود عليهما السلام، فصار حسنةً من حسناتِ داودَ عليه السلام، واشتمل قوله تعالى: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ على أوّل وَصْفه وأوسطِه، وهو آخر وصف أيوب عليه السلام. وعلى جميع الأنبياء الصّلاة والسلام.

وقد روينا فى الخبر عن رسول الله ﷺ: «آخرُ الأنبياء دخولاً الجنةَ سليمانُ بن

داودَ عليهما السلام لمكانِ ملكه، وآخرُ أصحابى دخولاً الجنةَ عبدُ الرّحمن بن عوفٍ لمكانِ غناه».

وفى لفظ آخر: «يدخلُ سُليمانُ بن داود الجنةَ بعدَ الأنبياءِ بأربعين خريفًا».

وقد جاء فى الآثار: «إن أوّل مَن يدخل الجنةَ أهلُ البلاء، وإنّ أبوابَ الجنةِ كلَّها مصراعان إلا بابَ الصّبر فإنّه مصراعٌ واحدٌ، وأوّل مَن يَدْخُله [مِنْ] أهل البلاءِ إمامُهُم أيوبُ عليه السلام»[1].

فقد زاد أيوبُ على سليمان عليهما السلام بعُموم هذه الأخبار؛ لأنّه سيدُ أهل البلاء، وتذكرةٌ وعبرة لأولى النُّهى، وإمام أهل الصّبر والضُّرِّ والابتلاء. ولم نقصد بما ذكرناه التفضيل بين الأنبياء؛ لأنّا قد نُهينا عن ذلك، فيما رُوينا عن نبيّنا محمد ﷺ أنه قال: «لا تفضِّلوا بين الأنبياء»، ولكنّ اللهَ تعالى قد أخبرنا أن بعضَهُم مفضَّل على بعض فى قوله: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّين عَلَى بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٥٥]. إنّما أظهرنا فضلَ الثناءِ المستودَع فى الكتاب، فاستنبطنا باطِنَ الوصفِ المكرّر فى الخطاب فى قصة أيوب على قصة سليمان عليهما السلام، بما ظهر لنا من فَهْمِ فصل الخطاب وتدبّر معانى الكلام، وعلمِ الله تعالى المقدَّم، وهو عزّ وجلّ أعلمُ وأحكمُ.

وقد نُدِبْنَا إلى الاستنباط فى قول الرسول عليه السلام: «اقرؤوا القرآن والتمسوا غرائبه». ولأنّ فى ذلك عِزًا[2] لأهلِ الصّبر والبلاء، وتقويةً لقلوبهم، وتعريفًا لسوابغ نعم الله تعالى عليهم، وإظهارًا لبواطن النعم، وتنبيهًا على لطائفِ الكَلِم، وتزهيدًا فى الدنيا والنّفس، وترغيبًا فى الآخرة والصبر، وتفضيلاً لطريق أهل البلاء الذين هم الأمثل فالأمثل بالأنبياء.

فجاء من ذلك تفضيلُ المبتلَى الصابرِ على بلائه رِضًا بحُكم مولاه، وتسليمًا لُمرِّ قَضائِه[3]، على المنعَمِ عليه، الشاكرِ على نعمائه، إذِ النّعمُ ملائمةٌ للطبع، موافقةٌ

(١) جاء هذا الخبر بالمطبوعة مخالفًا لما فى المخطوط فى الترتيب، فأثبت نص (خ).

(٢) فى (ط): «عزاء».

(٣) فى (ط): «وتسليمًا لمرضاته».

للنفس، لا يُحتاج معها إلى كدِّ النفس بالصبر عليها، [ولا مُجاهدتها](١)، ولا حَمْلها على المشقة فيها بالرّضا بها. والبلاءُ مباينٌ للطبع، نافرة منه النفس، يُحتاج إلى حملٍ عليه ومشقة فيه، وما كرهته النفسُ فهو خير وأفضل، ولا سبيل إليه إلا بسكينة من الله تعالى، وتصبرٍ عليه بقوةٍ به عزّ وجلّ وعنايةً منه: ﴿**وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إلاَّ بِاللهِ**﴾ [النحل: ١٢٧].

وهذا آخر شرح مقامات الصبر.

* * *



(١) زيادة من (خ).

شرح مقام الشكر، ووصف الشاكرين
وهو المقام الثالث من مقامات اليقين

قال الله تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وآمَنْتُمْ﴾ [النساء:١٤٧]، فقرن الشّكر بالإيمان، ورفعَ بوجودِهما العذابَ. وقال تعالى: ﴿وَسَنَجْزِى الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٥]. وروى عن النبى ﷺ أنه قال: «الطّاعم الشّاكر بمنزلة الصّائم الصّابر». وقال ابن مسعود رضى الله عنه: الشّكر نصف الإيمان.

وقد أمر الله تعالى بالشّكر وقَرَنه بالذّكر فى قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِى وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة:١٥٢]. وقد عظّم الذّكر بقوله: ﴿وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت:٤٥]، فصارَ الشّكرُ أكبرَ لاقترانه به، ورضِيَ الله تعالى بالشكر مجازاةً من عباده لفَرط كرمِه، لأنّ قولَه تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِى﴾ خروج من لفظِ المجازاة لتحقيق الأمر وتعظيمِ الشكر، لأنّ «الفاء» للشرط والجزاء، و«الكاف» المتقدمة للتمثيل. فقوله تعالى: ﴿فاذكرونى﴾ متصل بقوله: ﴿كَما أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ... فَاذْكُرُونِى... وَاشْكُرُوا لِى﴾ [البقرة:١٥١ـ ١٥٢]. والمعنى: كمَثَلِ ما أرسلتُ فيكم رسولاً منكم فاشكروا لى. والعرب تكتفى من «مثل» بالكاف، كما اكتفت من «سوف» بالسين، فى قوله تعالى: ﴿سَنُؤْتِيهِمْ﴾ [النساء:١٦٢]، ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾ [الأعراف:١٨٢]. وهذا تفضيل للشكر عظيم لا يعلمه إلا العلماء بالله تعالى.

وقد رُوينا فى أخبار أيوب عليه السّلام: إن الله تعالى أوحى إليه: إنّى رضيتُ بالشكر مكافأةً من أوليائى ـ فى كلام طويل. وفى أحد الوجوه من قوله عزّ وجلّ: ﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُم صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف:١٦]، قال: طريقَ الشّكر. فلولا أنّ الشكر طريقٌ قريبٌ يوصِّل إلى الله تعالى لما عوَّل العدو على قطعه، ولولا أن الشّاكرَ حبيبُ ربّ العالمين ما نَقَصَهُ إبليس اللعين فى قوله تعالى: ﴿وَلاَ

تجدُ أكثَرَهُمْ شَاكرينَ﴾ [الأعراف:١٧]. وكذلك قال الله تعالى: ﴿وقَليلٌ منْ عبَادىَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣]. كما قال تعالى: ﴿ولَقَدْ صدَّقَ علَيْهِمْ إبليسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إلاَّ فَريقًا منَ الْمُؤْمنينَ﴾ [سبأ: ٢٠].

وقد قطع الله تعالى بالمزيد مع الشّكر ولم يستثن فيه، واستثنى فى خمسة أشياء: فى الإغناء، والإجابة، والرّزق، والمغفرة، والتوبة. فقال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُغْنيكُمُ اللهُ منْ فَضْله إنْ شَاءَ﴾ [التوبة:٢٨]. وقال تعالى: ﴿فَيَكْشفُ مَا تَدْعُونَ إلَيْه إنْ شَاءَ﴾ [الأنعام:٤١]. وقال تعالى: ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة:٢١٢]، ﴿ويَغْفرُ لمَنْ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٤٠]. وقال عزّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ منْ بَعْد ذَلكَ عَلى مَنْ يَشَاءُ﴾ [التوبة:٢٧]. وختم بالمزيد عند الشكر من غير استثناء فقال تعالى: ﴿لَئنْ شَكَرْتُمْ لأزيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:٧].

فالشّاكر على مزيد، والشكور فى نهاية المزيد؛ وهو الذى يكثُرُ شكرُه على القليل من العطاء، ويتكرر منه الشكر والثناء على الشىء الواحد من النعم. وهذا خلُق من أخلاق الربوبية؛ لأنّه سماه باسم من أسمائه. والمزيدُ هو إلى المنعم يجعله ما شاء. فأفضلُ المزيدِ حسنُ اليقين ومشاهدةُ الأوصاف. وأوّلُ المزيد شهودُ النّعم أنها من المنعِم بها من غير حولٍ ولا قوّة إلا به عزّ وجلّ. وأوسطُ المزيدِ دوامُ الحال، ومتابعةُ الخدمة والاستعمال. وقد يكون المزيدُ أخلاقًا، وقد يكون علومًا، وقد يكون فى الآخرة، وتثبيتًا عند فراق العاجلة.

وقد جعل الله تعالى الشكرَ مفتاح كلام أهل الجنة وختامَ تمنّيهم فى قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لله الَّذى صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ [الزمر:٧٤]. وقال تعالى: ﴿وآخرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمينَ﴾ [يونس: ١٠]. فلولا أنه أحب الأعمال إليه ما بقّاه عليهم لديه.

ورُوينا فى مناجاة أيوب عليه السّلام: إنّ الله تعالى أوحى إليه فى صفة الصابرين: دارُهُم دارُ السّلام، إذا دخلُوها ألهمتُهُمُ الشُّكرَ وهو خيرُ الكلام، وعند الشّكر أستزيدُهم، وبالنَّظرِ إلىَّ أزيدُهُم. وهذا غاية الفضل.

فأوّلُ الشّكرِ معرفةُ النِّعَم أنّها من المولى وحدَه لا شريك له فيها، ولا ظهير له عليها، إذ قد نفى ذلك عن نفسه؛ لأنه هو الأوّلُ فى كلِّ شىء، لا شىءَ معه ولا ظهير له فى شىء، إذ قد جعل الضرَّاءَ والسرَّاء منه وإليه، جاريَيْنِ على عباده، فقال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ فيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ [سبأ:٢٢]. الشرك: الخلط. والظّهير: المعين. ثم قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْئَرُونَ﴾ [النحل:٥٣]. وقال تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام:١٧]. وقال تعالى فى جُمَل النّعم بعد إضافتها إليه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فى السَّمَوات وَمَا فى الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]. وقال تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

فالأسبابُ مع صِحّتها، والأواسطُ مع ثبوتها؛ إنما هى حكمةُ [المنعم][1] وأحكامُه. وظرُوفُ العطاء وآثارُ المعطى لا تؤثر فى الحكم بها والجعلِ لها حُكمًا ولا جَعْلاً، يعنى لا تحكمُ ولا تَجعل، لأنّها محكومات فكيف تحكم! ومجعولات فكيف تجعل! لا حاكم إلا الله وحدَه ﴿ولا يُشْرِكُ فى حُكْمه أحدًا﴾ [الكهف:٢٦]، وهذا الحرف فى مقرأ أهل الشام أبلغُ وأوْكدُ، لأنّه يخرجُ على الأمرِ، لأنهم قرؤوه: بالتاء وجزم الكاف: (ولا تُشْرِكْ فِى حُكْمه أحدًا)[2]. فالأسبابُ أحكامُ حقٍّ وأواسطُ حكمِه، فمشاهدةُ المنعِم فى النّعمة، وظهورُ المعطِى عند العطاء حتى تَرى النعمةَ عندَه منه، والعطاءَ عنه ـ هو شُكرُ القلب، لأن الشكر عند الشاكرين معرفةُ القلب ووصفُهُ، لا وصفُ اللسان.

وقد أخبر رسول الله ﷺ بذلك، وأمرَ باقتناء الشّكر[3]، واتخاذِه مالاً فى الآخرة، عِوضًا من اقتناءِ الأموال فى الدنيا، فقال فى حديث ثوبان وعمر بن

---

(١) زيادة من (خ).

(٢) هذه قراءة ابن عامر، والباقون «ولا يُشركُ»، انظر: السبعة فى القراءات، ص٣٩٠.

(٣) فى (خ): «بالاقتناء للشكر».

الخطاب رضى الله عنهما، حين نزل فى الكُنوز ما نزلَ سأله عمر: أيُّ المالِ نتخذُ؟ فقال: «ليتخذنّ أحدُكم لسانًا ذاكرًا وقلبًا شاكرًا».

ورُوينا فى أخبار موسى عليه السّلام وداود عليه السلام: يا ربّ كيفَ أشكركَ وأنا لا أستطيع أن أشكرَكَ إلا بنعمةٍ ثانية من نِعمك؟! وفى لفظ آخر: وشكرى لك نعمةٌ أُخرى منك تُوجب علىَّ الشّكر لك. فأوحى الله تعالى إليه: إذا عَرَفْت هذا فقد شكرتنى. وفى خبر آخر: إذا عَرَفت أن النّعم منى فقد رضيتُ منك بذلك شكرًا.

وشكرُ اللسان حسنُ الثناء على اللهِ تعالى، وكثرةُ الحمدِ والمدحِ له، وإظهارُ إنعامِه وإكرامِه، ونشرُ أياديه وإحسانه. وأن لا يشكو المالكَ إلى المملوك، ولا المعبودَ الجليل إلى العبدِ الذليل.

وفى الخبر: أن النبى ﷺ قال لرجل: «كيف أصبحت؟ قال: بخير. فأعاد عليه النبى عليه السلام السؤال ثانية: كيف أنتَ؟ فقال: بخير. فأعاد عليه الثالثة: كيف أنت؟ فقال: بخير أحمد اللهَ تعالى وأشكرُه. فقال: هذا الذى أردتُ مِنك». يعنى إظهارَ الحمدِ والشكرِ والثناء.

وإنّما كان السلف يَتَساءلُون عن أحوالهم إذا التقوا، ليستخرجوا بذلك حمدًا لله تعالى وشكرَه، فيكونوا شركاءَهُ فى ذلك، لأنهم سببُ ذكره لله تعالى. فمَن علمتَ أنّه يشكو مولاه ويتكرَّه عندَك قضاءه إذا سألته عن حاله فلا تسأله، فتكون أنت سبب شكواه، وشريكه فى جهله. وما أقبحَ بالعبدِ أن يشكوَ المولى الذى ليس كمثله شىء والذى بيده ملكوتُ كلِّ شىء إلى عبدٍ مملوك لا يقدر على شىء.

ومن الشّكر أن يشكرَ اللهَ تعالى على اليسير، لأنّ القليلَ من الحبيب كثير، ولأنّ الله تعالى حكيم، فمنعُهُ حكمةٌ وقُدْرةٌ. فإذا عَرفَ وجهَ الحكمة فى المنع مع القُدرة على العطاء عَلِم أنّه منعَهُ ليُعْطِيَهُ. فثَمَّ صارَ المنعُ عطاءً، وكان اليسيرُ منه كثيرًا. ويعلم أنّ الذل والصّبر عند المنع عزٌّ وشرف، وهو أفضل وأنفس عند العلماء من التعزّز بالعبيدِ والشّرَفِ بهم، وأن الطمع والتذلّل إليهم والاستشراف

إلى عبدٍ مملوكٍ مثلكَ ذلٌّ ذليل، وحسنُ الذلّ للعزيز كحسن الذلّ للحبيب، وقبح الذلّ للذليل كقبح الذلّ للعدو. وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ﴾ [العنكبوت:١٧]. وقال تعالى في معناه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأعراف:١٩٤]. والعبادةُ هي الخدمة والطاعة بذلٍّ.

ولا يَحسُنُ للعبدِ المقبل أن يُظهرَ فقرَه وفاقتَه إلى غيرِ مولاه الذي يلي تدبيرَهُ ويتولاه، لأنه عليمٌ خبير بحاله، يسمعه ويراه، فهو أعلم بما يُصلحه منه. وقد قال الله تعالى في معناه: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ﴾ [الشورى:٢٧].

فعلى الموقنِ أن يشكرَ في القَبْض والمنع، كما يشكر في العطاء والبسط. ثم يشهدُ الشاكرُ بقلبه شهادةَ يقين، ويعلم أن وصفَه وصفُ العبودية، وحكمَهُ أحكامُ العبيد، محكوم عليه بأحكام الربوبية، وأنه لا يستحقُّ على الله شيئًا، وأن الله عزّ وجلّ يستحقّ عليه كلَّ شيء. فالعبدُ خلقُه وصَنعته، والربُّ صانعُه ومالكُه. فإذا شهد العبدُ هذه المُشاهَدَةَ رأى لله عز وجل عليه كلَّ شيء، فرضِيَ منه بأدنى شيء، ولم يرَ لَهُ على الله تعالى شيئًا، فلم يقنع لله تعالى منه بشيء، ولم يطالب مولاه بشيء.

فكثرةُ الذكرِ، وحسنُ الثناء، وجميلُ النَّشر للنعماء، وتعديدُ النعم والآلاء، هو شكر اللسان؛ لأنّ معنى الشكر في اللغة: هو الكشفُ والإظهار. يقال: كثُر وشكَر بمعنًى، إذا كشَف عن ثغرِه وأظهره، فيكون إظهارُ الشكرِ وكشفُه باللسانِ ما ذكرناه، كما جاء في الخبر: «ليس شيءٌ من الأذكارِ يُضاعَف ما يُضاعَفُ الحَمْدُ». وفي الحديث: «من قال: سبحان الله، فله عشرُ حَسَنات، ومن قال: لا إله إلا الله، فله عشرون حسنة، ومن قال: الحمد لله، كُتبت له ثلاثون حسنة».

ليس أن الحمدَ أعلى من التوحيد، ولكن لفضلِ مقام الشُّكْرِ[1]، ولأنّ الله تعالى افتتح بِهِ كلامَه في كتابه. وفي الخبر: «الحمد رداءُ الرحمنِ عزّ وجلّ». وفي

(١) في (ط): «الشاكر».

الخبر: «أفضلُ الذّكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله رب العالمين».

ويكون أيضًا ظهورُ الشكر وغلبتُهُ فى القلب شكرَ القلبِ، ويكون شكرُ الله تعالى لعبده كشفَهُ له ما سترَه عنه، وإظهارَهُ له ما حَجَبه منه من العلوم والقدر، وهو المزيد، فيفيدُه ذلك حسنَ معرفةٍ به سبحانه وتعالى، وعلوَّ مشاهدةٍ منه[1]، وكلُّه يرجع إلى معنى الكشف والإظهارٍ.

وأما شُكرُ الجوارحِ للمنعم المُفْضِلِ سبحانه وتعالى فهو أن لا يعصيَهُ بنعمةٍ من نعمه، وأن يستعينَ بنعمته على طاعته، ولا يستعين بها على معاصيه، فيكونَ قد كفرَها، كما قال تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْرًا**﴾ [إبراهيم: ٢٨]. قيل: استعانوا بنعمهِ على معاصيه. فالخلق لا يقدرُون على تبديلِ نعمة الله عزّ وجلّ، ولكن معناه: بدّلوا شكرَ نعمةِ الله كفرًا، وهذا من المضمَرِ لظهورِ دليله عليه؛ لأنه أمرهم بالطّاعة بالنعم فخالفوه فعصَوْه بها، فكان ذلك تبديلَهم لما أُمروا. ومثله قوله تعالى: ﴿**وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ**﴾ [الواقعة: ٨٢]، المعنى: شكرُ رزقِكُم تجعلونه تكذيبكُم برُسُلِ الله تعالى. وهذا من المحذوف أيضًا، وهى فى قراءة النبى ﷺ مُظهَرةٌ مفسَّرةٌ. رُوينا عنه عليه السلام: «أنّه قرأ (وتجعلون شُكْركم)، فهذا ظاهر. وبمعناه: ﴿**وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾ [البقرة: ٢١١]، أى: يعاقب من كفر بالنعمة فضيّع شكرها بمعصيته بها، يُعاقبه بزَوالها. وكذلك قوله تعالى: ﴿**وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ**﴾ [إبراهيم: ٧]. قيل: إن كفرتم النعمةَ فقد يكونُ العذابُ فى الدنيا تبديلَ النّعمةِ عقوبات، وتغييرها هوانًا ومذلاّت، وقد يكون العذابُ مؤجلاً، كقوله تعالى: ﴿**إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا**﴾ [الفرقان: ٦٥]. قال: طالَبَهُم على النِّعم بالشّكر فلم يكن عندهم، فأغرَمَهُم ثمنَ النِّعمة فحبَسَهُم فى جهنم. وقد قال الله تعالى: ﴿**وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً**﴾ [لقمان: ٢٠]. ثم قال: ﴿**وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ**﴾ [الأنعام: ١٢٠]، ففيه تنبيهٌ لذوى الألباب الذين وصَّل لهمُ القولَ ليتذكروا أن يذرُوا

---

(١) فى (ط): «حسن معرفته به سبحانه وتعالى، وعلو مشاهدته منه».

ظاهرَ الإثمِ شُكرًا لظاهرِ النعم، ويذروا باطنَ الإثم شكرًا لباطن النعم. وظاهرُ النعم عَوافى الأجساد ووجود الكفايات من الأموال، وظاهرُ الإثمِ أعمالُ الجوارح من معانى حظوظ النفس. وباطنُ النِّعَم معافاةُ القلوبِ وسلامة العقود، وباطنُ الإثم أعمالُ القلوب السيئة، مثل: الإصرارِ، وسوءِ الظن، ونيّات السوء.

وقال مطرِّف بن عبد الله: لأنْ أُعافَى فأشكر أحبُّ إلىَّ من أن أُبتلَى فأصبر. لأنّ مقامَ العوافى أقربُ إلى السلامة، فلذلك اختار حالَ الشُّكرِ على الصّبر، لأنَّ الصَّبرَ حالُ أهلِ البلاء.

وقد رُوينا عن الحسن البصرى معنى ذلك: الخَيْرُ الذى لا شرَّ فيه: العافيةُ مع الشُّكرِ، والصَّبرُ عند المصيبة. فكَمْ مِن مُنعَم عليه غيرُ شاكرٍ، وكم من مبتلًى غيرُ صابر؟!

وقد روينا عن النبى ﷺ معنى هذا فى قوله: «وعافيتُكَ أحبُّ إلىّ».

وقال لعلى رضى الله عنه حين سمعه يقول فى مرضه: اللهم إنى أسألك الصبر، قال: «لقد سألت اللهَ تعالى البلاءَ فسَلْه العافية».

ومن الشّكر الأعمالُ الصالحة. وبالعمل فسّر الله تعالى وفسَّر رسوله ﷺ الشكرَ للمُنعم، فقال تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ [سبا:١٣]. وقال رسول الله ﷺ لما عُوتِب فى اجتهاده وقيامه حتّى تورَّمت قدماه: «أفلا أكونُ عبدًا شكورًا». فأخبر أن المجاهدةَ وحسنَ المعاملةِ شكرُ المستعمِل وجزاءُ المنعم. وقد قال بعض العلماء: شكرُ القلبِ المعرفةُ بأن النِّعم من المنعِم لا غير. وشكرُ العملِ كلّما وهبَ الله عزّ وجلّ لك عملاً أحدثتَ له عملاً ثانيًا شكرًا منك للعملِ الأوّل. وعلى هذا يتصل الشّكر بدوامِ المعامَلة.

وأوّلُ الشّكرِ عند العارفين أن لا تعصيه بنعمةٍ من نِعمةٍ فتجعلَها فى طاعة الهوى. فأما شكرُ الشاكرين فهو أن تطيعه بكلّ نعمة فتجعلها فى سبيل المولى. وهذا شكر جملةِ العبد.

وحقيقةُ الشُّكر التقوى، وهو اسم يستوعبُ جُمَلَ العبادة التى أمر الله تعالى بها

عباده فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِين من قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:٢١]. ثم عبّر حقيقة عن الشكر بتقواه، وأخبر سبحانه وتعالى أنّ التقوى هو الشّكر، فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران:١٢٣].

وفى الشّكر مقامان عن مشاهدتين: أعلاهما مقامُ شكُورٍ، وهو الذى يشكرُ على المكارهِ والبلاء والشّدائد واللأْواء، ولا يكون كذلك حتى يشهدَ ذلك نعَمًا توجب عليه الشكر لِصِدْقِ يقينه وحقيقة زهده. وهذا مقامٌ فى الرضا، وحالٌ من المحبة. وبهذا الوصف ذكر الله تعالى نبيَّه نوحًا عليه السلام فى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء:٣]، فى التفسير: إنه كان يشكر الله تعالى على كل حال من خيرٍ أو شرٍّ، أو نفع أو ضرّ. ورُوينا فى الخبر: «ينادى منادٍ يومَ القيامة: ليَقُم الحمَّادون، فيقوم زمرةٌ، فيُنصَب لهم لواء، فيدخلون الجنة. قيل: ومن الحمادون؟ قال: الذين يشكرُون الله تعالى على كل حال». وفى لفظ آخر: «على السرّاء والضرّاء».

وقد قال بعضُ العلماءِ فى قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان:٢٠] قال: ظاهرةً: العوافى والغنى، وباطنةً: البَلْوى والفقر. فهذه نعم الآخرة، كما قال رسول الله ﷺ: «لا عيش إلا عيش الآخرة».

والمقام الثانى من الشكر: أن ينظر العبدُ إلى من هو دونه ممّن فُضِّل هو عليه فى أمور الدنيا وأحوال الدين، فيعظِّم نعمة الله تعالى عليه، بسلامة قلبه ودينه وعافيته مما أُبتلى الآخرُ به، ويعظِّم نعمةَ الدنيا عليه لما آتاه الله تعالى وكفاه فيما أحوج الآخرَ وألجأه إليه، فيشكر على ذلك. ثم ينظر إلى مَنْ هو فوقه فى الدين، ممن فُضِّل عليه بعلم الإيمان وبحسن يقين، فيمقت نفسه ويُزرى عليها، وينافس فى مثل ما رأى من أحوال مَنْ هو فوقه فيرغب فيها. فإذا كان كذلك كان من الشاكرين، ودخل تحت اسم الممدوحين.

وقد روينا معنى ذلك فى حديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ نظرَ فى

الدنيا إلى مَنْ هو دونه ونظرَ فى الدِّين إلى من هو فَوقه كتبه اللهُ تعالى صابرًا شاكرًا. ومن نظر فى الدنيا إلى من هو فوقه ونظر فى الدِّين إلى من هو دونه لم يكتبه اللهُ صابرًا ولا شاكرًا». وقد شرحنا هذا فى مقام الرضا فكرهنا إعادته ههنا.

وكلُّ وصفٍ يكون العبدُ شاكرًا به يكون الشكرُ مقامًا له فيه، فإنْ كفَرَ النعمةَ يلزمه بضده؛ لأن الكُفر ضد الشكر.

ومن كبائر النعم ثلاثٌ، من جَهِلَها أضاعَ الشكر عليها، ومعرفتُها شكرُ العارفين:

أولها: استتارُ الله تعالى بقدرته وعزته عن الأبصار، ولو ظهر للعباد لكانت معاصيهم كفرًا؛ لأنّهم لم يكونوا ينقصون من المعاصى المكتوبةِ عليهم جَناح بَعُوضة، ولأنّه تبارك وتعالى كان يظهر بوصفٍ لا يمتنعون معه عن المعاصى، ووراء هذا سرائرُ الغيوب، إلا أنّهم كانوا يَكفُرون بالمواجهة لانتهاك حُرْمَة المشاهدة، وأيضًا لما كان لهم فى الإيمان به من عظيم الدّرجات ما لهم الآن، لأنّهم حينئذ يؤمنون بالشهادة، وهم اليوم يؤمنون بالغيب، فرُفِعَت لهم الدرجاتُ بحسن اليقين، ولذلك مدحهم الله تعالى ووصفهم.

والنعمة الثانية: إخفاءُ القَدَر والآياتِ عن عموم الخلق، لأنها من سرٍّ الغيبِ وصلاحِ العبيد واستقامةِ الدّنيا والدين. ولو ظهرت لهم لكانت خَطَاياهُم الصغائرُ كبائرَ مع معاينةِ الآيات، ولَمَا ضُوعفَت لهم على أعمالهم الحسناتُ كمضاعفتها الآنَ للإيمان بالغيب.

والنعمة الثالثة: تَغْييبُ الآجالِ عنهم، إذ لو علموا بها لما كانوا يزدادون ولا يَنْتقصون من أعمالهم الخير والشرّ ذرّةً، فكان مع علمهم بالأجل أشدَّ مطالبة لهم، وأوقعَ للحجة عليهم، فأخفى ذلك عنهم معذرةً لهم من حيث لا يعلمون، ولطفًا بهم، ونظرًا لهم من حيث لا يحتسبون.

ثم بعد ذلك من لطائف النعم شمولُ سترِهِ لهم، وحَجْبُ بعضهم من بعض، وسترُهم عند العلماءِ والصّالحين، ولولا ذلك لما نظروا إليهم. ثم حَجْبُ الصّالحين

والأولياء عنهم، ولو أظهر عليهم آيات يُعرَفون بها حتى يكون الجاهلون على يقين من ولاية الله تعالى لهم وقربِهم منه؛ لبطل ثواب المحسنين إليهم، ولَحرُمَ قبولًا إحسانِهم عليهم، ولحبطت أعمالُ المسيئين إليهم. ففى حجْب ذلك وستره ما عمل العاملون لهم فى الخيرِ والشرِّ على الرَّجاءِ وحسنِ الظنِّ بالغيبِ من وراء حجاب اليقين، وتأخَّرت عقوباتُ المؤذين لهم عن المعاجلة، لما ستَرَ عليهم من عظيم شأنهم عند الله تعالى وجليل قدرهم. ففى ستر هذا نِعَمٌ عظيمة على الصالحين فى نفوسهم؛ من سلامة دينهم وقلّة فتنتهم، ونِعمٌ جليلةٌ على المنتهكين لحرمتهم المصغِّرين لشعائر الله تعالى من أجلهم إذ كانوا أساؤوا إليهم من وراء حجاب. فهذا هو لطفٌ خفىٌّ من لطف المنعِم اللطيف الوهَّاب.

كما جاء فى الخبر: «يقول الله عزّ وجلّ: من آذى وليًا من أوليائى فقد بارزنى بالمحاربة، ثُمَّ أنا الثائر لولِّيى لا أكِلُ نصرتَه إلى غيرى». فيكون مَثَلُ ذَلك مَثَلُ من آذى نبيًا وهو لا يعلم بنبوّته قبل أن يخبره أنه رسول الله، وأن الله سبحانه نَبَّأه، فلا يكون وِزرُه وِزْرَ من انتهك حرمة نبىٍّ قد أعلمه أنه نبى الله تعالى؛ لعظيم حرمته.

ورُوينا عن جعفر الصّادق رضى الله عنه وغيره من السّلفَ فى معنى هذه النعم التى أوجبنا الشّكر فى إخفائها قال: إن الله تعالى خبَّأ ثلاثًا فى ثلاث: رضاه فى طاعته، فلا تَحْقِروا منها شيئًا لعلّ رضاه فيه. وخبَّأ غضبه فى معاصيه، فلا تحتقروا منها شيئًا لعلّ غضبه فيه. وخبَّأ ولايته فى عباده المؤمنين، فلا تَحْقِروا منهم أحدًا فلعلّه ولىٌّ للهِ تعالى[1].

وللشاكرين طريقان، أحدهما أعلى من الآخر. أوّلهما: شكر الرّاجين، وهو حسن المعاملة لما أمَّلوه ورجَوْه من ظواهر النعم، فعملوا رجاء إتمامها، فكان حالُهم المسارعةَ والمسابقة إلى الأعمال الصالحة، شكرًا لما ابتدأهم به وخصّهم دون سائر خلقه. وأعلاهما: شكرُ الخائفين، وهو خوفُ سوءِ الخاتمة، والإشفاقُ من دَرَكِ الشَّقاء بحكم السابقة، نعوذ بالله تعالى منه. فكان خوفُهُم دليلاً على اغتباطهم

(١) كان فى المطبوعة ثمت اختلاف فى ترتيب الفقرات، فأثبت ما فى المخطوط.

بموهبة الإيمان، وكان اغتباطُهم يدلُّ على عظيمِ قَدْر الإسلام فى قلوبهم ونفيس مكانه عندهم، فعظمت النعمةُ به عليهم، فمعرفتُهُم بذلك هو شكرُهم، فصار الخوفُ والإشفاقُ طريقًا لهم فى الشكر للرّازق.

وقد جعل الله تعالى ذلك نِعْمةً، وكلُّ نعمة تقتضى شكرًا فى قوله تبارك وتعالى: ﴿قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا﴾ [المائدة: ٢٣]. قال بعض المفسرين: أنعمَ اللهُ عليهما بالخَوْف، وهذا أحد وجهَى الكلام. ولو لم يشكر العبدُ مولاه إلا أنّه تبارك وتعالى على هذه الأوصاف والأخلاق التى هى صفاتُه وأخلاقه من نهايةِ الكرمِ والجُودِ الذى لا غاية له، ومن غاية التفضُّلِ والحِلم الذى لا نهاية له. فلمّا كان تبارك وتعالى بهذه الأخلاق المرجوّة، والصفات الحسنى، وجَبَ أن يشكرَهُ العبيدُ لأجله تعالى لا لأجل نعمه وأفعاله. وهذا ذكْرُ المحبين، إذ لو كان الله تعالى على غيرِ هذه الصفاتِ والأخلاقِ التى عَرَفَه بها العارفون، فلا بدّ لهم منه أىَّ شىء كان يصنع العبادُ، وأىّ حيلةٍ كانت لهم، فله الحمدُ كلُّه، وله الشُّكرُ كلُّه، كما هو مستحقه وأهله بحمدِه لنفسه. ولا ينبغى ذَلكَ إلا له سبحانَه وتعالى، كما ينبغى لكَرَمِ وجهه وعزّ جلالِه، إذ كان لم يَزَلْ على ما هو الآن، ولا يَزال أبدًا على ما كان من الأوصاف الكاملاتِ، والنعوت التامّات، والأسماء الحسنى، والأمثال العُلَى.

ومعرفةُ هذا هو شُكرُ العارفين، ومشاهدتُه هو مقام المقرَّبين. فشكرُ هؤلاء لله تعالى لأجلِ الله تعالى، ودعاء هؤلاء التحميدُ والتقديس، وأعمالُهم الإجلالُ والتعظيم للأجلِّ العظيم، وسؤالُهم تجلِّى الصفاتِ والنصيب من مشاهدة معانى الذات. ووصفُ هذا لا يُوصَفُ، وشرحُهُ بالمعقول لا يُعرف، وهذا داخلٌ فى مشاهَدَة قولِه لمن شهِدَ سرَّ الكلامِ، إذ يقول عزّ وجلّ: ﴿لَيْسَ كَمِثْله شَىءٌ﴾ [الشورى: ١١]. وعن هذه المشاهدة اغتبطَ موسى عليه السلام بالرّبوبية، وأنِس بالتّقريب، وَانبسط بالتمكين، فقال: لى ما ليس لك. فقال الله تعالى: وما هو؟ فقال: لى مثلُكَ، وليس لك مثل نفسِك. فقال عزّ وجلّ: صدقتَ. يعنى: لى أنتَ على هذه الأوصاف التى هى غاية الطالبين، ولا مزيد عليها للراغبين، وليس

لك كأنت، إذ ليس كمثلك شيءٌ، وأن لا إله إلا أنت.

فمن غامض النِّعم الشكرُ على هذه المعانى ما زَوَى عنك وصرَفه من فُضول الدنيا، فإنه أقلُّ للشُّغل والاهتمام، وأيسرُ للحساب. ثمَّ ابتلى به غيرَك من الدّنيا مما شَغله به عَنه وقطعه دونه. ففى صَرْف الدّنيا عنك وابتلاء غيرِك بها نعمتان عليهما شكران. وكذلك إذا رأيتَ مبتلًى فى دينه بصفاتِ المنافقين، أو مبتلًى بنفسه بأخلاق المتكبِّرين، أو مُنْهَمِكًا[1] فيما عليه من أفعال الفاسقين، عددتَ جميعَ ذلك نعمًا من الله تعالى عليك، إذ لم يجعلك كذلك، لأنّك قد كنت أنت ذاك لولا فضل الله عليك ورحمته، فتحسب كلَّ ما وَجَّه إلى غيرِك من الشرّ أو صَرَفه عنه من الخير نعمًا عليك، بمثل ما وجَّهَ إليك من الخير وصرَفَ عنك من الشرّ؛ لأن النُّفوس كنفس واحدة فى الأمر بالسوء، والمشيئة والقدرة واحدة، فقد رحمك بما صَرَف عنك من السُّوء، فذلك من فَضْل نِعَمِ الله تعالى عليك. فمعرفتُه بذلك شكرٌ منك لله تعالى.

وأكثرُ عقوباتِ الخلق من قلّة الشكر على النعم. وأصلُ قلّةِ الشُّكر الجهلُ بالنعمة، وسببُ الجهل بالنعمة قصورُ العلم بالله تعالى، وطولُ الغفلة عن المنعم، وتركُ التفكّر فى نعمه والذكرِ لآلائه ومنَنه سبحانه وتعالى. وقد أمر بذلك فى قوله تعالى: ﴿فاذْكُرُوا آلاءَ الله لَعَلَّكُمْ تُفْلحُونَ﴾ [الأعراف:٦٩] قيل: نعمُهُ.

وقال فى المفسَّرِ: ﴿واذْكُرُوا نِعْمةَ الله عَليكُمْ وما أَنْزلَ عَليكُمْ من الكتابِ والحكْمة يَعظُكُمْ به﴾ [البقرة:٢٣١]. وبمعناه قوله تعالى: ﴿وَلِتُكْمِلُوا العدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلى مَا هَداكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:١٨٥]. يعنى: على نعمة الهداية، وتوفيق الطاعة.

فإذا جَهِل العبدُ النعمةَ لم يعرفها، وإذا لم يعرفها لم يشكر عليها، وإذا لم يشكر عليها انقطَع مزيدُه، ومن انقطع عنه المزيدُ فهو فى نقصان ما ادّعى.

وأيضًا: فإنّ مَن لم يشكر النعم لجهله بها لم يُؤمَن عليه كفرها، فإن كفرها

(١) فى (ط): «أو منهما» وهو خطأ ظاهر.

أدركه العذابُ الشديدُ للوعيد، إلا أن تداركه نعمة من ربّه.

وأصولُ نِعَم المرافق للأحراث أربعة؛ أولها: النّطفة التى أثمرَتْ[1] من خِزَانة الأرحام جميعَ البهائم والأنام، ثُمّ: الحرثُ الذى أخرج من خِزَانة الأرض جميعَ الثمر، ثمّ: الماءُ الذى لنا منه شراب ومنه شجر، ثمّ: النار التى فيها ضياءٌ ومصالحُ الأطعمة، وبها لأهل البصائر تذكرةٌ. وهذه النّعم هى التى ذكرها المنعِم فى آخر سورة الواقعة، وأضافها إلى نفسه عزّ وجلّ، ولم يجعل فيها شريكًا معه، وفتح للعباد العمَّال أبوابها.

ومن أفضل النّعم وأجلّها نعمةُ الإيمان به سبحانه وتعالى، ثُمّ نعمةُ الرَّسولِ ﷺ، ثم نعمةُ القرآن، ثمّ أن جعلنا من خيرِ أمّة أُخرجت للناس. وقبل ذلك وهو أول نعمةٍ عقلْناها أن جعلنا موجودِين دون سائرِ المعدومات، ثمَّ جعلَنا حيوانًا دون سائرِ الموات، ثم جعلَنَا بَشَرًا دون سائرِ الحيوان، ثمّ جعلنا ذكورًا دون الإناث، ثم صوّرنا فى أحسن تقويم، ثم عوافى القلوب من الزّيغ عن السنَّة ومن الميلِ إلى دواعى النفس الأمّارة، ثمّ صِحّةُ الأجسام، ثم كشف الستر، ثم حسنُ الكفاية لحاجة، ثم صنوفُ ما أظهر من الأزواج للأقوات، ثم تسخيرُ الصَّنعة لنا ممّا بين السّماء والأرض؛ فهذه أمهات النِّعم، فكلّما كثُرت هذه المعانى وحسُنت كثُر الشّكر عليهما لعظيم النّعم بها. **﴿وإنْ تَعُدُّوا نعْمَةَ الله لا تُحْصُوهَا﴾** [إبراهيم: ٣٤].

وكان أبو محمد سهل رحمه الله يقول: خُصَّ بمعرفةِ النّعم وبمعرفةِ عظيمِ حلمِ الله تعالى وسترِه الصدِّيقون.

وقد قال الله تعالى وهو أصدق القائلين وأحسن الواصفين: **﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نعْمَةَ الله لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحيمٌ﴾** [النحل: ١٨]، فتمّت النعمة بوصفَيه الَّذَيْن هو لهما أهل من المغفرة والرحمة. ثم قال أيضًا فى مثله: **﴿إِنَّ الإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾** [إبراهيم: ٣٤]، فكان أعظمَ للنعمة وأوسعَ فى الكرم والمنّة على وصفى الإنسان اللَّذَين هو أهل لهما من الظلم والكفر، فهو سبحانه وتعالى أهلُ التقوى وأهلُ

(١) فى (ط): «أخرجت».

المغفرة، والعبدُ أهلٌ لما وَصَفَه به مولاه عزّ وجل إلى أن يجود عليه بقديمِ ما به تولاه. فبنعمته أطاعه العاملون، ومن نعمته جازاهم، وبنعمته عصاه الجاهلون، ومن نعمته ستر وحلُم عنهم.

ومن النّعم: إظهارُ الجميل وسترُ القبيح، فلا ندرى أىُّ النعمتين أعظم: جميلُ ما أظهر، أو قبيحُ ما ستر. وقد يمدح الله تعالى الوصفَيْن معًا فى الدعاء المأثور: «يا من أظهرَ الجميلَ وسترَ القبيح».

ومن النعمة: الصّحةُ والفراغ، وهما أوّل نعيم الدنيا، وأصولُ أعمال الآخرة، وبهما تكون المغابَنات، كما قال رسول الله ﷺ: «نِعمتان مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس: الصّحةُ والفراغُ».

وكان الفُضَيل بنُ عِياض يقول: عليكم بمداوَمةِ الشكر على النّعم، فقَلَّ نِعمةٌ زالت عن قوم فعادَت إليهم. وقال بعضُ السَّلَف: النّعم وَحْشيةٌ فقيِّدُوها بالشّكر.

وقد رُوى فى خَبَر: «ما عظُمَت نِعمة الله تعالى على عَبْدٍ إلاَّ كثُرت حَوائجُ النّاسِ إليه، فمَن تهاونَ بِهم عرّضَ تلك النعمةَ للزّوال».

وقد قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾ [الرعد:١١]، قيل: لا يغيِّر نعمَهُ عليهم حتّى يغيِّروها بتضييع الشّكر، فيعاقبُهم بالتّغيير. والوجه الآخر: لا يغير ما بهم من عُقوبة حتّى يغيِّروا معاصيَهم بالتّوبة. فذكَر بذلك السَّببَ الأوّلَ من حُكمه، ثم ذكَر السّبب الثانى من حكمته، وهو مسبِّبُ الأسباب بحكمته ومشيئته.

ويقال: إنّ تحت كلِّ شَعْرةٍ من جسم العبد نعمةً، وبكلِّ عِرق فى جسدِه نعمتانِ فى تسكينه وتحريكه، وفى كل عظمٍ أربعُ نِعَم، وبكل مَفْصِل سبعُ نِعم، وفى جسمِ الإنسانِ ثلاثمائةٌ وستّون مَفصلاً، ومثل ذلك من العظام. وفى كل طرفَةٍ نِعْمتانِ، وبكلّ نَفَسٍ نعمتان، وفى كل دقيقة تأتى عليه من عُمُره نِعَمٌ لا تُحصى، والدقيقةُ جزءٌ من اثنى عَشر جُزءًا من شَعيرة، والشّعيرة جزءٌ من اثنى عشر جُزءًا من ساعةٍ، والأنفاسُ أربعةٌ وعشرون ألفَ نفَسٍ فى اليوم والليلة.

وفى أخبارِ موسى عليه السّلام: يا ربِّ كيف لا أشكرُكَ ولكَ فى كلِّ شعرة من جسدى نعمتان، أَن لَيّنْتَ أصلَها، وأَن طَمَّنت[1] رأسَها.

وقد رُوينا فى الأثر: «من لم يعرفْ نِعم الله تعالى عليه إلا فى مَطْعمه ومَشْربه فقد قَلَّ علمُهُ وحضر عذابُه»، هذا مع سوابغ العَوافى والكفايات والوقايات. ويقال: إن فى باطن الجسم من النّعم سبعةَ أضعافِ النعم التى فى ظاهره، وإنّ فى القَلب مِنَ النِّعم أضعافَ ما فى الجسم كلِّه مِن النّعم. وإنّ نِعم الإيمان بالله تعالى والعلم واليقين أضعافُ نِعمِ الأجسام والقُلوب؛ فهذه كلُّها نِعَمٌ مضاعفة على نِعَم مترادفة لا يحصيها إلا مَن أَنعمَ بها، ولا يعلمها إلا من خلقها، ﴿**أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾ [الملك: ١٤]، سوى نِعَمِ المطعمِ والمشربِ والملبس والمنكح من دخول ذلك وخروجه، وكثرة تكرّره وتزايده، بأن أدخل مهناه وأخرج أذاه، وبأن طيَّب مدخله ويسَّر مخرجه وبقَّى منفعته، وما أحال من صورته وغيَّر من صفته للتَّزهيد والذّلة والاعتبار والتذكرة؛ وتلك أيضًا نِعم.

ويُقال: إن الرغيفَ لا يستدير حتى يُعمل فيه ثلاثمائةٌ وستّون صنعةً منَ السّماء والأرض وما بينهما من الأجسام والأعراض والأفلاك والرياح والليل والنهار وبنى آدم وصنائعهم والبهائم ومعادن الأرض. أوّلها: ميكائيل الذى يكيل الماءَ مِن الخزائن فيُفرغُه على السّحاب، ثم السّحاب التى تحمله فيرسله، ثم الرّياح التى تحمل السّحاب، والرعد والبرق، والملكان اللذان يَسوقان السّحاب، وآخرها الخَبَّاز. فإذا استدار رغيفًا طلبَهُ سبعةُ آلافِ صانعٍ، كلُّ صانع أصلٌ من أُصول الصّنائع. فهذه كلُّها نِعَمٌ فى حُضور رغيفٍ، فكيف بما زاد عليه ممّا وراءه.

فعلى العبدِ فى كلِّ نعمةٍ شكرٌ، إنْ طُولِبَ بشكرِ نعمةٍ واحدة على حقيقتها هلك إلا أن تغمّده رحمةٌ من ربه، فتغمرُه لتمامِ النعمة. وروينا «أنّ رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول: اللهم إنى أسألك تمام النعمة، فقال: هل تدرى ما تمام النعمة؟ قال: لا. قال: دخول الجنة».

---

(١) طمّنت: سكّنت.

وقيل لبعضِ الحكماء: ما النعيم؟ قال: الغنَى، فإنى رأيت الفقير لا عَيْشَ له. قيل: زدنا. قال: العافيةُ، فإنى رأيتُ السَّقِيم لا عَيْش له. قيل: زدنا. قال: الأمْنُ، فإنى رأيتُ الخائف لا عيشَ له. قيل: زدنا. قال: الشبابُ، فإنى رأيت الهَرِمَ لا عيش له. قيل: زدنا. قال: لا أجد مَزِيدًا.

وبعض ما ذكره هو أحد الوجوه فى قوله تعالى: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فى حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ [الأحقاف: ٢٠] قيل: الشّباب. وقيل: الفراغ. وقيل: الأمن والصّحة. وفى قوله تعالى: ﴿وَعَصَيْتُمْ مِن بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ١٥٢] قيل: العَوافى والغِنى. وبمعناه فى قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠] قيل: ظاهرة العوافى، وباطنة البلاوى، لأنها سبب نعيم الآخرة ومزيدها، لقوله تعالى: ﴿وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

وقد جاء فى الخبر: «من أصبح معافًى فى بدنه، آمنًا فى سِربه، عنده قوتُ يومه، فكأنّما حِيزَتْ له الدنيا بحذافيرها».

وأُنشِدتُ فى معناه لبعضِ أهلِ القناعة:

إذَا القُوتُ تأتَّى لَكَ ... وَالصِّحَّـةُ والأَمْـنُ
وَأَصْبَحْتَ أَخَا حُزْنٍ ... فَلا فَارَقَـكَ الحُزْنُ

وأَنشدونا لآخرَ فى نحوه:

كِـنٌّ وَفِلْقَـــةُ خُبْزٍ ... وَكُـوزُ مَـــاءٍ وَأَمْنُ
أَلَذُّ مِـن كُـلِّ عَيْشٍ ... يَحْوِيه سَحْبٌ وَسَجْنُ

وحدثونا أَنَّ عابدًا عبدَ الله تعالى سبعين عامًا، فأرسل الله تعالى إليه مَلَكًا يبشِّرُه بدخولِ الجنةَ بِرحمةِ الله تعالى، فهَجَس فى نفسه: بل بعملى، فاطّلع الله تعالى على ذلك منه، فأوحى إلى عِرْقٍ ساكنٍ من عروقه أن تحرَّكْ عليه. قال: فاضطربَ لذلك وقَلِق وانقطَعَتْ عبادتُه، وذهبت أعماله شُغْلاً منه بنفسه، ثم أوحى الله تعالى إلى العِرق أن اسْكُن فسكن، فرجع العبدُ إلى عبادتِه، فأوحى الله

تعالى إليه: إنّما قيمةُ عبادتك عِرقٌ واحد سكَن من عُروقك، فاعترَفَ.

وروينا معناه عن رسول الله ﷺ بوصف آخر: «إنّ رجلاً عبدَ الله سبعين عامًا، قال: فيأمر الله عزّ وجلّ به إلى الجنة برحمته، فيقول: بل بعملى. فيقول الله عزّ وجلّ: أدخلُوا عبدى الجنةَ بعمله، قال: فيمكثُ فى الجنَّة سبعين عامًا، فيأمر الله تعالى به أن يُخرَج. ويقال له: قد استوفيت ثواب عَمَلك. قال: فيُسْقَط فى يديه ويندم، فينظر أقوى شىءٍ كان فى نفسه بينه وبين ربه، فإذا هو الرجاء وحسن الظن، فيقول: يا ربّ اتركنى فى الجنة برحمتك لا بعملى. قال: فيقول الله عزّ وجلّ: دعوا عبدِى فى جنّتى برحمتى».

وحُدِّثتُ عن رجلٍ شكا إلى بعضِ أهل المدينة فقرَه، وأظهر لذلك غمَّه، فقال له الرجل: أيسرُّك أنّك أعمى ولك عشرة آلاف. قال: لا. قال: فيسرُّك أنك أخرس ولك عشرة آلاف. قال: لا. قال: فيسرُّك أنّك أقطع اليدين والرجلين ولك عشرة آلاف. قال: لا. قال: فيسرّك أنك مجنون ولك عشرة آلاف. قال: لا. قال: أفَما تستحى أن تشكوَ مولاك وله عندك عُروضٌ بخمسين ألفًا.

وهذا كما قال؛ لأنّ فى الإنسان قيمَ هذهِ الأشياء من الجوارح وزيادةً من المال، لأنّها دِياتُ جوارحِهِ لو قُطعت.

وحدثنى بعض الشيوخ فى معناه: أنّ بعض القرَّاء المقرَّبين اشتدّ به الفقرُ حتى أحزنه وضاق به ذَرعًا. قال: فرأى فى المنام كأنّ قائلاً يقول له: تودُّ أنَّا أنسيناكَ سورةَ الأنعامِ وأنّ لك ألف دينار، قال: لا. قال: فسورة هود، قال: لا. قال: فسورة يوسف، قال: لا. قال: فمعك قِيَمُ مائةِ ألفٍ وأنت تشكو الفقْرَ، فأصبح وقد سُرِّى عنه همُّهُ.

وهكذا جاء فى الخبر: «تغنَّوْا بالقرآن ـ أى استغنوا به ـ ومن لم يستغن بآيات الله تعالى فلا أغناه الله عزّ وجلّ، وإنّ القرآن هو الغِنى الذى لا فَقْرَ معه ولا غِنى بعده، ومن آتاه اللهُ القرآنَ فظنَّ أنّ أحدًا أغنى منه فقد استهزأ بآيات الله تعالى». وفى لفظ آخر: «فقد استخفّ بما أنزل الله عزّ وجلّ». وفى الحديث المشهور: «من لم يتغنَّ بالقرآن فليس مِنّا». وفى الخبر المجمل: «كفى باليقين غنًى» والقرآنُ هو

حقُّ اليقين. وروينا عن بعض السلف: يقول الله عزّ وجلّ: إنّ عبدًا أغنيته عن ثلاث فقد أتممت عليه نعمتى: عن سلطانٍ يأتيه، وطبيب يداويه، وعمّا فى يد أخيه.

وروينا فى مناجاة أيوب عليه السلام: إنّ الله تبارك وتعالى أوحى إليه: ما من عبد لى من الآدميين إلا ومعه مَلَكان، فإذا شكر على نعمائى قال الملكان: اللهم زِدْهُ نِعَمًا على نعمه، فإنّك أهلُ الشكر والحمد. فكن من الشّاكرين قريبًا، وزدهم شكرًا، وزدهم من النّعماء. وكفى بالشّاكرين يا أيوبُ علوُّ الرتبة عندى وعند ملائكتى، فأنا أشكُر شكرَهُم، وملائكتى تدعو لهم، والبقاعُ تحبّهم، والآثار تبكى عليهم. فكن لى يا أيوبُ شاكرًا، ولآلائى ذاكرًا، ولا تذكرنى حتّى أذكرك، ولا تشكرنى حتّى أشكرَ أعمالك، أنا أوفِّق أوليائى لصالح الأعمال، وأشكرُهم على ما وفّقتُهم، واقْتَضَيْتُهُم الشكرَ ورضيتُ به مكافأةً، فرضيتُ بالقليل عن الكثير، وتقبّلتُ القليلَ وجازيتُ عليه بالجزيل. وشرُّ العبيدِ عندى من لم يشكرنى إلا فى وقت حاجته، ولم يتضرّع بين يدىَّ إلا فى وقت عقوبته. وذكَر الكلامَ.

وقد جعلَ الله تعالى الشّاكرين بوصف: الصّالحين، والمقرَّبين، والعالِمين؛ وهذه الأوصاف الثلاث من أعالى مقامات الموقنين، فقال عزّ وجل: **﴿وقَليلٌ مِنْ عِبادىَ الشَّكُورُ﴾** [سبأ:١٣]. كما قال الله تعالى: **﴿إلاَّ الَّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَليلٌ مَا هُمْ﴾** [ص:٢٤]. وكما قال فى وصف المقرَّبين: **﴿ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ * وَقَليلٌ مِنَ الآخِرِينَ﴾** [الواقعة: ١٣ ـ ١٤]. وكما قال عزّ وجلّ: **﴿مَا يَعْلَمُهُمْ إلاَّ قليلٌ﴾** [الكهف:٢٢].

وفى حديث أبى بكر الصديق رضى الله عنه، عن النبى ﷺ: «سلوا اللهَ العافيةَ، وما أُعطى عبدٌ أفضلَ من العافيةِ إلا اليقين». ففضَّل العافيةَ على كلِّ عطاء، ورفع اليقينَ فوق العافية؛ لأنّ بالعافية يتمّ نعيمُ الدنيا، واليقينُ معه وجود نعيم الآخرة؛ فلليقين فضلٌ على العافية كفضلِ الدوام على الانتقال. والعافيةُ: سلامةُ الأبدانِ من الأسقام والعلل. واليقين: سلامة الأديان من الزيغ والأهواء.

فهاتان نعمتان تستوعبان عظيمَ الشّكر من العبد، كما استوعب القلب والجسم جسيم النّعم من الملك.

ومن أقوى المعانى فى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨ ـ ٨٩] قيل: سالم من الشّكّ والشّرك. والسّالم: الصحيح المعافى. وبوجود عافيةِ اليقين فى القلوب عدمُ الشّكّ والنّفاق، وهى أمراض القلوب. كما قال تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠] قيل: شَكٌّ ونفاقٌ، وعافيةُ القلبِ أيضًا من الكبائر، كما قال تعالى: ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢] يعنى الرياء.

ويقال: ما من مصيبةٍ إلا ولله تعالى فيها خمسُ نِعم؛ أوّلها: أنّها لم تكن فى الدِّين، ويقال: كل مصيبة فى غير الدِّين فهى طريق من الدِّين. والثانية: أنّها لم تكن أكبر منها. والثالثة: أَنَّها كانت مكتوبة عليه لا محالة فقد نَفِدَت واستراح منها. والرابعة: أنّها عُجِّلَت فى الدنيا ولم تُؤجَّل فى الآخرة فتَعظُمُ على مقدار عذابِ الآخرة. والخامسة: أنّ ثوابها خير منها، فإن المصيبةَ إذا كانت فى أمرِ الدنيا فإنّها طريق إلى الآخرة.

وعندنا فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤] قيل: ظلومٌ بالتسخُّط، كفَّارٌ بالمعاصى وبالنِّعم.

وحُدثت أنّ العباس رضى الله عنه لما توفى قعد ابنُه عبدُ الله رضى الله للتّعزية، فدخل الناس أفواجًا يعزُّونه، فكان فيمن دخل أعرابى فأنشده:

اصْبِرْ نكُنْ بِكَ صَابِرِينَ، فَإِنّما ... صَبْرُ الرَّعِيّةِ بَعْدَ صَبْرِ الرّاسِ

خيرٌ مِنَ العَبّاسِ أجرُكَ بعدَهُ ... واللهُ خَيْرٌ مِنْكَ للْعَبّاسِ

فقال ابن عباس: ما عزّانى أحد تعزية الأعرابى، واستحسنَ ذلك.

وفى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦] قيل: هو الذى يشكو المصائبَ، وينسى النّعم، ولو علم أنّ مع كلِّ مصيبةٍ عشرَ نِعم بحذائِها وزيادة،

قلّت شكواه وبدّلها شكرًا.

ثم إنّ المصائب لا تخلو من ثلاثة أقسام، كلّها نعم من الله تعالى: إمّا أن تكون درجة، وهذا للمقرّبين والمحسنين. وإمّا أن تكون كفّارة، وهذا لخُصوص أصحاب اليمين وللأبرار. أو تكونَ عقُوبةً، وهذا للكافة من المسلمين. فتعجيلُ العقوبةِ فى الدّنيا رحمة ونعمة، ومعرفةُ هذه النعم طريقُ الشاكرين.

ومن أفضل النعم عند العلماء نعمةُ الإيمانِ، ثم دوامُه، لأنّ دوامَ الشىء نعمة ثانية، لأنه بحكم ثانٍ عن مشيئة ثانية، لأنّ الإرادةَ منه تعالى بحكم الإظهار لا تُوجب دوامَ المظهَر، فكأن الشىء يظهر بإرادته ثم يتلاشى كأن لم يكن، إلا أن يحكم سبحانه وتعالى حكمًا ثانيًا بنعمة ثانية بالثبات والدّوام، إذ لَوْ لم يُرد دَوام السّموات والأرضِ ما داما ولو لم يُرد دَوام ثباتِ الجبال ما ثبتت، كذلك لو لم يُرد دَوامَ الإيمان وثباته فى القلوب بعد الكتْب، لظهر بالكتب ثم انمحى ورجع القلب إلى الكفر، لكنّه أنعم نعمًا لا تُحصى بدوامه وثباته فى القلب. ومنه قوله تعالى: ﴿يَمْحُواْ اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد:٣٩]، أى: يمحو ما لا يشاء ثبوته ويُثبت ما يحبّ.

ولا يستطيع العبدُ شكرَ نعمةِ الإيمان ومعرفةِ بداية التفضّل به وقديمِ الإحسان من غير قَدَمٍ من العبد ولا استحقاقٍ، بل بِفَضْلِ اللهِ وبرحمته. وهذا أحدُ الوجوه فى قوله تعالى: ﴿كَلا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ [عبس:٢٣]، أى: لا يَقْضِى العبدُ أبدًا شكرَ ما أمره الله تعالى من نعمة الإسلام، التى هى أُصولُ النّعم فى الدنيا والآخرة، وهى سببُ النجاةِ من النار، ومفتاحُ دخول الجنة، ولا أوّل للعبد فيها ولا شفيع كان له إلى الله تعالى بها، ثم دوام ذلك وثباته مع الطَرْف والأنفاس بمددٍ منه نِعَمٌ مترادفة.

ومن هذا قوله تعالى: ﴿كَتَبَ فى قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ [المجادلة:٢٢]، أى: قوّاهم بمدد يثبّته ويقوّيه، وهو معنى قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فى الْحيَاةِ الدُّنْيَا وفى الآخِرَةِ﴾ [إبراهيم:٢٧]. ومن ذلك

قوله ﷺ: «يا مُقلّبَ القلوب ـ أى عن الإيمان، ومقلبها فى الشّك والشّرك ـ ثبّت قلبى على طاعتك». ومعرفةُ هذه النّعمة اللطيفة العظيمة تستخرج من القلب خوفَ سوءِ الخاتمة، لمشاهدة سرعةِ تقليب القلب بالمشيئة، وذلك مزيد شكرها، وهذا داخلٌ فى معنى قوله ﷺ: «أحبّوا اللهَ تعالى لما أَسْدى إِليكم من نِعَمه»، ولما يَغذُوكُم به أيضًا.

فمن أفضل ما غذَّانا به نعمةُ الإيمان له والمعرفة به، وغذاؤه لنا منه دوامُ ذلك، ومددُهُ بروحٍ منه، وتثبيتُنا عليه فى تصريفِ الأحوال، إذ هو أصلُ الأعمال التى هى مكانُ النّوال. فلو قلَّب قلوبَنا عن التوحيد كما يُقلِّب جوارحَنا فى الذنوب، ولو قلّب قلوبنا فى الشّك والضلال كما يُقَلِّب نيّاتنا فى الأعمال، أىَّ شىءٍ كنّا نصنع؟ وعلى أىِّ شىءٍ كنّا نعوِّل؟ وبأىّ شىء كنّا نطمئن ونرجو؟ فهذا من كبائر النعم، ومعرفتُه هو من شكر نعمة الإيمان، والجهلُ بهذا غفلةٌ عن نعمة الإيمان يُوجب العقوبة. وادعاء الإيمان أنّه عن كَسْب معقول، أو استطاعةٍ بقوّةٍ وحول، هو كفرُ نعمةِ الإيمان، وأخافُ على مَنْ توهَّم ذلك أن يُسْلَب الإيمان، لأنّه بدَّل شكرَ نعمةِ الله بِفَضْلِه كُفرًا.

وقد جعل الله تعالى الخيراتِ من كسب الإيمان، وليس لنا فيما يُكسِبُنا الخيرات مكانٌ، بل اللهُ تعالى منَّ علينا أن هدانا للإيمان، وجعله سببًا يكسبُ لنا بإحسانه الإحسانَ، كما قال تعالى: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِى إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨] قيل: التوبة. وقيل: الصّالحات كلُّها كسب الإيمان.

ومن النّعم بعد الإيمانِ توفيقُنا للحسنى، وتيسيرُنا لليسرى. ثمّ صرفُ الكفرِ وأخلاقِ الكَفَرة وأعمالِهم. ثم تزيينُ الإيمان وتحبيبُه إلينا، وتكريهُ الفسوقِ والعصيان، فضلاً منه ونعمةً، إلى ما لا يُحصى من نِعمه. فشكرُ ذلك لا يقام به إلا بما وَهَب أيضًا وأنعمَ به من المعرفة بذلك، والمعونة عليه.

والحياءُ من تتابع النّعم هو من الشكرِ. والمعرفةُ بالتقصير عن الشكر شكرٌ. والاعتذارُ من قلّة الشكر شكر. والمعرفةُ بعظيم الحِلْم وكثيفِ السّتر شكرٌ.

والاعترافُ بما أَعطَى من حُسن الثناء وجميلِ النّشر أنّه من النّعم، من غير استحقاق من العبد، بل هو مضاف إلى نِعمه، هو من الشكر. وحسنُ التواضع بالنّعم والتذلّل فيها شكرٌ. وشكرُ الخَلْقِ بالدعاء لهم، وحسن الثناء عليهم؛ لأنهم ظروف العطاء، وأسبابُ المعطى، تخلُّقًا بأخلاق المولى جلّ وعلا، هو من الشّكر. وقلةُ الاعتراض، وحسنُ الأدب بين يدى المنعم شكر. وتلقِّى النّعم بحسن القبول، وتكبيرُ صَغيرها وتعظيمُ حقيرها، من الشكر؛ لأنّ طائفةً هلكت باستصغار الأشياء، واستحقار وجود المنافع بها جهلاً بحكمة الله تعالى، واستصغارًا لنِعَمِه، فكان ذلك كفرًا بالنّعم.

ومن النّاس من يقول: إنّ الصبرَ أفضلُ من الشكر، وليس يمكن التفضيل بينهما عند أهل التّحصيل؛ من قِبل أنّ الشكرَ مقامٌ لجملةٍ من الموقنين، والترجيحُ بين جماعة على جماعة لا يصحّ؛ مِن قِبَل تفاوتِهم فى اليقين فى المشاهدات؛ لأن بعضَ الصّابرين أفضلُ من بعض الشاكرين، لفضل معرفته وحسن صبرِه، وخُصوصُ الشاكرينَ أفضلُ من عُموم الصّابرين؛ لحسن يقينه وعلوّ مشاهدته.

ولكن تفضيل ذَلك مِن طريقِ الأحوال والمقامات أنّا نقول، والله أعلم: إنّ الصّبرَ عن النعيم أفضلُ، لأنّ فيه الزهدَ والخوفَ؛ وهما أعلى المقامات. وأنّ الشّكرَ على المكارهِ أفضلُ؛ لأن فيه البلاءَ والرِّضا. وأنّ الصّبرَ على الشدائد والضرّاء أفضلُ من الشكر على النّعم والسرّاء، من قِبَل أنه أشقُّ على النفس. وأنّ الصّبرَ مع حال الغِنى والمقدرة أن يعصى بذلك أفضلُ من الشكر على النِّعم، مِن قبل أنّ الصّبر عن المعاصى بالنّعم أفضلُ من الطّاعة بها لمن جاهد نفسه فيها، فإذا شكر على ما يَصبر عليه فقد صار البلاءُ عنده نعمةً، وهذا أفضل لأنّها مشاهدُ المقرّبين. وإذا صَبر عمّا يشكر عليه من النّعم كان أفضلَ؛ لأنها حال الزَّاهدين[1].

وقد قال رسول الله ﷺ: «نحن معاشرَ الأنبياءِ أشدُّ الناسِ بلاءً، ثم الأمثلَ فالأمثلَ». يعنى الأقرب شبهًا بنا فالأقرب. فرفع أهلَ البلاء إليه ووصف نفسه به، وجعلهم الأمثل فالأمثل منه. فمن كان برسول الله ﷺ أمثل كان هو الأفضل.

---

(١) فى (ط): «حال المجاهدة» وأثبت ما فى (خ).

وقد كان النبى ﷺ شاكرًا على شدة بلائه، كذلك الشّاكر من الصّابرين يكون أفضل لشكرِه على البلاء، إذْ هو الأَمثلُ والأقربُ إلى وَصْفِ الأنبياء[1].

وكلُّ مقامٍ من مقامات المقرَّبين يحتاج إلى صبر وشكر، وأحدهما لا يتمّ إلا بالآخر، لأن الصبر يحتاج إلى شكر عليه ليكمُل، والشّكرُ يحتاج إلى صبرٍ عليه ليستوجب المزيد. وقد قرن الله تعالى بينهما ووصف المؤمنين بهما، فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [لقمان: ٣١]، فذكر الشّكرَ بلفظ المبالغة فى الوصف على وزن «فَعول»، كما ذكر الصبر على وزن «فعّال»، وهو وصف للمبالغة أيضًا، ولذلك اقتُسم الإيمانُ نصفين، كما جاء فى الخبر: «الصبرُ نصف الإيمان، والشكرُ نصف الإيمانِ، واليقين الإيمان كله». لأنّ اليقين أصلُهُما، وهما ثمرتاه عنه يُوجَدَان، لأن الشاكر أيقن بالنعمة أنّها من المنعِم، وأيقن بإنجاز ما وعده من المزيد فشكَر. كما أيقن الصّابرُ بمسّه بالبلاء، لأنه هو المبتلَى، وأيقن بثواب المبلِى وحسن ثنائه على الصابرين فصبر[2]؛ فهما حالا الموقن، إذ لا يخلو فى أدنى وقت من أحدِ اثْنين: بليّة، وتحية. إذ فى كلِّ شىء له آيةٌ؛ فحالُه فى البليّةِ الصبرُ، وحالُه فى التحيةِ الشكرُ، والله يحبّ الصابرين، ويحبّ الشاكرين.

وهذا آخرُ شرحِ مقام الشّكر، والحمد لله ربّ العالمين.

***

---

(١) فى (ط): «إذ هو الأقرب والأمثل بالأنبياء» وأثبت ما فى (خ).

(٢) فى (خ): «لأنه هو المُبْلِى، فأيقن بثواب الصابرين، وحسن ثواب المبتلى» وهى مختصرة فى (ك).

شرح مقام الرجاء، ووصف الراجين
وهو المقام الرابع من مقامات اليقين

قال الله تعالى: ﴿اللهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [الشورى: ١٩]. وقال: جلّت قدرته: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣]. وقال تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣]. وروينا فى قراءة النبى ﷺ: «ولا يُبالى إنّه هُو الغفور الرحيم».

وفى الأخبار المشهورة: «فقبض قبضةً، فقال: هؤلاء فى الجنة ولا أبالى». المعنى، والله أعلم: أن رحمتى وسعت كل شىء، فليس يضيق هؤلاء عنها، ولا أبالى بدخولِهم فيها، ويكون هؤلاء أيضًا فى الجنة، ولا أبالى بأعمالهم السيئة كلِّها.

وقال سبحانه وتعالى فى وصف المتقين: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥]. وقال عزّ وجلّ فى وصف المتوكلين: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم:٣٢]. وقال تعالى مخبرًا عن الملائكة الحافّين حولَ عرشه: ﴿وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِى الأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥].

وأخبر عزّ وجلّ أن النار أعدها لأعدائه وأنه خوّف بها أولياءه، فقال تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾ [الزمر:١٦]. ومثله قوله عزّ وجلّ: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١]. وقال: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى * لا يَصْلاهَا إِلاَّ الأَشْقَى * الَّذِى كَذَّبَ

وَتَوَلَّى﴾ [الليل: ١٤ ـ ١٦]. وقال تعالى فى عفوه عن الظالمين: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦].

ورُوينا أنّ النبى ﷺ لم يَزَل يسأل فى أمته، حتّى قيل له: «أما ترضَى وقد أنزلتُ عليك هذه الآية: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾؟».

وفى تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥] قال: «لا يرضى محمد ﷺ أن يدخل واحدٌ من أمته النار».

وكان أبو جعفر محمدُ بن علىٍّ رضى الله عنه يقول: أنتم أهل العراقِ تقولون: أرجى آيةٍ فى كتاب الله تعالى قوله تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ﴾ [الزمر: ٥٣] الآية. ونحن أهلَ البيت نقول: أرجى آيةٍ فى كتابِ الله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾، وعده ربه عزّ وجلّ أن يرضيَهُ فى أمته.

ورُوينا فى حديث أبى بُردَة عن أبيه عن أبى موسى: «أمّتى أمةٌ مرحومةٌ لا عذابَ عليها فى الآخرة، جُعل عقابُها فى الدّنيا الزلازلَ والفتنَ، فإذا كان يوم القيامة دُفع إلى كلّ رجل من أمّتى رجلٌ مِن أهل الكتاب، فيقال: هذا فداؤك من النار». وروينا فى لفظ آخر: «يأتى كلُّ رجلٍ من هذه الأمة بيهودى أو نصرانى إلى جهنم، فيقول: هذا فدائى من النّار، فيُلقى فيها». وفى الخبر: «إنّ الحمَّى من فَيح جهنم، وهى حظّ المؤمنين من النّار».

ورُوينا فى تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لا يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ [التحريم: ٨]: إن الله تبارك وتعالى أوحى إلى نبيّه ﷺ: «تريد أن أجعلَ حسابَ أمتك إليك؟ فقال: لا يا ربّ، أنت خيرٌ لهم منّى. قال: إذًا لا نُخزيك فيهم».

وقال سُفيان الثورى رضى الله عنه: ما أُحِبُّ أن يُجعل حسابى إلى أبوىَّ؛ لأنّى أعلمُ أنَّ الله تبارك وتعالى أرحمُ بى منهما.

وروينا فى خبر سَلَمة بن وَردان عن أنس بن مالك، أنّ رسول الله ﷺ سأل

ربّه تعالى فى ذنوب أمته فقال: «يا ربّ اجعلْ حِسابَهُم إلىَّ، لئلا يطّلع على مساوِيهم غيرى، فأوحى الله تعالى إليه: هُم أمّتُك وهُمْ عبادى، وأنا أرحم بهم منك، لا أجعل حسابَهُم إلى غيرى، لئلا ينظر إلى مساويهم أنت ولا غيرك».

وقد روينا عنه ﷺ أنه قال: «حياتى خيرٌ لكم، وموتى خيرٌ لكم. أمّا حياتى فإنى أبيِّن لكم السُّنَن، وأشرِّع الشرائع. وأمّا موتى فأعمالكم تُعرض علىّ، فما رأيتُ منها حسنًا حمدتُ الله عزّ وجلّ، وما رأيت منها سيئًا استغفرتُ الله عزّ وجلّ لكم».

وروينا فى الأثر: «إذا تاب العبدُ من ذنوبه أنسى اللهُ عزّ وجلّ ملائكتَه وبقاعَ الأرض معاصيَه، وبدّلها حسناتٍ، حتّى يَرِد القيامة وليس شىء يشهد عليه». وكذلك يقال: إنّ المؤمنَ إذا عصاه ستَره الله تعالى عن أبصار الملائكة، كيلا تراه فتشهد عليه.

وقال رسول الله ﷺ ذات يوم: «يا كريمَ العفو. فقال له جبريل عليه السلام: تدرى ما تفسير يا كريم العفو؟ هو أنّه عفا عن السيئات برحمته، ثم بدّلها حسنات بكرمه».

وسمع رسول الله ﷺ رجلاً يقول: «اللّهم إنّى أسألك تمام النعمة. فقال: هل تدرى ما تمام النعمة، قال: لا. قال: دخول الجنة».

وقد أخبرنا الله تعالى أنّه قد أتمّ نعمته علينا برضاه الإسلام لنا؛ فهذا دليل على دخول الجنة، فقال عزّ وجل: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا**﴾ [المائدة:٣]. وقد اشتركنا فى ذلك مع رسول الله ﷺ، فنحن نرجو المغفرة لذنوبنا بفضله، فقال عزّ من قائل: ﴿**لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ**﴾ [الفتح:٢].

وفى خبر على رضى الله عنه: «من أذنب ذنبًا فستره الله تعالى عليه فى الدنيا، فالله تبارك وتعالى أكرمُ من أن يكشف سِتره فى الآخرة، ومن أذنب ذنبًا فعُوقب عليه فى الدنيا، فالله تعالى أعدلُ من أن يثنى عقوبته على عبده فى الآخرة». وفى

لفظ آخر: «لا يُذنب عبدٌ فى الدّنيا فيسترُه الله تعالى عليه إلا غفرَهُ له فى الآخرة».

وعن بعض السّلف: كلُّ عاصٍ فإنّه يعصى تحت كَنَف الرّحمن. والكنف من الإنسان: حضنُه ما بين يديه وصدره. قال: فمن ألقَى عليه كنَفَه ستر عورتَه، ومن رفع عنه كنفَه افتُضح. ويقال: إنّ من فُضح فى الدّنيا بذنب فهو كفّارته ولا يُفضح به فى الآخرة. وفى الخبر: «إذا أذنب العبدُ فاستغفر الله، يقول الله سبحانه وتعالى لملائكته: انظروا إلى عبدى أذنب ذنبًا؛ فعلم أنّ له ربًا يغفر الذنب ويأخذُ بالذنب، أُشهدُكم أنّى قد غفرت له».

وحُدِّثت عن مُحمّد بن مُصعب قال: كتب إلىَّ أسودُ بن سالم بخطّه: إنّ العبدَ إذا كان مسرفًا على نفسه، يرفع يديه يدعو يقول: يا ربّ، فإذا قال: يا ربّ، حجبت الملائكة صوته. فإذا قال الثانية: يا ربّ، حجبت الملائكة صوته. فإذا قال الثالثة: يا ربّ. حجبت الملائكة صوته. فإذا قال الرابعة، يقول الله تعالى: حتّى متى تحجبوا صوتَ عبدى عنى. قد علم عبدى أنّه ليس له ربٌّ يغفر الذنوب غيرى، أُشهدكم أنّى قد غفرت له.

وفى الحديث: «إذا أذنب العبدُ حتى تبلغ ذنوبه عَنان السماء غفرتُها له ما استغفرنى ورجانى». وفى حديث آخر: «لو لَقِيَنى عبدى بقُراب الأرضِ ذُنوبًا لقيته بقُرابها مغفرة ما لم يشرك بى شيئًا». وفى الخبر: «إنّ المَلَك ليرفعُ القلمَ عن العبدِ إذا أذنب ستَّ ساعات، فإن تاب واستغفر لم يكتبه عليه، وإلا كتبها سيئة». وفى لفظ آخر: «فإذا كَتَبها عليه وعمِل حسنة قال لصاحب الشمال وهو أميرٌ عليه: ألقِ هذه السيئةَ حتى أُلقِى من حسناته واحدة من تضعيف العشرة، وأرفع تسع حسنات، فيلقى عنه هذه السيئة».

ويقال: إنّ الله تعالى جعل فى قلب صاحب اليمين من الرحمة للعبد أضعافَ ما جعل فى قلب صاحب الشمال، مع أنه أمّره عليه، فإذا عمل العبد حسنةً فَرِح بها مَلَك اليمين ـ ويقال: فَرِح بها الملائكة ـ فتُكتَبُ للعبدِ بفَرَحِهِم الحسناتُ.

ورُوينا فى حديث أنس بن مالك الطويل: «إذا أذنب العبد ذنبًا كُتب عليه،

فقال الأعرابى: فإن تاب. قال: مُحى من صحيفته. قال: فإن عاد. قال رسول الله ﷺ: يُكتب عليه. قال الأعرابى: فإن تاب. قال: محى من صحيفته. قال: إلى متى يا رسول الله؟ قال: إلى أن يستغفر ويتوب إلى الله تعالى، وإنّ الله لا يَملُّ من المغفرة حتى يملَّ العبدُ من الاستغفار. فإذا همَّ العبد بحسنةٍ كتبها صاحب اليمين حسنةً قبل أن يعملها، فإذا عملها كتبها عشر حسنات، ثم ضاعفها الله عزّ وجلّ إلى سَبعمائةِ ضِعف. وإذا همَّ بخطيئة لم تُكتب عليه، فإن عملها كُتبت خطيئة واحدة، ووراءها حسنُ عفو الله تعالى».

وجاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: «يا رسول الله، إنّى لا أصوم إلا الشهر لا أزيد عليه، ولا أصلى إلا الخمس لا أزيد عليهنّ، وليس لله تبارك وتعالى فى مالى صدقةٌ ولا حجٌّ، ولا أتطوّع، أين أنا إذا متّ؟ فقال النبى ﷺ: فى الجنة. قال: يا رسول الله، معك؟ فتبسم رسول الله ﷺ وقال: نعم معى، إن حفظْتَ قلبَك من اثنين: الغلِّ والحسد، ولسانَك من اثنين: الغيبة والكذب، وعينَك من اثنين: النظر إلى ما حرَّم الله تعالى وأن تزدرى بهما مسلمًا، دخلتَ معى الجنةَ على راحتى هاتين».

وروينا فى الخبر الطويل عن أنس رضى الله عنه: «أن الأعرابى قال: يا رسولَ الله، من يلى حساب الخلق؟ قال: الله عزّ وجلّ. قال: هو بنفسه؟ قال: نعم. قال: فتبسَّم الأعرابى. فقال النبى ﷺ: ممّ ضحكت يا أعرابى؟ فقال: إنّ الكريم إذا قَدَرَ عفَا، وإذا حاسَب سامح، فقال النبى ﷺ: صدق، ألا ولا كريمَ أكرمُ مِن الله عزّ وجلّ؛ هو أكرمُ الأكرمين. ثم قال ﷺ: فَقُهَ الأعرابى».

وفيه أيضًا: «إنّ الله تبارك وتعالى شرّف الكعبةَ وعظّمها، ولو أنّ عبدًا هدمها حجرًا حجرًا ثم أحرقها ما بلَغ جُرمَ من استخفَّ بولىٍّ من أولياء الله تعالى. فقال الأعرابى: مَنْ أولياءُ الله؟ فقال: المؤمنون كلُّهم أولياء الله تعالى، أَمَا سمعْتَ اللهَ تعالى يقول: ﴿اللهُ وَلِىُّ الَّذينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِن الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ﴾» [البقرة: ٢٥٧]؟

وفى الخبر المفرَد عن النّبى ﷺ: «المؤمنُ أفضلُ من الكعبة، والمؤمن طيِّب

طاهرٌ، والمؤمن أكرمُ على الله تعالى من الملائكة».

وفى الخبر المشهور، عن عبد الله بن عمرو وأبى هريرة رضى الله عنهما، وكعب الأحبار «أنه ﷺ نظر إلى الكعبة فقال: ما أشرفَكِ وما أعظمَكِ. ولَلْمُؤمن أعظمُ حرمةً عند الله منك». وقد أمر اللهُ سبحانه وتعالى أنبياءه بتطهيرِ بيته لأوليائه إجلالاً لهم، فشرّف البيتَ بهم. وفى الخبر عن الله تعالى: «مَنْ أهان لى وليًا فقد بارزَنى بالمحاربة، وأنا الثائرُ لوليى فى الدنيا والآخرة».

وفى أخبار يعقوب عليه السلام: أن الله تعالى أوحى إليه: تَدْرى لمَ فرّقتُ بينك وبينَ يوسف عليه السلام هذه المدة؟ قال: لا. قال: لقولك لإخوته: أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون، لِمَ خِفتَ الذئب عليه ولم ترجُنى له؟ ولِمَ نظرتَ إلى غفلةِ إخوته ولم تنظر إلى حِفظى له؟ ومنْ سَبْق عنايتى بك أنّى جعلتُ نفسى عندك أرحمَ الراحمين، فرجوتنى، ولولا ذلك لكنتُ أجعل نفسى عندك أبخلَ الباخلين.

فالرجاءُ هو اسم لقوّةِ الطَّمَعِ فى الشىء، بمنزلة الخوف اسم لقوّة الحذر من الشىء. ولذلك أقام الله تعالى الطمعَ مقامَ الرّجاء فى التسمية، وأقام الحذَرَ مقام الخوف، فقال علت كلمته: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة:١٦]، وقال تعالى: ﴿يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر:٩]، وهو وصفٌ من أوصاف المؤمنين، وخُلُق من أخلاق الإيمان لا يصحّ إلا به، كما لا يصحّ الإيمانُ إلا بالخوف. فالرّجاءُ بمنزلة أحد جناحى الطير لا يطير إلا بجناحيه، كذلك لا يؤمن مَن لا يرجو مَن آمَن به ويخافه، وهو أيضًا مقامٌ من حسن الظن بالله تعالى، وجميلِ التأميل له.

فلذلك أوصى رسول الله ﷺ فقال: «لا يَمُوتَنَّ أحدُكم إلا وهو حَسَنُ الظَّنِّ بالله تعالى»؛ لأنّه قال عن الله تعالى: «أنا عند ظَنِّ عبدى بى، فليظنّ بى ما شاء». وكان ابنُ مسعود رضى الله عنه يحلف بالله تعالى: «ما أحسنَ عبدٌ بالله تعالى ظنَّه إلا أعطاه الله تعالى ذلك»، لأنّ الخير كلّه بيده. أى فإذا أعطاه حُسنَ

الظّن بالله تعالى فقد أعطاه ما يظنّه، لأن الذى حسّن ظنّه به هو الذى أراد أن يُحقّقَه له.

ورُوينا عن يوسف بن أسباط قال: سمعتُ سفيانَ الثّورى رضى الله عنه يقول فى قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:١٩٥]، قال: أى أحسنوا بالله تعالى الظنّ. وكذلك دخل رسولُ الله ﷺ على الرجل وهو فى سياق الموت، فقال: «كيف تجدك؟ فقال: أجدنى أخاف ذنوبى، وأرجو رحمةَ ربّى. فقال ﷺ: ما اجتمعا فى قلبِ عبدٍ فى هذا الموطن إلا أعطاه الله تعالى ما رجا، وأمّنه مما يخاف».

ولذلك قال علىٌّ كرّم الله وجهه للرجل الذى أطار الخوفُ عقلَه حتى أخرجه إلى القنوط، فقال له: يا هذا إياسُكَ من رحمةِ الله تعالى أعظمُ من ذنبك. صدق رضى الله عنه، لأنّ الإياسَ من رَوْحِ الله تعالى الذى يستريحُ إليه المكروبُ من الذّنوب، والقُنوطَ من رحمةِ الله تعالى التى يرجوها المبتلَى بالذنوب، أعظمُ من ذنوبه، وهو أشدّ من جميع ذنوبه، لأنّه قطع بهواه على صفاتِ الله تعالى المرجوّة، وحكَمَ على كَرَمِ اللهِ بصفتهِ المذمومة، فكان ذلك من أكبرِ الكبائر، وإن كانت ذُنوبُه كبائر. وهكذا جاء فى التفسير: ﴿وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُم إِلى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥] قال: هو العبدُ يذنب الكبائر فيُلْقى بيدِه ولا يتوب، ويقول: قد هلكتُ لا ينفعنى عمل، فنُهوا عن ذلك.

إلا أنّ الرجاء مقامٌ جليل وحالٌ شريف نبيل لا يصلح إلا للكرماء من أهل العلم والحياء. وهو حال يحول عليهم بعد مقامِ الخوف، يُروِّحون به من الكَرْب، ويستريحون إليه من مقارفة الذنب. ومَن لم يعرف الخوفَ لم يعرف الرجاء، ومن لم يقم فى مقامِ الخوف لم يُرفَع إلى مقامات أهل الرجاء على صحةٍ وصفاء.

ورجاءُ كلِّ عبدٍ من حقيقة[1] خَوفه ومكاشفَته عن أخلاقٍ مرجوّةٍ من معنى ما كان كُوشِفَ به من صِفاتٍ مَخوفة؛ فإن كان أُقَيم مقامَ المخوفاتِ من المخلوقاتِ

(١) فى (ط): «من حيث».

مثْل: الذنوب؛ والعيوب؛ والأسباب، رُفع من حيثُ تلك المقاماتِ إلى مقامات الرّجاء؛ بتحقيق الوعد، وغفران الذنب، وتشويقِ الجنان وما فيها من الأوصاف الحسان؛ وهذه مُواجهاتُ أصحابِ اليمين. وإن كان أُقيم مقامَ مَخاوفِ الصفاتِ عن مشاهدةِ معانى الذّات، مثل: سابقِ العلم، وسوء الخاتمة، وخفىِّ المكرِ، وباطن الاستدراج، وبطش القُدرة، وحُكم الكِبْر والجبروت، رُفع من حيث هذه المقامات إلى مقام المحبة والرضا، فَرَجا مِن معانى الأخلاق وأسماءِ الكرم والإحسانِ والفضلِ والعطف واللُّطف والامتنان.

وليس يصحّ أن نخبر بكل ما نعلم من شهادة أهل الرجاء فى مقامات الرجاء، من قِبَل أنّه لا يصلُح لعمومِ المؤمنين، وهو يُفْسِد من لم يُرْزَقه أشدَّ الفساد، فليس يصلُحُ إلا لِخُصوصِهِ، ولا يُجِدُّ [1] بِهِ، ولا يستجيبُ له، ولا يُسْتَخرج إلا من المحبِّينَ، ولا محبة إلا بعد نصح القلب من الخوف. وأكثرُ النُّفوس لا يصلح إلا على الخوف، كعبيد السوء لا يستقيمون إلا بالسّوط والعصا، ثم يُواجَهُون بالسّيوف صَلْتًا.

ومن علامة صحة الرجاء فى العبد كونُ الخوفِ باطنًا فى رجائه، لأنّه لما تحقق برجاء شيءٍ خاف فَوْتَه لعظَم المرجوِّ فى قلبه، وشدّة اغتباطه به، فهو لا ينفكّ فى حال رجائه من خوف فَوت الرجاء. والرّجاءُ هو ترويحاتُ الخائفين، ولذلك سمّت العربُ الرّجاءَ خوفًا، لأنّهما وصفانِ لا ينفَكُّ أحدُهما عن الآخر. ومن مذهبهم: أنّ الشىء إذا كان لازمًا لشيءٍ، أو وصفًا له، أو سببًا منه، أن يُعبِّروا عنه به، فقالوا: «ما لك لا ترجو كذا»، وهم يريدون: ما لك لا تخاف؟ وعلى هذه اللغة جاء قولُ الله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لله وَقَارًا﴾ [نوح:١٣]، أجمعوا على تفسيره: ما لكم لا تخافون لله عَظَمة؟ وهو أيضًا أحدُ وجهَى تفسيرِ قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ١١٠]، أى: يخاف من لقائه.

وَمَثَلُ الخَوْفِ من الرجاء مَثَلُ اليومِ من الليلة، لما لَمْ ينفكَّ أحدُهما عن الآخر

---

(٢) لا يُجِدُّ ويَجِدُّ: أى يجتهد فى الأمر.

جاز أن يُعبَّر عن المدّة بأحدهما، فيقال: ثلاثة أيام، وثلاث ليال. ومنه قول الله تعالى مخبرًا عن قصّة واحدة، فقال عزّ وجلّ: ﴿آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٠]، ثم قال تعالى: ﴿ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا﴾ [آل عمران: ٤١]. فلمّا لم يكن اليوم ينفكّ عن ليلته، والليلةُ لا تنفكّ عن يومها، أخبر عن أحدهما بالآخر؛ لأنّ أحدَهُما [مُتّصلٌ بصاحِبِه، فَصارا كشَيءٍ واحدٍ، كيفَ! وأنّ الليلَ والنّهارَ أحدُهُما][1] لِبْسَةُ الآخرِ[2]، مندرجٌ فيه، ولا يظهر إلَا أحدُهُما بحكمة الله تعالى وقدرته، لتفاوتِ أحكامه فيهما، وافتراقِ إنعامه بهما، فإذا ظهر النهارُ اندرج الليلُ فيه بقدرته تعالى، وإذا ظهر الليلُ استتر النهارُ بحكمة الله تعالى، وهو حقيقةُ إيلاجه أحدَهما فى الآخر، وتحقيقُ تكويرِه أحدَهُما على صاحِبه. فكذلك حقيقةُ الرَّجاء والخَوف فى معانى الملكوت، إذا ظهر الخوف كان العبد خائفًا، وظهرتْ عليه أحكامُ الخوفِ عن مشاهدة التجلِّى بوَصْفِ مخوفٍ، فسُمِّى العبدُ خائفًا لغلبته عليه، وبَطَنَ الرَّجاءُ فى خَوفه، فإذا ظهر الرَّجاء كانَ العبدُ راجيًا، وظهرت منه أحكام الرجاء عن مشاهدَةَ تجلِّى الرُّبوبيةِ بوَصْفِ مرجوٍّ، فوُصِفَ العبدُ به لأنّه هو الأغلبُ عليه، وبَطَنَ الخَوْفُ فى رَجائه؛ لأنّهما وصفانِ للإيمان كالجناحين للطير.

فالمؤمنُ بين الخوف والرّجاء كالطائرِ بين جناحيه، وكَلِسانِ الميزان بين كِفَّتَيْه. ومنه قول مُطرِّف: لو وُزن خوف المؤمنِ ورجاؤه لاعتدلا. فهذا أصلٌ فى معرفة حقيقة الرّجاء وصِدقِ الطّمع فى المرجوِّ.

فَلِلمؤمنينَ فى اعتدال الخوف والرجاء مقامان؛ أعلاهما: مقام المقرَّبين، وهو ما حال عليهم من مَقام مشاهدةِ الصفات المخُوفة والأخلاق المرجوَّة. والثانى: مقامُ أصحاب اليمين، وهو ما عرفوه من بدائع الأحكام وتفاوُتِ الأقسام. من ذلك أنّه أنعم سبحانه وتعالى على الخَلق بفضله عن كَرمه اختيارًا لا إجْبارًا، فلما أعلمهم ذلك رجَوْا تَمام النِّعمة من حيث ابتداؤها. ومن هَهنا طمع السَّحرةُ فى المغفرة لَمَّا

---

(١) الجملة ساقطة من (ط) وهى ثابتة فى (خ) و (ك).

(٢) فى (ط): «لأن أحدهما يشبه الآخر».

ابتدؤُوا بالإيمان فقالوا: ﴿إنّا نَطمَعُ أنْ يَغْفِرَ لنا ربُّنا خَطَايانا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ المؤْمنينَ﴾ [الشعراء: ٥١] أي: من حيث جعلنا أوّلَ المؤمنين من هذا المكان نرجُو أن يغفر لنا بأن جعلنا مؤمنينَ به، فرجَوْه منه. وقد ذمّ الله تعالى عبدًا أوجده نعمةً ثم سلبها، فأيس من عودها عليه، فقال تعالى: ﴿ولَئِنْ أَذَقْنَا الإنْسانَ منَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا منْهُ إنَّهُ لَيَؤُسٌ كَفُورٌ﴾ [هود: ٩]. ثم استثنى عباده الصابرين عليه، الصالحين له، فقال تعالى: ﴿إلاَّ الَّذينَ صَبَرُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [هود: ١١].

وروى أنَّ لقمان عليه السلام قال لابنه: خَفِ اللهَ تعالى خوفًا لا تأمن فيه مكره، وارْجُه رجاءً أشدَّ من خوْفك. قال: وكيفَ أستطيعُ ذلك وإنّما لى قلبٌ واحد؟ قال: أمَا عَلِمْتَ أنّ المؤمن كذى قلبين: يخاف بأحدهما، ويرجو بالآخر؟ والمعنى: أن الخوفَ والرجاء وصفُ الإيمانِ لا يخلو منهما قلبُ مؤمن، فصار كذى قلبين حينئذ.

ثم إنَّ الخَلْقَ خُلقوا على أربع طبقات، فى كل طبقةٍ طائفةٌ. فمنهم من يعيش مؤمنًا ويموت مؤمنًا. فمن ههنا رجاؤهم لأنفسهم ولغيرهم من المؤمنين، إذ قد أعطاهم فرجوا أن يُتمَّ عليهم نعمته، وأن لا يسلبَهُم بفضله ما به بدأهم. ومن الناس من يعيش مؤمنًا، ويموت كافرًا، فهذا موضع خَوفهم عليهم وعلى غيرهم، لمكان علمهم بهذا الحُكم، ولغيبِ حُكم الله تعالى بعلمه السابق فيهم. ومن النّاس من يعيش كافرًا ويموت مؤمنًا، ومنهم من يعيش كافرًا ويموت كافرًا. فهذان الحكمان أوجبا رجاءَهُم الثّانى للمُشْرِك إذا رأوه، فلم يَقْطَعوا[1] بظاهرِهِ أيضًا خَوفَ هذا الرجاءِ خَوْفًا ثانيًا أن يموت على تِلكَ الحالةِ، وأن يكون ذلك هو حقيقة عند الله تعالى.

فعَلِمَ المؤمنُ بهذهِ الأحكامِ الأربعةِ، ووَزَنَ خَوْفَهُ ورَجاءَهُ معًا[2]، فاعتدلَ حالُه بذلك لاعتدالِ إيمانه به، وحكَم على الخَلْقِ بالظّاهر، ووكَل إلى علاّم الغيوب

(١) فى (ط): «فلم يقنطوا».
(٢) فى (ط): «ورثه الخوف والرجاء معًا».

السرائرَ، ولم يقطع على عبد بظاهرِه من الشرّ بل يرجو له ما بَطَنَ عند الله تعالى من الخير، ولم يشهدْ لنفسه ولا لغيرِه بظاهرِ الخَيْر بل يخاف أن يكون قد استسرَّ عند اللهِ تعالى باطنُ شرٍّ، إلا أن حالَ التمام أن يخاف العبدُ على نفسه، ويرجو لغيره؛ لأنّ ذلك هو وجد المؤمنين من قِبَل أنّهم متعبِّدُون بحسن الظن، فهم يُحسنون الظنَّ بالناس، ويخرجون لهم المعاذيرَ بسلامةِ الصُّدور، وتسليمِ ما غاب إلى من إليه تصيرُ الأمور. ثم هم فى ذلك يسيئون الظنّ بنفوسهم لمعرفتهم بصفاتِها، ويُوقعون الملاومَ عليها، ولا يحتجون لها لباطنِ الإشفاق منهم عليهم، ولخوفِ التزكية منهم لهم.

فمن قُلِب عليه هذان المعنيان فقد مُكر به حتى يُحسن الظنّ بنفسه، ويسىء ظنّه بغيرِه، فيكون خائفًا على الناس، راجيًا لنفسه، عاذرًا لنفسه، محتجًا لها، لائمًا للناس، ذامًا لهم؛ فهذه أخلاق المنافقين.

ثم إنّ للرّاجى حالاً من مقامه، ولحاله علامةٌ من رجائه، فمن علامةِ الرجاءِ عن مشاهدةِ المرجوِّ دوامُ المعاملة وحسنُ التقرّبِ إليه، وكثرةُ التحبُّب[1] بالنوافل، لحسن ظنّه به وجميلِ أملِه منه، وأنه يتقبَّلُ صالحَ ما أمَرَ به تفضُّلاً منه من حيثُ كرمُهُ، لا من حيثُ الواجبُ عليه، ولا الاستحقاق منّا. وأنّه أيضًا يكفّر سىءَ ما عملَه إحسانًا منه، ورحمةً من حيثُ لُطفُهُ بنا وعطفُهُ علينا، لأخلاقه السَّنيَّة وألطافه الخفيَّة، لا من حيثُ اللزومُ له، بل من حيثُ حسنُ الظَّنِّ به.

كما قال سفيان الثورى رضى الله عنه: من أذْنَب ذنبًا، فعلم أنّ الله تعالى قدّره عليه، ورجا غُفرانَه، غفر الله عزّ وجلّ له ذنْبَهَ. قال: لأنّ الله تعالى عيَّر قومًا فقال تعالى: ﴿وَذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذى ظَنَنْتُمْ بِربّكُمْ أَرْداكُم﴾ [فصلت:٢٣]. وقال سبحانه وتعالى فى مثله: ﴿وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح:١٢]، أى: هَلْكى. ففى دليل خطابه عزّ وجلّ: أنّ من ظَنَّ حسنًا كان من أهل النجاة. وقد جاء فى الأثر: «مَنْ أذنب ذَنبًا فأحْزَنَه ذلك غُفِر له ذنبه وإن لم يستغفر».

---

(١) فى (ط): «التقرب».

ومقامُ الرجاءِ كسائر مقامات اليقين، منها فَرْضٌ وفَضْلٌ. فعلى العبد فرضٌ أن يرجو مولاه وخالقه ومعبوده ورازقَهُ، من حيثُ كرمُه وفضلُه، لا من حيثُ نظرُه إلى صفاتِ نفسه ولؤمِه. وقد كان سهل رحمه الله تعالى يقول: مَن سأل الله تبارك وتعالى شيئًا فنظر إلى نفسه وإلى أعماله لا يرى الإجابة حتى يكون ناظرًا إلى اللهِ تبارك وتعالى وحدَه، وإلى لُطفه وكرمه، ويكون موقنًا بالإجابة. ولعمرى إن من سأل الله تعالى ورَغِب إليه فى شىءٍ ورجاه ناظرًا إلى نفسِه وعملِه، فإنّه غير مخلصٍ فى الرّجاء له سبحانَهُ وتعالى لشرْكه فى النّظر إليه. وإذا لم يكن مخلصًا لم يكن موقنًا، ولا يَقْبل الله تعالى عَملاً ولا دعاءً إلا من مُوقنٍ بالإجابة مُخلصٍ. فإذا شهد التوحيدَ، ونظر إلى الوحدانية، فقد أخلص وأيقنَ. وهكذا جاء فى الخبر: «إذا دَعَوتُم فكونوا مُوقِنين بالإجابة، فإن الله تعالى لا يقبل إلا من مُوقنٍ ومِن دَاعٍ دعا بِنِيَّةٍ[1] من قلبه، لأنَّ مَن استعملَهُ اللهُ تعالى بالدّعاء له فَقَدْ فتحَ له بابًا من العبادة.

وفى الخبر: «الدعاء نصف العبادة». ولا يقبلُ اللهُ تعالى من الدّعاء إلا النّاخلة. بمعنى المنخول، وهو الخالص. فأقلُّ ما يعطيه مِن دُعائِه أن يكونَ ذلك حسنةً منه يضعِّفُه له عشرًا إلى سبعمائة ضعف. وأعلاه: أن يدّخر له عنده فى الآخرة ما هو خير له من جميع الدنيا وما فيها ممّا لم يَخْطُر على قلبه قطّ، ويكون ذلك حسنُ نظرٍ من الله تعالى له واختيارٌ. وأوسطُ ذلك: أن يصرفَ عنه من البلاء الذى هو لو كانَ عَلِمَهُ كان صَرْفُه أهمَّ عليه وأحبَّ إليه مما سأل فيه. وقد رُوينا عن رسول الله ﷺ: «ما من داعٍ دعا مُوقنًا بالإجابة فى غير مَعصية ولا قطيعة رحم إلا أعطاهُ اللهُ تعالى إحدى ثلاث: إما أن يجيب دعوتَه فيما سأل، أو يصرف عنه من السُّوء مثلَه، أو يدّخر له فى الآخرة ما هو خيرٌ له».

وفى أخبار موسى عليه السلام: «يا ربِّ أيّ خلقك أنت عليه أشدُّ تسخُّطًا؟ فقال تعالى: مَن لم يرضَ بقضائى، ومَن يستخيرنى فى أمره فإذا قضيتُ له كره ذلك». وفى الخبر الآخر أنّه قال: «يا ربِّ، أىّ الأشياء أحبُّ إليك، وأيّها أبغض؟

(١) فى (ط): «دعاء بينًا».

فقال سبحانه وتعالى: أحب الأشياء إلىّ الرضا بقضائى، وأبغضها إلىّ أن تُطرِىَ نفسك».

وروينا عن نبيّنا ﷺ أنه قال للرجل الذى قال: أوصنى، فقال: «لا تتهم اللهَ تعالى فى شىءٍ قضاهُ عليك». وفى الخبر الآخر: «إنّه نظر إلى السماء وضحك ﷺ، فسُئل عن ذلك، فقال: عجبتُ لقضاءِ الله تعالى للمؤمنِ، فى كلٍّ قضائه له خير. إن قضى له بالسرّاء رضى فكان خيرًا له. وإن قضى عليه بالضرّاء رضى به فكان خيرًا له».

ومن حسنِ الظنِّ بالله تعالى لطفُ التملُّقِ له سبحانه وتعالى، وهو من قوّة الطمع فيه. وفى الخبر: «حسنُ الظنِّ بالله عزّ وجلّ من حسن عبادة الله عزّ وجلّ». كما رُوينا فى تفسير قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة:٣٧] أنّ الكلمات هى قوله عليه السلام: يا ربّ هذا الذنبُ الذى أصبتُه كان من قِبَلِ نَفسى، أو من شىء سبقَ فى عِلمك قبل أن تخلقنى قضيتَهُ علىَّ؟ فقال: بل شىءٌ سبق فى عِلمى كتبتُه عليك. قال: يا ربّ فكما قضيته علىَّ فاغفرْهُ لى. قال: فهى الكلمات التى لقّاهُ اللهُ تعالى إياها.

ورُوينا عن النبى ﷺ: «يقول الله تعالى للعبد يوم القيامة: ما منعكَ إذ رأيتَ المنكر أن تنكره؟ قال: فإن لقّن اللهُ تعالى العبدَ حجّته قال: يا ربّ رجوتُكَ وخفتُ النّاس. قال: لقد غفرت له». وفى الخبر المشهور: «أن رجلاً كان يداينُ الناسَ، فيسمحُ لهم ويتجاوزُ عن المعسر، فلقى الله تعالى ولم يعمل خيرًا قط، فقال الله سبحانه وتعالى: نحن أحقُّ بذلك منك. قال: فغفر له برجائه وظنّه».

ثم يتفاوت الرّاجونَ فى فضائل الرجاء، فالمقرَّبونَ منهم رجَوُا النصيبَ الأعلى من القُرب والمجالسة والتجلّى بمعانى الصفات ممّا عرفوه؛ وهذا عن علمهم به. وأصحابُ اليمين من الرّاجين رجَوا النصيبَ الأوفرَ من مزيده، والفضلَ الأجزل من عطائه، يقينًا بما وعد.

ومن الرجاء: انشراحُ الصدرِ بأعمال البرّ، وسرعةُ السبْق والمبادرة بها خوفَ

فوتها ورجاءَ قبولها. ثم مهاجرةُ السّوء ومجاهدةُ النفس رجاءَ انتجاز الموعود، وتقربًا إلى الرحيم الودود. ومنه قول أصدق القائلين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ﴾ [البقرة:٢١٨]. وفسّر رسول الله ﷺ المهاجرةَ والمجاهدَة فقال: «المهاجرُ من هجر السوءَ، والمجاهدُ من جاهد نفسه فى الله عزَّ وجلَّ».

ومن الرجاء: كثرةُ التلاوةِ لكلامِ اللهِ سُبحانه[١]، وإقامُ الصَّلاةِ التى هى خِدمةُ المعبودِ، وبذلُ المالِ سراً وعلانيةً وقليلاً وكثيراً، وأن لا يشتغل عن ذلك بتجارة الدّنيا، كما وصف الله سبحانه وتعالى المحقّقين من الرّاجين، إذ يقول عزّ من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ﴾ [فاطر:٢٩].

ومن الرجاء: القنوتُ فى ساعات الليل؛ وهو طولُ القيام للتهجّد، والدعاءُ عند تجافى الجنوب عن المضاجع، لما وقر فى [الصُّدور و][٢] القلوب من المخاوف. ولذلك وصف الله الراجين بهذا فى قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩]. فسمَّى أهلَ الرجاءِ والحذر وأهلَ التهجّد آناء الليل علماءَ، وحصَلَ من دليلِ الكلام أنّ من لم يخف ولم يَرْجُ غيرُ عالم؛ لنَفْيِه المساواةَ بينهما. وهذا ممّا حُذِف خبره اكتفاءً بأحد وصفَيْه إذ فى الكلام دليلٌ عليه.

فالرجاءُ هو أوّل مقامٍ من اليقين عند المقرَّبين، وهو ظاهرُ أوصافِ الصدِّيقين، ولا يكمُلُ فى قلب عبدٍ ولا يتحقّق به صاحبه حتى تجتمعَ فيه هذه الأوصاف: الإيمانُ بالله تعالى، والمهاجرُ إليه سبحانه وتعالى، والمجاهدةُ فيه، وتلاوةُ القرآن، وإقامُ الصلاة، والإنفاقُ فى سبيل الله تعالى، ثم السجودُ آناءَ الليل، والقيامُ والحذرُ مع ذلك كله. فهذه جملُ صفاتِ الرّاجين، وهو أوّل أحوال الموقنين. ثم

---

(١) قوله «ومن الرجاء . . . سبحانه» ساقط من (ط) وهو ثابت فى (خ) و(ك).

(٢) زيادة من (خ).

تتزايد الأعمالُ فى ذلك ظاهراً وباطنًا بالجوارح والقُلوب عن تزايُدِ الأنوار والعلوم ومكاشفاتِ الغيوب بالأوصافِ الموجودة.

وفصْلُ الخطاب: أنَّ الخوفَ والرجاء طريقان إلى مقامَين؛ فالخوفُ طريقُ العلماء إلى مقام العلم. والرجاءُ طريقُ العُمّال إلى مقام العَمَل. وقد وصف الله عزّ وجلّ الراجين مع الأعمال الصالحة لقوّة رجائهم بالخوف تكملةً لصدق الرجاء، وتتمةً لعظيم الغِبطة به، فقال تعالى وتقدّس: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]. وقال عزّ وجلّ مُخبرًا عنهم فى حال وفائهم وأعمال برّهم: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِى أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا﴾ [الطور: ٢٦ ـ ٢٧]. وقال عزّ وجلّ: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا﴾ [الإنسان: ٧]، من قِبَلِ أنَّ الخوف مرتبط بالرّجاء، فمن تحقق بالرجاء صارعَهُ الخوفُ أن يقطع به دون ما رجا.

وقال أهلُ العربيةِ فى معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ﴾ [الجاثية: ١٤]: أى للذين لا يخافون عقوباتِ الله تعالى. فإذا كان هذا أمرُه بالمغفرة لمن لا يرجو، فكيف يكون غفرُه وفضلُه على من يرجو؟ وبعضُهم يقول فى معنى قوله تعالى: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لاَ يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤]: أى تخافون منه ما لا يخافون.

فلولا أنّهما عند العلماءِ كشىء واحد ما فُسِّر أحدُهما بالآخر.

ومن الرّجاء: الأنسُ بالله تعالى فى الخلوات، ومن الأنس به الأنسُ بالعلماء، والتقرّبُ من الأولياء، وارتفاعُ الوحشة بمجالسة أهل الخير، وسعةُ الصَّدر والرّوح عندهم.

ومن الرجاء: سقوطُ ثقلِ المعاونَة على البرِّ والتَّقوى لوجود حلاوةِ الأعمال والمسارعة إليها، والحثِّ لأهلها عليها، والحزنِ على فَوتها، والفرح بدَرْكها. ومن ذلك الخبر المأثور: «مَنْ سرَّته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن». والخبر المأثور: «خيار أمّتى الذين إذا أحسنوا استبشروا، وإذا أساءوا استغفروا». لأنّ المؤمنَ على يقينٍ من أمره وبصيرةٍ من دينه.

والخوفُ والرجاءُ وصفُ الموقنِ بالله تعالى، فهو إذا عمل حسنة أيقن بثوابها؛ لصدق الوعد وكرم المُوعِد، وإذا عمل سيئة أيقن بالكراهة لها وخاف المقتَ عليها؛ لخوفِ الوعيد وعَظمة المتوعِّد، من قِبَلِ أنّ دخولَه فى الطّاعة دخولٌ فى محبةِ الله تعالى ومرضاته لما دلّ العلمُ عليه؛ فهذا رضا الله سبحانه وتعالى فى الدنيا فكيف لا يسرُّه رضاه؟ ومن قِبَلِ أنّ دخوله فى المعصية دخولٌ فى غضبِ الله تعالى ومكارهه بما دلّ العلم عليه، فذلك الذى يسوءُه، لأنّ مقتَ الله تعالى اليوم معاصيه، وسَخَطَهُ غدًا تعذيبه. ومن هذا قول الله عزّ وجلّ، وهو أصدق القائلين: ﴿يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ الله أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [غافر: ١٠]، قال: لما نظروا إلى أنفسهم بتشويه خَلقِهم فى النار مقتُوها، فنُودوا: لَمقْتُ اللهِ لكُم فى الدنيا على معاصيه أكبرُ من مَقْتِكم أنفسكم اليوم فى العذاب، كذلك رِضاهُ اليومَ بطاعتِه، كما رِضاهُم غدًا بالنّعيم فى جنَّتِه[١]؛ وهذا وصف عبد مراد مكاشف بعلم اليقين.

ومن هذا حديث زيد الخيل إذ قال للنبى ﷺ: «جئتك أسألُك عن علامةِ الله تعالى فيمن يريد، وعلامته فيمَنْ لا يريد. فقال: كيف أصبحتَ؟ فقال: أصبحت أحبّ الخير وأهله، وإذَا قَدَرْتُ على شيءٍ منه سارعتُ إليه وأيقنتُ بثوابه، وإذا فاتنى شيءٌ منه حزِنتُ عليه وحَنَنْتُ إليه. فقال ﷺ: هذه علامةُ اللهِ تعالى فِيمَنْ يُريد، ولو أرادكَ للأخرى هيَّأكَ لها، ثم لم يبالِ فى أىّ أَوْديتِها هَلَكْتَ».

ومن الرجاء: التلذُّذُ بدوامِ حسن الإقبال، والتنعّمُ بمناجاةِ ذى الجلال، وحسنُ الإصغاءِ إلى محادثة القريب، والتلطُّفُ فى التملُّق للحبيب، وحسنُ الظنّ به فى العفو الجميل ومنال الفضل الجزيل. وقال بعض العارفين: للتوحيد نورٌ وللشِّرك نارٌ. ونور التوحيد أحرقُ لسيئاتِ الموحِّد من نار الشِّرك لحسنات المشرك.

ولما احتُضِر سُليمانُ التَّيمىُّ قال لابنه: يا بُنىَّ، حدِّثنى بالرُّخَص واذْكُر لى الرَّجاء، حتّى ألقى الله تعالى على حُسْن الظَّنّ به. وكذلك لما حضر سُفيان الثّورى رضى الله عنه الوفاةُ جعل العلماءُ حوله يُرجُّونَه. وحُدِّثنا عن أحمد بن حنبل

(١) كان ثَمَّ تقديم وتأخير فى (ط) أصلحته من (خ).

رضى الله عنه أنّه قال لابنه عند الموت: اذْكُر لىَ الأخبارَ التى فيها الرّجاءُ وحسنُ الظنّ.

فلولا أنّ الرجاء وحسنَ الظنّ من فواضل المقامات ما طلبَهُ العلماءُ فى آخر الأوقات عند فِراق العُمْر ولقاءِ المولى، لتكون الخاتمةُ به، وهم يسألون اللهَ حُسْنَ الخاتمةِ طُولَ الحياةِ. ولذلك قيل: إنّ الخوفَ أفضلُ ما دام حيًا، فإذا حضر الموت فالرّجاء أفضل.

وقد كان يحيى بن مُعاذ رحمه الله تعالى يقول فى مقامات الرجاء: إذا كانَ تَوْحيدُ ساعةٍ يُحبط ذنوبَ خمسين سنة، فتوحيدُ خمسين سنةٍ ماذا سيصنع بالذنوب؟

وقال أبو محمد سَهْلٌ رضى الله عنه: لا يصحُّ الخوفُ إلا لأهل الرّجاء. وقال مرّة: العلماءُ مقطوعون إلا الخائفين، والخائفُونَ مقطوعون إلا الراجين. وكان يجعل الرّجاءَ مقامًا فى المحبة. وهو عند العلماء أوّلُ مقامات المحبة، ثم يعلو فى الحبِّ على قَدْر ارتفاعه فى الرّجاء وحسن الظن. وقَدْ رُوينا عن النبى ﷺ أحاديثُ فى الرّجاء لا يصلح ذكرها لعموم الناس، ولكن نذكر من ذلك ما ظهر: «خلقَ اللهُ تعالى لِجَهنَّم من فَضْل رَحْمته سَوْطًا يَسُوقُ اللهُ عزّ وجلّ به عبادَه إلى الجنة». وخبر آخر: «يقول الله تعالى: إنّما خلقتُ الخلقَ لِيَرْبَحُوا علىَّ ولم أخلقهم لأربحَ عليهم». وفى حديث عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ: «ما خلق اللهُ تعالى شيئًا إلا جعل له ما يغلبه، وجعل رحمتَهُ تَغْلب غضبَه». والخبر المشهور: «إن الله تعالى كتب على نفسه قبل أن يخلق الخَلْقَ: إنّ رحمتى تَغْلب غضبى». والأخبار المشهورة عن معاذ بن جبل، وأنس بن مالك، رضى الله عنهما: «مَنْ قال لا إله إلا الله دخل الجنة»، و «مَنْ كان آخرُ كلامه قولَ: لا إله إلا اللهُ لم تمسَّه النار»، و «مَنْ لقى اللهَ تعالى لا يُشرك به شيئًا حُرِّمت عليه النار»، و «لا يدخل النّارَ مَنْ فى قَلْبه وزنُ ذَرَّة من إيمان». وقد قال فى خبر آخر: «لو يعلمُ الكافرُ سَعَة رحمه الله تعالى ما أيِسَ من رحمته أحد».

وقال الله تعالى فى حسن عفوه عن أكبر الكبائر بعد ظهور الآيات: ﴿ثُمَّ

اتَّخذُوا الْعجْلَ منْ بَعْد مَا جاءَتْهُمُ الْبيِّنَاتُ فَعفَوْنَا عَنْ ذلك﴾ [النساء:١٥٣]. وقال في خطاب لطيف لأوليائه يعرِّفُهم نفاذَ أحكامه فيهم وجريانَ مشيئته عليهم: ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ من بَعْد مَا جَاءَتْكُمُ البيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكيمٌ﴾ [البقرة:٢٠٩]، عزيز لا يُوصل إليه إلا به، حكيم حكَم بمشيئته على عباده، ثم يغفر الذنوبَ جميعًا فلا يُبالي، كما أجرى على مَن فَضَّله على العالمين مقالةَ الكافرين فلم يضرَّهُم مع تفضيلِه لهم، إذ قالوا لموسى عليه السلام: ﴿اجْعَل لَنا إِلهًا كَما لَهُم آلِهةٌ﴾، ﴿قالَ أغَيْرَ اللهِ أبْغِيكُم إلهًا وهُو فَضَّلَكُم علَى العَالَمينَ﴾ [الأعراف:١٣٨، ١٤٠].

وبهذا المعنى عارض عليٌّ كرّم الله وجهه رأسَ الجالوت لما قال له: لم تلبثوا بعد نبيّكم عليه السلام إلا ثلاثين سنة حتّى ضرب بعضُكم رقابَ بعض بالسّيف. فقال عليٌّ كرّم الله وجهه: أنتم لم تجفَّ أقدامُكم من ماء البحر حتى قلتم لموسى: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة.

ورُوينا عن رسول الله ﷺ: «إذا حدَّثتمُ النّاس عن ربّهم فلا تحدِّثُوهم بما يُفزِّعُهم ويُنفِّرهم». وقال في حديث آخر: «بشِّروا ولا تنفِّروا، ويسِّروا ولا تعسِّروا». ولمّا وَعَظَهم النبي ﷺ فقال: «لو تعلمون ما أعلمُ لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا، ولخرجتم [إلى الصُّعدَاتِ تَلْدمُون صُدوركم، وتجأرون إلى ربكم][(١)]. فهبط جبريل عليه السلام فقال: إن الله تعالى يقول: لِمَ تُقنِّط عبادي؟ فخرج إليهم رسول الله ﷺ فرجَّاهم وشوَّقهم».

ولما تلا الرسول ﷺ هذه الآية: ﴿يا أيُّها النَّاسُ اتَّقُوا ربَّكُمْ إنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيءٌ عَظيمٌ﴾ [الحج:١] قال: «أتدرون أيَّ يوم هذا؟ يومٌ يقال لآدم عليه السلام: قم فابعَثْ نصيب النار من ذريتك. فقال: كم؟ قيل: من كلِّ ألفٍ تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة. قال: [فأُبْلس القومُ، وجعلوا][(٢)] يبكون يومهم ذلك، وتركوا الأشغال والعمل. فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: ما

(١) ساقطة من (ط). تلدمون صدوركم: اللَّدْم: الضربُ بشيء ثقيل يُسمع وقعُه.
(٢) ساقطة من (ط). أُبلس القوم: أخذهم الذهول والدّهشة.

بالُكم؟ أنتم فى الأُمم مثل شعرة بيضاء فى جلد ثور أسود». والخبر المشهور: «لو لم تُذنبوا لخلقَ اللهُ تعالى خلقًا يُذنبون ليغفر لهم». وفى لفظ آخر: «لذهب بكم، وجاء بقوم يذنبون فيغفر لهم»، إنّه هو الغفور الرحيم؛ أى: أن وصفه سبحانه وتعالى المغفرةُ والرحمةُ، فلا بدّ أن يخلق مقتضى وصفه حتى يحقَّ وصفُهُ عليه هذا. كما تقول فى علم المعرفة: إن له سبحانه وتعالى من كلّ اسمٍ وصفًا، ومن كل وصفٍ فعلاً. وفى هذا سرّ المعرفة، ومنه معرفة الخصوص.

وحُكى لنا معناه عن إبراهيم بن أدهم رضى الله عنه، قال: خلا لى الطواف ذاتَ ليلة، وكانت ليلة مطيرة مظلمة، فوقفت فى الملتزَمِ عند الباب، فقلت: يا ربِّ اعصمنى حتّى لا أعصيك أبدًا. فهتف بى هاتف من البيت: يا إبراهيمُ أنت تسألنى العصمة، وكلُّ عبادى المؤمنين يطلبون ذلك، فإذا عصمتُهم فعلى مَنْ أتفضَّلُ، ولمن أغفر؟

وكان الحسن البصرى رضى الله عنه يقول: لو لم يذنب المؤمنُ لكان يطير طيرًا، ولكنَّ اللهَ تعالى قمعَه بالذنوب.

وفى الخبر مثله: «لو لم تُذْنبوا لخَشِيتُ عليكم ما هو شرٌّ من الذنُّوب. قيل: وما هو؟ قال: العُجْب».

ولعمرى إن العُجْبَ من صفات النفس المتكبرة، وهو يحبط الأعمال، وهو من كبائر أعمال القلوب، والذنوبُ من أخلاق النفس الشهوانية.

ولأن يُبتلَى العبدُ الشهوانىُّ بعشر شهوات من شهوات النفس خيرٌ له من أن يُبتلى بصفةٍ من صفات النفس مثل: الكِبْر، والعُجْب، والبَغى، والحسد، وحبّ المدح، وطلب الذكر؛ لأنّ هذه منها: معانى صفات الربوبية، ومنها: أخلاق الأبالِسَة، وبها هَلَك إبليسُ. وشهواتُ النّفْس من وصْفِ الخِلْقة، وبها عصى آدم ربَّه فاجتباه بعدها وتابَ عليه وهدى.

وقد قال بشر بن الحارث: سكونُ النفسِ إلى المدح أضرُّ عليها من المعاصى.

ورأى يوسف بنُ الحسينِ مخنَّثًا فأعرض عنه إزراءً عليه، فالتفت إليه المخنَّثُ

وقال: وأنت أيضًا يكفيك ما بك. ففزع من قوله، فقال: وأى شىء تعلم بى؟ قال: لأنّ عندَكَ أنّك خيرٌ منى. فاعترفَ يوسف بقوله، فتاب واستغفر.

وكان بعض الرّاجين من العارفين إذا تلا هذه الآية؛ آيةَ الدَّيْن التى فى سورة البقرة، يُسَرُّ بذلك ويستبشر لها ويعظُم رجاؤه عندَها. فقيل له: إنّها ليس فيها رجاء، ولا ما يوجب الاستبشار. فقال: بلى! فيها رجاءٌ عظيم. قيل: وكيف ذلك؟ فقال: إنّ الدنيا كلّها قليل، ورزق الإنسان فيها قليل من قليل، وهذا الدَّين من رزقه قليلٌ مِن قَلِيلٍ من قليلٍ[1]. ثم إن الله تبارك وتعالى احتاط لى فى ذلك ودقَّق النظر لى؛ بأن وكَّد دَيْنى بالشُّهود والكتاب، وأنزل فيه أطولَ آيةٍ فى كتابه، ولو فاتنى ذلك لم أبال به، فكيف يكون فعلُه بى فى الآخرة التى لا عِوَض لى من نفسى فيها؟!

وكذلك كان بعض الرّاجين يفهم من قوله تعالى إذا تلا: ﴿**وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ**﴾ [الزمر:٤٧] يرجو من ذلك بوادِى الجودِ والكرمِ والإحسان مما لم يَحْتَسِبْهُ فى الدنيا قطّ. وقد كان الجُنيد رحمه الله يقول: إن بدت عينٌ من الكَرَمِ ألحقتِ المسيئين بالمحسنين.

وعلى ذلك جاء فى الخبر: «ليغفرنّ اللهُ تعالى يومَ القيامةِ مغفرةً ما خطَرت قطّ على قلب أحد، حتى أنّ إبليس ليتطاولَ رجاء أن تصيبَهُ». وفى الخبر: «إن لله تعالى تسعًا وتسعين رحمةً، أظهر منها فى الدنيا رحمةً واحدةً، بها يتراحَمُ الخلائقُ، فتحنُّ الوالدةُ إلى ولدها، وتعطفُ البهيمةُ على ولدها. فإذا كان يومُ القيامة ضمّ هذه الرحمة إلى تلك التسع والتسعين، ثم بسطها على جميع خلقه. وكلُّ رحمةٍ منها طباقُ السموات والأرضين. قال: فلا يهلك على الله تعالى إلا هالك». وقد قال بعض العلماء: إنّ الله تعالى إذا غفر لعبد فى موقف القيامة ذنبًا غفر ذلك الذّنب لكلٍّ من عَملِه.

وقال النبى ﷺ: «اعملوا وأبْشِرُوا، واعلموا أنّ أحدًا لن يُنجيه عمله». وفى

---

(١) قوله «من قليل من قليل»: زيادة من (خ).

الحديث الآخر: «ما منكم من أحد يدخله عملُه الجنةَ، ولا يُنجيه من النّار. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمَّدنى اللهُ تعالى برحمةٍ وفضل». وروى عنه ﷺ: «إنى اختبأت شفاعتى لأهلِ الكبائر من أمتى». وفى لفظ آخر: «أترونها للمصفَّين المتّقين؟ بل هى للمخطئين المتلوّثين». وقال ﷺ لمعاذ وأبى موسى رضى الله عنهما، وقد بعثهما واليين على اليمن، فأوصاهما فيما أمرهما به، فقال: «يسِّرا ولا تعسِّرا، وبشِّرا ولا تنفِّرا».

فعلْم المؤمنين بكرَمِ الله تعالى، وخفىٍّ لطفه، ولطيفِ منّه، لا يقعُدُهم عن تأميلِه، ولا يَقْصُر بهم عن رجائه، ولا حُسْن ظنِّهم به، ولا يُقَوِّى عليهم الخوفَ فيُخرجهم إلى الإياس من رحمته، لأجل علمهم بجبريّته وكبريائه من قِبَل أنَّ المهيوبَ هو المحبوبُ، فمحبتُهُ تؤنسُهُم وترجِّيهم، وهيبتُهُ تُزْعِجُهم وتُخيفُهم. فخوفُهم بالمهابة فى لذَاذَةٍ، ونعيمُهم بالحبّ فى مهابةٍ. فهم فى مقامِ الخوفِ والمحبّةِ معتدلون، وبقوّة الله والعلمِ بها متمكِّنون، وفى مشاهدة المخُوف والمحبوب مستقيمون.

وهذا المقامُ هو وصف العارفين من الموقنين؛ وهم أهلُ كمالِ الإيمان، وصفوةُ خصوصِ ذوى الإيقان. إذ قد عرفوا أنَّ الله تبارك وتَعالى كاملٌ فى صفاته، لا يعتريه نقصان فى وصف دون وصف، وإنّما الرحمة بِسَعة العلم، كما العلم بِسعة القدرة، لما شهدوا من وصفه بما سمعوا من كلامه أنّه كان عليمًا قديرًا، كما قال تعالى: ﴿ربنَّا وَسِعْتَ كُلَّ شَىء رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر:٧]. وكذلك فهموا من قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىء﴾، فدخلت جهنم وغيرها فى توسعة الرحمة من حيث كُنَّ شيئًا، وقوله عزّ وجلّ: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف:١٥٦] معناه: خصوص الرحمة وَصَفْوَها[١] لا كُنهَها، إذ لا نهايةَ للرّحمة؛ لأنّها صفة الراحم الذى لا حدّ له، ولأنّه لم يَخرُج من رحمته شىءٌ، كما لم يَخْرُج من حكمتِه وقدرته شىءٌ؛ لأنّ جهنم والنّارَ الكبرى وغيرَهما لَسْنَ[٢] كُنْه عذابِه، ولا

(١) فى (ط): «وصفها».

(٢) فى (ط): «ليس».

كليّةَ تعذيبه. فمن ظنَّ ذلك به لم يعرفْهُ، ولأنّه إنّما[١] أظهر من عذابه مقدار طاقة الخلق، كما أنه أظهر من ملكه ونعمه مقدار مصالح الخلق، ولا يصلح للخلق ولا يطيقون إظهاره أكثر ممّا أظهر من النعيم والعذاب، بل لا ينبغى لهم أن يعرفوا فوق ما أبدى؛ لأن نهايةَ تعذيبه وتنعيمه من نهاية ملكه الذى هو قائم به، وملكُهُ عن غاية قدرته وسلطانه ولا نهاية لذلك، ولا يُطيقُ الخَلْقُ كلُّه إظهارَ ذلك. وذلك أيضًا عن تعالى صفاته، وبهاء أسمائه المتناهيات، ولا سبيل إلى كَشْفِ ذلك من الغيوب. فسبحان من لا نهايةَ لقدرته، ولا حدَّ لعظمته، ولا أمدَ لسلطانه.

وكذلك شَهِدُوا ما سمعُوا من قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء:٤٤]. وقال: ﴿وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥١]. فعلموا أنّ المغفرة على سعة الحلم، كما أنّ الحلمَ بسعة العلم. فلما رأوا عظيمَ حلمِه رجوا عظيم مغفرتِه، ولما شهدوا كثيف سترِه أمَّلوا جميلَ عفوه. وكذلك يقال: إنّ حَمَلَةَ العرش يتجاوبون بأصواتٍ: سبحانكَ على حلمِكَ بعد علمك. سبحانك على عَفْوِك بعد قُدْرَتِك.

فللرّاجين من العارفين فُهومٌ من السمع للكلام نحو علوٍّ نظرهم عن سموٍّ علومِهِم بمعانى الصفات.

فكلُّ صاحبِ مقام يشهدُ من مقامه، ويسمعُ من حيثُ شهادَتُه، فأعلاهم شهادَةً الصّدِّيقون، ثم الشّهداء، ثم الصالحون، ثم خصوصُ المؤمنين. فبه تبارك وتعالى استدلّوا عليه، ومنه نظروا إليه. هم دَرَجاتٌ عندَ الله، والله بَصِيرٌ بِمَا يَعملون. وكان سهلٌ رضى الله عنه يقول: المحْسِنُ يعيشُ فى سَعَةِ الرّحمة، والمسىءُ يعيش فى سعة الحلم.

فصفاتُهُ تبارك وتعالى كاملات، فمن شهد ترجيحَ بعضها على بعض دخلَ عليه النقصُ من مشاهدتِه، لقصورِ علمِه عن تمام علم مَن فَوْقه من الشهداء، ولأجلِ مقامِه المرادِ به دونَ طريق الصّدّيقين من الأقوياء. فعاد ذلك على العبد فصار ذلك

(١) فى (ط): «لما».

مَقامًا له فى القرب والبعد، تعالى وصفُ المشهودِ عن النُّقصان والحدّ.

وَمَثَلُ الرَّجاء من الخوف مَثَلُ الرُّخصة فى الدِّين من العزائم. وقد قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله يحبّ أن يُؤخَذ برخصه كما يحبّ أن يُؤخَذ بعزائمه». وفى لفظ آخر أبلغ من هذا وأوكد: «إنّ الله يحب أن تُقبل رُخَصُهُ كما يكره أن تُؤتَى معاصيه».

ورُوى عن النبى ﷺ: «إنّ هذا الدين متين فأوغل فيه برفق». ولا تبغِّض إلى نفسك عبادةَ الله تعالى، وخيرُ الدِّين أيسرُه. وقال: «هلك المتعمّقون، هَلَك المتنطّعون». وقال عليه الصلاة والسلام: «بُعِثْت بالحنيفية السّهْلة السّمْحة». وقال ﷺ: «أُحِبُّ أن يعلمَ أهلُ الكتاب أَنَّ فى ديننا سماحة». وقال الله عزّ وجلّ، ومَنْ أحسنُ من اللهِ قيلاً: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتى كَانَتْ عَلَيْهِم﴾ [الأعراف:١٥٧]. واستجاب للمؤمنين فى قولهم: ﴿ربَّنا ولا تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْرًا كَما حَمَلْتَه عَلَى الَّذين مِنْ قَبْلنا﴾ [البقرة:٢٨٦]، فقال عزّ وجلّ: قد فعلت.

فهذه العلومُ هى أسبابُ قوّةِ الرَّجاءِ فى أولى الألباب. كيف وقد جاء ما يغلب حُكمَ الرجاءِ من غيرِ اغترارٍ، ما رُوى عن الله تعالى: «أنا إلى الرحمة والعفوِ أقربُ منِّى إلى العقوبةِ». وفى الخبر: «إذا حدَّثتمُ النّاس عن ربّهم فلا تحدِّثُوهم بما يُفزِّعُهُم ويشُقُّ عليهم». وفى كلام لعلى رضى الله عنه: إنّما العالِم الذى لا يُقَنِّطُ النّاسَ من رحمة الله تعالى، ولا يُؤمِّنُهُم مكرَ الله تعالى.

وروى فى أخبار داود عليه السلام أن الله سبحانه وتعالى [نظر إليه مُنتَبذًا وحْدانيًا فقال:][1] ما لك وَحْدانيًا؟ قال: عاديتُ الخلقَ فيك. قال: أما عَلِمْتَ أن محبتى أن تَعْطِف على عِبادى، وتأخذ عليهم بالفضل، هنالك أكتُبُكَ من أوليائى وأحبّائى، ولا تنظر إلى عبيدى نظرةَ جفاءٍ ولا قسوةٍ، فإذا أنتَ قَدْ أَبْطلتَ أجرَك. فاحفظ عنى ثلاثًا: خالِصْ حبيبى مخالصَةً، وخالِقْ أهلَ الدنيا مُخالقَةً، ودينك فقلِّدنيه.

(١) ساقطة من (ط).

وأَوْحى الله تعالى إلى داود وغيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام: أحبَّنى، وأحبَّ من يحبُّنى، وحبِّبنى إلى خلقى. قال: يا ربّ، هذا أحبُّك وأحبُّ من يحبّك، فكيف أحببك إلى خلقك؟ فقال عزّ وجلّ: اذكرنى بالحسن الجميل واذكر آلائى وإحسانى، وذكِّرهم ذلك، فإنّهم لا يعرفون منى إلا الجميل.

وروى عن يزيد الرّقاشى عن أنسٍ أنَّ النبى ﷺ قال: «ألاَ أُخبرُكُم عن أقوامٍ ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياءُ والشهداءُ بمنازِلهم من الله تعالى، على منابرَ من نور يُعرفون عليها؟ قالوا: مَنْ هم؟ قال: الذين يحبِّبون عبادَ الله إلى الله تعالى، ويحبِّبون الله عزّ وجلّ إلى عباده، ويمشون فى الأرض نصحاء. فقلنا: هذا حبَّبوا اللهَ إلى عباده، فكيف يحبِّبون عبادَ الله إلى الله؟ قال: يأمرونهم بما يحب الله، وينهونهم عما حرّم الله، فإذا أطاعوهم أحبَّهم الله».

ورُؤى أبان بن عياش فى النوم بعد موته، وكان من أكثر الناس حديثًا بالرخص وأبواب الرجاء، فقال: أوقفنى ربى عزّ وجلّ بين يديه فقال: ما حملك على أن حدَّثتَ عنّى بما حدَّثتَ به من الرُّخص؟ قال: فقلت: يا ربِّ، أردتُ أن أحبِّبك إلى خلقك. قال: قد غفرتُ لك.

وحُدِّثت عن مالك بن دينار أنّه لقى أبانًا فقال: إلى كم تحدِّث الناسَ بالرخص؟ فقال: يا أبا يحيى، إنّى لأرجو أن ترى من عفوِ الله تعالى يوم القيامة ما تخرِّق له كِساءك هذا من الفرَح.

وفى حديث رِبعىٍّ بنِ خِراش عن أخيه، وكان من خيار التابعين، وهو ممّن تكلم بعد الموت، قال: لما مات أخى سُجِّىَ بثوبه وألقيناه على نَعْشه، فكشَفَ الثوبَ عن وجهه، واستوى قاعدًا، وقال: إنّى لقيتُ ربى عزّ وجلّ فحيَّانى برَوْح ورَيحان وربٍّ غيرِ غضبان، وإنى رأيتُ الأمرَ أيسرَ مما تظنُّون ولا تغتروا، فإنّ محمدًا ﷺ ينتظرنى وأصحابُه حتى أرجع إليهم. قال: ثم طرح نفسه، فكأنّها كانت حصاةً وقعَتْ فى طِستٍ، فحملناه فدفناه.

وقال بكر بن سليمان: دخلنا على مالك رحمه الله تعالى فى العَشيَّة التى قُبض فيها، فقلنا: كيف تجدك؟ قال: ما أدرى ما أقول لكم إلا أنكم ستعاينون غدًا من

عفوِ الله تعالى ما لم يكن لكم فى حساب. قال: فما بَرِحنا حتى أغمَضْناهُ ودفناه.

ورُؤى يحيى بن أكثم فى النوم فقيل: ما فعل الله تعالى بك؟ فقال: أوقفنى بين يديه، وقال: يا شيخ السَّوءِ فعلتَ وفعلتَ، قال: فأخذنى من الرّعب والفزع ما يعلم الله تعالى، ثم قلتُ: يا ربِّ ما هكذا حُدِّثْتُ عنك. فقال: وما حُدِّثْتَ عنى؟ فقلت: حدّثنا عبد الرَّزّاق عن مَعْمَر عن الزُّهرى عن أنسٍ بن مالك عن نبيّك ﷺ عنك أنّك قُلتَ، تباركتَ وتعاليتَ: «أنا عند ظنِّ عبدى بى فليظنَّ بى ما شاء»، وقد كنتُ أظنّ بك أن لا تعذّبنى. فقال عزّ وجلّ: صدقَ نَبِيِّ، وصدق أنس، وصدق الزُّهرى، وصدق مَعمر، وصدق عبد الرّزّاق، وصَدَقْتَ. قال: فغُلِفتُ وخُلِعَ علىّ، وأُلبِسْتُ، ومشَى بين يَدىَّ الوِلدانُ إلى الجنّةِ. فقلت: يا لها مِن فَرْحة.

وفى الخبر: «أنَّ رجلاً من بنى إسرائيل كان يشدّد على النّاس ويُقنِّطهم من رحمة الله تعالى، فيقول الله تعالى له يوم القيامة: اليومَ أؤيسك من رحمتى كما كنتَ تُقنِّط عبادى منها».

وفى الحديث: «أنَّ رجلين تواخيا فى الله تعالى من بنى إسرائيل، فكان أحدُهما عابدًا، والآخرُ مسرفًا على نفسه، فكان هذا العابد ينهاهُ ويزجُره، فيقول له: دعنى وربى، أَبُعِثْتَ علىَّ رقيبًا؟ حتّى رآه ذاتَ يومٍ على كبيرةٍ، فغضب، فقال: لا يغفرُ اللهُ لك. قال: فيقول الله تعالى له يوم القيامة: أتستطيع أن تحظُر رحمتِى على عبادى؟ اذهب فقد غفرتُ لك، ثم قال للعابد: وأنتَ فقد أوجبتُ لك النار. قال: فوالذى نفسى بيده لقد تكلّم بكلمةٍ أهلكَتْ دنياهُ وآخرته».

وروينا فى معناه: أن لِصًا كان يقطع الطريق أربعين سنة فى بنى إسرائيل، فمرّ عليه عيسى عليه السلام وخَلْفَهُ عابدٌ من عُبَّاد بنى إسرائيل من الحواريين، فقال اللصّ فى نفسه: هذا نبىُّ الله يمرّ وإلى جنبه حَوارِيّه، لو نزلتُ فكنت معهما ثالثًا. قال: فنزل، فجعل يريد أن يدنو من الحوارى ويزدرى نفسه تعظيمًا للحوارى، ويقول فى نفسه: مِثلى لا يمشى إلى جنب هذا العابد. قال: وأحسّ به الحوارىُّ، فقال فى نفسه: هذا يمشى إلى جانبى. قال: فضمَّ نفسه، وتقدّم إلى

عيسى عليه السلام فمشى إلى جانبه، فبقى اللصّ خَلْفه. قال: فأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام: قل لهما يستأنفان العمل، فقد أحبطت ما سلف من أعمالهما. أمّا الحَوارىُّ فقد أحبطتُ حسناته لعُجْبه بنفسه. وأما الآخرُ فقد أحبطت سيئاته بما ازدرى على نفسِه. قال: فأخبرهُما بذلك، وضمَّ اللصَّ إليه فى سياحتِه، وجعله من حَوارِيِّيه.

ورُوينا عن مسروق بن الأجدع: أن نبيًا من الأنبياء كان ساجدًا، فوطئ بعضُ العُتاة على عنقه حتى أَلْزقَ الحصى بجبهته، قال: فرفع النبىّ عليه السلام رأسَه مُغضبًا فقال: اذهب فلن يغفرَ اللهُ لك. قال: فأوحى الله تعالى إليه: تتألَّى علىَّ فى عبادى، فإنِّى قد غفرتُ له.

وقال ابن عباس رضى الله عنهما: كان رسول الله ﷺ يقنتُ يدعو على المشركين ويلعنهم فى صلاته، فنزلت: ﴿**لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِن الَّذينَ كَفَرُوا أو يَكْبِتَهُم**﴾ إلى قوله: ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَىءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ**﴾ [آل عمران: ١٢٧ - ١٢٨]. قال: فترك الدعاء عليهم. قال: فهدى الله تعالى عامة أولئك إلى الإسلام.

والأخبارُ فيما يوجب الرّجاءَ وحسنَ الظنّ أكثرُ من أن تُجمع، ولم نقصد جمعها، وإنّما دلَّلنا بقليلٍ على كثيرٍ، ونبَّهنا عقولَ ذوى التبصير. وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيم * الَّذى خَلَقَكَ فَسوَّاكَ فَعَدَلَكَ**﴾ [الانفطار: ٦ـ ٧]، [فنبَّهَ العبدَ مع اغترارِه على][1] كرمه، وذكَّره مع جهله حسنَ تسويتِه إيّاه وتعديلَه يدلُّ على نِعْمَتِه.

ورُوينا عن الضّحّاك: «إن العبد ليدنو من ربّه تبارك وتعالى عند العرض، فيقول: عبدى، أتُحصى عملَك؟ فيقول: إلهى كيف أُحصيه من دونك وأنت الحافظُ للأشياء؟ فيذكِّره اللهُ تعالى جميعَ ذنوبه فى الدّنيا فى ساعاتها. فيقول: أنت عبدى مقرٌّ بما عرَّفتُك وذكَّرتك؟ فيقول: نعم سيدى. فيقول الله سبحانه: أنا الذى سترتُها عليك فى الدنيا، فلم أجعل للذنوب رائحةً تُوجَد منك، ولم أجعل

(١) ما بين المعكفتين ساقط من (ط).

فى وجهك شَيْنَها، وأنا أغفرها لك اليوم على ما كان منك بإيمانك بى وتصديقك المرسلين».

وروينا عن محمد بن الحنفية عن أبيه علىٍّ كرّم الله وجهه قال: لما نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ: ﴿فاصْفَحِ الصَّفْحَ الجَميلَ﴾ [الحجر:٨٥] قال: «يا جبريل، وما الصّفحُ الجميل؟ قال: يا محمّد، إذا عفوتَ عمّن ظلمَك فلا تعاتبه. ثم قال رسول الله ﷺ: يا جبريلُ، فالله مع كرمه تعالى أوْلى أن لا يعاتب من عفا عنه. قال: فبكى جبريل وبكى النبىّ ﷺ. فبعث الله عزّ وجلّ إليهما ميكائيل فقال: إنّ ربّكما يقرئكما السلام، ويقول لكما: كيف أعاتبُ من عفوتُ عنه، هذا ما لا يُشبه كرمى».

ومن الرجاء: شدّةُ الشّوق إلى ما شوَّق إليه الكريم، وسرعةُ التنافس فى كلِّ نفَس ندب إليه الرّحيم.

فأما الرّجاء الذى يَتَوهَّمَهُ جهَلةُ النّاسِ من الإقامة فى المعاصى، والانهماك فى الخطايا، وهو يرجو المغفرة وينتظر الكرامة، فليس هذا برجاء عند العلماء؛ لأنّ الرجاءَ مقامٌ من اليقين، وليس هذا وصفُ الموقنين. لكنّ هذا اسمه اغترارٌ بالله تعالى، وغفلة عن الله تعالى، وجهلٌ بأحكام الله تعالى. وقد تهدّد الله تعالى قومًا ظنّوا مثل هذا، وأصرّوا على حبّ الدنيا والرضا بها، وتمنّوا المغفرة على ذلك، فسماهم خَلْفًا، والخَلْف: الرديءُ من النّاس، وتوعَّدهم بشديدِ البأس فى قوله عزّ وجلّ: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف:١٦٩].

والأخبارُ فى حقيقة الرجاء تزيد المغترّين اغترارًا، وتزيد المستدرَجين بالستر والنعيم خسارًا. وهى مزيدٌ للتّوابين الصادقين، وقُرّة عينٍ للمحبّين المخلصين، وسرورٌ لأهلِ الكرَمِ والحياء، ورَوْحٌ وارتياحٌ لذوى العصمة والوفاء، يَنْصَعُ به كَرَمُهم، ويشتد[١] عنده حياؤهم، ويُروَّح به كروبُهُم، وترتاح إليه عقولُهم، فهؤلاء

(١) فى (ط): «ينتفع به ويشتد» وأثبت ما فى (خ) و(ك).

يُستخرج منهم الرجاءُ وحسنُ الظنّ من العبادات ما لا يستخرجه[١] الخوف، إذ المخاوفُ تقطع عن أكثر المعاملات، فصار الرجاءُ طريقًا لأهله وصاروا واجدِينَ به[٢].

كما قال عمر رضى الله عنه: رَحِمَ اللهُ صُهيبًا، لو لم يخف الله تعالى لم يعصه. أى يترك المعاصى للرجاء لا للخوف، فصار الرجاءُ طريقه. فهؤلاء هم الرّاجون حقًا، وهذه علامتهم. ولمثل هذا ذكرنا الأسبابَ التى تُوجب الرّجاءَ، وتُولِّد حُسْنَ الظنّ فى قلوبِ أهل الصفاء، المعْصُومِينَ من الهَوى، الموفَّقِينَ لحُسْنِ خِدْمةِ المولى[٣].

ومن الرّجاء: تحسينُ الأخلاق مع الخَلْق، وجميلُ الصّبر عليهم، وحسنُ الصفح، ولطيفُ المداراة لهم، تقربًا إلى الله عزّ وجلّ بذلك، وتخلُّقًا بأخلاقه، رجاءَ ثوابِه وطمعًا فى تنجيز وعده، واتباعًا لسنّة رسوله ﷺ.

ومن الرّجاء : تركُ الأهواء الرديئة، والشهوات المطغية، ويحتسب فى ذلك على الله نفيسَ الذّخائر العالية. فقد روينا عن حَميدٍ عن أنسٍ قال: مُقابلُ عرشِ الرحمن غرفةٌ يُرسَل إليها جبريل عليه السلام، فإذا انتهى إليها خرّ لله ساجدًا، ثم يقول: يا ربّ لمن خلقت هذه، لأىّ نبىّ، لأىّ صدِّيق، لأىّ شهيد؟ قال: فيرد عليه عزّ وجلّ: لمن آثر هوايَ على هواه.

ومن الرجاء: افتعالُ الطّاعات وحسنُ الموافقات، يَنوى بها ويَسأل مولاه الكريم عظيمَ الرّغائب وجليلَ المواهبِ لما وَهَب له من حُسْن الظّنّ به. كما روى عن النبى ﷺ: «إذا سألتم الله تعالى فأعظموا الرّغبةَ وسلوه الفِرْدوس الأعلى، فإن الله عزّ وجلّ لا يتعاظمُهُ شىءٌ». وفى حديث آخر: «فأكثِروا، وسلوا الدَّرجاتِ العُلى، فإنما تسألُونَ جوَادًا كريمًا».

وفى الآثار: «أن رجلين كانا من العابدِين، متساويين فى العبادة، فإذا أُدْخِلا

(١) فى (ط): «ما لا يستروحه».

(٢) فى (ط): «رائجين به».

(٣) قوله «المعصومين . . . المولى»: ساقط من (ط).

الجنةَ رُفع أحدُهما فى الدرجات العُلى على صاحبه. فيقول الآخر: يا ربِّ، ما كان هذا فى الدنيا بأكثر عبادةً لك منى، فرفعتَهُ علىَّ فى علِّيين. فيقول الله سبحانه وتعالى: إنّه كان يسألنى فى الدنيا الدرجاتِ العلى، وكنتَ أنت تسألُنى النّجاةَ من النارِ. فأعطيتُ كلَّ عبدٍ سُؤلَه».

وروينا فى الخبر عن رسول الله ﷺ: «أن رجلاً يخرج من النار، فيُوقَف بين يدى الله تعالى، فيقول له: كيف وجدتَ مكانَك؟ فيقول: يا ربّ شرَّ مكانٍ. فيقول: ردّوه إلى مكانِه. قال: فيمشى ويلتفت إلى ورائه، فيقول الله عزّ وجلّ: إلى أىّ شيءٍ تلتفت؟ فيقول له: يا ربّ، قد رجوتُ أن لا تعيدنى إليها بعد إذ أخرجتنى منها، فيقول تعالى: اذهبُوا به إلى الجنّة». فقد صار الرجاء طريقه إلى الجنة، كما كان الخوف طريق صاحبه فى الدنيا إليها. كما روينا: «إن الآخر سعى مبادرًا إلى النّار، لما قال: ردّوه. فقيل له فى ذلك. فقال: لقد ذقتُ من وبال معصيتك فى الدنيا ما خفت من عذابه فى الآخرة. فقيل: اصرفوه إلى الجنة». أو قال[1]: «خِفتُ أن أعصيَهُ فى الآخرة كما عصيتُه فى الدنيا. فقال: اذهبوا به إلى الجنة».

وقد قال الله سبحانه فى وصف قوم: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ**﴾ [الإسراء:٥٧]. فطرّق لأوليائه إلى القُرب والوسيلة الرجاءَ، كما طرّق الخوفَ منهُ إليها. وهذا أحدُ الوجهينِ فى الآيةِ لمن لم يجعله وصفًا للأصنام، لأنّها قُرئت بالتاء (تَدْعُون)، قرأها طلحةُ بن مُصْرِف. فكذلك ندب المؤمنين إلى طلب القرب منه فى قوله عزّ وجلّ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ**﴾ [المائدة:٣٥].

فهذه جملةُ أحكامِ الرّجاء وأوصاف الرّاجين. فمن تحقّق بجميعها فقد استحقّ درجاتِ أهل الرجاء، وهو عند الله تعالى من المقرَّبين، ومن كان فيه وصف من هذه الأوصاف فله مقامٌ من الرجاء.

(١) من هنا إلى آخر الفقرة من (خ).

واعلم أن مقامات اليقين لا يُزيل بعضُها بعضًا، ولكن يندرج بعضُها فى بعض. فمن غلَب عليه حالٌ منها عَن وَجْدِ مشاهدته وُصِفَ بما غَلَب عليه، واستجَنّ[١] بما سوى ذلك من المقامات فيه. ومن عمل بشرط مقامٍ منها فقام بحكم الله تعالى فيه نُقل إلى ما سواه، وكان المقام الأول له علمًا، والثانى الذى أُقيم فيه له وَجْدًا. فكتم الوجدَ لأنّه سرُّه، وعبَّر عن العلم لأنّه قد جاوزه فصار له علانية.

ومقامُ الرّجاء هو جندٌ من جنود الله عزّ وجلّ، يستخرج من بعض العباد ما لا يستخرج غيره، لأنّ بعض القلوب تلين وتستجيب عن مشاهدة الكرم والإحسان، وتقبل وتطمئن بمعاملة النّعم والإحسان ما لا يُوجَد ذلك منها عند التّخويف والترهيب، بل قد يقطعها ذلك ويوحشُها، إذ قد جعل الرجاءَ طريقَها فوَجدت فيه قلوبها.

ومَثَلُ الرّجاء فى الأحوال مَثَلُ العَوافى والغِنَى فى الإنسان من الناس، من يقبل قلبه ويجتمع همّه عندهُما، ويُوجَدُ نشاطه وتحسن معاملته بِهِما. كما روينا عن الله سبحانه وتعالى: «إنّ مِن عبادى من لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك. ومن عبادى من لا يصلحه إلا الصّحة ولو أسقمتُه لأفسده ذلك. إنى أدبِّر عبادى بعلِمى، إنّى بهم خبير». فكذلك من عباده من لا يصلحه إلا الرجاء، ولا يستقيم قلبه إلا عليه، ولا تحسن معاملته إلا بوُجودِ حُسن الظنّ، فهو طريقه إليه، ومقامه منه، ومنهُ علمه به، وعنده يجد قلبه معه، إلا أنه وإن كان طريقًا يُخرِج إلى الله عزّ وجلّ فإنّ الخوف أقربُ منه، وما كان أقربَ فهو أعلى، كالغِنى والعوافى طريقان إلى الله تعالى إلا أن الفقرَ والبلاءَ عندى أقربُ منهما وأعلى. واللهُ غالب على أمره. وقد رُوينا عن معمر عن الحسن أنّه قال: إنّما عَمِل الناسُ على قَدْر ظُنونهم بربهم، فأما المؤمنُ فأحسن بالله الظنّ وأحسن العمل، وأما الكافرُ والمنافق فأساء بالله الظنّ، ولكنَّ أكثرَ النّاسِ لا يَعْلَمُونَ.

* * *

(١) استجنَّ: أى أخفى.

شرح مقام الخوف، ووصف الخائفين
وهو المقام الخامس من مقامات اليقين

قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ العَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]. فرفع العلم على العقل، وجعله مقامًا فيه. وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ﴾ [فاطر:٢٨]، فجعل الخشيةَ مقامًا فى العلم حقّقه بها، والخشيةُ حال من مقام الخوف، والخوف اسم لحقيقة التقوى، والتقوى معنى جامع للعبادة، وهى وصيةُ[١] الله تعالى للأوّلين والآخرين.

يَنْظِم هذين المعنيين قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:٢١]. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ﴾ [النساء:١٣١]. وهذه الآية قطبُ القرآن: مدارُه عليها.

والتقوى سبب أضافه الله تعالى إليه تشريفًا له، ومعنًى وصله به، وأكرمَ عبادَه عليه تعظيمًا له، فقال [فى هذَيْن المعنيين][٢]: ﴿لَن يَنالَ اللهَ لُحومُها وَلا دماؤُها وَلكِن يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُم﴾ [الحج:٣٧]، وقال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣].

وفى الخبر: «إذا جمع الله الأوّلين والآخرين لميقات يوم معلومٍ ناداهم بصوتٍ يُسمع أقصاهم كما يُسمع أدناهم، يقول: يا أيّها الناسُ، إنّى قد أنصَتُّ لكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا، فأنصتُوا إلىَّ اليومَ، فإنّما هى أعمالُكُم تُرَدّ عليكم. أيّها الناس، إنّى جعلتُ نسبًا وجعلتُم نسبًا، فوضعتم نسبى ورفعتم نسبكم؛ قلت: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ وأبيتُم إلا فلان ابن [فُلان][٣]، وفلان أغنى من

(١) فى (ط): «وهى رحمة».
(٢) زيادة من (خ).
(٣) زيادة من (خ).

فلان. فاليوم أضعُ نسبكُم وأرفعُ نَسَبي. أين المتّقون؟ قال: فيُنصب للقوم لواءٌ، فيتبع القومُ لواءَهم إلى منازِلِهم، فيُدْخِلُهم الجنةَ بغير حساب».

والخوفُ حالٌ مَن مَقامُهُ العلم. وقَد جمع الله تعالى للخائفين ما فرَّقه على المؤمنين وهو: الهدى، والرحمة، والعلم، والرضوان، وهذه جملُ مقاماتِ أهلِ الجِنان، فقال تعالى: **﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾** [الأعراف: ١٥٤]، وقال: **﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾** [فاطر: ٢٨]، وقال جلّ ذكره: **﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾** [البينة: ٨].

وفي خبر موسى عليه السلام: «وأمّا الخائفون فلهم الرفيقُ الأعلى، لا يُشاركون فيه». فأفردَهم من غيرِ مشاركةٍ بالرفيق الأعلى، كما حقّقهم اليوم بشهادةَ التصديق؛ وهذا مقامٌ من النبوّة، فهُم مع الأنبياء في المزيّة من قِبَلِ أنّهم ورثةُ الأنبياء؛ لأنّهم هُمُ العلماء، قال تعالى: **﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ﴾**، ثم قال تعالى في وصف منازلهم: **﴿وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾** [النساء: ٦٩]، بمعنى رفقًا، عبَّر عن جماعتهم بالواحد لأنهم كانوا كأنّهم واحد، وقد يكون «رَفِيقًا» مقامًا في الجنّة من علوِّ عليين، لقول الرسول ﷺ عند الموت، وقد خُيِّر بين البقاء في الدنيا وبين القُدوم على الله تعالى فقال: «أسألك الرفيقَ الأعلى». وفي خبر موسى عليه السلام: «فأولئك لهم الرفيقُ الأعلى». فدلّ أنهم مع الأنبياء بتفسير النبي ﷺ لذلك. وشُرِّف مقامُهُم فوق كلِّ مقام لطلبِ رسول الله ﷺ ذلك.

فالخوفُ اسمٌ جامع لحقيقة الإيمان، وهو عِلْمٌ لوجودِ الإيقان، وهو سبب اجتنابِ كلّ نهي، ومفتاحُ كلِّ أمرٍ، وليس شيءٌ يحرق شهوات النفوس ويزيل آثارَ آفاتها إلا مقامُ الخوف. وقال أبو محمد سهل رحمه الله تعالى: كمالُ الإيمانِ بالعلم، وكمالُ العلمِ بالخوف. وقال مرة: العِلمُ كسْبُ الإيمان، والخوفُ كسب المعرفة. وقال أبو الفَيض المِصْريّ: لا يُسقَى المحبُّ كأسَ المحبةِ إلا من بعد أن يُنْضِجَ الخَوفُ قلبَه. وقال: خوفُ النارِ عند خوفِ الفراق بمنزلة قطرةٍ قُطِرَت في

بحرٍ لُجِّىٍّ.

فكلٌّ مؤمن بالله تعالى خائف منه، ولكن خوفه على قدرِ قُربه. فخوفُ الإسلامِ اعتقادُ العزة والجبرية لله تعالى، وتسليم القدرةِ والسّطوة له، والتصديقُ لما أخبر به من عذابه، وما تهدّد به من عقابه. وقال الفُضيل بن عِياض: إذا قيل لك: تخاف اللهَ، فاسكت؛ لأنّك إن قُلتَ: لا، كفرتَ، وإن قلتَ: نعم، فليس وصفُكَ وصفَ من يخاف. وشكا واعظٌ إلى بعض الحكماء فقال: ألا تَرى إلى هؤلاء أعظهُم وأذكِّرهم فلا يرقُّون؟ فقال: وكيف ينتفعُ بالموعظةِ من لم يكن فى قلبه لله تعالى مخافة. وقد قال الله تعالى فى تصديق ذلك: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى * وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى﴾ [الأعلى: ١٠ ـ ١١]، أى: يتجنب التذكرة الشقىُّ. فجعل مَنْ عَدِم الخوفَ شقيًا وحَرَمه التّذكرةَ.

فخوفُ عموم المؤمنين بظاهر القلب عن ظاهر العلم بالعَقد. وخوفُ خُصوصِهم، وهم الموقنون، بباطن القلب عن باطن العلمِ بالوَجْد. فأما خوفُ اليقين فهو للصديقين من شهداء العارفين عن مشاهدة ما أُمِرَ به من الصفات المخوفة. وقد جاء فى خبر: «إذا دخلَ العبدُ فى قبره لم يبق شىء كان يخافه دون اللهِ عزّ وجلّ إلا مُثِّل له يُفزعه ويُرعبه إلى يوم القيامة».

فأولُ خوفِ اليقين الموصوف الذى هو نعت الموصوفين من المؤمنين المحاسبةُ للنَّفْس فى كلِّ وقت، والمراقبةُ للربّ فى كلِّ حينٍ، والورعُ عن الإقدامِ على الشبهات من كلّ شىءٍ من العلوم بغير يقينٍ بها، ومن الأعمالِ بغير فقه فيها. وفى خبر موسى عليه السلام: وأمّا الورعونَ فإنّه لا يبقى أحدٌ إلا ناقشته بالحساب، وفتشته عمّا فى يديه، إلا الورعين فإنى أستحيِيهم وأجلُّهم أن أُوقفهم للحساب.

فالورعُ حالٌ من الخوف، ثم كفُّ الجوارح عن الشبهات وفضولِ الحلال من كلّ شىء؛ بخشوع قلب، ووجود إخبات. وقال علىٌّ كرّم الله وجهه: من اشتاق إلى الجنة سلا عن الشّهوات، ومن أشفق من النار رجع عن المحرَّمات.

ثم سَجْنُ اللسان، وخَزْنُ الكلامِ أن لا يُدخِلَ فى دين الله عزّ وجلّ ولا فى

العلم ما لم يَشْرَعْه الله تعالى فى كتابه، أو لم يذكرْه رسوله ﷺ فى سننه، أو لم ينطق به الأئمة من السلف فى سِيَرِهم ممّا لم يكن أصلُه موجودًا فى الكتاب والسنة، وتسميتُه واضحة فى العلم، فيجتنب ذلك كله ولا يَقْفُ ما ليس له به علم خوفًا من المساءلة عنه، ولا يُدخِلُ فيه لدقيقِ هوًى يَدْخلُ عليه، ولا لعظيمِ حظّ دنيا يَدْخل فيه.

وأن ينصح نفسَه لله تعالى؛ لأنه أوْلى الخلق، ثم ينصح الخلقَ فى الله تعالى، فيبتدئ بالنصح فى أمور الدين والآخرة، ثم يَعْقُبه فى أسباب الدنيا، لأنّ أمورَ الدِّينِ والآخرة أهمُّ، والغشُّ فى الدين أعظم، والتزوّد للمنقلَب آثرُ.

رُوينا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ غشَّ أمتى فعليه لعنةُ الله. قيل: وما غشُّ أمّتك يا رسول الله؟ قال: أن يبتدعَ لهم بِدعة فيُتبع عليها؛ فإذا فعل ذلك فقد غشّهم».

وثمرةُ الخوفِ العلمُ بالله عزّ وجلّ؛ والحياءُ من الله عزّ وجلّ، وهو أعلى مَثوبات[1] أهلِ المزيد. يستبينُ أحكامُ ذلك بِمَعْنيين[2]؛ هما: جملةُ العبدِ أن يحفظ رأسَه وما حواهُ من السمعِ والبصر واللسان، وأن يحفظ بطنَه وما وعاهُ، وهو: القلبُ، والفرجُ، واليدُ، والرِّجْلُ. وهذا خوف العموم وهو أول الحياء.

فأمّا خوفُ الخصوص: فهو أن لا يجمع ما لا يأكل، ولا يبنى ما لا يسكن، ولا يُكاثر فيما عنه ينتقل، ولا يغفُل ولا يفرِّط عمّا إليه يرتحل. وهذا هو الزهد، وهو حياءُ مزيدِ أهل الحياء من مُقَرَّبى المؤمنين[3]. وقد جاء معنى ما ذكرناه فى حديثين؛ أحدهما عامّ، والآخر خاصّ.

وكلُّ مَن لم يستعمل قلبَه فى بدايتِه، ويجعل الخوفَ حشْوَ إرادتِه، لم يُنجبْ فى خاتِمته، ولم يكن إمامًا للمتقين عند علوّ معرفته.

(١) فى (ط): «سريرات» وأثبت ما فى (ك) و(خ).

(٢) فى (ط): «فى معنيين»، وفى (ك) «من معنيين» وأثبت ما فى (خ).

(٣) فى (ط): «من تقوى أصحاب اليمين» وأثبت ما فى (خ) و(ك).

وأعلى الخوفِ أن يكون قلبُه مُعلَّقًا بخوف الخاتمة، لا يَسْكُن إلى علْمٍ ولا عملٍ، ولا يقطع على النّجاة بشىءٍ من العلوم وإن علَت، ولا بسبب من الأعمال[١] وإن جلَّت، لعدم علمه بتحقيق الخواتم، فقد قيل: «إنّما يُوزن من الأعمالِ خواتيمُها».

وعن النبى ﷺ: «إن العبدَ لَيعملُ بعملِ أهلِ الجَنّة خمسينَ سنة، حتى يقال إنّه من أهلِ الجنة ـ وفى خبر: حتّى ما يبقى بينَهُ وبينَ الجَنَّةِ إلا شبرٌ ـ ثمّ يَسبق عليه الكتابُ فيُخْتَم له بعملِ أهلِ النّار». ولا يتأتّى فى هذا المقدار من الوقت شىءٌ من عمل الجسم بالجوارح، إنّما هو من أعمال القلوب بمشاهدة العقول، وهو شِرْك التوحيد الذى لم يكن متحققًا به، وشكٌّ فى اليقينِ الذى لم يكن فى الحياة الدنيا مشاهدًا له. فظهر له بيان ذلك عند كشفِ الغطاء، فغلبَ عليه وصفه، وبدت فيه حاله، كما يظهَرُ له أعماله السّيئة فيستَحْليها قلبه، أو ينطق بها لسانه، أو يخامرُها وَجْدُه، فتكون هى خاتمتُه التى تخرج عليها رُوحُه، وذلك فى سابقته التى سبقت له من الكتاب، كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [الأعراف:٣٧]، تكون عند مفارقة الرّوح من الجسد ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾ [هود:١٠٩].

وقد جاء فى خبر: «حتى لا يبقى بينه وبين الجَنَّة إلا فُوَاقَ ناقة، فيُختم له بعملِ أهل النار». وهذا يكون عند بلوغ الروح التّراقى، وتكون النفسُ قد خرجت من جميع الجسد، واجتمعت فى القلب إلى الحلقوم، فهذا هو «شِبر». و«فُواقُ ناقةٍ»: هو ما بين الحَلْبتين. وقيل: هو شَوْط من عَدْوها بَين سَيْرَيْن.

وهذا من تقلُّبات القلوب عند حقيقةِ وِجْهة التوحيد إلى وِجْهة الضّلال والشّكّ[٢] عندما يبدو له من زوال عقل الدّنيا وذَهاب عِلم المعقولِ، فيبدُو له من الله ما لم يكن يَحْتسب.

---

(١) فى (ط): «ولا لسبب من أعماله» وأثبت ما فى (ك) و(خ).

(٢) فى (ك) و (ط): «والشرك» وأثبت ما فى (خ).

وأكثرُ ما يقع سوءُ الخاتمة لثلاث طوائفَ من الناس:

[**الطائفة الأولى**]: أهل البدع والزّيغ فى الدِّين، لأنّ إيمانهم مرتبطٌ بالمعقول، فأوّلُ آية تظهر لهم من قدرةِ الله تعالى أن يَطيح عقلُه عند شهودها، فيذهب إيمانُه ولا يثبتُ لمعاينتها، كما تحترق الفتيلة فيسقط المصباح.

والطائفة الثانية: أهلُ الكبر والإنكار لآيات الله عزّ وجلّ، وكراماته لأوليائه فى الحياة الدنيا؛ لأنّهم لم يكن لهم يقين يحملُ القدرةَ، ويمدُّه الإيمان، فَيَعْتَوِرهُم الشّكُّ ويقوى عليهم لفقدِ اليقين.

والطائفة الثالثُة ، ثلاثُة أصناف: متفرقون متفاوتون فى سوء الخاتمة، وجميعُهُم دون تَيْنك الطائفتَيْن فى سُوء الخاتمةِ. لأنّ سوءَ الختم على مقاماتٍ أيضًا كمقامات اليقينِ والشِّرك فى عمر الحياة، منهم: المدِّعى المتظاهر الذى لمْ يزَل إلى نفسه وعمله ناظرًا، والفاسقُ المعلِن والمصرُّ المدمن، تتّصل بهم المعاصى إلى آخر العمر، ويدوم تقلُّبهم فيها إلى كَشْف الغِطاء، فإذا رأوا الآيات تابوا إلى الله تعالى بقُلوبهم، وقد انقطعت أعمال الجوارح، فليس يتأتّى منهم؛ فلا تُقبل تَوْبتُهم، ولا تُقال عَثْرتُهم، ولا تُرحَم عَبرتُهم، وهم من أهل هذه الآية: ﴿**وليْسَت التَّوْبةُ للَّذينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ حتَّى إذا حَضَرَ أحدَهُمُ الموتُ قالَ إنِّى تُبْتَ الآنَ**﴾ [النساء:١٨]، وهم مقصودون بقوله عزّ وجلّ: ﴿**وَحِيلَ بيْنَهُمْ وبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ**﴾ [سبأ:٥٤]، وهم معنيّون بمعنى قوله تعالى: ﴿**فلَمَّا رَأَوْا بَأسَنا قَالُوا آمَنَّا بالله وَحْدَه**﴾ [غافر:٨٤]، فنصوص الآية للكفّار، ومعناها ومقامٌ منها لأهل الكبائر وذَوِى الإصرار من الفاسقين الزّائغين، من حيثُ اشتركوا فى سُوء الخاتمة. ثم تفاوتوا فى مقامات منها تُظهر لهم شهواتِ معاصيهم، ويعاد عليهم تذكُّرها لخلوِّ قلبهم من الذّكر والخوفِ، حتى يُختم لهم بشهادتها. فهذه الأسباب تجلبُ الخوف، وتقطع قلوب ذوى الألباب.

وقد كان أبو محمد سهل رحمه الله يقول: المريدُ يخافُ أن يُبتلَى بالمعاصى، والعارفُ يخاف أن يُبتلَى بالكفر. وكذلك قال أبو يزيد رحمه الله تعالى قبلَه: إذا

توجَّهتُ إلى المسجد كان فى وسطى زُنّار[١]، أخاف أن يُذهَب بى إلى البِيَعة وبيتِ النار، حتى أدخل المسجدَ فيُقطع عنى الزُّنّار، فهذا لى فى كلّ يومٍ خمس مرات[٢].

هذا لعلمهم بسرعة تقلُّب القلوب فى قدرة علاّم الغيوب.

وقد رُوينا معنى ذلك عن عيسى عليه السلام أنّه قال: يا معشر الحواريّين، أنتم تخافون المعاصى، ونحن معشرَ الأنبياءِ نخافُ الكفر.

ورُوينا فى أخبار الأنبياء أن نبيًا شكَا إلى الله تعالى الجوعَ والقَمْلَ والعُرى سنينَ، وكان لباسه الصُّوف. فأوحى الله تعالى إليه: عَبدى، أما رضيتَ أن عَصمتُ قلبَكَ أن تكفر بى حتّى تسألنى الدنيا. فأخذ الترابَ فوضعَهُ على رأسه وقال: بلى قد رضِيتُ يا ربّ، فاعصمنى من الكفر. فلم يَذكر له نعمتَهُ عليه بنبوّته، وعرَّضَه للكفر، وجوّز دخولَه عليه بعدَ النبوّة، فاعترف ذلك النبى عليه السلام بذلك ورضى به واستعصم.

وقد كان عبد الواحد بن زيد[٣]، إمامُ الزّاهدين قبلهُما، يقول: ما صدقَ خائفٌ قطّ ظنّ أنّه لا يدخل النار، وما ظنّ أنّه يدخل النّار إلا خاف أن لا يخرج منها أبدًا.

وقد قال الحسن البَصْرىّ رحمه الله تعالى، إمامُ العلماءِ قَبْلَهم: «يخرجُ من النّار رجل بعد ألف عام، ويا ليتنى ذلك الرجل!»، هذا لشدّة خوفه من الخلود فى الأبديّة. قال: «فبعد أن أُخْرج منها بوقتٍ لا أبالى».

والعدوُّ يدخل على العارفين من طريق الإلحاد فى التّوحيد، والتّشبيه فى اليقين، والوسوسة فى صفات الذات. ويدخل على المريدين من طريق الآفات والشّهوات. من قِبَل أنّ العدو يدخل على كلِّ عبد من معنى همِّه، فيشكّكه فى اليقين، كما يُزيِّن له الشّهوات. فلذلك كان خوفُ العارفينَ أعظمَ، فأرواحُ

(١) الزّنّار: حزام للنصارى يوضع على الوَسَط. والبيعة: الكنيسة. وبيت النار: متعبد المجوس.

(٢) ما ذكره أبو اليزيد يكاد يكون من شطحاته؛ لأن مثل هذا الخوف قد يفسد اليقين والإيمان بالله، والعياذ بالله، فهو لم يثبت مثل هذا الخوف عن إمام الخائفين وسيد المرسلين ﷺ.

(٣) هو أبو عبيد البصرى، توفى سنة ١٧٧هـ. مختصر تاريخ دمشق، لابن منظور، ١٥/ ٢٤٩.

الصّدّيقين[١] مُعلَّقة بالسّابقَة، فإذا سبَق لهم من الكلمة هناك مشاهدتُهُم، ومن ثَمَّ فزعُهُم، لا يدرون أسبقَ لهم قدمَ صدق عند ربّهم، فيُختم لهم بمَقْعد صدق، فيكونون ممّن قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠١]، أو يخافون أن يكونوا قد حقَّت عليهم الكلمة، فيكونون ممّن قال فيهم الرسول ﷺ: «يقول الله سبحانه وتعالى: هؤلاء فى النّار ولا أبالى»، فلا ينفعُهُم شفاعةُ شافع، ولا ينقذهم من النارِ دافعٌ، كما قال مولاهم الحق: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيه كَلِمَةُ العَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ [الزمر:١٩]، وكقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّى لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [السجدة:١٣]. فهذه الآية ومعناها تخويفٌ لأولى الأبصار.

وقال عالمنا[٢] رحمه الله فى قوله تعالى: ﴿وَإِيَّاىَ فَاتَّقُونِ﴾ [البقرة:٤١]: عموم، أى فيما نَهَيْتُ عنه. وقوله تعالى: ﴿وَإِيَّاىَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة:٤٠] أى: فى السابقة، وهذا خصوص.

وقد نوَّع بعضُ العارفين خوفَ المؤمنين على مقامَين، فقال: قلوب الأبرار معلّقة بالخاتِمة، يقولون: ليتَ شِعْرى ماذا يُختَم لنا به؟ وقلوب المقرَّبين معلّقة بالسّابقة، يقولون: ليت شِعْرى ماذا سَبَق لنا منه؟ وهذان المقامان عن مشاهدتَين؛ إحداهما أعلى وأنفذُ من الأخرى لحالين؛ أحدهما: أتمُّ وأكمل، فهذا كما قيل: ذنوبُ المقرَّبين حسناتُ الأبرار. أى ما يرغب فيه الأبرار فهو عندهم فضائل قد زهد فيه المقربون فهو عندهم حجاب.

ومَن حقَّت عليه كلمةُ العذاب، وسبق له من مولاه الختمُ بسوء الاكتساب، لم ينفعه شىءٌ، فهو يعمل فى بطالة لا أجرَ له ولا عاقبةً، من قِبَلِ أنّ سوءَ الخاتمة قد تكون فى وَسط العُمر، فلا يُنتظَر بها آخره يوافق معصيةً تكونُ سببها كعند الخاتمة، إذ هما فى سَبْق العلمِ سواء؛ فالخاتمةُ حينئذٍ فاتحة، والوقتان واحدٌ، فينظر إليه

(١) من (خ) فقط. أما (ك) و(ط) فالعبارة: «فأرواحهم معلقة».

(٢) يقصد «أبا محمد سهل التسترى».

نظرةَ بُعْد، فهو يزدادُ بأعماله بُعدًا[١]، فإذا انقطعت الآجال وانتهت الأعمال تناهى فى الإبعاد فحلَّ فى دار البُعد. وقد روينا فى الخبر: «والله لا يقبل اللهُ تعالى من مُبتدعٍ عملاً». إنّه ردّ على الله تعالى سننه فردَّ عليه عمله، كلّما ازداد اجتهادًا ازداد من الله تعالى بعدًا، كما قال الحكيم:

مَنْ غَصَّ دَاوَى بِشُرْبِ الماءِ غَصَّتَه ... فكيفَ يَصنَعُ مَن قَدْ غَصَّ بالماءِ؟

بل كيفَ يصنعُ مَنْ أَقْصاهُ مالكُه؟ ... فليس يَنفَعُهُ طِبُّ الأطبّاءِ

وعن مشاهدةِ هذا المعنى كان خوفُ الحسن البصرى رحمه الله تعالى وحزنُه، لعلمهِ بأنّه عزّ وجلّ لا يبالى ما فعل، فخاف أن يقع بوصف الجبريَّة فى ترك المبالاة، وأن يجعله نكالاً لأصحابه، وموعظةً لأهل طبقته. يقال: إنّه ما ضَحك أربعين سنة. وكنتَ إذا رأيتَهُ قاعدًا كأنّه أسير قُدِّم ليُضرب عنقه، وإذا تكلم كأنّه يعاين الآخرةَ فيخبرُ عن مشاهدتها، وإذا سكت كأنّ النارَ تَسعَّر بين عينيه. وعُوتب فى شدّة حُزنه فقال: ما يُؤْمِنُنى أن يكون قد اطّلع علىَّ فى بعض ما يكره فمقتنى، فقال: اذهب فلا غفرتُ لك، فأنا أعمل فى غير معملٍ. فنحن أحقُّ بهذا من الحَسَنِ رحمه الله.

ولكن ليس الخوفُ يكون لكثرةِ الذنوب، فلو كان كذلك لكنّا أكثرَ خوفًا منه؛ إنّما يكون لصفاءِ القلب منها، وشدّة التعظيمِ لله تعالى. وقد بُشّر العلاءُ بن زِياد العدوىّ بالجَنّة، وكان من العُبّادِ، فغلّق عليه بابَهُ سبعًا، ولم يذُق طعامًا، وجعل يبكى، ويقول: أنا أنا. . فى قصة طويلة. حتى دخل عليه الحسن فجعل يَعْذُلُه فى شدّة خوفه وكثرة بكائه. وقال: يا أخى من أهل الجنة إن شاء الله تعالى، أقاتلُ نَفْسك؟ فما ظنُّك برجلٍ يَعذُله الحسَنُ فى الخوف؟

وقد كان مَنْ فوقهم من عِلْيَةِ الصّحابة يتمنَّون أنَّهم لم يُخلَقوا بشرًا، وقد بُشِّروا بالجَنّة يقينًا فى غير خبر. من ذلك قول أبى بكر رضى الله عنه: ليتنى مثلُك يا طيرُ، وإنّى لم أُخلق بشرًا. وقول عمر رضى الله عنه: وَدِدت أنّى كنتُ كَبشًا

(١) هذه الجملة والتى قبلها كانتا مقدمتين فى المطبوعة، وأثبت ترتيب (خ).

ذبحني أهلي لضَيْفِهم. وأبو ذر رضى الله عنه يقول: وددتُ أنّى شجرةٌ تُعضَد. وطلحة والزّبير رضى الله عنهما يقولان: وددنا أنّا لم نُخْلَق. وعثمانُ رضى الله عنه يقول: وددت أنّى إذا مت لا أُبعَث. وعائشة رضى الله عنها تقول: وددت أنى كنت نَسْيًا مَنْسيًا. وابن مسعود رضى الله عنه يقول: ليتنى أنّى أكونُ رمادًا. وفى رواية عنه: ليتنى كنتُ بَعْرَةً، ليتنى لم أك شيئًا. فى طبقة يكثُر عددُهم، ونحن فى ارتكاب الكبائر نُحدِّث نفوسَنا بالدَّرجاتِ العُلى، والقُربِ من سِدْرَةِ المنتهى، ونسينا أن أبانا آدمَ صلوات الله عليه أُخرج من الجَنّة بعد أن دخلها بذنب واحد، ونحن لم نرها بعدُ، فإنّما نضرب فى حديدٍ بارد.

ورُوينا فى خبرٍ: «أنَّ رجلاً من أهل الصُّفَّة استُشْهِد، فقالت أمُّه: هنيئًا لك، عصفورٌ من عصافير الجنة، هاجرتَ إلى رسولِ الله ﷺ، وقُتلتَ فى سبيل الله تعالى. فقال النبى ﷺ: وما يدريك؟! فلعلّه كان يتكلم فيما لا يعنيه، ويمنع ما لا يضرُّه». وفى حديث آخر بمثل هذه القصة: «أنه دخل على بعضِ أصحابه وهو عليل، فسمِع أمّه تقول: هنيئًا لك الجنة. فقال: مَن هذهِ المتألِّية على الله عزّ وجلّ؟ فقال الرجل: هى أمى يا رسول الله. فقال: وما يدريكِ؟! لعلّ فلانًا كان يتكلم بما لا يعنيه، ويَبخل بما لا يُغنيه».

وروينا بمثل معنى هذا أنّ النبى ﷺ صلَّى على طفل منفوس، ففى رواية: أنه سُمع يقول فى دعائه: «اللّهم قِهِ عذابَ القبرِ، وعذابَ جهنّم». وفى رواية ثانية: «أنه سَمِع قائلة تقول: هنيئًا لكِ، عصفورٌ من عصافير الجنة. فغضِب وقال: «ما يُدريك أنَّه كذلك، والله إنّى رسولُ الله وما أدرى ما يُصنع بى. إن الله عزّ وجلّ خلق الجنة وخلق لها أهلاً، وخلق النارَ وخلق لها أهلاً، لا يُزاد فيهم ولا يُنقص منهم». وقد قاله رسول الله ﷺ فى جنازة عثمانَ بنِ مظعون، وكان من المهاجرين الأُوَل، ولمّا استُشْهِد قالت أم سلمة رضى الله عنها ذلك. وكانت تقول: واللهِ لا أزكِّى أحدًا بعد عثمان رضى الله عنه.

وأعجب من ذلك أنّا روينا عن محمد بن [خَوْلة][1] الحنفيّة رضى الله عنه أنّه

(١) زيادة من (خ).

قال: والله لا أزكّى أحدًا غير رسولِ الله ﷺ، ولا أبى الذى ولَدنى. قال: فثارت[(١)] الشّيعة. فأخذ يذكر من فضائل علىّ كرّم الله وجهه ومناقبه.

فهذه المعانى أحرقت قلوبَ الخائفين. ولعلّ ذكرَ البُعدِ فى الإبعاد الذى شيَّب الحبيب القريب، فى قوله ﷺ: «شيَّبتنى هودٌ وأخواتها؛ سورةُ الواقعة، وإذا الشّمس كُوّرت، وعَمّ يتساءلون»؛ لأنّ فى سورة هود ﴿أَلاَ بُعْدًا لثَمُودَ﴾ [الآية:٦٨]، ﴿أَلاَ بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [الآية:٦٠]، ﴿أَلاَ بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [الآية:٩٥]. وفى سورة الواقعة: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ [الآية:٢]، يعنى وقعت السّابقة ممّن سبقت له السّابقة، وحقّت الحاقة لِمن حقّت عليه الحاقة، ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾ [الآية:٣] خفضت قومًا فى الآخرة كانوا مرفوعين فى الدنيا، حين ظهرت الحقائقُ وكُشفت عواقبُ الخلائق. وأمّا سورة التكوير، ففيها خواتم المصير، وهى صفة القيامة لمن أيقن، وفيها تُجلَّى معانى الغضب لمن عاين آخرِ ذلك: ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۞ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۞ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾ [الآيات:١٢ ـ ١٤] هذا فصل الخطاب، أى عند تسعير النيران، واقتراب الجنان، حينئذ يتبين للنفس ما أحضرت من شرٍّ يصلح له الجحيم، أو خيرٍ يصلح له النعيم، وتعلم إذ ذاك من أىّ أهل الدارين تكون، وفى أىّ منزلين تحلّ. فكم من قلوب قد تقطّعت حسراتٍ على الإبعاد من الجنان بعد اقترابها؟ وكم من نفوسٍ تصاعدت زفراتٍ عن يقينها بمعاينة النيران أنّها تصيبها؟ وكم من أبصارٍ ذليلة خاشعةٍ لمشاهدةِ الأهوال؟ وكم من عقول طائشة لمعاينة الزّلزال؟

وحُدثنا عن أبى محمد سهلٍ رحمه الله تعالى قال: رأيتُ كأنّى أُدْخلتُ الجَنَّةَ فلقيتُ فيها ثلاثمائةِ نبىٍّ، فسألتهم: ما أخوفَ ما كنتم تخافون فى الدنيا؟ فقالوا لى: سوءُ الخاتمة.

فالخاتمةُ هى من مكر الله تعالى الذى لا يُوصَف ولا يُفطَن له، ولا عليه يُوقَف، ولا نهاية لمكره، لأنّ مشيئته وأحكامه لا غاية لها.

---

(١) فى (ط): «فتكلمت» وأثبت ما فى (خ).

ومن ذلك الخبر المشهور: «أنّ النبى ﷺ وجبريلَ بكيا خوفًا من الله تعالى. فأوحى الله إليهما: لم تبكيان وقد أمَّنْتُكُما؟ فقالا: ومن يأمنُ مكرك؟».

فلولا أنهما عَلِما أن مكرَهُ لا نهاية له، لأنّ حكمه لا غاية له، لم يقولا: ومن يأمن مكْرَك، مع قوله: «قد أمَّنتكما»، ولكان قد انتهى مكرُهُ بقولِه، ولكانا قد وقفا على آخر مكرِه، ولكن خافا من بقيَّة المكرِ الذى هو غيب عنهما، وعَلِما أنّهما لا يقفان على غَيْب الله تعالى، إذ هو علاّم الغيوب، فلا نهاية للعلاّم فى علم، ولا غاية للغُيوب بوصفٍ. فلم يحكم عليهما القول، لعنايتِه بهما، وفضل نظرِه إليهما، ولأنّهما على مزيدٍ من معرفة الصفات، إذ المكر عن الوصف وإظهار القول لا يقضى على باطن الوصف، فكأنما خافا أن يكون قوله تعالى: «قد أمَّنتكما مكرى» مكرًا منه أيضًا بالقول، على وصفٍ مخصوصٍ عن حكمةٍ قد استأثر بعلمها، يختبر بذلك حالهما، وينظر كيف يعملان، تعبّدًا منه لهما بِهِ، إذِ الابتلاءُ وصفُه من قِبَلِ أن المبتلى اسمُه، فلا يترك مقتضى وصفه لتحقق اسمه، ولا تُبدَّل سنَّته التى قد خلَت فى عباده، كما اختبر خليله عليه السلام لَمّا هوى به المنجنيق فى الهواء، فقال: حسبى اللهُ ربى. فعارضه جبريل عليه السلام، فقال: ألك حاجة؟ قال: لا. وفاءً بقوله: «حسبى الله» فصدَّق القول بالعمل. فقال الله تعالى: **﴿وَإِبْراهِيمَ الَّذى وَفَّى﴾** [النجم:٣٧] أى بقوله: حسبى الله.

ولأنّ الله تعالى لا يدخل تحت الأحكام، ولا يلزمه ما حكم به على الأنام، ولا يُختبر صدقه سبحانه وتعالى، ولا يجوز أن يُوصف بضدّ الصدق، وإن بدَّل الكلم هو بتبديل منه، لأنّ كلامَه قائم به، فله أن يبدِّل به ما شاء، وهو الصّادق فى الكلامين، العادل فى الحكْمَين، الحاكم فى الحالين؛ لأنّه حاكمٌ عليه، ولا حُكْم يلزمه فيه؛ لأنّه قد جاوز العلومَ والعقولَ التى هى أماكن للحدود من الأمر والنهى، وفات الرُّسومَ والمعقولَ التى هى أواسط الأحكام والأقدار.

وفى مشاهدة ما ذكرناه علمٌ دقيق من علوم التوحيد، ومقام رفيعٌ من أحوال التوحيد؛ وبمثل هذا المعنى وصف صفيَّه موسى فى قوله تعالى: **﴿فَأَوْجَسَ فى نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾** [طه:٦٧] بعد قوله تعالى: **﴿لاَ تَخافَا إِنَّنى مَعَكُمَا أَسْمَعُ

وأرَى﴾ [طه:٤٦]. فلم يأمن موسى أن يكون قد أسرَّ عنه فى غيبه، واستثنى(١) فى نفسه سبحانه ما لم يُظهِرْه له فى القول، لمعرفة موسى عليه السلام بخفىّ المكر وباطن الوصف، ولعلمه أنّه لم يُعطِه الحكمَ، إذ هو محكوم عليه مقهور، فخاف خوفًا ثانيًا حتّى أمَّنه أمنًا ثانيًا بحكم ثانٍ، فقال: **﴿لا تَخَفْ إنَّكَ أنْتَ الأعلَى﴾** [طه:٦٨]، فاطمأن إلى القائل، ولم يسكن إلى الإظهار الأوّل، لعلمه بسعة علمه أنه هو علام الغُيوب التى لا نهاية لها؛ ولأنّ القولَ أحكام، والحاكم لا تحكم عليه الأحكام، كما لا تَعودُ عليه الأحكامُ، وإنّما تُفصَّل الأحكام من الحاكم العلاّم، ثم تعود على المحكومات أبدًا.

ولأنه جلّت قدرته لا يلزمه ما ألزَم الخلقَ الذين هم تحت الحكم، ولا يدخل تحت معيار العقل والعلم، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا عند من عرفه فأجله وعظَّمه عن معارف مَنْ جَهِله. ومن هذا قول عيسى عليه السلام: **﴿إنْ كُنتُ قُلتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ ما فِى نَفْسِى ولا أعْلَمُ ما فِى نَفْسِكَ﴾** لما قال له: **﴿أأنتَ قُلْتَ للنّاسِ اتَّخذُونى وأُمِّىَ إلهَيْنِ منْ دُونِ الله﴾** [المائدة:١١٦]. ومثل هذا قوله فى يوم القيامة: **﴿إنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإنّهُمْ عِبَادُكَ وإنْ تَغفرْ لَهُمْ فإنَّكَ أنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾** [المائدة:١١٨]، فجعلهم فى مشيئته لعزّته وحكمته.

ولا يصلح أن يُكْشَف حقيقةُ ما فصّلناه فى كتاب، ولا ينبغى أن يُرسَم ما رمزناه من الخطاب، خشيةَ الإنكار، وكراهةَ تفاوت علم أهل المعقول والمعيار، إلا أن يُسأل عنه من أُقيم فيه وأُريد به من ذوىْ القوّة والأبصار، فيُنقل من قلب إلى قلب، فحينئذ يتلوه شاهدٌ منه، أو يكشفه علاّم الغيوب فى سرائر القلوب بوحى الإلهام، ويقذفه بنور الهدى للإعلام. واللهُ الموفّق مَن شاء مِن العباد لما شاء من الحيطة بشىءٍ من عِلْمه إذا شاءَ بتَوَلّيه(٢)، وهو الفتَّاح العليم، إذا فتح القلبَ علّمه، وإذا نوّرَه باليقين ألهمه.

---

(١) كذا فى (ك)، وفى (خ): «واستأثر لنفسه».

(٢) فى (ط): «الحيطة بالعلم» وأثبت ما فى (ك).

ومن خوف العارفين علمهُم بأنّ الله تعالى يخوِّف عباده بمَنْ شاءَ مِن عباده الأعلين يجعلهم نكالاً للأدنين، ويخوِّف العموم من خلقه بالتنكيل ببعض الخصوص من عباده، حكمةً له وحُكمًا منه. فعند الخائفينَ فى علمهم أن الله تعالى قد أخرجَ طائفةً من الصّالحين نكالاً خوَّفَ بهم المؤمنين، ونكّل بطائفةٍ من الشّهداء خوَّف بهم الصالحين، وأخرج جماعةً من الصّدّيقين خوَّف بهم الشهداء. والله تعالى أعلم بما وراء ذلك. وقد أخرجَ جماعةً من الملائكة وعَظ بهم النبيّين، وخوَّف بهم الملائكة المقرّبين.

فصار من أهلِ كلّ مقام عبرةً لمن دُونهم، وموعظةً لمن فوقَهم، وتخويفًا وتهدُّدًا لأولى الأبصار، وهذا داخل فى بعض تفسير قوله عزّ وجلّ: ﴿آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٧٥]. قال بعض أهل التفسير فى أخبار بلعم بن باعوراء: إنّه أُوتى النبوّةَ. والمشهور أنَّه أُوتى الاسمَ الأكبرَ، فكان سببَ هلاكِه، وهو مقتضى وصفٍ من أوصافه وهو تَرْكُ المبالاةِ بما أظهرَ من العُلوم والأعمال، فلم يسكن عند ذلك أحدٌ من أهل المقامات فى مقام، ولا نظر أحدٌ من أهل الأحوال إلى حال، ولا أمِنَ مكرَ الله تعالى عالمٌ به فى كل حال. كيف وقد سمعوه تبارك وتعالى يقول: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ [المعارج: ٢٨]، فأجْهلُ الناسِ مَن أمِنَ غيرَ مأمونٍ، وأعلَمُهُم مَن خافَ فى الأمنِ، حتّى يخرج من دار الخوف إلى مقام أمين؛ فهذا خوفٌ لا يقوم له شىءٌ، وكَرْبٌ لا يوازيه مقامٌ ولا عملٌ، لولا أن الله تعالى عدّله بالرجاء لأُخرجَ إلى القنوط، ولولا أنّه روَّحه برَوْحِ الأُنس بحُسن الظّنّ لأُدخل فى الإياس. ولكن إذا كان هو المعدِّل وهو المروِّح، كيف لا يعتدلُ الخوف والرّجاءُ؟ [ولِمَ][1] لا يمتزج الكربُ بالرَّوح؟

والرِّضا حكمةٌ بالغة، وحُكمٌ نافذٌ لعلمٍ سابقٍ وقَدَرٍ جارٍ، ما شاء الله لا قوّة إلا بالله[2].

---

(١) زيادة من (خ).

(٢) فى (ك): «بالله العلىّ العظيم».

وفى شهودِ ما ذكرناه علمٌ عن مشاهدة توحيدٍ لمن أشهده، فأقلُّ ما يفيد علمُ هذا الخائفين تركُ النّظرِ إلى أعمالهم، ورفعُ السّكون إلى علومهم، وصدقُ الافتقارِ فى كل حال، ودوامُ الانقطاع بكل همٍّ، والإزراءُ على النّفس فى كل وصف. وهذه مقاماتٌ لقومٍ، فيكون هذا الخوف سببَ نجاتهم من هذه الوقائع، إذ قد جعل الله تعالى التخويف أمَنةً من الأخذ بالمفاجأة، وسببًا للرأفة والرّحمة لمن ألبسه إيّاه، وهو أحد الوجهين فى قوله تعالى: **﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ﴾** [النحل: ٤٥]، ثم قال تعالى: **﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾** [النحل: ٤٧].

وليس يصلحُ أيضًا أن يُكشف سرُّ المخاوف من الخاتمة والسّابقة، لأن ذلك يكون عن حقائق معانى الصفات التى ظهرتْ عن حقيقة الذات، فأظهرت بدائعَ الأفعال وغرائبَ المآلِ، وأعادت الأحكامَ على مَنْ أظهر بها، وجُعل لها ممّن حقّت عليه الكلمات، وجُعِلَتْ نصيبَهُ من معانى هذه السّريرة من الصفات، فيؤدى ذلك منّا إلى كشف باطن الأوصاف. وهذا غير مأمورٍ به ولا مأذونٍ فيه، لأنه لا يجب فلم يُؤمر به، ولأنّه لم يُبَح فلم يُؤذَن فيه. وهو من سرِّ القدر، وقد نهى عن إفشائه فى غير خبر، ولو لم يطّلع الأولياءُ عليه لما قيل: فلا تُفْشوه.

فإن أقام الله تعالى عبدًا مقامَ هذه المشاهدة، أغناه بالمعاينة عن الخبر، وآنسهُ بالمحادثةِ عن الأثر، وذلك هو العلم النافعُ الذى يكون العلاّم معلِّمَهُ، وذلك هو الأثرُ اللازم الذى يكون الجاعل مُؤثرَه. ومن يتق اللهَ يجعل له مَخْرجًا، ويرزقُهُ من حيثُ لا يَحْتسب. ومن يتوكّل على الله فهو حَسْبُه. فالكَتْبُ الذى لا يُمحى ما كان مِن نوره، والعينُ التى لا تخفى لأنّها بحضوره، والنور الذى لا يُطْفأ لأنّه من رَوْحه، والرّوحُ الذى لا كرب فيه لأنّه من ريحانه، والمددُ الذى لا ينقطع إذ هو من روحه. وقد كتب وأيَّد، وكلُّ كَتْبٍ بيدِ مخلوقٍ فغيرُ محفوظ وقد يضيع، وكلُّ أيدٍ[1] بغير رَوْحه فمقطوعٌ، وما كَتَبهُ الصّانع بصُنعهِ فى قلبٍ حفيظٍ فمثبَتٌ عتيدٌ.

---

(١) قوله «أيد»: أى تأييد وإمداد.

وقد رُوينا عن زيد بن أسلم في قوله تعالى: ﴿في لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ [البروج:٢٢] قال: قلب المؤمن. وقال آخر في قوله: ﴿والبَيْتِ المَعْمُورِ﴾: قلب العارف.

وقال بعض أهل المعرفة: ﴿في بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾: قلوب المقرَّبين رُفعت إلى وصف الخالق عن ذِكر المخلوقين، ﴿وَيُذْكَرَ فيها اسْمُهُ﴾ [النور:٣٦]: بالتوحيد على تجريدِ الوَحْدانيّة عن شهادة الأحديّة.

وقد كان أبو محمد سهل رحمه الله تعالى يقول: الصّدر هو الكرسي، والقَلْبُ هو العرش. واللهُ تبارك وتعالى واضعٌ عليه عظمَتَهُ وجلاله، وهو مشهود به بلطفه وقُربه. فصدرُ المؤمن أولُه صمديّة، وآخره روحانية، وأوسطه رُبوبيّة، فهو صمديٌّ روحانيٌّ ربانيٌّ، وقلبه أوله قُدرة، وآخره بِرٌّ، وأوسطه لُطف. فإذا كان كذلك، فهو مشكاة فيها مِصباح يُرى به الزّجاج كأنها كوكبٌ دُريٌّ، يَشهد به الأخْرى، فهو مرآة حِينئذٍ يرى، فيرى به الوجه، ويجده عنده كما يراهُ به من وراء مرآةِ المُشاهدةِ من قلبٍ مُوقنٍ بعين يقين.

ولا يحلّ للعلماء أيضًا كشفُ علاماتِ سوءِ الخاتمة فيمن رأوها فيه من العمال، لأنّ لها علاماتٍ جليّةً عند المكاشفين بها، وأدلةً خفيّةً عند العارفين المشرَّف بهم عليها، ولكنها من سرِّ المعبود في العبد، خبيئةً وخَبْأةً في خزائن النفوس لم يطّلع عليها إلا الأفراد، وقد ستر ذلك وغطّاه بسعةِ رحمته وحلمه وكثيفِ ستره وفضله وسيُخرج ذلك الخبءَ ﴿يَوْمَ تُبْلَى السّرائرُ﴾ عند غضبه وعظيم سطوته ﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوّةٍ﴾ من عمل ﴿ولا نَاصرٍ﴾ [الطارق:٩ ـ ١٠] من علم. لا قوّة له فينتصر بها؛ لأنّ النُّصرةَ عزةٌ وهو ذليل، ولا ناصر؛ لأنّ الناصر هو الخاذل، والمقوِّي هو المضعف. فما أسوأ حالَ من لا ينصرُ نفسه، وليست له من مولاه صحبة، ولو صَحِبَهُ لنصرَهُ، ولو نَصَرَه لأعزَّه، ولو وَلِيَهُ لهرَب منه عدوُّه، كما قال: ﴿وَيَنْصُرَكَ اللهُ نَصْرًا عزِيزًا﴾ [الفتح:٣]، وقال تعالى: ﴿لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلاَ هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ [الأنبياء:٤٣].

وقال تعالى في ذكر مَن كفاهُ فنصرَهُ، ووَلِيَهُ فآزره: ﴿والله أَعْلَمُ بأَعْدائكم وكَفَى بالله وَلِيًّا وكَفى بالله نَصيرًا﴾ [النساء:٤٥]. وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذى يَعْلَمُ السِّرَّ فى السَّموات والأَرْضِ إنّه كانَ غَفُورًا رَّحيمًا﴾ [الفرقان:٦]. فمن حكمته غَفْرُه، ومن رَحْمَته سَتْرُه. وقال تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْخَبْءَ فى السَّموات وَالأَرْضِ ويَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل:٢٥]، يوم تُبلى السّرائر بِكَشْفِ الضمائر[١].

فهذه المشاهداتُ تُوجِبُ حقائقَ المخاوفِ لمن كان عارفًا بها، وهى من سرِّ المَلِكِ وخَبْءِ[٢] الملكوت.

على أنّ للعبد عند الموت علامات، ليس تَخْفَى على العارف بسوءِ الخاتمة بها، لمشاهدتِه لها. وللأحياء علاماتٌ عند المكاشفين على الاطلاع يعرفون بها سُوءَ الخاتمةِ منهم. وهذا علمٌ مخصوصٌ به مَن أقيم مقامَ مقاماتِ المكاشفات عن مشاهدة حقيقة من ذاتٍ، وهو سرُّ علاّمِ الغيوبِ عند مَن أطلعَهُ عليه مِن أهلِ القُلوب. لأنّ الكشف يتنوَّع أنواعًا من المعانى. فمنه كشف معانى الآخرة، ومنه كشف بواطن الدنيا، ومنه الاطلاع على حقائق الأشياء المستورة بظواهر الأحكام المأثورة. فهذا من سرّ الملكوت، ومن معانى كشوف الجبروت. وقد جاء فى خبر: «القَدَرُ سرُّ الله فلا تُفشوه»؛ فهذا خطاب لمن كُوشف به، وفى خبر آخر: «سترُ الله فلا تكشفوه»؛ فهذا خطاب لمن لم يُكاشَف به، وهذا نهى عن السؤال عنه، وهو داخل فى قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِه عِلْمٌ﴾ [الإسراء:٣٦] أى: لا تتبع نفسك علم ما لم تُكلَّف، ولا تسأل عمّا لم يُجعل من علمك، ولم يُوكَل إليك. ولأنه إذا عَلِمه لم ينفعه علمه شيئًا، وإنّما ينفعه علمُ الأحكام والأسباب لأنّها طرقات. وبمثل مخاطبة المؤمنين خاطبَ أنبياءه عليهم السّلام فى هذا المعنى، فى قوله تعالى لنوح عليه السلام حين قال: إنّ ابنى من أهلى، وإنّ وعدَك الحقّ، لأنه

(١) توجد بعض الزيادات فى هذه الفقرة من (خ).
(٢) فى (ط): «وخباء» وأثبت ما فى (خ) و(ك).

قد كان وعده نجاة أهله، فقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْئَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [هود: ٤٦]، أى: دعاؤك ومسألتك لى ما لم أجعله من علمك ولم أكِلْه إليك عملٌ غير صالح، فأزجرُكَ أن تكون من الجاهلين بذلك، فعندها استغفر ربه واسترحمه، واستعاذَ به أن يسأله ما ليس من علمه، وما لم يجعل له برسمِهِ[١].

وإن العبد عند موته فى آخر ساعةٍ من عمره يُكشَف له عند كشف الغطاءِ عن بصره أوجهٌ كثيرة قد اتُّخذَت آلهة من دون الله، أو أُشرِك بها مع الله تعالى؛ وكلُّها تزيين وغرور. فإن وقفَ القلبُ مع أحدها، أو زُيِّن له بعضها فاستهواه، أو قُلِّب قلبه فى شىءٍ فأغواه[٢] عند آخرِ أنفاسه، خُتِم له بذلك، فخرجت روحه على الشكِّ أو الشرِّك، وهذا هو سوءُ الخَتْم[٣] بما سَبَق له من الحُكْم، وحاق به للقَدَر الحَتْم. وهو نصيب العبد من الكتاب فى السّابقة عند خلق الأرواح، معدومةً لها فى الأشباح المُرَافقةِ لها فى الآباد والآزال قبل إظهارِ الأكوار والأدوار، فشَهِدَتْها الأرواحُ هناك غرورًا، ووقفت معها إذ زُوِّرَت لها زَوْرًا رُسومُ القلوب فى التخطيط، قبل خلق الأجسام بها المُحيطِ، وقبل حجبها بكشف هياكل الصّورةِ عند ظهورها فى المواجِدِ، وقبل إقامتها بشَواهد العقل لكن بحُكم الأوليّة به لفعل أُبْدِيَتْ، وبمعنى القَيوميَّة وُجِدَتْ، وبوَصْفِ الجامع جُمِعَتْ، ثمّ فُرِّقت ههنا، فظهرت الآن عند الفراق لمّا كانت أُشْهِدَت فى التلاق، واعترفت فى الآخر بما كانت نطقت وعَمِلَتْ فى الأوّل. فخرجت الروح على ما شَهِدَتْ، وشَهِدَتْ[٤] هَهنا ما كانت قبلهما أُشْهِدَت، فرجعَتْ بشَهادتها الآنَ إلى المآلِ، إذ قامت اليوم

---

(١) من قوله «فازجرك» إلى هنا زيادة من (خ). ومن هذا الموضع تكثر زيادات نسخة (خ) زيادة كبيرة ومتعددة يصعب الإشارة إليها فى كل موضع أو وضعها بين معكفات؛ لأنها من صلب النص ومهمة له، ولولا الطمس الذى أصاب هذه النسخة لاعتمدتها كاملة دون الرجوع إلى المطبوعة؛ لأنها جيدة متقنة وبها زيادات مهمة. وانظر ما ذكرته عنها فى المقدمة.

(٢) فى (ط): «فى شىء منها».

(٣) فى (ط): «سوء الخاتمة، وهو نصيب العبد» وما بينهما من (خ).

(٤) من هنا إلى آخر الفقرة من (خ).

بحدٍّ شاهدها فيما كان. واللهُ غالب على أمرِه ولكن أكثر الناسِ لا يَعْلمون.

فهذا كان خبرَ السَّابقة التى أدركت الأرواحَ المرافقة لها فى الأجسام لَمَّا جُمعَتْ عند الخاتمةِ، فَخَرجَتْ[1] ممَّا به وَلجَتْ، ودَرجَتْ فيما عنه خرجَتْ. ومن ذلك جاء فى الأثر: «يأخذُ مَلَكُ الأرحام النّطفةَ فى يده، فيقول: يا ربِّ، أذكرٌ أم أنثى، أسَوِيٌّ أم مُعْوجٌّ، ما رِزقُه، ما عِلمُه، ما أثرُه، ما خُلُقه، ما أجَلُه؟ فيقول الله تعالى ما شاء، ويُطيع المَلَك بقَوْله، ويصوِّرُ اللهُ على يدِه كيف يشاء. فإذا فَرغَ مِن صُورتِه قال المَلَكُ: يا ربّ، أنفخُ فيه بالسَّعادة أو بالشقاوة؟ فيقول المَلكُ ما شاء، وينفخُ المَلَكُ بما قال». فلذلك خرجت الرُّوحُ بمعنى ما به دَخلَتْ.

﴿فأمَّا إنْ كانَ مِنَ المُقَرَّبينَ * فَرَوْحٌ وريْحانٌ وجَنَّةُ نَعِيمٍ * وأمَّا إنْ كانَ مِن أَصْحَابِ اليَمينِ * فسَلامٌ لَكَ مِنْ أصْحَابِ اليَمينِ﴾ فسلام من كلّ هلاكٍ لسلامته من الإشراك ﴿وأمَّا إنْ كانَ مِنَ المُكذِّبينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِنْ حَميمٍ * وتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ * إنَّ هَذَا لَهُو حَقُّ اليَقِين﴾ [الواقعة: ٨٨ ـ ٩٥].

﴿الحَاقَّةُ * ما الحَاقَّةُ﴾ [الحاقة:١ ـ ٢] إذَا وَقعَتِ الواقِعة بمن حقت عليه الكلمة، وفى جميع ذلك قُدرةٌ وحكمةٌ بالغة.

﴿كما بَدأكُمْ تَعُودُونَ * فَرِيقًا هَدَى وفَرِيقًا حَقَّ عَليهِمُ الضَّلالة﴾ [الأعراف: ٢٩ ـ ٣٠].

﴿كمَا بَدأنا أوَّلَ خَلْقٍ نُعيدهُ وَعْداً عَلَيْنا﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

﴿ولو شِئْنا لآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداهَا ولَكنْ حَقَّ القَوْلُ مِنِّى﴾ [السجدة: ١٣].

﴿فَانْتقَمْنا مِنَ الَّذين أجْرَمُوا وكانَ حَقًا عَلَيْنا نَصْرُ المُؤْمنين﴾ [الروم: ٤٧].

﴿إنَّ الَّذينَ سَبَقتْ لَهُم منَّا الحُسْنَى أُولئكَ عَنْها مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١].

﴿إنَّ الَّذينَ حقَّتْ عَلَيهِم كَلِمةُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ٩٦].

---

(١) من هنا وحتى قوله «فهذه آى المخاوف» توجد زيادت كثيرة من (خ) تتخلل الكلام.

﴿ولَقَدْ ذَرَأْنا لجهنَّمَ كثيراً منَ الجنِّ والإنْسِ﴾.

ثم وصفهم فقال: ﴿لَهُم قُلُوبٌ لا يَفْقهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩] عن الله، إلى آخر الآية.

﴿ولَقَدْ كتبْنَا فى الزَّبُورِ من بَعْدِ الذِّكْرِ أنَّ الأرضَ يرِثُها عِبادِىَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] يعنى: أرض الجنة التى وعد الرّحمنُ عبادَه بالغيب.

﴿الحمْدُ لله الَّذى صدَقَنا وَعْدَهُ وأَوْرَثَنا الأَرْضَ﴾ الآية [الزمر: ٧٤]، هذا تأويله الذى يؤول بعدَه.

﴿ولَهُم أَعْمالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ﴾ [المؤمنون: ٦٣] يعنى: غير التى كانوا عملوها سيعملوها فيما بعد عند آخر العمر.

﴿وبَدا لَهُم مِن اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧] عند المعاينة، عملوا أعمالاً حسبوها حسناتٍ فرأوها عند المحاسبة سيئات.

فهذه[١] آىُ المخاوفِ، وهى من المُحكمات، ليس فيها أمرٌ ولا زجرٌ، وردت فى السَّوابق الأُولِ، والخواتم الأُخَر. وجاءت بالخَبر عن قديم الخَبرِ، فيها سرائرُ الغيوبِ، وغرائبُ الفهوم، ومخاوفُ القُلوب، وزواجرُ النّفوسِ، وبصائرُ العقولِ، لمن كانَ له قَلْبٌ. وهى من آى المطَّلِع لأهلِ الإشرافِ على شُرفاتِ العَرْشِ والأعرافِ.

وقد كثُرت الأخبارُ فيمن عَبَدَ اللهَ واجتهد أكثرَ عُمْرِه، ثم أُحْبِط ذلك بعُجْب ساعة، أو بكلمة كِبْر، أو بإزرائه على غَيره. وجاءت الأخبارُ بأعمالٍ تُرفع إلى السّماء، ويُبنى بها الدّرجاتُ العُلى، ثم ينظُر اللهُ تعالى إلى صاحبِها نظرةَ بُعْدٍ، أو يمقُتُهُ، فتَنهدِمُ الدّرجات، وتسقُطُ المنازل[٢].

وقال بعضُ العارفينَ: لو علمتُ أحدًا على التوحيدِ خَمْسِينَ سنةً، ثم حالتْ

---

(١) هذه الفقرة والتى بعدها ليس منها فى (ط) سوى سطر واحد، والباقى من (خ).
(٢) إلى هنا ينتهى النقل عن (خ).

بينى وبينه أُسْطوانةٌ، فمات، لم أقطع له بالتّوحيدِ لأنّى لا أدرى ما ظهر من التقليب.

وقد كان أبو محمد سهل رحمه الله يقول: خوفُ الصدِّيقينَ من سُوء الخاتمة عند كلِّ حركة، وكل خَطْرة وهَمَّة، يخافون البعدَ من الله تعالى، وهم الذين مدح اللهُ تبارك وتعالى: ﴿وقُلُوبُهُم وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]. وقال: لا يصحّ خوفُه حتى يخافَ من الحسناتِ كما يخاف من السيئات. وقال أيضًا: أعلى الخوفِ أن يخاف سابقَ علمِ الله تعالى فيه، ويحذر أن يكون منه حدثٌ خلافَ السنّةِ يجرهُ إلى الكفر. وقال: خوف التعظيم ميزان خوف السابقة.

وكان بعض العارفين يقول: لو كانت الشّهادة على بابِ الدار، والموتُ على الإسلامِ عند بابِ الحجرة، لاخترتُ الموتَ على الإسلام دون[1] الشهادة. قيل: ولم؟ قال: لأنّى لا أدرى ما يَعْرِض لقلبى من المشاهَدَةِ فيما بين بابِ الحجرةِ وبابِ الدار فيغيره عَن[2] التوحيد.

وروينا عن زُهير بن نعيم البانى قال: ما أكثر همّى ذُنوبى، إنّما أخافُ ما هو أعظم علىَّ من الذنوب؛ وهو أن أُسلَب التوحيدَ وأموتُ على غيرِه.

وروى ابن المبارك عن أبى لُهَيعة عن بكْر بن سَوَادَة قال: كان رجلٌ يعتزل الناسَ أينما كان يكون وحدَه، فجاء أبو الدرداء فقال: أنشدك الله تعالى، ما يحملك على أن تعتزل الناس؟ قال: إنّى أخشى أن أُسلَب دِينى وأنا لا أشعر. قال: أتَرى فى الحىّ مائةً يخافون ما تخاف؟ فلم يزل يُنقص حتّى بلغ عشرةً. قال: فحَدَّثتُ بذلكَ رَجُلاً من أهْلِ الشّام، فقال: ذلك شُرَحْبِيل بن السِّمط، هو من أصحاب النبى ﷺ.

وقد كان أبو الدرداء يحلفُ بالله تعالى ويقول: «ما أحدٌ أَمِن على إيمانه أن يُسْلَبه عند الموتِ إلا سُلِبَه». وفى بعضها عنه: «أن يُسْلَيه[3] عند الموت». وقال

(١) «الإسلام دون» من (خ). ويعنى بالشهادة الاستشهاد فى سبيل الله.

(٢) فى (ط): «فيغير التوحيد» وأثبت ما فى (ك).

(٣) معنى قوله «يُسليه»: أى ينساه ويذهل عنه. ومن هذا الموضع اعتمدت نص المخطوط (خ).

مرّة: «فما سُلِبه عبدٌ فوجَد له نقدًا». فهذا على أمرين؛ أحدُهما: أن يخفى ذلك عليه فلا يعلم بسَلْبِ إيمانه؛ لخفيِّ مكرِ الله به. والثاني: أن يُظْلِمَ قلبُه ويسودَّ لطولِ الغفلة وكثافةِ الرَّيْن، فلا يُبالى بفقده، إذ قد هيَّأ قلبَه على قِلَّة المبالاة، وتركِ الاكتراث لذلك، فيهون عليه فَقْدُ الإيمان ويسهل، لِمُرودِ قلبه على العصيان، وامْلساسه به.

وقد كان بعض علمائنا يقول: مَن أُعْطى التّوحيد أُعْطِيه بكمالِه ومَن مُنِعَهُ مُنِعه بكماله، إذ كان التوحيدُ فى نفسه لا يتبعَّض. ولمّا احتُضِر سفيان الثورى رضى الله عنه جعل يبكى ويجزع، فقيل له: يا أبا عبد الله، عليك بالرّجاء، فإنّ عفوَ الله أعظمُ من ذنوبك. فقال: وَعلى ذنوبى أبكى. لو علمتُ أنّى أموت على التوحيد لم أبالِ أن ألْقَى الله تعالى بأمثال الجبال من الخطايا. وقال مرّة: ذُنوبى أهونُ من هذه، ورفَع حبَّةً من الأرض، إنّما أخاف أن أُسلَبَ التوحيدَ فى آخر الوقت. وقد كان رحمه الله أحدَ الخائفين، كان يبول الدَّمَ من شدّة الخوف. وكان يَمْرَضُ المرَضَاتِ من المخافة. وعُرض بولُه على بعض أطبّاء الكتابيّين، فقال: هذا بولُ راهبٍ من الرُّهبان. وكان يلتفت إلى حمّاد بن سَلَمة، فيقول: يا أبا سَلَمة، ترجو لمثلى العَفْوَ، أوْ: يُغفَر لمثلى؟ فيقول له حمّاد: نعم أرجو لك.

وقد كان بعض السَّلف يقول: لو أنّى أعلمُ أنّه يُختَمُ لى بالسَّعادةِ كان أَحبَّ إِلىَّ ممَّا طَلَعت عليه الشّمس فى حياتى أجعله فى سبيل الله.

وقال بعضُ أهل المعرفة فى قوله تعالى: **﴿خَلَقَ المَوْتَ والحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُم﴾** [تبارك: ٢]، قال: يَبْلوكُم بتقليب القُلُوب فى حالِ الحياةِ بخواطر الذُّنوب، وفى حال الموتِ بإلحاد عن التّوحيد. فمن خرجت رُوحه على التوحيدِ، وجازت البَلاوِى كلّها إلى المُبلى، فهو المؤمن، وذلك هو البلاء الحسن، كما قال تعالى: **﴿ولِيُبْلِىَ المُؤْمِنِينَ منهُ بَلاءً حَسَنًا﴾** [الأنفال: ١٧].

وحدثنى بعضُ إخوانى عن بعض الصّادقين، وكان خائفًا: أنّه أوصى بعض إخْوانِه، فقال: إذا حضرتنى الوفاةُ فاقعد عند رأسِى، فإذا عاينتُ فانظر إلىَّ، فإن

رأيتنى مِتُّ على التوحيد فاعْمد إلى جميع ما أملكه فاشترِ به لَوْزًا وسُكّرًا وانثُرْه على صبيانِ أهل المدينة، وقل: هذا عُرسُ المنفلت الحاذقِ. وإنْ رأيتنى متُّ على غير التوحيد، فأعْلِم النّاسَ: أنِّى متُّ على غير الإسلام، لئلا يغترُّوا بشهود جنازَتى؛ ليحضر جنازتى مَن أحبَّ على بصيرةٍ، لئلا يلحقُنى الرِّياء بعد الوفاة، فأكون قدِ خدعتهم حيًا وميْتًا. فقلتُ: ومن أين أعلم أنّك قد متَّ على التوحيد؟ قال: ضَعْ إصْبَعكَ فى كفِّى، فإن أمْسكتُها فَشَدَدْتُ عليها، فاعلم أنّى قد مِتُّ على التوحيد، وإن أَرْسلتُها ونبذتُها، فاعلم أن حالى سيئة. ففعلتُ ذلك، فقبض على إصْبعى، وشدَّدها، فلم أخْرِجْها من كفِّه إلا بعد مَوْته. قال: فنفَّذتُ وصيَّتَهُ كما أمَر، ولم أحدِّث بذلك إلا خُصوصَ إخْوانى من العُلَماء.

وذلك أنَّ العبد مهما عمل فى حياته من سُوء، أُعيد ذكرُهُ عليه عند فِراقِ الحياةِ، وقُلِّب قلبُه فيه، وأُشْهِد وَجْدُه إيّاهُ عند آخر ساعةٍ من وفاته، فإن استحلى ذلك بقلبه، أو استهواهُ نَفْسُه، وَقَفَ معه، وسكنَ إليه. فإذا وقف معه حُسبَ عليه، وجُعل عملاً من أعماله إلا أنّه من أعمال القُلُوب فى الوَقْت، وقد تَقَدَّم سَعْيُهُ فيه وهَواهُ قبلَ الوقتِ، وكانَ ذلك سَببًا فأتْبعَ سَببًا، وإن قلَّ، فكان هو الخاتمة. وكذلك ما عَمِل من خيرٍ أُعيد عليه، فإن عقدَ عليه بقَلْبه، أو أحبَّ وقفَ معه، فحُسب عملاً له، وكان ذلك حُسن خاتمته. فسبحان متيحِ الأسبابِ وجاعلِها أبوابًا، ومُقيِّضِ القُرناءِ وجاعِلهم حجابًا.

وكذلك جاء الخبر فى المجالسين والأصحاب: «أنّ المُحتضِر يُعرَض عليه جُلَساؤه وأصحابُه عند الموتِ، فإن كانوا من أهلِ الخير، معاونين على البرّ والتقوى، سرَّه ذلك واغْتبط به، وإن كانوا من أهل الشرِّ، ساءه ذلك ويُذمُّ عليه». وجاء ذلك أيضًا فى البرزخ، وهو فى القبر، يُعرض عليه جلساؤه بُكرةً وعشيَّةً، كما ذُكر فى حال القَبْض من أهل الخير والشرّ. وكذلك الأمرُ فى ضدِّ هذا؛ أنّه أيضًا يُعرَض على قَلْبِه عند احتضارِه ما عَمِل من خيرٍ ذُكِّر به وأُشهِدَهُ، حتَّى يعتقدَهُ، ويَجدَ بِه، ويموتَ فيه، ويستحليَه بقلبه، ويُباشرَ سرَّه، ويجولَ فيه همُّهُ، فيقفَ مَعه، ويطمئنَّ به، فيُحْسَبُ ذلك عملاً له، وكان هو حُسنَ الخاتمة به.

ولا يأمن العبدُ أن يكونَ سببَ هلاكه سُنّةٌ سنَّها، أو أثَرٌ آثَرَهُ فى حياته، فيَلْحق به وِزْرُ ذلك أبدًا ما بَقِى مَن يَعْمَل به؛ لأنّه مِن بقيّة آثارِه، وأسبابِ سَمعه. ولذلك كانوا يقولون: طوبى لِمَنْ إذا مات ماتَتْ ذُنوبُهُ معه، فإنّ العبدَ يموتُ وتبقى سيئاتُهُ بعدَهُ مَحْمُولةً عليهِ ما عُمِل بها، أو بقى أَثَرٌ منها.

فعِلْمُ هذه المعانى من الغُيوبِ، وشهادَتُها ببصائرِ القُلوبِ مِمَّن سَمِع عِلْمَ اليقين كما رَسَمْناه، أو شهادةَ عِلم اليقين مِن الإيمان بما بيَّنَّاهُ، فيه ذكرى لمن كان له قلبٌ مُذَكِّرٌ ذاكرٌ بشهادة مَذْكورٍ حاضرٍ، أو ألقى السَّمعَ فتلقَّى المحادثةَ لَمَّا أصغَى إلى السِّرِّ فوَعى، وتَعِيَها أُذُنٌ وَاعيةٌ، وهو شهيدٌ حاضرٌ لا يغيب عمّا سَمِع، بل شهد بالحقّ من حيث عَلِمَهُ، إلاَّ مَنْ شَهِدَ بالحقِّ وهُمْ يَعْلمُونَ. فكذلك وَصْفُ علماء الموُقنين المخْصُوصِينَ بِعِلم اليَقين، مُشاهِدِين بعين الحقِّ إلى الحقِّ المبين. فلمّا تقرَّر عِلْمُ هذا لشهادتِهِ حكَم بالخوفِ، وكانوا خائفين من سَبْق علم الله فيهم، فَلَمْ ينظرُوا معها إلى محاسنِ أعمالِهم التى أجراها عليهم لحقيقة معرفتهم بربهم. وهذا الخوف يكونُ ثوابَ عَمَلِهم، ومَثُوبات عِلمهم بما يعملون، هَداهُم به إلى سبيله الذى لا يعلمون، ﴿وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩]، فَمَنْ أحسنَ فالله معَهُ، وبه أحسنَ الحسناتِ، ومَن أساء فقد تخلَّى منه وخُلِّيَ بَيْنَهُ وبين النّفس الأمَّارة بالسّيئات. ومن جاهَدَ فيه هواهُ وفَّقَهُ لكَشْفِ سبيله إليه وهَدَاهُ. فلمّا سلِمُوا من مطالبةِ ما يعملون، وصحُّوا على العلمِ، أُظْهِر لهم خوفُ عِلْمِ الله فيهم، الذى كان عِلمُهم حجابَهُ، وتركُ عَمَلِهم به غَلَّق بابَهُ فانفتح لهم من غَيْبِ الملكوت ما استَتر، فشَهِدوا الباطنَ بنُورِه غالبًا على ما أمر، ومُسْتَوْلِيًا بَوصْفه على جميع ما أظهر، لأنّه هو الفتّاحُ العليم، إذا فتح البابَ ورفَع الحِجابَ علَّمَ، وإن غلَّقَهُ وأسْبَل السِّتْر أبهَمَ، فكان بما فتح وكشف لهم من ذلك نعمةً منه عليهم، عقَدَ لهم به مقامًا منه فى القُرْب، صاروا عنه مقرَّبين، بعد أن كانوا مَيْمنيين، فرُفِعوا إلى رَوْحٍ ورَيحانٍ بعد كَوْنهم فى حَرُورٍ ودُخانٍ. وأُمِدُّوا منه برَوْحٍ وحَنانٍ بعد أن كانوا فى سلامةٍ وسلام عن تسليم منه وإسلام.

ودُون هذه المخاوِف لأصحاب اليمين خَوفُ الجنايات والاكتساب، وخوفُ الوعيدِ وسوءِ العقاب، وخوفُ التقصير عن الأمر بتسبيب الأسباب، وخوفُ مجاوزة الحدّ، وخوفُ سلبِ المزيد، وخَوْفُ حجابِ اليقظة من القلب بالغفلة، وخوفُ قطعِ اليقين من العقل بالوَسْوسة، وخَوفُ حدوثِ الفَتْرة بعد الشَّره عن المعاملة، وخوفُ ظهور الصِّفَة بعد انتهاء الشّهوات والآفة، وخَوفُ وَهْنِ العَزْمِ بعد القوّةِ من الاستقامة، وخوفُ الفتن بعد العصْمة، وخوفُ نكْث العهد بالخيانة(١)، وخوفُ حلِّ العَقْدِ من الديانة، وخوفُ قلَّة الوفاء بترك المفاضلة بالصّفاء، وخوفُ الوقوع فى الفتنة بتسبيب (. . .)(٢) قال تعالى: ﴿**إنَّا مُرْسِلُواْ النَّاقَة فتْنةً لَهُم فارْتَقِبْهُم واصْطَبِرْ**﴾ [القمر:٢٧]، وخوفُ الشَّهوةِ بعَوْد جَرَى العادة(٣)، وخوفُ الرّجوعِ عن قصد الإرادة، وخوفُ الاعْوجاجِ عن الاستقامة، وخوفُ استذلال المهانة بعد الكرامةِ، وخوفُ الحَوَر بعد الكَوَر، وهو الرُّجوع عن المَحجَّة بعد إيقاع الحكم عليه إلى طريق الهوى، وخوفُ اطلاعِ الله عليهم عند ما سَلَف من ذنوبهم، ونظرِه إليهم على قبيح أعمالهم، فيُعْرِض عنهم ويَمْقُتهم.

هذه كلُّها مخاوفُ المريدين، وطرُقاتُ الطالبين، وبعضُها أعلى من بعض، وفيها ما هو أشدُّ من بعض. ويقال: إنَّ العرشَ جوهرة يتلألأ مِلءَ الكونِ، فلا يكون العبدُ على حالٍ من أحوالِهِ إلا انطبعَ مثالُه فى العَرْش على الصّورةِ التى يكون عليها، والصّفة التى يتقلّب فيها، فإذا كان يوم القيامة، ووقف على ربِّه للمحاسبة، كُشِف له صورتُه من العرش، فرأى نفسَه على هيئته التى كان عليها فى وقت معصيته، فذكر فِعلَهُ بمشاهدته نفسَه، فيأخذُهُ من الحياءِ والخوفِ ما يَجِلُّ عن الوصْف. هذا بعد نشرِ الحساب، وشهودِ الكتابِ، مُبالغةً مِن اللهِ فى الحكمةِ والقُدرة.

قال بعضُ العارفين: إنَّ اللهَ سبحانه إذا أعطى عبدًا معرفةً، ثم لم يشكره

(١) فى (ك): «وخوف نكوث العهد بعد التوبة».
(٢) كلمة مطموسة فى الأصل، لم يبق منها شىء.
(٣) فى (ك): «وخوف عودة العادة بالشهوة».

عليها، ولم يحسن معاملته بها، لم يَسْلُبْه إيّاها، بل بقّاها عليه، ليحاسبَهُ على قَدْرِها، ولكن يرفعُ منه البركةَ، ويَقْطعُ عنه المزيد، فَمَثَلُ عَيْشِ هذا فى الدُّنيا كمثَلِ البخيل الغنىّ؛ يعيش عيشَ الفقراءِ ويُحاسَب حسابَ الأغنياء، كذلك العالِم يحيى حياةَ الجهّال، ويحاسب غدًا محاسبةَ العلماءِ. وقد ذَمَّ اللهُ عبدًا أَوجدَهُ نعمةً استعمله بها صالحًا، بعد أن كان قد ابتلاه بهواهُ، ففَخَر الآن بعمله، ونَسِيَ ما قدّمت يداه، ولم يخَفْ أن يعيدَهُ فيما قد كان جَناهُ، فى قوله: ﴿**ولَئِنْ أَذَقْناهُ نَعْماءَ بعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئاتُ عَنِّى إنَّه لَفرِحٌ فَخُورٌ**﴾ ثم قال عقيبه: ﴿**إلا الَّذينَ صَبَرُوا**﴾ يعنى عن السيئات ﴿**وعَمِلُوا الصَّالحات**﴾ أى فليسوا بوصْفِ هذا، بل ﴿**أُولئكَ لهم مَغْفِرةٌ**﴾ لذنُوبهم السَّالفة ﴿**وأَجْرٌ كَبِيرٌ**﴾ [هود: ١٠ ـ ١١] إذ لم يفخروا بأَعْمالهم، فينظروا إليها، فيُدِلُّوا بها، فيُعْرِض عنها، فتحبط وهم لا يشعُرُون. وذلك أن الله تعالى أقام حُبوطَ الأعمالِ والعبدُ لا يشعُر مقامَ ما يُسِرُّه من المكْر الذى لا يعلم به العَبْدُ، فجمع بَيْنَهما، إذ المَمْكُورُ به لا يَشْعُر، كذلك المحبَط عملُه لا يعلم، فقال: ﴿**ومَكَرْنا مكْرًا وهُم لا يَشْعُرُونَ**﴾ [النمل: ٥٠]. كما قال: ﴿**أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُم وأَنْتُم لا تَشْعُرونَ**﴾ [الحجرات: ٢].

وفرَّق بين المكْرِ والفتْنة، وهى الاخْتبارُ بأَسبابِ الأقدارِ، فقال تعالى: ﴿**بَل هِيَ فتْنةٌ ولَكنَّ أكثَرَهُم لا يَعْلَمُون**﴾ [الزمر: ٤٩]، فَدَلّ أنّ القليلَ الذين يعلمون هُم العالِمُونَ بمعانى الاختيار، وبلاوى الاختبارِ، فما بينهما الاستدراجُ؛ وهو حقيقة المكْرِ، فلا يُفْطَن به منهم، لأنّه جاء بلفظ التّدرُّجِ، وهو مأخوذٌ من الدَّرَج التى يُصْعَد فيها مِرقاةً بعد مِرقاة، فيُسْتَدْرَجُ العبدُ المدرّجُ بتدريجِ النِّعمِ التى بها يعْصِى درجةً بعد درجةٍ، كى لا يَفْطن. ومن وصْف المُسْتدرَجين قوله: ﴿**فلمّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا به**﴾ ، وكذا ما وُعِظُوا به من التّوبة إلى الله تعالى والإقبال عليه، ﴿**فَتَحْنا عَلَيْهم أَبْوابَ كُلِّ شىء**﴾ [الأنعام: ٤٤] مَحْبوبةٍ من النِّعم والعَوافى، تَعْصُونه بها. ﴿**وَعَصَيْتُم مِن بَعْد مَا أَرَاكُم ما تُحِبُّونَ**﴾ يعنى (. . .)[1] ﴿**مِنكم مَن يُرِيدُ الدُّنيا**﴾

(١) كلمة مطموسة غير واضحة.

بالآخرة ﴿ومنكُم من يُريدُ الآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢] بعمل الدنيا. وهو كقوله فى مقام المَخصُوصين مِن المَفْتُونينَ بعد الاستقامَة: ﴿لأسْقَيْناهُم ماءً غَدَقًا * لنَفْتِنَهُم فيه﴾ [الجن: ١٦ ـ ١٧]. ﴿حتَّى إذَا فَرِحُوا بما أُوتُوا﴾ هو التّدريج بالمَدارج التى بها دُرِّجوا من النِّعم قبل الاستقامَة، ﴿أخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾ فجاءهُم الأمرُ فجأة أغفلَ ما كانُوا وأَسَرَّهُ ﴿فَإذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤]، مُخْتَبَرُون باهِتُونَ. قيل: كُلمّا أحْدثوا ذَنْبًا أحْدثنا لَهُم نِعمةً، وكلّما ذكرُوا شَهوةً أنسيناهمُ التّوبة، حتى أخَذَهُم أخذةً رابيةً فى وَقْتِ فَرَحِهم، فأبْكاهُم بعْد ضَحكهم، إنَّ أخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ.

وأُنْشِدتُ فى بَغْتَاتِ الأمر لأهل الغَفْلَةِ عن الذِّكر:

لا يَغُرَّنْكَ عِشاءٌ ساكِنٌ ... قَدْ يُوافِى بالمَنِيَّاتِ الفَلَقْ
ضَحِكُوا، والدَّهرُ عنهم صَامتٌ ... ثُمَّ أبْكاهُم دمًا حين نَطَقْ

والاستدراجُ قبل الاستقامة لعموم التّاركين للتذكير، النّاسين للأمر، الآمنين للتّحذير. والتَّفْتِيرُ بعد الاستقامةِ هو للخُصوص، عقوبة الإعْراضِ عن الذِّكْر، والانقطاع بالأسباب عن المذْكُور.

ومِن المخاوف خوفُ النّفاقِ، قد كان السّلفُ الصّالحُ من الصَّحابةِ والتّابعين، رضى الله عنهم، يخافون ذلك النّفاق، ويُشْفِقون أن يكون فيهم شعبةٌ منه أو دَقِيقةٌ من حيث لا يعلمون. هذا لأنّ رسولَ الله ﷺ قال: «ثَلاثٌ مَن كُنّ فيه فهو منافق». وفى حديث عبد الله بن مسعود: «أربَعٌ». ورُويناها: «خَمْسٌ»، من ثلاث أحاديث جمعناها فكانت خمس خصال، مَن كُنَّ فيه فهو منافقٌ خالصٌ، وإن صام وصلّى وزعم أنّه مسلم. وفى لفظ آخر: «أربع مَن كُنَّ فقد أُولج النفاقُ من قَرنه إلى قَدَمِه، ومن كانت فيه واحدةٌ منهنّ ففيه شعبةٌ من نفاقٍ حتّى يَدَعها: مَن إذا حدّث كَذَب، وإذا وَعَد أخلف، وإذا ائْتُمِن خان، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فَجَر».

ولمّا حضرتْ عمرو بن العاص الوفاةُ قال لبنيه: «أنكحوا فلانًا ابنتى من بعدى، قال: فجعل بعضُنا ينظر إلى بعضٍ تعجُّبًا، إذ لم يكن الرجل كُفْأً لها. فقال: إنّى

كنتُ قد وعدتُه أن أزوّجه ابنتى، وأخاف أن ألقى الله بثلث النِّفاق». وقد كانوا يقولون: الكذِبُ بابٌ منَ النّفاق.

ومن عزائمِ الأخبارِ وشدائدها خبران، وردا بأربعة أخلاقٍ أنها لا تُوجدُ فى مؤمنٍ. أحدهما: قوله ﷺ: «يُجْبَلُ المؤمن على كلّ خُلُق إلاَّ الخيانة». وبمعناه: الكذِب مجانبُ الإيمان. وقد يدخل الكذبُ فى الأفعال والأحوال دخولَه فى المقال، وليس يَعْرى من الكذِب اليوم إلا الصِّدّيقون دون الصّادقين. والخبر الآخر: قوله عليه الصلاة والسلام: «خَصْلَتَانِ لا تَجتمعانِ فى مُؤمنٍ: البُخْل وسوء الخُلق». وليس يَعْرَى من البُخل على مذهب أهل المعرفة فى هذا الوقت إلا الأبدال. فقد سُئل بعضُهم عن البخل، فقال: هو أن تتملَّك الشىءَ فتدّعى ملكَه لتمنع الغيرَ عنه أن يأخذَ منك. وقال بعضُ العارفين: البخيلُ من لم يُؤثر بالشىءِ مع الحاجةِ إليه.

فوجودُ بعضِ هذه الأخلاق الدَّنّيَّة، وهى من صِفات النّفس، وجِبلَّة الطبع، وآفاتِ العقل، مُوجبُ الخوفِ من النفاق، فإنّ هذه علامةُ نَقْصِ الإيمان، أو فَقْد اليقين، إذ العلاماتُ قد توجد، والدلائلُ فى الحال قد تُشْهد، ويتأخر حُكمُها ووقوعُ حقائقِها إلى المآل.

وقد كان حذيفة، رضى الله عنه، يقول: إن كان الرجل ليتكلّم بالكلمة على عهد رسول الله ﷺ يصير بها منافقًا حتى يلقى الله تعالى، وإنِّى لأَسْمعها من أحدِكم فى اليوم عشر مراتٍ. وفى لفظ الخبر الآخر: إنّ أحَدَكم ليتكلم بها المجلسَ الواحدَ خمس مراتٍ. وكان يقول: المنافقون اليوم أكثرُ منهم على عهد رسول الله ﷺ. ومرّةً يقول: النِّفاق اليوم شرٌّ منْه على عهد النبى ﷺ، كانوا إذْ ذاك يُسِرُّونَهُ، وهم اليوم يُعلنونَهُ.

وهذا كما قال. لأنّ إعلانَ المعاصى والجِهارَ بها أعظمُ من التَّسَتُّر والتَّخَفِّى، لأنّها إذا أُسِرَّت لم تضرَّ إلا صاحبَها، وإذا أُعلِنَت ضرَّت العامة، ونَكأتْ فى الإسلام، وأوهَنَتْ شأنَ الدِّين. وقد أحْكمنا ذكر هذا المعنى فى مقام التَّوبة.

وكان حُذَيفة يقول: تأتى على القَلْبِ ساعةٌ يمتلئ بالإيمان حتى لا يكون

للنِّفاق فيه مَغرزُ إبرَةٍ. وتأتى عليه ساعةٌ يمتلئ بالنّفاق حتى لا يكون للإيمان فيه مَغرز إبرة». يعنى بهذا: عند قوّة صفات النّفس بالهوى وامتلائها بالشهوة يَغيبُ الإيمانُ، ويحتجب احتجابَ الشّمسِ تحتَ السّحاب الرُّكام، فيرتفع حكمُهُ من إظهار أحكامه الموجبة لمقتضاهُ من الورَع، أو الزُّهد، أو المراقبة، أو المخافة؛ كما يرتفع حكم الشمس شعاع الشمس إذا حُجِبَ بكثيفِ السَّحاب عن الأرضِ، ولا يقع منها ضوءٌ. وعلى هذا المعنى قول رسول الله ﷺ: «لا يزنى الزّانى [حين يزنى] وهو مُؤمن، ولا يسرِقُ السَّارق [حين يَسْرِق] وهو مؤمن، ولا يَشرب الخمر ولا ينتهبُ نَهبةً وهو مُؤمن». وقال فى الخبر الآخر: «إنَّ الإيمانَ كالقميص تَلبَسُهُ أحيانًا، وتَخلعهُ أحيانًا».

وقد يكون امتلاءُ القلب بالنفاق بدلاً من امتلائه بالإيمان فى وقت وقوع المعصية مقدَّر بعلَّته، لأنّه يَرفع اليقين. وعدمُ اليقين هو مكانٌ لوجود النّفاق، أو فى وقت إنكارهِ القُدرةَ من قَدرِ الله، وحين تكذيبه آيةً من آياته. فوجودُ ذلك نقصُ الإيمان، وبنقصِ الإيمان دُخولُ النفاق، فإنْ بَغتَ الموتُ فى هذه الساعة التى يمتلئ القلب فيها نفاقًا حتّى لا يكونَ للإيمانِ فيه مَغْرِزُ إبرةٍ، أليس يكون ذلك خاتِمَتَهُ بالنِّفاق؟ وكذلك إنْ فَجأه الأمْرُ بَغْتةً عند أَحَدِ الخِصَالِ الخَمْسِ: من الفجور فى خِصامه، والغَدْرِ فى عهده، أو الخيانةِ فى أمانتهِ، أليس ذلكَ يَصيرُ فى آخرِ عُمْرِهِ من سُوءِ خاتِمته؟

وقد يتخوَّفُ الخصوصُ إذا جُعلُوا سببًا لبلاء أن يلحقهم منه ذَنْبٌ، وإن لم يكن لهم فيه قَصْدٌ، ولا عليهم منه حُكم؛ من ذلك قولُ مريمَ الصِّدِّيقة: ﴿**يا لَيْتَنى متُّ قَبْلَ هَذا**﴾ [مريم:٢٣]، لمّا جُعلت محنةً للأُمَّة. وعلى ذلك قول عيسى عليه السَّلام، لَمّا سُئِل الشفاعةَ للأُمَم: إنّى لستُ هناك، إنّى أخاف، لأنِّى قد عُبدتُ من دون الله. ومن ذلك قولُ الله له: ﴿**أأنتَ قُلْتَ للنَّاسِ اتَّخذُونى وأُمِّىَ إلَهيْنِ من دُونِ اللهِ**﴾، وقد علم أنّه لم يَقُلْهُ، فَلمَّا عرَض له بالقولِ فزِع، فخاف أن يكونَ قالَهُ، أو أنّ اللهَ يُؤاخذُه به، إذ جعلَهُ سببًا، فقال: ﴿**إنْ كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلمْتَهُ**﴾ [المائدة:١١٦]، فردَّ الغيْبَ والسّريرة إلى حقيقة سابقِ علمه فيه، فلِعلْمِ العالمين بالله

أنَّ الله يتحكَّم فى خَلْقِه كيف شاء من غير سَبَبٍ منهم، لم يأمَنُوا مكْرَهُ بذلك.

ومن أعْجب ما أُضيفَ على العبد فِعْلُه مما لا يفعلُهُ؛ إلا أَنّه أُجْرِىَ عليه وجُعِل مكانه فيه، وهذا سرُّ إحدى الروايات فى شأنِ هاروتَ وماروتَ، وذلك فى قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمان من أحَدٍ﴾ ، وقوله: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ منهُما ما يُفَرِّقُونَ به﴾ [البقرة:١٠٢]، فهما لا يُعَلّمانِ السِّحْرَ قَصْدًا، وإنّما تَهيج عليهما ريحُ الاغتلام مِمّا كانا ابْتُلِيا بها، فيُعاقَبُونَ بهَيج صفاتِهم فى وَقْتٍ، فيَذْكُران الاسْمَ، فَيُطفئ عنهم ريحَ الاغتلام، ويَخمد الطّبع، ويوافق ذلك مجىءُ السَّحَرة، فَيَسْمعون الاسْمَ، وهو يصلح للسِّحْر، فيعلمون به عِلْمَ السِّحر، فذلك من المَلَكَيْنِ دواءٌ لهما من البلوى، وهو عملُ السَّحَرَةِ من عِلْمِ السِّحْرِ، فهو لَهُم من أعْظَم الأدواء. ولا يمكن كشفُ هذه القِصّة، وإظْهار سَببها، إلا أنّها حكمةٌ من اللهِ عجيبةٌ، وقدرة لطيفةٌ.

وكان أصحابُ رسول الله ﷺ يقولون: «إنكم لَتعْملونَ أعمالاً هى أدقُّ فى أعينكم من الشَّعَرِ، كنّا نعدّها على عهد رسول الله ﷺ من الكبائر». وفى لَفْظٍ آخر: «مِن المُوبقات». وقد كان الحسَنُ ـ رحمه الله ـ مع فَضْله وعلمه وزهده وورعِهِ، يقول: لو أنِّى أعلمُ أنِّى برىء من النِّفاق كان أحَبَّ إلىَّ ممَّا طَلَعت عليه الشمس. وقال له قائل: يا أبا سعيدٍ، إنّ ناسًا يقُولُونَ: لا نفاقَ اليومَ، فقال: يا ابن أخى، لَوْ خرج المنافقُونَ مِن هذه المدينةِ ـ يعنى البصرة ـ لاستَوْحَشْتُم. وقال مرّةً، وقد رُوينا عن غيره أيضًا: لو نَبَتَ للمنافقين أذنابٌ ما قَدَر المؤمنون أن يطأوا على الأَرض. وكان يقول: كانوا يعدُّون اختلافَ السِّرِّ والعلانية، واختلافَ الظاهرِ والباطنِ، واختلافَ اللسان والقلب، نِفاقًا. وقال مرّة: كانوا يعدُّون اختلافَ القولِ والعمل، والمدخلِ والمخرجِ، نِفاقًا.

من ذلك أنّ رجلاً قال لابن عمر رضى الله عنهما: إنّا ندخل على هؤلاء الأمراء ونصدِّقهم بما يقولون، ويعلم الله من قلوبنا خلافَ ذلك. أو قال: إنما ندخل عليهم فنمدحهم، فإذا خرجنا تكلّمنا فيهم. قال ابن عمر: كنّا نعدّ هذا نفاقًا على عهد رسولِ الله ﷺ. ورويناه من طريق آخر: أنّه سمِع رجلاً يَسُبُّ

الحجاجَ ويذمُّهُ. فقال له: أرأيْتَ لو كان الحجّاجُ حاضرًا لكُنتَ تتكلّم بما تكلّمتَ به؟ قال: لا. قال ابن عمر: أمّا نحنُ فقد كُنّا نعدُّ هذا نفاقًا على عهد رسول الله ﷺ.

ولعَمْري، لقد ثبتَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يكون بعدي أمراءٌ، مَن دخل عليهم، فصدَّقهم بكَذِبِهم، وأعانَهُم على ظُلْمهم، فليس مني ولستُ منه، ولن يَرِدَ عليَّ الحوضَ، ولكن من كَرِهَ وأنكر». قال: وكان نَفَرٌ قعودٌ على باب حذيفةَ ينتظرونَهُ، فجعلوا يتكلمون في شيء من شأنِه، فلمّا خرجَ، سكتُوا حياءً منه. فقال: تكلّموا فيما كنتُم تقولون. فسكتوا. فقَال: كنا نعدُّ مثل هذا على عهد رسول الله ﷺ نفاقًا.

وقيل: مَن أَمِنَ النّفاقَ فهو منافقٌ. وجاء رجلٌ إلى حُذيفةَ باكيًا، قال: هلكتُ. قال: ما لَكَ؟ قال: إنّي أخافُ النِّفاقَ. فقال له: لو كُنتَ مُنافقًا لم تَخَفِ النِّفاقَ، إنّ المنافِقَ قد أمِنَ النفاقَ.

فجعل خوفَ النفاقِ أمَنَةً منه، وحَسَبَ الأمنَ منْه عَلَمًا لوجودِه منه.

وكان بعضُهم يقول: علامةُ المنافق أن يكره من الناس ما يأتي مِثلَهُ. وسُئل وهبٌ: مَن المنافقُ؟ قال: الذي يحبُّ المدحَ ويكرهُ الذَّمَّ. وقد رويناه مسندًا من طريق أهل البيت: «من علامةِ المنافقِ أن يحبَّ أن يُحمد في جميعِ أُمورِهِ».

وقيل: مِن النفاقِ مَن إذا مُدِح بما ليس فيه أعجبَهُ ذلك. ورويناه مسندًا: «من النفاق أن يحبَّ على شيء من الجور، أو يُبغض على شيء من الحق».

وعلاماتُ النّفاقِ أكثرُ من أن تُحصى، هي سبعون علامةً، وكذلك قيل: الرِّياء سبعون بابًا. وفيما ذكرناه بلاغٌ وكفايةٌ لمن يريده، فخاف وحَذِرَ.

ولا يَعْرَى من النِّفاق من المؤمنين إلا طبقاتٌ ثلاثٌ: الصِّدّيقون، والشّهداءُ، والصّالحون. وهؤلاء الذين ضمّهم اللهُ إلى الأنبياءِ، ووصفَهم بكمالِ النّعمةِ عليهم، وعافاهم من الخِبْرَةِ بالبَلْوى، ووَقاهُم آفةَ الأهواءِ؛ لكمالِ إيمانهم، وصفاءِ يقينهم، وحقيقةِ معرفتهم.

ودَقَائقُ النفاق، وخفايا الشِّرْكِ عن نُقصان التّوحيد، وضَعْفِ اليقين، وترادُفِ الشّهوات، وتزايُدِ العادات، وعن قُوّة النَّفْس، وتظاهر صفاتها، فهذه أوجبت المخَاوفَ على المؤمنين؛ خَشيةَ مقتِ اللهِ، وخوفَ حُبوطِ الأعمالِ من حيث لا يَشعُرون.

وقد كان ابنُ مسعود رضى الله عنه يقول: إنّ الرجلَ ليَخرجُ من منزله ومعه دينُه، فيرجعُ إلى منزلِه وليس معه من دِينه شىءٌ. يلقى الرَّجُلَ فيقول: إنّك لذَيْت وذَيْتِ، ويلقى الآخرَ فيقول: إنّك لأنتَ وأنتَ، ولعله لا يَخْلى منهم بشىءٍ، وقد أَسْخطَ اللهَ عليه.

يعنى به: التزْكيةَ بما لا يعلم، والمدحَ لمن يستحقُّ الذّمَّ، لاختلافِ قلبِه ولسانه، وهو المداهَنَةُ، ولاحتلاب أسباب الدنيا، وفيه الحِرْصُ والطمع. ففى هذا مقتٌ من اللهِ، وإعراضٌ. وفيه قَسوةٌ للقَلْب، ومن الخيرِ انقباضٌ.

ومن أعلى المخاوفِ خوفُ سَلْبِ الإيمان الذى هو عندك وديعةٌ فى خزانةِ المؤمنِ، يُظهره كيف شاء، ويُبديه ويُعيده إلى الغيب متى شاء، ويُخفيه، ذاك من صفةَ المكْرِ، وحُكْمِ الماكِرِ، وكثافة السِّتْرِ، ولُطْف الساترِ. لا يَدْرى، أَهبَةٌ وهبَهُ لكَ، فيُبْقيه عليك، لكرمه وفَضْله؟ أم وديعةٌ عاريةٌ أَوْدَعكَ إياهُ، وأعاركَهُ فتأخُذَهُ؟ إذًا لا محالةَ بحِكْمته وعَدْلِه، وقد أخفى عنك حقيقة ذلك واستأثر بعاقبته.

وكان يحيى يقول: ينبغى أن يَشْغَلَكَ خَوفُ قوتٍ تأكله لا تَدْرى أَحَلالٌ هو أم حرامٌ عن تمنِّى الفُضولِ، وينبغى أن يشغلك خوفُ ذَهابِ الإيمانِ عن تمنِّى درجاتِ الأبدالِ. فإذا لم تُعطَها استَقْلَلْتَ ما قَدْ أُعْطِيتَ، وأنتَ قد أُعطيتَ خيرَ شىءٍ فى خزائنِ اللهِ: الإيمانَ به.

ولعمرى إنّ الخوفَ على فَقْدِ الإيمانِ علامةُ الغِبْطَةِ بوجوده.

وقال بعض العارفين: إنّما قُطِع بالقول عند الوُصول. وقال آخرُ: وا خَطراَهُ! كما قال أبو الدّرداءُ، وحَلَفَ: «ما أحدٌ أمِنَ أن يُسْلَبَ إيمانَه إلا سُلِبه». فكذلك الأمرُ فى تقليباتِ القُلوب فى معانى الشِّرْكِ وتلويحات الشَّكِّ، إن وافق ذلك وقْتَ

الوَفاة كان ذلك خاتمتَهُ؛ لأنّها آخرُ عمله، وآخرُ ساعةٍ من عُمْرِه. وخاتَمُ الشىء آخِرُهُ، ومن ذلك قوله: ﴿وخَاتَمِ النبيِّين﴾ [الأحزاب: ٤٠] أى: آخرُهم، ليس بعده نَبىٌّ. ومثله: ﴿خَاتَمُهُ مِسْكٌ﴾(١) و ﴿خِتَامُهُ﴾ [المطففين: ٢٦] أيضًا، أى: آخر الكأسِ، بدلٌ من الثُّقْلِ يكونُ مِسْكًا.

ومن المخاوفِ خوفُ قَطع المزيدِ من عِلْمِ الإيمانِ، مع تَبْقِيَةِ المعرفةِ المبتدأة، يكون مُسْتَدْرَجًا بها، ممنوعًا من المزيدِ منها، وقد لا يكونُ بها مدرَّجًا، إلا أن توقيفَ المزيدِ عنه هو لعلّةٍ واقفةٍ من الهَوَى فيه، وقد يُقسِّى قَلْبَهُ، ويُجْدِى عَبَثَهُ. وذلك من النُّقصانِ الذى يعرفُه أَهلُ التَّمامِ؛ لأنّ عينَ الوجهِ من المُلْكِ للدنيا، وعينَ القَلْبِ من الملكوت للآخرة، فيمنعُهُ ما ينفعُهُ عنده، ويعطيه ما يَغُرُّه به، ويَفْتَتِنُ عند الخَلْقِ؛ كمن أُعْطِى العَصْفَ المأكول.

وقال مجاهد: إنّ الرَّجُلَ لَتبكى عيناهُ وقلبُهُ أَقْسى من الحجر. وقال مالك بن دينار: قرأتُ فى التوراة: إذا استكمل العبدُ النِّفاق مُلِّكَ عينيه، فيبكى متى شاء.

وقد كانوا يستعيذُون بالله من بُكاءِ النِّفاقِ؛ وهو أن يُفْتَح للعَبْد أبوابُ البكاء، ويُغْلَق عنه بابُ الصِّدْقِ والذُّلِّ والخُشوعِ، قال الله سبحانه: ﴿وجَاءُوا أَبَاهُم عشاءً يَبْكُونَ﴾ [يوسف: ١٦]. وكان السَّلف أيضًا يقولون: استَعِيذُوا بالله من خُشوعِ النِّفَاقِ. قيل: وما هو؟ قال: أن تبكى العينُ والقَلْبُ قاسٍ.

وحقيقةُ البكاءِ هو بُكاءُ القَلْب؛ الهمُّ اللازمُ، والحزنُ الدائمُ، والوَجْدُ القائمُ، والكَمَدُ الملائم. فَلأَنْ يُعطَى العبدُ ذَرَّةً من بُكاءِ القَلْبِ، وبكاء العمل أيضًا ـ بحُسنِ المعاملة ودوامِ المجاهدة ـ مع فَقْدِ بُكاءِ العينِ، أحمدُ عاقبةً له من أن يُعْطَى أحمالاً من بُكاءٍ فى عَيْنِهِ مع قَسْوةِ قَلبٍ.

وفى خبرٍ أن النبى ﷺ «قرأ سورة التكاثر، فبكوا إلا عبد الرحمن. فقال بعضهم: لم يبكِ عبدُ الرحمن. فقال النبى ﷺ: إن لم تَبكِ عَيناه فقد بكَى قلبُه». وفى خبر آخر: قال ﷺ: «إن بُكاء عثمان فى ساقَيْه» يعنى: طول القيام

(١) قراءة الكسائى وحده. انظر: السبعة فى القراءات، ص ٦٧٦. وانظر: القرطبى ١٩/ ٢٦٥.

بحقّ التلاوةِ فى ليل التَّمامِ.

فرِقَّةُ القَلْبِ عند أهل المعرفةِ هو خشوعُهُ وانكسارُهُ وذلّتُهُ وإخباتُه، فمن أعطاه هذا فى قلبه لم يضرّه ما منعه من بُكاءِ عينه، وإن رُجح له بفيضِ العينِ فهو فَضْلٌ، ومَنْ أعطاهُ بكاءَ عينٍ وحرَمَهُ خُشوعَ قَلْبٍ وخُضُوعَهُ وإخباتَه، فقد مكر به، وهذا حقيقته مَنْعٌ. لأنَّا رُوينا فى الأخبار: «إذا كان فى آخر الزمان سكنَتِ الشّياطينُ عيونَ النّاسِ، فلا يريد الباكى أن يَبكى إلا بكى». وقال بعضُ السَّلف: أقربهم دَمْعةً أسرعهم إلى فَخْرة.

وجملةُ بُكاءِ العين إنّما هو فى علم العقل، فأما علمُ التوحيد بمشاهدةِ القُدْرة فلا بُكاءَ فيه، لأنّه يظهر لشاهدِ التوحيد وعين اليقين، فيَحْمِلُه القُدرةَ، فيفيضُ[1] الدُّموع بانتشاقِ القُوّةِ، ولا يتصاعد إلى الدِّماغِ، فيعتصرُ رُطوبتَه، ويَسْتنزلُ الدَّمْعَةَ فى مَفِيضِها من العينِ.

فإنّما بكاءُ القلبِ من الإيمان والمعرفةِ والفهم والتصديقِ، وبكاءُ العين فى علوم العقل من الدُّموع بتصاعد الحُسُوسِ. أُنشدتُ لبعضهم فى معناه:

إنّ العيــونَ إذَا تَعـذَّرَ صَـوْبُها ... غاضَتْ، فَصارَتْ فى القُلوبِ دماءُ
وكذاك نيرانُ القُلوب إذا الْتَظت ... حرًى، نَشَفْنَ من العيـونِ المـاءُ

فعلى هذا المعنى يكون الطبعُ إذا جَمَدَ، ونُورُ القلب إذا وُجِدَ؛ كما يقول:

إنّ النّفوسَ إذَا تلاشى وَصْفُها ... غاضَتْ فصارَتْ فى الحَشَا أنوارا
وكــذاك أنوارُ القُلُـوبِ إذا عَلَتْ ... وَجْــدًا طَفَيْنَ من النُّفـوس النّارا

وقد وصف الله الباكين من العلماء فى السُّجود لمزيدِ اليقين بالخشوعِ، فى قوله عزّ وجل: ﴿وَيخرُّونَ للأَذْقان يبْكُونَ وَيزيدُهُم خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٩].

فإذا زاد بالبُكاءِ كبْرًا وَفخْرًا ورغبةً فى الدُّنيا وحِرْصًا، عَلِمنا بذلك عَدَمَ الخشوع من القلب، وكان تَصنُّعًا وتعجُّبًا وعُجبًا بخفايا آفاتِ النّفوس.

---

(١) كذا فى (خ)، وهى فى (ط): «فيحمله على علم القدرة، فيفيض»، وفى (خ) يمكن أن تقرأ «فيغيض» بالغين.

فأعلى المخاوف خوفُ السَّوابقِ والخواتمِ، كما كان بعض العارفين يقول: ما بكائى وغَمِّى من ذُنوبى وشهواتى؛ لأنّها أخلاقى وصفاتى، لا تليق إلا بى، إنّما حزنى وحسرتى كيف كان هذا قِسْمِى منه، ونصيبى حين قَسّم الأَقْسامَ، وفرّقَ العطاء بين العبادِ، فكيف كان قِسْمِى منه البُعْد؟!

فهذا الذى ذكرناه هو جُملُ خوف العلماءِ الذين هم ورثةُ الأنبياء، وهم أبدالُ النبيّين، وأئمةُ المتّقين، أُولو القُوّةِ والتّمكين.

وسُئِل أبو محمّد رحمه الله: هل يُعطِى اللهُ أحدًا من المؤمنين من الخوفِ زِنَةَ مثقالٍ؟ فقال: من المؤمنين من يُعطَى من الخوفِ وَزْنَ جَبَلِ أُحُد. قيل: فكَيفَ يكونُ حالهم؟ يأكُلون وينامون ويَنكحُون؟ قال: نعم يفعلون ذلك، والمشاهدةُ لا تفارقهم، والمأوَى يُظِلُّهم. قيل: فأين الخوفُ؟ قال: يحمله حجابُ القُدرة بلطيف الحِكْمةِ، ويسترُ القلبَ تحت الحجابِ فى التصريف بصفاتِ البشرية، فيكون مَثَلُ هذا العبد مثَل المرسلين.

وهذا كما قال؛ لأنّ شهادة التوحيد بالتصريفِ والحكمة يقيمهُ القيامَ بالأحكامِ، وذلك أن نورَ الإيمانِ فى القلبِ عظيمٌ، لو ظهرَ للقلبِ لأحرقَ الجِسم وما اتَّصلَ به من الملكِ، إلا أنّه مَستورٌ بالفضل، مغطًّى بالعِلم، لإيقاعِ الأحكام، وإيجاب التصريف فيها بالقِيامِ، كساهِ فى صلاته بسياحةَ قَلْبه، وتيهِهِ بوَجْده، وحدودُ الصَّلاةِ تجرى على أركانه بعادته من غير قَصْده، فأنوارُ الخوفِ من معانى القُدْرةِ والصفات؛ لأنّ الأنوارَ محجوبةٌ بالأسماء، والأسماءَ محجوبةٌ بالأفعال، والأفعالَ محتجبةٌ بالحركاتِ، فتظهر الحركةُ بالقُدْرَةِ وهى غَيْبٌ مِن وَرَائها. كذلك يظهر التصريف بالحكمة عن نورِ الإيمان، وأنوارُ الإيمانِ مستورةٌ من وَرائه، فيعتدل القَلْبُ بمشاهدة الأفعالِ، ويستقيمُ بالقيام عن تجلى وصفِ فاعلٍ بالمعنى الذى (. . .) به قام بالأحكام، فلا يتنافى ذلك ولا يتضادُّ (. . .) بقيوميةِ بجريان الحُكْمِ عليه من الحاكم؛ لأنّ له فى كلٍّ مشاهدةً، بمعنى شهيده، محكومًا عليه، مُتحكِّمًا فيه حكم حاكم لا يتهاوَن مشهودُهُ عن شهادَة شاهده، مُنتظمًا على حكمه الأحكام من وصف يليق بمعنى ما ظهر من الشهيد، فيجد ذَلك المعنى الذى أوجده به من

لُطفٍ ورحمةٍ وفَضْلٍ ونعمةٍ وصُنْعٍ وحكمةٍ وأُنْسٍ وقُرْبةٍ. فلا تتفاوَت مشاهدةُ العارفِ إذ أنّه في كلِّ مشهودٍ يُظْهِر شهادةً؛ بمعنى ما يشهد من فعلٍ أو حركةٍ وصفةٍ، فيجد بكل مَوْجودٍ، بمعنى وجوده الذى أوجد (...)[1] الذى لاقَ بما أشهدَهُ منه فلا يتعاظم ذلك عليه ولا يَؤودُه، وقد قال سبحانه: ﴿**لو أنْزَلْنا هَذَا القُرآنَ على جَبَلٍ لَرأيتَهُ خَاشعًا مُتصَدِّعًا**﴾ [الحشر:٢١]، وقال: ﴿**نَزَلَ به الرُّوحُ الأمينُ * على قَلْبكَ**﴾ [الشعراء:١٩٣ـ ١٩٤] فثبت له تثبيت شاهدِهِ على معنى ما أشهدَهُ منه، بما أوجَدَهُ به من الوصف الذى له به تجلّى، غير الوصفِ الذى للجبل به تجلّى، إذ تَجلِّيه لمحمّد ﷺ على صورته المحمّديّة الآدميّة ليس كتجلِّيه للكرسى الوسيع، ولا للعرشِ الرَّفيع من صفاتِ العظمةِ والجلالِ والقُدْرة، إذ هو سبحانه ذو الجلالِ بالهَيْبةِ والسَّطوةِ والإكرامِ، بالصُّورةِ والصِّفةِ. ولا يصلحُ الزِّيادةُ على هذا لضَعْفِ العقولِ عن الصَّبر عليه.

وقال بعض العارفين: لو كُشِف وجهُ المؤمنِ للخَلْق عند الله تعالى لَعبدُوه من دونِ الله تعالى. ولو ظهر نورُ قلبهِ للدنيا لم يثبت له شىءٌ على وَجْهِ الأرضِ.

فسبحانَ من سَتر القدرةَ ومعانيها بالحكمةِ وأسبابِها حِلْمًا منه ورَحْمةً، وتَطْرِيقًا للخَلْقِ إليه للمنفعةِ.

وفى قراءة أُبيٍّ بن كَعْبٍ: (مثلُ نُورِ المُؤْمِن)[2]، فلولا أنّ نورَه مِن نوره ما استجازَ إبدالَ حرفٍ بغَيْرِ معناه.

وقد كان سهل رحمه الله تعالى يقول: الخوفُ مباينةُ النَّهْى، والخشيةُ الورَعُ،

---

(١) فى مواضع النقط السابقة طمس بالمخطوط لا يتبين معه الكلام، وهو قدر كلمة أو كلمتين.

(٢) هذه القراءة فى تفسير القرطبى (١٢/ ٢٦٠) فى سورة النور. وفيه: «واختلف المتأوّلون فى عود الضمير فى «نوره» على من يعود. فقال كعب الأحبار، وابن جبير: هو عائد على محمد ﷺ؛ أى: مَثَل نور محمد ﷺ. وقال أُبَىّ بن كعب والضحاك: هو عائد على المؤمنين. وقال الحسن: هو عائد على القرآن والإيمان. وعلى هذه الأقوال يوقف على قوله: ﴿**والأرض**﴾. قال ابن عطية: وهذه الأقوال فيها عود الضمير على مَن لم يجرِ له ذكر. وفيها مقابلة جزء من المثال بجزء من الممثَّل...

ونقل الطبرى فيها نقولاً كثيرة فى تأويل هذا الحرف من القرآن، فراجعه ثَمَّ (١٢/ ٢٥٩ ـ ٢٦١).

والإشفاقُ هو الزهدُ. وكان يقول: دخولُ الخوفِ على الجاهلِ يدعُوه إلى العِلم، ودخوله على العالم يدعُوه إلى الزهد، ودخولُه على العامِلِ يدعُوه إلى الإخلاص.

فصار الخُوفُ يصلح للكافّة؛ إذ دخولُه على العامِّ يُخرِجُهُ من الحرامِ، ودخولُهُ على الخاصِّ يُدْخِلُه في الورع والزهد[١].

وقال أيضًا: الإخلاصُ فريضةٌ لا تُنال إلا بالخوف، ولا يُنالُ الخوفُ إلا بالزُّهد[٢]. لأنَّ مَن خافَ ترك، فصار الخوف أوَّلَ العبادةِ لأنّه ينبت الإخلاص، وكان ثَمرتُهُ الزّهادة، لأنها تقتضي الخروج من الحرام.

وقال أبو محمد: مَنْ أحبَّ أن يرى خوفَ اللهِ في قَلْبِهِ فلا يأكل إلا حَلالاً. ولا يَصِحّ[٣] علمُ الرَّجاءِ إلا للخائف.

يعني:[٤] ليعتدل شَهَادتاهُ بتَقدمَةِ الخَوْفِ، فيكون بِشهاداته قائمًا، فإخلاءُ قَلْبِهِ من الخَوْفِ وانفرادُهُ بحالِ الرّجاء يُخرجُه إلى الأَمْرِ والاغْترارِ، فدخَل في أعمالِ الهوَى، لفقد حالِ الخوفِ أوَّلاً.

وكان يقول: الخوف ذَكَرٌ، والمحبّةُ أُنثى، ألاَ ترى أنّ أكثر النُّسَّاكِ[٥] يدّعونَ المحبّة.

يريد بهذا أنّ فضلَ الخوفِ على الرّجاء كفضل الذَّكر على الأُنْثى. وهو كما قال؛ لأنّ الخوفَ حالُ العُلماء، والرَّجاءُ وصفُ العمّال، ففضلُهُ عليه كفَضْلِ العِلْم على العَمَلِ. وفي الخبر: «فَضْلُ العالِم على العابدِ كفضْلِ القَمر على الكوَاكبِ».

وحَدَّثَ مُصْعبُ بن سعْدٍ عن أبيهِ عن رسول الله ﷺ: «فَضْلٌ من عِلْمٍ أحبُّ

(١) عبارة (ط): «إذ دخوله على العامة يخرجهم من الحرام، ودخوله على الخاصة يدخلهم في الورع والزهد».

(٢) جاءت هذه العبارة في غير موضعها في (ط)، وأثبتها كما في (خ).

(٣) في (ط): «ولا يصلح» وأثبت ما في (خ).

(٤) من أول هنا إلى آخر الفقرة ساقط من المطبوعة، وهو من (خ).

(٥) في (ط) و(هـ): «النّساء» وأرجح أنها خطأ لأن الفعل جاء بعدها «يدعون»، ولو كان اللفظ «النساء» لقال: يدّعين. وأثبت ما في (خ).

إليَّ مِن فَضْلٍ مِن عَمَلٍ. وخيرُ دينُكم الورعُ». فالورعُ بابٌ من الخوفِ؛ لأنه يكون عن معناه(١).

وكان الحسن يقول: ما عُبِدَ اللهُ بشىء أفضل من طُولِ الحُزنِ والخوفِ. وقال بعضُ السّلف: حَسْبُك من الخوفِ اجتنابُ المعاصى. وكان الثّورىّ يقول: ما أحبُّ أنى عَرَفْتُ الأمرَ حَقّ معرفتِه، إذًا لطاش عَقْلِى.

فالخوف عند العلماء على غير ما تصوَّر فى أوهام العُموم(٢)، وبخلاف ما يعدُّونه من القلق والاحتراقِ أو الوَلَه والانزعاج؛ لأنّ هذه خطراتٌ ومواجيدُ وأحوالٌ للوَالِهين، وليست من حقيقةِ العلم فى شىء، بمنزلة مواجيدِ بعضِ الصوفية من أهل المعرفةِ الصَّادِقين(٣) فِى أحوال المحبّةِ من احْتراقِهم ووَلَهِهم.

والخوفُ عند العلماء إنما هو اسم لصحيح العلم وصدق المشاهدة. فإذا أُعطى عبدٌ حقيقةَ العلمِ، وصِدْقَ اليقين، سُمِّى هذا خائفًا.

فلذلك كان النبىُّ ﷺ من أخوفِ الخلق؛ لأنّه كان على حقيقةِ العِلْم، ومن أشدِّهم حبًا لله تعالى؛ لأنه كان فى نهاية القُرب، وقد كان حاله السكينةَ والوقارَ فى المقامين معًا، والتمكينَ والتثبيتَ فى الأحوال كلها. ولم يكن حالُه(٤) القَلَق والانزعاج، ولا الوَلَه [والقَوَة](٥) والاستهتار. قد أُعطى ﷺ أضعافَ عقولِ الخليقة، وأُوقِف على يمينٍ من الحقيقةِ، وبانت له كلُّ دقيقة، فألْبَس أحوال الخَلْقِ وعلومَهُم، ووسّع قلبه لهم، وشرَحَ صدرَه للصبر عليهم، فكان ﷺ مع الأعرابى كأنّه أعرابى، ومع الصّبى بمعناه، ومع المرأة فى نحوها، يقاربُهم فى علومهم، ويخاطبهم بعقولهم، ويَظْهَرُ منه مثلُ وَجْدهم؛ ليعطيَهُم نصيبَهُم من الأُنس به، ويوفِّيهم حقوقَهُم من الدَّرَك منه، ولئلا تَعْظُم هيبتُهُ فى صدورِهم فينقطعون عن

(١) هذه الفقرة والتى بعدها زيادة من (خ).
(٢) فى (ط): «العامّة».
(٣) فى (ط): «من العارفين».
(٤) فى (ط): «وصفه».
(٥) زيادة من (خ).

السؤال له، والأُنسِ به، حكمةً منه لا يفطنُون لها، ورحمةً منه قد جُبل عليها؛ قد أُلبسٍ مواجيدَهم لِبسةً، وأُدخل ذلك عليه صِبغةً بغير تكلُّف ولا تصنُّع. ذلك تعليم[1] الحكيم العليم. فلذلك وصفه عزّ وجلّ بخُلُقه، وتعجب من وصفه، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤] قيل: على أخلاق الربوبية. وقُرئت بالإضافة إلى عظيم، فيكون العظيم اسم الله سبحانه.

على أنّ لَه ـ كما ذكرنا آنفًا ـ من وصف العارف من كل مشاهدة وجْدًا، وبكل موجود مشاهدةً، بمعناه من معانى (. . .) ليعتدل حاله، ويتمَّ وجدُهُ وشهادتُهُ. وكذلك الا (. . .)[2] تبعنَاهُ على ما ذكرناه، ثم الصدّيقون من العلماء [الذين هم] أمثالُ الأنبياء والأبدالِ منهم، لا يُظهر أحدهم من حاله ونصيبه شيئًا؛ لقوّة التمكين، وفَضْلِ العقل. ولا يبخسُ من نصيب الخَلْقِ منه شيئًا؛ لحقيقة الحكمة والعَدْل، ولا يتظاهر أحدهم بشىء؛ لتحقُّقِه بالزُّهدِ والتّواضع والفضل، ولا يظهر عليه شىءٌ؛ لمكانه من القوةِ ورسوخِ العِلم وثُبُوتِ الحكمة. هم كما يَظْهرون به، ومن وراء ما يُظْهِرُون. هذه سنّة الأولياء العارفين، ومنهاجُ الأصفياء المُمكَّنين من أهل البلاءِ الذين هم الأمثل فالأمثل بالأنبياء.

وقال بعض الحكماء: ما أَلْبس اللهُ عَبْدًا لِبسةً أحَسنَ من خشوعٍ فى سكينة، هى لِبسةُ النبيين، وحِليةُ الصِّدِّيقين. وكان بعض أهل المعرفةِ يقول: مَن طالبَ الخَلق بعلمه، وخاطبهم بعقله، فقد بخَسَهُم حقوقَهم منه، ولم يقُم بحقٍّ الله فيهم. وقال بعض العلماء: لا يكونُ إمامًا من حدَّث الناس بكل علمه، وأظهر لهم نصيبه. وكان يحيى بن معاذ يقول: لا تُخْرج أحدًا من طريقِه، ولا تخاطبه بغير عِلْمِه، فتتعب ولا ينتفع. ولكن اغْرِف له من نهرِه، واسْقه بكأسه.

وسُئِل بعض العلماء عن العارف، هل يستوحشُ من الخلق؟ قال: لا يستوحش ولكن قد يكون نفورًا. قيل: فهل يُسْتَوحَشُ مِنه؟ قال: العارف لا يُسْتوحش منه، ولكن قد يُهاب.

---

(١) فى (ط): «تعلم ذلك من».

(٢) فى هذا الموضع والذى قبله طمس بالأصل بمقدار كلمة أو بعض كلمة.

وممّا يدلُّك أن الخوفَ اسمٌ لحقيقة العلم بالله، أن فى إحدى القراءتين من قراءة أُبىٍّ بن كعب، أو عبد الله، فى معنى قوله: ﴿فَخَشينا أن يُرْهِقَهُما﴾ [الكهف: ٨٠]: (فخَافَ ربُّكَ أنْ يُرهقَهما)(١). قال الفَرَّاء: معناه: فعلم ربُّك. وقال: الخوفُ والظَّنُّ يُذهَب بهما مذهب العِلْمِ.

ومن معنى هذا أيضًا سُمِّى الحياءُ بمعنى الخشية وهى الخوف، فجعل الحياء اسمَ الخشيةِ، ولذلك قُرِئَ هذا الحرفُ: (إنَّما يَخْشَى اللهُ مِن عبادِه العُلماءَ) سمعتُه من بَعْضِ العلماء بالقرآنِ والفَسْر(٢)، فقال: إنما معناه: إنما يستحى اللهُ من العلماء من عبادِه؛ لأن الله سبحانه حَيِىٌّ كريم، يقابل الحياءَ لَهُ بالحياءِ منه، كرمًا وفَضْلاً.

وكذلك فَسَّروا قوله عز وجَلّ: ﴿وتَخْشَى النَّاسَ﴾ [الأحزاب:٣٧] بمعنى تَسْتَحْيِيهم كقوله فى المفسَّر: ﴿فَيَسْتَحْيِى منكُمْ﴾ [الأحزاب:٥٣] لأنّ رسول الله ﷺ لم يكن يخاف الناس فى الله، كيف وقد أخبر الله تعالى عن الرُّسلِ بترك خشية الخَلْقِ، وتوحيد الخوفِ له فى قوله: ﴿الَّذينَ يُبلِّغُونَ رِسَالات الله ويَخْشَوْنَهُ ولا يَخْشَوْنَ أحَدًا إلاَّ اللهَ﴾ [الأحزاب:٣٩] فقد دخَل فيهم، وهو أعْلاهُم.

• بيان آخر فى معنى الخوف:

والخوفُ أيضًا من أسماء المعانى، فوجُودُه بانتفاء ضدِّه. فإذا عُدم مِن القلب الأمنُ من كلّ وجهٍ من أحوالِ الدنيا وأمورِ الآخرة، فلم يأمن مكرَ اللهِ تعالى فى كلِّ الأحوال، فى تصريفِ أحكام الدنيا، وتقليبِ حركات القلوبِ والنُّفوس، وجواذبِ الشّهوات، وإثارة طبائعِ العادات، ولم يَسْكُن إلى عُرْف ولا اعتياد، ولا يقطع بسلامته وبراءته فى شىءٍ، كان هذا خوفًا، وسُمِّى العبدُ بفقدِ الأمنِ من جميعِ ذلك خائفًا.

---

(١) القراءة لأبى بن كعب، وهى فى: معانى القرآن، للفرّاء، ٢/ ١٥٧.

(٢) يقصد الآية ٢٨ من سورة فاطر. وهذه القراءة نسبها الزمخشرى إلى عمر بن عبد العزيز وأبى حنيفة، وقال: «الخشيةُ فى هذه القراءة استعارة، والمعنى: إنما يجلُّهم ويُعظِّمهم...». انظر: الكشاف ٣/ ٦١١، والقرطبى ١٤/ ٣٤٤. والفسر: علم التفسير.

فهذا مستعملٌ فاشٍ فى كلام العرب ومذهبهم. يقول أحدهم: أخاف من كذا؛ إذا لم يأمنه. أو: أخاف أن يكون ذا؛ إذا تحقَّقَ علْمَه.

وقيل لبعض العلماء: ما بال العارفِ يخاف فى كلّ حال؟ فقال: لعلمه أن الله تعالى قد يأخذ فى جميع الأحوال، فكذلك لا يأمن فى حالٍ ولا يسكُن إلى حالٍ[1].

ثم إن للخائفين بعد هذا طُرقًا ووَجهًا من قِبَلِ الخوف المقْلِق، والإشفاق المزعج، والوَجَل المحرق[2]: هى مُجاورَاتٌ للطُّرق السَّابلة[3]، التى هى محاجُّ للأئمةِ المختارةِ الفاضلة، وفيها مَتاوهُ ومَهالكُ تنكَّبَ[4] عنها العلماءُ السّادة والصفوةُ المختارة. إلا أنه قد سُلِك ببعض الزهّاد والعُبّاد فيها، وأُريد بعضُ العارفين بها، ليستْ بِمفضَّلَة، كلُّ ذلك عند العلماء ولا بمُتَنافَسٍ فيها مَغْبوطٍ عليها عند العارفين؛ لأنّها قد تُخرج من طرقاتِ المسالكِ إلى مَفاوزِ المهالكِ. وإنّما أُريد ببعضهم التعريفُ لها، والاطّلاعُ عليها. ومنهم من أُريد منه التّيه والولَه فيها، إلا أنّها أَشْهر فى أسماعِ العامة، وأَعجب وأهولُ عند العُموم.

• ذكر تفصيل هذه المخاوف:

اعلم أنّ للخوف سبعَ مفائضَ تفيض إليها من القلب، فإلى أيِّ مفيضٍ فاض من القلب إليه أتلف صاحبَهُ به، إلا ما يستثنيه.

قد يفيض الخوفُ من القلبِ إلى المرارةِ وهى أرقّ صفاتِ الأَدَمة، وهى باطن البَشَرة، فيحرقها، فيُقتل العبدُ، وهؤلاء هم الذين يموتون من الغَشْى والصَّعْق وبدَاوَتِ الوَجْد، وهم ضُعفاء العمّال.

وقد يطير الخوفُ من القلب إلى الدِّماغ، فيُحرق العقلَ، فيتيه العبدُ، فيذهب الحال، ويسقط المقام.

---

(١) من قوله «فكذلك» إلى هنا ساقط من المطبوعة، وهو من (خ).

(٢) فى (خ): «الإزعاج المحرق والإشفاق المولّه».

(٣) السّابلة: الطريق المسلوك.

(٤) فى (ط): «نقلت» وأثبت ما فى (خ).

وقد يَحُلُّ الخوفُ السَّحْرَ، وهو الرئة، فيَنْقبُها، فيذهَب الأكلُ والشُّرب، حتى يَسِلَّ الجسمُ، وينشف الدم، وهذا لأهلِ الجُوعِ والطيِّ والاصْفرار.

وقد يسكن الخوفُ الكبدَ، فيُورث الكَمَدَ اللازمَ والحزْنَ الدَّائم، ويُحدث الفكرَ الطويلَ والسَّهَر الذّاهبَ. وفي هذا المقام يذهب النومُ، ويدومُ السّهر، وهذا من أفضلِها. وفي هذا الخوف العِلمُ والمشاهدَةُ، وهو من خوفِ العاملين.

وقد يقدحُ الخوفُ في الفرائص. والفريصةُ: هي اللحمةُ التي تكون على الكَتف، يقال للحمْتَى الكتفين: الفرِيصتان؛ وجَمْعها: الفرائص. ومنه الخبر: «أن رسول الله ﷺ كان يعجبُه الفريصتانِ من اللحم»، وهو أرقُّ لحم الحيوان وأعذبُه. فمن هذا الخوف يكون الاضطرابُ والارتعاشُ واختلافُ الحركةِ.

وقد يبدو الخوفُ من القلب، فيغشى العقلَ فيَمْحى سلطانه لقهْر سلطانِ القُدرة، مَحْوَ الشمسِ ـ إذا برزَت ـ ضوءَ القمر البادي، الذي يَبْدُو أعْلى السّرِّ من خزائنِ الملكوت، فيضعُف لحملِه العقلُ، فيضطّربُ لضَعْفِه الجسمُ، فلا يتمكَّن العبدُ من القرارِ لضَعفِ صفته.

وذلك أن أجزاءَ الإنسان وإن كانت متفرقةً في البنيان للحكمة والإتقان، فهي كشيءٍ واحد يجمعها لطيفُ القدرة بإظهار المشيئة. فأسفلُ البِنية منوط بأعلاها، فإذا اضطرب أعلاها مال أسفلها، وإذا وصل الداء أو الدواء إلى عضو منها تداعى له سائرها. ألا[1] ترى أن القَلْبَ مَلِكُ الجسدِ، كالشمس مَلِكُ الفلَك، إلا أن المعدة مركَّبة عليه، وهي تحته في البنية، وهو أحد أركانها الأربعة، مع الكبد والطحالِ والرئة. فإذا وصل إليها شيءٌ من عِلل الطبائع سرى ذلك إلى القلبِ فأعلَّه واضطربَ له، كما يَسْرى إلى أركانه الثلاثة.

وهذه الطائفة أشبهُ بالفضل، وأدخلُ في وصف العلم. وقد سُلك في هذا الطريق أكابرُ العلماء وأفاضلُ أهلِ القلوب، وقد كان هؤلاء في التابعين كثيرًا، منهم: الرّبيعُ بن خيثم، وأُويسٌ القَرَني، وزُرارةُ بن أوْفي، ونُظراؤهم من الأخيار

(١) من هنا إلى آخر الفقرة لا يوجد في المطبوعة، وهو من (خ).

رضى الله عنهم[١]. ولم ينكر هذا عِليةُ الصحابة ممَّن عرَفه، مثل: عمر، وابنِ مسعود، وحُذَيفة، رضى الله عنهم.

وقد كان عمر رضى الله عنه يُغشى عليه، حتى يضطرب مثل البعير، ويسقط من ذى قيام.

وقد كان الغَشْىُ يَتَغَشَّى سعيدَ بنَ جـذيم، وكان من الزُّهاد ومن أصحابِ رسول الله ﷺ، ومن أمراءِ الأجناد، بعثه عمر رضى الله عنه واليًا على أهل الشام، وكان يوصف له من زهده وشدة فاقته ما يعاتبُهُ عمر فى ذلك. وبعث إليه مَرَّةً بأربعمائة دينار ـ وفى رواية ألف دينار ـ وعَزَم عليه ليستنفقها على أهله، فَفَرَّق ذلك على الغُزاة، فى قصة طويلة. فكتب أهل الشام إلى عمر يذكرُون شأنه، وما كان يتغشَّاه من الوجد فى مجلسه، فخَشَوْا عليه من دَخْلٍ[٢] فى عقله، ولم يعرف ذلك أهلُ الشام. فسأله عمرُ لَمَّا لقيه عن الذى يصيبه إذا تحدَّث، فأخبره بما يجده فى قلبه من معنى مشاهدته ووَجْدِه، وهو من مواجيدِ الصُّوفية من أهل الأحوال. فعرف عمر ذلك وعذره، وما زاده ذلك عنده إلا خيرًا، فكان يكرمه ويعرفُ له فضْلَه وعلمه. وكتبَ إلى أهلِ الشّام أن لا تُعنِّفُوه فى أمْرِه، ودَعوه[٣].

وقد كان أقوى الأقوياءِ، وهادى الهداةِ، رسولُ رب العالمين ﷺ يُغْشَى عليه عند نزولِ الوحى، إذا لبسه لِبْسةً أزال ترتيبَ العقلِ منه، ورفع مكانَ الكون عنه، حتّى يَغُطَّ، ويتربَّد وجهُه، وينجدر منه مثلُ الجُمانِ من العرَقِ فى اليوم الشّاتى، إلا أن هذا كان يصيبه ﷺ فى ضَرْبٍ من الوَحْى إذا تَغَشَّاه متّصلاً، أو ينزل عليه روحُ القدس فى رُوحِهِ مُواصِلاً، واستبطن باطنَ قَلْبه؛ لأن الوحى على أربعة أضرب: ضربان متّصلان؛ هذا أحدهما. وضربان منفصلان. ومن كلٍّ واحدٍ

(١) بعده فى نسخة (هـ): «وقد كان ذلك سنة أهل البيت جعفر بن محمد، وكان يسقط من مقامه، وربما لحقه ذلك فى الصّلاةِ فيخر مغشيًا عليه، ولم ينكروا عليه». وهذا لا موضع له ولا يستقيم به الكلام.

(٢) الدخل: ما داخل الإنسان من داء أو فساد فى عقل أو جسم.

(٣) هذا الخبر فيه زيادات وتصويبات فى المخطوط عن المطبوعة لم أشر إليها تفصيلاً، واكتفى بهذه الإشارة، حتى لا يتشتت ذهن القارئ فى متابعة الخبر.

يلحق العلماءَ بالله تعالى أهلَ القُلوب النَّاظِرة والشّهادةِ الحاضرة وَصْفٌ. إلا أن ذلك فى أهل مقامات ثلاثٍ من المقرّبين: فى مقامٍ من شاهد التّوحيد. ومقامٍ فى مَحبّةٍ بتجلّى وَصْفٍ. ومقامٍ من الشَّفَقِ والخشية لعبدٍ هاربٍ مَطْلُوبٍ.

وكلُّ ضُروبِ الوحْى بعد هذه الأربعة؛ وهى عَشَرَةٌ لأهل هذه المقامات الثّلاث منه نصيبُ شَهادةٍ، أو وَجْدٍ، أو حالٍ، أو خاطرٍ، أو مقامٍ وهمَّةٍ، أو مُواصلةٍ. إلا ضربين من أنواعِ الوحى فإنهما ممتنعٌ ومخصوصٌ بهما الأنبياءُ؛ منها ظهور مَلَك فى صورته، ومنها سَمْعُ كلام اللهِ بصفته.

وشَرْحُ هذا وتفصيله يطولُ ليس هذا موضعه، ولا العقول تَحْمِلُهُ أو تَسعُه، إذ لا يعرفه علمَ يقينٍ إلا مَن سَلَك طريقَه، ولا يَشْهَدُ شُهود تحقيق إلا مَن ذاق حقيقتَهُ، فمن آمن به تصديقَ تَسْليمٍ فله منه نَصِيبٌ.

وقد نظر رسولُ الله ﷺ إلى جبريل فى صُورته بالأبْطح فَصَعِق. وفى خبر حمزةَ الزّيّات عن حُمران بن أعين: «أن رسولَ الله ﷺ قرأ آيةً فى سورة الحاقّة فَصَعِقَ». وقال الله أصدق القائلين: ﴿وخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣].

فمن هذه المعانى مَواجيدُ العارفين، ومن هذه الشَّهادَة شهادةُ الموحِّدين. ثم يرجعون إلى أخلاقٍ سَنِيَّةٍ، وأحوالٍ مكّيّةٍ عَلِيَّةٍ، وسُبلٍ معروفةٍ، وشَرْعةٍ مألوفةٍ.

وقد يفيضُ الخوفُ من القلْب إلى النَّفس فيحرقُ الشّهوات، ويمحو العادات، ويُخمد الطبعَ، ويُطفئ شُعَلَ الهَوى. وهذا أحْمدُ المخاوفِ وأعْلاها عند أهلِ المعارفِ. وهؤلاء أفضلُ الخائفينَ وأرْفعُهم مَقامًا؛ وهو خوف الأنبياءِ والصدّيقينَ وخُصوصِ الشّهداء. وليس فوقَ هذا وَصْفٌ يُغْبَط عليه الخائف، ولا يَفْرَح به عارفٌ. فإن جاوزَ الخوفُ هذه الأوصافَ فقد خرج من حَدّه وجاوز قَدْرَه؛ لأنّه إذا أحرقَ الشّهواتِ، ومَحا الأهواء، قَوِيَ فلم يترك شهوةً ولا هوًى.

ثمَّ إنْ لم يُعْصَم العبدُ من مجاوزةِ حدِّ الخوف خرج به الخوفُ إلى أحدِ ثلاثةِ معانٍ:

خيرُها: أن يسرى إلى النفس فيحرقَها، فيتلفُ العبدُ، فتكونُ له شهادة. وليس

هذا بأرفع مقامات الخائفين فى باب العلوم والمشاهدات عن مُكاشفة معانى تجلِّى الصفات. إلا أنّه قد قال بعض العلماء: ما شهداءُ بدر بأعظم أجرًا ممَّنْ ماتَ وَجْدًا. وهذه صفاتُ ضِعاف المريدين؛ إذ لعُلماء الموقنين بكُلِّ شَهادَة من اليَقين أجرُ شَهيد، وبكلِّ معاينة قُدْرةِ من مُقْتَدر ليلةُ قَدْر، وعن كلِّ قصدِ مَحَجَّةٍ بتعظيمِ عَظيمٍ حُجَّةٌ، وبكُلِّ عِمارةِ قلبٍ بحالِ مَحَبَّةٍ عُمْرةٌ.

وأوْسَطُها: أن يعلو الخوفُ إلى الدِّماغ فيُذيبهُ، فيَنْحَلَّ عُقْدةُ العقلِ لذَوْبه، فَتَضْطرب الطّبائعُ لانحلال عُقدةِ العَقْلِ؛ لأنه مركَّبٌ عليها تركيبَ القِدْر على الأثافىِّ إنْ زلَّت أُثْفيَةٌ سقطَت القِدْرُ. ثم تختلط المزاجات لاضطراب العَقْلِ، فتحترق طبيعةُ الصَّفراء، فتَحُولُ سَوْداءَ، فيكون من هذا الوَسْواسُ والهَذَيانُ والتَّوَه والولَه؛ لاختلاط الأمْزِجَة. وذلك أن الدّماغ جامد، وهو مكانُ العقلِ، وهو معقودٌ به، ومركّبٌ على الطبائع الأربعة [بالنّفوس الحسّية] نتائجُهُ، فإذا اضطربت المِزاجاتُ اشْتَعَلَتْ، فتلَهَّب شُعلها إلى المُخِّ فأحْرقَهُ وأذابَهُ، فَحَلَّ معقدَ العَقْلِ الذى مكانه الدِّماغ، وسلطانُه صِقالُ القلب الظاهر؛ كصِقال نُورِ الحدَقَة للنّاظر. وهو بمنزلة الشمس الطالعة، محلُّها الفَلَك العُلْوىُّ، وشعاعُها على الأَرْضِ؛ كذلك العَقْلُ محلُّهُ الرأسُ، وسلطانُهُ ساطعٌ فى القلب، والحواسُّ الخَمْس أعراضٌ مُتَّصلةٌ به، وذاك من حكمة الحكيمِ المدبِّر القدير، أنَّ كلَّ صَنْعَةٍ فى المُلْك فمثلُها فى صَنْعَةِ الملكوتِ، فأنوارُ القُلُوبِ وأحوالُها فى التَّقْليب كأدواتِ الأجْسامِ وأعْراضِها فى التَّصريف. ففى هذا المقامِ الطَّيْشُ والهَيَمانُ، وهذا مكْروه عند العُلماء، وليس تَحْمَدُ عاقِبَتَهُ الحكماءُ.

وقد أصاب ذلك بعضَ المحبين فى مقامِ المحبَّة، فانطبق عليهم، فَوَلِهُوا بوَجْده، ومنهم مَن فرَّع ذلك عن قَلْبه، فسُرِّى عنه، فأفاق منه، فنطقُوا بعلم وَصْفه.

وقد كان أبو محمّد يقول لأهل التقلُّل الطّاوين المتَقَشِّفينَ: احفظوا عُقُولكم، فإنّه لم يكُن ولىٌّ ناقصَ العَقْلِ.

وحدثنى بعضُ إخوانى، قال: كنَّا حولَ أبى الحسنِ بن سالم، رحمهُ اللهُ، فدخل شابٌّ عُريانٌ، فوقَفَ على الحلْقةِ يَهْذِى، فزجرناهُ نطردُهُ، فقال لنا الشيخُ:

دعُوه، لا تَزبُروه، حتى يَقضىَ ما فى نَفْسه. قال: فكان يتكلّم بوَساوسَ من معانى التّوحيد، وبهَذَيانٍ مختلط من عُلومِ المعارفِ، إلى أن فَتَر وسكَن ثُمَّ انصرف. فقال لنا أبو الحسن: لا باركَ اللهُ فى عُلماءِ السُّوء. ثم قال: لم يكن من أصحابنا أحسنُ عقلاً ولا أكثرُ تعبُّدًا واجتهادًا من هذا الشّابِّ، وكنتُ أنهاهُ عن العَسَفِ بنفسه والحملِ عليها، وآمرُهُ بأكل الدَّسَم والحلاوة، فكان مستقيمَ الأمر. ففارقَنا، وذهبَ إلى أهلِ عَبَّادَان، فقالُوا له: إنَّ ابنَ سالمٍ قد ركَنَ إلى الدُّنيا، وتركَ العِبادةَ والاجْتهادَ، وأَمَرُوه بالجُوع الدائمِ والطَّيِّ، وتركِ أكلِ الدَّسَم والحلاوة، حتى احترق دماغُهُ، وزال عَقْلُه، فذهب الحالُ وتطلُّب العبادة. فقَال: ثم جعَل يتكلّم وقته ذاك فى الرِّفق بالنَّفس، وحُسنِ الرِّياضية، والتّفقّد لها بحسنِ التّدبيرِ والسِّياسة؛ من التفقُّد بالدّسم والحلاوة، والتوسط ما بين الجوع والشِّبَع، أو كما قال (. . .)[1] المغنى.

وقد رأيتُ مَن كانَ سببُ زوالِ عقله مجاهدةَ النفسِ ومجاوزةَ الحدِّ فى المجاهدةِ، والإفراطَ فى الجوعِ الشديدِ بهذه المثابَة. والتوسّطُ والاقتصادُ أفضلُ الطرقات، وهو من علامةِ التوفيق والسّدَاد. وكان بعضُ الحكماء يقول: عليكُم عَيْشًا وسَطًا، لا ذاهبًا فرُوطًا، ولا نازلاً سَقُوطًا.

وقد أمر به رسولُ الله ﷺ فى قوله: «سدِّدُوا وقارِبُوا، وعليكم بالقَصْد، فإنّ هذا الدينَ متينٌ فأَوْغلْ فيه برفْقٍ. ولا تبغِّض إلى نَفْسك عبادةَ الله، فإن المُنْبَتَّ لا أَرْضًا قطع ولا ظَهْرًا أَبْقى. وإنّ لكل شِرَّةٍ ـ يعنى عبادةً وجِدَّة ـ فَتْرةً، فمن كانَت فَتْرتُه إلى سُنَّتى فَقَدْ هُدِى».

وفى أخبارٍ كثيرة نَهى عنها المتقشفين من مُريدى المهاجرين من التبتُّلِ، والمبالغةِ فى التقشُّف، والسَّهرِ الدّائم، والصّومِ اللازم، ومن تَرْكِ أكْلِ اللحم، وغِشْيانِ النِّساء، ونحوِه. نهى عن ذلك ابنَ مظعون، وابنَ عمرَ، وغيرَهُما، وأمرهم بالاقتصاد والتوسّط فى الحالِ، والعِبرةُ بعاقبته فى المآل. وكذلك كانتْ سنَّتُه فى نفسه ﷺ، وسيرتُه فى أصحابِه.

---

(١) طمس بالأصل مقدار كلمتين.

والمعنى الثالث من مَذْموم الخوف، وهو شرُّها فى مُجاوزة الخوف: هو أن يعظُم الخوفُ ويَقْوى، فيذهب الرَّجاءُ، إذا لم يُواجَه بعلمِ الأَخْلاقِ من الجُود والكَرَم والإفضال وقديمِ الإحسانِ وخفِىّ الامتنان بخُلُق المتفضِّل المنّان. فهذه المعانى بها تعديلُ المقامِ من فَضْلِ الاهتمامِ، وتَرْويح الحالِ من كُروبِ الأَثْقال، فلا يُساعدهُ القدَرُ بِذلك، فيُخرِجُهُ وَجْدُه إلى القُنوط من رحمةِ الله، ويعطِفُ به هَمُّه على الإياس من رَوْحِ الله، وتُوقِفُهُ شَهادَتُه على الهَرَبِ من قُدْرةِ الله.

دخلَتْ عليهم هذه المشاهدَةُ من قِبَلِ المُواجهةِ بالإنصاف، والعدل بمعيار العَقْلِ، وإتلاف الجِدِّ، فَجاوزَت بِهِم العِلمَ بأخلاقه المرجوّة من الكَرَم وخَفِىِّ الألطاف، فتعدَّتْ بهم الحُدودَ من قِبَل قوّةِ نظرِهم إلى الاكْتِسابِ، وتمكَّنَ بحكمِ شهادَةِ الأسبابِ، ورجوعِهِم إلى نُفُوسِهم فى الحَوْل والاستطاعَة، وإثباتهم لتحقيق الوعيد عليهم خاصَّةً لا مَحالةَ، والحُكْمِ على الحاكم الراحمِ بعُقولهم وعُلومهم، من غيرِ تفويض منهم إلى مشيئة ولا استسلام لقُدْرَة، ولا تأميل لأحد معانى صفاته الحُسْنَى التى تَعُمُّ جميعَ صفاتهم السُّوأى، فظهرت سيئاتُهم الثوانى أمامَهُم، فَحَجَبَتهم عن قَديم إحسانِ المُحْسنِ الأوّل، ولم يَعْلَموا أنهم بإحسانه إليهم أساءوا، وبسَبْق علمه فيهم تَعدَّوْا، وأن قَلَمَهُ لم يكن بأيديهم إذ جرى بما عليهم، ولا لَوْحَهُ كان فى حَجورِهم إذ استُطِر فيه ما اختطَّ لهُم، وإذ بتأليفه جَمَعَهُم على مَساوِئهم، وبإرادته لأخلاقِهم صبرَ على أفعالِهم، وأنّ قَهْرَ قدرتهِ وسُلطانِ جَبْرِهِ أظهر منهم من خزَانتِهِ ما فيهم.

يَدلُّك على صحة ما ذكرناه أن أكثر هذه المخاوف كانت فى البصريين وأهل عبّادان والعَسْكريين، فكان مذهبهم القَدَر، فوقعوا فى غايةِ الخطر، وقالوا باللُّطْف وتقديم الاستطاعةِ وتفويض المشيئة. وكذلك قول العمرية: أصحاب عمرو بن عبيد. والعبّادية: شيعة عبّاد. والفوطية والعطوية: أصحاب هشام الفوطى، وابن عطاء الغزالى. ومنهم التَّيْمِيَّة؛ نفَوا نصف القَدَر. ومنهم المنازلية؛ أصحاب المنزلة بين المنزلتين، والقولِ بمقدور قادرِيْن، وفعلٍ من فاعِلين، فابتُلُوا بالاعتماد على الأسباب، وبالنّظر إلى أوّليةِ الاكتساب، فحجَبَهم ذلك عن المقدِّر الوهّاب، ثم لم

يرفع عنهمُ الحجاب فا. . .[١]، وَارْتجَّ عليهم البابُ، فهرب هؤلاء من الأمن والاغترار، فوقعوا فى أعظم منه، بأن أضافوا إليهم الأقْدار، فأخرجهم إلى القنوط والإياسِ، وأدخلهم فى المعقولِ والوَسْواسِ، فصاروا فى كبائر المعاصى من خوفهم من صغائرها، ولم يُجعل لهم نورٌ يكْشفُ ظُلَمًا. فمَثَلهُم مَثَلُ الخَوارجِ، خرجُوا على الأئمة بالسَّيْفِ لإنكار المنكر؛ فوقعوا فى أنكر المُنكر، من تكْفير الأئمةِ، وتضليل الأُمّة، وإنكارهم السّلطانَ، وتكفيرهم بالصّغائر أهلَ الإيمان. وهذا من أبدعِ البِدَع، وهؤلاء كلابُ أهل النّار.

ومَثَلُهم أيضًا مَثَلُ المُعْتزِلة، هربوا من طريق المرجئة: أنّ الموحِّدين لا يدخلون النار، فحقّقوا الوعيدَ على أهلِ التوحيدِ، وخلَّدُوا الفاسقِين فى النّار، فجاوَزُوا حدَّ المُرْجئة، وزادوا علَيهم بما استَحْسَنُوا من الهوَى، كما جاوَزَت المرْجِئةُ طريقَ أهلِ السُّنَّة، فأسكَنُوا الفجّارَ منازلَ الأبرارِ؛ بما أُوتوا من الهَوى[٢]. وكان أبو محمّد رحمه الله يقول: أهلُ البِدع كُلُّهم يرون الخُروجَ على السُّلْطان، ويُكفِّرُونَ الأئمة، ويَرونَ السَّيفَ على الأمّة. وفى الخبر: «الخوارجُ كلابُ أهل النّار».

فهذه أضرُّ الوجوهِ فى مُجاوزة الخوف عن قَدْرِه، وهو من التعدِّى لحدودِ الله وأمْرِه، قَدْ جعَلَ اللهُ لكُلِّ شَيء قَدْرًا، ورسَمَ عَن كلِّ مَحَبَّة أمرًا. فمَنْ جاوزَ هذه المخاوفَ فهؤلاء غلاةُ المُخوِّفينَ، ومن أرقائى بما يهوى انتحل الباطلَ (. . .) النِّحل مِنَ المُبْطلين، ومَن تأوّل على المقياسِ اتَّبعَ [ما يمليه] وسواسُ جَهْلٍ، وهؤلاء متأوِّلو الجاهلين. وقد أخبر الرَّسُول ﷺ بعُدول الحاملين الرّاشدين من حملة العلم فى كلِّ خَلَف صالح من أئمة المسلمين، من أهلِ الآثار رُواةِ الأخبار، أبدالِ النبيِّين، وخَلائفِ الصِّدِّيقين، أخبر أنّهم ينفُون عن العلمِ والحقيقة تحريف هؤلاء الغواة من المُبتدعة فى الطريقةِ، الناكِبين عن المحجَّةِ، المفارِقين للجماعة بالشُّذُوذِ

---

(١) طمس بقية الكلمة فى الأصل. وكذا فى الموضع التالى.

(٢) أشار أبو طالب فى الفقرتين السابقتين إلى مذاهب علماء الكلام وفرق الرافضة إشارة سريعة، ثم لفظهم، وجعلهم من أهل البدع. ويطول الكتاب لو ذهبنا وفصّلنا مذاهبهم أو عرَّفنا بهم، ولكن انظر على سبيل المثال كتاب «مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين» للأشعرى، وانظر غيره من كتب النحل لتعرف تلك المذاهب الضالة، وبخاصة ما كتبه شيخ الإسلام ابن تيمية.

والفُرقة، فقال ﷺ: «يحمل هذا العلمَ من كل خَلَف عُدولُه، ينفُون عنه تحريفَ الغالين، وانتحالَ المبطلين، وتأويلَ الجاهلين».

فالمجاوَزَةُ لقَدْر الشّىء كالتَّقْصير عنه، ﴿قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَىء قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣]، ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدودَ الله فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [الطلاق: ١]. وكان علىٌّ، عليه السَّلام، يقول: عليكم بالنَّمَطِ الأَوْسَط، الذى يرجع إليه الغالى، ويرتفع عنه الدّانى.

وهذا قولٌ فصْل، غيرُ شطط ولا هَزْل، وهو طريقُ أهلِ السُّنَّة، ومذهب أُولى المعرفة. فصدْقُ الرَّجاءِ واعتدالُ الخوفِ من حقيقة العلم. والمؤمن حقًا هو المعتدلُ بين الخوفِ والرَّجاء، كما جاء فى الآثار: «لو وُزِن خوفُ المؤمنِ ورجاؤُه لاعْتَدلا». وكما أَوْصَى لقمانُ الحكيمُ ابنَهُ فقال: «يا بُنىَّ، خفِ اللهَ خَوفًا لا تيأسَ فيه من رحمته، وارْجُهُ رجاءً لا تأمَنُ فيه مكرَه». وفى لفظ آخر: «وارجُه رجاءً أشدَّ من خَوْفك. قال: وكيف أستطيع ذلك، وإنّما لى قلبٌ واحدٌ؟ قال: أمَا علمتَ أن المؤمنَ ذو وَصْفين عن مشاهدتين؟»؛ لأنّ المؤمنَ الأول والشاهدَ الأعلى ذُو وصفٍ مَخُوف مثل: البَطْش، والسَّطوة، والعِزّة، والنّقمة. فإذا شهد العبدُ ما آمن به من هذه الصِّفات خاف، إذْ عرفهُ بها، وبجلاله يشاهدها. والمعروف ـ أيضًا ـ هو المألوف ذو أَخلاقٍ مرجوَّة من الكرَمِ والرِّفْق والرحمة واللُّطْف. فإذا شَهِد القلبُ ما آمنَ به من هذه الأخلاق رَجا مَن شَهِدَهُ بها، فصار العبدُ لوصفيْه الرجاء والخوف عن معانى شهادتيه المخُوفة والمرجُوَّة عن وصفَىْ مَخوفِه ومرجُوِّه، وصار كذى قلبين، كأنه يَرْجو بِقَلْب ويخاف بآخر، وإنّما هما شهادتان فى قلبٍ واحدٍ، لأنهما مقامانِ لقَلْب واحدٍ عن شُهُود مخوف، ومرجوٍّ واحدٍ معروف. فهذا تفسير قولِ لقمان، وهو وصف المؤمن المعتدل بشهادة الإيقان، معتدلٌ بين خوفه ورجائه، كاعتدال الطائر بين جناحيه، وتقويم اللِّسان(١) بين كفَّتيه.

فالخوفُ المُتْلفُ للنَّفس بالموت، أو المزيلُ للعقل بالفَوْت، خيرٌ من هذا الوصف الذى هو القُنوط؛ لأن هذا مُزِيلٌ للعِلْم، ومُسْقط للمقامِ، مُوقعٌ فى كبائر الآثام، إذ الذنوب قد لا تكون كبائر، والقنوطُ بنفسه كبيرةٌ، فصار شرًا منها.

---

(١) يعنى: لسان الميزان.

على أن هذين الحَالين من الخوف المُتْلف ليس فيهما عِلْمٌ ولا مشاهَدة على الكشْف، وإنّما هو قوّةُ وَجْد يصطلم الخائف مرارته، فتوجد إتلاف النفس، وتشويش الحسّ، كأحدِ الأسباب المُتْلفة، وكبعض الآفاتِ المشوِّشة مثل: مَحْوِ العَقْلِ منَ عبْد، وتيهه بالولَه فى النِّيّة من فَقْد، بمنزلة خوف الكرُّوبيِّين خاصّةً من الأمْلاك، أهلِ الكرْب والقلق؛ لأنهم مواجهون بِصفاتِ الفَرْقِ، ولا يُنقَلُون فى المقامات التى يُعَدَّلُون بها كمُقَرَّبى الرُّوحانيِّين.

بلغنى أن منهم جيلاً يخرج كلَّ يومٍ من تَحْتِ الكُرْسى بِعدَد البَشَرِ، قد أقلقه الشوق، وحَفَزَه الكَربُ، يريدُ النظرَ إلى وَجه العَلىِّ الأعلى، فيحرقُه شُعاعُ سُبُحات الوجهِ، فيحترقون احتراقَ الفَراشِ من المصباحِ. ثم يعود مِثلُهم من الغَدِ، فهذا دَأْبُهم، وهو يعيدُ إبادَتهم بعد إبْدائهم، وطريقُ إتلافهم بإعادتهم إلى عنصر أنسابهم، كذلك يكونون إلى يوم القيامةِ؛ كلُّ مَلَكٍ منهم لو جُمع السَّمواتُ والأَرضُون فى كفِّه ثم قبضها لَغابتا فيه.

ولعمرى إنّ سائرَ الملائكةِ لا يُنقَلونَ فى المقاماتِ كمقرَّبى المؤمنين، إنّما لكلِّ مَلَكٍ مقَامٌ معلومٌ لا ينتقل إلى غَيره، إنّما يُمَدُّون من ذلك المقامِ بِمَدد لا نهاية له إلى يومِ القِيامَةِ بأكثر ممّا يزاد جُملة البَشَرِ، وبأقْوى مما يُمَدُّ به أُولى التأييد والنَّصْرِ. ولكن أولئك تَحملُ خوفَهم قُواهُم، ويَثْبُت بمشاهَدَة صفة المخُوفِ خوفُهُم وصفاتُهُم، فلا يؤودُهم ولا يُثقلهُم؛ لأنهم يُمَدُّون بالقُوى، إذ المرادُ بهم البقاء، ومعصُومُون من المَوْتِ والتّلف بحفظ الآجال إلى آخر وَقْتهم.

على أنَّ منهم من يَطيش عَقلُه، ويُولَّه قلبه. ومنهم من يسيح فى تِيهِه. ومنهم من يتيه فلا يردُّ وجهَه شىءٌ إلى يوم القيامَةِ. ومنهم من يفزعُ الفزعة فلا يرتدُّ إليه طرْفُه، ولا يرجعُ إلى الحشر عقلُه. ومنهم مَن يصيح الصيحة، ويَصْعق الصّعقة، فلا يزال فى صيحةٍ واحدة وصرخةٍ إلى نَفْخ الصُّورِ. وكثيرٌ منهم يُصْعَقُون عند سمعِ كلام الجبّار سُبحانه: ﴿حتَّى إذا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهم﴾ سألوا الرُّوحانيين من المقرَّبين ذوى الحُجُب القَريبةِ والرُّتب العَلِيّة، منهم جبريل وميكائل وإسرافيل: ﴿ماذَا قال ربُّكُم﴾ ؟ فهؤلاء الحاضرون من الناظرين، والمُمكَّنُون من الشّاهِدين،

حَجَبَةُ القُدْسِ، أولو المحبّةِ والأُنْسِ ﴿قَالُوا الحَقَّ وهُو العَلِيُّ الكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣].

فمثَلُ هؤلاء الخائفين من المؤمنين، الذين قال الله تعالى: ﴿أُولئكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾ [الصافات: ٤١] ومَثَلُ الأقوياء من العلماء أولى البصائر والمتمكّنين مَثَلُ الصَّابرين الّذين يُؤتَوْن أُجورَهُم بغير حِسابٍ، ولا يوقفون مع السَّبب والأسباب. وكان السلف يقولون: يكفى من الخوف ما اجتُنب معه المحارم، وأُدِّى فيه الفرائض. وقال ابن معاذٍ: حسبى من الخوف ما منع الذُّنوب.

فعلماءُ الموقنين يُنقَلون فى مقاماتِ اليقين بمقتضى أحكامها من مقامِ خوفٍ إلى مقام رجاء كلَّما لاح لائح من خوفٍ وغرامَةٍ، بما أُشهد طَلْعَ طالعٍ من غَيْم، فيمدُّهم [بمواجيد]. فإذا عملُوا فى هذه المقاماتِ بما يَقْتضيهم، رُفِعُوا إلى ما فَوقها من شَهادةِ الوَحْدانية بنور الأَحَدِيّة، فجاوز المقامَين، وعلا فى عُلوِّ الشهادتَيْن إلى أعلى عِلِّيين.

وعُموم المؤمنين يُنقَلون من مقام رجاءٍ إلى مقامِ رجاء أعلى منه، بوجودِ الأعمالِ المرجُوّة. ومن حالِ خوفٍ إلى حال خوفٍ أشْرفَ منه، بإيجاد أفعالٍ مخُوفةٍ، ثم يُنقل أهل الأحوال من مقامات الإشفاقِ إلى حال الاشتياقِ، ومن أحوالِ الوَجَلِ والاحْتراقِ إلى مقام التملُّق والوِفاق، ومن حال الهرب والفراق إلى وصف الطمأنينة والتّلاق، ومن حال الفَزَع والنّفار إلى مقامِ الأنس والقرار، ومن الإبْعاد والتهويل إلى المحبة والتأميل. فهذا مكان فَضْلِهم على من وقَف فى مقامه من العموم فلم يُجاوزْه، ومن استتر بحاله وقام فى ظلّه، فلم يقطَعْه إلى ظلٍّ فوقَه مَمْدُودٍ، يعلو بعلوِّ شهادته، ومِرَّةِ[1] استواء قوته إلى الرحيم الودود. فمَثَلُ الخائفين من المؤمنين مَثَلُ الكَرّوبيِّين من الملائكة. ومَثَلُ الرَّاجِينَ من المحبِّين كمثَل الرُّوحانيين من المقرَّبين.

وأصلُ الرّجاءِ وتفضيله؛ أنّ عند العلماء بالله تعالى من عظيم الرجاء لأخلاقه المرجُوَّة ما يُضاهى عظيمَ الخوفِ لأوصافِهِ المخُوفَةِ، فَيُعدِّل البِنية فيهم، ويحكم بين

---

(١) المِرَّة: قوّة الخَلْق وشدّتُه. ومزاج من أمزجة البدن.

المقامين بالسَّوِيّة لهم، فلا يبدو على قلوبهم بادٍ من الخوف عن مشاهَدة وَصْفٍ من صفات الخوف تُكْرِبُهُم إلا ظَهَر شاهدٌ وراءَهُ من عظيم الرَّجاء، أشهد خُلُقًا من الأخلاقِ اللطيفة يروِّحُهُم، ولا يطرأ على قُلوبهم طارئ من الخوف يَهْرُبونَ منه إلا بَدا عليهم بادٍ من الرجاء، يأنسُون به إليه، فَتَعْتَدلُ صفاتهم، ويَسْتَوى مقاماتُهُم عن مُعاينة مَعْنَيين من معانى صفاته، لاستواء كمال ذاته، فيكونُ قلوبُهُم كلسانِ الميزانِ بين كفتيه، بين الخَوْفِ والرجاء، ويكُونُون كالطّائرِ بين جناحَيْه مُقوّمًا، عن شُهود النِّقم والآلاء، بوجودِ وصْفٍ شديد، وعيانِ خَلْقٍ لطيفٍ ودود، اقتَضى الوصْفُ حُسنَ القَبْضِ والعَسْف، وإظهارَ البلاء والعُنْف، وأوجبَ الخَلقُ ظهورَ الأُنسِ والإلْفِ، وبدوَّ النَّعماءِ واللُّطْفِ، فالعارفُ كما قال القائل:

فكأنَّهُ رَمَضانُ من إخْبابهِ(١) وكأنَّه في بسْطِهِ شـوَّالُ

أو كما قيل فى الأحوال:

كالخيزرانِ بعيدًا مِنْك مكْسرُهُ وقـد يُرى لينًا فى كفِّ لاويهِ

أو كقوله فى المقال والفَعالِ:

يُكلِّمنـا فَيُطمِعُنـا فنَـدنُوا وإن رُمْنا فى الخَلَواتِ جادَا

فاعتبروا يا أولى الأبصار بوصْفِ العارفِ فى الحالَين، شهادَة المعروفِ بالوصْفَين: أعرفُكم بربِّه أعرفكم بنُفسه، فالصورةُ الآدمية مرآةُ الصِّفة العزّية. ثم يتسع القلبُ فيحملُ الخوفَ والرجاءَ، ويستولى الرجاءُ على الخوف ويُغبطان معًا فى سعَة القلب وقوَّته، ويغيبان بنوره فى قدرته، لأنّ القلبَ قوىٌّ بِقَوِىٍّ، وواسعٌ بواسعٍ، وقادرٌ بمُقْتدر. وينفرد الهمُّ عن المعنيين، فيقفُ بمشاهدة منفرد، فيحكم عليه ما بهِ أُفرد، ومن هذا قول الرسول ﷺ: «بكَ أجُولُ، وبكَ أصُول، وبك أقُولُ». ومن ذلك قوله، فى عُلوِّ شَهادته ونفاذ علْمه، من كونه بشاهده: «أعوذُ بكَ منك». ومنه الأثر المشتهر عن الله عز وجلّ: «لم تَسَعْنى أرضى ولا سَمائى، ووَسَعَنى قلبُ عَبدى المؤمن. السَّاكن اللّيِّن الوادع». ومن ذلك قول المحقِّ الفاضلِ:

(١) إخبابه: سرعته.

* ألاَ كلُّ شىءٍ ما خَلا اللهَ باطلُ *

فهذا نطقٌ عن وَجْدٍ فى مقام البقاء بتَبْقِية ما أبقى بعد فَقْدِ حال الفناء بإفناء ما يفنى، هنالك سمع قول الباقى المُفْنِى: **﴿كلُّ مَنْ عَلَيْها فَانٍ * ويَبْقَى وَجْهُ ربِّك﴾** [الرحمن: ٢٦ ـ ٢٧].

ولا يصلُحُ تفصيلُ ما أجملناه، ولا شرحَ ما رمَزْناه.

إلا أنّ الخائفَ بِوَصْفِ ما غَلَب عليه من الحال عمَّا قَوِى عليه من الشهادة يندرج الرجاء فى مقامه، فيكون الرجاء له شهودًا، والخوفُ منه وجودًا. ويُوصفُ الرّاجى بما قوى عليه من الحال عن غلبة شهادته، وينطوى الخوفُ فى مقامه، فيصير الخوف له علْمًا، والرّجاء له وَجْدًا، ولاَ كُنْهَ للمُخَوِّفِ تعالى فيتناهَى الخوفُ، ولا نِهاية للمَرْجوِّ فينقضى منه الرجاء.

فأمّا الشهيد الموقنُ العالِم المقرَّب فبالحالين جميعًا يُوصَف مع اعتدالهما، وبالوصفين جميعًا يُعرف مع استوائهما، ثم يغلب عليه الوصفُ التّام والحالُ الكامل بين القِيام بشَهادة التوحيد، والتحقُّق بحقِّ المعرفة لُموجب المزيد؛ فإذا عُرف به اندرج فيه، فيقال: صِدِّيق؛ لأنه قد تَحقَّق بالصِّدْق فى جميع معانيه، فأغنى عن أن يُقال: مُخْلِص. ثم يُقال: عارفٌ؛ لأنه قد رسخَ فى العلم رُسوخَ الجبلِ، فكفى أن يُقال: صادق. ثم يُقال: مقرَّبٌ؛ قد أُشْهِد القُربَ، فاقتربَ، ولم يَحْتج أن يُقال: عاملٌ. وهذه أسماء الكمالِ، وصفَاتُ التمامِ، لا يفتقر إلى ذكرِ حالٍ، ولا يُوصف بصفةِ مقالٍ، كما يُقال فى غيره من ذكرِ الأحوالِ: خائفٌ أو راجٍ؛ لوجودهما فيه بالكفاء، واعتدالِهما عنده بالسَّواء؛ لأنَّ الخوفَ والرَّجاءَ قد فاضا عليه، ثم غاضا فيه. فإذا قلتَ: عارفٌ، أو مقرَّب، أو صدِّيق، فقد دخل فيه حالُ محبٍّ، ووَصْفُ خائفٍ، ومقامُ راجٍ، ونَعْتُ عالمٍ، وسَمْتُ عاملٍ لا محالةَ، مثالُ ذلك تعالِى الأنسابِ واندراجُها فى عوالى الأحساب، أنك إذا قُلتَ: فلان هاشمىّ، استغنيتَ أن تقول: عربىٌّ، أو قُرَشىٌّ؛ لأنّ كلَّ هاشمىٍّ عربىٌّ قرشىٌّ لا محالة. ثُمَّ تَصِفُه بعد ذلك بوصف التَّمام والكمال أيضًا، كما ذكرنا من نهاية

الأوصاف فى قولنا: عارفٌ، فيندرجُ الأنْسابُ فيه، فتقول: فلان حَسَنىٌّ، فاكتفيت أن تقول: قرشىٌّ أو عَلَوىٌّ أو هاشمىٌّ، وإن كان قُرشيًا هاشميًا عَلَويًا، لا شكّ أنه قد عُرِف أن كل حَسَنى فهو قرشىّ هاشمىٌّ عَلَوىٌّ لا محالة.

فأما أن تقول: فلانٌ عربىٌّ أو قرشىٌّ أو هاشمىٌّ، فهو مقصور على ما وَسَمته به، لأنه قد يكون عَلَويًا، وهو الغاية فى الحسب، ثم لا يكون حَسَنيًا فينقص رُتبةً، وقد يكون هاشميًا غير علوىٍّ فينقص منزلةً، وقد يكون قرشيًا غير هاشمى فينحطّ درجةً، وقد يكون عربيًا غير قرشىٍّ فتنزل مَرتبته، فيلزمه وصْفُ ما عَرفْته حَسْب، فإذا قلتَ: حَسَنى، دخلتِ الأحسابُ كُلُّها فيه، وعَيْبٌ أن تصفه بما دونها. كذلك قولنا: عارف، أو مؤمن، أو مقرَّبٌ، أو صِدِّيق، هم اسم التمام والكمال فى السمات التى عُرِفت بها كلُّ المقامات، تدخل الأحوال والصفات والسِّمات، فاكتفينا أن نقول: هو مؤمن، أو صالح، أو عارفٌ، أو محبٌّ، أو خائف، أو راجٍ، كما رتَّبْنا فى الأحساب من قولنا: هو حَسَنىٌّ، دخل فيه كلُّ حَسَبٍ رفيع، وكُفينا أن نقول: هو هاشمىٌّ أو قرشىٌّ أو عَلَوىٌّ، إذ جميعُ ذلك داخلٌ فيه؛ لأنّ العارفَ لا يُوسَم بحالٍ دون حال، إذ قد غاصَتْ فيه الأحوال، ولا يُوسَمُ بمقامٍ دونَ مقامٍ، إذ قد استوعبَ كلَّ مقامٍ بحقيقة معناه، عارفٌ بالمعروف الذى هو بكلِّ نهايةٍ وفَضْلٍ موصوفٌ وغُموضٌ، غريبةٌ عند غيرِ أبناء جنسه أن ينكروه. فإن تعرَّفَ إليهم أو عرَّفوه بِهِم فليس بعارفٍ.

وقال بعضُ العارفين فى صفة العارف: أن يعرِف كلَّ شىء، ولا يتعرَّف إلى شىء. وقيل: يظهر ولا يُرَى، ويُرَى ويتوارى. كذلك حقيقتُه: أن يَعْرف ولا يُعرفَ، ويُشرفَ وليس عليه يُشْرَف، يخرج من الدّار بِكْرًا بَتُولاً، لم تقتضَّه معرفةُ الوهمِ والعقولِ عن شاهدِ وصفٍ من شواهد الرُّبوبية، وبمعنى خُلقٍ من أخلاقِ الفَرْدانيّة؛ لأنّه رُوحانىّ ربَّانىٌّ، فهو كما قال:

تَوارَيْتُ من دَهْرِى بظلِّ جناحِه فصِرْتُ أرى دَهْرِى وليس يرانى

ولو سُئل الأيامُ عنِّى لَمَا دَرَتْ وأيْنَ مكانى، ما عَرَفْنَ مكانى

وثلاثُ مقاماتٍ لا يُقاسُ عليها، ولا يُتمثَّل بها، فمن قاسَ عليها أخطأ، ومن

تمثَّل بها ادّعى: مقام النبوّة، ومقام المعرفة، ومقام محبوب. ولا يصح هذا المقام إلا بعين يقينٍ فى شاهد قيُّوميّة التوحيد، بعد أن لا يبقى من النّفسِ بقيةٌ فى شهادة الحقِّ المبينِ، ولا يُدَّخر فيها خَبِيَّةٌ من شاهد خَلْقٍ، ولا يبقى من الخلقِ رؤيةٌ فى شاهد التوحيد، عندها كان العارف رُوحانيًا مؤثِّرًا برُوحه فى ارتقاء النَّفس باليقين، وصار ربَّانيًا بقيُّومِيَّة ربِّه عند شُهودِ الحقِّ المبين، فهذا وصفُ التمكين، وحالُ القوىِّ المكين، والمقدَّم المطاعِ الأمين.

وهذه جُمل طرائق الخائفين، وضوابطُ صفات العارفين؛ لأنهم متفاوتون فى القُرْبِ والاقتراب، متعالون فى التقرّب والتقريب، مترافعون فى التعرُّف والتعريف، متزايدُونَ فى معانى التخوُّف والتخويف، مُتناهُون بأسباب التألُّفَ والتّأليف. فالموقنون من الشّهداء، وهُمُ المقرَّبون من الصِّدِّيقين، بشهادتهم قائمون، لهم من القُربِ الاقترابُ، ومن التقرُّبِ التقريبُ، ومن التعريفِ التعرُّفُ، ومن الإيلاف التأليفُ، ومن الإيناسِ الأُنْسُ، ومن التحبُّبِ الحبُّ؛ لَأنَّ مقامَهُم من القرِيب العالى الطريقُ الأعلى الأقربُ، والوِجهةُ العليا، والشهادةُ الدُّنيا، وهم السّابقون.

ولأهل مقامات اليمين أولُ القُرْب والتقرُّب، وبدايةُ الحُبِّ والتحبُّبِ، ولهم من الإلْف التألُّفُ، ومن العُرْفِ التعريفُ، ومن الأُنس التأنيسُ؛ وهؤلاء الأبرارُ سالكو الطرقاتِ، فمزيدهم منها المقامات.

وقد كان أبو سليمان الدّارانىّ يقول: إذا غَلَبَ الرّجاءُ على الخوفِ فسدَ القلبُ.

فهذا، لعمرى، يحتاج إلى تفصيل: إنّما أراد به قلوبَ الرّاجين، إذا أَفْرطَ رجاؤها على خوفها تغيّرت، وخرج من مقام التعديل، فينقص لقصوره عن معيار ما كان عليه من السرّاء، فالتقصير فيه بتكوين المشاهدة، فيكون وَجْدُه لتكوين شاهده، حتى ينبسط فيما كان انقبض، ويتسع لما كان ضيّقًا، من تحمله بالناس بعد المزايلة، وفى ذلك نقصانه؛ لخرُوجه عن حد صفة المسلم المتمكن بالعلم الراسخ، ومن غير تمكين بالمعرفة (. . .) قوته عنها، فضعف وخار لبلوى التقصير، فى قوله: ﴿وإنّى عَلَيْه لَقَوِىٌّ أمِينٌ﴾ [النمل:٣٩]، قوىٌّ على ثقل حمله، أمين على

(. . .) وقيل: أمينٌ على المرأة، لا أكشف لها عورة (. . .) على غرْسها.

ولا تصلح حقيقة الرجاء إلا لعالم (. . .) روحًا في يد، اعتدل سمعه وبصره بما استوت (. . .) بصيرتُهُ ومعرفتُهُ؛ لأنّ مثلَ الرّجاءِ مَثَلُ المحبةِ لا يَصلُحُ إلا لأهلِ الكرمِ والفَضْل: ﴿**ويُؤْت كلَّ ذى فَضْلٍ فَضْلَهُ**﴾ [هود:٣]. ومَثَلُ الخوف مَثَلُ البطْش والسّطوةِ يصلُح للكافَّة، لأنّ فيه الكفَّ والزَّجْرَ والعَدْلَ: ﴿**إنَّ الله يَأمرُ بالعَدْل**﴾ [النحل:٩٠]، وفيه تفصيل يأتى (. . .)[١] يَصلُح أن يُعنَى بفسادِ القلبِ عند غلبةِ الرّجاء قلوبُ جهلة الخائفين؛ لأنّه من غيرِ مقامهم، وفى غيرِ طريقهم، وعلى غيرِ معيارِ مشاهدتهم، فيُخرجُهم ذلك إلى الأَمنِ ويُدخلُهم فى الاغترارِ والظّنّ، إذ صلاحُ قلوبِ الخائفين بالخوفِ اللازم، والحزنِ الدائم، والهمّ المقيم، والحالِ الواجد البهيم، وإذا غَلَب عليهم حالُ الرَّجاءِ، فَترُوا عن جدِّهم، ووَنَوْا فى اجتهادهم، ووهَنُوا فى عَزْمِهم.

وقد كان صالحٌ المُرِّىُّ يقول: ما كان يُخاف على عطاء السلمى إلا من شدَّةِ خوفِه. أى: لأنه أفرطَ فيه. قال ابن مرزوق: نسى عطاءٌ القرآنَ من الخوف. فلذلك قال الله تعالى: ﴿**وَلَيُبَدِّلَنَّهُم من بَعْد خَوْفِهم أمْنًا يَعْبُدونَنى لا يُشْرِكُونَ بى شَيْئًا**﴾ [النور:٥٥]، فالقرآنُ أصلُ العباداتِ، وقد قال فى مثله: ﴿**فَلْيَعْبُدوا رَبَّ هَذا البَيْت * الَّذى أَطْعَمَهُم مِنْ جُوعٍ وآمَنَهُم مِنْ خَوْف**﴾ [قريش:٣ ـ ٤]. لأنّ «عطاءً» كان قد زاد عليه الخوفُ، حتى خافَ العلماءُ أن يَدخلَهُ القُنوط، فيُخرجه من فضيلةِ الخوف. وذلك لأنّه لم يخرج أربعين سنةً إلى صلاة جماعة ولا جُمعة[٢]. وكان صالح المرّىّ يقول له: يا شيخ قد خدعَكَ الشّيطانُ، لو شَرِبتَ جرعةً من شربةِ سَوِيقٍ تَقْوَى بها على وضوئك وصلواتك؛ [لأنه] كان أقلع عن الأكل، وفقَدَ النَّومَ، فإذا هجم عليه فَزَعٌ جعل (. . .)[٣] وينظر وجهَهُ فى المرآةِ يخاف أن يكون

(١) عدة مواضع تالفة فى الأصل، لا يتبين فيها الكلام.

(٢) هذا الخوف ليس من السنة، بل هو من تلبيس إبليس. وترجمة صالح المرى فى: الحلية ٦/ ٢١٥ ـ ٢٢٦)، وسير أعلام النبلاء ٦/ ٨٦ ـ ٨٨.

(٣) طمس فى الأصل مقدار كلمة.

قد مُسِخ. وقد قتله الخوف من فزعة فزعها فمات، فكان كبعض مَن [جعل حاله] من فتون الخائفين. ولم يكن رحمه الله يُذكر بكثير عِلْمٍ كنُظرائه: مالك بن دينار، وعبد الواحد، وفَرْقَدٍ.

وكان أبو الدرداء يقول: تمام التقوى أن يتقى اللهَ العبدُ فى مثقال ذرَّةٍ. حتى يتركَ بعضَ ما يَرَى أنّه حلالٌ خشيةَ أن يكون حرامًا، حاجزًا بينه وبين الحرامِ؛ لأنّ الله سبحانه قد بيَّن للعبادِ ما يتّقون فى قوله: ﴿**فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨]. فلا يحقرَنَّ ذرَّةً من الشرِّ أن يتّقيَها، ولا ذرّةً من الخيْرِ أن يفعلها.

وروينا فى أخبار الأنبياء، أن سليمان ﷺ كان يقول: أُوتينا ما أُوتى الناسُ وما لم يُؤتَوْا، وعُلِّمنا ما عُلِّم الناسُ وما لم يُعلَّموا، فلم نجد شيئًا أفضل من ثلاثِ كلمات: العدلُ فى الرِّضا والغضب، والقصدُ فى الغنى والفقر، وخشيةُ اللهِ فى السِّرِّ والعلانية.

فهذه الثلاث فيها حكمةٌ بالغة، ونعمةٌ كاملة، ورحمةٌ خاصيَّةٌ؛ لأنها وصف الخائفِ العالِم، الذى قد استوى خوفُهُ ورَجاؤه، وقام بشهادة حُكمِ مولاه، لأنّه ذكرَ الأوقات التى تتغيّر فيها الصفات فى غَضبه ورضاه، فإذا عدَل فيهما دَلَّ على تقْواه، وعلى اختلافِ حالٍ من فقرٍ وغنًى، فإذا اقتصد فيهما كان على خلافِ هواه، وعلى تفاوُت سرٍّ وعلانيةٍ، فإذا ساوى فيهما دَلَّ على يقينه بالآخرةِ ومثواه، وعلى ذلك (. . .)[1] المؤمنين من قوله عزّ وجلّ: ﴿**يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ**﴾ [البقرة: ٣] قيل: (. . .) الناظرين، فيكون الباء فى هذا الوجه بمعنى (. . .) الذى هو علامة الخوف إذا وُجد فى (. . .) حقيقة الإيمان، وعلم صدق العمل على (. . .) فى أصل الورع بحقيقة الإخلاصِ به من (. . .) غير اللهِ فهو مُراءٍ.

ومّما يدلّ على باطنِ الخوفِ كثرةُ الاستغفار فى كلِّ حال، والخوفُ من يسير الأعمالِ، لقوله: «اتَّقُوا المُحَقِّرات، فإنّها تجتمع على الرَّجُل حتّى تُهلكَه». وبمعناه

(١) تلف فى الأصل فى هذا الموضع والمواضع التى تليه.

حديثُ أبى هريرة: «ما رأيتُ أكثرَ استغفاراً من رسول الله ﷺ». وقال الرّاوى عنه: ما رأيتُ أكثرَ استغفارًا من أبى هريرةَ. قال: «وكُنّا نعدُّ لرسولِ الله ﷺ فى المجلسِ الواحدِ مائةً مرة من الاستغفار؛ يقول: اللهُمَّ اغْفر لى، وتُب علىَّ، إنّك التَّوابُ الغَفُور».

ومَن نُقل عَنْه المخافةُ من حقير الأمر الذى لعلَّهُ، والله أعلم، زِنَةَ ذرّةٍ من الشَّرِّ أكثرُ من أن يُحصَى. من ذلك أنَّا رُوينا أن رجلاً قال لعطاء السُّلَمىِّ: ما هذا الخوف كلّه؟ قال: لعظيم. قلت: وما هو؟ قال: اصطدت حمامًا لجارٍ لى منذ أربعين سنةً، فأنا أبكى منذ ذلك. أمَا إنّى قد تصدَّقت بثمنه مراتٍ.

وفوق هذا ما رُويناه عن من لا أدرى: كُرز بن وَبْرة، أو ضَيغم الرّابئى، قال: ذنب أذنبتُه، أنا أبكى عليه منذ أربعين سنةً. قلت: ما هو؟ قال: زارنى أخٌ لى، فاشتريتُ له سَمكًا بدانق، فأراد أن يغسل يده، فأخذتُ قطعةَ طينٍ من حائطِ جارى، فغسلتُ به يَدَه.

وقال آخر: تكلمتُ بكلمةٍ، أنا أبكى عليها منذ كذا. قيل: وما هى؟ قال: رأيت درهمًا فى يد رجل فقلت هذا الدرهم سقَط منى، ولعلّه لم يُضْرب بجرجان.

وبمعناه قول الآخر، قال: تكلّمتُ بكلمة أنا خائف منها كذا وكذا سنة. قلت للسماء [أنّها قد] أمطرت، فلم يكن ذلك.

وقال ثابت نحوَه. قُلتُ: ليس (. . .)[1] فرجعتُ إلى نفسى، فقلت: وما أنت وهذا؟ ومَن وكَل (. . .) فتعبّد الرّجلُ بهذه الكلمة دهرًا. وكان يعنى نفسه تعريضًا.

قال بعضُهم: وُصِفت لنا امرأةٌ من العوابدِ، فأتينا منزلها، فإذا هى قد غَلَّقت بابها، لا يدخل عليها أحدٌ. فسألنا عنها، فقيل لنا: هى تبكى فى جوف بيتٍ قد غَلَّقت عليها الباب منذ ثلاثة أيامٍ لا ندرى ما شأنها. قال: فسألناها بعد وقت. فقالت: قتلتُ نملةً.

هذا لأنّه قيل: إن الأبرار لا يؤذون الذّرَّ، ولا يقتلون النمل. ونهى رسولُ الله

(١) تلف فى هذا الموضع والذى يليه، قدر كلمتين.

ﷺ عن قتل النَّملة، والنَّحلة، والهُدهد، والصُّرَد.

وقال مُضَرُ بنُ جريرٍ: دخلتُ على أبى الحجاج الجرجانى فكَلَّمْتُه فلم يُكلِّمْنى. فقلت: أنت فى حَرَجٍ، إن كان عندك علم إلا عَلَّمْتَنِى. فقال لى: عصيتَ اللهَ بمعصيةٍ؟ قلتُ: نعم. قال: كُتِبَتْ ورُفِعَتْ إلى الله؟ قلتُ: نعم. قال: علمتَ أنه غفرها؟ قلتُ: لا. قال: فما قعودُك وسكونك؟! اذهَب، فابْكِ على نفسك أيّامَ الحياةِ، حتّى تعلم ما حالُك عندَه فى هذه المعصية. قال: فبكى مُضر على هذه ثلاثين سنةً.

واعلم أنَّ كُلَّ وقتٍ من الدنيا هو وقتُك من الآخرةِ، فى البرزخ، وفى دار القرار، فأىُّ وقت كرِهتَ الموتَ أن يبغتكَ فيه على حالٍ ما فاتْركه، فإنّه ريبةٌ، كما جعل رسول الله ﷺ علمَ الشرّ ريبةً، فقال: «الخيرُ طمأنينة، والشرُّ ريبةٌ». وقال: «اترك ما يُريبك إلى ما لا يُريبك» يعنى: ما تشكُّ فيه، وما ترتابُ به، وما لا يكون خيرًا صرفًا، [تصرّف] القلبُ بالعلم إليه. وأىُّ حال أَحْبَبْتَ أن تموتَ عليه فدُمْ على ذلك. وقد قال بعضهم: كل حالٍ أحببت الموتَ عليه فَديمَهُ، ولا تبالِ متى مُتّ. وقال آخر: اصبحْ تائبًا، وامْسِ تائبًا، واستغفر، وخَفْ بين ذلك، ولا تبالِ متى كان الأمرُ.

وكان الحسنُ يقول: إن المؤمنين عجَّلوا الخوف فى الدنيا، فآمنهم اللهُ تعالى يومَ القيامة. وإن المنافقين عجَّلوا الأمن فى الدّنيا، فأخافهم اللهُ يومَ القيامة.

وفى خبر علىٍّ الطويل؛ الذى وصف فيه الفقيه كُلَّ الفقيه، فجعله الخائفَ الحزين، فقال: إذا كان يومُ القيامة نادَى منادٍ: يا أيّها الناسَ إنّ أقربكم اليومَ من الله مجلسًا أشدُّكم له خوفًا، وإنّ أكرَمَكُم عليه أتقاكم. ثم يقول الله عز وجل: لا أجمعُ عليكم حُزنَ الدنيا وحُزْنَ الآخرة، فيأمر لهم بكراسىَّ يجلسون عليها، فيُقبل عليهم الجبّارُ جلَّ جلالُهُ، وهو عنهم راضٍ، وقد أحسنَ ثوابهم. قال فيه: ألاَ أُنبئكمُ بالفقيه كلِّ الفقيه؟ مَن لم يقنِّط الناس من رحمة الله، ولا يؤمِّنهم مكرَ اللهِ، ولا يرخِّص لهم فى معصيةِ الله. ثم ذكَرهُ.

وأكثرُ خوفِ العلماء المنظورِ إليهم المقتدَى بهم من خَصلَتَيْن؛ إحداهما:

التقليدُ. والأخرى: الاقتداء بهم. فالتقليدُ يقع في المقال، والاقتداء بالأفعال.

كان ابن عباس يقول: ويلٌ للعالِم من الأتباع، يزلُّ الزَّلَّة فَتُحمل عنه في الآفاقِ. وقال آخر: زلّةُ العالِم مثل انكسارِ السَّفينةِ تغرق، ويغرق الخَلْق. وقيل: زلّة العالِم مثل كُسوفِ الشَّمْس [تَضْبَحُ](1) النّاسَ: يا غافلين الصّلاة.

وقال أبو الجلْد، وكان من قَرأَةِ الكُتبِ السَّالفةِ، وعارِفيهم بالسِّير المتقدمة، وبأشراط السَّاعةِ المتأخرة، فكان يقول: يلحق البلاءُ بأهل الصّلاة خصوصًا، لا يُراد غيرُهم، حتى إن الرّجل لَيرجعُ يهوديًا أو نصرانيًا.

وكذلك روينا عن بعضهم: لَيودُّ أحدكم أن يكون يهوديًا أو نَصرانيًا أو مُشْركًا، وهو لا يعلم. مطابق معناه الخبر المسند: «تكونُ فتنةٌ يُصبح الرجلُ مؤمنًا ويُمسى كافرًا، يبيعُ أحدُهُم دينَه بعَرَضٍ من الدنيا يسيرٍ».

وروى الأعمشُ عن خَيْثمة عن عبدِ الله بن عمرو: «يأتى على النّاسِ زمانٌ يجتمعون فى المساجد يُصلُّون وما فيهم مُؤمن». والخبرُ الآخر: «يأتى على النّاسِ زمانٌ يُضِلُّ فيه أحدُهُم دينَهُ ولا يعرفُه، يُسْلَب فيه عقولُ رجالٍ. وفى آخر الزمان: تكون خُصومةُ النّاسِ فى ربِّهم، يُصبح أحدُهم على دينٍ، ويمسى على غَيرِهِ».

فهذا ونحوه، فِيمَن يُدْعى إلى التوحيد والإسلام، من أشدّ ما رُوى عن السَّلف، ومن أعظم ما يُتوقع على الخَلَف. وقد كان ابن عباس يتأول هذه الآية فى أهل القبلة: ﴿فأصَّدَّقَ وأكُن مِّنَ الصَّالحينَ﴾ [المنافقون: ١٠] فيمن لم يزكِّ ولم يحجَّ، ذاك لقوله تعالى فى أولها: ﴿يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا﴾ [المنافقون: ٩]. وكان يقول: هؤلاء ممّن يسألُ الرجعةَ، وهى أشدُّ ما نزل فى أهل التوحيد، ولم يكن يجعل للقاتل توبةً، وكان يخلِّده فى النّار، لظاهر القرآن.

فأما وجودُ شعبةٍ من نفاقٍ، ودَخيلةٍ من شِرْكٍ، ووَليجةٍ من رِبا، فأكثر من أن يُحصَى، وأكثرُ وقوعِ هذه المَخاوف فى أهل البدعِ خاصَّةً، أو فيمن لا يعرف ما

(١) تضبح: كذا قرأتها، إذ أن نقطة الباء غير واضحة. وضبحت الخيل: أسمعت من أفواهها صوتًا ليس بصهيل ولا حمحمة. وضبحت النارُ الشيءَ: غيّرته. والله أعلم بتأويل النص.

البدعةُ من السُّنّة، أو لا يعلم ماهيَّةَ السُّنّة منَ الحَدَث المحدَث مع قول الصحابة، وفيه مسندٌ: «إياكم ومُحدثاتِ الأمور، فإنّ كلَّ محدثةٍ بِدعةٌ، وكلَّ بِدعةٍ ضلالةٌ». فيدخل عليهم ذلك لجهلهم بسنة السَّلفِ، وإن لم يعتقد ذلك جادًا، ولكن هو نقصانٌ من توفيق (. . .)[1] وعُدولٌ به عن سواءِ الطريق، فمن أفضلِ طرائقِ الخوفِ ما سرى من القلبِ إلى النّفسِ، فأطفأ شُعْلَةَ الشّهوةِ، وأخمد نارَ الهوى، فسقطتْ مع ذلك أثقالُ المجاهدةِ، وخَفَّت عنده مؤنةُ المكابدة، ووُجدتْ معه حلاوةُ الطّاعة لعدم وجودِ حلاوة المعصيةِ، واجتمع الهَمُّ بالحقِّ عند زوال التَّشَتُّت بالهوى والخلْقِ، وسكنَت النَّفْسُ بالطمأنينةِ لمعاينةِ القلبِ للشّهادة، وظهَر نعيمُ الزُّهدِ والرِّضا لباطنِ الصّدقِ والإخلاص، ثم سكن الخوفُ فى القلب بعد ذلك، ولم يجاوزْهُ فيتعدّى الحدَّ إلى بعض المفائض التى ذكرناها، بل كان منه الحزنُ الدائمُ، والهمُّ اللازم، والخشوع القائم، والتقوى المقيم، والقلبُ السّليم، والفكر العليم. وهذا هو وصف القلب المنكسر، وحالُ العبدِ المتحيِّر، الذى يُوجَدُ عنده الجبّار فيَجْبُره بعد كَسْرِه، فصلَحِ له بعد أن عطّل من غيرِه، وصار مزيدُ العالِم الخائفِ من الله تعالى كشوفَ اليقين وتنقيلَه فيه إلى شهاداتِ الموقنين، ومقامات المقرَّبين، فكان القريبُ لديه مَوجودًا، وصار الحبيبُ عنده مشهودًا، أو الطالبُ له مطلوبًا؛ لأنّه من المنكسرةِ قلوبُهم من أجْلِه، فقد جبَرها بعد كسْرِها بفضله، وبأنّه صار عندَه من أهلِه، فأهَّلَهُ لبرِّه وفَضْلِه.

واعلم أن الذى قطع الخَلْقَ عن هذا حلاوةُ الهوى، ولا يخرجها إلا أحدُ كأسين: تجرُّع مرارةِ الخوف، فيغلب حلاوةَ الهوى، فيخرجه. أو غَلَبَةُ حلاوةِ المحبةِ، فيستغرق حلاوةَ الهوى، فيَغمُرُهُ. فإن عَدِم أحدَ هذَين فهو من المذبْذَبين بين ذلك، لا إلى الخائفين، ولا مع المحبِّين، بل من المتردِّدين.

وروينا أن عليًا، رضى الله عنه، قال لبعض الخائفين، وقد تاه عقله، فأخرجه الخوف إلى القنوط: ما أصارَكَ إلى ما أرى؟ فقال: ذُنوبى العظيمةُ. فقال: ويحكَ، إنّ رحمةَ الله تعالى أعظمُ من ذُنوبك. فقال: إنّ ذنوبى أعظمُ من أن

---

(١) تلف فى الأصل بمقدار نصف سطر أو يزيد قليلاً.

يكفِّرها شيء. فقال: إنّ قنوطَك من رحمةِ الله تعالى أعظمُ من ذُنوبك.

والخوفُ جندٌ من جنودِ الله تعالى، قد يستخرجُ من قلوب المريدينَ والعابدينَ ما لا يستخرجُه الرّجاءُ، فتستجيبُ له القلوبُ المرادَةُ به بِنهاياتِ الزُّهد، وحقائقِ التّوبة، وشدِّة المراقبةِ. وقد يَفْعلُ اللهُ تعالى جميعَ ذلك بأهل الرجاءِ والمحبَّةِ فى مقاماتِ الرجاء، يستخرجُ منهم الكرم والحياء.

والخَوفُ اسمٌ جامع لمقامات المُتَّقِين. ثم يشتمل على أهْلِ طبقاتٍ خَمس، فى كل طبقةٍ ثلاثُ مَقاماتٍ:

فالمقام الأوّل من الخوف: هو التقوى؛ وفى هذا المقام: المتّقون، والصّالحون، والعاملون.

والمقام الثانى من الخوف: هو الحذَرُ؛ وفى هذا المقام: الزّاهِدون، والوَرِعون، والخاشِعُون.

والمقام الثالث: هو الخشية؛ وفى هذا طبقاتُ العالِمين، والعابدين، والمحسنين.

والمقام الرابع: هو الوَجَل؛ وهذا: للذّاكِرين، والمُخْبِتين، والعارفين.

والمقام الخامس: هو الإشفاق، وهو: للصّدّيقين؛ وهم الشّهداء، والمحبّون، وخصوص المقرَّبين.

وخوفُ هؤلاء عن معرفةِ الصّفات لأجل الموصوفِ، لا عن مشاهدة الاكتساب لأجل العقوبات. كما جاء فى الخبر: «أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود خِفْنى كما تخافُ السَّبُعَ الضّارى»، فالسَّبُعُ إنّما يُخاف لوَصْفِه بالبَطْش والسّطوة، ولما أُلبس وَجْهه من الكبر والهيبة، لا لأجل ذنب كان من الإنسان إليه. ولذلك مثَّل النبى ﷺ للرجل الذى أوصاه بالحياء، مثَّل له بالرجل الصّالح كما فى قوله: «استحى من اللهِ كما تستحيى مِن الرّجلِ الصّالحِ».

فكما تستحى من الصّالح لوصفه، لأنه يقتضى الحياء (. . .) لأنه صاحب سوطٍ وعصًى، أو يُستحى منه لأنه (. . .) وبينه، بل لوصفهِ الموجب عليك منه

(. . .) ألطف، فهو بابٌ من الخوف؛ لأنه يمنع (. . .)(١) ويمتنع، ولذلك جَمعَ بينهما النبى ﷺ فى حديث عن الذنوب، فقال: «ويتركُ الذُّنوبَ خشيةً أو حياءً»، يعنى فيمن أدْمَن الاختلاف إلى المساجد. وكذلك قال ﷺ فى وصف أهل الحياء: «أنْ تحفظَ الرأسَ وما وَعَى، والبَطْنَ وما حَوَى».

فهذا يكونُ عن وصفِ المخافةِ، وكذلك فسَّروا قولَه عز وجَلَّ: ﴿ولولا دَفعُ اللهِ النّاسَ بَعْضَهم ببَعْضٍ﴾ [البقرة:٢٥١]، قيل: بالمخافَة والحياء. ومثلُه فى تأويل قوله تعالى: ﴿وتَخْشَى النَّاسَ﴾ [الأحزاب:٣٧] قيل: تستحيى منهم؛ لأنه ﷺ لم يكن يخاف فى الله أحدًا.

ولذلك قال بعض السلف: لو لم يكن فى اجتماعِ الإخوان ومؤاخاة الأخِ إلا أنَّ حَيَاءَه منه يمنعه من مَعَاصِى اللهِ لكان فيه خيرٌ كثير.

ولكن لخائفى المحبِّين من الرَّجاءِ أيضًا عُظْمُه، لما أشهدَهُم من لطفِهِ وكرمِهِ، وأوجدَهم من عَطْفِهِ، وتخصيصِ نِعَمِه، ولهم الأوفر من النّصيبِ على معنى خوفهِم الألطفِ من الحبيبِ المهيب، ما لا يَسع العمومَ وصفُه، ولا يدركون بعقولهم كُنهَهُ، ولا يصلح لهم كشفُهُ، فطلبهُم برَجائهم، وحُسنُ ظنّهم بمأمولهمْ، ولا يصفه إلا هم، ولا يعرفه سِواهم.

جُمل ذلك أنصبةُ القُربِ، ونعيمُ الأنس، وصفو الحبِّ، ورَوحُ اللقاءِ، وسرورُ التملّق، وحلاوةُ المناجاة، وخالصُ المصافاة، وفرح الخدمةِ، وارتياح المحادثة، وراحة الخَلْوة، وريحان المقاسمة، ولطفُ المجالسةِ، وسرارُ المناغاة، وسرُّ الملاحظة. فلهم منه تجلِّى معانى صفات وظهورُ محاسنِ أوصافِ ما لا يُعْلم: ﴿فلا تَعْلَمُ نَفسٌ ما أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧].

ولأصحابِ اليمين إظهارُ نعيمِ الأفعال، ومواهبِ العطاء والإفضال. وقد كان يحيى بن معاذ يقول: من عَبَدَ اللهَ بالخوف دُون الرجاء غَرِق فى بحار الأفكار. ومن عَبَد اللهَ بالرّجاء دون الخوفِ تاهَ فى مفاوزِ الاغترار. ومن عبَدَه بالخوف

(١) مواضع تالفة بالأصل قدر نصف سطر فى كل موضع.

والرجاء معًا استقام فى محجَّة الأذكار.

وقال مكحول النسفى فى معناه، إلا أنّه أفرط فيه: من عَبَدَ اللهَ بالخوف فهو حَرُورِىٌّ [١]. ومن عبدَهُ بالرّجاء فهو مُرجِىٌّ [٢]، ومن عَبَدَهُ بالمحبَّة فهو جَهْمِىٌّ [٣]. أى يَتجهَّمُ عليه بالمقال، وتجاوَزَ الحدَّ فى الأفعال. قال: ومن عبدَهُ بالخوف والرّجاء والمحبة فهو مُوحِّد.

شبّه هذه المقاماتِ من معانى المقالات للمبالغة من طريق المعنى، لا على التحقيق. أى لأنه إذا انفرد بحالٍ منها لا بدّ من أن يخرج عن معيارِ عِلْمٍ أو عن سُنَّة أو معروفٍ أو معتادٍ مألوف، فإذا جمعها فقد استقام على العِلم والسُّنَّة، وهو وصفُ العالِم العارِف، الظّاهرىِّ الباطنىِّ.

آخر كتاب الخوف.

* * *



(١) الحرورى: نسبة إلى الحَروريّة، وهم الخوارج الذين خرجوا على سيدنا علىّ، وسمّوا حرورية لنزولهم بحروراء فى أول أمرهم.

(٢) مُرجى: نسبة إلى المرجئة.

(٣) جهمى: نسبة إلى الجهمية. وهذه كلها فرق كلامية ضالة، تولّى الشيخ ابن تيمية هدم آراء هذه الفرق فى كُتُبه.

شرح مقام الزهد ، ووصف أحوال الزاهدين
وهو المقام السادس من مقامات اليقين

قد سمّى اللهُ تعالى أهلَ الزهدِ علماء بقوله تعالى، إذ وصف قارون: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمه فى زِينَته﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ الله خَيْرٌ لمَنْ آمَنَ﴾ [القصص:٧٩ ـ ٨٠] قيل: هم الزّاهدون فى الدنيا. وقال عزّ وجلّ: ﴿أُولَئكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [القصص:٥٤] جاء فى التفسير: صبروا على الزهد فى الدنيا. وقال جلّ وعلا: ﴿والملائكةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِن كُلِّ بابٍ * سَلامٌ عَلَيْكُم بِما صَبَرْتُم﴾ [الرعد:٢٣ ـ ٢٤] قيل: على الفقر.

ويشهد للصبر عن الدنيا فى هاتين الآيتين قوله عزّ وجلّ، فى وصف العلماءِ الزاهدين، لما قال: ﴿وَقَالَ الَّذينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ الله خَيْرٌ لمَنْ آمَنَ﴾ قال عقيب ذلك فى بقية ثنائه عليهم: ﴿وَلاَ يُلَقَّاهَا إلاَّ الصَّابِرُونَ﴾ أى عن زينة الدنيا التى خرج فيها قارون، فَهُم الزّاهدون الصابرون عنها. ثم قال فى مدحهم بوصف آخر: ﴿يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾. فقد حصل للزاهد أجران: بصَبْرِه على الفَقْرِ، وبوُجودِ زُهدِه، وللفقير المُعْدِم أجرٌ واحدٌ على الغنىِّ، لوجود فقرِه، وعدم زهدِه. فلَحِقَ بمقامِ الخوفِ الذى أُعطى به الخائفُ جنّتين. ففُضِّل بالأخرى على مقامِ الرّجاء، إذِ الخوفُ مقتضى العلم بالله، لقوله تعالى: ﴿إنّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِه العُلَماءُ﴾ [فاطر:٢٨]. لذلك قال المسيح عليه السّلام: «خشيةُ اللهِ وحُبُّ الفِردوس يباعدان من زهرةِ الدنيا، ويُورثان الصّبرَ على المشقة». فجعل الخشيةَ لله تعالى والحبَّ له يدلان على الزّهدِ فى الدّنيا، ويُورثانه، ويسهِّلان الصّبرَ على شدائدها، إيثارًا لمحبةِ الله تعالى على محبةِ نفوسهم فيها، وخيفةً من الله أن يحاسبهم على التكاثُرِ منها.

ولذلك صار الوَرَع الذى انتهت الفضائلُ إليه، وكثُرت الأخبارُ فيه، لا يُوصَل

إليه إلا بعد الزُّهد فى الدّنيا؛ لأنّه إذا لم يَزْهد فى شىءٍ لم يُمكنْه أن يَرِعَ عنه. فإذا أُعطى الزُّهد فيه، وعُوِّض من الرّغبة بَدَلاً منه، سَهُلَ عليه الورَعُ عنه، فتركه زهدًا فى الدنيا، ورغبةً فيما وعدَ اللهُ، وخِيفةً من المطالبةِ به، وحُبًا لموافقةِ محبةِ الله بتركه.

ألم تَسمع إلى حسان بنِ أبى سِنان، وكان من أخيار التابعين بإحسان، إذ يقول: ما رأيتُ شيئًا أيسرَ علىّ من الورَع. قيل: وكيف، ونحن نظن أنه من أشدّ الأعمال؟ فقال: إذا حاكَ فى صدرى شىءٌ تركتُه. وقال مرّةً: إذا رابنى أمرٌ تركتُهُ. فلمّا وُهب له الزّهد فيه، وعُوِّض عنه؛ رغبةً فى الله به، هانَ عليه الوَرَعُ[1].

وعلى ذلك تأويل الخبَرَين عن النبى ﷺ، أنه قال فى أحدهما: «يدخل فقراءُ أمتى الجنّةَ قبل أغنيائهم بأربعينَ خَرِيفًا». وقال فى الخبر الآخر: «يدخل فقراءُ المؤمنين الجنَّةَ قبل الأغنياءِ بخَمْسمائةِ عامٍ»: بأنّ الفقير الزاهد يدخُل الجنَّة قبل الغنىِّ الصالح بخمسمائة عام، وهؤلاء خصوصُ الفقراءِ من الموقنين. وأنّ الفقير من المؤمنين غير الزاهد يدخل الجنَّة قبل الأغنياء بأربعين خريفًا، لأجل فَقْرِه فقط، وهم عمومُ الفقراء. فصار الأغنياء مَفْضُولين فى حالَين جميعًا، وأنَّ جُملةَ الفقراء يدخلون الجنَّةَ قبلهم، لمكان غِناهم فى الدنيا، وأنّ عمومَ الأغنياءِ من أبناء الدّنيا موقوفون للحساب، ومطالبون بالإنفاق والإكساب، بالخبر الثالث: «اطّلعتُ فى الجنة فرأيتُ أكثرَ أهلها الفقراء، واطّلعْتُ فى النّار فرأيتُ أكثرَ أهلها الأغنياء». وفى اللفظ الآخر: «فقلتُ: أين الأغنياءُ؟ قيل: حبَسَهم الجَدُّ».

وفى الخبر الآخر: «يحاسبون و (. . .) على أموالهم». وفى الخبر الرابع: «فيقول الفقراء: هل أَعْطيتُمُونا من الدنيا ما تحاسِبوننا عليه؟ فيُقال لهم: صدَق عِبادى، أدخلوهم الجنة بِغَيْر حساب. قال: ويعتذر اللهُ ربّكم عز وجلّ، كما يعتذرُ أحدُكم إلى صاحبه، فيقول: عبادى، إنى لم أمنعكم الدنيا (. . .) لهوانكم علىَّ، ولكن لتستوفوا (. . .) فهذه جنّتى تَنعَّمُوا فيها بغير حساب (. . .)[2] واسْرحُوا

(١) الفقرة فى الإتحاف ٩/ ٣٧٧.

(٢) مواضع تالفة بالأصل.

فيها كيف شئتم. قال: قد جاء بعدهم الأغنياء بخمسمائة عام، والآخرون موقوفون للحساب».

وفى الحديث الخامس: «فيقال للأغنياء: أنتم كنتم خُزّانىّ فى (. . .) مطالبتى. فإيّاكم أُطالب، ولكم أحاسب».

وفى الخبر السادس: قال: «فيدخلون الفقراء فينضم إليهم رجلٌ من الأغنياء. فيقال: إنه ليس منهم، فَيُرَدُّ إلى الحساب. قال: فيَوَدُّ لو أنّه عاش فى الدنيا فقيرًا من أوّلها إلى انقضائها».

وفى الخبر السابع: «إنّ الرجّل من الأغنياء لَينظر إلى منازله فى الجنّة، وإنّه فى المَوْقف يُحاسَب ويُمحَّص، حتى يسيل منه من العرق ما لو وَرَد عليه مائة من الإبل لَصدَرتْ عنه رِواءً».

وقد سمَّى اللهُ الفقراءَ الزاهدين مُحْسنينَ، ووضعَ عنهم السبيلَ يوم الدين، فقال سبحانه: ﴿ولا علَى الَّذينَ لا يَجِدُونَ ما يُنْفِقُونَ حَرَجٌ﴾، ثم قال: ﴿ما علَى المُحْسنينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩١].

ثم أوقع الحجةَ والمطالبةَ على الأغنياءِ، وسمّاهُم ظالمين، ووصفهم بأوصاف النِّساء، وجعلَهم من المخلَّفين، فقال فى المعنَيين من الآيتين: ﴿إنَّما السَّبيلُ علَى الَّذين يَسْتَأذِنُونَكَ وَهُم أغْنياءُ رَضُوا بأَنْ يَكُونُوا مَعَ الخَوالِف﴾ [التوبة: ٩٣] يعنى: النساء؛ لأنّ هذا جمع التأنيث. وقال: ﴿إنَّما السَّبيلُ علَى الّذين يَظْلِمُونَ النَّاسَ ويَبْغُونَ فى الأَرْضِ بِغَيْرِ الحقِّ﴾ [الشورى: ٤٢] يعنى: بطَلَب العُلوِّ فيها ضدَّ الفقراء الصادقين، الذين قال فى ذكرهم: ﴿نَجْعَلُها للَّذينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًا فى الأَرْضِ﴾ [القصص: ٨٣]. وعلى هذا المعنى جاء تأويل قوله تعالى: ﴿إنَّا جعَلْنَا مَا عَلَى الأرْضِ زِينَةً لها لِنَبْلُوَهُم أَيُّهُم أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الكهف: ٧] قيل: أزهَدُ فى الدنيا. فصار الإحسانُ الذى هو وَصفُ اليقينِ مقامًا للزّاهدين، كما فسَّره الرّسولُ الأمين ﷺ لما سُئلَ: ما الإِحسانُ؟ قال: «أن تعبدَ اللهَ كأنّك تراه» يعنى على اليقين، وهو

المشاهدةُ للحقّ المبين.

ولعمرى إنّ الزّهد حال الموقن؛ لأنه مقتضى يقينه، وهم أهل الهداية من المتّقين، الذين خُصُّوا باليقين: ﴿ذَلِكَ الكِتَابُ﴾ المستبينُ ﴿لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢ ـ ٣]، فهذا زهدٌ منهم فى الإمساك؛ [لأنهم] مخصوصون بالرّزق الحسَن، الذى علامته الإنفاق، وهُم الموقنونَ بالآخرة، فلذلك آثروها على العاجلة، فقال فى آخر وصفِهِم: ﴿وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِن رَبِّهِمْ﴾ أى: بصيرة منه، وعلى طريق قاصد إليه ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٤ ـ ٥] أى الظّافرون بِبُغْيَتِهم منه، الفائزون غدًا من طُول الحساب، والسَّابقون إلى طُوبى وحُسنِ مآب.

وكذلك قال فى حُسن رِزقهم فى الدُّنيا الذى ينفقون منه: ﴿وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِراً وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ [النحل: ٧٥] يعنى: مع الآخَر الذى لا يَقْدِر على شىءٍ، وهو الإنفاق من الرّزق الذى بُلى به، وسُلّط عليه، فلم يُرزق منه الإنفاق، وكان رِزْقُهُ من رزقه الإمْساكَ فى الدنيا والتعذيب به فيها، وعليه فى الآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا﴾ [التوبة: ٥٥]. فنعوذ باللهِ من المالِ المسلَّط.

فإن كان لا بُدَّ من مالٍ فمُسَخَّرٌ لك، لا مُسَلَّطٌ عليك، بل تكون أنتَ المسَلَّط عليه لا المسخَّرَ له. فإنْ كان المال هو المسخَّرُ لك، فهذا من حسن التوفيقِ للأغْنياءِ، وهو طريقهم للفضل بما سلكتم فيه، فبِهِ فُضّلوا إن وُفِّقوا للإنفاقِ(١).

وقد يحتج متوِّهم لفَضْل الأغنياء المُمْسكين لفضول الغنى على الفقراء عنده بقوله تعالى مخبرًا عن الفقراء: ﴿تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢]، ولا يعلم أنّ هذا عِند أهل التدبُّر للقرآنِ مَزِيدًا للفقراء،

(١) من قوله: «وقد سمى الله الفقراء» فى الصفحة السابقة وحتى هنا معظمهُ فى الإتحاف ٩/ ٣١٦ ـ ٣١٧ نقلاً عن نسختنا تلك.

لتمام حالهم لمّا كانوا مُحْسنين، كما قال سبحانه: ﴿تَمامًا عَلَى الَّذِى أَحْسَنَ﴾ [الأنعام:١٥٤]، وكما قال أيضًا: ﴿وسَنَزِيدُ المُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:٥٨]، فكان مزيدهم الحزنَ والإشفاقَ، وخوفَ التقصير لمشاهَدَة عِظَم حق الرُّبُوبيةِ عليهم، حتى كأنّهم مُسيئونَ، حتى بشَّرهم الله تعالى بأنهم مُحْسنُون، لمّا قال عزّ وجلَّ: ﴿مَا عَلَى المُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [التوبة:٩١]؛ لأنه ضمَّهم إليهم فى الوصف، وعطفهم عليهم فى المعنى. وأيضًا فلم يكن بكاؤهم على فوت الدنيا، ولا على طلب الغنى، والله تعالى يمدحهم بصبرهم عن الدنيا، ويذم الدنيا إليهم، بل كان حزنُهُم على طلبِ المزيدِ من الفَقْرِ، ليجدوا الإنفاق، فيخرجوه، فيفتَقِرُوا منه، فيزدادُوا فقرًا من الدنيا ببذله إلى فقرهم. فعلى كثرةِ الإنفاق، وحقيقةِ الفقرِ من الدُّنيا، كان حُزنهم.

فهذا فضل يأتى للفقر لا على الجمع والادخار. والموضع الأعلى الذى فُضِّل به الفقراء من هذه الآية، عند أهل الاستنباط والتفكّر والدّراية: هو مشاركتهم لرسول الله ﷺ فى حاله، ووصف اللهُ تعالى رسولَه ﷺ بمثل حالهم فى قوله تعالى: ﴿قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾، ثم نعتهم بمثله لأنهم هم الأمثل فالأمثل به، فقال تعالى: ﴿أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ [التوبة:٩٢] فمن كان برسول الله ﷺ أمثل فهو الأفضل. كيف وقد روينا عن النبى ﷺ: «تحية المؤمن فى الدنيا الفقر» فجعل الفقر تحيةً له من ذى التّحيّات المباركات، مع الخبر المشهور: «الفقرُ على المؤمن أزينُ من العذار الحَسَن على خَدِّ الفرَسِ الجَواد».

فأمّا ابنُ مسعود فإنّه صيَّر الفقرَ حقيقةَ الإيمان، حتى يَحِلَّ بذرْوَته، إذ عَبَّر عن ذرْوة الإيمان به، فقال: «لا يبلغ عبدٌ حقيقةَ الإيمانِ حتى يَحِلَّ بذرْوته، وحتى يكونَ الفقرُ أحبَّ إليه من الغنى، والتّواضعُ أحبَّ إليه من الشّرف، والذّلُّ أحبَّ إليه من العزِّ». وفى رواية أخرى: «حتى يكون مادحُهُ وذامُّهُ عنده سواء».

فهذا هو تفسيرُ حقيقةِ الفَقْرِ فى النّفس[١]، وهو يستوعِبُ كُلِّيَةَ الزُّهدِ فى الدّنيا. واعْلَمْ أنّ الثلاثَ الأُخَرَ التى قَرَنها بالفَقْر هُنَّ من إخباتِ الفقيرِ، إذا كان صادقًا

(١) فى الإتحاف ٩/ ٣٧٧: «الزهد فى النفس»، وعنه أصلحت عدّة مواضع كانت تالفة بالأصل.

زاهدًا كان ذَليلاً فى نفسه، متواضعًا بنفسه، لا يَكْترث بِمدحٍ ولا ذَمٍّ؛ لسقوطِ نفسه عندَه، واطّراحِ الخلقِ عَنْه. فهذا عِلْمُ وُجودِ اليقينِ، الذى ضدّه علامةُ النّفاق فيما فسَّره وهب بن مُنبِّه، عندما سئل: ما علامةُ المنافق؟ فقال: أن يكرهَ الذَّمَّ، ويحبَّ المدحَ. وقال غيرهُ غير هذا، وهو أسهلُ منهُ: من علامةِ النِّفاق، أن يُمدحَ العبدُ بما ليس فيه، فيُعجبه ذلك.

وأشدُّ مِن هذا منعُ رسولِ الله ﷺ حصولَ الإيمان، ومنْعُهُ الحياءَ الذى هو مقتضى الإيمان إلا بعد تمكُّن الزّهدِ، ووجودِ الورَعِ الذى هو مقدمةُ الزّهد، فى الخبر الذى رُويناهُ من طريقِ أهلِ البيت أسندَهُ جعفرُ الصّادق عن آبائه الأخيارِ إلى الرسول المختار ﷺ، قال فيه: «الإيمانُ والحياءُ يطوفانِ فى القُلوبِ فى كلِّ ليلةٍ، فإذا صادفا قلبًا فيه الزُّهدُ والورعُ أقاما فيه، وإلا ارتحلا».

فكأنّه أراد بهذا محضَ الإيمان وخالصَه، الذى هو يقينُ المعاينة، والحياءُ الذى هو نظرُ المشاهدة. إنّ وجودَ ذلك على حقيقةٍ فى مكان الزّهدِ فيما آمن بفنائه، لوجود مكان الرّغبةِ فيما آمن ببقائه، إذا تفكَّرَ فى ذلك تفكُّرَ أولى الألباب فيما شهدوه من بيان الآيات فى الخطاب، من قول المتفضّل الوهاب: ﴿**كذَلك يُبيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآياتِ لَعلَّكُم تَتفكَّرُونَ * فى الدُّنيا**﴾ وفنَائها ﴿**وَالآخِرَةِ**﴾ [البقرة: ٢١٩ ـ ٢٢٠] وبَقائها. أى: فتُؤْثِرون ما يَبْقى إذْ وصَفَهُ الباقى بوصْفِهِ، على ما يَفْنى حين وصفَهُ المُغنِى بصِفاتِكم إذ يقول: ﴿**ما عِنْدَكُم يَنْفَدُ**﴾ أى لأنكم تَفْنَون عنه ﴿**وما عِندَ الله بَاقٍ**﴾ [النحل: ٩٦] لَمّا خصّه بمعنى وصفِ البقاء، تشريفًا وتعظيمًا وتفْضيلاً[١] مع قولِه: ﴿**واللهُ خَيْرٌ وأبْقَى**﴾ [طه: ٧٣]. ثم قال فى وَصْفها بصفته تعالى: ﴿**والآخرةُ خَيْرٌ وأبْقَى**﴾ [الأعلى: ١٧]. ولذلك كان أبو الدرداء يقول: لئن حلفتم لى (. . .)[٢] أنّه أزهدُكُم فى الدنيا، لأحلفَنَّ لكم أنه خيرُكم.

وأمّا وهب بن منبه فقد جعل الزهدَ من استكمالِ العقلِ، فقال: لا يستكمل

(١) انظر: الإتحاف ٩/ ٣١٩، فقد أكثر من النقل.

(٢) تلف فى الأصل.

العبدُ العقلَ حتَّى يكونَ فيه هذه الخصال: يكونَ الفقرُ أحبَّ إليه من الغِنى، والذّلُّ أحبَّ إليه منَ العزِّ، والتواضعُ أحبَّ إليه من الشَّرف.

فهذا عَقْلُ العالِمين بالله، وهم عقلاءُ الموقنين، وهو عَقْلُ هِدايةِ الآخِرَةِ، المنوطُ بمعرفةِ الآخرةِ، لا عقْلَ الوَلِه على الدنيا، المرتبط بالعكوف على الخلق، لقوةِ مشاهدةِ الحقِّ بعين اليقين، ولضَعفِ شاهدِ المعقولِ باستجلاب حظوظ النّفس من الفُضولِ. فلذلك جعلَ ابنُ مسعود هذه الثلاث من حقيقةِ الإيمان وذِرْوتِه.

ولعمرى إنّ كمالَ الإيمان وأعلاه هُو بكمالِ العقل ونُهاهُ، كقوله: ﴿**إنَّ فى ذلك لآيات لأُولى النُّهَى**﴾ [طه: ٥٤] فهو جمعُ: نُهْية، وهى من أسماء العقلِ؛ لأنّه ينتهى به، ويتناهى فى الوصف إليه. فالعقلُ مكانُ الإيمانِ، مَثَلُهُ كالفَتيلة مكان المصباح. فإذا تَحَقَّقَ الإيمانُ وكمُل، زِيد فى تحقيقِ العقلِ وتكميلِه، وكان معه الزّهدُ بحقيقتِه.

ولذلك كان أبو محمّد يقول للمتقشفين من الغُبارِ[1]: احفظوا عقولَكُم، فإنّه لم يكُن ولىٌّ لله ناقص العقل.

والفقرُ اختيارُ رسول الله ﷺ، عن حُسن اختيارِ الله لَهُ، لمّا خَيَّره: «من أنْ يعطيَه مُلْكًا كمُلكِ سُليمان عليه السّلام». وفى الخبر الآخر: «بين أن يُجْرِىَ له الأوديةُ مالاً، ويجعل له الجبالَ ذهبًا وفضّة، ولا ينقصه ذلك من درجته عند الله شيئًا»، فاختار بحُسن توفيقِ الله وعصمتِه له الأحَبَّ إلى الله، والأخْير عند الله، إذ قد ضمِن له إن أعْطاهُ لا ينقُصُه، فلم يبقَ إلا مَحَبّةُ الله، فكانت آثرَ عندَهُ من تَرْكِ نقيصتَه، فقال: «لا حاجةَ لى بذلك، بل أجوعُ يومًا وأشبعُ يومًا، أحمدُكَ إذا شبعتُ وأتضرّع إليك إذا جُعْتُ».

والفقْرُ شِعارُ النبيِّين، وطريقُ عِلْية الصّحابةِ، والأصْفياءِ من التّابعين.

وقد رُوينا فى الخبر الآخر: «آخرُ الأنبياءِ دُخولاً الجنةَ سليمانُ، لمكان ملكه.

---

(١) الغُبار: كذا بالأصل، والمقصود منها: الذين يزهدون فى الشىء اليسير، فإنه يحذرهم من ترك كل ما يقوم به البدن والعقل، حتى لا تذهب عقولهم.

وآخر أصحابى دُخُولاً الجنةَ عبدُ الرحمن بنُ عوف، لأجلِ غناه». وفى الخبر الآخر: «رأيته يدخل الجنَّةَ زحْفًا».

وقال سعيد بن جُبير: إنّما فَضَّل اللهُ الأنبياءَ بما أعطاهم من العلمِ به، والنّصرِ، وما زهدوا فى الدنيا، مع القيامِ به، والصّبر عليه، فجعلَ العلمَ باللهِ معيارًا على النّبوة، به تَفاضل الأنبياء، وهو علمُ اليقين الكاشفُ لعين اليقين، المتجلّى به وصفُ الوحدانيَّةِ. وجعل سببَ ذلك الزّهدَ.

وكذلك أقام علىٌّ، عليه السلام، الزهدَ مقامَ اليقينِ، الذى ما نزل من السّماءِ أعزَّ منه؛ ذلك لأنّ الزّهدَ مقتضاه، ولأنَّ اليقينَ موجبُهُ، فهُو عنده ـ فى قوله، وقد ذكرَ شُعبَ الإيمانِ، فقال: على أربعٍ ـ على اليقينِ. وقد رُويناه أنّه فَسَّرَ بالزّهدِ اليقينَ، فقال: «اليقينُ على أربعِ شُعَبٍ» فقال فيه: «ومَن زَهد فى الدنيا هانَتْ عليه المصائبُ». وتهوينُ المصائبِ موجبُ اليقين، كما الزّهدُ مقتضى اليقين.

ألم تسمع إلى دُعاء الرّسول ﷺ: «وارزُقْنا منَ اليقين ما تُهوِّنُ به علينا مَصائبَ الدُّنيا»، فلما هانتْ عليه الدّنيا، لنظرِه إليها بعين اليقين، وهى العينُ التى يراها بها عبادُه الصالحون، هان عليه مصائبها. كما علَّم رسولُ الله ﷺ الرّجلَ، فقال: «قل: اللهُمَّ أرِنى الدّنيا كما يراها الرَّجلُ الصَّالحُ من عِبادِك». فلم ير مصائبَها بفضائلَ شَهِدها نِعَمًا لرجوعه إليها فى المآل، ورآها مُلْكًا لمولاها، فلم يغترَّ بها فى الحال، إذ سمِعَه سبحانه يقول: ﴿قَالُوا إنَّا لله وإنّا إلَيْه رَاجِعُونَ﴾ [البقرة:١٥٦]، مع قوله: ﴿وما عِندَ الله خَيْرٌ وأبْقَى للَّذِينَ آمَنُوا وعَلَى ربِّهم يَتَوَكَّلُونَ﴾[1] [الشورى:٣٦].

ولا نعلم فى الأمّة أفضلَ من طائفتين : المهاجرينَ، وأهلِ الصُّفَّة. وجميعًا مدحَ اللهُ بالفقْرِ، فقال تعالى: ﴿لِلْفُقَراءِ المُهاجِرينَ﴾ [الحشر:٨]. وقال: ﴿للفُقَرَاء الَّذينَ أُحْصِرُوا فى سَبِيلِ الله﴾ [البقرة:٢٧٣]. فقدّم وصْفَهم بالفقْر على أعمالهم بالهِجْرة والحَصْر. واللهُ سبحانه وتعالى لا يمدح من يُحبّ إلا بما يُحِبّ، ولا

(١) كتبت هذه الآية خطأ فى الأصل.

يصفه حتى يحبّه.

ورُوينا فى قوله عزّ وجلّ: ﴿وجَعَلْنَا مِنْهُم أئمَّةً يَهْدُونَ بأمْرِنا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السجدة: ٢٤] قيل: عن الدُّنيا. ويقال: عن الشَّهوات. وفى الخبر بمعناه: «العلماءُ أمناءُ الرُّسلِ ما لم يَدْخُلوا فى الدّنيا». وفى لفظ آخر: «ما لم يخالطُوا السّلطانَ، فإذا فعلوا ذلك فاحذرُوهم على دينكم». وجاء فى الأثر: «لا تزال لا إله إلا اللهُ تدفع عن العبادِ سَخَطَ اللهِ، ما لم يُبالوا ما نقَصَ من دُنياهم بسلامة دِينهم، فإذا فعلوا ذلك، وقالوا: لا إله إلا اللهُ، قال اللهُ: كذبْتُم، لَسْتُم بها صادِقين». وفى الخبر الآخر: «فإذا قالوها رُدّتْ عَليهم».

وفى الخبر الغريب من طريقِ أهلِ البيت: «إذا أحبَّ اللهُ عبداً ابتلاه، فإذا أحبَّه الحبَّ البالغ اقتناه. قيل: وما اقتناه؟ قال: لم يترك له أهلاً ولا مالاً». وفى لفظ آخر: «أماتَ عيالَهُ وأَبْقاه». وفى الأخبار عن الكتب السَّالفة: «إنّ اللهَ تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه: احذر أن أمقتكَ، فتَسقط من عَيْنى، فأصُبَّ عليك الدّنيا صبًا».

وقال بعضُ أهلِ العلمِ والفَهْم فى تأويل قوله تعالى: ﴿ومِنهُم مَنْ أغْرَقْنا﴾ [العنكبوت: ٤٠] قال: فى بحر الدنيا.

وكان لقمان عليه السلام يقول: «الدنيا بحرٌ عميقٌ، قد غَرِقَ فيه خَلْقٌ كثيرٌ، فاجعل سفينتك فيها تقوى الله، وشِراعَها التوكل على اللهِ».

ورُوينا فى أخبار مُوسى صلى الله على نبينا وعليه وسلم أن الله سبحانه وتعالى أوحى إليه: «لا تركن إلى حُبِّ الدّنيا، فإنّك لا تلقانى بكبيرةٍ أعظم منهُ».

وفى أخبار إبراهيم الخليل ﷺ فى قصةٍ طويلة، قال فى آخرها: «إنّ اللهَ قال له: لو بِخَليلِكَ أنزلتَ حاجتكَ لقضاها لكَ، يعنى نفسَه تعالى، ولم يُعنِّك». وكان قد احتاج فذهب إلى خليلٍ له يستمنحه شيئًا، فتوارى عنه، فرجع إبراهيم منكسرًا. فلما قال له ذلك، قال: إلهى، علمتُ مقتك للدّنيا، فخفتُ أن أسألك شيئًا منها فتمقتنى. فأوحى اللهُ إليه: أمَا علمتَ أن الحاجةَ فى الدنيا ليست من الدنيا». ورويناه مرةً: «أن القُوتَ ليس هو من الدنيا».

وقد جاء ما معناه عن نبينا ﷺ: «من نظر إلى زهرةِ الدنيا أصبح ممقوتًا فى ملكوتِ السّماء، ومن صبرَ على القُوتِ نزل الفردوسَ حيثُ أحبَّ». فدلّ ذلك: أن القوتَ ليس من الدنيا لأنّه استثناه منها بمدحه على الصبر عليه بعد ذمِّها. وكذلك روينا الخبرَ فى القُوت: «لا يعذِّبُ اللهُ مؤمنًا جعل رِزقه فى الدنيا قُوتًا». وفى الخبر الآخر: «طُوبى لمن هُدى إلى الإسْلامِ، وجُعل رِزْقُهُ كَفَافًا، وصبرَ عليه». وفى لفظ آخر «ورَضِى به». وكان ذلك من دعاء رسول الله ﷺ، لنفسه ولأهل بيته فى الدنيا: «اللهمّ اجعلْ رِزْقَ محمّدٍ وأهلِ بيتهِ فى الدنيا كَفافًا».

واختُلِف فى الكفاف. فمنهم مَن قال: هو قوتُ يومٍ بيوم، بلا سَرفٍ. ومنهم من قال: هو جوعُ يومٍ، وشبعُ يومٍ. وكذلك جاءت الأخبار الواردة، وتواترت الآثارُ الكثيرةُ فى وصفِ المصطفى رسول الله ﷺ، وحالِ أهلِ بيته وأزواجه، أن كان يأتى عليهم الهلالُ بعد الهلالِ، ثلاثةُ أهلّة، لا يُوقَد فى بيوت أزواجه نارٌ، ولا يُرى دخانٌ، لخبزٍ ولا طبيخ. قال عروةُ: «فقلت لعائشة: يا أُمَّه، فما كان تَعيُّشُكُم؟! قالت: الأسودان: الماء والتمر. وكان لنا جيرانٌ من الأنصارِ يُرسلون إلينا باللَّبن فى الحينِ بعدَ الحينِ».

وفى الخبر: «ما شَبِعَ رسولُ الله ﷺ وأهلُ بيته من خبز بُرٍّ ثلاثةَ أيامٍ، حتّى لحِقَ بالله». ومن قولِ رسولِ الله ﷺ: «ما أصبح عندَ آلِ محمدٍ صاعُ بُرٍّ، ولا صاعُ تمرٍ، ولا صاعُ شعيرٍ، وإنّ عنده لتِسعَ نِسْوةٍ».

وفى الخبر: «أن أعرابيًا جاءه، فأرسل إلى جميعِ بيوتِ أزواجِهِ فى شىءٍ يُطعمُهُ، فلم يُوجَد عندهنّ شىءٌ». وفى لفظ آخر: «فوجد كِسْرةً، فجزّأها له لُقمًا، فأكل الأعرابى. ثم قال: إنّك لرجلٌ صالح».

وفى خبر ابن عبّاس وعائشة رضى الله عنهما: «قُبض رسولُ الله ﷺ ولم يترك دينارًا، ولا دِرْهمًا، ولا شاةً، ولا بعيرًا، ولا أوصى بشىء. وتركَ دِرْعَه مَرهونةً عند يهودىٍّ بثلاثين صاعًا من شعيرٍ».

هذا لهوانِ الدّنيا على اللهِ، وبُغضِ اللهِ لها، كما قال ﷺ: «لو كانت الدنيا تَزِنُ

عندَ اللهِ جناحَ بَعُوضةٍ ما سقَى كافِرًا منها شربةً من ماءٍ».

ومرَّ ﷺ بشاة ميِّتة، وفى خبر آخر: بجَدْى أجربَ ميِّت شائلة برجلها، فقال: «أترون هذه هيِّنَةً على أهلها؟ فقالوا: نعم، من هَوَانها عليهم ألْقَوْها. فقال: واللهِ، لَلدُّنيا أهونُ على اللهِ من هذه على أَهلِها».

وفى حديث عمرَ رضى الله عنه؛ لمّا دخل على رسول الله ﷺ وهو نائم على سريرٍ من جَريدٍ مَرْمولٍ[1] بشريط، فقعد وقَد أثّر حبَارُ[2] الشَّريط بجنبهِ. قال: «فأدرتُ عَينى فى بيتِ رسول الله ﷺ، فما رأيتُ إلا قَدْرَ صاعَيْن من شعيرٍ مَصْبوب فى زاويةِ البيتِ، وأُهُبٍ فى ناحية منه غير مدبوغةٍ. قال: فلم أملك عينى، فبكيتُ. فقال: ما يبكيك يا ابنَ الخطّاب؟ فقلت: كسْرَى وقيصرَ فى فُرشِ الحريرِ والدِّيباج، وفى نعيمِ الدنيا، وأنتَ رسولُ الله وخيرتُهُ من خَلْقهِ على ما أرى. قال: أفى شكٍّ أنت يا عُمرُ؟! أمَا ترضى أن تكونَ لهم الدنيا ولنا الآخرةُ. فقلتُ: رضيتُ». وفى لفظ آخر: «قومٌ عُجِّلت لهم طيباتُهم فى الدّنيا».

فدلّ قوله ﷺ: «أفى شكٍّ أنتَ» على أنّ القلّة والزهدَ من اليقين، لأنّه ضدّ الشّكّ، فمن شكّ فى ذلك، أو رغِبَ عنه، فهو ليس بمُوقن.

ولعمرى لقد جاء بمعناه: «إنّ الدّنيا مُرَفْرَفَةٌ بين السّماء والأرضِ، لا ينظر اللهُ إليها منذُ خلَقَها إلى أن يُفْنيها، تقول: يا ربّ، لِمَ تُبغضُنى؟ لِمَ تَمْقتنى؟ فيقول تعالى: اسْكُتى يا لاَ شَىء». وفى لفظ آخر: «أنتِ وأهلُكِ إلى النّار».

وفى الحديث الآخر زيادة: «إنّها تُبعث يومَ القيامةِ، فيقول تعالى: ميِّزُوا ما كان منها لى، وألْقوا سائرَها فى النّار. فتقول: يا رب، اجعلنى اليوم لأدنى عبادِك فى الجنة منزلةً. فيقول: اسكتى يا لا شىء، أنا لم أرْضكِ لهم فى الدّنيا، أأرْضَاكِ لهم اليومَ عِندى فى دارِ كَرامتَى؟».

وكذلك الخبر الآخر المشهور، يُنبىء عن وَصْفِها اليومَ: «الدّنيا ملعونةٌ، ملعونٌ

(١) جريد مرْمول: أى منسوج.

(٢) حَبار: أثر. وفى الإتحاف ٩/ ٣٦٤: أثر حبال الشريط.

ما فيها، إلا ذكرُ الله، أو عالمٌ أو متعلِّم». فهذا يدلُّ أن هذه الثلاث ليس من الدنيا، لأنها طرقاتُ الآخرة. وكأنّه تفسير قوله فى الخبر: «ميِّزوا منها ما كان لى»، فهو الذى له تعالى، أى يُتقرَّب به إليه، ويُستدل به عليه، ويُتطرق منه إلى دارِ السّلام عنده؛ لأنه هو الخير، والدّنيا شرّ. وقد قال ابنُ عمر فى تَلْبيته: «والشرُّ ليس إليك»، أى لا يُتعرَّف به إليك. والآخرةُ ضدّ الدُّنيا.

وفى الخبر «أن عائشة رضى الله عنها لبستْ دِرعًا جديدًا، فنظرتْ إلى عِطْفِها، فزجَرها أبو بكر زجْرةً فَزِعت لها، وقال: ما تنظرين؟ إنّ الله تعالى ليس بناظرٍ إليك. قالت: لِمَ؟ قال: العبدُ إذا أُعجب بشىءٍ من الدّنيا مَقَتَهُ ربُّه، حتى يفارقَ تلك الزِّينةَ. قال: فنزعتْهُ، فتصدَّقت به. فقال: عسى أن يكفِّر عنك بذلك».

كذلك فعلَ رسولُ الله ﷺ امتثالاً لأمرِ الله لمّا مرَّ بعِشارٍ حُفَّلٍ، وهى المجتمعُ اللبن فى ضَرْعها، إذ كانت أحبَّ أموالِ العرب إليهم وأهمها وأكرمها (. . .)[1] الله تعالى بتعطيلها عند تكوير شمسها فقال: ﴿إِذَا الشَّمسُ كُوِّرَتْ﴾ حتى قال: ﴿وإذا العِشارُ عُطِّلَت... علِمَتْ نفسٌ ما أحْضَرتْ﴾ [التكوير:١ ـ ١٤] [يعنى ما قدّمت لنفسها غدًا] من مثاقيل الذَّرِّ من الخير والشَّرِّ. قال: فأعْرضَ عنها رسولُ الله ﷺ، أعنى: عن العشار الحوامل. فقالوا: يا رسولَ الله، هى كرائمُ أموالِنا أعرضتَ عنها. فقال: «إن اللهَ أمرنى بذلك، ثم قرأ: ﴿ولا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إلَى ما مَتَّعْنا به أزْواجًا مِنْهُم زَهْرةَ﴾ إلى قوله: ﴿ورِزْقُ ربِّكَ خَيْرٌ وأبْقَى﴾ [طه:١٣١]». قيل: القناعة. وقيل: الكَفاف، وهو قوتُ يومٍ بيوم. ويقال: الحلال.

وبمعناه روينا فى الإسرائيليات: «أنّ عيسى عليه السلام مرَّ فى الحوارييّن على شجرة خَضِرةٍ نَضِرَةٍ، تحتها غَدير، فنظروا إليها. قال: وأعْرضَ هو فلم ينظُر، فلمّا جاوَزُوها قال: بحقٍّ أقول: لقد نقصَ من عُقولكم بمقدارِ نظرِكم إلى الدُّنيا. قال: ومرُّوا بميتَةِ حمارٍ قد أنتَن ريحهُ، فغطُّوا أنوفَهُم، وأفَّفُوا، فنظر إليه، ولم يُغَطِّ أنفَه ولا أفَّفَ. فقالوا: ما أنتنَ ريحَهُ! فقال: ما أشدَّ بياضَ أسنانه».

(١) تالف بالأصل، وسيجىء الخبر مرة أخرى بلفظ مختلف.

وقال مرّة: «هذه دنياكُم التى تَحْرِصُون عليها». فجعل الدنيا جيفةً مُنْتِنَةً، يعلِّمُهم بقوله «ما أشدَّ بياضَ أسنانه» تَرْكَ الغيبة، وأن لا يذمُّوا أشياءَ، بل يذكُرُوا من الشيءِ أحسنَ شيءٍ فيه. فلمّا ذكروا ما قَبُح من الصِّحة وعابُوه وهو النَّتن، ذكرَ هُو أحسنَ شيءٍ فيها وهو بياضُ الأسنانِ.

فهذا ـ كما روى عنه ـ من الأدب فى تَرْك عادة السُّوء خشيةَ الاعتياد، وإن جازَ ذَلك فى المذْمومِ: أنه مرَّ بخنزيرٍ، فاقتربَ الخنزيرُ منه، فقال له: مُرْ بسلام، فقيل له: تقول هذا للخنزير؟! فقال: أكره أن أعوِّد لسانى الفُحْشَ.

وقد رُوينا فى تأويلِ قوله: ﴿وما الحَيَاةُ الدُّنيا فى الآخِرَة إلاَّ مَتَاعٌ﴾ [الرعد:٢٦]، قال بعضُ [أهل] اللغة: متاعٌ مثل: جِيفة. سمعتُ عن الأصمعىِّ أنَّ بعضَ العربِ يقول: مَتَعَ اللحمُ، إذا راحَ وتغيَّر. وعلى معنى ذلك فى الكلام السّائر قولُه فى ضرب المثَل للدنيا: ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًا﴾ معناه: يتغيَّر. يُقال: هاجَ الشّجرُ والزّرعُ: إذا تغيَّر واصفَرَّ وفَسدَ ﴿ثُمَّ يَجْعَلُه حُطَامًا﴾ [الزمر:٢١] أى مُحطّمًا ومُنْحطمًا ومُنْهَشِمًا كله بمعنى: منكسر يابس، يُداسُ ويُوطَئُ بالأقدام. ومنه قال: ﴿وما أدْراكَ ما الحُطَمَةُ﴾ [الهمزة:٥] لأنّها تَهْشِمُ الإنسانَ وتكْسِره، وتَرْكُسُه[١] وتطأهُ فى النّار الموقَدَة.

ويقال: ليس عملٌ من أعمالِ البرِّ يجمَعُ الطاعاتِ كلّها إلا الزّهدُ فى الدنيا. وعن الصحابة تابَعْنا الأعمالَ كلَّها بعضها على إثرِ بَعْضٍ، فلم نَرَ أبلغَ من أمرِ الآخرة من زَهادَةٍ فى الدنيا. وقال بعضُ الصحابة[٢] للصّدر الأوّل من التابعين، لمّا رأوا شِدّةَ اجتهادِهم فى العبادة: أنتُم أكثرُ أعمالاً واجْتهادًا من أصحابِ رسول الله ﷺ، وهم كانوا خيرًا منكم. قيل: ولِم ذاك؟ قال: كانُوا أزهدَ منكم فى الدُّنيا.

وكذلك قال أبو الدرداء، لمّا وصفَ الأبدالَ، فذكَر قلوبَهُم ومواجيدَهم، وعِلمَ اليقين منهم، وأحوالَ الصّديقين فيهم، فقال له صاحبه: واللهِ ما سمعتُ صفةً

---

(١) الركْس: ردُّ الشيء مقلوبًا.

(٢) هو عبد الله بن مسعود، كما فى الإتحاف ٩/ ٣٣٤.

أحسنَ من هذه، ولا أعجبَ إلىَّ منها، فكيف لى أَنْ أكون من أهلِها؟! فقال: يا ابنَ أخى، ما بينك وبين أن تكون من أوْسَطِهم، أو فى أوسطها، حالاً إلا أن تزهدَ فى الدنيا، فبقدر زُهدكَ فيها، وبُغضكَ لها، يدخل حبُّ الآخرةِ والرغبةُ والرَّوحُ فى قَلْبك، وبقَدْر ذلك يحبُّك ربُّك. وحدَّث الحديث بطوله فى صفات أخلاق الأبدال.

وفى وصية لقمان لابْنه: واعلم أنَّ أعونَ الأشياءِ على الدين زَهادةٌ فى الدنيا. ويُقال: مَن زهد فى الدنيا أربعين يومًا أجرى الله ينابيعَ الحكمة فى قلبه، وأنطق بها لسانَهُ. وهذا وَصفٌ من صِفاتِ الأبدالِ الذين هم خلائفُ الأنبياء، وهم الصِّدِّيقُون والشّهداء والملحقون بهم، المرفوعون إلى الرفيق الأعلى، وحَسُن أولئك رَفيقا. ذلك الفضلُ من الله. وقد جاء فى خبرٍ: «إذا رأيتمُ العبد قد أُعطى صَمْتًا وزُهْدًا فى الدّنيا فاقتربوا منه، فإنّه يُلَقّى الحكمةَ». وقال الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثيرًا﴾ [البقرة:٢٦٩]. فهذا الخير الكثير، فهو ظاهرُ عطاء الزّاهدين وأوّله، فكيف بباطن عطائِهم ونهايتِه؟

فأعلى الأحوال عند الله شنآنُ الدّنيا، وحبُّ الآخرة، كما روينا عن رسولِ الله ﷺ، لمّا سُئل: أىّ النّاسِ خير؟ قال: «كلُّ مَخْمُومِ القلبِ، صدوقِ اللسان. قلنا: يا رسول الله، وما مخمومُ القلبِ؟ قال: التّقىّ النّقىّ، الذى لا غِلّ فيه ولا غِش ولا بَغْى ولا حَسد. قيل: يا رسول الله، فمَنْ عَلى أثَرِه؟ قال: الذى يَشْنأ الدّنيا، ويحبّ الآخرة».

والشىءُ يُعرف بضدّه، كما يُعرف بمثله، فضدُّ الشنآن: المحبّة، وضدُّ الزهد: الرّغبة. ففى تدبُّر كَلمه: «إنّ شرَّ النّاسِ الذى يحبُّ الدُّنيا». وإنّ الرّاغِبَ فيها هو المحبُّ لها، والاقتناءُ لها، والاستكثارُ منها، والتزيُّن والتفاخُرُ فيها، والإعجابُ بها، كلُّ ذلك علامةُ الحبِّ لها. كيف وقد رُوينا «إنْ أردتَ أن يحبَّكَ اللهُ فازهد فى الدّنيا». فجعل الزّهدَ سببَ محبةِ اللهِ التى لا مِثْلَ لها.

فينبغى أن يكون الزهدُ من أفضلِ الأحوالِ، إذْ كانت المحبّةُ من أعلى المقامات،

وصار الزَّاهدُ حبيبَ الله. ففى دليله: أنّ من رَغب فى الدنيا فقد تعرَّض لبُغْض الله، الذى لا شىءَ أعظمُ منه، وأنّ الرّاغبَ فى الدنيا مبغوضٌ عند الله.

ورُوينا فى الآثار جُمَلُ هذه الأخبار: «مَنْ أصبح وهمُّهُ الدُّنيا شتَّتَ اللهُ عليه أمَره، وفرَّقَ عليه ضَيْعَتَهُ، وجعل فَقْرَهُ بين عَيْنيه، ولم يأتِه من الدُّنيا إلاَّ ما قَد قُدِّر له. ومَن أصبح وهمُّه الآخرة جمع اللهُ له همَّه، وحَفِظ عليهِ ضَيْعتَهُ، وجعل غِناه فى قلبِهِ، وأَتَتْهُ الدّنيا وهى راغمة».

وقال اللهُ تعالى فى معناه: **﴿مَنْ كانَ يُريدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ومَنْ كان يُريدُ حَرْثَ الدُّنيا نُؤْتِهِ مِنْها ومَا لَهُ فِى الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾** [الشورى: ٢٠]. فمعنى **﴿نَزِد له فى حَرْثِه﴾**: أى لا يُحاسبه بما يعطيه منها، بعد أن لا يريدها، وأن لا تكون من همِّه، فما أُدخل عليه منها يخرج منه العبد بغير محاسبة. فهذا مجازُ الزيادة عندى؛ لأنّ الرّزق لا يُزاد فيه ذَرّة على ما قُسم له أولَ مَرّة. ولذلك شرط له بقوله: «وأَتَتْه الدّنيا وهى راغمة»، وإن لم يردها، فجعل ذلك له مَجْعَل المجازاة على زهدِهِ فيها، وجرى مَجْرَى المُكافأة، لخروج هَمِّه منها.

وقد كان الحسن وغيرُه يقولون: أهِنِ الدّنيا تهنأ بها، فأهْنأُ ما تكونُ إذا تهاوَنْتَ بها. ومرَّةً يُقال: أهِنْ نفْسك، فأهنأ ما تكونُ بها إذا أهنتها. وقال الحسن: ما أعَزَّ أحدٌ نفسَه إلا أهانَ دِينه، وحلفَ بالله: ما أعزّ عبدٌ الدِّينارَ والدّرهمَ إلا أذلَّ دِينَهُ. وقال مرّة: إلا أذلَّه. ومرّة يجعل بعضُ العقلاء ذلك فى النفس، فيقول: من أراد أن يُعزَّ نفسَهُ فليُذِلَّ دِرهَمَهُ، وما أعزّ أحدٌ درهَمهُ إلا أهانَ نفسه.

وهذا بابٌ. وقد كان المسيح ابن مريم عليه السلام، يقول: «إليكِ عنّى يا خنْزيرة».

قال: وكذلك قولُ السّلفِ لها إذا فُتحت عليهم: إنّا قد عرَفْنا ربَّنا. أى: قد عرَفْناهُ بالاختبار بها، والمكْرِ منه، والتفْتين بالتّوسعَةِ فيها، لينظر كيف نعملُ فيها، أَنُقْبلُ إليه بها، أو نُعرض عنه بالإقبال علَيها؟ وكقوله: **﴿لأَسْقَيْناهُم مَّاءً غَدَقًا * لِنَفْتِنَهُم فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذابًا صَعَدًا﴾** [الجن: ١٦- ١٧]. وقال فى

مثله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ﴾ أى: بها وفيها ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الكهف:٧] أزهدُ فى الدنيا، وأتركُ لها، وأحسنُ صبرًا عليها عنها.

وكان أبو محمد يقول: يُجعل أعمالُ البرِّ كلّها فى موازين الزُّهاد، ويكون ثوابُ زهدهم زيادةً لهم. وقال مرّةً: العُبَّاد فى مَوَازين العُلَماء، والعلماء فى موازين الزّهاد يوم القيامة، فلا يطمعنّ طامع فى محبّة الله له وهو محبٌّ للدُّنيا؛ لأنّ اللهَ تعالى يمقتها ويَبْغضها، ويقول: أنتِ وأهلُك إلى النّار.

وفى الزّبور: «إنّ الله تعالى قال لآدم عليه السّلام: تدرى لِمَ ابتليتُكَ بالخطيئة؟ قال: لا. قال: جعلتُ معصيتك سببًا لعمارَة الدّنيا. فإذا عُمِّرتَ بالمعصية ينبغى أن تَخْرَبَ بالزُّهد فيها». فإن الزهد فى الدنيا أصل كلِّ طاعة. كما روينا فى تأويله: «حبُّ الدّنيا رأسُ كُلِّ خطيئة». فمثَلُ الدنيا مثَلُ إبليس، جعله الله للبُعد واللعنة، ليبتليه ويبتلى به، ويهلكَه ويُهلك به؛ لذلك قيل: «الدّنيا ملعونةٌ ملعونٌ ما فيها، إلا ذكْرَ الله وما والاه». وفى لفظ آخر: «وما آوى إليه». أى: مُبَعِّدةٌ عن قُربِ الله وخاصيَّة رَحمته، كطرْد إبليس وإبلاسه. وقد أُشهِد ذلك بعضُ المكاشفين، فقال: رأيتُ الدّنيا فى صورة جِيفة، ورأيتُ إبليس فى صورة كَلْب، وهو جاثم عليها، ومنادٍ من فوق: أنت كلبٌ من كلابى، وهذه جيفة من خَلْقى، وقد جعلتُها نصيبك منّى، فمن نازعكَ شيئًا منها فقد سلَّطتُكَ عليه.

فجاء من هذا أنها مكانه، فمن تمكّن فى شىء منها سُلِّط العدو بالمكانة منه بقدر ما أصاب منها، فصار أبناؤها يقعون على العدو، يَبْتَزُّون نصيبه منها الذى جُعل له، فبسط عليهم بسُلطانه الذى سُلِّط به على مَنْ نازعَه ما فى يده، وتولاه بقُربه، إلا المتوكّلين من المؤمنين، ﴿إِنَّه لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وعَلَى ربِّهم يتوكَّلُون * إِنَّما سُلْطانُه عَلَى الَّذِينَ يَتولَّوْنَه﴾ يولِّيهم بقُرْبِهم منه ﴿والَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل:٩٩ ـ ١٠٠] فى التوحيدِ بالإلحاد، يشاركُهم فى الأموالِ والأولاد ويجلبِ عليهم بخيله ورَجِلِه، ويَعدهُمُ الغُرورَ، ويُمنِّيهم الزُّور، كما فرض لهم من النّصيب لمن اتّبعه فى نصيبه نصيبًا مفروضًا، ذلك تقديرُ العزيزِ العليم.

وقد كُوشف بها بعضُ الأولياء فى صورة امرأة، ورأى أكُفَّ الخلقِ ممدودةً إليها، وهى تجعل فى أيديهم شيئًا. قال لى: فقلتُ له: يا أبا الخير، ما هُو؟ قال: شىء يُلتَذُّ. قال: وطائفة تمر عليها مكتوفى الأيدى لا ينظرون إليها، قال: فليس تعطيهم شيئًا.

وقد قيل: الدّنيا لئيمة، إن أكرمْتَها أهانتك، وإن أهنْتها أكرمتك. فاللئيم إن نظرتَ إليه ورفعته أعرض عنك ووضعَ منك، والكريمُ بضدّ ذلك. وقال أبو سليمان الدّارانىّ: الدّنيا لئيمة، والآخرة كريمة، فإذا كانت الآخرة فى القلب جاءت الدنيا تزاحمُها للؤمها. وإذا كانت الدنيا فى القلب لم تجئ الآخرةُ تزاحمها لكَرَمِها. معناه: أنَّ يَسِيرَ دُخولِ الدنيا يُخرج كثيرَ دخولِ الآخرة، وكثيرٌ من شأن الآخرةِ لا يُخرج يسيرًا من الدنيا، وإنّ كثيرًا من أمر الآخرةِ قد يزيله قليل من أمر الدنيا، وإنّ قليلاً من أمر الدّنيا لا يزيله الكثير من الآخرة. هذا لعِزّة شأن الآخرة، وقلّة النصيب منها، وعِظم البلوى بها.

وقد قال مُوَرِّقٌ العِجْلىّ: رأيتُ الدُّنيا فى صورةِ عجوزٍ شَمطاء دَندانيّة سَمِجة، عليها ألوان المُصبّغات، وأنواعُ الزِّينة. فقلتُ: أعوذ بالله منك. فقالت: إن أردتَ أن يُعيذك اللهُ منّى فابغَضِ الدِّرهمَ. وفى لفظ آخر: واللهِ! لا يُعيذك الله منِّى حتى تُبغِض الدّينارَ والدِّرهمَ.

وكان بعضُ السلف يقول: الدّنيا دَنِيَّة، وأدنى منها قلبُ مَن يحبُّها. وقال آخر: الدّنيا قليلٌ، وأقلُّ منها من يظلم على شىءٍ منها. وروى عن على كرّم الله وجهه: «الدنيا جيفة، فمن أرادَها فليصبر على مُزاحمة الكلاب». وفى أخبار موسى عليه السّلام: «إن لم تَلْقَ الفقيرَ بمثل ما تلقى الغنىَّ، فاجعل كل علم علَّمتكَ تحت التراب. وإذا رأيتَ الفَقْر مقبلاً، فقل مرحبًا بشِعار الصالحين. وإذا رأيتَ الغِنَى مُقبلاً، فقل ذنبٌ عُجِّلَت عقوبته».

وفى أخبار داود عليه السَّلام: «إنّى خلقتُ مُحمّدًا لأجلى، وخلقتُ آدمَ لأجل محمّد، وخلقتُ ما خلقتُ لأجل ولد آدم، فمن اشتغلَ منهم بما خَلَقْتُه لأجله حجبتُه عنّى، ومن اشتغل منهم بى سقتُ إليه ما خلقتُه لأجله.

وكان أبو محمد يقول: الصدِّيقون فى بدايتهم طلبوا الدنيا من الله فَمَنعَهُم، فلمّا تمكَّنوا من أحوالهم عرضَها عليهم فامتنعوا منها. فالحالُ الأول موضعُ العصمة، أن منعَهم منها لضَعفهم؛ لئلا يهلكوا بقَبُولها، فلمّا تمكّنَ منهم ومكّنهم عنده رَدَّها عليهم؛ لأنهم قد صَلَحوا للأخذ: ﴿**آخذينَ ما آتَاهُمْ ربُّهُم إنَّهُم كانُوا قَبْلَ ذلكَ مُحْسِنينَ**﴾ [الذاريات:١٦]، فلمّا ذاقوا حلاوةَ الزُّهدِ، ووجدُوا نعيمَ الحُبِّ، لم يكن للدنيا عندهم وَزْنٌ، ولا فى قُلُوبهم قَدْر، فأعرضوا عنها لمّا عرَضها عليهم بحُسن إقبالهم عليه[1].

وقال يزيدُ بنُ مَيسرة، وكان من علماء أهل الشام: كان أشياخنا يسمُّون الدّنيا خنزيرة، فكانت إذا أقبلتْ على أحدِهم دنيا، قال لها: إليكِ عنّا يا خنزيرة، لا حاجةَ لنا بك، إنّا قد عرَفنا إلهنا. أى: قد عرَفْناه بالمَقْتِ لك، فوافقناه فى ذلك. وعرفناه، أيضًا، بالألوهية فتولّهت قلوبنا به، وتألّهَت هِمَمُنا إليه، فطلبناه، وأعرضنا عمّا سواه. وعرفناه بالابتلاء بكِ لينظر كيف نعمل فى الزّهد فيكِ، والأمرَةَ له عليك، ولِنَنظُرَ إليه بنظره، فنعرض عنكِ لإعْراضِهِ، ونقبل عليهِ بحُسْنِ إقبالهِ علينا، أو ننظر إليكِ، فنعرض عنه، ونقبل عليك، فيكون ذلك سببَ إعراضِه عنا، ومكانًا لمقته لنا.

وكذلك كان الحسنُ، رحمه الله، يصف أشياخه الذين تأدّب بهم، كان أحدهم يُعرَض عليه المال الحلال، فيُقال: خُذه فاستْغنِ به، وتوسَّعْ فيه. فيقول: لا حاجةَ لى فيه، أخاف أن يُفسد علىَّ قلبى. وقال مرَّة: والله، إن كان الرجل من أصحاب محمّد ﷺ لَييبس جلدهُ على عَظْمه، ما بينهما شَحَم ولا لحم، يُدعى إلى الدنيا حَلالاً فما يقبل منها قليلاً ولا كثيرًا، يقول: أخاف أن يُفسد علىَّ قلبى.

فهذا لمن كان له قلبٌ صالحٌ راعاه، وخاف تغيُّرَهُ، ومن كان قَلْبُه فاسدًا وبالدنيا واجدًا كيف يستبينُ له غيرُهُ؟! وقد كان عَوْنُ بنُ عبد الله المسعودى يقول: الدنيا والآخرةُ فى قلبِ العبد ككفَّتى الميزان، ترجحُ إحداهُما فتخفُّ الأخرى. فهذا

---

(١) انظر: الإتحاف ٩/ ٣٧٧.

وصفُ قلبٍ هو باليقين مِعيارٌ فيه، يكون لكثرةِ التَّفقُّد حسنَ الاعتبارِ، فيبين لصاحبه النقصان من الزِّيادة.

وقد كان [عون بن عبيد الله](١) المسعوديُّ يحكى عن طريقة السَّلف، فقال: إنّ مَن كان قبلكُم، كانوا إنَّما يَجعلون لدُنياهم ما فضَل من آخرتِهم، وإنّكم تجعلون لآخرتِكم ما فَضلَ عن دنياكم.

أى: لرُجحان كفّة الآخرة فى قُلوبهِم، وغَلَبةِ أمرِها عليهم، ولقُوّة يقينهِم، يقدِّمون شأنها، فيَبْتَدِرُون بأن يَنقلوا مِن دارٍ عنها يرتحلون إلى دارٍ فيها يُقيمون أحسنَ ما يدّخرون، ويقدّمون لدارِ الحياةِ والبقاءِ المؤبَّد من محلّ الموتِ والفناء المؤقّت المجدَّد أجودَ ما يفعلون، إذ دارُهم أمامهم وحياتُهم بعد موتهم؛ لأنّهم خُلقوا للآخرة لا للدنيا، للبقاء لا للفناء، ثم يجعلون ما فضَلَ مِن عيشهِم لدنياهم؛ لأنّه متاعٌ فى الحال، وبلاغٌ إلى وَقْتٍ وحِينٍ. وهذا علامةُ حسنِ اليقين، وهو يقينُ الزّهدِ، الذى صار الزُّهادُ به زاهدين، فيها الرّغبة والحرص، لا يقين الإيمانِ الذى صار به المسلمون مؤمنين، بنَفْى الشِّرك(٢) بالصحابة والولد.

وكان بعضهم يقول فى دعائه: اللهمّ اجعلها بَلاغًا لا مَتاعًا. كأنّه يتأوّل ما قيل: «الدّنيا بلاغٌ للمؤْمن» أى بُلْغَةٌ يتبلّغ بها إلى الآخرةِ، «ومتاعٌ للكافر» أى مُتعَة وتمتُّع فى عاجلته. وقد كان عونُ بن عبد الله بهذه المنزلةِ، أوصى بضَيْعة له تُباع عند موته ويُتصدَّق بها، فقيل له: تَدَع عيالك؟! فقال: أقدم هذا لنفسى وأؤخِّرُ اللهَ لعيالى. وجاءته مرّة خمسون ألفًا، فقيل له: اعتَقِدْها(٣) لولدك. قال: أعتقدُها لنفسى، وأعتقدُ اللهَ لولدى. وكذلك فعل عمرُ بنَ عبدِ العزيز، فرَّق ماله عند موته. فقيل له: لو خلَّفته لأولادك. فقال: أجعلُ مالى لنفسى، وأجعلُ اللهَ تعالى وأُخلِّفه لولَدى.

وسئل الحسنُ رحمه اللهُ عن الرجلِ يُوسَّع عليه فى رزقه، هل له أن يتّسع فى

(١) من الإتحاف ٩/٣٧٨.
(٢) فى المخطوط: «الشك»، وأثبت ما فى الإتحاف؛ لأنه أدق، والفقرة فيه كاملة والتى بعدها.
(٣) اعتقدها: أى اقتنيها وأبقيها.

الشّهوات؟ فقال: لا واللهِ. إذًا لو كان له الدنيا لم يكن ينبغى أن يأخذ من مالِه إلا الحاجة والكِفاية، فى غير سرَفٍ ولا تبذير، ويقدِّم فُضولَ ذلك لآخرتِه، ويجعله ذخيرةً له لغدِه.

وكان السّلف الصالح يقولون: اتخذوا الدّنيا ظِئرًا[1]، والآخرةَ أُمًّا. أما ترى الصبى يُلْقَى على ظئره، فإذا عَرَفَ أُمَّه ألْقَى نفسه عليها، وترك ظِئْرَه. الآخرةُ أمُّكم يوشك أن تُلقَوْن عليها، وتفارقون الظِّئر. وقال جابر: ليس قومٌ أكرمَ على الله من الفقراء؛ لأنّه لم يكن من الخلق أكرمَ من الأنبياء، فجعلهم فقراء. ولَمَّا استُخْلف عمرُ بنُ عبد العزيز بكى، وقال لأبى قِلابَةَ: هل تخشى علىَّ؟ قال: كيف حبُّكَ للدرهمِ؟ قال: لا أحبُّه. قال: فلا تخف، فإنّ اللهَ سيُعينك.

وقد ضربَ رسولُ الله ﷺ مَثَلَ الدنيا بما يخرج من نَجْوِ ابن آدم، بقوله للأعرابى: «أرأيتم ما تأكلون وتشربون، تُنظِّفُون وتُطَيِّبون وتَبرَّزُون؟ قال: بلى. قال: فإلى أى شيءٍ يصير؟ قال: إلى ما قد علَمتَ يا رسول الله. قال: أليس يقعدُ أحدكُم خلْفَ بيتِه، فيجعل يده على أنفِهِ من نَتْنِ ريحهِ؟ قال: نعم. قال: فإن اللهَ جعلَ الدنيا مثَلاً لما يخرج من ابن آدم».

وقال بعضُ أهل الفَسْرِ فى تأويل قوله عزّ وجلّ: ﴿وفى أنفُسِكم أفلا تُبصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، قال: مواضعُ الغائِط والبَوْلِ. أى تعتبروا به مآلَ الدنيا، وقُبحَ عاقبتها، فتعبروها إلى الآخرةِ. وقد كان الحسنُ يقول: لَمَّا أُهبط آدمُ إلى الدنيا، كان أوّل شيء عمِل فيها أنّه أحدث. ورُوينا عن ابن عباس رضى الله عنه: أنّه عليه السلام نظر إلى ما خرجَ منه، فآذاه ريحُهُ، فاغتمَّ لذلك. فقال له جبريل عليه السّلام: هذه رائحة خطيئتك.

فشهد العقلاءُ عن اللهِ الدنيا فى صورةِ كنيفٍ، فلم يدخلوا فيها إلا ضرورةً، وكلمّا استغنيتَ عن دخولك الكنيفَ كان أجود. ورآها بعضُهم جيفةً، فلم ينالوا منها إلا بُلْغَةً لا متعةً، وكلّما تقلَّلت من الجيفة كان خيرًا، فالشهادة أسلمته لأهلِ

(١) الظِّئر: التى تعطف على ولَدِ غيرها. والمرضعة له فى الناس.

الاعتبار. والآخرُ رآها فى صورة حمّام، يدخل فيه للحاجة. فخذ منه ما ينقِّى الدَّرن، ويذكِّر النّار، وهذا خير، لينقى فيه. كما قيل: نعم البيت الحمّام. ذُكر بذلك، فإذا قارب أن يأخذ منك فانتبذ منه الشُّهود. والرّابعُ: لأهل البصائر، صورَّها فى معنى الحُمَّاض[1]، ليس بقوتٍ إنما يُراد شهوةً لوقتٍ، فخُذ منه قبل أن يأخذ منك، فإذا أحسستَ بأخذه منك فاقطعْهُ عنك مثل الضِّرس الذى يقطعك عن الأكل. وليس فِداءُ هذه الشهادات إلا التّمادى فيها، والغفلة عن الآخرة لأهل الشّهوات، وقد قال سبحانه وتعالى للرسول ﷺ فى الأخذ من الأغنياء ما فى أيديهم: ﴿خُذْ مِن أَمْوَالِهِم صَدَقَةً تُطَهِّرُهُم﴾ يعنى من فُحشِ الأموال ﴿وتُزَكِّيهِم﴾ [التوبة:١٠٣] أى: تزيدهم من خير الآخرَة. فولا أنّهم دُنِّسُوا بالمال ما طُهِّرُوا بالأخذ، ولولا أنّهم نقصوا فى المآل ما زِيدوا بالإخراج فى الحال. وقال الرسول ﷺ: «أُمِرْتُ أن آخذَها من أغنيائِكم، وأجعلَها فى فُقرائكم».

فصار الفقراءُ اليوم طُهْرَةَ الأغنياء ومَزِيدهم، وكانوا غدًا رفيعَ درَجاتِهِم وعُلُوَّهَم. فالمطهِّر المزكِّى بوَصْفه أفضل من المُطهَّر المزكَّى بوصف غيره، كذلك الفقيرُ الزاهدُ مستغنًى بالطّهرَة عن الزّكاةِ، وبالصّفوةِ عن التّطهير؛ لأنَّ منْ كانَ على طَهارةٍ لم يحتج إلى فَضْلِ وُضوءِ الصلاةِ، بل قام مُصليًا، وإنّما يتوضأ من لم يكن على طهارةٍ، كذلك يتزكى بالمال من احتاج إلى زكاة، ولم يكن مُزَكًّى من المالِ. فالزّاهد قد زكّاهُ الله بِطُهْرةِ الحال إذ لم يُدنَّس بالمال فيُطَهَّر بإخراجه، ولم ينقص بوَجدهِ فيزيد بفقده. فصار الفقْرُ أفضلَ بعينه، فلذلك فَضَلَ الزّاهد به. وكان الغَنىُّ مفضَّلاً بمعناهُ وهو إخراجُ غناهُ، لا بنفسه، فلمَّا صار فقيرًا من جَمْعه ببذله فُضِّل بالفقرِ منه حين أشبه الفقيرَ بوَصْفه، فصار فضلُه من معنى ما فُضِّلَ الفَقيرُ به، وهو الزّهد فى ماله لمفارقته.

وقال وهبُ بن منبِّه: قرأتُ فى بعضِ الكتبِ: ابنَ آدم، تريدنى اترُك الدّنيا، فإنّك إن تُرد الدّنيا طال عناؤك فيها. وفى بعض الكتب: ابن آدم، أنا بُدُّكَ اللازمُ، فلا تُؤثِر علىَّ ما منه بُدٌّ. وصدق الصادقُ: إنّ لابن آدمَ من جسمه المتّصل برُوحهِ

(١) الحُمّاض: عُشبة تنفع للعطش.

بُدٌّ، إذ يخلعه وينسلخ منه انسلاخَ النهارِ من الليل، فيكون له منه بدٌّ، فتبقَى رُوحه، وهى رسْمُ العُبوديّة، وتخطيط الكونيّة، وظرفُ العطاء، وموضعُ جريان الأحكام. ولا بد له من معبوده وخالقه ورازقه ومُحْييه ومُميته ومُبْديه ومُعيده، فكيف لا يكون له بُدٌّ من الأهلِ والولدِ والجسدِ والمالِ المُنفَصِل، وله بدٌّ من جسمه المتّصل؟

ويُقال: إنّ الله تعالى أوحى إلى الدنيا: اُخْدُمى مَنْ خَدَمنى، وأَتْعبى مَنْ خَدَمك. وقَال بعضُ السَّلف، وقد رويناه من طريقٍ مُسندًا: «إنّ الله تعالى أوحى إلى الدّنيا: تمرَّرى لأوليائى حتّى تكون رغبتهم فيما عِندى، واحْلَوْلى لأعدائى حتى يكرهوا لِقائى». وفى حديث عائشة رضى الله عنها: «مَن أحَبَّ لقاءَ اللهِ أحبَّ اللهُ لقاءه. ومن كَرِه لقاءَ الله كرِه اللهُ لقاءَه».

فلو لم يكن من فضل الفقير الزّاهد المنعَم عليه بالقلَّة والذِّلة والخُمول والمسْكَنة إلا حُبُّه للقاء الله، وقلّة كراهيته لفراق ما هو فيه من حاله، وفَقْد تأسُّفه على ما يُفارقُه ممّا يملكه، حتى إنّ الأغنياءَ يَغْبِطُون الفقيرَ على موتِه، إذ لا يخلِّف شيئًا، ويَوَدُّونَ فى حين وَقْتِه أن يكونوا مثله، ولا يجدون إليه سبيلاً، ولذلك قيل: لا تغبط الأحياءَ إلا بما تَغبط به الفقراءَ الأمواتَ عند الموت. وإنّما يُغبَطُ الميّتُ بخاتمةِ الفَقْرِ، وبما قدَّم من الباقيات الصّالحاتِ، فكل حالٍ يُغبطُ به صاحبه عند الموتِ لقُرْبِ البَقاءِ فالْزَمْها، وكل حالٍ من غنًى ورغبةٍ تكره أن يبغتك الموت عليها ليس (. . .) ففارقها. فهذا من البقاء (. . .) والغفلة للغرَّة بالنفس، كما أنشد بعضهم:

إذا أعجبتْكَ حالُ امرئٍ فكُنْها يكن. . . . .

لا تَقضينَّ على غائبٍ فيفرح جهلاً بما ليس. . . . .[1]

فهذه الآثار ونحوها قاصمةٌ لظهور أبناء الدنيا، مُسخنة لعين محبِّيها، وأضدادُها من الأخبارِ الحُسنى فى فضل الزهد، وشرف الفقر، رافعةٌ لرُءوسِ الفقراءِ الصّادقين، وقرّةُ عين الزّاهدين.

(١) عدة مواضع تالفة بالأصل المخطوط.

وأصلُ الرغبةِ فى الدنيا مِن ضَعف اليقين؛ لأنَّ العبدَ لو قوى يقينه، نظر بنوره إلى الآجل، فغاب فى نظرِه العاجل، فزهد فيما غاب، وأحبَّ الحاضرَ، فآثر ما هو أعْودُ عليه، وأبقى وأنفع له، ولمولاه أرضَى، وقدَّم ما يَفنى وينقطع إلى ما يدوم ويتصل. وهذا هو صورةُ الزهدِ، وشهادةُ الموقن؛ لأنَّ الحاضرَ لا يحبّ ما غاب وانتقل، ألم تر إلى وصفه عز وجلّ إبراهيم عليه السلام فى قوله: ﴿**لا أُحِبُّ الآفلين**﴾ [الأنعام:٧٦] بعد قوله: ﴿**وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقنين**﴾ [الأنعام:٧٥] فالموقن مأمور باتباع ملّة إبراهيم، لقوله تعالى: ﴿**مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ**﴾ [الحج:٧٨] أى: عليكم ملّة أبيكم إبراهيم، واتبعوا ملته.

وليس يُشْهَدُ الوعْدُ والوعيدُ الآجلُ بنورِ العقل، إنّما يُشهَدُ بنورِ اليقين.

على أنّا نقول: إن أصولَ الأنوارِ أربعة. والقلبُ موجَّهٌ جهات أربعة إلى المُلك والملكوت، وإلى العزّةِ والجبروتِ: فبِنُور العقل يُشْهَد المُلْكُ وهو الدنيا، وبنور الإيمان يُشْهَد الملكوتُ وهو الآخرة، وبنور اليقين يُشهَد العزّةُ وهى الصّفات، وبنُور المعرفةِ يُشْهَدُ الجبَروتُ وهو الوَحْدانية. والجبّارُ تعالى فوقَ القَلْبِ، محيطٌ به، يكاشِفُه بما شاء، فيغلب عليه وَجْدُ ما أَشْهَده، وهو أمرُه المتنزَّل منه، ﴿**واللهُ غَالبٌ علَى أمْره**﴾ [يوسف:٢١]، ﴿**يَتنزَّل الأمْرُ بيْنَهُنَّ لتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ علَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وأنَّ اللهَ قَدْ أحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا**﴾ [الطلاق:١٢].

وضَعفُ اليقينِ قد يدخل فى كل شىءٍ، وقوةَ اليقين تحتاج إليه فى كل أمْرٍ وعملٍ، وإلاّ فهو دنيا يُهتدَى إليه بنور العقْلِ، فمن لم يُعْطَ نورَ اليقين لم يَرَ المُلْكَ الكبيرَ، فاستهواه المُلْكُ الصَغيرُ، فأحبَّ لا شىء، إذْ لم يَرَ شيئًا، فلم يكُن قيمتُه فى العُلُوِّ، ولا عندهُ الأعْلَى، إلا كَلا شَىء.

• ذكر ماهية الزهد[1]، أى شىء هو:

ليس يمكن لعبدٍ أن يعرفَ الزهدَ حتى يعرفَ الدّنيا أىَّ شىءٍ هىَ، فقد قال الناس فى الزهد أشياءَ كثيرةً. فمن جُمَل ما قالوا، أنّ سفيانَ الثورىّ وغيره،

(١) كل ما ذكره عن تعريف الزهد ليس فى المطبوعة، ونقله صاحب الإتحاف ٩/ ٣٤٤ ـ ٣٤٥.

رحمهم الله، قالوا: الزُّهد فى الدنيا هو قِصَرُ الأملِ، وانتظارُ الموت. وكان بشرُ ابن الحارث، رحمه الله، يقول: الزّهدُ فى الدّنيا هو الزهدُ فى الناس، وفى ملاقاتهم، إذ الرغبة هى فيهم وفيما عندهم.

وقالت طائفة: الزُّهدُ هو بُغْضُ المحَمْدةِ، وأن لا تحب أن تُمدَح على شىءٍ من أعمالك. وقال آخرون: الدُّنيا هى الأكل واللباس والمال، والزهدُ هو تَرْكُ فضولِ هذه الأشياء. وقال آخرون: حقيقةُ الدنيا هو حبُّ الشرفِ والعلُوِّ، وطلبُ العزِّ والرّياسةِ.

فينبغى أن يكون الزهدُ عند هؤلاء حُبَّ الخمول والذِّلّة وطلبَ الخضوعِ والضَّعَة.

وقالت طائفة من الصّوفية: الدُّنيا هى ما دنا من النفس بحظّ الطبع، والزهدُ عندهم مفارقةُ حظوظ النفسِ فى كلِّ شىء. وقال بعض العارفين: الدنيا هى النّفسُ، فبقدر ما تزهد فى هواها أىَّ شىء كان، فذلك نصيبُكَ من الزّهد.

وكان سُفيان يقول: الزُّهد فى الدُّنيا هو الصّبر على الحقّ فى كلِّ شىء. وأمّا حاتمُ الأصم فإنّه سُئل: ما الزّهدُ؟ فقال: رأسُ الزهد الثقةُ باللهِ، ووسطُه الصَّبر، وآخرُه الإخلاصُ.

فأدخل فيه التوكل، وجعله أوَّلَه؛ لأنّه لا يَزهدُ حتى يثقَ بالله فى الرّزق، ويتوكل عليه فيه. وجعل الصبرَ حالاً منه، أراد الثباتَ عليه، لئلا يملَّ ويخرجَ[1] فيرجعَ إلى الرغبةِ والدنيا. وجعل نهايتَه الإخلاصَ، فهذا إخلاصُ الصّادقين، أن تُريد بذلك وجهَ الله تعالى وحده، وابتغاءَ مرضاته، لا تطلُّعًا إلى عِوَضٍ، ولا تطلُّبًا شيئًا من غيره سبحانه.

وكذلك جعل أحمدُ بن حنبل الإخلاصَ هو الزهدَ، فقيَّده به؛ لأنّه إذا بلغ حقيقةَ الإخلاصِ لله وحدَه فقد زهد فيما سواه. فاتفقا بمعنًى تقاربا فيه؛ أحدهما: فسَّر الزُّهدَ بالإخلاص؛ وجعله نهايته، وهو حاتم. وأحمد عبَّر عن الإخلاص بالزهد؛ لأنّه حقيقته. فحُدِّثت عنه رحمه الله أنه سُئل: ما السببُ الذى ذُكر به

---

(١) فى الإتحاف ٩/ ٣٤٥: «لئلا يميل أو يخرج».

القوم بعد وفاتهم، وأثنى عليهم به؟ فقال: هو الصّدقُ. قيل له: فما الصّدقُ؟ قال: هو الإخلاص. قيل: فما الإخلاصُ يا أبا عبد الله؟ قال: هو الزّهدُ فى الدّنيا.

وأما أيوبُ السَّجتيانى، فإنه سُئل عن الزّهد ما هو؟ فقال: أن تقعدَ فى بيتك، فإن كان قعودُك لله رضًا وإلا خرَجْتَ. تُنْفق درهَمك، فإن كان لله رضًا وإلا أمْسكْتَ. تُمسك مالك، فإن كان لله رضًا وإلا أخرجته. تَسْكتُ، فإن كان سكوتُك لله رضًا وإلا تكَلَّمتَ. تتكلَّم، فإن كان كلامُك لله رضًا وإلا سكتَّ. هذا هو الزهد، وإلا فلا تلعبوا.

وهذا مقامُ المحاسبةِ للنّفس، وحالُ المراقبِ للرّبّ، ووصفُ المراعى للوقْت. فجعل الدّنيا هى تركُ موافقةِ رضا الله تعالى فى كلِّ شىءٍ، إذ جعل الزهد فيها هو اتّباعُ مرضاتِه فى الأشياء.

وقاربَهُ مجاهدٌ فى هذا المعنى، فجعل الزهدَ أيضًا حالَ الرّضا، والإيثارَ للمولى فى كلِّ الأحوالِ، قال: قلتُ لمجاهد: ما الزّهدُ؟ قال: الأثَرة لله على ما سواه. إذا أتاه شىءٌ من الدنيا استعمل الخوفَ والحياءَ، فيؤدى إلى كل ذى حقٍّ حقَّه، فهو أيضًا من المتزهّدين، ولم يَلحق بدرجةِ الزّاهدين. والزّاهد الرّاضى عن الله فى السَّراء والضّراء، والعافيةِ والبلاءِ، لا يكون فى حالِ أوزَنَ من حال، فإذا كان كذلك فى جميع الأحوالِ شيئًا واحدًا، لم يفضِّل حالةً على حالةٍ، واستحقَّ الحبَّ من الله.

يعنى: لأنّه لا يَفْضُل فى حال دون حال، فلذلك لم يفضِّل حالاً على حالٍ؛ لأنّه لا يكون فى حالٍ أنقص فيَتِمُّ بحالٍ، إذ قلبُهُ قد استوى مع الله، فاعتدل فى كل حالٍ، فهو لا يتلّون بحالٍ، بل ثابت كذلك لا يزال.

ثم قال: فمَنْ أحبَّه اللهُ حبَّبهُ اللهُ إلى خلْقه، ومن بَغَضه بغَّضه إلى عباده، قد سباهُ الحبُّ، وشغفهُ الشّوقُ، فهو داخلٌ مع الخَلقِ، منفصلٌ منهم، غير مضَيِّعٍ لما ألزَمَهُ اللهُ من حُقوقِهِم، فأنّى لإبليس أن يطمع فى هذا، ومعه من اللهِ عصمةٌ وتأييد، فلولا القَدَر لرفعهُ إليه من حبِّه له.

فهذه صفةُ العارفِ المتمكنِ الدَّاخلِ مع الخَلْقِ بجسمه، الخارجِ بقلبه، الناظرِ إليهم بعَينه، المبصرِ إلى الغيب بيقينِه، المتكلِّم للعبادِ بعلمهم، المعاملِ لهم بأخلاقِهم، المنفردِ عنهم بحاله، المستثيرِ ذوقَهُم بعلمه، المنقطعِ إلى ربه بِهَمِّه. نظر إلى مولاه مِن نظرِه إليه بما تولاَّه، متوحِّدٌ له بوَصْفِه مَن حيثُ اتّخذ له وَاحِدُهُ بوَجْهِه، وتخلّق له بخلقه؛ لما ألبسه من نوره، فحجبَهُ به عن خَلْقه. فهو ظاهرىٌّ باطنىٌّ، نَبَوىٌّ رَبانىٌّ خالِقىٌّ، ينظر بعينِ التعديلِ، ظاهرهُ حكمةٌ، وباطنهُ قُدرةٌ. فهذا مقام زائدٌ على حالِ الزهدِ، وهى صفاتٌ.

فهذه الصفاتُ يتحقق الموصوفُ بها بعد حقيقةِ زهدِه فى الدّنيا، فهى ثمرةُ حبِّ الله تعالى له عن فَرْعِ بُغْضِه للدّنيا، عن أصلِ معرفتِه بمقتِ الله لها. كما قال: من أراد أن يحبَّه الله فليزهد فى الدنيا.

وقال: من زهد فى الدّنيا عَرَّفَهُ اللهُ داءَها ودواءَها، وأخرجه منها سالمًا إلى دار السَّلام. ومن حَرَص عليها توّهَهُ اللهُ فيها، ولم يُبالِ فى أى أَوْدِيتها تُهْلِكُهُ.

فهذه جُمَلُ أقوالِ النّاسِ فى الزّهدِ ومعناه فى أربعين مقالة. ونحن بنعمة الله وحَمْدِه غير محتاجين إلى أقوالهم، بما بيَّن اللهُ تعالى، وأغنى بكتابه المبين، الذى جعل فيه الشّفاءَ والغنى، فهو هُدًى للمُتَّقين. وقد قال الرسولُ ﷺ: «هُو الحَبْلُ المَتينُ، والصِّراط المستقيمُ، من طلبَ الهُدى فى غيره أضلَّه الله».

وقال اللهُ الحقُّ المبين: **﴿وما اخْتَلَفْتُمْ فيه منْ شَىْءٍ فَحُكْمُهُ إلى الله﴾** [الشورى: ١٠]، وقال عزّ وعلا: **﴿فَهَدَى اللهُ الَّذينَ آمَنُوا لمَا اخْتَلَفُوا فيه منَ الْحَقِّ بإذْنه﴾** [البقرة: ٢١٣]. فقد ذكر الله جلّ اسمه فى كتابه: أن الدنيا سبعة أشياء، وهو قوله تعالى: **﴿زُيِّنَ للنَّاس حُبُّ الشَّهَوَات منَ النِّسَاء وَالْبَنينَ والْقَنَاطيرِ الْمُقَنْطَرَة منَ الذَّهَب وَالْفضَّة وَالْخَيْل الْمُسَوَّمَة وَالأَنْعَام وَالْحَرْث﴾**، ثم قال تعالى فى آخرها: **﴿ذلكَ مَتَاعُ الْحَياة الدُّنْيَا﴾** [آل عمران: ١٤]، فَوَصَف حُبَّ الشهوات بالتزيُّن، ثُمَّ نسَّق الأوصافَ السبعة على الحبّ لها، ثم أشار لها بقوله تعالى: **﴿ذَلكَ﴾** فذا إشارة إلى الكافِ، والكافُ كنايةٌ عن المذكور المتقدّم المنسوقِ، واللامُ بين «ذا»،

والكاف» للتّمكين والتوكيد. فحصل مِن تدبُّر الخطاب أنّ هذه السبعة جملةُ الدنيا، وأنّ هذه الدنيا هى هذه الأوصافُ السبعة، وما تفرَّع من الشهوات رُدَّ إلى أصلٍ من هذه الجُمل. فمن أحبَّ جميعها فقد أحبَّ جملةَ الدنيا نهايةَ الحبِّ، ومن أحبّ أصلاً منها أو فرعًا من أصل فقد أحبّ بعض الدنيا. فعلمنا بنَصِّ الكلام: أنّ الشهوةَ دنيا، وفهمنا من دليله: أنّ الحاجاتِ ليست بدنيا، لأنّها تقع ضرورات، فإذا لم تكن الحاجة دنيا دلّ أنها لا تسمَّى شهوة، وإن كانت قد تُشْتَهى؛ لأن الشّهوة ـ كما قُلْنا ـ دنيا، ولتفرقةِ الأسماء لإيقاع الأحكام عليها. واستند ذلك إلى ما رويناه آنفًا من قول الله تعالى لإبراهيم الخليل ﷺ: «أمَا علِمتَ أن الحاجةَ فى الدُّنيا ليست من الدُّنيا». ثم سمعناه تعالى قد ردّ هذه السبعة الأوصاف فى مكان آخر إلى خمسة معان، فقال جلّ من قائل: ﴿**اعْلَمُوا أَنَّما الحياةُ الدُّنيا لَعِبٌ ولَهْوٌ وَزِينَةٌ وتَفاخُرٌ بَيْنَكُم وتَكاثُرٌ**﴾ [الحديد: ٢٠]، فهذه الخمسة هى وصف من أحبَّ تلك السبعة. ثم اختصر الخمسة فى معنيين منها هما جامعانِ للسبعة، فقال: ﴿**إنَّما الحياةُ الدُّنيا لَعِبٌ ولَهْوٌ**﴾ [محمد:٣٦]، ثم ردّ الاثنين إلى وصف واحد وعبَّر عنه بمعنيين، فصارت الدّنيا تَرجِعُ إلى شيئين جامعَيْن مختصرَيْن، يصلح أن يكون كلّ واحد منهما هو الدنيا. فالوصف الواحد الذى ردّ الاثنين إليه ـ اللذان هما اللعب واللهو ـ هو الهوى، اندرجت السبعة فيه، فقال عزّ وجلّ: ﴿**ونَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإنَّ الجَنَّةَ هِىَ الْمَأْوَى**﴾ [النازعات: ٤٠ ـ ٤١]، فصارت الدنيا طاعةَ النفسِ للهوى، بدليلِ قوله تعالى: ﴿**فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإنَّ الْجَحِيمَ هِىَ الْمَأْوَى**﴾ [النازعات:٣٧ ـ ٣٩]. فلمّا كانت الجنةُ ضدَّ الجحيمِ كان الهوى هو الدنيا؛ لأنّ النهىَ عنه ضدّ الإيثار له. فمن نهى نفسه عن الهوى، فإنه لم يُؤثِر الدنيا، وإذا لم يؤثر الدنيا فهذا هو الزهد، كانت له الجنّة، التى هى ضدّ الجحيم، التى هى لم يَنْهَ نفسَه عن الهوى بإيثاره الدّنيا، فصارت الدنيا هى طاعةَ الهوى وإيثارَه فى كلِّ شىء، فينبغى أن يكون الزّهد مخالفةَ الهوى من كلّ شىء.

وأما المعنى الآخر الذى عبّر به عن هذا الوصفِ، الذى هو الهوى، فجعله دُنيا

أيضًا، فهو حُبّ البقاء لمتعة النفس. استنبطنا ذلك من قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلاَ أَخَّرْتَنَا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [النساء:٧٧]. فالقتالُ هو فِراقُ الحياةِ الدنيا؛ لأنّه المشيُ بالسّيف إلى السّيفِ، والفناءُ بين السَّيفين، فقالوا: هلا بقَّيْتنا إلى وقتٍ آخر، وهو أجلُنا بالموت لا بالقتل. وهذا هو حبّ البقاء، ففُسِّر حبُّ البقاء بأنه هو الدنيا، فقال تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ والآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾ [النساء:٧٧]. فانكشف الناس، وافتضح المنافقون، وابتُلي هنالك المؤمنون عند فَرْضِ القتالِ، وظهر المحبّون الذين يقاتلون في سبيله صفًا كأنّهم بنيانٌ مَرْصوص. وعندها رَبِح الّذين هم لأنفسهم وأموالهم بائعون، وخسِر الذين هم للحياة الدّنيا بالآخرة مُشترون، لما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرى من الْمُؤْمنينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة:١١١]. فلما اشتراها باعوها، وقال فى المشترينَ الخاسرين: ﴿اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ﴾ [البقرة:٨٦]، يعنى: رغبوا فى البقاء الأدنى لما اشتروه ببيْع البقاء الآخر الأعلى الأبقى إذ باعوه. فمن اشترى ثلاثين سنة وأربعين سنة بألف ألف وبأبد الأبد، فما رَبِحَتْ تجارته ولا هُدى سبيله. فهذه تجارةُ مَنْ رَغِب فى حياةٍ دَنِيَّةٍ، فاشتراها ببقاء الأبدِ، فَصار بائعًا للحياة العالية، بما استبدل به من اشتراء الحياةِ الدّانية. فهذا يُشبه ما رغبوا فيه من آلةِ الدَّار، كما قال خالقها: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهم خَلْفٌ وَرِثُوا الكتَابَ يأخُذُون عَرَضَ هذَا الأَدْنَى﴾ [الأعراف:١٦٩]، فهؤلاء خُلوف السُّوءِ، الذين رغبوا فى العرض الأدنى إذ زهدوا فى الملكِ الأعلى لّما طلبوا الحياة الدّنيا، بعد الخَلْفِ الصالح الذين زَهِدُوا فى الحياةِ الدُّنيا حين رَغِبوا فى الحياة العليا.

فهذا تدبُّرُ قولهِ تعالى: ﴿اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أى باعوا الحياة العليا بما اشتروه من الدّنيا، ليس كتجار الآخرة من المتقين؛ الذى باع حياةَ نفسه، وفرّق مجموعَ مالِه، فاشتراه اللهُ تعالى منه، وعوّضه داره، وأسكنه عنده جوارَهُ، فقد ربِحَت تجارته، واهتدى سبيله؛ لما باع حياةَ عشرين سنة وثلاثين سنة بحياة أبد الأبد؛ فهذا ربح تُجَّار الآخرة الزاهدين فى الدنيا، وذلك خُسُر تجّار الدنيا الرّاغبين فى

الهوى. فشتان بين التّجارتين، وفُرْقان بين الرِّبحَيْن. فما أعظمَ حسرةَ الفَوت على مَن خسر ما ربحه الزاهدون بعد الموت، وقد كان الناس مستورين بإظهار الزّهد فى البقاء، ومظنونًا بهم حبُّ الباقى الأعلى، حتى نزلت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ الله أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء:٧٧] الآية. وحتّى نزل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾ كانوا قالوا: إنّا نحبّ ربنا ولو علمنا فى أىّ شىء محبّته لفعلناه، فلذلك قال تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ الله أَنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ * إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِهِ صَفًّا﴾ [الصف: ٢ ـ ٤].

ولذلك قال ابن مسعود رضى الله عنه: ما كنتُ أحسب أن فينا أحدًا يريد الدنيا، حتى نزلت: ﴿مِنْكُم مَن يُرِيدُ الدُّنيا وَمِنكُم مَن يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ [آل عمران:١٥٢]. وكذلك قال له رسول الله ﷺ حين نزلت: ﴿وَلَو أَنَّا كَتَبْنا عَلَيْهِم أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُم أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيارِكُم ما فَعَلُوه إِلاَّ قَلِيلٌ مِنهم﴾ [النساء:٦٦]، قال ابن مسعود: قال لى رسول الله ﷺ: «أنتَ منهم»؛ أى من القليل الذى كان يفعلُ ذلك.

فإذا كان حبّ البقاء هو الدنيا، فينبغى أن يكون حبّ لقاء الباقى هو الزهد، فصار الزهد فى الدنيا هو الزهد فى البقاء، وصار الرغبة فى البقاء مثل اتباعِ الهوى الذى هو الدنيا. فمن زهد فى الحياة الفانية للمتعة بها، وفى ماله المجموع بالجهاد للنّفس، والإنفاق فى سبيل الله؛ فقد زَهد فى الدنيا. ومن زَهد فى الدنيا أحبّه الله تعالى، كما قال رسولُ الله ﷺ. ولذلك صار الجهادُ أفضلَ الأعمال؛ لأنه حقيقةُ الزّهدِ فى الدنيا؛ ولأنّ اللهَ تعالى يحبّ من زَهد فيها كأنّه قتل نَفْسَه فيها، فاستعجل الخروجَ إليه منها ليَرْضى، إذ كانت النفس ضدّ السَّلام، وكانت الدنيا ضدّ دار السَّلام، ثم كان مخالفةُ الهوى أفضلَ الجهاد؛ لأنّه هو حقيقةُ الرغبة فى الدنيا. وقد عبَّر به رسولُ الله ﷺ عن الزُّهدِ فى الدنيا، إذ قال فى الحديث الأول: «ازْهَد فى الدّنيا يحبُّك اللهُ تعالى». ثم قال فى الخبر الثانى بمعناه: «اجتنبِ

المحارمَ يحبّك اللهُ تعالى». فصار اجتنابُها زهدًا فى الهوى، وهو عاجل حُظوظ النفسِ، فهو زُهْدٌ فى الدنيا، فالزاهدُ فى هوى نفسه حبيبُ ربه تعالى، والراغبُ فى حبِّ البقاء لنفسه منافقٌ فى دِين ربّه تعالى. ومنه الخبر الذى جاء: «من مات ولم يغزُ، ولم يحدِّث نفسَه بغزْوٍ، ماتَ على شُعْبةٍ من نِفاق». وبه كشفَ اللهُ تعالى الكاذبين ووصفهم بمرض القلوب، فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَرَضٌ﴾ يعنى نفاقًا ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيكَ نَظَرَ الْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ﴾ تهدُّدٌ ووعيد، أى: وَلِيَهُم العذابُ وقَرُب منهم، ثم قال: يقولون: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ أى: يظهر منهم طاعة وقول معروف ﴿فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ﴾ حقّت الحقائق كذبوا ونكثوا ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللهَ﴾ أى: فى الوفاء ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٠ ـ ٢١]. وهذا من الكلام المضْمَر، فلذلك أشكل.

والبقاءُ والحياةُ اسمان لمعنًى، ولذلك جعل الله تعالى الدنيا وصفًا للحياة، فتكون الدنيا هى الحياة، ونعتُها بالدنيا نعتٌ مؤنثٍ؛ لدُخول الهاء فى الاسم التى هى إحدى علامات التأنيث، فصارت الحياةُ هى الدنيا، وصار قوله «الدنيا» نعتها بالدناءة. ولو كان الاسم مذكرًا مثل البقاء نَعَته بمذكر، فقال: الأدنى. وقد قال فى مثله: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى﴾ [الأعراف: ١٦٩]، فالأدنى تذكير الدنيا، والدّنيا تأنيث أدنى، كالأَعْيَنَ والأقْنَى والأشْعَث؛ تذكيرُ: عَيْناء وقَنْواء وشَعْثاء.

والعَرَضُ اسم لما يعرض ويقلُّ بقاؤه. فمن أحبّ ذلك فقد أحبّ الدنيا بحبّه الأدنى، وهذا يرجع إلى أصل حبّ الحياة؛ لأنّه إنما يريد العرَض الأدْنى، لأجل الحياة، فصار حبُّ البقاء الذى لأجله يريد عرض الأدنى هو الدنيا، وصار حبُّ العرَض لأجل البقاء هو من الدنيا، فجاء من هذا الذى ذكرناه: أنه حقيقةَ الدنيا حبُّ البقاء لطاعة الهوى، وموافقة الهوى فى حبِّ العرَض لأجل البقاء، فدخل أحدُ هذين فى الآخر؛ لأن حبَّ البقاء لأجل المتعة هو مِن الهوى، الذى هو صفةُ النّفسِ الأمّارةِ بالسّوء، وطاعة الهوى الذى هو عيش النفس إنّما يكون حبَّ

البقاء؛ لأنّ العبدَ لو أيقن بالموت ساعته لآثر الحقَّ على الهوى، ولو أيس من البقاءِ لَمَا رَغب في العرَض الأدنى. فصار حبُّ البقاء من الهوى، وصار إيثار الهوى إنما هو لحبّ البقاء، فكان ذلك هو حقيقةَ الدنيا، فصار أقصرُ الناسِ أملاً للبقاء أزهدَهم في الدنيا، حتى لا يدَّخر شيئًا لغد؛ لأنّه عنده غير باقٍ إلى غد. وصار أرغبُ الناسِ في الدّنيا أطولَهم أملاً؛ لأنّ رغبته اشتدت فيها، وحرصَه كَثُر عليها، لامتدادِ أملِه للحياةِ فيها، إذ لو قصَّر أمله لغدٍ لاختار الفقرَ حينئذ، واختيارُ الفقرِ هو الزّهد.

يشهد لمعنى ما ذكرناه الخبرُ الذي رُويناه، قال: «أخوفُ ما أخاف على أمتي: الهَوى، وطولُ الأملِ. أما الهوى فيصدُّ عن الحق، وأما طولُ الأملِ فيُنسي الآخرة». فتدبَّرت هذين الوصفين، فإذا بهما عُمرَت الدُّنيا، وتفهَّمْتُ التدبُّر، فإذا أحد الوصفين قائم بصاحبه، فلولا الهوى ما وُجد طول الأمل، الذي هو يُنسي الآخرة، ويُمدُّ في سُوء المعاملة. ولطول الأمل قُدِّم الهوى على الحقِّ، وقُدِّم فعله. واعتبرتُ التفهُّم فإذا بفقدهما، أعني الهوى وطولَ الأمل، وُجِدَ الزهدُ في الدنيا، وفي الزّهد في الدنيا خرابُها، كما في طول الأمل والهوى عمرانُها. وحبُّ البقاء أصلُ كلِّ هوى، كما حبُّ الدنيا رأسُ كل خطيئة، وهو كان سبب إخراج آدم عليه السّلام من الجنّة دار السَّلام إلى دار العِلَلِ والأسقام، وهو مُستَترٌ عدوَّه إبليس فيما أسرَّ؛ ليقسمَه من نفسه من العوض على زُعمِه له؛ إنْ طَلَب البقاءَ إلى يومِ اللقاءِ، فأُبلِس بذلك، وأُعطي أملَه. وحُبُّ البقاء هو الذي أكفرَ بَرْصِبصاء العابد، لمّا سجد لإبليس طلبَ الخلاءَ من بعد الأخْذِ حبًا للبقاء، فأمَّل النَّجاةَ ليَبقى.

● بيان آخر من الزهد، أي شيء هو:

قال الله سبحانه وتعالى: **﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾** [يوسف: ٢٠]، فهذه تسمية لهم بالزهد؛ لتحقّقهم بالمعنى، نحتاج أن نكشفه، ليكونَ مَنْ يتحقق بمعنى ذلك زاهدًا.

قوله تعالى **﴿وَشَرَوْهُ﴾**: باعوه. العرب تقول: شَرَيتُ، بمعنى بِعتُ؛ لأنهم

يقولون: ابتعت، بمعنى: اشتريت. فلما باعوه، وخرج من أيديهم، صاروا زاهدين. كذلك العبد إذا باع نفسه وماله من الله تعالى، وخرج من هواه إلى سبيل مولاه، فهو من الزاهدين. وكذلك قال المولى عزّ وعلا: ﴿**إِنَّ اللهَ اشْتَرَى من الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ**﴾ [التوبة:١١١]. كما قال عزّ من قائل: ﴿**وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى**﴾ [النازعات: ٤٠ ـ ٤١]. فإذا كان العِوضُ واحدًا وهو الجنةُ، ذُكر فى المعنيين، كان بيعُ النفسِ والمال وإخراجُهُما لله تعالى بمعنى النهى عن الهوى فيهما، الذى هو الحياة الدنيا، وهو اقتناؤه للنَّفسِ، وحبسُ النفس عليه، أعنى: المالَ. فاستبدالُ ذلك بضدِّه من إخراج الهوى من النفس، وإدخال الفقر على المال؛ هو الزهدُ فى الدنيا، إذ ليس ذلك من أمر النفس الأمّارةِ بالسُّوء؛ لأنّ هذا نهايةُ الخير، فصار نهيًا لها عَن الهوى، الذى هو اقتناءُ المالِ للجمعِ والمنع لِمُنْعَةِ النَّفْس به؛ وهذا هو الدنيا بوصفِ النفس الأمّارةِ بالسّوء؛ لأنّ هذا حينئذ سوء كلُّه. فمن كان بهذا الوصفِ فنفسه غيرُ مرحومةٍ؛ لأمرها بالسّوء، وإذا لم تكن مرحومةً، لم يكن صاحبُها بائعها، وإذا لم يبعْها لم تكن مشتراةً، فلا يكون صاحبُ هذه النفس إلا جامعًا للمال، مانعًا له، راغبًا فى الدنيا محبًا لها، وهذا هو المال المسلَّط على صاحبه، وذا هو العبدُ المسخَّر بماله، الذى لا يقدر على شىء، وهو الإنفاق. وليس هذا صفةُ المؤمن؛ لأنه لا يأْتمر لأمرِ الإيمان ليبيع ماله ونفسه، كقوله فى وَصفِه: ﴿**وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ منه سِرًا وَجَهْرًا**﴾ [النحل:٧٥]، فصار المسَخَّرُ لنفسه وهواه، المبتلَى بماله ودنياه، رزقُه سيئ؛ لأنّه لم يُبسَطْ للإنفاق فيه، بل قُبض عنه بالإمساك، فقد وقَع فى النهى؛ لأنّه ألقى بيده إلى التّهلكة، إذ تَركَ النفقةَ كما قال سبحانه: ﴿**وَأَنْفِقُوا فى سَبِيلِ الله ولا تُلْقُوا بِأَيديكُم إلى التَّهْلُكَةِ**﴾ [البقرة:١٩٥] ـ هو تركُ النفقةِ فى سبيل الله؛ فتدبَّر هذا من دليل قوله: ﴿**قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِه إيمانُكُم إنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾ [البقرة:٩٣] أى الزّاهدين، قدْ أَمَرهم بإخراج المالِ والنفسِ؛ أى الهوى، لدُخولِ اليقين على إيمانِ التَّصْدِيقِ.

• وصف آخر من البيان والتفصيل:

لما حقق الله تعالى الزهد بفناء النفس، وإخراج المال فى ذكر المبيع والمشترى، فى قوله تعالى: ﴿**يُقَاتِلُونَ فى سَبِيلِ الله فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ**﴾ [التوبة:١١١]، وكان الزهد هو تركَ طاعةِ الهوى، وبيع النفسِ بنهيها عنه من الموالى، وكان العوضُ من ذلك الجنةَ، صَار الزاهدُ هو الخائفَ مقامَ ربِّه، البائعَ نفسَه طوعًا، قبل أن تَخْرج نفسُه من الدار كُرْهًا، وكان اللهُ تبارك وتعالى هو الحبيبَ له القريب منه، فصار العبد محبًا له، فجعله من المقرَّبين عنده تعالى.

وإذا كانت الدنيا هى طاعة الهوى، وحبَّ الحياة الدنيّة لمتعةِ النّفس الشهوانية، كان الراغبُ فى ذلك آمنًا لمكرِ الله تعالى، مشتريًا للحياة الدنيا، بائعًا بذلك الحياةَ العليا، فلم يكن محبًا للهِ، وكان من المبعَدينَ عنه بسُوء اختيارِه، وحقَّ عليه الخُسران والجحيمُ فى الآخرة؛ لأنّه ضدُّ الزاهد المقرَّبِ الظافرِ بدار القرب فى جوار الحبيب القريب.

فصار المريدُ بعاجلِ حظوظِ النفسِ فى الحياةِ الدّنيا، الطّالب لزينتها، الحريصُ على جمعِ المالِ فيها، بمنزلةِ الراكبِ بها، المطمئنِّ إليها، لطولِ غَفْلته عن معادِه إلى آخرته، ومَن دامتْ غفْلَتُه عظُمَتْ فى الآخرةِ حسرتُه وخسارتُه، ألم تَسْمع إلى قولِه تعالى: ﴿**وأُولئكَ هُمُ الغَافلُونَ * لا جَرَم أَنَّهُم فى الآخِرَة هُمُ الخَاسرُونَ**﴾ [النحل:١٠٨ ـ ١٠٩]، مع قوله: ﴿**وأَنْذِرْهُم يَوْمَ الحَسْرَةِ إذ قُضِىَ الأمْرُ وَهُمْ فى غَفْلَة**﴾ [مريم:٣٩].

فهذه صفاتُ الجاهلين، وأخلاقُ نفوسِ المُشْركين، لفقدِ حقيقةِ العلمِ، ووُجْدِ عدمِ اليقين. وبمعنى ما ذكرناه ذكرَهُم خالقُهم، فمَنْ دخَل فى بعضِ مداخلهم، ووقَع به التهدُّدُ والوَعيدُ والتخويفُ الشديدُ لهم، فى قوله مخبرًا عنهم: ﴿**مَنْ كَانَ يُريدُ الحياةَ الدُّنيا وزينَتَها نُوَفِّ إليْهِمْ أعْمَالَهُمْ فيهَا**﴾ [هود:١٥] الآية، وقوله تعالى: ﴿**ورَضُوا بالحَياةِ الدُّنيا واطمأَنُّوا بِها والَّذينَ هُمْ عَن آياتنا غَافلُونَ**﴾ [يونس:٧].

• ذكر بيان حقيقة الزهد وتفصيل أحكامه ووصف الزاهد[(١)]:

اعلم أن الزهد يكون بمعنيين: إن كان الشيء موجودًا، فالزهد فيه إخراجه وخروج القلب منه، ولا يصحّ الزهد فيه مع تَبْقِيَته للنّفس؛ لأن ذلك دليل الرغبة فيه؛ وهذا زُهدُ الأغنياء. وإن لم يكن الشيءُ موجودًا، وكان العُدْمُ هو الحال، فالزهدُ هو الغِبْطَةُ به، والرِّضا بالفقدِ؛ وهذا هو زهدُ الفقراء.

وكذلك القولُ في الزّهدِ في القدرة على ترك الهوى، لا يصحّ إلا مع وجود الابتلاء به، فمتى قَدرَ عليه، فصَبَرَ عنه بمجاهدةِ نَفْسٍ، أو مُدافعةِ وَقْتٍ، أو قَطْعِ سببٍ، فذلك زهدُهُ، فإمّا أن يريد أن يزهدَ فيه، أو يَهُمَّ بتركهِ، أو فليس ذلك زهدًا فيه، بل نيات وإرادات من غير حقيقة، ألم ترَ أن إخوة يوسف عليهم السلام همُّوا بالزُّهدِ فيه، بقولهم: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إلى أبينا منَّا﴾ ولم يسمِّهم اللهُ تعالى زاهدين. وتكلّموا بالزّهد فيه بقولهم: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أو اطْرَحُوه أرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبيكُم﴾ [يوسف:٨ ـ ٩] ولم يُسَمُّوا فيه زاهدين. وأرادوا الزهد فيه بقولهم: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ [يوسف:١٢] ولم يتحققوا بالزهد فيه. وعزموا على الزهد فيه وأجمعوا عليه ولم يسمِّهم الله تعالى زاهدين مع قوله تعالى مخبرًا عنهم: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فى غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾ [يوسف:١٥]؛ لأنّ هذا كلّه من أسباب الزهد ومقدّماته، قد يلتبس ويشكل على من لا يعرف حقيقة الزهد، فيظنّه زهدًا وليس هو زهدًا؛ لأنّه في أيديهم بَعْدُ، فلمّا خرجَ من أيديهم، واعتاضُوا منه سواه، حقّ زُهدهم فيه، فقال تعالى مخبرًا عن حقيقتهم: ﴿وَشَرَوْهُ﴾ أى باعوه ﴿وَكَانُوا فيه مِنَ الزَّاهِدينَ﴾ [يوسف:٢٠].

وكذلك الثّوبُ تهمُّ ببيعه، وتريد بيعَه، ويغلب عليك بيعه، ولا تكون زاهدًا، ولكن تكون موصوفًا بالإرادة للزهد، حتى تبيعه، وتعتاض منه، فحينئذ حَقَّ زهدُك فيه.

ففي تدبُّر خطابهِ: أنّ مَن أخرجَ الشيءَ من يده طوعًا ونفسه تتبعُه، فله مقامٌ في

---

(١) معظم هذا الفصل في الإتحاف ٩/ ٣٧٨.

الزُّهد بالمجاهدة. ومَن أَمْسَك الشيءَ، فأظهَرتْ نفسُه الزُّهدَ فيه بالإرادة والهمَّة، فذلك تأميلٌ وتمنٍّ، يدخل فى بابِ نيّاتِ الخيرِ، لا فى المسارَعة إلى الخيرات، ولا المسابقة فى القُرُبات، بالسّعى لها، والمنافسةِ فيها، كما قال: ﴿**وَمَنْ أرادَ الآخِرَةَ**﴾ ثم اشترط لحقيقة الإرادة: ﴿**وسَعَى لَهَا**﴾ [الإسراء:١٩]. وقال فى المنافسة: ﴿**وفى ذَلكَ فَلْيَتَنافَسِ المُتَنافِسُونَ**﴾ [المطففين:٢٦]. واشترط لها المعاملة، بقوله: ﴿**لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ العَامِلُونَ**﴾ [الصافات:٦١].

ولا مقامَ فى المنافسة لمن لم يُتْبع الإرادةَ بالسَّعى والمعاملة، ولا مَقامَ فى الزُّهد لمن لم يُردفِ الإرادةَ بإخراج المزْهُود؛ لأنَّ الإمساكَ علامةُ الرغبة، والرغبةُ ضد الزّهد، فكيف يوصف بالشيء وضدّه فى حال قائمة. فالمُمْسكُ للشيء المتوهّم للزُّهد فيه بإظهار نفسِه ذلك بأحد وصْفَيْن: إمّا أن لا يعرف الزّهدَ، أو لا يعرف خفىَّ شَهْوةِ النّفس، ولَطيفِ تمنِّيها من معدنِ حُسن ظَنِّها بوَصْفها هذا، إن لم يُموِّه على الرّاغبين فهو يكذب على وَجْده؛ لأجلِ خفىِّ الرغبة فيهم. والمخرجُ للشىء عن يده، والمخرجُ لقلبه منه، هو المتحقّق بالزُّهد فيه؛ وهذا هو الذى وصف الله تعالى به إخوةَ يوسف. والمُمسكُ للشىء، المغتبطُ به، الذى همُّه فيه، وقلبُه عاكفٌ عليه، هو المتحقق بالرغبة فيه. وهذا وصف عزيز مصر فى يوسف لمّا اشتراه، فحققه الله تبارك وتعالى بالرغبة فيه، لاقتنائه له، فقال مخبرًا عنه بعدما اشتراه: ﴿**أَكْرِمى مَثْواهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخذَهُ وَلَدًا**﴾ [يوسف:٢١]، كذلك قال: ﴿**أَستَخْلِصْهُ لِنَفْسى**﴾ [يوسف:٥٤] لمّا تحقَّق به. وكذلك وصف امرأة فرعون فى رغبتها فى موسى عليه السّلام، بقولها: ﴿**قُرَّةُ عينٍ لى ولكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنا أو نَتَّخذَهُ ولدًا**﴾ [القصص:٩].

فكذلك كلُّ مَن أمَّل شيئًا، وادَّخره لنفسه، لا يكون زاهدًا فيه حتى يُخرجَه عن يدِه وقَلْبه، إذْ لم يكن ذلك وصفُ إخوةِ يوسف الزّاهدين فيه إلا بعد أن أخرجوهُ استِصْغارًا له، وتعوَّضُوا منه[1].

---

(١) فى الإتحاف ٩/٣٧٨: «وتعوضًا منه».

● بيان آخر مستنبط من الكتاب:

اعلم أنّ زُهْدَ إخوةِ يوسف عليهم السّلام فى أخيه قد كان يقاربُ زهدهم فى يوسف عليه السلام؛ لأنّه كان نظيرَه عند أبيه، وقد كانوا همُّوا بالزُّهْد فيه أيضًا؛ ليخلُوَ لهُم وجهُ أبيهم منهما. ألم تسمعْ إلى قولهم ليوسف: ﴿**وأَخُوهُ أَحَبُّ إلى أبينا منّا**﴾ [يوسف:٨]. وكذلك جاء فى الخبر: «إنّهم أرادُوا أن يلقوا أخاه معه فى الجُبِّ، حتى أَلْقى نفسه على يهوذا، فشَفَع فيه، فرحمه ومنعهم منه، وكان شديدًا منهم، منيعًا مهيبًا فيهم. وقد قيل: إنّه استوهبه منهم، وقال: دعوه يكون فيه سلوة للشيخِ الكبير، لا تفجعوه بهما ولا تُفقدوه إياهما معًا، فوهبوه له.

ثم إن الله تعالى لم يقل مع إرادتهم لذلك وهمِّهم به: وكانُوا فيهما من الزّاهدين، من قِبَل أنّهم لم يتحققوا بالزهد فيه، كالزّهد فى أخيه؛ لأنّه كان فى أيديهم لم يخرجوه. فكذلك أنتَ إذا كان الشىء موجودًا عندك، وأنت ممسكه لنفسك، ثم توهمتَ أنك زاهدٌ فيه لخواطر الإرادة أو لإرادة الزَّهادة، فقد كذَبْتَ على نفسك، بتَسْميتكَ إياها زاهدًا، أو كَذَبَتْك نفسُك بوَجْدها جهلاً منها بالعلم زُهدًا، أو كذَب وَجْدُكَ على العِلم جهلاً منك بربك عزّ وجلّ، أو موَّهت على مَن لا يعرف الزُّهد؛ وهذا زهدٌ منك فى الزهد، ورغبة منك أيضًا فى الدنيا، حتى تُخرج الشىء الذى تظنّ أنك زَهدْتَ فيه، وتعتاض منه محبةَ الله تعالى، وطلبَ مرضاته تبارك وتعالى، أو ما عنده من ثوابه. فحينئذ يصحّ زهدك فيه على العلم، وعند العلماء، فتكون زاهدًا صادقًا. فهناك حين وصفك الزُّهدُ بالزُّهدِ، وسمّاك الزاهدون زاهدًا.

فأما إذا لم يكن الشىء موجودًا لك، فإن زهدك فيما لا تملك لا يصحّ، من قِبَلِ أنَّ هِبةَ ما لا تملكُهُ غير جائزٍ، والزّهدُ فى معـدومٍ باطل، وكذلك التصرّفُ فيما لغيرك غير جائزٍ؛ فلذلك لم يصحّ زُهدُكَ فيه. ولعلّه لو كان موجودًا تغيَّر قلبك به وتقلَّب فيه، إذ ليس الخبر كالمعاينة؛ لأنّ الخبر قد يشتبه ويُوهم، والمعاينة تكشف الحقيقةَ، وتحكمُ على الخِلْقةِ، ولأنَّ النفسَ ذاتَ بدَوات، لما طُبعت عليه من الشهوات، والملل والتقليبات، وحبِّ المتعة بالوجود، وادّخار المحصولِ،

وبالرفاهية، فلا تجعل ظنًا معدومًا كيقينٍ موجودٍ، إذ لو كان كيف كان الأمر، ولكن قد يكون لك مقام من الزهد فى المعدوم، بقيامك بشرطه؛ وهو أن لا تحب وجودَ الشيء، ولا تأسى على فقده، أو تكون مغتبطًا بَعَدمِك، مسرورًا بفَقْرِك. يعلم اللهُ تعالى ذلك من غيبِكَ، ويطَّلع على سرِّك أنك لا تفرح بوجوده لو وجدتَه، وتُخرجه إن دخل عليك، وإنّ قلبك قانع بالله سبحانه وتعالى، راضٍ عن الله تعالى، بحالك التى هى العدم من الدنيا، غيرُ محبٍّ للاستبدال بها من الغنى، بصدق يقينك بفضيلة الزهد. فإذا كنتَ بهذا الوصف، حُسِبَ لَك جميعُ ذلك زهدًا، وكان لك بأخْذِ هذه المعانى ثوابَ الزاهدين، وإن لم تكن للدنيا مِن الواجدين، ولا لإخراجها من الفاعلين. وهذا زهد الفقراء الصادقين، وهو التحقّق بالفقْرِ.

وقد قال بعضهم: حقيقةُ الفَقير: أن يكون مغتبطًا بفقره، خائفًا أن يُسْلَب الفقر؛ كما يكون الغنىُّ مغتبطًا بغناه، يخاف الفقر. وقد كان مالك بن دِينار رحمه الله تعالى يقول: إذا قيل له: إنّك زاهد، قال: إنّما الزاهدُ عمر بن عبد العزيز؛ جاءته الدُّنيا وملكها فزَهِد فيها، أما أنا ففى أى شيء زهدت؟

وعمر - رحمة الله عليه - لم يتخلَّ عن الدنيا، ولا أخذ ما نُهِى[1] عنه، ولكن جَعْلُ عَدْلِه، ووَضْعُ الأشياءِ فى حقّها، وأخْذُها من وجوهها - سمّاه زاهدًا. وكذلك كان وهْبٌ، وَغيره، يقول: مَنْ أخذ المال من حقِّه، ووضعه فى حقه، فهو أزهد فى الدنيا مِمَّن أخرجها بجهل، وتخلَّى عنها بغيرِ عِلْم.

وقد يصحّ الزهد للعارفِ فى الشيء مع وَجْدِه عنده، إذا لم يَقْتَنِه لِمُنْعَة النَّفس، ولم يتملَّكه ويَسْكُن إليه، بل كان موقوفًا فى خزانة اللهِ التى هى يَدُهُ، منتظرًا لحُكم الله فيه، وصحّةُ ذلك استواءُ وُجوده وعدمه، والمسارعةُ إذا رأى حُكمًا لله تعالى أن يُنَفِّذَهُ ويكُون كأنه لغيره من عَيْلَتِه أو إخوانه أو سبيل من سُبُل الله تعالى[2].

(١) فى الأصل: «ولا آخر نهى» ولعلّها محرّفة.

(٢) هذه الفقرة فى الإتحاف ٩/ ٣٧٨.

وقد يصحُّ الزّهدُ مع الوُجود، لِمَن دون العارفِ من المريدين، إذا أمسك الشيءَ لأوقاتِ حاجته، واستعانَ به على آخرته، أو يكفُّ نفسه عن الرَّغبة والطَّمع، ويقطع به حاجته عن الشَّرهِ والضَّرع[1]، ويكون سببًا لقطع التشرُّف، وَحَسْم النّفس عن التّصنُّعِ والتكلُّف.

وقد يكون هذا المقام للخُصوص من العلماء بهذه النيّات زائدًا على مقاماتٍ من الزّهدِ للمُريدين. ومن دعاء السَّلفِ الصّالح: اللهُمَّ أعِنِّى على دِينى بدُنيا، وعلى آخرتى بتَقْوى.

قال عبد الرحمن بن مهدى: خرجَ محمد بن يُوسف الأصفهانىّ إلى مكَّة ومعه مائةُ دينار، وليس معه إلا كساء، أوْ بَتٌّ[2]، وما رأيتُ مثله. وكذلك قال يحيى ابن سعيد القَطَّان: ما رأيتُ مثلَ محمد بنِ يوسف، وقدَّمه على الثَّورىِّ.

ولمّا قَدِمَ عبدُ الجليلِ الزّاهد إلى «واسط»، اجتمع إليه أهل العراق يسألونه عن الزّهد. فقال: اصبروا حتّى أبيع دِقاقَ تَمرِ حملتُه من البَصْرة، وأتَفرّغُ لكم للمسائل. فكان يَتَّجرُ، فيجعل ثُلثًا لأهله وعياله، وثُلثًا لإخوانه الفقراء، وثلثًا يردُّهُ فى تجارته. وكذلك كان حال جماعةٍ من زاهدِى السَّلف. فلم يكن ذلك يُنَقِّصُهُم عند العلماء، وكان مزيدًا فى حالِهم، وطريقًا لهم إلى مقامِهم من الزُّهد، وهو وصفُ الأقوياءِ من الزّهَّاد[3] الصّحابةِ النُّجباء.

• بيان آخر مستنبط من السنة فى ماهية الزهد:

الزُّهدُ ـ أيضًا ـ تقليلُ الدنيا وتقريبُها، واحتقارُها بالقلب واستصغارها، من ذلك الخبرُ الذى جاء فى ساعة يومِ الجمعة، أنَّ النبى ﷺ قال: «هى فى آخرِ ساعة»، قال: وجعل يُزهِّدُها، أى: يقلّلها، أى: يُقرِّب وقتها، ويُدنيه من الغُروب.

---

(١) فى الإتحاف: «ويقمع به طبعه عن الشره».

(٢) البَتُّ: الطيلسان من حرير أو غيره.

(٣) إلى هنا ينتهى نقل الإتحاف ٩/ ٣٧٩.

والمعنى الآخر؛ فى الخبر الثانى، من قول النبى ﷺ لعلىٍّ رضى الله عنه، لمّا نزلت آية الأمر بالصّدقة لمناجاةِ الرسول ﷺ، فقال له: «كم ترى أن نجعلَ عليهم من الصّدقة مقدمةً للمناجاة؟» فقال: شعيرةً من ذهَب. قال: «إنّك لزهيد» أى: مقلِّل مصغِّر للدنيا «ولكن نجعل عليهم دينارًا». فبالغ فى المحبةِ بالمال، ليستبين به مَن كان ذا رغبةٍ فى العلم أن يبذلَه فيه.

كما جَعل بَذْلَ المالِ للأغنياءِ محنةً فى طلبِ العلم، فاختُبِروا به، أَيَبْتذِلُوه للعلم كما اختُبِروا فى بذلِ النّفسِ للجهادِ فى سَبيلِ الله. إذ العلمُ فى سُبُلِ الله، والنفقةُ فيه مضاعفةٌ، كالنفقةِ فى الجهاد. لذلك قيل: لا يُدْرَكُ العلمُ براحةِ الجسم.

و «شَعِيرةٌ»، فى قول على رضى الله عنه، لا يُتَبيَّن بها كَثرةُ الإنفاق، ولا قوةُ الرّغبةِ فى العلم، بِبَذْلِ ما لَهُ قيمةٌ وقَدْرٌ لقلَّتها. وقوله «زهيد»: كأنه مَعْدولٌ من زاهد؛ للمُبالغة فى الوصْف بالزّهد. كما عُدل: شَهيدٌ من شاهد، ومجيدٌ من ماجد، وعَلِيمٌ وقدير ورحيم، من: عالم وقادر وراحم، للمبالغة فى العِلم والقدرة والرحمة.

• ذكر وصف الزاهد، وفضل الزهد:

قوتُ الزّهدِ الذى لا بدَّ منه، وبه تظهرُ صفةُ الزاهدِ، وينفصل به عن[1] الرّاغبِ؛ هو أن لا يفرح بعاجلٍ موجودٍ من حظّ النفسِ، ولا يحزن على مفقودٍ من ذلك، وأن يأخذَ الحاجةَ من كلِّ شىءٍ عند الحاجة إلى الشىءِ، ولا يتناول عند الحاجةِ إلا سدَّ الفاقةِ، ولا يطلبُ الشىءَ قبلَ الحاجةِ.

وأولُ الزهد دخولُ غمِّ الآخرةِ فى القلبِ، ثم وجودُ حلاوةِ المعاملة لله تعالى. ولا يَدْخل غمُّ الآخرةِ حتى يخرج همُّ الدنيا. ولا تدخلُ حلاوةُ المعاملةِ حتى تخرجَ حلاوةُ الهوى. وكلُّ من تابَ من ذنب[2]، ولم يجد حلاوةَ الطاعة، لم يُؤمَن عليه الرجوعُ فيه. وكلُّ مَن تركَ الدّنيا، ولم يذُق حلاوةَ الزُّهدِ، رجعَ فيها.

---

(١) فى الإتحاف ٩/ ٣٧٣: «ويفضل به على».

(٢) فى الإتحاف: «وكل من ترك المعصية».

وكلُّ مَن وجد حلاوةَ الطاعة، ولم يجد حلاوةَ المعرفة، لم يَدُم عليها. وكلُّ مَن وجدَ حلاوةَ الزُّهدِ ولم يذُق حلاوةَ اليقينِ، لم يُؤمَن عليه دخولُ النَّفْسِ[1]، ورَغِبَ فى الدنيا ولو بعد حين، فتدبّروا.

وخالصُ الزُّهدِ إخراجُ الموجودِ من الدُّنيا من القَلْب، ثُمَّ إخراجُ ما خرجَ من القَلْب عن اليد، وهو عَدَمُ الموجودِ على الاستصغار له، والاحتقار، والتقالُل لهوانِ الدُّنيا عنده، وصغرها فى عينه، فبهذا يتمُّ الزهد. ثمّ ينسى زُهدَه فى زُهده، فيكون حينئذ زاهدًا فى زهده، لرغبته فى مُزهِّده، وبهذا يكمُلُ الزهدُ، وهذا لُبُّه وحقيقتُهُ، وهو أعزُّ الأحوالِ فى مقاماتِ اليقينِ، وهو الزُّهدُ فى النفسِ، لا الزُّهدُ لأجلِ النّفْس، ولا للرغبةِ فى الزّهدِ للزّهدِ؛ وهذه مُشاهدةُ الصدِّيقين، وزُهد المقربين، عن وَجْدِ عينِ اليقين.

ودون هذا مقاماتُ إخراجِ المرغوبِ فيه عن اليد مع نظرِه إليه، وعلى مجاهدة النفس فيه؛ وهو زهدُ المؤمنين، وذلك العملُ بالزّهد، إذ كان الزّهدُ عن الإيمان، والإيمانُ قولٌ وعملٌ. وكذلك الزّهد عَقْدٌ وعملٌ، فعقدُه: خُروجُ حبِّ الدنيا من القلبِ بدخول حبِّ الآخرةِ فى القلبِ، والعملُ بالزهد: إخراجُ المحبوبِ من اليد فى سبيلِ الله تعالى، مُعتاضًا منه ما عندَهُ سبحانه وتعالى من وجهِهِ الكريم جلّ وتعالى، أو قُربَ جوارِه فى دارِه.

فإن لم تكن الدنيا موجودةً، فإن تَرْكَ الأسفِ عليها، وقلّةَ الحرصِ فيها، وتَرْكَ الطلبِ والتمنِّى لها، وسُكونَ القلبِ مع العدَم، ورضاهُ بيسيرِ القِسم؛ يُحسب للعبدِ زهدًا؛ لأنّ ذلك حالُ الفقيرِ. فإذا قام بحكمِهِ لم يجب عليه أكثرُ من القيامِ به.

والورَعُ: هو من الزّهدِ، كما الزُّهد من الإيمانِ، والحياءُ والإيمانُ فى قَرَنٍ واحد، كما جاء فى الخبر: «إذا نُزِع أحدهما تبِعه الآخر».

وروينا فى ذلك حديثًا من طريق أهل البيت: «الزهدُ والوَرَعُ يجولان فى القلبِ

---

(١) فى الإتحاف: «التفتين».

كلَّ ليلة، فإن صادفا قلبًا فيه الإيمان والحياء أقاما فيه، وإلا ارتحلا».

والقناعةُ بابٌ من الزّهد أيضًا، والرضا باليسير من الأشياءِ حالٌ من الزهد، والتقلّلُ فى الأشياءِ مفتاحُ الزهد. وقال إبراهيمُ بن أدهمَ رحمه الله: قد حُجبتْ قلوبُنا بثلاثة أغطية، فلن يُكشفَ للعبدِ اليقينُ حتى تُرفعَ هذه الحجبُ: الفرحُ بالموجود، والحزنُ على المفقود، والسُّرورُ بالمدحِ. فإذا فرحتَ بالموجود فأنت حريصٌ؛ والحريصُ مَحرومٌ، وإذا حَزِنْتَ على المفقود فأنت ساخطٌ، والساخطُ معذَّب، وإذا سُرِرْتَ بالمدْح فأنتَ مُعجَبٌ، والعُجبُ يُحْبِط العمل. وقال الله تعالى: ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ يعنى من الدنيا ﴿ولاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتاكُمْ﴾ [الحديد:٢٣] أى منها. وهذان الوصفان هما أتمُّ حالٍ فى الزهد، من أُعطى أحدُهما تبعه الآخرُ، لأنّ الذى لا يَأْسى على ما فاته من الدنيا، هو الذى لا يَفرح بما أتاه منها؛ لأنّه مثله. والذى لا يفرح بما أتاه منها، هو الّذى لا يحزن على ما فاته، إذْ هو نَحوه. والأسى على المفقودِ يكون بعده الفرح بالموجودِ، وهذان الوَصفان هما ثَمرةُ النّفس، بما أُمر به من سَتْرِ النَّصيب فى الكتابِ المبين، ومشاهَدة التّوْفيَة للنَّصيبِ لا محالة مع الزُّهدِ، لقوله تعالى: ﴿أُولئك يَنَالُهُمْ نَصيبُهُم منَ الكتاب﴾ [الأعراف:٣٧]. ثم أحكمَهُ وفرغ منه، لقوله تعالى: ﴿وإنّا لَمُوفّوهُم نَصِيبَهُم غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾ [هود:١٠٩]. كذلك كان أَوّلُ الـ . . .(١) قَبلَ الفَوْتِ وتَرْكِ الوَجْدِ بالفرح على ما لا يفوت. فأوَّلُ الكلام قولُه: ﴿ما أَصَابَ من مُصِيبةٍ فى الأَرْضِ﴾ فهذا المنفصلُ عن النفس ﴿ولا فِى أَنْفُسِكُم﴾ وهذا المتّصلُ بالجسم ﴿إلاَّ فى كِتابٍ من قَبْلِ أَنْ نَبْرأَها﴾ [الحديد:٢٢]، فخلق النَّفْسَ والمصيبةَ معًا، ثُمّ عقَّبَه بقوله: ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا﴾ على الفَوْتِ، فيقطعكُم الحُزن على المغيَّب، ﴿ولاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتاكُمْ﴾ بما قد كُتب فى الكتابِ، فيشغلك السَّببُ عن ولىِّ الأسبابِ.

وهذا وصفُ عَبْدٍ غير متملك لملك، وسيما عبد قائم بحكم ربٍّ، ونعتُ عبد مُوقنٍ مُحبٍّ، قد شغلته مشاهدةُ الآخرةِ عن التفرغ لِمُتْعةِ الدُّنيا، وقد فرَّغته معاينةً

---

(١) بقية الكلمة مطموس.

الغَيْبِ عن الاشتغالِ بما يَفْنى. وفى أحدِ الوُجوه من قوله تعالى: ﴿وَأَنَّه هُو أَغْنَى وأَقْنَى﴾ [النجم:٤٨] قيل: أَغْنى الفقراءِ أهلَ الآخرةِ بالله، وأغناهم عن الدنيا باليقين، كما جاء فى الخبر: «كفى باليقين غنًى بالآخرة». وأقنى الأغنياءِ أهلُ الدّنيا من الدُّنيا. أى: جعل لهم قِنْيةً ومدَّخرًا وعُدَّةً، كما وصف فى ذمِّه من قوله تعالى: ﴿جَمَعَ مالاً وعَدَّدَه﴾ [الهمزة:٢] أى: قال: هذا عُدّةٌ لكذا، وهذا عُدّةٌ لكذا، فتهَدَّدهُ بالويل، فحصل من ذلك أنّ الزَّاهدَ فى القِنْيَة والمالِ عُدَّتُهُ اللهُ تعالى، هو كَنْزُهُ وذُخْرُه فى المآل، ومأواه وظلُّه فى كل حالٍ، فطُوبى له وحسن مآب.

وروينا عن رسولِ الله ﷺ: «كفى باليقِين غنًى، وكفى بالعبادة شُغْلاً، وكَفى بالموتِ واعظًا». وفى بعضها: «وكفَى بالخشيةِ عِلْمًا».

وهذا جملةُ وَصْفِ الزاهدِ الموقنِ، الذى هُو للموتِ مُرْتَقِبٌ، وعن الدار مُرْتحل، وللمهاد مُستوطنٌ. مع الخبر المشتهر: «ليس الغِنى عن كثرةِ العَرَض، إنّما الغِنى غنى النّفس».

وقد جعل النبى ﷺ الزُّهدَ فى الدنيا عَلَمًا لحقيقةِ الإيمان، وقَرَنَهُ بمشاهَدَةَ الإيقان، فى قوله عليه الصلاة والسّلام لحارثَةَ: «عَرَفْتَ فَالْزَم، عبدٌ نَوَّر اللهُ قَلْبَهُ» لَمَّا قال: «أنا مؤمن حقًا». قال: «وما حقيقةُ إيمانكَ؟»، فابتدأ بالزُّهد فقال: «عَزَفَتْ نَفْسى عن الدُّنيا، فاستوى عندى حجرها وذهبُها». ثم ذكر المشاهَدَة بعد الزُّهد، فكانت عُدَّتَهُ. فكما المُشَاهَدَةُ بعد الزَّهادة، كذلك حقيقةُ الإيمان بعد الزُّهد، وهذا إيمان الموقنين، وهو تحقيق التصديق، فقال: «وكأنى بالجنة والنار، وكأنى بعَرْشِ ربى بارزًا».

وأشدّ من هذا الخبر الذى جعَلَ فيه النبىُّ ﷺ الزهدَ من علامةِ شرحِ الصَّدْرِ بالنّور، وهو نورُ التّصديق الذى هو عمومُ وصفِ المؤمنين؛ لأنه هو فى التّحقّق بالإسلام. ففسّر قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ﴾ [الأنعام:١٢٥] قيل: يا رسولَ اللهِ، ما هذا الشَّرحُ؟ قال: «إنَّ النّورَ إذا دخل القلبَ

انشرح له الصدرُ وانفتح. قيل: يا رسول الله، هل لذلك من علامة؟ قال: نعم، التجافى عن دارِ الغُرور، والإنابةُ إلى دارِ الخُلود، والاستعدادُ للموتِ قبل نزولهِ». فهذا هو الزهدُ جعلَهُ شَرْطًا لحقيقةِ الإسلام.

وأشدُّ من هذين الخبرين الخبرُ الثالث الذى فسَّر فيه النبىُّ ﷺ الحياءَ من الله تعالى بالزُّهد فى الدنيا، فقال: «استحيوا من الله تعالى حقّ الحياء. قُلنا: إنّا لنستحى. فقال: تبنونَ ما لا تَسْكُنون، وتَجْمعون ما لا تأكلون». وبمعَنى هذا تَمَّمَ إيمانَ الوفدِ الذين سألهم: «ما أنتم؟» فقالوا: مؤمنون. قال: «وما علامةُ إيمانكم؟». فذكروا الصبَّرَ على البلاءِ، والشُّكرَ عند الرخاءِ، والرِّضا بمواقعِ القَضاء، وتركَ الشماتة بالمصيبة إذا نزلَتْ بالأعداء. فقال عليه الصلاة والسلام: «إنْ كُنتم كذلك فلا تَجْمَعُوا ما لا تأكُلونَ، ولا تَبْنُوا ما لا تَسْكنُون، ولا تَنافَسُوا فيما عنه تَرْحَلُون». فهذا هو الزهد جعله تكْمِلةَ إيمانهم، وعلوَّ مقامهم، وتمامًا على إحسانهم.

وأعظمُ من هذه كلّها الخبرُ الرابع، الذى جعل فيه رسول الله ﷺ الزهدَ من شرط إخلاص التوحيد، فى حديث رويناه عن ابن المنكدر عن جابر قال: «خطبنا رسول الله ﷺ فقال: من جاء بلا إله إلا الله، لا يخلط معها غيرَها، وجبتْ له الجنة. فقام إليه علىٌّ كرّم الله وجهه فقال: بأبى أنت وأمى يا رسول الله، ما لا يخلط بها غيرها، صِفْهُ لنا، فسِّره لنا. فقال: حبُّ الدنيا، وطلبًا لها، واتباعًا لها. وقومٌ يقُولونَ قولَ الأنبياءِ، ويعملون أعمالَ الجبابرةِ. فمن جاء بلا إله إلا الله ليس فيها شىء من هذا، وجبتْ له الجنة».

فلذلك كان على رضى الله عنه يجعل الزهدَ مقامًا فى الصبر، ويجعل الصبرَ عمدةَ الإيمان، وفَسَّر بذلك مقام اليقينِ الذين شرَح فيه شُعَبَهُ فى حديثين رويناهما عنه.

أوّلهما: قوله فى الحديث الطويل، الذى رواه عِكرمة، وعُتبة بن حميد، والحارث الأعور، وقبيصةُ بن جابر الأسدى، فى مبانى الإيمان، أنه قال: «الإيمانُ على أربع دعائم؛ على الصبر، واليقين، والعدل، والجهاد». ثم قال فيه: «والصبرُ

منها على أربع شعب؛ على الشّوق، والشّفق، والزّهادة، والترقُّب. فمَن اشتاق إلى الجنةِ سَلا عن الشّهواتِ، ومَن أشفق مِن النار رَجَع عن المحرّماتِ، ومَن زَهد فى الدنيا هانتْ عليه المصيبات، ومَن ترقَّب الموتَ سارعَ فى الخيرات». فأقامَ الزّهدَ مقامَ اليقين، إذ هو مقتضاهُ، كما فسَّر رسولُ الله ﷺ اليقينَ بموجبِ الزّهد، فى قوله: «وارْزُقْنا من اليقينِ ما تُهوِّن به علينا مصائبَ الدنيا». فلمّا أوجبَ اليقينُ الزّهدَ فى الدنيا، اقتضى الزهدُ تهوينَ مصائبها، وتيسيرَ شأنِها، وتسهيلَ أمرِها، فصغُرت بعد كِبَرِها، وهانتْ بعد صُعُوبة حالها، فاستبدل بها الرغبةَ فى الآخرةِ، فسارع إليها بقَدْرِ هَرَبِهِ من الدّنيا، ونافَس فيها بقَدْر عُزوفِهِ عن ضدِّها. عندها تحقّق بإرادة الآخرة، وسعى لها سعْيَها، لمّا رَكِبَ طريقَها، فصار ابنَ سبيلها، فوجب حقُّهُ على الرَّاغبين فى الدّنيا، كما وجب حقُّ ابنِ السبيل الذى ركِبَ الطَّرِيقَ، فتَدَبّرْ.

والخبرُ الآخرُ الذى ذكرناه عن عَلىٍّ ـ عليه السلام ـ فى الصّبر، الذى جعلَهُ عمودَ الإيمانِ، ينهدمُ بِعدمه، هو قولُهُ: «الصّبر من الإيمانِ بمنزلة الرأس من الجسدِ، لا جسد لمن لا رأس له، ولا إيمان لمن لا صبر له». فالصبر حالٌ من أحوال الزّهد؛ لأنّ مَنْ كان مقامُهُ الزّهدَ، كان حالُه الصبرَ عليه، وحَبْسَ النفسِ فيه.

وروينا فى خبر مقطوعٍ: «السّخاء من اليقين، ولا يدخلُ النّارَ موقنٌ. والبخلُ من الشّكِّ، ولا يدخلُ الجنَّةَ مَن شَكَّ»[1]. فكان هذا الحديث مُفسِّرًا للخبر المجمل: «السَّخىُّ قريبٌ من اللهِ، قريبٌ من النّاسِ، قريبٌ من الجنّة، بعيدٌ من النّار. والبخيلُ بعيدٌ من اللهِ، بعيدٌ من الناس، قريبٌ من النّار». بأىّ معنًى كان السّخىُّ قريبًا؛ لأنّ السّخاءَ من اليقين، فالسخىُّ مُوقِنٌ، فصار من المقَرَّبين. وبأىّ معنًى كان البخيلُ بعيدًا من اللهِ، بعيدًا من النّاس، قريبًا من النّارِ، أى بالشَّكِّ؛ لأنه ضدّ اليقين، فصار من المُبعَدين.

فالسّخاءُ أيضًا وصْفُ الزاهدِ، لا يكون الزّاهدُ إلا سَخِيًا؛ لأنه لما زَهد فى الدّنيا

(١) الإتحاف ٩/ ٣٢٩.

سَخَت نفسه بها، وطابت عنها للاستبدال بها، والتعويض عنها. وقد يكونُ السّخاءُ سببًا للزّهْد، إذا سَخَت نفسه عن الشىء زهدَتْ فيه، كما إذا زَهد فى شىءٍ أخرجه إلى غيرِه، وهُو السَّخاءُ، فصار السّخَاءُ ثَمرةَ الزُّهْدِ.

والبُخلُ وصفُ الراغب، لا يكون الحريصُ إلا بخيلاً، ولا يكون البخيلُ زاهدًا؛ لأنّ الزُّهد يدعو إلى إخراج الشىء، والبخلُ يدعُو إلى إمْساكِه، فَنَفْسُ الزُّهدِ سَخاءٌ، وعَيْنُ البُخلِ رغبةٌ، فلذلك ذُمَّ البخلُ؛ لأنه رغبةٌ فى الدّنيا. ثم إن الحرصَ علامةُ البخلِ؛ لأنه دليلُ الرغبةِ، والقناعةُ علامةُ السّخاءِ؛ لأنها بابُ الزّهد، فلذلك قيل: سَخاءُ النّفسِ عما فى أيدى الناس أفضلُ من سخاءِ البذل.

ثم يفترقان فى الحكم بعد اجتماعهما فى المعنى. فَمَن جاد بملكه لله كان زاهدًا فيه لوجهِ الله، ووقَعَ أجرُه على الله ومَن جادَ بمالِه لأجلِ الناسِ، كان أيضًا زاهدًا فى ذلك، مَوْصوفًا بالسَّخاء، لكن ذلك لنفسه، ولأجل هواه، فهو موصوفٌ بظاهر المروءةِ، وبمعنى الفتوّةِ ولا أجر له عند الله تعالى؛ إذْ لم يكن من عُمّال الله، فبطل فى الآخرةَ أجرُه، لأنه عمل لأجل نفسه، لا لوجه ربِّه، وحصل شُكْرُهُ وذِكرُهُ فى الدنيا تعويضًا له من حرث الآخرة، لأنَّ هذا حرثُ الدنيا، فلم يكن له فى الآخرةِ نصيبٌ، إذ لم يُؤتَ ذلك زكاةً يُريد بها وجهَ اللهِ، فيُضعَّف له فى الآخرة أضعافًا كثيرة[1]، وهذا هو الرِّبا الذى أربى فى أموالِ الناس، لأنّه عُمِل لأجلِ الناس، فهى نصيبُه مما كَسب، وذهب خَلاقُه فى الآخرةِ، إذ لم يَحْتسب لفناءِ الدنيا وما فيها[2]؛ لأنه عمل لأهلها وطلب ما عندهم من الذكر فيهم، والثناء منهم، والباقياتُ الصّالحاتُ ما يُراد به الثانى، يبقى ببقائه لصالح[3] أوليائه.

وكان ابنُ المبارك[4] ـ رحمه الله ـ يقول: ما رأيتُ بين الفُتُوّة والقراءَة فَرْقًا إلا فى شىءٍ واحدٍ: ما حَظَرتِ القراءةُ شيئًا إلا قَبَّحَتْهُ الفتوّة، وإنما يفترقان فى أنّ

---

(١) عبارة الإتحاف ٩/ ٣٢٤: «فلم يكن له فى الآخرة أضعاف كثيرة».

(٢) فى الإتحاف: «إذ لم يحتسبه لفناء الدنيا واهلها».

(٣) فى الإتحاف: «لصالحى».

(٤) فى الإتحاف: « ابن مالك».

القِراءةَ يُراد بها وجهُ اللهِ تعالى، والفتوةَ يُراد بها وجوهُ النّاسِ ومدْحُهُم.

وقد كان أستاذُنا سفيان الثَّوْرى يقول: «مَنْ لم يُحسن يَتَفَتَّى لم يُحسن يَتقَرَّى». أى مَن لم يعرف أحكام التَّفَتِّى، فيقوم بها، ويصبر عليها، ويراعى حسن الأدبِ فيها، حتّى يستحق وَصْفَ فتى، لم يحكم أوصاف التَّقرِّى، ولم يقم بحُسنِ الرعايةِ فيها، حتى يُوصف بأنّه قارئ.

ثم إنّ العبدَ قد يجاهدُ نَفْسَهُ على الزُّهدِ، كما يجاهدُها على مُخالفة الهوى، وكما يجاهدها فى الصَّبر على مُرِّ الحقِّ؛ بأن يُخرجَ المرغوبَ، ويُنفقَ المحبوبَ، ويتَصَبَّر على كراهةِ النَّفْسِ لذَوْقِ ذلك، ولقلَّة عادته بجريَانه عليه، كما يَتصبَّر على ذَوقِ مرارةِ الدّواءِ خشيةَ أن يقتله الداءُ، فيكون له مقامٌ فى الزّهد، ينالُ به البرَّ، ويستوجبُ مَدْحًا من البَرِّ. وقد قال بعضُ البَصْرِيين من أهلِ المعرفة: إنّ مَن أكْرَهَ نفسَهُ على إخراجِ المحْبُوبِ من ماله، وحملَ عليها بالزّهد فيه، حتى بذَلَهُ على تكرُّهٍ من النفس، إنّ هذا أفضلُ ممّن سَخَت له نفْسُه ببذلِ ماله طوْعًا من غيرِ كراهةٍ، ولا وَجْدِ ثِقَلٍ. قالوا: لفَضْلِ المجاهدةِ فيه، ولكراهةِ النفسِ وإكراهها. المعنى للقائل، والعِبارَةُ لنا.

والمتزهِّدُ غيرُ الزّاهدِ، وهو الذى يتصنَّعُ الزهدَ، ويعملُ فى أسبابه؛ من التقَلُّلِ، ورَثاثَة الحالِ فى كل شىءٍ. فمثَلُهُ مَثَلُ المَتصبِّر من الصَّابرِ الذى يحملُ على نفسه بالصَّبرِ وتَصَابُرِها على العِلْم والبِرِّ، فيكون له مقام من الصَّبْر.

وصفوةُ الزُّهد تقريبُ الأَجَلِ وتقصيرُ الأملِ؛ لأنَّ فيهما تَرْكَ الادّخارِ، وتحسينَ الأعمالِ لقُربِ المُرادِ، فلا يُلْهِيهِ التَّكاثُرُ، فيُبغِّضُه زيارةَ المقابرِ؛ لخوفِ بَعْثَرةِ القُبورِ، وتَحْصيلَها فى الصُّدور.

وحقيقةُ الزُّهْدِ مخالفَةُ هَوى النَّفس فى كل شىءٍ، وهو ما لا يوافقُ العِلْم.

وكان ابن عيينة يقول: حدُّ الزّهد: أن يكون شاكرًا عند الرخاء، صابرًا عند البلاء. فهذا صَيَّرَ الشّاكرَ على النِّعمةِ والصَّابرَ على البلاء زاهدًا، وجمع له الزهدَ باجتماعِ الشُّكر والصّبر، وهذا زُهد عمومِ المؤمنين.

وكان بشرُ بنُ الحارثِ يقول: الزُّهدُ فى الدُّنيا هو الزّهد فى الناسِ. لأنّه كان يقول: حبُّ لقاءِ الناسِ هو من الدنيا. فهذا جعل الرغبةَ همُ الناس، لأنه المرغوب فيه عندهُم، ويتسبَّبُ إليه بِهِم، لذلك صار الزُّهد فَقْدَهم. وكذلك قال بعضُ الحكماء: إذا طلب الزّاهدُ الناس فاهْرَبْ منه، وإذا هَرَبَ من النّاسِ فاطْلُبْه. وهذا هو حالُ الزّاهدِ العابدِ المشغولِ بنفسه.

فأمّا الزّاهدُ المُعْبِدُ، العارفُ المعرِفُ، إنْ طلبهم لِمَطلُوبِه بما بهِ طَلَبَ من التَّزهيدِ والتَّعريفِ لهم، والتنبيهِ والتّفضُّلِ عليهم؛ لأجلِ مولاه، فهو نذيرٌ مِن الله تعالى لهم، ورسولٌ من رسلِه أبدالُ مُرْسَلِيهِ إليهم، لِمَا خصَّه به من غرائبِ أنبائه، فجعلَهُ خَلَفًا من بعضِ أَنبيائِهِ، فهو أفْضَلُ إذا وُضع لذلك، وقامَ به. وهذا مقامٌ فى العلم أعلى من الزُّهد.

وقيل ليحيى بن معاذ رحمه الله: متى يكونُ الرَّجُلُ زاهدًا؟ فقال: إذا بلَغ حِرصُه فى تَرْكِ الدُّنيا حِرصَ الطالبِ لها، كان زاهدًا.

وقال قاسم الجُوعىُّ: الزُّهدُ فى الدّنيا هو الزُّهد فى الجَوْف؛ بقَدْرِ ما تَملكُ من بَطْنك كذلك تَمْلكُ من الزُّهْد. فكأنَّ الدنيا عنده الشِّبَعُ، وأَكْلُ الشَّهوات، وتَرْكُ المَطْعُوم من غير الحاجات عن فُضول الكفايات.

وكان الفضيلُ بن عياض يقول: الزُّهدُ هو القناعَةُ. فكانت الدنيا عنده الحرصَ والشّرهَ والضَّراعَةَ[1]. وقال الثورىُّ: الزّهد هو قِصَرُ الأمل، وانتظارُ الموتِ. فصَارت الدنيا عنده طولَ الأمل، ونِسْيانَ قُربِ الأجلِ.

وكان الدّارانىُّ أبو سليمان يقول: الدنيا كلُّ ما شغل عن الله. فكان الزّهدُ عنده دوامَ التفرغِ للهِ عز وجلّ بحُسنِ الإقبال عليه. وقد قال: إنَّما الزّاهدُ مَنْ تخلَّى عن الدّنيا، واشتغل بالعبادةِ والنَّصَبِ.

فَأمّا مَن تركَها وتَبَطَّل، فإنّما طلبَ الرّاحةَ لنفسه، فهذا لعَمْرى، وإن طلب الرّاحة لقَلْبِهِ وجسمه مع الزهد، فذلك هو مقتضاه، وعاجلُ نصيبِهِ من اللهِ تعالى

(١) الضّراعة: الذّلّ والاستكانة. وقوله: «فكانت...» من كلام أبى طالب.

فى الدّنيا، وأولُ بُشْرَاه؛ لأنّ اللهَ سبحانه جعل الرّاحةَ فى الزُّهد نَعيمًا للزّاهدين، تعويضًا منه لهم، لما تركوا منها له، بما طيَّب من نُفوسهم، وروَّح قُلوبهم عن نعيمِ الدنيا، والرّاحةِ بها، بوجودِ حلاوةِ الزّهد فيها، كما جعل العزَّ فى قلوبِ المنقطعين إليه، عوَضًا من الاتصالِ بالخَلْق، لمّا حبَّبَ إليهم من الخُمول والوَحْدَة، تعويضًا ممّا ابتلى به طالبى العزِّ والرِّياسة. فلا يُخرجُهم دُخولُ الرّاحةِ عليهم بالزّهد من دَرَك درجاتِ الزهد، كما لا يُفْقدُهم وجودٌ عن الانقطاعِ إلى الله تعالى، يحقِّقُهُم بالذُّلِّ لَهُ، وفيه وَلاءٌ لأوليائه وأحبابه لأجْله، إذ ذَانكَ مَجْعُولان فى الزُّهد فى الدّنيا، والانقطاعِ بالرّغبةِ إلى المولى. كما جعَلَ ذَوْقَ حلاوة الطَّيّبات فى حواسِّ المَذاقِ للتَّنعُّم بنعمةِ اللهِ بها. ثم لم يُخْرِجْهُم ذلك من الزُّهد فى الدّنيا لأجلِ ذوقها، إذ لم يطلبوها، ويحرِصُوا عليها، ويشغَلُوا قُلوبَهُم بها، ويعملوا لأجلها، ألم تسمعْ إلى الخبرِ الذى رُويناه عن الله تعالى فى معنى ما ذكرناه، يقول اللهُ تعالى للعبد يوم القيامة: «يا ابنَ آدمَ، أمَّا زُهدُك فى الدّنيا فقد تعجَّلْتَ به الرّاحةَ لقلبكَ وبدَنكَ، وأمّا انقطاعُك إلىَّ فتعزَّزْتَ بى، فماذا عملْتَ فى حقِّى عليك؟ قال: وما هُو يا ربِّ؟ قال: هَلْ واليتَ فىَّ وَليًا، أو عاديتَ فىَّ عدوًا؟».

وقد كان داود الطّائى يقول: كلُّ ما شغَلك عن الله تعالى؛ من أهلٍ أو مال، فهو عليكَ شؤمٌ. وقال أبو سليمان: من تَزوَّجَ، أو كَتب الحديثَ، أو طلبَ معاشًا، فقد ركَنَ إلى الدّنيا. وقرأ قوله عز وجلّ: ﴿إلاَّ مَنْ أتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩]، فقال: هو القلبُ الذى ليس فيه غيرُ الله.

فهذا زهدُ الصِّدِّيقين. وإنّما تكون هذه الثلاثُ دنيا لمن أراد بهنَّ الدّنيا لعاجل متعة النَّفسِ بها، فأمَّا من أرادَ بها الآخرةَ، فهى طرقات له إلى الآخرة. وقال مرَّة أبو سليمان: إنما زَهدُوا فى الدّنيا لتَفرُغ قلوبُهم من هُمومها للآخرة، فإذا رُزق العبدُ فَرَاغَ القلبِ مع وُجُودِ هَذِه الثَّلاثِ التى ذكرنا، كُنَّ له قُرباتٍ إلى المذكور بها.

وقد كان رحمه الله ذا عيال، ولكن لم يكن يشغله ذلك عن أوقاته مع اللهِ، لا يدخلون عليه فى مَقامه، فيُخرجونه من المقام.

وقد قال أويس القَرَنىُّ قَبْله: إذا خرجَ العبدُ يطلب ذهبَ الزّهدُ. وقال مرّة لبعض من سأله عن الزّهد: فى أى شىء خَرَجْتَ؟ فقال: أطلب المعاشَ. فقال له: فأين الزّهدُ؟

يعنى أن الزهد عنده: أن يقتطعَ العبدُ بدوامِ الشُّغلِ عن التفرُّغِ لطلب ما سوى الله، وأن لا يشغله عن ذكرِ الله ذكرُ ما قطَع عن الله. ولم يكن الزُّهْدُ يصحُّ عنده إلا بحقيقةِ التوكّل. وكان التوكّل عنده ترْكَ الطلبِ شُغلاً بما يَرِد عليه من المَطْلُوب، فلا يبقى فيه فراغُ المرغوبِ. فهذا غاية الزهد، وهو طريقُ طائفةٍ من الأبدالِ، اقتُطِعُوا عن الخلق، وأُرِيدوا بهذه الحال، كما قال بعضُ الزّاهدين لبعضِ العارفين: لم يبق علىَّ من الدنيا إلا مصُّ النّوى. فهذا يرى هذا بعيدًا عن الرّغبة. فقال: يا هذا، نظرُك إلى مَصِّ النَّوى لزُهْدك هو نفسُه من الدّنيا. فهو يريد منه نسيانَ ذلك، بالزُّهد فى زُهْده، على تَرْكِ النّظر إلى مَوْضِعِه، لما يستغرقه فى الجرَيان عليه، فلا يَبقى فيه همَّة بغير مُجريه، ويكون بحكم المُجرِى فيه. فهذا مقامٌ فوقَ الزُّهدِ، مُتَّصِل بغيرِه من القُرْب المصطلم[1].

وقد روينا عن رسول الله ﷺ قال: «تفرَّغوا من هُمومِ الدّنيا ما استطعتم». وخبر ابن مسعود: «لا تتّخذوا الضَّيْعَةَ، فترغَبُوا فى الدنيا».

والضَّيعةُ، أيضًا: اسمٌ للاشْتغال بالمعاشِ من غير الحَرْث والزَّرْع، وغير ذلك من الرِّياش. يُقال: أقبل على ضَيْعَتك إلى صناعتك. وفلانٌ فى ضَيعةِ أهله، أى: فى جِوارهم. كما قال: «من جَعَلَ الهم همًا واحدًا همَّ آخرته، جمعَ اللهُ عليه ضيعتَهُ، وجعل غِناه فى قلبه». وقال فى ضدّه: «من تفرَّقَتْ به الهمومُ، فرَّق الله عليه ضَيْعَتَه، وجعلَ فقرَه بين عَيْنيه».

وقد كان إمامُنا أبو محمّد سهل، رحمه الله، يقول: أوّلُ الزهدِ التوكّلُ، وأوسطُه إظهارُ القدرةِ. وقال: لا يزهد العبدُ زهدًا حقيقيًا لا رجعةَ بعده إلا بعد مشاهدةِ قُدَرِه. فأوّلُ القُدْرةِ سَمْعُ آيات ربّه الكبرى، فهى الحكمةُ التى مَن أُوتيها

---

(١) المصطلم: من اصطلم: أى استأصل أو قطع.

﴿فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كثيرًا﴾ [البقرة:٢٦٩] قيل: هو الفهمُ في كتابِ الله، الذي هو إبانةٌ عن معاني صفاته، وتبيانُهُ من حكمةِ قدرتِه. ثُمَّ بعد ذلك من معنى ما قال: ﴿لقَدْ رأى من آيات ربِّه الكُبْرَى﴾ [النجم:١٨]، فالسّمع يقتضي النّظر، كما قال السَّامِعُ المُكلَّمُ، بعد أن سمعَ حلاوةَ الكلامِ: ﴿أَرني أَنْظُرْ إليكَ﴾ [الأعراف:١٤٣]. فإذا سمع المتزهِّد المتعبِّدُ كلامَ المزهِّد، إذا يقول: ﴿وممَّا يُوقدُونَ عَلَيْه في النَّار ابْتغاءَ حلْية أَوْ مَتاعٍ زَبَدٌ مثْلُه﴾ [الرعد:١٧]، فالحِلْيةُ: الذّهبُ والفِضّةُ، وهما قِيَمُ الأشياءِ، ومقاديرُ النفوسِ، اللذان مَلَكا القُلوبَ، ونكّسا الرؤوسَ. والمتاعُ: ما سِواهما من مَعادنِ الأرْضِ.

فإذا شهِدَ العبدُ الذّهبَ، الذي هو سببُ الدنيا، ولأجله أَشْرَكَ مَن أشْرَكَ، وبحبائله ارتبَكَ مَن ارتبَكَ، ولوُقوعِ حلاوتهِ في القلوبِ وَقَعَ مَنْ وقَع فهلك. فإذا شهِد جوهرَ الذّهبِ والفِضّةِ زَبَدًا طافيًا على وجهِ الماء، لا نفعَ فيه، ولا غُنيةَ به، ولا قِنْيَةَ يَنْبَغي لَه، زَهِدَ فيه حينئذ زُهْدًا صادقًا. فكان زهدُهُ معاينةً لا خبرًا، وكان من المؤمنين حقًّا، الذين وصفَهم الحقُّ بالحقِّ في قوله عزّ وجلّ: ﴿إذَا ذُكرَ اللهُ وَجلَتْ قُلُوبُهم وإِذَا تُليَتْ عَلَيهمْ آياتُهُ زادَتْهُم إيمانًا﴾ [الأنفال:٢].

فالزُّهد مَزيدُ الإيمان، وتَزيينُه في القلوبِ بالإيقان، فذلك علامة تَحبُّبه، كما ﴿حَبَّبَ إليكُمُ الإيمانَ وزيَّنَهُ في قُلوبِكُم﴾ [الحجرات:٧]، أي: بالزُّهد. شهِدَ له قولُه تعالى(١): «ما تزيَّنَ المتزيِّنونَ لي بمثلِ الزّهد في الدّنيا». هي زِينةُ المتقين عَليهم منها شِعَارٌ يُعْرفون به. فإذا تحقّق العبدُ بتحبيبِ الإيمانِ إليه، تخلّق بزِينَتِه في قلبه، عندها تحقّق أيضًا بتكريه الفسوق؛ وهو الخروجُ عن الأمر، وبتكريه العصيانِ؛ وهو الدخولُ في النّهي. كما روينا: «حُبُّ الدُّنيا رأسُ كلِّ خَطيئة». فصار بُغضُها أصلَ كلِّ قُربة. كما تحقّق بتكريهِ الكُفْرِ إليه؛ لأنّ اللهَ تعالى ضَمَّ تكريهَ المعاصي إلى تكريهِ الكُفْر، لمن يُحبِّبُ إليه الإيمانَ بالورَع والتّقوى، وزيّنه في قلبه بالزّهد

---

(١) يقصد الحديث القدسي.

والتوكّل، الذى هو علامةُ المؤمنين حقًا، ثم قال: ﴿وَعَلى رَبِّهِم يَتوكَّلُونَ﴾ [الأنفال:٢] بعد وصْفهم بالمزيدِ والوَجَلِ والإنفاق، فحقق بالزّهد والتوكّل وصْفَهُم، لَمّا أعطاهم حقيقةَ الإيمان، الذى هو مُوجبُ الزهدِ، والمشاهَدةُ مزيدُهُ، كما قال فى الخبر، لَمّا قال: «أصبحتُ مؤمنًا حقًا. قال: فما حقيقة إيمانك؟ قال: عَزَفَتْ نَفْسى عن الدُّنيا، فاستوى عندى ذَهَبها وحجرها» فهذا الزّهد «وكأنّى بعَرْشِ ربّى بارزًا» فذكر المشاهدَةَ مزيدًا على الزهد الذى أحسن اللهُ إليه به، فهذا كما قال: ﴿تَمامًا عَلَى الَّذى أحْسَنَ﴾ [الأنعام:١٥٤] أى مزيدًا من الله آخر على ما كان أحسن به إليه، فوصفه الرسولُ ﷺ بالمعرفة، وأمره بلُزوم ما عَرَفَ من الزُّهد والمشاهدة، فقال: «عَرَفْت فالْزَمْ»، وقال: «عبدٌ نوّر اللهُ قَلْبَه بالإيمان».

فهذا صفة قلبِ المؤمنِ الأجردِ، فيه سراجٌ يُزهر، كذلك رويناه فى الخبر الآخر، الذى وصف به القلوبَ الأربعةَ، فهذا كان أفضلها وأعلاها: «قلبٌ أجردُ من الدّنيا، فيه سراجٌ يُزْهر من اليقين». قال الرسول ﷺ: «فكذلك قلبُ المؤمن». فكان هذا تفسير قوله: ﴿وأيَّدَهُم برُوحٍ منْهُ﴾، فسَّر به تزيينَ الإيمان فى القلوبِ باليقينِ، الذى هو أصلُ الزّهدِ، كما الزّهْدُ سببُ المحبّة، وكما قال تعالى: ﴿كَتَبَ فى قُلُوبِهمُ الإيمانَ﴾ ثم رفعَهم فى الإيمان مقامًا، فقال: ﴿وأيَّدهُم برُوحٍ منْهُ﴾ [المجادلة:٢٢] أى من الإيمان، وهو اليقين. كذلك قال: ﴿حبَّبَ إليكُمُ الإيمانَ﴾ فهذا بالكَتْبِ، ثم قال: ﴿وزَيَّنَهُ فى قُلُوبِكُم﴾ [الحجرات:٧] فهذا بتأييد الرُّوحِ. فهو مفسِّر له، فتدبّر.

فالزُّهدُ داخل فى التوكّلِ، فقال عزّ وجلّ: ﴿فاتّخذْهُ وَكيلاً * واصْبِرْ على ما يَقُولُونَ﴾ [المزمل:٩ ـ ١٠]. فالتوكّلُ يُوجب الصّبرَ للوكيلِ وعلى حُكمه، كما قال تعالى: ﴿ولربِّكَ فاصْبِرْ﴾ [المدثر:٧]. وقال لما فى معناه: ﴿وَجَعَلْنا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ [الفرقان:٢٠] عن الفتنة، وتَصْبرون على البُعد منها والزُّهد فيها. وقال: ﴿إنَّما أمْوالُكُم وَأَوْلادُكُم فِتْنةٌ﴾ [التغابن:١٥]. وقال صاحبُ الأمر: «إنّما بَقِى من الدُّنيا بلاءٌ وفِتْنَةٌ. والموتُ مِحنةٌ لكُلّ مؤمن».

فقد سمعَ الزّاهدُ المزهِّدُ كلامَ الله لّما عَقلَه، وعقَلَ عن الله أمثالَه، لّما عَلمَهُ، كما قال: ﴿وما يَعْقلُها إلاَّ العَالمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣]، وقال: ﴿إنَّ فى ذَلكَ لآيات للعَالمينَ﴾ [الروم:٢٢]. فلمّا سمع كلامَ الله أبْلَغَهُ مأمنهُ فى المقامِ الأمين، فى جناتٍ وعُيونٍ، واستحق وَصْفَ الله بالإيمان، إذْ تَلا القرآن بحقيقةِ الإيمان، فقال: ﴿الّذين آتيْنَاهُمُ الكتابَ يَتْلُونَهُ حقَّ تلاوتَه أُولئكَ يُؤْمنُونَ به﴾ [البقرة:١٢١].

كذلك إنّ هذا الزّبَدَ تشبيهٌ من الله تعالى لِمَثَلٍ ضَرَبَهُ للحقِّ والباطل، فالمَثَلُ هو الماءُ والزَّبدُ، فمثَّل الحقَّ فى نفعه وبقائه بالماء التى تحت الزَّبد، ومثَّل الباطلَ فى ذَهابه وقلَّة نَفْعه بالزَّبدِ الذى يكون فوق الماء طَافيًا تُفرِّقه الرِّياحُ، وتَنسفهُ الشّمسُ، إذْ لا حقيقةَ له، ولا بقاء. ثُمَّ شبَّه الذّهبَ لذَهابه عن الحقيقةِ بالزَّبد، تشبيهَ مماثلةٍ لا تشبيهَ مجازٍ، لقوله: ﴿زَبدٌ مثْلُهُ﴾ والمماثلَة مُسْتقصاةٌ، ثم قال: ﴿كَذلكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثالَ * للَّذينَ اسْتَجابُوا لربِّهمُ الحُسْنَى﴾ [الرعد:١٧ـ ١٨]، أى الجنة والبقاء. وقال تعالى: ﴿لِلَّذينَ لا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَة مَثَلُ السَّوْء﴾ [النحل:٦٠]، هم المريدون للحياة الدنيا وزينتها، الرّاضون المطمئنون بها، ليس لهم فى الآخرةِ نصيبٌ، بتوفيةِ أجورِهم من الدّنيا، وقد تأوّل ذلك بعضُ السَّلفِ المفسِّرين فى أهلِ القِبلة من أبنا الدنيا الراغبين.

فكان الذَّهبُ والفضّةُ عند الزّاهدين، لنظرهم بعينِ القُدرة، زبدًا طافيًا تفرِّقهُ الأهواء، فيكون متجافيًا فوقَ الماء. وهما من معادنِ الجبالِ، فصارت الجبالُ عندهم أمواجًا ثابتةً بإثبَات، وساكنةً بإسكانٍ، ﴿تَحْسَبُها جَامدةً وهِىَ تَمرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ الله الَّذى أَتْقَنَ كُلَّ شَىء﴾ [النمل:٨٨]. وصارت الأرضُ بحرًا عجَّاجًا، تضطربُ بالأمواج، فيظهر بَيْنَهما من المُدُن والقِفار ما جعل سُبُلاً فِجاجًا، ممّا قَدَّرَهُ فى الأقطار؛ بالاستواء والاعوجاج، من كل شىءٍ موزونٍ بمقدار. والخلائق فيها كالحيتان فى البحر، وكالغُثاء على السَّيل، إذا عاشوا مشَوْا فى مناكبها، وأكلوا من رزقه، وإن ماتوا غرقوا فى قعرها وردُّوا إلى حقّه: ﴿والنَّازعات غَرْقًا﴾ [النازعات:١]، ﴿أُغْرِقُوا فأُدْخلُوا نَاراً﴾ [نوح:٢٥]، ﴿ ثم رُدُّوا إلى اللـهِ مَوْلاَهُمُ

الحقِّ﴾ [الأنعام:٦٢]، ثم سترَ حقيقةَ هذا العيانِ عن نظر الأعيان، لظهور حكمته، ونفاذِ أحكامه، ولباطن قدرته، ونَشْرِ أعلامه بلطيف صُنْعه، لشُهود نعمته، والقيامِ بشكره، ولتصريف تدبيره، والائتمار لأمره، إنّ ربّى لَطيف لما يَشاءُ، فاجتمعَ الفَرْقُ، وارتتقَ الفَتْقُ، وغابَ كلُّ مُتَفَرِّقٍ بالاسم الباطنِ المفرِّق، وظهر كلُّ مُجتَمِعٍ بالاسم الظاهر المجمّع، وكان عرشُه على الماء ليبلوكُم. فهذا مشاهَدَةُ أبناءِ الآخرةِ، هى أعلى من زهدهم فى الدنيا.

فافترق الجمعُ، وافتتقَ الرَّتْقُ، وظهَر من الماءِ كلُّ شىءٍ ظاهرٍ، واتسع الفضاء، واستتر الغطاءُ، ووُجِد التفصيل، وحُكِم الحسبان بالتحصيل: **﴿كانَتا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُما وجعَلْنا منَ الماءِ كُلَّ شَىءٍ حَىٍّ أفلا يُؤْمنُونَ﴾** [الأنبياء: ٣٠]. هذه مُشاهدة أبناء الدنيا، هى أعظم عليهم إذا تيقَّظُوا من رَغبتهم: **﴿وجَاءتْ سَكْرَةُ المَوْت بالحَقِّ ذلكَ ما كُنتَ منهُ تَحيدُ﴾** [ق:١٩]، **﴿لَقَدْ كُنْتَ فى غَفْلَة من هذا فكَشَفْنَا عنكَ غطاءَكَ فَبَصرُكَ اليَوْمَ حَديدٌ﴾** [ق:٢٢]. حينئذ حقَّ قوله تعالَى: **﴿والنَّازعات غَرْقًا﴾** [النازعات:١]، **﴿والسَّابحات سَبْحًا﴾** [النازعات:٣]، هذه أَرواحُ المنافقين، تَغرقُ فى البحرِ الأسفلِ، وتَسبحُ سَبْحًا إلى فَوْقٍ. **﴿والنَّاشطات نَشْطًا﴾** [النازعات:٢]، **﴿فالسَّابقَات سَبْقًا﴾** [النازعات:٤]، هذا وصْفُ الرُّوحانيّين، تنشط أرواحُهم كالأنشوطَة، فلا تجد لها ألَمًا، وتَسبقُ إلى العَلىِّ الأعْلَى؛ إذْ نصبَ لها عَلَمًا. هنالك تَعْظُمُ الحسرةُ عند الموت، إذْ قُضِى الأمرُ وهُم فى غَفْلَةٍ. هذه مُشاهدةُ العموم عند الموتِ، فيُعظمه عَليهم بالفَوْتِ.

وقد فَرِغَ الخصوصُ من نَصيبهم بمُشاهدته، فهم ناظرونَ إلى مُستقبلِ المزيدِ، مشغولون به عن العبيدِ، قائمون بشَهادة الحقِّ لهم، مُتصَرِّفُونَ بإشهاده إيّاهم، ظاهرًا وباطنًا، ولطيفًا مُسْتَترًا، ومعروفًا ومُنكرًا **﴿وَاللهُ غَالبٌ علَى أمْرِه ولَكنَّ أكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾** [يوسف:٢١]، فما غَلَب عليه لم يُظهَر، وما غَلَبه عليهم إيَّاهم قَهر. قال رسولُ الله ﷺ: «أَصدقُ كلمةٍ قَالها الشّاعرُ: ألا كُلُّ شَىءٍ ما خلا اللهَ باطِلُ».

وقال الحقّ، والحق يقول: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَوات ومنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق:١٢]. وكان ابنُ عباسٍ رضى الله عنه يقولُ: «لو فسَّرتُ لكم هذه الآية لكَفَرْتُم. قيل: وكيف؟! قال: كنتم تُنكرونها، وإنكاركم لها كُفْرانُها». وفى لفظ آخر: «لو فسَّرتُ الآيةَ التى فى سورة النِّساء الصغرى، لَرجمتُمُونى بالحجارة». ومعناه: أى لَكَفَّرتُمونى، لأنهم لا يقتلون إلاّ كافرًا عندهم.

وروينا عنه فى قوله تعالى: ﴿جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الجاثية:١٣] قال: «فى كلِّ حَرفٍ اسم من أسمائِه تعالى، وكان اسم كُلِّ شيءٍ عن اسمه، كما أنَّ فِعْلَ كلِّ فاعلٍ عن فعله، إذ كل فِعْلٍ مقتضى وَصْفٍ من أوصافه؛ لأنَّ كُلَّ صِفَةٍ من صفاته مُوجبةُ فعلٍ من أفعاله، باطنًا بِقُدرتهِ لباطِنِينَ من معرفتهِ، وظاهرًا بحكمتهِ لظاهِرِينَ عن الإيمان به.

وكان أبو محمد، رحمهُ اللهُ، يقوله بمعناه، فى تأويل قوله: «ما نزلَ من السَّماءِ أعزُّ من اليقينِ به» يقول: هو اللهُ اسم من أسمائه تعالى، فغابَتْ السَّبعُ، والسّبع السُّفلى، والعُلَى من المُلك الأدنى فى الملكوت الأعلى، لما طوى نفس الهوى، وغابَ العرشُ والثَّرى فى طىّ الطّىِّ، إذ أَطْلَقَ العقْلَ من عِقال البَلْوى، وغاصَ الملكوتُ فى عِزّةِ الجبروتِ، فكان ذلك حُجبَ العَلِىّ الأعلى، إذ طوى طىَّ النفسِ والعقلِ، وقام شاهدُ الحقِ بعين اليقينِ، وحضر الأزلىُّ الأولىُّ، إذا غاب الحدثان الثانى، وظهر الباطنُ الآخرِ، حين بطن الظاهرُ الساترُ، فصار العبدُ شهيدًا، إذ الشهيد له موجود، وحضَرَ العارفُ واجدًا، حين كان لمحـ...[1] فاقدًا، عندها فهم قول رسول الله ﷺ: «ألا كل شىء ما خلا الله باطل» مصدّقًا لقوله: «أعوذ بك منك»...[2] كان العبد سميعًا لقوله: ﴿كلُّ مَنْ عَلَيها فَانٍ * ويَبْقَى وَجْهُ ربِّكَ﴾ [الرحمن:٢٦ ـ ٢٧]، وهناك أراه الآياتِ فى الآفاق، فتبين الحقَّ بقول الحق:

(١) بقية الكلمة تالف بالأصل.

(٢) تلف بالأصل قدر كلمة.

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ وَفِى أَنْفُسِهِم حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُم أَنَّه الحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّه عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣]، ﴿أَلاَ إِنَّه بِكُلِّ شَىْءٍ مُحِيطٌ﴾ [فصلت: ٥٤].

فهذه شهادةُ أهل الله تعالى، غابتْ فيها الشهاداتُ الأولى التى هى مشاهدةُ زاهدى العُبّاد. وإظهارُ هذه الشهادةِ لا يَحِلُّ إلا لشهيدٍ مَشهود، وواجدٍ بموجودٍ ذى وُجودٍ، وقد قال الحكيم من الشاهدين:

لقَدْ عزَّت معانِيه فغـابتْ　　عن الأبْصـارِ إلا للشَّهيدِ
فليس يراهُ مفتـونٌ بخَلْقٍ　　وحُصِّنَ برؤيةِ القلبِ الفريدِ

وقد قال: لو كانت الأشياءُ بعقلِه لطلب لمعناهُ مَعَانِيها. فسبحان مَن حقّقها بما أثبت، لِما سترَ من الحقيقةِ، وأرادَ من الثّبْتِ.

فهذا هَمْسُ مهموسٍ، برَمْزٍ مرموزٍ، يُنسخ من قلبٍ إلى قلبٍ، ويُكْتَتَب بِهَمٍّ من هَمٍّ، وقال الرسولُ ﷺ: «إنّ اللهَ كرِه لكم البيانَ، كلَّ البيانِ»، وقال: «أُمرنا معاشرَ الأنبياء أن نكلِّم الناسَ بقدر عقولهم، وبُعثت بالمداراة كما بُعثت بالرِّسالة». ذلك ليوفِّيهم منه نصيبَهُم، وليقومَ بشاهدِ حُكمِ الله فيهم، كما قال بعضُهم: مَن خاطب العامَّة بعقله، وحادثهم بعلمه، فقد بخَسهم حقوقَهُم منه، ولم يَقُم بحقِّ الله فيهم. فتباركَ اللهُ أحسنُ القائلين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا﴾ إلى قوله: ﴿مِن بَعْدِ ما بَيَّنَّاهُ للنَّاسِ فى الكتَابِ﴾ [البقرة: ١٥٩]، فشرحُ هذه المعانى المرموزَة، التى أخفينا فيما أظهرنا، لم تُبَيَّن فى الكتابِ، وإنّما هو سَرِيرةٌ فى قُلوب أُولى الألباب، الذين آتاهُمُ الحِكمةَ وفصْلَ الخطاب. وهو من سرِّ الغيبِ، وإظهارُ سرِّ الملكوت معصيةٌ، إذِ اللهُ سبحانه لم يأمر به، ولم يمتحن فيه.

فسبحان من نفذَ بصرهُ الأبصارَ، ويقلِّبُ الليلَ والنّهار، وكلُّ شىءٍ عنده بمقدار، يُبصرُ ما لا يُبصَرُ، كما يَقْدر على ما لا يُقْدَر، خصَّ الشاهدين الّذين عنده فى ظِلّه، بمعنًى من شهادتهِ، كما أعطاهم حَيطةً بشىءٍ من علمه، فأحاط عِلْمُهُم بما شاء، لمّا أحاط لهم ما شاء. ولذلك قال صاحبُ السِّرِّ الذى عنده حقيقة الخبر، للرجل الذى قال: «اللهم أرنى الدنيا كما تراها». فقال: «لا تقل هكذا، فإنَّ الله

لا يرى الدنيا كما تراها. ولكن قُل: أرنى الدّنيا كما يراها الصّالح من عِبادك».
فَهذا على نَحوِ ما أمر الآخرَ به، إذ قال له: أَوْصنى. قال: «استحى من اللهِ كما تَسْتحى من رَجُلٍ صالح».

فهذا الذى يُمكنُه معرفتَه، إذ كان حقيقةُ الحقِّ ممتنعةً، وكُنْهُ صفاتِه الموجبة للحياء وغيرِه محتجبةً، فَردَّه إلى ما يعلم، وخاطَبه بما يَعْقِل، وهذا الذى يحتاجُ إليه، وهذا داخل فى مخاطبةِ الخلْقِ بقدر عقولهم ومُداراتهم على نحو عُلومهم. كذلك العلماءُ مقتفون على أثرِه، مُرتسِمُون برَسْمِه وخبره.

فسبحانَ من أقامَ معايشَ الخليقةِ بهذا الزَّبد الذّاهبِ، إذ غيَّر به الحقيقة. قال: فالحبيب يرى العرَضَ بالعارض المعترض فى القلوب، فهُم من الدِّينار والدِّرْهم يأكلون ويلبسون، وهو عينٌ قائمة كعَصى موسى، تلقَّف ما يأفكون، تَنْقُلُه من يدٍ إلى يدٍ، وتقلِّبُه من قَلْب إلى قلبٍ.

فهذا، الذى ذكرناه، تفسيرُ ما أجمله شيخنا أبو محمد رحمه الله من أن الزُّهدَ لا يقعُ على حقيقةٍ إلا بعدَ معاينةِ قُدرةٍ من الملَكوتِ، فيحتاج هذا الزّاهد أن يشهد المزهودَ لمنزلة الزَّبَد، إن لم يبلغ نظرهُ شهادة الشاهد للآخر، فيكون من أهل السّمع والشهادة، فينسى لحقيقة ذكرِه معارفَه والعادَةَ، ويصير عند اللهِ شهيدًا، له أجرُه نصيبًا من قُربِه، ونورهُ شعاعًا من سُبُحات وجهه، كما قال الشهيدُ الأعلى: ﴿والشُّهَداءُ عِنْد ربِّهِم لَهُمْ أجْرُهُم ونُورُهُم﴾ [الحديد: ١٩].

فكيف يكون شاهدًا مَنْ لم يشهد على شاهدته؟ أم كيف يكون زاهدًا مَنْ لم يقُم بشهادته؟ بل كيف يشهد وصْفَ الأوَّليةِ بغير نُورها لحضورِها؟ أم كيف يقومُ بشهادته مَنْ لم يشهد قيُّوميَّتَهُ؟ بل كيف يرى قَيُّوميَّتَهُ بغيرِ نور وَحْدانيته؟ وكيف يعاينُ قُدرته من هو محجوبٌ بصفاته، ومشغولٌ بنفسه وهوَاه بجريان طبعهِ وعاداتهِ؟

فإن لم يقرب فى هذا المكان، كما قال سبحانه: ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وهُو شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، فيسمع من مكانٍ قريب، لا كمَنَ قال: ﴿أُولَئكَ يُنادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ

بَعيد﴾ [فصلت:٤٤] ـ لم يكن من أهل البيان والفكر، كقول الحقّ المبين: ﴿كَذلكَ يُبيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيات لَعلَّكُم تتفكَّرونَ * فى الدُّنيا والآخرَة﴾ [البقرة:٢١٩ ـ ٢٢٠]، فتؤثرون الدائمَ الباقى الذى عند الباقى على الزَّائلِ الفانى الذى عند العبيد الأُبّاق، فتُزهَّدونَ فيه إذا آثرتم عليه غيره، وعوِّضْتُم بدلاً منه ما عنده؛ لأنّ ما يكون آخره فناء يشبه أوّل أمرِه، وأولُه لم يكن ما يكون آخره بقاء، فكأنّه لم يزل، فأشبه أوّلُه آخره فى البقاء. لذلك قال العليمُ الحكيم: ﴿والآخِرَةُ خَيْرٌ وأبْقَى﴾ [الأعلى:١٧]، فوَصفَها بالخيريّةِ لبقائها فى المآل، ومَنحَها وصْفَين من صفاته ليرغَب فيها الأبدالَ، كما قال: ﴿واللهُ خيرٌ وأبْقَى﴾ [طه:٧٣]. ولذلك قال: ﴿ما عنْدَكُم يَنْفَدُ وما عنْدَ الله باقٍ﴾ [النحل:٩٦]. فأضاف الدنيا إلينا ليذلَّنا بها؛ لأنَّا أهلُ الفناء، وليزهِّدنا فيها زهدنا فى أنفسنا الأمَّارة بالسوء. وأضاف الآخرةَ إلى الآخرِ الأعلى؛ ليعزَّها به، ويشوِّقنا إليها؛ لأنّه أهلُ البقاءِ، فخصّ بها أهلَه، إذ منحها البقاء.

فإذا شهِدَ العبدُ بعينِ قَلْبه ويقينِ إيمانه ما صدَّق به، ممَّا عَلمَه بفَهْم سَمْعه وإدْراكِ خبرِه، أنّ ما يَفْنى آخِرُهُ كأنّه لم يكن، وما يبقى آخِرُهُ كأنه لم يَزَلْ، كان من المتفكِّرينَ فى مثل هذه الآى، المشاهدين لها، وممّن تلاها حقَّ تلاَوتها، فآمن حقيقةَ الإيمانِ بها، حينئذ زَهِدَ فى الدُّنيا حقيقةَ الزُّهد، ورَغِبَ فى الآخرةِ حقَّ الرَّغبةِ، وكانَ من أُولى الأَيْدى والأبصار؛ أى من ذوى القُوَى فى الدِّين، والبَصائرِ فى اليقين، فلمّا أبصرَ بقُواهُ عبرَ الدُّنيا إلى الله، فكانَ زادُهُ تَقْواهُ، وصار الفردُ الأحدُ ظلَّه ومأْواهُ، كما قال تعالى: ﴿ومِنْ كلِّ شَىءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعلَّكُم تذَكَّرُونَ * فَفرُّوا إلَى الله﴾ [الذاريات:٤٩ ـ ٥٠] أى من الأشكالِ القاطعة عنه. وكما قال: ﴿فاعْتَبرُوا يا أُولى الأَبْصَار﴾ [الحشر:٢] فعَبَر لَمّا أَبصَر، وحَذر لمّا ذكرَ، وقطَع عنه ما خَشى أن يَقْطَعَهُ عنه، وباعَدَ منه ما خافَ أن يُبعدَهُ منه، عندها كان ممَّن أخذَ ﴿الكتَابَ بقُوَّة﴾ [مريم:١٢] قيل: بعَملٍ به، وقيل: بيقينٍ فيه، ويُقال: بجدٍّ واجتهادٍ وكان من المحسنين، الذين يتمسَّكُون بالكتاب، وأقَاموا الصَّلاةَ. وتلا رسولُ الله ﷺ: ﴿الَّذينَ يَذْكُرونَ اللهَ قِيامًا وقُعُودًا وعَلَى جُنُوبِهم﴾ الآية [آل عمران:١٩١]،

فقال: وَيْلٌ لمنْ قرأها ولم يتفكَّر فيها. وَيلٌ لمن تَلاها ومسحَ بها سَبلَتَهُ[١]. وذلك أن السَّموات والأرضَ عَبَّر بهما عمّا وراءهما من دَرجاتِ الجِنانِ، ودَركَاتِ النِّيرانِ، وهو الملكوتُ الذى أُرِيَ إبراهيمُ، فكان بمشاهدته من الموقنين، وهو المُلْكُ الباطنُ، والمُلْكُ الكبير، فكُشف هذان ـ أعنى السّماوات والأرضين ـ لأهلِ الفِكر والذّكْر واليقينِ، وما علا وسفُل، وأحاط بهما من العَرْشِ الأعلى، والثَّرى، والأسفل، كأنّ السّماء هى الجنَّة، ونجومها منازل الأولياء فيها، وأسافلها مساكن أهلها منها، وكأنَّ الأرْضَ هى النّارُ، وتُخُومُها منازلُ أهلِها، وأسافِلُها مساكنُ أهلها منها، ﴿**يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرضُ غَيْرَ الأرْضِ**﴾ [إبراهيم:٤٨] لتكون جهنّم مكانها، ﴿**وإذا البحارُ سُجِّرتْ**﴾ [التكوير ٦] سعيرًا بلظًى فى أوديةِ النّار، والسّماواتُ تُبدَّلُ جِنانًا تصير موضعها، ﴿**وبَرزُوا لله**﴾ [إبراهيم:٤٨] (. . .) الشهيدُ أنه قائم بين الجنة فى تصرفه وتقلبه فى (. . .)[٢] بين يدى الملك الجبّار، هذا يقين أولى الأبصار.

ثم كشف ذلك له ما وراءه من العزّة والجبروت، فجاوزت الأفكارُ بأبصارها الملكَ والملكوتَ، لمّا شُرحت الصدورُ بنورِ النُّورِ، فرُفعت إلى الأُفقِ الأعلى، فنفَذت أبصارُ المتفكِّرين بقُوى يقينها إلى مشاهدة الجلالِ والجمال، بعد انكشاف الحُجُب المَلَكيَّة، والأستار الملكوتية، وهو ما قدَّمنا ذكره آنفًا، ممَّا لم يظهر كشْفُهُ كنحو ما نبَّه اللهُ العبادَ بما يَشْهدون إلى ما وراءَه ممّا به أيقنوا. فيجْعَلُ ما يبصرون بَابًا إلى ما لا يُبصرون، ويجعَلُ ما يَعْلَمُون مفتاحًا لما لا يعلمون. أقامهم مقامَ العلماءِ الربّانيين، وأنزلهم منازلَ الشُّهداءِ الرُّوحانيّين، بما استُحْفظُوا مِنْ كتابِ الله، وكانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ: ﴿**كَفَى باللهِ شَهِيداً بَيْنِى وَبيْنَكُم ومَنْ عِندَهُ عِلْمُ الكتابِ**﴾ [الرعد:٤٣].

ولعموم المؤمنين فى الدنيا مشاهدةٌ قريبةٌ دون هذه، من طريقِ علمِ العقلِ، يشهدون أنّها عقوبة، كما قيل: ما فُتحت الدّنيا على عَبْدٍ إلا مكْرًا به، ولا زُوِيَت عنه إلا نَظَرًا له». كما روينا فى أخبار داود عليه السلام: «إنّ الله تعالى أوحى

(١) السَّبَلة: طرف الشارب من الشعر، ومقدَّم اللحية.

(٢) تلف بالأصل قدر كلمة أو كلمتين فى الموضعين.

إليه: تدرى لم ابتليتُ آدم بأكل الشَّجْرة؟ لأنّى جعلتُ معصيته سببًا لعمارة الدنيا». فينبغى فى دليل الخطاب أن تكون الطاعة سببًا لخرابها بالزهد فيها. فصحّ بذلك الخبر المشهور عن عيسى عليه السلام، وقد رويناه مسندًا من طريق: «حبُّ الدنيا رأسُ كلِّ خطيئة»، لأنه كان أساسها، فينبغى فى دليله أن يصير بُغضُها رأسَ كل طاعةٍ، ولكن لا يسع ذلك العامَّة، لأنهم مُرادون بالعمارة، وصلح ذلك لنفرٍ من الخاصّة؛ لأنّ نقصانَ عَدَدِهم من الكافّة لا ينقُضُ عِمارةَ الدنيا، إذ المراد عِمارتها بأهلِها من أهل الهَوى والشّهوات.

فقد روينا فى أخبار آدم ﷺ: أنّه لمّا أكلَ من الشّجرة تحركت معدته لخروج الثِّفل، ولم يكن ذلك مجعولاً فى شىءٍ من أطعمة الجنة إلا فى هذه الشجرة، ولذلك نُهِىَ عن أكلها. قال: فجعل يدور فى الجنّة. فأمر اللهُ مَلَكًا يخاطبُهُ، فقال: قل له: أى شىء تريد؟ فقال له آدم: أريد أن أضع ما فى بطنى من الأذى. فقيل للمَلَك: قل له: فى أى مكانٍ تضعه؟ أعلى الفرش؟ أم على السُّرر؟ أم على الأنهار؟ أم تحت ظلال الأشجار؟ هل ترى هاهنا موضعًا يصلح لذلك؟! ولكن اهبط إلى الدنيا. قال: فتلطَّف اللهُ له بهذا المعنى، فأُهبط إلى الأرْضِ. فكان أوَّلَ ما صنع فى الأرض أنّه أحدثَ، فصارتِ الدنيا كنيفَ العقلاء، وسجنَ الأقوياء. ثم هى بعدُ للغافلينَ بستانٌ، وللمسلمين مارِسْتان، كلُّ مَن فيها عليل، لكن يتفاوتون بمعنيين: عِلَّة دون علّة، وسُقْم بجارحةٍ دون جارحةٍ، فمن صحَّ وعُوفِىَ، فخرج من المارِستان (. . .) فخاف وآوى إلى ظلٍّ رحمةٍ وجنانٍ. فهذا من المقرَّبين بزهده، المُخْرَجين إلى أُنْسِ النُّور من وحشةِ ظلمة فقده.

فلمّا شهدها العقلاءُ كنيفًا، جعلوا لا يدخلون فيها إلا حاجةً أو ضرورةً، فكلما أُغنوا من ذلك كان أحبَّ إليهم. فهذه شهادة عقلية، دون الشهادة الأولى اليقينية.

وقد نغَّص الله فاكهة الدنيا وغيَّرها بحشو العَجَم والثِّفْل؛ ليزهِّد فيها، وأخبر أنها مقطوعة ممنوعة؛ ليرغِّب فى الدائم الموهوب، بتدبُّر العلمِ من لطيف الفهم (. . .)[1]

---

(١) تلف بالأصل فى الموضعين قدر ثلاث كلمات.

وكان بعضُ العلماء يقول: ما سطع لى زينةٌ من زُخرف الدّنيا إلا كُشِف لى باطنه، فظهر لى عزوفٌ عنه.

فهذه عنايةُ الله بمن وَلِيَهُ من أوليائه المقرَّبين منه. فمن شهِدَ الدنيا بأوّلِ وصْفِها، لم يغتر بآخرِه. ومن عَرَفَها بباطنِ حقيقتِها لم يُعجب بظاهرِها. ومن كُوشِفَ بعاقبتها لم يستهوِه زُخْرُفُها، ولم يَستمِلْهُ رونقُها.

وكان عيسى عليه السلام يمثِّل عُلماءَ الدّنيا بالكُنُف، على معنى صُورةِ الدّنيا؛ لأنّهم علماؤها، وعقلاءُ ظاهرها، غافلون عن الآخرة، وغائبون عن شهادة الباقيةِ الناجزةِ، كما قال خالقهم: **﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الحَيَاةِ الدُّنيا وهُمْ عنِ الآخرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾** [الروم: ٧] ـ فيقول: «ويلكُم علماءَ السَّوءِ، مثَلكُم مثَلُ قَناة حَشٍّ؛ ظاهرها جَصٌّ، وباطنها نتنٌ. ويلكُم علماءَ السَّوءِ، إنّما أنتُم مَثَلُ قبورٍ مَشيدة، ظاهرُها مَشيدٌ، وباطنها عظامُ الموتى. يا علماءَ الدّنيا، إنّما أنتم مَثَلُ شجرةِ الدِّفْلَى، نَوْرُها حَسَنٌ، وطعْمُها مرٌّ، أوْ سُمٌّ يقتل. يا علماءَ الدّنيا، مثلُكُم مَثَلُ صخرةٍ فى فمِ النَّهر، لا هى تشربُ الماءَ، ولا تترك الماءَ يخلصُ إلى الزَّرْعِ فينتفع به، كذلك أنتُم قعدتُم على طريقِ الآخرةِ، لا تسلكون، ولا تَتْرُكُون السَّالكين». إلى غير ذلك، ممّا يصفهم به على مثال صفات الدنيا.

وقد كان مالكُ بن دينار يقول: اتقّوا السَّحّارة، فإنها تسْحَرُ قُلوبَ العلماء. يعنى: الدّنيا. وروينا معناه مسندًا: «إنّى قد تركتكم على المحجَّة البَيْضاء، ليلُها كنهارِها. وإنّى لا أخافُ عليكم الفقرَ، ولا العَيْلَةَ بَعْدى، وإنما أخافُ عليكم دُنيا تُفتح لكم، تأخذُ أعناقكُم، فتُهلككُم كما أهلَكَت مَن قَبْلكم. ألا فاتَّقُوا الدّنيا، واتّقُوا النِّساءَ». هذا مختصر من ثلاثة أحاديث بأسانيدَ متفرِّقة.

فمثَلُ بنى آدم الغافلِ، المغترِّ بها، الجاهلِ بعاقبتها، مَثَلُ دُودِ القزِّ، لا يزال ينسجُ على نفسه بجَهْلِه، وعدم معرفته بعاقبتِه، حتى يصيدَ نفسه، فيَرُومَ الخروجَ فلا يجد له مَخْلصًا، فيموتُ فى نَسْجِه، فصار عملُه ونَسْجُه وكَدْحُه لغيره منعَّمًا به، وماتَ هو به. كذلك من جمعَ مالاً لذُرّيّتِه، يُغنيهم فى الدّنيا بفَقْرِه فى

الآخرة، ويُنجيهم به من الذُّلِّ بِذُلِّ نفسه، وهلكته في عاقبته، فصار نعيمُهُ لهم، وشقاؤُه عليه، ترفَّهُوا فيه بعدَه، وهلَكَ هُو به بَعْدَهم. ومَن حَرصَ على الدُّنيا بالباطل فقد قتلَ نفسه. وقد قيل: بُعدًا وسُحْقًا لقتيلِ الدّنيا، لا يُقاد له منها.

فإن قوى حِرْصُه عليها، واشتدَّ عِشْقُه لها، قتلَ غيرهُ؛ لغلبة هَواه، وقلّة مبالاته لِمَن صحبه ووَالاهُ، واطّراحِه لأحكامِ مَوْلاهُ، قال الله تعالى: **﴿لا تَأكُلُوا أمْوالَكُم بَيْنَكُم بالباطِلِ إلاَّ أَنْ تَكُونَ تجارةً عَنْ تَراضٍ مِنْكُم ولا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُم﴾** [النساء: ٢٩]. وقال في قَتْلِ غيرِه بصَدِّه إيّاهُ عن سبيلِ الله: **﴿إنَّ كثيرًا مِنَ الأَحْبارِ والرُّهْبانِ لَيَأكُلُون أَمْوَالَ النّاسِ بالباطِلِ ويَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله﴾** [التوبة: ٣٤].

وقد روينا في أخبار عيسى عليه السلام: أنّه مرَّ في سياحته ـ ومَعَهُ طائفةٌ من الحَوَاريّين ـ بذَهَبٍ مَصْبوب في أرضٍ، فوقَفَ عليه، ثم قال: هذا القاتُول، فاحْذَرُوه. ثم جازَ وأصحابُه، فتخلفَ ثلاثةٌ لأجْلِ الذَّهب، فأقام اثنان عليه، ودفَعا إلى واحدٍ شيئًا منه يشْترى لهم من طيبات الدنيا من أقْرب الأمصارِ إليهم. فوسْوسَ إليهما العدوُّ: تَرْضَيانِ أن يكونَ هذا المالُ بينكم أثلاثًا؟ اقْتُلُوا هذا، فيكون المالُ بينكم نصفين. فأجْمعا على قَتْله إذا رجعَ إليهما. قال: وجاءَ الشيطانُ إلى الثالث، فوسْوسَ إليه: أرضيتَ لنفسك أن تأخذَ ثُلُثَ المال؟ اقتلْهُما، فيكونَ المالُ كلُّه لك. قال: فاشترى سمًا، فجعله في الطعام. فلما جاءَهما بِه وثَبا عليه فقَتَلاه، ثم قعدَا يأكُلانِ الطعامَ، فلما فَرغا مَاتا. فرجع عيسى، عليه السلام، من سياحته، فنظرَ إليهم حول الذَّهب صَرْعَى، والذَّهَبُ بحاله. فعجب أصحابُه، وقالوا: ما شأنُ هؤلاء؟ فأخْبَرهُم بهذه القصة.

وقيل لابنِ المبارك: مَنِ النّاسُ؟ قال: العلماءُ؟ قيل: فمَنِ الملوكُ؟ قال: الزّاهدون.

وروينا عن ابن المسيب عن أبي ذر، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ زهد في الدنيا أدخل الله تبارك وتعالى الحكمة قَلْبَه، وأنطق بها لسانه، وبصَّرَه داء الدنيا ودواءها، وأخرجه منها سالمًا إلى دار السلام».

فبِنُورِ الحِكْمَةِ أَبْصَرْتَ داءَ الدّنيا، وعَرَفْتَ دَوَاءَها، فوضَعْتَ الدواءَ على معاقِرِ

الدَّاء فبرأ، ولا تَرى ذلكَ قبلَ نور الحكْمة، وبالزُّهد فى الدّنيا إذْ خرجْتَ منها وُرِّثتَ الحكمةَ، فأُخرِجْتَ من ظُلُماتِ الهَوَى إلى نور التَّقْوَى، إذ لا يُبصر العبدُ عيبَ ما هو فيه، ولا يعرف قُبْحَهُ حتى يُفارِقَهُ إلى هاديه.

وفى الخبر: «الدّنيا دارُ مَن لا دَار له، ولها يَجْمعُ من لا عَقْلَ له». وكان الحسن البصرى رحمهُ الله يقول: رأيتُ سَبْعين بَدْريًا، كانوا ـ والله ـ فيما أحلَّ الله لهم أَزْهَدَ منكم فيما حَرَّم الله عليكم. وعنه فى أخبارٍ: كانُوا بالبلاءِ والشِّدَّة تصيبهم أشدَّ فَرَحًا منكم بالخَصْب والرَّخاء. لو رأيتُمُوهم قلتُم: مَجانين، ولو رَأَوا خيارَكم قالوا: ما لهؤلاءِ من خَلاقٍ. ولو رأوا شِرارَكم قالوا: ما يؤمنُ هؤلاء بيومِ الحساب. قال: وكان أحدُهم يُعرَضُ له المالُ الحلال فلا يأخذه، ويقول: لا حاجةَ لى به، أخاف أن يُفسدَ علىَّ قَلْبى.

فمن كان له قلبٌ حفِظَهُ من فَسادِه، وخافَ من تَغيُّرِه وإبعاده، وعمِل فى أسباب صلاحِه وإرشادِه. ومن لم يكن له قَلْب، فهو يتقلّب فى ظُلمات الهوى، فربما انقلبَ على وجهه؛ خَسر الدّنيا والآخرة، أو يكون من أهل الرّضا بالدنيا، وأهلِ الغفلة عن آياتِ الله تعالى، فيكون قد رضِى بلا شىء، وآثرَهُ على من لَيس كمثْله شَىء، كوصْف من أخبر الله تعالى عنه فى قوله تعالى: **﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾** [يونس:٧]، فيستحق الإعْراضِ من الحبيبِ، ويستوجبُ المقتَ من القريبِ، كمَثَل مَن أمر الله تعالى بالإعراض عنهم، وتركَ القَبُولَ منهم، إذ يقول عزَّ من قائلٍ: **﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾** [النجم:٢٩ ـ ٣٠]. وقال عزّ وجلّ: **﴿وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾** [الكهف:٢٨] أى: مجاوزًا لما نُهِى عنه، مقصِّرًا عمّا أُمر به. وقيل: مُقْدِمًا إلى الهلاك.

وقد نهَى اللهُ تعالى رَسُولَه أن يوسّع نظرَه إلى أهلِ الدنيا، مقتًا لهم، وأخبر أن ما أظهره من زَهْرة الدنيا فتنةٌ لهم، وأعْلمه أن القناعةَ والزُّهدَ خيرٌ وأبقى. تنتظم هذه المعانى فى قوله تعالى: **﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ**

الْحَيَاة الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه:١٣١]. قيل: القناعة. وقيل: قوتُ يومٍ بيوم. ويقال: الزّهد فى الدنيا، وهذا الوجه أشبه بكتاب الله تعالى، بدليل قوله تعالى: ﴿وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى:١٧]، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ يعنى: رزقه فى الآخرة بالزهد فى العرض الأدنى. وقال أيضًا فى مثله: ﴿بَقِيَّةُ الله خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [هود:٨٦] يعنى: القناعة. وقيل: الحلال، أى: خيرٌ من التكاثرِ والتّظاهُر بالأعراض والأطلال، إذ هو أحمدُ عاقبةً فى المآل.

وفى خبر: أنَّ رسولَ الله ﷺ مَرَّ بعِشارٍ من النُّوق حُفَّل، وهى الحوامِلُ، وكانَتْ من أنْفَسِ أموالهم، وأحبِّه إليهم، وهى الرّاحلةُ من الإبل، التى ضرب رسول الله ﷺ المثل للخيار القليل، مَع وُجودِ الكَثْرةِ من النّاس، فقال: «النّاسُ كإبلٍ مائة لا تكادُ تجد فيها راحِلةً»[1]؛ لأنّها تجمع الظَّهْرَ واللَّحْمَ واللَّبَنَ والوَلَد والوَبَرَ، ضربه مثلاً لخيارِ الناس. أى: النّاس كثيرٌ، كالإبل الغَرْسِ الكليلة، والراحلة التى تجمع هذه الخمس من الإبل الحمولة قليلٌ، فكذلك المؤمنُ الحاملُ للخصالِ الخمس عزيزٌ قليلٌ فى هذا الوقت بين الجُمْلة والكثرة، ممَّنَ جمعَ الزُّهدَ، والعِلمَ، والعملَ، والخوفَ، والورعَ.

قال: فلمّا مرَّ رسول الله ﷺ بالعِشَارِ الحَوامِل أعرضَ عنها. فقيل له: يا رسولَ الله هذه أنفسُ أموالنا، لم تنظُر إليها. فقال: نُهيتُ عن ذلك، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاة الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ فهذا أوّلُ الخطابِ ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه:١٣١] أى: الزّهد فيها أحسن من زينتها، ليواطئ قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الكهف:٧]، قيل: أزْهَدُ فى الدّنيا، أَتْرَكُ لزينتها.

وكذلك لمّا تزيَّنت أمُّ سلمة، رضى الله عنها، بخبوصٍ من ذهب، جعلَتْهُ فى أُذُنِها. قالت: فلمّا دخلَ رسولُ الله ﷺ رفعتُ قناعى عن أذنى، رجاءَ أن ينظُر إلى زِينتى. قالت: فأعرضَ، ولم ينظر. فقلتُ: يا رسول الله، إنما تزيَّنْتُ لك.

---

(١) مرّ هذا الحديث من قبل باختلاف يسير، وهو فى الإتحاف ٩/ ٣٢٩ ـ ٣٣٠.

فقال: «عن زينَتك أُعرِض، ما ضرَّك لو جَعَلْته من فضّة، ثم لطَّخته بزعفران، فكان كأنَّه ذَهَب». فأمرها بفعلِ من لا يُحبُّ الدنيا لعَيْنها، وإنّما يَدخُلُ فيها لظاهرِ مَرافقها؛ لأنَّ الفضّةَ والزَّعفرانَ، وإن أشْبَهَت الذَّهبَ فى اللون، فإنّما هو مَتاعٌ فى الوقت، لا أنَّ لها قيمةَ الذّهب وقَدْرَه، ولا وُجودَ حلاوته بالرَّغْبَة فى قنْيَته. فكذلك حالُ الزّاهدِ فى حلاوةِ الدّنيا لعَيْنها، يستعمل الدُّنيا فيما قرُب ودَنا، ويُبَدِّلُ دَقيقًا منها ذا قيمة بيسيرٍ دُونَه. وكما قال فى الخبر الذى ذكر فيه: «أنّ الدّنيا تُفتح على أُمّتى، فيتنافَسُون فيها، وتُهْلكُهم كما أهْلَكَت مَنْ كَان قَبْلهم». قال فى آخره: «فليتَ أُمتى لا يَتَحلَّوْنَ بالذَّهبِ».

وكان أبو هريرة، رضى الله عنه، يقول: إنّى لا أُحلِّى بِنْتى الذَّهَبَ؛ أخافُ عليها الدُّنيا. ولمّا نظَر رسول الله ﷺ إلى المرأة وعليها طوق من ذهب، قال: «أيسرُّكِ أن يُطَوِّقك اللهُ بِطَوْقٍ من نار؟» قالت: لا. قال: فانْزَعِى هذا». وقال للأُخْرى فى السِّوارَيْنِ: «أيسرُّكِ أن يُسوِّرَك اللهُ بسوارَيْنِ من نارٍ؟ قالتْ: لا. قال: فما هذا فى يَدِك؟ قال: فَرَمَتْ بهما، فلا يُدْرَى مَنْ أَخَذَهُما».

ونظَر ﷺ إلى فاطمة، رضى الله عنها، وفى عُنُقها عِقْدٌ من خرزٍ فيه شىءٌ من ذَهَب، وعلى بابها سِتْر، فرجع ولم يَدخل، وقال: «ما لى وللدنيا». فَنَزَعَتْ ذلك، فأَرْسَلَت به إلى بَعْضِ الفقراء.

ورأى ﷺ فى يدَى الحسن أو الحسين قُلْبَيْن من فضَّةٍ، قد زيَّنَتْهُ بِهِما فاطمةُ، فَنَزَعَهُما، وأمر بلالاً أن يتصدَّقَ بثَمنه على أهلِ الصُّفَّة.

ودخَلَ على عائشة، فرأى على بابِها سِترًا فيه صُورةٌ، فهتكَهُ، وقال: «إنّى إذا رأيتُه ذكَرْتُ الدّنيا». وأهْدَتْ لها امرأةٌ فِراشًا، ففرشتْهُ لرسولِ الله ﷺ، وكان فِراشُهُ عباءةً مطويَّةً، فلمّا اضطجعَ عليه أنكر لِينَهُ وتوطئتَهُ ووَطْأَهُ، فسألَها، فأخبرتْهُ، فقال: «رُدِّى العباءةَ».

وفى هذا أخبار يكثُر رَسْمُها، ولم نقصِد جَمْعها، وفيما ذكرنا كفايةٌ وبلاغٌ لمن وُفِّق العملَ به. كلُّ ذلك يحثُّ به ﷺ على الزهد، ويدلُّ به على القِلّة والفقْر، وليَسُنّ بذلك سُنَنًا من أقوالِ وأفعالِه، ليُتَّبع عليها، ويُقْتَفى أَثَره فيها، رحمةً من

الله، وذكرى لأُولى الألباب، ومحجَّةً وسُنَّةً للقاصدين إلى الله من الأحباب.

وفى خبرٍ عن حُذيفة: «من آثرَ الدنيا على الآخرة؛ ابتلاه الله بثلاث: همًا لا يفارق قلبَهُ أبدًا، وفقْرًا لا يستغنى أبدًا، وحرصًا لا يَقْنَعُ أبدًا». وروينا حديثًا مرسلاً عن عليٍّ بن معبدٍ عن عليّ بن أبى طلحة، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «لا يَسْتكمِل العبدُ الإيمانَ حتى يكون أن لا يُعْرَفَ أحبَّ إليه من أن يُعْرَفَ، وحتى يكون قِلّةُ الشىء أحبَّ إليه من كَثْرته».

وروينا عن عيسى عليه الصلاة والسلام: «الدُّنيا قنطرةٌ خُلقَت، يُعْبَرُ عليها إلى الآخرة، فاعْبُروها ولا تَعْمُروها». وقال له رجل: احْمِلْنى مَعَك فى سياحتك. فقال: «أخْرِج مالَكَ والْحَقْنى». قال: لا أستطيع. فقال عيسى عليه السلام بِشدّة: «ما يَدْخُلُ الغَنىُّ الجنة». أو قال: «بعَجَب».

وقال له الحواريّون: يا نبىّ الله، لو أمرتنا أن نبْنىَ بيْتًا نعبدُ اللهَ فيه. فقال: اذهبوا، فابنُوا بيتًا على الماءِ. قالوا: كيفَ يستقيم بنيان على الماء؟! قال: فكيف تستقيم عبادةٌ على حبِّ الدّنيا. ورويناه بمعنى آخر: أنّهم قالوا له: نريد أن نبنى بيتًا نجتمعُ فيه نَتَعَبَّدُ ونتَدارسُ، فاخترْ لنا مَوضعًا نبنى فيه. فقال: «تعالوا»، فمشَوا معه، فوقفَ على قنطرةٍ، فقال: «ابنُوا ههنا». فقالوا: أنبنى على قنطرةٍ وهى مَدْرَجَةُ النّاسِ، لا يَدعُونا فيها. فقال: «كذلك الدّنيا، مَدْرَجَةُ الموتى، وأنتم تَبْنُون عليها، ولا يدعُونكُم فيها». وقال عليه السلام: «لا يبلغ عبدٌ حقيقةَ الإيمانِ حتى لا يُحِبَّ أن يُحْمدَ بعبادة الله، وحتى يَسْتوى عنده ذامُّه ومادحُه». وقال مرةً: «الإخلاصُ أن لا تُحِبَّ مَحْمدةَ النّاسِ ولا تكره مَذَمَّتَهُم».

وقد كان بشرُ بن الحارث يقول: لا تَحْسُنُ التَّقوى إلا بزُهد. وقال مرة: العبادةُ لا تليق بالأغنياء، مَثَل العبادةِ على الغَنىِّ مَثَلُ روضةٍ على مَزْبَلَة، ومَثَلُ العبادة على الفَقير مثل عِقْد جوهرٍ فى جِيدِ الحسناء. وقد استنبطنا معنى ذلك من كتابَ الله تعالى، بوَصفِ الفقراء للعبادة فى قوله عزّ اسمه: ﴿**لِلْفُقَراء الذين أُحْصِرُوا**﴾ [البقرة:٢٧٣]، ثم قال فى وَصفِهم: ﴿**تَراهمُ رُكَّعًا سُجَّدًا**﴾ [الفتح:٢٩]، فحَسُنَت لبسةُ الصلاةِ عليهم لحُسْنِ سِيماهم بالفَقْر، وجَهَّلَ من لم يعرفهم وحسبَهُم أغنياءَ،

للعفّة والحياء، فلولا أنّ الغنى نقصٌ لحالهم لم يُجَهَّل مَنْ وَسَمَهُم به، إذ جَهِلَ سيماهُم بالفَقْر، الذى هو كمالُ حالِهم، تمامًا على الّذى أحسن به من العبادة إليهم. فَتَدَبَّرُوا. وروينا فى وصيّة لقمانَ لابنه، وهو يحذّرهُ مداخلَ العدُوِّ، قال: «وإذا جاءك من قِبَل الفقر فأخْبِرْهُ: أنَّ الغَنِيَّ من أطاعَ اللهَ، والفقيرَ مَن انتهكَ مَعْصِيتَهُ. وإذا شهّى إليك الغِنَى فأَخْبِرْهُ: أنّه لا يَحْسُنُ جَمْعُ الغنى والقِراءَةِ».

وقال بعضُ السّلَف: أبى أهلُ العلم بالله أن يَسْمعُوا الحكمةَ والموعظةَ إلا من الزّاهدينَ فى الدّنيا. وقالوا: ليس أهلُ الدنيا لذلك أَهْلٌ، ولا يليق بهم. وفَعَلَهُ رجاءُ بن حَيْوة، عالمُ أهلِ الشّام، ولم يستحى فى الله وَجْهَ مُوجِّهٍ وَاجَهَهُ. بلغنا أَنَّه كان يجلسُ إلى رجلٍ زاهد ببيتِ المقْدسِ، فيستمع إليه، فجاء يومًا إلى مجلسه، وقد اجتمعَ الناسُ، فجلَسَ وراءَهُم، وهو يحسَبُ أنّه فيهم، فلمّا أبطأَ تكلّم شيخٌ فى المجلسِ، وهو مؤذنُ مسجدِ بيتِ المقدس، لا بأسَ به، فأنكر رجاءُ ابنُ حَيْوة صوتَه، فقال: من هذا المتكلم؟ فقال الشيخُ: أنا رحمكَ الله. فقال له: اسكتْ عافَاكَ اللهُ، فإنّا نُهينا أن نسمعَ الزُّهدَ إلا من أهلِه، أو قال: إلا من الزهَّاد.

وقال نحوه سَلْمانُ الفارسى لعُمر بن الخطاب، رضى الله عنه، فى جعْلٍ توهَّمه عليه، وذلك أنه حُمل إليه أبرادٌ؛ فكَسا الصحابة بُردًا بُردًا. فلمّا كان يومُ الجمعة خرج عمرُ فى بُرْدَين يَخطب. فلمّا قال فى وَعْظه: ألا اسْمَعُوا. قال: فقامَ سَلْمان فقال: والله لا نَسْمَعُ، قال: ولِمَ؟ قال: لأنَّك كَسَوْتَنا بُردًا بُردًا، وخَرَجْتَ علينا فى حلّة. فقال: رَحمك الله، إنى غَسَلْتُ ثَوْبى ولم يكن لى غيرُه، فاستعرتُ هذا، وهو بردُ عبد الله بن عمر. فقال: قلِ الآنَ حتّى نَسْمَع.

فمعنى قوله: لا نسمع، أى: لا يلتبس فى قُلُوبِنا، ولا ننتفع بِسَمْعِه، إذ كنتَ غير مستعمل له.

وهذا أبو عبد الله أحمدُ بن حنبل، رحمه الله، مع موضعه من الله، وإنّه من أئمة المسلمين، لما سُئل عن الصِّدْق، ما هو؟ قال: هو الإخلاصُ. قيل: ما الإخلاصُ؟ قال: هو الزُّهد. فقيل: يا أبا عبد الله، أى شىء الزهد؟ فسكَت. فقال: سَلُوا الزهّادَ، سَلُوا بِشْرًا. وقال أبو طالب الورّاق: دخلتُ عليه فى جماعة من أصحابِ الحديث، كنتُ قد نَسَخْتُ لهم كتابَ الزُّهدِ، الذى جمعه، لأقرأهُ

لهم عليه، ففُرِشَ لنا فى الدّار حصيرٌ جديدٌ، ونزل إلينا من غُرْفة له، فلمّا قعدَ وأخذَ الأصلَ بيده أطبقَهُ، ثم قال: يا أبا طالب، الزّهدُ لا يُقرأ إلّا على الزُّهد. وكَشَطَ الحصيرَ الجديدَ من تَحْتنا، وقعَدْنا على التُّراب.

وقال الثّورى والفُضيل: جُعِلَ الشرُّ كلُّه فى بيت، وجُعِلَ مفْتاحَهُ الرَّغبةُ فى الدُّنيا. وجُعل الخيرُ كلُّه فى بيت، وجُعِل مفتاحَهُ الزُّهْدُ. وكان السّلفُ يقولون: كفَى به ذَنْبًا، لا يُسْتَغفَرُ منه حُبُّ الدنيا. وأشدُّ من ذلك ما رَواه سُفيان عن يحيى ابن سُليم الطّائفى، رفعه إلى رسولِ الله ﷺ: «لو أنّ عَبْدًا عَبدَ اللهَ تعالى عبادةَ أهلِ السموات والأرضِ ولقيه مُحبًا للدّنيا، لأقامهُ الله تعالى فى الموقف غدًا مقامًا شَهَرهُ به بين الخلائقِ، فنُودى عليه: ألا إنّ فلانَ ابنَ فلانٍ قد أحبّ ما أبْغَضَ اللهُ».

وقال يحيى بن جابرٍ الطّائى: قال عَمرو بن الأسود العَنْسى: لا ألبسُ مَشْهُورًا أبدًا، ولا أنام بليلٍ على دِثارٍ أبدًا، ولا أركب على مأْثُورٍ[1] أبدًا، ولا أملأ جَوْفى من طعامٍ أبدًا. فقال عمرُ رضى الله عنه: مَنْ سرّه أن ينظر إلى هَدْى رسولِ الله ﷺ فلينظر إلى عَمرو بن الأسود. وقد صدق رضى الله عنه؛ لأنّا رُوينا فى أخبارِ زُهْدِ رسولِ الله ﷺ: كنتَ إذا نظرتَ إلى قميصِ رسولِ الله ﷺ حسبتَهُ قميص زَيَّات. يعنى بقّالا[2].

(١) المأثور: ألليِّن السّهل.

(٢) لعله يقصد الخبر الضعيف الذى أخرجه فى الشمائل عن أنس بن مالك قال: «كان رسول ﷺ يكثر دَهْنَ رأسِه، وتسريح لحيته، ويكثر القِناعَ، حتى كأن ثوبه ثَوبَ زيَّات». وهو ضعيف، وقال عنه ابن كثير: فيه غرابة ونكارة. وعلى ضعفه ونكارته، فقد فسَّره العلماء بما يليق برسول الله ﷺ وسنته. فالقِناع المذكور فى الخبر: خرقة تُلْقى على الرأس تحت العمامة بعد استعمال الدّهن وقاية للعمامة من أثر الدّهن. والمراد بالثوب فى الحديث هو هذا القناع الذى يتقى به رسول الله ﷺ أثر الدّهن أن يصيب العمامة أو القميص، كما ذهب إلى ذلك العلماء. فإن النبى ﷺ كان أنظف الناس ثوبًا، وأحسنهم هيئة، وأجملهم سَمْتًا، وأطيبهم رائحة. وقد ثبت أنه ﷺ رأى رجلاً عليه ثياب وسخة، فقال: «أما كان يجد هذا ما يغسل به ثوبه». انظر: جمع الوسائل فى شرح الشمائل، للشيخ على بن سلطان محمد القارئ ١/١٠٢ ـ ١٠٣. وانظر: مختصر الشمائل المحمدية، اختصره وحققه الشيخ محمد ناصر الدين الألبانى.

قلت: وبهذا وغيره يتضح لنا عدم مناسبة ألفاظ الشيخ أبى طالب ـ غفر الله له وسامحه ـ لصفة رسول الله ﷺ، إذ خانته الألفاظ فى التعبير. كما أن نظافة الثوب من الإيمان، ولا تتنافى إطلاقًا مع الزهد والتقشف، كما يظن جهلة الصوفية والزهاد.

وكذلك قال عمرُ بنُ عبدِ العزيز، رضى الله عنه، لما حدّثه أبو سَلاَم الحَبَشى عن رسول الله ﷺ: «يدخل فقراءُ أُمّتى الجنّةَ قبل أغنيائهم. قيل: مَن هُم؟ قال: الشُّعْثُ رُءوسًا، الدُّنْسُ ثيابًا، الذين لا يُفْتح لَهُم السُّدَد، ولا يُنكَحُونَ المتنعِّمات». فبكى عمر حتى اخْضلّ لحيتُهُ، وقال: لستُ منهم، قد فُتحت لى السُّدَد، يعنى: الأبواب، ونكَحْتُ المنعمات، يعنى أُمَّ البنين بنتَ عبد الملك بن مروان. ولكن لا جرمَ، واللهِ لا أدْهِن رأسى حتى يَشْعَثَ، ولا أَغْسِلُ ثَوْبى حتى يَدْنَس[1]. فَعَدَّ الخصلتين من أربعٍ، تأسِّيًا بالفَقْر.

وروينا عن عيسى ابن مريم عليه السلام، فيما أوحى الله إليه: «يا ابنَ مريم، ابك أيّامَ الحياة بكاءَ من ودّعَ الدنيا، وارتفعتْ رغبتُهُ إلى ما عند الله، اكتفِ بالبُلْغَة من الدّنيا، ليَكْفكَ منها الجَشَبُ الخَشِنُ، بحقٍّ أقولُ لك: ما أنتَ إلا بيَوْمك وسَاعتك، مكتوبٌ عليكَ ما أخذتَ مِن الدنيا، وفيما أنفقتَهُ، فاعمل على حساب هذا، فإنّك مسئُولٌ عنه. لو رَأَتْ عيناكَ ما أعدَدْتُ للصّالحينَ لزَهقَتْ نَفْسُكَ».
وكان عيسى عليه السلام يقول: «حلاوةُ الدّنيا مَرَارةُ الآخرة، وجودةُ الثياب خُيَلاءُ القَلْب وكبره، وملءُ البَطْنِ جِمامُ النَّفْسِ واجتماعُها. بحقٍّ أقولُ لكم: كما لا يَلَذُّ مَرِيضٌ بطَيِّبِ الطَّعامِ، كذلك لا يَجدُ حلاوةَ العبادةِ من أحبَّ الدّنيا».

فمن الزُّهد فى الدّنيا: تركُ المَلْبَسِ النّاعمِ المنظور إليه المرتفعِ، واجتنابُ النُّزهات من لطائفِ الطّعام، والتّفتق فى الشّهوات التى يَرْغَبُ فيها المتنعِّمُونَ، وتركُ الزِّينة والمفاخرِ من الآلة والأثاثِ الذى يتنافسُ فيه المُترَفُون.

ومن الزُّهْد أن يكونَ الشّيءُ الواحدُ يُستعمل فى أشياءَ كثيرةٍ، وكذلك كان سيرةُ السّلفِ فى الأثاث، وهو من التقلُّلِ، كما أنَّ أبناءَ الدنيا يستعملون للشيءِ الواحدِ أشياءَ كثيرةً، وهو وصْفٌ من التكاثُر، وذلك من أبوابِ الدّنيا.

كما كان السّلف يقولون: أول النُّسُك الزِّيُّ. وقال بعض العلماء: من رقَّ ثوبُه رقَّ دينُه. وقال ابن مسعود رضى الله عنه: لا يُشْبِه الزِّيُّ الزِّيَّ حتى يُشْبِه القَلْبُ القَلْبَ. فتدبّر قوله: إذا رأيت اثنين زيُّهما واحد، وشمائلُهما واحدٌ فى اللّبسة

(١) أيضًا مثل هذه الأخبار فيها من الضعف والنكارة ما فيها. راجع التعليق السابق. كما أن دلالة دنس الثياب هنا تختلف عن دلالتها لدينا، وهى مبالغة فى ترك مظاهر الترف والترفيه.

والآداب، فاعلم أنّ قلْبَ أحدهما على قلْب الآخر فى المجانسة، أو يقاربُه فى الحالِ والهِمَّة. وإن كان أحدُهُما ظاهرُه ظاهرَ أبناء الآخرة، فإن باطنَهُ باطنُ أبناء الدّنيا، قد اتفقا من جِهَةٍ، أو دخَلا من باب[1]. كما قال مَلكٌ، ورأى غرابًا ينتقل مع حمامةٍ فى كل مكانٍ، فتعجَّب، وقال: كلُّ طَيْرٍ وشَكْلُهُ، وليس هذا شكلٌ كهذا، ثم مَشَيا، فإذا هما عَرْجَانِ، فقال: من هذه الجهة اتَّفقا.

وحُدّثنا عن المَرُّوزِيِّ، قال: قلتُ لأبى عبد الله: إذا رأى الرجلُ الذى دُعى إلى دَعْوة فِرَاشِ ديباجٍ أو إناءِ فضَّةٍ ونحوه، أترى أن يخرُجَ؟ قال: نعم. قد خرَجَ حذيفةُ لما رأى شيئًا من زىِّ الأعاجم، وقال: من تزيًا بزىٍّ قَوْمٍ فهو منهم. وخرجَ أبو أيوب لمّا رأى البيتَ مُسَتَّرًا. وخرج أُبَىٌّ من نحوِ هذا.

وفى الخبر: «البَذَاذَةُ من الإيمان». سُئِل عن ذلك أبو عبد الله، فقال: التَّقاربُ فى اللّباس. وقد جاء بلفظ آخر معناه: «إنّ الله يُحبُّ المتبذِّلَ، الّذى لا يُبالى ما لَبِسَ». والابتذال: هو التقارُبُ والدُّنُوُّ فى كلِّ شىءٍ من المستعْمَل المبتَذل، كالملبوسِ منه. يقال: من البذَاذَةِ؛ إذا لم يُبالِ ما لبِس، أو استعملَ ممّا فيه ضَعَةٌ ودُنُوٌّ. وفى الخبر المفسر: «من ترك ثوبَ جمالٍ وهو يقدر عليه، تواضعًا لله تعالى، خيَّره الله تعالى من حُلَل الإيمان أيها شاء». وفى لفظ آخر: «من تركَ زينةً لله تعالى، ووضع ثيابًا حسنةً تواضعًا لله تعالى وابتغاءَ وجهه، كان حقًا على الله تعالى أن يدَّخرَ له من عَبقرىِّ الجنةِ، فى تَخَاتِ الياقوت». ولما أتى رسولُ الله ﷺ أهلَ قباء، أتَوْه بشَرْبَةٍ من لَبَنٍ مَشُوبةٍ بعَسلٍ، فوضع القدَحَ من يدِهِ، وقال: «أما إنّى لَسْتُ أحرِّمُه، ولكنِّى أتركُه تواضعًا لله تعالى». وأُتى عمرُ رضى الله عنه بشَربةٍ من ماء بارد وعسلٍ، فى يوم صائفٍ، فقال: «اعزلُوا عنّى حِسابها».

وأوحى اللهُ تعالى إلى نبىٍّ من أنبيائه: «قل لأوليائى: لا تَلْبسوا مَلابسَ أعدائى، ولا تدخلوا مداخِلَ أعدائى، فتكونوا أعْدائى، كما هُم أعدائى». ولما خطَب بِشرُ بن مَروان على مِنبرِ الكوفة، قال رافع بن خُدَيج: انظروا إلى أميرِكم يعِظُ الناسَ وعليه ثيابُ الفُسّاقِ. قلتُ: وما كان عليه؟ قال: ثيابٌ رقاق.

---

(١) من أول الفقرة إلى هنا فى الإتحاف ٩/ ٣٥٧.

ولمّا جاء عبد الله بن عامر القُرشىّ إلى أبى ذر رضى الله عنه فى بزّته، فجعل يتكلم فى الزهد، فوضع أبو ذرٍّ راحتَهُ على فيه، وجعل يَضْرِط به. فغَضِبَ ابنُ عامرٍ، فأتى ابنَ عمر رضى الله عنهما، فقال: ألم ترَ ما لقيتُ من أخيك أبى ذرٍّ؟ قال: وما ذاك؟ قال: جعلتُ أقول فى الزُّهد، فأخذ يهزأ بى. فقال ابنُ عمر: أنتَ صنعتَ بنفسك، تأتى أبا ذر فى هذه البزّة، وتتكلم فى الزهد؟

وقال علىٌّ كرّم الله وجهه: إنّ اللهَ تعالى أخذَ على أئمةِ الهدى أن يكونوا فى مثل أدنى أحوالِ الناس، لِيقْتدى بِهم الغَنىُّ، ولا يَزرى بالفقير فقره. وقد عُوتب عمرُ رضى الله عنه فى لباسه، وكان يلبس الخشن من القطن، قيمة قميصهِ ثلاثةُ دراهم إلى خمسةِ دراهم، ويقطع ما فضَل عن أطرافِ أصابعهِ، وقال: هذا أدنى إلى التّواضع، وأجدرُ أن يَقْتِدى بى المسلم.

وأتت برودٌ من اليمن إلى عمر رضى الله عنه، فقسمها على أصحابِ رسولِ الله ﷺ بُردًا بُردًا، ثم صعد المنبر يوم الجمعة، فخطب النّاس فى حلّة منها، والحلّةُ عند العرب ثَوْبان من جِنْسٍ واحدٍ، وكان ذلك من أحسن زيّهم. فقال: ألاَ اسْمعوا ألاَ اسمْعوا. ثم وعَظ، فقام سَلْمان فقال: والله لا نسمع، والله لا نَسمع. قال: وما ذاك؟ قال: لأنّك قد أعطيتنا ثَوْبًا ثوبًا، ورُحْتَ فى حُلّة، فقد تفضَّلْت علينا بالدنيا. فتبسم، ثم قال: عجِلْتَ يا أبا عبد الله، رحمك الله، إنى كنتُ غَسَلْتُ ثَوبى الخَلق، فاستعرتُ بُردَ عبدِ الله بن عمر، فلبستُه مع بردى، فقال سلمان: قل الآن، حتى نَسْمَع.

ونهى رسول الله ﷺ عن التنعُّم وقال: «ألاَ إنّ عباد الله تعالى ليسوا بالمتنعّمين».

ورُؤى فُضالة بن عبد، وهو والى مصر، أشعثَ حافيًا. فقيل له: أنت الأميرُ، وأنت هكذا؟ فقال: نهانا رسولُ الله ﷺ عن الإرفاه، وأمرنا أن نحتفى[1] أحيانًا.

وقال علىٌّ لعمر، رضى الله عنهما: إن أردتَ أن تلحق بصاحِبَيْكَ، فارفع

(١) الإرفاه: منْ الرفاهية. ونحتفى: أى نمشى بلا خُفّ ولا نعل.

القميصَ، وانكس الإزارَ، واخصف النّعلَ، وكُلْ دُون الشّبَع.

وكذلك فى وصيةِ رسول الله ﷺ لعائشة: «إن أردتِ اللحوقَ بى، فليكن عيشُكِ عيشَ المساكين، وإيّاك ومجالسةَ الأغنياء، ولا تنزعى ثوبًا حتى تَرْقَعيه». قال: كانت لَتُقَسِّم مائةَ أَلْف فى مجلسها قبل أن تقوم، وإنّ دِرْعَها لَمَرْقُوعٍ، أو هى ترقع دِرْعَها حينئذٍ، ثم تُفطِرُ تِلْكَ الليلةَ على الخَلِّ والزَّيْت.

وروينا أنَّ عمر[1] رضى الله عنه خطَبَ الناس، فقال: أنشد اللهَ رجُلاً عَلِمَ فىَّ عَيْبًا إلاَّ أخبَرنى به. فقام شابٌّ فى المجلس، فقال: يا أميرَ المؤمنين فيك عيبانِ اثْنانِ. قال: ما هُما رحمكَ الله؟ قال: تُذيل بين البُرْدين، وتجمعُ بين الأُدْمَين. قال: فما أذال بين البُردين، ولاجَمع بين الأُدْمَين، حتى لَقىَ اللهَ عزَّ وجلَّ.

هكذا حدَّثناهُ الشَّيخ: «تُذيل»، بالذّال. ففيه يبدو معنَيان؛ أشهرُهُما: أن تجمعَ بين ذَيْلَى ثَوبِكَ، فيتفق ذيلُ البُرْدِ الأَعْلَى مع ذيْلِ البُرْدِ الأسفل لطُوله. أى: ولا يَسَعُ ذلك الجملة؛ لأن ثياب أهل الصفَّة كانت قصارًا، طولُها أربعةُ أَذْرع، ولا يمكن التذييل فى هذا القَدر، لأنَّ الثوبَ الأَعلى لا يطولُ حتى يُذال، فيُجمع ذيلاهما معًا.

وأغرب الوجهين: أن معنى تُذيل: أن تضع ثوبين معًا، أى تتركهما موضوعين، لذلك العَرَبُ تقول: أذِل هذا، وأشِل هذا، أى ضَع وارفع. ومن هذا ما روى عن مالكٍ رحمهُ اللهُ أنّه قال: إنَّ من إذالةِ العِلْمِ أن يُجيب العالمُ فى كلِّ ما يُسئل عنه. ورويناه مرّة: من إذالة العلم أن يُسئل عن كلّ شىء. أى من وَضْعهِ أن يُسئل عن كلِّ شىء، أى ينبغى أن يُرفع عن بعضِ الأشياء أن يُسئل عنها. وعلى الرّواية الأخرى: من إذاله العلم، أى من وَضْعه أيضًا، أن يبذل العلم لغيره. . .[2] بل ينبغى أن يسكت عن بعضِ الأشياء، توقيرًا للعلم وتعظيمًا. وهذا كان يشبه وصفَ مالكٍ فى تعزيزِهِ العلم، وكثرة سُكوته عن كثير مِمّا كان يُسئل عنه.

(١) انظر: الإتحاف ٩/ ٣٧٩.

(٢) تلف بالأصل قدر كلمتين.

وأنا أحسبُ أنّ الكلمةَ، واللهُ أعلمُ، بالدَّال، أى: «يديل بين البُرْدَيْن»، أى: يُبدِّل بُردًا ببُرْدٍ، دُولَة هذا، ودُولة ذا. وأراد أن يكون له واحد، لا يُديله آخر.

وقد كان عمر رضى الله عنه يقول: «اخلَوْلَقُوا، واخْشوشِنوا، وتَمَعْدَدُوا، وإيّاكم وزىَّ العجم كسرى وقيصر. واقطعوا الركب، وانْزُوا على الخيل نَزْوًا، وعليكم بالمعدِّيَةِ الأولى سنَّة أَبيكُمْ إسماعيل»(١).

وروينا عن رسول الله ﷺ أشدَّ من هذا، أنه قال: «شرارُ أمتى الذين غُذّوا بالنَّعيم، الذين يأكلون ألوانَ الطعامِ، ويلبسونَ ألوانَ الثيابِ، ويَتشَدَّقُونَ فى الكَلامِ».

ولما قَدِم عميرُ بن سَعد أميرُ حِمص، على عُمَر رضى الله عنه، قال له: ما مَعكَ من الدُّنيا يا عمير؟ قال: معى عَصَاى أتوكَّأُ عليها، وأقتلُ بها حَيَّةً إن لقيتُها. ومعى جِرابى، أحملُ فيه طَعامى، ومعى قَصْعَتى آكلُ فيها، وأغسلُ فيها رَأسى وثَوبى، ومعى مِطْهَرتى، أحملُ فيها شَرابى، ووُضوءًا للصَّلاة، يعنى السّطيحة. فما كان بعد هذا من الدنيا فهو تَبَعٌ لما معى. فقال له عمر: صَدَقْتَ رحمك الله.

وكان عمر رضى الله عنه قد كتبَ إلى أهل حِمْص: أن عدُّوا لى فُقَرَاءَكُم أَقْسِم فيهم مالاً، فسمُّوا له فى الكتاب نفرًا، وذكروا فيهم سَعِيدَ بنَ جذِيم أميرهم، ويقال: بل عُمَير بن سَعْد. فقال عمر: من سَعِيد بن جذِيم؟ فقالوا: أميرنا يا أمير المؤمنين. قال: أوَ فقيرٌ هو؟ قالوا: نَعَم، ما فينا أهلَ بيتٍ أفقرُ منه. قال: فأين عطاؤه؟ قالوا: يُخرجه كلَّه، لا يترك لنفسه ولا لأهله شيئًا منه. فوجَّه إليه عمر رضى الله عنه ألف دينار، وفى إحدى الروايات أربعمائةَ دينار، وسأله أن ينفقها على نفسه وأهله. فلما وصلتْ إليه دخل على زوجته، وهو يَبْكى، فقالتْ له: ما شأنُك؟ ماتَ أميرُ المؤمنين؟ قال: أعظمُ من ذلك. قالت: فُتق فتق فى المسلمين؟ قال: أشدُّ من ذلك. قالت: فما هو؟ قال: أتتنى الدنيا، قد كنتُ مع رسول الله

(١) نقله صاحب الإتحاف ٣٥٨/٩ وخرّجه. ومعنى تمعددوا: أى اتبعوا معد بن عدنان فى الفصاحة. وقيل: تشبهوا بعيشه فى الغلظ والتقشّف، فكونوا مثله ودعوا التنعم. فهو حثّ على التواضع ونهى عن الإفراط فى الترفه والتنعم.

ﷺ فلم تُفتح الدنيا علىَّ، وكنتُ فى أيام أبى بكر رضى الله عنه فلم تُفتح الدنيا علىّ، وخُلِّفت إلى أيامِ عمر رضى الله عنه، ألاَ وشرُّ أيامى أيامُ عمر. ثم حدثَّها، فقالت: نَفْسى فِداؤك، فاصنع بها ما بَدَا لك. فقال: أَو تُساعديينى على ما أريد؟ قالت: نعم. قال: أعْطينى خَلِق ذلك البرد، قال: فجعل يُمزِّقُه، ويَصرُّها فيه صُرَرًا ما بين العشرةِ والخمسةِ والثلاثةِ حتى أفناها، ثم جعلها فى مخلاة، وتأبَّطها وخرج، فاعترض جيشًا من المسلمين يُريدون الغَزْوَ، فجعل يدفعُ إليهم صُرّةً صُرّةً، على نحو ما يرى من حالهم، ثم رجعَ ولم يترك لأهله منها دِينارًا.

فهذه كانت شمائل جُملةِ أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين لهم بإحسانٍ، رضى الله تعالى عنهم.

وروينا فى حديث عياض بن غَنم، عن النبى ﷺ، فى وَصْفِ الأخيار: «إنّ من خِيارِ أُمَّتى، فيما أنبأنى الملأُ الأعْلى، قَومًا يضحكون جَهْرًا من سَعَة رحمة الله، ويبكُونَ سرًا من خَوف عذابه، مؤونَتُهم على النّاسِ خفيفة، وعلى أنفُسهم ثَقِيلةٌ، يَلْبَسُون الخلْقَانَ، ويَتَّبِعُونَ الرُّهْبانَ، أَجسامُهُم فى الأرْضِ، وقُلوبُهم فى الآخِرَةِ، وأفئدتُهُم عند العَرْشِ».

وفى رواية أخرى: «تُفْتَح عليهم الدُّنيا، فيزهَدُوا فى حَلالها، ويَتَبَلَّغُوا باليَسِير منها، ليسُوا مِن الدُّنيا، وليستِ الدُّنيا منهم فى شىءٍ».

وفى حديث أبى الدرداء، رضى الله عنه، لما وَصَف الأبدالَ، قال: فقلتُ له: كيف لى أن أكونَ بهذا الوَصْف؟ وأنَّى لى أن أكون مثْلَهُم؟ فقال: يا ابن أخى، ما بينك وبين أن تكونَ فى أوّل ذلكَ وأوسطه إلا أن تزهَدَ فى الدُّنيا، فتُعاين الآخرةَ بقلْبِكَ فتعمل لها.

وجاء رسول الله ﷺ من سَفَرٍ فدخل على فاطمة، وكانت أولَ من يدخُلُ عليها من أهلهِ، إذا جاء منَ سَفَرٍ، فرأى على بابِها سترًا، وفى يديها قُلبين من فضةّ، فرجَع، فدخَل عليها أبو رافع وهى تبكى، فأخبرته برُجوعِ رسول الله ﷺ وقالت: لأمرٍ ما رجع، فقال: أنا أسأله ما ردَّه؟ فسألَهُ، فقال: من أَجْل السِّتر والسِّوارين، فأخبرها بذلك، فهتكت السِّتر، ونزعت السِّوارين فأرسلت بهما بلالاً

إلى رسول الله ﷺ، وقالت: قد تصدَّقتُ بهما فَضَعْهُما حيثُ ترى، فقال: «اذهب فبِعْهُما، وادْفعهُ إلى أهلِ الصُّفَّة». فباع القُلْبين بدِرْهَمَينْ ونِصف، وتصدّق به عليهم، فدخل عليها وقال: «بأبى أنتِ وأمّى، قد أحسنتِ؛ أنتِ منى».

وفى الخبر: «ما مِن عَبْدٍ لبسَ ثوبَ شُهْرةٍ إلا أعرضَ اللهُ تعالى عنه حتى ينزعَه، وإن كان عندَه حَبيبًا».

وقال سُفيان الثّورى وغيرُه: البس من الثّياب ما لا يُشَهِّركَ عند العلماءِ، ولا يُحقِّركَ عند الجُهّالِ. وكان يقول: إنَّ الفقيرَ ليَمرُّ بى، وأنا أصلّى، فأدعُه يجوز. ويمرُّ بعضُ هؤلاءِ الأغنياءِ من أبناءِ الدنيا وعليه هذه البَزَّة فأمقتُه، فلا أدعه يجوز.

وقال بعضهم: ما رأيتُ الغنيَّ فى مجلسٍ قطّ أذلّ منه فى مجلس الثورى رحمه الله تعالى، ولا رأيت الفقيرَ أعزَّ منه فى مجلس الثورى. وقال آخر: كنا إذا جلسنا إلى سُفيان تَمَنَّينا أنَّا كُنّا فُقراء، لِمَا نَرى من إقبالِه عليهم واعظامه لهم. وكذلك كانوا يقولون فى وصف العالم: إنما العالمُ هو الذى يقومُ الفقيرُ من عِنْده غَنيًا، والغنى من عنده فقيرًا. أو: لا يَسْتحى الفقيرُ مِن فَقْرِه، ويُزْرِى الغَنىُّ بغناه على نَفْسِه. وقال بعضُهم: قَوَّمتُ ثَوْبَىْ سُفْيانَ ونَعْلَيْه بدِرهم وأربعة دوانيق.

فهكذا كان علماء الآخرة الزَّاهِدُونَ فى الدُّنيا، فَخَلَف من بَعْدِهم خَلْفٌ يأخُذُونَ عَرَضَ هذا الأَدْنى.

وكان ابنُ شُبْرمَة يقول: خيرُ الثِّيابِ ما خَدَمنى، وشَرُّها ما خَدَمْتُه. وقَال بعضُ السَّلَف: الْبس من الثِّيابِ ما يَخْلطكَ بالسُّوقَة، ولا تَلْبَس مِنها ما يُشَهِّرُكَ فيُنظَرُ إليكَ. وبعضهم يقول: شرُّ الثِّيابِ ما يَرْفَعُ الناسُ رُءوسَهم فَينظرونَ إلى صاحبه. قال: وعدَدْنا فى قميص عمر رضى الله أربعةَ عشر رقعةً بعضُها من أَدَمٍ. وقيل: رأينا فى إزارِه رِقاعًا مُطبقةً بعضُها على بَعْضٍ، وقَدْ شُلَّت بخُيوطٍ. وكان إذا قام تخلَّل الرَّمْلُ من بين تِلك الخيوطِ وهو يرمى الجَمْرة.

وكانوا يقولون: كثرةُ الثِّيابِ على ظهْرِ ابنِ آدمَ عقوبةٌ من الله له. وقال أبو سليمان الدّارانى: الثّيابُ ثلاثةٌ: ثوبٌ لله تعالى، وثَوْبٌ للنَّفْس، وثوبٌ للنَّاسِ.

فالثّوبُ الذى للّه ما سترَ العوْرةَ، وأُدِّيت فيه الفريضةُ. والذى للنَّفس ما طَلَبْتَ لينه ونقاءَهُ. والذى للنّاس ما طَلَبْتَ جَوْهرَهُ وحُسْنَه؛ وهو شرُّها. ثم قال: وقد يكونُ الثَّوْبُ الواحد لله وللنَّفس.

وقد كان بعضُ العلماء يكره أن يكون على الرُّجلِ من الثّياب ما يجاوز قيمةَ أربعين درهمًا. وبعضهم يقول: إلى المائة، ويَعدُّه سَرَفًا فيما جاوزها. وكان جمهور العلماء وخِيارُ التابعين قيمةُ ثيابهم ما بين العشرين إلى الثّلاثين. وكان المتقدِّمون مِن الصَّحابةِ أثمانُ أُزُرِهم اثنا عشر درهمًا، وكانوا يلْبَسُون ثوْبين قيمة نيِّفٍ وعشرينَ إلى الأربعين.

وقال الأحنفُ: ما كَذَبتُ كذبَةً منذ علمتُ أن الكذبَ يَضُرُّ أهلَهُ إلاّ مرةً واحدةً، فإن عمرَ بن الخطاب رضى الله عنه نظر إلى إزارى من العَيْبَة[1]، فَجَسَّهُ فوجدَهُ ناعمًا، فقال: بكم أخذتَ هذا؟ ففزِعْتُ منه، فقلتُ: بعشرين. فقال: كثير، فَهلا بعشَرَة، وقدّمْتَ عَشَرَةً لغدٍ ليوم فَقْرِك وقيامتِكَ. قال: وكنتُ قد اشتريتُه بثلاثين، فحذَفْتُ عَشْرًا هيبةً منه.

ثم ذكرَ هذا فى قصّة الوفد الذين قَدِم معهم على عمر رضى الله عنه، من قومه، قال: فلمّا قاربُوا دخولَ المدينةِ، نزعوا ثيابَ سَفَرِهم وبِذْلَتهم، ولبس كلُّ واحدٍ ثَوْبين جَديدَيْن، أو غَسيلَين، أو قال: أبْيَضَيْن. قال: وفعلتُ مثلَ ذلك. قال: فلمّا دخَلْنا آطامَ المدينةِ نريدُ الدخولَ على عُمر رضى الله عنه، جعلَ أهلُ المدينة يرمقُونَنا بأبصارهم ويُعرضُون، وجعلوا يَلْحظُونَنا وتَنْبوا أعينُهم عنّا، فسمعتُهم يقولون: أبناءُ دنيا. قال: فعرفْتُ أنَّ القومَ لَيْسُوا بأهلِ دُنيا، وأنّهم أهلُ الآخرة. فعطفتُ رأسَ راحلتى، ونَزَعْتُ ثوبىَّ وردَدْتُهما إلى العَيْبةِ، ثم أخرجتُ ما كنتُ خلعتُه من ثِيابِ سَفَرى وبِذْلَتى، فلبستُه، ثم دخَلْنا على عُمرَ رضى الله عنه، قال: فجعلَ الناسُ تَنْبُوا أعينُهم عن أصحابى، وينظُرون إلىَّ من بينهم، كأنّهم يَغْبطُوننى. قال: فلمّا نظر إليهم عمر رضى الله عنه، وكان أوّلَ يومٍ رأيتُه، فإذا رجلٌ عليه خلَقٌ مرْقُوعٌ، وعلى كتفه دِرّةٌ، فلمّا قَفلْنا من بعيد، أخذ كفًا من

(١) العيبة: وعاء من أدَم يجعل فيه الثياب.

حصًى، فحَصَبَنا، قال: ثم لحظنى بعينه، فقال: هذا، نعم، فأدنانى وقرَّبَنى من بينهم، وقال: من أنت لله درُّكَ؟ أو قال: أبوكَ؟! فقلتُ: أنا الأحنفُ بن قيس التميمىّ. فقال: أنت سيِّدُ قَومكَ. قال: وأعْجَبهُ هيْئتى، فقام، واتَّكأ علَى يَدِى، فجعل يُسائلنى عن الطَّريقِ، وعن الرِّكاب، وكيف كُنَّا نسيرُ بها إلى أن وافى رَحْلنَا، وموضعَ مُناخِنا، فرمقَ عَيْبَتى، فرأى طرفَ الثَّوْبِ خارجًا، فَلَمَسَهُ. وذكر أوَّلَ الخبرِ الذى ذَكَرْناه أوّلاً (١).

واشترى رسولُ الله ﷺ ثوبًا بأربعةِ دراهم. وكان قيمةُ ثوبَيْه عشرةً إلى دينار. وكان طولُ إزاره أربعةَ أَذْرُع ونِصف. وفى خبرٍ: سبعة أَشْبارٍ. واشترى سراويلَ بثلاثة دراهم. وكان كُمّ قميصه إلى أطرافِ أصابعه. وقيل مرّةً: إلى الرُّسغ، فإذا تَشَنَّجَ وقَصُرَ صار إلى نِصْفِ الذّراع، وإذا امتدَّ فإلى أطرافِ الأناملِ. وكان ذيلُه إلى أنصافِ ساقَيْه، وكذلك الإزارُ إلى عَضَلَةِ السّاق.

وكان رسولُ الله ﷺ يلبس شَمْلَتين بَيضاوَيْن من صُوفٍ، ومرةً سَوْداوين من شَعَرٍ، وكان ذلك يُسَمَّى حُلَّة، لأنّها ثوبين من جنس واحدٍ، وربما لبس ﷺ بُرْدَين يمانيين، أو سَحُولَيْن من هذه الغلاظ؛ من قرية «سَحُول» وهى فى اليمن، وفيهما كفِّن مع الثّالثة مثلهما. وربما كانت البردة مُخطَّطَةً بتَلْوِين الأَصْباغِ، كبُرودِ أهلِ اليَمن اليوم، وربَّما كانت خضراء كلّهَا من خَيطٍ واحد. وربّما كانت شملتُهُ بيضاءَ لا شيةَ فيها غير خيطِها الأَبْيض. وقد تكون لها صَنِيفَتَانِ سَوْدَاوانِ، أو خَضْراوان، أو حَمْراوان.

وقد لبس ﷺ يومًا واحدًا ثوب سيراء من سندسٍ قيمته مائتا درهم. كان المقوقسُ ملك الأسكندرية أهداهُ إليه؛ فأراد أن يكْرِمَهُ بلُبْسِه مع قَبولِ هديته، فلَبِسَهُ وخَطَبَ فيه فجعل الناسُ يَلْمَسُونَهُ ويعجبون منه. وقد لبس نحوهُ من قَميصٍ مغمَّد بحريرٍ أهداهُ إليه ملك الحَبَشة النَّجاشىّ، فخطب فيه مرةً واحدةً، ثم نزعَهُ، وأرسلَ به إلى رجُلٍ من المشركينَ وصلَه بهِ، ثم حرَّم لبس الحرير والديباج بعد ذلك. فقد يكون لُبسه إيّاه تَوْكيدًا للتّحْرِيم بعدَه كما لبس خَاتَمًا من ذَهَبٍ يومًا

(١) فى الإتحاف ٩/ ٣٥٧، ٣٧٩ ـ ٣٨٠.

واحدًا، ثم نزعَه فحرَّم لُبْسَهُ على الرِّجال. وكما قال لعائشة رضى الله عنها فى شأن بريرة: «اشْترطى لأهلِها الولاء». فلمّا اشْتَرطَتْه، صَعِدَ المنبر فَحرَّمه. فهذا يكون مؤكدًا للتحريم. فهذه حكمةٌ من الحكيم، وتعليمٌ من العليم. وكما أباح المتعة ثلاثًا، ثم حرمها لتوكيد أمر النكاح.

وقد يحتجُّ بمثل هذا علماءُ الدّنيا، ويطرِّقون به لنفوسهم، ويدعون الناسَ منهُ إليهم، ويُظْهِرون الدعوةَ إلى اللهِ تعالى علانية تأوُّلاً بمُتَشَابه الحديث، كما تأوّل أهلُ الزَّيغ مُتشابهَ القرآن على أهوائِهم ابتغاءَ الفتنة وطَلَبًا للدُّنيا، لأنَّ حديثَ رسولِ الله ﷺ على معانى كلام الله تعالى فيه: ناسخٌ ومنسوخٌ، ومُحْكَمٌ ومُتَشابه، وخَاصٌّ وعامٌّ. فعَدَلَ علماءُ الدّنيا وأهلُ الأهواء عن المحكَم السّائر من فِعْلِ رسولِ الله ﷺ وقوله إلى ما ذكرناه، كما عدلَت المرْجئةُ عَن كُلِّ آيةٍ مُحكَمَة قُرِن فيها العملُ بالإيمان، وجُعِل العملُ شرطًا لصحة الإيمان، إلى آيةٍ مُشْتَبهة ذُكِر فيها القولُ مجرَّدًا، وهى قولُه تعالى: **﴿فَأَثَابَهُمُ اللهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ﴾** [المائدة: ٨٥]، فتعلَّقُوا بِها، لقُربها من آرائِهم، ونَبَذُوا المحكَم ظِهريًا.

وقد صلّى رسول الله ﷺ فى خَميصة لها عَلَم، فلما سلَّم قال: «شَغَلَنى النَّظَرُ إلى هذِه، اذْهَبُوا بها إلى أَبى جَهْم، وائتُونى بأنبجَانِيَّتِه» يعنى كساءهُ. فاختار لُبس الكساءِ على الثَّوبِ النّاعم. وفى هذا حجّة على من كان إذَا أعجبَهُ الشىءُ واستحسنه كَسَرَه وأحْرقه. وفيه شاهدٌ ومحجَّةٌ لمن أَخْرج عن يده ما يَسْتَحْسِنُه، ويخافُ فتنتهُ؛ لحُصولِ الزُّهدِ بالإخراج، ولانتفاع الغير به. وفيه حجّةٌ على من ادّعى الزُّهْدَ بلُبْس النَّاعمِ، وأنّ ذلك لا يضرُّ الزّاهدَ، ولا يُخرجه عن حقيقة الزُّهد. وفيه إبطالٌ لمن ادّعى أنَّ النَّظرَ إلى الزِّينة لا يَشْغَلُهُ، أو أنَّ الرَّوْنَقَ والفتْنَةَ لا تَدْخُلُ عليه؛ إذا لا يَقْدر أن يقولَ: إنَّه غيرُ مقامِ الرَّسولِ ﷺ. فاعتبروا يا ذَوى البَصائِرِ والعُقَول تَمْويهَ الرَّاغِبينَ بالزُّهدِ مع استعمالِ الفُضُول.

وفرشتْ له عائشةُ رضى الله عنها ذاتَ ليلة فراشًا جديدًا، وكان ينام على عَباءة مَثْنِيَّةٍ، فما زالَ يتقلَّبُ لَيْلَتَهُ، فلمّا أصبحَ، وأعْلَمَتْهُ بذلك، قال ﷺ: «أعيدى

العَباءَةَ الخَلقة، ونحِّى هذَا الفراشَ عَنّى، قد أسْهَرنى الليلةَ».

وكذلك أتَتْهُ دَنانيرُ خمسةٌ أو ستةٌ عشاءً، فبيَّتها، فسهِرَ ليْلَته، حتى أخْرجها من آخرِ الليل. قالت عائشة رضى الله عنها: فنام حينئذٍ حتى سَمِعْتُ غَطيطَهُ. ثم قال: «ما ظَنُّ محمّدٍ بربِّهِ لو لَقِىَ اللهَ وهذهِ عِنده».

وحديث الحسن رضى الله عنه: أن النبى ﷺ لم يكن يبيِّت مالاً ولا يُقيِّلُه. يعنى: أنّه إن جاءه ليلاً أو عشاءً لم يبيِّته، وإن جاء غُدوةً لم ينتظر به القائلة.

وكذلك كان علىٌّ، رضى الله عنه، على سُنَّته وأثرِه فى هذا، لم يكن يجمع الأموالَ فى بيتِ المال، بل يفرّقُها فى الشَّهر مرّات، ويتعاهَدُ بيت المالِ فى كلّ جُمعة، فيفرِغُهُ من المالِ ثم يكنسُه ويرشُّهُ، ويصلّى فيه ركعتين، ويقول: يا صفراءُ ويا بيْضاءُ غُرِّى غيرى، ويُنشدُ:

هـذا جَنَاى وخِيارُهُ فِيـه إذ كلُّ جانٍ يدُهُ إلى فِيه

وكان ﷺ قد احتذى نَعْلين جَديدتَيْن، فأعجبه حُسنهما، فخرَّ ساجدًا، وقال: «أعجبنى حُسنهما، فتواضعتُ لربِّى عزَّ وجلَّ، خشيةَ أن يَمقُتَنى»، ثم خرج بهما فدَفَعهما إلى أوّلِ مسكينٍ رآه. وأمرَ عليًا فاحتذى له نَعْلَين سِبْتِيَّين. قال: فرأيتُهُ وقَدْ لَبِسَهُما، يعنى جَرْدَاوَيْن، أى معطوفَتين.

وهذا مِثلُ الحديثِ الآخرِ فى إخراجِ الخميصة زُهدًا فيها، وإخراجِ النَّعلِ ولم يَقْطَعْها، فيكون فَسادًا، إذ هو ﷺ يَنْهى عن إضاعةِ المال. إلا أن فيه شاهدًا لمن إذَا استَحْسَن شيئًا خافَ المقتَ عليه، إلا أنّه لا يَبْلُغ به إتلافَهُ، فيكونُ إفسادًا.

وفيه دليلٌ على دُخولِ التغيير والرَّدِّ إلى الصِّفةِ بالمناظرِ الحسنةِ، خِلافًا لمنِ ادّعى البَرَاءة من ذلك، كما ذكَرْناه آنفًا.

وفيه شاهدٌ آخر لمن تطَرَّق بالحُسن من الأشياءِ إلى الله تعالى، وشهد الحُسْنَ الأعلى بها، وكانت المحاسن طَرِيقًا إلى الحَسن الجميل، لأنّه ﷺ لمّا قال: أعْجَبَنى حُسنهما، خرَّ ساجدًا، فكان ذلك اقترابًا له من القريبِ، وتقرُّبًا به وتطرُّقًا إلى الحبيبِ، وقد قال: ﴿واسْجُدْ واقْتَرِبْ﴾ [العلق:١٩]. وكنَحو قَوله تعالى: ﴿انظُرُوا

إلى ثَمَرِه إذَا أَثْمَرَ ويَنْعِه إنَّ فى ذَلكُم لآياتٍ لقَوْمٍ يُؤْمنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩]، ففيه قرينةُ إيمانٍ للمؤمنِ البجير[١]، وعبرةٌ للعالم الخبير، لقوله: ﴿ومِنْ كلِّ شيءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعلَّكُم تذكَّرُونَ * فَفرُّوا إلى الله﴾ [الذاريات: ٤٩ ـ ٥٠].

فهذا طريقُ الواجدينَ بالله، المُسْتَهْتِرِين بذكْرِ الله[٢]، وهم السَّابقونَ إلى الله بالهِمَمِ العالية، المقرَّبُون عند الله بالأسرارِ الطّاهرة، كما قال ﷺ: «سَبَقَ المُفْرَدُون المُستهتَرون بذِكْرِ الله، وضعَ الذِّكْرُ أوزارَهُم فورَدُوا القيامَةَ خِفافًا».

وروينا فى خبرٍ: «أن شِراكَ نَعْله العَربىّ ﷺ كان قد أخْلَق، فأبدَلَه بسَيْرٍ جديدٍ، فصلّى فيه، فلمّا سلّم قال: أعيدُوا الشِّراك الخَلَقَ وانْزَعُوا هذا الجديدَ، فإنّى نظَرتُ إليه فى الصّلاة».

ولبس مرّةً ﷺ خاتَمًا، فنظَر إليه وهو على المنبر نَظْرةً فرمَى به وقال: «شَغَلَنى هَذا عَنْكُم، نَظْرَةٌ إليه ونَظْرةٌ إليكُم». قال: فلا يُدْرَى مَن أخذَهُ.

وقد يحتجّ بهذا مُحتجٌّ، لما كَرِهْناهُ من إتلافِ المنظور إليه، وليس فيه حجَّةٌ له؛ لأنَّه ﷺ لم يتلفه إذ لم يَرْمِ به فى بَرٍّ ولا بَحْرٍ ولا مَضغَهُ ولا أفْسَدَهُ، وإنّما نَزَعَهُ وَرمى به بين المسلمين، ووَهَبه لمَن أخذه، فجازَ ذلك عن وَجْدٍ فى الوقت وَجَدَهُ، وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ إنْ كُنْتُم تُحِبُّونَ اللهَ فاتَّبِعُونى يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

وقال رسول ﷺ: «مَن أحبنى فَلْيَستَنَّ بِسُنَّتى».

وفى الخبرِ المشْهُورِ: «عليكُم بسُنَّتِى، وسُنَّةِ الخُلَفاءِ الرَّاشِدِين المهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيها بالنَّواجذ».

وقد كان أبو محمد سهل، رحمه الله، يقول: من علامةِ حبِّ الله حبُّ النّبى ﷺ، ومن علامةِ حُبِّ النبى ﷺ حبُّ السُّنَةِ، ومن علامةِ حبِّ السُّنَّةِ الزُّهدُ فى

(١) البجير: أى العظيم البطن، ويقصد به الذى يشتهى الطعام والفاكهة، فإنه يستمتع بالنظر إلى الثمار.

(٢) المستهترون بذكر الله: المولعون به.

الدّنيا، فإنَّ القومَ كانُوا زاهدين. وقال مرّةً: ومن علامةِ حُبِّ السُّنّةِ بُغْضُ الدّنيا، وعلامةُ بُغْضِها أن لا تأخُذَ منها إلا زَادًا أو بُلْغَةً.

وقال ﷺ: «إنَّ أقْربَ الناسِ منّى مجلسًا يومَ القيامةِ مَن كان على مِثْلِ ما أنا عَلَيه اليومَ من الدُّنيا». فلذلك كان أبو ذر يقول لأصحابه: أنا أحَبُّكُم إلى رسولِ الله ﷺ، وأقربُكُم منه غدًا مَجْلسًا، قالوا: كيفَ ذَاكَ؟ قال: لأنِّى اليومَ على مِثْلِ ما فارَقْتُهُ عليه ﷺ، وكلُّكُم قد غيَّرتُم. هذا لِزُهْدِه.

وكان مالكُ بن دينار فى التّابعين بَدلاً عن أبى ذَرٍّ فى الزُّهْد؛ لأنَّه زادَ على أصحابِه فى التَّقَشُّف والزُّهْد بلُبْسِ الخَشن، وأكْلِ الجَشبِ، وتركِ الادّخار، وبَذَاذة الحال، ولم يكن يُغلِقُ بابَه، إنَّما يشدُّهُ بشَرِيط، وقال: لولا الكلابُ لَمَا شَدَدْتُهُ بالشَّريط. وإنّما قدّرناه بَدَلاً عنه؛ لحكايةٍ رُوِيناها عن بعضِ السَّلفِ الصّالحِ، قال: رأيتُ النبىَّ ﷺ فى المنامِ، فقلتُ: يا رسول الله أينَ بُدَلاءُ أمّتك؟ فأَوْمَأ بيده نحوَ الشامِ. فقلتُ: يا رسول الله، أمَا بالعَراقِ منهم أَحَدٌ؟ فقال: بلى، الحَسَنُ، ومحمدُ بن واسعٍ، وحسّانُ بنُ أبى سِنَان، ومالكُ بنُ دينار، الذى يسيرُ فى النّاس بمثلِ زُهْدِ أبى ذرٍّ فى زمانه. وهؤلاء من خيارِ التّابعين، وهُم من أبدالِ الصّدّيقين والعارفين. وأمّا الحَسَنُ، فإنَّ مالكَ بنَ دينارٍ كان يقول: أيّها الناسُ، مُعَلِّمى ـ وَالله ـ الحَسَنُ. به تأدَّب، ومنه تَعَلَّم، ولمْ يُفارِقْه حتَّى ماتَ، فهو بَدَل عنه. والحَسَنُ كان بَدَلاً عن صاحبِ السِّرِّ حُذَيفَةَ بنِ اليَمانِ. وهؤلاء أئمتُنا فى هذا العلمِ، بأنوارِهم نَستضىء، ومن مِشْكاتِهم نُضِىء، وعن جوهرهم (. . .)(١) أن نكونَ خلفاء عن سَلَف، ومتعرِّفين ممّن كان [عليه هؤلاء السلف. ثم يجىء](٢) الأخيرُ بعدَهُم: أبو محمدٍ سهل بن عبد الله، لم يكن فى عصرِه مثلُه، وكان بدلاً عنهم، وخلَفًا منهم. ثمَّ اللهُ أعلم حيث يجعل رسالاته، ولا حول ولا قوة إلا به. ورُوينا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اللهم اجعل رزقَ آل محمدٍ قُوتًا»، ومرة يقول: «كفافًا».

---

(١) تلف بالأصل قدر ثلاث كلمات.

(٢) ما بين المعكفتين أثبته اجتهادًا مكان التلف الذى بالأصل.

ولمّا ولِىَ [يزيد بن معاوية، لقى عبد الله بنُ عمر][1] الحسينَ بنَ علىٍّ عليهم السَّلام بمكة، وقتَ خُروجه إلى الكوفة، فقال له: لا تخرج، ولا تطْلُب هذا الأمرَ، فإنَّ الله عز وجلّ يزوى عنكم الدِّينار، وأنتم أهلُ البيتِ، اختار الله لكمُ الآخرةَ. وكذلك قال له ابنُ عبّاس رضى الله عنهما. فقال: قد جاءنى ثلاثمائة كتابٍ يستحثوننى على القُدوم. فعانقه ابن عباس رضى الله عنهما، وقال: أستودعك الله من قتيلٍ.

ويشهد لهذا الخبر الذى رُويناه فى تفسير قوله عزّ وجلّ: **﴿لَيْلَةُ القَدْرِ خيرٌ من أَلْف شَهْر﴾** [القدر:٣]، أنَّ رسُولَ الله ﷺ أُرى بنى فلان يصعدُون على منبره، يَخْطُبون رَجُلاً رجُلاً، فى نيِّف وثمانين سنة، فساءَه ذلك وكرهَه، كأنّه أحبَّ أن يكون ذلك فى غيرهم، فَنزلَتْ: **﴿ليلةُ القَدْر خيرٌ من ألْف شَهر﴾** ، وهى نيِّفٌ وثمَانُون سَنَة، جعلتُها لكَ ولأهلِ بَيْتك فى الآخرة، فهى خيرٌ لهم من ألْفِ شهرٍ مُدّة مُلك بنى فلان، فرضى بذلك وسَرَّه، وكان فيه عَزَاءٌ وسَلْوَةٌ، وكذلك كان الأمر، واللهُ غالبٌ على أَمْرِه، وكان أمرُ اللهِ قدَرًا مَقْدُوراً.

ورُوينا فى خبر: «ما مِن أَحَدٍ يومَ القيامة غَنِىٌّ أو فقيرٌ، إلا ودَّ أنّ رزْقَه كان فى الدُّنيا قُوتًا». وفى الأثر: «اللهمّ من أحَبَّنى وأجابَ دَعْوتى فأقْلِل مَالَه وولَدَهُ. ومن بَغَضِنى ولم يُجب دَعْوَتى، فأكْثِر مالَه وولَده وأَوْطِئْ عَقِبيه» يعنى كثرة الأتباع. وكانت هذه دعوةَ الصحابةِ على من ظَلَمهم أَوْ مَقَتُوه.

ولمّا كَتَب أبو الدّرداء إلى سَلْمان الفارسى رضى الله عنهم أجمعين؛ من [الأرض] المقدّسةِ إلى المدائنِ، يدعوهُ إلى بَيْتِ المَقْدس أن يكونَ معه فيه، ويُخْبره أنّه قد رُزق بعده مالاً وولدًا، وقد اشترى خادمًا. فأجابَهُ سَلْمَانُ: أمّا بَعْد، فإنَّك ذَكرْتَ أنّك رُزِقْتَ مالاً وولدًا، فلا تَفرح بذلك، إن يكثُرْ مالُك يكثُر حسابُك، وإن يكثُر عيالك يكثُر شياطِينُك، وإن تُخْدَم يقلُّ عونُ اللهِ لكَ، فإنّى سمعتُ النّبى

(١) هذا الموضع كان تالفًا بالأصل، فأتممته من التاريخ، انظر الخبر بلفظ قريب منه فى البداية والنهاية ١/ ٤٩٧ نشرة هجر.

ﷺ يقول: «لا يزال العبدُ من الله وعَونِه ما لم يُخْدَم، فإذا خُدِم وقع عليه الحساب». ولكن افرح بأن يكثُر عمَلُكَ، ويعظُم حِلْمُك، وتُباهى بعَبادة ربِّك. وكَتَبْتَ تدعونى إلى الأرضِ المقدَّسةِ. إنّ الأرضَ لا تقدِّس أحدًا، إنّما المؤمنُ يقدِّسه عملُه، والسَّلام.

فهذا كلامُ عالمٍ ربّانىٍّ، من أهْل بيتِ النُّبوةِ، قد أُوتى عِلْمَ الأوّلِ والآخرِ، وهو «منّا أهلَ البَيْتِ»، كذلك رُويناه.

ورُوينا فى الأثرِ مُجملاً لُمتجمِّلين: «ما أحدٌ أُعطى من الدنيا شيئًا إلا نَقَصَ من دَرجتِه فى الجنّة، وإنْ كان على الله كَريمًا». وبمعناه قد رويناه جملةً فى شأن الدُّنيا والآخرة: «نقصانُ الدُّنيا زيادةُ الآخرة، وزيادةُ الدّنيا نُقْصانُ الآخرة». فإنَّ الدّنيا والآخرةَ مثلُ كِفَّتى الميزان، رجحانُ أَحَدِهما بنُقصانِ الأُخْرى. وإنّهما كالمَشْرِق والمغْرِب، من استقبل أحدَهُما استدبَر الآخرَ.

فهذه جُمَلٌ، تُغْنى عن التفصيل وعن بعض ما رُويناهُ فى حقيقةِ الفقر، مرتّبًا على الغايةِ فيه، والنّهايةِ منه، وإن كان يحتاج إلى شرح وتفصيل، لاختلاف أحوالِ الفقراء، وتفاوُت مقاماتِ أهلِ المعرفة فى الزُّهد مع الموجود.

حُدِّثْناهُ فى أخْبارِ موسى عليه الصّلاة والسّلام، أنّه وصفَ الزُّهدَ لبنى إسرائيل، فقام إليه رجُلٌ منهم فقال: يا نبىّ الله، أنا منهم؟ قال: أنت إذا تَغدَّيْتَ تجد ما تتعشّى؟ قال: نعم. قال: اجلس لستَ منهم. ثم قام إليه آخر فقال: يا نبىّ اللهِ، أنا منهم؟ قال: أنتَ إذا تغدَّيتَ تجد ما تَتَعشى؟ قال: لا. قال: فَلَك ما تبيع؟ قال: نعم. قال: اجلس فَلَسْتَ منهم. وقام غيرُه فقال: يا نبى الله، أنا منهم؟ قال: إذا تغدَّيتَ تجد ما تتعشى؟ قال: لا. قال: فلك ما تبيع؟ قال: لا. قال: فلك من يُقْرِضُكَ؟ قال: نَعَم. قال: اجلس لَسْتَ منهم. ثم قام آخر، فقال: أنا منهم؟ فقال له مثل ذلك، إلى أن قال: فلكَ من يُقرضُك؟ قال: لا، ولا أملك من الدنيا إلا هذه الشملة من الصُّوف ولقد آذانى فيه الدّوابُّ، وأنا أستحى من ربّى عز وجلّ أن أنزعها فأُفَلِّيها وأتَعَرَّى بين يديه. قال: اجلس أَنتَ مِنهم[1].

---

(١) الخبر فى الإتحاف ٩/ ٣٨٠.

هذا الذى أراده موسى عليه الصلاة والسّلام من الزهد هو حقيقته، وهو زهد أولى العزم من الزهاد. وهذه الحال من عزائم الأُمور، وهذا الخبر من أشدّ ما رُويناه فى الفقر، وهو مشهور مِنَ الإسرائيليات. وقد روينا بمعناه خبرًا غريبًا عن نبينا ﷺ مثله فى الشدّة فى شأن الفقر، نذكره بعد تفصيل هذا الخبر، نسنده لأجل غرابته.

فأمّا تفصيلُ مقاماتِ الفَقْر فى الخبر الذى ذكرناهُ عن موسى عليه الصلاة والسلام، فهو المقام الأعلى من التحقّق بالفقر، ذاك أنَّ الزَّهدَ فى حالِ الفَقْرِ مقاماتٌ:

فالمقام الأوَّلُ: هو أن لا يجدَ الفقيرُ مَعْلُومًا غير ما حمل فى جَوْفِهِ، وعلى ظَهْرِهِ، وهذا هو حالُ الفقيرِ الأوّل، الذى قال له موسى عليه السلام: لستَ منهم. يعنى من أُولى العَزْم من الزُّهادِ، إذ لم يكن حالُه حالَ عزيمةِ الزّهد، لأجلِ وَجْد العِوَضِ المعتاض به، وهو فضْل ما يبيعُه من العِوَض، فقامَ له مقامَ المعلومِ من النَّقْد.

والمقامُ الثانى من الفَقْر فى الزُّهْدِ: هو فَقْدُ العِوَضِ الذى هو عَرَضٌ من النّاس، وهذا حال الثانى.

والمقامُ الثّالث: هو أن يَعْدَم الأَعْراضَ والأَعْواضَ، وليس هو حقيقةُ الفقرِ؛ لأجل بقاءِ الأسبابِ التى تقوم مقامَ الأعواضِ، وهو الجاه الذى يستقرض به فيُقْرَض، وهو أيضًا سَبَبٌ به يُعرَف، ولأجل مَعْرِفَته أُقْرِضَ، فهذا قد بقى له سَبَبٌ يَتَسَبَّبُ به، ومكانٌ يأْوِى إليه دونَ اللهِ، وعدَّةٌ يَعْتَدُّها مع اللهِ، وسُكونٌ يطمئنُّ إليه غيرَ اللهِ، ويُشَاهدُ الذى يُنظَرُ إليه به، ويُعْرَف فيُعْطَى عليه، فهذا يَحْجُبه عن حقيقةِ الفَقْرِ، وينقُصُهُ من عزيمةِ الزُّهدِ. فحسَب مُوسى عليه الصّلاة والسّلام وُجودَ الجاه له رغبةً منه هى دونَ اللهِ تعالى حتى يكونَ بالوصْفِ الذى وصفَ اللهُ به أولياءَهُ فى الغاية من قوله: ﴿حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأرضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ فهذا مَثَلُ فَقْدِ المعلومِ الذى تقومُ به الأشياءُ، وهو بمعنى حالِ الأوّلِ. ثم قال: ﴿وضَاقَتْ عَلَيْهِم

أَنْفُسُهُمْ﴾ فلم يبق له عِوضٌ يقوم مقامَ المعلومِ الذى له قيمةُ شىءٍ يَبيعُه، وهذا بمعنى حالِ الثانى. ثم قال: **﴿وَظَنُّوا أَلاَّ مَلْجأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ﴾** فهذا سقوطُ الأَعْواض بعد فقْدِ الأعراضِ، وعدمِ الجاهِ الذى هو سببُ الاسْتِقْراض، فلم يبق له جاهٌ يعوِّل عليه، ولا مَعْرِفَةٌ مِن الخَلْقِ، ولا سَبَبٌ بينه وبينهم ينظرُ بِهِ إليهم، ولم يبقَ بينه وبين اللهِ إلى اللهِ مأوًى يَسْكُن فيه، ولا ظلٌّ يَسْتَظِلُّ به، ولا مَلْجأ يَسْتَنِد عليه، حينئذٍ قال اللهُ بعد بلوغِ الغاية: **﴿ثُمَّ تابَ عَلَيْهِم لِيَتُوبُوا﴾** [التوبة:١١٨] بأن عطف عليهم لينْعَطِفُوا عليه، ونظر إليهم لينظروا به إليه، حينئذٍ كان من الله تعالى فى شىء.

فهذا وصف الثالث الذى قال له موسى، عليه الصلاة والسّلام: «أنتَ منهم». إذ قد تحقَّق بالفقْر، وبلَغ عزيمةَ الأمرِ، فلم يجد دون الله سببًا منفصلاً من مالٍ، ولا معنىً متصلاً من حالٍ، وهو الجاهُ والمنزلةُ الذى تقوم مقَامَ الأعراضِ فتسبَّبت به إلى الأسباب. ألم تسمع إلى الخبر الذى رويناه [عن] اثنتين: السؤال عن المال والجاه، إنّ العبدَ ليُسأل عن جاهه، كما يُسألُ عن ماله. فهذا وصف فقير فقير ونعت غريب، فكما روى عنه ﷺ أنه قال: (. . .)[1] جاءك، فقل له: كل فقير فقير».

فهذا العبد غريب عن الدار فى وطنه، غريب الوجد من سكَنه، غريب العلم من دمَنه، غريب الحال من أُمَّته، غريب فى غربته، غريبٌ مَنْ تَغرُّ به، غريب بمَغْربه، لا يَعْرِفُهُ أبناءُ جِنْسه، ولا يألفه أولو أُنسه، ولا يسكن إلى مسكنه (. . .) وجِنْسِه، متفردٌ من تَهَمُّسه، متوحِّدٌ بأنيسه من أُنْسه، قد طُمسَت نفسه فى رَمْسه، وشُغل بيومه عن غده وأَمْسه. فهذا مِن وحْشِ المَلَك فى داره وأُنْسه لزوّاره، وقد قَرّتْ عينُه بِقَرارِه، وفَرَّ من إيلافه وفرَّاره، وصفَت رُوحُهُ من أقذاره، فهو موضعُ نظرِه، ومَعْقِلُ خَبره، وغَيْثُ بلادِه، ورَوْحُ عِبادِه، ومن خالصِ وِدادِه. قد زهِدَ فى

---

(١) هذا الموضع والذى يليه تالف بالأصل، أحيانًا كلمة، وأحيانًا أكثر، وبرغم نقل الإتحاف كثيرًا منه إلا أنه اختصر بعض هذا الكلام فلم أجد التالف، انظر: ٩/ ٣٨٠.

زُهْدِه، وعَدِمِ وُجودُه بوَجْدِه، وفَنِيَتْ نَفْسُه عَنِ جُهدِه، وبقيت رُوحُه بِموجودِه[١].

وكذلك روينا أنَّ داود نبى الله عليه السلام سأل عن المعرفة وكأنّه تشوّق إليها، فأوحى إليه: «أنتَ لا بدَّ لك من سَبَدٍ ولَبدٍ، ومَن عَرَفَنى لم يسكن إلى سَبَدٍ ولَبد». السَّبَد: أَعْلاه من الرِّياش، واللَّبد: ما كان أسفل من قُماش.

وأما الخبرُ الذى رويناه عن نبينا ﷺ بمعناه، فحدّثنى عبدُ الكريمِ بن أحمد، قال: حدّثنى جعفرُ بن محمّد، قال: حدثنا الخوّاصُ عبدُ الله بن الحسن، قال: حدّثنى سَعْدُون بن سَهل بن عبد الرحمن المكىّ، عن المغيرة بن قيس، عن شَهْر ابن حوشب الأشْعَرِىّ، عن أبى أمامةَ، قال: أتَيْنا على أهلِ ماء فى سَفَرٍ لنا مع رسولِ الله ﷺ، وأسود مَوْلًى لهم ميِّتٌ بالأمسِ ليس له ثوبٌ يكفِّنُونَهُ فيه، وما عِندَهُم غاسل يُحْسِنُ غَسْلَه، قد قُطِع به لا يَدْرُون كيفَ يأتون. فهجمنا عليهم من الغد ظهرًا، وقد أَرْوَحَ، وتَرك القومُ خباءهم وخَرَجُوا كراهيةً لجواره، فكان أوّلَ منَ نَزَل منّا رسولُ الله ﷺ، فمشى حتى دخَل علَيه، فجاءَه القومُ يَعْتَذرون إليه من تَرْكهم إيَّاه، فانطلقَ النبىُّ ﷺ حتى قام على بِئْرٍ لهم عاديّة، فتَفَل فيها فاستحالَتْ عَذْبًا فاسْتَقَيْنا، وأمَر عليًا وأُسامة رضى الله عنهما فغَسَّلاهُ، وكفَّنه رسولُ الله ﷺ فى بردة له ما زادَه عليها، ثم صلّى عليه، وَوَلِىَ إدخالَه فى قبرِه علىٌّ وأسامةُ رضى الله عنهما، فلمّا فَرَغَ النبىّ ﷺ قال لأصحابه: «إنّه يُبعثُ يومَ القيامةِ ووجهُهُ كالقَمر ليلةَ البَدْرِ، ولولا خَصلةٌ كانت فيه لبُعث وَوَجهُه كالشَّمس الضّاحية». فقُلْنا: وما هى يا رسولَ الله؟ قال: «إن كان لصوَّامًا قوَّامًا كثيرَ الذِّكرِ لله عز وجلّ، غيْرَ أنّه كانَ إذا جاءَ الشِّتاءُ ادّخر حُلّة الصَّيف لصَيْفه، وإذا جاءه الصَيفُ ادّخرحلّةَ الشِّتاء لشتائه من قَابل». ثم قال: «من أقَلِّ ما أُوتيتم اليقينُ وعزيمةُ الصَّبْرِ، ومن أُعطى حظَّه منهما لم يُبال ما فاتَهُ من قِيامِ الليلِ وصيامِ النهارِ، ولأنْ تَصْبروا على مِثل ما أنتم علَيه أحبُّ إلىَّ من أن يوافينى كلُّ امرئٍ منكم بمثل عَمَلِ جميعِكُم، ولكنى أخاف أن تُفتح عليكم الدنيا بَعْدى، فيُنكر بَعْضُكُم بَعْضًا ويُنكركُم أهلُ السّماءِ عند ذلك، فمن صَبَر واحتَسَب ظَفَر بكمالِ

(١) فى الإتحاف: «بموجده».

ثوابه. ثم قرأ: ﴿ما عِنْدَكُم يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ الله باقٍ وليَجْزِيَنَّ الَّذين صَبَرُوا أجْرَهُم بأحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦]».

فلأجل معنى هذا الخبر بكى الصِّدِّيقُ أبو بكر، وسَلْمَان الفارسيّ صاحب علم الأول والآخر، فيما رُويناه عنهما رضى الله عنهما (. . .)[1] عن زيد بن أرقم، قال: كنا مع أبى بكر الصّديق رضى الله عنه، فدعا بشراب، فأُتى بماء وعسل، فلما أدناه من فيه بكى، حتَّى أبْكَى أصحابه، فسكَتُوا وما سكَت، ثم مَسَحَ عَيْنَيه. فقلنا: يا خليفةَ رسولِ الله، ما هاجَكَ على البكاء؟ فقال: إنى كنتُ مع رسولِ الله ﷺ فرأيتُه يدفع [عن نفسه] ويقول: «إليكِ عنّى» وما أرى أحدًا معه. فقلتُ: يا رسولَ الله تدفعُ عن نفسك شيئًا ولا أرى معك أحدًا. قال: «هذه الدنيا مُثِّلَت لى، فقلتُ لها: إلَيكِ عنِّى. فقالت: أمَا إن سلمتَ منى، فلن ينفلتَ منّى مَن بَعْدك»، فخِفْتُ أن تلحقنى.

وأبو عبد الرحمن الحبلى عن عامر بن عبد الله وحُميد الطويل عن مؤرّق العجلى، قالوا: دُخِل على سَلْمَان عند موتِه، فجزِعَ وبكى. قالوا: ما أجزعك وأبكاك أبا عبد الله، وقد كانت لكَ سابِقةٌ فى الخير، وشهدْتَ مع رسُولِ الله ﷺ مغازىَ حسنةً وفتوحًا عظامًا؟ فقَال: إنّ حبيبَنا حين فارقنا عَهِد إلينا ـ وفى الحديث الآخر: عهِدَ عهْدَهُ إلينا رسولُ الله ﷺ لم نَحفظْهُ ـ قال: «ليكن بَلاغُ أحدكم مِن الدنيا ـ وقال فى الآخر: يكفى المؤمنُ من الدُّنيا ـ كزادِ الرَّاكبِ»، فهذا الذى أجْزَعَنى. قال: فجُمع مالُ سلمان فكان قيمته خمسة عشر درهمًا.

وفى حديث حُميد عن مؤرق، فقلنا: ما يُبكيكَ يا أبا عبد الله؟ قال: ما أبكِى صبابةً إليكم، ولا ضنًا بِصُحْبتكم، ولكنّى أبكى لعهدِ عَهِدَهُ إلينا رسولُ الله ﷺ، فلم نأخذ به، قال: «ليكن بلاغكم من الدّنيا كزاد الرّاكبِ»، فلم نرضَ بذلك حتى جَمَعْنا ما تَرَوْنَ. قال: فقلَّبنا أَبْصارَنا فى البيْتِ فلم نرَ إلا إكافًا وقُرطاطًا. والقُرطاط: البرذَعَة التى تكون تحت الإكاف. قال: فبلغ قيمة ما ترك خمسة عشر دِرْهمًا.

(١) تلف بالأصل قدر كلمتين.

وكذلك بكى خباب بنُ الأرتِّ وأبو هاشم بن عتبة بن ربيعة على هذه الوصية بمعناه عن عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة، قال: عاد ناسٌ خبّابَ بن الأرتّ عند موته، فقالوا: أبشر أبا عبد الله، تَرِدُ على محمّد ﷺ الحوضَ. فقال: كيف بهذا وهذا، وأشار إلى أسفل البيت وأعلاه، وقد قال رسولُ الله ﷺ: «إنّما يكفى أحدَكم من الدّنيا مثلُ زادِ الرّاكبِ».

وأبو وائل عن سمرة بن سهم (. . .)[1] بن سعد قال: نزلتُ على أبى هاشم ابن عتبة بن ربيعة وهو مَعِينٌ [2]، فأتاه معاويةُ بن أبى سفيان يَعودُه. فبكى أبو هاشم. فقال معاوية: ما يبكيك؟ أى حالٍ: أوَجَعٌ صيّرَكَ، أم حرصٌ على الدنيا فقد ذهَب صفْوُها؟ فقال: كلٌّ لاَ، ولكنّ رسولَ الله ﷺ عهد إلينا عهْدًا، وَددت أنّى كنت تَبعتُه، فقال: «لعلّكَ أن تُدْرِكَ أموالاً تَعتَم عينَ أقوامٍ، وإنّما يكفيك من ذلك خادمٌ ومَركَبٌ فى سبيلِ الله». فأدركتُ فجَمَعْتُ.

كذلك بكى سعيدُ بن عامرِ بن جذيم أميرُ أهلِ حمص، لمّا بعثَ إليه عمرُ رضى الله عنه بألف دينارٍ يُنْفقُها على نَفْسه وأهْله، بعد أن ذُكر له فَقْرُه وشدّةُ حاجته، فسُئل عن بُكائه، فقال: أتَتْنى الفتنةُ، وجَعل يَسْتَرجِعُ حين رأى المالَ دنانيرَ، وكان حَسْبُه درَاهم، وجعل يقول: دخلتْ عليَّ الفتنةُ فى بيتى، ألا وشرُّ أيامى أيّامُ عُمَرَ، ثم جعل يُفرِّقها صُررًا، حتى أنفدَها، فقالت له امرأتُه: لو حبَسْت منها شيئًا نستعينُ به. فقال: إنّى سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لو أنّ امرأة من نساءِ الجنةِ أشْرَقَت إلى الأرْضِ لملأت الأرضَ من رِيح المسك، ولأذْهَبَ ضوءَ القمرِ والشّمس نورُ وجهها». وقال مرة: «لأشْرَقَتْ لها الأرضُ كما تُشرق الشمسُ لأهل الدنيا، ولَنَصيُّها الذى على رأسها خيرٌ من الدُّنيا وما فِيها». واللهِ ما كنتُ لاختاركِ علَيْهنّ، فَسكَتَتْ.

ورواه مالكُ بنُ دينار عن شَهْر بن حوشب قال فيه: فجعلَ يُصَلِّى ويَبْكى تلك الليلةَ حتى أصبحَ. ثم قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «يدخُلُ فقراءُ المسلمِينَ

(١) تلف قدر كلمة.

(٢) معين: أى أصابته عين حاسدة فأمرضته.

الجنةَ قبلَ الأغنياء بخَمْسين عامًا، حتَّى إنَّ الرَّجُلَ منَ [الأغنياء](١) يكونُ فى غمارهم، فيُؤخَذ بيده، فيُستخرج». قال سعيدُ بن عامر: فأرادَ عمرُ أن يجعلَنى ذلك الرّجلَ، فما يسرّنى أنّى ذلك الرّجل، وأنّ لى الدُّنيا بما فيها.

ورواه عبدُ الرَّحمن بنُ سابطٍ، فقال فيه: ما أنا [بمتأخر](١) عن الأَمْرِ الأوَّلِ بعد إذ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يجيء فُقراءُ المسلمين يَزِفُّون كما يَزِفُّ الحمامُ، فيُقال لهم: قِفُوا للحساب، فيقولون: والله ما تركنا شيئًا نُحاسب عليه. فيقولُ الله تعالى: صَدَقَ عبادى، فيدخلون الجنة قبلَ الناسِ بسَبْعين عامًا». وزاد غيرُه: فواللهِ ما يَسُرّنى أنّى أُخِّرت عن الرعيل الأول وأنّ لى الدّنيا وما فيها.

وكذلك قالت زينبُ بنتُ جحشٍ رضى الله عنها، لَمَّا أرسلَ إليها عمرُ رضى الله عنه قِسْمها من مالِ البحرين. قال عبدُ الله بن رافع: فلمّا جاءَ الرَّسولُ، قالت: ما هَذا؟ قال: أرسلَ به إليكم عمرُ رضى الله عنه. قَالت: غفر اللهُ له، لقد كان عندى أقْوى على قِسْمه هذا منِّى. قال: فإنّ هذا كلَّه لك، وكان آلافًا كثيرةً، فقالت: سبحانَ الله! ضَعُه، اطْرحُوا عليه ثَوْبًا، ثم قالت: أَدْخِل يدَكَ فاقبض منه قبضةً قبضةً، اذْهَبوا بها إلى بنى فلان، ثم جَعلَت تَقبض من تحت الثَّوب، تُرسِله إلى الأيتامِ والمساكين، حتى أنفدَتْه، ثم رفعتْ يديها، فقالت: اللهمَّ لا يُدْرِكنى عَطَاءُ عمرَ رضى الله عنه بعدَها، فكانت أوّلَ أزواجِ النّبى ﷺ لُحوقًا به. وقد كان رسول الله ﷺ أخبر أزواجَهُ بذلك، وهُنّ مُجتمعات عنده، فقال: «أسْرَعُكُنّ لُحوقًا بى من أَزْواجى أَطْوَلُكنَّ باعًا بالنَّفقةِ». فلم يكن منهنّ أجودُ بالعطاءِ وأسخى بالمالِ من زَينب، فأسرعت به لُحوقًا.

ثم بعدها عائشةُ فى الجُودِ والسَّخاءِ والزُّهد والعَطاء. ذكرهُ محمدُ بن المنكدر عن أم دُرّة، قالت: بعثَ إليها ابنُ الزبير بمالٍ فى غِرارَتَيْن. قالت: أراه ثمانين ومائة ألف، فَدَعت بطَبَق، وهى يومئذ صائمة، فجعلت تُقَسِّمُه بين الناسِ فأمسَتْ وما عندَها من ذلك درهم. فلمّا أَمْسَتْ قالت: يا جارية، هَلُمّى فِطْرى، فجاءتها بخبزٍ وزيت. فقالت لها أم درّة: أما استطعتِ مِمّا قَسَّمْتِ اليَوْمَ أن تشترين لنا

(١) ما بين المعكفات اجتهاد منى، لتلف الأصل.

بِدِرْهمٍ لحمًا نُفطر عليه. قالت: لا تُعنِّفينى، لو كنتِ ذكَّرْتنى لَفَعَلْتُ.

وروى هشام بن عُروة عن أبيه أنّ معاويةَ بعث إلى عائشة مرَّةً بمائة ألف. قال: فوالله ما غابت الشَّمسُ من ذلك اليومِ حتَّى فرّقتها. فقالت مولاةٌ لها: لو اشتريتِ لنا من هذه الدّراهم بدرهمٍ لحمًا. فقالت: لو قُلتِ لى قبل أن أُفرِّقَها لَفَعَلْتُ.

وقال تميمُ عن عِروة بن الزُّبير: لقد رأيتُ عائشةَ تَتَصَدَّقُ بسبعينَ ألفًا وإنها لترَقَع جانبَ دِرْعِها. ورواه حجّاج عن عطاء، قال: بعث معاويةُ إلى عائشة بطَوْقٍ من ذَهَبٍ فيه جوهرٌ قُوِّم بمائة ألف، فقَسَّمته بين أزواجِ النّبى ﷺ.

وقال أبو راشد التنوخى: سمعتُ [أنه] إذا دَخَلَتْ إلى أحدهم الدنيا، قال: إليكِ إليكِ يا خنزيرةُ، استْأخِرِى عنَّا، لا حاجةَ لنا فيك، إنا نعرف إلَهنا.

هذا كله خشيةَ الفتنة بها، إذ الفتنةُ بالمال لا تُحْصى، لا يَعْرِفها إلا البُصراءُ. وجُمَلُ الفتنة بها: أَخْذُها مِن غَيْر حِلِّها، أو وَضْعُها فى غيرِ أهْلِها، أو منعُها من حقِّها. وجُمَلُ حبِّها والحرصُ عليها: الظلمُ على شىءٍ منها، أو الجمعُ والإمساكُ لها، والحسدُ والفَخْرُ بها، وأنه لا يُعطى الفقراءُ منها. فتدبروا فُروعَ هذه الفِتَن.

وروينا عن عيسى ابنِ مريم عليه الصّلاة والسلام: «أَنَّه طلبَ أن يرى الدنيا، فرآها فى صُورة عجوز هيماء، عليهَا من كل زينة، فقال لها: يا امرأة، كم تَزوَّجْتِ؟ قالت: ما أحْصَيْتُهُم عَدَدًا. فقال: كم ممن تَزَوَّجْتِيهم ماتَ عنْك؟ قالت: بل كلُّهم قَتَلْتُ. فقال: عجبًا من أَزْوَاجك الباقين كيفَ لا يَعْتَبِرُون بأزواجِك الماضين هَلَكَتكِ لهم واحدًا واحدًا، ولا يكونُوا منك على حَذَر».

وقد كُوشف بهذه الصُّورة بعضُ أبدال هذه الأُمّة، فقال: رأيتُ الدنيا فى صورة عجوز كبيرة عليها حُلِىٌّ ومُصبَّغات. قال: فقلتُ: أعوذُ باللهِ منك. قالت: لا واللهِ لا يُعيذُك اللهُ منِّى حتى تَبْغَض الدِّينارَ والدّرهم.

ورواه حُميدُ بن هلال عن علاء بن زياد، وكان من البُدَلاء، قال: رأيتُ الناسَ فى النّوم يتبعون شيئًا فاتَّبَعْتُه، فإذا عجوزٌ كبيرةٌ عَوْراءُ هَيْماء، وإذا عليها من كل حِلْيةٍ وزِينَةٍ. فقلتُ: من أنتِ؟ قالت: أنا الدُّنيا. قلتُ: أسأل اللهَ أن يُبغِّضك

إلىَّ. قالت: نعَم، إن أبغضتَ الدِّرهم. الهيماء: مكسَّرة الأسنان.

ومِمّا رُويناهُ من دعاءِ أهلِ البَيْت عن زيدِ بن على رضى الله عنهما: «اللهمّ إنّى أسألُكَ سُلُوًا عن الدنيا، وبُغْضًا لها ولأهْلِها، فإنَّ خيرَها زَهيدٌ، وشرَّها شديدٌ، وجمعها يَبيدُ، وما فاتَ منها حَسْرَةٌ، وما أُصيبَ منها فتنةٌ. أسألُكَ اللهمَّ منها العصْمةَ، وأن لا تَجْعَلْنا كمَن رَضِىَ بها، واطمأنَّ إليها، فإنّ مَن أمِنها خانَتْهُ، ومَن اطمأنَّ إليها فَجَعَتْهُ».

وأُنْشِدتُ لبَعْض الزَّاهدين فيها:

خفِّض هداكَ اللهُ مِنْ حَالِكَا	وافْرَحْ بما قَدَّمْتَ مِن مالِكا
ما يَنبغى أنْ كُنْتَ ذَا فِطْنَةٍ	أن تَخْطُرَ الدُّنيا علَى بالِكا
لا تأمَنِ الدُّنيــا على غِـرَّةٍ	كم غَـدَرَتْ قَبْلُ بأشْكالِكا
كم مضَى فى النّاس مِن هالكٍ	وهَـالكٍ حتّى يُرَى مَهـالِكـا
فانظر سَبيـلاً سَلَكُـــوه ولَا	تَحْسِـب بأنِّى لسْتُ له سَالِكـا
أصبحـتِ الدُّنيـا لنـا عِبرةً	والحمـــدُ للهِ على ذَالِكـا
اجتمـع النّـاسُ عَلَى ذَمِّهـــا	ومــا أرَى مِنهم لَهـا تارِكا

وكان فتح الموصلى يقول: الدُّنيا ناؤُوس خَرِب، والمؤمن نَظيفٌ كريمٌ لا يُطيف نفسَهُ إلى التّطلع فى النَّواويس. أى [مقابر] يجتمع فيها عظامُ مَوتى المجوسِ، فشبَّه مُحبِّى الدُّنيا الذين جَمَعَهُم حبُّها على مُعانَقَتِها وكُرْهِ فُراقها فى عدَمِ اليقِين بمَوْتى المشركين. وكان فتح الموصلى يدخل على أهله بعد عِشاءِ الآخرةِ، فيجدهم جِياعًا عُراةً ليس لهم ما يَتَعَشَّوْن به، ولا ما ينامون فيه، وهم فى ظُلْمة بلا مِصْباحٍ، وربّما لم يجد عندَهم ما يَشْرَبُونه. وكان ليلتَهُ يبكى من الفَرَح والسُّرور، ويقول: بأىّ يَد كانت منّى؟ بأى شىء فعلتُ فى هذا الذى تصنَعُهُ بأوليائك وبأنبيائك؟ وربّما بَقى هو وأهلُه أيّامًا على هذه الحال.

وكذلك رُوينا بمعناه عن الله سبحانه لمّا بَعَثَ مُوسى عليه السلام إلى فرعونَ،

كان فيما قال له: «اسْمَع كَلامى واحفَظ وصيّتى، لا يُعجِبنَّكُما زينتَهُ ولا ما مُتِّع به، يعنى فرعون، ولا تمدان إلى ذلك أعينكما، فإنها زهرة الدّنيا، وزينةُ المترفين. ولو شئتُ أن أزيّنكما بزينةٍ من الدنيا لا تقوم لها الدنيا وما فيها، ولكنى أرغب بكُما عن ذلك، وأذودُه عنكما، كذلك أفعل بأوليائى، وقديمًا خِرْتُ لهم فى أمورِ الدنيا. إنّى لأَذُودهم عن نعيمها ورحابها كما يذودُ الرَّاعى الشّفيقُ غنَمَهُ عن مراتعِ الهَلَكة. وإنّى لأجنِّبَنَّهم رخاءَها وسَرَّاءها كما يُجنِّب الرّاعى الشّفيقُ إبلَه عن مبارك العُرم[1]. وَما ذَاك لهوانِهم عَلَيَّ، ولكن ليَسْتكْمِلُوا نَصيبَهُم مِن كَرَامَتى أَلمًا مُوفَّرًا لم تُكْمِلْهُ الدنيا، ولم يُنقِصْهُ الهوَى (. . .)[2] إنه لم يتَزَيَّن لى العُبَّادُ بزينةٍ هى أبلغ عندى من الزُّهْدِ فى الدنيا، فإنها زينةُ الأبرارِ عندى، وأحسنُ ما تزيّن به العُبّاد، وهى زينةُ المتقين، عليهم منها لباسٌ يُعرَفون به من السّكينة والخشوع والتحوُّل والسُّجود، أولئك هم أوليائى حقًا حقًا. فإذا لقيتَهُم فاخفِضْ لهم جناحَك، وذلِّل لهم قلْبَكَ ولِسانَكَ.

وبذلك جاءت الأخبارُ عن نبيّنا ﷺ فى وصْفِ أولياء الله وأحبّائه فى الدّنيا، وذكر حُسْنِ بلاءِ الله فى صَرْفِها عَنْهُم، إذ جعلَهُم فى سِجْنه الكريمِ، ولم يجعل الدّنيا جنَّتهم، وابْتَلاهم فِيها، وعصَمَهم مِنها، ووفَّر لهم نَصيبَهم، وأجْزل عطاءَهم من دارِه دارِ السَّلام فى مُستَقرِّهم ومَثْواهم بمنزل المقامِ، طوبى لهم وحسن مآب، وهنيئًا مَرِيئًا لأهله أُولى الألباب.

فمن جُمَلِ ما جَمعناه ممّا رُويناه مُتَفرّقًا، ممّا فيه غُنيةٌ وكفايةٌ لذَوى الأبْصارِ، وبه تفكُّرٌ وهدايةٌ لأُولى الأفكارِ، ما نَذْكرهُ مختصرًا من حديث حُذَيفة رضى الله عنه، وهو إمامُنا فى هذا العلمِ، وهو صاحبُ السِّرِّ، قال: إنَّ أَقَرَّ أيّامى لعَيْنَىّ يومٌ أَرْجِعُ إلى أهلى وهم يشكُون الحاجةَ، والذى نفسُ حذيفةَ بيده لَسَمعْتَ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ اللهَ عزّ وجل ليتعاهد عبدَهُ المؤمنَ، كما يتعاهد الوالدُ ولدَه بالخَيْر. وإنّ اللهَ ليَحْمى عبدَهُ المؤمنَ من الدّنيا، كما يحمى المريضَ أهلُه مِنَ الطّعام».

---

(١) العُرم: يقصد الأماكن الصلبة الوعرة.

(٢) تلف بالأصل قدر كلمتين.

وقال فيه رافعُ بن خَديج عن رسولِ اللهِ ﷺ: «إنَّ اللهَ إذَا أحبَّ عبدًا حَماهُ الدّنيا كما يُحمى السقيمُ الماءَ».

ويُصَدِّق قولَ الصّادقِ ما سَلَفَ من سيرةِ اللهِ وسُنَّتِه التى قد خلَت فى أوليائه الصّادقين: أنَّ نبيًا من الأنبياء مرّ بِساحِلِ بحرٍ، فإذا رجلٌ يصطادُ حيتانًا فقال: بِسم الله، فألقى شبكَتَهُ فلم يَخْرج فيها حُوتٌ واحدٌ. ثم مرَّ بآخرَ يقول: بسم الشيطان، فخرج فيها من الحيتانِ حتى جعلَ الرَّجُل يتقاعس من كَثْرتها. فقال النبىُّ عليه السّلام: ربِّ، هذَا الّذى دَعاكَ ولم يُشرِكْ بكَ شيئًا ابتليْتَهُ، بأن لم تُخرج فى شبكتِه شيئًا، وهذا الذى دَعا غيرَك ابتليتَهُ، فخرجَ فى شبكته ما لا يُحصى من كَثْرته، وقد علِمْتُ أنَّ ذلك بيدك، فَأنَّى هذَا؟ فقال عزّ وجل: اكْشفُوا لِعبدِى عن مَنْزِلَتِهما عِندى، فلمّا رأى ما أعدَّ اللهُ لهذا من الكرامةِ، وما أعدَّ لهذا من الهَوانِ، قال: رضيتُ يا ربِّ.

وكذلك رُوينا أنَّ موسى ﷺ ذكَر ما يَصنَعُ اللهُ بالمؤمنِ من البلاءِ ويَزْوِى عنه من الدنيا، وما يصنعُ بالكافرِ ويُعطيه من الدّنيا. فأمرَ اللهُ عز وجل بجهنم تَجلَّى له عنها حتَّى نظرَ إليها، فقال: ما يَنْفَعُ الكافرَ ما كان فيه من الدُّنيا حين يكونَ إلى هذا مصيرُهُ. وأمَرَ بالجنَّة تَجَلَّى له عَنها حتى نظَر إليها، ثم قال: ما يضرُّ المؤمنَ ما كانَ فيه من الدُّنيا إذا كان إلى هذا مصيرُهُ.

مع الخبر الآخر: «التقى مَلَكان، فقال أحدُهما لصاحبه: إلى أينَ؟ فقال: أُمِرْتُ بِسَوْقِ حوتٍ اشْتَهاهُ فلانٌ الكافرُ، عُجِّل له شهوَتُهُ فى الدُّنيا. وقال الآخر: أُمِرْتُ بدَفْقِ زَيْتٍ اشْتهاهُ فلانٌ العابد، يُزْوَى عنه اليومَ، ويُعْطاهُ غدًا».

إلى الخبرِ الأعظم فى مُجمل الدّنيا: «إنّها تجىءُ يومَ القيامةِ فى صُورةٍ قَبيحةٍ فتقول: يا رَبِّ أنا الدنيا فاجعَلْنى لأدْنى أهلِ الجنة منزلةً. فيقول لها تعالى: أنتِ أقلُّ من ذَلك، أنتِ أحقرُ مِن ذلك، أنتِ وأهلُكِ إلى النار». ورُويناه بلفظٍ آخر: «ميِّزوا ما فيها لى، وألْقُوا سائرها إلى النّار». قال فى كتابه: ﴿**وما عندَ الله خَيْرٌ وأبْقَى لِلّذينَ آمنُوا وعَلى ربِّهِم يَتوكَّلُونَ**﴾ [الشورى:٣٦]. هو ما يُراد به وجهُه من

عِلْمٍ نافعٍ يَقينٍ، وعملٍ صالحٍ مستقيمٍ، ﴿واللهُ خَيْرٌ وأبْقَى﴾ [طه: ٧٣]، ﴿والآخرةُ خَيْرٌ وأبْقَى﴾ [الأعلى: ١٧]، ﴿والبَاقياتُ الصَّالحَاتُ خَيْرٌ عندَ ربِّكَ﴾ [الكهف: ٤٦]. كما جاء مُفَسَّرًا بمعناه: «الدُّنيا مَلْعُونةٌ مَلْعُونٌ ما فيها، إلا ذِكرُ اللهِ وما والاهُ، وما آوَى إليه، أو عالمٌ أو متعلِّمٌ».

فأقلُّ ما يُفيدُ هذه الأخبارُ ـ من بعْدِ التفكُّرِ فيها والاعتبارِ لأولى الأيدى والأبصارِ ـ أن لا يحزنَ العبدُ بِضيقِ ماله(١)، ولا يَغْتَمَّ على مُصابٍ منها أصابه، ولا يفرحَ ولا يعجبَ بما وُسِّعَ عليه فيها، بل يخافُ ويُشْفِق من ذلك، ولا يُزرِى على الفُقراء، ولا يحتَقِر المساكينَ، ويتمنَّى ويطلبُ منازلَ الزَّاهدين، هذا أولُ نصيبِ المؤمنِ من عِلْمِ اليقينِ، إن لم يُعْطَ درجاتِ الصَّادقين، ولم يُرفع إلى مقاماتِ الصِّدِّيقينَ، ولم يَتحقَّق بكَشْفِ عينِ اليَقين.

رُوينا عن مالكِ بنِ دينار عن أنسِ بنِ مالك قال: قال رسولُ الله ﷺ: «من أصبحَ حَزينًا على الدُّنيا أصبحَ ساخطًا على ربِّهِ. ومن أصبحَ يَشْكُو مُصيبةً نزلَتْ به فإنّما يشكُو ربَّه. ومن تَضَعْضَعَ أو تواضَعَ لِغنيٍّ لينالَ من فَضْلِ ما فى يَدَيْهِ أحبطَ اللهُ ثُلُثَى عَمَلِه».

ورواهُ فرقدٌ السَّبخى عن أنسٍ عن النبى ﷺ مُجملاً: «من أَصْبَحَ هَمُّهُ غيرَ اللهِ، فليس مِن اللهِ»، مُفَسَّرًا فى غيرِهِ: «همَّ آخرتِهِ لا دُنْياه».

ورواه يزيدُ بن أبان عن أَنَس مَشْروحًا فى ذكر الدنيا، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ كانت نِيَّتُه طَلَبَ الدّنيا، شتَّتَ اللهُ عليه أمْرَهُ، وجعلَ فَقْرَهُ بين عينَيْه، ولم يُؤْتِه من الدُّنيا إلا ما كَتَبَ له. ومن كانت نِيَّتُه طَلَبَ الآخرةِ، جمَعَ اللهُ شَمْلَهُ، وجَعَلَ غِنَاهُ فى قلبِه، وأَتَتْهُ الدُّنيا وهى رَاغمة».

ورواه الرَّبيعُ بن صَبِيح، فقال فيه: «من كانت الآخرةُ همَّهُ، جعل اللهُ غناه فى قَلْبِهِ» ثم ذكره، وقال: «من كانت الدنيا همَّهُ، فرَّق اللهُ شَمْلَه، وجعلَ فقرَه بين عينيهِ، ولم يَأْتِه من الدُّنيا إلا ما قُدِّر لَهُ». وزاد فيه الحسنُ عن أنسٍ قال: قال

(١) فى الأصل: «باله»، ولعل الصواب ما أثبت.

رسولُ الله ﷺ: «إنَّ العبدَ إذَا كان همُّه الدّنيا وَسَدمُه[١]، أفْشَى اللهُ عليه ضَيْعَتَهُ، وجعل فقْرَهُ بين عينيه، ولا يُصْبحُ إلاّ فَقيرًا، ولا يُمسى إلا فَقيرًا. وإنَّ العبدَ إذا كانت الآخرةُ همَّه وسدَمَهُ، جمعَ اللهُ له ضَيْعَتَهُ، وجعلَ غناهُ فى قَلْبه، ولا يُصبح إلا غَنيًا ولا يُمسى إلا غَنيًا».

وفى حديث أبى موسى الأشعرى، أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «من أحبَّ دُنياه أضرَّ بآخرته، ومن أحبَّ آخرتَهُ أضرّ بدُنياه، فآثروا ما يَبْقَى على ما يَفْنى». ورواه ابن مَسعودٍ فقال فيه: «من أراد الآخرةَ أضرَّ بدنياه، ومن أرادَ الدُّنيا أضرَّ بالآخرة».

فإذا كانت إرادةُ الدنيا تضرُّ بالآخرةِ، فكيفَ بالسَّعى لها والحرصِ عليها؟ وإذا كان إرادةُ الآخرةِ تضرُّ بالدنيا، فكيف بمن أحبَّ الآخرةَ وسعَى لها وعملَ فى أسبابِها، وحَرَصَ عليها، وأحبَّ أبناءها وأهلَها، وبذَلَ نَفْسَه ومالَه لأولياءِ الله وأحبابِهِ فيها؟ أىُّ دُنيا تبقى له، وأى إضرار بدُنياه لا يضر بهِ؟ فتدبّره.

وفى حديث الحسن: «مرّ رسولُ الله ﷺ بمَزْبلَةٍ، فقال: مَنْ سرَّهُ أن ينظرَ إلى الدُّنيا بحذَافيرِها، فلينظر إلى هذه المزبلة: «ثم قالَ: لو أن الدنيا تَعْدل عندَ الله جَناحَ ذُبَابةٍ ما أَعْطَى منها كافرًا شيئًا». ثم ذكر الموتَ وغمَّهُ وكمدَهُ وعلَزه[٢]، فقال: «ثلاثمائة ضربةٍ بالسَّيف».

وكذلك فعل الحسنُ رضى الله عنه: أنّه مرّ على مَزْبَلَةٍ فاحتبسَ عندها، فكأَنَّ أصحابَهُ تَأَذَّوْا بذلك، فقال: هذه دُنياكم التى تَحْرِصُون عليها. وكان بشرُ بن كَعْب رضى الله عنه يقول: انطلِقُوا حتّى أُرِيكُم الدّنيا، فيذهب بهم إلى السُّوق، وهى مَزْبَلَة، فيقول: انظروا إلى ثِمارِهم ودَجاجِهم وعَسَلهم وسَمْنهم. قال الحسنُ رحمه الله: قد رأيتُهم يُطيِّبونه بالأفاويهِ والطِّيبِ ثم يَرْمُونَ به حيثُ رأَيتُم.

وقد قَالَهُ رسولُ الله ﷺ للضّحاك بن سُفيان الكِلابى، وضربه مَثَلاً، فقال:

---

(١) السَّدَم: هو الولوع بالشىء واللهج به.

(٢) العلَز: هَلَعٌ يُصيب المحتضر والمريض.

«ألستَ تُؤتَى بطعامكَ وشَرابكَ قد صلُح وقُزِّح[١]، ثم تَشربُ عليه من اللّبَنِ والماء؟ قَال: بلَى. قال: فإِلَى مَا يصيرُ؟ قال: إلى ما علمتَ يا رسولَ الله. قال رسولُ الله ﷺ: فإنَّ اللهَ ضربَ مَثَلَ الدّنيا لِما يصيرُ إليه طعامُ ابنِ آدم».

ورواه يحيى السَّعْدىُّ عن أُبَىٍّ بن كَعْب عن رسول الله ﷺ، قال: «إنَّ اللهَ ضربَ الدّنيا لِمَطْعَمِ ابنِ آدَم مَثَلاً، وضربَ مَطعَمَ ابنِ آدم للدّنيا مَثَلاً، وإن قَزَّحَهُ ومَلَّحَهُ، فانظر ما يَخْرجُ مِن ابنِ آدم».

وقال رجلٌ لابن عُمر: إنّى أُريدُ أن أسألكَ عَن شَىء، وإنّى أسْتَحْيِيكَ. قال: فلا تَسْتَحِى، سَلْ. قال: إذا قَضى أحدُنا حاجتَهُ، قام ينظرُ إلى ذلك منه. قال: نَعَم، إنّ المَلَكَ يقول: هذا ما بَخِلْتَ به انظُر إلى ما صار.

فهذه مشاهدةُ أُولى الألبابِ الذين فَهِمُوا عن اللهِ باطنَ الخطابِ، من قوله تعالى: ﴿وفى أَنْفُسِكُمْ أفلاَ تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١] قيل: مجارى الطعام والشَّراب إلى ما يَؤُول، فيزهدون فى أوّله، إذ قد كُوشِفُوا بآخرِه، إنَّ فى ذلك لذِكْرى لِمَن كانَ لَه قَلْب.

ولذلك كان رسولُ الله ﷺ يقول ـ إذا عُوتِب عَلَى تَبَذُّلِه ونومه على الأرض ـ: «ما لى وللدّنيا، ما أنا والدّنيا، ما مَثَلِى ومَثَلُ الدّنيا إلاّ كراكبٍ سارَ فى يومٍ صائفٍ، فاستظَلَّ تَحْتَ شَجرةٍ ساعةً مِن نِهارٍ، ثم راحَ وتَرَكَهَا».

وقال الله تعالى، بمعنى السَّير إليه: ﴿يا أَيُّها الإنسانُ إنَّكَ كَادِحٌ إلى ربِّكَ كَدْحًا فمُلاقيه﴾ [الانشقاق: ٦].

وفى ألفاظِ أخبارٍ جمعناها من أواخرِ أحاديثَ عن جماعةٍ من الصّحابة: عتبة ابن عامر، وأبو سعيد الخُدرىّ، وعَمرو بن عوف، وغيرهم، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال فى خطبته، وقد شكَوْا إليه الفقْرَ والجوعَ والحاجةَ: «إنّى واللهِ ما أخافُ عليكُم أن تشركوا بَعْدى، ولكنّى أخافُ عليكم ما يُخرجُ اللهُ لكم من زَهْرَةِ الدُّنيا. واللهِ ما الفَقْرُ أَخْشَى عليكم، ولكنّى أخشى عليكم أن تُبسَط الدّنيا عليكُم كما بُسِطَتْ

(١) قُزِّح: أى جُعل فيه التوابل.

على مَن كان قَبْلَكُم، فتَنَافَسُوها كما تَنافَسُوها، فتُهْلِكَكُم كما أهْلَكَتْهُم».

وفى حديث عبد الله بن يزيد، رضى الله عنه، قال: «فاستقبل ﷺ مطْلِعَ الشمسِ، ومدّ يَدَيْه، وقال: تَطَالَعت عَليكم الدّنيا ـ أى أقبلت ـ يَغْدُو أحدُكمُ فى حُلَّة، ويرُوح فى أُخْرى، وتَستُرون بُيوتكم كما تُستَرُ الكَعْبَةُ».

وفى حديث أبى ذرٍّ: فقام أعرابى فقال: يا رسول الله، أهلكتنا الضَّبُعُ ـ يعنى: السَّنَة المجدبة ـ فقال: غيرُ ذَلكَ أَخْوفَنى عليكم، إذا صُبَّت عليكم الدنيا صبًا، فَيا لَيْتَ أُمَّتى لا يَتحلَّوْن الذّهَبَ»[1].

وفى حديث عمر رضى الله عنه: «جاء قوم إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، خَرجنا من بلادنا بها أموالُنا وديارُنا، وقَدِمْنا بلادًا لا دِيارَ لَنا بِها ولا أَمْوالَ، وَاسَانا إخوانُنا الأَنْصار، فَلو دَعَوْتَ اللهَ لنا، فإنَّ مِنَّا لَمَن يمرُّ به اليَوْمانِ والليلة ما يذوق أكْلاً، فقال ﷺ: لن تزالُوا هكَذا ما دُمتُ بين أظْهرِكم، فإذا خرجتُ من بين أَظْهُرِكم حُطَّت عليكم الدّنيا كحِطاطِ الوَالدةِ على ولَدِها، فالتزمتُكُم والْتَزَمتُموها».

فلذلك كان عامرُ بن عبد القيس إذا عُوتب فى تقلُّله من الدّنيا، يُقال له: يا عامرُ، رَضِيتَ بالقَليل! فيقول: بل أنتم، واللهِ، رَضِيتُم بالقَليلِ.

وكان غيرُه يقول، إذا قيلَ له: أنت أَزْهَدُ النّاسِ، فقال: أنتم أزهدُ مِنّى. قيل: كيف؟ قال: أنا زهِدْتُ فى قليلٍ يَفْنى، وأنتم تَزْهَدُونَ فى كثيرٍ يبقى.

فهذا، لعمرى، زُهْد الموقنين بالآخرةِ الباقية، رضُوا بالقليلِ البُلْغَة، واعتاضُوا منه الكثير، بَقيّةُ الله خيرٌ لَهم. وكذلك زُهْدُ أولى المعْقُول، رضُوا بالحياة الدّنيا، واطمأنُّوا بها، وجعَلُوها عِوَضًا ممّا آمَنُوا به من النَّعيم الذى ليس له انْقضاء، فبَنُوا البُنيان، وأحْكَمُوا المساكِنَ، وجمعُوا الجُموعَ، كأنّهم فيها باقُون، وعنها لا يَرْحَلُون. وكان السّلفُ الصَّالحُ يقولون: الزُّهدُ فى الدنيا مُرِيحٌ للقلبِ والبدنِ، والحِرْصُ على الدّنيا يُكثِرُ الهَمَّ والحُزْنَ، ويكُدُّ القَلْبَ والبَدَن، فَطُوبى لمن وُفِّق،

---

(١) كان ثمت تلف فى مواضع من هذا الحديث أتممته من المسند ٥/ ٣٦٨.

وبُصرٍّ بحُسْنِ الفطْنةِ والبَصَرِ، وويْلٌ لمن خُذِلَ وفُتِن بروْنَق ما يراهُ به غُبِن. وفى الخبرِ: «الدُّنيا دَارُ مَن لا دَارَ لَه، ومَالُ من لا مَال لَه، ولها يَجْمَعُ من لا عَقْلَ لَهُ». وأنشدنى بعضُ الأشياخ لبَعْض التّاركين للدّنيا:

الدّنيـا لِمَنْ هى فى يَدَيْهِ عَـذَابًا كُلَّمـا كثُـرَت لَدَيْهِ
تُهينُ المُكْرِمينَ لهـا بِرَغْمٍ وتُكْرِمُ كلَّ مَن هَانَتْ عَلَيْـهِ
إذا اسْتَغْنَيْتَ عَن شَىءٍ فدَعْه وخُـذْ مـا أنتَ مُحتاجٌ إلَيـهِ

وقد كان الحسنُ رضى الله عنه يقول: أهِينُوا الدُّنيا، فوالله لأهْنأ ما تكُونُ حين تُهِينها. وكان يحلف باللهِ: ما أعزَّ عبدٌ الدّنيا إلا أذلَّ دِينَه، وما أعزَّ دِينَهُ إلا هانَتْ عليه الدُّنيا. وبعضهم يقول: مَن أكْرمَ الدّنيا [اليومَ] أهانَتْه غدًا، ومن أهانها اليومَ أكْرَمَتْه غدًا. ويُعبِّرُ عن هذا بالنّفس أيضًا، فيقال: من هَانَتْ عليه نَفْسُه كَرُم عندَ اللهِ، وأكرَمَ دِينَهُ أيضًا. ومن أعزَّ نَفْسَه أذلَّ دِينَهُ، وهانَ عندَ الله أيضًا.

وقد كثُرت الأخبارُ فى هذا المعنى، وأُنْشِدْتُ فى مَعْناه:

مُكرِمُ الدُّنيا مُهـانٌ مُسْتَذَلٌّ فى القِيامَهْ
والذى هانَتْ عَلَيـه ، فَلَهُ ثَمَّ كَرامـهْ
كم كريمٌ بين قومٍ مَـا لَهُ ثَمَّ كَرَامـهْ
وفَقيرٌ وحقيرٌ قد حَوَى تلكَ الكَرامَـهْ

وقال عمّارُ بن طَلْحة، وكان من العابدين، فى وصْفِ الدُّنيا:

أرَى الدّنيا تُعذِّب من هَوِيها وتُـورِثُ قَلْبَـه نقَمًا ودَاءَ
فإنْ عادَيتَها نُجِّيتَ مِنْهـا وإنْ صَافَيْتَهـا تَلْقَى البلاءَ

وقد أُنشدناه على غير هذه القافية:

. . . . وتُورث قَلبَه همًا وتِيهـا
فإن عانَقْتَها تَلْقَى البَلايا وإنْ فَارقْتَها نُعِّمت فيها

وكان الحسنُ يقول: كان المتمسِّكُون من أصحابِ رسولِ الله ﷺ، ومَن أخذَ

عنهم من التَّابعين، يكْرهونَ أن يتّخذُوا الأموالَ والعقارَ، لئلا يركنُوا إلى الدُّنيا. وكان ما جاءَهُم من رزْقٍ أخذُوا الكَفَافَ منه، وقد [تركُوا الفَضْلَ][1] ليَوْمِ فَقْرِهم. ثم كانت حوَائجُهُم بعد ذلكَ في دِينهم، ومَطْلَبُهم بَيْنهم وبين ربِّهم. وقال أبو قَبيل المعافريُّ: نزل بأبى (. . .) أضْيافٌ، فألقى إليهم فِراشَهُ ولحافه، وقال: (. . .)[2] لنا دارٌ أُخْرى غير هذهِ، قد نقلنا حُرَّ متاعِنا إليها، وتركنا فى هذه الحاجَةَ.

فهذا، لعمرى، فعْلُ العارفينَ عن اللهِ قولَه تعالى: ﴿**إنَّما هَذه الحياةُ الدُّنيا مَتاعٌ وإنَّ الآخرةَ هى دَارُ القَرَار**﴾ [غافر:٣٩]. وهو عملُ مَن سَمِع منه قولَه: ﴿**اتَّقُوا اللهَ ولْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لغَدٍ**﴾ [الحشر:١٨]، وفَهِم خِطابَهُ إذ يقول: ﴿**وتَزَوَّدُوا فإنَّ خيرَ الزّادِ التَّقْوى**﴾ [البقرة:١٩٧]. فكان هذا شأنَ المتزوِّدِ لسَفَرِه المُرتحِل، وحالَ المُتَحوِّلِ من مَنزلِه المُنْتَقِل. وروى أن عمر رضى الله عنه كان يتمثل بهذا البيت:

حَلالُها حَسْرَةٌ يُفضى إلى نَدَمٍ   وفى المحارِمِ منها السُّمُّ مَذْرُورُ

وبمعناه كان محمد بن معاويةَ يتمثل:

حَرامُكِ يا دُنْيا يقودُ إلى لظًى   وذُو اللُّبِّ أيضًا مُشْفِقٌ من حَلالكِ

وكتب عمرُ بن عبد العزيز رضى الله عنه إلى عامله عدىّ بن أرطأة: أما بعد، فإنّ الدُّنيا عَدوَّةُ أولياء الله، وعدوّةُ أعدائه. فأمّا أولياءُ الله فغمَّتهم، وأما أعداءُ الله فغدَّتهم. فهذا كما قال بَعْضُهم فى وصْفِ حالِ العَبْد:

عِشْ مُعْسِرًا إن شئتَ أو مُوسرًا   لا بُدَّ فى الدُّنيـا مِنَ الغَـمِّ

وكُلَّمَـا زَادَكَ من نعْمَـةٍ زادَ   الّـذِى زادَكَ فـى الهَـمِّ

وكان الحسنُ رحمه اللهُ إذا تَلا هذه الآيةَ: ﴿**فَلا تَغُرَّنَّكُم الحَياةُ الدُّنيا ولا يَغُرَّنَّكُم باللهِ الغَرُورُ**﴾ [فاطر:٥] قال: «مَنْ قالَ هذا؟ الذى خلَقها، وهو أعلمُ بها،

(١) اجتهادًا منى؛ لتلف الموضع.

(٢) تلف قدر كلمتين فى هذا الموضع والذى قبله.

فإيّاكم وما يَشْغَل من الدُّنيا عَن الآخرَة، فإنّ الدُّنيا كثيرةُ الأشغال، لا يفتح رَجُلٌ على نفسه بابَ شُغْلٍ إلا أوشك ذلك البابُ أن يَفْتحَ عليه عَشْرةَ أبواب».

وهذا كما قال، فَيسيرُ الدّنيا يقطع عن كثيرِ الآخرة، والتّفرُّغُ لقليلِها يشغلُ عن الشُّغلِ بكثيرِ الآخرة. وهى مُتشعِّبةٌ ذاتُ شُعَبٍ، يُتشعّب بصاحِبها فى أودية العطَب، فمثَلُها مَثَلُ رَجُلٍ وقَعَ فى دخلة شَوْك فعَلقَت بأثوابه، إن خلَّص كُمَّه عَلِق الشَّوكُ بِذَيلهِ، وإن خلّص ذيْلَه تَعلَّق الشَّوْكُ بصَدْرِه، وإن نَزَع من صدره دخل شوكٌ فى رِجْلِه، فأيسَ الخلاص من ذلك إلا الخروجَ من جميعِه؛ أن يخلعَ منها ثَوْبه، ويَبرُزَ إلى مَحجّةِ الطّريق، كما قال الحكيم:

* إنّ السَّلاَمةَ فيها تَرك ما فيها *

وقال الآخرُ فى ضدِّه:

تَبْغى النَّجاةَ ولم تَقْصِد مَسالِكَها إنّ السَّفِينةَ لا تَجْرى على اليَبَسِ

الزّاهِدُ فى الدُّنيا مَسْجُونٌ مُضَيَّقٌ علَيه مُطبَقٌ، وليس كلُّ مَن أرادَ وصَلَ إلى المَسْجُونِ، وكُلَّما كان السِّجْنُ أضيقَ عليه وأشدَّ كان الوصولُ إلى الزَّاهد أبعدَ وأشَقَّ. فلذلك كان خيارُ أولياء[1] الله مَحجُوبين عن النّاسِ لا يصلُ إليهم أى إنسانٍ إلا من تَوَصَّل أو توسَّل على قَدْرِ تَضايُقِ السُّجون. معناه رسَمْتُه حفْظًا، وذلكَ موجودٌ فى الخبر: «الدُّنيا سِجْنُ المؤمنِ وَسَنَتُه، فإذا فارقَ الدُّنيا فارَقَ السِّجْنَ» والسَّنة: الجدْب والمجاعة. رواه ابن عمرو، وزاد فيه: «الدنيا جَنّةُ الكافرِ، وسِجنُ المؤْمنِ. ومَثَلُ المؤمنِ حين تخرُجُ نفسه كمَثَلِ رجُلٍ كانَ فى سِجْنٍ فأُخْرِجَ منه، فجعل يتقلَّبُ فى الأرْضِ، ويسيحُ فيها». وهذا مشهودٌ من عُمومِ الخبرِ فى الجنازة التى مُرَّ بها على رسولِ الله ﷺ، فقال: «عبدُ الله دُعى فأجابَ، مُسْتَريحٌ ومُستراح منه. قيل: ما ذاك؟ قال: عبدُ الله المؤمنُ استراحَ من الدُّنيا وهُمومها ونَصَبها وأحْزَانها، وأفْضَى إلى رَحْمةِ الله. وعبدُ الله الرّجلُ السّوءُ يَسْتَريحُ منه العبادُ والبلادُ والشجرُ والدّوابُّ».

(١) فى الإتحاف ٩/ ٣٨١: «ولذلك صار أولياء».

وبمعناه قال السّلفُ: مثَلُ المؤمنِ حين يخرجُ من الدُّنيا مَثَلُ الجنينِ إذا خَرَجَ من بطْنِ أمِّه، يخرج من ضيقٍ وكَرْب وغَمٍّ إلى سَعَةٍ ورَوْحٍ وتفسُّحٍ، يتقلّبُ كيفَ شاءَ. وقد رُئى جماعةٌ من التّابعين والصّحابة بعد موْتهم؛ منهم: عمرُ بن الخطاب، رضى الله عنه، ومنهم: داودُ الطائى، وغيرهما. فسُئلوا عن حالهم، فقالوا: ما استَرَحْنا إلا الآن، خرَجْنا من غَمِّ الدُّنيا وحَزنها إلى رَوْحِ الآخرةِ ونَعيمها.

وقد كان من دعاءِ الرَّسُولِ ﷺ: «أسألكَ الرّاحةَ بعْدَ الموتِ، والعَفْوَ عندَ الحِسابِ».

ومن أول غمٍّ الدنيا على المولود بكاؤُه ساعةَ يُولَد، فهو دَليلٌ على حُزْنه، وإن كان قد صارَ فيما هُو أوسعُ عليه وأرْوَحُ، ولكن ذلك من نكدِ الدّنيا، كما قال:

لما يُؤذِنُ الدّنيا بنا مِن غُمُومها يكون بُكاءُ الطّفلِ ساعةَ يُولَدُ

وإلا فما يُبكيه مِنها وإنّها لأوْسَعُ مِمّا كـانَ فيه وأرْغَـدُ

وكان الفضْلُ رضى الله عنه يمثّل حالَ المؤمنِ فى الدّنيا معَ اللهِ بالطِّفْل مع أمّه يقول: إنّ اللهَ تعالى يحمى عبدَه المؤمن الدّنيا، ويَزْويها عنه، ويعلّله عنها، ويمرِّرُها عليه، مرّةً بالجوع، ومرّة بالعُرى، ومرّة بالحاجة والغَمِّ، ومرّة بالكُروب والأذَى، كما تصنع الوالدةُ الشفيقةُ بِولدها؛ تعلِّله، مرَّة تَسقِيه صَبْرًا، ومرّةً حُظَظًا، ومرّة تُجرِّعه ألوانَ الأشربةِ والأغذية، وهو يَبكى، تُريد بذلك ما هو خير له من حيث لا يعلم. معناهُ نقلتُه حفظًا. وفى الرواية: «حُضَض» بالضاد، وصوابه بالظاء المعجمة، ذَكَرَهُ لى الذّهبى[1] عن أصحاب الأصمعى.

وكذلك قال المسيح ابن مريم عليه السلام: «معشرَ الحوارِيّين، كُلُوا خبزَ الشَّعير، ونباتَ الأرضِ، والماءَ القُرَاحَ، فإنّكم لا تقُومُون بشُكْرِه. واعلموا أنّ حلاوةَ الدنيا مرارةُ الآخرةِ، وأن مرارةَ الدنيا حلاوةُ الآخرة». وكذلك رُويناه عن الله سبحانه، أنّه أوحى إلى الدّنيا: «تَمرَّرِى لأوليائى؛ حتّى تكونَ رغبتُهم فيما

(١) حظظًا: دواء مرًا.

عندى، واحْلَوْلى لأعدائى؛ حتى يَرْضَوْا بك بدَلاً منّى». وهذا مفهومٌ من قوله: ﴿أَلَمْ أعْهَدْ إليكُمْ يا بَنِى آدَمَ أَلاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ﴾ [يس: ٦٠]، العبادة: الطّاعة والاستجابة. ثم قال: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وذُرِّيَّته أوْلياءَ مِنْ دُونى وهُمْ لكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ للظَّالمينَ بَدَلاً﴾ [الكهف: ٥٠].

كان بعضُ السّلف يقول: كفَى به ذنبًا أنّ اللهَ تعالى يُزَهِّدُنا فى الدُّنيا ونحن نرغبُ فيها. والآخرُ يقولُ: كفَى من الذُّنُوب التى لا نستغفر منها ولا نتوبُ حبُّنا للدنيا [ولأسبابها]. والأكثرُ يقولون: خيرًا مِنَ الدّنيا ما لا يُبتلى به، وخيرُ ما ابْتُليتم به منها ما خرَجَ من أيديكم. فكذلك الأَمْرُ، فإنّ الورعَ أن لا يكتسب الشُّبهةَ ليُنفقها فى الطاعة. فإنّ اجتنابَ الشُّبهاتِ أدْنى إلى الوَرَعِ والزُّهد، وأَفْضَلُ فِى القُربةِ مِن اكْتِسابها وإنفاقها فى الطاعات، فكيف إذا أنفقتَ الشُّبهاتِ فى الشَّهوات، ذلك هو الخُسْرانُ المُبين. فإنّ الأجودَ لِمَن اكْتسبَ مالاً، أو لمالٍ قد كان جَمَعَهُ، إخراجُه فى (. . .) ليجمع إمساكه ومنعه. وقد كان إبراهيم [بن أدهم] إذا ذُكر السَّلف من الصّحابةِ يقولُ: [كثيرٌ منهم قد] أقبلت عليهم الدُّنيا فهرَبُوا منها [وأدبروا عنها][1].

وقال عمر رضى الله عنه ـ من قَبْله ـ لما أُتى بمالٍ [كثير من البحرين أُلقى] بين يديه صُبرًا وكُومًا، ونظر إلى [الصفراء والثّوب ثم بكى]. قيل له: تبكى وتنتحب؟ فقيل له: هذا يومُ فَرَحٍ [وقد وسّع اللهُ فيه،] والله ما وُجِدَ هذا فى قوْمٍ وتطلَّبه قومٌ إلا كَثُرت بينهم العداوةُ والبَغْضاءُ، واقْتَتلوا عليه بالسَّيف. ثم قال: اللهُمَّ إنّى قد عَلِمْتُ أنَّ رسولَ الله ﷺ كان يُحبُّ أنْ يُصيبَ مالاً فينفقَه فى سَبِيلك، وعلى عبادِك، فزَوَيْتَ عنه ذلك نَظَرًا مِنك له واخْتيارًا، اللهُمْ إنِّى أعوذُ بك أن يكون هذا مكْرًا منْكَ بعُمر، ثم تلا قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّما نُمِدُّهُم به مِن مَالٍ وبَنِينَ * نُسارِعُ لَهُم فى الخَيْراتِ بل لا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥ ـ ٥٦].

ألاَ ترى أَنَّ صَرْفَ ذلك على الزُّهدِ فيه كان أَحَبَّ إلى الله وأزلفَ عنده من

(١) هذه عدّة مواضع تالفة، بعضها اجتهدت فيها ووضعتها بين معكوفتين.

توجيهه مع إنفاقه فى طاعته؟

وكذلك قال سَلْمان لصاحبه لمّا نظَر إلى أكْداسِ الطّعام على شطِّ دِجلةَ، فسُرَّ بذلك وأعْجبهُ، قال له سَلْمان: لا يَعْجبَنَّك هذا، فإنّ إلى جَنْب كل حبَّةٍ منه حسابٌ. ألم يكن هذا فى خَزائنِ الله ومحمَّدٌ ﷺ حىٌّ يتلوَّى مِن الجُوعِ، لا يجدُ ما يملأ بطْنَه هو وأهْلَ بيته، يُصبحُون ويُمْسونَ ما لهم غَداء ولا عَشاء؟! أو كما قال. فقُلْتُ: بلَى قَدْ كانَ هُو فى خزائن الله. قال: فإنا قد ابْتُلينا به، أو فُتحتْ علينا الدّنيا. ولعَمْرِى لقد حَقَّق اللهُ لرسولِه فى الدّنيا سُؤْلَه، وأعْطاهُ عِوَضًا مِنها من الآخرةِ مأمُولَهُ.

ورُوينا فى حديث عن أبى أمامة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «عَرَضَ عَلَيّ ربى عز وجل أن يجعل لى بطحاء مكةَ ذَهبًا. فقلتُ: لا يا ربّ، ولكنّى أشبعُ يومًا، وأجوعُ ثلاثًا، فإذا جُعتُ تَضرَّعْتُ إليك وذَكَرْتُكَ، وإذا شَبعْتُ حَمدتُك وشكرْتُكَ». فتدبر قوله؛ إذ جَعل الجوعَ سببَ تضرُّعِه وذكْرِه، فهو أفضلُ من الشِّبع لحمدِه وشكْرِه، لقول الذّاكرِ الأكبرِ: ﴿وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وفى الخبر الآخر: «بعَثَ اللهُ تعالى إلى النبىّ ﷺ رسولاً: إنّى أُعطيكَ من الدّنيا ما لم أُعطِ أَحَدًا قَبْلَك، ولا أُعطيه أحدًا بعدكَ، لا ينقُصُ ذلك ممّا لَك عِندى شَيْئًا. قال: لا، بل تَجْمَعُها لى فى الآخِرَةِ».

فتفكّر ذلك، إنّ رِضا الجامعِ المانعِ ومَحبّتَه فيما منعَ اليومَ وجَمَعَه غدًا، فَلذلك قال: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥] أى مِن الآخرةِ، لمّا بلَغ رِضاه فى الزُّهد فى الدّنيا. وقال فى حُسْنِ اختيارِه له تَعْويضًا بما هو خيرٌ له، إذ اختار ما يحبّ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِى إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾ [الفرقان: ١٠]. وقال رسولُ الله ﷺ: «مَوْضِعُ سَوْطٍ فى الجَنّةِ خيرٌ من الدُّنيا وما فِيها». وقال عليه الصلاة والسلام: «شِبْرٌ فى الجنةِ خيرٌ من الدّنيا وما فيها». وقال عليه الصلاة والسلام: «ما الدنيا فى الآخرة إلا كجلد أرنب». وقال: «ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يَغْمِس أحدُكُم إصْبَعَهُ فى اليَمِّ،

فلْيَنْظُر بما يَرجعُ إليه». وقال اللهُ أجودُ الأَجْودين: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١] فهو الخيرُ الكثيرُ الكبيرُ. والكوثر: الذى لا يُحْصَر له عَدَدٌ، ولا يفنيه دَهْرٌ، ولا يُوصف كثرة وَلا خطر . . .(١)

وفيما رُويناهُ من كلامِ الحَسَنِ فى حال الزّاهدِ ووصْفِ المؤمنِ، قال أبو عبيدة، وقد سمع الحسن، رحمه الله، يقول: إنّ المُؤمنَ عَمِلَ لله تعالى أيَّامًا يَسِيرةً، فَواللهِ ما ندم أن يكون أصابَ من نعيمها ورَخائها، ولكن راقَت الدُّنيا له فاستهانها وهَضمها لآخرته، وتَزَوَّدَ منها فَلَمْ تكُن الدُّنيا فى نفسهِ بدَارٍ، ولم يرغب فى نعيمها، ولم يَفْرحْ برخَائها، ولم يتعاظَم فى نفسه شيءٌ من البلاءِ إن نَزل بهِ مع احتسابهِ للأجْرِ عند الله، ولم يَحْتَسب نوالَ الدّنيا حتى مضَى راغبًا راهبًا، فهنيئًا هنيئًا؛ فأَمَّنَ اللهُ بِذلكَ رَوْعَتَه، وستَرَ عَوْرَتَه، ويَسَّر حسابَه(٢).

وقال فى مَوَاعظِه: امرؤٌ كَسَب طَيِّبًا، وأنْفَق قصدًا، وقدَّم فَضْلاً ليوم فَقْره وفاقته، وجِّهوا هذه الفضولَ حيث وجَّهها اللهُ، وضَعُوها مَوَاضعَها، فإنّ الذين كانوا من قَبلكم كانوا يأخذُون من الدّنيا بَلاغًا، ويبتاعُون بالفَضْلِ أنفسَهم من اللهِ تعالى.

وقال الحسن رضى الله عنه(٣): أقوام كانت الدنيا عندهم وديعةً، فأدَّوْها إلى مَن ائتَمَنَهُم عَلَيها، ثُمَّ راحُوا خفافًا. إنَّ الدُّنيا دارُ عملٍ، مَن صَحبها بالبُغْض لها والزّهد فيها سَعد بها، ونفعتْهُ صُحبَتُها. ومَن صحبها بالرَّغبة فيها والمحبةِ لها، شَقِى بها وأَجْحَفَتْ بحَظِّه من الله، ثم أَسْلَمَتْهُ إلى ما لا صَبْرَ لَه عليه، ولا طاقَة لَه به من عذاب الله. فأمْرُها متغيِّر، ومتاعُها قليلٌ، والفَناءُ عليها مكتوب. إنَّ المؤمنَ عبدٌ كيِّسٌ أَبْصَرَ فتفكَّرَ واعتَبر، عمَدَ إلى الدّنيا فَهدَمَها، فبَنَى بها آخرتَهُ، ولم يهدم آخرتَه لدُنياه.

---

(١) طمس بالأصل قدر نصف سطر.

(٢) كلام الحسن البصرى طمس أكثره فى المخطوط، وأثبت المطموس من الحلية ٢/١٤٦، والخبر فيه بسنده ونصه.

(٣) الحلية ٢/ ١٤٠.

ثم قال: الدُّنيا قد آذنت بالزّوال، لَعَّابةٌ بأَهْلها على كلِّ حال، فارْفُضِ الدّنيا، وسمِّح عنها نفسك، وقدِّم الفَضْل، صاحِبْها بجَسدك، وفارِقْها بقَلْبك وهمِّك [ولتعتبر بما][1] ما قد رأيتَ ممّا سلف بين يديْك ممَّن خلا من أهلها، وليَزدْكَ إعجابُ أهلها بها كراهيةً لها، وقِلّةَ طُمأنينةٍ فيها، حَذرًا منها وفَرارًا، فإنّ الصّالحين كذلك كانوا.

ثم قال: إنّ المؤمنَ في الدّنيا كالغَريب، لا يجزع من ذُلِّها، ولا يُنافِسُ في عزّها، لأَهْلها حالٌ، وله حَالٌ أُخْرى قد أَهَمَّتْهُ، النّاسُ منه في راحةٍ، وهم مِنه في شُغْلٍ.

فاعْلَم يقينًا أنَّ أصْحابَ رسولِ اللهِ ﷺ كلَّهم كانوا فاضِلين، وكان أفضلُهم أزهدَهم في الدّنيا مع [ما لهم] في الصحبةِ والسابقة، أَلَم تسمع إلى الخبرِ المشهور من حديثِ جُبَير بن نُفَير عن عَوفِ بن مالك: «أنه أُرِيَ الجنةَ في المنام، فذكَر منها سَرْجًا أخْضَر فيه قُبّة، وَصَفَها، قال: فقلتُ: لِمَنْ هذه القبّةُ؟ قال: قيل لي: لعبد الرّحمن بن عوف. قال: فانتَظَرْتُهُ حتى خرجَ، فقال: يا عوفُ هذا الّذي أعطانا اللهُ في القرآن، ولو أَشْرَفْتَ على هذه القبة لَرأيتَ ما لم تر عينُكَ، ولم تَسْمعْ أذُنُكَ، ولم يَخطُر على قلبِك مثلُه، أعدَّهُ اللهُ لأبي الدَّرْداء، لأنّه كان يدفَعُ الدّنيا بالرَّاحَتَيْن والنَّحْر.

وكذلك كانت الصحابة تَقول للتّابعينَ إذا رأَوْا اجْتهادَهم وكثرةَ أعمالِهم: أنتم أكثرُ أعمالاً وأشدُّ اجْتهادًا، وهم كانُوا خَيرًا منكم. قالوا: بمَ ذلك؟ قال: كانوا أزهدَ في الدّنيا منكم. وكان الصحابةُ يقولون: تابَعْنا الأعمالَ بعضَها على إِثْر بَعْض، فلم نرَ أبلغَ في طَلَبِ الآخرةِ من زَهادَةٍ في الدّنيا. وقد رُوينا معناه مُسندًا: «ما عُبدَ اللهُ بعبادةٍ أفضلَ ـ أو قال: أحبَّ إليه ـ من الزُّهد فِي الدنيا».

وكذلك كان أوّلُ هذه الأمّةِ من الصَّحابة أشدَّ زُهدًا، وبه كانُوا أفضل، ثم فَضَل بعدَهُم التّابِعُون لهم بِإحسانٍ؛ لأنّهم كانُوا أحسنَ عَملاً بالزّهدِ في الدّنيا،

(١) موضعها تالف، فأتممتها اجتهادًا. وكذلك الموضع التالي.

وهم أوْسَطُ الأمةِ، والقرْنُ الثّانى، ثمّ كَثُر الرّاغِبونَ بعد التّابعين، منهم الزاهدون، وهم آخرُ الأمّةِ إلى وقتنا هذا.

وهذا من الخبر الذى رُويناهُ عن سُفْيان عن عوف عن سعد بن أبى الحسن، رَفَعَهُ، قال: «قال رجلٌ: يا رسولَ الله، رأيتُ فى مَنامى [أكْوَامًا من] ذَهبٍ مرَّ عليه قومٌ يسيرٌ، فسلكوا فى [جَنَبَيها ولم] يَعْرِضُوا له، ثم جازُوا ولم يَعْرِضوا له، ثم جاء بعدَهم قومٌ أكثرَ منهم، فمنهم مَن أخذَ ومنهم من تَرك. ثمَّ جاء بَعْدَهم قومٌ أكثرَ منهم، فلمّا رأوه ابتدرُوه [فما تَركُوا منه][1] شيئًا، ثم استَيْقظتُ. فقال رسول الله ﷺ: «أُريتَ مَثَلَ أُمَّتى فى الدّنيا، أوّلَها وأوْسطها وآخرَها».

فخَلَف من بعدهم خَلْفٌ ضَيَّعُوا سنّةَ السَّلفِ، واتَّبَعُوا شهوةَ النّفْسِ.

وقد ذكر إبراهيمُ الخوّاص محدّثى الزّمان بتَمْويهِهم فى الزُّهد على الرّاغبين، فقال: وقوم ادَّعُوا الزُّهدَ، ولبسوا الفاخرَ من اللّباسِ، يُموِّهون ذلك على النّاس، ليُهدَى إليهم مثلُ لباسِهم، ولئلا يُنظَرَ إليهم بالعينِ التى يُنظر بها إلى الفقراء، فيُحْتَقَرُون، فيُعْطَوْا كما يُعْطَى المساكين، ويحتجّونَ لأنفسهم باتّباع العِلْم، وأنّهم على السُّنّة، وأنَّ الأشياء داخلة عليهم، وهم خارجونَ منها، وإنّما يأخذون بعلَّة غيرهم، هذا إذا طُولبوا بالحقائق، وأُلْجِئُوا إلى المضايق. وكلُّ هؤلاءِ أكَلَةُ الدّنيا بالدين، لم يُعْنَوْا بتَصْفيةِ أسرارهم ولا بتهذيبِ أخلاقِ نُفوسهم، فظهرتْ عليهم صِفاتُهم فغَلَبَتْهم، فادَّعَوها حالاً لهم، مائلون إلى الدنيا، متَّبِعُون للْهَوى[2].

وكان الخواصُ رحمه الله لا يلبس أكثرَ من قطعتين مِئزَرَيْنِ، أو قميص ومئزر تحته، ويعطف ذيل قميصه على رأسه، أو يَحُلُّهُ من وسطِهِ فيُغطِّى به رأسَه. وكذلك يُستَحبُّ للفقير، وهو حدُّ اللباس من الحاجةِ.

وقد كان يحيى بنُ معاذ الرّازى يصفُ الزّاهدين من العارفين ـ لعَمرى ـ والمتحقِّقِينَ بالحالِ، والمسْتَحقِّين لاسْمِ الزُّهدِ ومعناه، فى نُتَفٍ من كلامه نذكرها،

(١) ما بين المعكفات اجتهاد منى؛ لتلف فى الأصل.

(٢) انظر: الإتحاف ٩/ ٣٧٢.

هى من أحوالِ أهلِ المعْرفةِ، زادُوا بِها على مقامِ الزّاهدين المُوقنين. فكان يقول فى وَصْفِهم: الزّهدُ مع الغِنى أفضلُ من الزُّهدِ مع الفَقْر، يَزهدُ الرجُلُ وفى قَصْرِه أمثالُ التّصاويرِ من النّساءِ، لو نظرَ الزّاهدُ الفقيرُ إلى وَصِيفةٍ منهنّ غُشِى عليه.

وقد كان مالك بن دينار، أيضًا مِن قَبْلِه، يقول بمعناه: الناسُ يقولون: مالكٌ زاهدٌ، إنّما الزّاهد مثلُ عمرَ بن عبدِ العزيز، زَهِد فى الدّنيا مع الملك لَها والقدرةِ عليها.

وقال يحيى: إذا زَهِدَ حُجِب عن العامَّة، وإذا عَرَف حُجِب عن الزهَّاد. وقال: إذا حُجِب العارفُ لعِزّتَه اصْطِيد، وبالطُّعْمةِ يُدْعَى إلى طعامٍ فيُجيب، فيظفرون به بذلك. وكذلك اصْطِيد أبوه آدم بالطُّعمة مِن الشّجرة.

وكان يقول: لا يُمكن للعابدِ والزّاهد أن يستترا عن الخلْق. والعارفُ مستورٌ كأنّه رجلٌ من النّاس، وهو أفضلُ مَن تَحْمِلُهُ الأرضُ، لا يعرفُه إلا مِثْلُه، ولا يَصْبِر على مُعاشَرته إلا شكْلُه.

وقال: حبُّك للدُّنيا حبُّ بلاء، وحُبّك للآخرةِ حُبُّ بلْوى. ومن رضى باختياره دَامَ فَرَحُهُ؛ لأنّ العارِفَ من أخذَ الآخرةَ بيمينِه، والدّنيا بشماله، وأقبلَ على الله بقَلْبه، لا يُلْهِيه عنه شىء، وما دام يخاف مِن وُقُوع الدُّنيا عَليه فإنّه لم يصل بعد[1].

وقعد إليه مرّة رجلٌ من الزُّهاد، فجعل يحدِّثُه الزّاهدُ بأحاديث فى فضْلِ القلّة والفَقْر، ويحيى ينظر فى وجهه كالمتعجّب، فلمّا قام، قال: لو لم يُعَلِّلُوا المساكينَ بمثل هذه الأحاديثِ لتفقأت مَرَاراتُهم من الغمِّ، وكانوا لا يَصْبرون على الفقر، هيهاتَ لم يتقدّم القومُ عند اللهِ بفَقْرٍ ولا غِنًى، ولكن بالعلم والمعرفة.

قيل له: فما عبادةُ العارفِ؟ قال: أمرهم مع الله إلى القلوب. الدّنيا دارُ سيرٍ إلى اللهِ تعالى، فإن لم يسر بأعمال جوارحه فهو سائرٌ بقلبه، خطوُ القَدم ذراع،

---

(١) انظر: الإتحاف ٩/ ٣٧٢ ـ ٣٧٣، ٣٨١.

وخطوُ القلبِ ألف فرسخ[١].

قال: دميت قلوبُ القوم حتى لا نالوا (. . .) قيل: أفليس لهم رحمة؟ قال: هم أرحم الخلق، ولكنهم شُغلوا بالله ما شغلهم عن صنعته، ومَن خُلق لله (. . .).

وقال: كيف يُحبُّه العلماءُ الخَوَنَةُ المحبُّون للدنيا، وعقولُهُم لم تَجْمَع الزّهد فى الدنيا؟ وإنّما يصل إلى حبِّه مَن قد خَرَقَ سُتُورَ الآخرة إليه، فكيف الدنيا؟! سلُوا هؤلاء عن الأحكام والرّوايات ودعوهم مما لا يعلمون، فإنّ التماسَكَ العطْرَ فى حوانيتِ الصّيادلةِ جهْل، إنما هو الشُّغلُ بالله عن الدنيا والآخرةِ معًا.

وقال: طلَبُوا العُبُوديّةَ فى الزُّهدِ فلم يجدُوها. الزّاهدُ ألجّ مَن يُرى، يثبتُ على تركِ الشىء أربعين سنةً، ولكنّه كلما كان ألجّ كان أصدق بما لم يُوافق نفسُه مولاه فى الأخذِ، فلا سبيل له إليه إلا بالتّرك حتّى يترك أخلاقَ العبيدِ الكزَّةِ الصّعبة، ويتخلّق معه بأخلاق الأحرارِ، أَخلاقٍ سماويَّة من الحبِّ والموافقةِ والرّضا والمعرفة. فإنّه لا يُوجد صِدقُ العبودية إلا فى منازلِ المحبّة والمعرفة.

وكان يفسِّر قولَ المسيح ﷺ: «يا عبيدَ الدنيا؛ لا أنتم عبيدٌ أتقياء» قال: يعنى الزُّهاد، «ولا أحرارٌ أقْوياء» قال: يعنى العارفين.

وقال: كلُّ من وافَق نفسَه فى أخذِ الدّنيا والتنَعُّم بها، لم يجعل له السبيلَ إلى نفسه إلا بالتركِ لها، وبالجهْدِ والتَّعذيبِ لنفسه فيها، حتى تنقاد له نفسه، وتوافق مولاها.

وقال: خُض بِحارَ المعرفة إليه، لتستهين جُهْدَ الزُّهدِ والعبادةِ فى جَنْب ما تُدفع إليه، مما لا قِوامَ للعقلِ عليه، من البَهاء مع العبادةِ، والكِفايةِ مع الزُّهدِ، والبَصيرةِ مع العلم، والجوائز السَّنيَّة مع المعرفة.

وحكَى مرّةً، فقال: الْتَقَى أحمدُ بن حرب، وابنُ خَضْرويه[٢]، وأبو حامدِ،

(١) كان ثمة تلف فى هذا الخبر بالأصل أتممته من الإتحاف ٩/ ٣٨١، ولم أهتد إلى بقية المواضع الأخرى.

(٢) ترجمته فى: طبقات الصوفية، ص١٠٣.

فقالوا لأحمد بن حرب: إن جاءتك الدّنيا فما أنت صانعٌ بها؟ قال: كنت أُرْضِي بها خُصمائى لئلا تلحقنى تَبِعَةٌ يومَ القيامة.

قالوا لأحمد بن خَضْرَويه. فما كنت صانعًا بالدّنيا لو جُعِلَت لَك؟ قال: كنتُ أَجْعَلُها كلّها لقمةً، وأضعها فى فمِ مُؤمنٍ، فاستريح منها.

قالوا لأبى حامد: فما كنتَ تَصنَع بها أنت؟ قال: كنتُ أجعلها لطُلاَّب الآخرةِ، لئلا يحتاجون إلى طلاب الدّار، فأحوزَ ثوابَ ذلك.

فقال يحيى: أمّا ابنُ حَرْب، فأنطقه لسانُ العُصَاة، ودرجتُه درجةُ التوَّابين. وأمّا ابنُ خَضْرَويه، فأنطقه لسانُ المحبّة، ودرجتُهُ درجَةُ المشتاقين. وأمّا أبو حامد، فأنطقه لسانُ الشَّفَقَةِ، ودرجته درجةُ الزّاهدين.

قيل ليحيى بعد ذلك: ما كنتَ أنتَ صانعًا بها؟ قال: وما حُكْمُ العبدِ فى مالِ سيِّده، أَنتظرُ قَضاءَهُ فيها فأصرِفُها فيه، فهو أعرفُ بالتَّدْبير[1].

وكان يقول: الزّاهدُ عيشُه إلى يوم واحد، والعارف أسقط الأملَ أصلاً؛ لأنَّ حياتَهُ بيدِ غيره. وقال: الزاهد يُسعِطُك الخلَّ والخردل، والعارفُ ينثرُ عليكَ المسْكَ والعنبر.

وقال: مَن صَدَقَ فى التَّرك عُذِر فى الأَخْذ. يعنى: الدُّنيا.

وقال: الصُّوفُ لباسُ العجَمِ من المتزَهِّدينَ، ما رأيتُه على أحدٍ استَبْرعَ عقله.

وقال: نفورُ العارفين من الزّاهدينَ أكثرُ من نُفورِ الزَّاهِدينَ من الرّاغبين.

وكان يقول: الدُّنيا كلها لا تَعْدِل عند ربِّها جَنَاحَ بَعُوضة، فكم مقدار ما تركتَ منها يَنْبَغى لك أن تَضعها على طبَق، وتقولُ: ما صنعتُ شَيئًا؛ لأنَّه لو عَرَفَ قدْرَ المزْهُودِ من المعرفةِ لم يذكر الزُّهدَ.

وقال: ترى الزّاهدَ إذا دخَلَ فى الزُّهدِ جوَّع نفسه، وباع شيأه كلَّه مِن الخوفِ من الدنيا لا يشكُّ، حتى إذا قَوِىَ يقينُهُ، ورأى الأمرَ كائنًا وجودُهُ بغيرِ الأسبابِ،

(١) الخبر برمته فى: الإتحاف ٩/ ٣٨١ ـ ٣٨٢.

عَرَف من بَعْد، ونَدِمَ على كثير مما كان باعَ من كُتُبٍ أو متاعٍ.

وقال: الزّاهِدُ كلُّه غُصْنٌ من أغصَان شجرة المعرفة.

وقال: إنّما يتركون ويحزنون ليفرح، ويأخُذون ويفرحون ليفرح، فما عليهم تركُوا أو أخَذُوا، أو حزِنوا أو فرِحُوا، إذ كان فرحُه موجودًا لهم فى الحالتَيْن. فقيل له: هو يَفْرح؟ قال: نعم، أليس فى الخبرِ: «للهُ أفرحُ بتوبةِ عبدهِ مِن رجُلٍ أضلَّ بعيرَه»؟ الحديث[1].

وقال: يا زاهد، إن كنتَ تعجبُ ممَّن تركَ الجنَّةَ فى جَنْب دُنياه، فالعارفُ أشَدُّ تعَجُّبًا حينَ شَغَلتْكَ الجنَّةُ عن خالقها، وكلُّ حالةٍ تَفخرُ بها فى سَيْرِكَ إليه إلا كسَرَها عليكَ الوصولُ؛ ليكونَ فَخرُكَ بهِ لا بغيره.

وجملةُ الأمر أنّ ابنَ معاذٍ لم يكن يتكلَّمُ بلسانِ الزُّهدِ، ولم يكُن عملُهُ يَصْلُح للمُريدينَ ولا للسَّالكينَ؛ لأنه لم يكُن من علماءِ الطّريقِ. وقد هَلَكَ بمثْلِ هذا فريقٌ توهَّمُوا مقَامَ المعْرِفة، وتَظَنَّنُوا[2] حالَ العارفِ، حتَّى فاتهم بذلك مقامُ الزُّهْدِ، ولم يُدْرِكُوا حالَ العارِفينَ.

فأوْلى الأشياءِ بالعاقلِ مُراعاتُهُ لِمَا هو حاصلٌ، ومعرفتُهُ بقَدْرِ حالِهِ، وإعمالُه نَفْسَهُ فى سدِّ اختلالِه.

واعْلَم أنّه ليس شىءٌ يَستبينُ به نُقْصَانُ مَرْتَبةِ العبد، ولا يُغيِّر قَلْبُه حقيقةَ النُّقصَانِ والتغيير بعد حُبِّ رُكوبِ المعاصى [إلا] حبُّ الدّنيا، وشدَّةُ الحرصِ عليها، ودَوامُ الطَّلبِ لها، فإنّها معيارٌ راجحٌ على القَلْبِ بالنقْصِ البيِّن فى كلِّ المقامَات. وقد تدخُلُ بعضُ المعاصى على العبدِ ولا ينقُصُ بِها، وقد يَفْتَر عن جميعِ الطاعات، ولا يَسْقُطُ بها عن مقامه، إذا لم يُخْرِجْهُ ذلك من حالِ الزُّهد. فإن أُشْرِبَ قَلْبُه حُبَّ الدُّنيا حتَّى استَهْوَتْه نَقَص هنا كلُّ حالٍ، وكلُّ المَقامات. فلذلك كان حبُّ الدنيا رأسَ كل ضلالة، وأَصْلَ كل خَطيّة. وصارَت الدُّنيا أُمَّ

(١) هذه الأخبار معظمها فى الإتحاف ٩/ ٣٨٢، وأتممت التالف منها.

(٢) كذا فى الإتحاف ٩/ ٣٨٢. وفى الأصل لدى: «وتطيَّبوا».

الخطايا، وحُبُّها رأس المعاصى، وقَدْ يَصِحُّ الزُّهد مع حبّ بعضِ المعاصِى، أو معَ الإقامة على بعض الكبائرِ، وقد يَصِحُّ أيضًا وُجودُ كلِّ مقَامٍ مِن المقامات من تلك ويَصْفُو القلبُ بَعْدَهُ، إلا ثلاث مقامات: الخَوْفُ، والحُزْنُ، والحياءُ. فإنّ هذه إذَا صَدَقتْ نَفَتْ وُجُودَ المعاصِى من حيثُ يعلَمُ العبدُ.

ثُمَّ لا يَصِحُّ مَقامٌ من المقامات على حقيقَته، ولا يصفو القَلْبُ نهايةَ صفائه مع حبِّ الدُّنيا أصلاً. فصار حبُّ الدُّنيا أضرَّ على العبْد، وأبْيَنَ تَغَيُّرًا لقَلْبه، وأنقصَ لحالهِ من جميعِ الأشياءِ. فلو لم يكُن مِن شُؤْمِ الدُّنيا وعظيم البَلْوى بها إلا هذا لكان عظيمًا.

وإنّ فى قصّة ثَعْلَبَةَ بنِ حاطب[1] عِبْرةً لأُولى الألبابِ الذين كُشِف عن قُلُوبِهم الحجابُ. فَقيرٌ من فُقَراء الصُّفّة الصالحين، أنصارىٌّ، ومن المهاجرينَ، أخْرَجَهُ حبُّ الدُّنيا إلى النِّفاق، وأدْخَلَهُ فى العناد والشِّقاق، وغَضبَ اللهُ ورسولُهُ عليه، فلم يَقْبَل تَوبتَهُ، ولا رَحِم عَبْرتَهُ، ولا أقالَ عَثْرتَهُ، وكان سببَ ذلك حبُّ الدُّنيا، وإيثارُ حالِ الغِنَى على الفَقر. نَذْكرهُ ليعتبر معتبرٌ، ويتذكر متذكِّرٌ، ويزدجرَ به مُزْدجرٌ.

---

(١) قال الزبيدى فى الإتحاف ٨/ ٢٢٥: «وهما رجلان من الصحابة: أحدهما: ثعلبة بن حاطب بن عمرو بن عبيد بن أمية بن زيد بن مالك بن عوف . . . الأوسى الأنصارى. ذكره موسى بن عقبة وابن إسحاق فى البدريين. وكذا ذكره الكلبى، وزاد: أنّه قتل بأُحد. والثانى: ثعلبة بن حاطب ـ أو أبى حاطب ـ الأنصارى، ذكره ابن إسحاق فيمن بنى مسجد الضّرار».

وقال الحافظ ابن حجر فى الإصابة: «وفى كون صاحب القصة ـ إن صح الخبر، ولا أظنه يصحّ ـ هو البدرى المذكور نظر».

وقال الزبيدى تعقيبًا على ذلك (الإتحاف ٨/ ٢٢٧): «وقد تأكدت المغايرة بينهما بقول ابن الكلبى: إن البدرى استشهد بأُحُد.

ويقوى ذلك أيضًا أن ابن مردويه روى فى تفسيره من طريق عطية عن ابن عباس فى الآية المذكورة، قال: وذلك أن رجلاً يقال له: ثعلبة بن أبى حاطب، من الأنصار، أتى مجلسًا فأشهدهم فقال: لئن آتانى الله من فضله، الآية. فذكر القصة بطولها، فقال: إنه ثعلبة بن أبى حاطب. والبدرىُّ اتفقوا على أنه ثعلبة بن حاطب.

وقد ثبت أنه ﷺ قال: «لا يدخل النار أحد شهد بدرًا والحديبية». . . فالظاهر أنه غيره، والله أعلم».

رواه عليُّ بنُ يزيد، عن القاسمِ، عن أبى أُمامةَ، قال: «قال ثَعلبةُ بن حاطب الأنصارى: يا رسول الله، ادعُ اللهَ أن يَرْزُقَنى مالاً. فقال رسول الله ﷺ: وَيْحَكَ يا ثَعْلَبَة! قليلٌ تطيقُ شُكْرَهُ خيرٌ من كثيرٍ لا تُطيقُهُ. ثم عاودَ ثانيًا، فقال: يا رسولَ الله، ادْعُ اللهَ أن يَرْزُقَنى مالاً. فقال له رسولُ الله ﷺ: أمَا تَرْضَى أن تكونَ مثلى، ولو شئتُ أن يُسَيِّر ربى عزَّ وجلَّ هذه الجبالَ ذَهبًا معى لسارت. فقال ثَعلبة: والذى بَعثكَ بالحقِّ لئن آتانى اللهُ عزّ وجلَّ مالاً لأُعْطِيَنَّ كلَّ ذى حقٍّ حقَّه.

فَدَعا له رسولُ الله ﷺ، فقال: اللهُمَّ ارزقْه مالاً. فاتَّخذَ غَنَمًا، فَنَمَت كما ينمو الدُّودُ، فضاقت عليه المدينة، فَتَنَحَّى عنها، حتَّى جعل يترك صَلوات العَتَمة. ونَمت كما تنمو الدود، فتنحَّى حتى ترك الظهر والعصر. ثم نَمَت كما ينمو الدُّودُ حتى تركَ الجمُعةَ، وطَفِقَ يَلْقَى الرُّكْبانَ يسألُهم عن الأخبارِ.

وسأل رسولُ الله ﷺ عَلَيْه: ما فَعل ثعلبة؟ قالوا: يا رسولَ الله، اتَّخذَ غنمًا فضاقَت به المدينةُ، وأخبروه بخبرِه. فقال: يا ويْحَ ثعلبة. وأنزل اللهُ تعالى: ﴿**خُذْ من أَمْوالِهِم صَدَقَةً تُطَهِّرُهُم وتُزكِّيهِمْ بها**﴾ الآية [التوبة: ١٠٣]. فبعث رسولُ الله ﷺ علَى الصّدقة رجُلين، ثمّ أمرَهُما أن يأتيا النّاسَ فيأخذا صَدَقاتهم، ويأتيا ثعْلبةَ بن حاطبٍ، وسنَّ رسولُ اللهِ ﷺ لهما أَسْنانَ الإبل والغَنَم.

فخرجا حَتَّى مرَّا على ثعلبةَ، فقال: أرونى كتابكُما، فأعطوهُ إيّاهُ، فنظرَ فيه فقال: ما هذه إلا جزيةٌ. فانطلقا حتّى تَفْرُغَا ثم عُودا إلىَّ. فانطلَقا، فلمّا فرغا رجعا حتى مَرَّا بثعلبةَ، فسألاه الصَّدقةَ، فقال: أرُونى كتابكُما، فنظر فيه فقال: ما هذه إلا جزيةٌ. انطلقا حتى أرى رأيى. فانطلقا، فأخبرا رسولَ الله ﷺ، فقال: يا وَيْحَ ثعلبةَ بن حاطب. ودعا رسولُ الله ﷺ لمن أخرجَ صدقةَ ماله بالبركة، وأنزل الله عز وجلّ: ﴿**ومنهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتانَا منْ فَضْله لَنصَّدَّقَنَّ**﴾ [التوبة: ٧٥] الآيات كلها. فسمع ذلك رجلٌ من أقاربِ ثَعْلَبَةَ عند رسول الله ﷺ، فخرج حتّى أتاهُ، فقال: وَيْحكَ يا ثعلبةُ، هَلَكْتَ، قد نزل فيك كذا وكذا، وتلا عليه، فخرج ثعلبةُ حتى أتَى رسولَ الله ﷺ، فسأله أن يقبلَ صدقتَهُ، فقال: إن الله عزّ وجلّ قد

مَنَعَنى أن آخذ صدقتكَ. فجعل يَحْثى على رأسه التُّراب، ويقول: ويلى. فقال رسولُ الله ﷺ: هذا عملك، قد أَمرتُك فلم تُطعنى.

فقُبض رسولُ الله ﷺ ولم يقبل منه شيئًا. فأتى أبا بكرٍ رضى الله عنه، فقال: يا أبا بَكْرٍ، قد عَرَفْتَ منزلَتى من رسول الله ﷺ وموضعى، وإنَّ رسولَ الله كان قد سَخِطَ عَلَىَّ، فاقبل أنت صدَقتى. فقال أبو بكرٍ: لم يقبل منك رسولُ الله، أفأقبلها أنا؟! فلم يقبل منه حتَّى قُبض ميِّتًا. ثُمَّ وُلِّى عمر، فأتاه، فقال: يا أمير المؤمنين، اقبل أنتَ صدَقتى. فقال: لم يقبلها منك رسولُ الله ﷺ، ولا أبو بكرٍ، وأنا لا أقبلها. فقُبض عمر ووُلِّى عثمان، فهلك ثعلبةُ فى خلافته»[1].

فهذا كما قال اللهُ عزّ وجلّ: ﴿فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ ولا أَوْلادُهُم إنّما يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا﴾ [التوبة:٥٥]. وكما قال: ﴿واعْلَمُوا أَنَّما أَمْوالُكُم وأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال:٢٨].

وقد كان من دعاء داوُد عليه السَّلام: «أعوذُ بِكَ مِن مالٍ يكُونُ علىَّ عذابًا، ومِن ولَدٍ يكون علىَّ ربًّا». التعذيبُ بالمال مَرَّةً بجمعه، وتارةً بحفظه، وأوقات كثيرةً بالهَمِّ بهِ، ثمّ التفرُّغُ له بالشُّغْل عن مُمَوِّلِه، ثم الشُّغلُ به بالفراغ من المستعمل المحسن به (. . .) الولد على الوالد أن يستعبدَهُ بخدمته (. . . ـه)[2] فيصير عليه ربًّا بقَدْرِ ما صارَ الوالدُ له عبدًا.

وكان من دعاءِ نبيّنا ﷺ: «أعوذ بك من فتنةِ الغِنى والفَقْرِ. وأعوذ بكَ من غِنًى يُطغى، وفقرٍ يُنْسى».

فقد وُتِر ثعلبةُ المسكين بِغناه، فأُهْلكَ بطَغْواهُ، واستُدرجَ بماله، فسقط به عن مقامِهِ وحالِهِ بمالِهِ، فحملَهُ البُخلُ وإيثارُ الكَثْرة والجمعِ على مَنْع الصّدقةِ، وظُلْم

(١) الحديث بطوله فى الإحياء ٣/ ٢٧١ ـ ٢٧٢ فى باب ذم الغنى ومدح الفقر.

وقال العراقى فى تخريجه: «الحديث بطوله أخرجه الطبرانى بسند ضعيف».

وقال الزبيدى: «قلت: رواه أيضًا البغوى، والبارودى، وابن شاهين، وابن السكن، وابن قانع، والديلمى».

(٢) طمس بالأصل فى الموضعين قدر كلمتين فى كل موضع.

أهلها، وترْك إخراجِ حقِّ الله منها، فعَجَزَ عن الفرضِ بعد أن كانَ ادّعى القُوّةَ والنُّهوضَ بالفَضْلِ. وما كان ينقصُ من المالِ لو أخرجَ من كل مائة شاة شاةً، وهو عُشر العُشر إذا كثرت غَنَمُهُ، وأن يُخرج من خَمسين ناقةً حقّةً من الإبلِ، ومن أربعين بنتَ لبون، وذلك خُمس العُشْر إذا كثُرت إبلُه، وربُعُ العُشر؟! وكان فيه رضا ربِّه وطُهْرةُ نفسه وزكاةُ ماله، ولا يتبين نقصه فى مزيدِ ماله، ولكن حضَرَ شحُّ نَفْسه، وغابَ يقينُ آخرته، فأطاعَ الحاضرَ لفقد الغائب، وكان أصلُهُ قلّةَ العنايةِ وعَدَمَ الوِقايةِ، فلم يوجَد الفلاحُ، وفُقدَ الصّلاحُ، ووُجِد البُخلُ، وظهرَ الخُلْفُ، وبانَ الكذبُ، وعَزُبَ الصِّدقُ، ينتظمُ ما ذكرناه قولُه تعالى: ﴿**وأُحْضِرَت الأنفسُ الشُّحَّ**﴾ [النساء:١٢٨]، وقولُه: ﴿**ومَن يُوقَ شُحَّ نَفْسه فأُولئكَ هُمُ المُفْلحُونَ**﴾ [التغابن:١٦]، وقوله: ﴿**لَنصَّدَّقَنَّ ولَنَكُونَنَّ منَ الصَّالحينَ**﴾ مع قوله: ﴿**بَخلُوا به**﴾ إلى قوله: ﴿**بما أَخْلَفُوا اللهَ ما وَعَدُوهُ وبما كانُوا يَكْذبُون**﴾ [التوبة:٧٥ ـ ٧٧]، فأعقبه ذلك النِّفاقَ إلى يوم التلاقِ، وجعل بابَهُ حُبَّ الدُّنيا، ومفتاحَهُ الطَّلبَ لها، والحِرصَ عليها، فحقَّت عليه الثلاثُ المُهلكاتُ، إذ لم يُرْزق المُنْجياتُ، ﴿**أُولئكَ يَنالُهُم نَصيبُهُم منَ الكتابِ**﴾ [الأعراف:٣٧]. فاعتبروا يا أُولى الألباب[(١)].

وقال الرسول ﷺ: «ثلاثٌ مُهلكاتٌ: شُحٌّ مُطاع، وهوًى متَّبع، وإعجابُ المرء بنفسه» فهذه مجموعةٌ فى حالِ الغنى، وموجودة فى تحمُّلٍ من الأغنياء. «وثلاثٌ مُنْجياتٌ: خَشْيَةُ الله فى السرِّ والعَلانيةِ، والعَدْلُ فى الغَضَب والرّضا، والقَصدُ فى الفَقْرِ والغِنى».

فهؤلاء الصفاتُ الستُّ نعوتُ أبناء الدُّنيا الرّاغبين، وأبْناء الآخرة الزّاهدينَ فيها، فَتَدبَّروا. لأن فى الدّنيا الشّحَّ والهوى والعُجْبَ، وهُنَّ هُلْكَةٌ للهالكين. وفى الزُّهد الخشيةُ والعَدْلُ والقصدُ، وهُنّ منجاةٌ للنّاجين بفَضْلِ الله وبرحمته.

وأمَّا طريق يحيى بنِ معاذ وبعضِ العارفين فى شأن الدُّنيا: فإنَّ مَن لم يتملَّك المُلكَ لم يضرَّهُ ما مُلِكَ بعد أن لا ينظرَ إلى نفسِه فيه، كما لا يشهَدُهُ له، بل يجدُهُ

---

(١) نقل الزبيدى هذه الفقرة بنصها، وكان فى الأصل طمس شديد أتممته من الإتحاف ٨/ ٢٢٥.

فى خزانةِ اللهِ التى هى يَدُهُ وتَمْليكُه، ويكونُ موقوفًا فيها إلى تَنفيذِ حُكمِ اللهِ فيه من وضْعِه فى مواضعه، وإخراجِه فى أوقاتِه إلى أهْلِه. فهذا مُستودَعٌ يؤدِّى الأمانةَ فيه، ووكيلٌ مُستَخْلَفٌ يطيعُ الموكِّلَ به. فمقامُ هذا من التّوحيدِ، وشهادَتُه بعَينِ اليقينِ، يزيدُ على مقاماتِ الزّاهدينِ. وهذا وصْفُ الصّحابةِ الأعلينَ.

ومحنةُ هذا المقامِ الذى تَصِحُّ به هذه العَينُ هو استواءُ وُجوده وعَدَمه؛ أعنى: المالَ؛ لأنّه كذلك هو فى خِزانة المَلِك موجودًا له، ومعدومًا للخلْقِ، وموجودٌ أيضًا بإيجادِه وجَعْلِه، ومفقودٌ أيضًا بإعدامِه وفَقْدِه. والمتصرِّفُ فيه إنّما هو محكومٌ عليه يجرى بِحُكم حاكمٍ لا يهوَى نفسه. فإذا صَحَّ منه فندُ (...) على عَدَمه وعدَمِ الفَرَحِ بوجوده لاستواءِ حَالةِ الوُجودِ للمالِ ولعَدَمه من حيثُ استواءَ قلبِه لمُبَيِّنِه عن التَّقْليبِ للحيلُولة بينه وبين (...)[1] بأن جعلَهُ لهُ سَليمًا ممَّا سواهُ، ليس فيه غيرُ اللهِ الذى يعبد إيّاهُ. وهذا تحقُّقُ الوَصْفِ بالعُبُودية محْضًا للمعْبُودِ صِرفًا، رجُلاً سَالِمًا لِرَجُلٍ ليس فيه شركاءُ مُتَشاكِسينَ. فحالُ هذا العبدِ فى مَزيد عند اللهِ بحقيقةِ المعرفةِ، والقيام بشهادة قيُّوميته، أعلى من مقاماتِ الزُّهدِ فى الدُّنيا الدّنيّة، وفوقَ (...) الرّاغبين فى الآخرةِ العليّة؛ لأن هذا معنى من لا [يشهد]... وغنى وصْفِها، وهو أنّ اللهَ تعالى لا يأسف عَلَى [بُعْدِ عَبْدٍ] لمعنًى، لأنَّ له أمثالَهُ إذا شا[ء] وغِنًى عنه بفوْته، وقَد (...) على ما شاءَ، كذلك العارفُ باللهِ فى معنى هذا (...) عن شهادته لقيُّوميته على بعد [الموجود لأنه من] القوىِّ عَزَّ عنه بمَوْلاهُ الغَنِىِّ. ولأنَّه ليس لَه، إنّما هو لمالكه فى خِزانةِ قَبْضِهِ وعَدَمِه، وموجودٌ له، ولأنّه لا يشاءُهُ.

وقد كان يحيى بن معاذٍ يقول: لا تأمَن مكْرَهُ ولا تَغْتَرَّنَّ، انظر أن لا تكونَ قد تركتَ الزُّهدَ والعبادةَ ظنًا منك بأنّك قد وصلت إلى دَرَجة الحُبِّ والمعْرفَة، فَتصيرُ فى القيامة عاريًا منها كلِّها؛ لا فِى منازلِ العارفين ظهَرْتَ، ولا فَضْلَ الزُّهْدِ والعبادَةِ أدْرَكْتَ.

هذا مع قَوله: إذا صَحَّ الزُّهدُ خَرجَتْ شَهوةُ النِّساءِ من قَلْبِه، فلم يُرِدْهُنَّ، فإذا

(١) تلف قدر كلمتين أو أكثر، وكذا فى المواضع التالية، وما بين المعكفات اجتهاد منى.

أُقيمَ مقامَ المعرِفَةِ رَدُّوهَا عليه.

وقال مرّةً: إذا زهدَ تَركَ الشَّهَوات، فإذا عَرَفَ عاوَدَها، ويكون وَجْدُهُ أفضلَ من تَرْكِه.

وقال: إذا صَحَّ زُهْده لم يلحظْ من الدّنيا شيئًا مُشتَهيًا له، فإذا لَحظَهُ قالوا: خُذْهُ، يَخْلَعُونَهُ عليه؛ لأنّ قلبَهُ قد وقَعَ عليه. قال: وكذلك إذا عَرَفَ لا يلحَظُ من الآخرَةِ شيئًا بقَلْبه، فإن وقَعَ قَلْبُهُ على شىءٍ منها جُعلَ له.

كأنّه يقول: إذا صَحَّ تَرْكُهُ للدنيا والآخرَةِ لأجْلِ الله، فإنه يردُّهما عليه، إذ اللهُ تعالى لا يعبأ بهما شيئًا.

وكان يقول: الزُّهدُ يورثُ السَّخاءَ بالنّفسِ عن الآخرةِ، وحُبًا لله تعالى يَشْغَلُ عَن الدَّارَيْن جميعًا.

وقال: تركُ الدّنيا مهرُ الآخرةِ، ونفسُك خيرٌ من الدُّنيا فلا تَبِعْها بها. ومن علامَةِ المعرفةِ بهذا بيعُ الدّنيا كلِّها فى جَنْبِها.

وقيل له: ما غاية الزُّهد؟ فقال: أن لا يصحب من الدنيا ما يلزمهُ حِفْظُهُ.

وكان يقول: إذا كُنْتَ الطالبَ للدُّنيا تَعبْتَ ولم تَنَلْ ما تُريد. وإذا كانت الدّنيا هى الطالبةُ لكَ نِلْتَ منها مع الراحةِ كثيرًا ممّا تُريد.

والأخبارُ فى فضائل الفقر وفضل الفُقراء، وفى ذمِّ الدّنيا ونَقْص الأغنياء، وفى مدح الزُّهد ووَصْفِ الزّاهدينَ ـ أكثرُ من أن تُذكَر، ولم نقصد جَمْعَها، ولا كَثْرَةَ الاستدلالِ بها، وإنّما اتَّصَلَ الكَلامُ بعضُهُ بِبَعْضٍ فوَصلْناهُ.

ومن الزّهدِ تَركُ فُضولِ البُنيانِ، وأن لا يبنى عاليًا، ولا مُشَيَّدًا، ولا من الطين، إلا ما يحتاج إليه. وقيل: أولُ بدعة حدثَتْ بعدَ رسولِ الله ﷺ: المناخلُ والموائدُ، وأوّلُ شىء ظهر من طول الأمل: التَّدْريزُ والتَّشْييدُ. يعنى: دُرُوز الثياب، وإنما كانت تُشَلُّ شَلاًّ، والبُنيانُ بالجصِّ والآجُرِّ، وهو التشييد، وإنّما كانوا يَبنونَ بالسَّعفِ والجَريد، وأعلاهُ بالطِّينِ الرَّهُوصِ.

وقد جاء في الأثر: «يأتي عَلَى النّاسِ زمانٌ يُوَشُّونَ بُنْيانَهُم كما تُوشَّى البُرودُ اليَمانِيَة».

ونظر عمرُ رضى الله عنه فى طريقِ الشّامِ إلى صَرْحٍ قد بُنى بجصٍّ وآجُرٍّ، فكَبَّر، وقال: ما كنتُ أظنُّ أنّ فى هذهِ الأمةِ مَن يبنى بُنيان هامانَ لفرعونَ. يعنى قولَ فِرعونَ: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ﴾ [القصص:٣٨] يعنى به الآجُرَّ.

يقال: أوّلُ من بَنى بالجِصِّ والآجُرِّ فرعونُ، وأوّل من عمِلَهُ هامان، ثم تَبِعَهُما الجبابرةُ؛ فهذا هو الزخرف.

وذكر بعضُ السّلفِ جامعًا فى بعضِ الأمصارِ فقال: أدركتُ هذا المسجد مبنيًا من الجريدِ والسَّعَفِ. ثم رأيتهُ مَبْنيًا من رَهُوصٍ. ثم رأيته الآن مبنيًا باللَّبِن. فكان أصحابُ السعفِ خيرًا من أصحابِ الرّهُوص، وكان أصحابُ الرّهوصِ خيرًا من أصحابِ اللبِن.

وقد كان فى السلفِ من يبنى دارَه مِرارًا فى مُدّةِ عُمره لضَعْفِ بنائه، وقصَرِ أمله، ولزهده فى إتْقانِ البُنيان. وكان منهم مَن إذا حَجّ أو غَزا نَزعَ بيته، أو وهَبَهُ لجيرانِه، فإذا رَجَع أعادَهُ. وكانت بيوتُهُم من الحشيشِ، والثُّمامِ، والجُلود. وعلى ذلك العربُ ببلادِ اليمنِ إلى اليوم.

وأمر رسول الله ﷺ العبَّاسَ رضى الله عنه أن يهدم عُلِّيَّةً كان قد عَلا بها.

ومرّ عليه الصلاة والسلام بجُنبُذَةٍ[1] مُعَلاَّة فقال: «لمن هذه؟» قالوا: لفلان. فلما جاءه الرجلُ أعرضَ عنه، فلم يكن يُقبل عليه كما كانَ، فسأل الرجلُ أصحابَهُ عن تغيُّر وجْهِ رسولِ الله ﷺ، فأخبرُوه، فرجع فَهدَمَها. فمرَّ رسولُ الله ﷺ بالموضعِ فلم يَرَها، فسأل عنها، فأُخْبِر أنّه هَدَمها، فَدَعا له بخير.

وكان سُمْكُ بناء السّلفِ قامةً بَسْطَة. وقال الحسن: كنتُ إذا دَخَلْتُ بيوتَ أصحابِ النبى ﷺ ضربتُ بيدى إلى السَّقْف. وقال عمرُو بن دِينار: إذا أعْلَى العبدُ البناءَ فوقَ سِتَّةِ أذْرُعٍ ناداه مَلَكُ الهواءِ: إلى أين يا فاسِقَ الفاسقين؟

(١) الجنبذة: بناء مرتفع مستدير كالقبة.

وقال رسول الله ﷺ: «من بَنى فوقَ ما يكْفيه كُلِّف أن يَحْمِلَه يومَ القيامة».

ومرّ عمرُ رضى الله عنه ببيت عال، فقال: أبت الدّراهمُ إلا أن تُخْرِجَ رُؤوسَها. ومرّ بعاملٍ له فرآه قد علَّى فَوْقَهُ جُنبذَةً وشيَّدَ، فقال: علَى كلِّ خائنٍ أمينان الماءُ والطِّينُ. ثم شاطره ماله، فجعله فى بيت المال[1].

وفى الخبر: كلُّ نفقةٍ يُؤْجَرُ عَلَيها العبدُ إلا ما أنفقَهُ على الماءِ والطِّين.

وقد روينا عن بعض السلف: إذا مَقَتَ اللهُ تعالى مالَ عبدٍ سلَّطَ عليه الماءَ والطينَ.

وقال يحيى بن يمان رحمه الله: كنتُ أمْشِى مع الثّورى رحمه الله فى طريق، فنظرتُ إلى بابٍ مشيَّد بالجصِّ، فقال: لا تنظر إليه. فقلتُ: يا أبا عبد الله، ما تكره من النظر؟ قال: إذا نظرتَ إليه كنتَ عَونًا له على بنائه؛ لأنه إنّما بناهُ ليُنظَرَ إليه، ولو كان كلُّ من مرَّ به لم يَنظر إليه ما عمله.

وقد قال بعضُ السلف قَبْلَه: ولا تَنْظر إلى بُنيانِهِم، فإنهم إنّما زَخْرَفُوه لأجلِكُم.

وفى قولِ الله تعالى: ﴿**تِلْكَ الدَّارُ الآخرةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًا فى الأَرْضِ وَلا فَسَادًا**﴾ [القصص:٨٣] قيل: حبُّ الكثرةِ والرياسة، والتطاولُ فى البُنيان.

وكذلكَ قال رسولُ اللهِ ﷺ: «كلُّ بناءٍ وَبالٌ على صاحبهِ يومَ القيامة إلا ما أكَنَّ من حرٍّ أو بَرْدٍ». وفى خبرٍ: «إلا مَسْجِدٌ من بُيوتِ الله».

ولذلك جُعِل من أَشْراطِ السَّاعةِ، وقُربِ توقُّع وُقُوعها فى خبرِ الجسَّاسَةِ، أن الدَّجّال سأل: هل تطاول النّاسُ فى البُنيانِ؟ قالوا: نَعَم. قال: الآن دنا خُروجى، فى أشياء عدّدها.

(١) لفظ هذا الخبر من المطبوعة، وفى (خ) ما نصه: «ومرّ عمر رضى الله عنه بعاملٍ له قد علَّى فوقه جُنبذَةً. فقال: لمن هذه؟ فقيل: لفلان؛ عامل من عماله. فقال: أبى المال إلا أن يُطلع رأسه لنا. على كل خائنٍ شاهدان الماء والطين. ثم أرسل إليه، فأغرمه ما أنفق على داره، فجعله فى بيت المال».

وقالَ للرَّجُلِ الذى شكَا إليه ضيق منزله: «اتّسع فى السَّماءِ» أى فى الجَنَّة. وهذا أحد التأويلين. والثانى: اتسع فى المعرفة ولا تطلب اتساع المكان.

واعلم أنَّ الزهدَ لا يَنقُصُ من الرِّزقِ، ولكنّه يَزيدُ فى الصَّبر، ويُديمُ الجُوعَ والفقر، فيكون هذا رزقًا للزّاهد من الآخرة على هذا الوَصْف، من حرمانِ نصيبهِ من الدُّنيا، وحمايتِه عن التَّكَثُّرِ منها، والتوسُّعِ فيها. ويكون الزهدُ سبَبَهُ، فيكون ما صَرَفه عنه ومَنَعه من الغِنى والتّوسُّعِ رِزْقَه مِن الآخرةِ، والدّرجات العُلى، بحُسنِ اختيارِ من اللهِ تعالى، وحَيْطةِ نَظَر.

كما حُدِّثنا عن بعض العلماء: أن بقَّالاً جاءَهُ فقال: إنّى كنتُ أبيعَ فى محلّةٍ لا بقَّالَ فيها غَيرى، فكنتُ أبيعُ الكثيرَ، ثُمَّ قد فَتحَ عَلَىَّ بقّالٌ آخر، فهل يَنقُصُ ذلك مِن رِزْقى شَيْئًا؟ فقال: لا، ولكن يَزيدُ فى بَطَالتِكَ عن البيعِ.

فلعلّ بطّالاً لاعبًا يحتجُّ لتوسُّعِه وهَواهُ ويُموِّهُ على أبناءِ الدنيا ممّن يتولاه، فيقول بأنّ الزُّهدَ فى الدّنيا لمّا لم يَنقُص من رِزقى شيئًا، قد صحَّ مقامًا لى مَع التوسُّعِ والاستكثار، وعلى التنعُّمِ والرَّفاهِية والاستئثار؛ لأنّى إنّما آكلُ رِزقى، وآخذُ قسْمِى، فلى فى الزُّهد مقامٌ، ومن الرِّضا والتّوكُّل حَالٌ. أو يقول: إنَّ الزُّهدَ قد يُصبِح مع التكاثُرِ والزِّينةِ، يُزَخْرِفُ بقوله عَلَى مَن لا يَعْرِف الزُّهدَ، ويغرُّ بمقالتهِ مَن لا يَعرف طرائقَ الزّاهدين. ولعلّه ممن يأكل الدّنيا بالدّينِ، أو يُزخرف القولَ، ويُشبِّه العلمَ على الغافلين. فمَثَلُه كما قال علىٌّ رضى الله عنه للخَوارج، حين قالوا: لا حُكْم إلا لله. فقال: «كَلمةُ حَقٍّ أُريدَ بها باطلٌ». وصدق رضوانُ اللهِ عليه؛ لأنهم أرادُوا بذلك إسقاطَ حُكْم الأئمةِ، وتَرْكَ الطّاعةِ للإمامِ العادلِ.

كما أراد القائلُ: إنّما آكُلُ رزْقى وآخَذُ من الأشياء قسْمى، فسمَّى الاحتجاجَ لنفسه بهَواهُ، والاعتذار(١) عند الجاهلينَ زُهْدًا خيفَةَ لَوْمهم إيّاه. فكانَ ذلك مَعَهُ احْتجَازًا عن الزُّهد لزُهده فى الزُّهد، وقوّةِ رغبته فى الرغبةِ، كما احتجز الكُفّارُ عن الإطْعامِ، واحتجُّوا لبُخْلِهم بمَشِيئَةِ الأحكامِ، فقالوا لمّا قيل لهم أنفِقُوا: ﴿أَنُطْعِمُ مَن

(١) فى الإتحاف ٩/ ٣٨٣: «والاعتزار».

﴿لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ [يس:٤٧]، فلم يكن بهم مَشيئةُ التوحيدِ، ولا إثباتُ القَدَرِ، إنّما كان بهم البُخْلِ، فاعتذرُوا بهذا العُذْرِ.

ولا يعلمُ المغرورُ بداءِ الغُرورِ أنّه وإن كانَ يأكلُ رِزْقه من الدنيا، ويأخذ قسْمَه مِن العَطاءِ، فبحُكم النَقصِ والبُعد، وبوَصْفِ الرّغبة والحِرْصِ؛ لأن السّارقَ والغاصِبَ أيضًا يأكُل رِزْقَه ويأخذُ قِسْمه، ولكن بحُكمِ المقْتِ وسُوءِ الاختيار. إذ كانَ الله سبحانه وتعالى يَرْزُق الحرامَ للظّالمين، كما يرزقُ الحلالَ للمُتّقين، وإنّما بينهما سوءُ القضاء، ودَرْكُ الشَّقاء للأعداء، وحسن التّوفيق والاختيار بالسّعادة للأولياءِ من المولى الكريم، فقد حُرِمَ المدَّعى لذلك رزقَهُ من الزُّهد، وبُخِس نصيبَه الأوفرَ من حُبِّ الفقْر، ونُقِصَ حظَّه الأفضلَ من الآخرةِ، إذ كانت الدّنيا ضدَّها. وجُعِل ما صُرِف فيه وما صُرِفَ إليه سَبَبًا لنُقْصانِ مرْتَبته من طرائقِ الزّاهدين، وأنّه قد اختُبِر بالدّنيا، وبَما فُتِح عليه من السَّرّاء؛ لِيَظْهر صِدْقُه من كَذِبِه، فوقَعَ فى الفتنةِ، ولم يَفْطِن للابتلاء.

وصارَتْ مُشاهدَتُه هذه ـ إذا كانَ صادقًا فيها غيرَ كاذبٍ على وَجْده ـ حجابًا له عن عُلوم العارفين المعصُومين، واستُدْرِجَ بعلْمه هذا لأنّه علْمٌ من عُلومِ الدّنيا، يَفنى بفنائِها، لا ثمرةَ له فى الباقِيَة، مُكِرَ بهِ فيه، وعُدِلَ به إليه عن عُلومِ الخائفينَ، ومُشاهدة الوَرِعينَ الزاهدين، الذين نظروا من الحلالِ فى الدّقيق، وصدقُوا القولَ فى تَركِ الرَّغبة بالعملِ بالزُّهدِ للتّحقيقِ.

وإن كان كَاذبًا فى مُشاهدته، ظالمًا لنفسه بما ادّعاه من وَجْده، فهو من أولياءِ الشّياطينِ، قُيِّضَ لِلاَّعبينَ، وسِيقَ إلَيهم فتنةً لهم. لَيس إمامًا للمُتَّقين، بل من الأئمةِ المضلّينَ المحرومين من أبناء الدّنيا الغافلين، رغبةً فى الدّنيا، وزُهْدًا فى طرائقِ السَّلَفِ؛ لوجُودِ الطَّمعِ، وعدَمِ اليقين. فقد مُكِر بهذا المعدول به عن عُلومِ الموقنين، وحقائقِ مُشاهدتِهم على هذا الوَصْفِ الذى أُريدَ به الذى يُقلَّبُ فيه، وهو لا يَشْعُر بالمكْر، ولا يَعرِفُ الاستدراجَ بالنِّعم، وأنّى له بعِلْم ذلك، والله تبارك وتعالى يقول: **﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ﴾** [الأعراف:١٨٢]. وقال تعالى: **﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾** [النمل:٥٠]. فهيهات هيهات أن

يفطنَ المَكُورُ لما مُكِر به، أو يعلمَ المستَدْرَج ما دُرِج فيه؛ لأنَّ الماكرَ ألطفُ الماكرينَ، والمدْرِجُ أحكم الحاكمين.

وقال بعضُ العارفين: مَن كتَم ما يجدُه من آفات نفسه عُوقِبَ بادّعاء منزلةٍ لم يَبْلُغْها. نعوذُ بالله تعالى من الاغترار بعِلْمِ الإظهار، ونسأله الصّلاةَ على نبيّه محمّد ﷺ وآله أجمعين، وحُسْنَ التوفيقِ لمشاهدةِ علم التحقيق.

وبمثل ما قُلناه جاءَت الآثار وكثُرت الأخبارُ: إنّ مَثَلَ الدّنيا والآخرةِ كضرَّتين رِضا إحداهما فى سُخْطِ الأخرى. وإنَّهُما بمنزلةِ المَشْرِق والمغْرِب مَن استقبلَ أحدهما استدبر الآخر. وإنهما بمنزلةِ كِفَّتى الميزانِ رُجْحانُ إحداهُما بِنُقْصان الأُخْرى.

وكان عمرُ رضى الله عنه يقول إذا ذكر الدنيا والآخرة: «والله إنْ هُما إلا بمنزلةِ قَدَحَيْن لَكَ مُلئ أحدُهما، فما هو إلا أن تُفْرِغ أحَدَهُما فى الآخَر». يعنى أنك إن امتلأتَ من الدنيا تفرَّغت مِن الآخرة، وإن امتلأتَ من الآخرة تفرَّغتَ من الدّنيا، وإن كانَ لك ثلثُ قَدَحِ الآخرةِ أدركْتَ ثُلُثَى قَدَحِ الدنيا، وإنْ كانَ لكَ ثُلُثا قَدَحِ الآخرةِ يكونُ لك ثُلثُ قَدَحِ الدنيا. وهذا تمثيلٌ حَسَن إلا أن فيه شدّةً وتدقيقًا.

وقال بعض السلف: مَثَلُ مَن زَهِدَ فى الدُّنيا مع التنعُّمِ فيها كمثَلِ مَن يَغْسِلُ يدَيْه من الغُمْر[1] بسَمَكٍ. وقال آخرُ: مَثَلُ مَن زَهِدَ وهو يَطْلُب الدُّنيا مَثَلُ مَن يُطْفِئُ النَّارَ بالحَلْفاء.

وقد كان يحيى بن معاذ يقول: إذا كان التَّعبُّد والاجتهادُ على غيرِ زُهْدٍ، لم يكن للعَمل ميراثٌ. يعنى من حِكْمةٍ ولا مَعْرِفَةٍ.

وكان يقول: كيفَ يكونُ زاهدًا مَن ورَع له، تورَّعْ عن فُضُول ما ليس لكَ، ثم ازْهَد فيما هو لَكَ. وقال: لا يكمل للزّاهد زهده، إلا باستواء الحال فى هذه الخصال: الموجودِ والمفقود، والسَّفَر والحَضَرِ، والعزِّ والذُّلِّ، والمَدْحِ والذَّمِّ، والغِنى والفَقْر، ويكون همُّه للطّعام كهمِّه للشّراب.

(١) الغمر: نوع من الطلاء أو الطيب.

وكان يتكلم فى تزويجِ الزّاهِدِ فيقول: الكيِّسُ من الزُّهَّادِ مَن إذا أراد التَّزوُّجَ لله أن يلقى المرأة بهذه الخِصَال، فإن هى أجابته وإلا تَرك:

أولها: فى بيان الكِفايةِ من المعَاشِ. يقول لها: لا أقلّب كفِّى فى طلَب دينا، ولا أسعى لكِ ولا لولدٍ، وإن كان فى كسب دانِقَيْنِ.

والثانية: أن يُعْلِمَها أنّه لَيْس عنده مالٌ. ويقول: إن كان عندَكِ مالٌ بعثتُ به لك للآخِرة، وأخرجتكِ منه، وكان تدبيرِى فى مالكِ كتَدْبيرى فى مالِ نفسى الذى قد خرجتُ منه.

والثالثة: إن أردتُ الخُروجَ إلى مكةَ أو ثَغْرٍ من الثُّغورِ، أو زيارةِ أخٍ فى بلدةٍ أُخرى، أمْضيتِ ذلك، ولزمْتِ الرِّضا، وكنتِ لى عَوْنًا على إنفاذِه.

والرّابعة: إن تزوجتُ عليكِ ثلاثًا كما قد أطْلَقهُ اللهُ لى، لم تكرهى ذلك، ولم تُعرِضِى بوجهك، ولم تَفْقدينى من مُواتاتك ما كُنتِ لى عليه قبل حُدوثِ ذلك.

والخامسة: خِفَّةُ الصّداقِ، وغايتُه مِثقالٌ من ذهبٍ، وهو كثيرٌ.

والسادسة: تَرْكُ خُذْ وهات.

والسابعة: سُرعةُ البناءِ بكِ، لا تَلْتاثِينَ علىَّ فيه.

فإن وافق منها هذه الخصال فليتقدم، وإلا توقَّفَ.

وكانت امرأتُه رحمها اللهُ زاهدةً، وكان يحكى عنها زُهْد النساءِ. قال: قالت لى أهْلى: ما زُهدُ النِّساء؟ قلتُ: تركُ الزِّينةِ والرِّياء. قالت: أعلى من هذا. قلتُ: ما هو؟ قالت: تُطيِّبُ نَفْسَها لزَوْجها بأنْ يَتزوَّج عليها مَن شَاءَ من النِّساء، فإنّ الزّوجَ من الدُّنيا، وهو يَشْتَدُّ على النِّساءِ، وتعلُّقُ قَلْبها به من الدُّنيا. قال: فقُلتُ لها: هى بضاعتُكُم، أنتم بها أعرفُ.

قال: وقلتُ لها مَرّةً: قد أذنَ اللهُ فى تَزْوِيجِ أربعةٍ من النّساءِ، فقالت: ليس بفرضٍ أن تتزوَّج بأربعةٍ، وقد فَرضَ عليك أن تَعْدلَ بين اثنتين[1].

---

(١) الخبر السابق برمته فى الإتحاف ٩/ ٣٦٧.

وكان أبو سُليمان يقول فى الزّهد فى النّساء: أن تختارَ المرأةَ الدّميمةَ والقريبةَ الأمرِ من كبَرٍ وغير منظرٍ على الشّابّة الحَسْناء.

وكان مالك بن دينار يقول: يتركُ الرّجلُ أن يتزوّجَ اليتيمةَ أو الضّعيفة لله، فإن أطعمها أو كَساهَا أو فرَّحَها أُجِر فى ذَلِك، وكان له فى ثوابِ الآخرةِ، ويتزوّجَ ابنةَ فلانٍ وفلانٍ.

وبالجملة: الاقتصادُ فى شأنِ النّساء، والتّقلُّل، وأخذُ الحاجَة والكفايةِ منهُنّ، كالقولِ فى شأنِ الدّنيا من ذلك، لا تُنكحُ المرأةُ لما يَنْكَحُ أبناءُ الدّنيا من المعانى الثلاث، لا لحُسنها ولا لحَسَبها ولا لمالها، فلم يَبْق إلا الدِّينُ والصَّلاحُ، فهذه زوجةٌ أُخرَويّةٌ، لَيْسَت من الدُّنيا[1]، تدبّرناه فى الخبر الذى رُويناهُ: «تُنكَحُ المرأةُ لأربع»، ثم قال: «عليك بذاتِ الدِّين تَرِبَتْ يَداكَ».

وقد جعل رسولُ الله ﷺ فى وصْف الفقراء: «أنّهم لا تُفتح لهم الأبوابُ، ولا يُنكحون المتمتعاتِ أو المنَعّماتِ». فدلّ أَنَّهم يَنْكحون المتبذِّلات.

وفى الخبر: «إنّ الله يحبّ المتَبَذِّلَ الذى لا يبالى ما لبِس». وقال الله فى وصْفِهنّ: ﴿هُنَّ لِباسٌ لكُم﴾ الآية [البقرة:١٨٧].

وقال عيسى عليه السّلام: «لا تنظروا إلى أموالِ أَهْل الدّنيا، فإنّ بريقَ أموالهم يَذهبُ بنورِ إيمانكم».

وقال بعض العلماء: تقليبُ المالِ يمصُّ حلاوةَ الإيمان.

وفى الخبر: «إيّاكم وأبوابَ الأمراءِ فإنّ عليها فَتْقًا كمباركِ الإبلِ»[2].

وفى الأثر: «لكُلِّ أمّة فتنةٌ، وإنّ فتنةَ أُمَّتى هذا المال». ورُويناه من طريق: «لكلِّ أمّةٍ عجلٌ، وعجلُ هذه الأمة الدِّينار والدّرهم».

وعن المسيح: «لا تجالسوا الموتى فتَقْسُوا قلوبُكم. قيلَ: ومن الموتى؟ قال: طالِبوا الدنيا المحبُّون لها».

---

(١) إلى هنا ينتهى نقل صاحب الإتحاف: ٩/ ٣٦٧.

(٢) الفتق: الموضع لم يُمطر وقد مُطر ما حوله.

ويقال: ما مِن يومٍ ذَرَّ شارِقُهُ إلا وأربعة أملاك يُنادون فى الآفاق بأربعة أصوات، مَلَكان بالمشْرِقِ، ومَلَكان بالمغرب، يقول أحدُهم: يا باغى الشَّرِّ أقصر، ويا باغى الخيرِ هلُمَّ. ويقول الآخر: اللهُمَّ أعْطِ مُنفقًا خلفًا، وأعْطِ مُمْسكًا تَلفًا. ويقول اللذان فى المغربِ: لِدُوا للموتِ، وابنوا للخَرابِ. ويقول الآخرُ: كُلوا وتمتَّعُوا لطُولِ الحسابِ.

وقال بعضُ العارفين[1]: إن الله تعالى وَسَمَ الدُّنيا بالوحْشَةِ ليجعل أُنس المطيعين به.

وقال: النّاسُ فى باب الزُّهدِ فى الدُّنيا على وجوه:

[أحدها]: رجلٌ قد غَلَبها موجودةً ومفقودةً، ورجلٌ قد غَلبَتْه موجودةً ومفقودةً، ورجلٌ قد غَلَبها مفقودةً وغَلَبَتْهُ موجودةً. تفسيره: فإن من النّاسِ من قَهَر هوَاهُ ومَلَكَ نَفْسَه وشهوتَهُ وهو قادرٌ عَليها، وهى موجودةٌ له، فذلك أحْرَى أن يغلب نَفْسه فيما فَقَد من الدُّنيا وغابَ عنه، وهذا مقامُ الصّدِّيقين.

والثّانى: قد غلبته النّفسُ، وأهواهُ الهوى، وأمالَتْهُ الشَّهوات، موجودةً إذا قدر عليها، ومَفْقُودةً له بالاهتمامِ بها، والفِكَرِ والخَواطِر فيها، والإرَادَة لها. فهذا ساقِطٌ لاقِطٌ، لا مَقَامَ له ولا وَصْفَ. وهذا حالُ الجاهِلين، ونعتُ الغافِلين.

والثالث: قد غَلَبَتْهُ نَفْسُه فى الموجودِ من الهَوى، والحاضرِ من الشَّهْوةِ، فإذا غاب ذلك عنه غَلَبَها فى العَدَمِ، ومَلَكَها عند الفَقْدِ. وهذا حالُ المجاهدينَ، وطريقُ السّائرين، ونَعتُ المريدين.

وقد قيل ليحيى بن معاذ: يصلُ العبدُ إلى درجةٍ يَسْلَمُ فيها من الذّنب، ومِنَ الزُّهدِ إلى دَرجةٍ يَسْتَغْنى فيها عن الدُّنيا؟ فقال: هذا لا يكون، لا يستغنى عن الدنيا أحدٌ، وإنّما وَقَعَ التّفاضُلُ بينَ النّاسِ على التَّقليل والتكثير، فأزْهَدُهُم فيها أقلُّهم حظًا منها. كما لا يَسْلَم من الذَّنْبِ أحدٌ، ولكن أفْضَلُهم أقلُّهم ذنبًا.

وكان رحمه اللهُ يَقُول فى العَدْل قَوْلاً فصْلاً، قال: إنّ زهَّادَكُم يأمُرونكم بأن

(١) انظر: الإتحاف ٩/ ٣٨٣.

يكون الدِّرهمُ أوّلَ شيءٍ يتركونَهُ من الدُّنيا. وأنا آمرُكُم أن يكونَ الدِّرهمُ آخرَ شيءٍ تتركونَهُ من الدُّنيا. قيلَ له: لِمَ؟ قال: لأنّ الدّرهمَ مُعَلَّقٌ على شهوةِ النَّفسِ، والشَّهوةُ مُعَلَّقَةٌ على النَّفسِ، فتركُ الدِّرْهم من قبل إزالة الشّهوة عن النّفس بالسياسة خطأٌ، ودخولٌ فى الطمع لمن عنده الدِّرهمُ، ووقوعٌ فى البلاءِ، حتى إذا زالت بحُسْنِ السِّياسَة هذه الشّهوةُ عن نَفْسك، ذهبَ عنكَ حبُّ الدِّرهم، شئتَ أم أبيْتَ ضَرُورةً، إذ كانَت عِلَّةُ حُبِّكَ له الشَّهوة، والشهوة قد ذهبَتْ، والدرهم يُتِمُّ أمرَ هذه السياسة. فلهذا قلتُ: اجعل الدِّرهمَ آخرَ شيءٍ تتركه بعد الفراغِ من النَّفْس.

واعلم أنَّ إمساكَ الدِّرْهمِ على هذا التّدبير لا يكون علاقَةً، ولكنه يكونُ سياسةً يُصلِحُ به. واللهُ مطَّلعٌ على ما يريدُ، ومُحبٌّ لما يَصْنعُ. ومن لم يكن على هذا التقدير منه، على هذه الجِهَةِ، لم يبلغ ما يُريد، فكان كمن يُريدُ طَبْخَ قِدْرٍ بلا نارٍ.

وقد كان أبو سليمان قبله يقول فى لُبس الصُّوفِ بمعناه، قال أحمد بنُ أبى الحوارىّ: لَبِسْتُ عباءةً، فَنظَرَ إلىَّ، وقال: هذا يكونُ آخرَ الزُّهدِ جعلتمُوهُ أوَّلَهُ، إنّما إذا لم يبقَ فى قلبه شهوةٌ تدفع عَبادةً، ولزِمَ الطريقَ، أما يَستحى أحَدُهم أن يَلْبَس عَباءةً بدِرْهَمَين، وفى قلبه شهوةٌ بِخَمْسَةِ دَراهِمَ.

وقال: ولو ستَر زُهْدَهُ بثوبَين أبيضَيْنِ كان أحبَّ إلىَّ.

وقد كان بعضهم يقول: الزُّهد هو إخفاءُ الزُّهد.

ولكن على كل حالِ الأمرُ كما قيل: الزُّهد فى الدُّنيا يريحُ القلبَ والبَدنَ، والحِرصُ عليها يتعبُ القلبَ والبَدنَ. وقيل: زيادةٌ فى الهَمِّ والحُزْنِ.

وقد كان ابنُ معاذٍ يقول: راحةُ الأبدانِ فى زُهدِ القُلوبِ، ومَشقَّةُ الأبدانِ فى حِرْصِ القُلوب.

وقال: طلبتُ الدُّنيا فلم استرحْ. وطَلَبتُ العُلُوَّ فلم أسترح. وطلبتُ العلم والعبادةَ فلم أسترحْ. ودخَلْتُ فى الزُّهدِ، واستوطنْتُ الثِّقةَ باللهِ فى هذه الكبيرةِ، فاسترحتُ. من الرّاحة.

وكان يقول: ما دامت شهوةُ النَّفس فيك فأنت مطيّةُ الدنيا. فالمطيّةُ تُساقُ حيثُ يريدُ صاحبُها، لا حيث تريد هى. وإذا ذهبت الشّهوةُ فالدنيا مطية يسوقُها حيث يريد.

وقال: من خرجَ تاجرًا ومعه ثلاث خصالٍ: خوفُ الفَقْرِ، وحبُّ [النساء][(١)]، وحبُّ العُلُوِّ، عُوقِب بثلاث خصال. أمّا خوفُ الفقر: [فما كان] استكثارُهُ من الجمع إلا خوفًا من الفقرِ. وأما حبُّ [النساء. . .][(١)] على دينه فيُلقيه فى الخيانات والكذبِ والشُّبهاتِ. وأمّا طلبُ الرِّفْعَةِ فلا يزيدُه عند الله إلا إتضاعًا.

وقال: كلُّ ما أخذْتَهُ مِن الدُّنيا فللهِ عليك فيه ثَلاثُ فرائض، ولو كان حبَّةً واحدةً. أولُه: ألا تأخذهُ إلا من حلِّهِ. والثانية: لا تحبسه إلا على طاعةِ اللهِ. والثالثة: لا تضعَهُ إلا فى موْضعِهِ لله تعالى.

وقال: لا يسلم التّاجر إلا بحفظِ ثلاثٍ: بحفظِ قلبِهِ مع الله تعالى، ولسانِهِ مع الحَفَظَةِ، وميزانِهِ بالعَدْلِ مع الخَلْقِ.

وبلغَنا أن من دعاء أبى بكْرٍ الصّدّيق رضى اللهُ عنه: «اللهُمَّ إنهى أسألُكَ الذُّلَّ عند النَّصفَ من نَفْسِى، والزُّهدَ فيما جاوزَ الكَفَافَ».

وبلغنا أنّه قيل لإبليس لعنَهُ اللهُ: «جُعِلت الدُّنيا لك مَزْرعةً، وأهلها لك أَكَّرَةً».

فيكفى الجاهلُ الحريصُ من الرَّغْبةِ فى الدُّنيا على الزُّهد فى الآخرةِ أن يكون أكَّارًا لإبليس، حرَّاثًا فى مَزْرَعته، بئس للظالمين بَدَلاً من الأولياء العمال على الصّبر (. . .)[(٢)] المبين الذين بصروا الآية.

وقد قال بعضُ أهلِ المعرفةِ: لا ترغَب فى شىءٍ من الدُّنيا إلا استتبعك وأتعبك بقَدْرِ ما تطلبهُ وترغبُ فيهِ ليوم الدّنيا وتنشدها. ولا تزهد فى شىء منها إلا تبعكَ ولحِقكَ نَفْعُهُ، وطَلَبكَ بقَدْرِ ما تزهد. وقال: إن الله لا يرضى مِمّن عَرَفَهُ أن يُعرف بعبدِ نُسى دونه، فإن بعد ذلك ذمَّه الله (. . .)[(٣)].

---

(١) كذا قرأتها، إذ رسم الكلمة قريب من هذا.

(٢) طمس قدر كلمتين أو ثلاث.

(٣) طمس فى ستة أسطر آخر الصفحة فلم يبق سوى كلمات مطموسة.

وكان أبو سليمان يقول: ما مِن شيءٍ إلا وهو مَطْروحٌ في الخزائنِ، إلا الفقرَ مع المعرفةِ فإنّه مَخْزونٌ، مختومٌ عليه، لا يُعطاه إلا مَن طُبع بطَابع الشهداء.

وقد يحتجّ بعض علماءِ الدّنيا لأنفسهم بتفضيل الغنى على الفقْرِ، بتأويل الخبر المشهور من قوله ﷺ: «ذَلِك فَضْلُ اللهِ يؤتيه من يَشاءُ». وهذا عند أولي الألبابِ في تدبُّر الخطابِ من غيرِ هوًى يضرُّ ولا ارتياب يعنى به الفقراء؛ لأنّه قيل لهم في أوّلِ الكلامِ: إنْ فَعَلْتم كذا لم يسبقكم أحدٌ قَبلكم ولم يدركْكُم أحدٌ بَعْدكم. فثبت هذا القولُ من الرسول ﷺ وصَحَّ؛ لأنّه معصوم في قوله، كما هو مَعْصُومٌ في فعله. فما جاء بعده يكون محمولاً عليه، مُفَسِّرًا له. ولم يَجُزْ أن يَنْقلبَ الخطابُ؛ لأنّه إخبارٌ عن شيءٍ، فكيف يرجع عنه، أو ينسخ الخبرَ بقولٍ آخرَ؟

فلمَّا فعلَ الأغنياءُ ما أُمِر به الفقراءُ مِنَ الذّكْر، وَقَفَ الفقراءُ في قولِ رسولِ الله ﷺ لنَظَرِهم إلى مَزيدِ الأغنياءِ عليهم بفَضْلِ القَوْلِ، فرجَعُوا إليه يستفتون منه الخبرَ، ويَسْتَثْبِتُون عنه ما به أَخبرَ. فقال: لا تعجلوا، فإنّ الذي قُلتُ لكم كما قُلتُ هو فَضْلُ اللهِ لكُم يُؤتيهِ من يشاءُ، وأنتم ممّن شاء أن يؤتيَهُ فَضْلَه. فثَبَّتَهم بالحقِّ للقولِ الأول، ولم يَرْجع هو عن قوله إلى نَقِيضه. فَصحَّ تأويلُنا هذا من مآلِه الذي يؤولُ إليه، باستنباطنا عنه باطِنَ العِلْمِ، وبطَلَ حَمْلُهم الخبرَ على الظاهر، ولمّا يأتهم تأويلُه. ولذلك كَذَّبوا بِعلمه، إذ لم يعطوه حقيقةَ خبرِه وهو حيطَتُهُ، إذ تأويلُ الحقِّ الذي هو مآلُه وحقيقته عند الله تعليمٌ من اللهِ، ليس على ظاهرِ الخطاب يستنبطُهُ أولو الألباب، وقد قال: «فَقِّهْهُ في الدِّينِ، وعلِّمهُ التّأويلَ». شَهِد لبُطلانِ فهمهم قولُ الرسول ﷺ في أول الكلامِ: «لا يسبقكم مَنْ قبلكم ولا يلحقكم مَنْ بعدكم» فكان قولُه الثاني مواطئًا لقوله الأوّل، إذ لم يناقض الأوّلَ بالآخرِ. فهذا من سحْرِ البيانِ، في قوله: «إنّ مِن البيانِ لسحْرًا».

كيف وقد جاءَ دليلُ مَا قُلْنا مكْشوفًا في الحديثِ المفَسَّر الذي رُويناه عن زَيدِ بنِ أسْلَم عن أنسٍ رضى الله عنه قال: بعث الفقراءُ إلى رسول الله ﷺ رَسولاً فقال: إنّي رسولُ الفقراءِ إليكَ. فقال: «مرحبًا بكَ، وبمَن جِئْتَ من عِنْدَهُم، مِن عند قَومٍ أُحِبُّهُم». قال: قالوا: يا رسولَ اللهِ، إنّ الأغنياءَ ذَهبُوا بالجَنّةِ، يَحجّون ولا

نَقْدِر عليه، ويَعْتَمِرُونَ ولا نَقْدِر عَليه، وإذا مَرِضُوا بَعَثُوا بفَضْلِ أَمْوالِهم ذخيرةً لهم. فقال رسول الله ﷺ: «أبْلِغ عنِّى الفُقَراءَ؛ أنّه لِمَنْ صَبر واحْتَسَب منْكُم ثلاثُ خصالٍ ليست للأغنياء. أما خَصْلَةٌ واحدَة: فإنّ فى الجَنَّة غُرُفًا يَنْظرُ إليها أهْلُ الجنةِ كما ينظرُ أهلُ الأرضِ إلى نُجومِ السَّماء، لا يَدْخُلُها إلا نبىٌّ فقيرٌ، أو شَهيدٌ فقير، أو مؤمنٌ فقيرٌ. والثّانيةُ: يدخلُ الفُقَراءُ الجنةَ قبلَ الأغنياء بنصْفِ يومٍ، وهو خَمْسمَائة عام. والثّالثةُ: إذا قال الغَنىّ: سبحانَ الله، والحمدُ لله، ولا إلهَ إلا اللهُ، واللهُ أكْبر، وقال الفقير مِثْلَ ذَلك، لم يلحق الغَنَىُّ بالفقيرِ، وإن أنفقَ فيها عَشْرةَ آلافِ دِرْهَم. وكذلكَ أعمالُ البرِّ كلُّها». فرجع إليهم فقالوا: رَضِينا رضينا. فهذا يدل على صِحّة تَأْويلنا.

وقد رُوينا معنى هذا مجملاً فى الخبر الذى رُويناه عن إسماعيل بن عياش عن عبدِ الله بنِ دينارٍ عن ابنِ عُمَر رضى الله عنهما، أنّ النبى ﷺ قال لأصحابه: «أىُّ النّاسِ خيرٌ؟». قالوا: مُوسِرٌ مِن المال، يُعطى حقَّ الله فى نَفْسه وماله. فقال: «نعْمَ الرّجلُ هذا، وليس به». قالوا: فَمَن خيرُ الناسِ؟ قال: «مؤمنٌ فَقيرٌ يُعْطِى جُهْدَه».

فذهبَ القومُ إلى علمِ العقْلِ، فردَّهم الرسولُ ﷺ إلى عِلْمِ اليقينِ، فكذلك من فضَّلَ حالَ الغنى على حالِ الفَقْر، فإنّه ينظرُ فى العلمِ بعَيْنِ العَقْلِ، وإنما يَشهدُ الآخرةَ والحقيقةَ بعين اليقين. فذلك قولُ علماء الدّنيا لا يعرفون غيرَه، إذ لم يَشْهَدُوا فَوْقَه، فقد تَعلَّقُوا به. والثّانى: قولُ علماء الآخرةِ الزّاهدينَ فى الدُّنيا، الأعلين إلى مَقام الشُّهَداء، كما كان السَّلَف يقولون: «عالمُ الدُّنيا مَشْهورٌ، وعالمُ الآخرةِ مستور، ولله عاقبةُ الأُمور».

وهذا نصٌّ فى تفضيل حالِ الفقرِ، فمن فضَّل الغنى بعدَهُ فقد عانَدَ السُّنَّة. إن كان عالِمًا، فأحسنُ حالهِ الجهل بالآثار. وإن كان جاهلاً، فمقامُه فى الجهلِ أضرُّ عليه من نُطْقِه بالعلم بهوًى.

وفى الخبر الآخر: «خيرُ هذهِ الأمةِ فُقراؤها. وأسرعُها تَضجُّعًا فى الجنةِ ضُعَفاؤها».

وقال ﷺ لبلال: «الْقَ اللهَ تعالى فقيرًا، ولا تَلْقَه غنيًا». قال: وكيف لى بذلك؟ قال: «إذا سُئِلْتَ فلا تَمْنَع، وإذا أُعْطيتَ فلا تَخْبَأْ». فهذا أمرٌ من الرّسول. أفتراه كان يأمر بلالاً بأدْنَى الحالينِ، فكيفَ وهُو من أعْلى الصحابة؟ فأشْبَهَ الفَقْرُ فى الأحوالِ اليقينَ فى الإيمان. كما قال لابنِ عُمر: «اعْمَلْ لله بالرّضا واليقينِ، فإن لم يكن فإن فى الصَبرِ على ما تكْره خَيرًا كثيرًا». فرفعه إلى اليقينِ لفضلِه، كما رفعَ بِلالاً إلى الفقْرِ لشرفهِ فى الأحوال. فلم يكن ﷺ يرضى لبلالِ إلا ما يرضاه لنفسه.

كذلك رُويناه فى حديث عطاء عن أبى سعيد الخدرى قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «اللهم تَوفَّنى فقيرًا، ولا تَوَفَّنى غنيًا». وهذا نَصٌّ آخر فى تشريف الفقيرِ. فلذلك أمر بلالاً أن يلقى اللهَ فقيرًا ولا يلقاه غنيًا، كما أمر ابنَ عمر بأعلى المقامين وأفضل الحالينِ؛ وهو الرّضا واليقين. وفى الخبرِ فقهٌ آخر يدلُّ على حقيقة الفقير المتحقِّقِ بالفَقْرِ: مَن إذا سُئِل لم يمنع، وإذا أُعطِى لم يدَّخر، كما فسّرهُ النبىّ ﷺ به. وهذا وصْفُ السّخاء، وقِصَرُ الأمل، وهما حقيقةُ الزُّهد، وشاهدُ اليقين. فكان بلال رضى الله عنه بالوصف الذى أمرَهُ رسولُ الله ﷺ، وهو من الطبقة الأولى من الصحابة، ضَمّهُ عمر رضى الله عنه الذى تَنطقُ السّكينةُ على لسانه إلى أبى بكر، وسوَّده على نفسهِ، فى قوله: «أبو بكر سيّدُنا، وأعتق بلالاً سيّدَنا».

فلو كان بلالٌ طالبًا لغير الله من عِلْمٍ أو شخصٍ أو فضلٍ لَزِمَ قدمَ أبى بكر وعمر رضى الله عنهما، وعكفَ فى المسجدِ الذى أُسِّس على التقوى، إذ قد علمَ أن صلاةً واحدةً أفضل فيه من ألف صلاة. فخرج ذاهبًا إلى ربّه، واجدًا له بقلبه حيث أوجده. فكان آخرُهُ يُشْبِهُ أوّلَهُ؛ لأنه طلب بالتوحيد، فطلب الوَحدةَ، كقوله فى أوّل إسلامه مع تعذيب الكفار له: «أحدٌ أحدٌ». فرُدَّ بتَوَحُّدِهِ إلى أحَدِه للوَصْف الذى أُفرِدَ به، فصار الفَقْرُ حالَ المُوقنِ؛ لأنّه يكشف الآخرة. وصارَ الشكرُ فى الغِنى حالَ المؤمنِ؛ لأنّه يشهد الدّنيا، فَفَضْلُ الفقيرِ الزّاهدِ على الغنىِّ الشاكر كفضل الموقِن المشاهد على المؤمن المجاهد.

ولذلك جاء الخبرُ المشتَهرُ الذى دعا فيه ﷺ لنفسه أن يُحْيِيَهُ اللهُ مِسكينًا، ويَتوفَّاهُ مسكينًا، ويَحْشُرهُ فى زمرةِ المساكين. كلّ ذلك تفضيل للفقير، وتشريف للفقراء، مع قوله ﷺ: «يدخل فقراء أمتى الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم، خمسمائة عام».

ورُوينا عن عيسى عليه السلام أنّه قال: «إنّى لأُحِبُّ المسْكَنَةَ، وأبغضُ المالَ للغَنِىّ. وإنَّ فى المالِ داءً كَثيرًا. قيل: يا رُوحَ اللهِ، وإن كان يكْتسبه مِن حَلال؟ قال: يشغلُه كَسْبُه عَن ذِكْرِ اللهِ تعالى».

قال وهبُ بن منبِّه لابنِ عباس: إنّا نجدُ فى التوراةِ أنَّ الفقيرَ المصْلِح خيرٌ من الغنىّ المصْلِح. قال ابنُ عباس: أما علِمْتَ أنّه لا شىءَ أحبُّ إلى اللهِ تعالى من الفقيرِ إذا كان صالحًا.

وقيل: كان أحبُّ الأسماءِ إلى عيسى عليه السّلام أنْ يُدْعى به أن يقالَ له: يا مِسْكين. وكان يقول: «من شرِّ الغِنَى أن العبدَ يَعْصِى لِيَسْتَغْنى، ولا يَعْصِى لِيَفْتقر».

وقد قال بعضُ حُكَمائنا فى كلامٍ منظومٍ:

يا عَائبًا للفَقْرِ تَبْغِى الغِنى ... عَيْبُ الغِنى أَعْظَمُ لَو تَعْتَبِرْ

إنَّك تَعْصِى لِتَنالَ الغِنى ... ولَسْتَ تَعْصِى اللهَ كى تَفْتَقِرْ

ورُوينا فى حديثِ عطاء عن أبى سعيد الخدرى: «يا أيُّها الناسُ، لا تحملنَّكُم العُسْرَةُ والفَاقةُ على أن تَطْلُبوا الرِّزْقَ مِن غَيْرِ حِلّه، فإنى سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: اللّهم تَوَفَّنى فقيرًا، ولا تَوَفَّنى غنيًا، واحشرنى فى زُمْرَةِ المساكين».

وقال لقمان لابنه: «يا بُنَى، إنَّ مِن أعْونِ الأخلاقِ على صَلاحِ الدِّين زُهْدًا فى الدّنيا. مَن يَزْهَدُ فى الدُّنيا يَرْغَبُ فيما عندَ الله تعالى، ومن يرغبُ فيما عندَ الله تعالى يَعْملُ لله تعالى، ومَن يَعْملُ لله تعالى يأْجُره اللهُ تعالى».

وقال الحَوَارِيُّونَ: «يا رُوحَ اللهِ، نحن نُصَلِّى كما تُصَلِّى، ونصومُ كما تصومُ، ونذكرُ اللهُ تعالى كما أمرْتَنا، ولا نَقْدِرُ نَمْشِى على الماءِ كما تَمْشى أنت. فقال: أخبِرُونى كيف حبُّكم للدنيا؟ قالوا: إنّا لَنحبُّها. فقال: إن حبَّها يُفْسِدِ الدِّينَ،

لكنها عندى بمنزلة الحَجَر والمَدَر». وفى خبر آخر: «أنه رَفَع حَجراً فقال: أيّهما أحبُّ إلَيكم هذا أو الدِّينار والدّرهم؟ قالوا: الدينار. قال: فإنّهما عندى سواء».

وكذلك الأمرُ فى الفُقراءِ والأغنياءِ عند العارفِ؛ لأنّها جوهرٌ واحد، من مَعْدنٍ واحد، لا يتغلب عليه منهما، ولا تختلف عنده جوهرها فى وَجْده؛ لأجل افتراقِها، فينظر وقد أفرغ الأحكام بها، ولمواقع الحكمةِ فيها، فهى عَلَى شَهادَتِه (. . .)[1] لا به، ينظر بعين يقينهِ عن نور شهيدهِ، فلما عَرَفها يَقِينًا عن حقيقةِ خبرٍ، لا عن عِلْمِ خبرٍ.

وحقًّا أقول: إنّ مَن حَرَصَ على الدُّنيا، واشْتَدَّ حبُّه لها، فإنه لا يعرِف اللهَ، ولا يعرفُ الآخِرَةَ، ولا يعرفُ الدُّنيا. لأنَّ معرفةَ الله عن مشاهدَة، ومعرفةَ الآخرةِ عن يقينٍ، ومعرفةَ الدُّنيا بعقل رجيحٍ، وبَصرٍ صحيحٍ، يوجبُ ذلكَ كلُّه الزُّهدَ فى الدُّنيا. فتفكَّروا.

ويقال: إنّ مَن صَحَّ زُهْدُه فى الدُّنيا، حتّى يَستوى عنده ذَهَبُها وحَجَرُها، مَشَى على الماء. وقد اشتهر ذلك فى العامّةِ، حتَّى قال الشاعرُ:

لو كانَ زُهْدُك فى الدُّنيا كزُهدِكَ فى   وَصْلِى، مَشَيْتَ بلا شكٍّ علَى المـاءِ

وروينا أن عيسى عليه السلام مرَّ فى سياحَتِه برجلٍ نائم، مُلتفٌّ فى عباءَة، فأيقظهُ، وقال: قُم يا نائم، فاذْكُرِ اللهَ، وصَلِّ. فقال: ما تُريد منّى، قد تركتُ الدُّنيا لأَهْلها، وتخلَّيتُ عنها. فقال له عيسى: نَمْ حبيبى، نَم إذَن.

واعلم أنّه يكْفى من العمل مع الزُّهْدِ أداءُ الفرائضِ، واجتنابُ المحارم. ويُرفع العبدُ بقَدْر زُهدِه إلى منازلِ الأبدال الطبقةِ العليا، وهم الأقلُّ منهم؛ مثل: السبعة، والاثنى عشر، والأربعين، والسَّبْعين، وهؤلاء أفاضلهم. أو إلى مقام الطبقةِ الوسْطى نحو المائة وزيادة إلى دون المائتين. أو إلى الطبقة الدُّنيا ما زاد على المائتين إلى الثلاثمائة.

ولا يكونُ بَدَلٌ رَاغِبًا فى الدُّنيا، مُحبًا لها أَصْلاً. فيكْفِى به نَقْصًا حِرمانُه

---

(١) طمس قدر كلمتين.

مَقامات الأبدال، لكنّه من الصِّدِّيقين والأشهاد، والصّالحينَ الأوتاد، ﴿فأُولَئكَ الَّذينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ والصِّدِّيقينَ والشُّهداء والصَّالحينَ وحَسُنَ أُولئكَ رَفيقًا * ذلكَ الفَضْلُ مِنَ الله﴾ [النساء: ٦٩ ـ ٧٠]، ﴿ويُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَه﴾ [هود: ٣]، ﴿لِيَجْزِيَ الَّذينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالحات من فَضْله﴾ [الروم: ٤٥]، هذه الآى للمُقَرَّبينَ، وهم [الذين قال فيهم]: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالحات بالقسْط﴾ [يونس: ٤]، ﴿إنَّا لا نُضيعُ أجْرَ مَنْ أحْسَنَ عَمَلاً﴾ [الكهف: ٣٠]، ﴿إنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أجْرَ المُحسنينَ﴾ [التوبة: ١٢٠]، هذه[1] الآيات [للمحسنين. . .][2] وعُمو[م] المؤمنين قولاً، لا يقوم ولا يُعنى من الأعمال (. . .) الرَّغبة فى الدُّنيا، لأنّها بَغيضةُ اللهِ ولَعِينتُه. فاعْتبرُوا يا أُولى الأبصار.

وروينا عن موسى عليه السَّلام: [أنه] مَرَّ برجلٍ نائم على التُّراب، تحت رأسه لَبِنةٌ، ووجهُهُ ولحيتُه فى الأرضِ، وهُو متزرٌ بشملِ عَباءةٍ. قال: يا ربِّ، هذا عَبدُك المؤمن هو فى الدّنيا ضائع. فأوحى الله إليه: أما عَلِمتَ أنّى إذا نَظَرْتُ إلى عبدِى بوَجْهى كلّه زويتُ عنه الدّنيا كلَّها.

فهذا عبدٌ أحبَّ ربَّه بكُلِّ قَلْبه، فنظرَ الرَّبُّ إليه بكلِّ وجهه، فزوى عنه كلَّ الدُّنيا. وقد كان من أصحابِ النبىِّ ﷺ مثلُه وخيرٌ منه: سالمٌ مَوْلى أبى حُذيفة. وهو أحدُ السِّتَّة الذين جمعوا كلَّ القرآن على عهد رسول الله ﷺ. كان من خير الصحابةِ؛ لأنّه كان يحبُّ الله تعالى بكلِّ قَلْبه، شهدَ له الصَّادقُ المصدّقُ ﷺ.

فتدبّر فَهْمَ الخِطابِ: إنّ مَن أحبَّ اللهَ تعالى ببعض قَلْبه، نظر إليه ببعض وَجْهِه، فزوى عنه بعض الدُّنيا لا كُلَّها؛ لأنّه جَعَل حُبَّ الزُّهدِ فى الدُّنيا دليلاً على حبِّ الله، فصار حبُّ اللهِ معياراً يُعايَر به الزُّهدُ.

وفى الخبر المشهور: «مَن أرادَ أن يحبَّه اللهُ، فلْيَزْهَد فى الدُّنيا»، ففى تدبُّرِه: إنّ

---

(١) فى الأصل: «هؤلاء الآيات».

(٢) كان هناك بعض الطمس فى الآيات القرآنية السابقة، أتممتها من المصحف، وبقى هذا الموضع والذى يليه، كل واحد بمقدار كلمتين أو أكثر.

من أحب الدُّنيا لم يحبّه اللهُ، إذ أَحبَّ ما يبغضُهُ، فلم يوافقْهُ فى رضاه، وخالَفَهُ فى مَحبَّتِه.

ورُوينا خبرًا غَرِيبًا عن إسماعيلِ، مفسِّرًا للخَبر المشهورِ والمجملِ عن موسى عليه السّلام: «إنّ اللهَ عز وجلّ أَوحى إلى إسماعيل عليه السلام: اطْلُبنى عند المنكَسِرةِ قُلوبُهم. قال: يا ربِّ، ومَن هم؟ قال: الفقراء الصّادقونَ». فكأن هذا مُفسِّر خبر موسى فى قوله: «أينَ أَجِدُكَ؟ قال: عند المنكَسِرة قُلوبُهم».

فَمَنْ صدْقِ الفَقْرِ الزُّهدُ، إذ الزُّهدُ حقيقته، والفَقْرُ داخلٌ فيه؛ لأنّ كلَّ زاهدٍ فى الدُّنيا فقيرٌ منها، لا مَحالةَ كانت داخلةً فى حقيقته به بحُكم حاكمٍ، وتوكيل مُوكِّلٍ، وليس كلُّ فَقيرٍ زاهدًا، فصار حقيقةُ الغنَى هو الزُّهد؛ لأنَّه استَغْنَى بمولاه عن فُضُولِ الدُّنيا، فَقلَّت حَوائجُه فيها، فَقَلَّ بذلكَ فَقْرُهُ إليها. وكان حقيقةُ الفَقْرِ هُو الرَّغبةَ؛ استَغْنى بها، فافتقر إليها، فكُلّمَا مَلَك منها شيئًا أفْقَرهُ إلى شىء، وكُلَّما فَتَح منها بابًا، أو سَلَك منها شعْبًا، أو تعلَّق بشىء، فَتَح عليه، وتَشَعَّبَ به، لاتّساعِ الأماكن به، ويُغْلَق عليه أَضْعَافُ ذلك. فاعتبرُوا لتوسُّعِ الأَسبابِ عليه، فيكثُر لذلك همُّه وشرَدان[1] معه شغلُه. والفقيرُ بِضدِّ ذلك.

وكان ابن معاذٍ يقول: ما تَحمل من الدُّنيا شيئًا إلا أفْقَركَ حَمْلُه إلى غَيْرِه، ولو إبْرة تحتاجُ لها إلى موضعٍ. وكان ينوِّع أهلَ الآخِرَة أثلاثًا، فحُدِّثتُ عنه أنه قال: أولياءُ الآخِرةِ ثلاثةٌ: قانعٌ، وزاهدٌ، وصِدِّيق. فالقانِعُ: المحترفُ، الطّالبُ للحلال، المنفق على السبيل والسُّنّة، النّازلُ عن جناحِ الرَّغبةِ فى طلب الفُضول من حُطامِ الدُّنيا. والزَّاهِدُ: التّاركُ للدُّنيا ونعيمها، بعد أن أصابَ نعيمَ الدُّنيا مِن غير كُلْفَة، أكل، ونكح، وإن مُنِع صبَرَ ورَضى. قال: والصِّدِّيق الذى هو الواحد المفتقر، لا يُريدُهُ لمزايلة المشهود إيّاه.

وقال: كان عامر بن عبد قيس[2] صَدُوقًا فى وصف نَفْسِه. يعنى فى قَولِه:

---

(١) شردان: أى شرود باله.

(٢) من الطبقة الأولى من التابعين، له ترجمة فى الحلية ٢/ ٨٧، وخبره هنا فى الحلية بلفظ مختلف ومختصر، ففيه «المال» بدلاً من «اللباس».

رأيتُ الدُّنيا أربعة أسماء: النِّساء، واللِّباس، والطعام، والنَّوم. فأما النّساءُ واللباسُ فلا حاجةَ لى فيهما، ما أدرى [إن أقبلت امرأة أكانت][١] أنثى أم ذَكَرًا. وما أبالى إذا لبستُ (. . .) وأمّا الطعامُ والنَّومُ [فلا بدَّ لى منهما، فوالله لأضرّنَّ بهما جهدى][٢] فيتحول نوم الليل إلى النّهارِ، فجعل طعامه فى النهار بالليل، فكان يظلُّ صائمًا (. . .) قائمًا.

وكذلك قال بعض العُبّاد: إن العبادةَ أَرْبعةٌ: الصَّلاةُ، والصّيامُ، وقِلَّةُ الأَكْلِ، وقلّةُ النّوم، فتُعْرف قلّة الطعام والمَنَامِ بالصَّلاة والصيام. وجعل [كثرة] الطعام والنَّوم من أبواب الدُّنيا. فقال: أصولُ الشَّرِّ ثلاثةٌ، تفرّع عنه ستَّة أشياء. أُصولُه: الحِرصُ، والحَسَدُ، وحبُّ الدُّنيا. وفروعه: طلبُ الرِّياسةِ، والفخْرُ، والثّناءُ، وحبُّ الرَّاحةِ، والطعامُ، والنومُ.

وقد قيل لبَعْضِهم: مَن تَرحَمُ مِن النَّاسِ؟ قال: مَن إذا رأى شَيْئًا طيِّبًا اشْتَهَاهُ؛ لأجْلِ هذا تركوا دِينَهُم. وقال أيضًا: ليس بزَاهدٍ من استْعمل غيرَهُ بما يصلُ هو إلى فعله.

يعنى: أن يخدم هو نفسه، ولا يَسْتَخْدم. فقد شدد هذا فى الزُّهد.

وقد قاله أبو سليمان لأحمد، قال ابنُ أبى الحوارىّ: قلتُ لبعض أَصحابنا: اسْقِنى ماء، فناولنى شَرِبةً. فقال لى أبو سليمان: رأيتَ مَن زهِد فى الدُّنيا يَسْتَخْدِم ويقول: اسْقِنى ماء؟!

وكان يحيى الرَّازى[٣] يُدخل العِلْم والعبادَةَ فى الزُّهد، ويجعل الثَّلاثَ كالشىء الواحد، لا يتم بعضُهُ إلا ببعضٍ، فقال: الزُّهدُ والعبادةُ والعِلمُ مثلُ الثَّوْبِ، سُدَاهُ الزُّهد، ولُحْمَتُهُ العِبادة، ونَساجُهُ العِلم. لا يلتحم الثوب بغير هذه الثلاث، كذا لا يلتئم أمرُ الآخرةِ إلا بثلاثها. وأجملَهُ فى كلمة، أعنى الزُّهدَ، فقال: الدُّنيا كُلُّها نَفْسُك، فما قَصَرْتَ من نفسك تركتَ من دُنياكَ. وهو كما قال. الدُّنيا صورةُ

(١) تلف بالأصل، وقد وضعت هذا اجتهادًا منى.

(٢) تلف بالأصل، وأتممته من الحلية.

(٣) انظر: الإتحاف ٩/ ٣٨٤.

النَّفْس باطنةٌ، وهما إخوةٌ مُتَوَاخِيةٌ، فما غَلَبكَ من النَّفْسِ فقد أمالَكَ وغَلَبكَ من الدُّنيا.

وقد كان أحمد بن عطاء، وهو من المتأخرين، يفضِّل حالَ الغِنَى على الفَقْرِ، بشُبْهةٍ دخلَتْ عليه، وهو أن بعضَ الشُّيوخِ سأله عن الوَصْفَيْنِ أيِّهما أفضل؟ فقال: الغِنى؛ لأنّه صِفَةُ الحقِّ. فقال له الشيخُ: فالحقُّ غنىٌّ بالأسبابِ؟ فانقطَع، ولم ينطق بحَرْف.

وهذا كما قال الشيخ؛ لأَنَّ الحقَّ سبحانه غنىٌّ بِوَصْفِه. فالفقيرُ أحقُّ بهذا المعنى؛ لأنّه غَنِىٌّ بوَصْفه بالإيمان لا بالأسبابِ لانْفِرَاده عَنْها، فهو الأفضل وإلى الحقِّ أَقْرَبُ. فأما الغنىُّ فإنَّهُ مُشتَّتٌ مجتمعٌ بالأسبابِ، فهُو مَفْضولٌ بالارْتيابِ.

وقد خالَفَهُ الخوّاصُ فَوُفِّقَ للصَّوابِ، وكان فوقه فى المعرفة، فقال فى كتابِهِ (شَرَف الفَقْرِ): والفقرُ صفةُ الحقِّ؛ أى صفة من يصف به الفقراء. فوافقنا فى التأويل، يعنى أنه تعالى متخلٍّ عن الأسباب، منفردٌ عنها.

ووجهٌ آخر من الغلط الفاحش الذى دخل على ابن عطاء من جهة المعنى الذى ذكره؛ لأنّه إن كان فضَّل الغِنى على الفَقْرِ، لأنّه صِفَةُ الحقِّ، فينبغى أن يفضِّلَ المتكبِّرَ الجبَّارَ، ومن أحبَّ المدحَ والعزَّ والحمدَ؛ لأنَّ ذلك كلَّه صفةُ الحقِّ، فلما أجمعَ أهلُ القبلةِ على ذمِّ مَنْ كان هذا وَصفُه، كان من وُصِفَ بالغنى فى معناه؛ لأن وَصْفَ الغِنَى صفةُ الحقِّ مقترنٌ بالعزِّ والكِبْر. وينبغى أن نُسلِّمَ صفاتَ الحقِّ للحقِّ، ولا يُنازَع إياها، ولا يُشَارَك فيها.

فبطل قولُ ابن عطاءِ لصحةِ قولِ الرسول ﷺ: «يقولُ اللهُ تعالى: العزُّ إِزارى، والكبرياءُ ردائى، مَن نازعنى أَحَدَهُما قصمتُه فى النّارِ».

وقد خالَفَهُ أيضًا ووافقنا مَن لا يشكّ الخاصُّ والعامُّ فى فَضْلِ معرفته عليه، أبو محمّد سهل بن عبد الله فقال: مَنْ أحبَّ الغنى والبقاءَ والعزَّ، فقد نازَعَ اللهَ تعالى صفاتَه، وهذه صِفاتُ الرُّبوبيةِ، يُخاف عليه الهَلَكة.

فإذا ثبتَ ذلكَ، كان الفقرُ أفضلَ؛ لأنّه وصفُ العُبوديةِ. فمَن جعَلَهُ وَصْفَه فقد تحقَّق بالعُبوديةِ. وأوصافُ العبوديةِ هى أخلاقُ الإيمان، وهى التى أحبّها اللهُ تعالى

من المؤمنين، مثل: الخَوف، والذُّلِّ، والتّواضُع، والفَقْرُ مضافٌ إليها. وأوصافُ الرُّبوبيةِ ابتلى بها قُلوبَ أعدائه الجبَّارِينَ والمتكبِّرينَ، مثل العزِّ، والكبرِ، والبقاءِ، والغِنَى مضمومٌ إليها.

وكان الحسنُ رَحمه الله يقول: ما رأيتُ اللهَ تعالى جعَلَ البقاءَ إلا لأَبْغَضِ خَلْقه إلَيه وهو إبليس. وكذلك كان العلماءُ يقولون: لا تَرْغَبُوا فى البقاءِ فى هذه الدُنيا، فإنَّ شِرارَ الخلْقِ أطْولُهم بَقاءً؛ وهُم الشَّياطين.

والغِنى إنّما يُرادُ للبَقَاء، فهو مُواخٍ له، والعزُّ مُقْترنٌ بالغنى؛ لأنّه مقتضاه. فصار الفقرُ مُقْترنًا به الذُّلُّ؛ لأنّه مُوجبُهُ، وهان مَعَه نزولُ الموتِ أو تَمَنِّيه. وقَلَّ أسفُ الفَقِير وحَسرتُهُ عند موته، فصار قِصَرُ الأملِ كأنّه مقتضى الفَقْرِ، لأنّه ضِدُّ طُولِ البقاء، كما الفَقْرُ ضِدُّ الغنى.

ولولا أن الفَقْرَ أقربُ الطُّرقاتِ إلى الله لأوليائه، وأَحْسنُها وصولاً به، وأقْومُها صِراطًا، وأَضْيقُها على القاعدين عنده بساطًا، لم يقُل عدوُّ الله وعدُوُّ أوليائه لعباده المُخْلصين: ﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُم صراطَكَ الْمُسْتَقيمَ﴾ [الأعراف:١٦] قيل: الفقْرُ. شهد له المفسِّرُ مِن قَوله: ﴿الشَّيْطانُ يَعدُكُمُ الفَقْرَ﴾ [البقرة:٢٦٨]، ثم قَرَن به الأمرَ بالسُّوءِ والفَحْشاء، وهو الجمعُ والمنعُ، لوجودِ الهوَى من النّفس الأمّارة بالسُّوء. فصار من خافَ الفَقْر، فجمعَ ليَسْتَغْنى، ومَنَع لئلا يَفْتَقِر، مُصدِّقًا لوَعْدِ الشَّيطان فيما اتَّبعَ، وذلك فاحِشَةٌ منه؛ إذْ لَهُ ائْتَمر، ومنهما وعَدَ الرَّحمنُ بالمغفرة والفَضْلِ، وهو تكْفيرُ السّيئات، والتعويضُ من المال بالحسنات، إذْ يقول: ﴿وإنْ تُخْفُوها وتُؤْتُوها الفُقَراءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ويُكَفِّرُ عَنْكُمْ﴾ الآية [البقرة:٢٧١]. فإن فى فَهْم الخَطاب أنّ مُخْتارِى الفَقْرِ على الغِنَى أفْضلُ العبَادِ [لأنهم قطعوا][1] على حدّ قُوتهم طَرِيقَهُ الذى أرادَ أن يَقْطَعَهُم به عَن طريق الله، فهم المتَّقُون حقًّا، الذَّاكرونَ الله كثيرًا عنْدَ لقِاءِ العدُوّ صِدْقًا فى قولهِ: ﴿إنَّ الَّذينَ اتَّقَوْا إذَا مَسَّهُمْ طائفٌ مِّنَ

---

(١) طمس قدر كلمتين. وكلمة «حدّ قوتهم» قد تقرأ «حدقهم» وغير ذلك لأنها غير واضحة تمامًا، والله أعلم.

الشَّيْطان﴾ يكون بتخويف الفَقْرِ بالعُدول عن طريقه ﴿تذكَّرُوا﴾ الله تعالى بوَجْدِ يقينهم ﴿فإذَا هُمْ مُبْصرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١] فأبصروا طَرِيقَهُم إليه، فَغَنَوْا به. كما قال الرسولُ ﷺ: «كفَى باليقين غِنًى». فهم أعْلَى العباد مقامًا؛ إذ سَلَكُوا طريقًا خافَهُ النّاسُ، وإذ أقاموا على المحجَّة القائمة التى قَعَد لهم عدُوُّ الله عليها، فاستقاموا إلى الحقِّ بالحقِّ فيها، ورابَطُوا قلُوبَهُم بالمواصلة، وصَبَروا نُفُوسَهُم بالمشاحَنَة، وصابرُوا بالمعاملة عَدُوَّهُم، فانَهزَمَ العدُوُّ اللعينُ، وثبتُوا تثبيت الحقِّ المبين؛ لحسنِ التوكّلِ عليه، وتفويضِ الأمرِ إليه، وبحُسنِ الظَّنِّ به لمزيد الإيمان منه، إذْ قِيلَ لهم: ﴿قَدْ جمَعُوا لَكُم فاخْشَوْهُمْ فَزادَهُم إيمَانًا وقَالُوا حَسْبُنا اللهُ ونعْمَ الوَكيلُ﴾ إلى ﴿إنَّما ذَلكُمُ الشَّيْطانُ يُخوِّفُ أوْلياءَهُ﴾ [آل عمران: ١٧٣ ـ ١٧٥]. وهؤلاء أولياء الله. فَتَدبَّرُوا.

ويقال: إنَّ الجُنيدَ ـ رحمه الله تعالى ـ بَاهلَ ابنَ عطاء فى هذه المسألة، ودَعَا عَلَيه، لأنّه أنكرَ قولهَ أشَدَّ الإنكارِ. وكان يقول: الفقيرُ الصّابرُ أفضلُ من الغنىِّ الشّاكرِ، وإن تَساوَيَا فى القيامِ بحكْمِ حَالهما؛ لأنَّ الغنىَّ التّقىَّ يُمتِّعُ نفسه ويُنعِّمُ صِفَتَه، والفقيرُ الصّابرُ قد أدخلَ على صفته الآلامَ والمكارهَ، فقد زَادَ عليه بذلك.

وهذا كما قال. وكذلك كان أحمد بن حنبل يقول: ما أعْدلُ بالفقرِ شيئًا. وكانَ يُفضِّلُ حالَ الفقرِ، ويعظِّم شأنَ الفقيرِ الصّابرِ. وقال المروزى، وذُكِرَ بعضُ الفقراءِ، فجعل يمجِّدُه ويُكْثِرُ السُّؤالَ عنه. قال: فَقُلْتُ له: يحتاجُ إلى عِلْم. فقال: ويحكَ اسْكت؛ صَبْرُه عَلَى الفَقْرِ ومُقاسَاتُه للضُّرِّ فيه خَيْرٌ مِن كَثيرٍ مِن العِلْمِ. ثم قال: هؤلاء خَيْرٌ مِنّا بكثير.

وأقول: إنّه من فَضَّل حالَ الغنى على الفَقْرِ، فإنّه لم يذق مَرَارَةَ الفَقْرِ ولا حلاوتَهُ، فهو غرٌّ بشدَّته، فاقدٌ لحَلاوته. لأنّه لو ذاق مرارَتَهُ فى مقامِ الصَّبْر من الضُّرِّ والهَمِّ فَضَّلَه، ولو أُذيقَ حَلاوتَهُ من الزُّهدِ فى مقامِ الرّضا لَمَا فَضَّلَ عليه.

وتكلَّم مَرّةً يحيى بن معاذ فى آفات الغنى، وأنَّ سلامةَ الدِّين مع فَقْد آفة المال. فقال له رجلٌ: تُريدُ أن تُخرِجَنى من ضَيْعتى. قال له يحيى: لستُ آمرُكَ بالخروجِ

من ضَيْعَتك، ولكنّى سائلُكَ عن الدُّنيا، كيف دُفعَت إليكَ أمع الآفاتِ أم بغَير آفاتٍ؟ قال: بل مع الآفات. قال له يحيى: فإنّما آمُرُك بحفْظ دينكَ من الآفات. فإن كان فى حفظ دينك ذَهابُ دُنياك، فإلى نار الله الحامية مع أهلها لا رَجَعت أبدًا. ثم قال: النّاسُ رجلان، ولكل واحد رأسُ مالٍ لا بدّ منه، فمن كان رأسُ ماله الدّين فتجارتُهُ مع الله، وربْحُه الجَنَّةُ. ومن كان رأسُ ماله الدُّنيا فتجارتُهُ مع الشيطانِ، وخُسرانُهُ النّارُ. وقال: الشُّكُوك ثلاثة، كلُّها كُفر: شَكٌّ فى الله، وشكٌّ فى الإيمان، وشكٌّ فى الرزقِ من وَعْد الله.

• ذكر ماهية الدنيا وكيفية الزهد فيها وتفاوت الزهاد فى مقاماتهم:

ثم إنَّ الدُّنيا هى نصيبُ كلِّ عبد منَ الهوَى، وما دَنا من قَلْبه منَ الشّهوات. فمن زَهِدَ فى نصيبهِ ومُلكه من هَواهُ المذمومِ؛ فهذا هُو الزُّهد المفتَرضُ. ومن زَهدَ فى نصيبهِ من المباحِ، وهو فضولُ الحاجةِ من كلِّ شيء؛ فهذا هو الزُّهدُ المفضَّلُ؛ يرجع ذلك إلى حُظوظِ جَوارحه، التى هى أبوابُ الدنيا منه، وَطُرقُها إليه.

فالزُّهد فى حرماتِها هو زُهدُ المسلمين، به يَحْسُن إسلامُهُم. والزُّهد فى شُبُهاتِها هو زُهْدُ الوَرعين، به يكْمُل إيمانُهُم. والزُّهد فى حَلالِها مِن فُضُولِ حاجاتِ النّفس هو زُهدُ الزَّاهدينَ، به يَصْفُو يَقينُهُم.

ورُوينا فى حديث عمرو بن ميمونَ، عن الزُّبير بن العَوَّامِ: أنَّ النبى ﷺ قال له: «يا زبيرُ، اجْهَد نفسَك عندَ نُزولِ الشَّهواتِ والشُّبُهاتِ بالوَرَعِ الصّادق عَن مَحارِمِ الله عزّ وجلّ، وادْخُلِ الجَنّةَ بغيرِ حِسابٍ».

وكان سهلٌ يقول فى فَضَائِل الزُّهد وأعالى مَقاماته: لا يَتِمُّ زُهدُ عبد حتى يزهَدَ فى هذه الثلاث: فى الدِّرْهم الذى يُريد أن يُنفقَه فى أبوابِ البرِّ، يتقرّبُ بذلك إلى الله تعالى. ويَزْهَدُ فى الثّيابِ التى تستُر بَدَنَهُ فى الطّاعات. ويزهَدُ فى قُوتهِ الذى يَسْتَعين بهِ على العبادة.

وإنّما قال هذا، لأنّ عندَه أن حقيقةَ الزَّهد من أفْضلِ المقامات كلِّها؛ لأنّه كان يقولُ: يُعْطَى الزَّاهدُ جميعَ ثَوابِ العُلَماءِ والعُبَّادِ، ثم يُقَسَّمُ على المؤمنين ثوابُ أعماله.

وقال: لا يُرى فى القيامةِ أحدٌ أفضلَ من ذى زُهدٍ عالمٍ ورِعٍ. وقال مَرة: لا يُنال الزُّهدُ إلا بالخوفِ؛ لأن من خاف تركَ.

فجعل الزُّهدَ مقامًا فى الخوفِ، رفعه مزيدًا له، وكان عنده رحمه الله (. . .)[1] للعبادة استفراغ قُوّة النَّفْسِ، وإدَخال الضَّعف على حَركاتها، ليكْسرَ شرَّها، وتقلَّ آفاتُها؛ مِن فَضْلِ الطّعامِ، والكَلامِ، والمنامِ، وتَركِ مُجالسةِ الأنامِ.

وهذا طريق البَصْريين فى التَقلُّلِ والتَّجوُّعِ، والانقطاعِ عن الخَلْقِ؛ إذ هو مُقتضى الزُّهد عندهم. وروى مسروق عن ابن مسعود، قال: «ركعتانِ من زاهدٍ قلبُه خيرٌ له وأَحبُّ إلى اللهِ تعالى من عِبادَةِ المتعبِّدينَ الُمجْتَهِدينَ إلى آخرِ الدَّهْرِ.

وكان ابن معاذ يقول فى زُهْد العارفين، ومَقامات المقرَّبِينَ من الزُّهادِ: كلُّ مأخوذٍ مِن الدُّنيا لَم يكُن عَونًا لكَ على تَرْكها، فهو عَلَيك. وكلُّ مَتروكٍ منها لا يكون عونًا لكَ على الطَّاعةِ، فليس لك.

وقال: لا زُهدَ إلا بعْدَ الورَعِ. تورَّعْ عنِ الشُّبهاتِ، وعمّا ليس لكَ بحقٍّ، ثم ازْهد فى الحلالِ، وفيما هو حَقٌّ لك.

وقال: عيشُ العارفِ فى الدُّنيا مدافَعةُ الأوقاتِ.

وقال: إذا كان العَملُ لا ميراثَ له، فاعْلم أنه عملٌ بلا زُهْد. ومَن عجز عَن الزُّهدِ فهو عن الحُبِّ أعجزُ.

وقال: المعْرفةُ شَجَرةٌ أغْصانُها الزُّهد.

وكان يقول: ليس فى الدُّنيا من الدُّنيا حَسنٌ كل حسنٍ، وإنَّما هو من الآخِرةِ، أُظهِرَ الحُسْنُ فى الشىء يُريكَ متعة الآخِرةِ، فإن اعْتَبرتَ به نَظرتَ إلى الآخرةِ.

وقال: بلوى الزّاهِدينَ بالدّنيا، وبَلْوَى العارفين بالآخرة. وحُبُّ الدُّنيا بلوى، وحبُّكَ الآخرةِ بلاءٌ.

وقال: يأبَى اللهُ أن يفتح رَوْحَ المعْرفةِ لكَ حتى يَستوى عندك الأحوال كُلّها:

---

(١) تلف فى الأصل بمقدار خمسة أسطر.

الفقْرُ والغِنى، والعِزُّ والذُّلُّ، والصِّحةُ والمرض، وما أشبهه.

يعنى بهذا أنّ القَلبَ إذا استقام على مَعْرفة الله تعالى، وصَحَّ فى مَحَبّته، لم يَختلف على الله لاختلاف الأحوال عليه، واستوى مع الله فى جريان الأحكام، إذ المأوى عند الله يُكنُّه، والظِّلُّ من الله يُؤْويِه، ولَيْس له وَطَنٌ يَحنُّ إليه، إذْ لا سكَن له يأنسُ به فيه؛ لأنّ قَلْبَه مَعَهُ حيثما كان، وهمُّهُ أمامَهُ أينما تَوَجَّه، فثَمَّ وَجْهُ الله.

وكان يقول: الزّاهدُ يقول بلسانه لا أُريد، وقَلْبُه يريد. والعارفُ يقول بلسانه أريدُ، وقلْبُه لا يُريدُ. وإذا زهد تركَ الشَّهوات، وإذا عَرَفَ عاوَدَها. وقيل له: ما بالُ العارفِ يعاود الشَّهوات من الدُّنيا بعد تركها؟ فقال: إذا عُتِّق الشّراب واشتَدَّ احْتاج إلى المِزاج بالماء، لكنه يكون اليوْم فى أخْذِها أفْضلَ منه حينئذٍ فى تَرْكِها.

وقال: العالم يقول: كيف آخذ الدّنيا والزّاهدُ يقول: كيف أترك الدُّنيا؟ والعارفُ يسكت، لا يقول...(١).

وقيل له: هل مَعَ العارفِ زُهْدٌ؟ قال: معه الزُّهدُ الأكبرُ، انصرافُ القَلْبِ عن كلِّ ما دُونَ الحبيبِ. وقال: إذا تركَ الدُّنيا رَغْبةً فى الآخرَة، انقادَتْ له الدُّنيا بكفاياتها من غَيْرِ عَملٍ. وإذا ألْهاك حبُّه عن الآخرة، انقادَتْ لك الجنّةُ، وعَجيبُ مُلْكِها من غيرِ عَناء. لأنَّك إذا أُعْطيتَ الكفايةَ مع الزُّهْد لحُرْمَة طلب الآخرة، والرَّغبةِ فيها، فأنتَ أوْلى بأن تُعطَى ذلك من الجنَّة، لحرمةِ مَعرِفةِ الله تعالى وحُبِّه على معانى الأُنسِ والقُربِ.

قال له قائل: ما بالُ القُلوبِ إلى الرَّحمةِ للزُّهاد أَسرعُ منها للعارفين؟ فقال: الزّاهدُ فى دَرجةِ الصَّبر والفاقَة والذِّلّة، والعارفُ فى دَرَجاتِ الرَّوْحِ والرَّاحَة والسَّعَة، وإنَّما يُرحَمُ أهلُ البلاء، ويُغْبَط أهل الرّخاء. ثم قال: إذا أعْجَبَتْهُم نُفُوسُهم فى حُدودِ الزُّهْدِ بما نالوا من التَّنَظُّف والتَّطهيرِ ألْقاهُم فى معالى المَعرِفة، ومُعاوَدَةِ الشَّهواتِ، حتَّى يَكْسِرَ عليهم الحدود التى [ظفروا](٢) بها من الزُّهد،

---

(١) تلف بمقدار سبعة أسطر. والنقل عن ابن معاذ، ولم أجد هذا الكلام فى الحلية.

(٢) كلمة مطموسة اجتهدت فى قراءتها، والله أعلم.

فيصيرونَ إلى حالِ الفاقَةِ إليه، والانقطاعِ به، فيقطَعُ عنهمُ الطّمع فى النّجاة بأعمالِهم، بل بعفْوِه. وهذا قوّى طلبَهُ منهم، وهو الذى يرفعُهُم لديه، فَيُسقطُ عَنهم كلَّ ما دُونَه يصيرُ دُنيا، حتّى لا يكونَ شُغْلُهم إلا إيَّاهُ، ولا يُحبّونَ سواهُ، قد أُولجَ بِهم صَوامِعُ الخَلْوةِ به أبدًا. ثم قال: الزّاهدُ مشهورٌ، والعارف مستورٌ.

ولا نِهايةَ للزُّهد عند طائفةٍ منَ العارفينَ؛ لأنّه يقعُ عَن نهايةِ مَعارفهم بدَقائق أبوابِ الدّنيا، وخفَايا لوائح الهَوى. وقال بَعضُهُم: نهاية الزُّهدِ أن تَزهدَ فى كلِّ شىءٍ، وتتورّعَ عن كلِّ شىءٍ للنفس فيه متعةٌ، وبه راحةٌ، وبوجوده لها اسْتراحةٌ.

فهذا كما رُوى عن عيسى عليه السّلام: أنه وضَعَ تحتَ رأسِه حَجَرًا، فكأنه لما ارتفع رأسُهُ عن الأرْضِ استراحَ بِذَلك. فعارضَهُ إبليس فقال: يا ابنَ مَرْيَم، أَلَسْتَ تَزْعُم أنَّك قد زهدتَ فى الدُّنيا؟ قال: نعم. قال: فهذا الذى وطأتَه تحتَ رأسِكَ من أى شىءٍ هو؟ قال: فرَمَى عيسى عليه السلام بالحجر، وقال: هذَا لكَ مَع ما تَركْتُ مِن الدُّنيا[1].

وبمعناه رُوينا عن يحيى بن زكريا عليهما السلام: أنه لبسَ المُسُوحَ حتَّى نَقَب جلْدُه، فسألتهُ أمُّه أَن يَنزعَ مِدْرَعَتهُ الشَّعَر، ويلبس مكانَها جُبةً مِن صُوف. ففعل، فأوحى اللهُ تعالى إليه: يا يحيى آثرتَ علىَّ الدّنيا. قال: فبكى، ونَزعَ الصوفَ، وردَّ مِدْرَعتهُ الشَّعَر على جَسَدِه.

وكان الحسنُ يقول: أدركتُ سَبْعينَ من الأخيارِ ما لأحدهم إلا ثوبَهُ، وما وضع أحدُهُم بينه وبين الأرضِ ثوبًا قطّ. كان إذا أرادَ النَّومَ باشَرَ الأرضَ بجِسمه وجعَلَ ثَوْبَه فَوْقه.

واعلم أنّى رأيتُ جُمَلَ النِّعمِ ثلاثًا، وتمامُها بالزُّهدِ، وذَلك أنَّ أصل النِّعَم كلِّها: الإسلامُ؛ لأنَّ مِن ورَائهِ مَقَاماتٍ كثيرةً أخطأوا فيها حقيقةَ التَّوحيد.

ثم النِّعمةُ الثّانية: السُّنّةُ، إذ مِن وَرَائِها بدعٌ كثيرةٌ، كلُّهم أخطأوا حَقِيقةَ السُّنّة مِن المحَجَّة.

---

(١) الفقرة كلها فى الإتحاف: ٩/ ٣٤٧.

النِّعمة الثالثة: العِلْمُ باللهِ، إذ من ورائه عُلومٌ كثيرةٌ شُغلُوا بها عن اللهِ، وجَهلُوا صِفاتَه، ومَعانِى أسمائه.

ثم الزُّهْدُ فى الدُّنيا؛ لأنَّه من وَرائِه حرصٌ كثيرٌ على الشُّبُهات، ورغبةٌ عظيمةٌ فى الشَّهوات، ومهالكُ شديدةٌ عن طريقِ النَّجاة، ومتاوهُ متشعبةٌ عن القَصْد إلى المغَالاة. فَمَن أُعْطِى هذه النعمةَ، إلى ما أُعْطِيه من النِّعم الثَّلاث، فقد تَمَّت النِّعَمُ عليه، وكمُلَت الفَضائلُ له، وحَسُنَتْ عِنايةُ الله تعالى بِهِ، وكان ﴿**مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا**﴾ [النساء: ٦٩].

وقد كان أبو محمد، رحمه الله، يجعل الزُّهدَ من شَرْطِ السُّنَّةِ والاتّباعِ؛ لقوله عزّ وجلّ: ﴿**قُلْ إِنْ كُنْتُم تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِى**﴾ [آل عمران: ٣١]. ولقول الرّسول ﷺ: «عليكُم بِسُنَّتِى وسُنَّةِ الخُلَفاءِ الرّاشِدِينَ من بَعْدِى». وقال عليه الصلاة والسلام: «من أحَبَّنِى فَلْيَسْتَنَّ بِسُنَّتِى».

فهذا فيما وصف، وذاك فيما أمَر. قال: فمن السُّنَّةِ اتّباعُ الرسولِ ﷺ وأصحابهِ من بعده، وقد كانوا زاهدين فى الدُّنيا.

ثم تفاوتَ الزّاهِدُونَ، لأىِّ شىءٍ زَهِدُوا، على مَقامات، على نحو علوِّ المشاهداتِ. فمنهم مَن زَهِد إجلالاً لله تعالى. ومنهم مَن زَهِدَ حَياءً مِن الله تعالى. ومنهم مَن زَهِدَ خَوفًا مِنَ الله تعالى. ومنهم مَن زَهِد رجاءَ موعودِ الله تعالى. ومنهم مَن زهِدَ مسارعةً منه لأمرِ اللهِ تعالى. ومنهم مَن زَهِدَ حُبًا للهِ تعالى؛ وهو أعلاهم.

وأدْناهُم مَن زَهِدَ مخافةَ طولِ الوُقوف ومناقشة الحساب، كما قيل: ذُو الدِّرهمين أشدُّ حسابًا يومَ القيامةِ من ذى الدِّرهم. ولأنَّ طريقَ المتّقِينَ لا يسلكُه مَن مَلَك فى الدّنيا زَوْجين من شىء واحدٍ، لاقميصين ولانعلين، ونحو هذا.

وما أحدٌ أُعْطِى مِن الدّنيا إلا نُقِص من درجته فى الآخرةِ، وإن كان على الله كريمًا. وما أحدٌ يُعطَى من الدّنيا شيئًا إلا قيل: خُذه على ثلاثةِ أثلاثٍ؛ ثلثٌ هَمٌّ،

وثلثٌ شُغْلٌ، وثلثٌ حسابٌ. وإنَّ الرجلَ من الأغنياء لَيُوقَفُ للحسابِ ما لو وَرَدَ مائةُ بعيرٍ عطاشٍ على عَرَقِه لصَدَرْنَ رِواءً، وإنّه لَيرى منازلَهُ من الجَنَّة.

فلمّا وَقَرَ هذا فى قُلُوبِ الورعين، وحَزَّ فى صُدورِ المتّقين، أشْفَقُوا مِن طُولِ الحِسابِ، فزَهِدُوا فى الجَمْعِ والمنْع، وفارَقُوا فَضُولَ الآمالِ، طلبًا لخِفّةِ السُّؤالِ، وخوفًا مِنْ مُعَاينةِ الأهوالِ.

ومن الزُّهدِ فى الدّنيا حُبُّ الفَقْرِ وأهلِهِ، ومجالسةُ المساكينِ فى أوطانهم، والتذلّلُ لَهم، كما كان مطرّف بن عبد الله، مع فضله وعلمه، يجالسُ المساكينَ فى بَزَّتِه، يتقرَّبُ بذلك إلى ربِّه.

وكان محمدُ بن يوسف الأصفهانى عالمًا زاهدًا. ومن النّاسِ من كان يُفضِّله على الثّورى رحمهما الله تعالى، إلا أنه لم يُشتهر ذِكرُهُ، وكان يؤثر الخُمولَ والصَّمَت، وطُوِى نَشْرُهُ فلم يكن يعرفه إلا العلماءُ. وكان من حُسنِ رِعايته وشدّة يقظتهِ يعمل فى كلِّ وقتٍ أفضلَ ما يَقْدِر عَليه فى ذلك الوقت. فلمّا طلبه ابنُ المبارك بالمصيصة[1]، قال له بعض من يَعرفُ حالَه: إنّ ذاك لا يكونُ فى المصْر إلا فى أفْضَلِ موضعٍ فيه. قال: فهو إذًا فى الجامع، فطلبه، فقيل له: إنّه لا يَقْعُد إلا فى أفضلِ مكانٍ. قال: فطلبه عندَ الفُقراءِ، فإذا هو دَسَّ رأسَهُ، وأخْملَ نَفسَه مع المساكين، فكانَ عندَه أنّ أفَضْلَ وطنٍ فى المِصْرِ الجامعُ؛ لأنه يقال: إنّ الصلاةَ فيه بخَمْسينَ صلاةً. وإنَّ أفضلَ الأماكنِ موضعُ الفقراءِ من الجامعِ، وإنَّ أفضلَ الأحوالِ الخُمولُ. فلذلك أخملَ نفْسَهُ فى فَقْرِه، وفيما بين الفقراءِ فى الجامعِ، لِيحُوزَ فَوَاضِلَ الأعمالِ.

ومن الزهد أن يكون بفقره مُغْتبطًا، مُشاهدًا لِعَظِيمِ نعمةِ الله تعالى عليه به. يخافُ أن يُسْلَبَ فَقرُه، ويُحوَّلَ عَن زُهْده، كما يكون الغنى مغتبطًا بغناهُ يخافُ الفقْرَ. ثم وجودُ حلاوة الزُّهدِ حتى يَعْلمَ اللهُ تعالى من قلبه أنَّ القلّةَ أحبُّ إليه من الكَثْرة، وأن الذلَّ أحَبُّ إليه من العزِّ، وأنَّ الوَحْدَةَ آثرُ عِنْدَهُ من الجَماعَة، وأن الضَّعةَ والخُمولَ أَعْجَبُ إليه من الاشتهار. فهذا من إخْلاصِه فى قَصدِه، وصدْقِهِ

(١) المصيصة: بلدة بالشام.

فى زُهْدِه، وهناك تحقَّقَ الإيمانُ وبلغ ذِرْوَتَهُ.

وروينا عن عيسى عليه السلام وعن نبيّنا عليه السلام: «أربعٌ لا يُدْرَكْنَ إلا بعُجْبٍ: الصَّمْتُ؛ وهو أوّلُ العبادةِ، والتّواضُعُ، وكَثْرةُ الذِّكْرِ، وقلَّةُ الشَّىء».

وقال الثّورى رحمه الله تعالى: لا يكون الرّجُلُ عَالمًا حتّى يَعُدَّ البلاءَ نعمةً، والرخاءَ عُقوبةً. وقال بعضُ السَّلَفِ: لا يَفْقَهُ العبدُ كلَّ الفِقْهِ حتى يكونَ الفَقْرُ أحبَّ إليهِ من الغِنَى، والذُّلُّ آثرَ عنده من العزِّ.

وقد روينا خبرًا مقطوعًا: «لا يبلغ العبدُ حقيقةَ الإيمانِ حتى يكونَ أن لا يُعْرَفَ أحبَّ إليهِ من أن يُعْرَف، وحتّى يكونَ قِلّةُ الشّىءِ أحبَّ إليهِ مِنْ كَثْرته».

وكان السّلف الصّالحُ يقولون: نِعمةُ اللهِ عَلينا فيما صَرفَ عنا من الدّنيا أعظمُ من نِعْمتهِ فيما صَرَف إلَينا.

وكان الثّورى رَحِمه اللهُ تعالى يقول: الدنيا دارُ التواءِ لا دارَ استواءٍ، ودارُ تَرحٍ لا منزلَ فَرَحٍ. من عَرَفَها لم يَفْرَح برَخاءٍ، ولم يحزن على شَقَاءٍ.

وكان سهْلُ بنُ عبدِ الله رحمه الله يقول: لا يصحُّ التعبُّدُ لأحَدٍ ولا يَخْلُصُ لَهُ عَمَلٌ حتى لا يَجْزَعَ ولا يَفرَّ مِن أربعةِ أشياءَ: الجوع، والعُرى، والفَقْر، والذُّل.

كما كان يحيى يقول: (. . .)[1] وقعوا فى فضيحة الآخِرة، وفزعًا من الفضيحةِ عند النّاسِ افتُضِحُوا عند اللهِ.

يقول أبو محمد، رحمه الله: فإذا كان فى تَعبُّدِه طالبًا للغنى، مُحبًا للجاه والذِّكْرِ، لم يُخلِص فى أعماله، ولم يَصْدُق فى حاله، وكانت الرّغبةُ فى الدُّنيا مِفتاحَ ذلك فصار الزُّهدُ غَلْقَهُ، فَصحَّ له صِدْقُ الحالِ وإخلاصُ الأعمالِ بالزُّهد.

ورُوينا أن إبراهيم التَّيْمى ردَّ خمسينَ ألفًا. فقيل له: لِمَ رددْتَها؟ فقال: أكْرهُ أن أمحوَ اسْمى من ديوان الفقراء لخمسين ألْفًا. فكيف بمن رَضى أن يُمْحَى اسمُهُ من الفقراءِ ويُثْبَتُ رسمُهُ فى الأغنياءِ بمائتى دِرْهَم؟ لقد خَسرَ خُسْرانًا مُبينًا.

والله تعالى يصف الفقراء بالإحسانِ، ويُوقِعُ الحُجَّةَ عليهم، ويمدح الفقراءَ

---

(١) تلف قدر ثلاث كلمات.

بالرُّجولةِ فى تركِ البيع والتِّجارة، ويضُمُّ الأغنياءَ إلى النِّساء فى التَّخلُّف والخَسارَة، فقال فى هذا المعنى: ﴿رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارةٌ﴾ [النور:٣٧] أى: لا يشغلُهم عن الذِّكر. والتجارةُ تلهيهم، من: لَهَوتُ ألهى؛ إذا تشاغَلَ، لا من: لَهَوْتُ ألْهُو؛ إذا لَعب. ثم قال فى ذَمِّ الأغنياء: ﴿رَضُوا بأنْ يكُونُوا مَعَ الخَوالفِ وطُبِعَ علَى قُلُوبِهِم﴾ [التوبة:٨٧]. هذا جمع التأنيث على زنة: فَواعِل. وقال فى قوله فى الخطابِ الثّانى للطائفتين أيضًا: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفاء ولا عَلَى المرْضَى ولا عَلَى الّذين لا يَجدُونَ ما يُنفقُونَ حَرجٌ﴾ إلى ﴿ما عَلَى المُحْسنينَ مِنْ سَبيلٍ﴾ [التوبة:٩١]، ثم قال: ﴿إنّما السَّبيلُ على الّذين يَسْتَأذنُونَكَ﴾ الآية [التوبة:٩٣]. . .(١).

ومن الزُّهد عند الزّاهدينَ تركُ فُضُولِ العُلُومِ التى مَعْلُوماتُها تؤُول إلى الدُّنيا، وتدعو إلى الجاهِ والمنزلة عند أبنائها، وفيما لا نَفْعَ فيه فى الآخرةِ، ولا قُرْبةَ به عند الله تعالى. وقد تَشْغَلُ عن عبادة الله، وتفرِّق الهَمَّ عن اجتماعه بين يدى الله، وتقطع الجوارحَ عن المعاملة للهِ، وتُقْسى القَلْبَ عن ذِكْرِ اللهِ، وتحجبُ عن التفكُّرِ فى عَظَمَةِ اللهِ وآلائه.

وقد أُحْدِثَتْ علومٌ كثيرة لم تكُن تُعْرَف فيما سلف، اتّخذها الغافلونَ علْمًا، وجعلها البطَّالونَ شُغْلاً، تطرّقُوا بها إلى الدُّنيا، وتألّفُوا عَلَيْها أبناءَها، وجعلوها سُلَّمًا إلى الشّهوات، وسببًا إلى المعاشَرات، ومفتاحًا للمجالَسات، فقُطعُوا بها عن الله، وحُجبوا عن مُشاهَدَةِ الآخرة، ومُنعُوا من الحقيقة، وبدَّلُوا بالخالقِ الخليقةَ؛ لا نذكُرُها لكَثْرة أهْلها، إلا أن يُسأل عن شىء منها أَعلْمٌ هو أم كلامٌ؟ أحقٌّ أم تشبيهٌ؟ أصِدْقٌ وحِكمةٌ أم زُخرفٌ وغُرورٌ؟ أَسُنَّةٌ هُوَ أم بِدعةٌ؟ أعتيقٌ أم مُحْدَثٌ وتَشْديقٌ؟ فحينئذٍ نُخبر بصواب ذلك من خطابِهِ، وقديمهِ مِن مُبْتَدَعِهِ. وعلى اللهِ قصدُ السبيلِ.

ومن أَفضلِ الزُّهد: الزُّهدُ فى الرِّياسَة على النّاسِ، وفى المنزلةِ والجاه عندهم، والزُّهدُ فى حُبِّ الثّناءِ والمدحِ منهم؛ لأنَّ هذه المعانى هى مِن أكبرِ أبوابِ الدُّنيا عندَ

---

(١) تلف قدر ثلاث كلمات أو أكثر.

العُلماء. فالزُّهدُ فيها هو زُهْدُ العلماء. كان الثّورى رحمهُ اللهُ تعالى يقول: الزُّهدُ فى الرِّياسةِ ومَدْحِ الخَلْقِ أشدُّ من الزُّهدِ فى الدّينارِ والدِّرْهم. قال: لأن الدّينارَ والدّرهمَ قد يُبذلان فى طَلَبِ ذلك. وكان يقول: هذا بابٌ غامِضٌ لا يُبصرُه إلا سَماسِرَةُ العُلماء.

وقال الفضيلُ رحمه الله تعالى: نَقْلُ الصُخورِ من الجِبالِ أيسرُ من إزالةِ رياسَةٍ قد ثَبَتَتْ فى قَلْبِ جاهِلٍ.

وذهب أُوَيسٌ القَرَنى رحمه الله تعالى إلى أنَّ الزُّهدَ هو تركُ الطَّلَبِ للمَضْمُون. قال هرم بن حيان: لقيته على شاطئ الفرات يغسل كِسَرًا وخِرَقًا قد التقطها من المنبوذِ. وكان ذَلكَ أكْلَهُ ولِبْسَهُ. قال: فسألتُهُ عن الزُّهْد، أىّ شىء هو؟ قال: فى أىِّ شىءٍ خرجْتَ؟ قلتُ: أطْلبُ المعاشَ. فقال: إذا وقعَ الطَّلبُ ذَهبَ الزُّهْدُ.

وكان أحمدُ بن حَنبل يقول: لا زُهدَ إلا زُهدُ أُوَيس القَرَنى، بلغ به العُرْىُ حتى قَعَد فى قوصرةٍ[1].

وكان أبو سليمان يقول: إذا طَلَبَ المعاشَ، أو تزوَّجَ، أو كتبَ الحديثَ، فقد رَغِبَ فى الدُّنيا.

وقد قيل لابن معاذ: ما بالُ المتعلِّمِ والطّالبِ حَريصٌ عَلى كَتْب العِلْم وجَمْعِ الحِكْمةِ. فقال: يُريدونَ بذلكَ الاحتجاجَ على النّاسِ، والدَّفْعَ عن نُفُوسِهِم، فهُم مشغولون بهم. فإذا شُغلوا بنُفُوسهم، اقْتطعُوا عن الخَلْقِ، فَتفرَّغُوا لها، وأقبلُوا على اللهِ، فأخذُوا العِلمَ من اللهِ بأنْفُسِهِم من قُلُوبهم. ذكرته على المعنى، والعبارة لى.

وقد رُوينا عن اللهِ سبحانه: «لا تَقُولُوا العِلْمَ فى السّماء مَنْ يَصعدُ يُنزِلُه، أو فى التُّخومِ مَنْ ينزل يُخرجُه. العِلمُ فى قُلوبكم، تأدّبُوا بآداب الرُّوحانِيِّينَ، وتخلَّقوا منّى بأخلاق الصِّدِّيقين، أُظهرُ العِلمَ من قُلُوبكم، حتى تغمرك». فالرُّوحانيُّون لا ترتاحُ قُلوبُهم إلى غير اللهِ، ولا رَوْح لهم إلا إيّاه. والصدّيقون لا

---

(١) القوصرة: وعاء للتمر يتخذ من قصب. وانظر: الإتحاف ٩/٣٤٧.

يَنظرونَ إلى ما أعرض عنهم، ولا يحبُّون ما ذَمَّهُ ومَقَتَهُ. فهم أعلام الله فى الأرض [لإرشاد] عباده، والعلمُ ﴿آياتٌ بيِّناتٌ﴾ كما قال: ﴿فِى صُدُورِ الَّذِين أُوتُوا العِلْمَ﴾ [العنكبوت:٤٩].

وقد قال بعضُ أهل المعرفة: إذا رأيتَ الرّجلَ يتكلم فى الزُّهدِ، ويدعو إليه، فاعلم أنه فى معرفة (. . .)[1] ومن ادّعى أنه جَمعَ طلبَ الدُّنيا وحلاوةَ الزّهد فقد كَذَب. وقال: لا يكون بالله مُؤمنًا حتى يكونَ لله مُحبًا، ولا يكون لله مُحبًا حتى يحبَّ ما أحَبَّ، ويُبْغِضَ ما أبْغَض، وَاللهُ يحبُّ الزُّهْدَ، ويُبغض حُبَّ الدُّنيا.

وقال: أَزْهدُ الناسِ أشدُّهم حبًا لله، وأطوعُهُم له. وقال: إنّما يحبُّ الإنسانُ الدُّنيا بالطَّبع؛ لأنّ نفسه منها خُلِقَت. فإذا وقعَ الإيمانُ بالغيب خَمَدَ الطبعُ، فطُفِئَ حُبُّ الدُّنيا.

هذا معناه لغيرنا، واللفظ لنا.

وكان ابن معاذ يقول: الزُّهْدُ إقامةُ العَدْلِ، واستعمالُ الحقِّ. ولا يمكن حقيقةُ هذا إلا بفقد الرَّغْبَةِ، وعَدَمِ الحِرصِ.

وكان يقول: الدنيا امرأة، ولو كانت عفيفةً لأغنَتْ طُلاَّبَها. وقال مرّة: لو كُنتَ عفيفًا ما اتُّهِمْتَ بقُربها، فإذا رأيتَ نَفَسك تميل إلى الدّنيا فاتّهِمْها، وإذا زال الخوف عليها فَرغِبَتْ فاتَّهِمْها.

وقيل ليحيى بن معاذ: ما بالُ النِّساءِ يأنَسُون بالعارفِ، ولا يستوحشون من قُربه؟ فقال: لانقطاعِ طلبِه لهُنَّ، ولَو طلبهنّ لم يأنسوا به. كذلك إذا لم تطلُبِ الدُّنيا أَنِسَتْ بك وطَلَبَتْك، وإذا طَلَبْتَها تباعَدَتْ.

وقال: الدُّنيا مَخضَةُ المؤمن يُمخَض فيها كما يُمخَض السِّقاء. فالفَقْرُ خيرٌ له من الغِنى؛ لأنّ المذَلَّةَ وخُضوعَ القَلْب مع الفقْرِ، والكِبْرَ مع الغِنى.

وقال: إذا وَجَدت (. . .) يُرَغِّبُكَ قُربَهُ، والنَّظر إليه فى الدُّنيا، فاعلم أنّه (. . .) ولا حكيمَ يتكلّم بالحكمة، إلا مَن يقومُ الغَنىُّ من كونه فقيرًا والفقيرُ غنيًا.

(١) قدر كلمة فى هذا الموضع وكذلك الموضعين بعده.

وقال: النَّظر إلى الأغنياء فتنةٌ (. . .)[١] وفى موتهم غذاء للفقراء.

وقد كان بشرٌ من قبله يقول: حياةُ الأغنياءِ غيظٌ فى قُلوبِ الفُقراءِ.

وكان يقول: لو لم تُعيَّر يومَ القيامةِ إلا بالرُّهبان لكان عظيمًا. يُقال لك: هذا قد زَهِدَ فى الدُّنيا واجتهد فى العِبادةِ، وهو لا يَعْرِفُنى، أنتَ كُنتَ أوْلى بذلك منه، وأنت تعرفُنى.

وكان بعضُ أهلِ المعرفةِ يقول: الزَّاهدُ وإن كانَ جاهلاً أَفْضلُ من العالِم إذَا كان رَاغبًا.

وقال يحيى: إذا صَبَر عن الكلامِ، وملاقاةِ الإخوانِ، فقد زَهِد. وكان يصف زُهّادَ العارفين بأربعٍ: تَرْكِ الأوطانِ، وفَقْدِ الإخوانِ، وطَرْحِ الكُتُبِ، وعَدَمِ المعلوم. وذكر قِصّةَ داوُد الطائى، فقال: لما أرادَ أن يزهدَ، جَرَّبَ نَفسَه سنَةً، فكان يحضُرُ مَجْلِسَ أبى حنيفةَ، وهم يسألون ويتكلمون، وداوُد لا يَسأل ولا يجيب. فلمّا قَوِى على هذا عَمَدَ إلى كُتُبِهِ وجعلها فى تابوتٍ، وألْقَاها فى الفُراتِ، ولَزِم الطَّريقَ.

ثم قال يحيى: لم يَخْلَق [اللهُ] الشىءَ فى الأصل إلا للأخذ، ولكن زَهَّدَهُم فِيه امْتحانًا لهم، وقَطْعًا لقُلُوبهم عنه. فإذا زَهِدوا فيه ردَّه عليهم.

وقال: مَن وَصَلَ إليه بالخلوةِ صَبَرَ عليها بعد الوُصولِ، ومَن وَصَلَ إليه مع الخلق لم يصبر عنهم بعدَ الوُصولِ، ومَن اتَّصَلَ سَقَطَ عن قَلْبه كلُّ ما قطعه. ثم قال فى الفرق بين حال الزاهد والعارف (. . .)[٢].

وكان يُقال: فرارُ العارفِ من الزَّاهدِ أشدُّ من فرارِ الزَّاهدِ من الرّاغب. وقال مرة: صادقٌ يَعِظُ صِدِّيقًا؛ لأنه لا يعرفه ولو عَرَفَهُ لجلَس بينَ يدَيْه يَتَعَلَّمُ منه، فكيف أن ينكر عليه؟

وقال بعضُ أهلِ المعرفةِ فى التوسُّط بين حال الزّاهدِ والرّاغِب قوْلاً عَدْلاً، قال:

(١) قدر كلمة.

(٢) قدر سبعة أسطر.

ما دامت الشَّهواتُ فى نَفْسك، فنفسُك مَطيَّتُكَ إلى الدُّنيا، وأنتَ طالبٌ لها، فتَتْعَب بقَدْرِ الطَّلَب، وتُنَغَّصُ فيها بقَدْرِ التَّعَب، ولا تَبلغ ما تُريد لفَقْد التَّسليم، ونَقْصِ الرِّضا. فإذا خرجت الشهواتُ من قلبك، وشُغلْتَ عنها، فالدّنيا مطيّتُك إلى الله، وهى تطلبك، وأنت تهربُ منها، فتهنأ بما وَجَدْتَ منها ولا تضرُّكَ، وأنت مطلوبٌ. العبارةُ لنا، والنُّكْتَةُ لغيرنا، ذُكرتُ قائلَه.

ولفظُ يحيى بن معاذ: ما دامت شهوةُ النَّفسِ فيك، فأنت مطيَّةُ الدُّنيا، والمطية تُساق حيث يريدُ صاحبُها، لا حيثُ تريد هى. فإذا ذهبَتْ شهوتُهُ، فالدُّنيا مَطيّتهُ يسوقُها كما يُريد.

وقال أبو محمد رحمه الله: لا يصحُّ الزُّهدُ فى النِّساءِ؛ لأنه قد حُبِّبَ إلى سيّد الزّاهدينَ. ووافقه ابن عيينة، فقال: ليس فى كثْرةِ النّساء دنيا؛ لأنّ أزهدَ الصحابةِ عليُّ بن أبى طالبٍ رضى الله عنه كان له أربعُ نسوة، وبضع عشرة سُرِّيَّة.

وقد قيل ليحيى بن معاذ: ما بالُ العارفِ لا يرتاحُ لشىءٍ من لذَّاتِ الدُّنيا ارتياحَهُ للنِّساء (. . .)[1] الشَّهوات خُلقَت بائنةً منك المأكول وما أشبهَهُ (. . .) خُلقَتْ منك. فجسْمُكَ يستَدلى بجزئه، ويَحِنُّ إلى جزئه، ويطلب شكْلَهُ، وتعرف ذلك فى أجناسِ الطير والبهائم، ولبس شىء من اللَّذّاتِ فيه رُوحُك غيرها، لقولهِ عز وجلَّ: ﴿**خَلَقَكُم مِّنْ نَفْسٍ واحدة وخَلَقَ منها زَوْجَها**﴾ [النساء: ١].

وقال مرّة: إذَا صَحَّ الزُّهدُ خَرجَتْ شهوةُ النِّساءِ من قَلْبه، وإذا صَحَّت المعرفة ردّتها عليك. ولذلك بدأ الله سبحانه فى أوّلِ ذِكْرِ تزيينَ الشّهواتِ بالنّساء والبنين، لأنّهما من الجنس، فهو من المرأة، والابن منه. ثم ذكَر معادنَ الأرضِ؛ الذَّهَبَ والفِضّةَ؛ لأنهما من أصلِ نباتِ الجنس.

وقال أيضًا: شهوةُ النّساء أغلبُ على العارفين من كلِّ شَهوةٍ. فإنَّ كلَّ شَهوة تنالُ منها وهى لا تنالُ منك مثل الطعامِ واللِّباسِ والمنزلِ والمرأة، تأخذ منهنَّ ويأخذْنَ منك، وليست شَهوةٌ تُكلِّمك غير المرأةِ، فمِمّا يزيدُ فى حُبِّك لها معرفتُها

---

(١) قدر كلمة أو أكثر فى هذا الموضع والذى يليه.

بربِّك، وحبُّها له. ثم الشَّهواتُ كُلُّها ليس منها شهوةٌ معها الإيمانُ بمولاكَ غير المرأة.

وقال مرةً: أنعمُ النّاسِ عَيْشًا فى هذه الدّارِ زوجانِ رجلٌ وامرأةٌ عاقلانِ عارفان، كريمةٌ أخلاقُهُما، لم يبق لهذَين سرورٌ من الدُّنيا والآخِرَةِ إلا قد وَصَلا إليه جِسْمًا ورُوحًا، عاجلاً وآجلاً. قال: وهذا عزيزٌ وُجودهُ.

وقال له قائل: ما بالُ الرّجلِ إذا زَهد فى الدُّنيا استأنَسَتْ به النِّساءُ، وتَقْوى به. فقال: لأنَّ كلَّ شىءٍ من الدُّنيا إنما يَبْعُد عنك بطلبك له، فإذا زَهدتَ فيه تَبعك. قيل له: (. . .)[1] أن يكون ما نَرى من حُبِّ الصّالحاتِ منهنّ له، وأُنسهنَّ به، يدل على شُعُوف الحورِ العين؟ فقال: هُنَّ الحور العين (. . .) الصالحات من بَناتِ آدَمَ يَصِرْنَ حُورًا عِينًا.

وهذا الذى ذكرَهُ من حال العارفِ فى شأنِ النِّساءِ لا يكون للسّالكين فى الطريق، ولا للدّارجين فى الطَّلَب، وليس هو جائزًا لهم، إنّما هذا مَقامُ الأنبياء وعِلْيَةُ الصَّحابة، وفى مقامٍ من مقامات المعْرفة. وإذا كان الأمرُ كذلك، فإنّ خُروجَهُنَّ مِن القَلْب، وعدَمَ تعلُّقِ القَلْب بِهِنَّ، أعلى لمقامِ الطالب، وأتَمُّ فى حالِ المريدِ، لأجلِ أنّهنَّ يأخُذْنَ مِن القَلْبِ، كما يأخذُ العبدُ مِنْهُنَّ أو فَوْقَه.

ونَحْنُ نقولُ: مِن علامةِ العارفِ فى القُوّةِ والمكانَة أن يأخُذَ من الأشْياء، ولا تَأْخُذَ مِنْه، وتَدْخُلَ عَلَيْه، فيجرى فيها ولا تُجريه، إذ لا تُخرجه من المقامِ؛ لأنّه لا يتعلَّق بالأنامِ. وإذا كان مِن وصْفِها أن تأخذَ مِن القَلْب كما يأخذ منها على مَا وصف «يحيى»، فقد صارَتْ جاذِبةً ومنازعةً، فلا يُؤمَنُ على مَن عَلَّقَ قلْبَهُ بِهِنَّ أن يتعلَّقنَ عَلَيْه، فيُخرِجْنَهُ مِن مَقَامه.

ولذلك يقول: ما بُلِىَ قَلْبٌ بهوًى عَلِق به بَلْوَاهُ بشَخْصٍ مثْله، ولا أبْعَدَ خُرُوجًا من سِرِّه بعد وُلُوجه مِن الإنْسان؛ لأنه جِنْسُهُ وبه يُوجَدُ أُنْسُهُ، ولا يفرقُ ذلكَ حتّى لا يكونَ له بيانٌ إلاَ فى قَلْبِ بَحْرٍ مُجَرَّدٍ بالإيمانِ، ولا يحمل الأجناسَ والألاّفَ

(١) قدر كلمة أو أكثر، وكذا فى الموضع الذى يليه.

إلا قَوِيٌّ مكينٌ مُطاعٌ مُبينٌ. وليس هذا حالَ مُريد، ولا وَصْفَ طَالبٍ مِسْكينٍ. وسُمِّينَ نساءً؛ لأنَّهُنَّ يُنَسِّينَ، فقَدْ تُنْسِي ذِكرَ الآخِرَةِ، وقد تُنْسِي اللهَ والواجباتِ الإمر: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ﴾ [طه:١١٥]، وكانت النِّساءُ سببَ نسيانه.

وقد كان أبو سليمان يقول: ما تزوّجَ أَحَدٌ من . . . ـنا[١] فكان على مرتبة إلا نَقَص منها. وقال مَرَّةً: إلا تَغيَّر. وقال بعضُ السَّلفِ: مَن كان له في طلب الحلال (. . .)[٢] يتزوج.

وقد كان الجنيد يقول: أحب للمرُيدِ أن (. . .) وساوس قَلْبِه إلا الله تعالى، لا يذكرُ الجنَّةَ ونَعيمَها وحُسْنَها لضَعْفه؛ وإلا طمعَ العَدوُّ فيه؛ فأشْهَدهُ مثال (. . .) عاجلاً فَطَلَبَهُ ورغِبَ فيه؛ لأنّ ذلك غائبٌ آجلٌ. نقلتُهُ على المعنى.

وقال أيضًا: أُحبُّ للمبتدئ ألا يشغل قلبَه بهذه الثلاث، وإلا تغيَّر حالُهُ: التكسُّب، والتّزويجِ، وطلبِ الحديث[٣].

وكان يقول: أحبُّ للصُّوفي ألا يقرأ ولا يكتب لأنّه أجمع لهمِّهِ.

هذا لأنه كان يقول: جمعُ الهَمِّ بين يدى اللهِ تعالى أَفْضَلُ من جميع أعمال الجوارح كلها. وقال أيضًا: لأَنْ تَرُدَّ همتَّكَ إلى الله تعالى ساعةً تُعَلِّقُها به خيرٌ لك ممّا طَلَعت عَلَيه الشَّمس تجعله في سبيلِ الله. وكذلك قول جماعةٍ من أهلِ المعرفةِ.

وفي المقام الذي ذكره ابنُ معاذ من شأن النِّساءِ والأُنسِ بهنَّ علومٌ غريبةٌ، يَدِقُّ على المريدينَ فهمُها، ويَغْمُضُ عليهم رؤيتُها، ويَضيقونَ قَلْبًا ووَجْدًا عن دَرَكِ حَيْطها، فلم يكن بنا حاجةٌ إلى ذكرها، على أن هذا الكتاب ليس موضوعًا لها، ولا قُصد فِيه ذِكْرُها، وعلى الله قَصْدُ السّبيل.

---

(١) صدر هذه الكلمة تالف بالأصل.

(٢) قدر كلمة أو أكثر، وكذا في الموضعين التاليين.

(٣) ليس هذا صحيحًا، بل طلب الحديث مهم للمبتدئ والمنتهي، حتى يعصمه من مزالق الشيطان. وانظر: إحياء علوم الدين ٣/ ١٩ ـ ٢٠ فقد حررّ هذه المسألة. وهو في موضع آخر يروي غير هذا.

ومذهب جماعة من العارفين: أن الدُّنيا هو ما شَغَل القَلْبَ، واهتَمَّ به، وقطعَهُ عن تَضرُّعِهِ لله. فجعلوا الزُّهْدَ تَرْكَ الاهتمامِ، وطَرْحَ النَّفْس تحت تصريفِ الأحكامِ. وهذا هو التوكّل والرِّضا.

واعلم أنّ الشُّغْل بغير الله هو أوّلُ البُعْدِ، فكُلَّمَا زاد الشُّغْلُ ازْدادَ بُعْدًا من الله، حتّى تكاثَفَ الأشغالُ، وتتناهى البعادُ، فصار التَّفرُّغُ للهِ هو أوّلَ القُربِ من الله تعالى.

ثم يستفرغ الفراغ (. . .)[1] فكما يَجْلو القلبُ من الجلوِّ، ثم يتخلى من خلوٍّ، [كذلك يقترب من القُرْب]، وهذا زهد المقرَّبين. ولذلك صار إفرادُ [الله فى] القلبِ أعزَّ أحوالِ الزَّاهدينَ. وعند هؤلاء لا زُهْدَ إلا بعد التّفْويضِ، والتَّوَكُّلِ، والرِّضا، والمحبّةِ. فَصارَ جُهْدُهم تحقيقَ هذه المقامات. ولا يستقيم فيها إلا مُوقنٌ مع حقيقة [الرّضا]. وهذا زهدُ العارفين من الشُّهداءِ والصِّدِّيقين أُولى القوةِ والتمكين. والزُّهد حينئذ ضَرورةُ حالهم، وظاهرُ أوصافهم، وأول أعمالهم. وهم مَوْصُوفُونَ بغيره، مزيدُهُم مَدَدُ النَّصيبِ مِن اللهِ لا من غَيْرِه.

وجاء فى الخبر: «إنّما الزَّاهد أن يكُونَ بما فى يدِ الله تعالى أَوثقَ منك بما فى يَدِك». ويكونُ فى ثوابِ المُصِيبةِ أرغبَ من أنها لو بَقِيَت لك.

فهذا حالُ المتوكّل، ومقامٌ فى التَّوكُّلِ.

وذهب قَومٌ إلى أنّ الزُّهدَ تركُ الادّخارِ، فكانت الدُّنيا عندهم هو الجمعُ والإمساكُ.

قال ابن أبى الحوارى: قلتُ لأبى سُليمان: إنّ مالكَ بنَ دينار قال للمغيرة: اذهَب إلى البيتِ فخذِ الرَّكْوةَ[2] التى كُنتَ أهْدَيْتَها لى، فإنّ العدوَّ يوسوس إلىَّ أنّ اللصَّ قد أَخذَها. فقال أبو سليمان: هذا مِن ضَعْفِ قُلوبِ الصّوفِيِّينَ. هو قد زَهِد فى الدُّنيا، ما عليه مَن أخذَها.

---

(١) قدر ثلاث كلمات.

(٢) الركوة: إناء صغير من جلد يُشرب فيه الماء. الجمع: رَكَوات.

أراد أبو سليمان منه حقيقةَ الرِّضا عن حال التّوكُّل بالاسْتسلام لجريانِ الأحكامِ. وأراد مالك من نَفْسه حقيقةَ الزُّهد عندَه، بأن يَصْرِفَ عن قَلْبه الاهتمام.

وكانُوا يقولون: لا تزهد حتى لا تُبالى مَنْ أكل الدُّنيا من برٍّ أو فاجرٍ. وقالوا: سَخَاءُ النَّفْس عمّا فى أيدى النّاسِ، وأن لا تُحبَّه ولا تَهُمَّ به، أفْضَلُ من سخاء البَذْلِ؛ لأنّه مقامٌ فى الزُّهْدِ. وقد كان يحيى يقول: لا حَسَدَنى الناسُ إلا على ما فى يدى من الدُّنيا.

وقال بعض العلماء: الدُّنيا هو العملُ بالرّأىِ والمعقول. والزُّهْدُ إنّما هو اتّباع العِلْمِ ولُزوم السُّنَّة. وهذه طريقةُ أهلِ الحديث. وقائل هذا يقول: طلبُ العاقلِ الدنيا أفْضَلُ من زُهْد الجاهلِ فيها. ويقولون: يطلبُ الدُّنيا بِعِلْمٍ، فيأخذها من حَقِّها، ويَضعُها فى حَقِّها، أفْضَلُ من التَّرْكِ لها.

وهذا القَوْلُ من الظَّواهر يُشبه قَولَ علماء الظّاهرِ. كما رُوينا عن سُفْيان قال: قِيل للزُّهْرِى: ما الزُّهْدُ؟ قال: ما لا يَغْلِبُ الحرامُ صَبْرَهُ، ولا يمنعُ الحلالُ شُكْرَهُ.

يعنى أن يكونَ العبدُ صَابرًا عن الحرامِ، ويكُونَ شاكرًا فى الحلالِ، حتّى لا يَغلبَهُ الحلالُ فَيُنسيه الشُّكْرَ. وهكذا كان رأىُ ابنِ عُيَيْنة: إذا شكَر مع النِّعمة، وصبَر فى البَلِيَّةِ، فهو زاهِدٌ، وإن أمسَكَ المالَ ـ عند هؤلاء ـ ولم يُخْرِجْهُ، سَمَّوْه زَاهِدًا.

فهذا لعَمْرى زُهدُ الرَّاغبين من العُمومِ، وهو الزُّهدُ فى الحَرَامِ، ومجانَبةُ الآثامِ.

فأمّا زُهْدُ الزَّاهِدينَ من الخُصُوصِ؛ فإنَّه يكُونُ فى تَرْكِ الحلالِ، وإيثارِ الفَقْرِ عليه بالاسْتبْدالِ. ولذلك عَزَّزَ هؤلاء الزُّهْدَ لعزَّة الحَلال، فقال يوسفُ بنُ أسباط، ووكيع[1]: لَو زَهدَ أحدٌ فى زماننا هذا حتَّى يَبْلُغَ فى الزُّهْد كأبى ذرٍّ، وأبى الدَّرْداء، ما سمَّيْناهُ زاهدًا؛ لأنَّ الزُّهْدَ عِندنا فى الحلالِ المحْضِ، ولا نَعْلَمهُ اليوم.

وكذلك كان مذهبُ جماعةٍ، منهم إبراهيمُ بن أدهم: إنّ الزُّهدَ هو طلبُ

(١) ترجمته فى: سير أعلام النبلاء ٩/ ٣٦٠، وللإمام الذهبى تعليق طريف على بعض أخبار الشيخ وكيع، فراجعه ثَمَّ.

الحلالِ وأَكْلُهُ، والتَّنَقُّلُ فى البلادِ لطلبهِ، وإن ذلك من أفْضلِ الأعمال.

وأمّا الحسنُ، فإنه قال: الزَّاهِدُ الذى إذا رأى أحدًا قال: هذا أفضَلُ منى.

فصار هذا حالَ الذّليلِ فى نفسه، الوَضِيعِ عند نَفْسه، وهو من الزُّهد فى النَّفس. فصارت الدُّنيا هى الكِبرَ، وأبناؤها المتكبِّرين. ولذلك كان صالحو السَّلف يعدُّون الأغنياءَ وأبناءَ الدُّنيا من الجبّارين المتكبِّرينَ، ويَصِفونَهُم بالكِبْرِ والعزَّة. علموا ذلك مِمّن أحبها. ولم هذا؟ لأنّ الغنى يقتضى التعزُّز به، والمتعزِّز حالُه التكَبُّر على مَن دُونَه، لعِزّته ورفْعَته فى نفسه، لقِلَّة أمثاله. فهذا على ضدٍّ حالِ الفقيرِ الذى حالُه يَقْتَضِى الذِّلّةَ والانكسارَ؛ ويَمْنعُ دُخُولَ العِزةِ، ووَصْفُهُ بين هَذين التَّواضعُ لضعفه.

وكان الفضيل يقول: القناعَةُ هو الزُّهد. وقال أبو سليمان: الوَرَعُ أول الزُّهْد، ولا حَدَّ لآخرِه.

وقال ابنُ أبى الحوارى: قُلتُ لأبى هِشام المغازلى: أىُّ شىءٍ الزُّهد؟ قال: قطعُ الآمالِ، وإعطاءُ المجهودِ، وخَلْعُ الرَّاحة.

فهذا مذهبُ جماعةٍ من العُبَّاد؛ فإن مَن زَهد فى الدُّنيا لراحةِ القَلْب، لا لبَذْلِ المجْهُودِ، واستفراغِ الطّاقة، والاجتهادِ فى العبادة، فإنّ ذلك عندهم رغبةٌ على صفةٍ؛ وليس هذا حدَّ الزُّهدِ ولا مَعناهُ، وإنما هذا طريقٌ للزَّاهد، وأحوال تجولُ على الزَّاهدين من العبادات بعد حُصولِ مقامِ الزُّهْد، فيكون هذا درجاتٍ لهم.

وقد كان ابن معاذٍ وغيرُهُ يقول: قلَّ ما رأيتُ عارفًا صاحبَ ليلٍ، ولا يُوصف بكثير عملٍ، ولا يُذكر بمجاهدةٍ. وكان يقول: ما دامَ فى الطريقِ يسير، فعملُهُ أكثر من كلامهِ، فإذا وصَل إلى المنزلِ وعَرَفَ صارَ كلامُهُ يَزيد على عمله.

يعنى: أنّه يُنقل من أعمالِ الجوارحِ إلى حكَم العُلوم، وإلى أعمالِ القُلُوب من مشاهدةِ الغيوب، كما نُقِل من السَّير فى الطُّرُقَاتِ إلى الجلوسِ فى استقرار المنازلِ، وكما حُوِّلَ مِن عِلم الطريقِ إلى علم المقامِ.

وكان يوسفُ بنُ أَسباطٍ يقول: مَن صَبر على الأذَى، وتركَ شَهواتِ النَّفس،

وأكلَ الخُبزَ من حلاله، فقد أخذَ بأصلِ الزُّهد.

وقال أحمدُ: قلتُ لأبى صفوان الرعينىِّ: ما الدّنيا التى ذمَّها اللهُ تعالى فى القرآن، وينبغى للعاقلِ أن يَجْتَنِبَهَا؟ قال: كلُّ ما عملتَ فى الدُّنيا تريدُ به الدّنيا فهو مذموم، وكلُّ ما أصبتَ فيها تريدُ به الآخرةَ فليس منها. فحدَّثْتُ به مَروان فقال: الفقهُ ما قال أبو صفوان.

إنّما قال ذلك؛ لأنَّ الدنيا كلُّ شىءٍ إلا الإخلاصَ. فما وافقَ العلمَ فهو مباحٌ وما خالفَهُ فهوًى؛ والهوى حظُّ النفسِ، والإخلاصُ حظُّ الربِّ عزّ وجلّ. فالمخلصون بيِّنَةُ اللهِ عزّ وجلّ من عبادِه على عدوِّه، وهم أهلُ الآخرةِ فى الدّنيا.

وكان ابنُ السَّماك يقول: الزّاهدُ قد خرجتِ الأفراحُ والأحزانُ من قلبِه، فهو لا يفرحُ بشىءٍ من الدنيا أتاهُ، ولا يحزنُ على شىءٍ منها، فإنّه لا يبالى على عُسْرٍ أصبحَ أم على يُسْرٍ.

وقال أبو سعيد بن الأعرابى عن أشياخه الصُّوفية: إنما الزُّهد عندَهُم خروجُ قَدْرِ الدنيا من القلب، إذْ هى لا شىء، ولا يكونُ فى نفسهِ زَاهدًا؛ لأنه لم يتركْ شيئًا، إذ كانت لا شىء.

وهذا لَعَمرى هو الزُّهدُ فى الزّهد؛ لأنّه زَهدَ، ثم لم ينظر إلى زُهده فزَهده، إذ لم يرَهُ شيئًا، لأنّه زَهدَ فى لا شىءٍ، وهذا يُشبه ما نقولُ: إنَّ حقيقةَ الزهدِ هو الزُّهد فى النَّفْسِ؛ لأنه قد يَزْهَد فى الدّنيا لنفسه طَلَبًا للْعوَض، فيكونُ ذلك رغبةً على صفةٍ. فإذا زهد فى النفْس التى يريد لها العوَضَ على الزّهد، فهو حقيقةُ الزّهد. وهذا يُشبه قَولَ مَن قال: إنّ حقيقة الزهد فى الغنَى هو الزّهدُ فى البقاء؛ لأنَّ العبدَ رُبَّما زَهدَ فى الفَناء، فلم يَزْهد فى البقاء لحُبِّ الحياة الدُّنيا، ، فيكون فيه بقيةٌ من الرَّغبة. فإذا زَهِد فى البقاءِ واستشعر الفَنَاءَ، فهو حقيقةُ الزّهدِ فى الفَناء؛ إذْ كان الغنى يُرادُ للبَقَاء.

وقد كان أبو يزيد البَسْطامى، رحمه الله، وهو من أعالى الطوائفِ إشارةً، وأَغْلَفِهم عبارَةً، يقول لهارُون: أىْ موسى، فى أىّ شىءٍ يتكلم عبد الرحيم؟ يعنى

الأرموى. قال: فقلتُ: فى الزُّهد. فقال: فى أى شَىء؟ قلتُ: فى الدُّنيا. فَنَفَض يَدَهُ وأعْرضَ. ثم قال: يَتَكَلَّم فى الزُّهْدِ فى لا شىء. وأىُّ شىءِ الدُّنيا حتى يُذكَّر بالزُّهدِ فيها؟ وقال: يأتى علىّ وَقْتٌ لا أمْلِكُ شيئًا، ولا يَمْلِكنى شىءٌ، ففى هذا الوَقْتِ يَصِحُّ أن أُسَمَّى زَاهدًا.

وقد كانت رابعة مِن قَبله، إذا ذكَر جُلَساؤُها الزُّهْدَ، تقول: نَوَّهْتُم بالدُّنيا إذ تذكرونها، أىُّ قَدْرٍ لها حتى يُقْصَد بذكرها؟ ولكن مَن أحبَّ شيئًا أكْثر من ذِكْرِه.

وقالت للثَّورى: نِعْم الرّجلُ أنتَ، لولا أنَّك تُحِبُّ الدُّنيا. يعنى الحديثَ والمذاكرةَ به لأصحاب الحديثِ، والتفرُّغَ لهم.

وكان ابنُ أبى سليمان إذَا ذَكَر أصحابُه الشَّهوات، يقول: مَن لم يكن فى قَلْبِهِ ما يُنسيه الشَّهواتِ حتَّى لا يَذكرها، لم يَصحَّ زُهْدُه فيها.

فعند هؤلاء أنَّ كلَّ ما قَطعَ عن الوَحْدةِ، وشَغَل عن التَّفرُّغ للخَلْوة، وأَنس به، واستروح إليه، وسكَن إليه دون الله تعالى، فهو دعاءُ التّوبةِ منه إلى الله تعالى، والاستغفارُ فيه واجبٌ عليه. وهذا حال الواصِلينَ إذا رُفِعُوا إلى مَقَامِ الاتّصالِ.

وكان يحيى يقول: إذَا وَصَل فَرِح، فإذا اتَّصل استأْنَس. وكان يقول: إذا طلبتَهُ بك، فما دُمْتَ تَرَى نَفسَكَ فى الطَّلَبِ لا تجِدْهُ. يعنى: فإذا طلبَكَ به وجدتَّهُ عندَهُ.

وقيل له: نراكَ تَفْصِل بين الوُصولِ وبين الاتّصال، فتجعل الاتّصالَ أعلى وأقْرب! فقال: أضربُ لكم مَثلاً: رجلٌ سار طريقًا، وقَصد مَلكًا كريمًا بأمله، ثم وصل إليه، حتَّى إذا قَدِم عليه فقد وَصَل. ثم يتّصل بأسباب الملك ومُنادَمته، ثم بعدَ شىء يَتقرَّبُ بها إليه، ويَقْرُبُ منه حتَّى يُدْنِيَه الملكُ، ويُقَرِّبَهُ، ويُؤنسَهُ. فالسَّيْرُ والتَّعَبُ لِقَطْعِ المنازِلِ، والفَرَحُ بالوصولِ، والأُنْسُ فى الاتِّصال(١).

والاتِّصالُ كان مَقامَ أبى يزيد، آنسَهُ اللهُ. والوُصُولُ مقامُ يحيى. وما يحكيه من الاتِّصالِ فمن نُورِ البَسْطامى يَسْتَضِىء، ومن زَنْدِه يَقدح ويُورِى. ولكنّ العبارةَ

(١) انظر: الإتحاف ٩/ ٣٨٤.

لابن معاذ، والتّفصيلَ والإشارةَ للبَسْطامى. والتوحيدُ همُ الجملةُ من أهل المعرفةِ، إلا ما شاءَ ربُّكَ فى نَوادِر (. . .)[١].

• فصل آخر:

إن الرَّغبةَ فى الهوى هُو حقيقةُ الدُّنيا؛ وإن كان العبدُ زاهدًا فى المال، مِن قِبَلِ أنّه قَدْ يُعطَى الزُّهدَ فى الدُّنيا، ولا يُعطَى الزُّهد فى الهوى؛ لأنّه قد يُعْطَى الزُّهْدَ فى شيءٍ دون شيء، كما يَزهد فى البنيان ولا يَزهدُ فى اللباسِ، ولا يُعطَى الزُّهْدُ فى الأطعمة. وقد يُعطَى الزُّهْدَ فى المال، ولا يَزْهَدُ فى مَعْصيةٍ، ولا يُعطَى الزُّهدَ فى مَنْصبه لغَلَبَةِ الهوى. فإذا أُعْطِىَ الزُّهدَ فى الهوى كائنًا ما كان فقد أُعْطِىَ حقيقةَ الزُّهدِ فى كُلِّيَةِ الدُّنيا. وهذا هو الزُّهْدُ فى النَّفس؛ لأنّ النَّفْسَ أصلُ الرّغبة، ولها يُزْهَدَ، ويُرْغَبُ للجبلّة على حبِّها، والهَوَى رُوحُ النَّفْسِ، فهذه نَفْسٌ ميِّتةٌ لا رُوحَ لها، وهذا عند دُخُولِ الإيمان يُطفئ نَارَ الهوى، فيُخْرِجُ رُوحَ النَّفْسِ، فتموتُ شهواتها، وفى مَوْتها حياةُ القَلْب بروْحِه ومَحبّتِه، وهى الحياةُ العظيمة. وهذا هو مَقامُ الفَناءِ، الذى يُشير إليه الصِّدِّيقُون (. . .). رسمتُ هذا على علمى بمذهب أهله، والإشارةِ بالمعنى لقائله وشاهده (. . .).

ويُروى أن الله أوحى إلى موسى، عليه السّلام: إنّ برخ ـ يعنى [العبد] الأسود الذى كان موسى قد استسقى به لبنى إسرائيل ـ نِعْمَ العبدُ هو، إلا أنّ فيه عَيْبًا. قال: وما هو؟ قال: يُعجبُه نسيمُ السَّحَر فيسكن إليه. ومَن أحبّنى لم يعجبه شيء ولم يسكن إلى شيء.

فعابه باستراحةِ النفس إلى روح الفضاء، ونقصه عن التّمام بسكُونِ قَلْبه إلى نَسيم السَّحَرِ[٢]. وهذا يُشبه قِصّةَ الولىّ الذى سأل مولاه المعرفةَ، فأوحى الله إليه: لا تطلب مَعْرِفتى واطلب طاعتى تنجُو. فأعادَ المسألةَ. فقيل له: أنتَ تُحِبُّ السَّبَدَ واللَّبَدَ، ومن عَرَفنى لم يُحِبَّ سَبَدًا ولا لَبَدًا.

---

(١) قدر كلمة، وكذلك فى الموضعين التاليين.

(٢) الخبر والتعليق عليه فى: الإتحاف ٩/٣٤٨، وقد أتممتهما منه لتلفهما بالأصل.

السَّبَدُ: ما يُتَغَشَّى به من الرِّياش. واللَّبَدُ: ما يُسْتَوطئ به من التَّوطئة والأثاث.

وقد كان أبو سليمان يقول بمعناه: إذا دَخَل العبدُ فى لاهُوتِيَّةِ الرَّبِّ، لم تَقع عيناهُ على شىءٍ يأخذُ بِقَلْبِه.

فهذه عبارةٌ عن مقام الاتِّصالِ بشاهدِ قيّومية ذى الجلال.

وكان الشاميُّون من العلماء يقولون، منهم يُونُس بن مَيْسرة الجيلانىُّ: ليس الزَّهادةُ فى الدّنيا تحريمَ الحلالِ ولا إضاعةَ المالِ، ولكن أن يكون ذامُّك ومادحُكَ سواء، وتكونَ حالُك فى المصيبةِ وحالُك إذا لم تُصَبْ بها سواءً، وتكونَ بما فى يدِ الله أوثقَ منك بما فى يَدِكَ. وهذا مقامُ التوكُّلِ، وحالُ الرِّضا.

وقال سلام بنُ أبى مطيع، رحمه الله: الزُّهدُ على ثلاثةِ وجوه: واحدٌ: أن تُخْلصَ العملَ لله، والقَولَ، فلا يُرادُ بشىءٍ منه الدُّنيا ولا ما عند الخَلْقِ. والثانى: تركُ ما لا يَصلح به القَلْبُ والدِّينُ، والعملُ بما يَصلح. والثالث: الحلالُ، أن تَزهَدَ فى فَضْلِه، وهو تطوُّع.

وكان إمامَنا فى هذا العلم إبراهيمُ بن أدهم، إذ كان البسطامىُّ بدلاً عنه، يقول: الزُّهدُ ثلاثةُ أصنافٍ: زهدُ فرضٍ؛ وهو الزُّهد فى الحرام. وزُهْدُ فَضْلٍ؛ وهو الزُّهد فى الحلال. وزهدٌ هو سلامةٌ؛ وهو تركُ الشُّبهات. وهذا هو أفضل الزُّهد، أو هو التَّوسُّطُ بين زُهْدَيْن: زُهْدِ الفرض، وزهدِ الفضل. وهو زهد خُصُوصٍ وهو نِهاية [الزهد].

وأما أيوب السختيانى رحمه الله فكان يقول: الزُّهدُ أن يقعدَ أحدُكُم فى منزله، فإن كان قعودُهُ للهِ تعالى رضًا وإلا خَرجَ. ويَخْرجُ فإن كانَ خُروجُه للهِ تعالى رضًا وإلا رَجَع. فإن كان رجوعُه لله تعالى رضًا وإلا سَاحَ. ويُخرجُ درهمه، فإن كان إخراجُه لله رضًا وإلا حَبَسه. ويحبسه، فإن كان حبسُهُ لله تعالى رِضًا وإلا رَمَى بهِ. ويتكلَّمُ، فإن كان كلامُه للهِ تعالى رِضًا وإلا سكَتَ. فإن كان سكوتُه لله تعالى رضًا وإلا تكلَّم. فقيل: هذا صعب. فقال: هذا الطريق إلى الله عزّ وجلّ، وإلا فلا تَلْعَبوا.

فهذا حالُ المراقبِ المخلصِ، ومقامُ الورَعِ الصادقِ. وكان عنده: أنّ الزُّهدَ هو موافقةُ رضا الله تعالى ومَحبّته فى كل حَركة وسُكون، مبلغَ علم العَبْد، ووُسْعَ جُهْده. فهذا من مقامِ الزُّهدِ فى الهَوَى، ووصْفِ الزَّاهدِ فى نَفْسه لربّه ابتغاءَ مرضاة المولَى.

وسُئل حاتم الأصم صاحب شقيق البلخى رحمهما الله تعالى عن الزهد فقال: أولُه الثِّقَة، وأوسَطُه الصَّبرُ، وآخرُه الإخلاص.

فإذا كانَ الإخلاصُ عِندَهُم هو آخرَ الزهدِ، فكيف يَصِحُّ لعبدٍ آخرُ الزّهدِ قبلَ أوّله؟ أم كيف يُجاوزُ الإخلاصَ إلى مقامات المعرفة؟ فقد صار آخرُ الزهدِ عندَهم أوّلَ المعرفة.

وذهبت طائفةٌ إلى أنَّ الزّهدَ فى الدُّنيا فريضةٌ على المؤمنين؛ لأنَّ حقيقةَ الإخلاصِ هو الزُّهدُ عندَهُم، فأَوْجَبوه من حيثُ أَوْجَبوا الإخْلاصَ على المؤمنين، إذ هو مقترنٌ بالأَمْرِ بالعبادة لله، وإذ جعله رسولُ الله ﷺ فى مقام المسلمين فى قوله: «ثلاثٌ لا يَغِلُّ عليهنَّ قلبُ مُسلم: إخلاص العمل لله. . .».

ومالَ إلى هذا القول عبدُ الرحيم بن يحيى الأسودُ.

وقد روينا عن الإمام أحمد بن حنبل لمّا سُئل عن الصِّدْقِ، ما هو؟ فقال: الإخلاص. قيل: وما الإخلاصُ؟ قال: هو الزُّهْد.

فهذا زُهد العموم المفترض؛ كالزُّهدِ فى الحرام، إنما هو زهدُ العامّة، إذ الإخلاصُ فى الأعمالِ مُفتَرَضٌ، وهو خَلاصُها من الرِّياء والسُّمْعَة، والعُجْب، وحُبِّ المدحِ به، والحمدِ عليه، وأخذِ العوَض عاجلاً لأجله؛ فهذا هو خلاصُ النِّيَةِ لأجل الآخرةِ صِرفًا. كذلك اجتنابُ الحرامِ ومُبايَنَةُ النّهى فَرْضٌ على الكافةِ.

فإن كان هذا الزّهْدُ هو حقيقةَ زُهْد الخاصة، فإنَّ ذاكَ الإخلاصَ هو نهايةُ مقاماتِ الزَّاهِدِ من المُخْلِصن، وليس الأَمرُ كذلك.

فأمّا حقيقةُ الإخلاصِ عند المخلصين، وهو الذى أُشير إليه أنّه نهايةُ الزُّهْد، فإنّما هُو خَلاصُ العُبُوديَّةِ للمعْبُودِ من دُخُولِ الشِّرْكِ الخَفِىِّ بِسوَى المَوْجُود،

وإخلاص مَعَانى صفات الرُّبُوبيَّة من اشْتِراك صفَات النَّفْسِ الضِّدّية. فهذا هو حقيقةُ الزُّهد المفَضَّلِ، إلا أنه زُهْدُ الخُصُوصِ، لا زهدُ العُمومِ المُفْترضِ.

وقال عارفو أهلِ الشّام: الزُّهْدُ إنّما هو طلبُ الحلال، وأنّه واجبٌ مُفْتَرضٌ فى مثل زَمَاننا هَذا؛ لاختلاط الأشياء، وغَلَبَة الشَّهَوات. قالوا: فقد تعيَّن فرضُ الزُّهْدِ، ووَجَبَ تفقُّدُ المطاعمِ والسُّؤالُ عنها؛ لِقلَّة المتقين، وفَقْدِ الوَرِعينَ.

وجاء فى الخبر: «لا تأكل إلا طعامَ تَقِىٍّ، ولا يأكل طعامَك إلا تَقىٌّ». وقيل: «إذا أَطْعمك أَخُوكَ أو سَقَاك فكُلْ ولا تسأله»، وإنما كان لا يُسأل؛ لأنَّ السَّلَفَ الصالحَ كانوا مُتَّقين فى مطعمهم، فأغنوا السّائلَ السّؤال، وأغْنوا المجْتَهِدَ عن الاجتهادِ (. . .) والمتَّقُون لنُفُوسِهِم، والوَرِعُونَ لدينهم (. . .) وكَثُر الجوعُ والعُرْى للتَّنقيرِ (. . .)[1] فقد جاع، ومَن تغافل فقد شَبِع.

هذه طريقةُ عُبّادٍ منهم: إبراهيم بن أدهم، وسليمانُ الخوّاص، وابنُ أسباط، والمرعشىُّ، وحُذَيفة، وأبو إسحاق الفزَارى، وشُعَيب بنُ قرب. وقارَبَهم أبو سليمان الدّارَانى، ووُهَيبُ بنُ الورْدِ، والفُضَيل. وهم عَشَرةٌ معروفُونَ بأكلِ الحَلالِ.

وقد كان أبو محمّدٍ يقول: أزهدُ النّاسِ فى الدُّنيا أَصْفَاهُم مَطْعمًا. وقال: أقْصى مَقَامٍ من الوَرَعِ أدنى مَقَامٍ من الزُّهدِ.

لذلك كان الحسن، رحمه الله، إمامُ الأئمة، يقول: لا شىء أفْضَلُ من رَفْضِ الدُّنيا. قال الفضلُ بن ثور: قلتُ للحَسَنِ: يا أبا سعيد؛ رجلان، طلبَ أحَدُهُما الدُّنيا بحَلالها فأَصابَها، فوَصَل بها رَحِمَهُ، وقَدَّمَ فيها لنَفْسه، ورجلٌ رَفَضَ الدُّنيا. قال: أَحَبُّهُمَا إلىَّ الذى رَفَضَ الدُّنيا. قال: فأعدتُ عليه القَوْلَ بذلكَ، فقال: سُبحانَ اللهِ، ما اعْتَدَل الرّجلان، أَحبُّهُما إلىَّ الذى جَانَبَ الدُّنْيا.

وعلى ذلك قول عيسى ابن مريم فى حال الغنى، وإن كسبه من حلال، وَقَدَّمه لنفسِهِ فى حُقُوقِ اللهِ، فقال: الفَقْر أعجبُ إلَىَّ. قال: «لأنّ قيامَهُ بإصْلاحِ ذلك

(١) فى هذه المواضع قدر ثلاث كلمات أو أكثر.

ووَضْعَهُ في حقِّهِ يَشْغَلُه عن ذكر الله» وقال مرَّة: «لا يَنْجُو من الخُيلاءِ والفَخْرِ به».

وقد روينا في الآخر عن إبليس اللعين: لا ينجو مني صاحبُ المال من إحْدَى ثلاث إذا حَبَّبْتُهُ إليه: إمّا أن يكسبَهُ من غير حَقِّهِ، أو يَضَعَهُ في غيرِ حقِّه، أو يَمْنَعَه من حقِّه.

ويُقال: لما ضُرب الدّرهمُ، أخَذَهُ إبليسُ فَقَبَّلَهُ ووَضَعَهُ بين عَيْنَيه وقال: هذا حبيبي وصَدِيقي وحبيبُ صَدِيقي، وقال: فبكَ [أغْوِي](١) وبكَ أُضِلُّ، وبكَ أُهْلِك، وبكَ أَقْتل.

وقال اللهُ، ومَنْ أصْدَق مِنَ الله قِيلاً: ﴿**وشَارِكْهُم فِي الأَمْوالِ وَالأَوْلادِ وعِدْهُم**﴾ الآية [الإسراء:٦٤] فإنّما فَضَّل (. . .)(٢) [تارك هذه الأشياء]. [وقال الفَضل] والحسنُ رحمهُ الله، ومَن وافقهما: رَافِضَ الدُّنيا؛ لأن مقامَ الزُّهد يجمع التوكُّلَ والرِّضَا. ألا تسمع الخبرَ الذي رُويناهُ، قيل: «الزُّهد أن تكونَ بما في يَدِ الله أوثَقَ منك بما في يَدِكَ» فهذا هو التوكُّل. ثم قال: «وأن تكونَ بثواب الْمُصِيبة أفرح منك لو أنّها بَقِيَت لكَ» فهذا هو الرّضا.

ثم إنَّ المعرفةَ والمحبةَ داخلانِ فيه؛ لأنّه لَمّا أحبَّ اللهَ أحَبَّ ما يُحبُّ وهو الزُّهد، وأبْغَضَ ما يُبغضُ وهو الدُّنيا، ولأنّه لما عَرَفَ اللهَ زَهِد فيما يُبعدُ مِنْهُ.

فأيُّ مقامٍ أعْلى مِن مقامٍ جمعَ هذه الأربعةَ، وهي غايةُ الطالبين؟ وقد رُوينا عن ابن عباسٍ حَدِيثًا فيه شدَّةٌ، قال: «يُؤتَى بالدُّنيا يومَ القِيامَةِ في صورةِ عجوزٍ شمطاءَ زرقاءَ، أنيابُها باديةٌ، مُشَوَّهَةٌ خَلْقُها، فَتُشْرِفُ على الخلائق، فيقال: تعرفون هذه؟ فيقولون: نعوذ بالله من معرفة هذه. فيقال: هذه الدُّنيا التي تفاخَرْتُم عَلَيها، بها تَقاطَعْتُم الأرحامَ، وبها تحاسدتُّم وتباغَضْتُم واعتززتُم. ثُمّ تُقْذَفُ في جَهَنَّم، فَتُنادي: أي ربِّ، أتباعي وأَشْياعي. فيقول الله تعالى: أَلْحِقُوا بها أتباعَهَا وأشياعها».

فمقتضى الدُّنيا في طلب النَّصِيبِ مِثلُ جهَنَّم ﴿**هَلْ مِن مَزِيدٍ**﴾ [ق: ٣٠]، طلبت

(١) تلف بالأصل قدر كلمة، أثبتها اجتهادًا.

(٢) قدر كلمتين أو أكثر.

أهلها؛ لأنّها جُعِلَت لهم وخُلقُوا لها (. . .)[١] الدُّنيا محبتها؛ لأنّهم خُلقُوا لها وجُعِلَت لهم، وكذلك (. . .)[٢] إنّها تابعةٌ للأرباب، وكلٌّ من طَلَب شيئًا وأحبه حُشِر معه غدًا، وتَبِعه إلى مُحِبِّى الحقِّ وطالبه (. . .)[٣] لتقريبه، فباطن الدنيا صورة (. . .) وظاهرها ظاهر هوى النفس ونحن (. . .) من الآخر، وليس يمكن كشفُ سرٍّ هذا.

وقد رُوينا عن رسول الله ﷺ حَديثًا أشدَّ من هذا، حُدِّثنا عن عبد الواحد بن زيدِ عن الحسن عن أنسٍ قال: قال النّبى ﷺ: «ليَجِيئَنَّ أقوامٌ يومَ القيامةِ وأعمالُهم كجبَال تِهامة، فيُؤمَر بهم إلى النّار. قالوا: يا رسول الله، مُصَلِّين؟ قال: نعم، كانوا يُصَلُّون، ويَصُومُون، ويأخُذونَ هُنَيئةً من الليلِ، فإذا عَرَضَ لهم شىء من الدُّنيا وَثَبُوا عليه».

ورُويناه من طريق آخر: «يُؤتَى بأعمالِهم أمثالِ الجبالِ، فيُوضع فى الميزانِ فلا يزنُ جَناحَ بعوضةٍ»، قال فيه: «كانُوا إذا عَرضَ لهم شىءٌ مِنَ الحرامِ وَثَبُوا عليه، ولم يرتدعُوا عنه».

فلذلك كان الحارث بن أسد يقول: إنّما الزُّهْدُ إسقاطُ قيمةِ الدُّنيا من القَلْب، وأن لا يكون لشىءٍ عاجلٍ فى القَلْب وَزْنٌ. فإذا سَقَطتْ قِيمُ الأشياءِ واسْتوَتْ فى القلب فهو الزُّهد.

فحقيقةُ الزُّهدِ تركُ طلب الدنيا حتى لحاجته قبل الفاقَةِ إليه، وتَنَاوُلُه بعد الحاجَةِ مُتَقَلِّلاً منه. وهذه المقالةُ يَدْخُلُ فيها قولُ الخاصّة ولا يختصُّ بها رأىُ العامّة من الزَّاهدينَ، ويسلم لذلك ويَشْهَد له [عمومُ][٤] المُتَّسِعِين، ولا ينكرُه ولا يكرهُهُ خصوص [الزاهدين]، فتدبَّروا.

وكان أبو بكر الصِّدّيق عليه السَّلام يقول: «وأسألك الزُّهْدَ فيما جاوزَ

---

(١) قد كلمتين.

(٢) قدر ثلاث كلمات.

(٣) فى هذا الموضع والموضعين اللذين بعده بياض قدر نصف سطر فى كل موضع.

(٤) تلف قدر كلمة فى هذا الموضع والذى يليه، وقد وضعت ما بين المعكفات اجتهادًا منى.

الكَفافَ»، فدلَّ [أن الأخذ] عند الحاجة ليس من الدُّنيا، إذ لا (. . .) الخَلْق، فإنّما سأل الزُّهد فى فُضول الكفاف (. . .) قال الرسولُ ﷺ: «اللهم إنى [أسألك الكفاف] قوتَ يومٍ بيَوْمٍ»، ففسَّر الكفاف [هو أخذ الكفاية] من الدنيا، لأنه طريق إلى الآخرةِ (. . .)[١]

وذكر معاويةُ الخُلفاءَ قبله فى مجلسه؛ فقال: أمّا أبو بكر [رضى الله عنه] فلم يُرِدِ الدّنيا ولم تُرِدْهُ. وأمّا عمر رضى الله عنه فأرادته الدُّنيا ولم يُرِدْها. وأمّا عُثمان رضى الله عنه فأرادته ونال منها. وأمّا نحنُ فافترشْناها وتمرَّغنا فيها.

ويشهد لكفاية الحاجاتِ أنه ليس من الدُّنيا الخبرُ السائرُ: «ثلاثٌ ليس من الدُّنيا». وفى لفظ آخر: «لا حقَّ لابن آدمَ فى غير هذه الثلاث». وفى رواية أخرى: «ثلاثٌ لا حساب على المرء فيهنَّ، ولا يُحاسَبُ العبدُ عَليهنَّ: طعامٌ يُقيمُ به صُلْبَه ما سدَّ جَوْعَتَه، وثوبٌ يُوارى عورتَهُ، وبيتٌ يُكِنُّهُ من الحرِّ والبردِّ، وما سوى ذلك ففيه الحسابُ».

وجاء بلفظ بالغٍ موجزٍ: «لا حقَّ لابن آدمَ فى الدُّنيا بعد ثلاثٍ: جِلْفُ الخبزِ[٢]، والماءُ، وعشٌّ كعُشِّ الطير، وما سوى ذلك ففيه حساب».

وكان الدَّارانى يقول: خُلِقَ ابنُ آدمَ والخبزُ معه، وما زادَ على الخُبزِ فهو شهوةٌ.

ورُؤى ابنُ داود وهو يأكل خُبزًا مُكَرَّجًا قد بلَّه بالماء بغير مِلح. فقيل له: لو أضفت إليه الملح كان أطيبَ. فقال: تركتُ الملْحَ منذ تركتُ الدنيا.

وقال بعضهم: دَخَلْنا على فرقد السَّبخى [وهو يأكل من] خبز شعير، وقال: كلوا ما رزَقَ اللهُ. قال: فقلنا: (. . .)[٣] قد جعلنا فى العجين مِلحًا، فكان يُحاسبُ (. . .)[٤].

---

(١) عدّة مواضع تالفة متفاوتة الطول والقصر، الأول والثانى قدر كلمتين، والثالث نصف سطر، ثم سطر أو أكثر.

(٢) الجلف: الخبز وحده لا أُدْمَ معه. وهو أيضًا الوعاء يوضع فيه الخبز.

(٣) قدر ثلاث كلمات أو أكثر.

(٤) قدر نصف سطر أو أكثر.

كذلك كان داود الطائى: يأكل الخبز [اليابس][١] ويشرب الماءَ الحارَّ. فقيل له: لو شربتَ ماءً باردًا و (. . .)[٢] فقال: كلُّ هذا لمن فى السِّجْنِ كثيرٌ، إنَّ مَن (. . .) ـنه أن يموتَ، وإذا لم يحبّ الموتَ لم يحبَّ (. . .). هذه طريقةُ قُرّاءِ المتعبِّدينَ وزُهَّادِ المتقشِّفينَ.

وكان الثَّورى يقول: الزُّهْدُ فى الرياسة أشدُّ من الزُّهد فى الدُّنيا. وقال بعضُ العلماء: ما وجدنا الزُّهْدَ فى شىءٍ أقلَّ منه فى الرِّياسة، رأينا مَن زَهد فى الدُّنيا كثير، وقلَّ مَن رأيناه زَهِدَ فى الرِّياسةِ. ولربّما زَهِد العبدُ فى الدُّنيا رغبةً منه فى الرِّياسةِ بالزُّهدِ والمدحِ بذلك.

وهذا منْ ألطف آفات النفوسِ، وأعظم بلواها، أنشدنى بَعْضُهم:

أرَى مَنْ بهـا قاتلٌ نَفْسَهُ على أنْ يُقال له إنَّهُ

نعوذُ بالله من قُوّةِ شاهد النَّفْسِ وغَلَبَة سُلطان الهوى، إذا استولى على القَلْبِ دَهْوَرَ صاحبَهُ فى مهواةٍ، إذ ضَيَّعَهُ الدّليلُ فاستَهْوتْهُ الشياطينُ حيرانَ، فَتاه عن قصد السبيلِ. فإذا كان طائفةٌ قد يَزهدونَ فى الدُّنيا للرِّياسة، فإذا زَهد هذا فى الرِّياسةِ فآثر الخُمولَ والاستِذْمَامَ على الاشْتِهارِ والتمدّح بَعُدَ عن الأنامِ. فهو زُهد الزُّهد، كما قُلنا آنفًا؛ لأنَّ الرغبات كلها يجمَعُها الهَوَى، ثُمَّ تتشعَّبُ الشَّهَواتُ عنه، فمن زهَّدَهُ (. . .)[٣] عين الهوى وأصل كلِّ مهوىٍّ، فهذا حقيقةُ الزُّهد الذى هو الزُّهد فى النَّفس؛ لأنّه بالشَّهوة الخفيَّة (. . .)[٤] المختفى قد تزهد فى المرغوب لنفسه (. . .)[٥].

قيل لبعض العارفين: هل يأسف الولىُّ على [أحدٍ] غير اللهِ فيأسَف عليه.

وقد كان طَيْفور البَسْطامى يقول: ليس الزَّاهدُ من لا يملك شيئًا، إنّما الزَّاهد

(١) موضعه تالف بالأصل.

(٢) هذا الموضع والموضعان بعده قدر نصف سطر.

(٣) قدر كلمة أو أكثر.

(٤) قدر نصف سطر.

(٥) قدر سبعة أسطر.

من لا يملكه شيءٌ. وهذا كذلك؛ لأنّ الزُّهْد كما يصحّ مع وجود الغِنى، إذا لم يتملَّك ولم يتحكَّم ولم يُمسك لعاجلِ حظّ النَّفْسِ ولا للمتعة بالمالِ. كذلك لا يُوجَدُ الزُّهدُ مع فَقْد المالِ، ووَجْد الفقيرِ إذا كانَ الفقيرُ حاسدًا على شيءٍ من الدُّنيا، أو غابطًا لأبنائها، أو مُتَمَنِّيًا لها، أو متبرِّمًا بفَقْده، أو متضرِّرًا بضُرِّه، فلا زُهْدَ مع هذه الحالِ. وقد يصحّ الزُّهدُ أيضًا مع الفَقيرِ وإن لم يَمْلك شيئًا من الدُّنيا، ولا أخرَجَ شيئًا من يده (. . .)[1] بذله وزهده؛ بشرط أن يطَّلِعَ اللهُ تعالى على الرِّضا من قلبه وحاله وسُكُونِ نفسه فى عَدَمِه. ويعلم اللهُ تعالى من غَيْبه . . . هُ بالدُّنيا لَرَفَضها إيثارًا منه للرَّغْبةِ فى الآخرةِ (. . .) الأحكام من الفَقْرِ والغِنى والزُّهْدِ والرّغبةِ تختلف لاختلافِ (. . .) أو تتقلبُ لانقلابِ معانيهم، وتعدل بحقائقها عن (. . .) تكشف سَرائرُهم عن حقائقه. ولذلك كان الرسول ﷺ يقف على فقراءِ أهلِ الصُّفَّةِ الذين لم يكونُوا يَمْلكُون شَيئًا من مالٍ، ولم يُعلَم زُهْدُهم فى الحالِ، ولم يوجد . . . ـدلال، وكان ﷺ يكلُهم إلى . . . ـذان يُعْلِمُهُم ما يَجِبُ لله عَلَيهم كما قال: «كُلٌّ (. . .)[2] نفسه. فيقول: يا معشرَ الفقراءِ أعطُوا اللهَ الرِّضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقْرِكُم، وإلا فلا». فهذا كما قال ﷺ لبعض المهاجرين الذين لم يظهر له هِجرتُهُم: «إنما الأعمالُ بالنِّياتِ، فمن كانت هِجْرتُه لدنيا يصيبُها فهِجْرتُه إلى ما هاجر إليه».

فأخبرهم بما عليهم، إذ ليس عليه حسابُهم، ووَكَلَهم إلى مَنْ إليه إيابُهم، وعليه حِسابُهم. كيف وقد قال فى الفَقِيرِ الذى مات وتركَ دينارَيْن، فقال: «اكساب من نار». فقد كان ظاهرُ هذا الفقرَ، وباطنُهُ استبطانَ الوَفْرِ فما يمنعه فَقْرُهُ ولا زُهْدُهُ فى المآلِ ظاهره.

وقد قال لعمرو بن العاص: «وأزغبُ لك زَغْبةً من المال. فقال: وما أصنعُ بالمال؟ فقال: نعمًّا بالمالِ الصّالح للمرء الصّالح». فما ضَرَّ عمرًا مالُه إذا استقامَ بِه قَلْبُهُ، وصَلَحَ عليه حالُه. [يقال:] جاء السّيلُ يَزْغَبُ زَغْبةً، أى يَدْفَعُ دَفْعًا.

(١) قدر كلمة، وكذلك الموضع الذى يليه.

(٢) المواضع التى مضت قدر ثلاث كلمات أو أكثر.

وأما أبو يزيد البسطامىُّ فكان يقول: حَقيقةُ الزُّهْد لا يكون إلا عند ظُهور القُدْرة. والعاجزُ لا يَصِحُّ زُهْدُه؛ وهُو أن يُعطيَه كُنْ، ويُطْلِعَهُ عَلى الاسم، ويُقْدِرَهُ على الأشياءِ بإظْهارِ الكَوْنِ، فيَزهَدُ فى ذلك حياءً من اللهِ تعالى، ويتركه حبًّا له.

وقال يحيى بن معاذ: نستعيذ بالله من أربعةٍ وعشرين مقامًا من إظهار القدرة والكرامات التى يُسَمِّيها الجهلة معجزات (. . .)[1].

وذهب إلى هذا المعنى أبو محمّد سهل، وأبو الفيض المصرى، وغيرهما من العارفين والمحبِّين، فقال قائلهم: سبعة عشر مقامًا فى المعرفة أدناهُ المشى على الماء وفى الهواءِ، وطىُّ الأرضِ، ونحوه، كلُّ هذا من زخرفِ الدُّنيا.

وقال الآخرُ: وُجودُ هذه الآيات فى طريقٍ بعَينه للمُنْقَعِرين[2] فى الأمصار ممَّن لا يأخذُ معلومَهُ بأيدى الخَلْقِ ولا الأسبابِ . . .[3] ـيَّة. وبعضهم يقول: هو مقامٌ معلومٌ؛ السابع عشر فى مقاماتِ المعرِفة، مَنْ أُقِيمَ فيه أو سُلِكَ به طريقَهُ رآها فى ذلك الطريقِ، وهى ثلاثة وسبعون مقامًا أدنى مقامٍ منها فوقَ جميع (. . .)[4]. وكان بعضهم يقول: هذه الآياتُ بالأبصار مَلكُوتيَّةٌ تثبت [عينَ] اليقين ليثبتُوا على الطَّريقِ. وذرَّةٌ مِن عَينِ اليقينِ [مَلكُوتيَّةٌ] غَيبيَّةٌ فى قُلُوبِ العلماء أفْضَلُ مِنها، وتلك إنّما. . . ـن هذا.

وكان الدارانىُّ يقول: يُرَى [المريدُ أشياء] فى السَّيرِ ليُثَبِّتَ مقامَهُ إذا لم يلتفت انقطعَتْ عنه. وقال غيرهُ: أشياءَ طوينا ذِكْرها لقلَّة المرادينَ بها.

وكان ذو النون وابن معاذ يقولان: الزَّاهد قوتُه ما وَجَد، وثوبُه ما سَتَر، وبيتُهُ ما آواه، وحالُه وقتُه.

وقال بعض العارفين: الزُّهْدُ إنّما هو تَركُ التّدبيرِ والاختيارِ والرضا والتَّسليم لاختيارِهِ شدّةً كان أو رَخاءً. وهذا طريق: إبراهيم الخوَّاص، والثَّورى، وذى

(١) قدر ثمانية أسطر.

(٢) المنقعرين: المنقطعين.

(٣) جزء من كلمة.

(٤) هذا الموضع والذى يليه قدر كلمة أو كلمتين.

النون، رحمهم الله تعالى.

وقد حُكى لنا معنى هذا عن الجنيد قال: اجتمع أربعةٌ من الأبدالِ فى جامع المنصور ليلةَ العيدِ، فلما أَسْحَرُوا قال أحدهم: أما أنا فقد نويتُ أن أصلّى العيدَ فى بيت المقدس. وقال الآخرُ: أما أنا فقد نويتُ أن أصلّى العيدَ بطَرَسُوس. وقال الثالث: أما أنا فقد نويتُ أن أصلى العيدَ بمكّة. وسكت الرابعُ وكان أعرفهم، فقيلَ له: أنت أىَّ شىءٍ نويتَ؟ فقال: أما أنا فقد نويتُ اليوم تركَ الشّهواتِ، لا أصلى إلا فى هذا المسجد الذى اعتكفتُ فيه، فقالوا: أنت أعلمنا، فقعدوا معه، وكنّا نَظُنُّ أنّه هو، يَعْنى نفسه، فصار عند هؤلاء كما ذكرناه آنفًا.

إنّ هذه الآياتِ هى من مُدْركى الشّهواتِ، إذ ليست حاجات. والشهوة من الدنيا لا محالة عند الجماعة؛ لأنها من الهوى وليس فيها قُربة إلى الله ولا مزيَّة سنَّة، فيكون من الزاهدين فى الدّنيا. وأيضًا ففيها تدبير واختيارٌ. وعند الزهاد العارفين والمحبين: أن هذا مكرٌ وخِداعٌ يُبتلون به ويُقتطعون لينظر كيف يعملون، إذ ابتلاءُ كلِّ عبدٍ على قَدْرِ مَرتبته وحاله، فيلزمه الزّهدُ فيه. ويقال: هى فى المقامِ السابعِ عشر من المعرفة. فمن سَلك به الطَّريق رآها فِيه، وفوقها نيف وسبعون مقامًا أفضل من ذلك.

وقد سُئل الجُنيد عن الزُّهد فقال: معنيان: ظاهرٌ، وباطنٌ. فالظاهرُ: بُغْضُ ما فى الأيدى من الأملاك، وتركُ طلبِ المفقود. والباطنُ: زوالُ الرّغبةِ عَن القَلْب، ووجودُ العُزوفِ والانصرافِ عن ذكرِ ذلك. فإذا تحقَّق بذلكَ رزَقه اللهُ تعالى الإشرافَ على الآخرة، والنظرَ إليها بقَلْبه. فحينئذ يَجدُّ فى العملِ بتقصير الأملِ وتقريبِ الأجلِ؛ لأنَّ الأسبابَ عن قلبه مُنْقَطعَةٌ، والقلبُ منفردٌ بالآخرة. وحقيقةُ الزهد قد خَلُصَت إلى قلبه، فامتلأ من الذِّكْرِ الخالصِ لربّه سُبحانه وتعالى. فالزهدُ عن حقيقة الإيمان، وأنَّ المشاهَدَةَ للآخرة تكون بعد الزُّهد، ثم تستوى الأشياءُ عنده، ويَستوى عَدَمُها ووُجودها، وعندهُ يكون استواء المدح والذّم؛ لاستواءِ قَلْبه فى المُشاهَدَة.

كما رُوينا فى حديث الحسن أنَّ رسولَ الله ﷺ قال لرجل: «هل استويتَ؟

قال: وكيف أستوى؟ قال: يستوى عندك الذَّمُّ والمدحُ». وذلك يكونُ لسُقُوط قَدْرِ النَّفْسِ، وذَهَابِ رؤيةِ الخَلْقِ، فعندها يَسْقُطُ الاستواءُ والرَّغبةُ، فيَثبتُ الإخلاصُ والزَّهادة[١].

وكما فسَّر حذيفةُ حقيقةَ الإيمانِ فابتدأ بالزُّهد، فقال: «عَزَفَتْ نفسى عن الدُّنيا» ثم ذكر الاستواءَ فقال: «فاستوى عندى حَجَرُها ومَدَرُها». وكذلك عينُ اليقينِ ترى تَسْوِيةَ الجواهر بالأحْجارِ فى العَقْلِ بتفاوتٍ بينها لإيقاع الأحكامِ وبَلْوى. . .[٢] الأجْسَام بها والأَجْرام. ثم ذكر المشاهَدةَ فقال: «وكأنّى بعَرْشِ ربّى بارزًا»، وبالجنّة والنّار.

فجميع ما ذكرناه هو مقامات فى الزُّهد لجميع الزَّاهدينَ، وكأَنَّ كُلَّ مَن جَعَلَ شيئًا من الدُّنيا مبلغ عِلمهِ وعُلوَّ شهادتِه صيَّر الزُّهدَ ضِدَّه.

وقد نوّعَ أهلُ المعرفةِ الإيمانَ فى القلبِ على مَقامين، فجعل لهما زُهْدين فقال: إذا تعلَّق الإيمانُ بظاهرِ القلبِ أحبَّ العَبدُ الدّنيا، وأحبَّ الآخرةَ، وعمل لهما، فإذا بطَنَ الإيمانُ فى سويداءِ القلْبِ وباشَرهُ أبغْضَ الدّنيا؛ فلم ينظر إليها ولم يعمل لها.

وقد كان أبو سليمان يقول: مَنْ شُغِلَ بنفسهِ شُغِلَ عن الناسِ، وهذا مقامُ العامِلين. ومن شُغِلَ بربِّهِ سبحانه وتعالى شُغِلَ عن نفسه، وهذا مقام العارفين.

ولهذين المقامين دليلٌ من السنّة أن النبى ﷺ سُئِل: أىّ الناس خير؟ فقال: «مَنْ يَشْنأُ الدنيا ويحبُّ الآخرة». فأوْقَعَ الشنآنَ للدّنيا لوقوع ضدِّه من حبِّ الآخرةِ. فقيل: فإن لم يكن؟ قال: «مؤمنٌ فى خُلُقٍ حَسَنٍ»[٣].

والشاهِدُ الآخرُ: سأل رسولُ الله ﷺ: «مَن خَيْرُ الناسِ؟ قالوا: مُؤمنٌ موسر

(١) فى (ط): «يستوى المدح والذّم لسقوط النفس وذهاب رؤية الخلق. فعندها خلص الإخلاص إلى قلبه لصفاء الزّهد، وثبت الزّهد لسقوط النفس».

(٢) قدر كلمتين.

(٣) لفظ الخبر فى (خ): «من ينسى الدنيا» ثم طمس فى معظم الصفحة، وذكر فيها أكثر من خمسة أحاديث تتعلق بالزهد والفقر، سأثبت منها ما استطعت تبيّنه واستظهاره.

من المال يعطى حقَّ الله فى نفسِهِ وماله. فقال: نِعْمَ الرجل، وليس به. خيرُ النّاسِ فقير يُعطى جُهْدَه».

فهذا كما قال فى الخبر الثالثِ: «لا بأس بالمال [الصالح] لمن اتقى». وكما قال: «خيرُ هذه الأمةِ فُقراؤها».

وقال فى الخبر الآخر الذى قدمناه: «نعمًّا المالُ الصالحُ للرّجل الصّالح». والمال الصالح هو الحلال. والعبد الصالح هو المنفق ماله بالليل والنهار سرًا وعلانيةً ابتغاء مرضاته، كما وصفه الله ومدحه.

وقال ﷺ: «إنّ الله يعطى الدّنيا من يُحِبُّ ومن لا يُحِبّ، ولا يعطى الإيمان إلا مَن يحبّ». فمن يَجُدْ بالمال فهو ممن يحبه الله، فالذى يُحبّه الله تعالى ممّن أعطاهُ الدنيا لا يُخالف حبيبَه إلى هَوَاهُ، ولا يُؤثر نفسَه على محبَّةِ مولاهُ، إذ قد تولاَّه فيما أعطاهُ.

وفى الخبر الخامس تعديل ومطمع، قال: «الطَّاعِمُ الشَّاكرُ بمنزلة الصائم الصّابر». والطّاعم الشاكر هو الذى يستعين بِطُعْمته على خِدْمَةِ مولاهُ، ويعبُدُه شكرًا لما أوْلاهُ.

وقال تعالى: ﴿مَنْ كَان يُرِيدُ حَرْثَ الآخرة نَزِدْ لَهُ فى حَرْثِه ومَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنيا نُؤْتِه منْها﴾ [الشورى: ٢٠]. حرث الدُّنيا هو المال، وحرثُ الآخرةِ العملُ الصالح. وقد جاء فى الخبر: «مَنْ جعل اللهَ همَّهُ جمع اللهُ قَلْبَهُ عليه، وجعل غِناهُ فى قَلْبه، ومَن جعل الدّنيا همَّه شتَّتَ قَلْبه وجعل فقرَهُ فى نفسه».

وقال الرسول ﷺ: «لا مانِعَ لما أَعْطَيْتَ، ولا مُعطى لما مَنَعْتَ». فلا مانع لما يُعطى من زُهد وتَقْوى، ولا مُعطى لما مَنَع من ذَلك. كذلك قال الجليلُ: ﴿وإن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضرٍّ فلا كاشِفَ له إلاَّ هُو وإن يُرِدْكَ بخَيْرٍ فَلا رَادَّ لفَضْله﴾ [يونس: ١٠٧].

وكلُّ من عَلا مقامُهُ انفرَدَ وعَلا فى جَميعها هَمُّه، فوَحَّد، كقوله: «مَن جعل الهَمَّ هَمًا واحدًا كفاهُ الله شَرَّ دُنْياهُ وآخِرَتهُ». والهَمُّ الواحدُ بوَجْدٍ واحدٍ هو وصْفُ

عَبْد مُتَوَحِّد لواحد، مُتَأَلِّه إلى أَحَد، كما أَلهَ المولِّهُ للقُلُوب، وكاشَفَ به من ذخائر الغُيوب، وقد وهَّب له خُلُقًا من أخلاقه، فهو الأَحدُ بوَحْدَانيَّة هى صِفَتُه. وعبدٌ متوحِّدٌ بوَحْدَةٍ هى خُلقُهُ، منفردُ الهمِّ، مجتمعُ القَلْب بجامعٍ مُعْطٍ له غيرِ مانعٍ، ليس بضارٍّ له، إذ هو نافعٌ. وانفرادُ الهمِّ يكونُ بَعْدَ مَحْوِ الهَوى، ومحْوُهُ بعد امتحانِ القلب للتقوى، كما قال الحكيم العليمُ: **﴿أُولئكَ الَّذينَ امْتحَنَ اللهُ قُلُوبَهُم للتَّقوَى﴾** [الحجرات:٣] قال: (. . .)ـا، ولعَمْرى لمَّا أثبتَ المخاوفَ فيها حُمِدَت. وكما قال تعالى: **﴿يَمْحُو اللهُ ما يَشَاءُ ويُثْبِتُ﴾** [الرَّعد:٣٩]. فتدبَّر.

وأما محادثاتُ (. . .) طبيعة أخلاقها المذْمُومَة، صفات الإيمان (. . .) أخلاق الرُّبوبيَّة الحَسَنة الحَميدة، فصار (. . .) إن كان نَفْسيًا، وجُعِلَ ربَّانيًا بعد كَوْنه (. . .)[1]. واجتماعُ القَلْبِ يكونُ مع طِيبِ النَّفْسِ وطُمأْنينتها بالإيمان بمُؤْمنٍ، وتَخَلُّقها بأخلاقِ الرُّوحانيينَ، أو فلاحُها بالتَّزكيةِ والرِّضا. كما قال الرسول ﷺ: «طِيبُ النَّفْسِ من النَّعيم». وقال الله تعالى: **﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها﴾** [الشمس:٩]. وقال فى نعتها: **﴿يا أَيَّتُها النَّفْسُ المطْمئنَّةُ * ارْجعى إلى ربِّكِ رَاضيةً مَرْضيَّةً﴾** [الفجر:٢٧ ـ ٢٨]. عندها يكُونُ مُواطِئةً للرُّوح تُخَلِّقُهُ بأخلاقِ الإيمانِ مُطْواةً للقَلْب تُخلِّقُهُ بأخلاقِ الرَّبِّ، مُعاينَةً لليقين تهديه للطَّريق المستقيم والصِّراطِ المستبين، مُشاهِدةً للحَقِّ المبين.

وقال وهب بن مُنَبِّه: وَجدتُ فيما أنزلَ اللهُ على مُوسَى: «مَن أحبَّ الدُّنيا أبْغَضهُ اللهُ، ومَن بَغَضَها أحَبَّهُ اللهُ. ومَنْ أكْرَم الدُّنيا أهانه اللهُ، ومن أهانها أكْرمَهُ اللهُ».

وأمّا علماءُ الظّاهر[2] فقالوا: الزُّهد فى الدُّنيا هو مُوافَقةُ العِلْم، والقيامُ بأحكامِ الشَّرعِ، وأخذُ الشيءِ من وَجْهه، ووضعُه فى حقِّه. وما خالفَ العلمَ فهو جهلٌ كلُّه وهوًى.

---

(١) المواضع السابقة قدر كلمتين أو أكثر.

(٢) نقله صاحب الإتحاف: ٩/٣٤٥.

فذكروا فَرْضَ الزُّهْد وظاهِرَهُ، ولم يَعْرِفُوا غَرائِبَهُ وباطِنَهُ، ذلك مَبْلَغُهم من العِلْم، ونَصِيبُهم من الفَهْم. وهو مَقَامُهم من المقال، وطريقُهم المشوبُ بالاعْتلال، وقد يعتورهُ الوَهْمُ والظنُّ؛ لأنّهم يَصِفُونَ الشيءَ عن خبرٍ وسَمْعٍ، لا عَن خبرٍ ويقينٍ، كما أنشدنا بعضُهم:

تَصِفُ الطُّلولَ عن السَّماعِ لها ... ليس العِيانُ كأنتَ في العِلْمِ

وإذا وَصَفْتَ الأمرَ عن خَبَرٍ ... لم تَخْلُ مِن غَلَطٍ، ومن وَهْمِ[1]

وقد رُوينا[2] عن الثّوريّ وابنِ عيينة أنهما سُئلا: أيكونُ الرَّجلُ زاهدًا وله مالٌ؟ قالا: نَعَم، إذا كان إذا ابْتُلِيَ فصبر، وإذا أُنعم عليه شكر. قال ابن أبي الحواري: فقلتُ له: يا أبا محمّد؛ يعني ابن عيينة: قد أُنعم عليه فَشكَر، وابْتُلِيَ فصبر، وحَبَسَ النِّعْمةَ، كيف يكونُ زاهدًا؟ فضربني بيدِه وقال: اسكُت، مَن لم تَمْنَعْهُ النعماءُ مِنَ الشُّكر، ولا البَلْوى عن الصَّبر، فذلك الزَّاهدُ.

ووافقهما الزّهري كذلك. وقد فَصَّل أبو سليمان ذلك فقال ابنُ أبي الحَواري: قُلتُ له: أكانَ داوُد الطائي رحمه الله تعالى زاهدًا؟ قال: نعم. قلتُ: بَلَغَني أنه ورثَ من أبيه عِشْرينَ دينارًا، فأنفقها في عشرينَ سَنَةً، فكيف يكونُ زَاهدًا وهو يمسكُ الدَّنانِير؟ فقال: أردتَ منه أن يبلغ حقيقة الزُّهد.

وقد قالوا في الزُّهد وَصْفَيْنِ جامعيْن لأحوالِ القُلُوب. قال مُضَاء بن عيسى[3]: قلتُ لسباع المَوْصلي: يا أبا محمّد، إلى أيِّ شيء أفْضَى بهم الزُّهدُ؟ قال: إلى الأُنْسِ باللهِ. فهذا لزوالِ وَحْشَةِ الدُّنيا، وخروجِ ظُلْمةِ النّفس بالهوى، وقَعَ الأنسُ

---

(١) البيتان لأبي نواس، انظر ديوانه، تحقيق إيفالد فاغنر، ٣/ ٢٦٩، ونشره أحمد عبد المجيد، ص٥٨، والرواية فيه: البيت الأول:

* ... أفذو العيانِ ... *

البيت الثاني:

* وإذا وضعت الشيء مُتَّبِعًا *

(٢) في الإتحاف: ٩/ ٣٧٤.

(٣) في الإتحاف ٩/ ٣٧٣: «مضر بن عيسى».

بالنُّورِ، ولا يَجِدُ الأُنْسَ بالحبيبِ والوَجْدَ بالقَرِيب غيرُ زاهِدٍ.

وقال عثمان بن عمارة: كان يُقال: الوَرَعُ يَبْلُغ بالعَبْدِ إلى الزُّهْدِ، والزُّهدُ يبلغ به حُبَّ الله تعالى. فعَبْدٌ شاهِدٌ أنَّ من لم يَدَعْ فليس بزاهِدٍ، ومن لم يَدْخُل فى الزُّهد لم يكنْ لحبِّ اللهِ بواجِدٍ، لأنَّ حُبَّ اللهِ العلىِّ الأعلى مِن شأنه أن يُخْرِجَ حُبَّ الدَّنىِّ الأَدْنَى.

فهذان الحالان غايةُ الطَّالبينَ: الحبُّ للجليلِ، والأُنْسُ باللطيف. فمن لم يتحقق بالزُّهد لم يَبْلُغ مقامَ الحُبِّ، ولم يُدْرِك حالَ الأُنْسِ وسرائرَ الغيب المَلَكُوتيَّة فى مقامِ الحُبِّ والخلّة اليقينيّةِ، وغياباتِ السِّرِّ العزِّيَّة الجبروتيّةِ فى حالِ الأُنْسِ والقُرْبَةِ ومَحْوِ الحِشْمَةِ العَقْليّة. ووراء هذا (. . .)[1] يعيدُه ويُبديه.

وكان ابن معاذٍ يقول: (. . .) مخلوقًا إذَا فتح له باب الأُنس والإدْلالِ (. . .) فى ذلك الوقت مَخْلُوق، وفى تلك (. . .) يهربون، فإذا فتح له باب الخَوْف (. . .) ينتفعون به، ويفهمون عنه، وكشفُ هذا المقام يخرج إلى علمِ غَريبٍ لا يُعْرَفُ، وسرٍّ عَجيب لا يُكْشَف، لطيفٍ ليس عَلَيه يُوقَفُ، ولكل مقامٍ مقالٌ (. . .) فى مقامِ الزُّهد فى الدُّنيا (. . .) على أمرِه، ولله الآخرةُ والأُولى (. . .) وسرائر القُلوبِ أَوْلَى، للطيفِ ما فيها مِمّا أعار وأَبْدى إذْ لَدَيْه تَوَلَّى.

وفقنا الله وإياكم لما يُحبُّ، وبلّغنا ما نؤمِّلُ بفَضْله ورحمته. ولا حول ولا قُوَّة إلاَّ باللهِ العلى العظيم. وهذا آخر كتاب الزُّهد[2].

* * *

(١) هذا الموضع والمواضع التى تليه قدر أربع كلمات أو تزيد، فى كل موضع.

(٢) إلى هنا ينتهى هذا الجزء من النسخة المباركة (خ) بزياداتها الطويلة المهمة، على ما فيها من طَمسٍ. وفى آخرها ما نصه: «يتلوه إن شاء الله شرح مقام التوكل، ووصف أحوال المتوكِّلين. والحمد لله رب العالمين، وصلواتُ الله على نَبيّه محمّد المصطفى، وعلى آله وأصحابه وأصهاره وأنصاره أجمعين».
ولكنى لم أجد بقيتها.

شرح مقام التوكل، ووصف أحوال المتوكلين [(١)]
وهو المقام السابع من مقامات اليقين

التوكُّلُ من أَعْلى مقاماتِ اليقين، وأشرفِ أحوالِ المقرَّبين. قال الله الحقّ المبين: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، فجعل المتوكِّل حبيبه، وألقى عليه محبّته. وقال الله عزّ وجلّ: ﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢]، فرفع المتوكلين إليه، وجعل مزيدهم منه. وقال جلت قدرته: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].

ورُوينا أنّ النبى ﷺ لما قرأ هذه الآية قال: «يا أبا ذر، لو أنّ الناس أخذوا بهذه الآية لكفتهم».

فمن كان الله حسبه، كان كافيه ممّا سواه، ومَنْ كان الله كافيه فهو شافيه ومعافيه، ولا يسأل عمّا هو فيه.

وقد أمرَ اللهُ بالتوكُّلِ، وقَرَنَهُ بالإيمانِ، يدلُّ بذلك أنّهما شيئان، إذ التوكّلُ على الوكيلِ من الإيمانِ بالمؤمنِ؛ لأنّه عن حقيقةِ الإيمانِ وهو اليقينُ، وبمشاهدة الوكيلِ، وهو الحسْبُ الحسيب ونِعْم الوكيلُ.

فأمرَ بالتوكُّلِ قَولاً وفعلاً بعد الإخبارِ عن مَحبةِ المتوكّل عليه. قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩] مع اشتراطِ التوكُّل للإيمانِ بعد الأمرِ به فى قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، وقوله: ﴿إِنْ كُنتُم آمَنْتُم بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُم مُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤] فلم يُخْرِج عُمومَ المُسلمين من شَرْطِ عُمُومِ التوكُّلِ، كما لم يُخرج خُصوصَ المؤمنينَ من شَرْطِ وُجودِ الإسلام، وكما كلُّ مؤمنٍ حقًا مُسلمٌ لا بُدَّ عَاملاً، كذلك كلُّ مسلمٍ صِدْقًا

(١) من هنا يبدأ الجزء الثانى للمطبوعة الأولى للقوت. وأيضًا تبدأ نسخة (م) وبها أيضًا زيادات كثيرة جدًا، وقد اعتمدت نصها وترتيبها وزياداتها.

يكونُ على اللهِ متوكلاً.

فقد صار المتوكِّلُ على الله تعالى من عبادِ الرّحمنِ الذين أضَافهم إلى وصْفِ الرّحمةِ؛ ومن عبادِ التّخصيص الذين ضَمِن لهمُ الكفايةَ، وهمُ الذين وصفَهم فى الكتابِ بالسّكينةِ والهَوْن، ونَعتَهم بالسّلامة والخَوْفِ، وذَكَرهم بالسُّجودِ والقيامِ، ومَدَحَهُم بالاقتصادِ والقِوامِ، فى قوله سبحانه: ﴿**وعبادُ الرَّحمنِ الَّذين يَمْشُونَ علَى الأرْضِ هَوْنًا**﴾ [الفرقان: ٦٣]، إلى آخر أوصافهم. فتدبروا فى هذه الآية المهمة لهم، وهمُ الذين كفاهم فى هذه الدّار المهماتِ، ووقاهم بتَفويضهم أمورهم إليه السيئاتِ بقوله: ﴿**أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَه**﴾ [الزمر: ٣٦]، وقوله تعالى: ﴿**وأُفوِّضُ أمْرى إلَى اللهِ إنَّ اللهَ بَصِيرٌ بالعِبادِ * فَوَقَاهُ اللهُ سيِّئاتِ ما مَكَرُوا**﴾ [غافر: ٤٤ ـ ٤٥].

وليس هؤلاء من عبيد العَدَد قطّ، الذين قال الله تعالى: ﴿**إنْ كلُّ مَنْ فى السَّمواتِ والأرضِ إلاَّ آتى الرَّحْمنِ عَبْدًا * لَقَدْ أحْصَاهُم وَعدَّهُم عَدًّا**﴾ [مريم: ٩٣ ـ ٩٤].

وقال بعض الصحابةِ وغيره من التابعين أيضًا: التوكُّلُ نظامُ التوحيدِ وجماعُ الأمورِ.

وقد مدحَ اللهُ تعالى المتوكلَ فى كتابهِ، وذكَرَه مع وَصف الصابرين فى مائة مَوضع، وهو طريقٌ إلى التوكُّلِ، وحَالٌ منه، ولا يُقام مَقامٌ فَوْقَهُ.

حدّثنى بعضُ الأشياخِ عن الجُنيد أنَّه قال: غايةُ الصّبرِ وتصحيحُهُ أن يُورث اللهُ للصّابرِ التوكُّلَ، قال الله تعالى: ﴿**الَّذينَ صَبرُوا وعَلى ربِّهم يَتوكَّلُونَ**﴾ [النحل: ٤٢]. فأىُّ مقامٍ أعلى من مقامٍ يكون فيه تقرُّب الروح الغَرَر حالاً منه ووصْفًا دونه؟

وحدثونا عن بعض السلف قال: رأيْتُ بعضَ العُبّادِ من أهل البصرة فى المنام، فقلت: ما فَعَل الله بك؟ قال: غفر لى، وأدخلنى الجنة. قلت: فأىُّ الأعمال وجدتَ هناك أفضلَ؟ قال: التوكّل وقصر الأمل؛ فعليك بهما.

وقال أبو الدّرداء: ذِرْوةُ الإيمانِ الإخلاصُ، والتوكّل، والاستسلام للربّ عزّ وجلّ.

وكان أبو محمد سَهْل ـ رحمه الله ـ يقول: ليس فى المقامات أعزُّ من التوكّل، وقد ذهبَ الأنبياءُ بحقيقته، وبقى منه صُبابة انْتَشَقها[1] الصدّيقون والشهداء، فمَن تعلّق بشىءٍ منه فهو صِدّيق أو شَهيد.

وقال بعضُ العارفين، وهو أبو سُليمان الدّارانى: فى كلّ المقامات لى قَدَمٌ، إلا هذا التوكّل المبارك، فما لى منه إلا مشامُّ الرِّيح.

وقال لقمانُ فى وصيته لابنه: ومِن الإيمانِ بالله عزّ وجلّ التوكّلُ على الله؛ فإن التوكلَ على الله يُحبِّبُ العبد إلى الله، وإنّ التفويض إلى الله من هُدى الله، وبهُدَى الله يُوافق العبدُ رضوانَ الله، وبمُوافقة رضوانِ الله يَسْتَوجبُ العبدُ كرامةَ الله.

وقال لقمان أيضًا: وَمْن يتوكّلْ على الله، ويُسلِّم لقضاء الله، ويُفوِّض إلى الله، ويَرْضَ بقدر الله ـ فقد أقام الدِّينَ، وفَرَّغ يَدَيْه ورِجلَيْه لكسبِ الخيرِ، وأقام الأخلاقَ الصالحةَ التى تُصْلِح للعبدِ أمرَهُ.

وقال بعضُ علماءِ الأبدالِ، وهو أبو محمد سهل: العِلْمُ كلّه بابٌ من التعبّد، والتعبّدُ كلّه بابٌ من الورع، والورعُ كلّه بابٌ من الزهد، والزهدُ كلّه بابٌ من التوكّل. قال: فليس للتوكّل حدٌّ ولا غاية تَنْتهى إليه. وقال أيضًا فى قول الله عزّ وجلّ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [هود:٧] قال: أَصْدق توكُّلاً.

وقال: التقوى واليقينُ مثل كِفّتى الميزان، والتوكلُ لسانه، به تُعْرَف الزيادة والنقصان.

يعنى أن التوكُّلَ معيارُ التقوى واليقين، فبقدر ما للعبد من حال التوكُّل والتّحقّق به يكون له من مَقامِ التقوى وشهادة اليقين.

وسُئِل رحمه الله عن معنى قوله عز وجل: ﴿اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقاتِه﴾ [آل عمران:١٠٢] فقال: اعبدوه بالتوكل.

وسئل عن قوله: ﴿فاتّقُوا اللهَ ما اسْتَطَعْتُم﴾ [التغابن:١٦] قال: بإظهارِ الفقر والفاقة إليه.

---

(١) الصبابة: البقية القليلة من الماء ونحوه. وانتشقها: انتشق الماء وغيره: جذب منه بالنفَس فى أنفه.

ووافقه محمد بن موسى الواسطى فى هذا، فقال: التوكُّلُ هو صدقُ الفاقة والافتقارِ. فضَّل به بذلك التوكُّل، كما فسَّر به أبو محمد: التّقوى. وكان أيضًا يقول: التوكُّلُ هو التَّفويضُ ثُمّ الرِّضا. فجعل التوكُّلَ بابَ الرضا الأعلى، الذى هو الغاية القُصْوى.

وقال أبو يعقوب السّوسى: لا تطعنوا على أهلِ التوكّل؛ فإنهم خاصّة الله، الذين خُصُّوا بالخصوصية؛ فسكَنُوا إلى الله، واكْتَفَوْا به، واستراحوا من هموم الدنيا والآخرة. وقال: من طعَن فى التوكّل فقد طعنَ فى الإيمان؛ لأنه مقرون به، ومن أحبّ أهلَ التوكّلِ فقد أحبَّ اللهَ تعالى.

فأوّلُ التوكّلِ المعرفةُ بالوكيل، وأنه عزيز حكيم، يعطى لِعزّته ويَمْنع لحِكْمته، فيعتزّ العبدُ بعزِّه، ويرضى بحُكمه، ويستسلم لحكمته. كذلك أخبرَ عن نفسه، ونبّه المتوكِّلين عليه، فقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى الله فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٩].

عزَّ مَنْ أعزَّ بعَطِيّته، ونظر لمن مَنَعَهُ بحكمته. يعزّهُ بعزِّه عن ذُلِّ العبادَة، ويُعلِّمه من حكْمته فيُغنيه عن التَّعَلُّم من خَلْقِه، فإذا شَهِد العبدُ الذّليلُ الملكَ الجليلَ قائمًا بالقِسْطِ والتّدْبير والتَّقدير، قيُّومًا بالتصريفِ والمقاديرِ، عنده خزائنُ كلِّ شىءٍ، وكلُّ شىءٍ عندَهُ بمقدارٍ، لا يُنزِّله إلا بقدرٍ مَعْلُومٍ، غابت الثوانى والرّسوم فى نُورِ شهادةِ الواحد القيُّوم.

ثم شهِد الوكيلَ قابِضًا على نواصى كلّ الموكلين بالأسباب، ورأى عنده خزائنَ السمواتِ والأرض ارتقى فى الأسبابِ إلى العزيزِ الوهَّابِ، كما عرَّض الكافرين بذلك، والمراد أولياؤُه من ذلك، فقال: ﴿أَمْ عِنْدَهُم خَزَائِنُ رَحْمَة رَبِّكَ العَزِيزِ الوَهَّابِ * أَمْ لهم مُلْكُ السَّمواتِ والأرضِ وما بَيْنَهُما فَلْيَرْتَقُوا فى الأَسْبابِ﴾ [ص: ٩ ـ ١٠].

فقد رقى هؤلاء فى الأسباب إلى مَن عنده مفاتحُ الغيب وربِّ الأَرْباب.

فغابت خزائنُ الأرضِ من الأيدى والقُلوبِ والأسباب المشاهدات فى خزائن

السماء من الأقدارِ والأحكامِ فالأبواب. وغابت الخزائنُ السَّماوية فى مَلَكُوتِ القَبْضةِ وعزّةِ القُدرةِ من خزائنِ السموات بالحكمة من الأقسامِ والأرزاق، وخزائنِ الأرضِ ما رسمه من الأعلام والأرفاق، **﴿وفى السَّماءِ رزْقُكُم وما تُوعَدُونَ﴾** [الذاريات: ٢٢]. **﴿وفى الأَرْضِ آياتٌ للْمُوقنينَ﴾** [الذاريات: ٢٠]. **﴿ولله خَزَائنُ السَّموات والأَرْضِ ولكنَّ الْمُنَافقينَ لا يَفْقَهُونَ﴾** [المنافقون: ٧] ذلك لقولهم **﴿لا تُنْفقُوا عَلَى مَن عند رَسُولِ الله حَتَّى يَنْفَضُّوا﴾** [المنافقون: ٧] فَشهِدُوا الخَلْقَ مُنفقين، فمنعوهم من الإعْطاء، فردَّ الحقُّ شهادتَهم، وأضافَ الخزائنَ والعطاءَ إليه، ووصفهم مُعطين النفقةَ عنه، فعلى ذلك إخوانُهم من مُشركى المؤمنين: **﴿وما يُؤْمنُ أَكْثَرُهُم بالله إلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾** [يوسف: ١٠٦] إذ جعلوها أربابًا. **﴿إذا لَهُم مَكْرٌ فى آياتنا﴾** أضافُوا النعم إلى الأسبابِ **﴿قُلِ اللهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾** [يونس: ٢١] أخفى فعْلاً، وألطف عقوبة، ردّ على أول الكلامِ من قوله تعالى: **﴿وإِذَا أَذَقْنا النّاسَ رَحْمةً من بَعد ضَرَّاءَ مَسَّتْهُم﴾** [يونس: ٢١]. وقوله تعالى: **﴿وإذا مَسَّ النّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا ربَّهُم مُنيبينَ إليه ثُمَّ إذَا أَذَاقَهُم منْهُ رَحْمَةً إذا فَريقٌ منْهُمْ بربِّهم يُشْرِكُون﴾** [الروم: ٣٣] بنظرهم إلى الخَلْقِ، وسكونهم إلى الأسباب، فتدبّروا فَهْمَ الخطاب، وتوصيل الذّكرِ من المحتجب بالأرباب.

فقد أَيْقَنَ المتوكلُ أنَّ بيد الوكيلِ ملكوتَ كلِّ شيءٍ، وأنه يملك السّمعَ والأبصارَ، ويقلِّب القُلُوبَ والأيدى والبصائر بتقليبِ الليل والنهار، وأنه حسنُ التدبيرِ والإحكامِ للموقنينَ، وهو أحكم الحاكمين ، وخيرُ الرّازقين: **﴿ومَنْ أَحْسَنُ منَ الله حُكْمًا لقَوْمٍ يُوقنُونَ﴾** [المائدة: ٥٠]. ثم استوى على العرش يدبِّر الأمرَ، ما من شفيعٍ إلا من بعد إذنه، ففتح الفتّاحُ العليم سَمْعَ قَلبه من دُعاءِ قوله: **﴿إنَّ الَّذين تَعْبُدونَ من دُون الله لا يَمْلكُونَ لكُم رزْقًا فابْتَغُوا عندَ الله الرِّزقَ واعْبُدُوه﴾** [العنكبوت: ١٧]، فطلبَ الرِّزقَ من حيث العبادةُ، فكان المعبود هو الرّزاق، فَفَكَّ أسْرَهُ من الوِثاق، فترك دُعاءَ مثله من العِبادِ وذهب إلى ربّه فهداه، وعمّن

سواهُ أغناه، إذ سَمِعَهُ يقول: ﴿إنَّ الذين تَدْعُونَ من دُونِ الله عبادٌ أمْثَالُكُم﴾ [الأعراف:١٩٤]. ﴿إنِّى ذاهبٌ إلى ربِّى سيَهْدِين﴾ [الصافات:٩٩]. ﴿فَلمَّا اعْتَزلَهُم وما يَعْبُدُونَ منْ دُونِ الله وَهَبْنَا لَه﴾ [مريم:٤٩]. عندها نظر العبدُ الذليلُ إلى سيّده العزيز، فقَوِىَ بنظرِه إليه، وعزَّ بقُوّتِه به، وشَرُفَ بِحُضورِه عندهُ، وغَنِى بوجوده له. وكذلك جاء فى الخبر: «كفى باليقين غنًى».

وكان الحسن يقول: الغنى والعِزُّ يجولان فى طلب التوكّلِ، فإذا ظَفِرا به وطَّناهُ.

وأنشدتُ فى معناه:

يَجولُ الغِنى والعِزُّ فى كل مَوْطِنٍ ليَستوطنا قَلْبَ امْرِئٍ إن تَوَكَّلا
ومَنْ يتوكّلْ كـان مولاهُ حَسْبُه وكــانَ له فيما يُحاولُ مَعْقلا
إذا رَضِيَتْ نَفْسى بمقــدور حظِّهـا تَعالتْ وكانَت أفْضَلَ الخلقِ مَنْزِلا

وكان من دعاء الصالحين: يا مَنْ جعلَ انقطاعَ المتوكِّلين إليه، فلم يكِلْهم إلى غيره، ولم يولِّهم سواهُ، ولم يُسْلِمهم فى هَلَكة، ولم يورِّطهم فى نزلة، إذ جعل توكّلَهم عليه، ومنزعهم فى كل الأمور إليه.

حينئذ نظر الولىُّ إلى مولاه الذى به تولاَّه، فرآه فى كل شىءٍ، ووَثِق به، واعتمد عليه دون كل شىء، وقنع منه ورضى بأدنى شىءٍ، وصبر عليه، ورضى به، إذ لا بد له منه، فثَمَّ لا يطمعُ فى سِواه، ولا يرجو إلا إيّاه، ولا يشهد فى العطاءِ إلا يَدَه، ولا يرى فى المنع إلا حِكْمته، ولا يعاينُ فى القبض والبَسْط إلا قُدرته. هناك حقَّت عبادتُه، وخَلُصَ توجُّهه، فعرفَ الخَلْقَ من مَعْرِفة خالقه، وطلب الرِّزقَ عند معبودِه ورازقِه، وقام بشهادة ما قال: ﴿إنَّ الَّذين تَدْعُونَ من دُونِ الله عبادٌ أمْثَالُكُم﴾ [الأعراف:١٩٤]، ﴿إن الَّذين تَعْبُدونَ من دُونِ الله لا يَمْلكُونَ لَكُم رِزْقًا فابْتَغُوا عندَ الله الرِّزقَ واعْبُدُوه﴾ [العنكبوت:١٧]. فعندها لا يَحمد خَلْقًا، ولا يَذمُّه؛ لأجل أنّه أعطاهُ أو منعه، إذ كان الله هو الأولَ المعطى، فإن مدحَهُ أو

شكَرهُ؛ فلأن مولاهُ مَدَحَهُ، وأمرهُ بالشُّكرِ له، فتَخَلَّقَ بأخْلاقِهِ، واتَّبع سُنَّةَ رسولهِ ﷺ.

فإن ذَمَّه أو مَقَته؛ فلأجل مخالفته مولاه، وإن كان أعطاه لموافقته هواه؛ فلأنَّه تعالى قد مدَحَ المنْفقين؛ وهو المنفق عليهم، وذَمَّ الباخلينَ؛ وهو المانع لهم، وشكر المعْطين؛ وهو الفاتحُ لهم، ومقت المانعين؛ وهو الممسك منهم. والفرق بين الحمد والشكر؛ أنّ الحمدَ مفردٌ لا ينبغى إلا لله وحده، وهو الاعتراف بأن النِّعمَ كلَّها من الله، مع حسن المعاملة بها لوجهِ الله لا شريكَ له فيها، ولذلك قال: ﴿**الحمدُ لله ربِّ العالَمين**﴾. أى الحمد كلُّه لا يكون قطّ ولا ينبغى إلا لله المحمود على كل حال.

وقال فى التعبُّد الدّينونيّة للدَّيان: ﴿**ألاَ لله الدِّينُ الخَالِصُ**﴾ [الزمر:٣] أى لا تصلح العبادةُ إلا للمعبود، كما لا يجب الحمد إلا للمحمود.

والشُّكر هو إظهارُ الثناء وإسرارُ الدعاء للأواسطِ الذين جعَلهُم اللهُ الأزلىُّ تعالى مكانًا للتمكين، ومَعْقلاً لأسبابِ الدّنيا والدِّين. فهذا معنى شَرَكَ فِيه بفضله وكرمهِ الوالدين، ومع ذلك فهو مخصوص، يصلح لخصوصٍ، لمن هُو أهل أن يُشكر من النّاسِ، ممَّن لا ينظر إلى نفسهِ فى عطاياه، ولا يَمُنُّ بما أعطى من نعمةِ الله لأوليائه، كما قال سفيان الثورى ليوسف بن أسباط: لا تَشْكُرْ إلا مَن عرف موضع الشكر. قلت: وكيف ذاك؟ قال: إذا أوليْتُك معروفًا فكنتُ به أسرَّ منك، وكنتُ منك أشدَّ استحياء، فاشكر، وإلا فلا. وسأل إبراهيمُ رجلاً من أصحابه درهمين فلم يكن معه، فأخرج فتى فى مجلسه كيسًا فيه مائتا درهمٍ، فعرَضَه عليه، فلم يقبله وقال: أوَ كُلُّ مَنْ بذل لنا شيئًا قبلناه منه؟ لا نقبل إلا ممن نرى نعمةَ الله عليه فيما أعطى أعظمَ من نعمته علينا فيما نأخذ.

وحدَّثونا عن الحسن فى قصة طويلة أن رجلاً بذل له جملةً من المال فردَّه، فلما انصرف قال له هاشم الأوقص: عجبتُ منكَ يا أبا سعيد!! رددتَ على الرجل كرامتَه؛ فانصرف حزينًا، وأنتَ تأخذ من مالك بن دينار ومحمد بن واسع الشيءَ

بعد الشىء. فقال له الحسن: ويحك إن مالكًا وابنَ واسع ينظران إلى الله فيما نأخذ منهما، فعلينا أن نقبل. وإن هذا المسكين ينظر إلينا فيما يعطى، فردَدْنَا عليه صلته.

فانتظر أن يَتْبَعَه شاهدٌ منه يحكم به، كما قال: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ [هود:١٧]، فإن رأى الشاهدَ قويًا أَخَذ به، وإن لم يَرَ شاهدًا صادقًا ردَّ له. فلم يذهب عن أحكام العلم، فرتَبَهُ فى مواضعه مع مشاهدة اليقين أنّ اللهَ سبحانه هو المعطى، لمعرفته أنه هو المبتلى.

لكنّ المتوكّل لا يَذُمُّ أحدًا، ولا يُبْغِضه لأجل أنّه كان سببًا لمنعه؛ إذ كان الله هو المانع الأوّل، وإذْ له فى المنع من الحكمة مثلُ ما له فى العطاء من النعمة، ولكن يَذُمُّه وَيَنْقُصه ويبغضه إن كان استوجب ذلك من مولاه؛ فيكون موافقًا له. واللهُ تعالى يَشْهد يدَه فى العطاء، ويَمْدح المُنْفِقين نهايةً فى كرمه، وَيشْهد مشيئته فى المنع وقدرته فى المكروه، ويذمّ المسكين والعاصين حكمه من قدرته، وحُكْمًا من تقديره؛ لإظهار الأحكام، وتفصيل الحلال والحرام، وعود الثواب والعقاب على الأنام. فقد أظهر الأمر، واستأثر بسرِّ القَدَر، فعمل المؤمن بما أَمر، وَسلَّم له ما استأثر.

وحَدَّثنى بعضُ أشياخِنا أنَّ رجلاً قال لأبى القاسم الجُنيد رحمه الله: إنّ أصحابَك إذَا بَذَرْنَاهم أكرمونا، وإذا خالطناهم أعرضوا عنا. فقال: مَن أصحابى؟ قالوا: فلانًا وفلانًا فسمُّوا له رُفَعاء أصحابه ممّن يُوثق بمعرفتهم ولا يُتَّهَمون فى صِدْقهم. فقال: قد أحسنوا. قالوا: وكيف ذلك؟ قال: لأنّكم إذا بذرتُموهم خالفتم هَواكم، وَوافَقْتم مَولاكم، فوجبَ عليهم أن يُكرموكم. وإذا جَفَوْتُمُوهم وافقتم هواكم، وخالفتم مَولاكم، فوجَب عليهم أن يُعرضوا عنكم.

فانظر إليه كيف سأل من يفعل ذلك من أصحابه؛ ليستطلعَ المراتب، إذ فى أصحابه عمومٌ، وخُصوصٌ؛ وإذِ العللُ تدخل على ضُعفاء القلوب، ممّن فُقد منه الزّهد، ووُجد فيه الهوى. فلمّا رَضِيَهم وَوَثِق بهم أخبر عن حالِ الصّحة، إذ كان

كذلك الحكمُ، فصار هذا الفعل مَزيدًا لهم، لمّا صَحّ عنده مِن زُهْدِهم، ومكينِ مَعْرِفتِهم، وبُرءِ ساحتِهم.

وروى بعض العلماء عن الله تعالى: لو أن ابن آدم لم يَخَفْ غيرى ما أخفتُه مِن غيرى، ولو أنّ ابن آدم لم يَرْجُ غيرى ما وَكَلْتُه إلى غيرى.

وروى أعظمَ من هذا قال: إذا وُضع العبد فى قبره مُثِّلَ له كلُّ شىء كان يخافه من دون الله عزّ وجلّ، يُفْزِعه فى قبره إلى يوم القيامة.

وقال الفضيل بن عياض: من خاف اللهَ خافَ منهُ كلُّ شىء.

ويقال: إنّ الخوفَ من المخلوقات عقوبةُ نقصانِ الخوف من الخالق، وإنّ ذلك من قلةِ الفقه عن الله تعالى، وضعف التوكل عليه. وقد قال الله أحسن القائلين فى معناه: **﴿لأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فى صُدُورِهِمْ مِنَ اللهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ﴾** [الحشر:١٣]. فكان العبد إذا تمَّ خوفُه من الله تعالى، وصدَق توكُّلُه، وقَوِى يقينه، أزال ذلك الخوفُ خَوفَ المخلوقين عن قَلْبه، ثِقةً منه بربِّه، وتَوكُّلاً عليه فى خلقه ونَفْسه، وحَوَّل ذلك فى قُلوب المخلوقات فصارت هى تخافه، إذ لم يَخَفْها هو. كما إذا كَمُلَت مُشَاهَدَتُه، وقام بحقِّ شهادته، غيَّبت تلك المشاهدة برؤية القيومية وُجودَ الخليقة مع الله، فلم يَرَها دُونه، وقام له القيومُ بنصيبه من المُلْك، لمّا تفرّغ قلبُه بمُعاينة المَلك. وهذا هو من عين اليقين فوق علمه؛ لأنّ الحقَّ المبينَ هو الأول والآخر، كما هو الباطن الظاهر، فلا أَوّلِيةَ لخَلْقٍ فى أَوّليّتِه، ولا ظُهورَ لقوىٍّ من العبادِ فى ظاهرِ قَهْرِه.

وروينا عن سُنيد بن داوود عن يحيى بن أبى كثير، قال: مكتوب فى التّوراة: «ملعونٌ مَن ثِقتُهُ إنسانٌ مِثلُهُ». قال سنيد: يقول: لولا فلان هلكتُ، لولا كذا ما كان كذا.

فمعناه عندى فى قوله «ثِقتُهُ»: أن يعتمد عليه، ويسكن إليه، فهو شرك فى التوحيد، ونقص من المزيد. إذ لا ينبغى الثقة ولا السكون إلا إلى الواحد القهار. وذلك هو داخلٌ فى الشركِ الخفىّ. ويُقال إنّ قولَ العبد: لولا كذا، أو لم يكن

كذا، من الشِّرك. وجاء فى الخبر: «إياكم ولو؛ فإنه يفتح عمل الشيطان».

وقال بعض العلماء: «سوف» جندٌ من جنود إبليس.

وقد جاء فى تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت:٦٥] قالوا: كان الملاح فارهًا. ومثله فى قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٦] قيل: قالوا: لولا نباحُ الكلاب وزِقاءُ الدِّيَكَة لأخذنا السَّرَق[1].

ورُوينا عن عمرَ رضى الله عنه عن النبى ﷺ: «من اعتزَّ بالعبيد أذلَّه الله».

وقد جاء فى الخبر: «لو توكّلْتُم على الله حقَّ توكُّله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خِماصًا وتَروحُ بطانًا، ولزالت بدُعائِكم الجبالُ».

وقد جاء هذا الوصف فى قوله أيضًا: «لو عَرَفْتُم اللهَ حقَّ معرفته لأُعْطِيتم اليقين». فدلّ ذلك أنّ حقيقةَ التوكّلِ فى حُسنِ المعرفةِ، وصِدْق اليقين.

وقد كان عيسى عليه السلام يقول: انظروا إلى الطير لا تزرع ولا تحصد ولا تدخر، والله يرزقُها يومًا بيوم، فإن قلتم: نحن أكبر بطونًا من الطير، فانظروا إلى الأنعام، كيف قيَّض الله لها هذا الخلق.

ويقال: لا يَدَّخرُ من الدواب إلا ثلاثة: النملة والفأرة وابن آدم.

وقال أبو يعقوب السّوسى: المتوكِّلون على الله تَجرِى أرزاقُهم بعلم الله واختياره، على يد خُصوص عباده بلا شُغل ولا تَعب، وغيرهم مكدودون مشغولون. وقال أيضًا: المتوكِّل إذا رأى السبب، أو ذمَّ، أو مدَحَ، فهو مدَّعٍ لا يصحّ له التوكُّل. وأوّلُ التوكّل تركُ الاختيار، والمتوكّلُ على صحّة قد رفعَ أذاهُ عن الخلقِ، لا يشكو ما به إليهم، ولا يَذُمّ أحدًا منهم؛ لأنّه يرى المنعَ والعطاءَ من واحدٍ، فقد شَغَلَه عمّا سواه.

وقال غيرُه: التوكُّلُ هو السّكونُ فى حالِ المنْعِ والعطاء.

---

(١) السّرق: جمع سارق، وهو اللص.

وزاد النّهر جُورِى فى هذا الحالِ، فقال: التوكّل نسيانُ حُظوظِ النفسِ. فهذا إذا نَسِى حظَّ النّفسِ قطعَهُ النِّسيانُ عن ذِكْرِ منعٍ وعَطاءٍ، فضْلاً أن يشهدَه من خَلْقٍ، أو يشغلَه عن خالقٍ.

وكان الخوّاص رحمه الله يقول فى التوكّل كلمةً فاصلةً. سُئِل عن التوكّل، فقال: هو الاكتفاءُ بعلمِ الله فيك من تعلُّقِ القلبِ بسِواه. فهذا لاحقٌ بمقامِ الأنبياء فى اكتفائهم بعلمِ الله فى صِدْقهم عند تكْذيب الخلق، فقالوا: ﴿**رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُم لَمُرْسَلُونَ * وَمَا عَلَيْنَا إِلا البلاغُ الْمُبِينُ**﴾ [يس:١٦ ـ ١٧] فقَنِعُوا بعلمِ الله فيهم، وسَلُوا به عمّا سواه، إذ فيه الكَفَاءُ والغِناءُ. فالشّقاءُ لمن أُشهده وأُوقف معه.

وقيل لسهل: ما أدنى التوكّل؟ قال: تركُ الأمانى، وأوسطُه تركُ الاختيار. قيل: فما أعلاه؟ قال: لا يعرفه إلا كلٌّ من تَوسّط التوكّل، وتركَ الاختيار، وأعطى... فذكر كلامًا طويلاً.

وقال بعضُ هذه الطائفة: العبيدُ كلُّهم يأكلون أرزاقَهُم من المولى، ثم يَفْترقون فى المشاهدات. فمنهم مَن يأكلُ رزقَه بِذُلٍّ، ومنهم مَن يأكلُ رزقَه بامتهانٍ، ومنهم مَن يأكل رزقه بانتظار، ومنهم مَن يأكل رزقَهُ بعزٍّ بلا مهنةٍ، ولا انتظارٍ، ولا ذلّةٍ. فأمّا الذين يأكلون أرزاقهم بذُلٍّ فالسُّؤّال، يَشْهدون أيدى الخلق فيَذِلُّون لهم. والذين يأكلون بامتهان فالصنّاع؛ يأكل أحدُهم رزقَهُ بمهنةٍ وكُرْه. والذين يأكلون أرزاقهم بانتظار فالتجار؛ يَنْتَظر أحدُهم نفاق سلعتهِ، فهو مَتْعوبُ القلبِ، معذَّبٌ بانتظاره. والذين يأكلون أرزاقهم بعزٍّ من غيرِ مهنةٍ، ولا انتظارٍ، ولا ذُلٍّ، فالصوفية؛ يشهدون العزيز، فيأخذون قِسْمهم من يده بعزّةٍ.

ودفعَ رجلٌ إلى يحيى بن حماد شيئًا يَصِلُه به فى مجلسِه، فجعل الرجلُ يُخفيه ويَسْتُره من الحاضرين، فبسط يحيى حجرَهُ ليستزيدَهُ، وقال: هاتِ ظاهرًا مكْشوفًا، فإنّ الذى يُخفى أخْذ رِزْقه عن الخلْقِ هو الذى لا يشهد خالِقَهُ فى الرّزْقِ والعطاء.

فهذا وإن كان الأمرُ كذلك، ووافق حالَ يحيى ومشاهدتَهُ ذلك، فإن الإخْفاءَ

على من أخفى عليك أفضلُ؛ لأن أمر الله فى كتابه الكريمِ التعاونُ على البرِّ والتقوى. وفيه أيضًا صلاحٌ لقلبِ بعض الحاضرين؛ لأنّه فى الإخفاءِ يُورِثُ الظَّنَّ أو يَحسُد على ذلك. ولذلك أدَّب رسولُ الله ﷺ أمته، فأوصاهم بالكِتْمان، فقال: «استْعِينوا على أُمورِكم بالكتمانِ، فإن كلَّ ذى نعمةٍ مَحْسود».

فأمّا الذين يأكلون من أربابِ السّلاطين، فباعوا أرواحَهم؛ فتلك قِسْمةٌ خاسرةٌ؛ وقعوا فى الذلِّ الواضحِ.

وسُئِل بعض العلماء عن معنى الخبر المأثور: «الخلقُ عيالُ الله، فأحبُّهم إلى الله أنفعهم لعياله» فقال: هذا مخصوص، وعيالُ الله خاصتّه. قيل: كيف؟ قال: لأنّ الناسَ أربعةُ أقسامٍ: تجّار، [وعمّال]، وصنّاع، وزرّاع، فمن لم يكن منهم فهو من عيال الله. فأحبُّ الخلق إلى الله أنفعهم لهؤلاء.

وهذا كما قال؛ لأنّ اللهَ سبحانه وتعالى أوجبَ الحقوقَ، وفرض الزكاةَ فى الأموالِ لهؤلاء؛ لأنّه جعل من عيالِه مَن لا تجارةَ له، ولا صَنْعةَ؛ فجعل معاشَهم على التجّار والصنّاع.

ألا ترى أنّ الزكاة لا تجوز على تاجر ولا صانع؛ لقول رسول الله ﷺ: «لا تحلُّ الصدقة لغنيٍّ، ولا لقَوىٍّ مكتسب»، فأقام الاكتساب مقام الغنى. وقال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ [الحجر: ٢٠]. فكان مِن تَدبُّرِ الخطاب أنّ مَن ليسوا له برازقين: هو مَن ليس له فيها معيشة فى الأرض يعيش منها، فهذا من عيالِ الله؛ لأنّه مِن أهلِه، لا مِن أهلِ الدُّنيا؛ إذ منها يكتسبون، فهم يُعيلون.

وقال عامر بن عبد الله: قرأتُ ثلاثَ آيات من كتاب الله عزّ وجلّ استعنْتُ بهنّ على ما أنا فيه، قرأتُ قولَه تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِه﴾ [يونس: ١٠٧]، فقلتُ: إن أراد أن يضرَّنى لم يَقْدِرْ أحد أن ينفعنى، وإن أعطانى لم يقدر أحد أن يمنعنى، وقولَه تعالى: ﴿فَاذْكُرُونى أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢] فاشتغلت بذكره عن ذكر من سواه، وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ

دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:٦]، فوالله ما اهتممْتُ برزقي منذ قرأتها، فاسترحت.

وقد كان سهل بن عبد الله يقول: المتوكِّل إذا رأى السبب فهو مدّعٍ. وقال: ليس مع الإيمان أسبابٌ، إنّما الأسبابُ فى الإسلام. معناه: ليس فى حقيقة الإيمان رؤيةُ الأسباب والسكون إليها، إنّما رؤيتُها والطمعُ فى الخلقِ يُوجد فى مقامِ الإسلام. ومن ذلك ما قال لقمانُ لابنه: للإيمان أربعة أركان، لا يَصْلُح إلا بهنّ، كما لا يصلح الجسد إلا باليدين والرِّجلين: التوكّلُ على الله، والتسليمُ لقضائه، والتفويضُ إلى اللهِ، والرِّضا بقدرِ الله.

فحالُ المتوكّل سكونُ القلب عن الاستشراف إلى العبيد والتطلّع، وقطعُ الهمِّ عن الفكرة فيما بأيديهم من التطمّع، عاكفُ القلبِ على المقلِّب المدبِّر، مشغولُ الفكر بقدرة المصرِّف المقدِّر، لا يحمله عدمُ الأسبابِ على ما حَظَره العِلْمُ عليه وذمَّه، ولا يمنعه أن يقول الحقَّ وأن يعملَ به، أو يواليَ فى الله ويعاديَ فيه جريانَ الأسبابِ على أيدى الخلق، فيترك الحقَّ حياءً منهم، أو طمعًا فيهم، أو خشيةَ قطع المنافع المعتادة، ولا تُدْخِله نوازلُ الحاجات وطوارق الفاقات فى الانحطاط فى أهواءِ الناس، والميلِ إلى الباطل، أو الصمت عن حقٍّ لزمه، أو يوالى فى الله عدوًا أو يعادى وليًا، ليَرُبَّ [1] بذلك حاله عندهم، أو يشكر بذلك ما أسدَوْه إليه بالكفِّ عنهم، ولا يَرُبَّ الصنعةَ التى قد عُرِفَ بها لنظره إلى الصانع، ولا يتصنّع لمصنوعٍ دَخيلةً؛ لعلمهِ بسَبْقِ الصُّنع، لدوام مشاهدته، ولا يسكن إلى عادةٍ من خلق، ولا يَثِقُ بمعتاد من مخلوق؛ إذ قد أيقنَ برزقهِ ونفعهِ وضُرِّه من واحد.

فهذه المعانى من فَرْضِ التوكُّل، فإن وُجِدت فى عبدٍ خرج بها عن حدِّ التوكُّلِ دون فضائلِه، وتُدخِلُه فى ضَعْفِ اليقين.

وقد كان الأقوياء إذا دخل عليهم شيءٌ من هذه الأهواء المفسدة لتوكُّلهم قطعوا تلكَ الأسبابَ، وحسَمُوا أصولَها، واعتقدوا تركَها، وعَمِلُوا فى مفارقةِ الأمصارِ،

---

(١) يربّ: يُصْلح، ورَبَّ الدّهنَ: طيّبهُ.

والتغرّبِ عن الأوطانِ، وتَرْكِ الألاَّف والإيلاف، فأخرجُوا ذلك من حيثُ دخلَ عليهم، ووضعوا عليه دَوَاءَهُ وضدَّه من حيث تَطَرَّق إليهم، حتى ربُّما فارقوا ظاهرَ العلمِ، وخالفُوا عِلْمَ أهل الظاهر إلى عُلوم الباطنِ، ومُقتضاء مُشاهَدَتِهم، ومواجيدِ حالهم، ولقيامِهِم بحُكم إلهام قُلُوبهم. إذ ليس أهلُ الظاهر حجةً عليهم فى شىء إلا وهم عليهم حجة فى مثله؛ لأنّ الإيمانَ ظاهرٌ وباطنٌ، والعلمَ مُحكمٌ ومتشابه؛ ولأنّ أهلَ الحقِّ أبْعَدُ من الهوى، وأقربُ إلى التوفيق، وأوفقُ لإصابةِ الحقيقة.

كلُّ ذلك رعايةً لصحةِ توكّلهم، ووفاءً بحسن عهدهم، وعملاً بأحكام حالهم؛ لئلا تسكنَ قلوبُهم لغير الله، ولا تقِفَ هِممُهم مع سوى الله، ولا تطمئنّ نفوسهم إلى غيره، ولا يتخذوا سكنًا سواه، ولا يَسْكُنُوا إلى أهواءِ النفوس، ويَنْخَدعوا بسكونها عن سُكونِ القلب؛ فيُسْبى ذلك عُقولَهم، ويُوهن عَزْمَهُم، ويُضْعِف يَقِينَهُم الذى هو الأصل، ويستأسر قلوبهم التى هى المعيارُ بالبيان، وفيها يقع تمكين الشهادةِ للمكان، فيخسروا رأسَ المال، ويفوتهم حقيقةُ الحال. فماذا يربحون؟ وبأىِّ شهادةٍ يقومون؟ وهذا لا يَفْطِن له إلا العاقلون، ولا تشهده العيون.

وقد قال بعض المقرَّبين فى حقيقة التوكّل، لما سُئِل عنه، فقال: هو الفَرارُ من التّوكّل.

يعنى: تركَ السكونِ إلى المقامِ من التوكّل؛ أى يتوكّل ولا ينظر إلى توكّله؛ لأنه لأجله يُكفَى، أو يُعافَى، أو يُوقَى. فجعل نظرَهُ إلى توكُّله علّةً فى توكّله، يلزمه الفرار منها؛ حتى يدوم نظره إلى الوكيل وحده بلا خلَل، ويقوم له بشهادة منه بلا ملَلٍ، فلا يكون بينه وبين الوكيل شىءٌ ينظر إليه، أو يعوِّل عليه، أو يدلُّ به، حتى التوكل أيضًا الذى هو طريقه.

وقد عبّرت طائفةٌ من أهْل المعرفة عن هذا المعنى بعباداتٍ، فقال أبو تُراب: التوكُّل: طرحُ البدن فى العبودية، وتعلُّقُ القلب بالربوبية.

وقال الرَّقَّاق: التوكُّل ردُّ العيشِ إلى يومٍ واحدٍ، وإسقاطُ همٍّ غدٍ.

وقال غيرُه: التوكّل هو الخمودُ تحت الموارِد. وكان بعضُ أشياخنا إذا سُئل عن التوكّل أجاب عنه لعينِ الحقيقة، فيقول: هو أن يكون مع الحَقِّ كما لم يكن، فإن الحقَّ الآن كما لم يزل. وقال الجريرى: التوكّل معاينةُ الاضطرار.

وكذلك قال قبْلَه بعض العارفين فى معنى قوله عزّ وجلّ: ﴿**أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ**﴾ [النمل: ٦٢] فقال: المضطرُّ الذى يقف بين يدى مولاه، فيرفعُ إليه يدَيْه بالمسألة، فلا يرى بينه وبين الله حسنةً يستحقّ بها شيئًا، فيقول: هب لى مولاى بلا شيء، فتكون بضاعتُه عند مولاه الإفلاسَ، ويصيرُ حالُه فى كلِّ الأعمال الإياسَ. فهذا هو المضطر.

فهؤلاء القوم من الذين وصفهم الله عزّ وجلّ بالتقوى والمخافة، وجعلهم أهْلاً للدّعوة والنّذارة، وأخبر أنّهم لا يَرَوْن بينه وبينهم سببًا يليهم ولا شفاعة؛ فقال تعالى يأمر رسوله ﷺ أن يعقدهم بالنَّذَارة، بعد ما أمره صدقهم بالبِشارة، فجعلهم وجهةً لخلقه، ومَعْدنًا لخلقه، ومكان صدقٍ سبقت لهم بالبشارة لكلمه، ومعقلاً لخبره، كما جعل رسول الله ﷺ وجهةً لهم، وموضعًا لتكليمهم، فقال سبحانه وتعالى: ﴿**وأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلى رَبِّهِم لَيْسَ لَهُم مِن دُونِهِ وَلِيٌّ ولا شَفِيعٌ لَعَلَّهُم يَتَّقُونَ**﴾ [الأنعام: ٥١].

فهؤلاء ممّن ضاقت عليهم بمَرْحَبِها الأرضُ، فصارت حَلْقَةَ خاتمٍ، فاستوى منها الطولُ والعَرْضُ. وضاقت عليهم النفوسُ، فاستوت حالُهم فى السَّرّاء والبؤس. وأيقنوا أن لا لَجَأَ[1] ولا مَلْجأَ من الحقِّ إلا بالحقّ، عندها تَظَنَّ بعينه بوصفه المكنون إليهم، وعطَف بحنانه المصُونِ عليهم. ليسوا كمن قال تعالى فى وصف أمثالنا من أهل اللعب، واللهو، والغِرّة، والسهو، متهددًا لنا متوعدًا: ﴿**وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا**﴾ [الأنعام: ٧٠].

وقيل لبعض علمائنا: ما التوكل؟ قال: التبرّى من الحول والقوّة. والحول أشدُّ من القوّة.

---

(١) اللجا: المعقل والملاذ.

يعنى بالحول: الحركةَ، والقوّة: الثباتَ على الحركة، وهو أوّل الفعل. يعنى بهذا أن لا تنظر إلى حركتك مع المحرّك؛ إذ هو الأول، ولا إلى ثباتك أيضًا بعد الحركة فى تَثبيته؛ إذْ هو المثبِّت الآخر، فتكون الأولية والآخرية حقيقة شهادتك له به أنه الأوّل الآخر بعين اليقين؛ فيخرج خفى الشرك بحقيقة التوحيد، وهذا هو شهادةُ اليقينِ، أى: فعندها صحَّ توكُّلك بشهادةِ الوكيل.

وقال مرة: التوكّلُ تركُ التدبيرِ، وأصلُ كلِّ تدبيرٍ من الرغبة، وأصلُ كلِّ رغبةٍ من طولِ الأمل، وطولُ الأملِ من حبِّ البقاء؛ وهذا هو الشركُ. يعنى أنكَ شاركْتَ الرّبوبيةَ فى وصف البقاءِ. وقال: إنّ الله سبحانه خلَق الخلْقَ ولم يحجبهم عن نفسه، وإنّما جعل حجابَهم تدبيرَهم.

وقد كثر قولُه - رحمه الله - فى ترك التدبير، وينبغى أن يُعرف ما معناه. ليس يعنى بتركِ التدبيرِ تركَ التّصرّفِ فيما وُجِّه العبدُ فيه وأُتيح له، كيف! وهو يقول: من طعَن على التكسُّبِ فقد طعَن على السنّة، ومن طعن فى تركِ التكسّب فقد طعن على التوحيد. وقد كان له أرض يزرعها، وكان يدبّر شأنها، ثم رأى بيعها فى آخره أمره، وفرّق ثمنها.

إنّما يعنى بترك التدبير أى تركُ الأمانى، وقوله: لم كان كذا؟ إذا وقع الأمر، ولِمَ لا يكون كذا؟ أو لو كان كذا فيما لا يقع؛ لأن ذلك اعتراضٌ وجهلٌ بسبقِ العلم، وذهابٌ عن نفاذ القدرةِ وشهادة الحكمة، وغفلةٌ عن رؤيةِ المشيئة وجريانِ الحكم بها.

ويعنى: ترك التدبير فيما بَقَى وما يأتى بعدُ، أى: لأنّ فيه مثل هذا، يقول: لا تشتغل بالفكر فيه، والتدبير له بعقلك وعلمك؛ فيقطعك عن حالك، فى الوقت الذى هو ألزم لك، وأوجبُ عليك؛ حتى يكون فيما يأتى من الأحكام والتصريفِ فى ترك التدبير والتقديرِ لها بالزيادة والنقصان، أو نقلِها من وقتٍ إلى غيرِه أو من عبدٍ إلى آخر، بالتقديمِ والتأخير، نَقصٌ فى ذلك كما كنتَ فيما قد مضى. ألا ترى أن الإنسان لا يدبِّر ما قد مضى؟ قال: فينبغى أن يكون فيما يستقبل تاركًا للتدبير له، تاركًا للأمانى فيه بمعانى ما ذكرنا، كتركهِ إيّاه فيما مضى. فيستوى

عنده الحالان؛ لأنَّ اللهَ أحْكمُ الحاكمين، وأنَّ العبدَ مسلّمٌ للأحكام والأفعال، راضٍ عن مولاه فى الأقدار، مع جهلهِ بعواقبِ المآل.

وتركُ التدبيرِ بهذه المعانى هو اليقين، واليقينُ هو شهادة المعرفةِ بحقيقةِ الحقِّ المبين، فإذا جعل الله تعالى قلبَ الموقنِ مكانًا لذلك، مكَّن فيه على قدرِ المكان ما يليق به.

فهذا تفسير قولهِ الذى كان يقُوله ومقتضاهُ.

وكان يقول: يا مسكين؛ كان ولم تكن، ويكون ولا تكون، فلما كنتَ اليوم قلتَ: أنا وأنا، كُنْ فيما أنت الآن كما لم تكن، فإنّه هو اليوم كما كان.

وكان يقول أيضًا: الزهدُ إنّما هو تركُ التدبير. فهذا يعنى به تركَ الأسباب التى توجبُ التدبيرَ، وإخراجَ السبب الذى يجب تدبيرُه، لا أنّه يكون مسببًا متيقنًا للأسباب، وهو ترك تدبيرها؛ لأنّ التدّبيرَ فى هذا الموضع إنما هو التمييزُ والقيامُ بالأحكامِ، ووضعُ الأشياء مواضعها، فكيف لا يكون العبد كذلك مع وجود الأشياء، وهو عاقل مميِّز متعبِّد بالعلم مطالب بالأحكام مع إمساكه الأسباب؟ وإنّما يقول: اتْركِ الأشياءَ المدبَّرة، وازْهَدْ فى الأسبابِ المميَّزة؛ حتى يسقط عنك التّدبير والتّقدير[١]، فيكون بتركها تاركًا للتَّدبيرِ، لسُقوطِ أحكامها عنك، واستراحتِك من القيامِ بها، والنظرِ فيها.

فهذا هو تفصيلُ جملةِ قوله فى تركِ التدبير، وهذا هو حال المتوكلين، فهو مثلُ ما يقولُ لمن أرادَ إخراجَ درهَمه كلّه، ويختار حالَ الفقرِ: أن يبتدئَ بإسقاط الشَّهوات وإخراجِها من القلب قبل ذَلك التى لها يُرادُ إمساك الدّراهم أو كَسْبه. فإذا قَوِى على ذَلك، ولم يبقَ عليه من نفسه بقيّة، ولم يدخر له منها خَبِيَّة، سَهُل عليه بعد ذلك إخراجُ دراهمه، وإلا خشيتَ أن يَطلبَ من عنده ذلك الدّرهم الذى هُو قيمةُ تلك الشهوةِ التى بَقِيَتْ عليه، فبذل له باستخراجه منه، أو يطمعَ فيه بإغماضٍ فى دينهِ لضَعفِ وَجْدِه من يقينهِ، فيرجع إلى الرغبةِ فى الدّنيا، ويَدْخُل

(١) لابن عطاء الله السكندرى رسالة فى ترك التدبير.

فى الحِرص على طَلَبِها بصفةٍ من المعانى بِمقْدارِ ما بقِى فيه مِن الشَّهوات. والمتوكّلُ لا يهتم بما قد كُفى، كما لا يهتمُّ الصحيح بالدواء إذا عُوفى، ولكن قد يحتمى قبل الزَّلل، كما يحتمى المعافَى قبل ورود العلل.

قال الله سبحانه: ﴿وَمَا منْ دَابَّة فِى الأَرْضِ إلاَّ عَلَى الله رِزْقُهَا﴾ [هود:٦]، ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ [العنكبوت:٦٠]، فالمتوكل قد علم بيقينه أن كل ما يناله من العطاء من ذرة فما فوقها، أن ذلك رزقُه من خالقه، وأنّ رِزقَه هُوَ لَه نصيبًا فَضَلَ مِن قاسمه، وأنّ ما لَه مِن النّصيب واصلٌ إليه لا محالةَ على أىّ حال كان، وأنّ ما لَهُ لا يكون لغيره أبدًا، وكذلك ما لغيره من القِسْمِ والعَطاءِ لا يكون لهذا أبدًا، فقد نظر إلى قِسْمه ونصيبه من مولاه بعينِ يقينهِ الذى به تولاّه، مِن إحدى ثلاث مشاهدات؛ إن دنتْ مشاهدتُه نظَرَ إلى قسمه من العطاء فى الصحيفة التى كُتبتْ له عند تصوير خَلْقِه، فكُتب فيها رزقُه، وأجلُه، وأثرُه؛ وشقىٌّ أو سعيد، فكما لا يقدر أحدٌ من الخَلقِ أن يجعله سعيدًا، إن كان قِسمُه شقيًا، فلا يقدر أحدٌ أن يجعلَه شَقيًا إن كان قِسمه سعيدًا.

كذلك لا يقدر أحدٌ أن يجعل رِزْقَهُ قليلاً، إن كان قِسمه واسعًا، ولا يستطيع عبدٌ مِثلُه أن يجعل قِسمَه واسعًا، إن كان نَصيبُه ضيّقًا. كما لا يقدر أحدٌ أن يمنعه؛ إذ هو اللهُ المعطى، ولا يعطيه ما مَنَعه مولاه؛ إذْ هو المانع، كما قال الرسول ﷺ: «لا مانِعَ لِما أعْطَيْتَ» أى من قسم، «ولا مُعْطِى» من الخَلْقِ «ما مَنَعْتَ» أى من الحكم.

وكما لا يستطيع عبدٌ أن يُبدِّل خَلْقَه لأن الله تعالى خَلَقَهُ، كذلك لا يقدر أن يحوِّل رزقه؛ لأنّ الرزّاق هو الخالق، كما المقدّر هو المصوِّر، ولأنّ ذلك كلّه قد كتب كَتْبًا واحدًا، وجعل مُجعَّلاً سِرًا.

وإن ارتفعت مُشاهدتُه، نظرَ إلى هذا فى اللوحِ المحفوظ ـ مفروغٌ له منه ـ وهو أمُّ الكتابِ الذى استنسخ منه هذه الصحيفة، فكان يَقينُه كَتْبَ رزقه فى اللوح، وأنه لا يُزاد فيه بَحْولٍ، ولا بحيلةٍ، ولا يُنْقَص منه لعَجْزٍ ولا سكينة، كيقينهِ بما أنت

فيه من أنّه من أهل الجنة؛ فهو داخلُها لا محالةَ، وإن عمل أيّ عمل بعد أن يكون قد كُتب اسمُه فى اللّوح، وجُعل له فيها أثرٌ، فصار من ورّثها بالمكان الذى مُهِّدَ له فيها، لقوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ الصَّالِحُونَ**﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، فقد كُتبت الآثارُ والأرزاقُ والأخلاقُ من كلِّ شىءٍ كَتْبًا واحدًا فى ثلاثة مواضع؛ توكيدًا للعلم، وتَسكينًا للقلب فى القِسْم، كُتبَ ذلك: فى الذّكر الأولِ وهو اللّوح المحفوظ، ثم فى الزُّبُر الأُولى وهى الصُّحف، ثم أُنزل ذلك فى كتابنا هذا الذى به عَرفْنا ما سلف من ذلك.

وإن علَت مشاهدتُهُ إلى العلىِّ الأعلى، لعلوِّ مرتبته، ونُفُوذ علمه، وقوّة يقينه، إذ مشاهدةُ كلِّ عبدٍ عن مقامه من معبوده، ومن مكانه فى دنوِّه وعُلُوِّه ـ شَهد هذا الذى ذكرناه معلومًا فى علمِ اللهِ تعالى قبل خلقِ اللوحِ، فسكَن قلبُه واطمأنَّ إلى علمِ الله سبحانه وتعالى وما سبق له منه؛ ولهذا جاء فى الأثر أنّ الزهْدَ فى الدنيا: «أن تكونَ بما فى يدِ الله أوثقَ منك بما فى يدك، وأن تكونَ فى ثوابِ المصيبةِ أرغبُ منك فيها لو أنّها بقيتْ لك»، أى: فيقلُّ حرصُك لنفاذ شهادتك، ويذهب فى الخَلْق طمعُك لوجودِ زهدك؛ فهذا هو الرضا والزهد، فقد جمع التوكُّلُ المقامين معًا.

فما فى يدِ الله سبحانه وتعالى هو رزقُك الواصلُ إليك، لا شكّ فيه على أى حال، وهو الذى لك عند الله، وهو معلوم علمَ اللهِ تعالى الذى لا ينْقَلب، وذلك فى الكتاب المستطر، ولأجلِ ذلك أعلَم أنَّه بعَيْنِ الخبرِ ليقعَ به تركُ الأسى على ما فات إذ لم يُقسم له، وفَقدُ الفرحِ بما هو آتٍ لأنه قد جُعل له، فكان هذا فى تدبُّرِ الكلامِ من المخبر العلام فى قوله تعالى: ﴿**مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِى الأَرْضِ وَلا فِى أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِى كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا**﴾ الهاء كنايةٌ عن ثلاث تقدمت أسماؤها: المصيبة، والأرض، والنفس. أى: قد سبقَ ذلك، وفُرِغ من خَلْقه من قبل أن يُظهرَ المصيبةَ، ثم قال: ﴿**لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ**﴾ لأنّه لم يجعل نصيبًا لكم فَيَشْغَلُكم الحزنُ عليه عن الشُّغْلِ بسيّدكم ﴿**وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ**﴾ [الحديد: ٢٢ ـ ٢٣]

لأنّه حاصلٌ لكم، فيقطعكم الفرحُ به عن الانقطاعِ إلى مولاكم. وهذه شَهادةُ التّالِين بحقّ اليقينِ حقّ تلاوَتِه.

وذلك أحد ثلاثة أشياء: ما أكلْتَ فأفنيْتَ، أو لبسْتَ فأبليْتَ، أو تصدَّقْتَ فأمضيْتَ. فهذا هو الذى لك فى الدنيا والآخرة.

ولذلك قال ﷺ: «يقول ابن آدم: مالى، مالى!!» تعجُّبًا من جهلِ ابن آدم وغفلته، ثم استثنى هذه الثلاث فقال: «إنّما لكَ من مالكَ» فذكر هذه الثلاث، واشترط مع كلٍّ واحدةٍ آخرَ غايتِها، فقال: «ما أكلتَ فأفنيتَ، أو لبستَ فأبليتَ، أو تصدَّقْتَ فأمضيتَ». فاشترط الإفناءَ، والإبلاءَ، والإمضاء، ثم قال بعد ذلك: «وما سِوى ذَلك فهُو مالُ الوارثِ».

فهذه الأسبابُ الثلاثُ على هذه الأوصاف هى رزقُ العبدِ، وهى التى فى يد الله عزّ وجلّ له، الواصلةُ إليه. فأما ما جعلَه فى يد العبد فقد لا يكون له، وإنّما هو مستودَعٌ إيّاه، ومُسْتَخْلَفٌ فيه، وإن تملَّكَهُ وحَازَهُ خمسين سنة. وإنّما للعبد ما فرغَ له منه لما سبق له به، وهو الذى فصّل له من مثالِ الكتابِ الذى كان يُوَفَّاهُ فيستوفيهِ غير منقوصٍ، ولا مريد بمطالبه ولا اكْتساب، ألم تسمع إلى قولِ العزيز الوهّاب: ﴿أُولئكَ يَنالُهُم نَصِيبُهُم مِّنَ الكتابِ﴾ [الأعراف:٣٧]، وقوله: ﴿وإنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾ [هود:١٠٩]. فإن تملَّكَ سوى هذا وادّعاه؛ لأجل أنّه فى خزانته، أو قَبْضِ يدِه، فذلك لجهله بالله تعالى، وقلة فِقْهِه عن الله سبحانه، وغفلته عن حِكْمة الله تعالى؛ لأنّه لو عرفَ حِكْمةَ الله وقدرتَه، علم أن صندوقَه وخِزانتَه ويدَه من خزائنِ الله تعالى فى أرضه، جعلها اللهُ فى ملكه وقبضه، يودعها من يشاء، إلى الوقت الذى وُقِّتَ له، فيَسْتَقِرُّ عند من هى له كَيف شاء، فقد قال تعالى: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ [الأنعام:٩٨]. وقال: ﴿لِكُلِّ نَبإٍ مُسْتَقَرٌّ﴾ [الأنعام:٦٧]. وقال سبحانه: ﴿وَلله خَزَائِنُ السَّمَوات وَالأَرْضِ﴾ [المنافقون:٧].

وهكذا رُوِينا عن نبينا ﷺ: «إنّ الرزق لَيطْلُبُ العبدَ كما يطلُبه أجلُه». وقال ﷺ: «وإنّ لكل عبدٍ رزقًا هو آتيه لا محالةَ، فمن قنع به ورضى، بُورِكَ له فيه

ووسعه. ومن لم يَقْنع به ولم يرضَ، لم يُبارَك له فيه، ولم يسعه».

وفى الخبر الغريب: «مَنْ ظَنَّ أن حِرْصَه يزيدُ فى رِزْقه، فليَزد فى طوله وعَرْضِه». فسوَّى بين بسط الرزق وقبضه، وبين طولِ العبد وعَرْضِه.

وفى الخبر المجمل: «أهلُ كلِّ رزقٍ هو آكلُه، وآثرُه، وواطئُه، وحتف هو قائلُه». ويقال: لو هربَ العبدُ من رزقه كما لو هربَ من الموت لأدركه.

وقال فى الرّجلِ الذى كان أضاقَ بنفسه: «إن التمرة إن لم تأتها لأتتك هى»، ألا ترى أنه قال: لأتَتْهُ التمرةُ، وهى لا تسعى بنفسها، ولكن نحن نَسعى إليها. وكذلك الرزقُ على تصريفين: رزقٌ طلبتَهُ فتَلْقَاهُ، ورزقٌ يَطلبك فيلقاك، وما لقاك شىء فقد لقيتَهُ. ولذلك جاز أن يُقرأ بالحَرفين سواء: ﴿فتَلَقَّى آدَمَ مِنْ ربِّه كَلماتٌ﴾ و ﴿فتَلَقَّى آدَمُ مِن ربِّه كَلماتٍ﴾ [البقرة:٣٧]؛ لأنّ ما لقيتَهُ فقد لقِيَك، فتدبر. قال: وقلتُ لبعض السّلفِ: لو أنَّ عبدًا دخلَ بيتًا وطُيِّن عليه بابًا، ولم يَعلم بهِ أحدٌ، كان رزقه يأتيه؟! فقال: نعَم. فقلتُ: من أين يأتيه؟ فقال: من حيثُ يأتيهِ مَلَكُ المَوْتِ.

وفى وصية النبى ﷺ لابن عباس: «إذا سألْتَ فاسألِ الله، وإذا استعنْتَ فاستعنْ بالله، واعلم أن الخلائقَ لو جَهدوا أن ينفعوكَ بما لم يكتبه اللهُ لك ما قَدَروا على ذلك، ولو جهدوا أن يضرُّوك بشىء لم يكتبه الله سبحانه عليك لم يقدروا على ذلك، طُويَت الصحف وجفَّت الأقلام».

فمن كانت هذه مشاهدتَهُ فى القِسم المعلوم سَقَطَ عنه جملةٌ من الهموم، واستراح من النظرِ إلى الخَلْقِ، واستراح الخَلْقُ من أذاه، وشُغِل عنهم بخدمة مولاه، وكان قد فهم شيئًا من الخطاب، ومِمّن أقبل على اللهِ الكريم بصالح ما دعاهُ إليه واستجاب.

كما رُوى أن رجلاً لزم بابَ عمر بن الخطاب رضى الله عنه كلَّ غداة، فشَهِد عمرُ منه مجيئَهُ لأجلِ الطّلب، فقال له: يا هذا، هاجرْتَ إلى عمر، أو إلى الله؟! اذهب فتعلّم القرآن؛ فإنه سيغنيك عن باب عمر. فذهب الرجل فغاب زمانًا حتى

افتقده عمر، فسأل عنه، فدُلّ عليه، فأتاه، فإذا هو قد اعتزلَ الناس وأقبلَ على العبادةِ، فقال له عمر رضى الله عنه: إنى قد افتقدتُك؛ حتى اشتقتُ إليك، فما الذى شغلك عنا؟ فقال: إنّى قد قرأتُ القرآن؛ فأغْنانى عن عمرَ وعن آل عمر. فقال له عمر: رحمك الله، فما الذى وجدتَ فيه؟ فقال: وجدتُ فيه: **﴿وفى السَّماء رِزْقُكُم وَمَا تُوعَدُونَ﴾** [الذاريات:٢٢]. فقلتُ: رِزقى فى السَّماءِ، وأنا أطلبه فى الأرضِ؟! فبكى عمر، وكانت موعظةً له منه، فكان عمر بعد ذلك يأتيه فى بعض الأحايين، فيجلس إليه، ويستمعُ منه.

فهذه علامةُ مرادٍ من مَطْلوبٍ. والطالب المردود إذا تعلَّمَ القرآن افتقر إلى الخَلْقِ، وازداد طمعًا فيهم، وطغى بالقُرآن، وتكبَّر عنهم. فالقرآن كشف المرادِين، والمردودين، هو غِنًى للمُوقنين، وهو فقرٌ للطّامِعين.

وجاء رجل إلى بشر بن الحارث فقال: إنّى قد عزمتُ على سفر إلى الشام، وليس عندى زاد، فما ترى؟ فقال: يا هذا، اخرُج فيما قصدْتَ له، فإن لم يُعْطِك ما ليس لك لم يمنعك ما لك.

وشكا رجل إلى فضيلٍ حالَه. فقال: يا هذا، مدبرٌ غيرَ الله تريد؟

وكان الحسنُ يقول: التوكّل هو الرّضا. وفى تفسير قولِه عزّ وجلّ: **﴿وَقَدَّرَ فيهَا أَقْوَاتَهَا﴾** [فصلت:١٠] قال: خلق الأرزاقَ قبل الأجسام بألفَى عام، فالمتوكّلُ لا يُطالب مولاهُ برزقِ غدٍ، كما لا يطالبه مولاه بعملِ غدٍ.

فأما المتوكِّلُ فى المضمونِ من الرِّزق، المعلومِ من القسم، فهو توكُّلُ العموم يستحى الخُصوصُ من ذكره، ويتكرمون عن نشره، إذ كان الله تعالى قد أقْسَم بنفسه أن الرزقَ فى السّماء حقٌّ، كما أقسم بنفسه أنّ كلامَه حقٌّ، فجمع بينهما فى الحقيقةِ بالقَسَم بالذات دون سائر الأفعال؛ لتسكنَ بذلك نفوسُ الخليقةِ عن النظر إلى الأدوات؛ ليرتفع الشكُّ فيهما ويحصل اليقينُ بحقيقتهما، فقال سبحانه: **﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾** [الذاريات:٢٣]. كما قال تعالى: **﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾** [يونس:٥٣]. وليس فى القرآن قَسَم بالذّات فيما

سَبَرْناه إلا خمسة: القَسَم الذى فى سورة النساء على تسليم الأحكام: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥] الآية، وفى سورة التغابن على بعث الكافرين وأبنائهم: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن: ٧]، وفى سورة المعارج من ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ [المعارج: ١] فى تبديل الخلق خلقًا خيرًا منهم: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ إلى قوله: ﴿بِمَسْبُوقِينَ﴾ [المعارج: ٤٠ ـ ٤١]، وهذان القسمان المتقدمان، وسائرُ الأقسام بالأفعال، ولأنّ العبد قد وَكَّل برزقه مَن يقوم له به من الخلق؛ فإن لم يُرْزَق من كَسْبه وعَن يده رُزِق من كسبِ غيره ويده، ولكنْ شُغِل الخصوصُ بأعمالِ الآخرة، وما يفوتُهم من القربات إلى الله عزّ وجلّ، وبالخدمةِ للمولى الذى وُكِّل إليهم، فإن لم يقوموا به، لم يقم به غيرُهم لهم، ولم يَنُبْ غيرُه من الدنيا منابَه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾ [النجم: ٣٩]، وقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ * لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ [الغاشية: ٨ ـ ٩]، ولقوله تعالى: ﴿وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٧]، وقوله تعالى: ﴿وَاللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ [الأنفال: ٦٧]، ولقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِى حَرْثِهِ﴾ [الشورى: ٢٠]. ولم يقل هذا فى أرزاقِ الدنيا. ومعنى الزيادة أن لا يحاسبه على ما يعطيه من الدنيا، إذ لا زيادة فى القسم.

وقد قيل: إن اللهَ تعالى يُعْطِى الدنيا على نِيّةِ الآخرةِ، ولا يُعْطِى الآخرةَ على نِيّة الدُّنيا. وهذا لعلوِّ الآخرة وفَضْلها ودناءة الدنيا ونَقصِها. وكان علىٌّ رضى الله عنه يقول: ألا إنَّ حرثَ الدنيا المالُ، وحرثَ الآخرة العملُ الصالحُ، وقد يجمعها الله لأقوام.

وقد قيل: إن الزيادةَ فى الآخرة رفعةُ الدرجات والمنازل لمن كانت نيّته وقصدَه، ولها يعمل، فشُغِل الخصوص بما وُكِّل إليهم، وبما لا يعمله غيرُهم لهم، عمَّا تكفَّل به لهم، فأُقِيم غيرُهم فيه مقامَهم، وناب أيضًا عنه مثله من أسباب دنياهم.

كما رُوى فى أخبار داود عليه السلام: «إنى خَلَقت محمدًا لأجلى، وخَلَقْتُ

آدمَ لأجلِ محمد، وخلقتُ ما خلقتُ لأجل آدم. فمن اشتغل منهم بما خلَقْتُه لأجلِه حجبْتُه عنى، ومن اشتغل منهم بى سُقْتُ إليه ما خَلقْتُه لأجله».

وَتوكُّلُ الخصوصِ أيضًا فى الصَّبر على الأذى من القول والفعل؛ إذ كان أمَر بذلك الرسولَ فى قوله تعالى: ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً * وَاصبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ [المزمل: ٩ ـ ١٠] مع قول الرسل عليهم السلام: ﴿وَلَنَصبِرَنَّ عَلَى ما آذَيْتُمُونا وعَلَى الله فَلْيَتوكَّلِ الْمُتَوكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢]، وكذلك أمَر نبيَّه عليه السلام لما قال تعالى: ﴿أُولئِكَ الَّذينَ هَدَى اللهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، فأمره باتباعهم، وقال: ﴿ودَعْ أذَاهُمْ وتَوكَّلْ عَلَى الله﴾ [الأحزاب: ٤٨]، وقال: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وقال بعض العارفين: لا يثبت لأحد مقامٌ فى التوكُّل حتى يستوىَ عنده المدحُ والذمُّ من الخَلْق فيسقطان، وحتى يُؤْذَى فَيصْبِر على الأذى، يُسْتَخْرج بذلك منه رفعُ السكونِ إلى الخلق، والنظرُ إلى علمِ الخالقِ الذى سبق.

ثم التوكّلُ فى الصبر على حسن المعاملةِ، وتركُ الطلبِ للمعارضة؛ حياءً من الله، وإجلالاً له، وتَخوّفًا منه، وحبًا له. فقد وصفهم بذلك ظاهرًا وباطنًا، فالظاهرُ قولُه تعالى: ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * الَّذينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوكَّلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٨ ـ ٥٩]. فلما عَملوا صبروا على عَملِهم، ثمّ توكّلوا عليه فى صَبْرِهم، فأنعمَ أجرهم، وأجزل ذُخْرَهم عنده منه فى الإطعام لوجهِ الله تعالى، فيما أخبر عنهم: ﴿إِنَّما نُطْعِمُكُم لِوَجْهِ الله لا نُرِيدُ مِنْكُم جَزَاءً ولا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩] فقطعهم الخوفُ عن الطّلب. ففى قوله: ﴿مِنْكُم﴾ وجهٌ حسن غريب، وهو باطن الآية من اللُّغة، قد يكون بمعنى: لا نريد بَدَلاً منكم عوضًا، المعنى: لا نريد منكم عوضًا بدلاً ممّا فعلنا بِكُم، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُمْ مَلائِكَةً فِى الأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ [الزخرف: ٦٠] ليس أنّه يجعلُ من البشرِ ملائكةً، ولكن المعنى: بدلاً مِنكم. هذا أحد الوجهين فى الآية، وهو أعلاهما.

والوجه الظاهر: أن يكون «الكاف والميم» أسماء المطْعمين، أى لا نريد من عندكم «جزاء» أى مكافأة، ولا «شكورًا» أى حسن ثناء. فلما لم يطلبوا العِوَض من عندِه؛ لأنّهم فعلُوه لوجهِه، ولا أرادُوا التعويضَ مِنْ أجلِهم، ولا المكافأة من عندِهم، وقالوا: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا﴾ [الإنسان: ١٠]، جزاهم أفضلَ الجزاءِ، وأحسنَ لهم غايةَ العطاء، فقال تعالى: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا * إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢١ ـ ٢٢]. إذ لم تطلبوا مِنّا عَليه جزاءً ولا شكورًا، جعل جزاءَهم شَرابًا طهورًا، وجعل سعيَهم لَديه مشكورًا فى التوكّل عليه فى تسليم الحكم والرضا به. ومنه قول يعقوب عليه السلام حين سلم الحُكْم توكّلاً على الوكيل الحاكم: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [يوسف: ٦٧]؛ لأنّ العبدَ إذا كان مُريدًا لمرادِ نفسه من الأشياء، وقد لا يوجد فى كلّ شىء إرادته، ثم هو على يقينٍ من إرادةِ مولاهُ لكلِّ شىءٍ، وأنّ كلَّ شىءٍ مرادٌ لوكيله، فينبغى أن يريدَ ما يريد مولاهُ، إذا لم يتّفق له ما يريد، بل ينبغى أن يكونَ مرادُ مولاهُ أحبَّ إليه، وآثرَ عندَه؛ لأنّ ما أرادَهُ مولاهُ ممّا لا عقوبةَ على العبدِ فيه، ولا مَسْخَطَةَ لمولاهُ بهِ، فإنّه محبوبٌ لله تعالى، مختارٌ له. فلتكن محبةُ الله عزّ وجلّ مُقَدَّمةً لَديه على محبتِهِ هُو واختيارِه، إذ لله عاقبةُ الأمورِ. وقد شرّفَ المتقينَ ونزّهَهُمْ عن أمورِ العاجلةِ الدَّنِيَّة، بقوله عزّ وجلّ: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

وكما روى فى أخبار موسى عليه السلام: «إذا لم يكن ما تُريد فأرِدْ ما يكون، فإن أبيتَ إلا ما تريد أتعبتُكَ فيما تُريد، ولا يكون إلا ما أُريد».

وروى عن الحسن: وددتُ أنّ أهل البَصرةِ فى عيالى، وأنّ حبةً بدينار.

وهذا من نهايةِ التوكّل. وليس ذلك إلا فى تسليمِ الأحكامِ، والرِّضا بها كيف جَرت بهم؛ لأن هذا كلام قد جاوزَ المعقول، فلعلّه يُطعمُهم الموتَ.

وقد كان وُهَيبُ بن الورد المكّى يقول: لو كانت السّماء نحاسًا، والأرضُ رَصاصًا، ثم اهتممتُ برزقى لظننتُ أنّى مشركٌ. ويقال: من اهتمّ برزق غدٍ،

وعنده اليوم قوتُ غدٍ، فهى خطيئةٌ تُكتب عليه. وقال سفيان الثّورى: الصائم إذا اهتمَّ فى أوّلِ النهارِ بعشائه كُتب عليه خطيئة.

وكان سهل يقول: إنّ ذلك يُنقص من صَومِه. وقال: أعرِفُ فى البصرةِ مقبرةً عظيمةً، يُغْدَى على موتاهم برزقهم من الجنة بكرةً وعشية، يرون منازلهم من الجنانِ، وعليهم من الغُموم والكُروب ما لو قُسِّم على أهل البصرة لماتوا أجمعين. قيل: ولِمَ؟ قال: كانوا إذا تغدَّوْا قالوا: بأىّ شىءٍ نتعشى؟ وإذا تعشّوا قالوا: بأىّ شىء نتغدى؟ وقال مرة أخرى: لم يكن لهم من التوكّل والرِّضا نصيب.

فهذه المقامات من فضائلِ التوكُّل، وفوقها ما لا يصلح رَسْمُهُ فى كتابٍ، من مكاشفاتِ الصدّيقين، ومشاهدات العارفين؛ منها: أنّه أعطاهم «كُنْ» بإطلاعه إيَّاهم على الاسم، فزهدوا فى كون «كن» لأجل «كان»، توكلاً على كَيْنُونَتِه الكَيْناءِ، وحياءً منه أن يعارضوه فى قدرته أو يُنازعوه فى مُلكه، أو يرغبوا عن تقديرِه، أو يضاهوه فى تكوينه؛ لأنّ تدبيرَهُ عندهم أحكمُ وأيقنُ، وهو بالعواقبِ أعلمُ وأَخْبَرُ، وهُمْ لَهُ أشدُّ إجلالاً وإعظامًا مما نقدِر نحن ونعلم.

فأما التوكّلُ عليه فى القُوتِ فإنّه عندهم من فرضِ التوكّل، فيستحيون من ذكره مع الوكيل. وكذلك التوكّلُ عليه فى تسليمِ الأقدارِ حُلْوِها ومُرِّهَا، خيرها وشرِّها، من الله حكمةً وعدلاً.

كما قال رسولُ الله ﷺ: «كلُّ شىءٍ بقضاءٍ وقَدَر، حتى العَجْزُ والكَيس». وكما قال: «تعلّم أنّ ما أخطأك لم يكن ليُصيبك، وأن ما أصابك لم يكن ليُخطئك». وكذلك قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ﴾ [القمر: ٥٣].

فالعلمُ بهذه الأشياءِ، وطمأنينةُ القلبِ بها، وسكينةُ العقلِ عند ورودها، وأن لا يضطرب بالرّأى والمعقول، ولا ينازع بالتشبيه والتمثيل، فإنّ هذا عندهم من فرائضِ الإيمانِ؛ لا يصحّ إيمانُ عبدٍ حتّى يسلِّم ذلك كلَّه، وليس هذا من التوكّل فى شىء.

ومنه قول ابن عباس: القدرُ نظامُ التوحيدِ، فمن وحَّدَ اللهَ وكذَّب بالقدرِ، كان

تكذيبُه بالقدرِ نقصًا لتوحيده. فجعل الإيمانَ بالأقدار كلّها أنها من الله مشيئةً وحُكمًا؛ بمنزلة الخيط الذى ينتظم عليه الحَبُّ، وأنّ التوحيدَ منتظَمٌ فيه. يقول: إذا انقطعَ الخيطُ سقَط الحَبُّ. قال: كذلك إذا كذَّب بالقدَر ذهبَ الإيمانُ.

فالتوكّلُ فرضٌ وفَضْلٌ؛ ففرضُه منوطٌ بالإيمان، وهو تسليمُ الأقدارِ كلِّها للقادر، واعتقادُ أن جميعَها قضاؤه وقدرُه. ألم ترَ إلى ربك كيف أقسم بنَفْسه فى نَفْى الإيمانِ عمّن لم يحكِّم الرسولَ فيما اختلف عليه من حاله، فقال تعالى: ﴿**فَلا وَربِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُم ثُمَّ لا يَجِدُوا فى أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا ممَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾ [النساء: ٦٥] فكيف لمن لم يُسلِّم الحُكمَ للحاكم الأوّلِ المرْسِلِ والقاضى الأجلِّ؟

فأما فَضْلُ التوكُّل فإنّه يكون عن مشاهدةِ الوكيلِ، فإنه فى مقام المعرفةِ ينظر عينَ اليقينِ، كما قال العبدُ الصّالح: ﴿**فَكِيدُونى جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ**﴾ [هود: ٥٥]، فظهرتْ منه قوّةٌ عظيمةٌ بقوىٍّ، وأخبرَ عن عزيزٍ بعزٍّ، فكأنّه قيل: ولِمَ ذاك وأنت بشرٌ مثلنا ضعيفٌ؟ فقال: ﴿**إِنِّى تَوكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّى وربِّكُم**﴾ فكأنه سئل عن تفسيرِ توكُّله كيف سببه! فأخبر بمشاهدة يد الوكيلِ آخذَةً بنواصى دوَابِّ الأرضِ، فقال: ﴿**ما مِنْ دابَّةٍ إلاَّ هُوَ آخذٌ بِناصِيَتِها**﴾ ثم أخبر عن عدله فى فعله، وتمامِ حكمته، وقيوميَّةِ صنعته، وأنّه وإن كانَ آخذًا بنواصى العبادِ فى الخيرِ والشرِّ، بحكم المرادِ للنّفع والضُّرِّ، للتَّقريبِ والإبعاد، لأجل باطنِ العلم، وسابقِ القِسْم(١)، فإن ذلك كلَّه قائمٌ بوصفِه، مستقيمٌ فى عَدْلِه، وصوابٌ من حُكْمه، فقال: ﴿**إِنَّ رَبِّى عَلَى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾ [هود: ٥٦].

وقال تعالى فى فرض التوكل: ﴿**وعَلَى اللهِ فَتوكَّلُوا إِنْ كُنتُم مُؤْمِنينَ**﴾ [المائدة: ٢٣]. وقال فى فرضه: ﴿**إِنْ كُنتُم آمَنْتُم باللهِ فَعَلَيْه تَوكَّلُوا إِنْ كُنتُم مُسْلِمينَ**﴾ [يونس: ٨٤]. وقال فى فضله: ﴿**وعَلَى اللهِ فَلْيَتوكَّلِ الْمُتَوكِّلُون**﴾ [إبراهيم: ١٢] أى

---

(١) القسم (بالكسر): الحظ والنصيب من الخير.

يتوكَّلُوا عليه فى توكُّلِهم، كما توكَّلُوا عليه فى الأسباب. وقال فى مثله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

• ذكر إثبات الأسباب والأواسط لمعانى الحكمة، ونفى أنها تحكم، وتجعل لثبوت الحكم والقدرة للحاكم الأول:

اعلم أن الله عزّ وجلّ ذو قدرة وحكمة، فأظهرَ أشياء عن وصف القدرة، وأجرى أشياء عن معانى الحكمة؛ فلا يُسْقِط المتوكِّل ما أثبت من حِكمته؛ لأجل ما شهد هو من قدرته من قِبَل أن الله تعالى حكيم.

فالحكمة صفته، ولا يثبت المتوكِّلُ الأشياءَ حاكمةً جاعلةً نافعةً ضارةً؛ فيُشرك فى توحيده، من قِبَل أن الله قادر والقدرة صفته، وأنه حاكم جاعل ضارٌّ نافع، لا شريكَ له فى أسمائه، ولا ظهيرَ له فى أحكامه، كما قال عزّ وجل: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لله﴾ [الأنعام: ٥٧]، ﴿وَلا يُشْرِكُ فى حُكْمه أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦]، وكما قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنهُم مِنْ ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢].

الشّرك: الخَلط. والظّهير: المُعين. كما هو الفاعلُ لكلِّ شىءٍ وحدَه؛ لأنَّهُ هو الأولُ، كذلك هو القائمُ به، المتمِّمُ له بعد ظهوره وحْدَه؛ لأنّه هو الآخرُ.

فالدهريَّة: أَلْحَدَت فى أسمائه، فقالوا: نحن الأوّل والآخر، لأنّا فاعلين، والأفعالُ تظهر عنَّا وتُوجد مِنَّا، فنحنُ شهادةٌ لنفوسنا، ولا نؤمن بالغيب.

والقَدَريّة: أَلْحَدَت فى اسمه الأوّل، فقالوا: نحن الأوَّلُ فى الشَّرِّ لأفعالنا، باستطاعتِنا واكتسابِنا بنفوسِنا، والله الآخرُ بالعُقوبة.

والموَحِّدون: قالوا: اللهُ الأوَّلُ بالقضاءِ والقَدَر، كما هو الآخرُ بالعِقاب والأجْرِ، فوحَّدَهُ هؤلاء فى الأسماءِ بشهادة التوحيدِ فيها.

وألحدَ الآخرُ فى أسمائه، فكَفَرَ الدَّهْريون بالتّوحيد، وأشركَ القَدَرِيُّون فى الاستطاعةِ والقُدرة، ﴿يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِين كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُم اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠]، ﴿ولله الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوه بِهَا وذَرُوا الَّذِين يُلْحِدُونَ فى

أسمائه سيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فتدبَّرُوا.

ثم إنَّ المتوكِّلَ مع مشاهدته قدرةَ الله على الأشياء، وأنّه منفردٌ بالتقدير والتدبير، قائمٌ بالملك والمملوك، هو أيضًا عالمٌ بوجوهِ الحكمةِ فى التصريف والتقليب، بإظهارِ الأسبابِ الأواسط لإظهارِ الأشخاصِ والأشباحِ، لإيقاع الأحكامِ على المحكوم، وعودِ الثوابِ والعقابِ على المرسوم، من حيث كان المتوكّل قائمًا بأحكام الشريعة، ملتزمًا لمطالبات العلم، مع تسليمه الحكمَ الأوّلَ لله، واعترافه أن كلاً بقَدَر الله؛ إذ سمع الله تعالى يقول: **﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾** [الأنبياء: ٢٣]، وأنّ الله تعالى فى جميعِ ما أظهر أخفَى قدرتَه فى حكَمه؛ فظهرتْ حكمتُه فى الأشياء لعود الأحكام على المظهرين لها، وبَطَنت قدرتُه فى الأشياءِ لرجوع الأمرِ كلِّه إليه، ولإتقانِ الصنعةِ الظاهرةِ لصُنع الباطن.

فلذلك قال عزّ وجلّ: **﴿صُنْعَ الله الَّذى أَتْقَنَ كُلَّ شَىْء﴾** [النمل: ٨٨]، أى: صنعُه الباطنُ أتقن صنعَه الظاهرَ. ثم قال تعالى: **﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ﴾** من الظاهر والباطن **﴿فاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْه﴾** [هود: ١٢٣] فى جميع ذلك.

فللعارف المتوكِّل من الصّنع الباطن شهادةٌ، هو قائمٌ بها، وله فى الحكمة الظاهرة عِلْمُ شرعٍ وتسليمُ اسمٍ، ورَسْمٌ هو عامل به، وهذا هو شهادةُ التوحيد فى عبادة التفضيل، وهو مقامُ العلماءِ الربانيين.

وكلُّ مؤمنٍ بالله متوكّلٌ على الله، ولكن توكُّل كلِّ عبدٍ على قدر يقينه. فتوكّلُ الخصوصِ ما قدَّمناه من ذكْرِ المشاهدةِ ومعانى الرضا بانتفاء وجه المضادَّةِ لاعتبار الهوى، وتوكّلُ العمومِ ما عَقَّبناه من الإيمان بالأقدار خيرِها وشرِّها.

وقد أخبر الله تعالى أنه هو الرزاق، كما هو الخالق، كما هو المحيى المميت، فقَرَن بين هذه الأربع فى قرن واحد مع ترتيب الحكمة، يتبعها نظامُ القُدرة. فكيف يختلف معناها؟ أم كيف لا تأتلف حِكَمه بها؟ بل كيف يتبَعَّض وَصْفُها لظهور الأسباب، ولأجل وجود الوسائط والأبواب؟ فقال سبحانه وتعالى: **﴿اللهُ الَّذى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُميتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾** [الروم: ٤٠]، فكما ليس فى الثلاث

الأُخَر جاعلٌ ومُظهِرٌ إلا الواحد؛ فكذا ليس فى الرابعةِ من الرزق إلا هو. ألا ترى أنك لا تقول: خلقنى أبى، وإن كان هو سبب خلقك؟ ولا تقول: أحيانى وأماتنى فلانٌ، وإن كان أواسط فى الإحياء والقتل؛ لأنّ هذا شرك ظاهر اشتُهر قبحه فترُك؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَا تُمْنُونَ * أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَم نَحْنُ الخالقُونَ﴾ [الواقعة:٥٨ ـ ٥٩]، وكذلك قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُم تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ [الواقعة:٦٣ ـ ٦٤]. فأضاف الإمناءَ والحرثَ إلينا؛ لأنّها أعمال، ونحن عبيدٌ عمَّال؛ ولأنّها صفاتنا، وأحكامها عائدةٌ علينا؛ وأضافَ الخلْقَ والزّرع إليه؛ لأنها آيات عن قدرته وحكمته، والله هو القادر الحكيم.

فأمّا إنزالُ الماء مِن المُزْنِ، وإبداعُ الخلقِ، [فهو فعلُ] عمومٍ؛ لأنّه فعلُ اللهِ صِرفًا، بغيرِ يدٍ مخلوقةٍ. وكذلك الأوّلانِ من غيرِ [شبهة]. ولكن دخول الشبهات فى التوحيد هو لضَعف شاهد اليقين، كما تدخل فى الإحياء والإماتةِ لمّا حاجَّ الكافرُ بهما، فادّعى وصفَ الرُّبوبية، أنْ آتاهُ اللهُ الملكَ، قال: أنا أُحيى وأميت، أقتلُ رجلاً، وأخلّى آخر قد وجبَ قتلُه، فأكون قد أحييتُه. فما جادلَه إبراهيمُ ﷺ فى حجاجِه، ولا نقَضَ عليه شبُهته باحتجاجِه، [ولكن أتاهُ] من غيرِ فعله، فقال: ﴿فَإِنَّ اللهَ يَأتى بالشَّمْسِ﴾ [البقرة:٢٥٨] الآية، فأبهته إذ ذكر له شيئًا لا يدَ له فيه؛ لأنّ الذى يأتى بالشمس من مشرقها عندَ الموحِّدين، هو الذى يحيى ويميت نفوسهم (. . .) الكافر عند ذلك لدخولِ الشبهة بفعله. فلما ذكر ما لا بد فيه بهت (. . .) المعاينين للقُدرة، الناظرين بعينِ اليقين إلى اليدِ القادرةِ (. . .) وجود الشّبهاتِ من الشِّرك الخفى لا يخرجه إلا التوحيد (. . .)[1] النفس دكًا، تلاشى بحضوره، ويجد القلبُ كلَّ مَن عليها فانٍ، ويبقى وَجْهُ ربك ذو الجلال والإكرام.

وكذلك كل ما ذُكر فى الكتابِ من الأعمالِ والاكْتساب أُضيف إلى الجوارحِ المجترحة؛ لتتحقق به أسماؤها، ونُسبت إلى الأداوتِ المكتسبة ليثبت به رُسُومُها، وما كان من القُدرة والإرادةِ ووَصْف نفسه به؛ لأنّه المريدُ الأولُ، والقادرُ الأعلى،

---

(١) هذه المواضع غير مقروءة فى المخطوط، وهى قدر نصف سطر فى كل موضع.

فافهم عن الله خطابه؛ كيلا يَزِغْ قلبُك فيما تشابه، ذلك تقدير العزيز العليم، وتفصيل اللطيف الحكيم. والسّرّ غامض فى قعر ذلك، وإفشاؤهُ ليس من البرِّ، والقدرة محيطة بجميع ذلك، وإخفاؤها رحمةً من البَرِّ.

ثم قد يقول العبدُ: أعطانى ومنعنى فلان؛ لأنّ هذا شِرْك خفىٌّ، ولأنّ الأسباب تظهر على أيديهم، والأقدارُ تجرى بلُطفها فيهم، قد جُعلوا أواسطها، وصُيِّروا أبوابها، وعنده مفاتحُ غيبها، وعندهم أقفال شهادتها، واللهُ غَالبٌ على أمْرِه، أن يُظهر على ما أَبْطَنَ من سِرِّه، فقد غَلبَ الخليقةَ به، وقهَر العبادَ أن يَظْهَرُوا عليه، فحُجِبوا بالأسبابِ عن المقدِّر الوهَّاب، ولو ارْتَقَوْا فى الأسبابِ لَعايَنُوا المسبِّبَ التَّوابَ.

فاسْتَتر عنهم المعطى المانعُ بقدرِ ما انكشف من الأماكن والصّنائعِ فهو شِرْكٌ خفى، فقبُح هذا عند المُخْلصين بالتّوحيد، والموقنين بشهادة الشّهيدِ، كقُبْحِ ذاك الشِّرك الظاهر الجلىِّ الذى قدَّمنا ذكره؛ لأنَّ اللهَ تعالى نفى الرِّزق عن سِواه، كما نفَى الخَلْق، فقال تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ الله يَرْزُقُكُم﴾ [فاطر:٣]؟ فلم يردَّ اللفظَ على اللفظ وإن حَسُن، فيقول: يخلقكم، لأنّه أراد إفادتنا فضْل بيانٍ، ويعلِّمنا اقترانَ الرّزْقِ بالخِلقة، وأنهما فى العَقْل والقُدْرةِ سِيَّان.

فالمتوكِّل قد أيقن أنّه لم يكن على الله أن يخلقَه، فلمّا خَلَقَهُ كان عليه أن يرزُقَه. وهكذا رُوى عن الله تعالى: «أأخْلُق خَلْقًا ولا أَرْزُقُه؟».

كما رُوينا عن رسول الله ﷺ: «لو هَربَ أَحَدُكم مِن رِزْقه لأَدْرَكَهُ رزقُه، كما لو هَربَ من الموتِ لأدْرَكَه»، فسوَّى بين دَرْكِ الرِّزق وإدراكِ الأجَلِ، كما لم يكن على الله أن يحييه أولاً، فلمّا أحياهُ كان على الله تعالى بعد أن أحياه أن يميته ثانيًا؛ لأنّه مميتُ الأحياءِ بعزِّه وقَهْرِه. كذلك عليه أن يرزقَه ثانيًا، بعد أن خلقه بكرمِهِ وفضْلِه أولاً؛ لأنّه أوجبَ على نفسِه أن يرزقَ الأحياءَ، كما أوجبَ لنفسِهِ أن يحيى الأمواتَ.

وكان سهْلٌ يقول: لو أن العبدَ سأل الله أن لا يرزقه ما استجابَ له أبدًا، ولقال

اسكت يا أحمق، لو لم أُرِدْ أن أرزقك ما خَلَقتُكَ، أنا الذى خلَقْتُك لا بُدَّ أن أَرزقَكَ كما خلقتُك.

وقال الرسول ﷺ: «لا مانع لما أعطيتَ، ولا معطى لما منعتَ، ولا يَنْفَعُ ذا الجَدِّ منك الجَدُّ». ردًا عليهم حين قالوا: جَدِّى فى كذا، وجَدِّى فى كذا، يعنون صنوفَ الأسبابِ. فنفى ذلك بقوله هذا فى صلاته، وأسمعهم إيَّاهُ؛ خشيةَ دُخُولِ الشِّرْكِ عليهم بآياته التى جعلها مثابًا لأرزاقه أن ينظروا إليها، فيُلحدُوا فى التوحيد بها. أى جدُّ العبدِ لا ينفعه منك شيئًا إن منعته، فهذا كما قال الله تعالى: ﴿**وإنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِى مِنَ الحقِّ شَيْئًا**﴾ [النجم: ٢٨].

وكان أبو محمد يقول فى تأويل هذا: من جَدَّ فى الطّلبِ، وحَرَصَ، وجَدَّ منك المنعُ، لم ينفعه جَدُّه فى طلبه وحرصه شيئًا. وقال أيضًا فى معنى قولِ الله عزّ وجلّ: ﴿**يَمْحُو اللهُ ما يَشاءُ ويُثْبِتُ**﴾ [الرعد: ٣٩] قال: يمحو الأسبابَ من قلوب العارفين ويُثبتُ القدرةَ، ويمحو المشاهدة من قلوب الغافلين ويثبت الأسبابَ فى صدُورهم. وقال أيضًا: خلَقَ اللهُ النفسَ متحركةً، ثم أمرَها بالسُّكون؛ وهذا هو الابتلاء. فإن تداركها بالعِصمة سكنَتْ وهذا خُصوص، وإن تَركها تحرّكت بطَبْعها وجبِلَّتها، وهذا هو الخذلان منه. يشهد لقوله هذا قولُ الله سبحانه: ﴿**خُلِقَ الإنْسانُ من عَجَلٍ**﴾ فهذا خبرُ الخِلْقةِ، ثم قال فى بلوى الأمرِ: ﴿**سأُرِيكُم آياتِى فلا تَسْتَعْجِلُون**﴾ [الأنبياء: ٣٧].

وكان الخوَّاصُ يُرتب بين الخُصوص والعموم بوجود الحركة والسُّكون، فقال: القُلوب على حالين، فمَن دامت حركتُه وسعيُهُ كان موصُوفًا بنفسه لغَلَبَةِ شاهد النَّفس عليه؛ لقوله: ﴿**وكَانَ الإنْسَانُ عَجُولاً**﴾ [الإسراء: ١١]، ومن دامَ سكونُهُ كان موصوفًا بالحق لغلبةِ شاهدِ الحقِّ فى سكِينته؛ لقوله: ﴿**أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ القُلُوبُ**﴾ [الرعد: ٢٨].

وقال النّهرجورى فى معناه: قلوبُ الأولياءِ مواضعُ المطالعِ، لا يتحرك ولا يَنْزَعِجِ، بل تطمئن خو(. . .) مناجاة، فطالعَهُ فيجدهُ مُتَوَسِّمًا بسوء الأدب.

فالمتوكِّلُ (. . .) وحُكمه، ففعلُه ظاهر، ووصفُه باطنٌ. واللهُ هو الظاهرُ الباطن (. . .) والله هو الحاكم الراسم. فتفكَّرُوا.

وقال بعض أهلِ المعرفة فى تأويل قوله تعالى: ﴿ورزْقُ ربِّكَ خَيْرٌ وأَبْقَى﴾ [طه: ١٣١]: هو التوكُّل، لأنَّه أبقى للعبدِ من (. . .)[١] والتَّعبِ.

وفى وصيَّة لقمان لابنه: «يا بنى، اردد رغبتَك إلى الله، إن شاء أعطاك، وإن شاءَ مَنعك، فإنّ حيلتك لن تَزيدَكَ ولن تَنْقُصك من قِسمةِ الله التى قَسَم لك، واعتَبِرْ رزقَك بخَلْقك، فإن استطعْتَ أن تزيد فى خلقك بحيلتك فإنك إذًا تزيدَ فى رزقك، وإلا فاعْلَمْ أنّ الله هو الذى عَدَلَ الخلق وقَسَّم الرزق، فلن تستطيعَ أن تَزيد فى أحدٍ منهما، وإنَّ منهم المحتالَ الجلدَ البطوش، ولا يزدادُ إلا فقرًا، ومنهم العَيِيُّ الواهنُ المهين، ولا يزداد مالُه إلا كثرة، ولو كان من الحيلة لَسبق القويُّ الضعيفَ إلى كل شىء، ولكنَّ اللهَ يخلق ويرزق، ولا يَمْلِك العبادُ من ذلك شيئًا».

فهذا كما كنا ذكرناه آنفًا عن نبينا ﷺ: «من ظَنَّ أن حرصه يزيد فى رزقه فليَزد فى طوله وعرضه».

وهكذا حُكى أن بعضَ الأكاسرة سأل حكيمًا فى زمانه فقال: ما بالى أرى العاقلَ محرومًا والأحمقَ مرزوقًا؟ فقال: أراد الصانعُ أن يدلَّ على نفسه، ولو كان كلُّ عاقلٍ مرزوقًا، وكلُّ أحمق محرومًا، لوقع فى العقول أن العاقلَ يرزق نفسَه، والأحمقَ حَرَم نفسَه، فلما رأوا الأمر بخلاف هذا علموا أن الصانعَ هو الرازق.

ورُوينا عن ابن مسعود: إن فى إعطاء هذا المال فتنةً وفى منعه فتنةً؛ إن أُعْطِيه عبدٌ مدَحَ غير الذى أعطاه، وإن مُنِعَه عبدٌ ذَمَّ غيرَ الذى منعه.

وقد رُوينا معناه فى حديث مطرِّف عن بعض أصحاب النبى ﷺ أنه خطب فقال: «ألا إنّ فى إعطاء هذا المال فتنةً، وفى منعه فتنةً: يغدو الرجل إلى ابن عمه، فيسأله الحاجةَ التى قد كتبها اللهُ له، فلا يملك منعَه؛ فيعطيه ما كُتب له،

---

(١) فى المواضع السابقة كلمات غير مقروءة، قدر ثلاث كلمات فى كل موضع.

فيظل يشكره، ويثنى عليه بها خيرًا، ثم يعود إليه العامَ المقبلَ، فيسأله الحاجةَ التى لم يَكْتُبها الله له، فلا يملك أن يعطيَه، كما لم يَملك فى العام الأول أن يمنعه، فيمنعه ما لم يُكْتَب له، فيرجع يحتقبها عليه ذنبًا، ويثنى عليه بها شرًا. ألاَ فإنّ فى إعطاء هذا المال فتنةً، وفى منعه فتنةً».

[سقتُ لفظ هذا الخبر على المعنى] ولم آل. ويعنى بالفتنة: الاختبار.

وصدق ﷺ، يختبر بذلك الموقنين للخير والغافلين؛ لينظر كيف يعملون. فأما أهل اليقين فيعتبرون الأسباب، ويُعجبون من التّسبُّب، ويشهدون النعمةَ بذلك من المنعم، فيزدادون بذلك هُدًى وإيمانًا لشُهودهم المعطىَ المانعَ واحدًا فى العطاء والمنع، ولمعرفتهم بجريان الحكمةِ فيما جاءتْ به الشريعة، فيُثْبِتُ لهم مقامات الشّكر له، والصبر عليه.

وأما الغافلون فَيضطربون لذلك، ويَتشتَّتُون لنَظَرِهم إلى الأسباب والأيدى؛ فيمدحون المُعْطين، ويذمُّون المانعين عندهم، فينقصون بذلك. فقد صار المال فتنةً للفريقين معًا، يكشف إيمانهم، ويمتحن للتقوى قلوبَهم.

وكذلك جاء فى الخبر: «إن العبدَ لَيهمُّ من الليل بالأمر من أمور الدنيا من التجارة وغيرها، الذى لو فعله كان فيه هلكتُه، فينظر الله إليه من فوق عرشه، فيصرفه عنه، فيُصبْح كئيبًا حزينًا، يتطيَّر بجاره وبابنِ عمه: من سبقنى؟! من دهانى؟! وما هو إلا رحمةٌ رَحِمَهُ اللهُ بها».

وعن ابن مسعود أنه قال: من الإخلاص أن لا تحبّ أن يحمدَك الناسُ على عبادةِ الله، وأن لا تمدحهم على ما رزقكَ اللهُ.

وقد رُوينا عن عيسى عليه السلام وعن ابن مسعود وغيره: «إنَّ من اليقين أن لا تحمدَ أحدًا على ما أعطاك الله، ولا تذمَّه على ما لم يؤتك اللهُ».

فإنّ الرزقَ لا يجرُّهُ حرصُ حرِيص، ولا يمنعه منعُ مانع. إنّ اللهَ جعلَ الرَّوحَ والراحةَ فى الرِّضا واليقين، وجعل الهمَّ والكربَ فى الشّكّ والسخط.

وقال ابن مسعود: اليقينُ الإيمانُ كلُّه.

وفى حديث الإفك الذى رواه معمر بن أبان، عن حمدان الزهرى، عن عروة، عن عائشة رضى الله عنها أنها قالتْ: فقام إلىّ أبواى، فقبّلانى فى صدورهما، فقلْتُ: بغير حمدكما، ولا حمدِ صاحبكما، أحمد الله تعالى الذى عزّزنى وبرّأنى.

وفى حديثِ غيره: «فقال لها أبو بكر: قُومى فقبِّلى رأسَ رسولِ الله ﷺ. فقالت: والله لاً أفعل، ولا أحْمدُ إلا اللهَ. فقال النبى ﷺ: دعها يا أبا بكر».

فهذه المعانى التى قدَّمْنا ذكرها من قوّة رؤية الخلق، وضعف شهادة الحقّ، تكون من ضَعْف اليقين، ونُقْصان المعرفة بالحق المبين. فإذا انطوتْ فى سرّ العبد وخلَده، وكثُرتْ مِن قوله وفعله، أذهَبتْ حقيقةَ الإيمان، وشعَّثَت شُعاعَ أنواره، وولَّدت النفاق، وزرعت الشك. كما قال عبد الله[1]: إنَّ العبد ليخرج من منزله ومعه إيمانُه، فيرجع إلى منزله وليس معه من إيمانِه شىءٌ؛ يلقى الرجلَ لا يملك له ضرًا ولا نفعًا، فيقول: إنّك لذيت وذيت، ويلقى الآخرَ كذلك؛ حتى يرجع إلى منزله ـ ولعله لم يَخْل منهم بشىء ـ وقد أسخط اللهَ عليه.

وسُئِل عالمنا أبو محمد، رحمه الله، عن معنى الخبر المنقول من التّوراة: «مَن تَواضعَ لغنىٍّ ذَهَب ثُلُثا دِينه»، فقال: لأن الإيمانَ عقدٌ، وفِعل، وقَوْل. فإذا تواضع للغنىّ لأجل دنياه بالثناء والحركةِ إليه ذَهَبَ ثُلثا إيمانه، وبقى الثلثُ وهو العَقْد.

فإن جعلْتَ الأواسطَ فى الرزق أوائلَ فى الجَعْل لثبوتها، فإن الله تعالى قد أظهرها أسبابًا، وأثبَتَ نفسَه فيها، فقال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١]. ثم رفعه وأظهر نفسه فقال تعالى: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢].

وكذلك فى التّفْصيل: ﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ [الأعراف: ٣٠]، وقال فى التّوحيد: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ [الأعراف: ٢٧].

---

(١) يعنى عبد الله بن مسعود رضى الله عنه.

وقال فى المُتشابِه: ﴿وأضَلَّهُمُ السَّامِرِىُّ﴾ [طه:٨٥]، وقال فى المُحكَم: ﴿إنْ هِىَ إلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِها مَن تَشاءُ﴾ [الأعراف:١٥٥].

وقال فى الوَسِيلةِ: ﴿يا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِم﴾ [البقرة:٣٣]، ثم رَدَّهم إلى التّوحيد بعد أن علَّمهم الواسِطَة عنه فقال: ﴿أَلَمْ أَقُل لَكُم إِنِّى أَعْلَمُ﴾ [البقرة:٣٣] ولم يقل: إنّ آدَم، فَتَفهَّم.

وكذلك قال: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ [الواقعة:٦٣]، فذكر الأواسط، ثم قال: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا المَاءَ صبًا * ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا﴾ [عبس:٢٥ ـ ٢٦]. وقال فى التفصيل: ﴿فَأَرْسَلْنا إِلَيْها رُوحَنَا﴾ [مريم:١٧]، ثم قال تعالى فى التوحيد: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء:٩١]، وكان النافخَ جبريلُ عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة:١٨].

قال أهل التَّفسير: فإذا قرأهُ عليكَ جِبريلُ عليه السّلام فَخُذْهُ عنه، بعد قوله تعالى: ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ [القيامة:١٦].

وكذلك قال جِبريل عليه السلام: ﴿لأَهَبَ لكِ غُلامًا ذَكِيًّا﴾ [مريم:١٩]. فالله تعالى وهَبَ له أن يَهَب لها، فذكر نفسه، وهو يشهد ربَّه. وقال فى الحرف الآخر: «لِيَهَبَ لَكِ» يعنى: الله تعالى.

ومثله قول موسى ﷺ: ﴿لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِى وأَخِى﴾ [المائدة:٢٥]؛ لأجلِ أنَّ الله تعالى قال: ﴿وَوَهَبْنَا له مِن رَّحْمَتِنا أَخَاهُ﴾ [مريم:٥٣]، وهو فى الحقيقةِ لا يملكُ نَفْسَه ولا أَخاهُ، إذ لا مالِك فى الأَصْلِ إلا الله تعالى. وهذا على أحد الوَجْهَين؛ إِذَا كان ﴿وأَخِى﴾ فى موضع نصب. والوجهُ الآخرُ: أن يكون قوله ﴿وأَخِى﴾ موضع رفْعٍ؛ فيكون المعنى: وأخى أيضًا لا يملك إلا نفسه.

وكذلك قال سبحانه وتعالى فى التّفصيل والأَمرِ: ﴿فاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة:٥]. وفى مثله من ذِكر الواسِطة لأَجْلِ الأَمْرِ: ﴿قَاتِلُوهُم يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بأيديكُمْ﴾ [التوبة:١٤]. ثم قال فى التّوحيد: ﴿فلَمْ تَقْتُلُوهُم ولكِنَّ اللهَ قَتَلَهُم﴾ [الأنفال:١٧].

وقال في إثباتِ الأسبابِ، ورفع حقيقتها: ﴿يا آدَمُ أَنبِئْهُم بأسْمائِهِم﴾ فأثبت رسْمَهَ مكانًا للعِلْمِ، ثم رفع حُكْمَهَ إظهارًا للعالم، فكما قال: ﴿أَنبِئْهم بأَسْمائِهِم﴾ قال: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لكُم إنِّى أَعْلَمُ﴾. فهذا كما قال للملائكة: ﴿اسْجُدُوا لآدَمَ﴾ [البقرة:٣٤] فحقيقته: كان هو قِبلةً، وكان المسْجُودُ له هو اللهُ عزَّ وجلَّ.

وقال في ذكر الوسائط: ﴿فلا تُعْجِبْكَ أمْوالُهُم ولا أوْلاَدُهُم إنَّما يُريدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُم بها﴾ [التوبة:٥٥]. وقال في مثله: ﴿الَّذى عَلَّمَ بالقَلَم﴾ [العلق:٤]. وقال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ القُرْآنَ﴾ [الرحمن:١ ـ ٢]. وقال تعالى: ﴿عَلَّمَهُ البَيَانَ﴾ [الرحمن:٤]. وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ﴾ [القيامة:١٩].

وكما قال في التَّفصِيل لتَثْبيت الأحكامِ، وتَفْصِيلِ الأنامِ... [1] ﴿كتابٌ أنزَلْناهُ إلَيْكَ لتُخْرِجَ النَّاسَ منَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ﴾ [إبراهيم:١]. وفي مثله: ﴿وإنَّكَ لَتَهْدِى إلى صراطٍ مُسْتَقيمٍ﴾ [الشورى:٥٢]. ثم رفَعَهُ في التَّوحيدِ، وأثْبَت نفْسَه فقال: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم منَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧]. وقال في مثله: ﴿إنَّكَ لا تَهْدِى مَنْ أحْبَبْتَ﴾ [القصص:٥٦]، وبمعناها: ﴿وأَضَلَّهُمُ السَّامِرِىُّ﴾ [طه:٨٥]، والتوحيد: ﴿تُضِلُّ بِها مَنْ تشاءُ﴾ [الأعراف:١٥٥]. وقال في نَفْي الأوَّلية والآخرية من فعل الخَلْق للتَّوحيد: ﴿وما رَمَيْتَ... ولكنَّ اللهَ رَمَى﴾، وقال في إثبَاتِ المكانِ للتَّفْصِيل: ﴿إذْ رَمَيْتَ﴾ [الأنفال:١٧]. فاللهُ الأولُ في الحُكْم، والعبدُ أوسطُ، فلا يعجبك. واللهُ هو الآخِرُ في الإعادَةِ؛ لأنَّهُ يُبْدِئُ ويُعِيد، والعبدُ ظرفٌ للإبداءِ والتجديد.

وقال في تثبيت الأملاك وبيعها منه بالأعْواضِ؛ كَرَمًا منه وفَضْلاً: ﴿إنَّ اللهَ اشْتَرَى منَ المُؤْمنينَ أنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ [التوبة:١١١] فجازَ ذلك لما ملَّكَهُم مالَهُ، كقوله تعالى: ﴿إلاَّ ما مَلَكَتْ أَيمانُكُم﴾ [النساء:٢٤].

---

(١) بياض وكلام غير مقروء بالأصل.

وعند أهْلِ المعرفةِ أَنْ لا فاعِلَ حقيقةً إلا الله عزّ وجلّ؛ لأن حقيقة الفاعل هو الذى لا يَسْتعينُ بغيره بآلةٍ ولا سببٍ، وعندهم أن فِعْلاً لا يتأتى من فاعلَيْن، وإلا كان شركًا؛ لأن الفاعلَ الثانى المُظْهِر الذى فعل بيده وأجْرى الفعلَ بِواسِطتهِ هو ثانٍ، ومُحْدَثٌ، ومفعولٌ، والأوّلُ القديمُ هو الفاعِلُ الأَصْلى.

كما أنَّ عندَهُم أنَّ حَقِيقةَ المالك هو الخَالِقُ للشىء، والذى يقلب عينَ الشىءِ إلى غيره، ومَن يَقْدِر على إعادتهِ بعد أن أَبْداهُ، ومَنْ جُعِلَ فى يده مُمَلَّك؛ لأنه لم يَخلُق ما بيده، كما المُجْرَى على يده الفِعْلُ مفعول؛ لأنّه ثانٍ فيه، وأوسط به، ولا يقدر على تلفِ عينه، ولا إعدامه، إذ لم يقدر على إيجاده، ولأنَّ اللهَ هو الأوّلُ القَيُّومُ بِنَفْسِهِ لا يَسْتَعِينُ بغيره، كذلك المالكُ للشىء هو مُظهِرُهُ، وخالقُه كَوْنًا، ومَشيئًا عن تكوينه ومشيئته.

وقد جعل اللهُ أيضًا بحكمتِه وعزته عن مُباشرة الأشياء للخِلْقة والحياةِ واسطةً، وهُو مَلَكُ الأرحام، فى الخبر: «أنّه يَدْخلُ الرحِمَ، فيأخذ النطفةَ فى يدِه، ثمَّ يُصورِّها جَسَدًا، فيقول: يا ربّ، أذكرٌ أم أنثى؟ أسوِىٌّ أم مُعَوَّج؟ فيقول الله ما شاء، ويصورِّ المَلك».

وفى لفظ آخر: «يَخْلُق الملكُ، ثم ينفخ فيها الروحَ بالشقاوة أو بالسعادة».

ويقال: إنّ المَلك الذى يقال له: الرّوح، هو الذى يُولِج الأرواحَ فى الأجساد. ويقال: إنه يتنفَّس بوصفه، فيكون كلُّ نفس من أنفاسه روحًا يلج فى جسم؛ ولذلك سُمِّى الروح.

فصار العبدُ يظهر بين أربعة، وهى حدودُ الحكمة: ظاهران: وهما الأبَوان، وباطنان: وهما مَلَك الأرحامِ، ومَلَك الأرواح.

وقد قال الله تعالى فى وصف نفسه: ﴿الْبارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾، كما قال: ﴿الْخَالِقُ﴾ [الحشر: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ [الملك: ٢].

وقد جعل للأحياءِ واسطةً، كما جعل للموت، وهو إسرافيل صاحب الصور، ينفخ فيه النفخةَ الثانية؛ فيحيا كلُّ ميت، ثم يَرْفعُه الله تعالى، فقال: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ

فِى الصُّورِ﴾ [النمل:٨٧]، ووصف نفسه بأنه المحيى المميت.

وفى بعض الأخبار: «إنّ مَلكَ الموت ومَلَكَ الحياة تناظرا، فقال مَلكُ الموتِ: أنا أُميتُ الأحياءَ. وقال مَلَكُ الحياةِ: أنا أُحْيِى كلَّ ميت. فأوْحَى اللهُ إليهما: كونا على عملكما وما سُخِّرتما له من الصنع، فأنا المميت وأنا المحيى، ولا مميت ولا محيى سواى». وكذلك أيضًا قيل عن الله تعالى: «أنا الدليلُ على نفسى، ولا دليلَ علىَّ أدل منى».

ولم يَمْنَع وجودُ هذه الأواسط أن يكون الله سبحانه هو الأوّل فى كل شىء، وهو الفاعلُ لكل شىء، وحدَه لا شريكَ له فى شىء، وأَنَّ الكونَ كلَّه مكانٌ لجريان الأفعال؛ الإرادةُ أولُه، والقدرة من ورائه.

ولم يقل أحدٌ من المسلمين: المَلَك خلقنى، ولا: عزرائيل أماتنى، ولا: إسرافيل قد أحيانى كذلك. أيضًا لا يصلح أن يقول الموقِن المشاهدُ للتّوحيد: فلانٌ أعطانى أو منعنى، كما لا يقول: فلانٌ رزقنى، ولا: فلان قَدر علىَّ. وإن جُعل واسطةً وسببًا للتقدير، وأُجرى على يديه ذلك؛ لأنّ العطاءَ هو الرِّزْق، والمنْعَ هو القَدَر، وإلا كان عندهم مُشركًا فى أسماء الله غيره، إذ كان اللهُ هو المُعْطِى المانعَ الضّارَّ النّافعَ، كما هو المحيى المميت، لا شريكَ له فى مُلْكه، ولا ظهِيرَ له من عباده فى خلْقِه ورزْقه. وهذا عندهم يقدح فى حقيقة التوحيد للعبد، وهو من الشرك الخفى الذى جاء فى الأثر: «الشِّركُ فى أُمَّتِى أَخْفَى من دبيب النَّملِ فى اللَّيلةِ الظَّلماء».

وقال بعضهم فى معنى قولِه تعالى: **﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾** [يوسف:١٠٦] قال: مؤمنٌ بالإقرار؛ أنّ الله هو المقدِّر المدبِّر، ومُشْرِكٌ فى الاعتمادِ على الأسبابِ، ورَدِّ الأفعال إليها.

ومن الإخلاص عند المُخْلِصين بلا إله إلا الله، التى هى أصلُ التّوحيد، أن يشهَدُوا كذلك أنْ لا نافع ولا ضار ولا مُعْطِىَ ولا مانع إلا الله، ولا هادىَ ولا مُضلَّ إلا الله، كما أنه لا إله إلا الله. هذا عندهم فى قَرَنٍ واحدٍ، ومُشاهَدَةِ

واحدةٍ، وهو أوّلُ التّوحيدِ، وإن كان قد جَعَل هادين ومُضلِّين، كما جَعَلَ معطين ومانعين، ولكنْ بعد إذنه ومن بعد مَشيئته وحُكمه. كما قال تعالى: ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٤]، ﴿خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [المؤمنون:٧٢]، ﴿أَحْكَمُ الحَاكِمِينَ﴾ [هود:٤٥]، ولا خالق ولا حاكم حقيقةً إلا الأحد الصَّمد؛ لأنه خَلَقهم، وخَلَق خَلْقَهم، وَرَزَقهم، ورَزق رِزْقَهم. وكذلك هو هَدَاهم وهَدَى بهم، وأضلَّهم وأضلَّ بهم، فعن هدايته هَدوا به، وعن إضلاله ضَلّوا بعد إرادته، كما عن خلقه خَلَقوا، ومن رزقه رَزَقوا، وكيف وقد فسر ما ذكرناه بقوله: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِى﴾ [المائدة:١١٠]، وبقوله تعالى: ﴿لَوْ هَدَانَا اللهُ لَهَدَيْنَاكُمْ﴾ [إبراهيم:٢١]. وقال فى مثله: ﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾ [الصافات:٣٢].

وأُحْكِموا بوصفه من فِعْلِه، فقال: ﴿وجَعَلْنَاهُم أئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا﴾ [الأنبياء:٧٣] ﴿وجَعَلْنَاهُم أئمةً يَدْعُونَ إِلى النَّارِ﴾ [القصص:٤١]. كقوله فى المفصّل: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُم الشَّيْطانُ أَعْمَالَهُم﴾ [الأنفال:٤٨]، وقوله فى الموصَّل: ﴿زَيَّنَّا لكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُم﴾ [الأنعام:١٠٨]. فهو زيَّن للشَّيْطان أن يُزَيِّنَ، فَزَان عنده، بما أزانه عندهم، وزيَّن لهم من أَوْليائِه وحِزْبِه، بمعنى ما زيَّن اللهُ له من ضَلالِه وبُعْدِه.

فبمشاهدة ما ذكرناه يَخْرج العبد من الشِّرك الخَفِىّ، وهو تَحْقيق قوله: «لا إله إلا الله» بعد التصديق، أى: ليس مَن يَألْه القلوب وَتَأْلَه إليه إلا الله. ثم يقول معها: «وحدَه لا شريك له»؛ أى: وحدَه فى قدرته وتوحيده وحكمه، لا شريكَ له فى مُلْكه من خَلْقه. ثم وكّد ذلك بقوله: «له المُلْك»؛ أى: جميعُ ما أظهر، «وله الحمدُ» فى جميع ما أعْطَى ومَنَعَ، يستحق الحمدَ كله؛ فهو لا يستحقه غيره، «وهو على كل شىء قديرٌ»، أى: من الخلق والأمر.

فالقدرةُ كلُّها له والخلق كلُّه له، يحكم فى خلقه بأمره ما شاء كيف شاء. ومثْل الأواسط مِثْل الآلة بيد الصانع. ألاَ ترى أنه لا يقال: الشَّفرةُ حَذَت النعل، ولا: السّوطُ ضربَ العبدَ، إنّما يقال: الحذّاء حذَّ النعل، وفلان ضربَ عبدَه بالسوط. وإن كانت هذه الأواسط مباشرةً للأفعال، إلا أنها آلة بيد صانعها. وكذلك الخليقةُ

يباشرون الأسبابَ فى ظاهر العيان، والله من ورائهم محيطٌ، القادُر الفاعلُ بلطائف القُدْرة وخفَايا المشيئة. ألم ترَ إلى قولهم: الأميرُ أعطانى كذا، وخلَع علىَّ كذا؟ وإن لم يناولْه بيده، ولا يَصلُح أن يقول: خادمُ الأمير أعطانى؛ لأجل أنّه جرى على يده، وإن كان باشَر العطاءَ بنفسه؛ إذ قد علم أن الخادم لا يَمْلك ولا يتصرف فى ملك الأمير إلا بأمره، إلا أن يسألَ الإنسانُ: بيدِ من أعطاك الأمير؟ أو: على يد مَن وجَّهَ إليكَ بالعطاء؟ لبغيةٍ تكون للسائل فى معرفة أى عبدٍ جاء به. فيجوز أن يقول حينئذ: بيد عبدِه فلان. فَأمَّا أن يبتدئ المُعْطَى من غَير أن يُسْأل، إذا أراد أن يُظهر العطاء؛ فيقول: الأمير أعطانى على يد عبده فلان، فإنّ هذا لغو لا يُحتاج إلى ذكر العبد مع ذكر الملِك؛ لأنّ البُغْيَة إظهارُ العطاء من المَلِك المُعْطِى، فلا معنى لذكر العبد الذى جرى العطاء على يده، فافْهَمْ.

ومن ذلك قولُ النبى ﷺ للرجل الذى ناوله التمرة: «خذها، لو لم تأْتِها لأتتك». والتمرة لا تأتى، ولم يَقُلْ: لجاءك بها رجل؛ إذ لا بُغيةَ فى ذكر ذلك. ومن هذا قولُه ﷺ للرجل الذى قال: أتوب إلى الله، ولا أتوب إلى محمد، فقال: «عرَف الحقَّ لأهله».

وإنّما ذكر اللهُ تعالى الأسبابَ؛ لأنَّ الأسماءَ متعلقةٌ بها، والأحكامَ عائدةٌ على الأسماءِ بالثّواب والعقاب؛ فلم يصلح أن لا تُذْكَر؛ فتعود الأحكامُ على الحاكِم تعالى عن هذا، أنّه هو يبدئ ويعيد، يبدئ الأحكامَ من الحاكم، ويُعيدها على المحكوم، وهذا هو سبب إظهارِ المكانِ من المواتِ والحيوانِ؛ لئلا يكونَ تعالى محكومًا وهو الجليلُ الحاكم، ولا يكون مأمورًا وهو العزيز الآمرُ، وتوجَّهتِ الإقامةُ منه قِبَل المأموراتِ.

ومن هذا قولُه تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ الله بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦] فجميعًا عنده وفى خزائنه، إلا أنّه أضافَ الدّنيا إلينا؛ لرجوعِ الأحكامِ علينا، وليزهِّدَنا فيها، وأضافَ الآخرةَ إليه تخصيصًا لها وتفضيلاً؛ ليرغِّبنا فيها.

وكما أخبر عن عيسى: ﴿وإِذْ تَخلُقُ منَ الطِّينِ﴾ [المائدة: ١١٠]، ومثله ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾ [النساء: ٥] فسماه خالقًا إذ خلق اللهُ على يده، وسمَّاهم رازقين لما أجرى على

أيديهم رِزْقَ أهليهم، فهو عندى كقوله لمريم: ﴿**وَهُزِّى إِلَيْك بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُساقِطْ عَلَيْك رُطَبًا جَنيًا**﴾ [مريم:٢٥]، وقد علِمَتْ أن الرُّطَبَ لم يتساقط بهزِّها، ولا جُعْل ولا فِعْل لهزّها فى الرطب، ولكن أراد أن يُظْهِرَ كرامتَها، ويجعلَ الآلةَ منه بيدِها. ومثلُه: ﴿**ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَشَرابٌ**﴾ [ص:٤٢]، فنبعت عينان أشدُّ بياضًا من الثلج، وأحلى من العَسَل، فشرب من إحداهما فَغَسل ما فى جوفه وباطنه من البلاء، واغتسل من الأخرى، فأزَالَتْ ما فى جِسْمِه وظاهرِه من السَّقَم والأذى، ولا فِعْل لرِجله فى إظهار العينين؛ ولكنَّ اللهَ تعالى خلَق ذَلكَ على يده، وأجراهُ بواسطته، تكْرِمةً له، وآيةً وهبَها لَه. ومن ذلك قولُه تعالى لإبراهيم: ﴿**ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا**﴾ فجعلَ كيفيةَ إحياءِ المَوتى بيدِه سبحانه بدَعْوَته ﷺ، فكان ذلك جوابًا لمسألة: ﴿**أَرِنى كَيْفَ تُحيِى المَوْتَى**﴾ [البقرة:٢٦٠] ولا مكانَ له فى الإحياء، وكان اللهُ فى الدعوة كيفَ شاءَ، وكذلك المُوقن العارفُ يَنْطق عن الله، فيكون اللهُ تعالى هو المُظْهِر لبيانه، والمُجرى على لسانه، كما كلَّم مُوسى ﷺ من الشّجرةِ، فكان هُو لعبده، وصارت الشَّجَرةُ حجابًا لوَجْده، واللهُ غالبٌ على أمْرِه. وكما ينطق الرُّوحانىّ من الملائكة على ألسنة النَّبيّين، وينطق الجِنانىُّ من الأزْوَاجِ على ألسنةِ المَجانين، واللهُ مِن وَرَائِهم مُحيطٌ.

وقد قال الرسول ﷺ: «أَصْدَقُ كلمةٍ قال الشَّاعِرُ: أَلا كُلُّ شىءٍ ما خلا اللهَ باطلُ»، وهو يعلم ﷺ أنّ فى الأشياء أوَاسطَ حقٍّ، وأسبابَ صِدْقٍ، ثم لم يمنعه ذلك أن قال: أَصْدَقُ بيتٍ قالَه الشّاعر كذا، إيثارًا منه للتّوحيد، وتوحيدًا للمُتَوَحِّد، هذا مع قرب عهدهم بتكذيبِ الرُّسلِ، وإبطالِ الكُتُب. ولكن لما كانت الأشياءُ بعدَ أن لم تكن، ولا تكون بعد أن كانت، أشْبهَت الباطلَ الذى لا حقيقةَ له أوّلية، ولا ثباتَ له آخريةَ. وكان اللهُ تعالى الأوّلَ الأزلىَّ الآخرَ الأبدىَّ؛ فهو الحق ولا إله سواه.

ومَثَلُ الأسبابِ ـ أيضًا ـ فى ثوانيها وأواسِطِها إلى جنبِ الأوّلِ المسبِّب مَثَلُ ما يقول فى القرآن: قال الله كذا. ولك أن تقول: قال نوحٌ وقال يوسفُ كذا، فكلٌّ

صواب. فإذا قلتَ: قال اللهُ سبحانه وتعالى، فهو القائلُ الأوّل قبلَ القائلين، متكلِّمًا بوصفه مُخْبِرًا عن علمه، بغيرِ وقتٍ لموْقتٍ، ولا حدَّ لمحدودٍ، ولا حدَثان. وإن قلتَ: قال صالحٌ، وقال شعيبٌ، فقد قالوه، بأنّهم ثوانٍ في القول وأواسطُ به. قالوا ذلك عنه، بحدوث أوقاتٍ، وظهورِ أسبابٍ. كذلك الأسبابُ في أواسطها هي ثوانٍ عن الأوّلِ المبدئ.

ومن ههنا، وفي مثله، دخلت الشُّبْهةُ على المبتدِعين، فقالوا بخَلْقِ القُرآن. فلو لم يدخل عليهم إلا إنّهم جعلوا قول القائلين قبل قولِ الله أحكمِ الحاكمين، فأثبتوا قبل قولهِ قِيلاً، وهو القولُ منهم لنفْيِهم قِدمَ الكلامِ، فوقعوا بجَهْلهم في أعظمِ مما هَرَبوا منه؛ لأنّهم هربوا من إثبات قديم آخَر، بزَعْمِهم؛ فوقعوا في إثباتِ حَدَثٍ أوّلاً، وإحداثِ قِدَمٍ ثانيًا. تَعَالى اللهُ عمّا يقولُ الظّالمون الملحِدُون في أَسْمائِهِ وصِفاتِه عُلوًا كبيرًا، وسبحانه بكرةً وأصيلاً.

ولم يعلموا بجَهْلهم أَنّهم إنّما قالوه بعد قوله، فصار قولُهم عن قولِه، وكان هو الأوّلَ في القول، من حيث كان هو الأوّلَ بالقِدَم، والسابقَ بالعلم، وصاروا هم ثوانيَ في المقالِ، من حيث كانوا حوادثَ من الأفعالِ.

فكذلك أيضًا تَدْخُل الشبهةُ على الغافلين من ضَعْفِ اليقينِ لشُهود المانعين والمُنْفقين أوائلَ في الفعل، من قِبَلِ أنّ اللهَ تعالى أظهرَ العطاءَ والمنعَ بأيديهم، فشَهِدُوهُم مُعطين مانعين؛ لنقصانِ توحيدهم، فأشركوا في أسماءِ الله كما أشركَتِ المبتدعةُ في صفات الله عز وجل أَنْ حُجبوا عن شَهادة سَبْقِ عِلْم الله، كما حُجب الزّائغون عن حقيقة توحيد الله تعالى، إلا أنّ شرْكَ الزائغين ضلالٌ يَنقُل عن المِلّة، وهو شركٌ جَلِيٌّ، وشركُ ضُعفاءِ اليقين غَفْلةٌ وجَهْلٌ عن المِلّة؛ لأنَّه شِرْكٌ خَفِيٌّ.

وحُكِي أنّ بعضَ العلماءِ صلّى خلفَ رجلٍ، فلما انفتل الإمامُ نظر إليه في زيٍّ غيرِ مُتكسِّب، فقال: يا شَيخ مِن أين تأكل؟ فقال: اصبر حتى أعيدَ الصَّلاةَ التي صليتُها خلفَك، ثم أجيبك.

وحدثونا في معناه عن آخرَ: أنّه لزِم العكوفَ في المسجد، ولم يكن ذا مَعْلُوم مِن عيش، فقال له الإمامُ الذي يصلّي بالناس: لو تكسَّبتَ وتعيَّشْتَ كان أفضلَ

لك. فلم يجبه. فأعاد عليه وقتًا آخر نحو ذلك، فقال: يهودىٌّ فى جوار المسجد قد ضَمِن لى كلَّ يوم رغيفين، فقنعتُ بذلك، وتركتُ التكسُّب. فقال الإمام: إن كانَ صادقًا فى ضمانه، فإنّ عكوفَك فى المسجد خَيْرٌ لك، فقال له الرجل: يا هذا، أنت لو لم تكن إمامًا للمسلمين تقوم بينهم وبين الله لنَقْص توحيدك كان خيرًا لك.

وقد كان إبراهيمُ الخَوّاصُ يقول: ليس على العَبْدِ إلا أن يتقى الحرامَ من خشية الله، وعلى الله أن يسوق إليه الحلالَ، قال: ولا يَصلُح تركُ الحرامِ إلا بتركِ الشُّبهات التى تُخرجه إلى أخْذِ الحرامِ.

قال: وهذا هو التوكُّل اللازمُ المُتَعبِّدُ به العمومُ المُوَحّد بفَرْضِ الصَّبْرِ عن الحرام؛ لِئَلا تَغْلِبَ العَجَلةُ صبرَ العبدِ فى أخذ الحرام، حتى يُخرجَ اللهُ تَعالى إليه المضمونَ من أماكنهِ؛ إذْ كانوا لا يَسْلَمُون فى الحركةِ فيه، فهؤلاء أعْرفُ بأماكنه وأقدر على استخراجه[1]. وفى قوله تَعالى: ﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوكَّل المُتوكِّلُون﴾ [إبراهيم: ١٢] قال سعيد بن جبير: يعنى المصدِّقين للهِ تعالىَ فيما وَقَع تصديقُهم به من الوَعْد والوعيد.

قال إبراهيم: فهذا النّدبُ من الله بالعُموم، إذْ دعاهم إلى موْضعِ الفضل والشرف باستعمال التوكُّل المخْصُوص لِئَلا يُقيمُوا على حالِهم، ولا يطلبوا الرِّفْعةَ عنها، ولا الانتقالَ منها، يعنى: فيكون وقوفُهُم فى حالهم عِلَّةً لسكونهم إلى حالٍ، ورِضاهُم به دُون طلبِ المزيد من النّصيبِ من الله فى درجات القُرْب والانتقالِ، فينظرون إلى المَقامِ، أَو يُقْطَعُون بالحال، أو يَسْكُنون إلى الفضْل.

يقول: فندبهُ تعالى المتوكلين من العموم، وبعد إكمال حقِّ التوكّل، وبعد حُسْنِ القيامِ بحُكْمه إلى توكُّلِ المتوكِّلين من خُصوص المقرَّبين، لئلا يَقفُوا فى حالٍ، ولا ينظروا إلى مقامٍ، فيَحْجُبَهُم ذلك عن القَيُّومِ، ويُؤَدِّ بهم ذلك إلى علةٍ تنقصهم كمالَ العُموم.

---

(١) بعده فى الأصل: «قال مثل هذا الله تعالى بلُطفه، وحُسن نَظَرِه وتدأبُ العمومِ من التوكل المعمُومِ إلى التوكل المخصُوص. وأما المتحرفُون المغبّونَ».

فالقولُ في توكُّلِ الخصوصِ عليه في النّفوس، وفي شأنِ الآخرة بعد أن جعل لهم التوكُّل في أمور الدنيا، والمضمونِ من أسبابها، كالقول في زُهْد الزّاهدين في أعْراضِ الآخرة، بعد أن رُفِعُوا من الزُّهد في أسباب الدُّنيا، فرُفِعُوا من مقام الْمُنيبينَ إلى درجات المقرَّبين، لما رُفِعوا من الزُّهد في الدّنيا إلى طلبِ النَّصَب من اللهِ العليِّ الأعْلى، لا رغبةً في نعيمِ الجِنان، ولا في حُظوظِ الأجسامِ، فصارُوا من أهلِ اللهِ بعد أن كانُوا من أهل الآخرة.

قال الخوّاص: وقد حرَّض النبيُّ ﷺ على هذا التوكُّلِ، ورغَّب فيه، فذكرَ حديثَ ابنِ مسعودٍ عن النبي ﷺ: «عُرِضَتْ على الأنبياءِ وأُمَمِهم» قال في آخره: «فقلتُ: ربِّي أمتي. فقيل: انظر عن يمينكَ، فإذا بشر كثيرٌ، فقيل: انظر عن يساركَ، فنظرتُ فإذا سَوادٌ عَظيمٌ قد سَدّ الأُفُق. فقيل: هذه أمتك، أرضيتَ؟ قلتُ: ربِّي رضيتُ، قال: فإنّ لك سوَى هؤلاء سَبعين ألفًا يدخلون الجنةَ بغير حِسابٍ ولا عَذَابٍ. فقام عكَّاشةُ بنُ محْصَن، فقال: يا رسول الله، ادْعُ اللهَ أن يجعلَني منهم. فقال: اللهم اجْعَلْه منهم. ثم قامَ آخرُ، فقال: ادع اللهَ أن يَجْعَلَني منهم. فقال: سَبَقَكَ بِها عُكَّاشَةُ. فقال رسولُ الله ﷺ لأصحابه: إن استطَعْتُم أن تكُونُوا من هَؤُلاءِ فافعلوا. فتذاكَرْنا السَّبعين ألفًا، فقُلْنا: هُم قومٌ وُلِدُوا في الإسلام فماتوا عليه، فبلغَ ذلك النبيَّ ﷺ، فقال: بل هُم الذين لا يَسْتَرْقُون، ولا يكْتَوُون، ولا يَتَطَيَّرُونَ، وعلى ربِّهم يتوكَّلُون».

قال: فدلّ قولُ النبيّ ﷺ للرّجلِ «سبقَك بها عُكَّاشَةُ» أنّ هذا التوكُّلَ حالٌ عزيزٌ عَظيمٌ، لا يُعْطاه كلُّ أحد، ولا يَسْتَحقُّه. ودلَّ ما قيل للنبي ﷺ: «وإنّ لك سوى هؤلاء سبعينَ ألفًا» أنّهم لم يكونوا مَع مَنْ وراء النّبي ﷺ عن يمينه، ولا عَن شماله، وأنّهم كانُوا مُغَيَّبين مَحْجُوبين، صفاتُهم موجودةٌ، وأعيانُهم مفقودةٌ، يعني بهذا أن هؤلاء السبعين ألفًا عارفُونَ، فإنّ العارفين مَحْجُوبُون عن العُمومِ، وهم أهلُ التوكُّلِ المَخْصُوصِ من الخُصُوصِ، الذين ذكروا أنَّهم توكَّلُوا عليه في شأنِ الآخرةِ، وفي النُّفوس، فهم أَهْلُ اللهِ المُصْطَفَيْن الأَخْيار، من أهْلِ الآخرةِ، حَجَبَهُم لِعزَّتِهِم عَن الأَبْصارِ.

وحُدِّثْتُ أنّ اللهَ تعالى أَوْحى إلى بعض الصدِّيقين: «أدرِكْ لى لطفَ الفطْنة، وخفىَّ اللطف؛ فإنى أحبّ ذلك. قال: يا ربِّ، وما لُطف الفطنة؟ قال: إنْ وقعتْ عليك ذبابةٌ، فاْعلَم أنى أوْقَعتُها، فسَلْنى أرفعها. قال: وما خفىُّ اللُّطف؟ قال: إن أَتَتْكَ فُولَةٌ مسوّسة، فاعلم أنى قد ذكرتُك بها».

وهذا الذى ذكرناه من أنّ الله سبحانه وتعالى هو المعطى المانع، الضارّ النافع حيث كان، هو الخالقُ الرّازق كيف شاء، ومَتى شاء، وبمَن شاء. هو فى عُقود عمومِ المؤمنين وفى عِلمهم، إلا أنّ فيهم جَهْلاً بالحِكْمة، وغَفْلةً عن الحاكم، يحيلون ذلك إلى عاداتهم، ويُريدون أن يكون رزقُهم من حيث مُعتادُهُم، أو من حيث مَعْقُولُهم باختيارهم، ومعقولُهم بالعزِّ، والفَخْر، والتَّطاول، والأَنَفة؛ لا على الذّلّ، والتّواضعِ، والفَقْر، والمسكنة. ولا يَكِلُون أمورَهم إلى الله ويرضَوْن بتدبيرِه وتقديرِه؛ أن يرزقَهم كيف شاء، وبيد مَن شاء، فيُؤْثِرون أخلاقَ الجبابرةِ على أخلاقِ المؤمنين، لبُعْدهم من مشاهدةِ اليقينِ، ولاستيلاءِ أخلاقِ النّفس عَلَيهم، ثم إنّ نفوسَهم مع عِلمهم أنّ الخَلْقَ والأَمْرَ كلَّه لله عزَّ وجلّ، وأنّ الحمدَ والملكَ له ـ قد تطمعُ فى غيرِ الله، وترجو سواه، وقد تَضْطَربُ بجبلَّتها عند أثقال الحقائق، وقلوبهم لا تطمئن بل تَنزعج عند الابتلاءِ بالمصائب والفاقات، ولا تصبر للخالقِ، وإنّ ألسنتَهُم قد تسبقُ بالمدحِ والفرحِ مع رؤيةِ الأواسط، أو بالذّم والأَسَى على فوتِ العَطاء؛ لوجود الغَفْلة، وذهابهم عن مشاهدة ما يعلمون. فهذا دليل نَقْصِ توحيدِهم، وضَعْف يقينِهم، وأنَّ مَعْرفَتَهم معرفةُ سمعٍ وخَبرٍ، لا معرفةَ شهادةٍ وخبر، وقد شرَكهم الموقنون بتسليمِ ذلك لله فى العلم والقُدرة، وإثباتِ الأواسط والأسباب للحُجج والمحَجَّة بمجارى الحكمة وإيقاع الأحكام، وتفصيل الحلال والحرام، وعودِ الثّوابِ والعقابِ على الخليقة، ولكن زادُوا عليهم بحُسنِ اليَقينِ، وقُوّةِ المشاهدة، وجميلِ الصّبرِ، وحقيقةِ الرِّضا؛ فسكنَت القلوبُ، واطْمأنّت النُّفُوس عند النّوازلِ والبؤس، وثَبَتُوا فى الابتلاء؛ لشُهودِ المُبْلِى، يُدبِّرُ الخَلائِقَ كيف شاء، فحصَل لهم مَقامٌ فى اليقين وحال من التوكل ونصيب من الرضا، وخرج أولئك من حقائقِ هذه المعانى ودخلوا فى عمومها، ودخل عمومُ

المؤمنين مع الموقنين فى فَرْضِ التّوكُّلِ، قد جاوَزَهُم الموقنون؛ فارتفعوا عليهم، وعلوا فى فضْلِه، ووقف العُمُوم ونكَصُوا عن العُلوِّ لقُعود اليقينِ بهم، واستتار غَيْبه عنهم، وحَجْبِ الأسباب لهم، وسَبقَ المقربُّون إلى الفَضْلَ، ويُؤْتِ كُلَّ ذى فَضْلٍ فَضْلَهُ؛ لأنَّهم المُفْرَدُونَ بالسَّبْق خفافًا لوَضْعِ الأَوْزارِ، لمَا استَهْتَرُوا به من الأذْكارِ، كما رُوينا عن المصْطفى المخْتار ﷺ: «سيروا، سبق المُفْرَدُونَ، قيل: مَن هُم؟ قال: المُسْتَهْتَرون بذِكْرِ الله، وَضَعَ عنهم الذِّكْرُ أَوْزارَهُم، فَوَرَدُوا القِيامةَ خِفافًا». هُم دَرَجاتٌ عِنْدَ اللهِ، واللهُ بصير بما يَعْمَلُونَ.

وقال بعضُ العلماء: احتَجَب عن العُمُومِ بالأَسْبابِ، فهم يَرونَها ولا يَرَوْنَهُ، وحجَبَ الأسبابَ بِنَفْسه عن الخُصوصِ، فهم يَرَوْنَهُ ولا يَرَوْنَها.

وهذا المعنى أحدُ الوُجوهِ الباطنة من قوله: ﴿يَمْحُو اللهُ ما يَشَاءُ ويُثْبِتُ﴾ [الرعد:٣٩] أى: يمحُو الأسبابَ من قُلوبِ الخُصوص ويُثْبِتُ نَفسَه، ويَمْحُو نَفْسه من قُلوبِ الجاهِلين ويُثبت الأسبابَ.

وقد كان إبراهيُم الخوّاص ـ رحمه الله ـ يقول: مَن رَجَع عند الشّدائدِ والنوازلِ إلى سَبَب، أو علاج يَستَشْفى به، أو حَركَة رَهْبةِ المخلوقين صفتُه، فقد بَرِئَ من مَخْصُوصِ التوكُّل، وبقى مع عُمومه. ثُمَّ وصفَ الخُصُوص من المتوكّلين، فقال: يَنْتَزِعُ اللهُ منها بالتوكُّل شاهَد منافعِ الأشياءِ، ويجعل شفاءَها فى ترْكِها، وفى ذلك يُقال:

عَلِيلٌ لَيْسَ يُبْرِئُهُ دَواءٌ طويلُ الصَّبرِ يُضْنيه الشِّفَاءُ
سرائرُه خَوافٍ ليس تَبْدُو خفيّاتٌ إذا بَرِحَ الخَفَاءُ

ثم قال: كانوا له من حيث أراد بِغنائهم عن كُلِّ ما كان لهم من حَظٍّ ومُرادٍ، استقاموا إليه، ولم يَثْبُتوا لشدَّة الهُجوم، لا يَفرَحُون ولا يَرُوغون لَمَّا عرفُوه، لم يُريدُوا به بدَلاً، ولا يَبْغُونَ عنه حوَلاً، فخَصَّهم منه بالولاية، وكان هو القائم بهم، والدليل المعْطى لهم كلَّ جزيل، لم يُملِّك غيرَه حفاظهم، ولم يُولِّ غيره أمورَهم، حتى أقامهم فى الشَّرف الأعلى والغايات من الذُّرى، فأظهر عِلْمَهم ما

بِهِ أكرمَهُم، وما أقام من أعلامِهم، فأكرمهم بمُلْكِه، وشرَّفَهم على جميعِ خَلْقه، وحَمَلَهم فى ذلك بتَوْحِيدِه إلى تَوْحيدِه، مُشْرفٌ على خلْقِه يرى مقامَهُم، وجَعَلَهم فى حِصْنِه وراءَ حُجُبِه، وخلا بهم فى غَيْبه، ثم أظْهَرهم من حيث لا يُرَوْن، فكانوا مع الخَلْق بحيث لم يكونوا. غابوا عن الأوْهامِ؛ وعُيونِ الناظرين. عظُم خطَرُ ما أوصلهم إليه، وجَلَّ قدرُ ما حَمَلَهم عليه، وعظُمَتْ مَنزلتُهم لَدَيْه. فيا طيب عيشٍ لو عقَل، ويا لَذَّةَ وَصْلٍ لو كَشَفَ، ويا رفعةَ قَدْرٍ لو وَصَفَ. ثم أنشد الخَوّاص يَصِفُهم، وغيرُه أيضًا[1]:

معطَّلةٌ أجسامُهم لا قلوبُهم ... همومُهم بالله فى السرِّ قد تَسْرِى
نفوسُهم عن كلِّ لهوٍ وزينةٍ ... مُحجبةٌ ما إن تَرِدْ إلى أمرِ
رؤوسُهم مكشوفةٌ فى بلادهِ ... وهم بلطيف البِرّ أسبابُهم تجرى
فهم أمناءُ الله فى كلِّ أرضه ... ملوكٌ كرامٌ فى البوادى وفى البحرِ
عُدولٌ ثِقاتٌ فى جميع بلاده ... أصحُّ عباد الله مَعْ دقَّة الفكرِ
فيا حسرةَ المحجوب عن قُرب ربِّه ... بأدناسِه فى نفسه وَهْو لا يَدْرى
هنيئًا لِمحبُوبٍ يُحبُّكَ سيِّدى ... بِشاهدةٍ بالحُبِّ بالقَلْبِ والفِكْرِ

كانت الأبيات مُضطربة، فقَوَّمتُ بعضها، وحذفْتُ منها شيئًا.

وحدَّثونا عن سَرى السَّقَطى قال: ثلاثٌ يَسْتَبين بهِنَّ اليقينُ: القيامُ بالحقِّ فى مواطن الهَلَكَةِ، والتّسليمُ لأمْرِ اللهِ عند نزولِ البلاءِ، والرِّضا بالقَضاءِ عند زَوالِ النّعمة.

وقال يوسفُ بن أسباطٍ قبلَهُ: كان يقال: ثلاثٌ مَن كُنَّ فيه استكمل إيمانَه: من إذا رَضِى لم يُخْرِجْهُ رِضاه إلى باطلٍ، وإذا غَضِب لم يُخْرِجه غضَبُه عَن حَقٍّ، وإذا قَدِر لم يتناول ما ليس له. وقد رُوِيناه مُسْنَدًا.

---

(١) الأبيات وردت فى الحلية، فى ترجمة إبراهيم الخواص، ١٠/٣٢٨. وهى تختلف فى رواية بعض الألفاظ، وترتيب الأبيات، وزيادة بيت فى الحلية.

فهذه أَوصافُ المتوكِّلِ، لا يَصحّ التوكُّلُ بفَقْدها، وهى علامَةُ حُسْنِ اليَقين، وبها يثبتُ مَقامُ اليقين.

وكذلك رُوينا فى أخبار داوُد عليه السّلام، أنّه قال لابنه سليمان ﷺ: «يا بُنىّ، تُسْتكمل تَقْوى العَبْد بثلاثٍ: حُسن توكُّلِه فيما يأتيه، وحُسن رضاه فيما آتاهُ، وبحُسنِ صَبرِه فيما فاته».

• ذكر تفصيل التكسب والتصرف فى المعايش والحركة:

ولا يضرُّ التّصرُّف والتّكسُّب لمن صَحَّ توكُّلُه، ولا يَقْدَح فى مقامِه، ولا ينقص من حالِه، إذا أحْكَمَ معنيين: النظر إلى الوكيلِ فى أوّل الحركة، فيكون مُتحرِّكًا. والرِّضا بالحُكم بعد التَّصرُّف، فيكون مُطْمئنًا إليه.

قال الله سبحانه: ﴿**وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا**﴾ [النبا: ١١]. وقال تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ**﴾ [الأعراف: ١٠].

ورُوى عن النبى ﷺ: «أحل ما أكلَ العبدُ من كَسْب يده، وكلُّ بيع مبرور».

وقد كان الصّانعُ بيده أحبَّ إليهم من التّاجر، والتاجرُ أحبَّ إليهم من البطَّال. وقال ابن مسعود: «إنّى لأكره أن يكونَ الرجلُ بَطّالاً، ليس فى عمل دُنيا، ولا فى عمل آخرة».

ولأنّ التوكّلَ من شَرط الإيمان ووَصْفِ الإسلام، قال الله تعالى: ﴿**إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ**﴾ [يونس: ٨٤]. فاشترط فى الإيمان به، والإسلام له، التوكّلَ عليه. فإن كان حالُ المتوكّل التصرفَ فيما قد وُجِّه فيه، ودخل فى الأسبابِ، وهو ناظرٌ إلى المسبِّب فى تصريفه، مُعتمدٌ عليه، واثقٌ به فى حركته، متُسبِّب فيما يُقَلِّبُهُ فيه مَولاه، متعيِّشٌ فيما يُسَبِّبُه له ويوجهه فيه مُوَكِّلُه، عالمٌ بأن اللهَ قد أَوْدع الأشياءَ منافعَ خَلْقه، وجعلها خزائن حِكْمته، ومفاتيحَ رزْقه، مجتمعُ القَلْب بجامعه، غَيْرُ مشتَّت بتفرُّق همِّه. ويكون ـ أيضًا ـ مُتَّبعًا للسُّنَّة والأثر، تاركًا للتَّرفُّه والتَنَعُّم. فهو فى تكسُّبِه وتَصرُّفه أَفْضلُ ممَّن دَخَلت عليه العِلَل فى تَوكّلِه فساكَنها، وسكَن إلى سُكون نفسِه فى بَطالَتِها وفَراغِها من

هَمِّ الآخرةِ؛ طلبًا لراحتِها.

وقد ذُكِر لنا عن بعض العلماء أنه رؤى يطحن برجله، وكان قد تَرَكَ العملَ أربعين سنة، فقيل له: دخلتَ فى التكسبِ بعد أن كنت قد تركْتَه؟! فقال: يا هذا، إذا عُدِمْنا عزّ التوكل لم نصبر على ذلِّ الاستشراف.

فكذلك الأمرُ فيمن دخلَتْ عليه الآفةُ فى تَرْكِ التكسُّب، فَلْيَخْرج منها إلى الاحتراف، ومن دَخل عليه اليقينُ فاقتطعه، فَلْيَقْعُد عن الاكتساب، ومَن اعْتُلَّ بالتكسُّبِ فليتداوى بتَرْكِه، ومَن صَحَّ فيه وأَوجبه الحكمُ عليه فليتكَسَّب.

حُدِّثتُ أنَّ بعضَ أهلِ المعْرِفةِ كان فى بُدوِّ أَمره قَطَّانًا، فلمّا دخَل فى طريقِ الآخرةِ تركَ السُّوقَ، ولزِمَ البيتَ ثلاثين سَنَةً، أو ما شاء اللهُ من ذلك. ثم خَرَجَ إلى السُّوقِ، فأخذَ فى معاملةِ النِّسْوانِ، والأخذ والإعطاء لهُنّ. فقيل له فى ذلك. فقال: لمّا اعتلَلْنَا بِهِنَّ قَعدنا فى البيت، فلمّا صَححنا مِنْهُنّ لم نُبالِ بمعاملَتِهِنَّ، قد استوى عندى الرِّجال والنِّساء. أو كما قال، على نحو هذا المعنى رسمتُه حفْظًا.

والتكسُّب خيرٌ من الاستشراف إلى الخَلْقِ، ومن الطَّمع فيهم، أو اعتياد المسألة، وسالك على طريقٍ فهو يصل، وإن كان فى طريقه بُعْدٌ.

والتوكّلُ لمن أُقْعِد به، واقْتُطِع عن أَرَبِه، ناظِرًا إلى الوَكيلِ، أفْضَلُ، منتظرًا للوارِدِ، مُتَفَرِّغًا للفوائد، إذا صَحَّ فى ذلك، وصَدَقَتْ حَالُهُ، واستقام قَلْبُه، لفراغِ قَلْبِه من الخَلْقِ، وشُغْلِه بالخالقِ. وهو طريقٌ قريبٌ، وسالكُه مُقَرَّب.

وكان شيخُ المتوكلِّين، رحمه اللهُ، يقول: إلى كم يُدْخِل العبدُ بينه وبين نفسه غيرَ الله الذى هو أملكُ بها منه، وإلى كم يُملِّك المخلوقين رِقَّه، ولو صدَق المتوجِّهُ فى توجُّهه إلى الله بالتّقدير له لأقطعه مُلكَهُ يَسرح فيه حيث شاء. والعبد [أينما] كان يخصُّه ثوبٌ يحميه، وبُرَيدة(١).

وكان يقول: مَنْ صفا من آثاره، وانمَحَت الأسبابُ من أذْكاره وحَثِيث حركاته، تحركت الأسبابُ إليه، وأقبلت عليه، وتحول الملك له لصالحه؛ لأنّما تُمنع الحرَكةُ

(١) بريدة: تصغير: بُرْدة، ثوب مخطط، أو كساء يلتحف به.

بالبطّالين، لبقايا بقيت عليهم من آثارها، عقوبةً لهم؛ لأنه ليس فى الحركة والسّعى لحَظِّ النّفوس وظيفةٌ، ولا تَنْفَعُه عند اللهِ، ولا للهِ فيه شىء، وإنّما هو حظ لِصفَةَ المتحرك.

قال: ولا يدوم التحرُّك بأحدٍ إلا من بقايا عَلَيه من نفْسه. وأمّا المُرادون بصفات الحَقِّ، بذهاب آثارِ نفوسهم، وفناء شواهدهم، فإنَّ أحكامَهُم أن تجْرى الأسبابُ إليهم طلبًا لهم، بما رَفَعَ اللهُ من أقدارِهم، عما هؤلاء فيه ممّا لا ينفكُّون طُولَ أعمارِهم عن ذِكْر أنفسهم، والسّعْى فى حظوظهم، فى صِفَتهم متحركةً أبدًا، ولا يستحق هؤلاء أن يَحلفُوا بالمَلك، أو بتَحَرُّك الأسبابِ إليهم، ولا يكون مَن يتحرّك الملكُ له، وتطلُبه الأسبابُ، وتُمَلِّكُهُ أَنْفُسَها، كَمَن سَعَى فى أخْذِها وساءَ العُمومَ فى طَلَبِها، ولا يتقاربان. هذا نَقْلُ كلامِ الخوّاص، رحمه الله، ومذهبُه فى التوكُّل.

وكان أيضًا مِن هذا المَعْدن يقول: كلُّ مَن كان مع العِلْم، فإنَّ العلم لا يَحْميه، ولا يُزيل عنه شاهدَ نفْسه وصفتَه، ولا يَتَهيَّأ أن يُغْنى من نفسه مخارجَ المطالبَات بالسَّعى، ولا بدَّ له مِن السَّعْى، ليُعطىَ نَفْسَه حَظَّها من الرفاهة، ليَسْتوى فى دراسةِ العِلم، ويصفو له الكلام فيه.

وقال أيضًا: مَن كان مع العِلْم فإنّه لا يَسْتَوحش من مُساكَنة الدَّناءة والأدْناسِ، والسَّعى مَعهم فى الأسبابِ؛ لأنّه ليس له حقيقةٌ يُوحِش مَواضعُها له. ومَوْضعُ الرَّغبةِ فى هؤلاء يُعطى عليهم مَواضع الوَحْشةِ مِن دناءةِ أفعالِهم، وما يلحقهم من الذِّلّة فى السّعى لأنفسهم. وهؤلاء لا يَصْفون مِن آثارهم، ولا يقُومُون بحقيقة التَّوحيد، يَزيدون فى عِلْمِهم، وينْقُصون فى سَرائِرهم، ويَقْوى مع مواضعِ الأسْبابِ والفاقاتِ فيهم وعليهم. ظَهَرت عليهم صِفاتُهم، وتتبين أقدارُ الأشياء فى قُلوبِهم، فَعولّوا على الأسبابِ، ولم يَسْتعملوا فى مَحْوِ شواهد الأشياءِ عنهم، ورَفْعِ آثارِها فيهم، ولا رَفَقَتْ لهولاءِ حقيقةٌ تَمْحُوهم، ولا عزيمةٌ تُفْنيهم، حتّى مَلَكَتْهُمُ الأشياءُ، فذَهَبَتْ أعمارُهم فيما لا يَنْفَعُهُم، وحالٌ لا يَحْمِلُ صاحبُها ما يَنتفع بها.

قال: وليس هذه حالةَ فضْلٍ ولا شرف، وإنّما هُم مع صفاتِ المَلْك، لا مع المَوْصُوفِ؛ لأنّهم يَصِفون نُفُوسَهُم وهم قيامٌ أبدًا، لا يزول قيامهم، ولا تذهب أسْماؤهم، ولا تَنْمَحى أذْكارُهُم، فكيف يستوى هؤلاء مَع مَن يصفه الحقُّ بالحقِ، للحَقِّ فى الحق.

هذه حكايةُ طريقةِ الخوّاصِ، وكلامُهُ فى التوكُّلِ. وهذا لعَمْرِى كان حاله، وهو مقامُ الخصوصِ، ولا يَصْلُح العُمومُ بهذا، ولا يُسلَك بِهم ها هُنا، إذ لكلِّ طريقٍ زادٌ مِثْلُه، وعدَّةُ قربِه وبُعْده، ولَينه وشدَّته، وليس مع العامّةِ زادُ هذا الطريقِ، ولا عندَهم عِدّتُهُ، فكيف يَحْمِلُهُم عَلَيه، أو يَأمُرُهم بِه.

وأمّا التّاركُ للتكَسُّب طَمَعًا فى الخَلْقِ، وترفيهًا للنَّفْسِ، وإيثارًا للرّاحةِ والبَطالةِ، أو حُبًا للهَوى، فليس هذا من توكُّل العُمومِ أيضًا فى شىء. والساعى فى هذا على غير طريقٍ، لا قريب ولا بعيد، هو عن المحجَّةِ جائر، ومِن الهوى والقَصْدِ حائر.

كما رُوينا عن النبى ﷺ: «لأن يأخذ أحدُكُم فأسَهُ وحَبْلَه، فيذهب إلى الجَبَل، فَيَحْتطب فيأكل ويتصدّق، خيرٌ له مَن أن يسأل النّاسَ أعْطَوْه أو مَنَعُوهُ».

ولم يقل هذا للمُتَّقِين؛ لأنّهم من الأهواء مُصَفِّين، ولقَصْدِ السبيل سالكين، ولوجهِ الله عَاملين، وبحُسنِ اختيارِه عالمين، وعن الخليقةِ باللهِ وبرسولهِ مُقْتَطَعِين، وإلى بيتِ اللهِ ومَجْلِس نبيِّه مُنْقَطِعين.

وإنّما قال ذلك للشَّحاذ من الخَلْقِ السّائلِ، وللحَائرِ عن قَصْدِ المحجَّةِ المائِل، ولمن هو من مقامه مُتَمَسِّك بغيرِ طائل، وللمُغْتَرِّ الطامعِ فى النّعيمِ الزّائلِ.

وقد قال ﷺ فى أوامرِ العُموم: «اسْتَغْنُوا عَن النّاسِ ولو بِشَوْص السِّواك» يعنى بِمَضْغِهِ.

وقال: «مَن يَضمَن لى خَصْلةً واحدةً أضْمَنُ لَه الجنّة: لا يَسأل النّاسَ شيئًا». هذا لمن وَجْدُه الخَلْقُ، وحَشْوُ قَلْبِهِ العَبِيد، بردِّ هِمَمِهِم إلى الله، وتَفرُّغ قلوبهم من الخَلْقِ، وبرفعهم إلى الخالقِ.

وقال بعض علمائنا: من أنكر التكسُّب فقد طعن فى السنّة، ومن أنكر القعودَ عن التكسب فقد طعن فى التوحيد. وقال: بُعث النبىُّ ﷺ إلى الخلق وهم أصناف كما هم اليوم، منهم التّاجر، والصّانع، والقاعد، ومن يسأل الناس، ومن لم يسأل الناس، فما قال للتاجر: اترك تجارتك، ولا قال للقاعِد: اكتسب واصنع، ولا نَهى السَّائِلَ على أن يسأل؛ بل جاءهم بالإيمان واليقين فى جميع أحوالهم، وتركَهم مع الله فى التدْبير، فعمل كلٌّ واحدٍ بعمله فى حاله.

وأخبرنى أَبُو موسى قال: سمعتُ الحسينَ بنَ يحيى يقول: سأل رجلٌ ابنَ سالم: أنحن مُتَعَبِّدُون بالكَسْبِ أو بالتوكُّل؟ فقال: التوكُّل حالُ رسولِ الله ﷺ، والكَسْبُ سُنّتُهُ. وإنما سَنَّ لهم الكَسْبَ لضَعْفهم، حين سَقَطُوا عن دَرَجةِ التوكُّلِ، وأباح لهمُ طلبَ المعَاشِ بالمكَاسِبِ الذى هو سُنّتُه، ولولا ذَلك لهلكوا.

وأما ابنُ عطاء فإنَّه كان يقول: ليس التوكُّلُ لزومَ الكسبِ ولا تَرْكَه، إنَّما التوكُّلُ طمأنينةٌ فى القَلْبِ إلى اللهِ.

ولذلك قال أبو عبد الله القرشى فى المتوكّل: إنّما هو اطمأنّ إلى الله سرًا وجَهْرًا، ورضِى به كَفِيلاً. ونحوه قال دُوَيْم: إنّما التوكُّلُ الثقةُ باللهِ فى كلٍّ ما ضُمن على كُلِّ حالٍ.

وقد كان بعضُ المتوكِّلين يقول: مَن لم يصبر على جوع ثلاثة أيام أخافُ أن لا يسَعه تركُ العملِ إذا وجده. وقال أيضًا: مَن فَقد الأسبابَ فضَعُف قلبُه، أو كان وجودُها أسكنَ لقلبه من عدَمِها، لم يصحّ له القعودُ عن المكاسب؛ لأنّ فيه انتظارًا لغيرِ الله.

وقال بعض العلماء: مَن طَرقته فاقةٌ تسعةَ أيام، فتصوَّر فى قلبِه طَمعًا فى خلْقٍ، أو استِشرافًا إلى عَبْدٍ، فالسُّوقُ أفضلُ له من المسجد.

وقال أبو سليمان الدارانى: لا خيرَ فى عبدٍ لَزِم القعودَ فى البيت، وقلبُه مَعلَّق بقَرْعِ البابِ متى يَطْرُق بِسَببٍ.

وقال بعضُ علمائنا: إذا استوى عندَه وجودُ السببِ وعدمُه، وكان قلبُه ساكنًا

مطمئنًا عند العدمِ، لم يشغَلْه ذلك عن الله تعالى، ولم يتفرَّق همُّه، فتَرْكُ التكسُّبِ والقعودُ لهذا أفضلُ؛ لشغْلِه بحالِه، وتزوُّدِه لمعاده، وقد صح له مقامٌ فى التوكل.

وقال سهل ـ رحمه الله ـ وقد سُئِل: متى يصحّ للعبدِ التوكُّل؟ فقال: إذا دخلَ عليه الضرُّ فى جسدِه، والنّقصُ فى ماله، فلم يلتفتْ إليه، ولم يَحزن عليه؛ شُغلاً بحاله، وينظر إلى قيام الله عليه.

وقال إبراهيمُ الخوّاص، وهو إمام المتوكلين من المتأخرين: ثلاثةُ مواطن حَمْلُ الزادِ فيهنّ من آدابِ التوكّل: القعودُ فى المسجد، والركوبُ فى سفينةٍ، وصحبةُ القافلةِ.

وقال رحمه الله: لا يَنْبَغى للصُّوفى أن يَتعَرَّضَ للقُعود عن الكَسْب، إلا أن يكونَ مَطْلُوبًا، قد أغنَته الحالُ عن المكاسب. وأما مَن كانت الحاجاتُ صفةً قائمةً؛ كأن يقعُ لَه عُزوفٌ يَحولُ بينه وبين التكلُّف، فالعملُ أوْلى به، والكَسْبُ أَجَلُّ له وأبلغ؛ لأنَّ القُعودَ لا يَصْلُح لمن لم يستغن عن التكلُّف. يعنى أن يكون قد كُفى بالكفاية القاطعةِ مِن قلبه عن التكلُّف الظاهرِ مِن جَوَارِحه، وأن يكُونَ حالُه قويةً تَحْمِلُه بالصّبرِ والرِّضا، لا يضعف إلى تَطَلُّعٍ وتَشَرُّف. يقول: فمعلومٌ هذا مِن كسبه الذى أُحِلَّ له أَفْضَلُ له مِن طَمعِه فى غيرِه الذى كُرِه لَهُ.

وقد كان سفيان الثورى يقول: العالمُ إذا لم يكن له معيشةٌ صارَ وَكيلاً للظَّلَمَة، والعابدُ إذا لم تكن له معيشةٌ أكل بِدِينه، والجاهلُ إذا لم تكن له معيشةٌ كان سفيرًا للفُسَّاق.

وقال يحيى بن مُعاذ: الناسُ ثلاثةٌ: رجُل شَغَله معادُه عن معاشه، فهذه درجةُ الفائِزين، ورجلٌ شَغَله معاشُه لمعاده، فتلك حال الناجين، وآخرُ شَغَلَه معاشُه عن معاده، فهذه صفة الهالكين.

ورُوِينا عن عليٍّ رضى الله عنه: «الرزقُ رزقان: رزقٌ يطلبك، ورزق تطلبه». فسّره بعض العلماء فقال: الرزقُ الذى يَطْلُبك هو رزقُ الغِذاء، والرّزقُ الذى تَطْلُبُه رزقُ التّمليك، وهو طلبُ فُضولِ القوت.

وقال أبو يعقوب السّوسى، وقد كان له مقام مكين فى التوكل: التوكُّلُ على ثلاثة مقامات: عامٌّ، وخاصٌّ عامٍّ، وخاصٌّ خاصٍّ، فمَن دخلَ فى الأسباب، واستعمل العلمَ، وتوكّلَ على الله تعالى، ولم يَتَحقّق باليقين؛ فهو عامٌّ، ومن تَركَ الأسبابَ، وتوكّلَ على الله، وحقّق فى اليقين؛ فهو خاصُّ عامٍّ، ومَن خرجَ مِن الأسباب على حقيقته، لوجود اليقين، ثم دَخَل فى الأسباب، فتصرّف لغيره؛ فهذا خاصُّ خاصٍّ.

وهذا وصفُ الطّبقة العُليا مِن أصحابِ رسولِ الله ﷺ العَشَرة، وغيرهم. جَرَّدَهم اليقينُ من الدنيا، فأدخلهم العلمُ فى الأسباب لغيرهم، واتسعوا بالعِلْم على حقيقةِ اليقين.

ولذلك كان الخوّاص ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: دُخُولُ الخصوصِ فى الأسبابِ لغيرهم رُدَّتْ عليهم أحوالُ الغير، وجُعِلُوا رازقين لهم، فتصرّفُوا فيها لأجلِهم، وهم بريئون من التعلُّقِ بها.

وقال: النّاسُ فى التوكُّل على ضربين: طالبٌ له، ومطلوبٌ به. فالمطلوب بالتوكل مُستَعْمَلٌ بحقائقه، مَرفوعٌ إلى أعلى غايته، مُطالَبٌ بالعَمل فى حقِّ نفسه، وذهابِ آثاره بمحوِ رَسْمه وشاهده. والطَّالبُ له توجَّه بالزُّهدِ، وتركَ الأسبابَ القاطعةَ، وعمِل فى حَذْفِ كلِّ شاغلٍ يَشْغَلُه، أو يَحُولُ بينه وبين قَصْدِه، فهو مُجْتَهِدٌ فِى الانفرادِ.

وقد كان أبو جعفر الحدّاد ـ شيخُ الجنيد ـ أحدَ المتوكلين، وقال: أخفيتُ التوكُّلَ عشرين سنة، ولا فارقْتُ السوقَ، أكتسبُ فى كل يومٍ دينارًا وعشرة دراهم، لا أُبيِّتُ منه دَانقًا، ولا أستريحُ فِيه إلى قيراطٍ أدخلُ به الحمام، بل أُخْرِجه كلَّه قبلَ الليلِ. وكان الجنيد لا يتكلم فى التوكُّل بحَضْرة أبى جعفر، يقول: أستحيى مِن الله أن أتكلم فى مقامه وهو حاضر.

وبلغنى أنّه تركَ العَمل لمّا نظَر إليه الغلامُ الذى كان ينفخُ عَليه الكير، فرآه يُدخِل يدَه فى الكير، وهو يتلَظّى، فيُخرج الحديدَ جَمْرًا، ويردُّه إلى الكير، فغُشى على الغلام، ثم حدَّث به الناس، فكانُوا يتناوبُونه، ينظرون إليه، فتركَ الصَّنْعة.

وبلغنى فى سبب هذا شىء ظريف، أنّه سُئِل: بأىِّ شىءٍ نلْتَ هذه المنزلة أن لا تحرقك النار؟ فقال: بدعوة فاسقٍ. وكان هذا أعجب. قيل: كيف؟ قال: وجدتُ مع أهلى رجُلاً ففزِعَا منِّى فزعًا شَديدًا، فأخذتُ بأيديهما وقلتُ: اخرجا بسلام، فقال لى الرجل: جعل اللهُ عليك النارَ بَرْدًا وسَلامًا. فهذا من إجابة دعوتِه بستْرى على مسلم[1].

وقد شرط النبىُّ ﷺ للعطاء ترْكَ المسألةِ والاستشراف إلى الخَلْقِ، تنزيهًا للفقراء، وردًا لهم إلى الله تعالى؛ لأن فى مسألةِ العبدِ الفقيرِ ذُلاً ذليلاً، وحرصًا على الدّنيا جليلاً، وفى الاستشراف إلى العبيد طَمعٌ فى غَير مَطمع، ونظرٌ إلى غيرِ الله، وإتيانُ البيوت من غيرِ أبوابها. ومنه ما رُوِى عن النبى ﷺ: «مسألةُ الناس من الفواحش، ما أُحلَّ من الفواحش غيرُها». وقال ﷺ: «من استغنى أغناه اللهُ، ومن استعفَّ أعفَّه الله، ومن فَتح على نفسه بابَ مسألة فتح الله عليه بابَ فقر».

فكأنّ الفقراء الصّادِقين جُعل لهم أخْذُ العطاء، بل نُدبوا إلى قبوله عوضًا لهم من المسألةِ والإلحاف، فلما مُنعوا من الاستشرافِ والسؤالِ تنزيهًا لهم وتفضيلاً، جُعل لهمَ هذا العَطاء تَعْوِيضًا، فَمثلُهم فى ذلك مَثَلُ أهلِ البيت: جُعِل لهم خمسُ الخُمس مِن الغنائم؛ لما حُرِّمت عليهم الصدقة، تَفْضِيلاً لهم وتشريفًا.

وقد كان أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ أمر أبا بكر المروزى أن يُعطِىَ بعضَ الفقراءِ شيئًا؛ فيه فضل عمّا كان استأجره عليه، فردَّه، فلما ولَّى قال له أحمد: الحقه، فادفعه؛ فإنه يأخذه. قال: فلحقه المروزى فدفعه إليه، فأخذه، فسأل أحمدَ عن ذلك: كيف رد فى الأوّل، وأخذ فى الثانى؟ فقال: إنّه كان قد استَشْرَف لذلك فردَّه، وقد أحسن، فلمّا انصرف أيِسَتْ نفسُه منه؛ فلذلك قَبِلَ.

وقد كان الخوّاص إذا نظر إلى عبدٍ فى العطاء، أو خاف اعتيادَ النفسِ له، لم يقبل منه شيئًا.

---

(١) فى هذه القصة نظر، وإن صدقت فهى ليست مطردة، فالأمر مرده إلى الشيخ أبى جعفر لا إلى الفاسق. وهذا التأويل من تواضع الشيخ.

حدّثنى شيخ عن رجلٍ دفَع إليه ديناراً بمكّة، وهو لا يعرفُه، فَقَبِلهُ. فلمّا كان الغد، رأى حوله جماعة من الفقراء، فسأل عنه، فقيل: إبراهيم الخوّاص، فجاءه بالتِّسعةِ الآخرة، وقد كان أعدَّ العَشْرَةَ له، فلم يقبل.

وكان يقول: صُوفى لا يكون محترفًا.

وهذا كلّه يَحْسُن فى حال المنفرد.

فأمّا ذو العيال، فالأمرُ عليه أوسَعُ من ذلك، فلا بأس أن يأخذ لأجل عيالِه، كما يأخذُ لأجل غيرِه من الناس؛ لأنّ عيالَه عيالُ اللهِ عنده، قد وكَّله بهم، وأجرى أرزاقهم على يده، فإن طلب لهم، وحَثَّ على استخراج حقِّهم ممّا أوجب الله تعالى لهم، لم يَنقص ذلك من حاله، بل كانَ مَزِيدًا له، وفضْلَ معاملةٍ، بعد أن يكون نيَّتَه فى ذلك الأجرُ والمعاونةُ على البرِّ والتّقوى للفريقين معًا، إذا كان واضعًا للمَعْروفِ فى أهلِه، ومُستَخْرِجًا له مِمّن أوْجَبَهُ اللهُ عليه.

وفى الخبر: «ما مِن عَمَلٍ أفضلُ من أن يَأمر العبدُ بِصَدَقةٍ فى ذى رَحمه»، وأقامهم مقامَ عيالِ غيرِه من المسلمين، فهم حينئذٍ أوجبُ؛ لأنّه مفتَرضٌ، وكان عند بَعْضِهم نافلة.

وقد كان من سيرة السلف أن يقومَ ذو السَّعةِ منهم بأهلِ بيتٍ من المُسلمين، وأهْلِ بَيْتَين وثلاثةٍ إلى العشرة أهل أبياتٍ، فكأنه قد قام بأهلِ بيتٍ من الفقراءِ، فهؤلاء أفضل كفضل الفَرْضِ على النّفل. وقد آخى رسولُ الله ﷺ بين سعد بن الربيع، وبين عبد الرحمن بن عوف، فقال له سعد: أشاطرك مالى وأهلى، فقال عبدُ الرحمن: باركَ اللهُ لك فى أهلِكَ ومالك، دُلُّونى على السُّوق، فعَمِل يومَه ذلك، فراحَ بشىءٍ من سَمن وأقط.

فلو كان التكسُّب فى الأسواقِ يُنْقِص التوكُّلَ، لم يَخْتَر عبد الرحمن ـ وهو إمام الأئمة ـ ما ينقص توكلَه؛ ولكنه أحبَّ إدخالَ المشقة على نفسه، وكَرِهَ التنعُّم، كما قال رسول الله ﷺ لمعاذ: «إياك والتنعُّم؛ فإنّ عبادَ اللهِ لَيْسُوا بالمتنعِّمين».

ورُؤى فضالة بن عبيد أشعثَ أغبر حافيًا وهو أمير مصر، فقيل له: لِمَ أنت

هكذا؟ فقال: إنّ رسول الله ﷺ نهانا عن الإرفاه، وأمرَنا أن نَحْتفى أحيانًا.

ثم اختار عبدُ الرحمن أيضًا إيثارَ أخيه بما آثره به؛ رعايةً لحق أُخُوَّته؛ ولأنّ الله تعالى قد ندبَ إلى الإيثارِ، ووَصَفَ به الأحبابَ.

وأعلى من عبدِ الرحمن مقامًا إمامُ الأئمةِ أبو بكر الصديق رضى الله عنه، لما بُويع بالخلافة أخذ الأثوابَ تحت إبطه، ودخَل السوق ينادى. هذا فى أتم أحواله، حين أُهِّلَ للخلافة وأُقيم مقام النبوّة، حتى اجتمع المسلمون، فكرِهوا له ذلك ومنعُوه منه، فقال: لا تَشْغَلونى عن عيالى، فإنّى إن أضعتُهُم كنتُ لما سواهم أضيعَ، حتى فَرَضوا له قوتَ أهل بيتٍ من المسلمين، لا وَكْسَ ولا شَطَطَ، فلما رضوا جميعًا بذلك، واتَّفَقُوا عليه، تَرَكَ السُّوقَ؛ لشُغْلِه بأمورِهم.

أَلا تراه كيف آثَرَ القيامَ بحُكْمِ الله تعالى عليه، وبحقِّه، وما أوجبَ الله عليه لأهله؟ وكان ذلك هو عِلْمَ حَاله، ومُقْتَضى عِلْمِه، وتواضع لله فى حال رِفْعَته، وأسقطَ الخَلْقَ عن عَيْنه، ودخَل فى تَسبُّبِ المعاشِ، بعد أن كان خرجَ منه، وأخرجَ الأسبابَ عَنه، حتى كَرِه الصحابةُ ذلك، وأجمعوا على تَرْكه، فانتقل من الحُكْم الأوّلِ إلى الأمْرِ الثّانى بحُكم حاكمٍ أوْجَبه عليه، بتَصْريف الوكيلِ على توْكيله فيه، فكذلك وَصَفَ المتوكّل أنّه ناظرٌ إلى الوَكيلِ فيما يَحْكُم، مُسْتَعْملٌ لعلمه بعَمله فيما يرسم؛ يكونُ مع حُكم الأولِ الذى هو مقتضى حاله، إلى أن يَرِدَ عليه من وَكيلِه حكمٌ ثانٍ، يصيرَ مقتضى وقتٍ آخرَ، فيدخلَ فيه بحُكْم حاكمٍ، وشهادة شاهدٍ، ويتلوه شاهدٌ منه، لا يقعد عن الأحكام لنفْسٍ، ولا يدخل فى الأسبابِ بِنَفسٍ، ولا يترك التكسُّب لخَلْقٍ، ولا لأجل شَهْوَةٍ خفيَّة، ولا عن رَغْبةٍ سَرِية، كما لا يتكسّب لمتعةِ النَّفْس بالهَوَى، ولا حِرصًا على الدُّنيا، وقد كان بعضُ علماء السلف يجمع إليه الناسَ للكلام عليهم، فكان يقول: لو أعلم أنّ أهلى يحتاجون إلى باقة بَقْلٍ ما تكلَّمْتُ عليكم.

ففى هذا بيانٌ وبرهان لمن لم تستهوِه الأهواءُ فى إنكار التكسب على أهل التوكل؛ إن أَوْجَبت ذلك الحال، فينكر عليهم احْتجاجًا لنفسه، واعتذارًا من بطالته، وجَهْلاً بِحكْمةِ ربِّه، وتَرْكًا للعلْمِ المُتعَبَّدِ به. ولا يسع العلماءُ فى الدِّين إلا

البيانَ وكشفَ حقيقةِ العلمِ بالبرهان؛ ليَهْلك مَن هَلَك عَن بيِّنة، ويَحيى مَن حَيَّ عَن بيِّنة.

والتوكّلُ خُصوصٌ، وعُمومٌ. فخُصوصُه للمقرَّبين موجبٌ للهداية السّابقة لهم من مقام النَّبيين. وعُمومُه لأصحابِ اليمينِ ميراثُ المجاهدةِ فى الله من مقام الصالحين. قال الله فى خُصوصِه: ﴿وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ [إبراهيم: ١٢]، فبنورِ هذه الهدايةِ النبويةِ رأوا الوكيلَ، فعليه توكّلوا، فألحقهم بالرفيقِ الأعلى إلى مقامهم. وقال فى عُمومه: ﴿وَالَّذِين جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، فبهدايةِ السبيلِ نجّاهم من كُلِّ تَهلُكةٍ وتَضْليل.

وقد قَرَن اللهُ تعالى الرِّزْق منه بالنُّصرةِ لهم، يُنَبِّه بذلك أنّ التوكُّلَ عليهم فى الرِّزْقِ نُصْرةٌ من الرّزاقِ، فقال: ﴿أَمَّنْ هذا الَّذى هُوَ جُنْدٌ لَّكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ﴾ [الملك: ٢٠]، ﴿أَمَّنْ يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾ [الملك: ٢١].

فأفضل النّصرة من النّاصر حُسنُ التوكل عليه؛ لأنّه هو الوكيلُ الحاضرُ، وهى نصرةُ الأنبياء: ﴿فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ * إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ﴾ [هود: ٥٥ ـ ٥٦]، ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً * وَاصْبِرْ عَلَى ما يَقُولُونَ﴾ [المزمل: ٩ ـ ١٠]، ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بحُسْنِ اليقينِ وصدقِ التوكُّلِ ﴿فِى الحَيَاةِ الدُّنيا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]، ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنْصُرَهُ اللهُ فِى الدُّنيا﴾ بحَقيقةِ الإيمانِ وعينِ الإيقانِ ﴿وَالآخِرَةِ﴾ بالفَوْزِ بالجنان ومنازلِ الرِّضوان ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾ بحبلٍ إلى سَقْفِ البَيْتِ ﴿ثُمَّ لِيَقْطَعْ﴾ الحَبْلَ، فيقتل نفسه ﴿فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ﴾ فكرُه وحيلتُه ﴿مَا يَغِيظُ﴾ [الحج: ١٥] قَلْبَه من الخِذْلان له، والتّخلية من النّصرة، ومن الولاية، فهذا خبر المُبعَدين المطرودين من خُصوص التوكُّلِ وعُمومه، نعوذ باللهِ من مَقْته وغَضَبه.

وكان من دعاءِ الرسول ﷺ: «أسألكَ حُسْنَ اليقينِ بكَ، وصدقَ التوكُّلِ عليكَ، وحُسْنَ الاختيارِ والتَّوفيقِ لما تُحِبُّ».

وكان إبراهيم بن أحمد الخوّاص رحمه الله يصف خُصوص المتوكلين بهذه الخصال، ويقول: هى أخلاقُ أهلِ التوكّلِ. وقد ذكرها قبله إمامُنا فى هذا العلم من أبى محمدٍ رحمه الله بَدَل عنه، وهو شقيق بن إبراهيم البَلْخى، فجعلها من صفات الأولياءِ، ونعتَ بها العارِفين، وقد ذكرناها فى غرائبِ الأخبار مسندةً، وفيها مرفوعة نَظَر.

فقالوا فى صفات الأولياءِ والمتوكّلين: كانُوا بوعدِ الله مُطْمئنين، وكانوا من الخلْق آيسين، وكانت عداوتهم الدّنيا والشّياطين، فكانوا بأمرِ الله مستعملين، وكانوا على الخلق مُشفِقين، وكانوا لأذى الناسِ مُحتمِلين، وكانوا فى مواطِن الحقِّ متواضعين، وكانوا فى مواضعِ العداوةِ لا يدعُون النّصيحةَ لجميع المسلمين، وكانوا بمعرفةِ اللهِ مستقلِّين، وكانوا بالرِّضا فيما قلّ أو كَثُر وأحَبُّوا وكرهوا عن الله تعالى سواء، وكان الفقرُ رأسَ مالِهم، وكانوا الدهرَ على طَهارةٍ.

وقال بعضُ العارفين: مِن حقيقة التوكّل أن يتركَ العبدُ مَحابّه لمحابِّ الله، واختيارَه لاختيارِ الله تعالى، وتَدبيرَهُ لتدبيرِ الله؛ بالغناء عن نفسه، والنظرِ إلى مجارى الأحكامِ، ولا يكون الهمُّ داخلاً على أهلِ التوكُّل؛ لأنهم لا يُحرِّكُون بهَمِّه الدّنيا ولا اهتمامَ لنفسٍ. ومقامُ الهمِّ فيهم خرُوجٌ مِن حُدودِ التَّفْوِيضِ والتوكُّل، ورُجوع إلى النّفسِ، ومراد اللهِ من خَلْقِهِ مُساءَلته اختياره والرِّضا به.

ولعَمْرِى إنّا قد رُوينا عن الله سُبحانه: «ما لأوليائى والغَمّ، إنَّ الغمَّ يَمُصُّ حلاوةَ مُناجاتِى من قُلُوبِهم، مُرَادِى من أحِبّائى أن يكونُوا رُوحَانِيّن، لا يَهْتَمُّون بِقَصْدِى، ولا يَهْتَمُّون للخَيْرِ[1] إذا قَصَدنى».

وقد كان ابنُ معاذ يقول: من قصَدَ إلى الحقِّ، ويهتَمُّ بالخيرِ، فقد اتّهم المقصودَ، وهذه عِلّةٌ فى قَصْدِهِ.

وقال بعضُ المتوكّلين: فى حُدودِ التوكُّل العملُ فى قطعِ الطَّمَعِ، ونَفْىُ الرُّكون إلى الأسبابِ، ويكونُ نظرُ اللهِ له فى المَنْعِ أفضلَ عندَه من نظرِهِ إليه فى العطاء،

(١) فى الأصل (م): «ويهتم للخير، لا يهتمون للخير».

وأن يجدَ للمَنْعِ من الحلاوَةِ ما لا يجد للعَطاءِ، ومَن عَلِمَ أنَّ اللهَ تعالى قَصَدَهُ بالمَنْع فَرِح.

وعلامةُ رُكونه إلى مَن عَوَّدَه البرَّ من الخَلْق: تَركُ القيامِ عليه بالحَقِّ، وتَرْكُ النَّصيحة لَهُ، والانْبساطُ إليه، وكثرةُ السَّلام عليه دُون غيرِه مِمَّن لا يَبَرُّه، ودَوَامُ تطلُّعِ القَلْبِ إلى لقائه ومَحْوِ أسبابِه.

وعلامةُ رُكونه إلى الأسباب: خوفُ زوالِها قبل أن تزولَ، فإن زَالَ منها شيءٌ لَحِق قَلْبَه الوَهَنُ، والتّمسكُ بما بَقِي خوفَ الفقرِ.

ورُوينا فى عُموم التوكُّل وخُصوصه حَديثين؛ أحَدُهما قَوْلاً، والآخر فِعْلاً، من أفهمه اللهُ القَوْلَ توكل عليه تَوكُّلَ العُمومِ، ومَن أَشْهَدَهُ الفعْلَ فتوكُّله خُصوص.

ففى عُمومِه حديثُ أنسٍ عن النبى ﷺ: «الرزق مَقْسُومٌ، وهو آتٍ ابنَ آدمَ عَلى كلِّ سَيْرةٍ سَارها، ليس بَتقوى مُتَّقٍ بزائده، ولا فُجورِ فاجرٍ بناقصه، وبينَ العبدِ وبين الرِّزْق سِتْرٌ، وهو يطلبه، فإذا أجْمَلَ فى الطَّلَب أتاه الرِّزقُ من حِلِّه، وإن شَرِهَتْ نَفْسُهُ هَتَكَ السِّتْرَ، ولم يَزْدَدْ فوق ما قُسِمَ له».

ثم قال ﷺ: «إنَّ العبدَ ليُعْرَضُ له بابٌ من الرّزق مِن الحرامِ، فإن هو عَجِل إليه نَقص مِن رِزْقِهِ الحَلال، وإن هو أمْسَكَ جاءَه الرِّزقُ حين يأتيه مِن حِلِّه».

الخبر الآخر فى وَصْفِ الخُصوص لمجىء الرِّزق إليهم مِن غير مَعلومٍ لهم، حديثُ ابن المنكدر: أنَّ رَجلاً من أصحابِ النبى ﷺ يقال له: جَرير، خرج فى سفرٍ، وليس معه زادٌ إلا إداوة، وهو يقول: سبحانَ اللهِ، والحمدُ للهِ، ولا إلهَ إلا اللهُ، والله أكبر، وكَفى به زاداً. فرجع الرَّجل فأخبر النبى ﷺ بقول جرير، فقال: هل رأيته حين تكلَّم؟ قال: لا. قال: «أما إنّك لو رأيتَهُ رأيتَ النُّورَ يخرج مِن فِيه».

ففيه: سُنّةٌ فى الخروجِ بغير زادٍ، إذا عَزَمَ اللهُ له بالتَّوكُّل عليه، إذْ لم يُنكر النبىُّ ﷺ ذلك، وفيه: رُخْصةٌ فى رَدِّ الأسبابِ مع الحاجةِ، إذا قَوِى على الصَّبْرِ، واختار حالَ الضُّرِّ، إذ لم يَنْهَهُ النبى ﷺ عن ذلك، وقد قال [الله تعالى]:

﴿والصَّابِرِينَ فِى البَأساء والضَّرّاء﴾ [البقرة:١٧٧] قيل: البأساء: الفَقْر، والضرّاء: المَرَض. ومثله فى تَرْكِ التّداوى لتوكُّل الخُصوصِ، إذا عزمَ اللهُ له بالقُوَّة والنَّصْر، كما قال فى الحَرْفِ الآخَر: «فإذَا عَزَمْتُ فتوكَّلْ عَلَى اللهِ»(١) أى عَزَمتُ لك بالصبّر والنّصر، حينئذٍ صَحّ توكُّلُك علىَّ فتوكَّلْ.

● **بقية الكلام فى التكسب والمعايش للمتوكلين:**

فالتكسبُ والأسباب طُرُق أودعها اللهُ العطاءَ والأرزاقَ، لا هى تُعْطِى وترزق، بمنزلة الأواسط من الأشخاص.

فالمتوكِّلُ المتسبب للمعاش موقِنٌ أنّ الله سبحانه هو المعطى والمانع، وأنّه هو المسبِّب الرازق، وأنّه هو الأوّلُ فى التّصريف، والآخِرُ فى التّقليبِ، فَقَلْبُه ناظِرٌ إلى القَسَّام، ونفسُه ساكنةٌ إلى القِسْم؛ وقلبُه قانع راضٍ بالمقسوم، وجسمه مُتحركٌ فى المعلوم للحُدُود والرُّسُوم فيما وُجِّه فيه، وسُبِّب له، وهو عارفٌ بمقامه وبالمراد منه، راضٍ بحاله، وما قد استسعى فيه، وأُلزم إياه. والذى يُنْقِص المتوكِّل ويُخْرِجه من حدِّ التوكل اكتسابُ الشبهات للاستكثار، أو السعىُ بالتكسُّب للجمع والافتخار، أو الحرصُ على طلب ما حَظَره العلمُ عليه، أو لطلب ما يكره المنال منه، أو التسخُّطُ للأقدار إذا لم تؤاته على ما قَدَّر، أو تَرْكُ النُّصحِ لمن عامله بأن يحتال عليه أو يدبر، أو التشرُّف إلى الخَلْق، أو الطمعُ فى سبب، أو الوقوفُ مع معتادٍ من عبْدٍ، فهذا كله لا يصحُّ معه فَضْلُ التوكُّل، وغير ما يقول، ولا فَرْضُه، إلا ما اتَّصَلَ منه بعقْدِ الإيمانِ من تَسليم الأقدارِ.

وقد قال بعض العلماء: إنّ العبدَ إذا دخل السّوقَ للتّكسُّب، فكان درهَمُه أحبَّ إليه من درهمِ غيره، لم ينصح للمسلمين فى المبايعة. وهذا عنده يُخْرجه من التوكّل. ودُخولُ الآفاتِ، ومساكنتُها لقُصور علمٍ، أو غَلَبةِ هوًى، يُخْرِج العبدَ من التوكل؛ وهو أن يكون متوكِّلاً على النّاس، بأن يطمعَ فيهم، أو يتصدَّى لهم بالتعرُّضِ والتصنُّع؛ أو يكون متوكِّلاً على صحةِ جِسْمِه، ودوامِ عَوافيه، وأنه لا

(١) يقصد الآية ١٥٩ من سورة آل عمران: ﴿فإِذَا عَزَمْتَ فَتَوكَّلْ عَلَى اللهِ﴾.

يُرْزَق إلا من كَدِّه؛ أو يكون متوكِّلاً على ماله، بأن يثق به، ويطمئنَّ إليه، ويحسَب أنّه إن افتقر انقطَع رِزقه، وعلامةُ ذلك ضِنَّتُهُ به، وإعدادُه له؛ عُدّةً لكذا وعُدةً لكذا، كما ذَمَّ اللهُ تعالى من أوصافِ المنافِقِينَ فى قولهِ: ﴿جَمَعَ مالاً وعَدَّدَهُ﴾ [الهُمزة: ٢].

أو يكون متوكِّلاً على جاهه ومنزلته عند النّاسِ، أو على سَتْرِهِ ودَيْنُونِيَّته، وأنّه معروفٌ بالصّلاح. أو على أنه لا يُرزق إلا مِن أجْلِ دينهِ وتقواه، ونحوه بأن يتوكّل على عِلْمه، وممّا يَعْرِف النّاسُ من فَضْلِه.

فهذه المعانى كلُّها تُخْرِج من كُلِّ التوكُّل، فقد تَخْفَى دَقائقُها، وتَدقُّ خفاياها، ويقع الوَهْمُ بمن وقَعَتْ به منها أنّه من المتوكلين على الوَكيلِ، أو الناظر إلى القريب الكفيل. وإنّما يَفْطُن لذلك جهابِذَةُ العُلماءِ الرّاسِخُون، وسَماسِرةُ الصّادقين، الزّاهِدُون، المتضلعُون بالعلم، المتوردونُ باليَقِين، القائمونَ على الدَّوام بالشَّهادَةِ، النّاكبون عن مألوفِ النَّفس والعادةِ.

فمن نظر إلى هذه المعانى من الأسباب والأشخاصِ، أو سكَن إليها سُكونَ أُنْسٍ، فيقوى قَلْبُه بوجودها، فإنّه يضطرب ويستوحشُ، أو يَضْعف قَلْبُه لفَقْدِها؛ وذلك كُلُّه عِلَّةٌ فى توكُّلِه.

ورُوينا عن بشر بن الحارث قال: إنّ العبد ليقرأ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] فيقول الله تعالى: «كَذَبْتَ، ما إيّاى تعبد، ولا بى تستعين؛ لو كنتَ تعبد إيّاى لم تُؤْثِر هواك على رضاى، ولو كنتَ بى تستعين لم تَسْكُن إلى حَولك ولا قُوتك، ولا إلى مالِكَ ونَفْسِك».

ومِن ألْطَفِ ما قيل فى السّكُون إلى غيرِ الله، والنّظرِ إلى سواه، قولُ أهلِ المعرفةِ فى معْنى قولِ الخليل: ﴿واجْنُبْنِى وبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، قال: أن أسْكُن إلى الخُلّة التى وهبتها لى، أو يَنظر نَبِىٌّ إلى النُّبوةِ التى جعَلْتَها لَهم، فيَحْتَجِبُون بذلك عَنك.

وسُئل أحمدُ بن حنبل عن التوكُّل، قال: «قطعُ الاستشرافِ بالإياس من الخَلْقِ.

قيل له: فما الحُجَّةُ فيه؟ قال: قال: إبراهيمُ النبي ﷺ: قال له جبريل: أَلَكَ حاجةٌ؟ قال: إليك لا. قال: فَسل مَن لك إليه حاجة. قال: أَحَبُّ الأَمْرَين إلىَّ أحَبُّهُما إليه.

هكذا ذكره أحمدُ، كأنّه جعل التوكُّلَ التفويضَ والرِّضا بِجَرَيانِ الأحكامِ من غيرِ مَسْألة، ولا اعتراض. وهذا التَّهدِّى هو حال المتوكِّلين.

ولذلك كان أبو سليمان يُضيف التوكُّل إلى الزُّهد، ويصفُ المتوكِّلَ بالزّهد، فكان يقول: الزُّهدُ يمنعُ من التَّعب، والتوكُّلُ يمنع من الذُّلِّ، والكَرمُ يمنع من دَنَاءَةِ الأَخْلاقِ، وَمَن يَتوكّل على اللهِ فإنّ اللهَ عزيزٌ حكيمٌ، يَعُزُّه بِهِ.

وقال أبو تراب النخشبى: ليس التوكل أن يتوكَّل ليُكْفَى، ولو عَرَضَ ذَلك للمُتوكِّلينَ لتابُوا، ولكن حَلَّ بقلبهِ الكفايةُ باللهِ، فصدَّق اللهَ فيما ضَمِن، فألْقَى الكَنَفَ بين يديه.

وكان إبراهيمُ الخوّاص يصفُ المتوكِّل، ويذكر حقيقة التوكُّلِ، فقال فى كتابه: هو أن يتركَ العبدُ اختيارَه لاختيار اللهِ، وتدبيرَهُ لتدبيرِ اللهِ، بالغِنَى عن ذلك، وبالنظرِ إلى مجارى الأحكامِ والقَدرِ، ولا يكون الهَمُّ داخلاً على أهْلِ التوكل، ولا قلوبُهُم معلقةً بِهِم؛ لغِناهم عنهم، وفناء الأشياءِ عنهم.

قال: وإنّما يُولِّد الهمومَ فى القَلْب ما بقى من بَقايا النّفس من محابٍّ الدنيا، والطمعِ فى الخَلْقِ، والرُّكُون إلى الأَسْباب.

قال: ومَن بَقِيَتْ عليه البَقايا، لم يَضع قَدَمه فى مقامِ التوكُّلِ.

قال: ودوامُ نظرِهِ إلى مجارى الأحكامِ فيه، وعلَيْه، مع انتظارِ ما يقَعُ به من الله لِشدَّة الاجتماعِ فى الحراسةِ للسَّرائرِ، يُغْنيه عَن نفسه، ويزيلُ ضَعْفَه، ويصيرُ عَوْنًا على سَدِّ خَلَلِه، والحفظِ لضميرِه.

ثم قال: النّاس فى التوكُّل: طالبٌ له، ومَطْلوبٌ به. فالمطلوبون بالتوكل المستعملون بحقائقه فى أعلى ذُراه وغايته. قال: والضَّربُ الآخرُ محرَّكُون لطلبه بالتوجُّهِ مِن حيثُ العِلْمُ، فما وافقه استعمَلُوه، وما لم يُوافقه كَرِهُوه؛ لوقوفهم مع

الخَلْق بما يكون من لَمَّة المَلَك، وأشكال العَدُوّ، وتَسْويل النَّفْس.

فدخولُ الهَمِّ خُروجٌ من التَّفْويضِ، والتوكُّلُ رجوعٌ إلى النّفْس؛ لأنَّ التوكُّلَ لا يُقيمُ فى المتوكِّل همَّه، ولا يُحرِّكُها عليه، وإنَّما يُقيمُ عليه التّحويلَ إلى الأفعالِ، والتَّنْقيلَ، وأنّه مَنْ لَم يَجد فى قلبه بَصيرةً لما يُريد، فليس مِن اللهِ فى مزيدٍ.

قال: ومَن لم يَقطَعْهُ مزيدُ اللهِ فى قَلْبه عن وَصْف لسانه، فذلك الذى شغَل نفْسَه بحالِ غيره، وكُلّما أخذَه المزيدُ بهواه وضَعَهُ الهوى منه مواضعَ المضَرَّة، وكان عوْنًا له على المعَاصى، وداعيًا إلى الدّنيا.

وَحدودُ الإرادةِ قطعُ الطمع، وخَلْعُ الرّاحات، ونَفىُ الركونِ إلى الأسباب؛ دُون المُسبِّب، أو إلى المخْلوقين دون الخَالق. وكلُّ مُريدٍ لا تلهيه إرادتُه عمّا يريد ولا يريد، فليس بمُريدٍ، بذهابِ آثارهم؛ وهو تركُ الحركَة، والأخذُ للأسبابِ بشهوات النّفس وعاداتها، وباختيارها، بل بمَحْوِ رُسُومهم بتَصْفيَة الأعمالِ، وتَصْحيح الحركات، والأخْذ والتَّرْك لحُظوظ النّفْسِ، حتَّى تكون كلُّها لله، وبالله، بذَهاب رَسْمِ النَّفْسِ منها فى كلِّ معنًى، وذَهاب شَواهدِهم؛ لأنّ المسْتكمِلَ بما وَصَفْنا يقيمُ شاهدَ الحَقِّ فى الأشْياء، بزَوال شاهدِ النَّفْسِ، وحالِ الصّدق، ويَحْبس النَّفْسَ عن مُرادِها، حتّى يملكَ المريدُ قِيادَها.

قال الخوَّاص: وعلامة ركون قلب المريد إلى الله أن يكونَ قَلْبُه قويًا عند زَوالِ الدُّنيا عنه، وفناء الحقِّ، مُتَبرِّمًا بما فى يده من الأسبابِ، راحتُه فى فَقْدها، ويكون نَظَرُ اللهِ له فى المَنْع أفضلَ عنده من نَظَرِه له فى العَطَاء. وأن يجدَ للمَنْعِ من الحَلاوَةِ ما لا يجدَ للعطاءِ، ومن عَلِمَ أنَّ اللهَ قَصَدَه بالمَنْعِ، فَمَن مُعْطٍ سِواه؟[1].

وَمَن كان مِن المُريدين شُغْلُه فى عملِ ظاهرِه دُون باطنه وقَلْبه، وتَصْحيح إرادته، فإنما يُفسد أكثر ممّا يُصلح، وتكثُرُ آفاتُه وآفاتُ مَن تأدَّب به. ومَن كان شُغْلُه فى عَملِ قَلْبِه، وتصحيح إرادتِه، زكا عملُه، وقَهَر هواه، وقلَّت آفاتُه،

(١) بعده فى المخطوط فقرة مضت بنصها فيما نقل عن الخواص من قبل، فتركتها، وكانت أيضًا مضطربة، كثيرة الأخطاء.

وآفاتُ من تأدَّب به، والنُّسكُ هو العنايةُ بالسّرائر، وإخراجُ ما سِوى الله منها، حتى يتوجّه إلى الله، والعنايةُ تَبعث على التفقُّد. ومزيدُ أعمالِ المريدين على قَدْر تَفقُّدهم لها، ولم يُؤْتَ المريدون إلا من جهتين: مِن قِلَّة الصِّدْق، وإصابةِ الحَقِّ؛ ومِن رُكون الأدلّة إلى الدنيا، فدلُّوهم على عُلوم أنفسهم، وصدقِ المريد فى إيثار الخمولِ، ولُزُومِ البابِ، وفَراغِ القلبِ، وخَوْفِ فَوْتِ الوُصول.

والتاركُ للتكسُّبِ والتّصرفِ فى الأسواقِ، إذا كان فى أدنى كفاية، وأُعِين بالصّبرِ والقناعةِ، فى مِثْل زمانِنا هذا، أفضل وأتمُّ حالاً من المتكسِّب؛ إذا خاف أن لا ينال المعيشةَ إلا بمعصيةِ الله، مِن دُخولِه فى شبهةٍ عِيَانًا، أو خِيانة لإخوانه المسلِمين، ولأنه قد تَعذَّر القيامُ بشرائط العلم مع مباشَرة الأسباب، وكثرةِ دُخول الآفاتِ والفسادِ فى الاكْتساب. فَترْكُ مُلابسةِ أهلِ الأسواقِ ومخالطتهم على هذا الوصفِ المكروهِ أقربُ إلى السَّلامة؛ لبعده من رُؤيةِ الأشياء وفقده مُباشَرَتَها؛ لأنَّ الحكْمَ متعلقٌ بالرؤية. ومَثَلُ الحرامِ مَثَلُ المنْكَر إذا لم تره سقَطَ عنك حُكْمه. وليس الخبرُ كالمعاينة، ولا المجاورةُ كالمباشرة، ولا المعاينُ كالمُخبَر، ولا الاستتار كالإظهار، وذلك كخبر مَن زَلّ عن حقيقةِ الكَعْبَة على البُعد، إلا أنّه متوجهٌ إلى الشَّطر، فصلاتُه جائزة، ولو زلّ عنها أُنْملة مَعَ المعايَنة لها بَطَلت صلاتُه.

والتكسُّب ليس بفَرْضٍ، وقد يُفْتَرض بأحد معنَيْين: بوجودِ العيال؛ وعدمِ كفايتهم مِن وجهٍ مِن الوُجوه المباحة، أو بأن يَقْطَع عَدَمُه عن فرضٍ، ويُضْعِف عنه، مع فَقْدِ ما يقام به الفَرضُ مما لا بدّ منه.

وقد كان أبو معاذ يقول: ترْكُ المكاسب مع الحاجة إليها كَسَل، والكسب مع الاستغناء عنه كُلفة.

وقد كان بشر بن الحارث ترك التكسُّب، وكان يتكلم فى الحلال، ويُشَدِّد فيه، فقيل له: يا أبا نصر، فأنت من أين تأكل؟ فقال: من حيث تأكلون، ولكن ليس مَنْ يأكل وهو يبكى مثل من يأكل وهو يضحك. وقال مَرّةً: ولكن يدٌ أقصر من يد ولقمة أصغر من لقمة.

وكان سببُ تركه الصنعة أن البقلوى كاتبه [قال]: بلغنى أنك استعنت على

رزقك بالمغازل، أرأيت إن أخذ الله سَمْعَك وبَصَرك، الرِّزْقُ على مَن؟ فوقَر ذلك في قلبه بشاهد منه، وأخرجَ آلة المغازل. ويقال: بل تركها لما يُوهب باسمه، وقُصِد لأجلها، وطُلِبتْ لأجله، قُبيل المغازل البشرية، فأىُّ هذين كان فقد أنهج له طريق سلكه بعد الطريق الأول.

وقد كان للثورىّ خمسون دينارًا يُتَّجَرُ له بها، ثم أخذها فى آخر أمرِه، فَفرَّقَها فى إخوانِه، وتركَ التكسُّب. ويقال: إنّه فَعل ذلك لمّا مات عياله، وكان قد بقى بعدهم وحيدًا. وقال ابن سليمان: كان لسُفْيان عندى ثلاثمائة درهم بِضاعة، فكنتُ أبْضع له بها، فقال ذات يوم: هاتها، فجعلها صُررًا وقَسَّمها.

ورُوينا عنه، وعن وُهيب بن الوَرد: لو أنّ السماءَ لم تُمطر، والأرضَ لم تنبت، ثم اهتممتُ بشيءٍ من رزقى، لَظننتُ أنّى كافرٌ. وفى رواية وُهيب: منذ أربعين سنة لو كانت السماءُ رَصَاصًا، والأرضُ نُحاسًا، لم أهتمّ برزقى، ولو اهتممت له لظننت أنى مُشْرك.

فقال بعض أهلِ المعرفة: قد صدق سفيان، فلو أنَّ الهمَّ دخل عليه فى تصديقه، كان الشّكُّ قد نقَصَ تصديقه، وكان يكون شاكًا؛ لأنّه ليس مِنَ صِحّة التّصديق والصِّدق الاهتمام بالرزق؛ قال: لأنَّ الرّزقَ جزءٌ مِن مائةِ جزء، قد وقع تصديقُ المؤمنِ به، فمن لم يصحَّ تصديقُه فى هذَا الجزءِ الواحدِ لم يصحَّ فى سائرِ الأجزاء. قال: والتّصديقُ يقتضى السُّكونَ، والطمأنينةَ، والنّفسُ تميل إلى الحركةِ طمعًا فى استعجال أحد الأسباب. فمن كان مُحَقِّقًا لتصديقهِ بالسّكون انصرف عن إجابة داعى النفس بالحركة إلى السّكون، الذى يقتضى منه التّصديق، وشغَلَ قلْبَهُ بالعمل فى تصحيحِ تصديقِهِ.

وقال أبو السّليل: قال رجلٌ لأُوَيْس القَرَنى: أصْحَبُكَ أستأنسُ بك. فقال: سبحانَ الله، ما ظننتُ أنّ أحدًا يعرف الله يستوحش معه. فقال له الرجل: ما المعيشةُ؟ فقال أوِيس: أَوَ خالطَ القلوبَ الشّكُّ، فما يُنتفع بمَوْعظة؟!

وقال إبراهيم الخواص: تَعرِفُ شَكَّ الرجلِ بِكَثْرةِ كَدِّه وحرصِهِ، ويقينَه بدوام

سكونه، ومن لم يُثبت القَدَر فى الرزقِ لم يُثبته فى الدين.

وكان يقول: الحركةُ للخُصوصِ عقوبةٌ لهم إذا مالوا إلى ما فيه الحَظُّ لأنفسهم؛ لأنّ الأسبابَ إنّما تُبطئ على العارفين، وتمتنع عن الحركة إليهم، لما فيهم من الحَركة إليها، فإذا فنيت آثارُها منهم متحركةً إليهم، أقبل المَلِك بكُلِّيته عليهم.

وقال مرةً: ليس تبطئ الأسبابُ على العبدِ بمجيء الأرزاق، إلا من خَلَل فى عقْده، أو فسادٍ فى أصْلِه، يصحح ذلك قولُ الله تعالى: ﴿**كُلَّما دَخَلَ عَلَيْها زَكَرِيَّا المِحْرابَ وَجَدَ عِنْدَها رِزْقًا**﴾ [آل عمران:٣٧] قال: فبدوام إقبال مريم على الله، ولزُومها المحرابَ، أقبل اللهُ عليها بالكفاية، ولم يُخْرِجها إلى الحركة؛ لأنَّ اللهَ تعالى رَزَقها رِزْقًا كريمًا، بلا تَعَب ولا نَصَبٍ، ولا يعطيه أحدًا من أهل الصبر، أو يكون مقبلاً عليه بكليته، وإلا أتعبه بالسّعى فيه. قال: فكانَت مريم بلُزومها المِحراب تُعطَى رِزقَها فى المحراب، فلمّا جاءَت إلى جِذْعِ النّخلة كلّفها التّحريك له، وهكذا كلُّ مَن أَوَى إلى مَوْضِعِ الأسبابِ، كلّفه اللهُ تعالى الحركةَ فيها. وأهْلُ التوكُّلِ المخصُوصينِ مَمْنُوعونَ مِن الاستراحة إلى سَبَبٍ، أو مَخْلوق، أو الميلِ إلى شىءٍ عند وُقوع الشّدائدِ، وهكذا الأشياءُ ممنوعةٌ منهم. قال: فمَنْ مَيَّلَتْه الشّدائدُ إلى سببٍ، فمال إليه، ولم يقف فى ظلِّ التوكُّل وكفايتِه، لِئلا يَخْرُجَ منه، خَرَج من حَدِّ هذا التوكل.

قال الخواص: يصحّح ما ذكرناه، أن الحركة عقوبةٌ، ما قال أبو أُمامة الباهلى: أن رجلاً من الأنصارِ زَرَع زرعًا فأَرْبَا، فقيل: يا رسول الله، إنّ فلانًا قد زَرَع زرعًا فأَرْبَا، فقال: «وما ذاك؟ ركعتان خَفيفتان خيرٌ من الدنيا وما فيها»، ثم قال؛ يَمدّ إلى أبى بكر وعمر يدَه: «لو أنكم تَفْعَلُون ما تُؤمرون لأكلتم غير زُرَّاعٍ ولا أشْقياء».

قال: فهذا يدلُّ على أنه إنّما أتعب اللهُ الخليقة بالكدِّ فى طلب الأسبابِ، من تقصيرهم فى استعمال ما أُمروا به ونُهُوا عنه، وإنّ آدمَ ﷺ إنّما أُهبط إلى الدّنيا عقوبةً، يُصحِّحُ ذلك قولُ اللهِ عز وجل: ﴿**وأن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ**

لأسْقَيْناهُم مَّاءً غَدَقًا﴾ [الجن:١٦] قال: بلغنا فى التفسير أنه لَيقصدهم بالبلاء أبدًا حتى يَرْجعوا إلى الكتابِ الأول، أنه لا يكون إلا ما أراد الله.

قال: ورُوى عن النبى ﷺ أنّه قال لابن مسعود: «لا تكثر همَّك، ما يُقدَّر يكُن، وما تُرزَق يأتيك».

قال: وحديث أبى سعيد الخُدْرى: عن النبى ﷺ: «لو أنَّ أحدَكُم فرَّ من رزقه لأدْركه كما يُدْرِكهُ الموت». قال: وإنّما حُرِمَ العبدُ مجيء الرزقِ إليه من كَثْرة الذُّنوبِ، أو من حَبْس الفُضول، يُصَحِّح ذلك قولُ أنسٍ عن النبى ﷺ: «إنّ أهلَ البيتِ لَيكون عندهم المُدُّ والمُدَّان من الطعام، يحبسونه، يقولون لغدٍ، فيحبس الله عنهم الرزق حتى ينفقوه، ثم يأتِيهم اللهُ به».

قال: وبلَغنا لما التقى مُوسى والخَضِر عليهما السلام، وكان موسى أشدَّ جوعًا من الخَضِر، فإذا غزالان قد سقَط أَحدُهما مَشْويًا إلى الخَضِر، وسقط الآخر مذبوحًا بجلده ورأسِه إلى موسى، فقال له الخضر: «قم يا موسى فبِقَدْرِ ما بَقِى فى نفسك من الاهتمامِ برزقكَ فتَعَنَّى». فأعلَمَهُ: أنّى توكَّلْتُ فكُفيتُ، وأنت اهتممتَ فَعَيِيتَ. هكذا رواه الخوّاصُ، ورُويناه من طريقٍ آخر: «قال موسى للخَضِرِ عليهما السلام: كيف هذا؟ وقَعَ إليكَ نِصفه مَشْويًا، ووقع نِصْفُه إلىَّ نيئًا! فقال له الخضر: إنه لم يَبْقَ لى فى هذه الدنيا أمل»، وفى رواية: «ليس لى فى هذا الخلق حاجة».

وروينا عن الحَسن عن عمران بن حصين أنّ النبى ﷺ قال: «مَن انقطعِ إلى الله كفاه مؤونةَ رِزْقِه، ورَزَقه من حيثُ لا يحتسب، ومَن انقطعِ إلى الدُّنيا وَكَلَهُ إليها».

وقال الحسن: بلغنا عن النبى ﷺ أنه قال: «قاتلَ اللهُ أقوامًا أَقْسَمَ لَهُم ربُّهم بنفسه فلم يُصدِّقُوه».

وفى أخبار وَهْب وكَعْب عن الكُتب السّالفة، يقول اللهُ تعالى: «أُقْسم بعزَّتى لا يعتصم بى عبدٌ دون خَلْقى إلا وَلِيت سياستَهُ وتدبيرَه، ولو كادَتْه السّموات

والأرضُ بمن فيهن لجَعلتُ له من ذلك مَخْرَجًا. أُقسم بعزَّتى لا يعتصم عبدٌ بمخلوقٍ دُونى إلا قطعتُ أسبابَ السّماءِ من يدِه، وخسفتُ به الأرضَ من تحتِ قدمِه، أجعلُهُ فى الهواءِ ثم أَكلُه إلى نفسه».

وفى الخبر المشهور: «إنّ العبد ليُحرَمُ الرزقَ بالذَّنْب يُصيبه».

وبعض العارفين يُفَضِّلُون من لا معلومَ له على مَن له معلوم. وهؤلاء يرَوْن تركَ التكسب أفضل، والسّكونَ عن التحرك أعلى؛ لأنّ ذلك معلوم. ويعدُّ هؤلاء سكونَ القلبِ مع وُجودِ المعلومِ عِلّة، ولكن إذا سكَن قلبُه مع غيرِ معلومٍ، واجتمع همُّه، وانقطع طَمَعُه فى حالِ المعدوم، فهذا هو المقام.

ولعَمْرى فى التّحقيق أنّ الحركة فى طلبِ المضمونِ للخُصوص عقوبةُ فَقْد سُكُونِ القلبِ إلى الرَّبِّ، كما أنّ تَرْكَ الحركةِ فى أعمالِ البرِّ والقُرباتِ عقوبةُ سكونِ النّفْسِ إلى حُظوظِ الشَّهوات.

وليس للعبدِ أن يحمل حالَ عيالهِ على حالهِ، إلا أن يكون اختيارُهم كاختيارِه، وصبرُهم على فَقْرِهم واحتياطهم بضرِّهم ومعرفتهم بفضله كمعرفته، فجائزٌ حينئذ أن يسير بهم سِيرته، ويسقط عنه التكسّب لأجلهم؛ لأنّهم كهو فى الحال مع سقوط المطالبة منهم له بحقوقهم عليه. وقد فعل ذلك جماعةٌ من السلف.

والعدلُ من القول فى تَفْصيل تَرْك التكسُّب وفعله، وفَقْد المعلوم؛ هو أنّ العبدَ لا يَفْضُل بنَفْس عدَم المعْلُوم، ولا بتَرْكِ التّصرفِ فى الموجودِ، كما لا يَفْضُل بفَقْد الغِنى ووَجْدِ الفقْر، ولا يَسْبق بالقُعود عن الحركةِ من غَيْر إقعادٍ، ولا يعلُو بالتحرُّك إلى الأسبابِ بغير إيجاد، وإنّما يُوصف فى ذينك بالفقُراء والإباحة[1]، لكن يَفْضُل بحاله مَن مقامه؛ من زُهدٍ، أو رضا، أو صبر، أو توكُّل، أو اقتطاع لخدمة، أو تألُّه وتولُّه بِشغلٍ متَّصلٍ بصدقِ معاملة. فبهذه المعانى وقعَ التّفضيلُ عن العلماءِ ذَوى التَّحصيل، فإن كان ذُو المعلوم والتّصرُّف أحسنَ مَعْرفةً، وأقوى يَقينًا، فَضُل على مَنْ لا معلومَ له ممَّن نَقَصَت معرفته، ولا يكون سكونُ القَلْب وطُمأنينةُ النَّفْسِ ـ أيضًا ـ مع وجود المعلوم عِلَّةً فى الحالِ إذا ثبتَ المقام، وصَحَّ

(١) كذا هذه الجملة بالمخطوط ولعلها محرّفة، أو تحرّفت بعض كلماتها.

العَقدُ، وحَسُن التَّصرُّف والعَقْد، ولكن لا يكون مقامًا يُرْفَع به ولا حالاً يَفْضُل فيه عند طائفة من العارفين، إلا أنّ الطمع فى الخلق وتَشتُّت(١) القلب مع وجود معلوم الكفاءة نقصانٌ عند الكُلِّ، وعندى. وقَطْعُ الطمعِ فى الخلقِ، وفَقْدُ التَّشرُّف إلى معتادٍ منهم، أو مَألوفٍ بهم، واجتماعُ القلبِ مع العَدَم وفقد المعلوم، أفضلُ وأعلى درجةً عند الجماعة.

فأمّا سكونُ القلبِ، واجتماعُ الهمِّ، وفقدُ الاستشراف إلى الخَلْق مع العيالِ، وثبوتُ الأحكامِ، فهو أفْضَلُ وأشرفُ. وهذا حالُ الأقوياء، وطريقُ الأنبياءِ، اتّفقوا على هذا. وأمّا اضْطرابُ القلبِ وتفرُّق الهَمِّ مع وُجودِ العيالِ، فإن كان لأجْلهم، وللقيام بحُكم اللهِ فيهم، فلا نقْص فيه، وقد يُؤجَر عليه ضِعافُ اليقين.

وأما شَتَاتُ القلبِ، وتَفرُّقُ الهَمِّ، ووَجْدُ الاهتمامِ فى حالِ الوَحدة للمتفرد، فنصيبٌ من الرّغبةِ موفورٌ، وصاحبُه فيه غير مَعذورٍ، وقد يكون مأزورًا.

وفى حديث حيّة وسوار ابنىّ خالد: أنَّ النبى ﷺ قال لهما: «لا تَيأسا من الرِّزقِ ما تَهزَّزتْ رُؤوسكما. فإنّ ابنَ آدمَ تلدُه أُمُّه أحمرَ ليس عليه قِشر، ثم يرزقه اللهُ بعدُ».

وقال أبو محمد: لو أنَّ العبدَ سأل اللهَ أن لا يرزقه لم يستجب له، ويقال له: يا جاهل، أنا خلقتك، ولا بدّ من أن أرزقك. فالرِّزْق لا ينقطع عن العبدِ حتى يَظهر له مَلَك الموت، فحينئذٍ ينقطع عنه رزقُ الدنيا، ويدخل فى رزق الآخرة. فيكون أوّلُ رزقِ الآخرةِ آخرَ رزقِ الدّنيا، ولا آخر لهذا الرزق، لقوله عز وجل: ﴿**فَلَهُم أجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ**﴾ [التين:٦]، يعنى: غيرُ مقطوعٍ، ومثله: ﴿**عطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ**﴾ [هود:١٠٨] أى: مقطوع، وقوله: ﴿**لَهُم مَّغْفرةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ**﴾ [سبا:٤]، ﴿**أُكُلُهَا دَائِمٌ وظلُّها تلْكَ عُقْبَى الَّذينَ اتَّقَوْا**﴾ [الرّعد:٣٥].

وسُئل سَهْل رَحمه اللهُ عن القُوت، فقال: هو الحىُّ الذى لا يموت. فقيل: إنّما سألناكَ عن القِوام، فقال: القوامُ هو العِلم. قيل: سألناك عن الغِذاء، فقال:

(١) فى المخطوط: «وتشبث».

الغذاء هو الذِّكر. قالوا: سألناك عن طُعْمَة الجَسَد، فقال: ما لَكَ وللجَسد؟ دَعْ مَن تَولاَّه أوّلاً يتولاّه آخرًا، فإذا دَخَل عليه عِلّةٌ فَرُدَّهُ إلى صانعه، أمَا رأَيت الصنعةَ إذا غابَت ردُّوها إلى صانِعها حتى يصلحها؟

وقد كان يحيى يقول: إنّ هذه الكِسْرَةَ فضَحَت الخلقَ، وأخرجت أبانا من الجَنة، فلا تُلحُّوا فى السؤال عنها، فيفسد عليكم دينُكم، وأنتم لا تَشْعُرون.

وقال أيضًا: إنَّ الله يُلْقى على الخُصوص الفاقةَ، ويُخرجهم إلى الخلق بالطَّمعِ فيهم، ويُلقى فى قُلوبِ الخَلْق المنعَ لهم، يَحْرمهم ما فى أيديهم، ليردَّهُم إليه، فإذا كان هكذا يأتى رِزْقُهم من حيث لا يحتسبون.

وبمعناه ما روينا أنّ إبراهيم عليه السَّلام طرقَتْه فاقة، فذهب إلى خَليلٍ له من النَّاس يستقرضه، فتوارى عنه، فرجع إلى أهله منكسرًا، فأوحى الله إليه: خليلُك أنزلتَ به حاجتَك، ولم تُقْضَ، وذَكَرها.

فانظر كيف ألقى فى قلبه الخروج، ثم ألْقى فى قلبه المنع، ليردَّه إليه ضرورةً؛ لأنّه يجيب المضطر.

ومن علامةِ الأولياءِ: أنّهم إذا تشرَّفُوا إلى شىءٍ حُرموا ذَلك الشىء، وإذا سكَنُوا إلى عبدٍ سُلِّط عليهم، أو فُرِّق بَيْنَهُم وبينه، ليرفع سُكونَ أوليائه إلى غيره، ويقطع طَمعَهُم مِن سِواه، يُؤدِّبُهم بذلك، ويُهَذِّبُهم له، لِيَنْقَطِعُوا إليه، ويَطمئنُّوا به. وقد كان بعضُهم إذا جاء السَّببُ بعد التَّطُّلعِ إليه ردَّه، ومنهم من كان يُخرجه ولا يتناول منه، عقوبةً لنفسه وتأديبًا لها.

وكان ذو النون المصرى يتكلّم على إخوانه فى علمِ التّوحيد والمعرفة، فسأله غلامٌ شابٌ عن الخُبز: من أين هو؟ فقال: خُذوا بيده، واذْهبوا به إلى الصُّوفيةِ حتّى يعلِّموهُ الأدب.

وقد حُكِيَ عن معروف أبى محفوظ الكرخى: أنّه ذُكر له انقباضُ بِشْرٍ عن الأسبابِ التى تُفْتَتَح له، فقال: إنّ أخى بشرًا قَبضَهُ الوَرَعُ، وأنا نشَّطَتْنى المعرفة. إلا أنّ معروفًا كان لا يأخذ السَّببَ إلا عندَ الحاجةِ، ويرفع يدَهُ مع الكِفاية، ويعمل

في كل وقت بحكم ما يوجبه الوقتُ، ويأخذ منه ممّا لا بدّ له منه في وقتِه، وكان لا يدّخر شيئًا لغد، وكان قصيرَ الأملِ، لم يكن يأمُل البقاءَ من وَقْت صلاة إلى صلاة أخرى؛ كان إذا صَلَّى الظُّهْرَ يقول للجيران: اطلبوا لكم مَن يُصَلِّي صلاةَ العصرِ، وكان يقول: إنما أنا ضيف في دار مولاي، إن أطعمني أكلْتُ متى أطعمني، وإن أجاعني صَبْرتُ حتى يطعمني.

وقد كان أبو محمد سهل يقول: المتوكِّل لا يسأل ولا يردُّ ولا يَحْتكر.

وفيما حدَّثني أبو بكر الصّناديقي، رحمه الله، عن الخوّاص في كتابه «التوكل» قال: إنّ اللهَ تعالى بلُطفهِ وحُسن نَظرِه لِخَلْقه نَدَب العُمومَ من التوكُّلِ المعمومِ إلى التوكُّل المخصوصِ المخزونِ، بقوله عز وجل: ﴿وعَلَى الله فَلْيَتوكَّلِ الْمُتَوكِّلُونَ﴾ [إبراهيم:١٢]. قال سعيدُ بن جبير: يعني المصدِّقُون لله فيما وقع به الوعدُ والوعيدُ؛ لأنّه إنّما وقعَ توكُّل المصدِّقين لله على اللهِ في استخراجِ ما وقعَ تصديقُهُم به من الوَعْدِ في الأرْزاقِ من وُجوهِها ومَواضِعها، لا نفسَ المضْمون، إذْ كانُوا لا يَسْلَمون في الحركَة فيه، وأنّه هو تعالى أعرفُ بأماكنِه، وأقدرُ على استخراجِه. وهذا النَّدْبُ لطيفَةٌ من الله بالعُمومِ، وحجةٌ عليهم أن دعاهُم إلى مَواضِعِ الفضلِ والشَّرفِ باستعمالِ التوكُّل المخْصوصِ؛ لئلا يُقيموا على حالِهم، فلا يطالبون بالرِّفعة عنها، والانتقال منها.

وقال رحمه الله: أتعبَ اللهُ سائرَ الخلقِ بما استعملَهم من مَرافق أنفسِهم، وتركَهم مع ذلك مُتَحيِّرين، إذا اختارُوا ما لم يَخْتَر اللهُ لهم، فأقامُوا أنْفُسَهم مقامَ الأربابِ، واهتمُّوا بها، وآثروا صافية الحظِّ، فطلبوا من العِلْمِ ما يُوافِق الهوى ويدعو إلى الانبساط في أسباب الدنيا، واشتغلوا بتَدْبيرها، وكانت الحجة عليهم أعظمَ وأوْكدَ، إذ كان الله تعالى قَدْ دَعاهم إلى الرّاحة ووُجودِ الكفاية، بقوله: ﴿ومَا لَنا ألاَّ نَتوكَّلَ عَلى الله وَقَدْ هَدَانا سبُلَنا﴾ [إبراهيم:١٢]، ثم وقع الاقتضاء منهم بِتَرْكِ الاختيار، بقوله: ﴿وربُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ ويَخْتارُ ما كانَ لَهُمُ الخيرَةُ﴾ [القصص:٦٨]، وزادَهم تأكيدًا في الحجةِ عليهم، بقوله عز وجل: ﴿وما كانَ لِمؤْمِنٍ

ولا مُؤْمِنَة إذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُه أَمْرًا أن يَكُونَ لَهُمُ الخيرَةُ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وضرَب لهم فى التَّنزيل مثلاً بقوله: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً عبْدًا مَمْلُوكًا لا يَقْدرُ عَلَى شىء﴾ [النحل: ٧٥]، ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ﴾ [النحل: ٧٦] ليَرْجعوا عمّا قد تملَّكُوا عليه من أُمورِهم، وابتدوا فى الاختيار له من أنفسهم، ويلقوا كلَّهُم عليه، لتكون أمورُهم ومصالحُهم راجعةً إليه، ويعلموا أنهم عبيدٌ مَرْبُوبُون، وأن من صفة العبيد تركَ الاختيار وإلقاءَ الكُنُف بين يَدَى مَن هُمْ له عَبيد، حتى يستعبدهم بما شاء، وما قَسَم لهم من رزق كان قائمًا لهم به، ويُوَطِّنوا أَنْفُسَهم على الاستواءِ فى تلوين أحكامه، والرّضا بجميعِ أَقسامِه، ويُسْقِطوا عن أنفسهم التّدبير، فعلَّقُوها بالواحدِ الكبيرِ.

وقال فى كتابه «التوكل» فيما أخبرنى به عن الصّناديقى: الناسُ اثنان، رجلٌ وعَبْدٌ. فأما الرّجلُ، فإنّه مهمومٌ بتدبير أمرِ نفسه، متعوبٌ بالسعى فى مصلحته. وأمّا العَبْدُ، فإنَّه طرحَ نفسه فى ظِلِّ الرُّبوبيةِ، وكان من حيث العبودية.

وقد كان الفُضيل من قبله يقول: أمُدَبِّر غيرُ الله تريدون؟! نِعْم المدبِّرُ لك لو أطعتَه، إذ كان الله أغلبَ على أمره، وأعلمَ بمصالح عبدِه من عبدِه، فكم مِن عبدٍ قد تخيَّر أمرًا كان هلاكُه فيه.

وقد كان أبو وائل قبل الفضيل يقول: يا أَعْمش، نِعم الربُّ ربنا، لو أطعناه ما عَصَانا.

• بيان قول الخواص، والفضيل، وسهل، وذى النون، رحمهم الله، فى ترك التدبير والاختيار، والرضا بمجارى الأقدار:

ليس يشكّ هؤلاء وجميعُ العارفين، لنظرهم بعينِ اليقينِ، أنّ الأفعالَ والحركاتِ فعلُ الله الواحدِ القهارِ، الغالبِ على أمره بأمرِه، إذ هوُ المختارُ. ولكن ما فعلَه صِرْفًا به من غيرِ أن يُدخل أيديهم فيه، ولا أهواءهم، وكان ذلك أبدًا منه به، إذ هو يبدئُ منه ما يشاء، ويعيد عليهم من الرّسُوم والأحكام ما شاء، فإنَّ ذلك مُيَمّنٌ ويُمْنٌ، وهو الاختيار وفيه بركةٌ.

وما فَعَله بواسطتِهم وأجْرَاهُ على أيديهم، وداخَلَ فيه نفوسَهم وأهواءَهم، فأعاد ذلك عليهم، وجعلهم أسبابًا، وهذا موضعُ التفضيل فى مكانِ العلم، ومجارى الرسم، فذلك مشامُّه، وهو الاختيار، وفيه هلكة. فتدبّروا.

شاهدُه قوله ﷺ: «لا تسأل الإمارةَ، فإنَّك إن أُعْطِيتها عن غيرِ مَسْألةٍ أُعِنْتَ عليها، وإن أُوتيتها عَن مَسْألةٍ وُكِلْتَ إليها». ففرّق ﷺ بين البداء بالأولية، وبين المداخلة بيدِ العبد بالأوسطية، بإيجابِ القُدْرةِ من الله، أو أَفعلُ الشىءَ به، وبالتخلى منه، إذًا أفعله بالأواسط.

وكذلك قولُه للرجل الذى سأله أن يستعملَه فى الأعمالِ، فقال: «إنَّا لا نستعملُ على عملنا مَن ظهر عليه»، وكذلك قولُه فى العطاء الذى يدخل العبد من غير مسألة، ولا إشراف نَفْسٍ. ولو جعل الغِنى لواحد وأجرى السبب المفرد أوّله به صرْفًا أبدًا، كما ذكرناه[1]. ثم يرده ويمنعه بهم، فيعود حكمته المذموم عليهم، ويصفهم العارفونَ بالاختيارِ منهم، وبالتدبير وبتَرْك الرضا. فإن علموا أنّ ذلك فعْلُه تعالى إلا أنه برَسْمِهم وإظهار شهَادتهم، وفى مكانِ نفوسِهم وأهوائهم. وقد يجرى الأمرُ الواحدُ بِهِم وعلى أيديهم وباختيار أهوائِهم، ثم يَمْنَعُه ويَصْرِفه، ويردُّهُ به لعَدَمِ اختيارهم، وفَقْد أهوائِهم، ووُجُودِ مكارههم، فيكون ذلك خيَرَةً لهم، وحُسنَ تدبيرِ منه، بفَقْدِ آرائهم وعُقُولِهم، وعَدَمِ محبَّاتهم، فيصفُهم العارفون بالرضاء والتسليمِ، وبالتوكُّل والصبر، أو الشكر والاستسلام، إذا وُجد ذلك منهم، ووَجَدُوا حلاوةَ القضاءِ، وشهدوا حُكْمَ القاضى، فيصير هذا الوَجْدُ وشهادةُ هذا الفعلِ مقامًا لهم فى التوكل والرِّضا، إن كان ذلكَ فِعْلَ الله تعالى، إلا أنه بإخْراجِ أهوائِهم، وإزالة حِرْصِهِم. وإن كان ذلك بهِم لإعادةَ الحُكْمِ عليهم. فتفكَّروا.

وقال إبراهيم الخواص، فيما أخبرنى أبو بكر الفقير عنه: الرِّزق ليس فيه توكُّل، ولو كان لا يُنال الرِّزق إلا بالتوكُّل كان الضعيفُ ومَن لا يُحسن أن يتوكَّل

---

(١) هكذا يمكن أن تقرأ هذه العبارة، وهى غير مفهومة، وأرجح أن فيها خطأ من الناسخ، وهو كثيرًا ما يخطئ فى هذه النسخة (م).

يموتُ. فصَحَّحَ ذلك قولُه تعالى: ﴿وكأيِّن مِّنْ دابَّةٍ لا تَحمِلُ رزقَها اللهُ يرزُقُها وإيَّاكُم﴾ [العنكبوت: ٦٠]. فهذا الخطابُ مِن اللهِ لخَلْقِه، يقتضى من الخَلْقِ تركَ حملِ الأرزاقِ لوقْتٍ لم يأت، أو يَوْمٍ لم يأتِ، لطيفةٌ من اللهِ دَعاهمْ بها إلى مَواضعِ الرّاحةِ من الاشتغال بحَمْلِ ما قد ضَمِنَهُ لهم، وتكَفَّل باستخراجِه إليهم، وحُجَّةٌ منه عليهم ألْزَمَهم إيّاها، وقوله تعالى بالضَّمان لأرزاق الخَلْق: ﴿اللهُ يرْزُقَها وإيَّاكُم﴾ يقتضى السّكونَ إليه بالثِّقةِ به فيما ضمِن وتكَفَّل باستخراجِهِ، والصَّبْرَ على وعده، حتى يُخرجَ اللهُ المضمونَ من أمارَته.

قلتُ: ففى هذا دليلٌ على تحريرِ الحركةِ، والتّسبُّبِ للمتوكِّل، وأن ذلك لا يُنقص توكُّلَه، إذ الدّابةُ المَرْزوقةُ باللهِ مِن اللهِ، قد تَدبُّ وتَتَسَبَّبُ إلى مواضعِ الرزقِ، وقد تدَّخِر النملةُ والفَأْرَةُ، وهما من الدوابِّ، وقد يَجْمَعُ بَعْضُ الطَّيْرِ فى عُشِّه، ويجلب إلى وكْرِه، وفى ضَرْبِ النبى ﷺ مَثَلَ المؤمنِ كالنّملة شاهدٌ لما ذكرناه من قوله: «مَثَلُ المُؤْمنِ كالنَّمْلةِ تَجْمعُ فى صَيْفِها لشتائها». ولكن يحتاجُ المتوكِّل أن يكونَ فى دَبِيبِه وحركتِه وذُخْره بمعناها إلهامًا وتوفيقًا، ونظرًا إلى الوكيلِ، لا لمعقول ولا تَدْبير.

وكذلك القولُ فى تمثيل الرسول ﷺ: «لو توكَّلْتم على اللهِ حقَّ توكُّلِه لرَزَقكم كما يرزقُ الطيرَ تَغدُو خِماصًا، وتَرُوح بِطانًا». فالطير وإن لم يكن من وَصْفها أن تحملَ، ولا من فعلها أن تُدبِّر وتَعْقِل، فإنّها تتحرك وتَقْصد، لقوله «تغْدُو»؛ فغدُوُّها تسبُّبٌ، وقَصْدُها أماكنَ معاشها تعيُّش، وقد أضافَه الرزَّاق إليه، وجمعَ بيننا وبَيْنَها فيه، فقال: ﴿وجَعَلْنا لَكُم فِيها مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَه بِرَازِقِين﴾ [الحجر: ٢٠]؛ الهَوامُّ والأنعامُ، فعمَّنا وإيّاها بالتحمُّد إلينا، بأنَّ المعايشَ فى الأَرْضِ منه علينا إنعام.

وقد روينا فى حديث أنس بن مالك وغيره أن النبى ﷺ قال: «الرِّزق مقسومٌ، وهو آتٍ ابن آدم على كل سَيرةٍ سارها، ليس تَقْوى تقيٍّ بزائده، ولا فُجُور فاجرٍ بناقصه، وبين العَبْدِ وَبيْنَ الرزقِ سترٌ، فإذا أجملَ فى الطَّلَبِ أتاه الرِّزقُ من حلِّه،

وإن شَرِهَتْ نَفْسهُ هَتَك السِّتر، ولم يَزْدَدْ فوق ما قُسم له»، ثم قال ﷺ: «إن العبدَ لَيُعْرَض له بابٌ من الرِّزقِ الحرامِ، فإن عَجِل إليه نَقَص مِن رزقهِ الحلالِ، وإن هو أمسك جاءه الرزق الحلال حين يأتيه من حِلّه».

جمعتُ هذه الألفاظَ من ثلاثة أخبار من حديث أنسٍ، وغيره، ففى تدبُّرِ هذا الخبر أن الرزقَ الحلالَ مستودعٌ فى الطاعةِ والتّقوى، وإن الرزقَ الحرامَ مستقرٌّ فى المعصية والآثام، يستخرج اللطيفُ بلطفه الخبير بعلْمِه وخَبَره لأوليائه الحلالَ بحسن اختياره، حتى يُوَصِّله إليهم، ويَجعلَه طُعْمَتَهُم، لقوله: ﴿**كُلُوا مِنْ الطَّيِّبَاتِ واعْمَلُوا صَالِحًا**﴾ [المؤمنون:٥١]، فمن أكل طيبًا عَمِل صالحًا، ومن أطْعمه الطَّيبات استعمله بالصَّالحاتِ، لقوله: ﴿**الطَّيِّبَاتُ للطَّيِّبِينَ**﴾ [النور:٢٦]، أى الطّيبات من الأعمالِ والأرزاقِ للطيبين من العُمّال والمَرْزُوقِين.

ويفعل بأعدائه ضدّ هذا من رزق الحرامِ، والاستعمالِ بالحرام، كقوله: ﴿**الخَبِيثَاتُ للْخَبِيثِينَ**﴾ [النور:٢٦]، أى من الأعْمَالِ والأرزاق للخبيثين مثلها. وقال: ﴿**إنَّهَا إنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّن خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِى صَخْرَةٍ أوْ فِى السَّمواتِ أوْ فِى الأرْضِ يأتِ بها الله**﴾ الآية [لقمان:١٦]، كما ذكرناه أولاً، فتدبَّر.

وسمع علىُّ بن الحسين رجلاً يقول: اللهمّ ارزقنى حلالاً صافيًا، فقال: يا هذا، الحلالُ الصّافى طُعمةُ الأنبياء، سلِ اللهَ أن يرزقك رزقًا لا يعاقبك عليه. فدلَّ أنّ ترتيب الأرزاقِ على مراتبِ الدّرجات.

وقد روينا وسمعنا أن الأنبياء أكَلُوا من أيدى الأمّة، ومن طُعْمة العبادِ، ومما دَفَعُوه إليهم، فليس ذلك إلا باستخراج اللهِ لهم الحلالَ من حيث يعلمُ، لا مِن حيث يَسْتخرجون.

فرزقٌ حَسَنٌ ينفق منه صاحبُه فى القُربات، ويستعينُ بقوته على الطاعاتِ، ورِزق سَيِّئ فيُمسكه ويجمعه، ومن حقُوقهِ يمنعه، فإن أنَفق ففى سبيل الإبعادِ والهلكات. فكلُّ عاملٍ يشبه رزقُه عملَه، وطعمتُه أساسَ معاملتهِ: ﴿**إنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إنَّه هُوَ العَلِيمُ الحَكِيمُ**﴾ [يوسف:١٠٠].

قال الخواص: فالذى قيَّد العبدَ أن يسرحَ فى الأرض حيث شاء قلّةُ تصديقه بمَجىء الأرزاقِ إليه حيث كان، وضَعْفُ عمله بأنّ اللهَ معه فى كل مكان، وأنّه تعالى يُضيِّق حيث يَشاء، ويُوَسِّع حيث شَاء، ويُؤَمِّنُ حيث يشاء، ويُخيفُ حيث شاء، فمن كان ناظرًا إلى الله فيما يَفْتح له من أسبابِ الرِّزق، معتمدًا عليه فى استخراجه، كان البَرُّ والبحرُ والسَّفَرُ والحَضَرُ عليه سواء؛ لأنَّ من تولَّى اللهُ كفايتَه فى الحَضَرَ تولَّى كفايته فى السَّفَر، ومن كان معتمدًا على تكلُّفه وحيَله لم يتهيَّأ له أن يفارقَ العُمران، ولو أنَّ عبدًا مع مولاه فى السّفَر لكان قَلْبُه قد سكَن إليه أنّه يطعمه حيث سافَر معه.

وهكذا، مَن عَلِم أنَّ اللهَ سبحانه معه لم يحتج أن يحملَ زادًا ولا إداوةً. يصحِّح ذلك قولُ النبىّ ﷺ للسائلِ وقد أعطاه تَمْرةً فقال: «لو لم تأتها لأتتك»، دلالةً على تركِ الحَركة توبيخًا له فى حركته، بعد صِحّة الضمانِ بمجىءِ الأرزاقِ لوَقْتها، ونَهيًا له عن السَّعى إلى ما وَقَع التّصديقُ بمجيئِه لوقته.

وقال على بن طالب رضى الله عنه: الرزق رزقان؛ فرزق تطلبه ورزق يطلبك. قال: لو لم تأته أتاك. فالرزقُ الذى يطلب العبدَ هو رزقُ الغد، والرزقُ الذى يطلبه العبدُ هو رزق الملك من الفضول[1].

وقال الحسنُ: فضولُ الدُّنيا عقوبةٌ عاقَبَ اللهُ بها أهلَ التوحيدِ، مَحْبوسةً فى أيديهم لغيرِهم، يأكلها غيرك هنيئًا.

هذا الذى ذكره الخواص ـ رحمه الله ـ هو حالُه ووصفُ طريقه، وكان من أكابر الصابرين. إذ لا يقاس الضعيفُ الجزوعُ بالقَوىِّ الصَّبُور، وأن لا يسلك طريق الإيغال[2]، ولا يتحول إلى حال إلا بعد ظهور شاهده، وهذا طريقُ خصوصِ المتوكلِّين، مثل أبى تراب النخشبى، وذى النون، وحاتم الأصمّ، وعلى الصوفى. كما قال بعضُهم لأبى تراب، وقد عزم على قطع البرِّيَّة، فدفع إليه شيئًا، وقال: يا أبا تراب، انظر إلى ما بين يَدَيك من هذا الطريق البعيد، والمسافةِ الشاقّةِ، فاحمل

(١) ورد هذا الخبر من قبل.

(٢) الإيغال: السير السريع والإمعان فيه.

معك هذا الزَّاد. فقال له أبو تراب: هذا الذى تُعطينى لا بد مِن أن يَفْنى. قلت: نعم، لا بدَّ مِن أن يفنى. قال: فاعلم أن ذلك الوقت الذى يفنى فيه هو هذا الوقت، وتركنى ومَضَى.

وحدثنى سفيان بن وكيع: قال لى أبى وكيعُ بن الجرّاح: يا بنى، علىٌّ خيرٌ منّى. يعنى أنّه لم يكن عنده عِلمٌ ولا حَدِيث، فعرف فضْلَه عليه، وإن كان عنده من العِلْمِ والحديث ما لم يكن عنده. قال: بَيْنا نحنُ عندَ وَكيع بمِنًى، وهو يحدِّث الناسَ، جاءه علىٌّ الرّازِى يُوَدِّعه للخُروج، قال سفيان: فقال لى أبى: يا بنىَّ، هات تلك الصُّرَّةَ، قال: وكان عندنا صُرَّةٌ فيها سبعون درِهمًا، وقال له وكيع: خذ هذه الصُّرّة. فقال: أنا لا آخذُ من مِثلك شيئًا، قال: ولم لا تأخذ من مثلى؟ قال: لأنَّك تقول إنّه يُعْطينى فى الحَضَرَ ولا يعطينى فى السفر. فقال وكيعٌ: أأقول هذا؟! قال: فلمَ تعطينى هذه الصُّرّة إذ كان ليس هو عندك هكذا؟ فسكتَ وكيعٌ، وقال: عندنا رِكْوة تأخذها معك؟ فقال: قد اعتقدتُ فيما بينى وبينه أن لا آخذ الشىءَ إلا وقتَ الحاجةِ إليه، فتريد أنت تُعنِّينى بحمْلِها، وتُكلِّفُنى حِفْظَها؟ قال: وودَّعه ومَضَى بغير زادٍ ولا رِكْوة.

وحُدِّثتُ عن بعض الأشياخ قال: كنتُ عند أحمد بن حنبل، فجاءه صُوفىٌّ عليه مدْرَعَةٌ صُوْف، فقال: السّلامُ عليك يا أبا عبد الله، وقد قَصَدَ مكَّةَ بغير زادٍ. فقال له أحمد: توقَّف عَلىَّ قليلاً، ودخلَ بيته، فأخرجَ إليه خِرْقةً صغيرةً، فقال: أحب أن تأخذ هذه تجعلَها على رأسِك؛ لأنّه رآه حاسرًا، فأخذها منه ومَضَى لوجهِهِ. قال: وجاءَه رجلٌ آخر، فقال: يا أبا عبد الله، أردتُ الحَجَّ، فَتَرى أن أمشى؟ فقال له أحمد: عافاكَ الله، الزَّادُ والرّاحلةُ.

فهذا كما رُوى عن بعضهم قال: كنتُ عند بعضِ العلماء، فجاءه رجلٌ من العبَّاد، فقال: إنّى أريدُ الحجَّ، فأخرجُ وأتوكَّلَ؟ فقال له العالِم: لو أردتَ أن تَتوكَّلَ لخرجتَ ولم تَسألنى.

وقد كان إبراهيمُ يقول: الاستطاعةُ على ثلاث وُجوه: أعْلاها استطاعةٌ بقُوّة المَعْرفةِ وصِحَّةِ التوكُّل، وهذه الطائفة نفذَتْ بِصِدْق توكُّلها، لم تُعرِّج على سببٍ،

ولا استأذَنَت أحدًا، ولا اعْترضَ على هذه الطائفة أحدٌ من المتقدِّمين؛ لأنَّ الخليقةَ تَحْتاجُ أن تَهْتَدِىَ بهُداهم، والعارفُ يَحمله اللهُ بمعرفتِه، وسائرُ الناس تَحْمِلُهم الأسبابُ.

قال: ولا يقعُ الاستئذانُ إلا من ضَعْفِ المعرفةِ، وقلّة الهداية، وكلُّ من استأذَن فالرِّفْق به أَوْلى، قال: قولُ الأعرابى: يا رسولَ الله أَأعقِلُها وأتوكَّلُ، أَو أخلِّيها وأتوكَّل؟ فقال: «اعْقِلْها وتَوكَّلْ».

وقال ابن عباس: جئتُ أنا والفضلُ على حمارٍ، والنبى ﷺ بعَرَفةَ، فمررنا على بَعْض الصَّفِّ، فنزلنا وتركنا الحمارَ يَرْتَع، ودخَلْنا مع النبىّ ﷺ فى الصلاةِ. فلم يَقُل شَيْئًا.

وفى حديث رافع بن خديج: خرجنا مع النبى ﷺ فى سَفَرٍ، فلمّا نَزَل رسولُ الله ﷺ ووضع كلُّ رجلٍ منّا خطامُ ناقتهِ فى عُنُقِها، ثم أرسلناها فى الشَّجَر. فهذه سنة ماضية، لمن سَيَّبَ راحلةً له على إصابة الجُوعِ، ولا يُغَيِّر عليه، وسُنَّةٌ لمن استأذَن أن يُحْمل على أحْوَطِ الأُمورِ لَهُ.

وقال الله [تعالى]: ﴿لا يَسْتَأذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بالله واليَوْمِ الآخر﴾ إلى قوله: ﴿إنَّما يَسْتَأذِنُك الَّذين لا يُؤْمِنُونَ باللهِ واليَوْمِ الآخرِ وارْتَابَتْ قُلُوبُهمْ فَهُم فى رَيْبِهم يَتردَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٤ ـ ٤٥].

قال: فوجدنا أن ارتيابَ هؤلاء هو الذى بَعثَهم على الاستئذان وأحْوجَهَم إليه، وأنّ هذه الطائفةَ التى تركت الاستئذانَ بقوةِ إيمانها قد رضى اللهُ فعلَها، بما أنزلَه على نبيه ﷺ من عُذْرِها، وقوَّى به قلوبَهُم فيما يَسْتأذنونه من أعمالهم وقلوبَ مَن بعدهم، ونَهْىٌ لِمَن كان بعد النبى ﷺ عن الاعتراضِ على أمثالِ هؤلاء، فإذا كان مَن حركتُه الرغبةُ مِن المؤمنين فى فضلِ الجهادِ على أنّه إنّما يستعينُ على الخروجِ فيه بماله، ولا يُؤْمَن على ماله التلفُ والحوائجُ، فيَهْلك بهَلاك ماله، لا يتهيأ لأحدٍ أن يعترضَ عليه، فكيف يُعْتَرَض على مَن كَان اللهُ عز وجل مُتولى تَسْيِيرِهِ وكلائتِهِ وتَقْويمِهِ، وعلى مَن قَوِى قَلْبُه بِصِدْقِ التوكُّلِ على اللهِ، واللهُ حَسْبُهُ.

وهذه الطائفةُ من أهْلِ التوكل لا يُخاف عليها ممّا يخاف على أهلِ الاعتمادِ على الأسبابِ؛ خافُوا من الجوع وخاف هؤلاء من الشِّبَع، وخاف أهلُ الأسبابِ من الفَقْرِ وخافَ هؤلاء من الغنَى، وخافَ أَهْلُ الأسْبابِ من القلّة وخاف هؤلاء من الكَثْرَة، فأهلُ التوكُّل بضدٍّ ما فيه الخَلْق؛ يأمنون حيث يخافُ الناسُ، ويسكُنون حيث يَضْطرِبُ النَّاسُ، فما أبعدَ ما بين المعنيين! وكلُّ مَن ركَن إلى مخلوقٍ أو سببٍ، كان خائفًا من زَوالِه وفَنائه، متوقِّعًا لمُفارقته لقاه.

قال: والاستطاعةُ الأخرى: قوةُ البدنِ والصَّبرُ على المشى والضرُّ.

والاستطاعة الثّالثة: بسَعة المال.

فالناس فى الحجِّ على ثلاثة أَضرُب: رجلٌ تولَّى اللهُ تَسْيِيرَهُ وتَرْشيدَهُ، ورجلٌ تعلَّق بصحةِ توكُّله على الله، ورجلٌ تعلَّق بالسَّبَبِ وغَيْرِها، ولا ينبغى له أن يتوقَّفَ عن الحجِّ، فالزّادُ مُباحُ العمومِ، إلا أنّ الله تعالى قد دَلَّ على خير الزّادِ بقوله: ﴿**فإنَّ خَيْرَ الزَّاد التَّقْوَى**﴾ [البقرة:١٩٧]. فمن تَزَوَّد التَّقوى نجا، ولم يَخَف فى طريقه؛ لأنَّ اللهَ مع الَّذين اتَّقوا، ومن التَّقْوى: أن لا يقولَ العبدُ: غدًا من أين؟ أقولُ الحقَّ: ﴿**وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْه مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِب**﴾ [الطلاق:٢ ـ ٣].

وقال وَهْب بن منبِّه: وجدتُ فى بَعْضِ ما أنزلَ اللهُ من الكُتبِ: يقول الله تعالى لبنى آدم: «اتّقِنى ونَمْ حيث شئْتَ».

قال: فالرزقُ ليس فيه توكُّل، وإنّما فيه صَبْرٌ، وهو أوَّلُ درجاتِ الصَّبْرِ على ما وعد اللهُ، حتى يأتيَه فى وَقْته، وإنّما يَقْوَى صبرُ العبدِ على قَدْرِ مَعْرِفَته بما صبر له، ولمن صَبَر، يُصَحِّح ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿**وكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِه خُبْرًا**﴾ [الكهف:٦٨]، فالصبرُ يُنال بالمعرفة، فعلى الصابرِ حملُ مؤونة الصَّبرِ حتى يستحقَّ ثوابَ الصّابرينَ؛ لأن اللهَ تعالى جعلَ الجزاءَ بعْدَ الصبرِ، فقال: ﴿**وإذِ ابْتَلى إبراهيمَ ربُّهُ بكَلِماتٍ فأتَمَّهُنَّ قالَ إنّى جَاعِلُكَ للنَّاسِ إمامًا**﴾ [البقرة:١٢٤] بعدما أتمَّ حَمْلَ البَلْوى.

فمعنى الصبر: حَبْسُ النَّفْسِ على الوَعْدِ بمَجِيء المَضْمون، ومنعُها من الحركة، أو التطُّلعِ إلى مَجيئه، حتى يسوقَ اللهُ الأقسامَ من أماكنِها. فمتى رجَع الصّابرُ إلى سببٍ يبتدئُ فيه بالحَرَكةِ من نَفْسه، فقد خرجَ من حالَةِ الصَّبرِ، ضِيقًا من تحمُّلِ مَؤُونته، قال الله تعالى: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف:١٨] قال: صبرٌ ليس فيه شكْوى إلى الله؛ لأنَّ الشكْوى واجبٌ لله على خلقه، فاستخرج الشَّكْوى من هؤلاء، وجوَّز الشكوى عليهم لا مِن ضُرِّ الحالِ والبَلْوى. هذا مقامُ المُوقن القوىّ من المتوكلين. مَثَلُهم مَثَل مَن أنْفَق من الصَّحابةِ قبلَ الفَتْحِ وقاتلَ، لا يستوى هُو ومَن أنْفَق مِن بَعْد الفتح وقَاتَل، وكلاً وعدَ اللهُ الحُسْنى. وقال رسول الله ﷺ فى معناه: «المؤمنُ القوىُّ أحبُّ إلى اللهِ من المؤْمنِ الضَّعيفِ، وفى كلٍّ خَيْر».

فالمؤمنُ القوىّ يمثلُه بالنَخْلة أصلُها ثابتٌ باليقين فى قُلوب المتقين، وفرعُها فى السّماء بشهادَةِ المعرفة وعُلُوِّ البهاء، والمؤمنُ الضعيفُ مَثَلُه كالسُّنْبلة تَفىء[1] أحيانًا وتقوم أحيانًا، فكيفَ تُقاسُ السُّنْبُلةُ التى تُفيئُها أدْنى ريحٍ إلى النَّخْلَةِ الراسخة؟ وكم تَحت النَّخْلةِ مِن سُنْبُلَة؟ بل كيف تَرى السّنبلةُ من دُنوِّ مكانها ما تراه النَّخْلةُ من عُلوِّ مقامِها. وقال: وأيضًا كمَثَل النَّمْلةِ، تجمعُ فى صَيْفِها لشتائِها. فهذا وصفُ المؤمنِ الضّعيفِ بالادّخار.

ومثَلُهما مَثَل مَن أنفقَ مالَه فى سبيلِ الله كمثَلِ حبَّةٍ أنبتَت سَبْعَ سَنابِلَ، ومَثَلُ مَن أنْفَق مالَه ابتغاءَ مَرْضاةِ الله كمَثَل جَنَّةٍ بِرَبْوةٍ أصَابَها وابِلٌ فآتَتْ أُكُلَها ضِعفَين، فكم فى هذهِ الجَنَّة برَبْوة مِن حَبَّةٍ وسُنْبُلَة؟ فاعتبروا يا أولى الأبصار.

وقال يحيى بنُ معاذ: التوكُّل على ثلاثِ دَرَجات: فأوّلُه تَرْكُ الشكاية، والثّانى: الرِّضا، والثّالث: المحبّة. فتركُ الشّكايةِ: أن لا يشكو ربَّه، والرِّضا: أن يرضى بما قُسِمَ له، والمحبةُ: أن تكون محبّته فى قضاء اللهِ، فأولّها: للصالحين، والثانية: للأولياء، والثالثة: للأبدال. وكان يحيى يوسِّع فى التوكّل بالأسباب، ويأمن بها من غيرِ مساكَنةٍ لها، ولا وقوفَ معها، وهو أوسعُ طَرِيقًا وأبسطُ حالاً

(١) تفىء: تميل وتتحرك.

من الخوّاص، ولكنّ مسلكَ الخواصِ أعلى، وحاله أسْنى، على ضيقٍ فى طريقه، وقَبْضٍ فى حاله، وتشْديدٍ وعَزيمةٍ فى مقامه من توكُّله.

وكان ابنُ معاذ يقول: أيّها الزّاهدُ الواثقُ بالله فى الرّزق، انظر أن لا يلعبَ الشيطانُ بك فى الأسباب، فإنّ اللهَ قدَّر الأرزاقَ بالأسبابِ للزّاهدين وغيرِهم، فإذا وجدتَ الله قد كفاكَ مَؤُونتَك من الكفايةِ بوالد، أو ولد، أو أخ، أو امرأة، أو سببٍ من الأسباب، ثم جاءك الشيطانُ يلعب بقَلْبك فيه، فقال: إنّما يُوكلُكَ على هذا السبب الذى أراك تعيش منه، فقل: يا ملعون، فإذا رفعت هذا السبب أخذت الرزقَ بلا سبب، فهل يكون بُدٌّ من حُدوثِ سَببٍ آخر؟

قال: وليس صِدْقُ التوكّلِ فى رفْعِ السَّببِ، ما لم يَقْطَعْك عن زُهْدك، ولم يؤثّر فى دِينك وحالك، إنّما تَلْحقك المحبةُ فى دَعْواك إذا رأيتَ السبَّبَ المَقْدُورَ منه رزقُك يجذْبك عما تُريد، ويُلزمك الآفاتِ به فى الدين، فعند ذلك فارْفَع السَّببَ وارغبْ عنه، فإنّ اللهَ تعالى إنّما هيَّجه على تحريكك فى دِينك بما آتى لك من دنياك؛ امتحانًا منه لك، وتَعرُّفًا لصِدْقك فيما تَدَّعيه، فإذا تركْتَه فى جَنْبِ أحوالِ دينك، عَطَفَ اللهُ به عليكَ، أو جاءَ بغيرِه إن أخذَ هذَا منك. وإنما عليك فى مُدابرةِ الأشياء وقَبْضِ الأرْزاقِ، حفظُ أصلك، وصيانةُ دِينك، ووقايةُ زُهدك، فإذا سَلِم لك ما تريدُ، فلا تعادى الأسبابَ المتولَّد عنها الأرزاق فإنّ ذلك من الجَهْلِ المُبين. فإن كنتَ أبدًا كلّما رأيتَ اللهَ تعالى قد قيَّض لى رِزقًا مِن سَبَبٍ رَفَعْتَ السّببَ، فليس السّببُ أُريدَ إسقاطُه، إنّما أُريدَ إسقاطُ الرِّزق، إذا استحال وُجودُه إلا بالأسبابِ، وفى ذلك يُدخل عَلَيَّ الجهل بالله؛ لأنّه ليس للعبادِ أن يَمْتحنُوا رَبَّهم، إنّما له أن يَمْتَحِنَهُم بعَشٍ [1]، أيّها الزّاهد، أباح اللهُ لك من الرّزقِ فيما كان مِن سَببٍ ما لم يكن حَرامًا.

وقال له قائل، وقد سَمعه يتكلّم فى الأسباب: إن كنتُ فى هذا المكانِ قد تهيَّأ لى رِزقى، ولستُ كلَّ عُمرى أقْدر أن أكونَ هاهنا؛ لأنّى لعلِّى أخرجُ إلى «قَزوين». فقال له يحيى: إن كنتَ تَخرج إلى قَزْوين امْتحانًا منك لربِّك، فتقول

(١) كذا بالأصل. والعَشُ هنا: الكسب.

فى نَفْسك أجدُ اللهَ قد كفانى فى الحَضَر، وفى بلادى، وأصبرُ على قَزْوين، لأنظر هل يرزقنى؟! فهذا شَكٌّ قد دخل عليك؛ لأنَّ الله تعالى قد ضَمن لك الرزقَ بالرِّىِّ كنتَ أم بِقَزْوين، فإن كنتَ قد خرجتَ إلى قَزْوين بنِيّةِ العُدُوِّ والرِّباط، فهذا لك، واللهُ رازقك حيث كنتَ.

قال: وربَّما رأيتُ هَلْكى من مُنْتَحِلى الزّهدِ، ومُعاندةِ الأسبابِ، ومخالفةِ الله فى قَبْض الأرزاقِ، كما يريد تعالى، لا كما تريدون، وبالله نعوذُ من الجهل.

وكان إبراهيم الخواص، فيما أخبرنى عنه أبو بكر بن يعقوب الورَّاق، يُشَدِّد فى مقامِ التوكُّل بعزائمِ الأمور، ويصفُ توكُّلَ أُولى العزم من الزّاهدين، وكان حالُه رحمه الله حالَ أقوياء المتوكّلين، فقال لى عنه: إنه كان يقول: إنْ سَمِعَ المتوكِّلُ خَلْفَهُ بحركة شديدة، فتحرَّك لها قلبُه، خرج من حدِّ هذا التوكُّلِ المخْصُوصِ، التفتَ إليها أو لم يَلْتفت. وهكذا؛ لو طَالَت أيّامُه بالسَّيْر فى البرِّيَّة، فمال إلى سرعةِ الخرُوجِ منها، خرجَ من حدِّ هذا التوكّل. قال: وهكذا؛ لو انتهى به المسيرُ إلى مَوْضعٍ مُسْبِعٍ، فانقبض فيه، ولم يكن فيه كما كان قبل وقته ذلك فى انبساط القلبِ، خرجَ من حد هذا التوكُّل. وهكذا؛ لو انتهى به التوكُّل إلى أجَمَةٍ أو بَنِيَّة أو أىِّ موضعٍ من المواضعِ المخُوفَة، فلم يكن فيها كما يكون فى العُمران، أو طالعَ فناءَ الأوقات، أو طالتَ لَيْلَتُه عليه، خرجَ من حدِّ هذا التوكل. وهكذا، إن زاد على سَيْرٍ، ليلحقَ المنازلَ والمواضعَ التى يرجِع عليه منها المُرافق، خرج من حَدِّ [هذا] التوكّل. وهكذا؛ [لو انقطع] دون الماء، فوجد فى نفسه نَشاطًا؛ لقرب وصوله إلى الماء، أو مُنع الطعامَ عَشَرَةَ أيّامٍ، ثم أُدْخل عليه بعد ذلك شىءٌ من الطَّعام، وانبسط فى أكْله، وزادَ على ما كانَ يأخذُ إذا أُعْطى فى يومٍ ثلاثَ مرَّات، خرج من حَدِّ هذا التوكُّل.

وهكذا؛ لو زاد فى مقامه فى المنازلِ على مقامه فى البَرِّيَّة، إذا كان فيها، أو استعان فى مَسيرِه بعُكَّازة يتوكَّأ عليها، أو مِنطَقَة يَشدُّ بها وَسَطه، أو نقَص فى نومِه مع السّباعِ عمّا كان ينامه مع الأنيس، أو يغيّر عليه عند رُؤيةِ الأعْرابِ، وقطّاعِ الطّريق، ولم يكونوا عنده كسائرِ الناس، أو وجدَ فى نفسه مَيْلاً إلى

الأسفارِ فى أوقات عمران الطَّريق. وهكذا؛ إن قَبِل فى سَفَره أهلَ الأسباب، وارْتَفَق بما مَعَهُم من الفُضُول. وهكذا؛ لو فقدَ الماءَ عَشْرَةَ أيّامٍ، ثم وَجَده، فانبسط فى شدّته، ولم يَشْرَبْه كما كان يَشْرَبُه على [الظمأ]. وهكذا؛ إن وجد فى قلبه الميل إلى الخُلْقَان دون الجُدُد، خَرجَ فى جميعِ هذا من حدٍّ هذا التوكّل.

قال: وإنّما خرج هؤلاء بهذه الأخلاق وما شاكَلَها من حُدود التوكّل المَخْصُوص؛ لأنّ التوكُّلَ يستولى على أهْلِه بالقَهْر لَهُم عن التّلْوين بما لا يَليق بصفة التوكل، فمتى تلوّنَت صفاتُهم بشىءٍ ممّا لا يليق بها، كان خُرُوجًا منه، وكانوا مَوْصُوفين بأنفسِهم، فإنّما التوكُّل فى النَّفْس والهِدَايةِ، وهو أن يتولَّى اللهُ تَقْويمَ العبدِ بالهِدَايةِ له فى إصابةِ الحَقِّ فى جميع أحوالِه، بقيامِ صِحَّة الشَّواهد والدّلائل على أنّه القائمُ بها، يُصحِّح ذلك ما رواه ابنُ مسعودٍ أنّ النبى ﷺ قال: «الطِّيَرَةُ شِرْك»، وما منّا إلا يَجِدُ فى نَفْسِه، ولكنّ اللهَ يُذهبه بالتوكُّل. فأخبرَ أن التوكُّلَ يُزِيل ما يَلْحق النَّفْسَ من الجَزَع وغيرِه، بقيامه عليها، واشتغالِ الصَّابرِ بحَبْسِ نَفْسه فى حُدُود الصَّبر، يغنيه عن مواضع الحاجات فيه، حتى يقتطعه عن وُجُوهِها، فيكون صَبْرُهُ على ما يرضى بلا انقباضٍ ولا خوفٍ ممّا لا يقَع به، ولا يُؤَثِّر فى قَلْبِ الصَّابِرِ ما يَلْحَق صِفَته إذا لم يُوافقْه، لَمِيْلِ القَلْبِ إلى موافقة اللهِ فى تَصْحيحِ حالِ الصّبر، لقوله: ﴿**والله يحبُّ الصَّابرينَ**﴾ [آل عمران: ١٤٦].

قال: ومن التوكُّل فى الهِداية قولُ إبراهيم ﷺ: ﴿**الّذى خَلَقَنى فَهُوَ يَهْدِينِ**﴾ [الشعراء: ٧٨]، وقولُ موسى عليه السلام: ﴿**إنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ**﴾ [الشعراء: ٦٢].

ففى مثل هذا وقع توكّلُ المُرْسَلين، ومن لَحقهم من بُدَلاء الصِّدِّيقين، فهو التوكُّل الذى يجمع الأحوالَ كُلَّها. كما قيل: التوكُّلُ جِماعُ الإيمانِ، فاستخراجُ اللهِ عزّ وجل من نبيه ﷺ نسيانَ حركةٍ بعلّة غيرِه من غيرِ اللسانِ لم يَتكلّفْهُ كتكلُّف النَّاسِ، جعلَها اللهُ سنةً لمن بَعْدَه من أَهْلِ الضَّعفِ، ولمن عَجَزَ عن الصَّبْرِ، وإباحةً للذَّهاب إلى ثُبوتِ الإخْوان، كذَهابه بأبى بكر وعمر إلى مَنْزِل أبى الهيثم بن التيهان، ومثْل: تسليمه من ركعتين، لقوله: «إنِّى لأُنَسَّى حتَّى أسنَّ السُّنَن».

قال: وإنّما تكلَّم فى الصَّبْرِ بمَجِىء الرِّزْقِ طوائفُ من أهْلِ الضَّعْف، لم يكن

لهم هِمَمٌ عاليةٌ يَنْفُذُ بهم إلى ما وَراءِ هذا من الغايات.

وأما المُحقِّقُون من العارفين، فإنّهم عَبَرُوا هذَا إلى ما وَراءه، واسْتَحيَوْا من الله أن يَعْترِضَ عليهم ذكرُ ما قد صَدَّقُوه فيه، ورضُوا بقِسْمِه لهم، فتوَجَّهُوا إلى الله بنسْيانِ ذكرِ ما شغل من الأسبابِ، وكلُّ مُريدٍ يَتَوَجَّهُ إلى الله تعالى وهمومُ الأرزاقِ قائمةٌ فى قلبِه، فإنّه لا يُفلحُ أبدًا، ولا يَنْفُذُ فى تَوَجُّهِه.

وقال: أكثرُ الخَلْقِ تعلَّقُوا بالأَسْبَابِ، وركنوا إلى المَخْلوقين هَرَبًا من أَكْلَةٍ بعد أَكْلَةٍ، ومن خِرْقَةٍ بَعد خِرْقةٍ، خُروجُها[1] مِن غامِضِ الغَيْب المُغَيَّب، قد حيَّرتْ كلَّ ضَعيفٍ، وألْبَسَتْهُ ثَوْبَ الذُّلِّ والمَسْكَنَة.

وإذا صَحَّت المَعرِفَةُ باللهِ فى القَلْبِ، سكَنَ القَلْبُ إلى ما فى الغَيْبِ أشدَّ من سكونهِ إلى ما فى اليدِ من الأسبابِ الظَّاهرةِ؛ لأنَّ ما فى يدِ العبدِ لا يَدْرى ما يُحْدِث اللهُ فيه، وفى باله أنَّ ما عند الله هو الباقى، يأتى به على أوقاته، فإذا كان القَلْبُ قويًا عند زَوالِ الدّنيا وإدبارِها، مُتَبَرِّمًا بما فى اليدِ منها، صحَّ التوكُّل.

وإذا ضعُفَت المعرفةُ فى القَلْب، ركن القَلْبُ إلى الأسبابِ من زَوالها قبل أن تزولَ، فإن زالَ منها شىءٌ لَحِقَ القَلْبُ التغيُّرَ والجزعَ من خَوْفِ الفَقْر.

ومن صِحّةِ التوكُّلِ ألاَّ يَرْكَن القلبُ إلى سببٍ ولا مَخْلُوقٍ، ولا ينظر إلى ما دُون اللهِ تعالى نظرةً.

هذا الذى ذكره الخواصُ رحمه الله هو توكُّلُ النبيين والصِّدِّيقين، وهو من عزائمِ التوكُّل، فإنّما وَصَف حالَه وذكر مَقامَه هو، وقد كان رحمه الله يحمل نفسه على كل شَديدة، ويَسْلُك بها كلَّ عزيمةٍ. بلغنى أنّ حالَه فى التوكُّلِ أوْجَبت عليه قَطْعَ مفازةٍ لا يُعْرَف غَوْرُها، ولا يُهْتَدى سَبيلُها، فسَلَكَها، فلَمَّا وقعَ فى وسَطِها رأى قافلةً مُقْفلةً مَوْتَى قد انقطعوا دون قَطْعِها، فحميت نفسُه، فحمل عليها، وسَلَكَ المَفَازَةَ حتى قَطَعها.

وحدثنى بعضُ الأشياخِ: أنَّه اطَّلع فى مسيرٍ له إلى بئرٍ عميقةٍ، لا يُرى قعرُها،

---

(١) خروجها: أى خروج الأسباب.

يقال: طولها أربعون قامةً، ونكَلَت نفسُه عليه، فألقى نَفْسَه في البئر، ولبث فيها أيامًا، وكان يخرج عليه ثعبان عظيم في البئر إلى أن أَخْرجَهُ اللهُ منها في قصة طويلة، كان يخرج عليه في كل يوم ثعبانٌ مُفَلَّسٌ [(١)] من رأسه ويده، عظيمةٌ كالجُمجمة، بيضاءُ، وكان النّمل يأتي عليها كلّ يوم، فقال: هؤلاء خَلْق، وأنا خَلْق، لآكلنّها، فأكلها، فإذا [هي] شَهْدٌ. وكان يُفْلَس كلَّ يوم مثلها، وهو يأكلها بضع عشر يومًا، ثم [التقمه][(٢)] فاحتمله، وصَعد به أعْلى البئرِ، فنَبذَه على ظهرِ الأرْضِ. وكان يقصد الغِياضَ المُسْبعة، وجبلَ الحيات، والأودية الغامضة المُوحشة، يبيتُ فيها، يَرُوضُ نفسه بذلك، ويؤدِّبها به حتى يزيل عنها مخافةَ غيرِ الله، إلى أن اطمأنت فسكَنَت، وعالجَ شأنَ جماعةٍ من الجنِّ في البَوادي والقِفار، وكهوفِ الجِبال، والغِيرَان[(٣)]، وكلّمُوه في قصصٍ كثيرةٍ.

وليس هذا كلُّه من فرْضِ التوكّل، إنّما هو من فَضَائل بَعْضِ مقامات المتوكّلين، ومُقْتَضى أحوال بَعْض الموقنين. وفرضُ التوكُّلِ: عُقودُ القلْب، والاستسلامُ بحُسنِ التّفْويض للرَّبِّ، ونَفْيُ عوارضِ الآفاتِ الدّاخلة على المتوكّل من السُّكُون إلى الأسبابِ، والرّكونِ إلى الخَلْقِ في المُعْتَادِ.

• ذكر الادخار مع التوكل:

ولا يضرّ الادّخارُ مع صِحّةِ التوكُّل إذا كان مدَّخِرًا لله وفيه، وكان مالُه موقوفًا على رضا مولاه، لا مُدَّخِرًا لحظوظ نفسهِ وهواه، فهو حينئذ مدَّخرًا لحقوقِ الله التي أوجبها عليه، فإذا رآها بَذَلَ مالَه فِيها. والقيامُ بحقوقِ الله لا يُنْقِص مقاماتِ العبدِ، بل يَزيدها عُلوًا.

وحدّثونا عن بعض أصحاب بشر بن الحارث قال: كنْتُ عنده ضحوةً من النهار، فدخل عليه كَهْلٌ أسمرُ خفيفُ العارضين، فقام إليه بشر، قال: وما رأيته قام لأحدٍ غيره، قال: ودفع إليّ كَفًا من دراهمَ، فقال: اشترِ لنا من أطيبِ ما تقدر

(١) ثعبان مُفَلّس: على جلده لُمَعٌ كالفلوس.

(٢) بياض في بالأصل قدر كلمة، أثبتها اجتهادًا.

(٣) الغِيران: جمع غار، وهو الكهف.

عليه من الطّعام والطِّيب. قال: وما قال لى قطّ مثلَ ذلك. قال: فجئْتُ بالطعام، فوضعتهُ بين يديه، فأكل معه، وما رأيتُه أكل مع غيره. قال: فأكَلْنا حاجَتنا، وبقى من الطعام شىءٌ كثير، فأخذه الرجل فجمعه فى ثوبه، فجعله تحت يده، وانصرف. قال: فعجبتُ من فعله ذلك، وكرِهتُه له؛ إذ لم يأمره بِشر بذلك، ولا هو استأذنه فيه. فقال لى بشر بعد ذلك: لعلك أنكرتَ فعله ذلك؟! قلتُ: نعم، أخذَ بقيةَ الطعامِ مِن غيرِ إذن، فقال: تعرفه؟! قلت: لا. قال: ذاك أخونا فَتحٌ الموصلى، زَارنا اليومَ من المَوْصل، وإنَّما أرادَ أن يُعْلِمَنا أنّ التوكُّلَ إذا صَحَّ لم يَضُرَّ معه الادّخارُ.

وَتَرْكُ الادّخارِ إنّما هو حالُ مَن مقامُه قِصَرُ الأمل. وقد يصحّ التوكّلُ مع تأميلِ البقاء، فإن كان أملُه للحياة لطاعة مَوْلاه، وخدمته، والجهاد فى سبيله، وليَسْتَعتب، ويَستقبل، ويُصلح بالطّاعة والعلم ما أفْسَدَ بالهوى والجهلِ، فَضُل بذلكِ. وهذا طريق طائفة من الراجين والمستأنسين والمحبين وحَسنى الظنِّ.

وإن كان أملُه للحياة لأجلِ مُتْعة نفسه، وأخْذ حُظوظها مِن دُنياه، نَقَصَ ذلك من زُهده فى الدنيا، فسَرى النّقْصُ إلى توكُّله، وما نقَص مِن الزُّهد نَقَص من التوكُّلِ بحِسابه؛ وليس ما زاد فى الزّهد يَزيدُ فى التوكلِ بحسابه، لأنّ الزّهْدَ مِن شَرْطِ خُصوصِ التوكّل، وليس التوكّلُ مِن شَرْط عُمومِ الزّهد، فكلُّ متوكِّلٍ ذى مَقَامٍ زَاهدٌ لا محالةَ، وليس كلُّ زَاهدٍ فى مقامِ مُتوكِّلاً؛ لأن التوكّل مقامٌ فى الزُّهْد، والزّهدُ حالٌ، والمقاماتُ للمُقَرَّبين، والأحوالُ فى أصحابِ اليمين، إلا أنّ مَن أُعْطِى حقيقَةَ الزُّهد فإنّه يُعْطَى التوكُّلَ لا مَحالةَ؛ لأنّ حقائقَ الأحوالِ وثُبوتَها، ودوامَ استقامة أهلِها فيها، ولُزومَها لقلوبِهم ـ هى مَقَامَاتٌ؛ فإذا جاز للمُتوكِّلِ تأميلُ البقاءِ لشهرٍ أو شهرين جاز له الادّخار لذلك، إلا أنّ طولَ الأملِ يُخرِج من حقيقة التوكل عند أبى محمد والخوَّاص، ولا يُخرجه مِن حَدِّه عندى.

وأكرهُ للمتوكِّل الادَّخارَ لأكثرَ من أربعين يومًا، كما يُكْرَه تأميلُ البقاء لأكثر من أربعين. ومَنْ قَوى يقينُه، وحَسُنَ ظَنُّه وصَبْرُهُ، وصَحَّ زُهْدُه، فتَرْكُ الادّخار له أفضلُ. ومن ادّخر لصلاح قلبه، وتسكين نفسه، وقطعِ تَشرُّفهِ إلى النّاس؛ إنْ كان

مقامُهُ السّكونَ مع المعلومِ، فالادّخارُ له أفضلُ، فأمّا مَن ادّخر لعياله لتَسْكُن قلوبُهم، ولوُجودِ رِضَاهم عن اللهِ، ولسُقوط حكمهم عنه؛ ليتفرَّغ لعبادةِ ربِّه، فهو فاضلٌ فى ادّخاره، اتّفقوا عليه؛ ولأنه فى ذلك قائم بحُكْمِ ربّه، راعٍ لرعِيّته التى هو مسئول عنها.

وقد ادّخر سيّدُ المتوكِّلين رسولُ الله ﷺ لعياله قوتَ سنة؛ لِيَسُنَّ ذلك، وقد نهى أمَّ أيمن وغيرَها أن تدَّخر شيئًا لغد. ونهى بلالاً أيضًا عن الادخار لنفسه، ليقتدى به أهلُ المقامات، وقال له: «إذا سُئِلْت فلا تمنع، وإذا أُعطيت فلا تُخبئ». وهو إمامُ المقربين، وذِكْرى للمتوكِّلين. كما روى أنه قُبِض ﷺ وله بُردان فى الحُفّ يُنسجان. وقد كان عليه الصلاة والسلام أقصرَ أملاً من ذاك، كان يبول فيتيمَّم قبل أن يَصِلَ إلى الماء، فيقال له فى ذلك أنّ الماء منك قريب، فقال: «وما يدرينى لعلّى لا أبلغه». ولكن فَعلَه لِئلا يهلك من طال أملُه من أمته، فجعل فعله نجاةً له.

فهذا يدلّك أنّ الادّخارَ يتسع ويضيقُ على قدرِ مُشاهدات العارفين، من قِبَل أنّ الشريعةَ جادت بالرُّخصة والعزيمةِ؛ فالعزائمُ من الدِّين للأقوياء الحاملين، والرُّخَصُ من الدّنيا للضُّعفاءِ المحمولين.

وقد كان أبو محمد، رحمه الله، يقول فى تأويل الخبر: «إن الله يُحبُّ أن يُؤخذ برُخَصِهِ كما يُحب أن يُؤخذَ بعزائمه»، قال: ما كان من أمرٍ فخذ بالأشدِّ فيه.

وقد كان الخوّاص يدقِّق فى أحوال التوكُّل، ويذكر أنّ الادّخار يُخرج من حدِّ التوكل، ولم يكن يفارقه أربعةُ أشياء، وكان يقول: ادّخارُها من تَمامِ حال المتوكِّل؛ لأنها من أمور الدين: الرِّكوة، والحبل، والإبرة، والخُيوط، والمِقْراض.

وكان سهل رحمه الله يضرب للمدَّخر مَثَلاً فى قِصَر الأمل وطوله، فيقول: مَثَلُ مَنْ يترك الادّخار مَثَل رجلٍ يقول: أُريدُ أن أخرجَ إلى الأيلة، فيقال له: خُذْ رغيفًا، فإن قال: أريد أن أخرج إلى عبّادان، قيل له: خذ رغيفين، فإن قال: أريد أن أخرج إلى العسكر، قيل له: خذ أربعة أرغفة. قال: فكذلك تركُ الادّخار على قَدْر قِصَرِ الأملِ وطوله.

وعلى ذلك فإنّ الادّخار ينقص من فضائل الزّاهدين بمقدار ما يمنع من حقيقة الزُّهد، إلا للزُّهاد العارفين؛ لأنَّهم على عينِ اليقينِ، قد أقيموا بشهادة عن التوحيدِ، ينظرون بنورِ الأوّليّةِ الآخريّة، فالموجوداتُ عندهم عنده، إذ كانت أيديهم يَدَه، وقَبْضُهم قَبْضَه، فهو وكيلُهم، وهم خُلفاؤه، يُنفقون ممّا جعَلهم مُسْتَخْلَفِين فيه، فهو مَزِيدٌ لهم؛ لأنّ هذا مقامٌ فوقَ الزُّهدِ قد جاوزه، فكيف يُعْتبر به. وهؤلاء لا يُوصَفُون برَغْبةٍ، فيكون الزُّهد. . .(١) عليه، كما لا يُوصفون بكَدَر الخَلْق والمراءَاة، فكيف يُؤمرون بالتّصفية والإخلاص، إذ لا يَدْخُل عليهم الـ. . .(١) القيومية شهادة التوحيد بهم، فهم بها قائمون.

وقد كان اللّيثُ بنُ سَعْدٍ منهم، وقد كان أحدَ الأسخياء الأجواد، وكانت غلّتُه بمصر فى كلِّ سنةٍ مائةَ ألفٍ وزيادة من الحِنطة والعُصْفر والوَرْس، ولا وَجَبت عليه زكاةٌ قطّ، كان يُنفق جَميعَه قَبْل الحَوْلِ، وكان له مَنْزِلُ ضِيافةٍ فيه مائدةٌ راسِيَةٌ لا تُرفَعُ يمدّها بالطّعام، وكلُّ مَن قَدِمَ من الآفاق ينزل إلى طعامه ولا يُحَدِّثه حتى يختلف إلى مائدته شهرًا. وكتب إليه مالكُ بن أنس يستهديه وَرْسًا يصبغ به ثياب ابنته، أراد أن يُزوِّجها، فوجَّه إليه عشرين جِرابًا وَرْسًا، فى كلِّ جراب مائة دينار، وقال فى كتابه: احتفظْ بثِفالةِ الوَرْس، فصبغ منهُ مالكٌ لجميعِ أهلِ بيته، ولجيرانه، وباع ما فَضَلَ منه بمائة دينار. ويقال: ليلة مات سُمِعَ هاتفٌ يهتف من السّماء: مات الليلة خازنُ اللهِ فى أرْضِه؛ اللّيْثُ بنُ سَعْد.

وقد كان ابنُ المبارك فى هذا المقام وزيادةٍ، وكان يتّجر للعُلماءِ، والقُرَّاء، ويقول: لولا الفقراء ما اتَّجرتُ.

فأمّا تاركو المكاسب، وقاطِعُو التّسبُّبِ، ممَّن لا معلومَ له من الأولياء، فإنّهم تركوا الادِّخارَ؛ لأنّه مُقْتَضى حالِهم، وفيه استقامةُ مقامِهِم، وصفاءُ قُلُوبِهِم، لخلوِّ هممهم ولإفْرَادِ سرِّهم.

وقد كان سَرِىٌّ يقول فى قوله [تعالى]: ﴿**واجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إمَامًا**﴾ [الفرقان: ٧٤]:

---

(١) كلمة غير مقروءة فى كل موضع.

إن المتَّقي لا يكون رزقُه من كَسْبه؛ لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٣]. فكأنَّه يقول: اجْعَلْنا للمتوكِّلين إمامًا؛ الذين أرزَاقُهم لا من اكتسابهم، بل من حيثُ لا يَحْتسبون، وهؤلاء هم أهلُ الصَّفْوةِ والصَّفاء؛ الصُّوفيون، الذين توكّلُوا على الله، ولله، وبالله، لا فى الأرزاق، ولا للعالَم يدٌ عليهم من الإرْفاق، كما كان قائلهم يقول: الدنيا فانيةٌ، والآخرةُ باقيةٌ، والأرزاق مفروغٌ منها، فعلى ماذا أتوكَّل؟ إنّما أتوكّل عليه أن لا يُبْعدنى مِن قُرْبِه.

وكان محمدُ بن موسى الواسطى يقول: من توكَّل على الله لعِلَّةٍ غير الله، فلم يتوكَّل على الله.

وكان بعضُ العارفين يقول: التوكُّلُ هو الكفُّ عن الأغيارِ فى السّرِّ والعلانيةِ، والسُّكُونُ إلى الحقِّ بلا واسطة. وقال آخر: الاعتمادُ على الخَلْقِ هو الخِذْلان، ومن اعتمد بسوى ربِّه فى توكُّله خاب سَعْيُه. وقال: الموقنُ المتوكِّل أن يكونَ مثلَ الطِّفْلِ لا يَعْرف شيئًا يأوى إليه إلا ثَدى أُمِّه، كذلك المتوكِّلُ لا يرى لنَفْسِه مأْوًى إلا الله.

وفى حديث شَهْر بن حَوْشَب عن أبى أُمامةَ فى ذكر الفقير الذى أمر رسولُ الله ﷺ عليًا وأسامة فغسَّلاه، وكَفّنه ببُردته، فلما دَفَنه قال لأصحابه: «إنّه يُبعث يومَ القيامةِ ووَجْهُه كالقَمَرِ ليلةَ البَدْر، ولولا خَصْلةٌ كانت فيه لبُعِثَ ووجه كالشّمس الضاحية، فقلنا: وما هى يا رسول الله؟ قال: إنه كان صَوَّامًا قوَّامًا كثيرَ الذكر لله، غير أنّه كان إذا جاءه الشتاء ادَّخر حُلَّة الصيف لصيفه، وإذا جاءه الصيفُ ادخر حُلَّة الشتاء لشتائه من قَابل. ثم قال: مِن أقلِّ ما أُوتيتم اليقينُ وعزيمةُ الصبر، ومَنْ أُعطى حظَّه منهما لم يبال ما فاته من قيام الليل وصيام النهار».

وأخبر ﷺ أن تَرْكَ الادّخارِ مقتضى اليقينِ، وحالُ أُولى العزْمِ من الصّابرين.

وحدَّثنى بعضُ الصوفيين أن بعض الأشياخ لم يكن يُعَيِّشُ مثلنا لغد، فإذا جاءه شىء بالنّهار أخرجه قبلَ الليل. قال: فدُفع إلىَّ ثلاثةُ دراهم من الليل، فقلتُ: أُخرجها قبلَ الصُّبح، ثم قلت: أنامُ الليل فإذا أصبحتُ أخرجتُها، قال: فجعلتها فى وسطى ونمتُ، فرأيتُ فى المنامِ كأنّ فى وَسَطى ثلاثةَ دنانير [من نار]، قال:

فاغتممتُ، وجعلتُ أحلُّها وأتعجَّبُ من ذلك. فقال لى قائل: هذه الثلاثةُ دَراهم التى ادّخرتها. قال: فانْتَبَهْتُ فَزِعًا، فقمتُ، فدفعتُها للوقْتِ إلى بَعْضِ الفقراء.

وحدثنى بعضُ الأشياخ عن بعضِ الصّوفيين أنّه كان كذلك يُخرج كلما فُتح له إلى إخوانه الفُقراء، ولا يدّخر منه لنفسه شيئًا، قال: ففُتح لى مَرةً بدينار، وكان علىَّ دينار دَينًا، فجعلتُ أؤمِّلُ بين أن أحبسه لقضاء دَيْنى، وبين أن أُخرجَه على ما عُوِّدتُ مِن خَليقتى. قال: فقَوِىَ علىَّ شاهدُ العلمِ، فقُلتُ: أُمْسكه لدَينى أوْلى؛ لأنّه قد استُحِقَّ علىَّ، قال: فلم أُنْفقْه على إخواننا، وكان ينتابُهم، يُسْتَضاف، قال: فضرَب علىَّ ضِرْسٌ من أَضْراسى تلك الليلة، فلم أنَم، فأُشير عَلَىَّ بقَلْعِه فقَلَعْتُه، قال: ثُمَّ خَطَر بقَلْبى إخراجُ الدِّينار، ثم قلت: الدَّيْن أَوْجَبُ، فحبستُه، قال: فضَرَب علىَّ فى الليلةِ الثّانية ضِرسٌ آخر أَسْهَرنى، قال: فنزعتُه. قال: ثم ذكرتُ شأنَ الدِّينار فقُلْت: لعلّى عُوقِبْت بحبْسه، قال: فأخرجته قبلَ اللّيل، قال: فهتف لى هاتفٌ: لو لم تُخرجه لقَلَعْنا أَسْنَانَك ضِرْسًا ضِرْسًا، حتى لا يبقى فيك ضِرْسٌ واحد.

فهذه مطالباتُ الخُصوصِ، لعُلُوِّ مقاماتِهم، مَخْصُوصُون به، مُشَدَّدٌ عليهم فيه دُون غيرهم.

وكذلك بلغنى أن بنان الحمّال لم يكن يدّخر شيئًا لغد، ولا يُبيِّتُه من النهارِ، فحدّثنى بعضُ الأشياخِ ممّن رآه، وقد دُفع إليه بمكَّة - وكان قد جاورَ فيها - كيسٌ فيه خَمْسُمائة درهم، قال: فصرَّرَه صُررًا، وجعَلَها فى ركْوَته، ثم طافَ بها دَوْرةً حَوْلَ المسجدِ الحَرامِ، فجعل يُلقيها إلى الفُقراء صُرّةً صُرّة، وهو يمشى، حتى أنفدها، قال هذا: فكنتُ أراه من حيث لا يعلم، فقلتُ: لأنظرنَّ من أين فِطرُه هذه الليلة، إذ لم يترك لنفسه شيئًا، قال: فلما كان بين العشائين طاف فى الوادى طَوْفةً، ومدَّ يده، وقال: ثَمَّ شىءٌ للهِ، فجُعل فى كفِّه وُسْعَه، فعدل إلى بابِ الصَّفا فقعد فأكلَه، وشرب من ماءِ زمزم، ودخل الطوافَ. قال: فسألته عن ذلك من الغد، فقال: ما حدَّثتُ نَفْسى أن أعيش إلى الليل، ولو قَوِىَ فى قلبى ذَلك لحَبَسْتُ منه القُوتَ.

فهذا طريق المُقْتَطِعين، سلكوه بزادِه بتَقْوى مثلهم، إذ جُعلت قلوبُهُم أوعيةً لمُراده.

وقد كان أبو موسى الدُّبيلى يقول: التوكُّلُ هو أن يستوى عِنْدك البادية وبابُ الطّاق. فهذا لا يكون إلا واصلاً من الحقيقة، يغيب عن تطلُّع إلى سَبَب. كما قال بعضهم: التوكلُ هو استيلاءُ الوَجْد على الإشارَة، وحذفُ التشرُّف إلى الإرْفاق حتى يبدو. يعنى أن يغلبَ وجْدُه إشارتَه ـ يقول: أو همه ـ فيَمثُل القلبُ بالوَجدِ، فيقتطعه عن التعلق بسببٍ، ويشغله عن التفرُّغِ إلى غيرِه.

وحدِّثتُ عن بعضِ العارفين قال: رأيتُ فى النومِ كأنّ القيامةَ قد قامت، وكأنّ الناسَ يُساقون زُمْرةً زمرةً إلى الجنة على طبقات. قال: فنظرْتُ إلى طبقة أحسنِ الناس هيئةً، وأعلاهم مُرتقى، وأسرعهم سَبْقًا، فقلتُ: هذه أفضلُهم أكونُ فيهم. قال: فذهبتُ لأخطوَ إليهم، وأدخل معهم فى طريقهِم، فإذا بملائكةٍ حولهم قد مَنعونى، وقالوا: قِفْ مكانك؛ حتى يجىءَ أصحابُك، فتدخلَ معهم. فقلتُ: تمنعونى أن أكون مع هؤلاء السابقين؟! فقالوا: هذا طريق لا يسلُكه إلا مَنْ لم يكن له إلا قميص واحد، ومن كلِّ شىء واحدٌ، وأنت لك قميصان، ومن الأشياء زوجان. قال: فانتبهتُ باكيًا حزينًا، فجعلتُ على نفسى أن لا أملكُ من كلِّ شىءٍ إلا واحدًا.

وهشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، قالت: «ما رفعتُ للنّبى ﷺ غداءً لعشاءٍ، ولا عشاءً لغداءٍ، ولا اتَّخَذَ شيئًا من زوجين، ولا إزارين، ولا قميصَيْن».

وقد كان حذيفة المرعشى يقول: منذ أربعين سنة لم أملك إلا قميصًا واحدًا.

وأخبرنى بعضُ الأشياخ عن أبى على الرُّوزيادى أنه قال: التوكُّلُ على ثلاث درجات: الأول منها: إذا أُعْطى شكر، وإذا مُنِع صبر. والثانى: المنعُ والعطاءُ عنده واحدٌ. والثالث: المنعُ مع الشكر أحبُّ إليه من اختياره.

وقد كان حذيفةُ المرعشى يقول: منذ أربعين سنة لم أملك إلا قميصًا واحدًا. وكان كثير من السلف إذا استجدَّ ثوبًا أو شيئًا أخرج الأوّل منهما، وكانوا

يستعملون الشىء الواحد فى الأشياءِ الكثيرةِ. وهذا كلُّه داخلٌ فى التحقُّق بالزُّهدِ، وهو من فضائل المتوكِّلين.

والخبر المشهور أنّ رجلاً من أهلِ الصُّفّةِ تُوفّى فما وجدوا له كفنًا، فقال النبى ﷺ: «فتِّشوا ثوبه». قال: فوجدنا داخل إزاره دينارين، فقال: «كَيَّتَان». وقد كان غيره من المسلمين يموت، ويخلِّف عدَّةً، فلا يقول له ذلك؛ لأنّ هذا كان حالَه الزّهدُ، وإظهارُ الفقر، ووَصْفُه التوكُّلَ، وتَرْكُ الادّخار، فشدَّد عليه وغَلَّظ بِكيَّتَىْ نارٍ. فاعْتَبِروا يا أُولى الأبْصار.

• ذكر التداوى وتركه للمتوكل وتفصيل ذلك:

ولا يُنْقِص التداوى أيضًا توكُّلَ العبد؛ لأنّ النبىّ ﷺ أمر به، وأخبر عن حكمة الله تعالى فيه، فقال ﷺ: «ما من داءٍ إلا وله دواء، عَرَفَه من عرفه وجهله من جهله، إلا السّام» يعنى الموت.

وقال عليه الصلاة والسلام: «تداووا عبادَ الله». وسُئِل عن الدواء والرُّقَى: هل يَردُّ مِنْ قَدَر؟ فقال: «هى مِنْ قَدَر الله».

وفى الخبر المشهور: «ما مَرَرْتُ بملأ من الملائكة إلا قالوا: مُرْ أمتَك بالحجامة».

وفى الحديث: أنّه أمر بها، فقال: «احتجموا لسبع عشرة، وتسع عشرة، وإحدى وعشرين، لا يَتَبَيَّغ بكم الدَّمُ فيقتلكم».

وفى ذكر تبيُّغ الدّمِ دليلٌ على توقيت هذا العدد من الأيّام للحجامة، إلا أنّه أُريد به هذه الأيام من الشهر، وفيه وَصْفُ الأسباب التى جُعِلَت حُتُوفًا، وسَبَبًا للموت، وخصَّ هذا القدر من العَدَد، وأحسبه لأهل الحجاز خاصةً، لشدة حرِّ البلد.

كقول عمر رضى الله عنه فى الماء المشمس «أنه يُورِثُ البَرَص». سمعتُ أن ذلك فى أرض الحجاز خاصّة.

وكان من سيرة السلف أن يحتجموا فى كل شهر مرةً، إلى أن يجاوز الرجل الأربعين، وكانوا يستحبون الحِجامة فى آخر الشهر.

وقد يُرْوَى فى خبر منقطع: «من احتجم يومَ الثلاثاء لسبع عشرة من الشهر، كان له دواء من داء سَنَة». وقد رُوِينا من طريق أهل البيت أنّ النبىّ ﷺ: «كان يَكْتَحل كل ليلة، ويحتجم كل شهر، ويشرب دواءً كلَّ سنة».

روى أبو قُلابة عن كَعْب الأحبار قولَ الله عز وجل: «إنّى أنا أُشَجُّ وأُداوَى، فتَداووْا». فالتداوى رُخصة وَسَعَةٌ، وتركُه ضِيقٌ وعزيمة، واللهُ يحبُّ أن يُؤخذ برُخَصِه كما يُحِبّ أن تؤتى عزائمُه. وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾ [الحج:٧٨]؛ أى ضيق.

وربّما كان المتداوى فاضلاً فى ذلك لمعنيَيْن: أحدهما: أن ينوى اتّباعَ السنَّةِ، والأخذَ برخصةِ الله، وقَبولِ ما جاءت به الحنيفيةُ السَّمحة.

وقد أمر رسول الله ﷺ غيرَ واحدٍ من الصّحابة بالتّداوى والحِميَّة، وقَطَع لسعد ابن مُعَاذ عِرقًا، أى فَصَدَه، وكوى سعد بن زرارة من اللقْوَة، وقال لعلىّ رضى الله عنه، وكان رَمِدَ العينِ: «لا تأكل من هذا ـ يعنى الرطب ـ وكُل من هذا فإنّه أوْفقُ لك» يعنى: سَلْقًا قد طُبخ بدَقيق أو شعير.

وقد تداوى رسولُ الله ﷺ فى غير حديث من العَقْرب، وغيرها. ورُوِى أنه كان إذا نزل عليه الوحى صدَع رأسُه، فكان يُغلِّفه بالحِنَّاء. وفى الخبر: أنّه كان إذا خرجت به قُرْحة جعل عليها حناء، وهو أعْلَى المتوكلين، وأقوى الأقوياء.

فإن قيل: إنّما تداوى لغيره وليَسُنَّ ذلك. قلنا: فلا نرغب عن سنّته، ولا نَزْهَد فى بُغْيته، إذا كان فعلِ ذلك لنا فلا نردُّه عليه؛ لئلا يكون فِعْلاً لغوًا، وتكون الرَّغبةُ عَن سُنّته إلى تَوَهُّمِ حقيقةِ التوكُّل طَعْنًا فى الشّرع.

وقد كان ﷺ ظاهرُه للخَلْقِ؛ ليقتفوا آثارَه، من ذلك: أنه صامَ فى السَّفر فى شدّة الحرِّ، فكان يَصُبُّ على رأسه الماء، ويَسْتَظِلُّ بالشَّجر؛ ليَسُنَّ بذلك الرُّخصة فى التبرُّدِ بالماء للصائم. فقيل له: إن قومًا صاموا، وقد شَقّ عليهم، فدعا بقدح فيه ماء، فشرب، فأفطر الناسُ، فترك حالَه ﷺ لأجلهم. فقيل له: إنّ قومًا لم يفطروا، فقال: «أُولئك العُصاة».

والمعنى الثانى الذى يَفْضُل به المتداوى: أنّه يحب سُرعةَ البُرء للطّاعة، ولخدْمة مَولاه، والسّعى فى أوامره؛ إذ كانت العللُ قاطعةً عن التصرُّفِ فى العمَلِ، ومشغلةً للنّفْس عن الشّغل بالآخرة. وذكر بعض علمائنا فى الإسرائيليات أنّ موسى عليه السلام اعتلّ علّة، فدخل عليه بنو إسرائيل فَعَرفوا علّته، فقالوا: لو تداويتَ بكذا لَبَرأْتَ، فقال: لا أتداوى؛ حتى يعافينى هو من غيرِ دَواء. قال: فطالت عِلّته، فقالوا له: إنّ دواءَ هذه العلّة مَعْروفٌ مجرَّب، وإن تتداوَ به تبرأْ، فقال: لا أتداوى. فدامت عِلّته. فأوحى الله عزّ وجلّ إليه: وعزَّتى لا أبرأتُك حتى تتداوى بما ذكروه لك، فقال لهم: داوونى بما ذكرتم، فداووه، فبَرِأَ، فأوْجَس فى نفسه من ذلك. فأوحى الله إليه: أردْتَ أن تُبطل حكمتى بتوكُّلك علَىَّ، مَنْ أَوْدَعَ العقاقيرَ مَنافِعَ الأشياء غيرى؟!

وفى بعض الأخبار: شكا نبى من الأنبياءِ إلى الله عِلّةً يجدها، فأوحى الله إليه: كُلِ البيضَ. وفى خبر آخر أنّ نبيًا من الأنبياء شكا إلى الله تعالى الضعف، فأوحى الله إليه: كُلِ اللحمَ باللبن؛ فإنّ فيهما القوّةَ. قال الشيخ: أحسبه الضعف عن الجماع.

وذكر وهب بن منبِّه أنّ مَلِكًا من الملوك اعتلّ علّةً، وكان حسنَ السيرة فى أهل مملكته، فأوحى الله تعالى إلى شعياء النبى ﷺ: قُلْ له: اشرب ماءَ التين؛ فإنّه شفاءٌ من عِلّتك.

وقد روينا أعجب من ذلك: أنّ قومًا شكوا إلى نَبيهم قُبحَ أولادِهم، فأوحى الله تعالى إليه: «مُرْهم أن يطعموا نساءهم الحبالى السَّفَرْجَل؛ فإنّه يحسِّن الولد». فقد كانوا يطعمون الحبالى السفرجل والنفساء الرُّطَب، وهذا ـ واللهُ أعلم ـ يكون فى الشهر الثالث والرابع من حَمْلِها؛ لأنّ الولد يُصوَّر فيهما.

وعلى ذلك كلّه فإنّ تركَ التداوى أفضلُ للأقوياء، وهو من عَزائم الدِّين، وطريقة أولِى العزم من الصدّيقين؛ لأنّ فى الدّين طريقين: طريقَ تَبتُّل وعزيمة، وطريقَ توسُّع ورخصة، فمن قَوِىَ سلك الطريق الأشَدَّ، فهو أقربُ وأعلى، ولكن بعد أن يكون معه زاد ذلك الطريق، وهو للمقرَّبين وهم السابقون. ومن ضَعُف

سلك الطريقَ الأرفه وهو الأوسط، إلا أنه أبعدُ لأنه معه زادُ طريقه، وهو لأصحاب اليمين، وهم المقتصدون. وفى المؤمنين أقوياءُ وضعفاء، وليِّنون وأشدَّاء.

ورُوينا عن النبى ﷺ: «المؤمن القوى أحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفى كلٍّ خير». ورُوى عنه ﷺ: «فى المؤمنين مَن هُو أشدُّ فى الله عزّ وجلّ من الحجارة، وفيهم مَن هُو ألينُ من اللبن». وقال فى وصف الأقوياء: «مَثَل المؤمن كمثل النَّخْلَة لا يَسْقُط ورَقُها». وقال الله تعالى فى معنى ذلك: ﴿**أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى السَّمَاءِ**﴾ [إبراهيم: ٢٤].

وقال ﷺ: «مَثل المؤمن كمَثَل السنبلة تُفَيِّئُها الرِّياحُ يَمينًا وشمالاً».

وقال عليه السلام فى صفة المؤمن المُطْعِم: «مَثَلُ المؤمن كَمَثَلِ النَّخْلة أكلَتْ طيِّبًا ووضعت طيبًا».

وقال فى وَصْف المستطعم: «مَثَلُ المؤمِن كمَثَلَ النَّمْلة تجمع فى صيفها لشتائها».

فأوصاف المؤمنين متفاوتة فى الضعف والقوّة، واللين والعُنْف، وفى الجُبْن والشجاعة، وفى الصبر والجَزَع، فَشتَّان بين من شُبِّهَ فى القوّة والعُلُو بالنّخلة؛ قلْبُه ثابتٌ، وهَمُّه فى السّماء، يُطعم جَنَاهُ، ولا يدَّخِر؛ وبين مَن شُبِّه بالنَّملَةِ فى الضَّعْفِ، وهو الذى يستطعم ويحتكر.

وقد فَضّل رسول الله ﷺ قومًا ومدحهم أنهم لا يَسْتَرقُونَ ولا يكتوون، وعلى ربهم يتوكلون، وذكر أنهم يدخلون الجنة بغير حساب، فعلَّلَ بالتوكل وأخبر أنهم تركوا ذلك توكلاً، ثم سأله عُكَّاشةُ أن يدعو الله أن يجعله منهم، ففعل؛ لأنه رأى ذلك طريقَه ورأى معه زاده، وشهد فيه القوّةَ فأهَّلَه لذلك. فلما قال له الآخر: «ادع اللهَ أن يجعلنى منهم»، احتذاءً له، واقتداءً به، ولم يَرَ ذلك فيه، ولا وَجَدَهُ منه، ولم يُؤهِّلْه له، ولم يَعذُرْه به، إذ المقامات لا يُقتدى بها، ولا يُتمثل فيها، كما لا تُدَّعى؛ لأنّها مواجيدُ قُلوب باتحادِ قريب، ومُشاهَداتُ غُيوبٍ بإشهادِ حبيبٍ. فمن سما إليها بغيرِ قوّةٍ، وبِتَسَوُّرٍ، فإنه يَنْكُصُ عنها قبل البلوغ، فيتهوّر؛ لأنها تنهار به، لِمَا يردُ إليه من نفسه وطَبْعِهِ. فلمّا لم يشهد الرسول ﷺ ذلك

مقامَه، ولم يَرَ معه قُوَتَهُ وأعْلامَهُ، أَوْقَفه على حَدِّه، وحكمَ عليه بِوَجْده، وردَّه إلى ضَعْفه، ومَنَعه من تَسَوُّره وعَسْفه، فرّده ردًا جميلاً؛ لأنه كان حَبيبًا كريمًا، فقال: «سبقَك بها عُكَّاشة». فهذا كما يقول الحاكم الحكيم: إذا ضَعُف أحدُ الشّاهدين زِدنى شاهدًا آخر، ولا يصرِّح بجُرح الشّاهد، ولو عَدَّله لَقَبلَه، ولم يطلب الزيادة، وإلا فالمقامات لا تَضيق بمن سبقَ إليها، والقائم على كُلِّ نَفْسٍ لَيس ذلك عليه بعزيز، إلا أنّه حاكم حكيم، لم يحكم له بالسَّبق، فلم يجعل فيه مكانًا لِلَّغْو، والرسول غيرُ بخيل، مع قوله تعالى شاهدًا له: ﴿**وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ**﴾ [التكوير: ٢٤]. ولكن لم يرَ فيه شاهدَ ذلك من القوّة، وتبين فيه الضَّعْفَ عن الحمل، فلم يخاطر به.

وقد نهى عن الكيِّ فى غير حديث، وقال لرجل أراد أن يداوى أخاه إلا أنّه مات من علته، فقال: «أما لو بَرأَ لقلْتَ: أبرَأْتُه». لعلمه بما يَهْجُس فى بعضِ النُّفُوس: أنّ الشفاءَ والنَّفْعَ مِن فِعل الدّواء، وذلك مِن الشِّرك. فكَرِه المحقِّقون بالتّوحيد التَّداوى خَشْيَةَ دُخولِ ذَلك عليهم. كيف وقد جاء نصًا: «مَن اكْتوى أو اسْتَرْقى فلم يتوكّلْ». وفى الخبر الثانى: «الطِّيَرةُ شرْك»، وما منا إلا يجد فى نفسه إلا أن الله يذهبه بالتوكل، فأخبر أنَّ التوكُّل هو دَواءُ الشِّرك الخَفِيِّ، وأنَّ الطِّيرةَ قد تَكْمُن فى النفس فيختفى، ومعناها النّظَرُ إلى الأسبابِ من التشاؤم أو التيمُّن بها، أو شهودُ الضُّرِّ والنّفعِ منها، والله تعالى يقول: ﴿**وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فلا رَادَّ لِفَضْلِه يُصِيبُ بِه مَن يَشَاءُ**﴾ [يونس: ١٠٧].

فوحَّد نفسَه فى الضّرّ والنّفع، وابتلى خلْقَه بالعطاءِ والمَنْعِ، ونَفى ذلك عنهم من فعْلهم، بقول الرسول ﷺ: «لا مَانع لما أعْطَيتَ ولا مُعْطى لما منعتَ». ودخل الشِّرْكُ الخَفِيُّ فى قُلوبِ العُمومِ بنَظَرِهم الأوَاسطَ والأسبابَ، لظُهُورِ الحكمة بالتّسبُّبِ والاكتساب. وبمعنى ذلك: الخشيةُ من مضارِّ الأشياءِ المُسْتَوْدَعة كالرَّجاء للبُرْء.

ومن منافعِ الأسبابِ المجْعُولة حديثُ عثمان بن أبى العاص: ذكرنا الحيات عند

رسول الله ﷺ فقال: «مَنْ خشى أَرَبَهُنَّ ـ وفى لفظ آخر: نارهن ـ فليس منا».

وقال الخوّاص: ليسَ العَجَبُ ممَّن خرجَ إليه، ولكنَّ العجبَ ممّن تخلّف عَنْه، والعَجَبُ كلَّ العَجَبِ ممَّن رَغِب فى صُحْبَةِ المَخْلُوقين، وقد دعاهُ الخالقُ إلى صُحْبته. ثُمَّ وَصَفَ الوَلىَّ، فقال: مُشْرِفٌ على خَلْقِهِ بغاية الكمالِ، يرى مقاماتهم، ويرى الأحكامَ تشهدُها أفعْالاً.

ورُوينا فى حديث الحسن عن مطرِّف بن عبد الله قال: أتينا عمران بن الحُصين نَعُودُه، وكان قد اكْتَوى فى بَطْنه، فقال: «نَهانا النبىُّ ﷺ عن الكَىِّ فاكْتَوَيْنا، فما أَفْلَحْنا ولا أَنْجَحْنا».

ورُويناه فى لفظ آخر: «فما أَفْلَحْنَ ولا أَنْجَحْنَ» يعنى: الكَيّات.

وكان عِمران قد سُقِىَ بَطْنُه، فظل صريعًا ثلاثين سنةً على سريرٍ من جريد، قد نُقب له فى أسْفله لموضع الغائط؛ لأنّه كان سَطِيحًا، لا يستطيع القيامَ، فأشاروا عليه أن يكتوى، فامتنع، فلم يزالوا به وعزَم عليه الأميرُ حتى اكتوى فى بَطْنه سبع كيَّات، فكان يقول: كنتُ أرى نورًا وأسمعُ صوتًا وتُسَلِّم علىَّ الملائكةُ، فلمّا اكتويتُ انْقَطَع ذلك عنّى.

وفى خبرٍ آخر: كانت الملائكة تزوره فيأنس بها، حتى اكتوى، ثم تاب من ذلك وأناب إلى الله، فردَّ اللهُ عليه ما كان يَجِدُه، وقال لمُطَرِّف: ألم تَرَ أنّ الكرامة التى كان اللهُ أكْرمنى بها قد ردَّها علىَّ، بعد أن كان أخبره بفَقْدِها.

فلولا أنّ ذلك كان عنده ذَنْبًا ما ندم عليه، ولَمَا تاب منه، ولولا أنّه كان نقصًا ما صُرِفَت الملائكةُ عنه.

ومرض أبو بكر الصديق رضى الله عنه، فقيل له: لو دعونا لك طبيبًا، فقال: قد نظر إلىَّ الطبيب، فقال: إنّى فعالٌ لما أريد.

وقيل لأبى الدرداء فى مرضه: ما تشتكى؟ قال: ذنوبى. قيل: فما تشتهى؟ قال: مغفرةَ ربى. قيل: أفلا ندعو لك طبيبًا؟ قال: الطبيبُ أمرضنى.

وقيل لأبى ذر، وقد رَمِدَت عيناه: لو داويتَهما؟ فقال: إنى عنهما لمشغول.

قيل: فلو سألت الله أن يُعافيَك؟ فقال: أسأله فيما هو أهمُّ إلىَّ منهما.

وقيل لأبى محمد: متى يصحُّ للعبد التوكُّل؟ قال: إذا دخل عليه الضرُّ فى جسمه، والنقصُ فى مالِه، فلم يلتفت إليه شُغُلاً بحاله، وينظر إلى قيامِ اللهِ عليه.

وقد كان أصاب الربيعَ بن خيثم الفالجُ، فقيل له: لو تداويتَ؟ فقال: قد هَممْتُ، ثم ذكرتُ عادًا وثمودًا وقرونًا بين ذلك كثيرًا، كانت فيهم الأوجاع، وكانت فيهم الأطباء، فهلك المداوِى والمداوَى، ولم تُغْنِ الرُّقَى شيئًا.

وقد أصاب عبدَ الواحدِ بن زيد الفالجُ، فعُطِّل عن القيام، فسأل الله أن يطلقه فى أوقات الصلاة، ثم يردُّه إلى حاله بعد ذلك، فكان إذا جاء وقت الصلاة فكأنما أُنْشط من عقال، فإذا قضى الصلاة رجع إليه الفالج كما كان قبل ذلك.

ومن لم يتداوَ من الصدِّيقين والسَّلَف الصّالح أكثرُ من أن يُذْكَر، إلا أنه مَخْصُوصٌ لخُصوصٍ، وطريقُ الخاصّة الأقوياء، لا يَسْلُكه الشَّوْبُ [١] من العُموم والضُّعفاء. وذلك مذهبُ إبراهيم الخوَّاص وطريقُه. وكان يرى أن المتوكِّل إذا تداوى نقص بذلك تحقيقُهُ.

وقد كان أبو محمد سهل يقول: إنَّ تَرْكَ التّداوِى ـ وإن أضعف عن الطاعات، وقصَّر عن الفرائض ـ أفْضَلُ من التّداوى لأجل الطاعات. وكانت به علّة عظيمةٌ فلم يكن يتداوى منها، وقد كان يُدَاوِى النّاسَ منها.

وكان إذا رأى العبدَ يصلِّى من قُعود مع تصبُّره ورضاه، أو لا يستطيع أعمالَ البرِّ من الأمراض، فيتداوى للقيام فى الصلاة، والنهوض إلى الطاعةَ ـ يَعْجَب من ذلك، ويقول: صلاتُه من قعودٍ مع رضاه بحاله أفضلُ له من التداوى للقوة ويصلّى من قِيام.

وسئل عن شُرب الدواءِ فقال: كُلُّ مَن دَخل إلى شىءٍ من الدواء، فإنما هو سعَة من الله لأهل الضَّعف، ومن لم يَدْخُل فى شىء منه، فهو أفضلُ؛ لأنه إن أخذ شيئًا من الدّواء ـ ولو كان الماء البارد ـ سُئل عنه: لِمَ أخذْتَ؟ ومن لم يأخذ

---

(١) الشّوب: الخلط من الناس. ويمكن أن تضبط: الشُّوَب.

فليس عليه سؤال. وقال مرّة: مَنْ يأخذ الماءَ الباردَ على سبيل الدواء سُئِل.

وأصْلُه في هذا: أنّ عنده من أَفْضلِ الأعمالِ أن يُضْعِف العبدُ قوّتَه حتى لا يكون لنفسه حراك؛ لأجل الله تعالى، وإنَّ ذرّةً مِن أعمالِ القلوبِ؛ مِثْلِ التوكل والرّضا والصبرِ، أفضلُ من أعمالِ جبالٍ مِن عملِ الجَوارحِ. وهذا مَذْهب البصريين في إسقاط القوّةِ بالتَّجوُّع الطّويل، والطيِّ الكثير، لتَضْعُفَ النَّفْسُ؛ لأنّ عندَهم أنّ في قوةِ النّفس قوةَ الشهوات، وغلبةَ الصفات، وفي ذلك وجودُ المعاصي، وكثرةُ الهوى، وطولُ الرَّغبة، والحرصُ على الدّنيا، وحبُّ البقاء.

يقول: إذا أدخل اللهُ عليها الأمراضَ من حيثُ لا تحتسب، فلا يتعالج لرفْعِ الأمراض عنها، فإنّ المرضَ من نهايةِ الضَعْف، ومن أبْلغِ ما يَنقص به الشّهوة. وقد كان يقول: عللُ الأجسام رحمةٌ، وعلل القلوب عُقُوبةٌ. وقال مَرّةً: أمراضُ الجسمِ للصّدِّيقين، وأمراض القلوب للمنافقين.

وقد كان ابن مسعود يقول: تجد المؤمن أصحَّ شيءٍ قلبًا وأمرضَه جسمًا، وتجد المنافق أصحَّ شيء جسمًا وأمرضَه قلبًا.

وعن رسول الله ﷺ قال: «تحبون أن تكونوا كالحُمُر الضّالّة؛ لا تمرضون ولا تسقمون؟». وفي الخبر: «لا تزال الحمَّى والعلل بالعبد حتى يُمسى في الأرض كالبُردةِ وما عليه خطيئة».

وقد قيل: لا يخلو المؤمن من علّة في جسمه، أو قِلّةٍ في مالهِ. وقيل: لا يخلو من عَيْلة أو ذِلَّة.

• ذكر الفضائل لمن لم يتداو ويصبر للقضاء:

وللعبد إن لم يتداوَ أعمالٌ حسنة، منها: أن ينوى الصبرَ على بلاء الله تعالى، والرِّضا بقضائه، والتسليمَ لحُكْمه؛ إذ قد حَسُن عنده؛ لأنه موقِن، وإذ قد عرف الحكمةَ فى ذلك، والخيرةَ فى العاقبة؛ لأنه حكيم عليم على أنه فى ذلك كريم رحيم.

ومنها: أنّ مولاه أعلمُ به منه، وأحسنُ نظرًا واختيارًا، وقد حبسه وقيَّده

بالأمراض عن المعاصى. كما رُوى عن الله تعالى: «الفقر سجنى، والمرض قَيْدى، أحبس بذلك مَنْ أحبُّ من خلقى»، فلا يأمَنُ إنْ تَداوى فعُوفى أن تَقْوَى النفسُ، فيفسده هواها؛ لأنّ المعاصى فى العوافى، وعِلَّةُ سَنَةٍ خير من معصية واحدة.

لقى بعضُ الناس بعضَ العارفين، فقال له العارف: كيف كنت بعدى؟ قال: فى عافية. فقال: إن كنتَ لم تَعْصِ الله فأنتَ فى عافية، وإن كنتَ قد عصيتَه فأىُّ داء أَدْوَى من المعصية! ما عُوفى مَن عَصى.

وقال علىٌّ رضى الله عنه لما رأى زِينة النبط بالعراق يوم عيدهم: ما هذا الذى أظهروه؟ قالوا: يا أميرَ المؤمنين، هذا يوم عيدٍ لهم، فقال: كلُّ يوم لا يُعْصَى اللهُ فيه فهو عيد لنا.

وقال الله تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿وَعَصَيْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، قيل: العوافى والغنى.

وقال بعضُهم: إنّما حَمَل فرعونَ أن قالَ: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤] طولُ العوافى، لبِثَ أربعمائة سنة[١] لم يَصْدَع له رأس، ولم يُحْمَ له جسم، ولم يَضْرِب عليه عرق، فادَّعى الرُّبوبية، ولو أخذته الشّقيقةُ والمليلةُ فى كلِّ يومٍ لَشغلَه ذلك عن دَعْوى الرُّبوبية.

واعْلم أنّ الإنسانَ قد يَطغى بالعوافى، كما يطغى بالمال؛ لأنّه قد يستغنى بالعافية، كما يستغنى بالمال، وكلٌّ فيه فتنة واختبار، وقد قال الله تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق: ٦ ـ ٧].

وقال الرسول ﷺ: «نعمتان مَغْبونٌ فيهما كثيرٌ مِنَ الناس: الصِّحةُ والفراغُ». فصار الصَّحيحُ مغبونًا؛ لأنّ السَّقِيمَ معذورٌ.

وقال الله تعالى: «إنّ من عبادى من لا يصلحه إلا السَّقَم، ولو أصْحَحْتُه لأفسدَهُ ذلك». فكان السَّقِيم صالحًا، إذ قد يكون المعافَى مُفْسدًا.

---

(١) تقدير عمره فيه مبالغة شديدة، حيث كشفت علوم المصريات القديمة غير ذلك.

وكذلك جاء فى الأثر: «أشدُّ النّاسِ حِسابًا غدًا الصحيحُ الفارغُ». فجاء مِن تدبُّرِه أنّ أيسرهم حسابًا السقيمُ المشغولُ بنفسه، فالعصْمة فى حال العافيةِ نعمة ثانية، كالعصمة من المعْصِية بالغِنى فى حالِ الغِنى نِعمةُ النِّعمة. وقد لا يُعطَى ذلك كلُّ النّاسِ؛ لأنّ الأكثر يُعطَى النعمةَ الأولى من المعافاة، ثم لا تتم النّعمة عليه بالنِّعمة الثانية، وهو المعافاة الأخرى من الذنوب. كما يُعطَى النعمةَ الأولى من الغِنى، ولا يُتَمُّ له بالنعمة الأخرى من العِصمة فيه، بالإنفاق فى الطاعات، ووضع ذلك فى القُربات. فصارَت العِصْمة بالعِلّة؛ لأنّها تمنع من المعصية نِعمةً كالعصْمة بالفَقْر؛ لأنّه يمنع من الشَّهوات رحمةً، فلا يأمن أن يكون فى دوامِ صحتِه هَلَكتُهُ، كما يكون فى فضلِ غِناه معصيتُه.

وفى تفسير قوله تعالى: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ الدُّنيا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠] قيل: الغنى والعوافى؛ لأن بهما تطيب الطّيبات، فصارا أطيبَ الطيبات. فإذا أُسقم وأُفقِر لم يكن مُذْهبًا لطيباته فى حَياتِه، ولا متمتعًا بها لنَفْسِهِ فى شهواته، فكان ذلك أحمدَ لعاقبتِه، وخيرًا له فى عاقبتِه. فإذا تداوَى زال عنه جميعٌ ذلك بالدّواء.

فالدّواء وإن كان فى التوحيد لا فعل له، وإنّ الله تعالى هو المعافى الشّافى، فقد فعل ذلك بواسطة العبدِ، وبسبب التّداوى، وإن كان ذلك فعلَه، وإرادتَه، وحُكْمَهُ، كما قلنا فى تَفْصِيلِ الأفعال، إذا فَعَل شيئًا أبداه منه بغير مداخلةِ النَّفْسِ، ولا بيدِ لعَبدٍ، كان العبدُ مأجورًا، ولم يكن به مُطالبًا.

وإذا فعلَهُ تعالى بيد العبدِ وواسطته، أعاد على العبد حُكْمَه؛ لأنه قد أظهر فيه وقسمه.

وروينا عن موسى ﷺ: «يا ربِّ، مِمَّن الدّواءُ والشِّفاءُ؟! قال: مِنّى. قال: فما يصنع الأطباء؟ قال: يأكلون أرزاقهم، ويُطَيِّبُون نفوس عبادى، حتى يأتى شفائى أو قَبْضى».

ويقال: إن بين الداء والدّواء حجابَ المشيئةِ، ولا ينفع الدّواء حتى ينكشف الحجاب.

وقد كان أحمد بن حنبل يقول: أُحبُّ لِمَن اعتقد التوكُّل، وسلك هذا الطريقَ، تَرْكَ التداوى؛ مِن شُرْب الدواء وغيرِه. وقد كانت تكون به عِلَلٌ، ولا يُخبِر المُطَبِّبَ إذا سأَلَهُ.

ومن الفضائل أنَّ الأمراضَ مُكفِّرة للسيِّئات، فإذا كَرِهَ الأمراضَ بقيت ذنوبه عليه موفورة، وفى الخبر: «حُمَّى يَوْمٍ كفارةُ سَنَة». وأحسنُ ما سمعتُ فى تأويله، قال: لأن حمّى يومٍ تهدُّ قُوّةَ سنةٍ. وقيل: فى الإنسان ثلاثمائة وستون مَفْصِلاً فتدخل حمّى يومٍ فى جميع المفاصِلِ، فيكون له بكلِّ مَفْصلٍ كفّارةُ يومٍ.

ولمّا ذكر رسولُ الله ﷺ: كفّارةَ الذنوب بالحمَّى، سأل زيدُ بن ثابت ربَّه ـ ويقال أيضًا أُبىُّ بن كعب ـ أن لا يزال مَحمومًا. قال: فلم تكن الحمى تفارقه فى كل يوم حتى مات. وسأل ذلك طائفة من الأنصار.

وكذلك لما ذكر رسولُ الله ﷺ: «من أذْهَبَ اللهُ كريمَتَيْه لم يرضَ لَه ثوابًا دُون الجنة». قال: فقد رأيتُ الأنصار يتمنَّون العمى.

ولما جاءت الحُمّى رسولَ الله ﷺ تستأذن عليه قال: «اذهبى إلى أهلِ قُباء». وهذا أحد الوجهين فى قوله تعالى: ﴿**فيه رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا**﴾ [التوبة:١٠٨]، أى من الآثامِ والذّنوب بالحُمّى والأمْراض.

فلو لم يكن فى ذلك إلا مَحبةُ اللهِ، وشهادَتُه بطُهْرةِ العبدِ بالعلّة، لكان نصيبًا موفُورًا. قال: فأسْقَمَتْهُم الحُمَّى وأنهكتهم، فجاءوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه كشفَها. فقال: «إن أحْبَبْتم دعوتُ اللهَ فرفعها عنكم، وإن أحْبَبْتم تركتُها، فقد كانت لكم طَهُورًا». فقالوا: بل نتركها فشكر اللهُ صَبْرَهم، فأخبر بمحبته لهم.

فكان من هذا أنّ تَرْكَ الأمراضِ اختيارٌ للهِ، وإيثارُ محبتِهِ، وأنَّه أفضلُ لحُسْنِ ثناءِ اللهِ عليهم باختيارها.

وروينا عن عيسى ﷺ: «لا يكون عالمًا من لم يفرح بدخول المصائب على جَسدِهِ ومالِه»، لما يرجو فى ذلك من كفارة خطاياهُ.

والصدِّيقون يُبْتَلون بعللِ الجَوارح، والمنافقون يُبْتَلون بأمراضِ القلوب؛ لأنّ فى

أمراض الأجسام ضَعْفَها عن الآثام والطغيان، وفى أمراضِ القلوبِ ضَعْفَها عن أعمالِ الآخرة والإيقان. وفى معنى قوله عزَّ وجلَّ: ﴿**وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً**﴾ [لقمان: ٢٠]، قيل: ظاهرة العوافى، وباطنة البلاوى؛ لأنّها نِعمُ الآخرة.

ورُوِى أنّ موسى عليه السلام نظرَ إلى عبدٍ عظيمِ البلاء، فقال: يا ربِّ، ارحمه أنت، فإنّى قد رحِمتُه. فأوحى الله عز وجلّ إليه: كيف أرحمه؟ ممّا به أرحمه.

وقد قال الله وهو أصدق القائلين فى تصديق هذا المعنى: ﴿**وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ**﴾ [المؤمنون: ٧٥]، فأخبر أنّ فى ترك الرحمة لهم من الأمراضِ لُطْفًا بهم، ورحمةً باطنةً لهم.

ورُوِينا عن عبد الواحد بن زيد: أنّه خرج فى نَفَر من إخوانه إلى بعض نواحِى البصرة، فآواهم المسيرُ إلى كهفِ جبلٍ، فإذا فيه عَبْدٌ مُقطَّع بالجُذام، يسيل جسدُه قيحًا وصديدًا لا طِياحَ به[1]، فقالوا: يا هذا، لو دخلتَ البصرة، فتعالجتَ من هذا الداء الذى بك! فرفع طرْفَه إلى السّماء، وقال: سيدى، بأىِّ ذَنْبٍ سلَّطْتَ هؤلاء علىَّ يُسَخِّطونى عليك، ويُكرِّهون إلىَّ قضاءَك، سيدى أستغفركَ من ذلك الذّنبِ، لك العُتْبَى، إنّى لا أعودُ فيه أبدًا. ثم قال: اصرِفهم عنى، ارْدُدهم عنى. قال: وكُنّا جماعة، فما مَلَكْنا رؤوس دوابِّنا، ولا قَدِرْنا على ضَبْطِها حتى رَدَّتْنا إلى البَصْرة.

نحو هذا رسمتُه حِفظًا.

فإنما كُرِه للمتوكل التداوى؛ لأن حاله الرّضا، ومقتضى الرِّضا تَرْكُ الاعتراضِ بحلول اللأْواء. وفى الخبر المشهور: «نحن معاشرَ الأنبياء أشدُّ النّاسِ بلاءً، ثم الأَمْثَلَ فالأمثلَ». يعنى شَبَهًا بنا. يُبتَلى العبدُ على قدر إيمانه، فإن كان فى إيمانه صلابة شُدِّد عليه البلاءُ، وإن كان فى إيمانه ضعف خُفِّف عنه البلاءُ. ولذلك قيل لرسول الله ﷺ: إنَّك تُحَمُّ حُمَّى رجلين، فقال: «لأنَّا يُضاعف لنا الأجرُ مرتين».

---

(١) فى المطبوعة: الأطباخ، وهى تصحيف، والتصويب من المخطوط. ولا طياح به: أى لا حركة به.

وقالت عائشةُ: ما رأيتُ أشدَّ حُمّى من رسول الله ﷺ، ما كنا نقدر أن نضع أيدينا نَمَسُّ حُمَّاه من حَرِّها. ويقال: كان يوجد حرُّ حمّاه ﷺ من فوق الثّياب.

وفى الخبر الآخر: «إنّ الله تعالى يجرِّب العبدَ بالبلاءِ، كما يجرِّب أحدُكم ذَهَبَه بالنّار». فمِنهم مَن يَخرجُ كالذّهبِ الإبريز، ومنهم دون ذلك، ومِنهم مَن يخرجُ أسودَ محترقًا.

وقد رُوينا حديثًا من طريق أهل البيت: «إذا أحبَّ اللهُ عَبْدًا ابتلاه؛ فإن صبرَ اجْتَباهُ، وإنْ رَضِيَ اصْطفاه».

ومنها أنّ الملَكَ يكتُب له مثلَ أعماله الصالحةِ التى كان يعملها فى صِحّته، وأنّه يُجرى له من الحسنات مثلَ ما كان يُجرى له على أعمالهم، فيكتب الملَك له أعمالاً صالحة خيرًا له من أعمالِه؛ لأنّه قد يَدْخُلها الفسادُ. واختيارُ الله له أن يستعملَه بالأوجاعِ خَيرٌ له من اختياره لنفسه أن يستقلَّ إلى الله بالأعمال الصالحة. وهذا أحد المعنيين فى معنى الخبر: «أفضلُ الأعمالِ ما أُكْرِهَتْ عليه النفوسُ». قيل: هو ما دخَل عليها من المصائبِ فى الأنفس والأموال، فهى تكره ذلك وهو خيرٌ لها.

ومن هذا المعنى قوله تعالى: **﴿وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾** [البقرة:٢١٦]. قد يكره العبدُ الفَقْرَ، والعِلَّة، والعَيْلةَ، والضُّرَّ، والخُمولَ، وهو خيرٌ له فى الآخرة وأحمدُ عاقبةً. وقد يحبّ الغِنَى، والعوافى، والشُّهرةَ، وهو شرٌّ له عند الله وأسوأُ عاقبة. وقد قال اللهُ تعالى: **﴿ونَقْصٍ مِنَ الأَمْوالِ والأَنْفُسِ والثَّمَراتِ﴾** يعنى الأمراض والعلل، هو نقْصُها مِن أوصافِها، وقواها، وزيادةَ معانيها، فهو خيرٌ له إذا صبَر، وفضل له إن شكر، ودرجاتٌ إذا رضى وتوكَّل **﴿وبَشِّرِ الصَّابِرينَ﴾** [البقرة:١٥٥]. والله يحب المتوكِّلين.

وفى الخبر أيضًا يقول الله تعالى لملائكته: «اكتُبوا لعبدِى صالحَ ما كان يعمل، فإنه فى وثاقى؛ إنْ أطلقتُه أبدلْتُه لَحْمًا خَيْرًا من لَحْمِهِ، ودَمًا خيرًا من دَمِه» قيل:

لأنّه طُهِّر من المعاصى، وكُفِّر به عنه الخطايا. قال: «وإن تَوَفَّيْتُه توفّيتُه إلى رَحْمتى» ولا ذنب عليه أبدًا.

فإبدالُ صِفَته، لحُسْن اختيارِ اللهِ له، خيرٌ له فى الدنيا والآخرة، من اختيارِه وشَهْوته.

والأصلُ فى التّداوى وتَرْكه أنّ المتوكلَ على اللهِ قد عَلِم فى توكُّله أنّ للعلّة وقتًا، إذا انتهت إليه برأ العليل بإذنِ الله لا مَحالةَ، ولكن الله عزّ وجلّ قد يَحكُم أنّه إن تَدَاوى شفَاهُ فى عشرةِ أيام، وإن لم يتداوَ أبرأه فى عِشرين يومًا؛ ليترخّص العليلُ بما أباحه اللهُ له، فيطمع فى تعجيلِ البُرءِ فى عشرةِ أيام؛ ليكونَ أسرعَ لشفائه، وأقربَ إلى عافيته، على أنه معتقدٌ أنّ الدواء لا يَشْفِى، وأنّ التداوى لا ينفع لعينه؛ لأنّ الله هو الشافى وهو النافع، فالشّفاءُ والنّفعُ فعلُه لعبدِه، وجعلُه فى الدواء من لطائف حكمته لا يَجْعَله سواه، ولا يَفْعَله إلا إياه؛ إذ كانت العقاقيرُ مطبوعةً مجبولةً على خلقها، فجاعلُ الأسبابِ فيها هو جَابلُها؛ لأنّ الجُعْلَ فيها والخاصيةَ منها ليس من عَمَلِ المتطبِّب، وإن كان يعمل بها، ويجمع بينها وبين العليل؛ لأنّه ظهر على يديه سَببًا لرزقه، فالله خالقُ جميعِ ذلك وفاعلُه، وكذلك قال الله تعالى: ﴿واللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦].

وكذلك أيضًا عند العارفين أنّ الخبزَ لا يُشْبِع، وأنّ الماءَ لا يُرْوِى، كما أنّ المالَ لا يُغنى، والعُدْمَ لا يُفقر؛ لأنّ اللهَ هو المُطْعِم والمُسْقِى، وهو المُشْبِع والمروى، كما هو المغنى والمفقر، بما شاء، كيف شاء، وهو جاعلُ الشِّبَع والرِّىَّ فى المطعوم والمشروب، وفى النّفْس بالغِنى والفَقر، لحكمته ورحمته، كما أنّ اللهَ تعالى هو المجيعُ المُظْمِئُ، فيُدخل الطّعامَ والشرابَ على الجُوعِ والعطَشِ اللذين جعَلَهما؛ فيُذهبهما بما أدخَل عَلَيهما، كما يُدخلُ الليلَ على النّهارِ، ويُدخل النهارَ على الليل، فيغلب سلطانُ كلٍّ واحدٍ على الآخر فيُذْهبه، فسواء هذا عند الموحِّدين من وصْف الليلِ والنهار، ومن العِلَل والأدْويةِ، يتسلط الشىءُ على ضدِّه فيُزيله بقَلْبه، فهذه بإذن الله.

فالعلمُ بهذه المعانى عَقْدًا هو الإيمان، والشّهادةُ لها قائمة به، وحقًّا هو اليقين.

والشِّركُ فى هذه الأشياءِ فى العُموم أخفَى من دبيبِ النَّملِ على الصَفا، والموقنون الصَّحيحو التّوحيدِ مِن جَميع ذلك بَرآءُ.

وعلى هذه المعانى أحد الوجهين فى قوله تعالى: ﴿**الَّذى أَعْطَى كُلَّ شَىءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**﴾ [طه: ٥٠]؛ أى: أعطى كلَّ لونٍ وجِنْسٍ خِلْقتَه وطبعَه، أى صورةَ الشىء ووصفَه للضرِّ والنفع، الذى ركَّبه فيه، وأظهره به.

فإن تَعجّل العليلُ البُرءَ بالتداوى، فبرأ، كان ذلك بقضاء الله وقدره على وصف السّرعة من المعافاة. فإن كان ناويًا فى تداويه واستعجاله شفاءَه الطاعةَ لمولاه، والقيامَ بين يديه للخدمة، كان مُثابًا على ذلك، فاضلاً فيه غيرَ منقوص فى مقام توكُّلِه. وإن أراد بذلك صحةَ جسمه لنفسه والنعيم بالعوافى كان ذلك بابًا من أبوابِ الدنيا، ودُخولاً فيما أُبيح له منها، وهو يُخْرجه من فضيلة التوكُّل وحقيقته بمقدار ما نَقَصَه من الزهد فى الحياة والنعيم، وإن أراد باستعجال العوافى قوةَ النفس؛ لأجل الهوى وليسعى فى مخالفة المولى، كان مأزورًا بسُوءِ نيَّته، ووُجُود عزيمتِه، ويخرج من المباح إلى المحظور، وذلك يُخْرجه من حدّ التوكل وأوّله؛ وهذا من مذموم أبواب الدنيا وممقوتها.

وإن كانت نيتُه فى تعجيلِ العوافى التصرفَ فى المعايش، والتكسُّبَ للإنفاق والجمع، نُظِر فى شأنه؛ فإن كان يسعى فى كَفافٍ وعلى عِيالٍ ضِعافٍ، وعن حاجةٍ وإجحاف، لَحِقَ هذا بالطبقة الأولى، وهذا باب من أبوابَ الآخرة، وهو مأجورٌ عليه، ولا يُخرِجه من التوكل.

وإن كان يسعى فى تكاثُرٍ وتفاخُرٍ، ولا يبالى من أين كسب، وفيما أنفق، لَحِقَ هذا فى الطبقة الثالثة من العاصين، وهذا من أكبر الدّنيا الْمُبعِدةِ عن الله عزّ وجلّ.

فهذه نيّاتُ الناسِ فى التداوى؛ المحمودَةُ، والمذمومَةُ.

فإن لم يتداوَ المتوكِّل؛ تسليمًا للوكيل، وسكونًا تحت حكمه، ورضًا باختياره وصُنعه، إذ قد أيقن أنّ للعلّةِ وَقْتًا إذا جاء برئ بإذن الله تعالى إلا أنّها بعد عشرين يومًا، فيصبر ويَرْضَى ويحمل على نفسه ألم عشرة أيام؛ رضًا بقضاء الله، وصبرًا

على بلائه، وحسنَ ظنٍّ باختياره له، ولا يتّهمه فى قضائه عليه ـ فهذا هو أحدُ الوجوه فى حُسن الظَّن باختيارِ الله، أن لا يَتَّهمَ اللهَ فى قَضَائه.

وقد رُوى فيه نصٌّ: أنّ رجلاً قال: يا رسولَ اللهِ، أوصنى. فقال: «لا تَتَّهِم اللهَ فى شىءٍ قَضاهُ عَليك».

وهذا أيضًا أحد معانٍ لِمَا ينفع الصبر عليه، ويحقّ حُسْنَ الجزاءِ وتوفية الأجر بغير حساب بعدَهُ، فى قوله تعالى: ﴿وجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وحَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٢]، وقوله: ﴿إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

وقد رُوى فى معنى هذا خبرٌ فيه شدّة، يقول الله تعالى: «مَنْ لم يَصْبِر على بَلائى، ويَرْضَ بقضائى، ويَشْكر نَعمائى، فَليتَّخِذْ ربًا سواى».

وهذا بابٌ من الزّهد فى الدنيا بمقدار ما نقص من الرغبة فى نعيم النّفس؛ لأنّ الجسمَ من المُلْكِ، فما نَقَص منه نقَص مِن الدُّنيا، والقَلْبُ مِن المَلكُوتِ، فما زاد فيه زاد فى الآخرةِ.

وقد ذكرَ اللهُ تعالى الصَّبرَ على نَقْصِ النّفس، وبشَّرَ الصّابرينَ فى استسلامهم للمُبْلِى بنقصِ الأنفس، وصَلّى عليهم، وجعلهم مهتدين، فى قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ولَنَبْلُوَنَّكُمْ بشَىءٍ مِنَ الخَوْفِ والجُوعِ ونَقْصٍ مِنَ الأَمْوالِ والأَنْفُسِ﴾ [البقرة: ١٥٥] فنقص الأنفس بالأمراضِ والأسقام، ونقص الأموال بالإتلافِ والإعدام؛ ولذلك جعلناه مع الصَّبر زُهدًا؛ لاقتران المال بالنَّفس شَهْوةً ووَجْدًا. وهذا أيضًا داخِلٌ فى مُخالفةِ النّفس، إذ تعجُّلُ العوافى من مَوافَقَتِها، فهو بابٌ من خلاف الهوى، ومجاهدة النفس عن الهوى. كيف وصَلاحُهُ لله تعالى فيه، إذ مع الأمراضِ اجتنابُ المعاصِى، وتركُ كثيرٍ من الأغراض، كما قال: «إنّ من عِبادِى من لا يُصلحه إلا السَّقَم ولو صححته لأفسده ذلك». ولا يأمن فى استعجال العوافى دخولُ المعاصى. وبعد ذلك فإنّ أيام العلّة معلومة، فإذا انقضت جاءت الصِّحّة المَقْسُومة: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أجَلٌ إذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأخِرُونَ سَاعةً ولا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩].

أيضًا فى الأمراض تجديدُ التوبة، والحزنُ على الذنوب، وكثرةُ الاستغفار،

والاستعتابُ منها، وحسنُ التذكرةِ، وقصرُ الأمل، وكثرةُ ذكر الموت. وفى الخبر: «أكثروا من ذكر هاذم اللّذات».

ومِن أَبْلغِ ما يُذْكَر به الموتُ ويُتوقَعُ نزوله: الأمراضُ، فقد قيل: الحُمّى بريد الموت. وفى قوله عزّ وجلّ: ﴿أَوَ لاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ [التوبة:١٢٦] الآية، قيل: بالأمراض والأسقام، يُختبرون بها. ويقال: إنّ العبد إذا مرض مرضتين ثم لم يَتُب قال ملك الموت: يا غافل، جاءك منّى رسولٌ بعد رسولٍ فلم تقبل، الآن آتيك بنفسى، أضربك ضربة أقطع منك الوتين.

وقد كانوا يستوحشون إذا خرج عنهم عام لم يُصابوا فيه بنقص من نفسٍ أو مال. ويقال: لا يخلو المؤمن فى كل أربعين يومًا أن يُرَوَّع بروعة أو يُصاب بنكبة، فكانوا يكرهونَ فَقْدَ ذلك فى ذهاب هذا العدد من غير أن يصابوا فيه بشىء.

ورُوى أن عمارًا تزوَّج امرأة، فلم تكن تمرض، فطلَّقها. وأنّ النبىّ ﷺ عُرِضَتْ عليه امرأةٌ، فذُكر من وَصْفها، حتى همَّ أن يتزوَّجها، فقيل له: إنّها ما مَرضت قط. فقال: لا حاجة لى فيها. وذَكَر رسولُ الله ﷺ الأوجاعَ من الصداع وغيره، فقال رجل: وما الصّداع؟ ما أعرفه. فقال النبى ﷺ: «إليكَ عنّى، من أراد أن ينظر إلى رجلٍ من أهل النار فلينظر إلى هذا». لأنّ فى الخبر: «إنّ الحمَّى حظُّ المؤمن من نار جهنم».

وفى حديث أنس وعائشة: يا رسول الله، هل يكون مع الشهداء يوم القيامة غيرُهم؟ فقال: «نعم، مَنْ ذكر الموتَ فى كلِّ يومٍ عشرين مرة». وفى لفظ الحديث الآخر: «الذى يذكر ذنوبَه فتحزنه».

وإنْ تَرَك التداوى، وبرئَ بغير دواء، كان هذا من قضاء الله وقدره على وصْف الإبطاء. وقد اختلف رأىُ الصحابة فى مثل هذا المعنى عامَ خرج عمرُ رضى الله عنه إلى الشّام، فلما بلغوا الجابية، انتهى إليهم خبرُ الشامِ أنّ به وباءً عظيمًا، وموتًا ذريعًا، فوقف الناسُ، وافترقوا فِرقتين: فمنهم من قال: لا ندخل على الوباء، نلقى بأيدينا إلى التهلكة؛ فنكون سببًا لإهلاك أنفسنا. وقالت طائفة

أخرى: بل ندخل، ونتوكّل على الله، ولا نَهْرُب من قَدَرِه، ولا نفرُّ من الموت، فنكون كمَن قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ [البقرة: ٢٤٣]. فرجَع الجميعُ إلى عمر، فسألوه عن رأيه، فوافق عُمرُ الذين قالوا: نرجع ولا ندخل على الوباء، فقال له آخرون: أنفرُّ مِن قَدَرِ الله؟ فقال عمرُ: نعم، نَفِرُّ من قَدَرِ إلى قدر الله. ثم ضرب لهم مثلاً، فقال: أرأيتم لو كان لأحدكم غنم، وله شُعبتان: إحداهما مُخْصِبةٌ والأخرى مُجْدِبة، أليس إنْ رَعَى المخْصِبةَ رعاها بقدر الله، وإنْ رَعَى المجْدِبة رعاها بقدر الله؟ فسكتوا.

ثم دعا عمرُ بعبد الرحمن بن عوف، يسألُه عن رأيه، فقيل: هو غائبٌ، قد تأخَّر في المنزل الذى نزَلْنا فيه. فَثَبَت عمرُ وأصحابهُ على ذلك الرأى، وعلى أنْ يسألَ عبدَ الرحمن عن رأيه فيه، فلما أصبحوا جاء عَبْدُ الرحمنِ بن عوف، فسأله عمرُ عن ذلك، فقال: عندى فيه ـ يا أمير المؤمنين ـ شىءٌ سمعْتُه من رسول الله ﷺ، فقال عمرُ رضى الله عنه: الله أكبر، يقول: «إذا سمعتُم بالوباءِ فى أرضٍ فلا تَقْدُموا عليه، وإذا وَقَع فى أرض وأنتُمْ بها فلا تخرجوا فرارًا منه». ففرح عمرُ بذلك؛ إذْ وافق رأيَه، فرجع بالناس من الجابيَة، أو من سَرْغ. والحديث أتَمُّ من هذا ذكرتُه على المعنى، وفيه معانٍ من الفقه كثيرة، ذكرتُها فى موضعه.

• بيان آخر من التمثيل فى التداوى وتركه:

وَمَثلُ التداوى وَتَرْكُه ـ فى أنّهما مُباحان، وأنّ أحدَهما طريقُ الأقوياء الصابرين، وهو تركه ـ مَثَلُ التكسُّب وتركه: أنّ التكسُّبَ عندَ الجوع، الذى هو علّة الجسمِ؛ ليستعجلَ العبدُ الدواءَ بالخبز، جائزٌ له، لا يقدح فى تَوكُّله؛ لأنّه مُباحٌ له، مَأمور به.

فإنْ نَوَى بالتكسُّب القوّةَ على الطاعة، والسعْيَ فى سبيل اللهِ، والمعاونةَ على البرّ والتقوَى، كان فاضلاً فيه.

وإن نوى بالتكسُّب الأكْلَ للشهواتِ، والقيامَ بحظوظ النفسِ من الرَّفاهية، نَقَصَ ذلك من توكُّله، وأخرَجه مِن حقيقته، فكان طريقًا من طُرقات الدنيا، إلا

أنّه مُباح.

وإنْ قصد بتكسّبه التكاثر، والحرْصَ للجمع والمنع، كان عاصيًا بكَسْبه، مُخالفًا لربّه، وهذا مِن أكبر طُرُقِ الهوَى.

ثمّ إنْ لم يتكسَّب، وصبر على الجوع، ورَضِيَ بالقلة والفقر، فإنّ رزقَه يأتيه لا محالةَ لمجيء وقتِه، وإنْ كان قليلاً دون سَعة، ولكنّه يحتاجُ إلى فضل صبرٍ، وحُسْنِ رضًا، وسكونِ نفسٍ، وطمأنينة قلبٍ، فإن وجد هذه المعانى فهذا هو التوكّل، وكان فاضلاً فى تَرْكِ التكسب؛ بحُسْنِ يقينه، وثقته برازقه، وشُغْله بما هو أفضلُ، وأنفعُ له فى عاقبته.

ولعمرى إن التوكّل إذا أُيِّد بصبر، ونُصِر بيقين، وأُعين برضا، كان ذلك أحبَّ إليه من أرْزاقِ الدُّنيا؛ من الطُّعْمِ وغيره؛ لأنّ هذه أرْزاق الآخرةِ، والآخرةُ خيرٌ وأبْقى؛ ولأنّه قد زهد فى الدّنيا، فهذا عون له، وتقوية على زُهْدِهِ.

وقد كان أبو سليمان يقول: مَن شُغِل بربِّه شُغِل عن نَفْسه، ومن تشتَّتَ همُّهُ واضطربت نفْسه، وتكرَّه قضاءَ ربِّه، فأخرجه ذلك إلى الجَزَعِ، والهلَعِ، والتَّبرُّم، والشكْوَى، فالتكسُّبُ لهذا أفضلُ، والتسبُّبُ له أجودُ، وهو منقوصٌ بتَرْكه لمزيده من ضَعْفِ يقينِه وشِرْكه. واضطرابُ الجسمِ مع اضطراب النّفس أعْذَرُ، وسكونُ الحركة مع سُكون القَلْب آجَرُ.

كذلك أيضًا مَن أكْثَر الشَّكْوَى من علَّته، وتَسَخَّط حُكْمَ ربِّه، وتبرَّم وضَجِرَ وسطا على الناس، وساء خُلُقُه بمرضه، فإنّ الأفضلَ لهذا أن يتداوَى، وهو ناقص بتَرْكِه.

ورُوِينا عن عَمرِو بن قيس، عن عطيةَ، عن أبى سعيد الخدرى، عن النبى ﷺ: «إنّ من ضَعْفِ اليَقين أنْ تُرْضِيَ الناسَ بسَخَط الله، وأنْ تَحْمَدَهم على رزق الله، وأنْ تذمَّهم على ما لم يُؤْتِك الله». إنّ رزقَ الله لا يجرُّه حِرْصُ حريصٍ، ولا يردّه كُرهُ كاره. إنّ اللهَ بحُكمه وجلاله جعل الرَّوْحَ والفرحَ فى الرضا واليقينِ، وجعل الغمَّ والحُزْنَ فى الشّكِّ والسُّخْط.

• **ذكر استواء شهادة المتوكل مع اختلاف ظهور الأسباب:**

ويستوِى عند الخُصوص بعين يقينِهم ما جاءهم بواسطة أيديهم، وأسبابِ كسبِهم، وما جاءهم بأيدى غَيْرِهم وبغير كسبِهم، إذ كان المُعْطِى عندهم واحدًا، والعطاءُ كلُّه رزقًا، وإذا كانت الأيدى ظروفَ العطاء؛ فتستوى، سواء كان الظَّرفُ يدَك أو يدَ غيْرِك، وسواء كان الكَسْبُ كسبَك أو كسبَ غيْرِك لك؛ إذ جميعُه رزقُكَ؛ ولأنّ لكلّ شىء حُكْمًا، وفى كل شىءٍ حكمةً، وبكل شىء نعمةً.

قال الله تعالى: ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى الْبِلَادِ﴾ [الفجر: ٧ - ٨]. فأضافها إليه فى الخَلْق، بعدَ أنْ بنَوْها بأيديهم، وفرَغوا منها.

ومِثْل هذين أيضًا يستوى عندَهم ما ظهر بيد القُدْرة لا خَلْقٌ فيه ولا واسطةٌ به، وما ظهر بأيديهم عنِ الحكمة وترتيب العُرْفِ؛ لأن القُدْرةَ أيضًا بمنزلة ظَرْفٍ للعطاء، ظهر العطاءُ بها، فهى كأيدى العبادِ مِن يد الإنسانِ نفسه، أو يد غيره؛ إذ القدرةُ والحكمةُ خزانتان من خزائن الملكُوتِ والمُلْك، هو الغيبُ والشّهادةُ قائمٌ بقيومية الحىِّ القيُّوم الشاهدِ الدّيموم.

فهذه المعانى الثلاثُ، أعْنى ما ظهر عن يدكَ وتكسُّبك، وما ظهر بيد غيرك وعَنْ كسبه لك[١]، وما أظْهَرَتْه القدرةُ من العدَم فى الوُجود عن غير معتادٍ ولا عُرفٍ، وبغير واسطةٍ مرّتْ به، هذا كلُّه عند المُوقنين سواء، لا يترجَّح بعضُهُ على بعضٍ لرُجْحان إيمانِهم، وقوّةِ يقينِهم، ونَفاذِ مشاهدهم؛ إذ كلُّه حِكْمةٌ بالغة، وقُدْرةٌ نافذة، عن حكيم واحد، وقادرٍ واحد.

وممّا يدلك على استواء ما ظهر بيد الأواسط، وما أَظْهرتْه القدرةُ عند العلماء: أن كلَّ مَن جَمَع كراماتِ الأولياء، وإجابات الصّدّيقين، ذَكَر فيها ما ظهر لهم عَنِ القدرة، وما أُظْهِر لهم على أيدى الخَلْقِ، مِن الإنفاق عند وقتِ الفاقات، عن غيرِ مسألة ولا استشراف[٢] نفس، فسوُّوا بينهما فى الكرامات، وجعلوهما واحدًا مِن

---

(١) عبارة المخطوط: «أعنى ما ظهر عن يدكِ وبتصرفك، وما ظهر بتصرف غيرك لك».

(٢) فى المخطوط: «ولا اشتراط».

الإجابات، وحَسِبوا كلَّ ذلك مِن الآيات. وقال ابن معاذ: العالم من الزُّهاد من أثبتَ التوكُّلَ على إطلاق الأسباب.

على أنّ العارفين يشهدون ما يُوصِّل العبيدُ إليهم مِن أقسام رِزْقهم؛ أنّها ودائعُ لهم عندهم، وأنه حقٌّ لهم بأيديهم، يؤدّونه إليهم قليلاً قليلاً، ويُوَفُّونَهم إيّاه شيئًا فشيئًا، إلا أنهم لا يسألونهم إياه، ولا يُطالبونهم به، وإنْ كان لهم ذلك عندهم حُسْنُ أدبٍ فيهم، وحسنُ اقتضاءٍ؛ لأنّ مِنْ حُسن الاقْتضاءِ تَرْكَ الطلب، ولِقوّة يقينهم برازقهم أنّه يُوفِّيهم نصيبَهم غيرَ مَنْقُوص، فقد سكنوا إلى قديمِ وعدِه، كما نظروا إلى بَسْطِ يدِه.

وكذلك مشاهدة العالِمين من الموصِّلين إليهم قَسَمَهم، الدافعين إليهم حقوقَهم، يشهدون أنّهم قد خرَجوا إليهم مِن حقِّهم، وأدّوا إليهم ودائعَهم؛ فيستريحون إلى إخراج ذلك، ويفرحون بأدائه إلى أرْبابه، ويشكرون اللهَ على حُسْن توفيقه، وإعانتهم على سُقوطِ ذلَك عنهم، كما يَفْرح مَن عليه الدَّيْنُ الثقيل إذا أدّاه؛ فسقط عنه حُكْمُه وقضاؤه. وكما يُسَرُّ الأمينُ بأداءِ الوديعةِ التى استُودعها إلى أرْبابها، وخروجِها من يدِه وذمّتَه، فلذلك يردُّ اللهُ تعالى الخُصوصَ إلى العمومِ، لِيأجُرَهُم عليهم، فيكون ذلك خيرًا للفريقين، وأفضلَ وأسلمَ للطائفتين، إذ فى تسبُّب الخلقِ بعضِهم لبعضٍ، وتناولِ الأقسامِ من أيدى العوامِّ، تخفيفُ أثقالٍ، وإسقاطُ مؤنٍ عن الخُصوص، وفيه من صلاحِ العباد والبلاد، واستقامة التدبيرِ، وعقد نظامِ التقديرِ، ما هو أبلغُ فى الحكمةِ، إذ لا تَعْجَزُ يدُ القدرةِ من إظهارِ الأقسامِ من خزانةِ العدَم إلى الوُجودِ، بغير أيدِى العبادِ، عن غير أسبابٍ وحُدودٍ.

كما حُدِّثت فى قَصّة تطول، اختصارُها: أنَّ رجُلاً رأى بعضَ الأولياء يطوف بالبيت ليلاً، فشهد فيه الحاجةَ، فدفع إليه سبَبًا، فاكتَسى منه، واقْتاتَه. قال: فهجس فى نفس الرّجل من ذلك العبدِ سوءُ ظنٍّ به، فأُطْلِع ذلك الولىُّ على ما فى نفسه، فأخذ بيده، وطاف به أُسبوعًا، كلُّ شوطٍ منه فى جوهرٍ من الجواهر، يَتخشخَشُ تحت أقدامهم إلى الركَبِ، منها جوهرُ الذهب والفضة، والدُّرّ والياقوت، ثم قال له: نحن مُكاشفون بسر المُلْك، وظاهرٌ لنا كنوز الأرض، ولكن

لا نأخذ منه شيئًا زُهدًا فيه؛ ولأنّ له أثقالاً فتركُه أفضل، ونأخذ أرزاقنا من أيدى الناس، وبالأسباب، لأنّه أحبُّ إلى اللهِ لمنافعِ العباد؛ ولأنَّ الحِكمةَ والأحكامَ فى ذلك أكثر.

وكان قبل هذا وسببه أن الرجل كان قد سمعه يدعو عند المُلْتزم، فأصغى إِلى دُعائه، فسمعَهُ يقول: جائعٌ كما ترى، عريانُ كما ترى، فَمَا ترى فيما ترى، يا من يَرى ما لا يُرَى؟، فعند ذلك دفع إليه السبب.

ذكرته اختصارًا على المعنى واللفظ، كما حدثنيه بعض الأشياخ.

وبمعناه حُدِّثت عن رجلٍ تفرَّد فى فلاةٍ من الأرض، وانقطعَ عن الخلقِ، وقال: إن كان لى رزقٌ أتانى، قال: فلبث أيامًا لم يأته شىء، حتى أضرَّ به الضَّعف، فقال: يا ربّ، إن كان لى فى الأرضِ رِزق فأْتِنِى به، وإلا فاقبضنى إليك، قال: فأوحى اللهُ [إليه]: وعزتى وجلالى لا أرزقك حتّى تدخلَ المِصْرَ وتقعدَ بين ظهرَانى الخَلْق، قال: فعدَل إلى أقرب الأمصارِ إليه، ودخل مسجدًا، فأتاه إنسانٌ بطعام، وآتاه آخر بشراب، فأكل وشرِب، فأوجس فى نفسه، فأوحى الله إليه: أردتَ أن تُبطلَ حكمتى، وتُسقط حُكمى بتوكُّلك علىَّ أن أرزقك، [فرزقُك] بأيدى الخلق أحبُّ إلَىَّ.

والخبر المأثور أن موسى ﷺ قال: «يا رب، جعلتَ رزقى هكذا بأيدى الخلق، يُغدِّينى هذا يومًا، ويعشِّينى هذا ليلةً، فأوحى الله إليه: هكذا أصنع بأوليائى أجعل أرزاقهم بأيدى العاصين ليُؤْجَرُوا فيهم».

فعلْمُ هذا للمتوكلين، ومعرفةُ هذه الحكمة لمن أَوصَلَ إليهم قسمهم من الموصِّلين، مُقامٌ للجميعِ فى المعْرفةِ واليقين، فهو حالٌ للمُعْطَى المُوصِّلِ، وطريقٌ للآخذِ المتوكِّل.

كما روينا فى حديث أنسٍ: «ما المُعطِى من سَعَةٍ بأعظم أجرًا من الآخذ إذا كان محتاجًا».

فسبحان مُطرِّق الطرقات، ومُسبِّب الوُصُلات إلى الآخرة، بزُلَف القُربات.

ومن كان ذا معلوم من حَرِيف[١]، أو معتاد من أليف، لم يصحَّ توكُّله مع سُكونه إليه، وطمأنينته به؛ لأنّ ذلك عِلّةً فى حاله، وخيرةً لتوكُّله.

وقد يصحّ التوكّلُ مع ذلك بثلاث معانٍ: أن لا يُعوِّض منه عِوَضًا يقوم مقامَ السبب الواصلِ إليه، وأن يقطع همَّه عنه وعن جميعِ الخَلْقِ، وأن يكون منقطعًا إلى اللهِ تعالى مَشْغولاً بخدمته، لا بَطَّالاً مُرَوِّحًا لنفسه.

• ذكر تشبيه التوكل بالزهد:

اعلم أنّ التوكّل لا يُنْقص من الرِّزق، ولكنه يَزيد فى الزُّهد والصبر واليقين. وكذلك الزهدُ فى الدنيا لا ينقص من الرزق شيئًا، ولكنّه يَزيد فى الفقر، ويزيد فى الجوع والفاقةِ؛ فيكونُ هذا رزقَ المتوكِّل، ورزقَ الزاهد من الآخرة.

على هذا الوصفِ المَخصوص من حِرْمان نصيب الدنيا وحمايتِه عن التكاثر منها، والتوسُّع فيها؛ فيكون التوكّلُ والزهد سببَ ذلك؛ فيكونُ ما صَرَفه عنه مِن الدنيا زيادةً له فى الآخرة من الدرجات العلى.

وكذلك رُوِى عن رسول الله ﷺ: «نُقْصان الدنيا زيادة الآخرة، وزيادة الدنيا نقصان الآخرة، ومَنْ أُعْطِى من الدنيا شيئًا نَقَص ذلك من منزلته فى الآخرة، وإن كان على الله كريمًا».

وقيل: إن الدنيا والآخرة مثل ضُرّتين؛ مَنْ أرْضَى إحداهما أسخط الأخرى. وقال رجل لبعض العلماء: كنْتُ فى مَحلَّة ليس فيها بقّالٌ غيرى، فَفَتح إلى جَنْبِى بقّال آخر؛ فأخاف أنْ يُنْقِص ذلك من رزقى شيئًا. فقال: ليس يُنْقِص من رزقك شيئًا، ولكن يَزيد فى بطالتك؛ تقعد كثيرًا لا تبيع شيئًا.

وقد غلط فى هذا الطريقِ قومٌ، سلكوا فيه سُبُلَ الهوى، فابتُلوا بشهوات الدّنيا، فادّعُوا التوكُّلَ والزُّهدَ، واتّسَعُوا فى المآكل والملابس، وقالوا: هذه بعِلَّة غيرنا، وهو مدْخُول علَينا، وليس لنا منه بدٌّ ولا اختيارٌ، وذلك لبقايا بقيت عليهم من نفوسِهم، ولم يُعْنَوْا برياضتهم، ولا مَحَوْا آثارهم، فضلُّوا عن سواء المحجة،

---

(١) حريف: أى صاحب حِرْفة.

وأقاموا لنفوسهم على ذلك حجَّة، فموَّهوا على مَنْ دونهم ممن لم يسلك طريق الزاهدين، ولا يعرف حال المتوكلين. وقد شرحنا هذا فى مقام الزهد فكفى.

• ذكر كتم الأمراض، وجواز إظهارها:

الأفضل لمن لَمْ يتداوَ أنْ يُخْفِىَ عِللَه؛ لأنّ ذلك من كنوز البرِّ، ولأنها مُعاملاتٌ بينه وبين خالقه؛ فسَتْرُها أفضلُ وأسلم له، إلا أنْ يكونَ له نيةٌ فى الإظهار، أو يكونَ إمامًا يُستمع إليه، ويُقْتَبس منه الآثارُ، ويكونَ مكينًا فى المعرفة يُخْبِر بعلَّته وقلبُه راضٍ عن الله فيما قدَّره، أو يكونَ ممَّن يشهد البلاءَ نعمةً؛ فيكون إخباره بمثابة التحدُّث بنعمة الله. وإلا فإظهارُ العلل لمن لا يتداوى نَقْصٌ لحاله، وداخلٌ فى الشّكايةِ لمولاه؛ لأنّ فى الشّكْوى استراحةَ النفسِ من البلوى كالاستراحة بالدواء. وهذا لا يفعلُه عالمٌ؛ لأنّ الاستراحة بالدواء الذى أباحَه له المَوْلى خيرٌ من استراحته إلى العبيدِ بالشّكوى.

على أنّه لا يأمَن دخولَ الآفات عليه فى الإخبارِ من التصنُّع أو التزيُّد فى العلّة، وغير ذلك. وقد قيل فى قوله عزّ وجلّ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف:١٨]، قال: لا شكوى فيه. وقال بعضُهم: مَنْ بثَّ شكواه فلم يصبر. وسُئل الفضيل عن الرجل يذكر علِّته ويظهرها، هل يكون ذلك شكوى؟ قال: نعم، أما سمعتَ قصة يعقوب. يعنى أنه قيل ليعقوب عليه السلام: «ما الذى أذْهَبَ بصرك وحَنا ظهْرَك؟ فقال: مرُّ الزَّمانِ، وطُولُ الأحزان. فأوْحَى اللهُ إليه: تفرّغْتَ تشكونى إلى خَلْقى؟! فقال: يا ربّ، أتوبُ إليك».

وعن طاووس ومجاهد: يُكْتَب على المريضِ أنينُه فى مرضه. قال: وكانوا يكرهون أنينَ المريضِ؛ لأنّه إظهارُ معنًى يدلُّ على شكوى. قيل: ما أصابَ إبليسُ من أيوبَ إلا أنينَه فى مرضه، فجُعلَ الأنينُ حظَّه منه. وفى الخبر: «إذا مرض العبدُ أوْحَى اللهُ تعالى إلى المَلَكين: انظرا إلى عبدى ما يقول لعُوَّاده، فإنْ حَمِدَ اللهَ وأثْنَى عليه بخيرٍ، ادْعُوا له، وإن شكا وذكَر شرًا، قولا: كذلك تكون».

وإنما كَرِه بعضُ العبَّادِ العيادةَ خشيةَ الشّكاية، وخوفَ الزّيادة فى القول، أنْ

يُخبِر عن العلَّة بأكثر منها؛ فيكونُ فى ذلك كُفرًا لنعمةٍ بين بلاءين.

وكان بعضُهم إذا مَرِض أغلقَ بابَه؛ فلم يدخل عليه أحدٌ حتّى يَبْرأ، فيَخْرُج إليهم؛ منهم فضيل ووهيب وبشر، كان يقول: أشتهى أن أمرضَ بلا عُوَّاد. وقال فضيل: ما أكره العلّة إلا لأجل العُوَّاد. وقد رأينا من الصالحين مَن فَعَل ذلك مِمَّن هو إمامٌ وقدوة.

ولا يُنقص توكّلَ المتوكل إخبارُه بعلَّته على معنى التحدُّث بها مع فَقْد آفاتِ النفوس، إذا كان قلبُه شاكرًا لله راضيًا بقضائه، ويكونُ بذلك مُظْهِرًا للافتقارِ والعَجْزِ بين يدَىْ مولاه، أو راغبًا فى دعاء إخوانِه المؤمنينِ، أو يشهد ذلك نعمةً، فيُحدِّث بها شكرًا.

وقد حُكِى أنّ بشر بن الحارث كان يُخبر عبدَ الرحمن المتطبِّب بأوجاعه، فيصفَ له أشياء. وقيل عن أحمد بن حنبل: إنّه كان يُخْبِر بأمراضه، ويقول: إنما أَصِف قدرةَ الله تعالى فىَّ.

ورُوِى عنِ الحسن البصرى: إذا حَمِد المريضُ اللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ وشكره، ثم ذَكَر عِلّته، لم يكُنْ ذلك شكوى. وقد كان أحمد بن حنبل لا يُخْبِر بأمراضه إذا سئل عنها، ثم رَجَع إلى قول الحسن هذا؛ فكان بعدَ ذلك يَحْمَدُ الله، ويُثْنِى عليه، ويقول: أجد كذا، وأجد كذا.

ورُوِى أنه قِيل لعلىٍّ رضى الله عنه فى مَرَضِه: كيف أنت؟ فقال: بشرٍّ. فَنَظر بعضُهم إلى بعض، كأنهم كرهوا ذلك، فقال: أتجلَّدُ على الله. كأنّه أحبَّ أن يُظْهِر افتقارَه إلى الله، وأراد أيضًا أنّ يُعلِّمهم أنّه لا بَأْس بذلك؛ لأنّ مَنْ يقول: بخير ـ إذا سُئِل ـ كثيرٌ. كما قال الثورى: إنّما العِلْمُ الرخصةُ من ثقة، فأما التشديدُ فكلُّ أحد يُحْسنه. فكأن عليًا ـ رضى الله عنه ـ أراد أن يتحقَّق بتأديب النبى ﷺ له، ونهيه إيّاه عن إظهار القُوَى؛ لأنه رُوِى أنه مَرِضَ، فسمعه النبىُّ ﷺ يقولَ: اللّهم صبِّرْنى على البلاء. فقال: «لقد سألْتَ اللهَ البلاءَ، ولكن سلِ اللهَ العافيةَ».

ومن ههنا قال مطرِّف: لأنْ أُعافَى فأشكرَ أحبُّ إلىَّ من أنْ أُبْتَلَى فأصبرَ. لأنّ

البلاءَ طريقُ الأقوياء.

وكره أهلُ الإشفاق والخشية إظهارَ الجَلَد والقوّةِ بين يدَى القوىِّ العزيز. وقد حُكِى أنّ الشافعى مَرِض مرضةً شديدةً بمصرَ، فكان يقول: اللّهم إنْ كان فى هذا رضاك فزِدْنى منه. فكتب إليه بعضُ العلماء، وهو إدريس بن يحيى المعافرى: يا أبا عبد الله، لستَ من رجالِ البلاء؛ فسَلِ اللهَ العافيةَ. فرجع عن قوله هذا، واستغفرَ منه. فبعد هذا ـ والله أعلم ـ لعلّه ما حُكِى عنه أنه كان يقول فى دعائه: اللهمّ اجعلْ خِيرتى فيما أحببْتَ.

• ذكر فضل التارك للتكسب[(١)]:

قد يَفْضُل التاركُ للتكسُّب شُغْلاً بالعبادة عن المتكسِّب، مِن حيث فَضَّل المتقدِّمون الزاهدَ فى الدنيا على كاسبِ المال حلالاً ومُنْفقه فى سبيل الله. وسُئِل الحسن عن رجلين، أحدهما مُحْترِف، والآخر مشغول بالتعبُّد: أيّهما أفضلُ؟ فقال: سبحان الله! ما اعتدل الرجلان، المتفرِّغ للعبادة أفضلهما. وقد رُوى عن رسول الله ﷺ: «كفى بالموتِ واعظًا، وبالتقوى غنًى، وبالعبادة شغلاً».

وقد عَلِم التاركُ للتكسُّب توكّلاً على الله، وثقةً بهِ، ورعايةً لمقامه، وصبرًا على فقرِه، وشغلاً بمعاده عن معاشه ومقاساة الفتنة ـ أن مولاه قد تكفَّل له برزقه فى الدنيا، وقد وَكَلَ إليه عملَ الآخرةِ، وأنه إن شُغِل بما وَكَله إليه مِن عَمَلِ آخرته أقام له مَنْ يَقُوم بكفايته مِنْ دنياه، فلو لم يتصرّف المتوكّلُ تصرَّفَ له غيرُه، وأنَّ عَمَلَ آخرتِه الذى وَكَله إليه إن لم يَعملْهُ هو لم يَعْمَلْهُ له سِواه، من قِبَل أن الله عزَّ وجلَّ وَكَل إليه هذا، فلم يقم غيرُه مقامَه، وأنّ الله تكفَّل له بعمل الدنيا؛ فإنْ لم يعمل أعْمَلَ له سواه كيفَ شاء.

فهذا هو الفَرْقُ بين ما تكفَّلَ له به من عملِ الدنيا، وبين ما وَكَله به مِنْ عمل الآخرة. قال الله سبحانه فى رزقِ الدنيا الذى تكفَّلَ به: ﴿**وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لاَ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ**﴾ [العنكبوت: ٦٠]. مع قوله سبحانه: ﴿**ومَا خَلَقْتُ الجِنَّ**

(١) من هنا تبدأ نسخة دار الكتب الثانية، ورمزها: (د).

والإِنْسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. وقال تعالى فى رزق الآخرة الذى وكَله به: **﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾** [النجم: ٣٩].

ثم قد عَلِم المتوكِّلُ بعدَ توحيده أنّ هذه الأربعةَ الأشياءَ مُنْتظمةٌ فى سلك واحد، كشىء واحد يقعُ وقعةً واحدةً: رزقٌ مَقْسوم لا يُزاد فيه فى وقت معلوم، ولا يتقدَّم ولا يتأخَّرُ بسببٍ محكوم، لا ينقلب عندَ أثرٍ مكتوب ولا يتغير؛ فالرزق بفضل الرّازقِ، والوقتُ الذى يَظْهَر فيه فضلُ العطاء لا يقع إلا فى ظرفٍ، والسببُ حِكْمةُ القاسمِ، والأثرُ حدُّ المرزوق.

فلما أيْقن المتوكِّلُ بهذا، كان إنْ تصرَّفَ تصرَّفَ بحُكْم، وإنْ قعد قعد بعِلْم، فاستوى تصرُّفُه وقعودُه؛ لأنّه قائمٌ بحكم ما يُقْتَضَى منه فى علم حاله، عالم بحُكْم مُصَرِّفه ومُقْعده، فإنْ شَغَلَه مولاه بخدمته عن خدْمة مَن سواه، فصرَفه فى معاملته دون مُعاملةِ العبيد، ساق إليه رِزْقَه، كيف شاء من الوجوه، وبيدِ مَنْ شاء مِن العبيد، بحفْظِه له عن مجاوزةِ الحدود، كما قال تعالى: **﴿حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللهُ﴾** [النساء: ٣٤]، وبتولِّيه له، وعصْمته إياه عن التورّط فى مَحْظور، كما أخبر عن أوليائه فى قوله عزّ وجلّ: **﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾** [الأعراف: ١٩٦].

وهذا هو التوكّل فى استخراجِ المضمونِ من مظانّه، والصّبرِ له إلى حين أوانه، حتى يوصِّلَه إليه الوكيلُ الرزَّاقُ بِحُسن اختياره، لا بُسوءِ اختياره، إذْ هو أعْلَمُ بأماكنه، بخُبْرِه واقتداره.

وكذلك الله يستخرج الحلالَ لأوليائه، حتى يسوقَهُ إليهم، ويوفقه لهم، ويُسَبِّبَه من حيث يحبّ. ويكون العبدُ فاضلاً فى قُعوده لشُغْله عن العبيد بمعبوده، بانقطاعِه إلى معاملةِ المَلِك دون ما يَقْطعُه من مُعاملة الممْلوك، وبهمَّة الآخرة عن الدنيا، وكان داخلاً فى وصف ما أخْبرَ رسولُ الله ﷺ عن أهْلِ كفايةِ الله، فيما رُوى عنه: «مَنْ جَعَل الهمومَ همًا واحدًا، كفاه الله هم آخرته ودنياه»، وخارجًا عن وَصْف مَن قَطَعَه عن الله بهِمَّة غيره، وعَرَّضه للهلكة فى أودية الهموم، فى قوله عليه السلام: «من أصْبَحَ وهمُّه غيرُ الله فليس من الله».

وفى الأخبار: «ما مِن عبدٍ اشتغل بعبادة اللهِ، وفرَّغَ قلبه لله، وتوكَّلَ عليه، إلا ضَمَّنَ اللهُ تعالى السموات والأرضَ رزقَه».

وعن الله تعالى: «ابنَ آدم، فوِّض أمرك إلىَّ حتى لا أسألك عما أعمل، ولا تفوِّض إلى غيرى فأُعْطِك ما تُريد وأسألك عنه». وفى قوله ﷺ: «ومَنْ تشعَّبتْ به الهمومُ لم يبالِ اللهُ فى أى أوديتها هلك».

فإن كان حالُ المتوكِّل أنْ يَجْرى رزقُه على يدِ نفسه، وكسْبِ جارحتِه، فهو خزانةٌ من خَزائن الملِك، وهو عَبْدٌ من عبيد المَلك؛ يُوصِّل إليه عن يد نفسه بما يوصِّلُه إليه عن يدِ غيرِه وسواه، ساقَ إليه الرزقَ أو ساقه إلى الرزق بعد أن يَرْزُقه؛ لأنّ ما لقيتَهُ فقد لَقِيَك. كذلك يستوى فى التوحيدِ، وشهادَة الحقِّ الفريد، أن يرزق عبدَهُ بيد نفسِه، أو بيدِ غيرِه، أو عن إظهار القُدرةِ من العَدَم، أو عن [سَوْقِ] يدٍ إليه بِسَعْى قَدَمٍ، لقوله تعالى: ﴿**وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ**﴾ [الأنعام: ٦٠]، فهو الباعث لأوليّته، والوارث بآخريته، والعبدُ مَبْعُوث، والرّزقُ رِسالةٌ وبَعْث.

والمتوكِّلُ نظرُه فى الحالين إلى الوكيل، معتدلٌ يَشْهدهُ بالوصفين، ويجدُهُ فى المعنيَيْن، ولا يفقده من المكانين، وقائم بقيُّوميَّته وبحُكمهِ فى الوقتين، وفراغٌ لحاله فى الأمرين، عارفٌ بحسن اختيارِ الله له فى الحكمين.

ومَنْ ترك التكسُّبَ لأجلِ الله؛ ثقةً به، وسكونًا إليه، أو لدخول الآثام، وتَعذُّر القيام بالأحكام، فحُسنه كحُسْن مَنْ عملَ شيئًا لأجل الله؛ لأنّ الترك عملٌ يحتاجَ إلى نية صالحة، وأفضلُ الناس عند الله أتْقاهم له، وأتْقاهم له أعرفُهم به، متصرِّفًا كان أو قاعدًا. هذا هو فَصْل الخطاب.

ورُوينا فى حديث عبد الله بن دِينار، عن عَمْرو بن ميمون، عن النبى ﷺ: «أتدرون ما قال ربُّكم؟ قالوا: اللهُ ورسولُه أعلمُ. قال حين استوى على عرشه ونظر إلى خلقه: عبادِى، أنتُمْ خلقى، وأنا ربُّكم، أرزاقكم بيدِى؛ فلا تُتْعبوا أنفسكم فيما تكفَّلْتُ لكم به، واطْلبوا أرزاقكم منِّى، وانْصِبُوا أنفسكم لى،

وارْفعوا حوائجكم إلىّ، أصبُّ عليكم أرزاقكم. أتدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: اللهُ ورسولُه أعلم. قال: عَبْدى أنْفِقْ أُنْفِق عليك، ووسِّع أُوسِّع عليك، ولا تُضيِّق فأُضيِّق عليك، إنّ أبوابَ الرزق بالعرش لا تُغْلَق ليلاً ولا نهارًا، فأُنْزِل الرزقَ منها لكلّ عبد، على قَدْر نيته، وعطيَّته، وصدَقته، ونفقته، فمَن أَكْثَرَ أُكْثِرْ له، ومَن أقْلَلَ أُقْلِل له، ومَن أمْسَك أُمْسك عليه. يا زبيرُ، إنّ الله يُحبّ الإنفاقَ، ويُبْغض الإقتارَ، فكُلْ وأطْعم، ولا تُقَتِّرْ فيقتِّرَ اللهُ عليك، ولا تُعَسِّر فيُعَسِّر عليكَ، أطْعِم الإخوانَ، ووقِّر الأخيارَ، وصِلِ الجارَ، ولا تُماش الفجَّارَ، تَدْخُل الجنةَ بغير حساب. فهذه وصيّةُ الله لى، ووصيّتى لكَ يا زبير بن العوام».

وقد حفظت فى هذا الحديث زيادةً ذكرتها بعد: «إن الله تعالى يحب السخاء ولو على تمرة، ويحب الشجاعة ولو على قتل حية».

والأسواقُ موائدُ الآباق، يُطْعِم المولى منها مَنْ أبقَ مِن خدمته، وهَرَب مِن مُجالسته، ووَهَن عن معاملته، وجَبُن فى مُتاجرته. قال الله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِن رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ**﴾ وقال بعض أهلُ العربية من القدماء: ما أريد أن يَرْزُقوا خلقى ﴿**إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ**﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٧] أى: لهم، لا يطالبهم أنْ يَرْزُقوا نفوسَهم إذا خدموه.

فذكر اللهُ الوجوهَ الثلاثةَ من تصرُّف العبيد التى أباحها للموالى، واختارَ لنفْسه أحدَها وهى الخدمةُ، وعليه الكفايةُ، واختار من العبيد أحدَهم فجعله عابده، وتنزَّه عَنْ أحدهما، وتَعالى عنه، وهو الإطعام مِن العبيد له، وصَرَف عمومَ العبيد فى الوَجْه الثالثِ من الإطعام لأنْفسهم، وهو التكسُّبُ، وضرب هذا مثلاً بينه وبين خَلْقه فى الأرض، وله المَثَل الأعْلَى فى السموات والأرض، فبقى العبيدُ مع الله تعالى بحُكْمَين؛ أحدهما: ما اختارَه لنفسه من العبادة، وهى المُعاملة، وعليه الرزقُ، كيف شاءَ، ومتى شاء، وهؤلاء عِبادُ الرحمنِ، لا عبيد الدنيا. والثانى: ما صَرَفَ العبيدَ فيه مِن التكسُّب لأنفسهم، وجعل ذلك رِزقًا منه لهم بجَوارِحِهم، ومدحهم على هذا الوَصْفِ، وهؤلاء عُمومُ العبيد، منهم عبيدُ الدنيا وعبيدُ الهوى، وبَقى المولى مع العبيدِ على الأحكام الثلاثةِ، التى أباحها اللهُ تعالى لهُمْ،

وضَرَب بها المثلَ بينه وبينهم، أيها اختاره كانَ ذلك لهُمْ.

وتفسير ذلك: أنّ للمولى من الخلق أنْ يقولَ لعبده: اذهب فأطْعمنى؛ لأنك عبدى وملكُ يدى، فأنا أملك كَسْبَك كما أملك نفسك. وهذا هو الوجه الذى ذكرْناه، أنّ اللهَ تنزَّه عنه، وتعالى علوًا كبيرًا، فقال تعالى: ﴿**وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ**﴾ [الذاريات: ٥٧] كما يُريد الموالى من عبيدهم هذا، ثم يقول المَوْلَى منا لعبده: اذهب، فأطعمْ نفسك، واسْعَ فى قُوتك، فقد أبحْتُ لكَ ذلك، ووهبْتُ لكَ كسبَكَ، فهو رزقٌ منى لك، وتَفضُّلٌ منى عليك. وبهذا صارَ المُكاتبُ لعبده فى فكاك عَتْقه كالمعتق، بأنْ كانَ له الولاءُ، وقد يكون له الميراثُ فى حال؛ لأنه مُنْعِم عليه بالكتابة له كالمعتق، وإن كان العبدُ هو الذى سَعَى فى فكاكِ رقبة نَفْسه بكسبه، مِن قِبَلِ أنّ المولى يستحق عليه كسبَه، ويملك رقبتَه، فلمّا مَلَك عبدَه ذلك صار محسنًا إليه. فهذا حالُ عموم العبيد مَعَ الله تعالى؛ لأنه مَوْلاهم الحقُّ، وهُمْ عبيدٌ قِنٌّ، فقال: اذهبوا فتكسَّبوا، وأطعموا أنفسكم، فقد رَزَقْتُكم ذلك، ووَهبْتُه لكم.

وهذا هو الوجه الثانى الذى نَزَّه الخُصوصَ عنه، تَفْضيلاً لهم فلَمْ يَسْتَسْعِهم، وقطعهم فشغلَهم بخدمته عن خدمة نفوسِهم وخليقته، وتوكَّلَ لهم بكفايتهم، ولم يُوكِّلْهم فيها كما وكّلَ غيرَهم، بل وَكَّلَ بأرزاقهم مَنْ يشاءُ مِنْ عباده، وهو معنى قوله تعالى: ﴿**مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِّنْ رِزْقٍ**﴾ [الذاريات: ٥٧] لنفوسهم، بِدليل قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ**﴾ [الذاريات: ٥٨]؛ أى: لهم بإقامة غيرهم وبإظهاره فى قوله: ﴿**وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ**﴾ فكانتْ هذه الياءُ اسمَه مُكنًّى بها، وهذه إرادةٌ مخصوصة، لا عامةٌ لكلِّ مراد، فهى إرادةُ ابتلاء ومحبة[1]، بمعنى ما أحبّ، ومخصوصةٌ بمخصوصين[2] مِن عباده، كما كان قولُه تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات: ٥٦]، كانت هذه الآية مخصوصةً لمن عَبدَه منهم،

(١) فى المخطوط: «ومحنة».

(٢) فى المخطوط: «المخصوصين».

من مؤمنى الجن والإنس لا عامةً لجميع خلقه.

والوجه الثالث: أنْ يقولَ الْمولَى منا لعبده: اخدمنى، وعلىَّ طُعْمتُك، تقومُ خدمتُك لى مقامَ كَسْبِك لنفسك. وهذا هو الوجه الأَعْلَى الذى اختاره اللهُ تعالى، وأحبَّه لمن يُحبِّه، واختار له مَنْ عَبَدَه مِن العبيد مِنْ خُصوص العاملين له، وهم العالمون به، دون من صرَفَه فى رزق نفسه بنفسه، وهو قوله تعالى: ﴿إلاَّ لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِّنْ رِزْقٍ﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٧]؛ أى: أن يَرْزُقوا نفوسَهم بكَسْبِهم الذى أبحتُه لهم، فيكونوا كغيرهم ممن قلْتُ له: اذهب فتكَسَّبْ، فقد أردْتُ منك الرزقَ لنفسك بكَسْبك، وقد وهبْتُه لكَ، أى: أنا أُريد من هؤلاء العبادةَ، ولها خلقتُهم؛ فكلٌّ ميسَّر لما خُلِق له. فمَنْ كانتْ صَنْعتُه العبادةَ، وخُلِق لها، يُسِّرتْ له. ومن كانتْ صَنْعتُه الدنيا، وخُلِق لها، يُسِّرتْ له.

وفى الخبر أنّ الله تعالى خلَقَ كلَّ صانعٍ وصَنْعَتَه. ويقال: إنّ اللهَ تعالى لما أظْهَرَ الخلْقَ فى العدم أظْهَرَ لهم الصنائعَ كلَّها، ثم خيَّرهم، فاختار كلٌّ واحدٍ صنعتَه، فلما أبداهم فى الوجود أجْرَى على كلٍّ واحدٍ ما اختارَ لنفسه. قال: وانفردتْ طائفةٌ، فلم تَخْتَرْ شيئًا، فقال لها: اختارى. فقالتْ: ما أعجَبنا شىءٌ رأيناه فنختاره. قال: فأظهَر مقامات العبادات. فقالتْ: قد اخترْنا خدمتَك. فقال: وعِزّتى وجلالى، لأخْدِمَنَّكم إيَّاهم، ولأُسخِّرَنَّهُم لكُمْ.

وفى الخبر: «أوْحَى اللهُ تعالى إلى الدنيا: اخدمى من خَدَمَنى، وأتْعبى مَن خدمك». فالعبادة هى الخدمة. ومن ذلك قولهم: إياك نعبد، ولك نُصلّى ونسجد، وإليك نَسْعَى ونَحْفِدُ. أى: إليك نعمل ونخدم، مثل قوله تعالى: ﴿بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ [النحل: ٧٢]، أى: خدمًا، فى أحد الوجوه، والعبادةُ هى الخِدْمة بذلٍّ وتواضع. والعربُ تقول: طريقٌ مُعبَّدٌ، إذا كان مُذلَّلاً ممهَّدًا وموطوءًا بالأقدام. ويقولون: بعيرٌ مُعبَّد، إذا كان مُمْتَهنًا بالكدِّ، نِضوًا من السير والحمل عليه. ومنه قول القِبْط: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧] يعنون بنى إسرائيل، خَدَمُنا نَستذلُّهم ونَمْتَهِنُهم بالكدِّ والعمل.

وقال بعضُ العارفين: إنّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ اطَّلع على قلوبِ طائفةٍ مِنْ عباده، فلَمْ يرها تصلُحُ لمعرفته، ولا مَوْضعًا لمشاهدته، فرَحمها؛ فوهبَ لها العباداتِ والأعمالَ الصالحات. ثم اطَّلع على قلوبِ طائفةٍ أخرى من خَلْقه، فلم يرَ جوارحَهم تصلُحُ لخدمته، ولا موضعًا لمعاملته، فاستعملَهم للدنيا وعبَّدهم لأهلها.

ومن هذا قولُ النبى ﷺ: «تَعسَ عبدُ الدينار والدرهم، تَعسَ عبدُ الزوجة، تَعِسَ عبدُ الخَمِيصة». أى الذين يذلُّون لهذه الأشياء، ويَسْعَوْنَ لها.

وفى أخبار داود عليه السلام: «إنى خَلَقْتُ محمدًا لأجلى، وخلقْتُ آدمَ لأجل محمد، وخلقتُ جميعَ ما خلقتُ لأجل ولد آدم، فمَنْ اشتغل منهم بما خلقتُه لأجله حجَبْتُه عنى، ومَن اشتغل منهم بِى سُقْتُ له ما خلقْتُه لأجله».

وقال ابن معاذ: ليس مَنْ لابَس الأسباب فَصُفِّيَ فيها، كمَنْ زايلها فَصُفِّيَ عنها.

فكيف بمن كُدِّرَ بها فى وقتنا هذا؟!

• ذكر حكم المتوكل إذا كان ذا بيت:

فإن كان المتوكِّلُ ذا بيت، فليُغلقه إذا خرج، إحرازًا له؛ لأجل الأمر بالحذر، ولاتِّباع السنّة والأثر. قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ**﴾ [النساء: ٧١]. وقال تعالى: ﴿**واحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ**﴾ [المائدة: ٤٩]. ويُروى فى خبرٍ: «اعقِلْها، وتوكَّلْ».

ولا يُنقِص ذلك توكُّلَه، إذا كان ساكنَ القلب إلى الله لا إلى خَلْقه[1]، ناظرًا إلى حسن تدبيره فى تبقية رَحْله، أو إذهابه لا إلى إحرازه، غيرَ مختارٍ لبقاء ما فى بيته على اختيار الله له؛ لحسن أحكامه عنده[2]؛ لأن الله تعالى إذا رَفَعَ عبدًا إلى

---

(١) فى (د): «إلى عقله».

(٢) فى (م): «غيرمختار البقاء. . . بحسن أحكامه عنده».

مقام التوكّلِ عليه فى شىء، أعطاهُ التوكُّلَ فى كل شىء، ولا يكون العبد متحققًا بالتوكل على التمام حتى يكون متوكّلاً على الله فى كل شىء[١]، كما لا يكون توّابًا يُحبُّه الله حتى يتوبَ من كل شىءٍ ويتوبَ إلى الله بكل شىء، وفى كل شىء، أى: يَرْجِع إليه بالأشياء وفيها. فلذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران:١٥٩]. كما قال: ﴿إِنَّ الله يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢]. مع قوله: ﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم:١٢]. أى ليتوكل عليه فى كلّ شىء مَنْ توكَّل عليه فى شىء. هذا أحسن وجوهه. والوجه الآخر: وعليه فليتوكَّلْ فى كل توكُّله مَنْ توكَّل عليه فى الأشياء؛ لأنّ الوكيل[٢] فى شىء واحد، فينبغى أن يكون التوكّل عليه واحدًا فى كل شىء.

فالتوكل مقام رفيع مِن مقامات الأنبياء، ومِن أعالى دَرَج الصدِّيقين والشهداء؛ مَن تحقّق به فقد تحقّق بالتوحيد، وكَمُل إيمانُه، وكان على مزيد، وانتفى عنه دقائق الشرك، وخفايا تولِّى العدو، وانقطع سلطانه عنه، فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّما سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ يعنى العدو ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل:٩٩ - ١٠٠] يعنى الله سبحانه. فلم يشترط نفى سلطان العدو بالإيمان مجرَّدًا؛ حتى يقيمه فى مقام التوكّل فى اليقين. فلذلك فصَّلنا شرحه وأطلْنا[٣] تفصيله؛ لأنَّ مَنْ أُعطى مقامًا من التوكُّل على حقيقة مشاهدة الوكيل، انْتُظِم له جملُ مقامات اليقين وأحوال المتّقين. كما قال عبد الله بن مسعود: «التوكّل جماعُ الإيمانِ».

وقد يُبتلى المتوكّل فى توكُّله بالأسباب والأشخاص والأغراض وضروبِ المعانى؛ كما يُبتلى سائرُ أهلِ المقامات؛ ويبقى عليه من العدوِّ نَزْغٌ وطَيْفٌ لا غير وهو آخرُ تسليطهِ دونَ الاقتران[٤] والاستحواذ، يختبر بذلك صدقَه فى توكُّله،

(١) من قوله: «ولا يكون العبد» من: (ك، م).

(٢) فى (د): «لأن التوكيل».

(٣) فى المطبوعة: «وأطلقنا»، وفى (د): «وأطلنا بفضله».

(٤) فى (د): «دون الاقتراب».

حتى يردَّ في جميع ذلك نظرَهُ إلى وكيله[١]؛ ليُجزَى جزاء الصادقين المعرِّفين[٢]، أو ليُكشَفَ له دعواه، فيعلم كذبَ نفسه، فيكون مردودًا إلى التوبة والاستغفار، وإلى التنصُّل والاعتذار، وقد قال الصادق الوكيل[٣]: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾، وحَسْبُ جزاءِ المتوكِّلين أن يكون الصادقُ حسبَهُم، وأن يكون خِلْعةُ[٤] الصِّدقِ شعارَهُم، ثم قال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [الأحزاب: ٢٤].

فأحسنُ أحوالِ المدّعين التوبةُ، بها يخرجون من ظُلَمِهِم.

وقال تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ﴾. ثم أخبر بسنّته التي قد خلت في عباده فقال: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِين صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢ ـ ٣]. ولن تجدَ لسنّة الله تبديلاً.

فليقل المتوكِّل عند خروجه من منزله، معتقدًا لذلك بعد غلق بابه للأمر والسُّنّة: اللّهُمَّ إنّ جميع ما في منزلي، إن سلَّطت عليه مَن يأخذه، فهو في سبيلِكَ صدقةٌ منّي على مَن أخذه. فإن أُخِذَ ما في منزله كان له في ذلك سبعُ معاملات:

إحداها: قبولُ توكُّله على الله، بتدبير الله أمره كيف شاء، واختيارِ الله له نقصانَ الدنيا، وإذهابِ ما لعلّه يُفتَتَن بتبقيته[٥].

والثانية: اختيارُ الله تعالى لعبده، وابتلاؤه إياه بفقد محبوبه، ليُظهر صدْقَه ومسألته، أو ليستبين للعبد كذبُه، فإن حمدَ اللهَ وشكره على حُسن بلائه، ولم تضطرب نفسه، أُعطى ثوابَ الشاكرين الراضين، كما جاء في العلم المكنون عن

(١) في (م): «ليذكره بذلك وكيله، ويبصره به مداخل عدُوّه عليه وتضليله».

(٢) في المطبوعة: «المقربين».

(٣) من قوله: «والاستغفار» من (م).

(٤) في (م): «خُلُقُه»، وفي (د): «جعله».

(٥) في (م): «وإذهابها لعله يفتتن بتبقيتها».

بعض أنبيائه قال: «يا ربِّ، مَن أولياؤك؟ قال: الذين إذا أخذتُ منه المحبوب سالمنى».

والثالثة: إن اضطربت نفسُه، وجزعت، جاهدها بالصبر، والصمت، وحسنِ الثناء على الله، وتركِ الشكاية إلى عبيده، فأُعطى ثوابَ الصابرين المجاهدين.

والرابعة: إن لم يكن فى هذا المقام ولا فى المقام الأوّل، انكشف له بطلانُ دعواه، وظهر له خفىُّ كذبه فى حياته، فاعترف بذلك، واعتذر إلى الله، واستكان وخضَع، فيكون هذا أيضًا مزيدَ مثلِه على معنى الإعلام والبيان، فيعلم أنّه كذّاب؛ لكراهيته ما قضى الله، وقلّة صبره لحكم الله سبحانه، أو لِسخطه ما حوَّله الله من خزانته التى هى فى يده إلى خزانته الأخرى التى هى فى يد غيره، إذ قد علَم أن يدَه خزانةُ مولاه مِن دنيا العبد، وأنّ ما حوَّله منها لم يكن له، وإنما كان قد استودعه، فحزِن وساءه حين استرجع منه ما أودعه وأعاده إليه[1]، وأودعها غيره، أو دفعها إلى مَن هى رزقهُ، ومَن كانت له، وصار ذلك رزقًا للمتوكل فى آخرته، فآثر لضَعْف يقينه رزق دنياه على رزق آخرته؛ لنقصان زهده، ليس ذلك إلا للطمع فيه[2]، وفضَّل الرغبةَ والشَّرَه، إذ قد علم أن ما أُخذ منه كان وديعة لغيره عنده، فهذه كلها ذنوب عند المتوكّلين، موجباتٌ للتوبة والاستغفار عند الموقنين، من قِبَل أن المتوكّل قد علم أنّ الله تعالى إذا وهَب شيئًا من المُلْك فى الدنيا للأجسام، أو شيئًا من ملكوت الآخرة فى القلوب، لم يأخذه أبدًا؛ فما كان فى الدنيا بقى لصاحبه إلى آخرِ آثره حتى يُفنيَه ويُبليَه، كما قال الرسول ﷺ، يعجِّب العقلاء من غفلة الجهول: «يقول ابن آدم: مالى، مالى، إنّما لك من مالك ما أكلتَ فأفنيتَ، أو لَبِسْتَ فأبليتَ، أو تَصدَّقت فأمضيتَ»؛ وما سوى ذلك فهو مال الوارث[3]. وما وهبه الله من الآخرة الملكوتى من الإيمان والعلم والعمل لم يأخذه أبدًا، بل ينمِّيه ويزيده فيه إلى أبد الأبد فى دار الأبد، ولكن قد يُعير ويستودع من

---

(١) فى (م): «وردّه إليه». وفى المطبوعة و(ك): «وأعاره».

(٢) عبارة (د): «... آخرته، ليس ذلك إلا للطمع، وقلّة الزهد منه».

(٣) من قوله: «كما قال الرسول» إلى هنا من (م)، وساقط من المطبوعة.

أمور الدنيا وأمور الآخرة، فهذا النوع لا بدّ أنّ يستردَّه ويسترجعَه في الدنيا؛ لأن حكمته أوجبت ردَّه، كما أوجب كرمُه تبقيةَ ما وهبَه.

فلا ينبغي للمتوكّل الموقن ـ بما ذكرناه ـ أن يُحزنه ما حوَّل اللهُ من قبضه وهو خزانته التي في يده، مما أعاره واستودعه، إلى خزانته الأخرى التي هي يد غيره، ممن لعله يهبه له [فيكون رزقَه][1]، أو يبتليه بأحكامه فيه، فيخرج أيضًا من يده إلى يد غيره؛ لأنه ما خرج من الدار شيء. ولله حكمة وابتلاء في كل شيء؛ فالحزنُ والأسف على فَوْت مثل هذا عند العارفين جناية، ومن المؤمنين خيانة، يستغفرون الله، ويتوبون إليه كما يتوبون من المعاصي؛ لأنهم قد شهدوا ما بيَّناه؛ ولأنه قد أمرهم بتركِ الأسى على فائت الدنيا، وقلّةِ الفرح بما أُتي منها، إذ لا بدّ من كونهما؛ لأنه قد علمه، وبعد علْمه قد كتبه، وبعد كَتْبه قد أعلم به، فكشف لهم اليقين عن الكتاب المستبين أنَّ ﴿ما أصَابَ مِن مُّصِيبةٍ في الأرْضِ ولا في أنفسِكُمْ إلاَّ في كِتابٍ مِّن قَبْلِ أن نَّبرأَها﴾ [الحديد:٢٢]. فما ظهر من المصائب في الأموال والأنفس فقد سبق قبل خلْق الخلق. وقوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِ أنْ نَبْرَأَهَا﴾، قيل: من قبل أن نخلق الخليقةَ. وقيل: قبل أن نبرأ الأرض. وقيل: من قبل أن نبرأ الأنفس. وقيل: من قبل أن نبرأَ المصيبة. فجميع ذلك قد سبق في كتابٍ، قد نطق وجرى به القلمُ في اللوح، واستُطر وختُم في القلم إلى يوم الحشْر[2].

ثم قال تعالى: ﴿لِكَيْلا تَأسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ ولاَ تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ﴾ [الحديد:٢٣]. فالأسى على فَقْدِ الشيء على قدر الفرح بوجوده. أفلا يستحي العبدُ أن يكون على ضدّ ما أُمر به، أو بخلاف ما يحبّه منه مولاه؟! فيأسى على ما ليس له، ويحزنُ[3] على ما استُودِعه لما منه استَرجعه، أو يفرح بما لم يكن في علم الله سبَق له؛ لأنّه لم يكن يعلم هل كان وُهب له فيَبقى عليه، أو أُعِيره وأُودعه

(١) ساقطة من المطبوعة.

(٢) من قوله: «فجميع ذلك» إلى هنا ساقطة من المطبوعة.

(٣) من قوله: «ويحزن على» إلى قوله: «ومقام المضطرين» قبل قوله: «والمعاملة الخامسة»، من نسخة (م)، لأن بها زيادة طويلة لا توجد في غيرها.

فيُرتَجع منه، فلما أُخذ من يده ورُدَّ إلى معطيه ومُودعه، وكانت يدُه مع ذلك خزانَةَ الوكيلِ وقبضتَهُ، أيقن أنّه لم يكن له، وأنه إنما كان وديعةً عنده، فإذا حَزِن وساءَ فقد شكّ لمّا أيقن وجَهِل، إذ عَلِم ورَغِب فيما ينبغى أن يكون زَهِد. فأىّ شِركٍ فى المِلك أظهر من هذا؟! فهو ثمرةُ التملك للاغترار بالتمليك، ولو سمع ما عَلِم من قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكًا فى الْمُلْكِ﴾ [الإسراء:١١١]، ﴿ثُمَّ رُدُّوا إلى الله مَوْلاهُمُ الحَقِّ﴾ [الأنعام:٦٢]، لقال تخفيفًا لا تصديقًا: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، فأيقن أنّ ما فى يده لمولاه، إذِ العبدُ ومالُه لسيِّده، ثم أيقن أنّه إليه راجع، وأن ما خرج من يده فإنّه فى قبضة الله، لم يخرج من خزانته، ولا نُقل من ملكه وحُوِّل من داره؛ لأنه فى الدار بعدُ لم يخرج، وإنما نقله من تمليك أدنى اليوم إلى ملك أعلى غدًا، وذلك حسنُ اختيار من المختار، وبَلوى اختبارٍ من الجبّار.

فهذه شهادةُ الموقنين بعين اليقين، وهو مقام الشاهدين، فمن لم يشهد ما ذكرناه، ويَجِدْ ما وصفناه، ثم توهَّم التوكُّل على الله، وقدَّر حسن اليقين به، وادّعى منازل المقربين منه، الأغنياءِ بغِناه، الأقوياءِ بنصره وقُواه، المشاهدين لمجارى قدرته، فى تصريف حكمته، فليستغفر اللهَ من توهُّمِه، وليَتُبْ إليه من توبته، وليتوكَّلْ على الله فى توكّله، فما ذكرناه هو حالُ المتوكلين، ووصفُ الواصلين.

فإذا أُعلم العبدُ أنّه كاذب استكانَ استكانة الكذابين، وأناب إنابة المنكسرين، ولم ينطق بكلام الصّادقين، ولا يُدِلُّ إدلالَ المحبِّين، ولا يعتزُّ عزَّة المتوكِّلين، فيكون تعريفُ الله تعالى إيّاه هذا المعاني اليوم قبل اللقاءِ، تأديبًا له، وتنبيهًا ومزيدًا لمثله، (. . .)[١] وهذا مزيدُ الناقصين، وحالُ المعتلِّين، ومقام المضطرين[٢].

والمعاملة الخامسة[٣]: أن يكون له بكل درهم تَلَفَ له ـ بعقد التوكُّل، وحسن اليقين، وتفويض التّسليم ـ سبعمائة درهم، كأنه قد أنفقه فى سبيل الله، يُحسب له ذلك؛ لأنه قد كان نواه. وكذلك إن لم يُؤخذ رَحْلُه، وسَلِم له ما فى بيته،

(١) كلمة فى (م) مضطربة وغير مقروءة.

(٢) إلى هنا تنتهى زيادة (م).

(٣) هذه المعاملة بها زيادة من (م) قدر سطر.

استنباطًا من قول رسول الله ﷺ فيمن ترك العَزْلَ، فأقرَّ النطفةَ قرارها، توكُّلاً على ممكِّنها، أنَّ له أجرَ غلامٍ وُلد له من ذلك الجماع، وعاش فقُتل فى سبيل الله، وإن كان لم يُولد له. فقال: أنت تخلقه؟ أنت ترزقه؟ إليكَ محياه ومماتُه؟ أقِرَّها قرارها ولك ذلك.

والمعاملة السادسة: أن لا يأثم أخوه الذى أخذ رَحْلَه، إن كان قد جعله صدقةً عليه، فيُؤجر أجرًا ثانيًا؛ لإشفاقه على أخيه، وحسن نظره للعصاة من حيث لا يعلمون، تخلُّقًا بأخلاق مولاه، وينال بعفوه عن ظالمه درجةَ المحسنين، ويتحقّق بمقام المتّقين، ويكون ممن وقع أجرُه على الله، فيُخفى له ما لا تعلم نفس من قُرة أعينٍ[١]، لأنّا رُوينا أنه يقال يوم القيامة: «ليَقُم مَن وقَع أجرهُ على اللهِ، فلا يقوم إلاّ مَن عَفَا عن ظالمه».

وفى الخبر: «مَن استغفر لظالمه فَرَّ الشَّيطانُ من ظِلِّهِ، ومَن دعا لمن ظلمه استغفرت له ملائكةُ السموات».

وفى تفسير قوله تعالى: ﴿**وبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ**﴾ [الحج:٣٤]، قيل: هم الذين لا يظلمون، وإذا ظُلموا لم ينتصروا بلسانٍ ولا يدٍ؛ لأنّه قد علم كيف جرى الأمر، وأنّ الآخذَ مُبتلًى بسوء القضاء، وأنّه قد عُوفى إذ لم يكن هو ذلك العبد، فيرحم أهلَ البلاء حينئذ، ويحمد الله على ما عافاه، فيشغله الشكرُ لله عن الدعاء على ظالمه.

قال بعض العارفين لبعض أصحابه: لِمَ أسقطَ أهلُ المعرفة اللائمةَ عن الظالمين لهم؟ فقلتُ: لا أدرى، قال: لعلمهم أنّ الله قصـدهم بذلك، وابتلى الظالمين بهم، فرحموهم، وذلك داخلٌ فى نصر أخيهِ الظالمِ لنفسه، وطاعةٌ لأمر رسوله ﷺ فى قوله: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا»، أى تمنعه عن الظلم، فإذا عفا عنه فقد منعه من الظُّلم؛ لأنّه لو رآه منعه من أخْذِه، أو وهبه له، فيقوم عفوه عنه مقام رؤيته.

---

(١) من قوله: «أعين» إلى «بلسان ولا يد» زيادة من (م).

وهذا[١] أيضًا يدخل فى إشفاق الخائفين من فضل مطالبة الظالمين؛ لأنّا روينا فى الخبر: «إنّ العبدَ ليُظلَم بالمَظْلمة، أو يُسَرق له الشىءُ، فلا يزال يدعو عليه ويسبُّه حتى يستوفى بقدر ظُلامته، ويبقى للظّالم فضلٌ يُؤخذ له من المظلوم غدًا». فصار هذا كخوف المقتصٍ ممن جَرَحه أن لا يكون قد اقتصّ بمثل ما جُرِح، لقوله: ﴿وجَزاءُ سيِّئةٍ سيِّئةٌ مِثْلُها فَمَنْ عفَا وأَصْلَحَ فَأجْرُه عَلَى الله﴾ [الشورى: ٤٠] لمن لا يحسن الاقتصاص بالمماثلة، فعفوه أسلم، ومن مخالفته الأمر ومُواقعة النهى أبعد، لقوله: ﴿وإِنْ عَاقَبْتُمْ فعَاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُم بِهِ ولَئِن صَبرْتُم لَهُوَ خَيرٌ للصَّابِرين﴾ [النحل: ١٢٦]. فإن لم يعاقِب هذا الظالم بمثل إساءته، فزاد على مُمَاثلته، لم يأمن أن يُقتصَّ له منه بالعفو فى السّلامة أقربُ، فلذلك صار أفضلَ؛ لأن ما حاز السّلامة، واستوعب الجدَّ، فهو رِبْحٌ وفَضْلٌ.

والمعاملة السابعة: تَحقُّقه بالزهد فيما ذهب. قال أبو سليمان الدّارانى، لما بلغه عن مالك بن دينار أنه قال للمغيرة: اذهب فخُذ تلك الرّكوة من البيت فلا حاجة لى بها، وكان قد أهداها إليه وقَبلها منه، فقال: ولِمَ؟ قال: يوسوس إلىَّ العدوُّ أنّ اللص قد أخذها؟ وكان مالك لا يغلق بابه، إنما كان يشدُّه بشريط، وكان يقول: لولا الكلابُ ما شَدَدْتُه أيضًا. فقال أبو سليمان: هذا من ضعف قلوب الصوفيين[٢]، هو قد زهد فى الدنيا، فما عليه مَنْ أخَذَها. وهذا كما قال أبو سليمان؛ لأنّ الزهد إذا صحّ دخل الرضا والتوكل فيه.

ولقول مالك أيضًا وجهٌ، كأنه كَرِه أن يعصى الله به، فيكون هو سبب معصية الله. ولكنّ قولَ أبى سليمان أعلى؛ لأجل مقام التوكُّل والرضا.

وقد كان أبو عيينة يقول: لولا كراهية أن أكون سببًا لمعصية الله، لأحببتُ أن لا أزال مظلومًا[٣].

---

(١) من هنا إلى قوله: «ربح وفضل» آخر الفقرة زيادة من (م).

(٢) فى (د): «قلوب الصّديقين».

(٣) قوله: «وقد كان أبو عيينة... مظلومًا» زيادة من (م).

وهذا الذى ذكرناه من ذهاب ما فى البيت هو لكل من ذهب له مال فى سفر أو حضر، ولكل من أُصيب بمصيبة فى نفس أو أهل. هذه المعاملات كلها إذا اعتقدها بقلبه وكانت فى خَلَده ووَجْدِه، وإن لم ينطق بها أو يُظهرها، وهو وَجْدُ الراضين، وحالُ المتوكِّلين، وإن لم يتكلموا به، أو يُعلم منهم[١]، فأكثرُ الناس إيمانًا، وأحسنُهم يقينًا، أقلُّهم غمًّا، وأيسرُهم أسًى على ما فات من الدنيا، وأحسنُهم رضًا، وأنفذُهم شهادةً، مَنْ رأى أن ذلك نعمةٌ أوجبت عليهم شكرًا. وأقلُّ الناس إيمانًا، وأضعفُهم يقينًا، أشدُّهم أسًى، وأكثرُهم غمًّا على ما فات، وأطولُهم شكوى، وأقلُّهم شكرًا. فالمصائبُ محنة تكشف الزهدَ فى الدنيا والرغبة، ألم تسمع إلى الحديث الذى جاء فيه هذا الدعاء: «وأسألك من اليقين ما تُهَوِّن به علينا مصائب الدنيا»؟ فشدَّة الغمِّ على فوت الدنيا دليلٌ على حبّها، وعلامةُ ضعف اليقين بمحبوبه. وسُهُولةُ الغمِّ على فوتها دليلٌ على الزّهد فيها، وقوة اليقين بربّه. فإن وجد المتوكِّل رَحْلَه بحالِه، أو رُدَّ عليه بعد أخْذِه، لم يضرَّه بتبقيته شىء، وكان له أجر ما قد نوى من المعاملات[٢].

ولا أعلم هذا القول واعتقاده عند خروج العبد من منزله أو تركه لرحله أو خروجه فى سفر ينقصه[٣] شيئًا ولا يضرّه، ولا يقدِّم ضياعَ شىءٍ حكَم اللهُ ببقائه له، ولا يؤخِّر تركُ العقد لهذا تبقيةَ ما حكمَ اللهُ بذهابه. ومع ذلك فيكون له حال من التوكل، ومقام فى الرّضا، وحسن معاملات، إلاّ شيئًا واحدًا من باب نقصان الدنيا من طريق الورع، فإنّه يُنقصه، وهو أنّه إن أخذ ما توكَّل على الله فيه، وفوَّض إليه أمره به، ثُمَّ رُدّ عليه، لم يُستحبَّ له فى الورع أن يتملَّكه، ولا أن يَرجِعِ فيه فى حسنِ الأدب؛ لأنه قد كان جعله صدقةً فى سبيل الله، فإن رجَع فيه لم ينقص ذلك توكُّلَه؛ لأنه قد صحّ تفويضه إلى الوكيل فى الحالين معًا، فيكون ردُّه عليه ـ لأنه قد كان وهبه له، وإنما روّعه بِفَقْدِهِ ـ بمنزلة ابتداء عطاءٍ منه.

---

(١) من قوله: «وهو وجد الراضين» زيادة من (م).

(٢) عبارة (م): «لم يضره بتبقيته شيئًا، وكان له أجور بما ذكرناه من الأعمال الصالحة بالنيّات التى وصفنا». وعبارة (د): «لم يضره بتبقيته شيئًا، وكان له أجرًا لما نواه».

(٣) فى المطبوعة: «ينفعه».

وقد رُوينا أنّ ابن عمر سُرقت ناقته، فطلبها حتى أعيا. ثم قال: فى سبيل الله. فدخل المسجد وصلّى ركعتين، فجاءه رجل فقال: يا أبا عبد الرحمن، إنّ ناقتك فى مكان كذا، فلبس نعله وقام، ثم نزعها، ثم قال: أستغفر الله، وجلس. فقيل له: ألا تذهب فتأخذها؟ فقال: إنى كنتُ قلتُ: فى سبيل الله.

وحُدثت عن بعضهم قال: رأيتُ بعضَ إخوانى فى النوم بعد موته، فقلتُ: ما فعل اللهُ بك؟ فقال: غفر لى، وأدخلنى الجنة، وعُرضت علىَّ منازلى فيها، فرأيتها، قال: وهو فى ذلك كئيبٌ حزين. فقلتُ: قد دخلتَ الجنة وغُفر لك وأنت حزين؟ فتنفّس الصُّعَداء، ثم قال: نعم، إنّى لا أزال حزينًا إلى يوم القيامة. قلت: ولِمَ ذلك؟ قال: إنّى لما رأيتُ منازلى من الجنّة رُفعت لى مقاماتٌ فى علّيّين ما رأيتُ مثلها فيما رأيتُ، ففَرِحت بها، فلما هَمَمْتُ بدُخولها نادى منادٍ من فوقها: اصرفوه عنها، فليست هذه له، إنما هذه لمن أمْضى السبيل. فقلتُ: وما إمضاءُ السبيل؟ قيل لى: قد كنتَ تقول للشىء إذا ذهَب منك: فى سبيل الله، ثم ترجع فيه، فلو كنتَ أمضيتَ السَّبيل لأمضيناها لك.

وقد(١) اختلف أهلُ الرأى وأهلُ المعرفة فيمن ظُلم بمظلمته. فقال بعضهم بما ذكرناه من تحليل الظالم والعفوِ عنه. وقالت طائفة من أهل التوكل: بل إرجاءُ ذلك إلى الله تعالى وتسليمُه إليه وتفويضُه، حتى يحكم فيه بما يحب؛ لأنّه منه وله أولى، وأنه أحبُّ إليهم، وعندهم أعلى. من ذلك ما حُدِّثتُ عن أحمد بن أبى الحوارى، قال: قلت لأبى سليمان: إنى قد جعلتُ كُلَّ مَن لى قِبَله تَبِعةٌ فى حِلٍّ. فقال: بئس ما صنعتَ، إنّما كان ينبغى أن تهبه لله تعالى، فيؤاخذ من يشاء ويعفو عمن يشاء. قال ابن أبى الحوارى: فلم أُجبه أنا على هذا، وثبتُّ على الأمر الأول.

شرحُ القولين وبيانُهما: قول سليمان رحمه الله أعلى، وهو معنى من التوكُّل على الله فى النفس، وهو أرفع أحوال التوكل؛ لأنّه التوكلُ فى الحكم، وهو من

(١) من قوله: «وقد اختلف أهل الرأى» إلى «وكذلك كان السلف الأول» فى الصفحة التالية: زيادة من (م) فقط.

مقامات الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لله عَلَيْه تَوكَّلْتُ﴾ [يوسف: ٦٧]، ولأنّ فيه التفويضَ والتسليمَ، وتَرْكَ الاعتراضِ، والتحكُّمَ بين يدى المولى، كما قال تعالى: ﴿لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ الله﴾ [الحجرات: ١] يعنى آراءكم وأهواءكم، ففيه الاستسلام للأحكام، حتى يحكم الله ما يريد، ويقضى بين خلقه ما أَحَبَّ. ووافقه ابن سيرين فى هذا المعنى، لحقيقة ورعه، وكان الرجلُ إذا قال له: قد اغتبتُك فاجعلنى فى حِلٍّ، يقول: لا أُحلُّ ما حرَّمَ اللهُ، بل حكمُه إلى الله.

كذلك كان بعض السلف إذا ظُلم بمظلمة أو جُنى عليه بجناية، فسُئل أن يُحلِّل الظالم، يقول: بل أجعل ذلك إلى اللهِ، يحكم فيه ما أحبَّ. ويقول بعضهم: ليس هذا لى، هو لله، فحكمه إليه يقضى فيه ما شاء. وقولُ ابن أبى الحوارى أدْخَلُ فى السُّنَّة، وأشبهُ بطريقة المتقدمين من الأئمة. من ذلك الخبر المشهور: «مَنْ كانت عليه مظلمةٌ لأخيه فى مالٍ أو عِرْض، فَلْيَتَحلَّلَه منها اليوم قبل القصاص غدًا، ليس ثَمَّ دينارٌ ولا درهم، إنما هو بالحسنات والسيئات». ولتجويز الأمة للعفو عن الظالم، وتفضيل العافين عن الناس، فلو لم يكن هذا أفضلَ ما مُدحوا به، ولا فُضِّلوا بفعله. وهذا مذهبُ الأكثرِ، وهو أحبُّ إلىَّ، لأن هذا حقٌّ لنا، أحقَّنا الله به، وجعله بأيدينا وإلينا، لغناه عنه، فلنا أن نتحكَّم فيه بتحكيمه، ونَتخلَّقَ فيه بمحاسن أخلاقه، كما جاء فى الخبر: «إن الله عفوٌّ يحب العَفو» ويستند إلى السّنة فى قوله ﷺ: «تواهبوا مظالمكم اليومَ قبل القَصَاصِ غدًا». مع قوله تعالى: ﴿فاتَّقُوا اللهَ وأَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١].

وكذلك كان رأىُ السّلف الأول، كما حدّثونا أن الربيع بن خيثم سُرِق فرسُه، وكان ثمنه عِشرين ألفًا، وكان قائمًا يصلى، فلم يقطع صلاته، ولم ينزعج لطلبه، فجاءه النّاس يعزُّونه. فقال: أمَا إنى قد كنت رأيتُه وهو يَحُلُّه. قيل: وما منعك أن تزجره؟ قال: كنتُ فيما هو أحبُّ إلىَّ من ذاك، يعنى الصلاة. قال: فجعلوا يدعون عليه. فقال: لا تفعلوا، وقولوا خيرًا، فإنّى قد جعلتُها صدقةً عليه. فلولا أنه اعتقد تحليله والعفو عنه لكان من المعاونين له على الإثم والعدوان، وكان قد

خذله وما نصره.

وقيل لبعضهم فى شىءٍ قد كان سُرق له: ألاَ تدعو على ظالمك؟ فقال: ما أحبُّ أن أكون عونًا للشيطان عليه. قيل: أفرأيتَ لو رُدَّت إليك سَرِقَتُك أكنتَ تأخذها؟ قال: ولا كنتُ أنظر إليها، إنى قد كنتُ أحللته منها.

وقيل لآخر: أُدع اللهَ على من ظلمك، قال: ما ظلمنى أحد. ثم قال: إنما ظَلَم نفسه، أفلا يكفيه المسكين ظُلمُه لنفسه حتى أزيده شرًا؟

وذهب لبعض المسلمين مال، فجاء قومٌ يُعزُّونه عليه، فقال: ما تعزُّونى على أمر الدنيا، فواللهِ ما حزِنتُ على ذَهابها فكيف على ذهابِ شىءٍ منها؟! قيل: ولِمَ؟ قال: شغلنى الشُّكرُ عليه عن الحزن.

وقد كانوا يقولون، إذا ظُلموا من الغَصْب والسرقة وغير ذلك: هذه نعمةُ الله علينا إذ لم يَجعلنا ظالمين بل مظلومين، وجعلنا أعظم مما فاتنا من الظُّلامة. وقد كان السلف يخافون أن يذكروا الظالم بالسَّبِّ له والدعاء عليه، فيكون ذلك زيادةً على مَظْلَمتهم. وقد روينا: «منَ دَعا على ظالمه فقد انتصر».

وأكثر بعضُهم بشَتْم الحجاج عند بعض السَّلَف، فقال له: لا تُغرق فى شتمه، فإنّ اللهَ ينتصف للحجاج ممن انتهكَ عِرضَه، كما ينتصف منه لمن أخذ مالَهُ.

وفى الخبر: «إن العبدُ ليظلم المظلمة، فلا يزال يَشْتِم ظالمه ويسبُّه حتى يكون بمقدار ما ظلمه، ثم يبقى للظالم عليه مطالبةٌ بما زاد عليه، يُقتَصُّ له من المظلوم».

وقال بعض العلماء لرجل، وقد كان شكا إليه قَطْعَ الطريق، وأخْذَ ماله، فقال له: إن لم يكن غمُّكَ أنّه قد صار فى المسلمين مَنْ يَستحلُّ هذا أكثرَ من غمِّك بمالك، فما نصحتَ للمسلمين.

وسُرقت من على بن الفضيل دنانير، وهو يطوف بالبيت، فرآه أبوه وهو يبكى، فقال: أعلى الدنانير تبكى؟ فقال: لا والله، ولكن على المسْكين، أنه يُسأل يوم القيامة، ولا يكون له حجة. وقيل لبعضهم فى معنى هذا: أُدع على من ظلمك، فقال: إنى مشغول بالحزن عليه عن الدعاء عليه. وقد كان أبو سليمان يقول: إنما البغضُ لأهل المعاصى عند النظر إليهم عليها، فإذا تفكَّرت فيما يصيرون إليه من

العقوبة دخلت الرحمةُ لهم القلبَ.

فأمّا القول الآخر الذى اختاره أبو سُليمان وأصحابه من ردٍّ ذلك إلى الله تعالى وتركِه عليه، حتى يحكُم فيه ما يريد، فيصلح أن يُستَدَلَّ له بأن يقول: ليس إذا وهبَ الله تعالى يلزمه ذلك لنا (. . .)[1] لفضله وملكنا [لتحصيل] عدلِه تملكّناه نحن وتحكَّمنا فيه دونه، وهذا لمطالعة الأعْواضِ، والجزاء على الأعمال فى توكل [المعوَّض] فيها وتَرْك النظر إليها، ونسيان المطالبةِ والمطالعةِ على التعويض منها، وإن كان حقًا أحقَّهم الله به، ونصيبًا أنصبه إياهمْ بفضله وكرمه، فأبو سليمان والعارفون لا يطالعون الجزاء، وإن الله قد جعله لأعمالهم، ويُوفيهم أجورَهم، وقد قال عز وجل: ﴿نِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وعَلَى ربِّهم يَتوكَّلُونَ﴾ [العنكبوت:٥٨ ـ ٥٩] فمدحهم بأنهم يَعْملون ويَصْبرون، ووصفهم بأنهم فى أعمالهم يتوكلون. وهذا مزيدٌ فى التوكُّل عليه فى النفس، وطرحِها بين يديه بلا اعتراضٍ ولا حسٍّ، ولا ينظرون إلى علم ولا عمل، فيحتجبون بذلك عن العَلاَّم المستعمل، فذهب أبو سليمان إلى مقام الخُصوص فى التوكلُ، بالنظر إلى الوكيل، وتفويض الأمر إليه، وترك التدبير بين يديه، حتى يكون الوكيل هو الذى يعيد كما أبدى، ويبتلى ويُعافى كما أبلى، ويحكُم فى الآخرية ما يريد كما قدَّر فى الأوليَّة ما أراد.

وذهب الآخرون منهم ابن أبى الحوارى إلى ظاهر العلم من جواز التمليك، وأن العبد إذا ملَّكه سيدُه مَلَك، وإذا ملك [تحكّم فى ذلك]. وإلى عموم الأخبار فى من عفا عن أخيه ومن عفا عمَّن ظلمه، ونحو ذلك. ولأنَّ ذلك أيضًا يَجدُهُ فى الآخرة عند المحاسبة والمطالبة، فيقال له: خُذْ لمظلمتك، ويُعطَى ثوابَ عفوه، ويُعوَّض [بالجنّة] عوِضًا منها، ويستوهبها الله تعالى منهم، لمن أراد أن يغفر ما له، وفى الخبر: «وديوان [لا يُبَتُّ فيه هو] مظالم العبادِ». وأن المظالمَ لا يغفرها اللهُ تعالى حتى يغفرها المظلوم. وهذه كلها أحوال لهذا العموم، وهى أدخلُ فى معالم الرسوم، وأقربُ إلى ظواهر العلوم، ويلزم مع ذلك أصحابها مطابقة الأعواض،

(١) كلمة غير مقروءة، وما بين المعكفات وضعته اجتهادًا منى.

لأنها جُعلت لهم أبدالاً من أعمالهم، وتعويضًا على صَبْرِهم، وجزاءً لفعلهم، وهذا طريق السّابلة[١]، والأول طريقٌ لخصوص المتوكِّلة، كما بينّاه، وكلٌّ يعمل على شاكلته، لكلٍّ وِجْهةٌ هو مُولِّيها.

• بقية الكلام فى المتوكل على الله يُؤخذ منه الشىء فيجعله فى سبيل الله ثم يُرَدُّ عليه:

فإن رُدَّ على المتوكِّل كلُّ ما أُخِذَ منه، فالأفضلُ له أن لا يتملَّكه، إن كان قد جعله فى سبيل الله؛ ليُمضى السبيلَ، فإن كان قد جعله صدقةً على الآخذ، نظر فى ذلك، فإن كان فقيراً، حمله فقرُه على السّرقة والخيانة والحاجة، أمضى صدقتَه عليه، وإن كان غير ذلك صرَفها إلى فقير. وهو[٢] مأجور على الصدقة على السارق والبغىِّ، إذا حملتهما على ذلك الحاجة. كما رُوينا فى الإسرائيليات أن رجلاَ تعبَّد، وكان ذا مال، فعزم على إخراجه، فخرج بشىء منه ليتصدَّق به ليلاً، فصادف امرأةً فقيرة فدفعها إليها، فلما أصبح نظر فى أمرها، فإذا هى بَغِىٌّ، فاغتمَّ، فقال: وقعتْ بيد فاجرة، الحمد لله على ما قَضى. ثمّ خرج ليلة أُخرى بصدقته، فدفعها إلى فقير، فلما أصبح تبيَّن فإذا هو لص، فقال: الحمد لله، وقعتْ بيد لص، وبيد بغىٍّ. ثم أخرج صدقةً ليلة أخرى، فدفعها إلى رجل، فلما أصبح نظر فإذا هو غنىٌّ، فحمد الله على قضائه، واغتمَّ فى وقوع صدقته فى غير أهلها الذين يُحبّ أن تقع فيهم. قال: فأوحى الله تعالى إلى نبيِّهم ﷺ: قل لفلان: إن الله قد قَبِلَ صدقتَك، وشكر لك صدق نيتك، وقد وضعتَها فى مواضعها، أما البغىُّ فإنه كان يحملها على الفجور الحاجةُ، فعفَّت عن الفسْق بذلك، وأما اللص فكان يحمله على السرقة الفقرُ، فأغنيتَه بصدقتك، وأما الغنىُّ فكان بخيلاً لا يُخرج زكاة ماله، فاعتبر بذلك واتَّعظ به.

فهذه حِكَمُ الله تعالى فى الغيب، وألطافٌ خفية، ومصالح لطيفة، وحسنُ توفيق لأوليائه، من حيث لا يعلمون ومن حيث لا يحتسبون، كما يستخرج لهم رزقَهم

(١) فى المخطوط (م): «السأيلة». والصواب ما أثبت. والسّابلة من الطُّرق: المسلوكة.
(٢) من هنا زيادة من (م)، إلى قوله: «وفضل أثرته لهم».

من الحرام والحلال، وكما يُشهدهم الحقَّ والعدل من الباطل والمحال، وكما يُعلمهم الفهوم ويعهد لهمَ العلوم من الجهال، بحسن عنايته بهم وفضل أثَرَته لهم[١].

وقد كان بعضهم إذا أُخذ له الشيء، يشترط فيقول: إن كان فقيرًا فهو صدقة عليه، وإن كان محتاجًا فهو فى حِلٍّ.

وقد أخبرنى بعضُ الأشياخ عن شيخ كان بمكة من العبَّاد أنه اتهمه بعضُ الحجَّاج بسرقة هِمْيَانه[٢]، لأنه كان قائمًا إلى جانبه، فقال له: كم كان فيه، فأخبره، فحمله إلى منزله فوزن له من المال، ثم إن أصحابه أعلموه أنهم مزحوا معه، وحلُّوا هِمْيانه وهو نائم، فجاء هو وأصحابه إليه، فردُّوا عليه ماله. فقال: ما كانت لتعودَ إلىَّ بعد إذ خرجت، هى لكم. فقلنا: لا حاجة لنا فيها. فقال: خذوها. قال: فأبينا. فقال: يا بنى، ودعا ابنًا له، وجعل يصرُّها صُررًا، ويبعث بها إلى قومٍ، حتى فرغ منها. وهذا كانت نيتُه إخراجَها لله سبحانه، فلم يَعُدْ فيما أخرجه. كما نقول فيمن أخرج رغيفًا إلى سائل، أو أعدَّ درهمًا لفقيرٍ فلم يصادفه: إنَّا نستحبُّ أن لا يرجع إلى مِلْكه، بل يعزله لسائل آخر، أو فقير غيره. لم يزل هذا من أخلاق المؤمنين. وقد رأينا من كان بهذا الوصف، وهذا طريقٌ قد عفا أثرُه، ودَرَسَ خبرُه، فمن عَمِل به فقد أحياه وأظهره. وقد كان قديمًا طريقًا إلى الله تعالى عليه السَّابِلةُ من الأولياء[٣].

• ذكر بيان آخر من أحكام التوكل وصحة وقوعه:

اعلم أن التوكُّل على الله لا يمنع دخولَ اللصوص، ولا يدفع وقوعَ الأقدار للبَلْوى بمحن الدار وللاختبار للمعرفين الأخيار.

قال أبو اليزيد ـ قدس الله روحه ـ وهو من أعلى المتوكلين: ما سافرتُ فى

(١) إلى هنا تنتهى الزيادة من (م).

(٢) الهميان: كيس للنفقة يُشد فى الوسط. الجمع: هماين، وهمايين.

(٣) بعده فى (م): «وقد كان أبو سليمان الدارانى يشدِّد فى التوكل، ويقول: لو توكلنا على الله ما بنينا حائطًا، ولا جعلنا لباب الدار غلقًا مخافة اللصوص، ولذلك كان (كلمة غير مقروءة) التوكل. ويقول: فى كل المقامات لى قدم إلا التوكل، فما لى منه إلا مشام الرِّيح».

قافلةٍ قط إلاّ قُطع عليَّ الطّريق. وقال آخر من نظرائه: ما خرجتُ في سَفَرٍ قط ومعى سبب إلاّ سُلِّط عليَّ مَنْ يأخذُه، حتى أبقى مع الله بالله، مُجَرَّدًا بلا سببٍ. فهذه آيات يردُّ الله بها أولياءَهُ إليه، وتسليطاتٌ يدلُّهم بها عليه، وتعريفاتٌ يُنَبِّهم بها ليَرْجِعُوا إليه.

• **بيان آخر من أحكام التوكل[1]:**

اعلم أنّ التوكُّل على الله فى الأسباب لا يوجب بقاءها للعبد، ولا إيثاره بها، ولا حفظها عليه، ولا يقدِّم شيئًا عن شيء، ولا يؤخِّره لصلاح دنيا أو اختيار عبد، بل هو إلى الإذهاب والإتلاف أقربُ؛ لأنّ التوكل قرينُ الزهد وثمرته، فهو يردّ المتوكل إلى أصله، فالإتلافُ والعَدَمُ إلى الزُّهد أقربُ، ومن حظوظ النّفس أبعدُ، وإلى البأساء والضراء أدنى، وذلك وصفُ صادقى المتقين، فتدبر. فلأجل اختيار صدق العبد، وامتحان تحقُّقه بالمقام، يقع التسليط، ليرجع إلى الله تعالى، ويَسْتَغيثَ من خللٍ يدخل فى المقام أو تفريط. ولأجل أن ينفى الشيء هو من الدُّنيا، لقوله تعالى: ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الشورى:٣٦]. فإن ذهب مالُه فصبر أو شكَرَ أو رَضِيَ، كان صادقًا فى توكله. وهذه أحوال صادقى المتوكلين. وإن جزع أو سخِط أو كفر لنِعَمِه بذلك لجهله بباطنها وغفلته عن حُسن عواقبها، كان من كاذبى المدعين؛ لأن هذه الأحوال وصف المتواكلين، وهو ضدّ المتوكِّلين.

فإن اضطربت نفسه، وتشتَّت همُّه، واختلف عليه فى ذلك حالُه، لَزِمهُ من مجاهدة النفس مِثلُ ما يلزمه من مجاهدتها عند دخول الآفات فى سائر الأعمال حتى ينفيها، ويصفِّى أعماله من كَدَرِها. فإن حُفظ عليه مالُه، فقد رُفِقَ به فى ذلك، وسُتِر عليه عن كشف حقيقة حاله بتلف ذلك، وجُعل ذلك كرامةً له من الدّنيا؛ ليطمئنّ قلبه بها ونِعَمُه عليه من المعيشة لتَسْكُن نفسه معها. وهذا مقامُ الضعفاء، وطريق العُرْج والزِّمنى، وليس من التوكل فى شيء. وإن تلف ماله، وذهبت دُنياه؛ فقد أُقيم مقام أهل البلاء، الأمثلَ فالأمثلَ بالأنبياء، وهذا مقام

(١) هذا العنوان من نسخة (د).

الأقوياء، وطريق السالمين الأصحّاء. ولولا الامتحان لكثُر الصادقون، ولولا الإخراج من المعتاد والمألوف لكثُر الصّالحون، فالله تعالى قد قلَّلهم بقوله تعالى: ﴿الَّذينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالحات وقَليلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص:٢٤]. وقال: ﴿وَقَليلٌ مِّن عِبادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣]. هذا لأنهم مُحسنون، وقد قال: ﴿كانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسنينَ * كانُوا قَليلاً﴾ [الذاريات:١٦ ـ ١٧].

ومَنْ توكَّل على الله ليبقى مالُه، أو ليَسْلَم خوفُه فيما توكَّل عليه، فيكون توكله لأجل هذا، وبهذه النِّية كان قَصْدُه ووَجْدُه، فهو جاهلٌ بالله، مغترٌّ بِنِعَمِه، غيرُ ذاكر لآلائه، ولا عارفٌ بأفعاله وبلائه، احتاج إلى توبة واستغفار من توكله، إذ أراد أن يمحو بتوكُّله ما ثبت من الأقدار، وأحبَّ أن يُبدِّل اللهُ سُنَّتَهُ مع ساكني الدّار. فنقصانُ توحيده وضَعْفُ إيمانه بهذه الأصول أشدُّ وأخزى عليه من مَزِيده وتقويته بتلك الفروع.

وإذا توكَّل المتوكلون على الله؛ لأن الله يحب المتوكلين، ولأمره بذلك، وجعله التوكلَ عليه من شرط الإيمان به في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الله فتَوكَّلُوا إنْ كُنتُم مُّؤْمنينَ﴾ [المائدة:٢٣]، فلأنّ المتوكِّل ينظر بعين اليقين، فيشهد يدَ الوكيلِ قابضةً على نواصي الخليقة في الدّارين، وأن الصَّنعة بيده، فأُخرجت من ملكوته بقلبها ظهرًا لبطنٍ، ونفعًا وضرًا، وخيرًا وشرًا، لقوله تعالى مخبرًا عن التوكُّل: ﴿إنِّي تَوكَّلتُ عَلَى الله ربِّي وربِّكُم مَّا منْ دَابَّة إلاَّ هُوَ آخذٌ بناصيتَها﴾ [هود:٥٦]. وقال في المجمل: ﴿فَسُبْحانَ الَّذي بِيَده مَلَكُوتُ كُلِّ شيء﴾ [يس:٨٣]. فلما شهد بعين يقينه ذلك، اضطرته الشهادةُ إلى التوكل، ولاتَ حينَ مناص؛ لقلَّته عنه بشهادة العلم بالحق، كلاَّ لا وَزَر؛ لعقله منه، لقيُّوميَّة اليقين بالحقيقة، لذلك يقول: ﴿إلاَّ مَن شَهِدَ بالحقِّ وهُم يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف:٨٦]. ولذلك قال: ﴿حتَّى يَتبيَّنَ لَهُم أنَّه الحَقُّ أَوَ لَم يَكْف بربِّكَ أنَّه عَلَى كُلِّ شَيء شَهيدٌ * ألاَ إنَّهُم في مرية مِّنْ لقَاء ربِّهم ألاَ إنَّه بكُلِّ شَيء مُحيطٌ﴾ [فصلت:٥٣ ـ ٥٤]. حينئذٍ توكَّل عليه به، ولَهُ، وعَنْه؛ لا

لأجل سواه، ولا لمعنًى من آخرتهِ ودُنياه، ثم رمى توكله وراء ظهره، فلم ينظر إليه أمامه، فيصير حجابًا بيْنَهُ وبين وكيله، يقطعه عن النَّفَاذ إليه، ويمنعه من المزيد منه، أو يحجبه عن الشهادة له، فسقط عنه الغمُّ اليوم لما وقع، وزال عنه الغمُّ غدًا لما يتوقع عنه، صار رُوحانيًا بروح رَيْحانيًا لريحان، لا ينظرُ إلاّ إليه، ولا يعوّل[1] إلاّ عليه، حتى يحيا به، متروَّحٌ بريحانه، مُقرَّبٌ من صفاته، مكاشَفٌ بسرائر مخبَّآته، هناك تحقّق بقول الوكيل: ﴿وعَلَى الله فَلْيَتَوكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [إبراهيم: ١١]، فأمر العمومَ من المؤمنين بالتوكُّل فى الأشياءِ عليه بالعقود، وخاطب الخُصوصَ من المقرَّبين والشَّاهِدين بالتَّخْصيصِ، ولم يرضَ منهم إلاّ بالوُجود بعد الشُّهودِ، لأنهم سامعون مستجيبون، كما قال: ﴿إنَّما يَسْتَجيبُ الَّذينَ يَسْمَعُونَ﴾ فهم الأحياءُ اليوم بعلمهم له ﴿والْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ﴾ [الأنعام: ٣٦] غدًا إليه. وقال للمقربين، وهم متوكلو المتوكلين: ﴿وعَلَى الله فَلْيَتَوكَّل الْمُتَوكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢] أى من توكّل عليه فى الأشياء، فقام لشاهدِ توكُّله، فليتوكل عليه فى توكله بشهادة الحَقِّ، بالغيبة عن شاهده، كما قال فى وصف شُهداء العلماء بشهادته من شهادَته: ﴿شَهِدَ اللهُ أنَّه لا إلهَ إلاَّ هُوَ والملائكةُ وأُولُواْ العلْمِ قَائمًا بالقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨]، فهؤلاء الشاهدون على شهادتهِ، ﴿فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهدينَ﴾ [آل عمرن: ٥٣] فهؤلاء عمَّاله به، الصابرون له وعليه، ثم توكلوا فى الأعمال والصّبر، ولم يَنظُروا إلى توكلهم، ووَلَّوه منهم الظَّهر؛ لأن من نظر إلى سواه احتجب عنه بنظره، فضلاً عن منظوره، فهمُ الموصوفون فى قوله تعالى: ﴿نِعْمَ أَجْرُ العَاملينَ * الَّذينَ صَبَرُوا وعَلَى ربِّهِمْ يَتوكَّلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٨ ـ ٥٩]، عملوا لمولاهم، وصبروا لوليِّهم، ثم توكلوا عليه فى صبرهم، وإنما حالُ المتوكِّل الرضا بمُرِّ القضا، ووَجْدُ حلاوة الصبر عسلاً شريًّا، له يساقيه لذوق حلاوة محبّته وما يُرضيه، كما قال الحكيم: مرَّر أفعاله، فزاد بها حلاوةً فى القُلُوب إذ مرَّر، وكدَّرَ صفوَ الشَّرابِ سطوتُه، فقد شربنا به الذى كدَّرَ.

(١) يمكن أن تقرأ فى الأصل المخطوط: «ولا يحلف».

فإذا كان حالُ المتوكل الرِّضا بجريان القضا، والمحبةَ لمواقع البلا، [فما] بقى ماله، وسلم سببه الذى توكل عليه عنه، أو عَطِبَ، إذ كان محبّةُ وكيلِه فيه، ورضاه به، فما عوَّضه من موافقة محبته وحلاوة رضاه أفضلُ من إتلافِ نفسه ودنياه.

ولا تصح له هذه المشاهدة، ولا يحقّ له هذا الوجد، حتى لا يريد من الملكَين سواه، فهذا حينئذٍ أفضل القربات إليه، والمتوكلُ بعدئذ أزلَفُ المقرَّبين لديه، كما قال بعض العارفين، وقد سُئل عن أفضل ما يتقرَّب به العبد إلى الله تعالى: أن يطَّلع على قلبه وهو لا يريد من الدنيا والآخرة غيره. فإذا أُقيم هذا المقام من التوكُّل، ورَّثَه ذلك حسنَ الخلقِ، مع الخالقِ أولاً، ثم مع الخَلْق ثانيًا، فأعقبه الحُكْمَ والسّخاءَ، وقَلَّتْ وساوسُه فى صلاتِه، وصَفَتْ له جميعُ أوقاته.

فإذا كان المتوكل هكذا جاذبًا فى توكيله، دائمَ النظر إلى وكيله، لم يضرَّه غَلْقُ بابه، ولا ما تعلَّق به من أسبابه، للحكمة والصّنْع الذى أتْقن كلَّ شىء، ولقيامه بقيوميّة القائم فى كل شىءٍ، فهذا دُنْيائىٌّ الجسم، آخرىٌّ القلب، مَلَكىٌّ الحواسِّ، ملكوتىّ الأنفاس، يُشبه الناسَ فى الشَّمائل واللِّبس، ويُبَاينُهم فى الجوهريَّة والأُنس، فهو فى نعيم النعيم، وجَنّة الجنّة، ورَوْح الرَّوح، ورَيْحان الريحان. وهذا لا يصفه إلاّ من يعرفه، ولا يعرفُه إلاّ مَن أوجده، ولا يَجدُهُ إلا من أَفْرَدَهُ. والإيمانُ به مزيد هدى المهتدين، ويزيد الله الذين اهْتدوا هدًى.

وكذلك القولُ فى التوكُّل على الله فى ترك التداوى، لا يجلب العَوافى ولا يُعجِّلها[١]، ولا ينقص من الأسقام ولا يُذهبها، بل يُذهب التشبُّث بها والاهتمام، وقد يكون إلى الازدياد من الأمراضِ أقربَ، للتمحيص والبلوى، ولنقص الأنفس بالضّرّ واللأوى، أى: ﴿**وليُمَحِّصَ اللهُ الَّذينَ آمنُوا ويَمْحَقَ الكَافِرينَ**﴾ [آل عمران: ١٤١].

فمن لم يشهد نقصانَ الدنيا من النّفس والمالِ، نعمةً من الله فى الحالِ وحُسنَ عُقْبى فى المآلِ، يوجب عليه الشكر، ويتعبَّد بالاعترافِ لها أنّها من البرِّ لما يؤول

---

(١) عبارة الأصل: «لا يجلب ولا يعجل العوافى».

إليه من جزيل الذُّخْر ـ فما فاته من الجَهْل بربِّه، والكُفرِ بنعمته، وإضاعةِ الشكر المأمور به، أعظمُ ممَّا يُدرك من جميع الدُّنيا لو جُمعت له، وأخافُ عليه بذلك لطيفةً من الـمَحقِ، والمحْقُ نقصانُ الشيءِ إلى ذهابِ جملته عند الكفر بباطن نعمته، لقوله تعالى: ﴿وَيمْحقَ الكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١]، واللهُ أعلم أى شيءٍ يمحقه وينقصه بمقدار ما كَفَر شُكْرَ نعمتِه، فظاهرُ الكلمةِ كفر التوحيد، وباطنه كفر تغطيه عين التفريد، كما ظاهر النعم العوافى والغِنى، وباطنها البلاوى والفَنَى. ﴿وأَسْبغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرةً وبَاطِنةً﴾ [لقمان: ٢٠]. ﴿وذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وباطِنَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٠]. فظاهرُه أعمال الجوارح، وباطنه هِمَمُ القُلوبِ اللوائح، العاديات الرَّوائح.

وقد قال تعالى فى المحكم المفسَّر: ﴿ولَنَبْلُونَّكُم بِشَيءٍ مِنَ الخَوْفِ والجُوعِ ونَقْصٍ مِنَ الأَمْوالِ والأَنْفُسِ والثَّمَراتِ وبَشِّرِ الصَّابرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]. فهذا النقص من هذه الخمس التى المزيد منها هو جُملةُ الدُّنيا، هو المزيد من الآخرة؛ لأنّها ضد الدُّنيا، كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ﴾ ثم نسَّق السَّبع صفاتٍ، ثم ترجمها بتفسير بها فقال: ﴿ذَلِكَ مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنيا واللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ المآبِ﴾ [آل عمران: ١٤ ـ ١٥]، ثم أخبرنا بخير منه عنده ولنا، فقال: ﴿أَأُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾، وذكر الجنة وما فيها للمتقين، ثُمَّ وصفهم بصفات خمس فقال: ﴿الصَّابِرِينَ والصَّادِقِينَ والقَانِتِينَ والْمُنفِقِينَ والْمُسْتَغْفِرِينَ بالأَسْحارِ﴾ [آل عمران: ١٧]، ثم أجمل ذلك وجمعه للمتوكِّلين عليه، وأخبر أن الآخرة التى هى خيرٌ وأبقى للمتوكلين من المؤمنين، وهم الذين لم يُسلَّط عليهم عدوَّه، بل سخره لهم، فانقطع سلطانه عنهم، حين اتَّصل همُّهم به، ودوام نصره لهم، فقال: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وعَلَى رَبِّهِم يَتوكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩]. كذلك قال: ﴿ومَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوكَّلُونَ﴾ [الشورى: ٣٦]، فادبروا!!

فهم الصابرون عن دُنياهم وأهوائهم توكُّلاً على مولاهم، بحُسن ظَنِّهم به،

وصدقوا فى توكُّلهم، فَعَلا إلى الصادق مقامُهُم، وقنتُوا فى صدْقهم، وهو حسن القيام بالشّهادة، ودوام الطاعة وخالص العبادة، وأنفقوا مما يُحبُّونَ؛ وهى نفوسهم النّفيسة، فلم يتنافسوا فى عاجل حَظِّها، فأنفقوها حتى أفْنَوْها، فسقط عنهم بقاءُ الأسباب بعد فناءِ النَّفس، إذ لها يحبّون العاجلةَ ويذرون الآخرة، ثم استَغفروا بالأَسْحار، فذنوبهم حسنات الأبرار، إذ قد كُوشفوا بغيوب الأسرار.

فالصَّبر أوّلُ مقامٍ فى التوكّل، وهو عند مشاهدة القضاء أفضوا للحُكم؛ لأنّه بالصبر.

والشّكرُ أوسطُ مقامٍ، وهو أعلى عند شُهودِ البلاءِ نعِمةً، فشكر المنعم بها إذ كشف عنه الغطاء.

والرِّضا فوق ذلك، وهو نهاية التوكل عند المحلولى القَدْر، وهذا مقام المحِبِّين من المتوكِّلين.

فأهل العقل عن الله، والمتقون له، هم المتوكلون عليه، وقد زهَّدهم فيما يَفْنَى بترغيبه إيّاهم فيما يبقى، حتى فهموا الخطاب، إذ هم أولو الألباب، لما أضافَ ما عنده إليه؛ ليرغبوا فيه، إذ وصَفَه بوصفه، وأضاف ما عندهم إليهم؛ ليزهدوا فيه، إذ نعتُه نَعْتُهم، فقال تعالى: ﴿**ما عِنْدَكُم يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ الله باقٍ**﴾ [النحل:٩٦]. فزهدوا فى نفوسهم، فباعوها منه، وكانوا فيها من الزَّاهِدِين، كما قال: ﴿**وشَرَوْهُ بثَمَنٍ بَخْسٍ دَراهِمَ مَعْدُودَة وكانُوا فِيه مِنَ الزَّاهدينَ**﴾ [يوسف: ٢٠]. ولا زهدَ فيها قبل بَيْعها، فكيف يتملّكونَ ما عنده، والعَبدُ ومالُه لسَيِّده، والله تعالى قد اشتراها منهم، لرغبتهم فيه، وحُبِّهم له، وعوَّضَهم منها ما يبقى، فقال: ﴿**إنَّ اللهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤمنينَ أَنْفُسَهُمْ وأَمْوالَهُمْ بأنَّ لَهُمُ الجنَّةَ**﴾ [التوبة:١١١] فجعل لهم نَصيبًا منه بدلاً من أَنْفُسِهم، وجعل لهم حظًا من داره دار السَّلامِ عند ربِّهم، وهو وَلِيُّهم، عِوَضًا من مالِهم، ثم وَصَفَهم لنا لنعرفهم فقال: ﴿**التَّائِبُونَ العَابِدُونَ الحَامِدُونَ**﴾ [التوبة: ١١٢] إلى آخر نعتهم. فهذه صفات النفس المشتراة، والبائعة عاجل حَظِّها بآجل رضاه، وبَشِّر المؤمِنين، وبَشِّر المخْبِتين.

• ذكر بيان آخر من فضيلة المتوكل:

اعلم يقينًا أن الله تعالى لو جعل الخلائق كلَّهم من أهل السموات والأرضين على عِلْمِ أعلمهم به، وعَقْلِ أعقلهم عنه، وحكمةِ أحكمهم عنده، ثم زاد كلَّ واحدٍ من الخلائق مثل عدد جميعهم وأضعافه علمًا وحكمة وعقلاً، ثم كشف لهم العواقب، وأطلعهم على السرائر، وأعلمهم بواطن النِّعم، وعرَّفهم دقائق العقوبات والنِّقَم، وأوقفهم على خفايا اللطف فى الدنيا والآخرة، ثم قال لهم: دبِّروا الملكَ بما أعطيتكم من العلوم والعقول عن مشاهدتكم عواقب الأمور واطّلاعكم على سرائر المقدور، ثم أعانهم على ذلك وقوَّاهم له، لَمَا زاد بدبيرهم على ما يراه من تدبير الله تعالى من الخير والشّر والنفع والضرّ جناحَ بعوضة، ولا نقص جناح بعوضة، ولا أوجبت العقولُ المكاشفات ولا العلومُ المشاهدات غيرَ هذا التدبير، ولا قضت بغير هذا التقدير، الذى يعاينه ويُقَلِّب فيه، ولكن لا يبصرون؛ لأنه أجراه على ترتيب العقول، وعلى معانى العُرف والمعتاد من الأمور، بالأسباب المعروفة والأواسط المشهورة، على مِعيار ما طبع العقول فيه، وجبل المعقول عليه، ثم غيّب مع ذلك العواقب، وحجب السرائر، وأخفى المثاوب، فغاب بعينها حسن التدبير وجميل التقدير، فجهل أكثرُ الناس الحكْمَ إلاّ المتوكِّلين، وما يَعْقِلُها إلاّ العالِمون، ﴿إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢]. وهذه شهادةُ المتوكِّلين، وهى مقامات النبيين، وفيها تَجُولُ أرواح الموْتَى من البرزخيين، وسترى ما أقولُ بعد كشْفِ القضاء ومَحْوِ الطُّلولِ، وبعد خروج اليقين من الرُّوح، ودخول رُوحِ التّأبيد على نور الإيمان برُوح اليقين.

يقال: أصغرُ ما خلق الله من الحيوان والموات البعوضَةَ والخردلةَ، ففى كلٍّ واحدة منها ثلاثمائة وستُّون حكمة، ثم تَتزايدُ الحِكَمُ فى المخلوقات على قدر تفاوتها فى العِظَم والمنافعِ.

• مزيد آخر من الهدى والبيان:

لو تمنى أهل النُّهى من أُولى الألبابِ الذين كُشفَ عن قلوبهم الحجابُ نهايةَ الأمانى، فكُوِّنت أمانيهم على ما تَمنَّوْا، لكان رضاهُم عن اللهِ فى تدبيره،

ومعرفتهم بحُسن تقديره، خيرٌ لهم من كَوْن أمانيهم، وأفضلُ لهم عند الله، من قِبَل أنّ اللهَ أحكمُ الحاكمين. وقد قال سبحانه مُوبِّخًا للإنسان مُجَهِّلاً للتمنى لقلّة الإيقان: **﴿أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّى * فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَى﴾** [النجم: ٢٤ ـ ٢٥]، أى يحكم فيهما بترك الأمانى؛ لأنه قال تعالى: **﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾** [المؤمنون: ٧١]. هذا لسوءِ عملهم بالتدبير، وقوة جهلهم بعواقب المصير، واختلاف أهوائهم فى معانى التقدير.

فالمتوكّلُ محبٌّ لله تعالى، مسرورٌ بربه، فرحٌ له بمُلْكه، مستسلمٌ فى جميع الأمور بأنّ له الآخرة والأولى، يحكم فيهما بما شاء، كيف شاء، إنه على كل شىء قدير، والعبد جاهل عاجز لا يقدر على شىء.

فهذا أول مقامٍ فى المحبة، وأوسط حال فى التوكل، فقد كُفى الخلائقُ هذا كله بحسن تدبير الخالق العليم الخبير البصير، وإنما يحتاجون إلى معرفة بالحكمة، ومشاهدة للحكم والقُدرةِ، وإلى بصيرة ويقين بالرحمة والنعمة يقع بهما فى القلوب تَسْكِينٌ.

ولا يضطرب هذا الذى ذكرناه عند الموقنين اليوم، بعد كشف حجاب العقل، وسقوط سُلطانِ النفس، وسيطّلع العُموم على سرٍّ ما ذكرناه من لطيف التدبير وباطن التقدير، وهو سرّ القدرِ ولطائف المقدّر عند كشف الغطاء فى الآخرة عند المعاينة، وظهور ما تحته ومعاينةِ ما وراءهُ من عجائب الخَبْء فى السموات والأرض. وقد أطلع اللهُ على ذلك العلماءَ به فى الدنيا قبل الآخرة، وهو محمود مشكور، له الحمدُ فى الأولى على ما أظهر، وله الشكر فى الآخرة على ما أخفى وستر. ففى كل واحد منهما نعمةٌ سابغةٌ، ورحمةٌ واسعةٌ، وحكمةٌ بالغةٌ، ولكن قد خلّق اللهُ العلماء بأخلاقه، فليس يكشفون من سرِّه إلا بقدر ما كشف، وليس يعرفون من وَصْفه إلاّ من حيث عُرِف. وقد فَهِمُوا قوله تعالى: **﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾** [الحجر: ٢١]. فقد تأدّبوا بهذا الخطاب، ووَقَفُوا عنده، وعَقَلُوا قول المُبلِّغ الرسولِ ﷺ: «إنّ اللهَ كَرِهَ لكم البيانَ كلَّ

البيان». وحقيقة بيان البيان محرمٌ عند ذوى الإيقان؛ لأنه يرفع حجابَ الإيمان، ويَحلُّ عِقالَ العَقْلِ المعقول بالرسوم للصنع والإيقان. وليس ما ذكرناه شهادة الصالحين، لأنّ مقام الصالحين يُقصِر عن شهادة الشاهدين، وقد سمع النبىُّ ﷺ رجلاً يقول: اللهم أرنى الدنيا كما تراها، فقال: «لا تقل هكذا، فإن اللهَ لا يرى الدنيا كما تراها. ولكن قل: اللهمَّ أرنى الدنيا كما يراها الصالحُ من عبادك». والصالحون فى الغرفات آمنون، والشهداء عن ربهم، والله غالبٌ على أمره، ولا قوة إلا بالله.

وكان أبو سليمان الدارانى يقول: إذا لاحظت الأشياء من فوق وجدتَ لها طعمًا آخر. وقال بعض العارفين: إذا رأيت الأشياء كلها كشىء واحد، من معدن واحد، بعين واحدة، رأيت ما ترى قبل ذلك، وسمعت ما لم تسمع، وفهمت ما لم تفهم الخلق. وقال بعضهم: لا ترى العجب حتى ترى عجبًا، فإن لم تر عجبًا رأيت العجب.

• ذكر بيان آخر من وصف المتوكلين:

اعلم أن العلماء بالله سبحانه لم يتوكّلوا عليه لأجل أن يحفظ لهم دنياهم، ولا لأجل تبليغهم مرادهم، ولا ليشترطوا عليه حسن القضاء بما يحبّون، ولا ليبدِّل لهم جريان أحكامه عمّا يكرهون، ولا ليغيِّر لهم سابق مشيئته إلى ما يعقلون، ولا ليحوِّل عنهم ماضى سنَّته التى قد خلت فى عباده من الابتلاء والاختبار إلى ما يعلمون، بل هو أجلُّ فى قلوبهم من ذلك، وهم أعقل عنه وأعرفُ به من هذا. لو اعتقد عارفٌ بالله أحدَ هذه المعانى من الله فى توكُّله كان كبيرةً توجب عليه التوبة، وكان توكُّله معصيةً، وكان ما فاته من حقيقة التوحيد أشدَّ عليه مما أدرك من توهُّم التوكُّل، وإنما أخذوا نفوسهم بالصبر على أحكامه كيف جرت، وَطالبوا قلوبهم بالرضا عنه بأى معنى أجرى.

وقال رجل لمالك بن أنس: يا أبا عبد الله، إنّى تعلقتُ بأستار الكعبة، فتبت من كلّ ذنب، وحلفتُ أن لا أعصى اللهَ فيما أستقبل. فقال له: ويحك، ومَن أعظمُ معصيةً منك! تتألَّى على الله أن لا ينفِّذ حكمه فيك.

وأنشدنا بعض العلماء لبعض الحكماء:

لما رأيتُ القَضَا جاريًا لا شكَّ فيه ولا مَرِيَّهْ
توكّلتُ حقًا على خالِقى وألقيتُ نفسى مع الجَرِيَّهْ

وكان سهل يقول: تُلقى نفسك فى اللُّجِّ [1]، وتَسكن تحت جريان الحكم. وقال مرّة: تكون بين يديه مثل الميت بين يَدَى الغاسل، يقلِّبه كيف شاء.

وإنما كرهوا ما كره الله، طاعةً لله، فذلك كراهة ما كرِه حبًا له، والتزامًا لحكمه عليهم، لا كراهة ما قضى، إذ ليس لهم أن يقولوا: لِمَ قَضيتَ ما تكره؟! أو كرِهْتَ ما قضيتَ؟ لأنّهم عرَفوا بأنّه يأمر بالشىء ولا يريدهُ؛ للحُجَّة، ويريدُ الشىءَ ولا يأمر به؛ للحكمة، ويفعل الأمر ولا يُحبُّه؛ للاختيار، ويحب الأمر ولا يريده؛ للاختبار. وهذه المعرفةُ معرفته التى حارتْ فيها العقولُ، فارتكبت بالتضليل فيه تجول، فَتَعَلَّقت بالضَّلال، فأشركت فى الحال. والله تعالى فى قلوب أوليائه أجلُّ وأعظم، وفى نفوسهم أعزُّ وأَهْيب، أن يواجهُوه بغير ما يُحبّ، أو يعاملوه إلاّ بما يختارُه؛ لأنهم المصطَفوْن الأخيار، ذوو الأيدى والأبصار، أى: القُوَى فى الدِّين، والنّصر باليقين.

فالمتوكلُ لا يتقدم بين يدى الوكيل بقول ولا عَقَده، ولا يختار لنفسه بهواه من مَوْجوده ولا وَجَد، بل قد عرَف حكمتَهُ فَصَبر، ورأى قدرتَه فتدبَّر، وشهد حكمه به فرضى، ووَجَد قُربه منه فَسكن. فتوكَّل أولياؤه عليه؛ لأنه يستحقُّ التَّفويض إليه، ويستوجبُ التسليم له، إذ كان هو الوكيلَ الأولَ، والكفيلَ الأجلَّ، حين سمعوهُ يقول: **﴿والله عَلَى كُلِّ شَىءٍ وَكيلٌ﴾** [هود:١٢]. **﴿ثم استْوىَ على العَرْشِ يُدبِّر الأمْرَ ما منْ شَفيعٍ إلاَّ منْ بَعْد إذْنه﴾** [يونس:٣]. وحين فَقِهُوا عنه: **﴿ومَنْ أحْسَنُ من الله حُكْمًا لقَوْمٍ يُوقنُونَ﴾** [المائدة: ٥٠]. ولمَا عقَلُوا منه خطابه: **﴿أَلَيْسَ اللهُ بأحْكَمِ الحَاكمين﴾** [التين:٨]؛ لأنَّه نَدَب إلى التوكُّل، وحَثَّ عَلَيه، وحقّق

---

(١) اللجة: معظم البحر وتردد أمواجه.

الإيمانَ به، إذ سمعوه يقول: ﴿أَفَمَن هُوَ قَائمٌ على كُلِّ نَفْسٍ بما كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣]. ﴿أمَّن يَمْلكُ السَّمْعَ والأَبْصارَ ومَن يُخرِجُ الحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ ويُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الحَىِّ ومَن يُدبِّرُ الأمْرَ﴾ [يونس: ٣١].

ومن تدبَّر الأَمْر كلما ذكر الله، كان تحقيقُ الإيمان العملَ بالقول.

وعقَلُوا عنه: ﴿ومَا مِن دابَّة فى الأَرْضِ إلاّ عَلَى الله رِزْقُها ويَعْلَمُ مُسْتَقرَّها ومُسْتَوْدَعَها﴾ [هود: ٦]. فأحَقٌّ على نَفْسِه من نَفسه، ورزقها من حيث عَلِم مستقرَّها فى الشَّهادة والوُجود، ومُستودَعَها فى الغَيْب والعَدَمِ، ومستقرَّها على ظَهْرِ الأَرضِ فى الدُّنيا، ومستودعها فى البَرْزخ للعُقبى.

وسمعوا منه: ﴿وفى السَّماءِ رِزْقُكُم ومَا تُوعَدُون﴾ [الذاريات: ٢٢]، فلم يَطْلُبوه فى الأرض. ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ الله الرِّزقَ واعْبُدُوهُ﴾ [العنكبوت: ١٧]، فلم يبتغوه من الخَلْق ولا عَبَدُوهم. تَعِسَ عبد الدِّينار، وعبدُ الزَّوجة.

ثم أقسم بنفسه على فعله بقَسَمِه: ﴿فَوَرَبِّ السَّماءِ والأَرْضِ إنَّه لحَقٌّ﴾ [الذاريات: ٢٣]، فتوكَّلُوا عليه فى القَسَم استحياءً منه وثِقَةً به، لـمَّا أوجدهم من اليقين الذى كَشَفَ عن الشِّركِ، فخافُوا مِن التُّهمة له، فاعتمدوا عَلَيه. فمنهم مَن توكَّل عليه لأجل هذه المعانى كلّها، ومنهم من توكل لمشاهدة بعضها. فكل عبد توكُّله عن الوصفِ الذى به عرفه، وكلٌّ عرَفَهُ عن التجلِّى الذى به كاشفَه، وكلٌّ يطيعه بقُرب قُربِه، وبتولِّيه له، وكُلٌّ يُقَرَّبُ على قدر عِلْمه بقرْبه إليه، وكُلٌّ يعلم قُربه بقَدْر ما أشهده من كيفية كينونة وجوده فى مكنون كيانه، وكلٌّ يعرف ذلك بقدْر عنايته به، ومحبّته له، ومن ورائِه سِرُّ القدَرِ الْمُغيث المستأثر.

فشهادةُ كلِّ عبدٍ من مقامه وحاله عن وجدِ شُهودهِ بقدر قُرْبِ موجوده، وجزاؤهُ نحو معاملته، وجميعُ المعاملات مقيدةٌ بميزان التوحيد، لسانُهُ اليَقين، وكَفَّتاهُ المَعرفةُ والمحبّة، فتُوزَن هذه الأربع من الثِّقَل والخفّة، بثقل الأعمال وبخفَّتها، ﴿والله يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ﴾ [البقرة: ٢٦١]. ﴿هُمْ دَرجَاتٌ عِندَ الله﴾ [آل عمران: ١٦٣]. ﴿لَهُم

دَارُ السَّلامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٧]. دار السَّلام تجمعهم، وهم متفاوتُونَ فى دَرَجاتها عند جَامعهم، كدار الدُّنيا تكفّتهم وهم لديه، يَرْفعهم فى مَلكوتها بتخصيص التَّولِّى وحُسن الولايات عن تحسين المعاملات، ﴿اللهُ يَجْتَبى إِلَيْهِ مَن يَشاءُ وَيَهْدِى إِلَيه مَن يُنيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

ومن الأولياء من توكَّل عليه تعظيمًا له وإجلالاً. ومنهم من توكلٍ عليه ثقةً به، وتنزيهًا له؛ لأنّه عن سوءِ الظَّنِّ يَتَعالى. ومنهم من توكَّل عليه يَقينًا بوَعْدِه، لتَحقُّق صدقِه، كأنه أخذ الموعود بيده، إذ يقول: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ﴾ [التوبة: ١١١]، ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأتِيًّا﴾ [مريم: ٦١]. ومنهم من توكَّل عليه حبًا له. ومنهم من توكل عليه استسلامًا لما شهد من قهر عزِّه، وعظيم قدره. ومنهم من توكل عليه خوفًا منه. ومنهم من توكَّل عليه لحسن ظنِّه به، وصِدْقِ رجائه له. ومنهم من توكَّل عليه ليحفظه فيما استَحْفظهُ فيما له عليه. ومنهم من توكل عليه لقيامه بشهادته عن حُسن معرفتِه. ومنهم من توكل عليه تسليمًا له عن جميل معاملته. ومنهم من توكل عليه استسلامًا لمعاينة قدرته. ومنهم من توكَّل عليه لحُسن تدبيره عنده، ومحكم تقديره. وكُلُّهم توكَّل عليه؛ لأنّ توحيده له، وشهادته قيُّوميَّته، وذلك بقبضته.

فهذه كلها مَواجيدُ أوليائه، ومناهج أحبائه، عن مشاهدة القُرب، ومعرفة القريب. وبعضها أعلى مقامًا من بعضٍ، وبعض هذه المشاهدات أقربُ وأرفع. فأعلاها مَنْ توكَّل عليه للإجلال والتعظيم. وأوسطها من توكَّل عليه للمحبة والخوف. وأدناها من توكَّل عليه تَسليمًا له، وتَحَبُّبًا إليه.

وقد ذكرنا أيضًا من توكُّل العموم ما يستحى العارفون من ذكره، وينزِّهون قلوبَهم عن فكره؛ وهو التوكل عليه فى القُوت؛ لأنه هو المُقيت كما هو المحيى المميت، وكما يحيى ويميت كذلك هو يرزقُ القُوتَ، فيُقيتُكَ.

وقد طوينا ذكر توكل خُصوص الخصوص من صِدِّيقى المقرَّبين؛ لأن ذلك لا يحمله عقل عاقلٍ، ولا يسعُ أن يُستودَع فى كتابِ ناقلٍ، إذ ربما نظر فيه منكر

جاهل؛ لأنه لا يُعقل بمثل هذا العقال، وكلُّ عاقلٍ فقد عُقل بعقال مثله، فعقال الهِرِّ والشَّاةِ، لا يُعقل به السَّبُعُ والفيلُ، فتفكَّروا.

فتوكَّل مَن عرفهُ لأجله، ورغب فيما أحب لوصفه، يطلبون بذلك رضاهُ؛ لينالوا به زُلْفى وحُسنَ مآب من إيّاه.

• ذكر ما لا ينقص المتوكل فى توكله:

ولا ينقص المتوكلَ على الله مسألتُه مولاهُ ما أحبَّ من صالح الدنيا ومزيد الآخرة، إذ لم يقصد غير مطلوب، وكان فى ذلك مفوِّضًا إلى الله الأمور، ولكن يحتاج إلى معرفة الإجابة؛ فقد يكون المنع إجابةً وعطاءً وقُربةً، إذا كان العطاءُ شاغلاً عنه، وقاطعًا للعبد، ومُبعدًا له؛ لأنَّ الخِيَرَةَ فيما لا يعلم العبدُ، وقد يكون الاختيار فى مكاره النَّفس.

فممّا يعلم اللهُ حُسن عاقبته، لا فيما يعقل العبدُ عاجل منفعته، فعليه التّسليم لحكم الحاكم، والرِّضا بقسم القاسم، فإن سأل تكاثرًا من الدُّنيا، وما لا يحتاج إليه، وممّا ليس فيه صلاح قلبه، ولا قُربه من ربِّه، أخرجه من حقيقة التوكل بقدر ما يخرجه من الزهد. وإن اقتطع بالذِّكر عن المسألة، أُعطى فوق عطاء جميع من سأله. وإن سكت حياءً من الوكيل، إذ هو حَسْبُه، فشهد الكفاية، وغَنِىَ بوصْفه، فقد وفَّى بعهده، فهذه ملّةُ أبيه إبراهيم اتبعها: ﴿وإبراهيمَ الّذى وَفّى﴾ [النجم: ٣٧]؛ أى بقوله: حسبى الله، لما أُلقى فى كفَّة المنجنيق، فعارضه الرُّوحُ الأمين، فقال له: ألك حاجة؟ فقال: لا. فقال الله: ﴿وإبراهيمَ الَّذى وَفَّى﴾ قوله: حسبى الله، فشهد الوكيل عنده، فأحسبه من غيره وَجده، وكذلك قال المتوكلون من الصّحابة: ﴿الَّذينَ قَالَ لَهُمُ الناسُ إنَّ النَّاسَ قَد جَمَعُوا لَكُمْ فاخْشَوْهُم فَزَادَهُمْ إيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ ونِعْمَ الوَكِيلُ﴾. لما رأوا الوكيل أحسبهم قُربُه، وأنعمهم وَصْفُه: ﴿فانْقَلَبُوا بنِعْمَةٍ منَ الله﴾ [آل عمران: ١٧٣ ـ ١٧٤]. وكذلك قال مؤمن آل فرعون: ﴿وأُفَوِّضُ أَمْرِى إلى اللهِ إنَّ اللهَ بَصيرٌ بالعِبادِ * فَوَقَاهُ اللهُ﴾ [غافر: ٤٤ ـ ٤٥].

وهذه مقامات فى المواجهة عن مشاهدة القيُّومية، ﴿ولكُلٍّ وِجْهَةٌ هُو مُولِّيها﴾ [البقرة: ١٤٨].

ولا يقدح فى التوكُّل تشرُّف المتوكل إلى رزقه؛ لأنه خُلِق ضَعيفًا، ذا فاقة، ورزقُه معلوم لا بُدَّ منه، والمعلوم مقسومٌ، وتشرُّفُه إلى القِسْم تَشرُّفٌ منه إلى القاسم، ومن تشرَّف إلى مولاه شرَّفهُ وتولاَّه. ولو قدح تشرُّفه إلى رزقِه فى توكله لم يصحَّ تصرُّفه فى المعايش، وقعوده بالتجارات والصنائع، وفيها انتظار للرِّزق، وتطلُّع إلى القِسْم من القَسَّامِ.

ولكن إن تشرَّف إلى الزيادة، وخرج من القناعة، وطلب العادة، أو أراد الشىء قبل وَقْتِه، أو كَرِه تأخيرهُ إلى وقتٍ مَقْدُورةٍ، فإن هذا يقدح فى توكُّله، ويُنقص من زُهْدِهِ.

ولو كان التطَلُّع إلى الرِّزق مُبْهَمًا، والمتطلِّع إلى الرزَّاق مُجملاً، يُنقصُ التوكل، لَعلَّلْنا[1] مَن قعد فى السُّوق ينتظر من الله أن يَسُوقَ إليه رزقه من الباب الذى أدخله فيه، وبالسبب الذى يَسَّره له، وإذًا لجَهَّلْنا من يُعالَج من علله بالدَّواء؛ لأنَّ فى ذلك كلِّه تشرُّفًا إلى الرزق، وتطلُّعًا إلى البُرْءِ. وفَجَا[2] من ذلك تضعيف المبتاعين من السَّلف الأول، وطعن على المتداوين من الخلفاء الأمثل من الصّحابة والتابعين، وأخرجناهم بذلك من التوكل والزُّهد، وقد أدْخلهم الله فيهما بفضله.

ولكن مَن تَشرَّف إلى شخْصٍ، أو تطلَّع إلى يقين سَبَبٍ اعتاده، أو سكن إلى المألوف، نقص ذلك من توكُّله.

ولا يُخرجه من التوكل مطالعتُه للعِوَض على معاملته من جزاء الآخرة؛ لأنه قد شُوِّق إلى ذلك، ونُدِب إليه، ومن اشتاق إلى ما شُوِّقَ إليه، أو تطلَّع إلى ما وُجِّهَ به، لم ينقصه فى مقامه، وقد يكون مزيدًا على قدر حاله، إلاَّ أنه لا يُدخله فى إخلاص المحبِّين، ولا يرفعه إلى درجات المقرَّبين من العارفين.

---

(١) أى جعلناه معلولاً فى توكله، أى ذا علّة.

(٢) فجا: فتح. وفى المطبوعة: «فجاء» وهو تحريف.

ولا يصح التوكل إلا بزهد فى الدنيا، وأوّلُ الزُّهد تركُ الرغبة فى الحرام. وأوّلُ أحوالِ المتوكِّلِ التوكُّلُ عليه فى القُوت، ثم الصَّبرُ على حُكم المُقيت. وأعلى التوكل فى الاستسلام لمُرِّ الأحكام، والرضا عنه فى السّابقةِ من الأقسام، وهو طَرْحُ النفس ونسيانُها، شغلاً عنها بِنَفْسها، وحبًّا له.

وحقيقة التوكل بعد مشاهدة الوكيل، فإذا ظهرت يدُه غابت الأيدى منها، فعندها توكلت عليه تأييدًا منه، فقَبلَ توكُّلك، واستسلمتَ إليه بقوةٍ به فسلَّمك، فإنه يتجلى لك بوصف يَلزمُك حُكمًا، يضطرك الحكم إلى الحاكم، ويوقفك الوصف على الوكيل القائم، كما اضطرك الحاكم إلى الحُكم واجدًا عليك ما شاء من القِسْم. فأصلُ توكلك عليه إشهادُه إيّاك توكله لك بحسن التدبير، فلم يكِلك إلى سواه، ولم يُولِّك إلاّ إياه، فاضطرك الوجود إلى المشاهدة، كما حكمت الشهادة بالموجود، فيقتضيك تفويضًا إليه، أو رضًا عنه، أو تسليمًا له، أو استراحة من تدبيرك لنفسك، أو يسقط عنك اهتمامك بتقديرك وأمانتك. **﴿وَمَن يَتَوَكَّل عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾** [الطلاق: ٣]. والحَسَب إلى الحسيب، يجعله ما شاء كيف شاء، فقد قيل: **﴿فَهُوَ حَسْبُهُ﴾** أى الوكيل يكفيه مِمَّا سواه فى الدارين، فيَغْنَى به عن الملكين، والله خيرٌ وأبقى، وقد قيل: التوكل حسبه من كل المقامات، يجمع له مقامُ التوكل وحده ما فُرِّق فى سائر المقامات؛ لأنه أعلاها، فهو ينتظمها.

ثم قال تعالى مُعرِّفًا للكافة، مسليًا للجُملة[1]: **﴿إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾** [الطلاق: ٣]؛ أى منفذ حكمه فيمن توكَّل عليه، وفيمن لم يتوكل عليه، إلاّ أنّ من توكل عليه يكون الله حسبه؛ أى: يكفيه أيضًا مُهِمَّ الآخرة والدنيا، ولا يزيد مَن لم يتوكل عليه جناح بعوضة فى قسمه، كما لا ينقص من توكل عليه ذرةً من رزقه، لكن يزيد من توكل عليه هدى إلى هداه، ويرفعه مقامًا فى اليقين على تقواه، ويعزّه بعزِّه، وينقص من لم يتوكل عليه من اليقين، ويزيده من التَّعَب والهمِّ ما يشتت قلبه، ويشغل فكره. والمتوكل عليه يوجب له بذلك تكفير السِّيِّئات، ويلقى عليه

(١) فى المطبوعة: «للجماعة».

رضاه ومحبته فى المقامات. والكفايةُ قد ضمنها تعالى لمن صَدَق فى توكُّله عليه، والوقايةُ[١] قد وَهَبها لمن أحسن تفويضَه إليه. إلا أن الاختيار وعلم الاستئثار إليه فى الكفاية والوقاية يجعل ذلك ما شاء، كيف شاء، وأين شاء، ومتى شاء، من أمور الدنيا وأمور الآخرة، ومن حيث يعلم العبد، ومن حيث لا يعلم؛ لأنّ العبد موجود، تجرى عليه الأحكام فى الدارين، وفقيرٌ محتاجٌ إلى اللطف والرحمة والرفق فى المكانين؛ أعنى فى حال وجود كونه فى مكان الدنيا، ووجوده فى مكان الآخرة. والله هو الغنى الحميد المبدئ المعيد.

وقيل لأبى محمد سهل رحمه الله: متى يصحّ للعبد التوكل؟ فقال: إذا علم أن تدبير مولاه له خيرٌ من تدبيره لنفسه، وأنَّ نظرَ مولاه له أحسنُ من نظره لنفسه، فيترك التفكُّر فيما كان، والتمنى لما يكون، ويترك التدبير، ولله عاقبةُ الأمور، وهو على كل حال محمود شكور.

آخر شرح مقام التوكل، والحمد لله ربِّ العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم[٢].

* * *

(١) فى (م): «والوفا به».

(٢) هذه الخاتمة من نسخة (د).

شرح أحكام مقام الرضا، ووصف الراضين
وهو المقام الثامن من مقامات اليقين[١]

الرضا عن الله سبحانه وتعالى من أعلى مقامات اليقين بالله. وقد قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]. فمن أحسن الرِّضا عن الله جازاه الله بالرضا عنه، فقابل الرضا بالرضا. وهذا غاية الجزاء ونهاية العطاء. وهو قوله عز وجلّ: ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]. وقد رفع الله الرضا على جنات عدن، وهى من أعلى الجنات، كما فضَّل الذكر على الصلاة، فقال تعالى: ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. والذِّكر عند الذاكرين: المشاهدة، فمشاهدةُ المذكور فى الصلاة أكبرُ من الصلاة، وهذا أحدُ الوجهين من الآية.

والوجه الثانى: ذكرُ الله للعبد أكبرُ من ذكر العبد لله.

وقال أبو عبد الله الساجى: مِن خَلْق الله عبادٌ يستحيون من الصَّبر[٢]، يتلقفون مواقع أقداره بالرِّضا تلقُّفًا.

وقد كان عمر بن عبد العزيز يقول: أصبحتُ وما لى سرور إلا فى مواقع القضاء.

والرضوان عن الله عز وجل هم الذاكرون لله بما يحب ويرضى. فالرضوان الأكبر جزاء أهل الذكر الأكبر. وهذا أحد المعانى فى قوله ﷺ: «يقول الله تعالى: مَن شغَلَه ذكرى عن مَسألتى أعطيتُه أفضلَ ما أُعطى السائلين»؛ أى الرضا عنه؛

(١) هذا العنوان من نسخة (د)، وهو فى (م): «ذكر أحكام مقام الرضا، ووصف أهله». وفى المطبوعة: «ذكر أحكام مقام الرضا».

(٢) فى المطبوعة: «الصبى» والصواب من (د، م).

لأن السائلين يسألونه لهم، فأعطاهم العفو، والذاكرين ذكروه له، فأعطاهم الرضا عنه عزّ وجلّ. ويكون أيضًا معناه: أعطيته النظرَ إليَّ؛ لأن الذكر يخرج إلى النَّظر، فقابل النظرَ إليه اليوم بالنظر إليه غدًا، كما واجه الوصفَ بالوصف فى قوله عز وجلّ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس:٣٨ ـ ٣٩]. وقال الرسول ﷺ: «يتجلّى لنا ربنا ضاحكًا».

والرضا هو حال الموقن، واليقين هو حقيقة الإيمان. وإلى هذا ندب النبىُّ ﷺ ابنَ عباس فى وصيته له فقال: «اعمل لله باليقين فى الرضا، فإن لم يكن فإنَّ فى الصبر على ما تكره خيرًا كثيرًا»، فرفعه إلى أعلى المقامات ثم ردّه إلى أوسطها.

كذلك قال لابن عمر: «اعبد اللهَ كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، فندبه إلى المشاهدة وهو الإحسان، لأنه سأل: ما الإحسان؟ قال: «اعبد الله كأنك تراه». ثم رده إلى الصبر والمجاهدة وهو الإيمان. وهذا مكان العلم بأن الله يراه، وليس بعد هذا مكان يوصف.

وقد رفع الله تعالى الرضا منه فوق ما أعطى من النظر. ففى الخبر: «إن اللهَ تعالى يتجلى للمؤمنين، فيقول: سلونى. فيقولون: رضاك». فسؤالهم الرضا بعد النظر تفضيل عظيم للرضا؛ ولأن بالرضا دام لهم النظر، لما كان الرضا يوجب النظر سألوا دوام الرضا، ليدوم القُربُ والنظر، فسألوه تمام النعمة من حيث بدايتها.

ولا يصلح أن يظهر فى معنى قولهم: «رضاك» أكثر من هذا. ولا يُرسم فى كتابٍ حقيقةُ الأمر؛ لأنه على كشف وصف من صفات الذات، يوجب على العبد هيبة الربوبية. وخوف هذا عن القلوب محجوب، وحكمة من سرائر الغيوب. وهذا فى الدنيا ثوابٌ لأهل الخشية عن معرفة خاصية. قال الله سبحانه: ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة:٨]. وقال بعض المفسرين فى قوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٥] قال: يأتى أهلَ الجنة فى وقت المزيد ثلاثُ تحف من عند رب العالمين: إحداها: هدية من عند الله، ليس عندهم فى الجنان

مثلها، وذلك قوله تعالى: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِىَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧]. والثانية: السلام عليهم من ربهم، فيزيد ذلك على الهدية، فهو قوله تعالى: ﴿سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ [يس:٥٨]. والثالثة: يقول الله تعالى: إنى عنكم راض؛ فيكون ذلك أفضل من الهدية ومن التسليم، فذلك قوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة:٧٢]، أى أكبر من النعيم الذى هم فيه.

وروى أنّ النبى ﷺ قال لطائفة من المؤمنين: «ما أنتم؟ قالوا: مؤمنون. فقال: ما علامة إيمانكم؟ قالوا: نصبر عند البلاء، ونشكر عند الرضا، ونرضى بمواقع القضاء. فقال: مؤمنون وربِّ الكعبة». وفى خبر آخر أنه قال: «حلماء علماء، كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء»، فشهد لهم بالإيمان بعد وصف الرضا.

وكذلك جعل لقمان الحكيم الرضا من شرط الإيمان، لا يصلح إلا به، فقال فى وصيته: للإيمان أربعة أركان لا يصلح إلا بهنّ، كما لا يصلح الجسد إلا باليدين والرجلين: ذكر منها الرضا بقدر الله.

وحدثونا فى الإسرائيليات: أن عابدًا عبد الله دهرًا طويلاً، فرأى فى المنام: فلانة الراعية رفيقتك فى الجنة، فسأل عنها إلى أن وجدها، فاستضافها ثلاثًا لينظر إلى عملها، فكان يبيت قائمًا وتبيت نائمة، ويظل صائمًا وتظل مفطرة. فقال: أمَا لكِ عملٌ غير ما رأيتُ؟ قالت: ما هو والله إلا ما رأيتَ، لا أعرف غيره. فلم يزل يقول: تذكَّرى، حتى قالت: خُصيلة واحدة هى فىَّ: إن كنتُ فى شدة لم أتمنَّ أنّى فى رخاء، وإن كنتُ فى مرضٍ لم أتمنَّ أنى فى صحة، وإن كنتُ فى الشمس لم أتمنَّ أنى فى الظل. قال: فوضع العابدُ يده على رأسه فقال: أهذه خصيلة؟ هذه والله خصلة عظيمة يعجز عنها العباد.

وقد روينا عن ابن مسعود: من رضى بما ينزل من السماء إلى الأرض غُفر له. وقال أبو الدرداء: ذِروةُ الإيمان الصبرُ للحُكم والرضا بالقدر. وعن بعض السَّلف: إنّ الله تعالى إذا قضى من السّماء قضاءً، أحَبَّ من أهل الأرض أن يرضَوا بقضائه.

وروى عن محمد ين حويطب عن النبى ﷺ: «من خيرِ ما أُعطى العبد الرِّضا بما قسم الله له». وفى الخبر المشهور: «طوبى لمن هُدى إلى الإسلام، وكان رزقه كفافًا ورضى به». وفى مثله أيضًا: «من رَضِى من الله عزّ وجلّ بالقليل من الرزق، رضى اللهُ منه بالقليلِ من العمل». وقد روينا عن النبى ﷺ حديثًا، من طريق أهل البيت: «إذا أحبَّ اللهُ عبدًا ابتلاه، فإن صبر اجتباه، وإن رضى اصطفاه». فالرضا عن الله عزّ وجلّ، والرحمةُ للخَلق، وسلامةُ القلب، والنصيحةُ للمسلمين، وسخاوةُ النفس ـ مقامُ الأبدال من الصدِّيقين.

وقد روينا فى أخبار موسى عليه السلام أنّ بنى إسرائيل قالوا: «سل لنا ربك أمرًا إذا نحن فعلناه يرضى به عنا. قال موسى: إلهى قد سمعتَ ما يقولون. فقال: يا موسى، قل لهم: يرضون عنى حتى أرضى عنهم».

ويشهد لهذا الخبر المروى عن نبينا ﷺ: «مَنْ أحبَّ أن يعلم ما له عند الله فلينظر ما لله عنده، فإن الله يُنزل العبدَ منه بحيث أنزله من نفسه». قال الشيخ الفقيه، أبو القاسم: وحدَّثنا أبو بكر أحمد بن جعفر بن حمدان بن مالك القطيعى بهذا الحديث، فرفعه إلى النبى ﷺ.

وقد روينا حديثًا حسنًا كالمسند عن حماد بن سلمة، عن ثابت البنانى، عن أنس بن مالك، عن النبى ﷺ: «إذا كان يوم القيامة أنبت اللهُ لطائفةٍ من أمتى أجنحةً، فيطيرون من قبورهم إلى الجنان، يسرحون فيها، ويتنعَّمون كيف شاؤوا. قال: فتقول لهم الملائكة: هل رأيتم الحساب؟ فيقولون: ما رأينا حسابًا. فيقولون: هل جُزتم الصراط؟ فيقولون: ما رأينا الصراط. فيقال لهم: رأيتم جهنم؟ فيقولون: ما رأينا شيئًا. فتقول الملائكة: مِن أمة مَنْ أنتم؟ فيقولون: من أمة محمد ﷺ. فيقولون: نشدناكم الله، حدِّثونا ما كانت أعمالكم فى الدنيا. فيقولون: خصلتان كانتا فينا فبلَّغنا الله هذه المنزلة، بفضل رحمته. فيقولون: وما هما؟ فيقولون: كنا إذا خلونا نستحى أن نعصيه، ونرضى باليسير مما قسم الله لنا. فتقول الملائكة: يحقُّ لكم هذا». هكذا كان فى «كتاب شيخنا» عن أنس، وقال فيه: «لطائفة من أمتى»، ففيه دليل على المسند.

وقال بعض علمائنا: أعرف فى الموتى مقبرةً عظيمة ينظرون إلى منازلهم من الجنان فى قبورهم، يُغدَى عليهم ويُراح برزقهم من الجنة بكرةً وعشيًا، وهم فى هُمومٍ وكروبٍ فى البرزخ لو قُسِّمت على أهل البصرة لماتوا أجمعين. قيل: وما كانت أعمالهم؟ قال: كانوا مسلمين، إلا أنهم لم يكن لهم من التوكُّل ولا من الرضا نصيب.

وقد جاء فى فرض الرضا قولُ النبى ﷺ: «أعطوا اللهَ الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم، وإلاّ فلا».

وقرن لقمانُ الرّضا بالتوحيد فقال فى وصيته لابنه: أوصيك بخصال تقرِّبك إلى الله، وتباعدك من سخطه: الأولى: تعبد الله لا تشرك به شيئًا. والثانية: الرضا بقدر الله فيما أحببت وكرهت. وقال فى وصيته: ومن يتوكّل على الله، ويرضى بقدر الله، فقد أقام الإيمانَ، وفرَّغ يده ورجليه لكَسْب الخير، وأقام الأخلاق الصالحة التى تُصلح للعبد أمرَه.

فمن الرضا سرورُ القلب بالمقدور فى جميع الأمور، وطيبُ النفس وسكونها فى كل حال، وطمأنينةُ القلب عند كل مفزع مهلع من أمور الدنيا، وقناعةُ العبد بكل شىء، واغتباطه بمقامه من ربه، وفرحُهُ بقيام مولاه عليه، واستسلامُ العقل للمولى فى كل شىء، ورضاه منه بأدنى شىء، وتسليمُه له الأحكام والقضايا باعتقاد حسن التدبير وكمال التقدير فيها، وبتسليم العبد إلى مولاه ما فى يديه رضًا بحكمه عليه، وأن لا يشكو الملك السيد الكريم إلى العبد المملوك، ولا يتبرَّم بفعل الحبيب، ولا يفقد فى كل شىء حسن صنع القريب.

ومن الرضا أن عند أهل الرضا أن لا يقول العبد: هذا يوم شديد الحر، ولا هذا يوم شديد البرد، ولا يقول: الفقر بلاء ومحنة، والعيال همٌّ وتعب، والاحتراف كد ومشقة، ولا يعقد بقلبه من ذلك ما لا يَفُوه به، بل يرضى بالقلب، ويشكر باللسان، ويسلِّم ويسكن بالعقل، ويستسلم بوجود حلاوة التدبير، واستحسان محكم التقدير. كما قال عمر بن عبد العزيز: أصبحت وما لى سرور إلا فى انتظار مواقع القدر.

وقال ابن مسعود: الفقر والغنى مطيتان ما أبالي أيهما ركبتُ، إن كان الفقر فإن فيه الصبر وإن كان الغنى فإن فيه البدل.

وقال أحمد بن أبى الحوارى: قلت لأبى سليمان: إن فلانًا قال: وددتُ أن الليل أطول مما هو. فقال: قد أحسن، وقد أساء. أحسن حيث تمنى طوله للعبادة، وأساء إذا لم يحب ما لم يحب الله.

وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه: ما أبالى على أى حال أصبحتُ وأمسيتُ من شدة أو رخاء.

وقال ذات يوم لامرأته عاتكة، وقد غضب: والله لأسوءنَّك. فقالت: أتستطيع أن تصرفنى عن الإسلام بعد إذ هدانى الله له؟ قال: لا. قالت: فبأى شىء تسوءنى إذًا؟

وقال جعفر بن سليمان الضبعى: قال سفيان الثورى يومًا عند رابعة: اللهم ارض عنا. فقالت: أما تستحى من الله أن تسأله الرضا وأنك غير راضٍ عنه؟! فقال: أستغفر الله. قال جعفر: فقلت لها: متى يكون العبد راضيًا عن الله تعالى؟ فقالت: إذا كان سروره بالمصيبة مثل سروره بالنعمة.

وقال فضيل بن عياض: إذا استوى عنده المنع والعطاء فقد رضى.

وفى أخبار داود: ما لأوليائى والهمُّ بالدنيا، إن الهمَّ يُذهب حلاوة مناجاتى من قلوبهم. وفى بعضها: يا داود، إياك والاهتمام بالدنيا، محبتى من أوليائى أن يكونوا روحانيين لا يغتمون. إياك والغمَّ، ولا تهتم للخير وأنت تريدنى.

ويقال: أكثر الناس همًا بالدنيا أكثرهم همًا فى الآخرة، وأقلهم همًا بالدنيا أقلهم همًا فى الآخرة.

وروينا عن رسول الله ﷺ: «الإيمان بالقدر يُذهب الهمَّ والحزَن».

واعلم أنّ الفرح بالدنيا يُخرج همَّ الآخرة من القلب، والغم على الدنيا يحجد عن الحزن على فوت الآخرة. وذُكر عند رابعة عابدٌ له عند الله منزلة، وكان قر

ما يتقمم من مَزْبلة[1] لبعض ملوكهم. فقال رجل عندها: فما يضر هذا إذا كانت له عند الله منزلة أن يسأله، فيجعل قوته فى غير هذا!! فقالت له: اسكت يا بطال، أما علمت أن أولياء الله هم أرضى عنه أن يتخيروا عليه أن ينقلهم من معيشةٍ، حتى يكون هو الذى يختار لهم.

وقال أحمد بن أبى الحوارى: قال لى أبو سليمان: إن الله تعالى من كرمه قد رضى من عبيده بما رضى العبيد من مواليهم. قلت: وكيف ذلك؟ قال: أليس مراد العبد من الخلق أن يرضى عنه مولاه؟ قلت: نعم. قال: فإن محبة الله من عبيده أن يرضوا عنه.

وقال الأعمش: قال لى أبو وائل: يا سليمان، نِعْمَ الرّبُّ ربنا، لو أطعناه ما عصانا.

وقال الله عز وجل فى معناه: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الشورى:٢٦]؛ أى يعطيهم ويستجيب لهم، والاستجابةُ الطاعةُ، كقوله تعالى: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى﴾ [البقرة:١٨٦]، فلما استجابوا له استجاب لهم، فأطاعوه فيما أحبَّ فأطاعهم فيما يحبون. وهذا أحد وجهى الآية، كقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِى أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة:٤٠]. وهو على تأويل من قرأ: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ [المائدة:١١٢]. قال ابن عباس: كان الحواريون أعلم بالله أن يشكُّوا أن الله يقدر على ذلك، وإنما معناه: هل يستطيع، أى: يطيعك. وروينا أيضًا عن عائشة مثله.

وقال الفضيل: من أطاع الله تعالى أطاعه كل شىء، ومن خاف من الله خاف منه كلُّ شىء.

وفى أخبار موسى عليه السلام: «يا رب دُلَّنى على أمرٍ فيه رضاك حتى أعمله، فأوحى الله تعالى إليه: إن رضاى فى كُرْهِك، وأنت لا تصبر على ما تكره. قال: يا رب دُلنى عليه. قال: فإن رضاى فى رضاك بقضائى». وقد يروى على وجه

(١) فى المطبوعة: «منزلة» وهو تحريف صوابه من (د، م). وهذا التقوت قد أضر بأهله من التصوف، ولو تكسب كان خيرًا له، وأصاب السُّنَّة. وتعليق الرّجل حق لأنه يوافق السنة.

آخر: أن بنى إسرائيل سألوا موسى، فقالوا: لو علمنا فى أى شىء رضا ربنا لفعلناه؟ فأوحى الله إليه: قل لهم: رضاى فى رضاهم بقضائى. وفى مناجاة موسى عليه السلام: يا رب، أىُّ خلقك أحبُّ إليك؟ قال: مَن إذا أخذت منه المحبوبَ سالمنى. قال: فأى خلقك أنت عليه ساخط؟ قال: من يستخيرنى فى الأمر، فإذا قضيتُ له سَخِط قضائى.

وقد ورد أشد من هذا كله: أن الله تعالى قال: «أنا الله لا إله إلا أنا، من لم يصبر على بلائى، ويرضَ بقضائى، ويشكر نعمائى، فليتخذ ربًا سواى». وقد رويناه عن النبى ﷺ من طريق. ومثله فى الشدة يقول الله تعالى: «قدَّرتُ المقادير، ودبَّرتُ التدبير، وأحكمتُ الصنعَ، فمن رضى فله الرضا منى حين يلقانى، ومن سخط فله السُّخط منى حين يلقانى». وفى الخبر: «أول ما كتب لموسى عليه السلام: ﴿إِنَّنِى أَنَا اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا﴾ [طه:١٤]، من رضى بحكمى، واستسلم لقضائى، وصبر على بلائى، كتبتُه صدِّيقًا، وحشرتُه مع الصدِّيقين يوم القيامة».

وروينا فى الخبر المشهور بمعناه: «يقول الله جل جلاله: قدَّرتُ الخيرَ والشرَّ، وأجريتهما على أيدى عبادى، فطوبى لمن خلقته للخير، وأجريتُ الخير على يديه، وويل لمن خلقته للشر، وأجريتُ الشرَّ على يديه، وويل ثم ويل لمن قال: لم وكيف؟».

وفى الأخبار السالفة: «أن نبيًا من الأنبياء شكا إلى الله الجوع والفقر عشر سنين، كل ذلك لا ينظر فى مسألته، فأوحى الله إليه: لِمَ تشكو؟ هكذا كان بدؤك عندى فى أم الكتاب، قبل أن أخلق السموات والأرض، وهكذا سبق لك منِّى، وهكذا قضيتُ عليك قبل أن أخلق الدنيا، أفتريد أن أُعيد خلق الدنيا من أجلك؟ أم تريد أن أبدِّل ما قدَّرتُ عليك، فيكون ما تحب فوق ما أحب ويكون ما تريد فوق ما أريد؟ وعزتى وجلالى، لئن تخالج فى صدرك مرة أخرى لأَمحونَّك من ديوان النبوة».

وروينا أن آدم عليه السلام كان بعض أولاده الصغار يصعدون على جسمه

وينزلون، يجعل أحدهم رجله على أضلاعه كهيئة الدَّرَج، فيصعد إلى رأسه، ثم ينزل على أضلاعه ـ كذلك قال ـ وهو مُطرق إلى الأرض، ولا ينطق، ولا يرفع رأسه. فقال له بعض ولده: يا أبت، ألاَ ترى ما يصنع هذا بك؟ لو نهيته عن هذا! فقال: يا بنى: إنى رأيت ما لم تروا، وعلمت ما لم تعلموا، إنى تحركت حركة واحدة، فأُهبطت من دار الكرامة إلى دار الهوان، ومن دار النعيم إلى دار الشقاء، فأخاف أن أتحرك حركةً أخرى فيصيبنى ما لا أعلم».

وروينا فى بعض الأخبار أنه قال: «إنّ الله ضمن لى إن حفظتُ لسانى أن يردَّنى إلى الدار التى أخرجنى منها».

وقال أبو محمد سهل: حظُّ الخلق من اليقين على قَدْر حظِّهم من الرضا، وحظُّهم من الرضا على قدر عيشهم مع الله.

وروى عطية، عن أبى سعيد، عن رسول الله ﷺ: «إن الله بحكمه وجلاله جعل الرَّوْح والفرح فى الرضا واليقين، وجعل الغمَّ والحزن فى الشك والسُّخط».

ومن الرضا أن لا تذم شيئًا مباحًا، ولا تعيبه، إذ كان بقضاء مولاك العزيز، مشاهدًا للصَّانع فى جميع الصنعة، ناظرًا إلى إتقان الصُّنع والحكمة، وإن لم يخرج ذلك عن معتاد المعقول والعادة. وبعض العارفين يجعل هذه الأشياء فى باب الحياء من الله عز وجل. ومنهم من يقول: هى من حُسن الخُلُق مع الله تعالى. ومنهم من جعله من باب الأدب بين يدى الله. فإذا كان هذا كذلك كان ذمُّ الأشياء التى أُبيحت وعيبُها من سوء الخُلُق مع الله، وكانت من سوء الأدب بين يدى الله. وأعظم من ذلك أنها تدخل فى باب قلة الحياء من الله، ويصلح أن يكون هذا أحد معانى الخبر الذى جاء: «قلة الحياء كفر»؛ يعنى كفر النعمة، بأن يذمَّ ويعيب بعض ما أنعم الله به عليه من الإرفاق والإلطاف، إذ كان فيها تقصير عن تمام مثلها، أو كانت مخالفة لهواه منها، فيكون ذلك كفرًا للنعمة، وقلةَ حياء العبد من المنعم، إذ قد أمره بالشكر على ذلك، فبدَّل الشكر كفرًا؛ لأن أحدًا لو اصطنع لك طعامًا، فعِبتَهُ وذَمَمْتَه، كره ذلك منك، فكذلك تعالى يكره ذلك منك. وهذا داخل فى معرفة معانى الصفات، وفى معنى ما قيل: أعرفُكم بربه

أعرفكم بنفسه، لأنك إذا عرفت صفات نفسك فى معاملة الخَلْق، عرفت منها صفات خالقك.

وبعض الراضين يجعل ذمَّ الأشياء وعيبَها بمنزلة الغيبة لصانعها، لأنها صنعته، ونَتاجُ حكمته، ونفادُ علمه، وحكمُ تدبيره، وتدبيرُ مقاديره؛ لأنه أحكم الحاكمين، وخير الرازقين، وأحسن الخالقين، له فى كل شىء حكمةٌ بالغة، وفى كل صنعةٍ صنع متقن. ولأنك إذا عبت صنعة أحدٍ وذَمَمْتها، سرى ذلك إلى الصانع، لأنه كذلك صنعها، وعن حكمته أظهرها، إذ كانت الصنعةُ مجبولةً لم تصنع نفسها، ولا صُنع لها فى خِلْقتها. وكان الورعون لا يعيبون صنعة عبدٍ كراهة الغيبة له، وذلك أن الراضى عن الله متأدب بين يدى الله، يستحى أن يعارضه فى داره، أو يعترض عليه فى حكمه. فصاحب الدار يصنع فى حكمه ما شاء، والحاكم يحكم بأمره كيف شاء، والعبد راضٍ بصُنع سيده، مسلِّمٌ لحكم حاكمه.

وروى فى الإسرائيليات: «أن عيسى عليه السلام مرَّ مع نفرٍ من أصحابه بجيفة كلب، فغطوا آنافهم، وقالوا: أف أف، ما أنتن ريحه! فلم يخمِّر عيسى عليه السلام أنفه، وقال: ما أشد بياض أسنانه»؛ أراد أن ينهاهم بذلك عن الغيبة، ويعلِّمهم ترك عيب الأشياء، كيف وهو يرى بعين نفسه أنّ الصنعة من صانعها، فهو يقلِّبها ويصرِّفها على معانى نظره.

وروينا عن رسول الله ﷺ أنه ما عاب طعامًا قط؛ إن اشتهاه أكله، وإلا تركه. وقال أنس: «خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين - ليس كل امرئ كما يريد صاحبى - ما قال لى لشىء فعلته لِمَ فعلته، ولا لشىء لم أفعله ألاَ فعلته، ولا قال فى شىء كان ليته لم يكن، ولا لشىءٍ لم يكن ليته كان». وكان يقول ﷺ: «لو قُضى شىءٌ لكان».

وفى بعض أخباره: «وإن خاصمنى مخاصم، قال: دعوه، لو قُضى شىء كان». هذا لفظ ثلاثة أحاديث، وهذا وصف الراضى الموفَّق القائم بشهادته[1].

(١) هذه الفقرة من: (د، م).

وقد رُويت لفظةٌ مجملةٌ[١] فى شيئين متضادين: «ما بعثنى النبى ﷺ فى حاجة قُضيت أو لم تُقض إلا قال: لو قُضى شىءٌ لكان». فهذا إذا كان اللفظ راجعًا على الوصفين، فالمعنى فيما قُضى أيضًا، أى: لو قُضى ألاَّ يُقضى لم يُقْضَ، فاستوى عنده بالقضاء ما قُضى؛ لأنه قد قضى أن يُقضى وما لم يُقض؛ لأنه لم يسبق فيه القضاء، ولم[٢] يصلح فى هذا الوجه أن لكل حاجة تقديرًا من الوهم، فكأنها وإن قُضيت إلا أنها على غير ما تصورَّ فى وهمه، قال: لو قُضى ذلك لكان.

فإن كان اللفظ عائدًا على ما لم يُقض وحده؛ لأن ما قُضى فقد ظهر، وبان بلا[٣] مسألة، فيكون هذا بمعنى قوله فى قصة ذى اليدين لما قيل له: أَقَصَرْتَ الصلاةَ أم نسيتَ؟ قال: كلُّ ذلك لم يكن. وقد كان أحدهما وهو النسيان.

وهذا أيضًا فيه لطيفة يحتملها التأويل: أن يريد كل ذلك بمجموعيهما لم يكن. فهذا يرجع بمعنى قوله فيما قضى: «لو قضى ألا يُقضى». كما أن ما لم يُقض قد قُضى، أى: يقضى، رجع القضاء عليهما سواء. فكان ﷺ يرضى بما قُضى كيف قضى على ما تصورَّه الوهمُ، أو بخلافه، ويرضى بما لم يقض؛ لأنّ القضاء فيهما سواء، فينبغى أن يكون الرضا بهما سواء[٤].

فبالنظر فى هذه الدقائق، والوقوف عندها، رُفع القوم عند الله إلى مقام المقرَّبين، وبالتهاون بها، والغفلة عنها، نَغلَت[٥] القلوبُ ففسدت، حتى لم تصلح للمحبة والرضا. وهذه المعانى من الاعتراضات والتخيُّر هو تقدُّم بين يدى الله، وهو التدبير الذى يشير إليه سهل، ويقول: إن تدبير الخلق حجبهم عن الله عز وجل.

---

(١) فى (د): «لفظه مجمله».

(٢) هكذا فى (م) وفى (د): «وقد يصلح فى هذا الوجه».

(٣) فى (د): «فلا مسألة».

(٤) من أول قوله: «وقد رويت لفظة» إلى هنا اتفقت نسختا (د، م) على زيادتهما مع اختلاف يسير بينهما لم أُشر إليه لعدم تأثيره فى المعنى.

(٥) نغلت: ساءت وفسدت. يقال: نَغِل الجرح: فسد. ونغلت نيته: ساءت. ونغل قلبه على فلان: ضَغِن. فهو نَغِلٌ، وهى نَغِلة.

وحُكى لنا: أن بعضهم صحب بعض العارفين فى طريق، فعبث بشىء فنحَّاه من مكان إلى مكان آخر، فقال له العارف: ماذا صنعتَ؟ أحدثتَ فى المُلك حدثًا عن غير ضرورة ولا سنَّة، فلا تصحبنى أبدًا.

فلو لم يكن لنا من الذنوب إلا هذه الأشياء لقد كان كافيًا، وفوق ذلك تهاوننا بها، وأعظم من ذلك ترك التوبة والاستغفار منها.

وأعمال طلاَّب الرضا من الله مضاعفةٌ على أعمال المجاهدين فى سبيل الله، لأن أعمال المجاهدين تُضاعَف إلى سبعمائة ضعف، وتضعيف طالبى الرضا لا تُحصى. قال الله تعالى: ﴿وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة:٢٦١]. وقال تعالى: ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة:٢٤٥]. قيل: الحسنة إلى ألفى ألف حسنة. وقد قال تقدست أسماؤه: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة:٢٦١]. ثم قال وهو أصدق القائلين: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾ [البقرة:٢٦٥]. فكم فى هذه الجنة من سنبلة وحبة؟! فهؤلاء الذين قال: ﴿وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة:٢٦١]، هم أهل الرضا عنه، وهم الذين أقرضوا الله قرضًا حسنًا لأجله، لمضاعفته لهم أضعافًا كثيرة. فمن عقل عن الله حكمته، كان مع الله تعالى فيما حكم، مسلِّمًا له ما شهد؛ لأنه سبحانه باختياره أنشأ الأشياء، وبمشيئته أبداها، وعنه يتصرف المقدور، وإليه عواقبُ الأمور، لا يكون مع نفسه فيما يهوى، ولا مع معتاده، وعرفه فيما يعقل.

وقال بعض العارفين: قد نِلتُ من كل مقام حالاً إلا الرضا، فما لى منه إلا مَشامُّ الريح، وعلى ذلك لو أدخل الخلائق كلهم الجنة وأدخلنى النار، لكنت بذلك راضيًا.

وقيل لعارفٍ فوقه: نِلتَ غاية الرضا عنه؟ فقال: الغايةُ لا، ولكن مقامٌ من الرضا قد نلتُه، حتى لو جعلنى جسرًا على جهنم عبر الخلائق علىَّ إلى الجنة، ثم ملأ بى جهنم تحلَّةً لقَسَمه، وبدلاً من خليقته، لأحببت ذلك من حكمه، ورضيت

به من قِسْمه.

وحدثونا عن الروزبارى قال: قلت لأبى عبد الله بن الجلاَّء الدمشقى: قول فلان: وددت أن جسدى قُرض بالمقاريض وأن هذا الخلق أطاعوه، ما معناه؟ قال: يا هذا، إن كان من طريق الإشفاق على الخلق والنصح فأعرفُ، وإن كان من طريق التعظيم والإجلال فلا أعرف، قال: ثم غُشى عليه.

وقد كان عمران بن الحصين استسقى بطنه، فلبث ملقًى على ظهره ثلاثين سنةً سطيحًا، لا يقوم ولا يقعد، قد نُقب له فى سريرٍ من جريد كان تحته موضعٌ لغائطه وبوله، فدخل عليه مُطرِّف أو أخوه العلاء، فجعل يبكى، لما يرى من حاله، فقال: لم تبكى؟ فقال: لأنى أراك على هذه الحال العظيمة. فقال: لا تبكى فإنَّ أحبَّه إلىَّ أحبُّه إلى الله. ثم قال: أحدِّثك شيئًا، لعل الله أن ينفعك به، واكتُم علىَّ حتى أموت: إن الملائكة تزورنى فآنس بها، وتسلِّم علىَّ فأسمع تسليمها.

أراد عمران رحمه الله بذلك أن يُعلم أن هذا البلاء ليس بعقوبة؛ لأن مثل هذه الآية إنما هى درجة ورحمة، وبلاءُ العقوبات لا يكون معه الآيات، ولا يوجد عنده الحلاوات، ولا مزيد القلوب من نسيم ريحان الغيوب؛ ولأنه كان حزن عليه، فأراد أن يبشِّره: فلا تذكر الحبيب، ولا حب لقاء الطبيب. كما أنشد بعض المحبين:

يا حبيبًا بذِكْره نَتَـداوى ... وصفُوُه لكل داءٍ عجيبْ

مَـن أراد الطبيـبَ سُرَّ إذا ... اعتلَّ اشتياقًا إلى لقاءِ الطبيبْ

مَن أراد الحبيبَ سَارَ إليـه ... وجَفا الأهلَ دُونه والقريبْ

ليس داءُ الـمُحـبِّ داءً يُدَاوى ... إنمـا بُرْؤُه لِقـاءُ الحبيبْ

قال: ودخلنا على سويد بن شعبة نعوده، فرأينا ثوبًا ملقًى فما ظننَّا أَنَّ تحته شيئًا حتى كُشف، فقالت له امرأته: أهلى فداؤك، ما نطعمك ما نسقيك؟ فقال:

طالت الضجعةُ، ودبرت الحراقيف، وأصبحتُ نضْوًا[(١)]، لا أطعم طعامًا ولا أسيغ شربًا منذ كذا، فذكر أيامًا، ثم قال: وما يسرُّنى أنى نُقصت من هذا قُلامةَ ظُفُر.

واعتل حذيفة علة الموت، فجعل يقول: اخنق خناقك، فوعزتك إنك لتعلم أنى أحبك، فلما حضره الموت، جعل يقول: حبيبٌ جاء على فاقة، لا أفلح من ندم.

وروى أيضًا مثل هذا عن أبى هريرة.

ولما قدم سعد بن أبى وقاص إلى مكة، وكان قد كُفَّ بصره، جاءه الناس يهرعون، كل واحد يسأله أن يدعو له، فيدعو لهذا ولهذا، وكان مجاب الدعوة، دعا له رسول الله ﷺ بذلك. قال عبد الله بن السائب: فأتيتُه وأنا غلامٌ، فتعرَّفت إليه فعرفنى. وقال: أنت قارىءُ أهل مكة؟ قلتُ: نعم، فذكر قصة، قال فى آخرها: فقلت له: يا عم، أنت تدعو للناس، فلو دعوتَ لنفسك، فردّ الله عليك بصرك؟ فتبسم ثم قال: يا بنى، قضاء الله عندى أحسن من بصرى.

ويقال إنّ بعض هذه الطائفة ضاع ولده ـ وكان صغيرًا ـ ثلاثة أيام، لا يعرف له خبرًا. فقيل له: لو سألت الله أن يرده عليك. فقال: اعتراضى عليه فيما قضى أشدُّ من ذهاب ولدى.

وقد روينا عن بعض العُبَّاد أنه قال: أذنبتُ ذنبًا، فأنا أبكى عليه منذ ثلاثين سنة، وكان قد اجتهد فى العبادة، لأجل التوبة من ذلك الذنب. قيل له: وما هو؟ قال: قلت مرة لشىء كان: ليته لم يكن.

وقال بعض السلف: لو قُرِض جسمى بالمقاريض كان أحبَّ إلىَّ من أن أقول لشىء قضاه الله: ليته لم يقضه.

وحدثونا عن بشر الحافى قال: رأيت بعبّادان رجلاً قد قطعه البلاء، وقد سالت حدقتاه على خدَّيه، وهو فى ذلك كثيرُ الذكر، عظيم الشكر لله، قال: وإذا هو قد

---

(١) الحَرْقَفتان: مجتمع رأس الفخذ ورأس الورك حيث يلتقيان. ويقال للمريض إذا طالت ضجعته: دَبِرَت حَراقِفُه. ونضوًا: مهزولاً.

صُرِع من حبه به. قال: فوضعتُ رأسه فى حجرى، وجعلت أسأل الله عز وجل كشْفَ ما به، وأدعو له. فأفاق، فسمع دعائى، فقال: من هذا الفضولى الذى يدخل بينى وبين ربى، ويعترض عليه فى نِعَمه علىَّ؟ قال: ونحَّى رأسه. قال بشر: فاعتقدت أن لا أعترض على عبدٍ فى نعمةٍ أراها عليه من البلاء.

وقيل لعبد الواحد بن زيد: ههنا رجل قد تعبَّد خمسين سنة، فقصده فقال: حبيبى أخبرنى عنك، هل قَنِعْتَ به؟ قال: لا. قال: هل أنِسْتَ به؟ قال: لا. قال: فهل رَضِيتَ عنه؟ قال: لا. قال: فإنما مزيدك منه الصوم والصلاة. قال: نعم. قال: لولا أنى أستحى منك لأخبرتك أن معاملتك خمسين سنة مدخولة.

أراد بذلك أنه لم يقرِّبك، فيجعلك فى مقام المقربين، فيكون مزيدك لديه من أعمال القلوب، وكذلك يصنع بأوليائه، إنما أنت عنده فى طبقة أصحاب اليمين، فمزيدُك منه مزيد العموم من أعمال الجوارح. وقد يكون الرجل مخلصًا فى مقامه وإن كان فوقه فوق.

وقد روينا عن ابن محيريز(١)، وكان من عبَّاد أهل الشام وعلمائهم، كلمةً غريبة المعنى، دقيقةً فى معنى المخالفة لله عز وجل، وإن كان قد فسرها، فإنه لم يكشف معناها لفهم السامعين منه والحاضرين عنده، فيحتاج تفسيرها إلى تفسير. روينا عنه أنه قال: كلُّكم يلقى الله تعالى، ولعله قد كذبه، وذلك أن أحدكم لو كان له أصبع من ذهبٍ ظل يشير بها، ولو كان بها شلل ظل يواريها(٢).

يعنى بذلك أن الذهب من زينة الدنيا، وقد ذم الله تعالى الدنيا، وأن البلاء زينة أهل الآخرة، وقد مدح الله الآخرة، أى: فأنت إذا أعطاك زينة الدنيا أظهرتها وفخرت بها، وإذا أعطاك زينة الآخرة، وهى المصائب والبلاء، كرهتها وأخفيتها؛ لئلا تُعاب بذلك، فحَسب عليه حبَّ الدنيا والتزين بها وكراهة البلاء، تكذيبًا لله، وردًا عليه ما وصفه. وهذا يدخل فى باب الزهد، وفى باب الرضا، ويدخل على

---

(١) هو عبد الله بن محيريز المكى، قال رجاء بن حيوة فى حقه: «إن كنت أعدّ بقاءه أمانًا لأهل الأرض» توفى (٩٩هـ). انظر ترجمته فى الحلية ٥/ ١٣٨، والكاشف ٢/ ١٢٨.

(٢) الخبر فى الحلية ٥/ ١٤٠.

من أخفى الفقر والبلاء حياءً من الناس؛ لئلا يعاب بذلك، فهو من ضعف يقينه وقوة شاهد الخلق. ويدخل فيه من أظهر الغنى من غير نيةٍ. ولا تحدُّثٍ بنعمة الله. فذلك أيضًا من قوة شاهد حب الدنيا.

وكذلك قال أبو سليمان الداراني: ثلاثُ مقامات لا حدَّ لها: الزهد، والورع، والرضا. وخالفه سليمان ابنه، وكان عارفًا ـ ومن الناس من كان يقدِّمه على أبيه ـ فقال: بلى، مَنْ تورَّع فى كل شىء فقد بلغ حد الورع، ومَنْ زهد فى كل شىء فقد بلغ حد الزهد، ومن رضى عن الله فى كل شىء فقد بلغ حد الرضا.

ولا ينقص الراضى من مقام الرضا مسألةُ مولاه مزيد الآخرة وصلاح الدنيا، تعبّدًا بذلك، وافتقارًا إليه فى كل شىء؛ لأن فى ذلك رضاه، ومقتضى تمدحه بمسألة الخلائق له. فإنْ صرف مسائله إلى طلب النصيب من المولى، وابتغاء القرب منه؛ حبًا له، وآثره على ما سواه، كان فاضلاً فى ذلك؛ لأنه قد ردَّ قلبه إليه، وجمع هَمَّه بذلك. وهذا مقام المقربين، وعلى قدر مشاهدة الراضى عن معرفته، ومقتضى حاله؛ لأنه يسأل عن عمله بعلمه فى وقت من أحواله، كما يسأل عن جملة أعماله بعلومه فى جملة عمره. وهذا أصلٌ فاعرفه؛ فهو طريق الصوفيين، وعليه عملُ العارفين من السلف، فلم يكن يضرهم عندهم خلافُ مَنْ خالف، وإن كان دعاؤه تمجيدًا لسيده، وثناءً عليه، وشغلاً بذكره، ونسيانًا لغيره، وولهًا بحبه؛ لأنه مستوجب لذلك بوصفه؛ ولأنه واجب عليه، فقد استغرقه وجوب ما عليه عماله. فهذا أفضل، وهو مقام المحبين، وهو من القيام بشهادته. وقد دخل فيما ذكرناه من مقتضى حاله بالعمل بعلمه فى وقته.

وللعلماءِ مسألةٌ قد اختلفوا فيها: فى أهل المقامات ثلاث، أيهم أفضل؟ عبدٌ يحب الموتَ شوقًا إلى لقاء الله. وعبدٌ يحب البقاء للكدِّ والخدمة للمولى. وعبدٌ قال: لا أختارُ شيئًا بل أرضى ما يختار لى مولاى؛ إن شاء أحيانى أبدًا، وإن شاء أماتنى غدًا. قال: فتحاكموا إلى بعض العارفين فقال: صاحب الرضى أفضلهم؛ لأنه أقلهم فضولاً. وهذا كما قال فى الاعتبار بترك الاعتراض والاختيار؛ لأنه دخل فى الدار بغير اختيار. وكذلك يكون خروجه منها على معنى دخوله بلا

اختيار؛ لأن مقام الرضا أعلى من مقام التشوق، ثم الذى يليه فى الفضل؛ الذى يحب الموت شوقًا إلى لقاء الله، وهذا مقام فى المحبة، وفى حقيقة الزهد فى الحياة. وفى الخبر: «من أحبَّ لقاءَ الله أحبَّ الله لقاءه». والذى يحب البقاء للخدمة، وكثرة المعاملة، هو فاضل بعد هذين، مقامُه قوةُ الرجاء وحسنُ الظن فى العصمة، وله أيضًا مطالعات من الأنس، وملاحظات فى القُرب، به طاب مقامه، وعنده سكنت نفسُه، وقصرت عليه أيامه. وقد قال رسول الله ﷺ: «أفضلُ المؤمنين إيمانًا ـ أو قال: أكملُ المؤمنين إيمانًا ـ مَنْ طال عمره، وحَسُنَ عملُه». هذا؛ لأنّ الأعمال مقتضى الإيمان، إذ حقيقة الإيمان إنما هو قولٌ وعمل، وليس بعد هؤلاء مقامٌ يُفرَح به، ولا يُغبَط صاحبه عليه، ولا يوصف بمدحٍ، إنما هو حبُّ البقاء؛ لمتعة النفس، وموافقة الهوى. وقد تُشرف النفسُ على الضعفاء من أهل هذا الطريق، وتختفى فيها علة؛ وهو أن يحب البقاء؛ لأجل النفس وللمتعة بروح الدنيا، وما طُبعت عليه من حبِّ الحياة، وتكره الموتَ؛ لمنافرة الطبع، ولطول الأمل، فيتوهم أنه ممن يحبُّ البقاء؛ لأجل الله وطاعته وخدمته. وهذا هو من الشهوة الخفية، التى لا يخرجها إلا حقيقة الزهد فى الدنيا. ولا يفضل فى هذا الطريق الثالث إلا عارفٌ، زاهدٌ، دائمُ المشاهدة باليقين. فأما المعتلُّ بوصفه وهواه، فليس يقع به اعتبارٌ فى طريق ولا مقام.

واجتمع ذات يوم وَهيبُ بن الورد، وسفيان الثورى، ويوسف بن أسباط، فقال الثورى: قد كنتُ أكره موت الفُجأة قبل اليوم، فأما اليوم فوَددْتُ أنى مت. فقال له يوسف: ولِمَ؟ قال: لِمَا أتخوَّف من الفتنة. فقال يوسف: لكنى لا أكره طول البقاء. فقال الثورى: ولم تكره الموت؟ قال: لعلى أصادف يومًا أتوب فيه، وأعمل صالحًا. فقيل لوهيب: أى شىء تقول أنت؟ فقال: أنا لا أختار شيئًا، أحبُّ ذلك إلىَّ أحبُّه إلى الله. قال: فقبَّل الثورى ما بين عينيه وقال: رُوحانية وربِّ الكعبة. يعنى مقام الروحانيين، وهم المقربون أهل الرَّوْح والريحان، وأولو المحبة والرضوان. كما قال تعالى: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ [الواقعة: ٨٩]؛ يعنى: لهم ريح من نسيم القرب، وريحان من طِيب الحُبِّ. وأيضًا أنه تعالى لما ذكر أن لأصحاب

اليمين فى كل شدة وهولٍ سلامةً، وكان المقرَّبون هم الأعلين، كان أيضًا فيما دلَّ الفهمُ عليه، أن للمقربين من كل هول رَوْحًا به؛ لشهادتهم القريب، وفى كل كَرْبٍ ريحان منه لقرب الحبيب، فبذلك عَلَوْا، وبذلك فَضُلُوا.

وهكذا قال بعض الصوفية: سر العارف فى الأشياء واقف، مثلُ الماء فى البئر؛ لا يختار المقام، وإن أُخرج خرج. أى: ومثل لسان الميزان فى وقوفه واعتداله بين حُكمين، أيها أُمدَّ به مال به. وقال آخر: قلبى مثلُ الماء، يَسْخُن ثم يَبْرُد. أى: لا يقف على وصف، بمعنى ما قيل فى صفة العامل صحة اعتباره وتَقَضِّى أوطاره، فإنْ ذمَّ هذا الراضى ما ذمه الله، أو كره ما كرهه الله، لم ينقص ذلك رضاه، وكان محسنًا فى فعله؛ لموافقته مولاه، وإن لم يرض بحاله نقص فى الدين والآخرة، أو كره مزيد الدنيا من الكثرة والجمع والادخار لم يقدح ذلك فى رضاه؛ لأنه من التحقق بالزهد، وهو فى جميع ذلك موافق للعلم.

والله تعالى أعلم بأحكامه من العبد، وأغير على نفسه من الغير، وأعلى مشاهدةً من الخلق، له المثل الأعلى. فهو على ذلك يشهد أحكامه، ويذمُّ المحكوم عليه إذا تعدى حدود أمره، ويُنْفِذُ عِلْمَه بمشيئته، ويمقتُ العاصين له باجتراح نهيه، حكمةً منه وعدلاً. كما أنه يشهد يده فى العطاء، ويمدح المنفقين، ويُمضى إرادته بالقضاء بتوفيقه، ويشكر العاملين كرمًا منه وفضلاً ومحبةً وابتلاءً[1]. كذلك الراضى عنه موافقٌ له فيما حكَم، ومتَّبعٌ له فيما رسم، ومُسلِّم له فيما قدَّر، وعالم منه بما حفظه به، وراضٍ بما دبَّر، ومستعمل لما شرَع، ومواطئ لرسوله ﷺ فيما سنَّ، متخلِّق بأخلاق مولاه بما حفظه به وتولاه، سالك منهاج رسوله، يذم ما ذمه المولى والرسول، ويمدح ما مدحه العلم ودلت عليه الأصول، وذلك كله لأجل المولى، ولأنه لرسوله اتَّبع، لا لأجل ما ضرَّ ونفع.

والتحدث بالأوجاع والإخبار عن المصائب لا يُنقص حال الراضى، إذا رآها نعمةً من الله عليه وشكر الله عليها، وكان القلب مسلِّمًا راضيًا، غير متسخط ولا

(١) فى الفقرتين السابقتين زيادات متعددة جملة أو أكثر من (د، م) ليست فى المطبوعة، ويطول المقام بتتبع مواضعها، وبخاصة أننى أعتمد نص (م).

متبرم بمرِّ القضاء، وأول الرضا الصبر، ثم القناعة، ثم الزهد، ثم المحبة، ثم التوكل. فالرضا حينئذ حال المتوكل، والتوكل هو مقام الرضا، والمحبةُ حال المحب، والمحبة مقام الراضى.

وقال الفضيل بن عياض: إذا استوى العطاء والمنع عند العبد فهو الرضا. وقال غيره: إذا لم يختلف قلبه فى العدم والوجود، وفى الصِّحة والسقم، فقد رضى. وقال الثورى: منعُ الله عطاءٌ[١]؛ لأنه منعٌ من غير بُخلٍ ولا عُدم، فمنعه اختيارٌ وحسنُ نظر، وهذه مشاهدة الراضى. وهذا كما قال؛ لأن حقيقة المنع إنما يكون لمن لك عنده شيء فمنعك، أو تستحق عليه شيئًا فلم يعطك؛ فأما من لا تستحق عليه شيئًا، ولا لك معه شيء؛ لأنه الأول قبل كل شيء، والمظْهِرُ لكل شيء، والمالك لما أظهر، والمختار لما خلق، وليس لأحدٍ من خلقه اختيار، ولا فى حكمه اشتراك، له الخلق والأمر، ولا يشرك فى حكمه أحدًا، والعبد لم يكن شيئًا مذكورًا، فكلُّ[٢] شيء اختاره فهو عطاءٌ منه، على تفاوت مقادير، وضروب أحكام، وتصاريف تدبير؛ حلو ومر، ولطف وعنف، وشدة ورخاء، وموافقة للنفس ومُرافق، ومخالفةٍ لما يهوى مما لطبعها لا يوافق. فالصبر على الأحكام مقام المؤمنين، والرضا بها مقام الموقنين: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]. ﴿واصبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ وَهُوَ خَيْرُ الحَاكِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٩].

واعلم أن الرضا من مقامات اليقين، وأحوال المحبين، ومشاهدة المتوكلين، وهو داخل فى كلِّ أفعال الله سبحانه؛ لأنها عن قضائه، لا يكون فى ملكه إلاّ ما قضاه، فعلى العارفين به الرضا بالقضاء. ثم يُرَدُّ ذلك إلى تَفْصيل العلم، وترتيب الأحكام؛ فما كان من خيرٍ وبرٍّ أَمَر به أو ندب إليه، رضى به العبد وأحبه شرعًا وفعلاً، ووجب عليه الشكر. وما كان من شرٍّ نهى عنه وتهدد عليه، فعلى العبد أن يرضى به عدلاً وقدرًا، ويسلِّمه لمولاه حكمةً وحكمًا، وعليه أن يصبر عنه، ويقرَّ به ذنبًا، ويعترف به لنفسه ظلمًا، ويرضى بعَوْدِ الأحكام عليه بالعقاب، وأنه

---

(١) فى (د): «العطاء رحمة».

(٢) جواب قوله: «فأما من لا تستحق عليه شيئًا. . .».

اجترحه بجوارحه اكتسابًا، ويرضى بأن لله الحجةَ البالغة عليه، وأنَّ لا عذر له فيه، ويرضى بأنه فى مشيئة الله عز وجل من عفوٍ عنه برحمته وكرمه إن شاء، أو عقوبة له بعدله وحقه إن شاء.

وفصل الخطاب أنه يرضى بسوء القضاء عقدًا لا من نفسه فعلاً، ويرضى به عن الله، ولا يرضى به من نفسه؛ لأن الموقنين والمحبين لا يُسقطون الأمرَ بالمعروف، والنهيَ عن المنكر، ولا ينكرون إنكار المعاصى وكراهتها بالألسنة والقلوب من قِبَل أن الإيمان فرضها، والشرع وردَ بها؛ ولأن الحبيب كَرِهها، فكانوا معه فيما كره، كما كانوا معه فيما أحب.

ومقام اليقين لا يُسقط فرائض الإيمان، ومشاهدةُ التوحيد لا تبطل شرائع الرسول، ولا تُسقط اتِّباعه. فمن زعم ذلك، فقد افترى على الله ورسوله، وكذب على الموقنين والمحبين. ألم تر أنّ الله تعالى ذم قومًا رضوا بالدنيا، ورضوا بالمعاصى، رضوا بالتخلف عن السوابق؟ فقال سبحانه: ﴿ورَضُوا بالْحَيَاة الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بهَا﴾ [يونس:٧] فذمهم بذلك. وقال تعالى: ﴿وَلَتَصْغَى إِلَيْه أفئدَةُ الَّذينَ لاَ يُؤْمنُونَ بالآخرَة وَليَرْضَوْهُ وَليَقْتَرفُوا مَا هُمْ مُقْتَرفُونَ﴾ [الأنعام:١١٣] فعابهم به. وقال تعالى: ﴿رَضُوا بأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالف﴾ يعنى مع النساء فى القعود عن الجهاد، وهذا جمع التأنيث ﴿وطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُم لا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة:٨٧]، فمن رضى بالمعاصى والمناكير منه أو من غيره، وأحبَّ لأجلها، ووالى ونصر عليها، أو ادعى أنّ ذلك فى مقام الرضا الذى يجازى عليه بالرضا، أو أنه حال الراضين الذين وصفهم الله تعالى ومدحهم، فهو مع هؤلاء الذين ذم الله ومقت.

وفى الخبر: «مَنْ شَهِد منكرًا فرضى به فكأنه فعله». وفى الحديث: «الدَّالُّ على الشَّرِّ كَفَاعِله».

وعن ابن مسعود: إن العبد لَيغيب عن المنكر، ويكون عليه مِثْلُ وزر فاعله. قيل: وكيف ذلك؟ قال: يبلغه فيرضى به.

وقد جاء فى الحديث: «لو أن عبدًا قُتِل بالمشرق، ورضى بقَتْلِه آخرُ بالمغرب،

كان شريكه فى قتله».

وقد روينا حديثًا حسنًا عن النبى ﷺ من طريق مرسل: «من نظر إلى مَنْ فوقه فى الدِّين، وإلى مَنْ دونه فى الدُّنيا، كتبهُ الله صابرًا شاكرًا. ومَنْ نظر إلى من دونه فى الدين، ومَنْ فوقه فى الدنيا، لم يكتبه الله صابرًا ولا شاكرًا».

ففى[1] هذا الحديث أربعة معانٍ حسان إذا تدبَّرها العبدُ، وتفكر فيها، لم يُعدم أن يرى أهلها؛ لأنه لا يخلو أن يرى بعينه أو بقلبه عن معرفته بسيرة المتقدمين، فيرى من فوقه فى باب الدنيا، فيشكر الله على حاله، ويقنع منه برزقه، فيكون صابرًا شاكرًا بمعرفة ما قنع به ورضى، وباختياره له ما صُرِف عنه من الفضول، وزُوى عنه من الحساب الطويل. ولا يخلو أن يرى من فوقه فى أمر الدين من العاملين والعالمين والزاهدين، فيسارع إلى ذلك، ويسابق وينافس فيه، إذ قد نُدب إلى ذلك، فيكون حظًا له[2]، وحثًا على افتعال الخيرات وأعمال الصالحات. وأقلُّ ما يفيده ذلك الإزْرَاءُ على نفسه، والمقتُ لها فى تقصيره.

ثم ينظر فى الأمرين الآخرين من وجهٍ آخر، فلا يخلو أن يرى من هو دونه فى أمر الدنيا من ذوى الفاقات والحاجات، فيحمد الله على تفضيله عليه، وحسن صونه له، ويشكر نعمته لفضل إحسانه، وكفايته له. ويجد أيضًا فى المعنى الآخر من هو دونه فى أمر الدين من الفَجَرة والظالمين وأهل البدع والزائغين، فيفرحُ بفضل الله ورحمته، ويشكر الله على حسن إسلامه، وجميل معافاته مما ابتلى به غيره، فيكون أيضًا صابرًا شاكرًا.

فيكون للعبد فى هذه الطبقات من الناس أربع معاملات بما وهب الله له من التبصرة والاعتبار، ويشهد لما ذكرناه الخبرُ الآخر من قول النبى ﷺ: «لا حَسَدَ إلاّ فى اثْنَتَيْن: رَجلٌ آتاه الله حكمةً فهو يبثُّها فى الناس ويُعلِّمها، أو رجل آتاه الله مالاً فسلَّطه على هَلَكته فى الحق». وروينا فى لفظِ حديثٍ آخر: «ورجلٌ آتاه اللهُ القرآنَ فهو يقومُ به آناء الليل والنهار. فيقول الرجلُ: لو آتانى الله مثل ما آتى هذا

(١) من هنا زيادة من (د، م) حتى قوله: «ومحنة المحبين والراضين، فتثبتوا» فى ص ١٠٢٨.
(٢) فى (م): «خصاله»، وأثبت ما فى (د).

لَفعلتُ كما فَعَل». فندب ﷺ إلى الحسد فى أعمال البر، وفضَّل الحاسد على ذلك؛ لأن الله تبارك وتعالى ندب إلى التنافس فى أعمال الخير، فمن حَسَد على هذه الثلاث ونحوها للغِبْطةِ بها، والطلب لها، لم يُخرجه ذلك من الرِّضا، وكان له مزيد، بعد أن لا يحبَ زوالها عن أهلها، ولا نقصهم منها، ولا أن لا يُذْكَرُوا بها، ولا يحبَّها هو أيضًا ليُذكَر كما ذُكروا، أو يُمدح كما مُدحوا. فهذه المعانى آفات هذه الفضائل، ولكل شىء آفةٌ مَنْ وقيها حَصَلَت له الفضيلةُ، ومن وقع فيها فحَيْدُها عنه خيرٌ له؛ لأنّه أسلمُ، ولا فضْلَ إلا بعد حَوْزِ السلامة.

وقد غلط فى باب الرِّضا بعض البطَّالين من المتأخرين، مما لا علم له، ولا يقين، فحمل الرضا على جميع ما يكون منه من معصية. وهذا لجهله بالتفضيل، وقلة فقهه بعلم التأويل، ولاتباعه ما تشابه من التنزيل؛ طلبًا للفتنةِ وغُربة الحال، وابتداعًا فى القول والفعال، ولهَواهُ فى العصيان والفسوق، فأراد أن يقيم بذلك عند الجاهلين سوقَ معذرةٍ له، وتطريقًا إليه، ولو عُصم من الهوى لاستراح، ولو زهد فى الدنيا لأراح، ولو كان علمُه للتأويل لله الفتاح العليم لأفلح، ولعَلِم الناسُ من علِمه، فربح وأربح، وأنَّى له بذلك والهوى يقلِّبه، والبلاء المقصود به يغمُره، وإنما يُعلِّم التأويل منزِّلُ التنزيلِ، ألم تسمع إلى قول الرسول ﷺ: «اللهمَّ فَقِّهه فى الدِّين وعلِّمه التأويل». والاشتغال بالبَطَّالِ بَطالَةٌ؛ لأنّ أوقاته قد ذهبت، ويذهب وقتُ غيره بذكرها.

وبطلان قول هذا عند العلماء أظهر من أن يدل على فساده، فكفونا مناظرته بطردهم له وإبعاده.

وإنما الرضا فيما كان لله سبحانه وتعالى به رضًا من غير مخالفةِ للأمْر، مثل بُغض الدُّنيا، ونقص الأموال والأنْفُس من الأهل والولد، وفيما علَى النَّفسِ فيه مشقة، ولها منه كراهة، وفيما كان مزيدًا فى الآخرة، ومما لا عقوبة فيه من الله عز وجل، ولا وعيد عليه، ولا ذمًا لفاعليه، وفيما يُفرِّد الله[1] بصُنعهِ من غير أن

(١) فى (د): «يجرد الله عز وجل».

يدخل صنعته فيه، أو يُوبِّخ النفسَ عليه، فيَدُ الله مباركةٌ إذا خرجت منها نفوس الخلق المشئومة، ثوَّب عباده وأحبَّهم، وإن أدخل نفوسهم فى حُكمه، أو جعل أيديهم فى يده، انقلبت الأحكامُ عليهم، وتحول الشرُّ والضرُّ إليهم، فطالبهم بذلك وعاقبهم، ثم يغفر بعد لمن يشاء منهم، إن هذا لهو البلاء المبين، ومِحْنَةُ المحبين والراضين، فتثبَّتوا.

وقد يحتج أيضًا بطَّالٌ لبخله، وقلَّة مواساته وبذله، أو يعتلُّ لاتساعه فى أمر الدنيا، واستئثاره على الفقر، أن الذى يمنعه من البذل، والإيثار، والزهد فيما فى يديه، والإخراج: رضاهُ بحاله، وقلةُ اعتراضه على مجريه فيه، وأن هذا مقام من مقامات الرضا خُصَّ به عند نفسه. وهذا قول لاعبٍ ذى هوى، وهو من خُدَع النفوس وأمانيها، ومن غرور العدوّ ومكايده؛ لأن الرضا لا يمنع من اختيار الفقر والضيقة؛ لمعرفة الراضى بفضل الزهد وأوصافه كيف يكون، ويحب مولاه للفقر، ولمقته على التكاثر.

فالرِّضا لا يأمر بالاستيثار والاتّساع لما كُرِه من النِّعمة والاستكثار؛ لأن الرِّضا يأمر بما أمر به الإيمان، إذ كان مقامًا فيه، فهو لا يوقف عما نُدب إليه العبدُ، ولا يُدخل فيما كُره له من فضول الدنيا، إنما يُوقف عن ذلك غَلَبةُ الهوى، ويدخل فيه محبة الدنيا، وهما مذمومان فى العلم، وعند العلماء، وتأمر به النّفسُ الأمَّارةُ بالسوء، ويوسوس به العدوُّ بالهَمِّ والخَطْوِ، وهذه مذمومات، فأحالهما لجهله على الرضا. وهذا اعتذار من النفس لها، وتمويه على الخلق، ليسلم منها، ولا عذر له بهذا عند مالكه، ولا سلامة له فيه من خالقه، ولا مقام له فى الرضا عند العلماء.

ومجمل ما ذكرناه أن الرضا لا يصحّ إلا فيما يحسن الصبر عليه، أو الشكر؛ لأن الرضا مقامٌ من الصبر هو فوقه، وحالٌ من الشكر هو يستوفيه، فهو مزيدٌ للصابرين والشاكرين، إلا أن يكون رضًا للعقود، وهو تسليمُ الأحكام للرّاضى بذلك، فيرضى بالذّم والنقص والشرِّ من حُكمه، ويعرف أنه عدلٌ فى حُكمه، فهذا منوطٌ بعُروة الإيمان، وهو فرضُ السُّنَّةِ، ليس من رضا المحبين ولا المتوكلين فى شىءٍ.

فأما أن يكون العبد على نقصان من الدين، وفى مزيد من الدنيا، ثم رضى بحاله، فرضاه بحاله شرٌّ من أعماله؛ لمخالفة الأمر. قال الله عز وجل: ﴿اتَّقُوا اللهَ وابْتَغُوا إلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]. وقال تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ إلى ربِّهِمُ الوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء: ٥٧]. وقال تعالى: ﴿سَابِقُوا إلى مَغْفِرَةٍ مِنْ ربِّكُمْ﴾ [الحديد: ٢١]. وقال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٣]. وقال تعالى: ﴿وَفى ذَلكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]. وقال تعالى: ﴿يُسَارِعُونَ فى الْخَيْرَاتِ وهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١]. فندب إلى المسارعة والسباق، وذمَّ التخلف عنها والتثبُّط بالعوائق. فعلى هذا طريقُ المؤمنين، وفيه مقامات الموقنين.

وإنما كان سبب ترك سرى السَّقطى السوقَ، وزهده فى الدنيا قوله: الحمدُ لله، لأنها كلمة رضا ظهرت منه فى موضع الاسترجاع للمصيبة، وذلك أنه بلغه أنَّ الحريق وقع فى سوقه، فأحرق دكانه، فخرج فى قِطْعٍ من الليل، فاستقبله قومٌ فقالوا: يا أبا الحسن، احترقت دكاكينُ الناس إلا دكانك. فقال: الحمد لله. ثم تفكر فى ذلك، فقال: قلتُ الحمدُ لله فى سلامة مالى وهلكة أموال إخوانى المسلمين. فتصدَّق بجميع ما كان فى دكانه من السَّقَط والآلة، كفارةً لكلمته هذه، وخرج من السُّوق، فشكر اللهُ له فعله، فزهَّده فى الدنيا، ورفعه إلى مقام المحبة، فأوصله بذلك الرضا إلى الرضا. وبلغنى عنه أنه كان يقول: قلت كلمةً، فأنا أستغفر الله منها ثلاثين سنة. يعنى قوله: الحمد لله.

وقد جاء فى الخبر: «من لم يهتمّ بأمر المسلمين فليس من المسلمين».

وفى الخبر المشهور: «أوثق عُرى الإيمان الحبُّ فى الله، والبغض فيه». فجعل ذلك من أوثق العرى لأنه منوط بالإيمان، لا يستطيع الشيطانُ حَلَّه، ولا سلطان له عليه، كما لا سبيل له على حل عُقد الإيمان؛ لأنّ الله عز وجل يحول بينه وبينه، وقد تولى تأبيد الإيمان بروح منه، بعد كَتْبه فى القلوب برحمته، وفى الحب فى الله: الولاةُ، والنُّصرةُ بالنفس والمال، والفِعْل، والمقال. وفى البغض فى الله: تركُ ذلك، فبُغض المبتدع والفاجر المجاهر، والظالم المعتدى، وترك

موالاتهم ونصرتهم، واجبٌ على المؤمنين. فلأجل ذلك صارت الموالاةُ لأولياء الله والمعاداة لأعدائه من أوثق عرى الإيمان، لأنك قد تعصى وتخالف مولاك لتسليط العدو، وغلبة هواك، إلا أنك تبغض العاصين، ولا تواليهم على المعاصى، ولا تحبهم لأجلها، من قِبَل أن العدو لم يُسَلّط على ذلك منك، كما سُلِّط على فعله من نفسك، كما أنه لم يُسلَّط على حلٍّ عَقْد إيمانك، كما سُلِّط على حلٍّ المراقبة والخوف منك. ولم يُسلَّط أيضًا عليك فى استحلال المحارم، ولا استحسانها، ولا التَّزيُّن بها، ولا فى ترك التوبة منها، ولا بالرضا بها، كما سُلِّط عليك باقترافها. فهذا من كبائر الكبائر، التى تنحلُّ عُقد الإيمان معها، وتُنقض عراه بها، من قِبَل أن الموالاة والمحبة لأعداء الله عز وجل، يعمل فى أصل الدِّين، وتمحو ثَبْتَ اليقين، فلا يبقى منه نور؛ لأنه من عصى إمامه فيما أمره مثل مَنْ قَلَب دولته، وخرج عليه بالسيف، وليس مَنْ وافق هوى نفسه فيما نهى الله عز وجلّ مثل من فرَّق ما وفَّق الله تبارك وتعالى فيما كتب وأرسل، فنبذ كتبه ظِهْريًا، ورد يده فى أفواه الرسل مُسكتًا. فإن سُلِّط على مثل هذا منك العدو، حتى تُحب الفساق وتواليهم، وتنصرهم على فسقهم، أو تستحِلَّ ما ترتكب من الحرام، أو ترضى به، أو تدين به، فقد انسلخ منك الإيمانُ، كما انسلخ الليل من النهار، فلستَ منه فى قليلٍ ولا كثير؛ لأن هذه العقود منوطة بعُرى الإيمان، وهى وهو فى قرنٍ واحدٍ مقترنان.

فإن تكن مقامات هؤلاء الفاسقين والظالمين توجب عليهم الرضا بأحوالهم، والشكر عليها، فرضوا وشكروا، لزمهم أيضًا أن يصبروا ويثبتوا على ما شكروا عليه، ورضوا به، فيصير ذلك مقامًا لهم فى الشكر والرضا عند القائلِ بهواهم، وجب عليه ـ أيضًا ـ لهم أن يحبهم عليها ويواليهم، فإذا وجب ذلك عليه لزمه أن يعينهم عليها، ويأمرهم بها، وفى هـذا تكذيب الكتب كلها، وردُّ الرسل كلهم. نعوذ بالله تبارك وتعالى من رضًا لا ينفع، ومن حُبٍّ لا ينفع، كمـا نعوذُ به من عملٍ لا ينفع، وعلم لا ينفع، ألم تسمع إلى قوله تعالى: ﴿**لاَ يَتَّخذ الْمُؤْمنُونَ الكَافرينَ أَوْلياءَ من دُونِ الْمُؤْمنينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلكَ فَلَيْسَ منَ الله فى**

شيء﴾ [آل عمران: ٢٨]؟ أوَ مَا سمعته يقول عز وجل: ﴿لاَ تَتَّخذُوا اليَهُودَ والنَّصارَى أَوْلياءَ بَعْضُهم أَوْلياءُ بَعْضٍ ومَنْ يَتولَّهُمْ مِنْكُم فإنَّه مِنْهُم﴾ [المائدة: ٥١]؟

وكذلك قال الله تعالى: ﴿وإِنَّ الظَّالمينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْض واللهُ ولِيُّ الْمُتَّقين﴾ [الجاثية: ١٩]. وقال تعالى فى مثله: ﴿وكَذلكَ نُولِّى بَعْضَ الظَّالمينَ بَعْضًا بمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩]. وقال تعالى: ﴿ويَتَّبِعْ غَيْرَ سَبيلِ الْمُؤْمنينَ نُولِّه مَا تَوَلَّى ونُصْلِه جَهَنَّمَ﴾ [النساء: ١١٥].

وقد روينا فى خبر: «إن الله تعالى أخذ على كل مؤمن فى الميثاق أن يبغض كلَّ منافق، وأخذ على كل منافقٍ أن يبغض كل مؤمن». وفى الخبر المشهور: «المرءُ مع من أحب، وله ما احتسب». وفى حديث آخر: «مَنْ أحبَّ قومًا ووالاهم فى الدنيا حُشر معهم يوم القيامة».

وروينا عن عمر بن الخطاب وعن ابنه عبد الله رضى الله عنهما، دخل لفظ أحدهما فى الآخر: «لو أنَّ عَبْدًا صفَّ بين قدميه عند الركن والمقام، يعبد الله عز وجل عمره، يصوم نهاره، ويقوم ليله، ثم لقى الله عز وجل وليس فى قلبه محبةٌ وموالاة لأولياء الله، ولا بغضٌ ولا معاداةٌ لأعدائه، لَمَا نفعه ذلك شيئًا».

وقد جاء نحوه، وبمعناه مسندًا عن عمر وغيره: «إن أحدهم ليَشيب فى الإسلام، ولم يوال فى الله تعالى، ولم يُعاد فيه عدوًا، فذلك نقصٌ كبيرٌ».

وفى معنى قوله : «أوثق عُرى الإيمان الحبُّ فى الله، والبغضُ فيه» وجهٌ خفىٌّ، هو أن يحبك المؤمنون، ويبغضك المنافقون، فيكون ذلك علامة وثيقة عروة إيمانك؛ لأن قوله: «الحب فى الله» يصلح أن تحب أنت، ويصلح أن يحبك المؤمنون، وكذلك «البغض فى الله» يصلح بأن يبغضك المنافقون، كما تبغضهم أنت، فكأنك تتحبب إلى المؤمنين حتى يحبوك، وتتبغض إلى المنافقين حتى يبغضوك، بإظهار التباعد عنهم، وبترك الموالاة والممالاة لهم، وبنصحك إياهم، فيدل ذلك على قوة إيمانك، لم تأخذك فى الله لومة لائمٍ منهم، كما وصف الله

تعالى بذلك من يحبهم ويحبونه، ويكون ذلك أبعد لك من المداهنة والنفاق، وأقرب إلى الورع والإخلاص. فإذا فعلت ذلك بهم أبغضوك أو مقتوك، فتظفر بما تريد، وتدرك[١] مما تحب داخلاً عليك بوصفهم. فهذا على معنى ما قال الله سبحانه: ﴿**أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ**﴾ [الفتح:٢٩]. وقال: ﴿**أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾ [المائدة:٥٤]. وكما أمر نبيه فى قوله عز وجل: ﴿**جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ**﴾ [التحريم:٩]. وكذلك أمر المؤمنين فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿**قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً**﴾ [التوبة:١٢٣]. فهذا المأمور بخَفْضِ الجناح للأتباعِ، وتَلْيين الجانب للأحبّاء، وبالعَفْو والاستغفار والمشاورة للأصحاب. فكان ﷺ لطيف اللسان غير فَظِّه لهم، رقيقَ القلب غير غليظِه عليهم. فكذلك أمره بالشدة والغلظة للأعداء، فقال: ﴿**جَاهِدِ الْكُفَّارَ**﴾ بيدك، ﴿**وَاغْلُظْ**﴾ على المنافقين بلسانك وقلبك. فهكذا القول فيمن يصلح جهاده بالسيف ممن شاقَّ وحادَّ، وكذلك القول فيمن كان على شعبة من حدِّهم، وعلى شُقَّة وجانبٍ إلى شِقِّهم من الفسوق والعصيان، اللذين قرَنَهُما الله تعالى بالكفر. وحَدُّ[٢] جهادِه باللسان بالفظاظة، وجهاده بالقلب بالغلظة، كما فعله رسولنا[٣] ﷺ مع المنافقين دون من جاهَدَهُ بالسيف من الكافرين الذين قال فيهم: ﴿**يُحَادُّونَ اللهَ**﴾ [المجادلة:٢٠] يشاقون، أى: يكونون فى حدٍّ وشقٍّ، والله ورسوله فى شقٍّ آخر وحدٍّ، فهؤلاء قد ساروا فى شقِّهم وحدِّهم؛ أى جنبتهم وناحيتهم. فنحن كذلك على سبيل رسولنا ﷺ وبصيرته، لأنَّا من أتباعه وشيعته. وذلك هو داخلٌ فى حُبّك للأولياء، وبُغضك للأعداء لا محالة؛ لأنك إذا أظهرت للأولياء المحبة، اقتَضَتْهم محبتُك لهم محبتهم لك فى عقودهم؛ لأنَّ ذلك لك عليهم، كما هو عليك لهم، فكيف بهم إذا رأوه مِنك؟!

---

(١) الكلمة غير واضحة، وهكذا قرأتها ولعلها خطأ.

(٢) فى الأصلين: «وحب». وفى (م) ضبطت «جهاده» على الإضافة.

(٣) فى (م، د): «صاحبنا».

وكذلك إذا بغضت الأعداء أَبْغَضُوكَ لا شَك؛ لأن نُفُوسَهُم وأهواءَهُم تقتضيهم ذلك.

ورُوى عن عيسى ﷺ: «إن الله تعالى قال: أحبُّ عبادى إلىَّ الذى يذكرنى بالأسحار، ويُبغِّض إلىَّ الفجَّار». معناه: أن يُظهر لهم البغض وينابذهم العداوة، حتى يبغضوه، فإذا بغضوه أبغضهم الله، فيكون قد بغضهم إليه بهذا المعنى، أى: كان سببَ عقوبة الله لهم بالبغض والمقت.

وقد كان الثورى يقول: إذا رأيت الرجل محبَّبًا إلى جيرانه فاعلم أنه منافق. وقال كعب الأحبار لأبى إدريس الخولانى، وكان من علماء الشام: كيف أنت فى قومك؟ قال: يحبونى ويكرمونى. قال كعب: ما صَدَقَتْنى التوراةُ إذن. قال: وما فى التوراة؟ قال: أجد فى التوراة أن الرجل العالِم العاملَ الآمِرَ لا يحبه جيرانه. فقال أبو مسلم: بل صَدَقَتْك التَّوارة، وكذَّبَتْنى نَفْسى. لأن العالِم يأمر جيرانه بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، وينصح لهم، ولا يحبون الناصحين.

وقال بعض المريدين: قلتُ لبعض أهل المعرفة: إنى كثير الغفلة عن الله، قليل المسارعة إلى مرضاته، أوصنى بشىء أعمله أُدرك به ما يفوتنى من هذا. قال: يا أخى، إن استطعتَ أن تتحبَّب إلى أولياء الله وتتقرَّب من قلوبهم فافعل، لعلهم يحبونك فإن الله عز وجل ينظر إلى قلوب أوليائه فى كل يوم سبعين نظرة، فلعله أن ينظر إليك فى قلوبهم لمحبتهم لك، فيجيرك جيرة الدنيا والآخرة، إذا لم تكن ممن ينظر إليه كِفاحًا.

وكذلك يُقال: إن الله عز وجل ينظر إلى قلوب أوليائه الصدِّيقين والشهداء مُواجهةً، فهؤلاء الذين عرفوه به، لقربه منهم، ولدوام نظره إليهم، فهو وجهتهم. ثم ينظر إلى قلوب قومٍ فى قلوب قومٍ، وإلى قلوب قومٍ من قلوبٍ آخرين. فهؤلاء المجتهدون الذين عَرفُوه بهم، وأحبوه من محبتهم، فهو وجهتهم إليه، وأدلتهم عليه، فيعطيهم نصيبًا من نصيبهم، كما أعطاهم شهادةً من شهادتهم، ووَجْدًا من عِلْمهم.

فهكذا عندى من عزائم الدين، وسبيل الورعين، أن تتبغَّض إلى أعدائه،

وتمقَّت إليهم؛ من المبتدعين والفاسقين والظالمين؛ ليبغضوك ويمقتوك، فيكون لك من القُربة كحب أوليائه لك، وحبك لهم. فهذا من أسباب ولاية الله، ومن وثائق عُرى الدِّين. وقد روينا عن النبى ﷺ: «اللهم لا تجعل لفاجرٍ عندى يدًا فيحبه قلبى».

ووَصَلَ[١] بعضُ الأمراء أبا هريرة بألف دينار، وعشرة أثواب، فردَّها عليه. وقال: ما كنتُ لأقبل منه، يأخذ المال من غير حِلِّه، ويضعه فى غير حقه.

وقد قال رسول الله ﷺ: «رُدُّوا هديةَ الفاجرِ عليه، لا يَرى أنَّكمُ تَرْضَوْن عَمَلَهُ».

فمن[٢] أخلاق الله سبحانه وتعالى أنه يُبغض من أبغض من أوليائه، كما يؤذيه من آذاهم، ولا يحب من أحْزنَ أولياءه، كذلك يَسرُّهُ مَنْ يسرهم. وروينا عن بعض الجبابرة من العُتاة فى فرط كرم الله تعالى، وغاية حلمه، أن جبَّارًا من الملوك قحطتْ رعيتُه، فشكوا إليه، فخرج بهم إلى الصحراء، فرفع رأسه إلى السماء، وقال: يا ساكن السماء، لتَسْقِينا الغيث أو لَنُؤذينَّك. فقال له وزراؤه: كيف تؤذيه، وهو فى السماء وأنت فى الأرض؟ فقال: أقتل أولياءَهُ من أهل الأرض، فيكون ذلك أذًى له. قال: فأرسل الله عليهم السماء بكرمه وجوده.

وروينا فى الحديث: «من أكرم مؤمنًا فإنما يكرم الله. ومن سرَّ مؤمنًا فقد سرَّ الله. ومن أهان لى وليًا فقد بارزنى بالمحاربة».

وكذلك فى تدبُّر الخطاب من تضادِّ الأوصاف: أنّ من أهان عدوًا لله فقد والاه، ومن ضرَّ كافرًا فقد تقرَّب إلى الله، مع قوله: ﴿ولا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الكُفَّارَ﴾ [التوبة: ١٢٠].

وأقلُّ ما لك فى هذا الزهدُ، فى بابٍ كبيرٍ من أبواب الدنيا، إذ كانت المداهنة

(١) هذا لفظ المطبوعة، وعبارة (د، م): «وأهدى بعض الأمراء إلى . . . وقال: ما كان الله ليرانى أقبلها منه».

(٢) من هنا إلى قوله: «يغيظ الكفار» زيادة من (د، م).

والممالاة من أكبر أبواب الدنيا؛ لأن بذلك يستوى عيش أهل الدنيا، ويتم سلامتها لهم. فهذا هو الطرفُ الآخرُ من معنى قوله: «الحبُّ فى الله، والبغض فيه»، وهو وجهٌ غامضٌ، ومعناه: إذا كشف جليٌّ ظاهر، وهو موجود عند علماء الآخرة؛ لأنه من زاد طريقهم إليها، ومفقود عند علماء الدنيا؛ لأنهم لا يقدرون عليه، لما عليهم من حبِّها.

وقد جعل الله من أراد أن يحبه الفاسقون، ويأمن فيهم؛ وجعل من يسارع بالإدهان وإظهار المتابعة للظالمين، خشيةَ دَوْر الدوائر عليه، عَلَمَيْن من أعلام النفاق، فقال سبحانه: **﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا﴾** [النساء: ٩١]. وقال تعالى فى المعنى الثانى: **﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾** يعنى: المنافقين **﴿يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾** يعنى: يواطئون الكافرين سرًا **﴿يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾** أى: نخاف أن تكون الدولة للكافرين على المؤمنين، ثم قال الله تعالى: **﴿فَعَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِىَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾** [المائدة: ٥٢] الآية. فينبغى لمن آمن فى المؤمنين وأهل السنة وأحبوه، أن يخاف فى المنافقين وأهل البدع أن يبغضوه. وينبغى لمن سارع فى مواطأة المؤمنين أن يَنِى ويُبَطِّئَ فى مداهنة الظالمين ومتابعتهم، حتى يخلص له إيمانه من النفاق، وتستقيم طريقه من الضلال. وقد نفى الله الإيمان عمن أحبَّ مَنْ حادَّه، وأثبت الإيمان والتأييد باليقين لمن أبغض فيه أعداءه، فقال تعالى: **﴿لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾** [المجادلة: ٢٢] الآية.

فأمَّا من قال من الجاهلين بأن الرضا قد يكون بالمعاصى منه، أو من سواه، كما يكون فى الطاعات، فقد جعل المعاصى والمخالفات من القربات، وسوَّى بينهما. وفى هذا هدم شرائع الأنبياء، وإبطال تفصيل الله ما أحلَّ لنا مما حرَّم علينا، وما أمرنا به مما نهانا عنه، وقد يتقرب إلى الله ببغضه، وبغض مَنْ أحبه.

وقد روى فى خبر: «من شرِّ الناس منزلةً عند الله مَنْ يقتدى بسيئة المؤمن ويترك حسنته».

وقال بعض العلماء: من حمل شاذَّ العلماء فقد حمل شرًا كثيرًا.

ومن حُسن الأدب فى المعاملة، إذا عملت صالحًا، فقل: يا سيدى، أنت استعملتنى، وبحولك وقوتك وحسن توفيقك أطعتُك؛ لأن جوارحى جنودك. وإذا عملتَ شيئًا، فقل: ظلمتُ نفسى، وبهواى وشهوتى اجترحت بجوارحى، وهى صفاتى. ثم يعتقد فى ذلك أنه بقدره ومشيئته كان ما قضاه، فتكون بالمعنيين قد وافقت مرضاة مولاك، وتكون فى الحالين عاملاً بما يرضيه بالقول والعقود، وينتفى عنك العُجب فى أعمال بِرِّك، ويصح منك المقت لنفسك، واعترافك بظلمك.

وقد تُقْلَبُ هذه المشاهدة على الجاهل، فإذا عمل حسنًا، شهد نفسه، ونظر إلى حوله وقوته، فهلك بالكبر، وبطل عمله بالعُجب. وإذا عمل سيِّئًا، لم يعترف بالذنب، ولم يقرَّ على نفسه بالظلم، فلم تصحّ له توبة، ولم يرض له عملاً، نعوذ بالله من مشاهدة الضُّلاَّل.

وقال أبو محمد سهل رحمه الله تعالى: إذا عمل العبد حسنة فقال: يا رب، أنت استعملتنى، شكر الله له ذلك، فقال: أنت عملت. فإذا نظر إلى نفسه فقال: أنا عملتُ، يقول الله: بل أنا استعملتُ. قال: وإذا عمل سيئةً فقال: أنت قدّرتَ، وأنت أزدتَ، يقول الله تعالى: أنت ظلمتَ، وأنت عصيتَ بشهوتك وهواك. فإن قال العبد: ظلمتُ نفسى، وعصيتُ بجهلى، استحيا الله منه، فقال: بل أنا قدَّرتُ وأنا قضيتُ، قد غفرتُ لك باعترافك بالظلم على نفسك.

فهذه آداب العاملين ومشاهدة العالمين، وهذا داخلٌ فى قوله: «أعرفُكُم بربِّه أعرفكم بنفسه». فكذلك يحب ابن آدم ممن عامله الاعتراف والتواضع. وهذا أيضًا أحد المعانى فى قوله تعالى: ﴿**وآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وآخَرَ سَيِّئًا**﴾ [التوبة: ١٠٢]. قيل: هو الاعتراف عقيب العمل السيىء؛ لأنه قد تقدم ذكره فكان الصالح بعده اعترافه.

فأما من قُلبت عليه هذه المعانى، فجهل عواقب الأمور، وغلبت عليه الغفلةُ،

واستحوذت عليه الجهالةُ، فجعل ينظر إلى من فوقه فى الدنيا، فيغبطه على حاله، أو يتمنى مكانه، أو يدخله نظره إليه فى استصغار نعمة الله عليه، ويزدرى يسير ما قَسَمه الله له، ثم ينظر إلى من دونه فى الدين من عموم المسلمين، فيرضى بنقصان مقامه، ويجعل ذلك معذرةً له وحجة وتأسيًا به، ويُثبِّطه عن المسارعة إلى القُربات، ولعله أن يداخله العُجْب والكبر حتى يتفضَّل عليه بحاله، أو ينظر إلى نفسه بأعماله، لتقصير غيره عن مثل فعاله. فهذا إذًا يُكتب جَزُوعًا عن الصبر، كفورًا للنِّعمة بإضاعة الشكر؛ لأنه ليس بصابرٍ ولا شاكرٍ، على ضدِّ الوصف الذى رويناه قُبيل من نَعْتِ الصابر والشاكر. وهذا وصف من أوصاف المنافقين، وهو مقام الهالكين، إذ الصبر والشكر من صفات المؤمنين، وهما حالا المتقين. وفى الخبر المشهور، عن أبى ذرٍّ الغفارىِّ، رحمه الله: «أوصانى رسول الله ﷺ بحُبِّ المساكين، والدُّنوِّ منهم، وأن أنظر إلى من هو دُونى، ولا أنظر إلى من فوقى، فذلك أجدر أن لا أزدرى نعمة الله علىَّ».

وقد وُصف هذا البلد بمثل هذه المعانى، والله المستعانُ. قد حدَّثونا عن عبد الله ابن المبارك ـ رحمه الله تعالى ـ أنه قال: طُفتُ الشَّرق والغرب، فما رأيتُ بلدًا شرًا من بغداد. قيل: وكيف ذلك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: هو بلدٌ تُزدرَى فيه النِّعمة، وتُستَصغَرُ فيه المعصيةُ. وحدّثونا عنه أنه قيل له لـمَّا قَدِمَ خراسان: كيف رأيت الناس ببغداد؟ قال: ما رأيتُ بها إلاَّ شُرطيًّا غضبان، أو تاجرًا لهفان، أو قارئًا حيران.

وقيل: إنه كان يتصدق كل يوم بدينار؛ لأجل مقامه ببغداد، إلى أن يخرج إلى مكة. فبلغنى أنه كان يقيم معه الحاج ستة عشر يومًا، يتصدق بستة عشر دينارًا؛ كفارة لمقامه.

وقد وصفها الشافعى أنها هى الدنيا. فروينا عنه أنه قال: الدنيا كلها بادية، وبغداد حاضرتها.

وروينا عن يونس بن عبد الأعلى، قال: قال لى الشافعى: يا يونس، رأيتَ بغداد؟ قلتُ: لا. قال: ما رأيتَ الدنيا، ولا رأيتَ الناس.

وقد ذم العراق جماعةٌ، منهم عمرُ بن عبد العزيز، وكعب الأحبار. فروينا عن عمر أنه قال لمولى له: أين تسكن؟ قال: العراق، قال: وما تصنع هناك؟ بلغنى أنه ما من أحد سكن العراق إلا قُيِّض له قرين من البلاء.

وذكر كعب الأحبار العراق يومًا فقال: فيه تسعة أعشار الشر، وفيه الداء العضال. وكان قد قال ذلك لعمر بن الخطاب، فنهاه عن الخروج إلى العراق. وهكذا كان. فقال أيضًا: قُسم الخير عشرة أجزاء، فجُعل تسعة أعشاره بالشام، وعشرهُ بالعراق. وقُسم الشرُّ عشرة أجزاء، فجُعل تسعة أعشاره بالعراق، وعشره بالشام.

قال: وكنا عند الفضيل بن عياض يومًا، فجاءه بعض الصوفية متدرِّعًا بعباءة، فسلَّم عليه الفضيل، وأجلسه إلى جانبه، وأقبل عليه بوجهه. ثم قال له: أين تسكن اليوم؟ فقال: بغداد. فأعرض عنه الفُضيل، ثم قال: يأتينا أحدكم فى زىِّ الرُّهبان، فإذا سألناه أين تسكن، قال: فى عُشِّ الظَّلَمة.

وقد كان بشر بن الحارث يقول: مَثَلُ المتعبِّد ببغداد مَثَل المتعبِّد فى الحَشِّ[١]. وكان يقول: لا تقتَدُوا بى فى المقام ببغداد، من أراد أن يخرج فليخرج.

وكان أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ يقول: لولا تعلق هؤلاء الصبيان بنا، كان الخروج من هذا البلد آثر فى نفسى. قلنا: أين تختار السكنى؟ قال: بالثُّغور.

فأمّا معروف الكرخى فإنه أفصح بها، كان يقول: أما أنا فقد أُمرتُ أن أموت ببغداد.

وهؤلاء الثلاثة ـ رحمهم الله تبارك وتعالى ـ من خيار أهل هذا البلد، وهم من أبدال الصِّدِّيقين.

ومن سكن بلدًا، كثيرَ المنكر، ظاهر المعاصى، فكان منزعجًا فيه غير مطمئن إليه، يرغب إلى الله عز وجل فى إخراجه منه؛ لحسن اختياره له، وكان مضطرًا فى المقام فيه؛ لعيلة ثقيلة، أو قلة ذات يد حقيقة، لا يستطيع حيلةً فى الخُروج،

(١) الحش: مكان قضاء الحاجة. الجمع: حُشوش، وحِشَّان.

ولا يعرف طريقًا، وهو على يقينٍ من سلامة دينه فيه، فإنه معذور عند الله؛ لحسن تفضُّل من الله، وحسن نيته. وهو أقرب إلى العفو والسلامة ممن اغتبط بمقامه، واطمأنَّ ورضى بحاله، أو كان مقامه على هوًى، أو لاختلاف أسباب الفتنة والدنيا.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧]. فى التفسير: إذا كنت فى بلد يُعمل فيه بالمعاصى، فتحوَّل منه إلى غيره. وقيل: إذا كان العبد فى بلدٍ مَنْ يعمل فيه بالمنكر والمعاصى أضعف، أو أقل من أهل الدين والمعروف، ثم لم يُنكر ذلك، فقد وجب الخروج منه.

وقال عز وجل فى قوم من المستضعفين عَذَرهم، وأرجى إلى العفو أمرهم: ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ [النساء: ٧٥]. وقال تعالى فى تمام وصفهم واستثنائهم من غيرهم: ﴿لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً * فَأُولَئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ [النساء: ٩٨ ـ ٩٩].

ألا ترى كيف أخبر بترك رضاهم بالمقام، وبانزعاجهم وطلبهم الخروج، فبذلك عَذَرَهم. وقال بعضهم[١]: بلغنى أن أحمد بن الأسود الدينورى ـ رحمة الله ـ دخل بغداد عند عوده من الحج، فلم يقم بها، بل خرج إلى النهروان، وأقام بها إلى أن خرج الحاجُّ، فسار معهم، وكان من الأبدال رحمه الله.

ولا يصحّ الرضا إلا بالعصمة من جميع الهوى، وأول الرضا القناعة. وقال بعض أهل المعرفة: لا يكون العبد قانعًا، حتى لو جاء إلى باب منزله جميعُ ما يرغب فيه أهل الدنيا من الاتساع والنعمة، فعُرِض عليه، لم ينظر إلى ذلك، ولم يفتح بابه قناعةً منه بحاله. والعصمةُ حال الراضى عن الله عز وجل، وهى ظاهرُ الرحمةِ. والرحمة أول الرضا من الله تعالى، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ

---

(١) هذا الخبر من (د) فقط.

النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بالسُّوء إلاّ مَا رَحِمَ رَبِّى﴾ [يوسف:٥٣]. وقال تعالى: ﴿لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ الله إلاَّ مَنْ رَحِمَ﴾ [هود:٤٣]. فالعصمة من الله لعبده دليلٌ على الرحمة منه، ثم تُدخله فى مقام المحبة، وهى رحمةُ المحبوبين، ثم ترفعه المحبةُ إلى الرضا؛ فتكون المحبة مقامه عن شهادة محبوبٍ، ويكون الرضا حالَهُ فى جميع تصريف البعيد(١) والمطلوب، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

آخر كتاب الرضا، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد النبى وعلى آله وصحبه وسلم(٢).





(١) فى المطبوعة: «تصريف البقية» وأثبت ما فى (د، م).

(٢) هذه الخاتمة من (د).

ذكر أحكام المحبة، ووصف أهلها
وهو المقام التاسع من مقامات اليقين

المحبة من أعلى مقامات العارفين، وهى إيثارٌ من الله تعالى لعباده المخلصين، ومعها نهاية الفضل العظيم. قال الله جلت قدرته: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]. ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [الحديد: ٢١]. وهذا الخبر متصلٌ بالابتداء فى المعنى؛ لأن الله تعالى وصف المؤمنين المحبين بفضله عليهم، وما اعترض بينهما من الكلام فهو نعتُ المحبوبين.

وروى عن النبى ﷺ: «ما كان اللهُ ليعذِّب حبيبَهُ بالنّارِ». وقال الله عز وجل مصداق قول نبيه عليه السلام، ردًا على مَن ادّعى محبته، واحتجاجًا عليهم: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾ [المائدة: ١٨].

وقال زيد بن أسلم: «إنّ الله ليُحبُّ العبدَ حتى يبلغَ من حُبه له أن يقول: اصنعْ ما شِئتَ فقد غفرتُ لك».

وروينا عن إسماعيل بن أبى زياد عن أبان عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أحبَّ اللهُ عبدًا لم يضرّه ذنبٌ، والتّائبُ من الذنب كمن لا ذنب له، ثم تلا: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وقد اشترط اللهُ للمحبة غفران الذنوب بقوله تعالى: ﴿يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]. فكلُّ مؤمنٍ بالله فهو محبٌّ لله، ولكن محبته على قدر إيمانه، وكشف مشاهدته، وتجلِّى المحبوب له على وصفٍ من أوصافه، دليل ذلك استجابتُهم له بالتوحيد، والتزامُ أمره، وتسليم حكمه. ثم تفاوتُهُم فى مشاهدات التوحيد، وفى دوام الالتزام للأوامر، وفى تسليم الأحكام[١]، فليس ذلك يكون إلا عن محبة. وإن تفاوت المحبون على حسب أقسامهم من المحبوب، وليس

(١) فى (د، م): «فى التزام الأمر، وفى تسليم الحكم».

يصغر[1] عن المحبة صغير، كما لا يصغر عن المعرفة من عرف، ولا يكبر عن التوبة كبيرٌ، ولو كان على كلِّ العلوم قد أُوقف؛ لأن الله تعالى وصف المؤمنين بشدَّة الحُبِّ له فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا للهِ﴾ [البقرة:١٦٥]. وفى قوله ﴿أشدُّ﴾ دليل على تفاوتهم فى المحبة؛ لأنّ المعنى أشدُّ فأشدُّ، ولم يقل: شديدُ الحبِّ لله. فأشبه هذا الخطاب قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]. فدل على تفاوتهم فى الإكرام على قدر تفاضُلهم فى التقوى، ولم يقل: إن الكرام المتقون.

وروينا عن رسول الله ﷺ: «إنّ اللهَ يُعطى الدنيا من يُحبّ، ومن لا يحب، ولا يُعطى الإيمان إلاّ من يحب».

فالمؤمنون متزايدون فى الحبِّ لله عز وجل عن تزايدهم فى المعرفة به، والمشاهدة له. وقد جعل رسول الله ﷺ الحب لله من شرط الإيمان بالله من غير خبر عنه. وقال أبو رُزَين العقيلى: يا رسول الله، ما الإيمان؟ قال: «أن يكونَ اللهُ ورسولُه أحبَّ إليك مما سواهما». وفى حديث: «لا يؤمنُ أحدُكم حتى يكون اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه مما سواهما». وفى خبرٍ آخر، أشد توكيدًا وأبلغ من هذين قوله: «واللهِ، لا يؤمن العبدُ حتى أكون أحبَّ إليه من أهله وماله والناس أجمعين». وفى خبر آخر: «ومن نفسك». وقد أمر ﷺ بالمحبة لله فيما شرعه من الأحكام، فقال: «أحبُّوا اللهَ لما أَسْدَى إليكم من نِعمِه، وأحبونى لحب الله»، فدل ذلك على فَرْض الحبِّ لله، وإن تفاضل المؤمنون فى نهايات فضائله. ومن أفضل ما أسدى إلينا من نعمه المعرفةُ به، فأفضلُ الحبِّ له ما كان عن المشاهدة.

والمحبون لله على مراتب من المحبة؛ بعضها أعلى من بعضٍ، فأشدُّهم حبًا لله أحسنهم تخلُّقًا بأخلاقه، مثلُ العِلم، والحلم، والعفو، وحسن الخلق، والستر على الخلق، وأعرفهم بمعانى صفاته، وأتركهم منازعة له فى معانى الصفات، كى لا يشركوه فيها، مثل: الكبر، والحمد، وحبّ المدح، وحبّ الغنى، والعز، وطلب

(١) فى المطبوعة: «يقصر».

الذكر، ثم أشدهم حبًا لرسوله، إذ كان حبيب الحبيب، وأتبعهم لآثاره، وأشبههم هديًا بشمائله.

وقد روى أن رجلاً قال: يا رسول الله، إنى أحبك، فقال: «استعد للفقر». فقال: إنّى أحب الله، فقال: «استعد للبلاء». والفرق بينهما أن البلاء من أخلاق المبلى، وهو الله تعالى المبتلى. فلما ذكر محبته أخبره بالبلاء؛ ليصبر على أخلاقه، كما قال تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر:٧]، فدل على أحكامه وبلائه. والفقر من أوصاف رسول الله ﷺ. فلما ذكر محبته دله على اتباع أوصافه ليقتفى آثاره؛ لقوله عليه السلام: «أحينى مسكينًا وأمتنى مسكينًا واحْشُرنى فى جُملة المساكين».

ومن علامة المحبة كثرة ذكر الحبيب، وهو دليلُ محبة المولى لعبده، وهو من أفضل مِنَنه على خلقه. وفى الخبر: «إن لله فى كل يوم صدقةً يَمُنُّ بها على خلقه، وما تصدَّق على عبدٍ بصدقةٍ أفضل من أن يُلهِمَهُ ذِكرَهُ».

وفى حديث سفيان عن مالك بن معول قيل: يا رسول الله، أى الأعمال أفضل؟ قال: «اجتنابُ المحارم، ولا يزال فُوك رَطبًا من ذِكْر الله».

وقد أمر النبى ﷺ بكثرة الذكر لله، كما أمر بمحبة الله؛ لأن الذكر مقتضى المحبة، فقال: «أكثرْ من ذكر اللهِ، حتى يقول الناسُ إنّك مجنون». وقد روينا: «أكثروا من ذكر الله، حتى يقول المنافقونُ إنكم مراؤون».

وفى حديث أبى سلمة المدنى عن أبيه عن جده: أتانا رسول الله ﷺ ذات يوم إلى مسجد قباء، فذكر حديثًا فيه طول، قال فى آخره: «مَنْ تواضع لله رفعه، ومن تكبَّر وضعه، ومن أكثر ذكر الله أحبه الله».

وقد أخبر أن الذاكرين هم السابقون المفردون، ورفعهم إلى مقام النبوة فى وَضْع الوِزْر ورَفْع الذكر، إذ كان الذكر موجب الحب، فى قوله: «سيروا سبق المفردون. قيل: مَن المفردون؟ قال: المستهترون بذكر الله، وضع الذكر عنهم أوزارهم، يَرِدُون القيامة خفافًا».

ومن أعلام المحبة: حبُّ لقاءِ الحبيب على العيان، والكشف فى دار السلام

ومحل القُرب، وهو الاشتياقُ إلى الموت؛ لأنه مفتاح اللقاء، وباب الدخول إلى المعاينة. وفى الحديث: «من أحب لقاءَ اللهِ أحبَّ اللهُ لقاءه».

وقال حذيفة عند الموت: حبيبٌ جاء على فاقة، لا أفلح من ندم. وقال بعض السلف: ما من خصلة أحب إلى الله تكون فى العبد بعد حبٍّ لقائه من كثرة السجود. فقدم حبَّ لقاء الله.

وقد شرط الله لحقيقة الصدق القتلَ فى سبيله، وأخبر أنه يحب قتل محبوبه فى قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ**﴾ [الصف: ٤]. بعد قوله تقريرًا لهم: ﴿**لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ**﴾ [الصف: ٢] حيث قالوا: إنا نحب الله، فجعل القتل محنة محبته وعلامة أخذ مال محبوبه ونفسه، إذ يقول تعالى: ﴿**يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ**﴾ [التوبة: ١١١].

وفى وصية أبى بكرٍ لعمر رضى الله عنهما: «الحقُّ ثقيلٌ؛ وهو مع ثقله مَرِئٌ، والباطلُ خفيفٌ؛ وهو مع خفته وبئ. فإن حفظت وصيتى، لم يكن غائبٌ أحبَّ إليك من الموت، وهو مُدركك، وإن ضيَّعتَ وصيتى، لم يكن غائبٌ أبغض إليك من الموت، ولن تُعْجِزَه».

وكان الثورى وبشر بن الحارث يقولان: لا يكره الموت إلا مريب. وهو كما قالا؛ لأن الحبيب على كل حالٍ لا يكرهُ لقاءَ الحبيب.

وفى الخبر المشهور؛ أنّ إبراهيم قال لملك الموت، إذ جاءه لقبضه: هل رأيت خَليلاً يُميتُ خَليله؟! فأوحى الله إليه: فهل رأيت مُحِبًّا يكره لقاء حبيبه؟! فقال: يا ملك الموت، الآن فاقبض.

وهذا لا يجدُهُ إلا عبدٌ يحب الله بكلِّ قلبه، عندها يشتاق إليه مولاه، فينزعج القلب لشوق الغَيْبِ، فيحبّ لقاءه.

وقال البويطى لبعض الزهاد: أتحبُّ الموتَ؟ فكأنه توقف، فقال: لو كنتَ صادقًا لأحببته، ثم نَزعَ بهذه الآية: ﴿**فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ [الجمعة: ٦]. فقال

الرّجل: فقد قال النبى ﷺ: «لا يتمنى أحدُكُم الموت»، فقال: إنما قال: «لضرٍّ نزل به».

وهذا كما قال البويطى؛ لأن التائب إذا صدقت توبته طلب الموتَ، خشية الحَوَلِ عن حاله، فإن كان كذلك، كان هو التائب الذى هو حبيب الله. إلاّ أنّ مقام الرضا أعلى من مقام تمنى الموت، فلذلك قال الرسول: «لا يتمنى الموت للضُّرِّ ينزل به» أى: رضاه بقضائه أفضل من تمنى لقائه، ليُقبض على مقام الرضا.

وروى أن أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، لما زوَّج أخته فاطمة بنت عتبة بن ربيعة من سالم مولاه، عاتبته قريش فى ذلك، وقالوا: أنكحتَ عقيلةً من عقائل قريش بمولى؟! فقال: واللهِ لقد أنكحتُه إياها، وإنى لأعلم أنه خير منها. فكان قولُه أشد عليهم، قالوا: وكيف؟ وهى أختك، وهو مولاك! فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أراد أن ينظر إلى رجلٍ يحبُّ الله بكلِّ قلبه فلينظر إلى سالم».

ففيه دليله: أن من المؤمنين من يحب الله ببعض قلبه، فيؤثره بعض الإيثار، ويوجد فيه محبةُ الأغيار. ومنهم من يحبه بكل قلبه، فيؤثره على ما سواه، فهذا عابده ومألوهه الذى لا معبود له ولا إله إلا إياه. وفيه دليلٌ على أنهم على مقامات فى المحبة، عن معانى مشاهدات الصفات، ما بين البعض فى القلوب والكلية.

وقد كان نعيمان يُؤتى به رسولَ الله ﷺ، فيجده فى معصية يرتكبها، إلى أن أُتى به يومًا، فحدَّه، فلعنه رجلٌ، وقال: ما أكثر ما يُؤتى به رسول الله ﷺ! فقال رسول الله ﷺ: «لا تفعل، فإنه يحب الله ورسوله». فلم يخرجه من المحبة مع المخالفة.

وقد قال بعض العارفين: إذا كان الإيمانُ فى ظاهر القلب ـ يعنى على الفؤاد ـ كان المؤمن يحب الله حبًا متوسطًا، فإذا دخل الإيمان باطن القلب، فكان فى سويدائه، أحبه الحبَّ البالغ.

وعلامة ذلك أن ينظر؛ فإن كان يُؤثر الله على جميع هواه، ويغلِّب محبته على هوى العبد، حتى تصير محبة الله هى محبة العبد من كل شىء، فهو محبٌّ لله حقًا، كما أنه مؤمن به حقًا، عن مشاهدة اليقين الذى يغلِّب رؤيته على رؤية الخَلْقِ، فيشهده فى كلٍّ شىءٍ، ويكون واجدًا به دون كل شىءٍ، إذ قد تجلّى لمن أيقن بكل شىء.

وإن رأيتَ قلبك دون ذلك، فلك من ذوق محبة سواه بقدر ما لك من شَوْب اليقين مُمتزجًا بشهادة الخلق والوجد بهم، دون الخالق، وذلك أيضًا عن خالص شهادة التوحيد، ومن المحبة بقدر ذلك له فى مقامات الخالصين، أو مشُوبًا بالشرك الخفى بالنظر إلى الأواسط والثوانى فى إخلاص عموم المخلصين.

فأدل علامات المحبة الإيثارُ للمحبوب على ذخائر القلوب؛ ولذلك وصف اللهُ المحبين بالإيثار، ووصفه العارفون بذلك، فقال تعالى فى وصفه المحبين: **﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فى صُدُورِهِمْ حَاجَةً﴾** ، ثم قال تعالى: **﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾** [الحشر:٩]. وقال فى وصفه: **﴿تاللهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَينا﴾** [يوسف: ٩١].

وقال بعض العلماء: إن ظاهر القلب محلُّ الإسلام، وإن باطنه مكان الإيمان. فمن ههنا تفاوت المحبون فى المحبة؛ لفضل الإيمان على الإسلام، وفضل الباطن على الظاهر. وفرَّق بعض علمائنا البصريين بين القلب والفؤاد، فقال: الفؤاد مقدم القلب وما استدق منه، والقلب أصله وما اتسع منه. وقال مرة: فى القلب تجويفان، فالتجويف الظاهر هو الفؤاد وهو مكان العقل، والتجويف الباطن هو القلب وفيه السمع والبصر، وعنه يكون الفهم والمشاهدة، وهو محلُّ الإيمان. وقد قال الله: **﴿كَتَبَ فى قُلُوبِهِمُ الإيمَانَ﴾** [المجادلة:٢٢]. وقال: **﴿إِنَّ فى ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كانَ له قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾** [ق:٣٧].

فمحبة الإسلام مفترضة على الخلق، وهى متصلة بأداء الفرائض واجتناب المحارم؛ طاعةً لله ومحبةً له. فأما محبةُ المقربين، فعن مشاهدة معانى الصفات،

وبعد معرفة أخلاق الذات، فعبادةُ أولئك بالعادات واللجاجات، وعبادة المحبين للإجلال والحبّ والتعظيم، وهى مخصوصة لمخصوصين. والأصلُ فى هذا أن المحبة، إذا كانت عن المعرفة، وأنّ المعرفة عمومٌ وخصوصٌ؛ فلخُصوص العارفين خاصيَّة المحبة، ولعُمومهم عمومُ المحبة.

ويروى فى الأخبار السالفة: أن زليخا لما آمنت، وتزوَّج بها يوسفُ عليه السلام، انفردت عنه، وتخلت للعبادة وانقطعت، فكان يدعوها إلى فراشه نهارًا، فتُدافعه إلى الليل، فإذا دعاها ليلاً سوَّفَتْهُ نهارًا. فقالت: يا يوسف، إنما كنت أحبك قبل أن أعرفه، فأما إذ عرفته، فما أبقت محبته محبةً لسواه، وما أريد به بدلاً. حتى قال لها: فإن الله أمرنى بذلك، وأخبرنى أنّه مخرج منكِ ولدين، وجاعلهما نبيين. فقالت: أما إذا كان اللهُ أمرك بذلك، وجعلنى طريقًا إليه، فطاعةً لأمر الله، فعندها سكنت إليه.

وقال بعض العلماء بالله: إذا تمَّ التوحيدُ تمت المحبة، وإذا جاءت المحبة تمَّ التوكُّل، فتمَّ إيمانه، وخلُص فرضه، وسُمِّى ذلك يقينًا.

وقال الفضيل بنُ عياض فى فرض المحبة: إذا قيل لك: تحب الله؟ فاسكت، فإن قلت: لا، كفرت، وإن قلت: نعم، فليس وصفُك وصف المحبين، فاحذر المقت.

وقال بعض علمائنا: ليس فى الجنة نعيم أعلى من نعيم أهل المعرفة والمحبة، ولا فى جهنم عذاب أشد من عذاب من ادعى المعرفة والمحبة، ولم يتحقق بشىء من ذلك. وقال عالمٌ فوقه: كلُّ أهل المقامات يُرجى أن يُعفى عنهم، ويُسمح لهم، إلا من ادعى المعرفة والمحبة، فإنهم يُطالَبون بكل شعرةٍ مطالبةً، وبكل حركة وسكونٍ، وكلِّ نظرةٍ وخطرة لله، وفى الله، ومع الله.

واعلم أن المحبة من الله لعبده ليست كمحبة الخلق، إذ محبة الخلق تكون حادثة لأحد سبع معانٍ: لطبع، أو لجنس، أو لنفع، أو لوصف، أو لهوًى، أو لرحمٍ ماسَّةٍ، أو لتقرُّب بذلك إلى الله. فهذه حدود الشىء الذى يشبهه الشىء، والله يتعالى عن جميع ذلك، لا يوصف بشىء منه، إذ ليس كمثله شىء فى كل شىء،

ولأن هذه أسباب محدثة في الخلق، لمعان حادثة ومتولدة من المحبين، لأسباب عليهم داخلة. وقد تتغير لتغيُّر الأوقات، وتنقلب لانقلاب الأوصاف. ومحبة الله سابقة للأسباب عن كلمته الحسنى، قديمةٌ قبل الحادثات عن عنايته العليا، لا تتغير أبدًا، ولا تنقلب لأجل ما بدا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى﴾ [الأنبياء:١٠١]، يعنى: الكلمة الحسنى، وقيل: المنزلة الحسنى، فلا يجوز أن يسبقها سابق منهم، بل قد سبقت كل سابقةٍ تكون، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء:٥١]. وكذلك قال: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج:٧٨]. وقال تعالى: ﴿لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس:٢]. وقال تعالى فى آخر آياتهم: ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥].

ولا يصلح أن يكون قبل قَدَمه الصدق منهم قَدَم، كما لا يصلح أن يكون قبل علمه بهم منهم عملٌ؛ لأنّ علمه سبق المعلومَ، ومحبته لأوليائه سبقت محبتهم إياه، ومعاملتهم له. ثم هى مع ذلك خاصية حكمٍ من أحكامه، ومزيدٌ من فضل أقسامه، وتتمةٌ من سابغِ إنعامه، خالصةٌ لمخلصين، ومؤثرة لمؤثرين، بقَدَم صدق سابق لخالصين، يؤول إلى مقعد صدق عند صادق لسابقين، ليس لذلك سببٌ معقول، ولا لأجل عمل معمول، بل يجرى مجرى سر القدر، ولطف القادر، وإفشاءُ سرِّ القدر كفرٌ، ولا يعلمه إلا نبى، أو صدِّيق، ولا يطلع عليه مَنْ يُظهره، وما ظهر فى الأخبار من الأسباب، فإنما هو طريق الأحباب، ومقامات أهل القُرب من أُولى الألباب، فإنما هى تبصرة وذكرى للمنيبين، وتزودًا وبلاغًا للعابدين. وإنما تستبين المحبةُ وتظهرُ للعبد بحسن توفيقه، وكلاءة عصمته، ولطائف تعليمه من غرائب علمه، وخفايا لطفه، فى سرعة ردهم إليه فى كل شىء، ووقوفهم عنده، ونظرهم إليه دون كل شىء، وقُربه منهم أقرب من كل شىء، وكثرة استعمالهم لحسن مرضاته، وكشف اطلاعهم على معانى صفاته، ولطيف تعريفه لهم مكنونَ أسراره، وفتوحَه لأفكارهم من بواطن إنعامه، واستخراجه منهم

خالص شكره وحقيقة ذكره.

فهذه طرقات المحبين له عن كشوف اطلاعه لهم من عين اليقين. يقال: إذا أحب الله عبدًا استخدمه؛ فإذا استخدمه اقتطعه. وقيل: إذا أحب اللهُ عبدًا نظر إليه، وإذا نظر اللهُ إلى عبدٍ لم يعذبه. وعلامةُ من نظر إليه ألا ينظر إلى سواه، ولا ينظر إلا به عنه، وهذه نظرة خاصة عن محبة مخصوصة. وروى بعض هذا عن رسول الله ﷺ.

وروينا فى الخبر: «إذا أحب الله عبدًا ابتلاه، وإذا أحبه الحبَّ البالغ اقتناه. قيل: وما اقتناؤه؟ قيل: لم يترك له أهلاً ولا مالاً». هذا لئلا يكون أهله عنده فيميل إليهم، وينقلب إليهم مسرورًا، ولئلا يميل قلبه إلى ماله، فينقلب على وجهه محسورًا. فالمحبة مزيد إيثار من المحب الأول ـ وهو الله ـ لعبده، وأحكامٌ تظهر من المحبوب وهو العبد، فى حسن معاملته، أو حقيقة علم يهبه له. كما قال أخوة يوسف حين عرفوا فضل محبة الله ليوسف عليهم: ﴿**تَاللهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنا**﴾، ثم قالوا: ﴿**وإِنْ كُنَّا لَخَاطِئينَ**﴾ [يوسف: ٩١]، فذكروا سالف خطاياهم وأنه آثره بما لم يؤثرهم به. فقال الله تعالى فى وصفه إياه: ﴿**قَالَ اجْعَلْنى عَلى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّى حَفيظٌ عَليمٌ**﴾ [يوسف: ٥٥]. وقال فى موهبته له: ﴿**آتَيْنَاهُ حُكْمًا وعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنينَ**﴾ [يوسف: ٢٢]. فذكر ما سلف من إحسانه لما آثره به.

وقالت الرسل: ﴿**إِنْ نَحْنُ إلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ولَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشاءُ مِنْ عِبَادِهِ**﴾ [إبراهيم: ١١]. وقال تعالى: ﴿**اللهُ يَصْطَفِى مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ**﴾ [الحج: ٧٥].

وفى الخبر: «إذا أحب اللهُ عبدًا ابتلاه ـ يعنى اختبره ـ فإن صبر اجتباهُ، وإن رضى اصطفاهُ».

وقال بعض العلماء: إذا رأيتَك تحبّه، ورأيتَهُ يبتليك، فاعلم أنه يريد أن يصافيَك. وقال بعض المريدين لأستاذه: قد طُولعتُ بشىءٍ من المحبة. فقال: يا بنى، هل ابتلاك بمحبوب سواه فآثرتَ عليه إياه؟ فقال: لا. فقال: فلا تطمع فى

المحبة، فإنه لا يعطيها عبدًا حتى يبلوَه.

ومن دلائل المحبة: حبُّ كلام الحبيب، وتكريرهُ على الأسماع والقلوب. وحدثونا عن بعض المريدين قال: كنت وجدتُ حلاوة المناجاة فى شرَه الإرادة، فأدمنتُ على قراءة القرآن ليلاً ونهارًا، ثم لحقتنى فترةٌ، فانقطعت عن التّلاوة. قال: فسمعت قائلاً يقول لى فى المنام: إن كنتَ تزعم أنك تحبنى، فلِمَ جفوتَ كتابى؟ أمَا ترى ما فيه من لطيف عتابى؟ قال: فانتبهتُ، وقد أُشرب فى قلبى محبةُ القرآن، فعاودت إلى حالى الأول.

وقد قال بعض العارفين: لا يكون العبدُ مريدًا حتى يجد فى القرآن كل ما يريد. وقد كان ابن مسعود يقول: لا على أحدكم أن يسأل على نفسه إلا القرآن، فإن كان يحب القرآن فهو يحب الله، وإن لم يكن يحب القرآن فليس يحب الله.

ومن علامة حبِّ القرآن حبُّ أهل القرآن، وكثرةُ تلاوته آناء الليل وأطراف النهار. وقال سهل بن عبد الله: علامةُ حب الله حبُّ القرآن، وعلامة حبِّ القرآن وحبِّ الله حبُّ النبى عليه السلام، وعلامة حب النبى عليه السلام حبُّ السنّة، وعلامة حب السنة حبُّ الآخرة، وعلامة حب الآخرة بغض الدنيا، وعلامة بغض الدنيا أن لا يأخذ منها إلا زادًا وبُلْغةً إلى الآخرة. وقال تعالى وهو أحسن القائلين: ﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دينه فَسَوْفَ يَأتى اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]؛ أى لا يرتدون؛ لأنهم أبدالٌ من المرتدين، ولا ينبغى أن يكونوا أمثالهم. كما قال: ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ [محمد: ٣٨].

ومن علامة محبة المولى تقديم أمور الآخرة فى كُلِّ ما يقرِّب من الحبيب على أمور الدنيا من كل ما تهوى النفس، والمبادرة بأوامر المحبوب ونوادبه قبل عاجل حظوظ النفس، ثم إيثار محبته على هواك، واتباعُ رسوله ﷺ فيما أمرك به ونهاك، والذلُّ لأوليائه من العلماء به والعاملين، ثم التعزز على أبناء الدنيا الموصوفين بها المؤثرين لها. كما قيل لابن المبارك: ما التواضع؟ فقال: التكبُّر على

المتكبرين. وقال الفتح بن شحرف العابد: رأيت عليَّ بن أبي طالب رضى الله عنه في النوم، فقلت: أنبئنى بحرف خير، فقال: ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء؛ رجاء ثواب الله، وأحسن من ذلك تيهُ الفقراء على الأغنياء ثقةً بالله.

وإنما وصف اللهُ أحباءه بالذلِّ للأولياء، والعزِّ على الأعداء؛ لأنّه يصف من يحبه بأحسن الأوصاف. فالذلُّ للحبيب حسنٌ، والعزُّ على العدو حسن، ومَثَلُ الذل للحبيب فى حسنه مَثَلُ الذلّ للعزيز، ومَثَلُ العز على العدو فى حسنه مثل العز على الذليل. فلذلك وصف الله محبَّه بالذل للولى وبالعز على العدو. وقُبحُ العزِّ على الحبيب كقبح الذل للعدو. والله لا يصف أولياءه بقبيح.

ومن علامات الحب: المجاهدة فى طريق المحبوب بالمال والنفس؛ ليقرُب منه، ويبلغ مرضاته، ويقطع كل قاطع يقطعه عنه بالمسارعة إلى قُربه. كما قال تعالى: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ [طه:٨٤]. وكما أمر حبيبه ﷺ فى قوله: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ [المزمل:٨]. فيه معنيان، أحدهما: انقطع إليه انقطاعًا عما سواه بالإخلاص له، والأثرة على غيره. والأخرى: اقطع كلَّ ما قطعك عنه إليه، أى اقطع كل قاطع حتى تصل إليه. فهذان من أدل الدليل على المحبة. ثم أن لا يخاف فى حبه لومة لائمٍ من الخلق لامهُ على محبته، أو على السلوك إليه بشق النفس، وهجران الدار، ورفض المال، ولا يرجو فى محبته مَدْحَ مادح، ولا يرغب فى حسن ثناء العباد بإيثارك له على الأهل والمال والدار. فبذلك فَضُلَ المجاهدون والأنصار الذين تبوءوا الدار والإيمان ابتغاء الفضل والرضوان، أولئك لهم عقبى الدار. ثم وجود الأنس فى الوحدة، والرَّوح بالخلوة، ولطف التملق فى المناجاة، والتنعُّم بكلامه، والرضا بمُرِّ أحكامه، ووَجْد حلاوة الخدمة، ورؤية البلاء منه نعمة، كما قال قائلهم:

فلو قطعتنى فى الحب إربًا ... لَمَا حَنَّ الفؤادُ إلى سواكا

وكما قال الآخر:

فرَوْحى ورَيحانى إذا كُنتَ حاضرًا ... وإن غبتَ فالدنيا علىَّ محابسُ

إذا لم أُنافس فى هــواك ولم أغِر   عليك، فَفِيمَنْ ليتَ شِعرى أُنافسُ

وقال آخر منهم:

نحنُ فى مجلس السرور ولكنْ   ليس إلاّ بكم يَطيبُ السُّرورُ

عيبٌ مـا نَحْنُ فيهِ يا أهلَ وِدِّى   إنَّكم رغبتم وإنَّا حُضــورُ

مـا نَعيمٌ يغيبُ عنه حبيبٌ   بنعيــمٍ ولا يَتِمُّ حُبــورُ

وقد أحكم ذلك الحكيمُ منهم بقوله:

يا عَذابى وراَحتى مِن عـذابى   أنتَ ما بى فكيفَ أكرهُ ما بى

لك منى الرّضــا مرادُك رائى   ليس منّى أرى لحكمــك آبى

وبمعناه قال مثله:

يا مُرتجى بحُسنـه من مَـلام   سكَنَتْ بك مواعظُ النُّوَّام

يا سَقامى ويا شِفا السِّقام   قد حلَتْ بك مرارةُ الأحكام

فهذه آياتٌ بيناتٌ فى قلوب الأحباب، وتبصرةً وذكرى لأولى الألباب.

وقال ثابت البنانى: كابدت القرآن عشرين سنة، وتنعَّمت به عشرين سنة.

ومن المحبة تركُ السكون إلى غير محبوبه، إذ هو السَّكَن. وقال أبو محمد: جنايةُ المحب عند الله أشد من معصية العامة، وهو أن يسكن إلى غير الله، ويستأنس بسواه. وفى قصة برخ العبد الأسود الذى استسقى به موسى عليه السلام: «إنّ الله تعالى قال لموسى: إنّ برخًا نِعْمَ العبدُ هو لى إلاّ أنّ فيه عيبًا. قال: يا رب، وما عيبه؟ قال: يعجبه نسيم السحر فيسكُن إليه، ومن أحبنى لم يسكن إلى شىء». فالسكون فى هذا الموضع الاستراحة إلى الشىء والأنسُ به، والسكونُ فى غير هذا الموضع النظرُ إلى الشىءِ والإدلال به والطمأنينة والقطع به.

ذكرتُ هذه الحكاية لبعض أهل المعرفة فقال: لم يرد بهذا برخًا إنما أراد به موسى، لأنه أقامه مقام المحبة، فاستحى أن يواجهه بذلك ـ أى لأنه عالم ـ

فعرَّضَ له ببرخ، أى وهو قد سمح لبرخ بذلك، إذ لم يوافقه عليه. وكان هذا جوابًا منه. ثُمَّ إنى سألته: لِمَ أخبر موسى بعيبه وهو يحبه دون أن يخبره هو بعيب نفسه؟ فأجاب بهذا: المقربون من المحبين إنما نعيمهم بالله، ورَوْحهم وراحتهم إليه، من حيث كان بلاؤهم منه، فإذا وجدوا ذلك فى سواه، كانت ذنوبًا لهم عن غفلةٍ أُدخلت عليهم، ليتوبوا منها إليه فيغفر لهم.

وروينا أن عابدًا عبد الله فى غيضةٍ دهرًا، فنظر إلى طير قد عشش فى شجرةٍ يأوى إليها ويصفِّر عندها. فقال: لو حوَّلتُ مسجدى إلى تلك الشجرة فكنتُ آنسُ بصوت هذا الطائر. قال: ففعل. فأوحى الله إلى النبى عليه السلام: «قل لفلانٍ العابد: استأنستَ بمخلوقٍ، لأحطنَّكَ درجةً لا تنالها بشىءٍ من عملك أبدًا».

فمنْ صدْقِ المحبةِ وخالصِها الانقطاعُ إلى الحبيب بوجود نسيم الأنس به، ومصادفةُ الاستراحة والرَّوحُ عنده بمحادثة فى المجالسة، ومناجاةٌ فى الخلوة، وذوقُ حلاوة النعيم فى ترك المخالفة لغلبة حُبِّ الموافقة. كما أنشدنى بعضهم عن بعض المحبين:

ألذُّ جميلَ الصبرِ عمّا ألذُّهُ   وأهوى لما أهواهُ تَركًا فأتركه

وقال نظيره فى مثله:

وأتركُ مـا أَهْوَى لِمَنْ قـد هَوِيتُه
وأرضى بمـا يَرضى وإنْ سَخِطتْ نَفْسِى

ثم الطمأنينةُ إلى الحبيب، وعُكوفُ الهمِّ على القريب، ودوامُ النظر إلى الرقيب، فإن كان الرقيب هو الحبيب، تمَّت النّعمة به، فلا يريد بذلك بدلاً، ولا يَبْغى عنه حِولاً؛ وقد جُمع لك المقامات، وأُعطيت من اليقين وصفين؛ لأنَّ مَن عرفه أحبّه، ومن أحبّه نظر إليه، ومن نظر إليه عكف عليه. أمَا فهمت هذا من قوله تعالى: ﴿وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ [طه: ٩٧].

ومن فرائض المحبة وفضائلها: موافقةُ الحبيب فيما أحبَّ حبَّ الله. كما قال

عمر رضى الله عنه لصهيب: «رَحِمَ اللهُ صهيبًا، لو لم يخف الله لم يَعْصه». أى أن محبته له تمنعه من مخالفته عن غير خيفة، فهو يطيعه حبًا له. وكان صهيب يقول: إنه يستخرج منى حبى لربى شيئًا لا يستخرجه غيره. يعنى من معانى الصفات المخوفة، والأفعال المرجوَّة.

وقال بعض علمائنا: الإيثارُ يشهد للحب، فعلامةُ حبه إيثاره على نفسك. وقال: ليس كلُّ من عمل بطاعة الله صار حبيبًا لله، ولكن كلُّ من اجتنب ما نهى عنه صار حبيبًا.

وهذا كما قال؛ لأن المحبة تستبين بترك المخالفة، ولا تتبيَّن بكثرة الأعمال. كما قيل: أعمال البرِّ يعملها البر والفاجر، والمعاصى لا يتركها إلا صدِّيق. وقيل: أفضلُ منازل الطاعات الصبرُ على الطاعات، وإن الصبر على الطاعة يُضاعَف إلى سبعين، والصبر عن المعصية يُضاعَف إلى سبعمائة، كأنه أُقيم مقام المجاهد فى سبيل الله؛ لأن نفسه عدو لله تبارك وتعالى وله، فمخالفته هواها هو جهادها فى سبيل الله؛ لأنه يقع اختيارًا من الله، وضرورة من كلية النفس، فإذا ترك هواه فقد ترك نفسه، فأقل ما له فى ذلك الزهدُ فى الدنيا، والجهادُ فى سبيل الله، ومن أجل ذلك ضُوعفت حسناته إلى سبعمائة، ومن أجله ثبتت له المحبة؛ لدخوله فى أهل هذه الآية: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِهِ صَفًّا﴾ [الصف:٤]. وأيضًا فقد اندرج الخوف فى حاله، وهو مقام تالٍ، ففَضُلَ بفضل حبِّه ثانيه لترك المخالفة، ولذلك قال الله جلّ ذكره: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٤٦]، ففضَّله على غيره بحبه.

وأعجب ما سمعتُ فى هذا: «أن موسى عليه السلام سأل الخضر: بأى شىءٍ بلغت هذه المنزلة؟ فقال: بترك المعاصى كلها».

وقد كان أبو محمد يقول فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ [التوبة:١١١] قال: عيش نفوسهم الفانى، وهو عاجلُ حظوظهم من الشهوات.

ومن المحبة وجودُ الرَّوْح بالشكوى إليه، والاستراحة إلى علمه به وحده، وإخلاصُ المعاملة لوجهه، وحسنُ الأدب فيها، وهو الإخفاءُ لها، وكَتْمُ ما يحكم به من الضيق والشدائد، وإظهارُ ما يُنعَّم به من الإلطاف والفوائد، وكثرةُ التفكُّر فى نعمائه، وخفىِّ ألطافه، وغرائبِ صُنعه، وعجائبِ قدرته، وحسنُ الثناء عليه فى كل حال، ونشرُ الآلاء منه والأفضال، والصبرُ على بلائه؛ لأنه قد صار من أهله وأوليائه. وقد يَعْسِف بأوليائه، ويَعنُف بأحبابه، لتمكُّنه منهم، ومكانتهم عنده، ولعلمه أنهم لا يريدون به بدلاً، ولا يبغون عنه حِوَلاً، إذ ليست لهم راحةٌ لسواهُ، ولا بُغيةٌ فى سواه، ولا لهم هِمَّة إلا إياه. كما قال بعض المحبين: ويلى منك، وويلى عليك، أفزع منك، وأشتاق إليك، إن طلبتُك أتعبتنى، وإن هربتُ منك طلبتنى، فليس لى معك راحةٌ، ولا لى فى غيرك استراحة.

وأُنشدتُ لقائلهم:

يا بَلائى ويا بَلا البلاءِ ... أنتَ دَائى فكيفَ أكرهُ دائى

وبمعناه قال نظيره:

لا تَطلُبنَّ شِفًا عند غيرهمُ ... فليسَ يُحييك إلاّ من توفَّاكا

وقال المحب فى معناه:

إن شئتِ جُودى وإمّا شِئْتِ فامْتنعى ... كلاهما مِنكِ منسوبٌ إلى الكرَمِ

فأنتِ عندى وإن أورَثْتِنى سَقمًا ... أحَبُّ مِن غيرِكم يَشْفى مِن السَّقَمِ

فاعتبروا يا أولى الأبصار، كما قال الخبيرُ البصيرُ منبِّهًا لأوليائه، ومعرِّضًا بمعان لأعدائه: **﴿وَاتْلُ عَلَيْهِم نَبَأَ إبْراهيمَ * إذْ قَالَ لأَبيه وقَوْمه مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أصْنامًا فنَظَلُّ لَها عَاكفينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُم إذْ تَدْعُون * أَوْ يَنْفَعُونَكُم أَو يَضُرُّونَ﴾** [الشعراء: ٦٩ ـ ٧٣]. فالعكوفُ على السَّميع المجيب، الضارّ النافع، أحقّ. وقال فى معناه: **﴿وانْظُرْ إلَى إلَهكَ الذى ظَلْتَ عَلَيْه عَاكفًا﴾** [طه: ٩٧]. فالنظر إلى الله البصير الحبيب أوْلى وأصدق.

ثم المسارعة إلى ما نُدب إليه من أنواع البرّ بوجود الحلاوة، وبشرح الصدر، كما جاء فى الأثر: «ولا يزال عبدى يَتَقرَّب إلىَّ بالنوافل حتى أُحبَّه». ثم الرِّضا بقضائه؛ لأنه مُستحسنٌ لأفعاله. ثم اللَّهَجُ بذكره ومحبة من يذكره، ومجالسة من يُذَكِّره، ودوام التشكِّى والحنين إليه، وخلوُّ القلب من الخلق، وسَبْقُ النظر إلى الخالق فى كلِّ شىء، وسرعةُ الرجوع إليه بكلِّ شىء، ووَجْدُ الأُنس به عند كل شىء، وكثرةُ الذكر له والتذكُّر بكل شىء.

ومن علامة المحبة طول التهجد. وروى عن الله سبحانه: «كَذَبَ من ادعى محبتى، إذا جنَّه الليلُ نام عنى». إلا أن بعضهم جعل سهر الليل فى مقامٍ بعينه. ذُكر له هذا الخبر، فقال: ذاك إذا أقامه مقام الشوق، فأما إذا أنزل عليه السكينة، وأواه بالأنس فى القُرب؛ استوى نومه وسهره. ثم قال: رأيت جماعة من المحبين، نومهم بالليل أكثر من سهرهم. وإمام المحبين وسيد المحبوبين رسول الله ﷺ كان ينام مثل ما يقوم، وقد يكون نومُه أكثرَ من قيامه، ولم يكن تأتى عليه ليلة حتى ينام فيها.

ومن المحبة الخروج إلى الحبيب من المال بالزهد فى الدنيا، والخروجُ إليه من النفس بإيثار الحق على جميع الأهواء. وقال الجنيد: علامة المحبة دوام النشاط والدؤوبُ بشهوةٍ، يَفتُر بدنه ولا يَفتُر قلبه. وقد قال بعض السلف: العمل عن المحبة لا يداخله الفتور. وقال بعض العلماء: والله ما استسقى محبٌّ لله من طاعته، ولو حلّ بعظيم الوسائل.

ومن المحبة التناصح بالحق والتواصى به، والصبرُ على ذلك. كما وصف تعالى الرابحين من الصالحين، فقال تعالى: ﴿**إِنَّ الإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾ [العصر: ٢ ـ ٣]. لأن المحبين له ليسوا كمن وصفه فى قوله تعالى: ﴿**يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلاَ يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ * إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ**﴾ [محمد: ٣٦ ـ ٣٧]؛ يعنى: إن يسألكم محبوبكُم من الأموال، ويستقصى عليكم، يخرج أحقادكم عليه. وروينا

فى مقرأ ابن عباس: ﴿ويُخرجْ أضغانَكم﴾ يعنى: الأموال[١].

فهؤلاء المتقون من عموم المؤمنين، تقواهم الشّرك بالصاحبة والولد، وإيمانُهم توحيده بالمُلك عن إله ثانٍ يضاهى الأحد الصّمد، إلاّ أنه أقامهم مقام الأُجَراء، فهم يعملون للأَجْر، فإن منعهم الأجرَ قعدُوا، فهم المسلمون، عِبادَتُهُم بالجوارح بلا قلبٍ ولا وَجْد، فهم مُخلصون لا مُخلَصين، وهم مُخلَصون لا خالصين، أكثر عبادتهم عادةٌ، وأحبُّها حاجةٌ، وشرُّها شهوة، فهم من عبيد العَدَد، اتّخذوا أمْوالَهم دون الله تعالى عدداً. فلو لم يدخل على هؤلاء الضعفاء إلا الشّركُ بالأموال فى مَحبته، والشغلُ بها عن ذكر جلاله وعن معاملته، لخسروا ما ربح المخلصون من الأحباب، وفاتهم ما أدرك الصادقون من طوبى وحسن مآب. كيف وقد ابتُلوا بالداء العضال الذى ليس لهم منه انفصال؟ وهو قيامهم بحق مولاهم عليهم، بوجد طلب الآخرة، ولأجل النّوال، فالله تعالى يسأل أحبابه أموالهم وأنفسهم، حتى لا يبقى لهم محبوبٌ سواه؛ ولئلا يعبدوا إلا إياه، محبةً منه، وكشفًا لمحبتهم، واختباراً لأخبارهم فى صدقهم وصبرهم؛ لأنه جواد مَلِك لا يسأل إلا كُلّيةَ الشىء وجُملتَه، وهو غيورٌ لا يحب أن يُشركه سواه فى محبته، فلا يصبر عليه إلا مَنْ عرفه، ولا يحبه إلا مَنْ صبر عليه، ولا يَرْضَى بحكمه فيه إلا مَنْ أيقن به. إلا أنه تعالى لا يسأل الجُملةَ كلها إلا من أحبَّه من كلِّ قلبه، لأنه يسرع إلى بَذْل ذلك مسروراً به، ولا يغار إلا على من أحبَّهُ المحبةَ الخاصّة، وذلك كلّه من نظام حكمته، وخُصوص رحمته، وغريب حُكمه، فهؤلاء هم المحبوبون من المحبين الذين لا يعملون للأجْر؛ لأنه أقامهم مقام العبيد، فهم المخلصون؛ لأنهم الخالصون، لا يعبدونه عادةً ولا حاجةً، عبادتُهُم للمحبة والتعظيم، بقلبٍ ووَجْدٍ مما سواه سليم، فمن يعلم ما أُخفى لَهم من قرّة العين عند معاينة العين؟

ووصف بعضُ العارفين صفةَ أهل المحبة الواصلين، فقال: جَدَّد لهم الوُدَّ فى كلِّ طرفةٍ بدوام الاتصال، وآواهم فى كنفِهِ بحقائق السّكون إليه، حتى أَنِّت

(١) فى الصفحات القادمة زيادات طويلة جدًا تصل إلى عدّة ورقات، من (م) فقط، ولا ألتزم الإشارة إليها فى كل موضع.

القلوب، وحنَّت الأرواحُ بالأشواق، وكان الحبُّ والشّوق منهم إشارةً من الحقّ إليهم عن حقيقة التّوحيد، وهو الوجودُ بالله تعالى، فذهب مُناهم، وانقطعت آمالهم عندما أبان منه لهم، فلو أن الحقَّ أمرَ جميعَ الأنبياء يسألون لهم؛ ما سألوه بعض ما أعدّ لهم فى قديم وَحدانيته، ودوام أزليَّته، وسابق عِلمه، فكان نصيبهم معرفتهم به، وتوحيدهم له، ثم أيَّد ذلك وحَصَّنه بالسُنَّة، ووهب لهم رَجْحان الرغبةِ والرهبة، وأعطاهم التَّحبُّب إليه والتقرُّب، ثم زادهم بَعْد ذلك إسباغ النعم، وإسبال السّتر، مع دوام حُسن الأمل فيه؛ لتمام ذلك، ومع هذا كله وقوعُ هممهم عليه، واجتماع أهوائهم فيه، فذلك تمامُ نعمته عليهم، ودوامُ كرامتِه لَهُم، وغايةُ الظَّفَر منهم، فصار بجسدهم من عبيده للعموم، وإذ رفع عن قلوبهم جميع الهموم، ورجحان عطائه أن أخفاهم فى الخفاء، وسترهم بأوصافهم عن الأولياء، وقد أُنشدتُ فى معنى ما وُصف:

كانتْ لِعَينِىَ أهواءٌ مفرَّقةٌ
فاستجمَعَتْ إذْ رأتْك العينُ أهواى
فصار يَحسُدُنى مَن كنتُ أحسُدُه
وصِرتُ مَولى الوَرى قد صِرتَ مولاى
تركتُ للناس دُنياهم ودِينَهُمُ
شُغُلاً بذِكْرك يا دِينى ودُنْيَاى

وذكرَ بعضُ أهل المعرفة أهْلَ القُربِ، فقال: إنى لأجدُ الحُضورَ فأقول يا الله، أو يا رب، فأجد ذلك أثقلَ علىَّ من الجبال. قيل: ولم؟ قال: لأنَّ النداء يكون من وراء حجاب، فهل رأيتَ جليسًا يُنادى جليسَه؟ إنما هى إشاراتٌ وملاحظاتٌ ومُناغاةٌ ومُلاطَفاتٌ، ثم ذكر ما ذكر، إلا أنه مستعبدٌ أن يقول، ومأخوذٌ عليه أن يكون فقيهًا بما يقول، ولا يخرج من مَوضع القُرب، وإن وقع عليه الحكمُ بالقول والفعل.

وَلكلّ مقامٍ مع الله تعالى فقهٌ خفىٌّ، ولكلِ عَالمٍ بالله لطيفُ علمٍ لطيفٌ

غريب، فلو رأيت أيها المستمعُ ما يكون بينه وبينهم فى سرِّهم، وما يجالسهم به ويحادثهم فى هذه المواطن، لَكنتَ تعذرهم فى كلِّ قولٍ وفعْل، فهؤلاءُ قومٌ محكومٌ عليهم فى أمورهم، قد حيل بينهم وبين كثيرٍ من العلم المعقول، والرسم المنقول، إنما أوجدُهُم مأخوذٌ بالعلم المجهول، عند ذوى العقول، فمراده ساقطٌ، وعزمه مَفْسوخٌ، ومحبتُه فى الأمور منقوصةٌ، لا شبيه النُّسَّاك، ولا عليه حِلْيَةُ العُبَّاد، لما نظر فيه مَنْ أُنسُه الوداد، وعِلْمُه باطنٌ، ومقامه خَفِىٌّ، والخليقةُ منه فى حَيْرةٍ، حار موسى الكليمُ مع الخَضِرِ الحبيب، وعطَّل عليه علم الكتب حين نظر إلى سرِّه، وموسى يكلِّمه الله على المشاهدة ويوحى إليه، وكان عِلْمُه بينه وبين الله تعالى فى سره المحبةَ والوُدَّ فى الفوائد والألطافِ والانبساط والإلهام، والخَضِر ونظراؤه من العارفين، إنما هم خزائنُ للحق، ومواضعُ لمجارى الأحكام والقُدْرَةِ فيهم، إذ كانوا وأفعالهم وحركاتهم به ومنه، وهم أهل البلاء.

ولقد قال لى رجل من أهل المعرفة: إذا بلغ أحدهم من هذا العلم الغاية رماهُ الخَلْقُ بالحجارة.

وقال آخر: إذا تناهت معارفُهُم انتهت إلى دَهْشةٍ وحيرة.

وقيل لبعض المحبوبين، وكان قد بذل المجهود فى بذل ماله ونفسه، حتى لم يبق عليه منها بقية: ما كان سبب حالك هذا من المحبة؟ فقال: كلمةٌ سمعتُها من خَلْقٍ لخَلْقٍ عَمِلَت بى هذا البلاء. قيل: وما هى؟ قال: سمعتُ محبًا قد خلا بمحبوبه، وهو يقول: أنا والله أحبك بقلبى كله، وأنت معرضٌ عنى بوجهك كله. فقال له المحبوب: إن كنت تُحبنى، فأىّ شىء تنفقُ علىَّ؟ فقال: يا سيدى، أملِّكك ما أملكُ، ثم أنفق عليك رُوحى حتى تَهْلك. فقلت: هذا خَلْقٌ لخَلْق، وعبدٌ لعبدٍ، فكيف بخَلْق لخالقٍ، وعبدٍ لمعبودٍ، فكان ذلك سببه.

فقد دخلت الأموالُ فى الأنفس تحت الشراء، وقد باعوه نفوسهم فما دُونها لمحبتهم إياه، وقد اشتراها منهم لنفاستها عنده. فعلامةُ محبته لها اشتراؤُها منهم، وعلامةُ شرائها طيُّها عنهم؛ فإذا طواها، فلم يكن عليهم منها بقيةُ هوًى فى سواه، فقد اشتراها.

واعلم أنّ آفات النفوس هى أدواؤها، وطهرةَ النفوس من الأدواء هو داؤها. كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس:٩]. فإذا صفَّاها من الآفات فقد صافاها، وإذا امتحنها بالتمحيص من الشهوات للتقوى فقد اشتراها.

فأمّا الأموالُ فإنهم قد بُخسوا بها، فإن أعطاهموها نَقَصُوا، وإن أخذها منهم طهروا وزكوا، كأنك لم تسمع قوله تعالى: ﴿خُذْ من أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣]. فإنما طهَّرهم وزكَّاهم الأخذُ، كذلك بَخَسهم ونقصهم العطاءُ، فهذا هو العافية من البلاء، فصار الأخذُ داءَ العطاء، ولكل داءٍ من النفس والمال دواءٌ على قدر صغره وعظمه، فضع الدواء على الداء من حيث دخل عليك، بإدخال ضده عليه، وبقطع أصله عنه. فعلامة النفوس المشتراة، وهى المحبوبة المجتباة، التوبةُ إلى الحبيب بالخدمة له، وكثرةُ الحمد له بالسياحة إليه، ودوام الصلاة بحسن الأدب بين يديه، والأمرُ بما يحب، والنهىُّ عما يكره، والحفظُ بحدوده التى حدَّها، وترتيبُ العلم على مدارج العقل، بإخفاء علم التوحيد وأسرار قيومية القدرة من المحافظة، لأن العقل حدٌّ، وذلك من كتمان علم المحبة، فهو عند المحبين كحفظ حدوده على الجوارح التى شرعها بألسنة الرسل: ﴿ومَنْ يَتَعدَّ حُدودَ الله فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [الطلاق:١]. ﴿ومَنْ لَمْ يَتُبْ فأُولئكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات:١١]. ﴿إنَّ اللهَ يُحِبُّ التوَّابِينَ ويُحِبُّ الْمُتطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢]. ﴿فإنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:٧٦].

وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ أراد أن يحبه الله فليزهد فى الدنيا».

فلا يطمعنَّ طامعٌ فى محبة الله قبل الزهدِ فى الدنيا. فهذه جُملُ أوصاف المحبين.

ووصف بعض العارفين سياحة المحبين، فقال: لو رأيتَ أرواح أهل خالصته إذا حثَّها بالسير إليه للتنعُّم فيما هنالك، لتُشرف على الملك الكبير، والنعيم العظيم، ومطاياها معارفُ ألبابها بلطائف أوهامها. فلو رأيتَ تجلُّلها بستور الإلهية، والحجب العِزّية، وهى تطلب الوصول من مأمولها، إذ هى بالوصال موصولة؛

لكى يُريها من سَنا مُلْكه، ونهايات بَسْطه، ما يزيد فى يقينها، ويُقوِّىَ مَعرفتَها، ويزيدُ فى بَهْجتها وصبابتها ما تَقرُّ به أعينها، ولذلك أسرى بمحمد ﷺ، لتَقرُبَ منزلته عنده، ويُريَه معرفة كرامته عليه، إكرامًا أكرمه به، ووعدًا وعده إياه، لمَّا تضمَّنَهُ تلك الغيوب، ليزداد به عِلْمًا يسلو به عن كل ما سواه، فلا يكون فيه بقيةٌ لغيره، إلا ما أدخله فيه لحكمةٍ عليه وبحسن تدبيره له، ولطيف إرفاقه بالأسباب وفى الأشياء، وهو فى ذلك محفوظٌ من النقصان، وكذلك صُنْعُهُ بمحبِّيه، ولطفه بهم، ورفقه لهم، فى رَدِّه إياهم إلى الأزواج والأولاد والمأكل واللباس، ليذيقهم طعوم ما به أنعم، ويُوجِد جُسومَهُم نعيم ما به نعم، ولو ترك محمدًا ﷺ وهو الغاية فى الحب والنهاية فى الودِّ، بعد ما أراه من العجائب والآيات فى الأرضين والسموات، لم يقم بدنه لذلك وتهدَّم، ولم تَثبُت صفاته بعد ذلك وتحطم، ولكنه عَلّله، وأرفقه بالنساء، وردّه إلى سياسة الخلق، لِمَا أراده بهم، وأرادهم به.

وكذلك فعل بموسى بعد كلامه له فى المقامات الرفيعة، وما ألبسه من نوره، فكان ينبغى له ـ على القياس ـ أن لا يأوى إلى بيت، ولا يرجع إلى خَلْق، ولا يَبسُط إلى أكل وشرب، ولكن ذلك رحمة من الله تعالى وتسكين. وكذلك على منهاجهم العارفون.

واعلم أنّ الله تعالى غنىٌّ كريمٌ، إنما خلق أولياءه كرمًا، وعرَّفهم نفسه تفضلاً، فأهلُ خالصته إنما خلقهم لكرامته والنعيم فى الدنيا والآخرة، فإذا صاروا فى حدِّ القُوَّة والتّمكُّن، أذاقهم طعم محبته، فكانوا بها ناعمين، كأنهم فى الجنّة، قد غطَّى عورات الدنيا وقُبْحَها عنهم، فليس يرون شيئًا إلا زاده حسنًا بحُسن تحسينه له، فبه أخذوا الأشياء، وعنه وبإكرامه عَجلُوا إلى الكرامة، وعجَّل لهم التنعُّم، أما سمعت قوله تعالى: ﴿**وَعَدَ اللهُ الَّذينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحات لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فى الأرْضِ كَما استَخْلَفَ الذِينَ مِن قَبْلِهِم**﴾ الآية [النور: ٥٥].

فلو رأيتَ فضولها إليه، ودُنُوَّها منه، وإشرافَها على قُربه فى جلال بهائِه، فأدركتها منه الهيبةُ، فخرَّت له ساجدةً بالاستكانة له، والحنين إليه، فأذن لها بعد أن قضت من ذلك الخضوع وَطَرًا؛ يرفع رُؤوسها، ثم آنسها وبسطها، فأذِن لها

بالكلام، فتشكَّت له ما تُلاقى من طُول حبْسِها، ثم استعتبته من خفىٍّ ما يَحِلُّ بها مما ابتلاها به فى هذه الدار، من الذى يشغلها عنه، ويحكم به عليها من مداراة الناس من غير شكلها، وملاقاة غير نِحْلَتِها، وملاطفة سوى جنْسها، ومعاشرة غير إلْفها، الذى يفهم عنها الأمور، ويجد بوَجْدها المستور الذى يضيق به ذَرْعًا، فعرف لها صدق ما قالت، فأعتبها، وسأله الصبر له والتجمُّل لذلك؛ لأجله ففعلت، فشكر لها صبرها له، فزاد فى قُواها، وزادها فى النعيم به بلُطف مُحادثته، وحُسن محاوَرَتِه، وعطف قُربه، فقرَّت عَينًا، وامْتلأت به سرورًا.

ولو رأيتَ بعد انصرافهم بلا انصرافٍ وعند صدورهم ولا بَراح إلا أنها حالةٌ من حالٍ، ومكانٌ من مكانٍ، وقد رتعت فى تلك الرياض الناضرة، من حظائر قُدسه الزَّاهرة، فتَنَسَّمت من ذلك روح الأنس الذى روَّح أرواحها بنسيم القُرْب، وشفى قُلُوبَها من كلِّ راحٍ. شربت فعاشت القلوبُ بعيشة راضيةٍ، وارتاحت الأرواحُ برياحين من مشربها ساقيةٌ. وقد أنشد بعضهم فى معناه:

يا نسيمَ القُرب ما أطيبكا ذاق طعمُ الأُنسِ مَن حَلَّ بكا

أىُّ عيشٍ لأناسٍ قُرِّبوا سُقُوا بالقُدْس من مشربكا

فهذه صفة عبدٍ مطلوبٍ لا طالبٍ، ونعتُ شخصٍ محبوبٍ لا مُتَحَبِّب، وحالُ مرادٍ مقرَّبٍ لا مُريد مُتقرِّب، وصفة عبدٍ حاجبٍ لا محجوب، وسيما وَلِىٍّ رَبانىٍّ لا مَرْبُوبٍ، وعلامةُ مُحبٍّ روحانىٍّ لا مُتنفِّسٍ شهوانىٍّ. فهذه جُمَلُ ما وَصَف العارفُ.

ولو أمكنَ تفصيلُ ما أُجمل، وشرحُ ما أُهمل فى كتاب، رَسَمناه، ولكنه مُسْتَنْسخٌ من قلبٍ إلى قلبٍ، ومستودعٌ بعينٍ إلى عينٍ.

ومن المحبة الكتمُ للغَيْرة، والستر لنفيس الذخيرة. قال بعض المحبين ممن يُؤتمُّ به من العارفين: وَرَدَ علىَّ حالٌ من التعظيم أخرسنى عن الكلام والتفهم بما لا أُطيقه، صفةً من الإجلال والعظمة، فحكَم علىَّ فلم أتحكَّم، ومَلَكَنى فلم أتملَّك ولم أتكلم. فلو شىءٌ من واجب حق الله تعالى كان إلىَّ، وقدرتُ عليه، لم آذن

لأحد من أهل السماوات والأرضين، من مَلَكٍ مقرَّب ولا نبى مرسل أن يقول الله، إذ كل قائلٍ فيما قُوِّل، وكل قريب من حيث قُرِّب، وكل عارفٍ فيما عُرِّف، وكل الكل محجوبٌ عن كُنْه القُرب، وعن حقيقة التوحيد، ومن عظمة التعظيم، فلم يكن أحدٌ يستطيع أن يقول الله. فمكثتُ سنةً لا أتكلم، وسمعتُ رَجَفَان قلبى فى صدرى، وزواله عن مستقره إلى نحرى، ويحك أما سمعتَهُ يقول: ﴿**إنّما الْمُؤْمِنُون الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ**﴾ [الأنفال: ٢]. فهذا وجل القلوب من ذكر غافل سمعوه، فكيف بذكر ذاكرٍ ذكروه، فما قال التوحيد إلا الواحد، وما قال الله إلا الله، ثم ذكر الباقى.

فهذا الذى ذكر حالٌ فى مقامٍ بعينه، بمشاهدة عينٍ من عظمة منفرده لُمتَفَرِّد، وقُربٌ عن وصف قريبٍ متَّحدٍ لُموحِّد، والتوحيدُ والتفريدُ وراء هذا، والإيحادُ والأحَدِيَّة والانفرادُ والوحدانية فوق ذلك، والآحاد والإفراد المفرِّدون بما أُفردوا، والموحِّدون بما وَحَّدَوا، والذاكرون بذكره الذى به ذَكروا، والمسبِّحُون بسُبحاته التى بها سبَّحوا، والمعظِّمُون بعظمته التى بها عَظَّموا، هم حجابُ هذا المقام، وخُزَّان هذا المعنى، كَشْفُهم لهذا السِّرِّ هو منهم كُفر، ﴿**واللهُ غالبٌ على أمْرِه ولَكنَّ أكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُون**﴾ [يوسف: ٢١]. ﴿**الحَمْدُ لله بل أكثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ**﴾ [لقمان: ٢٥]. فوقفوا مع الأمر لغلبة القهر، وسكنوا لأجل الحمد، فرسموا له الحَدَّ. وهكذا يُحب الحبيبُ، وهم لا يحبون ما لا يحُب، ﴿**لا يَسْبِقُونَهُ بالقَوْلِ وهُمْ بأمْرِه يَعْمَلُونَ**﴾ [الأنبياء: ٢٧]. هذا لأنهم عبادٌ مكرَمون، وبالتقوى مُلجَمون. وقد قال قائلهم:

لقـد بُطنتَ فلم تَظْهَر لذى بَصَرٍ	وكيـف يُبصِر مَنْ فى غَيْبِهِ اسْتَتَرا
لكن عُرِفْتَ بما أظهَرتَ مِن خبرٍ	فكيــف يُعرَفُ مَنَ بالخُبْر مُخْتَبَرا
فكنتُ أستُر مــا عاينتُ مُجتهدًا	لا أنّنى حــاجـبٌ أستطلعُ الخَبَرا
وصرتُ أسْعى لآثارٍ لنـا رُسِمَتْ	فلم تَـر العيـنُ لا رَسْمًا ولا أثرَا

ومن المحبة أن لا يطلب خدمة سواه، وأن يجتمع فى محبته همُّهُ وهواه، ولا يَهْوى إلا ما فيه رضا المولى، ولا يقضى عليه مولاه إلا بما يَهْواه.

ورُوى عن بعض العلماء: إذا رأيتَه يُوحشك من خلقه، فاعلم أنه يريد أن يُؤنسك به.

وفى أخبار داود عليه السلام: إن الله تعالى أوحى إليه: إن أودَّ الأودَّاءِ إلىَّ مَنْ عبدنى لغير نوالٍ، لكن ليعطى الربوبية حقها.

وفيما نقل وهب بن منبِّه من الزبور: ومن أظلم ممن عبدنى لجنة أو نار، لو لم أخلق جنة ولا نارًا، لم أكن أهلاً أن أطاع؟ أو كما قال.

وفى أخبار عيسى: إذا رأيتَ التقىَّ مشغوفًا فى طلب الرب، فقد ألهاهُ ذلك عما سواه. وعن عيسى عليه السلام: إذا رأيت التقى مشغوفًا فى طلب الرب، فقد ألهاه ذلك عما سواه. وعن عيسى عليه السلام: المحب لله يحب النَّصَب. وروى عنه: أنه مر على طائفةٍ من العبَّاد قد احترقوا من العبادة، كأنهم الشِّنان البالية، فقال: ما أنتم؟ فقالوا: نحن عبَّاد. قال: لأى شىء تعبَّدتم؟ قالوا: خوَّفنا الله من النار فخفنا منها. فقال: وحقٌّ على الله أن يُؤمِّنكم ما خفتم. ثم جاوزهم فمر بآخرين أشدَّ عبادةً منهم. فقال: لأى شىء تعبَّدتم؟ قالوا: شوَّقنا اللهُ إلى الجنان، وما أعدّ فيها لأوليائه، فنحن نرجو ذلك. فقال: حقٌّ على الله أن يعطيكُم ما رجَوْتم. ثم جاوزهم فمرَّ بآخرين يتعبدون، فقال: ما أنتم؟ قالوا: نحن المحبون لله، لم نعبده خوفًا من ناره، ولا شوقًا إلى جنةٍ، ولكن حبًا له، وتعظيمًا لجلاله. فقال: أنتم أولياءُ الله حقًا، معكم أُمرتُ أن أقيم، فأقام بين أظهرهم. وفى لفظ آخر: أنه قال للأوَّلِيْن: مخلوقًا خفتم، ومخلوقًا أحببتم، وقال لهؤلاء: أنتمُ المقربون.

وممن رُوى عنه هذا القول، وأُقيم فى هذا المقام: جماعةٌ من التابعين بإحسان، منهم: أبو حازم المدنى، كان يقول: إنى لأستحى من ربى أن أعبده خوفًا من العقاب، فأكون مثل العبد السوء، إن لم يُعْطَ أجر عمله لم يعمل، ولكن أعبده محبةً له.

وقد روينا معنى هذا الكلام عن النبى ﷺ: «لا يكون أحدُكُم كالعَبْدِ السُّوءِ؛ إن خاف عمل، ولا كالأجير السوء إن لم يُعْطَ أجرًا لم يعمل».

وقال بعض إخوان معروفٍ له: أخبرنى عنك، أى شىءٍ أهاجك إلى العبادة والانقطاع عن الخلق؟ فسكت. فقلت: ذكر الموت؟ فقال: وأى شىء الموت؟ قلتُ: ذكر القبر والبرزخ؟ فقال: وأى شىءٍ القبر؟ فقلتُ: خوف النار ورجاءُ الجنة؟ فقال: وأى شىء هذا؟ إن واحدًا بيده هذا كله، إن أحببته أنساك جميع ذلك، وإن كانت بينك وبينه معرفةٌ كَفَاكَ جميعَ هذا.

وفيما حدثنى بعض الأشياخ عن منصور الحربى وغيره: أنه رأى بِشْرَ بن الحارث، قال: فقلت له: ما فعل أبو نصر التمَّار، وعبد الوهاب الورّاق؟ قال: تركتهما الساعةَ بين يدى الله يأكلان ويشربان. قلت: فأنت؟ قال: علم اللهُ قلَّة رغبتى فى الأكل والشرب فأعطانى النّظرَ إليه.

وحُدِّثت عن عبد الوهاب الحجىّ، قال: رأيتُ أحمد بن نصرٍ الخُزاعىَّ فى النوم فقلتُ: ما فعل الله بك؟ قال: أدخلنى عليه فى داره، وبسط لى حصيرًا من لؤلؤٍ رطبٍ عن يمينه، وقال: يا أحمد، قُتلتَ فىَّ، وصِرتَ لى! فقلت: نعم يا رب. فقال: ها أنا ذا أنزل إليك حتى تنظرَ إلى وجهى، جل جلال وجهه ذى الجلال.

وحُدِّثت عن على بن الموفَّق قال: رأيتُ فى النّوم كأنى أُدخلت الجنة، فرأيتُ رجلاً قاعدًا على مائدة، وملكان عن يمينه وشماله يُلْقِمانه من جميع الطيبات، وهو يأكل. ورأيتُ رجلاً قائمًا على باب الجنة، يتصفح وجوه قومٍ، فيُدخل بعضًا ويردّ بعضًا. قال: ثم جاوزْتُها إلى حظيرة القُدْس، فرأيتُ فى سُرادق العَرْش رجلاً قد شخص ببصره ينظر إلى الله عز وجل لا يَطْرف. فقلت لرضوان: من هذا؟ فقال: معروفٌ الكَرْخى عَبَدَ الله لا خوفًا من ناره، ولا شوْقًا إلى جنته، بل حبًا له، فقد أباحهُ النظرَ إليه إلى يوم القيامة. قلت: فمن الآخران؟ قال: أخواك بشر ين الحارث وأحمد بن حنبل.

وهذا مقام الأبدال من الصدِّيقين، لا يقامون مقام أبدال الأنبياء، إلا بعد صفاء اليقين، وحسن المعرفة، فأول نصيبهم من الله نظرهم إليه، فيجمع لهم بأول نظرةٍ

من النِّعم والسرور ما لا يُوصَف جميع ما فرَّقه فى الجنان كلها من اللذة والسُّرور والنعيم والحبور. وفى النظرة الثانية فوق ذلك، وفى النظرة الثالثة أعلى من ذلك، وليس من الله حدٌّ، ولا عددٌ. ولهم أنصبة من وراءِ النَّظَر أضعافًا مضاعفة، لا يعرفها سواهم، ولا يسمع ذكرها إلا هم، ولا يطلبها غيرهم، ولا يطلب بها أحدًا دونهم، لا يُسمع ذكرها فى كتاب، ولا يجوز تسميتُها بخطاب إلا لأهلها؛ السائلين عنها، الطالبين لها، الراغبين فيها، هى من سرِّ الجبروت ونهاية الرغبوت.

ولا يبلغون دَرَج الصدِّيقين، ولا يعطون منازل الشّهداء، حتى تغلب محبةُ الله على قلوبهم فى كلِّ حال، فيتألهون إليه، ويذهلون به عن غيره، وينسون فى ذكره مَنْ سواه، هو مذكورهم بذكره ومأواهم بظله، كما ضرب لنا المثل بوصفهم، فقال: «الذين يَكْلَفُون بحبِّى كما يَكْلَفُ الصبىُّ بالشىء، ويأْوُون إلى ذكرى كما يأوى النَّسر إلى وكره، ويغضبون لمحارمى كما يغضب النَّمِر إذا حَرِدَ، فإنه لا يبالى قلَّ الناس أو كَثُروا».

فتدبر هذه الأمثال، فإن الصبى إذا كَلِفَ بالشىء لم يفارقه، فإن نام فمعه، وإن تحرك فبه، وإن هَبَّ من نومه فعنه، وإن فارقه بكى عليه، وإن وجده ضحك إليه. وأمّا النمر فإنه لا يملك نفسه عند الغضب لنفسه، حتى يبلغ من شدة غضبه أنه يقتل نفسه، وذلك أنه يغيِّب الخلقَ عنه، حتى نفسه، فلا يعقل ما فعل، فلذلك ضرب الله هذا المثل فى قوله: «لا يبالى قلّ الناسُ أو كثروا»؛ لحقيقة الإخلاص بغيبة مداراة الناس، فالمُحبّون لله هم المخلصون نفوسهم لوجهه حقًا، فيعبدونه لأجله صرفًا، وهم المقربون، ونعيمهم فى الجنان صِرْفٌ، ويُمزج لأهل المزج، وهم أصحاب اليمين، كما قال تعالى فى وصف نعيمهم: **﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ * عَلَى الأَرائِكِ يَنْظُرُونَ * تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيم * يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ﴾** [المطففين: ٢٢ ـ ٢٥]. ثم قال فى نعت شراب المقربين: **﴿وَمِزَاجُهُ﴾** يعنى مزاجُ شراب الأبرار **﴿مِنْ تَسْنِيمٍ * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾** [المطففين: ٢٧ ـ ٢٨] أى يشربها المقربون صرفًا. ويُمزج لأصحاب اليمين، فما طاب شرابُ الأبرار إلا

بمزاج شراب المقربين، فعبر عن جُمل نعيم الجنان بالشراب، كما عبر عن العلوم والأعمال بالكتاب. فقال فى نعت الأبرار مثله: ﴿إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: ١٨]. ثم قال: ﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ٢١]، فما حَسُن علمهم، ولا صفت أعمالهم، ولا علا كتابهم، إلا بشهادة المقربين، لما قَرُب منهم وحضروه. كذلك كانوا فى الدنيا تحسن علومهم بعلمهم، وترتفع أعمالهم بمشاهدتهم، ويجدون المزيد فى نفوسهم، بقربهم منهم: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]. وقال تعالى: ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٦]؛ أى وافق أعمالهم. وقال تعالى: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ أى كوصفهم فى الدنيا ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٣٩]؛ فمَنْ كان فى هذه الدار نعيمُه طيباتُ الملك، فكذلك غدًا يكون الملك نعيمه. ومَنْ كان فيها نعيمه وروحه بالملك الطيب، فهو غدًا فى مقعد صدق عنده.

كما قال أبو سليمان الدارانى: من كان اليوم مشغولاً بنفسه فهو غدًا مشغول بنفسه، ومن كان اليوم مشغولاً بربه فهو غدًا مشغول بربه.

وقد روينا عن رابعة العدوية، وكانت إحدى المحبين، وكان الثورى يقعد بين يديها، ويقول: علمينا مما أفادك الله من طرائف الحكمة، وكانت تقول: نِعْمَ الرجل أنت لولا أنك تحب الدنيا. وقد كان رحمه الله زاهدًا فى الدنيا عالمًا، إلا أنها كانت تجعل إيثار كتب الحديث والإقبال على الناس من أبواب الدنيا. وقال لها الثورى يومًا: لكل عبدٍ شريطةٌ، ولكل إيمان حقيقةٌ، فما حقيقةُ إيمانك؟ فقالت: ما عبدتُ الله خوفًا من الله، فأكون كالأَمَة السوء إن خافت عملت، ولا حبًا للجنة، فأكون كأمة السوء إن أُعطيت عملت، ولكنى عبدته حبًا له، وشوقًا إليه.

وروى عنها حمَّاد بن زيد أنها قالت: إنى لأستحى أن أسأل الدنيا مَنْ يملكها، فكيف أسألها من لا يملكها، وكان هذا جوابًا، لأنه قال لها: اذكرى لى حوائجك حتى أقضيها.

وخطبها عبد الواحد بن زيد، فحجبته أيامًا، حتى سئلت أن يدخل عليها،

فقالت: يا شهوانى، اطلب شهوانية مثلك، أىَّ شىءٍ رأيتَ فىَّ من آلة الشهوة؟ وخطبها محمد بن سليمان أمير البصرة على مائة ألف، وقال: لى غلةٌ عشرة آلاف فى كل شهر أدفعها إليك، فكتبت إليه: ما يسرنى أنك لى عبد، وأنّ كل ما تملكه لى، وأنك شغلتنى عن الله طرفة عين.

وقد قالت فى معنى المحبة أبياتًا تحتاج إلى شرحٍ، حملها عنها أهل البصرة وغيرهم؛ منهم جعفرُ بن سليمان الضبعى، وسفيان الثورى، وحماد بن زيد، وعبد الواحد بن زيد:

أحبُّك حُبين : حبَّ الهوى ... وحبًا لأنّك أهلٌ لذاكا

فأمَّا الذى هو حبُّ الهوى ... فشُغلى بذِكْرك عمَّن سِواكا

وأمَّا الذى أنتَ أهلٌ له ... فكَشْفُك للحُجْب حتى أراكا

فلا الحمدُ فى ذا ولا ذاك لى ... ولكن لك الحمدُ فى ذا وذاكا

فأما قولها: حبُّ الهوى. وقولها: حب أنت أهل له، وتفريقها بين الحبين، فإنّه يحتاج إلى تفصيل حتى يقف عليه من لا يعرفه، ويَخْبُره من لم يشهده. وفى تسميته ونَعْت وصفه إنكارٌ من ذوى العقول؛ ممن لا ذوق له ولا قدم فيه، ولكنا نحمل ذلك، وندلُّ عليه من عرفه. يعنى حب الهوى: أنى رأيتك فأحببتك عن مشاهدة عين اليقين، لا عن خبرٍ وسمع تصديق من طريق النّعم والإحسان، فتختلف محبتى إذا تغيرت الأفعال، لاختلاف ذلك علىَّ، ولكن محبتى من طريق العيان، فقَرُبتُ منك وهربتُ إليك، واشتغلت بك، لما تفرَّغت لك، كما قال المحبُّ:

فرَّغت قلبها اشتغالاً بذكرى ... وكــذا كلُّ فارغٍ مشغولُ

وعلى هذا المعنى مجازُ قوله [تعالى]: ﴿**وأصْبَحَ فُؤادُ أُمِّ مُوسى فارغًا**﴾ [القصص: ١٠]. أى لان بذكره حتى فاض، فكادت تُبدى به وتظهره، فتقول: هو ابنى، فعبر عن الملء بالفراغ من ضدِّه، لولا أن أوْكَيْنا عليه بربْطنا فكَظَمت، ولو لم تفعل لأظهرت، ولو أظهرته لقُتل.

تقول: وانقطعت عمن سواك، وقد كانت لى قبل ذلك أهواءٌ متفرقة، فلما رأيتُكَ اجتمعت كلها، فصرتَ أنت كلية القلب وجملة المحبة، فأنسيتنى ما سواك، كما قال المحبُّ:

كـانت لقلبى أهـــواءٌ مفرَّقـةٌ فاستجمعتْ إذْ رأتكَ العينُ أهواى

وأما الحبُّ الثانى، فالذى هو أهلٌ له، أعنى حُبَّ التعظيم والإجلالِ لوجه الله العظيم ذى الجلال. تقول: ثم إنى مع ذلك لا أستحقُّ على هذا الحب، ولا أستأهل أن أنظر إليك فى الآخرة على الكشف والعيان فى محل الرضوان؛ لأن حبى لك لا يُوجب عليك جزاءً عليه، بل يُوجب على كل شىءٍ لك منى كلَّ شىء مما لا أطيقه، ولا أقوم بحقك فيه أبدًا، إذ كنت قد أحببتك فلزمنى خوفُ التقصير، ووجب علىَّ الحياءُ من قلة الوفاء، والخوفُ لما تعرَّضتُ به من حبك، إذ ليس كمثلك شىءٌ، كما قال المحبُّ:

أصبحتُ صبًّا ، ولا أقولُ بِمَنْ خَوْفًا لِمَنْ لا يخافُ من أَحَدِ

إذا تفكَّـرتُ فى هـــواى لَهُ لمستُ رأسى هل طار عن جَسَدِى

لولا أن الحب ينطق، والشوق يقلقُ، والوَجْد يحرقُ، فالمحبُّ لا يلام لغيبة النفس عنه والأنام.

تقول: فتفضلتَ علىَّ بفضل كرمك، وما أنت له أهلٌ من تفضلك، فأرَيتنى وجهك عندك آخرًا، كما أريتنيه اليوم عندى أولاً، فلك الحمدُ على ما تفضَّلت به فى ذا عندى فى الدنيا، ولك الحمد على ما تفضلت به فى ذاك عندك فى الآخرة، ولا حمد لى فى ذا ههنا، ولا حمد لى فى ذاك هناك، إذ كنتُ إنما وصلتُ إليهما بك، فأنت المحمود فيهما، لأنك وصَّلتنى بهما.

فهذا الذى فسرناه هو وَجْدُ المحبين المحقين.

وقد كانت تذكر الأنس فى وجدها، وترتفعُ إلى وصف معنًى من الخُلَّة، وشىءٍ من تخلُّل أسرار الغيب فى قولها السائر:

إنى جعلتُـك فى الفـؤاد محـدِّثى وأبحتُ جِسمى مَنْ أراد جُلوسى

فالجِسْمُ منّى للجليسِ مؤانسٌ وحبيبُ قلبى فى الفؤادِ أنيسى

ومن قولها النادر فى مقام الخُلّة:

وتخلَّلْتَ مَسْلَكَ الرُّوحِ مِنّى وبه سُمِّى الخليلُ خليلا

فإذا ما نطقتُ كنتَ حَدِيثى وإذا ما سكتُّ كنتَ العليلا

وقد أهَّل ذلك لها كلٌّ من نقله عنها من العلماء، فوصفوها به، فوصفنا من نعت المحبين بعض ما يَصْلُحُ من معنى كلامها؛ لأنّا ظننّا بقولها ذلك، إذ كان لها فى المحبة قدمُ صدقٍ، والله أعلم.

ولا يسعنا أن نشرح فى كتابٍ حقيقة كشف ما أجملناه، ولا أن نفصِّل وصف ما ذكرناه. ومن لم يكن من المحبين كذلك، حتى لا يُدِلَّ بمحبته، ولا يقتضى الجزاء عليها من محبوبه، ويوجب على حبيبه شيئًا لأجل محبته، فهو مخدوعٌ بالمحبة، ومحجوبٌ بالنظر إليها، وإنما ذاك مقام الرجاء، الذى ضده الخوف، وليس من المحبة فى شيءٍ، ولا تصح المحبة إلا بخوف المقت فى المحبة. وقال بعض العارفين: ما عرفه مَنْ ظنَّ أنه عرفه، ولا أحبه مَنْ توهَّم أنه أحبه.

• ذكر مخاوف المحبين ومقاماتهم فى الخوف:

وللمحبِّ سبعُ مخاوف، ليست بشيءٍ من أهل المقامات، بعضها أشد من بعض.

أولها: خوفُ الإعراض، وأشدّ منه خوفُ الحجاب، وأعظم من هذا خوف البُعد، وهذا المعنى فى سورة هود هو الذى شيَّب الحبيب ﷺ، إذ سمع المحبوبَ يقول: ﴿أَلاَ بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [هود:٦٨]، ﴿أَلاَ بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود:٩٥] فذِكْرُ البُعْدِ فى البعد يُشيب أهل القُرب فى القُرب، فكيف يعرف البُعد من لم يقرب؟ أم كيف يحنُّ إلى القُربِ مَن ألِفَ البُعْد؟ بل كيف يبكى فى البُعد من لم يعهد القُرب؟

ثم خوف السَّلْبِ للمزيد، والإيقاف مع التحديد، وهذا يكون للخصوص فى الإظهار والاختيار منهم، فَيُسلبون المزيد من نوعه إن كان من الآيات، وحقيقة

ذلك عقوبةٌ لهم، ويكون للعموم عند إيثار الشهوات على أوامر الطاعات، كما روينا عنه تعالى: «إن أدنى ما أصنع بالعالِم إذا آثر شهوات الدنيا على طاعتى أن أسلُبَه لذيذَ مُنَاجاتى».

وقد يكون عند الدعوى للمحبة، ووصف النفس بحقيقتها، وإنما معه علمها دون الوجد بها، فينقصون معهم، ولا يفطنون لذلك، وهو لطيفة من المكر الخفىّ.

وقد قَرن اللهُ الدّعوى بِفرْيَةِ الكذب؛ لأنها كذبُ القلبِ بمنزلة كذب اللسان، فى قوله: ﴿ومَنْ أظْلَمُ مِمَّن افْتَرَى عَلَى الله كَذِبًا أوْ قَالَ أُوحِيَ إلىَّ ولَمْ يُوحَ إلَيْهِ شَىءٌ﴾ [الأنعام:٩٣]، ونهى عنها كنهيه عن التولِّى عنه فى قوله: ﴿وَلا تَولَّوْا عَنْهُ﴾ [الأنفال: ٢٠]، ﴿ولا تَكُونُوا كَالَّذينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١].

ثم خوف الفوت الذى لا دَرَكَ له. سمع إبراهيم بن أدهم ـ وهو أحد المحبين ـ قائلاً يقول فى سياحته على جبلٍ نظمًا:

كـلُّ شىءٍ لك مغفـورُ سـوى الإعـراضِ عنّى
قـد وهَبنا منكَ مــا فا تَ، بقى مـا فاتَ منّى

فاضطرب وغشى عليه، فلم يفق يومًا وليلة. وهذا فى قصة طويلة كانت له بعد مقامات أقيم فيها، نُقل عنها إلى هذا المكان، حتى قال فى آخر ذلك: فسمعتُ النداء من الجبل: يا إبراهيم كن عبدًا. قال: فكنتُ عبدًا، فاسترحتُ؛ معناه: لا يملكك إلاّ واحد، تكون عبدًا له حرًا مما سواه، ولا تملك شيئًا، فإن الأشياء فى خِزانة مليكها، فلا تتملَّكها، فتحجبك عن مالك، وتأسِرُك بمقدار ما ملكتها. وقد ضرب الله مثلاً بينه وبين خلقه: أن رجلين أحدهما فيه شركاء متشاكسون عليه من أهل ومال وشهوات، كل واحد يجذبه إليه، ويريد نصيبه منه، ويشغله به، ويحب فراغه له، وآخر سالمًا من الشركاء، خالصًا من الشرك، متوحدًا لواحد، أنهما لا يستويان، فى قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلاً فيه شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِرَجُلٍ هَل يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الحَمْدُ لله بَلْ أكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٢٩]. أى الأكثر ليسوا علماء كهذا الواحد للواحد، فتنافسوا فى

واحده، وسلكوا سالكه بوحيده.

وأشدُّ من الفوتِ خوفُ السلوِّ، وهذا أخوفُ ما يخافون؛ لأنَّ حبَّهم له كان به لا بهم ، ومنه لا منهم، وهو نعمة عظيمة لا يعرف قدرها، فكيف يشكره عليها ولا يقوم لها شيء؟ فكذلك سُلُوهم عنه يكون به، كما كان حبهم له به، فيدخل عليهم السلوُّ عنه من حيث لا يشعرون، من مكان ما دخل عليهم الحبُّ له من حيث لا يعلمون، فتجد السلوَّ به كما كان يجد الحبَّ له؛ فتكون قد سلوتَ عنه، وأنتَ لا تدرى كيف سلوتَ؛ لأنه يُدَرِّجُك بما خَدَعَك بِهِ من الاستبدال عنه بما تدرى، إلاّ أنّك لا تفطن لذلك؛ لتهوينه الأمر عليك، فتقف مع الرجاء، أو تغتر بحُسن الظّن الذى كنتَ تعهد منه؛ أو لغلبة الهوى والشهوةِ والنسيان، فهو من أقوى جنود الأرض، لأنهن يغلبن أضدادهن من جنود السماء؛ وهو العلم، والعقل، والبيان: ﴿فإنْ زَلَلتُم مِن بَعْدِ ما جاءَتْكُمُ البيِّنَاتُ﴾ [البقرة:٢٠٩] الآية، عزيزٌ لا يُوصَل إليه إلا به، حكيم حكَم عليكم بالزلل عنه إلا أنه يُدَرِّجُ فى ذلك استدراجًا بلطائف الحكمة، على مَعْهودِ الأسباب ومألوف المعتاد، وكما أنَّك أحببته، وأنت تدرى كيف أحببته؛ لأنه أشهدك وصفه به باطّلاع القدرة عن جنان الرحمة، فاقتضى الحب له، فوجدتَ نفسك محبًا له. كذلك ترجع المحبة كما جاءت تحجبك عنه عن فعل مكروه يبدو أنّك منه ظهر عن وصف الكِبْر والجبرية، فتجد قلبك ساليًا عنه بلا حول ولا قوة منك، ولا اجتلاب ولا حيلة، وهذا لا يصفه إلاّ عارفٌ بدقيق بلائه، ولا يحذره إلا خائفٌ من خفى مكره وابتلائه. فإذا سلوتَ عنه به كان ذلك دليلاً منه أنه قد رفضك واطّرحك، كما أنّك إذا كنت تحبه إنّما أحببته به؛ وهذا هو تحقيقُ المكر السريع بسرعة تقليب القدرة للقلوب، الذى يَحيقُ بالممكور، وهو دَرَكُ الشقاء الذى أدرك المغرور بما لا يدركه الطَّرْفُ لسرعته، ولا يَجُول فى الوهم لخفْيته، كقوله تعالى: ﴿إذَا لَهُمْ مَكْرٌ فى آيَاتنا﴾ أى معصية بالنعم ﴿قُلِ اللهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ [يونس:٢١] أى أخفى تقليبًا، قد أظهر لهم نعمًا أحبوها، وكانت عقوبةً ونِقَمًا باطنة فى لبس النعم الظاهرة، يُدَرَّجُون بها درجةً درجةً، من حيث لا يعلمون.

وأشد من هذا كله خوف الاستبدال؛ لأنه لا مشوبة فيه، وهذا حقيقة الاستدراج، يقع عن نهاية المقت من المحبوب، وغاية البغض منه والبعد. والسلوُّ مقدمة هذا المقام، والإعراضُ والحجابُ بدايةُ ذلك كله، والقبضُ عن الذِّكر وضيقُ الصدر بالبرِّ أسبابُ هذه المعانى المُبعِّدَة، والمدارج المُدَرَّجة، إذا قويت وتزايدت أخرجت إلى هذا كله، وإذا تناقصت وبُدِّل بها الصالحات والحسنات، أدخَلت فى مقامات المحبة والقربات، كما جاء فى الأثر: «التّائبُ حبيبُ الله»[1]. كذلك فى تدبر الخطاب أن العاكف على هواه مقيت الله، فوجدَ هذه الأوصاف منك دلائل ما غاب عنك من الاستبدال بك، والإسقاط لك. والخوفُ من هذه المعانى علامةُ المعرفةِ بأخلاقه المكذِّبة المقلِّبة. ولا يصلح شرحُ هذه المقامات فى كتابٍ، ولا تفصيلَها برسم خطاب، إنما يُشرح فى قلبه بيقينه قد شُرِح، ويفصِّل العبد من نفسه قد فُصِل. فأما قلبُ مشترك، وعبدٌ فى هواه مرتبك، فليس لذلك أهلاً، والله المستعان.

وثَمَّ خوفٌ ثامنٌ عن شهادة حبٍّ عال، يَغْرُب اسمه فيلتبس، ويخفى وصفُه لقلة اشتهاره فى الاستماع فيجهل، لم نُسمِّه؛ لأنه خوفٌ عن مقام له اسمٌ من المحبة، يَتَشَنَّعُ[2] على كثير من سامعيه، فينكرونه، ويتشنَّج فى أوهام غير مشاهديه فيمثِّلوه بالخلق؛ لأن أسماء صفات الخلق ملتبسة بمعنى صفات الخالق، وإنّما لهم من ذلك ما يعلمون، وهم بعلومهم محجوبون، فكيف بها يشهدون. فإن ذكرنا خوفه نَمَّ على ذكر مقامه، فظهر بإظهاره، فكان طيُّه أفضل من نشره، إلى أن يُسأل عنه من ابتُلى به ثم صَدَر عنه، بعد أن شَرِبَ منه؛ لأن مقامات المحبة كلها إلى جنب مقامه كنهر أُضِيفَ إلى بحر مثله، كمثل مشاهدات اليقين كلّها إلى جنب شهادة التوحيد بالتوحيد، وهو وصف من المحبة بقُرب القُربِ؛ لأنه من شوقِ الحبيب إلى المحب. وهو من معنى قول رابعة آنفًا: حبّ الهوى. ومن معنى قول عائشة رضى الله عنها للنبى ﷺ: «أرَى ربَّك يُسارع إلى هوَاك». وقال أبو الدرداء لكَعبٍ الحَبر: أخبرنى عن أخص آية فى التوراة، قال: يقول الله عز وجل:

(١) فى المطبوعة: «الثابت عن حبيب الله» وهو تصحيف فاسد.

(٢) فى المطبوعة: «فيشتبه».

«طال شوقُ أوليائى إلىَّ، وإنا إليهم أشوقُ»، وإلى جانبها مكتوبٌ: «من طلبنى وجَدَنى، ومن طلب غيرى لم يجدنى». فقال أبو الدرداء: أشهد أننى قد سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا.

وفى الخبر: «إن الله عز وجل يدنو من أوليائه فى كل يوم وليلة دُنُوَّة، ولولا ذلك لانْحَطموا». وروينا ذلك فى أخبار داود عليه السلام من أوصاف المحبين: «يا داود، أبلغ أهل أرضى أنى حبيبٌ لمن أحبنى، وجليسٌ لمن جالسنى، ومؤنسٌ لمن أنس بذكرى، وأنيسٌ لمن أنس بى، وصاحبٌ لمن صاحبنى، ومُختارٌ لمن اختارنى، ومطيعٌ لمن أطاعنى، ما أحبنى عبد ـ أعلم ذلك يقينًا من قلبه ـ إلا قَبِلتُه لنفسى، وأحببته حبًا لا يتقدمه أحدٌ من خلقى، من طلبنى بالحق وجَدَنى، ومن طلبنى بغير حق أو طلب غيرى لم يجدنى، فارفضوا يا أهل الأرض ما أنتم عليه من غُرورها، وهلُمّوا إلى كرامتى، ومُصاحبتى، ومجالستى، وأْنسُوا بى أؤانِسكُم، وأسارع إلى محبتكم، فإنى خلقت طينة أحبائى من طينة إبراهيم خليلى، وموسى نجيِّى ومحمد صَفِيِّى، إنى خلقتُ قلوب المشتاقين من نُورى، ونَعَّمتُها بجلالى».

فهذا فى مقام خُلَّة، وحال مطلوبٍ، وهو من وصف مُقرَّب، ونعت محبوب. ومن صَدَرَ عن مقام محبٍّ بعد وروده، رُفِع إلى هذا المقام؛ لأنه فى مقام محبوب لجميل مشاهدات اليقين. وقد كان الجنيد رحمه الله ينشد هذه الأبيات كثيرًا[1]:

سرتْ بأُناس فى الغيوب قلوبُهم ... فحلُّوا بقُرب الماجـدِ المتفضِّل

عَراصٌ[2] بقُرب الله فى ظلِّ قُدسه ... تجـول بهـا أرواحُهم وتَنَقَّل

مَواردُهم فيهـا على العزِّ والنُّهَى ... ومصدرُهُم عنها لِمَا هُو أكمل

تروحُ بعزٍّ مُفْرَدٍ من صفاته ... وفى حُلَل التوحيـد تَمشى وتَرْفُل

ومن بعد هـذا ما تدقُّ صفاتُه ... ومـا كَتْمُـه أوْلَى لَدَيه وأعْـدل

سأكتمُ مِن علمى به مـا يَصونُه ... وأبذلُ منه مـا أرَى الحقَّ يُبذَل

---

(١) البيت الأول منها فى ترجمة الجنيد بالحلية ١٠/ ٢٨٤.

(٢) عَراصٌ: كذا ضبطت فى النص، وهى من: عَرِص البرق: اضطرب، وعَرِص الرجلُ: نرح

وأُعطى عبادَ اللهِ منه حُقوقَهم ... وأمنعُ منه ما أرى المنعَ أفضل

ألاَ إنَّ للرحمن سرًا يسره ... إلى أهلهِ فى السرِّ والسترُ أجمل

وقد ذكرنا معناه بعض المحبوبين فى كلام منظوم فى بيتين وهما:

فمنك بدَا حبٌّ بِعزٍّ تمازجا ... بماءِ وصالٍ كنتَ أنتَ وَصَلْتَه

ظهرتَ لمن أبقيتَ بعد فنائِه ... فكان بلا كونٍ لأنّك كُنتَه

ويقول فى أول الأبيات اختصرته:

تعزَّزتَ بالعزِّ المنيع فكلُّ مَنْ ... أشار إلى عزٍّ فأنت خَدَعْتَهُ

وأبدأتَ وصفًا بالعلومِ مُخبِّرًا ... فشتَّت قلبًا بالعُلوم جمعتَهُ

وأفردتَ حبًا فيك منك بِمَشْهَدٍ ... بلا عِلم فى العَقل حين بَسَطتَهُ

وقال بعض العلماء: مَنْ عرف الله من طريق المحبة بغير خوفٍ هلك بالبسط والإدلال، ومَنْ عرفه من طريق الخوف من غير محبةٍ انقطع عنه بالبعد والاستيحاش، ومَنْ عرف الله من طريق المحبة والخوف أحبه الله فقرَّبه وعلَّمه ومكَّنه. وليس العجبُ من خوف الخائفين، إذ لا يعرفون إلاَّ الصفات المخوفات، والأفعال القاصمات، وإنما العجبُ من خوف المحبين مع ما عرفوا من أخلاقه وحنانه، وشهدوا من تَعطُّفه وألطافه، ما لم يعرف الخائفون، ثم هم مع حبِّهم يهابونه، وعلى أُنسِهم به يُجَلُّونَه، وفى فزعهم منه يشتاقون إليه، وفى بسطه لهم ينقبضون بين يديه، وفى إعزازه لهم يذلُّون له؛ لأن من قُبض فانقبض فليس بعجب، ولكن من بسط فانقبض فهو العجب، ومَنِ امتُهن فذلَّ فلا عجب، ولكن من أُعزّ وأُكرم فتواضع وذَلَّ فهو العجب.

فللمحبين الانقباضُ فى البسط، وللخائفين الانقباضُ فى القبض، وللمحبين الذلُّ مع العزِّ والكرامة، وللخائفين الذلّة مع الهيبة والمهنة؛ فهذا يدل على أن معرفة المحبين به أعظمُ المعارف، إذ كانت أوائل أحوالهم المخاوف، فكلُّ محبٍّ لله خائفٌ منه، وليس كلُّ خائفٍ بمحبٍّ، يعنى محبة المقرَّبين؛ لأن لم يذُق طعم

الحبِّ؛ لأن محبة المسلمين الْمُعْتَرِضة لا يقع بها اعتبار فى مقامات الخصوص؛ لأنه لا يوجد عنها مواجيدُ الأحوال، ولا يُعلى بها فى مشاهدات الانتقال؛ لأنها قوت الإيمان، منوطة بصحته، وموجودة بوجودِهِ، فأشبهت محبتُهم معرفتَهم بالله تعالى التى عنها توحيدهم، فإنّهم عرفُوه بوصفِ الأزل والقِدَم، والسرمدية والأبدية، والدَّهر والأبد، وهذا مندرج فى اسمين من أسمائه: أولٍ آخر، والعارفون عرفوه بصفات الجَبْر والقهر والقدرة والمكر، وهذا قد أحكمه من الاسمين: ظاهرٍ وباطنٍ، وليس هذا من معارف المحبين فى شيءٍ. والمحبون عَرفوه بصفات التَّجلى ومعانى المعانى، ونعوت الأخلاق، وفى هذا سرائر الغيوب ومشاهدات المحبوب. وأنشد بعضهم فى معنًى من المعانى:

أبدى شواهدَه فى قلبِ شاهدهِ ... وأين شاهــدُهِ فيمــا يُجلِّيـهِ
هى الصفاتُ التى من أجلِها عَبدُوا ... أهـو تجلَّى بهـا أَمْ هى تُجلِّيـه
فالحمــدُ لله لا بَوْنٌ ولا صِلةٌ ... هــذا مكانٌ لنا معنى معــانيـهِ

وأنشد آخر فى معنى التوحيد:

سبحان مَنْ قد جَلَّ فى قَدرِه ... أن يُدرك الأقربُ من وصفِـه
ومن تجلَّى بصُنوف البـلاءِ ... ليُشهد الألطفَ من لُطْفِـهِ

وأنشد بعضهم فى وصف التجلِّى والحجاب:

لقد ظهرتَ فما تَخْفَى على أحــدٍ ... إلاَّ على أكمَه لا يعرفُ القَمرا
لكنْ بطَنْـتَ فمـا أظهرَتَ محتجبًا ... فكيـف يُعرَف من بالعُـرف مُستَترا
فصرتُ أحجبُ ما عاينتُ مُجتهدًا ... لأنّنى حــاجبٌ أستطلعُ الخَبَرا

وأُنشد فى وصفٍ من التوحيد والتعزيز بمعناه:

لقـد بَطنْتَ فلم تَظهر لِذِى بَصَرٍ ... وكيف يُدرَك من بالعَين مُستترا؟
لكن عُرفتَ بمـا عرَّفتَ من خبرٍ ... فكيف يُعرَف مَن بالخُبْرِ مُختَبرا؟
فصرتُ أسعى لآثارٍ لنـا رُسِمتْ ... وغـابتِ العينُ لا رَسْمًا ولا أثَرَا

والكلام فى التجلى والاحتجاب، والجمع والاتصال، لا أرسمه فى كتابٍ، لأنه يؤود العقول فتنفر منه وتطرحه، وتضيق عنه القلوب فيُقبض عليها فتَمجُّه، وإنما أُمِلُّه من قلبٍ إلى قلبٍ، وأُوعيه من عينٍ إلى عين.

وروينا أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول: اللهم أرنى الدنيا كما تراها، فقال له رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل لا يرى الدنيا كما تراها، ولكن قُل: اللهم أرنى الدنيا كما يراها الصالح من عبادك».

وفى دعاء رسول الله ﷺ: «يا مكوِّن كل شىء، يا مكنون كل شىء».

فهذه مواجيد العارفين، ومشاهدة المحبين، وهى المعرفة الخاصَّة، فأما صفات الأزل والأبد والدهر والسرمدية والديمومية، فهى المعرفة الأصلية مركّبة فى الفطرة، فكأنها العقل مغروزةٌ فيه، وعليها الكافَّة من أهل القبلة من ذوى العقول، ولكنَّ العارف المحبَّ هو المتعرِّف إليه المقرَّبُ منه، فصفاتُ التجلِّى وهو صورة آدم ﷺ، والوصف الذى تجلَّى به لرسُولنا محمد ﷺ، بينهما المعرفة الخاصَّة يختص برحمته من يشاء.

والمحبة لا ترفع الهيبة، فلذلك كلُّ محبٍّ خائفٌ؛ لأن المحبوب مهوبٌ، والخوف قد يقبض عن المحبة؛ لشغل الخائف بوصفه السَّالف. وهذا كشف الأبرار، وهو حجاب المقربين، إلاّ أن المحبين لهم من الخوف قوتٌ، ومن المحبة اتساعٌ، والخائفون لهم من الخوف اتّساع، ومن المحبة قوتٌ. وهذا كما نقول فى الرجاء والخوف؛ لأنهما وصفا الإيمان، إلا أن الخائف يتدرج الرجاء فى حالهِ، والرّاجى ينطوى الخوف فى رجائه.

كذلك المحبُّ يصير الخوفُ فى عَقْده، ويظهرُ الحبُّ فى وَجْده، والخائفُ يغيبُ الحبُّ فى عَقْده، ويظهر الخوف فى وجَده، إن ربى لطيفٌ لما يشاء، هذا لظهور الطّرقات ومبانى الدّرجات، إذ كان لا بد من مجموعها فى قلب؛ لأنهما من شرط الإيمان وحقيقته، فتلطَّف سبحانه لحكمته بقدرته.

وفى سبق ترتيب المقامات من الله تعالى حُكمٌ غريبٌ، وحِكمة لطيفةٌ، لا

يعرفها إلا من أُعطى يقين شهادتها، إن سبق إلى العبد بمقام الخوف كان محبًا، حب المقربين العارفين، وإن سبق إليه بمقام المحبة كان محبًا، محبة أصحاب اليمين، ولم يكن له مقامات المحبين المستأنسين ولا المشتاقين فى مقامات المقربين. وكلّ هؤلاء موقنون صالحون، وإن خرجت أحوالهم عن ترتيب علوم أهل الظاهر؛ لأن المنكر لهم أكثر من المقرِّ، والله غالبٌ على أمره ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون، هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون. وربما كانت المحبة ثوابًا للخوف ومزيدًا له، وهذا فى مقام العاملين، وربّما كان الخوف مزيد المحبةِ وثوابها، وهذا فى مقام العالمين. فمن كانت المحبة مزيدَه بعد الخوف فهو من المقربين المحبوبين، ومن كان الخوف مزيدَ محبته فهذا من الأبرار المحبين؛ وهم أصحاب اليمين.

وسئل بعض علمائنا البصريين: الحبُّ أفضل أو الحياء؟ فقال: الحبُّ الذى يُورث من الخوف الحياءُ أفضل منه، والحبُّ الذى يُورث منه الحياءُ أفضلُ من الحياء، وهو الشوق. وقال الجنيد: المحبة نفسها قُرب القلب من الله بالاستنارة والفرح.

فأما حبُّ تجلِّى الصّفات عن الأسماءِ الباطنة: فإنّا لم نذكر منها شيئًا، وإنّما ذكرنا محبة الأخلاق عن الأسماء الظاهرة، ولا أحسبُ أنه يَحِلُّ رَسْمُه فى كتابٍ، ولا كشفُه لعُموم الناس؛ لأنّه من سرّ المحبة لا يكاشف به إلا من اطلع عليه، ولا يتحدث به إلا من أُعطيه، وما رأيتُ أحدًا رسمه فى كتاب، لأنه لا يؤخذ من كتاب، وإنما يُتلقى من أفواه العلماء.

وقد كان أبو يزيد، وأبو شعيب المقفَّع، وسرى بن مُغلس، وأبو عبد الله بن الجلاّء، والجُنيد بعدهم؛ يذكرون العِشقَ فى مقاماتِ خليل ومحبٍّ، وزاد أبو يزيد ذكر العشق فى مقامات محبوبٍ، وجعله معشوقًا. وقد كان يُشير بذلك ويظهره عن نفسه لنفسه، كأنّهم يريدون وصفًا من الحُبّ مخصوصًا لا عن فعلٍ وسبب، بل لوَصفٍ تَحَلَّى به، فهذا لا يزيد بعمل، ولا ينقص بذنب، بل وصفٌ من وصف الحق بذلك على صفاتِ صفاتٍ، ومعنى معانٍ، إلاَّ أن هذا ليس من معارف العامة، ولا تهتدى إليه قلوبهم، ولا يقدحُ فى جوهَرِ عقولهم، وليست

صفاتهم مكانًا لهذا، ولا أخلاقهم مخلّقةً عليه، ولا علومهم نافذةً فيه، فذكرهُ منكرٌ؛ لأن العقول تُنكره، والقلوب تمجُّه، والهِمَمُ لا تسرى فيه، والقلب لا يجدُ به، فلذلك كان طيُّه أحسن من نشره، وإنما يَنتسخُ من قلب إلى قلب، وهو يُشبه ما كتبنا عنه آنفًا من الخوف الثامن الذى لم نصفه لمن لا يعرفه.

وقد روينا لفظًا من هذا المقام فى أخبار داود ﷺ: «إن الله تعالى أوحى إليه: تزعُم أنك منقطعٌ إلىَّ، تدَّعى عشقى، وتسىء الظن بى، ألق كَنفَك بين يدىَّ، لكى أختار لك، فإن محبتى من عبادى أن يكونوا رُوحانيين، لا يُقيمون مصابيح القُلوبِ. كن فى الدنيا وحدانيًا، تحبِّب العباد إلىَّ، هُنالك أرفع النور لك. شاهدَ المخلوقين ببدنك وقلبك، فإذا كنت كذلك قضيتَ ما عليك، وبَقِىَ ما علىَّ». وفى كلامٍ نحوه، قال فى آخره: «لا تهتم بالخبز وأنت تريدنى، آثِر هَواىَ على هواك، واغضب لى أشدّ مما تغضبُ لنفسك».

ومما نقل فى الأثر، من وصف من أُذيق منه، ولم يفصح بذكر وصفه، أنَّا رُوينا فى الأخبار: أن بعض الصدّيقين سأله بعضُ الأبدال أن يسأل اللهَ أن يرزقه ذَرَّةً من محبته، ففعل ذلك، فهام فى الجبالِ، وحار عقله، ووَلِهَ قلبه، وبقى شاخصًا سبعة أيام لا ينتفع بشىء، ولا ينتفع به شىء. فسأل له الصدِّيق ربه، فقال: يا رب انقُصه من الذّرة نصفها، فأوحى الله إليه: إنّما أعطيناه جُزءًا من مائةِ ألفِ جُزءٍ من ذَرّة من المعرفة، وذلك أن مائةَ ألفِ عبدٍ سألونى شيئًا من المحبة فى الوقت الذى سألنى هذا، فأخّرتُ إجابتهم إلى أن شفعتَ أنتَ لهذا، فَلمّا أجبتك فيما سألتَ أعطيتهم كما أعطيته، فقَسَمتُ ذَرّة من المحبة بين مائةِ ألفِ عبدٍ، فهذا ما أصابه من ذلك. فقلت: سبحانك أحكمُ الحاكمين انقصه مما أعطيته. قال: فأذهب اللهُ عنه جملة ذلك الجزءِ، وبقى فيه عُشر معِشاره، وهو جزء من ألف جزء، فاعتدل خوفُه، وحبُّه، وعلمِه، ورجاؤه، وصار كسائر العارفين.

وأنشد الجنيد فى وصف العارف المحبوب(١):

---

(١) قبل هذه الأبيات كانت ثمت فقرة وأبيات أخرى فى (م) مضت من قبل فتركتها.

قريـــبُ الوَجـــــدِ ذو مَرمًى بعيدٍ على الأحرار منهم والعبيدِ
غريبُ الوصـفِ ذو علمٍ غريب كــأنّ فـؤاده زُبَر الحـــديدِ
لقـــــد عزَّت معـانيه فغابت عن الأبصـــار إلاّ للشهيـدِ
وللأحبـــاب أفـراحٌ بعِيــدِ ولا يجـد السُّرور له بعِيـدِ
ترى الأعيادَ فى الأوقـات تجرى له فى كل يـوم ألفُ عيــدِ

وهذا النوع من وصف المعرفة وتجلِّى الوصف بمعنى المحبة لا يسع الخلق؛ لأن الله تبارك وتعالى يريد عمارة الدار الدنيا، فمثله فى الأحوال مثل الحلال لا يريد الله عز وجل أن يطعمه الكل لعمارة الأسواق، لأنّ الأمة كلها لو أكلوا حلالاً أربعين يومًا، خَربت الأسواق، لزهدهم فى الدنيا، فليس ذلك من الحكمة، ولو أنَّ العلماء كلّهم أكلوا حلالاً لم تسمع من هذه العلوم التى تسمعها شيئًا، لشُغلهم بنُفوسهم وإعراضهم عن أصحابهم، ففى تركِ ذلك حكمةٌ حسنةٌ، ورحمةٌ واسعةٌ.

ومن علم المحبةِ سهرُ الليل بمناجاةِ الجليل، والحنين إلى الغروب شوقًا إلى الخلوة بالمحبوب، ومناجاة القلب سرائر الوجد، ومطالعة الغيب. والمناجاة عند أهل المصافاة إنّما هى بالقلوب، وهى مطالعاتُها بواطنَ الغيوب، وجولانُها فى سرِّ الملكوت، وعلوُّها فى معانى الجبروت بأنوار أرواحها، يحملها شعاعُ أنوارِه فيوقعها على خزائن أسراره. والمناجاة دليلُ رؤيةِ القُرب، وشاهدُ وجودِ الأنس. وفيما أخبرنا عن الله تعالى أنه قال: «كذب من ادَّعى محبتى، إذا جنَّه الليل نام عنى. أليس كلُّ حبيب يحبّ الخلوةَ بحبيبهِ. فها أنا ذا قريبٌ من أحبابى، أسمع سرَّهم ونجواهم، وأشهدُ حَنِينهم وشكواهم».

وروينا عن بعض العلماء القدماء أن الله عز وجل أوحى إلى بعض الصدِّيقين: «إنّ لى عبادًا من عبادى يحبونى وأحبُّهم، ويشتاقون إلىَّ وأشتاقُ إليهم، يذكرونى وأذكرهم، وينظرون إلىَّ وأنظر إليهم، فإن حذوتَ طريقهم أحببتك، وإن عدلتَ عنهم مقتّك. قال: يا رب، وما علامتهم؟ قال: يراعونَ الظِّلال بالنهار، كما يراعى الراعى الشفيق غنمه، ويَحنُّون إلى غروب الشمس كما تحنّ الطير إلى

أوكارها عند الغروب، فإذا جنّهم الليلُ، واختلط الظلام، وفُرشت الفرش، ونُصبت الأسرّة، وخلا كلُّ حبيبٍ بحبيبه، نصبوا إليَّ أقدامهم، وافترشوا لي وجوههم، وناجوني بكلامي، وتملَّقوا لي بأنعامي، فبين صارخٍ وباكٍ، وبين متأوهٍ وشاكٍ، وبين قائمٍ وقاعد، وبين راكعٍ وساجدٍ، بعيني ما يتحملون من أجلي، وبسَمعي ما يشتكون من حبي، فأول ما أُعطيهم ثلاثًا: أقذف من نوري في قلوبهم فيخبرون عني كما أخبر عنهم. والثانية: لو كانت السموات والأرض وما فيهما في موازينهم لاستقللتها لهم. والثالثة: أقبل بوجهي عليهم فترى مَنْ أقبلتُ بوجهي الكريم عليه لا يعلم أحد ما أريد أن أعطيه».

فهؤلاء الذين أقبل الجبارُ بوجهه عليهم، والذين وصفناهم قُبيل، أنهم أحبّوه بكلِّ قلوبهم، فكان كما قال: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، وكما قال: ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٦]، فنظروا إلى وجهه بنور وجهه، فتجلى بوصف محبوبٍ فأحبوه، كما روينا عنه في خبر موسى ﷺ: «أمَا علمتَ أنّي إذا نظرتُ إلى عبدي بوجهي كلِّه زويتُ عنه الدنيا كلها».

والله تعالى لا ينظر إلى الأجسام والنفوس؛ لأنهما من الدنيا، وهو لا ينظر إليهما بعينه العزيزة المكنونة، إنما ينظرُ إلى القلوب والأعمال؛ لأنهما من الآخرة، وهو ينظر إليها بعينه فتزداد إشراقًا وحُسنًا عن نوره وحُسنه، ثم لا ينظر إلاّ إلى قلوب الموقنين وأعمال المخلصين، فبنُوره رآه، وفي نوره تجلَّى.

فأما العموم فقلوبهم كأجسادهم، وأعمالهم تشبه قلوبهم، فالله سبحانه ينظر إليهم كنظره إلى الدنيا بعين التدبير والتقدير، فمعارفهم ظاهر التوحيد عن ظاهر الصفات والأسماء، وهو الذي ذكرناه آنفًا من أنهم عرفوه بالمُلك والحِكمة، وشَهدُوه بالقدرة والأزلية عن معنى ما نظر به إليهم، فسبحان مَنْ وَسِع كل شيء رحمةً وعلمًا، وسبحان مَنْ نظر إلى من يحبّ بالوصف الذي يحب، فأحبوه عن نظره.

وأما الشوق فإنه مقامٌ رفيعٌ من مقامات المحبة، وليس يُبقي الشوقُ للعبد راحةً

ولا نعيمًا فى غير مشوقه، والمشتاقون مقرَّبون بما أُشهدوا من الشوق إليه ،وهم المأمور بطلبهم، الموجود الحبيب عندهم، مثوبةً منه لهم لما شوقهم إليه، فى قوله لموسى عليه السلام: «اطلبنى عند المنكسرة قلوبُهُم من أجلى»، هم المشتاقونَ مِن المحبينَ. والله أعلم وأحكم.

وذلك أنّ الحبيب قَرُب منهم بوصفه تكرّمًا، ففرحوا بقربه، وعاشوا بمُشاهدته، ونعموا بحضورهم عنده، ثم احتجب عنهم غيرةً على نفسه لعزه، فانكسرت قلوبهم لأجله، فاشتاقوا إلى ما عوَّدهم منه، فثبتت لديه حرمتهم، فأمر أولياءه بطلبهم، وأوجد نفسه عندهم لمكانتهم عنده؛ ففَرَحُ هؤلاء من المحبين بقربه لا يُوصف، وانكسارُهم وحزنهم لأجله لا يُعرف، والله سبحانه قد يعرض عن محبيه تعزّزًا، ليزعجهم الشوق إليه، ويُقلقهم الأسفُ عليه، وينظر إليهم فى إعراضه عنهم من حيث لا يعلمون، لينظروا إليه من حيث يعلمون، فيسكنون بالأدب بين يديه.

وحدثونا عن إبراهيم بن أدهم، وكان أحد المشتاقين، وهو من الأبدال هؤلاء الذين نتكلم فى علمهم، ونكشف طريقهم، وكانت له ـ رحمه الله ـ أماكنُ من المحبة رفيعة، ومكاشفاتٌ فى القرب عَلِيَّة. قال: قلتُ ذات يوم: يا ربّ، إن كنتَ أعطيتَ أحدًا من المحبين لك ما تسكن به قلوبهم قبل لقائك، فأعطنى ذلك، فقد أضرّ بى القلق. قال: فرأيتُ فى المنام أنه أوقفنى بين يديه، فقال: يا إبراهيم، أمَا استحيتَ منى أن تسألنى ما يسكن به قلبُك قبل لقائى، وهل يسكن المشتاق قبل لقاءِ حبيبه؟ أم هل يستروح المحبُّ إلى غير مشوقه؟ قال: قلتُ: يا رب، تُهتُ فى حبِّك فلم أدر ما أقول، فاغفر لى، وعلّمنى كيف أقول. فقال: قل: اللهم رضِّنى بقضائك، وصبِّرنى على بلائك، وأوزعنى شكر نعمائك.

فهذا كما قال المحبُّ:

مَنْ أراد الحبيبَ سار إليه ... وجفا دُونه وصالُ القريبْ

ليس داءُ المحبِّ داءً يُداوَى ... إنّما بُرْؤه لقاءُ الحبيبْ

وكما قال المستهتَر[١] المشغوف:

سكنٌ أسكن المحبـــة قلبى ليس لى دون قُربهِ من سكونْ
إنْ تذكَّرتُـه فكُـلِّى قلـــوبٌ أو تأمَّلتُــه فكلِّى عُيـــونْ

فمقام الشوق فى المحبة يجلُّ عن الوصف، ويجاوز فى العلوم والفضل كُلَّ عُرف، ولا يصلح أن نصفه إلا أنَّا نذكر من ذلك ما سمعناه، نقلاً، فلا تُنكرنَّ لأولياء الله وأحبائه فضلاً، ولا تَمْزُجَنَّ فيه بالتدبير والقياس عقلاً، فقد جاوز مقامهم كلَّ عقلٍ، كما اشتمل حالهم ووجدهم بمحبوبهم كلَّ فضل.

روينا فى أخبار نبى الله داود ﷺ: «إن الله تعالى أوحى إليه: كم تذكر الجنة ولا تسألنى الشوق إلىَّ؟ قال: يا رب، من المشتاقون إليك؟ فقال: إن المشتاقين إلىَّ نقَّيتُهم من كلِّ كَدَر، ونبّهتهم بالحَذَر، وخرقتُ من قلوبهم إلىَّ خرقًا ينظرون إلىَّ، وإنى لأحمل قلوبهم بيدىَّ فأضعها على سمائى، ثم أدعو نجباء ملائكتى فإذا اجتمعوا سجدوا لى، فأقول: إنى لم أدعُكم لتسجدوا لى، ولكنى دعوتكم لأعرض عليكم قلوب المشتاقين إلىَّ، وأُباهى بكم أهل الشوق إلىَّ، وإن قلوبهم لتُضىء فى سمائى لملائكتى، كما تضىء الشمس لأهل الأرض. يا داود، إنه من ذكرنى ذكرتُه، ومن آنس بى آنستُه، ومن جلس إلىَّ جالسته، لأنى أنا أكرم الكرماء وأحكم الحكماء. يا داود، إنى خلقتُ قلوب المشتاقين من رضوانى، ونعَّمتها بنور وجهى، واتخذتهم لنفسى محدِّثين، وجعلتُ أبدانهم موضع نظرى إلى الأرض، وخرقتُ من قلوبهم طريقًا ينظرون به إلىَّ، يزدادون فى كل يوم شوقًا.

قال داود: يا رب، أرنى أهل محبتك، فقال: يا داود، ائت جبل لُبنان، فإن فيه أربع عشرة نفسًا، منهم شباب، وفيهم كهول، ومنهم مشايخ، فإذا لقيتهم فأقرئهم منى السلام، وقل لهم: إن ربكم يقرؤكم السلام، ويقول لكم: ألا تسألونى حاجةً، فإنكم أحبائى وأصفيائى وأوليائى، أفرح لفرحكم، وأسارع إلى محبتكم.

---

(١) المستهتر: المولع بالشىء.

فأتاهم داود عليه السلام، فوجدهم عند عين من الأمواهِ يتفكرون فى عظمة الله عز وجل، فلما نظروا إلى داود نهضوا ليتفرقوا عنه، فقال داود: إنى رسول الله إليكم، جئتكم لأبلِّغكم رسالة ربكم، فأقبلوا نحوه وألقوا بأسماعهم نحو قوله، وألقوا أبصارهم إلى الأرض.

فقال داود: إنى رسول الله إليكم، إن ربكم يقرئكم السلام، ويقول لكم: ألاَ تسألونى حاجة؟ ألا تنادونى أسمع أصواتكم وكلامكم؟ فإنكم أحبائى وأصفيائى وأوليائى، أفرح لفرحكم، وأسارع إلى محبتكم، وأنظر إليكم فى كلٍّ ساعة نظرة الوالدة الشفيقة الرقيقة. قال: فجرت دموعهم على خدودهم.

فقال شيخهم: سبحانك سبحانك، نحن عبيدك وبنو عبيدك، فاغفر لنا ما قطع قلوبنا عن ذكرك فيما مضى من عُمرنا.

وقال الآخر: سبحانك سبحانك، نحن عبيدك وبنو عبيدك فامنُن علينا بحسن النظر فيما بيننا وبينك.

وقال الآخر: سبحانك سبحانك، نحن عبيدك وبنو عبيدك، أفنجترئ على الدعاء وقد علمتَ أنه لا حاجة لنا فى شىء من أمورنا، فأدم لنا لزوم الطريق إليك، وأتمم بذلك المنّة علينا.

وقال الآخر: نحن مقصِّرون فى طلب رضاك، فأعنَّا عليه بجودك.

وقال الآخر: من نطفة خلقتنا، ومننتَ علينا بالتفكُّر فى عظمتك، أفيجترئ على الكلام من هو مشتغلٌ بعظمتك، متفكِّر فى جلالك، وطِلبتُنا الدنوُّ من نورك.

وقال الآخر: كلَّت ألسنتنا عن دعائك لعظيم شأنك، وقربك من أوليائك، وكثرة منَّتك على أهل محبتك.

وقال الآخر: أنت هديتَ قلوبنا لذكرك، وفرَّغتنا للاشتغال بك، فاغفر لنا تقصيرنا فى شكرك.

وقال الآخر: قد عرفتَ حاجتنا؛ إنّما هى النظر إلى وجهك.

وقال الآخر: كيف يجترئ العبدُ على سيده إذ أمرتنا بالدعاء بجودك، فهب لنا نورًا نهتدى به فى الظلمات بين أطباق السماوات.

وقال الآخر: ندعوك أن تُقبل علينا، وتزيده عندنا.

وقال الآخر: نسألك إتمام نعمتك، فيما وهبتَ لنا وتفضَّلتَ به علينا.

وقال الآخر: لا حاجة لنا فى شيءٍ من خلقك، فامنن علينا بالنظر إلى جلال وجمال وجهك.

وقال الآخر: أسألك من بينهم أن تعمى عينيَّ عن النظر إلى الدنيا وأهلها، وقلبى عن الاشتغال بالآخرة.

وقال الآخر: قد عرفتُ ـ تباركت وتعاليت ـ أنك تحب أولياءك، فامنن علينا باشتغال القلب بك عن كل شيء دونك.

فأوحى الله تعالى إلى داود: قل لهم: قد سمعتُ كلامكم وأجبتكم إلى ما أحببتم، فليفارق كلّ واحدٍ منكم صاحبه، وليتخذ لنفسه سَرَبًا، فإنى كاشف الحجاب فيما بينى وبينكم حتى تنظروا إلى نورى وجلالى.

فقال داود: يا رب بم نالوا هذا منك؟ قال: حسن الظن، والكفُّ عن الدنيا وأهلها، والخلواتُ بى ومناجاتهم. وإنّ هذا منزلٌ لا يناله إلا من رفض الدنيا وأهلها، ولم يشتغل بشيء من ذكرها، وفرّغ قلبه لى، واختارنى على جميع خَلْقى، فعند ذلك أعطف عليه، وأفرِّغ نفسه، وأكشف الحجاب فيما بينى وبينه حتى ينظر إلىَّ نظرَ الناظر بعينه إلى الشيء، وأريه كرامتى فى كل ساعةٍ، أقرِّبه من نور وجهى، إن مرضٌ مرَّضته كما تمرِّض الوالدة الشفيقة ولدها، وإن عطش أرويته، وأذيقه طعم ذكرى، فإذا فعلتُ ذلك يا داود، عمَّيتُ نفسه عن الدنيا وأهلها، ولم أحببها إليه، لا يفتر من الاشتغال بى، يستعجلنى القدومَ، وأنا أكره أن أُميته، لأنه موضع نظرى من بين خلقى، لا يرى غيرى ولا أرى غيره، فلو رأيته يا داود وقد ذابت نفسه، ونَحِلَ وهشمت أعضاؤه، وانخلع قلبه إذا سمع ذكرى، أُباهى به ملائكتى، وأهل سماواتى تزداد خوفًا وعبادةً، وعزّتى وجلالى يا

داود لأقعدنَّه معى فى الفردوس، ولأشفينَّ صدره من النظر إلىّ حتى يرضى وفوق الرضى»[١].

فهذه مقامات المشتاقين فى مراتب الشوق عن درجات الحب ،ومراقى المعارف والوجد، فكلُّ مشتاق منهم نطق بحقيقة وَجْده، وعبَّر عن وجهة حبه، دلَّ بذلك على حاله، وأخبر به عن نفسه وسِرِّه، وقد أحببت أن أشرح أحوالهم، وأفصِّل مواجيدهم، وأكشف سرائر مراتبهم، وأبيِّن رفيع مكانهم، وأوسِّع أنصبة تمكينهم، ويعز علىَّ أنى لا أستطيع ذلك، ولا يصلح رَسْمُه فى كتابٍ، لأنّ الكتاب يتداول، والرسم ينتقل، فتعذَّر ذلك علىَّ، وقلّة إمكانه من قِبَلِ السامعين، ولقلّة أنصبة الواجدين، وخيفة إنكار ذوى العقول، لحجبهم بالعقل، إذ هو حجاب اليقين، فإن أخبرناهم بما ليس فى وسعهم، وكاشفناهم بما قد قَصُرت عنه أوهامهم، ولم تفكر فيه قط أفهامهم، تفاوت الأمرُ عليهم، فآدهم ضبطُه، وتشتَّتت به قلوبُهم، فلم تجتمع على حفظه، ولكن الطريق القاصد إلى الله سبحانه، الموصِّل أهله إلى رضاه ومحبته اللَّذين هما سبب هذا الفضل العظيم، هو بُغض الدنيا وأبنائها، فهو أصل كلّ مرتبة عليه، كما أن حبَّ الدنيا وحبَّ أبنائها أصلُ كلِّ نفاقٍ وخطيئة.

كما روينا فى أخبار داود عليه السلام: «إن الله تعالى أوحى إليه: تزعم أنك تحبنى، فإن كنت تحبنى فأخرج حُبَّ الدنيا من قلبك، فإن حبى وحب الدنيا لا يجتمعان فى قلب واحد. يا داود، خالص حُبِّى مخالصة، وخالط أهل الدنيا مخالطة، ودينك فقلِّدنيه، ولا تقلِّد دينك الرجال، أمَّا ما استبان لك بما وافق محبتى فتمسك به، وأمّا ما أشكل عليك فقلدنيه حقًّا على أنه إلىَّ سياستك أو تقويمك، وأكون قائدك ودليلك، أعطيك من غير أن تسألنى، فأعينك على الشدائد، فإنى قد حلفت على نفسى أن لا أثيب عبدًا، إلا عبدًا قد عرفتُ مَنْ طُلْبَتُه وإرادتُه، ألقى كنفه بين يدىَّ، وأنه لا غنى به عنِّى، فإذا كنتَ كذلك نزعتُ الذّلَّ والوحشة عنك، وأُسكن الغنى قلبك، فإنى قد حلفت على نفسى أنه لا يطمئن عبدٌ لى إلى نفسه ينظر إلى فعالها إلاّ وَكَلْتُه إليها. أضف الأشياء إلىَّ لا

(١) هذا الخبر بطوله فى (م) فقط.

تضادّ عملَكَ فتكون مُتغيبًا، ولا ينتفع بك مَنْ يصحبك، ولا تحدَّ لمعرفتى حدًا، فليس لها غاية، ومتى طلبتَ منى الزيادة أعطيك، ولا تحد لزيادتى منى حدًا. ثم أعلم بنى إسرائيل أنه ليس بينى وبين أحدٍ من خلقى سببٌ، فَلْتَعْظُم رغبتهم وإرادتهم عندى، أبيحُ لهم ما لا عينٌ رأيت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب امرئ. ضعنى بين عينيك، وانظر إلىَّ بعين قلبك، ولا تنظر بعينيك فى رأسك إلى الذين حجبت عقولهم عنى، فأمْزَجوها وسَخَت بانقطاع ثوابى عنها، فإنى حلفتُ بعزتى وجلالى لا أفتح ثوابى لعبد دخل فى طاعتى للتجرب وللتسويف. تواضع لِمَن تعلِّمه ولا تطاول على المريدين، فلو علم أهل محبتى منزلةَ المريدين عندى لكانوا لهم أرضًا يمشون عليها.

يا داود، لأن تُخرج مريدًا من سكْرةٍ هو فيها تستنقذه فأكتبك عندى جهبذًا، ومن كتبته جهبذًا لا يكون عليه وحشة ولا فاقةٌ إلى المخلوقين. يا داود، تمسَّك بكلامى، وخذ من نفسك لنفسك، لا تؤتَينَّ منها، لا أحجب محبتى عنك، ولاتؤيسنَّ عبادى من رحمتى أقطع شهوتك علىَّ، فإنما أبحتُ الشهوات لضَعَفَة خلقى، ما بال الأقوياء أن ينالوا الشهوات، فإنها تنقص حلاوة مناجاتى، فإنما عقوبة الأقوياء عندى فى موضع التناول، أدنى ما يصل إليهم أن أحجب[1] عقولهم عنى، فإنى لم أرضَ الدنيا لحبيبى ونزَّهته عنها.

يا داود، لا تجعل بينى وبينك عالِمًا يحجبُك سُكره عن محبتى، أولئك قطّاع الطريق على عبادى المريدين، استعن على ترك الشهوات بإدمان الصّوم، وإيّاك والتجربة فى الإفطار، فإن محبتى فى الصوم وإدمانه.

يا داود، تحبَّب إلىَّ بمعاداة نفسك، امنعها الشهوات أنظرْ إليك، وترى الحجُبَ بينى وبينك مرفوعةً إنما أواريك مواراةً، لتَقْوى على ثوابى إذا مننتُ به عليك، وإنى أحبسه عنك وأنت ممسكٌ بطاعتى.

واعلم: أن كلَّ محبٍّ لله عز وجل فعن محبة الله سبحانه؛ لأن وجود العبد بمحبته لله تعالى علامةُ غيب محبته الله تعالى له بين ذلك الغيب من الله تعالى فى

---

(١) فى الأصل (م): «أتحبب»، ولعل الصواب ما أثبت.

الشهادة من عنده. ثم أنَّ كُلَّ عبد أحبّ الله سبحانه فمن حيث أحبه الله تعالى، كما أنه عرَفَه من حيث واجهه، وكل من خدمه وتأدَّب بين يديه، وعبده وتعبَّد له بمعنى من معانى العبادات، فذلك هو عن معنى ما أحبَّه وواجهه من معانى الصفات، لا يمكننا شرح ذلك، إلاّ أنه كما نقول فى الدعاء إلى الله عز وجل، والأدلة عليه والمطرّقين للعباد إليه: أن كل داعٍ ودليل دعا إلى الله تعالى فمن حيث دعاه الله تعالى إليه، ودلّ على الله فمن حيث دله عليه، وطرّق إليه سبيل العبادات، وسهَّل منهاج القُربات، فمن حيث طرّقه الله تعالى، وسهّل له السبيل إليه. ومن المحبة كتمانُ بلاء الحبيب بعد الرضا به؛ لأن ذلك من السر عنده وحُسن الأدب لديه.

وعوتب أبو محمد رحمه الله فى العلّة التى كانت به، وكان يداوى الناس منها، ولا يداوى نفسه، فقيل له فى ذلك، فقال: ضربُ الحبيب لا يُوجع.

وكان الجنيد يقول: من علامة المحُب فى المكاره والأسقام هيجانُ المحبة، وذكرها عند نزول البلاء، إذ هو لطفٌ من مولاه، وفيه القربة إلى محبوبه، وقلّة التأذّى بكل داءٍ وبلاءٍ يصيبه؛ لغلبة الحب على قلبه.

وقد كان بعض المحبين يقول: أصفى ما أكون ذكرًا إذا كنتُ محمومًا. وذكر بعض من ينتمى إلى المحبة مقامه فى المحبة عند بعض المحبين، فقال له: أرأيت هذا الذى تذكر محبته، اهتممتَ بسواه؟ قال: نعم. قال: فهل رأيته فى ليلةٍ مرتين وثلاثًا؟ قال: لا. قال: لولا أنى أستحى لأخبرتك أن محبتك معلولة، تهتم بسوى حبيبك، ولا تراه فى نومك. ثم قال: لكنى أعرف من لا يدَّعى محبته، وعلى ذلك ما اهتمَّ بسواه منذ عرفه، وربما رآه فى ليلةٍ سبع مرات.

وإنما لم يهتم المحبُّ بسواه من قِبَل أنه لا ينساه، فكيف يذكره من ليس ينساه؟ بل هومذكورٌ بذاكرٍ، لا ذاكرٌ بتذكير أو تَذَكُّرٍ، وهاهنا افتضح المدَّعون، وانكشف المستورون، أن أهتم بغيره فقد نسيه، والحبيب لا يُنسى؛ لأنه لازم للهمِّ، مُستَشْعَر بالقلب، لاحظٌ فى العين، هو الناظر والمنظور، وهو السامع والمسموع، وهو الشاهد والمشهود، وهو الواجد والموجود. كما قال بعض المحبين: ليس فى القلب

والعيال جميعًا موضعٌ نافعٌ لغير الحبيب، هو سُقمى وصِحتى وشفائى، وبه العيش ما حييت يَطِيب.

فمَن كان هذا وصفه من العين والقلب والروح والعقل، فمحال أن يُنسى، ومن استحال أن يُنسى، فكيف يحول ذكرهُ عن القلب، أم كيف تحول بغيره الهمّ كيف؟!

وقد روينا فى الخبر: «المنافق لا يَذكر حتى يُذكَّر، وإذا تُرك نَسى. ولا تكونوا كاليهود إذا قرئت عليهم التوراة مادُوا لها، فإذا رُفعت لم يكن وراء ذلك شىء».

وفى الخبر المجمل: «من كان له من قلبه واعِظٌ كان عليه من الله حافظٌ».

وفى أخبار داود عليه السلام: «قل لعبادى المتوجهين إلى محبتى: ما ضرَّكم إذا احتجبتم عن خلقى، ورفعتُ الحجاب فيما بينى وبينكم حتى تنظروا إلىَّ بعيون قلوبكم، وما ضرَّكم ما زويتُ عنكم من الدنيا إذا بسطتُ دينى لكم، وما ضَرَّكم مسخطة الخلقِ إذا التمستم رضاى».

• ذكر تفصيل علم السماع للقول، ووصف الصحيح من ذلك والمعلول، ووصف الواجدين بحق، وذمّ المتواجدين بهوى[1]:

وقد حدثونا بمعنى ذلك عن أحمد بن عيسى الخراز، أنّه كان مشتهرًا بالسّماع، كثير الحركة والصعق عنده. فذكر بعض أصحاب سهل قال: رأيته فى المنام بعد موته، فقلت: ما فعل الله بك؟ فقال: أوقفنى بين يديه، فقال لى: يا أحمد، حملتَ وصفى على ليلى وسُعدى، لولا أنى نظرت إليك فى مقام واحدٍ أردتنى به خالصًا لعذّبتك. قال: وأقامنى من وراء حجاب الخوف فأُرعدت وفزعت ما شاء الله، ثم أقامنى من وراء حجاب الرضا، فقلت: يا سيدى لم أجد من يحملنى غيرك، فطرحت نفسى، فقال: صدقْتَ، من أين تجدُ من يحملك غيرى. قال:

(١) هذا العنوان ساقط من المطبوعة، وهو فى (د، م). وقد ألف ابن القيم كتابًا فى إبطال السّماع، وعقد مناظرة بين صاحب الغناء وحججه، وصاحب القرآن وحججه، وأشار إلى بعض من كلام أبى طالب هنا، والكتاب عنوانه: «الكلام على مسألة السماع»، تحقيق راشد بن عبد العزيز، دار العاصمة ـ الرياض، ١٤٠٩هـ.

وأمر بى إلى الجنة. وكان هذا الحال فى بداية أبى سعيد، وفى أول إرادته، ثم نُقل من ذلك إلى مقامات فى التعريف، فنفذ نظره، وصحَّ سمعه؛ لعُلوِّ وَجْده، وقوَّة عِلمه، وحُسن يقينه.

وفى هذا تخويف للسامعين على التشبيه، الحائدين عن سمع أهل الفهم والتنبيه؛ لأن السماع علمٌ لا يصلحُ إلا لأهل الصفاء. فمن سمعه على كَدَر فذاك له محنةٌ وضرر، ويدخل من الآفات على نقصان المشاهدات إذا سمع من قِبَل النغمة والصوت ما يدخل على من نظر إلى الأيدى فى العطاء؛ لأن الصوتَ ظرفٌ للمعانى، بمنزلة اليد ظرفٌ للأرزاق، فالناظرُ الموقنُ يأخذ رزقه من اليد ويترك النظر، والسامعُ المحقُّ يأخذ المعانى من الصّوت، ولا يلتفت إلى التنغيم بها، ثم يعتلان معًا من قِبَل الوَجْد المعلول، والعلل تدخل المواجيد، كما يدخل الإلحاد فى معانى التوحيد، فيعتل الواحد بالخلق فى السماع من قِبَل الهوى ، كما يعتل الآخذ للعطاء من أيدى الخلق بالرياء.

فمن سمع على التشبيه والتمثيل ألحد، ومن سمع على الهوى والشهوة فهو لَعِبٌ، ومن سمع باستخراج الفهم، ومشاهدة العلم على معانى صفات حقٍّ ونظرٍ، وتطرُّقًا ودليلاً على آيات صدقٍ، كان سامعًا على مزيدٍ. وهذه طرائق أهل التوحيد.

وفى السماع: حرام، وحلال، وشُبهة. فمن سمعه بنفسٍ، بمشاهدة هوى وشهوة، فهو حرام.

ومن سمعه بمعقوله على صفة مباحٍ من جارية وزوجةٍ، كان شبهة لدخول اللهو فيه. وفعل هذا بعض السلف من الصحابة والتابعين.

ومن سمعه بقلب بمشاهدة معانٍ تدله على الدليل، وتُشهده طرقات الجليل، فهذا مباح، ولا يصح إلا لأهله ممن كان له نصيبٌ منه، ووجد فى قلبه مكانًا له لعبدٍ أُقيم مقام حزنٍ، أو شوقٍ، أو فى مقام خوفٍ، أو محبةٍ، فيحركه السمعُ، ويخرجه إلى الشهادة؛ فيكون ذلك له مزيدًا من المسمع الشهيد.

وقد كان أبو سليمان الدارانى، وهو من العارفين، يقول: السَّماعُ لا يجعل فى القلب ما ليس فيه، إنما يحرك منه ما فيه.

وكان بعضهم يقول: كنا نعرف مواجيد أصحابنا فى ثلاثة أشياء: عند المسائل، وعند الغضب، وعند السماع.

وحدثنا محمد بن عيسى بن خاقان المقَّرى، عن بعض أشياخنا، عن أبى القاسم الجنيد، قال: تنزل الرحمة على هذه الطائفة فى ثلاثة مواطن: عند الأكل؛ فإنهم لا يأكلون إلا عن فاقةٍ. وعند المذاكرة؛ لأنهم يتحاورون فى مقام الصديقين وأحوال النبيين. وعند السماع؛ لأنهم يسمعون بوَجْدٍ، ويشهدون حقًا.

وقد كان بعض الواجدين يقتات السماع، فيجعله قوته يتقوَّى به على زيادة طيِّه. كان أحدهم يطوى اليومين والثلاث، فإذا تاقتْ نفسه إلى القوت عَدَل بها إلى السماع، فأثار مواجيده، وأهاج أشواقه، فحماه ذلك عن الطعام، وأغناه عن الأنام.

ومنهم من كان يجعله أذكاره، فيذكر به أوطاره، ويرتاح به قلبه إلى الحق استطارةً. وكان مزيدًا لأكثرهم، وتقوية لحاله. وهو جندٌ من جنود الله يقوِّى به قلوب الواجدين، ويروِّح به أرواح الصادقين، ويفرِّج به كُربَ الخاشعين، ويُكرِّب به نفوس المرتاجين، ويطرِّب به المحزونين، ويحزِّن به الطَّرْبيين، ويشوِّق به المحبين، ويحبِّب به المريدين. إلا أنه لا يصلح إلا لقلبٍ صافٍ من الأكدار، نقىٍّ نظيف من الآثار. من شهد فيه خَلْقًا فذاك علامة كدر قلبه وبُعده، ومن أدخل فيه لعبًا ولهوًا فهو دليل نقص لُبِّهُ وفَقْدِه، ومن وقف فيه مع نَغْمةٍ، فهو عليه محنة ونقمة، ومن أصغى به إلى صوتٍ، تصوّر به فى وَهْمه المنغِّمٌ المصوِّت به، كان عليه فتنةً.

ومن ألقى سمعه، وأشهد قلبه، وأحضر فهمه، فذكر به الذاكر، وتعلَّم به المذكِّر ، فسمع إلى السميع، وعلم من الفتاح العليم، ونطق بوالى الناطق، ونظر به إلى الناظر، فهذا هو المستمع الذاكر.

فلمثل هذا يصح السماع، وبِسَمْعِهِ يُرجى له الانتفاع، وما يعقلها إلا العالمون[(١)].

وحدّثنى بعض الشيوخ، عن شيخٍ له، قال: رأيت أبا العباس الخَضِر، فقلت: ما تقول فى هذا السّماع الذى يختلف فيه أصحابنا؟ فقال: هو الصَّفا الزلال الذى لا يثبت عليه إلا أقدام العلماء. يقول: إنه محنة وكشف للسامعين، فهو للصادق المحب قُربة وعبادة، وهو للمدعى اللاهى فتنةٌ وشهوة، فهو الصفا المزلق للأقدام، لما فيه من تشبيه الأنام. وهو تثبيت للعلماء لشهادتهم به صفات العالِم.

وحدثونا عن أبى ممشاد الدِّينورى[(٢)]، قال: رأيت النبى ﷺ فى النوم، فقلت: يا رسول الله، هل تُنكر من هذا السماع شيئًا؟ ما أُنكر منه شيئًا، ولكن قل لهم يفتتحون قبله بقراءة القرآن، ويختمون بالقرآن. قال: قلت: يا رسول الله، إنهم يؤذوننى وينبسطون علىَّ. فقال: احتملهم يا أبا على، هم أصحابك، فكان ممشاذ يفتخر بها، ويقول: كنّانى رسول الله ﷺ.

وحدثنى طاهر بن محمد بن بلبل الهمذانى الورّاق، وكان من أهل العلم، قالت: كنت معتكفًا فى جامع جَدّه[(٣)]، فرأيت ذات يوم طائفة يقولون فى جانب منه قولاً ويسمعون، فأنكرتُ ذلك بقلبى، وقلت: فى بيتٍ من بيوت الله يقولون القول والشعر؟ قال: فرأيت النبى ﷺ تلك الليلة وهو جالسٌ فى تلك الناحية وإلى جنبه أبو بكر الصديق، وإذا أبو بكر يقول شيئًا من القول، والنبى ﷺ يسمع إليه، ويضع يده على صدره كالواجد بذلك، فقلت فى نفسى: ما كان ينبغى لى أن أنكر على أولئك الذين كانوا يسمعون، وهذا رسول الله ﷺ يسمع. فالتفت إلىَّ النبى ﷺ فقال: هذا حقٌّ بحق، أو حقٌّ من حقٍ. أنا أشك.

---

(١) يتضح جيدًا من هذا الكلام الرأى الدقيق لأبى طالب تجاه السماع، فهو لا يبيحه إلا بشروط، ولطائفة معينة، وكذا رأى المحققين من الصوفية. انظر «اللمع» للطوسى، ص ٣٣٨.

(٢) ترجمته فى طبقات الصوفية، ص ٣١٦، وحلية الأولياء ١٠/٣٥٣. كان «عظيم المرمى فى هذه العلوم، أحد فتيان الجبال، كبير الحال، ظاهر الفتوة. ذكر أبو زُرعة أنه مات سنة تسعٍ وتسعين ومائة».

(٣) كذا بالأصل.

فهذا يدلك أن السماع على نوعين: ما كان منه عن وَجْدٍ بحق وشهادة صدقٍ، مثل شوق أو حزن أو خوف أو محبة، فهو طريقٌ إلى الله ودليلٌ منه، وما كان عن وَجْد ولهو وشهادة خلق، فهو لعب وهوًى، فمقامه مقام الشبهات؛ لاختلاف أحوال السامعين، والتباس الآيات، فالصادق والمحقُّ يسمعه من صادقٍ محقٍّ، والمتواجد المُبطِل يسمعه بنغمةٍ من خَلْق، وقد تكون النغمة به من الشهوة الخفية فيه، لأنا روينا عن نبينا ﷺ: «أخوف ما أخاف على أمتى الشهوة الخفية، والنغمة الملهيَّة». وروينا عن حماد عن إبراهيم قال: «الغناء ينبت النفاق فى القلب». ورفعه ابن الزبير عن جابر إلى رسول الله ﷺ، وزاد فيه: «كما ينبت الماء الزرع». والمشهور أنه عن ابن مسعود.

وليثٌ عن مجاهد، فى قوله عز وجل: ﴿ومِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ الله﴾ [لقمان:٦] قال: الغناء. وهذا كما قالاه؛ لأن استماع الغناء حرامٌ وأجور المغنيَّات وأثمانهنَّ حرامٌ، وذلك من عمل الشيطان؛ لأن روينا فى تفسير قوله: ﴿واسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنهُمْ بِصَوْتِكَ﴾ [الإسراء:٦٤] قيل: الغناء والمزامير.

والفرق بين الأغانى والقصائد: أن الأغانى ما شُبِّب به النساء، وذُكر فيه الغزل والهوى، وشوَّق إلى الشهوة واللعب، فمن سمع من حيث قال القائلون من هذه المعانى، فالسماعُ عليه حرام. والقصائد هو ما ذكَّر بالله، ودلَّ عليه، وشوَّق إليه، وأهاجَ مواجيدَ المؤمنين، وأثار مشاهدة العارفين، وذُكر به طرقات الآخرةِ، وعُرِف منه أحوال الصادقين، فمن سمع من حيث شهد بهذه الشهادة، فهو من أهلِه، إذ له نصيب منه.

وقد روى عن رسول الله ﷺ: «إنّ من الشعر لحكمة»، ولم يقل: كل الشعر. وروى أن رجلاً دخل على النبى ﷺ، وعنده قومٌ يقرأون القرآن، وقومٌ يُنشدون الشعر، فقال: يا رسول الله، قُرآنٌ وشعر، فقال: من هذا مرةً ومن هذا مرة.

وقد دخل أبو بكر الصديق رضى الله عنه على عائشة وعندها قينتان تقولان،

فأنكر ذلك، وكان رسول الله ﷺ مُسَجًّى بثوبه، فكشف الثوب عن وجهه، ثم قال: «دعها يا أبا بكر». فلو لم يكن شبهة ما أنكره أبو بكر، حتى أبان عنها رسول الله ﷺ.

وقد حدثنى بعض الأشياخ عن الجنيد فقال: رأيتُ إبليس فى النوم، فقلت له: هل تظفر من أصحابنا بشىءٍ، أو تنال منهم نصيبًا؟ فقال: إنه ليَعسُرُ علىَّ شأنهم، ويعظُم علىَّ أن أصيب منهم شيئًا، إلاّ فى وقتين، قلت: أىُّ وقت؟ قال: وقت السماع، وعند النظر، فإنى أسترق منهم فيه، وأدخل عليهم به.

قال الجنيد: فحدَّثت بهذا بعض أشياخنا فقال: لو رأيتُه أنا لقلت له: يا أحمق من سمع منه إذا سمع، ونظر إليه إذا نظر، لم تربح أنت عليه شيئًا، ولم تظفر منه بشىء. فقال له الجنيد: صدقت.

وقد قال الله عز وجل: **﴿ومِنْ كُلِّ شَىءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعلَّكُمْ تَذكَّرُونَ﴾** [الذاريات:٤٩]، فالكلام زوجان: منثور ومنظوم، فالمنثور كلام العامة، والمنظوم كلام الشعراء. فما ذُكر الله به، وذكر منه، فهو طريق إليه.

ولم يزل الحجازيون عندنا بمكة يسمعون السماع فى أفضل أيام السنة، وهى الأيام المعدودات، التى أمر الله عباده فيها بذكره، أيام التشريق، فى قوله: **﴿واذْكُرُوا اللهَ فى أيّامٍ مَعْدُودات﴾** [البقرة:٢٠٣].

وكان لعطاء جاريتان تُلَحِّنان، فكان إخوانه يستمعون إليهما. ولم يزل أهل المدينة مواطئين لأهل مكة على السماع إلى زماننا هذا. فأدركنا أبا مروان القاضى له جَوارٍ يُسمعن التَّلحين، قد أعدهنَّ للمتصوّفين، فكان يجمعهم لَهُنَّ، ويأمُرُهُنَّ بالإنشاد، وكان فاضلاً.

وسئل شيخنا أبو الحسن بن سالم رحمه الله، حدثنى بعض أصحابنا عنه بذلك؛ أنه قيل له: بلغنا أنك تُنكر السَّماع، وقد كان الجنيد وسرى السّقطى وذو النون يسمعون، فقال: كيف أنكر السماع وقد سمعه عبد الله بن جعفر الطيّار، وإنما أنكر اللهو واللعب فى السَّماع.

وهذا كما قال؛ لأنَّ القرآن الذى هو الغاية فى الفضل، ثم العلم ومعانى الحق، إذا دخل ذلك لَهْوُ النفس بالهوى فيه، ولَعِبُ الطبع بالطربِ والمزحِ، صار مُنكرًا، ودخلته الكراهةُ بخروج الآخرة منه والعلم. وكذلك القول فى النَّظر والكلام، كالسماع سواءً، كما قال عيسى عليه السلام: « فمن لم يكن نظره عبرًا فهو لهوٌ، ومن لم يكن كلامه ذكرًا فهو لغو». فأما من نظر ليَعتَبِر، أو تكلم ليأتمر، أو سمع ليَذَّكَّر، فذاك لهؤلاء عِبادةٌ. ومن نظر بشهوةٍ، أو تكلم بجهل، أو سمع بهوًى، فهو لعبٌ ولهو من زخرف الدنيا.

ولعمرى إنّ هؤلاء الأشياخ الذين ذُكروا من سُلاّك هذا الطريق قد كانوا يسمعون، ولكن كان منهم من يسمع فى السرِّ دون العلانية، ومنهم من كان يسمع مع إخوانه ونظرائه دون الأتباع والمريدين، وكانوا يقولون: لا يصحّ السماع إلا لعارفٍ مكين، ولا يصلح لمريد مبتدئ.

وقد كان الجنيد حسنَ الهيئة فى السماع، حدثنى بعض هذه الطائفة عن وقاره وحُسن استماعه. وقال لى آخر: كانت دموعه تفيض، وربّما نكَّس رأسه. وقيل له: يا أبا القاسم، لا نراك تتحرك عند السماع، فقرأ هذه الآية: ﴿**وَتَرى الجبالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وهِىَ تَمرُّ مَرَّ السَّحَاب**﴾ [النمل:٨٨]. وبلغنى أنه ترك السَّماع فى آخر أمره. فقيل له: قد كنت تسمع! فقال: مع من؟ فقيل له: تسمع أنت لنفسك. فقال: ممّن؟

لأنهم كانوا لا يسمعون إلاّ مع أهله، أو من أهله، فإن الشىء لا يطيب إلا مع أهله، كما لا يحسن إلا بأهله، وإنما ترك لفقد إخوانه، وعدم شركائه ونظرائه.

وحدثونا عن يحيى بن معاذ، قال: فقدنا ثلاثة أشياء فما نراها، ولا أراها تزداد إلا عزًا: حُسْنُ الوجه مع الصيانة، وحُسْنُ القول مع الدِّيانة، وحسن الإخاء مع الوفاء.

وحدثنى بعض المحدثين قال: اجتمعنا فى دعوةٍ معنا أبو القاسم ابن بنت منيع، وأبو بكر بن أبى داود، وابن مجاهد، فحضر سماعٌ، فجعل ابن مجاهد يُحرِّض

ابن بنت منيع على ابن أبى داود فى أن يسمع، فقال ابن أبى داود: حدثنى أبى عن أحمد بن حنبل أنه كره السماع، وكان أبى يكرهه، وأنا على مذهب أبى. فقال أبو القاسم ابن بنت منيع: أما جَدِّى أحمد بن منيع، فحدثنى عن صالح بن أحمد، أنّ أباه كان يسمع قول ابن الخبَّازة، قال: ودعوته ليلةً، وكان أبى فى غُرفةٍ بينه وبينه بابٌ، فجعل يتردَّدُ فى الممرِّ، يذهب ويجىء، ويسمَع من وراء الباب. فقال ابن مجاهد لابن أبى داود: دعنى من أبيك أنت، وقال لابن بنت منيع: ودعنى من جدِّك، أيش تقول يا أبا بكر فيمن أنشد بيت شعر، حرامٌ عليه؟ قال ابن أبى داود: لا. قال: فإن كان حسن الصوت به حَرُم عليه إنشاده؟ قال: لا. قال: فإن أنشده فطوّله وقصَّر منه، فمدّ المقصورَ وقَصَرَ الممدود، يَحرُمُ عليه؟ قال: يقول ابن أبى داود: أنا لم أقْوَ بشيطان واحدٍ، أأقوى بشيطانين؟

قال: وكان ابن مجاهد لا يجيب دعوةً إلاّ أن يكون فيها سماعٌ، فكان من أراد أن يدعوه أعدّ له سماعًا. وكان ابن بنت منيع يسمع القول.

وقد كان من أشياخنا أبو بكر بن الجلاء، فلا ينكر السماع ويسلمه لأهله، إلاّ أنه كان يقول: ليس له به وَجْد. وكان أبو محمد بن الراشِنى يحضر مع أصحابه، فينفرد ناحية يصلى، وهم يسمعون. وكان أبو عبد الله بن خاقان الهمذانى، وأبو بكر الطرسوسى، لا ينكران على أصحابهما، فإذا حضر سمعوا، وكان أبو محمد القزوينى من الأولياء يسمع ويدركه وُجودٌ وصَعْقٌ. وكان أبو سعيد بن الأعرابى يسمع، ويذكر عن جملة أشياخه ـ أصغرهم الجُنيد، وطبقة أستاذه الجُنيد وشيوخه ـ السماعَ والحركة عنه. وكان أبو عبد الله المغربى، وإبراهيم بن شيبان، وأبو على ممشاد، لا ينكرون السماع ويحضرون فيه، وربما سمعوا فى الأوقات إذا وَجدُوا به. وكان أبو الخير العسقلانى الأسود المقرئ من الأولياء يسمع ويَجدُ ويُولِّه عند السماع. وصنف فى علم السماع كتابًا رد به على منكريه، قد روى أبو هلال الدينورى عنه ذلك. وكذلك أبو على الرُّوذبادى، وابن أخيه أبو عبد الله، صنفوا فى السماع كتبًا، وحكوه عن أسلافهم.

وحدثنى بعض الأشياخ عن كثير من الصوفية، قال: رأينا جماعة ممن يمشى

على الماء، وفى الهواء، يسمعون السماع، ويجدون به ويُولَّهون عنده. قال: ولقد كنا على الساحل فسمع بعض إخواننا فجعل يتقلَّب على الماء يذهب ويجىء، كما يتقلَّب على الأرض، حتى رجع إلى مكانه.

وحدثنى بعضهم أنه شهد من يتقلَّب فى النار عند السماع ولا يحسّ بها. وقال: وحدثنى بعض الأشياخ أن بعضَ الصوفية ظهر منه وُجودٌ عند السماع، فأخذ شمعة مضيئة فجعلها فى عينه، قال: فقرُبت من عينه أنظر، فرأيت نارًا ـ أو قال نورًا ـ يخرج من عينه، يردّ نار الشَّمعة.

وذكر لى شيخٌ من أهل الفضل قال: رأيت بعضهم إذا وُجد عند السماع ارتفع عن الأرض فى الهواء أذرعًا يمرّ ويجىء فيه.

وقد سمع من الصحابة: عبد الله بن جعفر، وابن الزُّبير، والمغيرة بن شعبة، ومعاوية، وغيرهم.

قال محمد بن على الدينورى: السماع مسلَّم لأهله، ولكن قد وجب تحريمُه وإنكارُهُ، إذ قد أخذت الروايات عن المحققين للسّماع رخصة، وجعلوه طريقًا إلى اللهو واللعب.

ومجملُ القول فى السماع[1]: أنَّ من سمع، فظهرت عليه صفات نفسه، وذكر به حُظوظ دنياه، فالسماع عليه حرام.

ومن سمع فظهر له ذِكْرُ ربه، وتذكّر آخرته ممّا شُوِّق إليه، أو حُذِّر منه، وخُوِّف من الوعد والوعيد، فهو له ذكرٌ من الأذكار.

وقد قال الثورى وغيره: إن وُضِعت التكأةُ، ودارت الأقداح، فالنبيذ حرام.

وقال بعضهم: إذا تجالسوا على لهوٍ بعد الطعامِ، واختلفوا إلى المبال، حَرُم النبيذ، وهو عند هؤلاء حلال على غير هذه الصفات، وهو مذهب علماء الكوفة.

وقد قال ابن عباس وغيره من الصحابة، وقد سُئل عن القُبلة، قال: أكرهها

---

(١) فصّل الغزالى رحمه الله القول فى السّماع وبيّن مراتبه وحججه، وناقش منكريه، انظر: الإحياء ٢/٢٦٨ ـ ٣٠٦.

للشبان، ولا أرى بها بأسًا للشيخ. ثم قال ابن عباس: لأنّ الشيخ إذا قبَّل قنع، والشابّ إذا قبَّل طمع.

وسأل شاب بعض الأكابر من الصحابة عن القُبلة، فقال: لا تقبِّل. وسأله شيخ، فقال: لا بأس عليك فيها. قال: فقلتُ: أمرٌ واحدٌ رخَّصتَ فيه لواحد، ونهيتَ عنه آخر؟! فقال: إن الشيخ يملك إرْبه، وإنى خفت على الشاب أن لا يملك نفسه[١].

فهذه المعانى تختلف لاختلاف أحوال أصحابها، والأشياء تتفاوت لتفاوت معانى العاملين لها، ولا قوّة إلا بالله.

وانما ذكرنا هذا الباب فى ذكر أوصاف الأحباب؛ لأنه كان طريقًا لبعض المحبين، وحالاً لبعض المشتاقين، فإن أنكرناه مجملاً غير مفصّل، فقد أنكرنا على سبعين صدِّيقًا[٢]، ومَحَونا رسمًا كان لطائفةٍ طريقًا. وإن كنا نعلم أن ذلك أقرب لقلوب الفقراء، ومحبَّبٌ إلى قلوب المريدين والمتعبِّدين، إلاّ أنَّا لا نسلِّم فى ذلك بيننا وبين الله تعالى؛ لأنَّا نعلم ما لا يعلمون.

وقد سمعنا عن السّلف من الأصحاب والتابعين ما لم يسمعوا، ولكن قد دخَل فى هذا الطريق غير أهله، فأحالوه عن جهته، وعدلوا به عن قصده، لما أدخلوا فيه من الهوى، فمثلهم كما قال الله تعالى: ﴿اتَّخذُوا دِينَهُم لَعبًا ولَهْوًا﴾ [الأنعام: ٧٠].

كان هذا السّماع يتدين به قومٌ، ويتطرقون به إلى الله سبحانه، وكان لهم ذِكرًا، وفيه وَجْدٌ وعِلْم، تنقطع عليه قلوب الخاشعين، وتزهق عنده نفوس الصادقين، وتُولَّه به قلوب الذاكرين، وتتيه فيه عقول المشتاقين، وتبكى عنده عيون المحزونين.

---

(١) المقصود بالقُبلة هو قبلة الرجل لزوجته فى نهار رمضان لا غير، ﴿فمَنِ ابتَغى وراءَ ذَلِكَ فأُولئكَ هُمُ العَادُونَ﴾ [المؤمنون: ٧].

(٢) نقل ابن القيم هذه المقولة باختلاف يسير ونسبها إلى أبى طالب، وناقشها. انظر كتابه: الكلام على مسألة السماع، ص ٣٢٦. وواضح أن ابن القيم ينظر إلى السّماع من وجهة غير التى ينظر بها أبو طالب.

فهو الآن اسمٌ لا معنًى، وجسمٌ بلا روح، ورسم بلا حقيقة. فمثل الواجدين به من غير وَجْدٍ، والسّامعين له بغير علمٍ، والمُتَشَبِّهين بأهله بغير صدق، والمحاكين لأهل الحقائق بغير حق، كما قال الله عز وجل: ﴿فأصْبَحُوا لا يُرَى إلاَّ مَسَاكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥]. قال الشاعر:

أمّا الخيامُ فإنها كخيامهم وأرى نساءَ الحىِّ غير نسائها

وكما قال لى بعض الأشياخ مرَّةً: ما أرخصَ الصوفية فى وقتنا هذا![1] صوفى بدرهمين. قلت: وكيف؟ قال: مرقعةٌ بِدرهم، وتاسومة وركوة بدرهم.

وأنشدنى بعض إخوانى:

أهلُ التصوُّف قد مضَوْا صار التّصوفُ مَخْرقهْ

صار التّصــوفُ صيحةً وتواجـــدًا ومطبقــهْ

وأنشدنى بعض أشياخ الصوفية فى مثله:

لا يغرنّك من المرءِ قميصٌ رَقَعــهْ

وإزارٌ فوق عظم الساق منه رَفَعهْ

وحنينٌ لاح فيــه . . . .[2]

ولدى الدرهم فانظر حِرصَــه أو وَرَعهْ

فقد حرّم السماعَ مع أكثرهم بعضُ الحضور، لقسوة القلب عند النظر إليهم، وكثرة الغيظ منهم، لدخولهم فى الشَّرَه، وخروجهم من الأدب والعلم، والمجالسة لا تطيبُ إلاّ بالآداب والمعاشرة، ولا تحسنُ إلا بعلم، والمؤاخاة لا تخلو إلاّ للآخرةِ، والمصافاةُ والأُلفة لا تَجْمُلُ إلا للجميل المجمل، جلّ جلاله، وحَسُن وصفه وكماله.

وقد قال بعض أشياخنا: ذهب أهل الحقائق، ولم يبق إلاّ من مجالسته غيظ.

(١) فكيف لو رأى زماننا هذا وما وصلت إليه الصوفية؟!

(٢) بياض بالأصل لسوء التصوير.

وقال آخر: ذهب العلماء المتأدِّب بهم، فما بقى إلاّ من يُستحى من ذكره.

فأمّا الزَّفْن[1] والاضطراب عند السماع، فلا يُعجبنى؛ لأن أكثره تواجدًا بلا وُجود، وقد يدخله التكلف والتصنع، إلاّ من غلبه أمرٌ،وملكه قهرٌ، والمغلوب مقهور، والمجنون معذور.

فأما الصادق إن طرب لشوق، وارتاح لفرحٍ بغلبةٍ وَجْدٍ حتى يهلك أو يتلف، فلا حرج؛ لأثرٍ فى ذلك عن النبى ﷺ: «أنه ذكر غلامًا فى بنى إسرائيل كان على جبلٍ، فقال لأمّه: من خلق السماء؟ قال: الله تعالى. قال: من خلق الأرض؟ قالت: الله تعالى. قال: من خلق الجبل؟ قالت: الله تعالى. قالت: من خلق هذا الغيم؟ قالت: الله عز وجل. فقال: إنى أسمع لله تعالى شانًا، ثم رمى بنفسه من الجبل فتقطَّع».

فهذا كأنه وجد الفرح لله تعالى، والشوق إليه، والطرب لأجله.

وفى الزَّفْن أثر مأثور فى خبر ابنة حمزة، لما اختصم فيها على بن أبى طالب، وأخوه جعفر، وزيد بن حارثة، وكانوا أخرجوها من مكة، وتشاجروا فى تربيتها، فقال رسول ﷺ لعلىٍّ: أنت منِّى وأنا منك، فحَجَل. وقال لجعفر: أشبهت خَلقِى وخُلقى، فحَجَلَ وراء حَجَل علىٍّ. وقال لزيد: أنت أخونا ومولانا، فحَجَل وراء حَجَلِ جعفر. ثمْ قال ﷺ: هى لجعفر، لأن خالتها تحته، والخالة والدة».

والحَجَل هو الزَّفْن بالرِّجل، فهذا كأنّه وجد الفرح والارتياح للصدق وقول الحقّ.

وفى الخبر المشهور: «أن الحبشة كانوا يَزْفِنُون بين يدى رسول الله ﷺ، وهو ينظر إليهم. وقال لعائشة: أَتُحبّين أن تنظرى إلى زَفْن الحبشة». فوقفت إليهم من وراء أُذن رسول الله ﷺ وعاتقه، وهو قائم أمامها، وهى مستترة به. وكانوا يذكرون الله كثيرًا بنعمة الإسلام، ويصفون رسول الله، ويُثنون عليه بزَفْنِهم وحركاتهم.

---

(١) الزفن: الرقص، زَفَنَ يَزْفِن زَفْنًا. وأصل الزفن: اللعب واللهو.

واعلم أن الصدقَ لعينه حَسَنٌ، فالصّادقُ بوصفه فى كل شىءٍ حَسَن، والتكُّلف بعينه قبيح، فالتكلف بنفسه مقيت.

وروينا فى خبر: «إن الصدِّيقين إذا سمعوا الذكر طربت قلوبهم إلى الآخرة».

وروينا عن السلف: أن فى بعض كتب الله عز وجل المنزَّلة: غَنَّينا لكم فلم تطربوا، وزَمَرنا لكم فلم ترقصوا.

فهذا على ضرب المثل: ذكرنا لكم فلم تجدوا للذكر طربًا، وشوّقناكم فلم تزدادوا اشتياقًا، فهذا داخل فى أحوال المشتاقين.

• ذكر الشوق، ووصف المشتاقين، والغيرة:

روينا فى أخبار وهب بن منبه: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: «إنك تُكثر مسألتى، ولا تسألنى أن أهبَ لكَ الشوقَ. قال: يا رب وما الشوقُ؟ قال: إنى خلقت قلوب المشتاقين مِن رضوانى، وأتممتها بنور وجهى، فجعلتُ أسرارهم موضعَ نظرى إلى الأرض، وقطعتُ من قلوبهم طريقًا ينظرون به إلى عجائب قدرتى، فيزدادون فى كلِّ يومٍ شوقًا إلىَّ، ثم أدعو نُجباءَ ملائكتى فإذا أتونى خرُّوا لى سجَّدًا فأقول: إنى لم أدعكم لعبادتى، ارفعوا رؤوسكم أُرِيكُمْ قلوب المشتاقين إلىَّ، فوعزتى وجلالى إن سمواتى لتضىء من نور قلوبهم، كما تضىء الشمس لأهل الدنيا».

معنى قوله لداود عليه السلام: «ولا تسألنى الشوق» ليس أنه قد يعطى الأولياء ما لا يعطى الأنبياء، كما غلط فى هذا بعض الناس، ففضَّل العارف على النبى، ولكنه ذكر ذلك لداود عليه السلام ليسأله إياه فيعطيه، فلما أخبره به أعطاه مقام الشوق إليه، فجاوز مقامات المشتاقين من العارفين، فكان ذلك له مزيدًا، وإنما أراد أن يجعل ذلك على لسانه، ليريه فضل مكانه، ويظهر له ذلك عن مسألته، ليُفضّله ويُشرِّفه بسرعة إجابته.

وقد كان لداود ﷺ فى مقامِ النبوة مقاماتٌ وتخلِّى مشاهدات فى الأُنس والقُرب، يندرج فيها مقام الشّوق، فكان الشوق زيادةً على الحُسنى وتمامًا على

الذى أحسن. كما أن قول داود عليه السلام: وما الشّوق؟ ليس أنه لم يعرف الشوق، وقد آتاه الله الحكمة والنبوة، ولكن سكت بين يديه استحياء منه، واعترف لديه بالجهل؛ لأنه عند علام الغيوب، وأراد أن لا يسبقه بالقول، فيقدمه بين يديه، كرمًا منه وحلمًا، وليزداد بأدبه وصمته علمًا. وأراد أن يسمع منه حقيقة وصفه؛ لأنه أصدق القائلين، وأمدح الواصفين.

وأما الغيرة فحالٌ سَنِيَّة من أحوال المحبين؛ لأنه قد أظهرهم على معانى نفيسة، فضنُّوا بها، لما امتلأت بها قلوبهم، وحارت فيها عقولهم، إلاّ أن هؤلاء خصوصُ أصحاب اليمين؛ وهم عموم المحبين، إلا أنه إذا رفعهم إلى مقام التوحيد، فأشهدهم الإيجاد بالوحدانية، والانفراد بالفردانية، نظروا، فإذا هو لم يُعط منه لسواه شيئًا، ولا أظهر من معانيه وصفًا، فانطوت الغيرة فى توحيدهم، لما عرفوا بيقين التوحيد، أنه ما نظر إليه سواه، ولا عرفه إلاّ إياه، فتسقط هِممُهُم بالغيرة عليه، وعَرَفُوا حِكمته بتعريفه أنواع ما يظهر، وأقسام ما ينشر، وأنه فى غيب غيبه، لا يظهر عليه سواه، وفى سرِّ سرِّه لا يشهده إلا إياه، فقام لهم مقام المعرفة بالتوحيد له مقام الغيرة عليه، فهذا إذا طُولعوا به مقام الموحِّدين من الصدِّيقين.

وقد كان إمامنا أبو محمد يقول فى معنى قوله من باب علم الحروف **﴿كلَّ يَوْمٍ هُو فى شَأنٍ﴾**: هو الله سبحانه فى شأن شعاعه وآلائه ونوره، كأنه يجعل الوقف فى الكلام على قوله: **﴿يَسْأَلُه مَن فِى السَّماوَاتِ والأَرْضِ كُلَّ يومٍ﴾** ثم يستأنف فيقول: **﴿هُو فى شَأنٍ﴾** [الرحمن: ٢٩].

وقد روينا فى دلائل المحب وأوصافه أبياتًا عن يحيى بن معاذ، وأبى تُراب النخشبى، وعن أبى سعيد الخرّاز أيضًا، على قافية واحدة، فى معانٍ متقاربة، وهى جامعة مختصرة فى نعت المحبين من المريدين، وفى وصف السائحين المُرادين، وفى وصف التائبين الزَّاهدين، والمنقطعين المنفَرِدين. فالذى رُويناه عن أبى تراب هذه الأبيات:

لا تخدعنَّ فلِلمُحبِّ دلائلُ ولَدَيه مِن تُحَفِ الحبيبِ وَسائِلُ

منهـــا تنعُّمُـــهُ بمُرِّ بلائـه وسرورُهُ فى كلِّ ما هـو فاعـلُ
فالمنع منـــه عَطِيّـــةٌ مَقْبولَةٌ والفَقرُ إكرامٌ ولُطفٌ عـاجلُ
ومن الدلائل أنْ يُرَى من عزمـه طوعَ الحبيب، وإن ألحَّ العـاذلُ
ومـن الدلائـل أن يُـرَى متبسِّمًا والقلبُ فيــه من الحبيب بلابلُ
ومـن الدلائـل أن يُـرَى متفهِّمًا لكـلام من يحظى لديه السّـائلُ
ومـن الدلائـل أن يُـرَى مُتقشفًا مُتحفظًا من كلِّ مـا هـو قائلُ

والذى رويناه عن يحيى بن معاذ:

ومـن الدلائل أن تـراه مُشمِّرًا فى خِرقتين على شُطوطِ الساحلِ
ومـن الدلائل حـزنُه ونحيبُــهُ جوفَ الظلام فمـا له من عـادلِ
ومـن الدلائل أن تراه مُسـافرًا نحوَ الجهـادِ وكلِّ فعلٍ فاضلِ
ومن الدلائل زهدُه فيمـا يَرى مـن دارِ ذُلٍّ والنعيـم الزائـلِ
ومـن الدلائـل أن تـراه باكـيًا أن قــد رآهُ على قبيحٍ فاعلِ
ومـن الدلائـل أن تـراه مُسلِّمًا كلَّ الأمورِ إلى المليكِ العادلِ
ومـن الدلائـل أن تـراه راضيًا بمليكـهِ فى كـلِّ حُكـمٍ نازلِ
ومن الدلائـل ضحكُـه بين الوَرَى والقلبُ محزونٌ كقَلب الثّاكلِ

والذى رويناه عن أبى سعيد الخراز دخل فيما ذكرناه عنهما، وأحسب أنه أخذه منهما؛ لأنهما أقدم منه، إلا أن قوله كان أحد عشر بيتًا فقط.

وجميع ما قدمنا ذكره من العلامات والدلالات هى أوصاف المحبين، وكلُّ محبٍّ لله فعن محبة الله؛ لأن وجود العبدِ لمحبته لله علامةُ غيبِ محبةِ الله له، يبين ذلك الغيب من الله فى الشهادة من عنده، ثم إن كل عبد أحبَّ الله من حيث أحبَّه الله كما أنه عرفه من حيث واجهه، وكلٌّ من خدمه وتاب له بمعنًى من العبادات، فعن معنى ما أحبَّه وواجهه به من معانى الصفات، وهذا كما نقول فى

الدُّعاء إليه والأدلة عليه أن كل داعٍ ودليل فمن حيث دعاه ودلَّه عليه ، وكلُّ مطرِّقٍ إليه سُبُل العبادات، فمن حيث سهَّل الله له منهاج السبيل إليه أنهج، إلاّ أن فى المحبة مقامين، على ترتيب هذه الجمل، أحدهما أعلى من الآخر، فى كل مقام جملةٌ من الأحباب؛ لأنّ فى المعرفة مقامين: مقام تعريف، ومقام تعرُّف.

فمقام التعريف: هو معرفة العموم، وهذا قبل المحبة الخاصة(١).

ومقام التعرُّف: معرفة الخصوص، وهذا بعد محبة العموم، وهو مزيدُ الحبِّ الأول، وهذه محبة خصوص. وكذلك فى المحبة مقامان: مقام محبٍّ، وأعلى منه مقام محبوبٍ، وهذا كما عبّروا عن قولهم: مُريد ومُراد.

وعلى الحقيقة كلُّ مريدٍ لله فهو مُراد بذلك، إلاّ أنّهم جعلوا اسم مرادٍ بوصف مخصوص، يُعرَف به، فيمتاز معه المبتدئُ من الْمُبادِئ، والمنيبُ من المجتبى، والطالبُ من المطلوب، والرّاغبُ من المرغوب، والحافظ من المحفوظ. فكذلك لعمرى ليس الحامل مثل المحمول، ولا الزائر كالمزور، ولا الاشتياق كالحضور، ولا المحب مثل المحبوب، ولا الْمُتوَجِّه كالمواجَه،ولا الْمُستكشِف كالمكاشَف، وهذا أيضًا كما عبَّروا بقوله: عارفٌ، والمعرفة، يريدون: عالم وعِلمٌ، إذ العالمُ عارفٌ بما عَلِم، والمعرفةُ عِلمٌ بالله تعالى، إلاّ أنهم لما خصّوا علمًا فوق علم، إذ كان الله سبحانه أعلى المعلومات، صار العالمُ بها أعلى العلماء فَرقًا، فخصُّوه باسمٍ يُعرَف به فضلُه دون غيره، فقالوا: عارفٌ، فكانت المعرفة وصفه، إذ كان عارفٌ اسمه، فقالوا عن هذا عارفٌ، فأغنى سامعَه ومُخبِرَه عن استكشاف علمه، وكفاه تنبيه السُّؤَّالِ أن يقول: عالم بذى علم.

قال أبو موسى الدُّبيلى: عرضتُ على أبى يزيد البسطامى كتابَ صاحبنا عبد الرحيم فى الإخلاص، فما أعجبه منه إلا حكاية أبى عاصم الشامى فى الشوق، يعنى أن عبد الرحيم ذكرَ الإخلاص فى كتابه، فقال: قيل لأبى عاصم وافدِ أهل الشام: تشتاق إلى الله؟ فقال: لا. قيل: ولِمَ؟ قال: إنّما يُشتاق إلى غائب، فإذا كان الغائبُ حاضرًا فإلى من يشتاق؟ قلت: سقَط الشوقُ. وهذا مقام

(١) فى المخطوط: «الخاصية»، وهذه تكررت كثيرًا.

محبوب عن وَجْدِ أُنْسٍ، ومقام قُربٍ.

وفى المشاهدة مقامان: مقام شوقٍ، ومقام أُنسٍ. فالشّوق حالٌ من القلق والانزعاج عن مطالعة العزة، ومعاينة الأوصاف الغيبية من وراء حجاب الغيب بخفايا الألطاف. وفى هذا المقام الحزنُ والانكسارُ، إلاّ أنه مزيد الخائف. والأنسُ حالٌ من القُرب عن مكاشفة الحضور بلطائف القُدرة. ففى هذا المقام السرورُ والاستبشار، وهذا مزيد المحبّ العارف.

وقال ضيغمُ البصرى: عجبتُ للخليقةِ كيف أرادت بك بدلاً، وعجبتُ لها كيف أنست بسواك.

وقال الجنيد: علامةُ كمالِ الحبِّ دوامُ ذكره فى القلب، بالفرح، والسرور، والشوق إليه، والأنسِ به، وأثرة محبّةِ الله على محبة نفسه، والرضا بكل ما يصنع. وعلامة أُنسه بالله استلذاذ الخلوة، وحلاوة المناجاة، واستفراغُ العقل كله حتى لا يكاد يعقل الدّنيا وما فيها، ولا يحمل هذا على الأنس بالخلق، فيرتب على مدارج المعقول، كما لا يحمل المحبةَ على محبةِ الخلقِ، فيكون بمعانى العقول، لأنه حال منها، أو إنّما هو طمأنينة وسكونٌ إليه، ووجد حلاوة منه، واستراحة وروح بما أوجدهم.

فمن حمله على الأنس بالجنس أنكره، ومن أنكره جحَد مقامًا من مقامات اليقين، وأنكر طريقًا من طُرقات العارفين، فأحسنُ حاله ضعف اليقين، وأسوأه كفرٌ بوصف الإيمان، فأدنى عقوبته حرمانُ وَجْدِه وفَقْدُ شهادته، وأعظمها حُبوط فضائل عمله.

ولا بدّ لمن تكلّم فى المعرفة على ترتيب العقل بشهادة المَلك أن يذكر الأنس، والشوق، والسَّكَن، والولَه، والغيبة، والحُضور، وعلم الفناء والبقاء؛ لأن معرفته معرفةُ الأفعال الحُكمية لا معرفة الصفات القاهرة، وذلك يُؤدى إلى قوله بخلق الإيمان واليقين أيضًا، وخلقِ أنوارِ القلوب، ومشاهدات الغيوب. وقد تكلّم السّلَف من أهل العلم الباطن ومن العارفين فى هذه المقامات؛ فأغنانا عن الاحتجاج لها، وقد ولّى المنكرُ لها على جهله بها، فسقطت مخاطبته.

وقد أنكر الأنس أيضًا من المتكلمين من لا مقام له فيه، كما أنكر المحبة من لا ذوق له منها؛ لأنه تخيّل فيها محبة المخلوق، وتمثل معها صفاتهم، فشَهِد بها أجناسهم، فقال: لا نعرف إلا الخوف.

وممّن ذهب إلى هذا القول أحمد بن غالب المعروف بغلام الخليل، أنكر على الجنيد، وأبى سعيد الخرّاز، وأبى الحسين النورى ـ كلامهم فى المحبة، فلم يُساو إنكاره عند العارفين حُبَّه. وقد بلغ بقومٍ بعض هذا المعنى حتى أنكروا الرِّضا، وقالوا: ليس إلاّ الصبر، ما أمر الله تعالى إلاّ به، ولا وصف نهاية الجزاءِ إلاّ معه. فجحدوا مقامًا من مقامات اليقين، وقطعوا طريقًا من طُرقات العارفين، وأبطلوا حالاً من أحوال المحبين والمتوكِّلين. والجهلُ بالله تعالى وضَعفُ اليقين يعملان أكثر من هذا، وما كُنّا لنهتدى لولا أن هَدَانا الله.

وليس هذا مذهبُ السّلف، ولا طريقة العارفين من الخلف. كتب عـامر بن عبد الله إلى بعض إخوانه: آنسك اللهُ بنفسه.

وقيل لإبراهيم بن أدهم، وقد نزل من الجبل: من أين أقبلت؟ فقال: من الأنس بالله.

وقد روينا فى التفسير عن سعيد بن أبى عَروبة، عن قتادة، فى قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ﴾ [الرعد:٢٨]، قال: هشَّت إليه واستأنست به.

وجهلُ هؤلاء أظهرُ من أن يدُلَّ عليه، وعلمُ المتقدمين بما رسموه فى كتبهم ورويناه عنهم أكثرُ من أن يُحتَجَّ به، والاشتغال بالبطَّال بطالةٌ ثانية، وقد صنّف العلماء كُتبًا فى الأُنس، وذكروا مقامات المستأنسين وأحوالهم.

ولكن قد أُنشدنا لبعض العارفين:

الأنسُ باللهِ لا يحـويه بطَّـالٌ ... وليس يدركه بالحَوْلِ مُحتـالُ

والآنسون رجالٌ كلهم نُجبٌ ... وكلُّهم صفـوةٌ للهِ عُمَّـالُ

وقال بعض العارفين: الأنس بالله عز وجل علامةُ وجود الطريق.

وقال آخر: إذا رأيته يُوحشُك من خَلقه، فاعلم أنه يريد أن يؤنسك به.

وقد يكون فى الأنس مقامٌ آخر، وهو الأنس بالأولياء والإخوان من العلماء بالله تعالى والأصفياء. حَوَّل عابدٌ مسجده إلى وكر طير يستأنس بصوته، فأوحى الله تعالى إليه: استأنست بمخلوقٍ، لأحُطنَّك درجةً لا تنالها بشيءٍ من عملك[١].

وفى مقام الأنس يكون التملق والمناجاة، ومعه تكون المحادثة فى المجالسة، وعنده يوجد معنى من البسط فى الحضور والقُرب. ولا يحب الله تعالى هذا النوع من الإدلال إلا ممّن أقامه مقام الأنس، ولا يحسُن ذلك إلا منهم، ولا يليق إلا بهم، كنحوِ قول موسى عليه السلام فى مقام الأنس: «يا رب لى ما ليس لك. قال: وما هو؟ قال: لى مثلُك وليس لك مثلُ نفسك. قال: صدقت». معنى قوله: «مثلك»، أى: لى أنتَ، كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١]، معناه: ليس كهو شيء؛ لأنه لا مثل له، فيكون كمثله مثل، أو لا يكون مثله مثل. والعربُ تعبر بالمثل عن نفس الشيء. وفوق هذا من البسط ما أخبر الله تعالى عنه، أنه قال مواجهًا للجليل العظيم: ﴿إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [القصص:٣٣]. وأعظم من هذا قوله: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ [طه:٢٤]، فقال مجيبًا له: ﴿فأَرسل إلى هَارُون * وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ﴾ [الشعراء:١٣ ـ ١٤]. ومثله قوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِي﴾ [الشعراء:١٢ ـ ١٣] فحسُن هذا منه، لأنه أقامه مقام البسط بين يديه والأنس به، وأوجده حال الأنس منه، ولأن مكانه لديه مكان محبوبٍ، يلاطفه بلطيف الكلامِ، ويواجهه بجميل الوَجد والإنعام، وينظر إليه بعين المحبة، ويقرِّبه لديه قربةَ قربِه، ويوجده منه إليه، فأدلّ به عليه فحمل له ذلك.

وهذا من غير موسى فى غير هذا المقام من سوء الأدب بين يدى المرسِل، ولم يحتمل ليونس عليه السلام خاطرًا من هذا القول، لما أقيم مقام القبض والخوف، حتى عُوقب بالسجن فى بطن الحوت فى البحر، فى ظلمات ثلاث، ونُودى عليه

---

(١) بعده خبر من أخبار داود ذكره من قبل، فتركته اقتداء بنسخة (د) التى لم تذكره، وكذا المطبوعة.

إلى يوم الحشر: ﴿لَوْلا أَنْ تَدارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّه لَنُبِذَ بالعَراءِ وهو مَذْمُومٌ﴾ [القلم:٤٩] وقيل: عراء القيامة.

ونهى الله تعالى حبيبه ﷺ أن يقتدى به فى القول والفعل، فقال تعالى: ﴿فَاصْبِر لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تَكُنْ كَصَاحِبِ الحُوتِ إذْ نَادى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم:٤٨] إلا أن هذا الفعل به، وتنقيله[1] فى هذه الأحوال مزيدٌ له، وتعريفٌ وفضل مرتبةٍ وتخويف، وفيها طرقات للعارفين، وأحوالٌ تحول على المقرَّبين.

وقد قال سبحانه: ﴿ولَقَد فَضَّلْنا بَعْضَ النَّبِيِّينَ علَى بَعْضٍ﴾ [الإسراء:٥٥]. وقال: ﴿مِنْهُم مَن كَلَّمَ اللهُ﴾ فرفعه إلى المكلَّمين. وقال: ﴿ورَفَعَ بَعْضَهُم دَرَجاتٍ﴾ [البقرة:٢٥٣] يعنى فى القُرب، وكان من المفضَّلين المكلَّمين عيسى ابن مريم عليه السلام، إذ يقول مادحًا لنفسه بالسلام مع مواجهته للسلام: ﴿والسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ ويومَ أَمُوتُ ويَوْمَ أُبعَثُ حيًا﴾ [مريم:٣٣]، فسلّم على نفسه فى الحال والمآل، مخبرًا بذلك عن القِدَم والأزل، وهذا بَوَجدٍ من الأنس فى مقامٍ لطيف، ولم يكن هذا لأخيه يحيى بن زكريا عليه السلام، بل سكت لا ينطقُ، ومن الخيفة والحياء مُطرق، حتى أثنى عليه خالقه، وكشف عنه سوابقَه، فقال تعالى مادحًا له: ﴿وسَلامٌ عَلَيه يَومَ وُلِدَ ويَوم يَمُوتُ ويوم يُبْعَثُ حيًا﴾ [مريم:١٥].

واحتمل عزّ وجلّ لأخوة يوسف ما عزموا عليه واعتقدوه، وما فعلوه وباشروه من قولهم: ﴿اقتُلُوا يُوسُفَ أوِ اطرَحُوهُ أَرْضًا يَخلُ لَكُم وَجْهُ أَبِيكُم﴾ [يوسف:٩] ونحو ذلك من الكلام والفعال. وقد عددتُ من أول قولهم: ﴿لَيُوسُفُ وأَخُوهُ أحَبُّ إلَى أبِينا منَّا﴾ [يوسف:٨] إلى رأس العشرين من أخباره عنهم فى قوله: ﴿وكانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ [يوسف:٢٠] نيفًا وأربعين خطيئة بعضها أكبر من بعض، قد يجتمع فى الكلمة الواحدة الثلاثة والأربعة والخمسة من الخطايا، ودون ذلك وفوقه، بدقائق الاستخراج، ومعرفةِ خفايا الذنوب، فغفرَ لهم ذلك إذ كانوا

(١) هكذا يمكن قراءة هذا الكلمة.

فى مقام محبوبين، ولم يحتمل لعزيزٍ مسألةً واحدةً سأل عنها فى القدر، حتى قيل: مُحى من ديوان النبوة.

وقد قال الله تعالى فوق ذلك كله: ﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا العِجلَ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتهُمُ البيِّناتُ فعفَونا عَن ذَلكَ﴾ [النساء: ١٥٣]، فإن شاء أن يعفو عفا عن العظائم، فلم يعظم عليه شىء، فصغُر فى فضل كل شىء، وإن شاء طالب وناقش على الصغائر، ولا تصغر الذرة والخردلة عن مطالبته، وكيف يصغر ذنبُ ممَّن واجه به الملك الجبّار؟! فقد كبُر لكبريائه، وحَسُن استخراجه لتحقيق عدله، ألا ترى أن من كشف عورته بين يدى نبى كفر، لانتهاك حرمة النبوة، فكيف بالعظيم الأكبر منبئ الأنبياء؟ فسبحان ستَّارِ العورات بفضل فضله وسَعَة رحمته، لذلك إن أعطى أعطى من العلم والإيمان بغير حساب لا بعددٍ ولا حدٍّ، وإن منع منع قوت الإيمان الذى لا يصحّ إلا به، وقِوامُ العلم الذى لا يقوم الدين إلا به، فذلك تحقيقُ اسميه مُعطى ومانع، وكذلك غفَّار وطالب.

وفى قوله تعالى: ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ ويُعَذِّبُ مَن يَشاءُ﴾ [آل عمران: ١٢٩] قيل: يغفر لمن يشاء الذنب العظيم، ويعذب من يشاء على الذنب اليسير، لا يُسأل عما يفعل؛ لأنه عزيز جبار، وهم يسألون؛ لأنهم أذلَّة مجبورون، قد يشترك الجماعة فى المعصية، فيغفرها لبعضهم ويبدّلها حسناتٍ، فلا تضره، بل تكون عاقبتها تسرُّه، ويعذب البعض بذنبه ولا يغفره له، وقد لا ينفعه معه عمل، ولا تكفِّرُه توبة، ولا تغنى عنه شفاعة، له الخَلْق والأمر، يحكم بأمره فى خلقه ما يشاء كيف شاء. فمن آمن بما ذكرناه لزمه الخوف، ووجب عليه الحذر، ومن كفر به لزِمه الكفر، وكان أشدَّ شىء عليه ضرراً.

واحتمل لآصف بن برخيا فوق ذلك كله، يقال: إنه كان أحد المسرفين، ولا يصلح أن تُذكرَ ذنوبُهُ لمكان علمه، ولحُسن عطف الله عليه بحكمه، ثم تداركه مولاه، واجتباه، وأعطاه العلمَ والفضل، وأيّد به نبيَّهُ، وخليفته، وجعله وزيره وكاتبه، وأطلعه على الاسم الأعظم، بعد ما كان منه ما يتعاظم؛ لئلا ييأس محبٌّ من عطفه، ولكيلا يقنطُ مُتحبِّب من لطفه. ولم يسمح لبلعم بن باعوراء بذنب

واحد من ذنوب آصف بن برخيا، إلا أن بلعم أكل دنياه بدينه، وأدخل الهوى على العلم، فضلَّ بذلك وهلَك، واشتدّ مقتُ الله له، وآصف كانت معاصيه فى جوارحه بينه وبين خالقه، فكان آصف مستبدلاً به من بلعم لما أُرى تلك الآيات، فانسلخ منها بعد العبادات، إذ لم يرد بحقائقها والثبات فيها. ويقال: إنى أوتى الاسم الأعظم المتصل بكُن. وقد قيل: أُوتى فوق ذلك مما لا أذكره، ثم انسلخ من الآيات، فسكن فى الدنيا وهوَى فى الهلكات، ولم ينفعه ما كان منه من العِبادة والزهادة، كى لا يأمن عاملٌ من عماله مكْرَه، ولئلا يُدِلَّ عالمٌ عليه بما أظهره له، فإنه قد يأخذه فى ساعة ما أُعطى فى مائة سنة، ويعزل بجناية حادثةٍ عن مائة سنة ولاية سالفة، وذاك من سر المكر ولطيف الخُبَر[١]. وقد يُظهره ليمنع وينشر الأعلام بالذكر والمدح عند الأنام، ويُخفى فى العافية أليم الانتقام، وهذا بابٌ من الاستدراج بالنِّعم المؤدية إلى عظيم النِّقم، فعن هذه المعرفة فَزِع العارفون، وبهذا الوصف المدرَّج المكّار عرفه الشاهدون.

وكان آصف فى كبائر المخالفات، فاستُنقذ منها، ثم أُوتى بعدها الآيات؛ لأنه بوصف مرادٍ، وفى مقام محبوب، فلم ينقصه فى مخالفته التردّد، ولم تضره الذنوب. هذا بحضرة نبى الله، وخليفته فى أرضه، سليمان ﷺ. فذاك من لطف الحنّان، وسرٍّ ما سبق من الرضوان.

فأمّا قصة بلعام، فهى أشهرُ من أن نذكرها، ولها مقدمات فيها قصصٌ وإطالةٌ لا نشتغل بذكره، ولكن نذكر بعض ما انتهى إلينا من قصة آصف آخر أمره، وما يَحْسُن نشره، وليس كل أحد على قصته يقف.

حدثونا: «إنَّ الله تعالى أوحى إلى سليمان عليه السلام: يا ابنَ رأس العابدين، ويا ابن محجةِ الزاهدين، إلى كم يعصينى ابن خالتك آصفُ، وأنا أحلُم عنه مرةً بعد مرة؟! فوعزّتى وجلالى، لئن أخذته عطفةٌ من عطفاتى عليه لأتركنَّه مُثلةً لمن معه ونكالاً لمن بعده. قال: فلما دخل آصف على سليمان أخبره بما أوحى الله إليه، فخرج حتى علا كثيبًا من رمل، ثم رفع يديه ورأسه نحو السماء وهو يقول:

(١) فى (د): «ولطائف الجبر».

إلهى وسيدى، أنت أنت وأنا أنا، فكيف أتوب إن لم تتب علىَّ، وكيف أستعصم، إن لم تعصمنى لأعودنَّ، فأوحى الله إليه: صدقتَ، أنت أنت وأنا أنا، استقبل التوبة إلىّ، فقد تبتُ عليك، وأنا التواب الرحيم».

وهذا كلام مدلٌّ به عليه، وهاربٌ منه إليه، ومتملِّق له منه، وناظر إليه به، ومُفردٌ له عنه، ومعترفٌ له مُستَرحِمٌ، مُلتجىءٌ إليه مستعصم، فلما بلغ حقيقة الاضطرار فى نفى جميع الاختيار عن حقيقة المعرفة باليقين؛ أنه هو كان لم يزل، وأنه هو إن كان لم يكن ، بما شهد من نفاذ القُدرة بِكُنْ، رضى الله منه ذلك، فنظر إليه فكشف ضُرَّه، وأغنى فقره، وجبر كسره، كما فعل بنبيِّه أيوب قبله فى كشف الضر حين تحقق بحال مُضطر.

وروينا بمعناه: «إن الله تعالى أوحى إلى عبدٍ تداركه بعد أن كان أشفى على الهَلَكة: كم من ذنبٍ واجهتنى به غفرتُه لكَ قد أهلكتُ فى دونه أمةً من الأمم؟!».

واعلم أن المسامحة من الله تعالى لأوليائه فى ثلاثة مقامات:

المقام الأول: أن يقيمه مقام حبيبٍ صديق بما سبق له من قَدَم صدقٍ ولا تنقصه الذنوب؛ لأنه حبيبٌ.

المقام الثانى: أن يقيمه مقامَ الحياء منه بإجلالٍ وتعظيم، فيسمح له ويُصغّر دونه للإجلال والمنزلة، ولا يمكن كشفُ هذا المقام، إلاّ أنا روينا عن رسول الله ﷺ أنه ذكر طائفة قال: «يدفعُ عنهم مساوئ أعمالهم لمحاسن أعمالهم».

المقام الثالث: أن يقيمه مقامَ الخوف والانكسار، والاعتراف بالذنب والإكبار، فإذا نظر حزَنه وهمَّه، ورأى اعترافه وغَمَّه، غفر له حبًا ورحمةً.

فإن فاتك المقام الأول، فلا يفوتنك المقام الثالث، وما بينهما مكتومٌ؛ لأنه من سرائر العلوم.

ومن إدلال المحبوبين من المستأنسين مناجاةُ بَرْخِ الأسود، الذى أمر الله كليمه أن يسأله أن يستسقى لبنى إسرائيل، بعد أن قحطوا سبعَ سنين، واستسقى لهم موسى

فى سبعين ألفًا، فأوحى الله إلى موسى: كيف أستجيبُ لهم، وقد أظلمت عليهم ذنُوبهم، وسرائرهم خبيثة، يدعوننى على غير يقين، ويأمنون مكرى؟! ارجع، فإنّ عبدًا من عبادى يقال له: بَرْخ، قل له يخرج حتى أستجيب له. فسأل عنه موسى فلم يُعرف. فبينا موسى عليه السلام ذات يوم يمشى فى طريق، فإذا بعبد أسود قد استقبله، بين عينيه تراب من أثر السجود، فى شملةٍ قد عقدها على عنقه، فعرفه موسى بنور الله، فسلَّم عليه وقال: ما اسمك؟ فقال: اسمى برخ. قال: فأنت طِلبتنا منذ حين، اخرج فاستسق لنا. قال: فخرج، فقال فى كلامه:

ما هذا من فَعالك، وما هذا من حلمك. ما الذى بدا لك؟ أَنقَصَت عليك غُيوثُك، أم عاندت عن طاعتك الرياح، أم نَفدَ ما عندك، أم اشتدّ غضبُك على المذنبين؟! ألستَ كنتَ غفَّارًا قبل خلق الخاطئين، خلقت الرحمة، وأمرتَ بالعطفة، فتكون لما تأمر من المخالفين، أم تُرينا أنّك ممتنع؟ أم تخشى الفَوتْ، فتعجِّل بالعقوبة؟

قال: فما برح حتى اخضَلَّت بنو إسرائيل بالقَطْر، وأنبت الله العشب فى نصف يومٍ حتى بلغ الرُّكب. قال: فرجع بَرخ، واستقبله موسى، فقال: كيف رأيتَ حين خاصمتُ ربى كيف أنصفنى؟ فهمَّ به موسى، فأوحى الله عز وجل إليه: إن بَرْخ يُضحكنى كل يوم ثلاث مرات.

ففى هذا ذكرى للرّاجين، وأنس للمشتاقين، وطمع للعالمين، وتحبُّب إلى المطيعين. هذا كما قال بعض العارفين: الحبيب لا يُحاسَب، والعدو لا يُحْسَب له.

وقد قال الجنيد: أهل الأنس يقولون فى تملُّقهم ومناجاتهم وفى خَلَواتهم أشياءَ هى كُفر عند العامة.

وقال أيضًا: لو سمعه العموم كفَّروهم بها، وهم يجدون المزيد بذلك فى حالهم.

وذلك يليق بهم ويحسن [illegible] منهم، ويرضى به منهم فى كلام أكثر من

هذا، حدثني بذلك أبو الحسن بن حبشٍ المُقرئ رضي الله عنه في «كتاب المعرفة»، فلا عَتبَ على مَن أنكر، ولا عجب منه.

وقد أنشدني بعضهم في وصف المؤانسين من المحبوبين:

قومٌ تَخَالَجَهُم زَهْوٌ بسيِّدهم والعبدُ يَزْهو على مقدار مولاه

تاهوا برُؤيته عمَّا سِواه لهم يا حُسن رُؤيتهم في عزٍّ ما تاهُوا

أي بقدر ما يُظهر لهم، وعن نحو ما يَظهرُ به.

وقد اشترك عبدان في اسم المعصية، ثم تباينا في الاجتباء والعصمة: آدم عليه السّلام، وإبليس لعنة الله عليه، ثم اجتبى آدم؛ وهذا لما سبق له من الاصطفاء والكلمة الحسنى، وإبليس أُبلس من رحمته وأُغوى، لما سبق له من الشّقوة والكلمة السوء.

وقد عاتب اللهُ تعالى نبيه على الإعراض عن عبد، وكره له الإقبال على عبدٍ، فقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾ [عبس: ٨ ـ ١٠]، وقال تعالى في الآخر: ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى * فأنْتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى﴾ [عبس: ٥ ـ ٧]، وربهما واحد.

وبمثله أمره بالإقبال والسلام على طائفة، وأمره بالإعراض وترك القعود مع طائفة، فقال تعالى: ﴿وإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤمِنُونَ بآيَاتنَا فَقُل سَلامٌ عَلَيكُم كَتَبَ رَبُّكُم عَلَى نَفْسه الرَّحمةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، ﴿وَاصبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بالغَدَاة والعَشيِّ﴾ [الكهف: ٢٨]، وقال عز وجل: ﴿وإذا رأيتَ الذين يَخُوضُونَ في آياتنا فأعْرِض عَنهُم حَتَّى يَخُوضُوا في حَديث غَيره وإمّا يُنسيَنَّكَ الشَّيطانُ فلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ القَوْمِ الظَّالمينَ﴾ [الأنعام: ٦٨]، وكلهم عبيد لواحدٍ.

ومثل المحبوب من المحب مثل مقام المصطفى ﷺ من مقام موسى عليه السلام. قال موسى: ﴿ربِّ اشْرَح لى صَدْرِى﴾ [طه: ٢٥] وقال لمحمد: ﴿أَلَمْ نَشرَح لَكَ

صَدرَكَ﴾ [الانشراح:١]، وقال موسى: ﴿واجْعَل لى وَزِيراً من أهلى * هَارُونَ أخى﴾ [طه:٢٩ ـ ٣٠] وقال لمحمد: ﴿ورَفَعنا لَكَ ذكْرَكَ﴾ [الانشراح:٤] أى: تُقرَن بى فى الشهادة والأذان لا أوازرك بغيرى؛ لأنّك من أهلى، والوزير: القرين والظهير، أى: فأنت من أهلى فقد وزّرتك وقَرَنتك بذكرى، فأنا ظهيرك ومعينُك، لا أشد أزرك بغيرى ولا أعضدكَ بسواى.

فأشبه هذا ما رويناه عن ليث، عن مجاهد، فى قوله عزّ وجل: ﴿عَسَى أن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء:٧٩] قال: يقعده على العرش[1].

---

(١) هذا أحد قولين رواهما الطبرى فى تفسيره عن مجاهد:

الأول: عن ابن نجيح عن مجاهد: أن المقام المحمود هو شفاعة سيدنا محمد ﷺ يوم القيامة.

الثانى: عن ليث عن مجاهد: المقام المحمود يجلسه معه على عرشه يوم القيامة.

واختار الطبرى القول الأول، وضعف الثانى.

[راجع: تفسير الطبرى، مصطفى الحلبى، الطبعة الثالثة ـ ١٩٦٨ جـ ١٥ ص ١٤٤ ـ ١٤٥].

ونقل القرطبى فى تفسير المقام المحمود أربعة أقوال، هى بإيجاز:

الأول، وهو أصحها: الشفاعة للناس يوم القيامة.

أخرج البخارى فى صحيحه، فى كتاب التفسير، عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: «إن الناس يصيرون يوم القيامة جثًا، كلّ أمّة تتبع نبيها يقولون: يا فلان اشفع، يا فلان اشفع، حتى تنتهى الشفاعة إلى النبى ﷺ، فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود».

وفى سنن الترمذى، عن أبى هريرة: سئل النبى ﷺ عن الآية، فقال: «هى الشفاعة».

[انظر: صحيح الترمذى، للألبانى، ٣/ ٦٨ ـ ٦٩ رقم ٢٥٠٨].

القول الثانى: هو لواء الحمد يوم القيامة.

الثالث: إخراجه من النار بشفاعته من يخرج.

الرابع: ما حكاه الطبرى عن فرقة منها مجاهد هو: «أن يُجلس الله تعالى محمداً ﷺ معه على كرسيه».

قال القرطبى بعد هذا الرأى ما نصه:

«وعضد الطبرى جواز ذلك بشَطَطٍ من القول، وهو لا يخرج إلا على تلطف فى المعنى، وفيه بُعدٌ، ولا يُنكَر مع ذلك أن يروى، والعلم يتأوله. وذكر النقاش عن أبى داود السجستانى أنه قال: من أنكر هذا الحديث فهو عندنا متهم، ما زال أهل العلم يتحدثون بهذا. قال أبو عمر: ومجاهد وإن كان أحد الأئمة يتأوّل القرآن، فإن له قولين مهجورين عند أهل العلم، أحدهما هذا».

=

فكان العرش مكان الربوبية بمشيئته فى الدنيا واختياره، وهو مستغنٍ عنه بقيُّوميَّته واقتداره، فوهبه لحبيبه فى الآخرة، فجعله مكانه تفضُّلاً له وتشريفًا، ليكون هناك فوق المرسلين فى الجلالة، كما كان هاهنا خاتمهم فى الرسالة.

وضمُّ مخلوقٍ إلى خالقٍ فى الاسم والمكان أعظم تشريفًا وأشرف تعظيمًا من ضمه إلى مخلوقٍ مثله وهو العرش، فلا عجب؛ لأنه رفع ذكره إلى اسمه، وجعل رسمه بدلاً من مكانه فى قوله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾** [الفتح: ١٠]، فهذا عجبٌ من الكون والمكان.

وإنه ليهجس فى سرِّى، ويتخالج فى صدرى، أنَّ الوسيلة التى قال ﷺ: «سَلُوا الله تعالى لى الوسيلة، فإنها منزلةٌ عند الله لا ينبغى أن تكون إلا لرجلٍ

= ثم قال القرطبى: «قلت: ذكر هذا ابن شهاب فى حديث التنزيل، وروى عن مجاهد أيضًا فى هذه الآية قال: يجلسه على العرش.

وهذا تأويل غير مستحيل، لأن الله تعالى كان قبل خلقه الأشياء كلِّها والعرش قائمًا بذاته، ثم خلق الأشياء من غير حاجة إليها، بل إظهارًا لقدرته وحكمته، وليُعرف وجوده وتوحيده وكمال قدرته وعلمه بكل أفعاله المحكمة، وخلق لنفسه عرشًا استوى عليه كيف شاء من غير أن صار له مماسًا، أو كان العرش له مكانًا. قيل: هو الآن على الصفة التى كان عليها من قبل أن يخلق المكان والزمان.

فعلى هذا القول سواء فى الجواز، أقعد محمد على العرش، أو على الأرض؛ لأن استواء الله تعالى على العرش ليس بمعنى الانتقال والزوال وتحويل الأحوال من القيام والقعود والحال التى تشغل العرش، بل هو مستوٍ على عرشه كما أخبر عن نفسه بلا كيف.

وليس إقعاده محمدًا على العرش موجبًا له صفة الربوبية، أو مخرجًا له عن صفة العبودية، بل هو رفع لمحلّه، وتشريفٌ له على خلقه.

وأما قوله فى الأخبار: «معه»، فهو بمنزلة قوله: ﴿إِنَّ الَّذين عند ربِّك﴾، و﴿ربِّ ابْن لى عندك بيتًا فى الجنَّة﴾، ﴿وإنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحسنين﴾، ونحو ذلك. كل ذلك عائد إلى الرتبة والمنزلة والحُظوة والدرجة الرفيعة لا إلى المكان». اهـ كلام القرطبى.

* أقول والله أعلى وأعلم: الأمر فى الغيبيات مردُّه إلى النقل الصحيح لا إلى العقل، فما ثبت فى السنة وإجماع أهل العلم فهو قولنا وحجتنا، وهو أيضًا قول أبى طالب المكى ورأيه، كما صرح بذلك فى أكثر من موضع. وأطلت فى هذه النقول، لأن القول يتعلق بالعقيدة.

انظر فى ذلك: تفسير القرطبى ١٠/ ٣٠٩ ـ ٣١٣. والشفا، للقاضى عياض، تحقيق محمد البجاوى ١/ ٢٨٩ ـ ٣٠٣. وفتح البارى ٨/ ٢٥١ ـ ٢٥٢.

واحد، وأرجو أن أكون أنا هو» أن ذلك هو القعودُ على العرش، ولكنى لا أُصرِّح بذلك، إذ لم يصرِّح به الرسول، لكنى أرمز به لمن عرفه.

وقال لموسى عليه السلام بعد المقام: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسَى * ولقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾ [طه:٣٦ ـ ٣٧] ففى هذا تحديده. وقال لمحمد ﷺ: ﴿وقُل رَّبِّ زِدْنى عِلْمًا﴾ [طه:١١٤] فلم يحدَّ له حدًا، فهذا غاية المزيد.

وقال موسى عليه السلام: ﴿ربِّ أَرِنى أَنظُر إِلَيكَ﴾ [الأعراف:١٤٣] أى فى محل العبودية، وقال لمحمد عليه السلام: ﴿ما زَاغَ البَصَرُ وما طَغَى﴾ [النجم:١٧]، ﴿فكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أو أدنَى﴾ [النجم:٩]؛ أى فى مكان الربوبية منه.

فبين المحب والمحبوب فى التقليب كما بين موسى ومحمد عليهما الصَّلاة والسلام فى التقريب، وبين من رأى ما رأى عند نفسه فى مكانه وبين من رأى ربه فى علوه شأنه كما بين من عَجِل إليه شوقًا منه ليرضى عنه وبين من عُجِّل به شوقًا إليه؛ لرضاه به، وكما بين من رأى ما رأى فلم يثبت، ففاضت عليه الأنوار لضيقه فقتل الضعفاء، وبين من رأى ما رأى فثبت له وغاضت فيه الأنوار لسعته فحمل الأقوياء، فقد جاوز المحبوب مقام المحبِّ فى التمكين، كما جاوز محمدٌ ﷺ مقام موسى عليه السلام فى المكان.

وروينا عن رسول الله ﷺ: «إن الله اتخذ موسى صفيًا واتخذنى حبيبًا».

أدخل بينه وبين موسى لام الملك، وأقام محمد ﷺ مقامه فى الملك فقال تعالى لموسى: ﴿وَاصطَنَعتُكَ لِنفْسِى﴾ [طه:٤١]، وقال لمحمد: ﴿إنَّ الَّذين يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ﴾ [الفتح:١٠] ، فكم بين مَن صنعه لنفسه وبين مَنْ جعله بدلاً من نفسه تفضُّلاً وتعظيمًا؟ وكم مَن فَصَل مدحَه من وصفه وبين مَنْ وَصَل مدحه بوصفه، فقال تعالى فى الفصل: ﴿وأَلْقَيْتُ عَلَيكَ مَحبَّةً منِّى ولِتُصْنَعَ عَلى عَيْنى﴾ [طه:٣٩]، وقال فى الوصل: ﴿لِتُؤْمنُوا بالله ورَسُوله وتُعَزِّرُوهُ وتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح:٩]، وقال فى مثله: ﴿واللهُ وَرَسُولُه أَحَقُّ أن يُرْضُوه﴾ [التوبة:٦٢]. وقد قيل فى قوله تعالى:

﴿يَا مُوسَى إِنِّى اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِى وَبِكَلامِى فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤]، أى: خذ ما آتيتك من الكلام قبلاً واصطفيتك به على الناس، فاشكر عليه، والنظرُ فقد خصصتُ به محمداً[(١)].

وعن ابن عباس وكعب: «إن الله تعالى قَسَم كلامه ورؤيته بين موسى ومحمد، فأعطى موسى الكلام، وخصّ محمد بالرؤية». ومما يؤيد هذا القول: أن الذى آتاه الكلام هو الذى ثبت له، فدل أنه هو الذى أريد به؛ لأن الله تعالى إذا أراد عبدًا بشىء ثبَّته فيه، وقوَّاه عليه، وقد ثبَّت محمدًا لما آتاه من الرؤية، وقوَّاه لها، ومكَّنه فيها؛ لأنه أراده بها، ولأن موسى كان مقامه مقام سائلٍ طالبٍ، وساعٍ حامل، وكان مقام محمدٍ ﷺ مقام مطلوب محمول، منادًى مستسعًى.

ومن وَصْفِ مقام المحبوب ما قيل لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه: صِف لنا أصحابك. فقال: عن أيّهم تسألون؟ قالوا: عن سلمان. قال: أدركَ عِلْمَ الأوّلِ والآخر. قالوا: فعمّار. قال: مؤمن ملىءٌ إيمانًا إلى مشاشه. قالوا أبو ذر. قال: جُمع له العلم والزهد، لا يخاف فى الله لومة لائم، ما أظلَّت الخضراء أصدق لهجة منه. قالوا: حذيفة. قال: صاحب السّرِّ، أُعطى علم المنافقين. قالوا: فأخبرنا عن نفسك. فقال: إياى أردتم؟ كنتُ إذا سألتُ أُعطيتُ، وإذا سكتُّ أُبديتُ.

فهذا مقام محبوبٍ؛ لأنه إذا سأل سُمِعَ منه، واستجيب له. وإذا سكت نُظِر إليه، فابتُدئ فعُطِف عليه وأُعطى، فهذا مقامٌ جمع فيه ما فوقه على سواه من الأحوال، فأشبه ذلك ما وصفه به رسول الله ﷺ من النهاية التى أعطى أصحابه بداياتها، فقال: «أقواكم فى دين الله عُمَر، وأصدقكم حياءً عثمان، وأفرضكم زيد، وأقرؤكم أُبىٌّ، وأعلمكم بالحلال والحرام مُعاذ. ثم قال: وأقضاكُم علىٌّ». فالقاضى جامعٌ هذه الصفات، والقضاء هو الغاية، وكذلك كان عنده من البيان

---

(١) رحم الله أبا طالب رحمة واسعة، فقد أجاد فى بيان خصوصية الحبيب ﷺ من خلال القرآن الكريم، وهو استنباط ألهمه الله إيّاه قلّما تجده فى كتاب.

وكشف الشبهات ما لم يكن عند أصحابه، فقال: «ما شككتُ فى قضاء بين اثنين منذ استقضانى رسولُ الله ﷺ». وقضى فى شبهة فى الثمن، فسئل عنها رسول الله ﷺ، فتبسم وقال: ما أعلم فيها إلا ماقاله علىٌّ.

وقال عدى بن حاتم فى رجل رآه مقتولاً يوم الجمل: ويحَ هذا، كان بالأمس مؤمنًا وهو اليوم كافرٌ، فزجره علىٌّ وقال: بل كان أمس مؤمنًا، وهو اليوم مؤمن. وقال له عمّار: اقسم بيننا الذرية كما قسمت الأثاث والمال. فقال: حتى ننظر فى سهم من تصير عائشة. فقال: أوَ عائشة تُقَسّم. فقال: وكيف نصنع بها وهم جاءوا معها. فقال: صدقت. وخطب الناس بعد الجمل فذكر طلحة وغيره، فقال: قد كان إخوة يوسف على المحجّة يوم عقّوا أباهم، وباعوا أخاهم، فإنما بَغَضَهُم بعد التوبة والإقرار. ثم قال فى آخر كلامه: ما شككتُ فى الحق مذ عرفته.

فهذا كله مقام مُرادٍ محبوب، مكاشفٍ بالسر مطلوب.

وقد روينا عنه: «مَن أحبَّ مَن لا يَعرِف فإنما يمازح نفسه» أى: من لا يعرف صفات حبيبه وأخلاقهِ وأفعالهِ وأحكامه، فيحبه بعد خُبْرِهِ، فيسارع إلى مرضاته، ويجانب مكارهه، ويعامله بأخلاقه، ويجالسه بمعانى صفاته، فإنما يمازح نفسه؛ أى يلهو بها ويلعب، ليس فيه شىء من حدّ المحبين، ولا حقيقة العارفين، إذ لا يأمن انقلابَ محبتهِ، لتقليب أفعال محبوبه، ولا يأمن تغييرَ حبهِ لابتلاء حبيبه، واختلاف أحكامه، فكأنه كان مازحًا بحبه لا مُحقًا به، وفى مثل هذا المقام من جهلِ المحبينَ بأفعال المحبوب اغترارٌ عظيم.

ومن المحبة كتمانُ المحبة؛ إجلالاً للحبيب وهيبةً له، وتعزيزًا وتعظيمًا له، وحياءً منه. وهذا وصف المخصوصين من عقلاء المحبين، وهو من الوفاء عند أهل الصفاء، إذ كانت المحبةُ سرَّ المحبوب فى غيابة القلوب؛ فإظهارها وابتذالها من الخيانة فيها، وليس من الأدب ولا الحياء النسبةُ إليها، ولا الإشارةُ بها؛ لأن فى ذلك اشتهارًا، فتدخل عليه دقائقُ الدعوى والاستكبار.

وقال آخر فى تعزيز الحبيب مع قربه:

وقالوا قريبٌ قلتُ مـــا أنا صــانعٌ
بضوءِ شعاعِ الشمس لو كان فى حِجْرى
فمـــا لى منــه غيـرُ ذِكـرٍ بخــاطرٍ
يهيجُ نارَ الحُبِّ والشوقِ فى صَدرى

إلا أن يُغلب فيُعذر، أو يُقهر فلا يُلام؛ لأنّ للحب لوعةً تلدغ القلب، وسكْرةً تغمر العقل، وقبضًا يُقبض فيه القلب، ولا يُمكن كتمه، وزَفْرةً تغلب الوجد لا يُستطاع دفعُها، ونارًا تقدح فى اللُّبِّ تسطو بوصفها، فذاك حينئذ معذورٌ؛ لأنه هناك مقهور، وهو ثَمَّ مجبورٌ، إذ صار فى وثاق الحبيب مأسورٌ، كما أنشد بعض المحبين:

ولـمَّا رأيتُ لِقَهرِ الهـوى ... أميــرًا تَعـــزَّز أن يُعــزَلا
وبثَّ عساكرَهُ فى النفـــوسِ ... ففَصَلَهـــا مَفْصِلاً مَفْصــلا
دفعتُ إلى الحبِّ حبلَ القيادِ ... وقلـــتُ أسيــرُكَ مُستقبِـلا
فشدُّوا وَثاقى بحبلِ الصُّـدودِ ... فهـــا أنا فى أسْرِه مُبتلَى

وأنشد فى الظهور عن غلبة الكتم والإسرار[1]:

مَن كان يَزعُمُ أن سَيكْتُم حُبَّه ... حتى يُشكِّك فيه فَهْوَ كـذوبُ
الحـــبُّ أغلـبُ للفـؤادِ بقَهْرِه ... مِن أن يُرى لِلبرِّ فيـه نصيـبُ
وإذا بـدا سرُّ اللبيـب فإنه ... لـم يُبْـدَ إلاَّ والفـتى مَغْلـوبُ

وأنشد غيره:

يبدو فأجهَدُ أن أُكاتم حُبَّه ... فتَبين فىَّ علامـةُ الكتمـانِ

وأنشد آخر فى الإظهار عن غلبة:

دلّ عليــه نفسٌ مختلَس ... ودمعةٌ تحت سِجال الفَلَس

(١) هذه الأبيات الثلاثة والبيت الذى يليها من (د) فقط.

يُخفى ويُبدى الدمعُ أسرارَهُ ويُظهر الوَجدَ عليه النفس
لو سُتر الحُبُّ ببعضٍ إذًا دلَّ عليـه نظرٌ مختَلَس
أو مـوَّه الوَجـدَ بفقدٍ لما أخفاهُ فيه علمُه المقتبَس

وأنشد فى معنًى جامعٍ للجملة:

ومَن قلبُه مع غيره كيف حالُه ومَن سِرُّه فى جَفْنه كيف يَكتمُ

وقال الجنيد وغيره ممن فوقه: يُقال: إذا تناهت معارفهم انتهت إلى حِيرَة. وقالوا: أعرفهم به أشدُّهم تحيُّرًا فيه.

وقد رُوينا عن الله سبحانه: «إنما تضلُّ عقولُ الرجال عند طلب محبَّتى، يستبطئنى أحدهم، ولو صبر لأبحته شيئًا بعد شىء، ولا يكون ذلك شيئًا حتى أبلوه، وأعلم عقدة عقله، وهل هو أهلٌ لفوائدى، فإن كان كذلك، فأدنى ما يصِلُ إليه منى أن تخافه الخليقةُ، ويتنافس أهلُ الحيلة فى سعة نوره، وأحبوه بالنظر إلىَّ بلا كلام. يا داود، قل لمعاشر المتوجهين إلى محبَّتى: ما ضرُّكم ما فاتكم من الدنيا إذا كنتُ لكم حظًا؟ وما ضرُّكم من عاداكم إذا كنتُ لكم سلْمًا؟ وما ضركم مذمَّة الخلق وعداوتهم إذا كنتُ لكم حبيبًا؟ وما ضركم إذا جُعتُم من الدنيا وشبعتم بذكرِ عَظَمتى؟ وما ضرُّكم الانقطاع من خلقى إذا انقطعتم إلىَّ؟».

فهذه نعوتُ الصادقين من المحبين، وهذا عِوَضهم وجزاؤهم من محبة الدنيا ومحبة الخلق. وقال بعد هذا فى وصف المبعدين من القرب والكاذبين المدعين: «يا داود، قل للتاركين ما وصفتُ، وللراغبين فى دار الذلّ والهوان: حَلُمتُ عنكم فلم تزدادوا إلا تماديًا، وسمحت لكم فى الإيثاق وكلأتكم بالليل والنهار من غير حاجة منى لكم، وكيف لا أفعل ذلك بكم، وما خلقت خلقًا هو أكرمُ علىَّ من أبيكم آدم، صِفوتى من خلقى، ورغَّبتكم فى جوارى، مَنْ تمسَّك بالمعاصى ألبسته ثيابَ الذلة، وأصرفُ عنه وجهى الكريمَ. القلوب المعلقةُ بشهوات الدنيا عقولها محجوبةٌ عنّى».

وقد قال بعض العارفين: أبعدُ الناس من اللهِ أكثرهم إشارة به، وهو الذى يُكثر

التعريض به فى كل شىء، ويُظهر التزيُّن والتصنُّع بذكره عند كل أحد، هذا ممقوت عند المحبين لله والعلماء به.

دخل ذو النون المصرى على بعض إخوانه ممن كان يذكر المحبة، فرآه مبتلًى ببلاء يجلُّ عن الوصف، فقال ذو النون: لا يحبُّه مَنْ وَجدَ ألم ضربه. فقال الرجل: لكنِّى أقول: لا يحبه مَنْ لم يتنعَّم بضربه. فقال ذو النون: لكنى أقول: لا يحبّه من شَهَر نفسه بحبه. فقال الرجل: أستغفر الله وأتوب إليه.

وهذا ـ كما قال ذو النون ـ هو من علامة الإخلاص فى المحبة، إذ كانت من أعمال القلوب، فوجودُ الإشفاق والحذر من إظهارها ـ خشية السلب والاستبدال، وخوفَ المكرِ والاستدراج ـ علامة التحقق بها، ودفعها عن النفس، وسترها عن أبناء الجنس، وترك التظاهر بها علامة الظفر بها؛ لأن المحبوب غيورٌ، وغيرته على نفسه وعلى ظهور محبته أشدُّ من غيرته على إظهار محبته، وغيرته على إظهارهم لغير أبناء جنسهم أشدُّ من غيرةِ جميع محبيه عليه.

وقد أنشد بعضهم فى الفرق بين الواجد الصادق، والمتواجدِ الناطق عن وُجُودِ البُكاء:

إذا غرقت دموعٌ فى عيونٍ تبيَّن مَنْ بكَى مِمَّن تباكى
فأمَّا من بكى فيَذوبُ وَجْداً وينطق بالهوى مَن قد تَباكى

وأُنشدت فى وصف بعض الأقوياء من المحبين الذين هم للوجد كاتمون:

. . .[1] من الحسِّ لا يُبدى وجوداً كأنَّ فؤاده زُبَرَ الحديد

ومن ألطف ما سمعت فى غيرة المُحبّ على حبيبه حتى من نفسه، ثم حتى من حبيبه على حبيبه، لشدة غيرة المحبة، وعِظَم شأنها وجلالة مكانها فى قلب محبها، أنشدنى بعضهم:

غِرتُ منهم عليه مِن شدَّة الوَجْدِ به ثُمَّ غِرتُ منِّى عليه
ثم فكَّرتُ بعد ذاك، وهذا فى عيانى من ناظريه إليه

(١) كلمة فى أول البيت غير مقروءة.

هِمَّتى عــــزةٌ، وإنْ دام ذُلِّى إذ حيــاتى ومِيتَتِى فى يديـه

ففى هذا آية للمحبين، وعبرة للعارفين، فلا تنكروا هذا، فإنَّ أعجب منه ما رُوينا عنه سبحانه فى تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه:١٥] قيل: من نفسى. وكان هذا على ضرب المثل فى شدّة الإخفاء.

كما نقل لنا الإسلاميون عن الكتابيين[١]: إن فى الإنجيل مكتوبًا: إذا تصدقتَ فلا تعلم شمالُك ما صنعت يمينك، فإن الذى يرى الخفيَّات يُجزئك به علانية. وإذا صليتم فقولوا: يا أبانا الذى اسمُكَ فى السماء القُدسُ. فإذا صُمتَ فاغسل وجهَك وادَّهن رأسَك، لئلا يعلم بذلك غيرُ ربِّك.

فهذا كلّه على ضرب المثل والاعتبار فى المبالغة فى وصف الرّأفة والحنان من الخالق اللطيف الحنَّان، يتحبب به إلى أوليائه، ويتقرب بذلك إلى قلوب أحبائه، ويستخرج منهم أن يكونوا له كما هو لهم. وهذا كلامُ عالم صاحٍ فى مقام صحوٍ مكين، وهى محبة العقلاء الربانيين أئمة المتقين. فأما السكران بحاله، والولهان بوَجْده، والحيران فى توحيده، فمغلوبٌ بشكره، مقهور بأسره، مأسور بوَجْده، مجبورٌ بغنائه، محجوبٌ عن بقائه، ليس يقع به اعتبار؛ لأنه ليس بمعيار؛ إذ لم يجعل إمامًا للمتقين، ولا منهاجًا للعابدين، والله عز وجل غالبٌ على أمره. وقال رجلٌ لأبى محفوظ معروف، وقد رأى بعض المحبين شيئًا استجهله منه من مقال وفعال، فأخبر بذلك معروفًا، فتبسَّم، ثم قال: يا أخى، له مُحبُّون صغار وكبارٌ، وعقلاءٌ ومجانين، فهذا الذى رأيته من مجانينهم.

وقد قال صاحب الأمر[٢]: «فإذا أحببتُه، كنتُ سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، وقلبه الذى يعقل به، ويده الذى يبطش بها، ورجله الذى يمشى بها، وكنتُ له يدًا ومُؤيِّدًا». فلذلك كان ﷺ يسأل من هذا المزيد، ويحب به دوام التأييد، فى قوله: «اجعل فى عينى نورًا، واجعل فى سمعى نورًا، وعن يمينى

(١) فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ما هو خير من هذا ويغنى عنه، ورحم الله أبا طالب إذ أكثر من النقل عن أهل الكتاب وهو فى غنى عن ذلك.

(٢) يقصد الحديث القدسى.

نورًا، وعن شمالى نورًا» أى: أدِمْ لى الوَجْدَ بك، والنظر إليك، والقُرب منك، حتى لا أفقدك فىّ، ولا أشهد نفسى ولا غيرك فى وجدى، وأيِّدنى بذلك بروح التأييد ونور التوحيد، واعصمنى مع جميع ذلك عصمة المرحومين من المنيبين.

وقد أنشد منشدٌ فى بعض هذا المعنى:

سَهرُ العيونِ لغير وجهك باطلٌ ... وبكاؤهن لغير حبِّك ضائعُ

بصرى وسمعى لم يُجِبْك لأننى ... أنا مبصرٌ بك فى الحياء وسامعُ

وفيما ذكرناه من وصف المحبِّ كفايةٌ، وغُنيةٌ لمن وُفِّق لفهمه، ورُزق نصيبًا من علمه، يجزى عن وصف المحبوب، وليس يمكننا وصف محبوبٍ كما نعلم ونحب، إذ حاله يَجلُّ عن الوصف؛ لأنه فى غيابة الغيب محجوبٌ به، ومقامُه يعلو عن الكشف، وكيف يُوصف من يسمع ويُبصر من مُحبِّه، ويبطش ويقتل عن محبوبه، بل هو كائن له سمعًا وبصرًا ويدًا ومؤيدًا وقلبًا، كما رويناه فى الخبر آنفًا: «لئن سألنى لأعطينَّه، وإن سكت ادّخرتُ له، لو قسم نوره على أهل الأرض لوسعهم».

فهذا كله فى مقام محبوبٍ. ويقال: إنّ هذه الآيات، والقُدَر المبهمات، من سرائر الغيوب وخفايا الملكوت، التى تسميها العامة المعجزات والآيات، وتسميها العلماء الكرامات والإجابات؛ وهى آياتُ الله فى أرضه مُودَعة، وقدرته فى عباده جارية، وعنايات له فى ملكه مستقرة، ليس للعباد منها إلا كشفها، ونظرهم إليها، إذا أقيموا مقام الأنس من مقام محبوب، ورُفعوا إلى وصف خُلَّة فى حال مطلوبٍ، رُفعت عنهم الأسبابُ والغيوبُ، وظهرت لهم الأسرار، وسِرُّ سرِّها هو المحجوب، وبعضهم يقول: إن الآيات توجدُ فى المقام السابع عشر من مقامات المعرفة؛ إذا أُقيم العبد هذا المقام نُودى بها، فظهرت له، فكانت هى كشوفه من الغيب؛ لأنها على طريقه، فلا يمتنع من رؤيتها، وهى كشفه إن عبرها، وحجبه إن نظر إليها. وفوقها ثلاثة وثمانون مقامًا من مقامات العارفين أفضل من ذلك؛ لأنها طرقات أبدال المرسلين من النبيين، وذلك فى قول بعضهم: تكون لأبدال النبيين من الصالحين، وأبدال المرسلين فضلُهم على أبدال النبيين كفضل المرسلين

على النبيين، وكفضل الصدِّيقين على الشاهدين؛ لأن كل بدلٍ يكون على معنى مبدله، وأبدال الصديقين أيضًا فوق أبدال الشهداء، وأبدال الشهداء فوق أبدال الصالحين. كذلك كل طبقة عن معنى مبدلها.

كيف وقد قال بعض العلماء: ما رأيت هذه الكرامات أُظهرت إلا على أيدى البُلْه من الصادقين. وقد قال رسول الله ﷺ: «أكثر من يدخل الجنة من أمتى البُلْه، وعِليُّون لِذوى الألباب».

فأولو الألباب هم المواجَهون بالخطاب، الشهداء عليه، المستحفظون للكتاب، كما قال تعالى: ﴿بِمَا اسْتُحفِظُوا مِنْ كِتَابِ الله وَكَانُوا عَلَيه شُهَدَاءَ﴾ [المائدة: ٤٤]. والعامة يحسبون أنها من أعلى مقامات المعرفة؛ لأنها أبهرُ للعقول، وأغربُ فى العلم والمعقول، وتجلّى صفات محبوب فى أنوار اليقين بالقلوب، وقُرب ملاحظات المحبِّ للطائف معانى الحبيب، هو سرُّ السّرِّ، وغُربة الغُربة، وعَجَب العَجَب، والذَّرُّ مِن ذلك عند العارفين والمحبين أعلى وأفضل من أمثال الكون والمكان؛ لأن العارف المكين ذا القوة الأمين ينظر إلى الكون ظاهره وباطنه ـ أعنى مُلكه وملكوته ـ بعين مليكه، فهو لا يملكه لقوته، ولا يتملكه لزهده وتوكُّله، فليس يشهد إلا فعله وهو ما ظهر؛ ومعناه الحكمة، ووصفه وهو ما غلب، ومعناه القدرة، فله فى كلِّ حركةٍ وسكون كشفٌ ومزيدٌ، يأخذ من الأشياء قبل أن يُؤخذ منه، ويأسرها قبل أن تأسره، فهى تأخذ نصيبها منه، وهو يأخذ منها نصيبه من مالكها، وهى ترتفع به وتزيد، وهو يعلو بِمُعْلِيه أبدًا إلى مزيده. وجميعُ الأسرار من الغيوب التى تكنُّها الحُجُب والأستار، لا يظهر عليها إلا مطلوبٌ، والمطلوب لا يكون محجوبًا وهو عن نفسه مسلوب. فمن بقيت عليه من نفسه بقية، أو نظر إلى حركته وسكونه بعينه نظرة خفية، فسترها عليه رحمة له، لأنه لو كوشف بها هلك فى حيرة الهوى، وغرق فى بحر الدنيا، ونفسُ حبِّه لها، وعين طلبِه إياها، هو حجبها عنه، واستتارها منه، حتى يكون كارهًا لظهورها كراهته لظهورِ الخلق عليه فى معصيته، وخائفًا منها خيفته من نفسه فى تظاهرها عليه بهلكته، فهناك حين يُبتلى بها ويختبر، لينظر كيف يعمل، فإذا بقى بباق، وحىَّ بحياة حى صرفًا

منه صِفرًا عنه، بلا طلبٍ، ولا نظرٍ، ولا سببٍ، ولا فكرٍ، بُودِئَ بعجائبِهِ، وفُتِحَ له كنوز غرائبه، ويفعل الله ما يشاء. كما أنشد العارف:

ظهرتَ لمن أفنيت بعد فنائه ... فصار بلا كونٍ لأنك كنتَه

وكما قال الواجد:

فإن نأى عذَّبنى، وإن دنا قرَّبنى ... إذا تغيَّبتُ بدا، وإن بدا غَيَّبنى

وقال بعضُ العارفين، ممن يكشف عن مشاهدته: عبدتُ الله ثلاثين سنة بأعمال القلوب والجوارح على بذل المجهود، واستفراغ الطاقة، حتى ظننتُ أنّ لى عند الله شيئًا، فذكر أشياءَ من مكاشفاتِ آيات السموات فى قصة طويلة، قال فى آخرها: فبلغتُ صفًا من الملائكة بعَدَدِ جميعِ ما خلقَ اللهُ مِن شىء، فقلت: ما أنتم؟ قالوا: نحن المحبون لله، نعبده ههنا منذ ثلاثمائة ألف سنة ما خطَر على قلوبنا قط طلبٌ لسِواه، ولا ذكرنا غيره. قال: فاستحييت من أعمالى، فوهبتها لمن حقَّ عليه الوعيد، تخفيفًا عنهم فى جهنم.

وقال بعض العلماء: كل مقام أُعبِّر عنه إلا مقام المحبة. قيل: ولم؟ قال: لأنّ الشىء يُعبَّر عنه بألطف منه، ولا شىء ألطف من المحبة.

وقيل لمعروف: أخبْرنا عن المحبة أى شىء هى؟ قال: يا أخى، ليس المحبة من تعليم الناس، المحبة من تعليم الحبيب.

يعنى إذا تجلى بوصفٍ محبوب بعد أن يحبك، ويحب لك أن تُحبَّه، كما تحبُّ على معنى الوصف الذى به تجلَّى، لم تمتنع من محبته لا محالة، فإمّا أن تخبر عنه، أو تستدل عليه بعلم أو عقلٍ. فهيهات، إنّ المحبة لا تجىء بخبرٍ، ولا تكون باستدلالٍ، إنما هو جَعْلُ اللهِ فى القلوب بسرائر الغيوب، لا يوليه غيره ولا يعلمه سواه، ولا يظهر عليه روح المحب ولا عقله، وكيف يعبِّره وجملة ما أعبِّر عنه من المحبة أنها سرٌّ عن وصف إله، فهى تآله القلبِ بما ألهَ اللهُ، فاستكان هذا النور فى قلب المتألِّه بالله إلى ما ألِهَ هى مكان المحبة، ثم يقع التجلِّى من الحبيب بحُسنٍ وجمالٍ ليس كمثله وصف، ويذوق حلاوة لا تُشبهها حلاوة، فتُحدث سرورًا

وارتياحًا ولذةً ونعيمًا يَجدُ القلب ذلك، ويحار العقل فيه، ويعرف الهمَّ فيه، ويتردد الفِكرُ به، فهذا ما يُمكِن لِمَنْ عرف، وما يصلح لمن أُوقف، وما وراء هذا فإنما هو رؤية كيفية، وكيفية قُربٍ، والعقولُ والعلومُ تعجز عن درك هذا، لا يحيطه من الله عن مشيئة، فانتظمت محبة القرب، فكان سِرًا، وغابا فى جبروت العز، فالذى يُوجِد القُرب، ويظهر على كيفيته من الأرواح والقلوب، والهمم والعقول والعلوم ـ التى هى حجبُهُ ـ هو الذى يُذيق القلوب والعقول وَجْدَ المحبةِ له، إذا كشف حُجبَ الغيوبِ عنها، وذلك أن الكل محجوب بحجابين إلا الموقنين، فالعقلاء محجوبون بحجاب العقل؛ لأنه من معناهم، والجهلاء محجوبون بحجاب الهوى، إذ هو من معناهم، فهذا حجابان باطنان، فإذا رُفعا انكشفت عينُ اليقين، فأبصرت الغيب بالغيب، فصار شهادة، ورأت النور بالنّور، وكان على الحسنى زيادة، فمثل ذلك ما حجب العموم فى الدنيا؛ لأنهم محجوبون فيها بحجابين ظاهرين: حجاب لطيف وهو العقل؛ لأنه من معنى اللطف، وحجاب كثيف وهو الجسم؛ لأنه من معناه. فإذا أُسقط الحجابان الباطنان ـ العقل والهوى ـ عن العارف المُجتبى، فهو كشف الغطا، ﴿**فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ**﴾ [ق:٢٢]. وهذا هو اللقاء للكافة، كذلك إذا كُشف الحجابان الباطنان ـ العقل والهوى ـ عن العارف المجتبى كان حيز اللقاء، فهو فى الدنيا بجسمه أعرف من الحق من الأرواح برسمها فى مكان البرزخ، لا نقدر أن نخبرَ بأكثر من هذا.

وقال بعض العارفين: كل المقامات عن أنوار الأفعال والصّفات إلاّ المحبة، فإنها عن نور الذّات. فلذلك عزَّ وصفُها، وغرَّب وَجْدُها، وقلَّ من المؤمنين المتحققين بها.

قوله: «عن نور الذات»، إنما يريد وصفًا مخصوصًا من الذَّات، ووجه المحبين، وعنه معرفة العارفين. وإلاّ فالصفات كلّها متصلة بالذات.

ومن أدرك مقام المحبة لله تعالى لم يضرّهُ فوتُ شيءٍ من المقامات، ومن فاته مقام المحبة لم يغبط بِدَرْك شيء، ومثلها فى جلالة القدر مثل العلم بالله، أيُّ علم أعلى من علم يكون معلومه اللّهُ؛ فلذلك أىُّ قلب أجلُّ من قلبِ محبوبُه اللّهُ عز

وجلّ؟ وقد قيل في قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ يتوكَّلْ عَلَى الله فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣] أن الهاء عائدة على التوكل، أي: فالتوكل حسبه من جميع المقامات.

والتوكل حالٌ من مقام المحبة، فمن كان الوكيل حُبَّه، فهو من التوكل حسبه، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَرِضْوانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢].

والرِّضا مقام في المحبة، فإذا كان الراضي الأكبر محبوبه، فأي شيء يكون معه مطلوبه، فقد جلَّت المحبة أن توصف، وعزَّت في المقامات أن تُعرف، ودقَّت عن العقول أن عليها حقيقتها تُوقف، فهذا كما قال:

لقد عزَّت معانيه فغابت   عن الأفكارِ إلاّ للشّهيدِ

ولا شهيدَ إلا بشهادة، ولا شهادة إلا بشاهد، وقد قال الشهيد: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ [هود: ١٧]، فلأن يُعطَى المؤمن عُشر ذرَّةٍ من المحبة خيرٌ له من أن يُعطَى أمثال الجبال من العبادات؛ الجزاء عليها من معاني الصفات المتصلة بالذات. وهذا غاية الطالبين من المقربين. وعن أوّل بادٍ يبدو من الوصف، يستغرق كلَّ البدوات والنهايات، والمزيد من كل الجنان، ويجمع من اللّذة والسرور والنعيم والحبور كل ما فرَّقه في جنات النعيم. فليس يعدل هذا عطاء؛ لأنه عن الرضا الأكبر(١)، فكيف بالبادي الثاني، والبادي الثالث عن الوصف الثاني والوصف الثالث؟

فلا يعلم هذا إلا من شهد به، ولا يطلبه إلاّ من عرفه، والخلائق عنه محجبون، إلا الشهداء والصِّديقين. وسائر العبادات وأعمال الصالحات يُثَوَّبُ الجزاء من معاني الجنة، وصفاتها الخَلْقيَّات، فشتان بين ذلك وبين المعاني الخالقيَّات. ولا يصلح له إلا من طلبه، ولا يصفه إلا من شهده، ولا حول ولا قوة إلا بالله المبدئ المعيد.

وقيل: إن للقلب حبةٌ، هي باطنه، عليها تتعلق المحبة، ومنه سُمِّيت محبة؛

(١) هذه عبارة (م)، وعبارة (د): «والمزيد والمظهرات من كل الجنان، فليس يعدل هذا عطاء لأنّه من الرِّضوان. والعبادات ثبوت منها الجزاء من معاني الجنة، والصفات الخَلقيات، فشتان بينهما»، فهي مختصرة لما فصلته (م).

كأنّ اشتقاقه من حبّة القلب، وهى التى يقال لها سويداؤه، والميم فى الأسماء قد تزاد للمبالغة فى الوصف. ومن هذا قول الله عز وجل: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [يوسف: ٣٠] لما وصفها بنهاية الوصف فى الحبّ؛ أى قد خرق حبُّه شَغافَ قلبها، فوصل إلى حبَّة القلب، وخرق الشَّغاف وهو حجابُ القلب، و«حبًّا» منصوب على التفسير، كأنه قيل: قد شغفها، أى خرق شغافها، فقيل: ماذا؟ فقيل: حبًّا.

وقال بعضهم: قلت لعكرمة: ما معنى قوله تعالى: ﴿قَدْ شَغَفَها حُبًّا﴾ ؟ فقال: يعنى بطنها. قُلتُ: كيف ذاك؟ فقال: بلغ سواد القلب. قيل: ما معنى سَوَاده؟ قال: مثل سواد العسكر إذا بلغ الحربُ إليه انكشف العسكر فيُهتك.

فالحبُّ إذا وصل إلى هذا الموضع من العبد، لم يملك المحب نفسه، فرَّغ قلبه له، وامتلأ به، ولم يجر على ترتيب ما رسمناه، وربما خرجَ إلى الولَه والاستهتار، وجاوز معيارَ العقل فى التصريف والأذكار. والعربُ تقول: قد دَمَغه، ورَأَسه، وفادَهُ، وركَبْته، إذا خَرَقَ دماغه، وضَرَبَ رأسه، وأصابَ فؤاده ورُكْبَته. فكذلك قولهم: قد شغفه؛ إذا أصاب شَغاف قلبه، فهتَكَ حجابه.

وأنشد بعضهم:

قالتْ وقــد شَغَفتْ قلبى فبُحتُ:
قــد كُنتَ عنــدى تحبّ السرَّ فاستَتِرِ
ألستَ تُبصرُ مَنْ حـولى؟ فقلتُ لهـا:
غَطَّى هــواكِ ومــا ألقَى على بَصَـرى

وعلى هذا المعنى مجاز قوله: «حبُّك الشيء يُعمى ويُصِمُّ»، أى يُعمى ويصمّ عن سواه، ويعمى ويصم به عن كل شيء، ولا يُبصر إلاّ به، ولا يسمع إلا منه، ويُعمى ويصم عن مساوئه والبلاوى التى فيه، فلا يخاف فيه لومة لائم، ولا يقبل عليه قول قائلٍ، ولا يصدق عنه عيبَ عائبٍ.

وقد قرئ بالعين: (قد شَعَفَها)، معناها: بلغ أعلى القلب ونهايته؛ لأن الشعَف

أعلى كلِّ شيء وأبعده، وشَعَفُ الجبال: غاياتها، فالمعنى: ذهب به الحبُّ أقصى المذاهب وغايته. فيحنئذ يملكه الحبُّ فيكون أسيره، ويغلب عليه الحبيب فيصير مأسوره، فيحكم عليه ولا يجاوز ما حكَمه، ويفرِّغ له قلبه من كل شيء رسمه، ويمتلئ به فلا يبقى فيه شيء رسمه، ولا يقدر على الكذب، لظهور سلطان قهر الحبّ. فيحنئذ يكشف قناعه، ويرسل عذاره فيه، ويصفه الحب بالحب وهو صامت، ويبدو عليه الوجد وهو خافت، ويُخفيه الحبيب إلا لمن يحب وهو ظاهرٌ، وليس يكون هذا إلا فى مقام شكرٍ، وحال غَلَبةٍ وقهرٍ، فمن لم يعرف هذا المقام أنكرَ هذا الكلام، إلا أن يربط قلبه بتأبيده، ويحفظ سرَّه بتمكينه، كما قال تعالى: ﴿وَأَصبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إنْ كَادَتْ لَتُبْدِى به لَوْلاَ أن رَبَطْنَا عَلى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمنينَ﴾ [القصص: ١٠] أى: من المصدِّقين أنَّا نرده إليها، ولا تُظهر أنه ابنها، فيُقتل.

وكما لطف للفتية الذين آمنوا، وهم أصحاب الكهف، لما غلب حبُّ الإيمان على قلوبهم فملكها، خرجوا من المصر، وفارقوا الأهل، فقال فى وصفهم: ﴿وَرَبطْنَا عَلَى قُلُوبِهِم إذْ قَامُوا فَقَالُوا ربُّنا ربُّ السَّموات والأَرْضِ﴾ [الكهف: ١٤] لئلا يظهروا إيمانهم لما غلب حبُّه عليهم، فيُقتلوا.

فهذه لطائف الحكيم، وخفىُّ صنع العليم، فالمحبون له حافظون للغيب بما حفظ.

وقال سمنون لبعض الفقراء فى قصة ذكرها: يفرح بحبه، ويذكر المحبة.

وقال بعض الناس فى وصف المحبين: أقامهم مقام المحبة، فلم يزن الملك فى قلوبهم حبة.

فمحبة غير الله فى محبة الله شرك عند المحبين؛ وهى جناية عند الصادقين، وهو من نقض العهد وقلّة الوفاء بالعقد عند المخلصين.

وكان سهل يقول: من أحبّ الدرهم لم يحب الآخرة، ومن أحب الخبز لم يحب الله عز وجل.

ولا يخرج حبُّ الوالدِ والولدِ المحبين من المحبة؛ لأن ذلك جعل الله فى القلوب نصيبًا لهم، ولا يخرجه أيضًا حبُّ الزوجة؛ بمعنى الرفق بها والرحمة لها، ولا يُخرجه أيضًا حبُّ مصالح الدنيا ومرافق الأسباب من حاجات الأجسام والقلوب، مما لا بد منه من عَوَز الزاد على الطريق، وليس ذلك كله يكون فى مكان محبة الله؛ لأن محبة الله فى أنوار الإيمان، ومحبةُ هذه الأشياء فى مكان العقل والطبع، ما لم تأخذ هذه الأشياء منه، بمعنى الانحطاط فى الهوى ومجاوزة العلم. كما يقول فى صفة المقربين من الموقنين: «إنهم يأخذون من الأشياء قبل أن تأخذ منهم».

هكذا هو عندى فى الفرق بين محبة الخالق ومحبة المخلوق.

ويخرجه جميع ذلك عند ـ الخوَّاص والنُّورى، وطائفةٍ من المحبين ـ من حقيقة المحبة.

فأما الإيثار لهذه الأسباب، والانحطاط فى أهوائها، والسكون إليها، والفرحُ بها، والطمأنينة معها. والحزن على فقدها؛ فإن ذلك يُخرجه من حقيقة المحبة؛ لأنها قد أخذت منه فجذبته، وتحكّمت فيه فتسخَّر لها، كذلك هو عندى وعند الكلّ.

وقد توجد بعض المحبة مع وجود بعض هذه الأشياء عندى، وإن كانت عِلَّةً موجودة، ولا توجد حقيقتها عند الجماعة وعندى.

وأما بعض الحكماء فإنه يزعم أن محبة العشق ـ خاصة المتعلقة بالوصف ـ متصلة بالروح، منتشية منه، وإن كان سلطانها موجودًا فى القلب، وحاكمًا على الجسم، إذ كان القلب مَلِكَ الجسد، ومكانًا للحواس كلها. وهو الفرق عندهم بين حب العشق، والحبِّ لأجل المعانى والأسباب من المنافع والمرافق، إذ ذاك متعلقٌ بالأوصاف. وذكر: أن حكيمًا كان عند بعض الملوك، فنظر وزيره إلى جاريةٍ للملك كان يهواها، وقد أشرفت عليه، ولم يعلم الملك بذلك، فلما نظر إليها ارتعدت فرائصه، وغُشى عليه، فعجب الملكُ من ذلك، فسأله عن حاله، فاعتذر

بوجعٍ يعارضه فى الأوقات. فلما خرج سأل الملك الحكيمَ: هل تعرف دواء هذه العلة؟ فقال: نعم أعرف دواءها، إن أمرتنى أخبرتك. فقال: قد أحببتُ ذلك. قال: إنه نظر إلى من يحبه، فلحقه هذا الاضطراب؛ لأنه انفرج قلبه، فتحرك الجسم لانفراج القلب. قال له الملك: فإنَّا نُحبُّ أهلينا وأموالنا، ولا يصيبنا هذا. فقال: ليست هذه تلك المحبة، هذه محبة الروح، وتلك محبة العقل.

ومن أعجب ما سمعتُ فى هذا الباب، ما حدّثنى بعض إخوانى، عن أبى القاسم الجنيد، قال: مرض أستاذنا السَّرِىُّ ـ رحمه الله ـ فلم نعرف لعلته دواء، ولا علمنا لها سببًا. فقال: فوُصف لنا طبيبٌ حاذق، فأخذنا بوله، فمضينا به فى قارورة، فنظر إليه الطبيب، فقال: لقد أعيانى وصف هذه العلة، ولكن سأفكر فى هذا الماء. قال: وجعل ينظر مليًا، ثم قال لى: أراه بول عاشقٍ.

قال الجنيد: فصُعقت وغشى علىَّ، ووقعت القارورة، ثم رجعت إلى سَرِىٍّ، فأخبرته، فتبسَّم، ثم قال: قاتله الله ما أبصره! وقلتُ: يا أستاذ، وتتبين المحبة فى الماء؟ قال: نعم.

وقد قال سرىٌّ مرّة: لو شئتُ أن أقول: ما أيبس جلدى على عظمى ولا سَلَّ جسمى إلا حُبه لَقلتُ. قال: ثم غُشى عليه. وكان يُفصح فى بعض الأوقات بهذه المعانى.

• ذكر وصف بعض المحبين من المكاشفين وأبدال الصديقين من المقربين:

قيل لبعض العارفين من الأبدال، ممّن يتكلم فى عِلْمه، ويكشف عن طريقه ووجده: الناس يقولون: إنك محب. فقال: لستُ محبًا، المحبُّ متعوب، ولكنى محبوبٌ.

وقيل له أيضًا: الناس يقولون إنّك واحدٌ من السبعة. فقال: أنا كلُّ السبعة. وقال: هذا إذا رأيتمونى فقد رأيتم أربعين بَدَلاً. قيل: كيفَ وأنت شخصٌ واحد؟ قال: لأنى قد رأيتُ أربعين بدلاً، فأخذت من كلِّ بدل خُلقًا من أخلاقه. وقيل له: بلغنا أنك ترى الخضر، فتبسم، ثم قال: ليس العجب ممن يرى الخضر، ولكن

العجب ممن يريد الخضر أن يراه، فيُحجَب عنه فلا يَقْدِرُ عليه، ولعمرى أن من كان عند الله لم يره بَشَرٌ ولا مَلَكٌ.

كما حدثونا أن الحسن اختفى عند حبيب العجمى، وكان من أصحابه، وعلى يده تاب، وزهد فى الدنيا وخرج من أمواله كلها، وكان حَسَن الشأن كثير التجارات، وكان له ثلاثون مملوكًا، لكل واحدٍ منهم تجارة، فأعتق جميعهم، وفرَّق جميع ماله. وكان الحسن مستترًا عنده من الحجاج، فسعى به فدخل عليه الشُّرَط، ففزع الحسن، وذهب ليتسوَّر الحائط ويهرب. فقال له حبيب الفارسى: اقعد ورائى فإنهم لا يرونك. فقال: ويحك، ما يغنى عنى وراؤك؟ فقال: اقْعُدْ حتى تُبصر. فقال: فدخل عليه الشُّرَط فقالوا: أين الحسن؟ قيل لنا إنه عندك. فقال: هل ترون شيئًا؟ ففتَّشوا الدَّار كلّها، وخرجوا وهم لا يرونه. فقال له الحسن: كيف لم ينظروا إلىَّ؟ قال: لأنك كنت عند الله فلم يروك، ولو كنت عندى لأبصروك. قال له الحسن: إنى قد رأيتك لما دخلوا هَمَسْتَ بشىء، فهل ذكرتَ اسم الله الأعظم؟ قال: أما الاسم الأعظم فلا أحسنه، ولكن قلتُ: اللهم اجعله عندك حتى لا يبصروه.

وكان حبيب أبو محمد هذا من البُلْه، وأهل السلامة والغفلة، وله إجابات، وإظهار كثير من الآيات. والحسنُ إمام الأئمة من العلماء، وهو فوقه درجات، وأحبُّ إلينا منه، فلم يُعط ذلك، وأُحْوِجَ إليه[1].

وقد حُدِّثتُ عن الخضر عليه السلام أنه قال: ما حدَّثتُ نفسى يومًا قط أنه لم يبق ولىٌّ لله تعالى إلا عرفته، إلا ورأيت ذلك اليوم وليًا لم أعرفه. قال: ولقد كنتُ يومًا بصنعاء فى مجلس عبد الرزاق، فنظرت إلى شابٍّ مُفرَد فى ناحية، فقمت إليه فقلت له: لِمَ لا تحضر مجلس عبد الرزاق فتسمعُ منه، فقال لى: وأى شىء أسمعُ منه؟ فقلت: تسمعُ حديث مَعْمَرٍ عن الزُّهرى، فقال: قد سمعتُ من الله عز وجل فأغنانى عن عبد الرزاق، فقلت له: أنت مِمَّن تُحسن أن تسمع من

---

(١) هذا هو الصواب ألاّ يغتر المسلم بالكرامات ولا بالمظهر.

الله تعالى؟ قال: نعم. قلت له: فمَنْ أنا؟ قال: أنت الخَضِر، ثم غاب عنى، فلم أقْدِر أن أراه.

وقيل لأبى يزيد البسطامى: بلغتَ جبل قاف؟ فقال: جبل قاف أمره قريب الشأن من جبل كاف، وجبل عين، وجبل صاد[١]. قال: وما هذا؟ قال: هذه جبال محيطة بالأرضين السُّفلى، حول كل أرض ثانية وثالثة جبل بمنزلة جبل قاف، محيط بهذه الأرض الدنيا، وهو أصغرها، وهذه أصغر الأرضين. وهو جبل من زمردة خضراء. فيقال: إن سماء الدنيا متقبِّبة عليه. ويقال: ليس بينه وبين السماء إلا أربعون فرسخًا. وإن خُضرة السماء من خُضرته، وإلا فهى بيضاء كالفضة، ولكن لشدّة صفائها وتلألؤها، واخضرار الجبل وقربه منها، عَلَت بها خُضرته، فتلألأت واخضرَّت.

وقد كان أبو محمد ـ إمامنا فى هذا العلم ـ يخبر: أنه صعد جبل قاف، ورأى سفينة نوحٍ مطروحةً فوقه، وكان يصفه ويصفها، وقال: لله عبدٌ بالبصرة يرفع رجله وهو قاعد فيضعها على جبل قاف. وقد قيل: الدنيا كلها خطوةٌ للولىِّ، وإنّ وليًا لله خطا خطوةً واحدة خمسمائة عام، ووضع رجله على جبل قاف، والأخرى على جانب الجبل الآخر، فعبر الأرض كلها. ويقال: إن بعض الأولياء احتاج إلى مصباحٍ، فرفع يده إلى القمر فاستصبح منه نورًا اقتبسه فى جذوةٍ معه. وبعضهم كُوشف بالهلال فى أول ليلته، فرآه مستديرًا كما يُرى ليلة أربع عشرة، كأنه رُفع عنه الفضاء المحجوب به. وبعضهم كُوشف بالشمس فرآها نصف الليل فى عرض الفلك؛ لأنها تقطعه ليلاً عرضًا، كما تقطعه طولاً نهارًا، وفوق ذلك ما لا يستطيع ذكره؛ خيفة الإنكار، فسبحان الواحد القهار.

وقيل لبعض المحبين من الأوتاد، وهم خصوص الأبدال: دخلتَ إرم ذات العماد؟ فقال: قد دخلتُ ألفَ مدينة لله فى مُلكه، أدناها ذات العماد. ثم عددها: البيت، وتأويل، والمنسك، وتاريس، وجايلق، وجابرس. ولعلّ قائلاً يقول: فقد

(١) جبل قاف وغيره من الجبال التى ذكرها حقيقتها غامضة، كما أن حقيقة الأرضين السبع غير معروفة لنا.

قال الله فى وصفها: ﴿الَّتِى لَم يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى البِلَادِ﴾ [الفجر:٨]. قيل: فإن معناه فى بلاد اليمن؛ لأنهم خُوطبوا بما فى بلادهم. كما قال تعالى: ﴿أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ﴾ [المائدة:٣٣]، يعنى أرض بلادهم. فذاتُ العماد مدينة عاد فى اليمن بين أبين والشّحر[١]، يقال: لها سورٌ له ثلاثمائة باب، ما بين كل بابين فرسخ، مركبة على أعمدة الذهب والفضةِ والياقوتِ والزبرجد، فيها مائة ألفِ عمود من ذلك[٢]، كانت الجن اصطنعتها لعاد بن شدَّاد بن سام بن نوح. استخرجت الجن هذه العمد من قعور البحار والفيافى والقفار، وكانت سُخِّرت الجن له قبل سليمان بن داود بأربعة آلاف عام[٣]. بناها فى ثلاثمائة سنة، وكان عمره خمسمائة سنة.

ويقال: تجتمع فى هذه المدينة طائفة من الأبدال ليالى الجمع وفى الأعياد. يقال: فيها صناديقُ من حجارة، طولُ كلّ صندوق عشرة أذرع، فيها قبور الأنبياء؛ أجسادهم صحيحةٌ باقية إلى يومنا هذا، وهى محجوبة عن أبصار العباد. وقد كان سهل رحمه الله يزورها فى كلِّ جمعة، وهذا واحد من المحبوبين.

والله أعلم بحقيقة ما ذكرناه، ما عندنا من ذلك إلا تصديق وتسليم. آمنا بحقائقه عند الله عز وجل، وهذه آيات يسيرة من قدرة الله الكبيرة، ومن عجائب الملك، والملكُ كُلُّه مندرجٌ فى الملكوت، وهو سر المُلك وخزانة المَلِك، وإنما أظهرَ الله تعالى منه بمقدار ذَرَّة بقدر عين العقل، وهو قوت العقل، والملكوت بأسره منطوٍ فى الجبروت، وإنما أظهر الله تعالى من الملكوت بقدر ذرة، وهو قوتُ الإيمان، والجبّارُ بَقَهْرِهِ قابضٌ لجميع ذلك فى يده.

وقيل لأبى يزيد البسطامى مرة: حدِّثنا عن مشاهدتك من الله. فصاح ثم قال:

---

(١) إنما هى فى الربع الخالى بين جبال عمان والسعودية.

(٢) هذه أوصاف من نسج الخيال والأساطير أُخذت من الإسرائيليات، لكن الحفريات الحديثة أثبتت غير هذا تمامًا، إذ كشفت الأشعة فوق الحمراء عن وجود أطلال مدينة بالربع الخالى مندثرة تحت الرمال بعمق ٢٠٠ مترًا.

(٣) هذا التاريخ وهذا والتحديد بعيد جدًا عن التاريخ الزمنى الحقيقى، وهو مأخوذ أيضًا عن الإسرائيليات، وتاريخ الحضارات القديمة تكشَّف أمره حديثًا بما يبطل كل هذه الأقاويل.

ويلكم، لا يصلح لكم أن تعلموا ذلك. وقيل: فحدِّثنا بأشدّ مجاهدتك لنفسك فى الله. فقال: وهذا أيضًا لا يجوز أن أطلعكم عليه. قيل: فحدثنا عن رياضة نفسك فى بدايتها. قال: نعم، دعوتُ نفسى إلى الله فى بعض الأمور فتلكعت علىّ، فعزمتُ عليها أن لا أشرب الماء سنة ولا أذوق الغَمْض سنة، فوفَّت لى بذلك[1].

وحكى عنه يحيى بن معاذ، فى بعض مشاهداته: أنه رآه من بعد صلاة العشاء إلى صلاة الفجر، مستوفزًا على صدور قدميه، رافعًا أخمصها وعقبيه عن الأرض، ضاربًا بذقنه على صَدْرِه، شاخصًا بعينيه لا يطرف. قال: ثم سجد عند السَّحَر فأطال، ثم قعد، فقال: اللهم إنّ قومًا طلبوك فأعطيتهم طىَّ الأرض، فرضوا بذلك، وإنى أعوذ بك من ذلك. وإن قومًا طلبوك فأعطيتهم المشى على الماء والهواء، فرضوا بذلك، وإنى أعوذ بك من ذلك. وإن قومًا طلبوك فأعطيتهم كنوزَ الأرض فانقلبت لهم الأعيان، فرضوا بذلك، وإنى أعوذ بك من ذلك، حتى عدَّ نيِّفًا وعشرين مقامًا من كرامات الأولياء. قال: ثم التفت فرآنى. فقال: يحيى؟ قلت: نعم يا سيدى. قال: منذ متى أنت ههنا؟ قلتُ: منذ حين. فسكت. فقلت: يا سيدى، حدِّثنى بشىء. فقال: أُخبرك بما يصلُح لك، أَدْخَلَنى فى الفلك الأسفل، فدَوَّرنى فى الملكوت السفلى، فأرانى الأرضين وما تحتها إلى الثرى، ثم أدخلنى فى الفلك العلوى، فطوَّف بى فى السموات، وأرانى ما فيها من الجِنان إلى العرش، ثم أوقفنى بين يديه، فقال لى: سلنى أى شىءٍ رأيتَ حتى أهبه لك. فقلت: يا سيدى، ما رأيت شيئًا استحسنته فأسألك إياه. فقال: أنت عبدى حقًّا، تعبدنى لأجلى صدقًا، لأفعلن ولأفعلن بك، فذكر أشياء. قال يحيى بن معاذ: فهالنى ذلك وامتلأتُ به وعجبتُ منه. فقلت: يا سيدى، لِمَ لَمْ تسألْه المعرفة به، وقد قال ملك الملوك: سلنى؟ قال: فصاح بى صيحة، وقال: اسكت، ويلك، غِرْتُ عليه مِنِّى، لا أحب أن يعرفه سواه.

فهذا حال عبدٍ عن نفسه مأخوذٌ، إذ كان ربه له موجودًا، طال مقامُه المقامات،

---

(١) لعلّ هذا من شطحات أبى اليزيد، والله أعلم.

فقصرت عن وصفه الصفات، وحقّ له إذ نظر إلى الحسن الذى حَسُنت المحاسن كلها عن حُسنه، وشانت الزينات جميعًا بعد النظر إلى زينته، وشهد الجميل الذى تجمَّل الجمال والمتجمِّلون بجماله لمن لا يستحسن سواه، فكيف يحب غير ما استحسن؟ وأن لا يزين فى عينه إلا إياه؟ فكيف ينظر غير إياه، أم كيف يطلب غير ما أحبّ، أو يقفو غير ما طلب؟ بل كيف يهتم بغير ما طلب؟ فهذا نعتُ عبدٍ مطلوب بمعنى ما طلب، ووصفُ شخصٍ محبوبٍ بغير ما أحب، والله تعالى يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس.

وقد كان أبو تراب النخشبى رحمه الله معجبًا ببعض المريدين، فكان يؤويه ويقوم بمصالحه، والمريد مشغول بعبادته ومواجيده. فقال له أبو تراب يومًا: لو رأيتَ أبا يزيد. فقال المريد: إنى عنه مشغول: فلما أكثر عليه أبو تراب من قوله: لو رأيتَ أبا يزيد، هاجَ وَجْدُ المريد، فقال: ويحكَ ما أصنع بأبى يزيد، قد رأيتُ الله فأغنانى عن أبى يزيد. قال أبو تراب: فهاج طبعى، ولم أملك نفسى، فقلت له: ويلك لو رأيت أبا يزيد مرةً واحدة كان أنفع لك من أن ترى الله عز وجل سبعين مرة. فبُهت المريد من قولى وأنكره، وقال: وكيف ذلك؟ فقلتُ له: ويلك، إنما ترى الله عندك فيظهر لك على مقدارك، وترى أبا يزيد عند الله قد ظهر له على مقداره. قال: فعرَف ما أقول، فقال: احملنى إليه. فذكر قصة، قال فى آخرها: فوقفنا على تل ننتظره يخرج إلينا من الغيضة. قال: فمرّ بنا، وقد قلب فروةً على ظهره، فقلتُ للفتى: هذا أبو يزيد، فانظر إليه، قال: فنظر إليه الفتى فصعق، فحركّناه فإذا هو ميِّت. قال: فتعاونّا على دفنه. فقلت لأبى يزيد: يا سيدى، نظره إليك قتله؟ قال: لا، ولكن كان صاحبُك صادقًا فاستكنّ فى قلبه سرٌّ لم يكن ينكشف له بوصفه، فلما رآنا كُشِف له سرُّ قلبه، فضاق عن حمله؛ لأنه فى مقام الضعفاء المريدين، فقتله ذلك.

فهذه جمل من أوصافِ المحبوب المراد، وسَعةٌ من رزق بغير حساب من المحب الجواد، بتيسير من الطالب للمطلوب، وعناية من المحبّ للمحبوب. ومقامُ الحبيب أعزُّ من أن يظهر، وأخفى من أن يُعرف؛ غيرةً منه عليهم، سترهم بأفعالهم،

ضنًّا[١] منه بهم، وحجبهم بأوصافهم. أهل المقامات يشتاقون إليه، وهو يشتاق إليهم، وأهل القربِ ينظرون إليه، وهو ينظر إليهم، وأهلُ المحبة يحبّون أن يسمعوا كلامه، وهو يحب أن يسمع كلامهم، وأهل الأحوال يسألونه، وهو حسبهم، ويحب أن يسألوه، وأهل المشاهدات يزورونه، وهو فى قلوبهم يزورهم، وأهل الآخرة ينظرون إليه فى الآخرة، وهو ينظر إليهم فى الدنيا.

ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، كما ذكرنا فى قصة داود الملك الرسول؛ إذ أرسله الملكُ الجليلُ إلى أحبائه الأربعة عشر وليًا، أن يسألهم أن يسألوه حاجة، فلمّا رأوه نفروا منه؛ لئلا يشغلهم عنه، فذكرناها قبل هذا، فلا تنكرنّ من هذا شيئًا. فإنه يعطى المحبوب فى الدّنيا أول عطاء أهل الجنة فى الآخرة؛ وهو «كُنْ»، فيزهدون فى ذلك لأجل بقائه، ويكرهون ذلك لحبه، قد جاوزوا معارفَ من سواهم. فإذا أعطاهم «كُن» أمرهم أن لا يقولوا: كُن فى أمر الساعة، ولا يقولوا: كُن فى كشف الغطاء عن النيران والجِنان، وما وراءها من الكَون والمكانِ للعيان قبل اللقاء. وإن كان مظهرة لباطنه إلاّ أنها مستورة بالصنع للإتقان، مقطوع عنها الوهم، راجعٌ عنها الفِكر والهمّ. وسألهم أن لا يظهروا ما فى الحِكمة والعَقل إخفاؤه؛ لأن إظهاره لا يصلح للخلائق، ولا يستقيم عليه أمرُ المملكة، ولا ينتظم به التدبير، لما سبق من التقدير. وفيه سقوط الأحكام ووقوع الهلكة لكثير الأنام. فإذا رَأَوا ذلك منه وما قد استثناه عليهم منها، استجابوا له أحسنَ استجابة، وردوها إليه أسرعَ مردٍّ وأَبْلَغَهُ فى مرضاته، وهو أن يتركوا إظهار شيءٍ لإظهاره، ويزهدوا فى كلّ معنى منها لوجهه، ورضوا بتصريف قدرته فى مجارى حكمته. وهذا غاية الجهد، ونهاية الزهد والحب. فيشكر لهم ذلك أحسنَ شكر، ويدّخر لهم عنده أفضل ذُخر.

ولما دخل الزنجُ البصرةَ فقتلوا الأنفس، ونهبوا الأموال، اجتمع إلى سهل إخوانُه فقالوا: لو سألتَ الله عز وجل فى هذا الأمر، ولو دعوتَ. فسكت، ثم قال: لله تعالى عبادٌ فى هذه البلدةِ، لو دعوا على الظالمين لم يصبح على وجه

---

(١) من هنا يبدأ الخط القديم فى نسخة (هـ)، وفيها زيادات مهمة، راجع وصفها بالمقدمة.

الأرض ظالمٌ إلاّ ماتَ فى ليلة، ولكن لا يفعلون. قيل: ولم؟ قال: لأنهم لا يحبون ما لا يحبّ.

ثم ذكر من إجابة الله تعالى لهم أشياء لا نستطيعُ ذِكرها. حتى قال: لو سألوه أن لا يقيمُ الساعة لم يقمها.

واعلم أنَّ العبد إذا بلغ من الله تعالى هذا المكانة، حتى يعطيه «كن»، اقتضته الحالُ أن يقول: وفِّقنى لما تحبّ، واعصمنى مما تكره، فإنّى بشرٌ جاهل لا أحسنُ التدبير، ولا أعرف المقادير، ولا علم لى بعواقب الأمور، وأخاف أن يكون فى قولى تفاوتٌ، وفى إرادتى اضطرابٌ، فإذا أجابه تعالى إلى ذلك، سكت فلم ينطق، وسلَّم، ورضى بالتدبير فأطرق؛ لأن الذى يحب الله تعالى يحب أن تكونَ الأمور على ما هى عليه الآن، والذى يكره يحب أن لا تكون على ما هى عليه؛ لأنها عن تدبيره، يظهر بمعانى الخير والشر؛ لأنه تولى التدبير بنفسه، كما استوى على العرش بوصفه، ولم يجعل على العباد تدبير المُلْك، إنما جعل عليهم الصبرَ والرِّضا للمَلكِ، فرجع العبدُ إلى الصمت والأدب فى نفوذ المراد كما كان، وترك العبدُ الفضول والاعتراض، وحصل له مقام التوكل والرضا.

ولذلك كان أبو محمد رحمه الله تعالى إذا قيل له: ما مرادُ الله تعالى من الخلق؟ يقول: ما هم عليه.

فكيف تريد ما لا يريد، وهو محبٌّ لصفاته التى عنها تظهر المرادات، ومنها تبدو الأحكام؟ ولا بدّ مما يكون، كما لا بد مما كان. و«كُن» منطوٍ تحتَ «كان»، ولولا «كان» لم يكن «كُن»، فكان أحبَّ إليهم من «كُن»؛ لأن له ولهم مثل «كُن» أمثال، وليس لهم ولا لَه مثلُ «كان» مِثل. فهؤلاء همُ الذين لا تعلم نفس ما أُخفى لهم من قُرَّةِ أعينٍ، وهم المحبون لله من عباده، الزاهدون فى ملكوته لوداده.

وكذلك صنعوا مثلَ هذا فيما استخلَفهم فيه من الأموال، لما سمعوه يقول: ﴿وأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُسْتَخْلَفِينَ فيه﴾ [الحديد:٧]، فأخرجوا الكلَّ لأجله، فكان هو خلفًا لهم من كل مالٍ، بعد أن كانوا مستخلفيه لما زهدوا فيما سواه، وصار هو

سبحانه وكيلاً لهم، بعد أن كانوا وكلاءَهُ؛ فإذا قالوا: ﴿حَسْبُنَا اللهُ ونعْمَ الوَكيلُ﴾ يقول الله تعالى لهم: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ واتَّبَعُوا رِضْوانَ اللهِ﴾ [آل عمران: ١٧٣ ـ ١٧٤]، رضى الله عنهم ورضوا عنه؛ لأنهم عملوا بما قالوا، فتحققوا بالإيمان. وقيل: إن الإيمانَ قولٌ وعمل، ولا ينوب القولُ عن العمل. وإذا قالوا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] قال الله تعالى: صدقتم؛ لأنهم لا يخدمون ولا يذلُّون لسواه، ولا يعدون للنّوائب إلا إياه، ولا يستعينون بغيره. ولذلك صاروا صدِّيقين لتصديق الصادق لهم. كما بلغنا: «أن العبد ليقرأ قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فيقول الله تعالى: كذبتَ، لو كنتَ إياى تعبد لم تخف، ولم ترجُ سواى، ولو كنتَ بى تستعين لم تسكن إلى مالك وأَهْلك». وكذلك بلغنا: «أن العبدَ ليقرأ السورة من القرآن فتصلى عليه حتى يفرغ منها، إذا عمل بها، فهذا صِدِّيق. وإن العبد ليقرأ السورة من القرآن فتعلنه إلى أن يختمها، إذا لم يعمل بما يقول، فهذا كذاب».

فأين الإيمان؟ ولا إيمان إلاّ بعمل، فليس هذا مؤمنًا حقًا. فالأولياء حقّقوا القول بالعمل، وشهدوا الإيمان باليقين. فإذا قالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، توكلوا عليه ورَضُوا عنه، وتألهوا إليه. ولم يكن فى صدورهم غيره، فيقول الله تعالى: صدقتم. فيكونون صِدّيقين، كما يقول للشىء كن فيكون. فتدبروا. فإذا قالوا: ونِعْمَ الوكيل، قاموا مقامَ التوكل، فصار لهم فى الصدق مقامات. يقول الصادق: صَدَقتم، فيكونون صدِّيقين. فيقول: عبادى، أنتم خيرتى من ذوى ودادى، وأنا وكيلُكُم، رضيتم بى، وأنا حسبكم، فهؤلاء الذى انقبلوا بنعمة من الله وفضل لم يَمْسسهم سوء، واتّبعوا رضوان الله، فأعطاهم من الجزاء أربعة معانٍ: النعمة والفضل، والتوكُّل عليه، وصرفُ السوء، واتباعُ الرِّضا برضاهم عنه رضى الله عنهم. فالحبيبُ يعتذر له، والعدوُّ لا يقبل عُذره، والمحبوبُ لا يُحاسب، والمبغضُ لا يُحسب له. وقد قال بعض الأدباء فى معناه:

من لم يكن للوصالِ أهلاً فكــلُّ إحســانِهِ ذنــوبُ

وقال آخر فى وصف آخر:

فى وجهه شافعٌ يَمْحُو إساءتَه   من القلوبِ ويأتى بالمعاذيرِ

وأنشدت لبعض المريدين المتحققين:

إنّى جعلتُ مَنظرى فى مُهْجتى   وجعلتُ وِدّك لى إليكَ شَفاعهْ

ولو أنّ وقتًا منك بالدهرِ كلّه   لكانَ قليلاً ألفَ عامٍ بِساعهْ

وبلغنى عن أحمد بن أبى الحوارى قال: دخلتُ على أبى سليمان الدّارانى وهو يبكى، فقلتُ: ما يبكيك؟ قال: يا أحمد، إنّه إذا جنَّ الليل، وهدأت العيون، وخلا كلُّ خليلٍ بخليله، افترش أهلُ المحبة وجوهَهم، وجَرَتْ دموعُهم على خدودهم، أشرفَ عليهم الجليلُ فناداهم: بعينى مَن تلذَّذَ بكلامى، واستراح إلى خدمتى، وإنّى مُطَّلعٌ عليهم فى خَلَواتهم، أسمعُ أنينهم، وأرى بكاءهم، هل خبَّركم عنّى مخبِّر أنّ حبيبًا يعذّبُ أحباءه؟! أم كيف يمكن أن أؤنِّبَ قومًا وقفوا لى جوفَ الليل؟! أم كيف يجمل بى أن أعذِّبَ قومًا إذا جنَّهم الليلُ تملَّقونى؟! فبى حَلَفْتُ أنهم إذا قَدِمُوا علىَّ هديتى إليهم أن أكشف لهم عن وجهى الكريم حتى ينظروا إلىَّ[1].

فليتق الله تعالى عبدٌ لم يطلعه الله عز وجل على ما ذكرناه، فيزهد فيه، ويعلو همُّه عنه، بمشاهدة قُدْرةٍ عظيمة، ومعاينة آيات كثيرة[2] ظاهرًا وباطنًا، أن يدّعى المعرفة، أو يتوهم المحبة، فما عنده منهما إلا أمانى، وغرور وظنون وزور. والله تعالى يعطى قومًا الظنون، كما يعطى أولياءه اليقين، ويعطى قومًا المزوِّرات لعِلَلِ القلوبِ، كما يعطى أحباءه المحققات فى مقام محبوب، بآيات بينات، وشواهدَ من اليقين، بإثبات كآياتِ القرآن وآياتِ الرسول. ولا يظهرهم على «كُنْ» حتى ينكشف الكونُ عن قلوبهم. وفى الكونِ ما فيه من نفيس الملكوت، وعظيم الرغبوت، مما لا يصلح ذكره.

واعلم أن آفاتِ النفوس وزينة الملك حجبُ قلوبِ العموم، وحظوظَ العقل

(١) هذه الفقرة من (د) فقط.

(٢) فى (م): «آية كبيرة».

وشهوات الأرواح من مرغوب الملكوت حجبُ قلوبِ الخصوص، وسموَّ القلب إلى معاني الدرجات التي يشاهدها ووقوفَها مع خصائص الرحموت والرغبوت التي يطالع بها حجبُ قلوب المحبوبين؛ لأنهم إذا جاوزُوا شهواتِ النفوس ورُفعت بحبّهم عنه حجبُ العقول، وقفوا في شهوات الأرواح، فلا يواجهون بالوجه، ولا ينظرون إلى الوصف، حتى يجاوزوا أيضًا شهوات الأرواح، وتَنكشف عنهم حجبُ الأنوار، فيخلفوا الرّسم ويغيِّروا الوَسْم، فإذا انكشفت المقامات، وانقطعت الفضائل، وحققت المطالع، وسقطت المنازل والدرجات، اصطلم الطالبُ، وغُلب المطلوب، وفني الراغب، وبقي المرغوب، أظهر لهم التعلّق بالاسم، وهو آخر الحُجُب، وأولُ القُرْب، يبتليهم به لينظرَ كيف يعملون في الوَسْم، فعندها حقّت: ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ**﴾ [الرحمن: ٢٦ ـ ٢٧] الآية. وهناك صَحّ له هذا المقام. وفي معناه:

ظَهَرْتَ لِمَنْ أَفْنَيتَ بعدَ بقائِه   فصارَ بِلا كَوْنٍ لأنّك كُنْتَه

فهذا مكان وَجْده بموجوده، وقيامه بقَيّوميَّته، بعد أن كان واجدًا بكونه، وقائمًا بقيامه.

وقد كان أبو يزيد يقول: إن أعطاك مناجاة موسى، ورُوحانية عيسى، وخُلَّة إبراهيم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فاطلب ما وراء ذلك، فإن عنده فوق ذلك أضعافًا مضاعفة، فإن سكنتَ إلى ذلك حجبك به. وهذا بلاء مثلهم في مثل حالهم؛ لأنهم الأمثل فالأمثل بالأنبياء. فإذا لم ينظر العبد إلى جميع المطلوب، ولم يقف على كون مرغوبٍ، أقامه حينئذ مقام محبوبٍ، فأواه في ظله، وعطف عليه بحنانه، ونظر إليه بعينه، وواجهه بوجهه، فتوجَّه إليه ولم يَنْثَنِ، وسارع إلى قُربه ولم يَنِ، فلم يشهد في وجهه وجهًا، ولا رأى في يده يدًا، وقام بشهادته لقيوميته مشاهدًا. فهذا غاية الطالبين من العارفين.

وقد قال بعض العارفين المحبين: كُوشفتُ بأربعين حُوراء، رأيتهنّ يتساعين في الهواء، عليهن ثياب من فضة وذهب وجوهر يتخشخشن ويتثنى معهنّ، فنظرتُ إليهنّ نظرةً فعُوقبت أربعين يومًا. قال: ثم كُوشفت بعد ذلك بثمانين حُوراء؛

فوقهن فى الحسن والجمال، وقيل: انظر إليهن، قال: فسجدتُ وغَمَّضت عينى فى سجودى؛ لئلا أنظر، وقلتُ: أعوذ بك مما سواك، لا حاجة لى بهذا؛ فلم أزل أتضرّع حتى صُرفن عنّى.

ولله عز وجل مثلُ هذا العبد فى كل قَرنٍ وزمان ما يكثر عدده، متفرِّقين فى أرضه، ومنتشرين فى بلاده، ومخمولين مختبئين تحت سِتره فى عباده، لا تستطيع العقولُ حملَ وصفهم لضعفها، ولا يثبت فى القلوب حقّ نعتهم لوصفها، أقلُّ ما يوصفون به الإخلاصُ فى الحركة والسكون، وهو أجلُّ ما عندنا.

والإخلاص عند المخلصين إخراج الخلق من معاملة الخالق، فإذا لم يدخلوا كيف يخرجون؟ وأولُ الخَلْقِ النفسُ، فإذا لم يتكدر القلبُ بها كيف يُصفَّى منها؟

والإخلاص عند المحبين أن لا يعمل عَملاً لأجل نفسٍ، ولا دخل عليه مطالعة العرض، والتشرف إلى حظّ طبعٍ، بل للتعظيم. ولا يشرك محبوبًا فى حبّ ذى الجلال والإكرام، ولا يعلّق قلبه بما يَرُوق نظره من جمالٍ لما ملاّه من نهايةِ الحسن وغاية الجمال، ولا سبيل إلى هذا إلاّ بعد معرفته، ولا معرفةَ قبل معاينته، إذ ليس الخبر كالمعاينة، ولا معاينة إلا بنور اليقين، ولا حقَّ يقينٍ بوجود هوى نفسٍ. فإذا انكشف الحجابُ، وهوى الهوى، طلعت عينُ اليقين. فأنوار الصفاتِ من الحُسن والجمال والبهاء والكمال فى عين اليقين عينًا بعد عينٍ، كنور فوق نور، إلى نور النور.

والإخلاص عند الموحِّدين خروج الخلق من النظر إليهم فى الأفعال، وتركُ السكونِ والاستراحة بهم فى الأحوال.

ومن الإخلاص فى الصدق عند الصدِّيقين سؤال الحجبة فى قلوب الناس. كما قال بشر، وقد سئل: بأى شيءٍ بلغتَ هذه المنزلة؟ فقال: كنتُ أكاتم الله تعالى حالى. معناه: أسأله أن يكتمَ علىّ، ويُخفى أمرى. وحُدِّثت أنه رأى الخَضِر عليه السلام، فقال: ادع الله تعالى لى. فقال: يسَّر الله تعالى عليك طاعته. قال: قلت: زدنى. فقال: وستَرَها عليك. فقيل: فى تأويل ذلك معنيان؛ منهم من قال: وسترها عليك: أى يسترك حتى لا تُعرف بها، كما ذكرنا آنفًا. وقال

بعضهم: أرادَ سترها منكَ، حتى لا تنظر أنت إليها.

وقال بعضهم: قَلقَنى الشوقُ إلى الخضرِ، فسألت الله تعالى مرةً أن يرينى إيّاه، ليعلمنى شيئًا كان أهمَّ الأشياء علىَّ. قال: فرأيته، فما غلب على قلبى ولا هَمّنى إلاّ أن قلتُ له: يا أبا العباس، علِّمنى شيئًا إذا قلتُه حُجبت عن قلوبِ الخليقةِ، فلم يكن لى فيها قدر، ولم يعرفنى أحدٌ بصلاح ولا ديانة. فقال: قل: اللهم أسبل علىّ كثيف سترِك، وحُطَّ علىّ سُرادقات حُجُبِك، واجْعلنى فى مكنون غيبك، واحجبنى عن قلوب خليقتك. قال: ثم غاب فلم أَرَهُ، ولم أشتق إليه بعد ذلك. قال: فما تركت أن أقول هذه الكلمات فى كلِّ يوم.

فحُدِّثت أن هذا كان يُستذَل ويُمتَهن، حتى كان أهلُ الذمة يُسَخّرونه فى الطريق، يحوِّل الأشياء لهم؛ لسقوطه عندهم، وكان الصبيان يُولعون به. وكانت راحتُه فى ذلك، ووجودُ قلبه به، واستقامة حاله عليه.

وهذا طريق جماعة من السلف، وحالُ طبقةٍ من صادقى الخلفِ، أخفوا أنفسهم، وأسقطوا منازلهم، فسُمُّوا عقلاء المجانين، وهذا من الزُّهد فى النّفس، وحقيقة التواضع، إلاّ أنه زهد مجانين الأولياء، وتواضع موقنى الضعفاء[1].

فالتكبُّرُ يكون بثلاثة معان: تكبر على الناس عُجبًا بالنفس. وتكبُّر فى قلوب الناس عزةً من النفس، أى يحب أن يكبُر فى قلوبهم، فيكون ذلك تكبراً منه. وتكبّر فى القلب عن نَظَرِه إلى صَلاحِه ودِينِه، فيكبُر ذلك عنده، فيُدِلَّ به. ولذلك رآه من نفسه لقصور علم اليقين منه. وهذا أدقُّ معانى التكبُّر، ولا يتخلص منه إلا صحيحو التوحيد، صادِقُو اليقين، مخلصو الصالحين.

وأما التكبر الظاهر الذى هو التطاول والفخرُ والتَّظاهرُ، فذاك جَلِىٌّ، وهو من أكثف حُجبِ القلبِ، وأقوى صفاتِ النفس. فلذلك فَزِع العلماء من دقائقه لما عَرفوا، فطلبوا القِلَّةَ والذِّلَّة للنفس، ليمتهنوها بخفايا التّواضع، لينتفى عنهم دقائق الكِبْر، لتخلُص لهم الأعمال.

(١) فى (د): «وتواضع ضِعاف الصادقين».

وليس التواضع عند المتواضعين هو حقيقة الذّلة، ولا التذلل هو حقيقة الضِّعة، ولكن حقيقة ذلك أن يكون العبد ذليلاً صفةً، لا مُتذللاً متعمدًا للذلة، وأن يكون عند نفسه فى نفسه وضيعًا، وحيدًا، حقيرًا، معتقدًا لصغره وحَقارته فى نفسه، لا متواضعًا متكلّفًا. وعلامة ذلك أن لا يغضب إذا عابَهُ ونقصه عائب، ولا يكره أن يذمَّه ويَقْذِفه بالكبائر ذامٌّ.

وبيان ذلك فى وَجْدِه: أن لا يجد طعمَ الذل فى ذِلة، ولا يشهد الضِّعة فى تواضعِه، إذ قد صار ذلك له صفة وطبعًا، فمن ذل، ووجد ذوقَ ذُلِّه، فهو متعمل للتواضع، ومن تواضع وشهد تواضعه وضعته، فهو متعزِّزٌ؛ وهى علامةُ بقية الأنَفَة فى نفسه لنفسه. ومتى غضب أو كره ذمَّه من غيره، فهو يفرح ويرضى بمدحه، فإذا كانت فيه هذه العلامات فهو محجوبٌ عن جميع ما ذكرناه من المقامات. ومتى ذَلّ نفسَهُ، واتضع عند نفسِه، فلم يجد لذلك ذوقًا ولا لضعته حسًا، فقد صار الذّل والتواضع كونه، فهذا لا يكره الذّمَّ من الخَلْق لوَجْدِ النقصِ فى نفسه، ولا يحبُّ المدحَ منهم لفقد القدرِ والمنزلة مِن نفسه. فصارت الذلة والضِّعة صِفته لا تُفارقه، لازمةً له لزومَ الزِّبالة للزبّال، والكُساحة للكَسَّاح؛ هما صنعتان لهما كسائر الصنائع، وربما فَخَروا بهما لعدَم النظرِ إلى نقصهما. فهذه ولايةٌ عظيمة له مِن نفسه، قد ولاّه على نفسه، ومَلّكه عليها فقهَرها بعزّه.

وهذا مقام محبوبٍ، وبعده المكاشفاتُ بسرائر الغيوب. أول ذلك دخول نور الحكمة فى القلب، وينبوع الحكم من قلبه، كما روينا أن عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام قال: «يا بنى إسرائيل، أين ينبت الزرع؟ قالوا: فى التراب. فقال: بحقٍّ أقول لكم: لا تنبع الحكمة إلا فى قلب مثل التراب». ومن كان حاله مع الله تعالى الذّل طلبه واستَحلاه، كما طلب المتكبِّرُ العزَّ ويستحليه إذا وَجَدَه، فإن فارق ذلك الذّل ساعةً تغير قلبُهُ لِفراق حاله، كما أن المتعززَ إن فارقه العزُّ ساعةً تكدَّر عليه عَيشه؛ لأن ذلك عيش نفسه.

وممن رُوينا عنه اختيارُ الذل، وإسقاطُ المنزلة والقدر عند الناس، ومحو جاهه وموضعه من قلوبهم، وأظهر على نفسه ألوان معانى الذم، أكثرُ من أن يحصى،

وذكرهم يطول، وذاك أن حالهم الصدق يقتضيهم القيام بحكمها، فلا بد من قيامهم بمقتضى حالهم.

حدثنى بعض الأشياخ عن أبى الحسن الكرينى أستاذ الجنيد، أن رجلاً دعاهُ ثلاثَ مرات إلى طعامه ثم يرده، فرجع إليه بعد ذلك حتّى أدخلَه المنزلَ فى المرةِ الرابعة، فسأله عن ذلك، فقال: قد رُضتُ نفسى على الذّلّ عِشرين سنةً حتى صارت بمنزلة الكلب، يُطرد فينطرد، ثم يُدعَى فيُرمَى له عظم فيجىء. وزاد غيره، وقال: لو ردَدْتَنى خمسينَ مرة، ثم دعوتنى بعد ذلك لأجبتُ.

وحدثنى شيخٌ آخرُ عن أستاذه قال: نزلتُ فى محلّة فعُرفتُ فيها بالصلاح، فتشتَّت قلبى، فدخلتُ حمَّامًا فى الجِوارِ، وعيَّنت على ثياب فاخرة، فسرقتها ولبستها، ثم لبستُ مرقعتى فوقها، وخرجت أمشى قليلاً قليلاً، ليُفْطَن بى، فلحقونى، فنزعوا مرقعتى، واستخرجوا الثياب، وصفعونى، وأوجعونى ضربًا. فصرتُ أُعرف فى الناحية بلِصِّ الحمَّام، فسكنتْ نفسى.

وحُدِّثت عن بعض الصوفية: أنه وقف على رجل يأكل، فمدّ يده إليه، فقال: إن كان ثَمَّ شىء لله. فقال له: اجلس فكُلْ. فقال: أعطنى فى كفى، فأعطاه فى كفه، فقعد فى مكانه يأكله. فسأله عن امتناعه من الجلوس معه. فقال: إن حالى مع الله عز وجل الذّل، فكرهتُ أن أفارق حالى. وكان هذا ربما مدَّ يدَه إلى الهرَّاس فيضع فيها هريسة، والعربُ تأنف أن يُوضع الشىءُ فى أكفُّها لعزةِ نفوسها. حتى روينا عن بعض الصحابة من المهاجرين الأول فى أول النبوةِ أنه قال: جعت ثلاثًا لم أطعم شيئًا، فبلغنى أن إنسانًا يتصدَّق بزبيب، فسألته، فقال: هات كفَّك. فقلُت: إنى رجلٌ من العرب، ولا آخذ فى كفى، فاجعله لى فى شىء، قال فجعله فى مكيل، ثم ناولنيه، فلما فرغته رددته إليه. فكانت فيه عزة نفس. لا جرمَ أنّ رسولَ الله ﷺ قال له: «أنت امرؤ فيك جاهلية. فقال: على ما أنا عليه من كِبَر السن؟ قال: نعَم». وكان قد خاصمَ رجلاً، فأرى عليه تعزُّزًا.

وإنما نبَّهنا ببعضِ ما ذكرناه العقولَ المستيقظة، وحرَّكنا بما بيَّنا القلوب الحية، ليحيا من حىّ عن بينة، بذكر أوصاف الصادقين، وطُرقات المخلصين، ليستدل

على الكثير باليسير.

وقد كان شاهدٌ من شهود بَسطام عظيمَ القدر فيهم، لا يفارق مجلسَ أبى يزيد، فقال له يومًا: يا أبا يزيد، أنا منذ ثلاثين سنة أصوم الدهر لا أفطر، وأقوم الليل لا أنام، ولا أجد فى قلبى شيئًا من هذا العلم الذى تذكر، وأنا أصدق به وأحبه. فقال له أبو يزيد: لو صمت ثلاثمائة سنة، وقمتَ ليلها، ما وجدتَ من هذا ذرة. قال: ولم؟ قال: لأنّك محجوب بنفسك. قال: أفلهذا دواء؟ قال: نعم. قال: قل لى حتى أعمله. قال: لا تقبل. قال: فاذكره لى. قال: اذهب الساعةَ إلى المزين، واحلق رأسك ولحيتك، وانزع هذا اللباس، واتَّزر بعباءة، وعلق فى عنقك مخلاة مملوءة جوزًا، واجمع الصبيان حولك، وقل: كلٌّ من صَفَعنى صفعةً أعطيته جَوْزة، وادخل الأسواقَ كلها عند الشهود، وعند من يعرفك، وأنت على ذلك. فقال الرجل: سبحان الله تقول لى مثل هذا؟ فقال أبو يزيد: قولك سبحان الله شِرك. قال: كيف؟ قال: لأنّك عظمتَ نَفْسك فسبَّحتها. قال: هذا لا أفعله، ولكن دُلَّنى على غيره. قال: ابتدىء بهذا قبل كل شىء. فقال: لا أُطيقه. فقال: قد قلتُ لك إنّك لا تقبل.

فهذا لما قال سبحان الله كان مشركًا عنده؛ لأنه سبّحه برَسْمٍ لنَفْسٍ. وقد كان أبو يزيد يقول: سُبْحانى ما أعظمَ شأنى، وهو موحِّد، لأنه وحَّد بأوليةٍ بَدَتْ.

وهذا الذى ذكره دواء مَن اعتلَّ بنظره إلى نفسه، ثم سقم بنَظَرِ الناس إليه، ولزمه الشَّكُّ بنظرِه[١] إلى نظرهم، ليس لها من دون الله كاشفة. إلاّ أن هذا من طِبِّ المجانين، يصلح لضعفاء اليقين. ولو أدخل الطبيب الأعلى ذرَّة من عين القُدرَة[٢] أخرج بها من قلبه كلّ نظرةٍ، فاستراح من كلِّ دواء. ولكن ليقضى الله أمرًا كان مفعولاً، ليَهْلِكَ مَن هَلَك عن بينة بشواهد الخلق[٣]، ويحيا من حى عن بينة بشاهد الحق. ويتلوه شاهدٌ منه.

(١) فى المطبوعة: «سد نظره».
(٢) فى المطبوعة: «اليقين».
(٣) فى المطبوعة: «الحق» وهو تحريف، والتصويب من الأصول.

فلا تنكرن من جميع ما ذكرناه شيئًا، فتخسر أقلَّ أنصبة المؤمنين من عِلم القدرة واليقين، لأنّ للمؤمنين أنصبةً من هذا العلم؛ منها المشاهدة لما وصفناه، والإدراكُ لما رمزناه، ومنها الوجدُ والحالُ، ومنها المعاملة والمنازلة، ومنها الذوق والشم منه، وآخرها التصديقُ والقبول. فأقل النصيب من علم المعرفة إن لم يشهد فلا يجحد، وإن لم يعرف فليتعرَّف، ولكن معقلُه التسليمُ [لأهله، فهو معقل المسلمين، وفيه يسلمون من عدوهم، ويأمنون البدع فى دينهم][1]، وليس وراء هذا مكان.

وهذه المقامات التى شرحناها وهى مقامات اليقين؛ أوّلها التوبة إلى هذا المقام من المحبة منوطٌ بعضها ببعض. إن أُعطى العبدُ حقيقةً من أحدها أُعطى من كل مقام حالاً، ومع كلِّ حال مشاهدةً، ولكلِّ مشاهدة علمٌ، إلاّ من شهد بالحق، وهم يعلمون. وكلّها مجموعة فى حقيقة الإيمان، إن أُعطى العبد حقيقةً من إيمان بيقينٍ، حتى يكون مؤمنًا حقًا، غير مرتدّ عنه، ولا مستبدل به فى علم الله تعالى، وكان إيمانه مِنَّةً وهبةً لا عاريةً ولا وَديعةً، فيسترد ويرتد على إظهار لبس أو إدراج مكرٍ؛ محنةً من الله تعالى وخبرةً. ويكون مُستبدلاً لا بَدَلاً، فإذا لم يكن كذلك، وكان بدلاً من مُستبدل به، أُعطى من جميعها حالاً حالاً، وشهادةً شهادةً، وإن تفاوتوا فى العلوم، وتعالوا فى القُرب، وذاك هو كمال الإيمان.

وقد روينا عن رسول الله ﷺ فى وصف كمال الإيمان ثلاثةُ أحاديث هُنَّ أصول هذه الأحوال، وأساس هذه الأفعال، منها: أنه قال: «لا يستكمل العبدُ إيمانَه حتى يكون قِلَّةُ الشىء أحبَّ إليه من كثرة الشىء، وحتى لا يُعرف أحبَّ إليه من أن يُعرف». فهذان حالا الصادق الزاهد، وهما أوّل الطريق المؤدى إلى التحقيق، وأس البنيان الرافع.

والحديث الثانى: قوله ﷺ: «ثلاث من كُنَّ فيه استكمل إيمانه: لا يخاف فى الله لومة لائم؛ ولا يرائى بشىء من عمله. وإذا عُرض له أمران؛ أحدهما للدنيا، والآخرة للآخرة، آثر أمرَ الآخرةِ على أمر الدنيا». فهذه أحوال المحبّ لله تعالى، المخلص بمعاملة الله عز وجل، الراغب فيما عند الله تبارك وتعالى.

---

(١) ما بين المعكفتين من الأصول (د، م، هـ).

والحديث الثالث: قوله ﷺ: «لا يكْمُل إيمان أحدكم حتى يكون فيه ثلاث خصال؛ من إذا غضب لم يُخرجه غضبه عن حقٍّ، وإذا رَضِى لم يدخله رضاه فى باطلٍ، وإذا قَدِر لم يتناول ما ليس له». فهذه تجمع أحوال العدلِ، والفضلِ، والمراقبة، والزهدِ، وهى أصول المقامات.

ويشبه هذا الحديث قوله ﷺ فى الحديث الرابع: «ثلاث مَن أُوتيهنَّ فقد أُوتى مثل ما أُوتى آل داود: العدلُ فى الرضا والغضب، والقصد فى الغنى والفقر، وخشية الله تعالى فى السر والعلانية».

وتفسير ما ذكرناه قبيلُ مِن أنّ هذه المقامات مرتبطة بعضها ببعض، وأن من أُعطى حقيقة من أحدها أُعطى من جميعها أن يجمع حالاً، إذ يجمع ذلك كله الإيمان بالله تعالى، فيتوب العبد إلى من آمنَ به، وإلى ما آمنَ به من الوَعْد، وما آمن به من الوعيد، ليحق إيمانهُ ويصحَّ يقينه، وليستقيم توحيده، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ [فصلت: ٣٠]. وقال تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ [هود: ١١٢]. وقال: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّى﴾ [العنكبوت: ٢٦]. فذهب إليه لما آمن به، وهو الرجوع، وهى التوبة.

ثم يزهد فيما تاب منه مِن هواه، لتصح توبته، وتخلُص نيته، فيكون نصوحًا، كما قال تعالى: ﴿مَا عِندَكُم يَنْفَدُ وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]. وقال: ﴿وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٧]. وقال: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ [يوسف: ٢٠] لما أخرجوه من أيديهم وتركوه، وتابوا إلى أبيهم، وزهدوا فيه.

ثم يصبر عمّا زهد فيه ليحقّ زهده، كما قال: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣]. وقال عزّ وجل: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر: ٧].

ثم يشكر على ما صبر عنه ليكمل صبره، كما قال: ﴿لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ﴾ [الكهف: ٣٩]، ﴿وَمَا بِكُم مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾ [النحل: ٥٣]، ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣١].

ثم يرجو من شكر له ليزيده من فضله فيعطيه فوق سؤله بحسن ظنه به، كما قال تعالى: ﴿وَيَرجُو رَحمَةَ ربِّه﴾ [الزمر: ٩].

وقد ذم من أيس من رحمته بقوله: ﴿ولَئِن أَذَقْنا الإنسانَ مِنَّا رَحمةً ثُمَّ نَزَعْناهَا منهُ إنَّه لَيؤُسٌ كَفُورٌ﴾ [هود: ٩].

ثم يخاف فوتَ ما رجا، ويخاف من تقصيرِه فى الشكر لما أُولى، لتَحِقَّ غِبطته برجائه، ويتم إشفاقه من تبديل الآية، ويخاف نقصانَ المزيد، كما قال سبحانه: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم خَوفًا وطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦]. وقال مخبرًا عن أوليائه: ﴿إنَّا كُنَّا قَبْلُ فى أَهْلِنا مُشْفِقِينَ * فَمَنَّ اللهُ علَينا﴾ [الطور: ٢٦ ـ ٢٧]. وقد عاب اللهُ مَن فَرِحَ بما أُظهر له، وفخر بما أُوتى، وأَمِنَ عودَ البلاء، ونسى أنه كان مبتلًى، فى قوله تعالى: ﴿ولَئِن أَذَقْناهُ نَعْماءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّته لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئاتُ عَنِّى إنَّه لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ١٠].

ثم يتوكَّل على من خافه، فيسلم نفسه إليه، ويستسلم بين يديه، أن يحكم فيه ما أحب، لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الله فَتَوَكَّلُوا إن كُنْتُمْ مُؤمنينَ﴾ [المائدة: ٢٣]. وقوله: ﴿نِعْمَ أجرُ العَامِلِينَ * الَّذينَ صَبَرُوا وَعَلى ربِّهِم يَتَوكَّلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٨ ـ ٥٩].

ثم يرضى بمن توكَّل عليه، وعمَّن توكل له، لعلمه بحكمته البالغة، وتدبيره الحسن، لقوله تعالى: ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُم وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩]. ولقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ابتِغَاءَ مَرضَاتِ الله﴾ [البقرة: ٢٠٧].

ثم يحب من رضى به ورضى عنه، إذ كان قد اختاره على ما سواه، وإذ صار حسبه لما رآه، فصارت هذه المقامات التسع كمقامٍ واحدٍ؛ إذ بعضها منوط ببعض. ودليلها كتابُ الله تبارك وتعالى الحق اليقين النور المبين، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه من طرق الهوى، ولا من خلفه من خَيل الأعداء. فأشبهت دعائم الإسلام الخمس فى مقام العموم من طريق الإسلام، إذ بعضها مرتبط ببعض، كهذه فى مقام الخصوص من طريق المقرّبين.

ثم يرجع بعد مقام المحبة إلى حال الرضا قوةً فقوةً، ثم يتردد فى مقام المحبة رُتبةً رتبةً، وليس فوق حال الرضا مقام يعرف، ولا فوق مقام المحبة حالٌ يوصف. وهما موجب المعرفة، ومنتهاها المعروف، وقرارها المألوف. وإن إلى ربك المنتهى، وإلى ربك يومئذ المستقر. فليس للرضا نهاية، إذ ليس للمحبوب غاية، وإن الرضا مزيد أهل الجنة فى الجنة، وليس للحب نهاية؛ لأنه عن الوصف؛ ولا غاية للصفات. وليس لطلب المحبِّ حد لأنه عن القُرب، ولا غاية للقرب لأنه عن وصف قريبٍ، ولا حدّ لقُربٍ، فيترافع المؤمنون فى الحب مقامات على نحو تجلّى الحبيب بمعانى التقليب، وبتزايد الرضوان فى الرضا درجات حسب تعاليهم فى علو المشاهدات، وبتعالى أهل عليِّين فى السُّموِّ غايات، على قدر أنصبتهم من قوة الإيمان وصفاء اليقين. قال الله تعالى: ﴿وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]. فأعطاهم من معانى وصفه العلوَّ، ثم وصف نصيبهم بوصفهم فقال: ﴿إِنَّ كتابَ الأبرارِ لَفِي عِلِّيِّين * وَمَا أَدراكَ ما عِلِّيُّونَ﴾ [المطففين: ١٨ ـ ١٩]، فعليُّون لا نهاية له فى العلو، إذ هو من أسماء المبالغة فى الوصف. وقيل: إنه اسم لا واحد له من جنسه، فهو عُلاً فى علوِّهم، يعلو بهم أبدًا، فى علوِّ علوِّهم فى دار الأبد. وهم أعلُونَ؛ لأن الأعلى معهم، فهم يعلون به، وعليّون يعلو بهم، هذا كله لأنه معهم، كما قال: ﴿وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ واللهُ مَعَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥].

فالرضا الأول ـ الذى هو قبلُ المحبة ـ مقامُ التوكل، وحال المحب المحبوب.

والرضا الثانى ـ الذى يكون بعد المحبة ـ مقام المعرفة، وحال المحبوب التوكل حاله.

والمحبة من أشرفِ المقامات ليس فوقها إلى فوقها إلا مقامُ الخِلّة، وهومقام فى المعرفةِ الخاصة، وهى تخلُّل أسرار الغيب، فيطلع على مشاهدة المحبوب، بأن يعطى حيطة بشىء من علمه، بمشيئته على مشيئته التى لا تنقلب، وعلمه القديم الذى لا يتغير. وفى هذا المقام الإشراف على بحار الغيوب وسرائر ما كان فى القديم، وعواقب ما يؤوب. ومنه مكاشفة العبد بحاله، وإشهاده من المحبة مقامه،

والإشرافُ على مقامات العباد فى المآل، والاطلاع عليهم فى تقلبهم فى الأبد حالاً فحالاً.

وقد ذكر أبو يزيد البسطامى، وأبو محمد سهل، أنهما أقيما فى هذا المقام، وَوَصفا حاليهما منه، وقد كان لشقيق وابن أدهم البلخيين مطالعات فى هذه المعانى. وقد سُلك بأبى الفيض فى هذا الطريق، فظهر على ما فيه مما يبهر من رأى انقلاب الأعيان، وتبصرة بعظيم العيان. وهذا محجوبٌ عن أوهام القلوب بعقولها، ومستورٌ فى جُب غيابة الغيوب[1] بأرواحها. فإذا خرجت النفس من الروح، فكان روحانيًا خروج الليل من النهار، تنفَّس المكروب، وإذا خلا العقل عن القلب، وكان ربّانيًا، انفرجت الكروب. كما قال العارف:

بحيــاتى يا حيــاتى لا تُبعـــــد قُرُباتى

أخرِج النفسَ من الرُّو ح وروِّح كُرُبــانــى

وقد قال أحسن القائلين: ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. والاستثناء واقع على إعطاء الحيطة بشىءٍ من شهادة علمه، بنورٍ ثاقبٍ من وصفه، وشعاعٍ لائح من سُبحته إذا شاء.

وهذا معنى من سر التوحيد لا يكشفه إلاّ عينُ اليقين، ولا يُظهره حتى يظهر لنا منه عارف ما عليه قد أُوقف، وما منه به قد كُوشف، فحينئذ يقع العينُ على العين، ويضىء الكوكب الدرى فى جوهر مشكاة القلب.

وقد كان للشيخ أبى الحسن بن سالم رحمه الله تعالى من هذا الطريق مشاهداتٌ ومطالعاتٌ وسياحاتٌ فى الغيوب، وجريانٌ فى الآخريات، وانقلبت له الأعيان، وظهر له العيان، وطُوى له المكان، ورأى ألفَ ولىٍّ لله تعالى، وحمل عن كل واحد علمًا، ثم انقطع الطريق بعد فَقده، وعفا الأثر ودرس الخبر. ثم الله تعالى أعلم بما هو صانع بهذا الطريق وأهله، هل ينشىء[2] له أهلاً، وينهج له

(١) فى المطبوعة: «غاية القلوب»، وهو خطأ.

(٢) فى (هـ): «ينشر».

طريقًا؟ أم يطويهم فى طى طريقهم، ويخفى طريقهم فى خفايا الموج الغامض فى غامضات العلم السابق؟

نقول فى ذلك، كما قال إمام الأئمة على بن أبى طالب كرم الله وجهه، بعد إذ ذكر فى خطبته قيام الساعة، واستقرار أهل الدّارين فيهما، قال: ثم الله أعلم فيما هو صانع بالدنيا بعد ذلك. فهذا من سرِّ السرِّ الذى أودعه صاحب الأمر.

وليس فوق مقامِ الخُلَّة مقام إلاّ درجة النبوة. وهو محجوبٌ عن القلوب، كحجاب هذا المقام من الخُلَّة عن قلوب العموم. فهذا لا قُوَّةَ فيه[1]؛ لأنه درك منه، ولا حُزن عليه؛ لأنه لا يُصِيبُ عنه. ولكن مقام الخلّةِ لا يكون إلاّ فى مقامٍ محبوبٍ على كل حال. وما سمعت من أحدٍ من أهل العلم الباطن والمعرفة الثاقبة رَسَمَ من عِلمِ الخُلَّة ولا من وصف محبوب نَفسًا فى كتاب، ولا قرأته إلا نكتًا فى الأخبار، ولُمْعًا مِن الآثار.

واعلم أنه كلامٌ محبوب عن مقام خلّة، ولكنه مستودعٌ فى كتاب الله تعالى المكنون، وغامض من خطابِهِ المصون، ومخبوٌّ بقدرته فى سرّ آياته عن القلوب والعيون، يُكاشفُ به الساجدين، ويُظهر عليه أهل السرِّ من العارفين: **﴿أَلاَّ يَسْجُدُوا لله الَّذِى يُخْرِجُ الخَبْءَ فى السَّموات والأرضِ﴾** [النمل: ٢٥]. وقوله تعالى: **﴿قُل أَنْزَلَهُ الَّذِى يَعْلَمُ السرَّ فى السَّمَوات والأرضِ﴾** [الفرقان: ٦].

وقد كان الحسن رحمه الله تعالى يروى فى الخُلَّة أخبارًا؛ منها: «إن الله عزّ وجل أوحى إلى بعض أنبيائه: إنّما أتّخذ لخُلتى مَن لا يَفْتُر عن ذِكرى، ولا يكون له غيرى، ولا يؤثر علىَّ شيئًا من خلقى، وإن حُرق بالنار لم يجد لحرق النار وَجعًا، وإن قُطع بالمناشير لم يجد لِمَسِّ الحديد ألمًا».

وقد روينا عن الخليل الحبيب ﷺ أنه قال: «تحابُّوا فى الله، وتصافُّوا، وتباذلوا، وتخاللوا فيها، وليس مِن كرم الله تعالى أن أتّخذ عبدًا من عباده خليلاً».

فنبَّه أنا الخُلّة من الله تعالى كانت لأوليائه عن فرط كرمه وفضل آلائه، ألحقهم

---

(١) فى المطبوعة و(هـ): «لا فوت فيه».

بكرامته بها، وأهَّلَهُم بفضله لها، وعظَّمهم عن نصيب تعظيمه فيها. والله الواسعُ الكريم ذو الفضل العظيم، إذا رَفَع عبدًا جاوز به الحدودَ، وإذا خَفَضه وضعه تحت المحدود.

وقد تكلم الجنيد رحمه الله تعالى فى مقام من هذا، وقد سئل عنه فقال: هو غاية الحب، وهو مقام عزيز يستغرق العقول، وينسى النفوس، وهو من أعلى علم المعرفة بالله تعالى. وقال: فى هذا المقام يعلم العبدُ أن الله عز وجل يحبّه، ويقول العبد: بحقّى عليك وبجاهى عندك. ويقول: بحبّك لى. قال: وهؤلاء همُ المدِلُّون على الله تبارك وتعالى، والمستأنسون بالله تعالى، وهمُ جلساء الله تعالى، قد رفع الحِشمة بينه وبينهم، وزالت الوحشة بينهم وبينه، فهم يتكلمون بأشياء هى عند العَامة كفرٌ بالله تعالى، لما قد علموا أن الله تعالى يحبهم، وأن لهم عند الله جاهًا ومَنزلة، ثم قال عن بعض العلماء: أما أهلُ الأنس بالله تعالى فليس إلى معرفتهم سبيل.

هذا نقل من كلام الجنيد، ونحو معناه حدثنى به الخاقانى المقرئ، ولولا أنَّا روينا عنه ما ذكرناه، لأنّا لا نشرح حال هؤلاء فى كتاب إشفاقًا على الألباب، كما قال المجلّ:

* غيرَ أنّى أُجِلُّكم عن عتابٍ فى كتابِ *

وقد كان شيخنا أبو بكر بن الجلاء رحمه الله، كتب إلى شيخنا أبى الحسن بن سالم رحمه الله تعالى، يسأله عن مسائل من معانى السرائر فى كتابٍ، فحدثنى من رآه: رمى بالكتاب، وقال: أين صاحبُ هذه المسائل؟ فقيل: هو غائبٌ بمكة، فقال: أنا لا أجيب عن هذا فى كتاب، قولوا له: يحضر إن أراده.

وقد حدثنى ابنُ الجلاء بهذا؛ لأنّ مقام الخُلّة هو الذى أخفيناه وعظّمناه، لا يُعطاه العبد إلا فى مقامٍ مع مقامٍ. فالمقام الأول: هو المعرفة الخاصية بظهورٍ يعرف كشفًا عن وصف الباطن، ثم يدخل عليه المحبة المخصوصة وهو مقام محبوب، ثم يرفع من هذا المقام إلى مقام الخُلة وهو الإشراف على سرائر غيوب من شُرفات العرش، وسرادقات القدس، وغير ذلك. والأصل فيما ذكرناه أنه سبحانه يعطى

مقامات المعرفة فى مقام عارف، ولا يعطى فيه مقام محبوب. وقد يعطى مقامات من المحبة فى مقام محبٍّ، ولا يعطى شهادة خُلّة لغير خليل عارف. فإذا جمع مقام معرفةٍ، تعرّف إلى مقام محبة محبوب، أُعطى معه مقامًا من الخلة الذى وصفناه، وهذا من أعز ما أُظهر فى الكون لمظهر مكنون.

وروينا عن رسول الله ﷺ أنه خطب الناس قبل موته بثلاث فقال: «إن الله تعالى قد اتخذ صاحبكم خليلاً، كما اتخذ إبراهيم خليلاً». فرُفع ﷺ فى مقام محبوب إلى درجة خليل، كما نُقل من مقام محبٍّ إلى حال محبوب، كما زِيد بالمحبة فى مقام الصفوة.

وقال أيضًا فى المقام الأول: «إن الله عز وجل اتّخذ موسى صَفِيًا، واتخذنى حبيبًا».

فأول العطاء هو الصفاءَ من الهوى، ثم المحبة بعد الصفاء، ثم الزيادة بوصف محبوب فوق المحبة. ثم ارتفع فعلا بعد القوة والاستواء إلى العلى الأعلى، فدَنا لما علا فتدلّى، حتى دنا فكان قاب قوسين أو أدنى، وكانت اليد[1] من ورائه، والوجه مواجهًا لوجهِهِ.

وكان ما كـانَ مِمَّا لستُ أَذْكُرُهُ   فَظُنَّ خيرًا ولا تَسأل عن الخَبرِ

إذ من العلوم علم لا ينبغى أن يسأل عنه، حتى يبدى العالم ذِكره، فهذا منها، فلا يُبدى إلا بقدر معلوم، بمقدار ما أبدى المبدئ، ويعيد منه بقدر ما أعاد المعيد، وكان لديه خليلاً، كما كان عنده قريبًا، فصارت الخُلّة مقامًا فى محبوبٍ، وهو نهاية المزيد، كما كان مقامُ محبوب زيادةً على مقام محبٍّ، كما رفعه إلى المحبة بعد الصفوة من كَدَر الهوى. وكذلك أنت أيها السامع الشاهد، يجعل لك بعد الصفاء نصيبًا من نصيب، وشهادةً على شهادة، ووَجدًا من وَجد، وفَقدًا للنفس من فَقد. فلا يُذهب كثير النبوة منه صغيرَ العطية لك؛ لأنه تعالى رفع الطائعين له ولرسوله ﷺ مقامًا إلى مقام النبيين والصدِّيقين، والصدِّيقون باقون إلى نزول

(١) فى المطبوعة: «البلد».

الروح عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام، وهم الأبدال، عددهم فى كل الدنيا ثلاثمائة وما شاء الله، منهم: الشهداء والصالحون. فهم ثلاث طبقات، وكلهم مقرَّبون سابقون. إيمانُ صدِّيق منهم كإيمان جميع الشهداء، وإيمان شهيدٍ كإيمان كل الصالحين، وإيمان كلٍّ صالح بمقدار إيمان ألف مؤمن من عموم المسلمين.

وليس فى الخُلَّة شريكٌ لغير الخليل على خَليله؛ ولأنها حال مفردةٌ لفردٍ، موحدة لواحد. ولو كان يصلح لها نظير، ويوزَّر بها وزير، كان أحق الأمة بذلك الصِّدِّيق [أبو بكر رضى الله عنه]، فقد أعطاه تعالى ثلاثًا لم يُعطها غيره، منها: إنَّا روينا أن النبى ﷺ قال له: «إن الله عز وجل أعطاك مثل إيمان كل من آمن بى من أمتى، وأعطانى مثل إيمان كلَّ من آمن به من ولد آدم».

والحديث الثانى: «إن لله تعالى ثلاثمائة خُلقُ، من لَقيَه بخُلُق منها مع التوحيد دخل الجنة». فقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه: يا رسول الله، هل فىَّ منها خُلُق واحد؟ فقال: «كلّها فيك يا أبا بكر، وأحبها إلى الله عز وجل السخاء».

والحديث الثالث هو المستفيض: «رأيت ميزانًا دُلِّى من السماء، فوُضعت فى كفة ووُضعت أمتى فى كفة، فرجحتُ بهم. ووُضع أبو بكر فى كِفة، وجىء بأمتى فوُضعت فى كفة، فرجَح بهم». وليس بين الصديق وبين الرسول إلا درجة النبوة.

والقطب اليوم الذى هو إمام الأثافى الثلاثة، والأوتاد السبعة، والأبدال الأربعين والسبعين إلى ثلاثمائة، كلهم فى ميزانه، وإيمانُ جميعهم كإيمانه، إنما هو بدلٌ من أبى بكر رضى الله تعالى عنه، والأثافى الثلاثة بعده إنما هم أبدالُ الثلاثة الخلفاء بعده، والسبعة هم أبدال السبعة إلى العشرة. ثم الأبدال الثلاثمائة وثلاثة عشر، إنّما هم أبدال البدريين من الأنصار والمهاجرين أهل الرحمة والرضوان.

فمع هذا الفضل العظيم لأبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه، لم يصلح أن يشرك الحبيب الرسول المقرَّب الخليل فى مقام الخلة، كما صلح أن يشرك فى مقام الأخوة، وهو المقام الذى شَرَك فيه عليًا كرّم الله وجهه، فقال: «علىٌّ منى بمنزلة

هارون من موسى». فهذا مقام أخوة.

كذلك فى التفرُّد بمقام الخلة: «لو كنتُ متخذًا من الناس خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الله» تبارك وتعالى، يعنى نفسه صلوات الله عليه، لأنه واحدٌ لواحد، مفردٌ لفرد، فاعتبروا يا أولى الأبصار والألباب، بتدبُّر فَهم الخطاب؛ فمن أُعطى من الصفاء نصيبًا أعطى من الحب نصيبًا، وكان له من المعرفة بقوة محبته، ومن المعرفة بقدر معرفته. فأما المعرفة الأصلية التى هى أصل المقامات ومكان المشاهدات، فهى عندهم واحدةٌ؛ لأن المعروف بها واحد، والمتعرّف عنها واحد، إلا أن لها أعلى. وأوّلُ مخصوص المؤمنين فى أعلاها، وهى مقامات المقرَّبين، وعمومهم فى أولها، وهى مقامات الأبرار، وهم أصحاب اليمين. ولكلّ منهم وجهةٌ من الصفات المخوفة عنها كانوا خائفين، أو الأخلاق المرجوَّة منها كانوا راجين، أو الأفعال والأملاك عندها كانوا صابرين شاكرين، أو معانى أوصاف ذات منها كانوا محبين متوكِّلين. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ**﴾ [البقرة:١٤٨]. ويقال: «من أحبَّ شيئًا حُشِر معه». وفى الخبر: «المرء مع مَن أحب وله ما احتسب». وفى الخبر: «من مات على مرتبة من المراتب بُعث عليها يوم القيامة».

فأما جملُ مقامات المحبين فمذكورة فى الكتاب العزيز من الحبيب اثنى عشر مقامًا: خمسٌ فى دليل الخطاب وتدبر الألباب، وسبعةٌ فى صريح الكلام بظاهر الأفهام.

فأما السبع المصرحة: فقوله عز وجل: ﴿**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ**﴾ [البقرة:٢٢٢]. ﴿**وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ**﴾ [آل عمران:١٤٦]. ﴿**وَسَيَجْزِى اللهُ الشَّاكِرِينَ**﴾ [آل عمران:١٤٤]. ﴿**فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ**﴾ [آل عمران:٧٦]. ﴿**وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [آل عمران:١٣٤]. ﴿**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ**﴾ [آل عمران:١٥٩].

وأما الخمسة المتدبَّرة فهم: الموحِّدون، لقوله: ﴿**لا يُحِبُّ الكَافِرِينَ**﴾ [آل عمران: ٣٢]. والعادلون، لقوله: ﴿**لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ**﴾ [آل عمران:٥٧]. والمستقيمون، لقوله:

﴿**والله لا يَهدِى القَوْمَ الفَاسقِينَ**﴾ [المائدة:١٠٨]. والمتواضعون، لقوله: ﴿**لا يُحبُّ المُسْتَكبِرِينَ**﴾ [النحل:٢٣]. والموفون، لقوله: ﴿**لا يُحِبُّ الخَائنينَ**﴾ [الأنفال:٥٨].

وهؤلاء طبقات المحبوبين تعريضًا وتصريحًا.

وشرح هذه الأوصاف هى مقامات اليقين، وفى كل مقام من هذه أحوال يكثر عددها. كل حال منها طريق إلى الله عز وجل. فى كل طريقٍ طائفة من المحبين، محبتهم على قدر معرفتهم، ومعرفتهم على زنة تعرُّف المعروف إليهم، وعن نحو تعريف المعروف لهم. وذلك معنًى من معارفهم، فهُمْ على زنة يقينهم، ويقينهم على حسب صفاء إيمانهم، وإيمانهم على نحو عناية الله بهم وتفضُّله عليهم وإيثاره لهم. ومن وراء ذلك سر القدر المختزن المستأثر. وليس فوق المحبة مقام مشهور، ولا دون التوبة حالٌ مذكور.

فأول المقامات: التوبة، يخرج بها من الظلم، والظلم حال من الشرك. قال الله تعالى: ﴿**إنَّ الشرْكَ لَظُلْمٌ عَظيمٌ**﴾ [لقمان:١٣]، وقال الله تعالى: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا ولَم يَلْبِسُوا إيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الأَمنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ**﴾ [الأنعام:٨٢] فى الدنيا. وهذا فصل الخطاب لأضدادهم. فأى الفريقين أحق بالأمن؟ الذى آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم، أولئك هم أحق بالأمن غدًا فى المقام الأمين. وقال تعالى: ﴿**وَمَنْ لَم يَتُبْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾ [الحجرات:١١].

فآخرُ الظلمِ أولُ التوبةِ، وآخر التوبة أولُ المحبة، وآخر المحبة أول المعرفة، وهى معرفة متعرِّف، وهى الخاصية مزيد المحبة الأولى، وآخر نصيب العبد من المعرفة، وأولُ التوحيدِ، وهى توحيد الشاهدين ولا آخر له.

وأوسط المقامات: الزهدُ، وأول الزهد آخر الهوى، وآخرُ الزهد أولُ العلم، وآخرُ العلمِ أولُ الخوف، وآخر الخوف أول الحب. وهذا حب محبوب.

والظالمُ لا مقام له، ومن لا مقام له فلا جاه، ومن لا جاه له فلا شفاعة، ومن لا شفاعة له فلا شهادة، ومن لا شهادة له فلا يقين. فلو أعطى مثقالاً من الإيمان لم يُنْجِه من دخول النار؛ لأنه ﷺ قال فى وصف الداخلين: «أخرجوا مِن النار

مَن فى قلبه مثقال ذرة من إيمان». ثم قال فى الخبر الآخر: «السّخاءُ من اليقين، ولا يدخل النّارَ مُوقن». وقال سبحانه وتعالى فى تفصيل ما وصلناه مما عنه شهدناه: ﴿لاَ يَنَالُ عَهْدِى الظَّالمينَ﴾ [البقرة:١٢٤]. ثم قال فى البيان الثانى من الخطاب: ﴿لاَ يَمْلكُونَ الشَّفَاعَةَ إلاَّ مَن اتَّخَذَ عندَ الرَّحْمن عَهْدًا﴾ [مريم:٨٧]. وقال فى البيان الثالث: ﴿وَلاَ يَمْلكُ الَّذينَ يَدْعُونَ منْ دُونه الشَّفَاعَةَ إلاَّ مَنْ شَهدَ بالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف:٨٦]. وقال فى وجد اليقين بعد شهادة العين فى الرؤية بعد المكاشفة: ﴿وَكَذَلكَ نُرِى إبْراهيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوات وَالأرض وَليَكُونَ منَ الْمُوقنينَ﴾ [الأنعام:٧٥]. ثم قال: ﴿بنَبأ يَقين * إنِّى وَجَدْتُ﴾ [النمل:٢٢ ـ ٢٣]. وكما أن اليقينَ بعد المشاهدة كذلك الوجدُ بعد اليقين، واليقينُ هو حقيقةُ الإيمان وكماله. كما جاء فى الأثر: «الصّبْرُ نصفُ الإيمان، والشّكر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله».

وقد روينا فى تفسير قوله تعالى: ﴿لا يَنالُ عَهْدِى الظَّالمينَ﴾ قيل: الجاه. وقيل: الشفاعة. وقيل: الولاية. وقيل: الإمامة. لا يكون الظالمُ إمامًا للمتقين؛ لأن من تبعه أمَّة من المؤمنين، فهو إمام للمتقين. والظالم متهدَّد بالنار متوعَّدٌ بسوء المنقلب، مشفوعٌ فيه، فكيف يكون شفيعًا؟ محجوب عنه، فكيف يكون شهيدًا؟ ألم تسمع إلى قول الشاهد: ﴿ولاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالمُونَ﴾ [إبراهيم:٤٢]، وإلى قوله تعالى: ﴿وسَيَعلَمُ الَّذينَ ظَلَمُوا أىَّ مُنْقَلَب يَنْقَلبُونَ﴾ [الشعراء:٢٢٧]، مع قوله تعالى: ﴿فَتَكُونَ منْ أَصْحَاب النَّار وَذلكَ جزَاءُ الظَّالمينَ﴾ [المائدة:٢٩]، ثم أجمل ذلك بقوله: ﴿ومَنْ لَم يَتُب فأُولَئكَ هُمُ الظَّالمُونَ﴾ [الحجرات:١١].

فصغير التوبة لصغير الظّلم عن صغائر المظالم، وكبير التوبة لكبير الظلم عن كبائر المظالم. والظلمة ظلمةٌ اليوم فى القلب، وظلمةٌ غدًا يوم القيامة. فالتوبة تُخرج العبدَ من الظُّلم، وبخروجه من الظلم يدخل فى منازل العهد، وبرعاية

العهد يعمل فى الإصلاح. والله لا يضيع أجر المصلحين، كما لا يصلح عمل المفسدين. فإذا كان مصلحًا بالتوبة ما أفسد بالهوى، استعمل بالصالحات؛ لأنه قد صلُح، فإذا عمل بالصالحات أُدخل فى الصالحين؛ لأنه قد فَضُل. قال الله تعالى: **﴿وَيُؤتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾** [هود:٣]. وقال فى البيان الأول: **﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى الصَّالِحِينَ﴾** [العنكبوت:٩]. فمن صلح له تولاه، ومن تولاه علّمه، وحباه، وكاشفه، ومن نفسه عافاه، وأحبه، فكان هو حسبه، وكفاه وجعله تحت كنفه وآواه، فيكون ظاهرُ حالهِ العصمةَ من الهوى، وأعلاه مشاهدة عين اليقين بالمولى. ومن اكتسب من المظالم ظَلَم، ومن ظَلَم ولاَّه مثله، ومن ولاَّه مثله تولى عنه، ومن تولى عنه أفسد، ومن أفسد قطع ما أمر الله به أن يوصل، ومن قطع بَعُد فانقطع، ومن انقطع فبَعُد لُعِن وطُرِد، ومن طُرد عَمِيَ وصُمَّ تحت الهوى المعمى المصمِّ، ومَن عَمِيَ لم يشهد البصير، ومن صُمَّ لم يسمع من السميع، فكيف يتدبر الخطاب وقلبُهُ مقفل، وهمه على هواه مقبل، والفتاح العليم عنه معرض؟ فهذا من توصيل القول بمطلع المقول من قوله تعالى: **﴿نُوَلِّى بَعضَ الظَّالِمينَ بعضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾** [الأنعام:١٢٩]. ومن قوله تعالى: **﴿إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فى الأرضِ﴾** [محمد:٢٢] الآية. فتبيَّنوا.

وللتائب حالٌ من أول المحبة، وللتوَّاب مقام من حقيقة الحب، وللناس فى التوبة مقامات حسب كونهم فى الهوى طبقات، وهم فى الحب درجاتٌ نحو مشاهدتهم لمحاسن الصفات. فيتجلى لكل وجهٍ بمعنى حسن وجهه، هذا فى القلوب عن محاسن الإيمان، وفى الآخرة على معانى محاسن الوجوه فى العيان. فتحكم عليهم المشيئة منه لهم، بما يوجدهم به منه، على معانى ما أوجدهم منه به اليوم. فسبحان من هذه قدرته عن إرادته، وسع كلَّ شىء رحمة وعلمًا.

ويلزم كلَّ عبدٍ من المجاهدة على قدر ما ابتُلى به من الهوى، ويثبت له من المحبة بقدر ما صحّ له من التوبة، ويسقط عنه من المجاهدة بقوه ما يُكشف له من المشاهدة، فيحمل الإشهاد عنه آلام الجهاد، فيكون العبد فى البلاء محمولاً،

ويكون يقينه بالشهادة واليقين موصولاً. وهذا من سوابغ العوافى، وتمامٍ من النعماء. وهؤلاء الذين أنعمَ الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء، وهم الذين جاء الخبر فيهم: «إن لله عبادًا ضنائنَ من خلقه، يَغْذُوهم برحمته ويجعلهم فى ظل عافيته». يضنّ بهم عن القتل والبلاء، ويحييهم فى عافية، ويميتهم فى عافية. ويدخلهم الجنة فى عافية، أولئك الذين تمر عليهم الفتن كقطع الليل المظلم، وهم منها فى عافية.

فالأفضل بعد هذا لكلّ عبد معرفته بعلم حاله، ووقوفه على حدِّه، ولزوم الصدق فى مقامه، وترك التكلف والدعوى فى جميع سكونِهِ وحركاته، فإن هذا أبلغ له فيما يريد، وأوصل فى طلب ما يرجو. فإنَّ علمَ العلماء لا يغنى عنه من علمه بنفسه شيئًا؛ لأنه لا يُسأل عن علومهم، كما لا يُسألون عن علمه.

وهذا طريقٌ رأسُ ماله الصدق، وزاده الصبر، وقُوتُه التقوى. فمن عَدِم الصدقَ لم يربح، ومن لم يتزوَّد الصبر انقطع، ومن لم يَقتَت التقوى هَلَك. فذرةٌ من صدقٍ أنفع من مثقال عمل، وذرة من صبر خيرٌ من مثقال علم، وذرة من تقوى أنفع من مثقال إيمان. فإن الظن لا يغنى من الحق شيئًا. ويعطى الله تعالى بأداء الفرائض واجتنابِ المحارم مقامًا من مقامات اليقين، يرفع به إلى عليين، وربما أعطاه بهما مثل ثواب الأبدال بعد أن يريد بالفعل والترك وجهَ الله تعالى وحدَه، وإن لم يسلك به طريق الأبدال قط، ولم يعرف منهم أحدًا أبدًا.

ومن نقله مولاه باليقين الذى به تولاه، لم يَخفَّ عليه التنقيل؛ لأن النقل يضطره إلى التنقل فى الأحوال، والمشاهدة تحكم عليه بالأفعال. وربّما بلَّغ الله تعالى العبدَ بحسن الظّنِّ به، وقوة الأمل والطمع فيه، جميعَ ما ذكرناه، بعد أن يكون حَسَنَ اليقين. وقد يعطيه مقام الصديقين بخُلُق من أخلاقه إذا خلّقه به. وربما بلَّغه منازل الشهداء بشىء واحد يتركه له، أو شىءٍ يؤثره به؛ لأنه غفور شكور.

وأضرُّ شىء على العبد قلة معرفته به. فلربما كان العبد على تسع كبائر، فيترك

العاشرة لوجه الله تعالى، فتكون تلك الخصلة ذرّة إلى جنب تسعة أجبل، فينظر الله تعالى إليه بوجهه لوجهه الذى ترك له نظرةً، فتمحو تلك النظرةُ الجبالَ التِّسعة، فتصير هباءً منثوراً، وربما حسَّن الله تعالى وصفًا واحدًا من العبد يصفه به، فيحبط عنه مائة وَصْفٍ قبيحٍ يصفه الناس به، فتدبروا.

فلا ييأس عبدٌ من فضل مولاه، ولا يقطعن من حبله رجاه بعد إذ عرفه، فإن السيدَ كريمٌ رحيم. ولا ينقطعن عبدٌ عن بابه، وأن يقطع بخلافه، ولا يَبعُدنَّ عن فنائه وإن بَعُد بأوصافه، ولا يستوحشنَّ من التقرُّب إليه بما يحب بعد ما توحَّش وتفحَّش لديه بما يكره. فهكذا يحبُّ الله تعالى من عباده، فتبينوا.

ونحو هذا يحب الله تعالى منهم أن يعرفوا، فيفعلوا بعد المعرفة. فإن المعروفَ مفرط الكرم واسع الرحمة فاضل الفضل، فإن أُعطى المعرفة لم يُمنع شيئًا ولا يضر ما منع، وإن مُنع المعرفة لم يُعط شيئًا، ولم ينفع منه ما أعطى.

وقد تلتبس المحابُّ فتدخل محبة النعم فى محبة المنعم، وتدخل محبة النفس على محبة الخالق، ويشتبه ذلك عند عموم المحبين ممن لم يكشف له عين اليقين. فيكون العبد محبًا للنعم، وهو يظن بوهمه أنه محبٌّ للمنعم. ويكون محبًا لنفسه ويحسب أنه محبٌّ لمولاه. وعلامة ذلك سكونه إلى الأشياء وفرحهُ بالموجودات، ووجودُ راحته ولذّته فى هواه. فربما اختار الله تعالى أن يكشف له حاله قبل موته، وربما ستر عليه حاله ولم يفضحه حتى يلقاه، فيثيبه ثواب مثله وجزاءه. وليس يظهر فرقان هذا إلاّ فى قلبِ موقنٍ مرادٍ بنور ثاقب، وعلم نافذ، ويقين صاف من عين التوحيد وشاهد القيومية؛ لأنه من باب مشاهدة الصفات الغيبية ومشاهدة الأفعال الملكوتية، وهو الفرقان الذى وعده الله تعالى المتقين من المؤمنين فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]. قيل: نورًا تفرقون به بين الشُّبهات، وهو المخرَجُ الذى ضمنه الله تعالى لأهل التقوى، والمنهج فى قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢]. قيل: من كل أمرٍ ضاقَ على الناس به.

فتفصيل معانى التوحيد وشواهد الناظرين أضيق الضيق، وشهادة الجمع فى التفرقة والبقاء فى الفناء أخفى الخفاء، وشرح يطول، ويخرج إلى غير هذا العلم الذى رسمناه، ويدخل فى علم مجهولٍ، غريبٍ عن الأسماع، ينكر أكثره من لا يعرفه، غير أن مَن له نصيب منه يشهد ما رمزناه، فيكشف له به ما غطيناه. إلاّ أنه استولى على القلب أحدُ وجهين:

فالخصوص أحبوه من طريق مشاهدة الصفات، فحبُّ هؤلاء بقلبٍ ووَجدٍ لا يتغير أبدًا، وهم مثبَّتون فيه إلى لقاء الحبيب، وهؤلاء عبدوه على التعظيم والمحبة والإجلال والكبرياء. وفى هؤلاء: المقربون، والمحبوبون، والخائفون، والعاملون، والمتوكلون، والراضون، وهو المقام الأعلى، وهم الأعلون عنده فى المنتهى.

والعمومُ أحبوه من طريق مواجيد الأفعال، وهى النعمُ والإحسان والأيادى والأفضال، وعما أظهر من العوافى، ومما أخبر عنه بما أسرُّوهم الذين خدموه شهوةً وعادةً وحاجةً، أحبوه لمنافعه ومرافقه؛ ولأجل ما فى يده من مُلكه. وحب هؤلاء يتغير لانقلاب الأحكام، وهؤلاء لم يتحققوا بالإخلاص ولا الزهد، وقد بقى عليهم من نفوسهم هوًى، وردًّ حجبهم ذلك عن مخالصته وبعَّدهم عن مُصافاته، وهذه هى أوصافهم عائدة لهم وعليهم. فحبُّ هؤلاء حُوَّلٌ قُلَّبٌ؛ لأن الأفعال التى أحبوه لأجلها تَحُول فيحولون، وتختلف عليهم بالمكاره والمرائر فيختلفون. وفى هؤلاء: المريدون، والعاملون، والراجون، والطامعون، والتائبون، وأصحاب اليمين من هؤلاء.

وقد قال بعض العارفين: كل محبةٍ كانت عن عِوض إذا زال العِوض زالت المحبة. فمنهم من عرف حاله فى مقامه، فاعترف بنقصان محبته، وتقصير شهادته، واستغفر منها وأناب. ومنهم من لُبِّس عليه ذلك لنقصان مزيده، وضعف يقينه، وكانت محبته محبة الأفعال ومحبة النفس فى المآل، وهو يتوهم أنها محبة الجلال والجمال عن صفات متصلة بذات. ويخاف على مثل هذا الانقلاب عند كشف الغطاء؛ لأنه فى اغترار وفتنةٍ والتباسٍ ومحنةٍ، وفى طريق مكرٍ وهَلَكة إلاّ

أن تداركه رحمةٌ من ربه، فيوقفه فى حدِّه من مقامِه، ويرده إلى حاله من مكانه، فيتوب من محبته، ويستغفر من شهادته. فحينئذ يرحمه الله تعالى، فيدخله فى أهل العفو، ويستر عليه فى الآخرة، كما ستر عليه فى الدنيا، فيُلْقِيه تحت الستر فى الدارين.

وهذه بعض مخاوف الصادقين من المحبين؛ لأنها محبة إظهار لا ظهور، فصاحبها فى تقلب وغرور، إلا أن أهل محبة الأفعال ينقسمون قسمين: منهم من أحبه لأجل أفعاله، إلا أنّه يشهدها منه، فيراه فيها، فهو يتصبَّر له، ويتعمَّل فى المجاهدة، ويجتهد فى تنقية محابِّه لبقاء حاله، فهذا أعلاهما، وهذه محبة عموم لأهل الآخرة الذين لا يشهدون سواها، ولا يطلبون إلاّ إياها. ومنهم: من تتغير عليه الأفعال وتخرجه من الاعتياد، وتتابع عليه البلاء، وينقصه من العوافى فى المال والنفس، فيخرج صفته، ويظهر منه تسخطه وتبرُّمه به. فهذا قد افتضح بدَعوى المحبة، وقد كشفه بعد ستره، فلم يزن فى المحبين حبة، وهذه محبة أهل الدنيا، الذين هم لها يكدحون، وإياها يطلبون.

وقد سئل الجنيد رحمه الله تعالى عن المحبة، فقال: الناس فى محبة الله خاصٌّ وعامٌّ. فالعوامُّ نالوا ذلك بمعرفتهم فى دوام إحسانه وكثرة نعمه، فلم يتمالكوا أن أرضوه، إلاّ أنهم تقلّ محبتهم وتكثر على قدر النِّعم والإحسان. فأما الخاصة فنالوا المحبة بعظم القدر والقدرة، والعلم والحكمة، والتفرد بالملك، فلما عرفوا صفاته الكاملة وأسماءه الحسنى لم يمتنعوا أن أحبّوه، إذ استحق عندهم المحبة بذلك؛ لأنه أهل لها، ولو أزال عنهم جميع النعم.

ومن الناس من يكون محبًا لهواه، أو لعدو الله إبليس، وهو يدعى ـ لعظيم جهله وطول غرته ـ المحبةَ لله تعالى.

قال بعض علمائنا: عوتب أبو محمد فى قوله لكل أحد: يا دُوست. قال: فقلتُ له: قد لا يكون حبيبًا كما تقول. فقال فى أذنى سرًا: لا يخلو، إما أن يكون مؤمنًا أو منافقًا؛ فإن كان مؤمنًا فهو حبيب الله عز وجل، وإن كان منافقًا

فهو حبيب إبليس.

ومن محبة الهوى إيثارُ عاجل حظّ النفس على آجل ما وُعدت به، ويقدم محبتها على محبة الله عز وجل، وهى مطبوعة على محبة الهوى وكراهة الحق، وأمَّارةٌ بالسوء فيما تُسِرُّ، كذَّابةٌ فيما تُظهر من الخير. قال الله سبحانه وتعالى: **﴿وَعسَى أَنْ تَكرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيرٌ لَكُمْ وَعَسى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُم﴾** [البقرة:٢١٦]، فقرَن محبتها بالشّرِّ وقَرَن كراهتها بالخير، والعرب تسمى النفس كَذبة، أى التى يكثر منها الكذب، يصفونها بالمبالغة فيه، على معنى قوله: **﴿وَيلٌ لكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزة﴾** [الهمزة:١] أى الذى يُكثر همزَ الناس وَلَمزَهم. وكذلك وصفها الله تعالى بالمبالغة بالأمر بالسوء فقال: **﴿لأمَّارةٌ بالسُّوءِ﴾** [يوسف:٥٣] أى فعاله التى يكثر منها الأمر، ويتكرر مرة بعد مرة، من وصفها الفعل، ومن محبة العدو طاعته وموافقته؛ لأن فيها كراهة الله تعالى ومخالفته، وهو مجبولٌ على ضدّ ما يحب الله تعالى، والله تعالى يحب ضدَّ ما جعله عليه، وذلك ابتلاء من الله تعالى له، وابتلاءٌ منه به لنا.

واعلم أن قليل ما أعطاك الله عز وجل من الإيمان به، وصحةِ التوحيد له، ويسير ما قسم الله تعالى لك من الإخلاص والصّدق وحسن المعاملة ـ خيرٌ لك وأنفع من كثير ما أظهر لك وعرّفك. وإنّما لك بما رأيته وأطَلْتَه ونلته بيدك، وما مُلّكته وسُلِّطت عليه من منازلتك. فأما ما لم تُطِلْهُ ولم تنله فهو لغيرك، لأنك قد ترى السماء ولا تنالها، فهى أرضٌ لمن سُخِّرت له، وترى ما جُعل لغيرك فلا ينفعك، ولا يغنى عنك، وهو نافع مغنٍ لمن سُلِّط عليه فَمَلَكَهُ. ومن الناس من يتوهَّم أن الإظهار هبةٌ له، وأن ما رآه وعرفه مَلَكه وحازه وتحقّق به.

واعلم أن ألفَ خاطرٍ لا يجىء منها حال، وألف حال لا يكون منها مقام، والمقام إنما هو ما ثبت ودام. فمثل الخواطر فى ممرها كالسحاب فى سيرها، وقيل فى المثل: «سحابة صيف عن قليل تقشع». ومثل الأحوال فى حَيلُولَتِها كمثل

الأزمنة فى أحوالها، فى كل سنة أربعة: مشتًا، ومصيف، ومربع، وخريف. وإنما الهبة من الله تعالى ما وقر فى القلوب من المشاهدات، وما حققته الأعمال من المنازلات، فيُورث ذلك عِلمًا خاصيًا، أو خلقًا مرضيًا، أو حالاً سنيًا، أو وصفًا زكيًا من أخلاق الصالحين، وسيما المتقين، وعلوم العارفين، وملاحظات المقربين.

ولا يصلح الكلام بهذا العلم إلاّ لمن له مشاهدةٌ منه إن كان من علوم القدرة والتوحيد، أو منازلة إن كان من مواريث الأعمال، وعن تنقيل الأحوال أو عن زُهد فى الدنيا، وسعى فى طلب الأخرى إن كان من علم الوعظ والنّدب إلى الفضل، فذلك كلّه بعد التوبة ومع حال الاستقامة، وعن كمال علم السنَّة والجماعة، بعد معرفةٍ بعلم الأصول والسُّنن من آثار الرسول. وإلاّ كان متكلِّفًا، وفى الدعوى داخلاً، إلا أن يحكى شيئًا سمعه، فيكون به لقائله محاكيًا، أو يُضيف حالاً إلى صاحبه، فيكون عنه راويًا.

فأما التحلى وهو اللباس الظاهر، والتصنع المفتعل بالإشارات الفارغة، فهو من حلية الدنيا وزينة الهوى. وكذلك التمنى، وهو ما يظنه العقلُ أو توهَّمته النفس وقدَّره الوهم، أو مِن وسوسة العدو الخنّاس، لعنه الله تعالى، فليس هذا كله من الإيمان، ولا من علم اليقين فى شىء، بل هو من هَمَزات الشياطين وخطراتهم وقُرب محضرهم؛ لأن هـذا العلم دواء القلوب من أدواء الذنوب، وقـد قال رسول الله ﷺ: «مَن تطبَّب ولم يعلم منه طبٌ فقَتل، فهو ضامن»، فالمتكلم للناس بقتلهم يكون قاتلاً، والإظهار الذى يقع به الاغترار أكثر من أن يحصى، والظهور الذى يحق به الحقيقة أعزُّ من أن يُرى، والله تعالى يظهر من خزانة مُلكه ما شاء على الألسنة والجوارح، فهى كخزائنِ الأرض، فيها من التدبير والحكمة كما فى تلك، وعلوم هذه الخزائن هى العلوم الظاهرة، وهى حجج الله تعالى فى أرضه وعلى عباده، ويُظهر من خزائن ملكوته ما يحب، وهى القلوب والبصائر والكنوز والذخائر، فهذه كخزائن الملكوت وهى من خزائن السماء، وفيها من القُدَر والآيات كما فى السموات، وعلوم هذه الخزائن من علم اليقين، وهو العلم

الباطن النافع، يخص به من يحب، وهم أولياؤه المقربون، إن الحكم إلا لله، ولا يشرك فى حكمه أحدًا، يختص برحمته من يشاء، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

وهذا آخر شرح مقام المحبة، وهو آخر شرح مقامات اليقين التسعة.

***



فهرس موضوعات الجزء الثانى

الموضـــــــوع الصفحة

الموضـــــــوع | الصفحة



الجزء الثالث

قوت القلوب

في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد

للشيخ أبي طالب المكي

محمد بن علي بن عطية

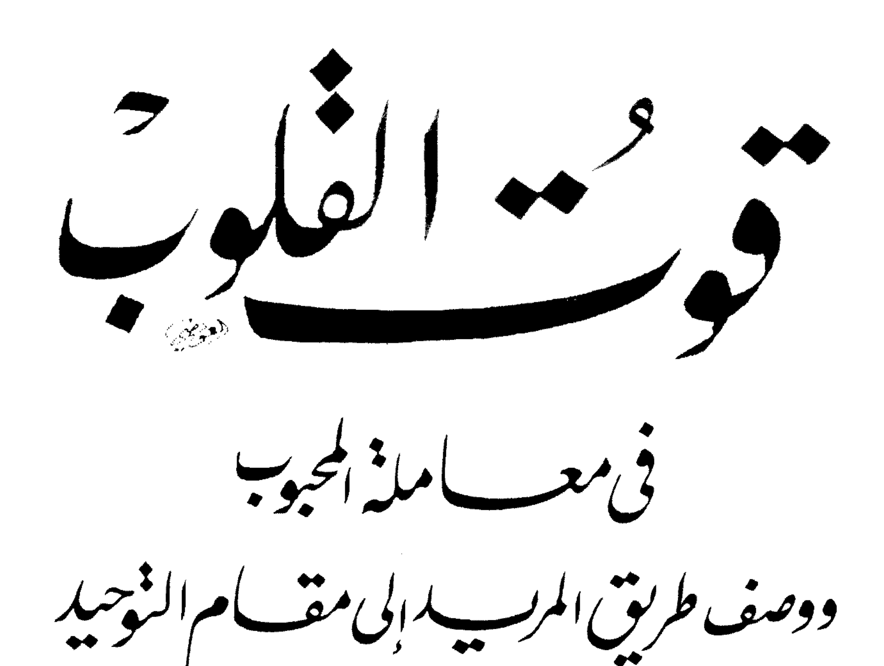
ت ٣٨٦ هـ

حققه وقدم له وعلق حواشيه

د. محمود إبراهيم محمد الرضواني

مكتبة

دار التراث



للشيخ أبى طالب المكى
محمد بن على بن عطية
(ت ٣٨٦ هـ)

حققه، وقدم له، وعلق حواشيه
د. محمود إبراهيم محمد الرضوانى
دار العلوم - جامعة القاهرة

الجزء الثالث

مكتبة دار التراث

الطبعة الأولى
١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م



مكتبة دار التراث
٢٢ شارع الجمهورية - القاهرة - ت : ٣٩١٤٢٢٣

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الثالث والثلاثون (١)

فى ذكر دعائم الإسلام الخمس التى بنى عليها (٢)

أول ذلك فرض شهادة التوحيد للمؤمنين، ووصف فضائلها، وهى شهادة المقربين، وشهادة الرسول ﷺ، وفضلها للموقنين

قال الله تعالى، وصدقت أنبياؤه لرسوله ﷺ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ واستَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [محمد:١٩]. وقال لعباده يأمرهم بمثل ذلك: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنزِلَ بِعِلْمِ اللهِ وأن لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ﴾ [هود:١٤].

ففرض التوحيد هو اعتقاد القلب أنّ الله تعالى واحد لا من عدد، وأولُ لا ثانى له، موجودٌ لا شك فيه، حاضر لا يغيب، عالم لا يجهل، قادر لا يعجز، حى لا يموت، قيُّوم لا يغفُل، حليم لا يَسفَه، سميع بصير، ملك لا يزول ملكه، قديم بغير وقت، آخِرٌ بغير حدٍّ، كائن لم يزل ولا تزال الكينونة صفته لم يحدثها لنفسه، دائم أبد الأبد لا نهاية لدوامه، والديمومة وصفه غير محدثها لنفسه، لا بداية لكونه، ولا أولية لقِدَمه، ولا غاية لأبديته، آخرٌ فى أوليته، أولٌ فى آخريته، وأن أسماءه وصفاته وأنواره غير مخلوقة له، ولا منفصلة عنه، وأنّه أمامُ كلِّ شىء، ووراء كل شىء، وفوق كل شىء، ومع كل شىء، وأقربُ إلى كل شىء من نفس الشىء، وأنه مع ذلك غيرُ مَحَلٍّ للأشياء، وأن الأشياءَ ليست محلاً له،

(١) فى (د): «الفصل الثانى والثلاثون».

(٢) ما ذكره أبو طالب فى هذا الفصل من أحكام واستنباطات وأوصاف، هو كلام عزيز نادر نفيس، لا تجده مقيدًا مجموعًا فى كتاب آخر، فعَضّ عليه بالنواجذ وأعد قراءته مرارًا حتى يقع فى قلبك وعقلك.

وأنه على العرش استوى كيف شاء بلا تكييف ولا تشبيه، وأنه بكلِّ شىء عليم، وعلى كل شىء قدير، وبكل شىء محيط.

الجوُّ زَوْجُه الفضاء من ورائه، والهواء زَوْجه المكان من ورائه، والحول زوجه[1] البعد من ورائه. وهذه كلها حجب مخلوقات من وراء الأرضين والسموات، متصلات بالأجرام اللطاف، ومنفصلات عن الأجسام الكثاف، وهى أماكن لما شاء، داخلة فى قوله: ﴿ومِنْ كُلِّ شىءٍ خَلَقْنا زَوْجَينِ﴾ [الذاريات: ٤٩]، داخلة فى قوله ﷺ: «ربنا لك الحمدُ ملءَ السموات وملء الأرض، وملء ما شئت من شىء بعدُ».

والله جل جلاله وعظُم شأنه هو ذات منفردٌ بنفسه، متوحدٌ بأوصافه، لا يمتزج ولا يزدوج إلى شىء، بائنٌ من جميع خلقه، لا يحل الأجسامَ، ولا تحله الأعراضُ، ليس فى ذاته سواه، ولا فى سواه من ذاته شىء ، وليس فى الخَلق إلا الخلق، ولا فى الذات إلا الخالق. فتبارك الله أحسن الخالقين.

وإنه تعالى ذو أسماء وصفات، وقدرة وعظمة، وكلام ومشيئة وأنوار، كلها غير مخلوقة ولا محدثة، بل لم يزل قائمًا موجودًا بجميع أسمائه وصفاته وكلامه وأنواره وإرادته، وإنه ذو الملك والملكوت، والعزة والجبروت، له الخلق والأمر، والسلطان والقهر، يحكم بأمره فى خلقه وملكه ما شاء كيف شاء، لا معقِّب لحكمه، ولا مشيئة لعبدٍ دون مشيئته، إذا شاء شيئًا كان، ولا يكون إلا ما شاء، لا حول لعبد عن معصيته إلا برحمته، ولا قوة لعبدٍ على طاعته إلا بمحبته، وهو واحد فى جميع ذلك، لا شريك له، ولا معين فى شىء من ذلك، ولا يلزمه إثباتَ الوعيد، بل المشيئة إليه فى العفو، ولا يجب عليه فى الأحكام ما أجرى علينا، ولا يُختبر بالأفعال، ولا يشير بالمقال. حكيم عادل بحكمة وعدل، هما صفتاه لا تُشبَّه حكمته بحكمة خَلْقه، ولا يُقاس عدله بعدل عباده، ولا يلزمه من الأحكام ما ألزمهم، ولا يعود عليه من الأسماء المذمومة كما يعود عليهم. قد جاوز العقول، وفات الأفهامَ والأوهامَ والعقولَ، هو كما وصف نفسه، وفوق ما

(١) «زوجه» فى المواضع الثلاثة بالمطبوعة: «وجه و»، وأثبت ما فى الأصول الثلاثة.

وصفه خلقه، نَصِفُه بما ثبتت به الرواية وصحّت عن رسول الله ﷺ.

وإنه ليس كمثله شىء فى كل شىء، بإثبات الأسماء والصفات، ونفى التمثيل والأدوات. وإنه سبحانه وتعالى لم يزل موجودًا بصفاته، كلها لم تزل له، وإن صفاته قائمة به لم تزل كذلك، ولا يزال بلا نهاية ولا غاية ولا تكييف ولا تشبيه ولا تثنية، بل بتوحيد هو متوحد به، وتفريد هو متفردٌ به، لا يجرى عليه القياس، ولا يُمثَّل بالناس، ولا يُنعت بجنس، ولا يُلمس بحس، ولا بجنس من شىء، ولا يزدوج إلى شىء، وإن ما سوى أسمائه وصفاته وأنواره وكلامه من الملك والملكوت محدَث كله ومُظهَر. كان بعد أن لم يكن، ولم يكن قديمًا ولا أول، بل كان بأوقات محدثة، وأزمان مؤقتة. والله تعالى هو الأزلىُّ الذى لم يزل، الأبدىُّ الذى لم يَحُلْ، القيوم بقيومية هى صفته الديموم، بديمومية هى نعته، أولٌ بلا أول، ولا عن أول، آخرٌ لا إلى آخرٍ، بكينونةٍ هى حقيقته. أحدٌ صمدٌ لم يلد، وبمعناه لم يولد، ومعنى ذلك لم يتولد هو من شىء، ولم يتولد منه شىء، ومثل ذلك لم يُخلق من ذاته شىء، كما لم تُخلق ذاته من شىء، سبحانه وتعالى عمّا يقول الملحدون من ذلك علوًا كبيرًا.

• ذكر فرض شهادة الرسول ﷺ:

قال الله تعالى الكبير المتعال: **﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُونَّهُ﴾** [آل عمران: ٨١]. وقال عز وجل: **﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾** [النساء: ٨٠]. وقال: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ﴾** [الفتح: ١٠].

ففرض شهادة الرسول ﷺ أن تشهَد أن محمدًا رسول الله ﷺ، خاتم الأنبياء، لا نبى بعده، وكتابه خاتم الكتب، لا كتاب بعده، وهو مهيمنٌ على كل كتابٍ، ومصدقٌ لما سلف من الكتب قبله. وأن شريعته ناسخةٌ للشرائع، قاضيةٌ عليها إلا ما أقرّه كتابه ووافقه، وكتابه شاهدٌ على الكتب وحاكم عليها. وأنه هو الذى بشَّر به عيسى عليه السلام أمته، وهو الذى أخبر به موسى عليه السلام أمته، وهو

المذكور فى التوراة والإنجيل وسائر كتب الله عز وجل المنزَّلة، وهو الذى أخذ الله ميثاق النبيين أن يؤمنوا به وينصروه لو أدركوه، فأقروا بذلك وشهد الله تعالى على شهادتهم، وهو الذى أخذت الأنبياء شهادة الأمم على الإيمان به، وأمرتهم بتصديقه، وأخبرتهم بظهوره. وأن موسى وعيسى عليهما السلام لو أدركاه لزمهما الدخول فى شريعته، وأن بقية بنى إسرائيل من اليهود والنصارى كفرةٌ بالله لجحودهم رسالته، وأن إيمانهم بكتابه مفترضٌ عليهم، مأمور به فى كتبهم، وعلى ألسنة رسلهم، وأن طاعته ومحبته فريضة واجبةٌ على الكافة كطاعة الله تعالى، واتباعَ أمره واجتنابَ نهيه مفترضة على الأمة إيجابًا أوجبه الله تعالى له، وفرضًا افترضه على خلقه متصلٌ بفرائضه.

• ذكر فضائل شهادة الرسول ﷺ:

قال الله تعالى: ﴿**قُل إِنْ كُنُتم تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونى يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِر لَكُم ذُنُوبَكُم**﴾ [آل عمران: ٣١]. وقال الرسول ﷺ: «لا يؤمن عبدٌ حتى أكونَ أحبَّ إليه من أهله وماله والناس أجمعين». وقال ﷺ: «لو أدركنى موسى وعيسى ما وسعهما إلاّ اتباعى». وروينا فى لفظ آخر: «ثم لم يؤمنا بى لأكبَّهما الله فى النار».

وحدثونا فى الإسرائيليات أن رجلاً عصى الله تعالى مائتى سنة، فى كلها يتمرد ويجترئ على الله. فلما مات أخذ بنو إسرائيل برِجله وألقوه على مزبلة، فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام أن غسِّله وكفِّنه وصلِّ عليه فى جميع بنى إسرائيل، ففعل ما أُمر به، فعجب بنو إسرائيل من ذلك، وأخبروه أنه لم يكن فى بنى إسرائيل أعتى على الله ولا أكثر معاصٍ منه. فقال: قد علمتُ، ولكن الله تعالى أمرنى بذلك. قالوا: فاسأل لنا ربك. فسأل موسى عليه السلام ربه فقال: يا رب، قد علمتَ ما قالوا. فأوحى الله تعالى إليه أن صَدَقُوا، إنه عصانى مائتى سنة، إلا أنه يومًا من الأيام فتح التوراة، فنظر إلى اسم حبيبى محمدٍ مكتوبًا، فقبَّله ووضعه على عينيه، فشكرتُ له ذلك، فغفرت له ذنوب مائتى سنة.

وحُدِّثنا فى معناه عن العباس بن عبد المطلب قال: كنت مؤاخيًا لأبى لهب،

مصافيًا له، فلما مات وأخبر الله تعالى عنه بما أخبر، حزنت عليه، وأهمنى أمره، فسألت الله تعالى عليه حولاً أن يرينى إياه فى المنام. قال: فرأيته يلتهب نارًا، فسألته عن حاله فقال: صِرتُ إلى النار فى العذاب، لا يُخفَّف عنى ولا يروَّح إلا ليلة الاثنين فى كل الليالى والأيام، فإنه يُرفع عنى العذاب. قلت: وكيف ذلك؟ قال: وُلد فى تلك الليلة محمد ﷺ، فجاءتنى أميمة فبشَّرتنى بولادة آمنة إياه، ففرحت بمولده فأعتقت وليدة لى فرحًا مِنّى به، فأثابنى الله تعالى بذلك أن رفع عنى العذاب فى كل ليلة اثنين لذلك.

وقال الله تعالى فى تحقيق المحبة: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾. ثم قال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]. فمن محبة الرسول ﷺ إيثار سننه على الرأى والمعقول، ونصرته بالمال والنفس والقول. وعلامة محبته اتباعه ظاهرًا وباطنًا.

فمن اتّباعه ظاهرًا: أداء الفرائض، واجتنابُ المحارم، والتخلق بأخلاقه، والتأدبُ بشمائله وآدابه، والاقتفاءُ لآثاره، والتجسس عن أخباره، والزهد فى الدنيا، والإعراض عن أبنائها، ومجانبة أهل الغفلة والهوى، والترك للتكاثر والتفاخر من الدنيا، والإقبال على أعمال الآخرة، والتقرب من أهلها، والحبُّ للفقراء والتحبب إليهم وتقريبهم، وكثرة مجالستهم، واعتقاد تفضيلهم على أبناء الدنيا، ثم الحبُّ فى الله للقريب المحب[1]، وهم العلماء، والعبَّاد، والزهَّاد، والبغضُ فى الله للبعيد المذنب[2]، وهم الظلمة المبتدعة والفسقة المعلنة.

ومن اتباع حاله فى الباطن: مقاماتُ اليقين، ومشاهداتُ علوم الإيمان، مثل الخوف، والرضا، والشكر، والحياء، والتسليم، والتوكل، والشوق، والمحبة، وإفراغ القلب لله، وإفراد الهم بالله، ووجود الطمأنينة بذكر الله.

فهذه معاملات الخصوص، وبعض معانى باطن الرسول، وهو من اتباعه ظاهرًا

(١) فى المطبوعة و(د، هـ): «للبعيد المبغض»، وأثبت ما فى (م) لأنه أصح.
(٢) فى المطبوعة و(د، هـ): «للقريب المحب»، وأثبت ما فى (م).

وباطنًا، فمن تحقق بذلك فله من الآية نصيبٌ موفور، أعنى قوله تعالى: ﴿قُل إِن كُنتُم تُحبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونى يُحبِبكُمُ اللهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

وقد كان سهل يقول: علامة المحبة لله اتباع الرسول، وعلامة اتباع الرسول ﷺ الزهد فى الدنيا. وقال أيضًا فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ والرَّسُولَ فَأُولِئكَ مَعَ الَّذِينَ أَنعَمَ اللهُ عَلَيهِم﴾ [النساء: ٦٩]، قال: يطيع الله فى فرائضه، والرسول فى سننه.

فإذا اجتنب العبد البدع، وتخلق بأخلاق الرسول ﷺ، فقد اتبعه وقد أحبّ الله تعالى، وكان معه ﷺ غدًا مرافقًا فى منزلته.

• ذكر فضائل شهادة التوحيد ووصف توحيد الموقنين:

قال الله تعالى: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائكَةُ وَأُولُو العلمِ قَائمًا بِالقِسطِ﴾ [آل عمران: ١٨]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِم قَائِمُونَ﴾ [المعارج: ٣٣].

فشهادة الموقن بيقينه أن الله تعالى هو الأولُ فى كل شىء، وأقرب من كل شىء، وهو المعطى المانع الهادى المضل، لا معطى ولا مانع ولا ضار ولا نافع إلا الله، كما لا إله إلا الله، ويشهد قربَ الله منه، ونظره إليه، وقدرته عليه، وحيطته به، فيسبق نظره وهمُّه إلى الله عز وجل قبلَ كل شىء، ويذكره فى كل شىء، ويخلو قلبه من كل شىء، ويرجع إليه فى كل شىء، ويتألَّه إليه دون كل شىء، ويعلم أن الله عز وجل أقربُ إلى القلب من وريده، وأقرب إلى الروح من حياته، وأقربُ إلى البصر من نظره، وأقربُ إلى اللسان من ريقه، بقربٍ هو وصفه لا بتقريب ولا بتقرّب، وأنه تعالى على العرش فى ذلك كله، وأنه رفيع الدرجات من الثرى، كهو رفيع الدرجات من العرش، وأن قربه من الثرى ومن كل شىء كقربه من العرش، وأن العرش غير ملامس له بِحسٍّ، ولا مُفكِّرٌ فيه بوَجْس، ولا ناظرٌ إليه بعين، ولا محيطٌ به بدَرَك، لأنه تعالى محتجبٌ بقدرته عن جميع بريَّته،

ولا نصيب للعرش منه إلا كنصيب موقنٍ عالمٍ به، واجدٍ بما أوجده منه، من أن الله تعالى عليه، وأن العرش مطمئنٌ به، وأن الله تعالى محيط بعرشه، فوق كل شيء، وفوق تحت كل شيء، فهو فوق الفوق، وفوق التحت، ولا يوصف بتحتٍ فيكون له فوق، لأنه هو العلى الأعلى أين كان، لا يخلو من علمه وقدرته مكان، ولا يُحَدُّ بمكان، ولا يُفقد من مكان، ولا يُوجد بمكان، فالتحت للأسفل، والفوق للأعلى، وهو سبحانه فوق كلِّ فوق، وفوق كل تحت فى السمو، هو فوق ملائكةِ الثرى كهو فوق ملائكة العرش. والأماكن للممكنات، ومكانه مشيئته، ووجوده قدرته، والعرش والثرى وما بينهما هما حد للخلق الأسفل والأعلى، بمنزلة خَردلة فى قبضته، وهو أعلى من ذلك، ومحيطٌ بجميع ذلك، بحيطةٍ هى صفتُهُ، وسَعَة هى قدرته، وعلوٍّ هو عظمته، بما لا يدركه العقل، ولا يكيِّفه الوهم، ولا نهاية لعُلوِّه، ولا فوق لسُمُوِّه، ولا بُعد فى دُنُوِّه، ولا حسَّ فى وجوده، ولا مس فى شهوده، ولا إدراك لحضوره، ولا حيطة لحيطته.

وقد قال الله تعالى للكل: ﴿**يَخَافُونَ رَبَّهُم مِن فَوقِهِم**﴾ [النحل: ٥٠]. وقال سبحانه: ﴿**سَبِّحِ اسمَ رَبِّكَ الأَعلَى**﴾ [الأعلى: ١]. وقال عز وجل: ﴿**أَلاَ إِنَّهُ بِكُلِّ شىءٍ مُحِيطٌ**﴾ [فصلت: ٥٤].

وإن الله تعالى لا يحجبه شيءٌ عن شيء، ولا يبعد عليه شيءٌ قريب فى كلِّ شيء بوصفه، وهو القدرة والدَّرَك، والأشياء مبعدة بأوصافها، وهو البُعد والحَجَبة. فالبعد والأبعاد حُكم مشيئته، والحدود والأقطار حُجُب بريَّته، والمسافة والتِّلقاء مكانةٌ لسواه، والنواحى والجهات موضع للمحدثات، والنهار والليل مسكن للمصرِّفات، والبعدُ والفضاء مكانٌ للمخلوقين، والتوسعة والهواء محل للعالمين، والأحكام والأقدار واقعةٌ على خلقه.

وهو سبحانه وتعالى قد جاوز المقدار والأحكام، وفات العقولَ والأوهامَ، وسبق الأقدار، واحتجب بعزّه عن الأفكار، لا يصوره الفكرُ، ولا يَملكه الوهمُ، حُجب عن العقول يُسبِّح ذاته، ولم تحكم العقول بدرك صفاته، إذ ليس كمثله شيء فيُعرف بالتمثيل، ولا له جِنس فيقاس على التَّجنيس، وهو اللهُ فى السموات

وفى الأرض، ثم استوى على العرش، وهو معكم أينما كنتم، غيرُ متصلٍ بالخلق، ولا مفارق، وغير مماسٍّ لكونٍ، ولا متباعد، بل متفردٌ بنفسه، متحد بوصفه، لا يزدوج إلى شيء، ولا يقترن به شيء، هو أقرب من كل شيء بقربٍ هو وصفه، وهو محيط بكل شيء بحيطةٍ هى نعته، وهو مع كل شيء، وفوق كل شيء، هو أمام كل شيء، ووراء كل شيء، بعلوٍّ ودنوٍّ هو قربه، فهو وراء الحول الذى هو وراء حملة العرش، وهو أقرب من حبل الوريد الذى هو الروح، وهو مع ذلك فوق كل شيء، ومحيط بكل شيء، وليس يحيط به شيء، وليس هو ـ تعالى ـ فى كل هذا مكانًا لشيء، ولا مكانًا له شيء، وليس كمثله فى كل هذا شيء، لا شريك له فى ملكه، ولا معين له فى خلقه، ولا نظير له من عباده، ولا شبيه له فى اتحاده، وهو أولٌ فى آخريته بأوليَّة هى صفته، وآخرٌ فى أوليته بآخرية هى نعته، وباطنٌ فى ظهوره بباطنية هى قُربه، وظاهر فى باطنيته بظهورٍ هو علوُّه، لم يزل كذلك أزلاً، ولا يزال كذلك أبدًا، لا يتوجه عليه التضاد، ولا تجرى عليه الحوادث والآباد، ولا ينتقص ولا يزداد. هو على عرشه باختياره لنفسه، فالعرشُ حدٌّ خلقه الأعلى، وهو غير محدود بعرشه تعالى، والعرشُ محتاج إلى مكانٍ، والرب غير محتاج إليه، كما كان الرحمن على العرش استوى. الرحمن اسمه، والاستواء نعته متصل بذاته، والعرش خلقه منفصل عن صفاته، ليس بمضطر إلى مكان يسعه، ولا حامل يحمله، ولا محيطة يجمعه، ولا خلق يُوجده، هو حامل للعرش وللحملة بخفيٍّ لطفه، وجامعٌ للعرش وللحفظة بلطيف صُنعه، وموجدٌ ما أحبّ لمن يُحب من التجلى بمعانى أسمائه وصفاته، بخفى لطفه ولطيف قربه، لاختصاص رحمته، وهو أظهر الكون من وراء الحول. هو ممكن للعرش ببسطه فى توسعة الحول، وهو محيط بالعرش والحول بالقدرة والطول، بخفى لطفه ولطيف قدرته، وهو لا يسعه غير مشيئته، ولا يظهر إلاّ فى أنوار صفته، ولا يوجد إلا فى سعة البسط، فإذا قبض أخفى ما أبدى، وإذا بسط أعاد ما أخفى، وكذلك جعله فى كل رسم كون، وفعله بكل اسم مكان؛ مما جَلَّ فظهر، ومما دقَّ فاستتر، لا يسعه غير مشيئته بقربه، ولا يُعرف إلا بشهوده، ولا يُرى إلا بنوره. هذا لأوليائه

اليوم بالغيب فى القلوب، ولهم ذلك غدًا فى المشاهدة بالأبصار.

ولا يعرف إلاّ بمشيئته، إن شاء وَسِعَه أدنى شىء، وإن شاء لم يسعه كلُّ شىء، إن أراد عرفه كلُّ شىء، وإن لم يرد لم يعرفه شىء، إن أحبّ وُجِد عند كلِّ شىء، وإن لم يُحب لم يوجد بشىء، وقد جاوز الحدود والمعيار، وسبق القَبْل والأقدار، ذو صفات لا تحصى ولا تتناهى، ليس محبوسًا فى صورة ولا موقوفًا بصفة، ولا محكومًا عليه بحكم، ولا موجودًا بلَمَمٍ. لا يتجلى بوصف مرتين، ولا يظهر فى صورةٍ لاثنين، ولا يرد منه بمعنًى واحد كلمتان، بل لكلٍّ تجلٍّ منه صورةٌ، ولكل عبد عند ظهوره صفةٌ، وعن كل نظرةٍ كلامٌ، وبكل كلمة إفهامٌ، ولا نهاية لتجلّيه، ولا غاية لأوصافه، ولا نفاد لكلمه، ولا انقطاع لأفهامه، ولا تكييف لمعانيه هذه، إذ ليس فى التوحيد كيف، ولا للقدرة ماهية، ولا يشبهه بهذه الأوصاف خلق، إذ ليس للذات كفؤ، إذا احتجب عن العَيان والأبصار رفع ذاته عن القلوب والأفكار، فلم يُخيِّله عقل، ولم يصوِّره فكر، لئلا يملكه الوهم، فيكون مَربوبًا وهو ربّ. ولا يُنظر إليه بفكر، فيكون مقهورًا وهو قاهر. لا يعقل بعقل لأنه عاقل العقل، ولا يدرك بحيطة وهو محيط بكل حيطة، حتى يتجلى آخرًا بإحسانه، كما تجلى أولاً بحنانه، فيُشهَد بحضوره، ويُنظَر إليه بنوره، وليس هذا لسواه، ولا يعرف بهذا إلاّ إياه.

وهذا منه لأوليائه اليوم بأنوار اليقين فى القلوب، وهو لهم منه غدًا بمعاينة الأبصار فى دار الحبيب، أبد الأبد فى الجنان، يتجلى لهم بعظائم القدرة ولطائف الحنان، ويكلمهم بما لا غاية له من لذيذ المعانى. يتجلّى بصفات الجلال، ويظهر بمعانى الحسن والجمال، ويبدو بلبس البهاء والكمال، يجمع لهم بأول معنى من معانيه، بما يوجدهم به من النعيم والسرور والفضل والحبور، بكل نظرة أو كلمة أو قرب أو لطف أو عطف أو حنان أو إحسان جميع ما فرَّقه من نعيم الجنان، وينظر إذا أحبّ إلى ما يحب اختيارًا، لا تهجم الأشياء عليه فى نظره إجبارًا، ويعرض عما شاء اختيارًا، لا تعترض المنظورات فى نظره اضطرارًا، ويعرض فى نظره لكبرياء عزه، وينظر فى أعراضه بلطائف عطفه. المُلك فى قبضته، والخزائن

في كلمته، والكون في مشيئته، والملكوت كله بيده، والجبروت والعظمة سُبُحات صفته، ووجود الأشياء لا يضطره إلى النظر إليها إن أراد الإعراض عنها؛ لأنه مقتدر قهار، وعدمها لا يضطره إلى أن يراها لسبق علمه بها؛ لأنها معلومٌ عَلِمهُ ذو الأخبار، ولأنه هو الجبار إذ الموجود والمعدوم يضطر غيره إلى النظر؛ لضعفه عن الامتناع، والعدم يضطر سواه إلى الفَقْد؛ لعجزه عن الاختراع.

وهو تعالى مباينٌ لسواه بعزِّه، غير مماثل لغيره بقهره، ولأنّ المعدوم كالمحجوب، وهو تعالى يرى المحجوب، من الذرة من تحت الثرى من وراء السموات والأرضين، ولا يحجبنَّ نفاذ نظره إليها، ولا يمنعنَّ قربه منها، ولا يحجزنَّ قدرته عليها، ولا يجاوز دون حيطته بها، إذ الحجب واقعة على الخلق غير متصلة بالخالق، وبواطن الأشياء وغوامضها منكشفة للخالق، وهو أيضًا يشهد المآل والأواخر إلى نهاية نهاياتها في أبد أبدها، كما يشهد ذلك اليوم أعنى من غدٍ وبعد غدٍ وما وراءه إلى يوم القيامة وما فيها. وهذا كله عدم لم يخلقه بعد، لأن علمه بذلك شهادة له؛ لأنه ليس بينه وبين علمه حجاب، فهو يشهد الكون من أوله إلى آخره من حيث علمه بعلم هو وصفه، ومشاهدةٌ هي نعته، ولأنّ كلامه بذلك يخبر بأنه قد كان دليلاً على شهوده المآب، لأنه شهد ما علم، كما علم ما به تكلم، فلم يتفاوت كلامه وعلمه، ولم يختلف علمه وشهادته، ومع ذلك كله فلا موجود في الأولية ولا المشاهدة سواه، ولا شريك له في القِدَم، ولا قيُّوم شاهدٌ إلاّ إياه. قوَّته كُنه قدرته، وقدرته دوامُ بقائه، ونظره سعة علمه، وعلمه مدى نظره، يدرك الأشياء كلها على اختلاف أوصافها بصفة من صفاته، ثم يدرك بجميع أوصافه ما أدركه بهذه الصفة، فصحّ ذلك أنه نَظَر وعَلِمَ وتكلَّم.

لا يدخل الترتيب في صفاته، أعنى بقَبْل وبَعْد، ولا يوصف بوقتٍ وحدٍّ، ولا يشبه بالتعقيب بقوته وأحكامه، أعنى بثُمَّ ولِمَ، وإذا وحتى، ولزم على ذلك أنه يعلم بنظره وينظر بعلمه، فصارت الأوائل والأواخر لديه كشيء واحد، وكانت صفاته كلها آحادًا كاملات تامات، غير محدودة للمحدودات، ولا مؤقتة مرتبة للمرتبات المؤقتات، إذ لم يكن لها محدثات، لأنها قديمة بقدمه، وكائنة موجودة

بكونه ووجوده، إذ الترتيب فى النعوت من وصف الخلق والأدوات لكونها محدثة مظهرات بحدود وترتيب وأوقات، والله تعالى ليس كمثله شىء فى كل الصفات، فصفاته قديمة بقدمه، وكائنة موجودة بكائنته ووجوده، والأفعال محدثة مظهرات بحدود وترتيب وأوقات، فلا موجود فى الأولية ولا المشاهدة سواه، ولا شريك له فى القِدَم، ولا قيوم له فى الأبد والأزل سواه قبل وجود الوقت. والحدثان ليست صفاته ذوات جهات، فيتوجه إلى جهته فيدرك بصفة دون صفة، ولا ذاته ذات ذوات فيقبل على مكان دون مكان، فيضطره الترتيب للمخلوقات، ولا يدبر الأمور بأفكار فيشغله شأن عن شأن، ولا يدخل عليه الاعتراض فيتغير عمّا كان، ولا يخلق بآلةٍ فيستعين بسواه، ولا يعجزه قدرة فيحتاج إلى مباشرة يديه. يخلق بيده إذا شاء، وعن كلمته إن شاء، وبإرادته متى شاء، وبمعانى صفاته كيف شاء، لا يضطره التكوين إلى الكلام، وكلامه إليه كيف شاء كان.

خزائنه فى كلمته، وقدرته فى مشيئته، إذا تكلم أظهر، وإن شاء قدّر، ومتى أحبّ ظهر، وبأى قدرة شاء استتر. هو عزيزٌ فى قربه، وقريب فى علوِّه، حَجب الذات بالصفات، وحجبَ الصفات بالفعال. كشف العلم بالإرادة، وأظهر الإرادة بالحركات، وأخفى الصُّنع بالصَّنعة، وأظهر الصنعة بالأدوات. هو باطنٌ فى غيبه، وظاهر بحكمهِ وقدرته، وغيبٌ فى حكمته، وحكمتُهُ شهادة ظاهرة بمحكوماته، وهى مجارى قدرته، وصنعه سرٌّ فى صنعته، وهى علانية مشيئته، ليس كمثله شىء فى كل صفة، ولا كقوله فى ماهيَّة.

وقد روينا عن أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه كلمةً مجملةً بالغة فى وصف التوحيد، أنه قال فى خطبته: الحمد للهِ الذى لم يجعل السبيل إلى معرفته إلا بالعجز عن درك معرفته.

وروينا عن أحمد بن أبى الحوارى عن بعض علماء أهل المعرفة من أهل الشام أنه قال: رأى عزّ وجل خلقه قبل أن يخلقهم، كما رآهم بعد ما خلقهم.

وروى عن أبى سليمان الدارانى أنه قال: أدخلهم الجِنان قبل أن يطيعوه، وأدخلهم النار قبل أن يعصوه.

وقال أيضًا: إن الله عز وجل أعز من أن يغضبه أفعالُ خلقه، لكنه نظر إلى قومٍ بعين الغضب قبل أن يَخْلقهم، فلما أظهرهم استعملهم بأعمال أهل الغضب، فأسكنهم دار الغضب؛ وهو أكبرُ من أن يرضيه أفعال خلقه، ولكنه نظر إلى قومٍ بعينِ الرضا قبل أن يخلقهم، فلما أظهرهم استعملهم بأعمال أهل الرضا، فأسكنهم دار الرضا.

وقد روينا عن ابن عباس في قوله عز وجل: ﴿هَل أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهرِ لَم يَكُن شَيْئًا مَذْكُورًا﴾ [الإنسان:١]؛ يعني: كان في علم الله أنه يكوِّنه، وكأنه علّق قوله: «لم يكن» بقوله: «مذكورًا».

والله تعالى يخبر بما يكون في الدنيا، وبما يكون في القيامة وبما بعدها، بلفظ أنه قد كان لاستواء ذلك في علمه آخرًا كأول، إذ لا ترتيب في العلم، ولا حد ولا مسافة ولا بعد في القدرة. وقد قال الله تعالى، وَمَن أصدقُ من الله قيلاً: ﴿أعندَهُ علمُ الغَيْب فَهُو يَرَى﴾ [النجم:٣٥] فنقصه بذلك وذمّه. وقال تعالى: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ في السَّاجِدِينَ﴾ [الشعراء:٢١٨ ـ ٢١٩] أي: ويرى تقلبك، وبه انتصب التقلُّبُ بالعطف على القيام.

وجاء في التفسير: تقلبك في الأصلاب الزّاكية، والأرحام الطاهرة، حتى أخرجك من بين أبَوَيك، لم يتفق لك أبوان على سِفاح قط.

وقيل: في أصلاب الأنبياء، يقلِّبك بالتنقيل في صلب نبي بعد نبي، حتى أخرجك من ذرية ورثة إسماعيل. وقد روينا معنى ذلك عن رسول الله ﷺ.

وقال تعالى في سمع الأصوات قبل خلق الأشباح: ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَولَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوجِهَا﴾ [المجادلة:١]. فأخبر أنه سمع الأصوات في القدم في علمه قبل خلق المصوِّتين في الحديث، فكيف لا يرى الكون عن آخره في القدم بعلمه، قبل ظهورهم له متصورين بفعله؟ وقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرنَاكُم ثُمَّ قُلنَا لِلمَلائِكَةِ اسجُدُوا لآدَمَ﴾ [الأعراف:١١]. والخلق والتصوير كانا بعد السجود لآدم، فأخبر عنه أولاً؛ لشهوده له، واستوائه في علمه، إذ لا بد من كونه، فأشبه

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوات وَالأَرضَ فى ستَّة أَيَّامٍ ثُمَّ استَوى عَلَى العَرشِ﴾ [الأعراف:٥٤]. والعرش قبل السموات والأرض، والاستواء صفته لم تزل به، ثم أخبر عنه أنه أخّر الترتيب، فالله سبحانه وتعالى عالمٌ بالكون قبل الكون، وناظر إلى علمه، لا حجابَ بينه وبين معلومه، وسامعٌ لما شهد، ومتكلم بما علم، فقد سبق النظر والسمع والكلام الكون كله من حيث سبق العلم والقدرة والمشيئة، فهو ناظر سامع متكلم بنفسه، من حيث كان عالمًا مقتدرًا مريدًا بنفسه، ثم أظهر الخلق عالَمًا بعد عالَم فى وقت بعد وقت، فجاءوا على نظره وسمعه وكلامه كما كانوا فى علمه وقدرته ومشيئته، بغير زيادة ذرةٍ ولا نقصان خردلةٍ، ألاَ ترى أنه بقدرته وعلمه يرى يوم القيامة وما فيها؟ والآخرةَ وما يكون منها على حقيقة ما أخبر عنه، لا يمنعه عَدَمُ الكون، ولا يحجبه بُعد التأخير. كذلك كان يشهد ما قد كان اليوم فى قديمه لعلمه به، وقدرته بقدرته عليه وحيطته به، لا يمنعه عدم كونه، ولا يحجبه فَقدُ ظُهوره، ولا يجوز أن يدرك سبحانه وتعالى اليوم ما لم يكن أدركه فى أزله، كما لا يجوز أن يستفيد الآن علم ما لم يكن علمه فيما لم يزل، فيكون متكلِّمًا بما لم يشهد، وهو معلومه منطوٍ فى علمه، أو يكون مستزيدًا بما أظهر حين ظهر، وهو فى قبضته وغيبه، جلّ عن ذلك وصفه، وعلا عن هذا جلاله وعزه؛ لأن نظره سَعة علمه، وعِلمَهُ حيطةُ نظرِهِ، فهو ناظر إلى ما علمه بوصفه، لا يختلف عليه أوصافه، فالكون موجودٌ له بعلمه، لسبق علمه به، ولا بيان له فى علمه، ولا أثر له فى وصفه، ولا وجود للكون فى وجود كينونته، ولا قِدَم له فى قِدَم أزليته وذاته؛ لأن علمه ليس محلاً للكون، ولا هو حالٌّ فيه؛ ولأن أوليته سبقت الكونَ والمكان، فليس لهما فى قِدَمه قِدَم كما أنه تعالى يشهد الآن ما يكون من العاقبة والمآل إلى آخر الأحوال، لا يختلف الأواخر والأُوَل فى صفاته، ولا تتفاوت صفاته على ترتيبها من نظر وعلم، لأنها معلوم علمه، وموجود إرادته، فهو سبحانه وتعالى واجدُ الأشياء به لا بها، وناظرٌ إليها فى علمه لا بوجودها؛ لاقتداره عليها، وإحاطة علمه بها، والكون معدوم لنفسه لتلاشيه، لأنّه سبحانه وتعالى خالقُ العدم كما هو خالق الوجود، ليس للعدم قِدَم مع قِدَمه فيكون ثانيًا

معه، ولا الكون كائنٌ موجودٌ بنفسه فيكون أولاً مع أوليته، جل الواحدُ المتحد بنفسه عن ثانٍ معه فى الأزل، أو شريك له فى القدم، ثم ظهرت الأشياء لنفوسها، فظهر بعضها لبعضٍ بإظهاره، فوُجدت بإيجاده، وظهر عليها بإظهاره بحد ووقت، فلا يجوز أن يساوى بها سبحانه لما ظهرت، إذ ليس فى صفات الله حدٌّ ولا وقت، ولا أول لها ولا قبل، بل هو الأول الذى لم يزل بلا أول، والقديم الأبد بلا وقتٍ ولا أمد، قائم بصفاته وصفاته موجودة له قائمة به، فمن شهد ما فصلناه بنور اليقين لم يدخل عليه قِدَمُ العالم، إذ لا قديم مع الله فى كينونية أزله.

ومن لم يهتد بما بيناه ووقف مع العقل، دخلت عليه شبهة قِدَم العالمِ، فألحدَ برؤيته قِدَم الحدثان، أو جحد قِدَمَ العالم بنفى وجود الحدث فيه. وهذا شرك بالصفات لترتيبه إيّاها بالمعقول.

ونحن بريئون من شهادته، مبطلون لدعواه، منكرون لشركه فى القدم، موحدون باليقين ما ألحد بالعقل؛ لأن من قال: إن شيئًا قديمٌ[١] مع الله تعالى، أو موجود بنفسه لنفسه، فقد أشرك فى الصفات. ومن قال: إن الله سبحانه نظر بعد أن لم ينظر، أو علم بعد أن لم يعلم، أو تكلم بعد أن لم يتكلم، فقد قال بحدوث الصفات، وقدّم عليها المعلومات، بل المعلومات منطويةٌ فى العلم لا أثر لها فيه، والله قديم بعلمه، وواجد لمعلومه بنفسه عن علمه به، وناظر إليه بعلمه لقدرته عليه بقهره، لا بعدم معلومه، والمعلوم معدومٌ لنفسه غير موجود بنفسه، حتى أحدثه وأوجده، فظهر حين أظهره لمن أظهره بعضًا لبعض لا لنفسه، إذ قد فرغ منه لعلمه به لا أنه قَرُب له نظره؛ كما لم يحدث به علمُه لنفسه، وعلمُه صفته لم يزل له، وهو قائم بوصفه، ولا يجوز أن يحدث له شيئًا لم يعلمه، كذلك لا ينبغى أن يفقد شيئًا لم يجده.

ومن اختلف عليه ما ذكرناه دخل عليه مذهب المعتزلة والجهمية؛ لأن المعتزلة مجمعة على اختلافهم أن الله تعالى لا يرى الشىء حتى يكون.

(١) فى المخطوط (م): «قديمًا. . . أو موجودًا. . .».

واختلفوا فى العلم، فقالت العبَّادية من القدرية، وهم أصحاب عبَّاد: إن الله تعالى لا يرى الشيء حتى يكون، يُضاهون بذلك قولَ النظَّام وبِشر المريسى فى أن الله تعالى لا يرى الأشياء حتى تكون.

والجهمية مُجمعةٌ على اختلافهم أن الله تعالى لم يتكلم بالشيء حتى كان، ثم خلق الكلام، فقدَّموا الكونَ قبل كلامه، كما قدمه أولئك قبل نظره.

وقال الجميع بحدوث النظر، كما قالوا بحدوث الكلام والنظر، لأنهم قالوا بحدوث الأسماء بعد حدوث المسميات، وتقدُّم الاستطاعة من الخلق على الإرادة من الخالق. فاستوى بذلك شِركهم وخرجُوا به من التوحيد.

كذلك كذبت العبادية من القدرية أصحاب عباد يضاهون قول النظَّامية والمريسية، تشابهت قلوبهم فيتبعون ما تَشَابه منه.

والمعتزلة أيضًا مجمعةٌ على نفى العلم والقدرة والمشيئة، إلا أنهم يقولون: عالمٌ ولكن لا يضطر علمه إلى شيء ولا يوجب شيئًا، فجعلوه كالظَّن من الخَلق، فقالوا: عالم بلا علم، قديم وقادر بلا قدرة، ومريد بلا إرادة سابقة، وقدّموا الاستطاعة من الخلق فقالوا: لئلا يلزمهم سبقَ المعلومات، وإن الإرادة والكلاَّم من نعوت الأفعال مخلوقان.

والجهمية أيضًا مجمعةٌ أن الله تعالى لا يتكلم بوصفه أصلاً، وإنما يظهر فى أديم الفضاء الكلام بخلق الأعراض فى الأجسام. فكان هذا عندهم هو التوحيد، لئلا يثبتوا مع الله قديمًا.

وهذا عند أهل السنة والجماعة هو الإلحاد، لنفى قِدمَ الصفات، والقول بحدوثها، وانفصالها عن الذات. وليس يختلف أهل اليقين بحمد الله تعالى فى جميع ما ذكرناه، كما لا يختلفون فى صحة التوحيد. وهذه شهادة الموقنين، وإيمان المقربين، فلا يتشبهنَّ لك العقل بالمعقول عن شهود ما ذكرناه، فيعقلك عن النفاذ للشهادة، فليس يُشهدُ ما ذكرناه من صفات الشهيد بنور العقل، وإنما يُشهد بنُور اليقين؛ لأن خالقًا لا يُشبه بمخلوق. ومن ليس كمثله شيء، لا يشهد إلاّ بما ليس كمثله شيء، وهو نور اليقين من نور القادر، ومن لم يجعل الله له نورًا فما

له من نور.

وما ذكرناه من وصفه تعالى هو ظاهر التوحيد المتصل بفرض الشهادة، لا يجرى على ترتيب المعقول، ولا يُمَثّل بقياس العقول؛ لأن نفىْ الصفات وإثباتها بالمماثلات موجودٌ فى رأى العقول، كما أن الكفرَ والضلال موجودٌ فى طبائع النفوس، لعدم شهادة الأبصار، ولفقد وجود مشاهدة الإلهية فى تخيُّل الأفكار، ولجريان المعتاد والعرف فى ظهور الأسباب.

كما حُدِّثنا أن بعض الصدّيقين دعا إلى الله سبحانه وتعالى بحقيقة التوحيد، فلم يستجب له إلاّ الواحد بعد الواحد. فعجب من ذلك، فأوحى الله تبارك وتعالى إليه: تريد أن تستجيب لك العقول؟ قال: نعم. قال: احجبنى عنهم. قال: كيف أحجبك وأنا أدعو إليك؟ قال: تكلّم فى الأسباب، وفى أسباب الأسباب. قال: فدعا إلى الله تعالى من هذه الطرق، فاستجاب له الجمُّ الغفير.

فإنما صحة التوحيد بإثبات الصفات وأوصاف الذات التى جاءت بها السُّنن وشريعة الرسول ﷺ، مع نفى الشَّبه والماهِيَّة،ونفى الجِنس والكيفية، ثم سكون القلبِ وطمأنينة العقل إلى الإيمان بهذا، والتسليمُ له لأجل نور اليقين الموهوب، لأن هذا إنما يشهد بنور اليقين وعلمه، لا بعلم العقل ونوره، لأن الخالق لا يرى بمخلوق، فالعقل مرآة الدنيا بنوره يشهد ما فيها، والإيمان مرآة الآخرة وبه ينظر إليها، فيؤمن بما فيها. والله تعالى إنما يُرى بنور اليقين، فهذا مرآة التوحيد، وفى هذا النور مشاهدة الصفات، وهو حقيقة الإيمان، وأعزُّ ما نزل من السماء، وهو السّكينة المنزَّلةُ فى قلوب المؤمنين، لمزيد الإيمان، ولتعريف صفات المؤمن معها، بترك ضرب الأخبار بعضها ببعض، ومعارضة بعضها بعضًا، أو ترتيب بعضها على بعض، بل يؤمنُ بكلِّ خبر ورد فى الصفات والقدرة على حدته، كما يسلّم جميعها على الجملة بإسلامه، وإلا أدى ذلك إلى نفى بعضها، أو إبطال جميعها؛ لأنّا أخذنا الإيمان بمنَّة الله تعالى ورحمته من قِبَل: التصديق، واليقين، والنّقل؛ لا من قِبل: التقليد، وحسن الظّن، والعقل.

وأربعة أشياء تُسلَّم ولا تُعارَض اعتراضًا: أخبار الصفات، وأصول العبادات،

وفضائل الأصحاب، وفضائل الأعمال. ولولا أن الله تعالى تولى قلوب المؤمنين فحبّب الإيمان إليها وزيّنه فيها، وكرّه الكفر وشانه عندها، لتاهوا فى الظلمات، وغرقوا فى بحار الهلكات، لظهور الأغيار ومعاينة الأسباب، ولغيب القدرة عن العيان، ولما ابتلوا به من الحجُب والأعيان، ولكنّ الله تعالى سلّم، وحبّب الإيمانَ فى القلوب وزيّن، وكرّه الكفرَ والعصيانَ وشيّن. وكذلك مدح المؤمنين بالغيب المستور، ومن ذلك سبق المقربون بمُشهادة النور، فقال سبحانه وتعالى: ﴿**اللهُ وَلِىُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**﴾ [البقرة:٢٥٧]. فلولا أنهم كانوا فى ظلمة الطبع ما امتنّ عليهم من نور اليقين.

وكذلك جاء الخبر: «إن الله تعالى خلق الخلقَ فى ظُلمة، ثم ألقى عليهم من نوره؛ فمن أصابه اهتدى ومن أخطأه ضلّ».

وفى أحد المعانى من قوله تعالى: ﴿**يَمْحُو اللهُ ما يَشَاءُ وَيُثبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الكِتَابِ**﴾ [الرعد:٣٩]، قال: يمحو الأسباب من قُلوب الموحدين ويُثبت نفسه، ويمحو الوحدانية من قلوب الناظرين ويُثبت الأسباب.

ولولا أن التوحيد لم يرسمه عارف قط فى كتاب، ولا كشفه عالم فى خطاب، يعجزُ عُلومُ العموم عن درَك شهادته، ولسبقِ إنكار العقول لضعفها عن حملِ مكاشفته، لَذكَرنا من ذلك ما يُبهر العقول، ويَبهت ذوى المعقول، ولكنا كرِهنا أن نبتدع ما لم نُسبق إليه، أو نُظهر ما تضطرب العقول بالحيرة فيه، وخفِنا من عدَم النصيب مما نذكره، فيعود على السامعين من نفعنا ضَرَرُهُ.

وحقيقة علم التوحيد باطنُ المعرفة، وهو سبقُ[1] المعروف إلى من به تعرَّف بصفة مخصوصة، لحبيبٍ مقرَّبٍ مخصوص، لا يسع معرفة ذلك الكافة، وإفشاء سر الربوبية كُفر.

وقال بعض العارفين: من صرّح بالتوحيد، وأفشى سرَّ الوحدانية، فقَتْلُه أفضلُ من إحياء غيره.

---

(١) فى (م): «سرٍّ».

وقال بعضهم: للربوبية سرٌّ لو أُظهر لبطلت النبوة، وللنبوة سرٌّ لو كُشف لبطل العلم، وللعلماء بالله سرٌّ لو أظهره الله تعالى لبطلت الأحكام.

فَقِوامُ الإيمان واستقامة الشرع بكتم السرّ [الذى] به وقع التدبير، وعليه انتظم الأمر والنهى، والله غالب على أمره. وفوق ذلك علم التوحيد، والاسم منه وحدانى، فالتوحيد وصْفُه. وفوقه علم الاتحاد، فالوصف منه متحد. وفوقهما علم الوحدانية، والاسم منه واحد. وفوق ذلك علم الأحدية، والاسم منه أحد. وهذه أسماءٌ لها صفات، وأوصاف لها أنوار، وأنوارٌ عنها علومٌ، وعلومٌ لها مشاهدات، بعضها فوق بعض. وفوقَ كلِّ ذى علم عليم.

ثم علم التوحيد أولُ هذه العلوم، وعلوم هذه المشاهدات، وظاهر هذه الأنوار وأقربها إلى الخلق، فالاسم منه مُوحد، وههنا بان الخلق وظهر، فهذا توحيدُه الذى وحَّده به الموحِّدون من جميع خليقته، فعاد ذلك عليهم برحمته.

والمشاهدات الأول توحيد الرب تعالى نفسه بنفسه لنفسه قبل توحيد خلقه، فتوحيدهم إياه عن توحيده فيما كتبنا عنه، وأخفَيناه فيما أظهرناه، فهو محجوبٌ فى خزائن الغيوب عن البصائر والفهوم، قد جاوزَ عِلمَ الملكوت كله، فهو من ورائها فى خزائن الجبروت، وإنّما ذكرنا من ذلك قوت القلوب من علم التوحيد، وما لا بد للإيمان منه من المزيد.

وقال عالمنا أبو محمد سهل رحمه الله تعالى: للعالِم ثلاثة علوم: علم ظاهر يَبذله لأهل الظاهر، وعلم باطن لا يَسَع إظهاره إلا لأهله، وعلم هو سرٌّ بين الله وبين العالِم هو حقيقة إيمانه، لا يُظهره لأهل الظاهر ولا لأهل الباطن[1].

وقال بعض السلف قبله: ما مِن عالِم يُحدِّث قومًا بعلمٍ لا تبلغه عقولهم إلاّ كان فتنة عليهم.

***

(١) يؤيد هذا ما أخرجه البخارى، كتاب العلم، عن أبى هريرة قال: «حفظت من رسول الله ﷺ وعاءَين: أما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم».

شرح ثانى ما بنى الإسلام عليه من الخمس، وهو الصلاة

• ذكر أحكام الصلاة:

وأول ذلك وصف الطهارة، أولها: فرائض الاستنجاء وسننه، وفرائض الوضوء وسننه وفضائله، وفرائض الصلاة وسننها، وأحكام المصلِّى فى وقت الصلاة وإدراكها، وما يتعلق بها، وهيئات الصلاة، وآداب المصلِّى.

• ذكر فرائض الاستنجاء:

قال الله جلّ ثناؤه وصدقت أنباؤه: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة:١٠٨]. وقال رسول الله ﷺ: «لا يقبل الله صلاة بغير طهور». وقال عليه الصلاة والسلام: «الطهور نصف الإيمان». وقال: «مفتاح الصلاة الطهور».

فأول الطهارة الاستنجاء، وفيه فرضان، وأربع سنن.

أحد الفرضين: إزالة الحَدَث، والثانى: طهارة المزيل، وهو أن لا يكون رجيع دابة، ولا مستعمَلاً مرة، ولا عظم ميتة، ويكره له الاستنجاء بفَحمةٍ؛ لأثرٍ فى ذلك.

والسنن الأربع: وترُ الاستجمار ثلاثًا أو خمسًا أو سبعًا، والاستنجاء بالماء، ومباشرة الأذى بالشمال، ومسح اليد بالتراب.

فأما كيفية الاستنجاء فأن يأخذ الحجر بشماله ويُمره على مقعدته من مقدمها مسحًا إلى مؤخرها، ثم يرمى به هناك، ثم يأخذ الحجر الثانى فيبتدئ من مؤخر المقعدة فيمسحها مدًا إلى مقدمها، ثم يرمى به. ثم يأخذ الحجر الثالث، فيديره حول المسربة إدارة، فإن احتاج إلى حجر آخر فليجعلها خمسًا، وإن اكتفى بحجرٍ واحد فلا بد من ثلاث، وإن استجمر بحجرٍ كبير، ذى ثلاث شُعَب، أجزأه عن ثلاثة أحجار.

وفى الخبر: «من استجمر فليوتر». وكان ﷺ إذا أراد الحاجة أبعد، وكان يتبوأ لحاجته كما يتبوأ الرجل المنزل؛ لأنه كان لا يقعد فى فضاء، بل كان ينصب وراءه شيئًا، أو يقعد إلى حائط، أو نَشَزٍ من الأرض يستره، أو كَوْمٍ من حجارة يحجبه، ثم يستدبر ذلك.

وكان ﷺ لا يستقبل القبلة أيضًا، لغائط ولا بول، ولم يكن يرفع ثوبه للغائط حتى يدنو من الأرض. فأما من أراد أن يبول قريبًا من صاحبه، بحيث يراه ويحسه، فلا بأس بذلك، فإنها رخصةٌ من رسول الله ﷺ رفع الحياءَ منها بفعله؛ لأنّه كان عليه السلام أشدّ الناس حياءً، وكان يبول وإلى جانبه صاحبه، ليسنَّ التوسعة فى ذلك.

وقال رجل لبعض الصحابة من الأعراب وقد خاصمه، فقال: لا أحسبك تحسن الخراءة. فقال: بلى وأبيك إنى بها لحاذق. قال: فصفها لى. قال: أُبعدُ الأثرَ، وأعدُّ المدَرَ، وأستقبلُ الشِّيحَ، وأستدبر الريح، وأقعَى إقعاء الظبى، وأجفلُ إجفال النعام.

والشيح نبت طيب الرائحة يكون بالبادية. والإقعاء فى هذا الموضع أن يستوفز على صدور قدميه. والإجفال أن يرفع عجزه.

وفى حديث سلمان: «علَّمنا رسول الله ﷺ كلَّ شىء حتى الخَراءة. أمرنا أن لا نستجمر بعظم ولا رَوْث، ونهانا أن نستقبل القبلة لبولٍ أو غائط، وأن يجلس أحدُنا على رجله اليسرى وينصب اليمنى». فأما وصف الاستبراء فهو أن يستفرغ الرجل بوله رويدًا، ولا يحرِّك ذَكَره، فينتشر البول على الحشفة، فإذا انقطع البول على مهَل مدَّ ذَكَره ثلاثًا من أصله إلى الحشفة مدًا رفيقًا لئلا ينتضح البول، ثم ينتره ثلاثًا ويتنحنح ثلاثًا. وإن فعل ذلك سبعًا سبعًا فقد بالغ. ثم يأخذ الحجرَ بيمينه، ويأخذ ذَكَره بشماله، ويمدّه عليه حتى يرى موقعه جافًا، فهناك طُهر حين انقطعت النّداوة. ومن مدّه إلى الأرض أو إلى حائط حتى يرى الجفوف عن أثره فمِثلُه، وهذا كافيه من الماء، ما لم ينتشر البول على الحشفة.

ويُستحب له البول فى أرض دَمِثة رِخوة، وعلى تراب مَهِيل، ويُكره له أن يبول مستقبل الريح، أو على أرض صلبة، كيلا ينضح البول عليه. وقد شبه فقهاء المدينة الذَّكَر بالضرع. وقال بعضهم: إنه لا يزال يخرج منه الشىء بعد الشىء ما دمت تمده. وقيل: إذا وقع الماء على الذكر انقطع البول.

وقد كان أخفهم استبراء، وأقلهم استعمالاً للماء فى الطهور، أفقههم عندهم. وقد يكون ما يظهر من النداوة بعد غسل الذكر بالماء أن ذلك من مرجع الماء، يتردد فى الإحليل لضيق المسلك، وتلاحم انضمامه عليه، فإذا خَشِى الوسواس فلينضح فرجه بعد طهوره، وهو أن يأخذ كفًا من ماءٍ فليرشه عليه. وفى خبر أن النبى ﷺ فعله. ويُكره مسُّ الذكر باليمين.

ويخرج من الذكر خمسة أشياء: البول، والمذى، والوَدْى وهو لُزُوجةٌ تعقب البول إذا طال حبسه، والريح، والمنىُّ. ثم كلها توجب الوضوء إلاّ المنى، وهو الماء الدافق الذى يفتر عنه الذكر، وتنقطع الشهوة، ومنه يُخلق الإنسان، فإنه يوجب الغسل، وما خرج من الذكر من غير ذلك من دُودٍ أو حصى ففيه الوضوء، وقد يخفى الريح، فلذلك يُستحب الوضوء عند كل صلاة، وهو من المرأة أطهر.

• ذكر فرائض الوضوء:

قال رسول الله ﷺ: «مَن توضأ كما أُمر ـ وفى لفظ: من توضأ فأسبغ الوضوء ـ وصلّى ركعتين لم يحدِّث فيهما نفسه بشىء من الدنيا، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه». وفى لفظ آخر: «ولم يَسْهَ فيهما غُفِر له ما تقدَّم من ذنبه».

وقال رسول الله ﷺ: «ألاَ أنبئكم بما يكفِّر الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات: إسباغ الوضوء فى المكاره، ونقل الأقدام إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط».

وتوضأ ﷺ مرة مرة وقال: «هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلاّ به، ثم توضأ مرتين مرتين فقال: من توضأ مرتين مرتين آتاه الله أجره مرتين، ثم توضأ ثلاثًا ثلاثًا فقال: هذا وضوئى ووضوء الأنبياء قبلى، ووضوء أبى إبراهيم عليه السلام».

• ذكر فرائض الطهارة:

وهى ثمانية: طهارة الإناء، ثم الماء الطاهر، والنية، والترتيب على نَسَق الكتاب، وغسل الأعضاء الثلاثة المأمور بها، ومسح الرأس، ولا ينفض يديه بالماء عند غسل وجهه وذراعيه فإن ذلك يكون مسحًا، ولا يلطم وجهه بالماء لطمًا فإنه مكروه، ولكن ليحمل الماء بيديه معًا إلى وجهه، ثم ليَسُنَّه عليه سنًا، ويغسل وجهه غسلاً من أصول شعر رأسه إلى ما ظَهَر من لحيته وعلى ما استرسل منها، وليُدخل البياض الذى بين أُذنه ولِحيته فى غسل وجهه، وليُدخل مرفقيه فى غسل ذراعيه، وهذا فرض. وينبغى أن يقطِّر الماء من وجهه وذراعيه قطرًا، وكيفية مسح الرأس أن يمسحه ببلل ماء جديد، يبتدئ بمقدم رأسه، ثم يمد يده إلى مؤخره، ثم يردها إلى يافوخِهِ هذه مرة، وليمسح رأسه أجمع. وهذه الأربعة الأعضاء هى المنصوص عليها.

فأما ذكر الواو فى الترتيب، فإنى سمعت بعض فقهاء العرب من أهل اللغة بمكة يقول: إن الواو، وإن كانت للجمع، فلا تقتضى الترتيب فى الظاهر، فإنه إذا لم يرد به الجمع بين شيئين، واستحال أن يجمع بها بين اثنين معًا، فإنها تقوم حينئذ مقام ثُمَّ، وتكون للترتيب لا غير.

• ذكر سنن الوضوء:

وهى عشرة: التسمية، وغسل الكفين، والمضمضة، والاستنشاق، والاستنثار؛ وهو إخراج الماء من الأنف، وتخليلُ اللحية، ومسح الأذنين، وغسل كلِّ عضو ثلاثًا ثلاثًا منها مسح الرأس، وأن يبدأ بالميامن، وتخليل أصابع القدمين.

• ذكر فضائل الطهارة، وما يقال عند غسل كل عضو من الأذكار:

أول ذلك أن يتوضأ قاعدًا مستورَ العورة، وأن لا يكون الماءُ مُشمسًا، وقد كُرِه ذلك. وقيل: إنّ كراهيته فى أرض الحجاز خاصةً، وإسباغ الوضوء سيما فى الشتاء، فإنه من عزائم الدين. وقال بعض السلف: وضوءُ المؤمن فى الشتاء بالماء البارد يعدل عبادة الرهبان كلها.

وأن لا يعتدى فى الطهور، فقد نُهى عن ذلك، وهو أن يغسل كلّ عضو فوق الثلاث.

والوضوء على الوضوء نُور، وهو أن يتوضأ لكل صلاة عن غير حَدَث، فإن ذلك مستحب إذا أمكن، وله بكل وضوء عشر حسنات، ويجزيه أن يصلى الخمس بوضوء واحد. فقد فعل ذلك رسول الله ﷺ. والوضوء على حَدَثه قربةٌ إلى الله تعالى، إذا نوى به العبدُ ذلك من غير أن يصلى به. وفى الخبر: «إذا توضأ العبد خرجت ذنوبه من جميع أعضائه»، وتكون الصلاة نافلة.

ويستحب أن يتوضأ العبد كلّما بال ما لم يشق ذلك عليه، وأن يصلى ركعتين كلما توضأ. ثم أن لا يتكلم فى الوضوء إلاّ بذكر الله تعالى. وأن يقول عند غسل كلِّ عضو ما يستحب من الدعاء. فيقول عند الفراغ من الاستنجاء: اللهم طهِّر قلبى من النفاق، وحسِّن فرجى من الفواحش. ويقول عند التسمية: أعوذ بك من همزات الشياطين، وأعوذ بك رب أن يحضرون. ويقول عند غسل يديه: اللهم إنى أسألك اليمن والبركة، وأعوذ بك من الشُؤم والهلكة. ويقول عند المضمضة: اللهم أعنِّى على تلاوة كتابك وكثرة الذكر لك. ويقول عند الاستنشاق: اللهم صل على محمد، وأوجد لى رائحة الجنة، وأنت عنى راضٍ. ويقول عند الاستنثار: اللهم إنى أعوذ بك من روائح النار، ومن سواء الدار. ويقول عند غسل وجهه: اللهم بيِّض وجهى يوم تبيض فيه وجوه أوليائك، ولا تسوِّد وجهى يوم تسودُّ فيه وجوه أعدائك. وعند غسل يمينه: اللهم آتنى كتابى بيمينى وحاسبنى حسابًا يسيرًا. وعند غسل الشمال: اللهم إنى أعوذ بك أن تؤتينى كتابى بشمالى أو من وراء ظهرى. وعند مسح الرأس: اللهم غَشِّنى برحمتك، وأنزل علىَّ من بركاتك، وأظلَّنى تحت عرشك يوم لا ظل إلا ظلك. ويقول عند مسح الأذنين: اللهم اجعلنى ممن يستمع القول فيتبع أحسنه، اللهم أسمعنى منادى الجنة مع الأبرار. ثم يمسح عنقه فيقول: اللهم فك رقبتى من النار، وأعوذ بك من السلاسل والأغلال. ويقول عند غَسل قَدَمِه اليمنى: اللهم ثبِّت قدمى على

الصراط مع أقدام المؤمنين. ويقول عند غسل اليسرى: اللهم إنى أعوذ بك أن تزلَّ قدمى عن الصراط يوم تزل فيه أقدام المنافقين[١].

وأن يبتدئ بغسل الذراعين من أصابع الكفين ويقطع من المرفقين كل غسلة، وأن يرفع فى غسل الذراعين إلى أنصاف العضدين، وأن يبتدئ بغسل القدمين من الأصابع، ويخللهما فى الميامن، ويقطع غسلهما من الكعبين، ويرفع فى غسل الرجلين إلى أنصاف الساقين، ويمين أصابع اليد اليمنى خِنصرها، ويمين اليد اليسرى إبهامها.

وإذا فرغ من وضوئه رفع رأسه إلى السماء، ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا ﷺ عبده ورسوله، سبحانك وبحمدك لا إله إلا أنت، عملتُ سُوءًا وظَلَمتُ نفسى، أستغفرك وأتوب إليك، فاغفر لى، وتب علىَّ إنك أنت التواب الرحيم، اللهم اجعلنى من التوابين، واجعلنى من المتطهرين، واجعلنى شكورًا، واجعلنى أذكرك كثيرًا، وأسبِّحك بكرة وأصيلاً.

هذا جميع ما روى من القول بعد الفراغ من الوضوء بآثار متفرقة جمعناها. يقال إن من قال هذا بعد فراغه من الوضوء خُتم على وضوئه بخاتم، ورُفع له تحت العرش، فلم يزل يسبح الله ويقدسه، ويُكتب له ثواب ذلك إلى يوم القيامة.

وأكره الوضوء فى إناء صُفر. سمعتُ أن العبد إذا توضأ احتوشته الشياطين، توسوس إليه، فإذا ذكر الله خنست عنه، وحضرته الملائكة، فإن كان وضوؤه فى إناء صُفر أو نحاس لم تحضره الملائكة.

وروى عن ابن عمر وأبى هريرة كراهة ذلك. وقال بعضهم: سألنى شُعبة أن أخرج له وَضُوءًا، فأخرجته فى إناء صُفر فلم يتوضأ به، وقال: حدثنى عبد الله ابن دينار عن ابن عمر أنه كره الوضوء فى إناء صُفر.

وتوضأ رسول الله ﷺ من رَكوة، ومن أداوة، ومن مهراس حجر، وقد روينا

---

(١) هذه الأدعية التى ذكرها عند غسل الأعضاء لم ترد فى السنّة.

فى حديث زينب بنت جحش أن رسول الله ﷺ توضأ واغتسل ـ فى حديث آخر ـ من مِخْضب لها، وهو نحاس، وهذه رخصة.

• صفة الغسل من الجنابة:

يضع الإناء عن يمينه، ثم يسمى الله تعالى، ويفرغ الماء على يديه ثلاثًا قبل إدخالهما الإناء، ثم يغسل ذَكَره ويستنجى، ثم يتوضأ وضوءه للصلاة كاملاً إلا غسل قدميه، ثم يُدخل يديه فى الإناء بما حملتا من الماء فيصب على شِقه الأيمن ثلاثًا ظهرًا وبطنًا إلى فخذه وساقه، ثم يغسل شِقّه الأيسر كذلك ثلاثًا ظهره وبطنه إلى فخذه وساقه، ويدّلك ما أقبلَ من جسدِه وما أدبر بيديه معًا، ثم يدخل يديه بما حملتا من الماء فيفيض على رأسه ثلاثًا، ويخلل شعر رأسه بأصابعه، ويبل الشعر، وينقِّى البَشَرة، ثم يتنحَّى من موضعه قليلاً فيغسل قدميه، فإن فَضَل من الإناء ماء أفاضه على سائر جسده، وأمرَّ يديه على ما أدركتا من بدنه؛ فإن قدّم غُسل رجليه فأدخلهما فى أول وضوئه، فلا بأس، ولا وضوء عليه بعد الغسل.

وليتق أن يمس ذَكَره فى تضاعيف ذلك بيديه، فإن مسّ ذكره فليُعد وضوءه، وإن نسى المضمضة والاستنشاق فى غُسل الجنابة حتى صلَّى، أحببت أن يتمضمض ويستنشق ويعيد الصلاة، وإن نسيهما فى الوضوء فلا إعادة عليه، وكيفما أتى بغُسل جسده من الجنابة فجائز بعد أن يعم جميع بدنه غسلاً. ومن لم يتوضأ قبل الغسل، أحببت له أن يتوضأ بعده، ومن انغمس فى نهر أجزأه عن الغسل، وأُحب أن يتوضأ. وفَرض غسل الميت كغسل الجنابة.

* * *

كتاب الصلاة

• ذكر فرائض الصلاة قبل الدخول فيها:

وهى سبع: أول ذلك طهارة الجسد، وطهارة الثوب، وطهارة البقعة، وستر العورة وهى من السُّرة إلى الركبة، واستقبال القبلة، وإصابة الوقت، والقيامُ إلاّ من عُذر.

وفرائض الصلاة فى صلبها اثنتا عشر خصلة، رُوينا عن رسول الله ﷺ: «مفتاح الجنة الصلاة». وروى عنه ﷺ: «تحريمها التكبير، وتحليلها التسليم».

فأول ذلك: النية، وتكبيرة الإحرام بلفظ التكبير.

وليس للعرب فى لفظ التكبير ـ بمعنى الإكبار ـ إلا وزن أفعل والأفعل، فيقولون: الله أكبر، والله الأكبر، وليس يقولون: الله كبير، وهم يريدون معنى أكبر مما سواه، إنما يقولون كبير بمعنى عظيم، لأن هذه لفظة أعجمية عُرِّبت. وتقول العرب: الله كبار، وليس بمعنى أكبر إنما هو بمعنى كبير، والتفخيم للتعظيم.

ثم يقرأ سورة الحمد؛ أولها بسم الله الرحمن الرحيم، والركوع، ثم الطمأنينة فى الركوع، والاعتدال قائمًا، والسجود، ثم الطمأنينة فى السجود، والجلسة بين السجدتين، والتشهد الأخير، والصلاة على محمد ﷺ، والتسليم الأول.

وروينا عن رسول الله ﷺ: «لا ينظر الله تعالى إلى من لا يقيم صلبه بين الركوع والسجود». وروى عنه ﷺ: «لا تجزئ صلاةٌ لا يقيم الرجل فيها صلبه فى الركوع والسجود». ورأى ﷺ رجلاً يصلى لا يقيم ظهره فى ركوعه وسجوده. فقال له: «ارجع فصلِّ فإنك لم تصل». ثم رآه لا يطمئن فى الركوع والسجود، فأمر أيضًا بإعادة الصلاة، ثم علّمه الطمأنينة بينهما، والقيام فيهما، فقال: «حتى تطمئن مفاصلك وتسترخى».

ورأى حذيفة وابن مسعود رضى الله عنهما رجلاً يصلى لا يتم ركوعه وسجوده

فقالا: لو مات هذا لمات على غير فطرة أبى القاسم ﷺ. وفى حديث أحدهما: منذ كم تصلى هذه الصلاة؟ فقال: منذ أربعين سنة. فقال: ما صليت منذ أربعين سنة.

وعن كعب الأحبار: قُسِّمت الصلاة ثلاثة أثلاث: ثُلث طهور، وثلث ركوع، وثلث سجود، فمن نقص أحدها لم يُقبل منه سائرها.

ويقال: من لم تُقبل صلاته رُدَّت أعماله كلّها عليه.

• ذكر سنن الصلاة:

وهى اثنتا عشرة سُنّة: رفع اليدين بتكبيرة الإحرام، وصورة الرفع أن يكون كفَّاه مع منكبيه، وإبهاماه عند شحمة أذنيه، وأطراف أصابعه مع فروع أذنيه، فيكون بهذا الوصف من الرفع مُواطئًا للأخبار الثلاثة المروية عن النبى ﷺ، أنه كان يرفع يديه إلى منكبيه، وأنه كان يرفعهما إلى شحمة أُذنيه، وأنه رفع إلى فُروع أذنيه؛ يعنى أعاليهما.

ولفظُ التكبير أن يضمَّ الهاء من الاسم، بتخفيف الضمة من غير بلوغ واو، ويهمز الألف من «أكبر»، ولا يُدخل بين الباء والراء ألفًا، ويجزم الراء، لا يجوز غير هذا، فيقول: الله أكبر.

ثم لا يرفع يديه إذا كبَّر إلى قدامٍ دفعًا، ولا يردهما إلى خلف منكبيه، ولا ينفضهما إذا فرغ من التكبير عن يمين وشمال نفضًا، ولكن يلصق كفيه بمنكبيه، وتكون أصابعه تلقاء أذنيه، ثم يكبّر ويرسلهما إرسالاً خفيفًا رفيقًا، ويكون إرسالُه يديه مع آخر التكبير، لا يرسلهما قبل انقضاء التكبير، ولا يوقفهما بعد الفراغ من التكبير.

ثم يستأنف وضع اليمين على الشمال بعد الإرسال، روينا عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا كبَّر أرسل يديه، فإذا أراد أن يقرأ وضع اليمنى على اليسرى، وليقبض على زَنْد كفِّه الشمال، وليجعلهما تحت صدره، ثم التوجه فيقول: وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفًا مسلمًا وأما أنا من المشركين. ثم يقول: إن

صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا من المسلمين. ويقول: سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جَدُّك، ولا إله غيرك.

فقد روى جميع ذلك في روايات مختلفة، وجميعه حسن، إلا أن يكون خلف الإمام ولا يكون للإمام سكتتان، فلا يمكنه أن يأتي بهذا التوجه كله مع قراءة الحمد، ولا يشتغلن حينئذ إلا بقراءة الحمد، يغتنم قراءتها في سكوت الإمام. واحذر أن تقرأ في قراءة الإمام، أو تركع أو تسجد أو ترفع رأسك قبله.

ثم الاستعاذة، ثم قراءة سورة من القرآن، أو ثلاث آيات من سورة بعد الحمد. والتأمين بعد قراءة الحمد سُنّة حسنة، فعله رسول الله ﷺ، ثم أمر به.

ثم رَفْعُ اليدين بالتكبير للركوع أيضًا سنَّة، ثم التسبيح للركوع. وإذا أردت عشرًا أو سبعًا، ولا أقل من ثلاث. وإنما قيل: إنّ الثلاث أدنى الكمال، لأن الكمال عشرة، قال الله تعالى: ﴿**تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ**﴾ [البقرة:١٩٦]. ولتكن الثلاث بعد أن يضع يديه على ركبتيه وقبل أن يرفعهما؛ لأنه إذا لم يتحفظ في ذلك ويتمهل فيه حصل من التسبيح واحدة بعد الرُّكوع، وتكون الأولى والأخرى في الانحطاط والرفع، وهذا مكروه.

وصورة الركوع: أن يفرِّج بين أصابعه فيملأ بها ركبتيه، ويجافي عَضُديه عن جنبيه، ولا يرفع رأسه ولا يخفضه، وليمدّ عنقه مع ظهره مدًا فيكون ظهرُه ورأسه سواء، ولا يكون مَخفُوضًا إلى أسفل ولا مقبوًّا إلى فوق.

ثم رفع اليدين بقول «سمع الله لمن حمده» سُنَّة، ويقول: اللهم ربنا لك الحمد ملءَ السموات والأرض وما بينهما، وملء ما شئت من شيءٍ بعد.

ثم التسبيح في السجود؛ إن شاء عشرًا أو سبعًا، وأدناه ثلاث، ولتكن الثلاث بعد حصول جبهته على الأرض وقبل رفعه إياها، وإلاّ كانت واحدة؛ تذهب الأولى في حال وضع الوجه، والأخرى في حال رفع الرأس، فتحصل تسبيحة واحدة في كل سجدة، وهذا غير مستحب أن ينقص عن ثلاث. وقال أنس بن

مالك: ما رأيت أشبه صلاةً برسول الله ﷺ من إمامكم هذا، يعني عمر بن عبد العزيز، قال: فكنا نُسبِّح وراءه في الركوع والسجود عشرًا عشرًا.

ويجعل رأسه بين كفيه في سجوده مضمومًا مع اليدين، مستقبلاً بهما القبلة، ويفتح عينيه في سجوده، فإنهما يسجدان إذا كانتا مفتوحتين، ويجافي عَضُديه عن جنبيه، ويمدّ ظهره، ويرفع بطنه عن فخذيه، ويستحب أن يباشر الأرض بكفيه، فإنهما يسجدان مع الوجه.

ثم التكبير للسجود والرفع بين السجدتين، وللقيام بعد السجود من غير رفع يديه، ثم يقول: «رب اغفر لي وارحمني» ثلاثًا، روى ذلك عن ابن عمر.

وإن قال: «رب اغفر وارحم، وتجاوز عما تعلم، فإنك أنت الأعز الأكرم» فجائز، روى ذلك عن ابن مسعود.

وإن قال: «رب اغفر لي وارحمني واهدني واجبرني وأنعشني» فحسن، قد روى ذلك عن عليٍّ رضي الله تعالى عنه.

ثم التشهد الأول، ثم السّلام، بالألف واللام وضم الميم، من السلام من غير تنوين، ومد الاسم وجزم الهاء منه، فيقول: السلامُ عليكم ورحمةُ الله وبركاته، وليلتفت وجهه بالسلام حتى يتبين خدّاه لمن عن يمينه وشماله، ويلوى به عنقه إلى منكبيه، كذلك كان تسليمُ رسول الله ﷺ، من غير أن يحوِّل جسمه عن القبلة، ولا يرفع فخذه عن الأرض.

• ذكر أحكام الصلاة في الفوت والإدراك:

ومن أدرك من صلاةٍ رباعية ركعتين، أو الثالثة من صلاة المغرب، فإن ما أدرك هو أول صلاته، فَليَبْنِ على ذلك.

ومن أدرك مع الإمام بعض القيام افتتح سورة الحمد ولم يركع حتى يتمها، وإن رفع الإمام رأسه من الركوع قبله رفع بعده، ومن لم يدرك مع الإمام من القيام شيئًا كبّر للإحرام، ثم كبَّر وركع وهي له ركعة.

وإن ركعَ الإمامُ وهو في قراءة سورة غير الحمد فليقطع حيث انتهى، وليركع

بعده. ومن أدركه فى التشهد، أو فى السجود، ابتدأ التكبير للإحرام قائمًا، ثم جلس وسجد للاتباع.

فإذا سلَّم الإمامُ قام من غير تكبير يُحدثه ثانيًا، وابتدأ بقراءةِ الحمد عند قيامه، ولا يعتدّ بشىءٍ مما أدرك مع الإمام إلا بالركوع، وهو أن يكون قد وضَعَ يديه على ركبتيه واطمأن قبل أن يرفع الإمام رأسه، فهذه له ركعة.

ومن دخل فى صلاةٍ مكتوبة ثم ذكر أن عليه أخرى أحببت أن يتمها، ثم يصلى التى ذكر، ثم يعيد هذه الصلاة.

ومن وافق الإمام فى صلاة العصر، ولم يكن صلى الظهر، صلى معه، ثم صلى الظهر ثم أعاد بعدها صلاة العصر. قاله بعض الصحابة، وهو أحب الوجوه إلىَّ.

ومَن تكلَّم فى صلاته ناسيًا أو سلّم من ركعتين من صلاة رباعية، فليسجد سجدتى السهو بعد التشهد، فإن كان قد خرج من المسجد وتطاول ذلك، ثم ذكر، أحببتُ أن يعيدَ الصلاة.

ومَن تكلَّم أو سلّم عامدًا، أو استدبر القبلة، أو انكشفت عورته، أو رَعَفَ فى صلاته، أو ذكر أنه نسى مسحَ رأسِهِ، أو غسل عضوٍ من أعضائه، أعاد الصلاة.

ومن فاتته جماعةٌ فتطوَّع رجلٌ قام يصلى معه، أحببت أن يكون هو المصلِّى به فرضه، ولا يخرج من الخلاف ويدخل فى فرض الجماعة، ولا أستحب أن يصلى فرضًا خلف رجل يتطوع، ولا أكره صلاة النوافل جماعةً.

ولا سجود سهو على العبد فيما جهر فيه مما يخافت، ولا فيما خافت فيما يجهر.

ومَن شكّ فى ثلاث ركعات أو اثنتين، فليجعلهما اثنتين. ومن شك فى أربع أو ثلاث حسبها ثلاثًا، يبنى أبدًا على اليقين، وهو الأقل. ثم يسجد سجدتى السهو قبل السلام، وعليه أن يتشهد ثانيًا لسجدتى السهو، وصلاته تامة.

ومَن سها عن سجدتى السهو، فإن ذكرهما قريبًا، أو قبل أن يخرج من

المسجد، فأُحِبُّ أن يسجدهما، ثم يتشهد ويسلِّم، فإن تطاول الوقت، أو كان قد خرج من المسجد، سقطتا عنه.

ومن شك فى القبلة لدخول ظُلمة، أو فَقد أدلةٍ، تحرَّى جُهده، فإن تبين له أن القبلة بخلاف ذلك، أحببتُ له أن يعيد ذلك.

وأستحبُّ سجود السهو فيما زاد بعد التسليم، وفيما نقص قبله، فإن سجدهما فى الزيادة والنقصان قبل السلام، فحَسَن كل ذلك، قد رويناه عن النبى ﷺ.

فإن لحقه وهمٌ فى الصلاة ليس بشكٍّ، أو كثُر وهمه فى الصلاة، أحببت أن يجعل سجوده أبدًا بعد السلام.

ومن صلى فى حال ضرورة بنقصان طهارةٍ أو نقصان فرض من فرائض الصلاة، أحببت أن يعيدَ متى قَدِر على ذلك.

ومن صلى فى ثوب ثم رأى فيه نجاسة بعد ذلك أعاد، ما دام فى الوقت قبل أن يدخل وقت صلاة أخرى، فإن خرج جميع الوقت فلا إعادة عليه، ولو أعاد تلك الصلاة متى رأى تلك النجاسة كأن أحب إلىَّ.

ومن كان عليه صلوات فرَّط فيها بإضاعة أو نقصان حدود، صلاّها ـ أحبُّ إلىَّ ـ متوالية؛ صلاة يومٍ فى وقتٍ واحد إن أمكن، أو فى أوقات متفرقة نَسَقًا. وأن يكون ذلك فى غير الأوقات المنهى فيها عن الصلاة أحب إلىَّ.

ومن علم فى صلاته أن عليه ثوبًا فيه نجاسة، أو أنه غير مستقبل القبلة، فليلق الثوبَ، وليستقبل القبلة، وليتم صلاته، وإن أعاد فهو أحب إلىَّ.

• ذكر هيئات الصلاة وآدابها:

السّواك قبل الصلاة من فضائلها، روى فى الخبر: «صلاة بسواك تَفْضُلُ على صلاة بغير سواك سبعين ضعفًا».

وأستحب له أن يقرأ ﴿قُلْ أعوذُ بِرَبِّ النّاس﴾ قبل دخوله فى الصلاة، فإنه جُنّةٌ له من العدو، وأن يستعيذ فى كل ركعة قبل قراءة الحمد، لأنه يكون قارئًا للقرآن؛

ولأن كلَّ ركعة صلاة، وأن يضم أصابع كفيه فى التكبير، وأن يراوح بين قدميه فى القيام، لا يضمّ كعبيه ولكن يجعل بين قدميه مقدار أربع أصابع. فإن ذلك يُستحب.

قال بعضهم: كانوا يتفقَّدون الإمام إذا كبّر فى ضم الأصابع، وإذا قامَ فى تَفرِقَةِ الأقدام. قال: فيستدلون بذلك على فقهه، ونظر ابن مسعود إلى رجل قد ألزق كعبيه فى الصلاة، فقال: لو رَاوح بينهما كان قد أصاب السُّنَّة.

وقد يروى فى خبر: أن النبى ﷺ نهى عن الصَّفَن والصَّفَد فى الصلاة. فأمّا الصَّفَن فرفع إحدى الرجلين، من قوله تعالى: ﴿**الصَّافِنَاتُ الجِيَادُ**﴾ [ص:٣١] إذا عطف الفرس طرف سُنبكه. وأما الصفد: فهو اقترانُ القدمين معًا، ومنه قوله تعالى: ﴿**مُقَرَّنِينَ فِى الأَصْفَادِ**﴾ [إبراهيم:٤٩]، واحدها: صَفَد.

وقد رأيت بعض العلماء يفرّق بين أصابعه فى التكبير، وتأوّل أن ذلك معنى الخبر أن النبى ﷺ كان إذا كبَّر نَشَرَ أصابعه نَشْرًا، وذلك محتملٌ لتوكيده بالمصدر، وهو قوله: نَشْرًا، فيصلح أن يكون قوله «نشرًا» يريد به التفرقة، وقد تسمى التفرقة: بثًّا، ونشرًا، إلا أنَّ حقيقة النشر: البسط. وقد قال الله تعالى: ﴿**وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ**﴾ [الغاشية:١٦]، فهذا هو التفرقة. وقال فى معنى البثِّ: ﴿**كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ**﴾ [القارعة:٤]. ثم قال فى مثله: ﴿**كَأَنَّهُم جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ**﴾ [القمر:٧]. فإذا كان النَّشْر مثل البثِّ، وكان البثُّ هو التَّفرقة، كان قوله «نشرًا» بمعنى فرَّق.

إلا أن إسحاق بن راهويه سُئل عن معنى قوله: «نشرَ أصابعه فى الصلاة نشرًا» فقال: هو فتحها وضمها، أراد بذلك أن يُعلم أنه لم يكن يقبض كفّه. وهذا وجه حسن، لأن النشر ضدّ الطى فى المعنى، والقبض: طىٌّ.

ورأيت ثلاثةً من العلماء يفرِّقون أصابعهم فى التكبير، منهم: أبو الحسن؛ صاحب الصلاة فى المسجد الحرام، وكان فقيهًا. ورأيت ثلاثةً يضمون أصابعهم، منهم: أبو الحسن بن سالم، وأبو بكر الآجرى. وأحسب أن أبا زيد الفقيه كان يفرِّق فى أكثر ظنى، إذا تذكرت تكبيره.

وقول «آمين» من فضائل الصلاة. روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا قال الإمام: ولا الضالين، فقولوا: آمين، فإنه مَن وافَق تأمينه تأمين الملائكة غُفر له ما تقدّم من ذنبه». وكان رسول الله يرفع صوته بآمين.

وفى لفظ «آمين» لغتان: المد والقصر. والميم فيهما مخففة؛ لأنك إذا شددت الميم أحلْتَ المعنى، فيكون معناه: قاصدين، من قوله: ﴿ولا آمِّينَ البَيْتَ الحَرَامَ﴾ [المائدة: ٢].

وأن يترك إحدى يديه على الأخرى قابضًا على الزندين بين السرة والصدر، فإن ذلك من الخشوع. وقال بعض العلماء: ما أحسنه ذُلٌّ بين يَدَى عزيزٍ. وروى عن النبى ﷺ أنه من سنن المرسلين.

وفسّر علىٌّ عليه السلام قوله تعالى: ﴿فَصلِّ لِربِّكَ وَانحَرْ﴾ [الكوثر: ٢] قال: وضع اليمين على الشّمال، وهذا موضع علم علىٍّ رضى الله تعالى عنه، ولطيف معرفته؛ لأن تحت الصدر عرقًا يقال له: الناحر، لا يعلمه إلا العلماء، فاشتق على رضى الله عنه قوله «وانحر» من لفظ الناحر، أى ضع يدك على الناحر، وهو هذا العرق. كما يقال: ادمغ؛ أى أصب الدِّماغ. ولم يحمله على نحر البدن؛ لأنه ذكر فى الصلاة.

ومن الناس من يظن اشتقاقه من النحر، والنحر هو تحت الحلقوم عند مُلتقى التراقى، واليد لا توضع هنالك، إلاّ من قال من أهل اللغة فى معناه: «وانحر» أى واجه القبلة بنحرك، فهذا لعمرى وجه.

ولا يُقعِى فى الصلاة، وهو أن يجلس على قَدَميه وينصب ركبتيه. هذا مذهب أهل اللغة فى الإقعاء. أو على ركبتيه جاثيًا، وأصابع رِجليه فى الأرض. هذا مذهب أهل الحديث.

وليجتنب السَّدَل والكفَّ. فأما السدل فهو أن يرخى أطراف ثيابه على الأرض وهو قائم. يقال: سدل وسَدَن بمعنى واحد، وقد تُبدل اللام نونًا لقرب المخرجين، إذا أرسل ثيابه. ومنه قيل: سَدَنَةَ الكعبة، أحدهم: سادن، وهم قُوَّامها الذين

يُسبلون عليها كِسوتها. وسَدَانة الكعبة: ثيابها المسبلة. وهذا قول أهل اللغة ومذهب أهل الحديث فى السَّدَل: أن يلتحف بثوبه، ويُدخل يديه من داخلٍ، فيركع ويسجد كذلك. ولأن هذا فعل اليهود فى صلاتهم فنُهوا عن التشبّه بهم. والقميصُ فى معناه، ولا يركع ويسجد ويداه فى بدن القميص، إلا أن يكون واسعًا فلا بأس أن يركع ويداه من داخل القميص، أو يسجد وإحدى يديه فى بدن القميص إذا اتّسع، فأما أن يُدخل يديه فى جسد القميص فى السجود فمكروه.

وقد قال بعض الفقهاء فى السّدَل قولاً ثالثًا، قال: هو أن يضع وسط إزاره على رأسه، ويرسل طرفيه عن يمينه وشماله من غير أن يجعلهما على كتفيه. وهذا قول بعض المتأخرين وليس بشىء عندى. والأوّلان أعجب إلىَّ، وهما مذهب القدماء.

وأما الكفّ فقد نُهى عنه فى الصلاة أيضًا، وهو أن يرفع ثيابه من بين يديه أو من خلفه إذا أراد السجود. وأكره أن يأتزر فوق القميص فإنه من الكف.

وقد روى عن أحمد بن حنبل رضى الله عنه كراهية ذلك. وروينا عن بعض أولاد عمر بن الخطاب رضى الله عنه الرخصةَ فى ذلك أنه صلى ﷺ بأصحابه محتزمًا بعمامته فوق القميص. وقد يكون الكف فى شعر الرأس، فلا يصلين وهو عاقصٌ شعره. وفى الحديث: «أُمرت أن أسجد على سبعة أعضاء ولا أكُفَّ شعرًا ولا ثوبًا».

ونهى رسول الله ﷺ عن الاختصار فى الصّلاة، وعن الصلب. فأما الاختصار فأن يضع يده على خاصرته، وأما الصلب فأن يضع يديه جميعًا على خصريه ويجافى بين عضديه فى القيام.

ولتقع ركبتاه على الأرض قبل يديه، ويداه قبل وجهه. وأن يسجد على جبهتهِ وأنفهِ، فإنهما عضو واحد. ولينهض على صدور قدميه، وإن ضعف فليعتمد على الأرض بيديه.

وأن لا يلتفت فى صلاته يمينًا وشمالاً، ولا يلحظ عن يمين وشمال، فإن لحظ

فهو أيسر، وليرم ببصره إلى موضع سجوده، فإن لم يفعل فليقابل بوجهه تلقاءَ القبلة، ولا يعبث بشيء من بدنه فى الصلاة. رُوى أن سعيد بن المسيب نظر إلى رجلٍ يعبث بلحيته فى صلاته، فقال: لو خَشَع قلبُ هذا لخشعت جوارحه. وقد رويناه عن رسول الله ﷺ من طريق.

ونُهى عن المواصلة فى الصلاة، وهى فى خمس: اثنان على الإمام: أن لا يصل قراءَتَه بتكبيرة الإحرام، ولا يصل ركوعه بقراءته. واثنان على المأموم: أن لا يصلَ تكبيرةَ الإحرام بتكبير الإمام، ولا تسليمه بتسليمه. وواحدة بينهما: أن لا يصل تسليمَ الفرض بتسليم التطوع، وليفصل بينهما.

وقد قيل: التسليْم حزم والتكبير جزم[1]. وقد جاء فى الخبر: «سبعة أشياء فى الصلاة من الشيطان: الرِّعاف، والنُّعاس، والوَسْوسَة، والتثاؤب، والحِكاك، والالتفات، والعبثُ بالشّىء». وزاد بعضهم: والسّهو، والشّك. وقال بعض السلف: أربعة أشياء فى الصلاة من الجفاء: الالتفات، ومسح الوجه، وتسوية الحصى، وأن يصلى بطريق من يمر بين يديه. وزاد بعضهم: وأن يصلى فى الصف الثانى وفى الصف الأول فرجة.

وقد نُهى عن صلاة الحاقن، والحاقِب، والحازِق. فالحاقن من البول، والحاقب من وجود الغائط، والحازق صاحب الخُف الضيق. فلا يصلى من كُنَّ به هذه الثلاث؛ لأنها تشغل القلب. وأكره صلاة الغضبان، والمهتمّ بأمر، ومن عرضت له حاجة، حتى يُسرَّى عن قلوبهم ذلك، ويطمئن القلب، ويتفرّغوا للصلاة. ومن شغل قلبَه حضورُ الطعام، وكانت نفسه تائقة إليه، فليقدِّم الأكل؛ لقوله ﷺ: «إذا حضر العَشاء وأُقيمت الصلاة فابدؤوا بالعشاء». إلا أن يضيق الوقت، أو يكون ساكن القلب.

وفى الخبر: «لا يدخلنّ أحدكم الصلاة وهو مُقطِّب[2]، ولا يصلين أحدكم وهو

---

(١) فى (م) معكوسة: «التسليم جزم والتكبير جزم».

(٢) مقطب: أى مقطب جبينه.

غضبان». وكان الحسن يقول: كل صلاة لا يحضر فيها القلب فهى إلى العقوبة أسرع.

• ذكر فضائل الصلاة وآدابها وما يزكو بها أهلها، ووصف صلاة الخاشعين:

قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكرى﴾ [طه:١٤]. وقال: ﴿وَلاَ تَكُنْ مِنَ الغَافلينَ﴾ [الأعراف:٢٠٥]. وقال تعالى: ﴿لاَ تَقربُوا الصَّلاَةَ وَأَنتُم سُكَارَى حَتَّى تَعلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء:٤٣]. قيل: سكارى من حب الدنيا. وقيل: من الاهتمام بها. وقل جل ثناؤه: ﴿الَّذينَ هُم عَلى صَلاَتِهِم دَائِمُونَ﴾ [المعارج:٢٣].

وقال النبى ﷺ: «من صلى ركعتين لم يحدِّث نفسه فيهما بشىءٍ من الدنيا غُفر له ما تقدم من ذنبه».

وقال ﷺ: «إنما الصلاة تَمسْكُن، وتواضع، وتضرُّع وتباؤس، وتنادم، وترفع يديك وتقول: اللهم. فمن لم يفعل فهى خداج» أى ناقصة.

وروينا عن الله سبحانه وتعالى فى الكتب السالفة أنه قال: ليس كل مصلٍّ أتقبَّل صلاته، إنما أتقبل صلاة من تواضع لِعَظَمتى، ولم يتكبر علىَّ، وأطعمَ الفقيرَ الجائع لوجهى.

فمن الإقبال على الصلاة أن لا تعرف من عن يمينك، ولا من عن شمالك، من حسن القيام بين يدى القائم على كلِّ نفس بما كسبت، وكذلك فسّروا قوله تعالى: ﴿الَّذينَ هُم فِى صَلاَتِهِم خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون:٢]. وقال سعيد بن جبير: ما عرفتُ من عن يمينى ولا عن شمالى فى الصلاة منذ أربعين سنة، منذ سمعت ابن عباس يقول: الخشوع فى الصلاة أن لا يعرف المصلى من عن يمينه وعن شماله.

وروينا عن بشر بن الحارث قال: قال سفيان: من لم يخشع فسدت صلاته. وروينا عن معاذ بن جبل: من عرف من عن يمينه وشماله فى الصلاة متعمدًا فلا صلاة له.

وقد أسنده إسماعيل بن أبى زياد عن بشر بن الحارث وغيره وعن الثورى أيضًا:

من قرأ كلمة مكتوبة فى حائط أو بساطٍ فى صلاته، فصلاته باطلة. وقال بشر: يعنى بذلك أنه عمل فى الصلاة.

ومن الدّوام فى الصلاة السكون فيها، وعلى ذلك فُسِّر قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ هُم عَلَى صَلَاتِهِم دَائِمُونَ**﴾ [المعارج:٢٣]. قيل: هو السكون والطمأنينة فى الصلاة، من قولك: ماء دائمٌ إذا سكن. وقال بعض الصحابة: يُحشر الناس يوم القيامة على مثال هيئاتهم فى الصلاة، من الطمأنينة والهُدوء، ومن وجود النّعيم بها واللذة. ثم إصغاءُ القلب للفهم وخشوعه للتواضع، وسكون الجوارح للهيبة، ثم الترتيل فى القراءة، والتدبر لمعانى الكلام، وحسن الافتقار إلى المتكلم فى الإفهام، والإيقاف على المراد، وصدق الرغبة فى الطلب للاطلاع على المطلع من السر المكنون المستودع فى الكتاب.

وإن مرّ بآية رحمة سأل ورغب، أو آية عذاب فزع واستعاذ، أو مرّ بتسبيح وتعظيم وحمد سبَّح وعظَّم وحَمِد، فإن قال بلسانه فحسن، وإن أسرَّه فى قلبه ورفع به همَّه نابه قصدُه عن المقال، وكان فقره غاية السؤال، وهذا أحد الوجهين فى قوله تعالى: ﴿ **يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ**﴾ [البقرة:١٢١]. هكذا كان وصفهم فى التلاوة.

وينبغى أن يكون قلبه بوصف كل ركن من أركان الصلاة، وهمه معلق بكل معنًى من معانى المناجاة، فإذا قال: «**الله** أكبر» لا يكون فى قلبه أكبر من **الله** تعالى إن عقل ما يقول؛ لأن معنى قوله «**الله** أكبر»: أى أكبر مما سواه، ولا يقال أكبر من صغير، إنما يقال أكبر من كبير، فيقال: هذا كبير، وهذا أكبر. فإن كان همّه الملك الكبير كان ذكر الله أكبر فى قلبه، فليواطئ قلبه قول مولاه فى قوله تعالى: ﴿**وَلَذِكرُ الله أكبَرُ**﴾ [العنكبوت:٤٥]، ويواطئ لسانه قلبه فى مشاهدة الأكبر فيكون يتلو وينظر، فإن الله تعالى قدّم العين على اللسان فى قوله تعالى: ﴿**أَلَم نَجْعَل لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وشَفَتَيْنِ**﴾ [البلد:٨ - ٩]. فلا يقدم لسانه ويؤخر بصره، ويكون عقده محققًا لمقاله بالوصف، حتى يكون عاملاً بما يقول فى الحال، فقد أخذ عليه

ذلك لما أمر به حجةً عليه وتنبيهًا له، ولا يكون بقوله: «الله أكبر» حاكيًا ذلك عن قول غيره، ولا مخبرًا به عن سواه، بل يكون هو المتحقق بالمعنى القائم بالشهادة، وهذا عند أهل المعرفة واجبٌ، لأن الإيمان قول وعمل فى كل شىء. فإذا قلت: «الله أكبر»، فإن العمل بالقول أن يكون الله أكبر فى قلبك من كل شىء، وهو من رعاية العهد، لتدخل تحت الثناء والمدح فى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُم لأَمَانَاتِهِم وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المعارج:٣٢]. فالعهد: ما أعطيت بلسانك، والرعاية: الوفاء بالقلب ليستحق الأجر العظيم، كما قال تعالى: ﴿وَمَن أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيهُ اللهَ فَسَيُؤتِيهِ أَجرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠].

ومن كان فى قلبه الملك الصغير الفانى أكبر من الملك الأكبر فما عمل بقوله تعالى: «الله أكبر» وليس هذا حقيقةَ الإيمان؛ لأنه لم يأت بعملٍ وقولٍ، وإنما جاء بالقول وهذا قائمٌ بنفس مشاهد للدنيا، فهو عند نفسه، فلذلك كانت قرة عينه نفسه، ولو كانت عند ربه كانت مشاهدته الآخرة، وكانت قرةُ عينه الآخرة، كما قال تعالى: ﴿مَا عِندَكُم يَنفَدُ﴾ يعنى الدنيا ﴿وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ﴾ [النحل:٩٦] يعنى الآخرة.

وقد قال ﷺ: «وجُعلت قرَّةُ عينى فى الصلاة»؛ لأنه كان عند ربه فجعل قرّة عينه به. وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَذِكرُ اللهِ أَكبَرُ﴾ [العنكبوت:٤٥]. فالمذكور أكبر وأكبر. وقد أخبر تعالى أن الصلاة أُريد بها الذكر فى قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكرِى﴾ [طه:١٤]. وروى معنى ذلك عن رسول الله ﷺ. وإنّما فُرضت الصلاة، وأُمر بالحج والطواف، وأُشعِرت المناسك؛ لإقامة ذكر الله، فإذا لم يكن فى قلبك للمذكور ـ الذى هو المقصود والمبتغى ـ عظمةٌ ولا هيبة فما قيمة ذكرك؟ وقال رسول الله ﷺ لأنس بن مالك إذا صلى صلاة: «فصلِّ صلاة مودِّع»، أى مودِّع لنفسه، مودِّع لهواه، مودّع لعمره، سائرٌ إلى مولاه. كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦]. وكقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ﴾ [البقرة:٢٢٣].

وقال النبى ﷺ: «جُعلت قرة عينى فى الصلاة». وكان يرى الأكبر فتقرّ عينه به. وقال: «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدَد من الله إلا بعدًا». كما قال: «من لم يترك قولَ الزور والخيانةَ فليس لله تعالى حاجة فى أن يترك طعامه وشرابه». فإنما المراد من الصلاة والصيام المخالفةُ من الآثام.

ومن إقامة الصلاة وإتمامها الوضوءُ لها قبلَ دخول وقتها لئلا يشغله عن أول وقت غيرها.

وينبغى أن يكون قلبه فى همه، وهمه مع ربه، وربه فى قلبه، فينظر إليه من كلامه، ويكلمه بخطابه، ويتملقه بمناجاته، ويعرفه من صفاته. فإن كلَّ كلمة عن معنى اسم، أو وصفٍ، أو خُلقٍ، أو حُكم، أو إرادةٍ، أو فعلٍ؛ لأن الكلِمَ يُنبئ عن معانى الأوصاف، ويدلّ على الموصوف.

وكلُّ كلمة من الخطاب تتوجه عشر جهات للعارفِ، من كل جهة مقام ومشاهدات. أولُ الجهاتِ: الإيمان بها، والتسليم لها، والتوبة إليها، والصبر عليها، والرضا بها، والخوف منها، والرجاء لها، والشكر عليها، والمحبة لها، والتوكل فيها. فهذه المقامات العشر هى مقامات اليقين؛ لأن الكلمة هى حق اليقين، وهذه المعانى كلها منطوية فى كلِّ كلمة يشهدها أهل التملق والمناجاة، ويعرفها أهل العلم والحياة، لأن كلام المحبوب حياة القلوب، لا يُنذَر به إلا حى، ولا يحيا به إلا مستجيب، قال الله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ * لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٦٩ ـ ٧٠]. وقال سبحانه: ﴿اسْتَجِيبُوا لله وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

ولا يشهد هذه العشرَ مُشاهدات إلاّ مَن نُقل فى العشر مقامات المذكورة فى سورة الأحزاب؛ أولها مقام المسلمين، وآخرها مقام الذّاكرين. وبعد مقام الذّكر هذه المشاهدات العشر، فعندها لا يملّ المناجاة لوجودِ المصافاة، ولا يثقل عليه القيام للذاذة والإفهام، ويسهل عليه الوقوف لدنوِّ العطوف، ويتنعم بالعِتاب بحلاوة الاقتراب. هنالك يندرج طول القيام فى التلاوة فلا يجده، كاندراج القبلة

فى الصلاة فلا يشهدها، فيكون من ورائه القبلة وهو أمامها. كذلك القيام يحمله، وهو مع حامله.

حُدِّثت أن الموقنَ إذا توضأ للصلاة تباعدت عنه الشياطين فى أقطار الأرضين خوفًا منه؛ لأنه يتأهب للدخول على الملك. فإذا كبّر حُجب عنه إبليس، وضُرب بينه وبينه سرادق لا ينظر إليه، وواجهه الجبار بوجهه. فإذا قال: الله أكبر، اطَّلع الملك فى قلبه، فإذا ليس فى قلبه أكبر من الله تعالى، فيقول: صدقت الله تعالى فى قلبك كما تقول. قال: فيتشعشع من قلبه نور يلحق بملكوتِ العرش، فيُكشف له بذلك النور ملكوتُ السموات والأرض، ويُكتب له حشو ذلك النور حسنات.

قال: وإن الغافلَ الجاهلَ إذا قام للوضوء احتوشته الشياطين، كما يحتوش الذباب على نقطة العسل. وإذا كبَّر اطلع الملك فى قلبه، فإذا كلّ شىء فى قلبه أكبر من الله تعالى عنده، فيقول له: كذَبت ليس الله فى قلبك كما تقول. قال: فيثور فى قلبه دخان يلحق بعنان السماء فيكون حجابًا لقلبه، قال: فيرد ذلك الحجاب صلاته، ويلتقم الشيطان قلبه، فلا يزال ينفخ فيه، وينفث ويوسوس إليه، ويزين له، حتى ينصرف من صلاته ولا يعقل ما كان فيه.

وقد جاء فى الخبر: «لولا أن الشياطين يحومون حول قلوبِ بنى آدم لنظروا إلى ملكوت السموات».

وروينا عن رسول الله ﷺ أنه رأى فى القبلة نُخامة، فغضب غضبًا شديدًا، ثم حكّها بعُرجون كان فى يده، وقال: ائتونى بعبيرٍ، فلطَّخ أثرها بزعفران، ثم التفت إلينا فقال: «أيكم يحب أن يُبزَق فى وجهه؟» فقلنا: لا أينا. قال: «فإن أحدَكم إذا دخل فى صلاته فإن الله عز وجل بينه وبين القبلة ـ وفى لفظ آخر: واجهه الله تعالى ـ فلا يبزقن أحدُكم تِلقاءَ وَجهِه، ولا عن يمينه، ولكن عن شماله أو تحت قدمه اليسرى، فإن بدرته بادرة فليبصق فى ثوبه، وليقل به هكذا، ودلك بعضه ببعض».

وقد روى: «إذا قام العبد فى صلاته فقال: الله أكبر، قال الله لملائكته: ارفعوا الحجاب بينى وبين عبدى. فإذا سها فى صلاته أو حدَّث نفسه بشىءٍ، يقول الله

تعالى لملائكته: أرسلوا الحجاب بينى وبين عبدى، فإذا التفت يقول الله تعالى: عبدى، إلى من تلتفت؟ أنا خير لك ممن تلتفت إليه».

ثم إذا قام المقبل على صلاته شهد قلبه قيامه لربّ العالمين، فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ثم شهد وقوفه بالحضرة بين يدى الملك الجبار، إذ ليس من الغافلين، فتأخذه غيبة الحضور، ويرهقه إجلالُ الحاضر، ويستولى عليه تعظيم القريب، ويجمعه خشية الرقيب.

فإذا تلا وقَف همُّه مع المتكلم ماذا أراد، واشتغل قلبُه بالفهم عنه والاستنباط منه.

فإذا ركع وقف قلبه مع التعظيم للعظيم، فلا يكون فى قلبه أعظم من الله تعالى وحده.

فإن رفع شهد الحمدَ للمحمود، فوقفَ مع الشّكر للودود، فاستوجب منه المزيد، وسكن قلبه بالرضا، لأنه حقيقة الحمد.

وإن سجد سما قلبه فى العلوِّ فقرُب من الأعلى بقوله تعالى: ﴿**وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ**﴾ [العلق: ١٩].

وأهل المشاهدة فى السجود على ثلاث مقامات؛ منهم مَن إذا سجَد كُوشف بالجبروت الأعلى، فسجد أمام العرش مواجهًا للوجه، ومجاورًا للملأ الأعلى تلقاء الأفق الأعلى، فيعلو إلى القريب، ويدنو من الحبيب، وهذا مقام المقربين من المحبوبين.

ومنهم من إذا سجد كُوشف بملكوت العزّة، فيسجد على الثّرى الأسفل عند وصف من أوصاف القادر الأجلِّ، فينكسر قلبه ويخبت، تواضعًا وذُلاً للعزيز الأعلى، وهذا مقام الخائفين من العابدين.

ومنهم من إذا سجد جال قلبه فى ملكوت السموات والأرض، فآب بظرائف الفوائد، وشهد غرائب الزوائد، وهذا مقام الصادقين من الطالبين.

وهناك قسم رابع لا يُذكر بشيءٍ ليس له وصف فيستحق المدح، وهم الذين يجولُ همّهم فى أعطية الملك وأنصبة المماليك، فهم محجوبون بالهِمم الدنيَّة عن الشهادة العليَّة، مأسورون بالهوى عن السياحة إلى الأعلى.

فإن دعا هذا المصلِّى نظر إلى المدعوِّ، فكان هو المرجوَّ، فأخذ فى التمجيد والثناء والحمد والآلاء، ونسى حاجته من الدنيا، واشتغل عن نفسه بالمولى وعن مسألته بحسن الثناء. وإن استغفر هذا الداعى تفكَّر فى أوصاف التوبة وأحكام التائب، وتَذكَّر ما سلفَ من الذنوب، فعمل فى تصفية الاستغفار، وإخلاص الإنابة والاعتذار، وجدّد عقدَ الاستقامة، فيكون له بهذا الاستغفار من الله عز وجل تحية وكرامة. ففى مثل صلاة هذا العبد وردت الأخبار: أن العبد إذا قام إلى الصلاة رفع الحجاب بينه وبينه، وواجهه بوجهه، وقامت الملائكة من لدن منكبيه إلى الهواء فيصلون بصلاته، ويؤمِّنون على دعائه، وأن المصلى ليُنثر عليه البرُّ من عنان السماء إلى مفرق رأسه، ويناديه مناد: لو علم المناجى من يناجى ما انفتل، وأن أبواب السماء تُفتح للمصلين، وأن الله تعالى يباهى ملائكته بصفوف المصلين. وفى التوراة مكتوب: يا ابن آدم، لا تعجز أن تقوم بين يدىَّ مصليًا باكيًا، فأنا الله تعالى الذى اقتربت من قلبك، وبالغيب رأيتَ نورى. قال: وكنا نرى أن تلك الرقة والبكاء وتلك الفتوح التى يجدها المصلِّى فى قلبه من دنوّ الرب تبارك وتعالى من القلب، وقال رجل للنبى ﷺ: ادع الله تعالى أن يرزقنى مرافقتك فى الجنة. فقال: «أعنّى بكثرة السجود». وروينا عن النبى ﷺ: «ما افترض الله على خلقه بعد التوحيد أحبّ إليه من الصلاة». ولو كان شىء أحبَّ إليه من الصلاة لتعبَّد به ملائكتُه؛ منهم راكعٌ، وساجد، وقائم، وقاعد. أو كما قال بعض العلماء: الصلاة خدمة الله عز وجلّ فى أرضه. وقال آخر: المصلون خدّام الله عز وجل على بساطه. إن المصلين من الملائكة يُسمّون فى السموات خُدّام الرحمن ويفخرون بذلك على سائر المرسلين من الملائكة.

ويقال: إنّ المؤمنَ إذا صلى ركعتين عجب منه عشر صفوفٍ من الملائكة؛ كل صف منهم عشرة آلاف، وباهى الله تعالى به مائة ألفِ ملَك؛ وذلك أن العبد قد

جمع فيه أركان الصلاة الأربعة؛ من القيام، والقعود، والركوع، والسجود، وفرّق ذلك على أربعين ألف ملك. والقائمون لا يركعون إلى يوم القيامة، والساجدون لا يرفعون إلى يوم القيامة، وكذلك الراكعون والساجدون. ثم قد جمع الله له أركان الصلاة الستة من: التلاوة، والحمد، والاستغفار، والدعاء، والصلاة على النبى ﷺ. وفرّق ذلك على ستين ألف ملك؛ لأن كل صفٍّ من الملائكة عبادته ذكر من الأذكار الستة. فإذا رأت الأملاك ما جمع فيه من الأركان الستة والأذكار فى ركعتين عجبت منه وباهاهم الله تعالى به؛ لأنه قد فرَّق تلك الأعمال والأركان على مائة ألف ملك، وبذلك فُضِّل المؤمن على الملائكة. وكذلك فُضِّل الموقن أيضًا فى مقامات اليقين من أعمال القلوب على الأملاك بالتنقيل فى المقامات، بأن جُمعت فيه ورُفع منها، والملائكة لا يُنقلون بل كلّ ملك موقوفٌ فى مقام معلوم لا يُنقل عنه إلى غيره مثل: الشكر، والخوف، والرجاء، والشوق، والأنين، والخشية، والمحبة، بل كلُّ ملك له مزيد وعلوٌّ من المقام الواحد على قدر قواه. وجُمع ذلك كله فى قلب الموقن.

قال الله تعالى ـ وهو أصدق القائلين ـ فى صفات أوليائه المؤمنين: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِى صَلاتِهِم خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُم عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ١ ـ ٣]. فمدحهم بالصلاة كما ذكرهم بالإيمان، ثم مدح صلاتهم بالخشوع كما افتتح بالصلاة أوصافهم، ثم قال فى آخرها: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِم يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ٩] فختم بها نعوتهم. وقال فى نعت عباده المصلين الذين استثناهم من الجزوعين من المصائب والفقر، المانعين للمال والخير: ﴿إِلاَّ الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُم عَلَى صَلاتِهِم دَائِمُونَ﴾ [المعارج: ٢٢ ـ ٢٣]. ثم نسق النعوت وقال فى آخرها: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِم يُحافِظُونَ﴾ [المعارج: ٣٤]، فلولا أنها أحب الأعمال إليه ما جعلها مفتاح صفات أحبائه وختامها، ولَمَا وصفهم بالدوام والمحافظة عليها، ومدحهم بالخشوع فيها.

والخشوع: هو انكسار القلب، وإخباته، وتواضعه، وذلته، ثم لين الجانب،

وكفُّ الجوارح، وحسن سَمت وإقبال، والمداومة والمواظبة عليها، وسكون القلب والجوارح فيها. والمحافظة: هى حضور القلب وإصغاؤه، وصفاء الفهم وإفراده من مراعاة الأوقات، وإكمال طهارة الأدوات.

ثم قال تعالى فى عاقبة المصلين: ﴿أُولئِكَ هُمُ الوَارِثُونَ * الَّذينَ يَرِثُونَ الفِرْدَوسَ هُم فيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠ ـ ١١]، فجعل أول عطائهم الفلاح، وهو الظفر والبقاء، وآخره الفردوس، وهو خير المستقر والمأوى.

وقال فى أضدادهم من أهل النار: ﴿مَا سَلَكَكُم فى سَقَرٍ * قَالُوا لَم نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ [المدثر: ٤٢ ـ ٤٣].

وقال موبخًا لآخر منهم: ﴿فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صَلَّى﴾ [القيامة: ٣١].

ونُهى رسولُ الله ﷺ عن طاعة من نهاه عن الصلاة، ثم أمره بها، وأخبره أن فيها القرب والزلفى فى قوله تعالى: ﴿أَرَأَيتَ الَّذى يَنْهَى * عَبْدًا إذَا صَلَّى﴾ [العلق: ٩ ـ ١٠]. ثم قال: ﴿كَلاَّ لاَ تُطِعْهُ وَاسجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: ١٩].

فالمصلون بقية من خلقه، وورثة جنته من عباده، وأهل النجاة من دار غضبه وإبعاده، جعلنا الله منهم بعطفه ورحمته.

• ذكر الحث على المحافظة على الصلاة وطريقة المصلين من الموقنين:

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله وَالَّذينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُم رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ [الفتح: ٢٩] الآية. فاختار لنفسه أصحابه صلوات الله عليه، ثم اختار لأصحابه الصلاة فجعلها وصفهم فى الإنجيل والتوراة، فهذا يدل أن الصلاة أفضل الأعمال لأن أصحاب رسول الله ﷺ أفضل العُمّال.

وسئل رسول الله ﷺ: «أى الأعمال أفضل؟ قال: الصلاة لمواقيتها». وعن عمر رضى الله تعالى عنه: إذا رأيت الرجل حافظًا لصلاته فظُنَّ به خيرًا، وإذا رأيته مضيِّعًا لصلاته فهو لما سواها أضيع.

وكان الحسن يقول: ابن آدم، ماذا يعز عليك من دينك إذا هانت عليك صلاتك؟ فهو على الله تعالى أهون.

وعن رسول الله ﷺ: «الصلاة عماد الدين من تركها فقد كفر». وفى حديث آخر: «بين الكفر والإيمان ترك الصلاة». وفى الخبر: «من حافظ على الصلوات الخمس بإكمال طهورها ومواقيتها كانت له نوراً وبُرهانًا يوم القيامة، ومن ضيَّعها حشره الله تعالى مع فرعون وهامان».

وفى تفسير قوله تعالى: ﴿لاَ يَملِكُونَ الشَّفَاعَةَ إلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحمنِ عَهداً﴾ [مريم:٨٧] قال: الصلوات الخمس.

وعن ابن مسعود وسلمان: الصلاة مكيال، فمن أوفى وُفِّى له، ومن طفّف فقد علمتم ما قال الله تعالى فى المطففين.

وفى الخبر: «أسوأ الناسِ سرقةً الذى يسرق من صلاته فلا يتمّ ركوعها ولا سجودها».

وفى الخبر: «إذا صلى العبد فى الملأ فأحسنَ وأساء صلاته فى الخلا فتلك استهانةٌ يستهين بها ربه عز وجل». وفى الخبر: «إذا أحسن العبد صلاته فى العلانية وأحسنها فى السرّ قال الله تعالى لملائكته: هذا عبدى حقًا».

وعن كعب وغيره: من قُبلت صلاته قُبلت أعماله كلها، ومن رُدَّت عليه صلاته رُدت عليه أعماله كلها.

ويقال: من تُقبِّلت منه الصلوات الخمس كملاً من غير تلفيق، ولا ترقيع بعضها من بعض، أو غيرها من النوافل، اطَّلع على علم الأبدال وكُتِب صدِّيقًا.

وعلامة قبول الصلوات أن تنهاه فى تضاعيفها عن الفحشاء والمنكر؛ والفحشاء: الكبائر، والمنكر: ما أنكره العلماء. فمن انتهى رُفِعت صلاته إلى سدرة المنتهى، ومن تخرَّقَتْه الأهواء فقد رُدَّت صلاته لمَّا غوى فهوى.

وقال مالك بن دينار وإبراهيم بن أدهم: إنى لأرى الرجل يسىء صلاته فأرحم

عياله. وقال الفضيل بن عياض: الفرائض رءوس الأموال، والنوافل الأرباح، ولا يصح رِبحٌ إلا بعد رأس المال. وكان ابن عيينة يقول: إنّما حُرِموا الوصول بتضييع الأصول.

وقال على بن الحسين: من اهتمّ بالصلوات الخمس فى مواقيتها وإكمال طهورها لم يكن له فى الدنيا عيش. وكان عليه السلام إذا توضأ للصلاة تغير لونه واصفر وأرعد. فقيل له فى ذلك. فقال: تَدرون بين يدى من أريد أن أقف، وعلى مَن أدخل، ومن أخاطب؟

وقال بعض العارفين: للصلاة أربعُ فرائض: إجلال المقام، وإخلاص التمام، ويقين المقال، وتسليم الأمر.

وقال أبو الدرداء: خيار عباد الله الذين يراعون الشمس والقمر والأظِلَّة لذكر الله تعالى.

وكان وكيع يقول: من لم يأخذ أهبة الصلاة قبل وقتها لم يحافظ عليها، ومن تهاون بتكبيرة الإحرام فاغسل يدك منه.

وروينا فى تفسير قوله تعالى: ﴿سَابِقُوا إلى مَغفِرَةٍ مِنْ ربِّكُم﴾ [الحديد: ٢١]، قال: تكبيرة الإحرام.

وفى حديث أبى كاهل عن رسول الله ﷺ: «من صلى أربعين يومًا الصلوات فى جماعةٍ لا يفوته منها تكبيرة الإحرام كُتب له براءتان؛ براءةٌ من النفاق، وبراءةٌ من النار».

وقال سعيد بن المسيب: منذ أربعين سنة ما فاتتنى تكبيرة الإحرام. وكان يُسمى حمامة المسجد. وقال عبد الرزاق: من عشرين سنةً ما سمعت الأذانَ إلاّ فى المسجد.

ويقال: «إنه إذا كان يوم القيامة أُمر بطبقات المصلين إلى الجنة زُمُرًا. قال: فتأتى أوّل زُمرةٍ كأنَّ وجَوهم الكوكب الدرى، فتستقبلهم الملائكة فيقولون: من أنتم؟ فيقولون: نحن المصلون من أمة محمد ﷺ. فيقولون: ما كانت أعمالكم

فى الدنيا؟ فيقولون: كنّا إذا سمعنا الأذان قُمنا إلى الطهارة لا يشغلنا غيرها. فتقول الملائكة: يحقّ لكم ذلك. ثم تأتى الزمرة الثانية، فوق أولئك فى الحسن والجمال، كأن وجوهَهم الأقمار. فتقول الملائكة: من أنتم؟ فيقولون: نحن المصلون. فيقولون: وما كانت صلاتكم؟ فيقولون: كنا نتوضأ للصلاة قبل دخول وقتها. فتقول الملائكة: يحق لكم ذلك. ثم تأتى الزمرة الثالثة، فوق هؤلاء فى المنزلة والجمال كأن وجوههم الشمس الضاحية. فتقول الملائكة: أنتم أحسن وجوهًا وأعلى مقامًا فمن أنتم؟ فيقولون: نحن المصلّون. فيقولون: وما كانت صلاتكم؟ فيقولون: كنا نسمع الأذان فى المسجد. فتقول الملائكة: حُق لكم ذلك».

وقال بعض العلماء رضى الله عنهم: سُميت الصلاة صلاةً لأنها صلة بين العبد وبين الله عز وجل، ومواصلة من الله تعالى لعبده، ولا تكون المواصلة والمنال إلاّ لتقيٍّ. قال الله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ﴾ [الحج:٣٧]. ولا يكون التقيُّ إلا خاشعًا، فعندها لا يعظم عليه طول الوقوف، ولا يكثر عليها الانتهاء عن المنكر والائتمار بالمعروف. كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الفَحشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥]. والخاشعون من المؤمنين هم الآمرون بالمعروف، والناهون عن المنكر، والحافظون لحدود الله، جزاؤهم البشرى، كما قال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب:٤٧]. والخاشعون أيضًا الخائفون، والذاكرون، والصابرون، والمقيمون الصلاة. فإذا كمُلت هذه الأوصاف فيهم كانوا مخبتين. وقد قال سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج:٣٤].

وكان ابن مسعود إذا نظر إلى الربيع بن خيثم يقول: وبشر المخبتين، أما والله لو رآك محمد ﷺ لفرح بك. وفى لفظ آخر: لأحبك. يقال: إنه كان يختلف إلى منزل ابن مسعود عشرين سنة لا تحسَب جارية ابن مسعود إلا أنه أعمى؛ لشدة غض بصره، وطول إطراقه إلى الأرض بنظره، وكان إذا دقّ الباب عليه تخرج إليه الجارية، فإذا رأته قالت لعبد الله: صديقُك ذاك الأعمى قد جاءك. فكان ابن مسعود يضحك ويقول: ويحك ذاك الربيع. ومشى ذات يوم مع ابن مسعود فى

الحدادين، فلما نظر إلى الأكوار تُنفخ وإلى النيران تلتهب صُعِق وسقط مغشيًا عليه، وقعد ابن مسعود عند رأسه إلى وقت الصلاة، فلم يفق، فحمله ابن مسعود على ظهره إلى منزله، فلم يزل مغشيًا عليه إلى الساعة التى صُعق فيها حتى فاتته خمس صلوات، وابن مسعود عند رأسه يقول: هذا والله هو الخوف.

وكان هذا يقول: ما دخلتُ فى صلاة قط فأهمَّنى فيها إلاّ ما أقول وما يقال لى.

وقد كان عامر بن عبد الله من خاشعى المصلين، كان إذا صلى ضربت ابنته بالدف، وتحدّث النساء بما يُردن فى البيت، ولم يكن يعقل ذلك، ولا يسمعه. وقيل له ذات يوم: هل تحدث نفسك فى الصلاة بشىء؟ قال: نعم، بوقوفى بين يدى الله عز وجل، ومنصرفى إلى إحدى الدارين. قيل: فهل تجد شيئًا مما نجده من أمور الدنيا؟ فقال: لأن تختلف الأسنَّةُ فىَّ أحبُّ إلىَّ من أن أجد شيئًا فى الصلاة مما تجدون. وكان يقول: لو كُشف الغطاء ما ازددت يقينًا.

وقد كان مسلم بن يسار من الزاهدين العاملين، كان إذا دخل فى الصلاة يقول لأهله: تحدثوا بما تريدون، وافشوا سركم، فإنى لا أستمع إليكم. وكان يقول: وما يدريكم أين قلبى. وكان يصلى ذات يوم فى مسجد البصرة، فوقعت خلفه أسطوانةٌ معقودٌ بناؤها على أربع طاقات، فتسامعَ بها أهل السوق فدخلوا المسجد، وهو يصلى كأنه وتد، وما انفتل من صلاته، فلما فرغ جاءه الناس يُهَنُّونه، فقال: أى شىءٍ تهنونى؟ قالوا: وقعت هذه الأسطوانة العظيمة وراءَك فسلِمْت منها، قال: متى وقعت؟ قيل: وأنت تصلى، قال: ما شعرتُ بها.

وقال بعض المصلين: الصلاة من الآخرة، فإذا دخلت فى الصلاة خرجت من الدنيا. وقيل لآخر: هل تحدِّث نفسك فى الصلاة بشىء من الدنيا؟ فقال: لا فى الصلاة ولا فى غيرها. وسئل بعضهم: هل تذكر فى صلاتك شيئًا؟ قال: وهل شىءٌ أحبُّ إلىَّ من الصلاة فأذكره فيها؟

وكان أبو الدرداء يقول: من فِقْه الرجل أن يبدأ بحاجته قبل دخوله فى الصلاة، ليدخل فى الصلاة وقلبه فارغ.

وفى الخبر: إن عمار بن ياسر صلى صلاةً فخففها، فقيل له: خفّفت يا أبا اليقظان. فقال: هل رأيتمونى نقصت من حدودها شيئًا؟ قالوا: لا. قال: لأنّى بادرت سهوَ الشيطان، إن رسول الله ﷺ قال: «إن العبد ليصلى الصلاة لا يُكتب له نصفها ولا ثلثها ولا ربعها ولا خمسها ولا سدسها ولا عُشرها». وكان يقول: «إنّما يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها».

وقد ذكر هذا عبد الواحد بن زيد: أنه إجماع. فروينا عنه أنه قال: أجمعت العلماء أنه ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل. وقال الحسن: كلُّ صلاةٍ لا يحضرها قلبك فهى إلى العقوبة أسرع منها إلى الثواب. ويقال: إن أصحاب رسول الله ﷺ، منهم الزبير وطلحة، كانوا أخفَّ الناسِ صلاةً، فسئلوا عن ذلك فقالوا: نبادرُ بها وسوسة العدوِّ.

وروينا أنَّ عمر رضى الله تعالى عنه قال على المنبر: إنَّ الرجلَ لَيشيبُ عارضاه فى الإسلامِ، وما أكمل لله تعالى صلاةً. قيل: وكيف ذاك؟ قال: لا يتمُّ خشوعَها وتواضُعها وإقبالَه على الله تعالى فيها.

وقال الله جل ذكره، وَمَن أَصدقُ من الله حَديثًا: ﴿حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣].

وقال رسول الله ﷺ: «من تشعَّبت به الهمومُ لم يبالِ اللهُ تعالى فى أى أوديتها هلك».

وسئل أبو العالية عن قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاَتِهِم سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٥] قال: هو الذى يسهُو فى صلاتهِ، فلا يدرى على كم ينصرف، على شفع أم على وتر؟

وسئل الحسن عن ذلك، فقال: هو الذى يسهو عن وقتِ الصّلاة حتى يخرج وقتها. وكان يقول: أما واللهِ لو تركوها لكفروا، ولكن سَهَوا عن الوقت.

وقال بعضُ السلف فيها: هو الذى إن صلاها فى أول الوقت أو فى الجماعة لم يفرح، وإن صلاها بعد الوقت لم يَحزن. وقيل: هو الذى لا يرى تعجيلها برًا،

ولا تأخيرها إثمًا. ويقال: إن الصلوات الخمس يُلفَق[١] بعضُها إلى بعض حتى يتم بها للعبد صلاة واحدة. وقيل: من الناس من يصلِّي خمسينَ صلاةً فيكمل له بها خمس صلوات. وإن الله تعالى ليستوفى من العبد ما أمره به كما فَرَضَه عليه وإلاّ تَمَّمه من سائر أعماله النوافل، لأنه ما فرض على العبد إلا ما يطيقه بعونه، إذ لم يكلِّفه ما لا طاقةَ له به برحمته.

وروينا عن عيسى عليه السلام: يقول الله تعالى: «بالفرائض نجا منِّى عبدى، وبالنوافل تقرَّب إلىَّ عبدى».

وقد جاء مثله عن نبينا ﷺ: «يقول الله تعالى: لا ينجو منِّى عبدٌ إلاّ بأداءِ ما افترضتُه عليه». وفى الخبر المفسر: «أوّل ما يُحاسَب به العبدُ الصّلاة، فإن وُجدت كاملة، وإلاّ يقول الله تعالى: انظروا هل لعبدِى من نوافل؟ فيتم فرائضه من نوافله»، ثم يُعمل بسائر الفرائض كذلك، يُوفَّى كلُّ فرض من جنسهِ من النَّفل، فإذا كانت النوافل فى السّهو والتقصير كالفرائض، أو لم يوجد نوافل، فكيف يكون حاله فى الحساب؟

وكان ابن عباس يفسر قوله تعالى: ﴿كَلاّ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ [عبس:٢٣] قال: يعنى به الكافر. لأن عنده أن كلّ موضع فى القرآن يُذكر به الإنسان خاصة: أنه يعنى به الكافر.

وقد قال الله تعالى: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إلاَّ وُسعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦] يعنى طاقتها. وقال سبحانه وتعالى مخبرًا عن المؤمنين: ﴿وَلاَ تُحَمِّلْنا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة:٢٨٦]. فى التفسير: قد فعلت.

وفى هذه المسألة اختلافٌ وشبهة، والصواب من ذلك أن الله عز وجل لا يكلّف المؤمنين خاصة ما لا طاقة لهم به، فهم مخصوصون بذلك، فضلاً من الله تعالى ونعمة، آثرهم بها على الكافرين، إذ له أن يؤثر بعض عباده على بعض، لأن الفضل بيده يؤتيه من يشاء، وهذا مفهوم من دليل الخطاب من قوله: ﴿وَلاَ

(١) أى يضم، من لَفَق الثوب لَفْقًا، إذا ضم إحدى الشقتين إلى الأخرى فخاطهما.

تُحَمِّلْنا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة:٢٨٦]: أن له تعالى أن يحمِّل الكافر ما لا طاقة له به عدلاً منه وحكمة. كما قال تعالى: **﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾** [الأنعام:١١٥]. قيل: صدقًا للمؤمنين، وعدلاً على الكافرين. قال الله تعالى مخبرًا عن أخوة يوسف: **﴿تَالله لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنا﴾** [يوسف:٩١]. فهذا نصٌّ فى الإيثار لبعض خَلْقه على بعض. ثم رأيتُ تصديق ما ذكرته عن ابن عباس رواه إسماعيل عن جُوَيبر عن الضحاك عن ابن عباس فى قوله تعالى: **﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾** [الأعراف:٤٢] يعنى: إلاّ طاقتها من العمل؛ لأن الله تعالى افترض على المؤمنين أعمالاً يطيقونها، ولم يفترض عليهم ما لا يطيقون. هذا نَقْلُ لفظ ابن مسعود فى تخصيص المؤمنين، كما ذكرناه آنفًا.

ويقول أيضًا فى تفصيل هذه المسألة التى للزائغين فيها تعلقٌ ابتغاءَ التأويل: إن الله تعالى كلَّف العباد ما لا يطيقونه إلاّ به؛ لافتقارهم إليه، وعدم استغنائهم عنه فى كل حركة وسكون، إذ لا مشيئة لهم دون مشيئته ولا استطاعة إلا بتوفيقه، ولا حول ولا قوة إلا به. ألم تسمع إلى قوله تعالى فى وصف الكافرين: **﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾** [هود:٢٠]؟ وقال تعالى فى مثله: **﴿وَكَانُوا لاَ يَسْتَطِيعُون سَمْعًا﴾** [الكهف:١٠١]. وقال فيمن استطاع به: **﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوفِيقِى إِلاَّ بِالله عَلَيه تَوكَّلتُ﴾** [هود:٨٨].

وروينا عن النبى ﷺ: «من صلى كما أُمر غُفر له ما تقدم من ذنبه».

وقد يروى فى خبر: «يقول الله تعالى: ليس كل مصلٍّ أتقبَّل صلاته، إنما أتقبّل الصلاة ممن تواضع لعظمتى، وخشع قلبه لجلالى، وكفّ شهواته عن محارمى، وقطع ليله ونهاره فى ذكرى، ولم يصرّ على معصيتى، ولم يتكبَّر على خلقى، ورَحِم الضعيف، وواسى الفقير من أجلى، علىَّ أن أجعل الجهالة له حلمًا، والظلمَ له نورًا، يدعونى فأُلبِّيه، ويسألنى فأعطيه، ويُقسم علىَّ فأبَرَّه، أكلؤه بقوتى، وأباهى به ملائكتى، لو قُسم نوره عندى على أهل الأرض لوسعهم. مَثَله

كمثَل الفردوس لا يتسنَّى ثمرها ولا يتغير حالها». وفى الخبر: «كم من قائم حظُّه من قيامه السهر والتعب».

ومن صلى صلاةً وراء إمامٍ فلم يدر ماذا قرأ، فهو نهاية السهو، فإنه تارك الأمر للاستماع، فيخاف عليه مُجانَبة الرحمة؛ لأن الله تعالى ضمن الرحمة بشرطين: الاستماع والإنصات، وجعل علامة الحضور الإنصات. وقال سبحانه فى المعنيين: ﴿وَإِذَا قُرِئَ القُرآنُ فَاستَمعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُم تُرحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا﴾ [الأحقاف: ٢٩].

وروينا فى خبر: «إن النبى ﷺ صلَّى صلاةً فترك فى قراءته آية. فلما انفتلَ قال: ماذا قرأتُ؟ فسكت القوم. فسأل أُبيَّ بن كعب فقال: قرأت سورةَ كذا وتركت آية كذا، فما أدرى أنُسخت أم رُفعت. فقال: أنت لها يا أُبيُّ. ثم أقبل على الآخرين فقال: ما بال أقوامٍ يحضرون صلاتَهم ويتمُّون صفوفهم، ونبيهم بين أيديهم، لا يدرون ما يتلو عليهم من كتاب ربهم، إلا أن بنى إسرائيل كذلكم فعلوا، فأوحى الله إلى نبيهم أن قل لقومك: تُحضِرونى أبدانكُم، وتعطونى ألسنتكم، وتُغيِّبون عنّى قلوبكم، باطلاً ما تذهبون».

وقال بعض علمائنا: إن العبدَ يسجد السجدة، عنده أنه يتقرب بها إلى الله عز وجل، ولو قُسمت ذنوبه فى سجدته على أهل مدينته لهلكوا. قيل: وكيف يكون ذلك يا أبا محمد؟ قال: يكون ساجدًا عند الله، وقلبه مصغ إلى هوًى، ومشاهدٌ لباطل قد استولى عليه. وهذا كما قال؛ لأن فيه انتهاك حرمة القرب، وسقوط هيبة الربّ تعالى.

واعلم أن طول الصلاة عليك غفلةٌ، وقصرها سهوٌ، لأنها إذا طالت عليك دل على عدم الحلاوة ووجود الثقل بها وكِبرها على جوارحك، وإذا قصرت عليك وخفَّت دلَّ على نقصان حدودها ودخول الغفلة والسهو فيها، فالنسيان قصَّرها. والاستقامة فى الصلاة أن لا تطول عليك؛ لوجود الحلاوة، ولذة المناجاة، وحسن الفهم، واجتماع الهمِّ، ولا تقصر عليك لتيقّظك فيها، ورعايتك حدودها، وحسن قيامك بها. وهذه مراقبة المصلين، ومشاهدة الخاشعين.

• ذكر أحكام الخواطر فى الصلاة:

وما ذُكِّر به العبد فى الصلاة من الخير فليسارع إلى فعله، فذلك من أحبِّ الأشياء إلى الله تعالى، لأنه أذكره إياها فى أحبِّ المواطن إليه. وما ذُكِّر به من المكروه والممقوت إليه من المعتاد والمستأنف فليجتنبه؛ فإنه هو الذى يُبعده من قُرب الله سبحانه وتعالى، وتذكيره إيّاه فى محل القرب توبيخًا له وتقريرًا، وقد يكون عتبًا وتنبيهًا، فَتَركُ ذلك مما يقرّب إلى الله تعالى، ويدل على حُسن الاستجابة له؛ وهو مسلكٌ طريقه إلى الله تعالى.

وما خطر به من خاطر تمنٍّ أو هوًى، أو ذكر بِهِمَّة ما يأتى أو ما قد مضى، فإن ذلك وسوسة إليه من عدوّه حسدًا له، ليقطعه بذلك عن وقوف قلبه عند كلّ ركن من أركان الصلاة، ويشغل قلبه عن الوقوف فى المناجاة، فيحجبه بما يضره عما ينفعه، ليحرمه بذلك أن يشهد عند كلّ ذكر من أذكار الصلاة ما يوجبه الذكر من: تدبر، أو تعظيم، أو حمد، أو دعاء، أو استغفار.

وإن خطر بقلبه أمر معاشه وتصريف أحواله وتدبير شأنه من المناجاة، فذلك من قِبَل النفس وفكرها بما توسوس به من أمور الدنيا، فأما إن خطرت هِمّةٌ محظورة، أو فكرة فى معصية مأزورة؛ فهذا هو الهلاكُ والبُعد، يكون عن وصف النفس الأمّارة باستحواذ العدو المُغوِى؛ فهو علامة الإبعاد والحجاب ودليل المقت والإبعاد والإعراض. فإذا ابتُلى فى صلاته بهذه المعانى فقد اختُبر بذلك، فعليه أن يعمل فى نفيه مع نفس بُدوِّه، ولا يُمكِّنه من الظهور من قلبه فيملكه، ولا يصغى إليه بعقله فيستولى عليه، ولا يحادثه ولا يطاوله فيُخرجه من حدِّ الذِّكْر واليقظة إلى مسامرة الجهل والغفلة، وكلُّ عملٍ محظورٍ فالهمةُ به محظورةٌ وفيه نقصٌ، وكلُّ عملٍ مباحٍ فالهمةُ به مباحةٌ وفيها فضيلة.

وما خطر على قلبه من الخيرات المتأخر فعلُها فليعقد النية بذلك، فإنه قد ذُكِّر به وأُريد منه، ثم ليَمْضِ فى صلاتِه ولا يَشْتغل بتدبيره كيف يكون؟ ومتى يكون؟ أو كيف أكون فيه؟ وعنده إذا كان، فيفوته الإقبال فى الحال بتدبير شأنه فى المآل، وهذا هو استراق من العدو عليه، وإلقاء من خُدَعه إليه، فإن جاهدَ هذا المصلى

نفسه عن مسامرة الفكر، وقابل عدوه فى قطع وَسوَسةِ الصَّدر، كان مجاهدًا فى سبيل الله تعالى، مقاتلاً لمن يليه من أعداء الله تعالى، وله أجران: أجر الصلاة للتقرب إلى الكريم، وأجر المصابرة والمحاربة لعدوه الرجيم.

وقد كان الأقوياء من المؤمنين، أهل الغلظة على الأعداء والتمكين، إذ ابتُلوا بداخلٍ يدخل عليهم فى الصلاة من الأسباب، يُخرجهم عن المشاهدة فيها، عمِلُوا فى قطع ذلك الشىء وإبعاده من أصله، إذ كان سبب قطعهم وإبعادهم من قربهم، فيستخرج بإدخال ذلك عليهم إخراجَهم من الدنيا؛ وهو الزهدُ فيها، فيكون ذلك إحسانًا من الله إليهم ومزيدًا منه لهم؛ وهذا أحد ما زهد لأجله الزاهدون فى الدّنيا؛ لتصفو قلوبهم من الأسباب، فتخلص أعمالهم من الوساوس بالاكتساب.

ومن ذلك ما بلغنا عن رسول الله ﷺ أنه نزعَ الجُبَّة التى كانت عليه فى الصلاة، لما نظر إلى عَلَمِها وقال: ألهتنى هذه فى الصلاة؛ يعنى شغلتنى. ونظر إلى شِراك نعله فى الصلاة، وكان جديدًا، فأمر أن يُنزع منها ويُعاد لها الشِّراكُ الخَلَقُ الذى كَانَ عليها. وكان قد احتذى نَعلاً فأعجبه حُسنها فسَجَد وقال: تواضعت لربى كيلا يَمْقُتُنى، ثم خرجَ بها فدفعها إلى أول سائل لقيه، ثم أمر عليًا أن يشترى له نعلين سَبْتِيين جَرْدَاوَين، فلبسهما.

وكان الضعفاء من المؤمنين يعملون فى نفيه وترك مساكنته ومحادثته فى الحال، لقوادح اليقين فى إيمانهم، ولسرعة التيقظ فى قلوبهم؛ لأن الآفات تدخل من مكان الهوى وتمكُّن الأعداء، ومكان الهوى وقوة العدو لطول الغفلة وعدم حلاوة الطاعة، لاتساع النفس فى الشهوات، وقوة سلطانها على الصفات، واتساع النفس وقوةِ صفتها لضِيق القلب، وضعف اليقين، إذ لو قوى يقين العبد لانشرح صدره، ولأطفأ نورُ يقينه ظُلمةَ هواه، ولاندرجت النفس فى القلب اندراج الليل فى النهار، ولأسقط مكانُه من الشَّهادة تمكُّنَ أعدائه والعادة، ولعلم يقينًا أن ما هو فيه من الذِّكر والصلاة أنفعُ له وأحمدُ عاقبةً مما تفكَّر فيه من عاجل دنياه، فيشتغل حينئذ بما هو فيه له من الذّكر عمّا هو عليه من سوء الفِكر.

وليس بعد هذين المقامين حال يُنعت ولا يُمدح بشىء، وما قُدح فى قلبه من

فهم الخطاب، وتدبر معانى الكلام، والإيقاف على المقصد والمراد، فهو تعليم من الله تعالى، وتوقيف وتنبيه منه وتعريف؛ وهذا مزيد التلاوة، وعلامة الإخلاص فى المعاملة، وبركة التدبّر، ودليل القبول والشكر لحسن الخدمة، فليأخذ من ذلك ما عفا، ويغترف منه ما صفا، ولا ينتظره ولا يتمنّاه، ولا يتبعه بعد انصرافه بالفكر فى معناه، فيسترقَّ العدوُّ عليه السّمع، ويُلقى إليه الوسوسة، ويطمع فيه بالغِرَّة، ويدخل عليه من باب الأمنية؛ لأنه قد قَرنَ الأمانى بالإضلال؛ فهى مواعيدُ الكذب للإبطال. ألم تسمع إلى ربك تعالى كيف أخبركَ عنه فى قوله تعالى: ﴿**وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ**﴾ [النساء:١١٩]. ثم قال فى مثله: ﴿**وَشَارِكْهُم فى الأَمْوالِ وَالأَوْلاَدِ وعِدْهُم وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إلاَّ غُرُورًا**﴾ [الإسراء:٦٤]. ثم استثنى عباده المسلّطين عليه بسلطانه، الغالبين له بآياته، فلم يصل العدو إليهم؛ لمواصلته لهم وتوكُّلهم عليه بوكالته إيّاهم، تنتظم هذه المعانى فى قوله تعالى: ﴿**إِنَّ عِبَادى لَيْسَ لَكَ عَلَيهِم سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً**﴾ [الإسراء:٦٥]. وقوله تعالى: ﴿**وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَن اتَّبَعَكُمَا الغَالِبُونَ**﴾ [القصص:٣٥]. مع قوله تعالى: ﴿**إِنَّهُ لَيسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِم يَتَوَكَّلُونَ**﴾ [النحل:٩٩].

وللعبد فى التفكُّر والتدبُّر لما يستقبل بكلٍّ كلمة شغلٌ عما فات مما كان عمله، وله فى الشغل فى الحال اقتطاعٌ بما قد فَهِمه، وما فَهِمَه من غير ما يتلوه، فاستدل به على ما سواه مما يعينه ويحتاج إليه؛ فهى أبوابٌ من الفطنة تُفتح له، فيكون الكَلِمُ مفتاحَها. ثم يخرج العبد إلى سواها مما هو له أصلح أو عليه أوجب. فليعرف بذلك ما عرف، وليقف من ذلك على ما عليه أُوقف، وما تفكر فيه من غير تدبر التلاوة، أو شغل به من غير فهم المتلوّ، فهو حجابٌ له عن الفهم، وقطعٌ له عن خالص العلم، فليقطع ذلك.

والتمام فى التلاوة أن يتدبر التالى باطن الكلام، ويتفكر فى غوامض الخطاب، ويوقف قلبه على معانى المراد، ويُعمل فكره فى تذكُّر الموصِّل والترداد، فإن الكلام

عزيزٌ من عزيز، ولطيفٌ من لطيف، وحكيمٌ من حكيم، وعليٌّ من عليٍّ، ظاهره سهلٌ قريب، وباطنه بحرٌ عميق، يقول السامع إذا عقله: قد فهمتُه؛ لتجلى فحواه، فإذا شهده كأنه ما سمعه لدقيق معناه. يحسب العاقل أنه قد عرفه لظهور بيانه وتفصيل حكمته، فإذا عُرِّفَ المتكلم به كأنه ما عَقَله؛ لعمق بحاره، وسعة أقطاره. قد اغترّ به قومٌ لما سمعوا بيانه، فادّعوا أنهم يحسنونه، وخُدع به آخرون لما عقلوا أمثاله، فطلبوا غيره وسألوا أبداله، وأصغى آخرون إلى سمعه، فادّعوا فهمه، فأكذبهم الصادق وعزلهم عن سمعه، ثم أخبرنا بجميع ذلك عن جهلهم، وعجَّبنا من جراءتهم، فقال فى وصف الأولين: ﴿**وَإِذَا تُتلَى عَلَيْهِم آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثلَ هذَا**﴾ [الأنفال: ٣١]. ﴿**وإِذَا تُتلَى عَلَيْهِم آيَاتُنَا بيِّنَاتٍ قَالَ الَّذينَ لاَ يَرجُونَ لِقَاءَنَا ائتِ بِقُرآنٍ غَيرِ هَذَا أَو بَدِّلْه**ُ﴾ [يونس: ١٥].

وقال فى نعت الآخرين: ﴿**يُلْقُونَ السَّمعَ وأَكثَرُهُم كَاذِبُونَ**﴾ [الشعراء: ٢٢٣]. ﴿**إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ**﴾ [الشعراء: ٢١٢]. ﴿**وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعنَا وَهُم لاَ يَسمَعُونَ**﴾ [الأنفال: ٢١].

ثم وصف من أسمعه إياه وأفهمه معناه من الجنّ الذين هم أشدُّ قوةً من الإنس وأعظمهم وصفًا، فقالوا: ﴿**إِنَّا سَمِعنَا قُرآنًا عَجبًا * يَهدِى إِلى الرُّشدِ**﴾ [الجن: ١ ـ ٢]. فهؤلاء ممّن عقله فمدحهم بفهمه، وأخبر عن صاحب التنزيل بمثله فقال: ﴿**بَل عَجِبْتَ وَيَسخَرُونَ**﴾ [الصافات: ١٢] أى عجبت من القرآن وتفصيله وتنزيله، ويسخر منه الجاهلون.

فإن فُتح للتالى بالتلاوة عين يقين[1] المتلوِّ باب[2] الفكر فى معانى العظمة والقدرة، وكُشف له بواسطة الكلام مشاهدةُ ما كان علمه من وعد الآخرة ووعيدها، فله أجران، من حيث كان منه عَمَلان: الفكر والصَّلاة. وهذا كله لعموم المؤمنين مزيد، وهو للخصوص من المقربين دون ذلك، إلا ما وجّهوا به من طوالع

---

(١) فى المطبوعة: «نفس» وأثبت ما فى (د).

(٢) فى (م): «غير نفسِ المُتَلوِّثاتِ»، ولعل فيها تصحيفًا.

الغيوب، وأُطلعوا عليه من مطالع سرائر المحبوب، فكُوشفوا به من بوادى اليقين من العزة والجبروت، والإجلال والرهبوت، مِمّا هُجم عليهم من غير تفكّر منهم، ولا تدبُّر مما استعملهم به، واضّطرهم إلى مشاهدته القديرُ، فأخرس ألسنتهم عن المقال، وعقَم عقولهم عن المحال، وأغنى قلوبهم عن الطلب، ولم يُوكل إلى فكرهم بنظرٍ إلى سبب، بل من غير تعمُّل منهم لتكييفه، ولا دراية ولا اختيارٍ لماهيته، ثم يجاوزونه إذا أخذ منهم حقَّه، وأدركوا به نصيبهم إلى العالم الأكبر، فيقفون بين يديه ويحطُّون عنده، ولا يقفون مع المشاهدة طرفة عين، ولا يسكنون إليها خَطرةَ قلبٍ؛ لئلا يقطعهم البيانُ عن المبين، ولا يشغلهم الخبرُ عن اليقين، ولا تحجبهم الشهادة عن الشهيد، ولا يحبسهم البادئ العائد عن المبدئ المعيد؛ بل قد أشرف بهم على المراد، فأسقط عنهم التشرُّف، وأذهلهم عن الاعتراف والتعريف بما ناداهم به من التعرُّف، واقتطعهم العيان فأغناهم عن الانقطاع، وتقطّعوا بالمفصَّل فأنساهم الانتفاع، وتوصلوا بالموصل فأطلعهم عليه، وكان لهم حاملاً إليه، ودليلاً أمامهم منه عليه؛ وهذه صفة الأقوياء بالقوىِّ، الأغنياء بالغنىِّ، الواجدين للمُوجِد، الفاقدين للمَوجد[1]، الذاكرين بذاكر، الصابرين بصابر.

ولا ينبغى للمصلى أن يدخل فى صلاته حتى يقضى نُهمته، ويفرغَ من حاجته، ولا يبقى عليه ما يزعج قلبه، ويفرِّق همَّه، ليفرغ قلبه فى صلاته، ويجتمع همُّه فى وقوفِهِ، ويصحو عقله لفهمه، ويواطئ قلبُه قِيلَه، ويقبل على المقبل عليه بمعقوله؛ وهذا يؤمر به الضُّعفاء عن مجاهدة الأعداء، والمرضى عن مسابقة الأولياء. وقد روى عن رسول الله ﷺ: «المؤمن القوى أحبُّ إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف، وفى كُلٍّ خير»، وقد قال الله تعالى: **﴿لاَ يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى﴾** [النساء: ٩٥].

(١) عبارة (هـ): «الواجدين بموجد اليد، فهى للموجد». وعبارة (د): «الواجدين بموجد، الفاقدين للموجد».

كتاب الزكاة

شرح ثالث ما بنى الإسلام عليه، وهو الزكاة

فأما فرض الزكاة فأربع: الحرية، وصحة المِلْك، ووجود النِّصاب؛ وهو مائتا درهم أو عشرون دينارًا، واستكمالُ الحَوْلِ؛ وهو من شَهْر إلى مثله.

• ذكر فضائل الصدقة وآداب العطاء، وما يزكو به المعروف ويفضل به المنفقون:

روينا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ليس فى المال حقٌّ سوى الزكاة».

وعن جماعة من التابعين كانوا يذهبون إلى أن فى المال حقوقًا غير الزكاة، منهم: إبراهيم النخعى، قال: كانوا يرون أن فى المال حقوقًا سوى الزكاة؛ ومنهم: الشعبى، سئل: أفى المال حقٌّ سوى الزكاة؟ قال: نعم، أما سمعت قوله تعالى: ﴿وآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِى الْقُرْبَى﴾ [البقرة:١٧٧] الآية. ومنهم: عطاء ومجاهد.

وقد كان المسلمون يرون المؤاساة[١]، والقَرض، والقيام بمؤن العَجَزة عن أنفسهم وأهلهم، من المعروف والبر والإحسان، وأن ذلك واجبٌ على المتقين وعلى المحسنين من أهل اليسار والمعروف. وكذلك مذهب جماعة من أهل الفَسْر أن قوله عز وجل: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُم يُنفِقُونَ﴾ [البقرة:٣]، وقوله: ﴿أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة:٢٥٤] مأمور به، وأن ذلك غير منسوخ بآية الزكاة، وأنه داخلٌ فى حق المسلم على المسلمين، وواجب بحرمة الإسلام ووجود الحاجة.

فمن فضائل الزكاة: أن يخرجها فى أول ما تجب عليه، وأن يقدمها قبل وجوبها، إذا رأى لها موضعًا يتنافس فيه، ويغتنم خوف فوته؛ من غازٍ فى سبيل الله عز وجل، أو فى دَيْنٍ على مُطالَب، أو جهاد وغزوٍ، أو إلى رجل فقير فاضل طرأ فى وقته، أو ابن سبيل غريب، كان تقدمتها إلى هؤلاء وأمثالهم أفضل

(١) فى المطبوعة: «المساواة» وهو تحريف، وغير ذلك كثير مما تركت الإشارة إليه فيما مضى من أول الكتاب.

وأزكى؛ لأنه من المسارعة إلى الخير، ومن المعاونة على البر والتقوى، وداخل فى التطوع بالخير وفعله الذى أمر به، ولا يأمن الحوادث، إذ فى التأخير آفات، وللدنيا نوائب وعوائق، وللنفس بدَوات، وللقلوب تقليبٌ.

وإن جعل رأسَ الحولِ أحدَ الشهرين كان أفضل، فإن فى هذين خاصية من الفضائل ليست فى غيرهما.

فأمّا شهرُ رمضان فإنّ الله تعالى خصّه بتنزيل القرآن، وجعل فيه ليلة القدر التى هى خير من ألف شهر، وجعله مكانًا لأداء فرضه الذى افترضه على عباده من الصيام، وشرّفه بما أظهر فيه من عمارة بيوته بالقيام. وقد كان مجاهد يقول: لا تقولوا رمضان فإنه اسم من أسماء الله تعالى، ولكن قولوا: شهر رمضان. وقد رفعه إسماعيل بن أبى زياد فجاء به مسندًا.

وأما ذو الحجة فإنا لا نعلم شهرًا جمع خمس فضائل غيره: هو شهرٌ حرام، وشهر حجٍّ، وفيه يوم الحج الأكبر، وفيه الأيام المعلومات؛ وهى العشرة، والأيامُ المعدودات؛ وهى أيام التشريق التى أمر الله تعالى بذكره فيها.

وأفضل أيام فى شهر رمضان العشر الأواخر، وأفضل أيام فى شهر ذى الحجة العشر الأول.

وقد استحب بعض أهل الورع أن يقدِّم فى كلّ سنة بشهر، لئلا يكون مؤخِّرًا عن رأس الحول؛ لأنه إذا أخرج فى شهر معلوم، ثم أخرج القابل فى مثله، فإن ذلك الشهر يكون الثالث عشر؛ وهذا تأخير. فقالوا: إنه إذا أخرج فى رجب فليُخرج من القابل فى جمادى الآخرة؛ ليكون آخر سنته بلا زيادة. وإذا أخرج فى رمضان فليُخرج من قابل فى شعبان على هذا؛ لئلا يزيد على السنة شيئًا. وهذا أحسن، وليتق أن يكون مخرجًا للفرض فى كل شهر، ثم أن يخرجها طيبةً بها نفسه، مسرورًا بها قلبه، مخلصًا لربه، مبتغيًا بها وجهه، لغير رياءٍ ولا سمعة ولا تزيُّن ولا تصنُّع. ولا يجب أن يطلع عليها غير الله عز وجل، ولا يرجو فى إعطائها ولا يخاف فى منعها سواه، وليكن ناظرًا إلى الله تعالى، عارفًا بحسن توفيقه له، وأن يعتقد فضل من يعطيه من الفقراء عليه، ولا ينتقصه بقلبه ولا

يزدريه، وليعلم أن الفقير خيرٌ منه؛ لأنه جُعل طُهرةً وزكاةً ورفعةً ودرجةً فى دار المقام والحياة، وأنه هو قد جُعل سُخرةً للفقير وعمارةً لدنياه.

كما حدثنا بعض العارفين قال: أُريد منى ترك التكسب وكنت ذا صنعة جليلة، فجال فى نفسى من أين المعاش؟ فهتف بى هاتف: لا أراك تنقطع إلينا، وتتهمنا فيك علينا، أن نُخدمك وليًا من أوليائنا، أو نُسخِّر لك منافقًا من أعدائنا.

وأن يُسرَّ ذلك إلى الفقير سرًا، ولا يذكر ذلك. فقد جاء فى تفسير قوله تعالى: ﴿لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ والأَذَى﴾ [البقرة:٢٦٤] قال: المنّ: أن تذكرها، والأذى: أن تظهرها، وحُدثت عن بشر بن الحارث قال: قال سفيان: مَنْ مَنَّ فسدت صدقته. قيل: كيف المنُّ يا أبا نصر؟ قال: أن تذكره أو تحدِّث به. وبعضهم يقول: المنُّ: هو أن تستخدمه بالعطاء، والأذى: أن تعيّره بالفقر. وقيل: المنّ: أن يتكبر عليه، لأجل أن يعطيه، والأذى: أن تنهره أو توبخه بالمسألة.

وفى الحديث: «أفضل الصدقة جُهْدُ الْمُقِلِّ إلى فقير فى سرٍّ». وقال بعض العلماء: ثلاثة من كنوز البرّ، منها: إخفاء الصدقة. وقد رُويناه مسندًا من طريق. وذلك أسلم لدينه، وأقلُّ لآفاته، وأزكى لعمله.

وقد روينا فى الخبر: «لا يقبل الله من مُسمعٍ ولا مُراءٍ ولا منَّان»، فجمع بين المنَّة والسُّمعة، كما جمع بين السمعة والرِّياء، وردّ بهن الأعمال.

فالمُسمع الذى يتحدث بما صنعهُ من الأعمال ليُسمعه من لم يكن رآه، فيقوم ذلك مقامَ الرؤية للعمل، فهو مشتق من السمع، كالرؤيا مشتق من الرؤية، فسوَّى بينهما فى إبطال العمل؛ لأنهما عن ضعف اليقين، إذ لم يكتف المسمع بعلم مولاه، كما لم يقنع المرائى بنظره فأشرك فيه سواه، وألحق المنَّان بهما؛ لأنّ فى المنة معناهما من أنه ذَكَره فقد سِمعَ غيره به، أو رأى نفسه فى العطاء ففخر به وأدّاه سرًا، فإن أظهره نُقل من السرّ وكُتب فى العلانية، فإن تحدَّث به مُحى من السرّ والعلانية فكتب رياء، فلو لم يكن فى إظهار الصدقة مع الإخلاص بها إلا فوتُ ثواب السر لكان فيه نقص عظيم.

فقد جاء فى الأثر: «تَفضُل صدقةُ السرِّ على صدقة العلانية سبعين ضعفًا». وفى الحديث المشهور: «سبعةٌ فى ظل عرش الله تعالى يوم القيامة يومَ لا ظِل إلا ظله، أحدهم رجلٌ تصدق بصدقةٍ فلم تعلَم شماله ما أعطت يمينه». وفى لفظ آخر: «فأخفى عن شماله ما تصدقت به يمينه». وهذا من المبالغة فى الوصف، وفيه مجاوزة الحدِّ فى الإخفاء، أى يُخفى من نفسه فكيف غيره؟

وقد تستعمل العرب المبالغة فى الشيء على ضرب المثل والتعجب، وإن كان فيه مجاوزة للحد. من ذلك أن الله عز وجل ذمَّ قومًا ووصفهم بالبخل، وبالغ فى وصفهم، فقال تعالى: ﴿أَم لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لاَ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً﴾ [النساء:٥٣]. والنقير لا يريده أحدٌ ولا يطلبه ولا يعطاه؛ لأنه هو النقطة التى تكون على ظهر النواة، منه منبت النخلة.

وفيه معنًى أشد من هذا وأغمض: أنه لما قال: «فأخفى عن شماله» كان لهذا القول حقيقة فى الخفاء، فهو أن لا يحدِّث نفسه بذلك، ولا يخطر على قلبه، وليس يكون هذا إلاَّ أن لا يرى نفسه فى العطاء أصلاً، ولا يجرى وَهْمُ ذلك على قلبه، كما يقول فى سر الملكوت: إن الله تعالى لا يُطلع عليه إلاّ من لا يحدِّث به ويخفيه، وليس أعنى عن غيره، لكن يخفيه من نفسه ولا يحدثها به، بمعنى أنه لا يخطر على قلبه، ولا يذكره، ولا يشهد نفسه فيه شغلاً عنه بما اقتطع به، وبأنه لا يباليه؛ فعندها صلُح أن يظهر على السر. فإن لم يمكنك على الحقيقة أن تخفى صدقتك عن نفسك، فأخفِ نفسك منها، حتى لا يعلم المعطى أنك أنت المعطى؛ وهذا مقام فى الإخلاص، فإن أظهرت يدك فى الإعطاء فأخفها سرًا إلى المعطى؛ وهذا حال الصادق. فقد كان بعض المخلصين يلقى الدّراهم بين يدى الفقير، أو فى طريقه، أو موضع جلوسه، بحيث يراه ويأخذه، وهو لا يعلم مَن صاحبه، وبعضهم كان يصرُّ ذلك فى ثوبه وهو نائم فلا يعلم من جعله، وقد رأيت من يفعل ذلك. فأما من كان يوصل إلى الفقير على يد غيره ويَستكتِمه شأنه فلا يحصى ذلك من المسلمين.

وفى الخبر: «صدقة السرّ ـ وقيل: صدقة الليل ـ تطفىء غضب الربّ تعالى».

وقد أخبر الله تعالى أن الإخفاء أفضل، ومعه يكون تكفير السيئات، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١]. فإن أظهر المسكين نفسه، وكَشَفها للسُّؤَّال، وآثر التبذُّل على الصون والتعفُّف؛ فلا بأس أن تظهر معروفك إليه. فإن أظهرت زكاتك إرادة السنَّة، والاقتداء بك، والتحريض على مثل ذلك من غيرك؛ لينافسك فيه أخوك، فيسرع إلى مثله أمثالك منهم ـ فحسن؛ وذلك من التحاضِّ على إطعام المسكين، وقد ندب الله تعالى إليه. وقد قيل في قوله تعالى: ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُم سِرًا وَعَلانِيَةً﴾ [الرعد: ٢٢] قيل: سرًا: التطوّع، وعلانيةً: الصدقة المفروضة. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا الله قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المزمل: ٢٠] القرض الحسن: هو التطوع، وقد قيل: الحلال. كما قال: ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ [هود: ٨٨] أى حلالاً. وقد قال تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾ [البقرة: ٢٧١] فمدح المبدى بنعم. إلاّ أنّ ذلك لا يحسن إلا إلى من أبدى نفسه، كأنه هذا السائل الذى يسأل بلسانه وكفه، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوها الفُقَرَاءَ﴾ [البقرة: ٢٧١] الآية كأنها للمستخفين بالمسألة، وهى لخصوص الفقراء لا يظهرون نفوسهم بما يمنعهم الحياء والتعفف. من أظهر نفسه فأظْهِرْه إليه، ومن أخفاها فأخْفِ له. ومثل ذلك مثل كشف عورة الفاسق: إنما حَرُم عليك أن تُظهر عورةَ مَن يُخفى عنك نفسه ويستتر، فأمّا إذا أظهر نفسه بها وأعلن، فلا بأس أن يُظهِر عليه، كما جاء فى الخبر: «من ألقى جلبابَ الحياء فلا غيبة له».

وينبغى أن يجعل صدقته من أفضل ما يحبه من المال، ومن جيّد ما يدّخر ويقتنى وتستأثر به النفوس، فيؤثر مولاه به كما أمره، وضرب المثل له فقال: ﴿أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾، ثم قال: ﴿وَلاَ تَيَمَّمُوا الخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾، ثم قال فى ضرب المثل بالعبيد: ﴿وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢٦٧] أى: لا تقصدوا الردئ فتجعلوه لله تعالى، ولو أُعطى أحدُكم ذلك لم يأخذه إلا على إغماض؛ أى كراهية وحياء.

ولا يجعل ما لله تعالى دون ما يستجيده لنفسه، أو ما يكره أن يقتنيه لعاقبته، أو يأخذه من غيره، أو ما لا يستحسن أن يهديه لنبيل من العبيد، فتكون قد آثرت نفسك أو عبدًا مثلك على مولاك، فإن هذا من سوء الأدب، ولا يقوم سوءُ أدبٍ واحدٍ في معاملة بجميع المعاملات.

وقد روى في معنى قوله تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرضًا حَسَنًا﴾ [البقرة:٢٤٥]، قال: حلالاً طيبًا، فإن الله تعالى طيبٌ لا يقبل إلا طيبًا.

وفي حديث أبان عن أنس: «طوبى لعبدٍ أنفقَ من مالٍ اكتسبه من غير معصية». وفي الخبر: «سبق درهم مائة ألف درهم».

وقد تهدد الله تعالى قومًا جعلوا له ما يكرهون، ووصفت ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى، فأكذبهم، في قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لله مَا يَكرَهُونَ وَتَصِفُ أَلسِنَتُهُمُ الكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لاَ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾ [النحل:٦٢] أي حقًا لهم النار. وفي الآية وقف غريب لا يعلمه إلاّ الحذّاق من أهل العربية، تقف على «لا» فيكون نفيًا لوصفهم أن لهم الحسنى، ثم تستأنف «جَرَم أنّ لهم النّار» أي كسب لهم جعلهم لله ما يكرهون النار، أي بجرمهم واكتسابهم.

وإذا دعا لك مسكين عند الصدقة فاردد عليه مثل دعائه، حتى يكون ذلك جزاء؛ لقوله: «وتخلص لك صدقتك وإلا كان دعاؤه مكافأةً على معروفك». فقد كان العلماء يتحفّظون من ذلك، وهو أقرب إلى التواضع، ولا ترى أنك مستحقٌ لذلك منه لما وصلته به، لأنّك عامل في واجب عليك لمعبودك، أو تُوفِّي للمعطى رزقه وما قُسِم له من تعبدك بذلك. وكانت عائشة وأم سلمة رضى الله عنهما إذا أرسلتا معروفًا إلى فقير قالتا للرسول: احفظ ما يدعو به، ثم يردّان عليه مثل قوله، ويقولان: حتى تخلُص لنا صدقتنا. وفعل ذلك عمر بن الخطاب وابنه عبد الله رضى الله تعالى عنهما.

ولا ينبغي أن تقتضى من الفقير الدعاء لك، أو تطالبه بذلك، أو تحبّ منه الثناء والمدح على ذلك، فإنه يُنقص من الصدقة، وإذا كثر منك وقوى أحبطها، وإن

كان عليه أن يدعو لك ويثنى به عليك فإنما يعمل فيما تعبَّده مولاه به وأمره به، فلا ترى ذلك من حقك عليه، وإذا وصَلتَ إلى الفقير معروفًا، فبحُسن أدب، ولين جانب، ولطف كلام، وتذلل وتواضع.

وقد كان بعض الأدباء إذا أراد أن يدفع إلى فقير شيئًا بسط كفه بالعطاء، لتكون يد الفقير هى العليا. وبعضهم كان يضعها بين يديه على الأرض، ويسأله قبولها منه؛ ليكون هو السائل، ولا يناوله بيده إعظامًا له. وهذا يدلّ على معرفة العبد بربه، وحسن أدبه فى عبادته.

ومن أحبّ الثناءَ والذِّكر على معروفه كان ذلك حظَّه منه وبطل أجره[١]، وربما كان عليه فضلٌ من الوِزر؛ لمحبته الذِّكر والثناء فيما لله تعالى أن يفعله، وفى رزق الله لعبده الذى أجراه على يده، فإن تخلّص[٢] سواءً بسواء فما أحسن حاله.

وأستحبُّ للفقير أن يخص ذا المعروف إليه بدعوات؛ شكرًا لما أولاه، وتأدُّبًا وتخلُّقًا بفعل مولاه، لأنّه قد جعله سببًا للخير، وواسطة للبرّ، إذ الله سبحانه وتعالى يشهد نفسه بالعطاء، ثم قد أثنى على عبده وشكر له فى الإعطاء، فليقل: طهَّر الله قلبك فى قلوب الأبرار، وزكَّى عملَك فى عمل الأخيار، وصلّى على روحك فى أرواح الشهداء. فذلك هو شكرُ الناس، والدعاءُ لهم، وحسنُ الثناء عليهم. ومن شُكرهم أيضًا أن لا يذمهم فى المنع، ولا يعيبهم عند القبض، فذلك تأويل الخبر: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله تعالى»، فإن فيه إثبات حُكم الأواسط، واستعمال حسن الأدب فى إظهار النِّعم، والتخلّق بأخلاق المنعم؛ لأنه أنعم عليهم، ثم شكر لهم كرمًا منه. وكذلك فى الخبر: «العبد الموقن يشهد يد مولاه فى العطاء»، فحمده ثم شكر للمتقين، إذ جعلهم مولاه سبب حمده وطُرقًا لرزقه، ففى الخبر: «مَن أسدى إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تستطيعوا فادعوا له حتّى تَرَوا أنّكم قد كافأتموه».

---

(١) العبارة فى (د، م): «ولا تحبَّن الثناء والذكر من الفقير على معروفك، أو تقتضى فى نفسك المدح منه والإكرام، فإن فعل ذلك كان مكافأة منه لبِرِّك، وحبط أجرك».

(٢) فى (د، م): «فإن تخلصتَ».

فأما شكر الله تعالى على العطاء فهو اعتقاد المعرفة أنه من الله تعالى، لا شريك له فيها، والعمل بطاعته بها.

ومن فضل الصدقة أن يقصدَ بها الفُقراءَ الصالحين الصادقين من أهل التصوّن والدِّين، ممّن يؤثر التّسترَ والإخفاءَ، ولا يكثر البثَّ والشكوى، وممّن فيه وصف من أوصاف الكتاب: ﴿لِلفُقَراءِ الَّذينَ أُحصِرُوا فى سَبيلِ الله﴾ أى حُبسوا فى طريق الآخرة لعيلة، أو ضيق معيشة، أو إصلاح قلب، أو قصور يد ﴿لاَ يَسْتَطيعُونَ ضَربًا فِى الأَرضِ﴾ لأنهم مقصوصو الجناح، إذ المال للغنىِّ بمنزلة الجناح للطائر يطير بماله حيث يشاء من البلاد، وينبسط فى شهواته كيف شاء من المراد، والفقير محصور عن ذلك لا يستطيعه لقبض يده وقَدْر[1] رزقه. ومن هذا قوله تعالى: ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُم لِبَاسًا يُوَارِى سَوءَاتِكُمْ وَرِيشًا﴾ [الأعراف: ٢٦] قيل: المال. وقيل: المعاش ﴿يَحسَبُهُمُ الجَاهِلُ أَغنِياءَ مِن التَّعفُّفِ﴾ فسمى الله تعالى من لا يعرفهم بالفقر ولا يشهد وصفهم بالتقلل، لظهور تعففهم عن المسألة، جاهلاً بوصف المؤمنين. ثم وكّد وصفهم وأظهر للخلق تعريفهم؛ بيانًا منه، وكشفًا لحالهم، إذ ستروها بالعفة، فقال: ﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ فالسيما هى العلامة اللازمة والخليقة الثابتة دون التحلّى، واللبسة الظاهرة ﴿لا يَسأَلُونَ النَّاسَ إِلحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣] أى بهذه العلامة أيضًا تعرفهم إن أشكلوا عليك، فإنهم لا يسألون عفةً وقناعةً إلحافًا، لا يلتحفون بالأغنياء، ولا يلاحفون أهل الدنيا تملقًا وضراعةً؛ أى هم منفردون بأحوالهم، أغنياء بيقينهم، أعزةٌ بصبرهم، والإلحاف: مشتق من اللحاف الذى يُلتحف به فيلزم الجسم، فقال: ليسوا ممن يفعل ذلك، لا يلتحفون الأغنياء كاللحاف، ولا يلتحفون المسألة إلزامًا كالصنعة، كما يُلتحف بالثوب. فاحرص أن يكون معروفُكَ فيمن فيه هذه الأوصاف أو بعضها، فيزكو عملك ويُشكر سعيك.

والأفضل فى المعروف أن يؤثر الرجل إخوانه من الفُقراء على غيرهم من

(١) قدر عليه رزقه يَقْدِره قَدْرًا: ضيَّقه.

الأجانب. فقد روى عن عليٍّ رضى الله عنه: لأن أصل أخًا من إخوانى بدرهم أحبُّ إلىَّ من أن أتصدَّق بعشرين درهمًا، ولأن أصله بعشرين درهمًا أحبُّ إلىَّ من أن أتصدق بمائة درهم، ولأن أصله بمائة درهم أحبُّ إلىَّ من أن أعتق رقبةً.

ولأن الله تعالى ضم الأصدقاء إلى الأقارب، فكان فضل الصدقة على الأقارب دون البعيد كفضل الصدقة على القرابة دون الأباعد، لأنه ليس بعد صلة الرحم فى معناها أفضل من صلة الإخوان. وكان بعض السلف يقول: أفضل الأعمال صلة الإخوان.

وليقصد ببرِّه من إذا دفع إليه العطاء حمد الله تعالى وشكره، ورأى النعمة منه، ولم ينظر إلى واسطة فى نعمة، فإن هذا أشكر العباد لله تعالى؛ لأن حقيقة الشكر لله شهودُ النعمة منه، والإخلاص بحسن المعاملة له، وأن لا يشهد فى النعمة بالعَطاء والنعمة بالعمل الصالح سواه.

وفى وصية عليٍّ رضى الله تعالى عنه: لا تجعل بينك وبين الله تعالى مُنعمًا، واعْدُدْ نعمة غيره عليك مَغرمًا.

فليقدِّم مثل هذا على من لو أعطاه رزقه أثنى عليه ومدحه، وشهده فيه فحمده، فيكون قد حمد غير الذى أعطاه، ونظر إلى سواه، وذكر غير الذى ذكره؛ لأن الذى يحمد الله ويشكره، ويثنى عليه برزقه ويذكره، يرى أن الله سبحانه وتعالى هو المنعم المعطى، فينظر إليه من قُرب؛ فيقينُ هذا بالله أنفع لصاحب المعروف عند الله من دعاء الآخر المثنى؛ لأنه كان سببًا لنفع موقن، فيكون واضعًا للشىء فى حقيقة موضعه. ومدح الآخر ودعاؤه، لأجل أنه يراه هو المعطى، فينظر إليه فيمدحه، فضعف يقين هذا بربه أشدُّ على المنفق من دعائه له، إن كان ناصحًا لله تعالى فى خلقه ولخلق الله تعالى فيه، إلا أن لا ينصح لمولاه لغلبة هواه على تقواه، ولجهله بعائد النفع له فى عقباه، فنقص هذا حينئذ بمقامه من التوحيد أعظم من زيادته بصدقته، على أنه لا يؤمن الاستشراف من الآخر إليه، والاعتياد منه، والطمع فيه، فيتأذى بذلك فى عاجلته قبل الآجلة، أو تَضْجَرُ فيتبرم به، فيتكلم فيه بكلام يحبط عمله. وأيضًا فإنه إذا رآه فى العطاء، فإنه يراه

عند المنع، فيذمه ويقع فيه، فيكون هو سببَ حمله عليه، وهو آمن مطمئن لهذا كلّه مع الموقن المشاهد.

وفى الخبر: «إنّ الصدقة تقع بيده الله تعالى قبل أن تقع بيد السائل وهو يضعها فى يد السائل». فالموقن يأخذ رزقه من يد الله تعالى، فهو لا يعبد إلا الله تعالى، ولا يطلب منه إلا كما أمره فى قوله تعالى: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ﴾ [العنكبوت: ١٧].

ووجَّه رسول الله ﷺ إلى بعض الفقراء بمعروفٍ، وقال للرسول: احفظ ما يقول. فلما أوصله إليه قال: الحمد لله الذى لا ينسى مَنْ ذَكَره، ولا يضيِّع مَنْ شكَره، ثم قال: اللهم إنك لم تنسَ فلانًا، يعنى نفسه، فاجعل فلانًا لا ينساك. فأخبر الرسولُ رسولَ الله ﷺ بذلك، فسُرَّ به وقال: قد علمت أنه يقول ذلك.

وقد روى هذا عن عمر، وعن أبى الدرداء مع جرير رضى الله عنهم.

وقال ﷺ لرجل: «تب». فقال: أتوب إلى الله ولا أتوب إلى محمدٍ. فقال رسول الله ﷺ: «عرف الحقَّ لأهله». وقالت عائشة رضى الله تعالى عنها فى قصة الإفك: نحمدُ الله ولا نحمدك. فسره ذلك. وقال لها أبو بكر لما نزل تحصينها وبراءتها: قومى فقبِّلى رأس رسول الله ﷺ. قالت: والله لا أفعل ولا أحمدُ إلا اللهَ. فقال رسولُ الله ﷺ: دعها يا أبا بكر. وفى لفظ آخر أنّها قالت لأبى بكر: نحمد الله، ولا نحمدك ولا نحمد صاحبك. فلم ينكر رسول الله ﷺ ذلك بل سره وأمر أباها بالكف عنها.

وقد جعل الله تعالى من وصف الكافرين أنهم إذ ذُكر الله وحده فى شىء انقبضَت قلوبهم، وإذا ذُكر غيره فرحوا، وجعل من نعتهم أنهم إذا ذُكر توحيده وإفراده عند شىء غَطُّوا ذلك، وإذا أُشرك غيره فى ذلك صدّقوا به، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرَة وَإِذَا ذُكرَ الَّذينَ من دُونه إذَا هُمْ يَسْتَبْشرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥]. وقال أيضًا: ﴿ذَلكُم بأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللهُ وَحدَهُ كَفَرْتُمْ﴾ والكفر: التغطية ﴿وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾ والشرك: الخلط، أى يخلط

بذكره ذكر سواه. ثم قال: ﴿فَالْحُكْمُ لله العَلِىِّ الكَبِيرِ﴾ [غافر:١٢] يعنى لا يشركه فى حكمه خَلق، لأنه العلى فى عظمته، الكبير فى سلطانه، لا شريك له فى ملكه وعطائه، ولا ظهير له من عباده. ففى دليل هذا الكلام وفهمه من الخطاب أن المؤمنين إذا ذُكر الله تعالى بالتوحيد والإفراد فى شىء انشرحت صدورهم، واتسعت قلوبهم، واستبشروا بذكر الله تعالى وتوحيده، وإذا ذُكر الأواسط والأسباب التى دونه كرهوا ذلك واشمأزت قلوبهم؛ وهذه علامةٌ صحيحة فاعرفها من قلبك ومن قلب غيرك، لتستدل بها على حقيقة التوحيد فى القلب، أو وجود خفىِّ الشرك فى النفس، إن كنت عارفًا.

وينبغى أن يجعل صدقته من أجلِّ ما يقدر عليه، وأطيبه فى نفسه وجهده، فإن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا. وزكاء الصدقة ونماؤها عند الله تعالى على حسب حِلِّها ووضعها فى الأخص الأفضل من أهلها. وينبغى أن يستصغر ما يعطى، فإن الاستكثار من العُجب، والعُجب يحبط الأعمال، قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُم كَثْرَتُكُم﴾ [التوبة:٢٥]. ويقال: إن الطاعة كلما استُصْغِرت كَبُرت عند الله تعالى، وإن المعصية كلما استُعْظمت صَغُرت عند الله تعالى. وعن بعض العلماء: لا يتمّ المعروف إلا بثلاث: تصغيره، وتعجيله، وستره.

وقد كانوا يدفعون فى الزكاة المئين، وفى التطوع الألوف، وكان يَصِلُون الفقير بما يخرجه من حد الفقر ومن الحاجة والضرّ إلى حد الكفاية والغُنية، ويبقى لهم فَضلٌ. وعلى هذا تأويل قوله ﷺ: «خيرُ الصدقة ما أبقت غنى»؛ أى تكفى الفقير لوقته، ويبقى له غُنية واستغناء لوقت ثانٍ تستقلُّ به عن المسألة والتشرُّف، فيكون كأنه عمل عملاً ثانيًا للمعطى غير عمله الأول بالعطاء؛ وهذا أحدُ تأويل الخبر.

وقد وصف الله تعالى أهل الحاجة بأوصاف خمسة فرّقها فى كتابه، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَفِى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات:١٩]. وقال تعالى: ﴿فَكُلُوا منهَا وَأَطعمُوا القَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ [الحج:٣٦]. وقال عزَّ وجل: ﴿فَكُلُوا مِنهَا وأَطعِمُوا البَائِسَ الفَقِيرَ﴾ [الحج:٢٨].

فأما السائل: فهو الذى يسأل بكفّه، ويُظهر السؤال بلسانه. وأما المحروم: فهو المحارف الذى حارفه الرزقُ، أى: انحرف عنه، فقد حُرِمه. وقيل: هو الذى لا معلوم له ولا كَسْب، قد حُرِم التّصرف والتعيش. وأما القانع: فهو الذى يقعد فى بيته ويقنع بما آتاه الله من غير طلب ولا تعرّض. وقيل: إن القُنوع هو وصفٌ من أوصاف المسألة من غير إلحاف ولا إلحاح، وهو اسم من الأضداد، يكون القُنوع: العفّة والكف؛ ويكون المسألة. وأما المعترُّ: فهو الذى يعرض بالسؤال ولا يصرح، تحمله الحاجة على التعريض، ويُوقفه الحياء عن التصريح. وأما البائس: فهو الذى به بُؤس وشِدّة من مرض أو بَرْد أو عَضب وزَمَانة[١].

ثم إن الله تعالى قد فصل بين الفقراء والمساكين فى قوله تعالى: ﴿**إنَّما الصَّدَقاتُ للفُقَراءِ والمَساكِينِ**﴾ [التوبة: ٦٠] فقال أهل العلم: الفقير الذى لا يسأل، والمسكين السّائل. وقيل: الفقير المحارِف؛ وهو المحروم، والمسكين: الذى به زَمَانة، واشتقاقه من السُّكون، أى فقد أسكنه الفقرُ لما سكَّنه وأقلَّ حركته؛ وهذه أوصافه. يقال: قد تَمَسكَن الرجلُ وتسكَّن. كما يقال: تَمَدْرع وتدرّع إذا لبس مدرعة. فكذلك الفقير إذا كانت المسألة لبسة له.

وأهل اللغة مختلفون فيهما. قال بعضهم: المسكين أسوأ حالاً من الفقير؛ لأن الله تعالى قال: ﴿**أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَترَبَة**﴾ [البلد: ١٦]، فهو الذى لا شىء له، قد لصق بالتراب من الجهد. وذهب إلى هذا القول يعقوب بن السكيت، ومال إليه يونس بن حبيب، وقال: قلت مرة لأعرابى: أفقيرٌ أنت؟ فقال: لا واللهِ بل مسكين أسوأ حالاً من الفقير.

وبعضهم يتناوله على غير هذا فيقول: «ذا متربة» من الغنى. يقال: أترب الرجل إذا استغنى، فهو مترب من المال؛ أى قد كان متربًا غنيًا من أهل النعم ثم افتقر، فهذا أفضل مَن أُعطى.

---

(١) العَضب: القطع، يقال: عَضَبه يَعضبه عَضبًا: قطعه. وتدعو العرب على الرجل فتقول: ما له عضبه الله؟ يدعون عليه بقطع يده ورجله.
الزمانة: المرض يدوم زمنًا طويلاً. فهو زَمِنٌ وزَمِينٌ.

وقال بعض أهل اللغة فى قوله تعالى: ﴿ذا متربة﴾ دليل أن المسكين أحسن حالاً. قال: إن الله تعالى لما نعته بهذا خاصةً علمتَ أنه ليس كل مسكين بهذا النعت. ألا ترى أنّك إذا قلت: اشتريت ثوبًا ذا عَلَم، نعتَّه بهذا النّعت، لأنه ليس كلّ ثوبٍ له علم. فكذلك المسكين الأغلب عليه أن يكون له شيء، فلمّا كان هذا المسكين مُخالفًا لسائر المساكين بيَّن الله تعالى نعته؛ وبهذا المعنى استدلّ أهل العراق من الفقهاء أن اللمس هو الجماع بقوله تعالى: ﴿فَلَمَسُوهُ بِأيديهِم﴾ [الأنعام:٧] أن اللمس يكون بغير اليد وهو الجماع، فلما قال: ﴿بأيديهم﴾ خص به هذا المعنى، فردّوه على من احتج به من عُلماء الحجاز فى قولهم: اللمس باليد.

وقال آخرون: بل الفقير أسوأ حالاً من المسكين؛ لأن المسكين يكون له الشىء، والفقير لا شىء له. قال الله تعالى فى أصحاب السفينة: ﴿فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعمَلُونَ فى البَحرِ﴾ [الكهف:٧٩] فأخبر أن لهم سفينةً وهى تساوى جملةً.

وقالوا: سمى فقيرًا؛ لأنه نُزعت فِقْرة من ظهره، فانقطع صلبه من شدّة الفقر، فهو مأخوذ من فقار الظهر، ومال إلى هذا القول الأصمعى، وهو عندى كذلك، من قِبَل أن الله تعالى قدّمه على الأصناف الثمانية التى جعل لهم الصدقة، فبدأ به، فدلّ على أنّه هو الأحوج فالأحوج، أو الأفضل فالأفضل.

وقال قوم: الفقير هو الذى يُعرف بفقره لظهور أمره، والمسكين هو الذى لا يُفطن له ولا يُؤبَه به لتخفِّيه وتستّره. وقد جاءت السنّة بوصف هذا فى الخبر المروى: «ليس المسكينُ الذى ترده الكسرة والكسرتان، والتمرة والتمرتان، إنما المسكينُ المتعفّفُ الذى لا يسأل الناس، ولا يُفطن له فيُتصدَّق عليه».

وقد قال بعض الحكماء فى مثل هذا، وقد سئل: أى الأشياء أشدّ؟ فقال: فقير فى صورة غنى. وقيل لحكيم آخر: ما أشدّ الأشياء؟ قال: من ذهب ماله وبقيت عادته. وقال الفقهاء: المسكينُ الذى له سبب، ويحتاج إلى أكثر منه، لضيقِ مكْسب، أو وجود عيلة. فهذا أيضًا قد وردت السنّة بفقره، وذُكر فضله فى الحديث الذى جاء: «إنّ الله يحبّ الفقير المتعففَ أبا العيال، ويبغض السائل

الملحف». وكل هذه الأقوال صحيحة.

فالأفضل أن توضع الزكاةُ فى الأحوج فالأحوج، والأفضل فالأفضل، ومن أهل العلم بالله تعالى، وأهل المعاملة، وأهل الدين لله، المنقطعين عن أهل الدنيا، المشغولين بتجارة الآخرة عن تجارات الدنيا، ثم فى ذى العيال بقدر عياله بمقدار غناه عن حاجاته، فيكون له بعددهم أجور أمثاله من المنفردين إذ هم جماعة.

وقد كان عمر رضى الله عنه يعطى أهل البيت القطيع من الغنم العشرة فما فوقها.

وكذلك فى السنة، روينا عن رسول الله ﷺ: أنه كان إذا أخرج العطاء فرّقه بين أصحابه، يعطى المتأهلَ ضعف ما يعطى العَزَب، ويعطى كلَّ رجلٍ على قدر أهل بيته.

وحُدِّثنا عن بعض هذه الطائفة قال: صَحِبنا أقوامًا كان برُّهم لنا الألوف من الدراهم، انقرضوا وجاء آخرون كان برُّهم لنا المئين، ونحن بين قوم صلتهم لنا العشرات، نخاف أن يجئ قوم شرًا من هؤلاء.

وقال بعض السلف: رأينا قومًا كانوا يفعلون ولا يقولون، ذهب أولئك، وجاء قوم يقولون ويفعلون، ونخاف أن يجيء قوم يقولون ولا يفعلون.

وإن اتفق ذو دَينٍ فى عيلة من مساكين فذلك غنيمة المتقين، وذخيرة المنفقين. والمعروف فى مثله واقعٌ فى حقيقته. وسُئل ابن عمر عن جهد البلاء ما هو، فقال: كثرة العيال وقلة المال.

وقد جاء فى الخبر: «لا تأكل إلا طعام تقى ولا يأكل طعامك إلا تقى»؛ لأن التقى تستعين به على البر والتقوى فتَشْرُكه فى قصده. وفى الخبر أيضًا: «أطعموا طعامكم الأتقياء وأوْلوا معروفكم المؤمنين». وفى لفظ آخر: «أضِف بطعامِكَ مَن تُحبُّه لله تعالى».

وينبغى للموقن أن يفرح ويُسَرَّ بقبول معروفه من الأتقياء؛ لأنّ ذلك عمله، إن لم يقبله منه عارفٌ بالله تعالى وأحكامه، وقد رُدَّت عليه أعماله، فينبغى أن يحزن

بردها عليه، إذ كان ذلك ردًا من الله تعالى له.

ومن وصَل فقيرًا بمعروف، فردَّه عليه، فعظُم الفقيرُ فى عينه، فذلك يدل على جهل المعطى بربه؛ لأنه لو أخذها ما سقط منزلته عنده، ثم أخرجها سرًا إلى من هو أحوج إليها منه كان بذلك فاضلاً، ومَن ردَّ عليه فقيرٌ برَّه فلم يحزنه ذلك أو سرّه ذلك، دلَّ على ضعف نِيته فى الإخراج، وقلة إخلاصه بمعروفه؛ لأنّ الصادق يسوءه ردُّ معروفه إليه ويحزنه. وينبغى أن لا يتملَّك ذلك أن ردّه عليه، بل يدفعه إلى فقير آخر، لأنه قد أخرجه لله تعالى، فلا يرجع فيه. والفقراء شركاء فى العطاء يُرَدُّ عليهم من بعضهم إلى بعض.

وكذلك إن أخرج صدقةً باسم فقير بعينه، ليعطيه إيّاها، فصادف غيره، أو ذكر من هو أحوج منه أو أفضل، ووافق طالبًا إليه فى حق عليه، فلا بأس أن يدفعها إلى الثانى، ما لم تخرج عن يده، أو يكون قد وعده بها. وكذلك إن دفعها إلى من يدفعها إلى فقير بعينه ثم رأى من هو آثر فى قلبه وأحوج منه، فله أن يسترجعها من المأمور ويدفعها إليه، ما لم يكن قد فقدها أو أعلمه بها.

وينبغى أن يستبشر بقبول العارفين معروفه؛ لأن ذلك قبولٌ من الله تعالى لعمله، إذ كان العارف بالله تعالى وأيامه يتصرفُ عن الله تعالى فى الأفعال، كما أنه ينطق عنه فى المقال. وليس قبوله منه كقبول غيره، ولا ردُّه عليه كردّ غيره، إذ كان الشاهد فيه من الله سبحانه أقوى وأعلى من الشاهد فى غيره، ولما هو إلى التوفيق والعصمة أقربُ مما سِواه من الفقراء.

حدثنى بعض إخوانى: أنّ فقيرًا بمكة ردَّ على بعض الأغنياء معروفه، فأخذ يبكى. فقيل له [فى ذلك]، فقال: أليس هذا عملى قد رُدَّ علىَّ؟ قيل له: فإن غيره يقبله. فقال: من أين لى مثل هذه العين؟ وهذا كما قال؛ لأن المؤمنَ ينظر بعين اليقين ونور الله تعالى، فردُّه عن الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿**وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ**﴾ [هود: ١٧]. والجاهل يتصرف بهواه عن نفسٍ فردُّه كقبوله، لأنه يأخذه لنفسه، ويردّ بنفسٍ، والعارف إن أخذ فَبربٍّ، وإن ردَّ فعن ربٍّ تعالى.

وليزدد فى عينه مَنْ قَبِلَ منه معروفه نبلاً وجلالة، ويعظُم فى عينه محبةً ومهابةً؛ لأنه قد أعانه على برِّه وتقواه، وأكرمه بقبول جدواه، فليشهد ذلك نعمةً من الله تعالى وإحسانًا منه إليه. وعلى العبد أن يجتهد فى طلب الأتقياء وذوى الحاجة من الفقراء، ويبلغ غاية علمه بذلك، فإن قَصُر علمه ولم تنفذ فراسته ومعرفته فى الخصوص، استعان بعلم من هو أعلم منه، وأنفذ نظرًا، أو أعرف وأعلم بالصالحين وأهل الخير منه، ممَّن يُوثق بدينه وأمانته من علماء الآخرة، لا من عُلماء الدنيا.

وعُلماءُ الآخرة همُ الزاهدون فى الدنيا، الورعون عن التكاثر منها، فإن حبَّ الدنيا غامضٌ، قد هلك فيه خلقٌ كثير، لم ينج من العلماء ولم يسلم من الدنيا إلا المتحققون بالعلم واليقين؛ وهم المتقللون من الدّنيا. وقد قال الله تعالى: ﴿وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦٥] أى يقينًا، يعنى أنهم يتثبتون فى صدقاتهم أن لا يضعوها إلا فى يقينٍ، يستروح إليه القلب وتطمئن به النفس.

وقد كان بعض العلماء يؤثر بالعطاء فقراءَ الصوفية دون غيرهم. فقيل له: لو عمَّمت بمعروفك جميع الفقراء؟ فقال: لا أفعل، بل أؤثر هؤلاء على غيرهم. قيل: ولم؟ قال: لأن هؤلاء قومٌ هَمُّهم الله سبحانه وتعالى، فإذا طرقتهم فاقةٌ تشتَّت همُّ أحدهم، فلأن أردَّ هِمَّةَ واحد إلى الله تعالى أحبُّ إلىَّ من أن أعطى ألفًا من غيرهم ممن همه الدنيا. فذُكر هذا الكلام لأبى القاسم الجنيد فاستحسنه، وقال: هذا كلامُ ولىٍّ من أولياء الله تعالى. ثم قال: ما سمعت منذ زمان كلامًا أحسن من هذا. وبلغنى أن هذا الرجل اختلّ حاله فى أمر الدنيا، حتى همَّ بترك الحانوت، فوجّه إليه الجنيد بمالٍ كان صُرف إليه، فقال: اجعل هذا فى بضاعتك ولا تترك الحانوت، فإن التجارة لا تضرّ مِثلك. ويقال: إن هذا الرجل كان بَقّالاً، ولم يكن يأخذ من الفقراء ثمن ما يبتاعون منه.

وأما ابن المبارك رحمه الله تعالى، فإنه كان يجعل معروفه فى أهل العلم خاصة، فقيل له: لو عمّمت به غيرهم، فقال: إنى لا أعرف بعد مقام النبوة أفضل من مقام العلماء. فإذا اشتغل قلبُ العالِم بالحاجة أو العَيْلةِ لم يتفرغ للعلم،

ولا يُقبل على تعليم الناس، فرأيت أن أعينهم وأكفيهم حاجاتهم، لتفرُغ قلوبهم للعلم، وينشطوا لتعليم الناس.

هذه طرائق السلف الصالح. والتوفيق من الله تعالى للعبد فى وضع صدقته فى الأفضل، كالتوفيق منه فى إطعام الحلال الذى فى غيبه يوفقه لأوليائه، ويستخرجه لهم من علمه كيف شاء بقدرته.

***



كتاب الصيام

شرح رابع ما بنى الإسلام عليه، وهو الصيام(١)

• ذكر فرائض الصيام:

اعتقاد الصوم إيجابًا لله تعالى عليه وقربةً منه إليه، وإخلاصًا به له، وسقوطُ فرضٍ عنه. وأن يجتنبَ الأكلَ والشُّربَ والجِماعَ بعد طُلوع الفجر الثانى. وأن يتمَّ الصيامَ إلى سقوط قُرص الشمس. وأن لا ينوى فى تضاعيف النّهار الخروجَ من الصوم.

• ذكر فضائل الصوم ووصف الصائمين:

صومُ الخصوص حفظ الجوارح الست: غضُّ البصر عن الاتساع فى النظر. وصون السمع عن الإصغاء إلى محرم أو وِزْر، أو القعود مع أهل الباطل. وحفظُ اللسان عن الخوض فيما لا يعنى جملة؛ مما إن كُتب عنه كان عليه، وإن حُفظ له لم يكن له. ومراعاة القلب بعكوف الهمّ عليه. وقطع الخواطر والأفكار التى كفَّ عن فعلها. وتركُ التمنى الذى لا يُجدى. وكفُّ اليد عن البطش إلى محرَّم من مكسب أو فاحشةٍ، وحبسُ الرِّجل عن السعى فيما لم يؤمر به، ولم يندب إليه من غير أعمال البر.

فمن صام تطوعًا بهذه الجوارح الست وأفطر بجارحتين: الأكل والشرب، والجماع؛ فهو عند الله تعالى من الصائمين فى الفضل؛ لأنه من الموقنين الحافظين للحدود. ومن أفطرَ بهذه السّت أو ببعضها وصام بجارحتى: البطن والفرج، فما ضيَّع أكثر مما حَفظ؛ فهذا مفطرٌ عند العلماء صائمٌ عند نفسه. وقد قال أبو الدرداء: أيا حبذا نومُ الأكياس، كيف يعيبون قيام الحمقى وصومهم، ولَذرّةٌ من تقوى أفضل من أمثال الجبال عبادةً من المغترين.

---

(١) من هنا تبدأ نسخة (هـ) بخط قديم جداً أقدم مما مرّ منها، وهو أدق وأتم مما كانت عليه أول النسخة، وبها زيادات، راجع وصفها فى المقدمة.

ومثل من صام عن الأكل وأفطر بمخالفة الأمر مثل من مسح كلَّ عضو، فصلاته مردودةٌ عليه لجهله.

ومثل من أفطر بالأكل والجماع، وصام بجوارحه عن النهى، مثل من غسل كلَّ عضوٍ مرة واحدةً وصلى، فهو تاركٌ للفضل فى العدد، إلا أنه مكمل للرضى بحسن العمل، فصلاته متقبلة لإحكامه للأصل، وهو مفطر للسَّعة، صائم فى الفضل.

ومثل من صام من الأكل والجماع، وصام بجوارحه الست عن الآثام، كمثل من غسل كل عضو ثلاثًا ثلاثًا، فقد جمع الفرض والفضل، وأكمل الأمرَ والنَّدب؛ فهو من المحسنين، وعند العلماء من الصائمين. وهذا صوم الممدوحين فى الكتاب، الموصوفين بالذكرى من أولى الألباب.

ومن فضائل الصوم: أن يجتنب من حظوظ هذه الجوارح الشّبهات من الأشياء، وفضول الحلال، ويرفض الشهوات الداعية إلى العادات، ولا يفطر إلا على حلالٍ متقلِّلاً منه، فبذلك يزكو الصيام.

ولا يقبّل امرأته فى صومه، ولا يباشرها بظاهر جسمه، فإن ذلك إن لم يبطل صومه فإنه ينقصه، وتركه أفضل، إلا لقوىٍّ متمكن مالكٍ لإربه. وليقلَّ نومه بالنهار، ليعقل صومه بعمارة الأذكار، وليجدَ مسَّ جوعِهِ وعطشه. وقد كانوا يتسحرون بالتمرتين والثلاث، وبالحبات من الزبيب، والجرعة من الماء. ومنهم من كان يقضم من شعير دابته التماسًا لبركة السّحور. وليكثر ذِكرَ الله تعالى، وليقلّل ذكر الخلقِ بلسانه، ويُسقط الاهتمامَ بهم عن قلبه؛ فذلك أزكى لصومهِ. ولا يجادل ولا يخاصم، وإن شُتم أو ضُرب لم يكافئ على ذلك، لأجل حرمة الصوم. ولا يهتم لعشائه قبل محل وقته، يقال: إن الصائم إذا اهتمَّ بعشائه قبل محل وقته أو من أول النهار كُتب عليه خطيئةٌ. وليرض باليسير مما قُسم له أن يفطر عليه، ويشكر الله تعالى عز وجل كثيرًا عليه.

ومن فضائل الصيام: التقللُ من الطعام والشّراب، وتعجيل الفطر، وتأخير السحور، وليفطر على رُطب إن كان، وإلاّ على تمر إن وُجد فإنه بركة، أو على

شربةٍ من ماء فإنه طهور، هكذا روى عن رسول الله ﷺ: يفطر على جرعة من ماء، أو مذقة من لبن، أو تمرات، قبل أن يصلى. وفى الخبر: «كم من صائم حظُّه من صيامه الجوعُ والعطش». قيل: هو الذى يجوع بالنهار ويفطر على حرام. وقيل: هو الذى يصوم عن الحلال من الطعام ويفطر بالغيبة من لحوم الناس. وقيل: هو الذى لا يَغُضُّ بصره، ولا يحفظ لسانه عن الآثام.

ويقال: إن العبدَ إذا كذَب، أو اغتاب، أو سعَى فى معصية فى ساعةٍ من صومه، خرقَ صومه. وإن صومَ يوم يُلْفَق له فى صيام أيام حتى يتمَّ بها صوم يومٍ ساعةً ساعةً. وفى الحديث: «الصوم جُنَّةٌ ما لم يَخرقها بكذِب أو غيبةٍ». وكانوا يقولون: الغيبة تُفطر الصائم.

وقد كانوا يتوضؤون من أذى المسلم. وروى عن جماعة فى الوضوء مما مسّت النار: لأن أتوضأ من كلمة خبيثة أحبُّ إلىَّ من أن أتوضأ من طعام طيِّب.

وروى عن بشر بن الحارث عن سفيان: من اغتاب فسد صومه. وروينا عن ليث عن مجاهد: خصلتان يفسدان الصوم: الغيبة والكذب.

وروى عن جابر عن رسول الله ﷺ: «خمس يفطرن الصائم: الكذب، والغيبة، والنّميمة، واليمين الكاذبة، والنظر بشهوة».

ويقال: إن من الناس من يكمل له صوم رمضان واحد فى عشر رمضانات، وفى عشرين، مثل سائر الفرائض؛ من الصلاة والزكاة التى يُحاسب عليها العبد. فإن وُجدت كاملة وإلا تُمِّمت من سائر تطوعه. ويقال: إن العبد يصح له صوم يوم فى خمسة أيام، كما يصح له صلاة واحدة بخمس صلوات ترفع له الأوقات. وفى الخبر: «من اغتاب خرق صومه، فليرقع صومه بالاستغفار».

ويقال: إن الله تعالى لم يفترض شيئًا فرضِى بدونه، وأنه يطالب بما فرضه، ويحاسب على ما أوجبه، وعفو الله سبحانه وتعالى يأتى على كثير من الذنوب.

والمرادُ من الصيام مجانبةُ الآثام، لا الجوع والعطش، كما ذكرنا من أمر الصلاة أن المرادَ بها الانتهاء عن الفحشاء والمنكر. كما قال رسول الله ﷺ: «من لم يترك قول الزور والعمل به فليس لله حاجةٌ فى أن يَدَع طعامه وشرابه».

كتاب الحج

شرح خامس ما بنى الإسلام عليه، وهو الحج

• ذكر فرائض الحج:

بالحج كمال الشريعة وتمام الملة، قال الله تعالى: ﴿وَلله عَلَى النَّاسِ حِجُّ البَيتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيه سَبيلاً﴾ [آل عمران:٩٧]. وفسّر رسول الله ﷺ الاستطاعة بالزّاد والراحلة. فإذا وجد العبد زادًا وراحلة لزمه فرض الحج، فإن أخَّره بعد وجود ذلك كان مكروهًا، فإن مات ولم يحج، أو مات على عدم الإمكان بعد وجوده، كان عاصيًا لله تعالى من حين أمكنه إلى يوم موته، ولم يكن كامل الإسلام؛ لأنّ الله تعالى أكمل الإسلام بالحج لما أنزل هذه الآية فى الحج يوم عرفة: ﴿اليَومَ أَكمَلْتَ لَكُمْ دِينَكُمْ وأَتْمَمتُ عَلَيْكُمْ نِعمَتى وَرَضيتُ لَكُمُ الإِسلامَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]. وفى الخبر: «من لم يمنعه من الحجِّ مرضٌ قاطع أو سلطان جائر، ومات ولم يحج، فلا يبالى مات يهوديًا أو نصرانيًا».

وقال عمر: لقد هممتُ أن أكتب إلى الأمصار بضرب الجزية على من لم يحجّ ممن يستطيع إليه سبيلاً. وعن سعيد بن جبير، وإبراهيم النخعى، ومجاهد، وطاوس: لو علمتُ رجلاً غنيًا وجبَ عليه الحجّ، ثم مات قبل أن يحج، ما صليت عليه. وبعضهم كان له جار موسرٌ فمات قبل أن يحجّ، فلم يصل عليه.

وكان ابن عباس يقول: من ماتَ ولم يزكِّ ولم يحج سأل الرجعة إلى الدنيا. وكان يفسره فى هذه الآية قال: ﴿رَبِّ ارجِعُونِ * لَعَلِّى أَعمَلُ صَالحًا فيمَا تَرَكتُ﴾ [المؤمنون:٩٩ ـ ١٠٠]، قال: أحجّ. ومثله يقول: ﴿رَبِّ لَولاَ أَخَّرْتَنى إِلَى أَجَلٍ قَريبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحينَ﴾ [المنافقون:١٠]، قال: أزكّى وأحجّ. وكان يقول: هذه الآية أشدّ شىءٍ على أهل التوحيد.

ومن كان ذا قوةٍ على المشى، أو ممن يصلح له أن يؤجِّر نفسه، وأَمِنَ التهلكة

فى خروجه، فحجّ على ذلك كان فاضلاً فى فعله. وللحاج الماشى بكل قدمٍ يخطوها سبعمائة حسنة، وللراكب بكل خطوة تخطوها دابته سبعون حسنة، والقوة على المشى من الاستطاعة عند بعض العلماء.

فأما فرائض الحج عند جملة العلماء فستة، اختلفوا منها فى ثلاث وهن: السعى، والبيتوتة بمزدلفة عند المشعر ليلة النحر، ورمى جمرة العقبة يوم النحر. وأجمعوا على ثلاث وهنّ: الإحرام به، والوقوف بعرفة، وطواف الزيارة. ولم يختلفوا فى أنّ ما سوى هذه سنَّة واستحباب.

ومذهبى فى هذا ـ وهو مذهب الأكثر من العلماء ـ أن فرائض الحج أربعة: أوّلها الإحرام به، والوقوف بعرفة بعد زوال الشمس من يوم عرفة، وآخر حدٍّ الوقوف قبل طلوع الفجر من يوم النحر، وطواف الزيارة بعد الوقوف بعرفة بعد رمى جمرة العقبة، والسعى بين الصفا والمروة بعد الإحرام بالحج، إن شئت قبل الوقوفة بعرفة، وإن شئت بعده. وما سوى ذلك من المناسك فمَسنون ومستحبٌّ، وبعضه أوكد من بعض، وفى ترك بعضه كفارةٌ، وفى بعضه لا حرج فيه.

وطواف الحج ثلاثة: واحد فريضةٌ إن تركه بطل حجه؛ وهو طواف الزيارة، وواحدٌ سنة إن تركه كان عليه دمٌ وحجّه تامٌّ، وهو طواف الوداع، وواحد مستحب إن تركه فلا شيء عليه، وهو طواف الورود.

ولم نذكر من فرائض الحج وأحكامه وهيئاته فى هذا الباب إلا قوتُ الأعمال، مثل ما ذكرناه فى سائر الأبواب من هذا الكتاب، على ما يليق بيانه للمعنى الذى قصدناه فيه، وقد أشبعنا أحكام الحج وما يقال فى المشاعر فى كتاب «مناسك الحج»[1] المفرد له.

• ذكر فضائل الحج، وآدابه وهيئاته، وفضائل الحجاج، وطريق السلف السالكين للمنهاج:

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿الحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الحَجَّ﴾ يعنى من أوجبه على نفسه فى هذه الأشهر فأحرم به، وهى: شوال، وذو القعدة،

(١) يشير أبو طالب إلى كتاب له عن الحج لم تذكره المراجع.

وتسع من ذى الحجة ﴿فلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِى الحَجِّ﴾ [البقرة:١٩٧] الرفث: اسم جامع لكل لغوٍ وخنى، وفجور من الكلام، ومغازلة النساء ومداعبتهن، والتحدث فى شأن الجماع. والفسوق: جمع فسق، وهو اسم جامعٌ لكل خروج من طاعة، ولكل تعدى حدٍّ من حدود الله تعالى. والجدال: وصف مبالغة للخصومة والمراء، فيما يُورث الضغائن وفيما لانفع فيه. فهذه ثلاثة أسماء جامعة مختصرة لهذه المعانى المثبتة، أمر الله تعالى بتنزيه شعائره ومناسكه منها؛ لأنها مشتملة على الآثام، وهنّ أصول الخطايا والإجرام.

والحجُّ فى اللغة هو القصد إلى من يُعظَّم. وكانت العرب تقول: نحجّ إلى النعمان، أى نقصده تعظيمًا له وتعزيزًا. فينبغى أن يكون الحاج معظِّمًا لمن قصده بالحج، ليتحقق بمعنى هذا الاسم. والحج أيضًا: سلوك الطريق الواضح الذى يخرج إلى البُغية ويُوقف على المنفعة، واشتقاقه من المحجة بمنزلة النُّسُك، وهو اسم للطريق مشتقٌّ من المنسك، وهو من أسماء الطريق، وإن كان أصله الذّبح، ومنه سمى الناسك لأنه سالك لطريق الآخرة.

فأول فضائل الحجِّ: حقيقة الإخلاص به لوجه الله تعالى، وأن تكون النفقة حلالاً، واليد فارغة من تجارة تشغل القلب وتفرِّق الهمّ، ويكون الهمُّ مجرَّدًا، والقلب ساكنًا مُطمئنًا مملوءًا بالذكر، فارغًا من الهوى، ناظرًا أمامه غير ملتفت إلى ورائه، وصحةُ القصد بحسن الصدق، ثم طيبُ النفس بالبذل والإنفاق والتوسع فى النفقة والزاد وبذل ذلك؛ لأن النفقة فى الحجِّ بمنزلة النفقة فى سبيل الله تعالى؛ الدّرهم بسبعمائة درهم، والحجُّ من سبيل الله، روى ذلك عن رسول الله ﷺ.

وقال ابن عمر وغيره: من كرم الرجل طيب زاده فى سفره. وكان يقول: أفضل الحجاج أخلصهم نية، وأزكاهم نفقة، وأحسنهم يقينًا.

وفى حديث ابن المنكدر عن جابر عن رسول الله ﷺ: «الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة». وقال: «سُئل رسول الله ﷺ: ما برُّ الحج؟ قال: طيب الكلام وإطعام الطعام».

ويقال: إنما سمى سفرًا لأنه يسفر عن أخلاق الرجال. وبعضهم يقول: يسفر عن صفات النفس وجوهرها، إذ ليس كل من حسنت صحبته فى الحضر حسنت صحبته فى السفر، وكل من صَلُح أن يُصحب فى السّفَر صلُح فى الحضر. وفى خبر عمر رضى الله عنه، لما سأل عن الرجل، مَن ذكر[1] أنه يعرفه، فقال له: هل صحبته فى السفر الذى يستدل به على مكارم الأخلاق؟ قال: لا. قال: ما أراك تعرفه.

ولا يجادل ولا يخاصم، ولا يكثر المراء، ولا يرفث بلسانه. وروينا عن بشر ابن الحارث قال: قال سفيان: من رفث فسد حجه.

وليتعلم أحكام المناسك ومعالم الحجّ وهيئاته وآداب المشاهد قبل الخروج، وليكن ذلك أهم شىء إليه وليقدمه على جميع أسباب السفر، فإن هذا هو المقصود والبغية فلا يُباين عنه، وليعدّ له رفيقًا صالحًا عالمًا محبًا للخير معينًا عليه، إن نسى ذكَّره، وإن ذكر أعانه، وإن جبُن شجعه، وإن عجز قَوَّاه، وإن أساء ظنه وضاق صدره وسَّع صدره وصبَّره وحسَّن ظنه، ولا يخالف رفيقه ولا يكثر الاعتراض عليه، وليحسِّن خُلقه مع جميع الناس، ويليِّن جانبه، ويخفِّض جناحه، ويكف أذاه عن الخلق، ويحتمل أذاهم. فبهذه المعانى يفضل الحج.

وأن يحج على رَحلٍ أو زاملةٍ، فإن ذلك حَجُّ المتقين وطريق الماضين. يقال: حج الأبرار على الرِّحال. وحدث سفيان الثورى عن أبيه قال: برزت من الكوفة إلى القادسية للحجّ، ووافيت الرفاق من البلدان، فرأيت الحاج كلهم على زوامل وجَوالقاتٍ ورواحل، وما رأيت فى جميعهم إلا مُحَمَّلِينَ.

وقال مجاهد لابن عمر وقد دخلت القوافل: ما أكثر الحجاج؟ فقال: ما أقلّهم، ولكن قل: ما أكثر الرَّكب. قال: وكان ابن عمر إذا نظر إلى ما أُحدث من الزوامل والمحامل يقول: الحاج قليل، والرَّكب كثير. ثم نظر إلى رجل مسكين رثّ الهيئة، تحته جوالق، فقال: هذا نِعمَ الحاج.

(١) من قوله: «وكل من صلح» إلى هنا من (د، م).

فينبغى أن يكون الحاج رثَّ الهيئة، خفيف المؤونة، متقلِّلاً من كل شىء، لا يحمل معه من الزاد إلا ما لا بد له منه مما يحتاج إليه، ولا يسرف فى المبالغة والتناهى فيه، ولا يقتِّر، ولا يضيِّق على نفسه ورفيقه، بل يستعمل الاقتصاد فى كل شىء والكفاية، ويجتنب من الزىِّ الحُمرة فإن ذلك مكروه.

وروى عن النبى ﷺ «أنه كان فى سفر، فنزل أصحابه منزلاً، فسُرحت الإبل، فنظر إلى أكسية حُمر على الأقتاب، فقال: أرى هذه الحمرة قد غلبت عليكم. قال: فقمنا نتساعى حتى نزعناها عن ظهورها حتى شرد بعض الإبل».

ثم ليجتنب من الزى الشهرة، وكلَّ منظور إليه من الأثاث، ولا يتشبَّه بالمترفين، ولا بأهل الدنيا من أهل التفاخر والتكاثر فيُكتب من المتكثرين، ولا يكثر التنعُّم والرفاهة، فإن ذلك غير مستحب فى سبيل الله تعالى؛ لأن المشقة والظمأ والمخمصة واللأواء كلّما كثر فى سبيل الله كان أفضل وأثوب.

حج رسول الله ﷺ على راحلة، وكان تحته رَحْلٌ رثٌّ وقطيفة خَلِقة قيمته أربعة دراهم، وطاف على الراحلة لينظر الناس إليه، ويهتدوا بشمائله. وقال عليه الصلاة والسلام: «خذوا عنى مناسككم». وكان يقول: «لبيك اللهم لبيك، حجًا لا رياء فيه ولا سمعة». وقال: «لبيك، إن العيش عيش الآخرة». وأمر ﷺ بالشَّعَث والاحتفاء، ونهى عن التنعم والرفاهة، فى حديث فضالة بن عبيد. وفى الخبر: «إنما الحاج الشَّعَث التَّفلُ. يقول الله تعالى لملائكته: انظروا إلى زوّار بيتى قد جاؤونى شُعثًا غبرًا من كل فج عميق». وقال الله عز وجل: ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ [الحج:٢٩]. التفث: الشَّعَث والاغبرار، وقضاؤه حلق الرأس وقصّ الأظفار.

وكتب عمر بن الخطاب إلى أمراء الأجناد: اخلولقوا واخشوشنوا. أى البسوا الخلِقان واستعملوا الخشونة من الأشياء. وبعض أصحاب الحديث يصحّف هذا الحرف فيقول: احلولقوا، من الحلق، ولا يجوز أن يأمرهم بإسقاط سنَّة، كيف وقد قال لضبيع حين توسَّم فيه مذهب الخوارج: اكشف رأسك، فرآه ذا ضفيرتين،

فقال: لو كنت محلوقًا لضربت عنقك.

ولينحُ مثالَ أهل اليمن فى الزى والأثاث، فإن الاقتداء بهم والاتباع لشمائلهم فى الحج طريقة السلف. على ذلك الهدى والوصف كان رسول الله ﷺ وأصحابه، وما عدا وصفهم وخالف هديهم فهو محدَثٌ ومتبدَع.

ولهذا المعنى قيل: زينُ الحجيج أهل اليمن؛ لأنهم على منهاج الصحابة وطريقة السلف. وقيل فى مدحهم بالتقلل والانفراد: لا يغلون سعرًا ولا يضيقون طريقًا.

وقد كان العلماء قديمًا إذا نظروا إلى المترفين قد خرجوا إلى مكة، يقولون: لا تقولوا خرج فلانٌ حاجًا، ولكن قولوا: خرج مسافرًا. ويقال: إنّ هذه المحامل والقباب أحدثها الحجَّاج بن يوسف فركب الناسُ سُنَّته. وقد كان العلماء فى وقته ينكرونها، ويكرهون الركوب فيها. وأخاف أن بعض ما يكون من تماوُت الإبل يكون ذلك سببه لثقل ما يُحمل، ولعله عِدلُ أربعة أنفس وزيادة، مع طول الشُّقة وقلة الطعم.

وينبغى أن يقلّل من نومه على الدابة، فإنه يقال: إن النائم يُثقل على البعير. وقد كان أهل الورع لا ينامون على الدواب إلا من قعود، يغفون غفوة بعد غفوة. وكانوا أيضًا لا يقفون عليها الوقوف الطويل؛ لأن ذلك يشق عليها. وفى الحديث: «لا تتخذوا ظهور دوابكم كراسى».

ولا يحمل على الدابة المكتراة إلا ما قاضى عليه الجمّال أو ما أذن له فيه. قال رجل لابن المبارك: احمل لى هذا الكتاب معك. فقال: حتى استأمر الجمّال، فإنى قد اكتريت. ولينزل عن دابته غدوةً وعشيَّة، يروِّحها بذلك، ففيه سنةٌ وآثار عن السلف. وقد كان بعض السلف يكترى لازمًا، ويشترط أن لا ينزل، ثم إنه ينزل للرواح ليكون ما رفَّه عن الدابة من حسناته محتسبًا له فى ميزانه.

وبعض علماء الظاهر يقول: إن الحجَّ راكبًا أفضل؛ لما فيه من الإنفاق والمؤونة، ولأنه أبعد لضجر النفس، وأقلُّ لأذاه، وأقرب لسلامته وتمام حجه. فهذا عندى بمنزلة الإفطار يكون أفضل إذا ساء عليه خلقه، وضاق به ذرعه، وكثر عليه

ضجره، لأن حسن الخلق وانشراح الصدر أفضل. وقد يكون كذلك لبعض الناس دون بعضٍ، ممن يكون حاله الضجر، ووصفه التسَخُّط وقلّة الصبر، أو لم يكن اعتاد المشى.

وسألت بعض فقهائنا بمكة ـ وكان ورعًا ـ عن تلك العُمَر التى تُعتمر من مكة إلى التنعيم، وهو الذى يقال له مسجد عائشة، وهو ميقاتنا للعمرة فى طول السنة، أى ذلك أفضل المشى فى العمرة، أو يكترى حمارًا بكسر درهم إلى درهم يعتمر عليه، فيقال: يختلف ذلك على قدر شدّته على الناس، فإن كان إنفاق الدرهم أشدّ عليه من المشى فالاكتراء أفضل، لما فيه من إكراه النفس عليه وشدّته عليها. ومن كان المشى عليه أشق فالمشى أفضل، لما فيه من المشقة. ثم قال: هذا يختلف لاختلاف أحوال الناس من أهل الرفاهية والنعمة، فيكون المشى عليهما أشد.

وعندى أن الاعتمار ماشيًا أفضل، وكذلك الحج ماشيًا، لمن أطاق المشى، ولم يتضجر به، وكان له هِمَّة وقلب. وقد روينا فى خبر من طريق أهل البيت: «إذا كان فى آخر الزمان خرج الناس للحج أربعة أصناف: سلاطينهم للنزهة، وأغنياؤهم للتجارة، وفقراؤهم للمسألة، وقُرَّاؤهم للسُّمعة.

ويكره أخذ الأجرة على الحجّ، فيجعل نصيبه وعناه لغيره ملتمسًا عرض الدنيا. وقد كره ذلك بعض العلماء. ولأنه من أعمال الآخرة، ويُتقرَّب به إلى الله، يجرى مجرى الصلاة والأذان والجهاد، فلا يأخذ على ذلك أجرًا إلا فى الآخرة. وقد قال رسول الله ﷺ لعثمان بن أبى العاص: «واتخذ مؤذنًا لا يأخذ على الأذان أجرًا». وسئل عن رجل خرج مجاهدًا فأخذ ثلاثة دنانير، فقال: ليس له من دنياه وآخرته إلاّ ما أخذ. فإن كان نية عبد الآخرة أو همته المجاورة، واضطر إلى ذلك، فإنّ الله تعالى قد يعطى الدنيا على نية الآخرة، ولا يعطى الآخرة على نية الدنيا، رجوتُ أن يسعه ذلك، وفى الخبر: «يؤجر فى الحجة الواحدة ثلاثة، ويدخلون الجنة: الموصى بها، والمنفِّذ للوصية، والحاجّ الذى يقيمها» لأنه ينوى خلاص أخيه المسلم، والقيام بفرضه. وقد جاء: مَثَلُ المجاهد الذى يأخذ أجرًا على جهادِهِ مثل

أمٍّ موسى يحل أجرها وترضع ولدها. هذا إذا كانت نيته الجهاد، واحتاج إلى معونة عليه. كذلك من كانت نيته فى حجه الآخرة، والتقرّب إلى الله تعالى بالطواف والعمرة بعد قضاء ما عليه، لم يضره أخذ أجرةٍ على حجه إن شاء الله تعالى.

ومن فضائل الحجّ: أن لا يقوِّى أعداءَ الله الصَّادِّين عن المسجد الحرام بالمال، فإن المعونة والتقوية بالمال تضاهى المعونة بالنفس. والصدُّ عن المسجد الحرام يكون بالمنع والإحصار، ويكون بطلب المال، فلْيَحْتَلْ فى التخلص من ذلك، فإن بعض علمائنا كان يقول: تركُ التنفُّل بالحج والرجوع عنه أفضل من تقوية الظالمين بالمال؛ لأن ذلك عنده دخيلةٌ فى الدين، ووليجةٌ فى طريق المؤمنين، وإقامة وإظهار لبدعة أُحدثت من الآخذ والمعطى، فهما شريكان فى الإثم والعدوان. وهذا كما قال؛ لأنه جعل بدعة سنة، ودخولاً فى صَغارٍ وذِلَّة، ومعاونةٌ على وزر أعظم فى الحَرَم من تكلّف حجٍّ نافلة قد سقط فرضه. كيف وفى ذلك إدخال ذِلةٍ وصَغار على الإسلام والمسلمين مضاهاةً للجزية؟ وقد روينا عن رسول الله ﷺ: «كل واحد من المسلمين على ثغر من ثغور الإسلام، فإن ترك المسلمون فاشدد لئلا يُؤتَى الإسلام من قِبَلِك». وفى الخبر المشهور: «المسلمون كرجل واحد، ومَثَل المسلم من المسلمين كمَثَل الرأس من الجسد، يألم الجسد لما يألم الرأس، ويألم الرأس لما يألم الجسد».

وقد يترخص القائل فى ذلك بتأويل أنه مضطر إليه. وليس كما يظن، لأنه لو رجع لَمَا أُخذ منه شىء، ولو خرج فى غير زى المترفين مما أحدث من المحامل لما أُخذ منه شىء، فقد زال الاضطرار وحصل منه بالطوع والشهوة الاختيار، ولعل هذا الذنب عقوبة ما حمَّلوا على الإبل فوق طاقتها من البيوت المسقَّفة التى علوها عليها. كان البعير يحمل الرجل ورَحلَه فجعلوه يحمل مقدار أربعة وزيادة، فأدى ذلك إلى تلفها، فهم مطالبون بقتلها؛ لأن من حمَّل بعيرًا فوق طوقه حوسب بذلك وطولب، أو لعله ذنب ما خرجوا به من التجارات وفضول الأسباب وشبهات الأموال، أو لسوء النيات وفساد المقاصد. وروينا أن أبا الدرداء قال لبعير له فى الموت: يا أيها البعير، لا تخاصمنى إلى ربّك فإنّى لم أكن أحمِّلك فوق

طاقتك. وقد يعاقب الله على الذنب بذنب مثله أو فوقه.

وينبغى أن يكون فى المشاعر والمناسك أشعث أغبر، فإنه سُنَّة. ويكثر ذِكرَ الله فى طريقه وجميع مناسكه، ويذكّر به الغافلين، ويُقل ذكر الناس، ويلزم الصمت فيما لا يعنيه، ولا يتكلف ما قد كُفى، ولا يدخل فيما لم يكلَّف، وإن رأى موضعًا للمعروف أمر به، أو منكرًا نهى عنه. فهذه المعانى تضاعف أجر الحج، وتفضل الحجاج.

وأستَحب أن يَقرِنَ بين حجة وعُمرة من ميقاته؛ لأن فيه إيجاب هدى يقربه، وليكون جامعًا بين نُسُكين من ميقات بلده، ويكون قد أتى بالعمرة؛ لأن فيه إيجاب هدى يقربه، وليكون جامعًا بين نسكين من ميقات بلده، ويكون قد أتى بالعمرة؛ لأنها مقرونة بالحجّ فى الكتاب، ولأن مذهبَ كثير من العلماء أنها فريضة كالحجّ. وجماعة من السلف كانوا يستحبّون الابتداء بالعمرة وتقديمها على الحجّ، منهم: الحسن وعطاء وابن سيرين والنخعى.

وقد روى أن النبى ﷺ جمع بينهما، وأهلَّ بهما معًا فى حديث أنس. وقد حُدِّثت عن شقيق بن سلمة عن الضبى بن معبد قال: أردتُ العُمرةَ فأشار علىَّ رجل من أهل العلم أن أبدأ بالحج، فاستشرت رجلاً من أهل الفقه فأمرنى أن أجمع بين حجّ وعمرة جميعًا. ففعلتُ، فأنشأتُ أُلبِّى بهما، حتى قدمنا على عمر فأخبرته بالذى فعلتُ. فقال: هُديتَ لسنة نبيك.

وإن قدَّمَ العمرة فحجّ متمتعًا ثم أفرد الحج بعدها من عامه فهو أفضل؛ وهذا اختيار جماعةٍ من العلماء. وإن حجّ مُفرِدًا، كما روى عن رسول الله ﷺ أنه أفرد الحجّ فيما روينا عن عائشة وجابر، وإذا فرغ من حجه رجَع إلى ميقات بلده فاعتمر من هناك، فحَسَنٌ. وقد قال الله عز وجل: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٩٦]، فإفرادهما من إتمامهما؛ وهذا قول عمر وعثمان فى الإتمام.

وليطف لِقرانه ويَسْعَ طوافين وسَعْيَيْن، ليخرج بذلك من اختلاف العلماء، جمعهما أو فرّقهما.

وليكثر العبد من التلبية فى حال إحرامه، فهى من أفضل الأذكار فيه، وليرفع بها صوته، وإن قال فى تلبيته: لبيك يا ذا المعارج، لبيك حجًا حقًا، تعبّدًا ورِقًّا، والرغباء إليك والعمل. فقد رُوى هذا عن الصحابة. وإن اقتصر على تلبية رسول الله ﷺ فحسن، وفيها كِفاية وبلاغ.

وأحبّ أن يذبح، وإن لم يجب عليه، ويجتنب الأكل مما يذبح ما كان واجبًا عليه مثل نُسك قِران، أو متعة، أو كفَّارة. وأستحب أن يأكل مما لم يكن عليه واجبًا. وليجتنب المعايب الثمانية فى ذبيحته التى وردت بها الآثار، فقد نُهى أن يضحى: بالجدعاء، والعضباء، والجرباء، ونهى عن الشرقاء، والخرقاء، والمقابلة، والمدابرة، والعجفاء التى لا تُنقى، يعنى المهزولة. وهذا جميع ما جاء فى عيوب الأضاحى بأخبار متفرقة.

فالجدع: فى الأنف والأذن. والقطع: فيهما. والعضب: الكسر فى القرن، وفى نقصان القوائم. والجرباء: من الجرب. والشرقاء: المشقوقة الأذن من فوق. والخرقاء: المشقوقة من أسفل. والمقابلة: المخروقة الأذن من قدام. والمدابرة: المخروقة من خلف. والتى لا تُنقى: المهزولة التى لا نِقْىَ لها؛ والنِّقْى هو المخ.

وقد روينا فى تفسير قوله تعالى: ﴿**ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ**﴾ [الحج:٣٢]، قيل: تسمين الهدى وتحسينه. وأفضل الهدى بدنةٌ، ثم بقرةٌ، ثم كبش أقرن أبيض، ثم الثَّنِىُّ من المعز.

وإن ساق هديه من الميقات فهو أفضل من حيث لا يجهده ولا يكدُّه، وقد كانوا يُغالون بثلاث، ويكرهون المِكَاس فيهن: الهدى، والأضحية، والرقبة. فإن أفضل ذلك أعلاه ثمنًا، وأنفسه عند أهله. وفى حديث ابن عمر أن عمر أهدى نجيبة، فطُلبت منه بثلاثمائة دينار، فسأل النبى ﷺ أن يبيعها ويشترى بثمنها بُدنًا، فنهاه عن ذلك وقال: بل اهدها. فهذه سنة فى تخيُّر الهدى، وحسن الأدب فى المعاملة، وترك الاستبدال بها طلبًا للكثرة، لأن القليل الجيد خيرٌ من الكثير الدون. إن فى ثلاثمائة دينار قيمة ثلاثين، فكان الخالص الحسن كافيًا من الكثير المتقارب.

وفى حديث ابن المنكدر عن جابر: «سئل رسول الله ﷺ: ما برُّ الحج؟ قال: العَجُّ والثجُّ». فالعج: هو رفع الصوت بالتلبية، والثج: هو نحر البُدن.

وفى حديث عائشة رضى الله تعالى عنها عن النبى ﷺ: «ما عمل آدمى يوم النحر عملاً أحبّ إلى الله عز وجل من إهراق دم، وأنها لتأتى يوم القيامة بقرونها وأظلافها، فإن الدّمَ ليقع من الله بمكان قبل أن يقع بالأرض، فطيبوا بها نفسًا».

وفى الخبر: «له بكل صوفة من شعرها وبكل قطرة من دمها حسنة»، وأنها لتوضع فى الميزان فأبشروا.

ولا يضحى بجَذَع إلا من الضأن فقط، وهو ما كان فى آخر حَوْلِه، وبالثَّنِىِّ من المعز والبقر والإبل. فالثنى من المعز: ما دخل فى السنة الثانية، والثنى من البقر: ما دخل فى الثالثة، والثنى من الإبل: ما دخل فى السنة الخامسة.

وإن أحرم من بلده، فقد قيل: إنه من إتمام الحج والعمرة، ومن عزائم الأعمال. روينا عن عمر وعلى وابن مسعود رضى الله عنهم: ﴿**وَأَتِمُّوا الحجَّ والعُمْرَةَ لله**﴾ [البقرة:١٩٦]. قالوا: إتمامهما أن تحرم بهما من دُويرة أهلك. ولتكن حاضرَ القلب، مشاهدًا القرب عند المواطن المرجوِّ فيها الإجابة. وفى المشاهد المبتغَى منها المنفعة، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُم وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فى أَيَّامٍ مَعدُوداتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم**﴾ [الحج:٢٨].

وأستحبّ له أن يمشى فى المشاعر من حين يخرج من مكة إلى أن يقف بعرفة، وإلى أن يرجع من طواف الزيارة إلى منى. ومن استحب للحاجّ الركوب فإنه يستحب له المشى إلى مكة فى المناسك إلى انقضاء حجّه، ولأن عبد الله بن عباس أوصى بنيه عند موته فقال: يا بنى حُجوا مشاةً، فإن للحاج الماشى بكل قدم يخطوها سبعمائة حسنة من حسنات الحرم. قيل: وما حسنات الحرم؟ قال: الحسنة بمائة ألف. وأوكد ما مشى فيه من المناسك وأفضله: من مسجد إبراهيم ﷺ إلى الموقف، ومن الموقف إلى المزدلفة فى الإفاضة، ومن المشعر الحرام غداة النّحر إلى مِنًى، وفى أيام رميِه الجمار.

وصوم يوم عرفة فيه فضل إن قوى معه على الدعاء والتلبية، ولم يقطعه الصوم عن ذلك، فإن أضعفه فالفطر أفضل. ولم يصمه رسول الله ﷺ بعرفة، ولا أبو بكر، ولا عمر، وصامه عثمان رضى الله عنه وعنهم.

وليعتبر فى طريقه وسيره بالآيات وما يرى من الحكمة والقدرة من تصريف الخلق، وما يحدث الله تبارك وتعالى فى كل وقت، فيكون له فى كل شىء عبرة، ومن كل شىء موعظة، فإنه على مثال طريق الآخرة. وليكن له بكل شىء تَذْكِرة، وفى كل شىء فِطنةٌ وتَبصِرة، تردّه إلى الله تعالى، وتدلّه عليه، وتذكِّره به، ويشهده منها فيتفكر فى أمره، ويستدل به على حكمته، ويشهد منه قدرته.

وسئل الحسن: ما علامة الحج المبرور؟ فقال: أن يرجع العبدُ زاهدًا فى الدنيا، راغبًا فى الآخرة. وقيل فى وصف الحج المبرور: هو كفُّ الأذى، واحتمال الأذى، وحسن الصحبة، وبذل الزاد. ويقال: إنّ علامة قبول الحج: تركُ ما كان عليه العبد من المعاصى، والاستبدال بإخوانه البطَّالين إخوانًا صالحين، وبمجالس اللهو والغفلة مجالس الذكر واليقظة. فمن وُفِّق للعمل بما ذكرناه فهو علامة قبول حجهِ، ودليل نظر الله إليه فى قصده.

ومن أُصيب بمصيبةٍ فى نفسه وماله، فهو من دلائل قبول حَجِّه، فإن المصيبة فى طريق الحج تعدل النفقة فى سبيل الله تعالى، الدِّرهم بسبعمائة، وبمثابة الشدائد فى طريق الجهاد.

وليستكثر من الطواف بالبيت؛ فإنه يقال: ليس على وجه الأرض اليوم عمل أفضل من الطواف بالبيت، لأنه يستوعب بطواف أسبوع[١] مائةً وعشرين رحمة، يكون بكل رحمة ما شاء الله؛ لأنه سبحانه يختص برحمته من يشاء، وأقلُّ ماله بكل رحمة عشر حسنات؛ لأن فى حديث عطاء عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ: «يُنزل الله على هذا البيت فى كلِّ يوم مائة وعشرين رحمة، ستّون للطائفين، وأربعون للمصلين، وعشرون للناظرين». وفى الحديث: «استكثروا من الطواف بالبيت، فإنه من أقلِّ شىء تجدونه فى صُحفكم يوم القيامة، وأغبطُ عَمَلٍ

(١) أسبوع: يقال: طاف بالبيت سَبْعًا وأسبوعًا وسبوعًا؛ بمعنى واحد.

تجدونه». ولا تتحدث فى طوافك، وعليك بكثرة ذِكر الله سبحانه وتعالى من التسبيح والتهليل والحمد وتلاوة القرآن، وامشِ بسكينة ووقار وخشوع وانكسار، ولا تزاحمنَّ أحدًا، واقرب من البيت ما أمكن، واستلم الركنين اليمانيين، مع تقبيل الحجر فى كل وتر من طوافك إن أمكن. وقد روينا فى الخبر: «من طاف بالبيت أسبوعًا حافيًا حاسرًا كان له كعتق رقبة. ومن طاف باليت أسبوعًا فى المطر غُفر له ما سلف من ذنوبه». روى ذلك عن الحسن بن على، قاله لأصحابه ورفعه إلى رسول الله ﷺ.

واتق الهِمَمَ الرديَّة والأفكار الدنيَّة. فيقال: إن العبد يؤاخذ بالهمة فى ذلك البلد. وعن ابن مسعود: ما من بلد يُؤاخَذ العبد فيه بالإرادة قبل العمل إلاّ بمكة. وقال أيضًا: لو همّ العبد بَعَدن إبين أن يعمل سوءًا بمكة عاقبه الله تعالى، ثم تلا: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج:٢٥] يعنى أنه علّق العذاب بالإرادة دون الفعل. ويقال: إن السيئات تضاعف بمكة كما تضاعف الحسنات، وإن السيئات التى تُكتسب هنالك لا تكفَّر إلا هنالك. وكان ابن عباس يقول: الاحتكار بمكة من الإلحاد فى الحرم. وقيل: الكذب فيه من الإلحاد.

وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه: لأن أُذنب سبعين ذنبًا برِكيَّة أحب إلىّ من أن أذنب ذنبًا واحدًا بمكة. وركية منزلة بين مكة والطائف.

وقد كان الورعون من السلف، منهم عبد الله بن عمر، وعمر بن عبد العزيز، وغيرهما، يضرب أحدُهم فسطاطين؛ فسطاطًا فى الحرم وفسطاطًا فى الحِلِّ. فإذا أراد أن يصلى أو يعمل شيئًا من الطاعات دخل فسطاط الحرم، ليدرك فضل المسجد الحرام، لأن المسجد الحرام عندهم فى جميع ما يذكر إنّما هو الحرم كله، وإذا أراد أن يأكل أو يكلم أهله أو يتغوَّط خرج إلى فسطاط الحل.

ويقال: إن آل الحجاج فى سالف الدهر كانوا إذا قدموا مكة خلعوا نعالهم بذى طِوى تعظيمًا للحرم. وقد سمعنا من لم يكن يتغوط ولا يبول فى الحرم من المقيمين بمكة، ورأينا بعضهم لا يتغوَّط ولا يبول حتى يخرج إلى الحِلِّ، تعظيمًا لشعائر الله تعالى، وتنزيهًا لحرمه وأمنه.

وأعمال البرِّ كلُّها تُضاعَف بمكة، والحسنة بمائة ألف حسنة، على مثال الصلاة فى المسجد الحرام. روى معنى ذلك عن ابن عباس وأنس. وعن الحسن البصرى: أن صوم يوم بمائة ألف يوم، وصدقة درهم بمائة ألف درهم. ويقال: إن طواف سبعة أسابيع يعدل عُمرة، وإن ثلاث عُمَر تَعدل حجّة، وإن العمرة هى الحجة الصغرى؛ وهذا فى دليل الخطاب من قوله تعالى: ﴿يَوْمَ الحَجِّ الأَكْبَرِ﴾ [التوبة:٣] فدل أن الحجَّ الأصغر هو العمرة، ومن العرب من يسمى العُمرة حجًا. وفى الخبر: «عُمرةٌ فى رمَضان تعدل حجة». فمن وُفِّق للعمل بما ذكرناه، فهو علامة قبول حجه، ودليل نظر الله إليه فى قصده.

• ذكر فضائل الحاجين لوجه الله:

روينا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من حجّ هذا البيتَ فلم يرفُث ولم يفسُق خرجَ من ذنوبه كيوم ولدته أمه». وفى حديث آخر: «من خرج من بيته حاجًا أو مُعتمرًا فمات أُجرى له أجرُ الحاج والمعتمر إلى يوم القيامة، ومن مات فى أحد الحرمين لم يُعرَض ولم يُحاسَب، وقيل له ادخل الجنة». وروى فى الخبر: «حجةٌ مبرورة خيرٌ من الدنيا وما فيها. وحجةٌ مبرورة ليس لها جزاءٌ إلا الجنة».

وفى الحديث: «الحجاج والعُمَّار وفدُ الله تعالى وزُوَّاره، إن سألوه أعطاهم، وإن استغفروه غَفَر لهم، وإن دَعَوه اُستُجيب لهم، وإن شفعوا شُفِّعوا».

وذكر بعضهم أن إبليس ظهر له فى صورة شخص بعرفة، فإذا هو ناحل الجسم، مصفرُّ اللون، باكى العين ، مقصوم الظهر، فقال له: ما الذى أبكى عينك؟ فقال: خروج الحاج إليه بلا تجارة، أقول: قد قصدوه، أخاف أن لا يخيِّبهم، فيحزننى ذلك. قال: فما الذى أنحل جسمك؟ قال: صهيل الخيل فى سبيل الله تعالى، ولو كانت فى سبيلى كان أحبَّ إلىَّ. قال: فما الذى غيّر لونك؟ قال: تعاونُ الجماعة على الطاعة، ولو تعاونوا على المعصية كان أحبَّ إلىَّ. قال: فما الذى قصَم ظهرك؟ قال: قول العبد: أسألك حُسنَ الخاتمة، أقول: يا ويلتى متى يعجب هذا بعمله؟ أخاف أن يكون قد فطن.

ولقى رجلٌ ابن المبارك وقد أفاض من عرفة إلى مزدلفة، فقال: من أعظم الناس جُرمًا يا أبا عبد الرحمن فى هذا الوقت؟ فقال: من قال إن الله عز وجل لم يغفر لهؤلاء.

وقد روينا حديثًا مسندًا من طريق أهل البيت: «أعظم الناس ذنبًا من وقفَ بعرفةَ فظنّ أن الله عز وجل لم يغفر له».

ويقال: إن من الذنوب ذنوبًا لا يكفِّرها إلاّ الوقوف بعرفة. وقد رفعه جعفر بن محمد فأسنده. ويقال: إن الله عز وجل إذا غفر لعبدٍ ذنبًا فى الموقف غفره لكل من أصابه فى ذلك الموقف. وزعم بعض السلف: إذا وافق عرفة يوم جمعة غُفر لكل أهل الموقف.

وهو أفضلُ يوم فى الدنيا، وفيه حجَّ رسول الله ﷺ حجةَ الوداع ولم يحج بعد نزول فرض الحج غيرها. وعليه نزلت هذه الآية وهو واقف بعرفة: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وقال علماء أهل الكتاب: لو أُنزلت علينا هذه الآية لجعلنا يومها عيدًا. فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: أشهد، لقد أُنزلت فى يوم عيدين اثنين يوم عرفة ويوم جمعة، على رسول الله ﷺ وهو واقف بعرفة.

وقد روينا فى تفسير قوله تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ [الحج:٢٨] عن جماعة من السلف، قال: غفر لهم وربّ الكعبة. وفى تفسير قوله تعالى: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف:١٦]. قال: طريق مكة يصدهم عنه.

وروينا عن مجاهد وغيره من العلماء، دخل حديث أحدهما فى الآخر: كانوا يتلقون الحاج يدعون لهم قبل أن يتدنسوا ويقولون: تقبل الله منا ومنكم. وأنّ الحاج إذا قدموا مكة تلقتهم الملائكة، فسلموا على ركبان الإبل، وصافحوا ركبان الحمير، واعتنقوا المشاة اعتناقًا.

وقال الحسن: من مات بعقب شهر رمضان، أو بعقب غزوةٍ، أو بعقب حجٍّ، مات شهيدًا.

وقال عمر رضى الله تعالى عنه: الحاج مغفورٌ له ولمن استغفر له شهرَ ذى الحجة، والمحرم، وصفر، وعشرين من ربيع الأول.

وقد كان من سُنّة السلف أن يشيِّعوا الغُزاة وأن يستقبلوا الحاج، ويقبّلوا بين أعينهم ويسألوهم الدعاء لهم. وفى الخبر: «اللهم اغفر للحاج ولمن استغفر له الحاج».

وحدثونا عن على بن الموفَّق قال: حججتُ سنة فلما كان ليلة عرفة بتُّ بمِنًى فى مسجد الخيف، فرأيت فى المنام كأن ملكين قد نزلا من السماء عليهما ثيابٌ خُضر، فنادى أحدهما صاحبه: يا عُبيد الله. فقال الآخر: لبيك يا عبد الله. قال: تدرى كم حجّ بيتَ ربِّنا فى هذه السنة؟ قال: لا أدرى. قال: حجّ بيت ربنا ستمائة ألف. أتدرى كم قُبل منهم؟ قال: لا. قال: قُبل منهم ستة أنفس. قال: ثم ارتفعا فى الهواء فغابا عنى، فانتبهت فزِعًا فاغتممتُ غمًا شديدًا، وأهمَّنى أمرى، فقلتُ: إذا قُبل حجُّ ست أنفس، فأين أكون أنا فى ستة أنفس؟ فلما أفضْنا من عرفةَ، وبتُّ عند المشعر الحرام جعلتُ أفكر فى كثرة الخلق، وفى قلّة من قُبل منهم، فحملنى النوم، فإذا الشخصان قد نزلا من السماء على هيئتهما، فنادى أحدهما: يا عبيد الله. قال: لبيك يا عبد الله. قال: تدرى كم حجّ بيت ربنا؟ قال: نعم، ستمائة ألف. قال: فَتَدرى كم قُبل منهم؟ قال: نعم، ستة أنفس. قال: أتدرى ماذا حكم ربنا فى هذه الليلة؟ قال: لا. قال: فإنه وهَب لكل واحدٍ من الستة مائة ألف. قال: فانتبهت وبى من السُّرور ما يجلُّ عن الوصف.

ذكر فى هذه القصة ستة، ولم يذكر السابع؛ وهؤلاء هم الأبدال السبعة أوتاد الأرض المنظور إليهم كفاحًا، ثم ينظر إلى قلوب الأولياء من وراء قلوبهم. فأنوار هؤلاء عن نور الجلال وأنوار الأولياء من أنوارهم، وأنصبتهم وعلومهم من أنصبة هؤلاء وعلومهم. فلم يذكر السابع وهو قطب الأرض، والأبدال كلُّهم فى ميزانه. ويقال: إنه هو الذى يُضاهى الخضر من هذه الأمة فى الحال، ويجاريه فى العلم، وإنهما يتفاوضان العلم، ويجد أحدهما المزيد فى الآخرة، فإنّما لم يُذكر ـ والله أعلم ـ لأنه يُوهب له من مات ولم يحج من هذه الأمة، لأنه أوسع جاهًا من

جميعهم، وأنفذ قولاً فى الشفاعة من الجملة.

وقد روينا عن ابن الموفَّق قال: حججت سنةً، فلما قضيت مناسكى تفكَّرت فيمن لا يُتقبَّل حجه، فقلت: اللهم إنى قد وهبتُ حِجّتى هذه وجعلت ثوابها لمن لا يُتقبل حجه. قال: فرأيت ربَّ العزة فى النوم، قال لى: يا على تتسخَّى علىَّ، وأنا خلقت السخاء وخلقتُ الأسخياء، وأنا أجود الأجودين، وأكرم الأكرمين، وأحق بالجود والكرم من العالمين، وقد وهبت كل من لم يُقبل حجه لمن قبلته. وكان ابن الموفق هذا قد حجّ عن رسول الله ﷺ حججًا، وقال: فرأيت النبىَّ ﷺ فقال: يا ابن الموفق، حججتَ عنى؟ قلتُ: نعم يا رسول الله. ولبَّيتَ عنّى؟ قلتُ: نعم. قال: فهذه يدٌ لك عندى أُكافِئُكَ بها يوم القيامة، آخذ بيدكَ فى الموقف فأدخلك الجنة، والخلائق فى كُرَب الحساب.

• ذكر فضائل البيت الحرام وما جاء فيه:

فى الخبر: «إن الله تعالى وعد هذا البيت أن يحجّه فى كل سنةٍ ستمائة ألف، فإن نقصوا كمَّلهم الله تعالى بالملائكة، وأن الكعبة تُحشر كالعَرُوس المزفوف، وكلٌّ من حجها متعلق بأستارها يسعون حولها حتى تدخل الجنة فيدخلون معها».

وفى الخبر: «إن الحجرَ ياقوتة من يواقيت الجنة، وأنه يُبعث يوم القيامة وله عينان ولسان ينطق به، يشهد لمن استلمه بحق وصدق». وكان رسول الله ﷺ يقبِّله كثيرًا. وروينا أنه سجد عليه، وكان يطوف على الراحلة فيجعل المِحْجَن عليه، ثم يقبّل طرف المحجن.

وقبّله عمر ثم قال: إنّى لأعلم أنك حجرٌ لا تضرُّ ولا تنفعُ، ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ يقبّلك لما قبّلتك. ثم بكى حتى علا نشيجه، فالتفتَ إلى ورائِه فإذا علىٌّ، فقال: يا أبا الحسن، ههنا تُسكب العبرات. فقال على: يا أمير المؤمنين بل هو يضر وينفع. قال: وكيف؟ قال: إن الله عز وجل لما أخذ الميثاق على الذّرية كتب عليهم كِتابًا، ثم ألقمه هذا الحجر، فهو يشهد للمؤمن بالوفاء، ويشهد على الكافر بالجحود. قيل: فذلك معنى قول الناس عند الاستلام: اللهم إيمانًا بك، وتصديقًا بكتابك، ووَفَاءً بعهدك. يعنون هذا الكتاب والعهد.

وفى الخبر عن النبى ﷺ: «أنا أوّل من تنشقُّ عنه الأرض، ثم آتى البقيع فيُحشرون معى، ثم آتى أهلَ مكةَ فأُحشر بين الحرمين». وفى الخبر: «إن آدم عليه السلام لما قضى مناسكه لقيته الملائكة فقالوا: بُرَّ حَجُّك يا آدمُ، لقد حَجَجنا هذا البيت قبلك بألفى عام». وجاء فى الأثر: «إن الله تعالى جدّه ينظر فى كل ليلة إلى أهل الأرض، فأول من ينظر إليه أهل الحرم، وأول من ينظر إليه من أهل الحرم أهل المسجد الحرام، فمن رآه طائفًا غَفَر له، ومن رآه منهم مصليًا غَفر له، ومن رآه نائمًا مستقبل القبلة غَفَر له».

وذكرت الصلاة بعَبَادان لأبى تراب النخشبى فقال: نومةٌ فى المسجد الحرام أفضل من الصلاة بعبادان. وكُوشف بعض الأولياء قال: رأيتُ الثغور كلها تسجد لعبادان ورأيت عبادان ساجدة لجَدّة؛ لأنها خِزانةُ الحرم، وفُرضة أهل المسجد الحرام.

وكنتُ أنا بمكة سنةً فأهمنى الغلاءُ بها حتى ضِقت ذرعًا به، فرأيت فى النوم شخصين بين يدىَّ، يقول أحدهما للآخر: كلُّ شىءٍ فى هذا البلد عزيزٌ، كأنه يعنى الغلاء. فقال الآخر: الموضع عزيزٌ فكل شىء فيه عزيز، فإن أردت أن ترخُص الأشياء عليك ، فضمَّها إلى شَرَفِ الموضعِ حتى ترخص.

• ذكر من كره المقام بمكة:

كان سفيان الثورى يقول: والله ما أدرى أى البلاد أسكن. فقيل له: خراسان. قال: مذاهبُ مختلفة، وآراء فاسدة. قيل: الشام. قال: يشار إليك بالأصابع. قيل: فالعراق. قال: بلدة الجبابرة. قال: مكة. قال: تُذِيب الكيسةَ والبدن. وقال رجل للثورى: قد عزمت على المجاورة بمكة فأوصنى. قال: أوصيك بثلاثة؛ لا تصلِّينَّ فى الصف الأول، ولا تصحبنَّ قرشيًا، ولا تُظْهِرنَّ صدقة.

إنما كره له الصلاة فى الصف الأول؛ لأنه يُفتقد فيُسأل عنه إذا غاب، ويُشتهر ويعرف إذا واظَبَ، فيجب أن يَرُبَّ الحال بلزوم الموضع، فيذهب الإخلاص ويحصل التزيُّن والتصنُّع. وجاء رجل إلى سفيان بمكة فسأله فقال: أرسل معى رجلٌ بمال فقال: ضعه فى سِدانة الكعبة ـ أو قال: فى سَدَنَة الكعبة ـ فما ترى؟

قال سفيان: قد جهل فيما أمرك به، وإن الكعبة لَغنيَّة عن ذلك. قال: فما ترى؟ قال: اصرفه للفقراء والأرامل، وإياك وبنى فلان فإنهم سُرَّاق الحاجِّ.

وقد كان بعض السلف يكره المجاورة بمكة ويحبّ قصد البيت للحج والخروج منه، إما لأجل الشّوق إليه، أو خشية الخطايا فيه، أو حبًا للعود. وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة:١٢٥]، أى: يَثوبُونَ إليه؛ يعودون مرة بعد مرة، ولا يقضون منه وطرًا.

وكان بعضهم يقول: تكون فى بلد وقلبك مشتاق متعلق بهذا البيت خيرٌ لك من أن تكون فيه وأنت متبرم بمقامك، أو قلبك متعلّق إلى بلد غيره.

وروى ابن عيينة عن الشعبى: لأن أقيمَ بحمَّام أعين أحبُّ إلىَّ من أن أقيم بمكة. قال سفيان: يعنى إعظامًا لها وتوقيًّا على الذنب فيها. وقد كان عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه يضرب الحجاج إذا حجُّوا، ويقول: يا أهل اليمن يمنكم، ويا أهل الشام شامكم، ويا أهل العراق عراقكم.

وكان ابن عباس يقول: أُجورُ بيوت مكة حرام، ولا تقوم الساعة حتى يستحلَّ الناس اثنتين: إتيان النساء فى أدبارهن، وأجور بيوت مكة. وكان الثورى وبشر وجماعة من الفقهاء وأهل الورع يكرهون أن يدفع الرجل كراء بيت مكة، حتى قال الثورى: إذا طالبوك، ولم يكن لك بد من أن تعطيهم، فخُذ لهم من البيت قيمة ما أخذُوا منك.

وقال بعض السلف: كم من رجل بأرض خراسان أقرب إلى هذا البيت ممّن يطوف به؟ ويقال: إن لله عبادًا تطوف بهم الكعبة تقرُّبًا إلى الله عز وجل.

وحدثنى شيخٌ لنا عن أبى على الكرمانى شيخنا بمكة، وكان من الأبدال إلاّ أنى سمعت هذه الحكاية منه، قال: سمعته يقول: رأيت الكعبة ذات ليلة تطوف بشخصٍ من المؤمنين، وقال لى هذا الشيخ: ربما نظرت إلى السماء واقعة على سطح الكعبة قد ماستها الكعبة، ولزقت بها، وأكثر الأبدال فى أرض الهند والزّنج وبلاد الكفرة، ويقال: لا تغرب الشمس من يومٍ إلا يطوف بهذا البيت رجلٌ من

الأبدال، ولا يطلع الفجر من ليلةٍ إلاّ طاف به واحد من الأوتاد، وإذا انقطع ذلك كان سببَ رفعه من الأرض، فيصبح الناس وقد رُفعت الكعبة ولا يرون لها أثرًا، وهذا إذا أتى عليها سبع سنين لم يحجّها أحد، ثم يُرفع القرآن من المصاحف، فيصبح الناس فإذا الورق أبيض يلوح ليس فيه حرف، ثم يُنسخ القرآن من القلوب فلا تذكر منه كلمة، ثم يرجع الناس إلى الأشعار والأغانى وأخبار الجاهلية، ثم يخرج الدجال، وينزل عيسى ابن مريم عليه السلام فيقتله، والساعة عند ذلك بمنزلة الحامل المُقْرِب يتوقع ولادتها.

روينا عن وهيب بن الورد المكى قال: كنتُ ذات ليلةٍ أصلى فى الحِجر، فسمعت كلامًا بين الكعبة والأستار يقول: إلى الله تعالى أشكو ثم إليك يا جبريل ما ألقى من الطائفين حولى، تفكُّهَهُم فى الحديث ولغوَهم ولهوَهم، لئن لم ينتهوا من ذلك لأنتفضنَّ انتفاضةً يرجعُ كلُّ حجرٍ منّى إلى الجبل الذى قُطع منه.

وفى الخبر: «لا تقوم الساعة حتى يُرفع الرّكن والمقام».

وروى: أن الحبشة يغزُون الكعبة، فيكون أوّلهم عند الحجر الأسود، وآخرهم على ساحل البحر بجدّة، فينقضونها حجرًا حجرًا، يناول بعضهم بعضًا حتى يرمونها فى البحر.

وكذلك يذكر عن بعض الصحابة وقُرّاء الكتب السالفة: كأنى أنظر حبشيًا أصلع أجدعَ قائمًا عليها، يعنى الكعبة، هدمها بمعوله حجرًا حجرًا. وفى الخبر: «استكثروا من الطواف بهذا البيت قبل أن يرفع». فقد هدم مرتين ويرفع فى الثالثة، ورفعه الذى ذكراه يكون بعد هدمه؛ لأنه يُبنى من ذى قبل حتى يعودَ إلى مثل حاله، ويُحَج مرارًا، ثم يُرفع بعد ذلك.

وروينا فى حديث أبى رافع عن علىٍّ عن النبى ﷺ: «يقول الله تعالى: إذا أردتُ أن أخرِّب الدنيا بدأت ببيتى فخرّبته ثم أخرب الدنيا على أثره».

وليس بعد مكة مكانٌ أفضل من مدينة رسول الله ﷺ، والأعمال فيها مضاعفة. روى عن النبى ﷺ: «صلاة فى مسجدى هذا خيرٌ من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام». وكذلك قيل: «إن فضل الأعمال بالمدينة كفضل الصلاة،

كل عمل بألف عمل». وبعد ذلك الأرض المقدسة فإن فضل الصلاة فيها بخمسمائة صلاة، وكلُّ عملٍ يضاعف بخمسمائة مثله. روينا عن عطاء عن ابن عباس عن النبى ﷺ: «صلاة فى مسجد المدينة بعشرة آلاف صلاة، وصلاة فى المسجد الحرام بمائة ألف صلاة، وصلاة فى المسجد الأقصى بألف صلاة». ثم تستوى الأرض بعد ذلك فلا يبقى مندوب إليه مقصود لفضل دل الشرع عليه. كما جاء فى الخبر: «لا تُشَدُّ الرِّحال إلاّ إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدى هذا، والمسجد الأقصى»، بعد ذلك فأى موضع صلُح فيه قلبك، وسَلِم لك دينك، واستقام فيه حالك، فهو أفضل المواضع لك، وقد جاء فى الخبر: « البلاد بلادُ الله تعالى، والخلق عباده، فأى موضع رأيت فيه رِفقًا فأقم واحمد الله تعالى». وفى الخبر المشهور: «من خُضِّر له من شىء فليلزمه، ومن جُعلت معيشته فى شىء فلا ينتقل عنه حتى يتغير عليه».

وقال نعيم: رأيت الثورى قد جعل جِرابه على كتفه، وأخذ قُلَّته بيده. فقلت: إلى أين يا أبا عبد الله؟ فقال: إلى بلدٍ أملأ فيه جِرابى بدرهم. وفى حكاية أخرى: بلغنى أن قريةً فيها رُخْص، أريد أن أقيم فيها. فقلت: وتفعل هذا يا أبا عبد الله؟ فقال: نعم. إذا سمعتَ فى بلد برُخصٍ فاقصده، فإنه أسلم لدينك، وأقل لهمِّك. وكان يقول: هذا زمانُ سوءٍ لا يُؤمن فيه على الخاملين، فكيف بالمشهورين؟[1] هذا زمان تنقُّل الرجل، ينتقل من قرية إلى قريةٍ، يفر بدينه من الفتن.

وقد كان الفقراء والمريدون يقصدون الأمصار للقاء العلماء والصالحين؛ للنظر إليهم والتبرّك والتأدب بهم. وكان العلماء ينتقلون فى البلاد، ليُعَلِّموا ويردُّوا الخلق إلى الله تعالى ويعرِّفوا الطريق إليه، فإذا فُقد العاملون وعُدم المريدون فالزم موضعًا ترى فيه أدنى سلامة دين، وأقرب صلاح قلبٍ، وأيسر سكون نفس، ولا تنزعج إلى غيره، فإنك لا تأمن أن تقع فى شرٍّ منه، وتطلب المكان الأول فلا تقدر عليه.

والله غالب على أمره، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

(١) فكيف بهم لو أدركوا زماننا هذا؟!

الفصل الرابع والثلاثون [١]

فى تفصيل الإسلام والإيمان وعقود [٢] شرح معاملة القلب من مذاهب أهل الجماعة

قال الله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا أَوفُوا بِالعُقُودِ﴾ [المائدة:١]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلكنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الأَيْمَانَ﴾ [المائدة:٨٩]. وقال تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب:٥]. وقال جل ثناؤه: ﴿وَلكِنْ يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة:٢٢٥].

فعمدُ القلوب وكسبها هو عقودها وأعمالها، وعقود القلب التى هى السنة المجمع عليها، نقلها الخلف عن السلف، ولم يختلف فيه اثنان من المؤمنين. فيها ستة عشرة خصلة؛ ثمان واجبات فى الدنيا، وثمانٍ واقعات فى الآخرة.

فأما اللاتى هنّ فى الدنيا: أن يعتقد العبدُ أن الإيمان قول وعمل، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، ويقوى بالعلم، ويضعف بالجهل. وأن القرآن كلام الله عز وجل غير مخلوقٍ، وعلمه القديم صفة من صفاته، هو متكلمٌ به بذاته.

وفى الحديث عن رسول الله ﷺ: «ما تقرَّب العبد إلى الله عز وجل بأفضل من شىء خرج منه وهو كلامه».

وروينا عن ابن عباس: أن عليًا رضى الله تعالى عنهما دعا عند قتال صِفّين: يا كهيعص أعوذ بك من الذنوب التى توجب النِّقم، وأعوذ بك من الذنوب التى

---

(١) فى نسخة (د): «الفصل الثالث والثلاثون».

(٢) فى (د): «وعقود السنة واعتقاد القلوب من شرح معاملة القلب من العلم الظاهر، وذكر دعائم الإسلام، وذكر أركان الإيمان والإسلام، والاستثناء فى الإيمان، والإشفاق من النفاق، وطريق السلف من ذلك».

تغيِّر النعم، وأعوذ بك من الذنوب التى تهتك الحُرُم، وأعوذ بك من الذنوب التى تحبس غيث السماء، وأعوذ بك من الذنوب التى تُديل الأعداء، انصرنا على من ظلمنا. قال الضحاك بن مزاحم: فكان على رضى الله عنه يقدم هذه بين يدى كلِّ شديدة.

وفيما روينا عن النبى ﷺ من قوله: «أعوذُ بكلمات الله وأسمائه كلها»، كما قال: «أعوذ بعزة الله وقدرته» ـ دليل أن الكلام والأسماء صفات.

وعن على رضى الله تعالى عنه حين حكَّم الحكَمين، فنقم عليه الخوارج ذلك وقالوا: حكّم فى دين الله المخلوقين. فقال: واللهِ ما حكَّمتُ مخلوقًا، ما حكَّمت إلا القرآن.

وقال أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه حين سمع قرآن مسيلمة الكذَّاب الذى افتعله وتخرَّصه يُضاهى به كلام الله تعالى: والله ما خرج هذا من إلٍّ ولا من تقىٍّ. قال أبو عبيدة: يعنى ما خرج من الله تعالى . قال: وفيه دليلٌ أن القرآن غير مخلوق، وأنه خرج من الله تعالى تكلّم به. قال: ومن هذا قوله تعالى: ﴿**لاَ يَرْقُبُونَ فى مُؤمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً**﴾ [التوبة: ١٠]، معناه: الله عز وجل لا يرقبونه.

وقد روينا عن رسول الله ﷺ بمعنى ذلك فى قوله: «فضلُ كلام الله عز جل على سائر الكلام كفضل الله تعالى على خلقه»، وذلك أنه خرج منه. وقرأتُ فى مصحف ابن مسعود قال: يا موسى قد فضّلتك برسالاتى وبكلامى على النّاس. وهذا لا يجوز فيه إلاّ التكلم بالذات، مع قوله سبحانه وتعالى: ﴿**وكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا**﴾ [النساء: ١٦٤]. قال أهل اللغة: المصدر إذا أُدخل فى الفعل فهو للمواجهة والوصف، لا للأمر بالفعل، ولا على المجاز.

ثم تسليمُ أخبار الصفات؛ فيما ثبتت به الرّوايات، وصح به النقل، ولا يتأول ذلك ولا يشبّه بالقياس والعقل، لكن يعتقد إثبات الأسماء والصفات بمعانيها وحقائقها لله تعالى، وينفى التشبيه والتكييف عنها، إذ لا كُفُؤَ للموصوف فيُشبَّه به، ولا مِثل له فيُجنَّس منه، فنقول كما سمعنا، ونشهد بما علمنا، على أنه ليس

كمثله شيء فى كل وصفٍ فنثبت[١] ولا نشبِّه، ونصِفُ ولا نمثِّل، ونعرِّف ولا نكيِّف.

وفى رد أخبار الصفات بطلان شرائع الإسلام، من قِبَل أن الناقلين إلينا ذلك هم ناقلو شرائع الدين وأحكام الإيمان، فإن كانوا عُدولاً فيما نقلوه من الشريعة، فالعدل مقبول القول فى كلّ ما نقله، وإن كانوا كذبوا فيما نقلوا من أخبار الصفات، فالكذّاب مردود القول فى كل ما جاء به، والكذب على الله كفرٌ، فكيف تُقبل شهادة كافر؟ وإذ جاز أن يجترئوا على الله عز جل بأن يزيدوا فى صفاته ما لم يسمعوه عن رسول الله ﷺ، فهم إلى أن يكذبوا على الرسول فيما [نقلوا][٢] من الأحكام أوْلى. ففى ذلك أيضًا إبطال الشريعة، وتكفيرُ النَّقَلَة من الصَّحابة والتابعين بإحسان. فلذلك كفَّر أصحاب الحديث مَن نفى أخبار الصفات.
ونعتقد تفضيل أصحاب رسول الله ﷺ وأهل بيته رضى الله عنهم ورضوا عنه كافّة، ونسكت عمّا شجر بينهم، وننشر محاسنهم وفضائلهم لتأتلف القلوب بذلك، ونسلّم لكلٍّ واحد منهم ما فعله؛ لأنهم أعلم منا وأوفر عقولاً. فقد عمل كلٌّ واحدٍ بعلمه ومنتهى عقله فيما أدَّى إليه اجتهاده، وإن كان بعضهم أعلم من بعض، كما أن بعضهم أفضل من بعض. إلا أن علومنا وعقولنا تضعف وتقصر عن علم أدناهم علمًا. كما فُضِّلوا علينا بالسوابق سبقًا، ونُقدِّم من قدَّمه الله ورسوله، وأجمع المسلمون الذى تولّى الله إجماعهم على الهداية، وضَمِن لرسوله ﷺ تفضيلاً لهم وتشريفًا لهم أن لا يجتمعوا على ضلالة.

وقد قال علىٌّ لما قِيل له: ألا تستخلف علينا؟ فقال: لا أستخلف عليكم، بل أكلكم إلى الله عز وجل، فإن يرد بكم خيرًا جَمَعَكم بعد نبيكم على خيركم.

قال إبراهيم النخعى: فلما سلّم الحسن بن على رضى الله تعالى عنهما الأمرَ إلى معاوية سُمِّيت سنة الجماعة. وقال له رجلٌ من الشيعة: يا مذلَّ المؤمنين. فقال: بل أنا مُعز المؤمنين، سمعت أبى عليه السلام يقول: لا تكرهوا إمارة

(١) من قوله: «فنقول» فى الصفحة السابقة إلى هنا ساقط من المطبوعة.
(٢) ساقطة من المطبوعة.

معاوية، فإنه سيلى هذا الأمر بعدى، وإن فقدتموه رأيتم السُّيوف تَبْدُر[١] عن كواهلها كأنها الحنظل.

فليعتقد بقلبه من رضى الصحابة بإمامته، وأجمعوا على خلافته، واتفق الأئمة من أهل الشورى على تقدمته، على حديث ابن عمر فى التفضيل، قال: كنا نقول على عهد رسول الله ﷺ: أبو بكر ثم عمر ثم عثمان، فيبلغ ذلك رسول الله ﷺ فلا ينكر. وعلى حديث سَفِينة مولى رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «الخلافة بعدى ثلاثونَ سنة ثم تكون مُلكًا».

فهؤلاء الأربعة خلفاء النبوة؛ وهم أئمة الأئمة من العشرة، وعيون أهل الهجرة والنُّصرة، وخيار الخيار من الأصحاب. كما روينا عن النبى ﷺ: «إن الله عز وجل اختار أصحابى على العالمين، واختار من أصحابى أربعة فجعلهم خير أصحابى، وفى كلّ أصحابى خير، واختار أمتى على الأمم، واختار من أمتى أربعة قرون، فكل قرن سبعون سنة».

فإنما نحن قومٌ متبعون، نقفو الأثر، غير مبتدعين بالرأى والمعقول نردّ به الخبر، إذ لا مدخل للقياس والرأى فى التفضيل، كما لا مدخل لهما فى الصفات وأصول العبادات، وإنّما يؤخذ التفضيل توقيفًا وتسليمًا ومن طريق الإجماع والاتباع خشية الشُّذوذ والابتداع، لقول الرسول ﷺ: «عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين بعدى، عَضُّوا عليها بالنواجذ، ومن شذّ ففى النار». وقال تعالى فى تصديق ذلك: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيرَ سَبِيلِ الْمُؤمنينَ نُوَلِّه مَا تَوَلَّى وَنُصْلِه جَهَنَّمَ﴾ [النساء: ١١٥]. وإنما جاء الترتيب فى التفضيل والخلافة مخالفًا للقياس، والمعقول، توكيدًا للنبوة وتأييدًا للرسالة، لئلا تلتبس النبوة بالمُلك، ولا ينحو النبى ﷺ فى الخلافة نحو الأكاسرة والأقاصرة فى المملكة. كما كانت النبوة مخالفة للمُلك جاءت الخلافة على غير سيرة الملوك من استخلاف أبنائهم وأهل بيتهم، ولو كان للمعقول والقياس مدْخل فى التفضيل لكان أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ الحسن ابنه لأن فيه النبوةَ، والعباس عمّه إذ فيه الأبوَّة، وقد أجمعوا على خلاف ذلك.

---

(١) فى (د، م): «الرءوس تنذَرُ».

وبمعنى هذا من إخراج الخلق من المألوف، ورفع سُكونهم عن المعهود: أن أبا قحافة وأبا سفيان ماتا مؤمنين، وأنا أبا رسول الله ﷺ وعمه ماتا كافرين. أجمع أهل النقل والتواريخ(١) على ذلك. وقال أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه لما أسلم أبوه بين يدى رسول الله عام فتح مكة: واللهِ يا رسول الله لإسلام أبى طالب كان أحب إلىَّ لو أسلم من إسلام أبى؛ ليقرَّ الله به عينك. فبكى رسول الله ﷺ.

وأيضًا فلمَا سبق فى علم الله تعالى أن يجعل هؤلاء الأربعة خلفاء النبوة بما قدَّر الله من أعمارهم، فلم يكن يتم ذلك إلا بترتيبهم على ما رُتِّبوا فى الخلافة. فكان آخرهم استخلافًا هو آخرهم موتًا. فدبّر خلافتهم على ما علم من آجالهم، ووفّى لهم بما وعدهم من استخلافهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم من خلائف أنبيائه السّوالف، ومكّن لهم دينهم الذى ارتضى لهم، وبدّلهم أمنًا بعد خوفهم، كما قال الصادق فيما عهد: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ﴾ [التوبة: ١١١] فذلك تأويل قوله عز وجل: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥] الآية.

وأن يعتقد أن الإمامة فى قريش خاصةً دون سائر العرب كافة إلى يوم القيامة، وأن لا يخرج على الأئمة بالسيف، ويصبر على جورهم إن كان منهم، ويشكر على المعروف والعدل، ويطيع إذا أُمر بالتقوى والبر، حتى تأتيه يدٌ خاطئة أو منيَّة قاضية. كذلك السنَّة.

قال عالمنا أبو محمد سهل رحمه الله تعالى: هذه الأمة ثلاث وسبعون فرقة: اثنتان وسبعون هالكة، كلهم يبغض السلطان، والناجية هذه الواحدة التى مع السلطان. وسئل: أى الناس خيرٌ؟ فقال: السلطان. قيل: كنا نرى أن شر الناس

---

(١) حاشية فى (هـ) بخط مخالف للأصل ما نصه: «أقول: بل فيه اختلاف كثير. والحق أن أبوى رسول الله ﷺ ماتا مؤمنين، يؤيده قوله تعالى: ﴿وتَقلُّبك فى السَّاجدين﴾ [الشعراء: ٢١٩]، وقوله: ﴿ربَّنا وابعث فيهم﴾ أى فى الأمة المسلمة ﴿رسولاً منهم﴾ [البقرة: ١٢٩] ولم يبعث من ذريته غير محمد ﷺ. فثبت إيمان أبويه». ثم وقع الكاتب باسمه ولكنه غير مقروء. وقد كتب السيوطى رسالة فى ذلك يؤيد ما ذكره صاحب الحاشية.

السلطان. فقال: مهلاً، إن الله تعالى فى كل يوم نظرتين، نظرة إلى سلامة أموال المسلمين ودمائهم، ونظرة إلى سلامة أبكارهم[1]، فيطَّلع فى صحيفته فيغفر له جميع ذنوبه. وقال أبو محمد: الخليفةُ إذا كان غير صالح فهو من الأبدال، وإذا كان صالحًا فهو القطب الذى تدور عليه الدنيا. قوله «من الأبدال» يعنى أبدال الملك. كما حُدثنا عن جعفر بن محمد الصادق أنه قال: أبدال الدنيا سبعة، على مقاديرهم يكون الناس فى كل زمان من العبَّاد، والعلماء، والتجار، والخليفة، والوزير، وأمير الجيش، وصاحب الشرطة، والقاضى وشهوده.

وروينا فى الخبر: «عَدْلُ ساعةٍ من إمامٍ عادل خيرٌ من عبادة ستين سنة». ويقال: إن الإمام العادل يوضع فى ميزانه جميع أعمال رعيته. وكان عمرو بن العاص يقول: إمامٌ غشوم خيرٌ من فتنة تدوم.

وقال النبى ﷺ: «يكون عليكم أمراء يُفسدون وما يُصلح الله تعالى بهم أكثر، فإن أحسنوا فلهم الأجر وعليكم الشكر، وإن أساؤوا فعليهم الوزر وعليكم الصبر». وفى الخبر الآخر: «يليكم أمراءٌ يقولون ما لا يعرفون، ويفعلون ما ينكرون ـ وفى لفظ: يفعلون ما لم يؤمروا ـ قلنا: أفلا نقاتلهم؟ قال: لا ما صَلّوا». وفى الحديث الآخر: «ما أقاموا الصلاة».

وكان سهل رحمه الله تعالى يقول: من أنكر إمامةً لسلطانٍ فهو زنديق، ومن دعاه السلطان فلم يجب فهو مبتدع، ومن أتاه من غير دعوةٍ فهو جاهل. وكان يقول: الخُشبيات السودُ المعلقة على أبوابهم أنفع للمسلمين من سبعين قاضيًا يقضون فى المسجد.

وقد كان أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى يقول: إذا كان السلطان صالحًا فهو خيرٌ من صالحى الأمة، وإذا كان فاسقًا فصالحو الأمة خير منه. وهذا قول عدل.

ولا يُكفِّر أحدًا من أهل القبلة بذنب وإن عظم، ولا يُنزله جنة ولا نارًا بل يرجو له ويخاف عليه، وإن من مات مصرًا على الكبائر عن غير توبة منها فى

(١) فى المطبوعة: «أفكارهم».

مشيئة الله تعالى، إن أثبت وعيده عليه كان عدلاً، وإن عفا عنه وسمح له بحقه كان ذلك منه فضلاً. ولا نحكم ولا نقطع على الله تعالى بشيء، ولا نوجب لنا عليه شيئًا، إنّما نحن بين عدله وفضله وبمشيئته واختياره، إن حقق علينا وعيده فنحن أهلُ ذلك، وإن غفر لنا فهو أهل التقوى وأهل المغفرة. كيف وقد روينا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من وعده الله تعالى على عمل ثوابًا فهو مُنجزه له، ومن أوعده على عملٍ عقابًا فهو فيه بالخيار». والحديث الآخر أن النبي ﷺ سُئل عن قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٣]، فقال: جزاؤه جهنم إن جازاه. ففي كل قضاء الله تعالى حِكمة بالغة وعدل، وحُكم صادق وحق.

وأن يصدِّق بجميع أقدار الله تعالى خيرها وشرها، أنها من الله تعالى، سابقة في علمه، جارية في خلقه بحُكمِه، وأنهم لا حول لهم عن معصيته إلا بعصمته، ولا قوة لهم على طاعته إلا برحمته، وأنهم لا يطيقون ما حَمَّلهم إلا به، ولا يستطيعون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا إلا بمشيئته، ونُؤمن بقدرة الله وآياته في ملكه وغَيب ملكوته مما ذُكر في الأخبار من كراماته لأوليائه، وإجاباته لأحبائه، وإظهار القدرة للصدّيقين والصالحين، مزيدًا لإيمانهم وتَثبيتًا ليقينهم، وتكرمة وتشريفًا لهم، وأنه ليس في ذلك إبطال لنبوة الأنبياء، ولا إدحاض حججهم من قِبَل أن هؤلاء غير مثبتين ولا مخالفين للأنبياء، ولا ادعوا ما ظهر لهم بحولهم وقوتهم، ولا أظهروا دعوة إلى أنفسهم، ولا تظاهرًا به، ولا اجتلابًا للدنيا، ولا طلبًا للرياسة على أهلها، وإنما هو شيء كشفه الله تعالى لهم من سر ملكوته كيف شاء، وأظهرهم عليه من غيب قدرته أين شاء كما شاء، تخصيصًا لهم وتعريفًا، وهم للأنبياء متَّبعون، وعلى آثارهم مقتفون، ولسنَّتهم مقتدون، فآتاهم الله تعالى ذلك ببركة الأنبياء، وبحسن اتباعهم لهم، ولأنهم إخوانهم أبدالاً لا أشكالاً وعنهم أمثالاً.

وقد تواترت الأخبار عن الصحابة والتابعين الأخيار بما ذكرناه، فغنينا بالتواتر عن التناظر.

وأما الثمانى الواقعات فى الآخرة: فأن يعتقد العبد مساءلة منكر ونكير، يُقعدان العبد فى قبرة سَوِيًّا ذا روح وجسد، فيسألانه عن التوحيد وعن الرسالة، وهى آخر فتنةٍ تعرض على المؤمن، وهما فتّانا القبر، كذلك روينا عن رسول الله ﷺ، وهو معنى قول الله عز وجل: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَوْلِ الثَّابِتِ فِى الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِى الآخِرَةِ﴾ قيل: عند مساءلة منكر ونكير ﴿وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

[ويعتقد أن] عذاب القبر حق، وحكمةٌ وعَدلٌ على الجسم والروح والنفس، يشتركون فى ذلك حسب اشتراكهم فى المعصية، وإن كان نعيمًا كان ذلك على الجسم والروح والنفس، يشتركون فى النعيم كما اشتركوا فى الطاعة؛ وهذا من أحكام الآخرة، يكون بمجارى القدرة ليس على ترتيب المعقول ولا عرف العقول، يوصل الله العذاب والنعيم إلى الأرواح والأجسام وهى متفرقة، فيتصل ذلك بهما، كأنهما متفقان، وليس فى القدرة مسافة ولا ترتيب، ولا بعد ولا توقيت.

ويؤمن بالميزان ذى الكفتين واللسان أنه حقٌّ وعدل وحكمة وفضل، كما جاء فى وصفه فى العظم، من أن طبقات السموات والأرض توزن فيه الأعمال بقدرة الله تعالى. والصَّنج يومئذ مثاقيل الذرّ والخردل بحقيقة العدل، وقد خاب من حمل ظُلمًا، فتكون الحسنات فى صورة حسنة تُطرح فى كِفَّة النور، فيثقل بها الميزان برحمة الله تعالى، وتكون السيئات فى صورة سيئة تُطرح فى كِفَّة الظُّلْمة فيخفُّ بها الميزان بعدل الله تعالى.

ويعتقد أن الصراط حقٌّ على ما جاء وصفه فى الآثار، كدقّة الشعرة وحدِّ السيف؛ وهو طريق الفريقين إلى الجنة أو النار، دَحْضٌ مَزِلَّة، يثبت عليه أقدام المؤمنين بقدرة الله عز وجل فيحملهم إلى الجنة بفضل الله تعالى، وتزلُّ عنه أقدام المنافقين فتهوى بهم فى النار بحكمة الله عز وجل، وهو على متن جهنّم بإذن الله تعالى، من قطعه نجا منه برحمة الله، ومن زلَّ عنه وقع فيها بحكمة الله تعالى.

ويؤمن بالحوض المورود؛ حوض سيدنا محمد ﷺ، ليشرب منه المؤمنون قبل

دخول الجنة، وبعد جواز الصراط، من شرب منه شربة لن يظمأ بعدها أبدًا، عرضه مسيرة شهر، أشد بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل، حوله أباريق عددها نجوم السماء، فيه ميزابان يصبان من الكوثر[١].

ويؤمن بوقوع الحساب وتفاوت الخلق فيه. فمنهم من يُحاسَب حسابًا يسيرًا، ومنهم من يُناقَش الحساب، ومنهم من يدخل الجنة بغير حساب وهم المقربون، ومنهم من يدخل النار بغير حساب وهم الكافرون. وكان إمامنا أبو محمد رحمه الله تعالى يقول: يُسأل الأنبياء عن تبليغ الرسالة، ويُسأل الكفار عن تكذيب المرسلين، ويُسأل المبتدعة عن السنة، ويُسأل المسلمون عن الأعمال، فقولنا لقوله تبعٌ.

ويؤمن بالنظر إلى الله جلا جلاله عِيانًا بالأبصار كفاحًا مواجهة، تُكشف الحجب والأستار بقدرة الله ومشيئته ونوره ورحمته كيف شاء؛ وهو معنى قول الله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]، فالحسنى الجنة، والزيادة النظر إلى الله تبارك وتعالى، وكذلك فسره رسول الله ﷺ.

ويعتقد إخراجَ الموحِّدين من النار بعد الانتقام، حتى لا يبقى فى جهنم موحِّد بفضل رحمة الله ثم بشفاعة الشافعين من النبيين والصدِّيقين، وأن لكل مؤمن شفاعة بإذن الله، فيشفع النبيون والصديقون والعلماء والشهداء وسائر المؤمنين؛ كل واحد وُسْعَ جاهِهِ وقدر منزلته، أجمعت الروايات بذلك عن رسول الله فى إثبات الشفاعة وفى إخراج الموحدين من النار؛ وهم الجهنميون من أهل الطبقة العليا من النار، وهو معنى قول الله تعالى: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر:٢]. قال أهل التفسير ذلك عند إخراج الموحدين من النار، ويبقى الباقى لرحمة أرحم الراحمين، فيُخرج من النار بمشيئته وسَعَة رحمته وفضل فضله مَن لم يشفع لهم الشافعون، ولم يقدم فى الشفاعة لهم المرسلون، هكذا روينا معناه عن رسول الله ﷺ.

---

(١) من قوله: «ويؤمن بالحوض» إلى هنا ساقط من المطبوعة، وتكثر مثل هذه الزيادة.

فهذه عقود السنَّة الهادية وطريقة الأمة الراضية. وقد أجمع السلف من المؤمنين على ما ذكرناه من قبل أنه لم يُنقل عن أحد منهم خلافه، ولا رُوى عن رسول الله ﷺ ضده، بل قد روى فى كل ما ذكرناه أخبار توجب إيجابه، ومعانٍ تشهد لإثباته، وتولَّى الله تعالى إجماعهم على سنة رسول الله ﷺ، كما تولى إظهار دينه على الدين كله. وروينا عن النبى ﷺ: «إن الله عز وجل ضمن لى ـ وفى لفظ آخر: أعطانى ـ أن لا تجتمع أمتى على ضلالة. فإذا رأيتم خِلافًا فكونُوا مع السّواد الأعظم»؛ والسواد الأعظم يعبَّر به عن الكثرة. فالمختلفون متفقون على أن السواد الأعظم ما عليه العامَّة من المسلمين والكافة من العموم، وأن المبتدعة والمخالفة لما ذكرناه إنما هم فِرَقٌ وشراذِم قليلون، وشيع وأحزاب متفرقون، لأنّ كلَّ مبتدعة منهم فِرقة، وكلٌّ شِرذمة منهم مختلفة، وليس السواد الأعظم والجمُّ الغفير الدُّهم إلاّ أهل السنة والجماعة؛ وهم السواد والعامَّة. ولذلك كان عمر بن عبد العزيز وغيره من الصالحين يقولون: ديننا دين العجائز وصبيان المكاتب ودين الأعراب؛ أى هو القديم السليم العام. وفسر ذلك رسول الله ﷺ فى الحديث الآخر فقال: «مَن كان على ما أنتم عليه اليوم».

فأجمعت الأمة على أن ما أحدثت الفرق المختلفة لم تكن عليه الصحابة، ولا تكلموا فيه، ولا نُقل عنهم، وأنهم كانوا على ما ذكرناه آنفًا؛ لأنه لم يُرو عن أحد منهم خلافه، بل قد نُقل عنهم وفاقه فى القرن الأول والثانى. ثم حدَث ما ذكرناه من الخِلاف فى بعض القرن الثالث، وفى القرن الرابع.

وقد كان عمرو بن دينار، وأيوب، وحماد بن زيد، إذا ذكر أحدهم الإرجاء ومذهب جَهم يقول: لعن الله دينًا أنا أكبر منه. يعنى أنه سبق حدوث هذه المذاهب التى تدين بها المبتدعون.

فلله الحمد؛ رب السموات ورب الأرض؛ رب العالمين، على حُسن توفيقه وجميل هدايته. وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله. فنعمة الله تعالى علينا بالسّنة كنعمته علينا بالإسلام، إذ نعمته علينا برسول الله ﷺ كنعمته علينا بمعرفته؛ لاقتران طاعته بطاعتهِ، ولحاجة الكتاب العزيز إلى تفسير سُنَّته.

وقد روينا فى حديث عمر عن رسول الله ﷺ: «الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد. ذئب أحدكم كذئب الشاة، يتبع الشّاذَّةَ والقاصيةَ، فمن أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة، ومن شذَّ ففى النار».

وروينا عن أبى غالب عن أبى أمامة: أنه نظر إلى رءوس الحرورية جيء بها من البصرة فنُصبت على الخشب بدمشق، قال: شرُّ قتلى تحت ظل السماء وخير قتلى من قتلوه، ثم قال: كلاب النار، ثم قرأ: **﴿فَأَمَّا الَّذينَ فى قُلُوبهم زَيغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ منهُ ابتغَاءَ الفتْنَة﴾** [آل عمران:٧]، ثم قرأ: **﴿يَومَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُم أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمانكُم﴾** [آل عمران:١٠٦]، ويشير بإصبعه إليهم، ثم بكى. فقلت: يا أبا أمامة تقول فيهم ما تقول ثم تبكى؟ فقال: قاتل الله إبليس ما صنع بهؤلاء الناس يا أبا غالب، إنهم كانوا على ديننا، فأبكى مما هم لاقون، هؤلاء بأرضك كثير فأعيذك بالله أن تكون منهم؛ ثلاث مرات. فقلت: آمين يا أبا أمامة، أشىءٌ سمعته من رسول الله ﷺ أو شىءٌ تقوله من قِبَل رأيك؟ قال: إنى إذًا لجرئٌ، ثلاث مرات، لقد سمعت رسول الله ﷺ غيرة مرة، ولا مرتين، ولا ثلاث، ولا أربع، يقول: «تفرَّقت النّصارى على اثنتين وسبعين فرقة، تزيد أمتى عليها فرقة كلها فى النار إلا السواد الأعظم». فقال رجل كان معنا: يا أبا أمامة، إن فى السواد الأعظم بنى فلان، قال: وإن فعلوا، فإنّما عليهم ما حُمِّلوا وعَلَيكم ما حُمِّلتم، والجماعة خيرٌ من الفُرقة، والطاعة خير من المعصية، ثم نظر إلى الرءوس فقال: أتغضبون لنا وتقتلوننا؛ هذه رءوسُ الخوارج. وهم الحرورية، الذين خرجوا على أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه بالنَّهروان.

وهم أول قرن نبغَ من المبتدعة، وأول بدعة ابتُدعت فى الإسلام، وكانوا قرَّاءً، المصاحف فى أعناقهم، والسجَّادات كركَب المعزى فى جباههم، فأنكروا عليه تحكيمَ الحكَمين، وسألوه أن ينقض حكمه فيرجع عنه، وقالوا: لا حُكم إلا لله، وأنكروا أمر السلطان، ورأوا الخروج على الإمام، وكفّروا عثمان، وصوّبوا قتل

الغُواةِ المصريين له، وطالبوا عليًا عليه السلام أن يوافقهم على رأيهم، ويتابعهم على أهوائهم، على أن يقاتلوا معه المسلمين إن رجعَ عن تحكيمه الحكمين، وكفَّروا أهل الكبائر بالمعاصى، فرأى علىٌّ ما أراه الله تعالى، وبما عهد إليه رسول الله ﷺ: من قتل المارقين، قاتَلَهم فقتَلَهم فهؤلاء فى النار، وقاتِلُوهُم - علىٌّ وأصحابه خيرُ أهل الأرض - فى الجنة. وكان رئيسهم فى الضلال وقائدهم فى القتال عبد الله بن الكوَّا بن الأعور، قد كان علىٌّ رضى الله عنه يبغضه من قبل[1] أن يظهر منه ما ظهر، فخرج عليه عبد الله بن الكوَّا فى ستة آلاف، فأرسل علىٌّ عليه السلام عبد الله بن عباس إليهم يناظرهم ويحاجهم، فسبّوه وبطشوا به، وجرّأهم عليه «ابن الكوّا» هذا فقام خطيبًا فيهم فقال: أتعرِّفونى بهذا؟ أنا أعرِّفكموه، هذا من القوم الذين قال الله فيهم: ﴿**مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ**﴾ [الزخرف:٥٨]، ثم تراجع بعضهم إلى ابن عباس، فساءَلَهُ فكشف له عن الحق، واستتاب منهم ألفين، وقاتل علىٌّ كرّم الله وجهه أربعة آلاف؛ فهذه أول فرقة مَرقَت من الدّين، واتبعت غير سبيل المؤمنين.

ثم افترقت الفرقة الثانية بالمدائن، فرأوا دينَ الإرجاء، وأن الإيمان قول وعمل، وأنه لا يزيد ولا ينقص. وكتب بذلك إلى أمير الشام، فهمَّ بقتالهم، ثم شُغل عنهم بقتال الروم، ثم افترقت الفرقة الثالثة بالبصرة، وهم القدرية إمامهم معبد الجهنى، وتابعه عمرو بن عبيد، وواصل بن عطاء الغَزَّال، وأصحابهم. ثم خرجت الفرقة الرابعة من الكوفة، سُموا بذلك لما رفضوا زيد بن على بن الحسين حين خرج يقاتل هشامًا، فقالوا له: تبرّأ من أبى بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما. قال: هما جداى إماما عدل لا أتبرأ منهما، فرفضوه. ثم افترقت كلُّ فرقة ثمانى عشر فرقة، فتمَّت اثنتان وسبعون فرقة، وكلها نبغ[2] بأرض العراق، ومنه طلع قرن الشيطان، وظهرت الفتن، نعوذ بالله منها، ما ظهر منها وما بطن.

وقد روينا عن ابن عباس عن النبى ﷺ: «إن لله عز وجل ثلاثة أملاكٍ؛ مَلَك

---

(١) من قوله: «فى الجنة» إلى هنا ساقط من المطبوعة.

(٢) نبغ الشىء: ظهر. ويقال: نبغ منه أمر ما كنا نتوقعه، ونبغ من قلبه ما أضمره.

على ظهر بيت الله تعالى، ومَلَك على مسجد رسول الله ﷺ، ومَلَك على ظهر بيت المقدس، ينادون كل يوم، يقول الملك الذى على ظهر بيت الله تعالى: من ضيَّع فرائض الله خرج من أمان الله، ويقول الملك الذى على ظهر مسجد رسول الله ﷺ: مَن خالف سنة رسول الله ﷺ لم تنله شفاعة رسول الله ﷺ، ويقول الملك الذى على ظهر بيت المقدس: من أكل حرامًا لم يُقبل منه صرف ولا عدل».

شرح معاملة القلب من العلم الظاهر

• ذكر مبانى الإسلام وأركان الإيمان:

قال الله تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا**﴾ [الأعراف:١٧٢]. وقال عز وجل: ﴿**وَاذْكُرُوا نِعمَةَ الله عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذى وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا**﴾ [المائدة:٧]. وقال تعالى: ﴿**وَمَا لَكُمْ لاَ تُؤْمِنُونَ بِالله وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُم لِتُؤمِنُوا بِرَبِّكُم وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾ [الحديد: ٨].

فمبانى الإسلام خمسة: أولها شهادة أن لا إله إلا الله وحده، وأن محمدًا ﷺ عبده ورسوله؛ وهما كواحدة لاتصال إحداهما بالأخرى فى الوجوب والحكم. وإقام الصلوات الخمس، وهنّ كواحدة منها لتعلق كل واحدة بصاحبتها. وإيتاء الزكاة، وهى كالصلاة؛ لاقترانها بها والاشتراط بها. وصوم رمضان. وحجّ البيت؛ وهما كشىء واحد من الفرض.

فهذه الخمس كواحدة منهن فى إيجاب العقد واعتقاد الوجوب، وإن اختلف الحُكم فى سقوط فعل بعضها بشرط. وروينا عن رسول الله أنه قال: «بنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، وإقام الصلوات الخمس، وإيتاء الزكاة، وصوم شهر رمضان، وحج البيت».

وأركان الإيمان سبعة: الإيمان بأسماء الله وصفاته، والإيمان بكتب الله تعالى وأنبيائه، والإيمان بالملائكة والشياطين، والإيمان بالجنة والنار، وأنهما قد خلقتا قبل آدم ﷺ، والإيمان بالبعث بعد الموت، والإيمان بجميع أقدار الله خيرها وشرها، حلوها ومرها، وأنها من الله تعالى قضاءً وقدرًا أو مشيئة وحكمًا، وأن ذلك عدل منه، وحكمة بالغة، استأثر بعلم غيبها ومعنى حقائقها، لا يُسأل عما يفعل، ولا تُضرب له الأمثال بملزمات العقول، وتمثيلات المعقول، تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا. وقد شهد الله سبحانه وتعالى بالضلالة على من ضرب لعبده الأمثال، فقال تعالى جده: ﴿انْظُرْ كَيفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمثَالَ فَضَلُّوا﴾ [الإسراء: ٤٨]. فكيف بمن ضرب المثل للسيد الأجلِّ بعد نهيه عن ذلك، وإخباره بعلم غيب ذلك، إذ يقول: ﴿فَلا تَضْرِبُوا لله الأَمثالَ إنَّ اللهَ يَعْلَمُ وأَنْتُم لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٤]؟ والإيمان بما صحّ من حديث رسول الله ﷺ، وقبول جميعه، وافتراض طاعته وأمره على العباد والتزام ذلك، إذ قد جعل الله تعالى طاعة رسول الله ﷺ من شرط الإيمان وقرَنها بطاعته، فقال تعالى: ﴿وأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إنْ كُنتُمْ مُؤمنينَ﴾ [الأنفال: ١]. واشترط للرحمة طاعة الرسول كما اشترط لها تقواه فقال: ﴿وأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُم تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦]. وحذّر من مخالفة أمر رسول الله ﷺ فى الاستجابة له، [فأقامه] مقامه، وجعله فى المبالغة فى الوصف والمدح بدلاً عنه، فقال تعالى: ﴿فَلْيَحذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عن أَمرِهِ أَنْ تُصِيبَهُم فتنةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَليمٌ﴾ [النور: ٦٣]. كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨]. وقال تعالى: ﴿اسْتَجِيبُوا لله وَلِلرَّسُولِ إذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، لأنه قال: ﴿إنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَك إنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ﴾ [الفتح: ١٠]. وهذه أمدحُ آيةٍ فى كتاب الله تعالى وأبلغ فضيلة فيه لرسول الله ﷺ، لأنه جعله فى اللفظ بدلاً عنه، وفى الحكم مقامه، ولم يدخل بينه وبينه كاف التشبيه «كإنما» ولا «لام الملك» فيقول: لله تعالى، وليس هذا المقام من الربوبية لخَلقٍ غير رسول الله ﷺ.

***

الفصل الخامس والثلاثون

فى ذكر اتصال الإيمان بالإسلام فى المعنى والحكم وافتراقهما فى التفصيل والاسم، وأن كل مؤمن مسلم، وتحقيق القول بالعمل، وإبطال مذاهب الجهمية والكرامية والحرورية، وبيان مذهب أهل السنة والجماعة، وفقنا الله تعالى لذلك

قال قائلون: الإيمان هو الإسلام. وهذا قد أذهب التفاوت والمقامات، وهذا يقرُب من مذهب المرجئة.

وقال آخرون: إن الإسلام غير الإيمان. وهؤلاء قد أدخلوا التّضادّ والتغاير، وهذا قريب من قول الإباضية.

فهذه مسألة مشكلةٌ تحتاج إلى شرح وتفصيل. فمَثَلُ الإسلام من الإيمان كمَثَل الشهادتين إحداهما من الأخرى فى المعنى والحكم. فشهادة الرسول غير شهادة التوحيد؛ فهما شيئان فى الأعيان، وإحداهما مرتبطة بالأخرى فى المعنى والحكم كشىء واحد. كذلك الإيمان والإسلام أحدهما مرتبط بالآخر، فهما كشىءٍ واحد[1]، ولا إيمان لمن لا إسلام له، ولا إسلام لمن لا إيمان له، إذ لا يخلو المسلمٌ من إيمان به يصح إسلامه، ولا بد للمسلم من إيمان به يحقُّ إيمانه، من حيث اشترط الله سبحانه وتعالى للأعمال الصالحة الإيمان، واشترط للإيمان الأعمال الصالحة، فقال فى تحقيق ذلك: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ [الأنبياء: ٩٤]. وقال فى تحقيق الإيمان بالعمل: ﴿وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾ [طه: ٧٥].

ومَن كان ظاهره أعمال الإسلام لا يرجع إلى عقود الإيمان بالغيب فهو منافقٌ

---

(١) من قوله: «فى المعنى والحكم» إلى هنا ساقط من المطبوعة.

نفاقًا ينقل عن الملّة، ومن كان عقده الإيمان بالغيب، لا يعمل بأحكام الإيمان وشرائع الإسلام، فهو كافرٌ كفرًا لا يثبت معه توحيد، ومن كان مُؤمنًا بالغيب مما أخبر به الرَّسولُ عن الله سبحانه، عاملاً بما آمن به، فهو مُؤمنٌ مُسلمٌ، ولولا أنّه كذلك لكان المؤمن يجوز أنّ لا يُسمَّى مسلمًا، ولجاز أن لا يُسمَّى المسلم مؤمنًا بالله تعالى، وقد أجمع أهل القبلة أن كل مؤمن مسلم، وأن كل مسلم مؤمن بالله تعالى[1] ورسله وكتبه.

ومَثَلُ الإيمان من الأعمال كمَثَل القلب من الجسم، لا ينفك أحدهما من الآخر، لا يكون ذو جسم حى لا قلب له، ولا ذو قلب لا جسم له؛ فهما سببان منفردان، وفى المعنى والحكم متصلان. ومثلهما أيضًا مثل حبّةٍ لها ظاهرٌ وباطن، وهى واحدة لا يقال حبتان؛ لتقارب وصفيهما. فكذلك أعمال الإسلام من الإيمان: الإسلام هو ظاهر الإيمان وهو أعمال الجوارح، والإيمان باطن الإسلام وهو أعمال القلوب.

روى عن النبى ﷺ: «الإسلام علانية والإيمان سر». وفى لفظ آخر: «والإيمان فى القلب». فالإسلام أعمال الإيمان، والإيمان عقود الإسلام. فلا إيمان إلا بعمل، ولا عمل إلا بعقدٍ، ومثلُ ذلك مثل العلم الظاهر والباطن؛ أحدهما مرتبط بصاحبه من أعمال القلوب وأعمال الجوارح.

ومثله قول رسول الله ﷺ: «إنّما الأعمال بالنية» أى لا عمل إلا بعقد وقصد؛ لأن قوله ﷺ: «إنما» تحقيق للشىء ونفى لما سواه، فأثبت بذلك عمل الجوارح من المعاملات وأعمال القلوب من النيات. فمثل العمل من الإيمان كمثل الشفتين من اللسان، لا يصح الكلام إلاّ بهما؛ لأن الشفتين تجمع الحروف، واللسان يظهر الكلام، وفى سقوط أحدِهما بطلان الكلام، كذلك فى سقوط العمل ذهابُ الإيمان. ولذلك عدّد الله تعالى فى نعمته على الإنسان بالكلام ذِكرَ الشفتين مع اللسان فى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ [البلد: ٨ ـ ٩].

(١) من قوله: «وقد أجمع» إلى هنا ساقط من المطبوعة.

المعنى: ألم نجعله ناظرًا متكلمًا؟ فعبّر عن الكلام باللسان والشفتين؛ لأنهما مكان له، وذكره الشفتين لأن الكلامَ الذى جرت النعمة به لا يتم إلا بهما.

ومَثَل الإيمان والإسلام أيضًا كفُسطاطٍ قائم فى الأرض له ظاهرٌ متجافٍ وأطناب، وله عمود فى باطنه، فالفسطاط مثل الإسلام له أركانٌ من أعمال العلانية والجوارح، وهى الأطناب التى تمسك أرجاء الفسطاط، والعمود الذى فى باطن الفسطاط مثله كالإيمان لا قِوام للفسطاط إلا به، فقد احتاج الفسطاط إليهما، إذ لا استقامة له ولا قوة إلا بهما، كذلك الإسلام من أعمال الجوارح، ولا قِوامَ له إلا بالإيمان، والإيمان من أعمال القلوب لا نفع له إلا بالإسلام؛ وهو صالح الأعمال.

وقد عبّر الله تعالى عن الإيمان بالإسلام، فلولا أنّهما كشىءٍ واحد ما عبّر عن أحدهما بالآخر، فقال سبحانه: **﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾** [الذاريات: ٣٥ ـ ٣٦] ولم يكونا بيتين، إنّما هم أهل بيت واحد؛ لوط وبناته.

وقال عز وجل فى مثله: **﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِالله فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُم مُسْلِمِينَ﴾** [يونس: ٨٤] فعطف بقوله: **﴿إن كنتم مسلمين﴾** على قوله: **﴿إن كنتم آمنتم﴾**، فدل على أنهما اسمان بمعنى واحد؛ وهذا كقوله تعالى فيما عبّر عن الأيام بالليالى، لأن اليوم مرتبط بالليلة، وأنت تعلم أنهما شيئان، فقال فى قصة واحدة: **﴿قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمزًا﴾** [آل عمران: ٤١]. وقال أيضًا سبحانه: **﴿آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾** [مريم: ١٠].

وأيضًا فإن الله تعالى قد جعل ضدَّ الإسلام والإيمان واحدًا، فلولا أنهما كشىءٍ واحد فى الحكم والمعنى ما كان ضدهما واحدًا، فقال سبحانه: **﴿كَيفَ يَهدى اللهُ قَومًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾** [آل عمران: ٨٦]، وقال: **﴿أَيأمُرُكُم بِالكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾** [آل عمران: ٨٠]، فجعل ضدّهما الكفر.

وعلى مثل هذا خبر رسول الله ﷺ عن الإيمان والإسلام بوصف واحد. فقال في حديث ابن عمر: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت». وفي حديث ابن عباس عن وفد بني عبد القيس أنهم سألوه عن الإيمان فذكر هذه الأوصاف، فدل بذلك أنه لا إيمان باطنٌ إلا بإسلامٍ ظاهرٍ، ولا إسلامَ علانيةً إلاّ بالإيمان سرًا، وأن الإيمان والعمل قرينان، لا ينفع أحدهما بغير صاحبه، ولا يصح أحدهما إلا بالآخر، كما لا يصحان ولا يوجدان معًا إلا بنفي ضدّهما وهو الكفر، كما روى عن النبي ﷺ: «لا يكفر أحدٌ إلا بجحود ما أقرَّ به».

وأظهرُ من حديث ابن عباس آنفًا أنّ في نفس حديث ابن عمر ذكرَ الإيمان أيضًا بدلاً من لفظ الإسلام. ورواه جرير، عن سالم بن أبي الجعد، عن عطية مولى بني عامر، عن يزيد بن بشر قال: «أتيتُ ابنَ عمر، فجاءه رجل فقال: يا أبا عبد الله ما لك تحجّ وتعتمر، وقد تركت الغزو؟ قال: ويلك! إن الإيمان بني على خمس: تعبدُ الله تعالى، وتقيمُ الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتحجُّ البيت، وتصوم رمضان، كذلك حدثنا رسول الله ﷺ.

وقد اشترط اللهُ تعالى للإيمان العمل الصالح، ونفى النَّفع بالإيمان إلاّ بوجود العمل، كما شرط للإيمان الإسلام فقال تعالى: ﴿إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠]. إجماع من أهل التفسير: إلاَّ من تاب من الشرك، كقوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ بعد قوله: ﴿وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [سبأ: ٣٧]. وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٣]. كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الزخرف: ٦٩].

فاشترط للإيمان الأعمال والتقوى، كما اشترط للأعمال الصالحة الإيمان. فكما لو عمل العبد الصالحات كلَّها لم تنفعه إلا بالإيمان، فكذلك لو آمن من الإيمان

كله لم ينفعه إلا بالأعمال. وفى وصية لقمان لابنه: يا بُنىَّ، كما لا يصلح الزرع إلا بالماء والتراب، فكذلك لا يصلح الإيمان إلا بالعمل والعلم.

فأما تفرقة النبى ﷺ فى حديث جبريل عليه السلام لما سأله ما الإيمان، فقال: «أن تؤمنَ بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالبعث بعد الموت وبالحساب وبالقدر خيره وشره». ثم قال: ما الإسلام؟ فذكر الخصال الخمس؛ فإن ذلك تفصيل أعمال القلوب وعقودها على ما توجب هذه المعانى التى وصفناها، أن تكون عقودًا من تفصيل أعمال الجوارح، فيما توجب الأفعال الظاهرة التى وصفها أن تكون علانية، إلا أن ذلك يفرِّق بين الإسلام والإيمان فى المعنى باختلاف وتضادٍّ، وليس فيه دليلٌ على أنهما مختلفان فى الحكم، إذ قد يجتمعان فى عبد واحدٍ مسلم مؤمن، فيكون ما ذكره من عقود القلب وصفَ قلبه، وما ذكره من العلانيةٍ وصفَ ظاهر جسمه. والدليل على ذلك أنه جعل وصف الاسمين معنًى واحدًا، فى حديث ابن عمرو فى حديث وفد بنى عبد القيس الذى ذكرناه قبلُ عن ابن عباس.

وقد روى ذلك مفصّلاً فى حديث على رضى الله تعالى عنه: «الإيمان قولٌ باللسان، وعقدٌ بالقلب، وعملٌ بالأركان». فأدخل أعمال الجوارح فى عقود الإيمان.

وأيضًا فإنّ الأمة مجمعةٌ أن العبدَ لو آمن بجميع ما ذكره من عقود القلب فى حديث جبريل عليه السلام من وصف الإيمان، ولم يعمل بما ذكره من وصف الإسلام بأعمال الجوارح، لا يسمَّى مؤمنًا، وأنه إن عمل بجميع ما وصف به الإسلام، ثم لم يعتقد ما وصفه من الإيمان، أنه لا يكون مسلمًا.

وقد أخبر ﷺ أنّ الأمة لا تجتمع على ضلالة، وليس فيه دليل على أن الإسلام غير الإيمان، أو أن المسلمين سوى المؤمنين، أو أن الإيمان ضد الإسلام.

والوجه الثانى من تأويل الخبر: أن معنى قوله: «أو مسلم» يعنى به: أو مستسلم. فإذا جمع بين عقود القلب وبين أعمال الجوارح كان مسلمًا مؤمنًا. ومن لم يقل بهذا الذى ذكرناه فقد كفّر أبا بكر رضى الله تعالى عنه وجهّله فى قتال أهل الرِّدة، وادَّعى عليه أنه قتل المؤمنين؛ لأنّ القومَ قد جاءوا بعقود الإيمان، ولم

يجحدوا التوحيدَ ولا أكثرَ الأعمال، وإنّما أنكروا الزّكاة، فاستحلَّ قتلهم. وواطأه الصحابة على ذلك حتى استتاب مَن رجع منهم.

وأما الحديث الآخر الذى جاء ظاهره أن النبى ﷺ فرّق بين المؤمن والمسلم، فى أنه أعطى رجلاً ولم يعط الآخر. فقال له سعد: يا رسول الله، تركتَ فلانًا لم تعطه وهو مؤمن، فقال: «أو مسلم؟» فأعاد عليه. فأعاده رسول الله ﷺ: «أو مسلم؟» فإنما فى هذا دليل على تفرقة الإيمان والإسلام فى التفاضل والمقامات؛ أى ليس هو من خصوص المؤمنين ولا أفاضلهم، فكشف مقامه الذى خفى على سعد، كما كشف مقام حارثة عن حقيقة إيمانه، إذ كان خاملاً لا يُؤبَه له، فقال: «كيف أصبحت؟» فنطق بوَجْدِه عن مشاهدته، فقال: «عَرَفْتَ فَالزَم»؛ فهذا دليلٌ لنا فى تفضيل مقام الإيمان على مقام الإسلام، وأن المؤمنين متفاضلون فى الإيمان وإن تساووا فى أعمال الجوارح من الإسلام، وأن الإيمانَ لا حدَّ له وإن كان صحته بمحدود الإسلام. فآثر رسول الله ﷺ الذى آمن طوعًا على المكرَه. وكان رسول الله ﷺ إنّما يعطى من المؤلَّفة الرؤساء ومَن لا يُؤمَن عاديته، وجمعُه على رسول الله ﷺ، وتحريضه المشركين، كما أكرمَ الرجلَ بعد أن تكلم فيه، فقيل له فى ذلك، فقال: «هذا أحمقُ مُطاعٌ»، أو من يكثر عَشِيرته وأتباعه فيكون ظهيرًا على المؤمنين، أو مَن فيه غِنًى ومنفعةٌ وعِزّةٌ للمسلمين.

فأما الأتباع والسِّفلة من المؤلَّفة فلم يكن يؤثرهم بالعطاء، بل كان يؤثر المؤمنين، يقدِّمهم على أراذل المؤلفة وضعفائهم، كما فعل بالقِسْم الذى قسمه بين المؤمنين فأعطاهم إلاّ رجلاً من الغزاة له سجادة، محلوقُ الرأس، فإنه لم يُعطِه وقال: إن هذه قسمة ما أُريد بها وجه الله تعالى، والله ما عَدل. فقال ﷺ: «إن لم أَعدِل فَمَن يَعْدِل؟»، وكان ذلك أولَ قرنٍ نبغ من هذه الخوارج. أفلا تراه لم يعط هذا شيئًا، ولم يستمله، لأنّه لم يكن من خصوص المؤمنين، ولا ممن يُتَّقى بأسه، أو يظهر فى الإسلام غناه، فيُتألف بالعطاء؟!

وهذا مثل قول فرعون حين ألجمه الغرقُ، فاضطره إلى الاستسلام بقوله: ﴿آمَنتُ أَنَّه لا إِلَهَ إلاَّ الَّذى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]

أجمع أهل التفسير أن معناه: من المستسلمين.

فإن قيل: فقد روى فى آخر هذا الخبر فى بعض الروايات ما يدل على ضد هذا التأويل، وأن الرجل كان فاضلاً، لا أنه كان مستسلمًا، وهو أن فى الحديث أن النبى ﷺ قال: «إنى لأُعطى قومًا وأمنعُ آخرين أَكِلُهم إلى ما جعل الله تعالى فى قلوبهم من الإيمان، منهم فلان» قيل: إن هذا كلام مستأنفٌ من رسول الله ﷺ أفاده القائل، لأنه بُعث بجوامع الكلم. وكان يُسأل عن الشىء فيخبر به، ويزيد عليه للبيان والهداية الذى أعطى، فكأنه أراد أن يخبر بتنويع عطائه، وبضروب المعطين من الناس؛ هذا للحاجة، وهذا للفضل، وهذا للتألف؛ لأن الذى منعه كان أفضل من الذى أعطاه، إذ لو كان الأمر كما قال هذا القائل لكان الإسلام أفضل من الإيمان، ولكان المسلمون أفضل من المؤمنين، ولم يقل بهذا أحد من العلماء. إلا أن الإيمان خاص فيه التفاوت والمقامات؛ فهو يشتمل على الإسلام، والإسلام داخل فيه، والمؤمنون هم خصوص المسلمين منهم المقربون والصديقون والشهداء. والإسلام عامٌّ محدود يوصف به عموم المؤمنين، ويدخل فيه أهل الكبائر والإجرام، ولا يخرج منه من فارق الكفر ووقع عليه اسم الإيمان. كما قال تعالى: ﴿فَمَنِ افتَرى عَلَى الله الكَذِبَ﴾ [آل عمران: ٩٤]، وأخبر عنه بالفسوق: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افتَرَى عَلَى اللهِ الكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الإِسْلامِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي القَومَ الظَّالِمِينَ﴾ [الصف: ٧].

فعلى إجماعهم ـ أن الإيمان أعلى ـ إسقاطُ وَهْمِ مَن توهَّم أن الرجل كان أفضل. كيف وقد روينا تخصيص الإيمان عن النبى ﷺ نصًا أنه سئل: «أى الأعمال أفضل؟ قال: الإسلام. قيل: فأى الإسلام أفضل؟ قال: الإيمان»؟ فجعل الإيمان مقامًا فى الإسلام، ففى هذا الحديث أيضًا تخصيص للإيمان على الإسلام، لا تفرقة بينهما بمعنى قوله فى وصف الرجل: «أوَ مُسْلِم؟». وقول النبى ﷺ فى وصف الرجل: «أو مسلمٌ» دلَّ على بطلان ما تأوله القائل، لأن هذه اللفظة بألف الاستفهام لا تستعمل فى عرف الكلام إلا فى الوصف الأنقص والحال الأدنى ، فافهم.

وأما قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤]. فإن هذا أيضًا من هذا النوع، معناه: قولوا استسلمنا حَذَرَ القتل. وهؤلاء ضعفاء المؤلَّفة وأراذلهم كانوا ينقمون على رسول الله ﷺ إيثاره وتقديمه المؤمنين بالعطاء عليهم وإرجاءه إياهم، فقالوا: لم لا يعطينا كما يعطى المؤمنين، فإنا مؤمنون كهُم؟ فأخبر الله تعالى بذلك عنهم وأكذبهم فى دعواهم، وهم الذين قصّ الله تعالى أخبارهم فى قوله تعالى: ﴿وَمِنهُمْ مَنْ يَلمِزُكَ فى الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعطُوا مِنهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعطَوْا مِنهَا إِذَا هُمْ يَسخَطُونَ﴾ [التوبة: ٥٨]. ففى هذه الآية دليلٌ على أن النبى ﷺ لم يكن يعطى هذا الضرب من المؤلَّفة.

وليس فى الآية تفرقةٌ بين الإيمان والإسلام، بدليل قوله تعالى فى الآية التى بعدها: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيكَ أَن أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسلامَكُم بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١٧]. فسمّى إسلامهم إيمانًا؛ لأنه عطف ببعض الكلام على بعض، وردّ أوّله إلى آخره، وإنما أسقط المِنّة به على رسوله، وأثبتَ المنّ عليهم بنفسه، وعطف بآخر الاسم على أوّله، وغاير بين اللفظين فلم يردَّ أحدهما على الآخر، فيقول: «أنْ هداكم للإسلام» لاتّساع لسان العرب، وليفيدنا فضل بيان، وأن الإسلام والإيمان اسمان بمعنى واحد. كما قال تعالى: ﴿هَلْ مِن خَالِقٍ غَيرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ﴾ [فاطر: ٣]، ولم يقل: يخلقكم؛ ليبين أن الرازق هو الخالق، وليفيد وصفًا ثانيًا وصفَ به نفسه تعالى، فهو كقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥ ـ ٣٦]. وهكذا قرأتُها فى مصحف ابن مسعود قال: «سُبْحانك تُبتُ إليك وأنا أوّل المسلمين»(١)، فلولا أنهما بمعنى لم يَجُز أن يقرأ بخلاف المعنى.

فأما ما روى عن أبى جعفر محمد بن علىٍّ: الإيمان مقصورٌ فى الإسلام. فمعناه: هو باطنه. قال: وأدار دَارةً(٢) كبيرة، فقال: هذا الإسلام، ثم أدار فى

(١) الآية بلفظ: «وأنا أول المؤمنين» [سورة الأعراف: ١٤٣].

(٢) فى المطبوعة: «دائرة» فى كل موضع فيه «دارة» وأثبت ما فى (د، م).

وسطها دارةً صغيرة فقال: وهذا الإيمان فى الإسلام. فإذا فعل وفعل خرج من الإيمان وصار في الإسلام. يريد أنه خرج من حقيقة الإيمان وكماله، ولم يكن من الموصوفين الممدوحين بالخوف والورع من المؤمنين؛ لأنه خرج من الاسم والمعنى حتى لا يكون مؤمنًا بالله مصدقًا برُسُله وكتبه. ألا ترى إلى الدارةِ الصغيرة غير خارجة من الدارَةِ الكبيرة التى أدارها حولها، فجعلها فيها وضرب المثل بها، لكنّها خالصها وليُّها ومخصوصةٌ فيها؟ ولو أراد أنه يخرج من الإيمان أصلاً لجعلها دارتين منفردتين، ولم يجعل إحداهما جوف الأخرى.

وكذلك جاء الخبر: «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن»، معناه: كامل الإيمان أو مؤمن حقًّا؛ لأن حقيقة الإيمان وكماله بالخوف والورع، إذ الأمة مُجمِعة أن أهل الكبائر ليسوا بكافرين، وإذا فسق بالزنا وشرب الخمر خرج من حقيقة الإيمان؛ وهو الخوف والورع، ولم يخرج من اسمه ومعناه؛ وهو التصديق والتزام الشريعة.

وفيه معنى لطيف كأنه يرتفع عنه إيمانُ الحياءِ؛ لأن النبى ﷺ قال: «الحياء من الإيمان»، والمستحى لا يكشف عورته على حرام، ويبقى إيمان الإسلام والتوحيد، وإيجاب الأحكام.

وقد روينا عن الحسن بيان ذلك أنه قال: الإيمان حقيقة الإسلام. وقيل لحذيفة: من المنافق؟ فقال: الذى يتكلم بالإسلام ولا يعمل به. فسمَّى علمَ الإيمان إسلامًا وقَرنَ القول بالعمل. وقال الثورى رحمه الله: الناس عندنا مؤمنون مسلمون فى حدودهم، وفرائضهم، وفى النكاح، وفى المواريث، وفى الصلاة خلفهم، والصلاة عليهم، لا يُحاسب الأحياء، ولا يُقضى على الأموات، ونَكِلُ ما لم نعلم من سرائرهم إلى الله تعالى، ونسمع بالتشديد فنخافه، ونسمع اللين فنرجوه لأهل القبلة، ونتهم رأينا لرأى السلف قبلنا.

وما ذكرناه من أن الإسلام والإيمان قرينان لا يفترقان؛ هذا مذهب فقهاء أصحاب الحديث، وطريقة أئمة السلف رضى الله عنهم أجمعين.

• باب ذكر تفصيل بيان ما نقل عن المحدثين من التفرقة بينهما وما جاء فى معناه:

فأما ما حُكى عن بعض أصحاب الحديث أنه فرّق بين الإيمان والإسلام، فقال الزهرى: الإسلام الكلمة، والإيمان العمل. وقال عبد الرحمن بن مهدى وقد سئل عن الإيمان والإسلام فقال: هما شيئان. وقول حماد بن زيد: الإسلام عام والإيمان خاص.

فإن قول هؤلاء على جملة قولنا، وهو دليلٌ له وشاهد عليه، وأنهم لم يفرقوا بين الإيمان والإسلام تفرقة اختلافٍ ولا تضادٍّ، ولم يريدوا أن أحدهما يوجد ويصح بعدم الآخر؛ ليواطئوا مذهبَ المرجئة؛ لأنهم أبعد شىء منهم، إذ هم أصحاب أثر وتوقيف، وإنّما فرّقوا بينهما تفريقَ تفاوتٍ وتخصيصٍ؛ أى أن الإيمان أخصُّ وأعلى؛ لأنّ الزيادة والنقصان فيه، والفضائلَ والمقامات عنه، والاستثناء واجب فيه؛ وأن الإسلام عام لا يخرج منه إلاّ الكافرون، إذ ليس وراءه شىء. وعند جماعة من العلماء أن الاستثناء غير واجب فى الإسلام، لأنه محدود معلوم.

فهذا كان قصد مَن فرَّق بين الإسلام والإيمان، وهى طريقة بعض السلف، وعبارة القدماء، وهو على نحو ما فصلناه وبمعنى ما بينَّاه، وإن كنّا نحن أظهرَ تفصيلاً وأبين ترتيبًا. وهذا مثل الخبر الذى روى أن النبى ﷺ سئل: «أى الإيمان أفضل؟ قال: الإسلام. قيل: فأى الإسلام خير؟ قال: الإيمان». فلم يفرق بينهما، ولكنه خصّص فجعل الإيمان حقيقة الإسلام وخالصه؛ لأنه أخبر أنه منه، فهذا من قوله: «مِن حُسن إسلامِ المرء تركُه ما لا يعنيه»، أى من تحققه بالإسلام ومن أعلى إسلامه هذا الوصف، وهذا هو نعت المؤمن الموقن الزاهد. وهذا يشبه ما مثَّله أبو جعفر محمد بن علىٍّ، فى أنه أدار دارة كبيرة، وأدار فيها دارة صغيرة تخصيصًا.

وجميعُ ما شرحناه وذكرناه عن السلف يبطل قول المرجئة، والكرَّامية، والإباضية، ويدحض دعواهم فى أن الإيمان قولٌ أو معرفة وعقد بلا عمل.

وهو أيضًا ردٌّ على المعتزلة القائلين بالمنزلة بين المنزلتين، الذين يقولون: مؤمن، وفاسق، وكافر؛ فلا يجعلون الفاسق مؤمنًا.

وهو ردٌّ على الخشبية، والخزمية، والقطعية، والحرورية؛ أصناف من الخوارج، يقولون: من أتى كبيرة خرج من الإيمان، وأن أهل الكبائر كفّار يحلّ قتلهم. ويقولون: إن أهل البغى من الأئمة كفرة يجب على الرعية قتالهم. ومنهم من يقول: إن من بغى على الإمام فقد كفر. بخلاف قول الله تعالى: ﴿**وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِى تَبْغِى حَتَّى تَفِىءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ**﴾ [الحجرات:٩]، فأمر بقتال أهل البغى بتسميته إياهم مؤمنين ولم يجعل لهم منزلة ثالثة.

وقد ابتلينا بطائفتين مبتدعتين متضادتين فى المقالة: المرجئة والمعتزلة. قالت المرجئة: إن الموحِّدين لا يدخلون النار، وإن عملوا بالكبائر والفسوق كله؛ لأن ذلك لا ينقص إيمانهم. وقالت المعتزلة: إن الفاسق ليس بمؤمن، وإن مات على صغيرة من الصغائر من غير توبة دخل النار لا محالة ولم يخرج منها خالدًا مع الكفار.

والصواب من ذلك: أن الفاسق مؤمن لا يُخرجه فسقه من اسم الإيمان وحكمه، ولكن لا يُدخله فى المؤمنين حقًا من الصديقين والشهداء، وأن أهل الكبائر قد استوجبوا الوعيدَ ودخول النار، وجائز أن يعفو الله تعالى عنهم بكرمه ويسمح لهم بجوده. كما روينا عن علىٍّ أنه قال: عليكم بالنّمط الأوسط، الذى يرجع إليه الغالى ويرتفع عنه القالى.

وقد قال ﷺ فى وصف علماء السنة ومدحهم: «يَحمِل هذا العلمَ من كلِّ خَلَفٍ عُدُولُه، ينفون عن تحريفَ الغالينَ وانتحالَ المبطلين وتأويل الجاهلين». فالغالون: هم المجاوزون للسنن والآثار. والمبطلون: هم المدعون بالرأى والقياس. والجاهلون: هم الشّاطحون من المتصوفة الضلاَّل. وعدول كلِّ خَلَفٍ من اتبع سنةَ صالحى من سَلَفٍ، ولم يبتدع فى الدِّين، ولا اتخذ وليجةً دون طريق المؤمنين؛

وهم رواة الأخبار، وحَمَلة الآثار من المحدِّثين وفقهاء المسلمين. ويوضح قولنا ويصحّحه قول الله تعالى: ﴿اليَومَ أكمَلتُ لَكُمْ دينَكُم﴾ [المائدة:٣] إجماعًا من المسلمين، وأنها نزلت بعد نزول الفرائض وإتمام الشرائع، وفى حجة الوداع؛ وهى آخر حِجةٍ حَجّها رسول الله ﷺ بعد نزول فرض الحج؛ لأنّ سورة المائدة مدنيةٌ بإجماع من القرَّاء، وهى من آخر ما نزل من القرآن باتفاق من الفقهاء. ولم يلبث رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية إلا ثلاثة أشهر وثلاثة أيام، اتفق عليه أهل التاريخ؛ لأنها نزلت يوم التاسع من ذى الحجة من آخر يوم عرفة، وقُبض رسولُ الله ﷺ لاثنتى عشرة خلون من ربيع الأول. فقال الله تعالى بعد نزول الأحكام، وأحكام الحلال والحرام: ﴿اليَومَ أكمَلتُ لَكُمْ دينَكُم﴾. والإكمال هو إتمام الشىء الذى بعضه متعلق ببعض، فلا يقال أكمل لِمَا كان له منه بعد، ولا لِمَا لا بعض له، وإنما يقال أكمل لِمَا كان بعضه قبل بعض، فإذا وُجد جميعُه قِيل: قد أكمل وتَمَّم. هذا هو حقيقة هذه الكلمة.

فلما كان الإيمان قد تقدّم بمكة وأنزل الله تعالى الفرائض والدين شيئًا بعد شىء، وكان الإكمال من الدين، دلَّ أن بعضه متعلق ببعض إلى يوم أكمله، فصارت الأعمال متعلقةً بالإيمان؛ وهما الدين المكمل.

وقال بعض السلف: من لم يَقُلْ من المرجئة أن إبليس مؤمنٌ؛ لأنه قد أقرّ بالإيمان وقال به، انكسر عليه مذهبه. ولعمرى إن إبليس ـ لعنه الله ـ موحِّدٌ لله تعالى عارفٌ به، إلا أنه لم يعمل بالتوحيد، ولم يطع من عرفه وآمَن به؛ فكفر.

فأما تعلقهم بقول الله تعالى: ﴿فَأَثَابَهُمُ اللهُ بِمَا قَالُوا جَنَّات تَجرِى مِنْ تَحتهَا الأنْهَارُ﴾ [المائدة:٨٥]، فإنّه شَرَط القول للجنات، أو عَلَّق الجنات بالقول، فإنّما ذلك إثبات منه تعالى لتحقيق القول، وأنه قولُ إيمانٍ ويقينٍ، وأنهم غير متعوِّذين بالقول، ولا متخذوه جُنَّة كالمنافقين، إذ المنافقون قد قالوا كقولهم، إلا أنه أخبر عن سرائرهم بضدّه فقال: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَومئذٍ أَقْرَبُ مِنهُم لِلإيمانِ يَقُولُونَ بِأَفوَاهِهِم مَا لَيسَ فِى قُلُوبِهِم﴾ [آل عمران:١٦٧]. فأراد سبحانه بأن قول هؤلاء قول

المؤمنين، وأن قولهم إيمانٌ من أعمالهم؛ لأنهم منفردون بالقول دون العمل.

وفيه أيضًا دليلٌ: أن القول بالحق من الإيمان، وأنه يستحق عليه ثوابًا، لأنّه من أعمال البر بمنزلة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

فأما أن يكون فيه دليلٌ أن القولَ حَسبُ هو الإيمان كلُّه، وأن الإيمان يكون قولاً لا يحتاج إلى عمل، فهذا باطلٌ بالأدلة التى قدمنا ذكرها من الآى التى شرط الله تعالى فيها الأعمال. ومن قوله فى الكفار: **﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾** [التوبة: ٥].

وأيضًا فإن فى نفس هذه الآية بطلان دعوى المرجئة؛ لأن الله تعالى لم يقل: فلم يثبهم الله إلا بما قالوا جنات، وإنما قال عز وجل: **﴿فَأَثَابَهُمُ اللهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ﴾**، فأخبر أنه آجرهم على قولهم الحق، كما قال: **﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا﴾** [سبأ: ٣٧]، ثم أحكم ذلك وقيّده بقوله تعالى: **﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾** [البينة: ٥]. ولكن هؤلاء كما قال الله تعالى: **﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾** [آل عمران: ٧]. وكما قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم الذين يَتّبعون ما تشابه من القرآن فهمُ الذين عنى اللهُ تعالى فاحذروهم». وذلك أن الله تعالى قرنَ الأعمال بالإيمان فى كل المواضع، فلم تقف المرجئة مع شيءٍ من هذا البيان والإحكام. فلما أجمل القول فى موضع واحد لما ذكرناه من السبب تعلقوا به، ووقفوا معه. وقد قال رسول الله ﷺ: «صنفان لا نصيب لهما فى الإسلام ـ وفى لفظ آخر: لا ينالهم شفاعتى ـ القَدَرية والمرجِئة». وفى الحديث الغريب: «طائفتان لا يدخلون الجنة: من قال أنّ الإيمان كلام». ورواه حذيفة فقال: «إنى لأعلم أهلَ دينين فى النار: قومٌ شِرار بلا علم، وقوم فى آخر الزمان يقولون: كان أوّلونا ضلاّلاً».

نسأل الله تعالى أن لا يصرفنا عن فهم آياته، ولا يبلونا بالكِبر، وأن يرينا سبيل

الرُّشد ويوفّقنا لاتخاذه سبيلاً، وأن يرينا سبيلَ الغىِّ ويعصمنا من اتخاذه سبيلاً. كما أخبر بذلك عمّن بلاه به فقال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِىَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فى الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوا سَبِيلَ الغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾ [الأعراف:١٤٦] الآية.

● ذكر الاستثناء فى الإيمان والإشفاق من النفاق وطريقة السلف فى ذلك:

فأمّا الاستثناء فى الإيمان فإنه سنّةٌ ماضية، وفعلُ الأئمة الراضية، على معنى الخوف والتقصير، وكراهية التزكية للنفس، لا على وجه الارتياب فى اليقين، ولا بمعنى الشكِّ فى التصديق، إذ الإيمانُ مقامات، والمؤمنون فيه درجات. ولذلك قال الله تعالى لقوم موصوفين بأعيانهم: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال:٤]. فهذا وصفهم بالكمال، ومدحهم بخصال الأعمال. ففى دليل خطابه أنّ ثَمّ مؤمنين غير حقًا، كيف وقد قال: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا من الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ * يُجَادِلُونَكَ فى الحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ [الأنفال:٥ ـ ٦]. وقال سبحانه وتعالى فى وصف آخرين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾ [الصف:٢]. وقال فى نعت الصادقين: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فى سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات:١٥]. وقال فى مثل وصفهم: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ﴾ الآية، فذكر عشرين وصفًا إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٧]. منها الإيثار بالمال على حبه، والوفاء بالعهد، والصبر فى الأمراض والجزع والشدائد. فبعد ذلك شهد لهم بالصدق والتقوى وقال فى وصف المحبوبين من الموقنين: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُم وَأَمْوَالَهُم﴾ [التوبة:١١١]. وقال فى نعت عموم المؤمنين: ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُم أُجُورَكُم وَلاَ يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ * إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾ [محمد:٣٦ ـ ٣٧].

فشتان بين من وُصف بالمجاهدة والصدق، وبين من نُعت بالخُلف وعُرِّض

للمقت، وبين من وُصف بالحق، وبين من يُجادل فى الحق، وكم بين من قَبِلَ منه المال والنفس، وبين من ردَّ عليه المال ولم يسأله لما علم منه من البُخل والضِّغن.

واسم الإيمان يجمعهم ومعناه يجتمع عليهم، إلا أن مقامات الإيمان ترفع بعضهم على بعض، وتفاوت بين بعضهم وبعض، كما قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا منكُم وَالَّذينَ أُوتُوا العلمَ درَجَات﴾ [المجادلة: ١١]. وكقوله: ﴿لاَ يَستَوِى منكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولئكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنفقُوا مِن بَعدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاً وَعَدَ اللهُ الحُسنَى﴾ [الحديد: ١٠] يعنى الجنة على تفاوت الدرجات فيها، فجمع بينهم فى الدار كما جمع بينهم فى اسم الإيمان، ورفعهم فى الدّرجات علوًا فى المقامات، كما قال تعالى: ﴿هُم دَرَجَاتٌ عِندَ اللهِ وَاللهُ بَصيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٣].

وقد روينا فى خبر: «الإيمانُ عريانٌ ولباسه التقوى، وحليته الورَعُ، وثمرته العلم»، ففيه دليل أن من لا تقوى له فلا لُبس لإيمانه، ومن لا ورع له فلا زينة لإيمانه، ومن لا علم له فلا ثمرة لإيمانه. فإن اتفق فاسقٌ ظالمٌ جاهل كان بالمنافقين أشبه منه بالمؤمنين، وكان إيمانه إلى النفاق أقرب، ويقينه إلى الشك أميل، ولم يخرجه من اسم الإيمان إلاّ أن إيمانه عريانٌ لا لبسة له، معطّل لا كسب له، كما قال: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِى إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨].

والنفاق مقامات، قيل: سبعون بابًا. والشِّرك مثل ذلك. وهم فيها طبقات.

روى عن النبى ﷺ: «أربعٌ من كُنّ فيه فهو منافقٌ خالص، وإن صام وصلّى وزعم أنه مؤمن: مَن إذا حدَّث كذب، وإذا وَعَد أخلف، وإذا ائتمن خان، وإذا خاصم فجر». وفى بعض هذا الحديث: «وإذا عاهد غدر». فصارت خمسًا، فإن كانت فيه واحدة منهن ففيه شُعبة من النفاق حتى يَدَعها.

وفى حديث أبى سعيد الخدرى، وأبى كبشة الأنمارى: «القلوب أربعةٌ: قلبٌ أجرد فيه سراج يُزهر، فذلك قلب المؤمن، وقلبٌ مُصْفَح فيه إيمان ونفاقٌ، فمَثَل الإيمان فيه كالبَقلة يَمدُّها الماءُ العذب، ومَثَل النفاق فيه كمثل القُرحة يمدها القيح

والصديد، فأيُّ المادتين غلب عليه حُكم له بها». وفى لفظ آخر: «أيهما غلبت عليه ذهبت به».

وفى الخبر: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق». ففى تبعيض أخلاق الإيمان، وفى وجود دقائق الشرك وشعب النفاق ما يوجب الاستثناء فى كمال الإيمان، لجواز اجتماع الإيمان والنفاق فى القلب، ولوجود شعب النفاق، وعدم بعض شعب الإيمان من القلب. كيف، وقد جاء فى الخبر: «أكثر منافقى أمتى قرَّاؤها»، والحديث الآخر: «الشّرك أخفى فى أمتى من دبيب النمل على الصفا»؟!

وقال حذيفة: كان الرجل يتكلم بالكلمة على عهد رسول الله ﷺ يصير بها منافقًا إلى أن يموت، إنى لأسمعها من أحدِكم فى اليوم عشر مرات. وفى حديث على كرم الله وجهه: إن الإيمان ليبدو لَمَعَةً بيضاء؛ فإذا عمِل العبدُ الصالحات نَما وزاد حتى يبيض القلبُ كلّه، وإنّ النفاق ليبدو نُكتةً سوداء، فإذا انتُهكت الحرماتُ نَمَت وزادت حتى يسودَّ القلب فيطبع عليه؛ فذلك الختم. ثم قال: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

فهذا كلّه موجب للاستثناء فى الإيمان؛ خشية خفايا الشرك، ووجود دقائق النِّفاق، وخوفًا من الدعوى للحقيقة والكمال؛ لأن من قال: إنى مؤمن حقًا، فقد زكّى نفسه، وعصى ربه، لأن الله تعالى نهى عن التزكية للنفس، وعرّض المزكّى نفسه للكذب فى قوله تعالى: ﴿فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقى﴾ [النجم: ٣٢]. وبقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللهُ يُزَكِّى مَن يَشَاءُ﴾. ثم قال تعالى: ﴿انْظُرْ كَيفَ يَفتَرُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ﴾ [النساء: ٤٩ ـ ٥٠].

وقد قال إبراهيم عليه السلام فى تفسير أحد الوجهين من قوله تعالى: ﴿وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّى شَيْئًا﴾ [الأنعام: ٨٠]. ومثله قال شعيب: ﴿وَمَا يَكُونَ لَنا أَن نَعُودَ فِيها﴾ يعنى مِلة الكفر ﴿إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ رَبُّنا﴾ [الأعراف: ٨٩]. ثم علّلا جميعًا بسعة العلم، وسبق المشيئة به، فلم يأمنا أن يكونا فى

سعة علم الله عز وجل وفى خفيِّ مشيئته ضد ما ظهر لهما من حكمته، فيدركها ما سبق فى علمه لقصور علمهما عن علمه، ولأنه لا مشيئة لهما دون مشيئته[1]؛ وهذا هو خوفُ المكْرِ.

وحقيقة المكرِ معنيان؛ أحدهما: أن يُظهر شيئًا ويُخفى ضده. والثانى: أن يكشف ما كان ستره، ويُفشى ما كان أسرَّه بعد الطمأنينة والعزة. والأنبياء مع فضلهم ومكانهم يستثنون فى الكفر خِيفَةَ المكر، ولا يستثنى الضعيفُ الجاهل فى الإيمان، ولا يغتر بظاهر أمره، بل ينبغى أن يستثنى فى الإسلام أيضًا وفى جميع أعمال البرّ؛ لأن القبول غير العمل، والسابقة غيرُ ما ظهر من المعاملة، ولا ينبغى أن يدعَ الاستثناء فى شيءٍ من الأحوال.

وقال بعض العلماء فى معنى قوله تعالى: ﴿**وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ**﴾ [ق: ١٩]، قال: بالسابقة. وقال بعض السّلف: إنّما يوزن من الأعمال خواتيمها. وكان أبو الدرداء يحلف بالله عز وجل: ما أحدٌ أمِن مِن أن يُسلب إيمانُه إلاّ سُلِبه. ويقال: من الذنوب ذنوب تؤخَّر عقوبتها إلى سُوء الخاتمة. وهذا من أخوف ما خافه العاملون مع قوله تعالى: ﴿**وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ**﴾ [المؤمنون: ٦٣]. وقيل: من الذنوب ذنوبٌ لا عقوبة لها إلا سلب التوحيد فى آخر نَفَسٍ، نعوذ بالله تعالى من ذلك. وقيل: هذا يكون عقوبة الدعوى للولاية والكرامات بالافتراء على الله تعالى.

وكان سهل رحمه الله تعالى يقول: من علامة الأولياء أنهم يستثنون فى كل شىء. وقال: من قال أفعل كذا، ولم يقل إن شاء الله تعالى، سأله الله عن هذا القول يوم القيامة، فإن شاء عذبه وإن شاء غفر له.

وقد نهى الله تبارك وتعالى رسوله ﷺ أن لا يقول شيئًا حتى يستثنى، وأمره بالاستثناء إذا نسى، فقال تعالى: ﴿**وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ**﴾، ثم قال: ﴿**وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ**﴾ [الكهف: ٢٣ ـ ٢٤] أى الاستثناء، أى

(١) من قوله: «ضد ما ظهر» إلى هنا ساقط من المطبوعة.

فاستثن إذا ذكرت، فتأدب ﷺ بذلك أحسن الأدب، فكان يستثنى فى الشىء يقع لا محالة. فروى أنه دخل المقابر فقال: «السلام عليكم أهل دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون».

وقال سبحانه معلمًا لعباده الاستثناء ورادّهم إليه بمشيئته؛ وهو أصدق القائلين وأعلم العالمين: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسجِدَ الحَرَامَ إِن شَاءَ اللهُ آمنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧].

والاستثناء أصل يرد إليه من عرفه ولم ينكر الاستثناء، والأصل هو أن الإيمان يزيد وينقص، فأما زيادته فقد ثبتت بنص الكتاب من قوله تعالى: ﴿ويَزِيدُ اللهُ الَّذينَ اهتَدَوا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]. ومن قوله تعالى: ﴿فزَادَهُمْ إيمانًا﴾ [آل عمران: ١٧٣]، إلى نظائرها. وما يزيد فهو ينقص؛ لأن معناه موجود فى الكتاب بدليل الخطاب من قوله تعالى: ﴿ولاَ يَزيدُ الظَّالمينَ إلاَّ خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]. وقوله: ﴿ولَيَزِيدَنَّ كثيرًا منهُمْ مَا أُنزِلَ إلَيكَ مِن ربِّكَ طُغْيَانًا وكُفرًا﴾ [المائدة: ٦٤]. ومن قوله تعالى: ﴿وفَى آذَانهِم وَقْرًا﴾ [الأنعام: ٢٥]. وفى قوله تعالى: ﴿وأَمَّا الَّذينَ فى قُلُوبِهِم مَرَضٌ فَزَادَتهُم رِجْسًا إلى رِجْسِهِم﴾ [التوبة: ١٢٥].

فما يزيد الظالمين إلا خسارًا ينقصهم رجحانًا وربحًا، وما يزيدهم كفرًا ينقصهم إيمانًا، وما يكون عليهم عمًى ينقصهم بصيرة، وما يزيدهم رجسًا يكون لهم من الطهارة نقصًا، من قِبَلِ أن مزيد الشر نقصان الخير، كما أن مزيد الخير نقصان الشر.

فإذا ثبت أن الإيمان يزيد بالصالحات وينقص بالسيئات وجب الاستثناء فيه؛ لأن الصالحات درجات يعلو فيها المؤمنون بحسن الولايات والمجاهدات. قال الله تعالى فى المجمل من الخطاب: ﴿وأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إنْ كُنْتُم مُؤمِنينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]. وقال: ﴿واللهُ وَلِىُّ المُؤمنينَ﴾ [آل عمران: ٦٨]. وقال فى المفسر: ﴿ولِكُلٍّ دَرَجاتٌ ممَّا عَمِلُوا﴾ [الأحقاف: ١٩]. وقال فى مثله: ﴿وهُوَ وَلِيُّهُمْ بمَا كَانُوا يعمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٧]. وقال: ﴿لاَ يَستَوِى القَاعِدُونَ مِنَ المُؤمِنينَ غَيْرُ أُولى الضَّرَرِ

وَالْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٥].

وروينا فى حديث واثلة بن الأسقع: «الإيمان يزيد وينقص»، وروى ذلك عن جماعة من الصحابة ومن لا يحصى من التابعين. وقيل لأحمد بن حنبل رضى الله عنهما: ما معنى الاستثناء فى الإيمان؟ قال: أليس الإيمان قولاً وعملاً؟ قيل: نعم. قال: فالتصديق بالقول والاستثناء بالعمل.

وقال بعض العلماء: أقربُ الناس من النفاق من يرى أنه منه برىء. وقال مرة: آمنهم له. وقال عمر مولى عفرة: أقرب الناس إلى النفاق الذى إذا زُكِّى بما ليس فيه ارتاح لذلك قلبه، وأبعد الناس منه من يتخوَّف أن لا ينجيه حقيقة ما هو فيه. وقال بشر بن الحارث: سكون القلب إلى قبول المدح أضرُّ عليه من المعاصى.

وكان سهل يقول: غفلة العالم السكون إلى الشىء، وغفلة الجاهل الافتخار بالشىء. والسكون عندهم من الدعوى، والدعوى من المعاصى. وقال حذيفة: اليوم المنافقون أكثر منهم على عهد رسول الله ﷺ؛ كانوا إذ ذاك يخفونه وهم اليوم يظهرونه. وقيل للحسن: إنّ قومًا يقولون لا نفاق اليوم، فقال: يا ابن أخى، لو هلك المنافقون لاستوحشتم فى الطرقات. وعنه وعن غيره: لو نبت للمنافقين أذناب ما قدرنا أن نطأ على الأرض.

وسمع ابن عمر رجلاً يطعن على الحجاج، فقال: أرأيت لو كان حاضرًا بين يديك أكنت تتكلم فيه بما تكلمت الآن؟ قال: لا. قال: كنا نعد هذا نفاقًا على عهد رسول الله ﷺ.

وقال رسول الله ﷺ: «من كان ذا لسانين فى الدنيا، جُعل له لسانان من نار فى الآخرة».

وفى خبر آخر: «شرّ الناس ذو الوجهين؛ يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه».

وقيل للحسن: إن قومًا يقولون: لا نخاف النفاق. فقال: والله لأن أكون أعلم أنى برىء من النفاق أحبُّ إلىَّ من تلاع الأرض ذهبًا. وقال الحسن: إنّ من النفاق

اختلافَ اللسانِ والقلب والسر والعلانية والمدخل والمخرج.

وقال رجل لحذيفة: إنى أخاف أن أكون منافقًا. فقال: لو كنت منافقًا ما خفت أن تكون منافقًا، إن المنافق قد أمِنَ النفاق. لأن النفاق على ضربين: نفاق ينقل عن الملة؛ وهو الشك فى دين الله تعالى والرد لشرع رسول الله ﷺ، ونفاق لا ينقل عن الملة ولا يُخرج مِن الإسلام، ولكنه يُنقص الإيمان، ويُذهب حقيقته، ويطفىء أنواره، ويحرم مزيده، ويحبط الأعمال، ويوجب المقت والإعراض؛ وهو: الرياء، والمداهنة، والتصنُّع للخلق، والتزيُّن بالحق، وائتلاف الألسنة، واختلاف القلوب، وتفاوت القول والعمل، ومخالفة الأمر إلى ما يُنهى عنه، واختلاف السر والعلانية، وزيادة الظواهر على السرائر. وهذا المعنى من النفاق الذى خافه السلف وكانوا منه على إشفاق.

وكان سهل يقول: المرائى حقًا الذى يُحسِّن ظاهره حتى لا تنكر العامةُ والعلماءُ من ظاهره شيئًا، وباطنه خراب. وقد كان الحسن وأصحابه يسمون أهل البدع منافقين. وكان ابن سيرين وأصحابه يسمونهم خوارج.

وقال ابن أبى مليكة: أدركتُ ثلاثين ومائة ـ وفى رواية خمسمائة ـ من أصحاب النبى ﷺ كلّهم يخاف النفاق على نفسه. وقال مرة: ما منهم أحد يقول أنا على إيمان جبريل وميكائيل عليهما السلام.

وقد روينا عن عليٍّ وأبى سعيد قالا: الإرجاء بدعة. وقال أيوب: أنا أكبر من الإرجاء، أول من أحدث الإرجاء رجل من أهل المدينة، ذكره. وقال قتادة: لعن الله دينًا أنا أكبر منه، وإنّما ظهر الإرجاء بعد هزيمة ابن الأشعث، يعنى فى ولاية الحجَّاج.

وقال سفيان الثورى: من قال أنا مؤمن عند الله فهو من الكذابين، ومن قال أنا مؤمن حقًا فهو بدعة. قيل: فما تقول؟ قال: **﴿قُولُوا آمَنَّا بِالله وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ﴾** [البقرة:١٣٦] الآية. وقيل للحسن: أمؤمن أنت؟ قال: إن شاء الله. فقيل: تستثنى يا أبا سعيد فى الإيمان؟ فقال: أخاف أن أقول نعم فيقول الله

تعالى: كذبت يا حسن، فتحق علىَّ الكلمة. وكان يقول: ما يؤمِّننى أن يكون الله عز وجل قد اطَّلع علىَّ فى بعض ما يكره فمقتنى، وقال: اذهب لا قبلتُ لك عملاً أبدًا، فأنا أعمل فى غير معمل.

وكان جماعة من أهل العلم يرون السؤال عن قوله «أمؤمن أنت؟» بدعة. ويقول بعضهم: إذا قيل لك «أمؤمن أنت؟» فقل: آمنت بالله وكتبه ورسله. وقال إبراهيم: إذا قيل لك «أمؤمن أنت؟» فقل: ما أشكّ فى الإيمان، وسؤالك إياى بدعة.

وروينا عن الثورى عن الحسن بن عبيد الله عن إبراهيم النخعى: إذا سئلت أمؤمن أنت؟ فقل: لا إله إلا الله. ومنصور عن إبراهيم قال: سئل علقمة: أمؤمن أنت؟ فقال: أرجو ذاك إن شاء الله. وكان الثورى يقول: نحن مؤمنون بالله وملائكته وكُتبه ورسله، وما ندرى ما نحن عند الله.

وقال بعض العلماء: أنا مؤمن بالإيمان غير شاكّ فيه ولا أدرى أنا ممن قال الله سبحانه: ﴿**أُولِئكَ هُمُ المؤمنُونَ حقًا**﴾ أم لا.

وقال بعض العارفين: لو عُرضت علىَّ الشهادة عند باب الدار والموت على التوحيد عند باب الحجرة لاخترت الموت على الشهادة. قيل: ولِمَ؟ قال: لأنّى لا أدرى ما يعرض لقلبى من التغير عن التوحيد من باب الحجرة إلى باب الدار.

وقال أبو سليمان الدارانى: سمعت فلانًا ـ يعنى بعض الأمراء ـ يتكلم على المنبر بكلام، أردتُ أن أقوم فأنكر عليه، فخشيت أن يأمر بقتلى، فلم يكن بى أن أموت، ولكن خشيتُ أن يعرض لقلبى التزيُّن للخلق بأنّى أمرت بالمعروف وأنكرت على الإمام، فقُتِلتُ فى الله عز وجل عند خروج روحى، فكففتُ عن ذلك.

وقال بعض العارفين: لو عرفت أحدًا على التوحيد خمسين سنة ثم حالت بينى وبينه سارية ثم مات، لم أحكم أنه مات على التوحيد لعلمى بسرعة تقليب القلوب. وقال منصور بن راذان: إن كان الرجل من أصحاب النبى ﷺ إذا سئل:

أمؤمنٌ أنت؟ قال: أنا مؤمن إن شاء الله. وقال أبو وائل: قال رجل لابن مسعود: لقيت رَكْبًا فقالوا: نحن المؤمنون. فقال: ألا قالوا: نحن من أهل الجنة؟ وقال بعض أصحاب عبد الله لرجل: أمؤمن أنت؟ قال: نعم. فذكر ذلك لابن مسعود فقال: سلوه أمن أهل الجنة أنت؟ قال: أرجو. فقال: ألاَ رجيتَ الأولى كما رجيت الثانية. ونقش ابن لبعض التابعين على خاتمه: فلان لا يشرك بالله تعالى شيئًا. فقال أبوه: هذا أقبحُ من الشرك.

وقال بعض السلف: أقرب الناس من النفاق من يرى أنه أبعدهم منه عند نفسه. وفى الخبر: أن رسول الله ﷺ كان جالسًا فى جماعة من أصحابه، فذكروا رجلاً ومدحوه وأحسنوا الثناء عليه، فبينا هم كذلك إذ طلع عليهم الرجلُ يقطر وجهه ماء من أثر الوضوء، قد علق نعليه بيديه وبين عينيه أثر السجود. فقالوا: يا رسول الله، هذا هو الرجل الذى وصفنا لك آنفًا. فلما نظر إليه ﷺ قال: «أرى على وجهه سُفعةً من الشّيطان» يعنى ظلمة. فجاء الرجل حتى سلم على رسول الله ﷺ وجلس مع القوم، فقال له النبى ﷺ: نشدتك الله هل حدَّثت نفسك حين أشرفتَ على القوم أنه ليس فيهم خير منك؟ فقال: اللهم نعم. وفى الحديث: «مَن قال إنى مؤمن فهو كافر، ومن قال إنى عالم فهو جاهل، ومن قال إنى فى الجنة فهو فى النار».

وعلّم رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق رضى الله تعالى عنه دعاء، قال فيه: «اللهم إنى أعوذ بك أن أُشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم». وجاء فى الخبر: «الشرك فى أمتى أخفى من دبيب النمل على الصفا». وكان من دعاء رسول الله ﷺ: «اللهم إنى أستغفرك لما علمتُ وما لم أعلم». فقيل له: أتخاف يا رسول الله؟ قال: «وما يؤمننى والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء».

وقال الله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِنَ اللهِ مَا لَم يَكُونُوا يَحتَسِبُونَ﴾ [الزمر:٤٧]. قيل: عملوا أعمالاً ظنُّوا أنها حسنات، فلما كان عند الحساب والميزان وجدوها سيئات. وقيل: كانت هذه الآية مبكاة العابدين. وقيل فى معنى قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ

كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدقًا وَعَدلاً﴾ [الأنعام: ١١٥]. قيل: صدقًا لمن مات على الإيمان، وعدلاً لمن مات على الشرك. كقوله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيهِم كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤمِنُونَ * وَلَو جَاءَتهُم كُلُّ آيَة﴾** [يونس: ٩٦ ـ ٩٧]. وقال سبحانه: **﴿وَلَهُم أَعْمَالٌ من دُونِ ذلكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾** [المؤمنون: ٦٣]. وقال: **﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِنَ الكِتَابِ﴾** [الأعراف: ٣٧]. **﴿وإِنَّا لَمُوَفُّوهُم نَصِيبَهُم غَيرَ مَنقُوص﴾** [هود: ١٠٩]. وقال: **﴿وَلله عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾** [الحج: ٤١]. وقال: **﴿لاَ يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الغَيبَ إِلاَّ اللهُ﴾** [النمل: ٦٥].

فالاستثناء فى الإيمان هو من الإيمان، والاستثناء فى كلّ شىء من علامة الأولياء، والإشفاق من الشرك والنفاق هو من مزيد الإيمان؛ لئلا يسكن العبد إلى شىء ولا يزكّى نفسه بشىء.

وقال سرى السقطى: لو أن رجلاً دخل إلى بستان فيه من جميع الأشجار، عليها من جميع الأطيار، فخاطبه كل طير منها بلغته فقال: السلام عليك يا ولى الله، فسكنت نفسه إلى ذلك، كان أسيرًا فى يديها.

* * *



الفصل السادس والثلاثون

فى فضائل أهل السنة ووصف طرائق السلف من الأئمة(١)

السنّة اسمٌ من أسماء الطريق، وهو اسمٌ للطريق الأقوم. يقال: طريق وطريقة، وسَنَن، وسنة وحَجَج ومَحجَّة. فمن فضائل السنة وطريق أهلها التقلّلُ من الدنيا فى كل شىء، والقناعة من الله تعالى بأدنى شىء، والتواضع لله بكل شىء. وفى الخبر: «أفضل العبادة التواضع». وروينا عن رسول الله ﷺ: «أربع لا يوجدنَ إلاّ بعجب: التواضع؛ وهو أول العبادة، والصمت، وذكر الله تعالى، وقلّة الشىء».

واعلم أن التواضع يظهر بمعان خمسة: بالقول، والفعل، والزىّ، والأثاث، والمنزل، يكون فى المؤمن بعضها، فمن كملت فيه فهو متواضع.

والتكبّر ضدُّ التواضع، وهو يظهر أيضًا بأضداد هذه الخمسة، يُبتلى المؤمن ببعضها، ويُعافى من البعض. فمن كَمُلت فيه فهو متكبر، وحقيقتها فى القلب، وظاهرها بالأفعال والأقوال.

ثم الورع عن الشبهات والمشكلات من العلوم والأعمال: أن لا يقدم عليها بنطق أو عمل، ولا يعتقد نفيها ولا إثباتها؛ خشية أن يكون معتقدًا لباطل، أو نافيًا لحقٍّ، بل يكون اعتقاده فيها تسليمًا لله عز وجل، ويقول: آمنت بحقائقها عند الله تعالى، فذلك تعبُّد من الله عز وجل للمؤمنين فيما تشابه من الأمور أن يسكتوا ويسلّموا. وبذلك وصفَ الراسخين فى العلم، وأقسم بنفسه على نفى إيمان من لم يسلِّم تسليمًا، وجعل التسليم مزيدَ الإيمانِ فى قوله تعالى: ﴿وَمَا زَادَهُم إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

وفى الخبر: «إنما الأمور ثلاثة؛ أمرٌ استبان رشده فاتبعه، وأمر استبان غيُّه

(١) فى المطبوعة: «فضائل أهل السنة والطريقة وطرق السلف من الأئمة».

فاجتنبه، وأمر أشكل عليه فكِلْهُ إلى عَالِمه». وكذلك ابن مسعود يقول: إنّ لهذا القرآن منارًا كمنار الطريق، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما لم تعلموه فكلوه إلى عالمه. وكان أيضًا يقول: أنتم اليوم فى زمان خيركم فيه المسارع، وسيأتى عليكم زمان يكون خيرُكم فيه المتبيِّن. يعنى لوضوح الحق فى القرن الأول، ولدخول الشبهات فى مثل زماننا هذا، فصار الحقُّ غامضًا، فكان خير الناس اليوم المتثبت بالورع، كما كان خيرهم يومئذٍ المسارع بالفضل.

ومما يدلك أن الإسلام هو التسليم، كما أن الإيمان هو التصديق، أن فى قراءة بعض التابعين منهم جعفر بن محمد، وقد رويناه عن أبى جعفر محمد بن عليٍّ أنهما قرءا ﴿واجْعَلنَا مُسْلِمِينِ لك﴾ [1] [البقرة:١٢٨]، وقرءا أيضًا: ﴿الَّذِينَ آمنُوا بآياتنا وَكانُوا مُسلِمِينَ﴾ [الزخرف:٦٩]. فلولا أنهما بمعنى واحد لم يجز أن يخالفوا المعنى فى المقروء.

وكذلك قال رسول الله ﷺ فى الأمر المتشابه الذى يشبه الحق من جهة ويشبه الباطل من جهة: «لا تصدِّقوا أهل الكتاب ولا تكذّبوهم، ولكن قولوا: آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم». هذا لأن الله سبحانه وتعالى أنزل التوراة؛ فهى حق، ثم أخبر أنهم قد حرّفوا، فاحتمل أن يكون ما يخبرون به المؤمنين مما أنزل الله تعالى، فلا يحلّ التكذيب به ولا اعتقاد نفيه، واحتمل أن يكون مما أخبر الله تعالى أنهم حرّفوا، فلا يحل قبوله ولا اعتقاد ثبوته، فأمرهم النبى ﷺ بإيقاف ذلك، والإيمان بما أنزل الله تعالى جملة، فإن كان ما أخبروه حقًا دخل فيه، وإن كان باطلاً لم يضره. فالمسلم هو الذى يسلِّم بما لم يظهر دليله فى العقل، لأجل القدرة والسنَّة والنقل، كما أن المؤمن هو الذى يصدِّق بما لم يظهر بمشاهدة العين: الإيمان بالغيب؛ لأن العقل بصرُ القلب، كالعين بصر الجسم. وقد قال النبى ﷺ: «رفع القلم عن المجنون حتى يعقل». كما قال الله تعالى: ﴿لَيسَ عَلَى

(١) يقصد أنه قرأها على الجمع: لمسلم: «مسلِمين» وكذا رويت هذه القراءة عن ابن عباس وعوف الأعرابى كما فى القرطبى ٢/ ١٢٦. أما الآية الثانية فلا خلاف بين قراءته وقراءة المصحف.

﴿الأعمى حَرَجٌ﴾ [النور:٦١]. ثم ترك ما لا يعنى مما قد كفى، ومما لم يكِل إليه من القول والفعل؛ لأن الدخول فيما لا يعنى هو التكلّف المنهى عنه، الذى أخبر رسول الله ﷺ أن الأتقياء من أمته برآء منه، وهو يشغل ويقطع عمّا يعنى، وفيما يعنى شغل عمّا لا يعنى لكل فَطِنٍ عاقل، وهو أصل الحكمة فيما أخبر به لقمان لما سُئل: أنَّى أُوتَى الحكمة؟ قال: بشيئين: لا أتكلف ما كُفيت، ولا أضيِّع ما كُلِّفت. فهذا شىء لا يضرّ جهله ولا ينفع فعله، ولأنه شىء إن كُتب عليه لم يكن له فيه فضل، وإن سُمع منه وظهر به لم يكن له فيه مزيد، ولا لغيره نفع.

ثم كفُّ الأذى؛ فإن ذلك من الورع. وكان سهل رحمه الله تعالى يقول: كفّ الأذى كسب العقل، واحتمال الأذى كسب العلم، والنصيحة للخلق والرحمة لهم كسب الإيمان.

ثم العمل فى قطع ما قد اعتاد من عاجل حظوظ النفس مما يقطعه عن العمل لأجل الآخرة وأعمال النفس وإجهادها، وإن لا يكون لها معتاد من شهوةٍ تعود على النفس منه منازعة، فإن العادةَ جندٌ غالبٌ؛ لأجلها تعذّرت التوبة، ولغلبتها رجع العبدُ عن الاستقامة؛ وهى باب من أبواب الهوى، إلا فيما أُمر به العبد أو نُدب إليه.

قال أبو سليمان الدارانى: إن قدرت أن لا يكون لك وقت معتاد فى الأكل تنازعك نفسك إليه فافعل. وقال: لأن أترك لقمةً من عشائى أحبُّ إلىَّ من قيام ليلة. أى لنقص النفس من المعتاد والتقلل أيضًا. وقال أيضًا: ترك شهوةٍ من شهوات النفس أنفع للقلب من صيام سنة وقيامها. هذا كله خشية إيلاف العادات، فتنازع النفس إلى الإلف فلا يمكنك ضبطها لغلبة الوصف، ثم حسن الصبر على ما أُمر به، وحسن الصبر عمّا نُهى عنه؛ فإن ذلك من أفضل الأعمال وله فضائل المزيد والكمال. وفى حديث أبى هريرة عن رسول الله ﷺ: «اتق المحارم تكن من أعبد الناس». وفى لفظ آخر: «تكن من أورع الناس».

ومن أحسن ما سمعته من عظيم المثوبة فى الصبر عن المعصية ما حدثونا فى الإسرائيليات: أن رجلاً تزوّج امرأة من بلدة، وكان بينهما مسيرة شهر. فأرسل

إلى غلام له من تلك البلدة ليحملها إليه، فسار بها يومًا، فلما جنَّه الليل أتاه الشيطان فقال له: إن بينك وبين زوجها مسيرة شهر فلو تمتعتَ بها ليالى هذا الشهر إلى أن تصل إلى زوجها، فإنها لا تكره ذلك، وتثنى عليك عند سيدك، فيكون أحظى لك عنده. فقام الغلام يصلى فقال: يا رب، إنّ عدوك هذا جاءنى فسوَّل لى معصيتك، وإنه لا طاقة لى به فى مدة شهر، وأنا أستعيذك عليه يا رب فأعذنى عليه، واكفنى مؤونته. فلم تزل نفسه تراوده ليلته أجمع وهو يجاهدها حتى أسحر، فشدَّ على دابة المرأة وحملها وسار بها. قال: فرحمه الله تعالى، فطوى له مسيرة شهر، فما برق الفجر حتى أشرف على مدينة مولاه. قال: وشكر الله تعالى له هربه إليه من معصيته فتنبأه، فكان نبيًا من أنبياء بنى إسرائيل.

ثم إعدادُ العدّة لما يستقبل، إذا كان ذلك من علامة مريدى السعى للآخرة والشغل بالنفس والإقبال عليها دون الناس فقد وجب ذلك، والزهدُ فى فضول الشهوات واجتناب كثير من الشبهات فقد افتُرِض ذلك، وقلة الذِّكر للناس ولأمور الدنيا فقد حسُن ذلك، وفيه غفلة وقسوة للقلب، وكثرة الذكر لله تعالى والتذكير به وذكرُ آلائه ونعمائه وحسنُ الثناء عليه والمدح له.

وقد كان بعض العلماء يقول: من جالسنا فليجتنب ذكر ثلاث خصال وليقض فيما يشاء: يجتنب ذكر الناس فإنهم داء، ويجتنب ذكر الدنيا فإنها قسوة، ويجتنب كثرة الطعام فإنها شَرَهٌ. وقال عالم آخر: من جالسنا فلا يذكر إلاّ الله وحده، فإن كان لا بدّ من ذكرِ غيره فليذكر الآخرة وليذكر الصالحين.

وكان سهل رحمه الله تعالى ورضى عنه يقول: السنَّة ما كان عليه النبى ﷺ وأصحابه، وأوَّلُ السنَّةِ الزهدُ فى الدنيا؛ لأنهم كانوا زاهدين.

وكذلك جاء الخبر فى وصف الفرقة الناجية: «من كان على ما أنا عليه وأصحابى». فقد كانوا على هذه الأوصاف التى ذكرناها، فمن كان على ذلك فهو على السنة.

فهذه فضائل السنة، وهو مزيد الإيمان وحسن اليقين.

• ذكر عرى الإيمان وجمل الشريعة:

قال الله جل ثناؤه وصدقت أنباؤه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ [الجاثية:١٨]. فالشريعة اسم من أسماء الطريق، وهو اسم الطريق الواضح المستقيم الواسع، وهو وصف الطريق الجامع لجوامع المحاجِّ كلّها، كأنه طريق يستوعب ويجمع سائر الطرق. وللطريق أسماء كثيرة منها: الصراط، والسبيل، والمنهاج، والمحجّة، والمنسك. وجاء من اشتقاق هذا اللفظ أربعة أسماء: شارع، ومشرعة، وشِرعة، وشريعة؛ وهو اسم لأوسعها وأوعبها لجميع الطرق.

فالشريعة تشتمل على اثنتى عشرة خصلة هى جامعة لأوصاف الإيمان؛ أولُ ذلك: الشهادتان وهى الفطرة. والصلوات الخمس، وهى الملة. والزكاة، وهى الطهرة. والصيام، وهو الجُنَّة. والحج، وهو الكمال. والجهاد، وهو النصر. والأمر بالمعروف، وهو الحجَّة. والنهى عن المنكر، وهو الوقاية. والجماعة، وهى الأُلفة. والاستقامة، وهى العصمة. وأكل الحلال، وهو الورع. والحبّ والبغض فى الله، وهو الوثيقة.

وقد روينا بعض هذه الخصال عن رسول الله ﷺ، وقد جاء نحوها عن ابن عباس، وابن مسعود، رضى الله تعالى عنهما.

• ذكر شرط المسلم الذى يكون به مسلمًا:

لا يكون معتقدًا لبدعة، ولا مقيمًا على كبيرة، ولا آكلاً الحرام، ولا طاعنًا على صالح السلف، ويكون كافَّ اللسان واليد عن أعراض المسلمين وأموالهم، ويكون ناصحًا لجميع المسلمين مشفقًا عليهم، يسرّه ما يسرّهم، ويسوءه ما يسوءهم، سيما لأئمتهم، داعيًا لجملتهم، ويكون مخلصًا بأعماله كلّها لله تعالى.

روى عن النبى ﷺ: «والذى نفسى بيده لا يُسلم عبدٌ حتى يسلمَ قلبه ولسانه، ولا يؤمنُ حتى يأمنَ جارُه بوائِقَه».

وروى عنه: «ثلاثٌ لا يَغِلُّ عليهنّ قلبُ مسلم: إخلاص العمل لله تعالى، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم الجماعة، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم».

ومن اجتمعت فيه هذه الخصال في زماننا هذا فهو من أولياء الله عزّ وجل، وهذا أولُ ولايةٍ، وأول نظرة من الله تعالى حاميةً عاصمةً راحمةً. كتب عمر بن عبد العزيز إلى سالم بن عبد الله: اكتب إليَّ بسيرة عمر رضي الله تعالى عنه في الناس، فإني أحبّ أن أسير بها. فكتب إليه: أما بعد، فإنك لست في زمان عمر، ولا لك رجال كرجال عمر؛ فإن عملت في زمانك هذا ورجالك هؤلاء بسيرة عمر، فأنت خير من عمر رضي الله تعالى عنه.

• ذكر حسن إسلام المرء، وعلامات محبة الله تعالى له:

يكون محبًا للخير وأهله، مجانبًا للشر وأهله، مسارعًا إلى ما نُدب إليه أو أُمر به إذا قدر عليه، حزينًا على ما فات من ذلك إذا أعجزه، تاركًا لما لا يعنيه من الأقوال والأفعال، بريئًا من التكلّف؛ وهو اجتناب ما لم يُؤمر به ولم يُندب إليه من ترك وفعل، مصليًا للخمس في جماعة إذا أمن الفتنة وسلم له دينه، مجتنبًا للغيبة ولذكر الناس، يحبّ للكافة ما يحب لنفسه ويكره لهم ما يكره لنفسه، مسارعًا إلى الخيرات، مسابقًا إلى أعمال البرّ والقربات، طويلَ الصمت، ليِّن الجانب، ذليلاً للمؤمنين، عزيزًا على المتكبرين، لا يماري في الباطل، ولا يداهن في الدين، ولا يبغض على شيء من الحق وإن كان عليه أو من أبعد الناس منه، ولا يحبّ على شيء من الباطل وإن كان له أو مِن أقرب الناس إليه، كارهًا للمدح ممن يحبه، قابلاً للنصح ممن يبغضه، يكون المدح والذم يجريان من قلبه مجرى واحدًا، صدوقًا فيما يضرّه، غيرَ متصنِّع ممَّا يستعجل نفعه، سريرته أفضل من علانيته، محتملاً لأذى الخلق، صابرًا على بلائهم، منفردًا بحاله عنهم، تاركًا لكثير من مجالسهم واجتماعهم خشية دخول الشبهات عليه، وخوفًا من تغيُّر قلبه له.

ومن اجتمعت فيه هذه الخصال في زماننا هذا فهو من المريدين للآخرة، وهذه ولاية ثانية ونظرة ثانية. ويقال: إن أبدال كلّ قرن على قدر زمانهم، وفي كل قرن سابقون ومقرَّبون.

وقال بعض أهل الفَسر في قوله تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ [الانشقاق: ١٩]،

قال: لتركبنّ فى كل قرنٍ فى طبقة من الناس، وعلى حال لم يكونوا عليه.

وأكثرُ ما قيل فى القرن مائة سنة، وأقلّ ما قِيل فيه أربعون، وأوسط ذلك وأعدله وأشبهه بحملِ الأحاديث والأخبار فيه: أنّ القرن سبعون سنة، وهو قول على رضى الله تعالى عنه؛ لأن رأس المائتين تمام ثلاثة قرون من المبعث، ونحن الآن فى القرن السادس من أول سنة أربعين وثلاثمائة وآخره سنة عشر وأربعمائة.

ويقال: إن الشمس تطلع من المغرب بعد القرن السابع، وهو رأس الثمانين وأربعمائة. وعلى قول من قال: القرن مائة سنة تطلع بعد سبعمائة سنة[1].

وفى الخبر: «إن ملك الموت إذا جاء لقبض روح المؤمن قال له ملكاه: أنظرنا حتى نملأ مسامعه من الثناء الحسن. فيقولان: جزاك الله عنّا خيرًا فإنك كنتَ ما علمنا سريعًا فى طاعة الله تعالى، بطيئًا عن معاصيه، تحبّ الخير وأهله، وتعمل بما استطعت منه، فرُبَّ كلام حسن قد أسمعتنا، ورُبَّ مجلس كريم قد أجلستنا، فأبشر بالموعود الصدق بيننا وبينك، والوقوف بين يدى الله تعالى بالشهادة لك عنده غدًا».

• ذكر حق المسلم على المسلم، وهو وجوب حرمة الإسلام على المسلمين:

وذلك عشرُ خصال مجموعة من سبعة أحاديث؛ حديث على رضى الله عنه: «للمسلم على المسلم ست خصال واجبة»، وحديث أبى أيوب الأنصارى: «حق المسلم على المسلم ستُّ خصال، إن ترك منها شيئًا ترك حقًا واجبًا عليه»، وحديث البراء بن عازب: «أمرنا رسول الله ﷺ بسبع ونهانا عن سبع»، وحديث ابن مسعود: «للمسلم على المسلم أربع خلال واجبات»، وحديث سعد وأبى هريرة فى معنى ذلك، وحديث أنس: «أربع من حق المسلم عليك».

إلاّ أنه ذكر غير ذلك، فاختلفت الألفاظ فى الخصال واتفقت المعانى. وذكر بعضهم فى حديثه ما لم يذكره الآخر، فجمعنا اختلافهم وعدد جمل الخصال

---

(١) هذا القول لا يؤيده كتاب ولا سنّة ولا نقل ولا عقل ولا واقع، كما أن التكهن بهذا الأمر لا يجوز، ولا يستطيعه أحد.

فكانت عشرًا، إلاّ ما رواه أنس بن مالك رضى الله عنه؛ فإنه حديث غريب مؤكد للخصال، وزائد عليها فى الألفاظ نذكره بعدها.

فأما الخصال العشر التى كثرت الأخبار بها فهى: أن يسلِّم عليه إذا لقيه، ويجيبه إذا دعاه، ويشمِّته إذا عطس، ويَعُودَه إذا مرض، ويشهد جنازته إذا مات، ويبرَّ قسمه إذا أقسم عليه، وينصحَ له إذا استنصحه، ويحفظه بظهر الغيب إذا غاب عنه، ويحبَّ له ما يحبُّ لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه.

فأما حديث أنس: فروينا عن إسماعيل بن أبى زياد، عن أبان بن عياش، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع من حَقِّ المسلِم: أن تعينَ مُحسِنَهم، وأن تستغفر لمذنبهم، وأن تدعو لمدبرهم، وأن تحب تائبهم». فهذه الخصال داخلة فى تلك الخصال وجامعة لها فى معنى النصيحة لأخيك، وفى أن تحبَّ له ما تحبُّ لنفسك.

وقد كان ابن عباس يؤكّد هذا المعنى خاصة للمسلم على المسلم، ويفرضه فرض الحلال والحرام، ويفسّر به قوله تعالى: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، فحُدِّثناه فى رواية جُبير عن الضحاك عنه فى قول الله عز وجل: ﴿رُحَماءُ بَينهُم﴾ يعنى متوادِّين بينهم، يدعو صالحهم لطالحهم وطالحهم لصالحهم، إذا نظر الطالح إلى الصالح من أمة محمد ﷺ قال: اللهم بارك له فيما قسمت له من الخير، وثبِّته عليه، وانفعنا به؛ وإذا نظر الصالح إلى الطالح من أمة محمد ﷺ قال: اللهم اهده، وتب عليه، واغفر له. قال ابن عباس: هذه الآية من حلالكم وحرامكم.

فهذه الخصال المذكورة جامعة مختصرة فى حرمة المسلمين، ووجوب حقّ بعضهم على بعض، لا عذر لأحد منهم فى تركها إلاّ من عذرته السنَّة، ويشهد له العلم، وبعضها أوكد من بعض، فأكمل المؤمنين إيمانًا أقومهم بها، وأسرعهم إليها، قد كثرت بها الراويات. وقد كان بعض السلف تركوا منها ثلاثة: إجابة الدعوة، وعيادة المرضى، وشهود الجنائز، إلاّ أن هؤلاء اعتزلوا الناس أصلاً وكانوا أحلاسَ بيوتهم، ولم يخرجوا إلا إلى الجمعات، ومنهم من ترك الجماعات، وكان

منهم من تبوَّأ الجبَّانات، وفارق الأمصار والإخوان، وكان بعضهم يتبوَّأ الجبال[١]. وقال سهل: ما أعلم شيئًا أشدّ من حقوق الناس. وكان يقول: مَن كفَّ أذاه عن الخلق مشى على الماء. وقال أبو يزيد وغيره: بغيةُ العقلاءِ السلامةُ من الله تعالى. ومن أراد السلامة من الله فليسلم الناس منه. فمن أراد أن يسلم الناسُ منه فليبعد منهم. فقد أُنشدت لبعضهم فى معناه:

الناسُ بَحْرٌ عَمِيقٌ والبُعدُ منهم سَلامَهْ

وقد نَصَحْتُكَ فانظر لا تُدرِكنَّكَ نَدَامَه

وقد روينا عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه: اتقوا الله واتقوا الناس.

وعن ابن عباس مثلها: لولا مخافة الوسواس لم أجالس الناس. وقال مرة: لدخلت بلادًا لا أنيس بها، وهل يُفسد الناس إلا الناس؟

وقال بعض السلف: كلما كثرت المعارف كثرت الغرماء، وكلما طالت الصحبة توكَّدت الحقوق. وقال بعض العلماء: من عرف نفسه استراح، ومن عرف الناس تعنَّى. وقال بشر بن الحارث فى ضده: من عرف الناس استراح.

وقد قيل فى معنى قوله عليه الصلاة والسلام: «مداراة الناس صدقة»، قال: مداراتهم فى العلوم ومفارقتهم فى العقول. وفى أحد الوجوه من قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [المؤمنون:٩٦] قال: هى المداراة. وفى الخبر عن رسول الله ﷺ: «مَن أُعطى حَظَّه من الرفق أُعطى حظه من خير الدنيا والآخرة، ومن مُنع حظَّه من الرفق مُنع حظه من الدنيا والآخرة».

• ذكر سنن الجسد:

وفى الجسد اثنتا عشرة سنَّة، وذلك مأخوذ من ثلاثة أحاديث متفرقة، منها: حديث جبريل عليه السلام حين استبطأه النبى ﷺ بالوحى.

خمس منها فى الرأس وهى: المضمضة، والاستنشاق، والسواك، وقصّ

(١) قوله: «وكان بعضهم يتبوأ الجبال» من (م).

الشارب، وفرق شعر الرأس.

ومنها سبع فى الجسد وهى: الختان، والاستحداد، وانتفاض الماء وهو الاستنجاء، ونتف الإبط، وتقليم الأظافر، وغسل البراجم، وتنظيف الرواجب.

فأما البراجم فهى معاطف ظهور الأنامل، لم تكن العرب تكثر غسل ذلك لتركها غسل أيديها عَقِب الطعام، فكان يجتمع فى تلك المكاسر الوسخ فأُمروا بغسلها. قال أبو هريرة وغيره من أهل الصفَّة: كنا نأكل الشواء، ثم تقام الصلاة، فندخل أصابعنا فى الحصباء، ثم نفركها فى التراب ونكبّر. وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: ما كنا نعرف الأشنانَ على عهد رسول الله ﷺ وإنّما كانت مناديلنا بواطن أرجلنا، كنا إذا أكلنا الغَمْرَ مسحنا بها.

ويقال: أول ما ظهرَ من البدع بعد رسول الله ﷺ أربع: المناخل، والأشنان، والموائد، والشبع. فهذه كلها فى شأن الجوف وهو شر وعاء مجوّف.

وأما الرواجب فهى جمع: راجبة، وهى واحدة الأنامل، لم تكن العرب يتفق لها الجَلَمَان[١] فى كل وقتٍ فيقصون أظفارهم، فوقَّت لهم رسول الله ﷺ لقصّ الأظفار ونتف الإبط وحلق العانة أربعين يومًا، إلا أنّه أمر بتنظيف ما تحت الأظفار؛ لأنه مجمع التَّفَث؛ وهى الرواجب، إلى أن يقصّوا أظفارهم. وجاء فى الأثر: «إنَّ النبى ﷺ استبطأ الوحى، فلما هبط جبريل عليه السلام قال له: كيف ننزل عليكم وأنتم لا تغسلون بَراجمكم، ولا تنظفون رواجبكم، وقُلْحًا[٢] لا تَستَاكُون؟ مُر أمتك بذلك».

ويقال لما تحت الأظفار من الوسخ: الأُفُّ، وهو الذى يقال: أُفٌّ وتُفٌّ؛ فالأُفُّ: وسخ الظفر، والتُّفّ: وسخ الأذن. وقيل: التُّفّ: كلمة اتباع للمبالغة فى التأذى بالقذر المؤذى؛ ومن ذلك قولهم فى الاتباع: جائع نائع، وعطشان نطشان.

وقيل: من هذا قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ﴾ [الإسراء: ٢٣]، أى: لا

---

(١) الجلمان: ما يُجَزُّ به، وهو المقراض.

(٢) القَلَح: صفرة تعلو الأسنان.

تعبهما بما تحت الظفر من الوسخ. وقيل: لا تتأذى بهما تأذِّيك بما تحت ظفرك من الأذى، أو لا تؤذهما بمقدار ذلك.

• ذكر ما فى اللحية من المعاصى والبدع:

قد ذكر فى بعض الأخبار: إن لله تعالى ملائكةً يُقْسِمُون: والذى زَيَّن بنى آدمَ باللّحى. ويقال: إنّ اللحيةَ من تمامِ خَلْق الرجل، وبها تمّيز الرجال من النساء فى ظاهر الخلق. وفى وصف رسول الله ﷺ: أنه كان كثَّ اللحية. وكذلك كان أبو بكر، وكان عثمان طويل اللحية دقيقها، وكان على رضى الله تعالى عنه عريض اللحية قد ملأت ما بين منكبيه. ويقال: إن أهل الجنة مُرْدٌ، إلاّ هارون أخا موسى عليهما السلام، فإن له لحية إلى صدره، تخصيصًا له وتفضيلاً.

ووصف بعض بنى تميم من رهط الأحنف بن قيس قال : وددنا أنَّا اشترينا للأحنف لحية بعشرين ألف. فلم يذكر جَنَفَه فى رِجله، ولا عَوَره فى عينه، وذكر كراهية عدم لحيته، وكان عاقلاً حليمًا.

وقد روينا من غريب تأويل قوله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِى الخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ [فاطر: ١]، قال: اللحى. وفيه وجوه كثيرة. وذُكر عن شريح القاضى قال: وددت لو أنّ لى لحية بعشرة آلاف.

وقال بعض الأدباء: فى اللحية خصال نافعة، منها: تعظيم الرجل والنظر إليه بعين العلم والوقار، ومنها: رفعه فى المجالس والإقبال عليه، ومنها: تقديمه على الجماعة وتعقيله، وفيها وقاية للعِرض؛ يعنى إذا أرادوا شتمه عرّضوا له بها فوَقَت عِرضَه.

وقال أبو يوسف القاضى: من عظمت لحيته جلت معرفته.

ففى اللحية من خفايا الهوى، ودقائق آفات النفوس، ومن البدع المحدثة اثنتا عشرة خصلة، بعضها أعظم من بعض، وكلها مكروهة، قد كنّا أجملنا ذلك عددًا فى باب آفات النفوس. فأما تفسيره: فإنّ من ذلك خضابها بالسواد لأجل الهوى وتدليس الشَّيبة، وخضابها بالحمرة والصفرة من غير نِية تشبيهًا بالصالحين والقراء

من أهل السنة، وتبييضها بالكبريت وغيره استعجالاً لإظهار علو السنّ وستر الحداثة؛ لأجل الرياسة والتعظيم، ليشهد عند الحكام، أو لينفق بذلك حديثه، ويدَّعى بالسنِّ مشاهدة من لم يره. فعل ذلك بعض المحدثين وبعض الشهود.

ومن ذلك: نتفها أو نتف الشيب منها تغطية للتكهُّل. ومنها: تقصيصها كالتعبية طاقة على طاقة للتزيُّن والتصنُّع.

ومن ذلك: النقصان منها أو الزيادة فيها، وهو أن يزيد فى شعر العارضين من الصدغ، وهو من شعر الرأس حتى يجاوز عَظْم اللَّحْى، وذلك هو حدّ اللحية، أو ينقص من العظمين نصف الخد وذلك مُثلَة، وهو نقصان من اللحية.

ومن ذلك: تسريحها لأجل الناس تصنعًا، أو تركها شَعِثةً منفتلة مغبرَّة إظهارًا للزهد، أو التهاون بالقيام على النفس؛ لأنه قد عُرف بذلك.

ومن ذلك: النظر إلى سوادها عجبًا بها وخيلاء وغرة بالشباب وفخرًا. ومن ذلك: النظر إلى بياضها تكبُّرًا بكبر السن وتطاولاً على الشبان؛ فيحجبه نظره إليها عن النظر إلى نفسه؛ من تعلُّم العلم، وتعلم القرآن الذى لا يسعه جهله، والسؤال عمّا يجهله استصغارًا لغيره من الشباب، أو حياء من شيبته، أو استنكافًا منه، فيظن بجهله أن كثرة الأيام التى بيّضت شعر لحيته أعطته فضلاً أو جعلت فيه علمًا، ولا يعلم أن العقل غرائز فى القلوب، وأن العلم مواهب من علام الغيوب. ومن كانت غريزته الحمق، وطبيعته الجهل، كثرت حماقته كلّما كبر، وعظُمت جهالته إذا أسنّ.

وقد رأينا جميع ذلك فى كثير من الناس، وهذا كله محدث، وهو يُضاهى سنن الجسد الاثنتى عشرة فى العدد.

ومما جاء فى جمل معانى ما ذكرناه من الكراهة أن رسول الله ﷺ قال: « حفّوا الشوارب وأعفوا اللحى». فقوله «حفوا» أى اجعلوها حفافى الشفة أى حولها، لأن حفافَ الشىء حوله. ومن ذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿**وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ**﴾ [الزمر: ٧٥].

وكان بعض العلماء يكره حلق الشارب حتى تظهر البشرة ويراه بدعة. وقد كان مالك بن أنس وبعض علماء المدينة يقولون: حلق الشارب مُثلة، إنما هو الأخذُ منه حتى يبدو الإطارُ، والإطارُ: حروف الشّفة من فوق.

وفي الحديث لفظة أخرى: «أحفوا الشوارب». والإحفاء: هو الاستئصال والاستقصاء؛ وهو أبلغ من قوله: «حفوا». ومن هذا قوله عز وجل: ﴿إِنْ يَسْأَلْكُمُوها فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا﴾ [محمد:٣٧] أي يستقصي عليكم. وقد كان كثير من أصحاب رسول الله ﷺ يحفي شاربه. ونظر بعض التابعين إلى رجل أحفى شاربه، فقال: ذكرتني أصحابَ رسولِ الله ﷺ. قال: فقلت له: هكذا كان يحفون شواربهم؟ فقال: نعم وأشد من هذا كالحلق. وليس الإحفاء حلقًا، إلا أنه شبيه به.

وقد روينا في هذا الحديث ثلاثة ألفاظ أخر وهو: «خذوا من الشوارب»، فإن رسولَ الله ﷺ كان يأخذ من شاربه. وروى: «قصوا الشوارب»، و«جُزُّوا الشّوارب»؛ فهذه الثلاثة بمعنى واحد، وهو يقتضي أخذ بعضه وترك البعض، ليس كالإحفاء. وقال المغيرة بن شعبة: نظر إليَّ رسول الله ﷺ وقد عفا شاربي، فقال: «تعال، فقَصَّه لي على سواك». فهذا نص من فعله في أخذ الشارب. وقد رويت لفظة غريب: «طرُّوا الشّوارب طَرًّا»؛ والطُّرَّان: يؤخذ من فوق الشارب ومن تحته حتى يستدق، والطُّرَر: الدقيق المستطيل المستخرج من شيء أكثر منه حتى يجعل على وصف دونه أو أصغر منه؛ ومن هذا سُمِّيت الطُّرَّة؛ كأنها مُستخرجة من شيءٍ كثير، مجعولة على وصف لطيف.

وكان بعض السلف يترك سَباليه، وهما طرفا الشارب، ويُحفي وسط شاربه. وروى هذا عن عمر وغيره. وكذلك رأيت أبا الحسن بن سالم رحمه الله تعالى يفعله. فأما قوله: «وأعفوا اللحى» يعني كثِّروها، ومن هذا قول الله عز وجل: ﴿حَتَّى عَفَوْا﴾ [الأعراف:٩٥] أي كثروا. وفي الخبر: «إن اليهود يعفون شواربهم، ويقصّون لحاهم، فخالفوهم». وردّ عمر بن الخطاب وابن أبي ليلى قاضي المدينة

شهادة رجلٍ كان ينتف لحيته.

ونتفُ الفَنِيكَينِ بدعة؛ وهما جنبتا العَنفَقَة؛ شهد رجلٌ عند عمر بن عبد العزيز بشهادةٍ، وكان ينتف فَنيكَيْه، فردّ شهادته.

وورد عن رسول الله ﷺ النهى عن نتف الشيب، وقال: «هو نورُ المؤمن». ونهى عليه الصلاة والسلام عن الخضاب بالسواد قال: «هو خضابُ أهلِ النار». وفى لفظ آخر: «الخضابُ بالسَّواد خِضابُ الكفَّار». وأمر ﷺ أبا بكر أن يغير شيب أبيه، وقال: جنِّبه السواد.

وتزوج رجل على عهد عمر رضى الله عنه، وكان يخضب بالسواد، فنَصَل خضابه، وظهرت شيبته، فرفعه أهل المرأة إلى عمر فردّ نكاحه، وأوجعه ضربًا، وقال: غررتَ القوم بالشباب، ودلَّست عليهم شيبتك.

وقال رسول الله ﷺ: «الصفرة خضاب المسلمين، والحمرة خضاب المؤمنين». وكانوا يخضبون بالحناء للحمرة، وبالخَلُوق والكَتَم للصفرة.

ويقال: أوّل من خضب بالسواد فرعون لعنه الله.

وقال سرى بن المغلس السقطى: فى اللحيةِ شِرْكان: تسريحها لأجل الناس، وتركها منفتلة لإظهار الزهد. وقال أيضًا: لو دخل علىّ داخل فمسحتُ لحيتى لأجله، ظننت أنّى مشرك.

وعن كعب وأبى الجلد: وصفا قومًا يكونون فى آخر الزمان يقصون لحاهم كذنب الحمامة ويعرقفون نعالهم كالمناجل؛ أولئك لا خلاق لهم. وذُكر أيضًا عن جماعة أن هذا من أشراط الساعة.

وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبى ﷺ: «يكون فى آخر الزمان قومٌ يَخضبون بالسواد كحواصل الحمام، لا يريحون رائحة الجنة».

وروى أبو المهزم عن أبى هريرة أن أصحاب الدجال عليهم السّيجان، شواربهم كالصياصى، ونعالهم مخرطمة؛ يعنى: شواربهم مُلس تلوح، وأصل الصياصى: القرون وهو جمع صِيْصة، ومنه صيصة الديك الظفر النّاتئ الأملس مؤخَّر رجله

كأنّه عَظْم. وقوله: «عليهم السيجان»: يعنى الطيالسة، وهو جمع ساج، وقوله: «نعالهم مخرطمة» أى لها أعناق طوال معرقفة كالخراطيم، وهى أكمام الأباريق.

وكان ابن عمر يقول للحلاق: ابلغ العظمين، فإنهما منتهى اللحية؛ يعنى حدّها.

ولذلك سميت لحية لأنّ حدّها اللَّحْى، فالزيادةُ على ذلك الحد والنقصان منه مُحْدَث.

• ذكر ما جاء فى فعل بعض ذلك واستحبابه:

إن من العلماء من كان يأخذ من لحيته فى المناسك وغيرها، وإن قبضَ الرجلُ على لحيته وأخذَ ما تحت القبضة فلا بأس. قد فعله ابن عمر وجماعة من التابعين، واستحسنه الشعبى وابن سيرين وكرهه الحسن وقتادة. وتركُها عِافيةً على خِلقتها أحبُّ إلى.

وقد روينا خبرًا: «من سعادة المرء خفة لحيته» إلاّ أنّ بعض الرواة رواه على معنى آخر، فإن لم يكن صحَّفه فهو غريب؛ كان يقول فيه: «خفة لحييه»؛ أى بتلاوة القرآن، ولا آره محفوظًا.

وقد كان رسول الله ﷺ ثم الصالحون بعده يسرِّحون لحاهم؛ لأجل الدين والسنّة، وتنظيفًا للطهارة، ونزع التفَث من القمل وغيره، ولإسقاط شعر ميت إن كان هناك. وقد كان من الزّهاد من يترك لحيته منفتلة لا يسرّحها شغلاً عن نفسه. والصدقُ بعينه حسن، والصدق فى كل شىء حسن. قال بعضهم: رأيت داودَ الطائى منفتل اللحية. فقلت: يا أبا سليمان، لو سرّحت لحيتك. فقال: إنّى إذًا لفارغ. إلاّ أن رسول الله ﷺ كان يدَّهن شعره ويرجِّله غِبًّا، وأمرَ بذلك فقال: «وادّهنوا غِبًا». وقال: «من كانت له شعرة فليكرمها». ودخل رجلٌ ثائر الرأس أشعثَ اللحية فقال: «أما كان لهذا دُهن يُسكِّن به شَعَره؟ ثم قال: يدخل أحدُكم كأنّه شيطان».

وقد روينا فى خبر غريب: «كان رسول الله يسرِّح لحيته فى كل يوم مرتين».

وفى خبر أغرب منه، قالت عائشة رضى الله تعالى عنها: «اجتمع قومٌ بباب رسول الله ﷺ، فخرج عليهم فرأيته يطَّلع فى الجُبِّ ليسوِّى من رأسه ولحيته». وفى الخبر المشهور: «إنه كان يمشِّط لحيته فى كل يوم، وأن المشط والمدرى لم يكن يفارقه فى سَفَر ولا حضَر».

فهذه سنة العرب المعروفة فيهم، وكان عليه الصلاة والسلام عليها، وكانت من أخلاقه. وقد كان الشباب يتشبهون بالكهول تفضيلاً للكهول، غير عُجبٍ بالشباب، ولا فخرٍ بالحداثة.

وفى الخبر: «خير شبابكم من تشبَّه بشيوخكم، وشرّ شيوخكم من تشبَّه بشبابكم». وفى الحديث: «إنّ من إجلال الله تعالى إجلال ذى الشيبة المسلم». وقد كان الشيوخ يقدِّمون الشباب، ويرون فضلهم بالعلم والدين تواضعًا وإخباتًا لا تكبّرًا بالكِبَر ولا علوًا؛ كان عمر رضى الله تعالى عنه يقدم ابن عباس وهو حَدَث السنِّ على أكابر الصحابة ويسأله دونهم.

وروى عن ابن عباس وغيرها: ما آتى الله تعالى عبدًا العلم قط إلا شابًا، والخير كله فى الشباب. ثم تلا قوله تعالى: **﴿قَالُوا سَمعنَا فَتًى يَذْكُرُهُم يُقَالُ لَهُ إبراهِيمُ﴾** [الأنبياء: ٦٠]. وتلا قوله سبحانه: **﴿إِنَّهُم فِتْيَةٌ آمَنُوا بِربِّهِم﴾** [الكهف: ١٣]. وقوله تعالى: **﴿وآتَينَاهُ الحُكْمَ صَبِيًّا﴾** [مريم: ١٢].

وقد كان أنس بن مالك إذا ذكر رسول الله ﷺ قال: قُبض وليس فى شعر رأسه وشعر لحيته عشرون شعرة بيضاء. فقيل: ولِمَ يا أبا حمزة وقد أسنّ؟ قال: لم يَشِنهُ الله تعالى بالشيب. قيل: أوَ شَين هو؟ قال: كلّكم يكرهه.

ويقال: إن يحيى بن أكثم ولى القضاء وسنُّه إحدى وعشرون سنة. فقال له رجل ذات يوم وهو فى مجلسه يريد أن يَحْشِمَه بذلك: كم سنّ القاضى أيّده الله تعالى؟ فقال: مثل سنّ عتاب بن أُسيد حين ولاه رسول الله ﷺ إمارة مكة وقضاءها، فأفحمه.

وروينا عن مالك بن مغول قال: قرأت فى بعض كتب الله عز وجل: لا

تغرنَّكم اللحى، فإن التيس له لحية، وقال بعض الأدباء: كلما طالت اللحية تشمّر العقل.

وقال أبو عمرو بن العلاء: إذا رأيته طويل القامة، صغير الهامة، عريض اللحية فاقض عليه بالحمق، ولو كان أمية بن عبد شمس.

وقال معاوية رحمه الله تعالى: يتبين حمقُ الرجل من طول قامته، وعِظَم لحيته، وفى كُنيته ونقش خاتمه[1].

وكان إبراهيم النخعى ومثله من السلف يقول: عجبت لرجل عاقلٍ طويل اللحية، كيف لا يأخذ من لحيته فيجعلها بين لحيتين، فإن التوسط فى كل شيء حسن.

وأُنشدت لبعض الظرفاء:

لا تعجبنَّ بلحيـــةٍ كبُرت منابِتُها طـويلهْ
يهوى بها عَصْفُ الريا ح كأنها ذَنَب الحَسِيـلهْ
قد يدرك الشَّرفَ الفتَى يومًا ولحيتُـــه قَلِيلـهْ

وأنشدت لبعض العرب:

لَعمرُك ما الفتيانُ إن تَنبـت اللِّحى
ولكنّمـا الفتيـانُ كل فَتًى نَـدَى

ولم يكن الأشياخ يستنكفون أن يتعلموا من الشباب ما جهلوا، ولا يَزْرون عليهم بصغر سنهم، إذ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء؛ لا مانع لما أعطى الله من صبى أو غيره، ولا معطى لما منع الله من كبير أو غيره.

وقال أبو أيوب السختيانى: إنى أدركت الشيخ ابن ثمانين سنة يتبع الغلام يتعلم منه، فيقال له: تتعلم من هذا؟ فيقول: نعم، أنا عبده ما دمت أتعلم منه.

(١) جعل عِظَم اللحية دلالة على الحمق لا يعول فيه على كلام أهل اللغة أو الحكماء، وإنما الحمق أو العقل والعلم بحسب التربية التى يتلقاها الإنسان فى بداية حياته.

وقال على بن الحسن: من سبق إليه العلم فهو إمامك فيه، وإن كان أصغر سنًا منك.

وقيل لأبى عمرو بن العلاء: أيحسن للشيخ الكبير أن يتعلم من الصغير؟ فقال: إن كانت الحياة تحسن به فإن التعلّم يحسن به، وإنه يحتاج إلى العلم ما دام حيًا.

وقال يحيى بن معين لأحمد بن حنبل وقد رآه يمشى خلف بَغلَة الشافعى رضى الله تعالى عنه: يا أبا عبد الله، تترك حديث سفيان بعلوٍّ وتمشى خلف بغلة هذا الفتى وتسمع منه؟ فقال أحمد: لو عرفت منه ما أعرف لكنتَ تمشى من الجانب الآخر؛ إن علم سفيان إن فاتنى بعلوٍّ أدركته بنزول، وإن عَلِمَ هذا الشاب إن فاتنى لم أدركه بعلوٍّ ولا نزول[1].

وسمعت أبا بكر بن الجلاء يقول: إنى لأرى الصبى يعمل الشىء فأستحسنه فأقتدى به فيكون إمامى فيه. وما رأيت أشد تواضعًا منه على علمه وزهده.

فأما معنى الخبر الذى روى: «لا يزال الناس بخير ما أتاهم العلم عن أكابرهم، فإذا أتاهم عن أصاغرهم هلكوا». فإن ابن المبارك سئل عن معنى ذلك، فقال: أصاغرهم أهل البدع؛ لأنه لا صغير من أهل السنة ممن عنده علم. ثم قال: كم من صغير السن حملنا عنه كبير علم. وقد قيل: إن قوله: «عن أكابرهم» يعنى أصحاب رسول الله ﷺ؛ فهذا مواطئ للخبر الآخر: «لا تزال أمتى بخير ما دام فيهم من رآنى، وليأتين عليهم زمانٌ يطلب فى أقطار الأرض فلا يوجد أحد رآنى».

كيف وقد جاءت بذلك لفظة ذكرتها: لا يزال الناس بخير ما أتاهم العلم عن أصحاب رسول الله ﷺ وعن أكابرهم، فإذا أتاهم عن أصاغرهم استعصى الكبير على الصغير فهلكوا؛ أى فذلك خشيةَ أن لا يتعلم منه، لما ذكرناه من الحياء والتكبّر والاستنكاف.

ووجه آخر هذا مجازه عندى: على الخبر والكَون، لا على الذم والعيب[2]؛

---

(١) وذلك لما كان عليه الإمام الشافعى رحمه الله من الفقه والعلم.

(٢) كلمة «والعيب» ساقطة من المطبوعة.

لأنه قد جاء فى الأثر وصفُ هذه الأمة: «فى أوّل الزمان يتعلم صغارها من كبارها، فإذا كان آخر الزمان تعلّم كِبارها من صغارها». فإذا كان كذلك، فهذا تفضيل الأصغار، وتشريف هذه الأمة على سالف الأمم؛ لأنهم لم يكونوا يحملون العلم إلا عن القسيسين والرهبان والأشياخ العبّاد والزهّاد. وأخبر أن هذه الأمة فى آخر الزمان تَفْضُل سالف الأمم فى أول أزمنتهم، بأن يتعلم الكبير من الصغير؛ لما فضلهم الله تعالى به، فذلك أشدّ وطأ للخبر الآخر: «أمتى كالمطر لا يُدرى أوّله خيرٌ أم آخره». ولمثله من الشاهد: «كيف تَهْلَكُ أمة أنا فى أولها، والمسيح ابن مريم فى آخرها».

وقد روينا فى الخبر: «لا تَحْقِروا عبدًا آتاه الله تعالى عِلمًا فإن الله تعالى لم يَحْقِره أن جعل العلم عنده».

وكان شعبة يقول: من كتبتُ عنه حديثًا أو تعلّمت منه علمًا فأنا عبده. وقال مرة: إذا كتبتُ عن الرجل سبعة أحاديث فقد استرقّنى.

فأما الخضابُ بالسواد فقد يروى أن بعض العلماء ممّن كان يقاتل فى سبيل الله تعالى كان يَخْضِبُ بالسّواد، ولكن لم يكن هذا يخضب به لأجل الهوى ولا لتدليس الشيب، إنّما كان يعدّ هذا من إعداد العدة لأعداء الله تعالى، بمعنى قول الله عز وجل: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَا اسْتَطَعْتُم مِن قُوَّةٍ**﴾ [الأنفال: ٦٠]، وإظهار الشباب من القوة، وقد رَمَل رسول الله ﷺ واضطبع هو وأصحابه ليراهم الكفار، فيعلموا أن فيهم جَلَدًا وقوةً. ومن صَنَع شيئًا بنية صالحة يريد بذلك وجه الله تعالى، وكان عالمًا بمذهب له ذهب إليه، فهو فاضل فى فعله، وإن كان ذلك من أدون أعماله لم يُتبع أن يُستنَّ به فيه؛ لأنّا روينا عن رسول الله ﷺ: «من شرِّ الناس منزلةً عند الله مَنْ يقتدى بسيئة المؤمن ويترك حسنته». فأخبر أن للمؤمن سيئةً، وأن من شرِّ الناس من تأسى بها معذرة لنفسه فى هواها.

• باب ما ذكر من نوافل الركوع وما يكره من النقصان منه [(١)]:

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ [الطور:٤٩]. وروينا عن على رضى الله تعالى عنه أنه فسره قال: ركعتا الفجر. وكذلك فسّر قوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ [ق:٤٠]، قال: ركعتا المغرب. وهذا على قراءة من كسر الألف. فأما من نصبها فإن معناه: أدبار الصلوات؛ أى أعقابها وأواخرها.

والتسبيح: اسم للصلاة النافلة، لكون التسبيح فيها. وتُسمى النافلة سُبحة.

فمن سُنن الركوع واستحبابه أدبار الصلوات وقبلها، الذى لا أستحب ترك شىء منه، وبعضه أوكد من بعض، سبع عشرة ركعة، مجموعٌ من خمسة أحاديث: حديث علىٍّ رضى الله تعالى عنه أنه سئل عن صلاة رسول الله ﷺ بالنهار فقال: ست عشرة ركعة. وحديث ابن عمر: «حفظت من رسول الله ﷺ عشر ركعات». وحديث أبى أيوب الأنصارى فى الصلاة قبل الظهر. وحديث أنس بن مالك وعائشة فى الصلاة بعد العشاء الآخرة، وفى الوتر. وخبرُ أم حبيبة الوارد بالفضل من العدد: «من صلّى فى يوم اثنتى عشرة ركعة غير المكتوبة بنى الله تعالى له بيتًا فى الجنة». وخبر غريب رواه أهل البيت مواطئ لبعض ما ذكرناه: «إن الله تعالى فرض عليكم فى اليوم والليلة سبع عشرة ركعة، وسننتُ لكم مثلها» أول ذلك: ركعتا الفجر، وهما سنة مؤكدة. وأربع قبل الظهر، وهن مستحبات مؤثرة فى الاستحباب، وركعتان بعدها، وهما سنة. وأربع قبل العصر، وهى مستحبة مقدّمة لقوله ﷺ: «رحم الله عبدًا صلّى قبل العصر أربعًا»؛ رجاء أن يدخل فى دعوة رسول الله ﷺ. وركعتان بعد المغرب، وهما سنّة مؤكدة. وثلاث ركعات الوتر مؤكدة.

فأما حديث على رضى الله عنه فإنه ذكر من صلاة رسول الله ﷺ شيئًا لم يذكره غيره: أنه ﷺ كان يصلى الضحى ست ركعات فى وقتين، إذا أشرقت

---

(١) قد مضى شىء منه فى أوائل الكتاب.

الشمس وارتفعت قام فصلّى ركعتين، وهذا هو الإشراق، وهو الورد الثانى من النهار. وإذا انبسطت الشمس، وكانت فى ربع السماء من المشرق، ومثلها حين تكون فى ثلاثة أرباع السماء من صلاة العصر، صلى أربعًا، وهذا هو الضحى الأعلى، والورد الثالث من النهار.

والمواظبة على هذه الصلاة بمراعاة هذين الوقتين من عزائم الأعمال وفواضلها. وذكرت أم هانئ أخت على رضى الله تعالى عنه أنه صلى الضحى ثمانى ركعات، أطالهنّ وحسّنهن، ولم ينقل هذا العدد غيرها. وأما عائشة رضى الله تعالى عنها فإنها ذكرت أنه ﷺ كان يصلى الضحى أربعًا ويزيد ما شاء الله، فلم تحدِّد.

وقد روينا فى حديث منفرد: أن النبى ﷺ كان يصلى الضحى ست ركعات، وقد روى أبو أيوب الأنصارى عن رسول الله ﷺ شيئًا تفرّد به: «إنه لم يكن يدع أن يصلى أربعًا بعد الزوال، وقبل صلاة الظهر، يقرأ فيهنّ بمقدار سورة البقرة. قال: فسألته عن هذه الصلاة فقال: إنّ أبوابَ السماء تفتح هذه الساعة، ويستجاب الدّعاء، فأنا أحبّ أن يُرفع لى فيها عمل صالح».

وقد جاء فى حديث أم حبيبة زوج النبى ﷺ مفسرًا: «من صلى فى يوم اثنتى عشرة ركعة غير المكتوبة بنى الله له بيتًا فى الجنة، ركعتين قبل الفجر، وأربعًا قبل الظهر، وركعتين بعدها، وركعتين قبل العصر، وركعتين بعد المغرب».

ورواه ابن عمر فى حديثه: «حفظت من رسول الله ﷺ فى كل يوم عشر ركعات» فذكرها إلا قوله: «وركعتين قبل الفجر»، فإنه قال: تلك الساعة لم يكن يُدخَل فيها على رسول الله ﷺ. ولكن حدثتنى أختى حفصة أنه كان يصلى ركعتين فى بيتها ثم يخرج. وقال فى حديثه: «ركعتين قبل الظهر وركعتين بعد العشاء». وقالت عائشة: «كان رسول الله ﷺ يصلى بعد العشاء الآخرة أربع ركعات ثم ينام».

وقال أنس بن مالك: «كان رسول الله يوتر بعد العشاء بثلاث ركعات. يقرأ فى الأولى بسبِّح اسم ربّك الأعلى، وفى الثانية: قل يا أيها الكافرون، وفى الثالثة:

قل هو الله أحد». وقد جاء فى خبر أنه كان يصلى بعد الوتر ركعتين جالسًا، وفى بعضها متربِّعًا.

وفى بعض الخبر: «إذا أراد أن يدخل فى فراشه زحف إليه، وصلّى فوقه ركعتين قبل أن يرقد، يقرأ فيهما: إذا زلزلت الأرض، وسورة ألهاكم التكاثر». وفى رواية أخرى: «وقل يا أيها الكافرون».

فإن أضعف العبد هذه السبع عشرة ركعة فجعلها أربعًا وثلاثين يداوم عليها، ويجعلها ورده من الصلاة، فهو أفضل.

وهذا مذهب أهل البيت عليهم السلام، واحتجوا فيه بخبر رووه عن النبى ﷺ أنه قال: «فرض الله تعالى على أمتى فى اليوم والليلة سبع عشرة ركعة، وسننت لهم مثلها». وإن كان الحفاظ من أهل النقل يُضعِّفُون هذا الحديث، إلا أنه قال عليه الصلاة والسلام: «الصلاة خير موضوع، فمن شاء أكثر ومن شاء أقل». وقال: «بين كل أذان وإقامة صلاة لمن شاء».

فإن فعل ذلك وراعاها على ما يرتبه فهو مقارب لما ذكرناه آنفًا من السنن. والاستحباب قبل الصلوات الخمس وبعدها: ركعتان قبل الفجر، وأربع من الضحى، وأربع قبل الظهر وأربع بعدها، وأربع قبل العصر، وست بعد المغرب، وأربع قبل العشاء وست بعدها، ثم يوتر بواحدة. فهذا حينئذ نحو ما رسمناه، وهو مشبه لما نقلناه من الآثار. وليستند إلى الخبر المأثور وإلى فعل أهل البيت.

وأكثر ما روى من صلاته ﷺ بالنهار ست عشرة ركعة، ومن صلاته بين العشاءين مما نُقل عنه ست ركعات، وأكثر ما روى من صلاة الضحى ثمانى ركعات، ومن صلاته بالليل ثلاث عشرة ركعة، إلا حديثًا مقطوعًا موقوفًا على طاووس رواه ابن المبارك: «أن النبى ﷺ كان يصلى من الليل سبع عشرة ركعة»، فهو حديث شاذ، وسائر الأخبار المسندة عن ابن عباس، وعائشة، وميمونة، وأم حبيبة؛ إنّما هى إحدى عشرة ركعة وثلاث عشرة ركعة.

وأستحبّ أن يصلى العبد قبلَ كلِّ صلاة أربعًا وبعدها أربعًا، إلاّ ما لا صلاة

قبلها ولا صلاة بعدها، ثم يزيد بعد ذلك ما قسم الله تعالى له، وأن يصلّى الضحى ثمانى ركعات، ويواظب عليهن، إذا نَشِط أطالهن وإذا فَتَرَ قصَّرهن، فإنّ المداومة على العمل عمل ثان، وهو من أفضل الأعمال وأحبِّه إلى الله تعالى، وإلاّ اقتصر على أربع يُديمهن.

ولا أكره أن يصلى قبل المغرب ركعتين بعد غروب الشمس. فقد قال أنس بن مالك: كان الكِبارُ من أصحاب رسول الله ﷺ يصلّون ركعتين قبل المغرب.

وكان أبيّ بن كعب، وعبادة بن الصامت، وأبو ذر، وزيد بن ثابت، وغيرهم من أكابر أصحاب رسول الله ﷺ يصلّونها. وقال عبادة أو غيره: كان المؤذن إذا أذن لصلاة المغرب ابتدر أصحاب رسول الله ﷺ السوارى يصلون ركعتين.

وقال أيضًا بعضهم: كنّا نصلى ركعتين قبل المغرب. وذاك داخل فى عموم قوله ﷺ: «بين كل أذانين صلاة لمن شاء».

وقد كان أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى يصليهما فعابهما الناس عليه. وقال مرة: لم أرَ الناس يصلّونهما فتركتهما. وقال: إن صلاّهما الرجل فى بيته أو حيث لا يراه الناس فحسنٌ. وكذلك أستحبُّ.





الفصل السابع والثلاثون

كتاب[1] شرح الكبائر التى تحبط الأعمال وتوبق العمال وتفصيل ذلك، ومنازل أهلها فيها، ومسألة محاسبة الكفار

قال الله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]. فاشترط لتكفير الصغائر من السيِّئات اجتنابَ الكبائر الموبقات. وقال ﷺ: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة تكفِّر ما بينهنّ لمن اجتنبَ الكبائرَ». وفى لفظ آخر: «كفّارات لما بينهن إلا الكبائر». فاستثنى من كفّارات الذنوب الكبائر.

فاختلف العلماء من الصحابة والتابعين فى الكبائر من أربع، إلى سبع، إلى تسع، إلى إحدى عشرة، فما فوق ذلك، فكان ابن مسعود يقول: هن أربع. وكان ابن عمر يقول: الكبائر سبع. وقال عبد الله بن عمرو: هنَّ تسع. وكان ابن عباس إذا بلغه قول ابن عمر أنَّ الكبائر سبع يقول: هى إلى سبعين أقرب منها إلى سبع. وقال مرة: كلُّ ما نهى الله تعالى عنه فهو من الكبائر. وقال هو وغيره: كل ما توعَّد الله تعالى عليه بالنار فهو من الكبائر.

وقال بعض السلف: كلّ ما أوجب الحد فى الدنيا فهو كبيرة.

والصغائرُ عندهم من اللَّمَم وهو ما لا حدّ فيه وما لم يتهدد بالنار عليه. فقد روى هذا عن أبى هريرة وغيره. وكان عبد الرزاق يقول: الكبائر إحدى عشرة. وهذا أكثر ما قيل فى جملة عددها مجملاً. وقيل: إنها مبهمةٌ لا يُعرف حقيقة عددها، كإبهام ليلة القدر، وساعة يوم الجمعة، والصلاة الوسطى؛ ليكون الناس على خوفٍ ورجاءٍ، فلا يقطعون بشىء ولا يسكنون إلى شىء.

وقد قال ابن مسعود فيها قولاً حسنًا من طريق الاستنباط، وقد سئل عن الكبائر

---

(١) ساقطة من المطبوعة، وهى ثابتة فى (د، م).

فقال: اقرأ من أول سورة النساء إلى رأس ثلاثين آية منها عند قوله: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾، فكل ما نهى الله تعالى عنه من أول السورة إلى هاهنا فهو من الكبائر.

فأشبه هذا الاستدلال قول ابن عباس فى استنباط ليلة القدر أنها ليلة سبع وعشرين، أنه عدّ كلم سورة القدر حتى انتهى إلى قوله ﴿هِىَ﴾ فكان سبعًا وعشرين كلمة. والله أعلم بحقيقة هذين القولين.

والذى عندى فى جملته وتفصيله: إنّ الكبائر سبع عشرة مستخرجة من أحاديث متفرقة، جمعنا عدد ذلك، وهو ما اجتُمِع عليه. ومن حديث ابن عباس، وابن مسعود، وعبد الله بن عمرو، وحديث ابن عمر، وغيرهم من الصحابة والتابعين. يذكر فى حديث ما لا يذكر فى الآخر، فكان جملة[1] ذلك مجتمعًا من المتفرق سبع عشرة، تفصيلها:

أربعةٌ من أعمال القلوب وهنّ: الشرك بالله تعالى، والإصرار على معصية الله تعالى، والقنوط من رحمة الله تعالى، والأمنُ بمكر الله تعالى.

وأربعة فى اللسان وهنّ: شهادة الزور، وقذف المحصَن وهو الحر البالغ المسلم، واليمين الغموس؛ وهى التى تبطل بها حقًا أو تحقّ بها باطلاً، وقيل: هى التى يُقطع بها مال مسلم ظلمًا ولو سواكًا من أراك، وسميت غموسًا لأنها تغمسه فى غضب الله تعالى، وقيل: لأنها تغمس صاحبها فى النار، والسحر؛ وهو ما كان من كلامٍ أو فعلٍ يقلب الأعيان، أو يغيِّر الإنسان، وينقل المعانى عن موضوعات خلقها. والسحرة: هم النفاثات فى العقد، الذين أمر الله تعالى بالاستعاذة منهم.

وثلاثة فى البطن وهى: شربُ الخمر والسُّكر من الأشربة، وأكل مال اليتيم ظلمًا، وأكل الربا وهو يعلم.

واثنتان فى الفرج وهما: الزنا، وأن يعمل عمل قوم لوط فى الأدبار.

واثنتان فى البدن وهما: القتل، والسرقة.

---

(١) من أول هذه الفقرة إلى هنا ساقط من المطبوعة.

وواحدة فى الرِّجلين وهى: الفرار من الزحف؛ الواحد من اثنين والعشرة من عشرين، غير متحرِّف[١] إلى الأمام، ولا متحيزًا إلى فئة، ولا معتقدًا الكَرَّة.

وواحدة فى جميع الجسد وهى: عقوق الوالدين. وتفسير العقوق جملةً أن يقسما عليه فى حقٍّ فلا يبرُّ قسمهما، وأن يسألاه فى حاجة فلا يعطيهما، وأن يأتمناه فيخونهما، وأن يجوعا فيشبع ولا يطعمهما، وأن يَسُبَّاه فيضربهما.

وذكر وهب بن منبه اليمانى: أفضل البر بالوالدين فى التوراة: أن تقى مالهما بمالك، وتوفّر مالهما وتطعمهما من مالك، وأصل العقوق: أن تقى مالك بمالهما، وتوفر مالك وتأكل مالهما.

وفى حديث أبى هريرة: «الصلاة إلى الصلاة كفارة، ورمضان إلى رمضان كفارة، إلاّ من ثلاثة: إشراك بالله، وترك السنّة، ونَكْث الصفقة»؛ بأن تبايع الرجل، ثم تخرج عليه بالسيف تقاتله.

وقد روينا عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من الكبائر استطالة الرجل فى عِرض أخيه المسلم بغير حق». ومن الكبائر السَّبَّتانُ بالسَّبَّة.

وأما عبادة بن الصامت وأبو سعيد الخدرى وغيرهما من الصحابة فكانوا يقولون: إنكم لتعملون أعمالاً هى أدق فى أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الكبائر. وهى فى بعض الألفاظ: من الموبقات.

وقالت طائفة: كل عَمْدٍ فهو كبيرة. وقال بعض السلف: أربعة أشياء مبهمةٌ لا يعلم حقائقها: الصلاة الوسطى، وليلة القدر، وساعة يوم الجمعة المرجوُّ فيها الإجابة، والكبائر؛ ذلك ليكون الناس على خوف من الوعيد فى الاتقاء، وعلى رجاءٍ من الوعود فى الابتغاء؛ لئلا يقطعوا بشىء، ولا يسكنوا إلى شىء، ولله عاقبة الأمور.

فالذى ذكرناه من الخصائل هو من أوسط الأقوال وأعدلها، وهو ما اتفقوا

---

(١) فى الأصول: « غير خائف».

عليه، وكثرت الأخبار فيه. فهذه الكبائر الموبقات التى من اجتنبها كفّرت عنه السيئات، وثبتت له النوافل من الفرائض الخمس التى هى أبنية الإسلام، وذلك أن دعائم الإسلام وهذه الكبائر قرينان يعتلجان ويتقاومان فى العظم والمعنى بالتضاد.

فالكبائر كبرت، فكفَّر اجتنابها ما دونها من الصغائر، والفرائض الخمس التى هى أبنية الإسلام إذا تُمِّمت كفَّرت ما بعدها من السيئات، وثبت للعبد نوافله، وتبدل سيئاته حسنات، فيكون له فضل عظيم يرجى له الجنة ومنازل العاملين وهو السابق بالخيرات.

قال الله تعالى: ﴿**إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ**﴾ [النساء: ٣١]. وقال من بعد الكبائر: ﴿**إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِم حَسَنَاتٍ**﴾ [الفرقان: ٧٠]. وقال رسول الله ﷺ: «الصلوات الخمس كفّارات لما بينهن ما اجْتُنِبت الكبائر».

فالفرائض الأربعُ التى هى أبنية الإسلام منوطة بالصلوات الخمس، لا تصح إلاّ بها، كالشىء الواحد بمنزلة الأربع مع الصلوات مرتبطة بالشهادتين، إن ترك خصلةً منها كان كترك الخمس، لأنها أُسُّ الإسلام وأبنية الإيمان. وبمنزلة اجتناب الكبائر منوط بالشهادتين لا يقع[١] جميع ذلك إلا بهما، فإذا انتُهكت الكبائر أُحبطت الأعمال إلا الفرائض الخمس، فإنها عظمت عليها فلم تُحبِطْها. وإذا أُدِّيت الفرائض الخمس أحبطت ما بينها من السيئات إلا الكبائر، فإنها كبرت فلم تكفِّرها، فلا يبقى للعبد يوم القيامة مع ارتكاب الكبائر من الأعمال إلا الفرائض الخمس، وقد أكل سائرَ نوافله ارتكابُ الكبائر، فيُخاف عليه النار ومنازل المسرفين، وهذا هو الظالم لنفسه، وهو الذى حذَّر الله تعالى المؤمنين منه فقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلاَ تُبْطِلُوا أَعمَالَكُمْ**﴾ [محمد: ٣٣].

ومنه قوله تعالى: ﴿**بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ**﴾ [البقرة: ٨١]، قيل: هى الكبائر أحاطت بجميع حسناته فمحقتها، وعلى هذا اختيارنا هذا الحرف من

(١) فى (د): «لا ينفع».

مقرانا. وعلى الوجه الآخر: ﴿وأحَاطَتْ به خَطِيئَتُه﴾، قيل: هو الذى يموت من غير توبة، أحاطت به خطيئة الإصرار. وقد قيل: خطيئة الشرك الذى خُتم له به، فلم ينفعه عمل كان قبله.

فإن قصّر فى الفرائض الخمس التى هى مبانى الإسلام إلاّ أنه كان مجتنبًا الكبائر، كفِّرت عنه سيئاته كلها، وتُممت فرائضه بسائر نوافله؛ لأنها ثابتة له بعد أن يحصل له صحة التوحيد، ويسلم من كبائر البدع التى تنقل عن الملّة؛ وهذا ممن استوت حسناته وسيئاته: فيطول وقوفه للحساب، ويشاهد الزلازل والأهوال؛ ليكون ذلك رجحان حسناته، أو يُجعل من أصحاب الأعراف على أعراف السُّور، وهى شُرَفُه التى بين الجنة والنار، وهو الحجاب الذى بين أهل النار وأهل الجنة، إلى أن يتفضل الله تعالى عليه بفضل رحمته، فإن سمح له مولاه فعفا عنه سقط عنه هذا كله، وأُدخل الجنة فى أصحاب اليمين، وهذا هو المقصد المتوسط بين الظالم لنفسه والسابق إلى ربه.

فإن لم يكن له نوافل مع نقصان فرائضه، لم يبق له من أعماله إلا اجتناب الكبائر، فيوزن ما بقى من عمله، وهو اجتنابه الكبائر بفرائضه النواقص، فإن رجح اجتناب الكبائر مثقال ذرة، أو فضلت له حسنة واحدة، ضاعفها الله تعالى بالمزيد، وتجاوز عن سيئاته فى أصحاب الجنة، ولم تكن له مقامات المقربين، ولا درجات السابقين، وهو ممن قال الله سبحانه وتعالى فيه: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠] يعنى الجنة.

وإن خفّ إضاعته الفرائض لسنته، كان من الموقنين للحساب الطويل، واحتاج إلى شفاعة الشافعين.

فإن كان فرائضه الخمس ناقصة، وكان مرتكبًا للكبائر، فهو من الهالكين؛ لأنه ممن خفّت موازينه من المؤمنين، وهذا من المسرفين، ومن أصحاب النار، فيدخل النار لنقص إسلامه، ولوفور سيئاته عليه، إذ لم تمحها حسناته، ولبُطُول نوافله بانتهاكه الكبائر، ولأن إيمان هذا نَقصٌ من مثقال دينار، إلا أنه لا يكون من

المخلَّدين لصحّة توحيده، وعلى أنه أوّلُ من يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال دينار من إيمان، فهو فى أول طبقة يخرج هذا إلى زنة شعيرة إلى ذرة من إيمان، وهؤلاء آخر الطبقات خروجًا إلاّ أن يبدو لبعضهم من الله تعالى ما لا يحتسبه، ويظهر له غدًا ما لا يعلمه، فيعفى عن البعض، ولا يجعل ممّن حقّ عليه الوعيد لما سبق له من الكلمة الحسنى، ويتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة.

وقد جاء فى الخبر: «يؤتى بالرجل من هذه الأمة فيُسَدُّ به ركنٌ من أركان جَهَنّم».

وقد جاء فى الخبر: «إن العبدَ ليوقف بين يدى الله عز وجل وله من الحسنات أمثال الجبال لو سَلِمَت له لكان من أهل الجنة، فيقوم أصحاب المظالم، فيُوجد قد سبَّ عِرض هذا، وأكل مال هذا، وضرب هذا، فيُقَصُّ[1] من حسناته حتى لا تبقى له حسنة. فتقول الملائكة: يا ربنا قد فنيت حسناته وبقى طالبون كثير. فيقال: ألقوا من سيئاتهم على سيئاته وصكُّوا له صكًا إلى النار».

وقد جاء فى العلم: إن آخر من يبقى فى جهنم من الموحِّدين سبعة آلاف سنة.

ورويناعن أبى سعيد الخدرى وغيره من الصحابة، وفيه شدّة، قال: والله لا يخرج عبد من النار بعد أن دخلها حتى يقيم فيها سبعة آلاف سنة.

وهذا ـ والله أعلم ـ آخر من يخرج من النار؛ لأنهم يخرجون زمرًا متفاوتين من اليوم، والجمعة، والشهر، والسنة، إلى ستة آلاف سنة، فأكثرهم إيمانًا أقلّهم مقامًا، وأقلهم مُكثًا أوّلهم خروجًا.

أما أول زمرة تخرج: مَن فى قلبه مثقال ذرة من إيمان، فهذا أقلهم لُبثًا وأسرعهم خروجًا إلى شعيرة إلى ذرة؛ فهؤلاء أقلهم إيمانًا، وأنقصهم توحيدًا، وأعظمهم جُرمًا، وأشدّهم على الله عِتيًّا، وهو أكثرهم مقامًا. وقد اشتهر خبر من يخرج من النار بعد ألف عام ينادى: يا حنَّان يا منّان. فقال الحسن لما روى هذا الحديث: يا ليتنى كنت ذلك الرجل؛ لشدّة خوفه خاف أن يدخلها، ثم عظم

(١) فى الأصول: «فيقبض».

خوفه فخاف أن لا يخرج منها، فتمنى أن يخرج منها بعد ألف عام. وقد جاء فى خبر: «آخر من يخرج من النار»، وهو أيضًا آخر من يدخل الجنة، فلعله ـ والله أعلم ـ بعد سبعة آلاف سنة، «فيُعطَى من الجنة مثل الدنيا كلها عشرة أضعاف». رواه أبو سعيد وأبو هريرة رضى الله تعالى عنهما عن رسول الله ﷺ.

ومعنى الحكمة فى إدخال البشر النار على ترتيب الكون: أنهم خُلقوا من ماء، ثم خالطه ما امتزج به من الأهواء، فلا يُستخرج ذلك إلا بالنار، فإنها تُخرج الماء مما مازجه حتى يخلص، وأنهم أيضًا خُلقوا من تراب الأرض، بمنزلة الخشب المعوجِّ يُقوَّم بالنار حتى يستقيم، ثم يُقطع عنه بالنار، ويستقيم ذلك، فعندها يصلح لغير النار.

وموضع الحكمةِ فى تخليد الكافرين والشياطين فى النار أن أرواحهم خُلقت من جوهر النار، فرجعت إلى معدنها، وهى أيضًا سوداءُ مُظلمة نارية، وهم أيضًا خُلقوا لها، لا يصلحون لغيرها، بمنزلة الحطب والشوك والحراق الذى لا يصلح إلا للنار. فتبارك الله تعالى؛ مَن حكمته معتدلة فى الأشياء، وحكمه غامضٌ فيها، ينظر بعين التعديل، فيقسم بها المقادير، بمعانى التنقيص والتفضيل.

ومجملُ ما ذكرناه أن كلَّ وصفٍ يكون للعبد من الخير يكفِّر عنه سيّئاته فإن نوافله تثبت له، وكلَّ وصف يكونً له من الخير لا يكفِّر سيئاته[1] فإن نوافله ساقطة، وكلَّ وصف يكون له من الشرّ لا يحبط نوافله فإن سيئاته مُبدَلَة حسنات، وكلَّ وصفٍ يكون له من الشر يحبط نوافله[2] فإن نوافله موفرة ثابتة. ومَن كلٍ عاملاً للحسنات وهو فى ذلك يرتكب بعض الكبائر، فإن أعمال برِّه وفضائله موقوفة إلى التوبة، فإن تاب واستقام كفَّرت توبتُه ما سلف من كبائره وبدَّلت استقامتُه على الطاعة سيئاتِه حسناتٍ.

وأكثر ما يوبق الناس من الكبائر المظالمُ، وأكثر ما يدخلهم النار ذنوب غيرهم إذا طُرحت عليهم، وكثير يدخلون الجنة بحسنات غيرهم إذا طُرحت عليهم؛ لأنها

---

(١) من قوله: «فإن نوافله» إلى هنا ساقط من المطبوعة.

(٢) من قوله: «فإن سيئاته مبدلة» إلى هنا ساقط من المطبوعة.

صحيحة ثابتة، وقد تبطل حسناتهم لدخول الآفات عليها. بلغنى عن أبى عبد الله ابن الجلاء: أن بعض إخوانه اغتابه، ثم أرسل إليه ليستحلّه، فقال: لا أفعل، ليس فى صحيفتى حسنة أفضل منها، فكيف أمحوها؟ وكان هو وغيره يقول: ذنوب إخوانى أفضل من حسناتى، أريد أن أزين صحيفتى بها.

وفى الحديث: «ذنب يُغفر، وذنب لا يُترك»؛ فالذنب الذى يغفر ظلمك نفسك، والذنب الذى لا يُترك مظالم العباد، والتوبة طريق الكلِّ، والرحمة تسعهم، وباب التوبة مفتوح للكافة إلى طلوع الشمس من مغربها، وكلُّ عبد توبته متقبَّلة ما لم تبلغ الروح الحلقوم ولم يعاين الملائكة، فإذا بلغت الروح التراقى، وعاينت الأملاك، غُلق عليه باب التوبة، ومات على الإصرار، ﴿ وقيلَ منْ رَاق﴾ أى من يرقى برُوحه: ملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟ ﴿وظَنَّ أَنَّه الفرَاقُ﴾ [القيامة: ٢٧ ـ ٢٨] أيقن أنه قد فارق الدنيا بمعاينة الآخرة، وفارق الناس والأهل بمعاينة الملائكة، فإن مات عن غير توبة كان ممن قال الله عز وجل: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَينَ مَا يَشتَهُونَ﴾ قيل: التوبة ﴿كمَا فُعلَ بأَشيَاعهم منْ قَبْلُ﴾ [سبأ: ٥٤]. وكما قال تعالى: ﴿ولَيستَ التَّوْبَةُ للَّذينَ يَعْمَلُونَ السيِّئَات حَتَّى إِذَا حَضرَ أَحَدَهُمُ الْموتُ قَالَ إِنِّى تُبتُ الآنَ﴾ [النساء: ١٨].

وحضور الموت يكون عند معاينة ملك الموت إذا خرجت الروح من جميع الجسم، فلم يبق إلاّ ما بين القلب والعينين، فهو الوقت الذى قال الله عز وجل: ﴿يوْمَ يَرونَ المَلائكَةَ لاَ بُشْرَى يَوْمَئذ للْمُجْرِمينَ﴾ [الفرقان: ٢٢]. وهو الذى خوَّف منه فى قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأتيَهُمُ المَلائكَةُ﴾ يعنى عند الموت؛ وهذا لأهل المعاينة ﴿أَوْ يَأْتِىَ ربُّكَ﴾ يعنى يوم القيامة؛ وهذا لأهل البرزخ ﴿أَوْ يَأتىَ بَعْضُ آيات ربِّكَ﴾ وهو اليأس الذى يقع عنده من الدنيا؛ اليأس من طلوع الشمس من مغربها وهو آخر التوبة، ويؤمن معه كل كافر، فقال سبحانه. ﴿يَوْمَ يَأتى بَعْضُ آيَات ربِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ منْ قَبْلُ﴾ أى من قبل

المعاينة ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِى إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام:١٥٨] قيل: التوبة، وهو الوقت الذى قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ يعنى كشف الغطاء ﴿قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللهِ الَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِ﴾ [غافر:٨٤ ـ ٨٥] يعنى طريقته وشأنه الذى مضى فى الخلق لا تبديل له، ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

وحكم العباد كلّهم فى المعاد إلى الله عز وجل، إن عذّبهم فبما اكتسبوا ويعفو عن كثير، وإن شاء أن يغفر لهم وهو الغفور الرحيم.

وقد يتفاوت الناس فى جميع ما ذكرناه من أداء الفرائض ومن ارتكاب المعاصى[1]. فمنهم من يكون حَسَنَ الأداء لفرضه، كثير الندم والإشفاق من معاصيه، فيكون هذا أحسنَ حالاً. ومنهم من يكون سيِّىءَ الأداء، قليل الحزن والندم على ذنوبه، فيكون هذا أسوأ حالاً. وليس يَجرُون فى ذلك على قياس واحد، والله يغفرُ لمن يشاء الذنب العظيم، ويعذب من يشاء على الذنب الصغير، لما سبق لهما فى علمه، ولما نفذ لهما من مشيئته وحُكمه.

وقد يشترك الاثنان فى معصية، ويتفاوتان فى حكم المشيئة، ويتوب الله على من أحب، ويتقبَّل ممن يحبّ. والقبول غير العمل؛ على العبد العمل وإلى المولى القبول، يقبل ممّن يحب، ويرد ما يشاء ممن يشاء. والسابقة غير المعصية؛ السابقة فى المشيئة يغفر لمن سبقت له الحُسنى جميعَ معاصيه السُّوأى، ويعذِّب من حقَّت عليه كلمة العذاب، ويحبط أعماله الحسنى. والخلقُ مردودون إلى السابقة، ومحكوم عليهم بعلم الله تعالى فيهم.

وفى الخبر: «هلك المصرُّون قدمًا إلى النار»، والإصرار: يكون بمعنى أن يعقد

---

(١) من هنا حدث خلل كبير فى المطبوعة إذ تقدم جزء كبير من الفصل التالى عن موضعه ووضع هنا، وتأخر بقية هذا الفصل إلى الفصل الذى يليه، راجع المطبوعة الميمنية ٢/١٥١ ـ ١٦٤، وتبعتها فى ذلك كل الطبعات التى تلتها معتمدة عليها دون تنبيه. بينما النص فى الأصول المخطوطة التى بين يدى على الوجه الصحيح الذى وضعته الآن.

بقلبه متى قدر على الذنب فعله، أو لا يعقد الندم عليه ولا التوبة منه، وأكبر الإصرار السعى فى طلب الأوزار. وفى الخبر: «سبق المُفْرِدُون المستهترون[1] بذكر الله تعالى، وضع الذكرُ أوزارهم فوردوا القيامة خفافًا». فهؤلاء الذين سبقت لهم منه الحسنى من المقرَّبين، أخبر رسول الله ﷺ أن لهم أوزارًا وضعتها الأذكار. وقال تعالى: ﴿والسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولئكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١٠ ـ ١١]. هذا ما علمناه من أدلة العلوم وتأويل التنزيل، وعفوُ الله تعالى وإرادته من وراء ذلك كلّه، وعلمه القديم، ولله عاقبة الأمور.

• مسألة محاسبة الكفار:

فأمّا محاسبة الكفار فهذه مسألة اختلف الناس فيها، فمنهم من ذهب إلى أنهم يحاسبون، ومنهم من أنكر حسابهم، وقد اختلفت الآثار فى ذلك، فقد جاء فى بعضها ما يدلّ على حسابهم، وبه تعلّق من قال به. وجاء فى كثير منها ما يدل على أنهم لا يحاسبون، وبه احتج من أنكر حسابهم.

وإنما يُرجع عند الاختلاف إلى كتاب الله تعالى، ففيه الشفاء وبه الغنى، فنفصِّل ما أجمل القائلون، ونعدِّل فى القول الشديد فيما تأوله المتأولون، فنقول والله أعلم: إن الله سبحانه ذكر فى كتابه آيتين تدلان على المساءلة للكفار عن الشرك الذى أدخلوا فى التوحيد، وعن إجابة المرسلين وتكذيبهم، قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِم فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِىَ الَّذِينَ كُنتُم تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢]. ثم قال فى الآية الأخرى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِم فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥]. فنقول على هذا: إنهم[2] يُسألون عن التوحيد فقط، وعن تكذيب المرسلين حسب، بهاتين الآيتين.

وقال فى الآيتين الأخرتين: ﴿وَلاَ يُسأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجرِمُون﴾ [القصص: ٧٨]. وقال فى الأخرى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَ يُسأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩]. ثم

(١) أى المولعون بذكر الله عز وجل.

(٢) فى المطبوعة: «فنقول: إنهم على هذا»، وأثبت ما فى الأصول.

قال: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِى وَالأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١]. فهذا نصٌّ فى ترك المساءلة على الذنوب والأعمال.

فنقول بهاتين الآيتين: إنهم لا يُسألون عن الأعمال، وإنما يُحاسب على العمل من كانت بينه وبينه معاملة، ومن ثبتت له حسنات يقع بها ترجيح وموازنة. وقد روينا عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه فى قوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤]، قال: عن قول: لا إله إلا الله. وقد رويناه مرفوعًا إلى النبى ﷺ. فهذا على معنى ما ذكرناه أنهم يُسألون عن التوحيد.

فالناسُ من أهل الجنة والنار يُحشرون يوم القيامة على ست طبقات[1]: طائفةٌ تدخل الجنة بغير حساب، وهم السابقون المقربون. وطائفة تدخل الجنة بعد الحساب اليسير، وهم خصوص المؤمنين والصالحين. ومنهم من يدخل بعد الحساب الطويل والمناقشة، وهم أصحاب اليمين وعموم المؤمنين.

وكذلك أهل النار ثلاث طبقات: طائفة تدخل النار بغير سؤال ولا حساب، عالَمان من عبدة الأوثان من ولد يافث بن نوح، وهم يأجوج ومأجوج خَلْق خُلقوا للنار. وطائفة تدخل النار بعد الحساب الطويل والمناقشة، وهم أهل الكبائر والمنافقون. وطائفة بسؤال وتوقيف من غير محاسبة على الأعمال، وهم أمم الأنبياء المرسل إليهم المرسلون؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرسِلَ إِلَيْهِم﴾ [الأعراف: ٦] الآية.

وقد روينا فى الخبر المشهور: «من نُوقش الحساب عُذِّب. فقيل: يا رسول الله، أليس الله تعالى يقول: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٨]؟ فقال: ذلك العرض، ومن نُوقش الحساب عذِّب». وقد كان إمامنا سهل بن عبد الله يقول: يسأل الكفار عن التوحيد ولا يسألون عن السنة، ويُسأل المبتدعون عن السنة، ويُسأل المسلمون عن الأعمال.

---

(١) أى ثلاث لأهل الجنة، وثلاث لأهل النار.

فأما قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَا إِيَابَهُمۡ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٥ ـ ٢٦]. ففيه وجهان:

أحد الوجهين: أن يكون هذا كلامًا منفصلاً عما قبله يراد به المسلمون؛ لأنه ذكر خبر الكفّار فختمه بالعذاب، فقال فى أول الكلام: ﴿إِلاَّ مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ﴾ [الغاشية: ٢٣ ـ ٢٤] هذا آخر خبرهم، ثم استأنف مخبرًا عن غيرهم فقال: ﴿إِنّ إِلَينا إِيابَهُم * ثُمَّ إِنَّ عَلَينا حِسَابَهُم﴾.

والوجه الآخر: أن يكون قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَينَا حِسَابَهُم﴾ أى جزاءهم، فالحساب أينما ذُكر للكفّار يكون بمعنى المجازاة على أعمالهم السيئة. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَ اللهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ [النور: ٣٩] يعنى جزاءه.

إلاّ أنّ الفراء[1] وغيره من أهل اللسان خالفونا فى هذا، فاعتبروه بما بعده، فجعلوه دليلاً على المحاسبة. قالوا: احتمل أن يكون قوله: ﴿فوَفَّاه حسَابَه﴾ أن يكون جزاءه كما قلنا، واحتمل أن يريد محاسبته، فلما قال عقيبه: ﴿واللهُ سَرِيعُ الحِسابِ﴾ كشف التنزيل التأويل، دلَّ بذلك أن حسابه يعنى بمحاسبته.

وكذلك قال الزجَّاج فى تأويل ما ذكرناه آنفًا من قوله: ﴿وَلاَ يُسأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨]، فقال: إنما معناه لا يسألون ليؤخذ العلم من قِبَلهم[2]، أو ليرجع إليهم فى علم ذلك وسبقه عليهم، أى قد فرغ الله عز وجلّ من ذلك فأحكمه لِما سبق من علمه.

وواطأه مقاتل بن سليمان على هذا التأويل باختلاف معنى بمعنى صنعته التفسير ـ لأنه لم يكن له فى اللغة تمكين ـ فقال: معنى ذلك: ولا يسأل هؤلاء المجرمون عن ذنوب السالفين؛ فجعل الهاء والميم عائدة على من تقدم ذكره من قارون وأصحابه والقرون السالفة؛ لأن ذكرهم كان سياق هذا الخطاب فى قوله تعالى:

(١) انظر: معانى القرآن، للفراء، ٢/ ٢٥٤.

(٢) فى المطبوعة: «التوجه من قبلهم». وفى (م): «التوحيد العلم»، وهو تحريف، وأثبت ما فى (هـ). ولم أجد كلام الزجاج فى «معانيه» المطبوع.

﴿أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ من قَبْله منَ القُرُونِ مَنْ هُو أَشَدُّ منهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾، ثم قال: ﴿وَلاَ يُسأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ﴾ يعنى هؤلاء ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨] يعنى مشركى هذه الأمة.

وقال أيضًا هو وغيره: إن الكفّار سألوا فقالوا: ترى ماذا فعل الله تعالى بالقرون الأولى الذين يقص علينا نبأهم؟ قال: فنزلت هذه الآية، فهى بمنزلة قول فرعون: ﴿فَما بَالُ القُرونِ الأُولَى﴾ ؟ فقال موسى عليه السلام: ﴿عِلْمُها عِندَ ربِّى﴾ [طه: ٥١ ـ ٥٢].

إلاّ أن الله عز وجل قد قال فى ذكر الحساب بمعنى الجزاء: ﴿عَطاءً حِسابًا﴾ [النبأ: ٣٦] يعنى مجازاة، وقيل: كفاية؛ بمعنى كفاهم وأحسبهم ذلك، كما قال تعالى: ﴿حَسبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ [المجادلة: ٨] أى كافيهم ذلك.





الفصل الثامن والثلاثون

كتاب الإخلاص وشرح النيات، والأمر بتحسينها فى تصريف الأحوال، والتحذير من دخول الآفات عليها فى الأفعال

قال الله الكبير المتعال: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخلصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

وقال رسول الله ﷺ: «ثلاث لا يَغِلُّ عليهن قلبُ رجل مسلم: إخلاص العمل لله تعالى . . .».

وقال: «إنما الأعمال بالنيات، ولكل امرىء ما نوى».

وقد روينا فى الحديث من طريق أهل البيت عليهم السلام: «لا يقبل الله تعالى قولاً إلا بعمل، ولا قولاً وعملاً إلاّ بنية».

وقال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه: أفضل الأعمال أداءُ ما افترض الله تعالى، والورع عمّا حرم الله تعالى، وصدقُ النية فيما عند الله عز وجل.

فينبغى أن يكون للعبد فى كل شىء نية، حتى فى مطعمه، ومشربه، وملبسه، ونومه، ونكاحه؛ فإن ذلك كلَّه من أعماله التى يُسأل عنها، فإن كانت لله تعالى وفيه كانت فى ميزان حسناته، وإن كانت فى سبيل الهوى ولغير المولى، كانت فى ميزان سيئاته، إذ لكلِّ عبدٍ ما نوى.

وإن كان ذلك غفلة وسهواً من غير نية، ولا عقد طويَّة، ولا حِسْبة، لم يكن له فى ذلك شىء، ولم يجد عمله فى الآخرة شيئًا، وكان فيه لا له ولا عليه، وكان ذلك فى الدنيا على مثال الأنعام التى تتصرف عن غير عقول ولا تكليف ولكن بإلهام وتوقيف، وأخاف أن يدخل فى وصف من قال الله تعالى: ﴿أَغفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]. قيل: مجازفة قُدمًا قُدمًا

عن غير تمييز. وقيل: فرطًا[1]؛ أى غفلة وسهوًا. وقيل: تفريطًا وتضييعًا. وقيل: مقدمًا إلى الهلاك.

فالنيةُ الصالحة هى أول العمل الصالح، وأول العطاء من الله تعالى وهو مكان الجزاء، وإنّما يكون للعبد من ثواب الأعمال على حسب ما يهب الله تعالى له من النيات، فربّما اتفق فى العمل الواحد نيات كثيرة على مقدار ما يحتمل العبد من النية، وعلى مقدار علم العامل، فيكون له بكل نية حسنة، ثم يضاعف كل حسنة عشر أمثالها؛ لأنّها أعمال تجتمع فى عمل.

وصورة النية معنيان؛ أحدهما: صحة قصد القلب إلى العمل بحُسن التيقُّظ فيه، والإخلاص به لوجه الله تعالى، ابتغاءَ ما عنده من الأجر.

فكلُّ عملٍ كان على علم بهذه النية فهو صالح متقبَّل بفضل الله تعالى وبرحمته؛ لأنّ صاحبه قد اتقى الشرك والجهل والهوى، فعمله مرفوع فى الخزائن مدَّخر له الجزاء.

وحقيقة الإخلاص: سلامته من وصفين؛ وهما: الرياء والهوى؛ ليكون خالصًا كما وصف الله تعالى الخالص من اللبن، فكان بذلك تمام النعمة علينا، فقال: ﴿مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا﴾ [النحل:٦٦]. فلو وجد فيه أحد الوصفين من فرث أو دم لم يكن خالصًا ولم تتم النعمة به علينا، ولم تقبله نفوسنا. فكذلك معاملتنا لله عز وجل إذا شابها رياء بخَلق، أو هوًى من شهوة نفس، ولم تكن خالصة، لم يتمّ بها الصدق والأدب فى المعاملة، ولم يقبلها الله تعالى منا، فاعتبروا.

وروينا عن سعيد بن أبى بردة عن كتاب عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه إلى أبى موسى الأشعرى: إنه من خلصت نيته كفاه الله تعالى ما بينه وبين الناس، ومن تزيّن للناس بما يعلم الله تعالى منه غير ذلك شانه الله تعالى، فما ظنّك؟

وكتب سالم بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز: اعلم يا عمر أن الله تعالى عونٌ للعبد بقدر النية، فمن تمّت نيته تمّ عونُ الله تعالى إياه، ومن قَصُرت عنه نيته

(١) من قوله: «قيل: مجازفة» إلى هنا ساقط من المطبوعة.

قصُر عنه من عون الله تعالى بقدر ذلك.

وقد قال الله تعالى فى تصديق ذلك: ﴿إِن يُرِيدَا إِصْلاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ [النساء: ٣٥]. فجعل سببَ التوفيق إرادة الإصلاح؛ فذلك هو أول التوفيق من الموفّق المصلح للعامل الصالح.

وقال بعض السلف: رأيت الخير إنما يجمعه حسنُ النيةِ وكفاك به خيرًا، وإن لم يَنصَب، رُبَّ عمل صغير تعظِّمه النية، ورُب عمل كبير تصغِّره النية.

وكتب بعض الأولياء إلى أخيه: أخلص النية فى أعمالك يكفك القليل من العمل.

وقال داود الطائى: البَرُّ همُّه التقوى، ولو تعلقت جميع جوارحه بالدنيا لردته بنيته يومًا إلى نيةٍ صالحة. فكذلك الجاهل بالله تعالى وأيامه همُّهُ الدنيا والهوى، ولو تعلقت جوارحه بكلٍّ أعمال الصالحات لكان مرجوعًا إلى إرادة الدنيا وموافقة الهوى، لأن سرّها كان همة النفس لعاجل عرض الدنيا.

وقال محمد بن الحسين: ينبغى للرجل أن تكون نيته بين يدى عمله. وقال أيوب السختيانى وغيره: تخلّص النيّات على العمّال أشدّ عليهم من جميع الأعمال. وقال الثورى: كانوا يتعلمون النية للعمل كما يتعلمون العلم. وقال بعض العلماء: اطلب النيةَ للعمل قبل العمل، وما دمت تنوى الخير فأنت بخير. وقال زيد بن أسلم: خصلتان هما كمال أمرك: تصبح ولا تهتمّ[1] لله تعالى بمعصية، وتمسى ولا تهتم لله تعالى بمعصية.

وكذلك قال بعض السلف فى معناه: إنّ نعمة الله تعالى أكثر من أن تحصوها، وإن ذنوبكم أخفى من أن تعلموها، ولكن أصبحوا توّابين وأمسوا توّابين يغفر لكم ما بين ذلك.

وروينا فى الخبر عن بعض المريدين: أنه كان يطوف على العلماء يقول: من يدلّنى على عمل لا أزال فيه عاملاً لله تعالى، فإنى أحبّ أن لا تجىء علىَّ ساعة

(١) أى لا يصيبك همُّ المعصية.

من ليلٍ أو نهار إلاّ وأنا عامل من عمال الله تعالى. فقيل له: قد وجدت حاجتك، اعمل الخير ما استطعت، فإذا فَترتَ أو تركته فَهِمَّ بعمله، فإن الهامَّ بعمل الخير كعامله.

وروينا عن عيسى عليه الصلاة والسلام: طوبى لعين نامت ولا تهمّ بمعصية وَانتَبَهتْ إلى غير إثم.

وروينا عن رسول الله ﷺ: «من همّ بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة، ومن همّ بسيئة ولم يعملها كتبت له حسنة». وقد جاء فى الخبر المشهور: «نية المؤمن خير من عمله».

• تفسير قوله: «نية المؤمن خير من عمله»:

فيه عشرة أوجه: قيل: إن النية سرّ وأعمال السر تضاعف. وقيل: لأنها غيب لا يطلع عليها غير الله تعالى، والظواهر مشتركة. وأيضًا فإن الله عز وجل يهبها للعبد خالصة لا يشوبها شىء إذا وهبها، ولا تدخل عليها الآفات؛ هذا عطاء مهيأ[١] وسائر الأعمال مدّخر له. وأيضًا لأنها من شرط العمل حتى لا يصح عمل إلا بها، وهى تصح بمجردها.

وكان عبد الرحيم بن يحيى الأسود يقول: معنى قوله: «نية المؤمن خير من عمله»: يعنى إخلاصه فى العمل خير من العمل. قال: فالإخلاص بغير عمل خير من عمل غير مخلص، والنية عنده: هو الإخلاص نفسه، وعند غيره: هو الصدق فى الحال، واستواء السريرة والعلانية.

وقد قال الجنيد رحمه الله تعالى فى الفرق بين الإخلاص والصدق معنًى لطيفًا لم يفسره ويحتاج إلى تفسير. حدثنا بعض الأشياخ عنه قال: شهد جماعةٌ على رجل بشهادة فلم تضره، وكانوا مخلصين، ولو كانوا صادقين لعوقب. يعنى أن صِدقهم أن لا يعملوا عمله، أو مثل عمله الذى شهدوا به عليه؛ فهذا صدق الحال، وهو حقيقة النية وإخلاصها عند المحققين.

(١) فى الأصول: «مهتأ».

وقد قيل فى معنى قوله «نية المؤمن خير من عمله»: إن نيةَ المؤمن دائمة ومتصلة، والأعمال منقطعة، وبالنية خُلِّد أهل التوحيد فى الجنة، وخلّد أهل الشرك فى النار؛ لدوام نياتهم على التوحيد، ودوام نيات الآخرين على الشرك مدة الدهر؛ فهذه المعانى كلها على هذا الوجه الذى يقول فيه: إنّ معناه أنّ النية خير من العمل.

وفيه وجه آخر يكون الكلام فيه على التقديم والتأخير، أى: نية المؤمن هى من عمله خير، كأنه قال: هى بعض أعماله الخير. فهذا كقوله تعالى: ﴿**مَا نَنْسَخْ مِن آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا**﴾ [البقرة:١٠٦] معناه: نأت منها بخير. وكما قال: ﴿**يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا**﴾ [الأعراف:١٨٧] معناه: يسألونك عنها كأنك حفى بهم، فأخّر قوله ﴿**عنها**﴾ ومعناه التقديم، فيكون هذا على التأويل أنّ النية من أعمال القلوب، وأنها من أعمال العبد خير كثير.

وهذه الأقوال كلها صحيحة، وهى موجودةٌ فى النية، فَفَضُلَتَ النيةُ العملَ، لأن هذه المعانى من صفتها.

وقال بعض التابعين: قلوب الأبرار تغلى بالبرّ، وقلوب الفجّار تغلى بالفجور، والله تعالى مطلع على نيّاتهم فيثيبهم بقدر ذلك، فانظر ما همُّك وما نيتُك.

وروينا عن الله سبحانه وتعالى فى بعض الكتب أنه قال: «ليس كلّ كلام الحكيم أتقبل، ولكنى أنظر إلى همِّه وهواه، فمن كان همه وهواه لى، جعلتُ صَمته ذِكرًا، ونظره عبرًا». وهذا داخل فى عموم الخبر الذى رويناه عن نبينا ﷺ: «إنّ الله تعالى لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى أموالكم إنّما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».

وسئل سفيان الثورى: هل يؤاخذ العبد بالنية؟ قال: نعم، إذا كانت عزمًا أُخذ بها. وفى الخبر: «إنّ العبد ليعمل أعمالاً حسنة، فتصعد بها الملائكة فى صُحُف مختّمة، فتُلقَى بين يدى الله تعالى، فيقول: ألقوا هذه الصحيفة، فإنه لم يرد بذلك وجهى، ثم ينادى الملائكة: اكتبوا له كذا واكتبوا له كذا. فيقولون: ربّنا إنه

لم يعمل شيئًا من ذلك. فيقال: إنّه نواه»

وفى حديث أبى كبشة الأنمارى: «الناسُ أربعة: رجلٌ آتاه الله عزّ وجلّ علمًا ومالاً فهو يعمل بعلمه فى ماله، فيقول رجل: لو آتانى الله تعالى ما آتاه لعملت كما يعمل؛ فهما فى الأجر سواء. ورجل آتاه الله مالاً ولم يؤته علمًا فهو يتخبط بجهله فى ماله، فيقول رجل: لو آتانى الله مثل ما آتاه عملت كما يعمل؛ فهما فى الوزر سواء».

ألا ترى كيف شَرِكَه بحسن النية فى محاسن عمله، وشَرِكَه الآخرُ بسىء النية بنيته فى مساوئ عمله؟

وكذلك فى حديث أنس بن مالك لما خرج رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك قال: «إن بالمدينة أقوامًا، ما قطعنا واديًا، ولا وطئنا موطئًا يغيظ الكفار، ولا أنفقنا نفقة، ولا نصبنا نَصبًا، ولا أصابتنا مخمصة، إلاّ شركونا فى ذلك، وهم بالمدينة. قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله وليسوا معنا؟ قال: حَبَسهم العُذْر، فشركونا بحسن النية».

وقال بعض السلف: صلاح الأعمال وفسادها بصلاح النيات وفسادها. وكان مطرِّف يقول: صلاح عمل بصلاح قلب، وصلاح قلب بصلاح نية، ومن صفا صُفى له، ومن خلط خُلط عليه.

وكذلك جاء فى الخبر، وهو أصل من أصول الدين، قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه». فأخبر أن لا عمل إلاّ بالنية، ثم جعل لكل عبد نية، ثم ردّ طالبى الدنيا والأزواج إلى نياتهم، وحكم عليهم بها، وجعلها نصيبهم من الله تعالى، وفّق ذلك لهم أو لم يوفقه، فبطلت هجرتهم بفساد نياتهم، وصارت همتهم بدنياهم وهواهم سبب حرمان ثواب المخلصين لله بحسن نياتهم، وطلب آخرتهم؛ وكان ذلك فى الآخرة حسرة عليهم، وفى الدنيا نقصًا وشَيْنًا لهم.

وفى حديث ابن مسعود: «من هاجر يبتغى شيئًا فهو له. فهاجر رجل فتزوّج

امرأة منا، فكان يُسمَّى مهاجر أم قيس». قال أبو داود: هذا الحديث ربع العلم. وذلك أنه قال: جمعتُ السنن الصحاح فى حديث النبى ﷺ فكانت أربعة آلاف حديث. ثم قال: قد أمررتها على أربعة أحاديث؛ كل حديث ربع العلم. قال: وهذا الحديث أولها.

وإنما قال ذلك؛ لأنه فرض الفروض، لأنه لا يتمّ فرض إلا به.

وكذلك جاء فى الخبر: أن رجلاً قُتل فى سبيل الله عزّ وجلّ، فكان يُدعَى قتيل الحمار، وذلك أنه قاتل رجلاً ليأخذ سلبه وحماره، فقُتل على ذلك فأُضيف إلى نيته.

وفى حديث عبادة عن النبى ﷺ: «من غزا وهو لا ينوى إلا عِقالاً فله ما نوى». وقال: إنى استعنت رجلاً يغزو معى، فقال: لا حتى تجعل لى جُعلاً، فجعلت له، فذكرت ذلك للنبى ﷺ فقال له: «ليس له من دنياه وآخرته إلا ما جعلتَ له».

وروينا فى الإسرائيليات أنّ رجلاً مرّ بكثبان من رمل، فى مجاعة، فقال فى نفسه: لو كان لى هذا الرمل طعامًا لقسمته بين الناس. قال: فأوحى الله تعالى إلى نبيّهم أن قل له: إنّ الله تعالى قد قبل صدقتك، وقد شكر حسن نيتك، وأعطاك ثواب ما لو كان طعامًا فتصدَّقت به.

وفى أخبار كثيرة: «مَن هَمَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة».

وفى حديث عبد الله بن عمر: «من تكن الدنيا نيته جعل الله فقره بين عينيه، وفارقها أرغب ما يكون فيها، ومن تكن الآخرة نيته جعل الله غناه فى قلبه، وجمع عليه ضيعته، وفارقها أزهد ما يكون فيها».

وحديث أم سلمة: «ذكر النبى ﷺ جيشًا يُخسف بهم فى البيداء، فقلت: يا رسول الله، يكون فيهم المكره والأجير؟ فقال: يُحشرون على نيّاتهم».

وفى حديث عمر مثله: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما يقتتل المقتتلون على النيّات».

وفى حديث فُضالة: «من مات على مرتبة من المراتب بُعث عليها».

وكذلك قال فى الخبر: «إذا التقى الصفّان نزلت الملائكة، تكتب الخلق على مراتبهم: فلان يقاتل للدنيا، فلان يقاتل عصبيَّة، إلاّ فلانًا يقولون: قُتل فلان فى سبيل الله. فمن قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله تعالى».

وعن جابر عن رسول الله ﷺ: «يُبعث كل عبد على ما مات عليه».

وفى حديث الأحنف بن قيس عن أبى بكرة: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار. قيل: يا رسول الله، هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: لأنه أراد قتل صاحبه».

والنية عند قومٍ الإخلاصُ بعينه، وعند آخرين الصدقُ، وعند الجملة: أنها صِحّة العقد وحُسنُ القصد، وهى عند الجماعة: من أعمال القلوب، مقدمة فى الأعمال، وأوّلُ كلِّ عمل. وقد قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللهَ ذِكرًا كَثيرًا﴾ [الأحزاب:٤١]. قيل فى التفسير: خالصًا، فسمى الخالص كثيرًا، وهو ما خلُصت فيه النية لوجه الله تعالى، ووصف ذكر المنافقين بالقلة فقال: ﴿يُراؤُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللهَ إلاَّ قَلِيلاً﴾ [النساء:١٤٢]، يعنى غير خالص؛ لأنه أريد به الناس والدنيا وهى قليل، فصار ما عمل لأجلها أقلّ، والله تعالى أكثر وأطيب، فكان ما عمل لأجله كثيرًا[١]. وسُمِّيت سورة: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ سورة الإخلاص؛ لأنها خالصة فى ذكر صفات الله تعالى وحده، لا يختلط بذكر جنة ولا نار، ولا وعد ولا وعيد، ولا أمر ولا نهى. وكذلك قيل: سورة التوحيد؛ إذ لا شريك فيها من سواه.

فأول سلطان العدو على القلب عند فساد النية، فإذا تغيرت من العبد طمع فيه، فيتسلط عليه، وأول ارتداد العبد عن الاستقامة ضعف النية، فإذا ضعفت النية قويت النفس، فتمكّن الهوى، وإذا قويت النية صحَّ العزم وضعُفت صفات النفس، ولأن ينتقل العبد من معصية إلى معصية دونها فيكون تاركًا للأولى بنية

---

(١) من قوله: «لأنه أريد به» إلى هنا من (هـ) فقط.

الترك لأجل الله تعالى كان أنفعَ له، وأحمد عاقبة، وأصلحَ لقلبه، وأقربَ إلى توبته من افتعال الطاعات مشوبة بالهوى وفساد النيات؛ لأنه يكون حينئذ متقلبًا فى المعاصى بفساد نيته، وخالط عملاً سيئًا بسيِّيء مثله، ودرأ بالسيئة السيئة قبلها، وهذا بخلاف وصف الله تعالى من قوله: ﴿**خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا**﴾ [التوبة:١٠٢]. وقوله: ﴿**وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ**﴾ [الرعد:٢٢]. ومخالف لأمر رسول الله ﷺ فى قوله: «أتبع السيئة الحسنة تمحها». وفى حديث أبى هريرة: «من تزوج امرأة على صداق وهو لا ينوى أداءه فهو زان، ومن ادَّان دَيْنًا وهو لا ينوى قضاءه فهو سارق».

وفى حديث ابن مسعود: «ذُكر عند رسول الله ﷺ الشهداء فقال: إن أكثر شهداء أمتى لأصحاب الفُرُش، ورُبَّ قتيلٍ بين الصفين الله أعلم بنيته».

وقال ثابت البنانى: نية المؤمن أبلغ من عمله، إن المؤمن ينوى أن يصوم النهار، ويقوم الليل، ويخرج من ماله، فلا تتابعه نفسه على ذلك، فنيته أبلغ من عمله. وقد ضرب النبى ﷺ مثل القلب بالملك والجوارح جنوده، قال: «فإذا صلُح القلب صلُح الجسد، وإذا فسد فسدَ الجسد»، معناه: إذا صلحت للعبد نيته دامت للعبد استقامته، وإذا خَلُص وَصَفَا من شوب الكَدَر والهوى خلصت الأعمال من الرياء، وصفت من الشهوات والأهواء، وإذا فسدت نيته بحب الدنيا فسدت أعمال الجوارح بحبٍّ المدح والرياء.

وقد حدثونا فى الإسرائيليات: أن عابدًا عبد الله تعالى دهرًا طويلاً، فجاءه قوم فقالوا: إن هاهنا قومًا يعبدون شجرة من دون الله تعالى، فغضب لذلك، فأخذ فأسه على عاتقه وقصد الشجرة ليقطعها، فاستقبله إبليس فى صورة شيخ فقال: أين تريد رحمك الله؟ قال: أريد أن أقطع هذه الشجرة التى تُعبد من دون الله. قال: وما أنت وذاك؟ تركت عبادتك والاشتغال بنفسك وتفرّغت لغير ذلك؟ فقال: إن هذا من عبادتى. فقال له: إنى لا أتركك تقطعها. قال: فقاتله فأخذه العابد فطرحه إلى الأرض وقعد على صدره، فقال له إبليس: أطلقنى حتى أكلمك، فقام عنه، فقال له إبليس: يا هذا إن الله تعالى قد أسقط عنك هذا ولم

يفرضه عليك. أنبيٌّ أنت؟ قال: لا. قال: فلا عليك ممن كان يعبدها، فلو اشتغلت بعبادتك وتركتها، فإن لله تعالى فى أرضه أنبياء لو شاء لبعثهم إلى أهلها وأمرهم بقطعها. فقال العابد: لا بد لى من قطعها. قال: فنابذه إبليس القتال فغلبه العابد فأخذه وصرعه وقعد على صدره.

فلما رأى إبليس أنه لا طاقة له به ولا سلطان له عليه قال: يا هذا هل لك فى أمرٍ فَصلٍ بينى وبينك وهو خيرٌ لك، وأنفع من هذا الأمر الذى جئتَ تطلبه؟ قال: وما هو؟ قال: قم عنى حتى أخبرك به، فأطلقه العابد، فقال له إبليس: أنت رجل فقير لا شىء لك، إنّما أنت كَلٌّ على الناس يعولونك، ولعلك تحب أن تفضُل على إخوانك، وتواسى جيرانك، وتتسع فى حالك، وتستغنى عن الناس. قال: نعم. قال: فارجع عن هذا الأمر الذى جئت فيه ولك علىَّ أن أجعل عند رأسك فى كل ليلة دينارين، إذا أصبحت أخذتهما فصنعت بهما ما شئت، وأنفقتَ على نفسك وعيالك وتصدقت على إخوانك، فيكون لك أفضل من ذلك وأنفع للمسلمين من قطع هذه الشجرة، التى يُغرس مكانها ولا يضرُّهم قطعها شيئًا، ولا ينفع إخوانك المؤمنين قطعك لها.

قال: فتفكَّر العابد فيما قال له، وقال: صدق الشيخ، لستُ بنبى فيلزمنى قطع هذه الشجرة، ولا أمرنى الله تعالى أن أقطعها فأكون قد عصيتُ بتركها، وإنما هو شىء تفضَّلت به، وماذا يضرّ الموحِّدين من بقائها، وهذا الذى ذكره أكثر منفعة لعموم الناس.

قال: فعاهده على الوفاء بذلك، وحلف له، فرجع العابد إلى متعبده فبات ليلته فأصبح فإذا ديناران عند رأسه فأخذهما، ثم كذلك الغد، ثم أصبح اليوم الثالث فلم يرَ شيئًا، ثم أصبح بعد ذلك فلم يجد، فغضب، وأخذ فأسه على عاتقه، وخرج يَؤُمُّ الشجرة ليقطعها، وقال: إن فاتنى أمر الدنيا لا أتركنَّ أمرَ الآخرة.

قال: فاستقبله إبليس فى صورة شيخ فقال: أين تريد؟ قال: أقطع تلك الشجرة. قال: كذبت والله ما أنت بقادر على ذلك، ولا سبيل لك إليها. قال:

فتناوله العابد ليأخذه كما فعل أول مرة، فقال: هيهات. قال: فأخذه إبليس فصرعه فإذا هو كالعصفور بين يديه. قال: وقعد إبليس على صدره وقال: لتنتهينَّ عن هذا الأمر أو لأذبحنَّك. فنظر العابد فإذا لا طاقة له به. قال: يا هذا قد غلبتني فخَلِّ عنى، وأخبرنى عنك كيف قد غلبتك أول مرة فصرعتك، والآن غلبتني فصرعتني؟ فكيف ذلك؟ قال له إبليس: لأنك أول مرة غضبت لله تعالى، وكانت نيتك الآخرة، فسخَّرنى الله لك فغلبتنى، وهذه المرة جئتَ مغاضبًا لنفسك، وكانت نيتك الدنيا، فسلَّطنى الله تعالى عليك فصرعتك.

وهكذا حدثونا فى قصة تطول أن ملكة من بنى إسرائيل راودت عابدًا عن نفسه فقال: اجعلوا لى ماءً فى الخلاء أتنظف. قال: ثم صعد أعلى موضع فى القصر فرمى بنفسه، فأوحى الله عز وجل إلى ملك الهواء: الزم عبدى، قال: فلزمه حتى وضعه بالأرض على قدميه رويدًا. فقيل لإبليس: ألاَ أغويته؟ فقال: ليس لى سلطان على من خالف هواه وبذل نفسه لله تعالى.

وفى حديث معاذ بن جبل: «إن العبد يوم القيامة ليُسأل عن كل شىء، حتى عن كحل عينيه، وعن فتات الطينة بأصبعيه، وعن لمسه ثوب أخيه». وروينا فى خبر مقطوع: «من تطيَّب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحُه أطيب من المسك، ومن تطيَّب لغير الله تعالى جاء يوم القيامة وريحُه أنتنُ من الجيفة». وليس الطيب من البِرِّ المأمور به، ولا من الإثم المنهى عنه، وإنّما لصاحبه منه نيته، فإن كان نيته اتّباعَ سنّةِ رسولِ الله ﷺ، وإظهارًا لنعمة الله تعالى، كان بذلك مطيعًا، وكان له ثواب ما نواه، وإن تطيَّب لغير ذلك كان به عاصيًا لاتباعه هواه.

وعن بعض السلف الصالح قال: كتبت كتابًا وأردتُ أن أتربِّه من منزل لجارى، فتحرَّجت من ذلك، ثم قلت: تراب وما تراب؟ فتربَّته، فهتف بى هاتف: سيعلم مَن استخفَّ بترابٍ ما يلقى غدًا من سوء الحساب.

وقال بعض العلماء: إنى لأستحبّ أن يكون لى فى كل شىء نية، حتى فى أكلى وشربى ونومى.

وحُدِّثت أن رجلاً صلى مع سفيان صلاة العيد، وكان قد خرج معه بغَلَس،

فلما أصبح نظر فإذا إزار سفيان مقلوب، فقال له: يا أبا محمد، قد لبست ثوبك مقلوبًا فأصلحه، قال: فمدّ سفيان يده ليسوِّى إزاره ثم قبضها فلم يسوِّه، فقال له الرجل: ما منعك أن تسويه عليك؟ قال: إنّى لبسته لله عز وجل فلا أريد أن أسويه لغير ذلك.

ونادى رجل امرأته، وكان فوق سطح يسرِّح شعره، فقال: هاتى المِدْرَى؛ ليَفْرُق به شعره، فقالت امرأته: وأجىء بالمرآة؟ فسكت هُنيَّة ثم فقال: نعم، فقال له من سمعه: لأى شىء سكتّ وتوقفت عن المرآة؟ فقال له: إنّى قلت لها: هاتى المدرى بنية، فلما قالت: والمرآة؟ فلم تكن لى فى المرآة نية، فتوقفت حتى هيّأ الله لى نيةً، فقلت: نعم جيئى بها.

وحدثونا عن بعض أصحاب بشر أنّ فتحًا الموصلى دخل عليه، فقام له بشر، قال: وما رأيته قام لغيره، فقمت فأجلسنى. فلما انصرف قلت له: قمت أنت إليه، فلما قمتُ أنا أجلستنى؟ فقال: أنا قمتُ إليه لأجل الله تعالى، وأنت قمتَ لأجلى؛ فأجلستك.

وحدثونا أن بعضَ الفقراء كان يصحب أبا سعيد الخراز، فكان يخفّ بين يديه فى حوائجه، ويخدم الفقراء، ويسارع فى قضاء حوائج أبى سعيد وأصحابه. قال: فتكلم أبو سعيد يومًا فى إخلاص الحركة، فوَقَر ذلك فى قلب الشاب، فكأنه أخذ فى الإخلاص والتفقُّد لحركته وخدمته، فترك ما كان يعمله من قضاء حوائج أبى سعيد فى الخفة بين يدى إخوانه حتى أضرّ ذلك بأبى سعيد، فقال له: يا بنى، قد كنت تسعى فى حوائج إخوانك ثم قطعت ذلك، فما السبب؟ فقال: يا أستاذ، إنك تكلمت فى الإخلاص وإنى خشيت أن تكون أفعالى مدخولة فتركتها. قال أبو سعيد: لا تفعل، إن الإخلاص لا يقطع المعاملة، ولا ينبغى للعاقل أن يترك العمل لأجل الإخلاص، فيفوته الإخلاص والعمل، ولم أقل لك: اترك ما أنت عليه، إنما قلت لك: أخلص فيه، فإنّ طلبك للإخلاص قد قطعك عن عمل البر، وقد أضرّ ذلك بنا، فارجع إلى ما كنت فيه، وأخلص فيه لله تعالى.

فينبغى للعبد أن يكون له نيةٌ خالصةٌ فى جميع تصرّفه فى حركته وسكونه، وسعيه وتركه، فإن الحركةَ والسكونَ اللذين هما أصل الأفعال هما من أعماله التى يسأل عنها، فيحتاج إلى النية والإخلاص فيهما، فليجعل جميع ذلك لله تعالى وفيه بعقد واحدٍ على مراتب من المقامات عنده، إمّا حبًا له وإجلالاً له، وإمّا خوفًا منه أو رجاء له، أو لأجل ما أمره به، فينوى أداء الفرائض، أو لما ندبه فينوى المسارعة إلى الخير، وفيما أبيح له فتكون نيته فى ذلك صلاحَ قلبه، وإسكان نفسه، واستقامة حاله؛ وذلك كله لأجل الدين، وعُدةً للآخرة، وشكرًا لربه تعالى، ودخولاً فيما أحلّ له، واعترافًا بما أنعم عليه، واتباعًا لسنة نبيه فيه، ولا يكون واقفًا مع طبع، ولا جاريًا على العادة[١] والعُرف، ولا متخلقًا بأخلاق النفس، جاريًا بالغفلة على طريقة أبناء الدُّنيا[٢]، وعُرف معاشرتهم فيما بينهم، فإن ذلك وصفُ[٣] الغافلين، ومقام الجاهلين، وحال اللاعبين[٤]، فهو غير محمود العاقبة، ولا مغبوط الخاتمة.

ولا ينبغى أن يترك العمل الصالح أيضًا خشية دخول الآفة عليه، ولا يدعنَّه إن كان داخلاً فيه لما يعتريه، لأنّ ذلك بُغية عدوِّه منه، فيقع فى تسعة أعشار الرّياء خوفًا من الرياء، كما حكينا عن عمر رضى الله عنه[٥]، ولكن يكون على نيّته الأولى من صحة القصد، وفى طريقته المثلى من حق الوَجد، فإن تمّ له عمله إلى آخره فتلك بُغيته، وهو مِن تمام النّعمة عليه[٦]، فإن دخلت عليه عِلّة وضع عليها دواءها، فعمل فى نفيها وإزالتها، وثبت على حُسن نِيته وصالح عمله.

ولا يدعنّ عملاً لأجل الخلق حياءً منهم أو كراهية اعتقادهم فضله، فإنّ العمل

---

(١) هنا آخر الأوراق التى جاءت فى غير موضعها من المطبوعة، وهذا الخلل جاءها من قبل المخطوط، لأننى وجدت مثله فى ثلاثة أصول مخطوطة بين يدى.

(٢) هذه عبارة (هـ)، وعبارة المطبوعة (م): «النفس من عادات أبناء الدنيا».

(٣) لفظ (هـ)، وفى المطبوعة (م): «حال».

(٤) «وحال اللاعبين» من (هـ) فقط.

(٥) من قوله: «فيقع فى تسعة» إلى هنا من (هـ).

(٦) من قوله: «وفى طريقته المثلى» إلى هنا من (هـ).

لأجل الناس شرك، وتركَهُ لأجلهم رياء. وتركُ العمل خشية دخول الآفة فيه جهلٌ، وتركُه عند دخول العلّة عليه ضعفٌ ووَهَن. فليعمل العبد فى سقوط الخلق عن قلبه، وترك مراعاتهم بهمّه، ولا يصحّ له ذلك إلا بإسقاط نفسه عن قلبه، ومحو الوجدِ بها بسرِّه، إذ هى مكان ثبوت الأنام، فكيف يزول الممكّن قبل سقوط المكان[١]؟

ومن دخل فى العمل لله وخرج منه لله عز وجل لم يضرّه ما كان بين ذلك، بعد أن ينفيه ولا يسكن إليه، وقد يضرّه ما يكون بعد ذلك، بأن كان سرًا فأظهره، وبعد زمانٍ فصار علانية، فنُقل من ديوان السّرِّ إلى ديوان العلانية. ومثل أن يتظاهر به ويفتخر، أو يُدِلَّ[٢] به ويتكبَّر، فيحبط ذلك عمله، لأنّه قد أفسده، والله لا يصلح عمل المفسدين.

ومن دخل فى العمل لله عز وجل، ودخل عليه فى وسط العمل علّة، فخرج من العمل بها، بطل عمله.

ومَن دخل فى العمل بآفة، وخرج منه بصحة، سَلِمَ له عمله وجُبر بآخره أوّله.

وأفضل الأعمال ما دخل فى أوّله لله تعالى وخرج منه بالله تعالى، ولم تطرقه فيما بينهما آفة، فيكون الله تعالى هو الأول والآخر معه وعنده، ثم يُظهره بعد ذلك ولا يتظاهر به.

وأفضل النيات أن لا تريد بعملك إلاّ وجه الله تعالى وحده، حبًا لوصف الإلهية[٣]، وتعظيمًا لحق الربوبية، وإلزامًا للنفس وصف العبودية، فإن لم يكن هذا المقام عن مشاهدة وجه ذى الجلال والإكرام، فمشاهدة ما رغَّب فيه وشوَّق إليه من الآخرة عن مقام الرجاء، بطلب ما عنده، فهو خير وأبقى، أو خوفًا ممّا

(١) من قوله: «فليعمل العبد فى» إلى هنا من (هـ).

(٢) يُدِلُّ عليه: يجترئ، يقال: فلان يدل عليك بصحبته إدلالاً ودلالاً ودالَّة: أى يجترئ عليك.

(٣) عبارة «حبًا لوصف الإلهية» من (هـ).

حذَّر منه وخوَّف به من العذاب الأليم عن مقام الخوف[١].

ولا ينبغى للعبد أن يدخل فى شىء حتى يعلمَ علمه، فيكون داخلاً فى علم يعلم مثله؛ لأنّ لله سبحانه وتعالى فى كل شىء حكمًا. فما عَلم من ذلك حمدَ الله تعالى عليه وعمله، وما جَهل سأل عنه من هو أعلم به، وما أشكلَ عليه أمسك عنه، حتى يستبين له وجهه فيُقدم عليه أو يتركه، وليكن ما تحرك فيه، أو سكن عنه ، أو توقف عن الإقدام عليه، ابتغاءَ مرضاة الله تعالى؛ تقربًا إليه لأجل الله تعالى. فهذا أعلى النيات وهو غاية الإخلاص.

ومن أراد بأعماله ما عند الله تعالى من ثواب الآخرة من حظوظ نفسه، ومعانى شهواته ولذته من النعيم فى الجنان، واتّخاذ الحور الحسان، مما وصف الله تعالى وندب إليه، لم يقدح ذلك فى إخلاصه، ولم يغير صحة نيته، من قِبَلِ أن الله تعالى مدحه ورغّب فيه ووصفه، وكان ذلك مزيد مثله، إلاّ أن هذا نقصٌ فى مقام المحبين، وعيبٌ عندهم كعيب من عمل لعاجل حظّه من دنياه، وهو شِركٌ فى إخلاص الموحدين الذين اختُصُّوا بالعبودية، فعُتقوا من أسر الهوى بالحرية، فلم يسترقَّهم سِوى الوحدانية، لما شَهِدوا من خالص الربوبية؛ وإخلاص العبودية للربوبية أشدُّ من إخلاص المعاملة، إلاّ أن من رُزق المقام منها دخل بحقيقة إخلاص المعاملة ضرورة، بلا تنقيةٍ، ولا تصفية، ولا عملٍ، ولا مجاهدةٍ، وكانوا مخلصين. وهذا مقام المحبين.

وإنّما أتعب المريدون بالتنقية والتصفية للمعاملة لما بقى عليهم من الشرك الخفى والشّهوة الخفية، كما أتعب خدامُ الدنيا بالجمع لها لما استرقَّهم من الهوى. فأمّا الأحرار فهم من خدمة الخلق برآء. وهذا يُذهب الإخلاص، ويُفسد النية، ويُدخل الانتقاص.

وما تلف له من شىء، أو ظُلم من حقّه، فلينو بذلك الذُّخر عند الله تعالى، وليجعله فى سبيل الله بحسن ظنه بالله تعالى، وصدقِ يقينه، فإنّ له من ذلك ما نوى.

(١) من قوله: «بطلب ما عنده» إلى هنا من (هـ).

حدثونا عن رجل رُؤى بعد وفاته، فسئل: كيف رأيت أعمالك؟ فقال: كلُّ شيء عملته لله تعالى وجدته، حتى حبة رمّان التقطتها من طريقٍ، وحتى هِرَّة ماتت لنا، رأيتُ ذلك كله فى كفة الحسنات. قال: وكان فى قلنسوتى خيط من حرير فرأيته فى كفة السيئات. قال: وكان قد نَفَقَ لى حمار قيمته مائة دينار فما رأيت له ثوابًا. فقلت: موت سنَّورٍ فى الحسنات، وهذا حمار قيمته مائة دينار ولا أرى له ثوابًا؟ فقيل: إنه وُجِّه حيث بعثتَ به؛ لأنك قلت لما قيل لك قد مات الحمار، فقلت: فى لعنةِ الله تعالى، فبطل أجرك، ولو قلت فى سبيل الله لوجدته فى حسناتك. وفى رواية أخرى قال: وتصدَّقتُ يومًا بصدقة بين الناس فأعجبنى نظرهم إلىَّ فوجدته لا علىَّ ولا لى. قال سفيان: وقد رووا: هذا ما أحسن حاله! حيث وجدها لا له ولا عليه، قد أُحسن إليه.

ومن أُوذى أو اغتيب فليحتسب عرضه عند الله تعالى، فلعل ذلك أن يكون سيدًا من عمله سببًا لنجاته. فقد روى: إن العبد ليُحاسب على أعماله كلّها، فتبطل بدخول الآفات منها حتى يستوجب النار، ثم تُنشر له أعمال من الحسنات لم يكن عملها فيستوجب بها الجنة، فيعجب من ذلك، فيقول: يا رب هذه أعمال ما عملتها؟ فيقال: هى أعمال الذين اغتابوك وآذوك وظَلَمُوك جُعلت حسناتهم لك.

ولا تحقرنّ شيئًا من الأعمال وإن قلّ فتخليه من النية أو تَستَصغره، فربّما كان هلاكه وعطبه فيه، وهو لا يعلم.

وقد روى ابن المبارك عن الحسن: إنّ الرجل ليتعلّق بالرجل يوم القيامة فيقول: بينى وبينك الله تعالى. فيقول: والله ما أعرفك. فيقول: بلى، أنت أخذت من حائطى تِبنة. وإن الرجل ليتعلق بالرجل يوم القيامة فيقول: هذا أخذ من ثوبى زُبَيْرة.

ومات حماد بن أبى سليمان، وكان أحد علماء أهل الكوفة، فقيل للثورى: ألاَ تشهد جنازته؟ فقال: لو كانت لى نية لفعلت. ومات الحسن البصرى فلم يحضر ابن سيرين جنازته، فسئل عن ذلك فقال: لم يكن لى نية. وقد كان العلماء إذا

سُئلوا عن عمل شيء أو سعى فيه يقولون: إن رزقنا الله نية فَعَلنا ذلك. وقال يحيى بن كثير: حسن النية فى العمل أبلغ من العمل. وقال بعض السلف: كانوا يستحبُّون أن يكون لهم فى كل شيء نية. وقال الفضيل بن عياض: لا تتحدّث إلا بنية. وكان بعضهم يقول: الخوف على فساد النية وتغيُّرها أشدُّ من ترك الأعمال.

وقال الثورى: من دعا رجلاً إلى طعامه وليس له نية فى أن يأكل، فإن أجابه فأكل فعليه وزران، وإن لم يجبه فعليه وزر واحدٌ. فصيَّر عليه وِزرين مع أكل طعامه بغير نية، لتعرضه للمَقت، وحمله أخاه على ما يكره، إذ لو علِم لَمَا أجابه.

فمن أفهمه الله تعالى إخلاص النية، وزاده معرفة الإخلاص، أخرجه ذلك إلى الهرب من الناس، لتخلص له معاملته؛ لأنّه نظر بعين اليقين، وإذًا لا ينفعه شيءٌ إلاّ شيءٌ بينه وبين الله عز وجل لا شريك فيه لسواه؛ وهذا المعنى هو الذى أخرج طائفةً من الأبدال إلى الكهوف تخليًا من أبناء الدنيا لخلاص أعمالهم من النظر إليهم، فهم وإن فارقوا فضائل الأعمال من صلاة الجماعة وغيرها، فقد تقرَّر عندهم أن اجتناب معصية واحدة خيرٌ من عمل سبعين طاعة، فلذلك فارقوا فُضول النوافل خشيةَ دُخول معصيةٍ واحدة عليهم. والجاهل بالله عز وجل يعمل فى طلب الفضائل، ولا يبالى بيسير الذنوب، وفيها بُعد من الله تعالى، وليس ذلك طريق المقرَّبين.

وقد تختلف النيات لاختلاف المقاصد، فيصير ما كان بُعدًا قربًا بحسن النية، وما كان حسنًا سيئًا لسوء النية به. من ذلك أن داود بن المحبر لما صنّف كتاب العمل[1] جاء أحمد بن حنبل، فطلبه منه، فنظر فيه أحمد صفحًا، ثم رده إليه، فقال: ما لك؟ قال: فيه أسانيد ضعفاء. فقال له داود: أنا لم أخرّجه على أسانيد، فانظر فيه بعين الخبر، إنّما نظرتُ فيه بعين العمل فانتفعت به. قال له أحمد: ردَّه علىَّ حتى أنظر فيه بالعين التى نظرت بها، فردّه عليه فمكث الكتاب

(١) فى الأصول: «العقل».

عنده طويلاً حتى اقتضاه إياه ابن المحبر، ثم ردَّه عليه، وقال: جزاك الله خيرًا، قد انتفعت به منفعة بينة.

وقال الحسن: النيةُ أبلغ من العمل. وقال: ابن آدم لا يهمُّ بخير إلاّ ثَارَ فى قلبه منه نوران؛ فإن كانت الأولى لله عز وجلّ فلا تضرّه الآخرة، يعنى إن كان عنده الإخلاص فى الخير فى الهمّة الأولى فلا تضرّه الوسوسة التى تخالجه بعد ذلك؛ فإنها ضعيفة لا تحلّ قُوّة العقد، ولا تحلّ محكم مبرمه.

وقال يوسف بن أسباط: تخليص النية من فسادها أشدّ على العاملين من طول الاجتهاد.

وحدثونا عن أبى عبد الله بن الجلاء الدمشقى[1]، قال: كنتُ قائمًا مع أبى عبيد التسترى، وهو يحرث أرضه بعد العصر من يوم عرفة، فمرّ به بعض إخوانه من الأبدال فسارَّه بشىء. فقال أبو عبيد: لا. فمرّ كالسحاب يمسح الأرض حتى غاب عن عينى. فقلتُ لأبى عبيد: ما قال لك؟ فقال: سألنى أن أحج معه، فقلت: لا. فقلت: ألاَ فعلت؟ قال: ليس لى فى الحج نية، وقد نويتُ أن أتمم هذه الأرض العشيَّة، فأخاف إن حججتُ معه لأجله أتعرض لمقت الله تعالى؛ لأنّى أُدخل فى عمل الله تعالى شيئًا غيره، فيكون هذا عندى أعظم من سبعين حجة.

ومن كان له فى مباحٍ نيةٌ، ولم تكن له نية فى فضيلة، فالأفضل هو المباح حينئذ، وقد انتقل المعنى فصار المباح هو الفضيلة، وصارت الفضيلة هى النقيصة، لعدم النية فيها؛ وهذا لا يعلمه إلا العلماء بباطن العلم وهو غوامض التصريف، مثل أن يكون رجل قد ظُلم فله أن ينتصر، وإن عفا كان أفضل، إلاّ أنه له نية فى الانتصار، وليس له نية فى العفو، فالانتصار هو الأفضل[2]. ومثل أن تكون له نية فى الأكل والشرب والنوم ليتقوى بها على الطاعة، ويريح بها نفسه لوقت آخر. ويكون له نية فى الجماع؛ ليحصِّن به نفسه، أو ليغض به بصره، أو لأنه لا يأمن

---

(١) فى المطبوعة: «وحدثونا عن بعض الصوفية»، وأثبت ما فى (هـ).

(٢) لعله يقصد: إن عفا ونيته الانتصار فإنه لا يأخذ أجر العفو كاملاً، لأن نيته كانت الانتصار، وإلاّ فالرجوع إلى الأفضل أفضل.

الفتنة[١]، وليس له فى الصوم ولا فى القيام نية، فقد صار الأكل والنوم والجماع حينئذ هو الأفضل. وقد كان أبو الدرداء يقول: إنى لأستجمُّ نفسى ببعض اللهو، ليكون ذلك عونًا لى على الحق.

وكلُّ عملٍ مباح للعبد فيه نية فهو مأجور عليه. وكلّ عملٍ فاضل لا نية للعبد فيه، فأحسنُ حاله السلامة منه لا له ولا عليه، وربّما كان مأزورًا فيه إذا دخلت عليه نية دُنيا. وكلُّ عمل مباح أو فَضْل ليس للعبد فيه نية، فهو غُفل لا شىء له فيه، ولكنه يُسأل عن فراغ وقته. وكلّ عملٍ فاضل للعبد فيه نية حسنة، فهو فضيلة بالغة. وكل عمل مكروه أو شبهة للعبد فيه نية، فالعمل باطل ونيته هوى. وإنما وجد النية فيه لقصور علمه واختفاء لشهوته، فإن أراد به وجه الله تعالى سَلِم من عاقبته ولا فضيلة له به، وإن كان قد خفى عليه الهوى، أو دقّ عليه لطيف حبّ الدنيا؛ لجهله بالعلم، فهو مأثوم فيه، لتقصيره فى طلب العلم الذى يعرف به الإخلاص، وسكوته على الجهل الذى يدخل منه الانتقاص، ولا عذر له فى ذلك. وقد جاء فى الخبر: إن اللهَ تعالى لا يعذر على الجهل، ولا يحلّ للجاهل أن يسكت على جهله، ولا يحل للعالم أن يسكت عن علمه. وقد قال الله سبحانه تعالى: ﴿فَاسأَلُوا أَهْلَ الذِّكرِ إِنْ كُنْتُم لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣].

وقد كان سهل رحمه الله تعالى يقول: ما عُصِى الله تعالى بمعصية أعظم من الجهل. قيل: يا أبا محمد، هل تعرف شيئًا أشدَّ من الجهل؟ قال: نعم. قيل: ما هو؟ قال: الجهل بالجهل. يعنى: أن يكون العبد جاهلاً وهو لا يعلم أنه جاهل، أو يحسب بجهله أنه عالم، فيسكت عن جهله ويرضى به فلا يتعلم، فيضيِّع فرض الفرائض كلّها وهو طلب العلم، ولعله أن يفتى بالجهل، أو يتكلم بالشبهات، وهو يظن أنه علم؛ فهذا أعظم من سكوته.

ولذلك نقول: ما أُطيع الله تعالى بمثل العلم. ومن العلم أن يعلم[٢] أى شىء

---

(١) من قوله: «ويكون له نية فى الجماع» إلى هنا من (هـ) فقط.

(٢) عبارة (م)، والمطبوعة: «ومن علِم العِلم العلمُ بالعِلم أى شىء هو»، وهى كذلك فى (هـ)، ولكنه ضرب عليها وصوبها إلى ما أثبته، وهو أوضح.

هو العلم. وذلك أيضًا واجب من حيث كان العلم واجبًا؛ ليكون على بصيرة من تعلُّم العلم؛ لأنه قد دخل مذاهب المتكلمين وأقوال الغالطين من الصوفية والقصّاص فى شبهات العلم، فصار زخرفًا من القول غرورًا، يشبه العلم وليس بعلم، لالتباس المعنى بعضه ببعض، ولإشكال دقائق العلوم وغرائبه، وخفاء السنة من طريقة علماء السلف، فاختلط لذلك القصَّاص والمتكلمون بالعلماء، فصار معرفة العلم أى شىء هو، والعلم بالعالم من هو عِلمٌ آخر، وصار العالم بالعلمِ ما هو دون الزخرف من القول، كأنه عالم. فكان أيضًا العلم بالعلم بمنزلة فضل العلم ووجب وجوبه، كما كان الجهل بالجهل أعظم من الجهل.

وقد كان سهل رحمه الله تعالى يقول: قَسوةُ القلبِ بالجهل من قسوته بالمعاصى. لأن الجهلَ ظلمة لا ينفع البصر فيه شيئًا، ونور العلم يهتدى به القاصد، وإن لم يمش.

وقد قيل فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر:٤٧]، قال: عملوا أعمالاً بجهلهم ظنوا أنها حسنات فوجدوها سيئات. وقيل: ذنوب غيرهم طُرحت عليهم فعُذِّبوا بها ولم يكونوا يحتسبونها فى الدنيا. يعنى بهذا مثل ما روى فى الخبر: «إن العبد ليرى من أعماله الحسنات مما يرجو به المنازل فى الجنة، فتُلقى عليه سيئات لم يعملها، فترجح بحسناته كلّها، فيستوجب النار، فيقول: يا رب هذه سيئات ما عملتها هلكتُ بها. فيقال: هذه ذنوبُ القوم الذين اغتبتهم وآذيتهم وظَلَمتهم، أُلقيت عليك وتخلّصوا منها».

وقد روينا فى معناه حديثًا مسندًا عن النبى ﷺ: «إن العبدَ ليوافى القيامة بحسنات أمثال الجبال، لو خلُصت له دخَل الجنة، ويأتى قد ظَلَم هذا، وشتَم هذا، وضرب هذا، فيُقتَصُّ لهذا من حسناته، ولهذا من حسناته، حتى لا تبقى له حسنة. فتقول الملائكة: يا ربنا قد فنيت حسناته، وقد بقى طالبون كثير. فيقول الله تعالى: ألقوا عليه من سيئاتهم ثم صكّوا له صكًّا إلى النار».

وينبغى للعبد إن أراد أن يعمل عملاً أن يَثْبُتَ له، فيجدِّد له نيةً حسنة، ثم يقف وقفةً فيتفقد: هل يدخل عليه فى ذلك العمل آفةٌ واحدة أو أكثر، فيُخرج ما دخل

عليه من الآفات بمشاهدة اليقين، ثم يعمل ذلك العمل لله وحده لا يشرك به أحدًا في قصده ووجده مطلبه وثوابه، ولا يطلب به سواه، ثم يستقيم على ذلك العمل، فإن دخلت عليه آفة في خلله نفاها، حتى يكون قائمًا بشهادته. فهذا هو الإخلاص؛ لأن المخلص يحتاج في إخلاصه إلى شيئين ليس أحدهما أولى به من الآخر: صحة القصد لوجه الله تعالى وطلبه ما عنده من الآخرة، ثم إخراج الآفات والحذرُ على ذلك العمل من دخولها عليه إلى فراغه منه، فبذلك يتمّ إخلاصه، ويصفو من كدر الهوى، ويخلُص من الشّهوة الخفية، فيكون خالصًا من الرياء بالإخلاص، صافيًا من الشهوة، فيتفقَّد دخول الآفة. كما روى في الخبر: «أخوف ما أخاف على أمّتي: الرياء والشهوة الخفية». قيل: حبّ الدنيا، وقيل: العمل لأجل أن يُؤجر العبد ويُحمد.

ثم إذا همّ العبد بعملٍ وقف قلبه وقفةً، فتدبره وتفكّر كم فيه من نية، فربما وَجَد في العمل الواحد عشر نيّات أو خمسًا، وما بين ذلك مما يحتمل ذلك العمل من وجوه البرّ ومعاني القربات المندوب إليها، فيكون له بكلّ نيةٍ عمل، فيؤجر على العمل الواحد عشرة أجور، لأنه عشرة أعمال أو خمسة، يكون لكل نية عمل وبكل عمل أجر. وهذا من فضائل الأعمال وتضاعيف الحسنات، ولا يعلمه إلاّ العلماء بالله تعالى وأحكامه، وهو طريق الأبدال من صالحي أهل الأحوال؛ فبذلك زكَت أعمالهم، وارتفعت مقاماتهم، وكثرت أجورهم، وحسُنت حسناتهم، لا بكثرة الأعمال لكن بتحسينها ووجود النيات الكثيرة فيها. وقد جاء في الأثر: «من عمل عملاً لا يريد به وجه الله لم يزل في مقتٍ من الله حتى يفرغ».

وقد قال بعض الأدباء: من لم يشكر لك حسن النية فيه لم يشكر منك حسن الصنيعة إليه، وأنشدوا في معناه:

لأشكرنَّك معـروفًا همـمـتَ به   إنَّ اهتمامـك بالمعروفِ مَعروفُ

ولا ألومُـكَ إذا لم يُمضِـه قَـدَرٌ   فالشيءُ بالقَدَر المكتوبِ مَصروفُ

ولو لم يكن في تجديد النية الحسنة وتفقُّد الهمة العالية إلا أن صاحبها لا يزال

عاملاً من عُمّال الله تعالى بقلبه وهمه، وإن لم يساعده القدر على الأفعال بجوارحه، فيكون أبدًا مأجورًا. ولو لم يكن فى نية الشر والهمّة الدنية إلا أن صاحبها فى بطالة وخسارة، وإن لم يساعده المقدور على الأفعال السيئة بجوارحه، فيكون خاسرًا أبدًا مأزورًا، ونعوذ بالله من ذلك[١].

وقال بعضهم: إنى لأستعد النية فى كلّ شىء قبل الدخول فيه حتى فى أكلى ونومى ودخولى الخلاء.

والنية فى هذا التقوِّى على الطاعة، والاستعانة به على الخدمة؛ لأن النفس مطيتك إن قطعت بها قطعت بك، ونية التطهر من التحلِّى لأجل الدين. فكان الناس لشدة تفقدهم وحسن رعايتهم صادقين فى ترك كثير من أعمال البر لضعف النية، ويعملون فى أحكام الأصل. قال ابن عيينة: إنما حُرموا الوصول لتضييع الأصول، والنية أصلُ الأصول، لأنها فرض الفرائض. وقال بعضهم: إنّما بعّد القلب من الله عز وجل مظاهرةُ أعمال الجوارح بغير مواطأة من القلب بصحّة القصد. يعنى بذلك نقص الإخلاص بها لأجل الله تبارك وتعالى. فالنكاح من معظم شأن الدين، فنيته فيه أن لا يتزوج المرأة لجمالها ولا لمالها ولا لحسنها، بل لدينها وعقلها، ثم ينوى السنة له ولها، والعفة والتحصين لهما، ويقنع بالمرأة الدُّون عن غيرها. وفى الخبر: «من نكح لله عز وجل وأنكح لله تعالى استحق ولاية الله تعالى».

وأفضل الأعمال ما دخل فيه لله عزّ وجلّ وخرج منه لله، ولم يعتوره بعد ذلك علة، وأعلى من هذا من دخل فى الأعمال بالله عز وجل وثبت فيها مع الله وخرج منها بالله تعالى؛ وهذا مقام الموحِّدين من الموقنين والعارفين. فأصح الأعمال وأخلصها ما كان لله تبارك وتعالى هو الأول فى أولها، ومع العامل فى

---

(١) بعده فى (د، هـ): «ونسأله أن يوفقنا لما يحبه ويرضاه برحمته. وصلى الله على سيدنا محمد النبى وآله وسلم كثيرًا». ثم كتب فى حاشية (هـ) بالخط نفسه والقلم: «هنا ترك قدر نصف كراس». لأن ما سيأتى حتى كتاب ترتيب الأقوات ليس فى (د، هـ) ولا فى نسخة (ك) أيضًا، لكنه فى (م) والمطبوعة.

أوسطها، والعبد عنده فيها. والله تعالى هو الآخر عند آخرها، ثم لا يظهرها بعد ذلك ولا يتظاهر بها، ولا يطالع عوضًا عنها من الكبير الأكبر، بل ينساها ويشتغل بذكر مولاه عنها.

والقعود فى المساجد من أفضل شأن الدين وفضائل أعمال المتقين، فليكن له فيه عشر نيات:

منها: زيارة مولاه عز وجل فى بيته، كما روى: «من قعد فى المسجد فقد زار الله تعالى، وحُقَّ على المزور إكرام زائره». ومنها: انتظار الصلاة بعد الصلاة، كما روى فى معنى قوله تعالى: ﴿ورَابِطُوا﴾ [آل عمران: ٢٠٠]: هى المرابطة. ومنها: كفّ سمعه وبصره وترهبه فى تألهه، كما روى: «رهبانية أمتى القعود فى المساجد». ومنها: العكوف، وحقيقته عكوف الهمّ على القلب، وعكوف السرّ بالتألُّه إلى الله عز وجل. ومنها: ذكر الله تعالى واستماع ذكره والتذكير به، كما روى: «مَن غدا إلى المسجد يذكر الله تعالى ويذكِّر به كان كالمجاهد فى سبيل الله». ومثل ذلك: إذا جلس ليعلّم علمًا أو يتعلّمه، كان أيضًا كالمجاهد، أو جلس لاستفادة أخ فى الله عز وجل، أو لتنزُّل رحمة الله، أو لترك الذنوب للخشية والحياء.

كما روينا فى حديث الحسن بن على عليهما السلام: «من أدمن الاختلاف إلى المساجد رزقه الله تعالى إحدى سبع خصال: أخًا مستفادًا فى الله تعالى، أو رحمة مستنزَلة، أو علمًا مستطرفًا، أو كلمة تدله على هدى أو تصرفه عن ردى، أو ترك الذنوب خشية أو حياء منه».

فإخلاص النية هو بخروج أضدادها من القلب وعن القصد والهمة وإن كثر أعداده، لتنفرد النية بقصدها، ويَخلُص العمل بانفراد النية لوجه الواحد الفرد المقصود بها. يروى عن بعضهم قال: غزوتُ فى البحر، فعرض بعضنا مخلاةً، فقلتُ: أشتريها، وأنتفع بها فى غزاتى، فإذا دخلتُ مدينة كذا بعتها فربحت فيها. فاشتريتها فرأيت تلك الليلة فى النوم كأن شخصين نزلا من السماء، فقال أحدهما

لصاحبه: اكتب الغزاة، فأملى عليه: اكتب: خرج فلان متنزِّهًا، وفلان مرائيًا، وفلان تاجرًا، وفلان في سبيل الله، ثم نظر إليَّ فقال: اكتب: خرج فلان تاجراً. فقلت: اللهَ اللهَ فيَّ، والله ما خرجتُ أتَّجر، ولا معي تجارة أتجر فيها، ما خرجتُ إلاّ للغزو. فقال لي: يا شيخ قد اشتريت أمس مخلاةً تريد أن تربح فيها. فبكيتُ، وقلت: لا تكتبوني تاجرًا. فنظر إلى صاحبه وقال: ما ترى؟ فقال: اكتب: خرج فلان غازيًا، إلا أنه اشترى في طريقه مخلاةً ليربح فيها، حتى يحكم الله عز وجل فيه ما يرى.

● فصل:

ومن المناقض المشبهة للفضائل الملتبسة على الأفاضل، لشهرة فضلها وروعة الهموم للدخول فيها، والتصبُّر عليها، وهي منكشفة للعلماء بالله تعالى: ما رُوى أن رجلين تآخيا في الله عز وجل بعد رفع عيسى ابن مريم عليه السلام إلى السماء، فترهّب أحدهما وهو سرجس، ولزم أخوه الآخر الجماعة والمساجد ومخالطة الناس، وكان أعلم منه بالله عز وجل، وكان يلقى أخاه سرجس فيقول: يا أخي إنّ هذا الأمر الذي دخلت فيه بدعة، وإنّ عليك فيه رعاية لا تقوم بحقّها، وإنه ليس لله فيه رضًا، فلو دخلت معي في الجماعة والألفة كان ذلك لله تعالى رضًا وأصبت السنة. فكان المترهب يعرض عنه، ولا يعبأ برأيه، ويقول له: إنك قد ركنتَ إلى الدنيا وأنستَ بالخلق. فلما أعياه قال له: فاجعل فطرك عندي الليلة حتى يتبين ذلك، ففعل، فقدم إليه فرخين شواهما، وقال له: تعال حتى نجعل هذين الفرخين قاضيين بيننا، فأينا كان على الحق ظهر أمره. قال: كيف يقضيان بيننا؟[1] قال: حتى يدعو الله كل واحد منا، فمن كان سيرته وهديه أحبَّ إلى الله ورسوله يبعث بدعائه هذين الفرخين حتى يطيرا حيَّين. قال: نعم، فادع أنت. فدعا الراهب فقال: اللّهم إن كان هذا الأمر الذي دخلتُ فيه أريد به رضاك أقربَ إلى الحق مما يدعوني إليه أخي هذا فابعث هذين الفرخين إليَّ. قال: فلم يجب. فقال الآخر: اللهم إن كان هذا الأمر الذي تمسكتُ به وخالفت فيه هذا وأصحابه

(١) من قوله: «فأينا كان» إلى هنا من (م).

أقرب إلى الحق وأرضاهما عندك مما يدعونى إليه أخى هذا من الاعتزال والفرقة للجماعة، فابعث لى هذين الفرخين. قال: فصارا حيَّين فطارا بإذن الله تعالى. فعلم الآخر أنّ ذلك ليس لله رضًا، فرجع إلى الجماعة والمساجد.

ومن التباس الفضائل العالية تركُ العبد حاله فى مقامه طلبًا للفضيلة ليزداد بها قُربَةً إلى الله عز وجل، فينقلب عليه فيهلك، ما أدخل العدو على برصيص العابد فى تعليم الاسم الأعظم، وقصته مشهورة.

فالعالم عند العلماء من عَلِم خيرَ الخيرين فسبق إليه قبل فوته، وعلم شرّ الخيرين فأعرض عنه؛ لئلا يشغله عن الأخير منهما، وعلم أيضًا خير الشرين ففعله، إذا اضطر إليه وابتُلى به، وعلم شرّ الشرين فأمعن فى الهرب منه، واحتجب بحجابين عنه، وهذا من دقائق العلوم.

● **فصل:**

وقد تلتبس النية بالأمنية فتخفى، والهمةُ بالوَسوسة فتشتبه. والنية ما كان يراد به وجه الله عز وجل ويطلب منه ما عنده. والأمنية ما تعلق بالخلق وطلب منه عاجل الحظّ من الملك الفانى. وقد تلتبس الإرادة بالمحبة والحاجة بالشهوة؛ فالإرادة أن يريد وقوع الأمر، وقد لا يحب كونه أو يريد أيضًا وجوده ضدّه، والمحبةُ ما قهر العقل وغلب الوجدَ وحلّ فى مجامع القلب، وكره وجود غيره ولم يرد فقده، والحاجة ما اضطررت إليه ولم يكن منه بُدٌّ ولا يُستغنى عنه بغيره، والشهوة مزيدُ لذّةٍ، واستدعاء فضلِ فاقةٍ، واجتلابُ تقدّم عادةٍ.

وقد يختلط الذكرُ بالقلب بالفكر فى معانى القرب. فالذكرُ: ما أظهر النسىَّ، وكشف الغىَّ، وأذكر الشىء. والفكر ما صوَّر الأمرَ وأظهر الخبر. وقد يلتبس الرجاء بالمحبة والهوى بالنية. فالرجاء: ما طمعت فيه بسببٍ ما. والمحبة ما تطمعت ذوقه وجدته بغير سبب يستخرجه. وقد يلتبس ذلُّ القلبِ بضعفه وموته، للطمع فى الخلق بذلِّ النفس لمشاهدة عزّ الخالق سبحانه وتعالى. وقد يتداخل ذلّ الطمع لدناءة الهمة والنفس بذلِّ العقل للاعتراف بالحق، وخضوع العلم له. وقد

يلتبس ذلُّ النفس لغلبة الهوى وقهره للعقل بذلِّ القلب لسرعة الانقياد للعالم المحق. وقد يختلط عزةُ القلب بمقلّبه بدوام النظر إليه وعزة العقل بعلمه الذى كبر عنده. وقد تلتبس عِزّةُ النفس بوصفها المتسلّط بعزة الإيمان، المعزز بغيبة اليقين.

فهذه فروق ظاهرة للعارفين، وخروق متسعة توهن الغافلين.

وقد تلتبس العبادة بالعادة، مثل أن يكون للعبد نية فى علم أو عمل أو صدقة أو نفقة الشهر والسنة، ثم تَعزُب نيته، فيبقى على عادته يَرُبُّ حاله الذى قد عُرِف به، لا يحبّ أن يخرج من عُرْفِ الناس له، فيتعمل لاستقامة الحال على التكلّف بتلك الأعمال، فتذهب النية، وتبقى العادة، فيخرج بذلك من إرادة الآخرة والسعى لها، ويدخل فى إرادة الدنيا بالشهوات على جريان العادة بها.

وقد تلتبس طرقات الدنيا من طلب الرياسة لوجود الهوى بطرقات الآخرة فى معنى العلوم والأعمال، فما طُلب من أعمال السلف وأريد به تأديب النفس، ويُعلم به الزهد فى الدنيا؛ فهذه طرقات الآخرة، وما كان على ضدّه فهو طرقات الدنيا؛ إذ هو ضدها. وقالوا: كان الناس إذا عَلِموا عملوا، وإذا عملوا شُغلوا، وإذا شُغلوا هربوا. وقالوا: تفقّه ثم اعتزل.

وقد يلتبس إظهار الأعمال وكشف ما كتم من الأحوال لأجل التأديب به والاتباع عليه، أو لإظهار قدرة الله عز وجل وآياته لمزيد السامع من المعرفة به بفعل مثل ذلك للتزيُّن والفخر، أو للمدح به وطلب الذِّكر.

وسئل أبو سليمان عن الرجل يخبر بالشىء عن نفسه، فقالوا: إذا كان إمامًا يُقتدى به فنعم. وقال مرة، هو أو غيره: يختلف ذلك على قَدر الإرادة به؛ إذا أراد التأديب للنفس حَسُن ذلك؛ فهذا يلتبس بمداخلة النفس وبفنائها بقيومية شاهد اليقين للرب عز وجل.

• فصل:

ترك العمل عملٌ كثير، يحتاج التارك للنهى أو المكروه فرضًا أو وَرَعًا إلى نية حسنة أن يتركه لله عز وجل طلب مأمنه أو رغبة فيما عنده، لا لوجود الخلق، ولا

ليرُبَّ به حاله أو يقيم به عند العبيد جاهه، لأن ترك المعصية من أفضل الأعمال، فيحتاج إلى أحسن النيات، إذ عليها من الله تعالى أجزل المثوبات؛ لبلوى النفس بها، واضطراب الوصف إليها. وقال بعضهم: من أحبّ أن يعرف ورعه غير الله تعالى فليس من الله فى شىء.

وروى عن زكريا عليه السلام: أن قومًا دخلوا عليه وكان يعمل فى حائط لقوم بالطين، وكان صانعًا يأكل من كدّ يديه، فقدَّم إليه عندهم رغيفيه وجعل يأكل ولم يدعهم حتى فرغ. فسألوه عن ذلك لعلمهم بزهده وكرمه، فقال: إنى أعمل لقوم بأجرة، وقربوا إلىَّ هذين الرغيفين لأتقوّى بهما على عملهم، فلو أكلتم معى لم يكفكم ولم يكفنى وضعفت عن عملهم.

فهذا ممّن ترك فضلاً لفرض، وممّن كانت له نية فى الترك، كما تكون له فى الفعل.

وقال بعضهم: دخلت على سفيان بن أبى عاصم وهو يأكل فما كلّمنى حتى لعق أصابعه، ثم قال: لولا أنى أخذته بدَين لأحببت أن تأكل منه.

وقد روينا فى الخبر: أنّ أعجميًا مرّ بنفر يتكلمون بكلام فيه استهزاء ولهو، فظَنَّ أنهم يدعون الله عز وجل، فقال مثل ما يقولون بحسن نيته. قال: فغفر الله له بحسن نيته.

وقال الحسن: من علامة المسلم أن لا يبدره لسانه، ولا يسبقه بصره، ولا تقصر به نيته. يعنى لا يضعف ولا تقعد به عن المسارعة إلى القربات هى أبدًا فى قوة وزيادة، وإن قصرت أعماله فيها وعجزت، قوَّى جوارحه. وقال: المؤمن تبلغ نيته وتضعف قوته، والمنافق تضعف نيته وتبلغ قوته.

وقال النبى ﷺ: «لكل حق حقيقة، وما بلغ عبدُ حقيقة الإخلاص حتى لا يحبّ أن يحمد على شىءٍ من عمل الله عز وجل». وقال الحواريون لعيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام: يا روح الله ما الإخلاص لله عز وجل؟ قال: الذى يعمل العمل لله تعالى، لا يحبّ أن يحمده عليه أحد من الناس. قالوا: فمن

الناصح لله عز وجل؟ قال: الذى يبدأ بحق الله تعالى قبل حق الناس، وإذا عرض له أمران أحدهما للدنيا والآخر للآخرة، بدأ بأمر الله تعالى قبل أمر الدنيا.

فحبُّ المحمدة من الناس أصل هو فرعها، وهو يحبّ أن يعرف مكانه، ويريد الاشتهار، وينوى بقلبه محبة الإعظام له من وجوه الأنام، فلا ينفعه ـ مع هذه النية ـ اختفاؤه فى الآجام، وعمله غير مقبول. كما روى أن عابدًا من بنى إسرائيل عبد الله تعالى فى سرب أربعين سنة، فكانت الملائكة ترفع عمله إلى السماء فلا يقبل. فقالت: ربّنا وعزتك ما رفعنا إليك إلا حقًا. فقال عز وجل: صدقتم ملائكتى، ولكنه يحبّ أن يُعرف مكانه.

فلذلك قال بعض السلف: من نجا من الكِبر والرياء وحبِّ الشهرة فقد سلم. وقال الثورى: ما عالجت شيئًا أشد علىَّ من نيتى، لأنها تفلت علىَّ، يعنى تشرد أو تضعف، فتحتاج إلى مداراة لها. كما قال المنصور: المداومة على العمل حتى يخلص أشدّ من العمل.

وقال الثورى: ما أعتدّ بما ظهرَ من عملى. وقال على رضى الله تعالى عنه: كونوا بقبول العمل أشد اهتمامًا منكم بالعمل، فإنه لا يقلّ عمل مع تقوى، وكيف يقل عمل يُتقبَّل؟ وقال بعضهم: من استوحش من الوحدة وأنس بالجماعة لم يسلم من الرياء.

وقال عبد العزيز بن أبى رواد: أدركتهم يجتهدون فى العمل الصالح، فإذا بلغوه وقع عليهم الهمُّ أيُتقبل منهم أم لا؟!

وقال مالك بن دينار: الخوف على العمل أن لا يتقبل أشدّ من العمل. وقال ابن عجلان: العمل لا يصلح إلا بثلاث: التقوى لله عز وجل، والنية الحسنة، والإصابة.

وقد فسر الفضيل قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُم أَحسَنُ عَمَلاً﴾ [الملك:٢]، قال: أخلصه وأصوبه. قيل: وما ذاك؟ قال: العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يُقبل. وقال التياحى: للعمل أربع خصال لا يتم إلاّ بهن: معرفة الله عز وجل،

ومعرفة الحق، والإخلاص به والعمل على السنة. فأى عمل كان قبل هذه الأربع لا ينفع[١].

وقال أبو عبيدة بن عقبة: من سرَّه أن يكمل عمله فليحسِّن نيته، فإن الله عز وجل يأجر العبد إذا حسنت نيته حتى باللقمة.

فأحسن تفسير للنية ما فسره رسول الله ﷺ لما سئل عن الإحسان فقال: «تعبد الله كأنك تراه». فهذه شهادة العارفين ومعرفة الموقنين، فهم مخلصو المخلصين.

وقال ابن المبارك: رُبَّ عمل صغير تعظِّمه النية، وربَّ[٢] عمل كبير تصغِّره النية. وقال بعضهم: القصدُ إلى الله تعالى بالقلوب أبلغ من حركات الأعمال بالصلاة والصيام ونحوه.

وقال الأنطاكى: إذا صارت المعاملة إلى القلب استراحت الجوارح. وروى عن علىٍّ عليه السلام: من كان ظاهرُه أرجح من باطنه خفَّ ميزانه، ومن كان باطنه أرجح من ظاهره ثقل ميزانه يوم القيامة. وقال داود الطائى: رأيت الخيرَ كلَّه يجمعه حسنُ النية، وكفاك به خيرًا وإن لم ينصب.

وروى عن الحسن فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِى الدُّنْيَا﴾ [العنكبوت:٢٧]، قال: نيته الصادقة اكتسب بها الأجر فى الآخرة.

وروى عن عبد الرحمن بن مربح قال: من قام إلى شىءٍ من الخير لا يريد به إلاّ الله عز وجل، ثم عرض له مَن يريد أن يرائيه بذلك، أعطاه الله عز وجل بالأصل، ووضع عنه الفرع. ومن قام إلى شىء من الخير لا يريد به إلا المراءاة، ثم فكَّر وبدا له فجعل آخر ذلك لله عز وجل، أعطاه الله تعالى بالفرع ووضع عنه الأصل، كأنه حسب له ذلك توبة؛ والتوبةُ مكفِّرة لما سَلَف، والله أعلم.

وقد تلتبس الفضائل بالمناقض[٣]، لدقَّة معانيها، وخفىِّ علومها، كصلاة العبد

---

(١) هنا تنتهى الأوراق الأخرى التى جاءت فى غير موضعها من المطبوعة.

(٢) هذه العبارة ساقطة من المطبوعة، وأثبتها من (م).

(٣) فى المطبوعة: «بالمناقص».

النفل وهو يحسب أنه هو الأوجب. من ذلك أن رجلاً كان يصلّى، فدعاه رسول الله ﷺ فلم يجبه، فظن أن وقوفه بين يدى الله تعالى بالغيب أفضل له. فلما سلّم جاءه، فقال له ﷺ: ما منعك أن تجيبنى حين دعوتك؟ فقال: كنت أصلى. فقال: ألم تسمع قول الله تعالى: **﴿اسْتَجِيبُوا لله وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحيِيكُمْ﴾** [الأنفال:٢٤]؟ فكان إجابته النبى ﷺ أفضل له، لأنّ صلاته نافلة، وإجابته للرسول ﷺ فرض عليه.

وقال بعضهم: من كان طلبُ الفضائل أهمَّ إليه من أداء الفرائض فهو مخدوع، ومن شُغل بغيره عن نفسه فقد مُكر به. وقال سفيان: إنما حُرِموا الوصول بتضييع الأصول.

فأفضلُ شيءٍ للعبد معرفته لِنفسه، ثم وقوفه على حدّه، ثم إحكامه لحاله التى أُقيم فيها، ثم قيامه بعلمه الذى فُتح له، فيبتدئ العمل بما افترض عليه بعد اجتنابه ما نُهى عنه مبلغ علمه ووسع وَجْده، ولا يشتغل بطَلب فضلٍ حتى يحكم عملَ فرضٍ؛ لأنّ الفضلَ ربح لا يصحّ إلاَّ بعد رأس المال، ولكلٍّ فضلٍ آفة قاطعة، فمن سَلِم منها حاز فضله. ولكل أمرٍ نفيس مؤونةٌ ثقيلة، فمن تحملها أدرك نفيسها. ومن تعذرت عليه السّلامة فهيهات أن يصير إلى أفضل كرامة، ومن لم يصبر على تحمُّل غرامةٍ لم يدر علوَّ مقامه.

وقد يلتبس التكلُّف بالإخلاص وإظهار العلم بظهور التزيُّن به. قال الثورى رحمه الله: زيِّن نفسك بالعلم ولا تتزيَّن به. أى أدِّبها لله عز وجل فتكون زينًا فى أوليائه، ولا تتزين به عند الناس ليمدحوك عليه.

ويلتبس الاختبار[1] بالاختيار. فالاختبار ما كان عن حاجة وتطرقت به إلى الله عز وجل، والاختيار ما زاد فى الشهوة وكان سلّمًا إلى الخلق، كالتباس ستر العورة من الثياب بالفاخر منها للنعمة والتكثر من الأسباب. وقد يتطوع العبد بعمل يُضيِّع به فرضًا، وإحكامُ الفرض لجواز السلامة هو الفضل.

---

(١) فى (م): «الاختيار»، ولا أدرى أيهما أصحّ.

وقد روى: «إذا دُعى أحدكم إلى طعام، فإن كان مفطرًا فليُجب وإن كان صائمًا فليقل إنّى صائم». فأمره بإظهار عمله وهو يعلم أن الإخفاء أفضل. ولكن إظهار عمله من حيث لا يؤثر فى قلب أخيه وَجْدًا أفضل من إخفائه لنفسه مع تأثير ذلك فى قلب أخيه؛ لتفضيل العمّال على الأعمال، إذ الأعمال موقوفة على العامل، فإنّما يعطى الثواب على قدر العامل لا على قدر العمل، لتضعيف الجزاء لمن يشاء عز وجل على غيره فى العمل لواحد، فدلّ ذلك أن المؤمن أفضل من العمل، فقيل له: ارفع التأثير والكراهة عن قلب أخيك بإظهار عملك؛ فهو خير لك من إخفاء العمل مع وجد أخيك عليك؛ لأنّ أخاك إذا دعاك إلى طعام صنعه لك فلم تجبه، ولم تعتذر إليه عذرًا بيّنًا يقبله منك ويعرفه، شقّ عليه ذلك، إن كان صادقًا فى دعائك.

قال ابن شبرمة: سأل كُرْز بن وَبْرة ربّه عزّ وجل أن يعطيه الاسم الأعظم على أن لا يسأله شيئًا من أمر الدنيا، فأعطاه الله تعالى ذلك، فسأل أن يَقوَى أن يختم القرآن فى اليوم والليلة ثلاث مرات. فقيل لكرز: أتعبتَ نفسك فى العبادة. فقال: كم مقدار الدنيا؟ قيل: سبعة آلاف سنة[1]. قال: أما يرضى عبد أن يعمل سبعة آلاف سنة وينجو من يوم مقداره خمسين ألف سنة؟

وقال سرى السقطى: ركعتان تخلصهما خير لك من أن تكتب سبعين حديثًا، أو قال: سبعمائة حديث.

❋ ❋ ❋

(١) هذا تقدير لا أصل له، ومجانب للصواب والواقع.

الفصل التاسع والثلاثون

كتاب ترتيب الأقوات بالنقصان منها أو بزيادة الأوقات

أما الأقوات فقد كان بعض السلف ينقص منها حتى يردّ النفس إلى أقل قوامها. فمن أراد هذا الطريق، فليُنقص فى كلّ أكلة رُبع سُبع رغيب، فيكون تاركًا لرغيف فى شهر برياضة وتمهُّل، فلا يؤثر النقصان عليه شيئًا، حتى تقف النفس على الآكل فى ثلث بطنها، وهو ثلث أكله المعتاد. وهذا طريق المريدين.

ومن العلماء من لم يكن يعرض للأقوات ولكن يعمل فى زيادة الأوقات، فيؤخر أكله وقتًا بعد وقتٍ حتى ينتهى إلى أكثر طاقة النفس لحمل الجوع بضعف الجسم عن الفرض، أو خشية اضطراب العقل. فمن أراد هذا الطريق أخَّر فطره كل ليلة إلى نصف سبع الليل، حتى يكون قد طوى ليلة فى نصف شهر. وهذا طريق من أراد الطّى السبع، والعشر، والخمس عشرة يومًا إلى الأربعين؛ لأنه يعمل فى تجوعه على مزيد الأيام ولا يعمل فى نقصان الطعام، فلا يؤثر ذلك نقصًا فى عقله ولا ضعفًا عن أداء الفرائض، إذا كان على صحّة قصدٍ، وحُسن نيةٍ، وصدق عقد، فإنه يعان[1] على ذلك ويُحفظ فيه، ويكون طُعمه إذا أكل عند كلِّ وقت يزيد فيه ينقص ضرورة عن غير تعمُّل لنقصانه؛ لأن معِاه تضيق لا محالة. فكلما زاد جوعه نقص أكله على هذا إلى أن ينتهى فى الجوع، وينتهى فى قلّة الطُّعم، ولا ينال فضيلة الجوع التى وردت به الأخبار إلاّ بالطىٍّ.

ومن الناس من يقول: حدُّ الجوع الأول من الوقت إلى مثله كالغد أربعة وعشرون ساعة، وحدُّه الآخر اثنان وسبعون ساعة؛ فهذا حدّ الجوع من الأوقات. فأما حدُّه فى الأقوات فكان بعضهم يقول: حدُّ الجوع أن لا تطلب نفسُك الأُدمَ، فمتى طلبت نفسُك الأُدمَ مع الخبز فلست جائعًا؛ فهذا حدّه الأول. وقيل: حدُّ

(١) فى (م): «يُعاب».

الجوع أن تطلب الخبز فلا تميز بينه وبين غيره، فمتى تاقت النفس إلى الخبز بعينه فليست بجائعة لأنّ لها شهوة فى الخبز، ومتى لم تميِّز بين خبزٍ وغيره من مأكولٍ؛ فهذا حدّ الجوع، وهو الفاقة والحاجة إلى الطعام الذى جعله الله تبارك وتعالى غذاء للأجسام؛ وهذا يكون فى آخر الحدّين من الأوقات بعد الثلاث إلى خمس وسبع، ويكون طلب العبد عند هذا الجوع القوام من العَيش والضّرورة من القُوت، وهو ما سدّ الجوعة، وأعان على أداء الفريضة. وهذا حال الصدّيقين.

وقد سمعت بعضَ هذه الطائفة يقول: حدُّ الجوعِ أن يَبزُق العبد، فإذا لم يقع على بزاقه ذباب فقد خلَت معدته من الطعام. يريد أن بُزاقه قد خلا من الدسومة والدهنية وصار صافيًا مثل الماء فلا يسقط عليه الذباب، مع لطف حاسته التى رُكِّبت فيه وخفىٍّ إدراكه لما يقع عليه.

فأما أكل العادات والتنقل فى الشهوات والأكل حتى يشبع، فهذا عند بعض العلماء مكروه، وأهله عندهم بمنزلة البهائم. وأما الأكل على شِبع والامتلاء حتى يَتْخَم، فهذا فسقٌ عند العلماء، وقد قاله لى بعض العارفين.

وروينا أنه قيل لأبى بكرة: إن ابنك أكل البارحة حتى بَشِم[١]. فقال: لو مات ما صليت عليه.

فأما الصوم فليس هو عندهم الجوع المقصود لإسكان النفس وإخماد الطبع، لأن الصوم يصير عادةً، ويرجع الصائم إلى قوة طبعه إذا أفطر، فأما إذا كان يصوم ويفطر على الشهوات أو من يمتلىء من الأكل، فإن صوم هذا لا يزيده إلا قوة طبع وظهور نفس، وتَفتَّق عليه الشهوات، ويدخل عليه الفتور عن الطاعات، ويجلب عليه الكسل والسُّبات. وربما قوى طبعه جملةً واحدة فظهرت عليه نفسه بقوّة مجملة، إلا أنه لا يجرى فى نهاره إلا فيما أُجريت عادته عليه، وجعل حاله فيه من أبواب الدنيا والتنقل فى الهوى، وإن كان ظاهر حاله أسباب الآخرة عنده لقصور علمه، فإن حشوها[٢] الدنيا.

(١) البَشَم: التُّخَمَة، يقال: بَشِم يَبْشَم. ويقال أيضًا: بشم من فلان أى سئم منه.
(٢) فى المطبوعة «شهودها»، وأثبت ما فى الأصول.

فالتقلل وأخذُ البُلغة من القوت فى الأوقات مع الإفطار أصلح لقلب هذا، وأدوم لعمله، وأبلغ فى آخرته من مثل هذا الصوم؛ لأن هذا الذى وصفناه هو صوم أبناء الدنيا المترفين، ليس بصوم أهل الآخرة الزاهدين، ولكن بالتقلل والطى، وترك الشهوات، واجتناب الشبهات، تنكسر النفس وتذلّ، ويخمد الطبع، وتضعف الصفة عن العادة، وتقوى إرادة الآخرة، ويعمل المريد فى سعيها، وتخرج حلاوة الدنيا من القلب، فيصير العبد مع التجوع والطى وترك النزهات كأنه زاهد.

وروينا فى حديث أسامة بن زيد، وأبى هريرة[1] الطويل اختصرته: «إن أقربَ الناس من الله عز وجل يوم القيامة من طال جوعه وعطشه وحزنه فى الدنيا؛ الأحفياء الأتقياء الذين إن شهدوا لم يُعرفوا، وإن غابوا لم يُفتقدوا، تعرفهم بقاع الأرض، وتحفّ بهم ملائكة السماء، نعم الناس بالدنيا ونعموا بطاعة الله عز وجل، افترش الناس الفرش وافترشوا الجباه والرُّكَب، ضيَّع الناس فِعلَ النبيين وأخلاقهم وحفظوها هُم، تبكى الأرض إذا فقدتهم، ويسخط الله تعالى على كل بلدة ليس فيها منهم، لم يتكالبوا على الدنيا تكالبَ الكلاب على الجيف، أكلوا الفِلَقَ ولبسوا الخِرَق، شُعثًا غُبرًا، يراهم الناس يظنون أن بهم داءً، وما بهم من داء. ويقال: قد خولطوا وذهبت عقولهم، وما ذهبت عقولهم، ولكن نظر القوم بقلوبهم إلى أمرٍ ذهبت عنهم الدنيا، فهم عند أهل الدنيا يمشون بلا عقولٍ، عقلوا حيث ذهبت عقول الناس، لهم الشرف فى الآخرة. يا أسامة إذا رأيتهم فى بلدةٍ فاعلم أنهم أمان لتلك البلدة، لا يعذّب الله عزّ وجل قومًا هم فيهم. الأرض بهم رحيمة، والجبارُ عنهم راض، اتخذهم لنفسك أخدانًا عسى أن تنجو بهم، وإن استطعت أن يأتيك الموت وبطنك جائع وكبدك ظمآن فإنك تدرك بذلك شرف المنازل، وتحلّ مع النبيين، وتفرح بقُدوم روحك الملائكةُ، ويصلى عليك الجبّار عزّ وجل».

وممن اشتهر بالطى وكثُر النقل عنه بذلك الخمس عشرة يومًا إلى عشرين إلى

(١) فى المطبوعة «وأبى يزيد»، وأثبت ما فى الأصول.

شهر، جماعةٌ من العلماء يكثر عددهم؛ منهم: ابن عمرو العوفى، وعبد الرحمن ابن إبراهيم دحيم، وإبراهيم التَّيمى، وحجاج بن فرافصة، وحفص بن العابد المصيصى، والمسلم بن سعد ، وزهير البنائى ، وسليمان الخواص ، وسهل بن عبد الله، وإبراهيم الخواص. وقد كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يطوى ستًا، وكان عبد الله بن الزبير يطوى سبعة أيام، وكان أبو الجوزاء صاحب ابن عباس يطوى سبعًا. وروى أن الثورى وإبراهيم بن أدهم كانا يطويان ثلاثًا ثلاثًا، وقد رأينا من كان يطوى تسعًا وخمسًا، وكثيرًا ممن يطوى ثلاثًا ثلاثًا.

وقد قال بعض العلماء: من طوى أربعين يومًا من الطعام ظهرت له قدرة من الملكوت. وكان يقول: لا يزهد العبد حقيقة الزهد الذى لا مشوبة فيه إلا بمشاهدة قدرةٍ من غيب الملكوت. وبعضهم يقول: لا يوقن العبدُ يقينًا ثابتًا يُحكم عليه بالاستقامة فيه، ولبسة حال لازمة، وعلم نافذ فى الملكوت، إلا بمشاهدة قدرة من قُدَر الغيب، برأى عين تظهر له شهادة دائمة، يقوم بها ويضطره؛ فعند هذا يعرف من الله تعالى وصفه المخصوص القيُّوم به.

ويصح لعبدٍ مراد بهذا الطريق المنهج له طى أربعين فى سنة وأربعة أشهر، على ما نزّلنا من تأخير الأوقات وقتًا بعد وقت، ورتبنا من رياضة النفس فى الأوقات، حتى تندرج الليالى فى الأيام، وتدخل الأيام فى الليالى، فتكون الأربعون بمنزلة يوم واحد وليلة؛ وهذا طريق بعض المقربين والأبدال من الصِّدّيقين، لا يقدر عليه إلاّ مرادٌ به، محمولٌ فيه، مطلوبٌ مكاشفٌ بشهادة تشغله عن نفسه، وتقطعه عن طبعه وعادته، وتنسيه جوعه، ويكشف له حقيقته ومرجوعه. وقد عرفنا من كان فعل ذلك، وظهرت له آيات من الملكوت، وكُشف له عن معانى قدرة من الجبروت، تجلَّى الله له عز وجل بها ومنها كيف شاء.

وقد وقف بعض هذه الطائفة على راهبٍ فذاكره بحاله، وطمع فى إسلامه وتَرْك ما هو عليه من الغرور، فكلّمه فى ذلك بكلام كثير، إلى أن قال له الراهب: فإن المسيح كان يطوى أربعين يومًا، وأنا معتقد إعجاز هذا، وأنه لا يكون إلا لنبى. فقال له الصوفى: فإن طويتُ خمسين يومًا تترك ما أنت عليه

وتدخل فى دين الإسلام، وتعلم أن ما نحن عليه حق وأنك على باطل؟ قال: نعم. فقعد عنده لا يبرح ولا يذهب إلا من حيث يراه الراهب إلى أن طوى خمسين يومًا. فقال: أزيدك أيضًا، فطوى إلى تمام الستين. فعَجِب الراهب منه، واعتقد فضله وفضل دينه، وقال: ما كنتُ أظن أن أحدًا يجاوز فعل المسيح عليه السلام، ولكن هذه أمة تُشَبَّهُ بالأنبياء فى العلم والفضل، فكان ذلك سبب إسلامه. وممن كان يطوى أربعين يومًا إبراهيم التيمى وحجاج بن فرافصة. فأما الثلاثين والعشرين فقد حكى عن عدد كثير منهم: سهل بن عبد الله، وجماعة من البصريين. وأما من يأكل فى الشهر أكلتين وثلاثة وأربعة فهم كثير من الشاميين والجزريين.

وإن أحب المريد أن يقسّم فطره قسمين، فيأكل رغيفًا عند إفطاره فى أول الليل فيسكن بذلك جوعه، ويأكل رغيفًا عند السَّحَر يستعين به على صومه، فحَسَنٌ، وإن أحبَّ عمل فى تأخير الإفطار على رياضة، ووقف عند السحر فلم يجاوزه، فيكون أكله سَحَرًا، فيحصل له بذلك خمسة أشياء: جوع النهار للصيام، وجوع الليل للقيام، وخلوُّ القلب لفراغ المعدة، ودقّةُ الفكر واجتماع الهمِّ لخلوِّ القلب، وسكون النفس للمعلوم فلا ينازعه قبل وقته. وهذا أوسط الطرقات وأحبها إلىَّ، وهو طريق السائرين.

وفى حديث عاصم بن كليب، عن أبيه، عن أبى هريرة قال: «ما قام رسول الله ﷺ قيامكم هذا قط، وإن كان ليقوم حتى تزلَّع[1] رجلاه، وما واصل وصالكم هذا قط غير أنه قد أخّر الفطر إلى السَّحَر». وفى حديث عائشة رضى الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يواصل إلى السحر».

فإن كان المريد يصوم يومًا ويفطر يومًا؛ وهو أعدل طرقات الصيام أيضًا، أكل يوم فطره بعد الظهر وليلة صومه عند الفجر. فإن لم يفعل فليأكل يوم فطره نصف أكله بالأمس، فكأنه صائم، فإن لم يفعل اضطرب جسمه وداخله الفتور فى حاله. ومن لم يكن له معلوم فلا بأس أن يأكل شبعه ثم يتربص حتى ينتهى

(١) تزلّع: تشقّق.

جوعه؛ فعلامة جوعه أن لا تختار نفسه الخبز دون غيره من المأكولات، فإن اختارت نفسه الخبز ففيه بقية من الشِّبع؛ وعلامة شبعه بعد الأكل أن يأكل الخبز البحت على شهوة، فإذا تاقت نفسه إلى الأُدم فقد ابتدأ شبعه، فإن تخيَّرت الإدام فهو شبعان.

وترك المعلوم فى الطعام طريق صوفية البغداديين، والوقوف مع المعلوم طريق البصريين. ولما قدم صوفية أهل البصرة على أبى القاسم الجنيد بعد وفاة سهل رحمه الله تعالى قال لهم: كيف تعملون فى الصوم؟ فقالوا: نصوم بالنهار فإذا أمسينا قمنا إلى قفافنا. فقال: آه آه لو كنتم تصومون بلا قفاف كان أتمَّ لحالكم؛ أى لا تسكنون إلى معلوم. فقالوا: لا نقوى على هذا.

ولعمرى إنّ طريق البغداديين بترك المعلوم من المطعوم أعلى؛ وهو طريق المتوكلين من الأقوياء وطريقة البصريين بالمعلوم، والتوقيت أسلم من آفات النفوس، وأقطع للتشرُّف والتطلع؛ وهو طريق المريدين والعاملين.

• ذكر رياضة المريدين فى المأكول، وفضل الجوع، وطريقة السلف فى التقلل من الأكل:

كان أبو ذر يقول فى بعض إنكاره: قد غيرتم بنخلكم الشعير ولم يكن مُنخُل، وخبزتم المرقَّق، وجمعتم بين أُدمين، واختُلف عليكم بألوان الطعام، وغدا أحدكم فى ثوب ورجع فى آخر، ولم تكونوا هكذا فى عهد رسول الله ﷺ. وكان يقول: قُوتى فى كل جمعة صاع من شعير، والله العظيم لا أزيد عليه حتى ألقاه، فإنّى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أحبكم إلىّ وأقربكم منى مجلسًا يوم القيامة من مات على مثل ما تركته عليه». وقد كان قوت جماعة من الصحابة صاعًا من حنطة فى كل جمعة، فإذا أكلوا التمرَ اقتاتوا صاعًا ونصفًا[1]. وكان قوت أهل الصُّفَّة مُدًّا من تمر بين اثنين فى كل يوم، والمدّ هو رطل وثلث.

وكان الحسن يقول: المؤمنُ مثل العنيزة يكفيه الكفُّ من الحشَف، والقبضةُ من

(١) هذه العبارة تقدمت فى الأصول المخطوطة.

السَّويق، والجرعة من الماء. والمنافق مثل السّبع الضارى سَرْطًا سَرْطًا[١] وبَلْعًا بَلعًا، لا يطوى بطنه لجاره، ولا يُؤثر أخاه بفضله، وجِّهوا هذه الفضول أمامكم. وكان أبو يزيد البسطامى يقول: إذا وجد الفقير الماء سقط عنك فرضه.

وفى الحديث المشهور العام: «المؤمن يأكل فى مِعًى واحد والمنافق يأكل فى سبعة أمعاء». هذا على التمثيل فى الاتساع والكثرة؛ أى يأكل أضعاف أكل المؤمن، فكان المؤمن يأكل سُبع أكل المنافق. والعرب ترفع فى ذكر ضعف الشىء وإضعافه إلى سبعة. وقد فسّر ذلك عالمنا أبو محمد سهل فقال: معنى «يأكل فى سبعة أمعاء»: أحدها: شَرَهٌ، وطمع، وحِرص، ورغبة، وغفلة، وعادة. أى: فالمنافق يأكل بهذه المعانى، والمؤمن يأكل بمعنى الفاقة والزهد. ولهذا كان يقول: لو كانت الدنيا دمًا عبيطًا[٢] كان قوت المؤمن منها حلالاً. لأن أكل المؤمن عنده ضرورة للقوام. ومن الناس من يضيف هذا الكلام إلى رسول الله ﷺ، وهو مخطىء فى ذلك، إنما هو من كلام إمامنا سهل بن عبد الله التسترى رحمه الله، وقد سئل عن قوت المؤمن فقال: قوته الله تعالى. قال: سألت عن قِوامه. فقال: الذكر. فقلت: إنما سألت عن غذائه. فقال: غذاؤه العلم. قلت: سألت عن طُعمة الجسم. فقال: ما لك والجسم؟! دع الجسم على من تولاه قديمًا يتولاه الآن. ثم قال: الجسد صنعة إذا عابت[٣] رُدَّها إلى صانعها. وسئل أيضًا عن الحلال، فقال: ما لم يعص الله فى أوله ولم ينس فى آخره، وذكر عند تناوله، وشكر بعد فراغه. وكان يقول: القوت للمؤمنين، والقِوَام للصالحين، والضرورة للصدّيقين.

ومن كان ذا معلوم فالمستحب له أن لا يزيد على رغيفين فى يوم وليلة، وليجعل بينهما وقتًا طويلاً مرة وقصيرًا أخرى على حسب الحاجة وتوقان النفس إلى الغذاء، لا على طريق العادة والشهوة. والرغيف ست وثلاثون لقمة يكون قِوام النفس فى كل ساعة ثلاث لقمات. فإذا أراد أن يأكل الرغيف على هذا

---

(١) سَرِطَ الشىء بَلِعَه، واسترَطه ابتلعه.

(٢) العبيط من الدم: الخالص الطرىُّ.

(٣) أى صارت ذا عيب.

التقسيم فليجرع بعد كل ثلاث لقم جرعة ماء، فذلك اثنا عشر جرعة فى تضاعيف ستة وثلاثين لقمة. ففى ذلك قوام الجسم وصلاحه فى كل يوم وليلة على هذا الترتيب.

والأصل فى جمل ما ذكرناه من التنزل فى القوت ما رويناه أن النبى ﷺ نظر إلى رجل سمين فأومأ إلى بطنه بأصبعه، وقال: «لو كان هذا فى غير هذا كان خيرًا لك». يعنى لو قدمته لآخرتك وآثرت به إخوانك، فكان فى غير جوفك، لكان ذلك خيرًا لك. ويعنى: قلة الطعام خير من كثرته.

وتجشأ أبو جحيفة عند رسول الله ﷺ من ثريد ولحم، قال: كنتُ أكلته. فقال له: «اكفف عنا جشاءك، فإن أكثركم شبعًا فى الدنيا أطولكم جوعًا يوم القيامة. قال: فوالله ما ملأت بطنى من طعام بعدها إلى يومى هذا، وأرجو أن يعصمنى الله فيما بقى». وقد روينا عن الحسن عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «البسوا الصوفَ ، وشمّروا، وكلوا فى أنصاف البطون، تدخلون فى ملكوت السماء».

وروينا عن عيسى عليه السلام: «أجيعوا أكبادكم، وأعروا أجسادكم، لعل قلوبكم ترى الله عز وجل». وقد رواه عبد الرحيم بن يحيى الأسود، عن طاوس رفعه إلى رسول الله ﷺ أنه قاله. وقيل لأبى يزيد البسطامى وهو أعلى هذه الطائفة إشارة: بأى شىء نلت هذه المعرفة؟ قال: ببطن جائع وجسد عارٍ. وفى التوراة مكتوب: إن الله تبارك وتعالى ليبغض الحبرَ السمين. وفى بعض الكتب: ويمقت أهل بيت لحمين. وقد جاءا مسندين إلى رسول الله ﷺ من طريق، وقد روينا عن ابن مسعود: إن الله عزّ وجل يبغض القارئ السمين. وفى خبر مرسل: «إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم، فضيقوا مجاريه بالجوع والعطش»، فإذا جعل العبد شبعه بين جُوعين كان جوعه أكثر من شِبَعِهِ وسَلِم من حديث أبى جحيفة. ومن كانت له جوعة بعد كل شبعة اعتدل جوعه وشبعه، ومن أكل فى يوم مرتين فقد تابع الشبع، وتحقق بخبر أبى جحيفة، وشِبعُهُ حينئذ أكثر من جوعه؛ وليس ذلك من السنة، وهو من فعل المترفين، وقد كانوا يعدُّونه سرفًا[1].

(١) تأمل!! رحم الله سلفنا الصالح، ما أبعد الشقّة بيننا وبينهم!!

وقد روينا عن أبي سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا تغدى لم يتعشَّ، وإذا تعشى لم يتغدَّ. وكان السلف يأكلون فى كلّ يوم أكلة. وقد روى أن النبى ﷺ قال لعائشة رضى الله عنها: «إياكِ والإسراف، فإن أكلتين فى كل يوم من الإسراف». وقد قال الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسرِفُوا ولَمْ يَقْتُرُوا﴾ [الفرقان:٦٧]. فكأنّ أكلتين فى يوم إسراف، وأكلة فى يومين إقتار، وأكلة فى يوم قَوامًا بين ذلك.

وأقول على هذا: إن أكل أربعة أرغفة سَرَف، ورغيفين قَتْر، وثلاثة أرغفة قَوام حسن؛ وهذا أعدل الأقوات. ولا يعجبنى أكل أربعة أرغفة فى مقام واحد، لأنّى لا آمن به ازديادًا فيصير ذلك معتادًا[1]، فإن كان عن جوع شديد، أو عُدة لسفرٍ، أو عُدْم، فلا بأس.

وقد يروى فى خبر: الأكلُ على الشبع يورث البرص[2]. وقال بعض السلف: إنّ من السرف أن يأكل العبد كل ما اشتهاه. وقد كان للصحابة أكلتان وشربتان، فالأكلتان الوجبة والغبوق، فالوجبة من الوقت إلى الوقت، كقولك الوقعة، ومنه قوله: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُها فَكُلُوا منها﴾ [الحج:٣٦] أى إذا وقعت جنوب البُدن على الأرض، والغبوق: أن يشرب مذقة لبن، أو يأكل كفّ تمر عند النوم، أو بعد عتمة، أو يكون عند الظهيرة، وقد يكون ذلك سَحَرًا. والشربتان: العَلَل والنَّهَل، فالنّهَل: الشربة الأولى من اللبن بمنزلة الوجبة، والعَلَل: الشربة الثانية بمنزلة الغبوق من نقيع تمرٍ أو زبيب أو لبن، يقوم مقام الأكلتين، فهنّ تمام الرِّيِّ، والأولى: عُلالة النفس من العطش فسُمى عَلَلاً.

وكان من أخلاق السلف تركُ الشبع اختيارًا لأنفسهم؛ لخفّة الجسم، أو مواساة الفقراء، أو مساواة لهم فى الحال لئلا يتفضّلون عليهم فى حالهم، ولهذا قالت عائشة رضى الله عنها: أوّل بدعة حدثت بعد رسول الله الشبع، إن القوم لما شبعت بطونهم جمحت بهم نفوسهم إلى الدنيا.

(١) فى المطبوعة: «مقتًا»، وأثبت ما فى الأصول، وما بعده إلى آخر الفقرة ليس فى المطبوعة.
(٢) هذا قول لا يؤيده سند ولا طب.

وروينا فى خبر: «كان رسول الله ﷺ يجوع لا من عَوَز». أى مختاراً له مع الإمكان فى الأوقات. وقال بعض العلماء: أبغض الأشياء إلى الله عز وجل بطن مُلىء ولو من حلال. وقد روينا معناه مسنداً.

وفى الخبر الإسرائيلى أن يحيى عليه السلام ظهر له إبليس فرأى عليه معاليق من ألوان الأصباغ من كل شىء. فقال له: ما هذه المعاليق؟ قال: شهوات بنى آدم. قال: فهل لى فيها شىء؟ قال: ربما شبعت فثقّلناك عن الصلاة وعن الذِّكر. قال: هل غير ذلك؟ قال: لا. قال: لله تبارك وتعالى علىَّ أن لا أملأ بطنى من طعام أبداً. قال إبليس: ولله علىّ أن لا أنصح مسلماً أبداً.

وقد كان من أخلاق التابعين الصبرُ على الطعم إلى أحد حدّى الجوع؛ الأول منها وهو أربع وعشرون ساعة، ولم يكن من أخلاقهم الأكل للعادة ولا تخيُّر الأطعمة، ولا تعمُّد الخبز خاصة دون غيره من المأكولات، إذا سدَّ الجوعة وقامت به البُلغة. وكان أبو سليمان الدارانى يقول: إذا عرضت لك حاجة من حوائج الآخرة فاقضها قبل أن تأكل، فما من أحد شبع إلا نقص من عقله ـ أو قال: تغير عقله ـ عمّا كان عليه. وكان يقول: لأن أترك من عشائى لقمة أحبُّ إلىَّ من قيام ليلة. هذا لإيثاره الجوع والتقلّل على العبادة مع التكثر.

وروينا عن وهب بن منبه وغيره: أن عابداً دعا بعض إخوانه فقرَّب إليه رغيفين، فجعل أخوه يقلب بعض الأرغفة ليختار أجودها. فقال له العابد: مه، أى شىء تصنع؟ أما علمت أن فى هذا الرغيف الذى رغبت عنه ولم تقنع به كذا وكذا حكمة، وقد عمل فيه كذا وكذا صانع، وظهرت فيه كذا وكذا صنعة؛ منها السحاب الذى يحمل الماء، والماء الذى يسقى الأرض، والأرض التى أنبتت، والرياح، والبهائم، وبنو آدم، حتى صار إليك، ثم أنت بعد هذا تقلبه لا ترضى به؟

وقال الآخر زيادة فى الخبر: إن الرغيف لا يستدير فيوضع بين يديك حتى يعمل فيه ثلاثمائة وستون ما بين صانع وصنعة؛ أولهم ميكائيل الذى يكيل الماء من خزائن الرحمة، ثم الملائكة التى تزجر السحاب والشمس والقمر والأفلاك

وملكوت الهواء ودواب الأرض، وآخر ذلك الخباز، ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤].

والخبر المشهور: «ما ملأ ابن آدم وعاء شرًا من بطن» فدل أن ما نقص من ملء البطن فذلك خير، ثم قال: «حسب ابن آدم لقيمات يشددن صلبه». ففى قوله «لقيمات» معنيان: التقلل والتصغير؛ لأن التاء تدخل للجمع القليل وهو ما دون العشرة من العدد، والمعنى الآخر: هو التصغير؛ لأن لقيمة تصغير لقمة. ثم قال: «فإن لم يفعل فثلث طعام وثلث شراب وثلث نَفَس». وفى لفظ آخر: «وثلث للذِّكر»، فدل أيضًا أن ملء البطن يمنع من الذكر، وما منع من الذكر فهو شرٌّ. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَاللهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ٧٣]. وقال: ﴿وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٧].

ومعنى قوله ﷺ: «ثلث طعام»: أن يأكل شبعه المعتاد فيصير ثلث الشبع قِوامَ الجسد باعتياد ثانٍ، كما كان ملء البطن من الشبع هو العادة الأولى، وثلث الشبع هو ثمان أواق؛ فهذا على معنى الخبر الآخر: «طعام الواحد يكفى الاثنين وطعام الاثنين يكفى الأربعة». ففى هذا خمسة أوجه. قال بعض علمائنا البصريين: طعام الواحد شبعًا يكفى الاثنين قوتًا. وطعام الاثنين شبعًا يكفى الأربعة قوتًا، ومنهم من قال: طعام المسلم يكفى مؤمنيْن، وطعام مسلميْن يكفى أربعة من خصوص المؤمنين. ويجوز أيضًا أن يكون طعام الواحد من المنافقين يكفى مسلميْن، على معنى قوله: «المؤمن يأكل فى مِعًى واحد والمنافق فى سبعة أمعاء». ويصلح أن يكون معناه: طعام الواحد من الصناع المتصرفين فى المعايش يكفى اثنين ممن هو قاعد لا يتصرف، ويصلح أيضًا: طعام الواحد من المفطرين يكفى طعام صائميْن من الخصوص[1].

وفى خبر عمر رضى الله عنه حين قال لابن مسعود وأبى موسى فى قصة المرتد الذى قتلاه قبل أن يستتيباه ويحكما: ألاَ طيَّنتم عليه بيتًا، وألقيتم إليه كل يوم

(١) ولِمَ لا يكون المعنى: أن البركة تكون من الاجتماع على الطعام أيضًا؟

رغيفًا ثلاثة أيام، فلعله أن يتوب أو يرجع إلى الإسلام. اللهم إنى لم آمر، ولم أعلم، ولم أرض إذ بلغنى. فدلَّ بهذا أن فى كلّ رغيف كفاية يوم، وثلاثة أرغفة عندنا بالحجاز رطل؛ لأن الرطل المكى عدد ستة أقراص منذ ذاك إلى يومنا، هذا فيكون كل رغيف ثمان أواق؛ فهذا كما قلناه: إن ثمانية أواق ثلث الشبع؛ لقوله: «ثلث طعام» بعد قوله: «لقيمات» جمع لما دُون العشرة، وهذا مواطئٌ لما رُوى عن عمر رضى الله عنه أنه كان يأكل سبع لقم، وتسع لقم.

وحدثونا فى أخبار الخلفاء أن الرشيد جمع أربعة أطباء: هندى، ورومى، وعراقى، وسوادى، فقال لهم: ليصف كل واحد منكم الدواء الذى لا داء فيه. فقال الهندى: الدواء الذى لا داء فيه عندى هو الإهليلج الأسود. وقال الرومى: الدواء الذى لا داء فيه حَبُّ الرشاد الأبيض. وقال العراقى: الدواء الذى لا داء فيه الماء الحار. فقال السوادى، وكان أعلمهم: إن الإهليلج يعفص المعدة وهذا داء، وإنّ حَبَّ الرشاد يرق المعدة وهذا داء، والماء الحار يرخى المعدة وهذا داء. قالوا: فما عندك؟ قال: الدواء الذى لا داء فيه أن لا تأكل الطعام حتى تشتهيه، وترفع يدك عنه وأنت تشتهيه. فقالوا: صدق.

وحدثنى بعض العلماء قال: ذكرت لبعض الفلاسفة من أطباء أهل الكتاب قول النبى ﷺ: «ثلث طعام، وثلث شراب، وثلث نفس». فتعجب منه واستحسنه وقال: ما سمعت كلامًا فى قلّة الأكل أحكم من هذا وإنه لكلام حكيم. ثم قال: جهدت الأطباءُ من الفلاسفة أن يقولوا مثل هذا فى التقلل من الأكل فلم يهتدوا إليه. فأكثر ما قالوا: لا تقعد على طعامك حتى تشتهيه وترفع يدك عنه وأنت تشتهيه. ومنهم من قال: لا يأكل إلا بعد الجوع ويرفع قبل الشبع. ومنهم من قال: لا يأكل إلا بعد الجوع المفرط ولا يشبع شديدًا[1]، وإنما كان مرادهم هذا المعنى الذى ذكره نبيُكم ﷺ. وقد كان بعض علمائنا وهو أبو الحسن بن سالم

---

(١) اختلفت عبارة الأصول فى (م): «لا تأكل بعد جوع مفرط ولا تشبع». وفى (د): «لا تأكل بعد الجوع مفرطًا، ولا تشبع بعد الشبع مفرطًا». وعبارة (هـ): «لا تأكل بعد جوع مفرط، ولا تشبع شبعًا مفرطًا».

يقول: من أكل خبز الحنطة بحتًا بأدب لم يعتلَّ إلا علّة الموت. قيل له: وما الأدب؟ قال: يأكل بعد الجوع، ويرفع قبل الشبع.

والأصل فى هذا أن العِلل داخلة على الأجسام من اختلاف نبات الأرض؛ لأن المعدة مركبة على طبائع أربع: الحرارة، والبرودة، والرطوبة، واليبوسة. وكذلك منابت الأرض على هذه الطبائع الأربع فإذا أكثر من اختلاف منابتها أمالت الحرارة والبرودة من النبات غرائز الطبائع من الحرارة والبرودة من المعدة، وأمالت الرطوبة واليبوسة من النبات غرائز الطبائع من الرطوبة واليبوسة، فزاد بعض على بعض وقوى وضعُف على مثله، فكانت الأمراض من مثل ذلك، لأن كل مأكول من نبات الأكل يعمل فى وصف معانى الجسم، وأن الحنطة مخالفة لسائر نبات الأرض المعتدلة فى الطبائع الأربع كاعتدال الماء فى سائر الأشربة، وقد شبهوا لحم الدُّرَّاج فى خفته وقلة دهنه من سائر اللحوم بطبع الحنطة فى سائر الحبوب.

وقال بعض الأطباء: كل من الخبز بحتًا ما شئت، فإنه لا يضرّك. وقال غيره: أكل الخبز يابسًا وحده خير من أكله مع الأُدم الضارّ.

وحدثنى بعض علمائنا عن بعض الأطباء أنه قال[(١)]: لم يدخل الإنسان إلى معدته أنفع من الرمان، ولا أضرّ من المالح، ولأن يتقلل من المالح خير له من أن يستكثر من الرمان. وقد مُثل الأُترُجُّ من سائر الفاكهة على صورة[(٢)] المعدة فى الطبائع الأربعة.

وقد شبّه رسول الله ﷺ المؤمن بالأترجة فقال: «مَثَل المؤمن الذى يقرأ القرآن مثل الأترجة[(٣)]، طعمها طيّب وريحها طيب»؛ فهذه لطيفة من اللطيف، وحكمة من الحكيم تعالى: إذا أراد صحة جسم عبدٍ أوحى إلى المعدة أن يأخذ كل طبع منها ضده من نبات الأرض الذى وقع فى المعدة، فيأخذ طبع الحرارة طبع البرودة

---

(١) فى المطبوعة: «وقال بعضهم».

(٢) فى المطبوعة: «سائر».

(٣) أول الحديث ساقط من المطبوعة.

من المأكول، ويأخذ طبع الرطوبة طبع اليبوسة من المأكول، فتعتدل الطبائع، فيستوى المزاج؛ فيكون ذلك سببًا لصحة الجسم من علله.

فإذا أراد سقم جسم أمرَ كلَّ طبيعة أن تأخذ جنسها ومثلها من المأكولات، فتأخذ طبعُ الحرارة من المعدة جنسه من الحرارة من نبات الأرض، ويأخذ طبع الرطوبة جنسه من الرطوبة من المأكول، ويأخذ طبع السوداء مثله من المأكول، فتميل الطبائع بأمثالها من المأكول[١] من نبات الأرض ميلة واحدة، فتضطرب المزاجات، ثم يدور ذلك فى الجسد بمجارى العروق ومصباتها إلى الأعضاء المتفاوتة الأدوات، فتقع على كل أداةٍ فى عضو ضدها فتثقل بها، ويغشى كل آلة من جارحة ما لا يلائمها من طبعها، فيسقم الجسم وتتفاوت العلل، فيكون هذا سبب الأمراض والعوارض، نعوذ بالله، ذلك تقدير العزيز العليم.

وقد روينا: أصل بنية الإنسان عن الله تعالى فى صفة خلق آدم عليه السلام. حُدثنا عن ابن البراء قال: حدثنا عبد المنعم بن إدريس قال: حدثنى أبى عن ابن منبه اليمانى أنه وجد فى التوراة صفة خلق آدم عليه السلام حين خلقه الله عز وجل وابتدعه، فقال: إنّى خلقتُ آدم وركَّبت جسده من أربعة أشياء، ثم جعلتها وراثةً فى ولده تنمى فى أجسادهم، وينمون عليها، ركّبتُ جسده من رطب ويابس وسخن وبارد، وذلك لأنى خلقته من التراب، ورطوبته من الماء وحرارته من قِبَل النفس، وبرودته من قِبَل الروح. ثم جعلت فى الجسد بعد هذا الخلق الأول أربعة أنواع من الخلق هنّ ملاك الجسم بإذنى وقوامه لا يقوم الجسم إلا بهن، ولا يقوم منهنّ واحدة إلاّ بأخرى، منهنّ: المرة السوداء، والمرة الصفراء، والدم، والبلغم، ثم أسكنتُ بعض هذا الخلق فى بعض، فجعلتُ مسكنَ اليبوسة فى المِرَّة السوداء، ومسكن الرطوبة فى المرة الصفراء، ومسكنَ الحرارة فى الدم، ومسكنَ البرودة فى البلغم. فأيّما جسد اعتدلت فيه هذه الفطر الأربع التى جعلتها ملاكه وقوامه فكانت كل واحدة منهن ربعًا لا تزيد ولا تنقص، كَمُلَت صحته واعتدلَت بنيته؛ فإن زاد منهن واحدة عليهن قَهَرتهنّ ومالت بهنّ، ودخلَ عليه السَّقَم من ناحيته

(١) من قوله: «فتأخذ طبع الحرارة من المعدة» إلى هنا ساقط من المطبوعة.

بقدر غلبتها حتى تضعف عن طاعتهن، وتعجز عن مقاربتهن[١]. ثم ذكر الحديث بطوله.

وقد تغلب الحرارة على بعض المريدين من قِبَل قوة المزاج وحدّة الشباب، فيظهر الطبع فيتسع المنىُّ على العزَب[٢]، كما تقوى الحرارة فيتتيَّغ الدم؛ لأنّ أصل المنى هو الدم يتصاعد فى خرزات الصُّلب وهناك مسكنه، فتنضجه الحرارة فيستحيل أبيض، فإذا امتلأت منه خرزات الصُّلب وهو الفقار طلب الخروج من مسلكه فقويت الصحة بذلك، فهذا حين هيجان الإنسان إلى النكاح، ولا يصلح لمثل هذا أن يأكل الحرارات من الأطعمة، وليطفىء ذلك بأكل البرودات والأشياء القاطعة، وليجتنب أكلَ كلِّ حارٍّ يابس أو بارد رطب؛ فإنه يهيِّج الطبع ويقوِّى العضو.

وقد روينا عن قتادة فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَلا تُحَمِّلْنا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة:٢٨٦] قال: الغُلمة. وقال فياض بن نجيح: إذا قام ذَكَر الرجل ذهب ثلث عقله.

وقد روينا عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ [الفلق:٣] قال فى تفسيره: قيام الذَّكَر. وقد أسنده بعض الرواة إلى رسول الله ﷺ، إلاّ أنه قال: الذكَر إذا دخل.

وعن رسول الله ﷺ أنه كان يقول: «أعوذ بك من شرّ سمعى وبصرى ولسانى وقلبى ومَنِيِّى». وروينا عن أزواج رسول الله ﷺ وعليهن أجمعين السلام أنهن كنّ يأكلن الخلّ والبرودات بعد وفاة رسول الله ﷺ يقطعن به الشهوة.

وروى بعض أشياخ الصوفية قال: اشتدت[٣] علىَّ صفتى مرة فى بدء إرادتى بما لم أطق فكنت أضج إلى الله تعالى فى كل وقت، فرأيت شخصًا فى النوم فقال لى: ما لك؟ فشكوت إليه. فقال: تقدم إلىَّ. فتقدمت، فوضع يده على صدرى

---

(١) ما كان أغنى أبا طالب عن مثل هذه الأخبار، فكتابه ليس فى حاجة إليها، رحمه الله وتجاوز عنا وعنه.

(٢) العبارة فى الأصول: «يتتيغ المنىّ على العُزَّاب».

(٣) فى الأصول: «استفحلت».

فوجدتُ بردها فى فؤادى وجميع جسدى. قال: فأصبحت وقد انكشف ما بى فبقيت معافى سنة، ثم عاودنى ذلك بمثله أو أشد فأكثرت الاستغاثة إلى الله عز وجل، فجاءنى شخص فى المنام قال: تحبّ أن يذهب ما تجد وأضرب عنقك؟ فقلت: نعم. فقال: مدَّ رقبتك. قال: فمددتها فجرد سيفًا من نور فضرب به عنقى. قال: فأصبحت وقد انكشف ما بى فبقيت معافى سنة. ثم عاودنى بمثله من الاغتلام وأشدّ فرأيت شخصًا يخاطبنى فيما بين صدرى وثوبى، فقال: ويحك كم تسأل الله تعالى رَفعَ ما لم يحبّ رفعه؟ قال: فتزوجت، فانقطع عنى ولم يعاودنى. فكان ذلك سبب ذريته ووُلد له.

فإذا كان العبد ناسيًا لجوعه، ذاكرًا لربه عزّ وجلّ، فهو يشبه الملائكة، وإذا كان شبعان مَنْهُومًا فى طلب الشهوات فهو أشبه شىء بالبهائم.

ويقال: إن الجوع ملك وإنّ الشبع مملوك، وإن الجائع عزيز والشبعان ذليل. وقيل: الجوع عزٌّ كلّه، والشبع ذلٌّ كله. وقال بعض السلف: الجوع مفتاح الآخرة وباب الزهد، والشبع مفتاح الدنيا وباب الرغبة.

وقد روينا عن رسول الله ﷺ: «إن لكل شىءٍ بابًا، وباب العبادة الصوم». والخبر المشهور: «صوموا تصحوا». فصحة القلوب من علل النُّفوس أعلى وأحسن من صحة الأجسام من علل الأسقام.

وقد روينا عن عائشة رضى الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أديموا قَرْعَ باب الجنة يفتح لكم. قلت: وكيف نديم قرع باب الجنة يا رسول الله؟ قال: بالجوع والظمأ».

وقد نوَّع أبو سعيد الخراز[1] مقامات أهل الجوع فى مقاصدهم عن مواجيد نياتهم[2] وهِمَمِهم. فحدثنى الجَهْضمى عن أحمد بن شاكر قال: سمعت أبا سعيد

(١) هو أحمد بن عيسى الخراز، توفى سنة ٢٧٧ هـ، وقيل سنة ٢٧٩ هـ، وصل إلينا من آثاره «كتاب الصدق»، حققه د عبد الحليم محمود. انظر ترجمته فى: الحلية ١٠/٢٤٦، طبقات الصوفية، ص ٢٢٨.

(٢) فى المطبوعة: «مواجيدهم».

يقول: سمعت الثقة من علمائنا يقول عن عبد الواحد بن زيد: إنه كان يقسم بالله أن الله ما صافَى أحدًا إلا بالجوع، ولامشوا على الماء إلاّ بالجوع، ولا طُويت لهم الأرض إلا بالجوع. وكان يعدّ الأخلاق السنية الشريفة المحمودة، ويحلف أنهم ما نالوها إلا بالجوع.

قال أبو سعيد: معنى الجوع اسم مُعَلَّق على الخَلق، افترقوا فى الدخول فيه والعمل به لعلل كثيرة. فمنهم من يجوع وَرَعًا إذا لم يصب الشيء الصافى. ومنهم من إذا وجد الشيء الصافى تركه زهدًا فيه من مخافة طول الحساب والوقوف والسؤال. ومنهم من استلذ العبادة والنشاط بها والخِفة، فرأى النيل من الطعام والشراب قاطعًا له وشغلاً عن الخدمة والخلوة. ومنهم من قرُب من الله عزّ وجلّ فلزم قلبه حقيقة الحياء حين علم أن الله تبارك وتعالى مشاهده، وكان الحياء مقامه لا غير، فتوهَّم أن الله تعالى يراه وهو يمضغ بين يديه ويأكل ويشرب فيؤديه ذلك إلى الاختلاف إلى الكنيف فيجوع من هذه العين، وهكذا كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه. ومنهم من أدركه السهو عن حاجاته من الدنيا، فسلا عن نيل مصلحته حتى يذكر فى الغِبِّ أو يُذَكَّر.

وقال أبو سعيد الخراز أيضًا: قال جماعة من الحكماء: إن الله تعالى لا يكلم أحدًا وفى بطنه شيءٌ من الدنيا. فهذا يدلّ على أمره لموسى عليه السلام بترك النيل، ليلقاه خاليًا من الدنيا، وبنفسٍ ساكنة عن المنازعة إلى شيء من الملك، وروح روحانية قد أحياها الحيّ لحياته، فعند ذلك يصلح هذا الشخص لمخاطبته مثلاً بلا ترجمان.

وحدثنى الحسن بن يحيى البستى عن ابن مسروق قال: لقيتُ سهل بن عبد الله، فلما دخلتُ عليه بشرنى وقبَّلنى وكان فىَّ إرادة وتذلل، فقلت له: أحبّ أن تصف لى بدايتك وما كنتَ تَقُوتُ به. فقال: فى كل سنة ثلاثة دراهم؛ كنت آخذ بدرهم دَبسًا[1]، وبدرهم سمنًا، وبدرهم دقيق الأرز، وأسوِّيه مخلطًا ثلاثمائة

---

(١) الدبس: عسل التمر، وما يسيل من الرطب.

وستين أُكرةً[١]، آخذ كل يوم أكرة أفطر عليها. فقلت: الساعة كيف تعمل؟ فقال: أكلاً بلا حدٍّ ولا توقيف.

وحدثونا فى أخبار الملوك أنّ ملك الهند أهدى إلى المنصور تحفًا؛ منها أنه وجَّه إليه بفيلسوف طبيب قال: فأنزله المنصور وأحسن إليه. فلما دخل عليه قال الفيلسوف: قد جئتُك يا أمير المؤمنين بثلاث خصال يتنافس الملوك فيها، لا نصنعها إلاّ لهم. قال: وما هى؟ قال: أخضِبُ لحيتك بسوادٍ لا تَنْصُل أبدًا ولا تتغير عن حالها. قال: وما الخصلة الثانية؟ قال: أعالجك بعلاج تتسع به فى المأكل فتأكل أى شىء شئت فلا تتخم ولا يؤذيك الطعام. قال: وما الثالثة؟ قال: أقوِّى صلبك بقوة تبسط إلى الجماع فتجامع ما شئت لا تملّ من ذلك ولا يضعف بصرك ولا ينقص من قوتك. قال: فأطرق المنصور ثم رفع رأسه إليه فقال: قد كنتُ أظن أنك أعقل مما أنت. أما ما ذكرتَ من السواد فلا حاجة لى به؛ فإن ذلك غرور وزور، والشيب هيبة ووقار، ولم أكن لأغيِّر نورًا جعله الله تبارك وتعالى فى وجهى بظلمة السواد. وأما ما ذكرت من الأكل فوالله ما أنا بشَرِهٍ، وما لى فى الاستكثار من الطعام حاجة، لأنه يثقل الجسم ويشغل عن النوائب، وأقل شىء فيه كثرةُ اختلافى إلى الخلاء، فأرى ما أكره وأسمع ما لا أحبّ. وأما ما ذكرت من النساء فإن النكاح شعبة من الجنون، وما أقبح بخليفة مثلى يجثو بين يدى صبيَّة. ارجع إلى صاحبك مذمومًا مدحورًا فلا حاجة لى بما جئتَ به.

وحدثونا عن بعض هذه الطائفة قال: أتيت قاسمًا الجوعى فسألته عن الزهد أى شىء هو؟ فقال لى: أى شىء سمعت فيه؟ فقلت: قالوا: الزهد قصر الأمل. فقال: وأى شىء أيضًا؟ فقلت: قالوا: الزهد ترك الادّخار. فقال: حسن؛ حتى عددتُ عليه أقوالاً، قال: فسكت. فقلت: أى شىء تقول أنت؟ فقال: اعلم أن البطن دنيا العبد، وبمقدار ما يملك من بطنه يملك من الزهد، وبمقدار ما يملكه بطنه تملكه الدنيا.

---

(١) الأُكرة: الكُرة.

وعلى هذا المعنى قال وهب بن منبه حكيم هذه الأمة: لكلّ شيء وسط وطرفان، فإذا أمسكتَ أحدَ الطرفين مال الآخر، وإن أمسكت الوسطَ اعتدل الطرفان، فكذلك البطن وسطًا بين الجوارح؛ إن أمسكتها اعتدلت الأطراف السمع والبصر واللسان والفرج والرجلان.

وكذلك كان شيخنا ابن سالم يقول: إذا أعطيت البطن حظّه من الشبع طلبت كلُّ جارحة حظها من اللهو، فجمحت بك النفس إلى الهلكة، وإذا منعتَ البطن حظَّه، قصرت عنك كلُّ جارحة عن حظها، فاستقام القلب لذلك.

وكان بشر بن الحارث قد اعتلّ، فسأل عبد الرحمن المتطبب عن شيء يوافقه من المأكول، فقال له عبد الرحمن: تسألنى فإذا وصفت لك لم تقبل منى؟ فقال له بشر: صف لى حتى أسمع. فقال: تحتاج تستعمل ثلاثة أشياء، فإن فيهنّ صلاح جسمك. قال: ما هن؟ قال: تشرب سكنجبينًا، وتمص سفرجلاً، وتأكل بعد ذلك إسفيذاجًا. فقال له بشر: تعلم شيئًا أقل شيء من السكنجبين يقوم مقامه؟ قال: لا، قال: فأنا أعرف. قال: وما هو؟ قال: الهندبا بالخل يقوم مقامه. ثم قال: فتعرف شيئًا أقل ثمنًا من السفرجل يقوم مقامه؟ قال: لا. قال: فأنا أعرف. قال: ما هو؟ قال: الخرنوب الشامى فى معناه. ثم قال: فتعرف شيئًا أقل ثمنًا من الإسفيذاج يقوم مقامه؟ قال: أما هذا فلا. قال: بلى. قال: ما هو؟ قال: ماء الحمص بسمن البقر فى معناه. فقال له عبد الرحمن: فأنت أعلم منى بالطب فلِمَ تسألنى؟

ويُستحب للعبد إذا كان جائعًا فتاقت نفسه إلى الجماع أن لا يأكل لئلا يجمع لنفسه بين حظين فيطلبهما، فربما طلبت الجماع للتعفف وهى تريد الأكل، وربما طلبت الأكل لتنبسط به إلى الجماع، وفى الجمع بين شهوتين تقوية النفس وإجراء عادة لها.

ويستحب للعبد إذا أكل أن لا ينام على أكله؛ فيجمع بين غفلتين، فيعتاد الفتور ويقسو قلبه لذلك، ولكن ليصلِّ أو يجلس فيذكر الله تعالى، فإنّه أقربُ إلى الشكر. وفى الحديث: «أذيبوا طعامكم بالصلاة والذّكر، لا تناموا فتقسو

قلوبكم». فأقل ذلك أن يصلى أربع ركعات، ويسبح مائة تسبيحة، أو يقرأ جزءًا من القرآن، عَقيب كلّ أكلة. وقد كان سفيان الثورى إذا شبع فى ليلة أحياها، وإذا شبع فى يوم واصله بالصلاة والذكر، وكان يتمثل فيقول: أشبع الزنجى وكِدَّه. ومرة يقول: أشبع الحمار وكِدَّه. وكان إذا جاع كأنه يتراخى فى ذلك.

وينبغى للمتقشف أن يأكل اللحم والدسم فى الشهر مرتين، فإن أكله أربعًا فلا بأس، قد كان السلف يفعلون ذلك. وفى خبر عن على عليه السلام: «من ترك أكل اللحم أربعين يومًا ساء خلقه، ومن داوم عليه أربعين يومًا قسا قلبه». وقد نُهى عن مداومة اللحم. وقيل: إن له ضراوة كضراوة الخمر. وقد كان أبو محمد سهل رحمه الله يقول للمتقللين من أهل عبادان: احفظوا عقولكم، وتعاهدوها بالأدهان والدّسم، فإنه ما كان ولىٌّ لله عزّ وجل ناقص العقل.

وإن أحبّ المريد أن يأكل شيئًا من الطيّبات والفاكهة فليجعل ذلك بدلاً من الخبز ويقطع به جوعه؛ فيكون ذلك له قوتًا عند الحاجة إلى طعم ولا يكون تفكُّهًا؛ لئلا يجمع للنفس بين عادة وشهوة، فإنه أسرع لِملَلَه؛ لأنه إذا شبع من الطّيبات غير الخبز شبعة أو شبعتين كان أقرب إلى تركه وانقطاع شهوته. ونظر أبو محمد سهل إلى ابن سالم شيخنا رحمه الله وفى يده خبزٌ وتَمر، فقال له: ابتدىء بالتمر، فإن قامت كفايتك به، وإلاّ أخذت من الخبز بعده حاجتك. وقال: إن التمر مبارك، والخبز شؤم؛ يعنى أنه كان سبب إخراج آدم من الجنة. وأما بركة التمر فإن الله تعالى ضرب النخلة مثلاً لكلمة التوحيد فى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبةٍ أَصلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤].

قال ابن عباس: كلمة التوحيد لا شىء أحلى منها كشجرة طيبة وهى النخلة، وليس فى الثمار أحلى من الرطب. ولذلك شبّه رسول الله ﷺ المؤمن فى حلاوته ولينه وقوته وثبات أصله بالنخلة، فقال: «لا يسقط ورقها مَثَلُها كمَثَل المؤمن».

يقول سهل رحمه الله: إذا استغنيت عن الخبز بغيره من الطعم كان خيرًا لك. يريد أن لا توقف نفسك مع عادة فتنازعك إليها. وقد ذكرتُ هذه الحكاية لأبى

بكر الجلاَّء فأعجبته، وقال: هذا كلام الحكماء. وكان هذا يلائم حاله.

وإن خشى المريدُ أن يكون شيءٌ من المآكل والطيّبات له عادة، ولم يأمن تألُّه قلبه وتوقان نفسه إليه ومنازعتها إياه، وكان العبد مبتدئًا غِراًّ لا يعرف خبء النفس ودواهيها، ولا يفطن لمكرها وآفاتها؛ فإنَّ تركَ ذلك أفضل، فليتركه حينئذ لأجل الله، خوفًا أن يشتهيه، فيحرص على مثله، ويدخل مداخل السوء من أجله، ويبيع دينه فيه، أو خشية تمكُّن العادة فيه، فتعذر عليه التوبة لدخوله فى الشبهات عند اعتياد الشهوات؛ لأن العادةَ جند من جنود[1] الله تغلب العقل، والابتلاء سلطانٌ من سلطان الله تعالى يقهر العلم، لأجله تعذّرت الاستقامة، ولولا العادة لكان الناس تائبين، ولولا الابتلاء لكان التائبون مستقيمين؛ فليترك حينئذ أكلَ الطيّبات إذا صارت شَهَوات، وخشى منها مطالبة العادات، ودعاوى النفس بالآفات، ناويًا بذلك ما ذكرناه لصلاح قلبه، وتسكين نفسه، ليملك بذلك نفسه قبل أن تملكه، ويفطم عاداتها قبل أن تهلكه، ويغلب بالترك طبعه وهواه قبل أن يكونا بالشهوات يغلبانه. كما قال بعض الحكماء: إنى لأقضى عامة حوائجى بالترك، فيكون أروح لنفسى. وكما قال آخر: إذا أردتُ أن أستقرض من غيرى لشهوةٍ استقرضت من نفسى، فتركت الشهوة فهى خير غريم لى. فيصير التركُ حينئذٍ والمنعُ للنفس غذاءً وعادةً، كما كان الأخذُ والأكلُ عادةً، ففى هذا عون له على صلاح قلبه ودوام حاله. وكان إبراهيم بن أدهم يسأل أصحابه عن الشيء من المأكول فيقال: إنه غال. فيقول له: أرخصوه بتركه. وقال بعض الأدباء فى معناه:

وإذا غـلا شيءٌ علىَّ تركتُـه فيكون أرخصَ ما يكون إذا غلا

وهو حينئذ تارك للشهوات لأجل الله تعالى، وعامل من عمّال الله. وقد كان هذا طريق طائفةٍ من السلف إلى الله تعالى، ثم انقرضوا فانمحى طريقهم وخلَف بعدهم خلفٌ من العلماء اتَّبعوا الشهوات، ولم يقاموا فى هذه المقامات، ولا سُلك بهم هذه الطرقات، فلم يتكلموا فى ترك الشهوات؛ فلذلك دَرس هذا الطريق، وعفا أثره، لفقد سالكه وعدم كاشفه، فمن عمل به وسلكه فقد أظهره،

(١) «من جنود» ساقطة من المطبوعة.

ومن أظهره فقد أحيا أهله.

حدثني بعض علمائنا عن بعض المريدين من أهل البصرة قال: نازعتنى نفسى خبز أرز وسمكًا فمنعتها، فقويت مطالبتها، فاشتدت مجاهدتى لها عشرين سنة. قال: فمات. فرأيته فى النوم فقلت: ما فعل الله بك؟ فقال: لا أحسن أصف إليك ما يلقانى به ربى من النعيم والكرامة، وكان أول شىء استقبلنى به خبز أرز وسمكًا، فقال: كُل شهوتك اليوم هنيئًا بغير حساب. وقد قال الله تعالى: ﴿**كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِى الأَيَّامِ الخَالِيَةِ**﴾ [الحاقة: ٢٤]. فكأنهم أسلفوا ترك الشهوات لما تركوها، وقدّموا الجوع والعطش فى خُلوِّ أيامهم، فاستقبلهم بالأكل والشرب. ويقال: لكلِّ عملٍ جزاء فى الآخرة من جنسه وبمعناه. وقال سرى السقطى: منذ ثلاثين سنة أشتهى أن أغمس جزرة فى دَبْس وأنا أمنع نفسى. وكان أبو سليمان الدارانى يقول: ترك شهوةٍ من شهوات النفس أنفع للقلب من صيام سنة وقيامها. وقال: لأن أترك لقمةً من عشائى أحبُّ إلىَّ من قيام ليلة. ذلك إيثارًا للتقلل، وخفة للمعدة من الطعام، وخشية الاعتياد للشبع.

وسمعت أبا بكر بن الجلاَّء يقول: أنا أعرف إنسانًا تقول له نفسه: أنا أصبر لك على طىٍّ عشرة أيام، فأطعمنى بعد ذلك شهوة أشتهيها. فيقول لها: لا أريد أن تصبرى على طىٍّ عشرة أيام، ولكن اتركى هذه الشهوة التى تشتهيها. وقال لى رجل أنه رأى النبى ﷺ فى المنام فأخذ بجلد ذراعه وجعل يقول: جعت هذا الجوع كله؟ ولم يقل له اترك الجوع، ولو قال له اتركه لعله كان يتركه. وقد كان رحمه الله قد ترك أكلَ الشهوات وأكل الخبز أيضًا ثلاثين سنة.

وكان الجنيد رحمه الله يقول: يقوم أحدهم فى صلاته فيجعل بينه وبين الله تعالى زبِّيل طعام، ويريد أن يجد حلاوة المناجاة، أو يسمع فهم الخطاب. ومَثَلُ البطن مَثَلُ المُزهر وهو العود المجوف ذو الأوتار، إنما حسُن صوته لخفّته ورقته، ولأنه أجوفُ غير ممتلىء، ولو كان ثقيلاً جالسًا ممتلئًا لم يكن له صوت. وكذلك الجوف إذا خلا من الامتلاء كان أرقَّ للقلب، وأعذب للتلاوة، وأدوم للقيام، وأقل للمنام.

وروى عنه أن عتبة الغلام قال لعبد الواحد بن زيد: إن فلانًا يصف من قلبه منزلة لا أعرفها. قال: إن فلانًا لا يأكل التمر وأنتَ تأكله. قال: فأنا إن تركتُ التمرَ وأكْلَه عرفتُ تلك المنزلة؟ قال: نعم وغيرها. فأخذ يبكى، فقال له بعض أصحابه: أبكى الله عينك أعلى التمر تبكى؟ فقال عبد الواحد: دعه فإن نفسه عرفت صدق عزمه فى الترك، هو إذا ترك شيئًا لم يعاود فيه أبدًا.

وكان بعض أشياخنا ترك أكل الخبز الحار لأنه كان يحبه ويشتهيه سنين كثيرة، فعوتب فى ذلك فقال: لو طمعت نفسى فى أكل الخبز بعد عشرين سنة ما أطعمتها الساعة. وكان ربّما يبكى من شدّة شهوة نفسه، وشدّة عزم مجاهدته، لاستشعار نفسه صدقه وحسن وفائه، فتيأس من شهوتها آخر الدهر. فكذلك كان يقع عليه البكاء للإياس من المشتهى.

واعلم أن الشهوات لا حدَّ لها، وإنما الحدُّ للقوت، فمَثَل الشهوات مَثَل الجهل لا حدّ له[1]، ومَثَل القوت مثل العلم ذو حدود. فكم من شهوة دنيَّة منعت رُتبةً عليَّة، فإن لم تقطع الشهوات وتحسمها أحبَّ ما كانت إليك أعطتك أرغب ما تكون فيها، فلا تقعد عن التوبة تنتظر آخرها، فإن النفس لا آخر لشهواتها إلى أن ترى الملائكة، فعند ذلك تمحى صفاتها، فتغيب الشهوات، لأنها من أوصافها، فإن لم تترك الشهوات المعتادة فلا تعمل فى مثلها من الزيادة، بل يكون عملك فى النقصان؛ فهو أقرب إلى أخلاق الإيمان.

وقد كان بعضهم يقول لأصحابه: لا تأكلوا الشهوات، فإن أكلتموها فلا تطلبوها، فإن طلبتموها فلا تحبّوها. وكانوا يقولون: ما زاد على الخبز فهو شهوة حتى الملح. وقال بعضهم: الخبزُ من أكبر الشهوات، واعلم أنّ ما زاد على الخبز هو فاكهة يُتفكَّه به. وقد روينا عن ابن عمر أنه قال: ما تأتينا من العراق فاكهة أحبُّ إلينا من الخبز.

فإن كان لا بد من تفكُّه بفاكهةٍ مع الخبز الذى هو قوت النفس فكما أطعم الله

(١) من قوله: «وإنما الحد للقوت» إلى هنا ساقط من المطبوعة.

عزّ وجلّ الفقراء فى الكفّارة، وهو التوسط فى الإدام الذى أمر به وأحبه لفقرائه مثل الخبز واللبن، لأن أعلى الإدام اللحم والحلو، وأدناه الملح والخلّ، فلم يأمر سبحانه وتعالى بأعلاه لأنه يشق على الأغنياء، ولم يأمر بالأدنى لأنه يشق على الفقراء، وتوسط الأمر بينهما، فقال عزّ من قائل: ﴿مِن أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُم﴾ [المائدة: ٨٩]، فهو ما ذكرناه.

وعلى ذلك فإن ابتُلى العبد بأكل الشهوات وحبِّها، فليُظهر ذلك ولا يخفيه وليشترها بنفسه ولا يستسرها؛ فإن هذا من صدق الحال؛ وهو طريق السلف: إن فاته المجاهدة فى الأعمال فلا يفوتنَّه الصدق فى الحال، وإن لم يكن صدِّيقًا فليصدُق فى كذبه؛ فإن الصدق فى الكذب أحد الصدقين، وإن إخفاء الكذب والنقص وإظهار ضده من الإخلاص والتمام هو كَذِبان، لأنه نقص وأظهر حالَ الكاملين، واعتلّ وأبدى شعارَ المعصومين، فكذب من طريقين، واستحق المقتَ من وجهين؛ فلذلك غضب الله تعالى عز وجل على المنافقين، ومقتهم مقتين، ثم لم يرض منهم إلا بتوبتين، واشترط عليهم شرطين، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِى الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥] يعنى أسفل من الكفَّار؛ لأن الكافر أخلص فى كُفره فسوّى بين باطنه وظاهره، والمنافقُ كَفَر وأشركَ فى إيمانه، فخالف بين باطنه وظاهره، واستخفّ بنظر الله عز وجل إلى قلبه، وعظّم عينَ المخلوق، فزاد الله عزّ وجلّ فى هوانه وشدّد فى توبته بما وكّده من شرطه، فقال تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لله﴾ [النساء: ١٤٦] الآية. وهذا الضرب من الرّياء مما لا يُمتحن به عالمٌ بالله عز وجل، ولا عاقل عن الله عزّ وجل، ولله الحمد.

وإن ابتُلى بأكل الشهوات وببعض المعاصى، كما تجرى الذنوب على العارفين، ولا يُبتلون برياء المخلوقين، وليس للسلف فى هذا الباب إلا طريقان: طريقٌ هو المجاهدة للنفس، وترك الشهوات، فمنهم من كان يخفيه لأنه أسلم له، ومنهم من كان يظهره لأنّه مؤمن قَوِىٌّ، نيته فى ذلك القدوةُ والتأسِّى، وطريق آخر: كان فيه

طائفة من العلماء والعاملين، وكانوا يأكلون الطيّبات ويتسعون فى المآكل إذا وجدوها، إلا أنّهم كانوا يُظهرون ذلك، ويكشفون نفوسهم به، فإن فاتك الطريق الأعلى فاسلك الطريق الأوسط الأسلم. فإما أن يكون عبدًا يأكل الشهوات فى السرّ ويخفيها فى العلانية، أو يظهر شعار ضدها من الترك لها والزهد فيها؛ فليس هذا طريق الموقنين ولا مسلك الصادقين، وقد عرَّج عن طريق المسالك، وسلك سبيلَ المهالك، فإياك أن تترك محجةَ الطريق فتقع فى حيرةِ المضيق.

حُدثنا أن عابدًا من بنى إسرائيل انتهى فى سياحته إلى أرض لقومٍ رأى فى وسطها طريقًا مستطرقًا يسلك فيه السابلة، فقال: هذه أرض لقوم كيف أسلكها؟ قال: وشقّ عليه أن يجاوز الأرض فيبعد عليه طريقه، فتفكر وقال: هذا طريق مسلوك لا بأس علىّ أن أسلكه، فسلكه. فلما خرج من تلك الأرض عوقب على ذلك ونسى ذنبه، فجعل يستكشف، فقيل له: لأنك سلكت إلىَّ على غير طريق ودخلت فى حرث قوم بغير إذنهم. فقال: يا ربّ معذرة إليك إنّى رأيته قد جُعل طريقًا، فأوحى الله عزّ وجل إليه: أوَ كلما اتخذ الظالمون طريقًا جعلته إلىَّ سبيلاً؟!

فمن سلك طريق ظالمٍ بغرور، لم يكن فى ذلك معذورًا، وأوقعه فى الحيرة والغرور، فهلك وأهلك من اقتدى به. وهذا طريق متصنِّعٍ جاهلٍ متطرقٍ بذلك إلى الدنيا، متسوِّقٍ عند الناس بترك الشهوات، بظلم التوحيد فى الوحدة، ضعيفِ اليقين فى غيبة عن العيون. وقد كان من شأن الصادقين من السّلف اشتراء الشهوات بأنفسهم، وتعليقها فى منازلهم، يظهرون للناس شعار الراغبين، وهم فيها عند الله عز وجلّ من الزاهدين، لا يأكلونها، إنما يريدون بذلك إسقاط منزلتهم من قلوب الجاهلين، وإخفاء حالِهم عن الناظرين، وليصرفوا عنهم قلوب الغافلين، يقطعون بذلك المقالات، ويشترون به المعاملات؛ لأن هذا مقام مَن زهد فى الأشياء وأخفى زهده.

فمن نهاية إخفاء الزهد إظهارُ ضده، واستشعارُ المزهود فيه، ثم لا يتناول ولا يتمتع به، فيكون هذا أشد على النفس من المجاهدة، لأنّه حمل عليها ثقلين: ثقل

المنع من الحظ، وثقل سقوط المنزلة عند الخلق، فعدمت النفس لذّة المتعة به، وفقدت أسبابَ المنزلة بتركه، فجرَّعها كأس الصبر مرتين؛ مرة بشريه ومرة بفقده[1]. فهذا حال الصادقين فى ترك الشهوات، وطريق الأقوياء من أهل الإرادات، وهو يشبه فعل الزاهدين فى باب العطاء. إن منهم من كان يأخذ العطاء علانية، ثم يخرجه سرًا، فيكون له فى الأخذ سقوط الجاه بظهور الرغبة، ويكون له فى الإخراج معاملة السرٍّ بحقيقة الزهد، فلا هو متَّع نفسه بالجاه مع الردّ، ولا هو أنالها حظَّها بتناوله مع الأخذ؛ فهذا أشدّ شيءٍ على النفس؛ وهو طريق علماء الزهّاد، ومن سلكه أخرجه إلى مقام الصدِّيقين. وهذان طريقان قد دَرَسا، وقد عفا أثرهما فى وقتنا هذا، لا يسلكه إلا مَن عرفه، الفرد بعد الفرد والسّابلةُ من القرَّاء على طرقاتِ التصنُّع والتزيُّن بُرءاء من هذا.

وروى عن جعفر بن محمد الصادق رضوان الله عليه: إذا قُدِّمتْ إلىَّ شهوة نظرتُ إلى نفسى، فإن أظهرت شهوتها لها أطعمتُها منها، وكان ذلك أفضل من منعها، وإن أخفت شهوتها وأظهرت العزوف عنها عاقبتها بالترك، ولم أُنلها منها شيئًا.

تفسير ذلك: أنّ إظهار النفس للشهوة أن لا تبالى أن تُعرف بأكل الشهوات، وأن تحبَّ أن يظهر على ذلك مَن يعرف من أهل الديانات. وإخفاء النفس للشهوة أن تشتهى، وتحبّ أن لا يُعلم أنها تشتهى، وتكره أن تُعرف بأنها ممن يشتهى، فقال: هذه هى المعاقبة بترك أكلها، لأنه إذا ترك أكلَ شهوة لأجل الشهوة ثم اشتهى أن يُعرف بتركها؛ فهذا شهوة الشهوات، فقد وقع فى أعظم مما كره، ومتعته بشهوة النظر إليها والمدح له أكثر من تمتعه بترك شهوته المأكولة؛ وهذا من الشهوة الخفية التى جاء فى الخبر: «أخوف ما أخاف على أمتى الرياء، والشهوة الخفية». فالرياء بالمعاملات، وخفىُّ الشهوة أن تشتهى أن تُعرف، وتوصف بترك الشهوات.

وسئل بعض العلماء عن بعض الزهاد، فسكت عنه. فقيل له: تعلم به بأسًا؟ فقال: ما أعلم به بأسًا، إلاّ فى شيءٍ واحد مكروه: يأكل فى الخَلْوة ما لا يأكله

(١) «مرة بشريه ومرة بفقده» ساقطة من المطبوعة.

فى الجماعة. فأعلّه بذلك، ولعمرى إنه موضع علّة؛ لأن الصادقين قد كانوا يأكلون فى الجماعة ما لا يأكلون فى الخلوة؛ فهذا ضدّ حالهم.

فإن اتفق للعبد لونان أحدهما ألطف من الآخر ابتدأ فأكل الألطف منهما، فلعلّ كفايته تتم به فيستريح من الآخر، فإنما قدَّم أهلُ الدنيا غليظ الألوان على رقيقه، ليتسعوا فى الأكل، وتنفتق شهواتهم، فيكون لكل لون لطيف مكان آخر. وشبّه بعضهم المعدة بمنزلةِ جِرابٍ ملأته جَوزًا حتى لم يبقَ فيه فضل للجوز، فجئت بسمسم فصببته عليه، فأخذ لنفسه موضعًا فى خلال الجوز، فوَسِع الجرابُ السمسم للطفه مع الجوز؛ فكذلك المعدة إذا ألقيت فيها طعامًا رقيقًا لطيفًا بعد طعام غليظ خشن أخذته الشهوات فى أماكنها، فتمكّن فيها بعد الشبع مما قبله، والعرب تعيب ذلك ولا تفعله، إذ من سنتها أن تبتدئ باللحم قبل الثريد. قال رجل من العرب لبعض الأنباط: أنت من الذين يبتدئون بالثريد قبل الشواء. يذمّ أهل العراق بذلك.

هذا إذا استوى اللونان فى الحكم، أو لم يكن للمريد فى ترك الأفضل منهما نِية، فأما إن كان قد ترك الشهوات، ثم قُدِّمت إليه وكان على عقد نيته وقوة عزمه، فلا بأس بأكل الأدون. وقد كان بعض الصادقين ممّن ترك أكلَ الشهواتِ فى الانفراد إذا قُدِّمت إليه نال منها شيئًا يسيرًا ليستر عن نفسه أبصارَ الناظرين، ويصرف عنه قلوب المادحين. وقال أبو سليمان: إذا قُدِّمت إليك شهوة، وقد كنت تاركًا لها، فَأَصِبْ منها يسيرًا، ولا تعطِ نفسك منتهاها[١]، فتكون قد أسقطت عن نفسك الشهوة، وتكون قد نغَّصت على نفسك، إذ لم تبلغ[٢] شهوتها؛ فإن فعَلَ هذا فحسن؛ لأن أبا سليمان خاف عليه ما ذكرناه قبيل من أن يُظهِر تركَ الشهوة، فيصير منعُه باعتقاد فضله من ترك الشهوات أبلغَ من كلِّ الشهوات، أو أن يأكلها فَتُشْرِف[٣] عليه نفسه ببلوغ شهوته التى كان تركها بعلّة الإخلاص، كما تقول

(١) فى (م): «منها هناها»، وفى (د، هـ): «مهنأها».
(٢) فى (هـ): «تبالغ فى».
(٣) فى (د): «فتستولى»، وفى المطبوعة: «فيسرف على نفسه بلوغ».

العامة: تَعلَّة الصبى تشبع الدابة. فإن قوى يقينه، وغاب الخلق عن عينه، تركها وقلبه مطمئن بالإيمان؛ لأنه لم يعتل بالنظر فيه فيتداوى بالتناول للبعض.

فأما إن كان قد اعتقد ترك شهوةٍ لمعنى دخل عليه منها يخرجه من الورع، أو يعزم على المجاهدة، ثم أتى بها؛ فهذا اختبار من الله سبحانه وتعالى له لينظر كيف يعمل فى الوفاء بالعقد. فأحبُّ إلىَّ أن لا ينال منها شيئًا، وليتعلّل ويدافع عن نفسه بالمعاريض والمعانى، حتى لا يُفطن به أنه قد تركها للمجاهدة، فيكون قد فَعل الوصفين معًا: الوفاء بالعقد فى تركها، والتورية بلطيف الحيلةِ من الفطنة له فى قصده. وهذا طريق المريدين وصفات المتقين؛ وهو الطريق الأدنى الذى ذكرناه أولاً.

فإن ظهر قربُ الله تعالى منه وغلبه نظره إليه أغناه عن الحيلة والاحتيال لقربه وشهادته ذا الجلال والإكرام؛ وهو الطريق الأعلى الذى ذكرناه آخرًا، وهذا للموقنين. فأما إن كان الغليظ الخشن هو الأحلَّ فى الحكم وأبعدَ من الشبهة، فهو الأطيب والأفضل فى العلم، فلا يأكل إلاّ منه. يقال: أول لقمة يأكلها العبد من حلال يغفر له ما سلف من ذنبه. فلعلّ الله تعالى أن يشكر له ترك لقمة شبهة لذيذة فى الطعم إن كانت كريهة فى الحكم، يتركها لأجله فيغفر له ما سلف من ذنبه، إنّه غفور شكور. قيل: غفور لذنوب كثيرة، شكورٌ لعمل يسير. كيف وقد وصف المؤمنين أولى الهدى والتوحيد وذوى الرحمة والرشد بحسن التفقد فى الطعمة فقال: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى * وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا﴾ [الكهف: ١٣ ـ ١٤]، يعنى بشهادتهم بالتوحيد، فكان من قيامهم حسن تفقُّدهم فى المأكول، ومراقبتهم للواحد، فى قولهم: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ﴾ [الكهف: ١٩] يعنى: أيها أحلّ وأفضل، فأمروا رسولهم بتحرى الحلال إذ قاموا لذى الجلال والإكرام لما أمرهم بأكله إذ قدَّمه على الأعمال الصالحة فى قوله تعالى: ﴿كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١] ورعًا منهم وتقوى. وكذلك فافعل؛ لتتبع سبيل

المؤمنين فتكون معهم، ولا تتبع سبيلَ المجرمين الظالمين فتُحشر معهم.

هذه رياضة المريدين وطريق المجاهدين.

فأما العارفون فليس لهم فى الأكل تجزئة وتقسيم، إذا أُطعموا تقلّلوا وشكروا، فإن رأوا له مكانًا آثروا، وإن جُوِّعوا عملوا وصبروا. قالت عائشة: «كان رسول الله يصوم حتى نقول لا يفطر، ويفطر حتى نقول لا يصوم». وكان ﷺ يدخل على أهله فيقول: «هل عندكم من شىء؟ فإن قالوا: نعم، أكل، وإن قالوا: لا، قال: إنّى صائم». وكان يُقدَّم إليه الشىء فيقول: «أمَا إنّى كنتُ أردتُ الصوم، ثم يأكل». وفى الخبر: «أنه خرج ﷺ يومًا فقال: إنّى صائم، ثم دخل فقالت عائشة: قد أُهدى لنا حَيس[1]، فقال: قد كنت أردت الصوم، ولكن قرِّبيه».

وكانت بينه وبين الله علامة فى فطره وصومه، كان الوجودُ علامةَ فطرِه يكون مرادًا به، وكان العدمُ علامةَ صومه يكون معه مرادًا به.

وعلى هذا المعنى تصريف قلوب العارفين، ومن هذه المشكاة تضىء بصائر الشاهدين، ولا يوكلون إلى حال، ولا يوقفون مع مقام، ولا تصحّ هذه الثلاث إلا بثلاث خِلال: أحدها: عدم الهوى وتوقان النفس بالعادة، والثانية: أن يكون له فى أكله نية كما له فى صومه نية؛ فيكون فطره لله، فيستوى أكله وصومه، إذ كان العامل فيهما واحدًا، والثالثة: أن يحفظ الجوارح الست بحسن الرعاية، فيكون صائمًا بما هو فرض عليه وأفضل له؛ وهنّ: البصر، والسمع، واللسان، والقلب، واليد، والرجل، ويكون مفطرًا بالبطن والفرج فيكون ما حفظ أكثر وأبلغ وأحبَّ إلى الله عز وجل، ويكون أفضل ممن صام بجارحتين؛ فإن لم يكن من أصبح صائمًا ثم أفطر بهذه الأوصاف الثلاث دخلت عليه الشهوة الخفيّة التى فسّرها رسول الله ﷺ. فقد روينا أنّ النبى ﷺ لما قال: «أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية»، سئل: ما الشهوة الخفية؟ فقال: أن يصبح أحدكم صائمًا ثم يعرض له الطعام يشتهيه فيفطر لأجله. فالأفضل لمن عقد لله صومًا أن يتمه، فإن

(١) الحَيسُ: هو الطعام المتّخذ من التمر والأقط والسَّمن.

فسخه لغير الله تعالى عُوقب على ذلك من عقوبات القلوب، أو عقوبات الجوارح في طرقات الآخرة؛ فتلك عقوبة ترك فضائل الأعمال. وفي خبر: «نومُ العالم عبادة ونفسه تسبيح». هكذا رويناه.

وقيل لبشر بن الحارث: إن فلانًا الغنى يصوم الدهر، فقال: المسكين ترك حاله، ودخل في حال غيره، إنما حاله أن يطعم الجِياع، ويكسو العراة، ويواسي المحتاجين؛ فهذا أفضل له من صيامه الدهر. ثم قال بشر: عبادةُ الغنيِّ كروضة على مزبلة، وعبادة الفقير كعقد الجوهر في جيد الحسناء.

ودخل سفيان الثوري يومًا على أبي إسحاق الفزاري، فقدم إليه قصعة فيها خبيص[1]، فقال: لولا أني صائم لأكلت معك. فقال له الفزاري: دخل عليَّ أخوك إبراهيم بن أدهم فقعد في موضعك هذا فقدمت إليه خبيصًا في هذه القصعة فأكل، فلما أراد الانصراف قال: إني كنت صائمًا إلاّ أني أحببت أن آكل معك أسرّك بذلك. قال: فوضع الثوري يده وجعل يأكل، وتأدب بإبراهيم.

وحدثونا عن سهل رحمه الله أنه سئل كيف كان في بدايته، فأخبر بضروب من الرياضات، منها أنه كان يقتات ورق النبق مدّة، ومنها أنه أكلَ دقاق التبن ثلاث سنين. ثم ذكر أنه اقتات ثلاثةَ دَراهم في ثلاث سنين. قيل: وما هو؟ قال: كنت أشتري في كل سنة بدانقين تمرًا وأربعة دوانق كُسبًا، ثم أعجنها عجنة ثم أجزئها ثلاثمائة وستين كُبَّة، أفطر في كل يوم ليلة على كُبَّة. قال: فقلت له: فكيف أنت في وقتك هذا؟ قال: آكل بلا حدٍّ ولا توقيت[2].

وقد كان معروف الكرخي يُهدَى إليه طيبات الطعام فيأكل، فيقال له: إنّ أخاك بشرًا لا يأكل من هذا. فيقول: أخي بشر قبضه الورع، وأنا بسطتني المعرفة. ثم قال: إنّما أنا ضيفٌ في دار مولاي، إذا أطعمني أكلتُ، وإذا جوّعني صبرتُ، ما لي والاعتراض والتخيُّر؟

---

(١) الخبيص: الحلواء المخبوصة من التمر والسمن. يقال: خَبَص الحلواء يَخبصها خَبصًا وخبَّصها: خلطها وعملها.

(٢) مرت هذه القصة من قبل قريبًا.

وقال بعض إخوان بشر الحافى: دخلتُ عليه وهو يأكل، فقال لى: كُل، فقلت: إنى صائم، فناولنى كسرة وقال لى: كُل، فأكلتها، فقال: سلمت من آفة الصوم وأدخلت علىَّ السرور.

وكان بشر رحمه الله قد أصبح ذاتَ يومٍ صائمًا، فزاره فتح الموصلى، قال حسين المغازلى: فدفع إلىَّ كفًا من دراهم فقال: اشتر لنا أطيب ما تجد من الطعام، وأطيب ما تجد من الحلاوة، وأطيب ما تجد من الطيب، قال: وما قال لى مثل ذلك قط. ففعلتُ فوضعت الطعام بين أيديهم، فجعل يأكل معه وما رأيته أكل مع غيره.

وكان بعض هذه الطائفة يقول: إذ أعطاكَ مولاك قطعة فقد شهّاك أن تشترى ما تشاء وتشتهى، وإن أعطاك مأكولاً بعينه فكُل ذاك ولا تتخير سواه.

ودفع إبراهيم بن أدهم إلى بعض إخوانه دراهم فقال: خُذ لنا بهذه زبدًا وعسلاً وخبزًا حورانيًا. فقلت: يا أبا إسحاق، بهذا كله؟ فقال: ويحك، إذا وجدنا أكَلنا أكلَ الرجال، وإذا عدمنا صبَرنا صبرَ الرجال. وأصلح ذات يوم طعامًا فأكثر ودعا نفرًا يسيرًا منهم الثورى والأوزاعى، فقال له: أمَا تخاف أن يكون هذا إسرافًا؟ فقال: ليس فى الطعام إسرافٌ، إنما الإسراف فى الأثاث واللباس. وهكذا حكى عن سيرة السلف، قال: كانوا فى الرِّحالِ مخاصيب[1]، وكان فى الزى والثياب تقصير. وفى الخبر: «أنّ رجلاً صنع طعامًا فدعا إليه بعض إخوانه فقال: إنى صائم. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: صنع لك أخوك طعامًا فلم تأكل، ألا أفطرت وصمت يومًا مكانه؟».

وحدثونا عن بعض العلماء أنه كان قاضيًا بصنعاء، فدخل على أمير صنعاء، فحضر وقت غدائه فعرض عليه الأكل فقال: إنى صائم. فلما أخذ الأمير فى الأكل وهو يحدثه إذ نظر القاضى فإذا قد جاءوا بحَمَل مشوىٍّ، فجعل القاضى يزحف ويتقدم إلى المائدة، ثم مدّ يده فأكل. فقال له الأمير: ألم تقل إنى صائم؟

(١) رَحْلٌ خصيبٌ: رَحْبُ الجَناب كثيرُ الخير.

فقال: أيها الأمير، أنا على قضاء يوم أصومه أقدرُ منى على قضاء مثل هذا الحَمَل.

وكان أبو سليمان الدارانى يقول: لا تضرّ الشهوات مَن لم يتكلفها إنّما تضرُّ مَن حرص عليها. وكان يدعو أصحابه فيقدِّم إليهم الطيبات، فيقولون له: تنهانا عنها وتقدّمها إلينا؟ فقال: لأنى أعلم أنكم تشتهونها فتأكلونها عندى خيرًا، ولو جاءنى من يزهد ما زدته على الملح شيئًا. وكان يقول: أكل الطيبات يورث الرضا عن الله تعالى.

وقال بعض الخلفاء: شرب الماء بثلجٍ يخلص الشكر لله تعالى.

وأوحى الله سبحانه إلى بعض أوليائه: أدرك لى لطفَ الفطنة وخفىَّ اللطف، فإنى أحبّ ذلك. قال: يا ربّ وما لطفُ الفِطنة؟ قال: إذا وقعت عليك ذبابة فاعلم أنى أوقعتها، فسلنى حتى أرفعها، قال: وما خفىُّ اللطف؟ قال: إذا أتاك فولة مسوسة فاعلم أنى ذكَّرتك بها فاشكرنى عليها.

وأوحى إلى بعض الأنبياء: لا تنظر إلى قلّةِ الهدية وانظر إلى عظمة مهديها، ولا تنظر إلى صِغَرِ الخطيئة وانظر إلى كبرياء من واجهته بها، فإذا أصابك فقرٌ وضرٌّ فلا تشكنى إلى خلقى، كما إذا صعدت مساويك لم أشكك إلى ملائكتى.

* * *



الفصل الأربعون

كتاب الأطعمة[(١)]

• ذكر ما يجمع الأكل من الآداب والسنن وما يشتمل على الطعام من الكراهة والاستحباب، ذكرنا ذلك متفرقا ومبثوثا، إذ لم نشتغل بتصنيفه مبوبا وموصوفا، كيما يسهل على الحفظ، ويقرب من الوصف[(٢)]:

قال الله الصمد الذى[(٣)] لا يُطعَم: ﴿قُلْ أَغَيْرَ الله أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السموات وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام:١٤]. فتمدَّح تعالى بالإطعام، وتحمَّد باتخاذ الولاية على الأنام.

وقال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ المؤمن كمثل النّخْلَةِ أَكَلَت طَيّبًا، ووضعت طيبًا، وإن وقعت على عُودٍ لم تَكْسره»[(٤)].

وقال ﷺ: «أفضلُ ما أهدى المرءُ إلى أخيه ودقًا، أو يُطعمه خبزًا»[(٥)]. وذلك أن الوَدِقَ قيمٌ للأشياء، وقد يتخير العبد جميع المشتهى، وأن الأصل فى الأقوات الخبز، أفرده الله تعالى تفصيلاً من الحبات فى قوله تعالى: ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الحَصِيدِ﴾ [ق:٩]. فالجناتُ ما اشتمل على الفاكهة، والحَبُّ هو المقتات من الأطعمة. وروى ابن المبارك عن هشام بن الغار رفعه إلى النبى ﷺ قال: «مِن

---

(١) الفصل برمته مأخوذ من نسخة (هـ) وقوبل مع نسخة (د)؛ لأنهما شملتا زيادات طويلة أكثر من ضعفى المطبوعة ونسخة (م). ويتضح فى هذا الفصل ذكر الإسناد فيما يروى من الأخبار، لعل هذا يرجع إلى أنه ينقل عن أصول مكتوبة.

(٢) عبارة (هـ): «كما سهل الله تعالى، وقرب من الوجد»، لكنه ضرب على الكلام من أول قوله: «ذكرنا» بخط ولم يذكر شيئًا بالحاشية.

(٣) فى (د): «والصمد هو الذى».

(٤) صحيح، انظر: الصحيحة رقم ٣٥٥.

(٥) فى الإتحاف ٤/ ١٧٨.

أَحبِّ الأعمالِ إلى الله تعالى إدخالُ السرورِ على المسلم: أن تفرج عنه غمًّا، أو تقضى عنه دَينًا، أو تُطعمه من جُوع». وقال ﷺ: «من وافق من أخيه شهوةً غَفَر له».

وسئل ﷺ: «ما الإيمانُ؟ فقال: إطعامُ الطعام وبذل السلام». وقال ﷺ فى الكفارات والدرجات: «إطعامُ الطعامِ والصلاةُ بالليل والناس نيام». وسئل عن الحج المبرور فقال: «إطعامُ الطعامِ وطيبُ الكلام».

وكان ابن عمر يقول: من كرمِ الرجل طيبُ زادِه فى سفرِه، وبذله لأصحابه.

وقال الله عز وجل: **﴿يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا كلُوا من طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُم واشْكُروا للهِ﴾** [البقرة:١٧٢]، فقدَّم الأمر بالأكل على الأمر بالشكر.

كما قال سبحانه وتعالى: **﴿لا تَأكُلوا أَمْوالَكُم بَيْنَكُم بالباطِلِ إلاَّ أن تَكُونَ عن تَراضٍ مِنْكُمْ ولا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُم﴾** [النساء:٢٩]، فقدَّم النهى عن الأكل للحرام على القتل للنفس والأجسام، تفضيلاً لأكل الحلال، وتعظيمًا للأكل بالباطل.

وكان أبو عبد الله أحمد بن حنبل رضى الله عنه يقول: الأكلُ من الدِّين قدمه الله تعالى على العمل، فقال تعالى: **﴿كُلُوا مِن الطَّيِّباتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾** [المؤمنون:٥١].

وقال ﷺ: «إنّ الرجل ليُؤجَر حتّى فى اللقمة يَرْفَعُها إلى فِيهِ، وإلى فِيِّ امْرأتِه».

وروى عنه ﷺ: «ما أطعم المسلمُ نفسه وأهله محتسبًا فهو له صدقةٌ».

وروينا عن على عليه السلام: لأن أجمع إخوانى على صاعٍ من طعامٍ أحبُّ إلىَّ من أن أعتقَ رقبة.

والخبر المشهور: «إذا وُضع الطعامُ، وأُقيمت الصلاةُ، فابدأوا بالعشاء قبل الصلاة». قال: فكان ابن عمر ربما سمع الإقامة وقراءة الإمام، فلا يقوم من عَشائه، وهذا لحُرمةِ الطعامِ، وتفضيل الإطعام.

وروى هشام بن عروة عن أبيه قال: وُضع الطعام فقام القاسم بن محمد ـ يعنى ابن أبى بكر ـ يصلى، فقالت عائشة رضى الله عنها: نهى رسول الله ﷺ أن يُصلَّى بحضرة الطعام حتى يُؤكل ويُرفع».

وكذلك يقال: إذا وُضع الطعام قامت الملائكة عليهم السلام ينتظرون فلا يزالون قيامًا حتى يُرفع، فكانوا يكرهون أن يُقدَّم الطعام ولا يؤكل.

وروى حميد عن أنس: قال النبى ﷺ: «إنّ الله تعالى يُدخل عبده الجنةَ بالأكْلة والشربة يحمد الله عز وجل عليها». ورواه سعيد بن أبى بردة عن أنس فقال فيه: «إنّ الله تعالى ليرضى عن العبد بأكل الأكلة أو بشرب الشربةِ فيحمده عليها».

وذكر معناه كعب الحبر، وسأله رجل فقال: ما أيسر ما يدخل به العبد الجنة؟ فقال: يأكل طعامًا طيبًا، أو يجامع امرأته، فيشكر الله تعالى على ذلك، فيدخل به الجنة. أسنده عبد الوارث عن أنس فى الطعام قال فيه: «إن أحدكم ليَضَعُ طعامَهُ بين يديه، فما يُرفع حتى يُغفرَ له. قيل: يا رسول الله، وبِمَ ذلك؟ قال: يقول بسم الله إذا وُضع، والحمد لله إذا رُفع».

وروى منصور عن إبراهيم: شكرُ الطعام أن تسمى الله تعالى إذا أكلتَ، وتحمد الله تعالى إذا فرغت. وقال غيره: من أكل أو شرب ثم حمد الله عز وجل، كان له أجرُ الصائم القائم. أسنده سعيد المَقْبُرى عن أبى هريرة فقال فيه: «الطّاعم الشّاكر كالصّائم الصّابر». ورواه حكيم بن أبى حرّة، عن سنان بن وهبة فقال فيه: إن رسول الله ﷺ قال: «الطاعم الشاكر له مثل أجر الصائم الصابر».

وقال إبراهيم بن طهمان، عن تميم بن سلمة قال: من أكل طعامًا فذكر اسم الله تعالى حين أكل، وحمد الله عز وجل حين فرغ، لم يُسأل عن نعيم ذلك الطّعام. هذا لعظيم اسم الله عز وجل، وكبير وصفه بالحمد الذى تحمَّد وتمدَّح به، ولتفضيل بسم الله والحمد لله، إذ بهاتين الكلمتين افتتح كتابه العزيز الحميد. وكذلك جاء فى الخبر تفضيلُ مَن برِئ من حَوْله وقُوّته، واعترفَ بالتوحيد لمولاه عز وجل.

ورواه سهل بن معاذ بن أنس الجهنى عن أبيه أن النبى ﷺ قال: «من أكلَ طعامًا فقال: الحمد لله الذى أطعمنى هذا ورزَقَنيه من غير حَولٍ منّى ولا قُوة، غُفر له ما تقدم من ذنبه». وإنما غُفر له بالتوحيد بعين اليقين، لئلا يشرك نفسه فى أوصاف رب العالمين.

وقد كان أبو سليمان الدارانى يقول: أكلُ الطيبات يورث الرضا عن الله سبحانه. وقال غيره: شربُ الماء بثلج يخلص الشكر لله عز وجل.

فإذا جمع الطعامُ خلتين تمّت النعمة: اللحم والحلاوة؛ لقوله سبحانه وتعالى فى تفسير الطيبات: ﴿**وأنْزَلنا عَليكُمُ المَنَّ والسَّلوَى كُلُوا من طَيِّباتِ ما رَزْقناكُم**﴾ [البقرة:٥٧]. فالمنّ: الحلاوة، والسلوى: اللحم. قيل: سُمِّى سَلْوى لأنه يُسْلى عن جميع الآدام.

وإذا جمع الشرابُ خصلتين تمّت به النعمة: العذوبة والبرودة. وكان رسول الله ﷺ إذا شرب قال: «الحمد لله الذى سقانا برحمته عَذْبًا فراتًا، ولم يجعله بذنوبنا مِلحًا أُجاجًا».

وكان عمر رضى الله عنه إذا جاءه البريد من الآفاق، أو قدم عليه الوفدُ من الأمصار، أول ما يسأل عنه ويقول: كيف اللحمُ؟ فيقولون: رخيص يا أمير المؤمنين؛ شاة بأربعة دراهم. فيقول: الحمد لله، هى شجرةُ العرب التى لا قوام لها إلا به. كيف الطعامُ؟ فيقولون: رخيصٌ؛ قفيز بدرهمين. فيقول: الحمد لله.

وقيل لبعض العرب: ما أطيبَ الطعام! فقال: بأى شىء يطيب أكل الطعام؟ قالوا: باللسان. فقال: اللسان لحم وليس للّحم إلاّ اللّحم.

وكذلك كان أبو عبد الرحمن الثورى يُعجب بالرُّوس، ويسمى الراسَ طعام العرب، لما يجمع من الألوان. فيقول: للعينين طعم [مفرد]، وللدماغ طَعم [مفرد]. ويقول: الراس سيد البدن، والدِّماغ معدنُ العقل، والعين بابُ الألوانِ، والشّحمة أطيبُ من المخ، وأنعم من الزبد، وأدْسم من السّلا. وكان لا يشترى الراس إلا فى زيادة الشهر، لمكان زيادة الدّماغ، ولا يشتريه إلا يوم السبت. وكان

هذا من حكماء العرب.

والعرب لا تقدِّم على الثريد شيئًا لفضله على الإدام، ولجمعه الأصابع على الطعام. وكذلك قال رسول الله ﷺ: «فضلُ عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام».

وقال ﷺ: «أفضل الطعام ما كثُرت عليه الأيدى». ذلك لبركة أيدى المسلمين، إذ كان يرجو ﷺ بركة أيديهم، فمن دونه من التماس البركة بأيديهم أدخل وأولى.

كما روينا عنه ﷺ: «الوضوءُ من جرٍّ مُخَمَّر أحبُّ إليك أم من هذه المطاهر المسبلة؟ فقال: بل من هذه المطاهر المُسبلة التماسَ بركةِ أيدى المسلمين». وروينا من طريق آخر عنه من فعله وأمره: «كان رسول الله ﷺ يرسل إلى المطاهِر فيؤتى بالماء، فيتوضأ به. فسئل عن ذلك، فقال: ألتمس بركة أيدى المسلمين».

فلهذا قال بعضُ السلف: إنّ الرجل إذا دعا إخوانه على طعام فأكلوا ثم رفع فضلَ ذلك لم يُحاسب عليه مَنْ أكله بعدُ؛ لبركةِ الجماعةِ، لقوله ﷺ: «الجماعةُ بركةٌ».

قال: وكان بعضُ علماء خراسان ـ وهو راوى هذا الخبر ـ يقدم إلى إخوانه الفقراء من الحبوب وغير ذلك ليفضل منهم، فلا يحاسب عليه من أكله بعدُ لأجل الخير فيه.

حدثنا عبد الله بن أحمد المُقرى، عن ابن أبى الدنيا قال: حدثنى عبد الرحمن ابن عبد الله الباهلى، عن عمه قال: سمعتُ جعفر بن سليم بن على يقول: ما ساد مِنَّا إلا سخىٌّ على الطعام.

وكذلك يقال: السخاءُ على الطعام أجودُ منه وأبلغ من السخاء بالمال؛ ذلك لأن اللؤم على الطعام ألأم منه وأبلغ على المال. وقد فرّقُوا بين الشُّحِّ والبُخْل، وبين اللؤم والشؤم، فقيل: الشحُّ على الطعام، والبخلُ فى المال. وقيل: اللؤم فى الإطعام، والشؤم فى الإقتار.

وقال ﷺ: «الوضوءُ قَبْلَ الطعام وبعده ينفى الفقر» يعنى: غسل اليد.

وكان أبو محمد سهل رحمه الله يقول: من لم يُحسن أدب الأكلِ لم يحسن أدب العمل. قال: والذى يتصنع فى الأكل هو الذى يتصنع فى عمله. وقال مرة: الذى يؤذى فى الأكل هو الذى يؤذى فى الصلاة.

وقال بعض السّلف: إنى لأحب أن تكون لى نية فى كلِّ شىء حتى فى الأكلِ والنوم.

وقد كان السلف الصالح يكونُ لأحدهم فى الأكل نيةٌ صالحةٌ كما يكون له فى الجوع نيةٌ صالحةٌ، والذى يأكل بغير نية الآخرة، للعادة والشهوة والمتعة، قد يجوع لغير نية الآخرة، للعادة والشهوة والمتعة، والرغبة أيضًا والتزينُ للخلق. وهذا من دقائق آفات النفوس.

وقد يجوع بالشغل بالدنيا والانقطاع عن الطعام لحلاوة الادخار وللتحدث والتفكر بالأفراح، فحُسن من أكل بنية الآخرة ولأجل الله تعالى كحُسن من جاع لله تعالى بنية الآخرة، وإلا كان بابًا من أبواب الهوى. وقُبْحُ من جاع لغير الله عز وجل من معانى الشهوة الخفية كقُبْحِ من أكل لغير الله تعالى لمتعة النّفس وشهوة الطبع، وعادة الجسم، فلا يشكر الله عز وجل سعيه، كما يطالب من جاع لغيره بما نقص من ضعف جسمه.

فالطعامُ والأكلُ يشتمل على مائة وسبعين خصلة، ما بين فرض وسنة، وأدب وفضيلة، واستحباب وكراهة، ومروءةٍ وفتوَّة، من طرائق السلف، وصنائع العرب.

أول ذلك: أن يكون المأكول حلالاً، وعلامةُ الحلال ثلاث: أن تكون عينه معروفة لم يخالطها عين ذمّها العلمُ من: جناية، أو ظلم. ويكون سببه لم يحوه سبب محظور فى الشرع لأجل هوًى أو مداهنة فى دين أو دنيا. ويكون قد وافق فيه حكم السنَّة: لا يكون على وصف مكروه من غَرَر أو خطر، أو خلابةٍ أو غش، أو ترك نُصْح.

ثم ينوى بالأكل التقوِّى على البر والتقوى، والاستعانة به على خدمة المولى

تعالى، ويعرف النعمة فيه أنها من المنعم بها وحده لا شريك له فيها، ويعتقد الشكر للمطعم من رزقه، المعبود المشكور دون خلقه، ويؤثر التقلُّل على الاتساع، والقناعة على الحرص، والأدب فيه على الشَّرَه، والصبر على الجَشِبِ[1] من الطعام، والرضا باليسير من الطعام.

ثم غسلُ اليد فى أوله للاستحباب، وفى آخره للنظافة، والتسمية فى أوله والحمد فى آخره، والأكل باليمنى، ويبتدئ بالملح ويختم به، وأن لا يذم مأكولاً ولا يعيبه، إن أعجبه أكله وإلا تركه، والقناعة بالمقسوم من الله، والرضا بالموجود من الرزق، وأن تكثر الأيدى على الطعام، وفى الخبر: «اجتمعوا على طعامكم يُبارَك لكم فيه»، وتصغير اللقمة، وتجويد المضغ، وأن لا ينظر فى وجوه الآكلين، ولا يتفقد مأكلهم، وأن يقعد على رجله اليسرى وينصب اليمنى، ولا يأكل متكئًا ولا مضطجعًا، ولا يكون أول من يبتدئ بالأكل حتى يسبق صاحب المنزل، أو الأكبر فالأكبر، إلا أن يكون إمامًا يُقتدى به، أو يكون القوم منقبضين فيبسطهم بالابتداء.

ولا يجمع بين التمر والنوى فى طبق، ولا يجمعهما فى كفه إلا بأن يضع النواة على ظهر كفه من فيه ثم يلقيها، وكذلك ما كان فى معناه مما له عَجَمٌ وثُفْل، ويستحب أن يأكل من التّمر وترًا؛ سبعًا أو إحدى عشرة أو إحدى وعشرين، وأن يفطر على رطب إن وجده، وإلا فتمر، فإن لم يجد فعلى الماء. وكان وهب بن منبه يقول: الصائم يزيغ بصره، فإذا أفطر على حلاوةٍ رجع بصره.

ولا يقرن بين تمرتين فى الجماعة، إلا أن يفعلوا ذلك أو يستأذنهم، وأن يأكل بعد الجوع ويرفع يده قبل الامتلاء بمقدار ثلث بطنه أو نصفه، كذلك سنة السلف، وهو أصحّ للجسم.

وقال حكيم من أهل الطب: إن الدواء الذى لا داء فيه هو أن لا تأكل الطعام حتى تشتهيه، وترفع يدك عنه وأنت تشتهيه.

---

(١) جَشَبَ الطَّعام، فهوَ جَشْبٌ وجَشِبٌ: غلِيظٌ أو بلا أُدْمٍ.

ويقال: أساس كل داء البَرَدَةُ. يقال: هى التُّخَمَة.

ويقال فى أخبار الحكماء: أن خادمًا لأرسطاطاليس استقضى رجلاً من أهل السواد حاجة له فلم يقضها له. فقال له: لعلك أن تحتاج إليه. فقال: ما بى إليه من حاجة. فأخبر الخادمُ الحكيمَ بذلك فقال: إن كان يأكل بعد الجوع، ويرفع قبل الشبع، ويتقلل بين ذلك، فقد صدق، ما له إلينا حاجة.

وقد أحكم الرسولُ ﷺ ذلك بقوله: «ما ملأ آدمى وعاءً شرًا من بطن، حسبُ ابن آدم لُقيمات يشد بهنّ صلبه، فإن لم يفعل فثلثٌ طعام، وثلث شراب، وثلث للنَّفس». والطعام إنما وُضع دواء من داء الجوع، إذا وجدته عالجته به، فإذا لم تجده صار الأكل داءً، وليس يزيد على الدواء الداء إذا لم يصادف داءً؛ لأن التأذِّى بالأكل مثل التأذى بالجوع أو أشد.

وليأكل مما يليه إلا الفاكهة، فله أن يجيل يده، ويأكل بثلاث أصابع، إلا الثريد فله أن يأكل بأصابعه كلها، ولا يأكل من ذِروة القصعة، ولا من وسط الطعام، وليأكل من نواحيه، وأن لا يصمتوا على الطعام فإنه من سيرة العجم، وليتكلموا بالخير والمعروف.

ولا يقطع اللحم بالسكين فقد نُهى عن ذلك، ولكن انهشوه نهشًا، ولا يقطع الخبز بالسكين، وليأكل فى استدارة الرغيف، إلا أن يكون فى الخبز قِلة، وفى الآكلين كثرة، فيستعان بتكسير الخبز على التفرقة، ولا يُكثر قول «كُل» على أخيه، فإن ذلك يَحْشِمُهُ[1] فربما قَطَعَه، ولا ينبغى لأن يحوجه أخوه إلى تفقُّده فى الأكل وتكرير قوله له: كُلْ. وقال بعض الأدباء: أحسن الآكلين أكلاً مَن لم يحوج صاحبه إلى تفقُّده فى الأكل، فقد حمل عن أخيه مؤونة القول.

ولا يدع شيئًا يشتهيه من المأكول لأجل نظر العين إليه فإنه من التصنع، فإن تركه إيثارًا لأخيه أو قدّمه إلى إخوانه فحسن، ولا ينقص من أكله المعتاد فى الوحدة، وإن زاد لأجل المساعدة للجماعة أو نيته فَضلُ الأكل مع الإخوان فلا

---

(١) يحشمه: يخجله.

بأس بذلك، والشرب فى تضاعيف الأكل مستحب من جهة أهل الطب ما لم يبتدئ به، أو يكثر منه، يقال: إنه دِباغ المعدة، والشرب متكئًا مكروه للمعدة أيضًا من جهة الطب.

والأكل متكئًا أو نائمًا ليس من السنة إلا ما يُتناول أو يُنتقل من الحبوب وما فى معناها، وقد رُؤى علىٌّ عليه السلام وهو يأكل على تُرْس منبطحًا كعكًا، ويقال مضطجعًا، والعرب تفعله، وفى الخبر عن النبى ﷺ: «كيلوا طعامكم يُبارك لكم، واملكوا العجين فإن فيه البركة».

وما رُدَّ له من المأكول مع الجماعة فلا يرده فى القصعة فيأكله غيره، بل إن وقع بيده أكله وإلا تركه من التَّفل، ولا يغمس الخلّ بالدسم ليصطبع بالخل قبل اللحم.

وقد جاء فيما ذكرناه آثار عن السلف رضى الله عنهم كرهنا الإطالة بذكر جميع ذلك والتقصى فيه، ولكن نذكر بعضه، ما قرُب تناوله.

من ذلك ما أخبرنى عبد الله بن أحمد المقرى عن ابن أبى الدنيا قال: حدثنى حفص بن عمر قال: حدثنا إسماعيل بن عياش، عن عبد الله بن أبى حسين، عن شهر بن حوشب قال: كان يقال: إذا جمع الطعام أربعة أشياء فقد كَمُلَ كل شىء من شأنه: إذا كان أوله حلالاً، وذُكر اسم الله عز وجل عليه، وكثرت عليه الأيدى، وحُمِدَ الله عز وجل حين يفرغ منه.

فأما الحسن رحمه الله فإنه جعلها اثنى عشر خصلة، وقال: يجب على المسلم تعلمها: حدثنا أبو بكر القرشى بمكة قال: حدثنا محمد بن عمر العُقلى قال: جاء إبراهيم بن مهدى عن أبى المبارك عن هشام عن الحسن قال: اثنا عشر خصلة فى الطعام ينبغى للمسلمين أن يتعلموها: أربعة منها فريضة، وأربعة سنة، وأربعة أدب. فأما الفريضة: فالتسمية، والمعرفة، والرضا، والشكر. وأما السنة: فالجلوس على رجله اليسرى، والأكل مما يليه، والأكل بثلاثة أصابع، ولعق الأصابع إذا فرغ. وأما الأدب: فغسل اليدين، وتصغير اللقمة، والمضغ الشديد، وقلة النظر إلى وجوه أصحابه.

وفى حديث عائشة رضى الله عنها عن النبى ﷺ: «إذا أكل أحدكم فليذكر اسم الله، فإن نسى فى أوله فليقل بسم الله أوله وآخره».

واجتمعوا يومًا مع يحيى بن معاذ رحمه الله على طعام، فقال له زاهد: ما أدب الطعام؟ فقال: أدبه أن يُستوفى إذا حضر، دعونا من حماقات القرّاء.

وأما إبراهيم بن أدهم فإنه سأل بعض العارفين عن أدب الأكل فقال: أدبه أن تأكل بثلاث أصابع، وأن تصغر اللقمة، وذكر أشياء من هذا النوع، فقال إبراهيم: ليس هذا من أدب الأكل عندنا. قيل له: فما أدبه؟ قال: أدبه أن تحسن النفقة فى المأكول، فيكون حلالاً لا شبهة فيه، ويجتهد فى النّصح للمسلمين به، فإذا وجدناه حلالاً صافيًا ضربنا فيه بالخَمْس، وأكلنا حتى نشبع.

وقد كان أبو معاذ يقول: أكل المحبين أكل الطير كل ساعة لقمًا، ولا يستوفى. من باب التقلُّل من المطعوم.

وقال بعض الحكماء: البِطنة تغلب الفِطنة، فالعاقل من قهرت فطنته بطنته.

وقال بعض أهل الطب: ليس لشبعة خير من جوْعة تحفِزها، كما ليس لجوْعة أنفع من شبعة.

وكان الحسن يقول: ويح ابن آدم، أسير الجوع صريع الشِّبع.

وسأل عبد الملك بن مروان أبا الزعيزعة الأعرابى: هل أتخمت قط؟ فقال: لا. قال: وكيف ذاك؟ قال: لأنّا إذا طبخنا أنضجنا، وإذا مضغنا دققنا، ولا نَكُظُّ المعدة ولا نُخْليها.

وأنشد بعضهم فى كراهية اعتياد الشبع:

وعادةُ الجوع فيها عصمةٌ وغِنًى ... وقد يَزيدُك جوعًا عـادةُ الشِّبعِ

يقول: إذا كنت تشبع أبدًا، ثم انقطع ذلك عنك، ازداد جوعك بكثرة اعتياد الشبع.

وأنشد آخر فى تآلف النفس عن الأكل:

إذا لـم أُزد إلاَّ لأكل أكلة[١] فلا رفعت كفِّى إلىَّ طعــامْ

فمـا أكلةٌ إن نلتُها بغنيمةٍ ولا جَوعـةٌ إن جعتُها بغرامْ

وفى حديث زياد بن حماد عن أبى الصِّدِّيق الناجى عن النبى ﷺ قال: «خير تمراتكم البُرْنِىُّ، يذهب بالداء ولا داء فيه». وفى خبر حماد بن زيد عن زياد النميرى قال: قالت عائشة رضى الله عنها: من أكل التمر وترًا لم يضره. وفى حديث أنس: «كنتُ أعدُّ لرسول ﷺ تمرات يفطر عليها فى المسجد قبل أن يصلى المغرب خمسًا أو سبعًا، ولا أدرى أذكر الثلاث أم لا».

وقال الأصمعى: حدثنى شيخ عالم قال: أطيبُ التمر صَيْحانيَّةٌ مُصَلَّبةٌ[٢]. قال: وحدثنى رجل من آل حزم قال: كان يقال من خلا على[٣] التمر فالعَجوة، ومن أكله على ثِقَلٍ فالصَّيحانى.

وكان بعض العرب يفضل الرطب على العسل، ويقول: أتَجعلُ عَسَلَةً فى أخثاءِ البقر كعَسَلَةٍ فى جو السماء لها محارسُ من حديد وذوائب من زمرد.

وليس تقدِّم العربُ على التمر والزبد شيئًا من الطعام، يمثلونه فى الاعتدال كالخل والزيت فى الإدام. قال: رأى أعرابى دقيقًا وتمرًا، فاشترى التمر، فقيل له: كيف آثرته وسعر التمر والدقيق واحد؟ فقال: إن فى التمر أُدْمَة وزيادة حلاوة.

وقال مالك بن حِقبة لحسان بن الفُرَيعة لما وفد إليه: ما تزوَّدت إلينا؟ قال: الحَيسُ. قال: ثلاثة أسقية فى وعاء. وكان الحيس أكثر طعام النبى ﷺ، والعرب تستحبه، وهو جامع لثلاثة ألوان كان السلف رضى الله عنهم يكثرون أكلها: اللبن، والتمر، والسّمن، يُحاس جميع ذلك عَجنًا بالخبيص، ويتزوَّدونه فى السفر، ويُتحلَّى به فى الحضر.

---

(١) فى (د): «لقمة».

(٢) الصَّيْحانِىُّ: من تمر المدينة، نسب إلى صَيْحان لكَبْش كان يربط إليها. ويقال: صلبت التمرة، إذا بلغت اليبس.

(٣) يقال: خلا على بعض الطعام: إذا اقتصر عليه.

وقال عمر رضى الله عنه للأحنف بن قيس: أى الطعام أحبُّ إليك؟ قال: الزبد والكَمْأةُ. فقال عمر رضى الله عنه: أحببت الخصب للمسلمين. وقال بعضهم: عاب رجل فى مجلس الأحنف بن قيس التمر والزبد، فقال الأحنف: رُبَّ مَلُومٍ لا ذنب له.

وحُدثت عن أبى حاتم المقرى عن الأصمعى عن أبى عمرو بن العلاء قال: قال الحجاج يومًا لجلسائه: ليكتب كل رجل منكم فى رُقْعة أطيبَ الطعام عنده، ويجعلها تحت مُصَلاَّتى، ففعلوا، فإذا فى الرقاع كلها: الزُّبْد والتّمر.

وقال الأصمعى: قيل لبعض العرب: ما رأيُك فى أكل الجرِّىِّ[1]. فقال: تمرة نِرْسيانة غَرَّاءُ الطَّرْفِ، صفراء السائر، عليها زبد، أحبُّ إلىَّ منها، ثم أدركه الورع، فقال: ولا أحرِّمها. وقال بعض الكوفيين: رأيت الشعبى اشترى جِرِّيًّا وحمله إلى عياله، فقلت: يا أبا عمر أتطعم عيالك الجِرِّىَّ، فقال: لو علمت أن عيالى يأكلون الضفادع لأطعمتهم. وقيل لبعض العرب: أنشدنا أحسن بيتٍ سمعته فى الغزل. فقال: الغزل لا أعرفه، ولكن إذا أردتم أنشدتكم أحسن بيت عندى فعلت، قالوا: فافعل، فقال:

ألاَ ليـت خُبْـزًا قـد تسَربَل رَائبًا ... وخَيْلاً من البرنىِّ فرسانُها الزُّبدُ[2]

وفى حديث ابن عباس: أنّ النبى ﷺ سئل عن أفضل الشراب، فقال: «الحلو البارد». فتأول بعض أهل اللغة أنه عنى بهذا العسل خاصة، قال: لأن العرب تسمى العسل: البارد، واحتج بقول الأعشى[3]:

* كما شِيب براحٍ باردٍ [من] عَسَلِ النَّحْلِ *

(١) الجِرِّىّ: ضرب من السمك. والتمر النرسيان: نوع من التمر الجيد. وكان الخبر محرفًا ومصحفًا بالمخطوط، صوبته من عيون الأخبار ٣/ ٢٠٢.

(٢) البيت فى عيون الأخبار ٣/ ٢٠٢.

(٣) ليس فى ديوانه المطبوع، وإنما هو من قصيدة لم تنشر، وهو فى نسختى بتحقيقى قصيدة رقم ٩٦ ب ٧، والشعر والشعراء: ٦٩. وهذه روايته، ورواية الديوان: «كأن رُضَابَها حُشَّ براحِ عَسَلِ النحل». وانظر ملحق نشره جاير للديوان رقم: ١٨٧.

ولكن في حديث عائشة رضى الله عنها، أخبرت عن فعل رسول الله ﷺ قالت: «كان يعجبه الحلوى والعسل»، وفى لفظ آخر: «كان يعجبه الحلو البارد من الشراب»، فهذا وصف عام فى كل باب.

ويقال: أجودُ العسل الذهبى، الذى إذا قطرت منه قطرة على التراب استدار كما يستدير الزئبق، ولم ينفش، ولم يختلط بالتراب. وحكماء الروم تقول: أجوده ما يلطخ على فتيلة ثم يشعل فيها النار فتعلق. وسئل حكيمهم بقراط: هل شيء يزيد فى العمر؟ فقال: لو كان ذاك كان مَن أدام أكل العسل، ودهن جسمه به، واستحم غبًّا، زاد فى عمره، وأحسبه ذكر التغمير.

وفى حديث عبد الله بن مسلم بن جندب الهذلى، عن أبيه، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا ترد: اللبن، والدهن، والوسادة». وفى خبر على رضى الله عنه وقد دخل على قوم يأكلون موزًا، فسألوه أن يطعم منه. فقال: ناولونى واحدة، فإنى سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «من عُرضت عليه هدية ـ وفى لفظ آخر الحلاوة ـ فلا يردها، ليُصب ما قلّ أو كثر. وفى الخبر الآخر: «ثلاثة لا ترد: الحلوى والطِّيب والريحان». وقال أبو عبيدة الناجى عن الحسن: الوضوء قبل الطعام ينفى الفقر، وبعده ينفى اللَّمَم، كذا كان عندى، وأحسبه: ينفى الهم. وقال أبو يزيد حماد، عن عبد الرحمن بن غزال: بلغنى أنه من غسل يده قبل الطعام كان فى سَعَة من الرزق حتى يموت.

وأما فرقد السّبخى: فإنه كان يعلِّم المريدين الأكل. فحُدثنا عن جعفر الضبعى، قال: كنا نأتى فرقد السبخى، ونحن شَبَبَة[1]، فيقدم إلينا الطعام، ويعلمنا فيقول: [إنّ مِن ورائكم زمانًا شديدًا] فَشُدُّوا الأُزُر على أنصاف البطون، وصغِّروا اللقم، وشدّدوا المضغ، ومُصّوا الماء مصًا، وإذا أكل أحدكم فلا يَحُلَّنَّ إزاره فتتسع أمعاؤه، وإذا جلس أحدكم ليأكل فليجلس على إليته، وليلزق فخذه ببطنه، وإذا فرغ فلا يقعد، وليجيء وليذهب.

وكان الحسن رحمة الله عليه يعيب عليه مثل هذا ويقول: ويلك فريقد، دع

(١) شببة: جمع شاب.

الناس يأكلون كيف شاءوا، فقال: لوددت أن الرماد يكون قوتى إلى الموت، فقال له الحسن رحمه الله: جعله الله قوتك وقوت أصحابك. وكان فرقد من القراء المتفقرين، والصّلابِيّة المتقشفين، وكان الحسن رضى الله عنه يتسع فى الطعام.

وقال حماد بن زيد: حدثنا داود، قال: قلت للحسن رضى الله عنه: إنَّا ننفق فى هذه الأطعمة فنكثر، فقال: ليس فى الطعام سَرَف. وقاله إبراهيم بن أدهم رضى الله عنه لما زاره الأوزاعى، فقدم إليه طعامًا فيه كثرة، فقال له الأوزاعى: يا أبا إسحاق، ما تخاف أن يكون هذا إسرافًا، فقال: ليس فى الطعام سرف[1]. وزاد سفيان الثورى رضى الله عنه: ولا فى النساء سرف. وقال رجل للثورى وروى الحديث: «إن الله عز وجل يبغض أهل بيت لَحِمين». فقال: ليس هو بالذى يؤكل فيه اللحم، إنما هو الذى يؤكل فيه لحومُ الناس، يعنى الغيبة. أسنده ابن أبى زياد، وزاد فيه: «ويبغض الحَبر السمين»، وفسّره فى الحديث مدرجًا، قال: هو أهل بيت يأكلون لحوم الناس.

وسمع الحسن رضى الله عنه رجلاً يعيب الفالُوذَج، فقال: سبحان الله! لُبابُ البُرِّ بلُعاب النحل بخالص السمن، ما عاب هذا مسلم، والتفت إلى فرقد فقال: يا فرقد، بلغنى عنك أنك لا تأكل الفالوذج، فقال: يا أبا سعيد، أخاف أن لا أؤدى شكره، فقال: يا لكع، فهل تؤدى شكر الماء البارد، لَنعمة الله تعالى عليك فى الماء البارد أعظم من نعمته عليك فى الفالوذج. فكان الحسن رضى الله عنه فى هذا الباب على سُنَّة السلف رضى الله عنهم من الأصحاب والتابعين من ذوى الألباب. وروى مالك عن إسحاق بن أبى طلحة قال: سمعت أنس بن مالك يقول: رأيت عمر رضى الله عنه يُلقَى له الصاع من التمر فيأكله حتى حشفه. وكان يقول لحاجبه برفق: ويحك أنضج العصيدة تذهب حرارة الزيت.

وكان فرقد السبخى من قراء البصريين فى طبقة ابن أبى المؤمّل المتجوِّعين، كان يقول: رحم الله رجالاً كنا نؤاكلهم ما رأيتُ قصعةً رُفعت من بين أيديهم إلا وفيها فضل. وكان يقول: الإدام أعداء الخبز وأعداها له المالح، فلولا أن الله عز وجل

---

(١) لا دليل على هذا الحكم، وماذا يفعل بقوله تعالى: ﴿وكُلُوا وَاشْرَبُوا ولا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١]؟!

أعان عليه بالماء وطَلَبِ آكِلِه لأتى على جميع الخوان. قال: ما بال الرجل إذا قال اسقنى ماء أتاه بقُلَّة على قدر الرِّى أو أصغر، وإذا قال أطعمنى شيئًا أو هات لفلان طعامًا أتاه من الخبز ما يفضل عن الجماعة، والطعام والشراب أخوان مُتحالفان. وقال: لولا رخص الماء وغلاء الخبز، لما كَلِبُوا على الخبز وزهدوا فى الماء. والناس أشد شىء تعظيمًا للمأكول إذا كثر ثمنه، وكان قليلاً فى أصلِ منبته وعنصره، وهذا الجزر الصافى والباقلاء الأخضر العبَّاسىّ أطيب من كمثرى خراسان والموز البستانى، وهذا الباذنجان أطيب من الكَمْأةِ، لكن الناس لِقِصَرِ هممهم، وذهابهم التقليد والعادة؛ لا يشتهون إلا على قدر الثمن[1]. إلا أن ابن المؤمّل لشدة اقتصاده وفَرْطِ تقلله كان يبخل، فيحمل على الكلام ونحوه منه على البخل. وقد كان يُعلِّم بعض أصحابه عند الأكل ويأمرهم بشرب الماء، ويقول: لو شرب الناس الماء على طعامهم ما أُتخموا، وذلك أن الرجل لا يعرف مقدار ما أكل حتى ينال من الماء شيئًا؛ لأنه ربما كان شبعان وهو لا يدرى، فإذا ازداد عن مقدار الحاجة بَشِمَ.

وقال بعض الأدباء ممن نُقل عنه هذا لصدقه قال: فى قول الناس ماء دجلة أمرأُ من ماء الفرات، وماء مهران أمرأ من ماء بَلخ، وفى قول العرب: هذا ماء نمير يصلح المال عليه، دليل أن الماء يمرى، حتى قالوا: الماء الذى يكون عليه النَّفَّاطات أمرأُ من الماء الذى يكون عليه القيَّارات[2]، فعليكم بشرب الماء على الطعام.

وكان الحارثى يقول: الوَحْدة خير من جليس السوء، وجَلِيسُ السوء خير من أكيلِ السوء، لأنّ كلَّ أكيلٍ جليسٌ، وليس كلُّ جليسٍ أكيلاً، فإن كان لا بد من المؤاكلة، ولا بد من المعاشرة، فمع من لا يستأثر عليك بالأطعمة ويكره إيثارك على نفسه بطيب الطعام وخياره. وقال: لا تَتَشهَّى الغرائبَ ولا تمتحن الإخوان بالأطعمة المثمنة، ولا تكشف أستار الناس بأن تَتَشهَّى بما عسى أن لا يكون

---

(١) الخبر برمته فى عيون الأخبار ٣/ ٢٥٥ ـ ٢٥٦، والبخلاء، ص ٩٨. وأبو طالب نقل عن عيون الأخبار.

(٢) هذا من كلام ابن المؤمّل كما فى البخلاء للجاحظ، ص ٩٨. والنَفّاطات والقيّارات هى الأمكنة التى يكون فيها النِّفْط والقير، وهما معدنان كثيرا الوجود بالعراق منذ القدم، انظر حواشى البخلاء للمحقق، ص ٣٥١.

موجودًا، أو لا يقدر عليه أخوه.

وقد أنشد إسحاق الموصلى فى معناه:

خيرُ الصديقُ صديقٌ لا يُكلِّفنا ذبحَ الدجاجِ ولاَ شئَّ الفراريج

يَرضى بلونين من كُشْك ومن عدسٍ فإن تشهَّى فزيتونٌ بطسُّوج[1]

وفى حديث الأعمش عن أبى وائل قال: انطلقتُ مع صاحبٍ لى نزور سلمان، فقدّم إلينا خبز شعير وملح جريش، فقال صاحبى: لو كان سعتر، فخرج سلمان فرهن مطهرته واشترى سعترًا، فلما أكلنا، قال صاحبى: الحمد لله الذى رضَّانا بما قسم لنا، فقال له سلمان: لو رضيت بما قسم لك ما كانت مطهرتى مرهونة بقيراط.

وكان أبو عبد الرحمن الثورى يُقعد ابنه بين يديه إذا أراد أن يذهب إلى دعوة، فيعلِّمه ويقول: يا بنى، إياك ونَهَمَ الصبيان، ونَهَشَ الأعراب والمَهَنَة، وخَبْطَ الملاّحِين والفَعَلَة، وأخلاق النوائح، وكُلْ من بين يديك، وإنّما حظُّك الذى وقع فصار إليك، واعلم أنه إذا كان فى الطعام شىءٌ طَرِيفٌ، أو لقمةٌ كريمة، وبَضْعَةٌ شهية، فإنما ذلك للشيخ المعظَّم، أو للصبى المدلَّل، ولستَ واحدًا منهما، وأنت قد تأتى الدعوات، وتجيب الولائم، وتدخل منازل الإخوان، وعهدك باللحم قريب، وإخوانك أشد قَرَمًا إليه منك، فإنما هو طعامٌ واحد، فلا عليك أن تتجافى عن بعض وتصيب بعضًا، وأنا أكره لك الموالاة بين اللحم، فإن الله يبغض أهل بيت لَحِمين[2].

وكان يقال: مدمنُ اللحم كمُدمنِ الخمر. ورأى رجلٌ رجلاً يأكل لحمًا، فقال: لحم يأكل لحمًا أفٍّ لهذا عملاً. وكان عمر رضى الله عنه يقول: إياكم وهذه المجازر، فإن لها ضراوة كضراوة الخمر.

---

(١) البيتان فى شعره المجموع، صنعة ماجد أحمد العزّى، ص ١٠١. الطسُّوج: حبتان، وهو معرب.

(٢) الخبر فى عيون الأخبار ٣/٢١٦ ـ ٢١٧. الطَّريف: الجديد. البضعة: القطعة من اللحم. قرم الرجل: اشتدت شهوته إلى اللحم.

ومن وصية أبى عبد الرحمن الثورى لابنه: أى بنى، عوِّد نفسك الأَثَرَة، ومجاهدةَ الهوى والشهوة، ولا تنهش نهش السّباع، ولا تَخضَم خَضْمَ[1] البراذين، ولا تُدمن الأكل إدمان النّعاج، ولا تَلقم لُقَم الجمال؛ إن الله عز وجل خَلَقَكَ إنسانًا وفضلك، فلا تجعل نفسك بهيمة ولا سَبُعًا، واحذر سُرعة الكظّة، ونَهَم البِطْنة، فقد قال بعض الحكماء: إذا كنت بَطِنًا فعُدَّ نفسك فى الزَّمنى. وقال الأعشى:

* والبطنة يومًا تَسْفَهُ الأَحلاما * [2]

وكذلك يقال: الشبع داعيةُ البَشَم، والبشمُ داعيةُ السقَم، والسقمُ داعيةُ الموت، ومن مات هذه الميتة فقد مات ميتةً لئيمةً، وهو مع هذا قاتل نفسه، وقاتلُ نفسه أَلأمُ من قاتلِ غيره. وقال بعض الفقراء: ما أدَّى حقَّ السجود والركوع ذو كظّة، ولا خشعَ لله عز وجل ذو بِطنة، والصوم مَصَحَّة، والوَجَبات عيشُ الصالحين. الوجبة أكلة من وقت إلى مثله أو فى اليوم مرة. وقال بعض العرب: قد بلغتُ سبعين عامًا، ما نَغَضَ لى سِنٌّ، ولا انتشر لى عصب، ولا عرفت ذَنِين[3] أنف، ولا زريف عين، ولا سلس بول، ما لذلك سبب إلاّ التخفيف من الزاد.

ولله درُّ الحارث بن كَلَدة حين زعم أنّ الدواء هو الأَزْم[4]، وأن الداء هو إدخال الطعام فى إثر الطعام، ومنه صفت أذهان الأعراب، وصحَّت أبدان الرهبان مع طول الإقامة فى الصوامع، حتى لم تعرف النِّقْرس ولا المفاصل ولا الأورام؛ لقلّة الرُّزْء[5] وخفة الزاد، وكيف لا يُرغب فى شىء يجمع لصاحبه صحّةَ البدن، وذكاءَ الذّهن، وصلاحَ المِعَى، وكثرةَ المال، والقُربَ من عيش الملائكة عليهم السلام.

وبعضُ العرب يقول: إنما كان الضبُّ والظبى أحسن شىء جسمًا وأطوله عمرًا

---

(١) الخَضْم: الأكل بجميع الفم.

(٢) ديوانه، قصيدة رقم ٣٨ ب ٤، وصدره: «يا بنى منذر بن عَبْدانَ».

(٣) الذّنين: المخاط الرقيق يسيل من الأنف.

(٤) الأزْم: ألا تدخل طعامًا على طعام.

(٥) الرّزء: ما يصيبه الإنسان من الطعام.

لأنهما يتبلَّغانِ بالنسيم، ويجتنبان شرب الماء.

وأوصى بعض خدم الملوك من يؤدِّبه ممن وُكِّل بأدبه، فقال: إذا أكلت فضُمَّ شفتيك، ولا تَتلفتَنَّ يمينًا ولا شمالاً، ولا تتخذن خلالك قَصبًا، ولا تَلقَم بسكين أبدًا، ولا تجلس فوق من هو أسنُّ منك وأرفع منزلة، ولا تتخلل بعود آسٍ، ولا تتمسح بثياب جسدك، ولا تشرب ماء وأنت قائم، ولا تحفر أرضًا بأظفارك، ولا تجلس على حائطٍ أو باب، ولا تكتب عليهما فتُلعن، ولا تَستَرِح على أُسْكُفَّة[1] فتُجهَّل، ولا تطحن مَدَرًا بأصابعك، ولا تَستَنْجِ بِمَدَرٍ فيورثك الباسور، ولا تَمتَخِط حيث يُسمع امتخاطك، ولا تبصق فى الأماكن المنظّفة[2].

ويقال: إن عمرًا قال لمعاوية رضى الله عنهما، وقد حكَّم الحكمين: أكثروا الطعام لهم، فوالله ما بَطُن قوم قطّ إلاّ فقدوا بعض عقولهم، وما مضت عَزْمَةُ رجلٍ بات بطينًا. وكان يقال: أقلل طعامك تحمد منامك.

وروى أن عبد الملك دعا رجلاً إلى الغداء فقال: ما فىّ فضل، فقال: ما أقبح بالرجل أن يأكل حتى لا يكون فيه فضل، فقال: يا أمير المؤمنين، عندى مستزاد، ولكن أكره أن أصير إلى الحال الذى استقبح أمير المؤمنين. وقال بعض الأخيار: قيل لشيخ من العرب: ما أحسن أكلك! فقال: هو عملى منذ ستين سنة.

وروى العبسى عن أبيه قال: قال الأحنف: جنِّبوا مجلسنا ذكْرَ الطعام والنساء، فإنى أكره الرجل أن يكون وصّافًا لبطنه وفرجه، [وإن من المروءة أن يتركَ الرجلُ الطّعام وهو يشتهيه].

وقال: إن الملائكة عليهم السلام تحضر المائدة إذا كان عليها بَقْل. وفى الخبر: إن المائدة التى أنزلت على بنى إسرائيل من السماء كان عليها من كلّ البقول إلاّ الكراث، وكان فيها سمكة عند رأسها خل، وعند ذنبها ملح، وكان عليها سبعة

---

(١) أُسكُفَّة الباب: عتبته.

(٢) الله الله. إنها حضارة الإسلام وتعاليمه التى غابت عن المسلمين اليوم، فراحوا يلتمسوها عند الأعاجم.

أرغفة، على كل رغيف زيتون وحبُّ رمان. فهذا من أحسن الطعام إذا اتفق، فإن لم يكن فكما قال بعض الأدباء: إذا دعوت إخوانك فقدِّم إليهم حصرمِيّة أو بورانية، واسقهم ماءً باردًا، فقد أكملت الضيافة.

ودعا بعضُ الرؤساء إخوانه، فأنفق مائتى درهمًا، فقال له بعض الحكماء: لم تكن تحتاج إلى هذا كله، إذا كان خبزك جيدًا وخلك حامضًا وماؤك باردًا فهو كفاية. وقال بعضهم: الحلاوة بعد الطعام خير من كثرة الألوان، والتمكن على المائدة خير من زيادة لونين. وقال آخر: شربُ الماء البارد على الطعام خير من زيادة ألوان.

وليأكل الرجل فى منزل أخيه على سجيَّة أكله فى منزله، بغير تكلُّف ولا تزيُّن؛ لأنه قد يدخل من الرياء والتصنع فى الطعام مثل ما يدخل فى سائر الأعمال من الصلاة والصيام.

والأكلُ عملٌ، وكلُّ عمل يحتاج إلى نية وإخلاص، فلتكن نيته فى أكله وحيدًا الاستعانة على الطاعة، ولتكن نيته مع إخوانه إكرامهم بذلك وإدخال السرور عليهم والتبرك بالجماعة، لقول النبى ﷺ: «الجماعة بركة». وينوى إقامة السنة فى إجابة الدعوة؛ ليكون مأجورًا فى أكله، عاملاً فى جميع ذلك بسنة نبيه ﷺ، وكلُّ هذا داخل فى حسن الخلق، وهو من معنى قولِ الرسول ﷺ: «إن العبدَ ليدرك بحُسْن خلقه درجة الصّائم القائم». قيل: هو الرجل يسأله إخوانه أن يفطر معهم نهارًا، أو يسهر معهم ليلاً، ويكون من عادته الصيام والقيام، فيساعدهم تخلقًا معهم، فيدرك بحُسن خلقه درجة من صام وقام.

وقال بعض العلماء: ليس من السنة ولا المروءة أن يزور الرجل إخوانه فيتشاغل عنهم بالصلاة النافلة، أو يستزيره إخوانه فيقدّموا إليه الطعام فلا يساعدهم عليه لأجل صيامه.

وقال ابن هانئ: قلت لبعض الأدباء وكان يكثر الأكل وحده: لِمَ تأكل وحدك وتدع الجماعة؟ فقال: ليس علىّ من هذا الموضع سؤال، إنما السؤال على من أكل

مع الجماعة لأنه تكلف إذ لم يكن له فيه نية، وأكلى وحدى هو الأصل، ولعمرى إن المؤاكلة عِشرة وفيها تبذُّل، فإن لم يجد العبد ما يَصلُح للمعاشرة وتُحمد معه المؤاكلة، فإن الأكْلَ على الوحدة أصلح للقلبِ وأجمع للهمة.

حدثنى محمد بن القاسم الأموى قال: حدثنا العباس بن أحمد، عن المدائنى، عن على بن محمد قال: قال بعضُ الحكماء: من الزيادة فى الطعام مؤاكلة الكريم الودود، يقال: الأكل مع الأسخياء دواء ومؤاكلة اللئام داء.

وليلعق أصابعه قبل أن يمسحها بخِرقة، أو يُلعقها غيره، كذلك السنة، وكانوا يكرهون المسحَ بالمنديل قبل اللعق.

ولما أكل الجارود مع عمر رضى الله عنه طعامًا فقال: يا جارية هاتى الدّسْتَوَرْد، فقال عمر رضى الله عنه: امسح بإستك أو ذَر، كأنه كره أن يمسح بالخرقة. وهى كلمة أعجمية.

وكان بعض الصحابة يمسح بطرف ذيله، وكثير منهم كانوا يمسحون ببواطن أرجلهم. ويقال: من لعق أصابعه قبل أن يمسحها، أو لعق الصحفة وشرب ماءها، كان له كعتق رقبة.

وليأكل ما سقط من فتات الطعام عن المائدة، فإنه ينفى الفقر، ويقال: هو مهور الحور.

• باب فى الضيافة وإكرام الضيف:

روينا عن رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه». وروى عنه ﷺ: «الضيافة ثلاثٌ فما زاد فهو صدقة، ولا يحلّ له أن يتبوّأ عنده حتى يحرجه»، يعنى يضيق عليه بعد ثلاث حتى يشقّ عليه. وقال ﷺ: «الضيف جائزتُه يوم وليلة، وليلةُ الضّيف واجبة»، وفى لفظ آخر: «حق».

وفى حديث شُعبة عن أبى الجودى قال: سمعت سعيد بن مهاجر يحدث عن المقدام بن أبى كَريمة، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «أيُّما مسلم ضافَه قومٌ فأصبح الضيفُ محرومًا كان له على كل مسلم نصره حتى يأخذ بقِرَى ليلته من

زَرْعه وماله». ورواه القطّان يحيى بن سعيد، عن زيد بن الحجاج، عن أبيه قال: قال لي أبو هريرة: «إذا نزلت برجلٍ ولم يُقْرِكَ فقاتله». ورواه كثير بن سليمان عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «الخيرُ أسرعُ إلى مُطْعِم الطعامِ من الشّفرة في سنامِ البعير».

وفي خبر آخر: «الخير أسرع إلى البيت الذي يُطعم فيه الطعام من السيل إلى مستقره»، وفي الخبر الآخر: «الضيف يحل فيأكل رزقه، ويرتحل بذنوب أهل البيت».

أخبرني عبد الله بن أحمد، عن ابن أبي الدنيا قال: حدثنا إسحاق بن إسماعيل، حدثنا جرير بن عبد العزيز بن رفيع، عن مجاهد قال: كان لرجلٍ من الأنصار ضيفٌ، فأبطأ عن أهله، فلما جاءهم قال: عشّيْتم ضيفي؟ قالوا: لا. فقال: والله لا أطْعَمُه. فقال الضيف: إذًا والله لا أطعمه أيضًا. قال: يبيت ضيفي بغير طعام؟! قدِّموا طعامكم، فأكل وأكلوا معه. فلما أصبح غدا إلى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك، فقال: «أطعت الله تعالى وعصيتَ الشيطان».

حُدِّثت عن يزيد بن هارون، عن هشام، عن الحسن: أن رجلاً جهده الجوع، ففطن له رجل من الأنصار، فلما أمسى أتى به رَحْلَه، وقال لامرأته: هل لك أن تَطْوِي لَيلتنا هذه لضَيْفِنا؟ قالت: نعم. قال: فإذا قرَّبت الطعام فأدني إلى السّراج كأنك تصلحيه فأطفئيه، ففعلت، وجاءت بثريدة كأنها قطاة، ووضعتها بين أيديهم، ثم أتت إلى السراج كأنها تصلحه وأطفأته، وجعل الأنصارى يضع يده في القصعة ولا يأكل، وأكل الضيف حتى أتى على ما في القصعة، فأُطلع على ذلك رسولُ الله ﷺ، فلما أصبح الأنصاري صلى مع رسول الله ﷺ الفجر، فلما سلَّم انفتل إلى الأنصاري فقال: «أنت صاحبُ الكلام الليلة»، ففزع الأنصاري وقال: أي كلام؟ قال: كذا وكذا؛ [يعني] قوله لامرأته. قال: قد كان ذلك يا رسول الله، قال: «فوالله لقد عجب اللهُ تعالى من صُنعكما الليلة». وفي غير حديث يزيد: «لقد ضحك الله سبحانه إليكما في هذه الليلة». وفي الخبر: «ما ضحك الله تعالى إلى عبدٍ في موطن إلا غفر له».

وأخبرنى عبد الله، عن ابن أبى الدنيا قال: حدثنى العباس بن جعفر قال: حدثنا إسماعيل بن أبان قال: حدثنا عثمان بن عبد الرحمن القرشى، عن عطاء، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من السُّنَّة أن يمشى الرّجل مع ضَيْفه إلى باب الدّار».

حدثنى عبد الله القرشى بمكة قال: حدثنا جعفر بن أنس قال: حدثنا الهيثم بن خالد، عن المخرمى قال: قال أبو الوليد الرياحى: أضرُّ شىء على الضيف أن يكون صاحبُ المنزل شبعان.

حُدثنا عن محمد بن عبيد قال: حدثنا حُجَير عن المِسْعَرِىّ، عن عون بن عبد الله قال: ظلَّ رجلٌ صائمًا فى عام سنة، فابتُلى بسائل عند فطره وقد أُتى بقُرصين، فألقى إليه أحدهما، ثم قال: ما هذا بمشبعه ولا هذا بمشبعى، لأن يشبع خير من أن يجوع اثنان، فألقى إليه الآخر، فلما أوى إلى فراشه أُتى فى نومه، فقيل له: سَلْ، فقال: أسأل المغفرة. قال: قد فُعل ذلك بك. فسَلْ، فقال: إنى أسأل أن يُغاث الناس.

أبو حاتم الأصم عن الأصمعى قال: سُئل أقرى أهل اليمامة للضيف: كيف ضبطتم القِرى؟ قال: إنا لا نتكلف ما ليس عندنا.

وقال بعض النسَّاك: قد أعيانى أن أنزل على رجل يعلم أنى لست آكل من رزقه شيئًا. وكان بعضهم يقول: لا تأكل إلا عند رجل يرى أنك أكلت رزقك. أى لا يشهد نفسه فى رزق الله عز وجل، ولا يرى فعله فى إطعام الله تعالى.

وكان الخُرَيمى ينشد:

أُضاحك ضيفى قبل إنزال رَحْلِهِ ... ويَخْصِبُ عندى والمحلُّ جَـديبُ

وما الخِصْبُ للأضياف أن تُكثر القِرَى ... ولكنَّمـا وجـهُ الكـريمِ خَصيبُ[1]

---

(١) البيتان فى ديوان أبى يعقوب الخُريمى، جمع وتحقيق على جواد الطاهر ومحمد جبّار، ق ٣ ب٣، ٤ ص١٢.

وأنشد بعضُ الكرام من العرب:

لحافى لحافُ الضيفِ والبيتُ بيته ولم يُلْهنى عنه الغزالُ المقنَّعُ

أُحادثه إنَّ الحديثَ من القِرى وتَعلم نَفسى أنّه سوف يَهْجَعُ

وكذلك يقال: انطلاقُ الوجه للضيف والضحكُ إليه أفضل من القرى، ومحادثته بحُسن إقبال نصف القرى. وعلى معنى هذا تأولوا قوله ﷺ: «اطلبوا الخبزَ عند حسانِ الوُجوه» أى عند الطلقاء المتبسمين لا عند المنقبضين المعبوسين، كالذين قيل فيهم:

ذهبَ الناسُ واستقلُّوا وسارُوا وبَقِينا فى أَرْذل النّسناسِ

مِن أُناسٍ يراهم الناسُ ناسًا وإذا فتّشوا فليسوا بناسِ

وإذا جئتُ أَبْتغى الفضل منهم ابتدأونى عند السؤال بياسِ

وَرَثَوْا لى حتى تمنَّيت أنّى مُفْلِتٌ عندَ ذَاك رأسٌ براسِ

ولا كمن قال:

وإنى لأجفُو الضيفَ من غير عُسرةٍ مخافةَ أن يُغرَى بنا فيعُود

أخبرنى عبد الوهاب الأصبهانى، عن أبى بكر القرشى قال: حدثنا داود بن رشيد قال: حدثنا أبو المليح الحرقى قال: قال ميمون بن مهران: إذا نزلَ بِك ضيفٌ فلا تكلّف له بما لا تطيق، وأطعمهُ من طعام أهلك، والْقه بوجهٍ طلق، فإنك إن تكلفت ما لا تطيق أوشك أن تلقاه بوجهٍ يكرهه.

وقد كان الفضيل يقول: إنّما تقاطع الناس بالتكلّف، يزُورُ أحدهم أخاه فيتكلّف له، فيَحشمه أن يعود إليه ثانيًا.

فمن إكرام الضيف تعجيلُ الطعام له، وتقديمُ ما حضر إليه ولا ينتظر به الغائب وإن جَلّ، وأفضلُ ما يكرمه به اللحم، وخير اللحم السمين النضيج، فإنه إذا جمع السمن والنضج تمت النعمة به، فإن كان بعد اللحم حلاوة فقد جمع له الطّيبات.

ينتظم هذه المعانى التى ذكرناها قوله عز وجل: ﴿هَل أَتاكَ حَديثُ ضَيفِ إبراهِيمَ المُكْرَمِين﴾ [الذاريات:٢٤]. قيل فى وصفهم بالإكرام ثلاثة أقوال: أحدها: خدَمَهم بنفسه، الثاني: أخدمهم أهله، وكانت فوق رؤوسهم تحمل الطعام إليهم، والثالثة: أنّه أكرمهم بتعجيل الطعام إليهم من غير تربُّص، كما قال تعالى: ﴿فما لَبِثَ أن جاءَ بعِجْلٍ حَنيذ﴾ [هود:٦٩] أى ما احتَبس ولا تأخّر ولا تباعد، والحنيذ: النضيج. وقال تعالى: ﴿فَراغَ إلى أهْلِه فجاءَ بِعِجْلٍ سَمِين﴾ [الذاريات:٢٦]. الرّوغان: الذهاب بسرعة، وقيل: الذهاب فى خِفية، ويقال: جاء بفَخْذ من لحمٍ يسمى عجلاً، لأنّه عجَّله ولم يلبث به، ثم وصَفه بأنّه سمين نضيج يقال: حنيذ محنوذ أيضًا إذا كان نضيجًا، وأحسنه ما يُشوى فى الحجارة المحماة، على سُنّة العرب.

وقال سبحانه فى وصف الطيبات: ﴿وأَنْزَلنا عَليكمُ المَنَّ والسَّلْوَى﴾ المن: العسل، والسلوى: الطير، ويسمى اللحم سلوى من جهة المعنى؛ لأنه يسلى به عن جميع الإدام، أى فيه غُنية من جميعها، وليس فى كلّها مقامه، ثم قال تعالى: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ ما رزَقْناكُم﴾ [البقرة:٥٧].

ولا يقصرِّ الرجل عن بُغيته فى المأكول، فيكون بترك الأكل ما حاجته إليه غير محمود ولا مأجور، وإن لم يكن له نية فى تركه أو لسبب أوجب عليه ذلك.

وقال جعفر الصادق: أحبّ إخوانى إلىّ أكثرهم أكلاً وأعظمهم لقمةً، وأثقلهم علىَّ مَن يُحوجنى إلى تعاهده فى الأكل. وقال آخر: يتبين أُنسُ الرجل بأخيه بجَوْدةِ أكله عنده، فإن قلل الأكل مع الفقراءِ إيثارًا لهم أو لِقلّة الطّعام فحسن.

روينا أن سفيان الثورى دعا إبراهيم بن أدهم وأصحابه إلى طعام، فقصَّروا فى الأكل، فلما رُفع الطعام قال له الثورى: إنك قصَّرت فى الأكل. فقال إبراهيم: لأنك قصرت فى الطعام فقصرنا فى الأكل. قال: ودعا إبراهيمُ الثوريَّ وأصحابه رضى الله عنهم على طعام فأكثر منه، فقال له سفيان: يا أبا إسحاق، أما تخاف أن يكون هذا سرفًا؟ فقال إبراهيم رضى الله عنه: ليس فى الطعام سَرَفٌ.

قلتُ: ذلك إذا قُدِّم إلى الإخوان فأُطعِم فى الله جل وعز، فأما إن قُدِّم مباهاةً ومفاخرة دخله السَّرَف.

وقد كان عبد الله بن العباس أحد الأجواد على الطعام، كان ينحر فى كل يوم جزورين، أخبرنى بذلك المقبرى عن ابن أبى الدنيا قال: حدثنى جويرية بن أسماء: أن عبد الله بن عباس كان ينحر جزورًا. فقال له عبد الله بن الزبير: تنحر فى كل يوم جزورًا؟ فقال: أكثير ذلك يا أخى! والله لأنحرن كل يوم جزورين. فهذا كما قال:

فلا زادنى الواشون إلاَّ صبابةً ... ولا كثرةُ الناهين إلاَّ تماديا

وكما قال الآخر:

أغْراهُ عَذْلُكما بما يَهْواه ... وكأنّما عَذَراه إذ عَذَلا

فلم يعد ذلك سَرَفًا؛ لأنه كان يطعم إخوانه فى الله عز وجل.

ومن علامة السّخِى: أنّه لا يملك نفسه عند العطاء، وأن مَنْ عَذَلَه فى العطاء أوْ نهاه فكأنما أشاطه وأغراه.

وقد كانت عائشة رضى الله عنها لا تملك نفسها فى العطاء وكانت أحد الأسخياء، قسَّمت فى مجلس واحد مائة ألف قبل أن تقوم، وفرقت مرةً سبعين ألفًا وإن درعها لمرقوع، وأفطرت ليلة على خلٍّ وزيت، وأهدى إليها معاوية رضى الله عنها جوهرًا قُوِّم بمائة ألف، فقسمته فى صواحبها من أزواج رسول الله ﷺ، حتى قال ابن الزبير: أريد أن أحجر عليها، فهذا كان سبب غضبها عليه، فحلفت أن لا تكلمه، فدخل عليها فى جماعة فسلم عليها فردّت عليه، ثم خرجت من ذلك فأعتقت أربعين رقبة.

لذلك فالسخاء على الطعام لا يُميز فى الإطعام، ولا يفرق بين مراتب الأنام، فهذه خلائق الكرام، كما حُدِّثت عن عمارة بن يحيى قال: سألت ابن مهدى: يجىء الرجل يسلِّم على القوم وهم يأكلون، هو صاحب هوى أو فاسق، أيدعونه إلى الطعام؟ قال: نعم ليتق أحدكم دناءة الأخلاق كما يتقى الحرام.

وحُدثت عن بشر بن منصور قال: عبد الرحمن بن مهدى ما رأيت مثله قط، قال: إنى لأدعو إلى طعامى من لو نبذته إلى الكلب كان أحب إلىَّ من أن يأكله.

وحدثت عن سهل بن محمد عن الأصمعى قال: حدثنى شيخ من بنى العجيف عن الجارود بن أبى سَبْرة قال: قال لى بلال بن أبى بردة: أتحضُرُ طعام هذا الرجل؟ يعنى ابن عبد الأعلى بن عامر، فقلت: إيهًا والله. قال: حَدِّثنى عنه، فقلت: نأتيه وكان سكِّيتًا، إن حدَّثنا أحسنَ الحديث، وإن تحدثنا أحسن الاستماع، فإذا حضر الغداء جاء خبَّازه، فمَثَلَ بين يديه، فيقول: ما عندك؟ فيقول: عندى بطة كذا، ودجاجة كذا، وعندى لون كذا، يعد ألوانه. فقال: وما يريد بذلك؟ قلت: لكى يَجْتَبِى كل إنسان لنفسه ما يشتهى، فإذا وُضع الخوان خوَّى تخوية[1] الظليم فما له إلاّ موضع مُتَّكَه، فيجدُّ ويهزل، حتى إذا رآهم قد فتروا وكلُّوا، أكَلَ أكْل الجائع المحروم حتى يُنَشِّطَهُم بأكله، وأنشد الأصمعى:

حيّاك ربُّك واصطبحت عصيدةً وإدامهـــا زبد فذيِّل وانْدِف

ذيل: أى حدّها ذِيلة ذيلة، أى قطعة قطعة. العصيدة عند العرب: من الدقيق، وهى الحبولا عند العجم.

حُدِّثت عن أبى حاتم عن الأصمعى قال: كان لإبراهيم بن صالح جَامٌ من حب رمان مدقوق يسفُّ منه بين كل لونين ملعقة حتى يعرف اختلاف الألوان.

ومن أكل حلالاً فليقل عند فراغه: الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات، وبرحمته تنزل البركات، اللهم أطعمنا طيبًا واستعملنا صالحًا. وليكثر شكر الله عز وجل على ذلك. فإن أكل شبهة فليقل: الحمد لله على كل حال، اللهم لا تجعله قوّة لنا على معصيتك، ولا تبلنا بكُفر نعمتك، وليكثر الحُزْن والاستغفار.

وهذا بمعنى ما رويناه فى خبر مجمل: «إذا رأى أحدكم ما يحب فليقل: الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات، وإذا رأى ما يكره فليقل: الحمد لله على كل

---

(١) خوّى الرجل: فرَّج ما بين عَضُدَيه وجَنْبيه. والظليم: ذكر النعام. والخبر برمته فى عيون الأخبار ٣/ ٢١٥.

حال». وروينا فى خبر: «إذا دُعى أحدكم إلى طعام فلم يجب، فلا يقل كُل هنيئًا، فلعله أخذه من غير حِلّه، ولكن ليقل: أطعمكَ اللهُ طيّبًا».

وليقل إذا كان لبنًا: اللهم بارك لنا فيما رزقتنا وزدنا منه. وإن أكل غيره فليقل: اللهم بارك لنا فيما رزقتنا، وارزقنا خيراً منه. كذلك رويناه عن رسول الله ﷺ؛ لأن اللبن أعم نفعًا من غيره لكافة المسلمين.

وليقل فى أول لقمة: بسم الله، وفى الثانية: بسم الله الرحمن، وفى الثالثة: بسم الله الرحمن الرحيم، فهذا على ترتيب التنزيل، وهو من أول ما كُتب فى المصاحف كذلك مرتبًا.

وإن كان صائمًا فليقل: اللهم لوجهك صمنا، وعلى رزقك أفطرنا، والحمد لله. روى عن ابن عمر رحمه الله نحوه.

وليشرب الكوز فى ثلاثة أنفاس يقطعه، يغتنم بذلك دعوة رسول الله ﷺ بعد أمره به من قوله ﷺ: «إذا شربتم فاشربُوا فى ثلاثةِ أنفاس ولا تعبُّوه عبًا، فإنه أهنأ وأمرأ وأبرأ». والعبُّ فى نفس واحد لا يقطع كشرب الطير من الحمام، ولا ينفخ فى الكوز إذا أراد أن يشرب، ولا فى الطعام إذا أراد أن يأكل، فإنه قد نُهى عن ذلك، ولا يشرب من كَسْر الإناء فإنّه مَجْمع الوسخ، وليجتنب العروة فإنها مقعدُ الشيطان، وقد كُرِه الشربُ قائمًا، ويُسمِّ فى أول جَرْعَةٍ، ويحمد إذا قطع كذلك ثلاثًا من التسمية والحمد، وإن سمّى فى كل لقمة فحسن.

وليقرأ بعد فراغهِ من الأكل ﴿قل هو الله أحد﴾ ؛ لأن فيها الصمد الذى يُطعِم ولا يُطعَم، وسورة الضحى؛ لأن فيها تعديد النعم، وسورة لإيلاف قريش، إذ ذكر فيها الإطعام من جوع، ثم ليحمد بمعانى ما فيها من الإنعام، فيقول: أطعمتَ من جوعٍ فلك الحمدُ، وأَمَّنْتَ من خوفٍ فلك الشكرُ، وآويتَ من يُتْم فلك الحمد، وهَدَيْتَ من ضلالةٍ فلك الشكر، وأغنيت من عَيلة فلك الحمدُ. وإن ذكره بلفظ التحميد فلا بأس أن يقول: الحمد لله الذى أطعم من جوع، الحمد لله الذى هدى من الضلالة. ثم كذلك.

وتقديم الفاكهة قبل الطعام أوفق، وفي القرآن ترتيب ذلك من قوله: ﴿وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة: ٢٠ ـ ٢١].

ولا يرفع يَدَهُ قبل إخوانه إذا كانوا يحتشمون أو يحتاجون إلى بسط، فإن كان قليل الأكل تربص حتى يضعوا أيديهم، فيأكلوا صدرًا من الطعام، ثم يقعد بعدهم ليستوى أكله مع أكلهم، فإن كانوا علماء لم يكرهوا ذلك منه، وقد فعله كثير من الصحابة، منهم أبو ذر وأبو هريرة؛ كانوا يأكلون مع إخوانهم إذا توسطوا الأكل.

ولا يتكلف لإخوانه من المأكول ما يثقل عليه ثمنه، أو يأخذه بدَين، أو يكسبه بمشقة، أو من شُبهة، قال بعض البصريين: أتينا شمير أبا عاصم فقرعنا بابه، فخرج إلينا وهو يلعق أصابعه، وقال: أما لولا أنى أخذته بدَين لأحببت أن تنالوا منه.

ولا يدخر على إخوانه شيئًا بالحضرة، ولا يتكلف غائبًا بمشقّة، ولا يضر بعياله، رُوينا أن رجلاً دعا عليًا عليه السلام إلى منزله، فقال: أجيبك على شروط ثلاث: لا تُدخل علىَّ ما ليس عندك، ولا تدَّخر عنا ما عندك، ولا تَجْحَفً بالعيال. وكان يقول: شرُّ الإخوان من يُتكلَّف له.

وزار بعض الأدباء أخاه، فقدَّم إليه الغداء ثم قال: هذه تكرمة الزيارة ولم أستعد، فلعل تقصيرًا يقع فيما أحبُّ بلوغه من ترك، فقال أخوه: حرصُك على كرامتى تكفيك مؤونة التكلف لى.

وقد كان من سيرة السلف: إذا دعا أحدهم أخاه أن يقدم جميع ما يحضره، ويُخرج من كلّ شيء عنده شيئًا مما يحب أن يطعمه، ليأكل مما يشتهى ما يحب. وكان بعضُ الرؤساء من الأجواد، إذا دعا الناس إلى طعامه أعلمهم بما عنده، ليستبقى الرجل نفسه لما يشتهى من الألوان، أو لئلا ينتظر شيئًا لم يحضره، كان يتركهم حتى يأكلوا، فإذا وقفوا جثا على ركبتيه ومدّ يده إلى الطعام فأكل، وقال لهم: بسم الله، ساعدونى بارك الله عليكم، وكان السّلف يستحسنون ذلك منه.

وليس من السّنة أن يقصد الرجل قومًا يتخير حضور طعامهم ليصادفه، فإن

ذلك من المفاجأة وقد نُهى عنه، وقد قال سبحانه: ﴿لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾ [الأحزاب: ٥٣] يعنى: منتظرين حينه ونُضجه. وفى الخبر: «من مشى إلى طعامٍ لم يُدع إليه مَشى فاسقًا وأكل حرامًا»، ورواه إبان بن طارق، عن نافع، عن ابن عمر، عن النبى ﷺ: «من دخل على غير دعوةٍ دخل سارقًا وخرج مغيرًا، ومن لم يجب الدعوةَ فقد عصى الله ورسوله»، فشدّد فى الأمرين جميعًا، على من دُعى فلم يجب؛ لأن فيه طرفًا من الامتهان، وعلى من جاء من غير أن يُدعى، أنه فيه حرصٌ وطمع، ولكن إن صادفهم يأكلون، فسألوه أن يأكل، وعلم أنهم يحبون أكْله معهم، فلا بأس، وليس ذلك داخل فى المفاجأة إذا لم يعلم خبر الطعام، فإن سألوه أن يأكل، وعلم أنهم لا يحبون ذلك، وأن الأحّب إليهم أن لا يفعل وإنّما عرضوا عليه عرضًا، أو سألوه تعذيرًا أو حياء، كرهتُ له الأكل وإن أظهروا القول، وكذلك كان رَقْبة بن مَصْقلة يقول لمن عرض عليه الطعام: إن أقسمت علىَّ وإلا لم أجئ، كأنه يرى إبرار القسم واجبًا، فيستجيزُ به الأكل ويزيل به الشّكّ، للأثر فيه: «حق المسلم على المسلم ستِ: منها أن يبرَّ قسمه إذا أقسم»، وفى لفظ آخر: «وإبرار القسم» وفيه: «يجيبه إذا دعاه»، فإذا أقسم عليه مع الدعوة فهو أبلغ وأوكد، وقد وجبت الإجابة.

وحُدثت عن المروزى قال: سألتُ أبا عبد الله رضى الله عنه عن طعامِ المفاجأة، فقال: فيه عن إبراهيم كراهية. قال أبو عبد الله: هو الرجل ينتظر القوم حتى يوضع طعامهم ثم يجىء. قال المروزى: قلت لأبى عبد الله: الرجل يكون قاعدًا يأكل فيدعو الرجل إلى طعامه وليس من نية الذى دعاه أن يأكل معه. فقال: هذا رجل لا يشتهى أن يؤكل منه وعَجِب. قلتُ: فالرجل يُدعى إلى وليمة، أو يدعوه الرّجل إلى طعامٍ، فيدخل إلى بيت فيه مائدة يرى له أن يأكل، وربما جىء بالألوان لا توضع على المائدة الأخرى يخصّ هؤلاء به، فعجب وقال: إذا دعاه أن يأكل كأنه يوسع عليه، إذا دُعى للطعام أن يأكل من غير أن يقول له صاحب المنزل كُل هذا.

وقد روى عن النبى ﷺ فى المدعو إذا جاء مع الرسول أن ذلك له إذن، وليس

عليه أن يستأذن لدخوله.

سعيد عن قتادة عن أبى رافع عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا دُعى أحدُكم فجاء مع الرسول فإن ذلك له إذن». ورواه غيره مطلقًا من غير أن يقيّده بمجيئه معه، فقال فيه: قال رسول الله ﷺ: «رسول الرجل إلى الرجل إذنه».

والعلماء مختلفون فى المدعو إذا أجاب: هل عليه أن يطعم أو تكفيه الإجابة حسب؟ فمنهم من قال: عليه أن يجيب أخاه المسلم إذا دعاه، لما فيه من الأمر، وقضاء الحق، وليس عليه أن يأكل. ومنهم من قال: إنما البُغية من الدّعوة الطُّعمة، والمقصودُ فى الإجابة المطعوم الذى لأجله كانت الدعوة ووقعت الإجابة، وإلاّ فلا فائدة للإجابة إذا لم يصادف قصد البغية من الدعوة، وهذا قول.

وأما ابن عمر: فكان إذا دُعى أجاب لأجل السنة، ولا يأكل إذا كان صائمًا، وحُدثت عن عبد الواحد بن زيد قال: حدثنى ليث عن مجاهد أن ابن عمر كان إذا دعى إلى طعام وهو صائم يجيب، وكان يهيئ اللقمة بيده، ثم يقول: كلُوا بسم الله فإنى صائم. وقد جاء فى خبر على رضى الله عنه نحو ذلك: «إذا دُعى أحدكم إلى طعامٍ فليجب، فإن كان مفطرًا فليأكل، وإن كان صائمًا فليصلِّ» يعنى: يدعو.

ومن كان جائعًا فقصد بعضَ إخوانه ليطعمه، بعد أن لا يتخير وقت أكله، فلا بأس بذلك، فإن المسلم يستحق على أخيه سدَّ جوعته وستر عورته، لحقّ الإسلام، ولحرمة الأخوة فى الدين، فليكن له فى ذلك نية، بأن يستخرج من مال أخيه لأخيه ليأجره الله عز وجل فيه، وليُعلِّمه ما لم يعلم؛ لأن أخاه لو علم أنه قاصد إليه لسارع إلى إطعامه فرْضًا وفضلاً، فيكون يقيم نفسه مقام غيره فى أن يستطعم للغير فيُؤجر على إطعامه نفسه، ويثاب على إدخاله الثواب على أخيه، كما يُؤجر على دلالته على الخير فى غيره من المسلمين، لقوله ﷺ فى عموم الخبر: «الدالُّ على الخيرِ كفاعله»، ولقوله فى خصوصه: «ما صدقةٌ أفضلُ من أن يأمرَ الرجلُ بصدقةٍ فى ذَوى رَحمٍ، هى له صدقة وصلة». فحسب ذلك له من نفسه وأهله كفعله فى غيره.

وقد قصد رسولُ الله ﷺ وصاحباه أبو بكر وعمر رضى الله عنهما من جوعٍ أصابهم أبا الهيثم بن النبهان، وأبا أيوب الأنصارى، فذبحا لهم عَناقًا[1]، طُبخ منها وشُوى منها، ولم يكره ذلك، ثم عزل قطعة من لحمٍ بين رغيفين فأرسل بها ﷺ إلى منزل فاطمة عليها السلام. فهذا أثر فى الذِّلة لمن أراد أن يحتج لسنة.

وقد كان قومٌ من أهل البُسُط والأُنس يدعون نفوسهم إلى إخوانهم ويهدونها إلى أحبابهم، وإلا فهم [يذهبون] من غير أن يُدْعَوْا أو يحتجون لذلك ويعتذرون لإخوانهم فى ترك دعائهم، كما أُنشدت لمن فعل ذلك من الأدباء:

نحن قوم متى دُعينا أجبنا ... ومتى نُنس يَدْعنا التطفيلُ

ونَقُلْ عَلَّنا إذا دُعينا فغبْنا ... وأتانا فلم يجدْنا الرسولُ

وقال الآخر الداعى نفسه:

دعوتُ نفسى حيث لم تَدعُنى ... فالحمدُ لى لا لك فى الدعوهْ

وقلتُ ذا أحسنُ من موعدٍ ... أُخلفه يدعو إلى جَفْوهْ

ولكن هذا لا يستعمل إلا مع أهله، فلا يصلح ولا يليق إلا بالكرام أولى الفضل من شكله.

وفصلُ الخطاب لأولى الألباب فى هذا الباب أن الخبر ليس كالمعاينة، فمن رأيت وعاينت أن هذا الغَنى[2] يحسن عنده ويحمد معه ويَليقُ به وهو من نمطه، عامله بذلك، ومن لم يَلِق به فأمِطْه عنه فإنه لا يَليط به ولا يحسن معه، لأنّ الشىء لا يطيب إلاّ مع أهله، كما لا يحسن إلا بأهله، بعد أن يرى شاهدًا منه منفصلاً، وتجد شاهدًا منك متصلاً يتلوه، فاحكم حينئذ ينفذ حكمك، إذا قام شاهدان كما قلنا فى نحوه لحصره:

فقلتُ: اشهد واشهد أَنَّ حُكْمًا ... سَيَظْهَرُ حين يَشْهَد شاهدان

ومن السنَّة أن يخرج الرجل مع ضيفه إلى باب الدار إذا انصرف، كما رويناه

(١) العَناق: الأنثى من ولد المعز. الجمع: أعنُق، وعُنوق.

(٢) ولعلها يمكن أن تقرأ «الفتى».

فيما قبل، وليس من السنة أن يخرج الرجل الضيف من المنزل من غير إذن صاحب الدار، ولا أن يقيم فى الضيافة فوق ثلاث حتى يحرجه أو يتبرم به، فيؤثمه فيه، فيأثمان معًا، وقد تقدم الأثر فيه.

وقال بعضهم: إذا قُصدتَ فقدِّم ما حضر، وإذا دَعوت فلا تُبقِ ولا تَذَر.

وفى الحديث: «دخلنا على جابر بن عبد الله رضى الله عنه فقدَّم إلينا خبزًا وخلاً، وقال: لولا أنَّا نُهينا عن التكلف لتكلفنا لكم». وفى حديث يونس النبى ﷺ: «إن إخوانًا له زاروه فقدّم لهم كِسرًا من شعير، وجزَّ لهم بَقْلاً من مزرعته، ثم قال: كلُوا، لولا أن الله عز وجل لعن المتكلفين لتكلّفت لكم». والملعونون من المتكلفين: المتصنِّعون للخلق، المتزيِّنون بالرّياء والسّمعة للتكاثر والتفاخر، لا للقربة إلى الله تعالى، ولا طلب ما عنده من الباقيات الصالحات.

وروينا عن أنسٍ وغيره من الصّحابة رضى الله عنهم: كانوا يقدّمون إلى إخوانهم ما حضر من الكِسرَ اليابسةِ والْحشف من التمر، ويقولون: لا ندرى أيُّهم أعظم وِزْرًا الذى يحتقر ما يُقدَّم إليه، أو الذى يحتقر ما عنده أن يقدَّمه. وكذلك جاء فى الخبر بلفظه. وقد روينا أن أنس بن مالك وغيره كانوا يُقربون ما حضر، ويقولون: إن الاجتماع على الطعام من مكارم الأخلاق. وفى خبر أنس رضى الله عنه: هو من أخلاق أهل الجنة.

وفى الخبر: إن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يجتمعون على قراءة القرآن والذكر لا يفترقون إلاّ عن ذواقٍ. وإنّ الصحابة رضى الله عنهم كانوا يجتمعون فى منزل بعضهم، فإذا حضرت الصّلاة قدّموا أحدهم يصلى بهم، ولا يخرجون إلى المسجد، فهذا من أخلاق السلف.

ولا ينبغى للمدعو أن يقترح على الداعى شيئًا بعينه، فيشقّ عليه، فليس من أخلاق الصالحين إدخال مشقة فى دنيا ولا دين، وهو أيضًا خارج من القناعة، وداخل فى الضراعة، فإن خيّره أخوه بين طعامين فليختر أقربهما منه، وأيسرهما عليه، كذلك السُنة، كما رُوينا عن رسول الله ﷺ: «أنه ما خُيِّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما»، فإن كان أخوه من أهل الأنس والكرم وعلم أن اقتراحه عليه مما

يحبّه فلا بأس بذلك، فَعَلَه الشافعيُّ رضى الله عنه ببغداد مع الزعفرانى: كان نازلاً عليه فى درب الزعفرانى، وكانا يخرجان يوم الجمعة إلى الصلاة، وكان الزعفرانى يكتب فى رقعة للجارية ما تصلح من الألوان، فدعا يومًا الشافعى رضى الله عنه الجارية، فنظر فى الرقعة ثم زاد لونًا اشتهاه، ألحقه بخطه، فلما جاء الزعفرانى وقدمت الجارية ذلك اللون أنكره، إذ لم يأمرها به، فسألها عنه فأخبرته بأن الشافعى رضى الله عنه زاده فى الرقعة، فقال: أرينى، فلما نظر إليها وخطُّ الشافعى ملحقًا فى الرقعة بذلك اللون، سرَّه ذلك فقال: أنت حُرّة، فأعتقها فرحًا منه، وإليه نُسب درب الزعفرانى بباب الشعير.

فإن شهّاه أخوه وسأله فلا بأس أن يذكر له شهوته، فيعينه على فضيلتها، فقد روينا فى فضل ذلك غير خبرٍ، منها: «مَن صادف من أخيه شهوةً غُفر له. ومن سرَّ أخاه المؤمن فقد سرَّ الله عز وجل».

وروينا عن أبى الزبير عن جابر قال: قال النبى ﷺ: «مَن لذَّذ أخاه بما يشتهى كتَبَ الله عز وجل له ألفَ ألفَ حسنة، ومحا عنه ألف ألف سيئة، ورفع له ألف ألف درجة، وأطعمه الله عز وجل من ثلاث جنان: جنة الفردوس، وجنة عدن، وجنة الخلد».

والخلال بعد الأكل أدب حسن، فلا يأمن يَبينَنّ[1]، وهو بين الملأ غير أدب، إلاّ أن يعتزل ناحية، وفى الخبر: «ما شىءٌ أبغضُ إلى الملائكةِ عليهم السلام من أن ترى بين أسنانِ العبدِ شيئًا من الطعام». وما يميطه الإنسان من بينها بلسانه فليزْدَرِدْه وما ردّ له بالخلال فليلفظه، ولا يشرب الماء بعد أن يتخلل حتى يتمضمض، بخبر فى ذلك عن أهل البيت رضى الله عنهم.

ولا بأس بغسل اليد فى طست، ولكن يجتمعون عليه حتى يملؤه، وليس من الأدب التنخم فيه إذا غسل يده فى جماعة، فإن كان منفردًا فلا بأس، ومكروه أن يُنقل الطست من غسل يد واحد بعد واحد، هو من فعل الجبابرة، كتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله فيما يكتب من أوامره ونصائحه للمسلمين، فكتب إلى أمراء

---

(١) غير منقوطة فى المخطوط.

الأجنادِ: مُروا الناس أن يجتمعوا فى غسل أيديهم على طستٍ واحد، ولا يرفع الطست إلاّ مملوءًا، ولا تشبهوا بالعجم.

روينا أن أنس بن مالك اجتمع هو وثابت البنانى على طعام، فقُدِّمت الطست إلى ثابتٍ لغسل يده فامتنع، فقال له أنس رضى الله عنهما: إذا أكرمك أخوك فاقبل كرامته ولا تردها، فإنه إنّما يكرم الله تعالى. وقد روينا عن ابن مسعود: اجتمعوا على غسل اليد فى طستٍ واحدة، ولا تشبهوا بسنة الأعاجم.

ومن بَزَق فى الطست بعد أن يفرغ الجماعة منه ورُفع، فلا بأس بذلك.

ولا يقومنّ الخادم الذى يغسل أيديهم قائمًا، بل يجلس فإنه من التواضع، وقيامه أو قيام الخدم على الطعام والناس يأكلون مكروه، وهو من سنن الأكاسرة.

روينا أن هارون الرشيد دعا أبا معاوية الضرير فأكل معه، فلما فرغ صبّ الرشيد رحمه الله على يده فى الطست، فلما رُفعت قال له: يا أبا معاوية تدرى مَن صبَّ على يدك؟ قال: لا. قال: أمير المؤمنين. فقال: إنما أكرمت العلم وأجللته، فأجلّك الله عز وجل كما أجْلَلْت العِلم.

وليقل عند طعامه: الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا، سيدنا ومولانا كافى من كلّ شىء، ولا يكفى منه شىء، كن كافينا من كل شىء، حتى لا يبقى سواك شىء، الحمد لله حمدًا كثيرًا دائمًا طيبًا نافعًا مباركًا فيه كما أنت أهله ومستحقه، اللهم أطعمنا طيبًا، واستعملنا صالحًا، اجعله عَوْنًا لنا على طاعتك، ونعوذ بك أن نستعين به على معاصيك.

وفى الأكل مع الإخوان فضائل جمة يكثر تعديدها، وروى عن الحسن: كلُّ نفقة ينفقها الرجل على نفسه وأبويه فمن دونهم يحاسب عليها العبد، إلا نفقة الرجل على إخوانه فى الطعام فإنّ الله تعالى يستحيى أن يسأله عن ذلك.

وعن بعض العلماء: لا يحاسب العبدُ على ما يأكله مع إخوانه. وكان بعضهم يُكثر من الأكل فى الجماعة لأجل هذا. ويروى أن الإخوان إذا رفعوا أيديهم عن الطعام لم يُحاسَب من أكل فضل ذلك الطعام. وفى الخبر: «ثلاث لا يحاسب

عليها العبدُ: أكلة السَّحَر، وما أفطر عليه، والأكل مع الإخوان». وروى عن جعفر بن محمد عليهما السلام: إذا قعدتم مع الإخوان على مائدة فأطيلوا الجلوس، فإنّها ساعة لا تحسب عليكم من أعماركم.

وروينا عن النبي ﷺ: «لا تزالُ الملائكةُ تصلى على أحدكم ما دامت مائدته موضوعة بين يديه حتى تُرفع».

فمن لم تكن له نية فى مزيد الأكل مع الجماعة فى الإخوان لأجل هذه الأثار، فإن التقلل أحب إلىَّ؛ لما فيه من التزهُّد، وكذلك من لم تكن له نية فى تقديم فضول الأطعمة للخبر فى أن من أكله لم يحاسب عليه، ولإرادة اتساع الآكلين منه، وتوسعة الأجر له بذلك، فإنى أكره أن يقدم من الطعام إلاّ قدر ما يؤكل، ومقدار ما يحب صاحبه أن يأكلوه ولا يُترك منه شيء، ولا يستثنى هو ولا أهل البيت فى أنفسهم رجوع شيء منه، لأنهم قد أخرجوه لله تعالى، فمكروه لهم أن يسترجعوا منه شيئًا، كما إذا أخرج الرجلُ إلى السائل رغيفًا أو كسرة ثم لم يصادفه، مكروه له أن يرد ذلك إلى منزله حتى يدفعه إلى سائل آخر، وكذلك من جعل درهمًا لفقير ثم لم يجده لم يرجع فى ذلك ولا يرده إلى ماله، بل يخرجه إلى غيره، وكذلك الإطعام لغير الله تعالى، وإلا كان ما يقدمه إلى الإخوان مما ينوى رجع بعضه أو لا يحب أكل كلّه، يكون ذلك تصنُّعًا، ويدخل فى التزين والمباهاة. فإن علم بذلك مَن قدَّمه إليه لم أستحب له فى الورع أن يأكل منه؛ لأنّ المأكول إذا قُدِّم ليُؤْكَل بعضه، فهو تصنُّع وتزيُّن، لا يصنع الورِعون ذلك، ولا يأكل المتقون من هذا؛ لأنّه لا يدرى مقدار ما يحبّون أن يأكلوا منه.

وروينا عن ابن مسعود: نُهينا أن نجيب دعوةَ من يتباهى بطعامه. وقد كره جماعةٌ من الصحابة أكلَ طعام المباهاة والمباراة، وهذا مكروه لِمَن يُقدِّمه بهذه النية إلى إخوانه؛ لأنه قد عرّضهم لتناول ما يكرهون، وقد دلَّس عليهم ما لا يعلمون، وقد جاءت الآثار بنحو ما ذكرناه: «ما رُفع من بين يدى رسول الله ﷺ فضلة طعام قط، لا خبز ولا سواه». وفى لفظ آخر: «ما رأيت على طبق النبى عليه السلام إذا رُفع فضل طعام قط». ذلك بأنهم كانوا مخلصين ويقدّمون بقدر ما

يأكلون، وكان معهم تقلُّل ومعهم تزهُّد، فكان ذلك كذلك.

وينبغى أن يعزل أنصبة أهل البيت قبل تقديم الطعام إلى إخوانه؛ لئلا يحدِّثوا أنفسهم بارتجاع شىء منه، فإنه مكروه لهم، ولعله أن لا يرجع منه شىء فيكون ذلك إفراطًا[1] من الآكلين، ومنقصة لهم فى قلوبهم، وهذا أشدّ عليهم من إكرامهم بالطعام، أو يكون ذلك مُضِراً بالأهل، فيصير مضيِّعًا للأصل، إلا أن يكون حال أهله فى العلم واليقين كحاله، فيؤثرون أضيافهم وإخوانه على نصيبهم من إطعام الطعام.

فهذه طريقة السلف فى أخلاق الكرام.

ولا ينبغى له أن يقدِّم من كل شىء إلاّ ما يُحب أن يأكلوه أيضًا، أو مقدار الحاجة والكفاية من المأكول ليكون عاملاً إمّا فى فضله بالزيادة، أو بالواجب فى تقديم الحاجة مما لا يُرَدُّ منه فضل، وهذا داخل فى معنى الخبر الوارد: «ما رُفع من بين يدى رسول الله ﷺ فضلة طعام قط»؛ لأنهم كانوا يقدمون كفايتهم من الطعام، ولم يكونوا يأكلون إلا بعد جوعهم، ولا يتركون الأكل وفى نفوسهم منه شىء، للاقتصاد الذى كان فيهم.

وفيما ذكرناه من تقديم الكفاية لئلا تُرَدُّ فضول الأطعمة موافقة السنة. وفى تقديم المأكول؛ الكثير ليرجع أكثره نية حسنة؛ لما جاء فيه: أن من أكل ما فَضَلَ من الإخوان لم يُحاسَب عليه، ومن كان فى جماعة فلا يأمر بتأخير الطعام فلعل منهم من يحتاج إلى تقديمه، إلا أن يتفقوا على تأخيره، فلا يأمر هو حينئذ بتقديمه لأجل نفسه.

وإذا حضر الطعامُ والصلاةُ، فإن كانت نفوسهم تتوق إليه وفى الوقت سَعَة، قدَّموا الأكل، وإن كانت نفوسهم ساكنة، أو ضاق الوقت، أو خشوا أن يتطاول بهم الأكل، صلُّوا قبل الطعام.

وأستحب الأكل على الأرض، كان رسول الله ﷺ إذا أُتى بطعام وضعه على

---

(١) فى (هـ): «إخراجًا».

الأرض، وكان يأكل مقعيًا على قدميه، ويقول: «لا آكل متكئًا، إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبدُ، وأجلس كما يجلس العبد». وربما جَثا للأكل على ركبتيه، وجلس على ظهر قدمه اليسرى، ونصب رجله اليمنى، وهى جلسة العرب للأكل إلى اليوم، وإن أكلوا على السُّفَرِ[١] فهو سنة، ويتذكر به السَّفْرَ[٢]، ويتزود لسفره، وخيرُ زادِه تقواه، وخير تقواه توحيده، وخيرُ توحيده وحدانية مولاه.

وأكرهُ الأكل على الموائد العالية؛ لأنهم كانوا يكرهون أن يعلو الطعام على الأيدى، ويستحبون أن تنحط الأيدى إليه، والموائد مُحدثة وهى من صنائع الفُرس، قال أنس بن مالك: «ما أكل رسول الله ﷺ على خُوان ولا على سُكُرُّجَة[٣] قط. قيل: فعلى ما كنتم تأكلون؟ قال: على السُّفَر». وكانوا يحفرون فى البطحاء تحت السُّفر، لتكون كالجفنة، ويقوم ذلك مقام السُّكُرُّجة للخل ونحوه.

وقيل: أول ما أحدثت هذه الأمة بعد نبيها ﷺ أربع: الموائد، والمناخل، والأشنان، والشِّبَع.

وقال ابن عمر: لم نكن نعرف الأشنان على عهد رسول الله ﷺ، وكانت مناديلنا بواطن أرجلنا، كنا إذا أكلنا الغَمْر مسحنا بها. قال: وكان أصحابُ رسول الله ﷺ يأكلون الشِّواء فى المسجد، فإذا أُقيمت الصلاة أدخلوا أيديهم فى التراب والحصب ففركوها ثم كبَّروا. قيل: وكانوا ينامون فى المسجد بعد العشاء، فتدخل الكلاب فتلحس أيديهم، فلذلك أُمروا بغسلها إذا استيقظوا، واحتجّ بنحو هذا مالكٌ رحمه الله فى طهارة لُعاب الكَلب[٤].

قال: وإجابةُ الدعوة سنَّة، وتركها معصية، وأوكدها الوليمة، وهى من حق المسلم على المسلم، وإبرار القسم فيها واجب بأخبار رويناها عن رسول الله ﷺ

---

(١) السُّفر: جمع سُفرة، وهى التى يؤكل عليها، سميت سُفرة لأنها تُبسط إذا أُكل عليها، (اللسان). وواضح أنها لا تعنى ما تعنيه «السّفرة» لدينا هذه الأيام، بل تسميها العرب : المائدة.

(٢) السفر: القوم المسافرون.

(٣) السكرجة: إناء صغير يؤكل فيه الشىء القليل من الأُدم، وهى فارسية، الجمع: سكارج.

(٤) ولكن هذا ليس بحجة.

فى ذلك، وهى طريق إلى الله سبحانه حسن، وكانت من سيرة السلف الصالح، وهى مقامٌ لطائفةٍ من المؤمنين، أعنى إيجاب الدعوة والإجابة إليها، وروى عن رسول الله ﷺ: «إذا دُعى أحدكم فليجب، فإن كان مفطرًا فليطعم، وإن كان صائمًا فليصلِّ». وكان ابن عمر لا يتخلف عن إجابة الدعوة، فإن صادف فطره أكل، وإن وافق صومه دعا لهم وبارك عليهم، ثم انصرف.

ودعا رجل من الصحابة أخًا له فلم يطعم، وقال: إنّى صائم، فأخبر الداعى رسولَ الله ﷺ بذلك. فقال النبى ﷺ للمدعو: «دعاك أخوك وتكلَّف لك طعامًا فلم تأكل. فقال: يا رسول الله إنى كنت صائمًا. قال: ألاَ أفطرت وصمت يومًا مكانه».

فمن دُعى إلى طعام وهو صائم فليجب، وله أن يفطر، ولكن يقعد معهم، فإن كان الطعام صُنع لأجله فالأفضل له أن يأكل، ففى هذا سُنة، فإن سألوه أن يأكل وعلِم أن فطره يسرّهم ففطره أفضل؛ لأن صومه لنفسه وفِطره لإخوانه، فقد آثرهم على نفسه، وهذا داخلٌ فى معنى الخبر: «إن الرجل ليدرك بحسن خلقِه درجة الصائم القائم»؛ لأنه قد حسَّن خُلقه بتخلُّقه معهم فى غير معصية، فإن كان يشهد فضله فى صومه على أحدٍ منهم فصومُه ذلك معصية، وإن وجد فى قلبه نكتًا وعيبًا عليه يخرجه من جملة الجماعة، فإن هذا قد يكون حجة عليه وتوبيخًا له، وقد قال رسول الله ﷺ: «الجماعةُ بركة». وقال بعض السلف: كَدَرُ الجماعةِ خيرٌ من صفو الفُرقة. ولو كان ممن يصوم الدهر، كان فطره أعجب إلىَّ؛ ليستر صومه بفطره، ويخفى سريرته فى صومه، لئلا يُفطَن له، فهو إذًا أدنى إلى الإخلاص، وأبعدُ من التزين والانتقاص. وهذا طريقُ الصادقين.

وقد كان سليمان الدارانى يقول فى معناه: إذا كنت تاركًا لشهوة، فأتيت بها فى الجماعة، فلا تترك أكلها تورى الجماعة أنك تارك لها، ولكن تناول منها اليسير، ولا تعطى نفسك منها شهوتها بالاستكثار، فهذا له فيه عملان، أحدهما: إسقاطُ شهوة نفسه بالزّهد عندهم بتناول شهوته. والثانية: مَنْعُه النفس مهناها بالمبالغة فى شهوتها؛ لأن منعه النفس بنظر الناس إليه بعين الزهد أمنع للعقل من تناول أكله،

ولأن النفس قد تسترق على العبد ببلوغ شهوتها بالتوصل إلى لذتها بعلّة الإخلاص وبترك المراءاة، فيتناول شهوتها فى سرٍّ، وهذا من الشهوة الخفية. فإذا فعل ما قاله أبو سليمان فقد علا الناسُ جميعًا على نفسه، بأن أسقط هذه عند الناس بالتناول، ولم يعط نفسه بُغيتها من التمنُّع بشهوتها.

وهذا طريق الحذّاق، ولا يصبر عليه إلا صادق.

روينا عن أبى إسحاق الفزارى، قال: زارنى الثورى رحمه الله، فتحدثنا، ثم قمتُ إلى المرأة فقلت: أصلحى لنا عصيدة فقدمتها إليه فى قصعة، قلتُ: كُل يا أبا عبد الله. فقال: لولا أنّى صائم لأحببتُ أن آكل معك. فقلتُ: اسمع حتى أحدثك عن أخيك إبراهيم بن أدهم: زارنى يومًا، وقعد فى موضعك هذا، فقمت إلى المرأة فأمرتُها أن تصنع لنا مثل هذا، ثم قدمته إليه، وقلت له: كل يا أبا إسحاق، فأكل، فلما أراد أن يخرج قال لى: أمَا إنّى كنتُ صائمًا ولكنّى أفطرتُ لأجْلك. قال: فوضع سفيانُ يده فأكل؛ تأدبًا بإبراهيم رضى الله عنهما.

وكذلك لعمرى أن حُسن من أفطر لأجل الله عز وجل كفضل من صام لله تعالى، فمن علم أن إفطاره يسرُّ إخوانه، وأن صومه بترك الأكل معهم يغمُّهم، ففطره أفضل؛ لإدخال السرور على مسلم، ورفع الغمّ عنه، وإن فيه إدخال غمٍّ على أخيه، فقد نُهى عن ذلك.

ومن لم يكن على علم من فرح أخيه، ولا يقين من دخول غمٍّ عليه، فإتمامه لصومه أحب إلىّ؛ لئلا يخرج من عقد عقده لله تعالى بغير نية فى الله تعالى، إلاّ إن أقسم عليه فى الأكل، فالسّنة حينئذ إبرار القسم، وترك إحناث المقسم، للأخبار فى ذلك أنها من واجبات حق المسلم.

فإن اتفق داعيان أجبتَ السّابق منهما، وإن كانا معًا فى وقت واحد أجبتَ أقربهما منك بابًا، ففى معناه أثر عن رسول الله ﷺ فى الإيثار بالهدية من قول عائشة رضى الله عنها: يا رسول الله، لى جارتان، فإلى أيِّهما أُهدى؟ فقال: «إلى أقربهما منك بابًا»، وكما قيل فى المسجدين يكونان فى المحلّة: إن الصلاة فى الأقرب أولى. فإن كان الداعيان فى القرب سواء، أجب أفضلهما إلى نفسك،

وأقدمهما صحبةً لك. وأفضلُ الناس في الإجابة من جاء قبل الناس، ولم يُحوج إلى رسول ثانٍ، أو إلى معاودة قول، وأثقلهم من انتظر إلى آخر وقت، أو أحوج إلى إعادة رسولٍ أو تكرار قول، أو أخلف موعدًا.

ومن أراد أن يدعو أخاه، فليسأله أن يجيء في وقت بعينه في نهارٍ أو ليلٍ، وليراعي أخوه ذلك الوقت الذي واعده فيه ولا يخلفه، ولا يحوج أخاه إلى انتظاره، ولا تكرير رسول إليه، فليس ذلك من الأدب. وقد كان بعض السلف إذا أحب أن يدعو أخاه أعلمه قبل ذلك؛ لئلا يستوفي أكله المعتاد فيقصِّر عنده فيغمُّه ذلك، أو خشية أن يزيد على أكله المعهود فيضرّ به ذلك، ولأنهم كانوا يأكلون الوجبة والغبوق، وهي الأكلةُ في كلّ يوم مرة، ولا يأكلون في اليوم مرتين. وكان بعض الخلف الصالح إذا دُعي عشية إلى طعام قال لأخيه: ألاَ أعلمتني من أول النّهار. وقال بعضهم لأخيه: إذا أردتَ أن تدعوني يومًا فأعلمني من الأمس.

وروينا عن علي عليه السلام أنه دُعي إلى هريسة صلاة الغداة، فقال: ألاَ أعلمتني من الليل فأفرح وأبيتُ فرحان. فهذا فرح الطبع بالطعام الذي هو قوامه، لقوله ﷺ: «للصّائم فرحتان فرحةٌ عند إفطاره» وكقوله تعالى في سكون النفس إلى وصف الجنس: ﴿وجَعَلَ منها زَوْجَها لِيَسْكُنَ إِلَيْها﴾ [الأعراف:١٨٩]. وليس هذا سكونُ القلب للمؤمن؛ لأنه يسكن إلى مُقلِّبه الذي يطمئن به، ولا ذاك فرح الإيمان بالمؤمن الذي آمن به؛ لأنه يفرح بوصف موصوفه، كقوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ الله وَبِرَحْمَتِه فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس:٥٨]. فتدبروا يا أولي الأبصار، واعتبروا يا أهل البصائر والفِطَن.

وأستحبّ له إن أراد أن يدعوه عشيةً أن يعلمه غُدوة، وإن دعاه للغداء يتقدم إليه من الليل، كذلك كان السلف يفعلون؛ لأنهم كانوا إذا تعشَّوا لم يتغدوا، وإذا تغدوا لم يتعشوا، على نحو ما ذكرناه.

فمن دُعِي إلى طعامٍ، فلا يأكل قبل مُضيِّه شيئًا؛ لمعانٍ: منها أن يستوفي أكله مع إخوانه. والثاني: أن لا يتصنّع في التقلّل عندهم. والثالث: أن لا يمتلئ من

الطعام، إلا أن يكون كثير الأكل، فيخاف أن يجاوز فى أكله جملة الآكلين، أو يكون قد طوى يومًا أو يومين، فليأكل حينئذ قبل أن يجيب شيئًا، ليستوى أكله معهم، لكثرة أكله أو طول جوعه، أو يكون القوم فقراء، فينوى إيثارهم بالمأكول، ويكسر عنه كَلَبَ[١] الجوع قبل مؤاكلة الجماعة.

فأما إن لم يكن على أحد هذه المعانى، وأكل وحده قبل ذهابه، فإنه تصنُّع وتزيُّن لهم، لا يُؤجَر عليه بل يُسأل عنه.

وقد كان بعضهم إذا دعاه قومٌ أكل شيئًا قبل ذلك، فيقول: أكلتُ أسكِّن كَلَبَ الجوع، إلاّ أنهم كانوا فقراء، وكان فى الشىء قلة، وكانوا يؤثرون على أنفسهم، وكانت نياتهم على أحد تلك المعانى التى ذكرناها.

وُصف لبعض العلماء رجل من العُبَّاد فلم يُثن عليه، فقيل له: أتعلم به بأسًا؟ فقال: رأيته مُتَصَنِّعًا فى الأكل، ومن يتصنع فى الأكل لم يُؤمَن عليه التصنع فى العمل.

وكان ابنُ المبارك يقدِّم إلى إخوانه فاخر الرُّطب، ويقول: من أكل أكثر أعطيته بكل نواة درهمًا، وكان يعد النوى فيعطى من كان له فضل نوى على صاحبه بعدده دراهم.

وحُدثت أن الحسن وفرقد السبخى اجتمعا على مائدة، فكان فرقد يتتبع أساقط الطعام وأراذله فيأكله، وكان الحسن يقصد أطايبه، فسأل رجل الحسن فقال: يا أبا سعيد، رأيتك تقصد أطايب الطعام، فقال: نعم أيها الرجل، إنّما قدَّم إليك أخوك الطعام لتأكله، فإذا قصدت أجوده فقد بالغت فى حاجته، وأدرك من الثواب بُغيته، فكان أجزل لمثوبته، وإذا قصدت غير ذلك[٢] انكسرت حاجة أخيك فى قصده وصدره. أو كما قال، رسمتُه حفظًا لا من كتاب وتأخَّيتُ ألفاظه المعروفة. قال: وسئُل فرقد السبخى عن تتبع أراذل الطعام وسَقَطه، فقال: إن لم آكله أنا

---

(١) كلب الجوع: شدته. ويقال كَلِبَ الدهر على أهله: اشتد. ويقال: كَلِب على الشىء: اشتد حرصه عليه.

(٢) فى (هـ): «وإذا قصرت عن ذلك».

فقد رضيته لأصحابى وإخوانى، فأنا أريد أن أتحمله دونهم، وأؤثرهم بجيِّده. وكلٌّ يعمل على شاكلته، ولكل امرىءٍ ما نوى، فالحسَنُ أراد لأخيه الآخرة، وفرقد ـ رحمة الله عليهما ـ أراد لإخوانه الدنيا، والآخرة خيرٌ وأبقى.

وقال بعض العلماء: أكلتان لا يحاسب العبد عليهما: مَن أكل مع إخوانه إذا دعاهم إلى طعامه، والرجل يأكل عند أخيه إكرامًا له بذلك.

ومن دُعى إلى طعام وعنده جماعة أو إنسان من حيث يسمعون الداعى ويعلمون الدعوة، فليستثن الواحد أو الجماعة معه، فإنه من السنة والأدب، إلا أن يعلم أن الواحد أو الجماعة لا يحبون حضور تلك الدعوة، فتسقط عنه المسألة لهم، فإن دُعى وحده أو مع نفرٍ بأعيانهم وأعدادهم، فلا يزيد على العدد المرسوم له أحد، فإن تبعهم واحد ولم يكن فى العدد، أو أحب المدعو المقصود بالدعوة حضور أحد، فليذكره للداعى قبل دخولهم ليأذن له معهم، كذلك السنة فى الحالين معًا.

دعا يهودى رسولَ الله ﷺ ـ وعنده عائشة رضى الله عنها ـ إلى طعامه، فقال رسول الله ﷺ: «وهذه معى». فقال اليهودى: لا. فقال النبى ﷺ: «فلا إذًا» ولم يجب، وكانت اليهود تبغض عائشة رضى الله عنها.

ودعى رسول الله ﷺ إلى طعام، وكان إذا دُعى يقول: أنا ومن معى، أو يقول: وكم من أصحابى، وربما بدأه الداعى فيقول: أنت يا رسول الله فى خمسة نفر أو ستة، كذلك كان من أخلاقهم، فقال رسولُ الله ﷺ للأنصارى الذى دعاه: «أنا فى خمسةٍ نفر»، فقال الرجل: نعم، قال: فذهب إليه النبى ﷺ فى الخمسة كما ذكر فتبعهم رجل لم يكونوا دعوه، فلما وقف رسولُ الله ﷺ بالباب خرجَ إليه الداعى، فقال له: إنا قد تبعنا رجلٌ فإن أذنت له دخل، وإلا أمرته أن يرجع، قال: بل أذنتُ له فليدخل، فهذه سنةُ فى ردّ من لم يُدعَ، وذلك الأول سنةٌ فى حضور الزوجة مع زوجها فى الدعوة.

ومن دعى فى جماعة وفُوِّض إليه الأمر فيهم، فليعرّف صاحب المنزل عدّتهم قبل مجيئهم، ليعتدَّ لهم بعد أن يعرف عددهم.

ومن دعا رجلاً فى غير دعوة عامة، وعنده قوم أو رجل بعينه، فليُعلمه بمن عنده، ليدخل معهم على بصيرة، فلعله أن يكون عنده من يكره هذا المدعوُّ الاجتماعَ معه، أو لعله لا يحب مؤاكلة غيره، فإن أكل مع الغير فعلى تكرُّهٍ وتمضُّض فأحرجه بمؤاكلته، فإن لم يكن يأكل، فقد ترك البغية من الإجابة لأجل من معه، فيكون قد حمله على ترك سُنة، أو داخله فى مشقةٍ، وليس إذا اختار رجل مؤاكلة رجل لمعنى من معانيه، أحب أن يأكل مع غيره لغير معنى فيه، إذ المؤاكلة معاشرةٌ، وفيها بعضُ البِذلة، وليس كل إنسان يحب معاشرة الناس والتبذُّل مع الكل خاصة الرؤساء.

ومن دعا خصوصَ إخوانه، فدخل عليه داخل، فلا يُقعده معهم للأكل، ليصرفه أو يُفرده عنهم. حدثنى بعض الأشياخ عن أبى الخير التيناتى الشيخ الصالح وكان قليل النظير: أنه دعاه رجل فى طائفة من الصوفية إلى طعام. قال: فكنا نأكل، فدخل رجل من العامة فجلس يأكل معنا فوسعنا له، فخرج إلينا أبو الخير فرآه يأكل، فقبض على يده وأقامه وقال: هذه طائفة لا يأكل معها غيرها، ولكن تَشهَّى علىَّ أىَّ لونٍ شئتَ من الطّبيخ حتى أضعه لك، وأحمله فى القدر على رأسى إلى موضعك، بدلاً من هذا. أو كما قال.

ومن كان يأكل مع رجلٍ من طعامه، فوقف عليه سائل، فلا يعطيه من الطعام شيئًا إلا بإذنه، أو يسأل له صاحب الطعام حتى يكون هو الذى يعطيه من طعامه ما أحب، فإن أعطاه بغير إذن لم يكن له فيه أجر بل وجب عليه الوزر، وروينا ذلك عن أبى الدرداء: أن إنسانًا كان يأكل معه، فأعطى سائلاً بغير أمره، فقال له أبو الدرداء: بئس ما صنعت، لقد كنتَ غنيًا أن يكون الأجر لى والوزر عليك.

ومثل هذا: لا يدعو إلى طعام غيره أحدًا بغير إذن صاحبه.

ومن دخل عليه داخلٌ وهو يأكل فلا يرفع الطعام، فليس ذلك من السُنة، ولا من فعل أهل المروَّة، وهو خارج عن الإخلاص، ولعل الداخل قد بُعث به إليه اختبارًا له.

وكان الجنيد وابنُ المبارك إذا أرادا الغداء أو العشاء فتحا بابهما، فمن دخل

عرضا عليه الأكل من غنىٍّ أو فقير. وقد كان هذا من سيرة السلف، أنهم يفتحون الباب عند حُضور الطعام، فمن صادف دخوله أكل معهم.

ومنهم من كان ينصب المائدة فى دهليز داره، ويفتح الباب، وكلُّ من مَرّ به فى الطريق دعاه إلى طعامه من فقير أو غيره. وكان ابن المبارك ممن يفعل هذا، على أنّه كان أحد الأجواد، كانت مائدته راسية فى الأرض، ويمدها بالأطعمة لا يقطع، فكلّ من دخل أكل بلا تمييز ولا عدد. وكذلك كان الليث بن سعد يفعل بمصر، على أنه كان له ضيافة فى كلّ يوم، ولم يكن يحدِّث أحدًا من الغرباء الوافدين عليه إلى مصر حتى يحضر ضيافته شهرًا. وكان مالك بن أنس رحمه الله بالمدينة على ضدّ هذا الوصف، قَدِم عليه رجلٌ من أهل مصر من أصحاب الليث، فرام منه عادته من الليث، فلم يصادف فعله، حجبه الخادم، وقال: إن الشيخ يأكل فاصبر حتى يفرغ، فقال له المصرى: فهذا أجود للدخُولِ عليه إذا كان يأكل. فقال: اصبر حتى أُعلمه، فأعلمه، ثم خرج إليه فقال له: يقول لك: قف حتى أفرغ، فلما غسل يده ولَبِس ثيابه وقُلُنْسَوتَه أذن للرجل، فلما رآه قال له: لستُ الليث، وليست المدينة مصر.

وقال بعض التابعين: ألاَ إن خياركم: آكلُكُم فى الأفنية، وأوسعكم آنية، وأحلاكم أطْلِيَة[١]، ألا إن شراركم: آكلكم فى الأخبية، وأصغركم آنية، وأخمصكم أطلية. وقد عاب الناسُ على فلان فعله وقوله فى هذا الباب، وكان أحد البخلاء ـ فجعلوا هذا من النّوادر عنه ـ أنه قال لابنه: يا بنى هات المائدة وأغلق الباب، فقال الغلامُ: يا أبت من الاحتياط أن أغلق الباب أولاً، ثم آتى بالمائدة. قال: فضمّه إليه، وقال: فديتك، أنت ابنى حقًا.

ومن دعاه رجل إلى طعامه وهو يعلم أن الأحب إليه أنه لا يأكل، فمكروه له أن يجيب، ولا يعبأ بقوله إذا علم منه خلافه، فإن لم يعلم حقيقة ذلك، فله أن يجيبه على ظاهر قوله، وليس له أن يسيء الظن به.

دعا رجل الأحنفَ بن قيس فى سفرٍ إلى طعامه، فقال له الأحنف: لعلك من

---

(١) أطْلية: جمع طِلاوة؛ جلدة رقيقة فوق اللبن. أو جمع: طَلاَ؛ الصغير من كل شيء.

العرَّاضين. قال: وما العراضون؟ قال: الذين يحبون أن يُحمدوا بما لم يفعلوا، فسكت الرجل، فلم يجبه الأحنف إلى طعامه.

وكان الثورى يمشى مع رجل، فمرّ بباب منزله فعرض عليه الرجل الدخول ليأكل عنده، فقال له الثورى: اصدقنى عن شىءٍ أسألك عنه: أيُّما أحبُّ إليك أدخلُ أو أنصرف؟ فسكت، فانصرف الثورى ولم يدخل. وكان رحمه الله يقول: مَن دعا رجلاً إلى طعامه وهو يحب أن لا يجيبه، فإن لم يجب كتبت عليه خطيئة، وإن أجاب فأكل كتبت عليه خطيئتان. فالمعنى فى الخطيئة الأولى: أنه أظهر بلسانه خلاف ما فى قلبه، فتصنَّع بالكلام، وهذا من السّمعة وداخل فى محبة أن يُحمد بما لم يفعل، والمعنى فى الخطيئتين: أن إجابة أخيه له على إضمار الكره لإجابته خطيئةٌ واحدة، والخطيئة الثانية أنه حَمَل أخاه على ما لم يعلم حقيقته منه وعرَّضه لما يكره، فلم ينصحه فيما أظهر له من نفسه، لأنّ أخاه لو علم أنه غير محبٍّ لإجابته لم يأكل معه، ولأنه قد أدخله فى السمعة، فعاونه عليها، فهذه خطيئة ثانية مضافة إلى الأولى.

وقد كان من المتقدمين من إذا دخل عليه وهو يأكل قوته لم يعرض على إخوانه الأكل، فيُقال له فى ذلك، فيقول: هو قوتى فإن نقصت منه شيئًا أضرَّ بى، سيما إن كان أجيرًا مستأجرًا، ودفع إليه مَنْ أجَّرَهُ قُوتَه[1]، فيقول: ينقص من قوتى، فيكون فى ذلك ترك النصيحة، وقد فعل هذا فى الإجازة نبى من الأنبياء، وعرفناه من سير بعض الأولياء. وكان من السلف من لا يعرض على الداخل عليه وهو يأكل الأكل إذا لم يكن له فيه نية، أو أحب أن لا يؤاكله خشية التزين بالقول؛ لئلا يعرِّضهم إلى ما لا يحبون؛ لأنهم لا يعلمون.

فهذه المعانى من أبواب الإخلاص، ومن أفعال الصادقين، وهى أهدى سبيلاً ممن عرض بلسانه وأعرض بقلبه، ومن أعطى بظاهر القول ومنع من باطنه النية للفعل، فهذا من أبواب الرياء والسُّمعة، ولا يدخل فيه المخلصون.

خرج أبو عاصم البصرى العابد على إخوانه إلى الباب وهو يلعق أصابعه،

(١) هذا لفظ (د)، وفى (هـ): «نُزُلَهُ».

وقال: إنى كنتُ آكل، وقد كنت أحب أن تصيبوا منه لولا أنى أخذته بدَيْن.

وكان بعض التابعين يقول فى تفسير التكلف فى الطعام: هو يأخذه بدين، أو يطعمه من خيانة.

وبعضهم قال: من التكلف الإضرار بالعيال، وإدخال التكلف أن تطعم أخاك ما لا تأكله أنت وحدك. أى لا يكون من مالك فى الجودة أو ما له قيمة، فتجهد نفسك بذلك، أو تطعم إخوانك ما لا تطعمه لأهلك.

فكل هذا من أبواب التكلف، وقد قال الفضيل: إنما تقاطع الإخوانُ بالتكلف، يدعو أحدهم أخاه فيتكلف له، فيقطعه ذلك عن الرجوع إليه. فلذلك كان السلف رحمهم الله يقدِّمون ما حضر، ويؤخِّرون ما غاب، ولا يتكلفون لإخوانهم ما يجهدهم أو يَحشِمُهم من العودة مرة بعد مرة، ففعل هذا أدوم للمراجعة، وأذهب للحشمة والكراهة، ولعمرى أن ما ديم عليه وإن قلّ خيرٌ مما كثُر وانقطع، لعموم الخبر فى الأعمال، فهذا من أنفس الأعمال، وليس ينافس فيه إلا النفساء الرفعاء من الرجال.

وقد ذم الله تعالى من أعطى وقطع فى قوله تعالى: ﴿**وأَعْطَى قَلِيلاً وأَكْدَى**﴾ [النجم: ٣٤] أى قطع، مأخوذ من الكُدية وهى الصخرة التى إذا بلغ إليها الحافر للبئر آيس من الماء، فقطع الحفر، ولأن الإطعام باب من العطاء، فلأن تدعو إخوانك أو أخاك فى الشهر مرارًا فى قلة واقتصاد، خير من أن تدعوهم فى السنة مرة مع الإكثار والازدياد، ولأن تقدِّم إلى من حضر من الوارد ما حضر عندك من الزاد مرات كثيرة، أفضل من أن تحرمهم القليل رغبة فى الكثرة.

وقال بعض الأدباء لبعض من يأنس به من إخوانه: كان لك صُنع فلم تَدعُنى؟ فقال: لم يكن شىء أرضاه لك. فقال: قد رضيتَ لى بأقل منه وهو لا شىء.

وقال بعضهم: لا أبالى من أتانى من إخوانى، فإنى لا أتكلف له، إنما أقرِّب إليه ما عندى، ولو تكلفت ما ليس حاضرًا لمللته، وكرهت دوام مجيئه.

فهذا لعمرى ثمرةُ التكلف للكثرة والجودة، للملل فى الحال وكراهة العودة.

وقال بعض أشياخنا: كنت آلفُ بعض إخوانى وآنس به، فكنت أكثر زيارته، فكان يتكلف الأشياء الطيبة المثمنة. فقلت له يومًا: حدِّثنى عن شىء أسألك عنه: إذا كنتَ وحدك تأكل مثل هذا الذى تقدم إلىّ؟ قال: لا، قلت: وكذلك أنا فى منزلى إذا كنتُ وحدى لا آكل مثل هذا، فما بالنا إذا اجتمعنا نأكله ونحن لا نأكله على الانفراد؟ فإما أن تقطع هذا وتقدم إلىَّ ما تأكله جميعًا على الانفراد، أو أقطع مجيئى، قال: فقطع ذلك، وكان يقدم ما عنده وما نأكل جميعًا مثله على الوحدة، فدامت معاشرتنا.

وإن دعاك أخوك وأنت صائم، فعلمت أنّه يُسَرُّ بأكلك، فلا بأس أن تفطر لأجله، فإن لم تعلم ذلك منه وقال لك: إنى أُسَرُّ بأكلك، فصدِّقه، وأحسن به الظن، وإن لم تعلم ذلك ولم يلفظ به لسانه، فإنى أكره خروجك من عَقْد الصوم بغير نية هى أبلغ منه أو مثله، فصومك حينئذٍ أفضل. وإن أكلت مع أخيك تريد إكرامه بذلك فهذه نية صالحة، قد كان بعضهم إذا كان يوم صومه أكل مع إخوانه، ويحتسب فى أكله ما يحتسب فى صومه.

وروينا عن ابن عباس أنه قال: من أفضل الحسنات إكرام الجلساء، ومن لم يرد أن يطعم قومًا من طعامٍ فلا يُظهرهم عليه، ولا يصفه لهم، سواء كان هو أكله أو لم يأكله.

وكان الثورى يقول: إذا أردت أن لا تطعم عيالك من شىء تأكله، فلا تحدثهم به ولا يرونه معك.

ومن علم من أخيه أنه يحب أن يأكل من طعامه، فلا بأس أن يأكل بغير إذنه؛ لأن علمه بحقيقة حاله ينوب عن إذنه له فى الأكل، لقوله ﷺ فى المعنى: «رسولُ الرجل إلى الرجل إذنه» أى قد علم بإذنه له بالدخول عليه، فأغناه عن الاستئذان، وكفعله ﷺ والنص من أكله من لحم تُصدِّق به على بَريرة من غير أن يستأذنها، ولم تكن حاضرة؛ لعلمه أنها تُسَرُّ بذلك، فقال: «إنّ الصدقة قد بلغت محلها، هو عليها صدقةٌ ولنا هدية»، ففى تدبرّ فعله ﷺ أن من علمتَ كراهته لأكلك من طعامه أن لا تأكل وإن أذن لك، فتدبر.

وكان محمد بن واسع وأصحابه يدخلون منزل الحسن فيأكلون ما يجدون بغير إذن، وكان الحسن ربّما دخل فوجدهم كذلك فيُسَرُّ ويقول: هكذا كنا. وروى عنه أنه كان قائمًا يأكل من متاع بقّال، يأخذ من هذه الجُونة[١] تينة، ومن هذه اليابسة قِشْبة[٢]. فقال له هاشم الأوقص: ما بدا لك يا أبا سعيد فى الورع؟ تأكل من متاع الرجل بغير إذنه؟ فقال: يا لكع، اتلُ علىّ آية الأكل، فتلا: ﴿... **ولا عَلَى أنفُسكُمْ أنْ تَأكُلوا مِن بيُوتِكُمْ أو بيُوتِ آبائِكُم أو بيُوتِ أُمَّهَاتِكُم**﴾ إلى قوله: ﴿**أو صَدِيقِكُمْ**﴾ [النور: ٦١]. قلت: فمن الصَّديق يا أبا سعيد؟ قال: من استروحت إليه النفس، واطمأن إليه القلب، فإن كان كذلك فلا إذن له فى ماله.

وجاء قوم إلى منزل سفيان الثورى رحمه الله فلم يجدوه، ففتحوا الباب وأنزلوا بالسُّفرة، وجعلوا يأكلون، فدخل الثورى فجعل يقول: ذكَّرتمونى أخلاق السلف، هكذا كانوا.

وزار قوم بعض التابعين، ولم يكن عنده ما يقدِّم إليهم، فذهب إلى منزل بعض إخوانه، فلم يصادفه فى المنزل، فدخل فنظر إلى قدر قد طبخها، وإلى خبز قد خبزه، وغير ذلك، فحمله كله فقدمه إلى أصحابه، وقال: كلوا، فجاء ربُّ المنزل فلم ير الطعام، فسأل عنه فقالوا: قد جاء فلان فأخذه، فقال: قد أحسن، فلما لقيه قال: يا أخى إن عادوا فعُد.

وعمل بعضُ السلف صنيعًا، فدعا رجلاً فلم يصادفه الرسول، ثم أُعلم وقد انصرف الناس من عنده، فقصد منزله فدقَّ عليه الباب، فخرج إليه الرجل فقال: هل من حاجة؟ قال: إنك دعوتنى فلم يتفق ذلك، وقد جئتُ الآن لما علمتُ، فقال: قد انصرف الناس، فقال: هل بقى منهم بقية؟ قال: لا، قال: فكسرة إن بقيت، قال: لم يبق شىء، قال: فالقدر أمسحها، قال: قد غسلناها، قال: فانصرفْ بحمد الله عز وجل، فقيل له فى مسألته عن ذلك، فقال: قد أحسن الرّجل، دعانا بِنيَّةٍ، وردَّنا بِنِيَّةٍ.

(١) الجُونة: سُليلة مستديرة مغشَّاة بالجلد تكون مع العطارين.
(٢) القِشْب: اليابس الصُّلب. وقِشب الطعام: ما يُلقى منه مما لا خير فيه.

فنفس هذا فى الضَّعَة والذلَّة وسقوطها من مراتب الأنَفَة والعزّة تشبه نفس أبى المسيب بن عبد الكريم[١] وهو أستاذ أبى القاسم الجنيد، دعاه صبى إلى دعوة أبيه، فردّه الأب أربع مرات فى دعوة واحدة، وهو يرجع إليه فى كل ليلة وهو يرده. فهذه نفوس مطمئنة بالتوحيد، مشاهدة البلوى من المولى المبلى للعبيد، مذلَّلة بالذِّلة، موضوعة على الضَّعَة، وهذا طريق مُفرَد لأفراد، وحال مجرَّد لآحاد.

والمتكبرون لا يجيبون الدعوات، وهى عند بعضهم من أنَفَةِ النفوس، قال قائلهم: أنا لا أجيب دعوةً، قيل: فلم؟ قال: انتظار المرقة ذل. وقال آخر: إذا وضعتُ يدى فى قصعة غيرى ذلَّت له رقبتى. ومنهم من لم يكن يجيب الفقير لكِبره فى نفسه عنه، ويجيب الأغنياء لعِظَمِهم فى عينه. ومن أبناء الدنيا الموصوفين بها من لا يجيب إلا نُظَراءه وأشكاله من مثل طبقته ومرتبته فى الرياسة والدنيا، وهذا على خلاف سنة رسول الله ﷺ، من فعاله: أنه كان يجيب دعوة المسكين، ويجيب دعوة العبد، ومن قوله ﷺ: «بئس الطعامُ وشرُّ الطعام: طعامُ الوليمة، يُدعَى إليه الأغنياء ويُترَك الفقراء». ثم قال: «ومن لم يجب الدعوة فقد عصَى الله تعالى».

ومر الحسن بن على عليه السلام بقوم من المساكين الذين يسألون الناس على قارعة الطريق، وقد نثروا كِسَرًا على الأرض فى الرمل وهم يأكلون، وكان على بغلته، فلما مرّ بهم، سلَّم عليهم، فردوا عليه وقالوا: هلُمَّ للغداء يا ابن بنت رسول الله ﷺ، فقال: نعم، إن الله لا يحب المستكبرين، ثم ثنى وركه فنزل عن دابته، وقعد معهم فى الأرض، وأقبل يأكل، ثم سلم عليهم وركب. وفى خبر آخر زيادة، فقال: أجبتكم فأجيبونى، فقالوا: نعم، فوعدهم المجىء فى وقتٍ من النهار، فجاءوا، فرحب بهم ورفع مجلسهم، ثم قال: يا رباب هاتى ما كنت تدَّخرين، فأخرجت الجارية فاخر ما عندها من الطعام، فأقبل يأكل معهم.

وقال بعضَ أهل الاعتبار: ما أجيب الدعوةَ إلاّ لتذكرة نعيم الجنة: طعام يُنقل بغير كُلفة ولا مؤونة.

---

(١) فى (هـ): «بن الكرينى» غير منقوطة.

وكذلك قيل: اجتماع الإخوان فى وجود الكفاية على الأنس والألفة ليس هو من الدنيا.

وقد كان بعض الصوفية يقول: لا تجب دعوة إلاّ من يرى أنك أكلت رزقك، وأنه سلّمه إليك وديعةً كانت لك عنده، ويرى لك الفضل عليه فى قبولها منه.

فهذه شهادةُ العارف من الداعين، كذلك شهادةُ المدعين من الموحدين أن يشهدوا الدّاعى الأول، والمجيب الآخر، والمعطى الباطن، والرازق الظاهر، كما امتحن بذلك أصحابَه بعضُ الصوفيين، بلغنى أن رجلاً دعا إمامًا من الصوفية فى أصحابه إلى الطعام، فلما أخذ القوم مجلسهم ينتظرون الطعام ينقل عليهم، خرج عليهم شيخهم فقال: إن هذا الرجل يزعم أنه دعاكم، وأنكم تأكلون طعامه، ففى حرج ـ أو قال: حرام ـ علىَّ من لم يشهدْه فى قَوْله فعله أن يأكل. قال: فقاموا كلّهم فخرجوا، ولم يستحلوا الأكل، إذ كانوا لا يرونه فى الفعل إلاّ غُلامًا حَدَثًا قعد، إذ لم تثبت شهادته، ولم ينفذ نظره. العبارةُ لى[1]، والمعنى لقائله مثله أو نحوه.

وينبغى أن يكون للمجيب إلى الدعوة نيات سبع، إذ الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى، وإذ الإجابةُ من الأعمال، فمن نواها دنيا كانت له دنيا لعاجل حظه، ومن أراد بها الآخرة كانت له آخرة بحسن نيته، ومن لم يحضره نية واعتل بفسادها يقف حتى يهيئ اللهُ عز وجل نيةً صالحة تكون الإجابة عليها، أو ترك الإجابة إذا لم تكن نية؛ لأنها من أفاضل الأعمال، فتحتاج إلى أحسن النيات، لوجود العلم فيها فيكثر بها الحسنات، ولفقْد الهوى منها فتسلم من السيئات، وإلا كانت إجابته هوًى، وكان عاملاً فى باب من أبواب الدنيا، وساعيًا فى حظ نفسه وملء جوفه.

وقد قال الرسول ﷺ: «ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، فهجرته إلى ما هاجر إليه»، فيصير مأزورًا لفساد النية، أو يكون غير مأجور لعدمها.

---

(١) فى (د): «العبارة لأبى طالب».

فأوّل النيات: طاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ، لقوله ﷺ: «من لم يجب الدعوة فقد عَصَى الله».

النية الثانية: إقامةُ سنَّة، لقوله ﷺ: «لو دُعيتُ إلى كُراع بالغميم لأجبتُ»، وهو موضع إلى أميال من المدينة، أفطر رسولُ الله ﷺ فى رمضان لما بلغه، وقصر عنده فى سفره. وقال فى الخبر الآخر: «لو دُعيت إلى ذراع لأجبتُ». فهذا ظاهر فى الإجابة على القليل، والأول محتمل فى الإجابة إلى الموضع البعيد.

وقد نُقل أن فى التوراة أو فى بعض الكتب: «سِر ميلاً عُد مريضًا، سر ميلين شيِّع جنازة، سر ثلاثة أميال أجب دعوة، سر أربعة أميال زُر أخًا فى الله»، فبعّد فى إجابة الدعوة وفضَّلها على العبادة وشهود الجنازة؛ لأن فيها قضاء حق الحيِّ وفيها إجابة الداعى.

النية الثالثة: إكرامُ أخيه، ففى الخبر: «من أكرم أخاه المؤمن فإنما يكرم الله عز وجل».

وفى حديث الحسن وعطاء: «من جاءه شىءٌ من غير مسألة فردّه فإنما يرد الله عز وجل»، فتركُ الإجابة ردٌّ للعطاء.

وفى تأويل الخبر عن الله سبحانه وتعالى بمعناه: أنه يقول للعبد يوم القيامة: «يا ابن آدم جُعتُ فلم تطعمنى. فيقول: كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ فيقول: جاع أخوك المسلم فلم تطعمه، ولو أطعمته كنتَ قد أطعمتنى»، فمن ظاهر تعظيم الله عز وجل حرمة المسلم؛ لأنه أقامه تعالى مقامه، وفى باطنه من الفهم أنه إذا أجابه فقد عاونه على إطعام نفسه فكأنه أطعمها، فإذا لم يجب دعوته فقد ترك معاونته على إطعامه، فدخل تحت التقريع، بأنه لم يطعم نفسه، وهو المسلم إذا لم يجب الدعوة، فتفكروا.

النية الرابعة: إدخال السرور على أخيك المؤمن، والخبر الآخر: «مَن سَرَّ مؤمنًا فقد سر الله عز وجل».

النية الخامسة: رفعُ الغمِّ عن قلبه، ووضع الهمِّ عن نفسه فى ترك إجابته، من

ترجيم الظنون به، وتوقيع الرجم بالغيب فيه: لِمَ لَمْ يجب؟ وكيف لم يجب؟ وإلاّ كان يجيب، فيرفع عنه ذلك ويُسقط عنه مؤونة سوء الظن به، ويزيل الشك فيه باليقين.

النية السادسة: أن ينوى زيارته فيصير ذلك نافلة تمامًا على الذى أحسن، فقد جاء فى فضل الزيارة فى الله عز وجل، وأن بها يستحق ولاية الله عز وجل، وأنها علامة المتحابين فى الله عز وجل، فاشترط لذلك شيئين: التباذل والتزاور فيه، فقد حَصل[1] البذل من أحدهما وبقيت الزيارة من الآخر على الخبر السائر أن الإجابة من التواضع كما ذكرنا قبيل أن المتكبرين لا يجيبون الداعى.

فهذه سبعة أعمال ونيات لمن وُفِّق لفعلها والعمل بها.

وإذا عرضت على أخيك الطعام مرة أو مرتين فلا تلحنَّ عليه، وكذلك إذا دعوته فكَرِهَ، فقد قالوا: لا تلزم أخاك بما يشق عليه، ولا تزيدن على ثلاث مرات، الإلحاح واللجاج ما زاد على ثلاث، وليس ذلك من السنة ولا الأدب إلاّ فيما لا بدّ منه، مما للجميع فيه أرب، قالوا: كان رسول الله ﷺ إذا خوطب فى شيء ثلاثًا لم يُراجع بعد ثلاث. وقيل: كان النبى ﷺ يعيد كلامه ثلاثًا ويكرر القول ثلاثًا. وكان الحسن بن على يقول: الطعام أهون من أن يُحلف عليه، وقال مرة: أيسر من أن نُدعى إليه، ذلك لعظيم حق المؤمن.

وقد كان سعيد بن أبى عروبة بهذه المنزلة والمثوبة، لم يكن يعرض على إخوانه الطعام، ولكنه كان يُظهره، ويعرِّض به، وكان اللحم مسلوخًا معلقًا، والخبز موجودًا ظاهرًا، وكذلك كان يفعل بالثياب والأثاث؛ كان جميع ما فى منزله مُظْهَر مُسبَل، وكل من دخل عليه من إخوانه، إن شاء قطع من المسلوخ فشوى أو طبخ، وإن شاء أكل من الخبز بما وجد من الأُدم، ومن شاء لبس من أثوابه ما شاء، فكان ذلك مُشاعًا فى منزله لمن أراد تناوله. وكان الثورى يقول: إذا زارك أخوك فلا تقل له كُل، أو أُقدِّم إليك، ولكن قدِّم إليه ما عندك، فإن أكل وإلاّ فارفعه.

---

(١) فى (هـ): «فضل».

ومن ظنّ فيه فاقة من الفقراء، فقصد بعض إخوانه يتصدى للأكل عنده، فجائز له ذلك بشرطين: لا يكون عنده موجود من طعام، ونيته أن يُؤجرَ أخوه، ويكون هو الجالب لأجره؛ لأنه عرّضه للمثوبة، فهذا داخل فى التعاون على البر والتقوى، وداخل فى التحاض على طعام المسكين، ونفسه كغيره من الفقراء، ولأن أخاه لا يعلم بصورة حاله، ولو علم لَسرَّه ذلك، ففيه إدخال السرور عليه من حيث يعلم، وقد فعل هذا جماعة من السلف.

وقد روى بمعناه أثر من ثلاثة طرق للسلف الصالح، منهم عون بن عبد الله المسعودى، كان له ثلاثمائة وستون صديقًا، وكان يكون عنده كل واحد يومًا. وآخر كان له ثلاثون صديقًا، فكان يكون عند كل واحد ليلة. وبعضهم كان له سبعة إخوان، فكان يكون عند كل واحد يومًا وليلة. كانوا يقدّمون هذه الأخلاق مع إخوانهم، ويؤثرونها على المكاسب والمعلوم، وكان إخوانهم معلومهم، ولم يكن هؤلاء يتكسبون ولا يدخرون، وكانت لإخوانهم فيهم نية صالحة، يسألونهم ذلك ويُقسمون عليهم فيه، ويرونه من أفضل أعمالهم، وكان هؤلاء الأضياف يكرمون إخوانهم بإجابتهم، وكونهم عندهم، ومنهم من كان منقطعًا فى منزل أخيه قد أفرده بمكانٍ يقوم بكفايته، ولا يبرح من منزله على الدوام، يحكم فيه ويتحكم كما يكون فى منزل نفسه.

• ذكر غسل اليد:

ليس كل أحد يحسن أدب الغسل، كما ليس كل إنسان يعرف سُنة الأكل، فمن غسل يده بأشنان ابتدأ بغسل أصابعه الثلاث أولاً، ثم جعل الأشنان فى راحته اليسرى يابسًا، ثم أمرَّه على شفتيه حسنًا وأنعم غَسلَ فِيهِ بأصابعه ظاهر أسنانه وباطنها وحنكه ولسانه، ثم غسل أصابعه من ذلك بالماء، ثم دلّك ببقية الأشنان اليابس أصابعه ظهرًا وبطنًا، ثم لم يُدخل الأشنان ثانيًا إلى فِيهِ لئلا يعود بالغَمر إليه من يده، وهذا يكفيه من سنة الغسل.

ومن غَسل يد إخوانه بعد أكلهم من طعامه، فمن الأدب أن يصب على أيديهم الماء العذب، فمثل هذه الطائفة ونحوها تعرفُ حسن تفقُّد الرعاية، ويستبين

تعاهد الدعاة. وكان بعضهم يقول: يدعو الرجل إخوانه فينفق فى الطيبات جُملة، ويحلِّيهم بالحلاوة، ثم يمروا أفواههم بالماء المالح، فهذا يكون من نقص التعاهد وقلة التفقد.

• ذكر أخبار رويناها فى الآثار جاءت منثورة فى الأطعمة والأكل من بين نقص وفضل من طريق السلف فى صنائع العرب لم نكن أدخلناها فى تضاعيف كلامنا لأنها منقولة من كلام القدماء:

من حديث إسحاق بن أبى نجيح، عن عطاء بن ميسرة، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أكل ما يسقط من المائدة عاش فى سَعَةٍ وعُوفى فى ولدِه». وفى خبر سعيد بن لقمان، عن عبد الرحمن الأنصارى، عن أبى هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الأكل فى السّوق دَناءَة». هذا غريب مسند وليس بذلك، الصحيح أنه من قول التابعين إبراهيم النخعى ودونه.

وعن جُوَيْبِر، عن الضحاك، عن النَّزَّال بن سَبْرة[١]، عن علىٍّ عليه السلام قال: من ابتدأ غداه بالمِلح أذهب الله عز وجل عنه سبعين نوعًا من البلاء، ومن أكل كل يوم سبع تمرات عجوة قتلت كل داء فى بطنه، ومن أكل كل يوم إحدى وعشرين زبيبة حمراء لم يَرَ فى جسده شيئًا يكرهه. واللحم ينبت اللحم، والثريد طعام العرب، والفسفاذجات[٢] تعظم البطن وترخى الإليتين، ولحم البقر داء، ولبنها شفاء، وسمنها دواء، والشحم يُخرج مِثليه من داء، ولم يستشف الناس بشىء أفضل من الرطب، والسمك يذيب الجسد، وقراءة القرآن [فى المصحف تجلو البصر][٣]، والسواك يُذهب البلغم، ومن أراد البقاء ـ ولا بقاءَ ـ فليباكر الغداء، وليقلَّ غشيان النساء، وليلبس الحذاء، ويخفِّف الرِّداء. [قيل: وما خِفَّةُ الرِّداء فى البقاء؟] قال: قِلَّةُ الدَّين.

وفى أخبار الأمراء أن الحجاج قال لتاذوق مُتطببه: صِفْ لى صفةً آخذ بها ولا

(١) كذا فى الأصول دون نقط.

(٢) فى (د): «والسَّفيذباجات». والخبر برمته فى عيون الأخبار ٣/ ٢٧١، وليس فيه هذه العبارة.

(٣) أثبتها اجتهادًا وهى ساقطة من عيون الأخبار أيضًا، وواضح أن ثمة كلامًا يتصل بالقرآن فى صحة البدن.

أعدوها. قال له: لا تنكح من النساء إلاّ فتاة، ولا تأكل من اللحم إلا فتيًا، ولا تأكل من المطبوخ حتى ينعم نضجه، ولا تشربن دواء إلاّ من علّة، ولا تأكل من الفاكهة إلاّ نضيجها، ولا تأكلن طعامًا إلاّ أجدت مضغه، وكُل من الطعام ما أحببت، ولا تشرب عليه، فإن شربت فلا تأكل عليه شيئًا، ولا تحبس الغائط والبول، وإذا أكلتَ بالنهار فنم، وإذا أكلت بالليل فامش قبل أن تنام ولو مائة خطوة.

فيما قاله الفليسوف حكمة، قد ورد فى بعضها آثار، قد يروى فى خبرٍ مقطوع، ذكره أبو الخطاب عن عبد الله بن بكير السهمى يرفعه: «من استقل بدائه فلا يتداوى، فرُبَّ دواء يورث الداء».

وكانت الحكماء تقول: دافع بالدواء ما حملت قوتك الداء. وقال بعضهم: مثل شرب الدواء مثل الصابون للثوب، ينقيه ولكنه يُخلقه. وقال بقراط الفيلسوف: الدواء من فوق، والداء من تحت، فمن كان داؤه فى بطنه فوق سرته سُقِى الدواء، ومن كان داؤه تحت سرته حُقن، ومن لم يكن به داء من فوق ولا من تحت لم يُسق الدواء، فإن سُقى عمل فى الصحة داءً إذا لم يجد داء يعمل فيه. وفى الخبر: قطعُ العروق مسقمة، وترك العشاءِ مَهْرمة. والعرب تقول: ترك الغداء يُذهب شحم الكادَة؛ يعنى الإلية.

وقال بعضهم: نهانى الأطباء عن الشرب فى تضاعيف الطعام. والعرب تقول: تعشَّ وتمشَّ، وتغدَّى وتمدَّى. يريدون: تمدّد، فأبدلوا الألف من الدال الثانية كراهة التكرار ولازدواج الكلام. ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِه يَتَمطَّى﴾ [القيامة: ٣٣]؛ أى: يتمطط، فأبدل من الطاء الثانية ألفًا، يعنى: مدَّ مطاه: يرفع ظهره.

وأما فى حبس الغائط: فقد قال بعض الفلاسفة: الطعام إذا خرج نحوه قبل ست ساعات فهو مكروه من المعدة، وإذا بقى فيها أكثر من أربعة وعشرين ساعة فهو ضرر على المعدة. ويقال: إن حبس البول يفسد من الجسد كما يفسد النهر ما حوله إذا سُدَّ مجراه ففاض من جوانبه. ويقال: إن أدواء[1] المفاصل ميراث حبس الريح.

---

(١) فى (هـ): «أرواح»، وفى (د): «أرياح».

قال الشيخ أبو طالب رضى الله عنه: قرأت فى كتاب الحكماء: مدارُ صلاح الأمور فى أربع: الطعامُ لا يؤكل إلاّ على شهوة، والمرأة لا تنظر إلاّ إلى زوجها، والملك لا يصلحه إلاّ الطاعة، والرعية لا يصلحها إلاّ العدل.

وقيل لبعض حكماء الروم: أى وقتٍ الطعام فيه أصلح؟ فقال: أما لمن قدر فإذا جاع، وأما لمن لا يقدر فإذا وجد. ويقال: إذا كثرت المقدرة نقصت الشهوة. وقال كسرى لجلسائه: أى خصلة فى الإنسان أضر؟ فقالوا: الفقر، فقال: البخل أضر من الفقر، لأن الفقير لا يجد، والبخيل يجد ولا يأكل.

وقيل لرجل ورؤى سمينًا: ما أسمنك؟ فقال: أكلى الحار، وشربى القار، والاتكاء على شمالى، والأكل من غير مالى. وقيل لآخر ورؤى حسن الجسم: ما أحسن جسمك؟ قال: قلة الفكرة، وطول الدَّعة، والنوم على الكِظّة[1]. وقيل لآخر رآه حكيم سمينًا: أرى عليك قطيفة من نسج أضراسك فما هى؟ قال: آكل لُباب البُرِّ بصغار المعز، وأدَّهِنُ بدُهن البنفسج، وألبس الكتَّانَ.

والعرب تقول: العاشية تهيج الآبية. أى أن الذى لا يشتهى الطعام إذا نظر إلى من يأكل هاجه ذلك على الأكل الذى يأباه لما رأى الآخر يغشاه.

ذكر الأصمعى أن بعض الحكماء أوصى ابنه فقال: يا بنى، لا تخرج من منزلك حتى تأخذ حلمك، يعنى تتغدى.

وكذلك يقال فى تناول الشيء قبل الخروج إلى السوق، وقبل لقاء الناس: إنه أقل للشهوة فى الأسواق، وأقطع للطمع بلقاء الناس، وأنشدنى هلال بن خَثْعم:

وأن قُراب البطن يكفيك مَلْؤُه ويكفيك سوءاتِ الأمورِ اجتنابُها

ورؤى بعضُ الصوفية يمشى فى السوق وهو يأكل، وكان ممن يشار إليه. قال: فقلت له: رحمك الله، تأكل فى السوق؟ فقال: عافاك الله، فإذا جعتُ فى السوق آكل فى البيت؟ فقلت: لو دخلتَ بعضَ المساجد. قال: أستحى منه أن أدخل بيته للأكل. هذا لأنه رأى الأكل من أبواب الدنيا، فدخل فيه من طريقها. كما قيل:

---

(١) الكِظّة: البِطْنةُ، وشىءٌ يَعْترِى من امتلاءِ الطّعام.

الأسواق موائدُ الأُبَّاق، أبِقُوا من الخدمة فحُبسوا فى الأسواق. وفى خبر ابن عمر قال: «كنا نأكل على عهد رسول الله ﷺ ونحن نمشى، ونشرب ونحن قيام».

قال بعض أهل الطب: الحِمْيَةُ[١] أحد العِلَّتَيْنِ. ويقال: إن الحِمْيَةَ للصحيح ضارة، كما أنها للعليل نافعة، والدواء إذا لم يجد داء يعمل فيه وجد الصحةَ فعمل فيها. وأنشد بعض العرب:

وربُّمَّةَ حَزْمٍ كـان للسُّقْم عِلَّةً وعِلّةُ بَرْدِ الدّاءِ حَبَطُ التَّعلُّلِ

وقال القمّى: من احتمى فهو على يقين من المكروه، وفى شكٍّ مما يأمل من العوافى.

وكان يقال: ليس الطبيبُ من حَمى الملوك ومنعهم من الشهوات، إنما الطبيبُ من خلاَّهم وما يريدون، ثم دبّر سياستهم على ذلك حتى تستقيم أجسامهم.

وقال المدينى عندنا بالحجاز لبعض الأعراب: أخبرنى بما تأكلون وما تدَعون، فقال: كلُّ ما دَبَّ ودَرَجَ إلا أمَّ حُبَينٍ، فقال المدينى: ليَهْنِئ أمَّ حُبَينٍ منكم العافية.

وفى الخبر «أن رسول الله ﷺ رأى صهيبًا يأكل تمرًا وبه رَمَد، فقال له: تأكل التمر وأنت رَمِدٌ؟ فقال: يا رسول الله، إنما أمضغ بهذا الشق الآخر، يعنى جانب العين السليمة، فضحك رسول الله ﷺ».

• ذكر أخبار جاءت فى التقلل والحمية وذم البطنة:

فى حديث إسماعيل بن عياش عن شرحبيل بن مسلم قال: قال أبو الدرداء: بئس العونُ على الدين قلب نَخِيبٌ، وبطن رغيب، ونَعْظ[٢] شديد. نخيب: يعنى خفيفًا ضعيفًا، ورغيب: يعنى واسعة طامعة.

قيل لبعض الحكماء: أى الطعام أطيب؟ قال: الجوع. أى به يطيب الطعام. كما قيل: نِعمَ الإدام الجوع، ما ألقيت إليه من شىء قَبِله.

---

(١) الحِمية: ما حُمى من شىء.

(٢) النعَظ: الشَّبَق وشدة الشهوة.

وقال العتبى بن عبيد الله: قلت لرجل من أهل المدينة: يا أخى إنى لأعجب أن فقهاءكم أظرف من فقهائنا، وعوامَّكم أظرف من عوامِّنا، ومجانينكم أظرف من مجانيننا، قال: أوَ تدرى لم ذلك؟ قلت: لا. قال: الجوع. ألا ترى العودَ إنما صفا صوته من خلاء جوفه.

يقال: دعا عبد الله بن الزبير الحسين بن على رضى الله عنهما، فحضر هو وأصحابه فأكلوا، ولم يأكل. فقيل له: ألا تأكل؟ قال: إنى صائم، ولكن اجعلوا لى تحفة الصائم. قالوا: ما هى؟ قال: الدّهن والمِجْمَر.

وكذلك يقال: الكحل والدهن أحد القِرابين، واللبن أحد اللحمين، والفاكهة والحديث للضيف أحد الضيافتين، فيستحب لمن كان صائمًا وحضر ولم يأكل أن يُطيَّب ويُحيَّى، فذاك زاده.

روى أن عبد الرحمن بن أبى بكرة كان على خوان معاوية، فرأى معاوية رضى الله عنه لَقْمَ عبد الرحمن، فلما كان بالعشى راح إليه أبو بكرة وحده، فقال له: ما فعل ابنك التِّلْقامة؟ قال: اعتلّ. قال معاوية: مثله لا يَعْدَم عِلَّةً.

وقيل لأبى بكرة: إن ابنك أكل حتى بَشِمَ. قال: لو مات ما صلَّيتُ عليه.

ويقال: للبَّشَم سُكرٌ كسُكر الخمر.

وسئل الحارث بن كِلدة طبيب العرب: ما الدواءُ الذى لا داء فيه؟ فقال: هو الأَزْم. يعنى الحِمية.

وقيل لجالينوس: إنك تُقِلُّ من الطعام. فقال: غرضى من الطعام أن آكل لأحيا، وغرض غيرى من الطعام أن يحيا ليأكل.

ويقال: ما أدخل الإنسانُ جوفه أنفع من الرمان ولا أضر من المالح، ولأن يتقلل من المالح خير من أن يستكثر من الرمان. هذا لذمِّ الاستكثار وإن كان مما ينفع، ومدح القلة وإن كان مما يضرّ.

حُدِّثت عن عبد المنعم بن إدريس، عن أبيه، عن وهب بن منبه، قال: قال لقمان لابنه: يا بنى، إن طول الجلوس على الخلاء يرفع الحرارة إلى الرأس،

ويورث الباسور، ويوجع له الكبد، اجلس هوينًا وقم. فكُتبتْ حِكمتُه على باب الحُشِّ[١]. ويقال: سأل الحجاج جلساءه: ما أذهب الأشياء للإعياء؟ قالوا: أكل التمر. وقال بعضهم: الحمَّام. وقال بعضهم: الجماع. وقال آخر: الضّمائخ[٢]. فقال تياذوق الطبيب: أذهبُ الأشياء للإعياء قضاءُ الحاجة.

حدثت عن بعض الأطباء: أنّ رجلاً شرب خَبَث الحديد المعجون، فبقى فى جوفه، واشتد به وجعه. قال: فسحقتُ له قطعة مغناطيس، وسقيتُه إياه، فتعلق بالخبث، وخرج مع الغائط.

وروى الأصمعى عن جعفر بن سليمان قال: قال تياذوق الفيلسوف: إنّ اللحم على اللحم يقتل السباع فى البريَّة. قال: ثم قال لى جعفر: قالت جارية لنا: كان لنا ظبى فمرّ بعجين قد هُيِّئ فأكل منه حتى حَبِطَ؛ والحَبَطُ انتفاخُ الجنبين، فسُلِخ فوُجد قد شَرِق بالدم. فقال يونس الطبيب: هكذا يصيب الإنسان إذا بَشِمَ، يشرق قلبه بدمه.

وقال الأصمعى عن جعفر والى البصرة أنه قال لإنسان أكول يقىء إذا أكل: لا تفعل، فإن المعدة تَضغَن إلى القىء كما تضغن الدابة العلف، فلا ينضج الطعام. معنى: تضغن: أى تألف وتعتاد [وتميل]. وقال بعضهم: سئل تياذوق عن البَخَر، فقال: دواؤه الزبيب يُعجن بالسَّعتر، ثم يؤكل أسبوعين أو ثلاثًا. وقال الأطباء: معرفة خفّة الماء أن يكون سريع الغليان، سريع البرد، ويكون قبالة الشمس مجراه على الشّمال، ومروره على الطين الأحمر، وعلى الرمل.

ذكر أبو طالب رضى الله عنه أن هذا آخر الزيادة من الأقوال.

وينبغى إذا حضرت الألوان أن يبتدئ بتقدمة الألطف فالألطف، والأطيب فالأطيب أولاً، مثل أن يبتدئ بالمشوى قبل الثريد، وتُقدَّم الطباهِج قبل السِّكْباج[٣]،

(١) الحُشُّ والحِشُّ: المخْرج، لأنهم كانوا يقضون حوائجهم فى البساتين.

(٢) الضّمائخ: يقصد به الطِّيب، من الضّمخ: وهو لطخ الجسد بالطيب حتى كأنه يقطر.

(٣) الطَباهج: ضرب من قلى اللحم، فارسى معرب. والسكباج: طعام يعمل من اللحم والخل مع التوابل.

فذلك سنةُ العرب وطريقةُ السلف، ليصادف جوعهم أطيب الطعام، فيستوفوا من ذلك وافر النصيب، فيكون أثوب لصاحبه وأقلّ لأكلهم فيما بعد، فإن احتاجوا إلى ما بعدهُ من غليظ الطعام تناولوا منه قليلاً يسدّ خلالاً إن بقى، وإنّما قدم أبناء الدنيا الألوان الغليظة على اللطيفة، ليتسع أكلهم وتتفتق شهواتهم، فيكون اللون اللطيف موضعًا آخر، ليكونوا قد أكلوا من اللون الأطيب الأجود أقل، فهذا غير مستحب عند أبناء الآخرة.

وقد كان بعض المتقدمين يقدم جملة الألوان فى مكان واحد ليأكل كل إنسان ما يشتهى على المعاينة الموجودة، وهذا حسن، ليكون ما يأكلون معلومًا لهم فيتخيرون.

ولو قال لهم، إن لم يكن عنده إلاّ لونٌ واحد: ليس يحضر غير هذا، ليستوفوا منه ولا يتطلعوا إلى غيره، كان صوابًا.

حدثنى أبو بكر الذهبى قال: قدَّم إلىَّ رجل بالشام ـ وكان قد دعانى ـ لونًا من طبيخ، فقلتُ له: عندنا بالعراق يُقدَّم هذا اللون آخر الألوان. قال: وهكذا هو عندنا بالشام. قال: فاستحييت[1]، إذ لم يكن عنده غيره.

وقال فى آخر عن شيخ له: كنا عند رجل فى جماعة، فجعل يقدم إلينا ألوان الرؤوس؛ منها طبيخًا ومنها مشويًا، وقديدًا. قال: فجعلنا نقصر فى الأكل نتوقع بعدها الأبدان أو غيرها من الألوان. قال: فجاءنا بالطست، ولم يقدم غيرها. فقال لى شيخ لنا كان معنا من الصوفية: هو سبحانه يقدر أن يخلق رؤوسًا بلا أبدان. قال: فبتنا تلك الليلة جياعًا، وطلب بعضنا فى آخر الليل خبزًا أو فتيتًا للسّحور.

وينبغى أن يمكِّنهم من تبقية الألوان عندهم، ولا يسرع رفعها من بين أيديهم، حتى يرفعوا أيديهم، ويقضوا من كل لون وطرهم، فإنه من الأدب والمعروف، ولعل فيهم من يكون عنده ما حضر أشهى إليه مما غاب، مما يقدَّم فى المستقبل،

---

(١) فى (هـ): «فاستحسنت».

وقد يكون فيهم من به حاجة إلى فضل أكل لفضل جوع، فيتنغَّص عليه قبل أن يقضى ما فى نفسه. حدثنى أبو عبد الله الوراق عن الستورى الصوفى أنه حضر على مائدة عند بعض أبناء الدنيا وكان مبخلاً، قال: فقدّم جملاً، فلما رآهم يمزقونه كل ممزق ضاق صدره، فقال: يا غلام، ارفع إلى الصبيان، قال: فرفع الجمل إلى داخل الدار، فقام الستورى يعدو خلف الجَمل، فقال له صاحب الدار: إلى أين يا أبا عبد الله؟ فقال: أَمُرُّ آكلُ مع الصبيان، فاستحيا الرجل وأمر برد الجمل حتى يستوفى منه الجماعة. قلت: وصَبَرَ على حكم الله.

وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أكرموا الخبز فإن الله عز وجل أنزله من بركات السماء». فمن إكرام الخبز أن لا يُنتظر الأُدم ويُؤكل مع ما حضر معه من الملح والخلّ والبقل، وأنْ لا يُجعل تحت شىء من آلة المائدة، ولا تحت غضارة، مثل أن يُسند به شىء، ولا يُتخذ طبقًا لشىء، فإن وُضع عليه ما يؤكل به فلا بأس.

ومن السنة والأدب أن لا يُنتظر بالطعام غائب إذا حضر جماعة، ولكن يأكل من حضر؛ فإن حرمةَ الحاضر مع حضور الطعام أوجب من انتظار الغائب، إلاّ أن يكون الغائب فقيرًا فلا بأس أن يُنتظر، ليُرفع من شأنه ولئلا ينكسر قلبه، فإن كان الغائب غنيًا لم يُنتظر مع حضور الفقراء، فإن انتظار الغنى معصية، لما روى أن النبى ﷺ قال: «شرّ الطعام طعام الوليمة يُدعى إليها الأغنياء ويُترك الفقراء»، فسمى الطعام شريرًا لأجل الأغنياء، والطعام لا تعبُّد عليه، وإنما الشّرّ اسم لأهل الطعام الداعين الأغنياء عليه التاركين للفقراء؛ لأنهم دعوا أشباههم من أهل الدنيا، وتركوا أهل الله تعالى من أبناء الآخرة، لبعدهم من الله تعالى، وقربهم من الدنيا. ولا يُنتظر الواحد مع حضور الجماعة، وبعضهم يقول: لا تُنتظر الجماعة مع حضور الواحد، كأنه جعل الطعام لمن حضر. وإذا حضر الطعام لم يُتوقف دونه، ولا يُتشاغَل عنه بشىء من صلاة فما دونها، فتركُ الطعامِ موضوعًا لا يُستعمل مكروه، ويقال: إن الملائكة عليهم السلام تقف إذا وُضع الطعام حتى يُؤكل أو يُرفع، فإذا أُكل أو رُفع قعدت الملائكة عليهم السلام.

وأكره وضع الرجل بين يدى أخيه شيئًا من الأطعمة؛ لمعانٍ شتى، أحدها: لعله أخذ الطعام من موضعه أحب إليه من موضعه بين يديه، فيلتزم أكل ما جعله تحملاً، أو لعله يكره تلوث الرغيف بالإدام، وربما بقى الرغيف موضوعًا غير مأكول فيكون مكروهًا، أو لعل غيره ممن يُحمل إليه يكره أكله، وربما كان يتقيه الرغيف فارغًا أوفق؛ لأنه يصلح لغيره، فإذا لُوث به لم يصلح إلاّ له، فيضطر العبد إلى أكله، فإن كان الآكل شديد الحياء، مقصرًا عن تناول الطعام، أو بعيد المكان منه، أو كان المأكول نوعًا واحدًا، فلا بأس بذلك، ولو جُعل فى طرف كان أوفق؛ لما ذكرناه.

والتلقيم حسن قد فعله الإخوان ما لم يستحى الملقَم من ذلك أو يكره؛ فيتحمَّله على تكرُّه.

ولا يصلح أن تقام العبيد قيامًا على الطعام يتعاطون الأصحاف والأكواب، فإن هذه سيرة الأكاسرة، إما أن ينصرفوا أو يقعدوا، فإن احتيج إليهم دعى بما معهم عند الحاجة. وقيامهم بالشمع والمراوح مكروه. وكان رسول الله ﷺ إذا أكل عنده رجل أمر عبده أن يقعد أو ينصرف، فإذا طعم الجماعة فلينصرفوا ولا يقعدوا للحديث، فلعله أن يثقل على أهل المنزل، ويستحيون.

وروينا عن الحسن عن الأحنف بن قيس قال: نزلت هذه الآية فى الثقلاء: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُم فَانْتَشِرُوا ولا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ [الأحزاب:٥٣]. وقال أنس بن مالك: ذكر الله تعالى الثقلاء فى كتابه فقال تعالى: ﴿فإذا طَعِمتُم فانْتَشِرُوا ولا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾. وكان أبو حنيفة يقول: ينبغى للإنسان أن يخاف الثِّقل من نفسه، فمن أَمن أنْ لا يثقل ثقل.

وكان الأعمش إذا أطال الرجل الجلوس عنده ينشد:

فما الفيلُ تسحبه مَيْتًا ... بأثْقلَ من بَعْض جُلاّسنا

ولو عَلِم الثّقيلُ مِن نفسه ... تثاقل عنَّا فلم يأتنا

وقالى حماد بن سلمة: الصوم فى الصحراء من الثقل. وكان الجنيد يقول، وقد

ذكره مرة عن يحيى بن أكثم القاضى: من خرج إلى الصحراء يتنزه، ولم يكن معهم طعام، تنزهت الصحراء فى عقولهم.

وقال بعض الأدباء: الانقباض مع المنبسطين ثِقل، والانبساط مع المنقبضين سُخف. فهذا كأنه أراده مع أبناء الجنس من الإخوان على ترتيب الأخلاق، ونظام الحكمة، وهو مع غيرهم على غير هذا الترتيب ينقلب لانقلاب أوصافهم، فيصير الانقباض مع المنقبضين ثقل؛ لأنه يزيدهم قبضًا، فيكون زيادة على القدر، وقد جعل الله لكل شىء قدرًا، كما جعل لكل أمر وقتًا، ولكل وقت حُكمًا، ويصير الانبساط أيضًا مع المنقبضين سُخفًا؛ لأنه مجاوزة القدر معهم، فيكون المحمود من ذلك على هذا الوجه أن ينقبض مع المنبسطين من العموم؛ ليعتدل حالُهم، وينبسط مع المنقبضين؛ ليَبسِطَهم بِبَسْطِه لهم؛ لقَبْضِ وصفِهم[1]. والتوسط من هذا ما قاله الشافعى رضى الله عنه فى الجملة: الانقباضُ عن الناس مكسبةٌ لعداوتهم، والانبساط مجلبة لقرناء السوء، فكن بين المنقبض والمنبسط. فأما الإخوان والنظر فى الحال والخصوص من أهل الأحوال والعلماء على كل حال، فإنهم آحاد وأفراد لا يقاس عليهم غيرهم من الأعداد. قال بعض الصوفيين: الأكل على ثلاثة معانٍ: مع أبناء الدنيا بالأدب، ومع الفقراء بالإيثار، ومع الإخوان بالانبساط. وقال آخر: ومع الإخوان كيف شئتَ.

وحدثنى بعض أشياخنا عن بعض الصوفية قال: قلتُ لشيخ من أصحاب الجنيد رضى الله عنهم: كنتم تخرجون مع الجنيد إلى الصحراء، فكان يمزح معكم وضحكتم. قال لى: هو كان يبسطنا ويعلمنا المزاح. ولقد رأيته يومًا ونحن نأكل وقد أخذ أبو أحمد القلانسى صاحبنا لقمة وطيبها وهيأها ورفعها إلى فيه ليأكلها، فاستلبها منه الجنيد رضى الله عنه وجعلها فى فيه، فجعل أبو أحمد يقول: حرام حرام، فقال الجنيد رحمه الله: ما رأيت إلا أنك قد جعلتَ عليها سُكرًا ثم بلعها.

وقد قيل لابن المبارك: ما الأدب بين الإخوان؟ فقال: ترك الأدب. وقال آخر: ترك الأدب مع أهل الأدب من الأدب. ذلك بأن الأدب فيه تحمُّل وتعمُّل، وهو

(١) هذه عبارة (د)، وفى (هـ): «ليبسطه ببَسْطِه له، لقبض وصفِهِ».

من باب الرياضة للمريدين، والمستعمل مع المبتدئين والعلماء قد يقدروا، والأدباء قد غيروا الطريق.

وكان جعفر الصادق رضى الله عنه يقول: أثقل إخوانى علىَّ من أتكلف له، وأحبُّهم إلىَّ من أكون عنده كما أكون وحدى.

وقال بعضهم بمعناه: وأطيبُ الأكلِ مع الإخوان كما يأكل الرجل وحده أو مع عياله.

وقد قال علىٌّ عليه السلام: شرّ الأصدقاء من تتكلف له. وقال أيضًا: شرّ الإخوان من أحوجك إلى مداراة أو ألجأك إلى اعتذار.

وكان ابن المبارك يقول: إذا قلتَ لأخيك قُم بنا، فقال: إلى أين؟ فليس ذلك بأخ. وقال مسلمة بن زياد فى معناه: إذا أشرت إلى أخيك فلم يتبعك فليس أخاك. وقال سفيان: ألذُّ الأشياء محادثة الإخوان، والانقلاب إلى كفاية.

وكان بعضهم يقول فى حضور الدعوة مع الإخوان، والمؤانسة على الطعام: ليس هو من الدنيا، وهو من نسيم الآخرة أُخرِجَ إلى الدنيا، تُروَّح به القلوب. يعنى: من الكروب بمجالسةِ العامة، ومن النظر إلى الكافة.

وفى الخبر: «أول ما يُرفع من هذه الأمة: الخشوع ثم الأُلفة».

وكان بشر بن الحارث يقول: قد ذهب عن قلبى كل شىء من الدنيا إلا الألفة فإنها لم تنصرف عن قلبى؛ لأنه يقال: لا تكون الأُلفة إلاّ فى كريم ولا يؤخذ الأنس إلاّ من كريم.

ذلك لأنّ الأُنس نورى، والألفة جوهرى، فإذا وُجد النور من الأنس فى الألفة من الجوهر فهو الكوكب الدرىُّ، فتدبّر بهذا ضدّه، فإذا رأيت ظلمة فى طينى وجدت وحشةً فى نفور، فآثرت الوحدةَ فى مجالسة القبور. والوحشة لا تكون إلا فى ظلمة، وإذا كان الضوء هو النور كان الأُنس، فتدبروا يا أولى الألباب[١].

---

(١) من قوله: «والوحشة» إلى هنا من (د).

وقد كان بشر رحمه الله يقول: لا تجب دعوة بخيل ولا تَسرُّه، فإن الله تعالى يكره أن تسرَّ بخيلاً. وقال أيضًا: صاحب رَبْعٍ سخيٌّ أحبُّ إليَّ من عابدٍ بخيل.

وقال ابن عباس رضى الله عنه: الفاجرُ السخيُّ أرجى من العابد البخيل. وقال أبو الحارث: النظر إلى الأحمق سُخنة عين، والنظر إلى البخيل قسوةُ قلب.

وكان بعضُ السلف يقول: مؤاكلةُ الأسخياء دواء، ومؤاكلةُ البخلاء داء. وقد قيل: إنّ السخاء على الطعام أفضل من السخاء بالمال؛ لأنّه أقربُ إلى شهوة النفس لحضوره، ولأنه هو المبتَغى من المال، إذ كان المال إنما يُراد لأجله، فهو لُبُّ المال، وكذلك هو شقيق النفس، لأنه هو المخالطُ للجسم، وقيل: هو سخاء النفس بالمحبوب، وهو أحد الوجهين فى قوله تعالى: ﴿لَن تَنالُوا البِرَّ حتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] قيل: بذل الطعام للعامة، وكذلك نصّ الله تعالى عليه مفردًا ثم نوّع المطعمين منه أصنافًا، فقال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلَى حُبِّه﴾ [الإنسان: ٨] فالهاء: عائدة على الطعام، فصار محبوب النفس، فمن أسخى ممن آثر بمحبوبه أخاه فى الله عز وجل فقد جاد بنفسه، وهو نهاية السخاء، كما قال بعضهم:

يَجود بالنّفْس إذْ ضَنَّ البخيلُ بها … والجودُ بالنفس أَقْصى غايةِ الجُودِ

وكذلك قال بعضُ الصحابة رضى الله عنهم، أحسبه ابن مسعود: أسخى الناس عائشة رضى الله عنها؛ آثرت على نفسها من الجنة فوهبت لعمر رضى الله عنه موضع قبره، وهو روضة من رياض الجنة.

وكذلك قال الله تعالى فى وصف المحبين من الأنصار المهاجرين الأخيار رضى الله عنهم لما آثروهم على نفوسهم عن المحبة فقال: ﴿يُحِبُّونَ مَن هَاجَرَ إليهم وَلا يَجِدُونَ فى صُدُورِهم حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا ويُؤثِرُونَ عَلَى أنفُسِهِم﴾ [الحشر: ٩]، فالإيثار بالطعام لأنه محبوب النفس كما ذكرناه، لأن محبة الإخوان من أجل الله من أجود الجود، وأفضل الأعمال وأحسن الأخلاق. وكذلك قيل: السخاء عشرةُ أجزاء، تسعةٌ منها فى الإطعام إذ به تستبين جواهرُ النفوس. قيل: والبخل عشرة أجزاء،

تسعة منها فى الشحّ على الإطعام. وكان بعض الحكماء يقول: السخاءُ على الطعام يستر البخل بالأموال، والبخلُ على الطعام يغطى السخاء بالمال. وفرّق بعضهم بين البخل والشحّ، فقال: البخلُ فى النوافل والشحّ فى الواجب.

والأكل مع العيال أفضلُ مِن أكل الرجل وحده، والأكل مع الإخوان أفضل من الأكل مع العيال.

ويقال: اتّخَذَ اللهُ إبراهيمَ خَليلاً بإطعام الطعام، ويقال: بأنّه يحب أن يعطى ولا يأخذ. وكان إبراهيم ﷺ يُدعى أبا الضيفان، ولم يكن يأكل وحده، وكان يسير الميل والميلين والثلاثة فى طلب من يأكل معه، وهو أول من اتخذ غرفة لها أربعة أبواب، بابًا شرقيًا، وبابًا غربيًا، وبابًا قبليًا، وبابًا دُبريًا، لئلا يفوته أحد من نواحى الأرض، فمن اتخذ أبوابًا أربعًا على مثله واستن بسنَّته لما اتخذه هو وإلا فهو له عبث، كما قال تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ [الشعراء:١٢٨].

وأما القولُ فى الزَّلَّة[١] فهى كما سميت زَلَّة إلاّ عند النُّبُل الأجِلَّة.

وكان بعض أهل الحديث إذا أكل مع إخوانه تَرَك من الطعام على رغيف يعزله معه. وكان سيار بن حاتم الزاهد إذا حضر على مائدة أكل لُقيمات، ثم يقول: اعزلوا نصيبى. وذكره أبو عبد الله رحمه الله يومًا فتبسم، ثم قال رحمه الله: قد كنا ربما نضحك منه، نستغفر الله عز وجل. حضرنا يومًا فى دعوة، فلما رُفع الطعام وجيء بالحلوى، نزع قلنسوة طويلة من برود مخططة، وكان يقلبها ويقول: اجعلوا نصيبى فيها، وهذا شيخ لأحمد رضى الله عنه، سمع منه «كتاب الزهد» لمالك بن دينار، وكان عنده، عن جعفر الضبعى. ولا يصلح فعل هذا إلاّ مع الأجواد، وأهل الأنس من ذوى الوداد، فمن لم يحسن هذا عنده ولم يحبه من الداعين فلا يُعامَل به. وقد حضر رسول الله ﷺ طعامًا فيه شاة مشوية، فعزل من الشواء بين رغيفين، فأرسل به إلى فاطمة عليها السلام. فمن أراد أن يعزل زلَّةً عن مائدة، فليستأذن صاحبَ الطعام، أو يسأله ذلك، فيكون عن إذنه أو من فعله، فلعله يكره ذلك، فإن كان يراه فقد يستحى أن يمنعه.

---

(١) الزَّلَّةُ: اسم لما تحمل من مائدة صديقك أو قريبك، عراقية أو عاميّة.

• ذكر أخبار وردت فى طعام السلف ومآكل العرب فى شهوات القدماء من الأطعمة، قبل أن يحدثوا الألوان ويبتدعوا الأفنان:

روينا فى أخبار العرب أن أعرابيًا أُدخل على كسرى فتعجّب من جفائه وجهله، فقال له كسرى: أى شىء أطيبُ لحمًا؟ قال: الجمل. فقال: أى شىء أبعد صوتًا؟ قال: الجمل. فقال: أى شىء أنهض بالحمل الثقيل؟ قال: الجمل. فقال كسرى: كيف يكون لحم الجمل أطيب من البط والدجاج والفراخ والجِداء؟! قال الأعرابى: يُطبخ لحمُ الدجاج والجِداء وما ذكرتَ بماءٍ وملح، ويُطبخ لحم الجمل بماءٍ وملح، حتى نعرف فضلَ ما بين الطعمين. قال كسرى: كيف يكون الجمل أبعد صوتًا ونحن نسمع صوت الكُرْكِىِّ من كذا وكذا ميلاً. فقال الأعرابى: ضع الجمل موضع الكُركىِّ وضع الكركى مكان الجمل حتى نعرف أيهما أبعد صوتًا. قال كسرى: تزعم أن الجمل يحمل الثقيل، والفيل يحمل كذا وكذا رطلاً، فقال: ليبرك الفيل وليبرك الجمل، ثم يحمل الفيل حمل الجمل، فإن نهض به فهو أحمل للأثقال.

حُدثت عن أبى حاتم المقرى، عن الأصمعى قال: قال مَدَنىّ: الكُبادات أربعة: العصيدة، والهريسة، والسَّمِيذةُ، والحَيْسَةُ[1].

قال صَوَّارةُ الأعرابى: أطول الليالى ثلاث: ليلة الهريسة، وليلة العقرب، وليلة جُدّه إلى مكة.

قال[2] سهل بن محمد الشّجرى عن الأصمعى: كنا عند الرشيد فقرّب إلينا فالوذجة. فقال: يا أصمعى، حدثنا حديث مزرِّد[3]، فقال: نعم، إن مزردًا كان غلامًا جَشعًا، وكانت أمه تؤثر عيالها عليه بالطعام، فيُحفظه ذلك، فخرجت أمه ذات يوم تَميرُ أهلها، فدخل مزرِّد الخيمة، وعمد إلى صاع دقيق وصاع تمر ومثله

---

(١) الخبر فى عيون الأخبار ٣/١٩٧، وعنه أصلحت الأخطاء التى وردت بالخبر. السّميذة: لباب الدقيق. والحيْسَة: الأقط يُخلط بالتمر والسمن.

(٢) من هنا ليس موجودًا فى (د)، وهو من (هـ).

(٣) هو مزرِّد بن ضرار أخو الشماخ؛ كلاهما شاعر.

سمنًا، فجمعه وخبصه، ثم جعل يأكل ويقول[1]:

وَلَمَّا غَـدَت أُمّى تُميرُ بَناتِها ... أغَرْتُ على العِكْمِ الذى كان يُمْنَعُ

لَبَكْتُ بصاعٍ حنطة صاعَ عجـوةٍ ... إلى صـاعِ سمنٍ فَوْقه يتَريَّعُ

وَدبَّلتُ أمثـالَ الأثافىِّ كأنّهـا ... رءوس نِقـادٍ قُطِّعـتْ يوم تُجمَعُ

وقلـتُ لبَطْنى أَبشِرى اليـوم إنّه ... حِمًى آمنٌ فيهـا تَحوزُ وتَرْبعُ

فإن يكُ مَصْفُـوراً فهـذا دواؤه ... وإن تكُ غَرْثانًا فـذا يومُ تَشبـعُ

فضحك الرشيدُ حتى استلقى، وقال: كلوا بسم الله فهذا يوم تشبع.

فى هذا غريب يُحتَجُّ به فى أشياء: قوله تَميرُ: من الميرَة، أى تجلب لهم الطعام، ومنه قوله تعالى: ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ [يوسف:٦٥]. العكم: الغرارة المشْدُودة، ومنه قول المرأة فى حديث عائشة رضى الله عنها: «عكُومُه فِساح» أى أوعيته واسعة، تمدح زوجها أبا زرع بذلك. لبكت: خلطت خلطًا فيه لُزوجة. قوله يتريع: من الريع وهو النماء والزيادة. ديلت: أجدت ديلة ديلة؛ أى قطعة قطعة، كقول الأول: فديَّل واندف. وقد ذكرناه قبيل ذلك. الأثافى: [الحجارةُ التى توضع عليها] القدر، واحدها: أُثفية. ورءوس نفاد: الحذا. مصفوراً: من الصفراء يعرض للجوف من التخمة. الغرثان: الجائع.

قيل لبعض العرب: أى شىء يُشتَهى يوم قَرٍّ، فقال: ثريدة دكناء من الفُلفل، رقطاء من الحمص، ذات جناحين من اللحم، أضرب فيها ضرب ولىّ السوء فى مال اليتيم.

وحُدثنا عن ثعلب عن ابن الأعرابى قال: يقال: أطيب اللحم عُوَّذُه، أى أطيبه، ما وَلِىَ العظمَ، فيعلق به كأنه عاذ به[2].

وروينا مرة: قيل لابن الاعرابى: ما أطيب اللحم؟ قال: ما عاذ بالعظم. وهذا

(١) الأبيات فى اللسان (ريع)، وفيها بعض اختلاف فى الرواية. وانظر الأبيات أيضًا فى عيون الأخبار ٣/ ٢٠٤ باختلاف فى الرواية.

(٢) إلى هنا تنتهى الزيادة فى (هـ).

يُحتج به فى الاستعاذة من قوله تعالى: أعوذ بالله؛ أى أتعلق به.

وفى الخبر: «كان رسول الله ﷺ يعجبه الفرائص من اللحم». الفريصتان: لحمتا الكتف؛ لرقتها واتصالها بالعظم. وفى الخبر المفسر: كان يعجبه لحم الكتف، ويأكله ويقول: هو أقرب إلى الهادى أى العنق، وكان يكره لحم المثانة، والمباعر وما قرب من الثدى، والأَلْيَةَ لقربها من الخبث. وكان لا يأكل الأَلْيَةَ فَخْذٌ من العرب ويقولون: هى الاستُ وأَصْلُ الجاعرةِ. يقال منه فلان البلوى. وبعض العرب يأنف من أكل المخ ويراه من الرقة والشره. وأُنشد فى مدح رجل:

* ولا ينتقى المخّ الذى فى الجماجِمِ *

النِّقْىُ: المخ، والشاة التى لا تُنقى لا تجوز فى الهدى، لأنها مهزولة، فقوله تنتقى أى: تفتعل، من النِّقى.

وحُدثنا عن أبى يعلى المنقرى قال: حدثنا الأصمعى قال: قيل لأعرابى: أتحسن أن تأكل الرأس؟ فقال: نعم، أبْخَص عينيه، وأسحا خدَّيه[١]، وأفك لحييه، وأرمى بالدماغ إلى من هو أحوج إليه منى. يقال: بَخص عينيه بالصّاد. والبخس بالسين: النّقص فى الوزن. قال جعفر بن سليمان[٢]: شيئان لا يزيدهما كثرة التفقد شيئًا: الطِّيب، والقِدْر، ولكن يطيبهما إصابة القدر والمعنى فى مواضعه ووقته. وقال أبو صَوَّارَة: الأرز الأبيضُ بالسمن، والسلا بالسكر الطَّبَرْزَد[٣]، ليس من طعام أهل الدنيا.

وقال رسول الله ﷺ: «بيتٌ ليس فيه تمر جياعٌ أهله»، وقال ﷺ: «نِعم الإدام الخَلّ»، وقال ﷺ: «سيد الإدام الملح»، والخبر الآخر: «سيدُ الإدام فى الدنيا والآخرة اللحم»، وقال ﷺ: «كلُوا الزيت وادّهنوا بالزّيت فإنه من شجرةٍ مُباركة»، ورواه يزيد بن أبى حبيب عن أبى الخير عن عقبة بن عامر فقال فيه: «عليكم بالشّجرة التى نادى الله عز وجل منها مُوسى عليه السلام؛ زيت الزيتون،

(١) أسْحَا خديه: أقْشُر ما عليهما من الجلد.

(٢) هذا الخبر ليس فى (د).

(٣) السكر الطبرزد: السكر الأبيض.

ادهنوا به فإنه شفاء من الباسور».

وروى محمد بن زياد، عن ميمون بن مهران، عن ابن عباس رفعه: «أكرموا الخبز فإن الله تعالى سخر له ما فى السموات والأرض»، هذا لأنه يقال: لا يستدير الرغيف حتى يُعمل فيه ثلاثمائة وستون صنعة، أولّهم ميكائيل الذى يكيل الماءَ من البحر المطبق الأعلى للخَزنة، ثم السحاب الذى يحمله، ثم الرياح التى تثيره، وآخره الخبّاز، فكم من نعمةٍ فى جميع ذلك؟ وكم فى كل نعمةٍ من نعم؟ فسبحان المنعم على خلقه بوصفه، والحمدُ لله على نعمهِ برحمته وفضله.

وفى الإسرائيليات: شكا نبى من الأنبياء إلى الله عز وجل الضعف، فأوحى الله تعالى إليه: اطبخ اللحم باللبن فإن القوة فيهما.

وفى خبر آخر: شكا نبى من الأنبياء إلى الله تعالى قِلّة الولد، فأوحى الله عز وجل: كُلِ البيض. ومن أخبار العرب: أن رجلاً أسَرَ رجلين من الأعراب [فى الجاهلية]، فخيرهما بمَ يعشيهما بين لحم وتمر، فاختار أحدهما اللحم، واختار الآخر التمر، فعُشِّيا ثم أُلقيا بالفناء وذلك فى برد شديد، فأصبح صاحب اللحم خامِدًا، وأصبح صاحب التمر تَرِزُّ[1] عيناه. وقال النابغة يصف الصيحانية:

صِغَارُ النَّوى مكنوزةٌ ليس قِشْرها إذا طار قِشْرُ التمرِ عنهـا بطـائِرِ[2]

قال الأصمعى عن ذى الرمة: إذا قلت للرجل: أى اللبن أطيب؟، فإن قال: قارص، فقل: عبد من أنت[3]؟ وإن قال الحليب، فقل: ابن من أنت؟

ومرّ رجل من قريش بامرأة من العرب فى بادية، فقال: هل من لبن يباع؟ فقالت: إنك للئيم أو قريب عهد بقوم لئامٍ. فكأنّها استكثرت بيع اللبن، لأنهم يمنحونه مجانًا.

وقف معاوية رضى الله عنه على امرأة من الأعراب فقال: هل من قِرى؟

(١) ترزّ عيناه: توقدان.

(٢) ديوانه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ص ٩٩.

(٣) قارص: أى حامض، فهو إذن عبد باستطابته إيّاه لأنه يأكل ما يفضل من مواليه.

قالت: نعم. قال: ما عندك؟ قالت: خبز خمير، ولبن فطير، وماء نمير؛ أى صاف. فالعرب تقول: إن الرثيئة ما تَفْثأُ الغَضَب، هو اللبن الحامض يُحلب عليه الحليب، فيصير رائبًا، وأنشده:

وإذا خشيتَ من الفـؤاد لحاجَـةً فاضْرِب عليه بجُرعةٍ من رائبِ[١]

وزعم بعضهم أن اللبن إذا سُخن بالنار وسِيطَ بعُودٍ من شجر التين راب من ساعته. قيل: فإذا أراد صاحبه ألاّ يروب وإن كانت فيه رَوْبة جعل فيه شيئًا من الحَبَقِ، وهو الفُوتَنْجُ النّهرى[٢]، فإنه يبقى كهيئته. وقيل لأعرابى: ما بالكم تأكلون اللحم قبل الثريد؟ قال: لأنّ اللحم ظاعن والثريد مقيم. قيل: فما تسمون المرق؟ قال: السخين. قال: فإذا برد؟ قال: لا ندعه يبرد.

قيل: ذكر العُتْبى عن أبيه: كان عبد الله بن زياد يأكل كل يوم أربع جَراذِق[٣] أصبهانية وجُبْنًا قبل غدائه. قال العتبى: وحدثنا عيسى بن القاسم عن الشمردل وكيل آل عمرو بن العاص قال: قَدِم سليمان بن عبد الملك الطائفَ وقد عرفتُ استجاعتَه، فقال: يا غلام، أفرغتَ من غدائنا؟ قلت: نعم. فقال: وما هو؟ قلتُ: نيِّف وثمانون قدرًا. قال: فأتنى بها قِدرًا قدرًا، فأتاه بها وبطبق عليه رُقاق، فأكثر ما أكل من كل قِدر ثلاث لقم، وأقل ما أكل لقمة، ثم مسح يده واستلقى على فراشه، وأذن للناس، فوُضعت الخِوانات فجعل يأكل مع الناس بأكلهم[٤].

وروى القَحْذمىّ عن عمّه عن سليمان بن قبيصة، قال: عددت للحجاج أربعًا وثمانين لقمة، فى كل لقمة رغيف من خبز الماء، فيه ملء كفه من سَمَك طرى.

وذكر بعض الإخباريين عن سعيد بن أسعد الأنصارى إمام جامع البصرة، أنه كان طفيليًا، ولم يكن تفوته وليمة إلاّ سعى إليها، وإذا كان دعوه سبق إليها فربما بسط معهم البُسط، وأمر ونهى، وتعجل الأكل ثم ينصرف، فقيل له فى ذلك،

---

(١) البيت والخبر فى عيوان الأخبار ٣/ ٢٠٨.

(٢) الاسم الفارسى للحَبَق. والحبق: نبات طيب الرائحة. وسيط بعود: أى حُرِّك.

(٣) الجراذق ـ وبالدال المهملة أيضًا ـ واحده: جرذق، وهو الرغيف.

(٤) هذا الخبر بأطول من هذا بكثير فى عيون الأخبار ٣/ ٢٢٧ ـ ٢٢٨.

فقال: إنى أُبادرُ بردَ الماء، وصفوَ القدور، ونشاطَ الخبَّاز، وخلاء المكان، وغفلة الذّباب، وجفافَ المنديل.

حُدثنا عن يزيد بن هارون، عن محمد بن سالم[1] قال: دخلت على الشعبى بعد صلاة الغداة، فإذا بين يديه طبق خِلاف[2]، عليه خبز وجبن وزيتون، وذكر غير ذلك. فقلت: يا أبا عمر، باكرت الغداء؟ فقال: نعم، قبل ثلاث: قبل أن يسخن الماء، ويكثر الذباب، ويأتينى ثقيل مثلك.

عن عبد الرحمن بن عباس قال: رأيتُ ابن عباس فى وليمة أكل وألقى للخباز درهمًا.

وفى أخبار هشام بن الكلبى عن عبد العزيز بن عمران قال: نزلت بابنة لابن هَرْمة، فقلت: انحروا جزورًا. قالت: لا والله ما هى عندنا. قلت: فبقرة. قالت: لا والله. قلت: فشاة. قالت: لا والله. قلت: فدجاجة. قالت: لا والله. قلت: فأين قول أبيك:

لا أمتِّع العُوذَ بالفِصالِ ولا أبْتاعُ إلاّ قريبةَ الأجلِ؟

قالت: فذاك الذى أفنى ما عندنا. فبلغ ابن هَرمة ما قالت، فقال: أشهد أنها ابنتى حقًا، واشهدوا أنّ دارى لها، دون الذكور من ولدى. العُوذ: الإبل المسنَّة، يقول: لا أمتعها بأولادها بل أنحرها فصالاً، ولا أشترى إلاّ سريعة النحر.

قال المدائنى: كان لزياد بن عبد الله الحارثى جَدى يوضع على مائدته بعد الطعام، لا يمسه هو ولا غيره، فعشى فى شهر رمضان قومًا فيهم أشعث، فأقدم أشعث على الجدى من بين الجماعة فمزّقه، وذلك بعين الحارثى، فتصبَّر، فلما رُفعت المائدة، قال زياد وهو الأمير يومئذ: أمَا لأهل السجن إمام يصلى بهم التراويح؟ قالوا: لا. قال: فليصل بهم أشعث. فقال أشعث: أيها الأمير أوَ غير ذلك؟ قال: وما هو؟ قال: أحلف أنى لا أكلت لحم جدْى أبدًا، فضحك وخلّى عنه.

---

(١) فى (د): «سلاّم».

(٢) طبق خِلاف: الخِلاف: صِنف من الصَّفْصَاف.

وقال بعضهم: مررت بطريق من طرقات الكُوفة، فإذا رجلٌ يُخاصم رجلاً وهو جارُه، ويقتتلان، فقلت: أُصلح بينهما أؤجر، فقلتُ: ما بالكما تقتتلان؟ فقال أحدهم: لا واللهِ إلا أن صديقًا لى زارنى فاشتهى علىّ رأسًا، فاشتريته وتغدّينا به، وأخذت عظامه فوضعتها على باب دارى أتجَمّل بها عند جيرانى، فجاء هذا فأخذها فوضعها على باب داره، يُوهم الناس أنه هو الذى اشتراه.

قال المدينى: كان للمغيرة أبو عبد الله الثقفى وهو على الكوفة جدى يوضع على مائدته لا يُمس، فعرض له أعرابى لم يعرف الرسم، فأكل لحمه، ومزق جلده، فقال له المغيرة: يا هذا تطالب هذا البائس بذَحْلٍ(١)، هل نطحتك أمه؟ فقال الأعرابى: وأبيك إنك لشفيق عليه، هل أرضعتك أمه؟!

حُدثنا أن قاضى صنعاء دخل على أميرها، فما زال يحادثه إلى أنْ حضر غداؤه، فقُدِّمت المائدة عليها قصعة من ثريد، فقال الأمير: أيها القاضى تقدَّم، فقال: إنى صائم، فأكل الأمير والقاضى يحدثه، إلى أن جىء بجمل فى آخر الطعام، فزحف القاضى إلى المائدة ومدَّ يده فأكل منه، فقال الأمير: أيها القاضى، ألم تزعم بأنك صائم؟! فقال: قد كنت صائمًا ولكنى على قضاء يومٍ أقدر منى على قضاء مثل هذا الجمل. ورواه غيره عن رجل آخر بمعناه أن الوالى قال له: هلم الغداء، فقال: إنى صائم، فقُدِّم فى الطعام جدى، فتقدّم الرجل وأخذ يأكل، فقال: أليس زعمت أنك صائم؟! فقال: نعم، ولكن الأيام أكثر من الجدى.

ويقال: ثلاثة أشياء تورث الهزال: شرب الماء البارد على الريق، والنوم على غير وِطاء، وكثرة الكلام برفع الصوت.

ويقال: أربعة تهدم العمر وربما قتلن: دخولُ الحمام على بِطْنةٍ، والجماعُ على الشِّبع، وأكل القَديدِ اليابس، ومجامعةُ العجوز.

ويقال: أربعة أشياء تُفسد العقل إذا أكثر منها: أكلُ البصلِ، والباقلى، والخيار، والجماع.

---

(١) الذَّحل: الثأر.

وقال النظَّام: ثلاثة أشياء تُخلق العقلَ، وتُفسد الذِّهن: طول النظر فى المرآة، ودوام النظر إلى البحر[١]، والاستغراق فى الضحك.

ويقال: عَشاءُ الليل يورث العشا. وعشرة خصال تورث النسيان: أكل سؤر الفأر، وأكل التفاح الحامض، وأكل الكزبرة الرطبة، والحجامة فى النقرة، والبول فى الماء الراكد، وطرحُ القملة فى الطريق، والمشى بين جَمَلين مَقْطورين، وقراءة كتاب القبور، والنظر إلى المصلوب، وكَنْسُ البيت بالخِرْقَة.

قال الأصمعى: وسمعتُ أعرابيًا يقول: اللهم إنى أسألك مِيتةً كمَيتةِ أبى خارجة، أكل بَذَجًا، وشرب مُعَسَّلاً، ونام فى الشمس، ولقى ربه عز وجل شبعان ريَّان دفْآن. مُعَسَّلاً: لبنًا مشوبًا بالعسل. والبَذَج: الحمَل.

• من الزيادات عن أهل الطب فى الطبائع والمأكول [٢]:

روى سليمان بن أرقم، عن الزهرى، حدّثنا حديثًا غريبًا لم يُتابع عليه، تفرَّد به عن صالح بن زياد، أن النبى ﷺ قال: «من يأتِ فى بطنهِ جزرة أو جزرتان أو ثلاث أمِنَ من القَوْلنج والدُّبيلة».

وروى معمر بن خيثم عن جدته ربيعة، قالت: سمعتُ عليًا عليه السلام يقول: إذا أكلتم الرّمان فكلوه بشَحْمِه فإنه دِباغ المعدةِ، وذلك يوم الجمعة على المنبر.

وفى حديث إسماعيل، عن أبى خالد، عن طارق بن شهاب قال: بعث سليمان ﷺ بعض عفاريته، وبعث معه رجلاً وقال: انظر إلى صنيعه، وأخبرنى به، ثم رُدَّه إلىَّ. قال: فدخل السوق فنظر إلى الثوم يكال كيلاً، وإلى الفلفل يوزن وزنًا، فضحك، وذكر بقية الخبر من أفعاله لم يكن فيه من المطعوم غير هذا، فلما ردّه إلى سليمان ﷺ قال له: مِمَّ ضحكتَ؟ من الثومِ والفلفل؟ قال: نظرت إلى الثوم وهو شفاءٌ يكال كيلاً، وإلى الفلفل وهو داءٌ يوزن وزنًا[٣]. ورواه عبد المنعم بن

(١) كيف يفسد العقلَ النظرُ إلى البحر، لعلها محرفة، أو أنهم لم يدركوا قيمة البحر آنذاك.

(٢) يقصد بالزيادات أى زيادة على القراءة الأولى للكتاب، ومن ثم فهى لا توجد فى جميع النسخ التى بين يدى، وإنما فى (هـ) فقط.

(٣) انظر الخبر بتمامه فى عيون الأخبار ٣/ ٢٨٤.

إدريس عن أبيه عن وهب فقاله: كيلاً من الفلفل.

قال: ومرّ بعجوز دَهْرِيّة تتطبب تصف للناس البصل وتترك الثوم، قال: فضحك. فقال له سليمان: مم ضحكت؟ فقال: عجبت من هذه العجوز تصف للناس البصل وهو من الداء وتترك الشفاء وهو الثوم، وإنما كان بها مرة داءً فأكلت البصل فصادف منها بُرءًا فظنت أنه دواء.

قال بعض الإخباريين عن أهل الطب: إن الثوم إذا شوى بالنار ووضع على الضرس المأكول، أو دُلكت به الأسنان التى يعرض فيها الوجع من الرطوبة والريح ذهب ما فيها. وقالوا: ينفع من العطش الحادث من البلغم، ويقوم مقام الترياق من لسع الهوام والأمراض الباردة. قال: وتقول الروم فى الثوم إنه دواء لمن أصابه وجع السّقى فى بطنه، وإن أكله من ظهر به حَرَّةٌ مِن شرًى أو غيره أبرأهُ[1]. وإنْ دُق الثوم يابسًا وأغلى بسمن ولبن، ثم جعله من اشتكى ضرسه فيه سخنًا، فأمسكه ساعة، ذهب وجع ضرسه، وهو نافع لمن اجتوى[2].

وقد ذكر فى البصل أشياء من المنافع وغيرها، ويقال: دُخل على نصر بن سنان وحوله بنون له صغار، فقال: هل تدرون ما ولدى هؤلاء؟ هم بنو البصل؛ نأكله نيًا ومطبوخًا ومشويًا فنهتاج. قال: ويقول الأطباء فى البصل: أنه يشهِّى الطعام إن أُكل نيًا أو مطبوخًا، ويشهِّى الجماع، وإن دُقَّ وشمه الإنسان عطس، ويشهِّى الطعام، وإن اكتُحل بما به مع العسل جلا البصر، وإن وُضع مع الملح والسذاب على عضة الكلب نفع، والمسلوق منه يدرُّ البول، والإكثار منه يفسد العقل.

وقال خالد بن صفوان يومًا لجاريته: أطعمينا جُبنًا، فإنه يشهِّى الطعام ويهيِّج المعدة، وهو يُعَدُّ من زاد العرب. قالت: ما عندنا منه شيء. قال: لا عليك، إنه ما علمتُ ليقدح فى الأسنان، ويَسْتَوْلى على البطن، وهو من طعامِ أهل الذمة.

---

(١) كانت محرفة فى الأصل، وأصلحتها من عيون الأخبار ٣/ ٢٨٥. والشرى: بثُور بعضها صغار وبعضها كبار حكاكة.

(٢) اجتوى: من الجَوَى، وهو داء يأخذ فى البطن لا يستمرأ معه الماء.

وروينا عن ابن عمر: ما يأتينا من العراق فاكهة أحبُّ إلينا من الخبز.

قال: وسُمع عليٌّ يخطب على المنبر فقال: ألاَ إنَّا لم نغتنم من بيت مالكم شيئًا إلا هذه القارورة فيها مسك أهداها لى دهقان، قال: ثم حلَّ مِئزره فأخرج القارورة، ثم قال: اللهم ورمانات من رمان حُلوان، قال: وكان يعجبه الرمان.

● ما ذكر به السويق:

روى عن الحسن رحمه الله: لا تسقوا نساءكم السَّويقَ، فإن كنتم لا بد فاحفظوهنَّ. وقال الرقاشي: السِّمنة للنساء غُلمة، وهى للرجال غفلة. يعنى أنه يهيِّج النساء، ويقطع الرجال. وكان غسان بن عبد الحميد كاتب سليمان بن علىٍّ يقول لجاريته: إذا قلتُ لكِ خوِّضِى[1] لنا سويقًا فأخْثِريه، فإن الرجل لا يستحى أن يزداد ماءً يرقّقه به، ويستحى أن يزداد سويقًا يَخثُره به. ومرّ عبد الله بن معاوية ابن عبد الله بن جعفر الطيار رضى الله عنه بعبد الحميد بن على، وهو فى مزرعته، وقد عطش فاستسقاه، فخاضَ له سويقًا بسكر طبرزد وسقاه، فقال عبد الحميد:

شربتَ طبرزْدًا بغَريض مُزنٍ ... كذَوْبِ الثلجِ خالَطه الرُّضابُ

فما إنَّ ماءَنا كغريض مُزنٍ ... ولكنَّ الملاح بِكم عِذَابُ

وما إنَّ بالطبرزْد طاب لكن ... بِمَسِّك إنّه طاب الشرابُ

وأنت إذا وَطِئتَ ترابَ أرضٍ ... يطيب إذا مشيتَ بها الترابُ

لأنَّ يديك تنفى الْمَحْل عنها ... وتُحيِيها أياديك الرِّطابُ[2]

حدثت عن عبد الرحمن بن أخى الأصمعى عن عمه قال: كانت امرأة من بكر ابن وائل تَنْزِلُ الطُّفاوَةَ، وكانت أدركت بعض أصحاب النبى ﷺ، وكان العُبَّاد يغْشونها فى منزلها، فعاب عائب عندها السَّويق، فقالت: لا تفعل، إنه طعام المسافر، والعجلان، والحزين، والمريض، والمسنة، والنفساء، وطعام من لا يشتهى الطعام. وكانوا يقولون: السويق من عُدَد المسافر، وغداء المبكِّر، وبُلغة المريض،

(١) خوِّضى: خَوَّض الشراب: خلطه وحَرَّكه. والخُثورة: ضدّ الرِّقة.

(٢) الخبر والأبيات فى عيون الأخبار ٣/٢٠٧، وكذا الأخبار السابقة. والمحل: الجدب.

ويشُدُّ فؤاد الحزين، ويردّ من نفس الضعيف، وهو جيد فى التسمين، ونَقاوةَ البلغم، ومَسْمُونَهُ يصفّى الدم، وإن شئت كان ثريدًا، وإن شئت كان خبيصًا، وإن شئت كان خبزًا.

وعن عائشة رضى الله عنها: كنتُ أُسمَّن ـ وأنا جارية ـ لرسول الله ﷺ بالتمر والبطيخ، وفى الخبر: بالقِثّاء والرُّطَب.

وفى حديث أبى جعفر: «كان رسول الله ﷺ يأكل الرطب بالبطيخ، وهو يأكل من هذا مرة ومن هذا مرة». وروى هذا مجملاً: «كان رسول الله ﷺ يأكل القثّاء بالرطب». والخبر المشهور: «أخذ رسول الله ﷺ لقمةً ثم وضع عليها تمرة وقال: هذه إدام هذه». وفى الخبر: «إذا أكل العبدُ التمر بالطَّلع غضب الشيطان وقال: بقى ابن آدم حتى أكل الحديث بالعتيق». وروى عن عمر رضى الله عنه: عليكم بالزيت، فإن خفتم ضرره فأسخنوه بالنار يصير كالسمن.

• من كتاب الطب:

قال أهل المعرفة بطبائع الأطعمة: أحْمدُ التُّمورِ: الهَيْرُونُ[١]، ثم البُرنى. وأحمد البسور: الجَيْسَران[١]. وقالوا: ما اصفرَّ من التمر أحمد مما اسودَّ. قالوا: وخير السمك: الشّبُّوط، والبنانى، والمَيَّاحُ، وخير البيض: بيضُ الشَّوابِّ من الدّجاج، ولا خير فى بيض الهَرِمة. وأخف البيض الرقيق، وأثقله الصلب. ولا تَعْرِضُ من الرأس للدماغ ولا لِلِّسان، ولا الغَلْصَمة ولا الخراطيم[٢]، وأخفه لحم العنق من كل الحيوان، وفى الخبر: «العنق هادية الشاة وأبعدها من الأذى». والفُقَّاعُ[٣] يُشرب قبل الطعام ولا يشرب بعده، ولا يشرب اللبن ولا يؤكل إلاّ بعد وضع الشاة بشهر أو عشرين يومًا. ويؤكل بعد الباقلّى الفُوذنج[٤]، فإنه يذهب بنَفْخَتِه، ويطرح فى المَضِيرة[٥] الفُوذنج، ويؤكل بعد اللوبيا الخردل الرطب.

---

(١) الهَيْرون: البرى من التمر والرطب. الجيسران: جنس من أفخر أنواع البلح، معرب.

(٢) الغلصمة: رأس الحلقوم، وهو الجزء الناتئ من الحلق. والخرطوم: الأنف.

(٣) الفقاع: شراب يتخذ من الشعير.

(٤) انظر فوائده فى كتاب: الموجز فى الطب، لابن النفيس، ص ١١١.

(٥) المضيرة: أن يطبخ اللحم باللبن حتى ينضج اللحم وتَخثُر المضيرة.

يقال: أول ما عُرفت به حكمة بزرجمهر أن الملك حبسه، فقال: سلوا الملك أن يرزقكم مكانَ الأُدْمِ الأترجَّ؛ ليكون القشر لطيبكم، ولحمه لفاكهتكم، والحماض لصباغكم، والحبُّ لدهنكم.

قال الفيلسوف: ويُغسل السويق بالماء الحار ثلاثًا، ثم يغسل بالماء البارد مرة، ثم يشرب. والملح يُستقبل به البطيخ فى أوله. ولا يؤكل من الفاكهة إلاّ ما نضج فى شجره، ثم يلقى ثُقْلُهُ وعَجَمه، ولا يؤكل إلاّ على ريق، ولا يؤكل منه إلاّ لُبه، ولا يؤكل من الخيار إلا لينه. والباذنجان يُشَقُّ ويُحشَى ملحًا ويُترك فى الماء البارد ساعة، ثم يُصب عنه، ثم يُسلق بعد ذلك. ويؤكل من الأُشْتُرغاز[1] خلّه ولا يُعْرض لجسمه.

وقال يحيى بن خالد: شيئان يورثان القمل: التين اليابس إذا أُكل، وبخار اللبان إذا دُخِّن به.

قالت الأطباء: ورق الخوخ وأقماعه إذا دُقَّ وعُصر وشُرب أسهل حبَّ القرع والحيّات والديدان المتولدة فى البطن، وإن تُدُلِّك بورقه بعد النُّورة[2] نفع الجسد.

حُمّاض الأترج إذا لُطِّخ به الكَلَف والقُوبُ أذهبه، وحَبُّ الأترج نافع من السّموم. وورق التفاح الغض إذا دُق بالرفق أيامًا خمسة أو ستة ثم ضُمد به الوشم قلعه من غير أن يقرح موضعه، واللُّفَّاحُ[3] يُشَمُّ ولا يُؤكل.

قال حكماء الروم: والحَبَقُ: الذى ينبت على شطوط الأنهار نافع من الرمد إذا دُق ونُخل واكتُحل به، وإن مضغه ماضغ ثم وضعه على عينه نفعه.

قالوا: وماء الفَوذنج النهرى يدرُّ الطمث، فإن أخذت منه الحبلى أوقية وطُبخ بِنصْف رَطلٍ ماء حتى يبقى منه الثلث، وشُرب سهَّل السَّوداء.

الطرخون: يؤكل مع الكَرَفْس. والرَّاسِنُ: نافع للرأس، يقوِّى المثانة، وينفع من

---

(١) الأشترغاز: فارسى معرّب، وهو نبات حريف رخو طويل الشوك، ترعاه الإبل.

(٢) النورة: أخلاط من أملاح تستعمل لإزالة الشعر.

(٣) اللفاح: ثمر أصفر طيّب الرائحة فيه حب شبيه بحب الكُمَّثرى.

تقطير البول إذا كان من برد. والكَشُوث: يذهب بالأرقان[١].

عنب الثعلب: قاطع لدم الحيض إن شرب أو احتُمِل. والكرفس: إن طبخ وشُرِب ماؤه كان دواء من وجع الكليتين من الأُسْرِ[٢].

قالوا: والحمص محسِّن للون، زائد فى لبن المرضع، يدر دم الحيض، وهو مكثر للمنى، زائد فى الجماع، وإن خلط بالباقلَّى سمَّن. والباقلى إذا أُدمن عليه أكلٌ البصر، وأحال الأحلام أضغاثًا لا تأويل لها. والخردل: نافع من حُمى الرِّبْع، والحُمَّيات المتقادمة، وينفع من وجع الأرحام، ويُجَفِّف اللسان الثقيل من البلغم، وينزل الرطوبة من الرأس. والحُرف: يُخرج حب القرع من الجوف، وينفع من عرق النسا، ووجع الورك، وإذا سُخِّن بالماء الحار وشُرب منه وزن خمسة دراهم أسهل الطبيعة، ونفع من القولنج.

حدث أبو حاتم عن الأصمعى قال: قلت لابن أبى عطارد: بلغنى أن أباك كان ذا منزلة من ابن سيرين، فما حفظت منه؟ قال: قال أبى: قال لى ابن سيرين: يا أبا عطارد، إن سَوِيق العدس البارد يرفع الدم.

الباذنجان: إذا أُكثر منه ولَّد الكَلَف فى الوجه، وأورث السرطان والأورام الصلبة.

شمُّ الخيار: صالح لمن أصابه الغشى من الحرارة.

بِزْرُ القثاء: إذا شربه من به الأُسْر نفعه، وإن أصابت رضيعًا حمى فألزقتَ به قثاءتين تمسّانِ جلده إحداهما عن يمينه والأخرى عن شماله ساعة واحدة من النهار قلعت الحمى عنه.

السِّلْق: إن دُقَّ مع أصله وعصر ماؤه وغسل به الرأس أذهب بالأتربةَ، وأطال الشعر.

---

(١) الطرخون: بقلة ورقها طوال دقاق، معروفة بالشام. الراسن: نبات يشبه الزَّنجبيل. والكُشوث: شيء يتعلق بالنبات مثل الخيوط، يشرب من ماء النبات الذى يتعلق به، ولا أصل له فى الأرض، ولا ورق، ويكثر فى الكروم الرِّطاب، وكثيرًا ما يفسد النبات. والأرقان: لغة فى اليرقان: داء يصيب الناس يصفر منه الجسد.

(٢) الأُسْر: احتِباس البول.

القَرْع: إذا شوى بالنار، ثم عُصر فجعل ماؤه فى أذن من يشتكى أذنه نفعه. وإن دُهن منابت شعر اللحية بدهن القرع المرّ وقثاء الحِمار مُدافٌ فيه شيح أرمنى أسرع فيها إنبات الشعر.

بقلة الرِّجْلَة: إذا مُضغت أذهبت شهوة الجماع، وتذهب الطَّرَش.

السَّذاب[1]: قاطع لشهوة الجماع.

الخس: إذا أُكل على الريق نافع لتغيير الماء ومن يتأذى بالاحتلام إذا شُرب بزره بماء بارد.

الخَرْدل: مكثر للّبن مدر للبول، إلا أنه يورث ضعفًا فى البصر، وإن غلى ماؤه ثم صفى واكتُحل به جلا البصر الضعيف من الرطوبة. وتزعم الروم أن ماءه ينفع الأطفال من الحمى إذا أصابتهم. قالوا: وهو يفسد الذهن، ويورث النسيان.

وقالت الروم: من نظر عند رؤية الهلال إلى الهندبا فحلف بإلهِه لا يأكل هندبا ولا لحم فرس، سَلِم فى كل شهر يحلف فيه من وجع الضرس.

وقالت الأطباء: الكراث النبطى: إذا أُدمن كانت منه الأحلام الردية، وولَّد بُخارًا فى الرأس، فإن صبّ فى مائه خل ودقاق كُندر واستُعط به سكَّن الصداع، وإن سُلِق أو طُحِن وأُكِل أو ضُمد للبواسير العارضة من الرطوبة نفع منها. وماء الكراث: إذا خلط بمثله من ألبان النساء ودُهن الورد والكُندر فكُحل به عين من أصابته غشاوة فى بصره فلم يبصر ليلاً نفعه، وأكل البصل نافع لذلك أيضًا.

قال بعضهم: شكوت إلى حُنَين المتطبب علةً كنت أجِدُها فى حلقى لا أكاد معها أقدر على ابتلاع ريقى، فقال لى: تغرغر بعقيد العنب مع خمير ثلاثة أيام فى كل يوم ثلاث مرات، ففعلت ذلك فذهب.

قالوا: إذا دق الكرنب وخلط بشىء من زاج الأساكفة، وشىء من خلٍّ فأُديف ذلك بالخِطْمىّ ثم طلى به جرب أو برص نفع بإذن الله تعالى.

قالوا فى الفجل: هاضم للطعام، وإن أُكل بِزْرُه بعسل كان دواءً من السعال

---

(١) السّذاب: بقل يفرِّع فروعًا تطلع من ساق قصيرة له.

والفواق، وإن شُدِخ الفجل الرطب فطرح على عقرب ماتت، وماؤه وبزره بمنزلة الترياق للسموم، وإن طلى أحدٌ يَدَهُ بمائه، ثم قبض على حية أو غيرها من الهوام لا يضره ذلك الموضع، وإن دُقَّ بزره مع الكُندر وطلى به البَهَق الأسود فى الحمام أذهبه، وإن شُرِب ماء ورقه نفع من الأَرَقان الحادث من الطحال.

البصل: إذا اكتحل بمائه مع العسل جلا البصر، والمسلوق منه يدر البول، والإكثار منه يفسد العقل.

قالوا فى لحم الماعز: يحرك السوداء، ويفسد الدم، ويورث الهم. وأحْمدُ اللحمانِ ما خُصى من المعز والضأن، وكان فتيًا، ولا خير فيما أسنَّ، ولحم الضأن نافع من السوداء. واللحم أقل الطعام نَجْوًا. ولحم الدجاج الهرم شر اللحمان وأغلظها.

البيض: إن سُلق بالخل وأُكل بالسُّمَّاق[1] وحب الرمان المخلو والملح المُرِّىّ عقد الطبيعة.

الزبد: إن طلى على منابت أسنان الطفل كان معينًا على نباتها وطلوعها، والمخ والدماغ يفعلان ذلك أيضًا.

حكى الأصمعى عن بعض أشياخه: ثلاثة أشياء ربما صرعت أهل البيت عن آخرهم: لحوم الإبل، والجراد، والفُطْر. تقول الأطباء: أَرْدأُ الفُطرِ ما ينبت تحت ظلال الشجر، وأرداه كله ما كان فى ظل شجر الزيتون، والفُطر يورث الذُّبْحة.

قالوا: والكَمأةُ تورث وجع القولنج، والفالج، والسكتة. والذباب لا يقرب قِدرًا فيها كَمْأة. ومن أراد اتخاذ الكمأة اليابسة جعلها فى الطين الحارِّ يومًا وليلة، ثم غسلها واستعملها.

قد روى قتادة: عن شهر بن حوشب، عن أبى هريرة رفعه: الكمأة من المنّ، وماؤها شفاء للعين، والعجوة من الجنّة، وهى شفاء من السم.

(١) السّماق: من شجر القفاف والجبال، وله ثمر حامض عناقيد فيها حب صغار يُطبخ. وقوله: «عقد» فى عيون الأخبار ٣/ ٢٨١ «عقل».

- وقال بعض الطب: الفُقَّاع المتخذ بدقيق الشعير نافع من الجذام.

قال الشيخ أبو طالب رضى الله عنه وأرضاه: هذا ما نقلته نقلاً ورسمته، نقلته من كتب أهل الأثر[١] ونَقَلَة الأخبار على أهل العلم بطبائع النبات، وهى حكمة الله سبحانه أودعها خواص الأشياء نافعة وضارة بإذنه وقدرته عن حُكمه وحكمته، وأنا برىء من عهدتها؛ إذ لا يقين عندى بحقائقها.

آخر الزيادات من الآثار المنقولة من كلام العلماء على الأصل الأول[٢].

• باب ذكر من لا ينبغى أن تجاب دعوته، والشىء الذى إذا رآه المدعو فله أن يخرج من رؤيته:

قد كان السلف الصالح رضى الله عنهم لا يجيبون فى طعام التباهى والتبارى، ولا ما يقدَّم للتزين به، والتجمل، ولا مما لا يحبون أن يؤكل جميعه، أو مما يراد أن يؤكل بعضه، أو يترك للزينة، أو يراد به الرياء والسمعة، كلُّ هذه الأشياء إذا عُلم هذه المعانى منها مكروه؛ إذا حضرت بهذه الأسباب، وكذلك الإجابة إذا دُعى إليها غير مستحبة.

قال بعض المكيين: قلت لوهيب بن الورد: إنا لا نراك تُدعى إلى هذه الدعوات وتكره الإجابة إلى بعضها، فهل تعلم من تخصه فى ترك الإجابة إذا دُعينا؟ فقال: نعم، حديث ابن مسعود: «نهينا عن إجابة دعوة من تباهى بطعامه، ونهينا عن إجابة من يُنجِّد بيته، ونهينا عن إجابة من يدعو الأغنياء ويترك الفقراء».

وروينا أن عثمان رضى الله عنه دعى إلى طعام، فقال: إنى أخاف أن يكون صُنع مباهاة. وأما ابن عمر: فإنه دعى إلى طعام فرأى البيت قد نُجِّد فرجع ولم يدخل. والتنجيد وضع بساط على بساط وأن يستر الحيطان بالستور.

ونهى رسولُ الله ﷺ أن تُستر البيوت بالثياب كما تستر الكعبة، ونهى أن يُنصب ستر فيه تصاوير، فمن رأى شيئًا من ذلك فلا يقعد، فقد كان السلف

(١) معظم الأخبار التى نقلها عن أهل اللغة والطب مأخوذة من كتاب عيون الأخبار، كتاب الطعام.
(٢) هذا يدل على أن هناك أصلاً أولاً، والذى بين أيدينا الأصل الثانى وهو نسخة (هـ) نقلاً عن الشيخ نفسه. وانظر المقدمة.

يخرجون إذا رأوا البيوت مستورة، والأستار عليها صورة منصوبة، وربما هتكوه وأنكروه عليهم، فعل ذلك ما لا يحصى من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم. فهذا مما أُبدع ولم يكن يُعرف فيما سلف، ولم يكونوا يجيبون فى ختان جارية، ولا فى اليوم الثالث من الوليمة؛ لأنهم كانوا يقولون: الطعام فى الوليمة أول يوم سُنة، وثانى يوم معروف، وثالث يوم سمعة.

وروينا عن عبد الرزاق، عن معمر: أن ابن المسيب دُعى فى وليمة أول يوم فأجاب، ثم دُعى اليوم الثانى فأجاب، فجاءوه للدعوة فى اليوم الثالث فرماهم بالحصا، وقال: اذهبوا أهل سمعة.

هذا لحرصهم على الإطعام وكثرة بذلهم للطعام، كانوا يَدْعون إلى الوليمة ثلاثًا؛ لاختصاصها بالنكاح للأمر بها، والأمر بالإجابة للدعوة إليها؛ لقوله ﷺ: «أولِم ولو بشاة» ، وقوله: «الوليمة حقٌ فمن لم يُجب فقد عَصَى الله عز وجل».

وكلُّ طعام صُنع لأجل سبب محظور فلا يجيبن فيه، كان بعض العلماء يقول: انظر عند من تأكل، فإن العبد ليأكل الأكلة فيتقلب قلبه فلا يعود إلى ما كان عليه أبدًا. وقال آخر: إن الرجل ليأكل الطعام يُدعى إليه، فيَنغَلُ قلبه عليه، كما يَنغَل الأديم العتيق، فلا يصلح بشىء.

أبو صالح الفراء عن ابن أسباط: قلت للثورى: من أجيب؟ قال: لا تدخل على رجل إذا دخلت عليه أفسد عليك قلبك. وكان يكره الدخول على أهل البُسُط، يعنى الأغنياء.

فأما طعام المآتم فهو على ضربين: نوع منه يصنعه أهلُ الميت للنوائح والبواكى ومن يعينهم على الجزع وتجديد الحزن، فأكل هذا مكروه، وإجابة الدعوة إليه لا تجوز؛ منهى عنه. ونوع يُحمل إليهم على المعروف والصلة من الحاملين لهم؛ لشغلهم عن أنفسهم وإصلاح طعامهم بميتهم؛ فهذا لا بأس به وبحمله إليهم. ويجوز الأكل منه وأن يطعموه غيرهم؛ لأنه من البرّ والمعروف، إن لم يُرَد به النوائح، ولا المجالسة على القبور للجزع والأسى.

وقد روينا عن رسول الله ﷺ أنه قال لما جاء نعى جعفر بن أبى طالب: «إن آل

جعفر شغلوا بميتهم عن صنيع طعامهم، فاحملوا إليهم ما يأكلون»؛ فهذا سنّة فى حمل الطعام إلى أهل الميت.

ومن دُعى إلى طعام وكان فى بيت الداعى إحدى خمس خصال فلا يجيب دعوته ولا حرج فى ترك إجابته: إن كانت مائدته يُشرب بعدها مسكر وإن لم يعاينه فى الحال، أو كان فى الأثاث فراشُ حرير أو ديباج، أو كان فى الآنية ذهب أو فضة، أو كان متخذ الحيطان سترًا بالثياب كما تُستر الكعبة، أو كان صورة ذات روح فى ستر منصوب، أو فى الحائط. ومن أجاب الدعوة فرأى إحدى هذه الخمس فعليه أن يخرج أو يُخرج ذلك، فإن قعد فقد شرَكهم فى فِعْلهم.

دعى أحمد بن حنبل رحمه الله إلى طعام، فأجاب فى جماعة من أصحابه، فلما استقر فى المنزل رأى إناء من فضةٍ فى البيت، فخرج وخرج أصحابه معه ولم يطعموا. ويقال: إنه خرج من أشنانةٍ رآها كان رأسها المغطاة به فضة، لم يصبر فخرج لذلك.

حُدثت عن أحمد بن عبد الخالق قال: حدثنا أبو بكر المروزى قال: سألت أبا عبد الله عن الرجل يدعى إلى الوليمة، من أى شىء يخرج؟ قال: خرج أبو أيوب حين دعى فرأى البيت قد سُتر. ودعى حذيفة فرأى شيئًا من زىٍّ العجم فخرج، وقال: من تزيا بزىّ قوم فهو منهم. قلتُ لأبى عبد الله: فإن رأى شيئًا من فضة؟ فقال: ما كان يُستعمل يعجبنى أن يخرج. قلت: إن كان أشنانة ترى أن يخرج؟ قال: نعم أرى أن يخرج. قال: وسمعته يقول: دعانا رجل من أصحابنا قبل المحنة، وكنا نختلف إلى عفان، فإذا إناء من فضة، فخرجت فاتبعنى جماعة، فنزل بصاحب البيت أمر عظيم. فقلتُ لأبى عبد الله: الرجل يُدعى فيرى المَكْحلة رأسها مفضضة قال: نعم، هذا يستعمل، كل ما لا يستعمل فاخرج منه، إنما رُخِّص فى الضبة أو نحوها فهو أسهل. وسألته عن الكِلَّة[1]، فكرهها. قلت: فالقبة أو الحَجَلة[2]؟ فلم يرَ بها بأسًا.

---

(١) الكِلَّة: ستر رقيق مُثقَّب يُتوقَّى به من البعوض وغيره. الجمع: كِلَلٌ.
(٢) الحَجَلة: ساتر كالقُبة يُزيَّن بالثياب والستور للعروس. الجمع: حَجَل، وحِجال.

وقلتُ لأبى عبد الله: إنّ رجلاً دعا قومًا فجيء بطست فضة وإبريق فكسره، هل يجوز كسره؟ قال: نعم.

قال أبو بكر المروزى: سألته عن الرجل يدعى فيرى فرش ديباج ترى أن يقعد عليه، أو يقعد فى بيت آخر؟ قال: يخرج، قد خرج أبو أيوب وحذيفة، وقد روى عن ابن مسعود الخروج. قلتُ: ترى أن يأمرهم؟ قال: نعم، يقول: هذا لا يجوز.

قلت لأبى عبد الله: الرجل يكون فى بيت فيه ديباج يدعى إليه للشيء؟ قال: لا تدخل عليه ولا تجلس معه. قلت: الرجل يُدعى فيرى الكِلَّة، فكرهها وقال: هو رياء لا تردّ من حرٍّ ولا تردّ من برد. قلت: الرجل يُدعى فيرى سترًا فيه تصاوير. قال: لا تنظر إليه. قلت: فقد أنظر إليه. قال: إنْ أمكنك خلعه خلعته.

قال: سألتُ أبا عبد الله عن الستر يكتب فيه القرآن، فكره ذلك. قال: ولا يكتب القرآن على شيء منصوب، لا ستر ولا غيره. قلت: الرجل يكترى البيتَ فيه التصاوير ترى أن يحكه؟ قال: نعم. قلت لأبى عبد الله: دخلتُ حمامًا فرأيت فيه صورةً ترى أن أحكّ الرأس؟ قال: نعم. وسألته عن الجوز يُنثر، فكرهه وقال: يُعْطَوْنَ يُقَسَّم عليهم، يعنى: الصبيان، كما صنع ابن مسعود. إسناده جيد.

أبو حصين عن خالد بن مسعود قال أبو بكر المروزى: دخلت على أبى عبد الله وقد حَذَقَ ابنه، وقد اشترى جوزًا يريد أن يعده على الصبيان، يقسمه عليهم وكره النثر، وقال: هذه نُهبة.

وقال هاشم بن القاسم: حدثنا محمد قال: كان طلحة والزبير يكرهان النثر فى كل شيء فى العرس، وفى الحذاق وغيرهما، من الجوز والسكر. قال: وسألتُ أبا عبد الله عن قرض الرغيف والخمير، فلم يرَ به بأسًا.

آخر الزيادة فى الجديد من الأصل الأول[1].

خمسة لا تجاب دعوتهم، وإن دُعى رجل ولم يعلم ثم علم، فلا حرج عليه أن

---

(١) دليل على إملاء الشيخ للكتاب أكثر من مرة.

يخرج من بيته: المبتدع، وأعوان الظلمة، وآكل الربا، والفاسق المعلن بفسقه، ومن كان الأغلب على ماله الحرام، ولم يكن يردع عن الآثام فى معاملته الأنام؛ لأن النبى ﷺ قال: «لا تأكل إلاّ طعام تقى، ولا يأكل طعامك إلاّ تقى». وذلك لأنّ التقى قد كفاك الاجتهاد فى المأكول للتقوى، فأغناك عن السؤال عنه؛ ولأن التقى إذا أطعمته استعان بالطُّعمة على البرّ والتقوى، فتصير معاونًا له عليها، كما قال تعالى: ﴿وتَعاوَنُوا عَلَى البرِّ والتَّقْوى﴾ [المائدة: ٢] فَيُشْرِكُه فى برّه.

والفاجر والظالم إن أكلت طعامهما صِرتَ من أعوان الظلمة بمشاركتك لهما فى الطُّعمة. كما سأل خياط ابن المبارك فقال: إنى أخيط لبعض وكلاء هؤلاء، يعنى الأمراء، فهل يُخاف أن أكون من أعوان الظلمة؟ فقال: لست من أعوان الظلمة بل أنت من الظلمة، إنما أعوان الظلمة من يبيع منك الخيوطَ والإبر.

وقد عمل ذُو النون المصرى أغمض من هذا فى الورع، ما سمعتُ أدقَّ منه. إن السلطان لما سجنه فى كلام أنكره عليه العامّة من العلم الغامض، كانت المائدة من قِبَل السلطان تختلف إليه، فلم يكن يطعم منها شيئًا، ولم يأكل أيامًا كثيرة مدة مقامه فى السجن، فكانت له أخت قد آخته فى الله تعالى تبعث إليه من مغزلها، وتدفعه إلى السجّان فيحمله إليه ويعرِّفه أنه من قِبَل تلك العجوز الصّالحة، فلم يأكل أيضًا منه، فلما خرج لقيته العجوز، فعاتبته على ردّ الطعام، وقالت: قد علمتَ أنه كان من مغزلى؟ فقال: نعم، إلاّ أنه جاءنى على طبق ظالم فرددته لأجل الظرف[1]، يعنى بهذا: يدَ السجان.

ولعمرى أنّا روينا عن علىٍّ عليه السلام أنه أهدى له دهقان بالكُوفة فى يوم عيد لهم خبيصًا على جامٍ من ذهب يكرمه بذلك، فردّه ولم يأكل منه، وقال: رددته لأجل ظرفه الذى كان فيه.

وقيل: من أكل لقمةً من حرامٍ قسا قلبه أربعين يومًا. ويقال: أظلم قلبه. ومن أكل الحرام أربعين يومًا لم يزهد فى الدنيا أبدًا. فهذا كما قيل فى ضدّه: من أكل

---

(١) الظرف: الوعاء.

الحلال أربعين يومًا زهد فى الدنيا، وأدخل الله تعالى النور فى قلبه، وأجرى الحكمة على لسانه.

وقال بعض السلف: أوّل لقمة يأكلها العبد من حلال يغفر الله تعالى له بها ما تقدم من ذنبه. وقال الآخر: من أقام نفسه مقام ذُلٍّ فى طلب الحلال تساقطت عنه ذنوبه كما يتساقط ورقُ الشجرِ فى الشتاء. وكان سهل رحمه الله يقول فى السائحين فى الأمصار والمنقطعين بالأسفار: إن الرجل ليدخل قريةً فيجوع، ولا يقدر على الحلال، فتعرض عليه الشبهات فلا يأكل، ويبيت تلك الليلة جائعًا، فيُجعل فى ميزانه جميع أعمال أهل تلك القرية.

ومن أجبره سلطان على طعام، أو قُدِّمت إليه شبهةٌ أُكره على أكلها، فليتعلَّل بعلالة منه، ولينقر نقيرًا، ولا يقصد طيبًا، ولا يكبِّر اللقمة، ولا يستكثر فى الطعمة، وليأكل ما يسدّ رمقه، وما يخاف التلف على نفسه إن هو فارقه.

حدثنى بعض الشهود: أنّ مزكيًا من بعض أهل العلم بخراسان ردّ شهادة شاهد أكل من طعام سلطان كان أجبره، فقال: إنه كان أجبرنى على الأكل. فقال: قد علمت ذلك، ولم أردّ شهادتك لأنك أكلت، ولكن رأيتك تقصد الطيِّب وتكبِّر اللقمة، فهل كان أجبرك على هذا؟ فلهذا جرّحتك عند الحاكم. قال لنا الشيخ: وأجبر السلطانُ هذا المزكى على الأكل من ماله فقال: اختاروا إحدى خصلتين: إما أن آكل كما أمرتم، ولا أزكى أحدًا بعد ذلك، ولا أجرِّح، ولا أعدل شاهدًا، وإما أن أُترك على حالى هذا فى الجرح والتعديل بالتزكية، ولا آكل من طعامكم. قال: فنظر السلطان وذووه فإذا هم محتاجون إليه؛ لأنه كان قليل النظير، ولم يكن له بدٌّ من حُسن نظره، ومن قيامه بشأن الحكام، فتركوه وحده فلم يأكل من طعامهم شيئًا، وأجبروا من كان معه، وكانوا قد حُملوا من نيسابور إلى بخارى فى قصة طويلة حذفت سببها. والمعنى هذا باختلاف الألفاظ التى سمعتها، ولكن توخيتُ ما سمعتُ على المعنى.

وقد كان بشر بن الحارث يقول فى الأكل من الشبهات: يدٌ أقصر من يدٍ، ولقمةٌ أصغر من لقمة. وكان إذا نفروا تكلم فى الحلال. قيل له: فأنت يا أبا نصر

من أين تأكل؟ فكان يقول: من حيث تأكلون، وليس من يأكل وهو يبكى مثل من يأكل وهو يضحك.

وقد كان سرى السقطى يقول: لا يصبر على ترك الشهوات إلا من ترك الشبهات. ففى تدبره أن من أحبَّ الشهوات لم يترك الشبهات.

كما كان الزهرى إذا عوتب فى صحبة بنى مروان يقول: أصدقكم الحق، اتسعنا فى الشهوات، فضاق علينا ما فى أيدينا، فانبسطنا إليهم.

وهذا فصل الخطاب لأولى الألباب. والله أعلم.

قال الشيخ أبو طالب رحمة الله عليه وأرضاه وأكرم مثواه وجعل الفردوس مأواه، وجعلنا من إخوانه وممن والاه، بجوده وكرمه إنه قادر على ما يشاء.

هذا آخر كتاب الأطعمة.

* * *



الفصل الحادى والأربعون

فى ذكر فضائل الفقر وفرائضه، ونعت عموم الفقراء وخصوصهم، وتفصيل قبول العطاء ورده وطريقة السلف فيه

[أنبأ أبو القاسم، قال أبو طالب](١):

قال الله الكبير المتعال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ [الحشر:٨]. وقال تبارك وتعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِى سَبِيلِ اللهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى الأَرْضِ﴾ [البقرة:٢٧٣]. فقدّم وصف أوليائه بالفقر على مدحهم بالهجرة والحصر. والله تعالى لا يصف من يحب إلاّ بما يحبّ، فلولا أنّ الفقر أحبُّ الأوصاف إليه ما مدح به أحباءه وشرَّفهم به.

وأمر رسولُ الله ﷺ بالفقر وأخبر بفضله فى غير حديث؛ منها حديث إسماعيل ابن عياش، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمران، عن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «أىُّ الناسِ خيرٌ؟ فقالوا: مُوسِرٌ من المال يُعطى حقَّ اللهِ عز وجل فى نفسه وماله. فقال: نعْمَ الرّجلُ هذا وليس بِهِ. قالوا: من خيرُ الناس يا رسول الله؟ قال: فقيرٌ يُعْطِى جُهْدَهَ».

ومنها حديث بلال أنّ رسول الله ﷺ قال له: «الْقِ الله عز وجل فقيرًا ولا تلقه غنيًا». وفى الحديث الذى رُوى عن ابن الأعرابى أنّ النبى ﷺ قال له: «لا أفضل من الفقير إذا كان راضيًا». وفى الحديث الآخر: «إنّ الله تبارك وتعالى يحبّ الفقير المتعفِّف أبا العيال». وفى الخبرين المشهورين: «يدخل فقراءُ أمتّى الجنةَ قبل أغنيائهم بخمسمائة عام»، والحديث الآخر: «اللهم أحينى مسكينًا، وأمِتْنى مسكينًا، واحْشُرنى فى زُمرة المساكين».

---

(١) من (هـ) فقط.

فهذا منه ﷺ تفضيل للفقراء، وإكرام لهم، وتنبيه وحثٌّ على فَضْل الفَقْر.

وروينا عنه ﷺ: «خيرُ هذه الأمةِ فُقراؤها، وأسرعها تَضْجيعًا في الجنةِ ضُعفاؤها».

وروينا في خبر إسماعيل النبي عليه السلام المفسِّر لخبر موسى عليه السلام: «إنّ إسماعيل قال: يا رب أين أطلبك؟ فقال الله عز وجل: عند المنكسرةِ قُلوبهم مِن أجلي. قال: ومَن هم؟ فقال تعالى: الفقراءُ الصادقون». وقال أبو سليمان الداراني: الأعمالُ كلها في الخزائن مطروحة إلاّ شيئين، فإنه مخزونٌ مختوم عليهما لا يعطاهما إلاّ من طَبعه الله بطابع الشهداء: الفقرُ مع المعرفة. وكان يقول: تنفُّس الفقير دون شهوة لا يقدر عليها أفضل من عبادة غنيٍّ عمره كلّه.

وقد كان بشر يقول: مَثَل الغنيِّ المتعبِّد مَثَل روضةٍ على مزبلة، ومَثَل العبادة على الفقير مثل عِقْد جوهر في جيد الحسناء. وقال: العبادةُ لا تليق بالأغنياء. وكان يقول: التقوى لا تحسن إلاّ في فقر. وقال له رجل فقير: يا أبا نصر ادع الله عز وجلّ لي، فقد أضرّ بي الفقرُ والعيال. فقال له بشر: إذا قال لك عيالك: ليس عندنا دقيق ولا خبز، فادع الله تبارك وتعالى لي أنت في ذلك الوقت، فإن دعاءك أفضل من دعائي.

وقال بعض السلف: أبى أهلُ المعرفة بالله عز وجل أن يقبلوا هذا العلم، وكرهوا أن يسمعوه من الأغنياء، زعموا أنه لا يليق بهم.

وقد كان بعض الفقراء يقول: هذا العلم ـ يعني علم المعرفةِ ـ عوَّضه الله سبحانه وتعالى الفقراء بدلاً من الدنيا لا يظهره إلاّ هم، ولا يوجد إلاّ عندهم، روَّحهم اللهُ عز وجل به في الدنيا، وجعله عِوَضًا لهم مما تركوا له اليوم، فإذا كان غدًا فهُمُ الذين لا تعلم نفس ما أُخفي لهم من قرة أعين، وهو المزيد.

وقد روينا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد: ٢٣ ـ ٢٤]، قال: الفقر في الدنيا.

فمن فرائض الفقر عند الفقراء: الصبرُ عليه بترك المسألة قبل ورود الفاقة،

وقطعُ الهمِّ عن التشرُّف إلى الخلق، وأن لا يتناول عند الحاجة ما حظره عليه العلمُ، ولا يجاوز حدّاً من حدود الأحكام، وإن سأل عند الحاجة[١] لم يستكثر ولم يدَّخر، فإن أُعطى فوق كفايته فاقتناهُ ليكفَّ عن المسألة فلا بأس به، ويتوخَّى فى مسألته المتّقين، ومن يعلم أنه يتحرَّى فى مكسبه، فإن مسألته عملٌ له يلزمه التورُّع فيها، كما يلزمه الورعُ فى مكسبه، ولا يسأل من يعلم أنه لا يبالى من أين يأكل، ومن لا يرتدع عن الحرام فى مكسبه.

والعبدُ بنفس الحاجة والجوع يستحق على إخوانه شبعةً يقيم بها صُلبه، ويسكّن بها نفسه، وبنفس العُرى والعُدم يستحق عليهم ثوبًا يُوارى به عورته، وذلك لازم للمسلمين وواجب له، فإن قام به بعضُهم سقط عن بعض وجوبه، وإن سأل ذلك فلا شىء عليه. ويقال: إنّ كفّارة المسألة صدقُ السائل فى مسألته، وصدقه أن لا يسأل إلاّ بعد فاقته، ومع خوف التقصير فى أداء فرائضه من اختلاف عَقْله وتشتُّت قلبه. وأن يكفَّ مع أول الكفاية، ولا يدّخر بعد الشِّبع ليستكثر، ولا يجعل المسألة إن دُفع إليها له عادة ووكدًا، ولا حرفةً وكدًّا[٢]. ومهما استغنى عن السؤال فليكن ذلك أحب إليه، فإنّه أفضلُ له. وقد سأل ثلاثة من الأنبياء عند فاقتهم: سليمان عليه السلام لما سُلب ملكه أربعين يومًا، وموسى والخضر عليهما السلام لما استطعما أهلَ القريةِ.

ورويناعن رسول الله ﷺ: «للسائل حقٌّ وإن جاءَ على فرس». وفى الحديث: «ردُّوا السائلَ ولو بظِلف محرق». فلو كانت المسألة إثمًا وعدوانًا لم يحثّ على الإعطاء، فيكون معاونًا على الإثم والاعتداء، ولكن ذلك من البر والتقوى، لأنه سبب منه ودالٌّ عليه، مُعاونٌ[٣] بالأمر به لحرمة الإسلام، ولأنّ المواساةَ من المعروف والإحسان. وسمع عمر رضى الله عنه سائلاً يسأل بعد المغرب فقال: يا يرفا عشِّ الرجل، فعشاه. ثم سمعه ثانية يسأل فقال: ألم أقل لك عشِّ الرجل؟

---

(١) فى (م): «عبدٌ حاجة».

(٢) ساقطة من المطبوعة.

(٣) فى المطبوعة: «فعاون بالأمر به»، وفى (د): «معاونًا عليه بالأمر».

فقال: فقد عشيته. فنظر عمر فإذا تحت يده مخلاة مملوءة خبزًا. فقال: لست سائلاً ولكنك تاجر، ثم نثر المخلاة بين يدى إبل الصدقة وضربه بالدِّرَّة وقال: لست سائلاً، أنت تاجر.

وروينا عن عليٍّ عليه السلام: إنّ لله عز وجل فى خلقه مثوبات فقر، وعقوبات فقر. فمن علامة الفقر إذا كان مثوبة: أن يحسُن خُلُقه، ويُطيع به ربَّه، ولا يشكو حاله، ويشكر الله تعالى على فَقْره. ومن علامات الفقر إذا كان عقوبة: أن يسوء عليه خُلقه، ويعصى به ربه، ويُكثر الشكاية، ويتسخَّط القضاء.

فهذا كما قال عليٌّ عليه السلام. وهذا النوع الذى هو عقوبة من الفقر هو الذى استعاذ منه النبى ﷺ، وهو فقرُ النفسِ؛ لأن الفقر من المال إنما هو الافتقار إلى الخلق والفقر إلى الأشياء مع عدم صدق الحال.

وقد روينا فى الخبر: «مسألة الناس من الفواحش، ما أُحِلَّ من الفواحش غيرها». وبايع رسولُ الله ﷺ قومًا على الإسلام، فاشترط عليهم السمع والطاعة، ثم قال كلمة خَفِيّةً: «ولا تسألوا الناس شيئًا». فكان ﷺ يأمر بالتعفف والكف عن المسألة، ويقول: «من سألنا أعطيناه، ومن استغنى أغناه اللهُ عز وجل». وقال: «من لم يسألنا فهو أحبُّ إلينا». وقال عليه الصلاة والسلام: «استغنوا عن الناس، وما قلّ من السؤال فهو خير». قالوا: ومنك يا رسول الله؟ قال: «ومنى». فلو لم يكن فى ترك المسألة إلاّ دعاء رسول الله ﷺ ومحبته لكان خيرًا كثيرًا.

وقال ﷺ(١): «من سأل عن غنىً فإنّما يستكثر من جَمْر جهنم، ومن سأل وله ما يُغنيه جاءَ يومَ القيامة ووجههُ يَتَقَعْقَع ليس عليه لَحم». وفى خبر آخر: «كانت مسألته خُدوشًا وكُدوحًا فى وجهه». وفى الحديث: «استغنوا بغنى الله عز وجل. قالوا: وما هو؟ قال: غداءُ يوم أو عشاءُ ليلة» وفى الخبر: «من سأل وله خمسونَ دِرهمًا أو عدلها من الذهب، فقد سأل إلحافًا». ومن كان معه هذا القدر من الدنيا

(١) من قوله: «ومحبته» إلى هنا ساقط من المطبوعة.

لم يخرجه من عموم الفقراء، فإن سأل مع ذلك أخرجه من عمومهم، ومن سأل قبل الجوع، أو بعد الشبع، أو سأل ليدَّخر، أو سأل وله غداء يوم، أو عشاء ليلة، أخرجه ذلك من خُصوص الفقراء. وسئل سُفيان الثورى عن أفضل الأعمال، فقال: التحمّل[١] عند المحنة.

وعلى الفقير أن لا يزكِّى غنيًا لأجل عطائه، ولا يذمّه ولا يمقته لأجل منعه، ولا يعظِّم أهل الدنيا، ولا يكرمهم لأجل دنياهم. وقال ابن المبارك: مِن تواضُع الفقير أن يتكبر على الأغنياء. وعن علىٍّ عليه السلام فى حكاية المنام: ما أحسن تواضع الغنى للفقير رغبةً فى ثواب الله عز وجلّ، وأحسنُ منه تيهُ الفقير على الغنى ثقةً بالله عز وجل.

ومن فرائض الفقر: أن لا يسكت الفقيرُ عن حق، ولا يتكلم بهوى لأجل دوام العطاء من أحد، ولا لاجتلاب نفع؛ فإن ذلك وليجة فى الدين ومداهنة للمؤمنين.

ومن فضائل الفقر: أن لا يدّخر لأكثر من أربعين يومًا، ولا يكون المدَّخر أكثر من أربعين درهمًا. والأصل فى ذلك أنّ الله تبارك وتعالى قال عز من قائل: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [البقرة: ١٥]. فإذا فسح له فى تأميل أربعين فالادّخار من الأمل؛ فإن أمَّلَ حياةَ أربعين يومًا جاز له أن يدَّخر لأربعين، ومن قصُر أملُه إلى يوم وليلة لم يدخر إلا ليومه وليلته، فترك الادخار مقتضى قصر الأمل. وقد جعل غنى الفقير فى أربعين درهمًا، فهذا لعموم الفقراء. فأما خصوصهم فإن غناءهم غداء يوم، أو عشاء ليلة؛ لقصر أملهم، كما جاء فى الحديث الذى ذكرناه آنفًا.

ومن فضل الفقير أن لا يهتم برزق غدٍ كما أن اللهَ تبارك وتعالى لا يطالبه بعمل غد قبل مجيئه، ولأنَّ الرزق معلومٌ مقسومٌ، والوكيلُ حَفِيظٌ قيُّوم[٢]، وأن يكون

(١) فى المطبوعة: «التجمل».

(٢) فى (د): «قائم حافظ».

راضيًا بفقره، شاكرًا عليه، ويغتبط بالفقر لعظيم نعمة الله عز وجل عليه فيه، ويخاف أن يُسلَب فقره أشد من خوف الغَنِيِّ أن يُسلَب غناه؛ لشدّة اغتباطه به.

وفى الخبر عن رسول الله ﷺ: «يا معشر الفقراء، أعطوا الله عز وجل الرِّضا من قلوبكم تظفروا بثواب فَقْرِكم، وإلاّ فلا». وروى عبد الرحمن بن سابط عن على عليه السلام عن النبى ﷺ فى حديث طويل: «أحبُّ العباد إلى الله عز وجل الفقيرُ القانعُ برزقِه، الراضى عن الله عز وجل».

وينبغى أن يغتمَّ بالاتساع، ويفرح بالضيقة والمصيبة، ويحب المساكين، ويفضِّلهم على أبناء الدنيا، ويرحم الأغنياء ولا يذمَّهم لأجل غناهم، ويُؤثر الفقراءَ ويقرِّبهم، ويحسِّن على الفقير خُلقَه، ويحمل معه صبرَه، ويستر بالتعفف فقره، ويظهر الغنى ولا يكشف فقره بالتكرُّه له والشكوى.

وفى الخبر عن الله عز وجل: «إذا رأيتَ الفَقْرَ مُقبلاً فقُل: مَرْحبًا بشعار الصالحين، وإذا رأيتَ الغنىَّ مقبلاً فقل: ذنبٌ عُجِّلت عقوبته». وقال موسى: «يا رب مَنْ أحباؤك من خلقك حتى أحبّهم لأجلك؟ فقال: كُلُّ فقير [متعفِّف][1] فقير». التكرير فيه لمعنيين؛ أحدهما: المتحقق بالفقر، والثانى: الشديد الحاجة والضرّ.

وقال عيسى ﷺ: «إنى لأحبّ المسْكنة، وأبغض الغنى». وقيل: كان من أحبِّ أسمائه إليه أن يقال له: يا مسكين. وقال رسول الله ﷺ فى دعائه الذى تلقّاه من ربّه وأمره به: «أسألكَ الطيِّبات، وفِعْلَ الخيرات، وحبَّ المساكين».

ومما يعتبر به فضل الفقر على الغنى: أنّ أفضلَ الخلق رسولُ الله ﷺ، فمن شاركه وقارنه بمعنى وصْفه فهو الأفضل؛ لأنه الأمثل، فالأمثل وهم الفقراء، وصفهم الله عز وجل بوصفه فقال تعالى: ﴿**وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ**﴾ [التوبة: ٩٢] الآية، فلما شاركوه فى العدم، وكان حالُ الرسول ﷺ هو الأفضل والأتمّ، دلّ على فضلِ حالِهم على غيرهم.

---

(١) ساقطة من المطبوعة وهى من (د) فقط.

وقد قال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾ [التوبة: ٩٣]. وقال تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق: ٦ - ٧]. فوصف الأغنياء بالطغو وأوقع عليهم الحجة. وقال فى وصف الفقراء: ﴿يَحْسَبُهُمُ الجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ﴾ [البقرة: ٢٧٣]. فلولا أنّ الغِنى مفضولٌ ما نَسَب مَنْ وَصَفهم به إلى النّقص، والغنى بابُ الدنيا وأصلُ التفاخر والتكاثر المذموم، والفقرُ بابُ الآخرة وأصلُ الزهدِ والتواضع المحمود.

وعند أهل المعرفة: إنّ الغِنى من الصفات التى لا ينبغى أن يُنازَع فيها، ومكروهة لمن ابتُلى بمعانيها، وأنه مثل العزِّ والكبر، وحبّ المدح والذكر، فمن أحبَّ شيئًا من ذلك وطلبه فقد نازع الله تعالى لبسته، وتركوا ذلك لأجل الله عز وجل؛ لأنه من صفات الربوبية، وسلموه له خوفًا منه، أو حبًا له. وإن الفَقْرَ من صِفات العُبودية، مثل الرجاء والخوف، والتواضع والذلّ، فمن طلب ذلك وأحبّه فقد تحقّق بوَصْف العبودية. والله سبحانه وتعالى يحبّ أن يتحقق العبد بأوصافه؛ لأنه عبدٌ ذليل، ويكره أن ينازعه معنى صفاته؛ لأنّه ملك جليل، ومن أحب الغنى دلّ على حبه البقاء. وكان سهل يقول: حُبُّ الغنى شِرك فى الربوبية. أى لأنّ البقاء من صفات الباقى. ومَن فضّل الغنى على الفقر دَلّ على حبه للغنى، فظهر بذلك محبته للأغنياء؛ لأن حبَّ الوصف دليلٌ على حبِّ الموصوف، وحبَّ الشىء أيضًا دليلٌ على بُغض ضده، فإذا أبغض الفقراء أبغض الفقر، وبَغَضَ الفقر لحب الغنى، فقد اختار الرغبة على الزهد، والكثرة على القلة، والعز فى الدنيا على الذل. وفى هذا إيثار الدنيا على الآخرة، وهدم الآثار عن النبى ﷺ وعن الصحابة والتابعين فى تفضيل الفقر وتشريف الأغنياء. ويقال: كان الفقرُ شرفَ المؤمن، وكان الفقراء فيما سلف فى المؤمنين بمنزلة الأشراف فيكم اليوم. ولا خفاء بفساد هذا القول ونقصه عند العلماء بالله تعالى.

ثم إنّ الفقراء على منازل ثلاث:

فقراء الأغنياء، وهم السُّؤّال عند الفاقات، الكافُّون نفوسهم مع الكفاية،

القانعون بالكفاف؛ وهم طهرةُ الأغنياء، ومزيدُهم من الله تعالى، وهم الذين جعل الله لهم فى أموال الأغنياء سَهمًا؛ لأن منهم السائل والمحرومَ، ومنهم القانع والمُعترّ.

والطبقة الثانية: فقراء الفقراء، وهم المتحققون بالفقر، المختارون له، المؤثرون إياه على الغنَى، لعِظَم معرفتهم بعظيم فضيلة أهل التعفُّف والصِّيانة، لا يبتذلون للسُّؤال، ولا يعرضون فى المقال، راضون بالميسور من مولاهم، تعرفهم إذا رأيتهم بسيماهم، يحسبهم الجاهلُ أغنياء لترك المسألة والشكوى. ومنهم: المحروم، حُرم السعى للدنيا. ومنهم: المحارف، انحرفت عنه الأسباب، ومنهم: القانعُ، قَنِع بما يصل إليه من غير امتهان وتبذّل فيه. ومنهم: المعترّ، رضى عن الله عز وجل بما يعتريه. وقيل: إنه ما أُعطى أحدٌ شيئًا من الدنيا إلاّ قيل له: خذه على ثلاثة لثلاث: شغل، وهمٍّ، وطول حساب.

وأما الطبقة الثالثة: فهم أغنياء الفقراء، وهم الأجوادُ الأسخياء أهل البذل والعطاء، يأخذون ويُخرجون، ولا يستكثرون ولا يدّخرون، إن مُنعوا شكروا المانع؛ لأنه هو المعطى، فصار منعه عطاء. وإن ضُيِّق عليهم حمدوا الواسع؛ لأنه هو المحمود، فصار ضيقه رجاء، وإن أُعطوا بذلوا وآثروا، فهم الزاهدون فى الدنيا؛ لأنهم موقنون، فكفاهم اليقين غِنًى.

وقال إبراهيم بن أدهم لشقيق بن إبراهيم، حين قدم عليه من خراسان: كيف تركتَ الفقراءَ من أصْحابك؟ فقال: تركتهم إن مُنعوا شكروا، وإن أُعطوا بذلوا وآثروا. فقبَّل رأسه وقال: صدقت يا أستاذ.

وقد كان بشر يقول: الفقراء ثلاثة؛ فقير لا يسأل، وإن أُعطى لم يأخذ؛ فهذا مع الروحانيين فى عليين. وفقير لا يسأل، وإن أُعطى أخذ، فهو مع المقربين فى حظيرة القدس. وفقير يسأل عند فاقته؛ فهذا مع الصادقين، وصدقه فى حاله كفّارة مسألته.

ودُفع إلى إبراهيم بن أدهم ستون ألفًا، وكان عليه دين، وبه حاجات إليها، فردّها، فعُوتب فى ذلك، فقال: كرهتُ أن أمحو اسمى من ديوان الفقراء لستين

ألفًا. وقد كانت عائشة رضى الله عنها تفرق مائة ألف، وإن درعها لمرقوع، فقالت لها الخادمة: لو اشتريت لك بدرهم لحمًا تفطرين عليه، فقالت: لو ذكَّرتنى لفعلت. وكان رسول الله ﷺ أوصاها فقال: «إن أردت اللحوق بى فعليك بعيش الفقراء، وإياك ومجالسة الأغنياء، ولا تنزعى ثوبًا حتى ترقعيه».

فأما معنى[1] قول النبى ﷺ للفقراء: «ذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء»، فلعلّ متوهمًا لم يتدبر أوّل الكلامِ، فظن أنّ هذا تفضيلٌ للأغنياء على الفقراء، وإنما هو تحقيق لقوله الأول: «قولوا كذا وكذا، فإنه لا يسبقكم أحدٌ قبلكم، ولا يُدرككم أحدٌ بعدكم»، فقالوه. فلما سمع الأغنياء بذلك فقالوا كقولهم، هجس فى قلوب الفقراء منه شىء، فاستفتوا رسول الله ﷺ ليتثبتوا فى قوله، فقال: «الأمر كما قلتُ لكم، لا يسبقكم أحدٌ قبلكم»، إذ قد صح منه هذا القول فى الأول، وهو معصوم فيه، فلو لم يكن كذلك لنقض آخرُ قوله أوّله، ولا يجوز ذلك. وأيضًا: فإن حُمل على ظاهره كما تأوله، فإنه فضْلُ الله تعالى فى الدنيا، لا تفضيل لهم به فى الآخرة على مقامات الفقراء، إلاّ أنّ الأولى قد قامت بفضلهم، ويصلح بمعناهم فضلٌ أعطاهم الله تعالى بهذا القول الذى قلتموه، زادهم الله به، لا أنّه أفضل من مقامكم وحالكم بغيره، إذ قد ثبت فضلُكم عليهم بوصف الفقر وحال الصبر بغير هذا الذكر؛ وهذا التسبيحُ رجحانٌ لكم تمامًا على فَضْلكم بغيره، وهذا القول للأغنياء تفضُّلٌ من الله عليكم ورحمة، لا أنهم يفضلون به عليكم.

ونحن لم نقل: ليس الغنى طريقًا للأغنياء إلى الله، وإنما فضَّلنا طريق الفقراء؛ لأنهم الأمثل فالأمثل بالأنبياء. وعن الحسن فى قوله عز وجل: ﴿**وَمَا يَسْتَوِى الأَحْيَاءُ وَلاَ الأَمْوَاتُ**﴾ [فاطر:٢٢] قال: الفقراء والأغنياء، فجعل الفقراء أحياءً بمولاهم، وجعل الأغنياء موتى بدنياهم. وقال الثورى رحمه الله: إذا رأيت الفقير يُداخل الأغنياء فاعلم أنّه مراءٍ، وإذا خالط السلطان فاعلم أنه لصّ. وقال بعض العارفين: إذا مال الفقيرُ إلى بعض الأغنياء انحلت عُروته، فإذا طمع فيهم انقطعت عصمته، فإذا سكن إليهم ضَلّ.

---

(١) هذا التأويل قد مرّ فى المجلد الأول مفصَّلاً.

فمن فضّل الغنى على الفقر بعد الأخبار التى وردت فى تفضيل الفقر والفقراء وذمِّ الغنى والأغنياء، فأحسن حاله الجهل بالسنن؛ لإيثار الرأى والهوى على ما فيه أثر وسنّة؛ لأن الأثر إذا جاء فى شىء لم يكن للرأى فيه مدخل، وكان فى مخالفته مع العلم به عِناد ومحادَّة. نعوذ بالله من الجهل والهوى، ونسأله التوفيق للعلم والتقوى.

• ذكر حكم من لا معلوم له من الأسباب:

فإن لم يكن للفقير معلوم من الدنيا، وكان رزقه قد أُجرى على أيدى العباد من غير تعويض منه لهم من صنائع الدنيا معتاد، فقد روينا عن رسول الله ﷺ: «إن هذا المال مالُ اللهِ، فمن أخذه بحقّه بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نَفسٍ لم يُبارَك له فيه». فكان كالآكل ولا يشبع.

وروينا: «من أتاه شىءٌ من هذا المال من غير مسألة ولا استشراف، فإنّما هو رزقٌ ساقه اللهُ تعالى إليه ـ وفى لفظ آخر: فلا يردّه ـ فإن كان محتاجًا إليه، وإلا فليصرفه إلى مَن هُو إليه أحوج منه».

وروينا عن الحسن وعطاء حديثًا مرسلاً أن النبى ﷺ قال: «مَن أتاه رزقه من غير مسألة فردّه فإنما يردّه على الله». وروينا عن عابد بن شريح، عن أنس بن مالك، عن النبى ﷺ: «ما المعطى من سَعَةٍ بأعظمَ أجرًا من الآخذ إذا كان محتاجًا».

وقال بعض العلماء: لو هرب العبد من رزقه لطلبه حتى يصل إليه، كما لو هرب من الموت لأدركه. وقال أبو محمد رحمه الله: لو أنّ العبد سأل ربّه فقال: لا ترزقنى، لما استجاب له، وكان عاصيًا. ويقال له: يا جاهل لا بد أن أرزقك كما خلقتك.

وقد حدثنا بعضُ العارفين: أنه زهد فى الدنيا، فبلغ من زهده أن فارق الناس، وخرج من الأمصار، وقال: لا أسأل أحدًا شيئًا حتى يأتينى رزقى إن كان لى رزق. قال: فأخذ يسيح، فأقام فى سفح جبل سبعًا، لم يأته شىء حتى كاد أن

يتلف. قال: يا ربّ إن أحييتنى فأتنى برزقى الذى قسَمْت لى، وإلا فاقبضنى إليك، فأوحى الله تعالى إليه: وعزتى لا أرزقنَّك حتى تدخلَ الأمصار، وتقيم بين الناس. فدخل المصر للأمر، وأقام بين ظهرانى الناس، فجاءه هذا بطعام، وهذا بإدام، وهذا بشراب، فأكل وشرب، فأوجس فى نفسه من ذلك، فأوحى الله إليه: «أردتَ أن تُذهب حِكمتى بزهدك فى الدنيا، أما عَلِمْتَ أنّى أن أرزقَ عَبدى بأيدى عبادى أحبُّ إلىَّ من أن أرزقه بيدِ القدرة».

وقال بعض المنقطعين إلى الله من العارفين: كنت ذا صنعة جليلة، فأُريد منّى تركها، فحاك فى صدرى: من أين المعاش؟ فهتف بى هاتف لا أراه: تنقطع إلىَّ وتتهمنى فى رزقك، علىَّ أن أخدمك وليًا من أوليائى، أو أسخّر لك منافقًا من أعدائى. وفى خبر عن بعض السلف: أوحى الله تبارك وتعالى إلى الدنيا: اخْدُمى من خدمنى، وأتعبى من خَدَمك.

وقال بعض المجاورين بمكة: كانت عندى دراهم أعددتها للإنفاق فى سبيل الله، فرأيتُ ذات ليلة فقيرًا يطوف بالكعبة فى ظُلمة الليل، حَسَنَ الهدى والسَّمت. قال: فكنت أتَتَبَّع آثار قدمه وأمشى خلفه من حيث لا يشعر. فلما قضى أسبوعه وقف فى الملتزم بين الباب والحجر، فسمعته يدعو دعاء خفيًا، فأصغيت إليه، فإذا هو يقول: جائع كما ترى، عريان كما ترى، فما ترى فيما ترى، يا من يرى ولا يُرى. قال: فنظرتُ فإذا عليه خِلقان رثاث لا تكاد أن تواريه، فقلت فى نفسى: لا أجد لتلك الدراهم موضعًا خيرًا من هذا. قال: فتبعتُه حتى انصرف إلى ناحية قبة زمزم يصلى ركعتى الطواف، وذهبتُ إلى منزلى فجئتُ بالدراهم فدفعتُها إليه، وقلتُ: رحمك الله، أنت فى مثل هذا الموضع، وعلى مثل هذه الحالة، فخذ هذه تنفقها. قال: وصَبَبْتُها فى طرف إزاره بين يديه على الأرض، فنظر إليها، ثم أخذ منها خمسةَ دراهم فقال: أربعةٌ ثمن مئزرين، ودرهم أتقوّت به ثلاثًا. ثم قال: لا حاجة لى بسائرها. قال: فرأيتُه الليلة الثانية وعليه مئزران جديدان قد لبسهما. قال: فهَجَس فى نفسى من أمرِه شىء، فقبض على يدى، فأطافنى معه أسبوعًا، كلّ شوط منها فى جوهرٍ من معادن الأرض تتخشخش تحت أقدامنا إلى الكعبين،

منها ذهَب وفضة وياقوت ولؤلؤ وجوهر، لم يظهر للناس، فقال: هذا كله قد أُعطيناه فزهدنا فيه، ونأخذ من أيدى الخلق أحبُّ إلينا؛ لأنه أحبُّ إلى الله، وأخفّ علينا فى المطالبة. وهذه أثقال وفتنة، وذاك للعباد فيه رحمةٌ ونعمة.

وروينا فى خبر: البلادُ بلادُ الله، والخلقُ عباده، فأينما وجدتَ رِزقًا فأقم، واحمد الله.

وروينا عن ابن عباس: اختلف الناسُ فى كل شىء إلاّ فى الرزق والأجل، أجمعوا على أن لا رازق إلاّ الله، ولا مميت إلاّ الله. وقال: إنّ الله عزّ وجلّ لما خلق الأرزاقَ أمر الرياح أن تمزقها فى أقطار الأرض ففرّقها. فمِن الناس من وقع رزقه فى مائة ألف موضع، ومنهم من وقع رزقه فى عشرة آلاف موضع، ومنهم فى ألف موضع، ومنهم فى مائة موضع، ومنهم فى موضع وأقل وأكثر، ومنهم من وقع رزقه على باب منزله يغدو ويروم إليه، وكل عبدٍ يسعى بأثره الذى كُتب له، حتى يستوفى رزقه الذى قسم له، فإذا فنى أثره واستوفى رزقه جاءه ملكُ الموتِ فقَبض روحه.

واعلم أنّ العبدَ لا ينقطع رزقه أبدًا منذ أُظهرت خِلقته، كان فى بطن أمه غذاؤه مما تفيض الأرحام من دَم الحيض، يعيش بذلك جسمه من ظاهره، ومِعَاه المستطيل من سرَّته متصل بمِعَى أمه، يصل من بطنها مخ الطعام إلى بطنه، فيعيش بذلك، فإذا أذن الله عزّ وجل بخروجه بعثَ إليه الملك، فقطع ذلك المعى من موضع اتصاله بمعى أمه، فإذا دخل إلى الدنيا جعل رزقه من الدنيا، فإذا خرج منها فآخرُ رزقه من الدنيا أولُ رزقهِ من الآخرة، فإذا دخل فى الآخرة كان رزقه من البرزخ، كما كان فى الدنيا بتلك المعانى لمعانيه المختلفة المحتملة لذلك، فإذا خرج من البرزخ ودخل فى القيامة كان رزقُه فى الموقف على قَدْر حاله هناك، فإذا خرج من الموقف ودخل أحد الدارين انتقل رزقه إليها، فكان منها إلى أبد الأبد؛ فإذا شهد العبد هذا بيقين إيمانه اطمأن قلبه، فاستوى عنده الرزق والأجل، فعلم يقينًا أن لا بد من رزق، كما لا بد من أجل، فلم يكن عليه إلا مراعاة الأحكام فيه، وشهد من هذه الشهادة أن خلقًا لا يَقدر أن يزيد فى عمره ساعة، ولا ينقص منه ساعة؛

فإذا أيقن بهذا كان مشغولاً بالمخالصة لمولاه فيما تعبّده به وولاّه.

ثم إن الرزق على وجهين؛ عن معان لا تحصى، وبأسباب لا تُعدّ ولا تضبط. فمن الرزق ما يأتى العبد بسكونه وقعوده، فيكون الرزق هو الذى تحرك إليه ويأتيه. ومنه ما يأتى العبد بحركته وقيامه، فيكون يتسبب إليه ويطلبه، والرزق فيهما واحد، والرازق بهما واحد، والحكمة والقدرةُ فى المتحرّكِ القائم وفى الساكن القاعد واحد، إلاّ أنّ الأحكام فيهما متفاوتة. ثم إنّ الأشياء كلها على ضربين: مسخَّر لك، ومسلَّط عليك، فما سُخِّر لك سُلِّطت عليه، وهو نعمة عليك، وعليك الشكر عليه؛ وهذا مقامُ الشكر على معنى الرزق. وما سُلِّط عليك فقد سُخِّرت له أنت، وهو بلاء عليك، وعليك الصبر فيه؛ وهذا مقام الصبر عن معنى الابتلاء. فمن شهِد ما ذكرناه عرَف حاله من مقامه، فقام بحكم ما عرف، ومن لم يشهده جَهِل حاله، ولم يَدرِ مقامه، فاضطرب فيه، فضيّع حُكمَ اللهِ عليه.

والمستحبُّ لمن لا معلوم له أن لا يأخذ مما آتاه إلا قدر الحاجة، وعلامةُ حاجته هو أن لا يأخذ إلاّ ما يحتاج أن يشتريه، فهو حاجته فى وقته؛ فذاك رزق من الله تعالى ومعونة له، فأخذ هذا أفضلُ، وما آتاه مما لا يحتاج أن يشتريه أو عنده مثله فهو اختبار له وابتلاءٌ، لينظر كيف زُهده فى فضول حاجته، وكيف رغبته فى الاستكثار؛ لأنه إذا ملك الشىء فكأنه قد كان له، فيعلم الآن بمعرفته أنّ هذا ابتلاءٌ من الله، وفيه حكمان؛ أحدهما: أن يأخذه فى العلانية، ويُخرجه فى السرّ إلى مَن هو أحوج إليه منه؛ هذا طريق الأقوياء، ومن أشد الأشياء على النفس، وهو الذى أمر به النبى ﷺ عمرَ وغيره؛ وهذا حالُ علماء الزاهدين. والحكم الآخر: أن لا يأخذه ليصرفه صاحبه إلى من هو أحوج إليه منه؛ لأن الله تعالى له عليه فيه أحكام؛ وهذا هو الطريق الأوسط من طرق الزهاد. فإما أن يأخذه من غير حاجة ليتكثَّر به ويدَّخره، فلا أعلم فى هذا طريقًا إلى الله تعالى، وما لم يكن طريقًا إلى الله فهو من طرقات الهوى إلى العدو. ثم ينظر الآخذُ فيما آتاه من الله إلى أحكامه فيه، فإن كان ما يأتيه من الزّكاة المفروضة على أربابها، المشترط لها

الأوصاف الستة المنصوص عليها فى الكتاب؛ فذلك أضيق عليه، وألزمُ له فى الاحتياط لأخيه أن يضعه فى حقيقة موضعه عند أخيه، نُصحًا لله تعالى فى دينه، ونصحًا لإخوانه فى ربّه، فإن الأفضلَ فى ذلك أن لا يضعه إلا فى أربعة أشياء: مطعم، وملبس، ومسكن، ودَين فى قضائه عنه؛ فهذا من أفْضلِ ما صُرفت فيه الواجبات.

وقد روينا عن ابن عباس: من اشترى ما لا يحتاج إليه باع ما يحتاج إليه. وفضول الدنيا، وهو الزيادة على الكفاية، لا يحتاج إليه، والدِّين يحتاج إليه، فلا ينبغى للعاقل أن يبيع ما يحتاج إليه من دينه بشراء ما لا يحتاج إليه من دُنياه، فتكون صفقته خاسرة، وتجارته بائرة. والشهوات لا حدَّ لها، لأنه لا غاية يُنتهى إليها فيها، والقوتُ له حدٌّ وغاية ينتهى إليه فيها. وقد جاء عن النبى ﷺ: «لا حق لابن آدم إلا فى ثلاث: طعام يقيم صلبه، وثوب يُوارى عورته، وبيت يُكنُّه، فما زاد فهو حِساب». وهذه الثلاثُ مع ابن آدم فى بطن أمه، وفى قبره، وبين ذلك فى دنياه، وبعد ذلك فى عُقباه. فالأخذُ لمصالح هذه الثلاث مأجورٌ عليه العبد، والردّ لما زاد عليها هو أفضل من الأخذ.

وينبغى أن يكون العبد الذى لا معلوم له عارفًا بأحكام العطاء؛ فإنَّ العطاء من الله لعبده على أربعة أنواع: نوعان محمودان، ونوعان مكروهان. فالمحمودان: ما كان بمعنى الرفق والمعونة، والمكروهان: ما يكون بمعنى الاختبار والابتلاء. فعلى العبد أن يفرِّق بين الاختبار والبلاء[1]، وبين الرفق والمعونة.

فتفصيل ذلك: أنّ الابتلاء ما جاءه من الأسباب قبل الحاجة إليه، أو جاءه وله غُنية عنه، أو عنده مثله؛ فهذا ابتلاءٌ من الله تعالى له، لينظر عمله فيه. فالأفضل فى هذا أن يخرجه، فيكون معاملاً لله تعالى به فى السرّ، مسقطًا لمنزلته عند الناس فى العلانية. فإن لم يقوَ على هذا لثِقل حَمله على النفس، فالأفضلُ بعده أن لا يأخذه ليحكم الله فيه ما يشاء، وليتحكم صاحبه فيه كيف شاء، فإن لله تعالى

(١) من قوله: «فعلى العبد» إلى هنا ساقط من المطبوعة.

عليه فيه حُكمًا، نصحًا لله فى حُكمه[١]، ونصحًا لأخيه فى ماله، سيما إن كان من الواجب.

والاختبارُ أن يكون الفقير قد نوى ترك أكل شىء، أو اعتقد التقلل فى شىء قرَّبه إلى ربّه تعالى؛ لمخالفة هوى نفسه، وعملاً فى صلاح قلبه، يتباعد به مما يدخله فى الكثرة، ويحلّ عليه عقده. فردُّ هذا أفضلُ، وهو من الزهد والرِّعاية للعهد. فإن أخذه ثم أخرجه إلى محتاجٍ؛ فهذا هو زُهد الزهد، وله فى هذا معاملات؛ منها: أن العبد مندوبٌ إلى الإيثار، فإذا كان فقيرًا وملك شيئًا فأخرجه كان فى ميزانه. ومنها: موافقة السنّة فى أنّه قد أُمر بأخذه أو دفعه إلى من هو أحوج إليه منه. ومنها: أنّ أخْذَ هذا فى العلانية من الناس وردَّه فى السرّ إلى الله تعالى كبيرةٌ على النفوس إلاّ على الخاشعين؛ لأن النفس تسقط فى منزلتها، ثم لا ينال به سَعتها، فلا يصبر على هذا إلاّ الموقنون؛ وهذا مقامُ الزاهدين فى النفس؛ وهو حالُ أغنياء الفقراء، وعلماءُ الزهاد، وهم أهل الطبقة العليا الذين قدّمنا ذكرهم.

والوجهان الآخران من العطاء: هو الرفق، وصورتُه أن يأتيه الرزقُ عند حاجته أو مع شهوته للشىء الذى لا يقدر عليه، فيعلم اللهُ ذلك منه، فيبعث به إليه من غير طَمع فى خَلْق، أو يأتيه ما يصلح أن يشتريه ليرتفق بمنافعه. فهذا النوع من العطاء رفق الله سبحانه الأفضلُ للعبد أن يأخذه، وربما خِيف من ردٍّ مثل هذا عقوبة من زوال عقلٍ، أو ردٌّ إلى غلبة طبع، أو ابتلاء بطمعٍ فى خلق، أو دخول فى دنيءٍ من مكسب.

وقال بعض العلماء: من أُعطى ولم يأخذ سأل ولم يُعط، وهذا من النوع الذى قال رسول الله ﷺ: «ما المعطى من سَعَةٍ بأعظم أجرًا من الآخذ إذا كان محتاجًا». فأخْذُ هذا مشاركةٌ لمعطيه فى الأجر، من حيث استويا على المعاونة فى التقوى والبرّ المأمور بهما، ولا يضرّ هذا العطاء آخذه. وقد كان سرى السقطى يوصل إلى أحمد بن حنبل شيئًا، فيرده، فقال له سرى: يا أحمدُ، احذر آفةَ الردِّ، فإنها أشدُّ

(١) من قوله: «وليتحكم صاحبه» إلى هنا من (م)، وهو ساقط من المطبوعة.

من آفة الأخذ. فقال له أحمد: أعدْ عليَّ ما قلتَ، فأعاده، فقال أحمد: ما رددتُ عليك إلا لأن عندى قوت شَهْرٍ، فاحْبِسه لى عندك، فإذا كان بعد شهر فأنفذْه إليَّ.

والرابع من العطاء: هو المعونة؛ وهذا يكون مخصوصًا لأهله؛ هو أن يكون فى خُلق هذا الفقير البذْلُ والإفضالُ، وفى غريزته السخاءُ والاتساعُ من إطعام الطعام وإيثار الفقراء، فلا يتسع لذلك حاله وتضيق عنه يده، فيبعث الله إليه بالعطاء معونةً له على أخْلاقه؛ ليبلِّغه به مراده، وينفذ له من المعروف والبرّ عادته، ويُعينه على خُلُقه ومروءته؛ فهذا النوع من العطاء هو الاختبار عند العارفين، والأفضلُ أخذُه وإمضاؤه فى سبله من المروءات والأخلاق؛ وهذا كان طريقة كثير من السّلف، وقد غلط فى هذا الطريق قومٌ لم يكن لهم زُهدٌ، وقد كانت فيهم رغبةٌ وهِمم دنيئةٌ، فاقتنعوا فى قَبول هذا العطاء لنفوسهم وتملَّكُوه، واستأثروا به، وزعموا أنّ هذا هو الاختبار، فخالفوا السَّلَف فى معرفة الابتلاء من الاختبار؛ لأن هذا عند العارفين ـ إذا لم ينفذ ويؤثر ـ به ابتلاء، ووافقوا أهواءهم فى التوسع منه والتكثُّر به، وتملَّكوه بالدعوى، فأخطؤوا فى العلم لإحالة المعنى، وغلطوا فى طريق الحال لوجود الهوى. وقد كان بعض القاعدين من الصادقين يدَّان على الله؛ لحُسن ظنه به، فإذا رزقه قضاه، فإن مات هذا على هذه النية فلا تَبِعةَ عليه فيه فى دَيْنه، على مولاه قضاؤه وأن يرضى عنه غرماءه، وقد كان فيما سلف يُقضَى دَينُ مثل هذا من بيت مال المسلمين. وكان آخرون لا يقترضون حتى يبيع أحدهم أحد ثوبيه، أو فَضْلَ ما يحتاج إليه؛ وهذا أحدُ الوجوه فى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتاهُ اللهُ﴾ [الطلاق:٧]. قال: من ضُيِّقَ عليه معاشه فليبع أحد ثوبيه. وقد قيل: فليستقرض بجاهه، فذلك آتاه الله عز وجل.

وقال بعضهم: لله عباد ينفقون على قدر بضائعهم، وله عبادٌ ينفقون على قدر حُسن الظن به. ومات بعضُ السلف، فأوصى بماله أن يفرَّق على ثلاث طوائف: الأقوياء، والأسخياء، والأغنياء، فقيل: من هؤلاء؟ قال: أما الأقوياء فهم أهلُ التوكّل على الله، وأما الأسخياء فهم أهل حُسن الظنّ بالله، وأما الأغنياء فهم أهل

الانقطاع إلى الله.

وينبغي لمن لا معلوم له من الأسباب أن يتورّع فى أخذها، ويتحرّى المعطين لها، كما يتحرى أهل المكاسب فى الاكتساب؛ لأن الله سبحانه وتعالى له فى كل شيء حكم، والقعودُ عن المكاسب لا يسقط أحكامها، والقاعدُ عن الطلب لا تسقط عنه أحكام الطالب؛ لأن ترك العمل عملٌ يحتاج إلى عمل. ولم تكن سيرة الفقراء الصالحين أن يأخذوا من كل أحد، ولا فى كل وقت، ولا يأخذون كلما يُعطَوْن مما زاد على كفايتهم، إلا أن يكونوا ممن يخرجه إلى غيرهم، وإنّما كانوا يقبلون ممن يخفّ على قلوبهم القبول منه، وممن ترتفع الوحشة والحشمة فيما بينهم وبينه؛ لأن ذلك هو الذى يفرح بقبولك، ويرى نعمة الله تعالى عليه فى أخذك. ومن يثقل على قلبك معروفه، فهو الذى يثقل على قلبه إخراج ما فى يده، ولا يغتم بردِّك عليه.

وقال بعض العارفين: ما تواخى اثنان فى الله عز وجل، فاحتشم أحدهما من صاحبه أو استوحش منه إلاّ من علّة فى أحدهما.

فلا يستحب للفقير أن يأخذ إلا من صديق، ولا يقبل إلاّ ممن يحبّ؛ لأن لأهل المعرفة بالله عز وجل أن يحكموا فى الأسباب بما أراهم الله تعالى من الردّ أو من القبول، فإن اعتل معتلٌّ بما رويناه آنفًا: «من جاءه شيءٌ من غير مسألة فرده فإنما يردّه على الله تعالى»، وبأن أهل المعرفة يشهدون أنّ العطاء من الله سبحانه وتعالى، فلا يصلح أن يردوا عليه ـ قيل له: إنّ مَن يشهد العطاء من الله تعالى هو الذى يشهد الردّ أيضًا منه، فإن يردّ إليه له أو ردّ إليه به، لمعرفته باختباره، وابتلاء حُسن الردّ منه، وشكر الفعل له، فهو أيضًا: إذا شهد تصريفَ الخلق بالعطاء فعلَ عز وجل، كان يشهدُ فِعلَ نفسهِ بالردّ فعل الله تبارك وتعالى بالمنح؛ فالحالان سواء عند من علم الأحكام، ولم يتبع الهوى، وقام بحكم ما منه يقتضى، فليس فى هذا حجة إلاّ لعالم مستكثر، أو لعابدٍ جاهل غير مستبصر.

على أن فى القبول من بعض الناس دون بعض وفى ردّ بعض الهدية سنّة. أُهدى إلى النبى ﷺ سمنٌ وأقِط وكبش، فقبل السمن والأقِط، وردّ الكبش. وقد

كان النبى ﷺ يقبل من بعض الناس، ويردّ على بعض، وقال: «لقد هممتُ مرارًا أن لا أتهب إلاّ من قرشى أو ثقفى أو دوسى»، وفعل هذا جماعة من التابعين.

جاءت صرَّةٌ إلى فتح الموصلى فيها خمسون درهمًا، فقال: حدثنا عطاء أنّ النبى ﷺ قال: «من أتاه رزقٌ من غير مسألةٍ فردّه فإنما يردّه على الله عز وجل»، ثم فتح الصرّة فأخذ منها درهمًا، وردّ سائرها. وقد كان الحسن البصرى يروى هذا الحديث أيضًا، ثم حدثنا عنه أنّ رجلاً أهدى إليه كيسًا فيه مال، ورزمة فيها من دقِّ خراسان، فردّ ذلك، فقال له بعض أصحابه فى ذلك، فقال: من جلس مثل مجلسى هذا، وقبل من الناس مثل هذا، لقى الله عز وجل يوم القيامة وليس له عند الله عز وجل خَلاق.

وقد كان الحسن يقبل من أصحابه، وكان إبراهيم التيمى يسأل أصحابه الدرهم ونحوه، ويعرض عليه غيرهم المائتين فلا يأخذ. وقد كان بشر بن الحارث لا يقبل من الناس شيئًا. وكان بعضهم يقول: أحبُّ أن أعلم من أين يأكل؟ فقال له مَن يَخبُرُ أمْرَهُ: أنا أدرى من أين يأكل؛ له صديقٌ عاقل. يعنى: نظيره فى العقل والدين؛ لأنّ بعضهم كان لا يقبل إلا من نظرائه لا من الأتباع، وهذا الصديق العاقل الذى كان يقوم بكفايته، ولم يكن يظهر أمره، ولا يلتقى معه؛ هو سرى ابن المغلس السقطى؛ لأنّا حُدِّثنا عن بشر أنه قال: ما سألتُ أحدًا قط شيئًا من الدنيا إلا سريًّا السقطى؛ لأنه قد صح عندى زهده فى الدنيا، فهو يفرح بخروج الشىء من يده، ويتبرّم ببقائِه عنده، فأكون أعينه على ما يحبّ.

وقد كان سرى يوجِّه إلى أحمد بن حنبل فى حاجاته فيقبل منه، وكان إذا ذُكر عند أحمد يقول: ذاك الغنى المعروف بطيب الغنى، إنه ليعجبنى أمره.

وكان بعض العبَّاد إذا دفع إليه بعض أبناء الدنيا الشىء، يقول: دعْه عندك، واعرض على قلبك كيف أنا عندك بعد الأخذ، أفضل، أو دون ذلك، وأصدقنى؟ فإن قال له: أنت عندى الآن أفضل منك قبل ذلك قَبِلَ، وإن أخبره بنقصانه فى قلبه لم يقبل منه. وكان بعضهم يردّ على أكثر الناس صلته، فعوتب فى ذلك فقال: ما أردّ إلاّ إشفاقًا عليهم ونُصحًا لهم، يذكرون ذلك ويحبون أن يُعلم به،

فتذهب أموالهم، وتُحبط أجورهم. وممن ذهب إلى هذا سُفيان الثورى، وقد كان يشترط على بعض من يأخذ منه أن لا يذكره، إشفاقًا عليه من ذهاب أجره؛ لأنه قيل فى معنى قوله عز وجل: ﴿لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى﴾ [البقرة: ٢٦٤]، قال: المنّ أن يذكره، والأذى أن يظهره.

وقال الجنيد للخراسانى الذى جاءه بمالٍ وسأله أن يأكله، فقال الجنيد: بل أفرّقه على الفقراء. فقال: أنا أعلم بالفقراء منكَ، ولم أختر هذا. فقال الجنيد: أنا أُؤمِّل أن أعيش حتى آكل هذا؟! فقال: إنّى لم أقل لك أنفقه فى الخَلِّ والكامخ والبقل، إنما أريد أن تنفقه فى الطيبات وألوان الحلاوة، فكلما نفد أسرع كان أحبَّ إلىَّ. فقال الجنيد: مثلك لا يحل أن يُرَدَّ عليه، فقبله. فقال الرجل: ما ببغداد أحدٌ أعظم منّةً علىَّ منك. فقال الجنيد: وما ينبغى لأحدٍ أن يُقبل منه إلا من كان مثلك.

فهذه كانت طرائق أهل الحقائق.

ولا ينبغى للقاعد عن المكاسب إلاّ أن يكون تاركًا ذلك لأجل الله سبحانه، عالمًا فى قعوده بأحكام الله عز وجل، قائمًا بعلم حاله، فيحسن يومئذ قعوده عن الأسباب، ثقةً منه بالمسبِّب الوهّاب، ويحلّ تركه للمعلوم يقينًا منه بالعالم.

وقد كان بعض العلماء يقول: لا تأكل إلا عند من يعلم أنك أكلت رزقك، ولا تشكر عليه إلاّ ربك. ودعا بعضُ الناس شقيقًا البلخى، وكان فى طبقة من أصحابه نحو الخمسين رجلاً، فوضع الرجل طعامًا واسعًا وأنفق نفقةً كثيرة، فلما قعدوا قال لهم شقيق: إن هذا الرجل يقول: من لم يرنى صنعتُ هذا الطعام وأنا أقدمه إليه فطعامى عليه حرام. قال: فقاموا كلهم خرجوا إلاّ شابًا كان فيهم نقصت مشاهدته عنهم. فقال صاحب المنزل لشيقيق: رحمك الله، ما أردت إلىَّ بهذا؟ فقال: أردتُ أن أجرِّب توحيد أصحابى، أى: كلهم لا يراه فيما صنع، ولا ينظرون إليه فيما قدّم، إلاّ ذلك الغلام وحده.

وحدثونا عن موسى ﷺ أنه قال: يا رب جعلت رزقى هكذا على أيدى بنى إسرائيل، يغدينى يومًا هذا، ويعشينى هذا الليلة. فأوحى الله إليه: هكذا أصنع

بأوليائى، أُجرى أرزاقهم على أيدى الطالبين من عبادى، ليُؤجروا فيهم.

والعالم القاعد عندهم أفضل من الجاهل المتصرف، والعالم المتكسِّب أفضل من القاعد الجاهل، والقوىُّ التاركُ للتصرف أفضلُ عندهم من الضعيف المتصرِّف، والقوىُّ المتصرف أفضلُ من الضعيف التارك للتصرف.

وقد جعل اللهُ المستحقين للعطاء ستةً، ذكرهم فى آيات ثلاث، فقال عزّ وجلّ فى الآية الأولى: ﴿**إنَّما الصَّدَقاتُ للفُقَرَاء والمسَاكينِ**﴾ [التوبة: ٦٠]. وقال فى الثانية: ﴿**وفى أَمْوالِهم حَقٌّ للسَّائلِ والمَحْرُومِ**﴾ [الذاريات: ١٩]. وقال فى الثالثة: ﴿**فَكلُوا منِها وأطْعِمُوا القَانِعَ والْمُعْتَرَّ**﴾ [الحج: ٣٦]. فمَن لا معلومَ له من تكسُّب أو تصرّف فهو أدخل شىء فى هذه الآيات، وأحوجُ إلى الإعطاء. ومَن كان ذا معلوم يحتاج إلى أكثر منه؛ لفَضل عَيلة، أو كثرة نفقة، فإنه يدخل بمعنًى من أوصافهم. وكان ابنُ عباس رضى الله عنه يقول فى الآية: ﴿**إنَّما الصّدَقاتُ للفُقَراء والمسَاكينِ**﴾: نزلت فى أهل الصُّفَّة ومن كان فى معناهم إلى يوم القيامة، وكانوا أربعمائة وخمسين رجلاً، لم تكن لهم عشائر بالمدينة، ولا أموال كالمهاجرين والأنصار، وكانوا نزّاع القبائل، أسكنهم رسول الله ﷺ صُفّة المسجد، وقسم الله عز وجل لهم الأموال.

ثم إن الله سبحانه وتعالى أفرد طبقةً سابعةً عن جمل هؤلاء الستة، ووصفهم بأحسن الصفات، وفضَّل أجور المنفقين بطيب الإكساب عليهم، الطالبين وجه الله عز وجل، فقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا أَنْفقُوا منْ طَيِّبات مَا كَسَبْتُمْ**﴾ [البقرة: ٢٦٧]. وقال: ﴿**ومَا تُنْفقُوا منْ خَيْر يُوَفَّ إليْكُمْ**﴾ [البقرة: ٢٧٢]. وكلٌّ هذا متصلٌ متعلقٌ بقوله عز وجل: ﴿**للفُقَراء الَّذينَ أُحْصرُوا فى سَبيلِ الله لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَربًا فى الأرْضِ**﴾ [البقرة: ٢٧٣] إلى آخر أوصافهم. فوصفهم بالإحصار فى سبيله، وبالعفة عن الدنيا وأبنائها، وأنّهم لا يلتحفونها التحافًا؛ لزهدهم فيها، وسمَّى من لا يعرف أوصافهم جاهلاً؛ فهذه الطائفةُ فوق الطبقات الموسومة بالصّدقات، المقسوم

عليها الزكوات، بل أمر المؤمنين بالإنفاق عليهم من الاكتساب للطيبات من بعد وصف أحسن الخالقين لهم. والله تبارك وتعالى لا يحب عبدًا إلاّ وصفه، فإذا مدحه بوصف وأثنى عليه، ثبتت محبته له فى المدح والوصف، دليلٌ على الحب والمحبة، تدل على الفضل العظيم، كما قال تعالى فى آخر وصف المحبين: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٥٤].

وقد قال بعضُ الصوفية فى معنى قول النبى ﷺ: «يد المعطِى هى العُليا ويد المعطَى هى السفلى»: إنّ المعطِى هو الفقير، وإنّ المعطَى هو الغنى. ويصلح أن يستدل له بأنّ حقيقة الإعطاء هو النصيبُ من الآخرج وعطاؤه منها، فصار هو المعطِى، وصار الغنى هو المعطَى. ويكون دليل هذا القول الخبرين الآخرين: قوله: «إن الصدقة تقع بيد الله سبحانه وتعالى قبل أن تقع بيدِ السائل»، وهو يضعها فى يد السائل، فقد صارت يدُ الفقير هى العليا. والخبر الآخر: «يدُ الله العليا ويد المعطى الوسطى»، فهذا يصحح أنّ الفقير هو المعطِى، إذ كانت يد الله تبارك وتعالى فوقه؛ لأنها هى التى تضع فى يده العطاء، فكانت يده هى الوُسْطى.

فإن قيل: قد رتّب الأيدى بقوله تعالى: يد الله هى العليا، ويدُ المعطِى هى الوسطى، ويد المعطَى هى السُّفلى، فينبغى أن يكون المعطِى هو الغنى، إذْ كان العطاءُ يظهر عندنا على الترتيب. قيل له: إنّ يد الله تبارك وتعالى فوقهما معًا، وهى لا تدخل تحت الترتيب، فيدُه سبحانه وتعالى العليا عليهما جميعًا، قال تبارك وتعالى: ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِم﴾ [الفتح: ١٠]، وقد علمنا أن أيديهم بعضها فوق بعض، ثم أخبر مع ذلك أنها فوق الكُلِّ؛ ولأنه هو المعطِى الأول لهما جميعًا، فكما لا أول أوّل منه فى العطاء، فكذلك لا يد فوق يده فى الإعطاء، وإنّما الترتيب بين الغنىّ والفقير أيهما المعطى بعد يد الله تعالى، فقُلنا: إن المعطِى فى الحقيقة، إذ كان العطاء الحقيقى هو ما يَبْقَى ويَدُوم، لا ما يفنى ويزول؛ وذلك هو العطاءُ من الآخرة الباقية، فصار الفقيرُ هو المعطى للغنىِّ فى الدنيا نصيبه من الآخرة؛ لأنّه عمارة منازله فيها، والغنى رفيق[1] الفقير من الدنيا وعمارة دنياه

(١) فى المطبوعة: «رفق بالفقير»، وفى (م، هـ): «رفق الفقير»، وأثبت ما فى (د).

الفانية، والدنيا موصوفة بلا شيء، فأيّ شيء يعطى منها؟ فأما يدُ الله تعالى فإنها فوقهما، والذى أعطاهما جميعًا؛ لأن يده فوق الفوق، وفوق التحت، لا يوصف بتحت ولا بأسفل، تعالت أوصافُه العليا عن نعوتِ الخلق السفلى، وهو لا يدخل تحتَ القياس والتشبيه.

فقد حدثنا بعض إخواننا عن شيخ له فقال: رأيتُ أبا الحسن النورى يمدّ يده ويسأل الناس فى بعض المواطن، قال: فأعظمتُ ذلك واستقبحته. فأتيتُ الجنيد فأخبرته. فقال: لا يعظُم هذا عليك، فإن النّورى لم يسأل الناس إلاّ ليعطيهم، إنما سأل لهم ليثيبهم من الآخرة، فيُؤجرون من حيث لا يضره. ثم قال: هات الميزان. قال: فوزن مائة درهم، ثم قبض قبضة فألقاها على المائة. ثم قال: احملها إليه. قال: قلتُ فى نفسى: إنما يوزن الشىء ليعرف مقْداره، فهذا قد خلط منه شيئًا آخر فصار مجهولاً، وهو رجل حكيم، فاستحييتُ أن أسأله عن ذلك. قال: فذهبتُ بالصرّة إلى النورى، فقال: هات الميزان. قال: فوزن مائة درهم وقال: رُدَّها عليه، وقل له: أنا لا أقبل منك أنت شيئًا، وأخذَ ما زاد على المائة. قال: فقلتُ: هذا أعجبُ، فسألته: لم فعلت هذا؟ فقال: الجنيد رجلٌ حكيم، يريد أن يأخذَ الحبل بطرفيه، وزن هذه المائة لنفسه للثواب من الآخرة، وطرح عليها قبضةً بلا وَزْن لله عز وجلّ، فأخذتُ ما كانت لله عز وجل، ورددتُ ما كان جعله لنفسه. قال: فرددَتُها إلى الجنيد، فبكى وقال: أخذَ ماله، ورد مالنا، اللهُ المستعان[١].

وما بلغنا أن نبيًا بعثه الله تعالى، وأنزل عليه كنزًا يأكل منه، ولا جعل معه ملائكة تخدمه، وإنما كانت طعمته بأيدى أمته، وكان أتباعه منهم يخدمونه، فيثابون على ذلك، فتكون الحكمةُ فيه أبلغ لما يعودُ بالنفع، ولو كانت طعمته بأيدى القدرة، وإظهار الكينونة، لم يكن فى ذلك منفعةٌ للأمة، ولا أحكامٌ تقتضى مقامًا. ولله الحجّةُ البالغة[٢].

---

(١) فى المطبوعة: «والله أعلم».

(٢) هذه الفقرة من (د، هـ)، وهى ساقطة من المطبوعة و(م).

• ذكر اختلافهم فى إخفاء العطاء وإظهاره، ومن رأى أن الإظهار أفضل، وتفصيل ذلك:

[أخبرنا أبو القاسم، قال أبو طالب][١]:

قد اختلف فعل المخلصين فى ذلك، فرأى بعضهم أن يُخفى ما يأخذ من العطاء؛ لأنه أدخل فى التعفف، وأقرب إلى التصوّن، وأنه أسلمُ لقلوب الغير وأصلحُ لنفوس العامة، وأنّ فيه النصرة لإخوانه من الغيبة والتهمة بمثل ذلك، أو بأكثر منه، وفى الاحتياطُ لأخيه وعونٌ له على البر والتقوى، فى قوله عز وجل: ﴿وَإِنْ تُخْفُوها وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١]. وللخبر الذى جاء: «أفْضَلُ الصَّدقةِ جُهْدُ الُمقلّ إلى فَقِير فى سرٍّ»، ولأنّ عمل السرّ يُفضَّل على عمل العلانية بسبعين ضعفًا، فإذا لم يعاونه هذا على إخفاءِ عطائه، ولم يساعده على كتم معروفه، فلم يتمّ له ذلك بنفسه، لأنه سرٌّ بين اثنين، إن أفشاه أحدهما أو لم يتفقا على كتمه، فقد ظهر من أيهما كان الخبر. كيف وقد روى عن النبى ﷺ: «استعينوا على أموركم بالكتمان، فإن كلَّ ذى نعمة محسود»؟! وهذا مذهب القرَّاء من العابدين.

وقال أيوب السختيانى: إنى لأترك لبس الثوب الجديد خشية أن يحدُث فى جيرانى حَسَد. وقال بعض الزاهدين: ربما تركتُ استعمال الشىء لأجل إخوانى يقولون من أين هذا. وحدثونا عن إبراهيم التيمى أنه رأى صاحبًا له عليه قميص جديد فقال: من أين لك هذا؟ قال: كسانيه أخى خيثمة، ولو علمتُ أن أهله علموا به ما قبلتُه.

ودفع رجلٌ إلى بعض العلماء شيئًا ظاهرًا فردّه، ودفع إليه آخر شيئًا فى السرِّ فقبله، فقيل له فى ذلك، فقال: إنّ هذا أخفى معروفه وعمل بالأدب فى معاملته، فقبلنا عمله، والذى أظهر معروفه أساء فى الأدب فى المعاملة، فرددنا عمله عليه.

ودفع بعض الناس إلى بعض الصوفية شيئًا بين الملأ، فردَّه، فقيل له: لم ترد

(١) هذه العبارة من (د). وفيها: «كتاب اختلافهم فى إخفاء العطاء وإظهاره».

على الله عز وجل ما أعطاك؟ فقال: إنك أشركت غير الله سبحانه وتعالى فيما لله، ولم تقنع بعين الله عز وجل، فرددتُ عليكَ شركك.

وقد كان بعض العلماء لا يقبل فى العلانية ويأخذ فى السر، فسئل عن ذلك فقال: إنّ فى إظهار الصدقة إذلالاً للعلم، وامتهانًا لأهله، وما كنتُ بالذى أرفع شيئًا من الدنيا بوَضْع العلم وإذلال أهله. وكذلك حُدِّثنا أن رجلاً دفع إلى بعض العارفين شيئًا علانية فردَّه، ثم دفعه إليه فى السرّ فقبله. فقيل له: رددتَ فى الجهر وقبلت فى السرِّ؟ فقال: لأنك أطعت الله تعالى فى السر فأعنتك على برِّك بقبوله، وعصيتهُ بالجَهْر فلم أكن عونًا لك على المعصية.

وقد كان سفيان الثورى يقول: لو علمتُ أن أحدهم لا يذكر صلته ولا يتحدث بها لَقبِلتُ صلته. وفى هذا ـ لعمرى ـ مواطأةٌ لِمَا ندب الله تعالى إليه من الإخفاء، ولِمَا أمر به رسول الله ﷺ وفضَّله من أعمال السرّ، وهو أيضًا لا يُدخل الآخذَ فى نهى رسول الله ﷺ من قوله: «من أُهدى له هدية وعنده قومٌ، فهم شركاؤه فيها». وقال فى الحديث الآخر: «أفْضَل ما أهدى الرجلُ إلى أخيه وَرِقًا، أو يطعمه خبزًا». فجعل الوَرِق هديةً كالهدايا، وهو من أفضلها، كما قيل: لأنه قيِّم الأشياء. فهذا الآخذُ للهدية جهرًا يلزمه الإشراك للحاضرين فيها، إلاّ أنْ يهبوا ذلك له، فإن لم يفعل لم يعجبنى ذلك.

وذهب آخرون من أهل المعرفة الموصوفين بالتوحيد إلى أنّ الإظهار للآخذ أفضلُ، لأنه أسْلَمُ له، وأدخَلُ فى الإخلاص والصّدق، وأخرج من إثبات القَدْر والمنزلة والجاه، والزهد بالردّ[1]. وقد قال الله سبحانه: ﴿لاَ تُكَلَّفُ إلاَّ نَفْسَكَ﴾ [النساء: ٨٤]. قالوا: فليس علينا إذ علمنا فى سلامتنا وحُكْم حالنا من إسقاط جاهنا بالأخذ علانيةً ما وراء ذلك من أقوال الناس، يتولى الله عز وجل من ذلك مَن به ابتلاه. وقالوا: ولأنَّ فى التوحيد أنّ الظاهر والباطن هو المعطى، فلا معنى للردّ عليه فى الظاهر. وقد قال بعضهم: سرُّ العارفِ وعلانيتُهُ واحدٌ؛ لأن المعبودَ فيهما

(١) كان فى المطبوعة خلل فى هذه الجملة، والتصويب من (هـ). وفى (م): «والجاه بالردّ والزُّهد». وفى (د): «والبرّ والزهد».

واحدٌ، فاختلافُ فعل أحدهما شرْكٌ فى التوحيد. وقال بعض العارفين: كنا لا نعبأ بدُعاء مَن يأخذ فى السرّ ويردُّ فى العلانية. ودفع رجلٌ إلى بعض العلماء شيئًا فى السرِّ[1]، فرفع يده به علانيةً، ثم قال: هذا من الدّنيا، والعلانيةُ فى أمور الدنيا أفضلُ والسِّرُّ فى أمور الآخرة أفضل.

وقال بعض المريدين: سألتُ أستاذى وكان أحد العارفين عن إظهار السبب أو إخفائه، فقال: أظهِر الأخذَ على كلِّ حالٍ إن كنت آخذًا، فإنك لا تخلو من أحدِ رَجُلين: رجل تسقط من قلبه إذا فعلت ذلك، فذلك هو الذى تريد؛ لأنه أسلم لدينك وأقلُّ لآفات نفسك، وينبغى أن تعمل فى ذلك، فقد جاءك بلا تكلُّفٍ. ورجل تزدادُ وترتفعُ فى قلبه، فذاك هو الذى يريد أخوك؛ لأنه يزدادُ ثوابًا بزيادة حبه لك، وتعظيمه إياك، فتُؤجَر أنت إذ كنتَ سببَ مزيده، وينبغى أن تعمل فى ذلك.

وقال بعض العارفين: إذا أخذت فأظهر، فإنها نعمةٌ من الله إظهارها أفضل، وإذا ردَدْتَ فأخفِ، فإنه عملٌ لك وإسْرارُه أفضل. وهذا لعمرى قولٌ فصلٌ؛ وهو طريقُ العارفين.

وقال بعضُ علمائنا: إظهار العطاء من الآخذ آخرة وكتمانه دنيا، وإظهار الأعمال من الدنيا وكتمها آخرة؛ وكان هذا لا يكره الإظهار. وهذا كما قال الله تعالى: ﴿**وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ**﴾ [الضحى:١١]. وقد ذم الله تبارك وتعالى من كتم ما آتاه الله من فضله وقَرنه بالبُخْل؛ والبخلُ بابٌ كبيرٌ من الدنيا، فقال تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ**﴾ [النساء:٣٧]. وقال النبى ﷺ: «إذا أنعم الله عز وجل على عبدٍ نعمةً أحبَّ أن تُرَى عليه». وهذا هو الأقرب إلى قلوب الموحدين من العارفين؛ لأنه مقتضى حالهم، وموجب مشاهدتهم، لاستواء ظروف الأيدى عندهم من العبيد، ونفاذ نظرهم إلى المعطِى الأول، فاستوى سرُّهُم وعلانيتهم فى الأخذ من يده.

---

(١) من قوله: «ويرد فى العلانية» إلى هنا ساقط من المطبوعة.

وفصلُ الخطاب في هذا الباب عندي أنه يحتاج إلى تفْصيل، فنقول والله أعلم: إنّ الخلق مبتلًى بعضه ببعض، وفرضُ كل عبدِ القيامُ بحكم حاله ليفضل بقيامه ويسلم في حاله. فعلى المعطِي أن يُخفي ويُسر جُهده، فإن أظهر ترك عِلْمَ حالِه، فنقص بذلك، فكانت هذه آفة من آفات نفسه، وبابًا من أبواب دنياه، وعلى المعطَى أن يذكر وينشر، فإن أخفى وكتم فقد ترك الإخلاص في عمله، ونقص لذلك، وكانت آفةً من آفات نفسه، وبابًا من دنياه مثله.

وروينا أنّ رسول الله ﷺ قيل له: إن فلانًا أعطيته دينارًا، فأثنى بذلك وشكر، فقال: «لكن فلانٌ أعطيته ما بين الثلاثة إلى العشرة، فما أثنى ولا شكر». أفكان رسول الله ﷺ مريدًا أن يشكره أو يثني عليه، وهو يقول لابن الحمامة الشاعر وغيره: «أمَّا ما مَدحْتَني به فألْقِه عَنك، وأما ما مَدَحْتَ به ربَّك عزّ وجلّ فهاته، فإنه يحبّ المدح». لكنه أراد منه القيام بحكم حاله؛ لعلمه أنّ في الشكر والثناء حَضًّا وتحريضًا على المعروف والعطاء، وأنّه خُلُق من أخلاق الربوبية، أحبه اللهُ عز وجلّ من نفسه، فشكره للمنفقين وهو الرازق، وأحب من أوليائه أن يشكروا للأواسط ويُثنوا به عليهم، وإنْ شَهِدوا فيه الأوّل.

وكذلك لما قالت المهاجرون: يا رسول الله، ما رأينا خيرًا من قوم نزلنا عليهم، قاسمُونا الأموالَ حتى خِفْنا أن يذهبوا بالأجر كله. فقال: «كلا، ما شكرتُم لهم وأثنيتم به عليهم». وكذلك أمر به ﷺ في الحديث الآخر فقال: «مَن أُسدِيَ إليه معروف فليكافئ به، فإن لم يستطع فَلْيُثْنِ به». وفي لفظ آخر: «من أَسْدَى إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تستطيعوا فأثنُوا به خيرًا وادْعُوا له، حتّى يعلَم أن قَدْ كَافأْتُمُوه». والخبر العام بمعنى ذلك: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله». وقد روينا في معنى هذا الحديث لفظة غريبة جاءت من طريقين؛ وهي: «من لم يذكرِ الناسَ لم يَذْكرِ اللهَ عز وجل»، أي يذكرهم في العطاء، ويثني عليهم به.

النوع الثاني من التفصيل:

إن على المعطِي أن لا يحب أن يذكر معروفه، ولا يُشكر، فإن علمتَ مَنْ يقصد ذلك، ويحبه منك، فهذا يدلُّ على نُقصَان عِلمه، وقوة آفات نفسه، فتركُ

الثناء على مثل هذا والكتم من الفقير أفضل، فإن شكر له فأظهر عطاءه فقد ظلمه لإعانته إياه على ظلم نفسه، وقد قَوّى آفاتِ نفسه. وهذا إذا فعله به من المعاونة على الإثم والعُدوان فقد كان ينبغي للمعطِي أن ينصره، إذ كان ظالمًا من حيث لا يعلم بأن يخفى عليه ما يعمل. والله أعلم بالصواب.

نوع آخر من التفصيل فى الآخذ للفقير:

إن من الناس من يستوى عنده إظهارُه للعطاء وإخفاؤه؛ لصحة يقينه بذلك، وإخلاص نيته فيه، ونفاذ مشاهدته بدوام نظره إلى المنعِم الأوّل؛ فهذا إن قبلتَ منه علانيته صلح، وإن أثنيت عليه بذلك جاز؛ لقوّة معرفته، وكمال عقله، وسَبْق نظره إلى مولاه فيما وفَّقه به وتولاه، فيشكر له ذلك، ويراه نعمة منه، ولمثل هذا جاء الخبر المشهور: «إذا مُدِح المؤمنُ رَبَا الإيمانُ فى قَلْبه». وقال بعض العارفين: يُمْدَح الرجلُ على قَدْر عقله. وقال الثورى: من عَرف نَفْسَه لم يضره مدحُ الناس له.

ومن الآخذين من يستوى له ويصحّ إظهار العطاء وإخفاؤه، لاعتدال معرفته، ووجود حكمته فى علمه ومعاملته، فإن أظهر ما يجده من انشراح قلبه فبالإخلاص والصدق، وإن أخفى ما يراه وعلمه من إصلاح حال المعطِى وتدبير شأنه، هو لنفسه بالحكمة والعلم، فهذا إن أخفى لم يضره، وإن أظهر لم ينقصه؛ لاعتدال قصده بالله تعالى فى الحالين من شهادته[1].

النوع الرابع من التفصيل:

من الناس من إذا أظهر معروفه فسد قصدُه بذلك، واعتورته الآفاتُ من التزيُّن والتصنُّع، فمثل هذا لا يصلح أن يُقبل منه ما أعلن به، لأنه يكون معينًا له على معصيته؛ وهذا أيضًا لا يصلح أن يُثنى عليه، فإن ذُكر بمعروفه أو مُدح به كان ذلك مفسدةً له، واغترارًا منه؛ لقوة نظره إلى نفسه، ونقصان معرفته بربه، فمن مدح هذا فقد قتله، ومن ذكره بمعروفه فقد أعانه على شركه. ومدح رجلٌ رجلاً

(١) هذه الفقرة برمتها ساقطة من المطبوعة ونسخة (م)، وهى من (د، هـ).

عند النبى ﷺ فقال: «ضَرَبْتَ عُنقه، لو سمعها ما أفلح». وقد كان هو ﷺ يثنى على قوم فى وجوههم، ومن حيث يسمعون؛ لثقته بيقينهم، وعلمه أنّ ذلك مزيدًا لهم. وقال لرجل أقبل إليه: «هذا سيدُ أهل الوبَر». وقال لآخر من حيث يسمع: «إذا أتاكم كريمُ قومٍ فأكْرِمُوه». وتكلّم رجل بكلام فَصْل فأعجبه، فقال النبى ﷺ: «إنّ من البيان لسحرًا». وقد كان يخفى الثناء على آخرين، إذا علم أن ذلك خير لهم.

وقال الثورى ليوسف بن أسباط: إذا أوليتُك معروفًا فكنتُ أنا أسَرُّ به منك، ورأيتُ ذلك نعمة من الله تعالى علىَّ، وكنتُ أشد حياءً منك، فاشكر، وإلا فلا.

فجملة ذلك أن المعطِى حاله الإخفاء، وأن الآخذُ حاله الإظهار. فمن خالف ذلك فارق حاله، وإنَّ فرض المعطِى أن يكره المدح، ولا يحب الثناء والذِّكر، فمن علمتَ منه ذلك، فعليك أن تثنى وتشكر وتنشر، ومن علمتَ منه بحب الإظهار، ويقتضى منك الاشتهار، فحالك أن تعاونه على ظُلمه لنفسه. فتركُ الثناء لمثل هذا أفضلُ له، وأسلم لك[1]، فإن علمت أن إظهار العطاء سبب لفعل المعروف والاقتداء أظهرت. وإنْ رأيت أن كتمه أقربُ إلى صلاح النفوس لأجل الحسد والطلب أخفيته. وقال بعض الحكماء: من كان يريد لنفسه ما يريد، فلا يثنى ولا يشكر ولا يظهر.

فهذا تفصيل ما أجملهُ الصادقون.

تفصيل آخر:

إن لله عز وجل فى إظهار العطاء حكمةً ونعمةً، ولطفًا ورحمةً، قد يكون ذلك سببًا للقُدوة، وطريقًا إلى التأسِّى بالحضِّ عليه والحثِّ، فينافس بعضهم بعضًا، ويحب أحدهم من نفسه لنفسه ما أحبّ من غيره، فيصير الإظهار مفتاحًا لكثرة المعروف، وبابًا لأفعال العطاء، فلذلك جاء الأمر والنّدْبُ إلى الإظهار، وهو داخلٌ فى قوله ﷺ: «أمّتى كالبُنيانِ يشدُّ بعضه بعْضًا». ولهذا جاء فى الخبر: «من

(١) هذه الفقرة إلى هنا تكررت فى نسختى (د، هـ)، وجاءت المرة الأولى فى غير موضعها، وإلى آخر الفقرة زيادة من (د، هـ) فى الموضع الثانى.

الخُيلاء ما يحبه الله عزّ وجل ومنها ما يكره. الخُيلاء بالصدقة يحبها الله عز وجل». وفى حديث آخر بمعناه: «والخيلاء فى الحرب يحبها الله تعالى». وقد جاء بلفظ: «المباهاة فى المعروف وفى القتال يحبُّه الله عز وجل». يعنى بذلك أن ينافس بعضهم بعضًا فيه، ويدعو بعضهم بعضًا إليه، فيظهر فِعله لإخوانِه، ويظهر بحركته وإقدامه ما جبنوا عنه من الطاعات[1].

ثم اختلفوا فى الأخذ من الواجب أفضل أم التطوُّع. فرأى بعضهم أن يأخذ من الواجب ولا يقبل من التطوّع، لأنّ الواجب يأخذه بإذن الله تعالى عن قسمه، وإن الله تعالى أوجب عليه أن يأخذه من حيث أوجب الزّكاة؛ لأن الفقراء والمساكين لو تواطؤوا على أن لا يقبلوا الزكوات أثِمُوا أجمعون، ولَعَصوا كلّهم بذلك لإسقاطهم فرض الله عز وجل من الأموال بالزكوات. قالوا: ولأنّ هذا أدخلُ له فى جملة الضعفاء والمساكين، وأقربُ إلى التواضع والذّلة. قالوا: ولا مِنّةَ لأحدٍ علينا فيه، ولا حقّ يلزمنا عليه، إذ كنا نستحق ذلك منه. قالوا: ولأنه أسلم لديننا، لئلا يدخل علينا الأكل بالدِّين، لأنا إنما نستوجبه بالحاجة وحرمة الإسلام فقط، ونخاف أن يكون أخذنا التطوع أكلاً بديننا، أو أنَّا أُعطينا لصلاحنا واعتقاد فضلنا، فلا نحب أنْ نُخَصَّ بشىءٍ دون الفقراء.

وهذا مذهب القرَّاء من العابدين، ومن ينظر إلى صلاحه ونفسه فى الدين، هو مقتضى حالهم، وموجب شهادتهم.

واختارت طائفةٌ أن يأخذوا من النوافل دون الفرائض، أجروه مجرى الهدية، وقالوا: قد أُمر بقبولها، ونُدب إلى التهادى للتآلف والتحبُّب. قالوا: ولا نزاحم المساكين فى حقوقهم، ولعلنا لا نكمل أوصافهم، ونخاف أن لا يوجد فينا ما شرط الله عز وجل لواجبه، ولا نضعه فى حقيقة موضعه، أو لا نحتاط لمن يسقط عنه الواجب به، فالتطوعُ أوسع علينا. ومع هذا فإنهم يشهدون النعمةَ من الله تعالى، وأنّ الدِّين إنما هو لله عز وجلّ، كما قال: ﴿**أَلاَ لله الدِّينُ الخَالِصُ**﴾ [الزمر:٣]، وأنهم مستعملون بأنفسهم من حيث كانوا مُنعَمًا عليهم، لا مُنعِمين على

(١) من أول قوله: «تفصيل آخر» إلى هنا ساقط من المطبوعة ومن (م)، وهو فى نسختى (د، هـ).

أنفسهم؛ وهذه طريقةُ بعض أهل المعرفة.

وممن ذهب إلى هذا: إبراهيم الخواص، وأبو القاسم الجنيد، ومن وافقهما.

والأمرُ فى ذلك عندى: أن من لم يأخذ من كل إنسانٍ، ولا فى كل أوانٍ، ولم يقبل إلا عند الحاجة، وما لا بدّ له منه، ثم قام بحكم الله تعالى فى الواجب وحكمه فى التطوع، أن الحالين يتقاربان؛ لأن الواجب أمر الله تبارك وتعالى منه حكم، والتطوع ندب، وله عز وجل فيه حُكم. فعلى العبد أن ينظر لدينه، ويحتاط لأخيه، فيعمل بما يُوجب الوقتَ من الحُكم من أيِّهما كان، فسواء ذلك، ولا ينظر بظلمةٍ فى هوى الحظِّ، ففى ذلك سلامته.





الفصل الثانى والأربعون

كتاب حكم المسافر، والمقاصد فى الأسفار

[أنبأنا أبو القاسم قال: أنبأنا أبو طالب قال](١):

فإن سنح لهذا المريد سفر ففى الحديث: «البلادُ بلادُ الله عز وجل والخلقُ عبادُه، فحيث ما وجدت رزقًا فأقم واحمد الله عز وجل». والخبر المشهور: «سافروا تغنموا»؛ فغنيمة أبناء الآخرة ربح تجارة الآخرة. وقد قال الله تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ الله وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧]. وقال عز وجل: ﴿قُلْ سِيرُوا فِى الأَرْضِ فَانْظُرُوا﴾ [العنكبوت: ٢٠]. وقال تعالى: ﴿وَفِى الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠]. وقال جل وعلا: ﴿وَفِى أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]. فمن جُعلت آياته فى نفسه تبصَّر ففطن، ومن جُعلت له الآيات فى الآفاق سَرَب وسَرَى.

وكذلك قال الله عز وجل: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧ ـ ١٣٨]. ومثله: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥]. فمن سار فكانت له بصيرة اعتبر وعقل، ومن مرّ على الآيات فنظر إليها منها تذكَّر وأقبل.

وقد أمر الله عز وجل بالمشى فى مناكب بساطه، والأكل من رزقه بعد إظهار نعمته، بتذليل مهاده، فقال سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ [الملك: ١٥]. قيل: فى أسواقها، وقيل: قراها، وقيل: جبالها؛ وهو الأحب إلىَّ. أحداب الأرض: قُراها. ومناكِبُها: جبالها لأنها أعاليها.

---

(١) من (هـ) فقط.

وكان بشر الحافي يقول: يا معشر القراءِ سيحوا تطيبوا، فإن الماء إذا كثُر مقامه في موضع تغيَّر. وقيل: إنما سمي سفرًا؛ لأنه يَسْفِر عن أخلاق النفس، وأيضًا يَسْفِر عن آيات الله سبحانه وقدرته وحِكَمه في أرضه.

فإذا عزم على السفر فليصلِّ ركعتي الاستخارة، وليعقد التوكل على الله عز وجل، فكفى ناظرًا وساكنًا إليه تبارك وتعالى، واثقًا به ومعتمدًا عليه، مستورًا حاله، راضيًا عنه عز وجلّ في تقلُّبه ومثواه. ولِيَنْوِ في سفره الاعتبارَ بالآثار، والنظرَ إلى الآيات بالاستبصار، والابتغاءَ من فضل الله سبحانه فيما ندبه إليه من الأسباب.

ويقال: إن الله تبارك وتعالى وكَّل بالمسافرين ملائكةً ينظرون إلى مقاصدهم، فيعطي كل واحدٍ على نحو نِيته. فمن كانت نيتُه طلبَ الدنيا أُعطي منها، ونقص من آخرته أضعافه، وفُرِّق عليه همُّه، وكثر بالحرص والرغبة شغلُه. ومن كانت نيتُه طلبَ الآخرة وأهلها أُعطي من البصيرة والفِطنة، وفُتح له من التَّذْكِرة والعِبرة بقدر نِيته، وجُمع له همُّه، وملك من الدنيا بالقناعة والزهد شغله، ودعت له الملائكةُ واستغفرت له.

فلتكن نية هذا المسافر استصلاحَ قلبه، ورياضةَ نفسه، واستكشافَ حاله، وامتحانَ أوصافه؛ لأن النفس إنّما أظهرت الإذعان والانقياد في الحضَر، وربما استكانت وأجابت في السفر، فإذا وقعت عليها أثقالُ الأسفار، ولزمتها حقائقُ الاستخبار، خرجت عن معتاد ذلك المعيار، فأسفرت حقيقتُها، وانكشفت دواعيها، فيكون المسافر في علوم وبصائر، يعرف بها خفايا نفسه ومكامنها، ويكون هذا من خبء الأرض الذي يُخرجه الله عز وجل لمحبيه متى شاء. كما قال جل وعلا: ﴿يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النمل: ٢٥].

فإن خرج سائحًا في طلب العلم فقد جاء ذلك في تفسير قوله عز وجل: ﴿السَّائِحُونَ﴾ [التوبة: ١١٢]. قيل: في طلب العلم، وقيل: هم طلبةُ العلم. وقد كان سعيد بن المسيب يسافر الأيام في طلب الحديث الواحد. وقال الشعبي: لو

سافر رجلٌ من الشام إلى أقصى اليمن فى كلمةٍ تدلّ على هُدًى، ما رأيتُ أن سفره كان ضائعًا. ورحل جابرُ بن عبد الله من المدينة وغيرُه من الصحابة إلى مصر، فساروا شهرًا فى حديث بلغه عن عبد الله بن أنيس الأنصارى يحدثه عن رسول الله ﷺ حتى سمعوه. ومن سافر فى طلب العلم من عهد الصحابة إلى يومنا هذا أكثر من أن يحصى.

وفى الخبر: «من خرج من بيته فى طلب العلم، فهو فى سبيل الله عز وجل حتى يرجع».

وفى خبر آخر: «مَن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا، سهَّل الله عز وجل له طريقًا إلى الجنة». ويقال: إنّ النفقة فى العلم كالنفقة فى سبيل الله، الدرهم بسبعمائة، وإن سافر فى لقاء الصالحين، فقد جاء فى الأثر: كانوا يحجون للقاء، والحج من أفضل الأسفار، فجعلوه سببًا للقاء الأخيار.

فإن نوى الهرب[1] من الأمصار طمعًا فى سلامة دِينه، وبعدًا من تعلُّق النفس بما فى الحضر من حظٍّ دنياه، فحَسَنٌ، وربّما خرج طَلبًا للخُمول والذلة، خشيةَ الفتنة بالشّهرة، ورجاء صلاح قلبه، واستقامة حاله فى البُعد من الناس، ورياضةً بالتفرق والتوحد، إلى أن يقوى يقينُه، ويطمئن قلبُه، فيستوى عنده الحضرُ والسفر، ويعتدل عنده وجودُ الخَلْق وعدمهم، بإسقاط الاهتمام بهم. وقد قال الثورى: هذا زمانُ سُوءٍ، لا يُؤمن فيه على الخامل فكيف بالمشهورين، وهذا زمانُ رجلٍ ينتقلُ من بلدٍ إلى بلدٍ، كلما عُرف فى موضع تحوَّل إلى غيره. وقال أبو نعيم: رأيتُ الثورى وقد علَّق قُلَّته بيده، ووضع جرابه على ظهره، فقلتُ له: إلى أين يا أبا عبد الله؟ فقال: قد بلغنى عن قرية فيها رُخْص، فأنا أريد أن أقيم بها. فقلتُ: وتفعل هذا يا أبا عبد الله؟ قال: نعم، إذا بلغك عن قريةٍ فيها رُخص فأقم بها، فإنه أسلم لدينك وأقلُّ لهمك. وقد كان سرى السقطى يقول للصوفية: إذا خرج الشتاءُ، ودخل أذار، وأورقت الأشجار، طاب الانتشار.

---

(١) فى المطبوعة: «القرب».

ومن أفضل الأسفار ما خرج له فى سبيل الله عز وجل من الجهاد والحج والرباط وزيارة قبر النبى ﷺ، ثم زيارة أصحابه، محتسبًا بذلك ما عند الله عز وجل.

والسفرُ فى زيارة الأخ فى الله عز وجل مستحب مندوب إليه. روينا فى خبر عن بعض أهل البيت عليهم السلام. وقيل: مكتوب فى التوراة: «سِرْ ميلاً عُد مريضًا، سِرْ ميلين شيِّع جنازة، سرْ ثلاثة أميال أجب دعوة، سِر أربعة أميال زُر أخًا فى الله تعالى». وفى الخبر: «إنّ رجلاً زار أخًا له فى قرية أخرى، فأرصد الله عز وجل على مَدرجَته مَلَكًا، فقال: أين تريد؟ فقال: أخًا لى فى هذه القرية أزوره. قال: أبينك وبينه رَحِم تَصِلها؟ فقال: لا. قال: فله عليك نعمةٌ تردها. قال: لا، إلاّ أنى أحببته فى الله عز وجل. قال: فإنى رسولُ الله إليك يبشرك بالجنة ويخبرك أنه قد غفر لك بزيارة أخيك».

وإن سافر إلى بعض الثغور ناويًا رباط أربعين يومًا أو ثلاثة أيام فحَسَن، وإن قصد عبادان فرابط فيها ثلاثًا، فقد رأينا بها ثلاثمائة من العلماء والعبَّاد للرباط فيها ما يجلُّ وصفه.

روى عن على عليه السلام: أنه سأل رجلاً بالبصرة أن يرابط بعبادان ثلاثًا، ويشركه فى صحبته. وقال بعض العارفين: كُوشفت بالأمصار فرأيت الثغورَ كلها تسجد لعبادان، ومن قصد فى سفره أحد المساجد الثلاث المندوب إليه لشدِّ الرحال فهو أفضل؛ أولاها المسجدُ الحرام، ومسجدُ الرسول ﷺ، ومسجدُ بيت المقدس. فيقال: من جمع الصلاة فى هذه المساجد الثلاث من سَنته غُفرت له ذنوبه كلّها. ومن أهَلَّ بحجٍّ أو عمرة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه. وخرج ابن عمر من المدينة قاصدًا إلى بيت المقدس حتى صلّى فيه الصلوات الخمس، ثم كرّ راجعًا من الغدِ إلى المدينة. وسأل سليمانُ عليه السلام ربه تعالى: إنّ من قصد هذا المسجد لا يهمه إلا الصلاة فيه أن لا تصرف نظرك عنه ما دام مقيمًا فيه حتى يخرج منه، وأن تخرجه من ذنوبه كيوم ولدته أمه، فأعطاه الله تعالى ذلك.

وأما فضائل المسجدين فى الحرمين؛ حَرَم الله عز وجل وحَرَم رسوله ﷺ، فأكثر من أن نذكرها.

وإن سافر طلبًا للحلال، وهربًا من طُعمة الحرام، فذانك له قربتان. وقد فعله صالحو السلف فى كل زمان.

وليكن العبدُ فى سفره مراعيًا لهمِّه، حافظًا لقلبه من التشتُّت والطمع فى الخَلْق، والتعرُّض للمسألة، فإن لم يكن ذا معلومٍ معهود، كان معلومُه العلامَ الودود، وكان طريقُه إليه صدقَ التوكل، وزاده فى طريقه حُسنَ التقوى له بصحة الإياس من الناس، وعليه حينئذ الصبرُ على بلائه، والرضا بتصريفه فى قضائه، والشكر على لطائف نَعْمائه مِن مَنْعٍ أو عطاء أو شدة أو رخاء، لأنه فى يد الوكيل يقلِّبه كيف يشاء. والتوكلُ عند المتوكلين هو فى الصبر للصبور، وتسليم الحكم للحاكم. ومنه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [العنكبوت:٥٩]. وقوله: ﴿إِنِ الحُكْمُ إِلاَّ لله عَلَيْهِ تَوَكَّلتُ﴾ [يوسف:٦٧].

وقال رجل لبشر بن الحارث: إنى أريد سفرًا، ولكنى منعنى أنه ليس عندى شىء. فقال: لا يمنعك العُدْم من سَفرك، واخرج لقَصْدِك، فإن لم يعطك ما لغيرك لم يمنعك ما لك.

وكان إبراهيم الخواص يقول: كفٌّ فارغ، وقلبٌ طيب، ومُر حيث شئت. ومَن طرقته فاقةٌ، أو رهقته حاجةٌ، لم يخرجه من التوكُّل أن يسأل إذا عدم القُوّة والصبر؛ لأنه حينئذ يسأل لربه لا لنفسه، يحرِّكه العلم لا الهوى؛ لإقامة فرضه، وحفظ عقله، الذى هو مكان تكليفه. وفى الأثر: «مَن جاع فلم يسأل فماتَ دخل النارَ»، لأن ترك السؤال عند خوف زهق الموت ومع عدم الصبر سبب التلف، أن كان الجوع أحد الحتوف القاتلة.

وقد تأوّل بعض متأخرى الصوفية قول النبى ﷺ: «أحلُّ ما أكلَ العبدُ من كَسْبِ يده»، قال: المسألةُ عند الفاقة.

وأنا برىءٌ من عُهْدَةِ هذا التأويل[١]. وقد كان جعفر الخلدى يحكى هذا عن شيخ من الصوفية وكان هو يستحسنه. ولكن قد كان أبو سعيد الخراز يمدّ يده عند الفاقة ويقول: ثَمَّ شىءٌ لله.

وحدثونا عن أبى جعفر الحداد، وكان شيخًا للجنيد، له علم فى التوكل، وحالٌ من الزهد، كان يقتات بخروجه بين العشاءين، فيسأل من باب أو بابين، فيكون ذلك معلومه إلى بعض حاجاته من يوم أو يومين، ولم يعب هذا عليه أحدٌ من الخصوص. وقد رأى بعض الناس رجلاً من الصوفية دُفع إليه كيس فيه مئون دراهم فى أوّل النهار ففرَّقه كله، ثم سأل قوتًا فى يده بعد عشاء الآخرة، فعاتبه على ذلك، وقال: دُفع إليك شىءٌ أخرجته كلَّه، فلو تركتَ منه لعشائك شيئًا؟ فقال: ما ظننتُ أنى أعيش إلى المساءِ، ولو علمتُ ذلك فعلتُ. وكان هذا زاهدًا قصيرَ الأمل. إلا أن السؤال للمتوكل عند الخواص يُخرجه من التوكل. وقد كان سهل يقول: المتوكل لا يسأل ولا يردّ ولا يحتكر.

وليس يخرجه عندى من التوكل المسألةُ عند الفاقة، بل عدمُ الصبر والقوة؛ ففقد ذينك وجود الإذن من الله له فى السؤال، إذا كان ناظرًا إلى تصريف الوكيل فى كل حال، ولأن الولىَّ الحميدَ يقبل وليَّه فى جميع الأحوال. ألم تر إلى إمامى أهل الظاهر والكُتب وأهل الباطن والقلوب استطعما أهلها؟ لأنَّ المسلم يستحق على إخوانه سدَّ جوعته، لحرمة الإسلام. وقال النبى ﷺ: «ليلةُ الضيفِ واجبةٌ». وقال عليه الصلاة والسلام: «الضيافةُ حقٌّ». وفى الخبر: «ولك أن تأخذ من ماله مقدار ليلةٍ». وفى الحديث: «أيما أهل عَرْصةٍ أو قريةٍ بات فيهم رجلٌ من المسلمين

---

(١) نقل السهروردى صاحب «عوارف المعارف» هذا الرأى لأبى طالب، ولكنه يرى رأيًا آخر غير ما أراد الشيخ هنا، فقال: «ووقع لى ـ والله أعلم ـ أن الشيخ الصُوفى لم يرد بكسب اليد ما أنكر الشيخ أبو طالب منه، وإنما أراد بكسب اليد رفعها إلى الله تعالى عند الحاجة، فهو من أحلِّ ما يأكله، إذا أجاب الله سؤاله، وساق إليه رزقه، وقال الله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿ربِّ إنِّى لِمَا أنزلتَ إلىَّ مِن خَيرٍ فَقير﴾ [القصص: ٢٤]. عوارف المعارف، تحقيق د. عبد الحليم محمود، ١/٣٢٣. وطبعة مكتبة القاهرة، ص ١٣٩. ولكن الحكايات التى رواها صاحب العوارف والقوت لا تؤيد ما ذهب إليه السهروردى، والله أعلم.

جائعًا فقد بَرئت منهم الذّمّة». وكان الثورى يسأل فى البوادى من الحجاز إلى صنعاء اليمن، فقال: كنتُ أذكِّرهم حديث عبد الله هذا فى الضيافة. قال: فيُخرجون إلىَّ طعامًا، فآكل شبعى وأتركُ ما بقى. والمسافرُ هو ابنُ السبيل الذى أوجبَ اللهُ حقه فى الأموال؛ لأن السبيل هو الطريق، وراكبها ابنها، لأنه صاحبُ طريق وسالكه. وليس عليه أيضًا فى الثَّواء[1] عند أخيه المسلم بعد ثلاثة أيام شىء؛ لأنه مقيم على ما أُبيح له.

وقال رسول الله ﷺ: «الضيافةُ ثلاثةٌ؛ فما زاد فهو صَدَقة». فلا يقيمن فوق ثلاث، فقد نهى رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: «ولا يقُم فوق ثلاثٍ فيُحوجه أن يضيِّق عليه». وتأويلُ قوله عندى «فما زاد فهو صدقة»: أى مكروه لاً مندوب إليه ولا مأمور به؛ فإن اختار الصدقة ولم ينزِّه نفسه عنها فهو أعلم، أى: وما كان فى الثلاث فهو حق له وواجب على مضيِّفه، فإن سألوه الإقامة فوق ثلاث، أو علم أنهم يحبون الإقامة، فلا بأس بذلك.

وقد تأول بعض الصوفية قول النبى ﷺ: «فما زاد فوق ثلاث فهو صدقة» أنه صدقة على أصحاب المنزل من الضيف، تصدَّق عليهم بإقامته، لأنه مثوبة لهم، ولا يعجبنى هذا التأويل.

وليحافظ على صلاته فى أوقاتها بحُسن طهارةٍ، وجميل أداء، وليحفظ قلبه أن يتشتت، فإن السّفر قد يشتت همَّ المريد، ويجمع همَّ العارفين، ويشغل قلوب الضعفاء، ويروِّح قلوب الأقوياء؛ وهو محنةٌ وكشفٌ لأخلاق العبد. وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه للرجل الذى زكَّى عنده رجلاً لما سأله عنه ليقبل شهادته، فقال له: هل صحبته فى السفر، الذى يُستدل به على مكارم الأخلاق؟ فقال: لا. قال: ما أراك تعرفه.

وعن بعض السلف: إذا أثنى على الرجل معاملوه فى الحضر، ورفقاؤه فى السفر، فلا تشكُّوا فى صلاحه إذ ذاك، لأن السفر يُسىء الأخلاق، ويُكثر الضجر، ويُخرج مكامن النفس من الشُّحِّ والشّره. وكل من صَلُحت صحبته فى

(١) الثواء: طول المقام.

السّفر صلُحت صحبته فى الحضر، وليس كل من صحب فى الحضر صَلُح أن يصحب فى السفر. وقال بعض السلف: ثلاثة لا يلامون على الضجر: الصائم، والمريض، والمسافر.

ولا ينبغى أن يفارقه من الأسباب أربعة: الرِّكوة، والحبل، والإبرة بخيوطها، والمقراض. وكان الخوّاص من المتوكلين، ولم تكن هذه الأربعة تفارقه، وكان يقول: ليست من الدنيا. وبعض الصوفية كان يقول: إذا لم يكن مع الفقير ركوة وحبل، دل ذلك على نقصان دينه. وكان جماعة من أرباب القلوب، وأهل المعاينة بالأحوال، إذا استوطنت نفوسهم مصرًا أو سكنت إلى موضع، عملوا فى الغربة لرفع العادة، وإيثارًا للقلة والذلة. وقالوا: لا يخلو المؤمن من قِلَّة، أو عِلَّة، أو ذِلَّة. وكانوا إذا خافُوا الاستشراف إلى الخلق خرجوا فى الأسفار لقطع ذلك، وحسمه من الأذكار. وقد كان الخواص لا يقيم فى بلدٍ أكثر من أربعين يومًا، ويرى أن ذلك عِلَّة فى توكُّله، فيعمل فى اختبار نفسه، وكشف حاله.

وحدثنا عن بعض الشيوخ قال: لبثتُ فى البريَّة أحد عشر يومًا لم أطعم شيئًا، وتطلَّعت نفسى أن تعرِّج على حشيش البرية، فرأيتُ الخَضِرَ مُقبلاً نحوى فهربتُ منه، فلما ولَّيتُ عنه هاربًا التفتُّ إليه، فإذا هو قد رجع عنى، فانظروا إلى ولىِّ اللهِ عز وجل كيف لم يفسد علىَّ توكلى؟! فقيل له: لِمَ هربتَ منه؟ قال: تشوَّفت نفسى أن يُقيتنى.

وعلى المسافر من أهل القُلوب أن يفرِّق بين سُكون القلب إلى الوطن والسفر، وبين سكون النفس إليهما؛ فإن ذلك قد يلتبس، فيحسب مَن لا بصيرة له، ولا تفتيش لحاله، ولا صدق فى أحواله، أنّ سكون النفس هو سكونُ القلب، فينقص بذلك، ولا يفطن لنقصانه؛ فإن كان قلبه يسكن إلى أحدهما، وفيه صلاح دينه، وعمارة آخرته، ومحبة ربّه؛ فهذا سكونُ القلب؛ لأنه يسكن إلى أخلاق الإيمان، وما ورد العلم به. وإن كانت نفسه تسكن إلى أحدهما، مما فيه عاجلُ حظوظه، وعمارة دنياه، وموافقة هواه؛ فهذا سكون نفس؛ لأنها تسكن إلى معانى الهوى، فليتحوّل من الوطن إلى الغربة، وليرجع من الغربة إلى المصر. ومن كان فى سفر

على غير هذا النعت من التفقُّد لحاله، وحسن القيام بأحكامه، فهو على هوًى وفتنة، وسفره بلاءٌ عليه ومحنة.

وفصلُ الخطاب أنَّ مَن لم يكن له فى سفره حال يشغله، وهمٌّ يجمعه، ووقت يحبسه، ومأوى يظله، ومسكن يُؤنسه، وزاد من باطنه، وعِلْم من عالمه؛ فإنَّ الحضَر أرفقُ لحاله، وأصلح لقلبه، وأسكنُ لنفسه من السفر؛ لأنه يكون فى السفر مشتَّت السرِّ، مفرَّق الهمِّ، تارة بوجود معلوم يخاف عليه، ومرة بفقد معتادٍ يحن إليه، ومرة باستشراف إلى خَلق يطمعُ فيه، فمرة يضعف قلبه مع العدم، وتارة يقوى بالاستطلاع إلى البشر، ومرة يفزع بِفَقْد ما عنده قد حضر. فمثل هذا يكون فى السفر نقصان ما ادعى، والسفر يجمع همَّ الأقوياء، ويشتِّت قلوب الضعفاء، ويُذهب أحوال أهل الابتداء. ثم إن لم يصلح قلبه، ولم يستقم حاله فى الحضر، فإنه لا يصلح حاله، ولا يستقيم قلبه فى السفر. وأنشدوا لبعض السائحين فى التغرُّب:

أَلِفــتُ التفــرُّدَ والغُــربهْ ففِى كــلِّ يـومٍ أطـأُ تُربَهْ
فيــومٌ مقيمٌ على نِعمــه ويوم مُطــلٌّ على نَكْبَــهْ
وممــا يطِيبُ نفـس الغريـ ـب حبيبٌ تَطيبُ به الصُّحْبَهْ

وقد نهى رسول الله ﷺ أن يسافر الرجل وحده، فقال: «الثلاثةُ نفر». وقال: «إذا كنتم فى سفرٍ ثلاثة، فأمِّروا أحدكم». قال: فكانوا يفعلون ذلك، ويقولون: ذاك أمير أمّره رسولُ الله ﷺ، وكذلك يُستحب.

وقد جاء فى الخبر: «خيرُ الأصحاب أربعةٌ». والأسفارُ والنُّزَهُ لا تطيب إلاّ فى جماعة، وأقل الجماعة اثنان، والثلاثة والأربعة أفضل. والسياحة لا تحسن إلاّ على الانفراد والوحدة؛ فإن اتفق ثلاثة فى سياحةٍ بقلب واحد، وهمٍّ واحد على حال واحدٍ، فهم كعبد واحد، فهو حسنٌ، وفيه معاونة على البر والتقوى. قال الله عز وجل فيمن منعه النصرة وحرمه منه الصّحبة: ﴿**لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصرَ أَنْفُسِهِمْ وَلاَ هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ**﴾ [الأنبياء: ٤٣]. فمن نصره اللهُ على نفسه فقد صحبه، ومن لم يصحبه

سلّط عليه نفسه وسخره لها.

وجملةُ الأمر أن السفر عملٌ من الأعمال يحتاج إلى نية وإخلاصٍ، فمنه فرضٌ وهو ما هرب به من معصية، ومنه فضلٌ وهو ما طلب به طاعة، ومنه مُباحٌ وهو ما ضرب به في تجارةٍ، ومنه معصيةٌ وهو ما سعى به في فساد. وهذا[1] الضربُ من الأسفار لا يجوز فيه قصر الصّلاةِ، ولا أكل الميتة عند الاضرار.

❋ ❋ ❋



(١) من هنا إلى آخره من (د، هـ).

الفصل الثالث والأربعون

كتاب حكم الإمام، ووصف الإمامة والمأموم[١]

فإن كان هذا المريد إمامًا لحيِّه، كان عليه أن يقوم بحكم الإمامة حتى يتمَّها، فيستحق الإمامُ بأن يكون له مثل أجر من صلى خلفه، بأن يكون داعيًا إلى الله عز وجل، قائمًا بين الله تعالى وبين عباده، هو وجهتهم وطريقتهم إليه.

وفى الخبر: «إنّما الإمامُ أمير، فإذا ركع فاركعوا وإذا سجدَ فاسجدوا». وفى الحديث: «فإن تَمَّ فله ولهم، وإن نقص فعليه ولا عليهم».

وفى الخبر: «أئمتُكم وفدُكم إلى الله عز وجلّ، فإن أردتم أن تزكوا صلاتكم فقدِّموا خياركم». وفى الخبر المشهور: «الإمام ضامنٌ والمؤذِّن مؤتمن. اللهم أرشد الأئمة واغفر للمُؤذنين».

وفى الحديث: «ثلاثةٌ لا تقبل لهم صلاة، وفى لفظ آخر: لا تجاوز صلاتُهم رؤوسَهم: العبد الآبق، وامرأة زوجُها عليها ساخط، وإمام قومٍ وهم له كارهون».

فأول ما عليه من الشروط أن يكون مجتنبًا للفسوق والكبائر، وغير مصرٍّ على الصغائر، قارئًا لكتاب الله عز وجل، أو لما يحسن منه بغير لحن ولا إحالة معنى، عالـمًا بفرائض الصلاة وسننها، وما يفسدها، وما يوجب السهو وما لا يوجبه منها، وإن حدثت عليه حادثة فى الصلاة، أو ذكر أنه على غير وضوء، وَرَع واتقى الله عز وجل، وخرج من صلاته، وأخذ بيد أقرب الناس منه فاستخلفه فى مقامه، وقد أصاب ذلك رسول الله ﷺ إمام الأئمةِ فى الصلاة فخرج منها، وذلك أنه ذكر أنه كان جُنبًا فاغتسل، ثم رجع فدخل فى الصلاة، فإن كانت الحادثة فى الصلاة فعل ذلك، وإن كان ذكر أنه دخل فى الصلاة على غير طهارةٍ خرج ولم

---

(١) هذا الفصل برمته ليس فى (د).

يستخلف، وابتدأ القوم صلاتهم، فليكن الإمام مأمونًا على طهارته بإكمالها، مأمونًا فى صلاته بإقامتها، مخلصًا بالإمامة، يريد بها وجه الله تعالى وما عنده، ولا يحلّ له أن يأخذ على الصلاة أجرًا، ولا على الأذان الذى هو طريقٌ إليها.

أمر رسول الله ﷺ عثمان بن أبى العاص الثقفى فقال: «واتخذْ مؤذّنًا لا يأخذ على الأذان أجرًا»؛ فهذا الداعى إلى الصلاة لا يحل له أن يأخذ على دعائه أجرًا، فكيف المصلِّى القائم بين الله وبين عباده؟ وقد كان بعض السلف يقول: ليس بعد الأنبياء أفضلُ من العلماء، ولا بعد العلماء أفضل من أئمة المصلين؛ لأن هؤلاء قاموا بين الله تبارك وتعالى وبين خلقه، هذا بالنبوة، وهذا بالعلم، وهذا بعماد الدين؛ وهى الصلاة. وبهذه الحجة احتُج على علىٍّ رضى الله عنه فى تقدمة أبى بكر رضى الله تعالى عنه للخلافة، لما أهَّله رسول الله ﷺ لديننا، قال: فنظرنا فإذا الصلاةُ عمادُ الدين، فاخترنا لدنيانا مَن رضيه رسولُ الله ﷺ لديننا.

وقال رجل: يا رسول الله، دلَّنى على عمل يدخلنى الجنة. فقال: «كن مؤذِّنًا». قال: لا أستطيع. قال: «كن إمامًا». قال: لا أستطيع. قال: «فصلٍّ بإزاء الإمام».

وقد كان بعض الورعين يَرَعُ عن الإمامة؛ لما فيها ولما على الإمام من ثِقَلها وتحملها، وكانوا يختارون الأذان على الإمامة ويفضلونه عليها؛ منهم كثيرٌ من الصحابة.

وعليه أن يراعى أوقات الصلوات ليصلى فى أوائلها، فيدرك رضوان الله عز وجل، وبين فضل الصلاة فى أوَّلِ وقتها على الصلاة فى آخر وقتها، كفضل الآخرة على الدنيا. كذلك روى عن رسول الله ﷺ. وفى حديث آخر: «إنّ العبد لَيصلِّى الصلاة فى آخر وقتها ولم تفته، ولَمَا فاته من أول وقتها خيرٌ له من الدنيا وما فيها».

وليُتم الركوع والسجود والاعتدال والقعود بينهما، فيكون ذلك قريبًا من السّواء، معتدلاً كلّه، حتى يدرك مَنْ وراءه من الضعفاء والمرضى؛ فتلك كانت صلاةَ رسول الله ﷺ.

وينبغي أن يكون له ثلاث سكتات. كذلك روى سمرة بن جندب وعمران بن حصين عن رسول الله ﷺ؛ أولهن: إذا كبَّر، وهي الطولى منها مقدار ما يقرأ مَن خلفه فاتحةَ الكتاب؛ لئلا يقرؤوا في قراءته، فيكون عليه ما نقص من صلاتهم، فإن لم يقرؤوا فاتحة الكتاب في سكوته، واشتغلوا بغيرها، فذلك حينئذ عليهم، وقد فعل هو ما عليه. والسكتة الثانية: إذا فرغ هو من قراءة [سورة] الحمد ليتمم مَن بقي عليه شيء من فاتحة الكتاب في هذه السكتة، وهي على النصف من السكتة الأولى. والسكتة الثالثة: إذا فرغ من قراءة السورة قبل أن يركع، وهي أخفهن على النصف من السكتة الثانية؛ لئلا يكون مواصلاً في صلاته، بأن يَصِل التكبيرة بالقراءة، ويَصِل القراءة بالركوع، فقد نُهي عن ذلك.

وعلى المأموم أيضًا أن لا يَصِل تكبيرةَ الإحرام ولا تسليمَه بتسليم الإمام، وعليهما أن لا يصلا التسليمتين، ليفصلا بينهما، فقد نُهي عن المواصلة في الصلاة، وهي في هذه الخمس.

وعلى المأموم أن يكبِّر، ويركع، ويسجد، ويرفع، ويضع بعد الإمام، ولا يخرون سجَّدًا حتى تقع جبهةُ الإمام على الأرض وهم قيام، ثم يخرُّون بعده. كذلك كانت صلاةُ الصحابة خلف رسول الله ﷺ. ولا يكبِّر حتى يعتدل الصفُّ وراءه، وليلتفت يمينًا وشمالاً؛ فإن كان أعوج أشار بيده، وإن رأى خللاً أمر بسدِّه، فإن تسوية الصفِّ من تمام الصلاة، وكانوا يحاذون بين المناكب، ويتضامون في الكعاب.

وقد قيل: إن النّاس يخرجون من الصلاة على ثلاثة أقسام: طائفة بخمس وعشرين صلاة؛ وهم الذين يتمون صلاتهم بعد ركوع الإمام وسجوده. وطائفةٌ بصلاة واحدةٍ، وهم الذين يكبِّرون ويركعون ويسجدون معه مواصلةً له ومبادرةً. وطائفةٌ تخرج بغير صلاةٍ، وهم الذين يرفعون ويضعون قبله فيسابقون إمامهم.

وليقرأ في صلاة الغداة بسورتين من المثاني وهي ما دون المائة، فإن الإطالة في قراءة الفجر والتغليس سنّة، ولا يضره خروجه منها مسفرًا، إذا كان قد دخل فيها مغلِّسًا. ولا إكراه أن يقرأ في الركعة الثانية منها بأواخر السور من نحو الثلاثين أو

العشرين إلى أن يختمها؛ لأن فى ذلك مزيد تذكرة وفضلَ تبصرة، لأنه يبعد طروقه على الأسماع لكثرة الاعتياد لتلاوة السور القصار، فهى أدنى إلى الانقطاع والتفكر، وإنما كُره أن يقرأ من أولها كذلك؛ ثم يقطع، أو يقرأ من وسطها؛ ثم يركع قبل أن يختمها. هذا الذى كرهه بعض العلماء.

وقد روينا أنّ النبى ﷺ قرأ بعض سورة يونس، فلما انتهى إلى ذكر موسى وفرعون قطع فركع. وروينا حديثًا أشهر منه، أن النبى ﷺ قرأ فى ركعتى الفجر بآية من سورة البقرة؛ قوله تعالى: ﴿**قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ**﴾ [البقرة:١٣٦]. وفى الثانية: ﴿**رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ**﴾ [آل عمران:٥٣]. وفى رواية: أنه قرأ فيهما: ﴿**شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلهَ إِلاَّ هُوَ**﴾ [آل عمران:١٨]. وأنه سمع بلالاً يقرأ من ههنا وههنا، فسأله عن ذلك، فقال: أخْلِط الطيِّبَ بالطيب. فقال: «أحسنتَ، أو أصبتَ».

والخبر المشهور عن أبى بكر الصديق: قال الصنابحى: صلَّيتُ خلْفَه المغرب، فأصغيت إليه فى الركعة الثانية؛ فإذا هو يقرأ هذه الآية: ﴿**رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا**﴾ [آل عمران:٨] الآية. فكذلك يستحبّ أن يقرأ بهذه الآية، خاصة فى الثانية من صلاة المغرب.

وروينا عن ابن مسعود أنه أمَّ الناس فى صلاة العشاء الآخرة، فقرأ فى الركعة الثانية بالعشر الأواخر من سورة آل عمران، وأنه قرأ أيضًا فى هذه الصلاة بآخر سورة الفرقان من قوله تبارك وتعالى: ﴿**تَبَارَكَ الَّذِى جَعَلَ فِى السَّمَاءِ بُرُوجًا**﴾ [الفرقان:٦١].

وقد قال الفقهاء فى المستحبِّ من القراءة بعد سورة الحمد من الزيادة عليها أن يقرأ ثلاث آيات من سورة. وبعضهم يقول: آيتين من سورة. فإن اكتفى بسورة الحمد أجزأه. وقد روينا عن جابر بن زيد فقيه أهل البصرة، وكان ابن عباس يستخلفه فى الفتيا، ويأمر أن يُستفتى: أنه افتتح الصلاة ثم قرأ [سورة] الحمد، ثم قال: ﴿**مُدْهَامَّتَانِ**﴾ [الرحمن:٦٤]، وركع. وهذه أقصر آية فى كتاب الله عز وجل وبعدها: ﴿**ثُمَّ نَظَرَ**﴾ [المدثر:٢١].

وقد رأيتُ بعض الأئمة فى جامع عظيم من جوامع المسلمين قرأ فى الركعة الثانية من صلاة العشاء الآخرة بآخر سورة يونس، وخلفه العلماء والأشهاد، فما أنكر عليه أحد.

وليقرأ فى صلاة الظهر بطوال المفصَّل إلى الثلاثين آية، وفى صلاة العصر بَوسَط المفصَّل على نصف صلاة الظهر، وفى المغرب بأواخر المفصل. وآخر صلاةٍ صلاّها رسول الله ﷺ المغربُ، قرأ فيها رسول الله ﷺ سورة «والمرسلات»، ما صلى بعدها حتى قُبض ﷺ. وقال أنس: كان رسول الله ﷺ من أخف الناس صلاةً فى تمام، ثم قال أيضًا: كان رسول الله ﷺ يأمر بالتخفيف فى الصلاة، وإن كان ليؤمّنا بسورة «والصّافّات».

وقد روينا عن رسول الله ﷺ فى الرّخص: «إذا صلى أحدكم بالناس فليخفِّف، فإنّ فيهم الكبير والضعيف وذا الحاجة، وإذا صلى لنفسه فليطوِّل ما شاء». وقد كان معاذ بن جبل يصلى بقومه صلاة عشاء الآخرة فافتتح بسورة البقرة، فخرج رجل من الصلاة وأتم لنفسه، ثم انصرف. فقالوا: نافق الرجل، ثم تشاكيا إلى رسول الله ﷺ، فأشكى الرجلَ، وزَبَرَ[1] معاذًا وقال: أفتان أنت؟ اقرأ بسورة سبح، والسماءِ والطارق، والشمس وضحاها.

وليسبح فى ركوعه وسجوده سبعًا أو خمسًا ليدرك مَن وراءه ثلاثًا ثلاثًا؛ لأنهم يركعون ويسجدون بعده. وروينا أنّ أنس بن مالك لما صلّى خلف عمر بن عبد العزيز وكان أميرًا بالمدينة قال: ما صلَّيتُ بعد رسول الله ﷺ مثل صلاة هذا الشاب، قال: وكنا نسبِّح وراءه فى الركوع والسجود عشرًا عشرًا. وقد روينا [خبرًا] مجهلاً عن رسول الله ﷺ قال: «كنا نسبِّح وراءه فى الركوع والسجود عشرًا عشرًا».

فإن قرأ فى الأخيرتين من الظهر والعصر وعشاء الآخرة بعد سورة الحمد بسورة قصيرة، أو آيتين من سورة، فحَسَنٌ؛ ليدرك مَنْ وراءه قراءة سورة الحمد على مَهَلٍ.

---

(١) الزبر: الزجر والانتهار. يقال: زبر السائل: زجره وانتهره.

وقد اختلف مذهب السلف فى الإمام يكون راكعًا فيسمع خفق النعال هل ينتظر فى ركوعه ويتوقف حتى يدخلوا فى الركعة، أو لا يباليهم؟ فقال بعضهم: ينتظر حتى يلحقوا معه؛ وممَّن اختاره الشعبى. وقال آخرون: لا ينتظرهم فإنَّ حرمة من معه فى الصلاة أعظمُ من حرمة من تأخّر عنها؛ وقال بهذا إبراهيم النخعى. وكذلك قال فقهاء الحجاز: لا ينتظرهم؛ فإنه زيادة فى الصلاة، ومن الإخلاص بها تركُ التوقف بها لأجلهم.

وقال بعض فقهاء الكوفة: إن انتظرهم فحسن، ليدركوا معه الجماعة، فيكون له فضل إدراكهم. وقد قدّم عثمان القنوت قبل الركوع فى صلاة الغداة ليدرك الناسُ الركوع.

والذى عندى فى هذا التوسطُ، وهو أنه ينتظر، فإن سمع خفق نعالهم فى أول ركوعه فلا بأس أن يمدّ حتى يلحقوا، وإن سمعها فى آخر ركوعه عند رفع رأسِه لم أحبّ أن لا يزيد فى الصلاة لأجلهم، فليرفع ولا يبالى.

وأفضل التشهد عندى الذى رواه ابن مسعود وجابر، وقد اختلفت الروايات فى ألفاظ التشهد[١]. والذى أختاره وأقوله[٢]: ما رويناه عن عبد الله [ابن مسعود] بإثبات الواوات، وبتقديم اسم الله عز وجل فى أوله، وبزيادة المباركات، فأكون بذلك جامعًا بين جميع الروايات؛ لأن فى حديث عمر ذكر «المباركات» وتأخير قوله «لله عز وجل». ومن رواية ابن عمر ذكر التسمية. وقد روينا ذلك فى حديث الثورى عن أيمن بن وائل عن أبى الزبير عن جابر أنّ رسول الله ﷺ كان يقول: «بسم اللهِ، وباللهِ، والتحياتُ لله، والصلواتُ والطيباتُ لله عز وجل». فهذا هو الأفضل عندى، لأنه هو الأحوط، ولدخول روايات الجماعات فيه.

ثم اختلفوا فى مواجهة النبى ﷺ بالإشارة إليه فى السلام، أو تركها، فالذى

(١) انظر روايات التشهد وصيغه فى: صفة صلاة النبى ﷺ، للشيخ الألبانى، ص ١٧٢ ـ ١٧٧، وكتاب المغنى لابن قدامة ٢/ ٢٢٠ ـ ٢٢٣.

(٢) وهو أيضًا اختيار الإمام أحمد، وابن قدامة صاحب المغنى، انظر حجته فى ذلك فى المغنى ٢/ ٢٢١.

أختاره: السلام على النبى ﷺ إلى: ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين؛ لأنه قد جاء فى بعض الأخبار كالتفسير لما ذكرناه. قال: كنا نقول إذ كان رسول الله ﷺ بين أظهرنا: السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته. فلما قُبض ﷺ صرنا نقول: السلام على النبى. وفى كل الروايات قوله: «وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله». فكذلك أختارُ، إلاّ فى رواية عمر فإنه قال: رسول الله ﷺ. وحدثنى بعض العلماء عن بعض الصالحين قال: رأيتُ النبى ﷺ فى المنام فقلت: يا رسول الله، قد اختلف العلماء علينا فى التشهد، فبِمَ نأخذ؟ فقال: التشهد هو الذى رواه ابنُ أم عبدٍ.

ولا يدع أن يستعيذ فى تشهده بالكلمات الخمس فيقول: «أعوذُ بك من عذاب جهنم، وعذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المحيا والمماتِ، ومن فتنة المسيح الدجال، وإذا أردتَ بقومٍ فتنةً فاقْبضنى إليكَ غير مفتونٍ». قد فعله رسولُ الله ﷺ وأمرَ به. والمسيح: بنصب الميم مع التخفيف؛ لأنه قيل: سُمِّى كذلك معدول به من ماسح، أى يمسح الأرض مسحًا، لأنه قيل: تُطوى له الأرض. وبعض أهل اللغة يقول: عُدل به عن ممسوح العين؛ أى مطموسها.

والتكبير والتسليم جَزْمٌ، والأذان جزم. قد قيل ذلك، واستُحب أنْ يكون المؤذن غير الإمام. وقد روينا فى الخبر: أن رسول الله ﷺ كره أن يكون الإمام مؤذنًا، وقد كان عمر رضى الله عنه إذا ذُكر فضلُ الأذان يقول: لولا الإمامةُ لأذَّنت.

وروينا عن النبى ﷺ: «الأذان إلى المؤذن والإقامة إلى الإمام»؛ أى هو أملك بها، وللمؤذن أن ينتظر الإمام، وليس على الإمام والمأموم انتظار المؤذن إذا دخل الوقت، ولا على المؤذن انتظارُ أحدٍ إذا جاء الإمامُ ودخل الوقت.

والصلاة فى أول وقتها أفضلُ من انتظار الجماعة لها، وأفضلُ من قراءة طوال السور فيها. وقيل: قد كانوا إذا حضر اثنان فى الصلاة لم ينتظروا الثالث، وإذا حضر أربعة فى الجنازة لم ينتظروا الخامس. وقيل: انتظار المأموم مع شهود الإمام مكروهٌ، والنعى بالميت والإيذان به بدعة.

وقد تأخر رسولُ الله ﷺ فى صلاة الفجر، وكانوا فى سفر، وإنما تأخر لطهارة،

فلم ينتظروا، وقدَّموا عبد الرحمن بن عوف فصلى بهم حتى فاتت رسول الله ﷺ ركعة، فقام يقضيها. قال: فأشفقنا من ذلك، فقال: «أحسنتم، هكذا فافعلوا». وقد تأخر فى صلاة الظهر فقدموا أبا بكر رضى الله عنه حتى جاء وهم فى الصلاة، فقام إلى جانبه.

وليدخل فى الصلاة مكبِّرًا إذا قال المؤذن: قد قامت الصلاة. ويكون الناس قد قاموا إذا قال المؤذن: حى على الصلاة. كذلك السنة وعليه كان السلف[١].

وروينا عن على عليه السلام، وعبد الله، وكانوا إذا قال المؤذن: حى على الصلاة قام الناس للدعوة، فإذا قال: قد قامت الصلاة؛ كبَّر الإمام، ويبقى المؤذن وحده يتم الإقامة، ثم يدخل فى الصلاة، والإمام يقرأ سورة الحمد. لأن حقيقة قوله: قد قامت الصلاة، أى قد قام الناس للصلاة، وقد قام المصلّون؛ لأن الصلاة لا تقوم، فإذا قاموا عند قوله: قد قامت الصلاة، كان المؤذن صادقًا فى قوله، وإن كان جائزًا على المجاز لقرب الوقت، وظهور سبب القيام. ولذلك كُره أن يكون الإمامُ مُؤذنًا؛ لأنه حينئذ يحتاج أن يكبِّر، ويدخل الناس فى الصلاة عند قوله: قد قامت الصلاة.

وكذلك جاء عن السلف: من السنة أن يكون الأذان فى المنارة، والإقامة فى المسجد، ليقرب على المؤذن الدخولُ فى الصلاة. وكذلك قال بلال لرسول الله ﷺ: لا تسبقنى بآمين؛ أى تمهَّل حتى أدرك التأمين معك لفضله، إذ قد علم أنه يسبقه بافتتاح الحمد. وفى هذا دليل على صحة اختيارنا، فيما ذكرنا من انتظار الإمام لِمَن سَمِع خَفْقَ نعله[٢]، إذا كان فى أول الركوع، لقول بلال: لا تسبقنى بآمين، ولم يقل: لا تسبقنى بالحمد.

(١) هذا فى مذهب أبى حنيفة: «قال: يقوم الإمام إذا قال: حىّ على الصلاة. فإذا قال: قد قامت الصّلاة: كبر». والجمهور على غير ذلك. إذ يرون أن الإمام يقوم عند قول المؤذن: قد قامت الصّلاة، ولا يكبر حتى يفرغ المؤذن من الإقامة. لأن النبى ﷺ كان يعدِّل الصّفوف بعد إقامة الصّلاة. انظر: المغنى ٢/ ١٢٣ ـ ١٢٦.

(٢) عبارة (هـ): «على صحة مذهب من قال: إن الإمام ينتظر إذا سمع خفق النّعال حتى يدخل فى الصلاة».

إلا أنه على قول من قال: إذا سَبَّح الداخل بالإمام وهو راكع لَزِمه أن يتوقف عليه، لأنه قد أذنه بالتوقف. فإذا لم يسبِّح، لم يجب عليه أن يتوقف له. فهو على هذا القول أشدُّ جوازًا، لأن تسبيحه بالإمام يسأله أن يتوقف عليه، بمنزلة قول بلال رضى الله عنه: لا تسبقنى بآمين[١].

ولا أستحبُّ للإمام الجهرَ ببسم الله الرحمن الرحيم، وإن كانت آيةً من سورة الحمد، فأكثرُ الروايات وأثبتُها عن رسول الله ﷺ تركُ الجهر بها، وأنه الآخر من فعله، فقد كانوا يأخذون بالآخر، فالآخر من أفعاله ﷺ، ولمواطأة فعل أبى بكر وعمر رضى الله عنهما[٢]، ولأنه مذهبُ أكثر العلماء.

وروينا عن ابن مسعود أنه قال: من السنة أن يخفى الإمام أربعًا: سبحانك اللهم، والاستعاذة، وقراءة بسم الله الرحمن الرحيم، والتأمين. وقد روينا عن على كرم الله وجهه: كراهة الجهر بها[٣]. وعن ابن عباس: ليس من السنة الجهر بها.

ولا أكره القنوت فى صلاة الغداة بالكلمات الثمانية التى رُويت عن الحسن عن رسول الله ﷺ أن يقولها سرًا، ولا يرفع يديه، لأنها تجرى مجرى الدعاء، وإن ترك ذلك فحسن، قد تركه أكثر الفقهاء.

وأستحب أن يقرأ فى ليلة الجمعة وغداتها من السور ما روينا عن رسول الله ﷺ فى حديثين؛ المشهور منهما: «أنه كان يقرأ فى صلاة الغداة يوم الجمعة بسورة السجدة و ﴿هَلْ أَتَى﴾ [سورة الإنسان]. والحديث الآخر: «أنه كان يقرأ فى صلاة المغرب ليلة الجمعة: ﴿قُلْ يَا أَيُّها الكَافِرُونَ﴾ و ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾. وفى عشاء الآخرة: بسورة الجمعة وسورة المنافقين.

وأستحب أن يقول فى تشهده من الدعاء ما علَّم رسولُ الله ﷺ عائشةَ من

---

(١) هذه الفقرة من (هـ).

(٢) قوله: «ولمواطأة فعل أبى بكر وعمر رضى الله عنهما» من (هـ).

(٣) فى المطبوعة: رأى ابن مسعود وعلى رضى الله عنهما يخالف رأى ابن عباس، وأثبت ما فى (م، هـ).

الجوامع والكوامل: «اللهم إنى أسألك من الخير كله عاجله وآجله، ما علمتُ منه وما لم أعلم، أسألك مما سألك منه محمد ﷺ، وأعوذُ بكَ مما استعاذك منه محمد ﷺ، أسألك الجنة وما قرَّبَ إليها من قَوْلٍ وعَمل، وأعوذ بك من النار وما قرّب إليها من قولٍ وعَمل. اللهم ما قضيتَ لى من أمر فاجعل عاقبته رَشَدًا». ثم يستغفر للمؤمنين والمؤمنات ويقول: ﴿رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران:٨] الآية، ﴿ربَّنَا آتنا فى الدُّنيا حَسَنَةً وفى الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة:٢٠١].

وليس بعد هذا دعاء مفضَّل ولا كلام مأثور سوى ما ذكرناه آنفًا من الاستعاذة بالكلمات الخمس، وإنْ اقتصر عليها أجزأته، ويُكره للإمام أن يخصَّ نفسه بدعاء دون مَن خلفه، فإن دعا فى صلاته فليجمع بالنون، فيقول: نسألك ونستعيذك، وهو ينوى بذلك نفسه ومَن خلفه. وفى الخبر: «مَن أمَّ قومًا فلا يخص نفسه بدعوةٍ دونهم».

فإن اختار المريدُ التأذين على الإمامة، فقد قال بعض السلف من العلماء: إن الأذان أفضلُ من الإمامة، وإنّ المؤذن أعظمُ أجرًا، لقول النبى ﷺ: «الإمام أمير»، ولقوله: «الإمام ضامن»، فشبهها بالإمارة والضمان. ثم قال: «فإن نقص فعليه لا عليهم»، فالأذان أسلمُ، ولعله لا يقوم بحكم الإمامة، ولا يتم وصفُ الإمام، فيكون عليه بعض صلاة المصلّين، كم يكون له أيضًا فى الإتمام أجورهم. وأيضًا: فإن رسولَ الله ﷺ دعا للمؤذنين دعاءً هو أمدحُ من دعائه للإمام بقوله: «اللهم أرشد الأئمة، واغفر للمؤذنين»، وبقوله: «يُغفر للمُؤذِّن مدى صوته ويشهدُ له كلُّ رطب ويابس». ووصفه أيضًا بوصف هو أبلغ فقال: «المؤذن مؤتمن». وفى لفظ آخر: «مؤذنوكم أمناؤكم، وأئمتكم ضمناؤكم». فالأمينُ أرفعُ حالاً من الضامن؛ لأن الضامن غارم، وقد لا يكون أمينًا، والأمين مكين ولا ضمان عليه.

ومن هذا كره سهل بن سعد الساعدى الإمامة. قال أبو حازم: قلتُ لسهل بن سعد، وكان يقدِّم فتيان قومه يصلُّون به، فقلت: أنت صاحبُ رسول الله ﷺ ولك من السابقة والفضل لو تقدَّمتَ فصلَّيتَ بقومك. فقال: يا ابن أخى، سمعتُ

رسول الله ﷺ يقول: «الإمامُ ضامنٌ» فأكره أنْ أكون ضامنًا. وفى الخبر: «مَن أذَّن فى مسجدٍ سبع سنين وجبت له الجنةُ، ومن أذَّن أربعين عامًا دخل الجنة بغير حساب». وفى الخبر عن رسول الله ﷺ: «ثلاثة يومَ القيامة على كثيبٍ من مِسْكٍ، يفزعُ الناس ولا يفزعون حتى يُقضى بين الخلائق: رجلٌ قرأ القرآنَ فأدّاه إلى الله سبحانه وتعالى بما فيه، ورجل أذّن فى مسجدٍ ابتغاءَ وجه الله تعالى، ورجل ابتُلى بالرِّقّ فى الدنيا فأطاع اللهَ عز وجل وأطاع مواليه».

وروينا فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّن دَعَا إِلَى اللهِ﴾ قال: نزلت فى المؤذِّنين ﴿وعَمِلَ صَالِحًا﴾ [فصلت:٣٣] قال: الصلاة بين الأذان والإقامة.

ويستحب إذا فرغ المؤذنُ من الأذان أن يقول: وأنا من المسلمين، الحمدُ لله ربّ العالمين، وتلا قوله: ﴿وعَمِلَ صَالِحًا وقَالَ إِنَّنِى مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت:٣٣]، وقوله: ﴿فادْعُوهُ مُخْلِصِينَ له الدِّين الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِين﴾ [غافر:٦٥].

وأستحبّ أنْ يصلى المؤذن بين الأذان والإقامة أربعًا، وأنْ يجتهد فى الدعاء. قال: وكان السلف يكرهون أربعًا ويتدافعونها عنهم: الإمامة، والفتيا، والوصية، والوديعة. وقال بعضهم: ما شىءٌ أحبُّ إلىَّ من الصلاة فى جماعة وأكون مأمومًا، فأُكفى سهوها، ويتحمل غيرى ثِقَلَها. ولكن إذا أُقيمت الصلاة فليتقدَّم مَن أُمر بالتقدم ولا يتدافعونها، فقد جاء فى العلم: أنّ قومًا تدافعوا الإمامة بعد إقامة الصلاة فخُسف بهم، ولكن لا يقيم المؤذن حتى يحضر الإمام، ولا ينتظروا الإمام قيامًا فإنه مكروه. وقال رسول الله ﷺ: «لا تقوموا حتى ترونى».

وكان بشر بن الحارث يقول: من أراد سلامة الدنيا وعزَّ الآخرة فليجتنب أربعًا: لا يحدِّث، ولا يشهد، ولا يؤمُّ، ولا يفتى. وفى بعضها: ولا يجيب دعوة. وقال مرة: ولا يقبل هديةً. وهذا من تشديده.

والذى أختار من التأذين والإقامة مذهبَ أهل الحجاز بتثنية الأذان، بالترجيع وإفراد الإقامة، وأن يزيد فى أذان الفجر: «الصلاة خيرٌ من النوم» مرتين، وأن يؤذن لها قبل دخول الوقت خاصة؛ ليتأهب لها المصلّون، وإنما هى الصلاة

الوسطى، إلاّ أن يتفقوا على صحة الحديث: «شغلونا عن الصّلاةِ الوُسْطَى صلاة العَصرِ»، فليَدَع الاختيار للآثار.

وأنْ يمدَّ المؤذن صوته، ويرفعه جهده، ويترسل أذانه، وقيل: كانوا يستحبون خفض الصوت فى كل موطن إلاّ فى موضعين: فى الأذان، وعند التلبية.

وفى الخبر: «يتمهل المؤذن بين أذانه وإقامته قدر ما يفرغ الآكلُ من طعامه، والمعتصرُ من اعتصاره». فهذا توقيت من مقدار المصلِّين بين الأذانين، فمن كانت به حاجة إلى هذين فليقدِّم ذلك قبل دخوله فى الصلاة، لئلا يشغله شىءٌ عن صلاته.

ونهى رسولُ الله ﷺ عن مدافعة الأخبثين فى الصلاة، وأمر بتبدئة العَشاء فى قوله: «إذا وُضع العَشاء وأُقيمت الصلاة، فابدؤوا بالعَشاء»، ذلك ليكون القلب فارغًا لربه، خاليًا من نوائبه، فذلك من إقامة الصلاة وإتمامها.

وأكره الإمامة لمن كثُر سهوه فى الصلاة، أو دام اشتغال قلبه عن فهم المناجاة، أو لمن عَلِم أنّ وراءه من هو أقرأ منه، أو أفقه فى الدين والعلم، وإن كان هو عابدًا صالحًا، أو لفقيه بالعلم إذا كان وراءه أتقى منه وأصلح وأورع، بعد أن يكون مؤدّيًا لفرض التلاوة.

ولا يؤمُّ الأمىُّ القُرَّاءَ، ولا الأعجمىُّ الفصحاءَ، ولا المتَيَمِّمُون المتوضئين. وإن اتفق أميُّون قُدِّم أقرؤهم، وإنْ حضر أئمة قرَّاء فليتقدم أعلمهم، وإنْ اتّفق رجلان أحدهما قد جمع كلّ القرآن، إلاّ أن الآخر أحسن تجويدًا وتثقيفًا لما يقرأ منه، وليس يحفظ جميعه، فليُقدَّم أقومهم قراءة، إذا كان عالمًا بالصلاة. وفى الخبر: «يؤمُّ القومَ أقرؤُهُم لكتاب الله عز وجلّ، فإن كانُوا فى القراءة سواء فأفقههم فى الدين، فإن كانوا فى الفقه سواء فأكبرُهُم سِنًّا»، وكذلك الأمر. وقال رجل للحسن: يا أبا سعيد، إن لنا إمامًا يَلْحَن، فقال: أخِّروه. والخطأ أسهل من اللحن، لأن فيه تحريفًا وإحالة، وليس فى الخطأ ذلك[1].

---

(١) من قوله: «وقال رجل للحسن» من (هـ).

والرجلُ أحق بالإمامة إذا كان فى منزله إلا أن يأذن، كذلك السنة فيه.

وأستحب للإمام إذا سلَّم أن يسرع الانفتال بوجهِهِ إلى الناس، وأكره للمأموم القيام قبل انفتال إمامه. فقد روينا فى ذلك سنةً حسنةً عن طلحة والزبير، أنهما صليا فى البصرة خلف إمام، فلما سلَّما قالا للإمام: ما أحسن صلاتك وأتمها، كما كنا نصلى، إلاّ شيئًا واحدًا، أنك لما سلَّمت لم تنفتل بوجهك، ثم قالوا للناس: ما أحسن ما صلَّيتم إلاّ أنكم انصرفتم قبل أن ينفتل إمامكم.

ومن كرهه جيرانه، أو كرهه مَنْ وراءه من المأمومين، فلا يحل له أن يتقدم، فإن اختلفوا فكرهه قوم وأحبه آخرون، نُظر إلى أهل الدين والعلم منهم، فحُكم بقولهم، ولا يعتبر الأكثر إذا كان الأقلون هو الأخير.

ولا يصلى خلف مبتدع، فمن صلى خلف مبتدع ولا يعلم فليُعد، ومن سمع الأذان من مسجد وهو فى طريق يمشى فليدخل فليصلِّ، ولا يؤخر إلى مسجدٍ آخر، إلاّ لأحد معنيين: أن يكون على يقين من لحوق إمام آخر أفضل من هذا، أو يكون يعرف هذا ببدعة أو فسوق، وإلاّ فالصلاةُ مع أوّل من قام بها من المسلمين أفضل.

وفى الخبر: «لا صلاة لجارِ المسجد إلا فى المسجد»، وفى جار المسجد قولان: أحدهما: مَن سمع الأذان. وروى هذا عن على عليه السلام. والثانى: من كان بينه وبين المسجد ثلاث دور وهو الرابع. والتشديد فى ترك الجماعة على من سمع التأذين.

ومن كان فى جنبه مسجدان، فأوْلاهُما بالصلاة فيه أقربهما منه، وهذا مذهب الحسن، إلا أن يكون له نية فى كثرة الخُطى إلى الأبعد، أو يكون إمامُ الأبعد هو الأفضل. وقيل: أقدمهما. ورُوى هذا عن أنس بن مالك وبعض الصحابة، أنهم كانوا يجاوزون المساجد المحدثة إلى العُتُق.

ومن كان مأمومًا فلا يقرأ سورة مع الحمد فيما يجهر به الإمام أصلاً، ولا يقرأ الحمد أيضًا إلا فى سكتات الإمام وإن قطعها، فإن لم يكن للإمام سكتات قرأ

الحمد فقط فيما يجهر به الإمام، وكان ما عليه من وِزر قراءته فى قراءة الإمام على إمامه، لأنه قد نقص صلاته وترك ما عليه. فالله عز وجل حسيبه. فإذا أسرَّ الإمام فليقرأ الحمد وسورةً إذا أمكنه، ولا بد من قراءة الحمد وحدها.

وأستحب للإمام أن يتحوَّل إذا صلى المكتوبة فلا يصلى فى موضعه نافلة. ففى الخبر: «أن النبى ﷺ كان إذا سلَّم وَثَب». وكان أبو بكر رضى الله عنه إذا سلَّم وثب. وكان عمر رضى الله عنه إذا سلَّم وثب. وفى الخبر المشهور: «أنه لم يكن يقعد إلاّ قدر قوله: اللهم أنت السلام ومنك السلام، تباركت وتعاليت يا ذا الجَلالِ والإكرام» ثم ينصرف. وإن تحول المأموم فصلى النافلة فى غير مكان الفريضة ولو بقَدَمٍ فحسَنٌ، ففى ذلك أثر. فإن جلسا قليلاً للتسبيح والدعاء فلا بأس.

وهذا آخر كتاب الإمامة.

***



الفصل الرابع والأربعون

كتاب الأخوة فى الله تبارك وتعالى، والصحبة والمحبة للإخوان فيه، وأحكام المؤاخاة وأوصاف المحبين

ذكَّر الله عز وجل عباده المؤمنين نعمته عليهم فى الدين، إذ ألّف بين قلوبهم بعد أنْ كانوا متفرقين، فأصبحوا بنعمته إخوانًا، بالألفة متفقين، وعلى البر والتقوى مضطجعين، ثم ضمّ التذكرة بالنعمة عليهم إلى تقواه، وأمر بالاعتصام بحبله وهداه، ونهى عن التفرُّق إذ جمعتهم الدار، وقرن ذلك بالمنّة منه عليهم، إذا أنقذهم من شفا حفرة النار، وقد جعل ذلك كله من آياته الدالة عليه سبحانه وتعالى، وسبُله الواصلة بالهداية إليه، فقال فى مجمل ما شرحناه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِه...﴾ إلى ﴿ولاَ تَفَرَّقُوا...﴾ إلى ﴿لَعَلَّكُم تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢ ـ ١٠٣].

وقد كانت المؤاخاة فى الله تعالى والصحبةُ لأجله والمحبةُ له فى الحضر والسفر، طرائقَ للعاملين، فى كل طريق فريق، لما فى ذلك من الفضل، ولما جاء فيه من الأمر والندب، إذ كان الحب فى الله عز وجل من أوثق عرى الإيمان، وكانت الألفةُ والصحبة لأجله، والمحبة والتزاور من أحسن أسباب المتقين. وقد كثرت الأخبار فى تفضيل ذلك والحثّ عليه، وليس قصدنا الجمع لما رُوى، لميلنا إلى الإيجاز فى كل فنٍّ، ولكن نذكر الأفعال المستحسنة، وما تعلق بها مما لا بد منه.

على أن رأى التابعين قد اختلف فى التعرُّف، فمنهم من كان يقول: أقلل من المعارف، فإنه أسلمُ لدينك، وأقلُّ غدًا لفضيحتك، وأخفُّ لسقُوط الحقوق عنك؛ لأنه يقال: كلما كثُرت المعارف كثُرت الحقوق، وكلما طالت الصُّحبة توكدت المراعاة. وقال بعضهم: هل رأيتَ شرًا إلا ممن تعرف، فكلما نقص من هذا فهو خيرٌ. وقال بعضهم: أنكر مَن تعرف، ولا تتعرف إلى مَن لا تعرف. وممن مال

إلى هذا الرأى: سفيان الثورى، وإبراهيم بن أدهم، وداود الطائى، والفضيل بن عياض، وسليمان الخواص، ويوسف بن أسباط، وحذيفة المرعشى، وبشر الحافى.

وقال أكثر التابعين باستحباب كثرة الإخوان فى الله عز وجل، بالتأليف والتحبب إلى المؤمنين، لأن ذلك زين فى الرّخاء، وعونٌ فى الشدائد. وتعاونٌ على البر والتقوى، وألفةٌ فى الدين. وقال بعضهم: استكثر من الإخوان، فإن لكل مؤمن شفاعةً، فلعلك تدخل فى شفاعة أخيك. وكانوا يأمرون بالأخوة ويتحاضون على الألفة، ويقال: إذا غُفر للعبد شفع فى إخوانه.

وروينا عن رسول الله ﷺ حديثًا غريبًا فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [الشورى: ٢٦]، قال: «يشفِّعهم فى إخوانهم فيدخلهم الجنة معهم».

وممن مال إلى هذا الطريق: ابن المسيب، والشعبى، وابن أبى ليلى، وهشام بن عروة، وابن شُبرمة، وشريح، وشريك بن عبد الله، وابن عيينة، وابن المبارك، والشافعى، وأحمد بن حنبل، ومن وافقهم. وقد روينا عن رسول الله ﷺ: «إن أقربكم منى مجلسًا أحاسنكم أخلاقًا، الموطَّئون أكنافًا، الذين يألفون ويُؤلفون».

وروينا عنه ﷺ: «المؤمن مألوفٌ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يُؤلف».

وقد قيل: أوّلُ ما يُرفع من هذه الأمة الخشوعُ، ثم الورع، ثم الأمانة، ثم الألفة. وفى الخبر: «مَن أرادَ اللهُ به خيرًا رزقه خليلاً صالحًا، إنْ نسى ذكَّره وإنْ ذكر أعانه». وروينا فى خبر: «مَثَل الأخوين إذا التقيا مثلُ اليدين تَغْسِل إحداهما الأخرى». وما التقى مؤمنان إلاّ أفادَ اللهُ عز وجل أحدهما من صاحبه خيرًا. وروينا فى خبر عن رسول الله ﷺ: «من آخى أخًا فى الله عز وجل، رفعه الله عز وجل درجة فى الجنة لا ينالها بشىءٍ من عمله». ويقال: إنّ الأخوين فى الله عز وجل، إذا كان أحدهما أعلى مقامًا من الآخر، رُفع الآخر معه إلى مقامه، وأنه يلحق به كما تلحق الذرية بالأبوين، والأهلُ بعضهم ببعض؛ لأن الأخوة عملٌ كالولادة. وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ

أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١] أى: وما نقصناهم. وقال تعالى مخبرًا عمن لا صديق له حميم تنفعه شفاعته: **﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾** [الشعراء: ١٠٠ ـ ١٠١]. ومعنى حميم: أى هميم، أبدلت الحاء هاء لتقاربهما، مأخوذ من الاهتمام، أى مهتم بأمره. ففيه دليلٌ: أن الصديق لك هو المهتمُّ بك، وإن الاهتمام حقيقةُ الصداقة. وروينا عن النبى ﷺ: «المؤمن كثيرٌ بأخيه». وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه: ما أُعطى عبدٌ بعد الإسلام خيرًا من أخ صالح. وقال أيضًا: إذا رأى أحدُكم وُدًّا من أخيه فليتمسك به، فقلَّما تصيب ذلك. وقد قال بعض الحكماء فى معناه كلامًا منظومًا شعرًا:

ما نالت النفسُ على بُغيةٍ … ألذُّ من وُدِّ صـديقٍ أمين

مَـنْ فـاتَه ودُّ أخٍ صـالحٍ … فذلك المقطوعُ منه الوتين

وقد يروى هذا المصراع الثانى:

* فذلك المغبونُ حقًّا يقين *

وروينا فى الأخبار السابقة أن الله تبارك وتعالى أوحى إلى موسى عليه السلام: «يا ابن عمران، كن يقظان، وارتد لنفسك إخوانًا، وكلُّ خِدن وصاحبٍ لا يؤازرك على مَسرَّتى فهو لك عدو». وفى خبر غيره عن داود عليه السلام أن الله سبحانه وتعالى أوحى إليه: «يا داود، ما لى أراك منتبذًا وُحدانًا؟ قال: إلهى، قليتُ الخلق من أجلك. فأوحى الله عز وجل إليه: يا داود، كُن يقظان مرتادًا لنفسك إخوانًا، فكلُّ خِدنٍ لا يوافقك على مسرتى فلا تصحبه، فإنه لك عدو، ويقسِّى قلبك، ويباعدك منى». وقد روينا عن رسول الله ﷺ: «كونوا مؤلِّفين ولا تكونوا منفِّرين». وفى الحديث: «إن أحبكم إلى الله عز وجل الذين يألفون ويؤلفون، وإن أبغضكم إلى الله عز وجل المشاؤون بالنميمة، المفرِّقون بين الإخوان». وفى أخبار داود ﷺ أنه قال: «يا رب، كيف لى أن يحبنى الناس كلهم، وأسلم فيما بينى وبينك، قال: خالق الناس بأخلاقهم، وأحسن فيما بينى وبينك». وفى بعضها: «خالق أهل الدنيا بأخلاق الدنيا، وخالق أهل الآخرة بأخلاق الآخرة». وقال

الشعبى عن صعصعة بن صوحان، أنه قال لابن أخيه زيد: أنا كنتُ أحبُّ إلى أبيك منك، وأنت أحبُّ إلىَّ من ابنى، خصلتان أوصيك بهما فاحفظهما: خالص المؤمن مخالصةً، وخالق الفاجر مخالقةً، فإن الفاجر يرضى منك بالخُلق الحسن، وأنه لَحقٌّ عليك أن تخالص المؤمن.

وقد قال أبو الدرداء قبله: إنَّا لَنَكْشِرُ[1] فى وجوه أقوامٍ وإنَّ قلوبنا لَتلعنهم، فمعنى هذا على الثقة والمداراة ليدفع بذلك شرَّه وأذاه، كما جاء فى تفسير قوله تعالى: **﴿ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾** قيل: السلام **﴿فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾** [فصلت:٣٤]. وكان ابن عباس يقول فى معنى قوله عز وجل: **﴿وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾** [الرعد:٢٢]، قال: يدفعون الفحش والأذى ـ وهو السيئة ـ بالسلام، والمداراة وهو الحسنة. وقد كان أفضل الحسنات إكرام الجلساء، ومنه قوله عز وجل: **﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ الله النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾** [البقرة:٢٥١]، قيل: بالرغبة والرهبة والحياء والمداراة. وكذلك معنى قولهم: خالص المؤمن، وخالق الفاجر. فالمخالصة بالقلوب من المودة واعتقاد المؤاخاة فى الله عز وجل. والمخالفة: المخالطة فى المعاملة والمبايعة، وعند اللقاء. وكذلك جاء مفسرًا: خالطوا الناس بأعمالهم، وزايلوهم فى القلوب. وقد قال محمد بن الحنفية بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم: ليس بحكيمٍ من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد من معاشرته بدًا، حتى يجعل اللهُ عز وجل له منه فرجًا، فمعاملة غير تقىٍّ ومكالمته من أحوال الاضطرار، ومعاشرة التقى ومصافاته من حُسن الاختيار.

وفى أخبار موسى عليه السلام فيما أوحى الله عز وجل إليه: «إن أطعتنى فما أكثر إخوانك من المؤمنين» المعنى: إن واسيتَ الناس، وأشفقتَ عليهم، وسلم قلبك لهم، ولم تحسدهم، كثُر إخوانك.

ويقال: إنّ أحد الأخوين فى الله عز وجل، إذا مات قبل صاحبه، وقيل له: ادخل الجنة، سأل عن منزل أخيه، فإن كان دونه لم يدخل الجنة حتى يُعطى أخوه

---

(١) الكَشْر: بُدوُّ الأسنان عند التبسم، يقال: كَشَرَ الرجلُ يَكْشِرُ كَشرًا إذا تبسَّم فبدت أسنانه.

مثل منازله. قال: ولا يزال يسأل له من كذا وكذا، فيقال: إنه لم يكن يعمل مثل عملك، فيقول: إنى كنت أعمل لى وله. قال: فيُعطى جميع ما سأل له، ويُرفع أخوه إلى درجته معه. وروى معنى ذلك فى خبرين جمعت بينهما اختصاراً[١].

فقد كانوا يتواخون ويتعارفون المنافع الآخرة الباقية، لا لمرافقة الدنيا الفانية. وأفضل الأخوة، كما قال بعض العلماء: المحبةُ الدائمةُ، والألفة اللازمة من قِبَل أنَّ الأخوة والمحبة عمل، وكلُّ عملٍ يحتاج إلى حُسن خاتمة به، ليتم العمل، فيكمل أجره، فإن لم يُختم له بالآخرة، ولم يحسن عاقبة الصحبة والمحبة، فقد أدركه سوءُ الخاتمة، وبطل عنه ما كان قبل ذلك. فقد يصطحب الاثنان، ويتواخى الرجلان عشرين سنة، ثم لا يُختم لهما بحسن الأخوة، فيحبط بذلك ما سلف من الصحبة، فلذلك شرط العالمُ المحبةَ الدائمةَ والألفةَ اللازمةَ إلى الوفاةِ، ليُختم له بها.

ومِن هذا كان السلف يحافظون على الأخوّةِ ويراعون منهم المحبة ويأمرون بالتمسك بها والإبقاء عليها لنفاستها وشدّة الخطر بها، كما قال بعضهم: مَثَلُ الأخوّة فى الله عز وجل مثل الزجاجة الرقيقة ما لم تصنها وتحذر عليها كانت معرضةً للآفات، فمن عَرَف فضل الأخوةِ ارتبط بها، ومن اغْتَبطَ بشيءٍ خاف فوته وعمل فى أسبابِ تَبْقِيتهِ، وإن كان فى ذلك حَمْلٌ على نفسه وماله[٢].

ويقال: ما حسد العدو متعاونَيْن على برٍّ حَسَدَهُ متواخييْن فى الله عز وجل ومتحابيْن فيه، فإنه يجهد نفسه ويحث قبيله على إفساد ما بينهما. وقد قال الصادق عز وجل: ﴿وقُلْ لِعبادِى يَقُولُوا الَّتِى هِىَ أحسَنُ إنَّ الشَّيْطانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُم﴾ [الإسراء: ٥٣]. يعنى: يقولون الكلمة الحسنة بعد نزغ الشيطان. وقال عز وجل مخبراً عن يوسف عليه السلام: ﴿مِن بَعْدِ أنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِى وبَيْنَ إخْوَتِى﴾ [يوسف: ١٠٠]. ويقال: ما تواخى اثنان فى الله عز وجل ففُرِّق بينهما، إلا بذنب يرتكبه أحدهما. وكان بشر يقول: إذا قصَّر العبد فى طاعة الله تبارك وتعالى،

(١) من قوله «وروى» من (هـ).

(٢) من أول هذه الفقرة من (د، هـ).

سَلَبه الله عز وجل من يُؤنسه؛ لأن عنده أن وجود الأنس من الأخ نعمة من الله عز وجل، إذ لا يوجد ذلك فى كل أخ. وكان أيضًا يقول: ينبغى للرجل أن يكون له ثلاثة إخْوان: أخٌ للدنيا، وأخٌ للآخرة، وأخٌ يأنس به. أى فقد يكون الأخُ من أهل الآخرة بيِّن الفضل ولا يُوجد اللهُ عز وجل به الأُنسَ، من قِبَلِ أنّ الأُنسَ عزيزٌ، وأنه لا قُرب فى رُوح لا يوجد الأُنس به، ولا يوجد الأنس إلاّ فى الرُّوحانى[1]. ويقال: للعدو شيطانٌ، قد وكَّله بالتفريق بين المتواخييْن، ليس له عمل إلاّ ذلك، قد تفرغ له.

ومن علامة التقىِّ حسنُ المقال عند التفرُّق وحمل الشَّرِّ، وجميل البِشر عند التقاطُع. أنشدنا بعضُ العلماء الحكماء فى معناه:

إنَّ الكريم إذا تَقضَّى وِدُّهُ ... يُخفِى القبيحَ ويُظْهِرُ الإحسَانا

وترى اللئيمَ إذا تصرَّم حَبْلُه ... يُخفِى الجميلَ ويُظْهِرُ البُهْتَانَا

فوصفُ الكريم فى هذا المعنى التخلقُ بخلق الربوبية، ألم تسمع إلى الدعاء المأثور عن رسول الله ﷺ فى أوله: «يا من أظهر الجميل وسترَ القبيحَ، ولم يؤاخذ بالجريرة، ولم يهتك الستر»؟ فكذلك صفات المؤمنين على معانى أخلاق المؤمن الأعلى. وقد كان أبو الدرداء يقول: معاتبةُ الصديق خيرٌ من فَقده، ومن لك بأخيك كله، هُنْ لأخيك، ولِنْ لَه، ولا تطع الشيطان فى أمره، غدًا يوافيه الموت فيكفيك فَقْدَه، كيف تبكيه بعد الموت، وفى الحياة تركت وصْلَه؟

وقد روينا عن على عليه السلام: أحبب حبيبك هَوْنًا ما عسى أن يكون بغيضك يومًا ما، وابغْض بَغيضك هونًا ما عسى أن يكون حبيبك يومًا ما.

وقد روينا عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه معناه: لا يكن حبُّك كَلَفًا، وبغضُك تَلفًا. قال أسلم: قلت: وكيف ذاك؟ قال: إذا أحببت فلا تَكْلف كما يكلف الصبى بالشىء يحبه، وإذا بغضت فلا تبغض بغضًا تحب أن يتلف صاحبك ويهلك. وفى وصية عمر بن الخطاب رضى الله عنه التى رويناها عن يحيى بن

---

(١) من قوله: «لأن عنده أن وجود» إلى هنا ساقط من المطبوعة وهو من (د، هـ).

سعيد الأنصارى، عن سعيد بن المسيب، قال: قال عمر رضى الله عنه: عليك بإخوان الصدق تعش فى أكنافهم، فإنهم زينةٌ فى الرخاء، وعدّة فى البلاء، وضَعْ أمرَ أخيك على أحسنه، حتى يحبك ما يغلبك منه، واعتزل عدوَّك واحذر صديقك من القوم إلاّ الأمين، ولا أمين إلا من خشى الله عز وجل. ولا تصحب الفاجر فتعلَّم فجوره، ولا تُطلعه على سرِّك، واستشر فى أمرك الذين يخشون الله تبارك وتعالى.

وحدثونا عن إبراهيم بن سعيد قال: حدثنا يحيى بن أكثم قال: حدثت المأمون أمير المؤمنين، فقلت له: حدثنى سفيان بن عيينة، عن عبد الملك بن أبجر، قال: لما حضرت عَلْقمةَ العطاردى الوفاةُ دعا بابنه فقال: يا بنى، إن عَرَضَتْ بك إلى صحبة الرجال حاجةٌ، فاصحب مَن إذا خدمته صانك، وإنْ قعدت بك مؤونةٌ مانك. اصحب مَن إذا مددت يدك بخيرٍ مدّها، وإن رأى منك حسنةً عدَّها، وإنْ رأى منك سيئة سدَّها. اصحب مَن إذا سألته أعطاك، وإن سكتَّ ابتداك، وإن نزلت بك نازلةٌ واساك. اصحب مَن إذا قُلْتَ صدَّق قولك، وإذا حاولتَ أمرًا أمَّرك، وإن تنازعتما آثرك. قال ابن أكثم: فقال المأمون: وأين هذا؟!

وقيل للأحنف بن قيس: أى إخوانك أحبُّ إليك، فقال: مَن يسدُّ خَلَلى، ويستر زَلَلى، ويقبل عِللى. وحدثونا عن الأصمعى قال: حدثنا العلاء بن جرير عن أبيه قال: قال الأحنف: من حقِّ الصديقِ أنْ يُحتمل له ثلاث: أن يجاوز عن ظُلم الغضب، وظلم الهفوة، وظلم الدّالة. وقال: الإخاءُ جوهرة رقيقة، فهى ما لم توقَّ عليها وتحرسها كانت معرضة للآفات، فَارْضَ الإخاءَ بالذّلة حتى تصل إلى فوقه، وبالكظم حتى تعتذر إلى من ظلمك، وبالرضا حتى لا تستكثر من نفسك الفضل، ولا من أخيك التقصير.

ويقال: مَنْ لم يظلم نفسه للناس، ويتظالم لهم، ويتغافل عنهم، لم يسلم منهم. وكان أسماء بن خارجة الفزارى يقول: ما سئمتُ أحدًا قط، لأنه إنّما يسأمنى أحدُ رجلين: كريمٌ كانت منه زلَّة وهفوة، فأنا أحقُّ من غفرها، وآخذ عليها بالفضل فيها، أو لئيم فلم أكن أجعل عِرضى له غَرضًا. ثم تمثل شعرًا:

وأغفر عوراءَ الكريمِ اصطناعَه وأعرضُ عن ذاتِ اللئيمِ تكرُّمَا

وأنشدونا لمحمد بن عامر فى الإخوان شعراً:

فلا تَعجَل على أحدٍ بظُلمٍ فإنَّ الظُّلمَ مرتعُـــهُ وَخِيمُ
ولا تَفْحَش، وإنْ مُلِئْتَ غَيظًا على أحـدٍ، فإنَّ الفُحْش لومُ
ولا تقطع أخًا لك عنـد ذَنْبٍ فإنَّ الذّنب يغفـرُه الكـريمُ
ولكـن داوِ عـــورتَه بِرُقَعٍ كمـا قـد يُرْقَعُ الخَلَقُ القَـديمُ
ولا تجزع لِرَيْبِ الدَّهر واصْبِـر فإنَّ الصبـرَ فى العُقْبى سَلِيمُ

وأنشدونا فى معناه عن أحمد بن يحيى بن ثعلب، قال: أنشدنى عبد الله بن شبيب:

إخـــاءُ الناسِ ممتزجُ وأكثـرُ فِعلهـم سَمَجُ
فإنْ بَدَهَتْـكَ مَقْطَعـةٌ فلَيـس وراءَهـم فَرَجُ
فقـوِّمْهُـــم بوَصْلِهِـمُ فإن لم يُوصلوا اعتَوجُوا
صروفُ الدهرِ دائبـةٌ تُقَطِّعُ دُونهـــا المُهَـجُ

وروينا عن عكرمة عن ابن عباس أنّ النبى ﷺ قال: «لا تُمار أخاك، ولا تُمازحْه، ولا تَعِدْه موعدًا فتُخلفَه». وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنكم لا تَسَعُونَ الناسَ بأموالكم، ولكن لِيَسَعُهُم منكم بَسْطُ وجوهٍ وحُسْنُ خُلُقٍ».

وعن أبى نجيح عن مجاهد فى قول الله عز وجل: ﴿**خُذِ العَفْوَ وأمُرْ بالعُرْفِ**﴾ [الأعراف:١٩٩]. قال: خذْ من أخلاق الناس ومن أعمالهم ما ظهر من غير تحسس. وقد أنشدنا بعض الحكماء فى ذلك:

خُذْ من خَليلك مـا صَفَا وذَرِ الذى فيـه الكَدَرْ
فالعُمرُ أقْصَرُ مِن مُعا تبةِ الخَليل على الغِيَـرْ

ومن عرف فضل الأخوة فى الله عز وجل، وعلم درجة المحبة لله تعالى، صبر

لأخيه وشكر له، وحلم عنه، واحتمل له، لينال ما أمّله من مؤمّله فيه، ويبلغ ما طلبه من طالبه به، فإن الصبر يحتاج إليه ليتمَّ العمل والشكر، ولا بد له منه لدوام النعمة، ومن طلب نفيسًا خاطر بنفيس، ومن رغب فى رغبة بذَلَ لها مرغوبًا، والله عز وجل الموفِّق مَن يحبّ لما يحبّ.

وروينا فى حديث ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «المتحابون فى الله عز وجل على عمودٍ من ياقوتةٍ حمراء، فى رأس العمود سبعون ألفَ غرفة، مشرفون على أهل الجنة، يضىء حُسنهم لأهل الجنة كما تُضىء الشمس لأهل الدنيا، عليهم ثياب سندس خضر، مكتوب على جباههم: هؤلاء المتحابُّون فى الله عز وجل».

وروينا فى حديث معاذ، وقد قال له أبو إدريس الخولانى: إنى لأحبك فى الله عز وجل. فقال له: أبشر ثم أبشر، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُنصب لطائفة من الناس كراسى حول العرشِ يوم القيامة، ووجوههم كالقمر ليلة البدر، يفزع الناس وهم لا يفزعون، ويخاف الناس ولا يخافون، وهم أولياءُ الله عز وجلّ الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. فقيل: من هؤلاء يا رسول الله؟ قال: هم المتحابُّون فى الله عز وجل».

ورواه أبو هريرة فقال فيه: «إنّ حول العرش منابر من نور، عليها قومٌ لباسهم نور ووجوههم نور، ليسوا بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء. فقالوا: يا رسول الله جَلِّهم لنا. فقال: هم المتحابُّون فى الله عز وجل، والمتجالسون فى الله تعالى، والمتزاورون فى الله تعالى».

وروينا فى حديث عبادة بن الصامت: «يقول الله عز وجلّ: حُقَّت محبتى للمتحابين فىَّ، والمتزاورين فىّ، والمتباذلين فىَّ، والمتصادقين فىَّ».

وكان ابنُ مسعود يقول فى قوله عز وجل: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِى الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلِكنَّ اللهَ أَلَّف بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣]. قال: نزلت هذه الآية فى المتحابين فى الله عز وجل.

وأبو بشر عن مجاهد قال: المتحابون فى الله عز وجل إذا التقوا فكَشَر بعضهم إلى بعض، تتحاتّ عنهم الخطايا كما يتحاتّ ورقُ الشجر فى الشتاء إذا يبس.

وروينا عن رسول الله ﷺ: «سبعةٌ يظلّهم اللهُ عز وجل فى ظلٍّ عرشه، يوم لا ظلَّ إلا ظله» منهم كذا «واثنان تواخيا فى الله عز وجل، اجتمعا على ذلك وتفرّقا». وكان الفضيل بن عياض وغيره يقول: نظرُ الأخُ إلى وجهِ أخيه على المودة والرحمة عبادةٌ.

فلا تصح المحبةُ فى الله عز وجل إلاّ بما شُرط فيها من الرحمة فى الاجتماع، والخُلطة عند الافتراق، بظهور النصيحة، واجتناب الغيبة، وتمام الوفاء، ووجود الأنس، وفَقْد الجفاء، وارتفاع الوحشة، ووَجْد الانبساط، وزوال الاحتشام.

وكان الفضيل يقول: إذا وقعت الغيبة ارتفعت الأخوة. وقال الجنيد: ما تواخى اثنان فى الله عز وجل فاستوحش أحدهُما من صاحبه واحتشم منه إلا لعِلَّة فى أحدهما.

ومن ذلك ما روى عن النبى ﷺ: «ما تحابَّ اثنان فى الله عز وجلّ إلاّ كان أحبهما إلى الله عز وجل أشدهما حبًا لصاحبه». وفى خبر: «كان أفضلهما». وفى الخبر الآخر: «أحبُّ الإخوان إلى الله عز وجل أرفقهما بصاحبه». وفى الخبر المشهور: «لا يذوق العبدُ طعمَ الإيمان حتى يحبَّ المرءَ لا يحبه إلاّ لله».

وقال ابن عباس فى وصيته لمجاهد: ولا تذكر أخاك إذا تغيَّب عنك إلا بمثل ما تحب أن تُذكَر به إذا غبت، واعفه بما تحب أن تُعفى به. وكان بعضهم يقول: ما ذُكر أخى عندى فى غيب إلا تمثلته جالسًا، فقلتُ فيه ما يحب أن يسمع فى حضوره. وقال آخر: ما ذُكر أخٌ لى فى غيبةٍ إلا تصوَّرتُ نفسى فى صورته، فقلتُ فيه ما أحب أن يقال فىّ. فهذا حقيقةٌ فى صدق الإسلام، لا يكون مسلمًا حتى يرضى لأخيه ما يرضى لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه.

وقال بعض الأدباء: من اقتضى من إخوانه ما لا يقتضون منه فقد ظلمهم، ومن اقتضى منهم ما يقتضون منه فقد أتعبهم، ومن لم يقتضهم فقد تفضَّل

عليهم. وبمعناه روينا عن بعض الحكماء: من جعل نفسه فوق قَدْره عند الإخوان أثم وأثموا، ومن جعل نفسه فى قَدْره تعب وأتعبهم، ومن جعلها دون قدره سَلِمَ وسَلِموا. فلذلك عزَّز الناس الأخوة فى الله عز وجل قديمًا، لأن هذا حقيقتها، فروى فى الأخبار: اثنان عزيزان ولا يزدادان إلاّ عِزة: درهمٌ حلال، وأخٌ تسكن إليه. وقيل: تأنس به.

وقال يحيى بن معاذ رحمه الله: ثلاثة عزيزة فى وقتنا هذا، ذكر منها: حُسن الإخاء مع الوفاء. يعنى: بالوفاء أن يكون له فى غيبته، ومن حيث لا يعلم ولا يبلغه، مثل ما كان له فى شهوده ومعاشرته. ويكون له بعد موته ولأهله من بعده كما كان له فى حياته، فهذا هو الوفاء، وهو الذى شرطه النبى ﷺ للمؤاخاة فى قوله: «اجتمعا على ذلك أو تفرَّقا»، وجعل جزاءه ظلال العرشِ يومَ القيامة.

وكذلك قال بعض الأدباء: قليل الوفاء بعد الوفاة خيرٌ من كثيره فى حال الحياة. وكذلك كان السلف فيما ذكره الحسنُ وغيره، قالوا: كان أحدهم يخلفُ أخاه فى عياله بعد موته أربعين سنةً، لا يفقدون إلا وجهه. ويقال: إن مسروقًا أدان دَينًا ثقيلاً، وكان على أخيه خيثمة دَين، قال: فذهب مسروق فقضى دَين خيثمة وهو لا يعلم، وذهب خيثمة فقضى دين مسروق سرًا وهو لا يعلم.

فمن حقيقة المؤاخاة فى الله عز وجل: إخلاصُ المودة له بالغيب والشهادة، واستواءُ القلب مع اللسان، واعتدالُ السرِّ مع العلانية فى الجماعة والخلوة، فإذا لم يختلف ذلك فهو إخلاص الأخوة، وإن اختلف ذلك ففيه مداهنةٌ فى الأخوة، وممازقةٌ فى المودة، وذلك دَخَلٌ فى الدِّين، ووليجةٌ فى طريق المؤمنين، ولا يكون ذلك مع حقيقة الإيمان.

وقد سأل أبو رزين العقيلى النبى ﷺ، فشرط له أشياء منها: «أنْ يحب غير ذى نَسَبٍ لا يحبه إلاّ لله عز وجل».

ومن شَرطِ المحبةِ فى الله تعالى أن لا يكون لرِحَمٍ يصلها أو لنعمةٍ يَربُّها، كما جاء فى الأثر عن رسول الله ﷺ: «إن رجلاً زار أخًا له فى الله تعالى فى قريةٍ

أخرى، فأرصد الله تعالى على مَدْرجته ملكًا، فقال: أين تريد، قال: أردتُ أخًا لى فى هذه القرية، قال: هل بينك وبينه رحم تصلها أو له عليك نعمة تَربُّها، قال: لا، إلاّ أنى أحببته فى الله تعالى، قال: فإنى رسول الله إليك، إن الله تبارك وتعالى قد أحبك كما أحببته فيه».

وقد روينا عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وعن ابنه عبد الله رضى الله عنهما: لو أن رجلاً صام النهار لا يفطر، وقام الليل وجاهد، ولم يحب فى الله عز وجل ويبغض فى الله، ما نفعه ذلك شيئًا.

وقد رُوينا عن رسول الله ﷺ أنه قال لأصحابه: «أيُّ عُرى الإيمان أوثق؟ قالوا: الصلاة. قال: حسنةٌ، وليس به. قالوا: الحج والجهاد. قال: حسنة، وليس به. قالوا: فأخبرنا يا رسول الله. قال: أوثقُ عُرى الإيمان الحبُّ فى الله تعالى، والبغضُ فيه».

وقد اختلف مذهبُ الصحابة فى الأخ يحبُّ أخاه فى الله عز وجل، ثم ينقلب الآخر عمّا كان عليه ويتغير، هل يبغضه بعد ذلك أم لا؟ فكان أبو ذر يقول: إذا انقلب عما كان عليه وتغير، فأبغِضْه من حيث أحببته.

وروينا عن أبى الدرداء: أن شابًا غلب على مجلسه حتى أحبه أبو الدرداء، فكان يقدِّمه على الأشياخ ويقرِّبه، فحسدوه، وأن الشاب وقع فى كبيرة من الكبائر، فجاؤوا إلى أبى الدرداء فحدثوه، وقالوا له: لو أبعدته، فقال: سبحان اللهِ، لا نترك صاحبنا لشيءٍ من الأشياء.

وروينا عن بعض التابعين وعن الصحابة فى مثل ذلك، وقد قيل له فيه، فقال: إنما أبغض عمله وإلا فهو أخى. وكذلك قال الله عز وجل لنبيه فى عشيرته: ﴿فإن عَصَوْكَ فقُلْ إنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء:٢١٦]. ولم يقل: قل إنّى برىء منكم لِلُحْمَةِ النسب. وقد قيل: للصداقة لُحمة كلُحمة النَّسب. وقيل لحكيم بن مُرّة: أيما أحبّ إليك: أخوك أو صديقك؟ فقال: إنما أُحبّ أخى إذا كان صديقًا.

وكان الحسن يقول: كم من أخ لك لم تلده أمك. ولذلك قيل: القرابةُ تحتاج

إلى مودة، والمودةُ لا تحتاج إلى قرابة. وفى حديث النبى ﷺ، لما شتم القومُ الرجلَ الذى أتى فاحشةً فقال: «مَهْ ـ وزَبَرهُم ـ لا تكونوا عونًا للشيطان على أخيكم». وفى أثر عن بعض العلماء فى مثل زلات الإخوان، قال: ودَّ الشيطانُ أن يُلقى على أخيكم مثل هذا حتى تَقْطَعُوه وتَهْجُروه، فماذا بغيتم من محبةِ عدوِّكم؟

وقد كان أبو الدرداء يقول: إذا تغيَّر أخوك، وحال عما كان، فلا تدعْه لأجل ذلك، فإن أخاك يعوجُّ مرة ويستقيم أخرى. وكان يقول: داوِ أخاك ولا تُطع فيه حاسدًا، فتكون مثله. وقال الحسن: أى الرجال المهذب! وقال إبراهيم النخعى: لا تقطع أخاك ولا تَهجره عند الذنب، فإنه يركبه اليوم، ويتركه غدًا. وقال أيضًا: لا تحدثوا الناس بزلّة العالِم، فإن العالم يزل الزّلة ثم يتركها.

وفى الخبر: «اتقوا زلة العالم ولا تَقْطَعُوه وانتظروا فَيْئَته». وعن رسول الله ﷺ: «شرارُ عبادِ الله المشّاؤون بالنميمة، المفرِّقون بين الأحبة، الباغُون للبرآء العَيْب». وقال سعيد بن المسيب: إنّى لأكره أن أفرِّق بين المتآلفين. وقال مرة: بين المتحابَّين.

وفى حديث عمر، وقد سأل عن أخ كان آخاه، فخرج إلى الشام، فسأل عنه بعضُ مَن قَدم عليه، فقال: ذاك أخو الشيطان، قال: مَه. قال: إنه قارف الكبائر حتى وقعَ فى الخمر. فقال: إذا أردت الخروج فآذنِّى. قال: فكتب إليه: بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿**حم * تنزيلُ الكتابِ منَ اللهِ العَزِيزِ العَلِيمِ * غافرِ الذَّنبِ وقَابلِ التَّوْبِ**﴾ الآيات، ثم عاتبه تحت ذلك وعَذَله، فلما قرأ الكتاب قال: صدق اللهُ ونصح لى عمر. قال: فتاب ورجع.

ومن أفضل فضيلة الحبِّ فى الله تعالى أنه جُعل علمًا لوجود الإيمان، وقُرن بحب الله تعالى ورسوله ﷺ، كما فى الخبر: «لا يؤمن عبدى حتى يكون اللهُ ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما»، ثم جاء مثله: «لا يجد العبدُ حلاوةَ الإيمان حتى يحب المرء لله عز وجل».

فمن مقتضى الحب فى الله تعالى ما ذكرناه آنفًا، من التزاور والتباذل والتصافى

لله عز وجل وفيه، فى حديث عبادة بن الصامت. وقال موسى بن عقبة: كنت ألقى الأخ من إخوانى مرة فأقيم عاقلاً بلقائه أيامًا. وقال جعفر بن سليمان: كنتُ إذا وجدتُ فى نفسى فترةً نظرتُ إلى محمد بن واسع، فأعمل على ذلك جمعة.

وكان محمد بن واسع يقول: ما بقى فى الدنيا شىءٌ ألَذُّهُ إلا ثلاث: الصلاةُ فى جماعة، والتهجد من الليل، ولقاءُ الإخوان. وكان بعضهم يقول: لقاءُ الإخوان مسلاةٌ للهمِّ، ومذهبةٌ للأحزان. وكان الحسن وأبو قلابة يقولان: إخواننا أحبُّ إلينا من أهلينا وأولادنا؛ لأن أهلينا يذكِّروننا الدنيا، وإخواننا يذِّكروننا الآخرة. وقال أحدهما: لأن الأهل والولد من الدنيا، والإخوان فى الله عز وجل من آلة الآخرة.

وقيل لسفيان بن عيينة: أىُّ الأشياء ألذُّ؟ فقال: مجالسةُ الإخوان، والانقلابُ إلى كفاية. وفى الخبر: «ما زار رجلٌ أخاه فى الله عز وجل شوقًا إليه، ورغبة فى لقائه، إلا ناداه مَلَك من خَلْفه: طِبت وطابت لك الجنة». وقال الحسن: مَن شيَّع أخًا له فى الله عز وجل بعث الله ملائكة من تحت عَرْشِهِ يوم القيامة يشيعونه إلى الجنة. وعن عطاء قال: كان يقول: تفقَّدُوا إخوانكم بعد ثلاث، فإن كانوا مرضى فعُودُوهم، وإنْ كانوا مشاغيل فأعينوهم، وإن كانوا نَسُوا فذكِّروهم.

وكان الشعبى يقول فى الرجل يجالس الرجل فيقول: أعرفُ وجْهَهُ ولا أعرف اسمه: ذلك معرفة التوكل.

وقد روينا عن النبى ﷺ أنه رأى عمر يلتفت يمينًا وشمالاً، فسأله، فقال: يا رسول الله، أحببتُ رجلاً فأنا أطلبه ولا أراه، فقال: «يا أبا عبد الله، إذا أحببت أحدًا فسَلْهُ عن اسمه واسم أبيه، وعن منزله، فإن كان مريضًا عُدتَّه، وإن كان مشغولاً أعنْتَه.

وعن الضحاك عن ابن عباس [أنه] قيل له: مَن أحب الناس إليك؟ قال: جليسى. وكان يقول: ما اختلف رجلٌ إلى مَجلِسى ثلاثًا من غير حاجة تكون له إلىّ، فعلمتُ مكافأته من الدنيا.

وكان سعيد بن العاص يقول: لجليسى علىَّ ثلاث: إذا دنا رحَّبتُ به، وإذا حدَّث أقبلتُ عليه، وإذا جلس أوسعتُ له. وقال الأحنف بن قيس: الإنصاف يثبت المودّة، ومع كرم العشرة تطول الصحبة. وكان يقول: ثلاثُ خِلالٍ تُجلَبُ بهن المحبة: الإنصاف فى المعاشرة، والمواساة فى الشدة، والانطواء على المودة.

وقال أكثم بن صيفى لبنيه: يا بنى، تقاربوا فى المودة، ولا تتكلوا على القرابة. وقد قيل لأبى حازم: ما القرابة؟ قال: المودة.

فأول ما تصح له المحبة فى الله عز وجل أن لا يكون لضدّ ذلك من صُحبة لأجل معصية، ولا على حظٍّ من دنياه، ولا لسبب موافقته على هواه، ولا لأجل ارتفاقه به اليوم لمنافعه ومصالحه فى أحواله، ولا يكون ذلك مكافأة على إحسانٍ أحسن به إليه، ولا لنعمة ويد يجزيه عليها، فهذه ليس فيها طريقٌ إلى الله عز وجل ولا للآخرة؛ لأنها طرقاتُ الدنيا ولأسباب الهوى. فإذا سَلِم من هذه المعانى، فهذه أول المحبة لله عز وجل.

فإن أحبه لأخلاقه اللازمة فيه، ومعانيه الكائنة به، لم يخرجه ذلك من الحب لله[1]، ولا يقدح فى الأخوة لله تبارك وتعالى، لأنّ هذه شيم ثانية فيه، مثل أنْ يحبه لحسن خُلقه، وفضل أدبه، وحسن حلمه، وكمال عقله، وكثرة احتماله وصبره، أو لوجود الأنس به، وارتفاع الوحشة منه، أو للألفة التى جعل الله بينه وبينه.

وإنما يخرجه عن حقيقة الحب فى الله عز وجل: أن يحبه لما يكون دَخَلاً فى الدين، ووليجة فى طرائق المؤمنين، ولما انفصل عنه، ولم يكن متصلاً به، مثل الأنعام والأفضال، ووجود الارتفاق، فهذا الحبُّ لا يمنع القلب من وَجْده، لما جُبل الطبعُ عليه، ولبغض من كان بضدِّه ممن أساء إليه، وليس يأثم ولا يعصى بوَجْد هذه المحبة؛ لأجل هذه الأسباب المعروفة. كما أنه إذا أساء إليه ووجد بغضه لا يأثم، ما لم يخرجه البغضُ إلى مجاوزةِ حدٍّ بإيجاب حُكم، إلا أن هذه محبة

(١) من أول هذه الفقرة إلى هنا ساقط من المطبوعة.

النفسِ بالطبع. وإنّما يَفْضُل المرءُ بمحبة القلب لأجل الله عز وجل، والبعض فيه فى شىء، وإنْ كان مباحًا؛ لأنها تحول وتزول. وكل محبةٍ تكون عن عِوَضٍ، إذا ذهب العِوَض زالت المحبة.

وصحةُ الحبِّ فى الله عز وجل والبغض فيه لا ينقلب لسبب حُبٍّ جعل فى الطبع لمنافع الدنيا؛ ولا لأجل بغض فى النفس لمضارها. وحقيقة الحب فى الله عز وجل أن لا يحسده على دينٍ ولا دُنيا، كما لا يحسد نفسه عليهما، وأن يُؤثره بالدِّين والدنيا إذا كان محتاجًا إليهما كنفسه، وهذان شرطا الحب فى الله عز وجل اللذان ذكرهما الله تعالى فى قوله: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ ، ثم وصف محبتهم، إذ كان يصف حقًا ويمدح محقًا، فقال: ﴿وَلاَ يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا﴾ يعنى: من دين ودنيا، والحاجةُ فى هذا الموضع: الحسد، أى: كما لا يجدون فى صدورهم حاجة لأنفسهم حسدًا، ثم قال عز وجل فى الشرط الثانى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر:٩].

فهذا فصل الخطاب، وجملة نعت الأحباب، فينبغى أن يؤثر أخاه بنفسه وماله إن احتاج إلى ذلك، فإن لم يكن فى هذه المنزلة، وهو مقام الصديقين، فيساويه فى حاله، وهذا من مقام الصادقين، وهذا أقلُّ منازل الأخوة، وهو من أخلاق المؤمنين، وإنّما آخى رسول الله ﷺ بين الغنى والفقير، ليساوى الغنى الفقير فيعتدلان، وينبغى أن يقدِّمه على أهله وولده، وأن يحبه فوق محبتهم؛ لأن محبة أولئك من الدنيا والنفس والهوى، ومحبة الإخوان من الآخرة ولله تبارك وتعالى، وفى الدين، وأمور الدين والآخرة مقدمٌ عند المتقين.

وكان عبد الله بن الحسن البصرى يصرف إخوان الحسن إذا جاؤوه، لطول لبثهم عنده، ولشدة شغله بهم، فيقول لهم: لا تملّوا الشيخ، فكان الحسن إذا علم ذلك يقول: دعهم يا لُكع، فإنّهم أحبُّ إلىَّ منكم، هؤلاء يحبونى لله عز وجلّ، وأنتم تريدونى للدنيا. وقال أبو معاوية الأسود: إخوانى كلهم خير منى، قيل: وكيف ذاك؟ قال: كلهم يرى الفضل لى عليه، ومن فَضَّلنى على نفسه فهو خيرٌ منى.

وقد روينا عن رسول الله ﷺ: «المرءُ على دين خليله»، ولا خير فى صحبة مَن لا يرى لك مثل ما يرى لنفسه.

وكان الأعمش يقول: من أخفى عنا بدعته لم يُخْفِ عنا أُلفته. أى ينظر إلى إخوانه الذين يألفهم، فيستدل عليه بهم.

وقد روى الأصمعى، عن مجاهد، عن الشعبى قال: قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه لرجل، وكره له صحبة رجلٍ رَهَقٍ[1]، فقال شعرًا:

لا تَصْحَب أخا الجَهْلِ وإيّـــاكَ وإيّـــاهُ
فكم مِن جاهلٍ أرْدَى حَليمًا حيــن آخَــاهُ
يُقــاسُ المرءُ بالمرءِ إذا مــا هــوّ ماشَاهُ
وللشىءِ مِـن الشّىءِ مَقــاييسٌ وأَشْبَــاهُ
وللقلبِ على القلبِ دليلٌ حيــن يَلْقَــاهُ

وأنشد محمد بن جامع الفقيه شعرًا:

تـذلَّل لِمَـن إن تذلَّلـتَ له يرى ذاك للفضـلِ لا لِلبُلَهْ
وجَانِبْ صداقةَ مَن لا يزال على الأصدقاءِ يرى الفَضْلَ لَهْ

وأُنشدنا لبعض الأدباء:

كم مِن صــديقٍ عَرَفْتُه بصــديقٍ
صــار أَحْظى من الصـديقِ العتيقِ
ورفيــــقٌ رأيتُــــه فى طريــقٍ
صار عندى محضَ الصّــديق الحقيقى

وروينا عن الحسن بن على عليهما السلام فى وصف الأخ كلامًا رجزًا جامعًا مختصرًا:

---

(١) الرَّهَق: الجهل والحمق.

إنَّ أخاك الحقَّ مَن كـان مَعَكْ ومَـن يَضُـرُّ نفسَـه لِيَنْفَعَكْ
ومَن إذا رَيْبُ الزَّمانِ صَدَعَكْ شَتَّت شَمْلَ نَفْسه لِيَجْمَعَكْ

ولا تصح مؤاخاة مبتدع فى الله تعالى، ولا محبة فاسقٍ يُصحب على فسوقه، ولا محبة فقيرٍ أحبّ غنيًا لأجل دنياه، ولا ما يناله من عاجل مهناه. وقد تصح المحبة بين الغنى والفقير، وتوجد الأخوة إن لم يقم الغنى بحقوق أخيه، إذا آثره أخوه بما يحب أن يؤثره به، فلم يقتضه.

وقد تصح الأخوة بين العالم والجاهل، وبين الصالح والطالح؛ لأجل التدين من أحدهما، والتقرب إلى الله عز وجل، ويكون من الأعلى منهما لنيات، تكون له فيها لحسن خُلقه، أو لجميل معاملته، أو لمعانٍ محمودة تكون فيه، لأن لكل مؤمنٍ سديدًا من عمله يُرجى له به، والمؤمنُ لاَ يهلك كله، ولا يذهب جُملةً واحدة، أو لإشفاقه عليه، أو لتواضع العالم والصالح فى نفسه، فيراه فى كلِّ حالٍ فوقه، أو لأجل الستر عليه؛ لئلا يلحقه النقص والشين من الغير.

فهذه طرقات الإخوان، فيها حسنُ نِيات.

وينبغى على ذلك أن تعلِّمه ما جهل مما هو به أعلم، فيعينه بعلمه كما يعينه بماله، فإن فقر الجهل أشدُّ من فقرِ المال، وإنّ الحاجة إلى العلم ليست بدُون الحاجة إلى المال. وكان الفُضيل يقول: إنما سُمِّى الصديق لتصدُّقه، والرفيق لترفُّقه، فإن كنتَ أغنى منه فأرْفقْه بمالك، وإن كنتَ أعلم منه فأرفِقْه بعلمك. وينبغى أن ينصح له فيما بينه وبينه، ولا يوبخه بين الملأ، ولا يطلع على غيبه أحدًا، فقد قيل: إنّ نصائح المؤمنين فى آذانهم. وقال جعفر بن برقان: قال لى ميمون بن مهران: قل لى فى وجهى ما أكره، فإن الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له فى وجهه ما يكره، فإن كان أخوه الذى نصح له صادقًا فى حاله أحبه على نصحه، فإن لم يحبه وكره ذلك منه دلّ على كذب الحال. قال الله سبحانه وتعالى فى وصف الكاذبين: ﴿وَلَكِنْ لاَ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩].

وقد كان بعض الصالحين يقول: أحبُّ الناس إلىَّ مَن أهدى إلىَّ عيوبى. وقد

كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول، ويأمر الإخوان بذلك: رحم الله امرءًا أهدى إلى أخيه عُيوب نفسه. ولكن قد قيل لمسعر بن كدام: تحب من يخبرك بعيوبك؟ فقال: إن نَصَحنى فيما بينى وبينه فنعم، وإن قرَّعنى فى الملأ فلا.

ومن أخلاق السلف: كان الرجل إذا كره من أخيه خُلقًا عاتبه فيما بينه وبينه، أو كاتبه فى صحيفة. وهذا لعمرى فَرْقٌ بين النصيحة والفضيحة، فما كان فى السّرِّ فهو نصيحةٌ، وما كان على العلانية فهو فضيحة. وقلما تصح فيه النية لوجه الله تعالى؛ لأن فيه شناعةً.

وكذلك الفرق بين العتاب والتوبيخ. فالعتابُ: ما كان فى خلوة. والتوبيخ: لا يكون إلا فى جماعة، ولذلك يعاتب الله عز وجل رجلاً من المؤمنين يوم القيامة تحت كَنَفِه، ويُسبل عليه ستره، فيوقفه على ذنوبه سرًا، ومنهم من يُدفع كتاب عمله مختومًا إلى الملائكة الذين يحفّون به إلى الجنة، فإذا قاربُوا دخول الجنة دفعوا إليهم الكتب مختومةً فيقرؤونها. وأما أهل التوبيخ: فيُنادَوْن على رُؤوس الأشهاد، فلا يخفى على أهل الموقف فضيحتهم، فيزداد ذلك فى عذابهم.

وكذلك الفرق بين المداراة والمداهنة. فالمداراة: ما أردت به وجه الله تعالى وطريق الآخرة، من دَفْعٍ عن دين، وقصدت به سلامة أخيك من الإثم وصلاح قلبه لله تبارك وتعالى. والمداهنة: ما اجتلبتَ به دُنيا، وأردتَ به حظّاً نفسك.

وكذلك الفرقُ بين الغبطة والحسد. إن الغبطة: أن تحب لنفسك ما رأيته من أخيك، ولا تحب زواله عنه بل تبقيته له وإتمامه عليه. والحسد: ما أردت أن يكون ذلك منه لك، وأحببتَ زواله عنه وكرهتَ تبقيته عليه، فهذا مكروه، فإن سعيت فى ذلك بقولٍ أو فعلٍ فهو البَغْى، زيادةً على الحسد، وهو من كبائر المعاصى.

وكذلك الفرق بين الفراسة وسوء الظن. إن الفراسة: ما توسَّمته من أخيك بدليل يظهر لك، أو شاهدٍ يبدو منه، أو علامة تشهدها فيه، فتتفرس من ذلك فيه، ولا تنطق به إن كان سُوءًا، ولا تظهره، ولا تحكم عليه، ولا تقطع به فتأثم. وسوء الظن: ما ظننته من سوء رأيك فيه، أو لأجل حِقدٍ فى نفسك عليه، أو

لسوء نيةٍ تكون، أو خبثُ حالٍ فيك، تعرفها من نفسك، فتحمل حال أخيك عليها، وتقيسه بك، فهذا هو سوء الظن والإثم، وهو غيبةُ القلب، وذلك محرَّم؛ لقول النبى ﷺ: «إنّ الله تعالى حرَّم من المؤمن دَمَه وماله وعِرْضَه، وأنْ تظنّ به ظَنَّ السُّوءِ». وقوله عليه السلام: «إياكم والظّنَّ، فإن الظنَّ أكذَبُ الحديث».

فهذه خمسُ معانٍ وأضدادها، بينها فرقٌ عند العلماء، فاعرف ذلك.

وينبغى أن ينصر أخاه ويعينه بماله ولسانه وقلبه وأفعاله، فإن النصرة فى الله تعالى تكون بهذه المعانى الأربع: بالنفس إنْ احتاج إليك فى الأفعال، وباللسان إن ظُلم فى المقال، وبالمواساة إن احتاج إلى المال، وأقل ذلك بالقلب أنْ يساعده فى الهمِّ والكرب فى اعتقاد السلامة فيه، وجميل النية له، وعليه أن يحفظ غيبَه، وأن يحسن الثناء عليه، وينشر فَضْلَه، ويطوى زلَلَه، ويقبل عِلَله.

ويقال: ما من الناس أحدٌ إلا له محاسن ومساوٍ، فمن ظهرت محاسنه فغلبت مساويه فهو المؤمن المقتصدُ، فالأخ الشفيقُ الكريمُ يذكر أحسن ما يعلم فى أخيه، والمنافقُ اللئيمُ يذكر أسوأ ما يعلم فيه، ومن هذا جاء فى الخبر: «أستعيذُ بالله من جارِ السّوء، الذى إن رأى خيرًا ستره، وإن رأى شرًا أظهره»، وهذا المعنى هو سبب قول النبى ﷺ: «إن من البيان لسحرًا»، إذ لكل حديثٍ يُروى آخره سبب، يكون أوّله خَرْجَ الحديث عليه، وهو أنّ رجلاً أثنى على رجُلٍ عند رسول الله ﷺ، فلما كان الغد ذَمَّه وعابهُ، فقال رسول الله ﷺ: «أنت بالأمس تُثنى عليه، واليوم تذمّه؟»، فقال: والله لقد صدقت عليه بالأمس، وما كذبت عليه اليوم، إنه أرضانى بالأمس فقلتُ أحسن ما أعلم فيه، وأغْضبنى اليوم فقلتُ أسوأ ما أعلمُ فيه، فقال رسولُ الله ﷺ عند ذلك: «إنّ من البيان لسحرًا»، كأنّه كره ذلك أنْ شبهه بالسحر؛ لأن السحر حرامٌ.

ولهذا قال ﷺ فى الخبر الآخر: «البَذَاءُ والبَيَانُ شُعْبتانِ من النفاق». وفى الحديث الآخر: «إن الله تعالى كره لكم البيانَ، كلَّ البيانِ».

وقد قال الإمام الشافعى رحمه الله فى وصف العدالة قولاً استحسنه العلماء. حُدثنا عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم قال: سمعت الشافعى يقول: ما أحدٌ

من المسلمين يطيع الله عز وجل حتى لا يعصيه، ولا أحدٌ يعصى الله عز وجل حتى لا يطيعه، فمن كانت طاعاته أكثر من معاصيه فهو العدلُ. قال ابن عبد الحكم: وهذا كلام الحذَّاق. وقال أيضًا قولاً فصلاً فى التوسط بين الانقباض والانبساط، حُدثنا عنه قال: الانقباضُ عن الناس مكسبةٌ لعداوتهم، والانبساطُ إليهم مجلبةٌ لقرناء السوء، فكن بين الانقباض والانبساط.

وقد وصف الله تعالى المؤمنين بالصبر والرحمة فى قوله عز وجل: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد:١٧]. ونعتهم بالذلة فى قوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة:٥٤]. وقال تعالى: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:٢٩]. وهذا كله داخلٌ فى الاهتمام به، وهو حقيقةُ صدقه فى الصداقة له، كما قال: ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء:١٠١]، أى: هميم، من الاهتمام به.

وقد قال عيسى عليه السلام لأصحابه: «كيف تصنعون إذا رأيتم أخاكم نائمًا، فكشفت الريحُ عنه ثوبه؟ قالوا: نستُره ونغطيه. فقال: بل تكشفون عورته. قالوا: سبحان الله، من يفعل هذا؟ فقال: أحدكم يسمع فى أخيه بالكلمة فيزيد عليها ويشيعها بأعظم منها». وهذا مخرجُه من الحسد الكائن فى النفس، والغلّ المستكن فى القلب، أن يزيد الرجلُ على الشىء مما يسمع أو يتبعه بمثله، فيظهر هذا غلّه، وهذا الذى استعاذ منه المؤمنون فى قولهم: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا﴾ [الحشر:١٠] الآية.

وينبغى أن لا يخالفه فى شىء، ولا يعترض عليه فى مرادٍ. قال بعض العلماء: إذا قال الأخُ لأخيه: قُم بنا، فقال: إلى أين؟ فلا تصحبه. وقال الآخر: إذا قال: أعطنى من مالك، فقال: كم تريد، أو ماذا تصنع به؟ لم يقم بحقِّ الإخاء. قال أبو سليمان الدارانى: كان لى أخٌ بالعراق، فكنتُ أجيئه فى النوائب، فأقول: أعطنى من مالك شيئًا، فكان يُلقى إلىَّ كِيسه فآخذُ منه ما أُريد، فجئتُه ذات يومٍ فقلتُ: أحتاجُ إلى شىءٍ، فقال: كم تريد؟ فخرجَ حلاوة إخاه من قلبى. وعن ابن عمر وأبى هريرة: لم يكن أحدٌ أحق بديناره ودرهمه من أخيه.

وروينا عن رسول الله ﷺ: «لا تباغَضُوا ولا تَدَابروا ولا تحاسدوا ولا تقاطعوا، وكونوا عباد الله إخوانًا، المسلم أخو المسلم، لا يَظْلمه، ولا يَحرمه، ولا يَخْذُله، بحسب المرء من الشر أن يَحْقِرَ أخاهُ المسلم».

وفى حديث عليٍّ عليه السلام عن رسول الله ﷺ قال: «مَن عامل الناس فلم يَظْلِمْهم، وحدَّثهم فلم يكْذبهم، ووعدهم فلم يُخْلِفهم، فهو ممن كَمُلت مروءَتُه، وظهرت عدالته، ووجبت أُخوَّته، وحَرُمت غيبته.

وفى حديث أبى أسامة الباهلى: «خرج علينا رسولُ الله ﷺ ونحن نتمارى، فغضب ثم قال: ذَرُوا المِراءَ لقلةِ خيره، ذروا المراءَ فإن نفعه قليل، وهو يهيج العداوة بين الإخوان». وقال بعض السلف: مَن لاحى الإخوان وماراهم قلَّت وذَهبت كرامته. وقال عبد الله بن الحسن: إياكَ ومعاداة الرجال، فإنك لن تَعْدَم مكرَ حليم، أو مفاجأة لئيم. وقال بعض الحكماء: ظاهرُ العتاب خير من مكنون الحِقْدِ، ولا يزيدك لطفُ الحِقدِ إلاّ وحشة منه.

وقد روينا فى الحقد على الإخوان لفظةً شديدةً وهو ما حدثونا عن عبد الرحمن ابن جبير بن نفير عن أبيه قال: كنتُ باليمن، وكان لى جارٌ يهودى، ويخبرنى عن التوراة، فقَدِمَ علينا يهودى من سَفَرٍ فقلتُ: إن الله تبارك وتعالى قد بعث فينا نبيًا، فدعا إلى السلام فأسلمنا، وقد نزل علينا مصدقًا للتوراة، فقال اليهودى: صدقت، ولكنكم لا تستطيعون أن تقوموا بما جاءكم به، إنَّا نجدُ نعته ونعت أمته: أنه لا يحل لامرئٍ يعلم منهم أن يخرج من عتبة بابه وفى قلبه سخيمةٌ على أخيه المسلم.

وقال بعض السلف: أعجز الناس مَن قصَّر فى طلب الإخوان، وأعجزُ منه مَن ضيَّع مَن ظفر منهم. وقال الحسن: لا تشتر عداوة رجل بمودة ألف رجلٍ. وقال عمر بن عبد العزيز: إياك ومَنْ مودتُه على قدر حاجته إليك، فإذا قُضيتْ حاجته انقضت مودَّته. ومن أخلاق السلف قال: لم يكن أحدٌ منا يقول فى رَحْله: هذا لى وهذا لك، بل كان كل من احتاج إلى شىء استعمله عن غير مؤامرة. وقد وصف الله عز وجل المؤمنين بهذا فى قوله تعالى: ﴿**وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا**

رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [الشورى:٣٨]. معنى «أمرهم»: أى أمورهم، ذكر جماعها كالشيء الواحد بينهم، «شورى»: أى مشاع غير مقسوم، لا يُستبد به، واحدُهم فيه سواء، «ومما رزقناهم ينفقون»: أى كانوا خُلطاء فى الأموال لا يميز بعضهم رَحْله من بعض، أى شركاء.

وجاء عتبة الغلام إلى منزل رجلٍ كان قد آخاه فقال: أحتاجُ من مالك إلى أربعة آلاف، فقال: خذ ألفين، فأعرض عنه، وقال: آثرتَ الدنيا على الله عز وجل، أمَا استحييت أن تدَّعى الأخوة فى الله عز وجل وتقول هذا؟!

وجاء فتح الموصلى إلى منزل أخ له وكان غائبًا، فأمر أهله فأخرجت صندوقه، ففتحه فأخذ من كيسه حاجته، فذهبت الجارية إلى مولاها فأعلمته، فقال: إن كنتِ صادقة فأنت حرة لوجه الله تعالى؛ سرورًا بما فعل.

ورُوى أن ابن أبى شبرمة قضى لبعض إخوانه حاجة كبيرة، فجاءه الرجل بهديةٍ جليلة، فقال: ما هذا؟ فقال: ما أسديتَ إلىَّ، فقال: خُذ مالك، عافاك الله، إذا سألت أخاك حاجة فلم يجهد نفسه فى قضائها، فتوضأ للصلاة، وكبِّر عليه أربع تكبيرات، وعدَّه فى الموتى. وعلى ذلك قال بعضهم: إذا استقضيت أخاك الحاجة فلم يَقْضها لله فذكِّره ثانية، فلعله يكون قد نسى، فإن لم يقضها فعاوده ثالثة، فقد يكون شُغِل عنها بعُذر، فإن لم يقضها فكبِّر عليها واقرأ عليه هذه الآية: ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ﴾ [الأنعام:٣٦].

وقال ميمون بن مهران: مَن رَضِى من الإخوان بترك الأفضال فليواخ أهل القبور. وجاء رجلٌ إلى أبى هريرة فقال: إنى أريد أن أواخيك فى الله عز وجل، فقال: أتدرى ما حقُّ الإخاء؟ قال: عرِّفنى، قال: لا تكون بدرهمك ودينارك أحق منّى، قال: لم أبلغ هذه المنزلة بعد، قال: فاذهب عنى.

وقال على بن الحسين رضى الله عنهما لرجلٍ: هل يُدخل أحدكم يده فى كُمِّ أخيه أو كيسه، فيأخذ منه ما يريد من غير إذن؟ قال: لا. قال: فلستم بإخوان. ودخل قوم على الحسن، فقالوا له: أصلَّيت يا أبا سعيد؟ قال: نعم. قالوا: فإنّ أهل السوق لم يصلوا بعد، فقال: ومَن يأخذ دينه عن أهل السوق؟ بلغنى أن

أحدهم يمنع أخاه الدرهم.

وقال محمد بن نصر: جاء رجلٌ إلى إبراهيم بن أدهم، وهو يريد بيت المقدس، فقال له: إنّى أريد أنْ أرافقك. فقال له إبراهيم: على أنْ أكون أمْلَكَ بشَيْئك مِنك. قال: لا. قال: أعجبنى صدقُك.

وقال موسى بن طريف: كان إبراهيم بن أدهم إذا رافقه رجل لم يخالفه، وكان لا يصحب إلاّ من يوافقه. وبلغنى أن رجلاً شرَّاكًا[1] صَحِبَهُ فى سفرٍ، فأُهدى إلى إبراهيم قصعة من ثريد فى بعض المنازل، فأراد أن يرد القصعة فأخذ جراب رفيقه ففتحه، وأخذ حزمة من شُرُك فجعله فى القصعة، ثم دفعها إلى صاحب الهدية، فلما جاء رفيقه قال: أين الشُّرُك؟ قال: تلك قصعة الثريد التى أكلتها أى شىء كانت؟ قال: فكنت تعطيه شراكين أو ثلاثة، قال: اسمح يُسمح لك.

وبلغنى أنه أعطى مرة حمارًا كان لرفيقه بغير إذنه لرجل رآه راجلاً، فلما جاء رفيقه سكت، فلم يكره ذلك.

وقد روى عن عون بن عبد الله قال: قال ابن مسعود: لا تسأل امرءًا عن وُدِّه إياك، ولكن انظر ما فى قلبك، فإن فى قلبه لك مثل ذلك. وقال ربيعة بن أبى عبد الرحمن: مروءةُ الحضَر الإدمانُ إلى المساجد، وكثرة الإخوان فى الله عز وجل، ومروءةُ السفر بذلُ الزاد، وقلةُ الخلاف على إخوانك. وقد روينا عن رسول الله ﷺ من طريق أهل البيت قال: «ثلاثةٌ من المروءة فى الحضر: تلاوة كتاب الله عز وجل، وعمارة المساجد، واتخاذُ الإخوان فى الله تعالى»، فمن فضل المؤاخاة فى الله تعالى أنه قرنها بتلاوة كتابه وعمارة بيوته، وقد جعل الاختلاف إلى المسجد سبب اجتلاب الإخاء. وفى حديث ابن عباس والحسن بن على: «مَنْ أدمن الاختلاف إلى المسجد أصاب إحدى خمس خصال: أخًا مستفادًا فى الله عز وجل»[2].

---

(١) شرَّاكًا: أى رجل يبيع الشُّرُك، جمع شِراك، وهى سير النعال.

(٢) تكملته: «أو علمًا مستطرفًا، أو كلمة تدلُّه على الهدى أو أخرى تصدّه عن الرَّدَى، وتركَ الذنوب حياءً وخشيةً، أو نعمةً ظاهرةً أو رحمة منتظرة».

وقال أبو عيينة وقد أنشد هذا البيت:

وجدتُ مصيباتِ الزَّمانِ جميعها … سوى فُرقةِ الإخوانِ هيِّنةُ الخَطْبِ

فقال: لقد عهدت أقوامًا فارقتهم منذ ثلاثين سنة، ما تخيَّل لى أنَّ حسرتهم ذهبت من قلبى.

وقال بعضهم: ما هدَّنى شىءٌ ما هدَّنى موت الأقران. ويقال: إذا مات صديق الرجل فَقَدْ فَقَدَ عُضوًا من أعضائه، وأنشدونا عن العتبى:

ولقـد بلوتُ النـاسَ ثم خَبَرتُهُم … ووصلتُ ما قَطَعُوا من الأسبابِ

فإذا القـرابةُ لا تقرِّب قاطعًا … وإذا المـودةُ أقْربُ الأنســابِ

وبلغنى أنّ أخوين ابتُلى أحدهما بهوًى، فأظهر عليه أخاه وقال: إنّى قد اعتللتُ بالهوى، فإن شئتَ أن لا تعقد علىَّ محبتى لله تعالى فافعل، فقال: ما كنتُ لأحل عقد أُخوَّتك لأجل خطيئتك أبدًا. قال: ثم عقد أخوه بينه وبين الله عز وجلّ أن لا يأكل ولا يشرب حتى يعافى الله عز وجل أخاه من هواه. قال: فطوى أربعين يومًا فى كلّها يسأله عن هواه: كيف أنت منه؟ فكان يقول: القلب مقيم على حاله. قال: وما زال أخوه الآخر يَنْحَل ويَسْقَم من الغمّ عليه، ومن تركه الطعام والشراب قال: فأزال الله الهوى عن قلب أخيه بعد الأربعين، فأخبره بذلك، فأكل وشرب بعد أن كاد يتلف هَزْلاً وضرًا.

وبمعناه حُدثت عن أخوين من السلف انقلب أحدهما عن الاستقامة، فقيل لأخيه التقى: ألاَ تقطعه وتهجره؟ فقال: هو أحوجُ ما كان إلىَّ فى هذا الوقت لَمَّا وقع فى عثرته، أن آخذ بيده، وأتلطف له فى المعاتبة، وأدعو له بالعود إلى ما كان عليه. وفيما رويناه من الإسرائيليات: أن أخوين عابدين فى جبل، نزل أحدُهما ليشترى من المصر لحمًا بدرهم، فبَصَرَ ببغىٍّ عند اللحَّام، فهويها فواقعها، ثم أقام عندها ثلاثًا، واستحى أن يرجع إلى أخيه من جنايته، قال: فافتقده أخوه واهتمّ بشأنه، فنزل إلى المدينة فلم يزل يسأل عنه حتى دُلَّ عليه، فدخل عليه وهو جالس مع البغى، فاعتنقه وجعل يقبِّله ويلتزمه، وأنكر الآخر أنه يعرفه لفرط استحيائه

منه، فقال: قُم يا أخى فقد علمتُ بشأنك وقصتك، وما كنتَ أعزَّ علىَّ وأحبَّ منك فى يومك هذا ولا ساعتك هذه، فلما رأى ذلك لا يسقطه عنده، قام فانصرف معه. فهذا من أحسن النيات، وهو طريق العارفين من ذوى الآداب والمروءات.

فإن أحب هذا الأخ أن يؤثر أخاه بما آثره به، ولا يقتضيه حق إخائه، فحَسنٌ. قد فعل ذلك عبد الرحمن بن عوف لما آثره سعد بن الربيع بالمال والنفس، فقال: بارك الله لك فيهما، فآثره بما به آثره، فكأنه استأنف هبته له؛ لأنه قد كان ملَّكه إياه؛ لسخاوة نفسه، وحقيقة زهده، وصدق مودته، فكانت المساواة لسعد، والإيثار لعبد الرحمن، فزاد عليه، وهذا من فضل المهاجرين على الأنصار، إذ كانت المساواة دون الإيثار.

وقد كان مضر بن عيسى وسليمان يقولان: من أحب رجلاً ثم قصَّر فى حقه فهو كاذبٌ فى حبه. وكان أبو سليمان الدارانى يقول: هو صادق فى حبه مفرِّط فى حقه، ثم قال: لو أن الدنيا كلها لى فجعلتها فى فم أخ من إخوانى لاستقللتها له. وقال: إنى لألقم الأخ من إخوانى اللقمة فأجد طعمها فى حلقى.

واعلم أنَّ إطعام الطعام والإنفاق على الإخوان مضاعف على الصدقات وعلى العطاء للأجانب، بمنزلة تضعيف الثواب فى الأهل والقرابات. رُوى عن علىٍّ عليه السلام: لَعشُرون درهمًا أعطيها أخى فى الله عز وجل أحبُّ إلىَّ من أن أتصدق بمائة درهم على المساكين. وقال أيضًا: لأن أصنع من طعامٍ وأجمع عليه إخوانى فى الله عز وجل أحب إلىَّ من أنْ أعتق رقبةً. وأوصى بعض الحكماء ابنه فقال: يا بنى، ادخل بين الأعداء ولا تدخلنَّ بين الأصدقاء. قال: وكيف ذاك؟ قال: الدخول بين الأعداء يُكسب الصداقة، والدخول بين الأصدقاء يُورث العداوة.

ولا ينبغى للأخ أن يخون أخاه فى غيبه بما يكره، إنْ كان ذلك فى شىء مباح إذا كرهه، ولا ينكر عليه ما لا يقوم فى علمه إذا فعله إن كان أخوه أعلم منه، أو كان له وجه يخرَّج عليه، ولا ينبغى أن يكذِّبه فى أمره، ولا يفشينَّ له سرًا، ولا

يعرضَنَّه لغيبة ولا نميمة، ولا يحوجه إلى مداراة، ولا يُلجئه إلى اعتذار، ولا يتكلفنَّ له ما يشق عليه، أو ما لا يحبه هو منه.

وقال العباس لابنه عبد الله: إنى أرى هذا الرجل، يعنى عمر بن الخطاب رضى الله عنه، يقدِّمك على الأشياخ ويقربك دونهم، فاحفظ عنى ثلاثًا: لا تفشينَّ له سرًا، ولا تغتابنَّ عنده أحدًا، ولا يجربن عليك كذبة. وفى بعض الروايات: ولا تعصين له أمرًا، ولا يطَّلعن منك على خيانة. قال: فقلتُ للشعبى وقد رواه: كل كلمة خير من ألف. قال: كل كلمة خير من عشرة آلاف. وأفشى بعضهم إلى أخيه سرًا، ثم قال له: حفظت، قال: بل نسيت. وقيل لبعض الأدباء: كيف حفظُك السر؟ قال: أنا قبره. وقيل لآخر: كيف تحفظ السر؟ فقال: أجحد المخبر، وأحلف للمستخبر.

ومن أحسن ما سمعتُ فى حفظ السر ما حدّثنى بعضُ أشياخنا عن إخوان له، دخلوا على عبد الله بن المعتز فاستنشدوه شيئًا من شعره فى حفظ السر، فأنشدهم على البديهة:

ومستودعى سرًا تبوَّأتُ كَتمَـه ... فأودعتُه صدرى فصار له قبرا

قال: فخرجنا من عنده، فاستقبلنا محمد بن داود الأصبهانى، فسألنا من أين جئنا، فأخبرناه بما أنشدنا ابن المعتز فى السرّ، فاستوقفنا، ثم أطرق مليًا ثم قال: اسمعوا قولى:

وما السرُّ فى صـــدرى كثَاوٍ بقبره ... لأنى أرى المقبـــورَ ينتظر النَّشرا

ولكنـنى أنســـاه حتى كـــأننى ... بما كـان منه لم أُحَط ساعـــةً خُبْرا

ولو جـــاز كَتمُ السـرِّ بينى وبينـه ... عن السرِّ والأحشاءِ لم يعلم السِّرَّا

وقال علىٌّ عليه السلام: شرُّ الأصدقاء مَن أحوجك إلى مداراة، وألجأك إلى اعتذار. وقال أيضًا: شرّ الأصدقاء من تَكلَّفُ له.

وقال الفضيل: إنما تقاطع الناس بالتكلُّف؛ يزور أحدهم أخاه فيتكلف له ما لا

يفعله كل واحد منهما في منزله، فيَحْشِمُه[1] ذلك من الرجوع إليه.

وروينا عن عائشة رضى الله عنها: المؤمن أخو المؤمن، لا يغتنمه ولا يحشمه.

وروينا في الانبساط إلى الإخوان شيئًا استظرفته، ولولا أنه جاء عن إمام ما ذكرته، حدثنا الحارث بن محمد، عن إبراهيم بن سعيد الجوهرى قال: أُهدى لهشام فروٌ كثيرُ الثمن فقال: اذهب بها إلى سعيد الجوهرى فقل له: هذه فرو جاء به هشيم اشترها له. قال: فذهب بها إليه فاشتراها، ثم بعث بها إلى هشيم، فصارت له ودراهمها. وقال على بن المدينى: قال أحمد بن حنبل: إنى أحب أن أصحبك إلى مكة وما يمنعنى من ذلك إلاّ أنى أخاف أن أملَّك أو تملَّنى؛ لأنه يقال: إنّ مَلَلَ الإخوان ليس من أخلاق الكرام. وقال مكحول: قلت للحسن: إنى أريد الخروج إلى مكة. فقال: لا تصحبنَّ رجُلاً يكرم عليك فينقطع الذى بينك وبينه. وكان أبو عمرو بن العلاء يقول: يُستحسن الصَّبرُ عن كل شىء إلاّ عن الصديق. وقال: أستحب للمتواخيين في الله عز وجل أنْ يلتقيا في كل يوم مرتين. وقال أنس بن مالك: كان أصحاب رسول الله يتماشون، فإذا استقبلهم صخرة أو أكَمَة فرَّقت بينهم، فالتقوا من ورائها، سلَّم بعضهم على بعض. وقال الحسن وأبو قلابة: ليس من المروءة أن يربح الرجلُ على صديقه. وقال ابن سيرين: لا تكرم أخاك بما يشق عليه.

وروينا عن رسول الله ﷺ قال: «إنما يتجالس المتجالسان بالأمانة، فلا يحلُّ لأحدهما أنْ يفشى على أخيه ما يكره».

وخرج ابنُ المبارك فى سفر، فصحبه قوم فقال لهم: إنْ أنكر أحد منكم شيئًا فليخبرنى، فلما أرادوا أنْ يتفرقوا قال لهم: هل أنكرتم منى شيئًا؟ فقال شاب منهم: أنا. قال: وما أنكرت؟ قال: لم أرك تستاك. فقال: ويحك، وهل يستاك الرجل بين يدى صديقه. وكان بشر بن الحارث يقول: لا تخالط من الناس إلاّ حَسَنَ الخُلُق، فإنه لا يأتى إلا بخير، ولا تخالط سيِّءَ الخُلُقِ فإنه لا يأتى إلاّ بِشَرٍّ.

---

(١) يحشمه: يخجله، من الحِشمة وهى الاستحياء.

وقال الشافعى رحمه الله: من استُغضِب فلم يغضب فهو حمار، ومن استُرْضِى فلم يرْضَ فهو شيطان. وقال عمرو بن دينار: زُهدُك فى راغبٍ فيك نقص حظٍّ، ورغبتك فى زاهدٍ فيك ذُلُّ نفسٍ.

وليستر[(١)] عورة أخيه ما استطاع، ففى الحديث: «من ستر عورةَ أخيه ستَرَهُ الله تعالى فى الدّنيا والآخرة». وفى خبر آخر: «من سترَ على أخيه عورةً فكأنما أحيا مودّة».

وروينا عن عيسى بن مريم، عليه السلام، أنه قال للحواريين: كيف تصنعون إذا مررتم بأخيكم نائمًا، فكشفت الريحُ بعض عورته، قلنا: نردّ عليه ثوبه ونسترهُ. قال: ليس تفعلون ذلك، ولكن تكشفون أكثر. قلنا: سبحان الله! ومن يفعل هذا؟ قال: أنتم، تسمعون بالكلمة من الفحش لا تدفنونها، ولكن تزيدون عليها وتُذِيعونها.

وهذا قد يكون من الحسد الممكَّن فى القلب أو الغلّ المختفى فى الصدر على أخيه الدّهر الطويل ولا يظهر ذلك، لأنه لا يجد له مساغًا، ولا يصادف منه متكلّمًا، فإذا ظهر أدنى سببٍ، وسمع أقل متكلم، ظهر ما كان من الحسد بطن، وعَلَن ما كان من الغلِّ استكن، فشيَّع الكلمة بمثلها، ويعضدها بأختها لمجىء وقتها، فعندها يعرف منه أنه كان حاسدًا له وحاقدًا عليه، ولكن تبيَّن الآن لمَّا آن وقته.

فأما من عُوفى من دقائق الحسد، وعُصم من لطائف الغلّ، وسَلِمَ قلبه لأخيه، واعتقد حُسنَ الظّنّ فيه، فإنه إذا ظهر سبب من أخيه فيه زلل، وبدا أمرٌ فيه خَطَلٌ، ستَر ذلك وكتَمه وأخفاه وأبهمه، وقد يقطعه الحزنُ عليه والهمُّ به عن الذّكر له والخبر عنه، فعند ذلك يُعرف القلب السليم وثبات الود المستقيم. وهذه طريقة عقلاء المؤمنين. والأولى طريق الوَجَل فى الدين. وقد يكون ذلك من الكبر فى القلب، والفخر على أخيه بالعُجب، إذا ظهر عليه بعورة أظهرَها، أو سمع له

(١) من أول هنا إلى قوله: «والغلّ المستتر فى الصدر» ساقط من المطبوعة، وهو ثابت فى الأصول الثلاثة (د، م، هـ).

بهفوة أعلنها، ليُعرف فضله، وما هو عليه، ويرتفع بوصفه عن أخيه. وهذا من آفات النفوس، وهو داخل فى الشهوة الخفية، والغلّ المستتر فى الصدر[١].

وكان ابن سيرين يقول: يحتمل الرجل لأخيه إلى سبعين زلة ويطلب له المعاذير، فإن أغناه ذلك وإلا قال: لعل لأخى عذرًا غاب عنى. وقال الثورى: إذا أردت أن تؤاخى رجلاً فأغْضِبْه، ثم دُسَّ عليه من يسأله عنك، فإن قال خيرًا فاصحبْه. وقال غيره: لا تؤاخينَّ أحدًا حتى تبلوه، وتفشى إليه سرًا، ثم اجفِه واستغضبه وانظر، فإن أفشاه عليك فاجتنبه.

وقيل لأبى يزيد: مَن أصحبُ من الناس؟ قال: مَن يعلم منك ما يعلم الله عز وجل، ويستر عليك ما يستر الله تعالى. وكان ذو النون يقول: لا خير لك فى صحبة من لا يحب أن يراك إلا معصومًا. وقيل لبعض العلماء: مَن يُصْحَب من الناس؟ قال: من يرفع عنك ثقل التكلف، وتسقط بينك وبينه مؤونة التحفظ. وقد كان جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام يقول: أثقل إخوانى علىَّ من يتكلَّف لى وأتحفَّظ منه، وأخفُّهم على قلبى مَن أكون معه كما أكون وحدى.

يريدون بهذا كله أنّ من لم يكن على هذه الأوصاف دخل عليه التصنُّع والتزيُّن، فأخرجاه إلى الرياء والتكلف، فذهبت بركة الصحبة، وبطلت منفعة الأخوة.

وقال بعض الصوفية: لا تعاشر من الناس إلاّ من لا تزيد عنده ببرٍّ، ولا تنقص بإثم، ومن يتوبُ عنك إذا أذنبتَ، ويعتذر إليك إذا أسأتَ، ويحمل عنك مؤونة نفسه، ويكفيك مؤونة نفسك. وهذه من أعزّ الأوصاف فى هذا الوقت. كما قال رجل للجنيد: قد عزَّ فى هذا الزمان أخٌ فى الله تعالى. قال: فسكتَ عنه. ثم أعاد ذلك، فقال الجنيد: إذا أردتَ أخًا فى الله عز وجل يكفيك مؤونتك، ويتحمل أذاك، فهذا لعمرى قليل، وإن أردتَ أخًا فى الله تتحمل أنت مؤونته، وتصبر على أذاه، فعندى جماعةٌ أدلُّك عليهم إن أحببتَ.

---

(١) إلى هنا تنتهى الزيادة التى فى (د، م، هـ).

فهذا لعمرى يكون محبًّا لنفسه إذا اقتضى هذا من أخيه لا محبًّا لأخ فى الله تعالى، وليس الإخاءُ كفَّ الأذى؛ لأن هذا واجب، ولكن الإخاء الصبرُ على الأذى. وكانت هذه الطائفةُ من الصوفية لا يصطحبون إلاّ على استواءِ أربع معانٍ، لا يترجح بعضها على بعض، ولا يكون فيها اعتراض من بعض: إن أكل أحدُهم النهارَ كلّه لم يقل له صاحبه صُم، وإنْ صلى الليل أجمع لم يقل له أحد نَمْ بعضه، وتستوى حالاه عنده، فلا مزيد لأجل صيامه وقيامه، ولا نقصان لأجل إفطاره ونومه. فإذا كان عنده يزيد بالعمل وينتقص بترك العمل، فالفرقةُ أسلم للدِّين، وأبعدُ من المراءاة، من قِبَلِ أنّ النفس مجبولةٌ على حب المدح وكراهة الذم، ومبتلاة بأن تربَّ حالها التى عرفت به، وأن تظهر أحسن ما يحسن عند الناس منها. فإن صحب من يعمل معه هذا، فليس ذلك بطريق الصادقين ولا بغية المخلصين، فمجانبة هؤلاء الناس أصلحُ للقلب، وأخلصُ للعمل، وفى معاشرتهم وصحبة أمثالهم فسادُ القلوب ونقصانُ الحال، لأنّ هذه أسباب الرياء، وفى الرياء حَبْطُ الأعمال، وخسرانِ رأس المال، والسقوطُ من عين ذى الجلال، نعوذ به سبحانه وتعالى من ذلك.

وكان الثورى رحمه الله تعالى يقول: مَن عاشر الناس دَاراهم، ومن داراهم راياهم، ومن راياهم وقع فيما وقعوا فهلك كما هَلَكُوا. وكان بعض الناس يقول: لا تؤاخِ من الناس إلاّ من لا يتغير عليك فى أربعٍ: عند غضبه ورضاه، وعند طمعه وهواه؛ لأن هذه المعانى تتغير لها الطباع لدخول الضرر منها على النفس، وفقد الانتفاع.

وقال بعض الأدباء: لا تصحب من الناس إلاّ من كان على هذا الوصف: يكتم سرَّك، وينشر برَّك، ويطوى عيبك، ويكون فى النوائب معك، وفى الرغائب يؤثرك، فإن لم تجده فلا تصحب إلاّ نفسك.

وقد أنشدنا بعض العلماء لبعض الأدباء فى معنى هذه الأوصاف:

وندْمـــان أخى ثقـةً كـــان حـــديثه خُبرَهْ

يسرُّك حُسنُ ظاهرِه ... وتَحمدُ منه مُخْتبرَهْ
يساعد خلِّه كَرمًا ... وفى أخلاقه أثَرهْ
ويطرى سوءَةً أبدًا ... وحَسنًا إن طوى نَشرهْ
ويَستُرُ عيبَ صاحبه ... ويسترُ أنَّه سَترهْ

وقال بعض العلماء: لا تصحب إلا أحد رجلين: رجلاً تتعلم منه شيئًا من أمر دينك فينفعك، أو رجلاً تعلِّمه شيئًا من دينه فيقبل منك، والثالث اهرب منه. وقال ابن أبى الحوارى: قال لى أستاذى أبو سليمان: يا أحمد، لا تصحب إلا أحد رجلين: رجل ترتفق به فى دنياك، أو رجل تزيد معه وتنتفع به فى آخرتك، والاشتغالُ بغير هذين حمقٌ كبيرٌ.

وكان المأمون يقول: الإخوان ثلاثة: أحدهم مَثَلُه مَثَلُ الغذاء لا يُستغنى عنه، والآخر مَثلُه مَثَل الدواء يُحتاج إليه فى وقت، والثالث: مَثلُه مَثلُ الداء لا يُحتاج إليه. فالعبد مبتلى بهذا الثالث وهو الذى لا أُنس فيه ولا نفع عنده، والأول: نعمة من الله سبحانه وتعالى على العبد، فيه أُلفة وأنس ومعه غنيمة ونفع.

وكان أبو ذر يقول: الوحدة خيرٌ من جليس السّوء، والجليسُ الصالحُ خير من الوحدة. وقال بشر بن الحارث: يكون للرجل ثلاثة إخوان: أخ لآخرته، وأخ لدنياه، وأخ يأنس به. فأخبر أنّ أخ المؤانسة قد لا يكون متقرِّبًا عابدًا، وأنّ الأنس مخصوص، يقال: لا يوجد إلاّ فى تحذير كريم.

وكان يوسف بن أسباط يعزِّر من فيه أنس من الإخوان، فكان يقول: ما فى المَصيصة[1] ثلاثة يؤنس بهم.

واعلم أنّ الأنس لا يوجد فى كل عالِم، ولا فى كل عاقل، ولا فى كل عابد زاهد، ويحتاج الأنس إلى وجود معانٍ تكون فى الوليِّ، فإذا اجتمعت فيه كَمُل فيه الأنس، وارتفعت عنه الوحشة والحشمة، ومن لم تكن فيه لم يوجد فيه أنس،

(١) المَصيصة: بلد بالشام. وأيضًا: المَصِّيصة، بتشديد الصاد الأولى: ثغر من ثغور الروم.

ومن لم تكمل فيه وُجد فيه بعض الأنس، وإذا حصل الأنس ففيه الرَّوْح من الكروب، والاستراحة من الغمّ، والسكون، وطمأنينة القلب، فكذلك عزَّ مَن يُوجد فيه الأنس لعزة خصاله، وهى سبع: علم وعقل وأدب وحسن خلق وسخاء نفس وسلامة قلب وتواضع، فإن فقد بعضها لم يجد خِلاً يأنس بكماله، من قِبَل أنّ أضدادها وحشة كلها، لأنّ الجاهل لا أنس فيه، والأحمق لا أنس به، والبخيل سيء الخلق لا أنس عنده، والخبيث والمتكبر لا أنس معه، فاعرف هذا.

وروينا عن الأصمعى أنه ذكر عن بعض الحكماء قال: عاملوا أحرار الناس بمحض المودة، وعاملوا العامة بالرغبة والرهبة، وسُوسوا السِّفْلة بالمخافة.

ومَثَل جملة الناس كمَثَل جُملة الشجر، منهم من له ظلٌّ وليس فيه ثمر، وهذا الذى فيه نفع فى الدنيا ولا ثمرة له فى العقبى، ويُحتاج إليه فى وقت. ومنهم من فيه ثمر وليس له ظل، وهذا يصلح للآخرة ولا يصلح للدنيا. ومنهم من فيه ظِلٌّ وثمر، فهذا الذى يصلح للدين والدنيا، وهو أعزّها. ومنهم من لا ظِلَّ له ولا ثمر، وهذا هو الذى لا يُحتاج إليه، فمثله فى الشجر مثل شَجَر الغَضا، وهو شوكُ البريَّة التى تسميه العامةُ أمُّ غيلان، تمزق الثياب ولا طعام فيه ولا شراب، فهؤلاء من الناس من يضر ولا ينفع، ويكثر ولا يدفع، مثله كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿**يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ**﴾ [الحج: ١٣]. ومثله فى الدواب مثل الفأرة والعقرب، وقد قيل فى وصفهم:

الناسُ شتَّى إذا مـا أنتَ ذُقتَهُمُ ... لا يستوونَ كما لا يستوى الشَّجَرُ
هــذا له ثَمَرٌ حُلوٌ مذاقتُه ... وذاك ليس له طعمٌ ولا ثَمَرُ[١]
هـذا له ظلٌّ وذا عنده ثَمرٌ ... وذاك ليس له ظلٌّ ولا ثَمَرُ

وقد أنشدنا فى مثل وصف هذا لبعض الأدباء:

إذا كنتَ لا تُرجَى لدَفْعِ مَهمَّةٍ ... ولم تكُ يومَ الحشرِ ممَّن يَشْفَعُ

(١) هذا البيت ساقط من المطبوعة.

ولا أنتَ ذا مـــالٍ يَجودُ بمـالِهِ فعَوْدُ خلالٍ من إخـائك أَنْفَعُ

قال بعضُ السلف: إذا ولى أخوك ولايةً فثَبَتَ على نصف مودتك فكثير. وحدثنا محمد بن القاسم القرشى، عن الربيع بن سليمان، عن الإمام الشافعى رحمه الله، أنه آخى رجلاً ببغداد، ثم أنّ أخاه ولى السيبين، فتغيَّر للشافعى كما كان يعهده منه، فكتب إليه الشافعى رضى الله عنه هذه الأبيات:

اذهب فوُدُّك من ودِادىَ طالقٌ منّى وليـس طلاقَ ذاتِ البين

فإنِ ارعويتَ فإنّها تطليقـةٌ ويدوم وُدُّك لى على ثنتينِ

وإذا امتنعتَ شَفعتُها بمِثالها فتكون تطليقتيـن فى حَيْضَينِ

فإذا الثلاثُ أتتك منِّى بتَّةً لم تُغن عنك ولايةُ السيبينِ

فذُكر هذا الكلام لبعض الفقهاء فاستحسنه وقال: هذا الطلاق فقهى، إلا أنه طلق قبل النكاح.

وقد كان الشافعى آخى محمد بن عبد الحكم المصرى، وكان يحبه ويقربه، ويقول: ما يقيمنى بمصر غيره. واعتلَّ محمدٌ فعاده الشافعى، فحدثنى القرشى عن الربيع قال: سمعتُ الشافعى ينشدُ وقد عاد محمّدًا:

مَرِضَ الحبيـبُ فعـــدتُّهُ فمَرِضتُ من حَذَرِى عليهِ

وأتى الحبيـبُ يَعـودُنى فبَرِأتُ من نَظَرِى إليـــهِ

وما شكَّ أهلُ مصرَ أنّ الشافعى يفوِّض أمر حلقته إليه، وأنه يستخلفه بعد موته ويأمر الناس بالحضور عنده، حتى سُئل عن ذلك فى علته فقيل له: يا أبا عبد الله، إلى من نجلس بعدك؟ ومن يكون صاحب الحلقة؟[١] وهم يظنون أنه يشير إلى محمد بن عبد الحكم، فاستشرف لذلك محمد وتطاول لها، وكان جالسًا عند رأسه[٢]، فقال: سبحان الله، أيشكُّ فى هذا أبو يعقوب البُويطى؟! فانكسر لها

(١) عبارة الأصول: «وكلنا إلى من نختلف بعدك».

(٢) العبارة فى الأصول: «فاستشرف له محمد، وكان عند رأسه ليومئ إليه».

محمد، ووَجَد فى نفسه[١]، ومال أصحابُه إلى أبى يعقوب البويطى، وقد كان محمد حمل علم الشافعى ومذهبه وفارق مذهبَ مالك، إلاّ أنّ البويطى كان أفضل منه وأدين، وأقرب إلى الزهد والورع، فحمل الشافعى نُصحَه لله تعالى فى الدين والنصيحةَ للمسلمين، ولم يداهن ولا اتبع مرضات الخلق فى ذلك، بأن وجّه الأمر إلى أبى يعقوب وآثره، لأنه كان أحق به وأولى.

فلما قُبض الشافعى رضى الله عنه انقلب محمد بن عبد الحكم عنه ورجع عن مذهبه، وفارق أصحابه ورجع إلى مذهب مالك، وروى كتب أبيه عن مالك، وتفقه فيها. فهو اليوم من كبار أصحاب مالك رضى الله عنه.

وأخمل البويطى رحمه الله نفسه واعتزل عن الناس بالبويطة من سواد مصر، وصنّف كتاب الأم، الذى ينسب الآن إلى الربيع بن سليمان ويُعرف به، وإنما هو جمع البويطى لم يذكر نفسه فيه، وأخرجه إلى الربيع فزاد فيه، وأظهره وسُمع منه[٢].

وقد كان البويطى حُمل فى المحلة ورُفع من مصر إلى السلطان، وحُبس فى شأن القرآن. فحُدثنا عن الربيع قال: كتب إلىَّ البويطى من السجن يحثنى على المجالس، ويأمرنى بالمواظبة على العلم والرفق بالمتعلمين والإقبال عليهم، وأن أتواضع لهم وقال: كثيرًا ما كنتُ أسمع الشافعى رضى الله عنه يقول:

أهينُ لهم نَفْسِى لكى يُكْرِمُونها ... ولن تُكرَم النّفْسُ التى لا تُهِينُها

وأوصى بعضُ السلف ابنه فقال: يا بنى، لا تصحب من الناس إلاّ مَن إنْ افتقرت قَرُب منك، وإذا استَغْنَيت لم يطمع فيك، وإنْ علَت مرتبته لم يرتفع عليك، وإنْ تذلّلت له صانك، وإن احتجت إليه مانك، وإن اجتمعت معه زانك، فإن لم تجد هذا فلا تصحبنَّ أحدًا.

---

(١) «ووجد فى نفسه» ليست فى المخطوطات.

(٢) نسب أبو طالب هنا كتاب الأم إلى الإمام البويطى، وهذا ليس صحيحًا، بل هو كتاب الشافعى رواه عنه الربيع بن سليمان، وهذه مسألة قد فرغ منها قديمًا الشيخ أحمد محمد شاكر ـ رحمه الله ـ فى مقدمة تحقيق «الرسالة» للشافعى، ص ٩ ـ ١٠، دار التراث بالقاهرة ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.

ومن حق الأخوّة فى الله عز وجل ما نُقل إلينا من سيرة السلف قال: كان الرجل يجئ إلى منزل أخيه من حيث لا يعلم، فيقول لأهله: هل عندكم دقيق؟ ألكم زيت؟ تحتاجون إلى كذا؟ فإن قالوا: ليس عندنا، اشترى لهم مصالحهم. قال: ولم يكن الأخ يفرق بين عياله وعيال أخيه، يقاسمهم المؤونة. قال: ويلقى أخاه فلا يعلمه بشىء من ذلك.

وأما سعيد بن أبى عروبة، فكان يعلّق كل ثوب عنده على الحبل، ويُظهر كل صنفٍ من طعام فيصفه، وربما اشترى المسلوخ فيعلِّقه، ويفتح بابه، ويدخل عليه إخوانه فى الله عز وجل، فكان من أراد طعامًا أكل، ومن اشتهى لحمًا قطع وشوى أو طبخ، ومن احتاج إلى ثوب لبس، من غير إذن ولا مؤامرة. قد عرفوا ذلك من أخلاقه، وكان مثله جماعة متخلِّقين بهذه الأخلاق.

وقد جعل اللهُ تبارك وتعالى الألفة بين المؤمنين من آياته، وتمدَّح بوصفها إلى الرسول ﷺ، ولم يجعل لأحدٍ فيها صنعًا حتى حبيبه، فقال عز وجل: **﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِى الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾** [الأنفال:٦٣]. أى عزيزٌ: لا يؤلِّف غيره ما فرَّق، ولا يفرِّق سواه ما ألَّف، حكيمٌ: تفرّد بالحُكم فى التأليف، كما توحّد بالتوحيد بالتعريف. ومعنى آخر: عزيزٌ: عزّز الأُلفةَ وعظّمها عندَ المؤمنين، حكيم: جعلها فى الحكمة مع الحكماء من الصالحين.

ونظر أبو الدرداء إلى ثورين يحرثان فى فدان، فوقف أحدهما يحك جسده فوقف الآخر، فبكى أبو الدرداء وقال: هكذا الأخوان فى الله عز وجل، يعملان لله تبارك وتعالى، ويتعاونان على أمر الله، فإذا وقف إحدهما وقف الآخر لوقوفه. وكان أكثر عبادة أبى الدرداء التفكُّر، وكان يقول: إنى لأدعو لأربعين[1] من إخوانى فى سجودى أسميهم بأسمائهم.

وقد جاء فى الحديث: «دعاءُ الأخِ لأخيهِ بالغَيْبِ لا يُرَدُّ»، ويقول الملك: ولك

(١) فى الأصول: «لسبعين».

مِثلُ هذا». وفى لفظ آخر: «يقول الله تبارك وتعالى: بِكَ أبداً». والحديث المشهور: «يُستجاب للمرءِ فى أخيه ما لا يستجاب له فى نفسه».

فمن واجب الأخوة تخصيصُه، وإفرادُه بالدعاء، والاستغفارُ له فى الغيب، فلو لم يكن من بركة الأخوة إلا هذا كان كثيراً. وكان محمد بن يوسف الأصبهانى يقول: وأين مَثَلُ الأخ الصالح، أهلك يقتسمون ميراثك ويتنعَّمون بما خلَّفت، وهو منفرد بحسرتك، مهتمٌ بما قدّمت، يدعو لك فى ظُلمة الليل وأنت تحت أطباق الثرى، فقد أشبه الأخُ الصالحُ الملائكةَ؛ لأنه جاء فى الخبر: «إذا مات العبدُ قال الناس: ما خلَّف؟ وقالت الملائكة: ما قدَّم؟». يفرحون بما قدّم من خيرٍ ويشفقون عليه.

وقال بعض العلماء: لو لم يكن فى اتخاذ الإخوان إلاّ أنّ أحدهم يبلغه موت أخيه، فيترحَّم عليه ويدعو له، فلعله يغفر له بحُسن نيته له. ويقال: مَنْ بلغه موت أخيه، فترحم عليه واستغفر له، كأنه شهد جنازته وصلى عليه.

وقد روينا عن رسول الله ﷺ: «مَثَلُ الميتِ فى قبره مثلُ الغريق يتعلق بكل شىء، ينتظر دعوةً من ولَد أو والد أو أخ، وإنه ليدخل على قبور الأموات من دعاءِ الأحياءِ من الأنوار أمثال الجبال». ويقال: الدعاء للأموات بمنزلة الهدايا للأحياء فى الدنيا. قال: فيدخل الملَكُ على الميتِ معه طبق من نور، عليه منديل من نور، فيقول: هذه هديةٌ من عند أخيك فلان، من عند قرينك فلان، قال: فيفرح بذلك، كما يفرح الحى بالهدية.

فقد كان الإخوان يوصون إخوانهم بعدهم بدوام الدعاء لهم، ويرغبون فى ذلك، لحسن يقينهم وصدق نياتهم.

وإن أعظم الحسرة مَن خرج من الدنيا ولم يؤاخ أخًا فى الله عز وجل، فيدرك بذلك فضائل المؤاخاة، وينال به منازل المحبين عند الله تعالى. ومن أشدّ الناس وحشة فى الدنيا من لم يكن له خليل يأنس به، وصديق صدقٍ يسكن إليه. كما قال علىٌّ عليه السلام: وغريبٌ من لم يكن له حبيب، ولا يوحشنَّك من صديق

سوءُ ظن. وأنشد بعض الشيوخ لبعضهم:

وليس غريبًا مَن تناءَت دِيارُهُ ولكن مَن يُجْفَى فَذَاك غَريبُ
ومَن كان ذا عهدٍ قديمٍ وذا وفا فلو جاوزَ السَّدَّين فَهْوَ قَرِيبُ

وقيل لسفيان الثورى: بمَن تأنس؟ فقال: بقيس بن الربيع، وما رأيته منذ سنتين.

وكان بعضهم يقول: أنا بمودّة مَن غاب عنّى مِن بعض إخوانى أوثق منى بمودة من يغدو علىَّ ويروح فى كل يوم مرتين. وقال محمد بن داود: قربُ القلوب على بعد المزار خيرٌ من قرب الديار من الديار.

وليتقِ أنْ يعاشر أخاه بخمس خصال، فليست من الأدب ولا المروءة، أولها: أنْ يلزمه بما يكره مما يشقّ عليه. والثانية: أنْ يسمع فيه بلاغةً، ويصدِّق عليه مقالة. والثالثة: أنْ يكثر مسألته من أين تجىء وإلى أين تذهب، وأن يتجسس عليه، ويتحسَّس عنه، والفرق بينهما أن التجسس يكون فى قَفْو الآثار، والتحسس يكون فى تطلُّع الأخبار.

فقد روينا كراهة هذه الخمس فى سيرة السلف.

وقال محمد بن سيرين: لا تلزم أخاك بما يشق عليه. وقال مجاهد: إذا رأيت أخاك فى طريق فلا تسأله من أين جئت ولا أين تذهب، فلعله أن يَصدُقك فى ذلك أو يكذبك، فتكون قد حملته على الكذب. وروينا أنّ حكيمًا جاء إلى حكيم فقال: جئتك خاطبًا إليك مودتك، فقال: إنْ جعلتَ مهرها ثلاثًا فعلتُ. قال: وما هنَّ؟ قال: لا تخالفنى فى أمرٍ، ولا تقبل علىَّ بلاغة، ولا تعطينَّ فىَّ رشوة. فقال: قد فعلتُ. قال: قد آخيتك.

وأما التجسس والتحسس فقد نهى الله ورسوله عنهما، وجعلهما رسول الله ﷺ من شرطِ الأخوة مع تَرْكِ التدابر والتقاطع. فقد روينا فى الخبر السائر: «لا تجسسوا ولا تحسسوا، ولا تقاطعوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا». المقاطعةُ فى الشهادة أنْ تقطع مواصلته، وتنحرف عن جريان عادته، والتّدابر فى الغيب

مأخوذٌ منه إذا ولاَّك الدُّبر، أى لا تدابره إلا بما يحب، كما تكون له فى المقابلة. كما أُخذت الغَيبة من الغيب، أى لا تُخلفه فى غيبه بما يكره. وقد كان الإخوان يتبايتون على العلوم والأعمال، وعلى التلاوة والأذكار، وبهذه المعانى تحسن الصحبة، وتحق المحبة. وكانوا يجدون من المزيد من ذلك، والنفع به فى العاجل والآجل، ما لا يجدونه فى التخلِّى والانفراد، من تحسين الأخلاق، وتلقيح العقول، ومذاكرة العلوم، وهذا لا يصح إلاّ لأهله، وهم أهلُ سلامة الصدور والرضا بالميسور، مع وجود الرحمة، وفقد الحسد، ووَجْدِ التناصر، وعدم التظاهر، وسقوط التكلُّف، ودوام التألُّف. فإذا عُدمت هذه الخصال ففى وجود أضدادها تقل المباينة. وقد قيل: مَن سقطت كُلفته دامت صحبته وأُلفته، ومن قلَّت مؤونته دامت مودته.

وقال علىٌّ عليه السلام: شرُّ الأصدقاء من تُكلِّف له. وقال يونس النبى عليه السلام لما زاره إخوانه، فقدَّم إليهم خبز شعيرٍ وجزَّ لهم من بقلٍ كان زرعه، وقال: لولا أنّ الله تبارك وتعالى لعن المتكلفين لتكلَّفتُ لكم.

وروينا عن نبينا ﷺ: «أنا والأتقياءُ من أمّتى برآءُ من التكلّف».

فجملةُ التكلّف هو عمل ما لا نية للعبد فيه، ودخول العبد فيما لا يعنيه، وتعاطيه ما قد كُفيه، ومع وجود الحسد وكُمون الغِلّ، وهو بثبوت الحقد تكون المباينة، وفى التطاول والتظاهر تقع المجانَبَة، ومع الخُبثِ والمكر تكون المنافرة، وهذا كله يُذهب الألفة، ويُنقص المحبة، ويُبطل فضيلة الأخوة.

وقال بعض أهل البيت: أثقلُ إخوانى علىَّ مَن أحتشمه ويحتشمنى. وقال بعض السلف: كانوا لا يغتنمون ولا يحتشمون. وسئل الحسن عن الصديق الذى يحلّ أكلَ مالِه بغير إذنٍ منه، فقال: من استراحت إليه النفس، وسكن إليه القلب، فإذا كان كذلك فلا إذن له فى ماله. وسئل ذو النون عن الأنس، فقال: أنْ تأنس بكل وجهٍ صبيحٍ، وكلّ صوت فصيحٍ، والله تبارك وتعالى فيما بينك وبين ذلك.

وإذا علمتَ أنّ أخاك يُسَرُّ بأخذِك من رَحْلِه وملكه، أو علمتَ أنه لا يكره ذلك

إن فعلته، حلّ لك أن تأخذ، وإن كان لم يأذن لك؛ لأن علمك يقوم مقام إذنه، وعلامةُ هذا منك انشراحُ صدرك بذلك، وخِفته على قلبك، فذلك دليلٌ على سروره به.

وعلى قياسه مَن علمت من الناس أنه يكره تناولك من ماله شيئًا، أو عرفته ببخلٍ وضَنًّا بما فى يديه، فإنى أكره لك أن تأكل من ماله شيئًا، وإن أذن لك بعد أن تعلم أنّ الأحب إليه أن لا تأخذ، ففى الورع وإن أعطاك أنْ لا تقبل، فإنَّ بذلَه مع علمك بأمره لغوٌ لا حقيقة له، ودليل ذلك ضيق صدرك به، ووجودُ الحِشمة والوَحْشة فى القلب، فقد جاء فى الأثر: «الإثم حَزَّاز فى القلب»، وجاء: «الإثم ما حاك فى صدرك، والبرُّ حُسنُ الخُلق، والبر ما سكنت إليه النفس واطمأن به القلب»، فقد جاءت هذه الألفاظ فى أحاديث متفرقة، وعلى ما ذكرناه أنّ رسول الله ﷺ أكل من لحم بريرة تُصدِّق به عليها، وكانت غائبة، لما علم أنه يسرُّها، فلم ينتظر إذنها، فعلى ضد ذلك فى القياس ما ذكرناه.

ونظر هاشمُ الأوقص إلى الحسن وهو يأكل من جَوْنٍ لبقال، من هذه بُسرة ومن هذه تينة، فقال له: يا أبا سعيد، تأكل من مال الرجل بغير إذنه، فقال: يا لكع، اتلُ عليَّ آية الأكل، ثم قرأ الحسن: ﴿وَلاَ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُم﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ [النور: ٦١].

وقد كان أصحاب محمد بن واسع، وفرقد السنجى، يدخلون منزله فيأكلون من غير أن يؤذن لهم، ويقول: ذكَّرتمونى أخلاقَ قومٍ مضَوا، هكذا كنا.

قال: وكنا ندخل على أبى سليمان الدارانى، فيقدم إلينا الطيبات ولا يأكل معنا، ويقول: إنما خبأته لكم. فقلنا: تطعمنا الشهوات ولا تأكلها؟ فقال: لا آكلها لأنى قد تركت أكلها، وأقدمها إليكم لأنى أعلم أنكم تشتهونها.

وقال: كنا نبايت إبراهيم بن أدهم فى المصِيصة وفى قرى السواحل، فكان يكسر لنا الصنوبر والبندق واللوز ليله أجمع، ويقول: كُلُوا. فقلنا: لو أقبلتَ على صلاتك وتركتَ هذا. فيقول: هذا أفضل.

وكان بعض الناس يفجؤه الضيفُ، فلا يكون عنده ما يقدمه إليه، فيذهب إلى منزل أخيه، فيأخذ خبزًا وقِدرًا قد كان طبخها، فيحمله إلى ضيفه، فليقاه أخوه بعد ذلك فيستحسنه منه، ويأمره بفعل مثل ذلك فى كل نائبة.

وقال بعضُ العلماء: إذا عمل الرجلُ فى منزل أخيه أربع خصالٍ فقد تمَّ أنسه به: إذا أكلَ عنده، ودخل الخلاءَ، ونام، وصلى. فذكرتُ هذه الحكاية لبعض أشياخنا فقال: صدق، بقيت خصلة. قلت: ما هى؟ قال: وجَامَعَ. فإذا فعل هذا فقد تمَّ أُنسه به. لأنّ هذه الخمس لأجلها تُتخذ البيوت، ويقع الاستخفاءُ، لما فيها من التبذُّل والعورة، ولولاها كانت بيوتُ الله سبحانه أروح وأطيب، ففى الأنس بالأخ وارتفاع الحشمة من هذه الخمس، مثال حال الأنس فى الوحدة بالنفس من غير عيب من عائب، ولا ضد، لكن من اتفاق جنس، وهذا لعمرى نهاية الأنس ذاتًا. فأما الخامسة، وهو قول شيخنا: «وجامع»، فعلى ذلك يصلح أن يستدل له بقول العرب فى تسليمهم وترحيبهم: مرحبًا وأهلاً وسهلاً، أى لك عندنا مرحب، وهو السّعة فى القلب والمكان، ولك عندنا أهلٌ تأنس بهم بلا وحشةٍ منا، وسهلاً، أى لك عندنا سَهُولة، ذلك يسهل علينا ولا يشتد، فهو سهولة اللقاء، وسهولته من الأخلاق فى الالتقاء.

واعلم أن للناس فى التعارف سبع مقاماتٍ بعضها فوق بعض:

فأول ذلك المعرفة عن الرؤية أو السمع فقط، فلهذا حرمة الإسلام وحق العامة.

ثم المجاورة، وله حق الجوار، وهو ثانى حقوق الإسلام، وهذا هو الجار الجنب.

ثم المرافقة فى طريق أو سفرٍ، وهذا هو الصاحب بالجَنْب فى أحد الوجهين من الآية، فلهذا ثلاثةُ حُقوق لأنه قد جمع حرمة الإسلام وحرمة الجوار، وزاد عليها بأنه ابن سبيل.

ثم الصحبة، وهى الملازمةُ والاتباع، فهذا فوق ذلك.

ثم الصداقة، وهى حقيقة الأخوة، ومعها تكون المعاشرة، وهو اسم تكون معه المخالطة، وتوجد فيه المؤانسة، وهو يحكم بالمزاورة والمبايتة والمؤاكلة، وهذا حقيقة

العشرة، فالمعاشرة مأخوذة من العشير، وهو الخليطُ المقارب، ولذلك سُمِّى الزوج عشيرًا فى قول النبى ﷺ: «ويَكْفُرنَ العَشير»، وقد قال الله عز وجلّ فى تسمية المعاشر وفى قربه: ﴿لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ [الحج:١٣]. يعنى: ابن العم المختلط به، فقيل منه: معاشرة، على زنة مفاعلة؛ لأنه شىء يقع بين اثنين لا محالة، كان كل واحدٍ قد فعل مثله، أى يفعل هذا مثل ما يفعل هذا، مثل المضاربة والمقاتلة والمشاتمة، إذا فعل كلٌّ واحد بصاحبه كفعله به.

ثم الأخوة فوق الصداقة، وهذا لا يكاد يكون إلاّ بين النّظراء فى الحال، والمتقاربين فى الحسن، والمعانى بأن يوجد فى أحدهما من القلب والهمَّة والعلم والخُلُق ما يوجد فى الآخر وإنْ تفاوتا، كما قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ [الإسراء:٢٧]، وليسوا من جِنسهم، ولا على وصفهم فى الخِلقة، ولكن لما تَشَابهت قُلوبهم وأحوالهم آخى بينهم، فهذه أخوةُ الحالِ، وهى حقيقةُ الصداقة.

ثم المحبة: وهى خاصيةُ الأخوة، وهذا يجعله الله تبارك وتعالى من الأُلفة، ويُوجده من الأنس فى القلوب، يتولاَّه بصُنعه ولا يولِّيه غيره، وهذا ارتياحُ القلوب، وانشراح الصدور، ووَجْد السرور، وفَقْد الوحشة، وزوال الحشمة.

ثم الخليلُ: وهذا فوق الحبيب، ولا يكون هذا إلاّ فى عاقِلين عالمين عارفين على معيار واحد، وطريقٍ واحد، وهذا أعز موجودٍ، وأغرب معهود، والخُلَّة مأخوذة من تخلّل الأسرار، ومعها تكون حقيقة الحبّ والإيثار، فكل خليلٍ حبيبٌ، وليس كلُّ حبيبٍ خليلاً، لأن الخُلّة تحتاج إلى فضل عقل، ومزيد علمٍ، وقوةِ تمكينٍ، وقد لا يوجد ذلك فى كل محبوب، فلذلك عزَّ طلبُه، وجلَّ وصْفُه، وقد رفع الله عز وجل نبيه محمدًا ﷺ فى مقام المحبة، فأعطاه الخلة ليُلْحِقَه بمقام أبيه إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فكانت الخُلّةُ مزيد المحبة، ومنه ما روى عن النبى ﷺ: «لو كنت متخذًا من الخَلْقِ خَليلاً لاتخذتُ أبا بكرٍ خليلاً، ولكن صاحبكم خليلُ الله عز وجل»، فلما اتخذه خليلاً، لم يصلح أنْ يشرك فى خلّة

الخالق خَلَّه الخلق، ثم قال: «ولكن أخوّة الإسلام»، فأوقفه مع الأخوة؛ لأن فيها مشاركة فى الحال، كما فعل بعلىٍّ عليه السلام، فقال[1]: «علىٌّ منى بمنزلة هارون من موسى إلاّ النبوة»، فأقامه مقام الإخاء، وعدل به عن النبوة، كما عدل بأبى بكر عن الخَلة، فشارك أبو بكر عليًا فى الأخوّة، وزاد بمقاربة الخَلة، لأنه عرّض بها وأهَّل لها، إلا أن غيرة الله تعالى على خليله منعته من الشرك بخلقه فى خَلته، إيثارًا للتوحيد، وقيام شاهد الوحدانية بمعنى مقتضى صفة الربوبية.

وفى الحديث الآخر أنّ النبى ﷺ صعد المنبر فرحًا مستبشرًا فقال: «ألاَ إن الله تبارك وتعالى قد اتخذنى خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً، فأنا حبيبُ الله عز وجل، وأنا خليلُ الله».

وليس قبل المعرفة اسم يوجب حكمًا إلاّ ظاهر الإسلام، ولا بعد الخليل وصفٌ يعرف إلاّ نعت محبٍّ، ثم تتزايد الحرمات فى الأُخوَّات ما بين المعرفة والخَلة، وتعظم الحقوق بطول الصحبة، وجميل العشرة، ويقال: صحبةُ سنةٍ أُخوَّة، ومعرفة عشر سنين قَرابة.

وقد ضمّ اللهُ عز وجلّ الصديق إلى الأهل ووصله بهم، ثم رفع الأخ وقدّمه على الصديق، وهو قوله عز وجل: ﴿أَو مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ﴾ [النور: ٦١]. كان الأخ يدفع مفاتح خزائنه إلى أخيه، ويتصرف فى الحضر، ويتقلّب فى السفر، ويقول لأخيه: حُكمك فيما أملك كحكمى، ومِلْكى له كمِلْكك، فكان أخوه يتضايق، ويتحرَّج، فيقتِّر على نفسه لأجل غيبة أخيه، ويقول: لو كان حاضرًا لاتّسعتُ وأكلتُ رَغَدًا، للورع الذى فيه، والنصح والإيثار لأخيه.

فرحم الله عز وجل تضايقهم، وشكَرَ تورُّعهم، فأطلق لهم الإذن، ووسَّع عليهم فى الأكل، فقال عز وجل: ﴿ولاَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ أى: لا إثم ولا ضيق ﴿أَنْ تَأْكُلُوا من بُيُوتِكُم أَوْ بُيوتِ آبَائِكم﴾ ثم نسَّق الأقارب على ترتيب الأحكام، وضم إليهم الأخ لما وصفه بتمليكه مفاتحه أخاه، فأقام ذلك مقام مِلْك أخيه؛ لأنه

(١) من هنا إلى آخر الفقرة أثبته من النسخ المخطوطة، وهو ساقط من المطبوعة.

أقام أخاه مقامه، فقال تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ﴾ ثم أخَّر الصديق بعده، إذ لم يكن بحقيقة وصفه، ثم قال عز وجل: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا﴾ بحضرة الإخوان ﴿أَوْ أَشْتَاتًا﴾ [النور:٦١] فى حال تفرقهم، فسوَّى بين غيبتهم وشهودهم، لتسوية إخوانهم بينهم وبين أملاكهم، واستواء قلوبهم مع ألسنتهم فى البذل والمحبة، لتناول المبذول، وهذا تحقيق وصفه عز وجل لهم فى قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُم ومِمَّا رَزَقْنَاهُم يُنفِقُونَ﴾ [الشورى:٣٨] أى: هم فى الأمر والإنفاق سواء.

وكان ابن المعتز مؤاخيًا لثعلب، خليطًا له فى العشرة، وكان يدفع إليه أشعاره يثقِّفها ويحررها له، إلى أن حُبس ومُنع من الدخول إليه، فكانت بينهما مكاتبة، فمما أعجبنى من مكاتبته من شعره:

ما وَجدُ صادٍ فى الحبالِ مُوثَقِ
بمـــــاءِ مُزنٍ باردٍ مُصَفَّـق
فى صخـرةٍ إن تر شمسًا تَبْرُقِ
فَهـو عليهـا كالزجـاج الأزرق
إلاّ كوَجـــدى بك لكن أتّقى
إنَّا عــلى البِعَـــاد والتفـرُّق
لنلتـقى بالذِّكــر إنْ لـم نَلتَـقى(١)

وقال بعضُ الأدباء: إذا ائتلف الإخوان جماعة، ثم اجتمع بعضهم على لذة وفُقد البعض، نقص من اللذة بمقدار مَن نَقَص منهم، وهذا يكون بوجود الأنس بهم ومواصلة الذكر.

وروينا أنّ مالك بن دينار ومحمد بن واسع دخلا منزل الحسن، وكان غائبًا، فأخرج محمد بن واسع سلة فيها طعام من تحت السرير فجعل يأكل، فقال له

(١) هذه الفقرة ساقطة من المطبوعة، ومختصرة فى (م، هـ) فأثبتها من (د). والأبيات لابن المعتز فى ديوانه ١/٥٠١ ـ ٥٠٢، وتقع فى ثلاثة عشر بيتًا.

مالك: كفَّ يدك حتى يجيء صاحب البيت، فلم يلتفت محمد إلى قوله، وأقبل على الأكل، وكان أبسط منه، وأحسن خُلُقًا[١]، فدخل الحسن فقال: يا مُويلك هكذا كنّا لا يحتشم بعضنا من بعض.

واعلم أنه ليس بين الأخوين والصاحبين رياء فى أعمالهما، وإنْ تراءى برأى العين أعمالهم لهم ثواب السرّ والخَلْوة، لأنهما كالأهل فى الحضر، وكالصحابة فى السفر، وليس بين الرجل وأهل بيته ولا بين المسافر ورفقائه رياء ولا سمعة، ولا عليه منهم اختفاء ولا خلوة، فإن صحبه أخوه هذا فى سفرٍ كانت حرمته عليه ألزم، وحقّه أوجب، فينبغى أن لا يخالفه ولا يعترض عليه، إنْ أحب النزول فى منزل لم يكره أخوه ذلك، وإن اختار أحدُهما الرحيل لم يحب الآخر المقام، وإن سار أحدهما لم يقف صاحبه، وإن استراح الآخرُ وقف له رفيقه، وإن اشترى شيئًا لم ينهه عنه، ولا يستأثر بمطعوم ولا مشروب عليه، بل يؤثره بذينك.

وفى الخبر: «ما اصطحب اثنان قط إلاّ كان أحبهما إلى الله عز وجل أرفقهما بصاحبه». وروينا أيضًا عن رسول الله ﷺ أنه دخل غَيضة[٢] مع بعض أصحابه، فاجتنى منها سواكين من أراك، أحدهما مِعْوجٌّ، والآخر مستقيم، فحبس المعوج لنفسه، ودفع المستقيم إلى صاحبه، فقال: يا رسول الله، أنتَ كنتَ أحق بالمستقيم، فقال: «ما من صاحبٍ يصحب صاحبًا ولو ساعة من نهار، إلا سأله الله عن صحبته، هل أقام فيه حق الله تعالى أو أضاعه؟».

ومن كان ناظرًا فى أُخوّة أخيه، أو فى صحبته إلى كثرة أعماله، أو واقفًا مع أكمل أحواله، دلَّ على جَهْلِه بهذا الطريق الذى ينفذ إلى التحقيق، لأنها تحول، وإنّما المعوَّل على حقائق القلوب، وسلامة العقول؛ لأن إليها الأمرَ مردودٌ، فإن اقترن إلى جهله نقصُ معرفة الآخر، دلّ عليه التزين له، والتصنُّع عنده، لتعلو منزلته، ويحسن عنده أثره، فيدخله ذلك فى الشرك، ويخرجه الشرك عن حقيقة التوحيد، فتزلَّ قَدمٌ بعد ثُبوتها، ويسقط من عين مولاه، فلا يتولاّه، لأنّ النفس

(١) من قوله: «فقال له مالك» إلى هنا من الأصول المخطوطة وهو ساقط من المطبوعة.
(٢) الغيضة: الموضع يكثر فيه الشجر.

مبتلاةٌ بحب الثناء والمدح، وإثبات المنزلة بإظهار الوصف، فيكون هذا الصاحبُ حينئذ من أشأم الناس عليه وأضرِّهم له، ويصير أحدهما بلاءً على صاحبه، فليفارقه حينئذ؛ لأنه جاهل ولا يصحبه، فإنه يجد النقصان، وتدخل عليه الآفات بمقارنته، فلينفرد بنفسه، فيصدق فى حاله عاليةً كانت أو دنيئةً، وضيعةً كانت أم رفيعةً، من غير مقارنة أحدٍ، ولا مباينة، فهو خيرٌ له وأحمدُ عاقبةً.

وهذا بابٌ لطيف قد هلك فيه خلقٌ كثير على ضربين: منهم مَن صاحب وآخى وبايت على هذه العلل فساكنها، ومع هذه الآفات فقارنها، لضعف يقينه، وقوة هواه، وكِبَر الناسِ فى عينه، وعِظَم قدر الدنيا مما يناله منهم فى قلبه، فهلك بالتزيُّن والتصنُّع، وأهْلَك أخاه بنحو ذلك.

والضرب الثانى: من المتعبدين المعروفين بالستر والصلاح، خافوا ولم يحبوا أن يظهروا على حالهم كراهةَ الذمّ، وخيفة النقص لهم، فلم يحبوا أن يختبروا بالمباينة، ولا ينكشفوا فى المصاحبة، ولا تعرف أحوالهم بطُول الممارسة، وأحبوا مع ذلك أن يشار إليهم من بعيد، ويتوهّم فيهم العبادة من غير طول ملاقاة، فأظهروا التفرُّد والعُزلة، وتركوا المباينة والصحبة، وأنكروا هذا وعابوه، يريدون أن يَبينوا بذلك عن نُظرائهم، وينفردوا به عن جملة الخلق بدعوى الحال، ليختصوا بغُربتها عندهم من غير حال، ولا انقطاع إلى الله سبحانه، ولا اشتغال، ولقلة معرفة العامة بأحوال الصادقين. فهلك هؤلاء أيضًا بالمباينة، وغربة الحال، وترك السنة من إجابة الدعوى، ومخالطة الأمة كِبرًا وتطاولاً على العامة، وتَمْويهًا منهم على من لا يعرف سيرة الأمة، وأوهم بذلك أنه مشغولٌ عنهم بسُلوك الطريق، لعلمه أنهم لا يعرفون محجة التحقيق، ولعله مشغولٌ بهم، وأنهم وساوس قلبه، وهو فى ذلك مُنكشف للصادقين، ظاهرٌ جليٌّ للعارفين.

وقد جاء فى مخالطة المسلمين، وفى الأكل مع الإخوان، والاختلاط بالعامة، والمشى فى الأسواق، واشتراء الحوائج، وحملها للتواضع ما يكثُر رسمُه، ويطول وصفه، وكذلك كان سيرةُ الصحابة، وشيمة التابعين بإحسان، منهم: عمر رضى الله عنه، كان يحمل القربة على ظهره لأهله، وعلىٌّ رضى الله عنه كان يحمل

التّمر والمالح فى ثوبه ويده، ويقول:

لا ينقص الكاملَ من كماله ... مــا جرَّ من نفعٍ إلى عيـالهِ

ومنهم: أُبىٌّ، وابن مسعود، وحذيفة، وأبو هريرة، كانوا يحملون حزم الحطب وجُرَب الدقيق على أكتافهم وظهورهم. وسيدُ المرسلين وإمام المتقين، ورسول رب العالمين، محمد ﷺ: كان يشترى الشىء فيحمله بنفسه، فيقول له صاحبه: أَعْطِنى أحمله عنك، فيقول: «صاحِبُ الشىءِ أحقُّ بحَمْله».

وكان الحسن بن على عليهما السلام يمرّ على السؤَّال فى الطريق، وبين أيديهم كِسَرٌ ملقاة فى الأرض، فيسلم عليهم، فيقولون: هلمَّ الغداء يا ابن بنت رسول الله فيثنى رجله عن بغلته وينزل، فيقعد معهم على الأرض ويأكل، ثم يركب ويقول: إن الله تبارك وتعالى لا يحب المستكبرين، ثم يدعوهم بعد ذلك إلى منزله، فيقول للخادم: هلُمِّى ما كنتِ تدخرين، فيأكلون معه.

وروينا فى الإسرائيليات أن حكيمًا من الحكماء صنف ثلاثمائة وستين مصنفًا فى الحكمة، حتى ظنّ أنه نال منزلة عند الله تعالى، فأوحى الله إلى نبيه: قل لفلان: إنك قد ملأت الأرض نفاقًا، وإنّى لا أقبل من نفاقك شيئًا، قال: فتخلَّى وانفرد فى سِرب تحت الأرض، وقال: قد بلغتُ محبة ربى. فأوحى الله عز وجل إلى النبى: قل له: إنك لم تبلغ رضاى. قال: فدخل الأسواق وخالط العامة وجالسهم، وأكل الطعام بينهم ومشى فى الأسواق معهم، فأوحى الله تبارك وتعالى الآن حين بلغتَ رضاى.

فلو أيقن اليائسُ المتصنعُ للخلق، الأسيرُ فى أيديهم، الرهينُ لنظرهم، أنّ الخلق لا ينقصون من رِزق، ولا يزيدون فى عمر، ولا يرفعون عند الله، ولا يضعون لديه، وأن هذا كله بيد الله عز وجل لا يملكه سواه، ولو سمع خطابَ المولى لاستراح من جَهد البلاء، إذ يقول الله عز وجل: **﴿إِنَّ الَّذينَ تَعْبُدُونَ منْ دُونِ الله لا يَمْلكُونَ لَكُم رزقًا فابْتَغُوا عندَ الله الرِّزْقَ واعبُدُوهُ﴾** [العنكبوت:١٧]، مع قوله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذينَ تَدْعُونَ منْ دُونِ الله عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾** [الأعراف:١٩٤]. فلو عقل

ذلك لا طَرَّح الخلق عن قلبه اشتغالاً بمقلِّبه، ولأعرض عن الناس بهمِّه؛ نظرًا منه إلى مهمه، وأظهر حاله وكشف أمره، تقويًا بربه وغُنية بعلمه، فلم يبال أن يراه الناسُ على كلِّ حالٍ يراه فيه مولاه، إذ كان لا يعبد إلا إياه، ولا يضره ولا ينفعه سواه، فعمل ما يُصلحه؛ وإن كان عند الناس يضعه، وسعى فيما يحتاج إليه؛ وإن كان عند المولى يزرى عليه، ولكن ضَعُفَ يقينُهُ فقوى إلى الخلق نظرُه، وأحبّ أن يستر عنهم خبره لإثبات المنزلة عندهم، ولاستخراج الجاه لنفسه، فيفخر بالخيلاء والعُجب، فموَّه بحال على مَن لا حال له، ووَهِمَ بمقام عند من ليس له مقام، واعتقدوا فضله بذلك لنقصهم، وتوهموا به علمه لجهلهم، ولو صدقوا الله لكان خيرًا لهم.

حدثونا عن يونس بن عبد الأعلى قال: قال لى الشافعى رضى الله عنه: والله ما أقول لك إلاّ نصحًا، أنه ليس إلى السلامة من الناس سبيل، فانظر ما يصلحك فافعله. وحدثونا عن الثورى قال: رضا الناس غايةٌ لا تُدرَك، فأحمق الناس من طلب من لا يدرك، وقد قال بعض الحكماء فى معناه قولاً منظومًا:

مَن راقب الناسَ ماتَ غمًّا وفـاز باللذة الجسـورُ[1]

ونظر أبو محمد سهل إلى رجل من الفقراء، فقال له: اعمل كذا وكذا، فقال: يا أستاذ لا أقدر على هذا لأجل الناس، فالتفت إلى أصحابه فقال: لا ينال العبدُ حقيقة من هذا الأمر حتى يكون بأحد وصفين: عبدٌ يسقط الناس عن عينه فلا يرى فى الدار إلاّ هو وخالقه، وأنّ أحدًا لا يقدر أن يضره ولا ينفعه. أو عبد أسقط الناسَ عن قلبه، فلا يبالى بأى حال يرونه.

وحدثونا عن إمام الأئمة الحسن بن يسار البصرى رحمه الله أن رجلاً قال له: يا أبا سعيد، إنّ قومًا يحضرون مجلسك ليس بغيتهم الفائدة منك، ولا الأخذ عنك، إنما همهم تتبُّع سَقَط كلامك، وتعنُّتك فى السؤال ليعيبوك بذلك، فتبسَّم الحسن ثم قال: هوِّن عليك يا ابن أخى، فإنى حدَّثت نفسى بسكنى الجنان فطمعت، وحدثت نفسى بمعانقة الحور الحسان فطمعت، وحدثت نفسى بمجاورة الرحمن

(١) البيت لسَلْم الخاسر، انظر: الأغانى ٣/١٠٤٦ (طبعة دار الشعب).

فطمعت. وما حدثت نفسى قط بالسلامة من الناس، لأنى قد علمت أن خالقهم ورازقهم ومحييهم ومميتهم لم يسلم منهم، فكيف أحدِّث نفسى بالسلامة منهم.

وبمعناه ما رُوى عن موسى ﷺ أنه قال: يا رب، احبس عنى ألسنة الناس، فقال الله تبارك وتعالى: يا موسى هذا شىء لم أفعله بنفسى، فكيف أفعله بك؟ وفى لفظ آخر: لو خصصتُ بهذا أحدًا لخصصت به نفسى.

وقد كان أبو الدرداء رضى الله عنه يقول: ما من يوم أصبح فيه حيًّا وأمسى ولا يرمينى فيه الناس بداهية إلاّ عددته نعمة من الله تعالى علىَّ، وأنشد:

وإنّ امرءًا يُمسى ويُصبح سالمًا من النّاسِ إلاّ ما جَنَى لَسَعِيدُ

وأوحى الله عز وجلّ إلى عزيز: إن لم تطب نفسًا بأن أجعلك عَلَكًا فى أفواه الماضغين، لم أكتبك عندى من المتواضعين. ومثله روينا عن عيسى عليه السلام أنه كان يقول: يا معشر الحواريين، إن أردتم أن تكونوا إخوانًا فوطِّنوا نفوسكم عند العداوة والبغضاء من الناس.

وقد جعل الله تبارك وتعالى فى المخالطة للمؤمنين من البركة ما لو لم يجئ فيه إلا الأثر هذا، كان فيه كفاية. روينا أن النبى ﷺ لما طاف بالبيت عَدَل إلى زمزم ليشرب منها، فإذا التمرُ المنقَّع فى الحياض الآدم قد مَغَثه[1] الناس بأيديهم، وهم يتناولون منه يشربون، فاستسقى منه، فقال: اسقونى. فقال العباس: يا رسول الله، إنّ هذا النبيذ شراب قد مُغِث وحِيض بالأيدى، أفلا آتيك أنظف مِن هذا فى جُرٍّ مُخمَّر فى البيت، فقال: لا، اسقونى من هذا الذى يشرب منه الناس ألتمس بركة أيدى المسلمين، فشرب.

وروينا فى خبر آخر قيل: يا رسول الله، الوضوء من جرٍّ مخمَّر أحب إليك، أو من هذه المطاهر التى يتطهر منها الناس؟ فقال: «بل من هذه المطاهر التماس بركة أيدى المسلمين». وروينا فى الخبر: «إذا التقى المسلمان فتصافحا، فتبسم أحدهما إلى صاحبه تحاتَّت ذنوبهما كما يتحاتّ ورقُ الشَّجر». وفى لفظ الحديث

(١) أى دلكوه بأيديهم.

الآخر: «قسمت بينهما مائةَ رحمة؛ تسعةً وتسعون لآنسهما بصاحبه وأحسنهما بِشْرًا». وروينا فى الخبر: «خيرُ الأصحاب عند الله عز وجل أرفقهم بصاحبه، وخيرُ الجيران أرفقهم بجاره».

وإياك أن تصحب جاهلاً فتجهل بصحبته، أو غافلاً عن مولاه متبعًا لهواه، فيصدَّك عن سبيله فتردى، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿فَاسْتَقِيما وَلاَ تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس:٨٩]، فأولُ الاستقامة صحبةُ العلماء بالله عز وجل. وقال تعالى: ﴿وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [الكهف:٢٨]. وقال تعالى: ﴿فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لاَ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾ [طه:١٦]. أى فتكون رديًا. وقيل: فتهلك. وقال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا﴾ [النجم:٢٩]. ففى دليله الإقبالُ بالصحبة على من أقبل إلى ذكره تعالى، والإعراضُ عمَّن أعرض عن وجهه، فلا تصحبنّ إلاّ مُقبلاً عليه، كما قال الله عز وجلّ: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان:١٥].

وإياك أنْ تصحب من الناس خمسة: المبتدع، والفاسق، والجاهل، والحريص على الدنيا، والكثير الغيبة للناس، فإن هؤلاء مفسدةٌ للقلوب، مذهبة للأحوال، مضرةٌ فى الحال والمآل.

وقد كان سفيان الثورى رحمه الله يقول: النظر إلى وجه الأحمق خطيئة مكتوبة. وقال سعيد بن المسيب: لا تنظروا إلى الظَّلَمة فتحبط أعمالكم الصالحة. ولكن قد كان صعصعة بن صوحان يقول: إذا لقيت المؤمن فخَالِطْه مخالطةً، وإذا لقيت المنافق فخَالِفْه مخالفةً. وقد قال أحسنُ الواصفين فى وصف أوليائه المتقين: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾ [الفرقان:٦٣]. أى سلامة، الألف: بدل من الهاء، لازدواج الكلم، والمعنى: أى سَلِمنا من إثمكم، وسَلِمتم من شرِّنا.

وقد كان أبو الدرداء يقول فى زمانه: كان الناس وَرَقًا لا شوك فيه، وهم اليوم شوكٌ لا ورق فيه، إن ناقدتهم ناقدوك، وإن تركتهم لم يتركوك، فأقْرِضهم من عرضك ليوم فقرك. وكان يقول: كلُّ يوم أُصبح لا يرمينى الناس فيه بداهيةٍ أعدُّه

نعمة من الله تعالى عليَّ. وقال حكيم الحكماء ﷺ: «مَن خالط الناس وصبر على أذاهم، أفضل ممن لم يخالطهم ولم يصبر على أذاهم».

وقال العلام ذو الجلال والإكرام: ﴿**أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ**﴾ [القصص:٥٤] أى يدفعون بالكلام الحسن السىء.

وقال عز وجل فى الكلام المفسر: ﴿**ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ يعنى بالكلمة الحسنى ﴿**فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**﴾. ثم قال عز وجلّ: ﴿**وَمَا يُلَقَّاهَا**﴾ يعنى الكلمة ﴿**إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا**﴾ أى على أمر الله تعالى وعلى الغيظ، وعن الغضب ﴿**وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ**﴾ [فصلت:٣٤ - ٣٥] أى من الحلم والعلم. وقيل: ذو حظٍّ عظيم عند الله عز وجل من النصيب والجزاء.

وقد قال لقمانُ الحكيم قولاً متوسطًا: يا بنى، لا تكن حُلوًا فتُبلَع، ولا مُرًّا فتُلفَظ. المعنى: لا تمكِّن الناس من نفسك، ولا تتابعهم فى كلِّ شىء، فلا يبقوا عليك وينبسطوا إليك، ولا تنافرهم وتخالفهم فى كل شىء، فيجانبوك ويرفضوك فيقعوا فيك.

وقال بعض السلف: لا تصحب إلاّ مريدًا، وكل خليل لا يريد ما تريد فانبذ عنك صُحبته. وقال بعض علماء العرب: الصاحبُ كالرقعة فى الثوب، إن لم تكن من جنسه شانته. وقال بعض الحكماء: كل إنسانٍ مع شكله، كما أنّ كل طيرٍ مع جنسه. وقد كان مالك بنُ دينار يقول مثل هذا. وقد لا يتفق اثنان فى عشرةٍ ودوام صحبة إلاّ وفى أحدهما وصفٌ من الآخر. وإن أشكال الناس كأجناس الطير. قال: ورأى يومًا غرابًا مع حمامة، فعجب من ذلك، وقال: كيف اتفقا وليسا من شكل؟! قال: ثم طارا، فإذا هما أعرجان، فقال: من ههنا اتفقا. ويقال: إذا اصطحب اثنان برهةً من الزمان، ولم يتشاكلا فى الحال، فلا بد أن يفترقا.

وقد أنشدنا بعض العرب لبعض الحكماء فى معناه:

وقـائل لـمَّـا تفرَّقْتُمـا　　　فقلتُ قولاً فيه إنصافُ

لم يكُ من شَكْلِي ففارقتُهُ والناسُ أشكَـالٌ وأُلاّفُ

وقد روينا فى حديث: «إن الأرواح جنودٌ مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكَرَ منها اختلف، تلتقى فَتَشَامُّ فى الهَوَاءِ». قيل: معناه فى المذهب والخلق. وفى هذا الخبر زيادة: «ولو أنّ مؤمنًا دخل إلى مجلسٍ فيه مائةُ منافقٍ، وفيه مؤمن واحد، لجاء حتى يجلس إليه. ولو أن منافقًا دخل إلى مجلس فيه مائة مؤمنٍ، وفيه منافق واحد، لجاء حتى يجلس إليه».

وقد ذُكر لهذا الحديث سبب على ما ذكرناه، وهو أنّ امرأة عطَّارة كانت بالمدينة من أُحد، فقَدِمَت امرأة من مكة عطَّارة وكانت مزَّاحة، فقال رسول الله ﷺ: «على من نزلت؟». قيل: على فلانة، فقال: «الأرواح جنود مجندة». وبعض العلماء يقول: إن الله خلق الأرواح ففلق بعضها فلقًا، وقَدَّر بعضها قدرًا، ثم أطافها حول عرشه، فأىُّ رُوحين من فلقتين تعارفا هناك فالتقيا تواصلا ههنا فى الدنيا وترافقا، وأىّ روحين من قُدرتين أو فلقة وقُدرة اختلفا ثَمَّ وتناكرا هناك فاختلفا فى الجَوَلان، فإن هذين إذا ظهرا اليوم تباينا وتنافرا.

فهذا تأويل الخبر عنده، فما تعارف منها ـ أى فى الطواف ـ فتقابلا تعارفا ههنا وترافقا، فائتلفا، وما تناكرا ثَمَّ فى الجَوَلان فتدابرا، تناكرا ههنا اليوم فى الخَلْق والحال لما ظهرا، فاختلفا. وليس الائتلافُ يقع بنفس الاجتماع ووقت الاتفاق، فإنما الائتلاف يكون بمُجانسة الحال ومشاكلة الأخلاق؛ لأنهم شبهوا أجناس الناس بأجناس الطير. وقد يتفق الطَّيْران من جنسين ويتجامعان فى مكان، فلا يكون ذلك ائتلافًا فى الحقيقة، ولا اتفاقًا فى الخليقة، لتباينهما فى التشاكل، ولا يتبين ذلك فى الاجتماع، وإنّما يتبين فى الطيران إذا طارا معًا، فأما إذا ارتفع أحدهما ووقع الآخر، وعلا أحدهما وقصرَّ الآخر، فلا بد من افتراق حينئذ لفقد التشاكل، ولا بد من مباينةٍ لعدم التجانس عند الطيران، فهذا مثال ما ذكرناه من الافتراق، لعدم حقيقة تشاكل الحال، والوصف بعد الاتفاق.

واعلم أن الائتلاف والاختلاف يقع بين اثنين إذا اشتركا وافترقا فى أربعة معانٍ: إذا استويا فى العقود، واشتركا فى الحال، وتقاربا فى العلم، واتفقا فى الأخلاق.

فإن اجتمعا فى هذه الأربع فهى: التشاكل والتجانس، ومعه يكون الائتلاف والاتفاق. وإن اختلفا فى جميعها فهو التباعد والتضاد، وعنده يكون التباين والافتراق. وإن اتفقا فى بعضها واختلفا فى البعض كان بعض الاتفاق وبعض الاختلاف، فيوجد من الائتلاف بمقدار ما وُجد من التعارف، ويوجد من الاختلاف نحو ما فُقد من الاتفاق. وهذا هو تناكر الأرواح، لتباعد نشأتها، وتشامِّها فى الهواء، وذلك الأول هو تعارف الأرواح بقرب التشامّ باجتماع الأوصاف.

حُدِّثت عن يعقوب بن أخى معروف رحمهما الله قال: جاء أسودُ بن سالم إلى عمى معروف، وكان مؤاخيًا له، فقال: إن بشرَ بن الحارث رحمه الله يحب مؤاخاتك، وهو يستحى أن يشافهك بذلك، وقد أرسلنى إليك يسألك أن تعقد له فيما بينك وبينه أخوَّة يحتسبها ويعتدُّ بها، إلاّ أنه يشترط فيها شروطًا: لا يحب أن يشتهر بذلك، ولا يكون بينك وبينه مزاورة ولا ملاقاة، فإنه يكره كثرة الالتقاء، فقال معروف رحمه الله: أما أنا، فلو أحببت واحدًا لم أحب أن أفارقه ليلاً ولا نهارًا، ولَزرتهُ فى كل وقت، ولآثرته على نفسى فى كل حال. ثم ذكر من فضل الأخوَّة والحب فى الله عز وجل أحاديث كثيرة، ثم قال فيها: وقد آخى رسول الله ﷺ بينه وبين على عليه السلام، فشاركه فى العلم، وقاسمه فى البدن، وأنكَحَه أفضلَ بناتِه وأحبّهن إليه، وخصّه بذلك لمؤاخاته، وإنّى أُشهدك أنى قد عقدت له أخوَّة بينى وبينه، وأعتقده أخًا فى الله عز وجل لرسالته ولمسألتك، على أن لا يزورنى إن كرهَ ذلك، ولكنى أزوره متى أحببتُ، وآمره بلقائى فى مواضع نلتقى فيها، وآمره أن لا يخفى علىَّ شيئًا من شأنه، وأن يطلعنى على جميع أحواله. قال: فانصرف بذلك أسود بن سالم فأخبر به بشرًا، فرضى بذلك وسُرَّ به.

فهذا أسود بن سالم أحد عقلاء الناس وفضلائهم، فكان فيه اتساع للأصحاب، وصبرٌ عليهم، وهو الذى أشار معروف به على الرجل الذى سأله مستشيرًا فقال: يا أبا محفوظ، هذان الرجلان إماما هذا البلد، فأشر علىَّ أيهما أصحب؟ فإنى أريد أن أتأدب به: أحمد بن حنبل، أو بشر بن الحارث رضى الله عنهما. قال له

معروف: لا تصحب أحدهما، فإنّ أحمد صاحب حديث وفى الحديث اشتغال بالناس، فإن صحبته ذهب ما تجد فى قلبك من حلاوة الذكر وحب الخلوة. وأما بشر فلا يتفرغ لك ولا يقبل عليك، شُغلاً بحاله، ولكن اصحب أسود بن سالم، فإنه يصلح لك، ويُقبل عليك، ففعل الرجل ذلك، فانتفع به. وإنما ضمه معروف رضى الله عنه إلى أسود دُونهما، لأنه كان أليقُ بحاله، وأشبه بوصفه.

وكذلك روينا فى حديث المؤاخاة الذى آخى فيه رسول الله ﷺ بين أصحابه، فآخى بين اثنين شكلين فى العلم والحال؛ آخى بين أبى بكر وعمر، وبين عثمان وعبد الرحمن، وهما نظيران، وآخى بين سلمان وأبى الدرداء، وهما شكلان فى العلم والزهد، وآخى بين عمار وسعد وكانا نظيرين، وآخى بين عليٍّ وبينه، رضى الله عنهم أجمعين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين، وهذا من أعلى فضائله، لأن عِلْمَه من عِلْمِه، وحاله من وَصْفه. ثم آخى بين الغنى والفقير؛ ليعتدلا فى الحال، وليعود الغنى على أخيه الفقير بالمال.

قال أبو سليمان الدارانى لأحمد بن أبى الحوارى: إذا آخيت أحدًا فى هذا الزمان فلا تعاتبه على أمر تكرهه منه، فإنك لا تأمن أن يعنيك بشرٍّ من الأمر الأول. قال أحمد: فجرَّبته فوجدته كما قال. وقال بعض العلماء: الصبر على مضَضِ الأخِ خيرٌ من معاتبته، ومعاتبته خيرٌ من القطيعة، والقطيعةُ أحسن من الوقيعة. وقال بعضهم: كَدَرُ الجماعة خير من صفو الفُرقة.

ومَثل الأخوَّة مثل الزجاجة الرقيقة ما لم تحفظها وتوقّها كانت معرضةً للآفات، واستتمامُ الإخاء إلى خير الوفاةِ أشدُّ من ابتدائها فى حال الحياة.

وقال بعض الأدباء: الناس أربعة: فواحد حلوٌ كله فهذا لا يُشبع منه، وآخر كله مرٌّ وهذا لا يؤكل منه، وواحد فيه حموضة فخُذ من هذا قبل أن يأخذ منك، وآخر فيه ملوحةٌ فخُذ منه إذا احتجت إليه.

وقال بعض الأئمة: الناسُ أربعةٌ، فاصحب ثلاثة ولا تصحب واحدًا: رجل يدرى ويدرى أنه يدرى، فهذا عالم فاتبعه. ورجل يدرى ولا يدرى أنه يدرى،

فهذا نائم فنبِّهوه، ورجل لا يدرى ويدرى أنه لا يدرى، فهذا جاهل فعلِّموه. ورجل لا يدرى ولا يدرى أنه لا يدرى، فهذا منافق فاجتنبوه.

ومثل هذا الرابع قولُ سهل: ما عُصى اللهُ عز وجل بمعصية شرٌّ من الجهل، وأعظم من الجهل الجهلُ بالجهل.

وقال بعض الأدباء: الناس ثلاثةٌ ، فاصحب رَجُلين واهرب من الثالث: رجل أعلمُ منك فاصحبه تتعلم منه، ورجل أنت أعلم منه يقبل منك فاصحبه تُعلِّمه، ورجل معجبٌ بنفسه لا علم عنده ولا تعلُّم، فاهرب من هذا.

وقال محمد بن الحنفية رضى الله عنه: ليس بلبيب من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد من معاشرته بدًا، حتى يجعل اللهُ له منه فرجًا، فمعاملةُ غير تقىٍّ ومخالطته من أحوال الاضطرار، ومعاشرة التقى ومصافاته من أحسن الإحسان.

وكان أبو مهران يقول: أخرج من منزلى فأنا بين ثلاثة: إن لقيتُ من هو أعلم منى فهو يوم فائدتى أتعلَّم منه، وإن لقيتُ مَن هو مثلى فهو يوم مذاكرتى، وإن لقيتُ من هو دونى فهو يوم مثوبتى أعلِّمه فأحتسب فيه الأجر.

وقال أبو جعفر محمد بن على لابنه جعفر بن محمد عليهم السلام: لا تصحبنَّ من الناس خمسةً، واصحب من شئت: الكذّابَ، فإنك منه على غرر، وهو مثل السراب يقرِّب منك البعيد ويبعد منك القريب. والأحمقَ، فإنك لست منه على شىء، يريد أن ينفعك فيضرك. والبخيلَ، فإنه يقطع بك أحوج ما تكون إليه. والجبانَ، فإنه يُسلمك ومالَه ونفسَه عند الشدة. والفاجر، فإنه يبيعك بأكلة أو بأقل منها. قلت: وما أقلّ منها؟ قال: الطمع.

روينا عن رسول الله ﷺ أن رجلاً صحبه فى طريق، فدخل النبى ﷺ غيضة، فاجتنى سواكين من أراك أحدهما معوَّج والآخر مستقيم، فأخذ المعوَّج وأعطى صاحبه المستقيم، فقال الرجل: أنت أحق بالمستقيم منى، فقال النبى ﷺ: «ما من صاحب يصحب رجلاً ولو ساعة من نهار إلاّ سأله الله عن صحبته، هل أدّى فيها حق الله عز وجل أم لا، فكرهت أن يكون لك علىَّ حق لم أُؤدِّه».

واعلم أن الأخوَّة فى الله عز وجل، والمحبة فى الله تعالى، وحسن الصحبة، كانت طرائق السلف الصالح، قد دَرَسَت اليوم محاجُّها، وعَفَت آثارُها، فمن عمل بها فقد أحياها، ومن أحياها كان له مثل أجر من عمل بها، فمن رزقه الله أخًا صالحًا تطمئنٌّ به نفسه، ويصلح معه قلبه، فهى نعمة من الله عز وجل، مضافة إلى محاسن نعمه، والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

* * *



الفصل الخامس والأربعون

كتاب ذكر التزويج وتركه، أيهما أفضل، ومختصر أحكام النساء فى ذلك

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الأَيَامَى مِنكُمْ﴾ [النور: ٣٢] الآية. فأمر المحتاجين، وندب المعصومين، فالنكاح فرضٌ مع الحاجة، وسنَّة على الكفاية، ثم وعدهم تعالى الغِنى على الفقر؛ والغِنى إلى المُغنى يجعله على نحو الفقر من الفقير، فقد يكون فقيرًا من الأجر، فيغنيه بالأجر، ويكون فقيرًا من عدم الحكم، فيغنيه بإيجاب الحكم عليه، ويكون فقيرًا بالضيعة والشتات وفَقد المنزل والأثاث، فيغنيه بوجود ذلك. وأحكمه عز وجل بما عقبه من قوله تعالى وهو الحكيم: ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٢]. فهو واسع لغناهم عن معانى فقرهم عليهم بحالهم، وما يصلحهم فيما لا يعلمون على مقادير رتبهم.

وروى الحسن عن أبى سعيد عن النبى ﷺ: «من ترك التزويج مخافة العَيلة فليس منا».

وروينا عن النبى ﷺ: «إذا أتاكم مَن ترضون دينه وأمانته فأنكحوه، إلاّ تفعلوه تكن فتنةٌ فى الأرضِ وفسادٌ كبير».

وفى الخبر: «مَن نكح لله عز وجل وأنكح لله تبارك وتعالى استحق ولاية الله تعالى». وهذا أدنى حال تنال به الولاية، لأنها مقامات، لكلّ مقام عمل من الصالحات. إلا أنَّا روينا أن بشر بن الحارث قيل له: إن الناس يتكلمون فيك. فقال: وما عسى يقولون؟ قيل: يقولون إنك تارك لسنَّة، يعنون النكاح، فقال: قل لهم: إنى مشغول بالفرض عن السنة. وقال مرة: ما يمنعنى من ذلك إلا آية فى كتاب الله تعالى قوله: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، ولعسى أن لا أقوم بذلك. وكان يقول: لو كنتُ أعول دجاجةً لخِفت أن أكون جلادًا على الجسر.

هذا يقوله فى سنة عشرين ومائتين، والحلال يومئذٍ أوجد، والنساء أحمد عاقبة. فكيف بوقتنا هذا؟

فالأفضلُ للمريد فى مثل زماننا هذا ترك التزويج إذا أمن الفتنة، وعُوِّد العصمة، ولم تنازعه نفسه إلى معصية، ولم يترادف خواطر النساء على قلبه، حتى يتشتت همه، أو يقطعه عن حسن الإقبال على الخدمة من مُسامرة الفكر، ومحادثة النفس بأمر النساء، وما لم يجمح بَصَرُه إلى محظور، ولم يخالط ذَكَرُه شهوةً تستولى عليه؛ لأن أول خطايا الفرج شهوة القلب بمسامرة الفكر، وهو معفوٌّ. والخطيئة الثانية: إنعاظُ[1] الفرج عن شهوة القلب وهذا عمل. وقبضُ الرجل على فرجه مُنعظًا معصية ثالثة. فإن ظهرت الشهوة من الفرج فهو معصية رابعة. ومس الفرج باليمين مكروه.

فمتى وقعت هذه المعانى، فإنها تغيِّر القلب عن الخشوع، وتدخل عليه النقصان. ومتى لم يُبتل العبد بها فإن الخلوةَ أفضلُ المعانى، وفيها يجد لذة الوجود وحلاوة المعاملة، ويقبل على نفسه، ويشتغل بحاله، ولا يهتم بحال غيره، فيحمل حاله على حال غيره فيقصِّر، أو يقوم بحكم آخر فيعجز، ويعالج شيطانًا آخر مع شيطانه، وتنضم نفسٌ أخرى إلى نفسه، وله فى مجاهدة نفسه ومصابرة هواه وعدوه أكبرُ الأشغال.

ومنها أن المكاسب قد فسدت، فليس ينال أكثرها إلاّ بمعصية وهو مسؤول من أين اكتسبه وفيم أنفقه؟ فإن كان كسب من غير حله حُسب ذلك عليه، وإن أنفق على هواه لم يُحسب ذلك له، ومنها أنّ أكثر النساء قليلات الدين والصلاح، والأغلب عليهن الجهل والهوى، فلا يأمن أن ينقاد لهن لأجل هواه فيخسر آخرته، أو يمانعهنَّ فيغالطهنَّ، فلا يَنقَدنَ له فيتنغَّص عليه عيش دنياه. وقال الحسن رحمه الله: والله ما أصبح اليوم رجلٌ يطيع امرأته فيما تهوى إلا أكبَّه الله فى النار.

ومنها أن الأغنياء فى مقام الظالمين للفقراء لبخس حقوقهم عنهم، وتقصيرهم

---

(١) نَعَظ الذَّكَرُ يَنعَظُ نَعْظًا ونَعَظًا ونُعوظًا: قام وانتشر، والإنعاظ: الشَّبَق.

عما أوجب الله عز وجل عليهم لهم؛ فإن كان المتأهِّل فقيرًا لَقىَ شدةً وجهدًا وعَنَتًا وكدًا، ولم يأمن دخول الآفات عليه لأجل عَيْلته. وقد سئل ابن عمر رضى الله عنه عن جهد البلاء فقال: كثرةُ العيال، وقلة المال. وقال بعض السلف: قلة العيال أحدُ اليسارين، وكثرةُ العيال أحد الفقرين. ويقال: إنّ العيال عقوبةُ شهوةِ الحلال، وإنّ الحرصَ عقوبةُ طلب فوق الكفاية، فهو عقوبة الموحدين.

وقد جاء فى الأثر: «الوحدة خير من قرين السوء». وهو من القرين الصالح على غير يقين، فلا يزيل اليقين بالشك. فإن أكثر النساء من لا صلاح فيه، لغلبة الهوى وحب الدنيا عليهن. وفى الخبر: «مَثَلُ المرأةِ الصالحةِ فى النساء كمثل الغرابِ الأَعْصم من مائة غراب» يعنى: الأبيض البطن.

وفى وصية لقمان لابنه: يا بنى، اتق المرأة السوء فإنها تشيِّبك قبل المشيب، واتق شرارَ النساء، فإنهن لا يدعون إلى خير، وكنْ مِن خِيارهن على حَذَر.

وقد رُوى معناه عن نبينا ﷺ: «استعيذوا بالله من الفواقر الثلاث، ذكر منهنَّ امرأة سوء، فإنها المشيِّبة قبل المشيب». وفى لفظ آخر: «إن دخلت عليها لَسَنَتْكَ، وإن غِبْت عنها خانتك»[(١)].

وقد قال النبى ﷺ فى خيرات النساء: «إنّكن صواحبات يوسف عليه السلام» يعنى: إنَّ صرفكنَّ أبا بكر رضى الله عنه عن التقدُّم مَيْلٌ مِنكن إلى الهوى وتزيين وإغواء، كما أنَّ زليخا حين راودت يوسف عليه السلام كان ذلك منها غوايةً وتسويلاً، ففيه اعتذار ليوسف عليه السلام، وإيقاع اللوم عليها، وتشبُّه لهنّ بها.

وقال الله فيهن حين أفشين سرّ النبى ﷺ: **﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾** يعنى: مالت إلى الهوى، فأمرهما بالتوبة للميل إلى الهوى. ثم قال: **﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ﴾** [التحريم:٤] يعنى: تعاونا وهما من خير الأزواج، فما ظنُّك بمن شاكلته الجهالة، ووصفه الهوى والضلالة؟!

وفى الخبر عن رسول الله ﷺ: «ما أفلح قوم تَمْلِكهم امرأة». وقال الله تعالى

---

(١) هذه الفقرة من (م) فقط.

مخبرًا بعداوة بعض الأزواج والأولاد: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤] يعنى: فى الآخرة؛ لانحطاطكم فى أهوائهم، وميلكم إلى وَهَن آرائهن، فصاروا عدوًا غدًا.

كيف وقد تكون المرأة والولد أعدى عدو للرجل اليوم قبل يوم القيامة، إذا خالفهم فى أهوائهم، وعمل بالعلم فى أحوالهم. وقد كان إبراهيم بن أدهم يقول: مَن تعوَّد أفخاذ النساء لم يفلح. وكان بشر رحمه الله يقول: لو كان لى عيال لخشيتُ أنْ أكون جلاّدًا على الجسر.

فالوحدةُ أرْوحُ للقلب، وأقلُّ للهمِّ؛ لخفة المؤونة، وقلة المطالبة، وأمن المنازعة، وسقوط حكم من أحكام الشرع عنه. وقد كان السلف يعملون فى إسقاط الحكم عنهم، للعجز عن القيام بها، ويغتنمون ذلك، وفى التخلى قلةُ الاهتمام؛ بالادخار والجمع، وترك المراعاة، والتحفظ للمبيت فى البيت، وسقوط المسألة والاستخبار، وترك التجسس، للآثار التى نهى الله ورسوله عنها، إذ لا يأمن ذلك مع الزوجة السوء، وإنما زهد الزاهدون فى الدنيا لراحة القلب، واطراح الهمِّ، وسقوط المطالبة، وقد أُبيحت العُزْبةُ، وفُضِّل التعزُّب لهذه الأمة فى آخر الزمان.

وفى خبر: «إذا كان بعد المائتين أُبيحت العزبة لأمتى، ولأن يربِّى أحدُكم جروَ كلب خيرٌ من أن يربِّى ولدًا». والخبر المشهور: «خيرُ الناسِ بعد المائتين الخفيفُ الحاذُ[1] الذى لا أهل له ولا ولد». وفى خبر آخر: «يأتى على الناسِ زمانٌ يكون هلاكُ الرجل على يدى زوجته وأبويه وولده»، يعيِّرونه بالفقر ويحمِّلونه ما لا يطيق، فيدخل المداخل التى يذهب فيها دينُه فيهلك، وربما كانت المرأةُ عقوبةً للعبد.

وقد حدثونا فى أخبار الأنبياء عليهم السلام أنّ قومًا دخلوا على يونس عليه السلام فأضافهم، وكان يدخل ويخرج إلى منزله، فتؤذيه امرأته وتستطيل عليه وهو ساكت، فعجبوا من ذلك، وهابوه أن يسألوه، فقال: لا تعجبوا من هذا، فإنى سألتُ الله عز وجل فقلت: يا رب، ما كنتَ معاقبى به فى الآخرة فعجِّله لى

(١) الحاذ: قليل المال والولد.

فى الدنيا. فقال: إن عقوبتك ابنةُ فلان فتزوَّج بها، فتزوجتُ بها وأنا صابر على ما ترون منها.

وهذا كله لمن لم يَخْشَ العَنَت. فأما من خاف العنت ـ وهو الزنا، وأصل العنت فى اللغة هو الكَسْر بعد جبرٍ، يقال للدابة إذا كُسرت بعد ما جُبرت: قد عَنَتت، فكأنه كان مجبورًا بالعصمة وبالتّوبة، ثم كُسر بالزلل أو العادة السوداء ـ فنكاح الأَمَةِ حينئذ خير له من العَنَت، والصبر عن نكاح الأمَة خير من نكاحها، وهذا معنى قوله عز وجل فى نكاح الأمَة: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ العَنَتَ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٢٥].

وكذلك إن كثرت الخواطر الردية والوساوس الدنية فى قلبه بذكر النكاح، فشغله ذلك عن فرضه، أو شتَّت ذلك همَّه، فإن نكاح الأمَة أيضًا خيرٌ له، على أنّ نكاح الأمة محرَّم على من وَجَد طَوْلاً بحُرَّة. انصرف الناسُ ذات يوم من مجلس ابن عباس، وبقى شاب لم يبرح، فأطال القعود، فقال له ابن عباس: هل لك من حاجة؟ فقال: نعم، لى حاجة استحييت أن أسألك عنها بحضرة الملأ. قال: سَلْنى عما شِئت. قال: إنّى أهابك وأُجِلُّك. فقال ابن عباس: إنما العالِم بمنزلة الوالد لا حشمة على السائل منه، فمهما أفضيت به إلى أبيك فأفْضِ به إلىّ، فإنه لا عيب عليك عندى. فقال: رحمك الله، إنى شاب لا زوجة لى، وربما خشيتُ العَنَت على نفسى، وربما استمنيت بذَكَرى، فهل لى فى ذلك معصية؟ فأعرض عنه ابن عباس رضى الله عنهما ثم قال: أف وتف، نكاحُ الأَمَةِ خيرٌ من هذا، وهذا خير من الزنا.

ونكاح الأَمَةِ عند علماء العراق حرامٌ على من وجَد عَشْرة دراهم، وعند بعض علماء الحجاز إذا كان واجدًا ثلاثة دراهم لم يحلَّ له نكاح الأَمَة. وعن بعض أصحاب ابن المسيب: إن وجد الرجل درهمين حُرِّم عليه الأَمَة. وقال بعض الناس: أحمقُ الناس حرٌّ تزوَّج بأمَة، وأعقلُ الناس عبدٌ تزوَّج بحرَّة، لأن هذا يعتق بعضه، وذلك يرقُّ بعضه، لأنه يرق ولده.

وقد جاء فى كراهة الاستمناء وتحريمه والتغليظ فيه أخبار شديدة.

روينا: «إن الله عز وجل أهلك أمةً من الأممِ كانوا يعبثون بمذاكيرهم». وقد أسنده إسماعيل بن أبان إلى أنس بن مالك. وسئل أبو محمد عن النساء فقال: الصبرُ عنهن ولا الصبر عليهن، والصبر عليهن خيرٌ من الصبر على النار. وكذلك قال بعض العلماء قبله: معالجة العُزْبة خيرٌ من معالجة النساء. وقال بعض علمائنا البصريين من أهل الورع واليقين، وقد سئل عن التزويج فى مثل زماننا، فذُكر ضيقُ المكاسب وقلَّةُ الحلالِ وكثرةُ فساد النساء، فكرهه للورع، وأمره بالمدافعة، فأُعيد عليه فى ذلك، فقال: إنه يدخل فى المعاصى لدخول الإنسان فى الآفات، وفى المكاسب المحرمات، ومن أكله بدينه وتصنُّعه للخلق، فلا يصلح التزويج فى هذا الوقت إلاّ لرجل يُدركه من الشَّبَق ما يدرك الحمار إذا نظر إلى أتان، لم يملك نفسه أن يثب عليها حتى يُضْرب رأسه وهو لا ينثنى، فإن كان الإنسان على مثل هذا الوصف كان التزويجُ له أفضل.

وقد روينا عن قتادة فى قوله عز وجل: ﴿وَلاَ تُحمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِه﴾ [البقرة:٢٨٦]، قال: الغُلمة. وعن عكرمة ومجاهد رضى الله عنهما: ﴿وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٨] قال: لا يصبر عن النساء.

وروينا عن فياض بن نجيح: إذا قام ذَكَرُ الرجلِ ذهب ثُلُثا عَقْله. وبعضهم يقول: ذهب ثلثُ دينه. وروينا فى نوادر التفسير عن ابن عباس: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ [الفلق:٣] قال: قِيام الذَّكَر. وقد أسنده بعض الرواة، إلا أنه قال فيه: «الذَّكَر إذا دَخَل»، ولم يذكر قام.

وفى الخبر: «إذا تزوج الرجلُ فقد أحرز نِصْفَ دينه، فليتق الله فى الشطر الآخر». وفى دعاء البراء بن عازب: أعوذ بك من شرٍّ سمعى وبصرى وقلبى وشرِّ مَنِيِّى. فكان المنىُّ إذا امتلأ به خَرَز الصلب[1]، فطلب الخروج، فخيف منه فساد القلب ومرضه، بمنزلة الدم إذا كان فى العروق، فإذا تصاعد من الصلب طبخه وغيَّره، فابيضَّ وصار منيًّا بإذن الله عز وجل.

(١) خرز الصلب: فَقاره.

وذُكر النساء فى مجلس معاوية فذمَّهنَّ قومٌ، فقال: لا تفعلوا، فما علَّل المريض، ولا نَدَب الميت، ولا عمَّر البيوت مثلهنَّ، ولا احتاجت الرجال إلى مثلهنّ. وفى بعض التفسير قال: ﴿**إنَّا جَعَلْنا ما عَلَى الأرْضِ زِينةً لَها**﴾ [الكهف: ٧] قال: النساء.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: لا يتمُّ نُسُكُ الشابِ حتى يتزوَّج. وكان يجمع غلمانه لما أدركوا: عِكرمة وكُريب وغيرهما فيقول: إنْ أردتم النكاح أنكحتكم، فإن العبد إذا زنا نُزِع نورُ الإيمان من قلبه. وقد قال عمر رضى الله عنه لأبى الزوائد: ما يمنعك من النكاح إلاّ عَجْز أو فجور.

وحدثنا بعض علماء خراسان عن شيخ له من الصالحين، كان يصحب عبدان صاحب ابن المبارك، ووصف من صلاحه وعلمه قال: فكان يكثرُ التزويجَ، حتى لم يكن يخلو من اثنتين أو ثلاثة، فعوتب فى ذلك، فقال: هل يعرف أحدٌ منكم أنه جلس بين يدى الله عز وجل مجلسًا، أو وقف بين يدى الله موقفًا فى معاملته، فخطر على قلبه خاطر شهوة، ففكر فى ذلك، فقيل: قد يصيبنا هذا كثير. فقال: لو رضيتُ فى عمرى كله بمثل حالِكم فى وقتٍ واحد لَمَا تزوَّجت. ثم قال: لكنى ما خَطَر على قلبى خاطرٌ يشغلنى عن حالى إلاّ نفذته لأستريح منه، وأرجع إلى شغلى. ثم قال: منذ أربعين سنة ما خَطَر على قلبى خاطرُ معصيةٍ.

وسمع بعضُ العلماء بعضَ الجهال يطعن على الصوفية فقال: يا هذا، ما الذى نقصهم عندك؟ فقال: يأكلون كثيرًا. فقال: وأنت أيضًا، لو جُعت كما يجوعون لأكلت كما يأكلون. ثم قال: وماذا؟ قال: ويتزوجون كثيرًا. فقال: وأنت أيضًا، لو حفظت فرجك كما يحفظون تزوَّجت كما يتزوجون. وأى شىء أيضًا؟ قال: ويسمعون القول. قال: وأنت أيضًا، لو نظرتَ كما ينظرون لسمعت كما يسمعون.

وقد سئل بعض العلماء عن القرّاء: لِمَ يكثرون الأكل، ويكثرون الجماع، وتعجبهم الحلاوة؟ فقال: لأنه يطول جوعهم ويتعذر عليهم موجودُ الطعام، فإذا

وجدوا استكثروا منه. وأما الحلاوةُ فإنهم تركوا شرب الخمر وكثرة لذات النفوس، فاجتمعت لذتهم فى الحلاوة فهم يأكلونها. وأما الجماع فإنهم غضُّوا أبصارهم فى الظاهر، فضيَّقوا على قلوبهم فى الخواطر، فاتسعوا فى النكاح، فأكثروا منه لما ضيَّقوا على جوارحهم عن الانتشار فى الأبصار.

وقد كان الجنيد رحمه الله يقول: أحتاج إلى الجماع كما أحتاجُ إلى القوت. وكان ابن عمر رضى الله عنه من زهَّاد أصحاب النبى ﷺ وعلمائهم، وكان يصوم كثيرًا، وكان يفطر على الجماع قبل الأكل، وربما جامع قبل أن يصلى المغرب ثم يغتسل ويصلى. وروينا عنه: أنه جامع أربعًا من جواريه فى رمضان قبل صلاة عشاء الآخرة.

وقد كان ابن عباس رضى الله عنه يقول: خير هذه الأمة أكثرها نكاحًا. وكان سفيان بن عيينة يقول: كثرةُ النساء ليست من الدنيا؛ لأن عليًا رضى الله عنه كان أزهدَ أصحاب رسول الله ﷺ، وكان له أربع نسوةٍ وسبعة عشر سُرِّيَّة.

فالنكاح سنّة ماضية، وخُلق من أخلاق الأنبياء صلوات الله عليهم. وقد روينا فى أخبار الأنبياء: أنّ عابدًا تبتَّل وبلغ من العبادة ما فاق على أهل زمانه ووُصف بذلك، قال: فذُكر ذلك لنبى ذلك الزمان، فأثنى عليه بحسن الثناء، فقال: نِعمَ الرجل هو لولا أنه تارك لشىءٍ من السُّنة. قال: فنمى ذلك إلى العابد فأهمَّه فقال: ما ينفعنى عبادتى ليلاً ونهارًا وأنا تارك للسنة، فجاء إلى ذلك النبى فسأله، فقال: نعم أنت تاركٌ للتزوج، فقال: ما تركتُه أننى حرَّمته، ومنعنى منه إلاّ أنى فقير لا شىء عندى، وأنا عيال على الناس، يطعمنى هذا مرة، وهذا مرة، فكرهتُ أن أتزوج امرأة أعضلها وأرهقها جَهدًا، فقال: ما يمنعك إلاّ هذا؟ قال: نعم. قال: فأنا أزوِّجك ابنتى. قال: فزوَّجه النبى عليه السلام ابنته، فى قصة طويلة.

وروينا فى نوادر أخبارهم أيضًا: أنّ يحيى بن زكريا عليهما السلام تزوّج امرأة، ولم يكن يَقربَها، قيل: لغضِّ البصر، وقيل: للفضل فى ذلك، كأنه أراد أن يجمع الفضائل كلها، وقيل: للسنَّة.

وكان بشر بن الحارث رحمه الله يعتقد فضل أحمد بن حنبل رحمه الله ويقول: فُضِّل عليَّ بثلاث: بطلب الحلال لنفسه ولغيره وأنا أطلب الحلال لنفسى، واتساعه للنكاح وضيقى عنه، وقد جُعل إمامًا للعامة وأنا أطلبُ الوحدة لنفسى. ويقال إن أحمد بن حنبل رضى الله عنه تزوَّج اليوم الثانى من وفاة أم عبد الله ولده، ويقال إنه لم يبت عَزَبًا بعد وفاتها إلاّ ليلة. ولكن قد كان بشر رحمه الله يحتج لنفسه بحجة، قيل له: إن الناس يتكلمون فيك، فقال: وما عسى أن يقولوا؟ قال: يقولون هو تارك للسنّة فى ترك النكاح. فقال: قل لهم: هو مشغول بالفرض عن السنة. وعوتب مرةً أخرى فى ترك التزوج فقال: ما يمنعنى من ذلك إلا حرف فى كتاب الله عز وجل: ﴿ولَهُنَّ مِثْلُ الَّذى عَلَيْهِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢٨] قال: فذُكر ذلك لأحمد بن حنبل فقال: وأين مثلُ بِشر، إنه قعد على مثل حدّ السنان. وعلى ذلك فقد بلغنا أنه رحمه الله رؤى فى المنام بعد وفاته، فسئل عن حاله فقال: رُفعت سبعين درجةً فى عليين، وأُشرف بى على مقامات الأنبياء، ولم أبلغ منازل المتأهلين. وبلغنا عنه أنه قال: وعاتبنى ربى عز وجل وقال: يا بشر، ما كنت أحب أن تلقانى عَزَبًا. قال: فقلتُ له: ما فعل أبو نصر التمار، فقال: رُفع فوقى سبعين درجة. فقلنا: بماذا وقد كنا نراك فوقه فقال: بصبره على بناتِه والعيال.

وقد كان ابنُ مسعود يقول: لو لم يبق من عُمرى إلاّ عشْرةُ أيامٍ أموت فى آخرها لأحببت أن أتزوج، ولا ألقى الله عز وجل وأنا عَزَب.

وماتت امرأة معاذ بن جبل رضى الله عنه فى الطاعون، وكان هو أيضًا مَطْعونًا؟ فقال: زوِّجونى فإنى أكره أنْ ألقى الله عز وجل عزبًا.

وقد كان بعض الصحابة انقطع إلى رسول الله ﷺ يخدمه ويبيت عنده لحاجةٍ إن طرقته. فقال له: ألاَ تتزوج؟ فقال: يا رسول الله، أنا فقيرٌ لا شىء لى، وأنقطع عن خدمتك، فسكت عنه، ثم أعاد عليه ثانية: ألاَ تتزوج؟ فقال له مثل ذلك، ثم تفكرّ الصحابى فى نفسه فقال: والله لرسول الله أعلمُ بما يصلح فى دنياى وآخرتى، وما يقربنى إلى الله عز وجل منّى، لئن قال لى الثالثة لأفعلن، فقال له رسول الله ﷺ: ألاَ تتزوج؟ قال: فقلت: يا رسول الله، زوِّجنى. قال:

اذهب إلى بنى فلان، فقل لهم إنّ رسول الله ﷺ يأمركم أن تنكحونى فتاتكم، قال: فقلتُ: يا رسول الله، إنّه لا شىء لى، فقال لأصحابه: اجمعوا لأخيكم وزنَ نواة من ذهب، فجمعوا له وذَهب إلى القوم فأنكحوه، فقال له رسول الله ﷺ: أَوْلِمْ. فقال: يا رسول الله، لا شىء عندى. فقال لأصحابه: اجمعوا لأخيكم ثمنَ شاةٍ، فجمعوا له، وأصلح طعامًا، ودعا عليه رسول الله ﷺ وأصحابه.

وفى الخبر المشهور: «من كان ذا طَول فليتزوج». وفى لفظ آخر: «من استطاع منكم الباءة ـ يعنى الجماع ـ فليتزوج، فإنه أغضّ للبصر وأحصن للفرج، ومن لا فليَصُم، فإن الصومَ له وجاء». وأصل الوجاء: رضّ الخصيتين للفحل من الغنم، لتذهب فحولته وضرابه، فكانت العرب تجأ بحجرين فتقطع ضرابه، فيسكن لذلك عهره ويسمن. ومن ذلك الخبر ضَحَّى رسول الله ﷺ بكبشين أملحين موجوءَين، يعنى: أبيضين مرضوضى الخصية.

وروينا عن رسول الله ﷺ: «تناكحوا تناسلوا، فإنى مكاثر بكم الأمم يوم القيامة، حتى بالسّقط والرضيع». وفى الخبر الآخر: «منَ أحبَّنى فليستنَّ بسُنَّتى» يعنى النكاح. وحديث أبى سعيد الخدرى: «من ترك النكاح مخافة العيلة فليس منا».

وقد كان عمر يكثر النكاح ويقول: ما أتزوج إلا لأجل الولد. وقد كانت هذه نيةَ جماعة من السلف، يتزوجون لأجل أن يولد لهم، فيعيش فيوحِّد الله تعالى ويذكره، أو يموت فيكون فرطًا صالحًا يثقل به ميزانه، وقد روينا عن رسول الله ﷺ: «إن الطفل يجرُّ أبويه بسُرَره إلى الجنة. وإنّ المولود يقال له: ادخل الجنة. فيقف على بابِ الجنة، فيظل مُحْبَنْطًى ـ أى ممتلئًا غيظًا وغضبًا ـ فيقول: لا أدخل إلاّ وأبواى معى. فيقال: أدخلوا أبويه معه الجنة».

وقد روينا خبرًا غريبًا: أن الأطفال يُجمَعون فى موقف القيامة عند عَرْضِ الخلائق للحساب، فيقال للملائكة: اذهبو بهؤلاء إلى الجنة. قال: فيقفون على باب الجنة. قال: فيقول لهم: مرحبًا بذرارى المسلمين، ادخلوا لا حساب عليكم.

فيقولون: فأين آباؤنا وأمهاتنا؟ قال: فتقول الخزنة: إن آباءكم وأمهاتكم ليسوا مثلكم، إنّهم كانت لهم ذنوب وسيئات، فهم يحاسبون عليها ويطالبون. قال: فيتضاغون ويضجُّون على باب الجنة ضجةً واحدةً. فيقول الله عز وجل للملائكة، وهو أعلم: ما هذه الضجة؟ فيقولون: يا ربنا، أطفال المسلمين قالوا: لا ندخل الجنة إلاّ مع آبائنا. فيقول الله عز وجل: تخلّلوا الجَمْعَ، فخذوا بأيدى آبائهم فأدخلوهم معهم الجنة.

وروينا عن رسول الله ﷺ: «من مات له اثنان من الولد، فقد احتُظِر له بحِظَار[١] من النار». وفى خبر آخر: «من مات له ثلاثة لم يبلغوا الحِنْث أدخله الله عز وجل الجنة، بفضل رحمته إياهم. قيل: يا رسول الله، واثنان؟ قال: واثنان».

وكان بعض الصالحين يُعرض عليه التزويج فيأباه برهة من دهره. قال: فانتبه من نومه ذات يوم فقال: زوِّجونى، فسئل عن ذلك فقال: لعل الله أنْ يرزقنى ولدًا ثم يقبضه، فيكون مقدمة لى فى الآخرة. ثم حدَّث عن سبب ذلك فقال: رأيت فى نومى كأن القيامة قد قامت، وكنت فى جملة الخلائق فى الموقف، وبى من العطش ما كاد أن يقطع عنقى، وكذلك الخلائق فى شدّة العطش من الحر والشمس والكُرب. قال: فبينا نحن كذلك، إذا الولدان يتخللن الجمع، عليهم مناديل من نور، وبأيديهم أباريق من فِضة وأكواب من ذهب، وهم يسقون الواحد بعد الواحد، ويتخللون الجمع، ويجاوزون أكثر الناس، قال: فمددتُ يدى إلى أحدهم، فقلت: اسقنى شربةً فقد أجهدنى العطش، فقال: ليس لك فينا ولد، إنما نسقى آباءنا، فقلت: وما أنتم؟ فقالوا: نحن من مات من أطفال المسلمين.

وروينا عن رسول الله ﷺ: «خيرُ نسائكم الودودُ الولودُ». وروى أيضًا: «حصيرةٌ فى البيت خيرٌ من امرأة لا تلد». وروى أيضًا: «سوداء ولودٌ خير من حسناء لا تلد».

هذا كله لأجل الذّريَّةِ والنَّسل وتقديم الفَرط فى الولد.

---

(١) الحظار: الحظيرة تُعمل للإبل من شجر لتقيها البرد والريح، وكلُّ شىءٍ حَجَزَ بين شيئين. والمراد أنه احتمى بحِمًى عظيم من النار.

وروينا عن رسول الله ﷺ: «من رغب عن سنتى فليس منى، وإن من سنتى النكاح، ومن أحبنى فليَستنّ بسنَّتى». ويقال: إنّ الله تعالى لم يذكر فى كتابه من الأنبياء إلا المتأهلين، وهم خمس وثلاثون، وقد ذكرنا آنفًا أنّ يحيى عليه السلام قد تزوج، وأما عيسى عليه السلام فإنه سينكح إذا نزل من السماء ويولد له. وقد قيل: إن فضل المتأهل على العَزَب كفضل المجاهد على القاعد، وإن ركعتين من متأهل أفضل من سبعين ركعة من عَزَب.

وقال الله تعالى فى وصف الرسل ومدحهم: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وذُرِّيَّةً**﴾ [الرعد:٣٨]. فعدّ الأزواج والذرية من مَدحهم وذكرها فى وصفهم، وكذلك ألحق بهم أولياءه فى المدح والفضل فى قوله عز وجل: ﴿**والَّذينَ يَقُولُونَ رَبَّنا هَبْ لَنا مِن أزواجنَا وذُرِّيَّاتنا قُرَّةَ أعيُنٍ**﴾ [الفرقان: ٧٤]، فسألوا الله عز وجل من فضله.

وكلّ ما ذكرناه من فضل النكاح يشترك فى فضل ذلك النساء، بل هو لهنّ أفضل وأثوبُ لسقوط المكاسب عنهن. وقد أمر النبى ﷺ المرأة بالتزوج وندبها إليه، وأخبر بفضل الرجل، وفضَّل المتزوجة على العزباء فى غير حديث، وقال ﷺ: «لعن الله المتبتلين من الرجال الذين يقولون: لا نتزوج، ولعن الله المتبتلات من النساء اللاتى يقلن: لا نتزوج» بعد ما ذكر من عظيم حق الرجل على المرأة، وثقل واجبه، حتى قالت المرأة: إذًا لا أتزوج أبدًا، قال: «بلى تزوَّجى، فهو خير».

والأخبار فى فضل النكاح للزوجين معًا تَكثُر، وليس مذهبنا الإطالة والإغراق فى الجمع. وقد ندب الله تعالى إلى النكاح فى قوله تعالى: ﴿**فَأتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ**﴾. وفى قوله: ﴿**أنّى**﴾ ثلاثة معان: معنيان منها ههنا: تكون «أنَّى» بمعنى: متى شئتم من ليل أو نهار، وتكون «أنَّى» بمعنى: كيف مقبلةً أو مدبرةً، بعد أن يكون فى موضع الحَرث. والمعنى الثالث: تكون «أنَّى» بمعنى: أين، ولا يصلح هذا الوجه ههنا.

ثم قال عز وجل: ﴿وَقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، قيل: النكاح معطوفٌ به على الإتيان، وهو أحد الوجوه الثلاثة، لما فيه من فضل الاغتسال من الجنابة، ولما فيه من فضل مباشرة المرأة، وأنّ المرأة إذا لاعبها بعلُها وقبّلها كثُرت له من الحسنات ما شاء الله، فإذا اغتسلا خلق الله من كل قطرة ملكًا يسبحُ الله تعالى إلى يوم القيامة، وجعل ثواب ذلك لهما، ولما فى ذلك من التحصين لهما ووضع النطفة فى محلها، وفى ذلك فضائلُ جمَّة، وقد أمر به رسول الله ﷺ فى قوله: «ليتخذ أحدُكم قلبًا شاكرًا، ولسانًا ذاكرًا، وزوجةً مؤمنةً تعينه على آخرته».

والوجه الثانى فى قوله تعالى: ﴿وَقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ﴾، قيل: الولد قدِّموا لآخرتكم، لأنه عمل من أعمالكم. كما قال عز وجل: ﴿ألحقنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١] أى: ما نقصناهم أولادهم، أى جازيناهم بهم، وجعلناهم مزيدًا فى حسناتهم؛ لأنهم من أعمالهم وأكسابهم. وكما قال عز وجل: ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ [المسد: ٢]، يعنى ولده، ففى تدبره: أنّ الولد يغنى المؤمن فى الآخرة، كما يغنى المال عنه إذا أنفقه فى سبيل الله تعالى. وفى الخبر: «ولدُ الرجلِ من كَسْبه فأحلُّ ما أكل من كسب ولده».

والوجه الثالث فى قوله عز وجل: ﴿وَقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ﴾، قيل: التسمية عند الجماع، أى اذكروا اسم الله تعالى عنده، فذلك تقدمة لكم، وأنه يستحب للمجامع أنْ يسمى الله عز وجل عند جماعه، ويقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ قبله. وكان بعض أصحاب الحديث إذا أراد الجماع هلّل وكبّر حتى يسمع أهل الدار تكبيره.

وإذا كانت المرأة معينة لزوجها على الطاعة، طالبة للتقلل والقناعة، فهى نعمة من الله عليه يطالبه بشكرها، قال الله عز وجل: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، فعدَّ ذلك من نعمة الله عليه وإحسانه إليه. وقيل فى التفسير: كان خلقها سيئًا فحَسُن، وقيل: كان فى لسانه طُول فقصر.

وروينا عن نبينا ﷺ: «فُضِّلت على آدم عليه السلام بخصلتين: كانت له زوجة

عونًا له على المعصية وأزواجى عونًا لى على الطاعة، وكان شيطانه كافرًا وشيطانى مسلمًا لا يأمرنى إلاّ بخير». فعدَّ ذلك ﷺ من فضائله.

وإذا كانت المرأةُ حسنةَ الوجه، خيِّرةَ الأخلاق، سوداءَ الحدقة والشعر، كبيرةَ العين، بيضاء اللون، محبةً لزوجها، قاصرةَ الطرف، فهذه على صورة الحور العين، قال الله تعالى فى ذلك: ﴿**فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ**﴾ [الرحمن:٧٠]. قيل: خيرات الأخلاق حسان الوجوه. وقال تعالى: ﴿**وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ**﴾ [الواقعة:٢٢ ـ ٢٣]. والحور: البيض، والعين: كبار الأعين، هو جمعُ: عَيناء. والحوراء: هى البيضاء شديدةُ بياض العين، شديدة سوادها وسواد الشعر.

وقال عز وجل: ﴿**عُرُبًا أَتْرَابًا**﴾ [الواقعة:٣٧]. العُرُبة على معنيين: تكون العاشقة لزوجها، وتكون المشتهية للجماع، وذلك يكون من تمام اللذة فى الوقاع، لأن المرأة إذا لم تكن محبة لزوجها، ولا مشتهية لإفضائه إليها، نقص ذلك من لذته، فلذلك وصف الله عز وجل نساء أهل الجنة بتمام اللذة. ويقال: رجل شَبِق وامرأةٌ عَرِبة، يوصفان بشهوة الجماع. كيف وقد روى: «خيرُ نسائكم الغَلِمة على زوجها». وقال بعض الحكماء: ثلاث من اللذات لا يُؤبَه لهنّ: المشى فى الصيف بلا سراويل، والتبرز على الشط، ومجامعةُ الرّبوخ، يعنى المشتهية للجماع.

وقال عز وجل فى تمام وصفهن: ﴿**قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ**﴾ [الصافات:٤٨]. أى قد قصر طرفها على زوجها وحده، فليست ترى أحسن منه، ولا تريد بدلاً غيره، وقال رسول الله ﷺ: «خيرُ نسائكم التى إذا نظرَ إليها الرجلُ سرَّته، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته فى نفسها وماله».

وروينا عن محمد بن كعب القرظى رضى الله عنه فى معنى قوله عز وجل: ﴿**رَبَّنَا آتِنَا فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً**﴾ [البقرة:٢٠١] قال: المرأة الصالحة. وفى بعض التفسير: ﴿**فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً**﴾ [النحل:٩٧] قال: المرأة الصالحة. وقد كان عمر رضى الله عنه يقول: المرأة الصالحة ليست من الدنيا، لأنها تفرغك للآخرة. إلاّ أنه كان يقول: المنفردُ يجدُ من حلاوة العبادة ما لا يجد المتزوج. وكان عمر بن الخطاب

رضى الله تعالى عنه يقول: ما أُعطى عبدٌ بعد إيمان بالله عز وجل خيرًا من امرأة صالحة. ووصف النساء فقال: منهنَّ غُنم لا يُحْذَى منه، يعنى غنيمة لا يعتاض منها بعطاء، والحُذيَّا: هى العطاء. ومنهنَّ غُلٌّ لا يُفْدَى منه، أى لا قيمة له فيفدى منه، ويجوز أن لا راحة منه كالغُلّ، فصاحبها أسير بحبِّها لا يفتدى أبدًا إلا بموتها. وقال أيضًا: قيل: كانت العرب من نهاية تعذيبها للأسير تسلخ جلد الشاة ثم تلبسه إياه لحمًا طريًا، فيلتزق على جسده وينقبض، ثم لا تنزعه عنه حتى يَقمِل وينتثر منه الهوام، فذلك هو الغُلُّ مثل المرأة المكربة.

واعلم أن النساءَ على أوصاف النفس، مَن عَرَف صفات النفس عرف بها أوصاف النساء، وقاساهُنَّ بالتجربة والخبر عرف بذلك صفات النفس: فمنهنّ المسوِّلة، وهى أدناهن. ومنهن الأمَّارةُ بالسُّوء، وهى شرُّهنَّ لا تَفتُر من الأذى، ولا تنى عن خُلُق السوء والبَذاء. ومنهن بمنزلة النفس اللوَّامة، وهى من صالحى النساء. ومنهن المطمئنة المرضيةُ، وهذه هى الصالحة الخيِّرة السّاكنة الراضية.

وفصلُ الخطاب: إنْ كان صلاحُ قلب العبد واستقامةُ حاله فى العُزبة فلا أعدل بالوَحدة شيئًا، لأنّ أقل ما فيها السلامة، والسلامةُ فى وقتنا هذا فضيلةٌ وغنيمة، وإن تاقت نفسه إلى التزويج، ولم يأمن دواعى الهوى، فيتزوج إذا أدَّى إلى سلامة دينه، وإن لم تتم كفايتُه بواحدة ضمَّ إليها أخرى، فإن لم تكن بهما غنيمته وتمام حاله وتحصينه، زاد ثالثة إلى أربع، فإن الأربعة مع توقان النفس إلى النكاح وقوة شهوتها فى التنقُّل فى المناكح بمنزلة الواحدة، وإن الواحدة مع وقوع الكفاية ووجودِ الاستغناء تنوب عن الأربع.

كذلك خيَّر الله عز وجل صورة النفس فيما عليه جبلها، وفاوت بين الطبائع فيما عليه جعلها، يقال: إنّ الله عز وجل أباح الجمع بين الأربع لأجل الطّبائع الأربع، لكل طبيعة واحدة على قدر حركاتها وتوقان النفس عندها، ولا نقص على العبد فى ذلك إذا قام بما عليه لهنّ، أو سَمَحن بحقوقهن من النفقة والمبيت له، بل ذلك مزيد له، ودلالة على قوته وتمكُّنه فى الحال، وهذه طرائق الأقوياء والأئمة من الرجال.

وأيضًا فإن الله عز وجل ما أنعم به من امتطاء الأربع من النساء من الحكمة، وتلوين الطبع فى الصنعة مثل ما أنعم به من تكوين سيرة المطايا، التى جعلهنّ مراكب عباده. فجعل تفاوت تكوين وطء الأربعة بمنزلة تغاير مشى دواب البر الأربعة، فقال عز وجل: ﴿وَالخَيْلَ وَالبِغَالَ وَالحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: ٨]. وقال عز وجل: ﴿مِنَ الفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢]، يعنى الإبل، فسيرُ الناقة غير سير الفرس، وسيرُ البغل مخالف لمشى الحمار، وكذلك جعل لمن جمع الأربع بالوطء ما لا يجعل بالآحاد والمثنى والثلاث، فحسن ذلك، وأباحه لمن جمع بينهن أربعًا، كإطلاقه لمن جعل له المطايا أربعة ينتقل على دابة بعد دابة، فكان له فرس وبغل وحمار، إذا اتسع بذلك وأقام بمؤونتهن، وقد يكتفى الواحد بدابة واحدة فيكون فيها بلاغ إلى حين، ذلك تقدير العزيز العليم، وإتقان صنع المنعم الحكيم. وقد شرط اللهُ تعالى مع الزوجة ثلاثةَ شروط، إن وُجدت تمَّت بهن كفاية العبد، وسكنت بها نفسه، وكان ذلك من آيات الله الدالة عليه، وإن لم توجد الشروط الثلاثة مع الإحدى، كان له المزيد عليها إلى الرباع، وكن فى المعنى كالآحاد لعدم الشروط التى أخبر الله عز وجل بسكون النفس عندها، وعند الأربع توجد الشروط فى قلوب المؤمنين لا محالة، كما أخبر عز وجل، وكان ذلك أيضًا من آياته وحكمته الدالة عليه، فقال سبحانه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

فإن وجد العبدُ سكون النفس ورحمة القلب ومودة المرأة فى الواحدة، فهو من آيات الله عز وجل، وهى كفايته وغُنيته، وإنْ لم يجد السّكون ولا الرحمة ولا المودة إلاّ فى الأربع، فهن حينئذ كفايته وقنْيتُه[1]. والله تبارك وتعالى يغنى بالواحدة ويَقْنَى بالأربع، أى يجعل غنيًا ويجعل قِنْيةً جماعة ومدخرًا، وذلك أيضًا من آيات الله تعالى واختياره لمن قوى عليه واستقام به. وقد شبه بعض الناس الأزواج بالقُمص فقال: ليس من السرف أن يجمع الرجل أربعة أقمصة، وما زاد

---

(١) أى رضاه وغناه. يقال: قَنِيَ بالشيء يَقْنَى أى رَضِيَ به وغَنِيَ.

على ذلك كان سرفًا. كما أن الله عز وجل أمر بالجمع بين الأربع من النساء، ويصلح أن يستدل له بقوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ﴾ [البقرة:١٨٧]، فجعلهن فى معنى الملبوس، ورفع فيهن إلى الأربع، وفى قوله تعالى: ﴿فَانكحُوا مَا طَابَ لَكُمْ منَ النِّسَاءِ﴾ ثم ابتدأ فنص على مثنى، ولم يقل: احدى، على الندب والاستحباب للجمع بين اثنتين، وأنّ العدل قد يوجد ويقدر عليه معهما، ثم ردّ إلى الواحدة لمن خاف الجور فيهنّ، فقال تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أن لاَّ تَعْدلُوا فَوَاحدَةً﴾ ، ففى دليل الخطاب اشتراطُ العَدْل فى الأربع، ثم ذكره بقوله: ﴿ذَلكَ أَدْنَى أن لا تَعُولُوا﴾ [النساء:٣]، يعنى: أقرب أن لا تجوروا. وقد قال بعض الفقهاء من أهل الحجاز واللغة: لا تعولوا، أى لا تكثر عيالكم. والأوّل أحبُّ إلىَّ؛ لأنه أشبه بالقرآن، كأنه عطف على النص، لما قال: ﴿أن لاَّ تَعُولُوا﴾ قال: ذلك أدنى أن لا تجوروا، والأوّل أحب إلىَّ، ويصلح هذا الوجه أيضًا فى اللغة من قال: عال يعول، بمعنى أعال يعيل، وأكثرُ العرب فرَّقت بين ذلك يقولون: عال يعول إذا جَارَ، وأعالَ يُعيل من العَيلة إذا كثُر عياله، وشاذ نادر من يجعلها لغتين بمعنًى.

فليتوخَ العدل بين أزواجه، من جَمْع بينهن فى النفقة والكسوة والمبيت، ولا يحيف على بعضٍ فيقصِّر عن كفايتها وواجبها فى ذلك. فقد جاء فى الحديث: «من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما دون الأخرى ـ وفى لفظ آخر: فلم يعدل بينهما ـ جاء يوم القيامة وأحدُ شقَّيْه مائل». ولا عَدْل عليه فى المحبة والجِماع، لأن ذلك لا يملك إذا سوَّى بين البَيتُوتة، ولا عليه أيضًا أن يجامع من بات عندها، إنّما عليه المبيت ليلة وليلة.

وفى تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطيعُوا أَنْ تَعْدلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النساء:١٢٩] قال: لا تقدروا على العدل بينهن فى الحب والجماع، لأن ذلك فِعْلُ الله عز وجلّ فى القلوب وفى شهوةِ النفس. وروينا عن رسول الله ﷺ أنه كان يَقْسمُ بين نسائه فى العطاء والمبيت، وكان يقول: اللهم هذا جَهْدى فيما أملك، ولا طاقة لى فيما تملك ولا أملك»، يعنى فى المحبة والجماع، فقد كان يحب بعضهن أكثر من بعض، وكانت عائشة رضى الله عنها أحبهن، وكان يطاف به محمولاً فى

مرضه فى كل يوم وليلة فيقول: أين أنا غدًا، ففطنت امرأةٌ منهنّ فقالت: إنما يسأل عن يوم عائشة رضى الله عنها، فقلن: يا رسول الله، إنه لَيشقُّ عليك أن تُحمل، فقد أذنَّا لك أن تكون فى بيت عائشة رضى الله عنها، فقال: قد رضيتنّ بذلك؟ قُلن: نعم، قال: فحوِّلونى إلى بيت عائشة، فلذلك كانت تقول: قُبض فى بيتى وبين سَحرى ونَحرى، تفتخر بذلك.

ثم قال الله عز وجل: ﴿فَلاَ تَميلُوا كُلَّ الْمَيْلِ﴾ يعنى: على واحدة دون الأخرى فى التقصير والنفقة ﴿فَتذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقة﴾ [النساء:١٢٩] أى موقوفة غير مستقرة، كأنها لا ذات زوج ولا مطلقة، أى لا أيِّم فتتحمل لنفسها، ولا ذات زوج ينفق عليها فستغنى بزوجها.

والعرب تقول: علَّقتُ الأمر: إذا أوقفتُهُ، وقولٌ معلَّق، أى: موقوف غير مطلق بحكم، فعليه أن يَقسِم بينهنّ أيامه ولياليه، فيكون عند كل واحدة يومًا وليلة، إلا أن تهب لصاحبتها ليلتها، أو تسمح له بذلك. فكذلك كان رسول الله ﷺ يَقسِم بين نسائه، فأراد أن يطلِّق سودةَ بنت زمعة لما كبرت، فوهبت ليلتها لعائشة، وسألته أن يقرَّها على الزوجية لتُحشر فى نسائه، فتركها ولم يكن يقسم لها، فكان يقسم لعائشة ليلتين، ولسائر أزواجه ليلة ليلة، إلاّ أنه ﷺ لشدة عدله كانت نفسه إذا تاقت إلى واحدة فى غير ليلتها أو نهارًا فى غير يومها أو ليلتها فجامعها، ثم طاف فى ليلته على سائرهن، وكذلك كان يفعل فى يومه. فمن ذلك ما روى عن عائشة رضى الله عنها وغيرها «أن رسول الله ﷺ طاف على نسائه فى ليلةٍ واحدة». وعن أنس: «طاف رسول الله ﷺ على تسع نسوة فى ضَحوة».

ومن لم يكن له إلا واحدة، استُحب له أن يفضى إليها فى كل ثلاث ليال، بمنزلة من له أربع نسوة، ويكون يباشرها فى الليلة الرابعة. وبهذا قضى عمرو كعب بن الأسود رضى الله عنهما للرجل أن يأتيها فى كل أربع ليالٍ ليلة، فإن علم أنّ حاجتها إلى أكثر من ذلك، كان عليه أنْ يفعل ما هو أقرب إلى تحصينها وأثبت لعفافها، وإن علم منها كراهة ذلك وقلة همتها له لم يكن عليه الإفضاء إليها إلاّ فى كل شهر مرةً أو فى كل سنة مرة وعليها أن لا تمنعه ليلاً ولا نهارًا فى كل وقت، وإن كانت صائمة فلا يحل لها أن تصوم إلاّ بإذنه.

وتزوَّج علىٌّ عليه السلام بعشر نسوة، وتوفى عن أربع وسبع عشرة سُرِّيَّة. وكان بعض أمراء الشام إذا بلغه عنه كثرةُ نكاحه يقول: لستُ بنُكحة ولا طُلقة، يعرِّض له بذلك. ويقال: إنه تزوج بعد وفاة فاطمة صلوات الله عليها وعلى أبيها بتسعِ ليالٍ، ونكح أمامة ابنة زينب ابنة رسول الله ﷺ، كانت فاطمةُ صلوات الله عليها أوصته بذلك.

وتزوَّج الحسن بن علىٍّ رضى الله عنهما مائتين وخمسين امرأة، وقيل: ثلاثمائة، وقد كان علىٌّ عليه السلام يَضْجَر من ذلك ويكرهه حياءً من أهليهن إذا طلقهنّ، وكان يقول: إنّ حَسَنًا مطلِّقًا فلا تُنكحوه. فقال له رجل من همدان: والله يا أمير المؤمنين، لَننكحنَّه ما شاء، فمن أحبّ أمسك، ومن كره فارق، فسُرَّ علىٌّ رضى الله عنه بذلك وأنشد يقول:

ولو كنتُ بوَّابًا على باب جنةٍ لقلتُ لهمـدانَ ادخلى بسلام

وهذا أحد ما كان الحسن يشبه فيه رسول الله ﷺ، وكان يشبهه فى الخُلُق والخَلْق، فقد قال له رسول الله ﷺ: «أشبهتَ خَلْقى وخُلُقى»، وقال: «حَسَنٌ منّى وحُسين من علىٍّ»، وكان الحسن ربما عقد على أربعة، وربما طلّق أربعًا، فأرسل غلامه بطلاق امرأتين له وقال: قل لهما: اعتدًّا، وأمرٍ له أنْ يدفع إلى كل واحدة عشرة آلاف درهم، ففعل، فلما رجع إليه قال: ماذا قالتا؟ فقال له الرسول: أما إحداهما فنكست رأسها وسكتت، وأما الأخرى فبكت وانتحبت وسمعتها تقول: متاع قليل من حبيب مفارق، فأطرق ورَحِم لها، ثم قال: لو كنتُ مراجعًا امرأةً لراجعتها.

ودخل ذات يوم على عبدِ الرحمن بن الحارث بن هشام[1] فخطب ابنته، فقال:

(١) بعده فى (م): «فقيه المدينة ورئيسها، ولم يكن له بالمدينة نظير، وهو الذى كانت السّيدة عائشة [رضى الله عنها] تضرب به المثل فى قولها: لو لم أسر مسيرى ذلك لكان أحبَّ إلىَّ من أن يكون لى ستة عشر ذَكَرًا من رسول الله ﷺ كلهم مثل عبد الرحمن بن الحارث. فدخل عليه الحسن فى أهل بيته، فقام إليه عبد الرحمن وأجلسه فى مجلسه وأعظمه، وقال: ألا أرسلت إلىَّ فكنت أجيئك؟ فقال: إن الحاجةَ لنا. قال: وما هى؟ قال: جئتك خاطبًا ابنتك. فأطرق عبد الرحمن ثم رفع رأسه، فقال: والله ما على وجه الأرض أحدٌ يمشى عليها أعزُّ علىَّ منك، ولكنَّك تعلم أن ابنتى بِضْعةٌ منّى، وأنت مطلاق...».

إنّك لأحبُّ الناس إليَّ، ولكنك مِطْلاق، وأكره أن يتغيَّر قلبى عليك، فإن ضمنت أنّك لا تفارقها فعلتُ، فسكت ثم اتكأ على بعض أصحابه، ثم قال: ما أراد عبد الرحمن إلا أن يجعل ابنته طوقًا فى عنقى.

وقد روينا عن رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل يحب النكاح ويبغض الطلاق، فانكحوا ولا تطلقوا»، وهذا لا يصلح لمن أراد أكثر من أربع. وتزوج المغيرة بن شعبة بثمانين امرأة، وقد كان فى الصحابة من له الثلاث والأربع، وكثير منهم لا يحصى كانت له اثنتان لا يخلو منهما.

ويقال: إنّ كثرة النكاح من شدّة غضٍّ البصر، وقطع المشى. وفى الأثر: «إذا خشع الطرف وقصُر عن الحرام، وانقطع المشى على الأرض، غاضّ البصر والنفس، فاتسع فى الحلال». وذلك أنّ للنفس استراحات إلى ما جانسها، هو فتورُها عن الذكر، فاستراحات نفوس المتّقين إلى المباح، من ذلك قوله عز وجل: ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف:١٨٩]. وهذا سكون النفس إلى الجنس لما تلائمه من الصفات المجانسة، وهو أحد المعانى فى قول علىٍّ عليه السلام: روِّحوا القلوبَ تَعِى الذِّكْرَ. قيل: روِّحوها باستراحة النفس إلى المباح، يعنى: ذكر الآخرة؛ لأن للذكرَ أثقالاً، وهو بمعنى قول النبى ﷺ: «إنّ لكل عالم شِرَّةً وفَترةً، فمن كانت فترته إلى سُنّتى فقد اهتدى». والشِّرَّةُ: الجِدُّ والمكابدةُ بقوَّة وعزمٍ وحدَّةِ إرادة، وهذا يكون فى أوّل حال المريد. والفترة: هى الفتورُ والوقوفُ عن المجاهدة للاستراحة، وهذا يكون عند مَلَلِ النّفْسِ ونقصانِ الإرادة، ووَهَنِ القوّةِ عن الجدّ. ويدخل ذلك على العارفين من أصحاب رسول الله ﷺ[١].

وقد كان أبو الدرداء رضى الله عنه يقول: إنى لأستجمُّ نفسى بشىء من اللهو، لأقوى بذلك فيما بعد على الحق.

وقد كان النساء قديمًا على غير وصفهن الآن، كان الرجل إذا خرج من منزله تقول له امرأتُه: يا هذا، وتقول له ابنته: يا أبانا، لا تكسب اليوم شيئًا من غير حِلِّه فيدخلك النار، فنكون نحن سببه، فإنَّا نصبر على الجوع والضر ولا نكون

(١) من قوله: «والشِّرّة» إلى هنا من (م).

عقوبة لك. وأراد رجلٌ من السلف أن يغيب عن أهله فى غزوة، فكره إخوانه ذلك لأنسهم به، فجاؤوا إلى أهله فقالوا: لِمَ تتركين زوجك يسافر، ولا يدع لك نفقة؟ ويغيب عنك ولا تدرين متى يقدم؟ فقالت: زوجى منذ عرفته أكَّال وما عرفته قط رزَّاقًا، يذهب الأكَّال ويبقى الرزَّاق، ومع ذلك فلا أحب أن أكون مشؤومة عليه أقطعه عن سبيل الخير.

قال أحمد بن عيسى الخرَّاز لما تزوج بامرأة: على أى شىء تزوَّجتِ بى ورغبت فىَّ؟ قالت: على أن أقوم بحقك علىَّ، وأسقط حقّى عليك.

وخطبت رابعةُ بنت إسماعيل أحمدَ بن أبى الحوارى، فكره ذلك لما فيه من العبادة، فألحَّت عليه وأكثرت، فقال لها: يا هذه، ما لى همة فى النساء لشغلى بحالى. فقالت: يا هذا، إنِّى لأشغل بحالى من شُغلك بحالك، وما لى شهوة فى الرجال، ولكنّى وَرِثْتُ عن زوجى ثلاثمائة ألف دينار، وهى حلال، وأردت أن أنفقها عليك وعلى إخوانك، وأعرف بك الصالحين، فتكون طريقًا إلى الله عز وجل. فقال: حتى أستأذن أستاذى. قال: فجئت إلى أبى سليمان فذكرت قولها، وقد كان ينهانى عن التزويج ويقول: ما تزوج أحد من أصحابنا إلاّ تغيَّر، فلما ذكرتُ له ما قالت أدخل رأسه فى جيبه وسكت ساعة، ثم رفع رأسه وقال: يا أحمد، تزوَّج بها، فإن هذه وليّةٌ لله تعالى، وهذا كلامُ الصدِّيقين. قال: فتزوجتُ بها. قال أحمد: فكان فى منزلها كُرٌّ[1] من جَصٍّ، فلم يبق منه شىء فى غسل أيدى المستعجلين للخروج بعد الأكل سوى من كان يغسل يده بالأشنان فى البيت. قال: وتزوَّجت عليها بثلاث نسوة، فكانت تطعمنى من الطيبات وتطيِّبنى وتقول: اذهب بقوتك ونشاطك إلى أزواجك، فكانت هذه من أرباب القلوب. وكان الصوفية يسألونها عن الأحوال، وكان أحمد يرجع إليها فى بعض المسائل، وكانت فاضلة تُشبَّه فى أهل الشام برابعة العدوية فى أهل البصرة.

وقد كان أبو سليمان يقول فى التزويج قولاً عدلاً: مَن صبر على الشدّة فالتزويج له أفضل، والوحيد يجد من حلاوة العمل وفراغ القلب ما لا يجد

(١) الكُرُّ: مكيال لأهل العراق، يعادل أربعين إردبًا.

المتأهِّل. وقال مرةً: ما رأيتُ أحدًا من أصحابنا تزوَّج وثَبَتَ على مرتبته الأولى. وروينا عنه أنه قال: ثلاث من طلبهن فقد رغب فى الدنيا: من طلب معاشًا، أو تزوج، أو كتب الحديث.

ولعمرى إن المرأة تحتاج إلى فضل مُداراة، ولطيفة من الحكمة، وطرفٍ من المواساة، وباب من الملاطفة، واتساع صدرٍ للنفقة، وحُسن خُلُق، ولطف لَفْظٍ، وهو لا يحسنه إلا عالم حليم، ولا يقومُ به إلاّ عارف حكيم، فمن لم يقم بذلك، ولم يهتد إليه، ولم يعتدّ للنفقة، ولم يألف الجماعة، وكان قد ألف وحدته، واعتاد الانفراد بأكلته، وكان ضيق القلبِ، بخيلَ الكفِّ، سيئ الخُلُق، غليظَ القلب، فظَّ اللفظ، فالوحدةُ لهذا أصلح، والبعدُ من النساء لقلبه أروحُ، فمتى تزوَّج من هذا وصفُه عَذَّب وعُذِّب، وآذى وتأذى، وأثِمَ وآثم به؛ لأن النساء يحتجن إلى فضل حِلم يحمل سفههنّ، وإلى سَعَةِ علم يغمر جهلهنَّ، وإلى حسن لُطف وحكمة يدارى أخلاقهنّ، ويتغافل عن زَلَلهن. فإذا كان الرجل جاهلاً سفيهًا، أو كان سيئ الخلق فظًا غليظًا، اجتمع الجهلُ، فافترق العقل، وتقادح الجفاءُ، وغلُظ القلبُ، وكثُر الأذى، فأفسد أكثر مما يصلح، وتنافرا ولم يكن بينهما أبدًا صلح، وليس هو وصف العقلاء.

وأستحبُّ للرجل إذا أراد التزويج أن يشرح حاله، ويبين أخلاقه للمرأة، حتى تكون على بصيرة من أمره، ويقين من حاله، ويدخل على اختيار منها، فذلك من الورع، وقد فعله بعضُ السلف. وقد تزوّج رجل على عهد عمر رضى الله عنه، وكان يَخْضِبُ بالسّواد، فلما دخل بامرأته نصل خضابه فظهرت شيبته، فاستعدى أهل المرأة، وقالوا: نحن حسبناه شابًا، فأوجعه ضربًا، وقال: غَرَّرت القومَ، وفرَّق بينهما. وروينا عن شعيب بن حرب، لما أراد أن يتزوج قال للمرأة: إنّى سيّئ الخلق، فقالت: يا هذا، أسوأ خلق منك مَن يُحوجك إلى سوء الخلق.

وروينا ضد هذا أنّ رجلاً أراد أن يتزوج فقال للمرأة: إن لى أخلاقًا أُوقفك عليها، فإن رضيت بها تزوجتك. فقالت: افعل. فقال: أنا رجلٌ ملول حقودٌ، سيئُ الظن غيور، ضيق الصدر، واسعُ الضرب، إن أكْثرتِ عندى أمْلَلْتِنى، وإن

أبعدت أقْلَقْتنى، وإن تكلمت أوغرت صدرى، وإن سكتٍّ أشغلت قلبى. فقالت المرأة: أما بعد، فقد ذكرتَ من نفسك أخلاقًا ما كنا نرضاها لبنات إبليس، فكيف نرضاها لبنات آدم، انصرف راشدًا لا حاجة لنا بك.

ومن خشى على نفسه الآفات ووُفِّق له امرأة فيها بعض الخصال المحمودة، فالتزويجُ له أفضل، فليكن له حينئذ فى التزويج نيّات، لأنه من أكبر الأعمال، ولا يكون نكاحه لأجل هواه مجردًا، فقد قال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه: إذا وافق الحقُّ الهوى فذلك الزُّبد بالنِّرْسِيانِ(١). فلتكن نيتُهُ إقامةَ سنةٍ، وصلاحَ قلبٍ، وسلامة دينهِ، وغضَّ بصره، وتحصين فرجه، فقد أُمر بذلك، ويحتسب فى الكسب على العيال التوبة من الله عز وجلّ، ويحتسب مثل ذلك فى نصحه لها فى أمر الآخرة كما يحبه لنفسه، حتى يؤجر بسببها مثل ما يثاب لنفسه، فهو من النصيحة لها والإشفاق عليها، وليجعل ذلك لوجه الله سبحانه، فقد رُوى عن النبى ﷺ: «ما أنفق الرجل على أهله فهو له صدقةٌ، وإن الرجل ليُؤجر فى رفع اللقمة إلى فىِّ امرأته». ومنها: أنه كالمجاهد فى سبيل الله.

وقال رجل لبعض العلماء وهو يعدد نعم الله عز وجل عليه: من كلٍّ عمل قد أعطانى الله تعالى نصيبًا، حتى ذكر الحج والجهاد وصنوف العبادات، فقال له العالِم: فأين أنت من عمل الأبدال؟ قال: وما هو؟ قال: كسبُ الحلال، والنفقةُ على العيال.

وقال ابن المبارك لإخوانه وهم فى الجهاد: تعلمون عملاً أفضل مما نحن فيه؟ قالوا: ما نعلم، ذاك جهاد فى سبيل الله، وقتال لأعدائه، أى شىء أفضل منه؟! قال: لكنى أعلم، قالوا: ما هو؟ قال: رجل متعففٌ ذو عيلة، قام من الليل فنظر إلى صبيانه نيامًا متكشفين، فستَرهم وغطَّاهم بثوبه، فعمله هذا أفضل من جهادنا فى سبيل الله عز وجل.

وقال رجل لبشر: قد أضرنى الفقر والعيال فادعُ الله لى. فقال له بشر: إذا قال لك عيالك: ليس عندنا خبز ولا دقيق ونحن جياع، فادعُ الله لى أنت ذلك

(١) النِّرسيان: من أجود أنواع التمر.

الوقت، فإن دعاءك أفضل من دعائى.

وقد روى عن النبى ﷺ: «مَن حسنت صلاته، وكَثُر عياله، وقلَّ ماله، ولم يغتب المسلمين، فهو معى فى الجنة كهاتين». وفى حديث آخر: «إن الله تعالى يحب الفقير المتعفف، أبا العيال».

ومن النية فى ذلك أنّ الاهتمام بمصلحتهم والغمَّ على نوائبهم زيادةٌ فى حسناتهم؛ لأنه عمل من أعماله. وفى الخبر: «إذا كثُرت ذنوب العبد ابتلاه الله تعالى بالهمِّ ليكفِّرها». وقال بعض السلف: من الذنوب ذنوب لا يكفِّرها إلا الغمُّ بالعيال. وقد روينا: «إن من الذنوب ذنوبًا لا يكفرها إلا الهمُّ بطلب المعاش».

وله فى الصبر عليهن، وجميل الاحتمال لأذاهنَّ، وفى حُسن العشرة لهنَّ، مثوبات وأعمالٌ صالحات، وربما كان موتُ العيال عقوبةً للعبد ونُقصانَ حَظٍّ، إذا كان الصبر عليهن والإنفاق مقامًا له، كان عدمُ ذلك مفارقةً لحاله فنقص به.

وحدثنا بعض العلماء: إن بعض المتعبِّدين كان له زوجة، وكان حسن القيام عليها، إلى أن توفيت، فعرض عليه إخوانه التزويج، فامتنع وقال: إن الوحدة أروحُ لقلبى وأجمع لهمِّى. قال فرأيت فى المنام بعد جُمعةٍ من وفاتها كأن أبواب السماء قد فُتحت، وكأن رجالاً ينزلون ويسيرون فى الهواء يتبعُ بعضُهم بعضًا، وكلما نزل واحد نظر إلىَّ فقال لمن وراءه: هذا هو المشؤوم، فيقول: نعم. ويقول الثالث لمن وراءه: هذا هو المشؤوم، فيقول الرابع: نعم. قال: فراعنى ذلك وعظُم علىَّ، وهبتهم أن أسألهم، إلى أن مرَّ بى آخرهم، وكان غلامًا، فقلتُ له: يا هذا، مَن المشؤوم الذى تومؤون إليه؟ قال: أنت. قلتُ: ولِمَ ذلك؟ قال: كنا نرفع أعمالك فى أعمال المجاهدين فى سبيل الله تعالى، فمُذ جمعة أمرنا أن نضعها فى أعمال المخالفين، فما أدرى ماذا أحدثت؟ فقال لإخوانه: زوِّجونى، زوِّجونى، فلم يكن يفارقه زوجة أو زوجتان أو ثلاث.

وربما كانت النفسُ الأمارة أضرَّ على العبد من أربع نسوة، وإنّما كرِهَ مَن كره الأهل والولد لأجل الشغل بهم عن الله تعالى وما قرَّب إليه، فإذا كان مَن لا أهل له ولا ولد مشغولاً ببطالته عن الله عز وجل، منهمكًا فى شهواته عن سبيل

هؤلاء، كان أسوأ حالاً من ذى الأهل والولد، وقد جُعل من لا يطلب الأهل والمال للكفاف به والإفضال منه فى الوصْف المكروه، فى خبرٍ رُوِى: «إنّ من أهل النار الضعيفَ الذى لا دِين له، هو فيكم تبعٌ، لا يبغون أهلاً ولا مالاً». قيل: هم السُّؤَّال المنهومون فى المسألة، الذى همه بطنه، لا يبالى كيف طلب، ولا على أى حال من الفُحش تقلَّب. فمن لم يشغله أهلُه وماله عن الله عز وجل كان أفضل ممن لا أهل له ولا ولد، فهو عبد بطنه وفرجه، وأسيرُ هواه وشهوته. وقد أخبر الله تعالى أنّ للمؤمنين أموالاً وأولادًا، ثم أمرهم أن لا يشغلهم ذلك عن الله عز وجل. وقد وصف أقوامًا بأن بَيْعهم وتجارتهم لا تشغلهم عن عبادته، وأنهم أهلُ خوفٍ من يوم تتقلَّب فيه القلوب والأبصار. وقد مدح قومًا سألوه الأزواج والذرية، وجعل ذلك فى وصفهم فى قوله عز وجل: ﴿**يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ**﴾ [الفرقان: ٧٤]. وقرة أعين لا يشغل ولا يحجب عن قرة العين بل يكشف عنه ويقرب منه. كما قال النبى ﷺ: «حُبِّب إلىَّ من دُنياكم الطِّيب والنساء، وجُعل قرة عينى فى الصلاة».

وقد كان أبو سليمان يقول: إنما تركوا التزويج لتتفرغ قلوبهم لذكره. ورويناعن ابن أبى الحوارى الحديث الذى رواه عن حبيش عن الحسن: «إذا أراد اللهُ بعبدٍ خيرًا لم يشغله بأهلٍ ولا مال». قال أحمد رضى الله عنه: فناظرنا فى هذا الحديث جماعة من العلماء، وإذا ليس معناه أنه لا يكون له امرأة ولا ولد، ولكن يكونون له ولا يشغلونه.

وإنما يحسن ترك النكاح لمشغولِ الهمِّ عن الفكر فيه، ذى نفس مطمئنة، وعينٍ خاشعة لرب ذى سكينة وقلبٍ ذى خشية، كما حدثونا عن داود الطائى أنه قال: منذ خمسين سنة ما خالط ذَكَرى ريح. وقيل لبعضهم: هل دخَل ذَكَرَك ريحٌ بشهوة؟ فقال: أما منذ قرأت القرآن فلا. وقال بعض العلماء: منذ عشرين سنة ما وقع نظرى على فرجى.

فأما بطَّالٌ ذو نفسٍ أمارة، ونظرة ثاقبة، وشهوةٍ قوية، فالنّكاح من أحسن

أعماله، وأرفع أحواله؛ لأن المباح مقام من لا مقام له.

فإن عزم العبد على النكاح فلا يكون همُّه من النساء إلا ذات الدين والصلاح، والعقل والقناعة. فليس تخلص له النيات التى ذكرناها آنفًا إلا على هذه القواعد. قال رسول الله ﷺ: «تُنكح المرأة لمالها، وجمالها، وحسبها، ودينها، فعليك بذات الدين». وفى لفظ آخر: «من نكح المرأة لمالها وجمالها حُرِم مالها وجمالها، ومن نكحها لدينها رزقه الله عز وجل مالها وجمالها». وروينا أيضًا: «لا تنكحوا المرأة لجمالها فلعل جمالها يُرديها، ولا لمالها فلعل مالها يُطغيها، وانكحوا المرأة لدينها». فنكاح المرأة للدين والصلاح طريقٌ من الآخرة.

والرغبةُ فى المرأة الناقصة الخَلْق، الدنيئة الصورة، الكبيرة السن؛ بابٌ من الزهد. وقد كان أبو سليمان يقول: الزهد فى كل شىء حتى يتزوج الرجلُ العجوزَ أو غيرَ ذات الهيئة إيثارًا للزهد فى الدنيا. وكان مالك بن دينار يقول: يترك أحدهم أن يتزوج يتيمة فيُؤجر فيها إن أطعمها وكساها تكون خفيفة المؤونة ترضى باليسير، ويتزوج بنت فلانٍ وفلان؛ يعنى أبناء الدنيا، فتشتهى الشهوات عليه، وتقول: اكسنى ثوب كذا، واشتر لى مرط حريرٍ، فيتمرط دينه.

وقد اختار أحمد بن حنبل رضى الله عنه امرأة عوراء على أختها، وكانت أختها صحيحة جميلة، فسأل: من أعقلهما؟ قيل: العوراء. فقال: زوجونى إياها. وقد يكون فى تزويج المرذولة المجذوعة فيه بأن يرفع قلبها إذ لا يُرغب فى مثلها.

وأستحب له أن ينظر إلى وجهها قبل التزويج بها، وإلى ما يدعوه إليها، فإن ضمّ إلى الوجه الكفين فلا بأس بذلك عند علماء الحجاز. ففى النظر إلى الوجه أحاديث مأثورة؛ منها حديث محمد بن مسلمة قال: رأيته يتبع النظرة فتاةً فى الحى حتى توارت بالنخل، فقلت له: تفعل هذا وأنت من أصحاب رسول الله ﷺ؟ فقال: رسول الله ﷺ أمرنا بهذا، قال: «إذا أوقع الله عز وجل فى قلب أحدكم خِطبةَ امرأةٍ فلينظر إليها ليرى منها ما يدعوه إليها». وفى الحديث الآخر: «إن فى أعين الأنصار شيئًا، فإذا أراد أحدكم أن يتزوج منهن فلينظر إليهنّ». وفى

لفظ آخر: «إذا وقع فى نفس أحدكم من امرأة شىء فلينظر إليها فإنه أحرى أن يُؤْدَمَ بينهما». يعنى يؤدم: وقوع الأُدمة على الأُدمة، وهو أبلغ من البَشَرة؛ لأن البَشَرةَ ظاهرُ الجلد، والأُدمةَ باطنُه. جاء هذا فى المبالغة على ضرب المثل.

وقد كان الأعمش يقول: كل تزويج يقع عن غير نظر يكون آخره غمًّا وهمًّا.

ولا يغالى فى المهر. فقد تزوج رسول الله ﷺ بعض نسائه على عشرة دراهم وأثاث البيت؛ وكان رَحَى يد، وجرَّة، ووسادة من أُدم حشْوها ليف. وأولَمَ على إحدى نسائه بمُدَّين من شعير، وعل أخرى بمدَّى تمر. فالوليمةُ سنّةٌ وترك الإجابة إليها معصية. وقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ينهى عن المغالاة بمهور النساء ويقول: ما تزوج رسولُ الله ﷺ امرأةً من نسائه ولا زوَّج على أكثر من أربعمائة درهم.

وروينا عن عائشة رضى الله عنها: كانت مهور أزواج رسول الله ﷺ اثنى عشرة أوقية ونصفًا. وقد كان يزوج أصحابه على وزن نواةٍ من ذهب؛ والنواة صغيرة وهى نواة التمر الصَّيْحانى، يقال: قيمتها خمسة دراهم.

وفى خبر: زوج رسول الله ﷺ بعض أصحابه على نواة من ذهب قُوِّمت بثلاثة دراهم وثلث. وقد زوج سعيد بن المسيب، وهو من خيار التابعين وعلمائهم، ابنته من أبى هريرة على درهمين، ثم حملها هو إليه ليلاً. ولا أكره التزويج على عشرة دراهم، وهو أكثر الاستحباب فى القلة؛ ليخرج من اختلاف العلماء، ولا أستحبّ أن ينقص المهر عن ثلاثة دراهم؛ وهذا هو القول الأوسط من مذاهب الفقهاء، وفى هذه القيمة تُقطع يد السارق؛ وهذا مذهب بعض أهل الحجاز. وقد روينا: «أبركهن أقلهنَّ مهرًا». وروينا أيضًا: «من بركة المرأة سرعةُ تزويجها وسرعة رَحِمها ـ يعنى الولادة ـ ويسر مهرها». قال عروة: وأقول: فإن من شؤمها كثرة صداقها.

ولا يصلح للمتزوج أن يسأله أى شىء للمرأة، ولا يحل له أن يدفع شيئًا ليأخذ أكثر منه، ولا يحل لهم أن يهدوا إليه شيئًا ليضطروه أن يكافئ بأكثر منه، وليس عليه أن يزيد بأكثر من قيمته إن كافأ، وله أن لا يقبل هديتهم إن علم ذلك

منهم[١]، وهو داخلٌ فى الآيتين من النهى والخبر. قوله فى النهى: ﴿ولا تَمنُنْ تَسْتَكثِرُ﴾ [المدثر:٦] أى: لا تعطِ تطلب أكثر. وقوله: ﴿وما آتَيْتُم مِن رِبًا لِيَرْبُوَ فى أموالِ النَّاسِ﴾ [الروم:٣٩]. الربا: الزيادة، تطلبوا أكثر منه[٢].

هذا كله بدعة فى النكاح محدثٌ، وهو كالتجارة فى التزويج، وهو داخل فى الربا، وهو يشبه القمار. ومَن زوَّج أو تزوَّج على هذا بهذه النية فهى نية فاسدة، وليس نكاحه هذا للدين ولا للآخرة. وكان الثورى يقول: إذا تزوّج الرجل وقال: أى شىء للمرأة؟ فاعلم أنه لصّ، فلا تزوِّجوه.

ولا يُنكَح إلى مبتدع، ولا فاسق، ولا ظالم، ولا شارب خمر، ولا آكل الربا. فمن فعل ذلك فقد ثُلِمَ دينه، وقُطع رحمه، ولم يحسن الولاية والحيطة لكريمته؛ لأنه ترك الاختيار لها. وليس هؤلاء أكفاء للحرة المسلمة العفيفة، وعليه للمرأة فى نفسها مظلمة،ولها عليه فى الآخرة مطالبة، إذا لم يحسن النظر إليها فى نفسها[٣].

وقد قال بعض السلف: النكاح رِقٌ فلينظر أحدكم عند مَن يرق كريمته. وقال بعضهم: لا تنكح إلا الأتقياء، فإنه إن أحبها أكرمها، وإن أبغضها أنصفها. وقال رسول الله ﷺ: «تخيَّروا لنطفكم، وأنكحوا الأكفَّاء وأنكحوا إليهم»، ولا نكاح إلاّ بولىٍّ وشاهدى عدل، وإن كانت ثيِّبًا فإن لم يكن ولىٌّ فالسلطان ولىُّ من لا ولى له، أو مَن ولاه الحكم. كذلك السنة.

وليتعلم المتزوِّج علم الحيض، واختلاف أوقاته، وزيادته ونقصانه، وأحكام الاستحاضة من ذلك، وعلم وقت الأطهار، ليعلِّمها ذلك، وليغنيها بذلك عن السؤال، والظهور إلى الرجال، ثم ليعلِّم أهله علم ما لا يسعهم جهله من الفرائض، وأحكام الصلاة، وشرائع الإسلام، واعتقادات المؤمنين من السنة، وما عليه من مذهب الجماعة؛ فإذا فعل ذلك لم يكن عليها أن تخرج إلى العلماء، وإن قصَّر عن تعليمها علم التوحيد ومبانى الإسلام وعقود الإيمان ومذهب أهل

(١) أين نحن الآن من هذه الأخلاق؟!

(٢) من قوله: «وهو داخل» إلى هنا ساقط من المطبوعة، وهو من (م).

(٣) من قوله: «وعليه للمرأة» إلى هنا ساقط من المطبوعة، وهو من (م).

السنة، فلها أن تخرج إلى السؤال عمّا لا يسعها جَهْلُه، وليس أن تخرج بغير إذنه لطلب علم يُرجى فضله، وليس للمرأة أن تحمل زوجها على المكاسب الحرام، ولا تكلفه ما يقترف به الآثام، ولا للرجل أن يدخل فى مداخل السوء، ولا يبيع آخرته بدنياه، فإن صبرت معه على البرِّ والتقوى أمسكها، وإن حملته على الإثم والعدوان فارقها، وإن يتفرقا يُغنِ الله كلاً من سعته. ويقال: أول من يتعلق بالرجل يوم القيامة زوجته وولده، فيوقفونه بين يدى الله عز وجل فيقولون: يا ربنا خذ لنا حقنا من هذا، فإنه ما علّمنا ما نجهل، وكان يطعمنا الحرام ونحن لا نعلم. قال: فيقتص لهم منه. وفى خبر: إن العبد ليوقف للميزان، وله من الحسنات أمثال الجبال، فيسأل عن رعاية عياله والقيام بهم، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، حتى تستفرغ تلك المطالبات جميع أعماله، فلا يبقى له حسنة، فينادى الملائكة: هذا الذى أكل عيالُه حسناته فى الدنيا، وارتُهن اليوم بأعماله. فلهذا قال بعض السلف: إذا أراد الله بعبد شرًا سلَّط عليه فى الدنيا أنيابًا تنهشه؛ يعنى العيال.

وروينا فى الخبر: «لا يلقى الله عبدٌ بذنب أعظم من جهالة أهله». والخبر المشهور: «كفى بالمرء إثمًا أن يضيِّع مَن يَعول». وروى: «إنّ الآبق من عياله كالعبد الآبق من سيّده، لا يُقبل له صلاة ولا صيام حتى يرجع إليهم».

وقد قال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم:٦]، فأضاف الأهل إلى النفس، وأمرنا أن نقيهم النار بتعليم الأمر والنهى، كما نقى أنفسنا النار باجتناب النهى. وجاء فى تفسير ذلك: علِّموهنّ وأدِّبوهنّ. وقال النبى ﷺ: «كلكم راعٍ وكلكم مسؤولٌ عن رعيته؛ فالمرأة راعية على مال زوجها وهى مسؤولةٌ عنه، والرجل راعٍ على أهله وهو مسؤولٌ عنهم». ويقال: إذا أنفقت المرأةُ من مال زوجها بغير إذنه، لم تزل فى سخط الله عز وجل حتى يأذن لها، ولا يحل لها أن تطعم من منزله إلا الرّطب الذى يخاف فساده، فإن أطعمت وأنفقت عن إذنه ورضاه كان لها مثل أجره، وإن أطعمت بغير إذنه كان له الأجر وعليها الوزر.

وينبغى أن يعرِّفها عِظَم حقه عليها، فإنه يقال: ليس شىءٌ يستوجب حق الأبوين إلاّ الزوج. وقد أقام النبى ﷺ الزوج مقام الوالدة بقوله للمرأة: «عليك بطاعة زوجك، فإنه جنتك ونارك». وقال ﷺ: «أيّما امرأة ماتت وزوجها عنها راضٍ دخلت الجنة». وكان رجل قد خرج فى سفر وعهد إلى امرأته أن لا تنزل من العلو إلى سُفل الدار، وكان أبوها فى السُّفل، فمرض أبوها، فأرسلت المرأة تستأذن أن تنزل إلى أبيها، فقال رسول الله ﷺ: أطيعى زوجك. فمات أبوها فاستأذنت رسول الله ﷺ أن تنزل إليه، فقال: أطيعى زوجك. فدُفن أبوها. قال: فأرسل إليها رسول الله ﷺ يخبرها أنّ الله قد غفر لأبيها بطاعتها زوجها.

وقال ﷺ: «إذا صلت المرأة خمسها، وصامت شَهْرها، وحفظت فَرْجَها، وأطاعت زَوْجها، دخلت جنةَ ربِّها». فأضاف طاعة الزوج إلى أبنية الإسلام التى لا يدخل الجنة إلاّ بها، واشترط طاعته لدخولها.

وذكر رسول الله ﷺ النساء فقال: «حاملاتٌ والداتٌ مرضعاتٌ رحيماتٌ بأولادهن، لولا ما يأتين إلى أزواجهن دَخَلَت مصلِّياتهن الجنة». وقال ﷺ: «اطَّلعتُ فى النار فرأيت أكثر أهلها النّساء، واطلعتُ فى الجنة فرأيتُ أقلّ أهلها النساء فقلت: أين النساءُ؟ فقيل: شغلَهن الأحمران الذهب والزعفران»، يعنى الحلى، ولبس المصبغات، كانت العرب مشتهرة بذلك. وقال ﷺ: «تَصدَّقنَ من حُلِّيكنَّ فإنى رأيتكُنَّ أكثر أهل النار». قلن: لِمَ يا رسول الله؟ قال: «تُكْثِرنَ اللّعنَ وتَكفُرْنَ العشِير» يعنى الزوج المعاشر، تكفرن نعمته عليكن.

روينا عن أم عبد المغنية عن عائشة رضى الله عنها قالت: «أتت فتاة إلى النبى ﷺ فقالت: يا رسول الله، إنىّ فتاة أُخطب وإنّى أكره التّزويج، فما حقُّ الزوج على المرأة؟ فقال: لو كان من فَرَقه إلى قَدَمِه صَديدًا فلحسته ما أدّت شُكره. قالت: فلا أتزوج. قال: بلى فتزوجى فإنه خير».

فهذا مجمل خبر الخثعمية الذى فُسِّر فيما روينا عن عكرمة عن ابن عباس: أن امرأة من خثعم أتت النبى ﷺ فقالت: إنّى امرأة أيِّم، وإنى أريد أن أتزوج، فما حق الزوج؟ فقال: إن من حق الزوج على الزوجة إذا أرادها على نفسها وهى

على ظهر بعير أن لا تمنعه.

وفى الخبر الجامع لفضائل الزوج: أنّ النبى ﷺ قال: «لو أمرتُ أحدًا أن يسجد لشىء سوى الله تعالى لأمرتُ المرأة أن تسجد لزوجها من عِظَم حقه عليها».

ومن حقه أن لا تعطى شيئًا من بيته إلاّ بإذنه، فإن فعلت ذلك كان الإثم عليها والأجر له. ومن حقه أن لا تصوم تطوعًا إلا بإذنه، فإن فعلت جاعت وعطشت ولم يُقبل منها. ومن حقه أن لا تخرج من بيتها إلا بإذنه، فإن فعلت لعنتها الملائكة حتى ترجع إلى بيتها أو تتوب. وينبغى أن تعرض نفسها عليه فى كل ليلة.

وروينا عن رسول الله ﷺ: «أقرب ما تكون المرأة من وجه ربها عز وجل إذا كانت فى قعر بيتها، وإن صلاتها فى صحن دارها أفضل من صلاتها فى المسجد، وصلاتها فى بيتها أفضل من صلاتها فى صحن دارها، وصلاتها فى مخدعها أفضل من صلاتها فى بيتها». والمخدع: بيت فى بيت، وذلك أنها عورة، فما كان أستر لها فهو أسلم، والأسلم هو الأفضل، كيف وقد روى أن المرأة عورة، فإذا خرجت استشرفها الشيطان. وفى حديث غريب: «إنّ للمرأة عشر عورات. فإذا تزوجت ستر الزوج عورةً واحدة، فإذا ماتت ستر القبرُ عشر عورات».

وجامعُ حقِّ المرأة على الرجل ما سُئل عنه رسول الله ﷺ، فقيل: ما حقُّ المرأةِ على زوجها؟ فقال: «يطعمها إذا طَعِم، ويكسوها إذا اكْتَسى، ولا يقبِّح الوجه، ولا يضرب إلا ضربًا غير مبرِّح، ولا يهجر إلاّ فى البيت»[1].

فإن أمرها بما يصلحها مما أبيح لهما فخالفته وعظها وزجرها، فإن عادت لخلافه هجرها فى المضجع. فبعض العلماء يقول: يولِّيها ظهره، وبعضهم يقول: يعتزل فراشها فى ليلة إلى ثلاث إلى سبع ليال، فإن لم ينجح فيها ذلك ولم تبال به ضربها، والعلماء يقولون: ضربًا غير مبرِّح. وتفسيره: أن لا يكسر لها عظمًا، ولا يُدمى لها جسمًا، وله أن يغضب عليها فى الأمر من أمور الدين من عشرة أيام إلى شهر، فقد غضب رسول الله ﷺ شهرًا فى كلام كلَّمه بعضُ أزواجه، فأرسل بهدية إلى بيت زينب فردَّتها عليه، فقالت له التى هو فى بيتها: لقد أَقْمَتَك إذ

(١) من أول هذه الفقرة ساقط من المطبوعة.

ردت عليك هديتك. فقال ﷺ: «أنتنَّ أهون على الله أن تُقْمِيننى، ثم غضب عليهنّ كلّهن شهرًا». ومعنى أقمَتك: استصغرتك وأذلّتك. فهذه كلمة من الاتباع، تقول العرب: أذللته وأَقْمَيته، ويقولون: لتفعلن كذا صاغرًا قَميًّا، وما زال كذلك حتى ذلّ وقَمِى، فيبتغون بهذه الكلمة السبَّ بالتصغير والتذلل، للمبالغة فى الوصف.

ولا ينبغى أن يقتّر على أهله فى الإنفاق. وروينا عن رسول الله ﷺ: «خيركم خيركم لأهله». وكان لعلىٍّ عليه السلام أربع نسوة، وكان يشترى لكل واحدة فى كل أربعة أيام بدرهم لحمًا. وقال الحسن: كانوا فى الرحال مخاصيب، وفى الأثاث والثياب تقارب. وقال ابن سيرين: أستحب للرجل أن يعمل لأهله فى كل شهر فالوذجة، وإن كانت من أهله زلّة أو هفوة احتمل ذلك، ورفق بها ولم يَعْسِفْها. وفى الحديث: «خُلقت المرأةُ من ضلع أعوج إن قوَّمته كسرته، وإن تركتها استمتعت بها على عوج». وفى لفظ حسن: «وكَسْرها طلاقها».

وقد كان أزواج النبى ﷺ يراجعنه القول، وتهجره إحداهنّ يومًا إلى الليل، ودفعت إحداهن فى صدره، فزجرتها أمها، فقال: دعيها، فإنهن يصنعن أكثر من هذا.

وجرى بينه وبين عائشة رضى الله عنها كلامٌ حتى أدخل أبا بكر رضى الله عنه بينهما حكَمًا واستشهده، فقال لها رسول الله ﷺ: «تكلَّمين أو أتكلم»، قالت: بل تكلم أنت، ولكن لا تقل إلاّ حقًا، فلطمها أبو بكر رضى الله عنه حتى دَمِىَ فُوها وقال: أى عدوّة نفسها، أوَ يقولُ غير الحقّ؟ بل أنت وأبوك تقولان الباطل، ولا يقول رسولُ الله ﷺ إلاّ حقًا، نصرةً لرسول الله ﷺ وغضبًا له، حتى استجارت بالنبى ﷺ، وقعدت خلف ظهره، فقال له النبى ﷺ: «لم نَدعُك لهذا، ولم نُرد هذا منك».

وقالت له مرة فى كلام غضبت عنده: أنت الذى تزعم أنك نبى؟ فتبسم رسولُ ﷺ حلمًا وكرمًا. وكان رسول الله ﷺ يقول لعائشة رضى الله عنها: إنّى لأعرف غضبكِ من رضاكِ. قالت: وكيف تَعرِفُ ذلك؟ قال: إن رضيتِ قلتِ: لا وإله

محمد، وإذا غضبتِ قلتِ: لا وإله إبراهيم. قالت: صدقتَ، إنما أهجر اسمك.

وقد كان ﷺ يمزح مع أزواجه، ويقاربهن فى عقولهنّ فى المعاملة والأخلاق. وفى الخبر: «كان رسول الله ﷺ من أفكه الناس مع نسائه». وقد كان لقمان الحكيم يقول: العاقل فى بيته ومع أهله كالصبى، فإذا كان فى القوم وُجد رجلاً. وفى تفسير الخبر المروى: «إنّ الله يبغض الجعظرى الجواظ» قيل: هو الشديد على أهله، المتكبر فى نفسه. وفى أحد المعانى فى قوله عز وجلّ: ﴿**عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ**﴾ [القلم: ١٣]. قيل: الفظُّ اللسان الغليظ القلب على أهله، وما ملكت يمينه. وروينا فى الخبر: «غَيرة يبغضها الله عز وجل: غيرة الرجل على أهله فى غير ريبةٍ»، كأنه يكون من سوء الظن الذى نَهَى الله عز وجل ورسوله عنه.

وروينا عن علىٍّ رضى الله عنه: لا تكثر الغيرة على أهلك فتُرمَى بالسوء من أجلك. ولعمرى إن الغيرة لها حدٌّ، فإذا جاوزها الرجلُ قصَّر عن الواجب، وزاد على الحق. وقد كان الحسن يقول: أتدعون نساءكم يزاحمن العلوج فى الأسواق، قبَّح الله مَن لا يغار. وقد قال ابن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ: «لا تمنعوا إماءَ الله مساجد الله»، فقال بعض ولده: بلى واللهِ نمنعهنّ، فضربه وغضب عليه وقال: تسمعنى أقول: قال رسولُ الله ﷺ: لا تمنعوهن وتقول: بلى نمنعهنّ؟ وقد قال الله عز وجل: ﴿**قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا**﴾ [الطلاق: ٣].

وقال بعض الحكماء: من جاوز الشيء المذموم كمن قصَّر عنه.

فلا بأس بالحرة العفيفة أن تخرج لشىء لا بد لها منه من قضاء حوائجها، قال رسول الله ﷺ: «أُذنَ لكُنَّ أن تخرجن فى حوائجكن، كذلك تخرجن فى الأعياد خاصةً»، أطلق ذلك لهنّ رسول الله ﷺ ولكن لا يخرجن إلا بإذن أزواجهن وعن رضاهم. ولا يخرجن أيضًا إلا فيما يعنى مما لا بدّ منه، ومهما استغنين عن الخروج وأنْ لا يراهن رجل فهو أفضل لهنّ، وأصلح لقلوبهنّ. وروينا أن رسول الله ﷺ قال لابنته فاطمة عليها السلام: «يا بنية، أى شىء خيرٌ للمرأة؟ فقالت: أنْ لا ترى رجلاً ولا يراها رجل، فضمها إليه، وقال: ذرية بعضها من بعض».

وكان أصحاب رسول الله ﷺ يسدُّون الثقب والكوَى فى الحيطان؛ لئلا يطلع النسوان. وروينا أن معاذًا رأى امرأة تطَّلع من كُوَّة فى الجدار فضربها. وأنَّ امرأته دفعت إلى غلامٍ لها تفاحةً قد أكلت بعضها فضربها. وقد كان عمر يقول: أعرُوا النساء يلزمنَ الحِجال. وقال أيضًا: عَوِّدُوا نساءَكم لا. وتكلم مرةً فى شيءٍ من الأمر، فأخذت امرأته تراجعه فى القول فزبَرَها، وقال: ما أنت لهذا، إنما أنت لعبةٌ فى جانب البيت، إن كانت لنا إليك حاجةً وإلا جلست كما أنت.

وهو مأجورٌ على احتماله هفوات أهله وصبره على أذاهنّ، ومثاب على حُسن عشرتهنّ. وقد كان محمد ابن الحنفية يقول: ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف مَن لا يجد من معاشرته بدًا، حتى يجعل الله له منه فرجًا ومخرجًا. فإن كانت بذيئة اللسانِ، قليلةَ القبول، عظيمة الجهل، كثيرة الأذى، فطلاقها أسلم لدينهما، وأروح لقلوبهما فى عاجل دنياه وآجل آخرته. وقد شكا رجلٌ إلى رسول الله ﷺ بذاء امرأته، فقال له: طلِّقها، فقال: إنى أحبها. قال: أمسكها إذًا، فخشى عليه تشتُّتَ همِّه بفراقها مع المحبة، وتشتُّتُ الهمِّ أعظم من أذى الجسم.

وفى معنى قوله عز وجل: ﴿**لاَ تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلاَ يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ**﴾ [الطلاق:١]. قال ابن مسعود: إذا بَذَت على أهلها وآذت زوجها فهو فاحشةٌ. وهذا يعنى به فى العدّة، لأن الله يقول: ﴿**أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ**﴾ [الطلاق:٦]، فهو متصل بقوله: ﴿**وَأَحْصُوا العِدَّةَ واتَّقُوا اللهَ رَبَّكُم لاَ تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ**﴾ [الطلاق:١] أى فى العدة. ومن الناس من يظن أن الطلاق محظورٌ يتأول هذه الآية على غير تأويلها، فالطلاقُ مباح إلاّ أنه مكروه بغير سبب لتفرقة الألفة. وقد يروى فى خبر: «ما أحل الله شيئًا أبغض إليه من الطلاق».

ولا بأس أن تفتدى المرأة من زوجها إذا خافت أن لا تقيم حدود الله فيه، ولا تقوم بواجب حقوقه عليها، وأكره أن يأخذ فى الفدية أكثر مما أعطاها، وقد قال الله تعالى: ﴿**فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ الله فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ**﴾ [البقرة:٢٢٩]. وهذا هو الخُلع الجائز عند أكثر العلماء. ولا يحل لامرأة أن تسأل

زوجها طلاقها، ولا أنْ تختلع منه بغير رضاه، قال رسول الله ﷺ: «أيُّما امرأة سألت زوجها طلاقها من غير بأس لم ترح رائحةَ الجنة». وفى لفظ آخر: «فالجنة عليها حرام». وقال: «المختلعات هنَّ المنافقاتُ».

والنّشوز قد يكون من الزوجين معًا، إلاّ أنه أُبيح للزوج ضربها فى النّشوز، وأُبيح لها الصلح فى نُشوز الزوج، قال الله عز وجل: ﴿**والصُّلْحُ خَيْرٌ**﴾ [النساء:١٢٨]. وأصلُ النشوز أن يعلو أحدهما على صاحبه ويرتفع عنه، كأنه يجفو عليه ويجتنبه، فيكون فى نحوٍ غير نحوه، فيكون من هذا الكلام الفاحش، ويكون منه الأذى، ويكون منه الهجر والانفراد، ويحكِّم الحكَمان فى هذا، أحدُهما من أهله والآخر من أهلها، يعدلون وينظرون فيما بينهما. وقد وعد الله عز وجل الغنى مع الفُرقة، كما وعده مع النّكاح، فقال: ﴿**وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللهُ كُلاً مِنْ سَعَتِه**﴾ [النساء: ١٣٠]. كما قال: ﴿**وَأَنْكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُم وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِنْ فَضْلِه**﴾ [النور:٣٢]. فقد يكون الغنى بالمال، ويكون بأن يستغنى كلٌّ واحد منهما عن صاحبه بما خصَّه الله عز وجل من خفيٍّ لطفه.

وجاء فى خبر: «ثلاث لا يُستجاب دعوتهم: رجلٌ له امرأة سوءٌ يقول: أراحنى الله منك، وقد جعل الله الطلاق بيده إن شاء طلّق، والآخر فى المملوك السوء، وجار السوء».

ولْيُحسن الرجلُ عشرة أهله والقيام بهنّ، فقد قال الله تعالى: ﴿**فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً**﴾ [النساء:٣٤] أى لا تطلبوا طريقًا إلى الفُرقة، ولا إلى خصومة ومكروه، وهذه حينئذ على صورة الأنفس المطمئنة، إذا استجابت للإيمان وطوَّعت لك إلى أخلاق المؤمنين فتولَّها من الإرفاق، وارفق بها فى منالها من المباح. وقد شبه الله عز وجل حُسن القيام على الزوجة بحسن القيام على الوالدين، فقال فيهما: ﴿**وَصَاحِبْهُمَا فِى الدُّنْيَا مَعْرُوفًا**﴾ [لقمان:١٥]. وقال فى أمر النساء: ﴿**وَعَاشِرُوهُنَّ بِالمَعْرُوف**ِ﴾ [النساء:١٩]. ثم أجمل فى النساء ما فرَّقه من حق الزوج فى كلمة واحدة فقال: ﴿**وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالمَعْرُوفِ**﴾ [البقرة:٢٢٨].

وقال في عظيم حقهن: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢١]. وقال عز وجل: ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾ [النساء: ٣٦]. قيل: هي المرأة.

وآخر ما أوصى به رسولُ الله ﷺ ثلاثٌ كان يتكلم بهنّ حتى تلجلج لسانُه وخفي كلامُه، جعل يقول: «الصلاةَ الصلاةَ، وما ملكت أيمانُكُم، لا تكلّفوهم ما لا يطيقون، واللهَ اللهَ في النساء، فإنهنّ عَوارٍ في أيديكم - يعني أسرى - أخذتموهنّ بعهد الله، واستحللتُم فُروجهنَّ بكلمة الله».

وسئل رسول الله ﷺ: «ما حقُّ المرأة على الرجل؟ قال: يُطعمها إذا طَعِم، ويكسوها إذا اكتسى، ولا يقبِّح الوجه، ولا يهجر إلا في البيت».

وينبغي أيضًا إذا أراد النكاح أن يتعلم ما تحتاج إليه المرأة من حسن العشرة، والقيام بما لها عليه، وجميل المداراة، ولطف المفاوضة، ويعلمها حسن قيامها بما يجب له عليها، ويعرِّفها ما أوجب الله له عليها من ذلك.

ولا تملِّك المرأة شيئًا من أمرك، فإن الله عز وجل قد ملَّكَكَ إيّاها، فلا تقلب بهواك حكمة الله، فينقلب الأمر عليك، فكأنك قد أطعت العدوَّ ووافقته في قوله: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ﴾ [النساء: ١١٩]. وقد قال الله عز وجل: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ [النساء: ٥] يعني النساء والصبيان، ومنه قول النبي ﷺ: «تَعِس عبد الزوجة»؛ لأنه إذا أطاعها فيما تهوى دخل تحت التعس، فكأنه قد بدَّل نعمة الله كُفرًا؛ لأن الله عز وجل جعله سيدها، في قوله عز وجل: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ﴾ [يوسف: ٢٥] يعني زوجها. قال الحسن: ما أصبح اليوم رجل يُطيع امرأته فيما تَهوى إلا أكبَّه الله في النار.

ولا يعوِّدها عادةً فتجترئ عليه، وتطلب المعتاد منه، فهي على مثال أخلاق النفس سواء، إن أرسلت عنانها جَمَحَتْ بك، وإن أرخيتَ عنانها فترًا جذبتك ذراعًا، وإن شَدَدْتَ يدك عليها وكَبَحْتَها مَلَكْتَها، فلعلها أن تُطوِّع لك.

وكان الشافعي رضي الله عنه يقول: ثلاثة إن أكرمتهم أهانوك، وإن أهنتهم أكرموك: المرأة والخادم والنِّبطي.

وكان نساء العرب يعلّمنَ أولادهنّ اختبار أزواجهنّ. كانت المرأة إن أُنكحت ابنتها قالت: يا بنية، اختبرى حليلك قبل أن تَقْدُمى عليه، انزعى زُجَّ رُمْحه، فإن سكت لذلك فقطِّعى اللحم على تُرسه، فإن أقرَّ فكسِّرى العِظام بسيفه، فإن صبر فاجعلى الإكاف على ظهره وامتطيه فإنما هو حمار.

وأوصى أسماء بن خارجة الفزارى، وكان من حكماء العرب، ابنته ليلة زفافها فقال: يا بنية، قد كانت والدتك أحقَّ بتأديبك منى لو كانت باقية، وأما الآن فإنى أحق بتأديبك من غيرى، افهمى عنى ما أقول: إنك قد خرجت من العُشِّ الذى فيه دَرَجتِ، وصرت إلى فراش لا تعرفينه، وقرين لم تألفيه، كونى له أرضًا يكن لك سماء، وكونى له مهادًا يكن لك عمادًا، وكونى له أَمَةً يكن لك عبدًا، ولا تُلحفى به فيَقْلاك، ولا تتباعدى عنه فينساك، إذا دَنا فأقْربى منه، وإن نَأَى فابعدى عنه، واحفظى أنفه وسمعه وعَينه، لا يشمّ منك إلاّ طيبًا، ولا يسمع إلاّ حسنًا، ولا ينظر إلاّ جميلاً، وأنا الذى أقول لأمك ليلة بنائى بها:

خذى العفــةَ منّى تستديمى مودّتى
ولا تنطقى فى سَــوْرَتى حين أغضبُ
ولا تَنقُــرينى نَقْــركِ الـدفَّ مـرةً
فإنَّكِ لا تَـدرين مـــاذا المغيَّـبُ؟
فإنى رأيتُ الحـــبَّ فى القلب والأذى
إذا اجتمعــا لم يلبث الحـبُّ يَذْهَـبُ

وأوصى بعض العرب بنيه فقال: لا تنكحوا من النساء ستةً: أنَّانة، ولا منَّانة، ولا حنَّانة، ولا حدَّاقة، ولا برَّاقة، ولا شدَّاقة. تفسير ذلك: الأنانة: هى التى تَعْصِبُ رأسها كثيرًا، وتُكثر الأنين والتوجُّع والتشكِّى. والمنانة: التى تمنُّ على زوجها، تقول: فعلتُ بكَ وفعلتُ فأنا أفعل وأفعل. والحنانة: تكون على وجهين؛ تكون ذات ولدٍ من غيره فهى تحنّ إليه، وقد تكون ذات زَوْجٍ قبله فيحنّ قلبها إليه. وقوله: حداقة: هى التى تومئ بحَدَقتها فتشترى كلَّ شىء، وتطالب

زوجها بما تشتهيه من كلِّ شيء، وقد تلحظ الرجالَ كثيرًا، كما يلاحظ بعضُ الرجال النساء. والبرَّاقة: تحتمل تأويلين؛ أحدهما: أن تكون غضوبًا فى الطعام، فتَبْرُق لقلته، أو لسوء خلقها، ولا تكاد البراقة للمأكول أن تأكل إلا وحدها لشَرَهِها، وتكون أيضًا تستقل نصيبها من كلِّ شيء، وهذه لغة يمانية نعرفها فاشيةٌ عندهم، يقال: قد بَرقَت المرأة، وبَرقَ الصبى الطعام: إذا غضب عليه، والوجه الثانى من البراقة: أن تكون من البريق؛ أن تكثر صقال وجهها وخضابه فتتصنع فى بُروقه أبدًا. وأما الشدَّاقة: فهى التى تشدّق بكثرة الكلام، وتكون ذَرِبة اللسان مفوَّهة فى النّطق.

ومن ذلك الخبر الذى جاء: «إنّ الله عز وجل يبغض الثرثارين من المتشدقين». وفى قصة الرجل السائح الأزدى أنه لقى إلياس عليه السلام فى سياحته، فأمره بالتزويج وقال: هو خيرٌ لك، ونهاه عن التبتُّل وقال: لا تنكح من النساء أربعًا وأنكح من سواهنّ: المختلعة، والمبارية، والعاهر، والناشز. فالمختلعة: هى التى تطلب الخُلْع من زوجها من غير ما بأس وهو مع ذلك يحبها. والمبارية: المباهية لغيرها، المفاخرة بأسباب الدنيا التى تطلب من زوجها ما تباهى به غيرها، وتفتخر به على نظائرها. والعاهر: الفاجرة التى تُعرف بحليلٍ أو خِدْن، وهو الذى قال الله عز وجل: ﴿وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء:٢٥]. والناشز: التى تعلو على زوجها فى الفعال والمقال.

وقد كان علىٌّ عليه السلام يقول: شرارُ خصال الرجل خيارُ خصال النساء: البخلُ والزَّهو والجُبن. فإن المرأة إذا كانت مزهوًّةً ـ أى معجبة ـ استنكفت أن تكلّم الرجال، وإذا كانت جبانةً فَرِقَت من كلِّ شيء فلم تخرج من بيتها.

وأكره العَزْلَ كراهيةً شديدةً، فإنه دقيقة من الشِّرك الخفى، وفيه نهى رسول الله ﷺ. وكرهه جماعةٌ من السلف الصالح، ولم يكن خيار المتقين يعزلون. وأقل ما فيه: الخروجُ من التوكل على الله عز وجلّ، وقلة الرضا بحكم الله تعالى. وكان ابن عباس رضى الله عنه يقول: العزلُ هى الموءودة الصغرى. فلقوله هذا استنباطٌ حسنٌ من السنة؛ وذلك أنه روى عن النبى ﷺ فى فضائل الجماع: «إن الرجل

ليجامع أهله فيُكتب له من جماعه أجرُ ولدٍ ذَكَر قاتل فى سبيل الله عز وجل. فقيل له: وكيف ذلك يا رسول الله؟ فقال: أنت خلقته، أنت رزقته، أنت هديته، إليك محياه، إليك مماته؟ قالوا: بل الله خلقه، ورزقه، وهداه، وأحياه، وأماته. قال: فأقرَّهُ قراره». المعنى فى هذا: يقول: إذا جامعت فأمنيت فى الفرج، وقد قال الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَا تُمْنُونَ * أَءَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الخَالِقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨ ـ ٥٩]. فإذا لم يخلق الله من منيِّك خلقًا حسب لك كأنه قد خلق منه ذَكَرًا على أتمِّ أحواله، وأكمل أوصافه، بأن يقاتل فى سبيل الله فيُقتل، لأنك قد جئت بالسبب الذى عليك، وليس عليك خلقه ولا هدايته، وإنما يَقدر على ذلك الله عز وجل، وهو فعله مجردًا، فكان لك أجر ما لو فعله الله تعالى إذا قد أتيت بما أمكنك عمله، فلذلك قال ابن عباس: هو الموءودة الصغرى؛ لأنه يوجد العَزْل بعدم هذا الفضل، إذ كان العبد سبب عدمه، لأنه لم يفعل ما يتأتى منه الولد، فذهب فضلُه وحسب عليه قتله.

وإنما قلنا: إن العزل دقيقة من الشرك؛ لأنّ أهل الجاهلية كان سبب قتلهم بناتهم معانٍ أحدها: خشية العار بهنّ، ومنها: كراهة الإنفاق عليهن، ومنها: الشحّ وخوفُ الفقر والإملاق. وكان العرب مَن وُلد له بنون وبنات، فمات البنون وعاش البنات، سموه أبتر، وذموه بذلك. وكان رسول الله ﷺ بهذا الوصف الذى يكرهون، مات ولدُه الذّكور الأربعة، وهم: القاسم، وبه كان يُكنى فى الجاهلية، والطيّب، والطاهر، وإبراهيم، وكلهم من خديجة، إلا إبراهيم فإنه من الجارية المصرية التى أهداها إليه المقوقس، ملك الإسكندرية. وعاش بناته الأربع: زينب، وهى الكبرى، التى زوَّجها العاص بن الربيع فى الجاهلية، ورقيَّة وأم كلثوم اللتان أنكحهما عثمان، وفاطمة التى زوّجها عليًا عليهما السلام، وكلّهنّ من خديجة، ومتْنَ قبله إلا فاطمة، فإنها ماتت بعده بأربعين يومًا[(١)]. فلذلك كان يسمونه مذمَّمًا؛ أى مذمومًا عندهم. ومنه سبّه العاص بن وائل حتى قال: إنك أبتر، فردّ الله عز وجل عليه فقال تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣]. أى

(١) من أول قوله: «الأربعة وهم» إلى هنا ساقط من المطبوعة.

لا ذِكر لك بعد موتك، قد انقطع ذكرك بموت الذكور من ولدك، فقال الله عز وجل: بل ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾ ، الذى ينقطع ذِكره وثناؤه فلا يُذكر بخير بعد موته، فأما أنت فقد رفعتُ لك ذِكرك، تُذكر معى إذا ذُكرتُ.

وكانت العرب تقول: مَن كنَّ له أحد الحُوبات الثلاث؛ لم يشرِّف عشيرته، ولم يَسُد قومه، يعنون بالحوب: الأمَّ والأختَ والبنتَ، والحوبات: جمع حُوب، وهى الكبيرة، قال الله تعالى فى أكلكم أموال اليتامى ظُلمًا: ﴿كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢]. عندى: ليس هذا الذى قلتم عندكم. وكان من خيار التابعين المؤمنين من يستحب له الجمع بين هؤلاء الثلاث: الأم والأخت والبنت، لما فيهن من عظيم المثوبة والفضل، ليخالف بذلك سنّة الجاهلية. فقد توجد هذه المعانى أو بعضها فى العزل، فلذلك سميناه شركًا وكرهناه.

وهو مذهب الخوارج من النساء، كان فيهن تقزُّز[1] وتعمُّق من استعمال كثرة الماء للطهارة، ودخول الحمامات، ومجاوزة الحد فى الطهور. وكنّ أيضًا يقضين الصلاة أيامّ الحيض، ويَصُمنَ فى حيْضهن، ولا يصلين فى ثياب الحيض حتى يَغسِلنها، ولا يدخلُنَ الخلاءَ إلا عُراةً، وكانوا يكرهون الولادة طلبًا للنظافة والتقزُّز، خلافًا لسنّة نساء الصحابة، فابتدعوا هذه البدع، ففارقوا بها سنّة رسول الله ﷺ وسنن نسائه، وهنَّ أنباطُ العراق وأهلُ النهر. وكان بعضهنّ دخل على عائشة رضى الله عنها لما قَدمَت البصرة، فلم تأذن لهن فى الدخول عليها. وأيضًا فإن الله ورسوله ندبا إلى اتخاذ الولادة بقوله تعالى: ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، قيل: الولد. وقول رسول الله ﷺ: «تناكحوا تناسلوا فإنى مكاثرٌ بكم الأمم يوم القيامة». وقوله ﷺ: «خيرُ نسائكم الوَدُودُ الولود». وقوله ﷺ: «سوداء ولودٌ خيرٌ من حسناء لا تلد، وحصير فى البيت خيرٌ من امرأة لا تلد». والعازل مسقط لهذا الندب.

ويقال: إن المرأة أشهى ما تكون إلى الجماع إذا طهُرت من الحيض. وفى هذا

(١) التقزز: التباعد من الدنس والمعايب تنزُّهًا.

الوقت أكثر ما تعلق النساء بالحَمْل، وأحمد ما يكون المولود عاقبة إذا علق به قبل الطُّهر. فلهذه المعانى عقَّب الله عز وجل الأمر بالجماع والولد بعد الطُّهر فى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ﴾ [البقرة:٢٢٢]. ولأضدادها فى الكراهة والذمّ أمر الله تعالى باعتزال النساء فى الحيض. ويقال: إن كان منه ولد كان مجنونًا أو مجذوبًا أو مختلاً، أو فى حاله وعقله تخبُّل؛ لأنه كان غرسه فى سَبْخةٍ من الأرض، فلم يزرع ولم يُزكِّ، ومن زرع من حرثٍ طيب زكا زرعه، وهو الغشيان فى الطهر، فلذلك قال: ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ﴾.

وقد رخَّص طائفة فى العزل. روينا فى ذلك رخصة عن رسول الله ﷺ. وقد كان سعد يعزل، وقد أنكر علىٌّ عليه السلام على ابن عباس رضى الله عنهم فى قوله: إنّ العزل هو الموءودة الصغرى، وقال: إنها لا تكون موءودة إلا بعد سبع، ثم تلا قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾ [التكوير:٨] أنها ذكرت بعد سبع، ثم تلا قوله عز وجل آية تنقيل الخلقة: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ [المؤمنون:١٢ ـ ١٤] أى فى نفخ الروح فيه، قال: فلا يكون موءودة مقتولة إلاّ بعد هذه السبع الخصال، ولأن الله عز وجل ذكرها فى «كوّرت» بعد سبع معان، ثم جمع بينهما فى الفهم فاستنبط ذلك. وهذا من دقيق العلم، وغامض الفهم، ولطيف الاستدلال الذى تفرّد به عليه السلام، لثُقُوب عِلْمه، ونفاذ فِطنته، وخفىِّ استدلاله.

فلا يجامعهنَّ حتى يَطْهُرن. فإذا تطهرن، يعنى بالماء. ويُكره الجماع مستقبل القبلة؛ لحرمة القبلة. وفى الخبر: «إذا جامع أحدكم أهله فلا يتجرَّدا تجرُّدَ العيرين» يعنى الحمارين. وروينا أنّ رسول الله ﷺ كان إذا جامعَ غطى رأسه، وخفض صوته، وقال للمرأة: «عليك بالسكينة». ومَن جامع مرة وأراد العود، فليغسل فرجه قبل ذلك. فإن احتلم فلا يجامع حتى يغسل فرجه أو يبول، فإن جامع بعد الاحتلام من غير غسل خيف على ولده إن كان من جماعه أن يصيبه لَمَمٌ من الشيطان.

ويكره له الجماع فى ثلاث ليالٍ من الشهر: فى أول ليلة، وفى آخر ليلة، وفى ليلة النصف[1]، يقال: إن الشيطان يحضر الجماع فى هذه الليالى. وقيل: إن الشياطين يجامعون فيها. وروى عن على عليه السلام كراهةَ ذلك، وعن أبى هريرة ومعاوية رضى الله عنهما. ومن العلماء من كان يستحب الجماع فى يوم الجمعة؛ لأحد التأويلين من قوله ﷺ: «مَن غَسَّل واغتسل» أى غسَّل أهله.

ويُكره الجماع فى أول الليل لئلا ينام على غير طهارة، فإن الأرواح تعرج إلى العرش، فما كان منها طاهرًا أُذن لها فى السجود، وما كان جُنبًا لم يُؤذن لها. والرؤيا أيضًا على طهارة من غير جنابة وعلى وضوءٍ أصح وأفضل، إلا أن يغتسل ثم ينام، فإن لم يغتسل وجامع فلا ينام ولا يطعم حتى يتوضأ وضوءَه للصلاة.

وقد جاء رخصةٌ فى النوم بعد الجماع من غير أنْ يمسَّ ماء، فعله رسولُ الله ﷺ. وأنا أكره أن يحلق الرجلُ رأسه، أو يقلم ظفره، أو يستحدَّ، أو يُخرج دمًا وهو جُنُب، فإن العبد يرد إليه جميع شعره وظفره ودمه يوم القيامة، فما سقط منه من ذلك وهو جنب رجع إليه جنبًا. وقيل: طالبته كل شعرة بجنابتها.

وقد روينا معنى هذا فى حديث مقطوع موقوف عن الأوزاعى ويحيى بن كثير، قال الأوزاعى: قد كنا نقول: لا بأس أن يطأ الجُنُب، حتى سمعنا بهذا الحديث، والنص فيه على النهى أن يطأ الرجل جُنُبًا.

ولا يحل للرجل من امرأته إلا الفرج لا غير، على أى حال شاءوا من جامع، فليتمهَّل على أهله، وليتوقَّف حتى تقضى هى نَهْمَتَها، كما قضى هو نَهْمَته، فربما تأخر إنزالُ المرأة بعد الرجل، فيكون ذلك كريهًا إليها، فإن علم أنها قد سبقت بالشهوة لم يحتج إلى توقف، وليس يخفى سبقها بالشهوة على فَطِنٍ.

وأوفق ما يكون الجماع بينهما إذا اتفقت الشهوتان منهما معًا، وأكثر ما يكون التباغض بين الزوجين لاختلافهما من طبع الإنزال، أن يكون طبعه سابقًا لطبعها أيضًا.

وقد كان بعض العلماء من الأدباء لا يتأخر عن المرأة حتى يستأمرها فى ذلك،

(١) لم يثبت ذلك من سنة النبى ﷺ، ولم يثبت خصوصية هذه الأيام بحضور الشيطان.

وينبغى أن يُعلمها؛ لأن المرأة إذا بلغت واحتلمت وجب عليها الغسل، كما يجب على الرجل، فإن فى ذلك سنة، لأن أم سليم سألت عن ذلك رسول الله ﷺ، فأمر بذلك، قال: «نِعمَ النساء نساء الأنصار، لا يمنعهن الحياء أن يتفقَّهن فى الدين».

وإذا كانت المرأة حائضًا ائتزرت بمئزرٍ صغير من حَقويها إلى أنصاف الفخذين، وكان له المتعة بجميع جسدها كيف شاء إلاّ تحت المئزر، وهذا مذهب فقهاء الحجاز، وهو أحب الوجهين إلىَّ.

وبعض علماء أهل العراق يجوِّز من الحائض المباشرة لما تحت خلا الفرجين، ولا يعجبنى هذا، ولا حرج عليه من الاستمتاع ببدنها.

وأستحب للرجل إذا دخل فى لحافها أن يأتزر بحقو صغير يكون فى وسطه وهو المئزر، لئلا يتجرد عريانًا، فإن هذا من الأدب. ويضاجع الرجلُ الحائضَ كيف شاء، وتناوله ما شاء، أو يؤاكلها، ولا يجانبها فى شىء من الأشياء إلاّ الجماع فى الفرج؛ اتفقوا عليه، واختلفوا فيما دونه. فذكر أهل الحجاز كما ذكرناه آنفًا وهو استحباب، واتفقوا على تجويز ما فوق المئزر من السُّرر إلى أنصاف الفخذين.

فينبغى للمتزوّج أن يعرف حُكم الطلاق، فإن عُرض عليه طلاق طلَّق واحدة واحدة فى طُهر لا جماع فيه، لأن التطليقة الواحدة إذا انقضت عدة المرأة منها بحيض أو أشهر تعمل عمل التحريم بالثلاث سواء، إلا أنه يربح فى التطليقة الواحدة أربع خصال:

أحدها: موافقة الكتاب والسنة من قوله عز وجل: ﴿**فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ**﴾ [الطلاق: ١]. وفى قراءة عمر وابن عباس رضى الله عنهم بيان ذلك: «فطلِّقوهن لقَبل عدتهن» فقد دلّ أنّ الإقراء هى الأطهار، وكذلك هو عندى. وإن تكافأ ذلك فى اللغة؛ وتساوى فى المعانى؛ بأن يكون الحيض أيضًا.

والثانية: تيسير العدة عليها، وسرعة خروجها منه، ليَحْتسب بالطُّهْر الذى طلقها فيه من غير جماع قُرءًا، فتستعجل الخروج من العدة، لأنها من حدود الله عز وجل، ويربح هو أيضًا إن ندم على طلاقها كان له رجعتها فى العدة من غير

إحداث عقد ثانٍ، ولا مهر آخر. وإن أحب رجعتها بعد انقضاء العدة كان له تزويجها ثانية من غير زوج ثان تحدثه، وهذا كله معدومٌ مع الثلاث دَفْعَةً واحدةً، وموجود فيه التحريم، ثم مع خلافِ السُّنَّة، وإن ندم لم يجعل الله له مخرجًا، لأنه لا تحل له إلا بعد زوجٍ، ويخسر العبد خروج المرأة من يده، فإن ابتُلى بهواها يحتاج أن ينتظر فراغ الزوج الثانى، أو التجأ أن يعمل فى تزويجها لغيره، فيكون محلِّلاً لنفسه، ومُفْسدًا لنكاحِ الثانى بالتحليل، فيقع فى ثلاثة معانٍ من المعاصى. وقد لعن رسولُ الله ﷺ المحلِّل والمحلَّل له. وقال بعض العلماء: إن نكاح الأول بعده على التحليل لا يجوز أيضًا.

وهذا كله ثمرة الجهل ومخالفة السنة. وقد قال الله تعالى: ﴿**فَطَلِّقُوهُنَّ لعدَّتهنَّ**﴾. ثم قال: ﴿**لاَ تَدْرِى لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلكَ أَمْرًا**﴾ [الطلاق:١] يعنى: ندمًا من المطلِّق، أو حبَّ رجعة. فإذا كان قد طلق تطليقة واحدة، أو اثنتين، حلَّت له من العدة من غير عَقْد، وبعد انقضائها بغير زوجٍ، ثم قال: ﴿**وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لهُ مَخْرَجًا**﴾ [الطلاق:٢] أى: مَنْ يتقى الله فيطلق فى العدة يجعل له مخرجًا فى جواز الرجعة، كما ذكرناه. ومن طلّق ثلاثًا مرةً واحدةً، أو طلق فى الحيض، وقع الطلاق وحَرُمَت المرأة، ولم تحل له إلاّ بعد زوجٍ، إن كان قد خالف السنّة، ووافق كراهة الأئمة، بآثار قد كثرت فى ذلك عن رسول الله ﷺ، وعن عمر، وابنه، وأبىٍّ بن كعب، وزيد بن ثابت، وابن عباس، وجملة من الصحابة والتابعين.

والأصل فيما ذكرناه من العزيمة والرخصة فى فعل النكاح وتركه قول الله عز وجل: ﴿**وأَنْكِحُوا الأيَامَى مِنكُمْ**﴾، فأمر بالنكاح وهو أعلم بالخير والصلاح، والأيامى: جمع أيِّم وهى التى لا بعل لها، وقد يسمى به الرجل الذى لا زوجة له أيضًا، كما يقال: ثيبًا وبكرًا. ثم قال: ﴿**والصَّالحينَ منْ عِبَادكُمْ وَإمَائكُمْ**﴾، فلولا أن النكاح فاضلٌ ما خصّ به الصالحين، وضمه إلى فضلهم، وهم أهلُ ولايته؛ لقوله عز وجل: ﴿**وهُوَ يَتولَّى الصَّالِحينَ**﴾ [الأعراف:١٩٦]. ثم قال: ﴿**إن**

يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٢].

والله أعلمُ بالأغنياء كيف هم. وقد يغنيهم بالأشياء، كقوله: ﴿ وأنَّه هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى﴾ [النجم: ٤٨]. وقد يغنيهم عن الأشياء، وهى القناعة والزهد. وقد يغنى نفوسهم عن الإعراض، لقول رسول الله ﷺ: «ليس الغنى بكثرة العَرضَ إنّما الغِنى غنى النفس». وقد يغنيهم باليقين، كما قال أيضًا: «كفى باليقين غنًى». وقد يغنيهم بغضِّ البصر وتحصين الفرج، كما قال: «من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغضُّ للبصر وأحْصَن للفَرْج».

ثم إن الله عز وجل قال فى الخبر الثانى من وَعْد الغِنى فى التفرق كذلك أيضًا فى قوله عز وجل: ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللهُ كُلاً مِنْ سَعَتِه﴾ [النساء: ١٣٠]. فقد أجمل وجوه الإغناء كلها فى هذا المعنى الآخر أيضًا، ويزيد عليه الغُنية بالعصمة والاستغناء عن المكاسب، وعن السؤال، والمحاسبة على الاكتساب، والغنية عن حال النساء وأحكامهنّ.

ثم قال فى الأمر الثانى من البيان الثانى: ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنْ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ﴾. فهذا أدون من الأولِ، لأنه علَّقه باختيارنا إن طاب لنا، ثم رَفع فيه الأربع توسعةً منه وتفضيلاً لعِلمه بعلاج القلوب، وطبائع النفوس، وتفاوت سكونها وحركاتها، ووجود كفايتها ومصالحها، ثم رَحمنا فقال: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُوا﴾ [النساء: ٣]. فرد إلى الواحدة، وهو الحال الأوسط بين الأربع، وبين التعزُّب، وخيرُ الأمور أوسطها.

وفى قوله: ﴿أَلاَّ تَعدلُوا﴾ ثلاثة أوجه: تعدلوا: تجوروا، وهو أحسنها وأحبها إلىَّ، لأنه يواطئ قوله تَعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا﴾، لأن العدل ضدّ الجور، فعطف عليه فقال: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُوا﴾ أى تجوروا، من العدل. والعرب تقول: عال يعول عولاً إذا جار. والوجه الثانى: ألا تعولوا: تفتقروا؛ من العيلة وهى الفقر، يقال: عال يعيل عيلة وأعاله إذا افتقر، ومنه قوله: ﴿إِن خِفْتُم عَيْلَةً

﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ﴾. ومع العيال الفقر لا محالة. والوجه الثالث: تعولوا: تكثر عيالكم، فيكون المعنى لذلك أقرب أن لا يكثر من تعولونه، وحذفت الهاء التى هى اسم العيال، وهذا مذهب لبعض أهل الحجاز، يرجع إلى قوله: عال الرجل عياله يعولهم، مثل: مانهم يمونهم، ومارهم يميرهم، وصانهم يصونهم، فيكون مشتقًا من لفظ العيال.

والأولان أجود وأشهر، والله سبحانه ما افترض النكاح ولا العزبة، كما لم يوجب الأربع من النسوة، وافترض صلاح القلب، وسلامة الدين، وسكون النفس، والدخول فى الأوامر عند الحاجة إليها. فمن كان صلاحه فى التزويج فهو أفضل له، ومن كان استقامته وسكونُ نفسه عند الأربع فجائز له طلب السكون، وصحة الحال مع القيام بالأحكام، ومن وقعت كفايته بواحدة فالواحدة أصلحُ وأفضل، لأنها إلى السلامة أقرب، ومن كان صلاحُ حاله واستقامة قلبه وسكون نفسه فى العزبة فذلك له أسلم، والأسلم لمثله فى زماننا هذا أفضل، إذ لهذا يُراد النكاح، فإن وجد لم يضر فقده.

ولعمرى أنَّا إذا قلنا إنّ فى الدين طريقين: طريق عزيمة، وطريق رُخصة، فإنه فى النكاح أيضًا لأنه من الدين، وفى تركه يكون لأجل الدّين طريقان: طريق الأقوياء، وهم أهل النكاح، والصبر على أحكامه، وعلى معاشرة النساء، وطريق آخر: للأقوياء بالصبر عنهن ووجود العصمة منهنّ، والتفرغ للآخرة، وكفى بها شغلاً، وطريق آخر من وجود الوسوسة، وخوف العَنَت لقوّة الطبع، وضعف الحال بوجود الاختلاط، فيبدأ بالنكاح طلبًا للاستقامة والصلاح. وقد كان الثورى رحمه الله تعالى يقول:

يا حبَّذا العزبةُ والمفتاح ومسكنٌ تخرقه الرياح

لا صَخَبَ فيه ولا صياح

ولله الأمرُ من قبل ومن بعد، والحمد لله وحده.

* * *

الفصل السادس والأربعون

كتاب ذكر دخول الحمام

الأفضلُ فى وقتنا هذا تركُ دخول الحمَّام؛ لكثرة العُراة فيه، والعجز عن القيام بأحكامه. إلا أن دخوله مباح. وقد اختلف رأى الصحابة عن مواجيدهم عنده، وكلٌّ فيه قُدوة وهدى. فقال بعضهم: بئس البيتُ الحمام، يُبدى العورة، ويُذهب الحياء. وروى هذا عن ابن عمر رضى الله عنه، وعن على رضى الله عنه معناه.

وقال بعضهم: نِعْم البيتُ الحمَّام، ينفى الدَّرن ويُذكِّر النار. وروى هذا عن أبى الدرداء وأبى أيوب.

ودخل أصحابُ رسول الله ﷺ بالشام الحمامات. فمن كان داخلاً إلى الحمام، فلا يدخله لشهوة لعاجل حظ دنياه، ولا عابثًا لأجل الهوى، لأنه عملٌ من أعمال العبد، والعبدُ مسؤول عنه إذ كان محاسبًا على جُمل أعماله، فيقال: لِمَ دخلت؟ وكيف دخلت؟ ولمن دخلت؟ كما يقال له فى كل عمل فَعَله.

وفى دخول الحمام ثمانية أحكام: أربعة فرائض، وأربعة نوافل.

فأما الفرائض: فستر العورة، وغضُّ البصر، وأن لا يباشر جسده غير يده، وأن يأمر بالمعروف، وهو أن يرى عريانًا فيقول له: استتر، أو هذا حرام عليك، وهذا لا يحل لك، أو قد نهى رسول الله ﷺ أو حرَّم دخول الحمام بغير إزار؛ فأى هذه الألفاظ قاله سقط عنه ما وراء ذلك من كل شىء يراه من المنكر، وليس عليه القبول، ولا الإجبار على المعروف، لأن هذا على الإمام القائم بصالح الدين، والداعى لرغبة المسلمين بالبطش والقوة والتمكين فى الأرض والتسليط، وهو ساقط عن الرعية بحمد الله ومَنِّه.

فأما النوافل الأربع: فأن يرى الطهارة لأجل الدين، والنظافة للعبادة؛ لأن

الطهارة من أفضل أمور الآخرة والحمَّام غايةُ الطهر. وأن يعطى صاحب الحمام الأجرة قبل الدخول، وكذلك يستحب فى كل ما يشتريه أو يستعمله، خاصة الشىء المجهول مقداره؛ من شُرب الماء، وأجرة الحجَّام، والذى لا يُتقاضَى عليه ولا يُشتَرط فيه، فكأنه يكون غير معلوم، وإذا نظر الحمَّامىُّ إليه صار معلومًا. والثالثة: أن لا يكثر صبَّ الماء عليه من غير حاجةٍ، ولا يستعمل ما يكفى رجلين وثلاثة، سيما من الماء الحار، فإن له مؤونة. ولا يستعمل من ذلك إلا ما لو رآه الحمّامى لم يكره ذلك منه ولم يسوءه، وما علم أن الحمَّامى لو رآه يستعمله من الماء الكثير لشق عليه ذلك، فإنه مكروه له فى غيبه. والرابعة: أن يتذكر النار بحرارة الحمام، ولذع مسِّه، وغشيان ظلمته، لأن الحمّام فى الظلمة أشبه شىء بجهنّم؛ الحرارة من تحتك، والظلمة من فوقك، فهذا وصف جهنم نعوذ بالله منها، فليتذكر بقلة صبره على الحمام وعظم كربه فيه حبسَه فى جهنم، وإنه لو أقام فى الحمام فضل ساعة لضعف روحه حتى يخرج خفوقًا.

ويكون له فى الحمام موعظة وعبرة، إذ عِبَرُ أولى الأبصار ومواعظُ أهل التقوى لا تنقضى، ولهم فى كل شىء عبرة وموعظة، وبكل شىء تذكرة؛ لأن الله عز وجل قد أحياهم حياةً طيبةً، وهذه علامةُ مَن كان له قلب، ومَن مقامه المزيد. ولا بأس أن يُظهر ذكر الله عز وجل بالتسمية والاستغفار، ومكروه له قراءة القرآن إلا فى نفسه سرًا، ولا يسلِّم على أحد فيه بلفظ السلام. وروينا أنّ رجلاً سلَّم على الحسن بن على رضى الله عنهما فى الحمَّام فقال: ليس فى الحمام سلام.

فإن احتاج أن يكلم رجلاً فيه فلا بأس أن يأخذ بيده استئناسًا للكلام، أو يقول له: عفاك الله، وأدام سلامتك. ومكروه له كثرة الكلام فيه، وأن يتكلم رجل بما لا يعنيه، ولكن يقول: بسم الله، إذا دخله، ويستعيذ بالله من الرجس النجس الخبيث؛ الشيطان الرجيم، وليقدِّم رِجلَه اليسرى إذا دخل، فإذا خرج قدَّم اليمنى على ضد فعله فى دخول المسجد وخروجه منه[1].

وإن أعطى الحمّامى أجرةً ليُخلِيَه له أُجر على ذلك، وكان حسنًا. قال بشر: ما

---

(١) من قوله: «وليقدم» ساقط من المطبوعة.

أعرف رجلاً لا يملك إلا درهمًا أن يعطيه لخلوه الحمام. وكان بشر يعطى لِيُخلَى له الحمام، فكان يغلقه عليه من داخل ومن خارج، فإن وَلِيَته جاريته للإطلاء فى الحمام، إذا كان خاليًا ستيرًا، فلا بأس.

ولا يجوز دخول الحمام إلا بمئزرين، مئزر لوجهه، ومئزر لعورته. قال بعضهم: رأيت ابن عمر رضى الله عنهما فى الحمام مستقبلاً بوجهه الحائط، وقد عصب عينيه بعصابة ومدّ يده على الحائط. وقيل لإبراهيم الحربى: تصلى خلف شارب النبيذ. قال: نعم. قيل: فتصلى خلف من يدخل الحمام بلا مئزر. قال: لا. وقال مالك بن أنس: مَن دخل الحمَّام عُريانًا لم تُقبل شهادته. إلا أنه قال: وإن كان عريانًا عند الحوض يغتسل من قعود قُبلت شهادته، فإن كان ناحيةً عريانًا فلا عدالة له[١].

وأستحب له دخول الحمام الخالى من الزحام. ويكره دخول الحمام عند الغروب أو بين العشاءين، فإن تلك الساعتين وقت انتشار الشياطين. وليعرف بدخوله نعمةَ الله عز وجل، وتسخيره له من شاء من خلقه، بالتعب منهم والكد فيه، فهذا من لطيف أفضال الله عز وجل على المتنعِّمين به.

ومن دخل الحمام وقام بهذه الأحكام، كان دخوله أفضل؛ لأنّ له فيه أعمالاً كثيرة.

ودخل الأعمش فرأى عريانًا، فغمض عينيه، وجعل يتلمس الحيطان، فقال له العريان: متى كُفَّ بصرك يا هذا؟ فقال الأعمش: منذ هُتك سترك.

وحكى الشافعى عن مالك رضى الله عنهما: ثلاثةُ أشياء فيها ذُلٌّ: حضورُ مجالس العِلْم بغير مَحبرة ولا صحيفة، وركوب السفينة بلا زاد، ودخولُ الحمام بلا كَرْنيب[٢]. قال: فقلت للشافعى رضى الله عنه: لم تذكر المئزر. فقال: قد أحسن، لأنّ ترك المئزر فسوق.

---

(١) من قوله: «وقال مالك» ساقط من المطبوعة.

(٢) الكرنيب: المجيع.

وقال النبى ﷺ: «دخولُ الحمام على النساء حرامٌ، وعلى الرجال إلا بمئزر». وقد كان عمر رضى الله عنه يقول: الحمام من النعيم الذى أحدثوه. وفى أحد الوجوه من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر:٨]، قال: الماء الحار فى الشتاء.

ولا بأس أن يباشره رجل بالتدليك خلا موضع العورة. حدثنى بعض إخوانى عن بعض أهل العلم أنه دخل معه الحمام، قال: فأردتُ أُدلّكه فامتنع. قال: ثم دخلت معه بعد ذلك، فجعلت أدلكه، فلم يمتنع، فقلت له: قد كنتَ امتنعتَ أول مرة. قال: لم أكن أعلم فيه أثرًا، ثم وجدت بعد ذلك لضيغم الراشنى: أنّ رجلاً دلكه فى الحمام، فرأى على فخذه مكتوب «لله» بعِرق فى جسده، فقال: أمَا تنظر؟! أما أنه ما كتبه إنسان.

وفى ذلك أيضًا أثر عن يوسف بن أسباط أنه لما حضرته الوفاة أوصى أن يغسِّله فلان إنسان لم يكن من أصحابه، ولا كان معروفًا بفضل، فقيل له فى ذلك، فقال: إنه قد كان مرةً دلّكنى فى الحمام ولم أكافئه على ذلك، وأنا أعلم أنه يحب أن يغسِّلنى، فأوصيتُ إليه، فيكون ذلك مكافأة منّى له. ويصلح أن يستدل على ذلك أيضًا بتجويز غمز الجسد والظهر. فقد روينا عن رسول الله ﷺ أنه نزل منزلاً فى بعض أسفاره. قال بعضُ أصحابه: فذهبتُ أمشى أتخلّل النخل، أو قال: الشجر، فإذا رسول الله ﷺ نائم على بطنه وعبدٌ أسود يغمز ظَهْرَه. فقلتُ له: ما هذا يا رسول الله؟ فقال: «أمَا أنَّ الناقة تَقَحَّمَت بى».

وغَسل الرِّجلين بالماء البارد عند الخروج من الحمام أمان من النقرس، والنُّورَة بعده قبل غسل الوجه يشيِّب اللحية، والحناء بعده يقال: إنه أمان من الجذام.

ويستحب أهل الطب البول قائمًا فى الحمام بعد الإينار، وقبل غسل النورة. وأمر بعضُ أطباء العرب بالنورة فى كلّ شهر، وأخبر أنه يطفئ المرارة، وينقِّى اللون، وأنها تزيد فى الجماع. ومن السنَّة الاستحداد فى كل أربعين يومًا، لا يستحب مجاوزة ذلك. وبعض أهل الطب يقول: بولةٌ فى الحمام فى الشتاء أنفعُ من شربة دواء، والبولُ فى المستحم مكروه من جهة السنة. وقيل: إن البول فى

المستحم يورث الوَسواس.

وبعض أهل الطب يقول: نومة فى الصيف بعد دخول الحمَّام تعدل شربة دواء.

ويستحبون أيضًا الغسل بماءٍ باردٍ بعد نومة فى الصيف، وأنه نافع للجسد. ويقال: إنّ الإنسان إذا جاوز الأربعين سنة نقص فى كل يوم إلا اليوم الذى يدخل فيه الحمام.

وإن الحمَّام عندهم فى الصيف أنفع منه فى الشتاء، ويُكره شرب الماء البارد عند الخروج من الحمام.

وحرم رسول الله ﷺ دخول الحمام على النساء، وحرمه على الرجال إلاّ بمئزر، فإن دخلت المرأة الحمام ضرورةً من علّة أو حيض أو نفاس أو فى شتاء فلا بأس. وقد دخلت عائشة رضى الله عنها من سُقم كان بها.

وَلْيَنْهَ الرجلُ امرأته وأهله عن دخول الحمام، فإن لم يقبلن لم يحلَّ له أن يعطيهن أجرة الحمام، وكان الأمر عليهن. ولا يحل لمسلمة فى الحمام أن يليها للخدمة ذِمِّية، فقد نهى عمر وأبو عبيدة رضى الله عنهما عن ذلك. وأكره للرجل أن يعطى امرأته أجرة الحمام، فيكون معينًا لها على الإثم، فإن نهاها فخالفته كان الإثم عليها.

***



الفصل السابع والأربعون

فى ذكر حكم المتسبب للمعاش، وما يجب على التاجر من شروط العلم

قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ:١١]. فذكره فيما عدَّد من آياته ونعمته. وقال عزّ وجلّ: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠]. فجعل المعاش نعمة طالب بالشكر عليها.

وروى عن النبى ﷺ أنه قال: «من الذنوب ذنوبٌ لا يكفرها إلا الهمُّ بطلب المعاش». وقال ﷺ: «أحلُّ ما أكل المرء من كسب يده، وكلّ عمل مبرور». وفى لفظ آخر: «أحلُّ ما أكل العبد من كسب يد الصانع إذا نصح». وفى الخبر: «التاجر الصدوق يُحشر يوم القيامة مع الصدّيقين والشّهداء».

وقد جاء فى الحديث: «من طلب الدنيا حلالاً، وتعفُّفًا عن المسألة، وسعيًا على عياله، وتعطُّفًا على جاره، لقى الله عز وجل ووجهه كالقمر ليلة البدر».

وقد روى أن النبى ﷺ كان ذات غداة جالسًا مع أصحابه، فنظروا إلى شاب ذى جَلَدٍ وقوة، وقد بكّر يسعى، فقالوا: ويح هذا لو كان شبابه وجلَدُه فى سبيل الله عز وجل. فقال النبى ﷺ: «لا تقولوا هذا، فإنه إن كان يسعى على نفسه ليكفَّها عن المسألة ويغنيها عن الناس فهو فى سبيل الله، وإن كان يسعى على أبوين ضعيفين أو ذرية ضِعاف ليغنيهم ويكفيهم فهو فى سبيل الله، وإن كان يسعى تفاخرًا وتكاثرًا فهو فى سبيل الشيطان».

وقال ابن مسعود: إنى لأمقتُ الرجل أراه فارغًا، لا فى عمل دنيا ولا فى عمل آخرة. وقال إبراهيم النخعى رحمه الله: كان الصانع بيده أحبَّ إليهم من التاجر، وكان التاجرُ أحبَّ إليهم من البَطالة. وسئل إبراهيم عن التاجر الصدوق أهو أحبُّ

إليك أم المتفرغ للعبادة؟ قال: التاجر الصدوق أحبُّ إليَّ؛ لأنه فى جهادٍ، يأتيه الشيطان من طريق المكيال والميزان، ومن قِبَلِ الأخذِ والعطاء، فيجاهده. وقد خالفه الحسن البصرى رضى الله عنه فى هذا.

وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه: ما من موطن يأتينى فيه الموت أحبُّ إليَّ من موطن أتسوَّق فيه لأهلى، أبيع وأشترى فى رَحْلى. وقال أيوب: قال لى أبو قلابة: الزم السوق، فإن الغنى من العافية. يعنى الغنى عن الناس، والله أعلم، والغنى الذى يطاع الله تعالى به.

وكان بعض السلف يقول: اتَّجر وبِع واشتر ولو برأس المال يُجعل لك من البركة ما لا يُجعل لصاحب الزرع. وقال ابن محيريز، وكان من عبَّاد أهل الشام: ما من طعام أملأ به ما بين جنبى بعد غنيمةٍ فى سبيل الله من فىء المشركين أقيم بها حقّ الله عز وجل أحبُّ إليَّ من طعامٍ تاجر صدوق، قال: وكانوا يعدّون الكاسب على عياله كالمجاهد فى سبيل الله عز وجل، ويرون فضله على غيره. وروى فيه أثر: «إنّ الله عز وجل يحبّ المؤمن المحترف». وفى خبر آخر: «إنّ الله يحبّ العبد يتخذ المهنة يستغنى بها عن الناس».

وحدثنى بعض إخوانى عن أبى جعفر الفرغانى قال: كنا يومًا عند الجنيد، فجرى ذكر ناس يجلسون فى المساجد يتشبهون بالصوفية، ويقصرون عمّا يجب عليهم من حقّ الجلوس، ويعيبون مَن يدخل السوق. فقال الجنيد: كم ممّن هو فى السوق حكمه أن يدخل المسجد فيأخذ بأُذن بعض مَن هو فيه فيُخرجه ويجلس مكانه، إنّى لأعرف رجلاً يدخل السوق ووردُه فى كل يوم ثلاثمائة ركعة، وثلاثون ألف تسبيحة. قال: فسبق وهمى أنه يعنى نفسه.

فإن كان العبد سوقيًّا فليبدأ فليتعلَّم عِلمَ البيع والشّراء، والأخذ والعطاء، ومعاملة الناس فى البيوع، ومعرفة أبواب الربا، ليعلم ذلك قبل الوقوع فيه، فيجتنب ذلك ويتّقيه، ولَيَغدُ إلى المفتى فيسأله عن علم حاله كلّ يومٍ من وجوه معاملته، إن لم يكن قد تقدّم علمه بذلك، ولم يكن عالمًا به فى وقت المعاملة، فليجعل بُكوره إلى المفتى قبل غُدوِّه إلى السوق؛ فإن لكل عملٍ عِلمًا، ولله فى

كل شيء حُكم، فلا يغنيك كبيرُ علم عن علم غيره، فإن لم تفعل ذلك دخل عليك الربا والبيوع الفاسدة. وقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يطوف فى الأسواق، ويضرب بعض التجار بالدِّرَّة، ويقول: لا يبيع فى سوقنا إلا من تفقّه، وإلاّ أكل الربا شاء أم أبى.

ثم لينصرف بعد العلم فيما يدخل فيه فيما أُبيح له من تجارة أو صناعة، بصدق معاملة، وصدق فى مبايعة، ناويًا فى ذلك إقامة سنّة، وأمرًا بمعروف، ونهيًا عن منكرٍ، وجهادًا فى سبيل الله؛ لأنّ مَن أخذَ الحقَّ وأعطاه، وعامل بصدق ونصح، فهو معاون على البر والتقوى وفى جهاد العدو والهوى، سيما فى زمان يكثر فيه الباطل؛ لأن صلاح الدين بصلاح الدنيا، وفساده بفسادها، لتعلُّق أحدهما بالأخرى، وحاجة كل واحد منهما بصاحبه.

وفى الخبر: «لا يستقيم عبدٌ حتى يستقيم قلبُه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه». وروى عن النبى ﷺ فى قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ**﴾ [الأنعام: ٨٢]: مَن هؤلاء؟ فقال: «من برَّت يمينه، وصدق لسانه، واستقام قلبه، وعفَّ فرجه وبطنه».

ثم لِيَنْوِ المتصرِّف فى معاشه كفَّ نفسه عن المسألة والاستغناء عن الناس، وقطع الطمع فيهم، والتشرُّف إليهم، فذلك عبادةٌ إذا نوى نَزْعه وتركه.

ثم ليحتسب السعى على نفسه، وإطعام عياله، فهو له صدقة، وعليه الصدق فى القول، والنصح فى معاملة إخوانه المسلمين لأجل الدين، ويعتقد سلامة الناس منه نُصحًا لهم، ورحمةً بهم، ويعمل فى ذلك، ويكون أبدًا مقدَّمًا للدين والتقوى فى كلّ شيء، فإن انتظمت دُنياه بعد ذلك حَمِدَ اللهَ، وكان ذلك ربحًا ورجحانًا، وإن تكدّرت لذلك دنياه وتعذّرت لأجل الدين والتقوى أحواله فى أمور الدنيا، كان قد أحرز دينه وربحه، وحفظ رأس ماله من تقواه، وسَلِم له؛ فهو المعوَّل عليه والحاصلُ له، إلاّ أن مَنْ ربح من الدنيا مثل المال وخسر عُشر الدِّين فما ربحت تجارته، ولا هدى سبيله، وهو عند الله من الخاسرين.

وقال بعض السلف: أوْلى الأشياء بالعاقل أحوجه إليه فى العاجل، وأحوجُ شىء إليه فى العاجل أحمده عاقبةً فى الآجل. وكذلك قال معاذ بن جبل رضى الله عنه فى وصيته: أنه لا بد لك من نصيبك من الدنيا، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أحوجُ، فابدأ بنصيبكَ من الآخرة فخُذه فإن سيمرٌّ على نصيبك من الدنيا، فينظمه لك انتظامًا، ويزول معكَ حيثما زُلتَ.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧] أى: لا تترك نصيبك فى الدنيا من الدنيا للآخرة، لأنّك من ههنا تكتسب الحسنات، فتكون هناك فى مقام المحسنين. ففى الخطاب مضمرٌ لدليل الكلام عليه فى قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنْ كَما أَحسَنَ اللهُ إِلَيكَ وَلاَ تَبْغِ الفَسَادَ فى الأَرْضِ﴾ [القصص: ٧٧].

وقد قال بعض العلماء: من دخل السوق ليشترى ويبيع، فكان درهمه أحبَّ إليه من درهم أخيه، لم ينصح المسلمين فى المعاملة. وقال عالم آخر: من باع أخاه شيئًا بدرهم، وهو يصلح له بخمسة دوانيق، فإنه لم يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه، حتى لا يبيع أخاه شيئًا بدرهم إلاّ وهو يصلح له اشتراؤه به.

فينبغى لهذا المتصرِّف أن يستوى فى قلبه درهمه ودرهمُ أخيه، ورَحلُه ورَحل أخيه، ليعدل فيما يبيعه أو يشترى منه، سواء بسواء، ويكون مراعيًا لموافقة حُكم الله تعالى، الذى ورد به الشرع فى الشراء والبيع، مراعيًا للسبب الذى يصل به الدرهم أن يكون السبب معروفًا فى العلم، مباحًا فى الحكم، فيكون متورِّعًا فى عين الدرهم المعتاض، ولا يكون من خيانةٍ أو سرقةٍ أو فسادٍ أو غَصْبٍ أو غَيْلة أو حيلةٍ؛ فهذه وجوه الحرام التى تحرم بها المكاسب المباحة.

فإذا كان مجتنبًا لهذه المعانى، لم يشهد أحدها بعينه، أو لم يعلمه من عدل، فكَسبُه حينئذ من شُبهة، ولا يكون مع ذلك حلالاً لإمكان دخول أمر هذه الأسباب فيه، ولأنّه على غير يقينٍ معاينة منه لصحة أصله وأصل أصله؛ لقلّة المتقين، وذهاب الورعين، إلاّ أنه شبهة الحلال.

وفى الخبر: «إن النبى ﷺ أُتى بلبن، فقال: من أين لكم هذا؟ فقيل له: من

شاة كذا. فقال: ومن أين لكم هذه الشاة؟ فقيل: من وضع كذا. فشرب منه ثم قال: إنَّا معاشر الأنبياء أُمرنا ألا نأكل إلا طيّبًا، ولا نعمل إلا صالحًا». وقد أمر الله تعالى المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢].

فسأل النبى ﷺ عن أصل الشىء، وأصل أصله، ولم يسأل عما وراء ذلك، لأنه قد يتعذر ولا يوقف على حقيقته، ولأن أموال التجار والصنَّاع قد اختلطت بأموال الأجناد، وهم يأخذون ذلك بغير استحقاق، فكأنه من أكل المال بالباطل، إذ قد أوقفوا نفوسهم، وارتبطوا دوابَّهم فى سبيل الهوى، فصاروا يأخذون العطاء بغير حقٍّ، ولا يملكون ذلك، ثم ينتشر ذلك فى أموال التجار والصناع، وهم لا يميزون بين ذلك، ولا يرغبون عنه؛ لقلة التقوى، وعدم الورع، فلذلك غلب الحرامُ؛ لأن الحلال إنّما هو فرعٌ للتقوى والورع، إذا كثر المتقون وظهر الورعون كثر الحلال وظهر، وإذا قلّوا فشا الحرام وانتشر، فصار الحلال مستهلكًا غامضًا فى الحرام، لغُربة الورعين وخُفية المتقين. وإنّما كان الحلال فى القرن الأول موجودًا لوجود السلف الصالح، وكان الناسُ ورِعين، وكانوا لا يأخذون ما ليس لهم بحق، فكانوا متّقين، وكانوا يتركون بعض حقِّهم خشيةَ دُخول الشبهة عليهم؛ فمن أجل ذلك كان الحلال كثيرًا.

وقد حُكى عن بعض فقهاء العراق أنه قال: لا أقبل شهادة شحيحٍ. قيل: ولِمَ؟ قال: الشحُّ يحمله على استيفاء حقّه، وفى استيفاء حقّه أخذه ما ليس له. ثم قال: حدّثنى عطاء، عن على بن أبى طالب رضى الله عنه، أنه قال: ما استقصى كريمٌ قطّ، وتلا قوله عزّ وجل: ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ [التحريم: ٣].

وفى الخبر: «كنا نتركُ سبعين بابًا من الحلال مخافة بابٍ واحدٍ من الحرام».

وقال الحسن: أدركتُ مَن مضى يُعرَض على أحدهم المال الحلال فيقول: لا حاجة لى به، أخاف أن يفسد علىَّ قلبى. وقد كانت الأئمة عُدولاً، فكانت الجنود معاونين لهم على التقوى، يأخذون عطاءهم بحقٍّ. وفى الحديث عن رسول الله

ﷺ في ذكر الخيل، اختصرناه، قال: «والخيل لرجل وِزرٌ، وهو الذى يربطها فخراً ورياءً وسُمعةً ونواءً على الإسلام، فما أكلت وشربت فى أجوافها حتى أبوالها وأرواثها وآثارها أوزارٌ فى ميزانه يوم القيامة».

وقد قال الله تعالى: ﴿احشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢]، يعنى: وأشباههم وأعوانهم. قال الثورى رحمه الله: يقال يوم القيامة: ليَقُم وُلاةُ السوء وأعوانهم. قال: فمن لاق[1] لهم دواةً، أو بَرَى لهم قلمًا، أو حمل لهم لِبدًا، أو أعانهم على أمرٍ، فهو معهم. وجاء رجلٌ إلى ابن المبارك فقال: إنّى خيَّاط وربما خِطتُ شيئًا لبعض وكلاء السلطان، فماذا ترى، أكون من أعوان الظلمة؟ قال: لستَ من أعوان الظلمة بل أنت من الظلمة، إنما أعوان الظلمة من يبيع منكَ الإبر والخيوط.

وكان بعض العلماء قد جلس فى ديوان بعض الأمراء، فكتب الأمير كتابًا فقال: ناولنى الطِّين أختم به الكتاب، فامتنع فقال: ناولنى الكتابَ الذى كتبتَه حتى أنظر فيه، فلم يناوله. وفعل مثل ذلك سفيان الثورى مع المهدى، فكان بيد المهدى درج أبيض، وقد أُدخل عليه الثورى، فقال له: يا أبا عبد الله، أعطنى الدواة حتى أكتب. فقال: أخبرنى بأىّ شىء تكتب؛ فإن كان حقًا أعطيتك، وإلاّ كنتُ عونًا على الظلم. وكان بمكة أمير قد أمرَ رجلاً أن يقوم له على الصنَّاع فى عمارة ثغرٍ من الثغور. قال: فوقع فى نفسى من ذلك شىء، فسألت سفيان عن ذلك فقال: لا تفعلنّ، ولا تكن عونًا لهم على قليل ولا كثير. فقلت: يا أبا عبد الله، سورٌ فى سبيل الله تعالى للمسلمين، فقال: نعم، ولكن أقل ما يدخل عليك أن تحبّ بقاءهم ليوفوك أجرتك، فتكون قد أحببتَ من بَغض اللهُ عزّ وجل.

وقد جاء فى الخبر: «من دعا لظالمٍ بالبقاء، فقد أحبَّ أن يُعصى الله عز وجل». وفى الحديث: «إن الله ليغضب إذا مُدح الفاسق». وفى خبر آخر: «مَن أكرمَ فاسقًا فكأنما أعانَ على هَدمِ الإسلام».

(١) لاق الدواة: أصلح مِدادها.

وليجتنب هذا السوقى البيوعَ الفاسدةَ، مثل بيع الغَررَ، والخطر، والمجهول، ومثل بيعتين فى بيعة؛ أحدهما مصارفة أو مشارطة، ولا يبيع ما ليس عنده، ولا ما اشتراه حتى يقبضه، ولا يبيع الدَّين بالدَّين، ولا يتبايعان الثّمار حتى يبدو صلاحها ويُؤمن عليها العاهة، ومن النّخيل حتى تحمرَّ أو تصفرَّ، ومن العنب حتى يلين أو يسودّ.

ونهى رسول الله ﷺ عن النَّجَش؛ وهو أن يعطى بسلعة شيئًا وهو لا يريد أن يشتريها بشىء، ليَغُرَّ غيره بها، ولا يبتاع شيئًا من ذهب وخَرَزٍ مثل القلادة ونحوها حتى يفصل كلّ واحدٍ على حدته، كذلك السنة، ولا يتبايعان ما لم يظهر من الحيوان والثمار. ويجتنب القبالات[1] مسانهة، إلاّ شهرًا بشهر، أو سنة بسنة، فقد كُره ذلك، ولَيتَوقَّ كلَّ بيع وشراء أخبر العلم ببطلانه من دخول ربًا فيه، أو خروج من حُكم العلم به؛ فإن ذلك كله منقصة للدين، مخبثة للكسب. فإن أشكل عليه شىء من هذه الأمور لخفائها، سأل أهل العلم والفتيا، فيأخذ عنهم على مذهب الورعين ورأى المتقين، وليحتط لدينه، ولينظر لنفسه، ولا يغمض فى أمر آخرته؛ فذلك خيرٌ له وأحسن توفيقًا. وليجتنب الصنائع المحدَثة من غير المعروفة، والمعايش المبتدعة فى زماننا هذا؛ فإن ذلك بدعة ومكروه، إذ لم يكن فيما مضَى من السلف. وكلُّ ما كان سببًا للمعصية من آلة وأداة فهو معصية، فلا يصنعه ولا يبيعه، فإنّه من المعاونة على الإثم والعدوان. وكل ما أُخذ من المال على عملٍ بدعةٍ أو منكرٍ فهو بدعة ومنكر، وكلّ معينٍ لمبتدع أو عاص فهو شريكه فى بدعته ومعصيته، وأخذ المال على جميع ذلك من أكل المال بالباطل، ومن أكل الحرام فقد قتل نفسه، وقتل أخاه، لأنه أَطْعَمَهُ إيّاه، قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالبَاطِلِ﴾ [البقرة:١٨٨]. وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء:٢٩]. وليس هذا من سبيل المؤمنين. وقد قال الله تعالى: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيرَ سَبِيلِ الْمُؤمِنينَ نُوَلِّه مَا تَوَلَّى ونُصله جَهَنَّمَ﴾ [النساء:١١٥].

(١) القبالات: وردت فى حديث ابن عباس: «إيّاكم والقبالات، فإنها صغار وفضلها ربًا». وهو أن يتقبَّل بِخَراجٍ أو جباية أكثر مما أعطى، فذلك الفضل ربًا. ومسانهة: أى سنة بسنة.

ولا ينبغى للسوقى أن يشغله معاشُ الدنيا عن الآخرة، ولا تقطعه تجارة الدنيا عن تجارة الآخرة، ولا يمنعه سوق الدنيا عن سوق الآخرة، لأنه من الموقنين، وبيوت الله عز وجل فى الأرض هى أسواقٌ للآخرة. قال الله عز وجل: **﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فيهَا اسمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فيهَا بالغُدُوِّ والآصَالِ * رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾** [النور:٣٦ ـ ٣٧] فليجعل العبد طرفى النهار لخدمة سيّدِه، يذكره ويسبحه فى بيته بحسن معاملته.

وقد كان عمر رضى الله عنه يأمر التجار فيقول: اجعلوا أولَ نهارِكم لله عزّ وجل، وما سوى ذلك لنفوسكم. وفى أخبار السلف: كانوا يجعلون أولَ النهار للآخرة، وآخره لدنياهم. ويقال: إن الهريسة والرؤوس لم يكن يبيعها فى الشتاء إلا الصبيان وأهل الذمة، لأنّ الهرّاسين والرآسين يكونون فى المساجد إلى طُلوع الشمس. ويقال: إنّهم كانوا يجتمعون فى المساجد بعد العصر للذكر والتسبيح، حتى يدخل الرجل، فيقول: أصلّيتم العصر؟ يظن أنهم قعود للصلاة، وإنما كانوا يقعدون للتسبيح إلى غروب الشمس.

وهذا طريقٌ قد دُرِس، فمن عمل به فقد كشفه.

وقال بعض العارفين: الناس ثلاثة: رجلٌ شغله معاده عن معاشه، فتلك درجة الفائزين. ورجلٌ شغله معاشه لمعاده، فتلك درجة الناجين. ورجلٌ شغله معاشه عن معاده، فهو حال الهالكين. وقال عالم فوقه: من أحبَّ الله عاشَ، ومن أحب الدنيا طاش، والأحمق يغدو ويروح فى لاش.

وكان ابن عمر رضى الله عنه إذا دخل السوق يقول: اللّهم إنّى أعوذ بك من الكُفر والفُسوق، ومن شرّ ما أحاطت به السّوق. اللهم إنى أعوذ بك من يمينٍ فاجرة، وصفقةٍ خاسرة.

ولذاكر الله عز وجل فى السوق من الفضلِ ما لا يجد فى سواه، فليعتمد ذكرَ الله تعالى فى ساعات الغفلة، وحين تزاحم الناس فى البيع والشراء. وكان الحسن يقول: ذاكرُ اللهِ فى السوق يجىء يومَ القيامة وله ضوءٌ كضوء القمر، وبرهان

كبرهان الشمس، ومن استغفر الله فى السُّوق غُفر له بعدد أهله.

وفى الخبر العام: «ذاكر الله فى الغافلين كالمقاتل عن الفارِّين، وكالحى بين الأموات». وفى الخبر الخاص: «مَن دخل السوق فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت، وهو حى لا يموت، بيده الخير، وهو على كل شىء قدير، كتب اللهُ له ألفى ألف حسنة».

وكان ابن عمر ومحمد بن واسع رضى الله عنهم يدخلان السوق قاصدين، يذكران الله عز وجل طلبًا للفضيلة.

فإن دخلتَ سوقًا أو كنت فيه، فلا يفوتنَّك التهليل والذكر، فهو عمل وقتك، ولا تقعدنّ فى السوق لغير ذكر الله، أو غير معاش، فقد كُره ذلك، وإذا سمعت التأذينَ للصلاة، فلتأخذ فى أمر الصلاة ولا تؤخرها عن الجماعة، وإلاّ كان فاسقًا عند بعض العلماء؛ إلاّ أن يكون فى الوقت سعَة، أو يكون ناويًا للصلاة فى جماعة أخرى فى مسجدٍ آخر؛ فإدراكه لتكبيرة الإحرام فى الجماعة أحبُّ إليه من جميع ما يربح من الدنيا إلى أن يموت، وفوتُها أشدُّ عليه من جميع ما يخسر من الدنيا. هذا إن عقل وأبصر تبيَّن له ذلك.

وقد كان السلف من أهل الأسواق إذا سمعوا الأذان ابتدروا المساجد يركعون إلى وقت الإقامة، وكانت الأسواق تخلو من التجار، وكان فى أوقات الصلاة معايش للصبيان وأهل الذمة، وكان التجارُ يستأجرونهم بالقراريط والدوانيق يحفظون الحوانيتَ إلى أوانِ انصرافهم من المساجد. وهذه سنّةٌ قد عَفَت مَن عمل بها فقد نَعَشها، وجاء فى تفسير قوله عزّ وجل: ﴿رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ [النور:٣٧]، قيل: كانوا حدّادين وخرّازين، وكان أحدهم إذا رفع المطرقة أو غرز الأشفا فسمع الأذان لم يخرج الأشفا من الغرزة، ولم يرفع المطرقة ورمى بها، وقاموا إلى الصلاة.

وروينا عن وهب قال: قال مالك رضى الله عنه فى رجل باع بعد النداء يوم الجمعة: يُفسخ ذلك البيع. قيل: عامل ترك القيام إليها وهو حرٌّ. قال: يستغفر

ربه. وقال ربيعة: ظلم وأساء. وقال مالك: يحرمُ البيعُ حتى يخرج الإمام يوم الجمعة.

وليجتنب الصانعُ عمل الزخرف من الأشياء، وما يكون فيه لهو وزينة من التصاوير والنقوش، وتخريم العاج، ودقائق النقوش من العاج، وتشييد الجص، والتزويق بالأصباغ المشهّاة؛ فإنّ عَمَلَ ذلك مكروهٌ، وأخذَ الأجرةِ عليه شُبهة. وقد كان بعض السلف يقول: تخيَّروا لأولادكم الصنائع. وروى عن حذيفة: إن الله عز وجل خلق كلَّ صانع وصنعته. وقد كانوا يكرهون بيع الطعام وبيع الدقيق.

وأوصى بعض العارفين رجلاً فقال: لا تسلم ولدك فى بيعتين، ولا فى صنعتين: بيع الطعام وبيع الأكفان. فإنّما يتمنى الغلاء، ويتمنى موتَ الناس. والصنعتان: أن يكون جزارًا فإنها صنعة تقسى القلب، أو صواغًا فإنّه يزخرف الدّنيا بالفضة والذهب.

وروى عثمان الشحام عن ابن سيرين أنه كره الدلالة، وسعيد عن قتادة أنه كره أجر الدلاَّل. وكانت العرب تقول: بع الحيوان واشتر الموتان. كأنهم كَرِهوا ردَّ الثمن فى الحيوان، لما يخافون من تلفه. واستحبوا شراء الموات وهو ما لا روح فيه. وقد كانوا يستحبون التجارة فى البَزِّ. قال ابن المسيب: ما من تجارة أحبُّ إلىَّ من البزِّ، إذ لم يكن فيه أيمان. وقد روى خبرًا آخر: «لو اتَّجر أهل الجنة لاتَّجروا فى البَزِّ، ولو اتّجر أهل النار لاتّجروا فى الصرف». وقد كره الحسن وابن سيرين رضى الله عنهما التجارة فى الصرف. وسئل الحسن عن الصيرفى فقال: الفاسق، لا تستظلنَّ بظله، ولا تصلِّين خلفه. والبستانى، والحمَّال، والملاح، وصاحب الحمَّام، والخشَّاش، والمزين.

وقد كانت هذه الصنائع العشر أعمال الأخيار والأبرار: الخرز، والتجارة، والحمل، والخياطة، والحذو، والقصارة، وعمل الخفاف، وعمل الحديد، وعمل المغازل، وصيد البر والبحر، والورَّاقة.

وحدثونا عن عبد الوهاب الورَّاق قال: قال لى أحمد بن حنبل: ما صنعتك؟

فقلت: ورّاق. فقال: كسبُك طيّب وصنعتك طيبة، ولو كنت صانعًا شيئًا بيدى لصنعت صنعتك. وقال لى: لا تكتب إلا مواصفة، واستثن الحواشى، وظهور الأجزاء. وكان مالك بن دينار ورّاقًا، وكان السلف يستطيبون كسبه ويفضلونه.

وكلُّ عمل يُتقرَّبُ به إلى الله عزّ وجل، ويكون من أعمال الآخرة ومن البرّ والمعروف، فأخذ الأجر عليه مكروه، مثل تعليم القرآن، وتعليم العلم، أو مجالس الذكر، والصلاة بالناس فى رمضان، وغسل الموتى، وما كان فى هذا المعنى؛ لأن هذه تجارات الآخرة، فلا تأخذ أجرها إلاّ من الآخرة، ومن أخذها من الدنيا فقد خسر خسرانًا مبينًا، إذا ربح المحتسبون فيها، وأخذوا أجورهم التى صبروا عليها فى دار الدنيا، وقد قال النبى ﷺ لعثمان بن أبى العاص: «واتَّخذ مؤذِّنًا لا يأخذ على الأذان أجرًا». وقال فى حديث أبى عبادة، وقد أُهدى إليه قوس، وكان قد علم رجلاً سورةً من القرآن: «أتحبّ أن يقوسِّك الله قوسًا من نار، فردَّها».

ويجتنب التاجر الاحتكار لما يؤكل ويقتات من القطنية[1] وغيرها. وأشدُّ ذلك الحنطة التى هى قوت الكافة. فقد رُوى فى كراهة الاحتكار والتشديد فيه أخبارٌ كثيرة. روى حذيفة عن رسول الله ﷺ: «من احتكر طعام المسلمين فليس منا». وفى خبر آخر: «من احتكر الطعام أربعين يومًا ثم تصدَّق به لم تكن صدقة بل كفَّارة لاحتكاره». وقيل: «من احتكر أربعين يومًا فكأنما قتل نفسًا». وفى خبر آخر: «ألقاه الله عز وجل فى معظم جهنم». وعن على رضى الله عنه: من احتكر الطعام أربعين يومًا قسا قلبه. وعنه: أنه أحرق طعامًا محتكرًا بالنار.

وروى عنه فى فضل الاحتكار: «مَن جلَب طعامًا ما، فباعه بسعر يومه، فكأنما تصدَّق به». وفى لفظ آخر: «فكأنما أعتق رقبة». ومن العلماء من كان يجعل الاحتكار فى كل مأكول من الحبوب والإدام مثل العدس والباقلاء والسمن والعسل والشيرج والجبن والتمر والزيت، ويكره احتكار جميع ذلك. وروى نحو هذا عن

(١) القطِنيَة: بالتخفيف والتشديد: هى الحبوب التى تُدَّخر كالعدس، ويقال: القُطنِيَّة. المفرد: قَطَانىٌّ.

ابن عباس فى قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج:٢٥]، قال: الاحتكار من الظلم.

وحدثونا عن بعض السلف أنه كان بواسط، فجهَّز سفينة حنطة إلى البصرة، وكتب إلى وكيله مع هذا الطعام: بعه فى يوم دخوله البصرة ولا تؤخره إلى غد. قال: فوافق السعر فيه سَعَة. قال له التجار: إن أخَّرته جمعة ربحت فيه أضعافًا، فأخَّره جمعة فربح فيه أمثاله، وكتب إلى صاحبه بذلك، فكتب إليه صاحب الطعام: يا هذا قد كنا قنعنا أن نربح الثلث مع سلامة ديننا، وإنك قد خالفت أمرنا، وقد جنيتَ علينا جناية، فإذا أتاك كتابى فخذ المال كله فتصدَّق به على فقراء أهل البصرة، وليتنى أنجو من الاحتكار كِفافًا لا علىَّ ولا لى.

وحدث شيخنا عابد الشطّ، مظفّر بن سهل، قال: سمعتُ غيلانَ الخياط يقول: اشترى سَرِىٌّ السقطى كُرَّ لوزٍ بستين دينارًا، وكتب فى روزنامجه ثلاثة دنانير ربحه، فصار اللوز بتسعين دينارًا[1]، فأتاه الدلاّل فقال له: إن ذلك اللوز أريده. فقال: خذه. فقال: بكم؟ قال: بثلاثة وستين دينارًا. قال له الدلال: إن اللوز قد صار الكُرُّ بتسعين دينارًا. قال له سرىٌّ: قد عقدتُ بينى وبين الله عقدًا لا أُحلُّه، لستُ أبيعه إلا بثلاثة وستين دينارًا. قال له الدلاَّل: وأنا قد عقدت بينى وبين الله عقدًا لا أُحلُّه أن لا أغش مسلمًا، لستُ آخذ منك إلا بتسعين دينارًا. قال: فلا الدلاّل اشترى منه ولا سرىٌّ باعه.

وحدثونا عن رجل من التابعين بالبصرة، كان له غلام بالشوش يجهز إليه السكر، فكتب إليه الغلام: إن قصبَ السكر قد أصابته آفة فى هذه السنة، فاشتر السكر. قال: فاشترى سكرًا كثيرًا. فلما جاء وقته ربح فيه ثلاثين ألفًا. قال: فانصرف بها إلى منزله، فتفكر ليله فى الربح، فقال: ربحت ثلاثين ألفًا، وخسرت نُصحَ رجلٍ من المسلمين. فلما أصبح غَدَا إلى الرجل الذى كان اشترى منه السّكر فدفع إليه الثلاثين ألفًا، فقال: هذه لك بارك الله لك فيها. قال: ومن أين صارت؟ قال: لما اشتريت منك السكر، لم آت الأمر من وجهه. إن غلامى قد

(١) أى ارتفع سعره بعد أن اشتراه إلى تسعين دينارًا.

كان كتب إليَّ أن قصب السكر أصابته آفة، فلم أُعلمك ذلك ولعلك لو علمت لم تكن تبيعنى. فقال: رحمك الله قد أعلمتنى الآن، وقد طيبتها لك. قال: فرجع إلى منزله فبات تلك الليلة ساهرًا، وجعل يتفكر فى ذلك، ويقول: لم آت الأمر من وجهه، ولم أنصح مسلمًا فى بيعه، لعله استحيا منى، فتركها لى، فبكَّر إليه من الغد، فقال: عافاك الله خُذ مالك، فهو أصلح لقلبى، قال: فدفع إليه ثلاثين ألفًا.

وقال سليمان التيمى: لقد ترك محمد بن سيرين أربعين ألف درهم من شىء حاك فى صدره، لم تختلف العلماء أن ليس به بأس. ويقال: إن هذا كان سبب غلبة الدَّين عليه.

ثم ليتق البائعُ مدحَ السلعة، وتنفيقها بزخرف الكلام، وليحذر المشترى ذمها وعيبها بما ليس فيها للخِداع.

وأما الأيمان على ذلك فهو معصية وممحقة للكسب. وقد كان السلف يشددون فى ذلك. قال أبو ذر: كنا نتحدث أنّ مِن نَفَرٍ لا ينظر الله إليهم؛ التاجر الفاجرُ، وكنا نعدّ من الفجور أن يمدح السلعةَ بما ليس فيها. وقال يونس بن عبيد، وكان خزازًا، فجاءه رجلٌ يطلب ثوب خزٍّ، فأمر غلامه أن يخرج رزمة الخز، فلما فتحها قال الغلام: اسأل الله الجنة، فقال: شِدَّ الرزمة، ولم يبع منها شيئًا؛ خشيةَ أن يكون قد مدح. ويقال: إنه كانت عنده حلل على ضربين، أثمان ضرب منها أربعمائة لكل حلَّة، وأثمان الآخر مائتان. فذهب إلى الصلاة وخلَّف ابن أخيه ليبيع، فجاءه أعرابى يطلب حلة بأربعمائة، فعرض عليه من حلل المائتين، فاستحسنها ورضيها فاشتراها منه، ومشى بها وهى على يده، ينظر إليها خارجًا من السوق، فاستقبله يونس بن عبيد خارجًا من المسجد، فعرف حلته، فقال: بكم أخذتَ هذه الحلّة؟ فقال: بأربعمائة. فقال: لا تسوى، إنّما قيمتها مائتان: فقال: يا ذا الرجل، إن هذه تساوى ببلدنا خمسمائة درهم. فقال له يونس: إنّ النصحَ فى الدين خيرٌ من الدنيا كلّها، ثم أخذ بيده فردَّه إلى ابن أخيه فجعل يخاصمه، ويقول: أمَا اتقيتَ الله؟ أمَا استحيت أن تربح مثل الثمن، وتترك النصح لعامة

المسلمين؟ فقال: والله ما أخذه إلا عن تراض. فقال: وإن رضى، ألا رضيتَ له ما رضيت لنفسك، ثم ردّ على الأعرابى مائتى درهم.

وقد فعل مثل ذلك محمد بن المنكدر، وكانت عنده شِقاقٌ [1] جنابية وبَصرية، أثمان بعضها خمسة خمسة، وأثمان بعضها عشرة عشرة، فخَلَفه غلامُه فى الحانوت فغلط فباعَ أعرابيًا شُقَّة من الخمسات بعشرة، فجاء ابن المنكدر، فتفقّد الشِّقاق فعرف غَلطَه، فقال: ويلك أهلكتنا، اذهب فاطلب الأعرابى فى الأسواق، فلم يزل يطلبه يومه أجمع حتى وجده. فقال له ابن المنكدر: يا هذا إن الغلام غَلِطَ، فباعك ما يسوى خمسة بعشرة. فقال: يا هذا قد رضيتُ. فقال: وإن رضيتَ لنفسك، فإنّا لا نرضى لك إلا ما نرضاه لأنفسنا، فاختر إحدى ثلاث خصال: إما أن تأخذ شقة من العشرات بدراهمك، وإما أن نرُدَّ عليك خمسة، وإما أن تَرُدَّ علينا شقّتنا وتأخذ دراهمك. فقال: أعطنى خمسة. قال: فأعطاه من دراهمه خمسة. فانصرف الأعرابى فجعل يسأل عنه، فيقول: مَن هذا الشيخ؟ فقيل: هذا محمد بن المنكدر. فقال: لا إله إلا الله، هذا الذى نستسقى به فى البوادى إذا قَحِطنا.

وقد سئل بعض العلماء عن الورع فى المبايعة فقال: لا يصح الورع فى البيع إلا بحقيقة النصح. قال: وكيف ذلك؟ قال: إذا بعته شيئًا بدرهم نظرت، فإن صلح لك أن تشتريه بدرهم فقد نصحته فى البيع، وإن كان يصلح لك بخمسة دوانيق، وقد بعته بدرهم، فإنك إن لم ترض له ما ترضى لنفسك فقد ذهب النصح. قال: فإذا عدم النصح ذهب الورع. ويقال: إن البائع يوقف يوم القيامة مع كل رجل كان باعه شيئًا وقفةً، ويحاسب عن كل واحد محاسبةً، حتى عدَّد مَن عامَله، ومن اشترى منه فى الدنيا.

وذكر بعضهم قال: رأيت بعض التجار فى النوم فقلت: ما فعل الله بك؟ فقال: نشر علىَّ خمسين ألف صحيفة. فقلت: هذه كلها ذنوب؟ فقال: هذه معاملات الناس عدد ما كنت عاملته فى الدنيا، لكل إنسان صحيفة مفردة فيما بينك وبينه

(١) شقاق: جنس من الثياب، المفرد شُقَّة. جنابية: نسبة إلى الجناب، أرض معروفة بنجد.

من أول معاملته إلى آخرها، فإن كان البائع ذا ميزان فليرجح فى الوزن إذا باع وأعطاه، ولينقص نفسه إذا أخذ، سيما إذا كان ذا ميزانين كان الأمر عليه أشد.

وكان بعضهم يقول: ألاَ أشترى الويلَ من الله بحبَّة؟ فكان إذا أخذ نقصَ نفسه بحبةٍ، وإذا أعطى زاد غيره حبة، لقوله عزّ وجلّ: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١]، يعنى: الذين رضوا بالتطفيف بالحبة والحبتين، فباعوا بذلك جنةً عرضها السموات والأرض، لجهلهم بأمر الله تعالى، وقلة يقينهم بالآخرة، إذا اشتروا الويل بطوبى، ويقال: إن هذه المظالم لا ترد أبدًا، ولا تصحّ التوبة منها لتعذُّر معرفة أصحابها.

وروى عن النبى ﷺ أنه اشترى شيئًا، فلما وزن ثمنه قال للوزَّان: زِن وأرجح. ونظر الفضيل بن عياض رحمه الله إلى ابنه علىٍّ وهو يغسل كحلاً من دينار أراد أن يصرفه، فجعل ينقِّيه ويغسله من كحله. فقال له: يا بنى، فِعْلُك هذا أفضل من عشرين حجة. وقال بعض أهل السلف: عجبًا للتاجر والبائع كيف ينجو، يزن ويحلف بالنهار، وينام بالليل. وقال سليمان عليه السلام: كما تدخل الحية بين الحجرين، كذلك تدخل الخطيئة بين المتبايعين.

وحُدِّثت أن بعض السلف صلَّى على مخنَّث قد كان يجمع بين النساء والرجال وغير ذلك. فقيل له: إنه قد كان فاسقًا، وكان كذا وكذا، فسكت. فأعاد عليه القائل فسكت. ثم قال: مَهْ كأنك قلتَ لى كان صاحب ميزانين، يأخذ بأحدهما ويعطى بالأخرى. هذا على التغليظ والوعظ، أراد أن التطفيف مظالمٌ بين الخلق، وأن الفسقَ ظُلمُ العبدِ لنفسه، وبين مظالم العباد وظلم العبد لنفسه بون كبير، من قِبَل أنّ الخلق فقراء، جهلة نيام، فيستوفون حقوقهم لحاجتهم إليها، والله عزّ وجل عالم كريم غنى فيسمح بحقه.

ولا ينبغى للمشترى أن يسأل البائع الرجحان، إلاّ أن الله عز وجل قال: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ [الرحمن: ٩]. أى بالعدل؛ وهو السواء. وهو استواء اللسان فى البكرة لا مائلاً إلى إحدى الكفتين. وفى قراءة عبد الله: «ولا تَطْغَوا فى الميزانِ وأَقِيمُوا الوَزنَ بالقِسطِ باللسانِ، ولا تُخْسِروا الميزانَ». فهذا مفسر فى

هذا الحرف.

ومكروه المعاملة بالمزيَّفة، ولا يصلح بدرهم تكون الفضلة فيه مجهولة أو مستهلكة، ولا بما لا تعرف قيمته، وما يختلط بالفضة من غيرها فلا تمتاز منه. فقد كان بعض السلف يشدِّد فى ذلك ويحرِّمه، منهم: الثورى، والفضيل بن عياض، ووهب بن الورد، وابن المبارك، وبشر بن الحارث، والمعافى بن عمران، رضى الله عنهم. ويقال: إنّ كلَّ قطعةٍ من المزيَّفة ينفقها صاحبها يجدها ملصقة فى صحيفته بعينها وصورتها، مكتوب تحتها ألف سيئة؛ خمسة آلاف سيئة على قدر وزنها، ووزن ذرةٍ منها سيئة؛ والذرة نقطة من هباء شعاع الشمس فى الضوء.

حدثنى بعض العلماء عن بعض الغزاة فى سبيل الله عز وجل قال: حملتُ على فرسى لأتناول بعض العُلوج فقصر فرسى فرجعت، ثم دنا منى العِلْج فحملت عليه ثانية لأتناوله، فقصر فرسى، وحملتُ عليه ثالثة وقد قرُب منى فنفَر بى فرسى، ولم أكن أعتاد ذلك منه. فرجعت حزينًا، فجلست إلى جنب فسطاطى منكرًا للذى فاتنى من أخذ العِلج، ولما اختلف علىَّ من خُلق فرسى، قال: فوضعتُ رأسى على عمود الفسطاط، فنمتُ وفرسى قائم بين يدى، فرأيت فى النوم كأن الفرسَ يخاطبنى، ويقول لى: بالله عليك أردتَ أن تأخذ علىَّ العلج ثلاث مرات، وأنت بالأمس اشتريت لى علفًا، ودفعت فى ثمنه درهمًا زائفًا؟ لا يكون هذا أبدًا. قال: فانتبهت فزعًا فذهبت إلى العلاف فقلت له: أخرج إلىَّ الدراهم التى اشتريت بها منك بالأمس العلف. قال: فأخرجها إلىَّ فأخذت منها الدرهم الزائف فقلت: إنى كنت قد جوَّزت عليك هذا الدرهم بالأمس. قال: فأبدلته له وانصرفت.

وقال عبد الوهاب: سألتُ بشرًا عن المعاملة بالمزيَّفة فقال: سألت المعافى عنها؟ فقال: سألت الثورى عنها فقال حرام.

وحُدثنا عن أبى داود قال: سمعت أحمد أنكر التجارة والمعاملة بالمزيَّفة والمكحلة. وقد كان بعض علمائنا يقول: إنفاق درهم مزيف أشدّ من سرقة مائة درهم. قال: لأن سرقة مائة درهم معصية واحدة منقضية، وإنفاق دانقٍ مزيف

بدعةٌ أحدثها فى الدين، وإظهار سنةٍ سيئة يعمل بها بعده، وإفسادٌ لمال المسلمين، فيكون عليه وزره إلى مائة سنة فأكثر ما بقى ذلك الدرهم يدور فى أيدى المسلمين، ويكون عليه ما أفسد ونقص من أموال المسلمين إلى آخر فنائه وانقراضه.

فطوبى لمن إذا مات ماتت ذنوبه معه، والويل الطويل لمن يموت وتبقى ذُنوبه بعده مائة سنة ومائتى سنة، يعذَّب بها فى قبره، ويسأل عنها إلى آخر انقراضها. قال الله عز وجل: ﴿**وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ**﴾ [يس:١٢]، ما قدموا: ما عملوا، وآثارهم: ما سنُّوه بعدهم، فعمل به. وقال فى وصفه: ﴿**يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ**﴾ [القيامة:١٣] قيل: بما قدَّم من عمل، وما أخَّر من سُنَّةٍ عمل بها بعده، وقال رسول الله ﷺ: «مَن سنَّ سنة سيئةً فعمل بها بعده كان عليه وِزرُها، ومثل وزر مَن عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيئًا».

وإنفاق الدّرهم الردىء على من يعرف النقد أشدّ وأغلظ، وهو على من لا يعرف أسهل؛ فيكون به أعذر، لأن هذا لا يتعمد الغشّ، والآخر يتعمده ويقصده، فإنّما كان المسلمون يتعلمون جودةَ النقد، لأجل إخوانهم المسلمين، لئلا يغشوهم بالردىء، وإلاَّ فإنَّ تعلُّم النقد بلاءٌ وإثمٌ على صاحبه، لأنه علم علمه ولم يعمل به، فهو يسأل عن علمه، ومن ردّت عليه قطعة فلينفقها ولا يجوزها على بيع آخر، ويحتسب بذلك الثواب من الله عزّ وجل، فله بذلك من الأجر بوَزن كل ذَرّةٍ منها حسنة، وله فى طرحها أعمال كثيرة من الصوم والصلاة.

فإن كان فى القطعة تجوُّز نقد ينصرف مثلها، فأراد أن يشترى بها شيئًا، فليُعلم البائع الثانى أنها قد رُدَّت عليه، فإن أخذها على بصيرةٍ وعن سماحةٍ فلا بأس، فإن لم يُعلمه، فإنه لم ينصحه، وربّما كان على غير بصيرة بالنقد. فقد رُوى عن عمر رضى الله عنه: مَن زافت عليه دراهمه فليضعها فى كفّه، وليناد عليها فى السوق: من يبيعها سُحُق ثوب بدرهم زائف؛ وهذا إذا كانت زائفة على وجهها كالصُّفر والرصاص كان لها قيمة مثلها. وفى قول ابن عمر رضى الله عنهما لنافع: لو حفظت عنى كما يحفظ عكرمة عن ابن عباس ـ رضى الله عنهم ـ لكان

أحبَّ إليَّ من أن يكون لى درهم زائف. قيل له: أفلا جعلته جيدًا؟ قال: كذلك كان فى نفسى.

وروينا عن النخعى: إذا كان فى الدرهم شىء من الفضة وإن قلّ فلا بأس به. وحدثت عن أبى داود قال: سألت إسحاق بن راهويه رحمهما الله عن إنفاق المزيَّفة، فقال: لا بأس به. ففيه ترخيصٌ بالإنفاق بالزائف إذا عُرِف، ومن سمح فى النقد، ويجوز فى أخذِ الردىء طلبًا للأجر فيما يحتسب، ثم إذا أخرج ذلك على المسلمين وجوَّزه عليهم بعد ذلك فقد أَثِمَ فى سماحته وتشديده حينئذ، ونَقْصُه فى أخذ الجيد أفضل، وهذا من دقائق الأعمال وباطن الشر فى ظاهر الخير. اللهم إلاّ أن يأخذ الردىء ثم يُلقيه ولا يُخرجه إلى أحد، فإن فعل هذا كان فاضلاً محتسبًا محسنًا فى سماحته، وله باحتسابه ذلك مثوبة وأجر.

فينبغى للتاجر أن يكثرَ من الصدقة، ليكون فيها كفّارة خطاياه وأيمانه وكذبه، فقد أمر النبى ﷺ التاجر بالصّدقة. لذلك فينبغى للتاجر والصانع أن يكونا مستعملين لهذه الخصال، فإنها جامعةٌ له تشتمل على جُمل أعمال البرِّ، فليأخذوا أنفسهم بها، فإنها من أخلاق المؤمنين وطرائق المتقدمين، وقد نُدبوا إلى جميعها؛ منها: أن يسمح إذا باع، ويسمح إذا اشترى، ويُحسن إذا قضى، ويُحسن إذا اقتضى، وليمش الرجل بدَين غريمه إليه، ولا يحوجه إلى اقتضائه فيشق عليه، وليصبر صاحب الدين على أخيه ويحسن تقاضيه، ويحسن له النظرة، ويؤخر حقه إلى ميسرته، وليغتنم دعاءَ رسول الله ﷺ لهم على ذلك، فينافسوا فى مدحه لمن فعل ذلك.

فقد روى عن النبى ﷺ قال: «اسمح يُسمح لك». وقال: «خير الناس أحسنهم قضاءً». وقال: «خذ حقَّك فى عفاف وافيًا كان أو غير واف يحاسبك الله حسابًا يسيرًا». وقال: «رحم الله عبدًا سَمحَ البيع سمحَ الشراء حَسَنَ القضاء حَسَن الاقتضاء». وقال: «من مشى إلى غريمه بحقه أظلته الملائكة». وقال: «مَن أنظر معسرًا أو ترك له حاسبه الله حسابًا يسيرًا»، وفى خبر آخر: «أظله الله فى ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله».

وذكر عليه الصلاة والسلام رجلاً كان مسرفًا على نفسه، حُوسب فلم يجد له حسنة، فقيل له: هل عملتَ خيرًا قط؟ فقال: لا، إلاّ أنى كنتُ رجلاً أداين الناس، وأقول لغلمانى: سامحوا الموسر وأنظروا المعسر. وفى لفظ آخر: وتجاوزوا عن المعسر. قال الله عز وجل: نحن أحقّ بذلك منك، فغفر له.

وفى خبر آخر: «مَن أقرض دَينًا إلى أجَلٍ فله بكل يوم صدقة إلى أجَلَه، فإذا حلَّ الأجلُ فأنظره بعده، فله بكل يوم مثل ذلك الدَّين صدقة». وفى حديث: «مَنِ ادَّان دينًا وهو ينوى قضاءه وكَّل الله به ملائكة يحفظونه ويدعون له حتى يقضيه». وكان جماعة من السلف يدانون وهم واجدون، لأجل هذا الخبر. وكان جماعة لا يحبون أن يقضيهم غرماؤهم دَينهم لأجل ذلك الخبر الأوّل، إذ له بكل يوم تأخر قضاءُ صدقة.

وفى الحديث: «رأيتُ على باب الجنة مكتوبًا: الصدقة بعشر أمثالها، والقرض بثمانية عشر». قيل: معناه أن الصدقة تقع فى يد محتاج وغيره، والقرض لا يقع إلا فى يد محتاج مضطر إليه. ونظر النبى ﷺ إلى رجل يلازم رجلاً بدين عليه، فأومأ إلى صاحب الدين بيده: ضع الشطر، ففعل. فقال للمديون: قم فأعط. وكان النبى ﷺ قد ادَّان دينًا إلى أجَل، فجاءه صاحبُ الدين عند حلول الأجل، ولم يتفق عند النبى ﷺ، فجعل الرجل يكلم النبى ﷺ ويشدد عليه فى الكلام، فهمَّ به أصحابه، فقال: «دعوه فإن لصاحب الحق مقالاً».

وأستحبُّ أن تكون أكثر معاونة الإنسان بين البَيِّعَيْنِ مع المشترى منهما، وأستحب أيضًا أن يكون عونه بين المُتداينَيْنِ مع الذى له الدّين، إلا أن يعتدى من له الدَّين، أو يعتدى المشترى، فيكون حينئذ على المشترى. وروى عن النبى ﷺ: «النَّسيئةُ بالنَّسيئةِ ربا، والمُسْتَبَّانِ ما قالا، فعلى البادى منهما ما لم يعتد المظلوم».

ويسيرُ المغابنة فى التجارات جائز، فإنّ موضوعَ التجارة على الغَبَن إذا كان عن تراضٍ، فإذا تفاوتت القيمة وعُلم الغبن فمكروه. وقد يروى فى حديث: «إنّ غَبْنَ المستغفل حرام». وفى حديث فيه مقال: «المغبون لا محمود ولا مأجور». هذا ـ والله أعلم ـ إذا تغابن وهو يعلم، فيخسر نفسه حقّه، ويحمل غيره على ظلمه.

وكان إياس بن معاوية قاضى البصرة من علماء الزمان، ومن عقلاء التابعين، وكانت لأبيه صحبة، كان يقول: لست بخِبٍّ، والخِبُّ لا يغبننى، ولا يغبن محمد ابن سيرين، ولكن يغبن الحسين ومعاوية بن قرة. وكان الزبير بن عدى يقول: أدركت ثمانية عشر من أصحاب رسول الله ﷺ ما منهم رجل يحسن يشترى لحمًا بدرهم.

وقد روى أن الحسن باع بغلاً له بأربعمائة درهم، فلما استوجب المال قال له المشترى: اسمح يا أبا سعيد. قال: قد أسقطتُ عنك مائة. قال له المشترى: فأحسن يا أبا سعيد. قال: قد وهبتُ له مائة أخرى. فنقص من حقه مائتى درهم. وفى رواية أخرى قال: أحسن. قال: وهبت لك مائتى درهم. فقيل له: يا أبا سعيد، هذا نصف الثمن. فقال: هكذا يكون الإحسان وإلاّ فلا.

وقد كان الحسن والحسين رضى الله عنهما وغيرهما من خيار السلف يستقصون فى الشراء، ثم يهبون مع ذلك الجزيل من المال، فقيل لبعضهم: تستقصى فى شرائك على اليسير، ثم تهب الكثير ولا تبالى، فقال قائلهم: إن الواهب يعطى فضله، وإن المغبون يُغبن عقلُه. وقال آخر: إنما أُغبن بصيرتى ـ أو قال: معرفتى ـ ولا أُمكِّن الغابن من ذلك، وإذا وهبت فإنّما أعطى لله عز وجل، فلا أستكثر له شيئًا.

والأخبار فى هذه المعانى تكثر، والفضائل فيها تطول، ولم نقصد جمع ذلك، فقد ذكرنا جملة. وهذا كله داخل فى البرّ والتقوى، ومن العدل والإحسان، ومن تطوُّع الخير، وفعل المعروف، فقد أمر الله بذلك فى مواضع من كتابه.

وينبغى أن يستعمل النصح فى البيع والشراء، وفى الصنعة، ويستوى عملهما فى المبيع والمشترى والمصنوع، ويفطن كل واحد منهما صاحبه بعيب إن كان فى السلعة، وينقص إن كان فى الصنعة إن لم يفطن المشترى لذلك والمستعمل ليتكافأ العلمان، ويثنى كل واحد منهما على صاحبه بإحسان.

وفى الخبر: «البيِّعان إذا صدَقا ونَصحا بُورك لهما فى بيعهما، وإذا كذبا وكَتَما نُزعت البركة من بيعهما». وفى حديث آخر: «يدُ الله على الشريكين ما لم

يتخاونا، فإذا تخاونا رفع يده عنهما». ولما بايع النبى ﷺ جريراً على الإسلام ذهب لينصرف فجذَب ثوبه، واشترط عليه النصح لكل مسلم. قال: فكان جرير إذا أقام السلعة ليبيعها بصَّر عيوبها ثم أخبر، فقال: إن شئت فخذ وإن شئت فاترك. فقلنا له: رحمك الله، إنك إذا قلت هذا لم ينفذ لك بيع. فقال: إنما بايعنا رسول الله ﷺ على النصيحة لأهل الإسلام.

وكان واثلة بن الأسقع واقفًا بالناس فى الكوفة، فباع رجل ناقة بثلاثمائة درهم، وغفل واثلة، وقد ذهب الرجل بالناقة، فسعى وراءه وجعل يصوِّت به حتى رجع، وقال: يا هذا أللحم اشتريت هذه الناقة أم للظهر؟ فقال: بل للظهر. فقال: فإن بحُقِّها نَقبًا قد رأيته، وإنّها لا تتابع السير عليه. قال: فردَّها، فنقصه البائع مائة درهم، فقال لواثلة: رحمك الله أفسدت علىَّ بيعى. فقال: إنا بايعنا رسول الله ﷺ لا يحلّ لأحد يبيع شيئًا إلا يبيِّن ما فيه، ولا يحلّ لمن يعلم ذلك إلا يبيِّنه.

فانظر ـ رحمك الله ـ إلى النصح للمسلمين الذى يتعذر فعله على كثير من المسلمين، إنما جعله رسول الله ﷺ من شرط صحة الإسلام، وكان يبايع عليه، إلاّ أنه جعله من فضائل الدين، ولا نهاية لقرب المتقين، لأنه قال: «الدين النصيحة، الدين النصيحة» ثلاثًا، ثم سوّى بين طبقات الناس فيه فقال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين ولعامتهم».

وقد رُوى فى خبر مشهور: «لا تزال لا إله إلا الله تدفع عن الخلق سخط الله ما لم يؤثروا صفقة دنياهم على آخرتهم». وفى خبر آخر: «ما لم يبالوا ما نقص من دنياهم بسلامة دينهم، فإذا فعلوا ذلك وقالوا: لا إله إلا له، قال الله سبحانه: كذبتم لستم بها صادقين». وفى لفظ آخر: «رُدَّت إليهم». وفى خبر كأنه مفسر لحديث مجمل: «من قال لا إله إلا الله مخلصًا دخل الجنة». قيل: وما إخلاصها؟ قال: «أن تُحرزه عمّا يحرم الله». وفى خبر مشهور: «ما آمن بالقرآن من استحل محارمه». وقد روينا عن بعض التابعين: لو دخلتُ هذا الجامع وهو غاصٌّ بأهله فقيل لى: من خير هؤلاء؟ لقلت: أنصحهم لهم. فإذا قالوا هذا، قلت: هو

خيرهم. ولو قالوا لى: من شرّهم؟ قلت: أغشُّهم لهم[١]. فإذا قالوا هذا قلت: هو شرهم.

والغش فى البيوع والصنائع محرَّم على المسلمين، ومن كثر ذلك منه فهو فاسق. ومن الغش أن ينشر على المشترى أجود الطرفين من المبيع، أو يظهر من المبيع أجود الثوبين، أو يكشف من الصنعة أحسن الوجهين. روى أن النبى ﷺ مرّ برجل يبيع طعامًا، فأعجبه ظاهره، فأدخل يديه فرأى بللاً فقال: ما هذا؟ فقال: أصابته السماء. فقال: «هلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس، من غشنا فليس منا».

وفى حديث عبد الله بن أبى ربيعة: أنه مرّ ﷺ على طعام مُصبَّرٍ، فارتاب منه، فأدخل يده، فإذا طعام ممطور، فقال: ما هذا؟ فقال: هذا والله طعامٌ واحد يا رسول الله. فقال: «هلاّ جعلت هذا وحده حتى يأتوك فيشترون شيئًا يعرفونه، من غشّنا فليس منا».

وحدثنى بعض إخواننا أنّ رجلاً حذّاءً سأل: كيف لى أن أسلم فى بيع النعال؟ فقال: استجدَّ الأسفل، وليكونا شيئًا واحدًا، واجعل الوجهين سواء لا تَفْضُلِ اليمين الأُخرى، وجوِّد الحشو وليكن شيئًا واحدًا تامًا، وقارب بين الخَرْز، ولا تطبق أحد النعلين على الأخرى.

فينبغى للبائع والصانع أن يُظهرا من المبيع والمصنوع أردأ ما فيه وأرذله، ليقف المشترى والمستعمل على عيوبه، ويكونا على بصيرةٍ من باطنه. وباع ابن سيرين شاة له، فقال للمشترى: أبرأ إليك من عيبٍ فيها. قال: وما هو؟ قال: تُقلِّبُ العلفَ برجلها. وباع الحسن بن صالح جارية فقال للمشترى: إنها قد تنخَّمت مرةً عندنا دمًا.

ويبين دقائق الإعلام والبيان فى ذلك مما لا يعلمه المشترى أو المستعمل؛ فهو من النصح والصدق، وذلك يكون عن التقوى والورع فى البياعات والإجارات، ويكون الكسب عن ذلك أحلَّ وأطيب.

---

(١) من قوله: «فإذا قالوا» إلى هنا ساقط من المطبوعة.

فليجتنب المسلم محرم ذلك كله، وكل مكروه؛ فهذه سيرة السلف وطريقة صالحى الخلف.

وأستحبُّ له أن يتوخَّى فى الشراء والبيع، ويتحرى أهل التقوى والدين، ويسأل عمّن يريد أن يبايعه ويشاريه، وأكره له معاملة من لا يرغب عن الحرام، أو من الغالب على ماله الشبهات.

وحُدِّثت عن محمد بن شيبة ابن أخت ابن المبارك قال: كتب غلامُ ابن المبارك إليه: إنَّا نبايع أقوامًا يبايعون السلطان. فكتب إليه ابن المبارك: إذا كان الرجل يبايع السلطان وغيره فبايعه، وإذا قضاك شيئًا فاقبض منه، إلاّ أن يقضيك شيئًا تعرفه بعينه حرامًا فلا تأخذه، وإذا كان لا يبايع إلا السلطان فلا تبايعه.

وحُدثنا عن بعض الشيوخ عن شيخ له من الخلف الصالح قال: أتى على الناس زمانٌ كان الرجل يأتى إلى مشيخة الأسواق فيقول: مَن ترون لى أن أعامل من الناس من أهل الصدق والوفاء؟ فيقال له: عامل من شئت. ثم أتى عليهم وقت آخر، فكان الرجل يقول: مَن ترون لى أن أعامل من الناس؟ فيقال: عامل من شئت إلا فلانًا وفلانًا. قال: ونحن فى زمن إذا قيل لنا: من نعامل من الناس؟ فيقال: عامل فلان ابن فلان، وأخشى أن يأتى على الناس زمان يذهب فلان ابن فلان أيضًا.

ولا يحلف ولا يكذب ولا يخلف موعدًا، فإن اليمين الكاذبة ممحقة للكسب. وفى الخبر: «ويل للتاجر من لا والله، وبلى والله. وويل للصانع من اليوم وغد وبعد غد».

أبو عمرو الشيبانى عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثةٌ لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: عبدٌ متكبِّر، ومنَّان بعطيته، ومنفق سلعته بيمينه».

ولا يمدح إذا باع أو صنع صنعة، ولا يذم إذا اشترى أو استعمل صانعًا، فإنّ هذا لا يزيد فى رزقه ولا ينقص منه تركه. وهذا من اليقين فى الرزق فى هذا الباب، وفعله يزيد فى الذنوب، فينقص من الدين.

وعلى الصانع أن يبلغ غاية النصح فى صنعته لمستعمله، لأنه أعرف بصلاح صنعته وفسادها، وبسرعة فناء الصنعة وكثرة بقائها، فينبغى أن يتقن نهاية علم الصانع بصلاح الصنعة، وحسن بقائها مع نهاية بغية مستعمله من تجويدها وإحكامها، ويتقى من فساد يسرع إلى فنائها ما لا يفطن له مستعمله. فإذا فعل الصانع والتاجر ذلك كانا قد عملا بعملهما، وسلما من المطالبة والمساءلة عنه، وإلاّ فهما يُسألان فيقال لهما: ماذا عملتم فيما علمتم؟ إذ كانوا على علم من التجارة والصناعة، وبهذه الأشياء عمارة المملكة، فلا بدّ أن يُسألا عن ذلك، كما يُسأل مَن كان على علم من الدين والإيمان؛ لأن لهم فى علوم العقل والتمييز من أبواب الدنيا أحوالاً أيضًا ومقامات، من حيث كان عليهم فى ذلك تكليف وعبادات.

ويقال: إذا أثنى على الرجل جيرانه فى الحضر، وأصحابه فى السفر، ومعاملوه فى الأسواق، فلا تشكّوا فى صلاحه. وشهد رجل عند عمر بن الخطاب رضى الله عنه بشهادة فقال: ائتنى بمن يعرفك، فأتاه رجل فأثنى عليه خيرًا. فقال له عمر رضى الله عنه: أنت جاره الأدنى الذى تعرف مدخله ومخرجه؟ قال: لا. قال: فكنت رفيقه فى السفر الذى يُستدل به على مكارم الأخلاق؟ قال: لا. قال: فعاملته بالدينار والدرهم الذى يتبين به ورع الرجل؟ قال: لا. قال: أظنّك رأيته قائمًا فى المسجد يصلى يخفض رأسه طورًا ويرفعه، له زمرة بالقرآن. قال: نعم. قال: اذهب فلست تعرفه. ثم قال للرجل: اذهب فائتنى بمن يعرفك.

وقد كان من سيرة السُّوقة فيما سلف، أنه كان للبائع دفتران للحساب: أحدهما ترجمته مجهول، فيه أسماء من لا يعرفه من الفقراء الضعفاء، وذلك أن المسكين والضعيف كان يرى المأكول فيشتهيه أو يحتاج إليه، ولا يمكنه أن يشتريه، فيقول للبائع: أحتاج إلى خمسة أرطال من هذا أو عشرة، وليس عندى ثمنه، فيقول: خذ إلى ميسرة، فإذا رُزقتَ فاقض، ويكتب اسمه فى الدفتر المجهول. قال: ولم يكن من يفعل هذا من خيار المسلمين، بل كان الخير من الباعة من لا يكتب اسمه فى دفتره، ولا يجعله دينًا حتمًا عليه، ولا مظلمة عنده، ولكن يقول: خُذ

حاجتَك مما تريد، فإن وجدتَ فاقضني، وإن لم تجد فأنت في حِلٍّ، لا تضيقنّ قلبك لذلك.

وهذا طريق قد مات، فمن قام به فقد أحياه، فكان مثل هؤلاء في المتقدمين أكثر من أن يسعهم كتاب. وكان من ينصح دقائق النصح، وشدّد على نفسه غاية التشديد، وسمح لإخوانه نهاية الجود، أكثرَ من ذلك. وإنما ذكرنا هؤلاء لتنبيه الغافلين على أعمالهم، ونكشف بعض ما عفا من طريقهم. ولم يكن هؤلاء المذكورون من السُّوقة من خيار الناس كلّهم، إنما كان الأخيار المسجدية العبَّاد والنسَّاك المنقطعون إلى الله الزهَّاد، فإذا حصلت كفايةُ السوقي في بعض يومه، فليجعل بقيته لأخيه، فقد كان بعض السلف منهم من ينصرف من حانوته بعد صلاة الظهر ويجعل نصف يومه لربه، ومنهم من ينصرف بعد العصر فيكون آخر يومه لآخرته. وكان بعضهم إذا حصلت كفايته في يومه وتأتّى قوتُ عياله في أي وقتٍ من نهاره، غلق حانوته، وانصرف إلى منزله أو مسجده يتعبد بقية يومه. وكان منهم من إذا ربح دانقًا أو قيراطًا انصرف قناعةً وزهدًا، أو قلّة حرص على الدنيا. وأعجب من ذلك ما سمعتُ عن حماد بن سلمة أنه كان يبيع الخُمُر في سَفَطٍ[1] بين يديه، فكان إذا ربح حبتين رفع سَفَطه وانصرف.

وقال إبراهيم بن يسار: قلت لإبراهيم بن أدهم: أَمرُّ اليوم أعمل في الطين. فقال: يا ابن يسار، إنك طالب ومطلوب، يطلبك ما لا تفوته وتطلب ما لا يفوتك، أما رأيت حريصًا محرومًا، وضعيفًا مرزوقًا؟ فقلت: إن لي دانقًا عند البقال. فقال: عزَّ عليَّ بك، تملك دانقًا وتطلب العمل.

وقد كان كثير من الصنَّاع يعمل نصف يومه، وثلثي يومه، ثم يأخذ ما استحقه من كفايته؟ وينصرف إلى مسجده. ومنهم من كان يعمل في الأسبوع يومًا أو يومين، ويتعبد سائر الأسبوع في خدمة سيده. وقد كانوا يجعلون أوّل النهار وآخره للآخرة في تجارة المعاد والمرجع، ويجعلون وسط النهار لتجارة الدنيا.

---

(١) السَّفَط: وعاء يوضع فيه الطِّيب ونحوه من أدوات النساء. الجمع: أسفاط،

وفى الخبر: «إن الملائكة إذا صعدت بصحيفة العبد من أول النهار ومن آخره فيها خيرٌ وذكرٌ كفَّر الله عز وجل عنه ما بينهما من سيِّىء العمل».

وفى الخبر: «يلتقى ملائكة الليل والنهار عند طلوع الفجر، تنفرج ملائكة الليل وتنزل ملائكة النهار، وعند صلاة العصر فتنزل ملائكة الليل وتنفرج ملائكة النهار، فيقول الله عز وجل: كيف تركتم عبادى؟ فيقولون: تركناهم يصلون وجئناهم يصلون، فيقول الله سبحانه وتعالى: أشهدكم أنّى قد غفرت لهم».

وقد كان علىٌّ رضى الله عنه يمرّ فى سوق الكوفة ومعه الدِّرَّة وهو يقول: يا معشرَ التجار، خذوا الحقَّ وأعطوا الحقَّ تسلموا، ولا تردوا قليل الربح فتُحرموا أكثره، ما مُنع مِن حقٍّ إلاَّ ذهب أضعافه فى باطل.

وقيل لعبد الرحمن بن عوف: ما كان سبب يسارك؟ فقال: ثلاث؛ ما رددتُ ربحًا قط، ولا طُلب منى حيوان وأخَّرت بيعه، ولا بعت بنسإ. ويقال: إنه باع ألفَ ناقة فربح عُقُلَها، وباع كلّ عقال بدرهم، فربح فيها ألفى درهم؛ ألفًا أخذها، وألفًا أنفقها عليها فى يومها.

وقد كان الورعون يكرهون ركوب البحر للتجارة، ويقال: من ركب البحر للتجارة فقد استقصى فى طلب الرزق. وفى الخبر: «لا يركب البحر إلاّ حاجٌّ أو غازٍ أو معتمر». وعن زيد بن وهب عن عمر رضى الله عنه كان يقول: ابتاعوا بأموال اليتامى لا تأكلها الزكاة، وثمِّروها لهم بالأرباح، وإياكم والحيوان فإنه ربّما هلك، وإياكم ولُجَج البحر تتَّجروا لهم فيها مالاً.

وكان عمرو بن العاص يقول: لا تكن أول من يدخل السوق، ولا آخر خارج، فإنّ بها باض الشيطان وفرّخ. وروينا عن معاذ وعبد الله بن عمر رضى الله عنهم: إن إبليس قال لولده زلنبور: يا زلنبور، سِر بكتابك، وأنت صاحب السوق، زيِّن الحلف والكذب والخديعة والمكر والخيانة والخُلف، وكُن مع أول داخل وآخر خارج منها.

وروينا عن ابن عمر وابن عباس رضى الله عنهم: «سمعت النبى ﷺ ينهى أن

يدخل السوق أوائل النهار، وأن يخرج منها آخر أهلها». والخبر المشهور: «شرُّ البقَاعِ الأسواق، وشرُّ أهلها أولهم دخولاً وآخرهم خروجًا».

فإذا كان المتسبب فى المعاش والمتصرف فى الأسواق على هذه الأوصاف المحمودة بهذه الشروط الموصوفة، قائمًا بحُكم حاله حافظًا لمقامه، فإنه فى سبيل من سُبُل الله عزّ وجلّ، أفعاله وآثاره حسناتٌ، وكلُّ ما تسبب به إلى الآخرة، وكان عونًا له عليها، وطريقًا له إليها، فهو من الآخرة، وإذا خالف هذه الشروط، ولم يستعمل العلم فى أحواله، وفارق التقوى فى تصرُّفه، أو كان يسعى تكاثرًا وحرصًا على الدنيا، جزوعًا على ما فاته من الدّنيا، مستقلاً لما فيه يديه منها، لا يبالى ما ذهب من دينه إذا سلمت دنياه، ولا يبالى من أين اكتسب، وفيما أنفق، فهذا يتقلب فى المعاصى والمكاره ظهرًا لبطن، متعرضًا للمقت من الله عز وجل، يعمل فى البُعد والهرب، غير مستعد للموت، ولا موقن بالحساب، أفعاله وآثاره سيئات، وترك التجارة على هذه الأوصاف المكروهة خيرٌ لهذا، وأهدى سبيلاً، ولا توفيق ولا عصمة إلاّ من الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله[١].

• ذكر ما روينا من الآثار فى البيوع والصنائع وطريقة الورعين من السلف[٢]:

روينا عن علقمة، عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن جلب الطعام إلى مِصرٍ من أمصار المسلمين، فباعه بسعر يومه، كان له عند الله تعالى أجر شهيد. ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿**وآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فى الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللهِ وآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فى سَبِيلِ اللهِ**﴾ [المزمل: ٢٠]».

وروينا عن عقبة بن عامر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنةَ صاحب مكْسٍ[٣]». وروينا عن أبى صالح عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أقال نادمًا فى بيع أقاله الله عزّ وجل يوم القيامة».

---

(١) من قوله «وأهدى سبيلاً» إلى آخر الفقرة من (د، هـ).

(٢) هذا الفصل برمته ليس فى (د، هـ)، وهو ثابت فى (م) والمطبوعة.

(٣) المكس: الضريبة يأخذها المُكَّاس ممن يدخل البلد من التجار. الجمع: مُكوس.

وروينا عن هشام بن عروة: ذُكر لمعاوية أن رجلاً من المعمِّرين من الجَرَاهمة بالقُرب منه، فأحضره فقال: ممّن الرجل؟ قال: من جُرهم. قال: وكم تعد من السنين؟ قال: خمسين وثلاثمائة سنة. قال: أخبرنى أىّ المال أفضل؟ قال: عين خدَّارة، فى أرض خوَّارة، تعول ولا تعال. قال: ثم ماذا؟ قال: فرسٌ فى بطنها يتبعها فرس. قال: الإبل والغنم لا أراك تذكرها. قال: إنّها لا تصلح لمثلك، تصلح لمن يباشرها بنفسه.

وروينا عن رسول الله ﷺ: «خيرُ مال المسلم سِكَّةٌ مأبورة، أو مهرةٌ مأمورة». قوله «سِكة مأبورة»: يعنى النخيل التى قد أُبِّرت، فهى طريق كالسكك، وقوله «مهرة مأمورة»: يعنى الخيل النواتج مأمورة كثيرة. ومن هذا قوله تعالى: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ [الإسراء:١٦] أى أكثرناهم. يقال: أمِرَ القومُ، إذا كثروا.

وحدثونا عن عبد الله بن أحمد قال: قدمت من عند معاوية بثلاثمائة ألف دينار، وليس بيدى منها إلاّ دقيق وغنم وأثاث، ففزعت من ذلك، فلقيت كعب الأحبار فذكرت له ذلك، فقال: أين أنت من النخل؟ فإنّا نجدها فى كتاب الله تعالى المطعمات فى المحْل[1]، الراسخات فى الوحل، وخير المال النخل، بائعها ممحوق، ومبتاعها مرزوق، مَثَل مَن باعها ثم لم يجعل ثمنها فى مثلها كمَثَل رمادٍ صفوانٍ اشتدت به الريح فى يوم عاصف، ففزعتُ إلى النخل فابتعتها.

قال: وقال مروان بن الحكم لوهب بن الأسود: ما المروءة؟ قال: برّ الوالدين، وإصلاح المال.

حُدثت عن عبد القدوس بن عبد السلام قال: كتب إبراهيم بن أدهم إلى عبَّاد ابن كثير: اجعل طوافك وسعيك وحجّك كنومة غاز فى سبيل الله عز وجل. فكتب عبَّاد إلى إبراهيم: اجعل حَرسك ورباطك وغزوك كنومة كادٍّ على عياله من حِلّه.

وروينا عن العباس قال: سمعت أحمد بن ثور يقول: شيَّع رجلٌ إبراهيم بن

(١) المحل: الجدب.

أدهم إلى الصنوبر، فقال: يا أبا إسحاق أوصنى، قال: أكثر أو أوجز. قال: ما الحاجُّ المعتمرُ، ولا الغازى المرابط، ولا الصائم والقائم، بأفضل عندنا ممن أغنى نفسه عن الناس.

وروينا عن لقمان قال لابنه: يا بنى، خذ من الدنيا بلاغًا، ولا ترفضها كلَّ الرفض فتكون عيالاً على الناس.

وحدثونا عن شاذان قال: سألت الحسن بن حيٍّ عن شيء من المكاسب، فقال: إن نظرت فى هذا حَرُم عليك ماءُ الفرات. ثم قال: طلب الحلال أشدّ من لقاء الزحف.

وروينا عن الهيثم بن جميل قال: قال ابن المبارك: اركب البرَّ والبحر، واستغن عن الناس. قال الهيثم: ربما يبلغنى عن الرجل يقع فىَّ، فأذكر استغنائى عنه، فيهوِّن ذلك علىَّ.

وروينا عن حماد بن زيد قال: قال أيوب: كسبٌ فيه بعض الشىء أحبُّ إلىَّ من الحاجة إلى الناس.

أنشدونا عن ابن أبى الدنيا قال: أنشدنى عمر بن عبد الله:

لَنقلُ الصَّخر من قُلَلِ الجِبالِ ... أخفُّ علىَّ مِن مِنَن الرِّجالِ

يقول الناسُ كَسْبٌ فيه عـارٌ ... فقلتُ العارُ فى ذُلِّ السّؤالِ

حُدثنا عن موسى بن طريف قال: ركب إبراهيم بن أدهم البحر، فأخذتهم ريح عاصف أشرفوا على الهَلَكة. فقالوا: يا أبا إسحاق، أمَا ترى ما نحن فيه من الشدّة؟ قال: وهذه شدّة؟ قالوا: فأى شىء الشدّة؟ قال: الحاجة إلى الناس.

وأنشدنا بعض العلماء لبعض الأدباء:

لَموتُ الفتى خيرٌ من البُخلِ للغنَى ... ولَلْبُخلُ خيرٌ من سُؤالِ بَخيلِ

فلا تَجعلنَّ شيئًا لوَجْهِك قيمةً ... ولا تَلْقَ مَخلوقًا بوجـهٍ ذَليلِ

ولا تسألنَّ مَن كـان يسأل مرةً ... فَلَلفَقْرُ خيرٌ من سُؤال سَؤُولِ

وأنشدنا بعض الأشياخ:

إذا عُدَّت الآفاتُ فالبخلُ شرُّها ... وشرٌّ من البُخلِ المواعيدُ والمُطْلُ

ولا خير فى وَعدٍ إذا كان كاذبًا ... ولا خَيرَ فى قَولٍ إذا لم يكن فِعلُ

وأُنشدنا لبعضهم:

إذا كنتَ لا بدَّ مُستطعِمًا ... فمن غيرِ مَن كان يُستطعَمُ

فإنَّ الذى كان مُستطعِمًا ... إذا ذُكر الجُوعُ لا يُطعِمُ

وأُنشدنا لبعضهم:

ما خَلَّفت حواءُ أحمقَ لِحيةً ... من سائلٍ يرجو الغِنَى من سائلِ

وحدثونا عن زيد بن أسلم قال: كان محمد بن مسلمة فى أرضه يغرس النخلَ، فدخل عليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال: ما تصنع يا محمد؟ قال: ما ترى. قال: أصبت، استغن عن الناس يكن أصون لدينك، وأكرم لك عليهم، كما قال: صاحبكم أُحَيحة بن الحلاج:

إِنِّى أُقيمُ على الزَّوراَءِ أعمرُها ... إنّ الحبيبَ إلى الإخوانِ ذُو المالِ[1]

وروينا عن ابن مسعود قال: ماكِس دونَ درهمك، فإنّ المغبون لا محمود ولا مأجور.

وقال سفيان الثورى رحمه الله تعالى: إذا قلتَ لصاحبك أحِسن، فأحسَن فهو صدقة.

وحُدِّثت عن عبد الله بن عبد الرحمن قال: كان إبراهيم بن أدهم ورفقاؤه فى المسجد فى شهر رمضان، فلم سلّم الإمام قام رجلٌ فسأل، فلم يُعطَ شيئًا، ووضعوا عشاءهم، فقالوا لإبراهيم: يا أبا إسحاق، ندعوه؟ قال: لا تدعوه. فبات بغير عَشاء. فلما كان من الغد جاء رفيق لإبراهيم فقال له: يا أبا إسحاق، رأيتُ

---

(١) انظر: شعره، جمع وتحقيق: صالح البكارى والطيب العشاش، حوليات الجامعة التونسية، العدد ٢٦ سنة ١٩٨٧م، ص ٣٩.

الذى سأل البارحة وعلى رأسه حزمةُ حطب. فقال: تدرون لِمَ قلتُ لكم لا تدعوه؟ سبق إلى قلبى أنه لم يسأل قبلها، فكرهتُ أن أدعوه فيتّكل على عشائكم.

قال عبد الله: وقال رجل لإبراهيم: كيف أصبحت؟ قال: بخير ما لم يتحمل مؤونتى غيرى. وعن موسى بن طريف قال: كان إبراهيم بن أدهم لا يماكس إذا عمل مع أحد. حدثونا عن يوسف بن سعيد قال: سمعت إنسانًا يسأل عليَّ بن بكار: أيهما أفضل؛ اللُّقاط[1] أو البطالة؟ فقال: اللُّقاط فيه معروف كثير. كان سليمان الخواص يَلقط ههنا عندنا، وكان إبراهيم بن أدهم يؤاجر نفسه، وكان حذيفة يضرب اللَّبِن.

أبو عمرو بن العلاء قال: قال الحسن: الأسواق موائد الله تعالى، فمن أتاها أصاب منها.

الحسن بن دينار عن قتادة قال: مكتوبٌ فى التوراة: اتق تُوَقَّ، وسَل تُعطَ، واطلب تجد. ومكتوب فى الإنجيل: ابن آدم، اصبر تُصَبَّر.

عن أبى خلدة، عن أبى العالية قال: إذا اشتريتَ شيئًا فاشتر أجوده.

أبو الطفيل قال: كنت عند أنس بن مالك، فقيل له: خرج الدجال، فقال: كِذبة صباغ.

حُدثنا عن يحيى بن يمان، عن بسام الصيرفى، عن عكرمة قال: أشهد أنّ الصيارفة من أهل النار.

وروينا عن عبد الحميد بن محمود قال: كنتُ عند ابن عباس، فأتاه رجل قال: أقبلنا حجاجًا، حتى إذا كنا بالصّفاح توفى صاحب لنا فحفرنا له، وإذا أسودُ قد ملأ اللحد كله، ثم حفرنا له قبرًا آخر فإذا الأسود قد ملأ اللحد، فحفرنا له قبرًا آخر فإذا الأسود قد ملأ اللحد كله، فتركناه وأتيناك نسألك ما تأمرنا. قال: ذاك عمله الذى كان يعمل. وفى رواية أخرى: ذاك غُلُّه الذى كان يَغُلُّ به، اذهبوا فادفنوه فى بعضها، فوالله لو حفرتم له الأرض كلها لوجدتم ذاك. قال: فألقيناه

---

(١) اللقاط: الشىء تجده مُلقًى فتأخذه.

فى قبر منها، فلما قضينا سفَرنا أتينا امرأته فسألنا عن عمله. فقالت: كان رجلاً يبيع الطعام، فيأخذ قوتَ أهلِه كلَّ يوم، ثم ينظر مثله من قَصَب الشعير فيقطعه فيخلطه فى الطعام مكان ما أخذ فيبيعه.

عن حجاج عن أبى جعفر محمد بن على: أنّ عليًا رضى الله تعالى عنه كان يضمن القصَّار والصبَّاغ والخيَّاط ليحفظوا على الناس أمتعتهم.

وروينا عن هشام بن عمار قال: سئل مالك بن أنس فى الرجل يسلِّم الثوب إلى الحائك بالنصف ودرهم، والنصف ودرهمين. قال: هذا شرطٌ فاسد وله أجرة مثله، إلاّ أن يخالف الشرط فعليه الغُرم.

وحُدثنا عن أحمد بن الحسن المقرى قال: سئل أبو بكر المروزى، وأنا أسمع: الحائك ينسج الثوبَ على الخمسين ودرهمين وعلى الخمسين وثلاثة دراهم وأكثر. قال: لا بأس إذا رَضِيا. قلت: فالنصف ودرهم والنصف ودرهمين. قال: لا بأس.

سئل أحمد بن حنبل عن هذه المسألة فقال: لا بأس. وحُدثنا عن أبى داود قال: سمعتُ ابنَ حنبل سئل عن الثوب يُعطَى على الثلث أو الربع للحائك. قال: لا بأس به، ثم قال: هل هذا إلاّ مثل المضاربة ومثل قصة جبير، لعله أن يربح المضارب شيئًا، ولا تخرج الأرض شيئًا، كلها عندى قريبة.

وعن ابن وهب قال: قال مالك فى رجل باع بعد النداء يوم الجمعة، قال: يُفسخ ذلك البيع. قيل: عَامَل وترك القيام إليها وهو حرٌّ. قال: بئسما صنع، فليستغفر ربه عزّ وجلّ. وقال ربيعة: ظلم وأساء. قال: وقال مالك: يحرم البيع حتى يخرج الإمام يوم الجمعة.

وحُدثنا عن أبى داود قال: سمعت أحمد بن حنبل غير مرةٍ يكره التجارةَ والمعاملةَ بالمزيَّفة والمكحلة. قال أبو داود: سألت إسحاق بن راهويه عن إنفاق المزيَّفة فقال: لا بأس به. وقال عبد الوهاب الوراق: سألت بشرًا عن المعاملة بالمزيفة فقال: سألت المعافى عنها؟ فقال: سألت سفيان الثورى عنها فقال: حرام.

وحدثنا عن الحسن الخياط قال: سمعت بشر بن الحارث، وقال له رجل من جيرانه: أسلمتُ عمامةً إلى الحائك. الدّقيقُ عَلَى مَنْ؟ قال: على الحائك، والخيوطُ لك.

وحدثونا عن بشر عن الفضيل بن عياض عن ليث عن مجاهد أنّ مريم عليها السلام مرت بحاكةٍ قعود على ظهر طريق فى طلب عيسى عليه السلام فقالت: كيف طريقُ موضعِ كذا وكذا؟ فأرشدوها إلى غير الطريق التى أرادت، فضلّت، فدعت الله تبارك وتعالى عليهم فقالت: اللهم انزع البركةَ من كسبهم وأمِتْهم فقراء وحقّرهم فى أعين الناس. قال بشر: أحسب أنّ الله عزّ وجلّ استجاب دعاءها فيهم. وروينا عن أبى عبد الرحمن الجيلى عن أبى أيوب الأنصارى عن رسول الله ﷺ قال: «من فرَّق بين الوالد وولده فى البيع فرَّق الله عز وجل بينه وبين أحبته يوم القيامة».

سفيان، عن منصور، عن موسى بن عبد الله: أنّ أباه بعث بغلامٍ له بمال إلى أصبهان بأربعة آلاف، فبلغ المال ستة عشر ألفًا أو نحو ذلك، فبلغه أنه مات، فذهب يأخذ مِيراثه فبلغه أنه كان يقارف الربا، فأخذ أربعة آلاف وترك البقية. وحدثونا عن أبى بكر المروزى قال: سألت أبا عبد الله عن الذى يعامل بالربا يؤكل عنده؟ قال: لا. قال: وسمعت أبا عبد الله يقول: الذى يتعامل بالربا يأخذ رأس ماله، وإن عرف أصحابه ردّه عليهم وإلاّ تصدَّق بالفضل.

وروينا حديث ربيعة بن يزيد عن عطية السعدى قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدَع ما لا بأسَ به حَذَرًا لما به بأس».

وروينا حديث عباس بن جليد قال أبو الدرداء: إنّ تمام التقى أن يتّقى العبد فى مثقال ذرة، حتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشيةَ أن يكون حرامًا، يكون حجابًا بينه وبين الحرام.

وحُدثنا عن أبى بكر المروزى قال: سألت أبا عبد الله عن الرجل يكون معه ثلاثةُ دراهم منها درهم حرام لا يعرفه، قال: لا يأكل منه شيئًا حتى يعرفه. واحتج أبو عبد الله بحديث عدى بن حاتم، أنه سأل النبى ﷺ فقال: إنّى أرسل

كلبى فأجد معه كلبًا آخر، فقال: «لا تأكل حتى تعلم أن كلبك قد قتله».

وسألت أبا عبد الله عن الرجل يُدفع إليه الدراهم الصحاح يصوغها. قال: لا، فيها نهىٌ عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه وأنا أكره كَسرَ الدراهم والقطعة. قلت: فإن أُعطيتُ دينارًا أصوغه كيف أصنع؟ قال: تشترى به دراهم، ثم تشترى به ذهبًا. قلت: فإن كانت الدراهم من الفىء ويشتهى صاحبها أن تكون بأعيانها. قال: إذا أخذتَ بِحذائها فهو مثلها.

وروى أبو عبد الله حديث علقمة بن عبد الله عن أبيه، أنّ النبى ﷺ نهى عن كسر سِكَّة المسلمين الجائزة بينهم إلاّ من بأس. قال أبو عبد الله: البأس أن يُختلف فى الدراهم فيقول الواحد: جيد، ويقول الآخر: ردىء، فيكسره لهذا المعنى. قال: وسألت أبا عبد الله عن الرجل يكتسب بالأجر، فيجلس فى المسجد. فقال: أما الخياط وأشباهه فما يعجبنى، إنّما بُنى المسجد ليُذكر الله تعالى فيه، وكُرِه البيع والشراء فيه.

قلتُ لأبى عبد الله: الرجل يعمل المغازل، ويأتى المقابر فربّما أصابه المطر، فيدخل فى بعض تلك القباب فيعمل فيها. قال: المقابر إنّما هى من أمْرِ الآخرة، وكَرِه ذلك. قلت لأبى عبد الله: أشترى الدقيقَ فيزيد فى مثل القفيز المكُّوك. قال: هذا فاحش، هذا لا يتغابن الناس فيه. قلت: فكَيْلَجَةٌ [1] أو دونها. قال: هذا يتغابن الناس بمثله.

قلت لأبى عبد الله: رفَّاء يرفأ الوسائد والأنماط للتجار، وهم يبيعون ولا يخبرون بالرفو، قال: يعمله العمل الذى يتبين، لا يعمل الخفىَّ الذى لا يتبين، إلاّ لمن يثق به.

قلت لأبى عبد الله: الثوب ألبسه ترى أن أبيعه مرابحةً. قال: لا، وإن بعته مساومةً فبيِّن أنك قد لبسته، وإلاّ بعته فى سوق الخَلِق. سألت أبا عبد الله عن

(١) المكُّوك: مكيال يسعُ صاعًا ونِصْفًا، أو نصف رَطْلٍ إلى ثمانى أواقى، أو ثلاث كَيْلَجَات. والكيلجة: منًا وسبعة أثمانِ منًا. والمنا: رطلان، والرطل: اثنتا عشرة أوقيةَ.

إبريق فضة يُباع. قال: لا حتى يكسر. ويقول: لا يباع الحرير.

أمية بن خالد قال: كان يونس بن عبيد إذا طلب المتاع أرسل إلى وكيله بالسوس أنْ أعلم من يُشترى منه المتاع أن المتاع يُطلب.

وحُدثنا عن المروزى قال: سألت أبا عبد الله عن الجوز يُنثر، فكرهه وقال: يُعطَون يُقسم عليهم، يعنى الصبيان. قال: ودخلت على أبى عبد الله وقد حَذَقَ ابنه، وقد اشترى جوزًا يريد أن يعدَّه على الصبيان يقسمه عليهم، وكره النثر وقال: هذه نُهبة.

وقال أبو عبد الله وذكر مسائل ابن المبارك فقال: كان فيها مسألة دقيقة. سئل ابن المبارك عن رجل رمى طيرًا فوقع فى أرض قوم: لمن الصيد؟ قال: لا أدرى. قلت لأبى عبد الله: فما تقول أنت فيها؟ قال: هذه دقيقة ما أدرى فيها.

قلت لأبى عبد الله: إن عيسى بن عبد الفتاح قال: سألت بشر بن الحارث: هل للوالدين طاعة فى الشبهة؟ قال: فقال أبو عبد الله: هذا شديدٌ. قلتُ لأبى عبد الله: فللوالدين طاعة فى الشبهة؟ قال: فقال أبو عبد الله: هذا محمد بن مقاتل قد رأيت ما قال، وهذا بشر بن الحارث قد قال ما قال، ثم قال أبو عبد الله: ما أحسن أن يداريهم، ثم قال أبو عبد الله: الإثم حَوَّازُ القلوب.

قال المروزى: أدخلت على أبى عبد الله رجلاً، فقال: إنّ لى أخوة وكسبُهم من الشبهة، فربما طبخت أمُّنا، وتسألنا أن نجتمع ونأكل. فقال له: هذا موضع بشر لو كان لك كان موضعًا، أسأل الله تعالى أن لا يمقتنا، ولكن تأتى أبا الحسن عبد الوهاب فتسأله، فقال له الرجل: فتخبرنى بما فى العلم؟ قال: قد روى عن الحسن: إذا استأذن والدته فى الجِهاد فأذنت له، وعلم أنَّ هواها فى المقام فليقم. قال: سمعتُ أبا عبد الله وسئل عن رجل له والدة يستأذنها يرحل يطلب العلم، فقال: إن كان جاهلاً لا يدرى كيف يَطْهُر ولا يصلى، فطلبُ العلم أوجبُ، وإن كان قد عرف فالمقام عليها أحب إلىَّ. قلت: فإن كان يرى المنكر فلا يقدر أن يغيره؟ قال: يستأذنهما، فإن أذنا له خرج.

حدثنا عن أبى الربيع الصوفى قال: دخلتُ على سفيان بالبصرة، فقلت له: يا أبا عبد الله، إنى أكون مع هؤلاء المحتسبة، فندخل على المخنثين، ونتسلق عليهم الحيطان، فقال: أليس لهم أبواب؟ قلتُ: بلى، ولكن ندخل عليهم كيلا يفروا. فأنكر ذلك إنكارًا شديدًا وعاب فعالنا. فقال رجل: من أدخل هذا؟ فقلت: إنّما دخلتُ إلى الطبيب أخبره بدائى، فانتفض سفيان وقال: إنما هلكنا إذ نحن سُقمى، فسُمِّينا أطباء، ثم قال: لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر إلاّ من فيه ثلاث خصال: رفيق بما ينهى، عدلٌ بما يأمر عدل بما ينهى، عالم بما يأمر عالم بما ينهى.

وحدثنا عن أحمد بن محمد بن الحجاج قال: سألت أبا عبد الله قلت: أمرُّ فى السوق فأرى الطبول تباع فأكسرها؟ قال: إن قويت يا أبا بكر. قلت: أُدعى أُغسِّل الميت، فأسمع صوت الطبل. قال: إن قدرت على كسره وإلاّ فاخرج. سألته عن كسر الطنبور. قال: يُكسر. قلت: فإذا كان معطى؟ قال: إذا سُتر عنك فلا. قلت: فالطنبور الصغير يكون مع الغلام. قال: تكسره أيضًا إذا كان مكشوفًا.

قلت لأبى عبد الله: رجل له قراح نرجس، ترى أن يباع؟ فقال: إنهم يقولون: الزئبق يُعمل منه. قلت: فإن كان لا يشتريه إلا أصحاب المسكر؟ قال: يُسأل عن ذا، فإن كان هكذا لا يباع.

سمعت أبا عبد الله وسأله رجل فقال: إنّ أبى كان يبيع من جميع الناس، وذكر من تُكره معاملته. فقال: يدع من ذلك بقدر ما ربح. فقال له: فإنّ له دَينًا وعليه دين. قال: يقتضى ويقضى عنه. قلت: وترى له بذلك؟ قال: فتدعه محتسبًا بدَينه؟

سألت أبا عبد الله عن قريب لى أكره ناحيته، يسألنى أن أشترى له ثوبًا أو أسلِّم له غزلاً. فقال: لا تُعنه ولا تشتر له، إلاّ أن تأمرك والدتك، فإذا أمرتك فهو أسهل لعلها أن تغضب.

سمعت أبا عبد الله وسئل عن رجل له أب مرابٍ يرسله أن يتقاضى له: ترى له أن يفعل؟ قال: لا، ولكن يقول: لا أذهب حتى تتوب.

ذكرتُ لأبى عبد الله رجلاً من المحدِّثين، فقال: رحمه الله أى رجل كان لولا خلة واحدة؟ ثم قال: ليس كل الخلال يكملها الرجل. فقلت له: أليس كان صاحب سنّة؟ قال: أى لعمرى، وقد كتبت عنه ولكن خلة واحدة. فقلت: مثل أيش؟ قال: كان لا يبالى ممن أخذ.

سمعت أبا عبد الله، وذكر بشر بن الحارث، فقال رحمه الله: لقد كان فيه أنس، وذُكر له شىء من الورع، فقال: يُسأل عن مثل هذا بشر، هذا موضع بشر، وأنا لا ينبغى لى أن أتكلم فى هذا.

ذَكَرتُ لأبى عبد الله رجلاً فقيرًا فى أطمار خلْقان، وقلت: ما أحوجه إلى علم؟ فقال لى: اسكت، لصَبرُه على فَقرِه وعُريه من العلم، إنى لأذكره وأنا فى الفراش. وقال: هؤلاء خير منا. قلت لأبى عبد الله: قيل لابن المبارك: كيف يُعرف العالم الصادق؟ قال: يزهد فى الدنيا، ويقبل على أمر آخرته. فقال أبو عبد الله: نعم، هكذا يريد أن يكون.

سألت أبا عبد الله عن امرأة كانت تجرى على أخرى وتصلها، وذكرت المرأة شيئًا رديًا، وقد اجتمع عندها منه شىء، وليس لها مال غيره، ولعلها إن أخرجته احتاجت إلى المسألة. وقالت المرأة[1]: ما أمرنى به أبو عبد الله من شىء صرت إليه. قال: أرى أن تصدَّق به وتسأل.

سمعت أبا عبد الله وذكر ابن عون، فقال: كان لا يُكرى دوره من المسلمين. قلت: لأى علّة؟ قال: لئلا يروِّعهم.

ابن المبارك عن حكيم بن زريق، عن أبيه، عن سعيد بن المسيب فى البُرِّ بالدقيق. قال: هو ربا.

قلت لأبى عبد الله: أُخبرت أن بشر بن الحارث أُرسل أخوه بتمر من الأيلة، فأبقت أمه تمرة من التمر الذى كانت تفرقه؛ يعنى على أهل بيته، فلما دخل بشر قالت له أمه: بحقى عليك لما أكلت هذه التمرة؟ فأكلها وصعد إلى فوق،

(١) من قوله: «شيئًا رديًا» إلى هنا ساقط من المطبوعة.

وصعدت خلفه فإذا هو يتقيَّأ، وكان أخوه على شيء، فقال أبو عبد الله: وقد رُوى عن أبى بكر رضى الله عنه نحو هذا.

وسمعت أبا عبد الله، وذكر وهيب بن الورد، فقال: قد كلّمه ابن المبارك فيما يجيء من مصر، وإنما أراد ابن المبارك أن يسهِّل عليه، ولم يدر أنه يشدِّد عليه، وكان لا يأكل مما يجيء من مصر إلا الزبيب.

وقال أبو عبد الله: بشر بن الحارث كان يأكل من غلة بغداد، قلت: لا، هو كان ينكر على من يأكل. فقال: إنما قَدر بشر، لأنه كان وحده، لم يكن له عيال، ليس مَن كان مُعيلاً كمَن كان وحده، لو كان إلى ما باليت ما أكلت.

وذهب أبو عبد الله إلى أن يأخذ من السواد القوت، ويتصدق بالفضل. ثم قال: لا يعجبنى أن أبيع شيئًا. قلت لأبى عبد الله: ترى أن يشرب الرجل من السواد؟ قال: هذا الذى نحن فيه ميراث، إنّما آخذ الغَلة على الاضطرار. قيل لأبى عبد الله: فيشترى الرجل فيه؟ فقال للسائل: إن كنتَ فى كِفاء فلا. ثم قال: أكَرهُ أن يبيع الرجل داره، ولا أرضى فى شىءٍ من السواد، ولا يشترى إلاّ مقدار القوت، فإذا كان أكثر من قوته تصدّق به. وقال: أنا أذهب إلى أن السَّواد[1] وقفٌ على المسلمين. أما عمر رضى الله تعالى عنه فترك السواد ولم يقسمه. وهكذا عثمان تركه، إلاّ أنه أقطع قومًا من أصحاب النبى ﷺ؛ ابن مسعود وسعدًا وذكر غير واحد. وأما علىٌّ رضى الله عنه فأقره ولم يقسمه.

قال أبو عبد الله: من ذهب إلى قول ابن المبارك فذاك البلاءُ، يزعم أن السواد يُقسم على من شهد الوقعة. وقال ابن إدريس فى دارٍ ببغداد: يبيع أمرها حتى يردها إلى من فتحها بالسّيف. قلت: ومن أين تقدر على هذا؟ فتبسم، وقال: يصير إلى المدينة مدينة الرسول ﷺ فيسأل عنهم. قال أبو عبد الله: أهل المدينة على مذهب ابن إدريس، يقولون: المدينة إذا فُتحت عنوةً قسمت على من شهدها. قلت لأبى عبد الله: فمن خالفهم؟ قال: عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب رضى الله تعالى عنهما أوقفاها على المسلمين. قلت لأبى عبد الله: فمن

(١) السّواد: ما حول المدن من القرى والريف.

ورث دارًا في القطيعة أو الرَّبَض؟قال: قال ابن إدريس: يردّها على من شهد القادسية. قلت: وهذا هو عندك القول؟ قال: نعم، ما أحسن ما قال. ولكن مثل هذا الذى فى أيدينا إنما هى قطائع، لو أن رجلاً أراد أن يخرج مما فى يديه كنا نأمره أن يوقفها لأنها فىء. سألت أبا عبد الله عن الكوفة والبصرة: أليس افتتحت؟ قال: لا، إنما جاؤوا فابتنوا فيها.

وأدخلتُ على أبى عبد الله رجلاً فقال: إنّى ورثتُ عن أبى أرضين من السّواد، فقال له: أوقفها على قرابتك، فإن لم يكن فعلى جيرانك. وقيل له أيضًا: ورث رجلٌ دارًا فى القطيعة فقال: يوقفها. ثم قال: السواد فىء للمسلمين، ورخَّص فى الشراء. قلت لأبى عبد الله: كيف أشترى فى السّواد ولا أبيع؟ قال: الشراء عندى خلاف البيع، واحتج أنّ أصحاب رسول الله ﷺ رخّصوا فى شراء المصاحف، وكرهوا بيعها: ابن عباس، وجابر بن عبد الله.

سئل أبو عبد الله: أيما أحبُّ إليك؛ سكنى القطيعة أو الربض؟ فقال: الرَّبَض. قلت لأبى عبد الله: إن القطيعة أرفق من سائر الأسواق. فقال: أمرها معلوم تعرفها لمن كانت. قلت: فتكره العمل فيها؟ قال: قد وقع فى قلبى منه شىء، قال ابن مسعود: الإثم حوّاز القلوب. قلت لأبى عبد الله فى أمر العَرَصة. فقال: العرصةُ ليست عندى مثل القطيعة. كأن العرصةَ عنده حريم دجلة[(١)]. قلت لأبى عبد الله: فرجل يريد الخروج إلى الثغر، وله دار يريد أن يبيعها. قال: لا. قلت: فإن قال: إنما أبيع النّقض، فتبسم وقال: إن رضى المشترى كأنه عنده حيلة، ثم قال: قد ورث ابن سيرين أرضًا من أرض السواد. قلت: فهى رخصة. قال: هذا معروف عن ابن سيرين. قال أبو بكر: سمعت أبا عبد الله يقول: أنا أفرح إذا لم يكن عندى شىء. وقال: ما أعدل بالفقر شيئًا. وقال: هذه الغَلَّة ما تكون قُوتنا، فأخبرته أن رجلاً قال: لو أنّ أبا عبد الله ترك هذه الغلة، وكان يتصنَّع صديقًا له، كان أعجب إلىَّ. فقال أبو عبد الله: هذه طعمةُ سوءٍ ـ أو قال: رديَّة ـ مَن تعوَّد هذا لم يصبر عنه. ثم قال: هذا أعجب إلىَّ من غيره.

(١) من قوله: «قلت لأبى عبد الله فى أمر العرصة» إلى هنا ساقط من المطبوعة.

حُدثنا عن عبد الله بن نوح السرَّاج قال: قال لى بشر: يا سراج، أنت بعد فى القطيعة؟ قلت: نعم. قال: أغناك الله عزّ وجلّ عن الدخول إليها. حُدثت عن بعض أصحاب بشر قال: وُصف لى شىء ينبتُ أتداوى به، وقيل: ليس تجده إلاّ فى بستان بنى كذا؛ يعنى القطيعة. فقال: لو كان شفائى فيه ما أردته.

محمد بن حاتم قال: سمعت ابن أبى بشر يقول: كنتُ مع بِشر، وقد خرجنا من باب حَرب، فقال لى: يا أبا يعقوب، تفكَّرت فى هذه القرية، ومَن كَرِه الدخول إليها، واعلم أنّ الدبَّاغ إذا كان فى المدبغة لا يشم رائحتها، إنما يشمّ رائحتها من ورد عليها. قال بعضهم: وسمعت بشرًا يقول: من ذنوبى مقامى ببغداد. وقال شعيب بن حرب: أى رجال ببغداد إذ لو كان لهم خير؟

وعن عبد الوهاب قال: خرج من ههنا إلى المدائن إلى شعيب بن حرب قومٌ، فكلموه فى النزول ببغداد، فأشار عليهم أن لا يرجعوا، فتركوا دورهم، وأقام بعضهم ليستقى ماء بالمدائن، ولقد رأى شعيب بعضهم يستقى الماء فقال: لو رآك سفيان لفرح بك. قلت لأبى عبد الله: جاءنا كتاب من طرسوس فيه أن قومًا خرجوا فى نيف الأسفل، فطحنوا لهم طعامًا على رحًى، فتبينوا بعدُ أنَّ الرحى فيه شىءٌ يكرهونه غَصْبٌ، فتصدَّق بعضهم بنصيبه، وأبى بعضهم وقال: لست آمر، فيه شىءٌ لا أرضى أكله لا أرضى أتصدَّق به، فأى شىء تقول؟ فكان مذهب أبى عبد الله أن يتصدق به إذا كان شيئًا يكرهه.

ورجل اشترى حطبًا، واكترى دواب وحمله، ثم تبين بعد أنه يُكْرِهُ ناحيتها، كيف يصنع بالحطب؟ ترى أن يرده إلى موضعه، وكيف ترى أن يصنع به؟ فتبسم وقال: ما أدرى. قلت: إن رجلاً قال لأبى عبد الله: ما تقول فى نَفَّاطةٍ[1] لمن تُكره ناحيته، ينقطع شسعى أستضىء به؟ قال: لا. وذكر أبو عبد الله عثمان بن زائدة: أن غلامه أخذ له نارًا من قوم يكرههم، فأطفأها. فقال أبو عبد الله: النفَّاطة أشدّ. قلتُ لأبى عبد الله: تنُّور سُجِرَ بحَطبٍ أكرهه فخُبز فيه، فجئت أنا بعد فسَجَرتُه بحطب آخر فيه. قال: لا، أليس أُحمِىَ بحطبهم، وكرهه.

(١) النَّفَاطة: ضربٌ من السُّرج.

قلت لأبى عبد الله: الخادم الخصِيُّ ينظر إلى شعر مولاته. قال: لا. قلت: المرأة تكون بها الكَسرة فيضع المجبِّر يدَه عليها. قال: هذا ضرورة ولم يَرَ به بأسًا. قلت: قال المجبر: لا بد لى أن أكشف صدر المرأة، وأضع يدى عليها. قال طلحة: يوجد. قلتُ لأبى عبد الله: فالكحَّال يخلو بالمرأة وقد انصرف من عنده النساء، هل هذه الخلوة منهى عنها؟ قال: أليس هو على ظهر الطريق؟ قيل: نعم. قال: إنّما الخلوة تكون فى البيوت.

قال أبو بكر: قلت لأبى عبد الله: إذا اضطر الرجل إلى الميتة، ووجد مع قوم طعامًا ما، يأخذ الطعام بغير إذن صاحبه، أو يأكل الميتة؟ قال: يأكل الميتة، قد أُحلَّت له.

سألت أبا عبد الله عن الرجل يمر بالحائط أو النخل يأكل منه، فقال: قد سهّل فيه قوم من أصحاب رسول الله ﷺ. قلت: فماذا تقول إذا اضطر الرجل إلى الميتة، ووجد مع قوم طعامًا يأخذ الطعام بغير إذن صاحبه، أو يأكل الميتة؟ قال: يأكل ولا يحمل. قلت: الرجل يمر بالبستان، قال: إذا كان عليه حائط لم يدخل، وإذا كان غير محوَّط أكل ولا يحمل.

سألت أبا عبد الله عن أجور بيوت مكة. فقال: لا يعجبنى. قلت لأبى عبد الله: فيكترى الرجل الدار ويخرج ولا يقضى الكراء؟ قال: لا يعجبنى أن لا يُخرج الكراء. ثم قال: هذا بمنزلة الحجّام لا بدّ من أن يُعطَى. قلت لأبى عبد الله: فترى شراء دُور مكة والبيع. قال: لا، أما الدور الكبار فمثل دار فلان وفلان سماها، فتُفتح أبوابها حتى يضرب الحاجُّ فيها فساطيطهم وينزلوها لا يُمنع أحد من نزولها.

قيل لأبى عبد الله: هذا عمر بن الخطاب قد اشترى السجن. قال: لا، هذا لا يشبه ما اشترى عمر إنما اشترى السجن للمسلمين، يحبس فيه السرَّاق وغيرهم.

سئل أبو عبد الله عن السقايات التى يعملها مَن تُكره ناحيته، ترى أن يُتوضأ منها؟ قال: لا، إلاّ أن يخاف فوتَ الصلاة؛ يعنى يوم الجمعة.

سئل أبو عبد الله عن السقايات التى تفتح إلى الطريق: ترى أن يشرب منها؟ فقال: قد سئل الحسن فقال: قد شرب أبو بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما من سِقاية أم سعيد.

قلت لأبى عبد الله: حُكى عن فصيل أن غلامه جاءه بدرهمين فقال: عملت فى دار فلان، فذكر مَن يكره ناحيته. قال: فرمى بها بين الحجارة وقال: لا يُتقرَّب إلى الله عز وجل إلاّ بالطيب. فعجب أبو عبد الله وقال: رحمه الله. وذهب أبو عبد الله إلى أن يتصدق، كأنه كان أحوط، وقال: يعجبنى أن يتصدّق به، إذا تصدَّق به فأى شىءٍ بقى؟!

• ذكر ما رأى أحمد بن حنبل الخروج منه [1]:

حُدِّثت عن أحمد بن عبد الخالق قال: حدثنا أبو بكر المروزى قال: سألت أبا عبد الله عن الرجل يدعى إلى الوليمة، من أى شىء يخرج؟ فقال: خرج أبو أيوب حين دعاه ابن عمر، فرأى البيت قد ستُر. ودعى حذيفة فخرج، وإنما رأى شيئًا من زِىّ الأعاجم. قلت: فإن لم يكن البيت مستورًا، ورأى شيئًا من فضة، فقال: ما كان يُستعمل يعجبنى أن يخرج.

وسمعت أبا عبد الله يقول: دعانا رجل من أصحابنا قبل المحنة، وكنا نختلف إلى عفّان فإذا فضة، فخرجتُ فأتبعنى جماعة، فنزل بصاحب البيت أمر عظيم. قلت لأبى عبد الله: فالرجل يُدعى فيرى المكحلة رأسها مفضض؟ قال: هذا يُستعمل، فاخرج منه، إنّما رُخِّص فى الضبَّة أو نحوها فهو أسهل.

سألت أبا عبد الله عن الكِلَّة؟ فكرهها. قلت: فالقبة أو الحَجَلة فلم ير به بأسًا. قلتُ لأبى عبد الله: إن رجلاً دعا قومًا فجىء بطست فِضة أو إبريق فكسره، فأعجب أبا عبد الله كسره.

سألت أبا عبد الله عن الرجل يُدعى فيرى فرش ديباج: ترى أن يقعد عليه، أو يقعد فى بيت آخر؟ قال: يخرج، قد خرج أبو أيوب وحذيفة. وقد روى عن ابن

(١) أى يترك المكان إذا رأى منكرًا.

مسعود قلت: فترى أن يأمرهم؟ قال: نعم، فيقول: هذا لا يجوز. قلت لأبى عبد الله: الرجل يكون فى بيت فيه ديباج فيدعو ابنه للشىء. قال: لا يدخل عليه، ولا يجلس معه. قلت لأبى عبد الله: الرجل يُدعى فيرى الكِلَّة، فكرهه، وقال: هو رياء، لا يرد من حرٍّ ولا من برد. قلت: الرجل يُدعى فيرى تصاوير. قال: لا ينظر إليه. قلت: فقد نظرتُ إليه. قال: إن أمكنك خلعه خلعته.

أبو صالح الفراء عن يوسف بن أسباط قال: قلت: مَن أجيب؟ قال: لا تدخل على رجل إذا دخلت عليه أفسدَ عليك قلبَك. قد كان يكره الدخول على أهل البُسُط يعنى، الأغنياء.

المروزى قال: سألتُ أبا عبد الله عن السِّتر يُكتب عليه القرآن، فكره ذلك وقال: لا يُكتب القرآن على شىء منصوب لا سِتر ولا غيره. قلت: فالرجل يكترى البيت يرى فيه التصاوير ترى أن يحكه؟ قال: نعم. قلت لأبى عبد الله: فإذا دخلت حمَّامًا فرأيت فيه صورة ترى أن أحك الرأس؟ قال: نعم.

• ذكر الورع فى أشياء:

ابن عبد الخالق قال: حدثنا أحمد بن الحجاج قال: قلت لأبى عبد الله: ترى الرجل الوضىء تسأله الصبيَّة أن يشترى لها لعبة؟ قال: إن كانت صورة فلا، وذكر فيه شيئًا. قلت: أليس الصورة إذا كان يد أو رجل؟ فقال: عكرمة يقول: كل شىء له رأس فهو صورة. قال أبو عبد الله: وقد يصيرون لها صدرًا وعينًا وأنفًا. قلت: وأحبّ إليك أن تجتنب شراءها؟ قال: نعم.

سألت أبا عبد الله عن قبلةِ اليد فلم يرَ بها بأسًا إن كان على التديُّن. قال: قد قبّل أبو عبيد يدَ عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنهما. وإن كان على طريق الدنيا فلا، إلاّ رجل يخاف سيفه أو سوطه. قال لى أبو عبد الله: قال لى سعيد الحاجب ألا يقبِّل يد ولىِّ عهد المسلمين. فقلت: بيدى هكذا ولم أفعل. وروينا عن على بن ثابت قال: سمعت سفُيانَ يقول: لا بأس بها للإمام العادل وأكرهه على الدنيا؛ يعنى تقبيل اليد.

قلت لأبى عبد الله: رجل يريد الخروج إلى الثغر، وقد سألنى أسألك: هذا الطريق طريق الأنبار مخيف، فإن عرض له اللصوص ترى أن يقاتلهم؟ قال: إن طلبوا أشياءه قاتلهم، لأن النبى ﷺ قال: «مَن قُتل دون ماله فهو شهيد». قلت: فإن عرضوا للرفقة، ترى أن يقاتلهم؟ قال: حتى إن يطلبوه هو، ولم يرَ أن يقاتل عن الرفقة بالسيف.

سئل أبو عبد الله عن الأسير: يفر؟ قال: نعم، إذا قدر على ذلك. قلت لأبى عبد الله: ترى للرجل إذا جاءه الرجل يسأل، ترى أن يسأل له قومًا؟ قال: لا، ولكن يعرِّض كما فعل النبى ﷺ حين قَدِمَ عليه القوم مجتابى النمّار، فقال: تصدَّق رجل بكذا.

سمعتُ أبو عبد الله يقول: عبد الوهاب أطيب طعمة من غيره، يريد الورَّاقة. سمعت أبا عبد الله يقول: كان يحيى بن يحيى أوصى إلىَّ بجُبته، فجاءنى ابنه بها، فقلت: رجل صالح قد أطاع الله تبارك وتعالى فيها أتبرك بها.

حُدِّثت عن بعض العلماء أن يحيى بن يحيى قالت له امرأته تُشَرِّبه دواءً: لو قمت فترددت فى الدار؟ فقال: ما أدرى ما هذه المسألة، أنا أحاسب نفسى منذ أربعين سنة.

حُدثت عن موسى بن عبد الرحمن بن مهدى قال: لما قُبض عمى أغمى على أبى، فلما أفاق قال: البساط نحوه أدرجوه لغَلَّة الورثة. ابن أبى خالد قال: كنت مع أبى العباس الخطاب، وقد جاء يعزى رجلاً ماتت امرأته، وفى البيت بساط، فقام أبو العباس على باب البيت فقال: أيها الرجل، معك وارث غيرك؟ قال: نعم. قال: قعودك على ما لا تملك، فتنحَّى الرجل عن البساط.

وحُدثت عن ابن الضحاك صاحب بشر بن الحارث قال: كان يجىء إلى أخته حين مات زوجها، فيبيت عندها، فيجىء معه بشىءٍ يقعد عليه، ولم يرَ أن يقعد على ما خلَّف من غلَّة الورثة.

ابن عبد الخالق عن المروزى قال: سألت أبا عبد الله عن بوارى المسجد إذا

فضل منه الشيء أو الخشبة. قال: يتصدق به. سألته عن الجصِّ والآجُرِّ يَفضُل عن المسجد. قال: يصير في مثله. قلت لأبي عبد الله: إني أكون في المسجد في شهر رمضان فيجاء بالعود من الموضع الذي يكره، فقال: وهل يراد من العود إلا ريحه؟ إن خفي خروجك فاخرج.

روينا عن أبي عوانة عن عبد الله بن راشد قال: أتيت عمر بن عبد العزيز بالطِّيب الذي كان في بيت المال، فأمسك على أنفه وقال: إنما ينتفع بريحه.

عبد العزيز بن أبي سلمة قال: حدثنا إسماعيل بن محمد قال: قدم على عمر رضي الله عنه مسك من البحرين، فقال: واللهِ لوددت أني أجد امرأةً حسنة الوزن تَزِن لي هذا الطِّيب حتى أفرّقه بين المسلمين، فقالت امرأته عاتكة بنت عمرو بن نفيل: إني جيدة الوزن فهلمّ أزِن لك. قال: لا. قالت: ولِمَ؟ قال: إنّي أخشى أن تأخذيه هكذا، وأدخل أصابعه في صدغيه، وتمسحين عنقك، فأُصيب فضلاً عن المسلمين.

وسليمان التيمي قال: حدثني نعيم عن العطّارة قال: كان عمر يدفع إلى امرأته طيبًا من طيب المسلمين. قال: فتبيعه امرأته، فباعتني طيبًا، فجعلت تقوِّم وتزيد وتنقص، وتكسره بأسنانها فيَعلَق بأصبعها شيء منه، فقالت به هكذا بأصبعها، ثم مسحت به خمارها، فدخل عمر فقال: ما هذه الريح؟ فأخبرته بالذي كان. فقال: طِيبُ المسلمين تأخذينه أنت فتطيبين به؟ فانتزع الخمار من رأسها، وأخذ جراً من ماء فجعل يصب على الخمار، ثم يدلكه في التراب ثم يشمه، ثم يصب عليه الماء ثم يدلكه في التراب ثم يشمه، ففعل ما شاء الله. قالت العطارة: ثم أتيتها مرة أخرى، فلما علِق بأصبعها منه شيءٌ فعمدت فأدخلت أصبعها في فيها، ثم مسحت بأصبعها التراب.

أبو بكر المروزي قال: قلتُ لأبي عبد الله: يحضر يوم الجمعة يوم بارد، ترى أن يسخن الماء من الموضع الذي أكره؟ قال: لا، تركُ الغسل أحبُّ إليَّ من هذا. سمعت أبا عبد الله ينكر على أبي ثور قوله.

وإذا أجمع الأطباء أن شفاء الرجل في الخَمر، أنه ليس به بأس، فأنكر إنكارًا

شديدًا عليه، وقال: لقد كرِهتُ أن يداوى الدُّبر بالخمر فكيف بشربه؟ وتكلم بكلامٍ غليظ.

حدثت عن شعيب بن حرب قال: لأن أرى ابنى يسرق أو يزنى أحبُّ إلىَّ من أن يأتى عليه وقت لا يعرف الله تبارك وتعالى فيه.

محمد بن أبى داود الأنبارى قال: قلت لأبى أسامة: أجيب وليمةً فيها نبيذ؟ قال: لا. قلت: أخاف الحديثَ الذى جاء عن رسول الله ﷺ: «مَن لم يجب فقد عصى». فقال: مَن لم يجب اليوم فقد أطاع الله تعالى ورسوله ﷺ.

هارون بن معروف قال: جاءنى فتى فقال: إن أبى حلف علىَّ بالطلاق أن أشرب دواء مع مسكر، فذهبت به إلى أبى عبد الله فلم يرخّص له، وقال: قال النبى ﷺ: «كل مسكرٍ حرام، أو قال: خمر».

المروزى قال: سألت أبا عبد الله عن خياط الملحَم فقال: ما كان للرجال فلا، وما كان للنساء فليس به بأس. وسألته: يُخاط للنساء هذه الزِّيقات[1] العِراض، فقال: إن كان شىء عريض فأكْرَهُهُ، هو مُحدَث، وإن كان شىء وَسَطًا لم يرَ به بأسًا. وكره أن يصير للمرأة مثل جيب الرجال. وقطع أبو عبد الله لابنته قميصًا، وأنا حاضر، فقال للخياط: صيِّر جيبها من قدَّام. وقطع أبو عبد الله لابنته قميصًا، وأنا حاضر، فقال للخياط: صيِّر زيقانها دقاقًا، وكره أن يصير عريضًا. وقطعت لأبى عبد الله جبَّة وصيرت زِيقَها دقيقًا. فقلت لأبى عبد الله: هل أدركتَ أحدًا من المشايخ كان له زِيق عريض؟ قال: لا. وكنت يومًا عند أبى عبد الله فمرّت جارية عليها قِباء فتكلّم بشىء، فقلت: تكرَهُهُ، قال: كيف لا أكرهه جدًا، لعن رسول الله ﷺ المتشبهات من النساء بالرجال.

وروينا عن عبد الصمد قال: دعا يزيد بن هارون خيَّاطًا من النسَّاك فقال: اقطع لهذه الجارية قِبَاء، فوضع الخياط المقراض من يده، وقال: يا أبا خالد، قباء عمَّن، فسكت يزيد المروزى. قال: ذُكر لأبى عبد الله رجل من المحدثين فقال: إنما

---

(١) الزيق: ما يُكَفُّ به جيب القميص، يخاط به لتقويته. الجمع: أزياق، وزِيقَة.

أنكرتُ عليه أن لبس زِيَّه زى النسَّاك.

سألت أبا عبد الله عن الرجل يلبس النعل السبتىَّ، فقال: أما أنا فلا أستعملها، ولكن إذا كان للمخرَج أو الطين فأرجو، وأما من أراد الزينة فلا. ورأى نعلاً سَبْتِيًا على باب المخرَج فسألنى: لمن هى؟ فأخبرته، قال: يتشبه بأولاد لوط، يعنى صاحبها. سألت أبا عبد الله قلت: أمرونى فى المنزل أن أشترى نعلاً سنديًا للصبية، قال: لا تشترِ. قلت: تكرهه للصبيان والنساك؟ قال: نعم أكرهه.

زياد بن أيوب قال: كنت عند سعيد بن عياض فأتاه صبى ابن ابنته وفى رجله نعل سندى، فقال: مَن ألبسك هذا؟ قال: أمى. قال: اذهب إلى أمك تنزعها.

المروزى قال: سألت أبا عبد الله عن المرأة تلبس المقطوع الأحمر، فكرهه كراهة شديدة وقال: أما أن تريد الزينة فلا.

يقال: أول من لبس الثياب الحمر آل قارون، ثم خرج على قومه فى زينته. قال: فى ثياب حمر.

مجاهد، عن عبد الله بن عمر قال: مر على النبى ﷺ رجل وعليه ثوبان أحمران، فسلَّم فلم يَردّ عليه. المروزى قال: رأى أبو عبد الله بطانة جنبى حمراء، فقال: لِمَ صبغتها حمراء؟ قلت: للرِّقاع التى فيها، قال: وإيش تبالى أن يكون فيها رقاع؟ قلت: تكرهه؟ قال: نعم. وأمرنى أن أشترى له تِكَّة فقال: لا يكون فيها حمرة، قلت: تكرهه، قال: نعم.

قلت لأبى عبد الله: الثوب الأحمر تُغطَّى به الجنازة، فكرهه، قلت: ترى أن أجذبه؟ قال: نعم. وأمرونى فى منزل أبى عبد الله أن أشترى لهم ثوبًا عليه كتاب، فقال: قل لهم: إن أردتم أن أشتريه وأقلع الكتاب. قلت: هم إنما يريدون الكتاب. قال: لا تشتره.

وأخبرتنى المرأة قالت: نهانى أبو عبد الله عن النقش فى الخِضاب وقال: أغمسى اليد كلها. وسمعت أبا عبد الله وذكر المختضَبة، فقال: قالت عائشة: أسليه وادعميه.

سليمان التيمى عن أبى عثمان قال: أرسلت أم الفضل ابنةَ غيلان إلى أنس تسأله عن القلادة فى عنق المرأة، وعن الخضاب، فأرسل أنه يستحب للمرأة أن تعلّق فى عنقها شيئًا فى الصلاة ولو سَيرًا. وقال فى الخضاب: آمرها أن تغمس يدها كلها.

المروزى قال: سألت أبا عبد الله عن الرجل يجصِّص، فقال: أما أرض البيوت فتوقيهم من التراب، وكره تجصيص الحيطان. وذكرتُ لأبى عبد الله مسجدًا قد بُنى وأُنفق عليه مال كثير، فاسترجع وأنكر ما قلت، وقال: قد سألوا النبى ﷺ أن يكْحَل المسجد، فقال: «لا، عريشٌ كعريش موسى». قال أبو عبد الله: إنّما هو شىءٌ من الكَحل يُطلَى، فلم يرخص النبى ﷺ.

حُدثت عن أحمد بن عبد الخالق قال: حدثنا أبو بكر المروزى قال: قلت لأبى عبد الله: لا يبيع حاضر لبادٍ كيف هو؟ فقال: حدثنا سفيان قال: حدثنا أبو الزبير قال: سمعت جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يبيع حاضر لباد، دعو الناس يرزق الله بعضهم من بعض». قال: البادى الأعرابى، وأنت حاضر، ويجىء الأعرابى وهو لا يعرف السعر، فتقوم أنت وقد عرفت السعر فتبيع له بما تعرف، فهو الذى نهى عنه. قلت لأبى عبد الله: فتشترى له إذا جاء، لأنه لو تُرك لاشترى منهم الغالى بمنزلته، إذا جاء فباع منهم الرخيص. فقال: ليس هذا، لو كان هذا هكذا ما اشترى الناس ولا باعوا، إنّما عليه لا يبيع له ولم يرَ بأسًا أن يشترى له.

قلتُ لأبى عبد الله: ما معنى قول النبى ﷺ: «لا شرطين فى بيع»؟ قال: قول الرجل: أبيعك أمَتى هذه، على أنك إذا بعتها فأنا أحقُّ بها.

سئل أبو عبد الله عن ربح ما لم يضمن. قال: الرجل يبيع الطعام قبل أن يقبضه. قيل لأبى عبد الله فى الرجل يشترى الطعام صُبرةً[1]، ترى له يبيعه قبل أن يكيله؟ فقال: لا.

---

(١) صُبرة: الكُومة من الطعام. يقال: اشترى الطعام صُبرةً: جزافًا بلا كيل أو وزن.

سئل عن بيع المباطح، فقال: جَنِيَّةٌ يوم بيوم. قلتُ لأبى عبد الله: يكون فى سقف البيت الذهب بجانب صاحبه، قال: نعم، هذا يُكره. وذهب إلى أن يُجْفَى. قلت لأبى عبد الله: الرجل يكون له القرابة سكران يُجْفَى؟ قال: أى شىء بقى إذا سكر؟ نعم يجفى أو يُجانِب[١].

سألته عن المكره يراد على شرب الخمر. فقال: يروى عن عمر رضى الله عنه فى شرب الخمر أنه لا يفعل حتى يُنال بعذابٍ. قلت: فإن أُمر أن يقتل؟ قال: أما القتل فلا يكون عند الله إلا المقتول.

قلت لأبى عبد الله: الرجل يبيع داره من نصرانى؟ قال: لا، أليس يُكفر فيها، وذكر المحاريب التى فيها.

قال لى أبو عبد الله: أى شىء قال لك عبد الوهاب فى خروجى إلى مكة؟ قلت: قال: ما أرى لك أن تخرج، أنت ههنا بالقرب ليس تَسلَم، فكيف إن تباعدت؟ قال: أشار علىَّ رجل صالح أن لا أخرج، أخبره أنى قد قبلت ما أشرت به علىَّ، وقد كنا اشترينا بعض حوائجه.

سألت أبا عبد الله عن رجل لبَّى بالحج وليس عنده شىءٌ وعليه دَين، قال: لا يجوز حتى يستأذن أصحاب الدَّين، ثم قال: قد أوجب على نفسه الحج. سألت أبا عبد الله عن رجل له أم ضريرة، وله مال، يحجّ عنها؟ فقال: يحجّ عنها إذا لم تقدر على الركوب، وقال: يعجبنى أن لا يحج إلا عن قرابة.

قلت لأبى عبد الله: إنى دخلتُ أغسّل رجلاً من أصحابنا، فإذا قد دخل علينا رجل من أهل الخلاف قد سمَّيته له، فقال لى: قد وقفتَ حيث ثبت وغسَّلته، لو خرجتَ كنتَ لا تأمن أن يجىء برجل من أصحابنا فيتولاَّه.

سألت أبا عبد الله عن رجل مات وترك كتبًا وله ورثة. قال: تُدفن. فإن كانوا صبيانًا صغارًا؟ قال: يدفنها الوصى عليهم.

سمعت أبا عبد الله يقول: حكمُ المخنَّثين أن يُنفَوا.

---

(١) يجانب: يبعد عنه.

سئل أبو عبد الله عن المرأة إذا كانت موسرة وزوجها غائب: هل تحج؟ قال: تكتب إليه، فإن أَذِنَ، وإلاّ خرجت مع ذى محرم. قيل: فإن كان شاهدًا يمنعها تخرج من غير عِلمه مع محرمها؟ قال: نعم، ليس له أن يمنعها. قال: ولا تخرج مع غيره، فإن كان أخوها من الرضاعة خرجت. قيل لأبى عبد الله: الرجل يستأجر الدار والحانوت فيؤاجره بأكثر مما استأجره. قال: فيها اختلاف، ولم يجب.

قيل له: رجل له شجر فى أرضه وأغصانها فى أرض غيره، قال: يقطع أغصانها. قيل له: فإن صالحه على أن تكون الغَلَّة بينهم؟ قال: لا أدرى.

سمعت أبا عبد الله يقول فى المُحرم، إذا اضطر إلى الصيد، قال: يأكل الميتة. وقال: أذهب فى الميتة إلى حديث ابن حكيم، أتانا كتابُ النبى ﷺ قبل وفاته بشهر: «لا تنتفعوا من الميتة بشىء».

سألت أبا عبد الله عن مُحرم ذبح صيدًا: يؤكل؟ قال: لا، هذا ليس بزكاة هذا لا يؤكل. قلت: فالرجل يَقْلع ضِرسه ثم يرده إلى موضعه، فمكث ثلاثًا ثم يقلعه أيش تقول فيه، فإن الشافعى قال: يعيد الصلاة، لأنه صلّى فى ميتة؟ قال: لا تَعجَل علىَّ، ثم سكتَ ساعةً، ثم قال: ما أبعد ما قال، بلى لو أخذَ سِنّ شاة مما يؤكل لحمه فوضعه لم يكن به بأس. وذكر فى هذا: أحبُّ إلىَّ أن يعيد ما صلَّى.

سألت أبا عبد الله: يباع الغزل فى الفَلْكَة[1] ولعلها ميتة. قال: إن علم فلا. قلت: لقد يُخصف به الخُفُّ أو النعل؟ فقال: إذا كان من حمار فأكرهه. قلتُ: فأى شىء ترى؟ قال: ما لا تعلم فلا تريد أن تبحث.

قلت له: تنورٌ شُوى فيه خنزير، ترى أن يخبز فيه؟ قال: لا حتى يُغسَل ويُقلَع ما فيه. قلت: فيُكسر؟ قال: لا.

سألته عن البُرِّ يداس بالحمير فيبال فيه، ثم يطحن قبل أن يغسل، قال: لا يؤكل.

---

(١) الفَلَكة: القطعة المستديرة من الخشب ونحوه تُجعل فى أعلى المِغْزل، وتثبَّت الصَّنَّارة من فوقها، وعود المغزل من تحتها.

قلت لأبى عبد الله: إن رجلاً قال: من كان له امرأة يسكن إليها وخبزٌ يأكله فهو من المتنعِّمين، قال أبو عبد الله: صدق. سمعت أبا عبد الله وذكر المطاعم، ففضَّل عمل اليدين. قلت له: إنّ عبد الوهاب قال: قل لأبى عبد الله: يخاف علىّ من أمر الحديث إن امتنعت شيئًا. قال: وأى شىء يمنعه من الحديث؟ قال: الكسب والمعاش. قال: هذا أوجب عليه، يعنى الكسب.

قال المروزى: سمعت بعض أصحابنا يقول: رأيت أبا عبد الله فى الجمعة فدفعَ رجلٌ إلى أبى عبد الله قطعةً ليناول السائل فلم يأخذها. قال: وأخبرنى بعضُ أصحابنا، قال: رأيْتُ بشر بن الحارث فى الجمعة[1] وسائل يسأل، فأعطى رجل لِبشر قطعةً ليدفعها إلى السائل، فأخذها فدفعها إليه.

قلت لأبى عبد الله: إذا كان لى جار أعلم أنه يجوع؟ قال تواسيه. قلت: فإذا كان قُوتى رغيفين؟ قال: تطعمه شيئًا، الذى جاء فى الحديث إنّما هو فى الجار.

قلت لأبى عبد الله: إذا كان للرجل قميصان أو جُبَّتان، تجب عليه المواساة؟ قال: إذا كان يحتاج إليه فى هذا البرد، إلاّ أن يكون يَفضُل. قلت: الأغنياء تجب عليهم المواساة؟ فقال: إذا كان قوم يضعون شيئًا على شىء، كيف لا يجب عليهم؟

قال المروزى: سمعت يحيى الجلاّء وأبا طالب صاحبنا قالا: سمعنا يزيد بن هارون، وسئل عن إنفاق المكحلة، قال: حرامٌ لا تصلح. قيل له: فإن تراضيا أبا خالد؟ قال: الزانيان يتراضيان أفحلال هو؟ قال: وسمعت عبد الوهاب يقول: قال أبو أسامة: تُقطع الأيدى فى المكحلة؛ يعنى الذى يعملها. قلتُ لأبى عبد الله: أقرضتُ رجلاً عشرة دراهم فردها علىَّ مكحلة، فقبضت درهمًا. قال: لم تستوف حقك. قلت له: الرجل يدفع إلىَّ الدنانير، فتكون مكحلة أحكُّها؟ قال: حكُّها صلاح لصاحبها.

قال المروزى: سمعت يحيى الجلاَّء يذكر عن شعيب بن حرب قال: لأن أرى ابنى يحكُّ درهمًا أحبُّ إلىَّ من أن أحمل على فرس فى سبيل الله عز وجل.

---

(١) من قوله: «فدفع رجل» إلى هنا ساقط من المطبوعة.

قال: ودفع إلىَّ أبو عبد الله ديناراً فقال: صرِّفه بدراهم صحاح، فجئت بالدراهم فأعطيته، فلما كان بعد ذاك اليوم خرجت فى تلك الدراهم درهم ردىء، قلت: فهات حتى أُبدله، فقال: قد اختلفوا فيه، وفيه أربعة أقاويل. ثم قال: قال مالك: الصرف منتقص. وأما الثورى فيقول: ما نقص من الدراهم فتكون له حصته من الدنانير، وهذا قول ما أدرى ما هو. قلت: إلى ما تذهب؟ قال: أرجو أن لا يكون به بأس. وأما ابن عمر فيقول: ليس له أن يرد. قال أبو عبد الله: وليس هو بذاك. رواه رجل مجهول. وأما قتادة فيقول: له أن يرده. ثم قال: قول قتادة أوسعُ على الناس، استخرِ الله عزّ وجلّ وردَّه، فدفعه إلىَّ فأبدلته.

عن المغيرة عن إبراهيم أنه كَرِه أن يشترى الدراهم بدينار، على أن كان فيها زيفٌ ردَّه. وعن وكيع عن سفيان عن رجل عن الحسن: فى الرجل يصرف الدِّينار، فيعطى الدرهم الزيف، قال: لا بأس أن يستبدله. قال سفيان: إذا كان سبوقًا ردّه، ويكون شريكه فى الدينار بِحصته.

وسئل محمد بن جعفر عن رجل ابتاع دراهم بدنانير، وشرط على صاحبها أنه ما ردّ فعليك بدله. قال: أخبرنا سعيد عن قتادة عن الحسن قال: إن كان فيها زيف ردّه، ولكن لا يشترطان.

سئل أبو عبد الله عن الرجل يُستأجر يكتب الورق المائة بعشرة دراهم، فيدفع إليه ديناراً، فقال ابن عمر: قد اكترى شيئًا فأعطاه دنانير وصارف، ولم يرَ به بأسًا. قال: ولا يعطى الدنانير من الدراهم إلا بسعر يومها، ولا زيادة دانق.

سألت أبا عبد الله عن حلق القفا، فقال: هو من فعال المجوس. قال: ودعى حذيفة إلى شىء، فرأى شيئًا من زى الأعاجم، فخرج وقال: مَن تشبَّه بقوم فهو منهم. وكان أبو عبد الله لا يحلق قفاه إلاّ فى وقت الحجامة.

قلت لأبى عبد الله: فما ترى فى تحذيف الوجه. قال: أما الوجه فالمقاريض تأتى عليه، وكره أن يؤخذ الشعر بالمنقاش من الوجه. وقال: لعن رسول الله ﷺ المتنمِّصات.

سألت أبا عبد الله عن المرأة تصل شعرها بقَرامل[١]، فكرهه. وسمعت امرأة تقول: جاءت امرأة من هؤلاء الذين يمشِّطون إلى أبى عبد الله، فقالت: إنى أصل رأس المرأة بقرامل، وأمشِّطها، فترى أن أحج مما كسبت؟ قال: لا، وكره كسبه لنهى النبى ﷺ، وقال: يكون من مال أطيب منه. قلت لأبى عبد الله: فالمرأة الكبيرة تصل رأسها بقرامل، فلم يرخِّص لها، وقال: إن كان صوفًا أبيض، وتبسم.

ودخلت على أبى عبد الله فرأيت امرأة تمشط صبية له، فقلت للماشطة بعدُ: وصلتِ رأسها بقِرمل؟ فقالت: لِمَ تَتْركْنى الصبية؟ قالت: إن أبى نهانى. وقالت: يغضب.

روينا عن ابن جريج قال: أخبرنى أبو الزبير عن جابر أن النبى ﷺ زجَر أن تصل المرأة برأسها شيئًا. قال أبو بكر: سألت أبا عبد الله عن حلق الرأس فكرهه، فقلت: تكرهه؟ قال: أشد الكراهية. ثم قال: كان معمر يكره الحلق، واحتج أبو عبد الله بحديث عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه أنه قال لرجل: لو وجدتك محلوقًا لضربت الذى فيه عيناك.

قال أبو بكر: رأيت رجلاً من أصحابنا صلّى إلى جانب أبى عبد الله، وقد كان استأصل شعره، وظنّ أبو عبد الله أنه محلوق، وكان رآه بالليل، فقال لى: تعرفه؟ قلت: نعم، قال: أردت أن أغلِّظ له فى حلق رأسه.

سألت أبا عبد الله عن الحقنة، فقال: إذا اضطر إليها فلا بأس. ورأيت أبا عبد الله ألقى لختّانٍ درهمين فى الطست، وسمعته يقول: الجوز إذا لعب به الصبيان ما يعجبنى أن يؤكل.

سألته عن مُسوك[٢] السباع: تُفترش؟ قال: لا تُفترش، نهى النبى ﷺ أن تُفترش. ذكرت لأبى عبد الله أنّ رجلاً خلّف متاعه عند غلامه، فباع ثوبًا ممن يكره ناحيته، فأخذ الدراهم فألقاها فى كِيسه، فجاء الرجل فأخبره، فأخذ الكيس

---

(١) قرامل: ضفائر من شعر أو غيره تصل بها المرأة شعرها. المفرد: قِرْمِل.

(٢) مسوك السباع: جلودها. المفرد: مَسك.

وانطلق به إلى يوسف بن أسباط فأخبره، فذكر له يوسف عن الثورى وابن المبارك، قال أحدهما: يُخرج قيمة الثوب، وقال الآخر: يتصدّق بالربح. قال الرجل: ما أجد قلبى يسكن إلاّ أن أتصدّق بالكيس. فقال أبو عبد الله: بارك الله فيه.

سئل أبو عبد الله عن الرجل يكون محتاجًا، فيجيئه الرجل من إخوانه بشىء يخاف عليه إن لم يقبله. فقال: إن أتاه من غير مسألة ولا استشراف نفس، أخاف أن يضيَّق عليه إن لم يقبل. قال: وجئته بحمّال دقيق، فقال: أعطيته الكِراء؟ قلت: نعم، فأخرجَ رغيفًا فقال لى: أعطه، فدفعته إليه فقال: ويحك ما أعلم أنى قَبلت من أحد شيئًا، ولكن لا أراد على أبى عبد الله، أتبرَّك به. وجئته به مرة أخرى، فأخرج إليه رغيفًا فقال: إن نفسى استشرفت إليه، فتبسم أبو عبد الله وقال: لك أن ترد، ونحن نحب أن تقبل، فَقَبِله.

سألت أبا عبد الله عن بيع المراوح الرقاق، وربما باعوا المروحة بالدّرهم أو أكثر، فقال: هى بمنزلة الثياب الرقاق. قلت: فأى شىء تقول؟ فقال: إذا باعها من تاجرٍ فلا بأس.

قال: سألت أبا عبد الله عن مصحف قد بَلِى، ما ترى فى دفنه؟ قال: يدفن.

قلت: الرجل تدعوه أمه وهو فى الصلاة. قال: قد روى عن ابن المنكدر أنه قال: إذا كان فى التطوع فليُجبها.

قلت لأبى عبد الله: رجل سقطت منه ورقة فيها أحاديث وفوائد، فأخذتها، ترى أن أنسخها وأُسمعها؟ قال: لا، إلاّ أن يأذن صاحبها.

سألت أبا عبد الله عن شىءٍ من أمر الورع، فأطرق رأسه إلى الأرض، وسكت وكان ربّما تغير وجهه، يقول فى بعض ما أسأله: أستغفر الله. قلت: فأى شىء تقول يا أبا عبد الله؟ قال: أحبّ أن تعفينى. قلت: فإذا أعفيتك فمن أسأل، لقد أصبح الأدِلاَّء متحيِّرين؟ قال: هذا أمر شديد.

وسمعته يقول: أنا منذ أكثر من سبعين سنة فى فَقْد. وقال: ما قلّ من الدنيا

كان أقل للحساب. قلتُ له: إنّ رجلاً قال: إن أحمد بن حنبل وبشر بن الحارث ليسا هما عندى زهَّادًا، أحمد له خبزٌ يأكله، وبشر له دراهم تجيئه من خراسان، فتبسم أبو عبد الله ثم قال: مِنَ الزُّهاد أنا؟

وسمعته يقول: وقع للتيمى فضرب فيه فسطاطًا أو خباء عشرين سنة، وسمعته يقول، وذكر قومًا من المترفين فقال: الدنوُّ منهم فتنة، والجلوس معهم فتنة. قلت لأبى عبد الله: إنّ مولى ابن المبارك حدثنى أنّ سعيد بن عبد الغفار قال لابن المبارك: ما تقول إذا نزل دار من تُكره ناحيته بأجر، قال: لا بأس بها. قلت لأبى عبد الله: فإذا أجاز الذى تُكره ناحيته رجلاً فاشترى دار غَلَّةٍ، ترى أن أنزلها بأجر؟ قال: لا.

قال أبو وهب: قال أبو عبد الله، يعنى المبارك، فى رجلٍ يشترى جاريةً من رجل، فإذا هى ضافنة[1]. قال: يردها على الذى كانت له، ولا يردها على الذى اشتراها منه وهى ضافنة. وذكره عن سفيان.

عباس العنبرى، عن رجل قال: كنت مع عبد الرحمن بن مهدى بعبادان، وكنا نغسل أيدينا من ماء السّبيل وكان هو لا يفعل، يأمر غلامه فيجىء من ماء البحر.

عبد الصمد بن مقاتل قال: كانوا يكتبون الكتابَ ولا يُتربِّونه من دور السبيل، يرسلون فيأخذون من طين البحر. قال: وكتب إلينا ابن خشرم، وكتب فى كتابه أنّ بِشرًا كان لا يشرب بعبادان من الحِياض التى اتخذها الملوك، وكان يشرب من ماء البحر.

روينا عن سعيد بن خيثم، عن محمد بن خالد قال: مرّ إبراهيم النخعى على امرأة يقال لها أم بكر من مراد، وهى تغزل، فقال: يا أمّ بكر، أما آن لك أن تتركينه؟ فقالت: يا أبا عمران، كيف أتركه وقد سمعت على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه يقول: إنه من أطيب الكسب.

قلت لأبى عبد الله: إن حسنًا مولى ابن المبارك حكى عن سعيد بن عبد الغفار

(١) ضافنة: من الضَّفن وهو القصير، أو الأحمق فى عِظم خلق.

أنه قال لابن المبارك: ما تقول فى رجلين دخلا على من تُكْرَه ناحيته فأجازهما، فَقَبِل واحدٌ، ولم يقبل الآخر، فخرج الذى قَبِل، فاشترى منه الذى لم يُقبل، ما تقول؟ فسكت ابن المبارك. فقال له ابن سعيد: ما يسكتك؟ لِمَ لا تجيبنى؟ فقال: لو علمتُ أن الجواب خير لى ولك لأجبتك. قال سعيد: أليس أصلُنا على الكراهة؟ قال ابن المبارك: نعم. فقال أبو عبد الله: ومن يقوى على هذا؟ قال له: فما تقول فى رجل أجازه فاشترى دارًا، ترى أن أنزلها؟ فسكت ابن المبارك. فقال: لِمَ لا تجيبنى؟ فقال: هذا أضيق، أكره أن أجيبك.

فقلت له: إن الثورى قال: ما فى أيدى الحَشَم[1] سُحْت. فأنكر أبو عبد الله أن عبد الوهاب قال فى الرجل: يجاز ثم يدفعها إلى الآخر، إن المال عنده شىء واحد، فقال: هذا شديد. قلت: إذا أعطى تكرهه للأول، والثانى لا ترى به بأسًا؟ قال: إنما أكرهه للأول من طريق المحاباة، والثانى ليس هو مثل عطية الأول.

قال: من أُعطى هذا المال، أو حوبى على أثره، فليقبل وليفرِّق كما فعل أصحاب رسول الله ﷺ؛ بعث عمر رضى الله عنه بمال إلى أبى عبيدة ففرَّق، وبعث مروان إلى أبى هريرة ففرّق، وبعث إلى ابن عمر ففرّق، وبعث إلى عائشة رضى الله تعالى عنها ففرَّقت. قلت: فعلى أى وجه قبلها منهم ابن عمر، فإنّ قومًا يحتجون يقولون: لو لم يكن مباحًا ما أخذ؟ فأنكر ذلك، وقال: إنه لما رأى أنه حُوبى كره أن يرد إليهم، وفرقه بالسوية. قلت: فإنّ معاذًا يروى عنه أنه فَضُل عنده دينارٌ، فطلبته منه امرأته فأعطاها. فقال: كانت محتاجةً إليه. فقلتُ له: أنت تقول: مَن بُلى من هذا المال بشىءٍ فليعدل فى تفريقه، وعائشة رضى الله تعالى عنها لما شكا ابن المنكدر إليها، قالت: لو أنّ عندى عشرة آلاف لأعنتك، فلما خرَجَ أُرسل إليها بعشرةِ آلاف فبعثت خلفه فأعطتهُ. فقال: إنها كانت بُليت بقولها، ومع هذا قد أخرجته، وذكر من زهدها وورعها، وقال: كان أصحاب محمد ﷺ يسألونها، مثل أبى موسى الأشعرى وغيره، ولم يكن فى أزواج النبى

(١) الحشم: خاصة الرجل الذين يغضبون لغضبه ولما يصيبه من مكروه، من عبيد أو أهل أو جيرة.

ﷺ مثلها، وإنما كانت ابنة ثمانية عشرة سنة.

أبو يحيى الناقد قال: حدثنا أبو طالب قال: قلت: حدثونى عن عبد الله بن يحيى بن أبى كثير، عن أبيه، عن رجل من الأنصار، أن النبى ﷺ نهى عن أُذن القلب، فقال: نعم هكذا قلت، ما هذا الحديث؟ قال: نهى عن أكل أُذُن القلب، قال: لا يؤكل.

وعن عبد الله بن أحمد قال: قلت لأبى: الغدَّة؟ فقال: لا تُؤكل، النبى ﷺ كرهها فى حديث الأوزاعى عن واصل عن مجاهد.

وروينا عن عبد الله بن يزيد عن أم سلمة سألها النبى ﷺ عن أُذن القلب فقالت: ألقيته، فقال: طاب قِدرُك.

وهذا آخر كتاب المعاش وما اتصل به من الآثار فى الورع، والله تعالى أعلم.





الفصل الثامن والأربعون

كتاب تفصيل الحلال والحرام، وما بينهما من الشبهات، وفضل الحلال، وذم الشبهة، وتمثيل ذلك بصور الألوان

روينا عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ: «يأتى على الناس زمان لا يبقى فيه أحدٌ إلاّ أكل الربا، فمن لم يأكله أصابه من غُباره». يعنى ـ والله أعلم ـ أنه يدخل عليه وإن لم يعمل به، من غير قصد له ولا اكتساب، كما يدخل الغبار فى المشام للمجتاز، لفشوِّ الربا وانتشار مداخله مما لا يمكن التحرز منه.

وفى الخبر: «درهم من رِبا أعظم عند الله عزّ وجلّ من ثلاثين زنية فى الإسلام».

وما توعَّد الله عزّ وجلّ ولا تهدّد فى معصية مثل ما توعَّد فى أكل الربا، فإنه عزّ وجلّ عظَّم شأنه بوصفين عظيمين؛ إعظامًا له وترهيبًا منه، فذكر فى أوله المحاربةَ لله عزّ وجلّ ولرسوله ﷺ، وفى آخره الخلود فى النار، ينتظم ذلك فى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبا إِن كُنتُم مُؤمنينَ﴾ ، ثم اشترط للإيمان تركَ الربا بقوله: ﴿إنْ﴾ وهى للشرط والجزاء، ثم قال: ﴿فَإِن لَم تَفعَلُوا فَأذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ الله وَرَسُوله﴾ ، ثم أوجب التوبة منه بعد إعلامه الظلم منه فقال: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُم رؤُوسُ أَمْوالكم لا تَظلمُونَ ولا تُظلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٨ ـ ٢٧٩]، ثم نصّ على تحريمه فى قوله: ﴿وَأَحَلَّ اللهُ البَيعَ وَحَرَّمَ الرِّبا﴾ ، ثم توعّد بالخلود بعد ذلك كله فقال: ﴿وَمَن عَادَ فَأُولئكَ أَصحَابُ النَّارِ هُمْ فِيها خَالدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥]. وهذا من شديد الخطاب وعظيم العذاب.

وروى عن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ: «طلب الحلال فريضة بعد الفريضة»، فسوَّى بينه وبين العلم فى الفرض، فأوجب الطلبَ لهما، مَثَلُ فرض

الحلال للآكل مَثَلُ طلب العلم للجاهل. والفرائض إذا شُرعت ثبتتْ إلى يوم القيامة، فإذا أمر بطلبها دلّ على وجودها؛ لأنه لا يؤمر بطلب مفترض علينا يكون معدومًا. فالحلالُ موجود من حيث افتُرض عَلَينا، وأُمرنا بطلبه، ولكن طريقه ضيق، ووجوهه غامضة، والتسبب إليه فيه مشقّة، والحاصل منه فيه خشونةٌ وقلّة، ومع ذلك فإن المعاوِن عليه قليلٌ والطالبَ غريب، وهذه أسباب تكرهها النفوس، وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم.

ثم إن الفرائض لها علوم وأحكام؛ فمن لم يعرف عُلومها، ولم يقم بأحكامها، فكأنّه لم يعلمها. وكان عمر رضى الله عنه يضرب أهل السوق بالدِّرَّة ويقول: لا يتّجر فى سوقنا إلا من تفقَّه، وإلا أكل الربا.

وكان بعض العلماء يقول: تفقَّه ثم ادخل السوق، فبع واشترِ، وتأوّل معنى قول النبى ﷺ: «طلب العلم فريضة على كلّ مسلم» قال: هو طلب علم الحلال والحرام والبيع والشراء، إذا أراد الإنسان أن يدخل فيه افترض عليه علمه. ففى الخبر: «مَن سعى على عياله من حِلِّه فهو كالمجاهد فى السبيل الله عز وجلّ، ومن طلبَ الدنيا حلالاً فى عفافٍ كان فى درجة الشهدء».

ويقال: إن أول لقمة يأكلها العبد من حلال يُغفر له ما سلف من ذنوبه، ومن أقام نفسه فى مقام ذُلٍّ فى طلب الحلال، تساقطت عنه ذنوبه كما يتساقط ورق الشجر فى الشتاء إذا يبس.

وكان بعض العلماء يقول لبعض المجاهدين: أين أنتَ من عمل الأبطال: كسب الحلال والنفقة على العيال؟

وقد كان شعيب بن حرب وغيره يقول: لا تحقر دانقًا من حلالٍ تكسبه، تنفقه على نفسك وعيالك، أو أخ من إخوانك، فلعله لا يصل إلى جوفك أو لا يصل إلى غيرك حتى يُغفر لك.

وفى الخبر: «من أكل الحلال أربعين يومًا نوَّر الله قلبه، وأجرى ينابيعَ الحكمة من قلبه». وفى بعض الروايات: «زهَّده الله فى الدنيا».

ويقال: من أكل حلالاً وعمل فى سُنَّةٍ فهو من أبدال هذه الأمة.

وقد كان سهل يقول: لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يأكل الحلال بالورع.

وروينا عن إبراهيم بن أدهم، وفضيل بن عياض رضى الله عنهما: لم يَنْبُل من نبل بالحج ولا بالجهاد ولا بالصوم ولا بالصلاة، وإنما يَنبُل عندنا من كان يعقل ما يدخل جوفه. يعنى: الرغيف من حِلِّه.

وقال يوسف بن أسباط لشعيب بن حرب: أشعرتَ أنّ الصلاة جماعةً سنّة، وأن كسب الحلال فريضة؟ قال: نعم.

وسأل رجل إبراهيم بن أدهم قال: أنا رجلٌ أتكسّب فى السوق، فإذا عملتُ فاتتنى الصلاة فى جماعة، فأيما أحبُّ إليك: أصلِّى فى جماعة، أو اكتسب. فقال: اكتسب من حلالٍ وأنت فى جماعة. وقد كان إبراهيم بن أدهم يعمل هو وإخوانه فى الحصاد فى شهر رمضان، فكان يقول لهم: انصحوا فى عملكم بالنهار حتى تأكلوا حلالاً ولا تصلّوا بالليل، إنّ لكم ثواب الصلاة فى جماعة، وأجرَ المصلّين بالليل.

وقال بعض السلف: أفضل الأشياء ثلاث: عملٌ فى سُنّةٍ، ودِرهمٌ حَلال، وصلاةٌ فى جماعة.

وكان سهل رحمه الله يقول: لا يبلغ العبد حقيقةً من هذا الأمر حتى يؤدى هذه الأربع: أداءَ الفرائض بالسنّة، وأكل الحلال بالورع، واجتنابَ النهى فى الظاهر والباطن، والصبرَ على ذلك إلى الممات.

وقال: مَن لم يكن مطعمه من حلالٍ لم يُكشف الحجاب عن قلبه، ولم تُرفع العقوبة عن قلبه، ولم يُبالَ بصلاته وصيامه، إلاّ أن يعفوَ الله عز وجل عنه.

وقال: من أحبَّ أن يرى خوفَ الله فى قلبه، ويُكاشَف بآيات الصديقين، لا يأكل إلاّ حلالاً، ولا يعمل إلاّ فى سُنة أو ضرورة. وكان يقول: إنما حُرموا مشاهدة الملكوت وحُجبوا عن الوصول بشيئين: سوء الطُّعمة، وأذى الخلق. وكان يقول: بعد سَنَةِ ثلاثمائة لا تصحّ لأحدٍ توبة. قيل: ولِمَ؟ قال: يفسد الخبز، وهم

لا يصبرون عنه[١].

وقد روى مرة الطيّب عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه عن النبى ﷺ: «جِسم غُذِّى بحرام لا يدخل الجنة، النار أولى به». وفى الخبر: «أنه أكل من كسب غُلامه ثم سأله عنه فقال: رقيت لقوم فأعطونى. وفى لفظ آخر: تكهَّنت لهم. فأدخل يده فى فِيه وجعل يقىء حتى استقاءه عن آخر لقمة. ثم قال: اللهم إنّى أعتذر إليك ممّا حملتِ العروق وخالط الأمعاء». وقد روى أنّ رسول الله ﷺ أخبر بذلك فقال: «أوَ ما علمتم أن الصدِّيق لا يدخل جوفه إلا طيبًا». وفى الخبر: «أن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه سأل رسولَ الله ﷺ أن يجعله الله مستجاب الدعوة، فقال: يا سعد، أطب طُعْمتك تُستجب دعوتك».

وقال العلماء: الدعاءُ محجوبٌ عن السماء بِفَسادِ الطُّعمة. ويقال: إن الله لا يستجيب دعاء عبدٍ حتى يصلح طعمته ويرضى عمله. ويقال: من أكل الشبهة أربعين يومًا أظلم قلبه. وهو فى تأويل قوله عز وجل: ﴿كلاَّ بَل رَانَ على قُلُوبِهم ما كَانُوا يَكسبُونَ﴾ [المطففين:١٤]. قيل: غلاف القلب من مكاسب الحرام[٢].

وقال جماعة من السلف: الجهاد عشرة أجزاء؛ تسعةٌ فى طلب الحلال. وقال على بن فضيل لأبيه: يا أبَتِ، إنّ الحلالَ عزيزٌ، فقال: يا بنى، إنه وإن عزَّ فقليلُه عند الله كثيرٌ. يقال: إنّ مَن صلى وفى جوفه طعامٌ حرامٌ، أو على ظهره سِلْك من حرام، لم تُقبل صلاته.

وقال بعض السلف: يا مسكين، إذا صمت فانظر عند مَن تفطر وطعام من تأكل، فإنّ العبد ليأكل الأكلةَ فيتقلب قلبه ويَنْغَلُ[٣] كما يَنْغَلُ الأديم، فلا يعود إلى حاله أبدًا. وهذا أحدُ التأويلين فى قوله ﷺ: «كم مِن صائم حظُّه من صيامه

(١) بل الخير فى أمة الحبيب لا ينقطع، والحلال أيضًا لا ينقطع، وإن عَزَّ. ففى كل زمان تظهر أنواع من المكاسب على حسب البيئة والزمان، منها الحلال الطيب ومنها دون ذلك، فلا يغلق هذا الباب أبدًا، ولله الحمد والمنة

(٢) من قوله: «ويقال من أكلة الشبهة» إلى هنا ساقط من المطبوعة.

(٣) ينغل: يفسد.

الجوع والعطش»، قال: هو الذى يصوم ويفطر على الحرام. وفى الخبر: «من طلب الدنيا حلالاً مفاخرًا مكاثرًا لقى الله عزّ وجل وهو عليه غضبان».

وحدثونا من آثار السلف أنّ الواعظ والمذكِّر كان إذا جلس للناس، ونصب نفسه، سُئل أهل العلم عن مجالسته، فكانوا يقولون: تفقدوا منه ثلاثًا: انظروا إلى صحة اعتقاده، وإلى غريزة عقله، وإلى طعمته، فإن كان معتقدًا لبدعة فلا تجالسوه فإنه عن لسان الشيطان ينطق، وإن كان سيء الطعمة فاعلموا أنه ينطق عن الهوى، وإن كان غير ممكن العقل، فإنه يُفسد بكلامه أكثر مما يُصلح، فلا تجالسوه. وهذا التفقد والبحث طريقٌ قد مات، فمَن عمل به فقد أحياه.

وذكر النبىُّ ﷺ الحريصَ على الدنيا فذمَّه ثم قال: «رُبَّ أشعثَ أغبرَ مشرَّد فى الآفاق، مطعمه حرامٌ وملبسهُ حرامٌ، غُذِّى بالحرام، يرفع يده فى صلاته يقول: يا رب يا رب، فأنَّى يستجاب له ذلك».

وفى الحديث عن ابن عباس عن النبى ﷺ: «إنّ لله عزّ وجلّ ملكًا على بيت المقدس ينادى فى كل ليلة: مَن أكل حرامًا لم يُقبل منه صرف ولا عدل». قيل: الصرف: النافلة، والعدل: الفريضة.

وفى حديث أبى هريرة: «المعدة حوض البدن، والعروق إليها واردة، فإذا صحّت المعدة صدرت العروق إليها بالصّحة، وإذا سقمت المعدة صدَرت العروق إليها بالسّقم، ومَثَلُ الطُّعمة من الدِّين مثل الأساس من البنيان؛ فإذا ثبت الأساس وقوى استقام البناء وارتفع، وإذا ضعف الأساس واعوجّ انهار البنيان ووقع». وقد قال الله أحسن الخالقين: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيرٌ أَمَّنْ أَسَّسَ بُنيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانهَارَ بِهِ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة: ١٠٩].

وفى الحديث عن النبى ﷺ: «من اكتسب مالاً من حرام، فإن تصدَّق به لم يُقبل منه، وإن تركَه وراءه كان زاده إلى النار». وقيل فى معنى قول الله عزّ وجلّ: ﴿لاَ تَأكُلُوا أَموَالَكُم بَينَكُمْ بِالبَاطِلِ إلاَّ أن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء:٢٩]. قيل: من أكل حرامًا فقد قتل نفسه، لأنه كان سبب هلاكها

وتعذيبها. وفى الأخبار المشهورة عن عليٍّ وغيره: إن الدنيا حلالها حساب وحرامها عِقاب.

وقال يوسف بن أسباط وسفيان الثورى رحمهما الله: لا طاعة للوالدين فى الشبهة. وقال الفضيل بن عياض: من قام فى موقف ذُلٍّ فى طلب الحلال حشره الله مع الصدّيقين، ورفعه إلى الشّهداء فى موقف القِيامة. وقال أبو سليمان أو غيره من العلماء: لا يفلح من استحيا من طلب الحلال.

وفى بعض التفسير: ﴿فإنَّ لَهُ مَعيشَةً ضَنكًا﴾ [طه:١٢٤]، قيل: أكل الحرام. كما قيل فى قوله: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧] قال: نرزقه حلالاً. وقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة:١٧٢] قيل: من الحلال. كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ واعمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون:٥١] أى: من الحلال، فأمر بأكل الحلال قبل العمل الصالح.

وهكذا قال بعض العلماء: زكاة الأعمال بأكل الحلال، فكلَّما كانت الطُّعمة أحلَّ كان العمل أزكى وأنفع.

وكان بشر بن الحارث إذا ذكر أحمد بن حنبل يقول: قد فُضِّل علىّ بثلاث: صبره على العيال وأنا أضيق عن ذلك، وهو يطلب الحلال لنفسه ولغيره، وأنا أطلبه لنفسى. وكان يقول: ما أترك الطيبات زهدًا فيها وإنما أتركها لأنه لا يصفو لى درهمها، ولو صحّ لى الدرهم الذى أشتريها به لأكلتُها.

وكان[١] ميمون بن مهران يقول: لا يسلم للرجل الحلال حتى يجعل بينه وبين الحرام حاجزًا من الحلال. وكان ابن مسعود يقول: إياكم وحزَّاز القلوب، ما حزّ فى قلبك من شىءٍ فدعه.

قال أبو بكر المروزى: سألت أبا عبد الله عن الشبهة، فقال لى: وَتَعرِفُ الشبهة؟ قلت: هو الشىء الذى لا يقال له حلال، ولا يقال له حرام. فقال أبو

(١) من أول هذه الفقرة ساقط من المطبوعة، وأثبته من (م).

عبد الله: هو الشيء بين الحلال والحرام.

وسألته عن الشبهة يشترى الرجل منها الثوب يتجمل به. فقال: كيف؟ وإنما أُمر الرجل بالوقوف عندها، وكره ذلك. قلت: هل للوالدين طاعة فى الشبهة؟ قال: ما أحب أن يقيم معهما عليها، وما أحب أن يغضبهم ، يداريهم، ولا ينبغى للرجل أن يقيم على الشبهة مع والديه، لأن النبى ﷺ قال: «مَنَ ترك الشبهة فقد استبرأ لدينه وعِرضه».

وقال سفيان بن عيينة: لا يصيب العبد حقيقة الإيمان حتى يجعل بينه وبين الحرام حاجزًا من الحلال، وحتى يدع الإثم وما تشابه منه.

وقال ابن عمر: دع ما يريبك إلى ما لا يريبك. وإنى لأحب أن أدع بينى وبين الحرام سترة من الحلال ولا أحرِّمها.

وقيل لأبى عبد الله: كيف تعرفون توبة الرجل إذا اكتسب مالاً من غير جهته؟ قال: يُخرج ما فى يديه[١].

وقد قال علماء الظاهر: إن الحلال من عشرة أوجه. ومنهم من قال: يوجد من سبعة أشياء. وأصل ذلك كله يرجع إلى ثلاثة أشياء: تجارة بصدق، وصناعة بنصح، وعطية بحكم. ثم تنقسم العطية أربعة أقسام؛ فيكون فيئًا، أو ميراثًا، أو هبة عن طيب نفس، أو صدقة مع وجود فقر.

ومدار ذلك كلِّه وقطبه: أنّ الحلال مشتق من اسمه بمعنيين؛ ما انحل الظلم عنه، أو حلّ العلم فيه، فما انحل الظلم عنه انحلت المطالبة عنه، وما حلّ فيه العلم حلّت الإباحة والأمر به.

والحلال عند العلماء: ما لم يُعصَ الله عزّ وجلّ فى أخذه، قال بعض علماء الباطن: الحلالُ ما لم يُعص اللهُ عزّ وجلّ فى أوله، ولم يُنسَ فى آخره، وذَكَر عن تناوله، وشكَر بعد فراغه. وكان سهل إذا سُئل عن الحلال يقول: هو العلم. وقال: لو فتح العبد فمه إلى السماء، وشرب القطر، ثم تقوَّى بذلك على

(١) آخر ما سقط من المطبوعة، وهو من (م).

معصية، أو لم يطع الله عز وجل بتلك القوة، لم يكن ذلك حلالاً.

وقالت طائفة من أهل العلم: إن المتصنِّع للناس والمتزيِّن لهم يأكل حرامًا، لأنه لم ينصح مولاه فى عمله. وقال بعض الموحدين: لا يكون حلالاً حتى لا يشهد فيه سوى الله تعالى، وإنّ من أشرك فى رزق الله العبادَ فذلك شبهة، وإن حلّ من طريق الأحكام. واحتجوا بقول عيسى عليه السلام: يأكلون رزقه، ويشركون فيه خلقه.

ومن الأبدال من يقول: الحلالُ ما لم يؤخذ من أيدى الخلق، ولم ينتقل إلى أملاكهم. وكان بعضهم لا يأكل إلاّ مما أنبتت الأرضُ التى هى غير مملوكة. وقال آخر: إنّ الحلال ما لم يؤخذ من أيدى الظالمين، وما أُخذ من أيدى المتقين.

وحُدثت عن بعض الأبدال فى قصة طويلة ذكرها: أن بعض العامة من السياحين دفع إليه شيئًا من الطعام فلم يأكله، فسأله عن امتناعه، فقال: نحن لا نأكل إلاّ حلالاً، فلذلك تستقيم قلوبنا على الزهد فى الدنيا، وتدوم على حالة واحدة، ونُكاشَف بالملكوت ونُشاهدُ الآخرة، ثم قال: لو أكلتُ مما تأكلون ثلاثةً أيام لَمَا رجعنا إلى شىءٍ مما نحن عليه من علم اليقين، ولذهب الخوف والمشاهدة من قُلوبنا، فى كلام طويل. قال له الرجل فى آخره: فإنّى أصوم الدهر، وأختم القرآن فى كل شهر ثلاثين ختمة، فقال له البَدَلُ: هذه الشربةُ من اللبن التى رأيتنى قد شربتها أحبُّ إلىَّ من ثلاثين ختمة فى ثلاثمائة ركعة من أعمالك. وكانت شربةً من لبنٍ من أروى وحشيَّة، وهو الأُنثى من الوَعل.

وقال بعض السائحين: قلتُ لبعض الأبدال وقد حدّثه عن أكل الحلال بمثل هذا الحديث. أنتم تقدرون على الحلال، ولا تطعمون إخوانكم من المسلمين، فقال: لا يصلح لجملة الخلق، ولم نؤمر بذلك؛ لأنهم لو أكلوا كلّهم حلالاً لبطلت المملكة، وتعطلت الأسواق، وخربت الأمصار، ولكنه قليل فى قليل من الخلق، وخصوص فى مخصوصين، أو معنى هذا الكلام.

وقال بعض العلماء: لا أعلم حلالاً لا شك فيه إلاّ ماء الغُدران، وما أنبتت أرضٌ غير مملوكةٍ، أو هدية من أخ صالح، أو معاملة تقىٍّ بصدقٍ ونصح.

وكان يحيى بن معين قد صحب أحمد بن حنبل رضى الله عنه فى السفر سنين، ولم يكن أحمد يأكل معه لأجل كلمة بلغته عنه، وهو أنه قال: أنا لا أسأل أحدًا شيئًا، ولو أعطانى الشيطان شيئًا لأكلته، فهجره أحمدُ رضى الله عنه، حتى اعتذر إليه يحيى، وقال: إنّما كنتُ أمزح. قال: تمزح بالدِّين، أمَا علمتَ أنّ الأكل مِن الدِّين قدَّمه الله على العمل، فقال: ﴿**كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ واعمَلُوا صَالِحًا**﴾ [المؤمنون: ٥١].

وقد كان كثير من الورعين يقول: منذ أربعين سنة ما دخل جوفى إلاّ ما أعلم من أين هو. وبعضهم يقول: منذ ستين سنة ما أكلتُ إلاّ من حيث أعلم. وكان وهب بن الورد لا يأكل إلاّ من حيث يعلم، أو يشهد عنده شاهدان بصحته. وقد كان بشر يقول: من تَفَقَّد جاع، ومن تغافل شبع. وعند العلماء: إنّ من طلب الدنيا حلالاً فهو أزهد فيها ممّن أكل الشبهات من غير طلب. وفى الخبر: «من لم يبال من أين مطعمه لم يبال الله تعالى من أى أبواب النار أدخله»، وقيل: ذلك فى التوراة مكتوب.

● ذكر تفصيل الحلال من الشبهة:

والأصلُ فى ذلك حديث النعمان بن بشير: «الحلال بيِّنٌ والحرام بيِّنٌ، والشبهات بين ذلك لا يعلمها كثيرٌ من الناس، مَن تَركَها فقد استبرأ لدينه وعرضِه، ومَن يرتع حولَ الحِمَى يوشك أن يُواقِعَه، وإنّ لكلِّ ملكٍ حِمًى وإنَّ حِمَى الله فى أرضه محارمه».

يقال: إنّ هذا الحديث ثلث العلم؛ فالحلالُ ما ظهر وتبين، وكنتَ على يقين منه، واطمأنّ به قلب المؤمن العالم، والحرامُ أيضًا ما تبيَّن وانكشفَ على يقين منه، ولم يختلف أحد من المسلمين فيه، ونفَر قلبُ المؤمن واشمأز منه، وقد تطمئنُّ بعض القلوب إلى شىءٍ لقلة ورعها، وقد تنفر بعض القلوب من شىء لقصور علمها، وليس يقع بمثل هذين القلبين اعتبار، وإنما الاعتبار بقلب المعيار الذى قد جُعل كالمحكِّ، يختبر به معادن الملكوت، وهو قلب المؤمن الموقن العالم،

وهذا القلب فى القلوب أعزُّ من الذهب الإبريز فى سائر المعادن. وهذا القلب هو الذى ردّ إليه رسول الله ﷺ فى الحكم لما سُئل عن البرِّ والإثم، فقال: «البرُّ ما اطمئن إليه القلبُ، والإثم حوَّاز القلوب». وقال: «الإثم ما حاك فى صدرك». وقال: «استفتِ قلبك، فإن القلب يسكن إلى الحلال، ويطمئن». وقال: «وإن أفتاك المفتون» يعنى من أهل الظاهر، وهم علماء الألسنة من غير أهل القلوب[١].

وقد روينا عن بعض السلف فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام:١٢٩]، قال: إذا فسدت أعمال الناس جعل عليهم ولاةً يشبهون أعمالهم. وقال بعض العلماء فى معناه: إذا فسدت أديانُ الناس فسدت أرزاقُهم.

والشبهات على وجوه؛ أحدها: ما أشبه الحلال من وجه، وما اختلط أيضًا بها، فاختلط ولم يتميز منهما.

والشبهة أيضًا: ما دلَّ باطنُ العلم على تحليله فهو حلال الحكم، وأظهر باطن الورع الوقوف عنه.

والشبهة: ما أباحه علمُ الظاهر وكرهه علماء الباطن، لحبك القلوب وحوازها، ولعدم الطمأنينة ومواجيد القلوب، كنحو ما روى عن النبى ﷺ: «إنّكم تَختَصِمون إلىَّ ولعلَّ بعضكم أن يكون ألحنَ بحُجته من بعض، فأقضى له على ما أسمع منه وهو يعلم خلافه؛ فمن قضيتُ له على أخيه فإنّما أقطع له قطعةً من النار». فأخبر النبى ﷺ أنه يحكم بظاهر الأمر، وردَّهم إلى حقيقة علم العبد بما شهد وعرف من عيب نفسه المستتر عن الأبصار.

والشبهة أيضًا: ما اختُلف فيه لخفاء أدلته ولتكافؤها بالسّوية، وما لم تره عينك فتقطع على غيبه، والحلال والحرام ما أجمعوا عليه، وظهرت الأدلة عليه.

والشبهة أيضًا: ما حل سببه وصُودف فيه حكمه، إلا أن عينه مجهولة غير متيقن تحليلها.

---

(١) من أول قوله: «وهذا القلب هو الذى ردّ» إلى هنا ساقط من المطبوعة، وهو من (م).

والشبهة أيضًا: ما فُقد منه بعضُ القيام بالأحكام، أو ما اعتلَّ سببه الذى يوصل العبد ويتطرق إليه من فضول جهل، أو حدوث آفة من آفات النفوس.

فهذه الأنواع كلها من الشبهات، ثم تختلف نفسُ الشبهات، فيكون ذلك شبهة الحلال، وتكون شبهة الحرام، وتكون شبهةً كدرة، وتكون شبهة متقاربة، لأن الحلال عند علماء الباطن على ثلاث مقامات: حلال كافٍ، وهذا عموم، وكأنه ما حلّ من طريق الحكم. وحلالٌ صافٍ، وهذا خصوص وكأنه ما ظهرت الأدلة فيه، وحلّ سببه ووجدت السنة فيه. وحلال شافٍ، وهذا خصوص الخصوص، وكان ذلك ما عُلم أصله وأُصِّل، وجرى على أيدى المتقين، ولم يخالطه جهل.

فلذلك تفاوتت الشبهات لتفاوت حلال ضدها. فأما الحرام فطعمة الفاسقين؛ أكله فسوق، وطلبه فسوق، وإطعامه فسوق، والمعاونة عليه فسوق، والمدمن عليه فاسق، وهو من الكبائر، وليس من حاجة المسلمين ولا يغنيهم.

والحلال هو ما أحله الكتاب والسنّة، وحللته الأحكام والعلوم من سائر الأسباب والمعانى المطلقة، والمباحة التصرف فى العلم، وهو بُغية المؤمنين، وطعمة المتقين، ومقام الصالحين؛ فطلبه جهاد، وإطعامه برٌّ، والمعاونة عليه تقوى، وأكله عبادة، والمدمن عليه مؤمن تقى.

والشبهة ما اختلف العلماء فيه ولم يجمعوا عليه، أو ما التبس باطنه فاشتبه لغموض الأدلة، أو خفاء الاستدلال، فلم يكن بيِّنًا، فلم يجمع أهل الظاهر والورع عليه، كما قال ﷺ: «لا يعلمه كثيرٌ من الناس»، فهذه طعمة عموم المسلمين، فإن ابتُليتَ بهذا فخذ منها حاجتك وضرورتك من كلِّ شىء، تكن بذلك فاضلاً، ويصحّ لك مقامٌ فى الورع، والاستكثار منه والاقتناء مكروه، وتركه إذا أمكن أفضلُ؛ لأن فى الخبر: «من تركه فقد استبرأ لدينه» أى تنزَّه وتنظَّف، وتفقّد دينه واحتاط له. وقيل: إن الإيمان نَزِهٌ نظيفٌ، فتنظَّفوا وتنزَّهوا؛ ومعنى التنزُّه: التباعد من الدّناءة والأوساخ. ومن ذلك قيل: خرجنا نَتنزّه، وخرج فلان فى نُزهة، إذا تباعد عن المِصْر، وفارق جملة الناس. ثم قال: «وعِرضِه» أى استبرأ لعرضه أن يتكلم الناس فيه بسوء، وينسبوه إلى فُحش.

وقد جعلنا الشبهة طريقًا إلى الحرام ومُوقِعةً فيه؛ لأن فى الخبر: «من يرتع حول الحمى يُوشك أن يقع فيه»، أى من يطلب الشبهةَ ويُدمن عليها ويستكثر منها يُسرع الوقوع فى الحرام؛ أى تسرع إليه وتدخله فيه.

وقال بعض العلماء: ما أُخذ من يد تقى عَدْل بحكمٍ جائز فهو حلال، وما أُخذ من يد من لا يُعرف بعدالةٍ ولا جَرح فهو شبهة، وما أُخذ من يدِ ظالمٍ أو فاجر فهو حرام وإن أُخذ بحكم جائز. وهذا القولُ يقرِّب من الحق.

ومَثَلُه من المقال مَثَل ما قال بعض أهل العلم: إنّ من لم يعرف أنّ ماله خالطه خيانة ولا معاملة ظالمٍ، فذلك حلال، ومن خالط الظلمة واكتسب المال من خيانات فما فى يده حرامٌ، وإن اختلط ماله فلم يتميز، وكان يعامل بعض الظلمة ويعامل أهل التقوى والإيمان فما فى يده شُبهةٌ.

وقد تقدّم تفصيل هذا المعنى بالورع فى الآثار المتقدمة التى نقلناها عن أحمد بن حنبل والورعين فى الجزء[1] الذى قبل هذا.

وقد جاء فى الخبر الشافى: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»، فإن الخير طمأنينة، وإن الشر ريبة؛ معناه: دع ما تشكّ فيه أنه حلال إلى شىءٍ آخر لا شك فيه، فإن الشرَّ ريبةٌ، وليس بيقين، وفى لفظ آخر: «الإثم حَيْك الصّدور».

وقد جاء فى الحديث: «الإثم حوَّاز القلوب» أى ما حزّ فى القلب وأثّر فيه بنكْت، فهو إثم، لأن الله تعالى علّق الإثم بالقلب وجعله من أوصافه فى قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة:٢٨٣]. وفى الخبر: «البرُّ ما اطمأن إليه القلب وسكنت إليه النفس، والإثم ما حاك فى صدرك وكرهتَ أن يطّلع عليه الناس»، فدعه لأنه قال: «المؤمنون شهداء الله»، وقال: «ما رآه المؤمنون حسنًا فهو عند الله حسن، وما رأوه قبيحًا فهو عند الله قبيح»، كما قال سبحانه: ﴿فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة:١٠٥]؛ لأن كراهتَك نظر الله إليك دليلٌ على وجود الريبة فيك.

(١) يقصد الفصل السابع والأربعين السابق لهذا.

وفصلُ الخطاب من ذلك أنه ليس على العبد أكثر من جهده وطاقته، وأن يعمل في دينه بمبلغ علمه، وما يؤدى إليه اجتهاده ووُسْعُه، وأن لا يخبأ لنفسه خبيئة، ولا يرخِّص لنفسه بهواه رُخصةً، فإن قَصُر علمه استعان بعلم غيره، فما أخطأ حقيقته وراء ذلك فهو معفوٌّ الخطأ.

وبعض الورعين يقول: الحلال ما لم يتناوله أيدى الظالمين. وقال بعضهم: ما لم تجر عليه يدُ ظالم. وقال بعض العلماء: لا يكون حلالاً حتى لا يتخالج فى القلب منه شيء، وحتى يسكنَ القلب إليه ويطمئن به. وقال آخر: الحلال ما عُرض على أهل الظاهر والباطن، فإذا لم ينكروا منه شيئًا فذلك الحلال.

وقد كان اجتمع جماعة من العلماء يتذاكرون أى الأعمال أشد، فقال بعضهم: الجهاد. وقال بعضهم: الصيام والصلاة. وقال آخر: مخالفة الهوى. وقال بعضهم: الورع. فأجمعوا على الورع، ورجعوا إلى هذا القول.

وقال حسان بن أبى سنان: ما شيء عندى أسهل من الورع. قيل: وكيف؟ قال: إذا حاك فى صدرى شيء تركته. وهذا سهل على مَن ساعده القدر بالزهد وقوَّاه على ذى النفس الشهوانية، كما أن الزهد سهل على من أمدّه الله بروح التأييد باليقين، وعزيزٌ على من ابتُلى بحبّ الدنيا.

وقد روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه: أفضل الأعمال، والذى نُقيم به وجوهنا عند الله عز وجل، هو الورع. فقال له أصحاب النبى ﷺ: صدقتَ.

ولعمرى إن اليقين إذا وُجد، والزهد إذا حصل، سهل الورع والإخلاص، وهما عمدة الأعمال. وحكى عن يوسف بن أسباط، وحذيفة المرعشى، وغيرهم من عبَّاد أهل الشام، أنّ قائلهم[1] يقول: منذ ثلاثين سنة ما حاك فى صدرى شيء إلا تركته. وبعضهم يقول: منذ أربعين سنة ما وقفَ قلبى عن شيء وتخالج منه إلاّ تركته. وقال بعضهم: منذ ثلاثين سنة ما أبالى على أى حالٍ رآنى الناس إلا أن يكون حاجة الإنسان.

---

(١) فى (م): «قبائلهم».

وحكى أن بعض الورعين وقع منه دينار فانكبّ ليأخذه، فوجد دينارين فلم يعرف ديناره منهما، فتركهما معًا. وحُكى أن امرأة من المتعبِّدات من أهل القلوب سألت إبراهيم الخواص عن تغير وجدته فى قلبها، فقال: عليك بالتفقُّد. فقالت: قد تفقدت، فما وجدت شيئًا أعرفه. فأطرق ساعةً ثم قال: ألا تذكرين ليلة المُشعِل؟ فقالت: بلى. فقال: هذا التغير من ذلك. فذكرت أنها كانت تغزل فوق سطحٍ لها فانقطع خيطها، فمرّ مُشعِلُ السلطان، فغزلت فى ضوئه خيطًا، وأدخلته فى غزلها، ونسجت منه قميصًا فلبسته. قال: فنزعت القميص وباعته، وتصدقت بثمنه، فرجع قلبها إلى الصفا.

قد حكى عن ذى النون المصرى رحمه الله فوق ذلك أنه لما سُجِن لم يأكل طعامًا ولم يشرب أيامًا، فوجّهت إليه امرأة يعرفها من العابدات بطعام إلى السجن، وقالت: هذا من حلالٍ، فلم يأكله، فقالت له بعد ذلك، فقال: ذلك الطعام من حلالٍ، إلا أنه جاءنى فى طريق حرامٍ فلم آكله. فقال: وكيف ذلك؟ قال: جاءنى فى يد السجان وهو ظالمٌ، فلذلك لم آكله. وهذه خصال الورعين.

والورع هو باب الزهد، ومفتاح الخوف، وحقيقة الصدق، فعموم الورع أول عموم الزهد، وخصوصه أول خصوص الزهد.

فينبغى للعبد أن يبتدىء بطلب الحلال، فيكون هو همَّه وقصده، فيجعل ما استطاب من المكاسب وأعلى ما قدر عليه مما يسلم فيه، فيجعل ذلك لحاجة نفسه فيما يَطْعم ويَلبس، ويجعل ما دخل عليه من الشبهات مما فى نفسه منه حَزازات فى مؤونة عياله، وفيما يرتفق به من مؤونة البيت، مما لا يطعم ولا يلبس؛ مثل الحطب والبَزِّ وأجرة البيت، وما أشبه ذلك. وسنذكر تمثيل ذلك بصور الألوان حتى تعرفه. وفى هذه رخصة، وله فيه مجاهدة وحسن نية ومعاملة، إذا أخذ نفسه به وصَبّر عليه، وكان ذلك من باله وهمّه، فاحتسب فى ذلك ما عند الله عزّ وجل، وتحرَّى بذلك لدين الله عز وجل، فإن الله عز وجل يشكر له سعيه ويجزل عليه أجرَه، وهذا طريق يوصِّل إلى الله عز وجل، وهو محجة كثير من السلف. ولو أن عبدًا شك فى شىء فتحرّز منه، شكر الله له نيته، وإن كان قد أخطأ حقيقة

الشىء عنده، فكان الشىء حلالاً فى علم الله عز وجل، ولو أنه أقدم على شىء بقلّة مبالاة فلم يدعه، فتناول شيئًا على أنه حلال عنده، كان مأزورًا لسوء نيته وقلّة ورَعِه. وإن كان أصاب الحقيقة عند الله فهو أفضل، وله أجران: أجر العلم، ومقام التوفيق. ومن قصد ترك العلم وأخطأ الحقيقة عند الله عز وجل، فعليه وزران: وزر الجهل، ونقص العصمة. ومن عمل بعلم فأخطأ الحقيقة فله أجر واحد. ومن عمل بجهل فأصاب الحقيقة فعليه إثم الجهل، وهو معصوم فى الفعل.

وحكى وهب اليمانى مما نقل من الزبور أن الله عز وجل أوحى إلى داود عليه السلام: قل لبنى إسرائيل: إنّى لا أنظر إلى صيامكم ولا إلى صلاتكم، ولكن أنظر إلى من شَكَّ فى شىء فتركه لأجلى، ذلك الذى أؤيده بنصرى، وأباهى به ملائكتى.

وقد كان بعض العلماء يقول لأهله: ارفقوا بدهن المصباح، فإنما توقدون بلحمى ودمى. قيل: وكيف؟ قال: لأنكم توقدون من كسبى، وكسبى من دينى، ودينى من لحمى ودمى.

وقد كان يقال: من تفقَّد من أين يكسب الدّرهم تبصَّر أين يضعه، ومن لم يبال من أين اكتسب لم يبال فيما أنفقه. وقد قال بعض العلماء لرجلٍ رآه بطّالاً وكان ذا عيال، قال له: احترف فإنه إذا كان لك كسب أكل عيالك دنياك، وإن لم يكن لك كسب أكلوا دِينك.

وروى أن بعض الزهاد وقعت منه قطعةٌ، فجعل يطلبها عامة يومه، فقيل له: أنت قد زهدت فى الدنيا كلها وأنت تطلب هذه القطعة هذا الطلب؟! فقال: إن طلبى هذه القطعة من زهدى فى الدنيا، لأنى لا أعتاض منها غيرها، لأنها من حيث أعلم، وأنا لا آكل إلا من حيث أعلم.

وقد كان بشر يقول: المال إذا اجتمع من الشبهات لا يُنفق إلا فى الشهوات.

وقال سرى السقطى: لا يصبر على ترك الشبهات إلا من ترك الشهوات.

وفى الخبر أن رجلاً سأل النبى ﷺ عن كسب الحجَّام، فنهاه عنه، فأعاد مسألته عنه فقال: إن لى غلامًا حجامًا، فقال النبى ﷺ: «إن كان لا بدّ فأعلفه ناضحك[١] وأطعمه رقيقك».

وفى الخبر أن رسول الله ﷺ سئل عن فأرة وقعت فى سمن فماتت، فقال: «لا تأكلوه». وفى خبر آخر: «إن كان جامدًا فألقوها، وإن كان ذائبًا فاستصبحوا[٢] به».

وعن جماعة من علماء الكوفة: لا بأس بشحوم الميتة تُطلى بها السفن، ويُدبغ بها الجلود.

وقد روينا فيه حديثًا مسندًا، فهذا حجة فيما ذكرناه من أن حُكم الشبهات أن ينفق منها فيما لا يُطعم ولا يُلبس، إلا أن يضطر إليها فيتناول منها مقدار الحاجة. وروى عن النبى ﷺ أنه أُتى بلبن، فسأل عن أصله فأُخبر به، فسأل عن أصل أصله فأخبر به، فلما رضيه شرب منه. فهذا حكم الحلال أن تعرف عين الشىء ثم تعرف أصله، فإذا صح لك أصله وأصل أصله سقط عنك ما وراء ذلك، فإن لم تعلم رأى عينٍ وأخبرك مسلم تقى، قام خبر ذلك مقام علمك.

وفى الخبر: «لا تأكل إلا طعام تقى ولا يأكل طعامك إلا تقى»؛ لأن التقىَّ قد استبرأ لدينه، واجتهد بعلمه واحتاط لنفسه، فقد سقط عنك البحث والاجتهاد، لأنه قد ناب عنك فيه وقام لك به، فكفاك كُلفته، فغنيت عن تكلُّفه. فلذلك جاءت الأحاديث على هذا المعنى: إذا دخل أحدكم إلى منزل أخيه، فقدّم إليه طعامًا، فليأكل من طعامه ولا يسأل، ويشرب من شرابه ولا يسأل، لأنه قد كُفى، والسؤال عما قد كفى تكلُّف، والتكلّف ليس مما يعنى المسلم.

وفى الخبر الآخر: «من حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»، فلهذا سقط عنا السؤال من البحث، ولذلك كان المتقدمون يستحبون أكلَ طعام العلماء والصالحين.

---

(١) الناضح: الدابة يُستَقى عليها. الجمع: نواضح.
(٢) استصبح بالزيت: أمدَّ به مصباحه.

وأما من لا يحتاط لنفسه، ولا يستبرئ لدينه، ولا يتقى فى مكسبه حتى لا يبالى من أين أكل، ولا من أين اكتسب، ولا من أين جاءه الدرهم أبدًا، فهذا غير تقى، فحينئذ يلزمك أنت البحث لنفسك، والاجتهاد والاحتياط لدينك، إذا لم يقم به غيرك، ولم يكلفه أخوك. ففى مثل هذا جاء الخبر: «لا يأكل طعامك إلا تقى ولا تأكل إلا طعام تقى»، والتقى هو الورع الدين المتقى للحرام المجتنب للآثام. ففى دليل خطابه: لا تأكل طعام غير تقى، فلا يصح التقوى من عبدٍ يتصرف حتى يكون مستعملاً فى تجارته وصناعته حُكمَ الكتاب والسنة، ويشهد له العلم بسلامته وبراءة دينه من الخيانة والمكر فى المعاملة، ومن الكذب والغَبَن فى التجارة والصناعة، بالصدق والنصح فى جميع ذلك، وحتى يحل السبب المعتاض منهما.

وكلُّ تجارة وصناعة يخالف العبد فيها حكم الكتاب والسنة فليست بتجارة ولا صناعة حلال، وإن كان الاسم موجودًا، لعدم المعنى الذى تصح به الأسماء فى الحكم، لأنّ وجود الأسماء فارغة لا يغنى مع عدم صحة المعانى لموافقته شيئًا. فإذا كان ما يسميه الجاهلون تجارةً وصناعةً، وما يسميه المستحلُّون بيعًا وشراءً ومعاملة، وهو غير موافق للعلم، فليس ذلك بتجارة ولا صناعة ولا معاملة، ولا يستحلُّ به أكل الحلال؛ لأنه باطل، واسمه عند العلماء خيانة وخِلابة، أو غِيلة، أو حيلة، أو مُخاتلة. وهذه أسماء محرِّمة للمكاسب، لفساد معانيها، وعدم حقائقها يتعلق عليها أحكام مذمومة، لا يحلّ بها أخذُ المال، لأن التسمية إلى العلماء، يسمُّون على صحة المعانى بوقوع الأحكام إذ كانوا هم الحكام، فقد اعتلّ هذا التصرف. وإن وجد فيه الاسم المبيح؛ لفقد المعنى الصحيح، وهو حكمُ الكتاب والسنة. فإن وجد الاسم بحقيقة المعنى حتى تسميه العلماء تجارة وصناعة، إلاّ أنهما لم يصادفا حُكمَ الله تعالى فيه بالسلامة من الربا، واجتناب البيوع الفاسدة، فهذا حرامٌ أيضًا، لعدم حكم الله عزّ وجل فيه بالإطلاق. وإن كان الشراء مباحًا وصودف الأحكام فيه، إلاّ أنّ عينَ المأخوذ المعتاض حرام رأى عينٍ أو خبرٍ من صدق، فهذا الكسب حرام أيضًا، لأنَّا على يقين من وجود الحرام فيه،

حتى يصفو العوَض المشتبه من عين الحرام بأحد معنيين: إما بيقين أنه حلال الأصل، وحلالُ أصل الأصل، بأن لا نعلم فى عينه حرامًا رأيناه ولا أُخبرناه، فيحلّ به حينئذ أكل المال، ونسميه مع ذلك شبهة، وهو شبهة الحلال، إذ لسنا على يقين من حلاله، لا مكان دخول الحرام فيه، لغلبة الأموال المأكولة بالباطل، وبالأسباب المكروهة من قِبَل الأجناد، ومن قلة المتقين واختلاط ذلك بالأملاك الصحيحة، وبأموال التجار والصناع. فما كنّا من حلاله على علمٍ ظنٍّ سمّيناه شبهة؛ لفقد عِلم اليقين.

وفى الخبر: جاء عقبة بن الحارث إلى رسول الله فقال: إنّى تزوجت امرأةً، فجاءتنا امرأة سوداء فزعمت أنها قد أرضعتنا، وهى كاذبة، فقال: «دعها»، فقلتُ: إنّها كاذبة، فقال: «وكيف، وقد زعمت أنها قد أرضعتكما؟ لا خيرَ لك فيها، دعها عنك». وفى لفظ آخر: «كيف وقد قيل؟».

وفى حديث عبد الله بن زمعة أن النبى ﷺ قضى بالولد له؛ لأنه وُلد على فراشه، وأبطل دعوى الرجل فيه وإن كان منه، فلما رأى النبى ﷺ شبهًا بيّنًا بعتبة بوالده، قال لسودة: «احتجبى عنه يا سودة»، وهى أخته، وإن كان قد قضى به لأخيها، ثم قال: «الولد للفراش»، سترًا من الله على عبادِه، وتنفيذًا لحكمه بما أظهر فى بلائه[١].

وكذلك تجب التقوى فى الشبهات[٢] للورع، وأن الأحكام على الظاهر تجيزها فيكون تركها مقامًا للورعين.

والحلال عند الورعين اسم ما انحلّت عنه المطالبة أو حلَّ فيه العلم على حلال المقتبس فى قوله عزّ وجل: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُم﴾ [النساء:٢٣]، وحلائل جمع حليلة، وقيل: إنما سُمِّيت المرأة حليلة الرجل، لأنه يحلّ معها أين حلَّت؛ أى يوجد عندها ويقيم، كأنها فعيلة من فعول، أى حلول. والمعنى الآخر: سُمِّيت حليلة والرجل حليلها؛ لأن الآثام قد انحلّت بينهما؛ أى لأنها تحلُّ له ويحلُّ لها.

(١) من قوله: «سترًا من الله» إلى هنا ساقط من المطبوعة.

(٢) فى المطبوعة: «فى الفراش».

والحلال في العلم اسمٌ لما أباحه الكتابُ والسنةُ بسببٍ جائزٍ مباحٍ. وكان الحلال هو ما وُجد فيه ثلاث معان: سببٌ مباح في العلم، وعلمٌ بأصل الدرهم والمعتاض به، وبأصل أصله أنه خالص من شُبهة، ومصادفةُ حكم الله عز وجل في المعاملة، فإذا فُقد أحد هذه المعاني فهو شبهة إلى الحلال أقرب، وإذا فُقد معنيان فهي شبهة الحرام، فإذا فقدت المعاني الثلاث حتى يكون السبب الذى وصل به الدرهم والمعتاض منه مكروهًا، أو يكون عينُ الدّرهم مكروهًا مجهولاً، ولم يصادف فيه حكم الشرع في البيع والشراء أو الهبة بطيب نفس، فهذا هو الحرام بعينه.

• ذكر تمثيل الحرام والحلال وشبهتيهما بصور الألوان وتقريب ذلك للعقول[1]:

والحرام والحلال ضدان ظاهران، والشبهات ـ أعنى شبهةَ الحلال وشبهةَ الحرام ـ مشتبهان مشكلان؛ فهى تشبه الحلالَ من وجهٍ، وتشبه الحرامَ من وجهٍ، أو فيهما من معنييهما اختلاط أكثر، أو متساويين بالخلطة، فمثل الحلال والحرام من أُصول الألوان مثل البياض والسواد؛ هما أصلان ليسا فرعين فيهما عين لشيءٍ، ولا متوالدين من شيء ومثل شبهة الحلال كمثل الصُّفرة، لأنه لونٌ متولّد من البياض. ومثل شبهة الحرام كالخُضرة؛ لونٌ متولِّد من السّواد. فإن رأيتَ الصفرةَ فهى علامة شبهة الحلال، رددتها إليه، وحكمت عليها به، كما أن الصفرة أقرب إلى البياض. وإن رأيت الخضرة فهى شبهة الحرام، رددتها إليه، وحكمت عليها به، كما أنّ الخضرةَ أقرب إلى السّواد، فإن اجتمع فى لونٍ صفرةٌ وخُضرةٌ فهى مثل الشُّبهات المخلَّطة فى الشيء، فانظر إلى الأغلب فيهما الأكثر، فاحكُم عليه.

فإن كانت الصفرة هى الأكثر والأغلب، فهذا شبهة الحلال؛ تناول منه غير متسع فيه، إذ ليس حلالاً صافيًا، وهذا مثل أموال التجار والصناع المختلطة بأرزاق الجند والمعاملات.

وإن رأيت الخضرة أكثر وأغلب، فهذا شبهة الحرام؛ خذ منه ضرورتك إذ ليس بشبهة صافية، وهذا مثل لأملاكِ أولياء السلطان، لالتباس ملك أيديهم فى خدمتهم

(١) هذا العنوان الجانبى ساقط من المطبوعة.

لأمرائهم، حتى ترى البياض المحض الذى هو علامة الحلال، فخذ كيف شئت واتسع، لا جناح عليك، على أنك لا تكون زاهدًا بذلك. وهذا مثلٌ لفىء المشركين والغنائم فى سبيل الله، ومثل المواريث الطيبة وما أنبتت الأرض التى هى غير مغصوبة، ومثل ماء السماء والسّيح فى الأنهار وصيد البر والبحر. وإن رأيتَ السوادَ الغريب فهو علامة الحرام، فاجتنبه، ولا تأخذ منه شيئًا، فإن فعلت كنتَ بذلك فاسقًا، وأكلُ الحرام من الكبائر. وهذا مثل المغصوب والجنايات، وما أُكل بأسباب المعاصى، وما تُملِّك من غير طيب نفس من الواهب.

واعلم أن الحلال والحرام فرعان للتقوى والفجور، والعلم والجهل. والعلم والتقوى هما حلالان للمتقين العلماء. فإذا كثر المتقون ووُجد المؤمنون كان الحلال أظهر وأكثر، ووجود الحرام بظهوره وكثرته بكثرة وجود الجهل والفجور، وهما حالا الجاهلين الفجّار، فإذا كثر الجاهلون وظهر الفاسقون كان الحرام أغلب وأكثر.

وأصل وجود الحلال فى الكافة عدل الأئمة واستقامة الولاة، وطاعة أوليائهم لله فى فِعالهم معهم فى سبيل الله عزّ وجل لصلاح الدين وحيطة المسلمين. كما أنّ أصلَ ظهور الحلال وانتشاره هو الرعية، فإذا قَلَّ ذلك أو كانت الأمراءُ[1] على ضدِّه غمُض الحلال واختفى، فظهر الحرام وفشا، فكان الحلال قليلاً عزيزًا، وكان فى خصوص من المسلمين يخصّ الله به من يشاء، ويصرفه إلى من أَحبّ، كيف أحبّ، من طريق التوفيق والهداية، وبمعنى العصمة والوقاية.

وقد جاء فى الخبر: «إذا فسدت أديان الناس فسدت أرزاقهم». وقال بعض أهل التفسير فى قوله عز وجل: ﴿**وَكَذَلِكَ نُوَلِّى بَعضَ الظَّالِمينَ بَعضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ [الأنعام:١٢٩] قال: إذا فسدت أعمال الناس جُعل عليهم أئمة يشبهون أعمالهم.

وقد روينا عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت: «رِزقُ المؤمنِ مثل قَطْر الحب». فهذا يحتمله معنيان؛ أحدهما: الضِّيق والقلّة، والثانى: فى الصفاء.

---

(١) فى المطبوعة: «وكان الأمر على».

وهذا على معنى ما قال سهل رحمه الله: لو كانت الدنيا دمًا غبيطًا لكان قوت الموت منها حلالاً. فهذا على معنيين؛ أحدهما: أن المؤمن موفّق معصوم، قد عمل لله عز وجل بما علم، والله قد حفظه من حيث لا يعلم بأن يستخرج له الحلال من الحرام، باختياره من عمله كما يستخرج له العلم من الجهل والتوحيد من الشرك بلُطف قدرته. فمن تذكَّر به وتبصَّر به، أقامه مقام التوحيد من الحكمة. والمعنى الثانى: المؤمن عنده لا يتناول شيئًا إلاّ فاقةً أو ضرورةً، فقد حلّت له وإن حرُمت على غيره. وهذا هو المؤمن الصِّدِّيق.

وقد قيل لابن المبارك: يظهر بعد المائتين عدل؟ فقال: تذاكرنا ذلك عند حماد ابن سلمة، فغضب وقال: إن استطعت أن تموت بعد المائتين فمت، فإنه يحدث فى ذلك الزمان أمراء فجرة، ووزراء ظلمة، وأمناء خونة، وقراء فسقة، حديثهم فيما بينهم التلاوم، يسمون عند الله الأنتان. وقال بعض السلف الصالح: إنى لأستحى من الله عزّ وجلّ أن أسأله بعد المائتين أن يرزقنى حلالاً، ولكنى أسأله رزقًا لا يعذبنى عليه.

وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: ما ترك لنا بنو فلان من الحلال شيئًا، يعنى الملوك والأمراء. ويقال: إن عليًا رضى الله عنه لم يأكل بعد قتل عثمان ونهب الدار إلا طعامًا مختومًا عليه. وروى فى خبر: العالم الذى أراد على رضى الله عنه أن يستعمله على الصدقات، قال: فدعا بطينةٍ مختومةٍ ظننت أن فيها جوهرًا أو تِبْرًا، ففض ختامها، فإذا فيها سويق شعير، فنثره بين يدىَّ وقال: كُل من طعامنا. فقلت: أتختم عليه يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم، هذا شىء اصطفيته لنفسى، وأخاف أن يختلط فيه ما ليس منه. والحديث فيه طول فاختصرت هذا منه.

وروى أن جماعةً من الصحابة ما شبِعوا من الطعام منذ قُتل عثمان رضى الله عنه، لاختلاط أموال أهل المدينة بنهب الدار؛ منهم ابن عمر، وسعد، وأسامة بن زيد، رضى الله عنهم. وكان يوسف ووكيع بن الجراح يقولان: الدنيا عندنا على ثلاث منازل: حلال وحرام وشبهات، فحلالها حساب، وحرامها عقاب، وشبهاتها عتاب. فخذ من الدنيا ما لا بدَّ منه، فإن كان ذلك حلالاً كنتَ زاهدًا،

وإن كان شُبهة كنت ورعًا، وكان فى عتاب يسير. وقد روينا عنهما أنهما قالا: لو زهد أحدٌ فى زماننا هذا حتى يكون كأبى ذر وأبى الدرداء فى الزهد ما سمّيناه زاهدًا. قيل: ولِمَ؟ قالا: لأنّ الزهد عندنا إنّما يكون فى الحلال المحض، والحلال المحض لا يُعرف اليوم. ومات يوسف ووكيع قبل المائتين.

وقد كان وكيع بن الجراح أشبه العلماء بالسلف، وكان يُشَبَّه بعبد الله بن مسعود، وقد كان يشدد فى الطُّعمة، فسُئل عن الحلال، فجعل يعزّره ويقول: أين الحلالُ؟ وكيف لى بالحلال؟ ثم قال: لو سألنا مُسترشدٌ عن عِلمنا فى الحلال فقلنا له: كُل أصول البردىّ، وألق ثوبك، وادخل فى الفرات. قيل: وأنت يا أبا سفيان من أين تأكل؟ قال: آكل من رزق الله وأرجو عفو الله.

وقد كان بشر بن الحارث من المتقدمين، سئل عن الحلال، قيل له: من أين تأكل يا أبا نصر؟ فقال: من حيث تأكلون، وليس من يأكل وهو يبكى كمن يأكل وهو يضحك. وقال مرة أخرى فى رواية عنه: ولكن يدٌ أقصر من يدٍ، ولقمةٌ أصغر من لقمة. وسأله رجل عمّا لا يسكر من النبيذ، فقال: انظر فى الدّرهم الذى تشترى به التمر من أين هو، فإن كان حلالاً وإلاّ هلكت، دع عنك ما لا يسكر.

وقد كان سرى السقطى يتحرى فى أكل الحلال، ولم يكن يأكل إلا من حيث يعرف، وكان إذا ذكر لأحمد بن حنبل رضى الله عنه أثنى عليه وقال: تعنون ذلك الفتى المعروف بطيب الغذاء. ويقال: إن بشر بن الحارث كان يأكل من قِبله. وذُكر لنا أن سريًا السقطى وقف على بشر وهو يتكلم، فاطّلع فى حلقته وقال: يا بشر، نعل بِدانِقين تلبسها وتستريح من هذا الاسم، يعنى: قولهم: بشر الحافى. فسكت بشر، فظن من كان من أصحاب سرى عند بشر أنه قد وَجَد عليه، فقالوا: يا أبا نصر، إنه لم يرد إلاّ خيرًا، فقال: سبحان الله، هو سرى كما سمّى سريًا. وكان سرى رحمه الله قد وجه إلى أحمد بن حنبل رضى الله عنه بمالٍ فردّه، فجاء سرى فكلمه بكلام من هذا العلم، فعرَّفه فيه ما يَدِقُّ من آفة الردّ، فقَبل منه، ولم يكن بعد ذلك يردّ عليه شيئًا.

وحدثونا عنه أنه قال: انتهيتُ ذات يوم فى سفرٍ إلى نبات من الأرض، وعند غَدير ماء. قال: وكنت جائعًا فأكلتُ من الحشيش، وشربتُ من ذلك الماء بكفّى، ثم استندت على ظهرى، ثم خطر ببالى أنى إن كنتُ أكلت حلالاً فاليوم. فهتف بى هاتف يقول: يا سرى زعمت أنك أكلت حلالاً، فالقوة التى بلّغتك إلى ههنا من أين هى؟ قال: فاستغفرت الله تعالى مما كان وقَعَ فى قلبى.

وكان شقيق البلخى رحمه الله يقول: إنّ المكاسب اليوم قد فسدت، وإن التجارات والصناعات شُبهات كلها، لا يحل الاستكثار والادخار منهما لوجود الغش وعدم النصح. قال: وإنّما ينبغى للمسلمين أن يدخلوا فيها ضرورة. وقال: الناس كقَتَلة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لأنهم أعانوا على إماتة السُّنن، ودَرْس طرق الآخرة، ومن أبطل سُنن نبى فكأنّما قتله. هذا قوله فى سنة تسعين ومائة.

فإذا كان الأمر أيها المسلم الموقن بوعد الله ووعيده على هذا عند العلماء من السلف والأخيار من الخلف، فى ذلك الوقت، فكيف بوقتك هذا؟ وقد افتُرض عليك الزهد فى الدنيا، وقد وجب عليك الأخذُ بالبُلْغَة مما لا بدّ منه من كل شىء، فإن استكثرت أو جمعتَ من مثل هذه الأشياء كان ذلك معصية. وكلُّ ما يظهره الله عزّ وجلّ لك من غير الأمور وبديهات المصائب، فإنّما هو تزهيد لك فى الدنيا، إن فطنت لذلك، وكل ما صرف عنك مثل هذا فهو خيرٌ وإن كرهت. وفى الخبر: «ما ملأ ابن آدم وعاء شرًا من بطن، حسب ابن آدم لقيمات يشدّ بهن صلبه، فإن كان لا بدّ فثلث طعام، وثلث شراب، وثلث نَفَس»، فقد صار الأكل فى ثلث البطن خيرٌ من ملئه لأنه شر، وما نقص من الشرّ فهو خير. وفى الخبر: «ما شىءٌ أبغضُ إلى الله من بطن ملئ ولو من حلال».

وقد جاء فى الخبر: «لا يعذّب الله عبدًا جعل رزقه فى الدنيا قوتًا». وفى قوله تعالى: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه:١٣١]، قيل: يوم بيوم، وقيل: القناعة.

وقد كان المسلمون يتورعون عن الشبهات فى وقت العدل، ومع وجود الفضل.

حدثونا أن فضيل بن عياض، وابن عيينة، وابن المبارك، رضى الله عنهم،

اجتمعوا عند وهيب بن الورد بمكة، فذكروا الرُّطب، فقال وهيب: هو أحبُّ الطعامِ إليَّ إلاّ أنى لا آكله. قيل: ولِمَ؟ قال: لأنه قد اختلط رُطَب مكة بهذه البساتين التى اشتروها هؤلاء، يعنى زبيدة وأشباهها. فقال له ابن المبارك: رحمك الله، إن نظرت إلى مثل هذا ضاق عليك الخبز. فقال: وما سببه؟ قال: نظرت فى أصول الضياع بمصر فإذا هى قد اختلطت بالصوافى. قال: فغشى على وهيب. فقال له سليمان: ما أردتَ بهذا؟ قتلتَ الرجل.

قال ابن المبارك: والله ما أردت إلا أن أهوِّن عليه.

قال: فلما أفاق وهيب قال: لله علىَّ أن لا آكلَ خُبزًا أبدًا حتى ألقاه. قال: فكان يشرب اللبن. قال: فأتته أمه بلبنٍ فقال: من أينَ لك هذا؟ قالت: من شاة بنى فلان. قال: ومن أين لهم ثمنها؟ قالت: من كذا وكذا؛ فرضيه. فلما أدناه من فيه، قال: قد بقى شىء، فأين ترعى هذه الشاة؟ فسكتت. فقال: لتخبرينِّى، فإذا هى ترعى مع غنم لابن عبد الصمد الهاشمى أمير مكّة فى الحى. فقال: هذا اللبن للمسلمين فيه حق، لا يحل لى أن أشربه دونهم، وهم شركائى فيه. فقالت له أمه: اشربه فإن الله يغفر لك. فقال: ما أحبّ أنى شربته وأنه غفر لى. قالت: ولِمَ؟ قال: أكره أن أنال مغفرته بمعصية.

وقد كان لطاووس اليمانى بضاعة يُتَّجر له فيها من التمر، فاشترى مضاربه بضاعةً أديمًا من بعض أولياء السلطان، وكتب إليه بذلك، فكتب إليه طاووس: أفسدتَ علينا مالنا، ما أحبّ أن أتلبَّس بشىءٍ منه، فبع الأديم باليمن وتصدّق بثمنه، ولا تدخل منه إلى الحرم درهمًا واحدًا، وأنا أستغفر الله من طعمة الفقراء، وأرجو أن أنجو كفافًا لا علىّ ولا لى. فيقال: إن ذلك كان سبب فقره ولم يكن له مال غيره، فبقى بغير معلوم من دنيا.

وكان خالد القشيرى لما ولى مكةَ بعد ابن الزبير أجرى نهرًا فى طريق أهل اليمن إلى مكة، فكان طاووس ووهب بن منبه اليمانيان رضى الله عنهما إذا مرّا عليه لم يتركا دوابَّهما أن تشرب منه.

وقد كان سهل رحمه الله يقول: رجل بات فى قرية جائعًا، قام إلى الغداة لم

يقدر أن يصلى من الجوع، أعطاه اللهُ فى منزله جميع صلاة المصلّين القائمين فى قريته. قيل: وكيف ذلك؟ قال: طلبَ الحلالَ فلم يجده، فكَرِه أن يدخل جوفه حرامًا، فبات طاويًا، فله أجرُ المصلين القائمين فى تلك الليلة.

وكان[١] سليمان التيمى رحمه الله ترك أكلَ الحنِطة. فقيل له فى ذلك، فقال: إنها تُطحن فى هذه الرَّحى. فقال: المسلمون شركاء فى الماء، وهؤلاء يأخذون خراجها دون سائر الناس.

وحُدِّثت أنّ امرأة أهدت إلى بشر بن الحارث سلّة عِنب، فقالت: هذه من ضيعة أبى، فردّها بِشر عليها. فقالت: سبحان الله تشكُّ فى كَرْمِ أبى وفى صحة ملكه وميراثى منه وشهادتك مكتوبة فى كتاب الشراء. فقال: صدقتِ، ملكُ أبيك، ولكنك أفسدت الكَرْم. قالت: بماذا؟ قال: سقيتهِ من نهر طاهرٍ، يعنى طاهر بن الحسين بن مصعب بن عبد الله بن طاهر صاحب المأمون، وهذا النهر هو الخندق المعترض فى الجانب الغربى، لم يكن يشرب من الخندق، ولا يمشى على الجسر.

وقد كان بشر يقول: منذ ثلاثين سنة أشتهى شواء، وما أتركه زهدًا فيه، ولو صح لى درهمه لأكلته.

فهذه سيرة المتقدمين وطريق السالفين؛ من سلكها لَحِقَ بهم وكان كأحدهم، ومن خالفها فليس على سنةِ السلف، ولا من صالحى الخلف، وتَسعُه رحمةُ الله الواسعة بمشيئته السابقة. فاعتبروا يا أولى الأبصار.

وقد كان من سيرة القدماء من أهل الورع أن لا يستوعب أحدهم كليّة حقّه، بل يترك شيئًا خشيةَ أن يستوفى الحلال كله، فيقع فى الشبهة. فإنه يقال: من استوعب الحلال حام حول الحرام. فكانوا يستحبون أن يتركوا بينهم وبين الحرام من حقهم حاجزًا من الحلال؛ لقول الرسول ﷺ: «من يرتع حول الحمى يُوشك أن يواقعه». ومنهم من كان يترك من حقه شيئًا لغير هذه النية، ولكن لقول الله عز

(١) فى المطبوعة: «وهو»، وأثبت ما فى الأصول.

وجل: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ والإِحسَانِ﴾ [النحل: ٩٠]. قالوا: فالعدل أن تأخذ حقّك كله، وتعطى الحقَّ. والإحسان: أن تترك بعض حقك وتبذل فوق ما عليك من الحق؛ لتكون محسنًا، ولأن الله تعالى كما أمر بالعدل قد أمر بالإحسان؛ لقوله: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٨٠]، وقوله: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُحسِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٦].

وهذه الطريقة قد جُهِلت، مَن عمِل بها فقد أظهرها. حدثونا عن بعضهم قال: أتيت بعض الوَرِعين بدَين له علىَّ وكان خمسين درهمًا. قال: ففتح يده فعددت فيها إلى تسع وأربعين درهمًا، فقبض يده، فقلت: هذا درهم قد بقى لك من حقك. قال: قد تركته لك، إنّى أكره أن أستوعب مالى كله، فأقع فيما ليس لى.

وقد كان عبد الله بن المبارك وغيره يقول: من اتّقى من تسعة وتسعين شيئًا ولم يتّق من شىء واحدٍ، لم يكن من المتقين، ومن تاب من تسعة وتسعين ذنبًا ولم يتب من ذنب واحدٍ لم يكن من التوَّابين، ومن زهد فى تسعة وتسعين شيئًا ولم يزهد فى شىء واحد، فليس من الزاهدين.

وقد روى عطية السعدى عن النبى ﷺ: «لا يكون الرجل من المتّقين حتى يتركَ ما لا بأس به حَذَرًا مما به بأس».

وروينا عن أبى الدرداء: إنّما التقوى أن يتقى اللهَ العبدُ فى مثقال ذرةٍ، حتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حرامًا، يكون حجابًا بينه وبين الحرام. وبمعنى هذا ما روى عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال: كنا نترك سبعين بابًا من الحلال مخافة باب واحد من الحرام.

وهذا طريق قد مات أهله، فمن سلكه فقد أحياها وأحياهم.

فأمّا أموال التجار والصناع والمتصرفين فى المعايش المباحة بالأسباب الجائزة فى العلم، مع موافقة الكتاب والسنة، فهى شُبهات، ثم تتنوع بنوعين: فتكون شبهةَ حلالٍ إذا عاملت المتقين وأخذتَ من الورعين، وتكون شبهةَ حرامٍ إذا عاملت قليلى التقوى والورع.

وأما غير ذلك من أموال الجند، فإنه حرامٌ لفساد سببه ولمخالفة الأحكام، فما كان عن معاملة لهم وكَسْب ولم تعلم شيئًا بعينه غَصْبًا ولا جناية فهو أسهل، وما علمته فهو نص الحرام.

فاللهَ اللهَ فى نفسك، انظر أيها المسكين لمعادك واحفظ لدينك، فإن كَسبك من دينك وطعمتك من إيمانك، فإن تهاونت بذلك فقد تهاونت بالدين، ونبذت الأحكام، وضيعتَ اليوم نفسك، ولم تنظر فيما قدّمت لغدٍ، ونعوذ بالله من سوء القضاء. ويقال: إن العدو إذا ظفر من العبد بسوء الطعمة لم يعترض عليه فى الأعمال، وقال: قد ظفرتُ منك بحاجتى، اعمل الآن ما شئت. ولم يَعُدْ عليه من أعماله إلا ظلمةٌ فى قلبه، وقسوةٌ وضعفٌ فى عَزْمِهِ، وفتورٌ ومعصيةٌ، وحُرم التوفيق والعصمة، ولم يُورَّث عِلمَ المَلَكُوتِ والحكمة.

فإن كان المتسبِّب للمعايش والمتصرف فى الأسواق على هذه الأوصاف المحمودة، وبهذه الشروط المبرورة، فإنما بحكم حاله، حافظًا لمقامه، فإنّه فى سبيل الله أفعاله، وآثاره حسنات، وكلّ ما تسبَّب به إلى الآخرة، وكان قولاً له عليها، وطريقًا له إليها من الدنيا، فهو من آخرته، وكان أزهد فى الدنيا ممن زهد فيها ورفضها، إلا أنه يغمض فى تناولها، ولا يبالى من أين جاءته.

وإذا خالف هذه الشروط، ولم يستعمل العلمَ فى أحواله، وفارق التقوى فى تصرفه، أو كان ساعيًا للجمع والمنع، أو للتكاثر والتفاخر، حريصًا على الدنيا، جزوعًا على ما فاته منها، منوعًا لما فى يديه، لا يبالى ما ذَهَب من دينه وخَسِرَ إذا سَلِمت دنياه ورَبِحَ، ولا يبالى من أين كسب وفيما أنفق، همّتُه أخذُ الدِّرهم من أى وجهٍ ظهر، وبأى سببٍ عليه قَدِر، غير متّقٍ فى كسبه، ولا مراعٍ لدين الله عز وجل فيه وحكمه، فهذا يتقلَّب فى المعاصى والمكاره ظهرًا لبطن، متعرضًا للمقت من الله، يعمل فى البعد والهرب منه، غير مستعدٍّ للموت، ولا متَّزرٍ للستر بالتقوى، وهو آكلٌ للمال بالباطل، قاتل لنفسه، مفسد لدينه، غاشٍّ لإخوانه المسلمين، والله لا يصلح عمل المفسدين، كما لا يضيع أجر المصلحين. ومع ذلك فهو غير ناصحٍ لله تعالى، ولخلقه فى الدين، ومن لم يَلْقَ ناصحًا فى سعيه لله

تعالى فى تجارته، وللمسلمين فى معاملته، فمقامه الظُّلم وحاله الهوى، والله لا يحب الظالمين. فهذا مأمورٌ بالتوبة من جميع تصرّفه، مفترض عليه الإنابة فى جميع تقلُّبه، قبل أن يبغته الموت، ويفجأه الفوتُ، فيقع فى خُسره إلى الأبد، ويلقى الله ظالمًا ذا هوًى، مُصراًّ على الخطايا، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَن لَّم يَتُب فأُولئكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات:١١]، وقال تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [١] [الشعراء:٢٢٧].

وقال بعض الحكماء: الدنيا بحرٌ عجاج، والتّجار فيه غاصّة، فواحدٌ يغوص فيُخرج دُرًّا، وهؤلاء أبناء الآخرة الذين لها يعملون. وآخر يغوص فيُخرج آجُرًّا، وهؤلاء عمال الدنيا الذين عليها يحرصون. وآخر يُخرج سَمكًا، وهؤلاء المقتصدون. وآخر فى قَعره قد غرق، وهؤلاء المطرودون عن الطاعة إلى الأسواق، كلّما أرادوا أعمال البرِّ طُردوا عنها إلى السوق وشُغلوا، فقد غرقوا فى بحر الخطايا. وآخرُ طاف مع الأمواج يضطرب يطلب النَّجاة، كلّما رفعته موجةٌ طمع فى النجاة، ثم تغطِّيه موجةٌ أخرى، فيخاف الهلكة، وهؤلاء المريدون للاستقامة فى زماننا هذا، ترفعهم التوبةُ إلى النجاة، وتَخْفِضُهم العادة إلى الهَلَكة.

وروينا عن رسول الله ﷺ: «لا تَتّخذوا الضَّيعة فترغبوا فى الدّنيا». وأوحى الله عز وجل إلى بعض أنبيائه: «لا تتخذوا الأهلَ والمالَ فى زَمَن العُقُوبات».

* * *

آخر كتاب قوت القلوب. والحمد لله رب العالمين، وسلام على عباده الذين اصطفى، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلى العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم[٢].

* * *

(١) من أول قوله: «فإن كان المتسبب للمعايش» إلى هنا زيادة من (م)، سوى أسطر قليلة جدًا واردة بالمطبوعة ونسختى (د، هـ).

(٢) فى نسخة (م): «آخر كتاب قوت القلوب. والحمد لله رب العالمين، وسلامٌ على عبادِهِ الذين =

. . . .



= اصطفى، وصلى الله على سيدنا سيّد المرسلين محمدٌ النبى، وآله وأصحابه، وسلّم تسليمًا.
وفرغت من تحرير هذا الكتاب، محمد بن الحسن بن منصور، يوم الأربعاء، وقت العصر، عاشر شعبان سنة سبعين وخمسمائة، حامدًا ومصليًا».
وفى آخر نسخة (د): «كمل جميع الكتاب، والحمد لله رب العالمين، وذلك من نسخة كتبت بالأسكندرية فى رمضان سنة اثنين وتسعين وأربعمائة».
وفى آخر نسخة (هـ): «آخر كتاب قوت القلوب، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد النبى وآله وصحبه وأتباعه وسلم كثيرًا، وحسبنا الله ونعم الوكيل. ووافق الفراغ منه فى سادس رجب عظّم الله بركاته من سنة ثمانٍ وخمسين وخمسمائة، غفر الله لمن نظر فيه، ودعا لمصنفه وكاتبه وصاحبه بالمغفرة، والتجاوز عن الزلل ولكافة المسلمين، وصلى الله على سيدنا محمد وسلم».

* * *

وبعد، فيقول الفقير إلى عفو ربه، الذى حطمته العيوب وأضعفته الذنوب، محمود بن إبراهيم الرضوانى:
تمّ الفراغ من نسخه ومقابلته بالنسخ المخطوطة وتحريره بفضل الله وحمده فجر يوم الثلاثاء: ٢٩ من جمادى الأولى ١٤٢١هـ الموافق ٢٩ من أغسطس ٢٠٠٠م.
فنحمدك يا الله، يا من هيأت القلوب للتيقظ لمرضاتك، وفتحت أقفالها بأسرار معرفتك وأنوار هباتك، ونصلّى ونسلّم على من أرسلته بطب القلوب، وأيّدته بما أنزلت عليه من قوت القلوب وتبيين الغيوب، وعلى آله الذين تحقّقوا برياضة النفوس، وأصحابه السائرين على منهجه المبين، والحمد لله رب العالمين.

* * *



فهرس موضوعات الجزء الثالث

الموضـــــــوع الصفحة

الموضـــــــوع الصفحة

الموضـــــــــوع الصفحة

الموضـــــــوع | الصفحة

